الموسوعة التونسية

الجزء الأول

بيت الحكمة

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون

الجمهوريّة التونسيّة

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون

بيت الحكمة

الموسوعة التّونسيّة

الجزء الأوّل

قرطاج 2013



الجمهورية التونسية

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
بيت الحكمة

- الموسوعة التونسية
- تأليف جماعي، في جزءين
- الطبعة الأولى: 2000 نسخة.

- ر.د.م.ك (ج 1): 978-9973-49-011-7
- التصميم: الخدمات العامة للطباعة والنشر - تونس
- الإنجاز الطباعي : مطبعة المغرب للنشر
- إعداد الفوتوغرافيا الفنية وتوضيبها: فتحي اللواتي

يسرّ إدارة المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون «بيت الحكمة» أن تتقدّم بجزيل الشّكر إلى كلّ من أمدّها بوثائق وصور وخرائط اعتمدتها في انجاز هذه الموسوعة.

المُساهمون في صياغة الموسوعة التُّونسيّة

- ابن الأصفر (محمد)
- ابن بشر (سامي)
- ابن بلغيث (الشيباني)
- ابن الحاج يحيى (الجيلاني)
- ابن الخوجة (محمد)
- ابن سلامة (البشير)
- ابن صالح (محمد الهادي)
- ابن عاشور (رافع)
- ابن عاشور (محمد العزيز)
- ابن عاشور مزّوز (هاجر)
- ابن عمر (محمد صالح)
- ابن مراد (إبراهيم)
- أبو الأجفان (محمد)
- إدريس (محمد مسعود)
- الأصرم (خالد)
- الأصرم (الزبير)
- بالطيب (نورالدين)
- باي (محمد الأزهر)
- البجاوي (فتحي)
- بسباس (ناجي)
- البكوش (الطيب)
- بلحاج موسى (آمال)
- بلحسن (سليم)
- بلعيد (محمود)
- بوزربية (محمد)
- البوزيدي (محمد البشير)
- بوسعيدي (نادية)
- بوسنينة (محمد أنور)
- بوعيطة (الهادي)

- بويحيى (الشاذلي)
- بيدة (الحبيب)
- التريكي (سمير)
- الجابري (محمد الصالح)
- الجابلي (محمد)
- الجازي (الراضي)
- الجديدي (حافظ)
- جلّول (ناجي)
-الجمني (اللّطيّف موسى)
- حسن (محمد)
- الحسيني (علي الرضا)
- الحليوي (عبد الرزّاق)
- الحمروني (أحمد)
- الحمزاوي (محمد رشاد)
- حمزة (محمد الهاشمي)
- خالد (أحمد)
- الخراط (فتحي)
- خريّف (محيي الدين)
- الخليفي (عمّار)
- الخنيسي (عبد الرؤوف)
- خوجة (العربي)
- دراويل (جمال الدين)
- الذوادي (رشيد)
- الذويب (عبد المجيد)
- الرزقي (محمد الطاهر)
- الرماح (مراد)
- الزرّاد (فريد)
- زغندة (فتحي)
- الزمرلي (فوزي)
- الزواري (علي)
- زيتونة (المنصف)
- الساحلي (حمّادي)
- الساحلي (عبد المجيد)
- الساحلي (محمد العزيز)
- السالمي (البشير)
- سريب (نور الدين)
- السعدي (فؤاد)
- السكّوحي (وجيدة)
- السلامي (محمد المختار)

- سليم (الهادي)
- السنوسي (لطفي العربي)
- السنوسي (محمّد العربي)
- سويسي (محمد)
- الشابي (أنس)
- الشابي (محمد)
- الشايبي (محمد لطفي)
- شبشوب (أحمد)
- شبوح (إبراهيم)
- شرف الدين (المنصف)
- شمّام (محمود)
- الشنوفي (علي)
- الصدّام (حمزة)
- الصقلي (مراد)
- صمّود (حمادي)
- الصولي (علي)
- الصّولي (إحميدة)
- الصيد (ياسين)
- ضيف الله (محمد)
- الطالبي (محمد)
- الطريقي (أحمد)
- طعم الله (خميّس)
- الظاهري (هشام)
- عبازة (محمد)
- العباسي (علي)
- عبد الرزاق (محمد العربي)
- عبد العاطي (يوسف)
- عبد اللطيف (محمد الصادق)
- عبد المولى (محمود)
- العبيدي (بيّة)
- العبيدي (مختار)
- العجابي (حامد)
- عجينة (بُوراوي)
- العريبي (علي)
- العزيزي (علي)
- العلاّني (عليّة)
- عمامو (محمد عبد الستار)
- عمران (كمال)
- عيسى (لطفي)

- غاكي (منصور)
- غراب (سعد)
- الغريبي (خالد)
- الغزّي (محمد)
- الغزّي (الهادي حمودة)
- فنطر (محمد حسين)
- القسنطيني (مصطفى)
- القصّاب (أحمد)
- قطاط (محمود)
- قويعة (خليل)
- قيقة (الطاهر)
- الكبلوطي (عبد الرحمان)
- الكحلاوي (محمّد)
- اللواتي (علي)
- ماجد (جعفر)
- الماجري (صالح)
- مبارك (ناجح)
- محجوب (عزمي)
- المحجوبي (عمار)
- المرزوقي (رياض)
- مشارك (أحمد)
- المعموري (الطاهر)
- مفتاح (تفّاحة)
- ممّو (أحمد)
- المهدي (صالح)
- المومني (يوسف)
- النصراوي (مصطفى)
- النيفر (محمد الشاذلي)
- النيفر (المنجي)
- الهمّادي (عمّار)
- الهيلة (محمد الحبيب)
- الوحيشي (عدنان)
- اليعلاوي (محمد)

لجنة المراجعة

آمال بلحاج موسى
الجيلاني بن الحاج يحيى
محمد صالح بن عمر
الهادي التيمومي
حسن جلاليّة
محمد حسن
عبد الرزّاق الحليوي
أحمد الحمروني
حمادي السّاحلي
مختار العبيدي
مقداد عرفة منسية
كمال عمران
لطفي عيسى
محمد الغزّي
فتحي اللّواتي
محمد اليعلاوي

الإشراف العام

د. عبد الوهاب بوحديبة رئيس المجمع التونسي "بيت الحكمة" (سابقا)
د. هشام جعيط رئيس المجمع التونسي "بيت الحكمة"

تقديم

يسرّ المجمع التونسي «بيت الحكمة» أن ينشر اليوم الموسوعة التونسية في جزئين ضخمين بعد عمل دؤوب دام ما يقرب من ربع القرن .ذلك أن المشروع تقرر في عهد الدكتور عزالدين باش شاوش في أواخر الثمانينات وتواصل في عهد الدكتور عبد الوهاب بوحديبة إلى حدود الثورة وأتم الآن في سنة 2013. المهمّ هنا ليس فقط طول المدّة ولكن بالأخصّ المثابرة على العمل في مشروع تجنّد له عدد كبير من الأخصائيّين والفنيّين والمصحّحين ووقعت مراقبته على الدوام ومراجعته وتدقيق أمور شتّى. والشكر كلّ الشكر لمن شارك في هذا العمل وواكب المشروع قديما وحديثا.

إن هذا الكتاب موسوعة وموسوعة تونسية، يعني أنّه يتّسع لكلّ شيء يخصّ تونس على منهج القواميس، إذ يمكن للقارئ أن يفتحه للتعرّف على اسم ما يهمّه أو تدقيق حدث ما أو موقع ما من بلده في الماضي أو الحاضر .فالكتاب ينطوي على أسماء الأفراد والبلدان والمواقع، على التاريخ والجغرافيا وما سوى ذلك: ففيه كلّ رجالات تونس من غير الأحياء الآن بدءاً من غابر التاريخ وفيه كلّ المدن والجهات والآثار الأدبيّة والفنيّة وتطوّر الدول وعناصر الحضارة، بحيث يشبع نهمَ كلّ من له اهتمام بتونس من التونسيّين أو من غيرهم.

ولذلك فهو مشروع لم ينته بعد، فهو يستلزم إضافات في المستقبل ومستقبل المستقبل شأنه كشأن كلّ الموسوعات.

لقد عرف العرب في الماضي هذا النمط من الإنتاج في اللّغة والأدب والبلدان وما يسمّى بأخبار الرجال والطبقات، وهي متكاثرة، وعرف العصر الحديث من السابع عشر مفهوم الموسوعة من مثل الموسوعة الفرنسيّة في الثامن عشر التي شملت علوم العصر وصنائعه، وتكاثرت فيما بعد الموسوعات كمصادر جامعة لكلّ المعارف أو مختصّة في رقعة معيّنة أو فنّ معيّن. وكذلك موسوعتنا سيُرجع إليها في كلّ ما يخصّ تونس وبالتّالي فستغذّي التشوّف المعرفي كما الشعور الوطني دونما شكّ.

ولا يتّسم أي عمل بشري بالكمال ولا نستثني من ذلك هذا الكتاب، ونحن نتطلّع إلى نقد القرّاء العارفين بخصوص خطإٍ ما أو نقصان أو زيادة وسنسعى جاهدين إلى تلافيه في طبعات لاحقة. والتوفيق بالله.

هشام جعيط

2013

تصدير

تحرص كلّ جماعة بشريّة حيّة، توّاقة إلى أن تكون لها شخصيتها الثقافيّة وطابعها الحضاري المميّز على أن تسجّل ذلك في مدوّنة تجمع ما تشتّت من ذاكرتها وتحتوي على ما تراكم عبر تاريخها المديد من إنجازات ومعارف وخبرات وإسهامات في شتّى مجالات الإبداع الإنساني لتتشكّل بذلك هويتها الثقافية وخصوصيتها الحضارية النّابعتان ممّا قدّمه المنتسبون إليها من حقبة إلى حقبة ومن جيل إلى جيل في سياق تاريخي وحضاري مترابط الحلقات مكين الوشائج منفتح على الدّوام على الآخر الثقافي بغاية الاغتناء بالجديد المتجدّد من المعارف والمكاسب والخبرات على أساس التواصل بين مختلف التجارب الحضاريّة.

وقد عرفت البلاد التونسيّة من العهدين القرطاجنّي والرّوماني إلى الحقبة العربية الإسلاميّة وصولا إلى تاريخها الحديث والمعاصر، علامات مضيئة من العطاء السّخيّ والإسهام المثمر في الحركة الحضاريّة تمثّل في إنجازات عدّة شملت مختلف المجالات العلمية والأدبيّة والفنّية، وأصبح لزاما أن تكون لتونس موسوعتها التي تمثّل مستودع ذاكرتها وهويتها وديوان إنجازاتها وإسهاماتها في إغناء الفكر البشري والحضارة الإنسانية التي انبنت على أساس الاتصال والتواصل مع الآخر، على أن تكون الأصالة مرتكزا والعقلانية منهاجا.

وقد سبق للمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة" أن خطا في هذا الاتّجاه خطوات تمثلت في إصدار خمس كراسات تجريبيّة خلال الفترة الفاصلة بين 1990 و1995 في إطار مشروع "دائرة المعارف التونسيّة" التي تلقّاها أهل الذكر من الجامعيين والباحثين بالقبول والاستحسان. ولكن استحقاقات المرحلة التاريخية الرّاهنة بما تميّزت به من ثورة معلوماتية هادرة، استوجبت إعداد تصوّر منهجيّ يقصد إلى إصدار "الموسوعة التونسيّة" ليأخذ بمقتضاها العمل السابق طابع التوسّع والدّقّة والمنهجيّة العلميّة التي يتطلّبها العمل الموسوعيّ.

وقد تشكّلت لهذا الغرض لجنة استشاريّة موسّعة منذ بداية 1996 وأوصت بالخصوص :

1) باعتماد ترتيب ألفبائي وموضوعاتي في الوقت نفسه.

2) بالترجمة للأموات من الأعلام دون الأحياء الذين مازالت مسيرتهم متواصلة وعطاؤهم مستمرّا.

3) بتوخّي الدّقّة والموضوعية وإعطاء المقالات أوفر الحظوظ المنهجية الممكنة.

4) بعدم ذكر أسماء أصحاب المقالات والبيبليوغرافيا المعتمدة في آخر كلّ مقالة لأنّنا أدخلنا على معظمها تغييرات وتعديلات قصد تلخيص بعضها وإغناء البعض الآخر. وهو يجعل مؤلّفيها

لا يجدون إلاّ جزءا ممّا قدّموه، إذ لم يكن من الممكن نشرها كما هي. فالشكر لهم ـ مسبقا ـ على تفهّمهم.

وفي هذا الإطار، تمّت مراسلة أكبر عدد ممكن من الجامعيين والباحثين المختصّين ومديري المؤسسات الجامعية والدواوين ومراكز البحث والإدارات المركزية للإسهام في تحرير المقالات أو لإمْدَادِ المجمع بالوثائق والمعطيات التي تستثمر في إعداد الموسوعة وفق المنهجية العلمية المطلوبة، في ضوء التوصيات المذكورة سابقا. فشكرنا العميق لكلّ من استجاب لنا وتجاوب معنا.

وتشكّلت، إثر ذلك، لجنة التحرير التي أوكلت إليها مهمّة التصرّف، بحسب ما تدعو إليه الضّرورة، في صياغة بعض المقالات وفق منهجيّة الكتابة الموسوعية التي تتطلب الإيجاز والتركيز والتوازن والموضوعية، كما درجت على ذلك مختلف الموسوعات المنشورة في شتّى بلدان العالم.

وانتهت هذه اللجنة التي استغرق عملها قدرا من الوقت غير قليل، واستدعى كثيرا من الجهد بالنّظر إلى كثافة المادّة وتشعّب المسائل المطروحة وتعدّد مجالاتها المعرفية وتفاوت مستوياتها، إلى إقرار بعض المقالات والتصرّف في البعض الآخر.

وإنّنا مدركون تمام الإدراك أنّ هذه الطبعة الأولى من الموسوعة التونسية تبقى على ما بذلنا فيها من جهد، دون المأمول. ولا حرج في الإقرار أنّ عملنا هذا قد ينطوي على بعض النقائص. وعلى ذلك فالباب مفتوح للزيادة والتنقيح في ضوء ما سيرد على المجمع من ملاحظات وتوجيهات، نحرص برحابة صدر على الاستنارة بها لتسديد العمل ودعمه في طبعات لاحقة.

فالتجويد والتحسين لا ينتهيان والتوق إلى الأفضل مرتكز في الطبيعة العلمية لكل مشروع ثقافي.

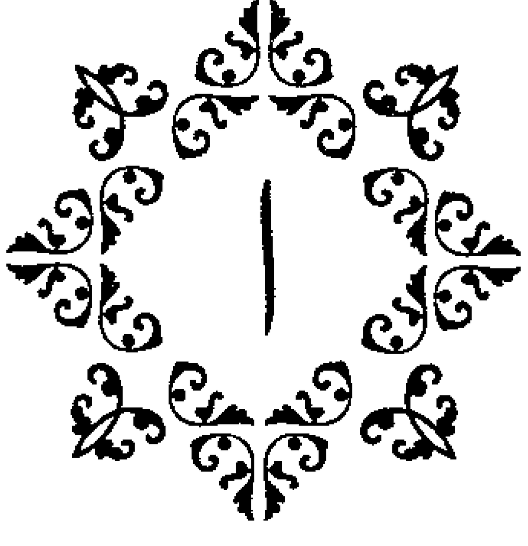
ختاما نتوجّه بجزيل الشكر ووافر الامتنان إلى كلّ المسهمين في إنجاز «الموسوعة التونسية» لما بذلوه من جهود. ونلفت عناية أهل الاختصاص من الجامعيين والباحثين إلى حاجتنا الأكيدة إلى آرائهم ومقترحاتهم التي ستكون نبراسا نهتدي به لتسديد هذا العمل ودعمه.

بيت الحكمة

2008

الموسوعة التونسية

الجزء الأول



إبراهيم الأول

[184 – 196هـ/800 – 812م]

إبراهيم الأول بن الأغلب بن سليم بن عقال، مؤسّس دولة الأغالبة الإفريقية، كان تميميّا من عشيرة بني سعد بن زيد مناة، وقد استقر هؤلاء، بفضل الفتوحات الإسلامية، بصفة مبكّرة جدا في خراسان حيث واجهوا خاصّة المهلّبيّين الذين سيلقاهم إبراهيم فيما بعد في مصر ثم في إفريقية. هكذا ولد الأغلب، جدّ الأغالبة ومانح اسمه لهم، بمرو الرّوذ. وقد اعتنق دعوة العبّاسيين، وكان من أكثر أبطالهم حماسة إلى جانب أبي مسلم الخراساني. اتّصل أوّل مرة بالمغرب في خدمة العباسيّين ضمن جيش ابن الأشعث. وقد عيّنه ابن الأشعث حاكما على الزّاب (144هـ/761م)، أي منطقة الأوراس جنوب جهة قسنطينة الحالية. وفي سنة 148هـ/765م، طَرَدَ جيوش ابن الأشعث قائدهم، وعوّضه الأغلب بالقيروان وتحت أسوارها لقي حتفه خلال إحدى حركات التمرّد الكثيرة التي لم تكفّ عن إغراق البلاد في الدّم.

وانسحبت أسرته إلى مصر، وكان عمر ابراهيم آنذاك عشر سنين. فبدأ بتلقّي دروسا في الفقه، وكان من ألمع تلامذة الليث بن سعد (المتوفى 179هـ/795م) ولكن كان عليه، وهو سليل واحد من مشاهير قواد الجيش العباسي أن يتبع تقاليد أسرته. فانضمّ إلى جند مصر، وشارك حتما في الانتفاضات التي كانت تهزّ البلاد. وشارك بوجه خاص سنة 174هـ/790م في نهب بيت المال، ليأخذ مقدار رزقه، «لم يزد على ذلك شيئا» حسب تأكيد البلاذري. وتسبّب هذا التصرّف في طرد الوالي المهلّبي له من مصر، وإرساله إلى الزّاب في الإقامة الجبرية. وكان يحكم الزّاب آنذاك مهلّبي آخر، أي عدوّ تقليدي لأسرته.

على أنّ إبراهيم بموجب الاضطرابات التي لم تنفكّ تهزّ إفريقية، دعم مركزه بالزّاب حيث مازال ذكر أبيه حيّا. وتعلّم خاصّة كيف لا يخرج عن الشرعيّة، وعرف، وقد أنضجته التّجارب، تجنّب الانتفاضات وتوصّل، بفضل شغور الحكم بالزّاب نتيجة لهذه الانتفاضات، إلى الاضطلاع بسلطة حقيقية فعلية. وفي سنة 179هـ/795م، حوّل هرثمة، الذي قدم من بغداد لإعادة النظام والشرعيّة في البلاد، هذه السلطة الفعلية إلى تنصيب قانوني. ومن المرجح أن ابراهيم، بعد سنتين، رقّاه الرّشيد، وقد رضي فيما يبدو عن خدماته، من خطة مساعد الوالي إلى والي الزّاب العائد إليه مباشرة بالنظر.

وسرعان ما وضعت انتفاضة جديدة مفاتيح القيروان بين يديه. وفي رمضان 183هـ/أكتوبر 799م، طَرَدَ تمّام، والي تونس التميمي – وهو من عشيرة بني مالك بن زيد مناة، المعادية لبني سعد بن زيد مناة – ابن العكّي من القيروان. فسارع ابراهيم، من الزّاب، إلى دَعْم الشرعيّة، وأعاد للوالي حقوقه. وفي الواقع لم يلق هذا الرجوع إلى الوضع القائم سلفا موافقة الخلافة ولا موافقة الأفارقة، فدعي إبراهيم إذن، لأسباب مختلفة من السياسة البغدادية والإفريقية، إلى تعويض ابن العكّي، وبواسطة اتفاق مالي ملائم حمل الرشيد على منحه رتبة الإمارة الوراثية. وهكذا ارتقت افريقية، دون صعوبة إلى وضع إمارة مستقلّة.

إلاّ أن هذه الولادة لم تجنّبه الصعوبات. فقد كان على إبراهيم الأوّل أن يقاوم عداء أوساط الفقهاء والجند، واضطر إلى أن يتحمّل رهانات كثيرة وأن يبذل كنوزا من الاعتدال والحيلة والنشاط لدعم نظامه. وبمجرد تولّيه الحكم، أسّس على ميلين جنوب القيروان قصرا محصّنا سمّاه، العباسية، وسينقذ هذا القصر المزوّد بفرقة حراسة عتيدة زنجية الدولة أكثر من مرة. وقد اندلع التمرّد الأول بتونس (186هـ/802م) ثم كان دور طرابلس في التحرك (189هـ/805م) لكن أخطر انشقاق كان انشقاق الجند الذي لم يهزم إلاّ بفضل المعونة المرسلة من قبل الخليفة في الوقت المناسب. ولمّا توفي إبراهيم الأوّل (21 شوال 196هـ/5 جويلية 812م)، كان ابنه وخلفه عبد الله محاصرا في طرابلس.

وقد عُرف إبراهيم بحزمه وعدله. ويذكر النويري أنه «كان فقيها عالما، خطيبا، شاعرا، وكان أيضا رجل رأي وحزم... لم يحكم إفريقية قبله أمير أعدل في سيرته وأمثل في سياسته وأرفق بالرعيّة وأحزم في تصريف الأمور».

إبراهيم الثاني

[235 – 289هـ/850 – 902 م]

إبراهيم الثاني بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب، ولد في 10 ذي الحجة 235هـ/27 جوان 850م، وكان بعد إبراهيم الأول، أبعد الشخصيات أثرا في البيت الأغلبي، تميّز بخصاله الاستثنائية وجرائمه التي لا تصدق بيسر. رفعته الحماسة الشعبية إلى الحكم على حساب الوريث الشرعي الذي مازال آنذاك طفلا، وكان الوصيّ عليه، فَافْتَتَحَ عهده (261هـ/875م) بقرارات إداريّة عادلة وحكيمة. ولتحقيق هذه الغاية لم يتأخر أمام اتخاذ اجراءات جسورة رغم قلّة شعبيتها مثل سحب القطع النقدية التي لا قيمة لها، والتي طغت على المعاملات من التّداول وهو ما كاد يحدث انتفاضة خطرة بالقيروان (ثورة الدراهم). وعرف في هذه المناسبة كيف يبرهن على تحكّمه في نفسه وكيف يتجنّب، مع المحافظة على قراره، سفك الدماء.

لكنّه لم يلبث، بتأثير من هوس السلطة أن تحوّل إلى أميرٍ مستبدٍّ، فعمد إلى سفك الدّماء وارتكاب الكثير من الجرائم. وهكذا اتخذ في نظر الأجيال اللاّحقة شكل وحش، وبقيت منه خاصة ذكرى بطل شرير لسلسلة من الحكايات السوداء، الضحايا فيها هم بناته، وأبناؤه، وخدمه وغلمانه، وجواريه، وغير هؤلاء كثير. وللدعاية الإسماعيلية، في رسم هذه الصورة المرعبة دور كبير دون شكّ وقد نشطت بوجه خاص في آخر فترة حكمه.

ولم يخل استبداد إبراهيم الثاني من إثارة ردود فعل عنيفة. فانتفض البربر في البداية (268 – 269هـ/881 – 883م)، وهم أكثر تعرّضا للظّلم من غيرهم، من شمال المملكة إلى جنوبها، وقد عوقبوا بقسوة. فحملت أجساد الضحايا في عربات وقذفت في قبور جماعية. وبعد اثني عشر عاما (280هـ/893م)، انتفض الإقطاعيون وكانت علّة هذه الانتفاضة سياسة الاستعباد لكبار القوم التي مارسها الأمير، وأشهر ضحاياها مقاتلو قلعة بلزمة الفخورون، وهي قفل جبل كتامة، ومنه انطلقت الحركة التي ستطيح بالأسرة الأغلبية. وقد تملّك ابراهيم الثاني الخوف. فقد ظنّ في البداية أن تمرّد الجند الكبير الذي كاد يذهب بعرش زيادة اللّه الأول قد تكرر. وانتصر، في الواقع، بيسر على أعدائه الذين لم يتمكنوا من توحيد قواهم، ثم دخل في خلاف مع بربر نفوسة (283–284هـ/896–897م)، وأباد صفوفهم تماما. وإثر ذلك تظاهر بغزو مصر، بعد أن أمر بقتل ابن عمه حاكم طرابلس بقسوة كبيرة. وذلك قبل أن يسلك من جديد طريق تونس.

وبعد بضع سنوات (289هـ/902م) تخلّى عن

الحكم لابنه عبد اللّه الثاني الذي دُعي من صقليّة، وسار، يحيط به أهل البصائر وهو يلبس مرقعة الزهاد التائبين، يبحث عن الشهادة ويلقاها تحت أسوار كنيسة كُوزَانْزَا. وقيل إن الأمير الذي نشر وصوله الرعب في كامل ايطاليا الجنوبية، كان يعتزم السير لامتلاك بيزنطة عبر روما. لقد كان ملكه ملك القوّة والجنون، وتبعا لتفاقم الداء الذي كان يدمّره، تراجع من الأفضل إلى الأسوإ، وبأخطائه أعدّ لانتصار الفاطميين.

ابن أبي دينار
[توفي حوالي 1111هـ/1699م]

هو محمد ابن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المعروف بابن أبي دينار. من مؤرخي تونس وأدبائها في القرن السابع عشر ميلاديًّا كان والده من فقهاء القيروان. وهو أيضا شاعر وفقيه. لم تذكر المصادر تاريخا محددا لولادته، ولا لتاريخ وفاته، إلا أن ما أورده كل من محمد مخلوف والوزير السراج يدفع إلى الاعتقاد بأنه قد توفي حوالي 1110هـ/1698 ـ 1699 يبدو أنه زاول دراسته بجامع الزيتونة بتونس، ثم بعد أن تخرّج باشر خطة القضاء بمدينة سوسة ثم بمدينة القيروان. قرّبه مراد الثاني (1666 ـ 1675) وكلّفه بمهامّ في القصر، وكذلك شأن ابنه علي وأدرك ولاية رمضان باي (1696 ـ 1699). ومن آثاره التي وصلت إلينا مجموعة من الاستشهادات الأدبيّة عنوانها «هداية المُتَعَلّم في آداب التعلم» و«المؤنس في أخبار افريقية وتونس» وهو أشهر كتبه التي درست تاريخ تونس في تلك الفترة، فقد انطلق من حيث انتهى ابن الشماع، أي بداية من سنة 1526م، فجاء أثره مخصوصا بمدينة تونس التي يقول عنها «مدينة الخضراء العلية، عروس البلاد الافريقية».

عرّف في بابه الأوّل من هذا الكتاب بتونس، وتطرق إلى تاريخ إفريقية فاستقى أخبارها منذ قدوم المسلمين إلى آخر الإمارة الحفصية من المصادر السابقة عليه، وتحدث عن التوسع التركي. وقدم نبذة عن السلاطين الأتراك في الباب التاسع إلى سنة 1681. اعتمد على البكري والبلاذري وابن ناجي وابن سعيد والطبري وابن الفداء، ونقل عن ابن الشبّاط والزركشي وابن الشماع والرصاع وغيرهم، شأنه في ذلك شأن مَنْ سَبَقَهُ من المؤرّخين. ولما انقطعت الأخبار بعد 1526 لجأ إلى الروايات الشفوية والشّهادات العينيّة في شأن الأحداث التي عايشها خاصة. وخصّص خاتمة هذا الكتاب للحديث عن مدينة تونس من حيث تنظيمها القضائي والعسكريّ مع وصف العادات والتقاليد اليوميّة ومظاهر الحياة الدينيّة.

ابن أبي الرّجال
[توفي حوالي 432هـ/ 1040م]

أبو الحسن علي ابن أبي الرّجال الشّيباني، الوزير الكاتب القيرواني، لا نعلم عن مولده ونشأته سوى أنّه قضّى شطرا من حياته في تونس، ببلاط المعزّ بن باديس الزّيري (407 – 457هـ/1016– 1063م)، غير أنّ شاهد قبره يحمل (حسب روجي إدريس) تاريخ 426هـ/1034 – 1035م. إنّه لا شكّ كان حيّا بعد ذلك بسنوات إذ هو يذكر في كتابه (البارع: 22، 3) وفاة الأمير الكلبي أحمد بن الحسين بصقليّة عام 429هـ/1037م. وقد يكون هذا الذي دعا بروكلمان إلى جعل وفاته حوالي عام 432هـ/1040م.
وانتسب إلى مجلسه أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني وقد صنّف له كتاب "العمدة في محاسن الشّعر وآدابه"، فوصفه في مقدّمته بقوله: «رجل الخطب، وفارس الكتب، أبو الحسن علي ابن أبي الرّجال الكاتب، زعيم الكرم، وواحد الفهم، الذي نال الرئاسة، وحاز السّيّاسة، وانفرد

بالبسط والقبض، واتّحد في الإبرام والنّقض، عن سعي مشكور، وفضل مشهور، وعلم بالموارد والمصادر، ونظر في الأوائل والأواخر، وتتّبع لآثار من سلف، من أهل القدر والشرف، وتقلّب في مجالس الحكم، وبين ذوي الأقدار والهمم إلى أن صار نسيج وحده، وقريع دهره، غير مدافع ذلك، ولا منازع فيه...».

وزاد على هذه الخصال: «سلامة طبع واندفاعه، وقرب لفظ واتّساعه، ورقّة معان وإرهافها، وظهورها مع ذلك وانكشافها، مع لطف مواقعها من القلوب، وسرعة تأثيرها في النّفوس». وابن أبي الرّجال أديب وشاعر عظيم، أعجب ابن رشيق بشعره وافتتن بأدبه، فقلّما خلا باب من أبواب كتابه من شعر له اختاره فيما يناسب هذا الباب، أو قاله هو يهديه إليه بالمناسبة.

فمن ذلك تمثّله، فيمن صنع الشّعر فصاحة ولسانا، وافتخارا بنسبه وحسبه، بقول أبي الحسن: (طويل)

وجدت طريقَ البأسِ أسهلَ مسلكا
وأجدى بنجحٍ من طريق المطامعِ
فلستُ بمطر ما حييتُ أخا ندى
ولا أنا في عرض البخيل بواقعِ

ومن قول أبي الحسن ابن أبي الرّجال، «في صفة كاتب بالبلاغة وحسن الخطّ» (كامل):

فضلُ الأنامِ بفضل علم واسع
وعلا مقالهم بفضلِ المنطقِ
وحكى لنا وشي الرّياض وقد وشت
أقلامه بالنقش بطن المهرق
(ج 1، ص215)

وممّا صنع بين يديه عن أمره (رجز):

«الشعر شيء حسنٌ
ليس به من حَرَجِ
أقلّ ما فيه ذها
ب الهمّ عن نفس الشَّجِي

إلى أن يقول:

فعلّموا أولادكُمْ
عقّار طبّ المُهَجِ

واشتهر ابن أبي الرّجال بمهارته في فروع التّنجيم، خاصّة وألّف في ذلك مصنّفات ترجمت إلى عدة لغات، في القرون الوسطى، فعرف في أوروبا باسم (Albohazen) و(Alboacen) و(Abenragel) و(Ali Abenrage).

وله من المصنّفات:

1) كتاب البارع في أحكام النُّجوم

أوّله: «الحمد للّه الواحد القهّار... هذا كتاب جمعت فيه معاني علم النجوم وغرائب أسرارها واخترته من كثير من كتب علمائها؛ وأضفت إليه ما أنتجته فكرتي وأتت عليه تجربتي».، وقد قسم الكتاب إلى ثمانية أجزاء. يقول: «بدأت بالكلام على البروج وطباعها، والكواكب وأحوالها، وبما لا يستغنى عن تقدمته قبل الأحكام، ثمّ الكلام على المسائل – في ثلاثة أجزاء، ثمّ المواليد – في جزئين، ثم الاختبارات – في جزء واحد، ثمّ تحويل سني العالم – في جزء واحد».

مخطوطات؛ الجزائر 1516؛ الرّباط 465؛ 4842؛ 4830؛ 3503، الخزانة الحسنية 534 إلى 538، باريس 2590؛ برلين 5892؛ الأسكوريال 923؛ إستانبول 922.

ترجمه إلى القشتالية القديمة يهودا بن موشي وأهداه إلى ألفونصو الحكيم عام 1256م. تحمل الترجمة التقديم باللاتينية:

Prae clarissimus liber completus in judiciis astrorum, quem edidit Albohazen filius Abenragel, Venetia 1585.

نقل هذه الترجمة مرتين إلى اللاتينية بتروس دي ريجيو، وايجيديوس تيبلديس.

ونقل هذا الكتاب ثلاث مرّات إلى العبرية، ومرّة إلى البرتغالية ثمّ إلى الفرنسية والإنجليزية.

ولخّص كتاب البارع أحمد بن تمربغا وسمّاه «البرق السّاطع» (كشف الظنون).

2) رجز الدّلالة الكليّة في الأحكام الفلكيّة
خ الرباط 7، 466، 512 مكرر، الأسكوريال 916، برلين 286، 517.
شرحه أحمد بن حسن بن الخطيب القسنطيني، المعروف بابن قنفذ (المتوفّى سنة 810هـ/1407 م).
مطلع الأرجوزة:
الحمد للّه الكبير العالي...
حمدا يزيد ثمّ لا يبيد
موشحا في شكره يزيد
أهدي الشرح لأبي يحيى بن أبي بكر بن مجاهد غازي، وهو فيما يظهر كان وزيرا لمحمّد المتوكّل السّعدي.
الشرح مخطوط: الخزانة الحسنية، الرّباط 993 (ضمن مجموع) بتاريخ 9 ربيع الأوّل عام 1234/1819م ومنه نسخة أخرى 423 (بتاريخ 8 ذي القعدة 1188/1775م) وأخرى 11984 (بتاريخ 11 شعبان 1312/1895) وأخرى 4805 تؤرخ الشرح بعام 774هـ/1372م والنسخة مؤرخة برمضان عام 1115/جانفي 1704.
وشرحه كمال التوركاني (755هـ/1354م).
3) أرجوزة في الأحكام
شرح أحمد بن (حسين) بن الخطيب (أو حسن) [ابن قنفذ] خ تونس 482، خ مشرقيم 15/21 ق 81 س 21. 2727 (النّاسخ عاف بن جرجس بن أنطون سنة 1274هـ/1858م) خ مشرقيم 22.5/14.5 ق 76 س 23.
4) أرجوزة في دليل الرّعد
(دوحة حوادث الرّعود) خ الجزائر 2، 1460، الرّباط 485.
5) كتاب الرّموز (مفقود)
6) زيج حلّ العقد وبيان الرّصد (مفقود).

ابن أبي زيد القيرواني
[310 – 386هـ/922–923م – 996 م]

عبد اللّه بن أبي زيد عبد الرحمان النفزي القيرواني أبو محمد. ولد بمدينة القيروان سنة 310هـ / 922 – 923م على الراجح. ويستبعد ما ذهب إليه بعض مترجميه من أنه ولد بنفزاوة، وأن ولادته كانت سنة 313هـأو سنة 316هـ، لإجماع أغلب المترجمين على ولادته بالقيروان، ولأن فيهم من ذكر أن تأليفه لـ«الرسالة الفقهية» كان سنة 327هـوعمره إذّاك سبع عشرة سنة.
وكانت نشأته ودراسته بالقيروان، وهي في عصره وارثة تراث العلوم الشرعية، تحتضن كثيرا من أعلام المذهب المالكي، وتخضع لسلطان العبيديين، ثم لسلطان بني زيري الصنهاجيين الذين بدأ حكمهم عندما انتقل أبو تميم المعز إلى مصر سنة 362هـ/973م، واستخلف بلكين يوسف ابن زيري بن مناد الصنهاجي.
تلقّى ابن أبي زيد العلم بجامع عقبة بن نافع وبغيره من الأماكن كالبيوت الخاصّة حيث يُلقي شيوخ القيروان دروسهم في مختلف فنون العلم، وكان من أشهر شيوخه:
– أبو الفضل العباس بن عيسى الممّسي (نسبة إلى قرية ممس بافريقية) وهو فقيه فاضل يجيد الجدل والمناظرة (ت 333هـ/945م).
– أبو سليمان ربيع بن عطاء اللّه بن نوفل القطان، من الفقهاء النساك، متبحر في علوم القرآن والحديث.
– أبو بكر محمد بن محمد بن اللباد القيرواني، وهو حافظ جمّاع للكتب مع حظّ وافر من الفقه وكان ابن أبي زيد ملازما له مختصا به.
– أبو العرب محمّد بن أحمد التّميمي القيرواني المؤرخ الشهير وهو ثقة صالح عالم بتراجم الرجال.
– أبو عبد اللّه محمد بن مسرور العسال الشهير بعلمه وصلاحه.

– أبو العباس عبد اللّه بن أحمد بن ابراهيم بن إسحاق الإبّياني، عالم إفريقية في زمانه وحافظ المذهب بها.

– حبيب مولى أبي سليمان بن الربيع، وهو فقيه عابد يميل إلى الحجة.

– أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الجروي، عالم فاس وناشر المذهب المالكي بالمغرب الأقصى وقد نزل بالقيروان عند أبي زيد فاستفاد منه، وروى عنه كتاب «الموازية».

– أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن مسرور التجيبي المعروف بابن الحجام القيرواني، وهو محدث فقيه جمّاع للكتب مصنّف في أنواع العلوم.

وسمع ابن أبي زيد من كثير من الرواة أمثال: الحسن بن نصر السوسي، وعثمان بن سعيد الغرابلي، وحبيب بن أبي حبيب الجزري.

ولابن أبي زيد رحلة مشرقيّة، أدّى فيها فريضة الحج، وسمع فيها من بعض الأعلام، مثل ابن الأعرابي وإبراهيم بن محمد بن المنذر وأبي علي بن أبي هلال وأحمد بن إبراهيم ابن حماد القاضي.

وكانت له عناية بالرّواية والإسناد، وقدأجازه بعض مشاهير عصره في مراكز علمية مختلفة، منهم أبو إسحاق محمد بن شعبان المالكي المصري، وأبو بكر محمد بن عبد اللّه الأبهري المالكي العراقي وأبو زيد المروزي وأبو سعيد بن الأعرابي.

وأسانيده عالية في ما رواه من الأحاديث ومن الكتب الفقهية التي تعد من أمّهات المذهب وقد اعتمدها في كتابه «النوادر والزيادات» الذي ذكر في مقدّمته سنده إلى مؤلّفيها.

فالمستخرجة حدّثه بها أبو بكر بن محمّد عن يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن أحمد العتبي.

والمجموعة حدّثه بها حبيب بن الربيع عن محمّد بن بسطام عن محمد بن عبدوس.

والموازية حدّثه بها دراس بن إسماعيل عن علي بن عبد اللّه بن أبي مطر عن محمد بن المواز.

والواضحة رواها عن عبد اللّه بن مسرور عن يوسف بن يحيى المعالي عن عبد الملك بن حبيب.

وكتاب محمّد بن سحنون سنده فيه عن محمّد بن موسى عن أبيه عن ابن سحنون.

وكانت الكتابة إحدى وسائل اتّصاله بالمشيخة، فقد كاتبه بكر بن العلاء وأبو بكر الأبهري وابن الفرضي بمسائل ضمّنها كتابه «النوادر والزيادات»، وكان كلّما نزلت به نازلة مشكلة كتب بها إلى شيخه أبي العباس عبد اللّه الأبياني، فبينها له مكاتبة، كما كتب إلى القاضي أبي بكر ابن الطيب الباقلاني عالم العراق يستفسره في قضية الكرامات، فأجابه بتأليف خاصّ في هذا الموضوع. والدّاعي إلى هذا الاستفسار أنّ بعضهم نسب إليه نفي كرامات الأولياء، عندما ألّف في الإنكار على رجل يدّعي خوارق ويقول أشياء تنفّر منها العقول. وقد تأوّل الباقلاني كلام ابن أبي زيد، وقال في صدر التأليف الذي ردّ به على الاستفسار: شيخنا أبو محمد رضي اللّه عنه متّسع العلم في الفروع مطّلع على جمل من الأصول، لا ينكر كرامات الأولياء ولا يذهب مذهب المعتزلة.

وكان علماء المغرب والأندلس عندما يرحلون إلى الحرمين للحجّ والزيارة يتوقّفون بالقيروان لمذاكرة علمائها وتبادل الإجازة والحوار في بعض المسائل الفقهيّة. وممّن لقي منهم عبد اللّه بن أبي زيد سمع منه وذاكره وناظره في مسائل علمية:

– القاضي أبو محمد عبد اللّه بن إبراهيم الأصيلي المحدّث وكانت حجته سنة 353هـ /965م وفيها أخذ عن أعلام القيروان والمشرق.

– أبو عبد اللّه محمّد بن أحمد بن العطّار الأندلسي الفقيه المشهور وكانت رحلته سنة 383هـ/ 995م.

– أبو الوليد عبد اللّه بن محمّد بن يوسف بن

نصر الأزدي المعروف بابن الفرضي المؤرّخ الحافظ الأديب قاضي بلنسية، وكانت رحلته سنة 322هـ/935م.

– أبو المطرّف عبد الرّحمان بن هارون الأنصاري القرطبي المعروف بالقنازعي (413هـ/1023م) الفقيه الراوية. أجازه ابن أبي زيد عندما لقيه في رحلة حجه.

– أبو محمّد عبد اللّه بن يوسف بن طلحة بن عمرون الوهراني، عالم بالحساب والطب، واسع الرواية عن أبي محمد بن أبي زيد ونظرائه. دخل الأندلس سنة 429هـ/1038م وسكن إشبيلية وعمره إذ ذاك يقارب ثمانين سنة.

بفضل المناخ العلمي القيرواني والرّحلة المشرقيّة لابن أبي زيد والصّلات العلمية والمذاكرات، اجتمعت له ثروة زاخرة من النقول والمأثورات، ومُهِّد بفضلها سبيل الاجتهاد الفقهي والنّظر العقلي، وبلغ رتبة علمية سامية قبل أن يتجاوز العقد الثاني من عمره ثم زكت ملكته الفقهية، ممّا هيأ له أن يؤدّي أكبر الخدمات لمذهبه المالكي.

وقد كان يتمتّع بحظوة لدى الشيوخ، فقد كان الشيخ أبو إسحاق السّبائي يتيح له أن يتذاكر بمحضره مع الطلبة والعلماء الذين كانوا يرجعون إليه في ما أشكل عليهم من المسائل العويصة.

وكان شيخه أبو محمد عبد اللّه بن مسرور التجيبي سالف الذّكر أهداه ثلث ما بخزائنه من الكتب الوفيرة، عندما مرض وخشي استيلاء السّلطان الشيعي عليها.

وممّا يدلّ أيضا على مكانته العلميّة لدى شيوخه ما حلاه به أستاذه أبو العباس الإبياني، فقد قال عنه بعد أن اجتمع به وجاوره: (رأيت شابّا عاقلا كاملا فاضلا). وقد توالت شهادات معاصريه ومن بعدهم، تمجّد خصاله وتبرز جوانب نبوغه.

قال أبو الحسن القابسي عنه: (كان أبو محمّد إماما مؤيّدا موثوقا به في درايته وروايته).

وقال القاضي عياض: (كان أبو محمّد بن أبي زيد من أهل الصلاح والورع والفضل).

وقال الداودي: (كان سريع الانقياد إلى الحقّ).

وقال ابن تغري بردي: (كان واسع العلم كثير الحفظ ذا صلاح وعفّة وورع).

وقال عبد اللّه اليافعي: (الإمام الكبير الشهير شيخ المغرب، إليه انتهت رئاسة المذهب).

وقال الشيخ الدّبّاغ: (كان متفنّنا في علوم كثيرة، منها علوم القراءات وتفسير القرآن وحديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، ومعرفة رجاله وأسانيده وغريبه، والفقه البارع، وآثار العلماء وكتب الرقائق والمواعظ والآداب).

وممّا اشتهر به عبد اللّه بن أبي زيد القيرواني، الجود والكرم، وكثرة البذل للفقراء والغرباء والطلبة، وإعانة المحتاجين، والمساعدة على الزّواج. من ذلك أنّه أرسل إلى القاضي عبد الوهاب ألف دينار عندما بلغه إقلاله، وأنّه أرسل إلى الفقيه أبي القاسم بن شبلون خمسين دينارا عندما أصيب بمرض، وأنه جهّز ابنة الشيخ أبي الحسن القابسي بأربعمائة دينار، وعندما ولدت للشّيخ محرز بن خلف ابنة خصّص لها ابن أبي زيد مقدارا ماليا وجعله لدى من يتاجر به، وعندما تهيّأت للزواج أرسل لها ما أثمرت هذه التجارة، وهو مقدار خمسين ألف دينار.

أمّا أثر عبد اللّه بن أبي زيد القيرواني في خدمة المذهب المالكي ودعمه فهو يتجلّى في مجالات عدّة، كالتدريس والمذاكرة والتأليف والاجتهاد والفتوى، وقد أهّله لخوض هذه المجالات زاده الوافر من المعرفة الشرعية والثّقافة الإسلامية، وسعة اطلاعه على الآثار والروايات المتعلقة بالفروع المالكية، والنّقول عن إمام المذهب وأصحابه. ويضاف إلى ذلك فصاحة لسانه، وبارع أسلوبه، وحسن بيانه، وغزارة حفظه. اشتهرت في القيروان مجالس دروسه، وكانت تفتتح بأسئلة متعلّقة بمسائل دقيقة عويصة يشجّع طلبته على إلقائها تارة، ويصوغ هو نفسه ما يتوقّع منها تارة

أخرى، ثم يجيب بما يشفي الغليل ويقنع العقول. وكان الإقبال على هذه المجالس ملحوظا، فبالإضافة إلى طلبة القيروان وإفريقية كانت الرحلة تشدّ إليها من أقطار مختلفة، فمن طلبته الإفريقيين:

– أبو عمر أحمد بن محمّد بن سعيد المهدوي دفين المنستير (كان حيا سنة 410هـ/1020م)

– أبو بكر عتيق بن خلف التجيبي (422 أو 423هـ/1032 ـ 1033م)

– أبو عبد اللّه محمّد بن العباس الأنصاري الخواص (ت 426هـ/1036م)

– أبو بكر أحمد بن عبد الرحمان الخولاني القيرواني (ت 432هـ/1041م)

– أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني نزيل قرطبة (ت 437هـ/1046م)

– أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد اللّبيدي الحضرمي القيرواني (ت 440هـ/1049م)

– أبو سعيد خلف بن أبي القاسم البرادعي الأزدي (لا يعرف تاريخ وفاته)

– الأجدابيان الأخوان أبو عبد اللّه الحسين بن أبي العبّاس، وأبو محمد.

ومن طلبته الصقلّيين:

– القاضي أبو الحسن أحمد بن عبد الرحمان ابن الحصائري، الفقيه الراوية.

– أبو بكر بن عباس، فقيه صقلّية ومدرسها.

وتفقّه عليه جلّة من أهل المغرب والأندلس.

فمن سبتة: أبو عبد الرحمان عبد الرحيم بن أحمد بن العجوز الكتامي (ت 413هـ/1023م) وعبد اللّه بن غالب بن تمام الهمذاني (ت 434هـ/1043م) وقد رحلا للأخذ عنه حوالي سنة 380هـ/991م، ولازم ابن العجوز شيخه هذا زهاء خمسة أعوام، وسمع منه كتبه. ومن السبتيين أيضا خلف بن ناصر.

ومن فاس: قاضيها عبد اللّه بن محمد بن محسود الهواري (ت 401هـ/1011م والفقيه أبو مروان عبد الملك الكوري (ت 407هـ/1007م).

ومن سجلماسة: إمامها أبو علي بن أمد قنو.

ومن بلاد المصامدة: داود بن يملو الصنهاجي ويحيى بن ويديفاوا الصادي، ويعلى بن يصلين، وتونارت بن تيزي ومحمد بن طاوس وغيرهم.

وقد كان ابن أبي زيد يحرّض تلاميذه المصامدة على جهاد برغواطة.

ومن الأندلس: أبو بكر محمد بن موهب القبري القرطبي اختصّ بابن أبي زيد وشرح رسالته، وهو جد أبي الوليد الباجي للأم، وأبو عبد اللّه محمّد بن يحيى بن الحذاء التميمي المحدث (ت حوالي 410هـ/1020م) وخلف بن أحمد بن خلف الرهوني الطليطلي الفقيه (بعد 420هـ/1030م) وأبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن سعيد بن عابد المعافري القرطبي (ت 439هـ/1048م) رحل إلى ابن أبي زيد سنة 381هـ/992م وسمع منه الرسالة وغيرها من المؤلفات. وكان طلبته يحرصون على سماع مؤلفاته وحملها عنه رواية وإجازة.

وكان الكثير من طلبة العلم يراسلونه مستدعين للإجازة، فيكتب إليهم ويجيزهم، مثل أبي عبد اللّه محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي البغدادي، الإمام الفقيه وتاريخ الاستدعاء سنة 368هـ/979م، وأبي الفضل بن عمروس البزار البغدادي (ت 452هـ/1061م)، والقاضي أبي الوليد يونس بن مغيث المعروف بابن الصفار القرطبي (ت 429هـ/1038م)، وأبي شاكر عبد الواحد بن محمد بن موهب القبري القرطبي (ت 456هـ/1065م) كتب إليه ابن أبي زيد بإجازة روايته وتآليفه.

ولابن أبي زيد حرص على دعم الصّلة بتلاميذه بعد أخذهم عنه، فهو يفتيهم فيما يسألون عنه، ويكتب إليهم، وقد ذكر القاضي عياض من بين مؤلفاته «رسالة إلى أهل سجلماسة في تلاوة القرآن».

وكان لمؤلّفاته انتشار واسع في أقطار المغرب والأندلس، وهي في أغلبها مصنفات فقهية تخدم المذهب المالكي وتفصّل أحكامه وتعرض آراء

رجاله، ومواقف إمامه من مختلف القضايا المستجدّة، وتأويله للنّصوص، وأصوله المعتمدة في الاستنباط.

وتناولت بعض مصنفاته أصول الدين والقرآن الكريم والزّهد والرّقائق والردّ على المبتدعين.

ومن مصنّفاته الفقهية ما تناولت الأبواب المعهودة في العبادات والمعاملات كلّها، ومنها ما اهتمّ بموضوعات معينة يبحثها بتعمّق ويعرض أحكامها ويبدي اجتهاده في مسائلها، وكثيرا ما يكون الداعي إلى هذا الصّنف من المؤلفات الاستجابة لواقعة حدثت، ومعالجة ما استدعى البيان من الأحداث المعاصرة.

وكان المعوّل في المجال الفقهي في المراكز المالكية على ثلاثة من الكتب حظيت باهتمام الدّارسين وهي:

- **النوادر والزيادات على ما في المدوّنة من غيرها من الأمّهات.**
- **مختصر المدوّنة الكبرى للإمام سحنون.**
- **الرّسالة الفقهيّة.**

فالكتاب الأوّل يقول عنه ابن خلدون: (جمع ابن أبي زيد جميع ما في المذهب من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب «النوادر» فاشتمل على جميع أقوال المذهب، وفروع الأمّهات كلّها في هذا الكتاب).

وهكذا كان هذا الكتاب موسوعة للفقه المالكي يستفيد منها من تقدّمت له عناية الفقه واتّسعت له دراية، لاشتماله على اختلاف علماء المذهب، كما صرّح مؤلّفه في مقدمته. ومما يعطي هذا الكتاب اليوم قيمة مميزة ما حواه من نقول من كتب نادرة وأخرى مفقودة، وما اشتمل عليه من شذرات الأخبار والسير والوصف لأدوات وأمتعة قديمة، ومن إشارات عن الحياة الاجتماعية المعاصرة لمؤلفه.

وتوجد من هذا الكتاب الموسوعي أجزاء عديدة مخطوطة في مكتبات كثيرة أقدمها قطعة نادرة عريقة في أصالتها نسخت وقوبلت في حياة مؤلّفها تحتفظ بها خزانة القرويين بفاس.

وقد قام الفقيه الأندلسي أبو عبد اللّه محمّد بن الفخار القرطبي (ت419هـ/1029م ببلنسية) باختصار «النوادر والزيادات».

ولئن كان الكتاب الثاني من المصنّفات العديدة التي وضعها أعلام المذهب على المدوّنة الكبرى شرحا وتلخيصا وتهذيبا وتعقيبا، فإنّه كان من أهمّها وأكثرها ذيوعا في ربوع المراكز المالكية.

وتوجد من هذا المختصر قطع موزعة على بعض الخزائن، وطبع الباب الأخير منه وهو موسوم بكتاب الجامع في السّنن والآداب والمغازي والتّاريخ.

وللقاضي عبد الوهاب البغدادي شرح لهذا المختصر سماه «الممهّد في شرح مختصر أبي محمّد».

وصنّف أيضا العالم الأندلسي أبو عبد اللّه محمّد بن فرج بن الطلاع القرطبي (ت497هـ/1124م) تأليفا في زوائد مختصر ابن أبي زيد.

وقد أفاد المفسّر القاضي عبد الحقّ بن عطية الغرناطي (ت541هـ/1157م) أنه أخذ مختصر ابن أبي زيد عن شيخه ابن الطلاع، وهو ما يدلّ على الأقبال عليه إذ ذاك بالأندلس.

والكتاب الثالث، هو أشهر كتب ابن أبي زيد وأوسعها انتشارا لدى أتباع المذهب، وهو رسالة تلخّص في مقدمتها أحكام العقيدة وفي أبوابها أحكام الفقه المالكي، وهي باكورة إنتاج ابن أبي زيد ألّفها في سنّ الحداثة سنة 327هـ/939م باقتراح الشيخ المؤدب أبي محفوظ محرز بن خلف الصدفي، وجعلها للمبتدئين.

وقد استقطبت هذه الرسالة اهتمام كثير من الشرّاح.

ومن مظاهر الاهتمام بالرّسالة نظمها لتيسير حفظ معانيها، فقد نظم نظائر مسائلها الفقهية أبو عبد اللّه محمد بن غازي المكناسي (ت919هـ/1510م) وسمى منظومته «تحرير المقالة في نظائر الرسالة» وقد شرحها محمّد

الحطّاب (ت954هـ/1547م). ونظم الشيخ أحمد بن مشرف الأحسائي المالكي (ت 1285هـ /1868م) مسائل العقيدة من الرسالة في أبيات تجاوزت التّسعين ونشرتها الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة 1395هـ/1975م، كما نظم جميع أبوابها عبد اللّه بن أحمد بن الحاج الغلاوي الشنقيطي وشرح نظمه محمد بن أحمد الملقب بالداه الشنقيطي وسمّى شرحه «الفتح الرباني» ونشرته مكتبة القاهرة بمصر.

وهناك مظهر آخر للاهتمام بالرسالة يتجلّى في ترجمتها إلى لغات حية، فالمستشرق Fagnan ترجمها إلى الفرنسية ونشرت الترجمة بباريس سنة 1914م. كما ترجمها الأستاذ الفرنسي Léon Bercher وطبعت مرات بالجزائر وقام المستشرق Russel بترجمتها إلى الإنجليزية، ونشرت التّرجمة مع النصّ العربي الأصلي ومع تعليقات ومقدّمة سنة 1906م بلندن.

وقد عرّفنا المؤرخ أبو زيد الدباغ (ت696هـ /1299م) بالآفاق التي انتشرت فيها الرسالة، وعرفت فيها بأحكام الفقه المالكي، فقال: (انتشرت الرسالة في سائر بلاد المسلمين حتى بلغت العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية وجميع بلاد إفريقية والأندلس والمغرب وبلاد السودان، وتنافس الناس في اقتنائها حتى كتبت بالذهب، وأوّل نسخة منها بيعت ببغداد في حلقة أبي بكر الأبهري بعشرين دينارا ذهبا).

ويدلّ على تداولها بعد عصر الدبّاغ أيضا أنّها تذكر ضمن كتب برامج الشيوخ والرحلات مع الكتب التي يتحدّث عنها مؤلّفو هذه الكتب، مثل أبي عبد اللّه المجاري الأندلسي (ت862هـ/1458م) في برنامجه، وأبي الحسن القلصادي (ت891هـ) في رحلته، وأبي عبد اللّه محمد بن غازي (ت919هـ/1487م) في «فهرسه».

فقد أكّدت هذه الكتب مدى العناية بالرّسالة دراسة وإجازة إلى العهود المتأخرة.

وكانت الرّسالة ضمن المقرّرات التي تدرس بالقرويين والزّيتونة وغيرهما من مؤسّسات التعليم الديني بالبلاد التي ينتشر فيها المذهب المالكي. وكانت تشتهر بأنّها (باكورة السّعد وزبدة المذهب).

وقد عدّ الإمام أبو العباس أحمد القرافي (ت684هـ/1286م) الرسالة من جملة خمسة كتب عكف عليها المالكيون شرقا وغربا، وذلك في مقدمة كتابه «الذخيرة».

والملاحظ أنّ الرسالة كانت مع «النوادر والزيادات» و«مختصر المدونة» من أهمّ المصادر المعتمدة لدى أغلب من ألّف في الفقه المالكي أو في الفقه المقارن بعد عصر المؤلّف ابن أبي زيد.

أما بقيّة مؤلّفات عبد اللّه بن أبي زيد فهي التالية:

–الاقتداء بأهل السنّة– البيان في إعجاز القرآن –تفسير أوقات الصلاة– التنبيه على القول في أولاد المرتدّين– الثقة باللّه والتوكّل على اللّه – تهذيب العتبية– الذّبّ عن مذهب مالك –ردّ السّائل– إعطاء القرابة من الزّكاة –أصول التّوحيد– الردّ على القدرية –رسالة إلى أهل سجلماسة في تلاوة القرآن– المناسك –طلب العلم– فضل قيام رمضان –حماية عرض المؤمن– كشف التلبيس في الردّ على البكرية – رسالة في من تأخذه عند قراءة القرآن والذكر حركة– المضمون من الرزق –الحبس على أولاد الأعيان– النّهي عن الجدل –الموعظة والنّصيحة– الموعظة الحسنة لأهل الصدق – الوسواس– مناقضة رسالة علي بن أحمد المعتزلي البغدادي –المعرفة واليقين– التبويب المستخرج.

وفي المتحف البريطاني قصيدة في البعث منسوبة إلى ابن أبي زيد.

وقد كان يقول الشعر ويجيده، وأثرت عنه مراث نظّمها بعض شيوخه كابن اللباد وأبي الفضل الممّسي وكان النّاس يقصدونه للاستفتاء

في الوقائع الطارئة لمعرفة أحكامها الشّرعيّة، فيفتيهم بالمذهب المالكي، ونجد كثيرا من كتب النوازل تحتفظ بفتاويه، مثل الحاوي لابن عبد النور، وموسوعة «المعيار المعرب» لأبي العباس أحمد الونشريسي.

وكان ابن أبي زيد بصيرا بالردّ على أصحاب النحل، مسخّرا قلمه لدحض آرائهم. ونظرا إلى ما بذله من جهد في الذّبّ عن مذهب مالك ودعمه بالحجة، ولمّ شتات مسائله وجمع مختلف رواياته وأقوال أعلامه وبيان مسائله، فقد أطلق عليه لقب «مالك الصغير».

وكانت وفاة ابن أبي زيد في شعبان سنة 386هـ (سبتمبر 996م) على الصّحيح. وصلّى عليه أبو الحسن القابسي بالريحانية في جمع غفير ودفن بداره، ومازال مقامه معروفا بالقيروان، وتضمّ اليوم داره روضة لتعليم الصبيان وقد رثاه كثير من أدباء القيروان.

ولابن أبي زيد ابنان: القاضي أبو بكر أحمد والفقيه الصّالح أبو حفص عمر توفيا بعد سنة 460هـ/1064م وللأخير ولد معتن بالعلم حافظ للحديث مهتمّ بفروع المذهب هو أبو القاسم عبد الرحمان.



أحمد بن أبي الضياف

[1217–1291هـ/1802ـ1874م]

يُعدّ أحمد بن أبي الضّياف مؤرخا وسياسيًا وهو من أنصار الوزير والمنظّر الحداثي «خير الدين»، وأحد الكتّاب الذين نظّرُوا للإصلاح السياسيّ، لكنّ مكانته الحقيقية تكمن في عمله بالبلاط الحسينيّ لدى عدد من البايات. وقد تسنّى له أثناء ذلك المشاركة في الأحداث الكبرى التي عاشتها البلاد، فكان سفيرا، ومستشارا، وكاتب سرّ، وكان خاصّة إخباريا ومؤرّخا بفضل ملاحظاته الشخصية، والوثائق الرسمية التي شارك في تحرير عدد منها.

ولئن عدّ «الإتحاف» أهمّ ما كتبه بوصفه مصدرا أساسا للتاريخ الحسينيّ وخاصّة فترات حكم أحمد باي ومحمّد باي ومحمّد الصادق باي، فللرجل إسهامات فقهيّة وفكريّة، وكتابات نثرية وشعرية، تجعل منه ممثّلا لثقافة عصره بتنوّع مجالاتها وكثرة أزماتها ووجوه الصراع فيها.

وفي الجملة، لا يمكن الاستغناء عن دراسة ابن أبي الضياف لفهم ما عاشته البلاد التونسية منذ احتلال الجزائر (1830م) إلى انتفاضة ابن غذاهم (1864م).

يعود نسب أبي العبّاس أحمد بن أبي الضياف (بالضيّاف) بن عمر بن نصر بن محمّد بن سيدي أحمد الباهي العوني إلى «أولاد عون» وهي قبيلة حسينية مستقرّة بجهة «سليانة» بالشمال الغربيّ للبلاد التونسية.

وجدّه الأعلى وليّ صالح يسمّى أحمد الباهي، كانت له زاوية شمال شرقيّ مدينة «سليانة»، على أميال منها، ولم يبق منها اليوم سوى بعض الحجارة والقبور.

أمّا والده الحاج بالضياف فكان وجيها، مقرّبا للبلاط، فقد عمل كاتبا لـ«قايد» قفصة المملوك عثمان، ثمّ لوزير حمّودة باشا يوسف صاحب الطابع. وقد استفاد من هذه المكانة ماديا ومعنويا، لكنه نكب إثر مصرع صاحب الطابع، واسترجع بعض مكانته فيما بعد.

وُلد ابن أبي الضياف سنة 1217هـ/ 1802ـ3م، وشاع في بعض الدراسات تاريخ آخر هو 1219/ 1804ـ5م تبعا لخطإ ورد في ترجمة له نشرت بعد وفاته بـ«الرائد التونسي» ثمّ صححت بالتاريخ

الذي ذكرنا. ويبدو أنّه ولد بتونس في منزل والده (والمرجّح أن يكون المعروف بـ«دار سليم»، زنقة الحرب، نهج الزاوية البكرية بالحلفاوين. أمّا منزله المعروف باسمه، ويقع بنهج ابن أبي الضياف قرب باب السويقة فقد انتقلت إليه الأسرة تاليا).

وحفظ الطفل القرآن في كتّاب الولّي الصالح أحمد ابن عروس، ثمّ تلقّى تعليما متنوّعا على خيرة مشايخ عصره: إسماعيل التميمي، وإبراهيم الرياحي، وعبد الرحمان الكامل، ومحمد البحري بن عبد الستّار، ومحمد بيرم الثالث، ومحمد ابن الخوجة، ومحمد الأبّي، ومحمد بن ملوكة، ومحمد المنّاعي. وقد كانت تلك الدروس تلقى بمدارس وجوامع مختلفة مثل جامع الزيتونة، وجامع صاحب الطابع، وهي بالأساس دروس في علوم الدين.

وكان أوّل اتّصال للشاب بالبلاط الحسيني، في عهد حسين باي، سنة 1242هـ/1827م، عندما سمّي كاتبا. وكان يشغل وظيفة عدل منذ سنة 1237هـ/1822م وبقي ابن أبي الضياف طيلة سبع وثلاثين سنة (إلى ما بعد انتفاضة 1864م) مقرّبا، يشغل وظائف مهمّة تدلّ على ثقة البايات فيه، ويكلّف بمهامّ خاصة. وقد كان في أغلب هذه المدّة كاتبا للسرّ مع بعض صلاحيات الباش كاتب، وكان يحضر المجالس المضيّقة والموسّعة المنعقدة بمناسبة الأحداث الكبرى، ويحرّر المكاتيب الرسمية، ويتّصل باسم الباي بأعضاء المجلس الشرعي، ويوفد في السفارات، واقترن اسمه خاصّة بتحرير «عهد الأمان» (1274هـ/1857م). على أنّ مكانته لم تكن متساوية لدى البايات الذين خدمهم، فقد قرّبه أحمد باي، في حين لم يكن محمد باي أو محمد الصادق باي مثلا يبوّئانه أولى المراتب. ويعود ذلك إلى اختلاف الحكّام في تقويم براعته في الكلام والكتابة، وروحه النقدية، وصراحته غير المألوفة.

خبا نجم ابن أبي الضياف إذن بالتدريج بداية من الأشهر الأخيرة من سنة 1864م، وابتعد عن البلاط، وكان يشكو حرمانه من وظيفة الباش كاتب التي تولّاها مكانه عبد العزيز بوعتّور سنة 1277هـ/1861م، ولو أنّه كان قد تدرّج في سلّم المراتب إلى قمّتها فسمّي وزيرا، ونال رتبة أمير أمراء.

ولعلّ تكليف خير الدين بمنصب الوزير الأكبر سنة 1873م قد أسعد ابن أبي الضياف قبيل وفاته في 17 شعبان 1291هـ/29 أكتوبر 1874م. وقد كان طلب الإعفاء من الخدمة لتقدّمه في السنّ وعجزه، ولازم منزله متعبّدا ذاكرا. ودفن ابن أبي الضياف في موكب كبير حضره المشير الثالث محمد الصادق باي وكبراء الدولة بجامع صاحب الطابع.

وقد تزوّج ابن أبي الضياف أربع مرّات: من ابنة خالة أبيه «خديجة»، وجاريتين أهداهما له أحمد باي «جوهرة الحبشية»، و«فاطمة العلجية»، وفي أواخر حياته «حليمة»، وأنجب من الثلاث الأوليات ابنين وثلاث بنات.

وكانت له في حياته صلات ودّ متين بخير الدين وجماعته تتجاوز حدود الاتّفاق الفكري، أو مجرّد الولاء، كما توطّدت علاقته بالشاعر محمد الباجي المسعودي (المتوفّى 1297هـ/1880م) بوجه خاص، وقد كان المسعودي يعتبره مثاله الأوّل في النثر والشعر، وقد رثاه بقصيدة شهيرة.

وتحتاج علاقته الخاصّة بأحمد باي إلى تحليل، فهو لا يخدمه ويشعر بموالاته فحسب، بل إنّه قريب منه فكريا، يعامله معاملة الواثق من مكانته منه، ويتجرّأ على ما لا يجرؤ عليه غيره.

وعاداه عدد من موظّفي الدولة منهم الباش كاتب محمد الأصرم (المتوفّى 1277هـ/1861م) وخاصّة صهره الكاتب محمّد المنّاعي (المتوفّى 1273هـ/1857م) الذي ألّف في التظلّم منه وهجائه رسالة شهيرة.

ويحتاج تقويم آراء ابن أبي الضياف ومواقفه إلى مجال أوسع، ويكفي في هذا المقام أن نشير إلى انتماء الرجل إلى جماعة «خير الدين»، واعتناقه

لمبادئهم القائمة على المصالحة بين الإسلام والليبراليّة الغربيّة والتفتح على أوروبا الرأسماليّة والديمقراطيّة والدعوة إلى الاقتباس عنها وخاصّة في مجال العلم والمعرفة، والحقوق الإنسانية، والتمسّك بالملك الدستوري (المقيّد بقانون)، ونزعة استقلالية عن الخلافة العثمانية، وميل إلى الاجتهاد والتفتّح الديني. وقد تأثّر ابن أبي الضياف كذلك أيّما تأثّر بشيخه إبراهيم الرياحي (المتوفّى 1266هـ/1850م) صاحب المواقف المعارضة للحكم المطلق، ومنها الحكم بجواز الاحتماء بالأجنبي إذا خاف المسلم على نفسه أو ماله. ولنا في «الإتحاف» من المواقف الجريئة والمتحرّرة ما يوطّد مكانة ابن أبي الضياف، الفقيه المتشبّع بمبادئ العدل، والحرية، والوطنية، ذاك الذي يتألّم لحال «الإيالة التونسية الفقيرة حسّا ومعنى» ويناصر «التنظيمات»، ويقف ضدّ «حكم الاطلاق» والتصرّف في النفس البشرية بغير قانون، ذاك الذي أغضب البايات مرارا وأحرجهم بكلمة الحقّ.

ولعلّ بعض ما يعلّل هذه الآراء والمواقف انتماؤه إلى جماعة «خير الدين» أقوى حركات التحديث في القرن التاسع عشر الميلادي بتونس، وتأثّره بالمفكّر المصري رفاعة رافع الطهطاوي (المتوفّى 1290هـ/1873م)، واطّلاعه على الأوضاع الخارجية بحكم اتصاله بالبلاط أو عند قيامه برحلات في مهامّ رسمية (الآستانة - فرنسا).

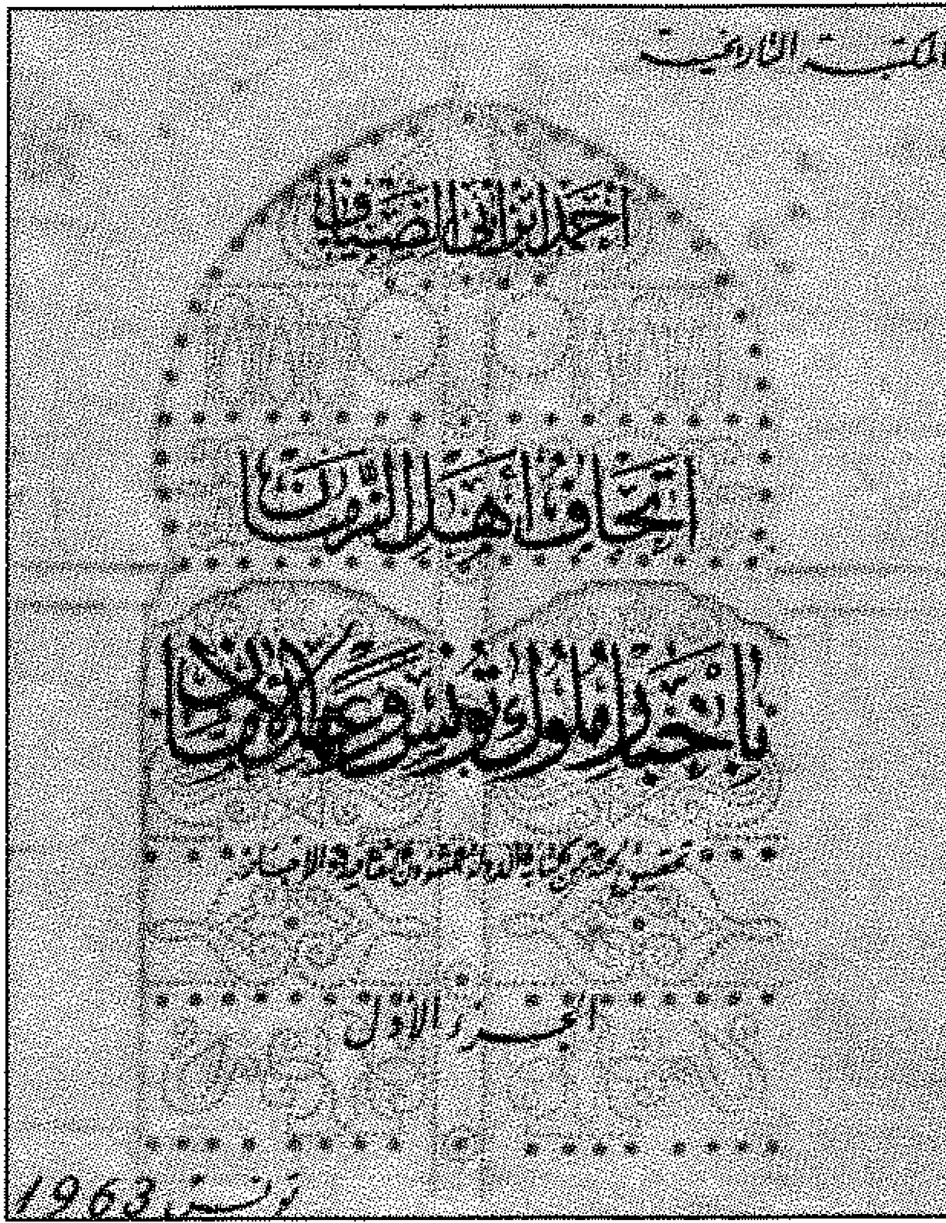
آثاره

- 1 - «**إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**»، جاء في ثمانية أبواب بعد مقدّمة نظرية في أنظمة الحكم (العقد الأوّل «في الملك وأصنافه في الوجود»)، ومدخل تاريخي موجز لما سبق من دول قبل حمّودة باشا الحسيني (العقد الثاني في الإلمام بأمراء افريقية وبيوت الملك بالقيروان والمهدية وتونس).

وتهتمّ الأبواب الثمانية، وهي جوهر الكتاب، بالملوك الحسينيين من حمّودة باشا إلى محمد الصادق باي، أفرد المؤلف لكلّ واحد منهم بابا، وقد اتّخذ التأليف في ذلك مسار التواريخ الحولية وختم الكتاب بقسم ترجم فيه المؤلّف لعدد من الأعيان.

وقد بدأ ابن أبي الضياف تحرير كتابه سنة 1278هـ/1862م بعد جمعه للوثائق والمواد، وانتهى منه قبيل وفاته سنة 1289هـ/1872م.

وقد طبع العقد الأوّل من الكتاب بالمطبعة الرسمية التونسية سنة 1319هـ/ 1901 - 2م، ونشر



أوّل نسخة مطبوعة لكتاب الاتحاف في عهد الاستقلال

الكتاب كاملا بتونس عن كتابة الدولة للشؤون الثقافية في ثمانية أجزاء سنة 1963 - 4م (دون فهارس)، وأعيد نشر أجزائه الثلاثة الأولى سنة 1976 - 9م.

وصدرت نشرة ثانية لكامل الكتاب سنة 1989م لم تختلف عن النشرة الأولى إلاّ في وجود بعض الصور، والعناوين الفرعية والتعاليق البسيطة لمحمد شمّام (الجزآن 1 - 2)، وأحمد الطويلي (الجزآن 3 - 4)، ورياض المرزوقي (الجزآن 5 - 6) وبقي الجزآن الأخيران على حالهما.

وقد صدرت سنة 1999م عن وزارة الثقافة نشرة

جديدة لها فهارسها. لكنّ التحقيق العلمي لم يتوفّر إلاّ بالنسبة إلى بعض أقسام الكتاب، وهي:

ـ البابان الرابع والخامس (دولة حسين باي ومصطفي باي)، وقد حقّقهما وترجمهما إلى الفرنسية أندري ريمون A.Raymond في جزءين خصّص ثانيهما للتعاليق، وصدر التحقيق عن دار «أليف» بمشاركة المعهد الأعلى التاريخ الحركة الوطنية، ومعهد البحوث المغاربية المعاصرة سنة 1994م.

ـ الباب السادس (دولة أحمد باي) وقد حقّقه أحمد عبد السلام، صدر عن كلية الآداب سنة 1971م.

ـ 2 ـ **رسائله**، ويحوي الإتحاف جانبا مهمّا منها (وهو ما كان رسميا محرّرا على لسان البايات)، كما حقّق محمد الصالح مزالي من رسائل ابن أبي الضياف تتمة لإتحاف أهل الزمان، تونس 1969. (وهي رسائل موجّهة إلى خير الدين لـمّا كان بباريس 1854 ـ 7). أما بقية رسائله، وخاصّة ما كان منها شخصيا، فهي مخطوطة (انظر: رياض المرزوقي، من رسائل ابن أبي الضياف المخطوطة، في «الحياة الثقافية» 3/4 ص 90 ـ 5).

ـ 3 ـ **رسالته في المرأة**، وعنوانها حسب المخطوطات: «أسئلة وجّهها عالم فرنساوي وأجاب عنها عالم مسلم»، أو «أسئلة من تلقاء أوروبا وأجوبتها»، ويسمّيها أحمد عبد السلام «الأجوبة الأوروباوية»، وتتضمّن آراء في حال المرأة المسلمة، وردودا على مطاعن الأوروبيين في الإسلام، وقد حقّقها المنصف الشنّوفي ونشرها في حوليات الجامعة التونسية، العدد الخامس، 1968، 49 ـ 112.

ـ 4 ـ **«لأيّ سبب لم ينتخب اليهود في المجلس الأكبر إذا اعتبرنا غير المسلم من رعيّة المملكة؟»** وهو سؤال وجّهه ابن أبي الضياف إلى أعضاء المجلس الأكبر بتاريخ 21 ذي الحجّة 1275هـ/30 جوان 1861م، وأجاب عنه الجنرال حسين.

ـ 5 ـ **«ما هو حكم شهادة الكافر على المسلم عند تعذّر وجود المسلمين؟»** وهو سؤال وجّهه ابن أبي الضياف إلى رئيس المفتين المالكية أحمد بن حسين، بتاريخ 10 رجب 1276هـ/فيفري 1860م، حقّقه الطيّب العنّابي ونشره تحت عنوان «إنّي ممّن يرى الاجتهاد لا ينقطع»، في حوليات الجامعة التونسية، العدد الرابع، 1967، 59 ـ 153.

ـ 6 ـ **ديوان شعر**، أثبته محمّد السنوسي في مجمع الدواوين، وهو مفقود، وقد جمع رياض المرزوقي ما تبقّى من شعره، ونشره في مجلّة «الإتحاف» 1/II، نوفمبر ـ ديسمبر 1986، وجملة هذا الشعر 108 من الأبيات في خمس قصائد، وثلاث مقطوعات (بالإضافة إلى ثلاثة موشّحات). وكان المحقّق نشر بعض هذا الشعر في حوليات الجامعة التونسية، العدد الثالث عشر، 1976، 211 ـ 224.

ـ 7 ـ مقامة في المناقب ومدح الأولياء، عنوانها **«المقامة الجليّة في الأنوار البشرية»**، وهي مخطوطة تحمل الرقم 3586 بدار الكتب الوطنية (انظر دراسة لها ونماذج منها في «من آثار ابن أبي الضياف المخطوطة»، في مجلّة «الفكر»، جويلية 1975، 12 ـ 25.

ـ 8 ـ **خطبة تضمّنها الإتحاف** (الباب السادس، دولة أحمد باي)، تحقيق أحمد عبد السلام، تونس 1971، 99.

ـ 9 ـ أزجال محفوظة ومروية شفويا كانت تغنّى، ولم ينشر منها سوى طالع لإحدى الأغاني. أورد بعضها الصادق الرزقي، في الأغاني التونسية.



مصطفى بن اسماعيل
[توفّي سنة هـ 1887م]

سياسي تونسي من أمّ يهودية من يهوديات بنزرت قيل إنّها أسلمت في بيت زوجها إسماعيل. ولمّا توفي والداه تناولته الأيدي إلى أن شبّ فاشتغل حلاّقا بحانوت علي «عينو» بسوق البلاط ثمّ ألقته الحاجة إلى أحد المماليك يسمّى زهيرا وكان موظّفا في قصر الحكومة فكفله حتّى اشتهر باسم ولد الحاج زهير. وقضى على ذلك عدّة سنين تعاطى أثناءها شيئا من معرفة حروف الهجاء إلى أن انقرضت دولة محمّد باي 1855م – 1859م. ولمّا تولّى محمد الصادق باي الحكم 1859 – 1882م أصبح من غلمانه، وقد تعلق به الباي أيّما تعلّق ومنع مستخدمي السراية من تسميته ولد زهير وأمر بتسميته ابن اسماعيل نسبة لوالده فسمّي أمير آلاي وأمير لواء في عسّته العسكرية الخاصة.

ولمّا اشتدّ الخلاف والتنافر بين الوزير خير الدين ومصطفى خزنه دار رقي مصطفى بن إسماعيل إلى رتبة فريق ثمّ وُلّي عاملا على الوطن القبلي، أواخر مدّة مصطفى خزنه دار، ثمّ ولي وظيفة صاحب الطابع أواسط سنة 1290هـ/1873م. وفي مدّة ولاية الوزير خير الدين الوزارة الكبرى وُلّي ابن اسماعيل وزارة البحر، كما وُلّي وزارة الخارجية ورئاسة الكمسيون المالي.

ولمّا أحدث المشير محمّد الصّادق باي نيشان العهد المرصّع في ثاني شوال 1291هـ/1874م بمساعي مصطفى ابن اسماعيل وسّمه به يوم إحداثه مع جماعة من موظّفي الدولة. ثم تولى الوزارة الكبرى من سنة 1878 – 1881م وكان ممن حضر مجلس معاهدة باردو في 12 ماي 1881م/13 جمادى الثانية سنة 1298هـ، وقد جمع مصطفى ابن اسماعيل بين الوزارة الكبرى ورئاسة الكمسيون المالي. وفي هذه المدّة حاول أن يجلب العلماء وأعيان البلاد إليه. وقد كانوا على بيّنة من نشأته وأطواره فبادر بشراء كتب أمير الأمراء عصمان قائد عساكر المنستير. وأضاف إليها ما وصلت إليه يده من كتب الوزير الأسبق مصطفى خزنه دار وحبّس جميع ذلك على أهل العلم بجامع الزيتونة ثمّ سعى إلى إتمام مشروع المستشفى الصّادقي الذي بقي معطّلا من عهد خير الدين. لكنّ هذا الوزير قد عُرف بالجنسيّة المثلية وبسوء الأخلاق وبالتحيّل والمكائد والاستيلاء على ممتلكات النّاس ولا سيّما التّركات والأحباس، مثل استحواذه على بعض أوقاف المدرسة الصّادقية بطرق المعاوضة وخصوصا هنشير قعفور وهنشير قرمبالية وهما أعظم ممتلكات الصّادقية، كما استعانت به فرنسا عن طريق قنصلها بتونس روسطان لبسط نفوذها على البلاد التونسية وفرض الحماية على تونس بمعاهدة باردو سنة 1881. ولمّا توفّي محمّد الصّادق باي في 28 أكتوبر 1882 تدهورت حالة مصطفى بن اسماعيل فهاجر إلى القسطنطينية وتوفّي بها سنة 1887م.

المعزّ بن باديس
[406 ـ 454هـ/1016 ـ 1062م]

المعزّ بن باديس، أبو تميم هو الملك الرابع لدولة بني زيري الصّنهاجية التي حكمت إفريقية من سنة 362هـ/972م. إلى سنة 543هـ/1148م. ولم تكن مدّة حكمه تمثّل أوج ازدهار هذه الدولة كما ذهب إلى ذلك الأستاذهـ. ر. إدريس. فإذا ما سلّمنا بوجود فترة تمثّل قمّة هذا الازدهار فإنّه ينبغي أن نجعلها في زمن متقدّم، قبل نزول

الطّاعون بالبلاد وحدوث المجاعة المهولة في سنة 395هـ/1004 ـ 1005م، وقد كانا سببا في هلاك خلق كثير من أهالي البلاد. ومنذ ذلك التّاريخ، وطوال عهد حكم المعزّ، توالت المصائب والكوارث على إفريقيّة دون هوادة، كاشفة عن نقائص نظام اقتصادي غلب عليه الاضطراب وأنهكه الإجهاد. وقد كانت أعوام 409هـ/1018 ـ 1019م. و442هـ/1022 ـ 1023م وما بعدها... جميعُها من السنوات الموسومة بعلامة سوداء. (راجعهـ. ر. إدريس، بلاد البربر الشرقيّة في عهد بني زيري [النصّ الفرنسي] (ج I ص 149، 161، 227، 274، 293).

وقد عمد الرّواة ومدوّنو التّاريخ من أهل السّنة إلى إضفاء كثير من الغموض ومن التّزويق على ملامح المعزّ، وجعلوا منه، في عصر متأخّر عن زمانه، رجلا من السّنّة كان منذ نعومة أظفاره أسيرا في قبضة الشيعة. فبقي المعزّ يمثّل في تاريخ إفريقية الرجل الذي أعاد الاعتبار إلى المذهب المالكي القويم وأقام صرحه من جديد بهذه الرّبوع. وهو ما أدّى مباشرة إلى حصول "كارثة" زحف بني هلال على البلاد. وقد مات أبوه باديس فجأة ليلة الهجوم النّهائي على القلعة التي كان عمّه حمّاد قد ابتناها في سنة 398هـ/1007 ـ 1008م. وقد أدّى موته المباغت (في 30 ذي القعدة سنة 406/10 ماي 1016) إلى تقسيم مملكة بني زيري نهائيا لصالح فرع الحمّاديّين (405ـ547هـ/1015ـ1152م).

وكان الأمير الشّاب الذي لم يكن قد بلغ بعد التّاسعة من عمره عند موت أبيه ـ يقيم بالمهديّة. وقد تسبّب ذلك في وضعية دقيقة لم يتغلّب عليها إلاّ بجهد جهيد وباللّجوء إلى الحيلة والخديعة. (هـ. ر. إدريس، بلاد البربر الشرقية في عهد بني زيري، ج I، ص 128ـ130). على أنّه نُصّب مع ذلك يوم 21 أو 23 من شهر ذي الحجّة سنة 406هـ/31 ماي أو 2 جوان سنة 1016م، دون حصول منازعة. ويقال إنّه كان أسمر أسفع اللّون. ويجمع الرّواة على اتّصافه بذكاء حادّ وبثقافة جيّدة لا يمكن أن يكون قد اكتسبهما إلا فيما بعد. وفي الشّهر الموالي غادر المعزّ مدينة المهديّة وحلّ في أواسط المحرّم من سنة 407هـ/24 جوان 1016م، بعاصمته المنصورية التي كان أسّسها الخليفة الفاطمي المنصور حوالي سنة 336ـ 337هـ/947 ـ 949م على مسافة نصف ميل من القيروان قلعة المذهب السّنّي المشاغبة التي كان ينبغي للأمير الجديد، من باب حسن السياسة والتدبير، أن يؤدّيَ إليها زيارة. وقد آلت هذه الزّيارة، في ظروف لا يزال يكتنفها الغموض والإبهام، إلى نشوب حركة تمرّد شديدة ضدّ الشيعة.

ففي يوم 16 من شهر محرّم سنة 407/25 جوان 1016، كان ركب الأمير في بادئ الأمر يلقى ما تفرضه المناسبة من ترحيب وهتافات عند اختراقه شوارع المدينة. وفجأة اندلعت ثورة الجماهير تبعا لصدور إشارة معلومة أو انطلاق إذن خفيّ متفق عليه لم ينفذ رواة الخبر إلى معناه الحقيقي، وقد كان الهدف من ذلك القضاء على حياة الأمير الشّاب بالذّات، ومن خلال شخصه، الإطاحة بالنّظام الذي كان أهل السّنة يسعون إلى التّخلّص منه نهائيا في كامل أرجاء المغرب الإسلامي، محاولين اغتنام ذلك الظرف الذي كان يبدو مؤاتيا جدّا في نظرهم. أفلم يسبق لحمّاد الذي أنقذته معجزة موت باديس المفاجئ أن ينكر مبادئ الشيعة منذ سنة 405هـ/1015م، وأن يعقد الصّلة من جديد بالخلفاء العبّاسيّين ببغداد؟ هذا وليس من المستبعد أن يكون متواطئا سرّا مع المتمرّدين، حتّى ولو لم يكن هدفه من ذلك سوى تلهية حكّام القيروان عن مهاجمة القلعة من جديد. ويبدو من الثابت أيضا أنّ أتباع المذهب السنّي كانوا يحظون بمساعدة بعض المتواطئين معهم سرّا حتّى داخل صفوف الجيش الرسميّ الذي اتّسم موقفه في بادئ الأمر بفتور غريب يدعو إلى التساؤل. أمّا ما أبداه عامل القيروان من خمول وتقاعس فإنّه يُعزى، بطبيعة الحال، إلى ما قد يكون استروحه

من أنباء تتعلّق بقرب عزله عن خطّته.

ومهما يكن من أمر فقد وُضع حدّ لطاقة الحرس الأميري والطغيان عليه بسرعة. وبمجرّد نشوب حركة العصيان الشّعبيّة عمد المتمرّدون إلى تقتيل النّاس عن حقّ أو عن باطل، تدفعهم إلى ذلك غريزة النّهب والسّلب أكثر ممّا يحفزهم استفظاعهم البدعة والضلال. "وانبسطت أيدي العامة على الشّيعة وانتهبت دورهم وأموالهم. وتفاقم الأمر، وانتهى إلى البلدان الأخرى، فقُتل منهم خلقٌ كثير. وقُتل من لم يُعرف مذهبه بالشّبهة لهم" (ابن عذاري، البيان...، ط. ج. س. كولان وأ. ليفي بروفنسال، ليدن، 1948، ج I، ص 268). وقد ذهب بعض الشّيوخ الأفاضل الوقورين من أهل القيروان إلى حثّ العامّة على استعجال أمر القتل "فإذا ما كان القتيل من أهل السّنة، عجّل ذلك بدخوله الجنّة" (عياض، المدارك، ط. بيروت، 1967، ج IV ص 625). ولم ينجُ أبو البهار بن خلوف الذي كان موضع حقد الجماهير والذي سوف يرتقي إلى الوزارة بعد بضع سنوات من غضب العامّة إلاّ بفضل جند ابن أخيه الذي قتل ومثّل به بدل عمّه. ثمّ زحف العامّة بعد ذلك على المنصوريّة فهدّموها وانتهبوها. وشهدت عدّة مدن أخرى بإفريقية مذابح لاستئصال الشّيعة وقطع دابرهم.

ولم تحتفظ لنا المصادر التّي بين أيدينا ـ وجميعُها سُنّية النّزعة ـ عن هذه الأحداث إلاّ بصورة انتصار عظيم باهر على حركة الشّيعة. على أنّ هذه الانتفاضة، مهما كان اتّساع مداها، لم يكتب لها النّجاح والدّوام ولم يكن لها أثر يذكر. فقد ظلّ حكم الشيعة قائما مع الاتّسام فيما يبدو بمزيد من التّسامح. ومن البديهي أنّ المعزّ بن باديس، نظرا إلى صغر سنّه على الأقلّ ـ لم يكن بإمكانه إبّان هذه الأحداث انتهاج أيّ سياسة شخصية خاصّة به. وقد قام رجال والده الذين احتفظوا بمناصبهم، بتسيير العمليّات دون شكّ. وبعد مرور قُرابة شهر على انطلاق حركة التمرّد والعصيان، عُيّن في يوم 19 صفر سنة 407هـ/28 جويلية 1016م وزير جديد، وهو أبو عبد اللّه محمد بن الحسن عامل طرابلس سابقا. فهل كان في هذا التغيير تنازل من أجل إعادة الاطمئنان إلى النّفوس؟

لكنّ حركة أهل السنّة التي وجدت في تسامح السّلطة ما شجّعها دون شكّ على الإقدام والتّمادي، لم تقلع عن المشاغبة والمقاومة. وكاد المعزّ أن يذهب ضحيّة مؤامرة جديدة بعد بضعة أشهر وهو في طريقه إلى مصلّى القيروان بمناسبة عيد الفطر في أوّل شوّال من سنة 407هـ/3 مارس1017م. وفي هذه المرّة عزمت الدّولة على تسديد ضربة قاضية تستهدف رأس الحركة. وقد ذكر عياض (في المدارك، ج IV، ص 626) أنّ المعزّ داخله فزعٌ شديد من أهل السنّة وأنّه عزم على كسر شوكتهم من سنة 407هـ/14 مارس 1017م، جرت مداهمة أبي علي بن خلدون "شيخ الدّعوة" في مسجده حيث كان دون شكّ يدبّر سير العمليّات، وقُتل. وسرعان ما اندلع الشّغب بالقيروان، لكنّ السّلطة كانت قد أعدّت العدّة لذلك، فلم تُباغتها الأحداثُ. وقد ذكر عياض (في المدارك، ج IV ص 626) أنّ جند المنصوريّة من راجلة وحرس سود ساروا نحو القيروان وعمدوا إلى نهب كلّ دكاكينها حتّى لم يسلم من ذلك دكّان. وأحرقت شوارع الأسواق وسُلبت أموال التجّار وأرزاقهم. وبذلك كسرت شوكة حركة السّنّة نهائيّا وتخلّصت الدّولة من ذلك السّيف المسلول فوق رأسها. ولم يبق بعد ذلك أثر يُذكر لأيّ حركة شغب مناهضة للشّيعة طوال عهد حكم المعزّ كلّه. وما كاد يمضي على ذلك ثلاثة أشهر حتّى بعث إليه الخليفة الفاطميّ الحاكم من القاهرة بخلع سنّية معبّرا له بذلك عن عرفانه، ومنحه لقب "شرف الدّولة" بخطاب مرسوم. واستأنف المعزّ بن باديس من توّه، ضدّ حمّاد عمّ أبيه تلك الحملة التي انقطعت من جرّاء هلاك أبيه المباغت. وبالرّغم من تحقيق انتصار سالت فيه الدّماء إلى حدّ مهول (في 30 ربيع الأوّل من سنة 408هـ/26

أوت 1017م) فقد كانت الحملة ذات تكاليف بشرية باهظة، وأبرم اتفاق سلام بين الطّرفين المتحاربين لن ينقضه خليفة حمّاد الملقّب بالقائد إلاّ في سنة 432هـ/1040 ـ 1041م. وهو يترك كامل القلعة بأيدي الحمّاديّين مؤكّدا بذلك إفلات المغرب الأوسط من سلطان دولة بني زيري المرتكزة بالقيروان.

وفي الأثناء استمرت العلاقات على أحسن ما يكون مع الفاطميين. ففي أوائل سنة 411هـ (آخر أفريل 1020م) جدّد الخليفة الحاكم بأمر اللّه ثقته في المعزّ بن باديس وحباه بجزيل النّعم وأرسل إليه فيما أرسل من هدايا، سيفا مرصّعا بنفائس الفصوص. أمّا الخليفة الظّاهر (411ـ427هـ/1021 ـ1036م) الذي آل إليه الحكم اسميا تحت وصاية عمّته ستّ المُلك (المتوفّاة سنة 415هـ/1024 ـ 1025م) وهو في سنّ السادسة عشرة، فقد رفّع في لقبه الشرفيّ وزادهُ فخامة إذ سمّاه "شرف الدّولة وعضدها" مغدقا عليه العطايا بطبيعة الحال. وقد كان يحكم كلاّ من مصر وإفريقية عندئذ شابّان مراهقان يخضع كلّ واحد منهما لضرب متفاوت من الوصاية.

وقد سبق المعزّ إلى التحرّر من وصاية وزيره أبي عبد اللّه محمّد بن الحسن الغالب على أمره الذي لا يتورّع عن ركوب المآثم والشّبهات فيما يقال عنه. وإذ لم يوفّق في إقناعه بالحسنى وعن طريق الوسائط بالتخلّي عن السّلطة، فقد عَمَد إلى عزله وأمر بقتله في السّابع من شهر ربيع الثاني سنة 413هـ/11 جويلية 1022م فاتحا بذلك، وهو في سنّ الخامسة عشرة تقريبا من عمره، عهد حكمهِ الشّخصي. واتّخذ أبا البهار بن خلوف وزيراً جديدا، وهو عدوّ لأتباع مذهب السنّة، وقد كادوا يقتلونه في أثناء الانتفاضة التي حدثت في سنة 407هـ/1016م. وقد كان في تسمية هذا الرّجل دلالة سياسيّة مزدوجة إذ كان فيها إنذار موجّه إلى حركة السّنّة وعربونُ وفاء نحو الدّولة الفاطمية بالقاهرة. وفي السّنة نفسها أقام المعزّ مراسم زواجه في احتفالات فخمة.

واستمرّ حكمه هادئا في الجملة طيلة أكثر من 35 سنة، أي إلى حدود زحف بني هلال، بالرّغم عن حدوث بعض الثّورات التي لم تكن خطرة البتّة، خصوصا في جنوب البلاد. وقد كان البناء يبدو شامخا متيناً. لكنّ تلك القوّة كانت مجرّد مظهر خارجي. ذلك أنّ أبّهة البلاط التي كانت تزداد ضخامة بمدائح ممتهني التملّق المأجورين، كانت تخفي وراءها انهيار الهياكل الاقتصادية التي كانت تشكو تناقص اليد العاملة من العبيد، مع ما ينجرّ عن ذلك التّدهور من قحط ومجاعات متكرّرة ـ وقد أشار رواة الأخبار إلى ما يقلّ عن الخمس منها ـ وما يواكبها من اضطرابات وأوبئة وانهيار في عدد السكان، ولا سيما في الأرياف التي كان يهجرها أهلها إلى المدن. وعندما أصيبت البلاد في الصميم بغارات زحف بني هلال كانت خائرة القوى إلى حدّ بعيد حتّى أضحت عاجزة عن تحمّل الصّدمة أو التغلّب عليها واحتواء آثارها. هذا وإنّ المصاعب الدّاخلية، الدّينية منها والاقتصادية، هي التي دفعت بالمعزّ شيئا فشيئا إلى قلب ظهر المجنّ للفاطميّين، مستبدلا ولاءهُ لهم الذي لم يكن يكلّفه في الحقيقة سوى واجبات وأعباء ضرورية لا تستحقّ الذكر بولاء للخلفاء العباسيّين الأباعد لم يكن أكثر كُلفة ولا أثقل مؤونة من الأوّل. وقد كان يسعى بذلك إلى استمالة نفوس الحشود الغفيرة من العامّة الذين غلب عليهم الفقر، والذين ظلّوا في جمهرتهم أوفياء لمذهب السّنّة المالكية. وقد ساعد على هذه القطيعة مع القاهرة، خصوصا بعد موت الوزير الجَرْجَرَائي (436هـ/1045م)، ما كانت تشهده الدّولة الفاطميّة من تقهقر وتراجع. وحصلت القطيعة فيما يبدو على دفعات متوالية وبحسب تطوّر الظروف وتقلّب الأمزجة على مدّة تتراوح في حدود العشر سنوات بين عام 433هـ وعام 443هـ/أي عام 1041 وعام 1051م. هذا وإنّ دراسة النّقود تسمح لنا بتأكيد كون هذه القطيعة كانت كاملة ونهائية في سنة 441هـ (هـ.ر.

إدريس، بلاد البربر الشرقية في عهد بني زيري، ج I، ص 190).

ولقد كان الصّدام الحاسمُ مع المغيرين الذين رمى بهم إلى إفريقية الخليفة الفاطميّ المنصور بإشارة من وزيره اليازوري عقابا على خروج تابعه السّابق عن طاعته وولائه له، بحيدران من منطقة قابس في يوم 1 ذي الحجة من سنة 443هـ/14 أفريل 1052م. وبالرّغم من شجاعة الأمير الصنهاجي وما كان يتميّز به الأفارقة من تفوّق في العدد، فقد شُتّت شمل هذا الجيش الذي لم يكن يمتلك خطّة قتالية ولا انسجاما في صفوفه، والذي كان بمنزلة جبّار قوائمه من طين، تنخر كيانه الصّراعات العرقيّة وغضبُ الكتائب البربريّة على فريق الحرس السّودان الذين كان يبلغ عددهم فيما يقالُ الثّلاثين ألفا من العبيد. وسرعان ما انهار صرح الدّولة الصنهاجيّة الذي كان قد نخرها السّوس من الأعماق تحت ستار المظهر الخارجي الخادع. وقد كان من المفروض أنّ خسارة معركة واحدة لا تعني خسارة الحرب كلّها. ولئن شهدت البلاد مثل هذا الانهيار المفزع الذي لم تجد بعده إلى النّهوض سبيلا فذلك يعني أنّها فقدتْ كلّ مورد مادّي وكلّ محرّك معنويّ.

وانتشر بنو هلال بعد ذلك في كلّ مكان مخرّبين وناهبين كلّ ما اعترض سبيلهم، وهم كأسراب الجراد، حسب عبارة ابن خلدون. واستقلّت أهمّ مدن البلاد كلّ برأسها. أمّا القيروان التي تخلّى عنها المعزّ في آخر الأمر ولجأ إلى المهديّة (في 27 شعبان من سنة 449هـ/29 أكتوبر 1057م)، فقد كانت بعد يومين من هروب الأمير منها فريسة للنّهب والتّخريب الشاملين في اليوم الأوّل من شهر رمضان/1 نوفمبر، إلى حدّ أوحى بنغمات حُزْن تمزّق القلب لشاعرين شهيرين من أبنائها وهما ابن رشيق (المتوفّى سنة 456هـ/1063 ـ 1064م، أو سنة 463هـ/1070 ـ 1071م)، وبوجه أخصّ ابن شرف (المتوفّى سنة 460هـ / 1067م). ويوجد خلاف حول أهميّة هذه "الكارثة" ومداها. فهذا جان بونسي Jean Poncet يذهب إلى حدّ إنكارها تماما. على أننا لا نرى داعيا إلى الشكّ على نحو تلقائيّ مطّرد في عدّة شهادات متطابقة هي اليوم بين أيدينا. وحتّى إذا ما سلّمنا بوجود شيء من المبالغة الشعريّة فإنّه ليس بإمكاننا أن نعدّ من قبيل الخيال شهادة ابن شرف الذي ترك لنا وصفا يحزّ في النّفس عن مصائب المشرّدين كما عاينها بنفسه، وهم مشتّتون في كلّ مذهب وقد فقدوا كلّ شيء. وهذا في حالة ظفرهم بالنّجاة بأرواحهم. (ابن بسّام، الذخيرة، ط. القاهرة، 1945، ج IV، كراس I، ص 177 ـ 184). على أنّه من الممكن عادة النهوض من أيّ عملية غزو كهذه مهما كانت شديدة. وإذْ قد تعذّر ذلك، فإنّ الكارثة الحقيقية والدّائمة كانت تكمن إذن في جانب آخر. وهي الضربة القاضية التي أصيب بها اقتصاد البلاد. فقد كان هذا الاقتصاد يشكو قبل ذلك شيئا من السّقم المزمن، لكنّه كان لا يزال قابلا للعلاج، وقد حوّل الهلاليون هذا الاقتصاد الذي كان يمرّ فعلا بفترة أزمة ـ وهو يكتسي غالبا صبغة فلاحيّة وصنائعيّة وحضرية ـ إلى اقتصاد بدوّي رَعَويّ إلى أبعد الحدود، مع كلّ ما يمثّله ذلك التحوّل من ضروب التعطّل والتوقّف في الحياة السياسيّة والاقتصادية. وقد تسببوا على نطاق واسع في تقهقر الحياة الحضرية المطْمئنة لتحلّ محلّها حياة البدو المليئة بالمجازفات والمغامرات مع ما يشكّله نزوعها إلى العنف والحرب من تهديد مستمرّ لكلّ نشاط ريفي فلاحي أو حضريّ تجاري، وهي حياة البداوة التي أناخت بكَلْكَلها بعد ذلك على مصير البلاد السياسي طيلة قرونَ من الزّمن.

وقد ضاقت الحال بالمعزّ واشتبهت عليه سبلُ الخلاص، فانتهى به الأمرُ إلى التماس النجاة في المصاهرات مع الغزاة الغلاظ الشداد والمحالفات المنافية لطبيعة الأشياء والتي لم تكن لتجديه فتيلا.

ثمّ عاد المعزّ، ضمن تصوّرات أمله الخادع في

تحاشي الكارثة، إلى ولائه للشّيعة الفاطميين. وقد يكون ذلك حصل منذ أواخر سنة 446هـ/أوائل سنة 1055م. لكنّ الأمر أصبح ثابتا لدينا ابتداء من سنة 449هـ/1057م، كما تشهد بذلك الدنانير المضروبة بالمهديّة انطلاقا من هذا التّاريخ. وقد تحقّقت هذه العودة إلى الولاء الشّيعي، الذي بقي المعزّ وفيّا له إلى آخر حياته، وسط جوّ من اللاّمبالاة الكاملة التي كانت تشمل البلد الغارق في الفوضى والمشغول عن قضايا البدع والانحرافات الدّينية بشؤون يتوقّف عليها وجوده المباشر.

وقد كانت سياسة المعزّ المتوسّطية وريثة سياسة الأغالبة والفاطميّين في هذا المجال، إلاّ أنّ بني زيري لم يعودوا في موقف قوّة مثل أسلافهم. هذا وإنّ ضروبا من الخلط في تواريخ الأحداث ومن السّهو ومن التّناقض تمنعنا من تتبّع هذه السّياسة بدقّة وثبات. ولنذكر أنّ حملة على إيطاليا الوسطى سنة 411هـ /1020م) آلت في نهاية الأمر إلى الفشل إذ أنّ أهالي كلّ من بيزة وجنوة استطاعوا أن يجرّدوا الأسطول الصّنهاجي من غنائمه وهو في طريق العودة. وفي سنة 416هـ/1025 ـ 1026م، دمّرت العواصف في عرض جزيرة قوصرة أسطولا صنهاجيا عتيدا متّجها نحو صقليّة قبل بلوغه هدفه. وفي سنة 426هـ/1034 ـ 1035م، استولى رجال بيزا مؤقّتا على مدينة عنّابة. وفي سنة 427هـ/1035ـ 1036م، تدخّل جيش صنهاجي يقوده عبد اللّه ابن المعزّ وهو لا يزال مراهقا في سنّ الثالثة عشرة، في جزيرة صقلية التي كانت الفوضى تعمّها وهي على وشك السّقوط بأيدي النّورمان، وذلك لمحاربة الأكحل الذي استأثر هناك بالحكم في محرّم من سنة 410هـ/9 ماي ـ 7 جوان سنة 1019م. وبعد أن فتح عبد اللّه مدينة بالرْمة وبعث برأس الأكحل إلى أبيه، اضطرّ في آخر الأمر إلى التراجع وتَرك الجزيرة خائبا. وكان المعزّ قد استقبل سنة 426هـ/1034 ـ 1035م مباشرة قبل هذه الحملة، وفدا قدم عليه من بيزنطة محمّلا بهدايا فاخرة.

فهل ينبغي أن نجعل علاقة بين هذين الحدثين رغم قلّة ما ورد في هذا الشأن بالمصادر؟

وقد كان المعزّ يعيش حتّى زحف بني هلال حياة بذخ وترف وينفق الأموال بغير حساب حرصا منه على ذيوع صيته أميراً نيّر الفكر يرعى أهل العلم والأدب. وقد عُهد بتأديبه في صغره إلى واحد من ألمع رجال الأدب والكتّاب بإفريقية، وهو ابن أبي الرجّال الشاعر والفلكي الشهير الذي تُرجم كتابه البارع، زيادة عن اللاّتينية والعبريّة، إلى عدّة لغات أوروبيّة. وأصبح ابن أبي الرّجال فيما بعد منجّم المعزّ وكبير وزرائه. وقد تألّقت المدرسة الأدبية القيروانيّة في عهد هذا الأمير تألّقا خاصّا بفضل رجال أفذاذ من أمثال القزّاز والحُصريّين، إبراهيم (المتوفّى سنة 413هـ/1022م) وقريبه عليّ الذي فرّ من القيروان بعد غزوة بني هلال وطاف بكامل بلاد الأندلس قبل أن يموت بها سنة 488هـ/1095م. لكنّ أفضل من كان يزين بلاط المعزّ هُما دون منازع الشاعران المتنافسان القديران ابن رشيق وابن شرف. وقد كان يحلو للمعزّ أن يثير بينهما مساجلات ونقائض شعرية بقيت مشهورة عبر التاريخ. أمّا ابن الرّقيق أو الرّقيق (المتوفّى بعد سنة 418هـ/1027 ـ 1028م) والمشهور خصوصا بتدوين التّاريخ والأخبار، فقد اشتغل أيضا كاتب ديوان وسفيراً وكان شاعرا مجيدا. وفي مجال الفقه المالكي كانت هنالك جماعة من مشاهير الفقهاء، تبرز من بينهم، وتمتاز عليهم، شخصيّة أبي عمران الفاسي (المتوفّى سنة 430هـ/1039م)، الذي "كان له دور عظيم في تمخّض حركة المرابطين ونشأتها" (هـ. ر. إدريس، المرجع المذكور سابقا، ج II ص 727).

ولقد ورث المعزّ بن باديس ـ وهو لا يزال طفلا ـ مملكة اتّسمت في المجال الاقتصادي بتفكّك هياكلها ووهن قواها، وفي المجال السّياسي بفقدان الجانب الغربيّ منها. وفشل في سعيه إلى توحيد أجزاء هذه المملكة من جديد جريا على

سنة أبيه من قبله. وعندما توفيّ في يوم 24 شعبان سنّة 454هـ/2 سبتمبر 1062م) عن سنّ تناهز 46 أو 48 سنة قمريّة قضّى منها في الحكم فترة طويلة دامت سبعة وثلاثين عاما، فإنّه ترك هذه المملكة لخلفه تميم وهي تشكو الإفلاس الاقتصادي والانقسام السّياسي وتتخبّط في فوضى عامّة.



حمدة بن التيجاني

[1901 - 1983م]

ولد بتونس في 10 ديسمبر 1901 وزاول تعلّمه بالفرع الابتدائي للمدرسة العلويّة. وفي سنة 1926 بدأ نشاطه الفنّي فانضمّ إلى جمعيّة «التقدّم» التي أسّسها البشير القديدي. وأوّل دور أسند إليه هو دور الوزير ابن خالد في مسرحية «غانية الأندلس». ثمّ انضمّ حمدة بن التيجاني إلى جمعيّة «السّعادة» التي أسّسها عبد الجليل الأرناؤوط، وأدّى فيها عدّة أدوار منها فرعون (في «عائدة») ودوق ألبا (في «شهداء الوطنية») وكسرى (في «فتح فارس»).
ولمّا أسّس علي بن كاملة فرقته المسرحيّة انتدبه مقابل 45 فرنكا في الأسبوع وكان هذا المرتّب لا يتقاضاه إلاّ الفنّانون الكبار.
مثّل في عدّة مسرحيّات منها مسرحيّة «فرّان البندقيّة» ثم انضمّ إلى فرقة «المستقبل التمثيلي» التي أسّسها البشير المتهنّي وتفوّق في عدّة أدوار منها صلاح الدّين الأيوبي. وانضمّ بعد ذلك إلى عدة فرق أخرى (كالتمثيل العربي والاتحاد المسرحي والكوكب التّمثيلي واتّحاد كواكب التّمثيل) حتّى تأسّست فرقة مدينة تونس في سنة 1953 فكان من الأوائل الذين انضمّوا إليها وبقي يعمل بها إلى ان توفّي في 11 أوت 1983.

وقد مثّل في جلّ المسرحيات التي أخرجها المديرون الفنّيون الذين تداولوا على إدارة هذه الفرقة العتيدة: زكي طليمات ومحمّد عبد العزيز العقربي وحسن الزمرلي وعلي بن عيّاد ومحسن بن عبد الله والمنصف السويسي والبشير الدّريسي ومحمد كوكة. وكان نجاحه في مختلف الأدوار التي أسندت إليه منقطع النّظير، ولا تُنسى براعته في القيام بدور القبّار في مسرحيّة «هملت» وبدور اليهودي في مسرحية «البخيل». أمّا المسرحيّة التي لفتت إليه الأنظار وكانت سببا في ذيوع شهرته، فهي دون منازع مسرحيّة «الماريشال» (اقتباس نورالدين القصباوي عن موليار). وقد مثّلت مرّات عدّة. لكنّ حمدة بن التيجاني كان يفضّل التّمثيل بالفصحى على التّمثيل بالدّارجة. وكانت أحبّ أدواره إليه أدوار عبد الرّحمان النّاصر وصلاح الدين وعنترة بن شدّاد.

ابن التّين

[توفي سنة 611هـ/1214م]

عبد الواحد بن عمر بن عبد الواحد المعروف بابن التّين، محدّث ومفسّر وفقيه، من كبار علماء مدينة صفاقس ممّن طبّقُوا أصول الفقه على الفروع. قام برحلة إلى الشرق بنيّة الحجّ. توفي بصفاقس سنة 611هـ/1214م وقبره معروف أمام ضريح الإمام اللخمي. ألّف كتاب «المخبر الفصيح الجامع لفوائد سند البخاري الصحيح» وهو من أوائل شروح صحيح البخاري.

ابن الجزّار
[278–360هـ/ 891–970م]

أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن علي بن أبي خالد، المعروف بابن الجزّار، ولد بالقيروان، في عهد الأمير إبراهيم الثّاني الأغلبي في عائلة اشتهرت بالطبّ.

يقول ابن أبي أصيبعة: «طبيب، ابن طبيب، وعمّه أبو بكر طبيب» وكان عمّه ممّن لقي إسحاق بن سليمان (الإسرائيلي) وصحبه وأخذ منه. يذكر أبو جعفر عمّه في كتابه «نصائح الأبرار» ويقول: «كان عمّنا عالما بالطبّ، حسن النّظر فيه» وينقل عنه الأدوية التي «عالج بها سادة من ذوي الأقدار العالية وأهل التّرف والنعمة، (من الفاطميّين)» فجرّبها، هو، فيما بعد وحمدها. وكان إسحاق بن سليمان قدم من مصر (سنة 292هـ/ 905 م)، في عهد زيادة الله ابن الأغلب، ولازمه أبو جعفر وتتلمذ له.

وممّا يجدر تأكيده أن ابن الجزّار سليل مدرسة القيروان الأصيلة التي أنشأها إسحاق بن عمران (بعد قدومه إلى القيروان سنة 264هـ/ 878م)؛ فلم يفارق إفريقيّة، ولم يتوجّه إلى الشرق قصد الحجّ أو بنيّة الاجتماع بأئمة الطب فيه، ولم يرحل أيضا إلى الأندلس، ولو أنه تاق إلى ذلك توقا، «وكان قد همّ بالرّحلة إليها ولم ينفّذ ذلك؛ وكان ذلك في دولة معدّ. بل إنّه لم يفارق القيروان إلاّ قليلا للمرابطة على بحر المنستير.

ولمّا آنس أبو جعفر من نفسه حصوله على الملكة الكافية والدّربة المطلوبة اشتغل، بتشجيع من عمّه وإجازة من معلّميه، حسبما كان متعارفا في ذلك الوقت، بمعالجة المرضى وتدريس الطب.

وكان ابن الجزّار من أهل الحفظ والتطلّع والدّراسة للطبّ وسائر العلوم. وقضى عمره في الدّرس والبحث والتجارب والعلاج والتعليم.

ويذكر سليمان بن حسّان المعروف بابن جلجل في كتابه «طبقات الأطباء والحكماء» أنّه «اتّخذ سقيفة داره أقعد فيها غلاما يسمّى برشيق وأمدّه بجميع المعجونات والأشربة والمراهم والأشياف وسائر المستحضرات، فيمرّ المرضى بهذا الغلام بعد زيارتهم للطبيب، حاملين منه إليه ورقة يصف فيها ما يناسبهم من الأدوية، فيعطيهم الدواء المشار به ويقبض الثمن».

ويقول ياقوت الحموي: «وكان له معروف كثير، وأدوية يفرّقها على الفقراء، يوزّعها على المعوزين دون مقابل» احتسابا لوجه الله. ويروي ابن أبي أصيبعة عن ابن جلجل أن أبا جعفر عالج ابن القاضي النّعمان من مرض ألمّ به حتى برئ من علّته. فأرسل إليه القاضي كتابا شكره فيه «ومعه منديل بكسوة وثلاثمائة مثقال؛ فقرأ الكتاب وجاوبه شاكرا، ولم يقبض المال ولا الكسوة»، فلمّا لوحظ له في ذلك قال: «والله لا كان لرجال معدّ قبلي نعمة».

هذا الخبر يدلّ على استقلال ابن الجزّار وعزّة نفسه؛ (وقد يكون له مدلول آخر سنعود إليه). فلا يأخذ لأهل الدولة صلة ولا يركب إليهم مهنّئا ولا معزّيا. فأبو جعفر «لم يركب قطّ إلى أحد من رجال إفريقية ولا إلى سلطانهم، إلاّ إلى أبي طالب، عمّ معدّ، وكان له صديقا قديما، فكان يركب إليه يوم الجمعة لا غير».

يقول ياقوت: «وكان صائنا لنفسه، منقبضا عن الملوك، ذا ثروة، ولم يكن يقصد أحدا إلى بيته».

وكان الباعث لابن الجزّار أساسا حبّ الكشف والسّعي الدائب إلى الوقوف على عين الأدوية والأعشاب الموصوفة في كتب الأقدمين، منقّبا عنها في منابتها، معلما الناس بها حتى يعمّ الانتفاع بها ويتجنّب المريض الخلط بينها. وتجمّع لديه من أمّهات الكتب وعيون المصادر العدد الكثير. «ووجد له خمسة وعشرون قنطارا من كتب طبيّة وغيرها».

واتّسم ابن الجزّار بصفات العالم الحقّ، المتواضع، معترفا بما يدين به من فضل الأطباء الأوائل الأقدمين وأعمال المحدثين، ويعزو كل نقل ينقله إلى قائله ويصدّر كتبه بمثل هذا القول: «ألّفت كتابا جمعت فيه عيون ما ذكره أفاضل الأطباء من مكنون علمهم وصحيح تجربتهم ومحصل سرّهم في طريق مداواة الأدواء.... الخ» أو «أدوية جمعتها من كتب جالينوس وديوسقوريدوس وبولص وغيرهم من أفاضل الأطباء، وهذا ما يقتدى به». ففي كتاب المعدة وأمراضها ومداواتها نراه يعتمد خاصة على جالينوس 37 مرّة، منها 11 على كتاب (العلل والأمراض) والمقالة السابعة من (حيلة البرء) و(مداواة الأسقام) و(الصنعة الصغيرة) وكتاب (أبيديميا) و(الفصد) و(الأعضاء الألمة) و(رسالة أغلوقن) وعلى أبقراط 5 مرات (ك. الفصول) و(ك. التفضيل) و(ك. أبيديميا) وعلى فولوبس، تلميذ أبقراط مرتين (ك. تدبير الأصحّاء) وروفس واسقلبيادس.

كذلك يفعل بالمحدثين: يحيى بن ماسويه (3 مرّات عند ذكر آرائه) وأكثر من 14 مرّة عند نقل الأدوية التي ألّفها وإسحاق بن عمران (ص 161، ص 197) وفي زاد المسافر (ص 70، 75، 76) وعمّه محمد بن أحمد المتطبّب (ص 180، 183).

وينقل مرّتين عن مصدر هندي (ص 128 – 155).

ولم يكن نقل ابن الجزّار نقلا مجرّدا، بل هو ينقد دوما ما ينقل ويعلق عليه بالحمد بعد اختياره وتجربته، أو بالتّحفظ في شأنه فيقول (ص 104): «وهذا الذي قال جالينوس يحتمل النّظر والقياس وإليه يميل عامّة حذّاق الأطباء والفلاسفة». أو (ص 63): «يؤخذ على التّحفظ، فإنّه نافع سريع النّجح» ويضيف الكثير من الأدوية التي ألفها هو ذاته وجرّبها وحمدها: (جوار شنات وحبوب وأشربة) فيقول: «هذا ألّفته ولطّفت تركيبه ممّا يصلح أن يستعمله الملوك والسّادة الأشراف» و«قد عرفنا فضله وبيّنا نجاحه».

وينبّه أيضا على كل دواء وقع فيه وهم أو غلط لمتقدّم أو متأخر لاعتماد الكثير على الصّحف والنّقل، واعتماده، هو، على التجربة والمشاهدة ويذكر موضع الغلط والاشتباه الذي وقع لبعضهم في نعته.

ونشير هنا إلى الأهميّة الفائقة التي كانت لكتاب «الاعتماد في الأدوية المفردة»، من النّاحية اللغويّة وما وقف عليه ابن الجزّار من مواطن النّقص في الأدوية التي ألقاها ديوسقوريدوس وجالينوس «فالكثير منها مجهول غير معروف في اللّسان العربي وكثير منها معدوم غير موجود»، فهذا ما لاحظ ابن الجزّار عند تأليفه للاعتماد قبل سنة 334هـ/945م التي روجع فيها كتاب ديوسقوريدوس في عهد عبد الرحمان الناصر بقرطبة.

وإذا ما اقتصرنا على المصادر اليونانية القديمة التي أخذ منها ابن الجزّار فإنّنا نستمدّ من استقراء الأستاذ إبراهيم بن مراد لها ما يلي من الشواهد:

– جالينوس: 196 شاهدا منها 71 في زاد المسافر و37 في الاعتماد.

– ديوسقوريدوس: 108 منها 66 في الاعتماد.

– إبقراط: 51 منها 21 في زاد المسافر و6 في الاعتماد.

– بديغورس (فيثاغور): 31 شاهدا كلها في الاعتماد.

– أرسطاطاليس: 25 منها 1 في زاد المسافر و16 في الاعتماد.

– بولس الاجانيفي: 13 منها 5 في زاد المسافر و5 في الاعتماد.

– روفس الأفسيسي: 9 شواهد منها 4 في زاد المسافر و3 في الاعتماد.

– أندروماخس: 1 في زاد المسافر.

– أفليمون: 1 في زاد المسافر.

– فرفوريوس: 1 في زاد المسافر.

– ثاوفراسطس: 1 في الاعتماد.

ومن الجدير بالملاحظة أن أشهر كتب الطبّ في المشرق، في عصر ابن الجزّار - كتب أبي بكر محمد بن زكرياء الرّازي (ت 313هـ/925م) - لم يكن لها أثر مباشر في الطب بإفريقية والجناح الغربي من العالم العربي، وأبو جعفر لم يذكر قط، في جملة ما اقتبس في أمهات كتبه، كتاب الحاوي أو غيره من مصنّفات الرّازي.

على أن هذا الأمر ليس بالمستغرب كثيرا، فأشهر كتب ابن سينا (المتوفى سنة 428هـ/1037م)، «كتاب القانون في الطب» لم يصل إلى المغرب إلاّ زمان أبي العلاء بن زهر ابن أبي مروان (ت 525هـ/1131م). فحسب ما يروي ابن جميع المصري في كتاب «التّصريح بالمكنون في تنقيح القانون» أنّ رجلا من التّجار جلب من العراق إلى الأندلس نسخة من هذا الكتاب، قد بولغ في تحسينها، فأتحف بها أبا العلاء بن زهر تقرّبا إليه، «ولم يكن هذا الكتاب وقع إليه قبل ذلك؛ فلمّا تأمّله ذمّه».

فهل يدلّ ذلك عن انقطاع الصّلة، في فترة من الزمن، بين المشرق والمغرب، أو على الأقل على تضاؤل التّواصل بينهما؟

نحن في حيرة للجواب عن هذا السؤال، إذ يروي الدبّاغ في «معالم الإيمان» أن أبا الحسن القابسي قال: «نعي إلينا أبو إسحاق السّبائي (من القيروان) وأنا بمصر، بعد سبعة عشر يوما من وفاته، فجميع من بمصر من العلماء والفقهاء والفقراء والصالحين والمحدّثين، كلّهم عزّاني فيه». وكان ذلك سنة 356هـ/966م، أي في الفترة التي تهمّنا بالذات.

على أن شهرة ابن الجزّار امتدّت عبر الشرق فأخذ عنه محمد بن سعيد، من بيت المقدس، وذكره وأثنى عليه في كتابه «المرشد»، كما سنرى أن كشاجم (محمد بن الحسين) أحد شعراء سيف الدولة خصّه برثاء أثنى فيه عليه وذكر أن «الناظرين العارفين» في صناعة الطبّ، رغم انتشار كتب الرّازي وغيره من الشخصيات العلميّة بالمشرق وعلى رأسهم يوحنا بن ماسويه صاحب كتاب "التمام"، قد وجدوا في مصنفات ابن الجزّار فوائد جمّة وتدقيقات مهمّة وتجارب جديدة ونهجا شخصيا بديعا.

واهتم أيضا بكتاب الاعتماد عدد من المصنّفين واقتبسوا منه الاقتباسات ولخّصوا مادّته. من ذلك مختصر شرقي بعنوان «صفة طبائع العقاقير على مذهب ابن الجزّار في كتاب الاعتماد» خصّصه مؤلّفه لطبائع النّبات ودرجاتها. ونال أبو جعفر شهرة كبيرة في الأندلس.

فمن الجماعة التي أعادت النّظر في كتاب الأدوية المفردة لديوسقوريدوس وأصلحت تعريبه، بأمر من عبد الرّحمان النّاصر (300-350هـ/912-961م) كان الطبيب القرطبي الشهير عبد الرحمان بن إسحاق ابن الهيثم، طبيب القائد محمد بن محمد بن أبي عامر، وله من الكتب «كتاب الاقتصار والإيجاد في خطإ ابن الجزّار في الاعتماد»... واهتمام أحد أعلام الطب بالأندلس وفضلائها بتعقّب كتاب ابن الجزّار، وهو على قيد الحياة، لدليل على شهرة الطبيب القيرواني وسرعة انتشار تآليفه في الأمصار.

هذا وإنّ أندلسيّا آخر، واسمه عمر بن حفص بن بريق، كانت له رحلة إلى القيروان، إلى أبي جعفر ابن الجزّار، فلزمه مدّة وأخذ عنه الصناعة وروى عنه تأليفه، ثم عاد إلى الأندلس؛ وهو الذي أدخل إليها كتاب "زاد المسافر" وخدم بالطبّ عبد الرحمان النّاصر، وعنه أخذ أبو داوود بن حسّان بن جلجل، الذي نقل عنه ابن أبي أصيبعة. ولا ننسى أيضا أن ضياء الدين ابن البيطار أورد عدّة استشهادات من ابن الجزّار في كتابه "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" وانتقده وأصلحه أحيانا. أضف إلى ذلك أن عددا من المصنّفين اقتبسوا عنوان كتابه الشهير، "زاد المسافر"، فلصفوان بن إدريس التجيبي (ت. بمرسية سنة 598هـ) كتاب سمّاه "زاد المسافر وراحلته". وصنّف الفقيه محمد بن مروان بن

زهر الإشبيلي كتابا في التّوحيد سمّاه "زاد المسافر في الجدل".

وأمّا شهرة ابن الجزّار في الطّب الأوروبي فعارمة وأثره أوضح وأفسح مدى، إذ اقتحمت كتبه حدود أوروبا منذ عصر مبكّر، منذ القرن العاشر للميلاد، أي في حياته وبعد مماته، وسنعود إلى ذلك عند استعراضنا لمصنّفاته. ونقل اسمه نقولا محرّفة مختلفة، منها ما هو قريب من الأصل العربي ومنها ما يبعد عنه كلّ البعد وتكاد لا تدرك هويته.

-Ahmad Ibn Al Yazzar

-Hamech filius Abicalic qui dicitur Ybnezuzar

-Ybnezizar

-Ybeneyzar idem Carcarnificis

وكذلك شأن أسماء مصنّفاته، ومثال ذلك:

-Zadar musafir (زاد المسافر)

-Liber Fiduciae (الاعتماد)

الخلاف في تاريخ وفاته وتاريخ ولادته

1) اضطربت الروايات اضطرابا شديدا فيما يخصّ تاريخ وفاة ابن الجزّار.

– كثيرا ما يقترح المصدر الواحد اقتراحات مختلفة: فيذكر حاجي خليفة، في كشف الظنون، محدّدا هذا التاريخ:

– 7 مرات بسنة 400هـ/1009م

– و6 مرات بحوالي 400

– ومرتين ببعد سنة 400.

وفي تحقيق لكتاب «الاستبصار في عجائب الأمصار، ط. الدار البيضاء 1985» يجعل سعد زغلول عبد الحميد هذا التاريخ، سنة 400هـ. ويعتمد لوسيان لوكلارك عين التاريخ. وكذلك يفعل سارتن (1974) «وهذا لا يصحّ أصلا» (ح.ح. عبد الوهاب: ورقات، القسم الأول، تونس 1972، ص 311).

ليس ثمّة شكّ في أن هذا التأريخ (400هـ) هو نتيجة خلط بين ابن الجزّار أبي جعفر وأبي عثمان الجزّار، الملقّب بالبسباسة، الأندلسي وكان من الأطباء الباحثين، بعد سنة 340، عن تصحيح أسماء العقاقير الواردة في كتاب ديوسقوريدوس، في عصر عبد الرحمان النّاصر (300–350هـ/912–961م)، ومنهم الرّاهب نقولا، المبعوث من قبل أرمانيوس ملك الرّوم، ومحمد المعروف بالشجّار، ومحمد بن سعيد الطبيب، وعبد الرحمان بن إسحاق بن الهيثم القرطبي، طبيب القائد محمد بن محمد ابن أبي عامر وأبو عبد الله الصقلي. ويحدّد بروكلمان وفاة ابن الجزّار بتاريخ 395، دون سند.

– أمّا ابن عذاري المراكشي، في كتاب "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، فيجعل هذه الوفاة حوالي سنة 369هـ/979م ويعتمده ح. ح. عبد الوهاب ومن سار على أثره كالدكتور الحبيب الهيلة (1968) ود. فاروق العسلي (1987) وفؤاد سيزكين والحكيم أحمد بن ميلاد (1980).

– ويقول ابن أبي أصيبعة: «عاش أحمد بن الجزّار نيّفا وثمانين سنة، ومات غنيّا بالقيروان... وكان في دولة معدّ» أي المعزّ لدين الله، الفاطمي (341–365هـ/953–975م). وذكره ابن جلجل في كتاب «طبقات الأطباء والحكماء» (وقد ألفه سنة 364 أو 365هـ/974م) وقال إنه "عاش ثمانين عاما" وترجم له في «سلّم الأصول» (ج 1 ص 62 خ) وجاء فيه «سكن إفريقية وعاش نيّفا وثمانين سنة».

– ويقول ياقوت في «معجم الأدباء، ج2 ص 137»: «وكان في أيام المعزّ لدين الله، في حدود سنة خمسين وثلاثمائة 350 أو ما قاربها».

محاولة التّدقيق في سنة الوفاة

نكاد نوقن أن ابن الجزّار توفّي قبيل سنة 360هـ/970م وهي السنة التي توفّي فيها محمد بن الحسين كشاجم، من شعراء سيف الدولة الحمداني، إذ نعتبر ما قاله عن "كتاب زاد المسافر"، تأليف ابن الجزار، من باب مدح الميّت، أي الرّثاء؛ وتعبير كشاجم عن ذلك واضح الدّلالة، يمحّض أن وفاة أبي جعفر كانت قبل قوله هذه الأبيات: [من الطويل]

أبا جعفر أبقيت، حيًّا وميّتا
مفاخر في ظهر الزمان عظاما
رأيت على زاد المسافر عندنا
من النّاظرين العارفين زحاما
فأيقنت أن لو كان حيًّا لوقته
يحنّ لما سمّى التّمام تمامـا
سأحمد أفعالا لأحمد لم تزل
مواقعها عند الكرام كرامـا

ولنا على ما قدّمنا من رأي وترجيح قرائن واضحة تؤكدهما وتكاد تفيد القطع، فلا مجال معها إلى الالتجاء إلى المجاز لتخريج مدلولها:

1 – إن الفعل "أبقيت" فعل ماض، يدلّ على أن الأمر تمّ وانقضى قبل تاريخ القول، وكذلك سائر الأفعال: رأيت، أبقيت، كان حيًّا.

2 – إن مادّة (أبقى) تدلّ على ما يترك من أثر الفعل بعد حدوثه، كدلالة أثر السّير على المسير السّابق.

3 – إن العبارة «حيًّا وميتا» تفيد أن الأثر استمرّ وتواصل من مدّة الحياة إلى ما بعد الممات. وحرف واو العطف يعبّر على الجمع على السواء بين الحالتين.

4 – ليس من اللياقة واللطف والظرف في شيء أن يقال هذا القول لشيخ في الثمانين من العمر، وأن يذكّر بمرارة الفناء والزّوال، ومهما يكن من أمر فليس ذلك ممّا يناسب موقف المفاخرة والمدح.

5 – في قول "لم تزل": لم حرف نفي وجزم وقلب، تمحّض الفعل للماضي، مع الإشارة إلى أن الأثر مستمر حتى الحاضر. ويتأكد هذا المعنى بمقابلة المضارع القريب «سأحمد» أي فيما بقي لي من عمر بعد وفاة المرثيّ.

وفي الخلاصة إن أبيات كشاجم تدلّ دلالة واضحة على أن المتحدّث عنه في حكم الماضي، وأن أبا جعفر توفّي قبل تاريخ هذه القولة وهي سابقة في الزمن لوفاة كشاجم سنة 360هـ.

2) وينتج عمّا سبق تحوير أيضا في تاريخ ولادة ابن الجزّار، فقد اعتمد ح.ح. عبد الوهاب للوفاة قول ابن عذاري أي سنة 369هـ، مع العلم أن أبا جعفر عاش نيّفا وثمانين سنة. فكانت ولادته، في نظره، بعملية طرح بسيطة، حوالي سنة 285هـ/898م. تؤدينا العملية ذاتها، بترجيح سنة 360 للوفاة، إلى الاقتراح لسنة ولادة ابن الجزّار سنة في حدود 278هـ/851م.

ملاحظة: ليس ما أسلفنا من محاولة التحديد لتاريخي ولادة ابن الجزّار ووفاته لعبة فكرية ومجرّد عملية نظرية ونقاش اعتباطي، بل قد يفيد، في بعض الحالات، تحديد الأسبقية التاريخية لمصنّف من المصنّفات أو اكتشاف من الاكتشافات.

مصنّفات ابن الجزّار

له مصنّفات كثيرة متعدّدة، في فنون مختلفة، أهمّها ما خصّصه للعلوم الطبية، ومنها ما فقد ولم يبق لنا منه سوى اسمه، ومنها ما هو موجود في صورة مخطوطات موزّعة في عدّة مكتبات، أو ما نُشر.

أعدّ قائمة هذه المصنّفات فؤاد سيزكين.

– أسماء الكتب المفقودة

1) قوت المقيم
2) كتاب العدّة لطول المدّة
3) مجرّبات في الطب
4) كتاب المختبرات
5) كتاب في نعت الأسباب المولّدة للوباء في مصر وطريق الحيلة في دفع ذلك وعلاج ما يتخوّف منه
6) البلغة في حفظ الصحّة
7) البغية في الأدوية المفردة
8) كتاب الخواصّ
9) رسالة في إبدال الأدوية
10) رسالة في الزّكام وأسبابه وعلاجه
11) رسالة في المقعدة وأوجاعها
12) رسالة في التحذير من إخراج الدّم من غير حاجة دعت إلى إخراجه
13) رسالة في النوم واليقظة
14) كتاب في الفرق بين العلل التي تشتبه

أسبابها وتختلف أعراضها
15) مقالة في الحمّامات
16) كتاب السّموم
17) كتاب نصائح الأبرار
18) كتاب النّصح
19) رسالة في النّفس وذكر اختلاف الأوائل فيها
20) رسالة إلى بعض إخوانه في الاستهانة بالموت
21) أصول الطب
22) الأحجار
23) العطر أو العطورات
24) كتاب المكلّل في الأدب
25) كتاب أخبار الدولة، يذكر فيه ظهور المهدي بالمغرب
26) التعريف بصحيح التاريخ
27) الفصول في سائر العلوم والبلاغات
28) مقالة في الجذام وأسبابه وعلاجه
29) طبقات القضاة
30) عجائب البلدان، في تقويم البلدان ووصفها

II – الكتب الموجودة، وأكثرها مخطوطة، وهي تهتمّ أساسا بالعلوم الطبية

1) كتاب زاد المسافر وقوت الحاضر :

يقول عنه عبد الكريم شحادة، أستاذ الطب سابقا بحلب: «إنه موسوعة طبّية مختصرة شاملة كتبت بأسلوب سهل شيّق واحتوت على كل ما يحتاج إليه الطبيب، وطالب الطب، فضلا عمّن ليس بطبيب، مسافرا كان أو مقيما. وهؤلاء كلّهم يجدون في هذا الكتاب الجامع، بيسر وسهولة، وبلغة مبسّطة، معلومات مختصرة، ولكنّها كافية لتذكيرهم سريعا بأعراض الأمراض التي يودّون الاطلاع عليها، وعلى أسبابها وعلاماتها وتشخيصها وتفريقها عمّا يشابهها من الأمراض، كما تطلعهم على طرائق معالجتها والأدوية النافعة فيها، فهي، والحالة هذه، تشبه الكتب الطبيّة الحديثة المختصرة التي يطلق عليها "مسعفات الذاكرة".

2) كتاب سياسة الصّبيان وتدبيرهم :

نشر بتحقيق محمد الحبيب الهيلة، في تونس 1968 وأعاد طبعه سنة 1983.

ويقول شحادة بإمكان استفادة أحمد بن محمد البلدي (المتوفى حوالي عام 380هـ) من كتاب ابن الجزّار، في مصنّفه «تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم» (نشر دار الحرية للطباعة في بغداد سنة 1980).

3) كتاب المعدة أو «في المعدة وأمراضها ومداواتها»

عيون الأنباء 61، كشف الظنون، سلّم الوصول، هدية العارفين خ الاسكوريال 852.4، الظّاهرية دمشق طبّ 99 يذكره بروكلمان وأولمان وسيزكين ويذكرون أن قسطنطين الإفريقي ترجمه إلى اللاتينية ونسبه إلى نفسه.

حقّقه سلمان قطاية (دار الرشيد للنشر، بغداد، 1980) وقال: «إن هذا الكتاب افتتاح اختصاص (أمراض جهاز الهضم) وهو تجميع وتدقيق وتصحيح وإضافة للمعلومات الطبية المتعلقة بهذا الاختصاص في ذلك الزمان».

4) كتاب طبّ الفقراء والمساكين :

خ.خ. الغوطة 2034، الاسكوريال 857.2، كامبريدج 1021،12 باريس 3038؛ بغداد متحف 2103، الرباط كتاني 938، ويقول ح.ح. عبد الوهاب إنه ترجم إلى العبرية قديما.

الطاهر بلحاج
[1901 - 1959م]

ولد الطّاهر بلحاج (ابن الحاج) سنة 1901 وقد تعاطى المسرح ممثّلا ومخرجا ومؤلّفا. فهو من مؤسّسي جمعيّة «الهلال» سنة 1920 مع حبيبة مسيكة وبحرون وأحمد بن مامي والشّاذلي بن فريجة وعلي النّجار ومحمود بن عاشور. ثمّ شارك في شريط «جحا»، بطولة عمر الشريف وإخراج جاك باراتيه (J.Baratier) وانضمّ إلى جمعيّة التمثيل العربي، حيث تعرّف إلى

الممثل الكبير جورج أبيض الذي أعجب به كثيرا وكان يرى فيه خليفته في المسرح. وفعلا فقد قام الطّاهر بلحاج بالأدوار التي اختصّ بها أستاذه جورج أبيض (كدور لويس الحادي عشر في المسرحية التي تحمل هذا العنوان) ونجح فيها إلى درجة أنّه صار يلقّب بجورج أبيض تونس. ثمّ انضمّ إلى فرقة «المستقبل التمثيلي» التي أسّسها البشير المتهنّي سنة 1926 وشارك في فرقة ابن كاملة ثمّ في عدّة فرق أخرى. وقد عمل في فرقة بلدية تونس حتّى وفاته.

كان أوّل دور قام به الطاهر بلحاج هو دور الكونت ريزور في مسرحية «شهداء الوطنية» (تأليف فيكتوريان ساردو) أمّا الأدوار التي اشتهر بها فهي كثيرة نخصّ منها بالذكر دور لويس الحادي عشر ودور يوليوس قيصر ودور ياڤو (في مسرحية عطيل).

وألّف أيضا مسرحية عنوانها «زوبعة في بيت».

وتوفّي الطاهر بلحاج في 27 أفريل 1959.

الجيلاني بن الحاج يحيى
[1929–2010م]

ولد الجيلاني ابن الحاج يحيى بجزيرة جربة في 12 جوان 1929. واختلف فيها، منذ حداثته، إلى الكتاتيب ثمّ إلى المدرسة الابتدائية.

انتقل بعد ذلك إلى مدينة تونس. والتحق بالخلدونيّة ثمّ بجامع الزيتونة. وتخرّج فيه حاملا شهادة العلوم العمليّة سنة 1949 وشهادة التحصيل سنة 1950.

اشتغل بعد تخرّجه معلّما. فعمل في الكثير من المدن. ثمّ طمحت نفسه إلى الاستزادة من التحصيل والمعرفة. فسافر إلى العاصمة السويسريّة جنيف. وانتسب إلى مدرسة أمناء المكتبات بعد أن حصل على منحة تخصّص في فنّ المكتبات وعلومها من منطقة اليونسكو. وتخرّج فيها حاملا شهادة في علم المكتبات.

في سنة 1949 أسّس مع بعض الكتاب والأدباء نادي القلم. وفي هذا يقول في مقدّمة كتابه عن علي الحصري: (في خريف 1949 اجتمعنا بعاصمة تونس ثلّة من هواة الكتابة والشّعر لنؤسّس ناديا اخترنا له اسم نادي القلم وكان في مقدّمة ما يرمي إليه هذا النّادي هو دراسة الآثار القوميّة المخطوطة من علميّة وأدبيّة وتحقيقها ونشرها.. واقترح بعضنا أن يكون أوّل أثر يبادر النّادي إلى نشره ديوان المعشرات للحصري).

عمل متفقّدا في التعليم الابتدائي سنة 1957. وتدرّج في الوظيفة. فشغل خطّة رئيس مصلحة بديوان تعليم الكهول ثمّ مدير إدارة المكتبات بوزارة الشؤون الثقافية. وقد كان، كما وراء بعث الكثير من التّظاهرات والفضاءات الثقافيّة، وخاصّة منها المكتبات العموميّة في القرى والأرياف النّائيّة، كما أسهم إسهاما قيّما في إرساء منظومة إداريّة متكاملة كانت نواة للشبكة المكتبيّة التي تعمّ مناطق البلاد كافة.

التحق بالمنظمّة العربيّة للتربية والثقافة والعلوم بصفة خبير ثمّ انتقل إلى وزارة الثقافة بصفة مستشار لوزير الثقافة.

أسهم في الكثير من الجمعيّات الثقافيّة. فكان من أوائل المنخرطين في اتحّاد الكتاب الذي انضّم إليه سنة 1971. وكان من مؤسّسي النّادي الثقافي (أبو القاسم الشابي) والجمعيّة المعجميّة العربية.

يتّفق جميع معارفه على أنّه كان ذا روح مرحة وطبع ودود وأنّ له قدرة فائقة على نشر البهجة في مجالسه. وقد ذكر الأستاذ أحمد الحمروني أنّه كان يتردّد على نادي زرياب (صالح المهدي) صباح كلّ أحد وعلى مجلس القاضي محمود شمّام مساء كلّ جمعة إضافة إلى تردّده على النوادي التي أسّسها أو أسهم في تأسيسها.

إنّ المتأمّل في مسيرة الرّجل الفكريّة والأدبيّة يلحظ تعدّد شواغله وتنوّعها. فقد كتب في التاريخ. وضرب بسهم في التحقيق. وانعطف

على الكثير من الشخصيّات الأدبيّة والفكريّة بالنظر والتأمّل، كما كان له إسهام مهمّ في مجال المعجميّة. وقد سعى الجيلاني ابن الحاجّ يحيى في كلّ ما كتب، إلى المحافظة على التراث العربي عامّة والتراث التونسيّ على وجه الخصوص.

في هذا السياق نفهم عنايته بالقواميس يوجّهها إلى الناشئة وفق منهجيّة مخصوصة وهي القاموس المدرسيّ الذي أصدره سنة 1981 والقاموس الجديد الذي أصدره سنة 1990 والقاموس الألفبائي الصّادر سنة 1997، مع العلم أنّه في السيّاق نفسه، سياق المحافظة على التراث ورعايته، يندرج تحقيقه للكثير من الأعمال الأدبيّة لعلّ أهمّها قسم شعراء المغرب والأندلس من كتاب جريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني بالاشتراك مع محمد العروسي المطوي ومحمد المرزوقي وآذرنوش.

وفي السياق نفسه تندرج أعماله التّاريخيّة التي اعتنت ببعض الأحداث الكبرى مثل كتابه عن معركة الزلاّج بالاشتراك مع محمد المرزوقي، كما أصدر الجيلاني ابن الحاج يحيى مجموعة قصصيّة للأطفال سنة 1997 تميّزت بلغتها النقيّة وحكاياتها الطريفة وقدرتها على المزج بين العبرة الأخلاقيّة والإمتاع الفنيّ.

وقد توفّي بتونس في 26 أفريل سنة 2010.

وهذه قائمة في أعماله كما صنّفها أحمد الحمروني:

في المعجميّة:

– القاموس الجديد للطلاّب (بالاشتراك مع بلحسن البليّش وعلي بن هادية)، الشركة التونسيّة للتوزيع ط1، تونس 1978.

– القاموس المدرسي (بالاشتراك مع بلحسن البليّش وعلي بن هادية) ط1، الشركة التونسيّة للتوزيع، تونس 1981.

– القاموس الألفبائي (بالاشتراك مع بلحسن البليّش وعلي بن هادية) ط1، تونس1979، ط10، الأطلسيّة /تونس، الأهليّة، بيروت1997، وفي طبعات جديدة.

في التراجم:

– الطاهر الحدّاد (بالاشتراك مع محمد المرزوقي)، دار بوسلامة، تونس 1963.

– شيخ الصحافة البشير الفورتي، سلسلة ذاكرة وإبداع عدد22، وزارة الثقافة، تونس 2005.

– الصحافي المناضل سليمان الجادوي، سيراس، تونس 2007.

– الكاتب الاجتماعي التجاني بن سالم من خلال آثاره، سلسلة ذاكرة وإبداع، عدد30، وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، تونس 2008.

– الزعيم المناضل صالح بن يوسف، تونس 2009.

– حسين الجزيري (تحت الطبع).

في التحقيق:

– قسم شعراء المغرب والأندلس من خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني (بالاشتراك مع محمد العروسي المطوي ومحمد المرزوقي وآذرنوش)،الدار التونسيّة للنشر، تونس 1966–1972، ط2، 1986.

– أبو الحسن علي الحصري،دراسة متبوعة بآثاره (بالاشتراك مع محمد المرزوقي) ط1،مكتبة المنار، تونس1963، ط2، الشركة التونسيّة للتوزيع، تونس 1974، ط3، بيت الحكمة، قرطاج، تونس 2008.

– قصيدة يا ليل الصبّ ومعارضاتها (بالاشتراك مع محمد المرزوقي)، الدار العربيّة للكتاب، تونس 1986.

– المعشّرات من شعر علي الحصري (بالاشتراك مع محمد المرزوقي)، مكتبة المنار، تونس 1963.

– تاريخ جامع الزيتونة لمحمد بن عثمان الحشايشي، ط3، الأطلسيّة للنشر، تونس 2006.

– العادات والتقاليد التونسيّة لمحمد بن عثمان الحشايشي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، ط2، سيراس، تونس 1994–1995.

– صفحات من تاريخ تونس لمحمد بن

الخوجة (بالاشتراك مع حمادي الساحلي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986.

– تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد لمحمد بن الخوجة (بالاشتراك مع حمادي الساحلي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1985.

في التاريخ:

– معركة الزلاّج (بالاشتراك مع محمد المرزوقي)، مكتبة المنار، تونس 1961، ط2، 2007، ط3، 2009.

في الأدب:

– ترويح النفوس، الأطلسية، تونس 1996.

– أنيس الجليس، الأطلسيّة، تونس 1997.

– النديم: دار شوقي، تونس 1999.

– مقامات منشورة في جريدة زالجزيرةس الصادرة بجربة، ومقالات متفرّقة في عدّة صحف.

عبيد الله بن الحبحاب

[وِلاَيَتُهُ 116–123هـ/734–740م]

قدم إفريقية واليا في ربيع الثاني سنة 116هـ/734م وهو الذي أعاد بناء جامع الزيتونة وتجديده ودار الصناعة التي غزت مراكبها صقلية وغزتْ جيوشه السوس والسودان. ولـمّا كثرت مظالم بعض عمّاله نقضت البربر عنه وزحفت لقتال العرب، فاختلت الأمور على ابن الحبحاب فاجتمع الناس وعزلوه. ولـمّا بلغ ذلك هشام بن عبد الملك غضب وكتب إليه يأمره بالعودة إلى المشرق في جمادى الأولى سنة 123/740م وولّى مكانه كلثوم بن عياض. وكان واليًا بارعا في الفصاحة والخطابة وكاتبا بليغا حافظا لأيام العرب، كما قيل.



محمد المكي بن الحسين

[1882 – 1962م]

ولد في مدينة نفطة بالجنوب التونسي سنة 1882 وانتقلت أسرته إلى مدينة تونس في عام ولادته، والتحق للدّراسة بجامع الزّيتونة وحفظ القرآن الكريم وأحرز على شهادة التطويع. وفي عام 1220هـ/1912م هاجر مع أسرته إلى دمشق حيث باشر التعليم بمدارسها، والتقى بأعلام دمشق أمثال خير الدين الزركلي وسليم الجندي والشيخ عبد القادر المنزي ومحمد كرد علي. وفي عام 1228هـ/1920م رجع إلى تونس وتفرّغ للمطالعة والبحث. وكان شَغُوفا بالأبحاث الفنية الدقيقة في اللّغة وعادات العرب في الجاهلية، وقد نشر بعض هذه البحوث في الصّحف والمجلات، كما درس قاموس الفيروزبادي دراسة متأنّية دقيقة، واستخرج منه ما يوافق اتّجاهه في البحث عن العادات عند عرب الجاهلية وأدواتهم.

كان ذكيّا، سريع البديهة، يتحدث الفصحى وفي حديثه مرح وابتهاج، وكان يعيش عيشة الكَفاف بعيدا عن السّلطة وأصحابها، وقد طلب منه مرات أن يتسلّم منصبا علميا إلا أنّه كان يرفض ذلك المنصب خوفا من أن يبعده عن البحث العلمي.

أوّل صلة له في النشر والشعر قصيدته "مفاخر النفس" التي نشرها في جريدة «إظهار الحق»، عدد 8 بتاريخ 21 جانفي 1906 ومعظم بحوثه وقصائده منشورة في الصحف (الزهرة - الأسبوع - العالم الأدبي - المشير).

أما ميدانه الأوسع والأرحب فقد كان على

صفحات مجلة "الهداية الإسلامية" التي كان يرأس تحريرها شقيقه الإمام محمد الخضر حسين، ويكاد لا يخلو عدد من أعداد المجلة من مقال أو قصيدة. وقد اشتهرت "لغوياته" وتناقلتها الصحف والمجلات الأدبية.

توفي بمدينة تونس ودفن بها يوم 20 شعبان 1282هـ / 26 جانفي 1962م.

مؤلفاته المطبوعة:

- **عادات عربية.**
- **نوادر في اللّغة.**
- **نوادر في الأدب.**
- **أسماء لغوية.**
- **أمثال عربية.**
- **حكم وأخلاق عربية.**
- **كلمات للاستعمال.**
- **لغويات "المستدرك".**

له ترجمة في كتاب "الأدب التونسي في القرن الرابع عشر" لمؤلفه زين العابدين السنوسي طبعة عام 1928م، وفي "تراجم المؤلّفين التّونسيين" لمؤلّفه محمد محفوظ طبعة عام 1984، وفي كتاب "محمد المكي بن حسين حياته وشعره" لمؤلفه علي الرضا الحسيني.

أحمد بن حميدة

[1870 – 1953م]

ولد القاضي أحمد بن إبراهيم بن حميدة في بلدة قصور السّاف يوم 17 ديسمبر 1870. كان والده الشّيخ إبراهيم من العلماء الفقهاء، وكان قاضيا في المهديّة وإماما خطيبا بجامعها.

دخل أحمد بن حميدة سلك القضاء سنة 1896 عند تأسيس المحاكم العدليّة وباشر القضاء بسوسة برئاسة القاضي الشّهير صالح عبّاس. ثمّ انتخب لنيابة رئيس المحكمة الابتدائيّة بتونس التي كان يرأسها القاضي الشّهير حمّودة تاج. ولمّا أسّست دائرة قضائيّة بتونس عام 1921 لتحقيق التّهم بعد عبور القضايا من حكّام التّحقيق، انتخب في جوان 1922 رئيسا لها فتولّى تدشينها وتأسيسها والإشراف عليها مدّة واستمرّ بها حتّى أحيل على المعاش سنة 1936.

ومن مآثره أنّه كان صلبا في الحقّ معتدّا بنفسه وبخطّته يدافع عن المتقاضين ويحمي شؤونهم ويمنع تداخل المتداخلين في سير القضاء.

ومع كلّ ذلك كان وطنيّا محبّا لوطنه وفيّا له عاملا على الذّود عنه. تداخل مرّة لديه مدير الأمور العدليّة الفرنسي طالبا سراح أحد المتّهمين الموقوف في جريمة قضيّتها منشورة لدى المحكمة التي يرأسها فأبى الامتثال وكاتبه موضّحا خطر الفعلة. فامتثل المدير ولمّا انتهى البحث اتّضح أنّه كان على صواب.

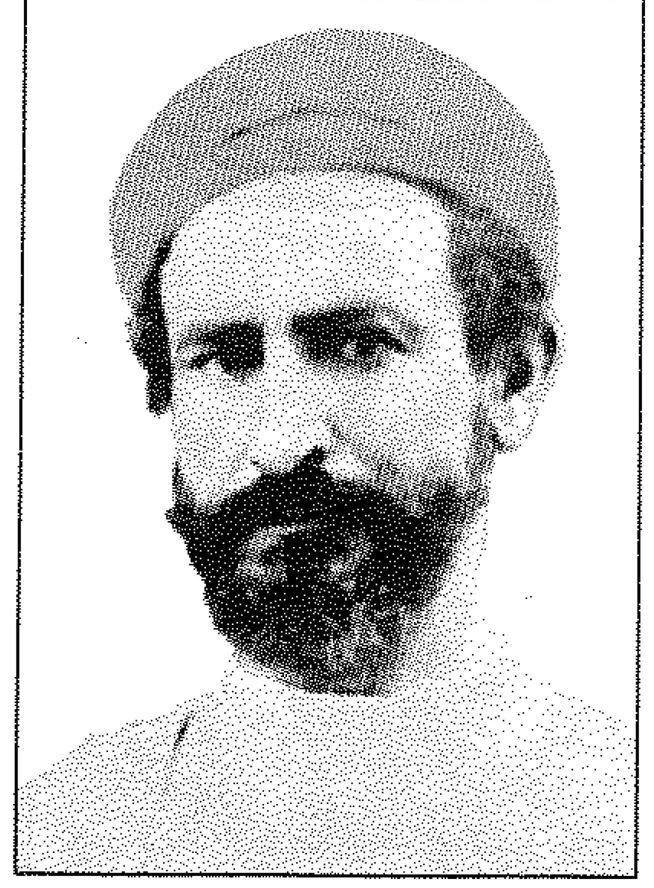
وفي حوادث 5 أفريل سنة 1922 وتهديد النّاصر باي بالتنازل عن العرش توقّف رئيس المحكمة ابن حميدة عن العمل القضائي داعيا بقيّة القضاة إلى هذه المقاومة السلبيّة وكتب إلى مدير المصالح العدليّة:

«إنّه لم يبق للقضاة أن يمارسوا الحكم طالما نزعت عنهم صفة الوكالة عن الملك وذلك بتنازله عن العرش».

وكان يعتني عناية فائقة بهندامه ولباسه فيشعّ نوره خاصّة وهو طويل القامة ذو وجه جميل. قال عنه القاضي المدني:

«كان يحرص على حسن الهندام والظّهور بمظهر الوقار والبعد عن المواطن التي قد تؤدّي إلى الشّبهات. يلبس لبوس الفاضل، مهيب الطلعة، واسع الاطّلاع، دؤوبا على البحث ومدارسة أحدث المصنّفات القانونيّة».

وتوفّي يوم الجمعة 13 نوفمبر سنة 1953.



سالم بن حميدة
[1882 – 1961م]

سالم بن محمّد بن حميدة من مواليد بلدة أكّودة إحدى ضواحي مدينة سوسة كبرى المدن الساحلية التونسية سنة 1882.

حفظ القرآن الكريم بمسقط رأسه ثمّ انتقل إلى العاصمة والتحق بالمدرسة العصفورية ثمّ انخرط في سلك طلبة جامع الزيتونة، وكان يتابع بالتوازي دروس الجمعية الخلدونية وخاصة دروس البشير صفر في فلسفة التاريخ، ومنها رضع من لبان الفكر الإصلاحي الذي ناصره وآزره إلى آخر حياته.

عيّنته الجمعية الخيرية سنة 1904 معلّما بمدرستها فباشر هذه الوظيفة إلى سنة 1907 ثمّ انتقل إلى مدينة سوسة ليواصل رسالته التربوية بمدرسة سوسة القرآنية ومنها تولى نيابة جمعية الأوقاف بسوسة سنة 1910، واستمرّ على هذه الوظيفة إلى أن تقاعد.

عرف الشيخ سالم بن حميدة بوطنيته وبمناصرته لحركة الشباب التونسي التي أسّسها المناضل السياسي المحامي علي باش حانبه. سخّر شعره لخدمة القضية الوطنية بإدانة الاستعمار الفرنسي وبيان ما يتعرّض له الشعب التونسي من إذلال وعسف تحت نفوذ السلطة الاستعمارية.

نظم الأناشيد المدرسية التي تغنّى بها أطفال المدارس وتناولت أغراضا وطنية وتربويّة.

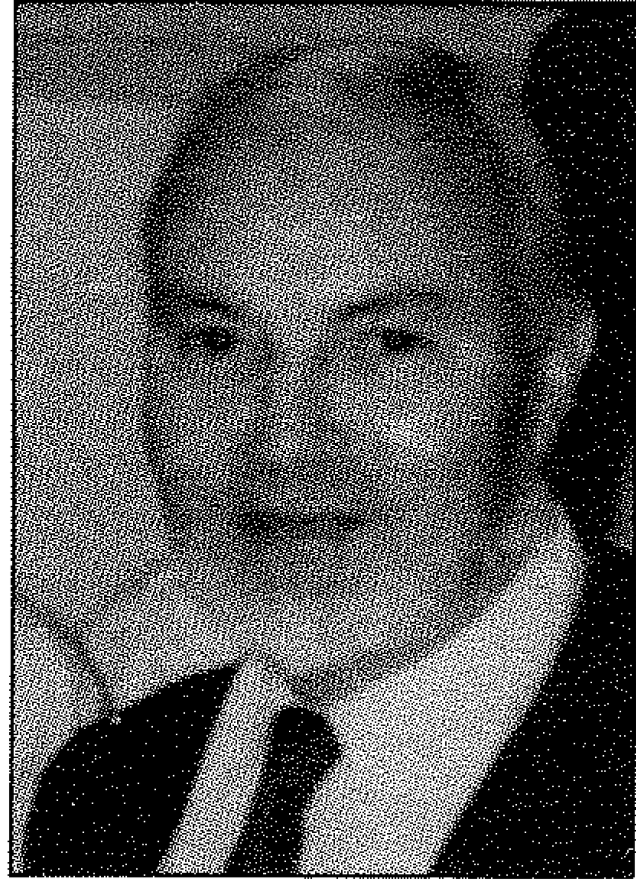
كان للشيخ سالم بن حميدة في الحرب الطرابلسية التي اندلعت سنة 1912 غداة الاحتلال الايطالي للتراب الليبي، دور بارز في حثّ التونسيين خاصة والعرب والمسلمين عامة على معاضدة إخوانهم اللّيبيين والإسراع إلى نجدتهم.

ترأس الشيخ سالم بن حميدة حفل تكريم الطاهر الحدّاد المنعقد بكازينو البلفدير في يوم الجمعة 17 أكتوبر سنة 1930 ذلك الذي أقامه أنصار الحدّاد بمناسبة صدور كتابه "امرأتنا في الشريعة والمجتمع"، ردّا على معارضيه من أعضاء النظارة العلمية بجامع الزيتونة ومن دار في فلكهم من الشيوخ التقليديين والصحافيين المتزمّتين.

يعكس شعر الشيخ سالم بن حميدة ومقالاته شخصية انطوائية شديدة الانفعال، تختزن شعورا حادّا بالألم، كما يتضمّن شعره رؤية وجودية وتأملاّت فلسفية جعلت أصدقاءه يلقبونه بـ "فيلسوف الساحل".

أصدر سنة 1928 ديوان "الزّهريات" في 288 صفحة حققه بتحقيقه محمد الحبيب عباس وأصدرته الشركة التونسية للتوزيع سنة 1976.

توفّي الشيخ سالم بن حميدة سنة 1961.



المنجي بن حميدة
[1928–2003م]

وُلد الدكتور المنجي بن حميدة في قليبية (الوطن القبلي) وبها تلقّى دراسته الابتدائية، ثمّ زاول دراسته الثانويّة بالمعهد الصّادقي والعليا في الطبّ بفرنسا، فتخرجّ في مستشفيات باريس

1955–1965، وتُوّجت رسالة الدكتوراه التي ناقشها في سنة 1965 بجائزة.
وبعد عودته إلى الوطن، تولّى تدريس علم الأعصاب بكلّية الطبّ بتونس (1967)، فخامرته فكرة إنشاء معهد متخصّص في هذا العلم، خصوصا بعد سنة التربص (1968) التي قضّاها بمستشفى «إنشتاين» بنيويورك والتي مكّنته من التعرّف إلى النهضة الحديثة للعلوم العصبيّة.
ولمّا عُيّن عميدا لكليّة الطبّ بتونس (1970) تسنّى له أن يتابع بناء المعهد الذي عمل على تأسيسه ثمّ تولّى إدارته سنة 1973. ولئن كانت الأمراض الانحلاليّة الوراثية آنذاك عصيّة على الشّفاء في أوروبا، فقد كان الدكتور ابن حميدة سبّاقا إلى دراستها عن كثب، بل توصل إلى اكتشافات في مجال نوع من التقلّص العضليّ المنعوت بـ«التونسيّ»، وذلك بفضل البحوث التي أجراها على المرضى وأفراد أسرهم المصابين وتثبّته في شجرة نسبهم. وكان لهذه الاكتشافات صدى واسع، إذ حظيت باعتراف دوليّ، خصوصا بعد الثورة الجينيّة في أواخر الثمانينات. وسرعان ما أقام فريق الدكتور بن حميدة علاقات مع فرق طبيّة ذات شهرة عالميّة، فاستطاعت بفضل تعاونها الوثيق، تحديد مواقع الجينات في حوالي 12 حالة من الإصابات العصبيّة، وأكسب بذلك تونس البورقيبية شهرة واسعة.
ولقد تولّى الدكتور المنجي بن حميدة رئاسة عدّة جمعيّات تونسيّة وعربيّة وإفريقيّة ودوليّة في مجال الأعصاب، كما عُيّن وزيرا للصحة العموميّة 1977–1978 ورئيسا للجنة الوطنية للبحث العلمي من سنة 1992 إلى وفاته في 3 ماي 2003.

ابن خلدون

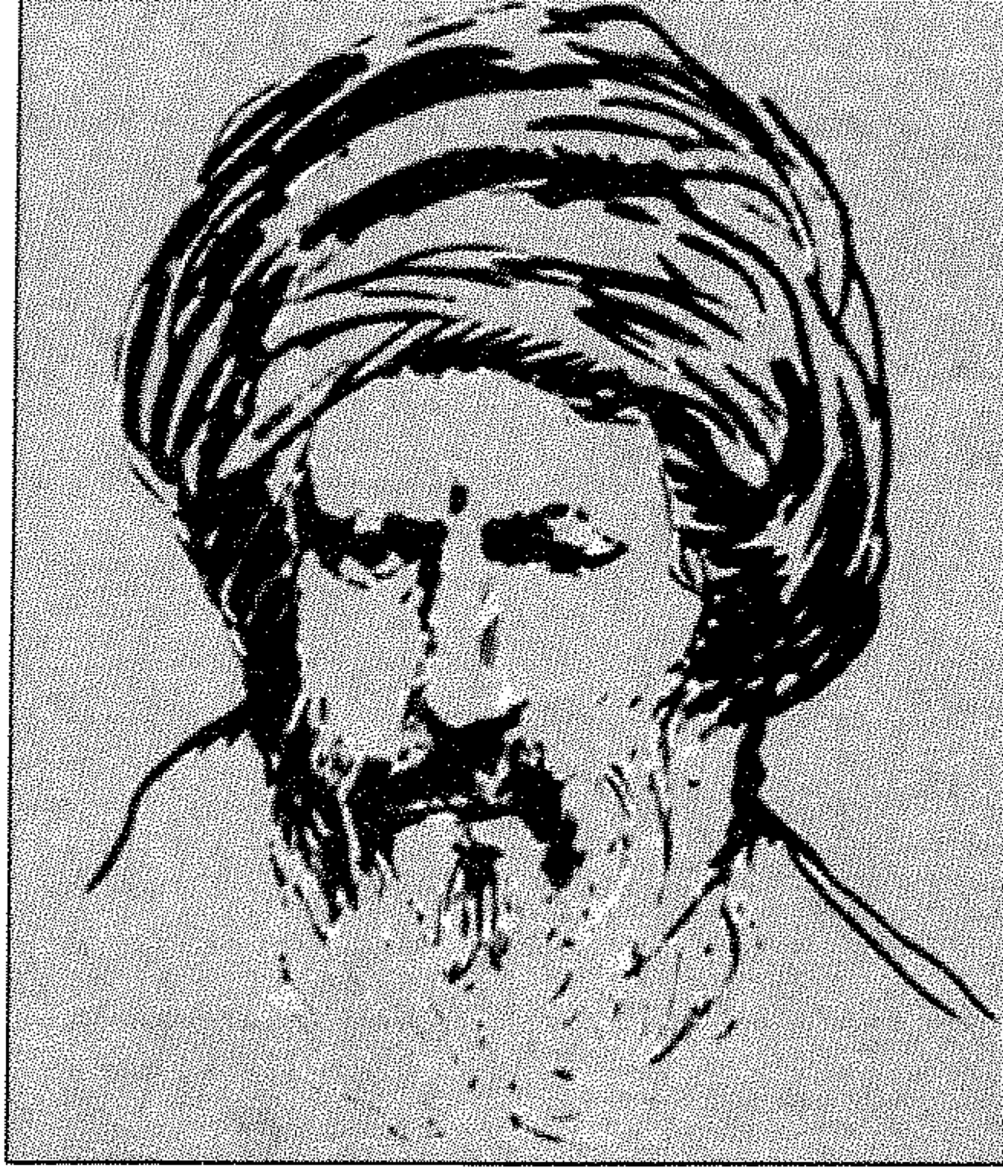
[732–808هـ/1332 – 1406م]

هو وليّ الدين عبد الرحمان بن محمد بن أبي بكر محمد بن الحسن من أهمّ رجالات الثقافة العربية الإسلامية في القرن الثامن الهجري. كان مؤرخا وعالم اجتماع وفيلسوفا. انعطف الباحثون على حياته وآثاره بالنّظر والتأمّل وتأوّلوها تأويلات شتّى، وربّما متباينة.
ولد بحاضرة تونس في الأوّل من رمضان سنة 732هـ/ 27 ماي 1332م في أسرة عربيّة نسبُها من عرب اليمن إلى وائل بن حجر استقرّت منذ بداية الفتح الإسلامي بإشبيلية ونهضت بأدوار سيّاسية مهمّة ثمّ غادرت هذه المدينة إلى سبتة قبل دخول الإسبان إلى الأندلس، ومن سبتة انتقلت إلى تونس في عهد السّلطان الحفصيّ أبي زكرياء (625ـ 647 هـ / 1228 ـ 1249م).
وكان والد جدّ ابن خلدون قد ولّي على الحجابة ولما انتصر الدّعي ابن عمارة اعتقله ثمّ قتله خنقا في محبسه كما جاء في التعريف.
وتولّى بعده ابنه محمد عدّة خطط بمدينتي بجاية وتونس وتوفيّ سنة (711–717هـ/1317–1334م) وآثر ابنه محمد – وهو والد عبد الرّحمان بن خلدون – أن يبقى بعيدا عن السياسة، مقبلا على الأدب يتعاطاه وقد كان له بصر بالشّعر وفنونه. قال ابن خلدون متحدّثا عنه «عهدي بأهل الأدب يتحاكمون إليه فيه، ويعرضون حكمهم عليه».
في هذه الأجواء الأدبيّة نشأ ابن خلدون وترعرع، يختلف إلى حلقات الدرس متعلّما متفقّها.
وقد دفعت غزوة بني مرين (748–750هـ/1347–1349م) عددا من الفقهاء والأدباء إلى القدوم إلى تونس في حملة السلطان أبي الحسن. وكان من هؤلاء الآبلي الذي جاء يحمل علما كثيرا، كما جاء في «التعريف» فلازمه ابن

خلدون وأخذ عنه على وجه الخصوص العلوم العقليّة.
ولم يزل ابن خلدون منكبّا على التحصيل، متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته إلى أن انتشر في البلاد الطّاعون الجارف الذي ذهب «بالأعيان والصدّور وجميع المشيخة» وكان من ضحاياه أبواه.
وقد احتفظ العلاّمة من ذلك الطاعون بذكرى قاسية ألقت ظلالها القاتمة على فصول كثيرة من كتابيه «التعريف» و«المقدّمة». غادر ابن خلدون تونس وسافر إلى فاس التي كانت في ذلك الوقت من أهمّ عواصم المغرب الإسلاميّ، وقد بدا ابن خلدون، في تلك المرحلة من حياته، متعطّشا للعلم يريد الاستزادة منه.
في بلاط فاس: لم يبلغ ابن خلدون العشرين حين عهد إليه الحاجب القويّ ابن تافراكين في نهاية 751 هـ/1350م بخطّة العلامة لدى السّلطان وقد اعترف ابن خلدون بأنّه كان منطويا على مفارقة السّلطان لما أصابه من استيحاش لذهاب أشياخه وعطلته من طلب العلم. وقد أتاح له غزو إفريقيّة على يد أمير قسنطينة أبي يزيد (753هـ/1352م) فرصة الفرار من سيّده واللّجوء لبعض الوقت إلى أبّة ثمّ إلى تبسّة فقفصة قبل أن يبلغ بسكرة حيث قضى الشتاء لدى أصدقائه من بني مزنَى.
تبدأ، بعد هذا، المرحلة الثانية من حياة الرّجل، وهي مرحلة المغامرة والضّرب في الأرض والانتقال من مملكة إلى أخرى.
هذه المرحلة هي التي جعلت بعض الدّارسين يقسون في حكمهم على ابن خلدون ويتّهمونه بشتّى التّهم.
فعلى إثر وفاة السّلطان المريني أبي الحسن استقدم وريثه أبو عيّان العلاّمة إلى فاس واستكتبه وقربّه إليه ثمّ تخلّى عنه بعد أن أُنمي أنّه يسعى إلى تحرير أمير بجاية وإقراره على مملكته من جديد فقبض، على إثر هذه السّعاية، على ابن خلدون وحبس سنتين اثنتين (758–759هـ/1357–1358م) ولم يفرج عنه إلاّ بعد تولّي السلطان الجديد أبي سالم الحكم، فخلع على ابن خلدون وأعاده إلى ما كان عليه وعيّنه كاتب السرّ.
وقد تعاطى ابن خلدون الشعر ابتغاء دعم مكانته داخل البلاط ومدح أبا سالم بقصائد عدة حكم عليها بـ«التوسّط بين الإجادة والقصور» وقد أثبت في التعريف بعضا منها. والمتأمّل في هذه القصائد يلحظ اقتفاءها أثر القصيدة التقليديّة مقتبسة معانيها وطرائق تصريف القول فيها.
ولاّه أبو سالم في آخر سنيّ حكمه خطّة المظالم فوّفاها حقّها، على حدّ عبارته، لكنّ الوزير ابن مرزوق تمكن بدهائه ومكره من التغلب على هوى السلطان والانفراد بمخالطته فسعى بابن خلدون «غيرة ومنافسة».
توالت الاضطرابات وثار الوزير عمر ابن عبد اللّه فأيّده النّاس ونبذوا السلطان وبيعته «وكان في ذلك هلاكه». أقرّ الوزير عمر ابن خلدون على ما كان عليه ووفّر إقطاعه وزاد في جرايته.
في بلاط غرناطة: استأذن ابن خلدون الوزير ابن عمر في السفر، فأذن له بعد تردّد فقصد العلاّمة غرناطة وسلطانها آنذاك أبو عبد اللّه من بني الأحمر وكانت له معه «سابقة وصلة» فاهتزّ لقدومه وهيّأ له المنزل في قصوره «بفرشه وماعونه»، وفي نهاية سنة765 هـ/1364م رحل ابن خلدون إلى قشتاله لعقد الصّلح بين ملكها وملوك العدوة فوجد عند الملك القشتالي «من الكرامة بما لا مزيد عليه» بل طلب منه الملك المقام عنده ووعده بردّ تراث أسلافه بإشبيليّة لكنّ ابن خلدون آثر العودة إلى غرناطة فأهداه الملك القشتالي بغلة فارهة بمركب ثقيل ولجام ذهبيّين فأهداهما إلى السّلطان الذي أقطعه أرضا بمرج غرناطة.
حين استقرّ ابن خلدون و«اطمأنّت الدّار» استقدم أهله من قسنطينة وقد هيّأ لهم، حسب عبارته، المنزل والبستان، وسائر ضرورات المعاش

بيد أنّ ملابسة العلاّمة للسّلطان لم تدم طويلا إذ سرعان ما تنّكر ابن الخطيب لابن خلدون وأظهر له الانقباض بعد الانبساط فما كان من ابن خلدون إلاّ أن استأذن السّلطان في الارتحال إلى بجاية، بعد تلقّيه دعوة من سلطانها وأخفي عليه شأن ابن الخطيب «إبقاء لمودّته» فأذن له.

في بلاط بجاية: عرض السلطان أبو عبد اللّه على ابن خلدون خطّة الحجابة وعلى أخيه الأصغر يحيي الوزارة.



ابن خلدون كما رسمه جبران خليل جبران

فنهض الرّجلان بالخطّتين مستندين إلى خبرة في تدبّر شؤون الحكم طويلة. وأصرّ العلاّمة على تدريس العلم بجامع القصبة، يختلف إلى حلقاته اختلاف عالم فقيه.

لم تنقض شهور معدودة حتّى هجم أمير قسنطينة على بجاية وألحق هزيمة نكراء بابن عمّه أبي عبد الله محمد.

أبى ابن خلدون أن يبايع أحد أبناء أبي عبد اللّه وخرج إلى السّلطان المنتصر أبي العبّاس وسلمّه المدينة. فما كان من هذا إلاّ أن أكرمه «وأجرى أحواله كلّها على معهودها».

لاحظ ابن خلدون، بعد مدّة قصيرة، أنّ السّعايات قد كثرت عند السّلطان فيه فآستعفاه، في الوقت المناسب، ولجأ أوّلا إلى العرب «الذواودة» ثمّ إلى أصدقائه بني مُزْنَي.

في ذلك الوقت عرض أبو حمّو، صاحب تلمسان على ابن خلدون خطّتي الحجابة والعلامة فاعتذر إليه العلاّمة وطلب منه أن يتّخذ أخاه يحيى «كالنّائب عنه في الوظيفة» مؤكدا أنّه أصبح يتفادى الخوض في أهوال السياسة. فالرّجل، كما جاء في التعريف قد نزع عنه غواية الرّتب، وطال عليه إغفال العلم، لهذا أعرض عن الخوض في أحوال الملوك مقتصرا على المطالعة والتدريس.

حاول ابن خلدون أن يحيا حياة الأدباء بعيدا عن دسائس القصور يتبادل الرسائل مع صديقه ابن الخطيب مرصّعة بزهور البديع، غير أنّ السّياسة ظلّت، رغم ذلك، تجتذبه وتغريه. فعاد من جديد يحرّض ملكا على آخر، وربّما تحوّل إلى «ضابط تجنيد» لدى السّلطان المريني أبي فارس وتعدّدت تنقّلاته محاولا أن يجعل من القبائل المشتّتة قوّة قادرة على توجيه الأحداث. لكنّ الواقع ظلّ كلّ مرّة يبدّد أوهامه وأحلامه.

حاول ابن خلدون الخروج من دائرة سحر السياسة فلجأ إلى رباط أبي مدين وكتب في التعريف أنّه كان «مؤثرا للتخلي والانقطاع للعلم لو تُرك له». لكنّ الرّجل سرعان ما انتقل إلى فاس (774هـ/1372م) ليحيا، في البداية، حياة مطمئنة ينعم في أثنائها برعاية مخصوصة من ذوي السّلطان، لكن بعد مدّة وجيزة قبض عليه ثمّ أطلق سراحه وسمح له بالذهاب إلى إسبانيا الإسلاميّة في ربيع (776هـ/1375م) «قصد القرار.. والعكوف على قراءة العلم» غير أنّ أمله قد خاب مرّة أخرى فالرّجل بات مسترابا في كلّ مكان، يلاحقه تاريخه الثقيل، يتحاشاه أصحاب السّلطة وربّما أكتفوا بـ«تأجير خدماته».

في قلعة بني سلامة: عاد ابن خلدون إلى المغرب بعد أن أنذر بمغادرة غرناطة. فاستقر مع أسرته بتلمسان (أوّل شوال 776هـ/5 مارس 1375م). في هذه الأثناء قتل ابن الخطيب بمحبسه وكان قد استصرخ بابن خلدون متوسّلا، فخاطب في شأنه أهل الدّولة فلم تنجح

تلك السّعاية.

نزل ابن خلدون وأهله بقلعة بني سلامة (وتسمّى قلعة تاوغزوت، وهي تقع في مقاطعة وهران من بلاد الجزائر) فأقام بها أربعة أعوام «متخلّيا عن الشواغل كلّها»، عاكفا على تأليف كتابه «العبر» وقد أكمل، في هذه الفترة، مقدّمته وقد «سالت فيها شآبيب الكلام والمعاني حتّى امتخضت زبدتها، وتألّفت نتائجها».

العودة إلى تونس: ذكر ابن خلدون أنّه تشوّف - وهو يحرّر المقدّمة - إلى مطالعة الكتب والدواوين التي لا توجد إلاّ في الأمصار «من أجل التنقيح والتصحيح» فقرّر العودة إلى تونس «حيث قرار آبائه ومساكنهم وآثارهم وقبورهم» فراسل السلطان أبا العبّاس يستأذنه في الحلول بتونس، وكان بينهما جفاء ومنافرة، فأذن له في ذلك.

عاد ابن خلدون إلى تونس وألقى عصا التسيار بمسقط رأسه في شعبان 780 / نوفمبر-ديسمبر 1378 وآوى، حسب عبارته، إلى ظلّ ظليل من عناية السلطان وحرمته فاستدعى أهله والولد، وجمع شملهم بعد طول افتراق.

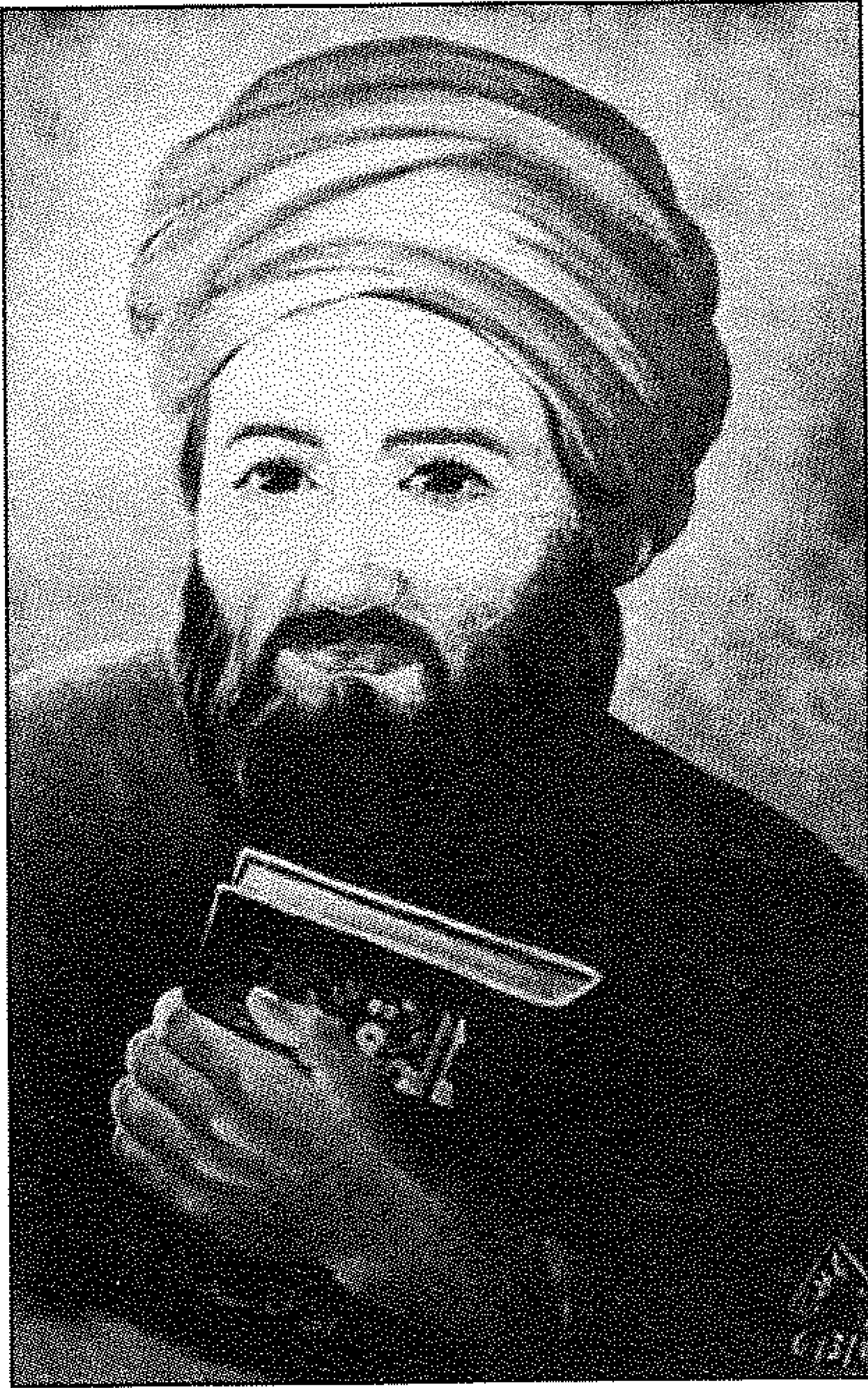
تصدّى ابن خلدون للتدريس فآنهال عليه، كما جاء في التّعريف، طلبة العلم يطلبون الإفادة والاشتغال، وأتمّ، في هذه الأثناء تحريرا أوّل لكتابه «العبر» أهدى نسخته الأولى إلى أبي العبّاس مشفوعة بمدحة طويلة أملتها الظروف. لكن حظوة ابن خلدون لدى السلطان، وتدفّق الطلبة على حلقاته، جرّا عليه دسائس ابن عرفة وسعاياته. فاختار ابن خلدون أن يغادر بلاد المغرب العربي متعلّلا بالحجّ وصادف أن كانت «بالمرسى سفينة لتجار الإسكندرية قد شحنها التجار بأمتعتهم وعروضهم» فتوسّل إلى السلطان في تخلية سبيله لقضاء الفريضة، فسمح له بذلك فركب البحر في 15 شعبان 784/ 24 أكتوبر 1382.

في القاهرة: انبهر ابن خلدون بمدينة القاهرة التي كانت في نظره «حضرة الدّنيا وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذرّ من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسيّ الملك».

جلس العلاّمة للتّدريس بالجامع الأزهر ثمّ بالمدرسة القمحيّة فتدفّق عليه طلاّب العلم يلتمسون الإفادة.

وحين عزل القاضي المالكي اختصّه السلطان برقوق بهذه الولاية تأهيلا لمكانه وتنويها بذكره وذلك في جمادى الثانية 786هـ / جويلية أوت 1384م.

بعث ابن خلدون يستقدم أهله من تونس إثر تدخّل السّلطان لكنّهم غرقوا في عرض الإسكندريّة بعد أن أصاب سفينتهم عاصف من ريح «فعظم المصاب والجزع ورجح الزّهد» في



...وكما رسمه ماهر الطرابلسي

الوقت ذاته تعدّدت الدّسائس ضدّه ففقد خطّة القضاء في جمادى الأوّل 787 هـ/جوان - جويليّة 1385 وفي سنة 789 هـ/1387م عيّن بالمدرسة الظاهريّة ثمّ عهد إليه، بعد رجوعه من الحجّ، بتدريس الحديث في مدرسة صرغمتس، وقد أثبت ابن خلدون درسه الافتتاحي في التعريف

وقد خصّصه لموطّأ مالك: وعيّن، في المدّة نفسها، على رأس خانقاه بيبرس. وبعد أربع عشرة سنة قضاها في التدريس ولّي القضاء من جديد وذلك في 15 رمضان 801 /21 ماي 1399 وعزل مرّة أخرى في محرّم 803/ أوت–سبتمبر 1400 وبعد بضعة أشهر في ربيع الثاني 803 / نوفمبر –ديسمبر 1400 أكره على اصطحاب الناصر الذّاهب إلى نجدة دمشق التي كان يهدّدها تيمور لنك بعد أن استولى على حلب.

وقد اضطلع ابن خلدون الذيْ بقي في المدينة المحاصرة بعد أن تخلّى عنها الناصر دورا ما في استسلام المدينة بأمان خادع. وقد احتفظ لنا برواية مفصّلة لمقابلاته مع القائد المغولي. وربّما اعتبره العلاّمة رجل القرن المتسلّح بعصبيّة قويّة تمكنّه من توحيد العالم الإسلاميّ ومن ثمّة توجيه التاريخ وجهة جديدة.

عاد ابن خلدون إلى القاهرة بعد أن شهد فظائع المغول في دمشق، فتم استقباله استقبالا حسنا في البلاط. ووليّ القضاء مرّات عدة كان آخرها في شعبان 850/ جانفي –فيفري 1406 قبل أسابيع من وفاته في 26 رمضان 850هـ/ 17 مارس1406م.

والجدير بالملاحظة أنّ ابن خلدون ظلّ، في أثناء إقامته بالقاهرة، على صلة وثقى بالمغرب الإسلامي: فقد حافظ على زيّه المغربي وهو برنس داكن اللّون، وحاول أن يشج علائق قويّة بين سلاطين مصر وسلاطين المغرب. ولم ينفكّ عن مراسلة أصدقائه المغاربة وقد احتفظ لنا بمقاطع طويلة نثرا وشعرا من الرّسائل التي وجهها إليه الشاعر الغرناطي الشهير ابن زُمرك.

بدا تصرّف ابن خلدون في نظر الباحثين تصرّفا طائشا، نفعيّا متغيّرا باستمرار. هل كان الرّجل متقلّبا؟ أم هل كان يعوزه «الحسّ الوطني»؟

لقد كان ينبغي، للحكم على هذا الرّجل أو له، أن يوجد وطن، يعلن انتماءه إليه، بيْد أنّ هذا الوطن، في ذلك العهد، كان مفقودا. بل إنّ المفهوم نفسه لم يكن له وجود، إذ لم يتسلّل مفهوم الوطن إلى الفكر الإسلامي إلاّ في العهود الحديثة بتأثير مباشر من أوربا. لهذا لم يكن يتصوّر الخيانة إلاّ في سياق ديني وهي الردّة. ولم يكن يتصوّر الوفاء إلاّ في إطار العلائق التي تربط بين رجل وآخر. لهذا وجب أن نحكم على الرّجل وفق مقاييس عصره، لا وفق مقاييسنا الحديثة.

لا شكّ في أنّ ابن خلدون كان طموحا، متعلّقا بالسّلطة، مفتونا بالمغامرة، وربّما كان منعدم العواطف في ميدان السياسة لكنّ ذلك لا ينفي عنه وضوح الرؤية ونفاذ البصيرة.

إنّ المتأمّل في أعمال ابن خلدون يلحظُ أنّه لم يتمكّن من تصوّر مشروع لإحياء الحضارة العربيّة الإسلاميّة وهي في حال احتضار. وربّما كانت مغامراته محاولات يائسة للظّفر بعصبيّة قويّة تنقذ مركب الأمّة الإسلاميّة من الغرق. ثمّة إشارات وتلويحات في كتبه تدعم هذه الافتراضات، لكنّها تظلّ غائمة ملتبسة، ولا غرابة في ذلك بما أنّ الرّجل لا يسمح لقارئه بهتك حجب حياته الخاصّة، والكشف عن نواياه العميقة وإنّما يسمح له بالتعرّف إلى «ملامحه» الشخصيّة فحسب.

آثار ابن خلدون: عرف ابن خلدون بكتابه: «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر، ومن عاشرهم من ذوي السّلطان الأكبر» ومن هذا الكتاب اشتهرت مقدّمته. لكنّ للرّجل آثارا أخرى لم تصلنا كلّها، فبتأثير من الآبلي حاول – وهو في العشرين من عمره – أن يلخّص كتاب الرّازي الموسوم بـ محصل أفكار المتقدّمين والمتأخّرين من العلماء والحكماء والمتكلّمين (القاهرة 1905)، وهذا العمل يختصر كلّ التراث الثقافي العربي الإسلامي في شأن موضوع العقيدة. أمّا مختصره الموسوم بـ لباب المحصل في أصول الدّين (ص – تطوان – 1952 مخطوطا بخطّ المؤلف مؤرخ في 29 صفر 752/ 27 أفريل 1351 الأسكوريال رقم 1614) فهو

يكشف عن توجّه في الفكر مخصوص لن يفارق ابن خلدون فيما بعد.

من جهة أخرى أشار ابن خلدون في فصول عدة من «التعريف» تصدّيه للتدريس في فاس وغرناطة، وفي أثناء هذه الفترة، أي بين752 هـ/1351م ـ 765هـ/ 1364م – وهو التاريخ الذي أتمّ فيه ابن الخطيب تأليف كتابه «الإحاطة».

ألّف ابن خلدون خمسة تصانيف هي:

– شرح متن البردة للبوصيري
– ملخّص في المنطق
– مقالة في علم الحساب
– ملخّصات عدّ لآثار ابن رشد، ولا نعرف على وجه الدقّة عناوينها
– شرح على قصيدة لآبن الخطيب في أصول الفقه.

وجميع هذه الآثار مفقودة، ويبدو أنّها لم تلفت انتباه معاصريه، فطواها النّسيان بسرعة بل إنّ ابن خلدون نفسه لم يشر إليها في التعريف، كما أنّ المترجمين له من المصريّين لم يذكروها.

إنّ هذه الأعمال كانت ذات منزع فلسفيّ تقليديّ بما في ذلك مقالته في علم الحساب، وذلك للعلاقة الوطيدة بين علم العدد والفقه كما له أثار أخرى في التصوّف.

على أنّ عبقريّة الرّجل ستتجلّى، بقوّة، في قلعة بني سلامة حيث ستتفاعل العلوم التقليديّة التي تلقّاها الرّجل مع تجاربه السياسيّة التي جعلته يعي معنى التاريخ وعبره العميقة. ففي سكون هذه القلعة الجليل سيعمد ابن خلدون إلى فكّ رموز المغامرة الإنسانيّة الأخاذة المثيرة للحيرة. هكذا سيتحوّل ابن خلدون من فقيه متمسّك بأهداب الفكر الدّيني التقليدي إلى مؤرخ عبقريّ، وربّما إلى مؤسّس بعض العلوم التي ستكشف الأيّام أنّها من بين أكثر العلوم العصريّة غنى وعمقا. وقد حُرّرت الفصول الأولى من المقدّمة التي تكشف عن مبادئه الفكريّة، وأقسام من التّاريخ من سنة 776 هـ/ 1375 وسنة 780هـ/1379 في أثناء عزلته.

ولم ينقطع ابن خلدون، إلى نهاية حياته، عن تنقيح هذا الأثر الأساس وبالخصوص المقدّمة.

أمّا عملاه الآخران فهما: «التعريف» وهو ترجمة ذاتيّة انتهى من كتابتها في ذي القعدة 807 / ماي 1405 وشفاء السائل، وهو كتاب في التصوّف حرّره في آخر حياته. وتكمن قيمة هذين المصنّفين في تسليط الضّوء على شخصيّة ابن خلدون وفكره ويجدر بنا أن نشير في هذا الصّدد إلى أنّ نسبة كتاب شفاء السائل إلى ابن خلدون لم تحسم بعد.

ويمجّد المؤرّخ العثماني نعيمة (المتوفّى 1128هـ/1716م) ابن خلدون في مقدّمة كتابه ويقدّم تلخيصا لأفكاره. (قام بأوّل ترجمة تركية لقسم من المقدمة شيخ الإسلام بيري – زاده محمد في1143هـ/1749م. وأحدث الترجمات، وهي كاملة، قام بها زاكر كادري أغن (Zakir Kadiri)، في مجلدين، إستانبول، 1954)، إلاّ أنّ فضل اكتشاف ابن خلدون يعود إلى أوروبا، وبالتحديد إلى داربولور (D'herbelot) (المكتبة الشرقيّة 1697)، وسلفستر دوساسي Silvestre de Sacy (مختارات أدبيّة عربيّة 1806)، وفون هامر بورغستال (Von Hamer-Purgstal)، وخاصّة إلى كواترمارغ (quatremère) الذي أنجز، سنة 1858، الطبعة الأولى الكاملة للمقدّمة – وقد طبعت كذلك في السنة نفسها بالقاهرة على يد نصر الهوريني عن مخطوط آخر يتضمّن خاصّة الإهداء إلى السلطان أبي فارس (796-799هـ/ 1394-1397م) بفاس–ودوسلان (De Slane) الذي أنجز بعد بعض السنوات أوّل ترجمة لها إلى اللغة الفرنسيّة.

ومنذ ذلك التاريخ، لم تكفّ الطّبعات والدّراسات عن التكاثر، في الشرق والغرب، شاهدة على الاهتمام المتزايد بالفكر الخلدوني، وقد بلغ عددها هذه السنوات الأخيرة حدّا جعلها تحتاج إلى الضبط البيبليوغرافي الذي قام به هـ.بيرس (H. Perès) وو.ج فيشال (W.J. Feschel)

وتتميّز آخر الترجمات – وهي ترجمة فر.

روزنتال (F.Rosenthal) – باعتمادها مخطوط إستانبول (عاطف أفندي 1936)، وقد أثبتت فيه بخطّ ابن خلدون ملاحظة تشير إلى أنّ المؤلف «راجعه علميّا» ونشير أيضا إلى الترجمة البرتغالية التي قام بها خوري (Khoury) في ثلاثة مجلّدات (ساوباولو 1958-1960)، كما تجدر الإشارة إلى الترجمة الفرنسيّة التي قام بها ف .مونتاي. (V.Monteil) لكنّ كتاب العبر لم يثر الاهتمام نفسه، وقد نشر نوال ديفجي (Devergers Noël) مقاطع مقتطفة من العبر وترجمها بعنوان تاريخ إفريقيا تحت حكم الدولة الأغلبيّة وصقليّة تحت السيطرة الإسلاميّة، باريس 1841. ونشرت بعد سنوات قليلة، ترجمة أخرى جزئيّة قام بها دوسلان تحت عنوان تاريخ البربر والدّول الإسلاميّة، بإفريقيا الشّماليّة (في أربعة مجلّدات، الجزائر 1852–1856)، مشفوعة بنشرة للمقاطع المترجمة في جزأين، الجزائر 1863. ثمّ نشرة طبعة بولاق الكاملة (في 7 مجلدّات، 1868) ومن ذلك الحين، تتابعت الترجمات الجزئيّة، إلاّ أنّنا مازلنا ننتظر الطبعة النقديّة الحقيقيّة للمقدّمة والعبر. والطبعة الأخيرة، طبعة بيروت (1956–1959)، وهي طبعة تجاريّة إلاّ أنّها مزودة بفهارس مفيدة.

والنّقد الموجّه عامّة إلى كتاب العبر هو أنّه لم ينجز الوعود التي أشار إليها في المقدّمة. غير أنّ ابن خلدون لم يكن له أن ينجز غير ما أنجز، إذ لا وجود لمؤرّخ يمكن أن يقدم بمفرده على كتابة تاريخ العالم.

على أنّ الذي نريد أن نشير إليه هو أنّ ابن خلدون يبدُو أحيانا كثيرة في المقدّمة غير مطّلع على الكثير من معارف عصره. ومثال ذلك ما يتعلّق بالموحّدين وعقيدتهم ثمّ إنّ المعطيات التاريخيّة كثيرا ما تتناقض عبر كتابه، الأمر الذي يدفع بالقارئ إلى الاعتماد على كتب أخرى.

وإن كان «كتاب العبر» يبقى، بترتيبه الذّكي للأحداث، وعمق الرواية واتساعها أداة عمل لا نظير لها وخاصّة بالنسبة إلى القرنين القريبين من مؤلّفنا وهما الثالث عشر والرّابع عشر، فإن هذا الكتاب غالبا ما يخيّب آمال الدّارس عندما يتعلّق الأمر بتاريخ المشرق فقيمة الكتاب تنحصر في التأريخ للمغرب وبالأخصّ للبربر..



...وكما رسمه الأديب التونسي علي الدوعاجي

لكنّ أهمّ تصانيف ابن خلدون يظلّ المقدّمة، وقد كانت، في ذهن مؤلفها، كما يدلّ على ذلك العنوان، مدخلا إلى كتاب العبر. فهي عبارة عن موسوعة تضمّ المعارف المنهجيّة والثقافيّة الضروريّة للمؤرخ ليتمكّن من إنجاز عمل علميّ. والواقع أنّ شواغل ابن خلدون في المنطق كانت إبيستمولوجيّة بالأساس. هكذا سيتّجه ابن خلدون خطوة خطوة في أثناء تأمّله منهج التّاريخ ومادّته، وبكامل الوعي إلى ابتداع «علم مستنبط النّشأة»، يحتوي، في داخله، على منطلقات لمباحث أخرى تفضي إلى فلسفة التّاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلوم أخرى أيضا.

يستهلّ ابن خلدون مقدّمة المقدّمة بتعريف التّاريخ فيوسّع مجاله ليشمل مجمل الماضي الإنساني بما في ذلك المظاهر الاجتماعية والاقتصاديّة والثقافيّة ثمّ يستخلص فوائده. وفي مرحلة ثانية يستدرك على المؤرخين الذين جاؤوا قبله فيعدّد مغالطهم منها التشيّع للآراء والمذاهب، والتشيّع غطاء على عين البصيرة يحول دونها والانتقاد والتمحيص، ومنها الثقة بالنّاقلين، والذهول عن المقاصد ومنها تقرّب النّاس إلى أصحاب المراتب بالثناء والمدح

فتستفيض الأخبار على غير حقيقة، وقبل هذا كلّه «الجهل بأسباب العمران».

إنّ المنهجيّة التي يلتزم بها الرّواة للتحقّق من صحّة الأحاديث والتي تقوم على التعديل والتجريح لا تفي بحاجة المؤرخ. لهذا وجب الالتزام بمنهجيّة ثانية تقوم على ما يسميّه ابن خلدون «قانون المطابقة» ويشرح هذا القانون قائلا «وأمّا الإخبار عن الواقعات فلا بدّ في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة. ولذلك وجب أن ينظر في إمكان وقوعه. إذ فائدة الإنشاء مقتبسة منه فقط. وفائدة الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة، وإذا كان ذلك، فالقانون في تمييز الحقّ من الباطل في الأخبار، بالإمكان والاستحالة، أن ننظر في الاجتماع البشريّ الذي هو العمران، ونميّز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لا يعتدّ به، وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعلنا ذلك، كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحقّ من الباطل في الإخبار، والصدق من الكذب، بوجه برهاني لا مدخل للشكّ فيه. وحينئذ، فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران، علمنا ما نحكم بقبوله ممّا نحكم بتزييفه. وكان ذلك لنا معيارا صحيحا يتحرّى به المؤرخون طريق الصّدق والصّواب فيما ينقلونه. وهذا هو غرض الكتاب الأوّل من تأليفنا» أيّ بعبارة مختصرة ينبغي أن تكون الأخبار التي يعتمدها المؤرخ مطابقة لطبيعة الأمور ونواميس التاريخ وقوانين الطبيعة. من هنا وجب دراسة العمران البشريّ والاجتماع الإنساني وإبراز القوانين التي تتحكّم فيهما حتّى يمكن أن نكتب التاريخ. وقد قاده هذا إلى وضع أسس علم جديد هو علم العمران «وكأنّ هذا علم مستقل بنفسه: فإنّه ذو موضوع وهو العمران البشريّ والاجتماع الإنساني، وذو مسائل وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى. وهذا شأن كلّ علم من العلوم وضعيّا كان أو عقليّا..»

وقد تبسّط ابن خلدون في مواضع كثيرة من المقدّمة في توضيح هذا العلم الجديد الذي قاده إليه البحث. ثمّ تأتي بقيّة المقدّمة لتكون بمثابة «برهنة» على ما ذهب إليه وفق هندسة محكمة دقيقة.

قسّم هذه المقدّمة إلى كتب هي على التّوالي:

الكتاب الأوّل: في العمران البشري على الجملة. ويرسم فيه ابن خلدون ملامح دراسة الوسط وتأثيره في الطبع البشري، أثنولوجيا، وأنثروبولوجيا.

الكتاب الثاني: في العمران البدوي والأمم الوحشيّة والقبائل. ويدرس عامّة المجتمعات القريبة من البدائيّة

الكتاب الثالث: في الدّول والممالك والخلافة والمراتب السلطانيّة، ويدرس مختلف أصناف الحكم، والدّول، والمؤسّسات.

الكتاب الرّابع: في البلدان والأمصار وسائر العمران الحضري، أي الأشكال الأكثر تطوّرا وأشدّ تحضّرا.

الكتاب الخامس: في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، ويدرس الصنائع ومجموع الأحداث الاقتصاديّة.

الكتاب السّادس: في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، ويدرس العلوم والآداب، ومجموع الظواهر الثّقافيّة.

وجليّ من هذا التخطيط، اهتمام ابن خلدون بجملة الظواهر الاجتماعيّة يريد فحصها والوقوف على تحوّلاتها.

على أنّ أهم ظاهرة استبدّت بفكر ابن خلدون ووجدانه هي ظاهرة تراجع الحضارات وانحطاطها. لهذا انعطف عليها بالنّظر والتأمّل، مستعرضا أعراض الأدوار التي تصيب الحضارات وتقضي عليها. ومن هنا تعدّدت الروابط تجمع بين موضوعات المقدّمة وتجارب ابن خلدون السّياسيّة. والواقع أنّ ابن خلدون كان يخامره إحساس قويّ بأنّه شاهد على نهاية عصر، وعلى أفول حضارة، لكأنّ المرء بات يشهد «خلقا جديدا، ونشأة مستأنفة وعالما محدثا فاحتاج

لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليفة والآفاق» وهذا العالم المحدث بدأ يبرز في العدوة الأخرى فيما أخذ العالم الذي ينتمي إليه في التحلّل والفناء. «وكأنّما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة، والله وارث السّماوات وما عليها» وقد رغب ابن خلدون بعد أن أيقن استحالة تجنّب الكارثة في فهم ما جرى، بتأمّل الأحداث. ومن هنا كانت ضرورة تفكيك التّاريخ.

وفي عمل التفكيك هذا كانت الأداة الرئيسة التي عوّل عليها هي الملاحظة. فابن خلدون المتمرّس بقوانين المنطق تجنّب، عن وعي منه، التفكير النّظري. لقد كان يقرّ بقيمة العقل لكن في إطار حدوده الطبيعيّة فحسب، وهي حدود البحث في الواقع وتأويله. وقد أرّقه سؤال المعرفة بل دفعه، في آخر الأمر، إلى رفض الفلسفة ليتوجّه إلى مذهب تجريبيّ مخصوص يستكشف به الواقع ويستخرج معناه. وهذا المذهب لا يستنكف من العود إلى الفلسفة يستمدّ منها أصناف التفسير العقليّ. وفي الجملة يمكن القول إنّ آبن خلدون لا يتنكّب عن تنظير الفلاسفة التقليدي الذي يفضي إلى طرق مسدودة إلاّ ليعوّضه بتنظير آخر أوفق في مساعيه، وأخصب في نتائجه، لأنّه تنظير موصول بالواقع، مرتبط به.

وهذا التنظير الإيجابي الجديد الذي يعرضه علينا في المقدّمة، يقوم على حركة جدليّة، لاحظها عدة باحثين (انظر على وجه الخصوص الكتب الحديثة التي كتبها إيف لاكوست yves Lacoste ون نصّار N. Naasar). فقد أدرك ابن خلدون أنّه لا يمكن النّفاذ إلى قلب الواقع ووصف الصّراعات والتوتّرات والانتكاسات المتتالية للدّول والحضارات بتأثير من تناقضاتها الدّاخليّة من غير الاستنجاد بقانون الجدل. ولا غرابة في ذلك ما دامت مفاهيم التناقض، والتضّاد والمقابلة وتكامل الأضداد واللبس والتعقيد والتداخل هي التي كانت متداولة في الفكر الإسلامي. ولهذا تذكر المفاهيم غالبا بوصفها مفاهيم إجرائيّة تسمح بالفهم والتفسير.

وقد تمكّن ابن خلدون بتجاوز التناقضات جدليّا، ومحاولة تفسيرها، من تصوّر ديناميكيّ للتطوّر. وينبغي، في هذا السياق، إدماج رسمه البياني الدّائري الشهير للتأويل التّاريخي، وهو، في حدّ ذاته، لا يقدّم أيّ طرافة خاصّة، ضمن هذه الرؤية العامّة حتّى يكتسب معناه الحقيقي.

إنّ ثراء الأفكار التي انطوت عليها المقدّمة دفعت عدة باحثين إلى «اكتشاف» بذور علوم لم تتبلور عمليّا بوصفها علوما مستقلّة إلاّ في العصور الحديثة.

وثمّة إجماع على أنّ ابن خلدون هو قبل كلّ شيء مؤرخ. يقول لاكوست «إذا كان توسديد Thycydide قد اخترع التاريخ فإنّ ابن خلدون قد سجّل التّاريخ بوصفه علما» كما أنّ هناك إجماعا على أنّه فيلسوف أشار بوضوح في مقدّمته إلى علم الاجتماع. فآبن خلدون كان يرى أنّ التطوّر التاريخي مرتبط بالبنى الاقتصاديّة والاجتماعيّة، فانكبّ على تحليلها مؤسّسا، في هذا التحليل، عددا من المفاهيم الإجرائيّة الجديدة لعلّ أكثرها لفتا للانتباه: مفهوما العصبيّة والعمران. فهذان المفهومان أنتجا عدة دراسات حديثة، يضيق المجال عن ذكرها (انظر محمد الطالبي: ابن خلدون ومعنى التاريخ في «دراسات إسلامية»)، كما اهتم ابن خلدون بتأثير نوع الحياة والإنتاج في المجموعات الإنسانيّة مؤكدا «اختلاف الأجيال في أحوالهم إنّما هو باختلاف نحلتهم من المعاش».

وكثيرا ما قرّب الدّارسون بين هذه الجملة وجملة أخرى لا تقلّ عنها شهرة لكارل ماركس وهي «أنّ طريقة الإنتاج للحياة الماديّة تحدّد عامّة التطوّر الاجتماعي والسياسي والفكري للحياة» بل إنّ من الباحثين من اعتبر ابن خلدون

رائدا «للماديّة الجدليّة». ولكن، وإن كنّا لا ننفي بعض علائق التماثل بين الفكرين الخلدوني والماركسي فإنّنا لا نقرّ بـ«ماديّة» الفكر الخلدوني. فالعلاّمة لم يكن يتأوّل التاريخ تأويلا اجتماعيا واقتصاديا فحسب وإنّما كان يفزع إلى تأويلات أخرى عدة منها التأويل النّفسي «فالمقدّمة لا تحتوي على علم اجتماع عامّ فحسب وإنّما تحتوي أيضا على علم اجتماعي متنوّع يمكن أن ينقسم إلى علم نفس سيّاسي، وعلم نفس اقتصادي، وعلم نفس أخلاقيّ، وعلم نفس عامّ».


نحت الزبير التركي

وتكوّن هذه العناصر، عناصر علم النّفس الاجتماعي وعلم الإجماع العامّ في تشابكها كلاّ معقّدا من الصعب أن نفصل بعضه عن بعض.

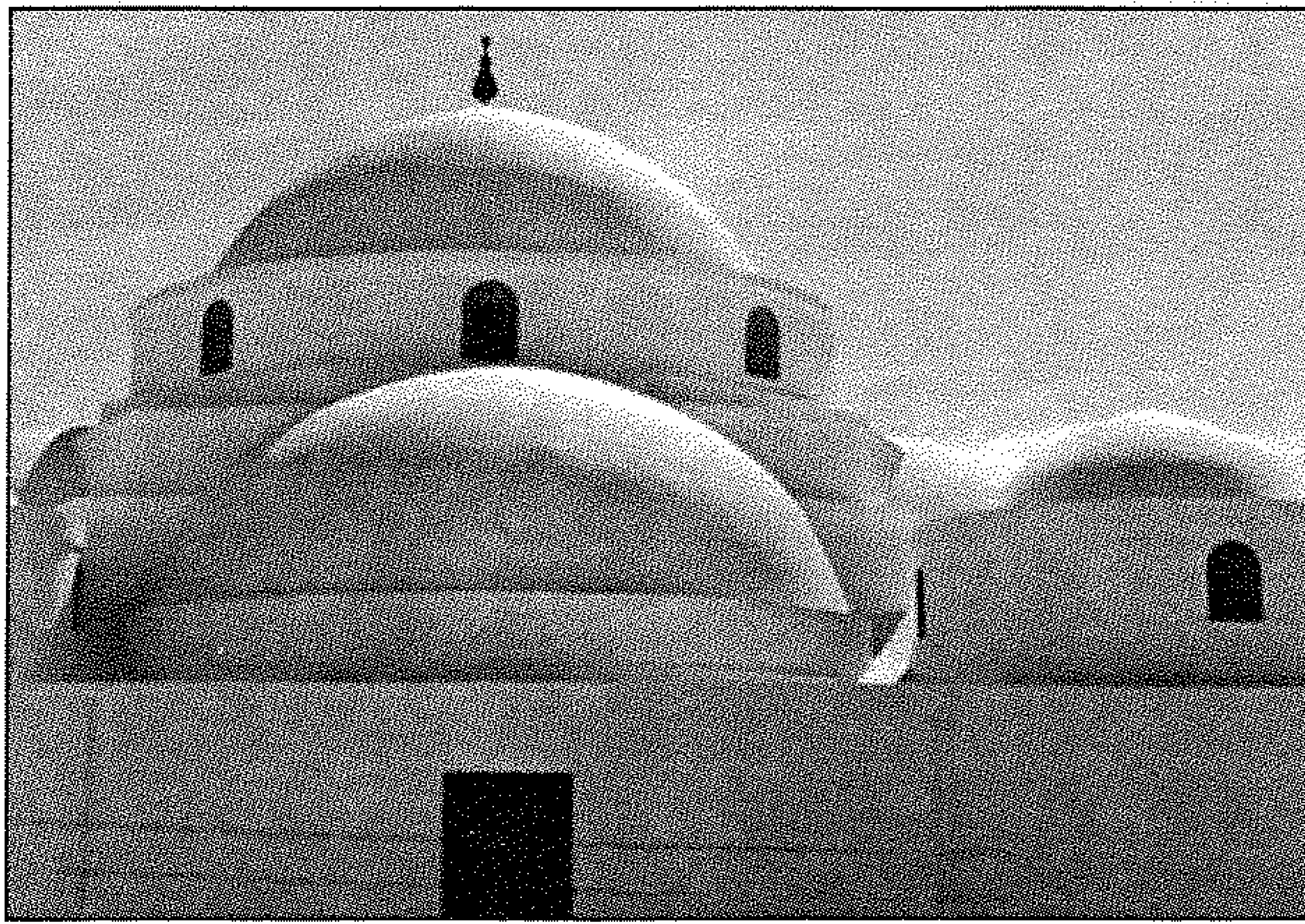
كلّ هذا جعل الباحثين يتّفقون على أنّ ابن خلدون يمثّل صورة العبقريّ البارز والمفكّر العبقري الشاذ وأنّ مقدّمته تعدّ «من أجلّ اللحظات في الفكر البشريّ» (بوتول Bouthoul).

لم يكن هذا العبقريّ مرتبطا بأيّ تيّار معيّن في الفكر العربيّ الإسلامي، لأنّه كان يجسّد، في واقع الأمر، خاتمة عدة تساؤلات محيّرة، وكان فكره تحوّلا جذريّا، لكن هذا الفكر ظلّ عديم التأثير تماما مثل مغامراته السياسيّة الفاشلة.

«ومثلما لم يكن له سابقون في اللّغة العربيّة، لم يكن له كذلك في هذا اللسان، إلى الفترة المعاصرة، منافسون ولا تابعون. وإذا لم يكن تأثيره المباشر منعدما، في مصر، في بعض كتّاب العصر الوسيط المنتهي، فإنّه يمكن التأكيد أنّ مقدّمته وتعليمه الشخصي لم يخلّف كلاهما، في مسقط رأسه بلاد البربر، آثارا دائمة. فمن أشدّ المآسي أثرا في النفس وأشجى صفحات تاريخ الثّقافة الإسلاميّة وأكثرها دلالة، هذا الانعدام المطلق للفهم والعداوة المكينة اللّذين تعرّض إليهما، في عالمه نفسه، هذا المفكّر العبقريّ الشاذّ» (ر. برونشفيغ، الحفصيون، الجزء 2، ص 391).

محرز بن خلف

[توفي سنة 413هـ/ 1022م]


صورة فتوغرافية لمقام سيدي محرز بالمدينة العتيقة (تونس)

أبو محفوظ محرز بن خلف يتصّل نسبه بأبي بكر الصدّيق وهو يشترك في جدّه للأم مع أبي عبد الله محمد بن أبي زيد القيرواني وأبي إسحاق الجبنياني، الأوّل فقيه مالكي وضع "الرّسالة" والثاني صوفي كان من أبرز أعلام الساحل في الفترة ذاتها التي وجد فيها محرز بن خلف. ولد ونشأ في أسرة عرفت بالزهد

والصلاح،وتلقى منذ صغره تعليما متينا جمع فيه علوم الدين كالفقه والتوحيد إلى علوم العربية وآدابها. وتذكر مناقبه أن تكوينه الأساس يعود إلى المؤدب أبي محمد يونس بن محمد وهو من أهل الزهد والورع والاجتهادات في العبادات وهو كما وصفه الوزير السرّاج "أستاذه في الطريقة الباطنيّة". كان كثير التردد على ابن أبي زيد القيرواني وعلى مدينة القيروان وكذلك كانت له صلات كثيرة بأبي الحسن القابسي الذي جمع بين الزهد وطلب العلم.

وعند سفره لأداء فريضة الحج تتلمذ في مصر لأبرز حملة العلم والمعرفة هناك، من أمثال أبي بكر محمد ابن علي الأدفوي (ت 388هـ/998م) وأبي إسحاق إبراهيم الدنيوي وأبي بكر محمد عبد الله الأبهري، وقد تكررت رحلاته إلى المشرق طلبا للعلم والمعرفة ورغبة في اللقاء بالزهاد والعلماء.

وفي البداية آثر أن يتفرغ للتدريس، وعلى الأخصّ تدريس القرآن وأساليب تجويده بضاحية أريانة، ثم آثر فيما بعد الاستقرار بقرطاج (المسماة آنذاك بمرسى الروم)، ليستأنف التدريس ولتتسع دائرة المعارف والعلوم التي تولى تدريسها مثل أصول الفقه والحديث النبوي. وذكر أحد مريديه أنه قرأ عليه "الموطأ" للإمام مالك بن أنس "والمدونة" للإمام سحنون و"الملخص" لأبي الحسن القابسي. وقد كان للإمام محرز بن خلف الدور الأساس في ظهور كتاب "الرسالة" لابن أبي زيد القيرواني وهو الكتاب الذي يعدّ من أبرز مصادر الفقه المالكي، إذ طلب محرز بن خلف من ابن أبي زيد أن يضع له هذا الكتاب الذي يجمع بين الاختصار والبيان، وذلك حتى يكون مرجعا أساسا في دراسة أحكام الفقه الاسلامي على المذهب المالكي.

وكان للإمام محرز بن خلف الفضل في إنشاء ربض باب سويقة إذ أذن له بأن يؤسس سويقة وبنى بها دارا وجامعا هو جامعه وزاويته اليوم.

وتروي مناقبه مدى عمق المحبّة التي يكنّها الناس له واعتقادهم في صلاحه وبركته، واستغاثتهم به عند ساعات الضيق والحاجة. وقد كان لكراماته الظاهرة الأثر الكبير في اعتقاد الناس فيه وتكثيف الزيارات له.

ويتردد صدى هذه المكانة في مصنفات المؤرخين والإخباريين وعلماء الدين: من ذلك أن المتكلم الأشعري القاضي أبا بكر الباقلاني قال "إنّه لو أدرك محرز بن خلف السلف لكان خامس الأربعة وقال أبو الحسن القابسي إن "عمد الدين الذين يمسك الله بهم الأرض أربعة ومحرز بن خلف منهم" .ونجد في الظهير الذي أرسله إليه المعز بن باديس الصنهاجي (ت442هـ/1051م) اعترافا بواسع علمه وكبير صلاحه. ويعتبر هذا الظهير لبنة مهمّة من لبنات الفكر التحرري والإصلاح الاجتماعي للشيخ محرز بن خلف، ذلك أنه يقضي بالسماح للنسوة بارتياد الأسواق والحمامات.ونجد المصادر اللاحقة تلقب الشيخ محرز بـ"سلطان الصالحين" في مقابل "سلطان الأولياء" وهو الشيخ عبد القادر الجيلاني (564هـ/1167م). ونجد اهتماما شديدا بابن خلف من لدن أبي الحسن الشاذلي وأصحابه الأربعين ومريديه إلى يوم الناس هذا، إذ يقيمون مجالس الذكر والإنشاد وتلاوة القرآن بمقام الشيخ محرز بن خلف، كما كان سيدي أحمد بن عروس (ت 868هـ/1463م) يكثر من زيارته وتولى مدّة طويلة في فترة شبابه خدمة مقام الشيخ محرز. ويبدو أن هذا الاهتمام بشخصية ابن خلف كان معروفا منذ حياته إذ كتب لباديس بن بلكين قائلا: "أنا رجل عرف كثيرا من الناس اسمي وهذا من البلاء...وربما أتاني المضطرّ يسأل الحاجة فإن رددتها خفت، وإن التزمت ذلك كثر عليّ". ونجد أقوالا وأفكارا مهمّة لابن خلف وضعها في تعريف الزهد والتصوف وما يتصل بهما من آداب ومواعظ، ذلك أنّه كان يقول ضاحكا، إذا ذكر بحضوره اسم الصوفية والتصوف، "الصوفي من

لبس الصوف على الصفاء ورمى الدنيا خلف القفا".

ومثلما كان محرز بن خلف وعلى حد عبارة المؤرخ محمد ابن الخوجة "عماد البلد وأهلها يسمونه سلطان المدينة وهو من رجال الدين والدنيا (إذ) جمع بين علوم الشريعة وعلوم الاجتماع البشري" فإنّه كان شاعرا مبدعا له قصائد في غاية الرقة. وكان ينظم الشعر بسهولة غريبة حتى إنه عندما ينحبس المطر يأخذ في تلاوة أنشودة نظمها في الغرض (المتقارب):

إلاهي بحرمة خير البـشر * وصديقه المرتضى وعمـر

وأصحابه الطاهرين الغرر * أغثـنا أغثنا بـصبّ المـطر

ويقف محرز بن خلف على أطلال قرطاج قائلا:

خليليّ مرّا بالمدينة واسمعا * مدينة قرطاجنّة ثمّ ودعا

فهو يذكر من بنى هذه المدينة وما توالى عليها من أحداث، وكيف أخنى عليها الزمن وكيف أصبحت عبرة للمعتبرين ويقول في هذا المضمار (الكامل):

انظر إلى الاطلال كيف تغيّرَتْ
من بعد ساكنها وكيف تنكَّرَتْ
سحب البلى أذياله برسومها
فتساقطت أحجارها وتكسَّرَتْ
تركوا ديارهـم خـلاء منهـم
من بعد ما كانت بهم قد عُمِّرَتْ

وقد امتدت سلطته الروحية والرمزيّة لتشمل عدّة أماكن ومرتفعات وخلوات في سائر أرجاء الحاضرة (تونس) ولتسمّى هذه الأماكن باسمه، وكانت هذه الخلوات تحظى بالاهتمام نفسه الموجه إلى ضريح الولي من قبل رجال الدولة والمحسنين. فقد كان البايات الحسينيون يتبرّكون في بعض المناسبات بزيارة خلوة سيدي محرز الكائنة بحي باب الجديد. إضافة إلى زيارتهم ضريح الشيخ. ومازال الناس يعتقدون في وجود بركته في أماكن أخرى منها تلك التي توجد بجامع الزيتونة، بأحد أعمدة بيت الصلاة منسوبة إلى سيدي محرز.

ويعتبر ضريح الشيخ محرز بن خلف المحور الأساس الذي يستقطب تقدير الناس له واعتقادهم في بركته. وقد اتفق المؤرخون على أن هذا الموضع كان في الأصل جزءا من دار سكناه خصّ بعد وفاته لدفنه ثمّ لدفن أولاده. أمّا زاويته فلم تظهر إلاّ في العهد الحفصي، غير أنّه لا يمكن أن ننفي الزيارات إلى ضريحه والوقوف على قبره قبل إنشاء هذه الزاوية، وهو ما تفيدنا به مناقبه.

فزاويته بنيت بأمر من الأمير أبي عمرو عثمان الحفصي (ق9هـ/15م)، الذي أمر أيضا بإنشاء ساقية وسماط لتوزيع الطعام على الزائرين والفقراء وعلى المريدين الذين يرتلون أذكارا صوفيّة وتلاوات للقرآن في الزاوية.

ومن مظاهر تقدير الأمراء الحفصيين لضريح سيدي محرز اتخاذهم الأراضي المحيطة به مدفنا لهم. ومن مظاهر اعتناء الأمراء بضريح الشيخ في العهد التركي العثماني وتبرّكهم بمجاورته إحداث جامع فريد من نوعه في تاريخ العمارة التونسيّة من قبل الباي محمد المرادي (1675-1696) في موضع قريب جدّا من ضريح الشيخ حتى اشتهر هذا الجامع الممتاز لا باسم مؤسّسه ولكن باسم الشيخ فيقول الناس "جامع سيدي محرز".

أما البايات الحسينيون فقد اعتنوا أيضا بزاوية سيدي محرز فقام البعض منهم كحسين باي بن علي مؤسس الدولة الحسينيّة بتحسينات وترميمات ذات أهميّة بالغة. ويتقدّم الشيخ محرز في المواكب الرسميّة للدولة الحسينيّة على سائر مشايخ الزوايا.

وإن ما زاد الامام محرز بن خلف مكانة في وجدان غير المسلمين من أهل الديانات

التوحيدية هو السماح لليهود آنذاك بالسكنى داخل سور المدينة الذي ابتناه بنفسه، كما يذكر صاحب "المؤنس" ابن أبي دينار، فأنشأوا حيّا سكنيّا صار في ما بعد يعرف باسم "حارة اليهود".

ابن الخوجة [أسرة]

أسرة ابن الخوجة (تنطق بلخوجة) جاءت من تركيا بعد أسرة بيرم بقليل ثم صارت أكبر منها في أواخر القرن التاسع عشر (انظر: شجرة نسب أسرة ابن الخوجة آخر هذا الفصل). وهي تضمّ فرعا لها اشتهر باسم ابن مراد. وعرفت عائلة ابن الخوجة بلقب «دار العلم» نظرا إلى عدد شيوخ الإسلام والمُفْتينَ المتخرجين من سلالتها وإلى تعلق العائلة بالتفكير النهضوي الديني المتفتح وانشغالها بالبحث عن سُبل اللجوء إلى العلوم الصحيحة كان مؤسسها قاضيا في الجيش العثماني. وفي فترة لاحقة، تمكن محمّد ابن الخوجة (توفي سنة 1862م) من أن يصبح شيخ الإسلام واضعا بذلك حدّا لاحتكار البيارمة لهذا المنصب الذي يعني، في الوقت نفسه، الباش مفتي الحنفي وشيخ الاسلام (ابن أبي الضياف: إتحاف، التّرجمة رقم 350). وقد أكد الباحث أرنولد .هـ ڤرين في دراسته "العلماء التونسيّون" أنّه في فترة (1873 - 1915م)، كانت هذه الأسرة مع فرع ابن مراد تضمّ ثلاثة عشر عالما منهم اثنان تولّيا خطّة شيخ الإسلام. وقد جرت العادة أنْ يكون إمام جامع محمد باي المرادي منهم وكذلك صار الأمر ابتداء من سنة 1875 بالنّسبة إلى جامع صاحبِ الطابع.

والواقع أن عددا قليلاً من الأسر كان يتعاطى النّشاط العلميّ، وحتّى عائلات ابن الخوجة وبيرم مثلا كانت تملك العقارات والضياع وتتمتّع بأموال الإيجارات والريوع كما كان يتّجه بعض أبنائها إلى الوظائف الإداريّة. ومن أعلام هذه الأسرة:

البشير بلخوجة (وهو والد المؤرخ محمد) من الشيوخ الذين ارتقوا إلى منزلة علميّة سَنيَّة ثمّ غادروها إلى قبل عام 1873م ليسخروا جهودهم في خدمة الحكومة. كان البشير مدرّسا من الطبقة الأولي ثم تخلى عن هذه الخطّة ليصبح "باش كاتب". وأمّا ابنه محمّد بلخوجة (توفي 1943م)، الذي كان مؤرّخا ومؤلّفا ذا شأن، فإنّه تلقّى تعلما فرنسيّا، ولم يعمل إلاّ في مجال الإدارة. أما أحمد الثاني بن محمد الثاني، فيعدّ، على الأرجح، أبرز من أنجبته الأسرة من الزعماء الدينيين.

الأمين بن أحمد الأوّل بن حمّودة بن محمد ابن الحاج علي الخوجة الحنفي: ولد في تونس وكان أبوه قاضيا ومفتيا وإمام جامع محمّد باي المرادي.

وبعد الدراسة بجامع الزيتونة أصبح مدرّسا حنفيا من الطبقة الأولى، وذلك قبيل سنة 1873م، ودرّس أيضا بالمدرسة الصادقيّة من 1875 إلى حوالي سنة 1883م.

وتولّى إمامة جامع القصر من 1880 إلى وفاته سنة 1891م. ويقال إنّه انتسب إلى الطريقة القادريّة.

حسين بن أحمد الثاني ابن الخوجة: ولد حوالي سنة 1856 بتونس فهو ابن من شغل منصب شيخ الإسلام.

وبعد التخرّج في جامع الزيتونة، عيّن مدرّسا بالمدرسة الصادقيّة سنة 1884، ثم مدرّسا حنفيّا من الطبقة الثانية بجامع الزيتونة، وارتقى إلى الطبقة الأولى سنة 1903م.

خلف عمّ أبيه الأمين في إمامة جامع القصر وذلك في 1891. وسمّي في 1912 عضوا بمجلس إدارة الصادقيّة وعيّن مفتيا حنفيا في 1915، وتوفيّ يوم 28 فيفري 1938.

علي بن أحمد الثاني ابن الخوجة: ولد سنة 1881 بتونس. تولى مشيخة الإسلام.

وبعد التخرّج في جامع الزيتونة، سمّي عدلا سنة 1905 ثمّ صار مدرّسا حنفيا من الطبقة الثانية في 1908 وارتقى إلى الطبقة الأولى بعد الحرب العالميّة الأولى، كما سمّى مدرّسا بالمدرسة الصادقيّة وقاضيا في المجلس المختلط العقاري ومفتيا. توفي سنة 1943.

علي بن محمود ابن الخوجة: وُلد حوالي سنة 1894 بتونس. فهو ابن من أصبح شيخ الإسلام.

وبعد أن أنهى دراسته بجامع الزيتونة وبالمدرسة الصادقيّة، خلف أباه في إمامة جامع صاحب الطابع سنة 1911 وأصبح عدلا سنة 1913، وبعد الحرب العالميّة الأولى صار مدرّسا بجامع الزيتونة ومفتيا حنفيا. توفي سنة 1982م.

محمد الأصغر بن أحمد الثاني ابن الخوجة: ولد سنة 1877 بتونس. فهو ابن الشيخ الذي شغل منصب شيخ الإسلام.

وبعد التخرّج في جامع الزيتونة، سمّي عدلا وفي 1901، عيّن مدرّسا حنفيّا من الطبقة الثانيّة بجامع الزيتونة، ثم ارتقى إلى الطبقة الأولى سنة 1911. وفي هذه السنة نفسها خلف أخاه محمّد الأكبر في إمامة جامع محمّد باي المرادي. توفيّ سنة 1911.

محمد الأكبر بن أحمد الثاني ابن الخوجة: ولد حوالي سنة 1851 بتونس. وكان أبوه قاضيا ومفتيا وشيخ إسلام وإماما لجامع محمد باي المرادي.

وبعد التخرّج في الزيتونة، سمّي مدرّسا حنفيّا من الطبقة الثانية وذلك في عام 1874 ثمّ تقدّم إلى مرتبة الطبقة الأولى في1880، كما علّم أيضا بالمدرسة الصادقية من 1878 إلى 1897. وفي 1896، خلف أباه في إمامة جامع محمّد باي المرادي. وسمّي مفتيا حنفيّا في 1897، وتوفّي سنة 1907.

محمّد بن محمّد ابن الخوجة: ولد حوالي سنة 1871 بتونس. وهو ابن المفتي الحنفي المذكور سابقا وأمه شريفة بنت محمود محسن.

وبعد إتمام الدراسة بالزيتونة أصبح مدرّسا حنفيا من الطبقة الثانية سنة 1898، وتقدّم إلى رتبة الطبقة الأولى سنة 1904، وفي عام 1911، خلف عمّه محمّد الأصغر في إمامة جامع محمّد باي المرادي. وتولّى بعد الحرب العالميّة الأولى خطّة قاض بالمجلس العقاري المختلط ونائب متفقّد التعليم بجامع الزيتونة ثمّ أصبح عضواً بمجلس إدارة الأوقاف باللجنة المركزيّة وتوفيّ سنة 1945.

محمود بن محمد بن أحمد الأوّل ابن خوجة: ولد بتونس سنة 1834. هو أخو شيخ الإسلام أحمد الثاني.

وبعد الدّراسة بجامع الزيتونة أصبح مدرّسا حنفيّا من الطبقة الثانية وذلك في سنة 1856. ارتقى إلى الطبقة الأولى في 1862. وفي 1874، أصبح متفقّدا لأمناء إدارة الأوقاف. وبعد سنتين صار نائب متفقّد للتعليم بالزيتونة وفي سنة 1877 خلف شيخ الإسلام المتوفى محمّد معاوية في إمامة جامع صاحب الطابع. واختير في 1885 مفتيا حنفيّا، وفي سنة 1900 شيخ الإسلام. توفيّ سنة 1911.

مصطفى بن أحمد الثاني ابن الخوجة: ولد سنة 1865 بتونس وهو ابن من صار شيخ إسلام.

وبعد الدّراسة بالزّيتونة، درّس في السنوات 1881 ـ 1883 بالمدرسة الصادقيّة. وفي 1883 أصبح مدرسا حنفيا من الطبقة الثانية ثمّ من الطبقة الأولى سنة 1900 كما سمّي إماما بجامع باردو وقاضيا بالمجلس المختلط العقاري. وعيّن مفتيا حنفيّا سنة 1911. وتوفيّ سنة 1915.

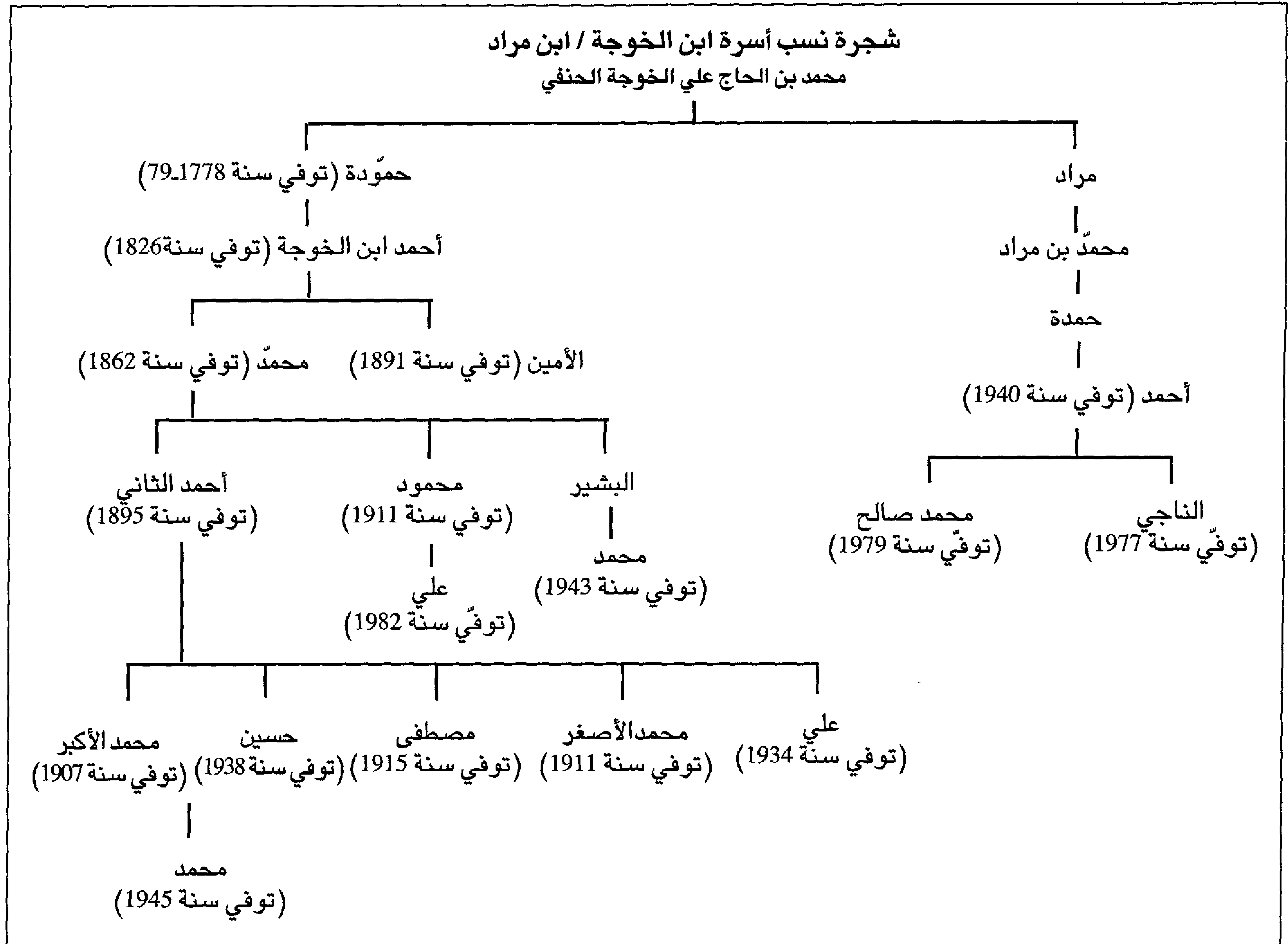
أحمد بن الخوجة
[1830 ـ 1895م]

أحمد الثّاني (المعروف بإِحْمَيْدَة) بن محمّد بن أحمد الأوّل ولد بتونس عام 1830. يرجع أصله إلى قاض في الجيش العثماني،

فأسرته جاءت من تركيا إلى تونس بعد أسرة بيرم بقليل. ويعدّ أحمد الثّاني أبرز من أنجبته الأسرة الخوجيّة من الزّعماء الدّينيّين؛ كان أبوه قاضيا ومفتيا وشيخ إسلام وأمّه فاطمة بنت السيّد الكاهية [ملاّك عقاري ومزارع]؛ تزوّج من ثلاث نساء هنّ: ابنة خالته بنت محمّد الكاهية [تاجر عطور]، وفاطمة بنت محمّد الأصرم [وزير قلم]، وجارية حبشيّة. أنجب ستّة أبناء وبنتا واحدة هم: محمّد الأكبر، وحسين، ومصطفى، ومحمّد الأصغر، وعلي، وعبد الرّحمن.

بعد التخرّج في جامع الزّيتونة، أصبح مدرّسا حنفيّا من الطبقة الثانية في عام 1851، وتقدّم إلى مرتبة الطبقة الأولى في العام الموالي. وفي الوقت نفسه تقريبا، أصبح شيخا للمدرسة الشماعيّة وإماما بجامع يوسف صاحب الطابع. ودأب على التّدريس مدّة خمس وأربعين سنة، تناول فيها أهمّ الكتب المتداولة في التّدريس بالزّيتونة.

وفي عام 1862، نقل في خطة إمام إلى جامع محمّد باي المرادي خلفا لوالده عند وفاته. وعيّن قاضيا حنفيّا في 1860، ثمّ صار مفتيا حنفيّا سنة 1864: وفي فتاويه أجاز الخلطة بين المسلمين والنّصارى كما سوّغ لمدحت باشا إدخال نوّاب غير مسلمين في مجلس المبعوثان (البرلمان العثماني). وإثر وفاة الشيخ محمد معاوية عُيّن سنة 1875، في منصب شيخ الإسلام بدعم من خير الدّين، الوزير الأوّل الذي طلب منه تأليف كتاب في تبرير التّنظيمات من وجهة نظر الفقه



الإسلامي. وألّف أحمد بلخوجة في ذلك رسالتين: «الصّبح المبين عن معروضات خير الدّين» وهو دفاع عن الإصلاح والتّحديث وتبرير للتّنظيمات، و«كشف اللثام عن محاسن الاسلام» حاول أن يقيم فيه الدليل على أنّ الإسلام قابل للتطوّر ومسايرة المدنيّة الحديثة. ومع الأسف، يبدو أنّ هذين المخطوطين مفقودان إلاّ أنّه يمكن الاطلاع على مضمونهما في سيرة أحمد بلخوجة الذي توفّي عام 1895.

وعلى الرّغم من توجّه هذا الفقيه التحديثي والإصلاحي (إذ تناول مرّة في خطبته فوائد التلغراف) وفتاويه المتسامحة، فقد كان من جيل العلماء الذين دافعوا بكلّ غيرة عن صفتهم باعتبارهم ناطقين باسم الإسلام، ويعدّون كلّ من تجرّأ على الكلام في الشّريعة من غير مجموعتهم متطفلا وجاهلا. صحيح أنّ العلماء كانوا في زمانهم يحتلّون مكانة وسطى بين الحكام والرعيّة ولهم علاقة فريدة مع كلا الطرفين، وكان دورهم باعتبارهم مصلحين روحيّين للأمّة يخوّل لهم، في نظرهم طبعا، أن يفرضوا رقابة على الأفكار والأخلاق. وقد طالب شيخ الإسلام أحمد بلخوجة، سنة 1869، بأن ترفع كلّ الكتابات عن الإسلام إلى المجلس الشّرعي للنّظر فيها والموافقة أو عدم الموافقة عليها قبل نشرها.

ولا ننسى فتوى أحمد بلخوجة (أو إحْمَيْدَة) الذي أصدر «فتوى الشوكلاطة» يحلّل فيها أكل الشوكلاطة المستوردة. لكن الشّيخ عبد العزيز الثعالبي تجرأ على انتقاد هذه الفتوى كاتبا في جريدته «سبيل الرّشاد»، عام 1895: «بفتواه يكون شيخ الإسلام [إحْمَيْدَة بلخوجة] قد ساعد على ترويج المنتوجات الأجنبيّة». وهذا أدّى إلى إيقاف الجريدة، بطلب من شيخ الإسلام الذي ذهب بعيدا، إذ طلب حقّ مراقبة المقالات الصحفيّة التي لها مساس بالدّين.

وقد أثارت «فتوى الشوكلاطة» ضجة كبرى في الشوارع وفي صحافة العصر.

وقد عيّن أحمد بلخوجة في لجنة متركبة من تسعة أعضاء ترأسّها خير الدّين كانت مهمّتها تنظيم مشروع المدرسة الصادقية، وكانت تضمّ كلاًّ من محمّد العزيز بوعتّور (باش كاتب) والعربي زرّوق (رئيس بلديّة تونس) مع ستّة علماء منهم أحمد بلخوجة. والحقّ أنّ المدرسة الصّادقيّة احتلّت، في إصلاحات خير الدّين، ما احتلّته المدرسة الحربيّة بباردو في إصلاحات أحمد باي (1837 ـ 1855). وقد وضعت اللجنة برامج التّعليم على منهج يجمع بين الرّوح العصريّة والتّعليم التّقليدي، وضمّ سلك الأساتذة مدرّسين أوروبيين وعددا من المدرّسين الزّيتونيّين. فمن العلماء الذين باشروا التّدريس في عهد خير الدّين، أحمد بلخوجة.

وكان إصلاح المناهج التربويّة وكذلك مواد التّدريس بجامع الزّيتونة من المسائل الشّائكة الدّقيقة. وقد أوكل هذا الأمر إلى اللجنة نفسها الّتي سهرت على بعث الصّادقيّة فانتهت أعمالها إلى القرار المؤرّخ في 28 ذي القعدة 1292هـ/26 ديسمبر 1875م، الهادف إلى وضع حدّ للتجاوزات مثل محاربة الغيابات المتكرّرة للمدرّسين والنّهوض بمستوى التّعليم فألزم كلّ عضو من مجلس النّظارة العلميّة (التي أنشئت بمقتضى قانون 1842) بأداء مهمّته في تفقّد سير الدّروس أسبوعيّا وتسجيل أسماء المتغيّبين من الشيوخ باستثناء الزّيتونيين بالمدرسة الصّادقيّة الذين لم يقع تتبّعهم. وأنيطت النّظارة المذكورة بمسؤوليّة جديدة وهي رفع تقارير دوريّة عن أوضاع التّعليم بالجامع الأعظم إلى الوزير الأكبر.

وتناولت الإصلاحات أخيرا ميدان القضاء، وهو ميدان حسّاس كان تقليديّا من اختصاص العلماء، شأنه في ذلك شأن التّعليم والأوقاف. وقد كان خير الدّين على بيّنة من أهميّة الموضوع، فحرص على مشاركة قضاة المجلس الشّرعي في تكوين اللّجنة المشرفة على الإصلاح وكان أحمد بلخوجة من أعضائها وخلصت أعمالها إلى ما تضمّنه المرسوم المؤرّخ في 25

ماي 1876 ذلك الذي جمع بالأساس القوانين الجارية في قانون موحّد للقضاء الشّرعي. وقد تضمّن هذا المرسوم بين مقتضياته سحب أجور القضاة في حالات الغياب غير المبرّر كما تضمّن إجراء جديدا بارزا وهو جعل المجلس الشّرعي محكمة استثنائيّة تنظر في الأحكام الّتي تصدرها المجالس الشّرعيّة بالمدن الدّاخليّة أو يصدرها قضاة القرى.

وكان الشيخ الإسلام أحمد بن الخوجة من العلماء الذين لم ينادوا بمقاومة الاحتلال الفرنسي (1881): ففي مقابلة مع الكسندر برودلي A.Broadly قال شيخ الإسلام: «إنّه منذ أن بدأت الاضطرابات لم ينفك هو وأبناؤه وأشقاؤه يعظون النّاس على الملإ وفي المجالس الخاصة بالصّبر والتجلّد وعدم المقاومة وطاعة الباي في جوامع العاصمة. وقد كتبوا رسائل في ذلك إلى أتباعهم من علماء القيروان والإيالة عامة»، إلاّ أنّه يجدر أيضا ذكر مواقف الزّيتونيّين (علماء وغير علماء) الذين بعثوا برسائل إلى القاهرة وإلى مراكز إسلامية أخرى لتعبئة الرّأي العام الإسلامي ضدّ الاحتلال الفرنسي. وتناقلت الروايات الشفويّة خبر اجتماع عدد من العلماء احتجاجا على الاحتلال، طردوا من قصر الباي والمرسى، كما تضمّن مخطوط موقف علماء مدينة تونس الموالين للباي والمناهضين للوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل الذي حمّلوه مسؤولية فسح المجال أمام الاحتلال الأجنبي، إلاّ أنّه من الواضح أنّ سخط علماء تونس واستياءهم من الغزو الفرنسي لم يفض، عكس ما حدث في مدن الجنوب، إلى تبنّي الكفاح المسلّح.

وكان أحمد بلخوجة قد حارب مشروع ماشويل Machuel الذي حاول فرض سلطته على الشؤون التّعليميّة والإداريّة بجامع الزّيتونة ففشل فشلا ذريعا. ولا غرابة في أن يقاوم علماء الزّيتونة، وعلى رأسهم أحمد بلخوجة جهود ماشويل، فلم تستسلم الزّيتونة، في النّهاية، للانضواء تحت إدارة التّعليم العمومي، بل ألحقت رأسا بالوزارة الأولى، كما أنّ السلطة الفعليّة بقيت بيد النّظارة مادامت هي تعيّن الامتحانات.

علي بن الخوجة

[1310ـ1402هـ/ 1894 ـ 1982م]

علي ابن محمود ابن الخوجة شيخ الإسلام في أواخر القرن التاسع عشر. وأحد أبرز أئمة وعلماء المذهب الحنفي في تونس.

كانت ولادة الشيخ علي بن الخوجة سنة 1310هـ/ 1892م، وقد تلقّى دراسته الأولى بعد حفظه لجانب من القرآن الكريم على يد والده وعميه، وأتقن مبادئ اللغة العربية وحفظ بعض المتون الفقهية، والنحوية، ثم التحق بالمدرسة الصادقية حيث تعلّم اللغة الفرنسية وعلوم الرياضيات وكان من أبرز من تتلمذ لهم الشيخ بكّار بن حسين الذي كان يدرس مبادئ الفقه والتوحيد والنحو ويعلّم أصول الخط العربي. وهو ما ساعد الشيخ علي بن الخوجة على التفوّق في هذه المرحلة بالتفنّن في الخط والرسم. ومن أبرز زملائه في هذه الفترة مصطفى الكعاك الذي ترأس الرشيدية لمدّة طويلة.

وفي سنة 1906 نال الشهادة الابتدائية ويظهر أنه حافظ بعد ذلك على دراسة اللغة الفرنسية. ثمّ التحق بجامع الزيتونة وهناك تتلمذ لكبار علمائه من أمثال المشايخ الصادق بن ضيف والصادق النيفر ومحمد بن يوسف ومحمد الطاهر ابن عاشور ومصطفى بن الخوجة وأحمد بن مراد وأحمد بيرم وحسين بن الخوجة والصادق ابن القاضي ومحمد الخضر حسين.

وقد أحرز الشيخ علي ابن الخوجة شهادة التطويع سنة 1913 بتفوّق فصار عندها مؤهلا للتدريس بجامع الزيتونة إضافة إلى اشتغاله بالتوثيق والإشهاد.

وفي سنة 1918 تقدّم إلى المناظرة في خطّة التدريس الحنفي من الطبقة الثانية ففاز بها.

وعلى إثر وفاة والد الشيخ علي ابن الخوجة اختير للإمامة والخطابة مكانه بجامع يوسف صاحب الطابع الكائن بالحلفاوين، وقد حافظ لمدّة 71 سنة على إمامة جامع صاحب الطابع والخطابة فيه وإلقاء دروس ختم الحديث الشريف في العشرين من شهر رمضان. وكما يذكر الأستاذ محمود شمام وهو أبرز من ترجم له كانت أختام الشيخ علي بن الخوجة تشدّ إليها الرحال ويشهدها ولي الأمر بالبلاد ويحضرها العلماء والفقهاء وجمهور غفير من مصلّي هذا الجامع ومن سكان باب سويقة وحي الحلفاوين.

ومن عناوين أختامه ودروسه القيّمة في شهر رضمان: «من يرد به الله خيرا يفقّهه في الدين»، اللهم أعط منفق مال خلفا»، «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، «التغالي في المهور».

وتمتاز أدعيته في ختام الأحاديث والدروس بعذوبة لفظها وجزالتها وحسن اختيارها وبلاغة معانيها وشدّة تأثيرها في النفوس، كما أنه يروي الحديث النبوي بإجازة تتصل بالإمام البخاري جامع «الصحيح».

وكان حرصه شديدا على أداء فريضة الحج في كل موسم، كما كان كثيرا ما يشدّ الرحال ويقتني الكتب ويدوّن الوقائع والمسائل، ويفتش في الكتب عن الحقائق والآراء العلمية المختلفة بهدف إيجاد النصوص الفقهية والتشريعية التي من شأنها أن تنطبق على القضايا المطروحة. وهو ما كوّن له خبرة واسعة بمسائل الأحكام حتى في الفقه المالكي.

وقد دوّن تلك الأحكام والاجتهادات وآراء العلماء في مختلف المسائل الفقهية والشرعية في كناش جامع يضمّ أجزاء أربعة وهو كما يقول عنه الأستاذ محمود شمام يصلح أن يكون كتاب فقه قضائي من الدرجة الأولى لو كتب له الظهور. ذلك أن الكتاب لا يزال مخطوطا، إذ هو مجموعة أحكام تؤرّخ لهذه الفترة من التاريخ القضائي في تونس.

وللشيخ علي بن الخوجة ميل شديد إلى النشاط الاجتماعيّ والإسهام في العمل الخيريّ إذ انضم إلى جمعيات خيرية واجتماعية كثيرة أبرزها «الجمعية الخيرية الإسلامية» في العشرينات، وكان عضوا في «جمعية الفتاة المسلمة».

ومن ميزاته التصاقه الشديد بشواغل الناس اليومية يصلح بينهم عند الخصام، وييسر عليهم في أحكام الدين ويدعو باستمرار إلى إشاعة التسامح في التعامل، مؤكّدا فضيلة العمل والسعي، مبينا أن الإسلام دين عمل، جاء لسعادة الإنسان ورقيّه لا ليكون عامل فرقة وفتنة.

وقد عرف بسرعة بداهته وبخفّة روحه، وبميله إلى الفكاهة حتى عند إدلائه ببيان بعض الأحكام الشرعية.

وأنفق الشيخ علي بن الخوجة أموالا كثيرة في شراء الكتب وجمع المصنفات العلمية والأدبية والتاريخية والفلسفية إضافة إلى الكتب الدينية والشرعية، وصارت له مكتبة ثريّة كانت على ذمّة كل من أراد الاطلاع على فن من فنون العلم والأدب والحضارة.



محمّد بن الخوجة
[1869–1942م]

ولد محمّد بن البشير بن محمّد ابن الخوجة في فيفري 1869م. وهو ينحدر من أسرة حنفيّة تركيّة الأصل، استقرّت بتونس في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي.

كان والده يشغل آنذاك خطّة رئيس القسم

الأوّل بالوزارة الكبرى. فما إن بلغ ابنه محمّد السّابعة من عمره، حتّى وجّهه إلى المدرسة الصّادقيّة.

وقد تميّز هذا الطّفل الذي ينتمي إلى الرّعيل الثّاني من تلامذة المدرسة الصادقيّة، بميله إلى اللغة العربيّة، وقد كان يفضلّها على سائر المواد الأخرى، دون أن يهمل دراسة اللغة الفرنسيّة والتّاريخ والجغرافيا والرّياضيات.

وبعدما أتمّ دراسته بالصّادقيّة، التحق بالمدرسة العلويّة التي أنشئت سنة 1883 لتخريج معلّمي اللغة الفرنسيّة بالمدارس الابتدائيّة. ثمّ اختار الالتحاق بالوظيفة العموميّة اقتداء بالفوج الأول من أقرانه المتخرّجين في المدرسة الصّادقيّة، فعيّن مترجما بالكتابة العامّة للحكومة التونسيّة سنة 1887. ومن قسم التّرجمة، نقل إ لى قسم المحاسبات الذي كان يشرف عليه زميله في الدّراسة بالمدرسة الصّادقيّة البشير صفر زعيم حركة «الشباب التونسي» الوطنية.

ولمّا عيّن البشير صفر رئيسا لجمعيّة الأوقاف سنة 1892، خلفه محمّد ابن الخوجة في رئاسة قسم المحاسبات، مبرزا ما كان يتميّز به من ثقافة واسعة، وقدرة على الاستيعاب، وحبّ للنّظام والعمل. وبفضل تلك الخصال، استرعى انتباه الكاتب العام للحكومة التونسيّة برنار روا (Roy) الذي كان شغوفا بالدّراسات الأدبيّة، والبحوث التّاريخيّة، فعيّنه مديرا للمطبعة الرّسميّة سنة 1902، وعضوا في اللجنة المكلّفة بتأليف الفهرس العلمي للمكتبة العبدلّية بجامع الزّيتونة.

وباتّفاق بين المقيم العام ألابتيت (Alapetite)، والملك النّاصر باي (1906–1922م) الذي كانت تربطه بمحمّد ابن الخوجة علاقات ودّية وثيقة، نقل من الكتابة العامّة للحكومة التونسيّة، إلى خطّة أخرى أكثر ملاءمة لمواهبه الدبلوماسيّة، وهي خطّة "مدير التّشريفات السّنيّة" إثر إحالة الجنرال فلنزي على التّقاعد في سنة 1914.

وفي سنة 1915 ارتقى إلى رتبة أمير لواء، ثم إلى رتبة أمير أمراء، «وقد اعتزّ بذلك اعتزازا عظيما، واعتمد الطّريقة الإفرنجيّة في تسمية نفسه بعنوان رتبته العسكريّة بمرادفها الفرنسي «جنرال» مضموما للقبه دون اسم: الجنرال ابن الخوجة، وكتبها في أوراق زيارته، واشتهر بها». (الفاضل ابن عاشور، تراجم الأعلام).

وإثر انتهاء الحرب العالميّة الأولى (1914–1918)، طرأت بتونس بعض التّغييرات في صلب الإدارة العليا، فأعفي الجنرال ابن الخوجة من مهام مدير التّشريفات، وعيّن عاملا على قابس سنة 1919، ثم نقل بمثل خطّته إلى بنزرت في مدّة الملك محمّد الحبيب باي (1922–1929)، وقد كانت بنزرت وقتئذ ميناء حربيّا مهمّا، ومحطّة إرساء الأساطيل الأجنبيّة، ومقرّ قيادة اللواء البحري الفرنسي، وممرّ عدّة شّخصيات تونسيّة وأجنبيّة مرموقة من ملوك، ورؤساء دول، ووزراء، فكان من الضّروري أن يعيّن على رأس تلك المدينة عامل من ذوي النّفوذ، يجمع بين لباقة الدبلوماسي، وحزم الوالي القادر على مواجهة جميع الطوارئ.

ولمّا بلغ الجنرال ابن الخوجة سنّ التّقاعد في سنة 1934، سمّي مستشارا للحكومة التّونسيّة، واحتفظ بهذه الخطّة إلى آخر حياته «وهي خطّة جديدة أحدثت من أجله، اعترافا من الحكومة بما قدّمه ذلك الموظّف السّامي من خدمات جليلة، وما كان يتمتّع به من قيمة اعتبارية، بوصفه مثقّفا من الطّراز الأوّل، وأديبا إنسانيا بأتمّ معنى الكلمة». (الصادق الزّمرلي، أعلام تونسيون).

وإلى جانب المهام الإدارية التي تقلّدها الجنرال محمّد ابن الخوجة، أسهم إسهاما فعّالا في الحياة الثقافيّة والفكريّة بتونس في عصره وكتب العديد من المقالات والكتب.

فكان من المؤسّسين لأوّل جريدة وطنيّة تونسيّة غير رسميّة، هي جريدة (الحاضرة) التي صدر عددها الأول في 2 أوت 1888 بإدارة علي بوشوشة، وبمشاركة نخبة من المثقّفين أمثال:

البشير صفر، ومحمّد السّنوسي، وعلي الورداني، ومحمّد الأصرم ومحمد الحشايشي... وقد تخصّص الجنرال ابن الخوجة منذ ذلك الحين في البحوث التّاريخيّة، والتّراجم، فكان ينشر على صفحات جريدة (الحاضرة) الفصول تلو الأخرى لإحياء بعض الحقب من تاريخ تونس الحديث والمعاصر، والتّعريف بمشاهير التونسيين القدامى والمحدثين، بأسلوب ينبئ عن معارف تاريخيّة واسعة، ومطالعات في الكتب العربيّة والفرنسيّة، واعتناء خاص بالتاريخ التونسي» (أعلام تونسيون).

وبعد مرور فترة من الزّمن، شعر جماعة (الحاضرة) بأنّ جريدتهم، بالرّغم ممّا أحرزته من نجاح باهر، لا تكفي بمفردها للنّهوض بالبلاد، ففكّروا في بعث مؤسّسة للتعريف بالحضارة العربيّة الإسلاميّة التي يحاول المستعمر طمسها، وتلقين العلوم الدقيقة لطلبة جامع الزيتونة الذين كانوا محرومين منها، باللغة العربيّة.

وتحقيقا لهذا الغرض، تأسّست الجمعية الخلدونية في سنة 1896، وكان الجنرال ابن الخوجة من أبرز مؤسّسيها، وأحد زعماء هيئتها المديرة.

وقد استغلّ وجوده على رأس المطبعة الرّسمية من سنة 1902 إلى سنة 1915، لنشر عدد من مؤلّفاته وأبحاثه، وطبع بعض الكتب التونسيّة المخطوطة، مثل: معالم الإيمان، وذيل تاريخ حسين خوجة، والحلل السندسيّة للوزير السرّاج، كما أصدر منذ سنة 1901 "الرّزنامة التّونسيّة" التي تظهر في مطلع كلّ سنة مليئة بالمعطيات التي تساعد التونسيين في حياتهم اليوميّة (معلومات إداريّة، فلكيّة، الأعياد والمناسبات...)، والمذكّرات التّاريخيّة والأدبيّة، والخلاصات العلميّة المتعلّقة بأحدث الاختراعات والاكتشافات، والنّوادر الطريفة التي كان القرّاء يتهافتون عليها. وقد استمرّت هذه (الرّزنامة) في الظهور إلى سنة 1918.

ومن مؤلّفاته التي نشرها في تلك الفترة:

1- **سلوك الابريز في مسالك باريس**، وهي رحلة قام بها إلى باريس بمناسبة المعرض الدّولي سنة 1900.

2- **الرّحلة الفلياريّة**، وهي الرّحلة التي قام بها رئيس الجمهوريّة الفرنسيّة (أرمان فليار) إلى تونس سنة 1912.

3- **الرّحلة النّاصريّة**، وهي الرّحلة التي قام بها الملك النّاصر باي إلى باريس 1913، والطريف أنّ المؤلف لم يسافر مع الباي في هذه الرّحلة، وإنّما أخذ كلّ المعلومات المتعلّقة بها عن صهره مصطفى دنقزلي الذي كان يشغل وقتئذ خطّة شيخ مدينة تونس، ثم أصبح وزيرا للقلم والاستشارة سنة 1915، وعيّن وزيرا أكبر من سنة 1922 حتّى وفاته سنة 1926.

وفي سنة 1908 أسهم محمّد ابن الخوجة صحبة ثلّة من رفقائه في (حركة الشّباب التونسي) في مؤتمر شمال إفريقيا المنعقد في باريس، وقدّم بحثا حول (القضاء الشّرعي في الإسلام)، نال إعجاب المؤتمرين كافّة. وحالما رجع إلى تونس، نقل ذلك البحث إلى اللغة العربيّة، ونشره في رسالة بعنوان (بحث تاريخي يتعلّق بالقضاء الشّرعي وخطّة شيخ الإسلام). وكان محمد بن الخوجة من أنصار تحرر المرأة المسلمة.

وعند تولّيه منصب مدير التّشريفات، دعي ابن الخوجة إلى تدريس التّعريب والنّقل والتّاريخ بالمدرسة العليا للغة والآداب العربيّة بتونس المعروفة باسم (مدرسة العطّارين)، فلبّى تلك الدّعوة رغم ما كانت تفرضه عليه وظيفته السّامية من التزامات.

وفي سنة 1916 سافر إلى المغرب الأقصى، مبعوثا من الملك النّاصر باي إلى سلطان المغرب مولاي يوسف (والد محمّد الخامس)، لتوطيد العلاقات بين القطرين الشّقيقين.

وقد خلّف محمّد ابن الخوجة عدّة مصنّفات، ذكرها في آخر كتابه «**تاريخ معالم التّوحيد في القديم والجديد**» (الطبعة 2، بيروت 1985،

تحقيق حمّادي السّاحلي والجيلاني بن الحاج يحيى):
1- تاريخ الحجّ وعمارة البيت الحرام (نشر ملخّصا بالمجلّة الزّيتونيّة)
2- الفتاوى الشّرعيّة في المستجدّات والحوادث العصريّة (مخطوط).
3- تحفة الأنجاد في المقابلة بين تاريخي الهجرة والميلاد (مطبوع)
4- وزراء تونس قبل الحماية وبعدها (نشر ملخّصا بالمجلّة الزّيتونيّة)
5- جيش الدّخيل في اللسان التونسي الأصيل - معجم - (مخطوط).
6- كشف عن أحوال تونس في عصر الحماية (مطبوع).
7- تكملة عقد الدرّ والمرجان، في سلاطين آل عثمان (مخطوط).
8- مجموع فقهي في مسائل الإنزال (مطبوع)
9- العيون النّرجسيّة في الأنظمة التونسيّة (مخطوط).
10- تاريخ البايات والدّايات في الدّولتين المرادية والحسينية (مخطوط).
11- وفيات أعيان التّونسيين في العصر الحسيني (مخطوط).
12- الرحلة المشيرية الصادقية، للعاصمة الجزائريّة (مخطوط).
13- توادد الكرام، رحلة محمد الهادي باي إلى باريس (مطبوع).
14- الرّحلة الحبيبيّة (مخطوط).
15- الرّحلة المغربيّة (مخطوط).
16- الخلافة (مخطوط بالفرنسيّة).
17- رسالة في المرأة المسلمة (مطبوع بالفرنسيّة).
18- رسالة في الحجّ (مطبوع بالفرنسيّة).
19- فهرس في كتب التاريخ المحفوظة بخزائن جامع الزّيتونة (مطبوع).
20- الألفاظ العربيّة الدّخيلة في اللّغة الفرنسيّة (مخطوط).

وبالإضافة إلى هذه الآثار المطبوعة والمخطوطة، حرّر ابن الخوجة عدّة فصول وبحوث ودراسات قيّمة نشرها على صفحات مختلف الجرائد والمجلاّت التونسيّة لا سيّما منها جريدة "الحاضرة" و"المجلّة الزّيتونيّة" و"المجلّة التونسيّة" (La Revue tunisienne).

وتوفّي الجنرال محمّد ابن الخوجة في شهر نوفمبر سنة 1942 عن سنّ تناهز الثلاثة والسبعين عاما.

محمّد بن راشد

[تـ737هـ/1336م]

محمّد بن عبد اللّه بن راشد، البكري نسبا، القفصي بلدا، وكنيته أبو عبد الله. وُلد بقفصة، وبها نشأ وتعلّم. درس العربية والفرائض ثمّ رحل إلى تونس، فأقام بها زمنا ملازما للاشتغال بالعلم؛ ينقل عنه «نيل الابتهاج» ما ذكره هو نفسه ملخّصا: «قرأت العربية والفرائض والحساب، وأدركت بتونس جملة من النّبلاء وصدورا من النّحاة والأدباء، فأخذت عنهم، ثم تشاغلت بالأصول والفقه زمانا».

ثمّ رحل إلى الإسكندرية، في زمن الملك السّعيد، سنة 680هـ/1281م، «فلقي بها صدورا أكابر وبحورا زواخر، كقاضي القضاة ناصر الدين بن المنير، والكمال بن التّنسي، ويدعى مالكا الصّغير، درس عليه «التهذيب»، وناصر الدّين الابياري، تلميذ أبي عمرو ابن الحاجب وضياء الدّين ابن العلاّق، وكان فروعيا مجيدا، ومحيي الدين حافي الرأس النّحوي الأديب».

قال: «أخذت عنهم، ثمّ رحلت للقاهرة إلى شيخ المالكية في وقته، فقيد الأشكال والأقران، نسيج وحده، وقمر سعده، ذي العقل الوافي، والذهن الصّافي، الشّهاب القرافي، وكان مبرزا

على النّظار، محرزا قصب السّبق، جامعا للفنون، معتكفا على التّعليم على الدّوام، فأحلّني محلّ السّواد من العين والرّوح من الجسد، فجلت معه في المنقول والمعقول، فحفظت "الحاصل" وقرأته مع "المحصول"، فأجازني بالامامة في علم الأصول وأذن لي في التّدريس والإفادة». وتردّد في الأثناء إلى مجلس قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد (ت702هـ/1302م)، وكان يدرس "مختصر" ابن الحاجب، وإلى شيخ العقليات شمس الدين الإصبهاني، وإلى الشّريف الكركي «وغيرهم ممّن لا يحصى كثرة» وعاد، بعد أن حجّ سنة 680، إلى بلده بعلم جمّ، وشرع في الدّروس ومالت إليه النّفوس... و«تولّى القضاء، فضاق بأناس متّسع الفضاء، وسلقوه بألسنة حداد، وكان ذلك سببا في الظّهور وتضاعف الخسران عليهم حتّى سكنوا القبور».

ولابن راشد عدّة مصنّفات نستعرضها حسب التّرتيب الذي ذكرها به «نيل الابتهاج»:

1) **مختصر ألّفه في الأصول "أيّام الامتحان"** التي انتهت بعزله عن القضاء، وسمّى هذا المختصر: «تلخيص المحصول في علم الأصول» وسهّله بأمثلة، وهو فيما يظهر أوّل تأليف له «لخصّ فيه»، حسب التعليق الوارد في «كتاب العمر» (ج 1، ص 740) كتاب «المحصول»، في أصول الفقه لفخر الدين الرّازي، ابن خطيب الرّيّ (ت606هـ/1209م).

2) **الفائق في معرفة الأحكام والوثائق**، في سبعة أسفار من القالب الكبير. جاء في «كتاب العمر» ص 739:

«وهو غزير الفائدة لمن يبحث عن العوائد والأخلاق ونظام البيئة التونسية في مدّة الدّولة الحفصية».

يوجد بدار الكتب الوطنية بتونس ما لا يقلّ عن 23 نسخة مخطوطة من بعض أجزائه.

ينقل صاحب "نيل الابتهاج" قول الشيخ أحمد الونشريسي عن إفراط ابن عبد السلام في الردّ على ابن راشد «مع ما له من مزية التقدّم في العلم والصّلاح وابتكار الشرح ونهج السبيل» ويروي «أنّه لمّا توفّي ابن راشد حضر جنازته ابن هارون وابن عبد السّلام وابن الحباب وكان ابن عبد السّلام وابن هارون مستندين إلى حائط جبانة. وجلس ابن حباب، إلى ظهر الحائط في الجانب الآخر ثم ترحّم ابن الحباب على ابن راشد وذكر مآثره وتفنّنه في العلوم وقال: لو لم يكن من فضائله إلاّ ابتكاره لشرح ابن الحاجب لكفاه فخرا، قال: وجاء هؤلاء السّرّاق بعده، (يشير إلى ابن عبد السلام وابن هارون) فسرقوا كلامه ونسبوه إلى أنفسهم، وأشار إليهما وهما يسمعان» (نيل ص 236).

3) **المذهب في ضبط مسائل المذهب في الفقه المالكي**، في ستّة أسفار من القالب الصغير. يقول عنه عبد اللّه بن مرزوق: ليس للمالكية مثله. نسخة كاملة في خمسة أجزاء في المكتبة العاشورية: أرقام (ف. أ) 231، 232، 233 (ج 3 وج 4)، وجزء مفرد (ف. أ) 470.

4) **النظم البديع في الاختصار والتفريع**.

5) **الموهبة السّنية في العربية**.

6) **المرقبة العليا في تعبير الرؤيا**: نسخة المكتبة العاشورية له مختصره [الدّرّ النثير في علم التعبير] خ تونس 3203، 3369.

7) شرح ابن الحاجب المسمّى [**الشهاب الثاقب**] في شرح لفظه وحلّ مشكلاته وإيضاح رموزه وإشاراته وعزو مسائله وتقرير دلائله، وقد استخرج مسائلها، في أماكنها، جزء منه خ جامع القرويين رقم 388.

8) **تحفة اللّبيب في اختصار ابن الخطيب**، 4 أجزاء.

9) **نخبة الواصل في شرح الحاصل**، في أصول الفقه.

10) **لبّ اللّباب فيما تضمّنته أبواب الكتاب** [يعني الكتاب (3)] من الأركان والشروط

والموانع والأسباب. وهو كتاب ألّفه في آخر عمره حسب ما جاء في مقدمته: «ولمّا رأيت نهار الشّيب قد تجلّى، وليل الشباب شمّر ذيله فرقا وولّى، رغبت في وسيلة أختم بها عملي، وأنتفع بها، إن شاء اللّه، عند حلول أجلي، فوضعت هذا المختصر ورتّبته ترتيبا لم أسبق إليه، لينتفع به المبتدي ويستبصر به المنتهي». ط. تونس 1346هـ، خ المتحف البريطاني رقم 868.

ابن رشيق
[390 - 456هـ/ 1000 - 1070م]

إن الكلام على الحسن بن رشيق القيرواني هو أساسا كلام على أزهى عصرٍ من عصور العلم والأدب والسياسة بإفريقية في العصر الوسيط، إفريقيّة التي كانت تمسح كامل تراب الجمهورية التونسية وجزءا من التراب الليبي إلى حدود مدينة برقة وجزءا من التراب الجزائري إلى ما كان يسمّى إقليم الزاب. ونعني بهذا العصر، عصر الدولة الصنهاجية أو عصر بني زيري الذي امتدّ من سنة 362هـ سنة سقوط الدولة الفاطمية بإفريقية ورحيل المعزّ لدين الله الفاطمي إلى القاهرة وسنة 449 هـ. وهي سنة زحف الأعراب الهلاليّين التي أضعفت كيان الدولة الصنهاجية وأخمدت بها جميع الحركات الفكرية والأدبية.

ولا يخفى أن إفريقية قد ظهرت بها بعد عصر الفتح أُسَرٌ عريقةٌ ذات شأن تكوّنت بفضلها خمسُ دول كبرى هي الدولة الأغلبية والدولة الفاطمية والدولة الصنهاجية ثم الدولة الحسينية التي أنتهى حكمها قبيل استقلال تونس وخروجها من ربقة الاستعمار الفرنسي سنة 1956 وتكوّن أوّل دولة تونسية في التاريخ المعاصر بزعامة الحبيب بورقيبة.

وليس من المبالغة في شيء القول إنّ الفترة الصنهاجية التي عاش فيها ابن رشيق هي الوحيدة التي ظهرت فيها مدرسة أدبية عاصمتها القيروان وانتشر إشعاعها في كامل التراب التونسي ووصل إلى صقلية والأندلس وحتّى إلى المشرق العربي.

وإنّ العصر الذي نشأ فيه أدبينا الحسن بن رشيق هو العصر الذي نشأ فيه صديقه ومنافسه محمد بن شرف وظهر فيه أيضا الوزير الأديب علي بن أبي الرّجال والأديب إبراهيم النهشلي صاحب كتاب الممتع وإبراهيم الحصري صاحب زهر الآداب والرقيق القيرواني صاحب تاريخ إفريقية والمغرب وكتاب قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور إلى جانب الوليّ الصالح الأديب اللاّمع معلّم الصبيان محرز بن خلف الملقّب بسلطان المدينة. ولا نغفل عن ذكر عبد الله بن أبي زيد إمام علماء القيروان في وقته وقدوتهم وجامع مذهب الإمام مالك وشارح أقواله وصاحب الرّسالة المشهورة.

إنّ وجود رجال من هذا القبيل زيادة على المعزّ بن باديس وابنه تميم بن المعز –وقد كانا عالمين مولعين بمصاحبة العلماء ومجالسة الأدباء وسماع ما تجود به قرائحهم – قد ساعد على ازدهار الحياة الفكرية والأدبية بالقيروان في القرن الخامس الهجري. فزادت إشعاعا على إشعاعها القديم الذي أسهم فيه الأمراء الأغالبة ثمّ الأمراء الفاطميّون من بعدهم.

من هو ابن رشيق؟ وفيم تجسّد إسهامه في تطوير الحركة الأدبية بالقيروان عاصمة الدولة الصنهاجية؟ وما هي آثاره التي اشتهر بها حتى خلّدت اسمه عبر العصور؟

هو الحسن بن رشيق القيرواني. وكنيته أبو الحسن ولد سنة 390هـ/ 1000م بالمسيلة المحمّدية قريبا من قسنطينة. ورشيق هو اسم أبيه، وقد كان يمتهن الصياغة بمسيلة. فربّى ابنه على حبّ العلم والجلوس إلى العلماء. فتفتحت مواهبه الشعرية واللغوية وهو صغير السنّ. التحقّ ابن رشيق بالقيروان سنة 406هـ/1015م وهو في سن الخامسة عشرة. وهي السنة التي اعتلى فيها سدّة الحكم الأمير الصنهاجي المعزّ بن باديس.

فشهد ابن رشيق دروس كبار العلماء من مثل القزّاز النحوي وإبراهيم الحصري والأديب الخشني. وفي هذا الصدد يقول ح.ح. عبد الوهاب: «تربى [ابن رشيق] في القيروان وهي آنذاك معهد العلوم وكعبتها، فارتوى من صافي الأدب ونبغ فيه نبوغا باهرا (مجمل تاريخ الأدب التونسي، ص143). ويقول الشاذلي بويحيى في أطروحته عن الحياة الأدبية بإفريقية في عصر بني زيري: التحق ابن رشيق بالقيروان حيث شهد دروس أساطين الأعلام من رجال الفترة الصنهاجية الأولى، وقد كانوا ينشطون في رحاب حياة ثقافية قطعت بعض أشواطها على درب الازدهار» (الأطروحة، ج1، ص192) وكان لمصاحبته بن شرف ورجال العلم والأدب أن توقّدت قريحته وذاع صيته. وقد التحق ببلاط الأمير الصنهاجي المعز بن باديس بعد أن توطّدت علاقته براعي العلماء والأدباء وقتئذ. وهو علي بن أبي الرجال (ت426هـ/ 1034م) الذي تربّى على يديه المعزّ بن باديس. وكان ابن أبي الرجال هذا عالما فلكيا وأديبا ضليعا. وهو المعروف بأوربا في العصر الوسيط بفضل علمه ونبوغه في الفلك باسم (Alboacen Abenragel).

وقد سمّاه المعزّ على رأس ديوان الإنشاء. فكان ابن أبي الرجال وزيرا أديبا عالما. فضمّ إلى ديوان الإنشاء الذي كان يشرف عليه شعراء فحولا وكتّابا بارعين وعلماء مشهورين من أبرزهم ابن رشيق وابن شرف.

فكانت هذه العناية بشاعرنا فرصةً له ليصبح شاعر البلاط بلا منازع. فانقطع إلى خدمة المعزّ. وكان رفيقا له في أسفاره، مشيدا بمآثره وأخباره، مادحا لكرمه وشجاعته، مطنبا في ذكر جليل خصاله.

ولم يكن ينافسه في هذه المنزلة سوى ابن شرف الذي حظي هو أيضا بمكانة عليّة عند المعزّ. وقد عرف ابن رشيق بنفسيته المرحة وحبّه للنكتة وشغفه بمجالس اللهو والمرح يحضرها ويشارك في المساجلات والمناظرات ويطرب الحاضرين بأشعاره في جميع الأغراض والموضوعات. يورد ابن شرف خبرا يقول فيه: دعاني المعز بن باديس يوما واستدعى أبا علي الحسن بن رشيق، وكنّا شاعري حضرته وملازمي ديوانه، فقال: أحبّ أن تصنعا بين يديّ قطعتين في صفة الموز على قافية الغين، فصغنا حالا من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر، فكان الذي صنعته (أي ابن شرف):

يا حبّذا الموزَ وإسعادَهُ
من قبل أن بمضغه الماضغ
قد لأن حتّى لا مجسّ له
فالفم ملآن به فارغ

والذي صنعه ابن رشيق:

موزٌ سريعٌ أكلُه من قبل مضغ الماضغ
فمأكلٌ لآكل ومشرب لسائغ
فالفمُ من لينٍ به ملآنُ مثلُ فارغ

يعلّق ح.ح. على هذه الأبيات وعلى غيرها ممّا ذكره في كتابه بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق، بقوله: «وكثيرا ما كان المعزّ يظهر الميل إلي أديب دون آخر....» فيقع بينهما تنافس أدبيّ ينشأ عنه تسابق في اختراع المعاني وتوليد المبتكرات وحصل بسبب هذه المنافسات نهوض في سوق الأدب وظهرت حركة علمية فكريّة اجتنت إفريقية من ثمراتها اليانعة ما يحقّ لها الافتخار به...

وروى ابن خلّكان في وفيات الأعيان أن المعزّ كان يوما جالسا وعنده جماعة من الأدباء وبين يديه أترجّة ذات أصابع – فأمرهم المعز أن يعملوا في وصفها شيئا. فقال ابن رشيق:

أترجّةٌ سبطة الأطراف ناعمةٌ
تلقى العيونَ بحسنٍ غيرَ منحوس
كأنّما بسطتْ كفًّا لخالقها
تدعو بطول بقاء لابن باديس

هذه نماذج قليلة من شعر ابن رشيق ولُمَعٌ خاطفة من حياته. وقد قال شعرا كثيرا في جميع الأغراض من رثاء ومدح وغزل وهجاء وفخر. وقد

جَمَع ديوانه ونشره عبد الرحمان ياغي منذ سنوات.

وستكون لابن رشيق حياة ثانية بعد حياته الأولى بالقيروان. ذلك أنّ تخريب القيروان سنة 449هـ/1057 على أيدي بني هلال سيكون سببا في هجرة الكثير من العلماء والأدباء إلى كلّ من صقلية والأندلس وفي خفوت جذوة الأدب وانتكاس تلك الحركة الأدبية والفكرية النشيطة التي دامت قرنا كاملا في ظل بني زيري. فالتحق ابن رشيق بالمهدية التي فرّ إليها المعز بحاشيته وأتباعه. وانضمّ إلى مجالسه. وظل يمدحه ويمدح ابنه تميما. ولكنه لم يكن مرتاحا ولا مطمئنا على مصير بلده. فآثر الهجرة إلى صقلية سنة 454 هـ/ 1062م وهي السّنة التي توفّي فيها المعزّ. وقد سبقه إليها صديقه ومنافسه ابن شرف ليكون التصالح بينهما هناك وليزدهر بلاط الأمير ابن متكود بنشاطهما الأدبي وبفضل ما كان يغْدقُهُ هذا الأمير على العلماء والأدباء من العطايا وما يظهره لهم من التشجيع والعناية والإكرام. فأقام ابن رشيق بمازرة بصقلية. وهناك درّس للطلبة كتابه المشهور العمدة في صناعة الشعر بعد أن درّسه لطلبة العلم بالقيروان. وظل في خدمة الأمير ابن متكود حتى توفي سنة 456 هـ /1070م ودفن بمازرة.

لم يكن رحيل ابن رشيق عن القيروان رحيل محبّ للهجرة طامحٍ إلى الشهرة. فقد ذاع صيته مشرقا ومغربا بفضلِ مؤلفاته وهو مقيم بالقيروان. وإنّما فارقها متحسّرا عليها راثيا لحالها. فقد صنع قصيدة مطوّلة في خرابها يقول في أوّلها:

أترى الليالي بعدما صنعت بِنا
تقضي لنا بتواصلٍ وتَدان
وتُعيد أرض القيروان كعهدهاَ
فيما مضى من سالف الأزمان
[...] والمسلون مقسّمون تنالهم
أيدي العصاة بذلّةٍ وهوان
ستبصر خون فلا يغاثُ صريخهم
حتّى إذا سئموا من الأزمان
فتفرقوا أيدي سبا وتشتّتوا
بعد اجتماعهم على الأوطان

وفي السنوات الأخيرة من حياة ابن رشيق وابن شرف بصقلية استقدمهما أمير إشبيلية المعتضد بن عبّاد لمَا سمعه عنهما من نشاط فكري وأدبي زيادة علَى شهرة مؤلفاتهما. فتاقت نفس ابن شرف إلى هجرة ثانية بعد هجرته إلى صقلية وأبى ابن رشيق السّفر مرّة ثانية لتقدمه في السنّ من ناحية ولموقفه السلبي من أمراء الطوائف بالأندلس. فقد قال ابن رشيق عندما استنهضه ابن شرف على جواز الأندلس بيتين بليغين فيهما تهكم واستنقاص:

ممّا يزهدني في أرْض أندلسٍ
سماعُ مقتدر فيها ومعتضدٍ
ألقاب سلطنة في غير مملكة
كالهرّ يحكي انتفاخا صولة الأسد

فأجابه ابن شرف ارتجالا جواب شاعر حنّكته التجارب:

إن ترمِك الغربة في معشر
قد جبلَ الطّبع على بغضهم
فدارهِم ما دمت في دارهم
وأرضهم ما دمت في أرضهم

وارتحل ابن شرف إلى الأندلس ليمدح المعضد أمير إشبيلية ثم المأمون بن ذي النون ملك طليطلة وهناك توفّي بعيدا عن وطنه سنة 460 هـ/1067 مثلما مات ابن بلده ابنِ رشيق بعيدا عن وطنه. وقد خلّف ابن رشيق آثارا عدّة لم يبق لنا منها سوى كتاب العمدة. وهو كتاب في النّقد لا يقل شأنا عن كتب النقد المتقدمّة عنه في الظهور مثل طبقات فحول الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبة ونقد الشعر لقدامة بن جعفر، كما ترك لنا كتابا في السرقات الأدبيّة هو قراضة الذهب في أشعار العرب وديوانا تضمّن ما تبقّى من أشعاره وكتابا رابعا عن شعراء افريقية في عصره وهو أنموذج الزمان في شعراء القيروان.

لم تعرف إفريقية وعاصمتها القيروان في

العصر الوسيط عصرا أكثر ازدهارا من عصر ابن رشيق ومعاصريه من مثل ابن شرف والنهشلي والرقيق وإبراهيم الحصري وعلي الحصري وابن أبي الرجال وعلى أيدي هؤلاء تكوّنت أوّل مدرسة أدبية في النقد والأدب لم يُرَ لها مثيل في العصور المتقدّمة ولا في العصور المتأخرّة. وهي جديرة بالاعتناء والانكباب على أعمال رموزها والكشف عن مؤلفاتهم المخطوطة والضائعة لمزيد التعرف إلى خصائص الثقافة العربية الإسلامية في عاصمة من عواصمها القيروان التي لم تكن أقلّ شأنا من الفسطاط أو الكوفة أو البصرة.

ابن الرقيق القيرواني
[القرن الرابع هـ/ العاشر م]

من أبرز أعلام التاريخ والأدب الذين ظهروا بإفريقية في القرن الرابع هـ/10م واسمه إبراهيم بن القاسم ويعرف بالكاتب الرّقيق القيرواني، أبو إسحاق والرّقيق لقب له وليس اسمه وهو من أبرز مؤرخي إفريقية وأدبائها في العهد الصنهاجي. كان واسع الثقافة والعلم غزير الكتابة والتأليف ميالا إلى التصنيف في علم التاريخ ويظهر ذلك مما وصفه به ابن خلدون حيث قال عنه إنّه: «مؤرّخ إفريقية والدول التي كانت بالقيروان ولم يأت من بعده إلاّ مقلد». وذكر حسن حسني عبد الوهاب أنّه «تولّى رئاسة الإنشاء في الدولة الصنهاجية مدّة خمس وعشرين سنة وكلّف بالسفارات المهمّة إلى الخلافة الفاطمية بمصر عدّة مرّات فكان موفقا في ذلك». وعرف عنه ميله في تآليفه إلى مزج فنون الأخبار والأدب بالتأريخ للأحداث، وفي ذلك قال عنه ابن رشيق «هو شاعر سهل الكلام محكمه، لطيف الطبع قويه، تلوح الكتابة على ألفاظه، قليل صنعة الشعر غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار وهو بذلك أحذق الناس وكاتب الحضرة منذ نيف وعشرين سنة إلى الآن». فهو بهذا يعترف له بشيء من الموهبة الشعرية، وإن كانت طريقته أميل إلى طريقة المؤرخين ومنهجه حجة في ذلك.

ويصعب أن نضع ترجمة متكاملة ودقيقة للرّقيق باعتبار قلّة المصادر المتعلّقة بسرد سيرته، وبيان أطوار حياته، والمراحل التي مرّ بها في وضع مؤلّفاته، ويمكن أن نقول ما قاله حسن حسني عبد الوهاب «إنّ غاية ما توصّلنا إلى معرفته من أنبائه أنّه ولد بالقيروان في منتصف القرن الرابع للهجرة بالتزامن مع انتقال الفاطميين من إفريقية إلى مصر عقب تأسيس القاهرة المعزّية، وإنّه بعدما قرأ وأتقن الفنون الأدبية باشر خطّة الكتابة، ولذلك سُمّي بكاتب الحضرة في الدولة الصنهاجية، واستمر في هذا الوظيف ما يقرب من نصف قرن يعني في أيّام المنصور بن يوسف ابن زيري، وابنه باديس وابنه المعزّ، وخلال تلك المدّة سافر مع أولئك الأمراء في حروبهم لقبائل المغرب الأوسط، وتوجّه مرّتين أو ثلاثا سفيرا عن مخدوميه الصنهاجيين إلى مصر بقصد تأكيد علائق الولاء التي تربط إمارة افريقية بالدّولة الفاطمية، فسافر سنة 386هـ / 996م من قبل المنصور، ثم في سنة 388هـ / 998م لتهنئة الحاكم بأمر الولاية، وقد حمّله الأمير باديس بن المنصور بهدايا ثمينة مع سجلّ التهنئة».

وحسب قصيدة احتفظ بها ياقوت الحموي في مؤلفه «معجم الأدباء» أقام مدة طويلة بالقاهرة التي يتغنى بملاذها في حنين أخّاذ، فقد ذكر الحسن بن رشيق في «أنموذج الزمان»: «وكان قدم مصر في سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة بهدية من نصير الدولة باديس بن زيري إلى الحاكم فقال قصيدة يذكر فيها المناهل».

وكما أنّ تاريخ ولادته غير محدّد فتاريخ وفاته كذلك غير معلوم ومن الصعب تحديده، فابن خلدون ينقل عنه حوادث جرت سنة (417هـ/1027م)، ومحمد الطالبي يحدّد تاريخ وفاته بأنه كان بعد سنة (417هـ/1028 ـ 1029م)

حيث تنقطع أخباره، وتقف عملية النقل عنه وذلك خلافا لبروكلمان الذي يحدّد تاريخ وفاته بسنة 340هـ/952م، ويرجح دارسون آخرون أن وفاة الرقيق كانت حوالي سنة (425هـ/1034م) أو بعدها استنادا إلى نقول ابن خلدون عنه، وإلى ما ذكره ابن رشيق من أنه كان «كاتب الحضرة منذ نيّف وعشرين سنة إلى الآن» يعني حدود عام (425هـ/1126م) وهو الوقت الذي ألف فيه ابن رشيق كتابه «الأنموذج».

وللرّقيق مؤلفات كثيرة غزيرة لا سيما في مجال علم التاريخ وتدوين الأخبار وذكر التحوّلات السياسية الكبرى التي عرفتها إفريقية وبلاد المغرب عامّة. وقد نقل عنه كل من أتى بعده وأثنى على جهوده في ذلك، غير أن هذه المؤلفات أتلف جلّها، أو هي لا تزال في عداد المفقود.

أمّا كتابه الأكثر شهرة: «**تاريخ افريقية والمغرب**» فإنه يقع في عدّة أجزاء، ومثّل عمدة أعمال ابن شداد، وابن الأثير (تـ 630هـ/1233م) وابن الأبّار (تـ 658هـ/1260م) والتجاني (تـ بعد 708هـ/1308م) وخاصة ابن عذاري المراكشي (حوالي 706هـ/1306ـ1307م) والنويري (تـ732هـ/1331م 1332م) وابن خلدون (تـ808هـ/1406م) والمقريزي (تـ864هـ/1443م). ويذكر المؤرخ محمد الطالبي: [يبدو أن السخاوي (تـ 902هـ/1497م) مؤلف «إعلان التبويخ بمن ذم التاريخ» والوزير السرّاج (تـ 1736م) في مؤلفه «الحلل السندسية» ينقلان عنه مباشرة] ويرى أنه رغم الإشارة بلا انقطاع إلى وجود هذا الكتاب في المكتبات الخاصة بالبلاد التونسية فإنّه في الواقع يبقى مفقودا، ويشكك الطالبي في تلك القطعة غير المنسوبة من تاريخ المغرب من حكم عقبة بن نافع إلى عهد إبراهيم الأول تلك التي اكتشفها المؤرخ المغربي محمد المنوني بالرباط ونشرت بتونس سنة 1967م، بتحقيق لمنجي الكعبي، وأعيد نشرها بتحقيق لعبد الله الزيدان وعز الدين عمر موسى (دار الغرب الإسلامي 1990)، ويرجح هذان المحققان نسبة هذه القطعة إلى الرقيق، مستندين إلى تشابه النصوص المنقولة عنه في المصنّفات اللاحقة، ويظهر ذلك من قولهما: [«ذكر ابن عذاري في مقدمة البيان (البيان المغرب) الرقيق ضمن مصادره، ونصّ على النقل عنه في عدّة مواضع، كما كشفت مقارنة نصوصه مع نصّ مخطوطنا (قطعة تاريخ إفريقية والمغرب) عن تماثل في كثير مما لم ينصّ فيه على أخذه من الرقيق، وتتطابق عباراتهما أحيانا، وتتشابه في أحيان أخرى... وفي تتبعنا نص المخطوط مقارنة «مع المخطوطات والمصادر الأخرى» وجدنا أنه ما إن ينقطع مصدر منها في مجاراة نصّ مخطوطنا حتى يسعفنا مصدر آخر بوصل ما انقطع عند الآخرين. وهذا يدلّ على شمولية المخطوط الذي بين أيدينا ويؤكد نسبته إلى الرقيق وأنه قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب الذي أخذت عنه تلك المصادر. ومما يؤكد هذا أن هذه القطعة، بالرغم من النقول المستفيضة عنها، لا تزال تنفرد بأخبار وأسماء أعلام وتعريفات بأماكن جغرافية لم ترد في سائر مصادرنا»].

ومن أشهر مؤلفات الرقيق كتابه «**قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور**» الذي حقّق جزءا كبيرا منه عبد الحفيظ منصور. وقد قال الرّقيق في مقدمة هذا الكتاب «... وأودعته من أمثال الحكماء ومنثور البلغاء ومنظوم الشعراء وأخبار الأدباء والظرفاء ما لا يستغني عنه شريف ولا يجوز أن يخلو منه ظريف، وليس في الأمور التي وقع فيها الحظر والإطلاق شيء اختلف الناس فيه اختلافهم في الأشربة، وما يحلّ منها وما يحرم على قدم الأيام ومع قرب العهد بالرسول عليه السلام وخيار الصحابة وكثرة العلماء الذين يؤخذ عنهم ويقتدى بهم... وجمعت لك فيها رأي العرب وشعرائها وشيئا من علم الفلاسفة وحكمائها». وقد ظهر أخيراً كتاب: «قطب

السرور» كاملا في طبعة علميّة متميزة محقّقة من قبل الدكتورة سارة بربوش بن يحيى، منشورات الجمل، بغداد - بيروت 2010 في 1248 صفحة.

ومن مؤلّفاته الأخرى:

- الاختصار البارع للتاريخ الجامع: ذكره الصفدي في «الوافي بالوفيات» وابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات».

- كتاب نظم السلوك في مسامرة الملوك، في أربعة مجلدات، ذكره ياقوت والصفدي وابن شاكر ولم يصل إلينا.

- كتاب الأغاني، في مجلد واحد، ذكره الصفدي وابن شاكر، وهو مفقود.

- كتاب النساء، في مجلد كبير، ذكره ياقوت والصفدي وابن شاكر.

- كتاب الراح والارتياح: وتوجد منه نسخة، وقد ذكره ياقوت والصفدي. وهو عند ابن شاكر «الروح والارتياح» وهو ما ورد في النسخة الموجودة على أن تشابه موضوع هذا المصنّف مع "قطب السرور" ربما يوحي بأن أحدهما جزء من الآخر، فالأول مجمل والثاني مفصّل أو العكس.

- معاقره الشراب: ذكره المقري في «نفح الطيب» واقتبس عنه، ويظهر مما أورده المقري في خصوص هذا الكتاب أنه مأخوذ بشيء من الاختصار عن "قطب السرور".

أبو القاسم بن زيتون

[620 - 690 هـ / 1223 - 1291م]

أبو الفضل أبو القاسم بن أبي بكر ابن زيتون، تلقّى في أوّل تكوينه العلمي ثقافة فقهية دينيّة تقليديّة، غير أنّه سرعان ما حذق أصول علم المنطق وقرأ كتب الفلاسفة والصّوفية وغلبت على اهتمامه مباحث الحكمة. وهو ما كان سببا في شهرته. يقول الغبريني في «عنوان الدراية»: «له علم بأصول الفقه والعقائد الكلامية، والفقه والخلاف، والجدل والمنطق، وله مشاركة في الحكمة، وفقهه جار على قوانين النظر والاجتهاد، وله فصاحة في الايراد وبراعة».

تلقّى تعلّمه بتونس على أيدي شيوخ كثيرين منهم أحمد بن طلحة المعروف بابن عليم الأنصاري السبتي نزيل تونس، وابن القاسم بن البرّاء، ثمّ ارتحلّ إلى المشرق مرّتين الأولى سنة 648هـ/1250م أخذ فيها الأصلين علم أصول الفقه وعلم أصول الدين عن تلميذ العالم فخر الدين الرازي (ت606هـ) صاحب «مفاتيج الغيب» وتلميذه هذا هو شمس الدين الخسروشاهي، وسمع العلم من علماء وفقهاء آخرين.

وفي سنة 656هـ/1258م أقام في القاهرة بالمدرسة الضيائيّة، وبمدرسة الصاحب ابن شكر ثم حجّ ورجع إلى تونس. ويستفاد من كلام ابن خلدون أنّه جاء بمنهج جديد في التّعليم استمرّ في أغلب أرجاء المغرب العربي. وذلك في قوله: «وبعد انقراض الدولة بمرّاكش ارتحل إلى المشرق من إفريقية القاضي أبو القاسم بن زيتون لعهد المائة السابعة... فأدرك تلاميذ ابن الخطيب، فأخذ عنهم وأتقن تعليمهم، وحذق في العقليات والنّقليات ورجع إلى تونس بعلم كثير وتعليم حسن».

وابن زيتون هو الذي تولّى كتابة الصّلح المنعقد بين المستنصر الحفصي ولويس التاسع ملك فرنسا، ومعاهدة الصّلح هذه توجد نسختها الأصليّة بوزارة الخارجيّة الفرنسيّة.

وعرف بزهده وأخلاقه وورعه، وكان يتّخذ العصافير في الأقفاص لسماع نغماتها فإذا مضت عليها مدّة ستة أشهر أطلقها.



علي بن سالم
[1910 ـ 2001م]

ولد الرّسام علي بن سالم في 25 ديسمبر 1910، درس بمدرسة الفنون الجميلة بتونس سنة 1930 على أرمان فارجو. وقد امتاز في بداياته بتعلّقه بعادات بلاده التي تركت صدى في لوحاته الأولى. وكان أوّل معرض له في روتندا الكوليزي بتونس سنة 1934. وقد حصل على جائزة دولة «الحماية» التونسية سنة 1936 وكذلك على الجائزة الأولى في معرض منمنمات أفريقيا الشمالية. سافر إلى فرنسا وأقام بباريس وفيها تعرّف على اتجاهات الرسم الحديث وهناك أقام عدّة معارض وكذلك زار ستوكهولم عاصمة السويد.

وعند عودته إلى تونس سنة 1941 اضطع بتدريس الرسم بمعهد الفنون بصفاقس الذي أسّسه هناك سنة 1944. وفي سنة 1950 هاجر إلى السويد وفيها تزوّج بالفنانة نيلسون كريستين. وأمضى في هذا البلد قرابة الأربعين سنة. ثمّ عاد إلى تونس سنة 1970 واستقرّ بمدينة الحمّامات إلى أن توفّي في 20 فيفري 2001.

قراءة في رؤى علي بن سالم :

يعتبر علي بن سالم من أهمّ روّاد الرسم بتونس. وقد أظهر منذ بداياته اهتماما بالغا بالمنمنمة العربية الإسلامية (Miniatures) وانتبه إلى الفضاء التشكيلي الذي يميّزها، وهو فضاء امتاز بتسطّحه وعدم اعتماده الإيهام بالحجم والعمق المنظوري الأمر الذي جعلها تختلف اختلافا جوهريا في مستوى التعامل مع تمثيل الواقع الحسّي أو الخيالي، عن فنّ عصر النهضة الأوروبيّة الذي اعتمد فيه المنظور الهندسي الأقليدي الموهم بالأبعاد الثلاثة. ورغم أنّ بدايات علي بن سالم من حيث الموضوعات متّفقة مع بدايات الروّاد التونسيين والأوروبيين في محاولتهم إظهار الواقع المحلّي وما يمتاز به من مشاهد يوميّة لها علاقة بالمحيط التونسي معمارا وعادات وتقاليد فإنّ طرحه لهذه الموضوعات من حيث الشكل والتشكيل كان مختلفا إذ منذ سنة 1937 بدأ يظهر في أعماله نزوع إلى تصوير المرأة ذات الملامح الجمالية الكونية تلك التي يظهر فيها تأليف لمراجع فنّية بصرية مختلفة، مصرية وفارسية وعربية وهندية وحتى غربية، وذلك في أوضاع تذكّر بالأوضاع التي لها في المنمنمات العربية الإسلامية إذ ترتسم صورة هذه المرأة في "حيّز منمناتي" تتخذ فيه النباتات والحيوانات أوضاعا لا علاقة لها بالواقع المرئي، إذ هي تسكن وتتحرّك في انفتاح يتجاوز الحسّ الذاكراتي الهندسي البصري ويلتحم بالحسّ الذاكراتي الروحي، فهي تتحرّك من أعلى إلى أسفل ومن اليمين إلى اليسار وتتقدّم وتتأخّر في الآن نفسه وهي بذلك تنشّط كامل الفضاء عبر تأليف انتشاري تدعمه الزخارف النباتية التي تنتشر هي أيضا مذكّرة بلوحات ماتيس (Matisse) التي أنجزها بين سنتي 1910 و 1911.

وإذ لا يخفي ماتيس تأثّره بالفنّ الشرقي في هذه اللوحات فإنّ علي بن سالم يظهره رسما فيرسم الأعين على الطريقة الفرعونية القديمة، عينا جانبية على وجه مواجه كما أنّه يستعمل ألوانا مائية ترابية ورمادية ستزداد بريقا في أعمال لاحقة.

لقد نظّم علي بن سالم لوحاته في هذه الفترة على مستوى البنية تنظيما كلاسيكيا متوازنا لكنّه على مستوى التأليف تجاوز هذه البنية ووزّع عناصره التشكيلية من كائنات إنسانية وحيوانية ونباتية توزيعا حرّا لا يلتزم فيه بمقتضيات الفضاء الكلاسيكي وما تحتّمه خطوط ونقاط الهروب فيه، بل جعل هذه العناصر مساحية مسطّحة تتقدّم وترتسم تقريبا في نفس

المستوى، وهذا أمر يدعو إلى التأمّل وكأنّنا بالرّسام على علم لا فقط بمنظومة التأليف في المنمنمة الشرقية بل أيضا في الرسم الحداثي الذي مثّله الوحوشيون وماتيس بوجه عام.

ويتعزّز هذا الاتّجاه في لوحته الثلاثية التي أنجزها سنة 1941 وهي لوحة رغم اعتمادها على مستوى الموضوعات على المشاهد المحليّة التي تذكّر بالمظاهر الفلكلورية الشعبية (المرأة الحاملة للجرّة - الجمل - الشيخ العازف على آلة الناي) باعتبارها مظاهر تتواتر في رسم النصف الأول من القرن العشرين في تونس سواء لدى جماعة مدرسة تونس أو عند الفنّانين الأوروبيين بوجه عام، ورغم أنّ ملامح النساء والرجال تذكّرنا أيضا بملامح الوجوه التي نجدها في رسوم الزّبير التركي فقد نظّم علي بن سالم هذه المشاهد "المحلّية النمطية" تنظيما تصاعديا حيث تظهر المستويات الأولى في أسفل اللوحة وتظهر الأخيرة في أعلاها. وهذا تذكير واضح بالمنظور التصاعدي الذي اعتمد في المنمنمات الشرقية العربيّة والفارسيّة والتركيّة وكذلك في رسوم القرون الوسطى بأوروبا. ولا يعتمد الرّسام علي بن سالم على هذا المنظور من جهة التذكير بهذه المنمنمات بل معاملة عناصر الواقع الذي يظهر الوعي بها في الرسم مختلفا عنها في الواقع، كظهور الأسماك السابحة في الماء على نحو مواجه للعناصر الموجودة على اليابسة والمنعكسة في هذا الماء ومندمج فيها.

يحيل هذا التصوّر على أسلوب مدرسة بغداد في القرن الثالث عشر ميلادي إضافة إلى إظهار النّباتات التي تنبت في كل مكان على أنّها نمطية لا هويّة لها توجد ممثّلة بكثرة في منمنمات الواسطي وفي المنمنمات الشرقية عامّة.

إذن على الرغم من كبر حجم اللوحة المؤرّخة في عام 1941 فقد التزم فيها علي بن سالم بالتأليف "المنمنمي" على مستوى البنية والتوزيع ولم يختلف عنها إلاّ في مستوى الألوان التي كانت رمادية متقاربة الدّرجة وعجينيّة المادّة وكذلك في مستوى العناصر المشهدية التي وإن كانت مسطّحة ولا يعتمد في تصويرها الإيهام بالحجم فقد كانت ألوانها مندمجة ولا يظهر متباينا فيها إلاّ الأبيض. وكأنّ الرسّام تتحاور في ذاكرته عدّة رؤى، رؤى محليّة تجد صدى الفنّانين المعاصرين له فيها ورؤى شرقية مسيطرة ولكنّها مختلطة برؤى غربية استلهمها، إذ يوجد في الوقت نفسه الرّسامون التونسيون الزّبير التركي وصفية فرحات وعبد العزيز القرجي مندمجين في فضاء "واسطي" يعاملونه بأسلوب "ماتيس" واضح.

قبل ظهور هذا العالم الذي تبدو بداياته في نهاية ثلاثينات القرن العشرين كان علي بن سالم يعمل بأسلوب مغاير تماما ففي سنة 1934 ظهرت لوحاته التي عالج فيها موضوعات المهن غير مختلفة كثيرا عن لوحات زميله يحيى التركي. فقراءة تشكيلية للوحاته في هذه الفترة تبرز رغبة الرسّام في نقل الواقع الحسّي على نحو يراوح فيها بين المنظور الخطّي الكلاسيكي المحدّد للفضاء المفتوح عبر احترام واضح لتتابع المستويات أفقيا وفق خطوط الهروب ونقاطه واعتماد منظومة هندسية ترتسم فيها العناصر لتبدو موهمة بالحجوم. وهنا يبدو التزام واضح للرسّام باتّباع القواعد العامّة للتّمثيل الكلاسيكي وإلى جانب هذا الالتزام يتحرّر الرسّام من الدقة المتناهية ويعالج عناصره المكوّنة للمشهد لونيّا ونسيجيّا ببساطة تبدو فيها العفوية ظاهرة. وربّما يكون من التعسّف المقارنة بين معاملة علي بن سالم اللّونيّة والنّسيجية في علاقتها بالخطّي ومعاملة الفنّانين المحدثين في الغرب الأوروبي من أمثال سيزان وماتيس اللّذين أعطيا للخطّ المحيط بالأشكال أهميّة وجعلاه يتظهّر بوضوح وحضور لافت للانتباه، كما أوليا أيضا أهمية لعدم اكتمال الشّكل في علاقته باللون في هذه العناصر نفسها، إلى جانب تنويعهما لنسيجيّة المادّة اللّونية التي بدت مسطّحة حينا وعجينيّة حينا آخر، مائعة ومشبعة في بعض الأحيان. فهل

كان الرسّام علي بن سالم متّبعا لهذه الطريقة عن وعي بالإشكالية المعرفية التي طرحتها الحداثه الفنيّة أم هل كان رسمه مباشراتيا صادرا عن حسّ شخصي لا علاقة له بإشكالية الأسلوب الحداثي للرسم في بداية القرن، الأمر الذي يمكن أن يقال عن معاملة يحيى التركي للمسألة ذاتها؟.

سؤال من الصعب الإجابة عنه رغم وجود الكثير من العناصر التي تدفع إلى المقارنة كوجود السّلحفاة والمزهرية والزربية في وضعها الزخرفي إلى جانب الجدار المزيّن بمربّعات الخزف كما نجد عند ماتيس.

لاشكّ في أنّ علي بن سالم قد انصهر في منظومة الرسم الذي أراده أن يكون "تونسيا" كغيره من الرسّامين المعاصرين له في هذه الفترة وقد كان "تونسيا" حسب المعايير والمقاييس التي أرادها له النقّاد والفنّانون سواء كانوا تونسيين أو أوروبيين يعيشون في تونس قبل الاستقلال، وذلك نوع من المواجهة لرسم يتطوّر في أوروبا ويسعى للتخلّص من معوّقاته الإيبستيمولوجية ليصبح بحثا في المطلق، بحثا معرفيا في إمكانات الإبصار. وقد تدعّم هذا الانصهار في منظومة الرسم "التونسي" بالاهتمام الذي كان له بالتراث عندما عمل في بداية السّنوات الثلاثين من القرن العشرين في متحف الفنون المحلية (بدار المستيري) دارسا وجامعا ومحافظا على تقنيات الفنون التقليدية القديمة التي كلّف بإعادة تحقيقها وإنجازها فكان لذلك تأثير في مسيرته الأولى في فنّ الرسم وأنجز عدّة رسوم توجد الآن بمتحف الديوان الوطني للصناعات التقليدية.

ويظهر من خلال أعماله منذ الأربعينات أنّ علي بن سالم رغم أنّه لم يفارق هذا العالم المشهدي فإنّه قد حوّل وجهته نحو معاملته في حيّز تشكيلي امتاز بالتجاوز ذي المنحى الخيالي والرمزي، الذي استقرّ في أسلوب أصبح يعرف به إلى حين وفاته. وهو الأسلوب الأكثر دلالة على توجّه الرسّام التشكيلي والجمالي.

لقد أثّث هذا الأسلوب الأخير بما يشتمل عليه من موضوعات وتعامل تشكيلي لوحات علي بن سالم وفسيفسياته ومنسوجاته التي أنجزتها زوجته كريستين وهو أسلوب اختصّ به ابن سالم دون غيره ويجد إرهاصات مرجعياته الأولى في أعماله المنتمية إلى نهاية الثلاثنيات وبداية الأربعينيات. ويمكن أن يطلق على فضاءاته الحاملة لرؤاه في هذه الفترة المتّصلة حلقاتها على مدى حوالي النصف قرن بالفضاء "الفردوسي"، إذ حافظ فيه الرسّام على أشكاله النّمطية وهي نسائه الجميلات وغزلانه وطيوره ونباتاته وزهوره محافظة غريبة يبدو فيها مكرّرا في تنوّع لافت للانتباه وكأنّ الناظر إلى أعماله في هذه الفترة الطويلة التي قضّى أغلبها في عاصمة السويد يدرك عالما فسيحا من الأشكال الواحدة التي تتنوّع وتختلف وتتحرّك وتثبت في الآن نفسه، أشكال تتوزّع بانتظام هيئات تلتحم بالتصوير الحرّ إذ تلتزم بمراكز اهتمام لا بمراكز ثقل ولا بأبعاد منظوريّة محدّدة بل تتحكّم فيها هندسة اللون المندمج بالخطّ تارة والمحدّد به تارة أخرى. وقد اعتمد الرسّام في هذه الهندسة اللونية على القيم المتباينة في هدوء حينا وفي صخب حينا أخر. هي ألوان وردية ولازوردية، بنفسجية وبرتقالية مائية شفافة ومسطّحة كامدة، هادئة وساطعة ويبدو أنّ هذه الألوان وهذه المعالجات النسيجيّة قد طغت على كائناته الفردوسية التي أصبحت نمطية تيبولوجية وغدت من ثمّة مولّدة لها ومحدّدة، وكأنّ الرسّام يرسم المرأة نفسها والأزهار نفسها والغزلان نفسها والطيور نفسها، لذلك فقدت صفة الهويّة الخاصة والخصوصية وعانقت الهويّة المطلقة، وأصبحت موضوعات للرسم مطلقة تنتمي إلى عالم الجواهر لا إلى عالم المحسوسات.

لذلك، عندما تتحوّل إلى عالم الفسيفساء تتحوّل ألوانها إلى ترابية ورمادية وتلتزم بألوان الكاماي التي تفرضها الأحجار الطبيعية وعندما تنتقل إلى عالم المنسوجة تتغيّر طبيعتها بحكم

طبيعة الصّوف التي تبحث زوجته كريستين في ألوانه. وفي بعض الأحيان يتخلّى الرسّام عن اللون تماما ويقدّم شخوصه على فضاءات منشّطة بالخطّ الأسود، الذي يصبح لديه ذا حسية ذبذبية بحكم تنوّعه وطبيعة الشخوص المتحرّكة والمتذبذبة التي يظهرها تصويرا ورسما.

وأخيرا يظهر من خلال هذه المسيرة الأخيرة أنّ علي بن سالم أصبح في رسمه يصلّي صلاة يوميّة الخشوع نفسه لكنّ ذكره يتغيّر رغم محافظته على الكلم ذاته.

محمد بن سحنون

[202ـ256هـ/ 817ـ870م]

محمّد بن سحنون بن سعيد بن حبيب التنّوخي الذي تتّفق كتب التّراجم على أنّ أباه هو الإمام عبد السّلام سحنون (160 ـ 240هـ/776 ـ 854م).

ولد بالقيروان سنة 202هـ/817م، ونشأ بين يدي أبيه سحنون، وعليه أخذ العلم. نقل لنا، عن أبي العرب، المؤرّخ القيرواني عبد اللّه بن محمّد بن عبد اللّه المالكي الرّواية التّالية: قال: «كان (أي محمّد بن سحنون) إماما ثقة عالما بالمذهب (مذهب أهل المدينة) عالما بالآثار، لم يكن في عصره أحد أجمع لفنون العلم منه، فيما علمت، ألّف في جميع العلوم وفي المغازي والتّاريخ. وكان والده قد تفرّس فيه الإمامة، إذ يقول: «ما أشبّهه إلاّ بأشهب»، وكان والده يقول لمعلّمه: «لا تؤدّبه إلاّ بالمدح ولطيف الكلام، ليس هو ممّن يؤدّب بالضّرب والتّعنيف، فإنّي أرجو أن يكون نسيج وحده، وفريد أهل زمانه، وأتركه على نحلتي، وأخاف أن يكون عمره قصيرا». فكان كما قال أبو سحنون!

فكلّ من ترجم له، لا يختلف في تربيته، ولا في تعليمه في كنف والده الذي بوّأه مكانة خاصة لأنّه توسّم فيه، منذ الصغر، استعدادا واضحا، وذكاء مبكّرا. وبعد أن حفظ القرآن والعلوم الضروريّة، انتقل، بعد ذلك، إلى الدّراسة العالية فسمع من أبيه وتفقّه على يديه، وكان يناظره في شتّى المسائل العلميّة. قال القاضي أبو الفضل عياض راويا عن يحيى بن عمر: «كان ابن سحنون من أكثر النّاس حجّة وأثبتهم لها. وكان يناظر أباه. وكان يسمع بعض كتب أبيه في حياته، يأخذها النّاس عنه قبل خروج أبيه، فإذا خرج أبوه قعد مع النّاس يسمع معهم من أبيه». [انظر: المدارك ـ تراجم أغلبية مستخرجة من المدارك للقاضي عياض ـ تحقيق محمد الطالبي، ص 171].

وقد أخذ العلم وسمع عن موسى بن معاوية الصمادحي، وعبد العزيز بن يحيى المدني، وسعد اللّه بن أبي حسّان اليحصبي (تلميذ مالك) وغيرهم كثير حتّى أصبح النّاس «يحلّقون عليه بعد حلقة أبيه. وكان يؤلّف في حياة والده الذي كان يقول له: يا محمّد، احذر أهل العراق فإنّ لهم ألسنة حدادا، وإيّاك أن يغلط قلمك فتعتذر فلا يقبل عذرك» [الدبّاغ: معالم الإيمان، ج 2، ص 80].

وفي سنة 235هـ/849م، رحل إلى المشرق لأداء فريضة الحجّ وطلب العلم، كعادة رجال التّعليم والشّريعة المغاربة في ذلك الزّمان. وقبل سفره، نصحه والده قائلا: «إنّك تقدم على بلدان سمّاها إلى أن تقدم إلى مكّة فاجتهد جهدك، فإن وجدت عند أحد من أهل هذه البلدان مسألة خرجت من دماغ مالك بن أنس وليس هي عند شيخك ـ يعني نفسه ـ فاعلم أنّ شيخك كان مفرطا».

وعندما نزل محمّد بن سحنون بمصر، استقبله أعلام الفقهاء والعلماء، ومنهم أبو رجاء أشهب الذي ترجّاه أن ينزل عنده ضيفا ففعل. ولمّا جلس من الغد بجامع عمرو في الفسطاط (عاصمة مصر آنذاك)، أتاه علماء مصر يسلّمون عليه وقد حلّقوا عليه وسألوه، نذكر منهم المزني صاحب الإمام الشّافعي الذي أطال الجلوس معه،

«فلمّا خرج المزني قدّمت إليه دابته ليركب، فقيل له: «كيف رأيته؟ قال: لم أرَ - واللّه - أعلم منه ولا أحدّ ذهنا». وأضاف الدبّاغ وعياض: وعلى حداثة سنّه وكان إذ ذاك ابن خمس وثلاثين سنة.

ومن الذين أخذ عنهم محمّد بن سحنون في مصر، عبد الرّحمان ابن القاسم خاصة، وابن ذهب، وأشهب، وابن عبد الحكم، وشعيب بن اللّيث، ويوسف بن عمر...

ولقي في المدينة رواة الحديث وأصحاب مالك، زيادة عن مصعب الزّهري، وسلمة بن شبيب النّيسابوري، ويعقوب بن حميد بن كاسب، كما أخذ عن عبد اللّه بن عبد اللّه بن نافع، وأنس بن عياض، وابن الماجوش وغيرهم.

وهكذا يمكن القول، إنّ هذه الرّحلة المشرقيّة كان لها أثر بالغ في حياة محمّد بن سحنون، الدّينية والعلميّة، فرجع بعدها إلى القيروان مزوّدا بتجربة ثريّة وعلم غزير، ليشعّ بهما لا في إفريقية فحسب بل في المغرب كلّه والأندلس أيضا.

قال ابن الحارث: كان محمّد بن سحنون «من الحفّاظ المتقدّمين المتصرّفين. وكان كثير الكتب، غزير التّأليف، له نحو مائتي كتاب في فنون العلم. ولما تصفّح محمّد بن عبد اللّه بن عبد الحكم كتابه «المجموع» في الفقه المالكي وكتاب ابن عبدوس «المجموع» قال في كتاب ابن عبدوس: هذا كتاب رجل أتى بعلم مالك على وجهه» وقال في كتاب ابن سحنون: «هذا رجل سبح في العلم سبحا».

وذكر للقاضي إسماعيل بن إسحاق، مرّة، ما ألّفه العراقيّون من الكتب فقال: «عندنا من ألّف في الجهاد عشرين جزءا، وهو محمّد بن سحنون، يفخر بذلك على أهل العراق» [المدارك لعياض، ص 171].

وعلى الرّغم من اطّلاع المالكيّة في المشرق، وفي العراق بالذّات، على مؤلّفات محمّد ابن سحنون، فإنّ كتبه انتشرت أكثر في المغرب والأندلس. وقد تداولها طلاّب العلم ورواته في هذه الأمصار. ويكفي أن نذكر أنّ ابن حزم (توفّي سنة 456هـ/1063م) أشار في رسالته «فضل الأندلس» إلى اطّلاعه على كتاب ابن سحنون.

كتابه «آداب المعلّمين»

يعتبر «كتاب آداب المعلّمين» مما دوّن محمّد بن سحنون عن أبيه من أقدم الكتب في التّربية والتّعليم في الإسلام، ومن أمتع الكتب التّربويّة. فقد ألّفت رسائل وكتب عدّة في التّربية الإسلاميّة، وهي على أهمّيتها، متأخّرة عنه، وكان له فضل السّبق عليها. ولأهمّيته هذه، حظي بالنّشر مرّات عدّة. والنّسخة الخطيّة التي اعتمدت أصلا في تحقيق «كتاب آداب المعلّمين»، قد جاءت في مجموع خطّي كان محفوظا بمكتبة الشيخ بلحسن النّجار، مفتي الديار التّونسيّة سابقا، ثمّ انتقلت إلى المكتبة العبدليّة التّابعة لجامع الزّيتونة الأعظم وحفظت تحت رقم 10040/5 - وهي خامس قطعة ضمن مجموعة تبدأ من الورقة 112 وتنتهي بالورقة 118. ولمّا قرّرت كتابة الدّولة للشؤون الثّقافية سنة 1968، نقل مخطوطات العبدليّة والصّادقيّة والمكتبات الأخرى إلى دار الكتب الوطنيّة، حفظا للتّراث، نقل «كتاب آداب المعلّمين» معها وحفظ تحت رقم 8787/5.

حظي «كتاب آداب المعلّمين» بالنّشر، نظرا إلى أهمّيته القصوى وريادته فكان العلاّمة حسن حسني عبد الوهاب أوّل من نشره [ط / تونس - مطبعة العرب، 1350هـ / 1931م]. وعن هذه النّشرة، ترجمه إلى الفرنسيّة ج. لوكنت Gérard Lecomte ونشر في «مجلة الدّراسات الإسلاميّة» [مجلّد 21، 1953 - ص: 77 - 105]. وقد اعتمد حسن حسني عبد الوهاب على النّسخة التّونسية فقط لأنّه «لم يصل إلى علمه - بعد البحث الحثيث - أنّ هناك نسخة ثانية في البلاد الإفريقية ولا في غيرها». لكنّنا وقفنا على نسخة ثانية بالإضافة إلى النّسخة التّونسية (رقم 8787/5) محفوظة في الخزانة العامة بالرّباط

تحت رقم (85/ق). وبعد المقارنة، ثبت لدينا ثبوتا قطعيّا، أنّ النّسخة الثّانية لا يعتدّ بها لأنّها مليئة بالتّحريف، والتّصحيف، وفيها من المحو والبياض الكثير. ونظرا إلى أنّ طبعة حسن حسني عبد الوهاب قد نفدت، منذ حوالي نصف قرن، فقد عمدنا إلى إعادة نشرها حسب طرائق التّحقيق العلمي الجاري به اليوم. (طبعة الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر).

ولا بدّ من التّذكير بأنّ «كتاب آداب المعلّمين» يختصّ بالبحث في شؤون التّعليم المتعلّقة بالصّبيان فقط فيذكر المؤلّف المكان الذي يتلقّون فيه العلم وهو الكتّاب (ج. كتاتيب). إذن، يمكن أن نعتبر كتاب ابن سحنون الأساس الذي يعتمد في تعليم الصّبيان منذ فجر الإسلام حتّى أواسط القرن الثالث الهجري (القرن التّاسع الميلادي) وهو أيضا مرآة للعصر الذي عاش فيه المؤلّف، لكنّنا لا نستطيع أن نعرف بالضّبط السّنة اللّتي ألّف فيها الكتاب المذكور. أمّا إذا نظرنا إلى قائمة المراجع التي ذكرتها التّراجم، فيمكن التّخمين أنّه من أوائل الكتب الّتي ألّفها محمّد بن سحنون.

ومن المفيد عرض ما ورد في «كتاب آداب المعلّمين» من المسائل والقواعد الّتي تحكم المعلّمين بالمتعلّمين والعكس، أي تقديم محتوى الكتاب من خلال عرض المسائل الأساسيّة الّتي يتضمّنها وهي:

– ما جاء في تعليم القرآن الكريم،
– ما جاء في العدل بين الصبيان،
– باب ما يكره محوه من ذكر اللّه تعالى وما ينبغي أن يفعل من ذلك،
– ما جاء في الأدب وما يجوز من ذلك وما لا يجوز،
– ما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلّم،
– ما جاء في القضاء بعطيّة العيد،
– ما ينبغي للمعلّم أن يخلّي الصّبيان فيه،
– ما يجب على المعلّم من لزوم الصبيان،
– (ما جاء في إجازة المعلّم ومتى تجب)، وهذا العنوان هو من ح. ح. عبد الوهاب، ولم يلاحظ عليه في تعليق.
– (ما جاء في إجازة المصحف وكتب الفقه وما شابهها)، وهذا العنوان غير وارد في الأصل وقد وقع إقحامه إقحاما في الطبعة الأولى، ص 60، دون أيّة إشارة.

ومن الثّابت تاريخيّا أنّ «كتاب آداب المعلّمين» اللطيف الحجم، الطريف الموضوع، قد عرفه عدد من مشاهير العلماء والباحثين، قدماء ومحدثين، ونقلوا عنه واستفادوا منه، من بين هؤلاء:

– أبو إسحاق الجبنياني (توفّي عام 369هـ/979م) - كما أورده مترجمه أبو القاسم اللّبيدي، وكما ذكره عياض في المدارك، وأبو بكر بن خير الأندلسي في: فهرست مرويّاته.

– أبو الحسن القابسي (توفّي سنة 403هـ/1012م) نقل عن «كتاب آداب المعلّمين» نقلا يكاد يكون حرفيّا في بعض المواضع، وباختلاف يسير في مواضع أخرى، كحذف السنّد عن رأي أو رواية فقيه أو تغيير في العبارة دون إخلال بالمعنى. ولكن القابسي «لم يكتف بما أخذه عن «كتاب آداب المعلمين» بل نقل عن الفقهاء الذين أخذ عنهم سحنون وابنه كابن القاسم وابن وهب وغيرهما»، هذا ما أكّده أحمد فؤاد الأهواني مضيفا إلى ذلك قوله: «فإذا كان لابن سحنون فضل الصّدارة في تحرير كتاب خاص في تعليم الصبيان فللقابسي مزيّة التوسّع في هذا الموضوع، والإضافة في أبوابه المختلفة، والتّرتيب الذي يدلّ على استقرار فكرة التّعليم في الذّهن، والعمل على بيان السبل المختلفة المؤدّية إلى تحقيق الغاية المنشودة منه».

– أمّا ابن خلدون (توفّي في 26 رمضان سنة 808/16 مارس 1406) فقد نقل في مقدّمته عن «كتاب آداب المعلّمين» عندما قال - في باب أنّ الشدّة على المتعلّمين مضرّة بهم -: «وقد قال محمّد - كما أورده ابن خلدون، بدل عبد اللّه، كما زعم حسن حسني عبد الوهاب، ابن أبي

زيد في كتابه الذي ألّفه في حكم المعلّمين والمتعلّمين: «لا ينبغي لمؤدّب الصبيان أن يزيد في ضربهم على ثلاثة أسواط شيئا». ويبدو أنّ ابن خلدون قد اشتبه عليه اسم المؤلّف ولكنّه لم ينسب «كتاب آداب المعلّمين» إلى العالم القيرواني عبد اللّه ابن أبي زيد القيرواني صاحب «الرسالة». ومن المحتمل أن يكون ابن خلدون قد أخذ عن كتاب أبي الحسن علي بن محمّد بن خلف القابسي (توفّي سنة 403هـ/1012م): «الرّسالة المفصّلة لأحوال المعلّمين وأحكام المتعلّمين» غير أنّ ابن خلدون ذكر تقريبيا عنوان الكتاب الذي أخذ عنه. وهو ما يجعلنا نعتقد أنّه كتاب أبي الحسن القابسي. وليس مستحيلا أن يكون ابن خلدون قد استفاد من «كتاب آداب المعلّمين»، إلى جانب نقله عن كتاب القابسي. وهذا على أهميّته المحدودة يحتاج إلى بحث خاص.

ومن المحدثين الذين استفادوا من «كتاب آداب المعلّمين»، إثر نشره من حسن حسني عبد الوهاب، نذكر أحمد فؤاد الأهواني ومحمد أسعد طلس وعبد الرحمان عثمان حجازي.

وخلاصة القول أنّ «كتاب آداب المعلّمين» لمحمّد بن سحنون يعتبر أقدم كتاب في التّربية والتّعليم في الإسلام. ولعلّه أوسع ما أثّر في الخزانة العربيّة من كتب التربية والتّعليم لأنّه يحتوي على عدّة نصوص تبيّن لنا كثيرا من الأوضاع والأحوال الّتي نجهلها عن تربية الطفل، وتأديبه، وتعليمه، وتهذيبه في فجر الإسلام، وعصر بني أميّة وأوائل العصر العبّاسي. والكتاب قد أزاح الستار عن معلومات كان لا بدّ من أن تكون موجودة لدى المسلمين، ولكنّنا كنّا نجهل تفصيلها فإذا بمحمّد بن سحنون يرويها لنا عن أبيه عن شيخه مالك بن أنس، إمام المدينة، وعن غيره من الأئمّة الأعلام والشيوخ الذين عرفوا، عن كثب، طرائق التّربية الإسلاميّة.

إسحاق بن سليمان

[236–341هـ/850–953م]

هو من مؤسّسي المدرسة الطبّية القيروانيّة التي ازدهرت بفضل الأطبّاء الثّلاثة: إسحاق بن عمران وإسحاق بن سليمان وأحمد بن الجزّار.

ولد أبو يعقوب إسحاق بن سليمان في مصر حوالي سنة 236هـ /850م في عائلة يهودية.

تعلّم الطبّ منذ الصّغر. وسرعان ما اشتهر به. وشاع ذكره طبيبا كحّالا. فاستقدمه إلى القيروان الأمير زيادة الله الثّالث آخر الأمراء الأغالبة سنة 293هـ/905م. وقد روى ابن أبي أصيبعة نقلا عن ابن الجزّار في كتابه أخبار الدّولة (وهو كتاب مفقود لم يعثر عليه إلى اليوم) قصّة وصول إسحاق بن سليمان إلى بلاط الأمير. فقال: (حدّثني إسحاق ابن سليمان المتطبّب قال: لما قدمت من مصر على زيادة الله بن الأغلب وجدته مقيما بالجيوش في الأربس، فرحلت إليه. فلمّا بلغه قدومي (وقد كان بعث في طلبي وأرسل إليّ بخمسمائة دينار تقوّيت بها إلى السّفر)، فدخلت إليه ساعة وصولي، فسلّمت وفعلت ما يجب أن يفعل للملوك من التعبّد. فرأيت مجلسه قليل الوقار، والغالب عليه حبّ اللهو وكلّ ما حرّك الضحك. فابتدأني بالكلام ابن خنيس المعروف باليوناني، فقال لي: تقول إنّ الملوحة تحلو. قلت نعم. قال: وتقول إنّ الحلاوة تحلو. قلت نعم. قال لي: فالحلاوة هي الملوحة، والملوحة هي الحلاوة! فقلت: إنّ الحلاوة تحلو بلطف وملائمة، والملوحة تحلو بعنف. فتمادى على المكابرة وأحبّ المغالطة. فلمّا رأيت ذلك قلت له: تقول أنت حيّ؟ قال نعم. قلت: والكلب حيّ؟ قال نعم. قلت: فأنت الكلب والكلب أنت! فضحك زيادة الله ضحكا شديدا. فعلمت أنّ رغبته في الهزل أكثر من رغبته في الجدّ).

واستوطن إسحاق رقّادة. وتتلمذ للطّبيب

المشهور إسحاق ابن عمران ببيت الحكمة. وأكمل إسحاق معارفه في الطبّ حتى أصبح يدرّسه ويعلّمه غيره. ولعلّ أبرز تلاميذه أحمد بن الجزّار الذي ذكره في مؤلّفاته ونقل عنه الأدوية الكثيرة.

وكان إسحاق بن سليمان عالما موسوعيّا. وفي ذلك قال ابن أبي أصيبعة إنّه كان مع فضله في صناعة الطبّ بصيرا بالمنطق متصرّفا في ضروب المعارف.

وبعد وفاة آخر الأمراء الأغالبة وتولّي العبيديين الحكم، بقي ابن سليمان في خدمة الإمارة. ونال لديهم جميعا كلّ تقدير وتبجيل.

وعاش ابن سليمان طويلا إلى أن تجاوز المائة سنة، حسب ما أورده ابن أبي أصيبعة وكذلك ابن جلجل الذي قال أيضا إنّه عاش مائة سنة ونيفا. ولم يتّخذ امرأة ولا أعقب ولدا.

ويقول ابن أبي أصيبعة إنّه مات قريبا من سنة 320هـ. ولكنّ من الثابت أن وفاته كانت بعد سنة 341هـ/953م، أي بعد تولّي المعزّ لدين الله الحكم بإفريقيّة. ودفن بمقبرة اليهود بالمهدية.

مؤلفاته:

ألّف إسحاق بن سليمان كتبا كثيرة في الطّبّ والفلسفة والمنطق باللّغة العربية، كما ألّف كتبا في الدّيانة الموسوية باللغة العبرية. وبلغ عدد كتبه العلمية، حسب ما ورد في عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة، اثني عشر عنوانا.

يقول في هذا الصّدد إنّ إسحاق كان متصرّفا في ضروب المعارف. ويقول ابن جلجل: كان إسحاق طبيبا فاضلا بليغا مشهورا بالحذق والمعرفة، جيّد التصنيف بالعربية.

وهذه قائمة بتآليفه، حسب ترتيب ابن أبي أصيبعة:

– كتاب الحميّات(في خمس مقالات). وتوجد من هذا الكتاب مخطوطة باللغة العربيّة باسطنبول وأخرى ب لا يدن.
– كتاب الأدوية المفردة والأغذية
– كتاب البول
– مختصر كتاب البول
– كتاب الاسطقسات
– كتاب الحدود والرّسوم في الطبّ
– كتاب بستان الحكيم
– كتاب المدخل إلى المنطق
– كتاب المدخل إلى صناعة الطبّ
– كتاب في النبض
– كتاب في الترياق
– كتاب في الحكمة

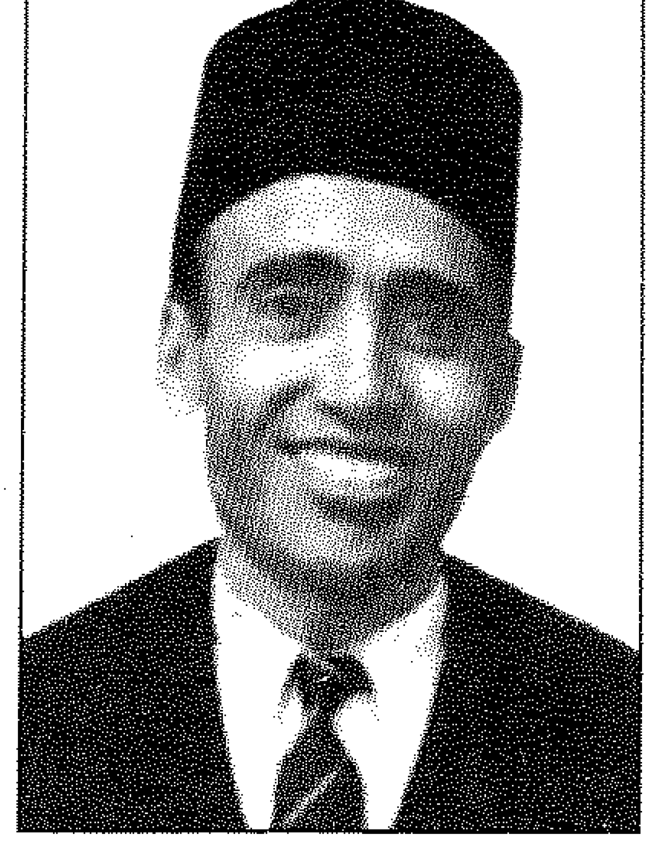
كما نُسبت إلى إسحاق بن سليمان التآليف التالية:

– كتاب رفع مضار السّموم
– كتاب السقيا
– رسالة في مزاج دمشق وضعها المؤلّف في مصر.

وقد ترجم معظم هذه التآليف لأهمّيتها، من اللغة العربية أو من العبرية، حسب التحرير، إلى اللغة اللاتينية التي كانت، مع اليونانية، من اللّغات العلمية في أوروبا وبلاد الغرب.

ونشرت الترجمات اللاتينية كاملة في لايدن بهولندا سنة 921هـ/1515م، أي في القرن السادس عشر. وهو ما يدلّ على أنّها كانت تدرّس حتى ذلك العهد. وقد ظلّت تآليف ابن سليمان تدرّس في كليات الطبّ بأوروبا طيلة قرون، لما لها من شأن عظيم.

ومن المؤسف عدم توفر المخطوطات العربية لتآليف إسحاق بن سليمان، إذ أنّ جلّها يوجد في مكتبات البلدان الأوروبية، باللغتين العربية واللاتينية (لايدن – أوكسفورد – مدريد – مونيخ – باريس – اسطنبول وغيرها) وترجع بعض التّراجم اللاتينية إلى قسطنطين الإفريقي الذي ترجمها في القرن الحادي عشر الميلادي.



سليمان بن سليمان
[1905 – 1986م]

1) نشأته ودراسته
ولد الطبيب والسياسي التونسي سليمان بن محمد بن سليمان في مدينة زغوان سنة 1905. وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية نجح بامتياز في مناظرة دخول المدرسة الصّادقية التي التحق بها في أكتوبر 1919. وإلى جانب إقباله على دروسه بدأ الشّاب سليمان بن سليمان يهتمّ بالحياة السياسيّة في البلاد التي انبعث فيها وقتئذ الحزب الحرّ الدستوري التونسي سنة 1920. وسرعان ما أبدى ميله إلى هذا الحزب بتأثير من زميله القيرواني الحبيب جاء وحده الذي كان من أنشط التلامذة الصّادقيين في الميدان السياسي. وكان أوّل عمل قام به هو التحوّل إلى دار كاهية سنة 1921م، صحبة مجموعة من أقرانه لتحيّة الشيخ عبد العزيز الثعالبي بمناسبة إطلاق سراحه.

وشارك بعد ذلك في الإضراب عن الدّروس الذي شنّه تلامذة الصادقية يوم 5 أفريل 1922م، وأسهم في المظاهرة الشعبيّة التي نظّمها الحزب الدستوري للتضامن مع أمير البلاد الناصر باي، إثر تهديده فرنسا بالتنازل عن العرش، إن لم تستجب للمطالب الوطنية. وتحوّل بتلك المناسبة صحبة عدد من رفقائه إلى نادي الحزب الدستوري بنهج إنقلترا، حيث أدّى اليمين معلنا انضمامه إلى الحزب.

وفي جوان 1925م نجح ابن سليمان الأوّل في شهادة ختم الدروس بالصادقية، ففكّر في الالتحاق بمعهد كارنو لإعداد شهادة الباكالوريا. لكن مدير الصادقيّة بولون لم يسمح له بالإقامة في مبيت المدرسة بصفته قيّماً في القسم الداخلي. فحاول الاتّصال كتابيّا ببعض المعاهد الثانويّة بفرنسا، للحصول على منصب قيّم، حتى يتسنّى له إتمام دراسته الثانوية.

2) الالتحاق بفرنسا لمواصلة دراسته:
قُبِلَ في المدرسة المهنيّة ببلدة بوفي لمباشرة خطةَ قيّم داخلي. فالتحق في أكتوبر 1925 بتلك المدرسة حيث باشر وظيفته الجديدة في السنة الدراسية 1925– 1926م والسنة الموالية، مع مواصلة دراسته في المعهد الثانوي تلك البلدة نفسها إلى أن أحرز في جوان 1927 الجزء الأول من الباكالوريا بملاحظة حسن.

وخلال السنة الدراسيّة 1927 – 1928م التحق بالمعهد الثانوي في مدينة إيفرو لمواصلة دراسته في قسم الرياضيات، مع مباشرة خطّة قيّم في المبيت التابع للمعهد نفسه. وفي جوان 1928م أحرز الجزء الثاني من الباكالوريا. وإثر ذلك تحوّل إلى باريس لمزاولة دراسته العليا في الطبّ، بفضل حصوله على قرض من إدارة التعليم العمومي بتونس. فنجح في دورة جوان 1929م في السنة التحضيرية للدّراسات الطبّية، وتدرّج من سنة إلى أخرى بنجاح إلى أن أحرز في جوان 1935 شهادة الدكتوراه في الطبّ، وبدأ في السّنة الموالية دراسة التخصّص في طبّ العيون.

3) نشاطه السياسي في فرنسا :
لم يغفل الطالب سليمان بن سليمان، في أثناء مواصلته دراسته العليا، عن اغتنام فرصة وجوده في باريس للنضال من أجل تحرير بلاده خاصّة والمغرب العربي عامّة. فانخرط منذ وصوله إلى العاصمة الفرنسيّة في جمعيّة نجم الشمال الإفريقي التي أنشأها جمع من العمّال الجزائريّين والمغاربة في سنة 1926م، برئاسة المناضل الشيوعي عبد القادر بن الحاج علي. وفي مارس 1927م عوّضه على رأس الجمعيّة المناضل التونسي الشاذلي خير اللّه المبعد إلى فرنسا بسبب نشاطه في تونس ضمن الحزب

الدستوري، في حين انتخب المناضل الجزائري مصالي الحاج كاتبا عامّا، والمناضل الشيوعي التونسي الطيّب دبّاب كاتبا عامّا مساعدا.

ولمّا انضمّ سليمان بن سليمان إلى نجم الشمال الإفريقي كان الشاذلي خير اللّه قد أبعد من باريس بسبب نشاطه المناهض للاستعمار، فعاد عبد القادر بن الحاج علي إلى رئاسة الجمعيّة خلفا للشاذلي خير اللّه. ورغم سيطرة الشيوعيّين على النجم، لم ير سليمان بن سليمان حرجا في النضال في صلب هذه المنظمة، لإيمانه بضرورة الارتباط العضوي بين العمّال والطلبة لتحرير المغرب العربي.

وإثر ذلك ركّز نشاطه السياسي على جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا التي تكوّنت منذ سنة 1927م. وقد انتخب عضوا في هيئتها المديرة في السّنة الجامعية 1930–1931م، وشارك في مؤتمرها المنعقد بباريس من 26 إلى 29 ديسمبر 1933م.

وفي سنة 1933 استأنفت جمعية نجم الشمال الإفريقي نشاطها بمشاركة أنصار مصالي الحاج الذين قطعوا صلتهم بالشيوعيّين. فبذل سليمان بن سليمان ورفيقه الهادي نويرة قصارى جهدهما في سبيل مساعدة الهيئة المديرة للمنظمة لتمكينها من الاضطلاع بمهامّها على أحسن وجه ممكن، إلى أن قرّرت الحكومة الفرنسيّة حلّها في 26 جانفي 1935م.

4) انضمامه إلى الحزب الدستوري الجديد

وفي الأثناء برز الحزب الدستوري الجديد في 2 مارس 1934، إثر مؤتمر قصر هلال. فكان سليمان بن سليمان من أوّل الطلبة التونسيّين الذين أعلنوا انضمامهم إلى هذا الحزب، مع رفيقيه الهادي نويرة وصالح بن يوسف، ثم التحق بهم علي البلهوان والحبيب ثامر والمنجي سليم.

وفي أثناء وجود سليمان بن سليمان بتونس لقضاء العطلة الصيفيّة اعتُقل الحبيب بورقيبة والدكتور محمود الماطري ومحمد بورقيبة أعضاء الديوان السياسي وأبْعِدوا إلى أقصى الجنوب التونسي في 3 سبتمبر 1934م. فأشار الديوان السياسي الثاني على سليمان بن سليمان بالعودة فورا إلى باريس للاضطلاع بمهامّ ممثّل الحزب الدستوري الجديد بفرنسا. فقفل راجعا إلى باريس يوم 9 سبتمبر 1934م، وبادر بإنشاء «لجنة الدفاع عن الحريات بالبلاد التونسيّة»، بالاشتراك مع رفقائه الهادي نويرة والحبيب ثامر وعلي البلهوان. وقامت اللجنة بنشاط مكثّف للتنديد بسياسة القمع والاضطهاد التي ينتهجها المقيم العام الفرنسي بتونس مارسال بيروطون (1933–1936م).

5) عودة سليمان بن سليمان إلى تونس

رجع الدكتور سليمان بن سليمان إلى أرض الوطن في جوان 1936م، فعيّن طبيبا داخليّا بالمستشفى الصّادقي، مع مواصلة تخصّصه في طبّ العيون. وإلى جانب عمله المهني أسهم في النشاط السياسي الذي شرع في القيام به قادة الحزب الدستوري الجديد، منذ إطلاق سراحهم في مارس 1936م. وتمثل إسهامه بالخصوص في مرافقة الزعيم الحبيب بورقيبة في جولاته داخل البلاد، وحضور الاجتماعات العامّة التي نظمها الديوان السياسي، والتحرير في جريدة الحزب الناطقة بالفرنسية «العمل التونسي».

وخلال المؤتمر الثاني الذي عقده الحزب في آخر شهر آكتوبر 1937م في مقرّه بالعاصمة (نهج التريبونال)، انتخب الدكتور سليمان بن سليمان عضوا في الديوان السياسي مع رفيقه صالح بن يوسف، وبانتخابهما تعزّز الشقّ الراديكالي الذي كان يقوده الحبيب بورقيبة على الشقّ المعتدل الذي كان يضمّ الدكتور محمود الماطري والطاهر صفر والبحري قيقة.

وفي نهاية أشغاله قرّر المؤتمر سحب الثقة من الحكومة الفرنسيّة. وتطبيقا لهذا القرار أعلن الديوان السياسي الإضراب يوم 20 نوفمبر 1937م للتّضامن مع الحركة الوطنية في الجزائر والمغرب، رغم معارضة رئيس الحزب الدكتور محمود الماطري الذي انتهى به الأمر إلى

الاستقالة من الديوان السياسي في 3 جانفي 1938م.

وإثر انعقاد المجلس الملّي في 4 مارس 1938م، قام الدكتور ابن سليمان، صحبة المناضل يوسف الرويسي بجولة دعائية في الشمال الغربي قصد إعداد المناضلين للكفاح. فألقت عليهما السلطة القبض يوم 4 أفريل 1938م ونقلتهما إلى تونس حيث أودعا السجن والتحق بهما صالح بن يوسف والهادي نويرة ومحمود بورقيبة. فقرّر الديوان السياسي تنظيم مظاهرات في كامل البلاد للمطالبة بإطلاق سراح الموقوفين والاستجابة لمطالب الحزب. وأفضت المظاهرات والاضطرابات إلى حوادث 9 أفريل الدّامية وإلقاء القبض على قادة الحزب الدستوري الجديد ومناضليه والزجّ بهم في السجن العسكري في انتظار محاكمتهم.

6) تبعات حوادث 9 أفريل 1938

دام استنطاق قادة الحزب 11 شهرا، وإثر ذلك حوّلوا في مارس 1939 إلى السّجن المدني بتونس، ثم نقلوا في أكتوبر 1939 إلى السّجن العسكري بتبرسق، ومنه نقلوا في 27 ماي 1940 على متن باخرة حربيّة إلى مرسيليا حيث سجنوا في حصن سان نيكولا. وفي 26 أكتوبر 1940 وضع أغلب المعتقلين في الإقامة الجبريّة ببلدة تريتزا القريبة من مرسيليا. واحتفظت السّلطة في حصن سان نيكولا بسبعة مسجونين اعتبرتهم «خطرين» وهم: الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف وسليمان بن سليمان والمنجي سليم وعلي البلهوان والهادي نويرة ومحمود بورقيبة.

وإثر احتلال القوّات الألمانية الجنوب الفرنسي في شهر نوفمبر 1942، نُقل القادة الدستوريّون السّبعة إلى مون لوك ثم فنسيا في 3 ديسمبر 1942. وظلّوا معتقلين هناك إلى أن أطلقت السلطة الألمانية سراحهم في 18 ديسمبر، ثم نقلتهم إلى ليون ومن هناك إلى نيس ثم إلى روما في 9 جانفي 1943. فأقاموا في العاصمة الإيطالية إلى أن رُحّلوا إلى تونس في 25 فيفري 1943، باستثناء الزعيم الحبيب بورقيبة الذي لم يرخّص له في العودة إلى تونس إلاّ يوم 8 أفريل 1943، أي بالضبط بعد 5 سنوات من إلقاء القبض عليه، إثر حوادث 9 أفريل 1938.

7) نشاط الدكتور ابن سليمان بعد إطلاق سراحه

على إثر عودته إلى تونس، تحوّل الدكتور ابن سليمان الذي كانت صحّته متداعية، إلى زغوان حيث كفله شقيقه علي من سنة 1943 إلى أكتوبر 1945، تاريخ استقراره في العاصمة عندما تحسّنت حالته الصحيّة. وهناك فتح عيادة لطبّ العيون في شارع باب منارة، مع الإسهام في إدارة الحزب. ذلك أنّه لم يبق من أعضاء الديوان السياسي إلاّ هو وصالح بن يوسف، منذ استقالة الدكتور الماطري والطاهر صفر والبحري قيقة، ثم هجرة بورقيبة إلى مصر. ولسدّ ذلك الفراغ، ألحق صالح بن يوسف بالديوان السياسي كلاّ من المنجي سليم الذي عيّن مديرا للحزب، والهادي نويرة وعلي البلهوان، وأضاف إليهم في فترة لاحقة الباهي الأدغم. وتمكّن صالح بن يوسف، الذي عيّن في الأثناء كاتبا عاما للحزب، من تعزيز مركزه والتحكّم في هياكل الحزب.

وقد وجد الدكتور سليمان بن سليمان نفسه في عزلة تامّة داخل الدّيوان السّياسي، فاضطرّ إلى تقديم استقالته مرّتين. ذلك أنّه كان معارضا لطريقة العمل التي توخّاها صالح بن يوسف، وهي خاصة تقرّبه من بلاط الملك الأمين باي الذي كان ابن سليمان يعتبره مغتصبا للعرش، وتعاونه مع كبار وأعيان الحاضرة، كما كان غير موافق على السّياسة التي انتهجها الأمين العام وجماعته الذين جنحوا « للهدوء والسكينة »، وتخلّوا عن الاتصال بالجماهير الشعبيّة وسعوا إلى التعاون مع الحزب الدستوري القديم، مبتعدين عن العمل الثّوري الذي أقدم عليه الحزب الدستوري الجديد منذ انبعاثه.

ولذلك ابتهج بانعقاد مؤتمر ليلة القدر (23 أوت 1946) الذي صادق بالإجماع على لائحة

تطالب بالاستقلال التامّ. وقد ألقي عليه القبض وزجّ به في السجن المدني ضمن المعتقلين الستّة والأربعين من المشاركين في المؤتمر، وفي مقدّمتهم الكاتب العام للحزب صالح بن يوسف ومدير الحزب المنجي سليم.

ولكن بعد الإفراج عن الموقوفين في 23 سبتمبر 1946 عاد الأمين العام إلى انتهاج سياسة المهادنة والاعتدال التي عبّر الدكتور ابن سليمان عن عدم موافقته عليها بالإمساك عن حضور اجتماعات الديوان السياسي. وفي الأثناء تمكّن بوسائله الخاصّة من الحصول على تأشيرة لزيارة مصر، رغم معارضة رفقائه في الديوان السياسي. وبالفعل وصل إلى القاهرة يوم 31 جانفي 1948 وغادرها يوم 8 مارس. واجتمع هناك بالزعيم الحبيب بورقيبة وبمناضلي الحزب الدستوري المهاجرين في مصر، واتّصل بالأمير عبد الكريم الخطابي وبالمسؤولين عن الحكومة المصريّة وجامعة الدول العربية. وإثر عودته إلى تونس اندلعت الحرب العربية الإسرائيلية الأولى فانضمّ باسم الديوان السياسي إلى اللجنة الوطنية التونسية لمساندة الشعب الفلسطيني.

وفي 17 أكتوبر 1948 انعقد المؤتمر الثالث للحزب الدّستوري الجديد في دار سليم بالعاصمة وأسفر عن انتخاب الزعيم الحبيب بورقيبة رئيسا للحزب والدكتور الحبيب ثامر نائبا للرئيس وصالح بن يوسف أمينا عاما للحزب، كما انتخب الدكتور ابن سليمان من جديد عضوا في الديوان السياسي، لكنّه بقي معارضا للسّياسة المتبعة إلى حدّ ذلك التاريخ، وداعيا إلى العمل المباشر والنّضال بالتعاون مع الحزب الشيوعي. وهو ما جعل صالح بن يوسف يمسك عن دعوته إلى حضور اجتماعات الديوان السياسي.

وفي سنة 1949 تكوّنت في تونس اللّجنة التونسية للسلم والحرية المتألفة من مناضلين دستوريّين وشيوعيّين برئاسة علي البلهوان عضو الديوان السياسي. وقد ظنّ الدكتور بن سليمان أن الحزب الدستوري الجديد قد غيّر سياسته، فاستأنف نشاطه في الديوان السياسي والتحرير في جريدة «الرسالة» (Mission) الناطقة بالفرنسية بلسان الحزب. ولكن ما إن رجع الزعيم الحبيب بورقيبة إلى تونس في سبتمبر 1949 حتى احتدّ الخلاف من جديد بين الدستوريّين والشيوعيين حول السياسة الخارجيّة. ورغم ذلك فقد انتخب سليمان بن سليمان في آخر سنة 1949 على رأس اللجنة التونسية للسّلم والحرية التي كثّفت نشاطها المناهض للمعسكر الغربي وفي مقدّمته الولايات المتحدة. فأصدر الديوان السياسي بلاغا دعا فيه الدستوريين إلى عدم المشاركة في أعمال تلك اللجنة التي لا تخدم سياستها مصالح الأمّة التونسية. لكنّ الدكتور ابن سليمان لم يستجب لهذا النداء، فزاره بورقيبة في عيادته يوم 17 مارس 1950، وحاول إقناعه بضرورة الانسحاب من اللجنة، لكنه أصرّ على موقفه الذي اعتبره غير مناف لمبادئ الحزب الدستوري. ومن الغد أصدر الديوان السياسي بلاغا أعلن فيه رفت الدكتور سليمان بن سليمان من الحزب.

8) نضال الدكتور بن سليمان من أجل السلم والحرية والديمقراطية

رغم صرامة هذا القرار الذي لم يثر سوى احتجاج عدد قليل من الدستوريّين بالخارج، فقد واصل سليمان بن سليمان نضاله على رأس لجنة السّلم والحريّة، إلى أن اندلعت المعركة التحريرية الحاسمة في 18 جانفي 1952، فأبعد إلى محتشد رمادة.

وإثر الاستقلال واصل نشاطه في سبيل الحرية والديمقراطية، فأصدر في ديسمبر 1960 جريدة أسبوعيّة ناطقة بالفرنسية بعنوان "منبر التقدّم" (Tribune Du Progrès) للدفاع عن الحريّة والديمقراطية والتقدّم في جميع الميادين. وقد استمرّت الجريدة في الظهور إلى أن أوقفتها الحكومة في ديسمبر 1962 إثر اكتشاف المؤامرة المدبّرة لقلب النظام. وفي سنة 1967 عيّن رئيسا للجنة التضامن مع الشعب الفيتنامي، وبعد ذلك بقليل اعتزل الحياة السياسيّة متفرّغا لنشاطه الطبّي. إلاّ أنه ظلّ إلى

آخر حياته متمسّكا بمبادئه السامية ومثله العليا، لايخشى في الحقّ لومة لائم.

وفي 13 أوت 1973 زاره الرئيس الحبيب بورقيبة في بيته وقلّده الصنف الأكبر من وسام بورقيبة، مشيدا بخصاله ومناقبه، وبكفاحه في سبيل الحرية والاستقلال.

وتوفّي الدكتور سليمان بن سليمان يوم 24 فيفري سنة 1986.

ابن شبّاط
[618-681هـ/1221-1282م]

أبو عبد الله محمّد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن عمر بن شبّاط المصري التوزري، فقيه، لغوي، أديب ومؤرّخ أصيل مدينة توزر بالجنوب الغربي للبلاد التونسية. يلقّب بابن شبّاط ويعرف بالمصري أيضا، ذلك أن جدّه عليّا قد ولد بمصر حينما انتقل إليها أبوه محمد ابن عمر واستقرّ بها، وعقب وفاته عاد ابنه عليّ إلى توزر فلقّب بالمصري لشبه بينه وأهل مصر في كلامهم وهندامهم.

وولد ابن شبّاط ليلة الخميس الموافق للعشرين من شعبان سنة 618هـ، التاسع من أكتوبر عام 1221م، من أمّ جزائرية بمدينة قسنطينة حيث كان والده يتعاطى التجارة. ولمّا بلغ من العمر أربع سنوات نقله أبوه إلى توزر فنشأ بها ودرس بجامع القصر، بناحية بلد الحضر، على شيوخ بعضهم من أهل البلد المذكور وآخرين وفدوا عليه من القيروان على وجه الخصوص. وأبرز مُعَلِّميه والده وأبو عبد اللّه محمد ابن أبي يحيىَ أبي بكر بن أبي عمر الطولقي وهو الذي روى عنه القصيدة الشقراطسيّة سنة 642هـ/1245م وثالثهم أبو عبد اللّه بن أبي الفضل أبي القاسم بن شمدون أحد فقهاء توزر في القرن السابع للهجرة. أمّا العلوم التي تلقّاها فهي علوم القرآن والحديث والفقه والنحو واللّغة والأدب.

استقرّ ابن شبّاط بأرض أجداده ولم يبرحها إلاّ نادرا ولمآرب غير طلب العلم، من ذلك أنّه مكث بمدينة تونس سنتين مدرّسا بجامع الزيتونة فأجاد وأفاد، وكانت إقامته بمكان يعرف اليوم بزنقة ابن شبّاط بالقعّادين. عاد بعد ذلك نهائيّا إلى بلدته حيث ظلّ القاضي الموفّق والمدرّس المتفوّق، فتخرّج على يده خلق كثير من مشاهير رجالات الفكر والأدب، منهم أبو عبد اللّه محمد بن حيّان الشاطبي (ت691هـ/1292م). وفي يوم السبت الحادي عشر من ربيع الثاني سنة 681/13 جويلية سنة 1282 توفّي ابن شبّاط ودفن بجوار أضرحة آل الشقراطسي ببلد الحضر.

مؤلّفاته

لم يصلنا من آثار ابن شبّاط غير النزر اليسير، طبع منه ما يلي:

– فصل من كتابه «**صلة السمط**» حول فتح صقلّية نشره الإيطالي ميكالي أماري باللّغة الإيطاليّة ضمن مؤلّفه «المكتبة العربيّة الصقلّية» (Biblioteca arabo Sicula) بليبسيغ سنة 1857، ص 95-106. ثم نشر النص العربيّ ضمن الكتاب المذكور في نسخته العربيّة بليبسيغ أيضا سنة 1868.

– فصل من «صلة السمط» عن فتح الأندلس حقّقه ونشره أحمد مختار العبّادي بمجلة معهد الدراسات الإسلاميّة بمدريد (Revista del Instituto de Estudios Islamicos - Madrid) سنة 1965-1966، عدد 13، ص 99-163.

– **قصيدة الجدي** أنشأها بمناسبة ولادة جدي بتوزر ليلة الفاتح من رجب سنة 674هـ/21 ديسمبر 1275م، غرّته بيضاء كتب عليها باللّون الأسود «محمد». وقد نشر نص القصيدة في كتاب «الجديد في أدب الجريد» لأحمد البختري ص 70-72.

– عجالة الرويّة في تسميط القصيدة النحويّة لأبي الفضل يوسف بن النحوي (ت 513هـ/1121م) والموسومة بالمنفرجة أو أمّ

الفرج، وقد نشر نص العجالة برحلة العبدري ص 52–59.

– فقرات من «صلة السمط» تضمّنت فتاوى انتقاها الهادي روجي إدريس ونشرها ضمن مقال باللّغة الفرنسية عنوانها:

«الحياة الفكرية بإفريقية الجنوبية في أيام بني زيري». وقد طبع المقال بعاصمة الجزائر سنة 1957 ونشر بالجزء 2، ص 95–105 من كتاب: «مزيج من تاريخ المغرب الإسلامي وآثاره» (بالفرنسية).

أمّا ما هو مخطوط من آثار ابن شبّاط فيتمثّل في:

– تخميس وضعه على القصيدة الشقراطسيّة عنوانه «سمط الهدي في الفخر المحمدي».

– «صلة السمط وسمة المرط في شرح سمط الهدي في الفخر المحمّدي» وهو، كما يستفاد من عنوانه، شرح للتخميس السابق الذّكر ويعرف في أوساط العامّة تحت عنوان «تاريخ ابن شبّاط». يتألّف هذا الكتاب من أربعة أجزاء كبيرة الحجم تنطوي على أكثر من 1000 صفحة، وقد اختصره المؤلّف في نسخة متوسطة الحجم وأخرى صغيرة. أمّا المضمون فشرح للتخميس تطرّق إليه على مستوى المعجم والنحو والبلاغة، إلاّ أنّه شرح ضمّن استطرادا واسعا استعرضت فيه قصّة الفتح الإسلامي لمختلف مدن الدنيا والتعريف بها جغرافيّا بأسلوب جعل هذا الاستطراد يطغى أحيانا على الشرح ويضفي على المؤلّف أهميّة خاصّة. وقد اعتمد ابن شبّاط مصادر متنوّعة ما بين شفويّ ومكتوب وما بين موجود ومفقود اليوم وما بين مخطوط الآن ومطبوع، وجميعها على نصيب وافر من الصدق والعمق. وأبرز من أخذ عنهم وفُقدت آثارهم عريب بن سعد القرطبي (ت 409هـ/1018م) وابن حيّان القرطبي (ت 469هـ/1076م) وعبد الحق الإشبيلي (ت 582هـ/1186م). أما أبرز من استند إليهم ووصلتنا أعمالهم فهم الواقدي (ت 207هـ/822م) وابن عبد الحكم (ت 257هـ/871م) واليعقوبي (ت 284هـ/897م) والطبري (ت 310هـ/923 م) وابن عبد البرّ (ت 463هـ/1070م) والشقراطسي (ت 466هـ/1073م) وابن الكردبوس (ت حوالي 580هـ/1186م).

وممّا لا ريب فيه أنّ مؤلّفات ابن شبّاط تربو على ما ذُكر إلاّ أنّها تلاشت فلم تحتفظ ذاكرة التاريخ منها، إضافة إلى ما ورد، إلاّ بالعناوين التالية:

– «الغرّة اللائحة والمسكة الفائحة في المعجزة الواضحة»، وهو كتاب روى فيه المؤلّف قصّة الجدي وضمّنه قصيدته في الغرض المشار إليه أعلاه.

– «العقد الفريد في التعريف بأهل الجريد»، وهو مصنّف في تراجم رجالات منطقة الجريد بالجنوب التونسي، أشار إليه حسن حسني عبد الوهّاب عند تقديمه لكتاب «مؤنس الأحبّة في أخبار جربة» لأبي رأس الجربي، وذكره الهادي بن مصطفى التوزري في ص 61 من كتابه «عبد الله الشقراطسي».

– «تحف المسائل بمنتخب الرسائل»، وهو مؤلّف يبدو أنّه في المكاتبات الأدبية.

– «دلائل اليقين إلى مسائل التلقين».

– «الشّعب الشهيّة والتّحف الفقهيّة» وهو مصنّف في الفقه الإسلامي.

– «درر السمط في علم الفلك».

– حاشية على أحد شروح صحيح مسلم.

– رسالة في الهندسة، أوضح فيها نظريّته في توزيع المياه. ومعلوم أنّ التقسيم الثّلاثي ثمّ السّداسي انطلاقا من كلّ ثلث هو إنجاز روماني لا محالة ويكمن فضل ابن شبّاط إذن في بعث نظام توزيع يبدأ من حيث وقف الرومان ويصل بذلك إلى ريّ جميع بساتين توزر كلّ حسب حاجته. وقد بقي هذا النظام قيد الاستعمال حتى اليوم وكلّما رام أحد تغييره انتهى إلى إقراره.

ابن شرف

[390ـ 460هـ/1000 ـ 1067م]

هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف القيرواني أحد كبار شعراء البلاط الصنهاجي في القرن الخامس الهجري. وُلد في القيروان سنة 390 هـ/1000م من أسرة عربية الأصل استقرّت بإفريقيّة منذ الفتح الإسلامي. يُثير الاسم الذي اشتهر به ابن شرف انتباه الدّارس. ذلك أنّ هذا الشاعر الأديب قد نسب إلى غير أبيه باعتبار أنّ الاسم «شرف» هو اسم أمّه، كما أشار إلى ذلك الفيروزآبادي في «تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه» (القاهرة، 1951، ص 108) ولعلّ هذه النسبة إلى شرف أمّه مردّها إلى أمرين: إمّا لأنّ أباه كان مجهولاً وإمّا لأنّ خصومه كانوا يعيّرونه بوضاعة نسبه. من ذلك أنّ ابن رشيق كان يهجوه في شعره ويعيّره بشتّى الصفات الدنيئة (الشاذلي بويحيى، الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري، تعريب محمد العربي عبد الرزاق، مؤسّسة بيت الحكمة، تونس 1999، ج1، ص 214).

أخذ ابن شرف العلم عن كبار علماء القيروان من مثل القابسي وأبي عمران الفاسي والقزّاز وإبراهيم الحصري. وقد كان لمصاحبته لابن رشيق، رغم ما كان بينهما من منافسة تصل إلى حدّ الكراهية، أن تفتقت مواهبه وتوقّدت قريحته وذاع صيته. وقد التحق ببلاط الأمير الصنهاجي المعزّ بن باديس بعد أن توطّدت علاقته براعي العلماء والأدباء وقتئذ وهو ابن أبي الرجال (ت 426 هـ/1034م) وسينقطع ابن شرف إلى «التغنّي بمفاخر الأمير الذي سوف تجد جميع حركاته وسكناته ووقائع عهده صداها الواسع في شعر ابن شرف» (بو يحيى، المرجع المذكور، ص 214–215). انتقل ابن شرف إلى المهديّة سنة 447 هـ/1055م حيث كان تميم بن الأمير المعزّ عاملا لأبيه على هذه المدينة. فمدحه. ولكن مقامه عنده لم يطل كثيرا إذ بزحف الأعراب الهلاليين على القيروان سنة 449 هـ/1057م فرّ ابن شرف بأهله إلى صقلّية قاصداً أميرها الكلبي ابن متكود تاركا وراءه مدينة عزيزة عليه لم تُبق منها الزحفة الهلالية سوى أطلال دارسة. فالتقى ابن شرف من جديد بابن رشيق في مازرة بصقليّة وضمّهما بلاط ابن متكود و«تمتّ بينهما مصالحة» (بويحيى، المرجع المذكور، ص 216) ثمّ تلقّى ابن شرف دعوات من ملوك الطوائف بالأندلس. وهو ما يكشف عن عمق العلاقات الثقافية بين المغرب الإسلامي والأندلس. فارتحل إلى الأندلس. واتّصل بالمعتضد أمير إشبيلية. ومدحه. فأجزل له العطاء. وذاع صيتُه بين الملوك. فاستضافه المأمون بن ذي النّون ملك طليطلة. فأقام عنده لما وجده منه من تقدير وإجلال. فأسهم ابن شرف في إشعاع الثقافة العربية بالأندلس خلال القرن الخامس الهجري.

وتوفي بإشبيلية سنة 460هـ/ 1067م بعيدا عن وطنه القيروان مثلما مات صديقه وابن وطنه ابن رشيق غريبا في مازرة بصقلية سنة 456هـ/1063م. وقد كان لابن شرف ولد يُكنّى أبا الفضل واسمه جعفر. وقد كان شاعرا مشهورا، تربّى ونشأ بالقيروان ثمّ هاجر مع أبيه إلى الأندلس. فاستوطن مدية المريّة واتّصل بملوك الطوائف وانخرط في دواوينهم ومجالسهم حتّى نال خطّة الوزارة. وقد جمع له حسن حسني عبد الوهاب في االمجملب جملة من أخباره وأشعاره وحكمه.

مؤلفات ابن شرف: خلّف هذا الأديب النّاقد شعرا كثيرا ضاع أغلبه. وكتب في النقد والمقامة والنحو والعروض. ولكن لم يبق لنا من مؤلفاته سوى كتاب صغير الحجم بعنوان مسائل الانتقاد. وهو كتاب في النقد، زيادة على تضمّنه ثلاث مقامات على غرار مقامات الهمذاني وقد ترجمه إلى الفرنسية المستشرق شارل بلاّ.



أبو الحسن بن شعبان
[1897–1963م]

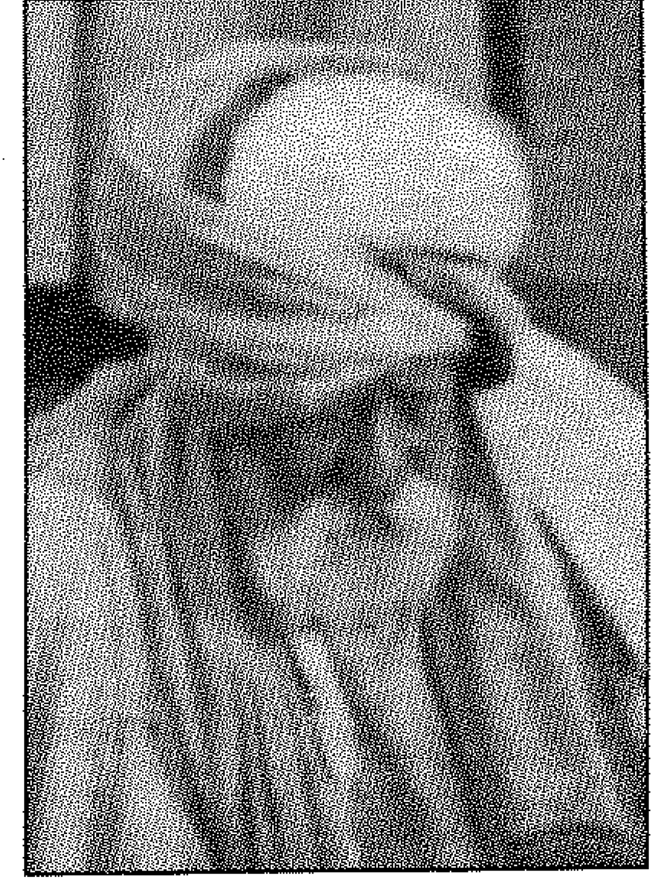
ولد أبو الحسن بن شعبان بتونس سنة 1897 وتوفيّ بها في 11 ماي 1963. نشأ في أسرة تقيّة ذات تقاليد صوفية متوارثة. وظهر نبوغه باكرا وأصبحت الصّحف التّونسيّة تلهج بقصائده حتّى قبل إتمام دراسته وتخرّجه في جامع الزيتونة سنة 1915. تولّى التّدريس بمدرسة ترشيح المعلّمين بتونس فكوّن أجيالا من المعلّمين كان تأثيره فيهم بارزا بشهادة أحد تلاميذه: «إن تأثير أستاذنا ابن شعبان كان يتجلّى في سحر شخصيّته الجذّابة وفي أناقة مظهره ودماثة أخلاقه وخصوصا في رقّة ذوقه. كانت شخصيّته هي شخصية الأديب المحض الذي يحبّب إليك الأدب حين يدرّس عصوره ويغريك بالتعلّق بالشعر حين ينشدك المختار من نماذجه ويجعلك من المتعصّبين للعربية المتعشّقين لها حين يدلّك على أسرارها ومواضع الجمال فيها. وكانت دماثة أخلاقه تجعله قريبا من تلاميذه محبوبا لديهم متجاوبا معهم مؤثّرا فيهم بالقدوة والمثال، فكنّا نشعر أثناء الدرس أننا نواجه أخا كبيرا لنا قد سلم من صلف الأساتذة واستعلائهم». (محمّد الحليوي: «في الأدب التونسي»، ص 152).

وكان أبو الحسن بن شعبان شاعرا محافظا مقلّدا في أسلوبه وموضوعاته ومواقفه الفكريّة. فإن نظم في الأخلاق فهي الأخلاق التي أقرّها الدين. وإن نظم في المرأة تصدّى في بعض قصائده لدعاة السفور. وإن نظم في الشؤون الدينيّة لم يتردّد في مدح زعماء الزّوايا والطّرق الصّوفية والدفاع عنهم. لكنّ ذلك لم يمنعه من "الالتزام" بما كان يقع أوّلا في وطنه – الذي كان يعشقه ويتغنّى بجماله – وبما كان يحدث ثانيا خارج وطنه من أحداث.

ففي وطنه، يكاد لا يهملُ حدثا ذا شأن، مادحا الرّجال العاملين في حقل الحياة العامّة، مهنّئا أصدقاءه ومعارفه برتبة أو وظيفة، راثيا من مات منهم بدافع عاطفي أو وطنيّ، مشاركا في النّوادي والجمعيّات الثّقافيّة، مستقبلا الوفود التي تأتي إلى تونس في مهمّة أدبيّة أو علميّة، محرّضا على الاكتتاب في لجان الإسعاف والإغاثة، ناظما الأناشيد الحماسيّة لتغذية النّزعة الوطنيّة في الشّباب. وحتّى في السّنوات الأخيرة من حياته ورغم حالته الصحيّة، لم يهمل الاهتمام بالأحداث الكبرى التي حدثت بعد الاستقلال مثل معركة الجلاء وغيرها.

أمّا خارج وطنه، فقد شهّر بهول الحرب العالميّة الأولى وظلّ يستقبل في مفتتح كلّ سنة هجرية كلّ عام جديد متسائلا عمّا يخبّئه للبشريّة من بشائر أو ويلات ومن أمل للسلم أو استمرار للحرب. ورثى الرئيس الأمريكي "ولسن" – وقد سمّاه «زعيم السلم» – مثنيا على مساعيه التي بفضلها حقنت الدّماء ولاح النّور بعد الظلام على حدّ تعبيره. وأعلن غضبه على الزعيم التركي مصطفى كمال أتاتورك حين أعلن سقوط الخلافة وطرد آخر خليفة عثمانيّ من تركيا...

وفي كلا اتجاهيه، كان الشعر عند أبي الحسن بن شعبان وسيلة لخدمة الأخلاق والمجتمع قبل أن يكون فنّا وابتكارا.



عمر بن الشيخ

[1823 ـ 1911م]

هو عمر بن أحمد بن الشيخ، ولد في سنة 1239هـ/1823م. كان والده أحمد بن الشيخ من أهل قرية الماتلين القريبة من بنزرت، انتقل إلى قرية رأس الجبل الشهيرة بطيب المناخ واشتغل بالأعمال الفلاحيّة والتجاريّة فأثرى. ولمّا رزق ولده عمر عزم على توجيهه في طلب العلم، فانتقل بعائلته إلى سكنى الحاضرة وبقي هو متردّدا بينها وبين رأس الجبل. وعلّم ابنه تعليما راقيا.

وقد لفتت إليه نجابته الفائقة أنظار مشائخه محمّد الخضّار وحَمْدَة ابن عاشور ومحمد النّيفر، ومحمد معاوية ومحمد ابن الخوجة ومحمد بن حمزة الشاهد ومحمد الشاذلي بن صالح. فرسخت شهرته العلميّة في أوساط الطلبة وانتصب للتّدريس متطوّعا بالإذن من شيوخه وإلحاحهم سنة 1266هـ/1849م. وباقتراح من الشيخ محمد بيرم الرابع عيّن مدرّسا مالكيّا من الطبقة الثانية سنة 1851م، وبقي على تدريس الطبقة الثانيّة خمس عشرة سنة، فارتقى إلى الطبقة الأولى سنة 1283هـ/1867م، واستمرّ في التّدريس نحوا من ستّين عاما. ودرس عليه عدد كبير من أهل العلم وشيوخ جامع الزّيتونة.

وقد أعجب بقيمة الشيخ عمر ابن الشّيخ، محمّد عبده (في العلوم الحكميّة)، وذلك لمّا زار تونس، لأوّل مرّة، وأقام بها من 10 ديسمبر 1884م إلى 4 جانفي 1885م. علما بأنّ عمر بن الشيخ هو من الأعضاء العشرة في الفرع التّونسي للعروة الوثقى، وهي جمعيّة أسسها الشّيخ جمال الدّين الأفغاني في حيدر آباد.

ومن الذين درسوا عليه صالح الشّريف الذي اتّصل به اتّصالا وثيقا ولازمه دروسا ومجالس وقد أخذ عنه، كما ذكر في ترجمته الذّاتيّة، علمي «التّفسير والفلك». وقد وصفه الشيخ محمد الخضر حسين الذي تتلمذ له بعد صالح الشّريف بسنوات عدّة بـ«أنّه من أعاظم» أساتذته بجامع الزّيتونة، لأنّه كان «نافذ الفكر في المباحث الغامضة، قادرا على حلّ المسائل العويصة، ولكنّه لا يكثر من مناقشة المؤلّفين وذوي الآراء».

وكان عمر بن الشيخ في طليعة الأساتذة الزّيتونيّين الذين اعتمد عليهم خير الدين في برنامجه الإصلاحي، فانتخب أوّلا عضوا في المجلس الأكبر للمملكة المؤسّس بقانون عهد الأمان لمّا أسندت رئاسة ذلك المجلس إلى خير الدّين نفسه سنة 1278هـ/1862م، فأظهر براعة في فهم حقائق الأمور وإفهامها. ومن ثمّ اصطفاه خير الدّين في إنجاز التّراتيب اللاّزمة الّتي نجمت عن عهد وزارته، وفي مقدّمتها تنظيم التّعليم بجامع الزّيتونة. فقد كان من أعضاء اللّجنة التي سنّت ما عرف بقانون خير الدين. وصار إماما بجامع النّفافتة سنة 1870م وفي السّنة نفسها عيّن نائب متفقّد للتّعليم بجامع الزّيتونة.

وعندما انتصبت الحماية كانت للشيخ عمر علاقة إداريّة وثيقة بمدير التّعليم العمومي لويس ماشويال (Louis Machuel) وهو من العلماء الزّيتونيّين الذين يرون أن خلاص البلاد التّونسيّة معلّق، إلى حدّ ما، على تعاونهم مع الفرنسيّين، وأنّ ذلك الهدف يبرّر لهم هذا الموقف. وإلى جانب نيابته عن الدّولة بجامع الزّيتونة، سمّي قاضيا بالمجلس العقاري المختلط الذي بعثته إدارة الحماية بتاريخ 1 جويلية 1885م. وكان عمر بن الشيخ رئيسا للقسم التّونسي في ذلك المجلس الذي اهتمّ بوجوب ضبط الأراضي الواقعة تحت ملكيّة الأوروبيّين وتسجيلها

وبقيت هذه الإجراءات اختياريّة فيما يخص الأراضي التّي يمكلها التّونسيّون. وشارك عمر بن الشيخ في لجنة النّظر في لائحة مجلّة العقود والالتزامات التّونسية.

وفي سنة 1308هـ/1890م، عيّن مفتيا مالكيّا إلى أن كانت سنة 1325هـ/1907م وقد بلغ ما ينيف على الخمس والثمانين سنة فمالت نفسه إلى الرّاحة فاستعفى عن وظائفه جميعا إلاّ من التّدريس الذي كان أشرف شواغله، فسميّ مفتيا ونائبا شرفيّا عن الدّولة لدى النظارة العلميّة، وبقي على خطّة التّدريس لكنّه لم يباشرها لشيخوخته. وقد أبت له همّته أن يقبل مرتّب التّدريس عن غير مباشرة فكان متخليّا عن مرتبه ليصرف على المباشرين للتّعليم بجامع الزيتونة تطوّعا، كما حبّس أملاكا ذات بال على متطوّعي الجامع نفسه.

وكان آخر كتاب درّسه بالجامع هو تفسير البيضاوي.

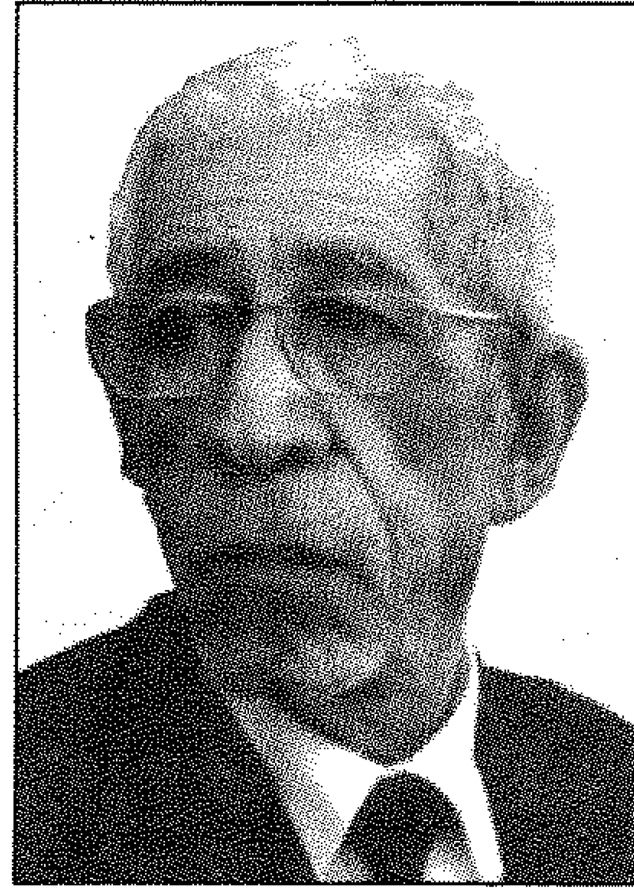
وكانت وفاته ليلة الثلاثاء ثالث محرّم سنة 1329هـ/ جانفي1911م.

محمد الشاذلي بن صالح
[1810 - 1890م]

محمد بن الشاذلي بن عثمان بن صالح بن أحمد الجبالي، ينحدر من عائلة سيّدي بوعزيزي ابن الشيخ بالرّيش الوافد على الحاضرة التونسية في أثناء القرن الحادي عشر الهجريّ / 17م من الجنوب التونسي. التحق بجامع الزيتونة وأخذ عن كبار علماء عصره، أمثال: إسماعيل التميمي وإبراهيم الرياحي ومحمد بيرم الثالث ومحمد البنّا ومحمد بن ملوكة. سُمّي مدرّسا من الرتبة الأولى بجامع الزيتونة والمدرسة الحسينية الكبرى وتولّى قضاء باردو في أواخر رجب سنة 1267هـ/1850م. وفي سنة 1277هـ/1860م سُمّي مفتيا بالحاضرة، وفي سنة 1290هـ/1873م سُمّي رئيسا بالمجلس الشرعي المالكي (باش مفتي).

وفي أثناء ذلك صدر له الإذن بالنيابة عن أيمّة جامع الزيتونة في صائفة عام 1283هـ/1866م. ولنزاع وقع مع أقرانه قدّم استقالته وقيل عُزل سنة 1303هـ/1885م فرجع إلى التدريس بجامع الزيتونة إلى أن توفّي في ربيع الأوّل سنة 1308هـ/1890م.

من آثاره العلمية: حاشية على شرح تحفة الحكام لابن عاصم في فقه الأحكام، ورسالة في المجابات، وفتاوى كثيرة ينقل منها شيوخ تونس.



الميداني بن صالح
[1929 - 2006م]

أديب من الجيل الأوّل للاستقلال، ولد بنفطة في 15 نوفمبر 1929.

زاول دراسته الابتدائية في الكتّاب ثمّ في المدرسة الفرنسيّة العربيّة بنفطة والتحق بجامع الزيتونة في تونس العاصمة لمتابعة التعليم الثانوي ونال منه شهادة التحصيل، ونجح في مناظرة الترشيح وانتدب معلّما بمدرسة منجم المضّيلة بولاية قفصة ثمّ درّس بمناطق أخرى من الجمهورية عدّة سنوات.

سافر سنة 1956 لمواصلة الدّراسة في كليّة الآداب ببغداد حيث أحرز الإجازة في التاريخ سنة 1959. عاد إلى تونس وباشر التدريس في المعاهد الثانويّة بجهات مختلفة ثم استقرّ به المقام بالعاصمة تونس. ثم سافر إلى فرنسا

لإعداد أطروحة دكتوراه حول الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة للخمّاسة بالجريد ولم يتمّها. عاد إلى تونس واشتغل بالتدريس في المعاهد الثانويّة إلى أن تقاعد سنة 1987.

ظلّ نشاطه الأدبي والفكري متواصلا، وعُرف بنظم الشعر، وكتابة المقالة والدّراسة النقديّة والبحث التاريخي، إلاّ أنّه كان إلى الشعر أمْيل.

نشر أبحاثه في معظم الجرائد والدّوريات التونسيّة كما نشرت له بعض الصحف في المشرق العربي.

إلى جانب إنتاجه الأدبي والصّحفي، كانت للميداني بن صالح مشاركات عدّة في الملتقيات والندوات الأدبيّة وطنيا وعربيا، وأسهم في المهرجانات الشعريّة بتونس خاصّة وفي البلدانٍ العربيّة عامّة لاسيما في العراق.

كان عضواً في اتحاد الكتّاب التونسيّين منذ التأسيس ثمّ رئيسا له من 1991 إلى 2005، أسهم منذ شبابه في عدّة جمعيّات ومنظّمات وطنيّة تأسيسا ومشاركة وتحمّل بها عدّة مسؤوليّات مثل «صوت الطالب الزيتوني» 1948 و«الاتحاد العامّ لطلبة تونس» 1956 و«رابطة القلم الجديد» 1966 و«الاتحاد العامّ التونسي للشغل» منذ 1954 وجمعية «لقاءات مغاربية».

من مؤسّسيّ الرابطة التونسيّة للدفاع عن حقوق الإنسان سنة 1977 وتحمّل بهيئتها المديرة عدّة مسؤوليات طيلة 17 سنة.

عضو مجلس المستشارين

عضو المجلس الاقتصادي والاجتماعي

مدير مجلة المسار

من آثاره:

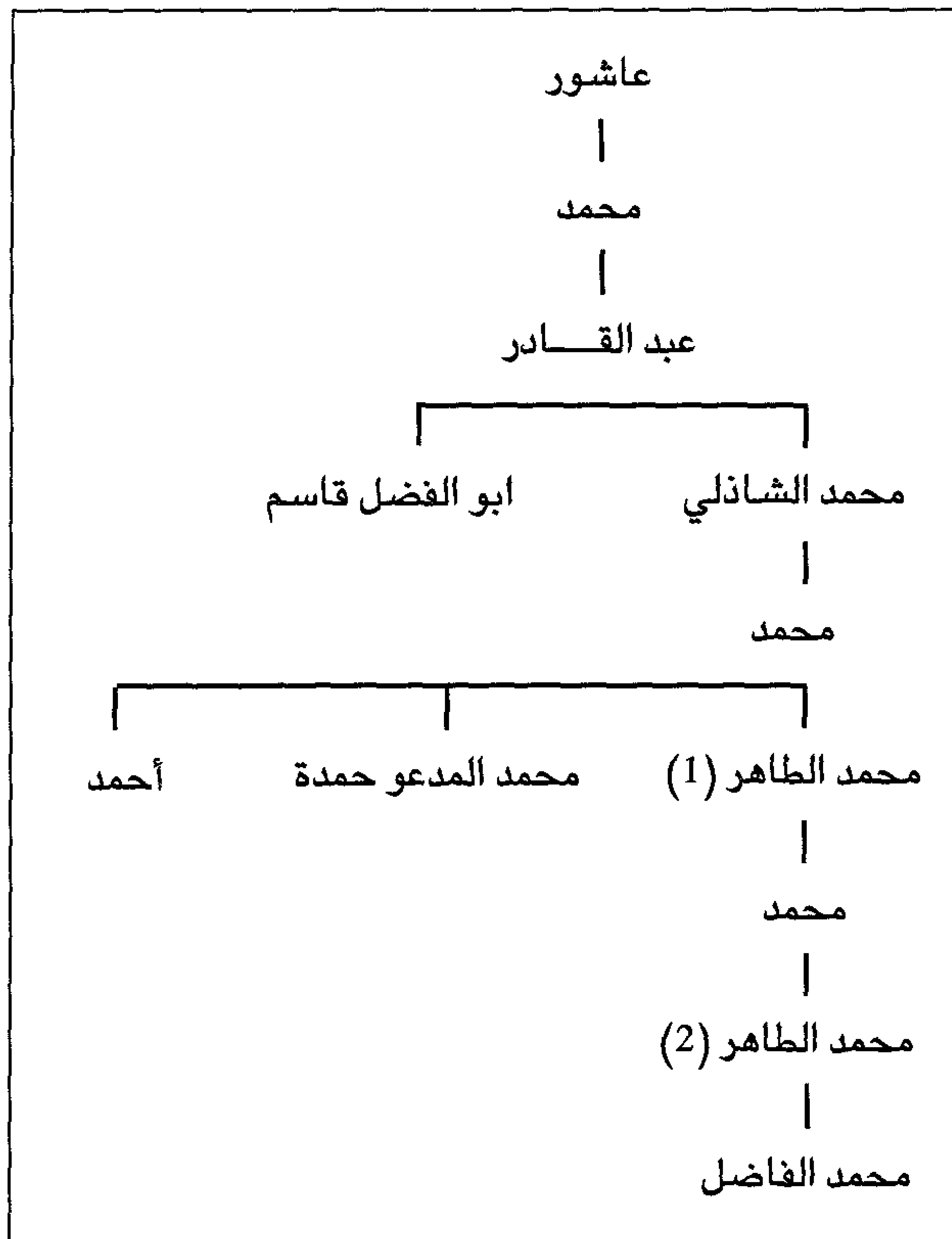
ترك الميداني بن صالح مؤلفّات عدّة أبرزها:

- «قرط أمي»، (شعر) الدار التونسيّة للنشر، تونس، الطبعة الأولى 1969.
- «زلزال في تل أبيب»، (شعر) الدار التونسية للنشر، تونس الطبعة الأولى 1974.
- «من مذكّرات خمّاس»، (شعر) مؤسسات ابن عبد الله للنشر، تونس، الطبعة الأولى 1977.
- «الصّوت الخالد» (شعر)، وزارة الإعلام العراقيّة، 1981.
- «الوحام» (شعر)، دار الرّياح الأربع، 1985.
- «الأقنعة» (شعر)، الدّار العربية للكتاب، 1988.
- «أقباس في كهف الظلمة» (شعر)، الوكالة المتوسطيّة للصحافة، تونس 2003.
- «في رحاب المتولّي» (شعر)، دارالإتحاف للنشر بتونس الطبعة الأولى، 2003.
- «كنت أروي نزيفي» (سيرة ذاتيّة)، دار البستان للنّشر بتونس، 2004.

ومؤلّفات أخرى متنوّعة.

توفّي بتونس في 22 جويلية 2006. ودُفن بمسقط رأسه نفطة.

ابن عاشور [أسرة]



ابن عاشور، أسرة تنتمي إلى الأدارسة، من أصل مغربي، استقرّت بإسبانيا المسلمة. يقال إن عاشور، الهارب للمحافظة على دينه، قدم إلى المغرب واستقرّ به. ولد ابنه محمد بسلا (حوالي 1030هـ/1621م)، وبدأت الأسرة، مع محمد ابن عاشور في شقّ طريقها في التّاريخ التّونسي، في البداية عن طريق "التصوّف"، ثمّ عن طريق الفقه، والتعليم والخطط الدينيّة. برز محمد ابن عاشور، وقد أخذ "التصوّف" بالمغرب عن الشيخ محمد القشيري، في تونس بصفته شيخا لإحدى الطرق. وقد استقرّ فيها، إثر عودته من الحج، وكان يبلغ حوالي الثلاثين سنة من عمره، وامتهن بها صنع الشواشي. وفي تونس، وتأثّر في البداية بالشيخ علي الزواوي، وقد خلَف هذا الشيخ عند وفاته، بصفته شيخا للطريقة في الزاوية التي تحمل اسمه، وكانت تقع في نواحي باب المنارة، أحد أبواب العاصمة، وقد اندثرت منذ بضع سنوات فقط. لكنّه اتبع في النهاية طريقة أبي الحسن الشاذلي.

وكان لمحمّد ابن عاشور موقف متردّد، وربّما معاد للسلطة، وعاش حياة الفقر الشديد. وتنسب إليه هذه القولة التي لا تخلو من النبل: "ما نحن ممن يذكر الله بالكراء والدراهم" (ذيل، 197). وعند موته (1110هـ/1698 ـ 1699م)، دفن في الزاوية التي ورثها عن شيخه علي الزواوي. وخلفه ابنه عبد القادر، الذي بشّره به في الحلم المتصوّف الشهير، سمّي ابنه، بصفته شيخا للطريقة. وكان أقل نفورا من أبيه، وعاش في بعض اليسر.

وقد وصف فعلا بأنّه شيخ طريقة ميسور الحال يتمتع بنوع من السلطة المعنوية التي يضعها في خدمة جميع الذين يطلبون حمايته، بما في ذلك اليهود والنّصارى. ولم يكن الدراويش القادمون على حدّ السواء من الهند ومن الشرق يحجمون أبدا عن طرق بابه. ولمّا كان حسين خوجة بصدد تأليف كتابه "الذّيل" كان ابن عاشور على قيد الحياة.

وبدأت العائلة، بأبناء أحفاده، أحمد (المتوفّى 1255هـ/1839م)، ومحمد المدعو حمدة (المتوفّى 1265هـ/1849م)، وخاصة محمد الطاهر (المتوفّى 1284هـ/1868م)، تبرز في ميدان العلوم الإسلاميّة. فدرّس أحمد بجامع الزيتونة النحو والفقه. وشغل مهنة عدل موثق، ودفن في الزاوية الموروثة عن الشيخ علي الزواوي. وتعاطى محمد المدعو حمدة أيضا التدريس. ولمّا عيّنه المشير أحمد باشا باي (1253 ـ 1271هـ/1837 ـ 1854م)، من غير رغبته، قاضيا للجيوش، لجأ إلى الوزير مصطفى خزندار ليراجع الباي قراره. ودفن هو أيضا في زاوية سيدي علي الزواوي التي يبدو أنّها تحوّلت إلى مقبرة للأسرة.

وكان محمد الطاهر أشهر الإخوة الثلاثة، فبرز في الوقت نفسه بصفته أديبا ـ فقد احتفظ بنماذج عدّة من نثره وشعره ـ ونحويّا وفقيها. وله حاشية على شرح القطر (وهو أثر بقي أساسا للسنة الثانية من التعليم الزيتوني إلى إصلاح سنة 1958)، وتلخيص لشرح ابن مرزوق لبردة البوصيري. وعيّن في 25 رجب 1267هـ/26 ماي 1851م، قاضيا أكبر لتونس، وهي خطة تركها سنة 1277هـ/1860 ـ 1861م. ليشغل خطة الإفتاء. وجمع، بعيد ذلك، بينها وبين نقابة الأشراف. وتوفي في 21 ذي الحجّة 1284هـ/14 أفريل 1868م، ودفن في الزاوية نفسها التي دفن فيها أخواه.

وتواصلت تقاليد الأسرة في شخص حفيده، المسمّى كذلك محمد الطّاهر (المولود في 1296هـ/1879م) وفي شخص ابن حفيده محمد الفاضل.

محمد الطاهر ابن عاشور (الأول)

[1230هـ – 1284م / 1815هـ – 1868م]

ينحدر محمّد الطّاهر بن محمّد بن محمّد

الشاذلي بن عبد القادر بن محمّد ابن عاشور من أصل أندلسي، أقام أسلافه بمدينة "سلا" بالمغرب ثمّ وفد جدّه العالم محمد ابن عاشور إلى تونس سنة 1060 هـ/ 1650 م كما ذكر الوزير السّراج في تاريخه.

ولد بتونس سنة 1230 هـ/ 1815 م، وبعد حفظ القرآن أقبل على طلب العلم بجامع الزيتونة وتتلمذ للشيوخ إبراهيم الرياحي ومحمد بن الخوجة ومحمد الخضار، من كبار علماء ذلك العصر.

انتصب للتدريس بجامع الزيتونة وانتخب سنة 1262هـ/ 1846 م. مدرّسا من الطبقة الأولى، ثمّ ولاّه أحمد باي قضاء الحاضرة التونسية سنة 1267 هـ/1851 م.

كان أحمد باي معجبا به، فقد ذكر ابن أبي الضياف في ترجمة ابن عاشور من تاريخه أنّ "الباي كثيرا ما يقول لي ما فعل القاضي الشريف (ابن عاشور) فأحكي له ما يبلغني عنه من غريب منازعه ووجيه أبحاثه فأرى السّرور بوجهه" وقال عنه أيضا " باشر الخطة بميزان عدل لا يلتفت إلى خوف أو عذل.

وفي سنة 1277 هـ/ 1861 م أسندت إليه خطة الفتيا ونقابة الأشراف والحسبة على الأوقاف، والنظارة على بيت المال وسمّي عضوا بالمجلس الأكبر(مجلس الشورى) المتكوّن من 60 عضوا بمقتضى عهد الأمان 1857.

تخرّج على يديه كبار علماء جامع الزيتونة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كالشيخ سالم بوحاجب وأحمد بن الخوجة ومحمود بن الخوجة ومحمد النجار وأحمد كريم ومحمد بيرم الخامس وقال ابن أبي الضياف في المصدر ذاته بأنّه "جرى مع فحول الفقهاء في مضمارهم ومعارك أنظارهم... فلا يذكر فقها إلاّ مرجّحا بدليله، ويقول لا يعجبني أن أقول هكذا قال الفقهاء، فما يمنعني أن أعلم الدليل كما علموه" وقال عنه أيضا " كان عذب البيان كاتبا شاعرا بليغا".

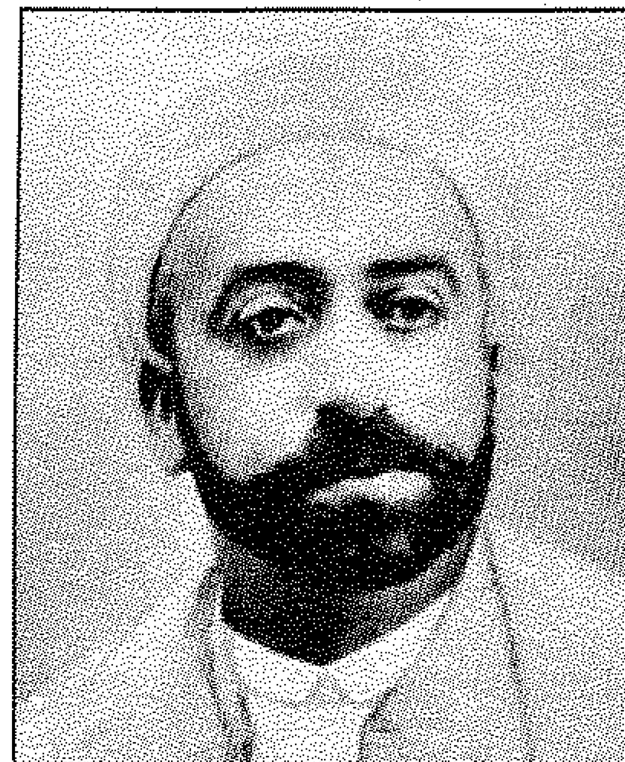
توفّي في 21 ذي الحجة سنة 1284 هـ/ 1868م. فمشى في جنازته الباي محمد الصادق ورجال الدولة ورثاه الشعراء ومنهم محمود قابادو في قصيدة رائية مثبتة بديوانه.

من آثاره :

- حاشية على قطر الندى لابن هشام، طبع بمصر.
- شرح على بردة البوصيري وسمه بـ "شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح، طبع بمصر.
- حاشية على المحلّي على جمع الجوامع في أصول الفقه، مازالت محظوظة.
- تعليقات على صحيح مسلم، مازالت مخطوطة ومؤلفات أخرى تنتظر التحقيق والبحث، وبعضها موجود بالمكتبة العاشورية بالمرسى (تونس).

محمد الطاهر ابن عاشور (الثاني)

[1879–1973م]



في الشباب



...وفي الشيخوخة

ينتمي محمد الطّاهر بن محمد بن محمّد الطّاهر الأوّل ابن محمّد بن محمّد الشاذلي بن عبد القادر بن محمد بن عاشور (بالفتح) إلى أسرة تونسية أندلسية الأصل اختار مؤسسها محمد (1620–1698م) المولود بمدينة سلا

المغربيّة بعد خروج أبيه من اسبانيا فارا بدينه اختار المقام بالعاصمة التونسية في سنة 1060هـ/1649-1650م فاشتهر فيها بالفضل والصلاح وكذلك ابنه عبد القادر.

واختص أفراد الأسرة العاشورية في المناشط العلمية والدينيّة من تدريس وإشراف على زاوية سيدي علي الزواوي بتونس وزاوية سيدي داود السلاوي بضاحية قرطاج وزاوية سيدي المصطاري المكناسي ببنزرت مرتزقين بالإشهاد وبعضهم بصناعة الشاشية. أما الخطط الشرعية فأول من ارتقى إليها هو محمد الطاهر الأول (1815-1868)، جد مترجمنا. فقد سمّي قاضيا مالكيا للعاصمة في سنة 1851، وسنّه وقتئذ خمس وثلاثون سنة، ثم صار مفتيا ونقيب الأشراف وناظرا على الأوقاف الموزعة على المدرسين وعضوا في المجلس الخاص للباي محمد الصادق. وللشيخ محمد الطاهر الأول تأليفان كثيرا ما ينسبان غلطا إلى حفيده مترجمنا محمد الطاهر الثاني وهذان التأليفان هما: حاشية سماها هدية الأريب لأصدق حبيب على شرح قطر النّدى (القاهرة 1296هـ/1877-1878م) وشرحه للبردة البوصيرية: شفاء القلب الجريح بشرح بردة المديح (القاهرة 1296هـ/1878-1879م وتونس 1341هـ/1922-1923م).

أما محمد الطاهر ابن عاشور الثاني فقد خص منذ نشأته بعناية فائقة من والده محمد (المتوفى سنة 1920 الذي كان زيتوني التكوين وكاهية رئيس الإدارة المشرفة على جمعية الأوقاف ثم رئيسا لها ومن جده للأم الوزير العالم محمد العزيز بوعتّور (ت. 1907م) وكانت هذه الصلة بين الجد العالم والحفيد النّبيه تزداد وثوقا على مرّ الأيام.

بدأ محمد الطاهر ابن عاشور تعلم القرآن في سنة 1885م، أي بعد أربع سنوات من احتلال الفرنسيّين تونس (1881) ثم تلقّى الدروس الابتدائية بمسجد مجاور لدار جدّه بنهج الباشا بتونس، وواصل دراسته بجامع الزيتونة ابتداء من سنة 1892م متتلمذا لأساتذة منهم عالم الدين الشهير الشيخ سالم بوحاجب (ت. 1342هـ/1924م). وفي سنة 1898 أخذ يتعلم اللغة الفرنسية متطلعا إلى حضارة فرنسا وآدابها، وحصل سنة 1899 على شهادة التطويع بنظامها الجديد الذي أحدث في تلك السنة (مقال ودرس وأسئلة). وفي سنة 1903 انخرط في سلك مدرّسي جامع الزيتونة من الطبقة الثانية بعد نجاحه في المناظرة ثم ارتقى إلى درجة مدرس من الطبقة العليا بعد فوزه في المناظرة أيضا وكان ذلك في سنة 1905.

أمّا الإجازات في رواية الحديث النبوي فللشيخ محمد الطاهر ابن عاشور منها أربعة أسانيد، أوّلها إجازة الشيخ محمد العزيز بوعتور في سنة 1321هـ/1904م، وثانيها إجازة الشيخ محمود ابن الخوجة المتوفى في 1911 وثالثها إجازة الشيخ سالم بوحاجب في سنة 1328هـ/1911م، ورابعها إجازة الشيخ عمر بن أحمد المعروف بابن الشيخ وذلك في سنة 1325هـ/1908م.

أما أهم مراحل حياته العملية فبالإضافة إلى اضطلاعه بالتدريس بالجامع الأعظم، جامع الزيتونة (وكانت دروسه في اللغة والبيان وأصول الفقه ومقاصد الشريعة والحديث والتفسير) فقد باشر الشيخ محمد الطاهر التدريس بالمدرسة الصادقية من سنة 1905 إلى سنة 1932 ما عدا مدة قيامه بمهام القضاء (1913-1923). كما عيّن عضوا بمجلس إدارتها في سنة 1909.

واشتهر محمد الطاهر ابن عاشور منذ تلك الأعوام بآرائه الإصلاحية وحرصه على تجديد الفكر الديني والتعليم الزيتوني التي لم يتردّد في الإصداع بها سواء بالتعبير عنها في المجالس الأدبية والمحافل الثقافية وفي الجمعية الخلدونية التي كان عضوا في هيئتها المديرة في سنة 1905 أو بالتحاليل الكتابية في المجلات العلمية خاصة في مدة زيارة الشيخ محمد عبده الثانية لتونس

في سنة 1903. وكان محمد الطاهر ابن عاشور من أشد العلماء التونسيين حماسا لمواقف رائد الحركة السلفية الإصلاحيّة.

وفي سنة 1907 سمّي نائبا للدولة لدى الهيئة المشرفة على التعليم الزيتوني والمسماة النظارة العلمية وعضوا بمجلس المدارس في سنة 1909 ثم عضوا بلجنة النظر في إصلاح التعليم الزيتوني الثانية في سنة 1910 (وولي المهامّ نفسها في اللجنتين الثالثة والرابعة سنتي 1924 و1933) كما عين في سنة 1911 عضوا بمجلس الأوقاف الأعلى.

وفي سنة 1911 بدأ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور نشاطه القضائي في خطّة حاكم بالمجلس المختلط العقاري ثم أخذ يتدرج في الخطط الشرعية فشغل خطة القضاء المالكي من سنة 1913 إلى سنة 1923 ثم سمي مفتيا مالكيا بالمجلس الشرعي فمفتيا ثانيا مكلفا بخطة باش مفتي في سنة 1924 إلى أن عيّن رسميا باش مفتي المالكية (كبير أهل الشورى) في سنة 1927. والجدير بالملاحظة أن خطة باش مفتي وكذلك خطة قاض مالكي تجعلان من صاحبهما عضوا من الأعضاء الأربعة للنظارة العلمية المشرفة على التعليم الزيتوني.

وفي سنة 1932 تولّى محمّد الطاهر ابن عاشور لأوّل مرّة في تاريخ الخطط الشّرعية التّونسية منذ حلول العثمانيين بتونس منصب شيخ الإسلام المالكي بعد أن كان هذا المنصب ينفرد به رئيس المفتين من المذهب الحنفي متقدما على زميله باش مفتي المالكية، كما انفرد في السنة نفسها بمسؤولية إدارة التعليم الزيتوني بعنوان شيخ الجامع الأعظم وفروعه بعد حذف النظارة العلمية، فشرع في تحقيق برنامجه الإصلاحي بما في ذلك ضبط برامج التعليم وإدخال إصلاحات على أساليب الامتحانات إلا أن الشيخ محمد الطاهر أبعد عن مشيخة الجامع في سنة 1933 بعد اضطرابات وقلاقل غداة أحداث التجنيس التي اتهم فيها الوطنيّيون الطاهر بن عاشور بإصدار فتوى حول التجنيس متلائمة مع الأجندة الاستعماريّة.

وفي سنة 1945 عيّن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ثانية شيخا للجامع الأعظم وفروعه واستأنف تطبيق برنامجه الإصلاحي فجعل الفروع الزيتونية تحت مراقبة إدارة مشيخة الجامع، ووفّر لها إمكان تنظيم امتحان الأهلية، كما زاد في عدد الفروع الذي ارتقى من ثمانية إلى خمسة وعشرين (منها اثنان للفتيات) في مدة سبعة أعوام (1949–1956) حتى إنّه أسس فرعين في قسنطينة سنة 1947. وأحدث إدارة المدارس لتحسين ظروف عيش الطلبة.

على أنّ الحوادث السياسية في البلاد وانعكاسها على الأوساط الزيتونية تسببت في اضطرابات داخل الجامع تعطل من جرائها تطبيق برنامج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور. فقررت السلطة في سنة 1952 إبعاده عن مباشرة وظيفه مع بقائه في خطته حتى عاد في سنة 1956 إلى مباشرة شؤون التعليم الزيتوني بعنوان شيخ عميد للجامعة الزيتونية من سنة 1956 إلى سنة 1960.

وانتخب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور عضوا مراسلا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ سنة 1950 وعضوا مراسلا للمجمع العلمي العربي بدمشق منذ سنة 1955 كما شارك في الموسوعة الفقهية التابعة لوزارة الشؤون الإسلامية الكويتية بعدّة موضوعات. وهو أول من أحرز مع صديقه المؤرّخ حسن حسني عبد الوهاب على الصنف الأكبر من وسام الاستحقاق الثقافي الذي أحدث في سنة 1968، كما أحرز على جائزة رئيس الجمهورية في الإسلاميات سنتي 1972 و1973.

توفّي الشّيخ محمد الطاهر ابن عاشور ببستانه بالمرسى في 12 أوت 1973 بعدما أظهر من الصّبر والرّضا بما أراده الله من المحن كوفاة ابنه المناضل السّياسي زين العابدين ابن عاشور في سنة 1965 ثم كارثة وفاة ابنه الأكبر مفتي الجمهورية وعميد الكلية الزيتونية للشّريعة وأصول الدين الشيخ محمّد الفاضل ابن عاشور

في سنة 1970، محافظا على نظام حياته المؤسّس على الاعتدال والانضباط والبحث والمراجعة والإصلاح والتعقيب في مكتبته الشهيرة وعلى مواصلة النّاس في أفراحهم وأتراحهم منكبّا على حاجات أسرته وأحفاده وذويه وبني وطنه مخلّفا إنتاجا علميّا ممتازا متنوّعا.

لم يشذّ محمد الطاهر ابن عاشور عن أقرانه بل وعن العلماء التونسيين في العصور الحديثة بجسامة عمله العلمي فحسب بل بما تتصف به تآليفه من حرية تفكير وحرص متواصل على الابتعاد عن التقليد والرضا بما وضعه السلف وتعمق في البحث وسعة الاطلاع وتضلع من اللغة العربية والمواد الشرعية.

وقد تجلّت هذه الصفات الفكرية في كتاب ألفه محمد الطاهر ابن عاشور في حدود سنة 1910 (ولم ينشر إلا في سنة 1967) وعمره سبع وعشرون سنة، سمّاه «**أليس الصبح بقريب؟**» (تونس 1967 و1988)، تناول فيه موضوع التعليم الإسلامي مبرزا جوانبه السلبية ومقترحا فيه الأساليب الكفيلة بإصلاحه. ثم نمت هذه الخصال وتألقت في تأليفين يحق لنا أن نعتبرهما من أهمّ ما صنّف في العلوم الإسلامية في العصور الحديثة هما: مقاصد الشريعة الإسلامية (تونس 1945–1946 و1978). ومؤلفه محمد الطاهر ابن عاشور هو أول من خصّ هذا الموضوع بتأليف مستقل فرفعه إلى درجة علم منفصل عن علم أصول الفقه فكان كتاب مقاصد الشريعة متمما ومقوما ومستوعبا لما تناوله أبو إسحاق الشاطبي (المتوفى سنة 1388م) الذي هو أول من أفرد موضوع مقاصد الشريعة بالتدوين في القسم الثاني من كتابه «التعريف».

وأما تصنيفه الآخر فهو تفسيره التام للقرآن الذي سماه «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، واختصره في عنوان «**التحرير والتنوير من التفسير**». (صدر هذا العمل في مجموعة واحدة، تتركب من 30 جزءا في 15 مجلدا بعدما نشر جزء منه في تونس سنة 1956 وفي القاهرة سنتي 1965 و1966، ثم طبعت الأجزاء منّجمة في تونس ابتداء من سنة 1968). واستغرق هذا التأليف الذي لم ينجزه قبله أحد من العلماء في تونس خمسين سنة من العمل المتواصل. وقد بذل فيه محمد الطاهر ابن عاشور الجهد في الكشف عن فرائد من معاني القرآن وإعجازه خلت منها التفاسير ومن أساليب الاستعمال الفصيح «ما تصبو إليه همم النّحارير (...) بحيث يجد القارئ في التحرير والتنوير أحسن ما في التفاسير وأحسن ممّا في التفاسير».

وألّف الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور كتبا أخرى في العلوم الدينية والشرعية، فالمطبوع منها هو:

1– حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات كتاب التنقيح على شرح تنقيح الفصول في الأصول لشهاب الدين القرافي (تونس 1341هـ/1922–1923م).

2– نقد علمي لكتاب "الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبد الرازق (القاهرة 1344هـ/1925–1926م).

3– أصول النظام الاجتماعي في الاسلام (تونس 1964 ثم تونس والجزائر 1977).

4– قصة المولد (تونس 1392/1972).

5– كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعية في الموطّإ (تونس الجزائر 1975).

6– النظر الفسيح عند مضائق الأنظار في الجامع الصحيح (تونس ليبيا 1979).

7– تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة (مجموعة مقالات وأجوبة جمعها ابنه عبد الملك ابن عاشور، تونس 1985).

وكان للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور اعتناء خاص بالعلوم الأدبية واللغوية مع تضلّع نادر. وأبرز أعماله في هذا المجال جمعه وتحقيقه

لديوان بشّار بن برد حيث ارتقى بفضل هذا العمل عدد الأبيات المعروفة لهذا الشاعر من 600 إلى 7.600 بيت (طبعة أولى بالقاهرة في 4 أجزاء ابتداء من سنة 1950 وثانية في سنة 1967 ثم طبعة تونسية جزائرية في 4 أجزاء أيضا في سنة 1976).

كما ألف أيضا:

8- أصول الإنشاء والخطابة (1339هـ/1920-1921م)

9- شرح قصيدة الأعشى الأكبر في مدح المحلّق (تونس 1929).

10- موجز البلاغة (تونس 1932).

11- شرح المقدمة الأدبية لشرح الامام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام (تونس 1958 ثم تونس-ليبيا 1978).

12- تحقيق الواضح في مشكلات شعر المتنبي لأبي القاسم الاصفهاني (تونس 1968).

13- تحقيق لكتاب سرقات المتنبي ومشكل معانيه لابن بسام النحوي (تونس 1970).

14- جمع وتحقيق لديوان النابغة الذبياني (تونس- الجزائر 1976).

وللشيخ محمد الطاهر أيضا دراسات ومقالات في العلوم الدينية والأدبية نشرت في عدة مجلات تونسية وشرقية.

وله مقالات في المجلة الزيتونية. أما المجلات المصرية التي صدرت فيها دراسات له فهي: المنار، الهداية الإسلامية، هدى الإسلام، نور الإسلام ومجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة كما نشر الشيخ في مجلة المجمع العلمي بدمشق.

وله أيضا تآليف ودراسات مهيّأة للنشر لم تطبع وبعضها بصدد الطبع منها:

1-مجموعة فتاوى.

2- مجموعة مكاتبه في النوازل الشرعية.

3- مجموعة مسائل فقهية.

4- آراء اجتهادية.

وفي العلوم اللغوية والأدبية وفي التاريخ:

5- شرح قلائد العقيان للفتح بن خاقان وشرح على شرح ابن زاكور. (نشرته الدار التونسية للنشر 1989).

6- تحقيق وتعليق على كتاب «مقدمة في النحو» المنسوب إلى أبي محرز خلف الأحمر.

7- تحقيق وتصحيح لكتاب الاقتضاب في شرح أدب الكاتب لابن قتيبة لابن السيد البطليوسي النحوي وتعليق عليه.

8- أمالي على دلائل الإعجاز للجرجاني.

9- شرح معلقة امرئ القيس.

10- تحقيق شرح القرشي على ديوان المتنبي.

11- غرائب الاستعمال.

12- قطع من شرح ديوان الحماسة.

13- تصحيح وتعليق على كتاب الانتصار لجالينوس للحكيم ابن زهر.

14- أصول التقدم في الإسلام.

15- فهرس في التعريف بعلماء أعلام.

16- تاريخ العرب.

ولئن ذكرنا بشيء من الإلمام المختصر بعض أبرز تآليفه فلا شكّ في أنّ محمد الطاهر ابن عاشور يُعَدُّ من أبرز علماء الزّيتونة لا في عصره فحسب بل وفي كل العصور، كما أنّه من ألمع علماء الإسلام لما اتّصف به من حدّة ذكاء وتعمّق في العلوم الدينية واللّغوية والأدبية ومن اعتماد على العقل والنقد مع تثبت ومقارنة في البحث. وكانت هذه الصّفات تعزّزها مثابرة نادرة وقدرة فائقة على العمل الفكري وعزيمة على الإنجاز والإتمام مع وضوح المنهج وبلاغة رائقة في التحرير والخطابة. فلا ريب في كونه ينتمي إلى أرفع طبقة من علماء الإسلام، طبقة المفكرين المجدّدين المعتمدين على العقل والاجتهاد.



محمد الفاضل ابن عاشور

[1327ـ1390هـ/ 1909ـ1970م]

هو محمّد الفاضل بن محمّد الطّاهر الثاني ابن محمد ابن محمّد الطّاهر الأوّل بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر ابن محمّد ابن عاشور. ولد في 2 شوال 1327هـ/17 أكتوبر 1909م بالمرسى من أسرة تنحدر من أصل أندلسي منظور لها بالتّقدير والاعتبار: جدّ أبيه محمّد الطّاهر الأوّل أحد علماء القرن التّاسع عشر الأكثر تقديرا شغل وظائف المدرّس، والقاضي المالكي، والمفتي، ونقيب الأشراف وعضو المجلس الكبير، أمّا جدّه محمّد فكان يشرف على الأوقاف العموميّة وفي الوقت نفسه كان يدير أملاكه الخاصة. تزوج من فاطمة بنت محمّد العزيز بو عتور الوزير الأكبر للمملكة التّونسيّة، وأنجب محمّد الطّاهر الثّاني الذي تزوّج من فاطمة بنت محمّد بن مصطفى محسن: أنجب ثلاثة أبناء وبنتين هم: محمّد الفاضل وعبد الملك [درس بالمدرسة الصادقيّة ومعهد كارنو، موظّف، تزوّج من راضية بنت الحبيب الجلّولي (وزير أكبر للمملكة التّونسيّة)] وزين العابدين [درس بمعهد كارنو، موظّف، تزوّج فاطمة بنت صلاح الدّين بن المنصف باي] وأمّ هاني [تزوّجت من أحمد بن محمد بن البشير بن الخوجة (قايد)] وصفيّة [تزوّجت من الشّاذلي الأصرم (موظّف)].

أمّا محمد الفاضل فقد تزوّج من صبيحة بنت محمّد العزيز جعيط [قاض، ومفت وشيخ الاسلام ووزير عدل].

عرّف الشّيخ محمّد الفاضل ابن عاشور بنفسه في ترجمة شخصيّة وجيزة، فأمكن للباحث، من خلال الإجابة عن أحد عشر سؤالا أن يتعرّف إلى حياة الشيخ وخاصة مولده، وظروف هذه الولادة، ونشأته المتميّزة، وكيف أقبل إلى التعلّم منذ نعومة أظفاره تحت رعاية عالم من أقاربه ومؤدّب مشهور، وأتمّ حفظ القرآن في صباه ثمّ تتلمذ لجهابذة عصره مع ذكر أسماء بعض هؤلاء ـ وفي مقدّمتهم «الشيخ الوالد» (كما يسمّيه)، وذكر حتّى الكتب التي درس فيها الفقه أو الحديث. وحصل على شهادة التّطويع سنة 1347هـ/1928م بعد دراسة بجامع الزّيتونة الأعظم دامت خمس سنوات فقط لأنّه دخل الجامع وانخرط في السنة الثّانية التي تسمّى «القطر». ثمّ شارك في «التّطويع» من «الاشموني» ـ أي السّنة السادسة من التّعليم الزّيتوني بعد امتحان أجري عليه وسمح له بهذه المشاركة. ويؤكّد أحد معاصريه من الطلبة الزّيتونيّين «أنّه أوّل من ابتدع هذه البدعة الحسنة الّتي كان له ثوابها وثواب من جاء بعده وتمسّك بها، فقد سلكنا مسلكه عام 1350هـ/1931م، وطلبنا المشاركة من السنة السادسة. ولمّا منعنا قدّمنا احتجاجا واستندنا إلى السنّة التي سنّها الشيخ الفاضل، واستجيب إلى مطلبنا ونجحنا مع بعض الرّفقاء منهم الشيخ محمود خَرُّوف ـ رحمه اللّه ـ ثمّ أغلق الباب». وفي 1929، انخرط في سلك المدرسة العليا للغة والآداب العربيّة بسوق العطارين.

وتولّى الشّيخ محمّد الفاضل التّدريس بالزّيتونة حتّى دخل الوظيفة العموميّة لأوّل مرّة بخطّة مدرّس معاون وذلك سنة 1350هـ/1931م. ثمّ حصل علي التّدريس من الطبقة الثّالثة في العام نفسه، ثمّ ارتقى إلى الطبقة الثّانية في السّنة الموالية. أمّا التدريس من الطبقة الأولى فحصل عليه سنة 1354هـ/1935م.

وقد شارك محمّد الفاضل ابن عاشور مشاركة نشيطة وموصولة في العمل الجمعيّاتي (في الجمعيّة الخيريّة، وجمعيّة قدماء الصّادقيّة وما

إلى ذلك) وخاصة في النّضال النّقابي الوطني: (انظر: محمد الفاضل ابن عاشور: الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس).

وقد تأثّر الشّيخ محمّد الفاضل ابن عاشور بأوّل رحلة قام بها إلى فرنسا سنة 1345هـ/1926م وهو في السّابعة عشرة. وفي هذا يقول: «وقد رحلت، أوّل مرّة، إلى فرنسا سنة 1926، وكان لتلك الرحلة أثر قويّ في نفسي بتوجيهها إلى تطلّب نواحي العظمة والسيادة لوطننا على نحو بهرني من فرنسا». ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ محمّد الفاضل الشّابّ قد تأثّر بالحركة الاشتراكيّة التي انتشرت، بقوّة، غداة الحرب العالميّة الأولى، في أوروبا. وفي هذا يقول: «وكان للحركة بفرنسا، وعموم البلاد الأوروبيّة صلة بالنّهضة الاجتماعيّة بتونس». كما تأثّر تأثّرا شديدا بسقوط الخلافة العثمانيّة،. وهو أدّى إلى بوادر نهضة الشعوب الإسلاميّة لتحقيق أسباب التخلّص من الاستعمار «اعتمادا على الكفاح الشّعبي واعتضادا بمبادئ الحريّة والحقوق الدّوليّة التي تأصّلت قواعدها، بعد الحرب العظمى».

وقد اهتمّ الشّيخ الفاضل بشؤون إصلاح التّعليم ومناهجه بجامع الزّيتونة الأعظم منذ شبابه الباكر. وما من شك في أنّه كان متأثّرا بأفكار «الشيخ الوالد» الّتي دوّنها في كتابه الشّهير: «أليس الصبح بقريب؟». وقد سنحت للشّيخ الفاضل فرصة الإصداع بآرائه الإصلاحيّة عندما أسهم في «مؤتمر طلبة شمال أفريقيا المسلمين» الذي انعقد بقاعة الخلدونيّة بتونس من 20 إلى 22 أوت 1931، وكان عمره آنذاك لا يتجاوز اثنين وعشرين عاما. وقد انتخب عضوا في لجنة التّعليم العربي الّتي كانت تتركّب من: فرحات عبّاس (الرّئيس) من الجزائر، والمقرّرين: محمّد الفاضل ابن عاشور، ومحمّد بن عبد اللّه (المغرب) وبوعلاّم علواش (الجزائر)، والكاتبين: علي البلهوان والمنجي سليم (تونس). أمّا التّقرير الذي قدّمه الشيخ الفاضل في الجلسة العامة، فقد تناول وضعيّة التّعليم المترديّة وقتئذ، ونضال الطلبة منذ سنة 1910، وفشل لجان الإصلاح المتعاقبة بسبب مناهضة الشيوخ المحافظين لأيّ عمل إصلاحي، وإصرار السلط الاستعماريّة على تهميش الجامعة الزّيتونيّة وإخماد صوتها، باعتبارها معقلا من معاقل المقاومة الوطنيّة ومركزا من مراكز الدّفاع عن الهويّة العربيّة الاسلاميّة وحماية الشّعب التّونسي من الإدماج والذّوبان. وبعد أن حلّل المقرّر الوضع عهدئذ في جامع الزيتونة، انتقد الكتب الجاري بها العمل للتّدريس وهي عبارة عن متون وشروح لا تربّي الملكة «إلاّ على البحث التّحليلي السّخيف والتمسّك بالقشور، والخضوع لكلّ مسموع بالتّصديق، إجلالا لدرجة قائله كائنا من كان»، وذلك وفقا للقانون الصّادر في سنة 1876 الذي ينص، في أحد فصوله على ما يلي: «لا يجوز البحث في الأصول الّتي تلقّاها العلماء جيلا بعد آخر بالقبول، ولا أن يكثر من تغليط المصنّفين، فإنّ كثرة التّغليط أمارة الاشتباه والتّخليط، بل عليه أن يبذل الوسع في فهم مفردات الفضلاء». ويعلّق المقرّر على هذا الفصل بقوله: «وبذلك أصبح الذي يحاول تصحيح مسألة أو إصلاح خطإ معرّضا، زيادة على السّخط العام والمقاومة المعتادة ـ لارتكاب جناية فظيعة بخروجه عن حدّ الأمر العليّ الذي يحصر دائرة التّفكير». ويختم القسم الأوّل بانتقاد أساليب التّدريس التي تقتصر على «طريقة الإلقاء المحض مجرّدة عن كلّ عمل تطبيقي أو استنتاجي من جهد التّلميذ، فتتعطّل كافة مواهبه العلميّة ولا يتمرّن فكره أبدا على الإنتاج العلمي وحريّة النّقد والابتكار». وهكذا «تشيب الأعمار في دراسة هذه الكتب دون الحصول منها على طائل، ومن ذا الذي يطمع في ختم تفسير البيضاوي أو ختم المطوّل، حتّى إن العلاّمة الشيخ أحمد بن الخوجة لم يتجاوز الفاتحة بعد اثني عشر عاما من شروعه في درس البيضاوي». وفي القسم الثّاني من التّقرير، عرض

الشيخ محمّد الفاضل الخطوط الكبرى لمشروع الإصلاح الذي يقترحه، وهي ترتكز على: «تغيير برنامج التّعليم، والنّهضة بأساليبه، بصورة تلائم الحياة الفكريّة المحيطة بالمعهد، حتّى يبقى جامع الزّيتونة المعهد المعتمد عليه في حفظ اللّغة العربيّة ونشرها، وبثّ التّعاليم الإسلاميّة، وتخريج العالم الشّرعي، والخطيب الدّيني، والعالم اللّغوي، والأديب الضليع...».

وإثر ذلك، ألحّ على ضرورة الاعتناء بالثّقافة العامة الّتي ينبغي أن يكتسبها الطالب الزّيتوني، وضرورة إدخال العلوم الرياضيّة والطبيعيّة والفلسفة، و«إيجاد إدارة عليا مجدّدة المسؤولية يرجع لنظرها المعهد الأصلي مباشرة والفروع الفرعيّة بواسطة مديرين فرعيّين» الخ. ثمّ اقترح محمّد الفاضل على المؤتمر، باسم لجنة التّعليم العربي، المصادقة على اللاّئحة التّالية: «وبعد تلاوة التقارير الخاصّة بتعليم اللغة العربيّة بمحضر اللجنة المعيّنة لذلك، اتّفق الرّأي على أنّ إصلاح التّعليم يختلف بحسب المعاهد التي تدرس بها اللّغة العربيّة بشمال إفريقيا. أمّا المعاهد الإسلامية الشّاملة للقرويّين بالمغرب، وجامع الزّيتونة بتونس، والزّوايا والمدارس بالجزائر، فكيفيّة الإصلاح فيها بقلب البرامج الحالية التي لم تبق ملائمة أبدا لما يتطلّبه العصر من الثّقافة الحيّة والتّفكير المنتج. وأمّا المدارس الثّانويّة والعليا، فبتوسّع نطاق اللغة العربيّة بها واعتبارها لغة أصليّة، وتحسين برامجها بطرق أضمن للنّجاح».

وخلاصة القول أنّ كلمة «قلب» أثارت نقاشا لكن الفاضل ابن عاشور أصرّ على إبقائها في اللاّئحة المذكورة معلّلا ذلك بقوله: «وحيث كان الإصلاح الذي نطلبه إصلاحا جوهريّا لا من نوع ذرّ الرماد في العيون، فباسم اللّجنة، أصرّ على إبقاء كلمة «قلب» في جملة الاقتراح العام المعروض للتّصويت إمّا أن تقع المصادقة عليه بجملته، وإمّا أن يرفض بالأغلبيّة إذا كانت أغلبيّة الإخوان المؤتمرين لا تشاطر رأي اللّجنة في الأصول التي وضعناها للإصلاح». ثمّ عرضت اللاّئحة على الاقتراح بنصها الأوّل، فصودق عليها بالإجماع.

لقد كان لموقف الشيخ محمّد الفاضل في مؤتمر طلبة شمال إفريقيا الأثر البالغ في نفوس طلبة جامع الزّيتونة. فنوعيّة هذا المشروع الطلاّبي، تبرز للعيان ما بلغه الطلبة الزّيتونيّون في مطلع ثلاثينات القرن العشرين من وعي ونضج، كان هذا المشروع في مستوى الأفكار الّتي عبّر عنها قادة الحركة الزّيتونيّة عهدئذ، أمثال المهيدي والشّابي وخريّف والحدّاد. على سبيل المثال، كتب الطاهر الحدّاد يقول في هذا الصّدد: «مسألة إصلاح جامع الزّيتونة يجب أن يَعْتبرها التّونسيّون مسألة حياة أو موت. إن هذا المعهد هو الوحيد الذي يمكّننا اليوم من أن نحمي جوهرنا من الاندثار بإحياء لغتنا وآدابنا الصحيحة مع درس علوم الحياة فيه بلساننا [...] حتّى تبقى الزّيتونة رمزا لتراثنا الثّقافي والحضاري والدّيني. يجب الدّفاع عن استمرار إشعاعها في إصلاح عام شامل يثبت وجود كيانها ويعينها على أداء رسالتها على الوجه الأكمل»: [انظر:الطّاهر الحدّاد: التّعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزّيتونة، تونس، 1981، ص 35].

ومنذ افتتاح السنة الدّراسيّة (1931 ـ 1932)، تفاقم الوضع بجامع الزّيتونة، وتعدّدت المظاهرات والاضطرابات للمطالبة بتطبيق المشروع الذي قدّمه الطلبة في لائحتهم والاحتجاج على لجنة الإصلاح الرّابعة الّتي تشكّلت منذ سنة 1929 ولكنّها لم تتوصّل إلى أيّ نتيجة بسبب الخلاف الذي نشب بين شقّ المحافظين الذي يتزعّمه شيخ الإسلام الحنفي أحمد بيرم (المتوفّى عام 1937)، بمساعدة الوزير الأكبر خليل بوحاجب، والشقّ الإصلاحي، وعلى رأسه باش مفتي المالكية الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور الذي كان يحظى بتأييد جريدة «النّهضة» اليوميّة ثمّ جريدة «صوت التّونسي»

"La voix du Tunisien" النّاطقة باللّغة الفرنسيّة، في حين كانت تدافع عن آراء شيخ الإسلام الحنفي جريدة «الزّهرة» اليوميّة ثمّ جريدة «الوزير» الأسبوعيّة.

ولمّا تواصلت الاضطرابات بالزّيتونة، واحتدّ النّقاش بين المحافظين وأنصار الإصلاح، على صفحات الجرائد، اضطرّت حكومة «الحماية» الفرنسيّة، في شهر مارس 1932 إلى حسم القضيّة لترضية الطّلبة وتهدئة الخواطر، وذلك بعزل الشيخ أحمد بيرم وتعويضه بالشّيخ محمّد بن يوسف، وعزل الوزير الأكبر خليل بوحاجب وتعويضه بالهادي الأخوة، وحلّ النّظارة العلميّة، وتعيين الشّيخ محمّد الطّاهر ابن عاشور شيخا للجامع الأعظم وفروعه. وكان هذا في الأثناء، قد ارتقى إلى رتبة شيخ الإسلام المالكي على قدم المساواة مع شيخ الإسلام الحنفي. وقد اعتبر الشيخ محمّد الفاضل هذه الاجراءات «انتصارا للحركة الطلابيّة والحركة الإصلاحيّة بوجه عام» واعتبر الشّيخ محمّد الطاهر هذه الاجراءات عملا تمهيديّا لتطبيق مشروعه الإصلاحي المتكامل على مراحل، إلاّ أنّ الظروف السياسيّة المتأزمة الّتي مرّت بها البلاد التّونسية في مطلع الثلاثينات، وملابسات تعاطي الطلبة الزّيتونيّين النّشاط الوطني والسياسي، لم تسمح له بمواصلة الاضطلاع بمهامه الإداريّة، فاستقال من منصبه في سبتمبر 1933، لكن ابنه الشيخ الفاضل واصل النّضال بالتّعاون مع زملائه المدرّسين نذكر منهم المشايخ المختار ابن محمود، ومعاوية التّميمي، والشّاذلي ابن القاضي، ومحمّد الزّغواني، وأحمد شلبي وغيرهم، وكانت إصلاحات سنة 1938، إثر الإضراب الذي شنّه طلبة الزّيتونة عن الدّروس في أوائل سنة 1937. وهو ما اضطرّ الحكومة، مرّة أخرى، إلى تأليف لجنة مكلّفة بالنّظر في نظام التّعليم الزّيتوني وطرق إصلاحه، وهي «لجنة الاصلاح الخامسة». ورغم العراقيل، فإنّ الشيخ محمّد الفاضل تمكّن من حمل اللجنة المذكورة على تقديم مقترحات مهمّة لإصلاح الوضع بجامع الزّيتونة وفروعه. ورغم اعتدال هذه المقترحات التي صادقت عليها اللجنة بالإجماع قبل انتهاء أشغالها في شهر جويلية 1939، فإنّها بقيت حبرا على ورق، لأنّ السلط كانت منشغلة البال بالوضع السّائد في البلاد بعد أحداث 9 أفريل 1938 الدّمويّة، وقبيل اندلاع الحرب العالميّة الثانية (1939).

نشر محمّد الفاضل ابن عاشور مقالات وبحوثا كثيرة في المجلاّت والصحف التّونسيّة، كما كانت له أحاديث ومسامرات في الإذاعة أيضا، وقد نشر على الأرجح، أول مقال له بتاريخ 15 فيفري 1928 - وعمره وقتئذ 19 عاما - وفي موضوع تناول النّاقد ابن رشيق، ومقارنته ببعض نقاد البلاد الأوروبيّة. وتتالت، بعد ذلك، مقالاته المتميّزة وهي نقديّة سياسيّة، وطنيّة، وأخرى خصّصها لتراجم بعض الشّخصيات، وهذه المقالات نشرت بالصَّحيفَتَيْن اليوميّتين «النّهضة» و«الزّهرة»، وكذلك في الصحف الأسبوعيّة مثل «تونس» و«الأسبوع»، و«الزّمان».

وفي 15 فيفري 1939، وقف الشيخ محمّد الفاضل أمام المصدح، لأوّل مرّة، في الإذاعة التّونسيّة التي تأسّست عام 1938 ليلقي محاضرته بعنوان: «يوم عاشوراء في الجاهليّة وفي الإسلام». وبعد أن سامر إذاعيّا في موضوعات مختلفة اختار لنفسه أن يعرّف بأعلام من الصحافة التونسيّة، وأوّل محاضرة، في هذا المضمار كانت بعنوان: «من مفاخر الصحافة التّونسية: الشيخ محمّد بيرم (الخامس)». لكن وقعت حادثة إثر هزيمة فرنسا، عام 1940، محصّلها أنّ المتعاطفين مع فرنسا (francophiles) قد أنشؤوا لجنة إغاثة لجمع الأموال والمواد الاستهلاكيّة لإرْسَالها إلى الفرنسيّين المنكوبين في الحرب. وقد شارك في هذه اللجنة تونسيّون ينتمون إلى عالم الأدب والفكر والفنون، ولكن منهم من عزف – وهم كثر – عن الإسهام في هذه اللجنة، منهم الشّيخ محمّد الفاض إذ كان

يفضّل أن يحاضر على منبر الإسعاف الخيري الذي بعثته جماعة من التّونسيين لمساعدة المحتاجين من المسلمين بدلا من مساعدة الفرنسيّين. وألقى محاضرة بعنوان: «حاتم الطائي» (بقصر الجمعيّات الذي يسمّى اليوم «دار ابن رشيق»). وبسبب هذا الموقف، كان لا بدّ أن يغضّ عن الشّيخ محمّد الفاضل الطرف من ثمّة لم يعد له أيّ مجال في الإذاعة إلى أن تخرج قوات المحور من تونس. عندئذ، حلّ نورالدّين بن محمود محلّ عثمان الكعّاك في الكتابة العامّة للإذاعة، وكان فعلا تلميذا بارّا للأستاذ محمد الفاضل، وكان يجلّه ويحترمه، وهو الذي أطلق عليه لقب «العلاّمة البحر». باختصار، أتيح للشّيخ الفاضل المجال، وأصبح له برنامج جديد في الإذاعة بعنوان: «مشاهير التّونسيين في القرن الرّابع عشر» (الهجري). وقد ترجم فيه لعدد من الشّخصيات التّونسيّة التي أدّت دورا ما في الميادين العلميّة والسياسيّة. وإثر انتهاء هذه السلسلة من الأحاديث الإذاعيّة، ابتكر سلسلة أخرى تتعلّق بـ: «الحضارة الحفصيّة» (نشاط علمي وسياسي وعمراني إلخ).

وفي سنة 1944، أقيم مهرجان أدبي كبير لألفيّة أبي العلاء المعرّي، وكان الكاتب العام للجنة هذا المهرجان الشيخ محمّد الفاضل الذي بذل من الجهد، وحسن التّنظيم، واختيار المحاور ما جعل هذا المهرجان الأدبي حديث النّاس. وكان بحثه حول: «مقصد أبي العلاء من رسالة الغفران».

وبعد الانتهاء من المهرجان مباشرة، سافر الشيخ محمّد الفاضل إلى الجزائر وقضّى فيها أيّاما، ولعلّه لم يفكّر قطّ في أن يتكلّم في الإذاعة، لأسباب لا تخفى على لبيب، ثمّ انتقل مع بقيّة مرافقيه إلى المغرب الأقصى حيث تحدّث في مسامرة إذاعيّة عن الصّلات بين تونس والمغرب. وبعد رجوعه من هذه السفرة، قصد عام 1944، البقاع المقدّسة لأداء مناسك الحجّ: وكان رفقة والده وآخرين، وكان يرأس الوفد، وقتئذ، المؤرخ حسن حسني عبد الوهّاب (وزير القلم والاستشارة)، ونزل الوفد بالقاهرة، فكتب عن أفراد الوفد، وعن الشّيخ محمّدالفاضل بخاصة الذي كان يجيب كلّ من سأله عن الحركة الفكريّة والأدبيّة والصحافيّة في تونس.

وعاد إلى البلاد التّونسيّة وخرج على النّاس بحديث عنوانه: في طريق السّماء، وفيه تحدّث عن رحلته المذكورة وكان مبدعا في وصفه للطائرة وهي تسير من محطة إلى أخرى. وقد بثّت أحاديث «في طريق السّماء» في أمسيّات أيّام السبت، ثم في أمسيّات الأربعاء.

وظل الشيخ الفاضل مواصلا مسامراته الإذاعيّة إلى أن استقال نورالدّين بن محمود فتوقّف، لكنّه عاد إلى الإذاعة من جديد سنة 1950.

وقبل أن تضع الحرب العالميّة الثانية أوزارها شنّ المدرّسون إضرابهم الأوّل يوم 31 سبتمبر 1943 للمطالبة بإلحاقهم بالوظيفة العموميّة وتنظيرهم بأساتذة معاهد التّعليم الرّسميّة، وتطبيق اقتراحات «لجنة الاصلاح الخامسة». وقد حظي هذا الإضراب بمساندة شعبيّة واسعة النطاق، وبتأييد عاهل البلاد الجديد محمّد الأمين باي الذي كان يبحث عن اكتساب نوع من الشّرعيّة، إثر خلع الملك الشّرعي محمّد المنصف باي. ولم يستأنف المدرّسون الزّيتونيّون عملهم إلاّ بعد أن حصلوا على ترضية جميع مطالبهم الماديّة.

واستنادا إلى ما أحرزوه من نجاح، وحرصا على تحقيق توصيات لجنة الإصلاح الأخيرة، عقد المدرّسون الزّيتونيّون مؤتمرا عاما بقاعة الجمعيّة الخلدونيّة يوم 12 أكتوبر 1944 واختاروا الشّيخ محمّد الفاضل كاتبا عاما للمؤتمر، وعيّنوا عشر لجان فرعيّة تواصل عملها طوال السنة الدّراسيّة (1944 ـ 1945)، وأسفر هذا المؤتمر عن برنامج شامل لإصلاح التّعليم بالجامع الأعظم وفروعه. وقد انتخب المدرّسون مكتبا مكلّفا بتطبيق قرارات المؤتمر متألّفا من المشايخ الآتي ذكرهم: الشاذلي ابن القاضي (رئيسا)، محمّد الصّالح النّيفر (أمينا عاما)،

محمّد الفاضل ابن عاشور، الطيّب التّليلي، محمد بن نيّة (أعضاء).

ومن الطبيعي أن يصبح الشيخ محمّد الفاضل، منذ ذلك الحين، المتكلّم باسم الطلبة والمدرّسين الزّيتونيّين في الوقت نفسه، بمهمّته الخطيرة في فترة حاسمة من تاريخ جامع الزّيتونة وفروعه.

وفي التوجّه الاصلاحي الجذري نفسه، سعى إلى إعادة تنشيط للجمعيّة الخلدونيّة الّتي أصبح رئيسا لها في جوان 1945 إثر وفاة عبد الرّحمان الكعّاك.

حدث هام كذلك في حياة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور هو انعقاد المؤتمر التّأسيسي لـ«الاتّحاد العام التّونسي للشّغل» - بقاعة الجمعيّة الخلدونيّة، بالعاصمة. وقد انتخب على رأسه فرحات حشّاد أمينا عاما، والكيلاني الشّريف والصّحبي فرحات كاتبين مساعدين، وانتخب الشّيخ الفاضل رئيسا شرفيّا للاتّحاد. وقد أدّى دورا لا يستهان به جنبا إلى جنب مع فرحات حشّاد في توعية النقابيّين في اجتماعات حاشدة هنا وهناك في المدن التّونسيّة. إذ بادر بإنجاز نشاط نقابي مرموق وحثيث قبل تأسيس «الاتّحاد العام التّونسي للشّغل»، ثمّ آثر الشّيخ الفاضل إنهاء نشاطه النّقابي في أوّل ماي 1947، وفي الوقت نفسه جُمّدت عضويته في الديوان السياسي للحزب الحر الدستوري الجديد فانصب جهده على عمله التّدريسي، وعلى جعل الجمعيّة الخلدونيّة المنبر الممتاز الّذي منه يستطيع أن يلقي محاضراته.

وما إن أمسك بزمام الجمعيّة الخلدونيّة، حتّى أخرجها من جمودها وانكماشها إلى آفاق رحيبة، فاستهلّ رئاسته لهذه الجمعيّة بحفل بهيج أقامه بدار زرّوق في مصطاف أبي سعيد وذلك في رمضان من السنة نفسها فألقى الشّيخ المختار ابن محمود - وهو «صديق العمر» - محاضرة عن «خديجة أمّ المؤمنين ودور المرأة التونسية». وكان لهذه المحاضرة، بإشراف الشّيخ الفاضل، صدى طيّب لدى المستمعين ولدى الصحافة أيضا.

وفي شهر جانفي 1946، أنشأ الشيخ الفاضل معهد البحوث الإسلاميّة الذي حُدّدت غايته في «بعث روح الثقافة الإسلاميّة، وقيادة ذوي الثّقافة إلى الشّعور بوحدة العالم الإسلامي وعظمته، والوقوف على حقائقه الوجوديّة، وتكوين الاستعداد لدراسة حرّة لا تتأثّر بالظّروف العارضة ولا بالتيّارات الخارجيّة، فتستوحي سيرها من المعارف التّاريخيّة والجغرافيّة المستندة على الأصول الصحيحة المتمشيّة مع حركة الجامعة الإسلاميّة [Panislamisme]». وفي هذا المعهد الرائد ألقيت حوالي خمسين محاضرة في موضوعات ثقافيّة وسياسيّة واقتصاديّة.

وأنشأ الشّيخ الفاضل أيضا معهد الحقوق العربي الذي عهد بإدارته إلى الحقوقي الطيّب العنّابي. ومعلوم أنّ هذا المعهد أصبح يسمّى المدرسة التّونسية للحقوق الّتي كان يشرف عليها ويديرها الرئيس محمّد المالقي (وقد نظّمها قرار 21 جوان 1966) إلى أن أدمجت في كليّة الحقوق بأمر 12 أوت 1972، وكان الشيخ الفاضل من أساتذتها يحاضر في التّشريع الإسلامي، ويتحدّث لطلبته بأنّه شغوف بالعلم وأهله. ألم يشعر بالفارق العظيم، عندما تولّى القضاء في الستينات، بين ما كان عليه وما أصبح.

وفي سنة 1947، نظّمت الجمعيّة الخلدونيّة تعليما ثانويا عصريّا تدرّس فيه جميع المواد باللسان العربي وينتهي بالحصول على شهادة الباكالوريا العربيّة التي ترمي إلى تهيئة طلبة جامع الزيتونة للالتحاق بكلّيّات التّعليم العالي التّابعة لجامعات الشّرق العربيّة وإمداد الجامعة الزّيتونيّة، فيما بعد، بأساتذة مؤهّلين لتدريس العلوم العصريّة باللّسان العربي، كالرّياضيات والفيزياء والكيمياء وعلوم الطبيعة والفلسفة، وذلك في انتظار إنشاء «الشّعبة العصريّة الزّيتونيّة».

وفي صائفة سنة 1949، أعدّ الشيخ محمّد

الفاضل «مؤتمر الثّقافة الإسلاميّة»، الذي كان من أنجح الأعمال التي قام بها في فترة ابتعاده عن النّشاط الإذاعي. ولمّا تولّى أمر الإذاعة التّونسية الأستاذ حسين النّيفر، عاد إلى الإذاعة من جديد سنة 1950 ليستأنف حصّته الإذاعيّة «مشاهير التّونسيين في القرن الرّابع عشر (الهجري)» بالشّيخ أحمد الورتتّاني (الذي عمل مدرّسا ومساعدا لمحمّد بيرم الخامس في إدارة الأوقاف وفي المطبعة الرّسميّة في الوقت نفسه). وكانت أحاديثه الإذاعيّة إمّا لمناسبات أو تراجم لبعض الشخصيّات أو ملاحظات على بعض أمّهات الكتب. ثمّ لمّا تأزّمت الأمور في البلاد التّونسيّة بسبب الثّورة التي اندلعت سنة 1952، انقطع الشّيخ محمّد الفاضل عن أسماره الإذاعيّة، لكنّه واصل محاضراته بمعهد البحوث الإسلاميّة.

وفي عام 1953، ابتدأت رحلته مع الخطط الشّرعيّة، فقد صدر أمر بتاريخ 28 صفر/5 نوفمبر 1953 بولايته مفتيا مالكيّا بالمحكمة الشّرعيّة، وكان ذلك في وزارة صلاح الدّين البكّوش الوزير الأوّل والصّادق الجزيري وزير العدل.

ولم يطل به الأمر إلاّ قليلا في هذه الخطة الشرعيّة حتّى اختير لقضاء الحاضرة، وهي الخطة التي شغلها قبله ومن بيته جدّه الشّيخ محمد الطاهر ابن عاشور الأوّل سنة 1267هـ/1850م، ووالده محمّد الطّاهر، وذلك سنة 1331هـ/1913م. وكان الشيخ الفاضل هو آخر من تولى هذه الخطّة الشّرعيّة بالدّيوان (المحكمة الشّرعيّة) الذي دام قرنا كاملا، فقد أحدث الدّيوان عام 1856 وأغلق عام 1956، إثر الاستقلال، ذلك أنّه وحُدّ القضاء وأدمجت المحاكم الشرعيّة بقضاتها وسائر موظفيها في إطار محاكم الحقّ العام وذلك حسب أمر مؤرّخ في 4 صفر سنة 1376/25 ديسمبر 1956.

وفي أوّل أكتوبر من عام 1956، سمّي الشّيخ محمّد الفاضل رئيس دائرة بمحكمة التّعقيب في خطة محدثة، بعد أن باشر قضاء الحاضرة حوالي ستّة أشهر.

وعلى الرّغم من نشاطه المكثّف في الميدان القضائي، ورغم تراكم القضايا وكثرتها، فقد لوحظ أنّه لم يتخلّ عن نشاطه الثقافي (إلقاء المحاضرات والدّراسات في الملتقيات، التّحرير في الصحف، المثابرة على التّأليف) واستمرّ يرأس دائرة التّعقيب ويديرها مدّة أربع سنوات وخمسة أشهر. وخامرته فكرة العودة إلى ربوع المعارف الواسعة. ومن هنا نفهم أنّ الشيخ الفاضل كان يحبّ التّعليم والتّدريس والانتماء العلمي المعرفي، ويفضّل ذلك على الوظيف حتّى إن كان الوظيف القضاء أو الإفتاء...

وفي أوّل مارس سمّي عميدا للكليّة الزّيتونيّة، حسب أمر صدر له بذلك بتاريخ غرة شوّال سنة 1380هـ/17 ـ 3 ـ 1961، لكنّه باشر العمادة من غرّة مارس 1961، علما بأنّ الجامعة التّونسيّة أحدثها أمر عدد 98 في 3 شوّال سنة 1379/31 مارس 1960. وقد أهمل هذا الأمر الكليّة الزّيتونيّة حتّى جاء الأمر عدد 110 في 14 رمضان سنة 1380/غرّة مارس سنة 1961، بمساعي الشّيخ الفاضل فألحق «الكليّة الزّيتونية للشّريعة وأصول الدّين» وجعلها من الكليّات التابعة للجامعة التّونسيّة.

ومن هنا نلاحظ أنّ الشّيخ الفاضل كان يسعى، منذ عام، قبل تخلّيه عن خطّة القضاء العدلي ومباشرة العمادة، لوضع ما يلزم من الأسس القانونيّة الصحيحة للكليّة والعمادة حتى يباشر وظيفه الجديد على أسس مدروسة. وعندما باشر العمادة أسّس الاجازة لهذه الكليّة حسب أمر استصدره في 27 أكتوبر 1961.

وفي 28 رجب سنة 1376هـ/28 فيفري 1957م، صدر أمر، نشر بالرّائد الرّسمي (عدد: 18 بتاريخ 1 مارس 1957) يحدث منصب مفتي الديار التّونسيّة. وهذا الأمر، أسند منذ صدوره خطة الإفتاء إلى الشّيخ محمّد العزيز جعيط الذي استمرّ في مباشرة هذه الخطة حتّى أقيل منها سنة 1960.

وعرضت خطّة الإفتاء على الشّيخ الفاضل فأبى

قبولها وفضّل العمادة عليها، ولمّا أعلمه أحدهم بأنّها أصبحت فرضا عينيّا بالنّسبة إليه، ونصحه بالامتثال، أعلن في النّهاية القبول على شرط أن يحتفظ بالعمادة ولا يتخلّى عنها. وعورض بأنّه لا يمكن الجمع بين وظيفتين ومرتّبين، فأعلن أنّه يتخلّى عن مرتب الإفتاء ويكتفي بما هو مخصّص للعميد. وهكذا كان.

وكان الشّيخ الفاضل عضوا مباشرا في «مجمع اللغة العربيّة» بالقاهرة كما كان عضوا في مجامع أخرى ومنظمات عربية إسلاميّة.

وإيمانا منه بأن المرأة هي المربيّة للأجيال والحافظة لتراث الشعب وتقاليده أسهم الشّيخ الفاضل في وضع مجلّة الأحوال الشّخصيّة الصّادرة بأمر: 6 محرّم 1376هـ/13 أوت 1956، وهي مجلّة تقدميّة جدًّا.

إنّ البحث عن شخصيّة محمّد الفاضل ابن عاشور حياة وأثرا «يواجه اختيارات صعبة في منهجية المقاربة هي تشعّب حياة الرّجل، وكثرة أعماله، وتعدّد مشاركاته في المحافل الأدبيّة واللّغويّة والفكريّة، ووفرة إنتاجه المنشور في أكثره بالدّوريّات»، والمجموع على «قلّته في الكتب».

وظلّ الشّيخ الفاضل مباشرا لخطّتي الإفتاء والعمادة مدّة ثمانيّة أعوام إلى أن توفّي في 11 صفر سنة 1390/20 أفريل سنة 1970 وقد أبّنه والده في جرأة نادرة مبتدئا تأبينه بقوله: «ومن نكد الدّنيا أن يؤبّن الآباء الأبناء [اللّه أكبر!]».

من كتبه ومحاضراته ومقالاته المنشورة:

– أركان النّهضة الأدبيّة في تونس، النّجاح، تونس، 1963،

– تراجم الأعلام، الدّار التونسيّة للنّشر، تونس، 1970،

– أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، تونس، 1965،

– ومضات فكر، الجزء الأوّل، تونس 1981، والجزء الثّاني، تونس 1982،

– الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس، القاهرة، 1956.

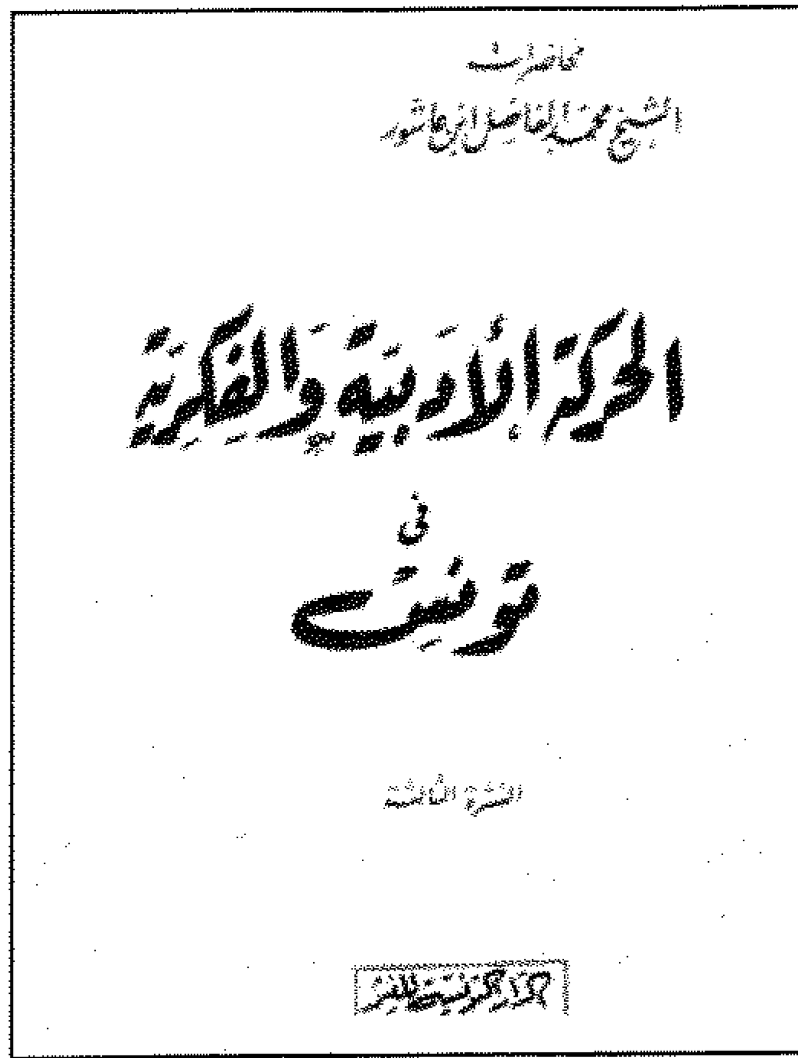
– مقال بعنوان «روح الحضارة الإسلاميّة» في: النّشرة العلميّة للكليّة الزّيتونيّة، العدد الأوّل: 1391هـ/1971م، ص 12،

– التّقشّف في الإسلام (محاضرة ألقاها الشّيخ ليلة 27 رمضان 1383، الدّار التّونسية للنشر، 1968).

«الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس»

هذا الكتاب الشّهير يتضمّن ثماني محاضرات ألقاها محمّد الفاضل ابن عاشور أمام طلبة «معهد الدّراسات العربيّة العاليّة» بالقاهرة في منتصف الخمسينات (1955)، وقد أرفقها، في آخر الكتاب، بمجموعة من النّصوص، نماذج لموضوعات النّهضة الفكريّة والأدبيّة في البلاد التّونسية من منتصف القرن التّاسع عشر إلى الاستقلال. وقد ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى (القاهرة، 1956، 193 ص). وطبع طبعة ثانية (الدّار التونسية للنّشر، تونس، 1972)، وأخرى (الدّار التونسيّة للنّشر، تونس، 1983).

ولا بدّ من التّذكير بأنّ مادّة الكتاب غزيرة



ومتنوّعة تناولت محاور متعدّدة من أبرزها: الفكر الإسلامي التّجديديّ والإصلاحي، الحركة الوطنيّة، التّحْديث العلمي والأدبي، الصّراع الثّقافي والهويّةَ العربيّة الإسلاميّة، المؤسّسات التّربويّة والثّقافية في نشر الوعي الوطنيّ، النّشاط الصحفي، إلخ.

إنّ المؤلّف الذي عرّفنا به ونوّهنا بثقافته الموسوعيّة هو من مناضلي الحركة الإصلاحيّة التّحديثيّة المعاصرة في تونس.

ويمكن القول إنّ الكتاب الذي نحن بصدده ليس تاريخا للحركة الفكريّة والأدبيّة في تونس فحسب، كما يبدو من العنوان لأوّل وهلة، بل هو، في الوقت نفسه، تعبير عن رؤية إصلاحيّة تحديثيّة لقضايا الأمّة الإسلاميّة، وعوامل ضعفها من ناحية، وضرورة أخذها بأسباب التقدّم من ناحية أخرى. وهو أيضا تحليل لقضايا التحرّر الوطني، ولمظاهر الجدل الدّائر بين المحافظين والمجدّدين في الحركة الفكريّة والأدبيّة في تونس الحديثة والمعاصرة، وهو كذلك تحليل للصّراع بين «الثّقافة المفروضة» - كما يسمّيها الشّيخ الفاضل - أي، ثقافة الغرب الغالب، وبين الثقافة الوطنيّة، الثقافة العربيّة الإسلامية. ومن المؤكد أنّ هذا الكتاب، رغم بعض نواقصه، قد نقل عنه باحثون كثيرون واستفادوا منه، مثلا:

يعتبره المؤرّخ الحبيب الجنحاني «أبرز ما وصلنا من إنتاج المرحوم الشيخ الفاضل، وهو نصّ جليل الشّأن (...) لأنّه يقدّم لنا كثيرا من المعلومات الثّمينة التي لا نجد لها أثرا في المصادر والمراجع، ذلك أنّه يقصّها علينا عن طريق الرّواية الشّفاهيّة كماتلقّاها، بالتّواتر، عن الجيلين السّابقين فيما يتّصل بأخبار النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر الميلادي، والربع الأوّل من القرن العشرين، أو باعتباره أحد الرّموز البارزة في الحركة الفكريّة والأدبيّة، وفي حقل العمل السياسي والاجتماعي ابتداء من مطلع الثلاثينات»: [الحبيب الجنحاني: «التقدّم والتّجديد في فكر الشيخ محمّد الفاضل...» في: الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور...، ص: 38 - 39].

ويمثّل عند المؤرّخ أرنولد هـ. ڤرين «مرجعا ثمينا زاخرا بالمعلومات، إلاّ أن ابن عاشور كان نفسه عضوا في سلك علماء تونس (وقد شغل خطتي مفتي الجمهوريّة وعميد الشريعة في جامعة تونس في الوقت نفسه)، فكان حريصا على تقديم أسلافه على أحسن صورة [كذا] وعلى تفنيد أيّ زعم بأنّ العلماء لم يضطلعوا بدور ذي شأن في تطوّر تونس العصريّة [كذا]، لذلك، ومع كلّ ما يستحقّه كتاب «الحركة...» من اعتبار، فإنّه يتعيّن أن نطالعه بذهن ناقد وبتوخّي الحذر في استقاء معلوماته»: [ڤرين: العلماء التّونسيّون 1873 - 1915...، ص 36، تعليق 48].

ولنا على ملاحظات ڤرين، ملاحظات تصويب ونقد:

1) لمّا ألقى الشيخ الفاضل سلسلة محاضراته الثماني كان ذلك سنة 1955، ونشرت في كتاب «الحركة...» سنة 1956، وليست سنة 1955 كما ذكر ڤرين ومن ثمّة لم يكن الشيخ الفاضل ابن عاشور وقتئذ يشغل خطتي الافتاء والعمادة بل شغلهما على التّوالي ابتداء من 1961 ثمّ 1962.

2) صحيح أنّه «كان حريصا على تقديم أسلافه على أحسن صورة... إلخ» ربّما يعود ذلك لإحساسه بالغبن المسلط على علماء تونس، وضرورة رفعه ثم تجاوزه بعد ذلك، وبيان أنّ هذه المنطقة تزخر بالريادة في مختلف مجالات المعرفة والفكر والإصلاح.

3) صحيح أيضا أنّنا نطالع كتاب «الحركة...» (وكلّ كتاب غيره) «بذهن ناقد وبتوخّي الحذر في استقاء» المعلومات: فكلام ڤرين منهجي ومعقول، لقد كان الشّيخ الفاضل يميل إلى الارتجال والخطابة أكثر من ميله إلى الكتابة بالمعنى الحرفي للكلمة، ولذلك لا يذكر غالبا مصادره أو مراجعه المعتمدة، فجاءت تراجمه محكمة البناء والصياغة، لا ينقصها إلاّ التّذييل بمصادر تفيد القارئ وخاصة الباحث الأكاديمي. ونميل إلى الاعتقاد بأنّ التّراجم - (وقد جاءت إشارات لبعض التّراجم الوجيزة في كتاب «الحركة...») - هي منارات ذات كمالات، فكل من ترجم لهم غالبا ما يقدّمهم على أحسن صورة للكمال الإنساني، عملا بمنهجه الذي يقول فيه: كنت «معتمدا إظهار

كلّ طور... من الأطوار بخصائصه ومقوّماته في حياة كل علم من أعلام المعرفة أو القلم جعلته بمؤثّرات حياته، وتأثيراته وظروفها مجلى الاتّجاهات العلميّة أو الفكريّة أو الأدبيّة التي تميّز بها بذلك الطور»: [أركان النّهضة الأدبيّة في تونس، ص 3]. معناه أنّه إذا أراد الباحث أن يترجم لعالم أو كاتب مثلا، يتعيّن عليه أن يفهم البيئة التي نشأ فيها. فالإنسان المتحرك في فضائه الاجتماعي والثقافي، خاصة إذا كان فردا فاعلا وعقلا مستنيرا، مرتبطا ببيئته ارتباطا عضويّا لأنّه يتأثّر ويؤثّر فيها بهذا القدر أو ذاك. ويستثنى من ذلك طبعا، بعض المفكّرين أو المصلحين أو القادة الذين سبقوا عصرهم، وهؤلاء قلّة تحفظ ولا يقاس عليها، كما يقول المناطقة.

ولا شكّ في أنّ من المفاهيم الواردة في نصوص المحاضرات الثماني (التي تكوّن كتاب: «الحركة...») - وهي تعبّر عن رؤية فكريّة إيديولوجيّة دون ريب - «وحدة العالم الإسلامي»، و«الجامعة الإسلاميّة» [محمّد الفاضل ابن عاشور: الحركة...، طبعة 1956 ص: 206]. يقول: إن غاية معهد البحوث الإسلاميّة هي: «بعث روح الثّقافة الإسلاميّة وقيادة ذوي الثّقافة إلى الشّعور بوحدة العالم الإسلامي وعظمته والوقوف على حقائقه الوجوديّة، وتكوين الاستعداد لدراسة حرّة لا تتأثّر بالظروف العارضة ولا بالتيّارات الخارجيّة، فنستوحي سيرها من المعارف التّاريخيّة والجغرافيّة المستندة على الأصول الصحيحة المتمشيّة مع حركة الجامعة الإسلاميّة (Panislamisme)».

ولعلّه من المفيد، في دراسة فكر الشّيخ الفاضل، التعرّف بعمق إلى المفاهيم الرّئيسة التي وظّفها في آثاره كلّها مع البحث عن المراحل التي ظهرت فيها تلك المفاهيم وربط ذلك بتطور مسيرته السياسيّة والفكريّة: خذ مثلا مفهوم «القوميّة العربيّة» أو «القوميّة» عموما، لكن هناك أيضا «مفهوم الأمّة الإسلاميّة» - وهو مفهوم قرآني لا يمكن تعريبه بـ: «شعب» (Peuple) أو (Nation) بدلالتيها الضيّقة (الجنسية) أو الواسعة (القوميّة) - وهي مفاهيم استعملها الشيخ الفاضل، رغم أنّها حديثة، غريبة النّمط، وغريبة عن وجدان المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. ثم إنّها تتناقض دلاليّا (دينيّا وسياسيّا) مع مفاهيم أخرى استعملها الشيخ الفاضل مثل مفهوم «الأمّة القرآني» ومفهوم «وحدة العالم الإسلامي»، علما بأنّ الفاضل، قد تأثّر تأثّرا بالغا بسقوط الخلافة العثمانيّة وكان آنذاك في فجر حياته، كما تأثّر الفاضل، إلى حدّ الانبهار، بأوّل رحلة قام بها إلى فرنسا سنة 1926، «وكان لتلك الرّحلة أثر قويّ في نفسي بتوجيهها إلى تطلبّ نواحي العظمة والسيادة لوطننا على نحو بهرني من فرنسا»: [محمّد الفاضل ابن عاشور: «الحركة...»، طبعة 2، 1972 ص: 13].

وخلاصة القول أنّ المفاهيم التي استعملها الشيخ الفاضل ابن عاشور تتّسم أحيانا بعدم الدقّة ويعتور بعضها القلق والغموض.

من المحاور الرّئيسة التي تحدّث عنهاالشّيخ الفاضل أو صوّرها تصويرا دقيقا صدمة الحداثة الغربيّة في البلاد التّونسيّة. فانطلاقا من سياسة تقرب البايات إلى فرنسا، وانتهاج سياسة تونسيّة انفصاليّة (نوعا ما) عن السلطة المركزيّة العثمانيّة، نتجت عن ذلك أمور عدّة منها اتّساع الجاليات الأجنبيّة، وانتشار تقاليدها، فاستبدلت الألبسة العربيّة بالألبسة الأوروبيّة و«أصبحت التّشكيلات العسكريّة ورجالات السلطات الملكيّة في لباسها ونظامها وآلاتها ومصطلحاتها ذات مظهر غربي مخالف لمظهرها الشّرقي»: [محمّد الفاضل ابن عاشور: الحركة...، طبعة 1956، ص: 8]. «وعلى رجّة الأحداث الهائلة التي سبقت احتلال فرنسا لتونس بخمسين عاما نهض المجتمع التونسي مبهوتا ينظر حواليه، فرأى أنّ صورة الحياة المألوفة قد انقرضت،

وبدّلت الأرض غير الأرض»: [الحركة...، ط 2. تونس، 1972، ص: 24].

ولا شكّ في أنّ احتلال فرنسا للجزائر قد وسّع من التّأثير الفرنسي في تونس، وشجّع مظاهر التسرّب الأوروبي قبل انتصاب الحماية بخمسين عاما، ونتيجة لذلك «... تكوّن... عند أهل تونس، إحساس شعبيّ بأنّ حياة البلاد قد أصبحت مهدّدة بمزاحمة طاغية عليها لا تقوى على مناهضتها، وأنّ تلك المزاحمة ترمي إلى غاية معلومة قد شاهد التّونسيّون مثلها في سوء حالة المهاجرين الجزائريّين الذين وفدوا عليهم، وقد خلّفوا عزّتهم وثروتهم بعد أن عانوا ألوانا من الإرهاق وانتهاك الحرمات»: [نفس المرجع: ص 23].

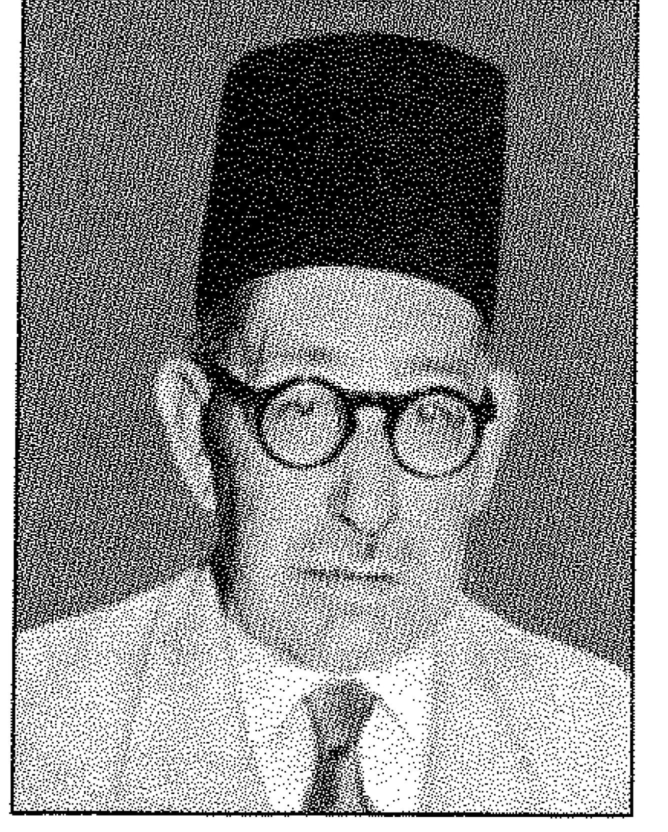
ولكن ما العمل إزاء «تضاؤل شأن الشرق الفاتر أمام صولة الغرب النّاهض»، حسب قول الشيخ الفاضل [المرجع نفسه والصفحة].

ويضيق المجال للتوسع أكثر في عرض نصوص من «الحركة...»، ونكتفي بالإشارة إلى وفاء الشيخ الفاضل للسند الفكري الذي تميّزت به الحركة الإصلاحيّة الإسلاميّة في تونس خاصة، وفي العالم الإسلامي عامة، هذا السّند يؤمن بأنّه من الممكن اتّقاء الكارثة والخروج من حالة الضعف التي عليها العالم الإسلامي بأخذ أسباب التقدّم المادي اقتباسا من التجربة في الغرب، وخاصة اكتساب «العلوم الحكمية والرياضيّة» عن الأوروبيّين بالنّقل والتعلّم. وهذا ما ذهبت إليه «هذه العبقريّة العجيبة (مشيرا إلى محمود قابادو) لما اتّصلت بمكتب المهندسين [أو مدرسة باردو الحربيّة]، وتوجّهت إلى العمل الذي انتدبت هنالك له، فتتبعت التّعاليم التي هي سرّ النّهضة الأوروبيّة، وظهر لها أنّ العلوم الحكميّة والرياضيّة [...] إنّما هي مدار التفوّق الذي نالته أوروبا على بلاد الإسلام...»: [نفس المرجع، ص: 31]. وتحدّث عن مصطفى صاحب الطابع الوزير القرجي الأصل (Géorgie) الذي «كان مثالا عديم النّظير بين طبقة من عظماء المماليك في رجاحة الفكر، واستقامة السيرة، والغيرة على المصالح العامة. ولم يكن ذا علم ولا ثقافة واسعة ولكنّه كان قد شغف بابن خلدون، وتعلّق بآرائه...»، ولما تحدّث عن كتاب «أقوم المسالك» للوزير خير الدّين نعته بالكتاب العظيم قائلا عنه: «يعتبر من أنفس آثار القلم العربي في القرن الماضي، وفي السياسة والاجتماع».

إنّ الرؤية الفكريّة للشيخ الفاضل مرتبطة وثيق الارتباط بالسّند التّاريخي للحركة الإصلاحيّة التّحديثيّة في تونس منذ بروزها في منتصف القرن التاسع عشر: إنّه يعتبر نفسه تلميذا روحيّا - (وإن لم يدرس مباشرة على البعض) - لرموز هذه الحركة أمثال محمود قابادو، وخير الدّين، وسالم بوحاجب، وبيرم الخامس، ومحمّد السنوسي، ومحمّد النّخلي وخاصة الشيخ الوالد محمّد الطاهر ابن عاشور.

وهنالك محاور أخرى وهي إصلاح التّعليم الزّيتوني والخلدونيّة والنّضال النّقابي.

ومن المفيد الإشارة إلى أن الشّيخ الفاضل ابن عاشور قد تعرض في كتابه «الحركة الأدبيّة والفكريّة في تونس» (طبعة 1972، ص: 57 - 58) لمحاكمة عبد العزيز الثّعالبي (16 جويلية 1904) لأنّه هاجم الطرق الصوفيّة علانيّة مناديا بتفسير القرآن تفسيرا عقلانيّا: «وبدأ النّاس - كما يقول الشّيخ الفاضل - يلتقطون من كلامه [الثّعالبي] سقطات في مسائل الخلاف بين الصحابة والأولياء والكرامات، ويشيعونها على وجهها، حتّى بلغت أسماع كبار الشيوخ النّاقمين على التطوّر فأثارهم ثورة أدمجت الخلدونيّة و"المنار" والثّعالبي». من هنا نفهم أنّ الشيخ قد انحاز إلى جانب الشيخ الثعالبي، وهو أحد معتنقي الاتّجاه السلفي الذي تزعّمه الشيخ محمّد عبده ثمّ رشيد رضا (صاحب "المنار") من بعده.



موسى الكاظم ابن عاشور

[1890 – 1958م]

ولد هذا القاضي حوالي سنة 1890م، وتخرّج في جامع الزّيتونة محرزا شهادتها النّهائيّة «التطويع» سنة 1912 مع نخبة من زملائه في الدراسة أمثال حسين الجلّولي والمأمون شويخة وأحمد بن عثمان وعلي بن محمود ابن الخوجة.

واختار موسى الكاظم ابن عاشور ناحية القضاء الوطنيّ العدلي وانخرط في سلكه صحبة شقيقه الأستاذ علي رضا ابن عاشور المحامي لدى المحاكم العدليّة التونسيّة في حين انضمّ إلى القضاء الشرعي أخوهما الأستاذ الإمام قاضي الجماعة شيخ الإسلام محمّد الطّاهر ابن عاشور، جدّهم للأب العلاّمة الشّيخ الطّاهر ابن عاشور الأكبر وجدّهما للأم العلاّمة الجليل والوزير الكبير محمّد العزيز بوعتّور.

دخل موسى الكاظم الوظيف القضائي العدليّ في أوت سنة 1914 وسمّي حاكما نائبا بالمحكمة الابتدائيّة بالكاف ثم انتقل إلى المحكمة الابتدائيّة بسوسة بصفة الوكيل الأوّل لرئيس المحكمة. وفي أوت سنة 1926 عيّن رئيسا للمحكمة الابتدائية بقفصة. وفي ماي سنة 1930 رجع إلى تونس العاصمة وسمّي نائب رئيس المحكمة الابتدائية وهي خطة مماثلة لرئيس محكمة جهوية. وفي هذه الخطّة لمع نجمه في أفق العمل القضائي فأعجب به الجميع من قضاة ومحامين واستمرّ طيلة خمسة عشر عاما يصدر الأحكام ذات المبادئ القانونيّة في تفسير النصوص وتأويلها وحسن تطبيقها على القضايا.

وفي شهر جويلية سنه 1945 ارتقى إلى رئاسة محكمة الاستئناف المدني فسعى إلى تكوين فقه قضائي تونسي في المادّة المدنيّة. وكان في عمله يشرف مباشرة على الأحكام الابتدائية الصادرة عن المحاكم في مختلف الجهات راجيا من وراء ذلك توحيد المناهج التطبيقيّة في ميدان الفهم الصّحيح والتأويل الصائب. واستمرّ على خطّته تلك حتى شهر جويلية سنة 1954، إذ انتهت إليه عمادة الرّؤساء فكان الرئيس الأوّل والمرجع الخصب والحكم المرشد عند كافة القضاة في كلّ القضايا.

وعند تشكيل الوزارة التفاوضيّة الثانية برئاسة الطّاهر بن عمّار أسندت إلى موسى الكاظم وزارة العدل في سبتمبر سنة 1955، فخلّد بعمله الجاد في الفترة القصيرة التي باشر فيها هذا الوظيف عدّة أعمال جليلة مثل إعداد قانون الجنسيّة والقانون الأساسي للحكّام الشرعيّين وتحرير قانون المحاماة والإجراءات الضروريّة لإصلاح المحكمة المختلطة العقاريّة.

ولمّا استقالت وزارة الطّاهر بن عمّار إثر حصول تونس على الاستقلال في 20 مارس 1956 عاد إلى منصبه العدلي حتى دعي في ماي 1956 ليشغل خطّة رئيس لقلم الادّعاء خلفا عن القاضي الفرنسي الذي كان يشغل تلك الخطّة منذ عشرة أعوام. وهذا المنصب لم يشغله منذ تأسيسه أيّ تونسي إذ كان حكرا على الفرنسيين. وتوّج لمّا أصبح الرّئيس الأوّل لمحكمة التعقيب والمشرف الأوّل على جميع القضايا والموجّه الوحيد لسير القضاء والقضاة.

ولم يطل به العمر إذ توفّي في جويلية سنة 1958 ببيته المتواضع الذي كان يقطنه بضاحية أريانة.

حمودة بن عبد العزيز

[1146 – 1202هـ/1732 – 1787م]

أبو محمد الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز، ولد بمدينة تونس في حوالي سنة 1732، تعلم في الكتّاب ثم التحق بجامع الزيتونة لإتمام دراسته. ومن أبرز الشيوخ الذين أخذ عنهم، إضافة إلى والده، الشيوخ محمد بيرم الأول المفتي الحنفي، ومحمد الماكودي مفتي المالكية ومحمد الشحمي ومحمد الغرياني.

وبعد تخرّجه تصدّر للتدريس بجامع الزيتونة، وعنه أخذ عدد من المشايخ منهم المفتي الحنفي الأكبر بيرم الثاني والأخوان محمد وعمر المحجوب ثم حج إلى بيت الله الحرام، وأقام في طريقه إلى الحج بالقاهرة.

وعند عودته سنة 1759 ولاّه علي بن حسين باي رئاسة ديوان الإنشاء، كما أرسله إلى الجزائر في مهمّات رسمية، ثم عهد إليه سنة 1772 بتربية أبنائه وتعليمهم، وكان من ضمنهم حمودة باشا الذي أقرّ شيخه على خططه عند توليه الحكم سنة 1782.

وقد عرف حمودة بن عبد العزيز بكتابه الشهير "**الكتاب الباشي**" الذي أرخ فيه بالدرجة الأولى لعهد الباشا علي بن حسين (1759-1982).

وله ديوان شعر (مخطوط) بدار الكتب الوطنية، رصيد المكتبة الأحمدية رقم 6197.

وله أيضا مقامة ورسائل مختلفة في النحو والمنطق وعلم الكلام، (مخطوط).

ابن عرفة

[716-803هـ/1316-1401م]

الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة ينسب إلى قبيلة ورغمة التي ترجع إلى قبائل هوارة، وهي من قبائل البرانس البربرية التي تأثرت كثيرا بالعرب واختلطت بهم وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك.

وترجع بعض القبائل المنتسبة الآن إليها في الحقيقة إلى عرب بني سليم مثل: أولاد دباب وأولاد شهيدة وأولاد سليم والودارنة والدغاغرة والتوازين والمحاميد.

وقبيلة ورغمة مستقرّة الآن بالجنوب التونسي (في ولايتي مدنين وتطاوين حاليا) وتشمل القبائل الفرعية الآتية: عكارة - الخزور - التوازين - الودارنة - الجبالية. ولا نعلم بالضبط إلى أي فرع من هذه الفروع ينتمي ابن عرفة، ولكن توجد إشارة متأخرة عند ابن أبي الضياف تقول إنّه من التوازين ولا ندري من أين استمدّ صاحب "الإتحاف" هذا الخبر الذي لم نجده في الأصول القديمة، ولكنه على كل حال ممكن لأنّ مقرّ بعض التوازين إلى عهد قريب يرجع إلى بلدة غمراسن.

ولا نعلم أيضا المكان الذي كانت عائلة ابن عرفة مستقرّة به قبل هجرتها إلى تونس العاصمة، لكن توجد بعض القرائن تسمح بإرجاعها إلى بلدة غمراسن ولا يستبعد ذلك من الناحية العلمية باعتبار أن تلك البلدة أو القرية كانت معروفة في عصره إذ مرّ بها التجاني في رحلته التي وقعت زمن ولادة ابن عرفة وحدّثنا عنها طويلا وقال خاصة إنّ أهلها «بربر ورغميون». وتعتبر غمراسن على الراجح المقرّ الأصلي لورغمة ومنه تفرّعت وانتشرت حسب المعطيات المتوفّرة لدينا الآن. ولا يعني ذلك أن عائلة ابن عرفة كانت حتما مستقرّة بها إذ أن السكن في ذلك الزمان كان بدويا ريفيا ومازال كذلك إلى يومنا هذا، بالإضافة إلى أن القبائل كانت دوما في مدّ وجزر يرجعان إلى أسباب سياسية واجتماعية واقتصادية ولا يصحّ أن نتصوّر توزيع القبائل مستقرّا عبر العصور... وإلى أن نجد معلومات أدق في هذا الأمر يستحسن أن نكتفي بنسبته إلى ورغمة كما كان يفعل هو وكما فعل جلّ المترجمين له وخاصة تلاميذه العارفين بتفاصيل حياته.

وليست لنا معلومات عن زمن هجرة عائلته إلى تونس ولكن نرجّح أن ذلك كان في مستوى أبيه. ولا يستبعد أن يكون سكان تلك الجهة ورجالها بوجه خاصّ يعتمدون في عيشهم الهجرة إلى مختلف المدن والقرى التونسية للاشتغال فيها. ونجد في النصوص القديمة بعض الإشارات إلى وجود والده في تونس ـ وقد كان رجلا صالحا لعله اشتغل مؤدبا ـ ونعلم أنه هاجر إلى الحجاز للحج والمجاورة حوالي سنة 740هـ/1339م واستقرّ هناك إلى أن توفي سنة 748هـ/1347م. ودفن بمقبرة البقيع بالمدينة المنورة.

تؤكد مصادرنا الموثوق بها أن ابن عرفة ولد بتونس العاصمة في رجب سنة 716هـ/أكتوبر 1316م. وليست لنا تفاصيل عن نشأته التعليميّة، ولكن يمكن أن نتعرّف إليها من خلال المعلومات المتوفرة عن عصره وشيوخه. كان تعلمه الأوّل على يدي مؤدّب شهير هو أبو عبد الله محمد ابن برال الأنصاري البلنسي الأصل وكان له كُتّاب بالقرب من جامع الزيتونة.

وتردد ابن عرفة بعد ذلك على مشاهير شيوخ عصره لتلقي مختلف العلوم في المدارس الحفصية الكثيرة العدد وخاصة في جامع الزيتونة. وكان يسكن، على الراجح، في المدرسة الشماعية. وهي أولى المدارس التي بنتها الدولة الحفصية.

أخذ العلوم الدينية، وخاصة التفسير والفقه، عن قاضي تونس أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الهواري (ت. 749هـ/1348م) وعلوم الحديث عن أبي عبد الله الوادآشي خاصّة (ت. سنة 749هـ/1348م).

وتضلّع أيضا من العلوم العقلية ودرسها على أبي عبد الله محمد بن الحباب خاصة (ت. حوالي سنة 749هـ/1348م) وعلى شيخ العلوم العقلية في المغرب الإسلامي في عهده محمد بن ابراهيم الآبلي (ت. 757هـ/1356م) عندما زار تونس لمّا فتحها أبو الحسن المريني سنة 747هـ/1347م.

بلغ ابن عرفة في أواسط القرن الثامن الهجري في العلم مرتبة عالية وإن لم يتولّ مناصب مهمّة فنحن نجد إشارة إلى أنه كان القارئ من كتاب مسلم في درس للشيخ عبد المهيمن في مجلس السلطان أبي الحسن المريني سنة 749هـ/1348م بل نراه يجادل الشيخ في بعض القراءات. وهو ما يدلّ على المكانة العلمية التي وصل إليها.

وهذه السنة كانت أساسية في بروز نجم ابن عرفة إذ ذهب «الطاعون الجارف» في منتصف القرن بالكثير من الشيوخ أمثال ابن عبد السلام والوادآشي وربما ابن الحباب أيضا... ووجد ابن عرفة نفسه بعد ذلك في الصدارة من علماء عصره المتبقين.

فلا غرابة إذن أن تشير المصادر إلى تولّيه إمامة الخمس بجامع الزيتونة سنة 750هـ/1349م أو بعد ذلك بقليل ثمّ يرتقي إلى أعلى درجات الإمامة فيصبح خطيبا سنة 772هـ/1370م ويصل إلى قمّة الهرم العلمي في السنة الموالية أي سنة 773هـ/1371م فيصبح مفتيا أكبر. وسيبقى في هذين المنصبين الجليلين إلى وفاته سنة 803هـ/1401م لا يتخلف عن أداء واجبه إلاّ في بعض الظروف الطارئة مثل المرض خاصة في آخر حياته أو عندما سافر إلى الحج من جمادى الثانية سنة 792هـ/1390م إلى جمادى الأولى سنة 793هـ/1391م. وقد عاصر ابن عرفة المؤرّخ الكبير عبد الرحمان ابن خلدون ووقع بين الرجلين نفورٌ مردّه ـ لا جنوح ابن عرفة إلى المنزع النقلي وابن خلدون إلى المنزع العقلي كما ردّد ذلك المؤرخون كثيرا ـ وإنما إلى الغيرة الشّخصيّة المتبادلة.

والملاحظ أن ابن عرفة لم يتول منصب القضاء ولم تكن له فيما يبدو رغبة فيه. والراجح أن ذلك قد كان احتراما للعرف السائد في البيئة التونسية ذلك الذي كان يستحسن التفريق بين القضاء والإمامة. وعلى كل فقد كان لابن عرفة دور فعّال في تسمية القضاة في مختلف جهات

إفريقية وقد كانوا في الغالب من تلاميذه.

والمنصب الذي شغف به ابن عرفة ولم يرض عنه بديلا أكثر من نصف قرن هو التعليم. فلقد كانت له دروس قيمة في جوانب مختلفة من العلوم الإسلامية لا سيّما التفسير والفقه في بعض المدارس، خاصة في مدرسة التوفيق وفي جامع الزيتونة. وأصبح له تأثير قوي في الأوساط الحاكمة والعلمية نتيجة لهذا الإشعاع، وبفضل تلاميذه أمثال أبي القاسم البرزلي (ت. حوالي 828هـ/1428م) صاحب "الإكمال" وأبي مهدي الغبريني (ت. حوالي 815هـ/1412م) القاضي الأكبر وابن ناجي (ت. 839هـ/1436م) صاحب "المعالم"...

لقد كان لهذه الفترة الطويلة التي قضاها ابن عرفة في التدريس نتائج مهمّة من حيث تكوين الأجيال وكذلك من حيث تأليف الكثير من التصانيف أيضا، وهذه أهمّها:

1) المختصر في الفقه

سمّي هذا الكتاب في الغالب مختصرا وذلك للمادة الكبيرة التي أحاط بها وهو في الحقيقة خمسة مجلدات ضخمة تناولت مختلف أبواب الفقه الإسلامي على المذهب المالكي. وهو عبارة عن دائرة معارف لا تقل صفحاته عن الخمسة آلاف. بدأ ابن عرفة في تأليفه سنة 772هـ/1370م وانتهى منه سنة 786هـ/1384م وقد وصلنا هذا التصنيف في الكثير من النسخ ومازال مخطوطا ما عدا باب الحج الذي حُقّق (وهو مرقون) والحدود التي بدأ بها ابن عرفة تعريفه للأبواب المختلفة ونشرت مع شرح الرصاع (ت. 894هـ/1489م) لها بتونس سنة 1350هـ/1931م. والمختصر الفقهي أهم تآليف ابن عرفة على الإطلاق وعليه تعتمد شهرته.

2) المختصر الشامل في أصول الدين

كتاب تناول فيه ابن عرفة المسائل الكلامية التي تبحث عادة في كتب أصول الدين مثل أنواع المعلومات ووجود الله وصفاته والنبوءات والحشر والجزاء والإمامة. انتهى ابن عرفة من تأليفه سنة 789هـ/1387م. ويقع في حوالي 400 صفحة. وصلتنا منه نسخ عدّة ومازال مخطوطا، ما عدا الباب الأخير المتعلق بالإمامة الذي نشر بحوليات الجامعة التونسية عدد 12 سنة 1975 ص 177 ـ 234.

3) المختصر في المنطق

هو كتيّب تعليمي يحوصل المشاكلات المنطقية التي كانت تؤلّف جزءا مهمًّا من الدراسات العقلية في عصر ابن عرفة. ألّف قبل سنة 789هـ/1387م، ويتكوّن من 80 صفحة. نشر مع جمل الخونجي في المنطق بتونس سنة 1976 بعنوان: «رسالتان في المنطق» (نشر مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية).

4) المختصر في أصول الفقه

قصد به ابن عرفة «تكميل فهم مختصر ابن الحاجب» (ت. 646هـ/1249م) واعتمد فيه خاصة كتاب الأحكام للآمدي (ت. 631هـ/1233م) وانتهى من تأليفه سنة 799هـ/1397م وبه حوالي 500 صفحة. مازال مخطوطا.

5) مختصر الحوفي في الفرائض

موضوعه الفرائض أي تقسيم الإرث وهو شرح واختصار لفرائض الحوفي، وهو الفقيه أبو القاسم أحمد بن محمد بن خلف الإشبيلي مازال مخطوطا.

6) تفسير ابن عرفة

لم يصلنا من تفسير ابن عرفة تأليف حقيقيّ ولكن تقييدات من دروسه الطويلة المتكررة. ومن أشهر روايات التفسير التي وصلتنا رواية أبي عبد الله الأبي التي حقق بعض قطع منها الأساتذة: محمد الطاهر الجوابي ومحمد المناعي (نشر منها قطعة) والسيدة ساسي، ورواية تلميذه أبي العباس أحمد البسيلي (ت 830هـ/1426م) التي تتكوّن من حوالي ألف صفحة وقد اشترك في تحقيقها الأساتذة: عبد الوهاب الشواشي والبشير نقرة ومحمد الأحول

وسوف عبيد وبلقاسم الهمامي ومحمد قموع ومختار يحيى وأحمد البخاري الشتوي.

7) فتاوى ابن عرفة

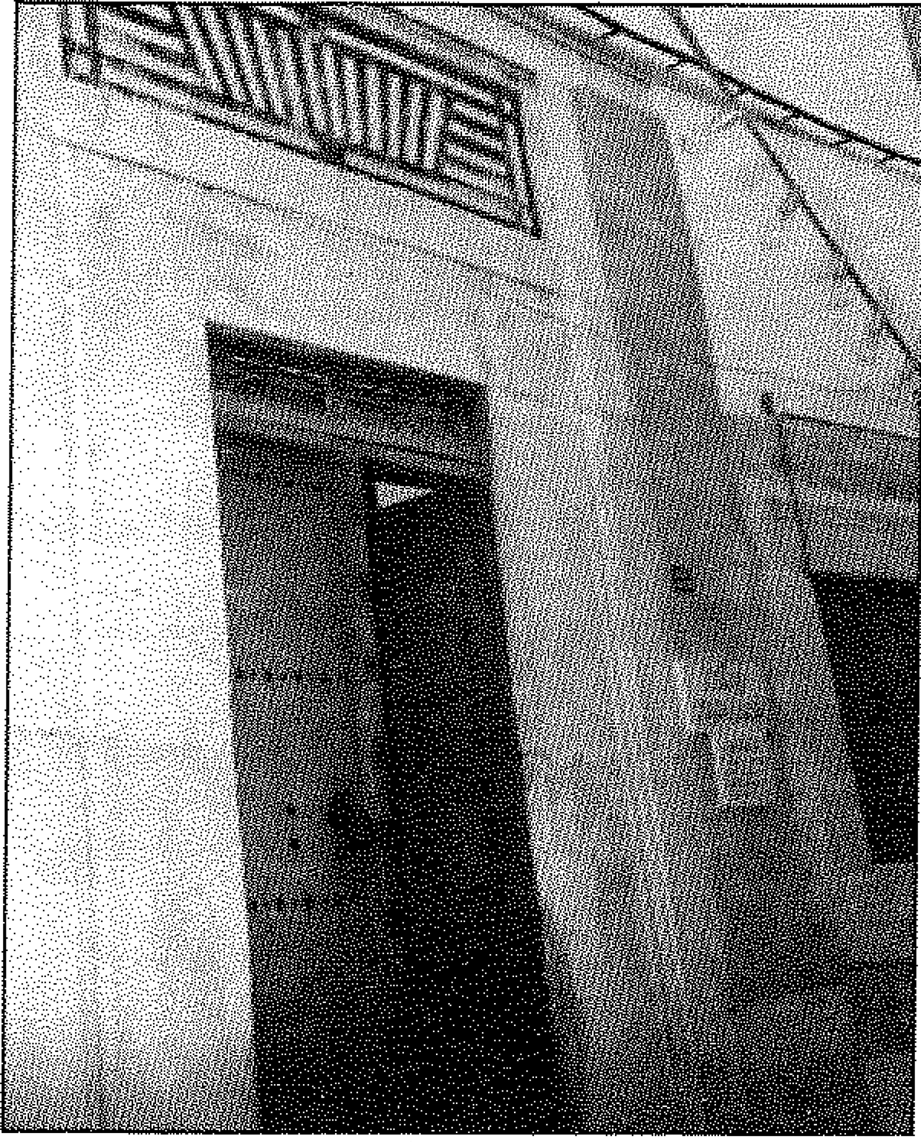
تولى ابن عرفة أعلى مراتب الإفتاء بإفريقية وهذا المنصب يتولاه عادة خطيب جامع الزيتونة.

وانتشرت فتاواه في المشرق والمغرب. ولم تصلنا هذه الفتاوى مجموعة في مؤلّفات إلاّ أن الكثير منها مضمن في بعض كتب ابن عرفة وبعض تلاميذه وبالأخص في بعض مجاميع الفتاوى مثل نوازل البرزلي ومعيار الونشريسي، ولقد جمعت هذه الفتاوى من مظانها وقد اعترف ابن عرفة بالكثير ممّا كان يقرّه العرف الجاري في إفريقية من ممارسات واحتفالات، كما وقف في مرحلة أولى ضدّ التصوّف الشعبيّ ثمّ اعترف به لأنه انتشر كثيرا في المغرب العربي. تلك أهم تآليف ابن عرفة التي وصلتنا. وتوجد تآليف أخرى تثير بعض المشكّلات لم نشأ التعرّض إليها في هذا المقام. وهي تدل أحسن دلالة على مكانة ابن عرفة العلمية خاصة إذا ما درسنا تلك المؤلفات وتبينّا مدى اطلاعه ودقته وتحرّيه فيما يحققه من مسائل ويعتمده من استشهادات.

توفي ابن عرفة في 24 جمادى الثانية سنة 803هـ/9 فيفري 1401م ودفن بمقبرة الجلاز بتونس بالقرب من المغارة الشاذلية وبنى الباي حسين بن علي، مؤسس الدولة الحسينية، على ضريحه قبة بسيطة.

ويبرز أثر ابن عرفة واضحا في أجيال العلماء التي تتالت في تحصيل العلم عليه وبفتَاويه الكثيرة التي كانت تطلب منه من مختلف أنحاء المغرب الإسلامي وفي الأثر البالغ الذي نجده في مؤلفات علماء المالكية إلى عهد قريب. وهو جدير بأن يدرس وأن تنشر أهمّ تآليفه حتى تتضح معالم مرحلة مهمّة من مراحل تطوّر الفكر الإسلامي المغربي.

أحمد بن عروس الهواري



مقام سيدي أحمد بن عروس بمدينة تونس العتيقة

خصّ عمر الراشدي الجزائري الوافد على إفريقية الحفصيّة في حدود سنة1453م شيخه أحمد بن عروس الهواري (ت1465م) بعرض سيري مناقبي يحمل عنوان «ابتسام الغروس ووشي الطروس في مناقب الشيخ أحمد بن عروس»، وهو عبارة عن عرض شامل نقل ضمنه روايات كبار أصحابه وجلّة المنسوبين لطريقه على غرار إمام زاويته محمد شوشووبوابها الحاج أبي الحسن النفاتي وغيرهما من أصحاب الشيخ وأقاربه.

قسم الراشدي أثره إلى ثلاثة أبواب ترجم في أوّلها للشيخ متعرضا لبدايته وجميع الأحوال الدالة على صلاحه. واعتنى في الباب الثاني بما ميز طريقته الصوفية من تعمد للجذب وممارسات نزقة ألح المؤلف على ضرورة التصديق بها وردها إلى قواعد التسنن والإعراض عن التقوّل على الشيخ أو التشنيع بتصرفاته. وعول المؤلف في إتمام تلك المهمة على عدد من المواعظ والحكايات المأثورة عن مالك ابن أنس والشافعي وأحمد بن حنبل وإبراهيم بن الأدهم وأبي القاسم الجنيد والقشيري وأبي العباس السبتي والششتري والشاذلي وغيرهم،

نقلها بالأساس عن مؤلفات عبد الله بن سعد اليافعي (ت 768 هـ/1369م) الذي خلف عدة آثار في الغرض اعتمد الراشدي من بينها خاصة على كتابي «نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ أولي المقامات العالية» و«روض الرياحين في حكايات الصالحين» وهو أثر جمع ضمنه عفيف الدين اليافعي أكثر من 500 حكاية مأثورة عن كبار شيوخ ومتصوفة الإسلام السني وعلى رأسهم ذو النون المصري. أما الباب الثالث والأخير من هذا الأثر فقد خصّصه الراشدي لاستعراض مائتي حكاية تتصل بكرامات الولي، وهي كرامات شدّدت كما هو معلوم على المساعفة وتأمين السابلة من غوائل الطريق (السلب والغرق والأسر)، فضلا عن تنبؤاته أو فراسته الصادقة ومرائيه وقصاصه من المنكرين لولايته والمتحرشين أو المؤذين لمريديه. وتمكّن تلك الحكايات على إغراقها في التهويم من تكوين فكرة مفيدة عن الواقع السياسي والاجتماعي الذي عاينته تلك المرحلة الحساسة من عمر المخزن الحفصي، راسمة بعفوية وصدق معالمها الكبرى ومختلف الفاعلين الذين أسهمت جملة مبادراتهم في تحديد تلك المعالم أو الخصوصيات.

ولئن وجد الراشدي كبير عناء في تبرير شطحات شيخه المنسوبة إلى التصوّف الملامتي،فقد أورد حال تركيبه لمسيرته معطيات حول مرحلة شبيبته وانتقاله إلى تونس لخدمة زوايا كبار أوليائها ثم خروجه للسياحة وتنقلاته بين مدن باجة وبنزرت وعنّابة وقسنطينة وعباد تلمسان وسبتة ومراكش وفاس، قبل العودة مجددا إلى تونس والدخول في تجربة الانجذاب والوله أو الخروج عن الحسّ «بتخريب العادات»، وهي تجربة حاول المؤلف تقديمها لقرائه من بوابة الحيرة التي انتابت معاصريه بخصوص تأويل أعراض القطيعة التي طرأت على سيرته أو ذلك الانكسار الذي اعترى مساره.

جنّد الراشدي لإنجاز ذلك حججا ومقولات نقلها عن مؤلفات السهروردي واليافعي، دافعا بقرائه إلى الاعتبار بعلو كعب شيخه ورد شطحاته إلى خط التصوّف الشاذلي. ومما أورده بهذا الصدد ناسبا إياه إلى شيخ الطريقة العروسية: «جلت في السرّ الأعظم فوجدت عقيدتي ثابتة في الرسول الأكرم... جعلت نظري متصلا في نبي المحبة، كفى معرفته في قلوبنا متجلّ على الحق... والشرع وإتّباعه هو طريقنا المعتقد... منّ الله علينّا بنبيّنا فجعلناه واسطة السلوك لربنا».

ويبدو جليا من خلال مدلول هذه الشطحات المنسوبة إلى ابن عروس مدى تقارب المعاني مع مبادئ التصوف الشاذلي خاصة فيما يتصل بالتركيز على إشاعة نوع التمسك الكبير بشخص النبي كما تأولته الذائقة الشعبية. غير أنه من الصعب مجاراة وجهة نظر المؤلف بعد أن أفرد فصلا بحاله بغرض «التماس» الحجج التي «تسدد الأمر» في مدلول تلك التوجهات السلوكية القلقة لشيخه، ونقض ما شاع حول إتيانه مكروه الأفعال ونابي الأقوال وربط حقيقتها بما ارتضته الشريعة ودعت إليه السّنة. ومن بين تلك التحفظات المرصودة في حق الوليّ أحمد بن عروس نشير إلى إسقاط التكاليف الشرعية وممازحة النساء والتلفظ بفاحش الألفاظ ونابيها. وجميعها تصرفات أحالها الراشدي بالاستناد على «لطائف الممن» لابن عطاء الله السكندري (ت1308م) على خط التصوف الملامي، وهو خطّ بظهر أصحابه «المساوئ ويخفون المحاسن ولا يبالي أحد [منهم] بكونه بين الخلق زنديق إذا كان عند الله صديق».

وبصرف النظر عن مسألة مدى توفق الراشدي في إقناعنا بوجاهة ما حشده من تبريرات من عدمه، فإن الدافع إلى استحضار عينات منها يتمثل في اعتمادها كشهادة مباشرة عن كيفية تعبير أدب المناقب عن واقع الأزمة كانكسار في مسار شخصي، وكذا على واقعها الموضوعي كمرحلة تاريخية عاينت حالة تعسّر ترتب عليها

اختلال واضح للتوازنات. مما يجعلنا في حلّ عن مسايرة مختلف التلفيقات المعتمدة من قبل واضعي تلك السير الوعظية قصد تأمين عدم خروجها عن دائرة الوفاق المسجل بين الإسلامي الرسمي والإسلام الشعبي، ذلك الوفاق الذي برعت منظومة التصوّف الشاذلي ضمنه في لعب دور صمّام الأمان الذي حاول التسوية بين جميع التجارب الصوفية ودفع أصحابها إلى اتخاذ شروط التسنّن المالكي معيارا لجميع التصرفات التي أتوها. غير أن مثل تلك الخطة لم تمنع من تسرّب ما يكفي من الوقائع الدالة على اتساع المسافة الفاصلة بين تلك التوجهات التوفيقية غير الخافية، وما عاينته سير أبطالها من شروخ واهتزازات رشحت بالرغم عن جميع دواعي التكتّم من داخل خطابهم، معبرة عن صعوبة تواؤم سلوكهم مع الواقع التاريخي المأزوم ذاك الذي كيّفت صعوباته القاهرة وتحولاته المفاجئة شطحاتهم الملغزة وردود أفعالهم المربكة المفتوحة،وعلى غرار الواقع التاريخي لحظة تشكّله على جميع الاحتمالات.

محمد المكّي بن عزّوز

[1270 – 1334هـ / 1856 – 1916م]

محمّد المكّي بن مصطفى بن محمّد بن عزّوز الحسيني الإدريسي، هو نجل شيخ طريقة (الرّحمانيّة) الشهير مصطفى بن عزّوز. ولد بنفطة (الجريد) حوالي 1856. كان من نوابغ طلبة جامع الزّيتونة. وقد ألّف كتابين وهو لا يزال طالبا. تولّى خطة الإفتاء في نفطة من 1880 إلى سنة 1888. وفي السنة الأخيرة، استقال من هذه الخطة وعاد إلى تونس ليدرّس بجامع الزّيتونة مجانا. لكن هناك وثيقة من الأرشيف الوطني التّونسي تفيد بأنّه فُصل من خطة الإفتاء بسبب خصومة بينه وبين حاكم الجريد.

ومن سنة 1894 إلى سنة 1896، كان الشيخ المكّي يجوب زوايا الطريقة الرّحمانيّة بالجريد وشرق الجزائر وقد كان أخوه الأكبر شيخها الأوّل في البلاد التّونسيّة.

وعلى الرغم من أنّه تردّد على مدينة تونس، عدّة مرّات، وأقام بها لبضعة أشهر في تسعينات القرن التاسع عشر (وعيون السلط تراقب تنقّلاته)، فليس هناك ما يدلّ على أنّه تزعّم حركة من أيّ نوع كان بين علماء الدين التّونسيين. وتشير الأدلّة المتوفّرة إلى أنّه كان على الأرجح، معاديا للاحتلال الفرنسي، ولكنّه كان معارضا للسلفيّة، وهذا يعني أنّه كان مؤيّدا للطرقيّة ومناهضا للتّحديث. ألم يفنّد في أحد كتبه «السّيف الربّاني» هجومات أبي الهدى الصيّادي مستشار السلطان العثماني؟

وفي سنة 1898، هاجر الشيخ محمّد المكي، إلى استانبول ليبدأ حياته من جديد فكان من العلماء الذين هاجروا من تونس إلى دار الخلافة حيث ندّدوا بالاستعمار الفرنسي.

وابتداء من سنة 1906 وحتّى قبل ذلك، أصبحت الإمبراطوريّة العثمانيّة ملجأ الوطنيّين التّونسيّين، أنصار «الجامعة الإسلاميّة» أمثال الشّيوخ: محمّد المكّي بن عزّوز، وصالح الشّريف، وإسماعيل الصّفائحي، وعبد العزيز جاويش وغير هؤلاء، وسيتمكن الشّيخ محمّد المكّي، وزملاؤه، خاصة في أثناء الحرب العالميّة الأولى، من شنّ حملة دعائيّة قويّة للدّفاع عن الإمبراطوريّة العثمانيّة وحلفائها وخاصّة للتّنديد بالإستعمار الفرنسيّ والإيطاليّ في شمال أفريقيا. أسهمت هذه الحملة إلى حدّ ما في بلورة حركات التحرّر الوطنيّة الخامدة في ربوع الغرب الإسلامي.

وفي 7 جانفي 1908، أشار سفير فرنسا في إستانبول، (J.A.E.Constans) إلى أنّ محمدّ المكّي بن عزّوز «يسكن، منذ 9 سنوات في «بشيكتاش» (Bechiktache) في إستانبول [...]،

وقد يكون السلطان العثماني أسند إليه منحة في المدّة الأخيرة ومنصبا في مكّة...

وقد اشتبه في الشيخ محمّد المكّي نفسه بأنّه يقوم بزيارات سريّة إلى صهره الشيخ مصطفى بوخريص في تونس وإلى ابنه كامل بن عزّوز الشيخ الأكبر للطريقة الرّحمانيّة في سوق أهراس بالجزائر: [انظر: سلسلة من التّقارير الصّادرة من القنصل الفرنسي إلى وزير الخارجيّة (Briand) وخاصّة المؤرّخة في 10 أكتوبر 1913 و30 جانفي 1914 و19 فيفري 1914 [(ANT :E-550-30/15 (d.886)].

وتشير وثيقة رسميّة إلى أنّ الشيخ عبد العزيز جاويش - (وهو من أصل تونسي) - قد يكون كلّف الشيخ محمّد المكّي بن عزوز بـ« تأسيس جامعة إسلامية (Université) بالمدينة»، وقيامه (المكّي) بدور مهم في هذا التّأسيس والاتّصال بشخصيّات إسلاميّة من تونس تعتنق فكرة الجامعة الإسلامية (Panislamisme) وذلك لتنظيم دعاية مضادّة للاستعمار الفرنسي.

وفي 1913، أنشأ محمّد المكّي بن عزّوز في المدينة «جمعيّة الشّرفاء». وهذا ما أكّدته وثيقة مفادها «أنّ الجامعة الإسلاميّة التي أنشئت حديثا، أصبحت مقرّا لحركة الجامعة الإسلاميّة بزعامة الشّيخ محمّد المكّي بن عزوز وبتحريض من الشيخ عبد العزيز جاويش. وهناك مجموعة من الجزائريّين من الطبقة الميسورة قد تكون انضمّت إلى هذه الجامعة وأنّ نداء قد يكون وُجّه إلى الشباب المسلم في الجزائر، ومصر، والهند يستدعي هؤلاء للقدوم إلى المدينة من أجل الدّراسة بالجامعة المذكورة».

ومن الطرافة أن يرسم لنا السفير الفرنسي بإستانبول كونستانس صورة مشرقة عن الشيخ محمّد المكّي بن عزّوز، وفيها من الإطراء الكثير، إذ كتب: «إنّ المكّي بن عزوز رجل كريم، ومتضلّع من الآداب العربيّة والمسائل الدّينيّة. فهذا الشيخ التونسي هو محلّ احترام شديد سواء كان ذلك من سكان الحيّ الذي يسكن فيه أو من العرب المقيمين في القسطنطينيّة».

توفّي الشّيخ محمّد المكي بن عزّوز في إسطمبول عام 1916.

له مؤلّفات في التّوحيد والتفسير والقراءات والفقه والتصوّف والآداب بلغ عددها نحو الثلاثين كتابا منها:

- «مغانم السعادة في فضل الإفادة على العبادة».
- «طريق الجنّة في تحلية المؤمنات بالفقه والسنّة».
- «الذّخيرة المكيّة».
- «السّيف الربّاني».
- «إقناع العائب في آفاق المكاتب».
- «الأجوبة المكيّة عن الأسئلة الحجازيّة».
- «الدّيوان في مذاكرة الأجنّة بالقيروان».
- «تلخيص الأسانيد».
- «التّنزيه عن التّعطيل والتّشبيه».

مصطفى بن عزّوز

[1220 – 1282هـ/1805 – 1866م]

كانت ولادته في بلدة البرج القريبة من طولقة بصحراء الزّاب من أعمال بسكرة. وهذه البلدة معروفة باسم برج ابن عزّوز نسبة إلى والده الولي الصالح سيدي محمد بن عزوز، الذي أسّس زاويته الشهيرة فيها (زاوية ابن عزوز) وعمرّها بالذّكر والعبادة، وهي الزّاوية الأم للزاويتين (زاوية علي بن عمر) في طولقة و(زاوية مصطفى بن عزّوز) في نفطة، وما تفرّع عنهما من زوايا عدّة في القطرين الجزائري والتونسي.

ولد الشيخ مصطفى بن عزوز سنة 1805-1806م.

نشأ في رعاية أبيه الذي أشرف على تربيته وسلوكه في طريق الفضيلة والكمال، وكان منذ طفولته في أحضان الإيمان والتقوى والتصوّف.

تلقّى علومه في مدرسة والده وحفظ القرآن الكريم وتجويده وترتيله. وما إن بلغ الرابعة عشرة من عمره حتى توفّي والده عن عمر يناهز ثلاثا وستّين سنة، ودفن في زاويته ببلدة البرج.

بعد وفاة والده وبوصاية منه، أخذ تلميذه وصهره وخليفته الشيخ علي بن عمر على عهدته الإشراف والعناية بالشيخ مصطفى بن عزّوز، ورعاه الرّعاية الصّادقة التي هيأته ليكون من بعده شيخ زاويته (زاوية علي بن عمر) في طولقة.

وكان الشيخ مصطفى قد شرع في تأسيس زاوية نفطة بناء على طلب وتوجيه من شيخه علي بن عمر. وذهب إلى الجنوب التونسي واختار بلدة نفطة مقرّا للزاوية. وعاد إلى طولقة لزيارة شيخه ومقام والده في البرج. وفي أثناء هذه الزيارة القصيرة توفي شيخه علي بن عمر، فتولّى رئاسة الزاوية لمدّة ستة أشهر فقط. ولمّا آنس في ابن شيخه علي بن عثمان التقوى والكفاية للقيام بأعمال الزاوية سلّمه المهمّة وعاد إلى زاويته في نفطة.

اختار الشيخ مصطفى بن عزوز بلدة نفطة موطنا له ولعائلته لقربها من الحدود الجزائرية (على بعد كيلومترات) وسهولة الانتقال عبر الصحراء بين البلدين لأهداف بعيدة المدى ومنها مساعدة المجاهدين ضدّ الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

كتب الشّيخ إبراهيم خريف في كتابه القيم "المنهج السديد في التعريف بقطر الجريد": «ورد على بلدة نفطة من بلاد الزاب مهاجرا، القدوة المرشد، صفوة البررة، وخلاصة الصالحين الخيرة، صاحب المآثر العديدة، والأخلاق الحميدة، الشيخ سيدي مصطفى بن عزّوز البرجي، فاستوطن مع عائلته وعدد كبير من أتباعه وأشياعه، فأقبلت عليه البلاد، وهرعت إليه العباد، يلتمسون بركته ويستمدّون فيوضاته.

ثم أحدث زاويته المشهورة المشتملة على عدد كبير من المساكن لإيواء الواردين عليه من كل صقع، وإنشاء مطابخ لإطعام كل من يرد من أبناء السبيل وغيرهم».

أنشأ في زاويته مدرسة مهمّة لتعليم القرآن الكريم وحفظه وتدريس فنون العلم كافّة، وجهز بيوت السكنى للمتفرّغين للقراءة والتّعليم، أحضر لها كبار علماء الدّين من الجهات كافّة. ومن المدرّسين فيها العلاّمة محمد المدني بن عزوز، والفقيه العالم أبو العباس أخو الشيخ مصطفى، والشيخ محمد الصالح بن حمادي، والشيخ محمد بن عزوز، وجلب لها من بلدة قفصة العالم الشيخ أحمد السنوسي بن عبد الرحمان القفصي، ومن مدينة توزر العلاّمة الجليل إبراهيم بوعلاق التوزري، والشيخ أحمد الأمين بن عزوز، والشيخ التارزي بن عزوز. و تصدّر كل من هؤلاء لتدريس العلوم من عقلية ونقلية، فانتفعت بهم البلاد، وكثير من المدرّسين غير هؤلاء من الفضلا، وعلماء الدين، احتفلت بهم هذه المدرسة.

توفّي آخر ليلة من ذي الحجة سنة 1282هـ / ماي 1866م، ودفن بزاويته بنفطة.

حسين بن علي باي

[1086 – 1153هـ / 1675 – 1740م]

هو مؤسّس الدولة الحسينية التي استمرّ وجودها من سنة 1705 إلى سنة 1957. قدم والده علي تركي من جزيرة كندية (الاسم القديم لكريت) بعد ضمّها إلى الدولة العثمانية سنة 1669. وتطوّع في الجيش الإنكشاري في العهد المرادي. وقد عمل بالكاف وفيها تزوّج من امرأتين إحداهما من قبيلة الشنانفة والأخرى من قبيلة شارن. وأنجب من الأولى ابنه محمد ومن الثانية حسين الذي ولد سنة 1086 هـ/1675م. وقد اقتفى الولدان خطى والدهما في الخدمة العسكرية.

دعي حسين بن علي إلى العاصمة ليكون في

خدمة السلطة المركزية. وتدرّج في مختلف الوظائف الإدارية والسياسية والعسكرية منذ سنّ مبكرة. وقد وصل في مسيرته السياسية إلى أعلى المراتب في الدولة. يعود أوّل تعيين له إلى عهد محمد باي المرادي إذ عيّنه خزندارا ولمّا يبلغ سنّ العشرين. وكان ذلك قبيل سنة 1694. ثمّ أصبح كاهية. وعندما تولّى رمضان باي عينه آغا صبايحية الترك. واستمرّ في هذا المنصب إلى مارس 1699. وفي سنة 1701 عيّنه مراد باي قايدا على الأعراض مع تمكينه من سلط واسعة. ثمّ عيّنه كاهية دار الباشا مكلّفا بصرف رواتب الانكشارية كما أضيفت إليه لزمة دار الجلد.

رغم التقلّبات السياسية التي عصفت بهرم السلطة في أواخر العهد المرادي، تمكّن حسين بن علي من الحفاظ على موقعه بل ودعمه، متنقّلا في خدمة المراديين والمنقلبين عليهم معا. فقد عمل في خدمة محمد باي المرادي. ثمّ هرب إلى قلعة سنان ليدخل بعد ذلك العاصمة رفقة الثائر محمد بن شكر المدعوم من قبل إنكشارية الجزائر، فعيّن حسين بن علي كاهية له (بين نوفمبر 1694 وجويلية 1695). ثمّ بعد أن اندحر ابن شكر عاد ليعمل مع محمد باي الذي صفح عنه. ثمّ عمل بعد ذلك مع أخيه رمضان باي (أكتوبر 1696–مارس 1699)، ورغم الانقلاب الذي أطاح بهذا الباي والذي حمل مراد باي إلى السلطة فإنّ مكانة حسين بن علي لم تتراجع، كما لم تتراجع حتى بعد إزاحة البايات المراديين وتولّي إبراهيم الشريف الذي استبد بالسلطة بعدهم (1702–1705).

إنّ استمرار حسين بن علي في السلطة طيلة فترة اتسمت بالكثير من التقلبات السياسية يكشف عن قدرته على التكيّف مع الأوضاع الأشدّ توتّرا. وهو ما جعله يكتسب تجربة سياسية وإدارية فريدة من نوعها.

وعندما حدث فراغ سياسي غداة أسْر إبراهيم الشريف من قبل إنكشارية الجزائر في جويلية 1705، قرّر الجند العودة إلى النظام السابق للمراديين الذي يوجد على رأسه داي وباي. فعيّن محمد الأصفر دايا وحسين بن علي بايا. وربّما يعتبر تعيينه تنازلا من الجند الإنكشاري لفائدة العنصر المحلّي في فترة اتّسمت بالفراغ السياسي والخطر الخارجي. ذلك أنّ حسين بن علي يعتبر كورغليا أي أنّ والدته تونسية، كما أنّ صلته بداخل البلاد سواء من حيث مولده أو وجوده فيما بعد على رأس قيادة الأعراض تجعل منه عنصرا مهمّا لكسب ثقة الأهالي، يضاف إلى كل ذلك تجربته السياسية والإدارية والعسكرية.

ويذكر ابن أبي الضياف ثلاث بيعات له في تواريخ مختلفة، كانت أولاها في 20 ربيع الأول1117/12 جويلية 1705 بالقصبة «وشهد بيعته الملأ من العلماء والعسكر وأعيان البلاد»، وهو ما اعتبر فيما بعد مصدرا للشرعية الدينية والتاريخية للعائلة الحسينية. لقد أصبحت البلاد في صائفة 1705 في حاجة إلى من يتصدّى للخطر الذي يشكّله الجند الإنكشاري لإيالة الجزائر. فما كان من حسين بن علي إلاّ أن عمل على واجهتين: الأولى دبلوماسية بمحاولة عقد صلح مع المهاجمين والأخرى عسكرية بتحصين تونس العاصمة وذلك بحفر خندق وإتمام الأبراج حولها وتحريض الناس على القتال. ولمّا فشلت المساعي الدبلوماسية لم تسقط العاصمة أمام الهجوم العسكري لأربعين ألف جندي من الجزائر. وانتهى الأمر في الأخير إلى انسحاب المهاجمين. وهو ما أسهم في دعم شرعية حسين بن علي وأهليته للقيادة، غير أنّ ذلك كان فاتحة للصّراع بينه وبين الداي محمد الأصفر. وقد انسحب حسين بن علي في الأثناء إلى الفحص لتنضمّ إليه قبائل دريد ورياح وغيرهما، مستعملا كلّ الطرق للإطاحة بغريمه ومستغلاّ ما ارتكبه من أخطاء سياسية سواء في حقّ الأهالي أو تجاه الجند التركي. وقد نجح في ذلك ليدخل أخيرا إلى القصبة يوم 3 جانفي 1706. واستقرّ له الأمر في أثناء ذلك بعد القضاء على إبراهيم الشريف الذي كان أسيرا بالجزائر

والذي توجّه إلى تونس بقصد استعادة سلطته، كما قضى بعد ذلك بسنوات على مطالبين آخرين بالسلطة ادّعى أحدهم سنة 1713 أنّه ينحدر من المراديين.

يلخّص ابن أبي الضياف عهد حسين بن علي بقوله «كانت أيّامه كالخصب بعد الجدب والأمن بعد الرّعب والسّلم بعد الحرب كثير المآثر والخيرات». ومثل هذا المديح قد درج عليه الإخباريون الذين عاشوا في بلاطات أبنائه من بعده. لكن إلى أيّ حدّ يمكن الإقرار به؟ من الثابت أنّ للرجل بعض المآثر إذ اهتمّ بالمنشآت التعليمية. فبنى مدارس بالحاضرة (الحسينية الصغرى والنّخلة) وسوسة والقيروان وصفاقس ونفطة، كما اهتّم بالمنشآت المائية ومنها فسقية الملاسين «مورد الحاضرة»، كما أقام عددا من القناطر بضواحي العاصمة وفي داخل البلاد. لكنّ عهده تخلّلته من جهة أخرى حرب أهلية مدمّرة.

عندما تولّى حسين بن علي السلطة لم يكن لديه أبناء. فما كان منه إلا أن تبنّى ابن أخيه علي بن محمد وسهر على تربيته وتكوينه. ولمّا بلغ السابعة عشرة من عمره فسح له المجال لممارسة السلطة بتعيينه للخروج بالأمحال. ولكنّه رزق في الأثناء ثلاثة أولاد من جارية جنويّة الأصل، هم على التوالي محمد الرشيد (1710) وعلي (1712) ومحمود. وما أن اشتدّ عود ابنه البكر محمّد حتى بدأ يفكّر في تقديمه على حساب ابن أخيه «ومحبّة الولد طبيعية في البشر، وله أسوة بمن تقدمه من الملوك» كما يقول ابن أبي الضياف. وحتّى يعوض ابن أخيه ما خسره استجلب له لقب الباشا من الآستانة وكلّف ابنه محمد باي بالسّفر للأمحال، غير أنّ علي باشا ما لبث أن خرج في فيفري 1728 من العاصمة باتجاه جبل وسلات ثائرا على عمّه. وكان ذلك بداية حرب أهلية دامت طويلا، انقسمت البلاد طيلتها بين شقين: حسيني نسبة إلى حسين بن علي وباشي نسبة إلى علي باشا. وكان من أنصار الشقّ الأول مدن القيروان وسوسة والمنستير والمهدية وصفاقس وقبائل جلاص والهمامة وأولاد عون وأولاد سعيد...

دام الشوط الأول من تلك الحرب قرابة السنة والنّصف (فيفري 1728 – أوت 1929) وقد أسفر عن هزيمة علي باشا وفراره إلى الصحراء ثمّ إلى الجزائر حيث أسرّ. ثمّ أطلق سراحه. وأرسل معه سنة 1735 جيش للاستحواذ على عرش تونس. فبدأ شوط ثان من تلك الحرب الأهلية، انهزم فيها حسين بن علي في سبتمبر من تلك السنة. فانسحب إلى القيروان. ولم يبق له نفوذ إلا في بعض المدن في وسط البلاد وخاصة في الساحل على حين دخل علي باشا العاصمة واستولى على السلطة فيها.

استمّر وجود حسين بن علي وأبنائه بالقيروان بضع سنوات دارت في أثنائها عدة معارك بين الجانبين، كانت آخرها تلك التي حاصر فيها يونس ابن علي باشا القيروان وتمكّن من دخولها في صفر1153 هـ/ 13ماي1740، في حين تسلّل حسين بن علي إلى خارجها. فلحق به يونس. وقتله. وبعث برأسه إلى والده علي باشا. ودفن بتربة الباي.

رغم النهاية المأسوية لحسين بن علي، فإنّ مصير أبنائه كان أسعد حالا إذ عادوا بعد سنوات إلى السلطة التي استمرّت بأيدي سلالتهم لمدة قرنين ونصف.

شقران بن علي
[توفيّ186هـ/802م]

أبو علي شقران عالم وفقيه من كبار زهّاد افريقية والبلاد العربيّة الإسلاميّة إذ وفد إليه ذو النون المصري الصّوفي العارف الكبير من المشرق ليتتلمذ له.

وهو من أبرز علماء المائة الثانية وزهّادها

بإفريقية، قال أبو العرب التميمي: كان رجلا صالحا، ضريرا، من أهل الفضل والدين والاجتهاد. وكان مؤاخيا للبهلول بن راشد وعالما بالفرائض، ثقة، مأمونا، روى عنه سحنون، ومناقبه كثيرة.

ولشقران بن علي كلام جليل مع ذي النون المصري يشتمل على حكم وافرة، ومواعظ ووصايا.

توفّي شقران سنة 186هـ/802م مُدَّةَ إمارة إبراهيم بن الأغلب الأوّل.

من مؤلّفاته

– الفرائض.

– مرائي شقران، ولعلّه من جمع بعض مريديه بعد موته.

ذكر حسن حسني عبد الوهاب أن هذين الكتابين كانا موجودين في مكتبة جامع القيروان إلى عهد غير بعيد كما يشهد به فهرس المكتبة.

محمد بن علي

[1932–1998 م]

درس بالكتّاب، ثم انتقل إلى جامع الزيتونة. وأحرز على شهادة الأهلية.

بدأ حياته المهنية في الصحافة. ثم انتقل إلى المسرح والتمثيل بالإذاعة ثم بالتلفزة وبالسينما.

أسهم محمد بن علي بالكتابة في «النهضة» و«الأسبوع» و«الإذاعة والتلفزة» و«الشروق» و«البيان»، كما كتب بالجرائد العربية المشرقيّة. فكان مراسلا في الستينات مجلتي «الفن» و«الحقيقة» المصريتين، وجريدتي «عكاظ» و«المسيرة» السعوديتين ومجلتي «ليبيا الحديثة» و«الإذاعة الليبية» الليبيتين.

وأنتج للإذاعة عدّة برامج منها بداية من سنة 1962 (اختبر ذكاءك) و(عارف عرفان) و(ما يعجبنيش) و(حتّى هذا كلام) و(القصة الممثلة)، كما كتب عدّة مسرحيّات للإذاعة منها (السندباد) و(الطاهر سيف الدين) و(من القاتل؟) و(فاجعة عن المسرح) و(كليلة ودمنة) في ثماني حلقات و(الأمير الصعلوك).

وأول عمل مسرحي إذاعي قام به كان في مسرحية (أبو شوشة) سنة 1952. ثم في مسلسل (الجازية الهلالية) تأليف محمد المرزوقي، ثم مثّل شخصية المفتش حسن في (اختبر ذكاءك) ثم شخصية سي الحطّاب في مسرحية (الحاج كلوف).

بدأ نشاطه المسرحي مع فرقة المسرح الحديث المنبثقة عن فرقة الإذاعة سنة 1954. ومثل في مسرحيتي (مجنون ليلى) لأحمد شوقي من إخراج كمال بركات ومسرحية (رجل الساعة) تأليف يوسف وهبي.

أما في المسرح الشعبي فقد شارك في مسرحيات (الحاج كلوف في الحمام) إخراج البشير الرحال و(رشاد وزينب) إخراج حمودة معالي و(الجمل ضحك ضحكة) إخراج البشير الرحال وفي مسرحيّتي (أشكون يغلب النساء) و(عمّتي عيشة راجل). ثم مع فرقة نجوم الفن (الجازية) و(علي بابا) تأليف أحمد بوليمان وإخراج شافية رشدي سنة 1958. وفي التلفزة شارك محمد بن علي منذ بدايتها في أهم أعمالها منها سلسلة (الحاج كلوف) ومسلسل (علي ولد أمي تراكي) و(سي الزهوان) وقام بدور العمدة في التمثيلية (القرية المطوّقة) ومسلسل (نحن والقرية).

وواصل الدور نفسه عند تحويل مسلسل (أمي تراكي) سينمائيا.



الطاهر بن عمار

[1889 – 1985م]

1) نشأته وانضمامه إلى الحزب الدستوري

ولد الطّاهر بن عمار بمدينة تونس يوم 25 نوفمبر 1889، وهو ينحدر من أسرة ريفيّة اشتهرت منذ أمد بعيد بتعاطي الزراعة في منطقة لا تبعد كثيرا عن العاصمة أصبحت تعرف باسم «سبّالة بن عمّار». وبعد أن أتمّ دراسته الابتدائية التحق بمعهد كارنو بتونس العاصمة لمزاولة دراسته الثانوية. وبعد مدّة قليلة انقطع عن التعليم ليتفرّغ لمباشرة الزراعة التي أدخل عليها ما يلزم من الإصلاحات الحديثة لمواكبة تطوّر العصر.

لكنّ شواغله المهنية لم تمنعه من الاهتمام بشؤون بلاده التي كانت ترزح تحت الاستعمار. فقد شارك مشاركة فعّالة في نشاط الحركة الوطنية غداة الحرب العالمية الأولى، وكان من مؤسّسي الحزب الحرّ الدستوري التونسي الذي أعلن عن إنشائه يوم 15 جوان 1920، كما مدّ يد المساعدة إلى الوفد الدستوري الأوّل الذي تحوّل إلى باريس في جوان 1920 برئاسة المحامي أحمد الصافي لتقديم المطالب الوطنية إلى الحكومة الفرنسية.

ونظرا إلى علاقات الطاهر بن عمّار الودّية ببعض الأوساط الحكومية والبرلمانية بفرنسا، قد عيّنه الحزب الدستوري لرئاسة الوفد الدستوري الثاني الذي كان يضمّ أيضا عبد الرحمان اللزام عضو المجلس الشوري وحسونة العياشي المحامي بسوسة وحمودة المنستيري أحد أعيان العاصمة.

وسافر هذا الوفد إلى باريس يوم 24 ديسمبر 1920 لطرح القضية التونسية من جديد على الحكومة الفرنسية. وتمكّن من مقابلة كل من رئيس مجلس الوزراء أرستيد بريان / ووزير الشؤون الخارجية جورج لايغ / والمقيم العام الجديد لوسيان سان / الذي لم يلتحق بعد بمنصبه في تونس. وقدّم الوفد إلى المسؤولين الفرنسيين عريضة يطالب فيها بإطلاق سراح المعتقلين الدستوريين بتهمة التآمر على أمن الدولة، وهم عبد العزيز الثعالبي ومحمد الرياحي وصالح بن يحيي، وبمنح دستور للشعب التونسي يضمن له حقوقه السياسية وحريّاته الأساسية. ووعد وزير الشؤون الخارجية بتلبية هذه المطالب عن طريق المقيم العام الجديد الذي كلّفته الحكومة الفرنسية بدرس الوضع بتونس واقتراح الإصلاحات الضرورية الواجب إجراؤها.

وقد أدلى الطّاهر بن عمار رئيس الوفد بتصريح إلى جريدة «لوطان» (Le Temps) لسان وزارة الشؤون الخارجية شبه الرسمي، نشرته في عددها المؤرخ في 30 جانفي 1921، بعنوان: «الحقيقة حول المطالب التونسية»، جاء فيه بالخصوص ما يلي:

«لقد وضعتنا فرنسا بحكم القدر الذي يقضي به قانون تاريخي، تجاه وضعية جديدة ستفضي إمّا إلى زوالنا أو إلى تغيير عقولنا وأفئدتنا. فلتوفّر لنا فرنسا بسخاء المعارف الأدبية والعلمية والمهنية التي من دونها سنكون معرّضين إلى البقاء في أسفل السافلين إلى أبد الآبدين.....».

وعلّقت الجريدة على هذا التصريح في عددها المؤرخ في 2 فيفري 1921، بقولها: «إنه من الضروري أن نعطي بسرعة، لا إلى الحزب المعبّر عنه بحزب «الشباب التونسي»، بل إلى الأهالي من سكّان الإيالة التونسية الترضيات الشرعية التي أجمعوا تقريبا على المطالبة بها... إنّ الشعب التونسي طيّب القلب، فيتعيّن علينا أن نجعله يشعر بارتباطه بفرنسا بروابط أخرى غير روابط القهر».

وما إن عاد الوفد الدستوري إلى تونس حتى بدأت تظهر نتائج المساعي التي قام بها في باريس، إذ أعلن في شهر مارس 1921 عن رفع حالة الحصار التي كانت قائمة منذ حوادث الزلاّج (نوفمبر 1911). وفي شهر أفريل 1921 أنشئت وزارة العدلية التونسية وعيّن علي رأسها الوزير الطّاهر خير الدين ابن الجنرال المُصْلح خير الدين، وفي أول ماي من السّنة نفسها أطلق سراح الشيخ عبد العزيز الثعالبي بعد أن ختم قاضي التحقيق العقيد بارون البحث الجاري حول قضيته بعدم سماع الدعوى.

وفي أثناء المؤتمر الذي عقده الحزب الدستوري في 29 أكتوبر 1922 انتخب الطاهر بن عمار عضوا في اللجنة التنفيذية الثانية للحزب الحرّ الدستوري التونسي.

2) انفصاله عن الحزب الدستوري والتحاقه بالمجلس الكبير

ولكن بعد النّجاح الذي أحرزه الوفد الدستوري الثاني في باريس، سرعان ما بدأت تظهر علامات الانشقاق في صفوف الحزب. فقد أعلن حسن قلاتي عن معارضته لبرنامج الحزب الدستوري واقتناعه بضرورة توخّي الحذر وقبول الإصلاحات التدريجية التي تقترحها فرنسا والتعاون النزيه مع نظام الحماية. وتألّم من ردود فعل رفقائه القدامى الحادّة، وقد اتّهموه بالميوعة بل حتى بالخيانة، وقرّر في آخر الأمر تأسيس حزب جديد في 16 أفريل 1921، أطلق عليه اسم «الحزب الاصلاحي». وقد زار وفد من هذا الحزب المقيم العام وعبّر له عن قبوله للإصلاحات التي أعلنت عنها الحكومة وتعلّقه الدائم بنظام الحماية.

أما الطّاهر بن عمار فإنه بعد فترة طويلة من التردّد قرّر في آخر الأمر الاستقالة من اللجنة التنفيذية لعدم موافقته على قرار الحزب الدستوري المتعلّق بمقاطعة انتخابات المجلس الكبير الذي جاءت به إصلاحات لوسيان سان، وانضمّ إلى الحزب الإصلاحي الذي بعثه صديقه حسن قلاتي، وشارك مشاركة ملحوظة في نشاطه، إلى أن انتخب في سنة 1928 نائبا بالمجلس الكبير للمرّة الأولى. فانفصل عن الحزب الإصلاحي الذي تقلّص نشاطه إثر فشل زعيمه حسن قلاتي في انتخابات المجلس الكبير. وتفرّغ الطاهر بن عمار لمهامّه النيابيّة وأشغاله الفلاحية، وظلّ عضوا بارزا من أعضاء ذلك المجلس ورئيسا لقسمه التونسي مدّة من الزمن، كما شغل منصب رئيس الحجرة الفلاحية التونسية، إلى آخر عهد الحماية.

وبالرغم من اقتناع الوطنيين التونسيين بعدم جدوى المجلس الكبير الذي كان ركيزة أساسية من ركائز النظام الاستعماري بتونس، فقد حاول الطاهر بن عمّار اغتنام جميع الفرص للدفاع عن مصالح الفلاحين التونسيين خاصّة والشعب التونسي عامّة، لا سيما بعد الأزمة الاقتصادية العالمية التي أصابت الفلاحة التونسية في الصميم منذ مطلع الثلاثينات.

ومن مواقف الطاهر بن عمّار المشرّفة، ذلك الخطاب الشهير الذي ألقاه في الدورة غير العادية للمجلس الكبير المنعقدة في 12 أفريل 1933، والذي دعا فيه النوّاب التونسيين إلى الإحجام عن التعاون مع حكومة الحماية واقترح عليهم رفض مشروع الميزانية المعروض عليهم. فوافق النوّاب التونسيون بأغلبية ساحقة على ذلك الاقتراح الذي كان عهدئذ سببا من أسباب القطيعة بين القسم التونسي من المجلس الكبير وحكومة الحماية.

3) نشاطه بعد الحرب العالمية الثانية

إثر جلاء جيوش المحور عن البلاد التونسية ودخول قوّات الحلفاء في 7 ماي 1943، ثم خلع الملك الشرعي للبلاد محمد المنصف باي من قبل الجيش الفرنسي ظلما وعدوانا لتعاطفه مع الحركة الوطنية، يوم 14 ماي 1943، أسّس ممثلو الأحزاب والمنظّمات التونسية الجبهة الوطنية وانتخبوا على رأسها هيئة عليا تتركّب على النحو التالي:

– الحبيب بورقيبة (الحزب الدستوري الجديد).
– صالح فرحات (الحزب الدستوري القديم).
– الطاهر بن عمار (المجلس الكبير).
– محمد الفاضل ابن عاشور (جامع الزيتونة المعمور).
– محمد بدرة (الحركة المنصفية).

وأصدرت الجبهة في 22 فيفري 1945 بيانا طالبت فيه بمنح البلاد التونسية الحكم الذاتي، حسب الصيغة الديمقراطية التي ستحدّدها جمعية وطنية تونسية منتخبة انتخابا حرّا بالاقتراع العام.

واعتبارا من ذلك التاريخ قام الطاهر بن عمّار بنشاط مكثّف لتحقيق مطالب الجبهة الوطنية، وكان في أحرج الظروف التي شهدتها البلاد في أواخر عهد الحماية يؤدّي دور الوساطة بين الحكومة الفرنسية والحزب الدستوري الجديد الذي لم يخف تعاطفه معه، ولم يتأخّر عن الإصداع برأيه لمختلف الحكومات المتعاقبة على رأس الجمهورية الرابعة، والدعوة مرارا وتكرارا إلى التفاهم مع الممثلين الحقيقيين للشعب التونسي، وفي مقدّمتهم الزعيم الحبيب بورقيبة رئيس الحزب الدستوري الجديد.

ولقد كان له دور مهم غداة المعركة الحاسمة يوم 18 جانفي 1952. فقد استغلّ ما كان يحظى به من تقدير لدى الأوساط الحكومية والبرلمانية الفرنسية للتخفيف من وطأة الإجراءات القمعيّة التي اتّخذها المقيم العام دي هوتكلوك. وكان على اتّصال دائم بالشهيد فرحات حشاد إلى أن اغتالته منظّمة اليد الحمراء الفرنسية المتطرّفة يوم 5 ديسمبر 1952، وذلك للتنسيق بين جهود كل الوطنيين التونسيين في الداخل والخارج في سبيل توفير أسباب النجاح للقضيّة التونسية.

وكان الطّاهر بن عمّار عضوا بارزا من أعضاء لجنة الأربعين التي جمعها محمد الأمين باي يوم غرة أوت 1952 للنّظر في الإصلاحات التي عرضها عليه المقيم العام. وقد رفضت اللجنة بالإجماع تلك الإصلاحات جملة وتفصيلا.

4) تعيينه وزيرا أكبر

ولمّا اضطرّت الحكومة الفرنسية إلى الاعتراف علانية باستقلال تونس الداخلي، على لسان رئيسها منداس فرانس في الخطاب التاريخي الذي ألقاه بقصر قرطاج أمام عاهل البلاد محمد الأمين باي، يوم 31 جويلية 1954، كان الاتفاق بين الحكومة الفرنسية من جهة، والباي والحزب الدستوري الجديد والمنظمات الوطنية من جهة أخرى، على تعيين الطاهر بن عمار على رأس الحكومة التونسية بصفة وزير أكبر، لإجراء مفاوضات لتطبيق مبدإ الاستقلال الداخلي المعلن عنه يوم 31 جويلية 1954. وأسفرت المفاوضات التونسية الفرنسية عن إبرام اتفاقيات 3 جوان 1955 التي أعادت إلى الدولة التونسية جميع مقوّمات السيادة الداخلية. ثم جدّدت الثقة في شخص الطاهر بن عمّار ليواصل الاضطلاع بمهامّ رئاسة الحكومة التونسية المنبثقة عن اتفاقيات الاستقلال الداخلي، إلى أن تطوّرت الأوضاع السياسية الداخلية بفرنسا، فاضطرّت الحكومة الفرنسية التي يرأسها الزعيم الاشتراكي غي مولي، بعد مفاوضات بين الطرفين، إلى الاعتراف باستقلال تونس التام.

وكان آخر نشاط سياسي بارز قام به الطاهر بن عمار هو التوقيع باسم الحكومة التونسية على بروتوكول الاستقلال يوم 20 مارس 1956.

وبذلك تحقّق له حلم تحرير الوطن من الهيمنة الأجنبية. ثم انتخب عضوا بالمجلس التأسيسي يوم 8 أفريل 1956، وبعد انتهاء مدّته النيابيّة اعتزل النشاط السياسي وتفرّغ لتصريف شؤونه الخاصّة، وكان في الأثناء قد حوكم وسجن غداة إعلان الجمهورية وإلغاء النظام الملكي في 25 جويلية 1957.

وبعد أن ردّ إليه الاعتبار، اعتزل الطاهر بن عمار الحياة العامّة، إلى أن توفّي يوم الجمعة 10 ماي 1985.

يحيى بن عمر
[213 ـ 289هـ/828 ـ 901 م]

كان أبو زكرياء يحيى بن عمر بن يوسف الكناني الأندلسي الأصل الإفريقي الموطن، من أبرز علماء المذهب المالكي بإفريقية، وكانت نشأته الأولى بقرطبة، أخذ عن عبد الملك بن حبيب، ثم ارتحل إلى الشرق. وكان من شيوخه بمصر الدمياطي (ت. 226هـ/641م)، وأخذ كذلك عن عدد من العلماء أصحاب ابن وهب وابن القاسم وأشهب.

ورجع إلى إفريقية فاستقرّ بالقيروان بعد أن ملأ وطابه علما، ولعله أراد أن يستكمل ثقافته فسمع بالقيروان من أبي زكرياء يحيى بن سليمان الفارسي المختص في علم الفرائض والحساب واتّصل بسحنون وأخذ عنه.

وفي هذه الفترة كان النّزاع على أشدّه بين فقهاء المالكية وبين الأحناف المؤيدين للحكم الأغلبي. واتّخذ النزاع السياسي متنفسا للظهور في الجدل.

وقد ألّف يحيى بن عمر كتابا في الرّد على الشافعي، كما شنّ حملة على بعض العلماء الذين كانوا يؤمّون مسجد السبت، للذّكر والعبادة وعقد مجالس السّماع لإنشاد الأشعار والقصائد الصوفية. ورغم أنّ بعض أصحاب الإمام سحنون (245هـ /859 ـ 860م) من هؤلاء، فقد ألف يحيى بن عمر كتابا في الردّ عليهم، غير أنّ ذلك سبّب له مؤاخذات واعتراضات كثيرة من قبل الزّهاد والصّوفية وحتى بعض فقهاء المالكية من المتعاطفين مع أهل مجلس السبت. فآنطوى على نفسه.

وهكذا ظلّ إلى أن ارتقى ابن عبدون إلى خطة القضاء سنة 275هـ/889م.

وخرج يحيى بن عمر إثر ذلك من القيروان فارّا فمكث مدة بتونس ثم لاذ إلى رباط سوسة إلاّ أنّ تفطّن إبراهيم بن أحمد الأغلبي إلى مظالم هذا القاضي جعله يعزله خاصّة أنّ عدد ضحاياه من الأبرياء والعلماء قد تكاثر. ولمّا استدعى ابن عبدون يحيى بن عمر إلى استقضاء الأمير إبراهيم هذا القاضي الظالم رفض يحيى بن عمر، وأشار على الأمير بعيسى بن مسكين الزاهد والقابع في قريته بالساحل. ثم تنصّل يحيى بن عمر من القضاء ليعود إلى سوسة ويتخذها مستقرّا ومقاما ويعاوده الحنين إلى جامعها فيسرع إلى إلقاء دروسه بهذا الجامع، حيث ذاع صيته وامتلأ مجلسه بطلاب العلم. وفي الحلقات تبلورت اللّبنات الأولى لكتابه «**أحكام السّوق**» الذي رواه أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن سعيد القصري (ت 321هـ/933م) وهو أحد رواة العلم والمدونين الكبار الذين عرفتهم إفريقية في تلك الفترة.

ويشتمل كتاب «أحكام السوق» على مقدمة في ما يجب على الوالي من تفقّد أحوال السّوق والحرص على مراقبة الموازين والمكاييل والكشف عن أحوال النقد المتداول. ثم يتبع المقدمة نقل خلاصة من مكاتبة وجهت إلى يحيى بن عمر لاستفتائه في أمرين:

1 ـ الحكم الشرعي في اختلاف وحدة الكيل والوزن بين التجار في بلد واحد.

2 ـ الحكم الشرعي في التّسْعير وقد استبان للناس تضرّر المستهلك بحرية الأسعار.

وبعد إيراد السؤال والجواب تأتي أبواب الكتاب التي تندرج عموما ضمن ما يسمّى «الحسبة».

إسحاق بن عمران
[توفي 294هـ/907م]

إسحاق بن عمران طبيب مشهور وعالم مذكور حسب ابن أبي أصيبعة. وهو مسلم النّحلة، رغم ما يثيره اسمه من اشتباه.

ولد اسحاق بن عمران ببغداد في القرن الثالث

الهجري / التاسع الميلادي. ولم يعرف تاريخ ميلاده. ونشأ هناك. وتلقّى العلوم في الطبّ والصيدلة والفلسفة وغيرها. وذلك في زمن كانت فيه العلوم مزدهرة وذات إشعاع لا نظير لهما. فاشتهر إسحاق بن عمران بعلم الطب.

وحوالي سنة 264هـ/877 م، استقدمه الأمير إبراهيم الثاني الاغلبيّ إلى إفريقية، واستقرّ إسحاق بمدينة القيروان.

ويقول ابن جلجل إنّ الأمير (بعث إليه عند وروده عليه راحلة أقلّته وألف دينار لنفقته وكتاب أمان بخطّ يده أنّه متى أحبّ الانصراف إلى وطنه انصرف).

وسرعان ما ذاع صيت إسحاق بإفريقية وبرع في العلوم الطبّية. وهو يعتبر بحقّ أوّل طبيب عربيّ بالقيروان في التاريخ.

ويقول ابن أبي أصيبعة: (وبه ظهر الطبّ بالمغرب وعرفت الفلسفة. وكان طبيبا حاذقا متميّزا بتأليف الأدوية المركبة،بصيرا بتفرقة العلل، أشبه الأوائل في عمله وجودة قريحته).

ويقول عنه حسن حسني عبد الوهاب: (يعتبر إسحاق بحقّ أوّل طبيب إفريقي يستحقّ هذا النّعت بكّل ما في معناه من علم واسع، وحذق بالصناعة العلمية، وخبرة تامّة بأصول الأوائل).

وكان إسحاق بن عمران يعرف باسم (سم الساعة). ويفسّر ح. ح. عبد الوهاب هذه الكنية بأنّها إشارة لما يظهر من سرعة تأثير الأدوية التي كان يصنّفها للمرضى.

وفي القيروان، انضمّ إسحاق إلى حاشية الأمير الأغلبي. وأصبح طبيبه الخاصّ.

وقد نشر إسحاق العلوم الطبّية وكذلك الفلسفة في إفريقية والمغرب. وألّف الكثير من الكتب. ودرّس الطبّ. وتتلمذ له أطباء مشهورون، نذكر منهم ابنه علي بن إسحاق وزياد بن خلدون وبالخصوص إسحاق بن سليمان الوافد من مصر وأبا بكر محمد بن الجزار، عمّ أحمد بن الجزار.

يقول ح.ح عبد الوهاب إن إسحاق المؤسس الأوّل للمدرسة الطبّية في ربوع إفريقية.

وبعد وفاة الأمير إبراهيم الثاني (289هـ/902/م)، استمرّ إسحاق بن عمران في خدمة الأمير زيادة الله الثالث. وبقيت علاقتهما حسنة إلى أن قرّب هذا الأمير طبيبا يهوديا من الأندلس. فكوّن هذا الطبيب فتنة بين الأمير وإسحاق. فكانت القطيعة. فانصرف إسحاق عن القصر الأميري.

ويروي ابن أبي أصيبعة أنّ إسحاق (خرج إلى موضع فسيح من رحاب القيروان، ووضع هنالك كرسيّا ودواة وقراطيس. فكان يكتب الصفحات كل يوم بدنانير). ونستنتج من هذا القول أن إسحاق لم يزاول الصيدلة في الحقيقة، وإنّما كان يسلم الصفات (وهي الوصفات) إلى المرضى. ويتّجه هؤلاء إلى الصيادلة لاقتناء الأدوية الموصوفة. وقد حظي إسحاق بإقبال منقطع النظير من قبل المرضى. وبلغ الخبر إلى الأمير زيادة الله، وقيل له: (عرضت لإسحاق الغنى) فاغتاظ الأمير. وأذن بسجن ابن عمران. فتظاهر الناس أمام السجن. وإزاء الوضع المتأزم أخرج الأمير اسحاق من السّجن باللّيل وأمر بقتله. ويقال إنّ زيادة الله الثالث كان مجنونا .

مؤلفات إسحاق بن عمران

وفي فترة (حياته التّونسية) أغنى إسحاق معلوماته في الطبّ والصيدليّة وسائر العلوم. وتعمّق فيها. ومارس المهنة الطبية. وعالج جميع الطبقات. فكان لتجاربه الفضل في تقدّم هذين العلمين.

وألّف إسحاق بن عمران كتبا ورسائل ومقالات عدّة ذكر منها ابن أبي اصبيعة ثلاثة عشر عنوانا وهي:

- كتاب الأدوية المفردة
- كتاب العنصر والتّمام في الطب
- مقالة في الاستسقاء
- مقالة وجيزة في الإبانة عن الأشياء التي يقال إنّها تشفي الأسقام وفيها يكون البرء

- كتاب نزهة النّفس (وهو في الفلسفة)
- مقالة في الماليخوليا
- كتاب في الفصد
- كتاب في النبض
- مقالة في علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته
- كتاب في البول، من كلام أبقرط وجالينوس وغيرهما
- كتاب جمع فيه أقاويل جالينوس في الشراب
- مسائل له مجموعة في الشّراب على معنى ما ذهب إليه أبقراط وجالبنوس في المقالة الثالثة من كتاب تدبير الأمراض الحادّة وما ذكر فيها من الخمر
- كلام في بياض المعدة ورسوب البول وبياض المني

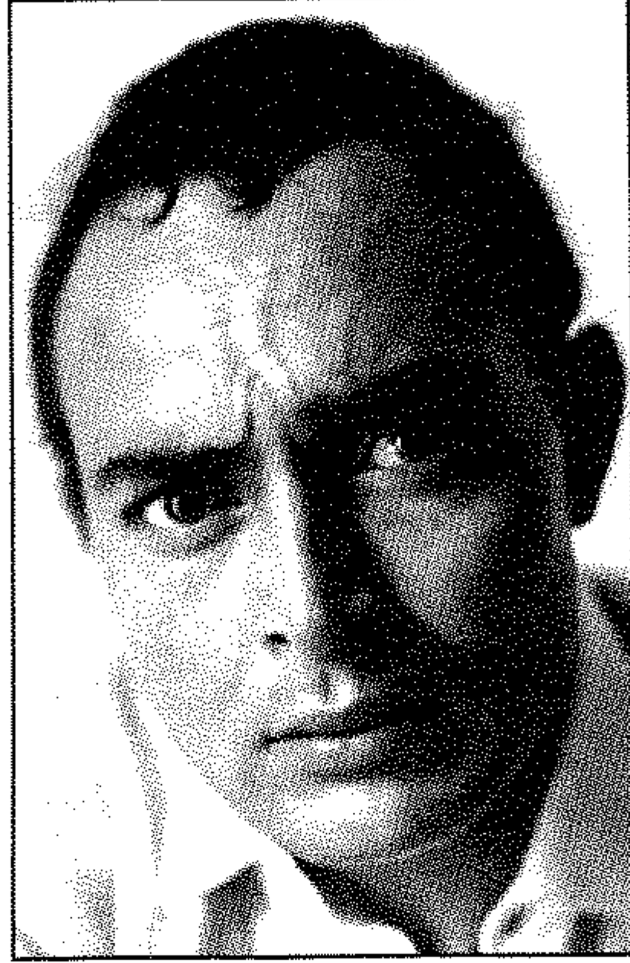
وله أيضا كتاب الثمار فيما ذكر بروكلمان. لكن ابن أبي أصيبعة لم يشر إليه. وقد ألّف إسحاق بن عمران حسب ح. ح عبد الوهاب جميع كتبه في إفريقية، وأهدى بعضها إلى الأمراء الأغالبة.

ولعل أهمّ كتب اسحاق اثنان:

- كتاب الأدوية المفردةّ الذي كان له تأثير ظاهر في كتب الأدوية المفردة العربية، وخاصّة في كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة لابن الجزّار وكتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار الذي ذكره في كتابه 186 مرّة.
- وكتاب الماليخوليا الذي امتدحه ابن جلجل وقال فيه إنّ ابن عمران لم يسبق إلى مثله. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية. وأنجز الترجمة قسطنطين الإفريقي، في القرن الحادي عشر الميلادي.

وأهمّ ما ورد في عناوين المقالات الواردة في كتاب الماليخوليا وهي 25 مقالة ما يلي: (تعريف الكتاب، تعريف الماليخوليا، أنواعها، أسبابها، الأعراض اللاّحقة لكلّ صنف من الماليخوليا، ذكر علاجات الماليخوليا، صفة أدوية عدّة وأشكالها).

ولكنّ أغلب تآليف إسحاق بن عمران ضاعت ولم تعرف منها إلى اليوم سوى كتاب الماليخوليا.



علي بن عيّاد
[1930 – 1972م]

ولد يوم 15 أوت 1930 بنهج المسرح بحمام الأنف، من عائلة أصلها من جزيرة جربة. ووالده هو محمود بن علي بن عياد، أمّا والدته فهي نجيبة القليبي. وفي سنة 1935، دخل الطفل علي المدرسة الابتدائية بدار الباي بحمام الأنف، وفي إحدى الحفلات المدرسية قام بدور في مسرحية "الأميرة بنڤا". ثمّ التحق بالمدرسة الصادقية سنة 1940 لمواصلة دراسته الثانوية، وكان مغرما بمشاهدة الأفلام السينمائية. وفي أثناء حوادث فلسطين التي أثّرت في الرأي العام التونسي، فقدته عائلته، وبعد البحث عُثر عليه في الجنوب التونسي وكان ينوي الانضمام إلى أفواج المتطوعين التونسيين إلى فلسطين. قام بأوّل رحلة له إلى فرنسا، في سنة 1950، وبعد عودته انضمّ إلى مدرسة التمثيل العربي بتونس. وفي السّنة الموالية أقامت مدرسة التمثيل العربي حفلا بقاعة اللّيسي كارنو كان نصيبه منه دور (رودريغو) في مسرحية "السيد" لكُورْناي. Le "cid" de Corneille وفي السّنة نفسها اتّصل في تونس بفرقة يوسف وهبي فتعرّف إلى منسي فهمي وجورج أبيض وأمينة رزق وغيرهم من

الممثّلين المصريّين. ثمّ سافر سنة 1952 إلى باريس ليلتحق بمعهد الفن المسرحي، وتتلمذ خاصة لروني سيمون، وقام بدور "هملت" (شكسبير) مع ممثلين فرنسيين. وشارك لأوّل مرة في السينما بشريط "سفر عبد الله". وفي أكتوبر 1955 أرسلته بلدية تونس إلى القاهرة حيث انخرط بمعهد الدراسات العليا للفنون الدرامية وتابع دروس المرحلة الأخيرة، كما كلّف بالتدريس في المرحلة التحضيرية وأحرز على عدّة شهادات استحسان. ثمّ عاد إلى باريس سنة 1956 ليتدرّب في فرقة المسرح القومي الشعبي، وكان هناك زواجه الأول من ابنة عمّه فاطمة. وواصل تدريبه بفرنسا حيث تعلّم الإخراج وطرق تكييف الإنارة خاصة، واغتنم الفرصة فشارك في الإذاعة الفرنسية متعرّفا إلى التقنية الإذاعية. وعاد إلى تونس سنة 1958 وأنجبت زوجته ابنته علياء، وبعد العطلة الصيفية انضمّ إلى الفرقة البلدية مساعدا لمديرها الأستاذ محمد عبد العزيز العقربي، وقام بأول دور باللغة العربية (كريون) في مسرحية "أوديب الملك"، وشارك بدور عبد الله في مسرحية "عبد الرحمان الناصر" وبدور آخر باللغة الدارجة في مسرحية "ضاع صوابي". وفي فيفري، قدّم مسرحية "هملت" من إخراجه وتمثيله لأول مرّة. وشارك في فيلم "Top Secret Tunis"، وكلّف لمدة وجيزة بإلقاء بعض الدروس في مدرسة التمثيل العربية بتونس. وبعد سنة قدمت مسرحيته الثانية "الكلّو من عيشوشة" التي أخرجها وقام فيها بدور "نور الدين"، كما شارك في فلم "كريم أحب ليلى". وفي جويلية 1960 سافر إلى أمريكا للاطلاع على أهمّ مسارحها وطرقها الفنية الحديثة كما زار هوليود وقضّى أشهرا في بعض المدن الأمريكية. وعاد من أمريكا سنة 1961 ورجع إلى فرقة بلدية تونس مع الأستاذ حسن الزمرلي، فأخرج مسرحية "كاليغولا" وقام بدور البطولة فيها. وفي أثناء معركة الجلاء أسهم في الإذاعة التونسية بإخراج قصيدة للشاعر نور الدين صمّود موضوعها الجلاء، وشارك في لوحات بعنوان "من وحي معركة الجلاء". كان في أثناء معركة بنزرت ينتقل بين تونس وبنزرت متطوّعا لنقل الجرحى بسيارته. وفي السنة نفسها (1961) غادر الفرقة البلدية ليعمل بالإذاعة التونسية. وأسهم بقسط وافر في بعث المركز الثقافي الدولي بالحمامات وتنظيمه وتركيزه وشارك خاصّة في تصميم بناء مسرحه. ثمّ فتح علي بن عياد مكتبا بالكوليزي سنة 1962 لتنظيم عروض مسرحية استهلّها بمهرجان قرطاج، وأخرج مسرحية "كاليغولا" بعناصر جمعها بنفسه، وتولّى اختيارها من صفوة الممثلين، لكنّ المرض عاجله ليلة العرض الأول بنزيف في الدماغ نقل على إثره إلى المستشفى بالعاصمة ثم إلى باريس. وفي 15 نوفمبر 1962 عاد معافى إلى تونس بعد أن اتّفق مع مدير مسرح الأمم على تقديم "كاليغولا" واستعار الفرقة البلدية لإنجاز ذلك العمل الفنّي الناجح. وفي جانفي 1963 قدّم مسرحية "كاليغولا" لفائدة دار الرضيع في إطار التضامن الاجتماعي. ثمّ قدّم "كاليغولا" بمسرح الأمم بباريس ماي 1963. وفي سبتمبر، تولى علي بن عياد إدارة فرقة بلدية تونس وكانت باكورة إنتاج الفرقة بإدارته مسرحية "مدرسة النساء" من إخراج محمد عزيزة، كما أخرج مسرحيّة "الجلاء" [نص عصام سليمان حيدر] التي دشّن بها المسرح الرئاسي بقرطاج أمام الرئيس الحبيب بورقيبة وضيفه الأمبراطور هيلي سيلاسي الذي منحه وساما تقديريا لفنّه وشارك فيها ممثّلا. ثمّ أعاد "كاليغولا" و"الكلّو من عيشوشة". وأخرج مسرحية "سعاد" في أواخر تلك السّنة وأدّى دورا فيها. وفي فيفري 1964 أخرج لأوّل مرة "الممثل الرابع" وعهد إلى صديقه جميل الجودي بإخراج "انطيغون". وفي أفريل، أخرج مسرحية "عرس بليبش". وفي ماي، أخرج "العين بالعين" (عن شكسبير) وشارك بدور الأمير فيها وقد قدمت في عرض خاص، ثم بمسرح الأمم بباريس ومسرح جيرار فيليب (سان دوني). وفي جوان، قدّم مسرحية

"مدرسة النساء" في مهرجان قرطاج الدولي. وفي جويلية، أخرج مسرحية "عطيل" التي دشّن بها مسرح الحمامات وقام فيها بدور "ياغو". وفي أوت، أخرج مسرحية "أهل الكهف" لتوفيق الحكيم، وقدّمها في إطار أسبوع المسرح في عرض خاص بحضور الناقد المصري محمد مندور. وفي ديسمبر، أخرج من جديد مسرحية "عطيل" (شكسبير). وفي ديسمبر 1964 أخرج مسرحية "البخيل" (موليار). وفي مفتتح سنة 1965 سافرت فرقة بلدية تونس إلى المغرب الأقصى حيث قدّم علي بن عياد "كاليغولا" و"البخيل" في 12 عرضا وحظي مع عناصر الفرقة بتكريم الملك الحسن الثاني الذي منحه وسام الكفاية الفنيّة. وعهد إلى صديقه جميل الجودي بإخراج مسرحية "الطريق". ثمّ أخرج مسرحية "الحزّارة" وقدّم مسرحية "البخيل" بالحمامات. كما قدّم "كاليغولا" (ألبار كامو) بمسرح الحمامات. وعهد إلى المخرج السوري الشريف خزندار بإخراج مسرحية "مجنون ليلى" وقام فيها بدور "قيس". ثمّ أخرج مسرحية "مراد الثالث" التي كتبها خصّيصا له الحبيب بولعراس وقام فيها بدور مراد وقد قدّمها في إطار مهرجان مسرح المغرب العربي بالمنستير، كما شارك في مسلسل تلفزي تونسي – إيطالي بعنوان "الحروب الصليبية". وأخرج مسرحية "فلامينيو" تعريب حسن الزمرلي. وشارك فيها ممثّلا وفي الشهر نفسه قدمها بالمغرب الأقصى. وفي سنة 1967 سافر إلى إسبانيا وتقابل مع شقيقة لوركا لترخّص له في إخراج مسرحية "يارما". وقام بدور "التارزي" في مسرحية "الماريشال". ثمّ قدم "يارما" بالجزائر في الأسبوع الثقافي التونسي، وفي الشهر نفسه شارك في فلم "انجليك والسلطان"، كما قدم "مدرسة النساء" بمهرجان دقّة ومنحه الرئيس الحبيب بورقيبة وسام الجمهورية. وفي جويلية 1967 أعاد إخراج مسرحية "يارما" بالحمامات ومسرحية "كاليغولا" بمسرح قرطاج. ثمّ أعاد إخراج مسرحيات "الماريشال"، و"يارما"، و"كاليغولا"، بمناسبة عيد ميلاد رئيس الدولة في المنستير، كما أعاد إخراج مسرحية "يارما" و"مراد الثالث" وقدّمهما ببنزرت في مؤتمر وزراء الإعلام العرب. وفي نوفمبر 1967 سافر إلى لبنان للمشاركة في مائدة مستديرة حول المسرح العربي صحبة صديقه الطاهر الشريعة، وسجّل للتلفزة اللبنانية مسرحية "سعاد". ثمّ أخرج مسرحية "الحب العذري" خصّيصا لمشروعات الاتحاد النسائي التونسي. وفي جانفي 1968 أخرج مسرحية "قارب دون صياد" ومثّل فيها. ثمّ أعاد اخراج "يارما" بالمغرب الأقصى، وقام بدور في فلم إنجليزي من إخراج أندري داتوف. ومثّل "هملت"، في مهرجان مسرح المغرب العربي بالحمامات. وفي سبتمبر 1968 شارك في فلم La mort trouble لفريد بوغدير السنمائي التونسي الطلائعي. وفي مارس 1969 أخرج مسرحية "عين الله". ثمّ أعاد إخراج مسرحية "مراد الثالث" بمسرح الأمم بباريس، كما أعاد إخراج "عين الله" بمسرح دقة، وإخراج "يارما" برباط المنستير وقام فيها بدور "خوان". وفي نوفمبر 1969 أخرج مسرحية "عهد البراق"، بمناسبة أسبوع المسرح، وأقام معرضا حول نشاط فرقة بلدية تونس للتمثيل. وفي سنة 1970 قدم ستّة عروض لمسرحية "يارما" بمسرح مهرجان بعلبك ببيروت. وشارك في فلم "الحب الضائع" (مع رشدي أباظة وسعاد حسني) وهو إنتاج تونسي مصري مشترك. ثمّ سافر إلى تركيا بدعوة رسمية للاطلاع على المسرح التركي. وعند رجوعه أخرج "أقفاص وسجون" وقام فيها بدور "الدكتور". وقدّم بمهرجان بيتهوفن بالنّمسا مسرحيّتي "كاليغولا" و"مراد الثالث". وفي افتتاح مهرجان قرطاج أخرج مسرحية "أوديب الملك"، كما أخرج مسرحية "صاحب الحمار" لعز الدين المدني وقام بدور ابن عمار في مهرجان مسرح المغرب العربي، كما أخرج مسرحية "ضرّة أمها". وفي سنة 1971 عهد إلى المخرج السوري الشريف خزندار بإخراج "لعبة

كاراكوز" وقام فيها بدور "ألف"، كما عهد إلى الممثّل عبد المجيد الأكحل بإخراج "8 نساء"، ثم قام بزيارة إلى الكويت ثمّ إلى السعودية حيث أدى مناسك العمرة وتنعّم بزيارة منزل الوحي. ثمّ أعاد إخراج "الحزارة" في مهرجان دقة، وفي تلك المدة عيّن عضوا بمجلس إدارة المركز الثقافي الدولي بالحمامات. وأخيرا أخرج آخر مسرحية له في حياته "بيت برناردا ألبا" خصيصا لمهرجان قرطاج. ونظّم عروضا مختلفة في ليالي رمضان، وعهد إلى محسن بن عبد الله بإخراج "نحب نعرس" وهي آخر مسرحية أخرجت وقدّمت بإدارته. وافتتح أسبوع المسرح بـ"بيت برناردا ألبا" ثمّ قدّمها مع "أقفاص وسجون" بعاصمة الجزائر بمناسبة الأسبوع الثقافي التونسي، واختتم أسبوع المسرح بـ"ثورة صاحب الحمار" التي قدّمها ثانية أمام وزير الثقافة الإيراني. وفي 11 ديسمبر 1971 ظهر لآخر مرة على الركح في مسرحية "أقفاص وسجون". وفي 4 فيفري 1972 خرج في عرض لمسرحية "الماريشال" مع الممثلين ورحّب بالجمهور في لحظة وداع. وفي يوم الاربعاء 9 فيفري 1972 سافر إلى باريس لإجراء اتصالات قصد وضع اللمسات الأخيرة لمسرحية عن الثورة الفلسطينية، لكنّه أصيب يوم السبت 12 فيفري 1972 بنزيف في الدماغ فنقل على إثره إلى مستشفى Salpêtrière حيث توفّي عشية الاثنين 14، ونُقل جثمانه إلى تونس يوم الأربعاء 16 ثم دفن صبيحة الخميس 17 فيفري 1972 بتربة عائلته بمقبرة الزلاّج.

أسد بن الفرات

[142 أو 145ـ 213هـ/762ـ 828م]

هو أبو عبد الله بن الفرات بن سنان، أصله من خراسان من بلاد فارس. ولد بحرّان سنة 142 هـ/759م وقيل سنة 145هـ/762م. ودخل القيروان مع أبيه ولمّا يتجاوز من العمر سنتين. روى المالكي في رياض النفوس أن أسد بن الفرات قال عن مجيئه إلى تونس «دخلت مع أبي القيروان في جيش ابن الأشعث فأقمنا بها خمس سنين، ثم رحلنا إلى تونس فأقمت بها نحو تسع سنين، فلمّا بلغت ثماني عشرة سنة عُلّمْتُ القرآنَ ببجردة» (الرياض، تحقيق بشير البكوش، مراجعة العروسي المطوي،دار الغرب الإسلامي ببيروت لبنان1403 هـ/1983م، ج1، ص 254 ـ 255). سمع من علي بن زياد الموطّأ. وتفقّه في علوم شتّى ثم ارتحل إلى المشرق. فلقي الإمام مالكا. وواظب على دروسه. وسمع منه الموطأ. وحفزه كَلَفُهُ بالعلم على الارتحال إلى العراق لمَا كان يسمعه من تمجيد للإمام أبي حنيفةَ وإشادة بعلمه وفقهه وورعه. فلقي أصحاب أبي حنيفة : أبا يوسف ومحمد بن الحسن وأسد بن عمرو وأخذ عنهم علما غزيرا.

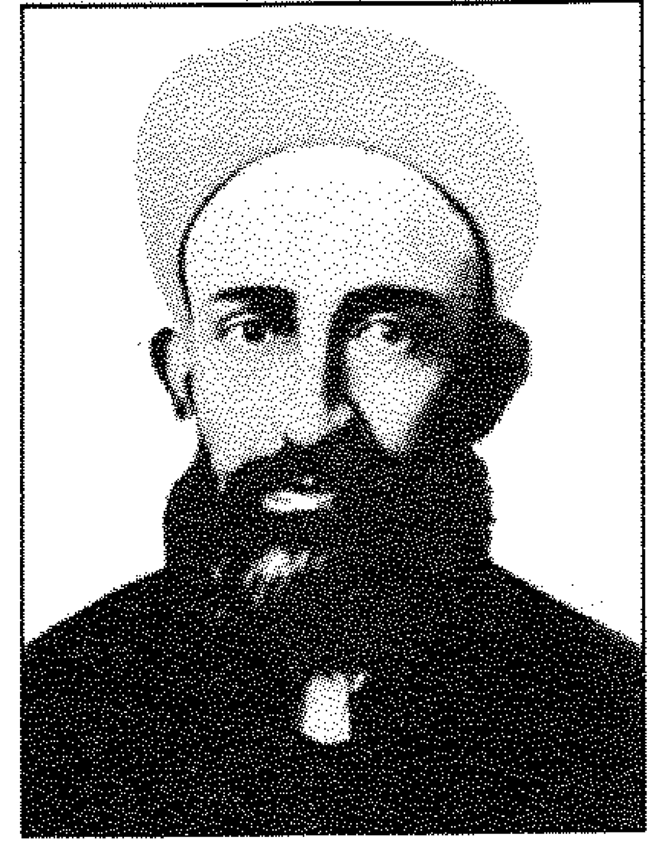
ولمّا توفّي الإمام مالك بن أنس رحل إلى مصر. فلزم ابن القاسم أحد تلاميذ مالك ووضع بالتعويل على دروسه الأسدية. ثم رجع إلى القيروان ليدرّس الموطأ والأسدية معا بعد أن جمع علميْ أهل المدينة وأهل العراق.

ولاّه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (201هـ ـ 223هـ /815 ـ 837م) قضاء إفريقية سنة 203 هـ/817م. فقضى بين الناس بالعدل. واعتمد في أحكامه الكتاب والسنة. وأعمل العقل فيما لم يرد في شأنه نصّ. فذاع صيته. وأكبره الناس لعلمه وفقهه ونزاهة مواقفه. جاء في رياض النفوس ج 1ص 263 أن أسداً «كان يلتزم من أقوال أهل المدينة وأهل العراق ما ووافق الحقّ عنده. ويحقّ له ذلك لاستبحاره في العلوم وبحثه عنها وكثرة من لقي من العلماء والمحدثين». عيّنه زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب سنة212 هـ/827م قائدا على الجيش الذي وجّهه إلى صقلية لفتحها دون أن يعزله من خطّة القضاء «فلم تجتمع الإمارة (المقصود بها قيادة الجيش باسم الأمير

الأغلبي) والقضاء لأحد ببلد إفريقية إلاّ لأسد وحده» (رياض النفوس ج1، ص 271) ورغم قلة عدد جيش أسد - وهو عشرة آلاف فارس - مقارنة بجيش «بلاطة» ملك صقلية الذي كان يعدّ مائة ألف وزيادة. فقد كتب النصر للجيش القيرواني. وفتحت صقلية بعد معركة ضارية مات فيها خلق كثير من الطرفين. وسكنها المسلمون واستوطنوها. وكتب زيادة الله بن الأغلب بفتح صقلية على يدي أسد بن الفرات إلى المأمون خليفة المسلمين.

لا يقف الدارس على أدب لأسد. وإنّما جمعت له كتب التراجم حكما كثيرة وأقوالا مأثورة شبيهة في مواضعها وفي متانة لغتها وجزالة أسلوبها بحكم الزاهد شقران الهمذاني الضرير.

توفيّ أسد و هو محاصر لسرقوسة سنة 213 هـ/828 م.



صالح بن الفضيل التونسي
[ت1376هـ/1956م]

صالح بن الفضيل بن الرزقي بن عمار بن سعيد بن محمد الصوام هو الفقيه والمدرس في الحرمين المكّي والمدني.

هاجر والد الفضيل إلى تونس سنة 1871م وكانت الجزائر آنذاك تحت الاستعمار الفرنسي، واستقرّ بمدينة الكاف حيث ولد ابنه صالح سنة 1878م ونشأ في بيت من التقوى والصلاح والعلم. التحق بجامع الزيتونة سنة 1894م وتتلمذ لكبار الشيوخ، منهم الشيخ حسين بن أحمد بن الحسين المفتي المالكي المتخصص في الفقه والمشايخ سالم بوحاجب ومصطفى رضوان وصالح الشريف.

نال شهادة التطويع وعُيِّنَ في مدينة الكاف عدلا. وبقي في وظيفته حتى عام 1905م.

وانتقل إثر ذلك إلى طرابلس الغرب سنة 1905م. واستقرّ بها بضعة أشهر للتدريس وإلقاء المحاضرات في المساجد.

ثمّ انتقل من بنغازي إلى بيروت بحرا للاستطلاع وزار القدس ويافا ووصل إلى دمشق وأقام فيها 15 عاما تولّى خلالها التدريس في الجامع الأموي، كما عمل مدرسا في المدرسة (الكاظمية) ومدرسة (الاسعاف الخيري). وتزوّج في دمشق قبل هجرته إلى المدينة المنوّرة.

وفي 22 من رجب سنة 1928م انتقل إلى المدينة المنوّرة للإقامة فيها.

أقام في داره إلى جانب الحرم النّبوي، وخصّص القسم العلوي من البيت للسكن والقسم الأرضي لاستقبال طلاب العلم والتدريس.

وكان مدرّسا في الحرم النبوي يلقي دروسه بانتظام كما كان مدرّسا في الحرم المكّي بمكة المكرّمة يلقي دروسا في التفسير والحديث وتخرّج من دروسه عدد كبير من العلماء والوعاظ الذين انتشروا في أنحاء العالم الاسلامي.

واستمرّ على هذه الحال من التفرّغ للعلم والتعليم والدرس والتدريس طيلة ثلاثين سنة حتّى وافاه الأجل في المدينة المنوّرة في الثامن من شهر محرم سنة 1956م ودفن في البقيع.

من آثاره

- رد وتعليق على حكمة الأمير شكيب أرسلان في مجلة "الفتح" المصرية، وله آثار مخطوطة لم تطبع.



محمّد بن فضيلة

[1911–1957م]

الصّحافي الفكاهي ورجل المسرح محمد بن فضيلة، من مواليد سنة 1911. التحق لمّا بلغ سنّ الدراسة بالمدرسة الابتدائية القرآنية «العرفان» التابعة للجمعية الخيرية الإسلاميّة، التي يقع مقرّها في نهج الورغي المتفرّع عن نهج القعّادين من حيّ باب سويقة. ومن أبرز زملائه في الدراسة الصحافي الهادي العبيدي.

ما إن أتمّ دراسته الابتدائيّة حتى اقتحم ميدان الصحافة فبدأ نشاطه في جريدة «الزّهو» الفكاهية الشعبية التي صدرت بداية من شهر ديسمبر 1921. وكانت مهمّته مساعدة صاحب الجريدة الحاج عثمان الغربي (1870–1943) على القيام بمهامّه الإدارية والاشراف على طبع الجريدة وتحريرها وتوزيعها.

وكان مدير جريدة «الزهو» وصاحب امتيازها يعدّ من كبار شعراء الملحون ورواة الأدب الشعبي في تونس، فتزوّد ابن فضيلة منه بنصيب وافر من الشعر الملحون والأدب الشعبي، وتدرّب على العمل الصحفي منذ شبابه الباكر. وفي سنة 1936 انفصل عن جريدة «الزهو» وأصدر مجلّة أدبية باسمه الخاصّ، أطلق عليها اسم «الحياة». لكنّ هذه المجلّة لم تعمّر طويلا، إذ لم يصدر منها سوى ستّة أعداد، الأوّل في 2 أكتوبر والأخير في 29 نوفمبر 1936.

وإثر ذلك أصدر محمّد بن فضيلة جريدة «الوطن» الأسبوعية الفكاهيّة التي ظهر عددها الأوّل في 27 ديسمبر 1936. فسارت الجريدة منذ صدورها في الإتّجاه نفسه للصحف الهزليّة الموالية للحزب الدستوري الجديد، لا سيما منها جريدة «السرور» لصاحبها علي الدوعاجي وجريدة «الشباب» لصاحبها محمود بيرم التونسي. وأسهم في تحرير «الوطن» ثلّة من الشعراء والأدباء من جماعة تحت السور، في مقدّمتهم الهادي العبيدي، وتميّزت، على غرار «السرور» و«الشباب» بمقاومة الاستعمار وأذنابه، ومهاجمة الرجعيين والمحافظين، وذلك بواسطة الفصول النقديّة المحرّرة في الغالب باللغة الدارجة والملزومات والرسوم الكاريكاتورية بريشة عمر الغرايري وتوفيق بوغدير.

وتعرّضت الجريدة من أجل ذلك إلى المضايقات الإدارية والاعتداء على صاحبها، إذ جاء في جريدة «الزهو» (العدد المؤرخ في 3 جانفي 1937) مايلي:

«برز أوّل عدد من جريدة «الوطن» لصاحبها السيد محمد بن فضيلة صاحب جريدة «الحياة». وما كاد هذا العدد ينشر حتى بلغنا أنّ هذا الرصيف وقع عليه الاعتداء من أحد الشبّان، بسبب تعرّض الصحافي المذكور لبعض الشخصيّات والتشنيع بها».

وقد تعرّضت «الوطن» عدّة مرّات للتعطيل الإداري وأحيل صاحبها على المحاكم بتهمة النيل من هيبة الدولة. فعطّلت للمرّة الأولى إثر صدور العدد المؤرّخ في 17 جانفي 1937. ثم عادت إلى الظهور من جديد وتعطّلت لمدّة ثمانية أيام بمقتضى قرار مؤرخ في 5 جويلية 1937.

وكثيرا ما يرجع سبب هذا التعطيل إلى نشر رسوم كاريكاتوريّة ترى فيها حكومة الحماية مسّا بهيبتها. من ذلك أنّها عطّلت الجريدة لأنها نشرت صورة كاريكاتوريّة بريشة توفيق بوغدير، تمثّل تونس في هيئة امرأة مغلولة وبجانبها امرأة ترضع ابنها من إناء فيه دم، وكتب تحت الصورة: « امرأة المعمّر لولدها: اشرب هذا فهو أحسن من حليبي». فأحيل الرسّام وصاحب الجريدة على المحكمة الفرنسيّة، بتهمة الدعوة إلى التباغض بين الأجناس.

وإثر حوادث 9 أفريل 1938 الدّامية، قرّرت السلطة الاستعمارية تعطيل «الوطن» مع سائر الصحف المناصرة للحزب الدستوري الجديد، وحكمت على محمد بن فضيلة بالسجن المضيّق لمدّة ثمانية أشهر. ثم رخّص للجريدة في الصدور من جديد في أول جانفي 1939، وما لبثت أن توقّفت بمقتضى قرار إداري مؤرخ في 4 أفريل 1939. وبقيت معطّلة طوال فترة الحرب العالمية الثانية (1939–1945).

وحينما تتعطّل الجريدة يتفرّغ محمد بن فضيلة للعمل الذي كان يقوم به إلى جانب نشاطه الصحفي، ضمن بعض الجمعيات المسرحية، مثل جمعية «الاتحاد المسرحي» حيث كان يتولّى «تلقين» الممثلين أثناء عرض المسرحيّات بالركح.

وبعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها قرّر المقيم العام الاشتراكي جان مونص (1947–1950) إلغاء الرّقابة التي كانت مفروضة على الصحف التونسية، وذلك بمقتضى الأمر العليّ المؤرخ في 26 أفريل 1947. فاستأنفت بعض الصحف العربية القديمة صدورها، ومنها جريدة «الوطن» التي صدر العدد الأول من سلسلتها الجديدة في نوفمبر 1948. وسخّر محمد بن فضيلة جريدته في الفترة الممتدة من نوفمبر 1948 إلى أوت 1950 للدفاع عن القضية التونسية ومناصرة الحزب الدستوري الجديد وزعمائه، ومقاومة الاستعمار الفرنسي وأذنابه. وتميّزت بالخصوص بمعارضتها لوزارة مصطفى الكعّاك وأعضاء المجلس الكبير. واعتمدت في ذلك النقد اللاذع والسخرية، من خلال الشعر الملحون والرسوم الكاريكاتوريّة التي كان صاحب الجريدة يوحي بها إلى الرسام الكاريكاتوري البارع عمر الغرايري. وحظيت «الوطن» بإقبال جماهيري منقطع النظير، حتى كان العدد منها يصدر في بعض المناسبات في 30.000 نسخة، وهو رقم قياسي لم تبلغه الصحف التونسية قبل ذلك.

وإثر اندلاع المعركة الحاسمة من أجل الاستقلال في 18 جانفي 1952، أعاد المقيم العام دي هوتكلوك (1952–1953) العمل بالرقابة على جميع الصحف بداية من 26 مارس 1952، فتعرّضت جلّ الصحف التونسية إلى التعطيل ومنها «الوطن».

ولما فشلت سياسة القمع فشلا ذريعا، اضطرّت الحكومة الفرنسية إلى إقالة دي هوتكلوك وتعيين مقيم عام جديد مكانه وهو بيار فوازار (1953–1954). فبادر إلى إصدار قرار مؤرخ في 27 أكتوبر 1953 يقضي بحذف الرقابة على الصحف. فأصدر محمد بن فضيلة جريدة «الوطن» في سلسلة جديدة في 21 مارس 1954 واستمرت في الظهور إلى أن توفّي صاحبها في سنة 1957. فأعاد إصدارها في 28 مارس 1957 صديقه الصحافي الفكاهي ورجل المسرح المعروف عبد المجيد بوديدح، واستمرّت في الظهور إلى أن احتجبت نهائيّا إثر صدور العدد المؤرخ في 12 ماي 1958.

ابن القاضي [أسرة]

أسرة ابن القاضي من العائلات التونسيّة الّتي لمعت في مجال العلم. وهي تنتمي إلى الطريقة الشّاذليّة وتنسب إلى قاض حنفي رافق الجيش العثماني إلى تونس وتحوّلت الأسرة إلى تعاطي الحرَف ثمّ عادت إلى العلم في القرن التّاسع عشَر. حتى إنّ ثلاثة من الشيوخ الخمسة الذين أنجبتهم الأسرة كانوا أبناء حرَفيّين (شوّاشين) - وهم: حسن بن علي بن محَمّد، والشاذلي بن العربي بن محمّد، والصّادق بن العربي بن محمّد. وعلى الرّغم من ذلك، يمكن أن نعدّ عائلة ابن القاضي من العائلات العلميّة منذ مطلع القرن العشرين. وفي سنة 1881 تولّت الأسرة إمامة جامع حمّودة باشا على نحو وراثيّ تقريبا. وصار كذلك لأبناء أسرة ابن القاضي مقعد بالمجلس الشّرعي الحنفيّ على نحو منتظم.

وفي سنة 1900، عيّن حسن بن علي بن محمّد ابن القاضي مفتيا حنفيّا بمدينة تونس. وبذلك ارتقت عائلة ابن القاضي إلى مصاف الأسر العلميّة.

ومن أبرز أعلام هذه الأسرة:

– **الشاذلي** بن العربي بن محمّد بن القاضي: ولد بتونس، وهو ابن شوّاشي، تزوّج من ثلاث نساء.

وبعد التخرّج في جامع الزّيتونة، أصبح مدرّسا حنفيّا من الطبقة الأولى وذلك قبل سنة 1873. خلف محمّد بن مصطفى بن محمّد بيرم الأوّل في إمامة جامع حمّودة باشا في سنة 1881. ويروى عنه أنّه كان يزاول حرفة الشّاشيّة جامعا بينها وبين مهامه التّدريسيّة والدّينيّة. توفّي في جويلية 1895: [أرنولد. هـ. ڤرين «العلماء التونسيون، 1873 ـ 1915، ترجمة حفناوي عمايرية وأسماء مَعَلّى ـ نشر «بيت الحكمة ودار سحنون»، تونس 1995].

– **الصّادق** بن العربي بن محمّد بن القاضي: ولد بتونس حوالي 1850. أبوه (شواشي) تزوّج من بنت الكيلاني (مزارع) وهو أخو الهادي بن القاضي، مفتي الجمهوريّة التّونسية (توفّي عام 1979).

بعد الدّراسة بجامع الزّيتونة عيّن في عام 1881 مدرّسا حنفيّا من الطبقة الثّانية وارتقى إلى الطبقة الأولى في عام 1891. ودرّس أيضا بالمدرسة الصّادقية والعلويّة من سنة 1898 إلى 1912. وفي عام 1895، عيّن نائبا إمام بجامع حمّودة باشا. وفي سنة 1902، صار عضوا بمجلس إدارة المدرسة الصّادقيّة. ويروى عنه أنّه كان ينتمي إلى الطريقة التّيجانيّة. وكانت هذه الطريقة دون جدال، أهمّ من استقطب العلماء في أواسط القرن التّاسع عشر. وقد كتب عالم تونسي، هو الشيخ محمّد مناشو، دفاعا عنها: «إنّ طريقته (أي أحمد التيجاني) لم تنتشر بوساطة الملوك بل بوساطة العلماء، فكان أوّل ناشر لها بيننا رأس الفتوى والإمام الأكبر بالجامع الأعظم... الشّيخ سيدي إبراهيم الرّياحي مجير علماء المشرق والمغرب وتداول نده من بعده من شيوخ الفتوى والقضاء بالمذهبين الحنفي والمالكي ما يزيد عن الأربعين من آل بيرم وآل النّيفر وآل الشّاهد، وآل الشريف، وآل حسين، وآل جعيط، وسواهم جمهور عظيم من أئمة، ومدرّسين، وأمراء، ووزراء، وسراة، وفضلاء»: [محمّد مناشو: مجموع قمع التعصّب نحو أعداء التّيجانيّة بالمشرق والمغرب، المطبعة الرّسميّة، تونس 1926، ص 31].

توفّي في ديسمبر 1911: [مقابلة أرنولدهـ. ڤرين مع الشيخ محمد الهادي بلقاضي (تونس في 17 جوان 1917 في العلماء التّونسيين 1873 ـ 1915، ص 333].

– **حسن** بن علي بن محمّد ابن القاضي: ولد بتونس في سنة 1846، وهو ابن شواشي. أمّه فاطمة بنت محمّد عزّوز (شواشي)، واحدى زوجاته فاطمة بنت إبراهيم معلّى (موظّف).

بعد التخرّج في جامع الزّيتونة، أصبح مدرّسا حنفيّا من الطبقة الثّانية في سنة 1877، ثمّ ارتقى إلى مرتبة الطبقة الأولى في 1891. وفي سنة 1895 خلف ابن عمّه الشّاذلي بن العربي بن محمّد بن القاضي في إمامة جامع حمّودة باشا. وفي سنة 1900، عيّن مفتيّا حنفيّا. ويروى عنه أنّه كان يزاول حرفة الشّاشية جامعا بينها وبين وظيفته الدينيّة، كما كان عضوا بالطريقة الشّاذليّة. توفّي عام 1914.

– **محمّد الشّاذلي** بن العربي بن محمّد ابن القاضي: ولد بتونس. ابن مدرّس بجامع الزّيتونة وإمام بجامع حمّودة باشا، وأمّه بنت الكيلاني (مزارع) وإحدى زوجاته فطومة بنت محمّد النّيفر (عدل).

وبعد الدّراسة بجامع الزّيتونة، أصبح عدلا في سنة 1892. وفي سنة 1895 صار نائبا لإمام جامع حمّودة باشا. وفي السنّة نفسها، سمّي مدرّسا حنفيّا من الطبقة الثانية بجامع الزّيتونة، ثمّ ارتقى إلى مرتبة الطبقة الأولى في سنة 1898. وقد

شارك في لجنة إصلاح التّعليم الزّيتوني التي انعقدت سنة 1898 والتي ضمّت ماشويال (Machuel) مدير التّعليم العمومي وبرنار روا، الكاتب العام للحكومة، والوزير الأكبر عبد العزيز بوعتّور، ووزير القلم محمّد الجلولي والبشير صفر رئيس الجمعيّة الخلدونيّة والعلماء: شيخ الإسلام محمّد بيرم الخامس، والباش مفتي أحمد الشّريف، والمفتي المالكي عمر بن الشّيخ، والقاضي المالكي الطيّب النّيفر ومحمد الشاذلي ابن القاضي وغيرهم [الأرشيف الوطني: 13 – 262 – E: AGT - ومحمّد ابن الخوجة: تاريخ معالم التّوحيد في القديم والجديد، تونس المطبعة الرسميّة، 1939، ص 53ـ54].

وفي سنة 1911 صار نائب متفقّد التّعليم بجامع الزّيتونة. وفي سنة 1913، عيّن قاضيا حنفيّا. وفي العام الموالي، خلف أخاه في إمامة جامع حمّودة باشا. توفّي في 12 سبتمبر 1917. [مقابلة «أرنولدهـ. ڤرين» مع الشيخ الهادي بلقاضي (تونس في 17 جوان 1971 في: العلماء التونسيّون 1873ـ1915، ص ص 333ـ334].

– **محمّد** بن الصّادق بن العربي بن محمّد ابن القاضي: ولد بتونس وهو ابن مدرّس بجامع الزّيتونة. وفي ماي 1906، تزوّج من خديجة بنت أحمد الرّياحي (مزارع).

وبعد الدّراسة بجامع الزّيتونة، أصبح عدلا في سنة 1897. وفي فيفري 1908 صار مدرّسا حنفيّا من الطبقة الثّانية بجامع الزّيتونة، ارتقى إلى مرتبة الطبقة الأولى في مارس من السنة نفسها، وفي سنة 1912، عيّن في وقت واحد مدرّسا بالمدرسة الصّادقيّة ونائبا لإمام جامع حمّودة باشا حيث خلف ابن عمّه محمّد بن الشاذلي ابن القاضي، وصار إماما أوّل بالجامع المذكور في سنة 1918. توفّي في مارس 1932 [انظر: المرجع السابق، ص 334].



محمّد الشاذلي ابن القاضي
[1901–1978م]

هو محمد الشاذلي ابن الشيخ محمد ابن القاضي تولّى والده القضاء على المذهب الحنفي بتونس من سنة 1912 إلى سنة 1917. وهو شقيق الشيخ محمد الهادي ابن القاضي مفتي الجمهوريّة التونسيّة سابقا، وشقيق المدرّس الحنفي الشيخ إبراهيم ابن القاضي.

ولد بمدينة تونس في غرّة شوّال 1318هـ/7 أفريل 1901م ونشأ في بيت علم ومجد. وقد رعته أسرته وسهرت على تربيته تربية إسلاميّة أصيلة. وبعد أن حفظ نصيبا من القرآن الكريم ومبادئ اللّغة العربيّة، التحق بالمدرسة القرآنيّة العصرية بنهج سيدي بن عروس التي تأسّست في سنة 1906. وكان من أبرز أساتذته في هذه المرحلة الشيخ محمد مناشو. ثمّ انخرط في سلك تلامذة جامع الزيتونة سنة 1333هـ/1915م لمواصلة دراسته الثانوية، فتفرّغ لطلب العلم وانتقل بنجاح من سنة إلى أخرى في سلك التعليم الزيتوني، إلى أن أحرز في سنة 1340هـ/1922م شهادة التطويع. وقد تتلمذ في مختلف مراحل التعليم بجامع الزيتونة لنخبة من علماء عصره، نخصّ بالذكر منهم شيخ الإسلام محمد بن يوسف الذي أخذ عنه التفسير والحديث، والشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وشيخ الإسلام محمد العزيز جعيّط الذي أخذ عنه علم الأصول، والمفتي المالكي الشيخ أبا الحسن النجّار وقاضي الجماعة الشيخ محمد البشير النيفر.

باشر الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي التدريس بجامع الزيتونة ثم الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين طوال خمس وخمسين

سنة ناشرا للعلوم الشرعية والعربيّة. وقد ابتدأ التدريس بصفة متطوّع في أكتوبر 1924 ثم انخرط في سلك مدرّسي الجامع الأعظم إثر نجاحه في مناظرة المدرّسين المعاونين في سنة 1928 وارتقى إلى رتبة مدرّس من الطبقة الثانية في سنة 1931، وفاز في مناظرة المدرّسين من الطبقة الأولى في سنة 1938 ثمّ نال رتبة أستاذ بالجامع الأعظم، وإثر الاستقلال عيّن أستاذا للتعليم العالي بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين.

ولمّا عيّن الاستاذ الامام محمد الطاهر ابن عاشور من جديد شيخا للجامع الأعظم وفروعه في شهر فيفري 1945 عهد إلى الشيخ ابن القاضي بإدارة مدارس سكنى الطلبة، فاضطلع بهذه المهمّة حتّى سنة 1951. وتولّى الإمامة والخطابة بجامع حمّودة باشا المرادي الكائن بنهج سيدي بن عروس بتونس منذ سنة 1918 بوصفه إماما ثانيا. وفي مطلع سنة 1940 ولي خطّة إمام أوّل إثر وفاة شيخ الإسلام محمد بن يوسف الذي كان متقلّدا لتلك الخطة قبل ذلك.

سخّر الشيخ محمد الشاذلي ابن القاضي حياته للدفاع عن جامع الزّيتونة بلسانه وقلمه والمطالبة بإصلاح التعليم الزيتوني حتّى يصبح متماشيا وروح العصر وتقدّم العلم، مع التمسّك بالهويّة العربية الإسلاميّة. وقد أسّس لهذا الغرض مع نخبة من شيوخ الجامع الأعظم «المجلّة الزيتونية» وتولّى إدارتها منذ ظهور عددها الأوّل في سبتمبر 1936 إلى احتجابها في آخر سنة 1955 إثر صدور عددها الأخير المتضمّن لأعمال المؤتمر القومي الزيتوني الثالث. ولم يكن يخلو أي عدد من أعدادها الخمسة والسبعين من بحوثه الدينية ودراساته الاجتماعية. وقد عينّ عضوا في لجنة إصلاح التعليم الزيتوني الخامسة التي اجتمعت في سنة 1938، كما كان من أبرز المنظمّين للمؤتمر الزيتوني الأوّل الذي التأم بتونس في 2 أكتوبر 1944 والمؤتمر الثالث الذي انعقد من 1 إلى 3 نوفمبر 1955 وبحث في القواعد الأصيلة التي يجب أن يقوم على مقتضاها التعليم الزيتوني والخطوط الرئيسة لمناهجه.

وفي أثناء قيامه بجميع هذه المناشط كان الشيخ محمّد الشاذلي ابن القاضي متّصلا بالشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور وابنه الشيخ محمّد الفاضل وبصديقه الشيخ محمّد المختار بن محمود. وعلى الصّعيد السياسي شارك في حركة المقاومة الوطنيّة والكفاح من أجل تحرير الوطن، وتعرّض في سبيل ذلك إلى شتّى أنواع الاضطهاد. فقد شارك سنة 1933 في الحملة التي شنّها المدرّسون الزيتونيون على سياسة التجنيس فأوقف عن العمل مع ثلاثة من زملائه. وشارك في مؤتمر ليلة القدر (23 أوت 1946) ممثّلا لعلماء جامع الزيتونة. وقد أهّله نضاله للانضمام إلى الديوان السياسي للحزب الدستوري الجديد مع صديقه الشيخ محمّد الفاضل ابن عاشور.

وكانت له علاقات وثيقة بعدد من مشاهير علماء الإسلام نخصّ بالذكر منهم العلاّمة الشيخ محمّد أبا زهرة، وشيخ الأزهر الأستاذ الإمام عبد الحليم محمود ومفتي الدّيار المصريّة الشيخ محمّد حسنين مخلوف. وقد شارك في حجّة سنة 1373/1954 في اجتماع كبار علماء الإسلام بمكّة المكرّمة لاتّخاذ ما يلزم من إجراءات لإصلاح شؤون المسلمين في مختلف بلدان الإسلام، كما اعتمدته السكرتيرية العامّة للمؤتمر الإسلامي بالقاهرة في سبتمبر 1954 مندوبا للمؤتمر بتونس. وأخيرا عيّن عضوا مؤسّسا للرابطة الإسلاميّة بمكّة المكرّمة. وقد ظلّ إلى آخر حياته مضطلعا بهذه المهمّة التي مكّنته من المشاركة في عدّة مؤتمرات إسلاميّة بالجزائر والمغرب وسوريا والمملكة العربية السعوديّة.

أمّا مؤلّفاته فقد ترك الشيخ محمّد الشاذلي ابن القاضي آثارا مخطوطة من أهمّها مؤلفات في التفسير وفي التشريع الإسلامي ومنتخبات من الحديث النبوي الشريف، بالإضافة إلى خطبه الجمعية ومشاركاته المنشورة في المجلاّت الإسلامية لا سيما منها «المجلّة

الزيتونية»، تلك البحوث والدراسات التي لو جمعت لتكوّن منها سفر ضخم.
توفّي يوم 26 ربيع الأوّل 1398 الموافق للسادس من مارس 1978، ودفن في مقبرة الجلاّز بتونس.

محمّد الهادي ابن القاضي
[1903-1979م]

ولد بمدينة تونس في ذي الحجّة سنة 1320هـ/1903م وتربّى في وسط علمي عريق. التحق بالمدرسة القرآنيّة العصرية بنهج سيدي بن عروس سنة 1910، وكان من أبرز شيوخه في هذه المرحلة الشيخ محمّد مناشو، ثم صار من تلامذة جامع الزيتونة سنة 1335هـ/1915م لمواصلة دراسته الثانوية فتفرّغ لطلب العلم إلى أن أحرز في سنة 1342هـ/1923م شهادة التطويع. وقد تتلمذ لنخبة من علماء تونس نخصّ بالذكر منهم العلاّمة محمّد بن يوسف والأستاذ الإمام محمّد الطاهر ابن عاشور وشيخ الإسلام محمّد العزيز جعيّط.

باشر الشيخ محمّد الهادي ابن القاضي التدريس بجامع الزيتونة ثم بالكليّة الزيتونيّة للشريعة وأصول الدين طوال سنوات عدّة، وقد ابتدأ التدريس بصفة متطوّع سنة 1923، ثم ارتقى إلى رتبة مدرّس من الطبقة الثانية في سنة 1345هـ/1926م وفاز في مناظرة المدرّسين من الطبقة الأولى في سنة 1351هـ/1932م ثم نال رتبة أستاذ بالجامع الأعظم سنة 1359هـ/1939م. ومن أهمّ الكتب التي تولّى تدريسها في الجامعة الزيتونيّة نذكر: «تفسير القاضي البيضاوي»، و«دلائل الإعجاز» و«مغني اللبيب» و«العقائد النسفيّة».

وباشر الشيخ محمّد الهادي ابن القاضي وظائف قضائية متعدّدة. ففي سنة 1939 أسندت إليه خطّة قاض بالمحكمة العقارية المختلطة، وفي سنة 1951 كلّف بخطّة مفت حنفي، وفي سنة 1955 تولّى خطّة القضاء على المذهب الحنفي بالمحكمة الشّرعيّة بتونس. ولما وحّد القضاء سنة 1956 أسندت إليه خطّة رئيس دائرة بمحكمة الاستئناف، وفي سنة 1960 ارتقى إلى خطّة مستشار بمحكمة التعقيب إلى أن عيّن سنة 1390هـ/1970م مفتيا للجمهورية التونسية خلفا للشيخ محمّد الفاضل ابن عاشور. فصدرت عنه عشرات الفتاوى في مختلف الموضوعات الدالّة على رسوخ قدمه في العلم وخبرته بالمشكلات وقدرته على حلّها بمقتضى النظر الشرعي.

وظلّ في هذا المنصب قائما بأعبائه مدّة ستّ سنوات إلى أن أعفي من مهامّه سنة 1976. وكان بالإضافة إلى مباشرته لهذه الوظائف يضطلع بمهمّة إمام خطيب في جامع حمودة باشا المرادي بتونس.

وبالإضافة إلى نشاطه التربوي عرف الشيخ محمّد الهادي ابن القاضي بنشاطه الثّقافي والاجتماعي، فقد شارك في عدّة لجان للنظر في إصلاح التعليم الزيتوني، وأسهم في تأسيس «المجلة الزيتونية» سنة 1936 فتولّى خطّة أمين مالها، ونشر بها عدّة بحوث قيّمة.

كما كان من الأعضاء المؤسّسين لجمعية الزيتونيين التي أنشئت سنة 1355هـ/1936م برئاسة الشيخ محمّد المؤدب. وكان غرضها توطيد الروابط العلمية والأدبية بين أعضائها ومنخرطيها من أبناء الزيتونة. وعرف أيضا بنشاطه النقابي إذ انتصب مدافعا عن حقوق زملائه في نقابة المدرّسين الزيتونيّين.

وكان من أعضاء هيئة التدريس بالجامع الأعظم، التي قابلت محمّد الأمين باي في نوفمبر 1943 والتمست منه التدخّل لحمل الحكومة على الاستجابة لمطالب شيوخ الجامع الأعظم. لكن هذه المقابلة لم تأت بالفائدة المرجوة فانعقد اجتماع عام بنادي قدماء الصادقية حضره 52 مدرّسا، قرّر على إثره المجتمعون الدخول في إضراب عام عن الدروس ابتداء من يوم 14 ديسمبر

1943، واستمرّ هذا الإضراب مدّة شهرين كاملين دون انقطاع ولم يستأنف المدرّسون عملهم إلا يوم 6 فيفري 1944 بعدما تلقّوا وعدا صريحا من الحكومة بالاستجابة لمطالبهم.

أمّا مؤلّفاته، فقد ترك الشيخ محمّد الهادي ابن القاضي آثارا منشورة وأخرى مخطوطة، من أهمّها:

أ) رسالة في الحجّ.

ب) رسالة في الصّوم.

ج) مقالات وبحوث في شرح الحديث نشرت منها «المجلة الزيتونيّة» عشرين بحثا، واقتصرت مجلة «الهداية» على نشر ثمانية بحوث.

د) محاضرات في تاريخ التشريع الإسلامي كان ألقاها على منبر الكليّة الزّيتونية للشريعة وأصول الدّين خلال السنة الجامعية 1971–1972.

هـ) الفتاوى وتقدّر بحوالي ست وسبعين فتوى، وقد نشرت في الصحف والمجلات التالية:

«المجلة الزيتونية» – «الهداية» – «جوهر الإسلام» – «الزهرة» – «العمل» – «الصباح».

أبو يزيد مخلد بن كيداد

[270–336هـ/883–947م]

نسبه

أبو يزيد مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان... بن يفرن بن شانا (وشانا هو زناتة) اليفرنيّ الزناتيّ، النكّاريّ، (صاحب الحمار) الثائر على الفاطميّين بإفريقيّة.

ولد بكوكو من بلاد السودان سنة 270هـ/883م تخمينا إذ كان عمره لمّا بدأ ثورته سنة 943 ـ 944م ستّين سنة (ابن حمّاد، 19)، من أب زناتيّ كان يختلف إلى السودان للتجارة وأمّ سوداء من تادمك تدعى سبيكة (وقال ابن الأثير: من جارية صفراء هوّاريّة).

تكوّنه على مذهب النكّار

رجع به أبوه إلى قيطون زناتة (أي مجتمع خيامهم ورحالهم) من بلاد الجريد بتقيوس قرب توزر، فحفظ مخلد القرآن وتأدّب وخالط الإباضيّة النكّاريّة فمال إلى مذهبهم، وكانوا مثل الأزارقة والصفريّة المتشدّدين يبيحون الاستعراض، أي قتل مخالفيهم في المذهب وسبي نسائهم وأولادهم وغصب أموالهم.

وكان رأس النكّاريّة أبا عمّار الأعمى واسمه عبد الله أو عبد الحميد الحميدي الحجري، تتلمذ له أبو يزيد في المذهب وتسلّم مشيخة العزّابة، وهو مجلس الجماعة عند البربر وبخاصة عند الإباضيّة (انظر أطروحة فرحات الجعبيريّ) عملا بمبدإ الشورى ونظريّة الأفضل، التي لم يقرّهم عليها عبد الوهّاب بن عبد الرحمان ابن رستم صاحب تاهرت فنبذوا ولاءه ورفضوا إمامته فسمّوا النكّار.

ولازم أبو عمّار أبا يزيد من مبدإ حركته إلى أن قتلا معا في محاصرة إسماعيل المنصور العبيديّ لقلعة كيانة بجبال المعاصيد شماليّ المسيلة في المحرم سنة 336هـ/جويلية 947م.

ورحل مخلد إلى مشيخة النكّاريّة بتاهرت أيّام اعتقال عبيد الله الفاطميّ بسجلماسة، أي قبل أن يخلّصه أبو عبد الله الشيعيّ في ذي الحجّة سنة 296هـ/سبتمبر 909م، وأخذ عن بعض مشايخهم، وانتصب يعلّم القرآن للصبيان، وهكذا فعل حين رجع إلى تقيوس وأخذ في بثّ دعوة النكّار والطعن على الحكام العبيديّين فاستفحل أمره وكثر أنصاره فسجنه والي توزر فخلّصه أبو عمّار بالسطو على السجن، ولجأ به إلى جبل أوراس عند بني برزال وكانوا نكّاريّة أيضا. واستعان في تخليصه بابني أبي يزيد: فضل ويزيد. وذكروا له أبناء آخرين: أحمد ويونس وأيّوب وامرأته تاخيريت كانت نكّاريّة مثله، وقد سانده أبناؤه في ثورته، خصوصا فضل وأيّوب، ووفد اثنان منهم على الناصر الأمويّ بقرطبة في طلب المدد لأبيهما.

وقصد الحجّ سنة 310هـ/921م فأرهقه الطلب لضيق ذات اليد فقفل راجعا من طرابلس إلى تقيوس.

ثورة صاحب الحمار

اندلعت سنة 333هـ/944م وعمّت كامل ربوع إفريقيّة فاحتلّ أبو يزيد بجموع الثوّار، مرماجنّة والأربس وباجة وتونس وجزيرة شريك والقيروان وحاصر المهديّة طيلة أربعة أشهر، من ذي القعدة سنة 333هـ إلى صفر 334هـ/جويلية–أكتوبر 945م وأجهد أهلها حتى أكلوا الجيف، ولم يقدر عليها رغم هجماته المتلاحقة، فتحوّل إلى حصار سوسة، فخلّصها منه المنصور بمجرّد تولّيه الحكم بعد وفاة القائم، وبدأ التراجع لأبي يزيد وملاحقة المنصور له إلى أن ظفر به في المحرّم سنة 336هـ/جويلية 947م، فتشفّى منه بأن سَلَخَهُ وحشا إهابه تبنا وحصره في قفص أعدّه للغرض صحبة قردين يصفعانه وينتفان لحيته وطاف به مدن إفريقيّة مشهّرا مفتخرا فعل أباطرة روما بأسراهم المصفّدين في مواكب الظفر عند قفولهم المظفّر.

وبعد موته واصل ابنه فضل الثورة في جنوب البلاد فقتل حول قفصة في ذي القعدة 336هـ/جوان 948م. والتجأ أبناؤه الآخرون إلى البلاط الأمويّ بقرطبة.

صفته

وكان أعرج وعلى لسانه شامة، وزاد بعضهم العور، وكان في أوّل أمره يلبس خشن الثياب ويغطّي رأسه بقلنسوة كدرة ويركب حمارا أشهب أهدي إليه بمرماجنّة في بداية زحفه على إفريقيّة، ويتلقّب بشيخ المسلمين ثمّ، لمّا ظفر بمدنها تباعا وأوشك على أخذ المهديّة آخر معاقل الفاطميّ، ترك التقشّف ولبس الحرير وركب الخيل الفرهة وأكثر من التسرّي، فلامه أبو عمّار فرجع إلى سيرته الأولى خصوصا بعد أن توالت عليه الهزائم على يد المنصور الفاطميّ.

وكان يقول إنّه قام محتسبا للّه تعالى ناقما على القبالات (أي الجبايات) التي فرضها الفاطميّون على الرعايا، طالبا صلاح المسلمين، ساعيا إلى تخليصهم من الجور: هذه الغاية هي فحوى محاورته المزعومة مع المنصور بعدما ظفر به (عيون الأخبار ص 447).

موقف المؤرّخين من ثورته

لم يجد أبو يزيد مدافعا عنه من المؤرّخين القدماء، بل ألحّوا كلّهم على سفكه للدماء وارتكابه للمحرّمات وعبثه بالدين ونقضه للعهود. وهذا العداء، إن لم يستغرب من المؤلّفين الفاطميّين أو السنّيّين – على أنّ فقهاء القيروان ساندوه وحملوا السلاح معه واستشهد خمسة وثمانون من صلحائهم في وقعة وادي المالح سنة الأثلاث (رياض النفوس 292/2)، فإنّه مستغرب من الكتّاب الإباضيّين، إلاّ إذا برّرنا تحفّظهم إزاءه باختلاف إباضيّتهم: فهم وهبيّون أوفياء للرستميّين، أما أبو يزيد فنكّاريّ منشق.

وإنّما وجد أنصارا عند المعاصرين، فقد رأت طائفة منهم في هذه الفتنة الكبرى التي زعزعت أركان الدولة الفاطميّة منذ انتصابها تجسيما للصراع بين عصبيّتين عظيمتين في قبائل البربر: كتامة «المناصرين» للدولة الشيعيّة المستولين على المناصب العالية الرافلين في النعم، وزناتة الإباضيّة التائقين إلى نصيبهم من الدنيا. هذا هو رأي فرحات الدشراوي في أطروحته: «الخلافة الفاطميّة بالمغرب» (نقلها من الفرنسية إلى العربية حمّادي السّاحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994)، ورأى فيها آخرون انتفاضة تحرّريّة من البربر سكّان البلاد الأصليّين ضدّ الدخلاء الشيعيّين على غرار حروب الاستقلال المعاصرة (هذا موقف لوترنو Le Tourneau في كتابه «La révolte d'Abu Yazid au Xe siècle» وجورج مارسي G.Marçais في كتابه «La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen âge» Paris,1946. وفي كثير من فصوله).

محمّد بن محمود
[– - 1962م]

ينحدر الشيخ محمّد بن محمود من أسرة دينيّة، امتاز جل أفرادها بالإنشاد الطرقي للمدائح والأذكار الخاصة ببحور السلامية. وقد اقتفى خطوات والده الشيخ بفضل سليمان بن محمود. وعنه أخذ طريقة الإنشاد الصوفي للطريقة السلامية التي راجت ريحها في تونس من خلال أتباع الولي الصالح سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري دفين مدينة زليطن بالقطر الليبي الشقيق.

وفي سنة 1933، توفي عميد آل بن محمود وهو الشيخ سليمان بن محمود. وخلفه نجله محمّد بن محمود في الحفاظ على الطريقة السلامية وأثرها. ولئن كان الفقيد يعمل في السفارة الفرنسية بتونس، فإن عمله لم يمنعه من الاشتغال بالفنون الطرقية التي هام منذ شبابه بسحرها وخاصة منها الطريقة السلامية التي أسهم في إشعاعها إبداعا وإمتاعا بإغناء مدونتها الصوفية بجملة من الاستغاثات والابتهالات إلى المولى العلي القدير ومدح الصفات الزكيّة للولي الصالح سيدي عبد السلام الأسمر الفيتوري صاحب الفضل في بعث تلك الطريقة الصوفية بالبلاد التونسية.

فلا غر وفي أن يتكاثر المريدون لتلك الطريقة لعلّ أبرزهم محمّد عبد العزيز العقربي الذي توفي في حادث مرور أودى بحياته سنة 1968 وهو في طريقه إلى ضريح رائد السلامية سيدي عبد السلام الأسمر في بلده زليطن الليبية.

على أن الفضل يعود إلى الشيخ محمّد بن محمود في نشر تلك الطريقة بين روّادها من المريدين في أثناء زياراته إلى جل المدن التونسية لإحياء طقوس تلك الطريقة السلامية في الترحيب بالحجيج الميامين بعد عودتهم من أداء مناسك الحج في البقاع المقدّسة.

وكانت لمحمّد بن محمود، إضافات إبداعية في البحور الخاصّة بالشعائر الدينية لتلك الطريقة الإنشادية للسلامية لعل أبرزها قصة المولدية في مدح خير البريّة سيّدنا محمّد صلى الله عليه وسلم، إلى جانب بردة للرسول المرّصعة بالصنائع أي بالطبوع التونسية. فلا عجب في أن يتحول رحاب السلامية إلى مدرسة تصل سحر الأدب بروعة الطرب في مناخات صوفية تستجيب لقدسية نواميس الإنشاد الطرقي للسلامية النقية من أدران العجمي.

ومازالت تلك المدرسة في تألق بعد أن انضّم إليها القارئ الشيخ علي البرّاق الذي امتاز بالحلية التونسية في أداء الطبوع التونسيّة خاصة في سرد الأذكار والأوراد للسلامية وأداء الآذان والإقامة للصلاة، في حين كان الرواد من المنشدين المصريين المقيمين بتونس مثل الشيخ أمين حسين والسيد شطا يرفدان تلكم البحور بالمقامات الشرقية في حضرة شيخهم سيّدي محمّد بن محمود.

ومازال المنشدون من مريدي الطريقة السلامية يتهافتون على الشيخ محمّد بن محمود لعلّ أبرزهم يوسف التميمي وخميس الحنافي اللذان كانت لهما مسيرة فنيّة موفقة في عالم الغناء والطرب فلم ينفكّوا يكبرون دور ذلك الشيخ الوقور سيدي محمّد بن محمود الذي توفي سنة 1962 عن سن تناهز السبعين عاما قضاها ناسكا متعبّدا في محراب السلامية بعد أن أنجب من ذرّيته الصالحة بعض أعلام الإنشاد الخاص بالسلامية لعل أبرزهم الشيخ عبد العزيز بن محمود شهر محمود عزيز صاحب المدائح والأذكار التي كانت تبثّها بانتظام الإذاعة التونسية في الخمسينيات من القرن العشرين.



محمد المختار بن محمود

[1904 - 1973م]

محمّد المختار ابن شيخ الإسلام الحنفي محمود بن محمود من أقطاب الجامعة الزيتونيّة ومن أبرز أعلام الشريعة. ولد بتونس وبها نشأ وتفقّه بجامع الزّيتونة الأعظم. وفي سنة 1938 تصدّر للتّدريس وقام بدور الدّفاع عن مقوّمات شخصيّة تونس العربيّة الإسلاميّة، ضدّ جميع محاولات التمسيح والتّغريب والإدماج والفرنسة. وكان دوما في مكان الصّدارة بين الطّلاب الزّيتونيين الشّباب الذين يناضلون من أجل إصلاح التّعليم الزّيتوني، وتعريب الإدارة وتحرير البلاد من ربقة الاستعمار...

وقد اضطلع بخطة مفت حنفي، وكاهيّة شيخ الإسلام. وكان عضوا بالمجمع اللّغوي بالقاهرة.

ولقد نشر الشّيخ محمّد المختار بن محمود كثيرا في صحف العصر ومجلاّته وخاصة في «المجلّة الزّيتونيّة» الشّهيرة وقد كان رئيسا لتحريرها من سنة 1936 إلى سنة 1955.

كان محمّد المختار بن محمود يلقّب بالشّيخ الفقيه وكان شخصيّة طريفة للغاية، ويبدو لمن لا يعرفه غريب الأطوار.

لقد كان إنسانا اجتماعيّا إلى أبعد مدى لذلك كان يلذّ له أن يزور أصدقاءه وزملاءه... وكان دقيقا جدّا في مواعيده لا يخالفها بل يحتجّ بصرامة على كلّ من لا يحترم الوفاء بوعده وبخاصّة في مناسبات الزّواج والختان وما إلى ذلك.

وكان الشّيخ محمّد المختار بن محمود، إلى جانب شواغله الكثيرة، لا يترك مناسبة ثقافيّة أو غير ثقافيّة (تأبين، حفلات استقبال)، إلاّ حضرها واحتلّ مكان الصّدارة فيها ولا يعوقه عن الحضور شيء، فهو يتابع الأحداث لحظة بلحظة، كلّفه ذلك ما كلّفه، مشاركا في المناقشات حينا وسائلا أو معقّبا في أغلب الأحيان. وهو في ذلك كلّه منتبه وملاحظ لكلّ ما يصدر عن النّاس من أقوال أو أفعال أو ردود أفعال. ولا يترك شاردة ولا واردة إلاّ دوّنها بكلّ دقّة وأمانة في كنّشه. لذلك يعتبر الشّيخ محمّد المختار مؤرّخ يوميّات أو أحداث، ولمدوّناته حول القضايا والأحداث الوطنيّة والاجتماعيّة والأشخاص الذين عايشهم قيمة لا تضاهى باعتبارها مادة لكتابة التّاريخ الاجتماعي. لكن أين هي اليوم تلك الكنانيش الكثيرة؟

كان الشّيخ الفقيه متواضعا ومهذّبا إلى أبعد الحدود لكنّه لا يخاف في الحقّ لومة لائم. وكان يعلن لطلاّبه وبعض زملائه شعار حياته الدّائم وهو المغامرة، ودخول كلّ مكان للاطلاع والبحث فقط لا للمشاركة. وكان يلذّ له أن يقول: «إذا احترت أمام طريقين: طريق خَطرة وأخرى أكثر خطورة فإنّي أختار الطّريق الأكثر خطورة!».

وكان الشّيخ الفقيه لا يتسامح إطلاقا في المناسبات الرّسميّة في أن يتقدّم عليه أحد فهو كالطّود أمام الجميع دوما، نظرا إلى تفوّقه بدنا وسنّا وهيبة.

وممّا يؤثر عن الشّيخ الفقيه أنّه حزن حزنا شديدا لمّا فقد صديقه المفضّل العلاّمة محمّد الفاضل ابن عاشور الذي كانت تربطه به صداقة عائليّة وشخصيّة ترفع فيها الكلفة والمجاملة أحيانا إلى المعارضات الأدبيّة الفكهة والتندّر...

توفي الشيخ محمد المختار بن محمود في منتصف ديسمبر 1973.



نور الدين بن محمود
[1914 – 1990م]

1) نشأته ودراسته

ولد نور الدين بن محمود في مدينة تونس في 16 أكتوبر 1914، وبعد حصوله على الشهادة الابتدائيّة من مدرسة خير الدين، التحق بالمعهد الصادقيّ حيث زاول دراسته الثانوية. ثم درس اللّغة العربية والتّرجمة في المدرسة العليا للغة والآداب العربية بالعطّارين. وانتسب بعد ذلك إلى كلية الآداب في بوردو، وتابع دروسها عن طريق المراسلة إلى أن أحرز الإجازة في اللغة والآداب العربية ودبلوم الدراسات العليا إثر مناقشة الرسالة التي أعدّها حول ابن رشيق وعصره.

والتحق إلى جانب مواصلة دراسته العليا، نور الدّين بن محمود بجمعية الأوقاف بتونس، حيث عمل مترجما حقبة من الزّمن. ثم شارك في سبتمبر 1938 في مناظرة انتداب مذيعين للعمل بالقسم العربي من الإذاعة التونسية الذي كان يشرف عليه عهدئذ الأستاذ عثمان الكعّاك، فنجح في تلك المناظرة بامتياز.

2) نشاطه في الميدان الإعلامي

قبل التحاق نورالدين بن محمود بالإذاعة، اقتحم ميدان الصّحافة المكتوبة منذ شبابه الباكر، إذ أسهم في تحرير بعض الصّحف العربية مثل «النّديم» و«الوزير». ثم أصدر في سنة 1936 نشريّة «المروج»، وتولّى بعد ذلك رئاسة تحرير المجلّة الثقافية الشهريّة «الأفكار» التي أصدرها حمّودة قوجة من نوفمبر 1936 إلى سبتمبر 1937. وكان التحاقه بالإذاعة التونسيّة منطلقا لتجربة إعلاميّة رائدة، إذ أحرز من أوّل وهلة نجاحا باهرا أهّله للارتقاء إلى خطّة كاتب عام للقسم العربي في سنة 1943. فاستطاع بفضل ما حظي به من سمعة طيّبة وإشعاع لدى النّخبة المثقّفة، أن يستقطب ثلّة من رجال الفكر والأدب، أمثال العلاّمة الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور، وشيخ الأدباء العربي الكبادي، والمؤرّخ الكبير عثمان الكعّاك وغيرهم من الأدباء والشّعراء مثل الهادي العبيدي وأحمد خير الدين وجلال الدين النقاش وحسين الجزيري وعلي الدّوعاجي.

وقد سمحت له خطّته بالحصول على دعم من الإقامة العامّة، لإصدار مجلّة «الثريّا» الشهريّة التي ظهر عددها الأوّل في ديسمبر 1943. وقدّمت المجلّة مديرها في العدد الصادر في نوفمبر 1943، في باب «هل تريد أن تعرف»؟ بالعبارات التالية:

«هذا الذي ترى صورته أمامك هو محلّل الشّخصيات وقد حلّ دوره ليوضع على مشرحة التحليل... ينحدر صاحبها من سلالة تركيّة حديثة العهد بهذه الديار. له قامة من أطول ما ترى العيون يكاد يحدّها مسبح الأفلاك وعالم الأملاك... لكنّ هذه القامة سرعان ما يستوعبها النّظر فيتقلّص امتدادها وتحتضنها النّفس احتضانا...

طيّب النفس إلى أبعد حدّ، ليّن العريكة، وديع، لا يحمل حقدا على أحد... وقد أعانته سعة معلوماته وحضور ذهنه على تذليل كل أمر صعب. فهل تريد منه قصيدا أم حديثا أدبيا أم قطعة راديوفونية أم تأليفا ضخما في أيّ فنّ من الفنون؟ يتمّ لك ما أمرت بين عشيّة وضحاها... هو كاتب مسهب، أنيق الأسلوب، غزير الفكرة... لو كان من أدباء الغرب أو كانت وسائل النشر بتونس متهيّئة كما يلزم لرأيناه يضرب الرقم القياسي في الإنتاج ويغنم أوسع الثّروات من محصول إنتاجه....».

وبالإضافة إلى مجلّة «الثريّا» أصدر نور الدين

بن محمود منذ 24 ديسمبر 1945 جريدة أسبوعيّة جامعة بعنوان «الأسبوع». وسرعان ما استقطبت مختلف فئات القرّاء الذين أقبلوا عليها بشغف وتلهّف، بفضل ما احتوت عليه من موضوعات متنوّعة شيّقة في شتّى مجالات المعرفة كالقصّة والشّعر والتّاريخ والاقتصاد والمسرح والرياضة...

3) استقالته من الإذاعة

رغم ما أحرزه نور الدين بن محمود من نجاح، فقد بدأ يتعرّض إلى مضايقة مدير الإذاعة التونسيّة الفرنسي الجنسيّة، فقدّم استقالته من مهامّه سنة 1946، ليتفرّغ لمناشطه الإعلامية الأخرى، إذ واصل إصدار مجلّة «الثريّا»، رغم انقطاع الإعانة الماليّة التي كانت تقدّمها إليه الإقامة العامّة، إلاّ أنّه اضطرّ في آخر سنة 1947 إلى تعطيلها، ثم أصدرها من جديد في سنة 1950، ولكن لم يظهر منها سوى ثلاثة أعداد في جانفي وفيفري وأفريل 1950 ثم احتجبت نهائيّا. أما جريدة «الأسبوع» فقد استمرّت في الظهور حتى 23 جانفي 1956.

وإلى جانب نشاطه في الميدان الصّحفي، عرف نور الدين بن محمود بنشاطه المتميّز في صلب بعض الجمعيّات الثّقافية والرّياضية. فقد كان رئيسا مساعدا لجمعيّة «الاتّحاد المسرحي» وكاتبا عامّا لجمعيّة «الترقّي» الموسيقية وعضوا في هيئات «الكوكب التمثيلي» و«المعهد الرشيدي» و«جمعيّة النّاصريّة». كما أسهم في تأسيس تعاضديّة تونسيّة للطّباعة والنّشر بعنوان «دار الهدى»، بالاشتراك مع نخبة من رجال الإعلام في مقدّمتهم عميد الصّحافيين البشير الفورتي.

ومن مناشطه الأخرى التي استرعت الانتباه تنظيمه لرحلات بريّة عبر ليبيا ومصر، لنقل المسافرين التّونسيّين القاصدين البقاع المقدّسة لأداء مناسك الحجّ أو العمرة.

4) إنتاجه الفكري والأدبي

كان نور الدين بن محمود غزير الإنتاج الأدبي والفنّي، إذ هو كاتب وشاعر ومترجم ومحاضر. فبالإضافة إلى رسالته حول ابن رشيق وعصره، وفصوله ودراساته المنشورة في مختلف الصّحف والمجلاّت، ألّف وترجم عدّة مسرحيّات منها مسرحيّة «آخر الموحّدين» التي قدّمت في تونس مرّتين، ومسرحيّة «المتمرّدة» التي نالت جائزة بلديّة مدينة تونس، وألّف أيضا مسرحيّات إذاعية كثيرة.

وقد نظّم الحفل البهيج الذي أقيم بتونس يوم 23 مارس 1944 لإحياء ذكرى ألفيّة أبي العلاء المعرّي، وألقى بهذه المناسبة دراسة ضافية حول حياة أبي العلاء وآثاره. وشارك ببحث قيّم في مؤتمر الثقافة الإسلاميّة الذي نظّمته الجمعيّة الخلدونية في سبتمبر 1946.

5) هجرته إلى فرنسا

لما ظهر الانشقاق في صفوف الحزب الدستوري الجديد إثر حصول تونس على الاستقلال، انحاز نور الدين بن محمود إلى صالح بن يوسف الكاتب العامّ للحزب الذي نادى بمقاومة اتّفاقيات 3 جوان 1955، باعتبارها – حسب رأيه – «خطوة إلى الوراء». فسخّر جريدته «الأسبوع» لشنّ حملة شعواء على تلك الاتّفاقيات وعلى «الدّيوان السّياسي» ووزارة الطاهر بن عمار الثّانية التي تكوّنت في سبتمبر 1955 لإدخال اتّفاقيات الاستقلال الدّاخلي حيّز التنفيذ. فاضطرّت الحكومة، بعد لجوء صالح بن يوسف إلى مصر، إلى تعطيل جريدة «الأسبوع» بمقتضى قرار مؤرّخ في 28 جانفي 1956.

وإثر حصول تونس على الاستقلال التّامّ في 20 مارس 1956، هاجر نور الدّين بن محمود إلى العاصمة الفرنسيّة حيث عمل حقبة من الزّمن في وكالة الأنباء الفرنسية. ثم أسّس مكتبة ومطبعة أصدر فيها بعض مؤلفاته وترجماته من أهمّها ترجمة القرآن الكريم. وفي السّنوات الأخيرة من حياته عاد مع أهله إلى تونس وأقام بها إلى أن أدركته المنيّة في سنة 1990.

أحمد بن مخلوف الشابي
[حوالي 835 ـ 898هـ / 1431 ـ 1492م]

اختلفت البحوث المتخصصة في تاريخ الطريقة الشابيّة حول أصول شيخها ومؤسسها أحمد بن مخلوف الشابّي (ننوّه على صعيد البحث بدراسات كل من علي الشابي، وشارل مونشكور، ولوي شارل فيرو التي تعرّضت بشكل مباشر أو بطريقة جزئية إلى تراجم الشابيّين).

أما بخصوص المصادر فنشدّد على العناوين التالية:

الشابي (محمد المسعود)، الفتح المنير في تعريف الطريقة الشابية وما ربو به الفقير، مصورة عن مخطوطة علي الشابي نسخة منقوصة تضم 272 صفحة. ابن مخلوف (أحمد)، مجموع الفضائل في سر منافع الرسائل في بداية الطريق لأهل التحقيق، رصيد قسم المخطوطات بدار الكتب الوطنية بتونس، نسخة رقم 18039. العدواني (محمد بن محمد بن عمر)، تاريخ العدواني، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية 2005).

فقد نُسب الشابيون إلى هذيل، بطن من عرب مضر وفد على إفريقية أيام «الفتح» واختلط بهوارة من البرابرة. كما تم نسبهم إلى الفصائل الهلالية من أولاد المهلهل الذين تنازعوا رئاسة الكعوب السليميين مع أبناء عمومتهم أولاد أبي الليل. وتنخرط تجربة التصوّف الشابي في سياق الانتعاشة التي عاينها التصوّف الطرقي وساهم في تكريسها أولياء القواعد وأصحاب الزوايا الكبرى. لذلك يحسن عدم الذهول في تجربتهم الصوفية على ما سبق أن بذل من مجهود مثّلت الشابية تتويجا له. فقد تحوّلت مدن وسط وساحل إفريقية إلى مخبر حقيقي لنشر توجهات تلك الطريقة السلوكية وتوسيع أنشطة دعاتها الرامية إلى إدماج الفصائل البدوية الممانعة وإكسابها مستوى مقبولا من التجانس والاستقرار.

والبّين أن سجلات الأخبار التي تمّ تأليفها بعد أفول تلك التجربة الطرقية لم توَفّ شيوخها حقهم، هذا إذا لم تتجاهلهم بالمرة. كما أن المؤلفات التي خاضت في شأن سيرهم تلك التي حَبَّرَتْ معظمها أطراف منحدرة عن تلك العائلة (محمد المسعود الشابي عند أواخر القرن السادس عشر وعلي الشابي أثناء الربع الأخير من القرن الماضي)، لم توفّق في نقل صورة دقيقة عن أرباب تلك التجربة.

ويعود الفضل في إعطاء إشارة الانطلاق لهذه التجربة إذن، إلى شخصية اتسمت بالصلاح لا نملك حول سيرتها سوى بعض المعطيات الشحيحة والسطحية. فقد اتفق الرواة على أن مسقط رأس أحمد بن مخلوف هو قرية الشابة الساحلية القريبة من مدينة المهدية، غير أن جميعهم قد ضرب صفحا على أصول عائلته. كما أنهم لم يتفقوا بخصوص الفترة التي عاش خلالها، فقد اقترح شارل منشكور الفترة الممتدة بين 1401–1482م، بينما خالفه علي الشابي الذي اقترح من جانبه الفترة الممتدة بين 1431 –1492م.

ومهما يكن من أمر، فقد شدّ انتباهنا ضمن مختلف الروايات المتصلة بترجمته تمكّن الصبي الناسل عن عائلة قروية متواضعة من تلقي جانب من التحصيل من خلال التوجه للإقامة لزمن طويل نسبيا بحاضرة البلاد تونس، وهو مؤشر إضافي يقطع بأهمية المجهود الميداني للمؤسسات الصوفية التي انتشرت بمختلف جهات الساحل ووسط إفريقية زمن الحفصيين.

قضّى ابن مخلوف ما لا يقلّ عن ثماني سنوات (امتدت وفقا لما قدره «علي الشابي» دائما بين 1449 و1456) في استكمال التحصيل في مدلوله العلمي، متتلمذا لمحمد بن قاسم الرصاع (ت1488م)، والذوقي من خلال التردّد على زاوية الولي المُوَلَّه أحمد بن عروس الهواري

(ت1463م). فقد أورد مؤلف «الفتح المنير» أن ابن مخلوف قد توجه إلى تونس «بنية التحصيل زمن الرصاع، فمكث فيها يدرس العلم وكان في زمن الشيخ...أحمد بن عروس».

تلت هذه المرحلة فترة «خدمة» للمشايخ بالمدلول السلوكي، قضى مؤسس الشابية بمقتضاها، وبقرية قصور الساف القريبة من موطنه تحديدا، مدة خدم خلالها شيخه أبا القاسم ابن عبد الله محمد المحجوب (ت 1467م) سليل الولي علي المحجوب (ت1454م)، هذا الذي اعترف له بعلو الكعب في مسار السلوك الصوفي وأشار عليه بالانتقال إلى القيروان بعد أن بلغ مبلغ المشايخ: «يا أحمد شيخ ما يخدم شيخ».

حزم ابن مخلوف أمره وحلّ بمدينة القيروان، تلك التي وُسمت بـ«الجزيرة التي أحاط بها البدو من كل جانب» ولم يكن له أي أمل في كسب موضع قدم داخل أسوارها اعتبارا لكثرة أعلام التصوّف المنسوبين لها، واستبداد الغريانيين (نسبة إلى الشيخ عبيد الغرياني ت1405م) المتمركزين بزاوية الجديدي (ت 1387م) بموقع الصدارة الصوفية داخلها. لذلك شددت المناقب على حالة التجرّد الباطني والكفاف الظاهري التي لازمت ابن مخلوف مدة طويلة بعد انتقاله إلى تلك المدينة، واتخاذه من مسجد الداروني بحي الشرفاء مقرا ومأوى. لازمت حالة العسر شيخ الشابيين مدة قاربت وفقا لتقديرات علي الشابي عشر سنوات (1465-1474م)، قاسى خلالها صنوفا من الازدراء مُبديا جلدا كبيرا في الوقوف أمام ظروف مثبّطة لأصدق العزائم، أجبرته على إرجاء مرحلة التأهل والزواج وإنجاب الذرية حتى سنّ متأخرة. على أن توصّله، وفقا لرواية مؤلف «الفتح المنير»، إلى تكوين مجلس وعظ وفتوى أمّهُ «الأعراب» والحجيج للسؤال في أمر دينهم، هو الذي أعاد صياغة تجربته بالكامل معوّلا في ذلك على آليات الاقتراب من أوساط البدو «وجمع الغرباء لمفاتحتهم في علوم التوحيد والأخلاق». ويذكّرنا هذا الأسلوب على ما ورد في «مجموع الفضائل» بأسلوب شيخ الطريقة الزروقية (أحمد زورق ت1494م) الوارد ضمن العديد من مصنفاته السلوكية.

ولعل في تعويل شيخ الشابيين على توجيه المكاتيب وأخذ العهود والمواثيق وطواف البلاد والتوغل في أوطان البدو شرقا وغربا لنشر توجهاته الصوفية بالتعويل على مضاء دعاته على غرار «المناقعة» و«التباسيين»، أولئك الذين تكثّف استثمارهم فيما وسمه «ماكس فيبر Max Weber» في استعارة بليغة بـ «اقتصاد الخلاص الجديد»، ما يؤشر عن تحوّل فارق في تجربته الطرقية.

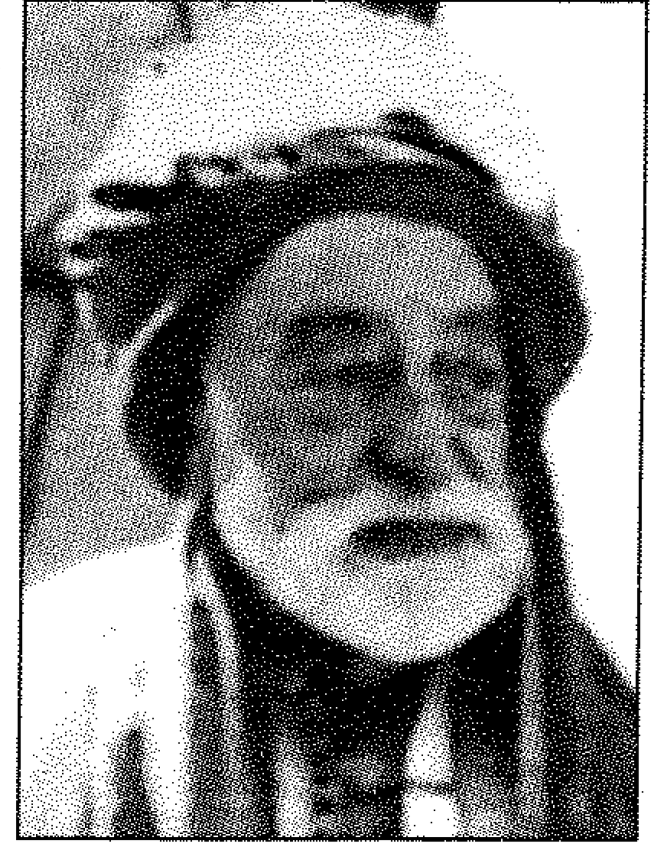
فقد أفاد محبّر مناقب التبّاسيّين أبو الحسن علي بن ميمون أن الشيخ أحمد التباسي (ت1524م) قد بذل وسعه في جمع «فتوح» الشابيين والذود عن طريقهم في التصوّف: «فقد دخل قرى إفريقية وبواديها... فنشر بها خبره وبثّ في كل نواحيها علمه وذكره»، لذلك اعتبر مؤلف مناقب التبّاسيّين أن هذا الداعية قد «أمعن في صحبـ(تـ)ـه (ويقصد ابن مخلوف طبعا) فوق الجهد وصنع معه فوق ما كان يصنعه الخليل لخليله وأنهى ما كان يفعله لحبيبه».

نفس تلك الشهادة يسوقها مؤلف كتاب «الفتح المنير» بخصوص أحمد بن نصر المنقعي الذي سهّل على الشابيّة الانتشار بين فصائل الحنانشة وطرود وغيرها من جموع بدو الجهات الغربية لإفريقية. فقد «كان [أحمد ابن مخلوف الشابي] فقيرا لا مال عنده فلما أراد الله... إظهاره أتاه الفقير أحمد بن نصر المنقعي وأخذ عنه، فأمدّه فصار يدعو الناس ويدلهّم على الشيخ... ويدعو الخلق إلى الدخول في طريقته».

وهكذا يتبين لنا أن الدور الذي لعبه الدعاة من أمثال «المنقعي» و«التبّاسي»، هو الذي حدّد في الأخير توصّل ابن مخلوف إلى اقتلاع صيت صوفي جاوز أفق مدينة القيروان واضعا

حدًّا لما لازمه من ضيق مادي لسنوات طويلة بعد انتقاله إلى تلك الحاضرة العريقة.

ولئن استعصى على شيخ الشابيين تركيز زاوية على غرار ما استأثر به الغريانيون، فإن المعطيات الموثوقة بخصوص تاريخ وفاته أو بخصوص موضع دفنه قد بقيت لغزا محيّرا بعد أن فنّدت أبحاث «شارل منشكور» الميدانية ما شاع لدى عامة سكان مدينة القيروان من دعاوى بخصوص مصاقبة مثوى ابن مخلوف لقبر مؤلّف «الرسالة» وشيخ المالكية محمد بن أبي زيد القيرواني.



أحمد بن مراد

[1853 ـ 1940م]

أحمد بن محمّد حمدة بن محمّد بن مراد بن علي خوجة يعود إلى الفرع الأصغر من أسرة ابن الخوجة. وُلد سنة 1853 وحفظ القرآن الكريم ثمّ التحق بجامع الزيتونة وأخذ العلم عن الأعلام أمثال الشيخ عمر ابن الشيخ والشيخ أحمد الشريف.

سمّي مدرّسا من الطبقة الأولى بجامع الزيتونة. وهو معدود من كبار الفقهاء الذين كان لهم إسهام علمي في المنطق وأصول الفقه. تولّى إمامة الجامع الحسيني المعروف بالجامع الجديد بتونس والنظارة العلمية ثمّ عيّن مفتيا. أحيل على التقاعد وتوفّي في 4 أكتوبر 1940.



بشيرة بن مراد

[1913 – 1993م]

تعدّ رائدة النّهضة النّسائية في تونس في النّصف الأوّل من القرن العشرين على الأخص، ذلك أنها استطاعت أن تبعث تقاليد العمل السّياسي والنّضالي الوطني وترسي دعائمه في حياة المرأة التّونسية، كما نجحت في أن تكون مثالا يحتذى في هذا المجال بمبادرتها إلى تأسيس أوّل منظمة نسائية تونسية سنة 1936، «الاتّحاد النّسائي الإسلامي التّونسي». ثم إنّها مضت مبكّرا ومنذ انبعاث هذه المنظّمة إلى الكتابة في الصّحف والمجلاّت والمحاضرة داعية إلى تَحْرير المرأة وضرورة تعليمها ومشاركتها الرّجل أعباء النّضال والمسؤولية والبناء، وكانت ضمن المجموعة المؤسّسة لمجلة «تونس الفتاة» تَدْعُو إلى تمتيع المرأة بحقوقها كاملة، وفي مقدمتها حقّ التعليم، مبرزة أن الإسلام جاء ليحرّر المرأة، وليسوي بينها وبين الرجل في الحقوق والواجبات.

ولدت السيدة بشيرة بن مراد يوم 11 أوت 1913 في وسط عائلي ديني علمي، وهي ابنة أحد شيوخ الإسلام الحنفي المدرّس بجامع الزيتونة الشيخ محمد الصالح بن مراد (1881 ـ 1979) صاحب مجلة «شمس الإسلام».

وتلقّت بشيرة بن مراد تعليما دينيّا وأدبيّا تقليديا عن بعض الشيوخ بجامع الزّيتونة آنذاك منهم: محمد مناشو وفرج عباس وجدّها أحمد بن مراد الذي كان يلقنها دروسا في الفقه والتفسير صحبة إخواتها شتاء بمنزل العائلة الكائن بتربة الباي بمدينة تونس، وصيفا بدارهم الكائنة بضاحية سيدي أبي سعيد.

وبعد أن تعلّمت قواعد اللّغة العربية وقدرا من

عيون الشّعر العربي تطلّعت إلى الكتابة والتّأليف وكانت تُمضي مقالاتها الأولى باسم مستعار، وكان الشّيخ محمّد مناشو وراء صقل موهبتها في مجال الكتابة والخطابة.

وفي سنة 1929 تزوّجت بشيرة بن مراد بالشّيخ صالح الزّهار (تـ 1952) وكان يشغل خطة عدل مبرّز، وقد ساندها في رسالتها وفي مسيرتها النّضالية.

كان أوّل نشاط بارز للسّيدة بشيرة بن مراد هو تأسيس جمعيّة نسائيّة تضمّ شمل النّساء النّاشطات في الحقل الوطني والثّقافي بما يخدم القضيّة الوطنيّة ويرتقي بأحوال المرأة التّونسية، وكانت هذه الجمعيّة قريبة من الحزب الحر الدستوري (القديم).

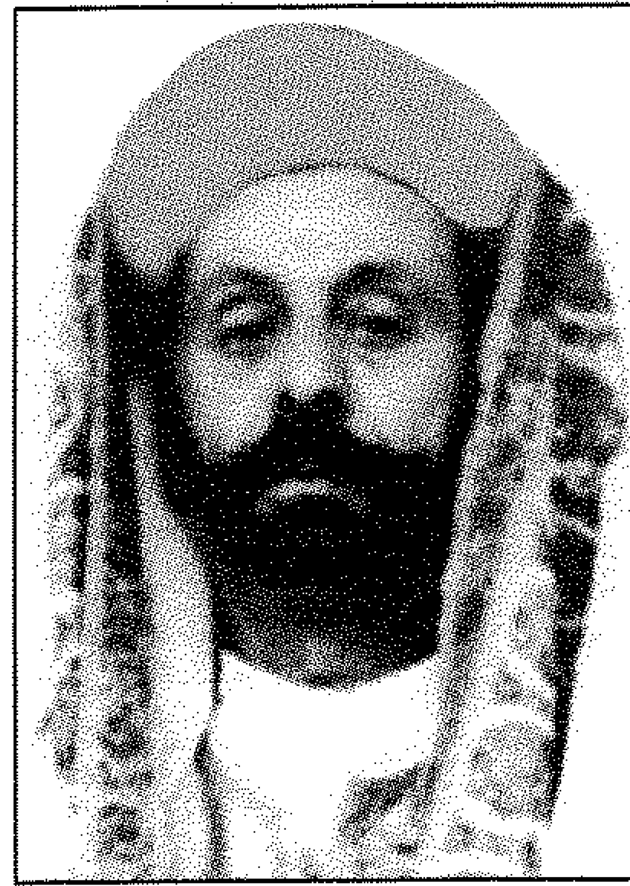
وكان تأسيس هذه الجمعية سنة 1936 برئاستها وعضوية السّيّدات حبيبة حجّوج وأختها زينب وجليلة مزالي ونبيهة بن ميلاد ونجيبة القروي وحميدة بن مراد وبدرة بن مصطفى وحسيبة غيلب وتوحيدة بن الشيخ ونعيمة بن صالح وآسيا بن مراد. وانتظم مباشرة بعد تأسيس هذه الجمعية النّسائية استعراض نسائي كبير بالعاصمة تقدمته المناضلة بشيرة بن مراد وهي تحمل علم تونس، ثمّ بعثت لهذه الجمعيّة فروع مماثلة داخل أرجاء البلاد.

وسعت هذه الجمعية إلى إقامة حفلات خيرية تجمع فيها المساعدات لطلبة شمال إفريقيا من أبناء المغرب العربي الذين كانوا يزاولون دراستهم بفرنسا. وأوّل حفل أقيم في هذا الإطار كان سنة 1937 بدار الفراتي الكائنة بنهج المستيري بباب سويقة، وقد أشرف على هذا الحفل الزّعيم المنجي سليم، وتلا ذلك حفل آخر بسيدي بوسعيد بدار المؤرّخ الأديب عثمان الكعّاك، ونظّمت الجمعية حفل تكريم للطّبيبة توحيدة بن الشيخ إثر عودتها من فرنسا بشهادة الدّكتورا في الطبّ، وعقب ذلك نظّمت حفلة خيريّة بدار الخلصي بتونس.

وقد أسهمت هذه الجمعية في دعم النشاط الذي يقوم به فرع الإخاء الطلاّبي بالقيروان وبتونس وألقت السّيدة بشيرة بن مراد صحبة الشّيخين محمد المختار بن محمود ومحمود شمام محاضرات على منبر جمعيّة الإخاء القيرواني، دعما للمبادرات الخيريّة لهذه الجمعية.

وتوالت مشاركات السّيدة بشيرة بن مراد في مجلّة «شمس الإسلام» منذ صدور عددها الأوّل في 14 مارس 1937 فكتبت مقالا حول «تعاون المرأة والرجل» وإلى غاية العدد الثّامن والأخير، كما كتبت في «تونس الفتاة» حول «المرأة والتعليم».

وتميّزت بشيرة بن مراد بنظرتها المعتدلة إلى مسألة حرية المرأة. فقد أوضحت قائلة: «وليست الحرية والمساهمة في الحياة الاجتماعية بابا تلجه المرأة إلى عالم الانحراف، بل عليها أن تتمتّع بحريتها مع حفظ كرامتها وصون عفافها». توفيت في 5 ماي 1993.



محمد الصالح بن مراد
[1881-1979م]

محمّد الصالح بن أحمد بن أحمد بن محمد حمدة بن محمد بن مراد بن علي خوجة من مواليد تونس سنة 1298هـ/1881م. حفظ القرآن الكريم على المؤدّب علي الزّواوي بكتّاب نهج تربة الباي بتونس العاصمة. ثم جامع الزيتونة طالبا وتلقّى العلوم عن شيوخ كثيرين أمثال مصطفى رضوان ومحمد الشاذلي ابن القاضي وأحمد بيرم

وعمر بن عاشور وصالح الشريف. وفي سنة 1318هـ/1900م حصل على شهادة التطويع وفي سنة 1907م سمّي مدرّسا من الطبقة العليا بجامع الزيتونة بعد أن كان يدرّس بصفة متطوّع. وفي سنة 1356هـ/1937م سمّي أستاذا في الشّرعيات والأدبيات والدّراسات القرآنية. وفي سنة 1361هـ/1942م سمّي شيخا للإسلام على المذهب الحنفي فكان عضوا في الكثير من لجان إصلاح التعليم الزيتوني وكاهية لرئيس مجلس الجمعيّة الخلدونية، وكان محافظا في تفكيره.

وفي سنة 1356هـ/1937م أسّس مجلّة إسلامية وأدبية سمّاها «شمس الإسلام». توفّي في 9 ربيع الأول 1399هـ/3 فيفري 1979م ودفن بالزلاّج.

من مؤلفاته

- «الحدّاد على أمرأة الحدّاد» ألّفه ردّا على كتاب «اَمرأتنا في الشريعة والمجتمع» للطّاهر الحدّاد.
- «القرآن الكريم وتأثيره على اللّغة العربية» نشر ملخّصا بجريدة الزّهرة، عدد 7375، في 30 ديسمبر 1931.

محمد الناجي بن مراد
[1892-1940م]

هو ابن المفتي الحنفي أحمد بن حميدة بن محمد بن مراد (ت 1940) ولد بتونس سنة 1892. ودرس بجامع الزيتونة إلى أن أصبح مدرّسا حنفيّا من الطبقة الثانية سنة 1913. ثمّ ارتقى إلى الطبقة الأولى سنة 1915. ويذكر أرنولد قرين أنّه تولّى القضاء ثمّ الإفتاء ولم يحدّد تاريخا يضبط ذلك.

(انظر: العلماء التونسيّون، ترجمة حفناوي عمايرية وأسماء معلّى، نشر المجمع التونسي «بيت الحكمة» ودار سحنون للنشر والتوزيع، تونس 1995، ص ص 339-338).

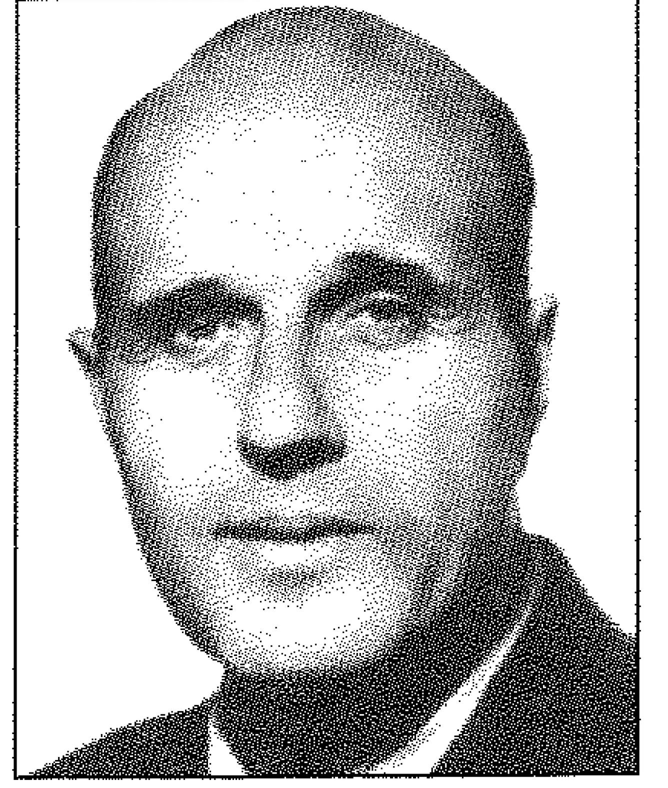


محمد الهاشمي بن المكّي
[1882-1942م]

محمّد بن الشّيخ الفقيه عثمان بن أبي القاسم بن المكّي الزّبيدي من مواليد مدينة توزر عاصمة الجريد. قرأ القرآن الكريم على الشيخ عثمان بن عمارة بكُتّاب توزر ثمّ استقرّ مع والده بحاضرة تونس منذ سنة 1306هـ/1888م وزاول دراسته بجامع الزّيتونة والخلدونية ثم حصل على شهادة التّطويع من جامع الزيتونة وشهادة «الدبلوم» في الرّياضيات من المدرسة الخلدونية سنة 1321هـ/1903م. كما حصل على شهادة الهندسة التطبيقية لقيس الأراضي ورسم أمثلة البناء بالخلدونية. أسّس صحيفة الإسلام (10 جوان 1908) ولم يصدر منها إلاّ عددا واحدا لتصدّي الكتابة العامّة للحكومة التونسية التي يمثّلها فرنسي. ثمّ أصدر صحيفة ثانية رخّص له فيها باسم «أبوقشّة» (في السّنة نفسها) ومعناه القرد وهي صحيفة جديّة وهزلية، ثمّ بعد ظهور أعداد كثيرة منها صدر قرار بإيقافها فخرج من تونس إلى ليبيا بعد صدور حكم غيابي عليه بالسجن.

يعدّ محمد الهاشمي بن المكي من نبغاء الصّحافيين وهو أوّل من نبّه الدّولة العثمانية إلى المطامع الإيطالية وأنّ تأسيس إيطاليا لفرع بنك روما بطرابلس كان الغرض منه بسط نفوذها على طرابلس.

وهاجر إثر ذلك إلى جاوة الأندونيسية واستقرّ بها إلى أن توفّي سنة 1361هـ/1942م وأسس بها أوّل مدرسة عربية عصرية حرّة لتعليم الفنون تشبه المدارس القرآنية التونسية.



أحمد بن ميلاد
[1902 – 1994م]

هو طبيب من رواد الحركة النقابية والوطنية والاجتماعية والثقافية. ولد بتونس في 2 ماي 1902 وتنامى شعوره الوطني منذ أن عاين مشاهد مثيرة من حوادث الجلاز الدامية (1911) وما كان من أثر في نفسه للأجواء التي صاحبت جنازة الوطني البشير صفر (1917).

اقتحم الدكتور ابن ميلاد مجال العمل السياسي وهو طالب بمعهد كارنو الثانوي بعد أن أمّن دخلا ماليا بصفة عامل سرّاج بمحل عمّه بسوق السرّاجين في أوقات فراغه وأيام العطل متدرّجا في هذه المهنة إلى أن بلغ رتبة "قلفة" (وهو العون المباشر لصانع "الجبّة" التونسيّة) سنة 1922، وقد كان لهذا النشاط توجّه اشتراكي إلى سنة 1924 نتيجة لتأثير أساتذته ورفاقه في المحيط المدرسي، انخرط في الشبيبة الاشتراكية مع المواظبة على حضور اجتماعات الحزب الاشتراكي وأسهم في تأسيس جمعية النادي الإفريقي سنة 1919ثم الحزب الشيوعي التونسي سنة 1921 ونشرت له مقالات في جريدة " المستقبل الاجتماعي (L'Avenir social) الناطقة بالفرنسيّة. وكان مع رفاقه يبيع بنفسه جريدة الحزب ويشرف على توزيعها في كامل البلاد. وعلى هامش نشاطه بالحزب توصل سنة 1923 إلى بعث أول نقابة لعملة سوق السرّاجين تابعة لـ C.G.T، ثمّ التقى بالنقابي محمد علي الحامي وتابع عن قرب جهوده لبعث النقابات الوطنيّة التونسية. وفي سنة 1924 اضطلع بتكليف من الحزب الشيوعي بالتأطير النقابي لعملة معمل الآجر والمطار العسكري بسيدي أحمد (منزل بورقيبة) ثمّ قاد مظاهرة عملة بنزرت قضى على إثرها 4 أشهر سجنا دون محاكمة.

وفي مرحلة التعليم العالي بكليتي الطب بمونبوليي (فرنسا) ثم باريس (1925–1933) أسهم في تأسيس جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين في فرنسا وأصبح كاتبا عاما لها سنة 1928 وتمكّن من ربط الصّلة وتعميقها مع مجموعة من الشخصيات التونسية والمغاربية أمثال الحبيب بورقيبة ونورالدّين الزاوش وعلال الفاسي للإسهام في مناشط ذات طابع اجتماعي (تقديم العون للطلبة وجملة من الخدمات كإحداث مطعم خاصّ بالطلبة) وذات طابع ثقافي في فرنسا (تنظيم ألفية ابن الجزار ومحاضرة للزعيم الهندي غاندي) وفي تونس (تنظيم سهرات فنية لصالح الجمعية في عطل الصيف). وفي الحقل السياسي، كان أحمد بن ميلاد الوحيد الذي استجاب لنداء الحزب الحر الدستوري (القديم) للطلبة المقيمين بفرنسا خاصّة لفضح ممارسات السلطة في تونس بمناسبة خمسينية الحماية: وقد كان ذلك بنشر التحقيق الذي كلف بإعداده حول وضع التعليم في تونس بعنوان "خمسون سنة من الهيمنة الفرنسية بتونس".

أمّا عودته إلى تونس بعد حصوله على 4 شهادات في التخصّص والدكتوراه في الطب ونشر أطروحة الدكتوراه حول "المدرسة الطبية بالقيروان في القرنين الرابع والخامس الهجريين، فقد كانت منطلقا لمناشط متنوعة، أوّلها ممارسة مهنة الطب الذي لقّب من أجلها بـ "طبيب الفقراء" و"طبيب الشعب" لمجانية الخدمات التي كان يسديها إلى الفئات المعوزة سواء بعيادته في حي الحلفاوين أو في "مستوصف ابن الجزار" الذي أسسه سنة 1935 الحي نفسه وجنّد للعلاج به مجانا مجموعة من أصدقائه مساء كل يوم. وعلى هامش هذا النشاط، مارس العمل الاجتماعي التطوعي، كالمبادرة بحملة ضد مرض القملة في ثلاثينات القرن العشرين ودروس حفظ الصحة التي كان

يلقيها يوميا بالخلدونية وبداية من سنة 1947 بدار المعلمين لتفادي تفشي أمراض القملة والسل والأمراض التناسلية وتعاطي المخدرات، والتطوّع بمعية زوجته السيدة نبيهة بنت عثمان بن عبد الله لعلاج جرحى أحداث 9 أفريل 1938م وجرحى القصف في الحرب العالمية الثانية بصفته الطبيب المسؤول على منطقتي باب سويقة والحلفاوين في لجنة الدفاع، كل هذا، علاوة على تأسيسه لجمعيتي إغاثة منكوبي فلسطين والكشاف المسلم والمبادرة بتأسيس مدرسة ابتدائية على حسابه ببرج الطويل لنشر التعليم في الوسط الريفي سنة 1948 ونجاحه في التصدي لضمّ معهد باستور إلى ممتلكات الفرنسية.

أمّا العودة إلى النشاط السياسي فكانت بناء على طلب الزعيم الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي لازمه الدكتور بن ميلاد وزوجته إلى حدّ وفاته، بصفته المشرف على علاجه وأقرب رفقائه إليه إذ كان رفيقا له في جولاته والحريص على مواصلة كفاحه من أجل الاستقلال من بعده. وقد نشط في هذا المجال بتنظيم مؤتمرات الحزب بصفته أحد أعضاء هيأته التنفيذية، والسهر على تحقيق أهدافه. وفي مظاهرة أوت 1945 جدّد المطالبة بالاستقلال في ختام الخطاب الذي ألقاه بالمناسبة وزجّ به في السجن صحبة الزعيم صالح بن يوسف، كما كان من الوطنيين المسجونين إبان مؤتمر ليلة القدر سنة 1946. بادر أحمد بن ميلاد بتأسيس جريدة «الاستقلال» وعند توقيف النشاط السياسي والصّحفي من سلطة الاحتلال إثر أحداث 1951–52 أسس جريدة "كفاح" السرية وكانت خاتمة هذا النشاط استقالته من اللجنة التنفيذية مع الإبقاء على انتمائه إلى الحزب عند رجوعه إلى تونس بعد مشاركته باعتباره عضوا ناشطا في وفد الحزب إلى مؤتمر منظّمة الأمم المتحدة بباريس.

ومنذ ذلك التاريخ اقتصر نشاطه السياسي والاجتماعي على عضوية لجنة السلام وتقديم المساندة والعون للثورة الجزائرية والتطوّع لمعالجة الجرحى الذين أصيبوا في معركة بنزرت بمستوصف منزل بورقيبة مع التفرّغ لممارسة مهنة الطب إلى سنة 1975 ثم لمجال البحث في تاريخ الطب وتاريخ الحركتين الوطنية والنقابية حتى وفاته في 2 نوفمبر 1994 ومن ثمار هذا العمل عدد مهمّ من المقالات الصحفية والمؤلفات منها "تاريخ الطب العربي بتونس" - "الشيخ الثعالبي والحركة الوطنية" - "محمد علي الحامي ونشأة الحركة النقابية بتونس".



محجوب بن ميلاد

[1916 – 2000م]

هو أحد أساتذة الفلسفة بالجامعة التونسية طيلة النصف الثّاني من القرن العشرين، كان له دور رائد في إرساء تقاليد النظر الفلسفي والمعالجة الفلسفية لقضايا التقدّم والفكر وقراءة النص الديني. درّس الفلسفة بالجامعة الزيتونية منذ أواخر الأربعينات وبعث حصصا فكرية وثقافية بالاذاعة التونسية أسهم بها في نشر فن الأحاديث الفكرية، باعتبارها إلى حدود أواخر الستينات من أنجع وسائل التثقيف. وعرف الأستاذ محجوب بن ميلاد في هذا الإطار بأنه رائد لمشروع "تحريك السواكن"، هذا المشروع المتأصّل في الفكر العربي الإسلامي، والمتفرّع في الفكر الفلسفي الغربي الحديث والمعاصر، متخذا من إرث شخصيات موسوعية كالغزالي ومسكويه منطلقات لبناء صرح هذا المشروع، قوامه التطلع إلى إرساء نظرة نقدية لمفاهيم الحضارة العربية الإسلامية.

ولد محجوب بن ميلاد بمنزل جميل من ولاية بنزرت في 4 جويلية 1916 وزاول دراسته الثانويّة بالمدرسة الصادقية من سنة 1930 إلى 1936 ودرس بمعهد كارنو سنة 1937، وحصل على الإجازة في الفلسفة والإجازة في الآداب العربية وشهادة التبريز من جامعة باريس سنة 1948، وعمل تسع سنوات مذيعا بإذاعة باريس بين سنة 1938 وسنة 1947، وكان في أثناء ذلك يواصل دراسته العالية. وعند عودته إلى تونس سنة 1948 عمل أستاذا للفلسفة بمدرسة ترشيح المعلمين وتولّى مهمة إلقاء الدرس الفلسفي، واشتغل ببعث نواة بحث خاصة بعلم نفس الطفل بمركز البحوث التربوية. وعلى إثر الاستقلال كان من ضمن رجال التعليم الذين تولوا نحت السياسة التربوية الجديدة لتونس الاستقلال.

وعند إرساء شعبة الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية (9 أفريل) سنة 1964 تولى تدريس الفلسفة الإسلامية إلى بداية الثمانينات إلى أن أحيل على التقاعد سنة 1987.

وأثناء مسيرته العلمية والثقافية مثّل تونس في عدّة ملتقيات علمية وثقافية وتربوية.

وفي جلّ مؤلّفاته، سعى إلى تحديد منزلة العقل لدى الفرق الكلامية (المعتزلة والأشعرية والشيعة) وبحث علاقة علم الكلام بالفقه وأصول الفقه، وفي مشروعه "تحريك السواكن" دعا إلى تحرير الفكر وارساء المنهج العقلي في فهم التراث وقراءة النصوص الدينية، مدافعا عن قراءة موضوعية لفكر المعتزلة ومعتبرا أن أغلب القراءات التي أنجزت كانت بالاعتماد على كتب خصومهم ومستشهدا على أهمية منهجهم باعتبارهم يرون أن الحسن ما حَسَّنَهُ العقل، والقبيح ما قَبَّحَهُ العقل، على عكس الفرق الكلامية الأخرى التي تردّ مسألة التحسين والتقبيح إلى سلطة أخرى خارجة عن العقل.

وقد اعتبر محجوب بن ميلاد أن الغزالي كان سابقا على الألماني كانط الذي قال في «ثورته الكوبرنيكية» بمحدوديّة المعرفة العقلية. وهو في ذلك يفلسف منهج المعرفة الميتافيزيقية ويردّه إلى مجال الذوق والحدس الإشراقي، مسلما للعقل بالخوض في السياسيات والطبيعيات والأخلاقيّات.

وآمن أيضا بضرورة إرساء منهج للحريات الفكرية والسياسية والأخلاقية على أسس الواجب العقلي معتبرا ذلك شرطا لدخول المدنيّة الحديثة. وفي ضوء هذه النظرة الأخلاقية السياسية قرأ التجربة السياسية للزعيم الحبيب بورقيبة قائدا ومفكرا سياسيا مدنيّا مُسْتنِيراً.

أما أبرز مؤلفاته فهي:

1) الفكر الإسلامي بين الأمس واليوم أو شؤون دارنا العقلية، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس، 1955.

2) تحريك السواكن في شؤون التربية، دار الثقافة بوسلامة للطباعة والنشر، تونس 1956.

3) تونس بين الشرق والغرب ومستقبل الثقافة بتونس، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس 1956.

4) تحريك السواكن، كتاب البعث، المكتبة الإفريقية للنشر والتوزيع، تونس 1956.

5) في سبل السنّة الإسلامية، دار بوسلامة للنشر، تونس 1962.

6) الحبيب بورقيبة في سبل الحرية التونسية، الدار التونسية للنشر، تونس 1968.

ونشير إلى أهمية الكتاب الذي ألّفه الأستاذ عبد العزيز ابن يوسف حول حياة محجوب بن ميلاد وآثاره وفكره بعنوان: "مشروع تحريك السواكن لمحجوب بن ميلاد: قراءة وتأويل"، ط/ الشركة التونسية للرسم وتنمية فنون الرسم، تونس، 2003.



محمّد المهدي ابن الناصر

[1897 – 1967م]

ولد محمّد المهدي بن الناصر ببلدة سيدي علي بن عون في ولاية سيدي بوزيد الحالية، سنة 1897، ونشأ في مدينة قفصة حيث كان والده الحاج عبد اللّه بن الناصر الهمّامي قاضيا شرعيّا بمقتضى أمر صادر عن علي باشا باي الثالث بتاريخ 3 رجب 1309هـ/ 1891م.

بعد أن حفظ الطفل محمد المهدي نصيبا من القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربية والعلوم الشرعيّة زاول دراسته بالمدرسة الفرنسيّة العربيّة بقفصة، إلى أن أحرز الشهادة الابتدائية. فتحوّل إلى مدينة تونس حيث التحق بجامع الزيتونة في أواخر ذي الحجّة سنة 1331/نوفمبر 1913.

أجرى اختباراً علميًّا مكّنه من الانخراط في السنة الثانية من المرتبة الأخيرة. وتتلمذ خلال فترة الدراسة بالجامع الأعظم لنخبة من أساتذة عصره منهم المشايخ أحمد بن عثمان وأبو الحسن النجّار ومحمد الصادق النيفر وعثمان بن المكّي والطيّب سيالة والبشير النيفر وإبراهيم المارغني ومحمد العنابي وإبراهيم النيفر ومحمود بن محمود ومحمد دامرجي وحسن بن يوسف. وانتقل بنجاح من رتبة إلى رتبة إلى أن نجح في آخر المطاف في شهادة التطويع في محرّم سنة 1336/سبتمبر 1920م.

وإلى جانب دراسته بالجامع الأعظم تابع محمد المهدي بن الناصر دروس الحقوق التونسيّة، وهو ما مكّنه من اجتياز مناظرة الحاكمّية بنجاح في سنة 1921.

عيّن في أوّل الأمر قاضي تحقيق لدى المجلس العدلي بقابس من 1921 إلى 1926، ثم نقل الخطّة نفسها إلى المجلس العدلي بالكاف. وفي سنة 1928 استقال من القضاء ليتفرّغ للمحاماة بصفة وكيل لدى المحاكم التونسيّة بالعاصمة. وقد اضطلع بمهامّه بكلّ كفاية وإخلاص إلى أن توفّي في 17 جويلية 1967.

انضمّ محمد المهدي بن الناصر إلى جمعيّة «الوكلاء» (المحامين) التونسيّين لدى المحاكم التونسيّة منذ إنشائها في سنة 1929 وانتخب عضوا في هيئتها في السنة القضائية 1936 – 1937، وقد كان على رأسها عهدئذ الحقوقي المعروف عبد الرحمان الكعّاك (رئيس الجمعية الخلدونيّة).

كما عرف، بالإضافة إلى نشاطه في حقل المحاماة – بانتمائه إلى عدد من المنظّمات الاجتماعية والنقابيّة والسياسيّة إذ كان من المؤسّسين لجمعيّة مقاومة الأميّة ونشر التعليم بين العروش القبليّة التي استهلّت نشاطها في شهر جوان 1949 برئاسة القايد المعروف نصر بن سعيد.

وتولّى محمد المهدي بن الناصر أمانتها العامّة طوال عدّة سنوات وأسهم إسهاما فعّالا في نجاحها وإشعاعها. ومن المعروف عنه أنّه كان من المناضلين في صفوف الحزب الحرّ الدستوري التونسي، كما أسهم في سنة 1950 في تأسيس الاتحاد العام للفلاحة التونسيّة، وكان أحد قادته البارزين.

لكنّه اشتهر بالخصوص لدى الأوساط الثقافية بنشاطه في الميدان الصحفي، لا سيما إثر الحرب العالميّة الثانية، حين سخّر قلمه للدفاع عن القضيّة التونسيّة بوجه خاصّ، وقضايا المغرب العربي بوجه عامّ. فأسهم في تحرير عدد كثير من الصحف والدوريّات التونسية، خاصّة منها الناطقة بلسان الحزب الدستوري الجديد (الديوان السياسي) أو القريبة منه، رغم أنه كان لا يعترف بانقسام الحزب الحرّ الدستوري التونسي إلى شقّين: قديم وجديد، بل كان يقرّ

بوجود حزب وطني وحيد، هو «حزب الأمّة العتيد»، على حدّ تعبيره.

ولقد نشر فصوله ودراساته وبحوثه بالخصوص في الصحف الموالية للديوان السياسي، وهي:

– الزهرة (يوميّة): 1950–1951.

– الحريّة (أسبوعيّة لسان حال الحزب الدستوري الجديد) منذ صدورها في 28 فيفري 1948 إلى احتجابها في آخر مارس 1951.

– لواء الحريّة، التي عوّضت الحريّة، منذ ظهورها في أوّل أفريل 1951 إلى تعطيلها في 18 جانفي 1952 إثر اندلاع المعركة التحريريّة الحاسمة.

– الزيتونة: 1954.

لكنّه أسهم أيضا في تحرير صحف أخرى غير تابعة أو موالية للحزب الدستوري الجديد، مثل:

– النهضة (يوميّة مستقلّة لصاحبها الشاذلي القسطلّي): 1944.

– لسان العرب (أسبوعيّة لصاحبها عبد العزيز الشابّي المحامي): 1947–1948.

– البلاغ (أسبوعيّة لصاحبها عثمان القيطوني): 1954.

– الأرض (لسان حال الاتحاد العام للفلاحة التونسية): 1956.

– الإصلاح (أسبوعيّة تصدر بالجزائر): 1947.

عالج محمد المهدي بن الناصر في مقالاته وبحوثه المنشورة في الصحف المشار إليها عدّة قضايا تتعلّق بالقضية التونسيّة وقضايا المغرب العربي والوحدة العربيّة ومقاومة الاستعمار والصهيونيّة والمطالبة باستقلال الشعوب المولّى عليها. كما نادى بالنهوض بالاقتصاد الوطني وبالخصوص بالفلاحة التونسيّة وطالب بالإصلاح الزراعي والعقاري وتطوير نظام الأراضي الجماعيّة القبلية ونشر التعليم بالأرياف والبوادي ومقاومة الأميّة وإصلاح التعليم الزيتوني وتجديد طرق التعليم بوجه عامّ.

وقد عدّه الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور من الكتّاب التونسيّين الستّة الذين «سما فنّ المقال السياسي على مطايا أقلامهم»، وهم: سليمان الجادوي، ومحمد بن الحسين، وأحمد توفيق المدني، ومحمد المنصف المنستيري، ومحيي الدين القليبي ومحمد المهدي بن الناصر.

كان محمد المهدي بن الناصر غزير الإنتاج في المجال الصحفي، بحيث يصعب على الباحث جمع كلّ ما نشر من فصول ومقالات ودراسات على صفحات الصحف والمجلاّت والدوريات طوال حياته وإحصاؤها. ومع ذلك فقد جُمع ما أمكن جمعه من إنتاجه المتناثر في الصحف، ونشره في كتاب مستقلّ يحمل العنوان التالي: «فصول ومقالات صحفيّة». تونس، 1998.

عقبة بن نافع

[ت 63هـ/683م]

نسبه

عقبة بن نافع بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أميّة ابن الظرب (طرف) بن الحارث ابن عامر بن فهر بن مالك (وفهر هي قريش ومن فهر تفرّقت القبائل)، القرشيّ، الأمويّ.

ولد قبل وفاة النبيّ (صلعم) بسنة واحدة، فلا صحبة له إذن، إلاّ أنّ أبا سعيد بن يونس مؤرّخ مصر عدّه من الصحابة فرتّبه المالكي «في جملة الصحابة الذين دخلوا إفريقيّة» (رياض النفوس 97/1).

وهو ابن خالة عمرو بن العاص، وقال الذهبيّ: هو ابن أخي العاص بن وائل السهميّ لأمّه، وقال ناشرو أسد الغابة: رجّحنا أنّه أخو عمرو بن العاص لأمّه، لا ابن خالته، ولا ابن أخته.

إسهامه في حركة الفتوح ومآثره

شهد فتح مصر واختطّ بها. ووجّهه عمرو بن العاص من مصر واليا على إفريقيّة سنة 42هـ/663م.

وفي أثناء ولاياته لإفريقيّة كان يغزو في البحر:

ففي سنة 49هـ/669م غزا الروم بأسطول بأهل مصر.

ثمّ ولاّه معاوية إفريقيّة (استقلالا عن والي مصر) سنة 50هـ/671م وأمّده بعشرة آلاف فارس فاختار معسكره بسهل القيروان لأن المنطقة «قمْونيّة» كانت ملكا للدولة البيزنطية (نوع من الملك العام). وكان في عسكره ثمانية عشر رجلا من أصحاب رسول الله، وأكثرهم من التابعين. وشرع في بناء الجامع المعروف إلى اليوم بجامع عقبة في سنة 51هـ/671م. وبقي واليا على إفريقيّة أربع سنوات فعزله معاوية سنة 55هـ/675م لتشدّده مع البربر وعوّضه بمولاه أبي المهاجر دينار، فأساء أبو المهاجر عزله وحفظها عليه عقبة إلى أن رجع إلى إفريقيّة من جديد فأبطل ما عمله أبو المهاجر وأوثقه الحديد وأعاد إلى القيروان سكّانها.

أسطورة تأسيس القيروان والاستجابة إلى دعوة عقبة ابن نافع

وفي تأسيس القيروان وبناء جامعها عجائب ومعجزات تردّدها كتب التاريخ والتراجم، منها:

– اختيار موقع المعسكر والمدينة في صحراء وسط بين الجبال وهي معاقل البربر، والبحر وهو ثغر قد ينزل به الأعداء الروم.

– إخلاء الصّحراء من الوحوش والأفاعي والعقارب بدعاء منه مستجاب، حتّى يطمئنّ الفاتحون النازلون بالمكان.

– الرؤيا التي استدلّ بها، وبالتكبير الخفيّ، على موقع القبلة، فبنى به المحراب الذي سيكون معيارا لجميع المحاريب اللاحقة بالمغرب.

ولايته على المغرب كلّه

بعثه إثر ذلك يزيد بن معارية واليا على المغرب كلّه سنة 62هـ/682م فنزل القيروان من جديد، ثمّ فتح فزّان وودّان ونزل بموضع صار يدعى بلد الفرس لأنّ القوم أجهدهم العطش وقد غارت العيون فدعا عقبة ربّه فإذا بفرسه يحفر التراب بحافره فانبثق الماء وارتوى الناس.

ثمّ توجّه إلى الغرب، وودّع أبناءه وأوصاهم بثلاث وصايا:

– لا تملؤوا صدوركم بالشعر دون القرآن.

– خذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب وتعرف مكارم الأخلاق.

– لا تداينوا فالدّين ذلّ بالنهار وهمّ بالليل.

ومن أولاده ترجم المالكي لأبي عبيدة مرّة بن عقبة بن نافع الفهريّ (رياض 150/1) قال: روى عن أبيه عقبة بن نافع (وقد سبق أن عدّ عقبة من الصحابة خلافا لغيره من المترجمين ومنهم الذهبي وابن الأثير) وقال: دخل مع أبيه إفريقيّة وشهد معه بعض مغازيها.

وفتح عقبة الزاب ثمّ تاهرت وأبرم الصلح مع أليان/يوليان ملك طنجة وسبتة فأشار عليه بقصد المصامدة في السوس الأدنى فسار إليه وقتل وسبى ثمّ قصد إلى السوس الأقصى، وبلغ المحيط فاقتحم لجّته حتّى بلّ الماء لبان فرسه فتوجّه إلى الله سبحانه ضارعا معتذرا بأنّ البحر منعه من مواصلة الجهاد.

وفي كلّ ذلك يدعو البربر والفرنج إلى الإسلام فإن أبوا حاصرهم في معاقلهم وقاتلهم وقتل وسبى وغنم، ولربّما قسا على المغلوبين مخلاّ بالعهود...

مقتله بتهودة (سيدي عقبة)

ثمّ عاد إلى قاعدته بإفريقيّة وقد اطمأنّ على الأقاليم المفتوحة وتقدّم عسكره إلى القيروان وتخلّف هو بتهودة في أسفل الزاب فانتهز الفرنج الفرصة وقد رأوه أعزل من العدد والعدّة ففاوضوا كسيلة بن لمزم الأوربي (أو البرنسيّ) وكان يحقد على عقبة لأنّه أهانه وحطّ من منزلته بين قومه رغم اعتناقه الإسلام، فجمع له كسيلة الجموع من البربر والنصارى ونشب القتال وجاهد عقبة وأصحابه – ومنهم أبو المهاجر وكان أسيرا في قيوده – فقتلوا عن آخرهم، ودفن عقبة بتهودا وقبره يزار اليوم بقرية سيدي عقبة في جنوب بسكرة بالجزائر.

و في المناقب أنّ المعزّ العبيديّ الشيعيّ أراد

أن يهدّم القبر ويحرق الجثّة فحين شرع مبعوثوه في العمل هبّت رياح عاصفة ودمدمت الرعود والتعجت البروق فانزعجوا ورجعوا خائبين خاسئين إلى صاحبهم.

حسّان بن النعمان الغسّاني
[توفي بعد 80هـ/699 - 700م]

حسّان بن النعمان الغسّاني، قائد أموي اضطلع بدور حاسم في دعم غزو إفريقيّة واقتحام قرطاج والتغلّب في النهاية على الكاهنة، إلاّ أنّنا نصطدم في تتبع أعماله، بقلّة الضبط الزمني، وبعدّة تناقضات. والتاريخ الزمني الذي أثبته أقدم الإخباريين أي ابن عبد الحكم وابن قتيبة المنحول، والذي أكّده ابن عساكر، هو التّاريخ الأقرب إلى المعقول. فهو يتماشى والتتابع المنطقي للأحداث ويسمح بتجنّب التناقضات.

لقي زهير بن قيس البلوي حتفه سنة 69هـ/688 - 689م، وهو يقاتل الرّوم بعد انسحابه من إفريقيّة. ولم يتمكن عبد الملك بن مروان المشغول بصراعه للخليفة، المضاد عبد اللّه بن الزبير، من أن يعوّضه على الفور بخلف. ولكن في سنة 73هـ/692 - 693م، هزم ابن الزبير وقتل، واستؤنفت الحرب مع البيزنطيين. وهكذا فهذا التّاريخ هو بلا شكّ الذي أرسل فيه حسان مع جيش قوي لإعادة غزو إفريقيّة. وبعد أن استولى على قرطاج واجتاحها، وركب سكّانها البحر إلى صقليّة، طارد الروم وحلفاءهم البربر في جهة بنزرت. وبعد أن قهرهم من جديد، قذف بالرّوم إلى باجة (Vaga) حيث تحصّنوا، وبالبربر إلى بونة. وإثر توقفه بالقيروان، سار إلى قتل الكاهنة وجانب قلعة المجانة دون مهاجمتها وذهب ليتعرّض إلى انكسار كامل على ضفاف المسكيانة. واضطر وقد طورد والسيف يتهدده إلى قابس، إلى الانسحاب من إفريقيّة، وذهب لينتظر أوامر الخليفة بقصور حسّان، على أربع مراحل شرقي طرابلس، وقد سميّت كذلك للتذكير به. وقد سبب سقوط قرطاج انفعالا كبيرا ببيزنطة. فأرسل الأمبراطور ليونتيوس Léontius الذي أطاح بجوستنيان الثاني Justinien II سنة 695م، البطريق جان Jean مع أسطول قوي لاستعادة المدينة، وذلك بعد جلاء حسّان عن إفريقيّة. وقد بقي حسّان ثلاث سنوات في البلاد الطرابلسيّة. ثمّ عاد إلى الهجوم بجيش جديد، حوالي سنة 78هـ/697 - 698م، وبدعم من بعض جماعات البربر الغاضبين من سياسة الكاهنة. وهُزمت الكاهنة ولقيت حتفها في المعركة. ثمّ استولى من جديد، على قرطاج التي أخليت في الوقت المناسب من المدافعين عنها، واجتيحت. وعاد حسّان بعد أن عزله عبد العزيز بن مروان، شقيق الخليفة وحاكم مصر، وعوّضه بمولاه موسى بن نصير (صفر 79/أفريل - ماي 698) إلى المشرق. وعند مروره بمصر، افتكّت جميع الغنائم التي جمعها بإفريقيّة منه. وتوفيّ وهو يحارب الرّوم سنة 80هـ/699 - 700م.

وتسجّل حملات حسّان الدّعم النهائي للغزو العربي. ويعود إليه فضل التأسيس لدار الصناعة بتونس، بأمر الخليفة المهتمّ بتكوين أسطول قوي، وإعادة بناء الجامع الكبير بالقيروان بمواد أمتن. وقد حاول أيضا - وهو يقلّد في ذلك الجهد المبذول آنذاك في المشرق - أن يجهز إفريقيّة بإدارة ناجعة، ولكي يضمن محالفة البربر وولاءهم، جعلهم يشاركون في الفيء، وبوجه خاصّ في تقسيم الأراضي.

ابن هانىء الأندلسي
[320 – 362هـ/932 – 973م]

ولد أبو القاسم محمد بن هانىء الأزديّ الأندلسي سنة 320 هـ / 932م على الأرجح، بكورة البيرة – وهي غرناطة فيما بعد – حيث كان أبوه هانىء استقرّ بعد هجرته من المهديّة، ولعلّه أتاها

داعيا إلى الشيعة موفدا من الخلفاء الفاطميّين.
انتظم محمد ابن هانىء بحلقات العلم بإشبيلية وشبّ بها وقال الشعر. ولكن لم يصل إلينا شيء من شعره الأندلسي وصار من خلطاء والي المدينة. وعرف بارتكاب المحرّمات والتجرّؤ على الدين وربما سمّوا استهتارا ما كان تصويتا منه للنحلة الإسماعيلية. فكثرت القالة في الوالي بسببه، فاضطرّ الشاعر إلى الهروب إلى برّ العدوة اتّقاء لنقمة المحافظين من أهل الأندلس، وقد برّر فيما بعد هذه النقمة بـ «قديم تشيّعه».

حلّ بالمغرب سنة 347هـ/958م تقريبا، فصادف القائد الفاطمي جوهر الصقلّي على حصار مدينة فاس، فمدحه بقصيدة حائية لعلها أول قصائد الديوان زمنيا، فكافأه جوهر بمال زهيد، فتركه وقصد مدينة المسيلة بشرق الجزائر فانتظم ببلاط أميرها جعفر بن حمدون المعروف بابن الأندلسية وهو أزدي مثله، فلقي عنده حظوة كبيرة ومدحه بقصائد جيدة، منها الفائية المشهورة التي يصف فيها الكواكب (طويل):

أليلتنا إذ أرسلت واردا وحفا
وبتنا ترى الجوزا في أذنها شنفا

و أشاد في قصائده الجزائرية برفاه العيش في كنف الأمير الحمدوني حتّى غلب الزاب وقصبته المسيلة العراق وبغداد (طويل):

تبغدد منه الزاب حتّى رأيته
يصبّ نسيم الروض فيه فيستجفى

ويظهر أنّه استطاب المقام بالمسيلة إلى حدّ أنّه اتّخذ منها مستقرّا دائما حتى بعد دخوله في خدمة المعزّ لدين الله وارتقائه إلى مرتبة الشاعر الرسمي للدولة العبيدية. ذلك ما يشعر به اعتذاره للخليفة في القصيدة المطولة – وهي الأخيرة في الزمن – التي بعث بها إليه بعد أن ودّعه على تخوم مصر: فقد رجع على أعقابه لأخذ عياله قبل الالتحاق بالخليفة في القاهرة المعزّية (طويل):

ولولا قطين في قصيّ من النوى
لما كان لي في الزاب من متلوّم

كان حلول الشاعر ببلاط المعزّ حوالي سنة 353هـ/964م، بطلب من الخليفة حسب رواية ابن خلكان. وهذا الطلب يعني أنّ صيت الشاعر تجاوز الزاب إلى إفريقية. ولا شك في أنّ ابن هانىء سعى إلى التقرّب من الخليفة الفاطمي، فقد أخذ يدرج المقولات الشيعية الإسماعيلية شيئا فشيئا في شعر المسيلة، كأن يقارن خدمة الحمدونيين للفاطميين بنصرة الأنصار – وهم أزديّون أيضا – للنبيّ محمد (صلعم) (كامل):

سدّ الامام بك الثغور، وقبله
هزم النبيّ بقومك الأحزابا

وكان لا ينسب التشيع إلى الحمدوني فحسب، بل إلى سيفه أيضا (كامل):

في كفّ يحيى منه أبيض مرهف
عرف المعزّ حقيقة فتشيّعا

دامت خدمته للمعزّ نحو تسع سنوات، ولم تنقطع الا بمقتله أو وفاته سنة 362/973م ببرقة عند رجوعه من توديع المعزّ. ونظم فيه نحو عشرين قصيدة تبرهن كلّها على تشيّع قوي عند الشاعر وانتصار دائم للمذهب الإسماعيليّ واقتناع بشرعية الحكم الفاطمي. فنراه يؤكد قداسة نسبهم المتصل بالنبيّ (ص) عن طريق الزهراء فاطمة (كامل):

أبناء فاطم، هل لنا في حشرنا
لجأ سواكم عاصم ومجار؟

وأحقّيتهم دون سواهم بإرث الرسول، الزمني والروحي معا. فالزمني عن طريق عليّ، وهو وحده الخليفة الشرعي (متقارب):

هو الوارث الأرض عن أبوين
أب مصطفى، وأب مرتضى

فالأمويون – ويكنّى عنهم بأبناء الطريد، أي أبناء مروان بن الحكم الذي كان رسول الله نفاه عن المدينة – والعباسيون – ويكنّى عنهم بالطلقاء لأنهم أبناء العباس طليق الرسول بعد أسره ببدر – بل حتى الشيخان في السقيفة، كل هؤلاء أدعياء غاصبون لا حق لهم في إمرة

المؤمنين، بل هم أحفاد القرشيين – رؤوس الأحزاب – الذين ما فتئوا يقاومون الرسول ويقتلون ذرّيته (طويل):

رجال هم الداء العياء الذي سرى
إلى رمم بالطفّ منكم وأعظم
... هم رشحوا تيما لإرث محمّد
وما كان تيميّ اليه بمنتم
بأسياف ذاك البغي أول سلّها
أصيب عليّ، لا بسيف ابن ملجم

و يشيد بعصمة الإمام، المتولدة عن هداية خاصة من الله وصلة روحية بجدّه النبيّ، فاكتسب بهما علما فطريا بما كان وما سيكون، وتطهّر حتى صار مزيجا من الهداية والنور (طويل):

غدوا ناكسي أبصارهم عن خليفة
عليم بسرّ الله غير معلّم
وروح هدى في جسم نور يمدّه
شعاع من الأعلى الذي لم يجسّم

ولكن قيمة هذه القصائد المعزيات تكمن أيضا في الإشارات التاريخية أي في الجانب الوثائقي، المتصل بحروب المعزّ مع الثوار الداخليين من قبيلة زناتة خاصة، ومع العدو الخارجي، وهم الأباطرة البيزنطيون الذين يحاولون استرجاع جزيرة صقليّة إلى الحكم المسيحي. وهو ما يضفي على هذا الشعر نفحة حماسية جهادية قوية تقابل بين عزّ الاسلام ـ وقد رفعه المعزّ ـ وذلّ النصارى وقد قهرتهم الجيوش الفاطميّة (الكامل):

فلتعلم الأعلاج علما ثاقبا
أنّ الصليب – وقد عَزَزْتَ – ذليل
وليعبدوا غير المسيح، فليس في
دين الترهّب بعدها تأميل

وهذه الحروب دارت برّا وبحرا، فيتبسط الشاعر في وصف الأسطول الحربي، والمعركة البحرية وخاصة التراشق بما سمّي «النار الإغريقية» وهي قذائف نفطية مشتعلة تحرق السفن وتتلفها (طويل):

أما والجواري المنشآت التي سرت
لقد ظاهرتها عدّة وعديد
... من القادحات النار تضرم للطلى
فليس لها يوم اللقاء خمود
إذا زفرت غيظا ترامت بمارج
كما شبّ من نار الجحيم وقود
فأنفاسهنّ الحاميات صواعق
وأفواههنّ الزافرات حديد

ولا يميز الشاعر بين الحروب الداخلية والحروب الخارجية، ولا بين محاربة المروانيين بالمغرب الأقصى والعباسيين بمصر وجهاد الروم بالبحر المتوسط، فكلّ ذلك عنده جهاد، واستيلاء جوهر على مصر سنة 358هـ/969م هو في نظره فتح مبين (طويل):

تقول بنو العباس هل فتحت مصر
فقل لبني العباس: قد قضي الأمر

وكذلك قهر القائد الزناتي ابن خزر وهو انتصار للدين على كافر به (البسيط):

من جاحدي الدين والحق المبين
ومن عادي الأيمّة والكفّار بالرسل

ولا تقتصر القيمة الوثائقية على ذكر الحروب، فقد يصف الشاعر حالات سلميّة تتصل بالحياة في البلاط المعزّي، كنظام المواكب الرسميّة، وشارات الملك كالمظلة الضخمة المرصعة بالجواهر، التي ترفع فوق رأس الخليفة (كامل):

وعلى أمير المؤمنين غمامة
نشأت تظلل تاجه تظليلا
نهضت بثقل الدرّ ضوعف نسجها
فجرت عليه عسجدا محلولا
... أيكيّة الذهب المرصّع رفرفت
فيها حمام ما دعون هديلا

وقد ختم وصفه لها بالبيت الذي عيب عليه واعتبر كفرا صريحا إذ جعل جبريل مبلغ الوحي واحدا من خدّام المعزّ:

أمديرها من حيث دار، لشدّ
ما زاحمت حول ركابه جبريلا

وللشاعر إشادة خاصة بالسيف «ذي الفقار»

الذي يزعم الفاطميون أنهم ورثوه عن الرسول ثم عن عليّ:

.... سمّاه جدّك ذا الفقار، وانما
سمّاه من ناواك عزرائيلا
لك حسنه متقلّدا، وبهاؤه
متنكّبا، ومضاؤه مسلولا

وله أيضا وصف مكرر طويل للخيل، مع التماس لأحسن الصور واستخدام للمخزون الثقافي من القرآن وغيره (الخفيف):

أنت أصفيتهن حبّ سليما
ن قديما للصافنات العتاق
لو رأى ما رأيت منها إلى أن
تتوارى شمس بسجف الغساق
لم يقل: ردّها عليّ، ولا يطـ
فق مسحا بالسوق والأعناق

وهكذا نرى أن ابن هانيء شاعر مدّاح، وشاعر مذهبي، فحتى مدائحه في غير المعزّ لا تخلو من شعارات شيعية، على أنه لم يمدح إلاّ من كان له ولاء للمعز كأفلح الناشب والي برقة، وأمير مجهول يدعى الشيباني، وكاتب يعرف بابن زائدة.

أما بقيّة الأغراض، فالهجاء مفقود أو يكاد، والرثاء ينحصر في قصيدتين نظمهما بالمسيلة، الأولى في وفاة حفيد للأمير الحمدوني، والأخرى في تأبين أم الأمير، وهذه المرثية الثانية تلفت الأنتباه لأن فيها انتصارا قويا للأمهات وتعظيما لهن، ولا ندري هل هي من حكم الظرف، وهو الإشادة بخصال الفقيدة، أم هل هي من حكم التمذهب بنحلة القوم، المنتسبين إلى أمهم فاطمة، المستمدين منها كل شرعية (متقارب).

لأمّاتنا نصف أنسابنا
إذا الملك القيل منّا انتمى
دعائم أيّامنا في الفخار
وأكفاء آبائنا في العلى
... فلو جاز حكمي في الغابرين
وعدّلت أقسام هذا الورى
لسمّيت بعض النساء الرجال
وسمّيت بعض الرجال النسا

أمّا الوصف والفخر والنسيب والتأملات الحكمية فلا تستقل بقصيدة دون أخرى، بل تأتي هذه الأغراض ضمن القصائد المدحية أو الرثائية في مواقعها التقليدية.

على أن الشاعر يتصرف أحيانا فيعوّض النسيب بالوصف، ويردف الاستهلال الطللي بخمرية، أو يدخل المدح مباشرة. والغالب على هذه الأغراض التقليد والمحاكاة والصور المجهّزة: من ذلك أن «اللون المحلي»، أي وصف ربوع إفريقية، أو ذكر مدنها، أو التلميح إلى تاريخها، يكاد يكون مفقودا. فإذا احتاج إلى التشبيه بجبل أو بصحراء، التجأ رأسا إلى الجزيرة العربية. فالشعر القديم، والثقافة الموروثة، هما الإطار المرجعي لذاكرته ومخيلته، وهي ظاهرة لعمري غريبة عند الشعراء الافارقة، قد سلم منها الاندلسيون أمثال ابن زيدون وابن خفاجة.

هذا التأثر بشعر التراث لا يمنع ابن هانيء من دراسة المعاصرين له الأقربين إليه: من ذلك القصيدة المحيرة التي يذكر فيها ديوان المتنبي فيتأرجح بين الحط عليه والإعجاب به، والادعاء بأنه وحده قادر على فهم شعره (بسيط):

تنبّأ المتنبي فيكم عصرا
ولو رأى رأيكم في شعره كفرا
مهلا، فلا المتنبي بالنبيّ ولا
أعدّ أمثاله في شعره السورا
... أصمّ، أعمى، ولكنّي سهرت له
حتى رددت اليه السمع والبصرا

ولا نخال أنّ هذه القصيدة هي التي دعت إلى تلقيب ابن هانيء بمتنبّي الغرب. فالأمر أبسط من ذلك، ولا يعدو الاستشهاد بالنظير المشرقي، كما قالوا في ابن زيدون بحتري الغرب، وفي ابن خفاجة صنوبريّ الأندلس الخ... على أن أوجه الشبه بين الشاعرين كثيرة: منها الغلوّ في المدح – وإن كان ابن هانيء مدفوعا بعقيدة –

والجنوح إلى الغريب والصور المعقدة، والاتفاق في المعاني الجهادية في تناول موضوع الحروب مع الروم، والاستنكاف من الهجاء والتورّع عن الشعر المرذول الساقط.

على أن ديوان ابن هانىء - وقد نشره سنة 1935 الباحث الهندي زاهد علي في طبعة محققة مصدرة بدراسة ضافية في العقائد الإسماعيلية وموضحة بشروح لغوية واصطلاحية ومقارنات واستشهادات على غرار شرح العكبري لديوان أبي الطيّب - إذا ما أضفنا إليه ما اكتشفناه بمخطوط المكتبة الوطنية بتونس، يفقد شيئا من رصانته وينحدر إلى الممجوج المستقبح، وقد عزا بعض الباحثين المعاصرين هذه المقطوعات الماجنة إلى الفترة الأندلسية، والأمر فيه نظر.

قلنا إن الشاعر مات ببرقة - وهو اسم مدينة تدعى اليوم المرج، أطلق على الإقليم بأكمله - وهو راجع من توديع المعز إلى حين. وتضاربت الأقوال في ظروف وفاته فقيل: قتل في معركة بين معربدين شذّاذ، وقيل: مات مخنوقا بتكّته. والأرجح أنه سكر فتاه في الطريق وأصابه برد الليل الشديد فمات مقرورا مجمدا. ولم تتح له الأقدار أن يلتحق بصاحبه فيباهي به شعراء المشرق كما كان يأمل.

وعلى كل حال، فهو شاعر «مغربي ابن مغربي» - حسب عبارة المرحوم ح. ح. عبد الوهاب - دخل المغرب من أقصاه واستقر في أوسطه ولقي حتفه في أطرافه الشرقية. لذا صحّ ان نقول فيه: ابن هانىء المغربي.

محمد بن يالُوشة
[1844 - 1894م]

محمد بن علي بن يوسف المعروف بابن يالوشة الشريف التونسي من علماء القراءات.

وُلد بتونس وحفظ القرآن الكريم وتخرّج في جامع الزيتونة فتصدّر للتدريس به. وكان كتابه الفوائد المهمة في شرح الجزرية المقدمة من مقررات دروس التجويد بجامع الزيتونة توفي سنة 1314هـ/ 1894م.

من مؤلفاته

- تحرير الكلام. طبع بهامش كتاب النجوم الطوالع للشيخ ابراهيم المارغني.
- شرح على قسم الفرائض من الدرّة البيضاء، تركه على المسوّدة.
- الفوائد المفهمة في شرح الجزرية المقدمة (في التجويد، طبع بتونس عدة مرّات).



صالح بن يوسف
[1907 - 1961م]

1) نشأته ودراسته (1907 - 1930م)

ينحدر صالح بن سليمان بن يوسف من عائلة جربيّة عريقة أصلها من بلدة قرماسة القريبة من تطاوين، نزحت في القرن السابع عشر إلى جزيرة جربة حيث ولد في حومة «مغراوة» التابعة لمعتمديّة ميدون في 11 أكتوبر 1907. ولمّا بلغ سنّ الدراسة التحق بالكتّاب وحفظ نصيبا من القرآن الكريم ومبادئ اللغة العربيّة. وقد ظهرت عليه علامات النجابة منذ الصغر، فأوفده جدّه سنة 1915 إلى مدينة تونس ليواصل بها دراسته. فانضمّ أوّلا إلى مدرسة خير الدين التي نال منها بامتياز الشهادة الابتدائية، في سنة 1922. وهو ما أهّله إلى الالتحاق بمعهد كارنو لمزاولة دراسته الثانوية. وانتقل من قسم إلى قسم بنجاح إلى أن أحرز الجزء

الأول من الباكالوريا في جوان 1929 ثم الجزء الثاني (شعبة الفلسفة) في جوان 1930.

ولمّا كان حظّ اللغة العربية ضئيلا في ذلك المعهد – إن لم يكن منعدما – فقد انخرط صالح بن يوسف في سلك طلبة المدرسة العليا للغة والآداب العربية، المعروفة باسم «مدرسة العطّارين»، حيث تابع دروس اللغة العربية والترجمة والتاريخ في هذا المعهد الذي كان يدرّس به، إلى جانب مديره المستشرق ويليام مارسي، عدد من رجال الفكر والأدب التونسيّين أمثال: حسن حسني عبد الوهاب والصادق الزمرلي وعثمان الكعّاك والعربي الكبادي. وواصل دراسته إلى أن أحرز دبلوم اللغة والآداب العربيّة. ولكنّه لم يكتف بمتابعة الدروس المسائية التي كانت تلقى بمدرسة العطّارين، بل كان يحضر أيضا دروس الجمعية الخلدونية. وهو ما مكّنه من اكتساب زاد وافر من الثقافة الأساسيّة العربيّة الإسلاميّة، إلى جانب ثقافته الفرنسيّة.

2) نشاطه السياسي

لكنّ انشغال صالح بن يوسف بطلب العلم لم يمنعه من الاهتمام بالشؤون السياسيّة ومتابعة الأحداث التي كانت تشهدها بلاده الرازحة تحت نير الاستعمار الفرنسي، بمطالعة الصحف الوطنية، لا سيما منها جريدة الشاذلي خير اللّه، الناطقة باللغة الفرنسيّة، «صوت التونسي». وكان أهمّ نشاط سياسي قام به في آخر سنوات الدراسة الثانويّة، إسهامه الفعّال في المظاهرات التي نظّمها تلامذة المعاهد الثانويّة للاحتجاج على المؤتمر الإفخارستي المنعقد في العاصمة من 7 إلى 11 ماي 1930، بمشاركة عدد كبير من الأساقفة والرهبان القادمين من شتّى أنحاء العالم. وألقت السلطة الاستعماريّة القبض على مجموعة من تلامذة الصادقيّة والعلويّة ومعهد كارنو، منهم التلميذ صالح بن يوسف الذي كان يستعدّ وقتئذ لاجتياز امتحان الباكالوريا. ولم يفرج عنه وعن رفقائه إلاّ بتدخّل من بعض الأعيان التونسيين.

3) نشاطه في باريس (1930–1934م)

بعد حصوله على الباكالوريا تحوّل إلى باريس في أكتوبر 1930 لمزاولة دراسته العليا في كليّة الحقوق. لكن التحاقه بالجامعة لم يشغله عن مواصلة الاهتمام بالشؤون السياسيّة والتفكير في الوسائل الكفيلة بتحرير وطنه من ربقة الاستعمار. فمنذ وصوله إلى العاصمة الفرنسيّة انضمّ إلى «جمعيّة طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا» التي تأسّست في سنة 1927 وانتهجت منذ سنة 1930 سياسة وطنية واضحة. ونظرا إلى ما كان يتميّز به الشابّ صالح بن يوسف من حماس وحيويّة، قد انتخبه زملاؤه عضوا في الهيئة المديرة. وبهذه الصفة شارك في المؤتمر الأوّل الذي عقدته الجمعيّة في تونس من 20 إلى 22 أوت 1931 وانتخب عضوا في لجنة التعليم العربي.

وقبل انضمامه إلى الحزب الدستوري الجديد، ناضل صالح بن يوسف إلى جانب أتباع الحزب الحرّ الدستوري التونسي المقيمين في باريس أمثال عبد الرحمان اليعلاوي والحبيب جاء وحده وأحمد بن ميلاد.

ولمّا بلغه انبعاث الحزب الدستوري الجديد في 2 مارس 1934 إثر انعقاد مؤتمر قصر هلال، لم يتردّد في الانخراط فيه صحبة رفيقيه الهادي نويرة وسليمان بن سليمان. أمّا بقيّة الطلبة وبالخصوص المنجي سليم والحبيب ثامر وعلي البلهوان فإنهم لم يتّخذوا موقفا واضحا، في انتظار عودتهم إلى تونس في العطلة الصيفية.

4) عودته إلى تونس ونضاله السياسي في بداية الثلاثينات (1934–1936م)

عاد صالح بن يوسف إلى تونس في صائفة سنة 1934 بعد حصوله على الإجازة في الحقوق، فبادر إلى قضاء فترة التدريب القانونية قبل الانخراط في سلك المحامين. وإلى جانب ذلك قام بنشاط مكثّف في صفوف الحزب الدستوري الجديد، تجسّد في حضور الاجتماعات العامة التي ينظمها الحزب والمشاركة في الجولات

التي يقوم بها أعضاء الديوان السياسي داخل البلاد. وفي الأثناء توتّرت العلاقات بين قادة الحزب والمقيم العام بيروطون، إلى أن أفضى الأمر إلى القبض على ثلاثة أعضاء من الديوان السياسي، وهم الدكتور محمود الماطري والأخوين الحبيب ومحمد بورقيبة وإبعادهم إلى الجنوب التونسي مع مجموعة من المناضلين في 3 سبتمبر 1934، ثم نقلهم في 2 أكتوبر إلى محتشد برج البوف في الصحراء.

وما إن أبعد قادة الحزب الثلاثة إلى الجنوب حتى تألّف ديوان سياسي ثان يضمّ: الطاهر صفر والبحري قيقة (عضوا الديوان السياسي الأوّل) وعضو جديد هو المحامي الشابّ صالح بن يوسف. ولا يستبعد بعض الباحثين أنّ إلحاق العضو الجديد بالديوان السياسي كان بإيعاز من الزعيم الحبيب بورقيبة ذاته، لما لعائلة ابن يوسف من تأثير في الأوساط التجاريّة بتونس.

وبمناسبة حضور أحمد باي موكب ختم الحديث الشريف بجامع الزيتونة ليلة 27 رمضان 1352هـ (أوّل جانفي 1935م) نظّم الديوان السياسي مظاهرة في رحاب الجامع للمطالبة بالإفراج عن المبعدين. فغضب بيروطون وأمر بإيقاف أعضاء الديوان السياسي الثاني: الطاهر صفر والبحري قيقة وصالح بن يوسف، وإبعادهم إلى برج البوف. ورغم ذلك، تواصلت الاضطرابات والمظاهرات إلى أن اضطرّت الحكومة الفرنسيّة في مارس 1936 إلى إعفاء بيروطون من مهامّه وتعويضه بمقيم عامّ جديد معروف بأفكاره التحرّريّة النّسبيّة، أرمان ڤيون الذي أمر بإطلاق سراح قادة الحزب وأجرى اتصالات بهم.

5) تصعيد الحزب الدستوري الجديد النضال ضد الاستعمار (1938 – 1943م)

استأنف الحزب الدستوري الجديد نشاطه إثر الإفراج عن قادته، وكان صالح بن يوسف من أنشط مناضليه. فقد شارك في مؤتمر نهج التريبونال بالعاصمة من 30 أكتوبر إلى 2 نوفمبر 1937 وساند الشقّ المتصلّب في الديوان السياسي الذي يمثّله الحبيب بورقيبة، على حساب الشقّ المعتدل المتألف من الدكتور الماطري (رئيس الحزب) والطاهر صفر والبحري قيقة. وختم المؤتمر أشغاله بالمصادقة على قرار سحب «توسّم الخير» من الحكومة الفرنسيّة، وانتخاب صالح بن يوسف وسليمان بن سليمان في الديوان السياسي الجديد، وبذلك تغلّب الشقّ المتصلّب على الشقّ المعتدل. وبعد عدّة محاولات فاشلة قرّر الدكتور الماطري الاستقالة من رئاسة الحزب في جانفي 1938. وفي الأثناء تصلّب موقف السلطة الفرنسيّة بتأثير زعماء الجالية الفرنسيّة. ففُصل علي البلهوان عن التدريس بالمدرسة الصادقيّة إثر المحاضرة التي ألقاها بعنوان «نصيب الشبيبة من الكفاح»، ومنع الاجتماعات الاحتجاجيّة التي قرّر الحزب تنظيمها في كامل أنحاء البلاد برئاسة أعضاء الديوان السياسي والمجلس الملّي. ثم ألقي القبض على الدكتور سليمان بن سليمان ويوسف الرويسي يوم 4 أفريل 1938 وصالح بن يوسف والهادي نويرة ومحمود بورقيبة يوم 6 أفريل. فقرّر الديوان السياسي تنظيم مظاهرات في كامل أنحاء البلاد للمطالبة بإطلاق سراح قادة الحزب الموقوفين والاستجابة لرغبة الشعب التونسي في الحريّة والانعتاق.

وفي العاصمة انتظمت مظاهرة صاخبة يوم 8 أفريل أمام الإقامة العامّة، ألقى أثناءها علي البلهوان خطابا حماسيّا دعا فيه الجماهير الشعبيّة إلى الكفاح في سبيل برلمان تونسي وحكومة وطنيّة. ومن الغد 9 أفريل استدعى قاضي التحقيق علي البلهوان إلى المحكمة الفرنسيّة لاستنطاقه. فتجمّع المتظاهرون أمام قصر العدالة، مطالبين بالإفراج عن زعيم الشباب. وعندئذ أطلقت عليهم قوّات الشرطة والجيش الرصاص. وأسفرت المواجهة عن عدد كبير من القتلى والجرحى في صفوف المتظاهرين.

وفي فجر يوم 10 أفريل ألقي القبض على الزعيم الحبيب بورقيبة وأودع السجن العسكري صحبة عدد من الزعماء منهم صالح بن يوسف، بتهمة التآمر على أمن الدولة الداخلي والخارجي. ثم نقلوا إلى السجن المدني بتونس ومنه إلى السجن العسكري بتبرسق. وإثر إعلان الحرب العالميّة الثانية، نقل المعتقلون إلى مدينة مرسيليا بفرنسا حيث زجّ بهم في سجن حصن سان نيكولا.

وبعد هزيمة فرنسا في جوان 1940 واكتساح أراضيها من القوّات النازيّة، نقل المعتقلون إلى بلدة تريتس القريبة من مرسيليا ووضعوا تحت الإقامة الجبريّة، في حين أبقت حكومة المارشال بيتان في حصن سان نيكولا 7 من قادة الحزب الدستوري اعتبرتهم على غاية من الخطر وهم: الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف وسليمان بن سليمان وعلي البلهوان والمنجي سليم والهادي نويرة ومحمد بورقيبة.

وفي شهر ديسمبر 1942 أمرت سلطة الاحتلال الألمانية بإطلاق سراح الزعماء الدستوريّين وترحيلهم إلى روما، ومن هناك رجعوا إلى أرض الوطن في أوائل سنة 1943.

6) الزعيم صالح بن يوسف على رأس الحزب الحر الدستوري الجديد (1945–1949)

ولمّا وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها تحوّل الزعيم الحبيب بورقيبة خلسة إلى القاهرة يوم 26 مارس 1945 للاتصال بجامعة الدّول العربية والتعريف بالقضية التونسية لدى الرأي العام العربي والعالمي.

وفي تونس بادر الحزب الدستوري الجديد إلى تجديد هياكله واستئناف نشاطه بقيادة الزعيم صالح بن يوسف الذي تولّى الأمانة العامّة للحزب بالنيابة وألحق بالديوان السياسي كلاّ من المنجي سليم، وعلي البلهوان والهادي نويرة، وأضيف إليهم فيما بعد الباهي الأدغم، كما شجّع على التقارب مع القصر الملكي وعلى بعث منظّمات نقابيّة وطنية تربط بين المطالب الاجتماعيّة والمطالب السياسيّة وتعمل بالتعاون مع الحزب. فتأسّس الاتحاد العام التونسي للشغل يوم 20 جانفي 1946 بقيادة الزعيم النقابي فرحات حشّاد، والاتحاد التونسي للصناعة والتجارة برئاسة الفرجاني بن الحاج عمّار، والاتّحاد العام للفلاحة التونسيّة بقيادة الحبيب المولّهي وإبراهيم عبد الله.

وفي الوقت نفسه تألّفت جبهة وطنيّة تضمّ الحزب الدستوري بشقّيه القديم والجديد، والحركة المنصفيّة والحركة الزيتونيّة وأعضاء المجلس الكبير والمنظمات الوطنية النقابيّة والمهنيّة. وفي ليلة 27 رمضان 1365هـ (ليلة القدر) الموافقة ليوم 23 أوت 1946 نظّمت الجبهة الوطنية مؤتمرا قوميّا بالعاصمة برئاسة القاضي العروسي الحدّاد، صادق في أثنائه بالإجماع على لائحة تطالب فيها بالخصوص بالاستقلال وإرجاع المنصف باي إلى عرشه. فاقتحمت الشرطة محلّ الاجتماع واعتقلت 46 شخصا من الحاضرين في مقدّمتهم صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدستوري الجديد وصالح فرحات الكاتب العام للحزب الدستوري القديم. فأعلن الشعب الإضراب العام واضطرّت السلطة في آخر الأمر إلى إطلاق سراح المعتقلين بعد شهر من إيقافهم. وفي أكتوبر 1948 انعقد مؤتمر الحزب الثالث في دار سليم بتونس وانتخب الزعيم الحبيب بورقيبة رئيسا للحزب وصالح بن يوسف كاتبا عامّا.

7) مشاركة صالح بن يوسف في وزارة التفاوض الأولى (1950–1952)

في 8 سبتمبر 1949 عاد الزعيم الحبيب بورقيبة إلى تونس بعد أن تبيّن له أن جامعة الدول العربية مركزة اهتمامها لا على القضيّة التونسيّة وإنّما على القضيّة الفلسطينيّة. فاستأنف اتّصاله بالحكومة الفرنسية التي وافقت على إجراء مفاوضات مع حكومة تونسيّة يعيّنها الباي لمنح تونس الحكم الذاتي. وإثر ذلك تشكّلت في 17 أوت 1950 وزارة جديدة برئاسة محمّد شنيق وبمشاركة

ممثّل الحزب الدستوري الجديد صالح بن يوسف الذي عيّن وزيرا للعدل. فشرعت الوزارة في إجراء مفاوضات مع المقيم العامّ في تونس، أسفرت في 8 فيفري 1951 عن إصلاحات هزيلة خيّبت آمال الوطنيّين.

واستأنفت إثر ذلك المفاوضات في باريس في 30 أكتوبر 1951 بين الحكومة الفرنسيّة ووفد وزاري تونسي برئاسة الوزير الأكبر محمد شنيق يضمّ كلاّ من وزير العدل صالح بن يوسف والوزيرين محمد بدرة ومحمد سعد الله. وفي 15 ديسمبر 1951 تسلّم الوزير الأكبر مذكّرة الحكومة الفرنسيّة التي أكّد فيها وزير الخارجيّة روبار شومان تمسّك حكومته بمبدإ «السيادة المزدوجة». واستنتج الزعيم الحبيب بورقيبة من ذلك الردّ فشل الحوار المباشر بين تونس وفرنسا ودعا إلى عرض القضيّة التونسيّة على منظمة الأمم المتّحدة.

8) المعركة التحريريّة الحاسمة (1952–1954)

بدأت المواجهة بين الوطنيين التونسيين والسلطة الاستعمارية لما تحوّل إلى باريس الوزيران التونسيّان صالح بن يوسف ومحمد بدرة يوم 13 جانفي، دون علم المقيم العام الجديد دي هوتكلوك الذي قدم إلى تونس في اليوم نفسه، وذلك لتقديم شكوى إلى المنظمة الأمميّة التي كانت جمعيّتها العامة ملتئمة وقتئذ في العاصمة الفرنسية.

فأمر المقيم العام بإلقاء القبض على الزعيم بورقيبة يوم 18 جانفي 1952 وإبعاده إلى طبرقة واعتقال عدد كبير من المناضلين ومنع مؤتمر الحزب الذي كان مقرّرا عقده في ذلك اليوم نفسه. فأعلنت المنظّمات الوطنيّة الإضراب العامّ وانتظمت المظاهرات في جميع أنحاء البلاد، وانعقد مؤتمر الحزب في تونس كما كان مقرّرا من قبل برئاسة الزعيم الهادي شاكر، وطالبت بإلغاء معاهدة الحماية واستقلال تونس استقلالا تاما. فثارت ثائرة دي هوتكلوك الذي قرّر تكثيف عمليّات القمع والاضطهاد. ورغم ذلك تواصلت المقاومة واتّخذت أشكالا متنوّعة. فأمر المقيم العام في 26 مارس 1952 بإقالة الوزراء التونسيين الموجودين بتونس وإبعادهم إلى قبلّي ونقل الزعيم الحبيب بورقيبة من طبرقة إلى رمادة. ولما انتشر الخبر في فرنسا تمكّن الوزيران صالح بن يوسف ومحمد بدرة من مغادرة التراب الفرنسي خفية والالتحاق بالقاهرة حيث استقرّ صالح بن يوسف باعتباره ممثّلا للحكومة التونسيّة الشرعيّة والحزب الدستوري الجديد.

وواصل جهوده الرامية إلى عرض القضية التونسيّة على المنظمة الدوليّة، متنقّلا بين القاهرة ونيويورك وعواصم الدول العربيّة والأوروبيّة، كما حرص على تركيز مكاتب للحزب في كلّ من بغداد (علي البلهوان) وكراتشي (الرشيد إدريس) ونيودلهي (الطيب سليم) وجاكرتا (الطاهر عميرة) ونيويورك (الباهي الأدغم). وبفضل ذلك تمكّن الحزب من تعزيز مواقعه في الخارج والحصول على مساندة أغلبيّة الدول الأعضاء في منظمّة الأمم المتّحدة. وكان الوفد التونسي في نيويورك يتركّب، أثناء اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة، من صالح بن يوسف ومحمد بدرة والباهي الأدغم. وقد سهّل مهمّة الوفد المناضل العابد بوحافة المقيم عهدئذ في الولايات المتّحدة الأمريكية بوصفه صحافيا معتمدا لدى المنظمة الأمميّة، إلا أنّ علاقته بالوفد التونسي، ولا سيما برئيسه، توتّرت في فترة ما. ذلك أن جريدة «الفيغارو» الباريسيّة نشرت في عددها المؤرّخ في 28 ماي 1952 نصّ الرسالة التي وجهّها بورقيبة إلى العابد بوحافة يحرّض فيها الشعب التونسي على إعلان الثورة المسلّحة. فاتّهم صالح بن يوسف بوحافة بأنه هو الذي سلّم تلك الرسالة إلى المخابرات الفرنسية، والحال أن المعني بالأمر لم يتسلّم تلك الرسالة قطّ. ولذلك قدّم دعوى إلى المحكمة الابتدائية الفرنسية بباريس، فحكمت

ببطلان التهمة ثم أيّدت محكمة الاستئناف هذا الحكم.

ومع ذلك قد حزّت هذه التهمة في نفس العابد بوحافة الذي بادر إثر اعتراف فرنسا باستقلال تونس الداخلي إلى توجيه رسالة في 7 أوت 1954 إلى بورقيبة الذي نقل إلى فرنسا ووضع تحت الإقامة الجبريّة، هنّأه فيها بهذا الحدث الجليل واشتكى من تصرّفات رفيقه صالح بن يوسف. فأجابه برسالة مؤرّخة في أول سبتمبر *1954*، جاء فيها بالخصوص ما يلي:

«إنّ ما وجدته من متعة في قراءة رسالتك بعد أربع سنوات من الانقطاع أفسدته أحكامك الشائنة على صالح بن يوسف رفيق الكفاح طيلة عشرين سنة. وهو رجل أزعم أنّي أعرفه أكثر منك وأعتبر أنّه كان دوما في مستوى المسؤوليّات الجسام التي يتحمّلها منذ 17 سنة على رأس الحزب... ولا مراء في أن سي صالح له عيوبه كسائر الناس، فهو حادّ الطبع، عنيد أحيانا، بل قاس إزاء بعض الرفاق في الديوان السياسي. ولكن لم يغضب أيّ أحد إلى درجة اعتباره عدوّا شخصيّا.....».

ونستنتج من هذه الرسالة ما كانت تربط بين الزعيمين من علاقات احترام وتقدير، قبل الخلاف الذي نشأ بينهما فيما بعد حول الاستقلال الداخلي.

9) كفاح صالح بن يوسف في سبيل الاستقلال

بفضل الجهود المتواصلة التي بذلها صالح بن يوسف، بالتعاون مع رفيقه الباهي الأدغم، وبتأييد من ممثلي الدول الآسيويّة والافريقيّة وفي مقدّمتهم الدكتور فاضل الجمالي وزير خارجية العراق وظفر الله خان وزير خارجية باكستان، أدرجت القضيّة التونسيّة في جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة التي صادقت في 17 ديسمبر 1952 على لائحة تدعو الحكومة الفرنسيّة إلى إجراء مفاوضات مع التونسيّين «لتمكينهم من ممارسة حقوقهم وتسيير شؤونهم بأنفسهم، وفقا لمبادئ الأمم المتّحدة». فبفضل هذه المساندة الخارجيّة، بالإضافة إلى المقاومة الوطنيّة في الداخل، جنحت فرنسا إلى السلم واعترفت بحقّ تونس في الاستقلال الداخلي، على لسان رئيس حكومتها منداس فرانس الذي تحوّل إلى تونس وألقى خطابه التاريخي في قصر قرطاج يوم 31 جويلية 1954.

ولقد وافق الزعيمان الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف على الاستقلال الداخلي باعتباره مرحلة في الطريق المؤدّية حتما إلى الاستقلال التام. وتشكّلت وزارة تونسيّة برئاسة الطاهر بن عمار وبمشاركة 4 ممثلين عن الحزب الدستوري الجديد للتفاوض مع الحكومة الفرنسيّة. واستمرّت المفاوضات إلى أن أفضت إلى اتّفاقيات الاستقلال الداخلي المبرمة في 3 جوان 1955. ورغم متابعة صالح بن يوسف بنفسه للمفاوضات وتحوّله من حين إلى آخر إلى جنيف للاتّصال بالمنجي سليم، لم يكن راضيا عن تلك الاتّفاقيّات، لا سيما بعد مشاركته في المؤتمر الآسيوي الإفريقي المنعقد من 8 إلى 14 أفريل 1955 في باندونغ بأندونيسيا، ذلك الذي صادق في خاتمة أشغاله على لائحة حول المغرب العربي تنصّ على ما يلي:

«نظرا إلى استمرار مشكلة شمال إفريقيا، بسبب حرمان شعوبها من حقّها في تقرير مصيرها، يعلن المؤتمر الآسيوي الإفريقي تأييده لكلّ من الجزائر ومراكش وتونس في تقرير المصير والاستقلال ويدعو الحكومة الفرنسيّة إلى حلّ القضيّة حلاّ سلميّا».

10) معارضته لاتّفاقيّات الاستقلال الداخلي

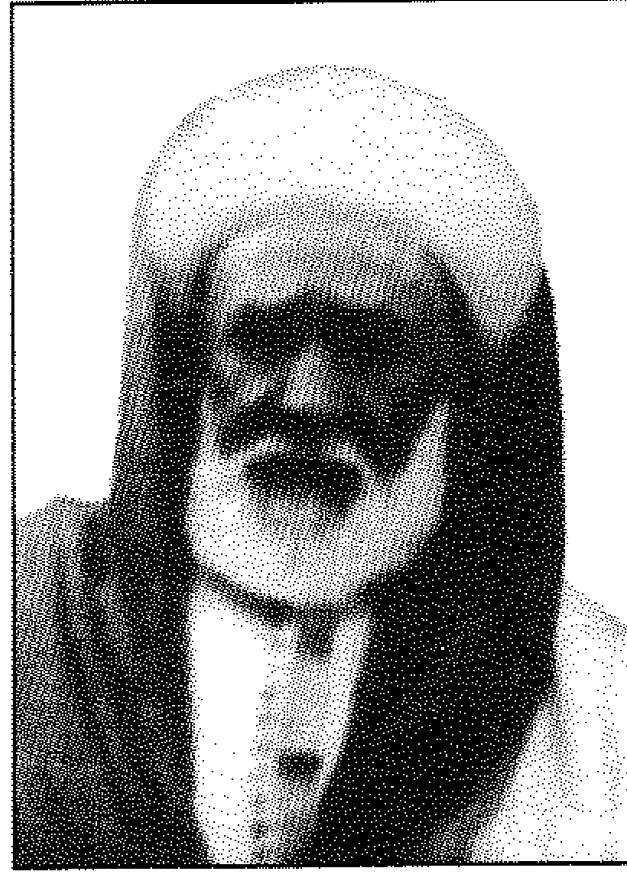
ما إن عاد صالح بن يوسف إلى تونس يوم 13 سبتمبر 1955 حتى أعلن معارضته التامّة لاتّفاقيات 3 جوان 1955 التي اعتبرها «خطوة إلى الوراء» داعيا الشعب التونسي إلى استئناف الكفاح المسلّح إلى أن تستقلّ أقطار المغرب

العربي استقلالا تامّا، دون قيد ولا شرط.

ورغم موافقة مؤتمر الحزب المنعقد في صفاقس في 15 نوفمبر 1955 على السياسة الواقعيّة التي انتهجها الزعيم الحبيب بورقيبة، فإن صالح بن يوسف الذي فُصل عن الحزب منذ يوم 8 أكتوبر 1955، ثم عوّضه في مهامّ الأمين العام للحزب الباهي الأدغم، استمرّ في معارضة اتفاقيات الاستقلال الداخلي باسم «الأمانة العامّة»، قائلا في أحد خطبه: «نعتقد أن حريّة إفريقيا الشماليّة العربيّة المسلمة لا تتجزأ... فلا نستطيع أن نطمح إلى الاستقلال إلاّ إذا كان تامّا كاملا».

ونشبت معارك حامية الوطيس بين الديوان السياسي والأمانة العامّة، وأسفرت عن مقتل عدد من الأعضاء من الجانبين، وكادت المواجهة بين الشقّين تتحوّل إلى حرب أهليّة. فقرّرت الحكومة التونسيّة في 28 جانفي 1956 إلقاء القبض على صالح بن يوسف وبعض أتباع حركته، لكنّه تمكّن من اجتياز الحدود التونسيّة الليبيّة خفية والالتجاء إلى مصر حيث استمرّ في معارضة الاتفاقيّات التونسيّة الفرنسيّة ومناهضة الديوان السياسي، وواصل أتباع الحركة اليوسفيّة أعمال الشغب في تونس، رغم إجراءات الردع المتّخذة ضدّهم. ولم يكفّوا عن معارضة النظام القائم، حتى بعد إبرام بروتوكول 20 مارس 1956 الذي نصّ على إلغاء معاهدة الحماية وتمتّع تونس باستقلالها التامّ.

وقد فشلت جميع محاولات المصالحة بين الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف، وكانت المحاولة الأخيرة مقابلة جرت بين الرجلين في جينيف قبل بضعة أسابيع من اغتيال صالح بن يوسف في مدينة فرنكفورت بألمانيا يوم 12 أوت 1961.



محمّد بن يوسف

[1857 - 1939م]

من مواليد مدينة تونس. ابتدأ دراسته بالمكتب القرآني ولـمّا أتقن حفظ القرآن الكريم دخل جامع الزيتونة سنة 1289هـ/1872م فأخذ العلم من أشهر شيوخ عصره أمثال سالم بوحاجب وأحمد ابن الخوجة وعمر ابن الشيخ وحسين بن حسين ومحمد النجّار ومحمود بيرم. فحصل على شهادة التطويع سنة 1297هـ/1879م ثم انتخب للتدريس من الطبقة الثانية سنة 1298هـ/1880م ثمّ سُمّي مدرّسا من الطبقة الأولى سنة 1311هـ/ 1893م ثمّ عُيّن عدلا بجمعية الأوقاف إلى أنْ سمّي كاتبا أول فعضوا في مجلس الجمعية بها. وعُيّن مبعوثا إلى باريس ليُمثّل المعهد الزيتوني في مؤتمر المستشرقين، وسمّي عضوا في مجلس إصلاح التعليم بجامع الزيتونة وعضوا في لجنة إصلاح نظام العدول. وفي سنة 1350هـ/ 1931م، ولي الإمامة والخطابة بجامع حمودة باشا المرادي.

من مؤلّفاته

- رسالة في تفضيل المتنبي على البحتري
- حواشي وتعليقات على حواشي عبد الحكيم على تفسير البيضاوي

وتوفّي سنة 1358هـ/1939م.



سعيد أبوبكر
[1899 - 1948م]

وُلد الشاعر سعيد أبو بكر سنة 1899 بالمكنين (السّاحل التونسي) وبها تلقّى دراسته الابتدائيّة ولكنّه لم يتجاوز هذه المرحلة نظرا إلى ظروف أسرته الماديّة. وكان عصاميا يتمتّع بمواهب عدّة نمت مع الأيّام بحكم مختلف المناشط التي تعاطاها. فقد انتصب كاتبا عند المحامي راجح إبراهيم الذي فتح له خزائن مكتبته وعرّفه بأدباء المهجر والشرق العربي.

ونظم سعيد أبوبكر الشعر منذ أوّل شبابه وأقبل في الوقت نفسه على مطالعة أمّهات الكتب والدوريات، وسرعان ما دفعه طموحه إلى العاصمة ليباشر الكتابة في عدّة صحف ولينشر مقالاته النقدية الهادفة تحت عنوان: «من النافذة». وواصل نشاطه الصحفي هذا ابتداء من سنة 1940 بإصدار صحيفة «تونس المصوّرة» التي اتخذ منها مورد رزقه. هذا بالإضافة إلى شغفه بالفن عموما وبالموسيقى خصوصا. فقد كان يجيد العزف على العود والكمنجة وكان مولعا بالرسم وإنتاج اللوحات الزيتية، لكنّ هوايته المفضّلة بقيت الشعر، فقد أصدر ديوانه الأول بعنوان «السعيديات» سنة 1927 وجمع فيه قصائده الاجتماعية والوطنية، من غير تبويب. قال: «جعلته شبه كشكول، لأني لم أنظم شيئا في كثير من الأبواب التي اعتاد الشعراء أن ينظموا فيها، مثل المديح والهجاء والفخر والرثاء والغزل وغير ذلك...». فالسمة الغالبة على هذا الديوان منحاه التجديدي «وشعوره العميق بالغربة داخل وطنه وقلقه من الحصار المضروب عليه وعلى أمثاله من المثقفين الوطنيين الواعين». وأصدر ديوانه الثاني «الزهرات» سنة 1930 وعنه يقول: «يجد فيه المطالع شيئا من كل شيء، ضرورة أننا كنّا ننتقل بقرائنا من الأدبيات إلى الاجتماعيات ومنها إلى الفكاهات والمداعبات». ومن طريف شعره في هذا المجال سخريته من الجمعيّة التي كوّنتها في تونس جماعة من الأجانب للدفاع عن الحيوانات عوض الدفاع عن التونسيّين الرازحين تحت الاستعمار الفرنسي (البسيط):

جمعية الرفق بالسنّور والديك
ماذا عن الرفق بالإنسان يلهيك؟

وأصدر سعيد أبو بكر سنة 1936 مجموعة مقالات تحت عنوان: «مؤتمر البعث» تولّى فيها نقل وقائع هذا المؤتمر الذي انعقد بقصر هلال سنة 1934 والذي بعث فيه الحزب الدستوري الجديد.

ولقد أصدر كتيّبا دوّن فيه مشاهداته وخواطره عند زيارته لأهمّ مدن الأندلس: قرطبة وإشبيلية وغرناطة، وذلك بعنوان: «الأندلس كأنك تراها» (1933).

ومن خلال كلّ هذه المؤلّفات يبدو سعيد أبو بكر أديبا مرهفا ذوّاقا تفاعل مع عصره ووطنيّا صادقا تبنّى أهمّ قضايا بلاده فدعا إلى نشر التعليم، ودعا إلى رعاية الأسرة وتخليص المرأة من القيود المجحفة. يقول على لسان الفتاة التي صارحت أباها برفضها للزوج الذي اختاره لها (رمل):

فاتركوني أنتخب زوجي ولا
تمنعوني، إنّني لست جماد

ودعا أيضا إلى الوقوف في وجه البدع والمنكرات والتصدّي لعابدات الأضرحة والزوايا (رمل):

أمّهات قفن في وجه البدع
وأرحن الشعب من هذي الهموم
في الملاهي زهرة العمر تقع
وبكأس الراح أنواع السموم

ودعا أيضا إلى مؤازرة العمّال في نضالهم العادل من أجل الكرامة، فقال في قصيد بعنوان «واقعة بنزرت» (بسيط):

لا يرجع الحرّ عن أسباب نهضته
حتى ولو سكن «البوليس» في الدار!

وهكذا يعتبر سعيد أبوبكر من أبرز الشعراء الملتزمين الذين «صرفوا النظر صرفا مطلقا عن الموضوعات التقليدية وخصّصوا إنتاجهم لمعالجة القضايا الاجتماعية والوطنية ووقفوا إلى جانب الشعب في محنته».

توفي سعيد أبوبكر في 29 جانفي 1948.

محمد أبو راوي
[توفي سنة 931هـ/1524م]

الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمران أبو راوي كان من الصالحين. أصله من القلعة الصغرى من مدينة سوسة، خدم والده الشيخ أحمد بن عروس. ولمّا وُلد له مولود سمّاه بأبي راوي بإشارة من شيخه، لأنّه وُلد في ليلة أمطرت فيها السّماء مطرا عظيما بعد اشتداد الجفاف. عُرف بالتّقى والعبادة. كان قويّ الحافظة وكان له طبّ غريب يداوي به أهل الأسقام.

وكان الشيخ أحمد بن عروس يقول للفقراء: عليكم بأبي راوي فوالله لم يوجد مثله في هذا الزمان. ومازال الفقراء يجتمعون عنده إلى أن توفي بسوسة في رجب من سنة 931هـ/1524م. عاش ستّين عاما وقبره مشهور هناك يُزار، شيّدت حوله زاوية مَعْرُوفة في مدينة سوسة قرب الجامع الكبير.

أبو سعيد الباجي
[551ـ 628هـ/1156ـ 30ـ 1231م]

ولد أبو سعيد خلف بن يحيى التميمي الباجي ببلدة باجة القديمة من ضواحي تونس الغربية، وبها زاول دراسته الأولى. ظهر عليه منذ حداثة سنّه ميله إلى الحياة الروحية والتعمّق في التصوّف والسير في طريقه قبل أن يلتقي بثلاثة من أكابر التصوّف كان لهم تأثير بارز في حياته وهم: أبو مروان البوني (ت 601هـ/1204م)، وأبو مديـن شعيب (ت 594هـ/1197ـ1198م)، وعبد العزيز المهدوي (ت 621هـ/ 1224م) إضافة إلى التقائه بأبي علي النفطي، وأبي يوسف يعقوب الدهماني، والطاهر المزوغي.

كان أبو سعيد الباجي علامة بارزة في الحياة الصوفية بإفريقية زمن الدولة الحفصية، إليه آلت حلقة المهدوي الصوفية فصار شيخا لها.

اجتمعت في حياة أبي سعيد الباجي نوازع الخير، وإغاثة الناس، مع حبّ العلم، والانقطاع إلى الزهد، والمجاهدة، وإيثار التأمل والاعتكاف في الخلوات، والمرابطة في المغارات، وقد هام بالمحبة الإلهية، كما جاء في مناقبه التي دَوَّنها أبو الحسن علي بن القاسم الهـوّاري (ت 666هـ/1267 ـ 1268م) في مجموع يضمّ ترجمة لعدد من أولياء الحاضرة.

خرج أبو سعيـد الباجي من باجـة إلى الحـج سنة 603هـ/1206 ـ 1207م. ومنها انتقل إلى الشام ثمّ رجع إلى تونس (606 هـ/1209 ـ 1210م) حيث ازداد عدد أتباعه وذاعِ صيته.



مقام سيدي أبي سعيد الباجي (الضاحية الشمالية لمدينة تونس)

واتخذ من مغارة بجبل المنار ميعادا لحلقة ذكر، وسنّ منهجا ومقصدا متفرّدا في الحياة الروحية، وقد بقي ما يزيد عن العشرين سنة ينشر مبادئ التصوف بين سكان الحاضرة وأحوازها رافضا كل العروض والهدايا والخطط التي عرضها عليه أبو العلاء الموحّدي المناصر للتصوف.

واشتهر أبو سعيد الباجي بتدريس أسرار التصوّف بمجلسه بجبل المنار، حيث كان له كلام كثير في التوحيد، والمعاملات، ومراتب المكاشفة، كما تبرز مناقبه سعة علمه ومدى اطلاعه على فقه الشرع، وقدرته على الإفتاء في أداء الفرائض والواجبات من جهة الوقت والمكان، ولم يكن علمه ينفصل عن حياته الروحية وتأمله ومجاهداته لا سيما أنه كان دائم الإقامة بجبل المنار وقد اختاره مكانا للزّهد والعبادة.

ولم يكن الوليّ سيدي أبو سعيد يهتمّ كثيرا بمعرفة الناس وبمخالطتهم أو بمجادلتهم في آرائهم رغم اهتمامه بالعلماء واطلاعه على مختلف المذاهب وأسرار العلوم. «كان في أوّل ابتداء مقامه ملازما لمسجد برباط البحر (بباب البحر لمدينة تونس) لا يعرفه إذّاك إلاّ قليل من الناس مثل أبي الحجاج يوسف الصيّاد المعروف بابن الشمّاع، وكان هذا الشيخ من خاصته، وعاش بعده مدّة من الزمان ونقل عنه كثيرا...»

وقد كان لهذه العوامل مجتمعة الأثر الكبير في تبوإ الشيخ أبي سعيد الباجي مكانة اجتماعية وعلمية ودينية مهمّة جعلته مقصد الزائرين إلى تونس من أهل العلم والصلاح...

ويمكن أن نستنتج أنّه كان لمنهجه في الحياة الروحية وقعه وأثره الشديد على السائرين في الطريق الصوفي إذ تخرّج في حلقته عدد من أقطاب التصوّف لَعَلَّ أبا الحسن الشاذلي أبرزهم، فقد ورد ضمن مناقبه: «لما دخلت تونس قصدت من فيها فما عرفني بما كنت في حيرة منه إلا ولي الله أبو سعيد الباجي، فلازمته وانتفعت به كثيرا».

وقد أصبح جبل المنار بعد وفاته يعرف بجبل أبي سعيد ويقصده الكثير من الزُوّار.

أبو فهر [موقع]

يقع «أبو فهر» في المركز العمراني الشمالي لمدينة تونس ويندرج ضمن منطقة سكنيّة على طول الحافة الجنوبيّة وعند مدخل بلدة أريانة. وبحكم موقعه، خضع للتهيئة العمرانيّة فشيّدت فيه العمارات وركّزت شبكة للطرقات وجهّز ببنية تحتيّة حديثة... ولم يبق منه إلاّ قطعة أرض تمسح 6 هكتارات، وهي أرض عارية لا تنبت فيها إلاّ نباتات بريّة.

ولا شكّ في أنه لن تتسنّى لنا معرفة المساحة الحقيقية لهذا الموقع التاريخي، حيث تقوم في الجانبين الغربي والجنوبي جدران كبيرة من الطوب متآكلة جدّا، كما تقوم آثار حوض فسيح، وهو ما أتاح تحديد موقع «جنان أبي فهر» التي ترجع إلى القرن الثالث عشر(م). وما وقعت صيانة هذا الموقع إلاّ بفضل تلك الآثار التي حملت الكاتب العامّ للحكومة التونسية سنة 1912 على اتّخاذ قرار يعتبر هذا الحوض معلما تاريخيّا. وكان «بول غوكلر» (Paul Gauckler) أوّل من اكتشف المعلم سنة 1902 وحقّق أنّه موقع أبي فهر.

أمر ببناء «جنان أبي فهر» السلطان الحفصي أبو عبد الله المستنصر (1249–1277م) وهو نجل أبي زكرياء مؤسّس الدولة الحفصية سنة 1228م. ويعد «أبو فهر» جزءا من مشروع مائي ضخم إذ أقيمت أشغال سمحت بإيصال مياه زغوان إلى العاصمة وإلى جامع الزيتونة بالذّات وجنان السلطان.

وقد أخبرنا الزركشي أنّ الأشغال بدأت سنة 648هـ/1250م أي بعد سنة من تولّي السلطان وأنّها انتهت سنة 666هـ/1267 ـ 1268م، كما أخبرنا أنّ المستنصر تولّى ترميم الحنايا الرومانية

وإصلاحها حتى يتسنّى جلب ماء زغوان إلى تونس وإلى «جنان أبي فهر». ونجد المعلومات نفسها عند العبدري والعمري وابن أبي دينار.

وقد أنفق السلطان أموالا كثيرة على هذه الجنان الفخمة التي استغرق إنجازها 18 سنة وجنّد لها آلاف العمّال.

قبل إجراء الحفريات تبيّن لنا أنّ الحائط الغربي للحوض الكبير يمتدّ على طول 183م وأنّ الحائط الجنوبيّ يمتدّ على 39م، ويبلغ سمكهما 2,5م وارتفاعهما على أقصى تقدير 2م. ولا نعرف يقينا عن هذا الحوض الكبير إلاّ عرضه وهو 78,50م، دون اعتبار سمك الجدران وتقدّر سعته بـ45000م3. أما الجناح فيبدو أنه مستطيل الشكل ويمتدّ من الشرق إلى الغرب على مدى 31م.

المواد وتقنيات البناء

بني الجناح والحوض من الطوب كما أسلفنا. وقد وصف ابن خلدون في مقدّمته تقنية البناء في ذلك العهد حيث قال: «ومنها البناء بالتراب خاصّة يتّخذ لها لوحان من الخشب مقدّران طولا وعرضا باختلاف العادات في التقدير وأوسطه أربعة أذرع في ذراعين فينصبان على أساس وقد بوعد ما بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الأساس ويوصل بينهما بأذرع من الخشب يربط عليها بالحبال والجدر ويسدّ الجهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما بلوحين آخرين صغيرين ثمّ يوضع فيه التراب مخلطا بالكلس ويركّز بالمراكز المعدّة حتّى ينعم ركزه وتختلط أجزاؤه ثمّ يزاد التراب ثانيا وثالثا إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحين، وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسما واحدا، ثمّ يعاد نصب اللوحين على الصورة ويركز كذلك إلى أن يتمّ وينظم الألواح كلها سطرا من فوق سطر إلى أن ينتظم الحائط كلّه ملتحما كأنّه قطعة واحدة ويسمّى الطابية وصانعه الطوّاب».(المقدمة ط. بولاق. 1320هـ، ص 386.). وبداخل الحوض طليت الجدران بطلاء من النوع الهيدروليكي سمكه 5 صم متكوّن من خليط من الكلس والجبس وفحم الحطب ومن كميّة ضعيفة من الفخار المهروس. ولقد اندثر هذا الطلاء ولم يبق إلاّ في بعض المواضع، وأساسا على الجدران التي كانت مدفونة في باطن الأرض.

ولنا أن نتساءل: لماذا اختار مهندسو المستنصر الطوب؟ والحال أنّ الحجارة متوافرة في تونس وأنّ المباني العامّة والمنازل الخاصّة مبنيّة في الغالب بالحجارة، فلا شكّ في أنه اختيار عن قصد لتقنية بناء ومادّته اعتبرتا أكثر ملاءمة لمنشأة هيدروليكية لها مثل تلك الأهمية.

وللطّوب الحفصي الذي يمثّله هنا حوض «أبي فهر» صلابة شبيهة بصلابة الحجارة. وكان مستعملا بكثرة في الهندسة المعمارية الإسلامية بالأندلس. وفي تونس أمر الواثق - وهو الذي خلف المستنصر - بدعم الأسوار ومنشآتها الدفاعية (باب الجديد) واستخدام مواد قريبة من التي استخدمت في بناء الحوض. وأتاحت لنا الحفريّات التعرّف إلى موادّ أخرى استعملت للبناء والزينة كالصوّان والرخام الأصفر والمجزّع بالورديّ (من شمتو) والزليج الأبيض والأسود... وهي موادّ تنمّ عن ترف لا تقدر عليه إلاّ الطبقات المحظوظة، ولن تستخدم بكثرة إلاّ في القرنين الخامس عشر والسادس عشر من قبل البرجوازية الحضرية لتكسية الجدران التي ستصبح أهم عنصر من عناصر التزيين المعماري.

توضيح المعطيات الأثريّة والتاريخيّة

إنّ الحفريات التي قمنا بها لم تنته بعد، لكنّها سمحت لنا باستكشاف الحوض والجناح استكشافا جزئيّا يمكّننا من تكوين فكرة عنهما. ففي خصوص الموقع، ليس لنا ما يدلّنا على احتلاله قبل العهد الحفصي. أمّا احتلاله المتأخّر في بداية القرن العشرين – كما تشهد به أرضيّة الآجر والقطعة النقدية التي ضربت في

عهد الناصر باي – فهو عديم الدلالة. وفي خصوص البناءات ذات الأشكال الهندسية الأنيقة والمتناسقة فقد خُطّطت شرفتها وهيّئت لإعطاء السلطان مكان الصدارة وإبراز أبّهة ملكه. ويبدو أنّ المستنصر لم يقرّر إنجاز «أبي فهر» إلاّ بدافعين متناقضين: الورع والتسلية. ويذكر العبدري في «رحلته» التي ألّفها في أواخر القرن الثالث عشر (م) أنّ جامع الزيتونة لم يكن يزوّد إلاّ بكمّيّة ضئيلة من مياه الحنايا التي كان جلّها مخصّصا لقصور السلطان وجنانه. قد تكون هذه الملاحظة صحيحة وقد لا تخلو من بعض المبالغة إذا أدخلنا في الاعتبار موقف الموحدين من الترف والبذخ، وهو موقف يتّسم بكثير من الارتياب وحتّى الاستنكار. وفي الواقع كان هدف المستنصر تزويد الجامع الأعظم بالماء وتمكين المصلّين من الوضوء ولم يكن تزويد المدينة من أولويّاته، إذ كان على سكّان العاصمة أن يعوّلوا على مواجلهم وعلى بعض الآبار الجماعية. وكانت تونس مثل سائر مدن إفريقية تعاني من نقص الماء، خصوصا عندما أخذ عدد سكّانها يتزايد.

وكان «بستان أبي فهر» بحوضه الضخم وقصوره وأبراجه وغياضه ورياضه ومستنقعاته في حاجة ماسّة إلى مياه الحنايا، ولكن لم يدم طويلا على ما يبدو. فبعد وفاة المستنصر الذي واصل على غرار أبيه دعم أركان الدولة، مرّت البلاد بفترة طويلة من عدم الاستقرار السياسيّ غير ملائمة لإنجاز الأشغال الكبرى. وهي فترة اتّسمت على حدّ قول «برنشفيك» (R.Brunschvig) بالاضطرابات والضعف والانقسامات التي مرّت بها إفريقية على مدى حوالي مائة سنة منذ موت المستنصر. ولم تنجز أشغال مائية مهمّة إلاّ بعد تولّي أبي فارس (1394 – 1434) وخاصّة في عهد أبي عمرو عثمان (1435 – 1488).

ولا نعرف متى كان التخلّي النهائيّ عن «جنان أبي فهر» والأرجح أنّ ذلك وقع عندما اختلّت الحنايا تماما. فلم يبق من هذه الجنان في القرن السابع عشر إلاّ الحوض وبعض الخرائب، حسب شهادة ابن أبي دينار الذي يضيف أنّ اسم الموقع لم يبق له أثر في ذاكرة السكّان وأنّه أصبح يسمّى في أيّامه البطّوم. وفعلا، يوجد اليوم على مقربة من الموقع مكان يدعى بير البطّوم. فتغيير الاسم يحملنا على الاعتقاد أنّ تخلّي عن الموقع قبل القرن السابع عشر بكثير. وكان المستنصر الذي تقلّد الحكم في الثانية والعشرين من عمره قد وضع حدّا للمثل الأعلى الذي دأب عليه الموحّدون والذي اتّبعه أبوه بصرامة والقائم على حياة الشظف والتقشّف واختار أسلوبا جديدا في العيش يتّسم بالتّرف والبذخ. ويندرج «أبو فهر» في نطاق جملة من المنشآت العظمى كان الغرض منها توفير المتعة واللّذة للسلطان وإحاطته بهالة من الهيبة والأبّهة. وقد عدّد ابن خلدون في تاريخه بعض تلك المنشآت مثل المنتزه الفسيح الذي أقيم للصيد قرب بنزرت ومثل البستان الذي أقيم برأس الطابية ومثل قبّة أساراك التي شيّدها المستنصر قبالة قصره، وهي كلّها مبان فخمة تبرز عظمة السلطان وتتجذّر في تقاليد سياسية إسلامية عريقة، من الأمويين إلى العبّاسيين ومن الأغالبة إلى الفاطميين.

ومن حيث التصنيف ليس «لأبي فهر» علامات مميّزة تسمح بإدراجه في النموذج العباسي، لذلك فهو مقطوع الصلة بالتقليد القيرواني. ومن جهة أخرى، ورغم بعض المظاهر المشتركة بينه وبين النموذج الأموي، فهو لا يندرج فيه بل يمتاز بخصائص معمارية جامعة ومؤلّفة لعدّة نماذج كانت متواجدة في العالم الإسلامي في ذلك العهد. ولئن رأى جورج مارسيه (Georges Marçais) أنّ بركة السباع بحمراء غرناطة هي النموذج الأصلي لعدّة منشآت معمارية في المغرب، فإنّنا نرجّح أنّ الغرناطيّين استوحوا من نموذج قديم جدّا فكرتهم المعمارية الرئيسة. ذلك أنّ حوض «أبي فهر» وجناحيه يتوسّطان البستان ويمثلان العنصر

المركزيّ فيه. ومعلوم أنّ التصميم الإسلامي للبستان يولي اهتماما خاصّا للمركز، وهو في الأصل تصوّر فارسي تبنّاه المسلمون. وكثيرا ما يقارن البستان ذو الطابع الإسلامي بالجنّة كما جاء وصفها في القرآن.

إنّ «أبا فهر» مثال جيّد ومتأخّر لبستان شرقيّ. وقد استطاع المسلمون أن يفرضوا أنموذجا طريفا يختلف كلّ الاختلاف عن البستان الكلاسيكي ذي الطابع الروماني. فهما نموذجان يعكسان موقفين مغايرين من الطبيعة. يقول ماسينيون (Massignon): «في المثال الكلاسيكي تتجلّى الرغبة في السيطرة على العالم من منظور مركزي تترامى أطرافه إلى الآفاق وتنعكس الأبعاد في مياه أحواضه الكبيرة وتتحكّم بالإرادة المركزية في أشجاره، ولكنّها تذهب شيئا فشيئا إلى غزو كامل المحيط المجاور. أمّا في البستان الشرقي، فالأولويّة تعطى للغلق ولا ينصرف الاهتمام إلى الأطراف بل إلى المركز. ففي داخل الحديقة الإسلامية المحاطة بسورها تخميسات من الأشجار والأزهار تتجمّع انطلاقا من المحيط البعيد، متراصّة أكثر فأكثر كلّما اقتربت من المركز، وفي المركز يقوم البرج».

وفي «أبي فهر» كان البرج مكانا رسميّا ومكانا خاصّا في آن واحد. كان المستنصر يستقبل فيه رجال دولته وبالأخصّ العلماء والشعراء الذين كان أغلبهم من الأندلسيين المهاجرين إلى تونس. وفي فترات أخرى، كان من أعلى شرفته يجد متعة شديدة في مشاهدة الحسان من جواري قصره يسبحن ويمرحن في مياه الحوض الصافية.

أبو لبابة الأنصاري

[ت 40هـ/660 - 661م]

هو بشير بن عبد المنذر بن رفاعة بن زبير بن أمية من بني عمرو بن مالك بن عوف بن الأوس بن الخزرج الأكبر ابن حارثة ابن ثعلبة... وبعض هذه التسمية مثبت في رخامة توجد برأس الضريح بقابس. أمّه نسيبة بنت زيد ابن ضبيعة، وكني بابنته لبابة وهي البنت الأولى وقد اشتهر بهذا الاسم في المشرق والمغرب وله أبناء آخرون منهم السائب وعبد الرحمان، أمّا زوجته فهي زينب بنت خدام ابن ثعلبة ابن زيد ابن عبيد ابن أميّة ابن زيد.

لقد صاحب أبو لبابة الرّسول محمّد (ص) وكان من جملة من استقبله في الهجرة إلى المدينة واتّخذ من الرسول أسوة حسنة وتخلّق بأخلاقه وتأدب بالقرآن، وشارك في أغلب الغزوات. وقد روى كثيرا من الأحاديث عن الرسول وهو ما يؤكّد مدى ملازمته له وروايته عنه.

وكانت له مكانة اجتماعيّة مرموقة إذ صاهر عائلة الخطاب وذلك بأن تزوّجت ابنته لبابة من الفارس زيد بن الخطاب شقيق الخليفة عمر بن الخطاب.

أمّا الحادثة التي غيّرت مجرى تاريخ الصحابي أبي لبابة فهي واقعة يهود بني قريظة، إذ حاصر المسلمون بني قريظة خمسا وعشرين ليلة. ولقد طلب اليهود من الرسول بأن يرسل إليهم أبا لبابة صاحبه ليستشيروه في أمرهم، ويبدو أن ذلك لم يتحقّق مثلما كان مقرّرا حسبما يذكر المؤرّخون إذ رجح أبو لبابة موقف قبيلة الأوس التي ينتسب إليها والتي تربطها مصالح مع قبيلة بني قريظة فاضطرّ إلى تعديل موقفه وإعلان التوبة، فخرج الرسول محمد بهذه التوبة قائلا: تيب على أبي لبابة وأورد: قوله تعالى: «وآخرون اعترفوا بذنوبهم...» إلى آخر الآية.

وقد كانت وفاته في ضواحي قابس في المكان المعروف «بوادي الغيران» ولم يعرف سبب وفاته إن كان قد توفى مستشهدا أم بسبب مرض الطاعون الذي انتشر آنذاك وعلى الأخص في تلك الأماكن. ثم نقل إلى حيث ضريحه اليوم ليكون في تلك الربوة المطلّة على البحر والكائنة

بالطريق القديمة الرّابطة بين الجنوب والشمال، وصار المكان الذي توفّي به أبو لبابة يعرف بـ« المصلّى ». وتوفّي سنة 40هـ كما تثبت الرّخامة الموضوعة على الضريح في مدينة قابس.

وقد ذكر العبدري في رحلته التي ألّفها في أواخر القرن السابع للهجرة متحدثا عن قابس أن بها « قبر أبي لبابة صاحب رسول الله وعليه مسجد وهو فيه بيت مغلق ».

كما ذكر ابن ناجي القيرواني في تكملته على « معالم الإيمان » للدبّاغ قائلا « لمّا وليت قضاء قابس وجدتهم يزورون قبرا في بيت نظيفة داخل مسجد خارج البلاد في غربها يسمى مسجد أبي لبابة ». وقد أدخلت على الضّريح بعض التّحسينات في عصور مختلفة مثل التي وقعت في العهد المرادي على مرحلتين: في عهد حمّودة باشا (1041–1076هـ/ 1633–1666م) وفي عهد محمّد المرادي حفيد حمّودة باشا (1086هـ/ 1675م) والتّحسينات التي تمت في العهد الحسيني مع محمد الصادق باي 1881م.

وتواصلت الإصلاحات والترميمات إلى أواخر القرن العشرين، فقد حصلت التّوسعة الكبيرة التي بني فيها مسجد عصري ضخم محاذ للضّريح من الجهة الغربية ويفتح عليها من مسلكين متّصلين بالضّريح ومن باب ثالث مستقلّ جانبي محاذ لحائط الضّريح من الجهة الشمالية.

أبوليوس
[ولد حوالي 125م]

بلغت مقاطعات الإمبراطورية الرومانية بشمال القارة الإفريقية أوج ازدهارها المادّي وقمّة تقدمها الحضاري في القرن الثاني بعد الميلاد، فاتّسع نطاق التحضّر، وشمل العمران أرجاء البلاد وتكاملت أسباب الرفاهة المادية، بفضل ما وفّره النموّ الاقتصادي من مكاسب وأرباح. وتطوّر المجتمع الإفريقي، ففتح في وجه أغنياء الأفارقة ووجهائهم باب الطبقات النبيلة في الإمبراطورية، والتحقت جموع كبيرة بصنف الفرسان (ordo equestris) وارتقى الكثير منهم إلى صنف الشيوخ (ordo senatorius). فكان عند ذلك إسهام الأفارقة في المسك بزمام الدواليب الاقتصادية والأجهزة الإدارية والقيادات العسكرية إسهاما فعليّا. وانتشر التعليم في عواصم المقاطعات الإفريقية ومدنها، وتداولت الكتب اللاتينية واليونانية بين المثقفين، فتواصل بذلك تفتح الثقافة الإفريقية على ما كانت بلاد اليونان والشرق القديم ومصر من ناحية، والعاصمة الرومانية من ناحية أخرى، تزوّد به النخبة منذ عهد بعيد، وتؤثر به على منحى التطلّعات الفكريّة والتيارات الفنيّة.

وكان من الأدباء وكبار المثقفين الأفارقة، ممّن ذاع صيتهم في ذلك العصر الذّهبي، الأديب أبوليوس (Apuleius)، أصيل مادوروس (Madauros)، وهي المدينة النوميدية التي لا يزال اسم أمدوروش يطلق على موقعها الأثري بولاية قسنطينة بالقطر الجزائري على مقربة من الحدود التونسية.

أسّست مادوروس في القرن الثالث قبل الميلاد، وأصبحت في عهد الملك النوميدي ماسنيسا (Massinissa) مركزا مهما يحرس التخوم الجنوبيّة على مشارف بلاد جيتوليا (Gaetulia). أما بعد الاحتلال الروماني وفي عهد أباطرة الأسرة الفلاويّة (Falavii) في أثناء الثلث الأخير من القرن الأول الميلادي، فقد وقع الاختيار على موقعها لاستيطان جمع من قدماء المحاربين الرومان عهد إليهم بمراقبة تحركات قبيلة كانت من أخطر القبائل الجيتوليّة، وهي قبيلة الموزولاميين (gens Musulamiorun) ولم تلبث هذه النواة من المستوطنين الرّومان أن اندمجت في الوسط الاجتماعي الإفريقي، حتى صار أبوليوس يفخر فيما بعد بأصالته النوميدية الجيتوليّة معا.

يكتنف الغموض سنوات كثيرة من حياة أبوليوس، لأنّه لا يسلّط الأضواء في مؤلفاته إلاّ على فترات منها، ولا نجد من دون مؤلفاته بديلا يورد أخباره، باستناء ما يورده القدّيس أوغوسطينوس (Augustinus) من طفيف الأخبار. ولد حوالي سنة 125 ميلاديًّا، وكان أبوه حاكما بلديًّا ميسورا قد تقلّب في مناصب الحكم البلدي التي كانت حكرا على وجهاء المدن وأغنيائها، حتى بلغ أسمى الرتب عندما أصبح أحد «الرجلين المشرفين على إدارة المدينة» (duoviri). ويرجّح المؤرخون أنّه كان، كسائر الوجهاء الأفارقة، يمتلك في ريف مدينته حقولا من الحنطة والزياتين جعلت إرثه يبلغ مَبْلَغًا مهما من المال (مليوني سترسيوم) اقتسمه أبوليوس مع أخيه.

بلغ أبوليوس سنّ الدّراسة في عهد كانت فيه الطبقات الاجتماعية الوسطى بالمقاطعات الافريقية مصرّة على بذل أقصى الجهد للفوز بالرقي الاجتماعي والالتحاق بصفّ الفئات النبيلة. ولذا كانت حريصة على تزويد أنجالها برصيد من الثقافة اللاتينية الأصيلة حتى تؤهلهم لاحتلال المناصب الإدارية المنتظرة عند بلوغ الغرض. ولا تتخلف مدينة من المدن، مهما صغرت وقلّ سكّانها، عن توفير التّعليم في مرحلته الأولى التي يلقّن المعلم (magister ludi) فيها التلاميذ الصغار القراءة والكتابة ومبادئ الحساب، معتمدا طرائق بيداغوجية تعتمد على الحافظة والتقليد. لقد توارث المربون، منذ أحقاب الحضارة الهلّينستيّة، هذه الطرائق، وتوارثوا كذلك ما كانت تتوخاه من صرامة الممارسات التربويّة والقسر الذي بقي ذكره راسخا في ذهن القديس أوغوستينوس حتى أيام الشيخوخة.

وبينما كانت المدن الصغرى تقتصر على توفير هذه المرحلة من مراحل التعليم، كانت مادوروس تعدّ من الأمصار التي يستطيع فيها الطلاب مواصلة دراستهم، فقد كان يؤمّها من أبناء الطبقات الاجتماعية الوسطى بالمدن المجاورة من يسر حاله أو استطاعت أسرته تحمّل أعباء الانفاق رغم فقرها. وكان ذلك شأن أسرة الطالب أوغوسطينوس في موفّى القرن الرابع، فشدّ الرحال من مسقط رأسه تاغاست (Thagaste) (على أنقاضها أقيمت مدينة سوق اهراس الجزائرية) لمواصلة التعليم بمادوروس ثمّ بقرطاج. أما أبوليوس فانه لم يغادر مادوروس طيلة المراحل الأولى من الدراسة، فانتقل من صفّ المعلّم إلى صفّ أستاذ اللغة (grammaticus latinus) الذي علّمه اللغة وقواعدها وعرّفه بالأدب الكلاسيكي وأعلامه، وفي مقدّمتهم ورجيليوس (Virgilius) وشيشرون (Cicero).

لقد اضطلعت المدارس إذن، على اختلاف درجاتها، بدور أساس في رومنة المقاطعات الإفريقية ونشر اللغة اللاتينية وأدبها، وإذاعة أشعار ورجيليوس وكتب شيشرون. وما سلامة لغة النقائش اللاتينية التي ما زالت تزخر بها المواقع الأثرية إلا دليل على المستوى الرفيع الذي بلغه هذا التعليم، فكان التلاميذ يتهافتون جيلا بعد جيل على دروس أشهر النحويين (grammatici) وفي مقدمتهم سولبيوسيوس أبولّيناريس (Sulpicius Apollinaris) بقرطاج، ونونيوس مارسلّوس (Nonius Marcellus) بتوبورسيقو نوميداروم (Thubursicu Numidarum) (على أنقاضها تقع مدينة خميسة بالجزائر قرب الحدود التونسية)، وترنسيوس (Terentius) ويوبا (Juba) المتضلّعان من علم العروض. ولكنّ تشبّث النحويين الأفارقة بقواعد البلاغة، واهتمامهم المفرط بجمال الأسلوب، وبحثهم الحثيث عن الكلمات المستهجنة والتعابير اللغوية القديمة، كان ينمّ عن اهتمام مشطّ بالصّياغة واللفظ، وعن قلّة تقدير للمعنى ومدلول الكلام. وهذا ما يعيبه المؤرخون والأدباء المعاصرون على الأشعار الرثائية المنقوشة على أنصاب المقابر بالمواقع الأثرية

الإفريقية عموما، وبمادوروس على سبيل المثال، فكثيرا ما تكون جوفاء المحتوى، هزيلة المعنى، رغم حرص الناظم على انتقاء الكلمات وتنميقها، واختيار التعابير وتزويقها. أمّا ثغرات هذا التعليم فقد كانت كثيرة، إذ لا نجد أثرا في البرامج للتّكوين الضروري في التاريخ والفلسفة والعلوم. وحتى إذا ما شمل التعليم اللغة اليونانية في بعض الأمصار، ومن بينها مادوروس، وهي لم تزل منذ أحقاب متتالية لغة الفلاسفة وكبار المثقفين، فإنّ شهادة القدّيس أوغوستينوس تحكم على الأساتذة الأفارقة في عصره بالفشل إذ لم يمكنه تعليمهم من فهم نصّ باللغة اليونانية إلاّ إذا ما استحضر ترجمته إلى اللاتينية.

أمّا من حظوا من الطلبة الأفارقة ببلوغ مرحلة التعليم العالي، فقد كانوا يتوافدون على قرطاج، عاصمة المقاطعة ومنبع العرفان ومعقل الأدب والثقافة بالربوع الإفريقية. وقد أمّها أبوليوس، بعد إنهاء المرحلة الثانوية بمادوروس، فأقبل على دروس الفصاحة والخطابة متلقيا تعليم « الريتور » (Rhetor) مدرّس البلاغة، بكدّ وشغف وتوق إلى اكتساب البراعة في صياغة فصيح الكلام واختيار اللفظ البليغ الذي يضفي على الخطبة رونقها وبهرجها.

لكنّ دروس الريتور لم تشف غليل أبوليوس، وأيقن أنّ تكوين المثقف لا يكتمل إلا بالإقبال على التعاليم الفلسفية والسفر إلى بلاد اليونان. فشدّ الرحال إلى أثينا التي كانت، على مرّ القرون، عاصمة الفلاسفة وموطن الحركات الفكرية، خصوصا وقد استرجعت، في بداية القرن الثاني بعد الميلاد، الآداب اليونانية حيويّتها، وانتصب بأثينا الفيلسوف « غايوس » (Gaios) مجدّدا للمدرسة الأفلاطونية، فتتلمذ أبوليوس لمدرسي الفلسفة الأفلاطونية من أتباع غايوس، وتعرّف إلى كتبهم واطلع على متونها وشروحها. لكنّ المدرسة الأفلاطونيّة أصبحت، في عهد أبوليوس، تقتصر على السرد وتلقين القواعد المبسّطة والجامدة من ناحية، والمقترنة بميل شديد إلى التديّن والتصوّف من ناحية أخرى. فكان بروز هذا الجانب الصوفي واستتبابه ينذر، منذ القرن الثاني، بالتحوّل الذي ستحدثه تعاليم بلوتينوس (Plotinus) وبورفيريوس (Porphyrios) بانزلاق المدرسة الأفلاطونية إلى التصوّف في القرن الثالث.

وقد حدث هذا الانزلاق فعلا في شواغل أبوليوس فتحوّل شيئا فشيئا تعلّقه بالمسائل الفلسفية إلى شغف بالمسائل الدينية، ودفعه هذا الشغف المقترن بميله إلى التنقّل والسفر، وبحرصه على الاكتشاف والاطلاع عن كثب، إلى زيارة البقاع والمعالم الشهيرة بعدّة بلدان شرقية، ومنها خاصة، حسبما يبدو من مؤلفاته، بلاد تيساليا (Thessalia) التي اشتهرت بالسحر والشعوذة. وهي بلاد تقع بالشمال اليوناني، حيث يقوم لوقيوس (Lucius) بطل قصّة « المسوخ » (Metamorphoses) أو « التحولات » بمغامراته الأولى. وزار أبوليوس كذلك جزر « بحر إيجي » حيث ارتاد دون شكّ معبد الربّة اليونانية الكبرى هيرا (Hera) بجزيرة ساموس (Samos) – كما يدلّ على ذلك وصفه البديع لهذا المعبد في إحدى المحاضرات التي ألقاها بمسرح قرطاج – وزار آسيا الصغرى، حيث تجوّل ببلاد فريجيا، (Phrygia) وربّما زار كذلك البلاد المصريّة.

وبلغ به الإصرار على البحث عن السّند الديني الكفيل بضمان النجاة لروحه الحائرة، والاستقرار لفكره المضطرب، والطمأنينة لنفسه القلقة، أن التحق بصفّ العبّاد المطّلعين على الأسرار الخفية، وهي أسرار لا تكشف إلاّ لمن خضع لمقتضيات الطّقوس التي كانت تقام بحرم البقاع المقدّسة، نذكر منها خاصة حرم معبد ديميتار ربّة الخصب عند اليونان بمدينة إلُوزيس (Eleusis).

لكنّ أبوليوس لم يقتصر على تعاليم المدرسة الأفلاطونية، بل اجتهد في فتح آفاق معارفه ومهاراته بالتتلمذ لأتباع المدرسة

الارسطوطاليسية، وبالطموح إلى محاكاة السوفسطائيين في قدرتهم على الإحاطة بالعلوم مهما اختلفت ميادينها، وعلى الآداب والفنون بأنواعها، حتى شملت موسوعة معارفه علوم الطبيعة، والهندسة، وعلم الفلك، والشعر، والموسيقى، وأصبح يتمنى النسج على منوال كبار السوفسطائيين في ذلك العصر، والسفر مثلهم من مدينة إلى أخرى تلبية لرغبة الجماهير الولوعة بالاستماع إلى محاضراته.

وتعلّقت همّة أبوليوس بالسفر إلى روما، عاصمة أوربا ومركز الثقل في العالم القديم، حيث يلتقي بالبلاط الأمبراطوري وبمجلس الشيوخ «أهل الحل والعقد» فيحتد بين المنتمين إلى صنفين الاجتماعيين النبيلين – وهما صنفا الشيوخ والفرسان كما ذكرنا – التنافس على مناصب الحكم والإدارة، وإلى حيث يتوافد من ولايات الامبراطورية وبلدانها ذوو المواهب في ميادين الأدب والفنّ، فيتكافل إسهامهم في إغناء الحياة الثقافية وإشعاعها، فشدّ أبوليوس الرحّال إلى العاصمة الرومانية، وقضّى بها ردحا من الزّمن مثلما فعل من بعده أصغر رفاقه في الدراسة بأثينا وهو بونتيانوس (Pontianus)، أصيل مدينة أويَا (Oea)، (على أنقاضها توجد اليوم مدينة طرابلس) لكن كتب أبوليوس ومحاضراته تحجم عن ذكر أخبار حلوله ونشاطه بروما. فلا يشير أبوليوس إلى ذلك إلا عرضا، في خطبة مدحيّة ألقيت بقرطاج، بين يدي «البروقنصل» (Proconsul) اسقيبيو أورفيتوس (Scipio Orfitus) والي المقاطعة الإفريقية، وكان قد تعرّف عليه بروما، في من تعرّف عليهم من العظماء والوجهاء.

ينسب المؤرخون إلى أبوليوس، تلافيا لصمت المصادر، نشاط بطله لوقيوس (Lucius) في رواية «المسوخ». وقد تعاطى المحاماة في روما، فنجح وتفوّق، ثمّ انصرف إلى الدّين فأضحى من عبّاد الربة المصرية إيزيس، واطلع على ما يكنه دين الآلهة المصرية من أسرار خفيّة حتى أصبح بها عريفا، وتقلّد رتبة باستورفوراس (pastophores)، وهي رتبة مرموقة من رتب كهنوت الإله أوزيريس (Osiris). ولم يطمح أبوليوس، في أثناء إقامته بروما، في استغلال علاقته ببعض النّبلاء والعظماء من صنف الشيوخ، أمثال أورفيتوس، للسّعي كغيره من الشبان الأفارقة من أبناء الأسر الغنيّة إلى بلوغ مرتبة اجتماعية عليا يمكّنه منها الوظيف، بل إنّه تشبّث باختياره للفلسفة والآداب، وقفل راجعا إلى قرطاج ومادوروس، حيث كان عضوا من أعضاء مجلس الوجهاء (ordo decurionum) المشرفين على إدارة المدينة وسلطاتها.

وكان حنينه إلى العودة إلى المقاطعة الإفريقية يقترن بشدّة التّوق إلى السفر والرحيل من جديد. فلم يلبث أن رغب في زيارة عاصمة من عواصم الشرق، وشدّ الرحال إلى الإسكندرية. لكنّ المرض أجبره على التوقّف بأويا طرابلس بالقطر الليبي، في ضيافة رفيقه بأثينا بونتيانوس، وقد كان لهذا التوقف أثر بالغ في حياته، فهو يزعم أنّ ضيفه أشار عليه بالزواج من أمّه، وكانت أرملة غنية، تسهر بنفسها على شؤون ضيعاتها بحذق ومهارة. فقضّى أبوليوس بأويا، بعد زواجه منها، فترة سعيدة تكفّلت فيَ أثنائها زوجته بودنتيلاّ (Pudentilla) بتوفير أسباب الرفاهة المادية، في حين انهمك كاتبنا في الدراسة والبحث، ببيت فسيح جهّزت قاعاته بمكتبة ومخابر يتعاطى فيها البحوث والتجارب، سواء في العلوم الطبيعية وتشريح الأسماك الغريبة، أو في الفيزياء ودراسة علم البصريات، أو في الطبّ والبحث في الأمراض العصبيّة. وما فتئ ميله إلى الخطابة يحمله مع ذلك على إلقاء المحاضرات بفصاحته المعهودة، ويحمله أيضا على تعاطي المحاماة والاضطلاع بالمرافعة دفاعا عن مصالح زوجته، كلما رفعت قضيّة عقارية أو مالية من قضاياها أمام المحاكم.

لكنّ زواجه من تلك الأرملة الغنيّة نزل نزول

الكارثة على ورثائها وأقاربها، فكثر القيل والقال عن ظروف زواج هذا الشّاب الفقير الغريب عن المدينة وأسبابه من امرأة رفضت طيلة 14 سنة عروض خطابها من وجهاء أويا وأغنيائها. ولم تلبث الأراجيف أن تفاقمت حتى آلت إلى تقديم قضية عدلية، وإلى اتهام أبوليوس بأنّه لجأ إلى تعاطي السحر والشعوذة لحمل بودنتيلا على الزواج منه. وعرضت القضية عند حلول والي المقاطعة قلوديوس ماكسيموس (Claudius Maximus) بصبراطة (Sabratha) بالقطر الليبي لرئاسة المحكمة، عملا بعادة الولاة في الانتقال من مدينة إلى أخرى للغرض. وكان ذلك حوالي سنة 158 أو 159 ميلادية، وقد بلغ سنّ أبوليوس ثلاثين عاما تقريبا. فتقدّم أمام المحكمة لإلقاء مرافعته الشهيرة التي صاغها صياغة أدبيّة فيما بعد، وبلغتنا بعنوان «الدفاع» (Apologia) أو في «موضوع السحر» (De magia). وتمكّن، حسبما يبدو، من تبرئة ساحته رغم ما علق به فيما بعد، طيلة قرون عدّة، من شهرة أسطوريّة في مجال السحر وصنع المبْهرات، تناقلها النّاس وأورد ذكرها كاتبان مسيحيان، لاقتانسيوس (Lactantius) والقدّيس أوغوستينوس.

وغادر أبوليوس أويا وقد خلّفت إقامته بها طيلة ثلاث سنوات مرارة قد نجد لها أثرا عندما يشير في كتاب «المسوخ» أو «التحوّلات»، حسب تأويل بعض المؤرخين، إلى تلك الفترة من حياته.

ثمّ استقرّ بقرطاج حيث جنى ثمار نشاطه الأدبي، وبلغ الشهرة والمجد، فتهافتت الجماهير للاستماع إلى خطبه ومحاضراته، واهتزّت إعجابا بسعة معارفه وفصاحة لسانه، وقد زاد في ولوعها به جمال صوته وأناقة هندامه. فتحقّق الحلم الذي كان يخامره أيام الدراسة بأثينا لمّا كان يصبو إلى منافسة أشهر السوفسطائيين بالشرق، أمثال أيليوس أريستيداس (Aelius Aristeides). وقد بلغتنا مقتطفات، بعنوان «الأزاهير» (Florida)، من الخطب والمحاضرات الأدبية و«الفلسفية» التي كان يلقيها على مسامع الجماهير المكتظّة على مدارج مسرح قرطاج، فكان يحاضر بمهارته المعهودة، متناولا عدّة موضوعات ومبسطا لأعوصها. وكان يضطلع بإلقاء الخطب المدحيّة في المناسبات الرّسمية، تمجيدا لولاة المقاطعة الإفريقية.

لكنّ احتراف أبوليوس الفلسفة والأدب، لم يثنه عن الاضطلاع بالخطة المتوّجة للخطط البلدية والدّينيّة بالمقاطعة، وهي خطة الكاهن الأكبر (sacerdos provinciae) المكلّف برئاسة مجلس المقاطعة (concilium provinciae) طيلة سنة، وبإقامة الطّقوس الدّينية والسياسية معا لعبادة الأمبراطور، والتّعبير له نيابة عن مدن المقاطعة جميعها عن مشاعر الولاء والتقديس، فزادته هذه الخطة شهرة ومجدا، ومكّنته من ربط العلاقات الاجتماعية المفيدة مع النبلاء والعظماء، وفي مقدمتهم ولاة المقاطعة الإفريقية، كما أنه لم ينصرف قطّ عن الاهتمامات الدينية وعن عبادة الآلهة، فاضطلع أيضا، بالإضافة إلى كهنوت الديانة الرسمية، بكهنوت الإله أسقليبيوس (Asclepios)، خليفة الإله الفينيقي والقرطاجي أشمون (Eshmoun)، وقد أقيم له بقمّة ربوة بيرصا (Byrsa) بقرطاج معبد كان محلّ إجلال وتقديس سكان العاصمة الإفريقية.

ولا يشكّ المؤرخون في أن قرطاج قد أقامت لأبوليوس تمثالا أو تمثالين عملا بسنّة العالم الروماني في إقامة التماثيل والأنصاب تخليدا لذكرى رجالاتها، وكما يدلّ على ذلك ما ورد في إحدى خطبه من ثناء لمجلس وجهاء المدينة ولأحد النبلاء القرطاجيين على تلك المبادرة. أمّا مادوروس، مسقط رأسه، فإنها سارعت أيضا بإقامة تمثال واحد على الأقل لفيلسوفها الشهير. وقد كشفت الحفريات قاعدة نصب نقش عليها إهداء إلى «الفيلسوف الأفلاطوني»، كما أنّه احتفظ بمتحف العملة النقدية «والميداليات»

القديمة بباريس بميداليّة تخلّد صورته.
ولم يقتصر أبوليوس، في الفترة الأخيرة من حياته، على المحاضرة والخطابة بقرطاج – ومن خطبه الأخيرة تلك التي أشرنا إليها آنفا، وقد ألقيت بين يدي اسقيبيو أورفيتوس عند تولّيه المقاطعة الإفريقية سنة 163–164– بل إنّه قضّى السنين الأخيرة، حسبما يبدو لبعض المؤرخين، في كتابة رواية «المسوخ» أو «التحولات». ولا يزال الغموض يكتنف حياته بعد سنة 164. ولئن اتفقت الآراء على الرّبع الأوّل من القرن الثاني حوالي سنة 125، لتحديد تاريخ ميلاده، فإنما تختلف في ضبط تاريخ وفاته.
كان أبوليوس خبيرا بخصوصيات اللّغتين، اللاّتينية واليونانية، في عصر أخذت تتضاءل فيه الازدواجية اللغوية عند المثقفين بالجزء الغربي من العالم الروماني، حتى انقرضت الممارسة العادية للّغة اليونانية في القرن الرابع. وكان خير مثال للثقافة اليونانية الرومانية التليدة، ولما اتسمت به من شمولية المعارف ومن تشبث ببلاغة التعبير وفصاحة الخطاب، فكان لا يفوته الاستشهاد بقولة كاتب، أو ببيت شاعر، أو برأي فيلسوف، سواء كان رومانيا أو يونانيا، وسواء كان من القدامى أو من المحدثين. ولم يقتصر اطلاعه على الفلسفة والأدب، بل كان يتعاطى كذلك الطبّ والهندسة والعلوم الطبيعية والفيزيائية، ويدرس الموسيقى وعلم الفلك...
ولم يبخل عن عرض معلوماته ومهاراته بالمحاضرة أو بنشر الكتب متباهيا بها متقبّلا لإطراء المادحين وإعجاب الجماهير، فكانت آثاره عدّة ومتنوعة. لكنه اقتصر في ميدان العلوم على جمع المعلومات أو على تصنيفها وتلخيصها، فألف كتبا كثيرة فقدت ولم يبق إلا ذكرها في بعض آثاره أو في بعض المصادر الأخرى. وقد تناولت خاصة مسائل في العلوم الطبيعية، نذكر منها كتابا يعنى بالأشجار المثمرة وبغراستها، وآخر بوقاية الزراعة من الآفات وعلاج أمراض النبات، كما تناولت كتبه كذلك مسائل في الطبّ وفي علم الفلك وفي مجالات علمية أخرى...
أمّا في مجال الفلسفة، فقد استغلّ الدروس التي كان يتلقاها بأثينا ليلخصها ويبسّطها، ففي كتاب ورد بعنوان (De Platone et eius dogmate) يبسّط تعاليم أفلاطون. وفي كتاب آخر بعنوان (De Mundo)، يقتبس من مخطوط كان ينسب إلى المدرسة الأرسطوطاليسية شرحا لنظرية الكون.
ولم يقتصر على تبسيط الدراسات الفلسفية المتداولة بأثينا في القرن الثاني بل قدّم في كتاب بعنوان (De Deo Socratis) عرضا ضافيا ومعمّقا لنظرية الجان، مبرهنا بذلك على مقدرة فائقة سواء على الإلمام بتعاليم مختلف المدارس الفلسفية، أو على توظيفها للبحث في مسألة جوهرية هي مسألة العلاقة بين البشر والآلهة، فنجد في بحثه هذا استجابة لتطلعات التفكير الديني في تلك الفترة، وصدى لما كان يبديه معاصروه من اهتمام بالغ بموضوعات خطيرة نذكر منها حاجة الإنسان إلى صلة ذاتية بالآلهة، وبروز مبدإ الوحدانية الإلهية حتى رسخ تدرج العالم الروماني نحو الإيمان بإله متفرّد خارق. وقد امتاز بحث أبوليوس عن سائر البحوث والكتب التي تناولت موضوع الجان بتأكيده الدّور الخطير الذي تقوم به تلك الكائنات الإلهية والبشرية معا، فهي الوسيط بين عالم الإنس والمادة وعالم السماء والروح، وفي كثرة الجان دليل على كثرة أديان الإنسان واختلاف عباداته للإله.
ومن الكتب الكثيرة التي ألّفها أبوليوس احتفظت المكتبة اللاّتينية على وجه الخصوص بثلاثة كتب مهمّة. ففي كتاب «الأزاهير» نجد مختارات من الخطب والمحاضرات التي كان يتناول فيها موضوعات مختلفة يصعب تصنيفها لأنه لا يتقيّد بالموضوع المطروح، بل يستغلّ فرص الاستطراد جميعها ويجتهد في البحث مما يسمح له بعرض معلوماته الكثيرة المتنوعة ويسحر المستمعين ببديع الكلام وعذب الحديث، فيحاضر تارة في الفلسفة، لكنه لا يجد حرجا في التخلّص من النظريات الفلسفية

والتأملات الفكريّة إلى النّوادر الطريفة. ويحاضر تارة أخرى في أدب الرحالة، فيروي غريب المغامرات ويمتع مستمعيه بذكر عجيب الأخبار، لكنه يخلّص بعد ذلك للحديث عن مشاهد الحياة اليومية وطريف الحوادث. وعليه يقع الاختيار لإعداد الخطب الرسمية في المدح والإشادة بولاة المقاطعة. وهو الذي يحاضر فيشدّ المسامع في بعض محاضراته بدقّة وصفه لببغاء الهند أو لتمثال بديع، ويسترعي الاهتمام في محاضرة أخرى بالحديث عن شوؤونه الخاصة كذكر مرض أصابه فاستوجب تردّده على بلدة حمام الانف – وكانت تعرف باسم «أكوي برسياني» (Aquae Persianae) – للاستحمام والاستشفاء. وهو مع ذلك شديد الإعجاب بنفسه مكتمل الثقة في مواهبه.

أمّا في كتاب «الدفاع» -وهو يعرف كذلك بكتاب «السحر» أو في «موضوع السحر» - فقد دوّن أبوليوس في صيغة أدبيّة المرافعة التي تقدم بها دفاعا عن نفسه عند محاكمته بمدينة صبراطة. لقد كانت التهمة خطرة لأن القانون الروماني كان يسلّط على كلّ من لجأ إلى السحر للنيل من غيره أشدّ العقاب، وذاك ما كان يطالب به أقارب بودنتيلا، وقد دعموا اتّهامهم بذكر أحداث غريبة وممارسات مريبة تدعو إلى الشكّ والحيرة، كقيام أبوليوس بتشريح سمك عجيب الشكل، أو كاعتماده وسائل سحرية أوقعت طفلا مريضا في غيبوبة تامّة. لكنّ أبوليوس اغتنم فرصة خلط خصومه بين الممارسات السحرية والتجارب العلمية التي كان يقوم بها في المخابر التي جهزها بمنزل بودنتيلا، عملا بمقتضيات بحوثه في علم الطبيعة أو في علم البصريات، فبينّ ببراعته المعهودة في استدراج السامع، وشرح بفصاحته المألوفة في التعبير والإيضاح أن ريبة خصومه وشكوكهم مردّها إلى جهلهم بأبسط مقتضيات العلوم وتجاربها. لكنّه لم يقدّم، في الردّ على الاتهامات التي لا تخلط بين التجارب العلميّة والممارسات السحرية، حججا متينة قويّة توجب الإقناع وتحتّم الجزم بأنّه لم يمارس فعلا الأعمال السحرية، فبراعة الحجة تعوّض في كتاب «الدفاع» متانتها ولطف الاستهواء وورنق الأسلوب وبلاغة التعبير تكسب الكتاب قيمته الأدبية.

ويعتبر كتاب «المسوخ» أو«التحولات» – وقد ورد كذلك بعنوان «الحمار الذّهبي» (Asinus aureus) – من أشهر آثار الأدب اللاّتيني على الاطلاق. فلأول مرة في تاريخ الأدب اللاّتيني تبرز رواية نثريّة وتلاقي نجاحا شبيها بنجاح ورواج الروايات النثرية اليونانية. يتناول أبوليوس في هذه الرواية موضوعا اعتاد الأدب اليوناني طرقه في قصص عجيب يعرفُ باسم «قصص ميلي» – نسبة إلى مدينة «ميلي» (Milet) في آسيا الصغرى – وهو يروي غرائب مسخ الإنسان. فيقتبس ويتصرّف، ويضفي روحا طريفة وطابعا جديدا على قصّة شابّ يدعى لوقيوس (Lucius) كان شغوفا بأخبار السحر والسّحرة. لقد نزل لوقيوس في ضيافة ساحرة وأراد التحوّل إلى شكل عصفور، لكنه استعمل غلطا مرهما حوّل شكله تحويلا شنيعا، فأصبح حمارا، شكلا وخلقة، لكنه لم يفقد الذاكرة والفكر والقدرة على الملاحظة والنقد.

بعد سرد هذه الأحداث في الفصول الثلاثة الأولى، تروي الفصول السبعة الموالية مغامرات الحمار لوقيوس، وهي نسيج من الوقائع والتقلّبات التي كان التراث الشعبي بها ولوعا، وقائع وتقلّبات قصص السّحر والصّعاليك، وروايات مكر الزوجات وخيانتهنّ وحمق الأزواج وبلاهتهم، فتتوالى الأحداث والفصول المضحكة والمشاهد المأسوية والأوضاع الدراميّة والخرافات الخياليّة والمواقف التي لا يراعى فيها للحياء نصيب. لقد تداول على امتلاك الحمار عدّة مشترين: قساوسة الربّة السورية الكبرى، فطحّان، فبسانيّ، فجنديّ، فبائع للحلوى، فطباخ... وتتوالى مغامراته مع كلّ هؤلاء، وملاحظاته ولاذع الانتقاد ودقيق الوصف لأوضاع المجتمع الروماني في القرن

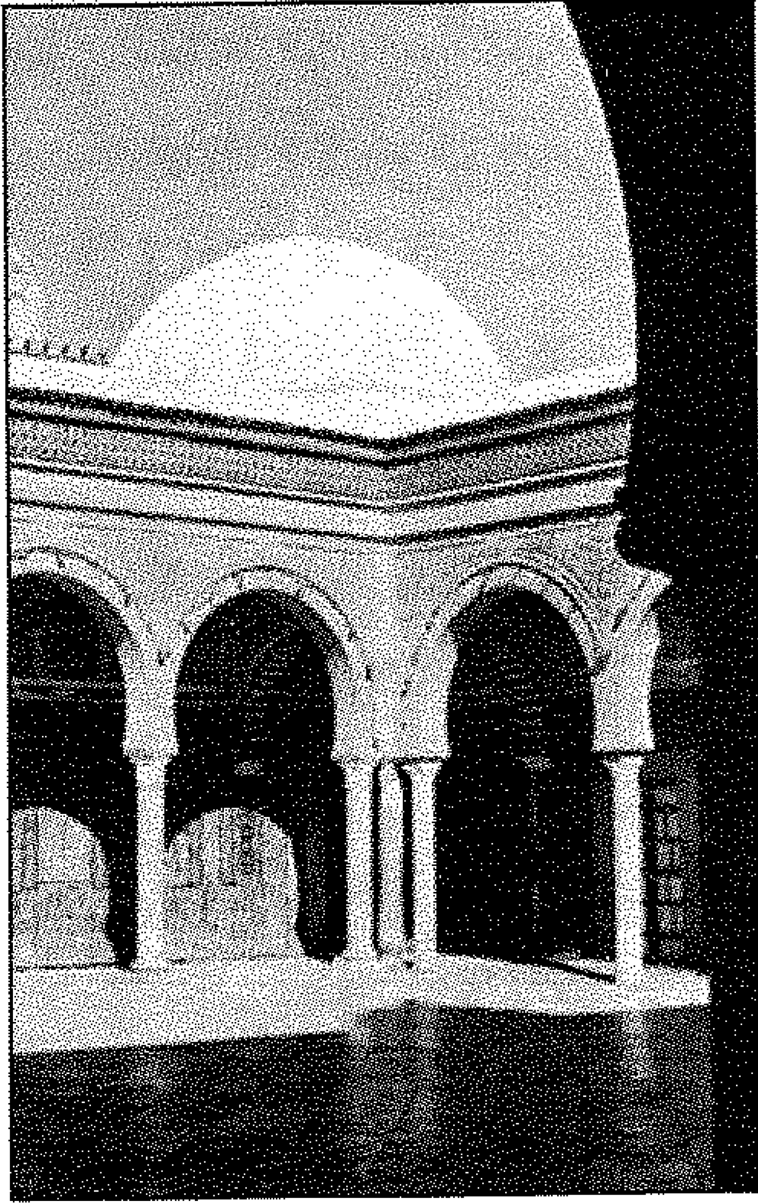
الثاني، أوضاع الأغنياء والفقراء، ومواقف أهل الخير والرّحمة وأهل الشرّ والمكر، فيجد المؤرخ في الكتاب ما تحجم كتب التاريخ عن وصفه من الأوضاع الاجتماعيّة.

وفي الفصل الحادي عشر وهو الأخير ينجو لوقيوس بفضل الربة إيزيس، من الدّنس الذي أصابه ومن حقارة الحيوان ووضاعته ليرتقي من جديد إلى مرتبة الإنسان، فيختم الكتاب بابتهال متعبّد يتملّكه شعور دينيّ فياض، وبدعاء مؤمن متصوّف يملأ قلبه الورع. ليس لكتاب «المسوخ» أو «التحوّلات» مغزى في نظر بعض المؤرخين والنقّاد، إذ يعتبر مجرّد سلسلة من الحوادث والمغامرات التي يفسح في رواياتها وقصصها أبوليوس المجال لوصف مجتمع يتدفق حيوية. لكنّ النّقد الحديث يؤثر البحث في مغزى قصة لوقيوس وفيما قد يشير إليه الكاتب من ورائها. فقد رفض لوقيوس العمل بالوعظ والنصيحة، وانساق إلى ترضية توقه إلى اكتشاف الأسرار الخفية، حتى أغراه السحر وانهمك في تلبية غرائزه البهيمية، فمسخ وذاق ألوان العذاب وتخبّط في الدّنس والرّذيلة. وكان لونه «الذهبيّ»، لون جلد الحمار الأشقر المصفّر، رمزا من رموز الشرّ والذنب في اعتقاد من دان بدين الربّة إيزيس، حتى أيقن بزيف ما تغري به الدنيا الناس من سعادة، وانصرف عن اللذة والمادة، وشملته إيزيس بعطفها فاسترجع صورته البشرية، وعادت إليه «إنسانيته»، وسعد بالطهارة بعد الدنس، وفاز بالنّجاة واكتشاف الأسرار الخفيّة التي لا تكشف إلاّ لصفوة أتباع الربّة.

إنّ لأبوليوس في تاريخ الأدب اليوناني اللاّتيني مكانة مرموقة، ولا ترتدّ هذه المكانة إلى رواية «المسوخ» أو «التحولات» فحسب، بل كذلك إلى تعدّد جوانب شخصيته الأدبية أيضا فهو المثقّف ثقافة متينة مزدوجة لاتينيّة ويونانيّة. وبفضل ما اقتبسه أو ترجمه من الكتب اليونانية، اطّلع عدّة مثقفين ومنهم القدّيس أوغوستينوس في موفّى القرن الرابع، على خبايا ونفائس الفكر اليوناني، وعلى الفلسفة الأفلاطونية. وهو الخطيب البليغ والمحاضر البارع، وهو المتديّن المتصوّف والطبيب الذي تعاطى السحر. وهو عند المؤرخ خير مثال لما بلغته نخبة المثقّفين الأفارقة من انسجام وتجاوب مع ثقافة الامبراطورية الرومانية وحضارتها خلال القرن الثاني بعد الميلاد، حتى أصبح رمزا ومثالا للمثقّف الروماني في ذلك العصر.

مقام أبي زمعة عبيد بن الأرقم البلويّ

[34هـ/654م]



يتصل نسب عُبيد بن الأرقم البلوي بقبيلة قضاعة الحميرية القحطانية المتحدّرة عن حمير بن سبأ اليمني. ويُحيل على حيّ بَلِي لذلك سمي البلوي. وتجمع كتب الأنساب والتاريخ على أن هؤلاء قد وطّنوا شمال الحجاز وعُدّوا من أعظم بطون قضاعة. فقد جاء ذكرهم في شعر النابغة الذبياني وأشاد بمكانتهم مؤرخون كبار مثل المقري وابن خلدون والمقريزي والقلقشندي وغيرهم. فقد جاء في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري: «وبنو البلوي ذوو حسب وأهل نعيم وتربية ملوكية،

حياهم الله وبيّاهم». وأشاد ابن خلدون بقوتهم وكثرتهم، مبيّنا أنهم قد «انتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة، وكاثروا هناك سائر الأمم».

وتؤكد الدراسات التاريخية أن قبيلة بلي تبوأت مكانة مرموقة في مصر على أيام البيزنطيين الذين عوّلوا عليهم في التجارة مع الهند. وقد تطوّرت تلك المكانة الاقتصادية بحيث أضيفت لها الخطط السياسية والعسكرية في عصور الإسلام الأولى من خلال إسناد إمارة بعض المناطق في مصر إلى عدد من وجوه تلك القبيلة وبطونها.

شهد أبو زمعة بيعة الرضوان تحت الشجرة وشهد إلحاق مصر بالدولة الإسلامية سنة 20 هـ/642 م. استشهد سنة 34هـ/654م خلال عمليات الانتشار الإسلامي بإفريقيّة وذلك في غزوة معاوية بن حديج وهو في عزّ المنازلة ضدّ الجيوش البيزنطيّة قرب عين جلولة الواقعة على بعد30 كم غربي مدينة القيروان. وقد دفن جثمانه في موضع القيروان قبل التأسيس.

وتتفق الروايات على أنه قد احتفظ في قلنسوته يوم منى في حجة الوداع، ببعض شعيرات النبي لذلك وسمه أهل القيروان بـ«صاحب الشعرات».

يعتبر مقام أبي زمعة البلوي بالقيروان من أهم المزارات الدينية بالبلاد التونسية حيث يرجع تاريخ بنائه إلى عهد حمودة باشا المرادي الذي حكم بين 1631 ـ 1666م وذلك في حدود سنة 1072هـ/1663م. فقد حوّط مثوى الصحابي بجدار دائري، على أن يستكمل حفيده محمد بن مراد الثاني الذي حكم بين 1675 – 1695 م بناء الزاوية سنة 1684.

يشتمل المعلم حاضرا على ثلاثة مركبات معمارية مندمجة هي:

-الضريح وهو غرفة في أقصى الصحن المحاط بأروقة، ويضم رفات الصحابيّ الجليل تحت تابوت تعلوه قبّة منقوشة.

-المباني الملحقة به والمخصّصة لاستقبال الضيوف.

-المئذنة والمدرسة الدينيّة والمصلّى وحُجرات الطلبة والميضاة.

ويتمّ الدخول إلى المعلم بأكمله عبر صحن مربّع الشكل تحيط به، من ثلاث جهات، أروقة مستندة إلى دعائم.

استوعبت زاوية أبي زمعة البلوي بالقيروان مختلف التيارات المعمارية والزخرفية التي عاينتها البلاد التونسية. فقد حوت مركباتها معارف تحيل على فنون المعمار البيزنطي المستعمل للحجارة النحتية، والمعمار التركي الذي أشّرت على حضوره الأعمدة والواجهات، وفنون المعمار الأندلسي المعوّل على الزخرف والنقش على الجصّ وبديع تركيب القرميد.

وتختصّ المدرسة المعماريّة القيروانية بتشبثّها بأنماطها التي بلورتها منذ أواسط القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي، وبالوفاء لمناهلها الشامية الأصليّة رغم مواكبتها للتيارات الزخرفيّة والمعماريّة التي ظهرت في العالم الإسلامي خلال العصر العبّاسي وخاصّة فيما يتعلّق بالقباب ذات الحنايا الركنيّة والزّخارف المتأثّرة بطراز سامراء. ويعود الفضل إلى إفريقية في المحافظة على المدرسة الأمويّة وتطويرها وإثرائها من خلال التخطيط المتعامد وإقامة القباب الملاصقة لجدار القبلة عند التقاء البلاطة المحوريّة والبلاطة الموازية لجدار القبلة، كما يتجلّى فيه نمط معمار جامعها الأكبر، وكذلك الانفراد من دون المدارس المعماريّة الإسلامية بإضافة رواق للقبلة وإقامة قبّة في وسطه.

وبالجملة تبدو العمارة الأغلبية القيروانيّة منبسطة وممتدّة أفقيّا تتحاشى الارتفاع والأبّهة. كما يمكن الجزم بأن المناطق المغربيّة التي كانت مرتبطة سياسيا وتاريخيا وعقائديّا بإفريقية، قد تأثّرت بالمدرسة

القيروانيّة، من ذلك منارة جامع بني حماد التي تُعتبر من طراز المنارات القيروانية. وتعلن توائم مختلف المدارس المعمارية المحليّة من بينها والوافدة كما تفتّقت عليه العارضة الهندسية لبُناة ضريح أبي زمعة البلوي بالقيروان عن حضور خاصيّة من خصائص الأنموذج الهندسي القيرواني الذي أثّر بشكل جليّ في العديد من المعالم المشيّدة بإفريقية وببقية حواضر مجال المغارب والأندلس.

الأبّــي (محمّد)

[توفّي 827هـ/1424م]

هو أبو عبد الله محمّد بن خلفة بن عمر الوشتاتي المشهور بالأبّي.

والوشتاتي نسبة إلى قبيلة وشتاتة البربرية التي كانت تقيم بناحية الكاف من الشمال الغربي للبلاد التونسية. والأبّي نسبة إلى أبّة. وهي قرية واقعة بالناحية ذاتها. لم تشر المصادر إلى تاريخ ولادته. ولكنّها ذكرت أنّه عمّر طويلا.

وفد الأبّي على الحاضرة وهو صغير السنّ. ونزل بمدرسة التوفيق. وتتلمذ لعلماء جامع الزّيتونة. واختصّ بملازمة الإمام محمد ابن عرفة الورغمي الذي آلت إليه الرئاسة العلمية في ذلك الوقت. وصار الأبّي من أقرب تلاميذه إليه، حتى إنّ أشهر الروايات عن تفسير ابن عرفة هي رواية الأبّي.

صار، بعد وفاة شيخه ابن عرفة، من كبار العلماء الذين ارتبطت بهم الحياة العلمية بالمؤسسة الزّيتونية في أواخر القرن الرابع عشر وبدايات القرن الخامس عشر للميلاد.

اختلط خلال سفره إلي الحجّ بكثير من علماء الشّرق عامّة ومصر خاصّة. ودارت بينه وبينهم حوارات ومناظرات.

تولّى الأبّي عدّة وظائف شرعية وقضائية كإمامة جامع التوفيق (جامع الهواء حاليا) والخطابة به، كما اضطلع بالقضاء في الوطن القبلي سنة 808 هـ/1405م. وأسندت إليه خطّة الفتوى بالحاضرة التونسية أيام الأمير أبي فارس عزّوز. واستمرّ على هذه الخطّة إلى آخر حياته.

له تآليف منها:

- إكمال المعلم لفوائد صحيح مسلم (معروف ومطبوع)
- تفسير للقرآن الكريم (ذكر حسن حسني عبد الوهاب في كتاب العمر أنّه اطّلع على الجزء الأوّل منه)
- شرح على مدوّنة سحنون (ذكره حاجي خليفة صاحب كشف الظنون إلاّ أنّه غير معروف)
- شرح مختصر ابن الحاجب الفقهي (ذكره محمّد مخلوف صاحب شجرة النّور الزكية ولا يعرف)

توفّي على الرّاجح سنة 827 الموافق لـ 1424م.

عبد الله الإبّياني

[252-352هـ/866-963م]

عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن إسحاق التونسي التميمي شاعر وفقيه يعرف بالإبّياني نسبة إلى إبيانة القريبة من العاصمة يُعَدُّ من كبار الفقهاء، وقد عرف بحذقه لاحكام السوق وأخلاق التجارة. كان شديد التواضع والصّلاح.

وُلد سنة 252هـ/866م. تفقّه عن يحيى بن عمر وغيره ودرس بمدينة تونس. وكانت له صلة متينة بالقيروان. من تلاميذه ابن أبي زيد القيرواني والقابسي. حجّ ومرّ بمصر في عهد كافور وتلقاه نحو أربعين فقيها وعرض عليه المنصور العبيدي القضاء فامتنع.

توفّي سنة 352هـ / 963م.

من تآليفه

- رسالة السماسرة، تحقيق محمد العروسي المطوي، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992.



الأحذية التونسية

ذكر المؤرّخ عثمان الكعاك في مؤلفه «التقاليد والعادات التونسية» الذي كتبه غداة استقلال البلاد أنّ لباس الرّجل في تونس يتميّز بتنوّع الحذاء واختلاف تسميته. فمنه «الريحية» و«الشّبرلة» و«اليماني» و«البشمق» و«الكنترة» و«البلغة» و«البنطفلي». وزاد عليه الباحث المنوبي السنوسي في مقالين صدرا له بمجلة "الإذاعة" بعنوان «الأحذية التونسية» بذكر «الشكربيون» و«صباط نصف قصبة»، و«الصباط الدزيري» و«القبقاب» بأنواعه المختلفة وقسّم البلغة إلى أقسام عديدة.

– البلغة

ترجع جميع الأحذية التقليدية المعروفة في جميع الجهات التونسية إلى أصل واحد هو الخفّ المعروف باسم البلغة، ينطقها أهالي الشمال بالباء المفتوحة بحيث صارت الرجل المحتذية لهذا الخفّ القوي صورة نموذجية لجميع أرجل سكان البلاد التونسية على وجه العموم نساء كانوا أم رجالا. البلغة خفّ يكسو وجه مقدّم الساق ويكتنف جانبيه ويدور مع مؤخّر العقب له شبه أنف مستدق في الغالب وعريض مستدير في بعض الأحيان، نعله من جلد البقر المتين. أما الوجه والعقب فمن أديم الماعز المدبوغ المقشر المدكوك، يخطّان معه ويبطن «اللفاق» بجلد الضان الأبيض الرفيع. وبداخل الخفّ سير من جلد البقر الرقيق مشدود عند طرفه المستدق يمتدّ من هناك فوق النّعل منطلقا إلى حافة المؤخّر.

ولمّا يفرغ من الخياطة تنقع البلغة المقلوبة في الماء حتى يرتخي نعلها، فيأخذ الصانع في قلبها ثانية ليرجع ظهرها من فوق ثم يدخل في البلغة قالبا ويعرضها للهواء لتجفّ.

وقد امتازت هذه الطريقة زيادة على طرافتها، بمتانة الخياطة، إذ لا تنفذ الخرز تحت النعل، فلا تكون إذن معرضة للفتق من جرّاء احتكاك أسفل النّعل بالأرض، لذلك كثيرا ما ترى البلغة يبلى نعلها ويتشقق وجهها وعقبها ولا يصيب خياطتها فتق.

على أنّ معالجة البلغة بالقلب بعد الخياطة عمل متعب شاقّ، خصوصا إذا رام الصانع قلب طرف الحذاء المستدق.

– أصناف البلغة

البلغة التونسية أصناف متشابهة لا يختلف بعضها عن بعض من حيث البنية والتركيبة على وجه العموم وإنما تتميّز من حيث جودة الصنعة ورداءتها ولطف التقطيع وقبحه ورقة الجلد المصنوعة منه وخشونته ومن حيث اللون.

وأشهر أصناف البلغة في القطر التونسي :

ـ البلغة الصفراء

وهي في صفرة الكبريت وهي تميل مع القدم إلى لون أشهب يخالطه اصفرار فاتر. والبلَغة التونسية صنفها المنوبي السنوسي إلى أصناف:

ـ البلغة البيضاء

تصنع مثل بلغة أهل المدن الصفراء، لطيفة التقطيع ظريفة الشكل. ولا تختلف عنها إلا

بلون جلد الماعز الذي تصنع منه وهو البياض الناصع.

ـ البلغة الحمراء

تصنع من جلد الماعز الأحمر، حمرتها في الغالب حمرة زهرة الخشخاش. تلبسها نساء البادية والأرياف قائمة العقب أو مثنية على وجه النعل. قليلا ما ينتعلها الرجال وإذا انتعلوها فمثنية العقب.

ـ البلغة المطرزة العادية

تنتعلها نساء البادية والأرياف مع ثياب الزينة في الأفراح وخصوصا العرائس، ولا تختلف عن البلغة العادية إلا بطرز من الحرير أو من أسلاك الفضة تغشي وجه الحذاء.

ـ بلغة أهل الجنوب المطرّزة

لأهل الجنوب في تونس من سكان البادية بلغة مطرّزة يلبسها الخواص منهم في الأفراح للبهجة والتباهي.

ـ الكنترة

الكنترة لباس للقدم يشبه البلغة ظهر في تونس في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ابتكر لباسه بعض كبار الموظفين في الحكومة ممن كانوا مقلدين لنظام التشريفات العثماني.

والكنترة من حيث الشكل حلقة وصل بين البلغة والأحذية الحديثة المقلدة من الأزياء الأوروبية. ذلك لأن الكنترة تشبه البلغة من حيث تكوين وجهها من رقعتين ملفقتين تغطي إحداهما مقدم القدم من أطراف الأصابع إلى منتصف ما بينها وبين الكرسوع وتدور الرقعة الثانية مع العقب وجانبي القدم في ارتفاع لا يتجاوز الأصبعين حتى تصل بجانبي الرقعة الأولى.

أما مشابهة الكنترة للأحذية العصرية فهي ممثلة في طريقة خياطة وجهها مع النعل وفي بروز النعل عن جانبي الوجه، وظهور خرز الخياطة على حافة النعل عن جانبي الوجه.

ولفظة كنترة التونسية مشتقة من الكلمة التركية «قنطورة» أو «قندورة» وكان الأتراك يطلقونها في أواخر القرن التاسع عشر اسما لكل الأحذية الإفرنجية، ويبدو أنهم اشتقوها من اللفظ الإيطالي «كوتورنو» الدالة على حذاء مرتفع الوجه، وهذه اللفظة مشتقة من اليونانية القديمة «كوتورنوس» التي كان قدماء اليونانيين يطلقونها على نعل وجهه مرتفع ويتكوّن من عدّة طبقات من الجلد.

ـ كنترة المرأة

تختلف كنترة المرأة عن كنترة الرجل بفروق أربعة تميّزها:

1) فرطحة أنفها واستواء طرفه،

2) قصور مؤخرها عن بلوغ طرف عقب لابستها،

3) ارتفاع مؤخر نعلها ارتفاعا شديدا،

4) وجهها من نسيج حريري مبطّن بجلد الضأن الرقيق وظاهرها مطرّز بطروز من أسلاك الفضة أو الذهب أو من خيوط الكنتيل وقريصات العدس على نمط ما تلبسه المرأة من أكسية البدن.

ـ الطماق

أو (التناق) حذاء للنساء لطيف التقطيع، حسن الصنعة خفيف لا جوانب له ولا عقب. يقتصر وجهه على تغطية ظهر مقدم القدم إلى ما فوق أصول الأصابع بقليل ويرتفع مؤخر نعله عن الأرض بواسطة رافعة.

ـ الشكربيون

كان يطلق هذا الاسم على حذاء يعوّض به الرجال «الكنترة» في زمن الشتاء، وهو يشبه الكنترة من حيث الصنع والشكل على أنه لم يكن مثلها مفرطح القدم، بل له أنف مستدق وإن لم يكن مثل أنف البلغة.

ـ البشمق

لباس للقدم ظهر في دوائر الحكومة بتونس العاصمة مع الحكام والموظفين السامين من الأتراك العثمانيين.

ـ الريحية

كان من عادة منتعلي البشمق من الرجال لبسه في الشتاء على خف من جلد الماعز الأصفر الرقيق اللين تبلغ حافة مدخله الكعب وتفوته. ويعرف هذا الخفّ باسم الريحية وكان الناس يشيرون إلى أصحاب العلم والفقهاء بكونهم «أصحاب البشمق والريحية» على وجه التكبير.

ـ اليماني

اليماني خفّ أحمر يكسو ظاهر القدم ويضيق مدخله على الكرسوع تحت الكعب، له نعل سميك.

ـ الشبرلة

الشبرلة خفّ أسود عريض مورّم الوجه والنعل ليّن خفيف حَسَن الصنعة. ومن حيث الشكل تشبه الشبرلة خف الرجال الذي كان يعرف باليماني. ولا فرق بينهما سوى أن اليماني لا يكون إلا أحمر زاهرا ولا تكون الشبرلة إلا سوداء قاتمة السواد.

وتلبس القرويات خفّ الشبرلة الأسود في الشارع وهن متلحفات بلحاف السفساري الصوفي الأبيض الشفاف أو الخشن اللين وتتوحّد بذلك أشباحهن حتى لا يعرفهن عموم الناس.

ـ الجزمة

حذاء يكسو القدم والساق إلى ما فوق الركبتين بمقدار قليل يقي رجل الفارس من حك الركاب يصنع من جلد أحمر من النوع المعروف بالفيلالي، نسبة إلى تافيلالت بالمغرب الأقصى.

ـ المست

جورب من الجلد الرقيق اللين من النوع المعروف بالفيلالي يدخل في هذا الجورب القدم فيغطي باطنها وظاهرها وترتفع جوانبه فتدور في أسفل الساق إلى أعلاه في سعة ولين ورخو.



المشير أحمد الأوّل
[1806ـ1855م]

ولد في 21 رمضان سنة 1221هـ/2 ديسمبر 1806م من جاريّة إيطاليّة من كورسيكا علّمته لغتها فأتقنها كما علّمته العربيّة والتركيّة وأبوه مصطفى باي (1835 ـ 1837) الذي كلّف مصطفى صاحب الطابع بالسّهر على تربيته. أصبح صاحب الطابع هذا وزيرا له بعد أن كان وزيرا لأبيه، وحفظ القرآن، وتعلّم اللّغة التّركيّة «نطقا وكتابة» واللّغة الإيطاليّة «نطقا فقط». ويذكر أنه تزيّا في شبابه بزيّ الجند من التّرك.

لمّا توّج المشير أحمد الأوّل بايا على تونس عام 1837، أي بعد سبع سنوات من احتلال الجزائر، تبيّن له ـ على ما يبدو، أنّ نفوذ الاستعمار الفرنسي في إفريقيا الشماليّة لن يتوقّف عن التوسّع، لا سيما أنّ الظروف الدّولية قد تغيّرت تماما لصالح الغرب، كما تبيّن له أنّ الدولة العثمانيّة في شغل شاغل من أمرها وقد أخذت قوّتها العسكريّة تضعف شيئا فشيئا إثر الهزائم المتوالية التي مُنيت بها، وخاصة تلك النّكبة القاسية للأسطول العثماني والأسطول التّونسي في واقعة «نافرين» (Navarin) سنة 1827.

وبالرّغم من قوّة شخصيّته واندفاع طموحه، فقد استمرّ أحمد باي طوال حكمه على سياسة أسلافه (ما عدا حمّودة باشا (1782 ـ 1814) من التقرّب إلى فرنسا. والظّاهر أنّه باتباعه هذه السياسة كان يطمح طموح محمّد علي في مصر إلى استكمال استقلاله عن السّلطنة العثمانيّة، فضلا عن رغبته العارمة في «تحديث» جيشه ومؤسساته كما فعل محمّد علي الذي انبهر

بتفوّق نموذج الحضارة الغربيّة. ولكن هناك عوامل دوليّة وخارجيّة دفعت الباي أحمد والبايات الذين حكموا تونس من بعده إلى اتّباع سياسة التقرّب من فرنسا وانتهاج سياسة مستقلّة عن السّلطنة العثمانيّة أو محاولة اتّباع سياسة تتراوح بين الولاء للباب العالي في حدود والتقرّب لهذه الدّولة أو تلك من الدّول الأوروبيّة ونعني: فرنسا وإنجلترا. ومن أسباب هذه السياسة نذكر مثلا:

ـ عجز العثمانيين عن ردع فرنسا عند احتلال الجزائر. ومن ثمّة عجزهم عن حماية مناطق نفوذهم من احتلال أوروبيّ وشيك.

ـ نجاح محمّد علي في انتهاج سياسة مصريّة مستقلّة عن الباب العالي، وهذا يغري باي تونس على اقتفاء أثره.

ـ خشية بايات تونس من المصير الذي آلت إليه جارتهم طرابلس التي ألحقت ومن جديد عام 1835 عُنْوَةً بمركز الإدارة العثمانيّة، وخاصة بعد رواج إشاعة في تونس ـ (وهي حقيقة تاريخيّة) ـ مفادها أنّ القائد العثماني يعتزم القدوم إلى تونس مع أسطوله الحربي لإلحاقها بطرابلس. وقد تفاوض مصطفى باي (1835 ـ 1837) مع وزرائه وحاشيته، وكان معظمهم يميل إلى استعمال القوّة مع القائد العثماني والدّفاع عن استقلال البلاد.

ومن البديهي أنّ وزارة الخارجيّة الفرنسيّة كانت على علم بهذه النّزعة الانفصاليّة، فأخذت ديبلوماسيّتها تشجّعه على هذه النّزعة، بحيث أصبح قنصلها يقدّم أوراق اعتماده إلى الباي مباشرة، في حين أنّ إنجلترا ما تزال تعتبر قنصليتها بتونس ملحقة رأسا بالسّفارة الرئيسة.

وممّا يجب ملاحظته أنّ الإمبراطوريّة العثمانيّة قد دخلت هي الأخرى في تجربة التّحديث والإصلاح ضغط أو تأثير من الدّول الأوروبيّة: ففي 3 نوفمبر من عام 1839، أعلن السّلطان عبد المجيد (1839 ـ 1861) «تنظيمات خط كلخانة» التي رفض أحمد باي الأوّل تطبيقها في مملكته رغم إلحاح الباب العالي عليه، لكنّها قرئت عليه في نصّها العربي في قصره عام 1840. أمّا الباي فقد أجاب، بلباقة، مبعوث السّلطان نصرة باي بما ملخّصه: «إنّ هذه التّنظيمات جيّدة في حدّ ذاتها لكن تطبيقها يتطلّب الوقت الملائم، لأسباب تتعلّق باختلاف الأمكنة والإمكانيات». وليس هذا فقط: فقد تمكن، دون أخذ الإذن مسبّقا من السّلطان، من زيارة فرنسا في نوفمبر 1846، واستقبل في باريس استقبال «رجل دولة كبير» من طرف الملك «لويس فيليب»، أي مظاهر الحفاوة نفسها التي يستقبل بها الملوك المستقلّون. وقد احتجّ الباب العالي على ذلك. أمّا إنجلترا فقد اشترطت على الباي كي يزور بلادها أن يقدّمه السّفير العثماني باعتباره تابعا للسّيادة العثمانيّة العليا. ولذلك عدل أحمد باي عن الزّيارة.

وتعتبر رحلة أحمد باي إلى فرنسا مهمّة جدّا لأنّها دفعت حركة التّحديث إلى الأمام. ففي رسالة وجهت إلى عمّال الجهات أخبرهم فيها بهدف الرّحلةوأبعادها بقوله:

«أمّا بعد فإنّ المصلحة التي أمرنا اللّه بمراعاتها اقتضت أن نسافر بنفسي إلى فرانسة ولندرة. واللّه يعلم أنّ شغفي برعيّتي وأهل مملكتي يقتضي أن أقتحم المخاوف لأمانهم وتحمّل مشقّة الأسفار لراحة أوطانهم وحماية أموالهم وأبدانهم».

لكن أحمد بن أبي الضياف في وصفه لهذه الرّحلة يذكر أنّ أحمد باي عندما كان يتجوّل في باريس ومواطنها الجميلة كان يتذكّر تونس وعادات أهلها وأماكنها عند مشاهدة كلّ شيء عجيب ويقول «ليت مثل هذا عندنا بالمحلّ الفلاّني من تونس. حتّى إذا مرّ يوما بالمهيع المعروف بشان زليزي ومعناه ممشى الجنّة فقلت له: كاد أن يوافق الاسم المُسمّى فقال لي: «ما أشوقني للدّخول من باب عليوة وأشمّ رائحة الزّيت من حانوت الفطائري داخله». فقلت له

مداعبا وأنا أتنفّس في هواء الحريّة وأرد من مائها وقدماي بأرضها: «يحقّ لك ذلك لأنّك إذا دخلت من هذا الباب تفعل ما تشاء. أمّا الآن فأنت رجل من النّاس».

وليس معنى ذلك أنّ أحمد باي قد قطع صلاته بالدّولة العثمانيّة: فعندما وقعت حرب القرم، سنة 1270هـ/1854م رغب قيصر روسيا الأوّل في الإفادة من ضعف الإمبراطوريّة العثمانيّة «الرّجل المريض» لسلخ بعض مناطقها عنها (الإمارات الرّومانيّة، بلغاريا، الصّرب) وبسط حمايته عليها. وتمخّضت سياسته تلك عن هزيمة روسيا أمام تضامن فرنسا وإنجلترا والبيامون مع الباب العالي في حرب القرم. وممّا يذكر، بهذا الصّدد، أنّ الباي بعث خير الدّين لاقتراض مال من بعض التّجار بفرنسا «وكتب له تفويضا بيده، ولم يعارض في ذلك أحد من خاصته» غير وزيره وصاحب سرّه مصطفى خزنه دار. وبعد سفر خير الدّين، جمع الباي رجال دولته، وهو في فراش المرض، وقال لهم: «إنّ الدّولة العليّة [العثمانيّة] لها حقوق علينا باعتبار العادة، منها أن نوجّه مراكبنا لإعانة أسطولها إذا وقع لها حرب. ووقع لنا تعطيل عن إرسال شقوفنا، سببه قنصل الفرنسيس «بيكلار» (Béclard) كما تعلمون [...]، ورأيت أن لا نقتصر على العادة السّابقة، بل نزيد على ما فعله سلفي بأن نوجّه عسكرا بسائر ما يلزمه من الأخبئة والمهمّات، ونقوم بما يلزمه في مدّة وجهته، ونبعث ما عندنا من المراكب» فقالوا له: «نعم الرّأي لو ساعدته الجدة، وأنت ترى ما نحن فيه من الضّيق». فقال لهم: «الاعتماد على اللّه». وهو يرى أنّ خير الدّين يتساهل في الاقتراض، إلاّ أنّه لم يصرّح بذلك. ثمّ جمع سائر ما في خزانته من المصوغ والأحجار الكريمة، والجواهر النّفيسة» وتبرّع وزيره مصطفى خزنه دار بجميع ما عنده من ذلك، حتّى حليّ زوجته أخت الباي. وبعث بجميع ذلك إلى خير الدّين وأمره ببيعه، فلم يجد ما يقارب الثّمن، فتوقّف، وأمره ببيع ذلك بما يجد وإرسال الثّمن عاجلا، «فامتثل وبعث الثّمن، وقدره نحو المليونين من الفرنكات» أنفقها في لوازم العسكر الذي عزم إرساله للدّولة العثمانيّة من الأقوات والأخبية والخيول [وسبق لهم مرتّب شهري] وغير ذلك».

ويعتبر أحمد ابن أبي الضياف أنّ مشاركة تونس في الجهاد وإعانة الدّولة العثمانيّة كانت من «عظائم حسناته في المملكة. ولم يستعن الباي في هذا الجيش بدينار ولا درهم من أحد على أيّ وجه، سوى مصوغ الوزير، إمّا لعلوّ همّته التي اقتضت بيع ما له من الطارف والتّالد [بأبخس الأثمان]، أو لما علم من عجز النّاس وضعف المملكة. وقدر العسكر نحو الأربعة عشر ألف [14000] مقاتل، ما بين طبجية ورجال (مشاة) وفرسان وبحريّة حملهم في مراكبه الحربيّة وكانت سبعة، واكترى لبقيّتهم خمسة وستّين مركبا. وأمّر على الجميع أمير الأمراء أبا محمّد رشيد [أمير عسكر الساحل]...». ولما قرب أوان سفر هذا العسكر، قال ابن أبي الضياف للباي: «نحضّر مكتوبا للحضرة السلطانيّة؟». فائنف من ذلك لعلوّ همّته، وبعده عن الإعجاب بنفسه، وقال: «أيّ شيء فعلنا حتّى نكاتب في شأنه السّلطان؟» فقال له ابن أبي الضياف: «هذا أوّل عسكر نظامي خرج من المغرب إلى المشرق، وهو بالنّسبة لمملكتنا عدد كثير»، فقال: «حقّر عملك يعظّمه غيرك. نعم، لا بدّ من مكتوب في الوصاية بهم للصدر الأعظم ومكتوب لسرّ العسكر، فإنّنا وإن جمعتنا الأخوّة الدّينيّة، والأخوّة السلطانيّة، لا ننسى نسبتنا التّونسيّة».

أمّا خير الدّين، فقد تثاقل في مهمّة الاقتراض من أجل مساعدة السّلطان «لما رأى فيه من الضّرر الفادح في الحال والمآل، والباي يحرّضه ويغلظ له في القول، وهو في ذلك يتثاقل».

ومهما يكن من أمر فإنّ إسهام تونس بهذا

الجيش الضّخم نسبيّا قد حمّل ميزانيتها عبئا ثقيلا فوق الأعباء الكبيرة الأخرى التي ترتّبت عن سياسة التَّحْديث. وإذا كان أحمد باي قد استطاع أن يقوم بكلّ هذه الإنجازات دون التمكّن من الاستدانة من الخارج ـ وهذا «شيء إيجابي» في سياسته ـ فإنّه اضطرّ إلى زيادة الضرائب إلى حدّ أرهق السكان إرهاقا شديدا بسبب بنائه مثلا لقصر «المحمديّة» الفخم جدّا. وهكذا بدأ المشير أحمد باي من حيث يجب أن ينتهي فعجز اقتصاد البلاد عن تمويل مشروعاته المكلفة (جيش نظامي مرتفع العدد، قصور كثيره، نياشين...) ولم ينقذه إثقال كاهل الأهالي بالضّرائب، فازدادت الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة تدهورا وتفاقمت بذلك الهيمنة الفرنسيّة على الباي ورجال دولته من المماليك وغير المماليك.

أشرنا سابقا إلى أنّ أحمد باي كان يعرف اللّغة التّركيّة. «نطقا وشيئًا من الكتابة» واللغة الإيطالية «نطقا فقط»، وكان مهتمّا بشؤون الثّقافة والتّعليم. وممّا حفز عنايته بهذا الميدان ما شاهده أثناء رحلته الشّهيرة إلى البلاد الفرنسيّة، وكذلك ما بلغه من حال التّعليم وتحديثه بمصر في النّصف الأوّل من القرن التّاسع عشر. ولئن اهتمّ بإصلاح التّعليم بجامع الزّيتونة وتنظيمه، فإنه أبدى اهتماما خاصا بإعداد الجيش ومؤسّساته وتكوين «إطارات» متعلّمة على النّمط الأوروبي. وقد عهد إلى الأوروبيّين بتحديث جيشه، وذلك بواسطة عقود خاصّة أبرمت مع ضبّاط.

ولكن أحمد باي مثل كثير من أقرانه حكّام الشّرق المعاصرين له، لم يعرف كيف يستفيد من نقل المدنيّة الأوروبيّة، فكان اهتمامه مركّزا أكثر على المظهر الخارجي. أمّا فيما يتعلّق بالجيش فقد اهتم، على سبيل المثال، بتغيير ملابس الجنود والضبّاط وجعله يتّخذ نمط الزيّ الأوروبي (ما عدا الرأس المغطّى بالطربوش)، فضلا عن كون الجيش لم يستفد من المدرّبين الأجانب الذين استقدمهم للتّدريب على وسائل الحرب الحديثة، إمّا لعدم وجود فئة من الضبّاط ذات قدرة على الاستيعاب أو لعدم شعور هؤلاء المدرّبين الأجانب بالمسؤولية. وما قيل في الجيش البريّ ينطبق كذلك على البحريّة. زد على ذلك أن جميع منجزات أحمد باي اقتضت أموالا ضخمة، في حين أنّ إمكانات البلاد الاقتصاديّة والمالية محدودة. ـ خاصة أنّ الأسطول التّونسي قد تحطّم عام 1827م في واقعة «نافرين» الشهيرة. لكن أحمد باي كان مبهورا بمظاهر المدنيّة ذات الطراز الفرنسي. ولذلك انجذب إلى فرنسا دون غيرها انجذابا خاصّا. ألم يزيّن قاعات قصره باللّوحات الزّيتيّة عن معارك نابليون الكبرى؟ ألم يترجم إلى العربيّة كتاب: «تاريخ نابليون الأوّل»؟ هذا فضلا عن الانطباعات التي رجع بها المشير إلى بلاده. لقد أعجب إلى حدّ الانبهار، بما شاهده من استعراضات عسكريّة، وما رآه في «تولون» من قوّة الأسطول الفرنسي الرّادع، والقادر طبعا على أن يزرع في الضّيف «العزيز» عقد النّقص والضآلة. والجدير بالملاحظة أيضا أن أحمد باي لم يشغف بزيارة المطابع والمتاحف والمسارح والمعاهد العلميّة الخ ـ شغفه بالمؤسسات العسكريّة. ولذلك أعاد تنظيم المدرسة الحربيّة التي أسّسها عام 1831م حسين باي وذلك في غرّة محرّم 1256/5 مارس 1840م.

أمّا مؤسّسات الحكم والحياة البرلمانيّة والسياسيّة والصحافيّة وما إلى ذلك، فقد اهتمّ بها اهتماما خاصا بعض مرافقي الباي في رحلته هذه وهما الوزير أحمد ابن أبي الضياف والجنرال خير الدّين، الوزير الأكبر والمصلح الشهير.



محمد صالح رضا الأحمر
[1902 - 1961م]

ولد محمد الصالح رضا بن معاوية الأحمر بتونس سنة 1902. وقد اشتهر منذ حداثته بحبّه للبحوث العلميّة التي بدأ يكتب فيها وعمره لم يتجاوز الثالثة والعشرين.

وتولّى تدريس العلوم الطبيعيّة واللّغة الفرنسيّة بالمدرسة القرآنيّة الأهليّة بتونس، وقد استفاد تلامذته كثيرا من دروسه لأنّه كان يستعين دائما بالتجربة العلميّة لإفهامهم أسرار الطبيعة.

وأمضى أكثر من عشرين عاما وهو يحرّر البحوث العلميّة وينشرها في الصّحف والمجلاّت والتّقاويم والدّوريات التّونسيّة. ولقد تحدّث عن الذرّة وعن تجزئتها قبل أن تتناول الصحف هذا الموضوع بإطناب، كما كتب في شهر أوت سنة 1930 مقالاً نشره بمجلّة «العالم الأدبي» تحدّث فيه عن إمكانية وصول الإنسان إلى القمر.

ولمّا كان يحذق الترجمة فقد أسندت له إدارة قسم الترجمة بالمجلس الكبير ثم أدار بكفاءة دائرة الترجمة بوزارة العدليّة فقام بأعباء وظيفه باستقامة وإخلاص إلى أن أحيل على التقاعد سنة 1958 فانتدبته الإذاعة مستشارا ومراقبا للإنتاج الإذاعي إلى أن توفّي سنة 1961.

كان صالح رضا الأحمر يمتاز بالتّفكير في المشروعات. فكلّما رجع إلى نفسه اختمرت في فكره رغبة في إحداث مؤسّسة من المؤسّسات. شارك في مجلس إدارة جمعيّة «التمثيل العربي» سنة 1930 ثم انشقّ عنها وأسّس مع ثلّة من رجال المسرح جمعيّة «المسرح» لخدمة المبدإ الذي نادوا به وهو تزويد المسرح التونسي بمسرحيّات محرّرة بأقلام تونسيّة، إلى أن سعى شيخ المدينة مصطفى صفر في سنة 1936 إلى توحيد الجهود بضمّ الجمعيّات والفرق المسرحيّة في جمعيّة واحدة فتحقّق ذلك وأطلق على الجمعيّة الجديدة اسم «الاتّحاد المسرحي».

وفي سنة 1937 أصدرت الجمعيّة مجلّة «المسرح» فشارك صالح رضا الأحمر في تحريرها، كما شارك في تحرير مجلّة «الراديو والسينما» ومجلّة «الثريا»، وأدار مجلّة «المسرح والسينما» التي صدرت أعدادها سنة 1947 وانتخب بعد استقالة إحْمَيْدَة الحبيب من رئاسة جمعيّة «الاتّحاد المسرحي» رئيسا لهذه الجمعيّة فعمل على النّهوض بها. وانبرى للدّفاع عن المسرح التونسي وبعث في الممثّلين نشاطا لتكوين نقابة والدعاية لفكرة الاحتراف ليضمن بقاء المسرح التونسي. وشارك في وضع قانون أساس لهذه النّقابة كما شارك في عدّة لجان تكوّنت لإبراز هذه الفكرة من نظريات القول إلى ميدان العمل.

كان صالح رضا الأحمر لا يدّخر وسعا في خدمة المسرح التونسي في أيّ مكان حلّ به، من ذلك أنه انتهز فرصة انتدابه للترجمة بالمجلس الكبير واتّصاله بأعضاء ذلك المجلس فدعاهم إلى تقرير إعانة ماليّة للجمعيّات المسرحيّة.

وقد عرّب محمد صالح رضا الأحمر بعض المسرحيات العالمية نذكر منها مسرحية «روي بلاس» لفكتور هيجو بالاشتراك مع محمد الحبيب سنة 1927 وقدّمت بنجاح في المسارح التونسية.

وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية

لقد أحدثت سنة 1988 الوكالة القوميّة لإحياء واستغلال التّراث الأثري والتاريخي معاضدة لجهود الأطراف المعنيّة بالتّراث صيانة ودراسة وعرضا

وخاصّة المعهد الوطني للتراث. وهي، حسب القانون عدد 11 المؤرخ في 25 فيفري 1988 والامر عدد 1591 المؤرّخ في 24 أوت 1988، مؤسّسة عموميّة ذات صبغة صناعيّة وتجاريّة تعمل بإشراف وزارة الثّقافة لفائدة السياحة الثّقافية باعتبارها عنصر إغناء وإدماج للثقافة في الدورة الاقتصادية للبلاد. وتسعى هذه المؤسّسة إلى استغلال التّراث الأثري والتاريخي والمتحفي التونسي الغني جدّا والمحافظة عليه، لا سيما ببعث السياحة الثّقافيّة وتطويرها وتعميم المعرفة بتراث البلاد وتحسين نوعية الاستقبال بالمتاحف والمعالم التاريخيّة والمواقع الأثريّة وتطوير الإعلام بتوفير الوسائل السّمعية والبصرية وتشجيع الصناعات التقليدية المهتمّة بالتراث، مواكبة لانطلاق الاحتفالات بتونس عاصمة ثقافيّة لسنة 1997، وسّع في مشمولات الوكالة ومجالات تدخّلها فأضيفت إلى تسميتها عبارة التّنمية الثّقافيّة، وذلك تقديرا لجهودها في إدماج التّراث بالدّورة الاقتصاديّة وتوظيفه في التنمية الثّقافيّة، في إطار التّعاون والتّشاور والتّكامل بين الوكالة والمعهد الوطني للتّراث. ولذلك كان من ثمار التّكامل بين هاتين المؤسستين عدّة إنجازات ومكاسب. فقد أسهمت الوكالة في ترميم المعالم وتهيئة المواقع وإحداث أكثر من منتزه، كمنتزهات قرطاج ودقّة وسبيطلة وأوذنة حيث وفّرت هياكل الاستقبال السّياحي من مشارب ونقط بيع وأدلاّء. وشرعت في إعداد عدّة مسالك سياحيّة داخل المدن والقرى التّاريخية، كمسلك الواحات وقرى الجنوب والقصور الصّحراويّة ومسلك المدن الأندلسيّة ومسلك الفنون والتقاليد الشعبيّة. ونتج عن ذلك أن تضاعف عدد الزوّار للمتاحف والمعالم والمواقع الأثريّة من مليوني زائر سنة 1992 إلى ثلاثة ملايين سنة 1995، وتضاعفت تبعا لذلك مداخيل معاليم الزّيارة من سبعة آلاف دينار سنة 1987 إلى سبعة ملايين دينار سنة 1995، كما قفز حجم الاستثمار في ميدان التراث إلى11 مليون دينار في ظرف ثلاث سنوات فقط من 1992 إلى 1994.

وما انفكّ مجلس إدارة الوكالة يبتكر وسائل التّثقيف في مجال التّراث. وبإمكان أيّ شخص أن يقتني مبيعات الوكالة من لوحات فسيفسائيّة رومانيّة مستنسخة في أحجام مختلفة تمثّل مشاهد جاهزة أو مشاهد مطلوبة طبق الأصل، ونماذج مصغّرة لمعالم مهمّة مثل مسرح الجمّ، وبطاقات بريديّة، وحاملات مفاتيح، والشعارات المختلفة الموضوعات والصّادرة بعدّة لغات والمحلاّة بأجمل الصّور. وهي تعرّف بأهمّ المواقع وبكنوز التّراث التّونسي، من قطع متحفيّة ومعالم تاريخية ولوحات فسيفسائيّة ونفائس المخطوطات. وتعتزم الوكالة استغلال الوسائل السمعيّة والبصريّة للتّعريف بروائع التراث للتّونسيين والأجانب. وقد نظّمت في نطاق الاحتفال بتونس عاصمة ثقافية تظاهرة متكاملة حول التّراث الأندلسي بتونس في نوفمبر 1997. وهكذا استطاعت هذه الوكالة في بضع سنوات أن تقدّم تجربة ناجحة وتبتكر خطّة عمل متميّزة في مجال تأكّدت جدواه في الصّناعات الثّقافيّة والتّنمية الاقتصاديّة.

معهد الآداب العربية

هذا المعهد المعروف باسم «إبلا» (IBLA) مؤسّسة ثقافيّة وعلميّة مسيحيّة خاصّة تخدم البحث العلمي في العلوم الإنسانيّة.

لقد أسّس الآباء البيض وعلى رأسهم الأب ديمرسان معهد الآداب العربيّة سنة 1926.

وهو أشبه بأكاديميّة مصغّرة تعمل بروح الاستشراق، رغم أفول نجمه بتطوّر الأهداف من تبشيريّة واستعماريّة إلى ثقافيّة داعمة التّسامح والحوار والبحث.

يعمل معهد الآداب العربيّة منذ أكثر من



البشير الفورتي والعربي الكبادي والأب ديمرسمان مؤسّس معهد الآداب العربية «إبلا» ومجلتها

سبعين سنة، ويسعى بوثائقه وبحوثه ومنشوراته إلى دراسة المجتمع والثّقافة في تونس والعالم العربي، من أجل معرفة أفضل للمجتمع التونسي وللثّقافة التّونسية. ويحرص على أن يكون في خدمة تلك الثقافة ومعبّرا عنها أحسن تعبير، وذلك بوساطة مجلّته التي تحمل عنوان المعهد نفسه وبمكتبته.

فالمكتبة الجامعيّة مخصّصة للباحثين والأساتذة الجامعيين وطلبة المرحلة الثالثة. ويتعلّق رصيدها أساسا بالآداب والعلوم الإنسانية في العالم العربي وتونس بوجه خاصّ. ويتكوّن من حوالي 20.000 مرجع، نصفها باللغة العربيّة ونصفها الآخر بأهمّ اللّغات الأجنبيّة. وتستخدم حاليا الإعلامية في فهرسة 180.000 جذاذة مرتّبة حسب أسماء المؤلّفين والموضوعات. وهذا سيتيح للمكتبة الجامعيّة تلبية طلبات التزوّد بالمعلومات المكتبية الواردة من تونس وحتّى من الخارج، بمنتهى السّرعة والدقّة.

ومن الجدير بالتّنويه أنّ العاملين في المكتبة مختصّون حريصون على إغناء فهارسها بانتظام بكلّ المعلومات البيليوغرافيّة الجديدة بفضل عمليّة الجرد المتواصلة لكلّ ما يرد على المكتبة من منشورات إبّان صدورها، كتبا كانت أو دوريّات، داخل البلاد وخارجها، كما تشمل عمليّة جرد العناوين غير المتوفّرة في المكتبة من باب إعلام الباحثين بها وتوجيههم إليها في مظانّها.

أمّا مكتبة التلاميذ فهي مفتوحة لأبناء الحيّ، من باب تفتّح المعهد على محيطه، مساعدة منه لتلامذة التعليم الثانوي وخاصّة تلامذة الباكالوريا الذين سيصبحون لاحقا من روّاد المكتبة الجامعيّة لمواصلة دراساتهم العليا. لذلك احتوت مكتبة التلاميذ على مراجع تقتضيها المرحلة الثانوية وأغلبها باللغة العربيّة وحول البلاد التّونسية والمواد المدرجة بالبرامج المقرّرة. ويستطيع هؤلاء التلاميذ الاستعانة في إنجاز أعمالهم بالقائمين على المكتبة أو تلامذة الأقسام العليا، كما توجد بالمكتبة مصلحة لإعارة الكتب باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية.

ومن أهمّ ما يصدره معهد الآباء البيض للآداب العربيّة مجلّته المشهورة باسم (IBLA). فقد تأسّست سنة 1937 في السنة العاشرة من تأسيس المعهد، وبلغت أعدادها المفردة والمزدوجة 184 عددا سنة 1999، بمعدّل عددين اثنين في السنة، يصدران بانتظام في جانفي وجوان. ومعدّل صفحات كلّ عدد 200 صفحة. وتحرّر مقالاتها بالعربيّة والفرنسية مع انفتاح على الإنجليزية. ويتضمّن كلّ عدد قسما يشتمل على دراسات متنوّعة: أدبيّة وتاريخيّة واجتماعية وتربويّة ودينيّة، بالإضافة إلى قسم توثيقي يضمّ نقدا للكتب مفصّلا وتقديما موجزا ومراجع تونسيّة مبوّبة شاملة لجميع الوثائق الصادرة عن تونس في السداسية الأخيرة التي يغطّيها العدد، إلى جانب ذكر الكتب الواردة على المجلّة. وتجتمع لجنة قراءة للمقالات المقدّمة للنشر متألّفة من جامعيين مختصّين في مواعيد منتظمة للحفاظ على توجّه المجلّة ومستواها.

إلى جانب مجلّة «إبلا» (IBLA) أصدر معهد الآباء البيض للآداب العربيّة أربعين عنوانا، إلى حدّ سنة 1997، في مختلف الموضوعات

والتخصّصات، لعلّ أهمّها العمل البيبليوغرافي الضخم الذي قام به الأب أندري لوي (André Louis) بعنوان: بيبليوغرافيا اجتماعية إثنولوجيّة عن تونس، وبعض مؤلّفات الأب جان فونتان (Jean Fontaine) حول الأدب التّونسي تأريخا وتوثيقا ودراسة، دون أن ننسى أعمالا طريفة حول التّراث الشعبي في تونس، كديوان الأحاجي أو النوادر التي جمعها وترجمها وعلّق عليها جون كيمينور (Jean Quémeneur) وفهارس المجلّة طيلة 60 سنة.

الأدب الشّعبي

منذ عهد ليس ببعيد وقبل حصول البلاد على الاستقلال بدأ الاهتمام في تونس بالفنون الشعبية التي من أقسامها الأدب الشعبي بما يحتويه من أصول وفروع. وقد كان اهتمام الدّارسين الأجانب أسبق إلى هذا الجانب المشرق من حياة الشعوب، فأشاروا في كتبهم إلى الفنون الشعبية، ودرسوا الأساطير والأغاني والعادات والتقاليد والملابس والآلات وغيرها من مستلزمات الحياة اليومية وحلّلوها، وفتحوا الباب لمن جاء من بعدهم، ليكتبوا الدراسات الشعبية التي كانت من قبل هامشية لا يذكرها الأدباء والمؤرخون إلا نادرا.

وقد رأينا من الكتاب التونسيين في القرن العشرين من تصدّى للدراسات الشعبية وألّف فيها، كالصادق الرزقي في كتابه «الأغاني التونسية» والحشايشي في رحلاته، وعثمان الكعاك في كتابه عن «العادات والتقاليد» والطاهر الخميري في كتابه «الأمثال الشعبية بتونس»، وكان أكثر هؤلاء جميعا اهتماما بهذا الفنّ، الأديب محمد المرزوقي الذي صرف حياته إلى جمع التراث الشعبي، وتدوينه، ودراسته وترك لنا رصيدا يمكن لنا أن نعتبره نواة للمكتبة الشعبية بتونس، سواء في الشعر أو في الأساطير أو في العادات والتقاليد، كما لا ننسى هنا الفرق المسرحية التي تحاول إحياء هذا التراث في مسرحياتها بإدخال الرقصات والأغاني والأمثال الشعبية في حواراتها، وكذلك الفنّانين التشكيليين الذين يستقون من التراث الشعبي التونسي في لوحاتهم.

الأدب الشّعبي

لا يخفى أنّ هذا المصطلح عربي مؤلّف من كلمتين عربيتين خالصتين ولكنّه بالرغم من ذلك لم يتلفّظ به العرب قديما وإنما وضع في العصر الحديث. ولا جدال في أنّ المسمّى أو المفهوم مستعار من دلالة الكلمة الغربية «فولكلور» فالغربيّون، إذن، هم الذين تنبهوا لهذا المفهوم، وأطلقوا عليه اسما، ثمّ استعرنا نحن منهم المفهوم وسمّيناه باسم عربيّ.

فما هو مفهوم الأدب الشعبي؟

إنّ الصورة الدقيقة للأدب الشعبي، هي التي تضمّ ما يعبّر عن مشاعر الشعب وأحاسيسه، ولكن مشكلة المضمون والشكل التي عانى منها كثيرا الأدب الرسمي (الأدب الفصيح) تدخلت في هذا المفهوم فعقدته وقسمت النقاد والمؤرخين شيعا إذ نظر بعضهم إلى شكل الأدب الشعبي فعرفه بأنه «الأدب المجهول المؤلف، العامي اللغة، المتوارث جيلا بعد جيل باللغة الشفوية»، ونظرت فئة أخرى إلى المضمون فعرفته بأنه «الأدب المعبّر عن مشاعر الشعب، في لغة عامية أو فصحى». واقتربت جماعة ثالثة من التعريف الأول، لكنّها أخذت عليه أنّه يطرح من مشمولات الأدب الشعبي الأدب العامي الحديث، الذي نعرف قائله ولم تتوارثه الأجيال بعد وسجّلته المطبعة أو الإذاعة أو المسرح أو غيرها من وسائل النشر الحديث، ورأت أنّ الأدب الشعبي هو الأدب العاميّ، قديما كان أو حديثا، مسجّلا أو مرويّا شفاها، مجهول القائل أو معروفه.

تصنيف الأدب الشّعبي

لم يتّفق العلماء على تصنيف موحّد للأدب

الشعبي، ولا تكاد تجمعهم وجهة نظر واحدة في هذا المجال وقد لاحظ بعضهم أن كل باحث يتأثر في ذلك بتراث علم «الفلكلور» في بلاده، كما يتأثر بشواغله الشخصيّة في مجال تخصصه.

ومن أشكال التصنيف التي تصادفنا في هذا المجال ما يلي: السير والأساطير، الخرافات، الأغاني الشعبية، الأقوال السائرة والكنايات والأحاجي، الأمثال الشعبية، الشعر الشعبي.

السير والأساطير

تبحث الشعوب دائما عن البطل فإذا ما افتقر تاريخها الحديث إليه توغلت في عمق تاريخها القديم كي تجده فليس هناك ما يثير عقول الناس ويغذي أخيلتهم أكثر من سير الأبطال.

وتخضع سيرة البطل لوصف شكلي عام، تتبعه السير جميعها. فهي تبدأ بسرد تفاصيل حياة البطل بالحديث عن أجداده الذين يضربون ببطولاتهم في أعماق التاريخ، حتى تصل إلى بطل السيرة، ولا يولد البطل ولادة عادية، بل لا بدّ أن تصاحب ولادته معجزات هي بمثابة الإرهاص ببطولته.

ويطلق على هذا النوع من القصص الشعبي الذي يتتبع حياة البطل منذ ولادته حتى وفاته اسم «السيرة» إذ أن السيرة معناها في الاصطلاح تاريخ حياة، أو بعبارة أخرى حياة إنسان منذ أن ولد إلى أن مات، وإنسان عظيم تستحق حياته التسجيل عن سائر الناس. وما في الأدب الشعبي التونسي من سير ليس في الواقع إلاّ السير المتداولة في العالم العربي وليس منها ما يتحدّث عن تونس إلاّ «السيرة الهلالية» التي تجري أحداثها في شمال إفريقية أواسط القرن الخامس الهجري. أما ما هو متداول بين الناس فهو ملاحم عربية (بكل احتراز لاستعمال هذه الكلمة). وذلك مثل «سيرة عنتر» التي تصور جوانب مجهولة من حياة البدو، و«الزير سالم» التي تذكر بعض وقائع أيام العرب و«سيف ابن ذي يزن» التي تتحدث عن حروب العرب مع الحبشة وعن الاعتقادات السحرية القديمة و«الأميرة ذات الهمة» التي تذكر وقائعها الحروب مع الروم. وفي تونس العاصمة كانت المقاهي تعج برواة «الفداوي» الذين يسردون هذه السير بجوار «باب سويقة» ولهم استشهادات عدّة عن مرور بني هلال ببلادنا وما وقع بين «العلام» أمير تونس وأبي زيد الهلالي... والتونسيون يركزون سيرة بني هلال على «الجازية الهلالية» وزواجها من الشّريف بن هاشم، هذا بخلاف ما نقرأه في السير الشرقية لهذه التغريبة التي تجعل منها سير أبطال تتركز حولهم الأحداث إلى حدّ أن يكاد كل جزء منها سيرة للبطل من أمثال «أبي زيد الهلالي» و«العلام» و«ذياب بن غانم» و«الخفاجي عامر» و«الزناتي خليفة».

ولا توجد في الوقت الحاضر إلا حكايات حول «الجازية الهلالية» وقصة يونس وعزيزة، وبطولات أبي زيد الهلالي. ونظم بعض الشعراء الشعبيين أشعارا استوحوها من السيرة الهلالية كما فعل ذلك أحمد ملاك وأحمد الربيعي. ولحسن الحظ جمع عبد الرحمان قيقة أصيل قرية تكرونة قصة تكاد تكون كاملة من السّيرة الهلالية التي كانت منتشرة بالجنوب التونسي. وقد حقّقها وجمعها ابنه الطاهر قيقة ونشرتها الدار التونسية للنشر (ط. 3، 1987).

أما الأسطورة فهي قصة تعتمد على الخارق أكثر من العادي وترتكز على التشويق وحشر العجائب والغرائب التي تخرج بالإنسان من الواقع إلى اللاّواقع وموضوعها يتفرّع إلى فروع متعدّدة منها:

1 – الأسطورة الاجتماعية التي تقصّ حوادث أخذت من صميم المجتمع وهي تتناول عادة علاقة الفرد بالفرد، كعلاقة المرأة بالرجل أو علاقة الفرد بالحاكم أو بالمجتمع، مثل أسطورة «الكنّة والحماة».

2 – الأسطورة السياسية وهي تقص في الغالب أحداثا توضّح سياسة الحاكم في رعيته ملوّحة

بالاستنكار للتعدّي والظلم منوهة بالعدالة، مثل «الباي سليم وقائد دريد».

3 – الأسطورة الخارقة وهي التي تتحدّث عن الجن والغيلان وخوارق الطبيعة، مثل أسطورة «الطائر الأخضر» التي تجعل من هذا الطائر عالما بالمغيّبات ومطلعا على الماضي والحاضر والمستقبل.

4 – الأسطورة الأدبية، وهي التي تعتمد على الطّرائف الأدبية والأمثال والأشعار والملح، ومن أمثلتها أسطورة «ولد قايد النجع» التي تحتوى على جزء من أسطورة «شن وطبقة». وليست الأساطير الشعبية مقصورة على النوع القصصي بل هناك أساطير تمثيلية ذات حوار مسرحي شعبي لا يعتمد على حوار مكتوب محفوظ، بل يترك الحوار إلى ذكاء القائم بالدور. من هذا النوع أسطورة «رحمونة» التي اشتهرت في العاصمة التونسية منذ عهد بعيد.

الأغاني الشّعبية

مهما اختلفت الآراء حول الأغنية الشعبية وقيمتها وما يمكن أن تقدّمه من مكاسب ثقافية وتربوية وترفيهية للأجيال المتأخرة عن الجيل الذي ترعرعت فيه تلك الأغاني وازدهرت، فإن مادتها العضوية النقية الساذجة في مظاهرها، العميقة في حقائقها، ستظل مصدرا حيويا مهما بالنّسبة إلى الدراسات «الاثنولوجية» المتعلقة بكل شعب أو مجموعة من المجموعات البشرية في جميع أنحاء العالم وموردا خصبا تستلهم منه الأعمال الفنية والأدبية، لأن الأغنية الشعبية تعكس صورة صادقة نقية لنفسية الشعب الذي تنتمي إليه.

يرى بعضهم أنّ من صفات الأغنية الشعبية الدوام والبقاء، لا عن طريق التدوين، ولكن عن طريق الذاكرة الشعبية الجماعية، والأغاني الشعبية تصاحب دورة الإنسان من المهد إلى اللحد.

1 – فهناك **أغاني الولادة**، وهي تجسّد أهمّ الأحداث في حياة أيّة عائلة، وتظهر هذه الأغاني حرصا على حياة الأم والدعوة لها بالستر وسهولة الولادة، ومن هذه الأغاني الأغنية المشهورة «يا قَابْلَةٌ يا مَقْبُولَهْ»

2– **أغاني «التربيج»** وهي التي تغنّيها الأم لهدهدة ابنها أو ابنتها في المهد حتى ينام، وهي كثيرة في كلماتها وإيقاعها ومضامينها، وغالبا ما تتضمن مدحا لجمال الطفل أو الطفلة مثال ذلك في التّربيج بالطفل:

«سعدي بيه سعدي بيه
إن شاء اللّه يكبر ونربّيه
وتغنّي الغنّايه عليه
ونفرح كيف الخير يجيه»

3 – **أغاني الختان**، وهي تغنى بمناسبة الختان ومن أشهرها «طهّر يا مطهّر»

4 – **أغاني اللعب**، وهي كثيرة، لا تحصى أمثلتها.

5 – **أغاني العمل** وهي نوعان: نوع نشأ من العمل نفسه مثل ظروف متح الماء، ونوع استعير من مجالات أخرى لتكتمل به شخصية العمل.

6 – **أغاني الأعراس** وهي متنوّعة منها أغاني الخطبة وأغاني افتتاح العرس، وهي تبدأ دائما بالصلاة على النبي وأغاني حفلات الليل وأغاني الحنّاء وأغاني «الجَلْوَة» وهي التي تردد عند جلوس العروس على التخت ومنها:

علاش تبكي يا لوخيّة   تسخّفني دمعتك
بن عمّك شقيقك   وأمّك جارتك

7 – **أغاني تعليلة العروس** ومن أشهرها «لا إله إلا اللّه والفرح واتانا».

8 – **أغاني النّحيب على الميت**، وهي تردد في المآتم قديما.

الأقوال السائرة والكنايات والأحاجي

الأقوال السائرة هي تعابير شعبية تندرج في الحديث العادي بين الأفراد والجماعات تقال في مناسبات خاصة وتتناقلها الأجيال عن بعضها. وهي تصدر عفويا وتأتي على البديهة وتوحي بها في بعض الأحيان المفاجأة، مثال ذلك قولهم لمن يدخل دون علم على الجماعة وهم في غفلة

من أمرهم: «صبّ الزيت» أو قولهم للذي يأتي قبل ابتداء الطعام «حصانك جرّاي» أو قولهم لمن يدعي شيئا لا يستطيع أن يقوم به «هاك مكحلة وخوذ حوري» أو قولهم للحاكم الجديد «ينصر من صبح» أو قولهم لمن يريدون أن يصرفوه «وريني عرض أكتافك». وأكثر هذه التعابير رواجا والتصاقا بالأدب الشعبي الألفاظ التي يتغنّى بها الباعة للفت الأنظار إلى سلعهم. وغالبا ما تكون هذه التعابير مسجوعة ليسهل التغني بها، ومن أمثلة ذلك قول بائع المشمش «شاشي وليه ياسر ما جاشي»، وقول بائع الفقوس «ساري على القمره» وقول بائع اللمسي، وهو نوع من التمر تنتجه قابس والمطوية، «لمسيّه، يا لمسيّه. بلادك قابس والمطويّة»... أما الكناية في الأدب الشعبي فهي الاكتفاء بالإشارة إلى الحقيقة بوساطة بعض الصّور، وهي من أساليب بلغاء الناس، يؤتى بها للتستّر عادة، أو لإخفاء اسم الشيء خوفا من أمر يجرّه، كالعدول عن الألفاظ المتطير بها، من ذلك قولهم عن الميت «جاور مولاه» أو قولهم عن المنتهي من الشيء «لحس صباعو»، ويقال عن الذين تفرقوا عن بعضهم بعضا «اللّي شرّق شرّق واللّي غرّب غرّب» وعن الأعمى «بالبصير» وعن الملح «بالرّبح» وعن الإبرة «بالحاذقة»... والمتلمس لهذا النوع يجده كثيرا في كلام الناس.

أمّا الألغاز فهي الكلمات المسجوعة، أو المنظومة، التي تلقى في المجالس الخاصة أو العامة في قالب أسئلة يختبر بها الناس بعضهم بعضا، والقاعدة في ذلك أن يورد اللغز في شبه سؤال منظوم أو مسجوع، عن شيء تذكر صفاته البعيدة أو القريبة، ومن تلك الصفات يستطيع المسؤول بإعمال شيء من الفكر الاهتداء إليه.

وتسمّى هذه الألغاز في العاصمة التونسية «التشنشين» وفي بعض الجهات الأخرى تسمى «الخبو» وإذا ألقيت في العرس تسمى «الرباط». ومن الألغاز المتداولة قول أحدهم ملغزا في الرسالة «الجواب»:

على طفل شهلول بهلول
في راس خدّه أماره
بعثوه لبرّ السلاطين
وجابوه لبرّ النصاره

الأمثال الشّعبية

المثل هو القول السائر المصطلح عليه بين عامة الناس وخاصّتهم لتعريف الشيء بما سبقه من حوادث متشابهة، أو مما قاله أصحاب التجربة والعقلاء من الناس، وقد عرّف المثل بتعاريف كثيرة، فمنهم من قال في المثل: أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام، إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية،فهو نهاية البلاغة. والمثل صورة معبّرة عن عقليّة الشعوب وعاداتها، ومرآة تعكس أحوال الأمة في كثير من نواحي حياتها الاجتماعية والتاريخية والفكرية. والأمثال تدخل في جميع شؤون الحياة الشعبية وتحضر في كل وقت ويستنجد بها الإنسان العادي في كل أحواله. فمن ذلك قولهم في دفع الشرّ بالابتعاد عنه «الباب اللّي يجيك منه الريح سدّه واستريح» وقولهم في الحث على العمل والمثابرة في الجهد: «اخدم بناصري وحاسب البطّال» وقولهم عن الشيء الذي لا يستتر عن عيون الناس: «عين الشمس ما تتغطّاش بالغربال». وقالوا عن الدار الخالية من الرجال والتي ليس فيها من يقوم على أهلها: «الدار اللي ما فيها شارب، الخير منها هارب» وقالوا عن الطّماع الذي لا يقف طمعه عند حدّ: «أعطوه كراع مد ايده للذراع».

وقد أكثر الشعراء من نظم الأمثال وأفردوا لذلك بابا سمّوه «محل شاهد» وهو نوع من القصائد القصيرة، التي تكون في أغلب الأحيان على وزن «القسيم العرضاوي» ويبني الشاعر قصيدته على مثل سائر أو مقولة شعبية يجعلها خاتمة القول، ويكون ذلك هو «محل الشاهد» لما أورده في البداية. من ذلك قول علي العثماني من شعراء السواسي بالوسط التونسي، مضمّنا المثل «إذا

نكراتك بلاد ارحل منها ولو تكون أحجارها ياقوت».

يا صاغي الأنظام ومثايلها
افهم لفظ ال جايبه بثبوت
انْهَ نفسك على العدم اقتلها
واكتم سرّك للسكوت صموت
إذا تسمع خايبة خمّلها
وسط ضميرك اقفل الحانوت
خيار الحاجة تجي على مفصلها
خيار اللّفظ يجري عليه شروط
إذا نكراتك بلاد ارحل منها
ولو تكون أحجارها ياقوت

الشعر الشّعبي

لم يتوصل الباحثون في ميدان الشعر الشعبي إلى تعريف يحيط به بالضبط. وجلّ ما استطاعوا أن يعرفوه به قولهم: «هو الشعر الذي لغته العاميّة وموضوعاته شواغل النّاس اليومية مع ارتباطه بالغناء، وهو ثمرة الارتجال، وينتسب عمليا إلى نوع من الأصل المشترك، تغنيه أجيال الشعراء والمغنين، ولكن بإمكان أي واحد استلهامه. وهو ينتقل أساسا عن طريق الرواية الشفوية، وتبقى الذاكرة الشعبية أهم ما يحفظ لنا التراث الشعري».

والشاعر الشعبي ليس له وظيفة رسمية، فهو بدوي مغمور، فلاح أو جبلي، لا يميّزه عن الآخرين أي تعلّم أو تربية أدبيّة أو موسيقية. إنه راعي غنم أو إبل، أو حرّاث أو صانع صغير، أو عامل بسيط عندما تدفع به المجاعة إلى المدينة، اكتسب حب الشعر من طبيعة بلاده، فانعكست في أعماقه، ثم لفظها دون أن يكون قد أعدّ نفسه لذلك مبدئيا.

والشعر الشعبي التونسي له أوزانه الخاصة، وهي تختلف عن الأوزان الخليلية، وذلك راجع إلى اللّهجة العاميّة، فالتفاعيل القديمة بنيت على لغة تشتمل على أسباب وأوتاد وفواصل، أي «حركة وسكون ـ أو حركتان وسكون، أو ثلاث حركات وسكون». أما اللهجة التونسية الدارجة فلا تشتمل إلاّ على الأسباب والأوتاد، أي «حركة وسكون ـ أو حركتان وسكون»، ولذلك لا نستطيع أن نضبط أوزانه إلاّ بالإيقاع.

وأهمّ أوزان الشعر الشعبي المعروفة أربعة: القسيم والموقف والمسدّس والملزومة.

1 ـ فالقسيم قصيد ذو أبيات تتّحد قوافي أشطارها الأخيرة، وليس له طالع ولا رجوع، ومثاله يختلف بحسب أنواعه المتعدّدة، من ذلك القسيم المغراوي مثل قولهم:

«يا عذابْ دليلي من قلّة الصّواب
الزّمان تبدّل ما عاد يتعرف»

2 ـ الموقف عبارة عن قسيم مربع، أي أن أبياته تتركب من أربعة أشطار تتّحد فيها قوافي الأشطار الثلاثة الأولى، وتكون للأشطار الأخيرة قافية مخالفة، مثاله:

«موقف نجيبه بتحكار
مرتوب ما صـــار
كي نخش للبيت والدّار
يترجم بنغمة ذكيّه»

3 ـ المسدس وهو ما تركب من طالع ذي ثلاثة أشطار وأدوار تتركب من ستة أغصان في الغالب، مثل قول أحمد البرغوثي:

«يا بنت زينك غلب من ايقايس
وغثيث مايس
مظلّم يماثل ظلام الغلايس
يا بنت زينك غلب من ايوصّف
لباسك منصّف
ومضحك إذا بان للشّمس تكشف
تحلف كما عقد جوهر مرصّف
والقد مايس
مركب مسافر سرح به رايس

4 ـ الملزومة وهي منظومة لها طالع ذو غصنين أو ثلاثة أو أربعة ولها أدوار تتركب من أغصان ثلاثة فما فوق، تتحدّ قافيتها وتختم بعرض ترجع قافيته إلى قافية الطالع، ومنها البورجيلة والمزيود والسوقه والتباعي إلخ... وقد اشتهر من الشعراء التونسيين فحول مارسوا الشعر الشعبي وبرعوا

فيه. ومن هؤلاء أحمد بن موسى وأحمد ملاّك ومنصور العلاّقي وسعد الأزرق وقد عاش هؤلاء أوائل القرن الثامن عشر، كما اشتهر من بينهم العربي النجار المتوفى سنة 1916 وأحمد البرغوثي المتوفى سنة 1931 ومحمد الصغير الساسي المتوفى سنة 1975، وغيرهم كثير.

أغراض الشعر الشّعبي

يمكن لنا أن نقسمها إلى أربعة أقسام، وهي المتداولة عند الشعراء والأكثر استعمالا عندهم.

1 ـ أغراض ذاتية: ويدخلُ في هذا الباب وصف سمات المرأة (وجهها وشعرها وأنفها وفمها وقامتها)، مثال ذلك قول منصور العلاقي يصف حبيبته:

غثيثها طاح يكمال
في الطول يطوال
شوشان أسود ويكحال
في وسط سوق الدّلاله
جبينها برق شيّال
في رعد زلزال
الحاجب كما خط عدّال
يا عارفين العدالة
عيونها كما
حرب قتّال
والنيف مازال
خدودها ورد في خمال
في جنان واعر قداله
الشفّة من اللك تذبال
والرّيق يا خال
أنياب تبرور شعّال
جا من بلاد الجهاله
الرّقبة كما رقبة غزال
نهود فصّال
الصّدر ما ابهاه يعتال
بزّول قايم خلاله
القد نحزيه ينهال
يعدال يميال
كما سرواله بين الأجبال
والرّيح داله بداله

كما يدخل في هذا الغرض وصف لواعج الحب والجراح والفراق واللقاء والمواعيد، مثل قول العربي النّجار متوجّعا:

الحب صعيب مزّق جاشي والدّاعي
سامور لهيب يشعل من تحت ضلاعي
الحب صعيب مزّق جاشي واعضاي
سامور لهيب يشعل في وسط كناني
كيفاش يطيب نومي ونال هناي
الجرح عطيب نافذ غارق دخلاني
في القلب نشيب نبل العين الكوّايه
ما لقيت طبيب ماهر طبّه داواني

ويمكن أن ندرج في هذا الباب شعر الاعراس وما فيه من وصف للمحفل والنّجمة والهودج والجحفة والدّلال والقصعة، والحنّاء والبرجاس وشعر الرباط والحفالات وشعر المنام.

2) ـ أغراض وصفيّة: ويدخل فيها وصف البرق والمطر والربيع والنجعة ووصف الضحضاح والمفازة والوحوش ونباتات الصحراء والكوت (الحصان) والجمل والنجوم والنجوع ووصف البحر والسفن. وتكاد قصيدتا البرق والضحضاح «السراب» تشبهان المعلقة الجاهلية لتقارب البيئة والأخذ من مصادر واحدة والاتفاق في الموضوعات والانتقال من موضوع إلى موضوع في قصيدة واحدة. ومن أمثلة «البرق» قول محمد الفرحان من شعراء الحشيشينة (ولاية صفاقس).

خفّق خفق بان خفّاق
في المزن يزراق
حتّى الرّعد فيه نقناق
ظهر وغرّب وشرّق
تنسّم عطى ريح لطلاق
على شط الأبحار رشّق
عمّال يقرب ويغماق
با ملاك يساق
حدّر على واد ملاّق
شور الصّحارى مشوّق

ولا تختلف قصيدة «الضّحضاح» عن قصيدة «البرق» إلا في وصفها للصحراء وسرابها ومخاوفها وعطشها وحيواناتها الوحشية ووصف الفرس الذي يقطعها أو الجمل الذي يسخّر لاجتيازها. ومن أمثلة ذلك قول أحمد البرغوثي:

ضحضاح ما أشناه يزراق
يوساع يغراق
غيمه على روس الاشفاق
دخان غطّى ارواقه
مهاميد وخنق وطباق
شهيله رقراق
بالعمر ما شاف دفاق
هو وسحابه تلاقى
يا موحشة فج وهّاق
مقطوع الأرفاق
يصعب على كل وهّاق
يخليه مشين رقاقه

ويتبع هذا الغرض وصف «الكوت» وهو الحصان وقد ذهب الشعراء الشعبيون في وصف الحصان كل مذهب. وبعدما كان جزءا من قصائدهم أصبح عندهم غرضا رئيسا يأتون فيه على أوصاف الحصان والفارس. وقد وصفوا «الكوت» بالهيق ـ وهو النعام ـ ولونه بحجر الواد وعينيه بالصّل، من ذلك قول أحمد ملاّك في وصف فرسه:

على كوت مدوب ومثيل
مسلّس عند الرّجاجيل
مجرود أزرق كما النيل
عابر عيونه شعايل
من صغرته في التقاديل
راتع فضيح المقاسيل
في القمح يعلف بلا كيل
شارب حليب الشّوايل
الدير ذهب النشاغيل
على الأرض يخلّف جراويل
والا خفيف الفناجيل
رشم رشم خرص النبايل

3) ـ أغراض تأمّليّة: وهي أغراض أكثر التصاقا بالنفس لأنها أقرب إلى الصدق من غيرها وتوحي بها صروف الدّهر ومعاشرة الشاعر للناس وطول تقلّبه في الحياة وما صادفه فيها من خيبات أفضت به إلى الشكوى المريرة. ويدخل في هذا الباب، «شكوى الزمان» و«شعر العكس» و«ظلم الاصدقاء» وشعر «الشيب» و«الكبر» و«المراثي». من ذلك قول عبد الرحمان الكافي يشكو دهره وأهل زمانه:

الفكر حاير والعقل سرح
دمع العيون نشح
في الجاش مكوي وما نقولش أح
الفكر حاير والعقل ذهب
دمع العيون نضب
سامور ناري في الكنين لهب
على حالنا والوقت كيف صعب
الفقر فينا لح
باب الشقا في وجوهنا تفتح

وفي باب الشكوى من الأصدقاء يكثر تذمّر الشعراء من الغدر والخيانة وتقلب أحوال الناس الذين عرفوهم في سالف أيامهم. يقول محمد العياري من «مكثر»:

لا خير في الصّاحب اللّي عملت
بيه انختلت
ركب سابقي كيف راني نزلت
لا خير في الصّاحب اللّي بغاني
هو كواني
ركب سابقي يا غرايب زماني
في فم عفريت بيده رماني
بعد اللّي وحلت
لوما سترني الاله اتكلت

وفي الشكوى من الشيب والكبر يقول ساسي بن سليمان:

أنا شبت قلّ النّظر من سهادي
وبديت هادي
القبر واللّحد عنّي ينادي
أنا شبت قلّ النّظر من أعياني

وبديت فاني
القبر واللّحد طلبوا مكاني
أوفات صحتي أفيت ثقلوا أوذاني
وطاحوا أسناني
يا ربّ صمّمت فيك اعتقادي

ويأتي بعد ذلك شعر النصائح أو ما يسمّى عندهم «بالثّوامر». وهو نتيجة للشكوى المرّة. ولذلك نجد فيه تحذيرا من حسن الظنّ بالناس وبالزمان، وأن لا يخدع الإنسان بما يراه حتى يجرّب ويأخذ النصائح من غيره. ويندرج في هذا الباب «أليفات الأدب» وهي قصائد تشبه قصائد الحكمة في الشعر العربي الفصيح مثل «لاميّة ابن الوردي» و«لاميّة العجم». ومن أشهر «الأليفات «أليف» أحمد ملاك الذي نقتطف منه ما يلي من حرف «التّاء»:

التّاء ترك السّويات
همّة ابنادم سكاته
والضّحك من غير عجبات
قلّة أدب في حياته
واللّي ما يقراش لعقوبات
لا يسلموا عاقباته
الكبر للعبد
لأهل العقول الثباته
من خالط جمع الأزفات
عامل على ليث ريقه

الشعر السياسي

كان الشعراء الشعبيون ومايزالون رافضين للحكم الأجنبي والسيطرة مهما يكن نوعها سواء أجاءت من الداخل كظلم «البايات» أم من الخارج كظلم المستعمرين. وقد أطنب كلّ الشعراء في وصف هذا أو ذاك، كما وقفوا إلى جانب الثائرين من التونسيين الأحرار، ووصفوا وقائعهم في الشمال والجنوب وأبرزوا الابطال منهم وخصّوهم بالقصائد الطويلة، كما فعلوا في وصف معارك محمد الدغباجي، والبشير بن سديرة ومصباح الجربوع وغيرهم من الذين أقضّوا مضاجع الاستعمار في عهد الكفاح التحريري، كما سجلوا كل ما مرّ على هذه البلاد من أحداث كشعرهم في دخول الحماية إلى تونس وفي حوادث الجلاز سنة 1911 وفي انتفاضة سنة 1915 وفي مساندة الأحزاب وفي حوادث 9 أفريل 1938 وفي انتفاضة 1952 وفي الفرحة بالاستقلال وما جاء بعده من إنجازات وما حصلت عليه تونس من مكاسب. يقول الحبيب بن عبد اللطيف يصف تونس الأمس:

يا عمهوج أخبارك
لي زمان اليوم نرعى في مشوارك
لاح عليك الضيم وسلّمت في صغارك
لي زمان اليوم نترجى يا عبله
باش عرسك نتعب له
ياللي جيت ساكنه تونس من قبله
وقت لى يضرب عرسكم يتكلّم طبله
نحفل فيه نبارك
ونحطك عل منبرك نشبح ظفارك

وقد كان هذ االشعر في عمومه صادقا في وصفه، حارا في عاطفته لأن الشعراء عاشوا الوقائع التي تحدثوا عنها واكتووا بنارها كما نعموا بلذّاتها.

4 - المتفرّقات

يدخل تحت هذا العنوان أنواع من الاغراض الأخرى التي لم ينصرف إليها الشعراء انصرافا تاما وإنما كانت من جملة ما طرقوا من الفنون عرضا. ومن هذه الأغراض شعر الهجاء «الأحرش» وهو شعر وإن كان يعبّر عن وجه من وجوه الحياة إلا أنه يبقى سلبيا في نظرنا لأنه يتطرّق إلى أشياء من الثلب لا يحبّذها الذوق ولا يجيزها العرف. وقد ندّد الشعراء في هذا الباب بالمستعمر. ويتولد عن هذا الغرض غرض آخر وهو «الفخر» بما يحسّ به الشاعر من امتلاك لناصية الكلمة وبعد في المعرفة بمواطن الإبداع وذلك كقول أحمد البرغوثي:

أنا حمد جياب الأشعار
قيّاس حكّار
هرشام في بني الأسوار

كسّار عبد ان تعامه
نسقيه من كاس الأمرار
نكويه بالنّـــار
نرميه في موج الأبحار
ما عاد تسمع كلامه

ويدخل في باب المتفرقات «المكفّر» وهو نوع من الشعر الديني يقوله الشاعر ليكفّر عن خطاياه وفيه يذكر الله ويتحدث عن عظيم صفاته ويطلب منه الرحمة والقبول والغفران، كما يندرج فيه أيضا مدح النبيّ محمد وذكر غزواته وما أدخل عليها الشعب من خوارق مثل قصة الحمل والغمامة والغزالة. ويدخل أيضا في «المكفر» نظم قصص الأنبياء كعيسى وموسى ويوسف ويونس عليهم السلام. ولعلّ أصدق أشعارهم في هذا النوع ما جاء في مدح الأولياء فهي مدائح لا حدّ لها في العاطفة والوجد الصوفي. ومن أجمل ما نختار في هذا الباب قول ابن تواتي السوفي في مدح الشيخ عبد القادر الجيلاني دفين بغداد والمتوفى سنة 561هـ/1165م.

منك السّراح عبد القادر عجّل ارّاح
الأرواح ضايقة خلوقي مكموده
لالـــي رواح غير محل الجوده

ومن الأغراض التي طرقها الشعراء أيضا غرض الشّعر الفكاهي وهو نوع قليل ونادر وذلك لصعوبة تناوله وعدم تيسّره لكل شاعر لأنّه متصل بالطبع والحسّ الذاتي بالنكتة، وإبرازها في قالب يدعو إلى الضّحك وهو كالتصوير الكاريكاتوري، موهبة من العسير أن تتوفر لكل إنسان. ولذلك عندما نبحث عنه لا نجده إلا بصعوبة، وهو في أغلب الأحيان متصل بالنّقد كما نقرأ في قول عمر الكافي يصف حبيبته:

ناولفي شبّه خيال تأخذ مثال
خلقتها كي «الكرنفال»

ونجد أيضا من أغراضهم التي طرقوها شعر الرثاء وهو نادر أيضا ولكنّه رغم ندرته ضارب في الحسّ العاطفي مثير للشجن والحزن لأنّه صادق والدّافع إليه هو الوفاء. ومن أمثلته قول «حدّي الزّرقي»:

بلا بيك لا نورت لاسماحت من البال طاحت
شكيت روح الطّرب في جناحك

وقالوا الشعر أيضا في «الحواريات» والألغاز ووصف الوشم ونظم الأساطير الشعبية كنظمهم لقصة «الجازية» و«عنتر» و«حسونة الليلي».

ومن فنون الشعر الشعبي الطريفة شعر المناسبات وهو الذي يغنّى في المناسبات الخاصة وقد سجل لنا الصادق الرزقي نماذج من هذا النوع في كتابه «الأغاني التونسية» كما أضاف إليها محمد المرزوقي نماذج أخرى من الأغاني التي تغنّى في الجنوب ومن هذه المنظومات «أغاني الاعراس» و«أغاني النخ» وهو عبارة عن رقصة جماعية تحرّك فيها الفتيات شعورهن يمينا وشمالا على دقات الطبل وكذلك «أغاني الجحفة» و«أغاني عاشوراء» و«أغاني المتح» وهو ورود الماء لسقي الغنم والإبل و«أغاني الحداء» و«التربيج» و«أسجاع المآتم» و«أغاني المطر» و«الحصاد». عموما فإن الشعر الشعبي جزء لا يتجزأ من التراث التونسي وأحد روافده الرئيسيّة.

الرشيد إدريس
[1917–2009م]

ولد السياسي الرشيد إدريس بتونس في 27 جانفي 1917. وزاول دراسته الابتدائيّة بالمدرسة الصادقية. وحصل بها على شهادة ختم الدروس.

انخرط منذ حداثته في الشبيبة المدرسية. وأسهم في مناشطها إسهاما فاعلا، كما انتسب – وهو لم يبلغ العشرين من عمره – إلى الحزب الحرّ الدستوري الجديد. وقد عدّد المؤرخ خالد عبيد الأسباب التي دفعت بالرشيد إدريس إلى الالتزام السياسي منذ سن مبكرة. مبرزا إن الفترة التي عاشها الرشيد إدريس في سنيّ شبابه الأول

بمدينة تونس هي فترة تميّزت بتواتر الأحداث التي لا شكّ في أنها أثرت فيه بطريقة أو بأخرى كالمؤتمر الإفخارستي الذي انعقد سنة 1930 وعمر رشيد إدريس آنذاك 13 سنة والذّكرى الخمسين للحماية سنة 1931 وحوادث التجنيس سنة 1933 وتداعيات الأزمة الاقتصادية التونسيّة بداية من سنة 1932 بالخصوص.

ولا بدّ من أن نشير إلى أنّه، في تلك المرحلة، أقبل على الكتابة في الصحافة مقتفيا أثر عدّة زعماء اتخذوا منها منبرا لاستنهاض الهمم والدّعوة إلى الإصلاح، من أمثال الحبيب بورقيبة والشاذلي خزندار ومحمود الماطري.

وقد أسهم على وجه الخصوص في تحرير جريدة تونس الفتاة التي اتخذها منبرا للدّعوة إلى تحرير بلدان شمال إفريقيا وبعث الأسباب المهيّئة لتكوين دولة واحدة تكون عتيدة جبارة.

وفي هذا السياق كان الرّشيد إدريس يرى أنّ تحرير تونس سيفضي بالضرورة إلى تحرير بقية البلاد العربيّة. لهذا وجب، في نظره، تكوين جيل جديد، قويّ، مثقّف، مخلص، قادر على إخراج تونس الفتاة الحيّة من تونس العجوز، على حدّ عبارته.

اعتقل على إثر مشاركته في مظاهرة طالبت بإطلاق سراح الزّعماء المسجونين في برج البوف سنة 1934، كما اعتقل ثانية غداة أحداث 9 أفريل 1938.

انتسب في سنة 1941 إلى مجموعة الديوان السيّاسي السّابع التي أقدمت على بعض العمليات العنيفة ضدّ المصالح الاستعمارية مثل حرق مخزن الحلفاء بحلق الوادي وحرق مصفاة الكحول بسيدي فتح الله. فاعتقل. وحكم عليه بخمس سنوات سجنا وعشر أخرى إبعادا عن التّراب التّونسي. ولم يفرج عنه إلا في نوفمبر 1942 بعد تدخّل المنصف باي لدى المقيم العام الأميرال إستيفا.

في أفريل 1946 بعد تمكّن الحلفاء من تحرير تونس طارد المستعمر أعضاء الدّيوان السياسيّ السابع وحكم عليهم غيابيّا بالإعدام.

يقول علي بوعزيز: «في هذه الفترة بدأت تتكوّن شخصيّة الرشيد إدريس المتمرّدة إذ سجن في ظرف ستّ سنوات ثلاث مرّات في السجن المدني الذي لم يكن يفصله عن منزل عائلته بربض باب سويقة إلا الشارع الذي سيسمّى في فترة الاستقلال شارع 9 أفريل 1938...»

ويضيف قائلا: «تكرار سجنه لم يكن يخيفه، فهو كان يقول إنه كان يشعر بالأنس داخله عندما يلتقي برفاقه مثل الباهي الأدغم وغيره... لقد كان واعيا أن صفة المناضل الوطنيّ الشابّ بدأت تنسب إليه إلى درجة أنّ الحبيب ثامر رئيس الديوان السيّاسي السادس انتقاه لخلافته وضمّ إليه مجموعة من النشطاء السياسيين كان أصغرهم سنّا ويذكر من سجنوا معه أنه كان أكثرهم حماسة واندفاعا».

في جويلية 1943 أسّس بمعيّة حسين التريكي مكتب المغرب العربّي ببرلين. يقول الرشيد إدريس في ذلك: «نشأ هذا المكتب، عن الحرب العالميّة الثانيّة وقيام جامعة الدّول العربيّة ولجوء ممثّلي أحزاب مغاربة إلى القاهرة ومنهم الزّعيم الحبيب بورقيبة» ويضيف قائلا: «لقد قام هذا المكتب بالتّعريف بفضاء الأقطار المغاربيّة التي لم يكن يسمع صوتها، ومن أهمّ ما قام به المكتب، الدّعوة إلى الثورة على الاستعمار، وتحرير الأمير عبد الكريم الخطابي وقد نكب المكتب باستشهاد ثلاثة من مناضليه هم الدّكتور الحبيب ثامر (تونس) ومحمد بن عبود (مرّاكش) وعلي الهمامي (الجزائر)».

يقول علي بوعزيز: «في سنوات الغربة الأوروبية كثّف الرشيد إدريس من قراءاته السيّاسية وعمل على تحسين تمكنّه من اللغة الفرنسيّة، وشرع في تعلّم الإنقليزية، وبحكم الضرورة تعلّم أبجديّات اللّغتين الألمانية والإسبانية.

سافر إلى المشرق الأقصى معرّفا بالقضية التّونسيّة. فزار الباكستان وأندونيسيا والهند

وبرومانيا. وألقى فيها جملة من المحاضرات تفضح الممارسات الاستعمارية الفرنسية في شمال إفريقيا وفي تونس على وجه الخصوص».

ويشير علي بوعزيز أيضا إلى أن الرشيد إدريس أحسّ في هذه الفترة بأنه بعيد عن مسرح الأحداث التي تسارع وقعها «والتي ستؤدي في نهاية المطاف إلى حصول البلاد على استقلالها الداخلي فحزم حقائبه عائدا تصحبه زوجته جانين الصحفيّة البلجيكية الأصل التي تعرّف عليها بجاكرتا واقترن بها في دلهي يوم 22 نوفمبر 1953...» هكذا قرّر العودة رغم حكم الإعدام الصادر في شأنه من قبل السلط الفرنسية التي مازالت بعد لم تسلّم مقاليد السلطة الفعلية إلى الحكومة التونسيّة... وسيتدخّل بورقيبة بنفسه لإيقاف العمل بحكم الإعدام الصّادر بحقه.

عاد الرشيد إدريس إلى تونس في أوت 1955 بعد الإعلان عن الاستقلال الدّاخلي. وكان من الأوائل الذين طالبوا في المجلس التأسيسي بإعلان الجمهورية. فكان شديد الإيمان بأن الشعب هو صاحب السّلطة، وأن سيادة الشعب وازدهاره لا يمكن أن يتحقق إلا إذا حكم نفسه بنفسه.

أشرف على جريدة العمل. ثم عيّن غداة الإعلان عن الاستقلال سنة 1956 ملحقا بديوان الرئيس بورقيبة في أوّل حكومة تونسية ثم مشرفا على قسم إفريقيا آسيا بوزارة الخارجية.

عيّن سنة 1957 وزيرا للبريد والبرق والهاتف ثم سفيرا بواشنطن خلفا للحبيب بورقيبة الابن. وبقي بهذا المنصب إلى موفى سنة 1969.

في سنة 1970 عيّن ممثلا قارّا لتونس لدى منظّمة الأمم المتحدة بنيويورك. تقلد عدّة مناصب سياسيّة ودبلوماسية. وأسهم في استتباب الأمن والسلم العالميين.

ففي سنة 1979 أوفده الرئيس بورقيبة في مهمات إلى كل من إلياس سركيس رئيس لبنان وياسر عرفات وإلى رئيسي اليمن الشماليّ واليمن الجنوبيّ، وإلى شيخي دولتيّ قطر والبحرين.

في سنة 1980 أسسّ جمعيّة الدّراسات الدوليّة. وأدار مجلتها دراسات دولية. ويعتبر الرشيد إدريس هذه الجمعيّة وليدة التطور الذي عرفته البلاد.

في سنة 1993 أسّس معهد العلاقات الدولية.

في سنة 1991 عيّن رئيسا للهيئة العليا لحقوق الإنسان والحريّات الأساسية.

الرشيد إدريس كاتبا:

يؤكد أحد معارفه – وهو علي بوعزيز – أن الكتابة كانت بالنسبة إليه فعلا يوميا لم ينقطع عنه إلى قبيل وفاته. فالرجل أسهم في تحرير الكثير من الصحف مثل تونس الفتاة وإفريقيا الفتاة والشباب وجريدة الزهرة وعيّن كما أسلفنا القول على رأس جريدة العمل سنة 1955. ويعدّه الكثير من الباحثين من أوائل المناضلين التونسيين الذين كتبوا سيرهم السياسيّة.

انعطف على حياته السياسية بالنظر والتّأمل في عدد من الكتب نذكر منها كتاب (من باب سويقة إلى منهاتن) و(من جاكرتا إلى قرطاج) و(ذكريات مكتب المغرب العربي في القاهرة)...

وينبغي الإشارة أيضا إلى أنه كتب عددا من الأعمال الإبداعية. ففي مجال الرواية أصدر فانوس الفجر – وهذه الرواية كان قد كتبها في الأصل باللغة الفرنسية – وأرق على ورق وأيضا السالي هرب – وقد كتبهما باللغة العربيّة – وذكر الروائي الجامعي محمود طرشونة أن له روايتين أخريين مخطوطتين الأولى في مائة صفحة بعنوان تمساح باب سويقة والأخرى في مائة وثمانين صفحة بعنوان قتيل الحمامات، كما أنه كتب تمثيلية في أربعين صفحة بعنوان في عصر الأنترنات.

تحدث محمود طرشونة عن بناء الروايتين أرق على ورق والسالي هرب. فقال إنه يقوم (أي بناء الروايتين) على المراوحة بين الحلم والواقع. فبالحلم تستهلّ كلّ منهما وبه تختمان. وبذلك يمثّل الحلم وفحواه قصّة خيالية تؤطر قصّة واقعية بمقتضى التضمين المعروف في ألف ليلة

وليلة.



البـاهي الأدغم
[1913 – 1998م]

1) نشأته ودراسته :

ولد السياسي الباهي الأدغم في حيّ باب الأقواس من ربض باب سويقة بالعاصمة، يوم 13 جانفي 1913. وبعد أن حفظ نصيبا من القرآن الكريم في كتّاب الحي وأتمّ دراسته الابتدائية، نجح في مناظرة الدخول إلى المدرسة الصّادقية التي التحق بها في مستهلّ السنة الدراسية 1927 – 1928. وقد واصل بها دراسته إلى أن أحرز دبلوم ختم الدروس الثانوية في آخر سنة 1933. واسترعى انتباه أساتذته وأقرانه بما كان يقوم به من نشاط سياسي في مثل تلك السنّ المبكّرة. ولا شكّ في أنّ ذلك راجع إلى تأثره بوسطه العائلي إذ كان دكّان والده الكائن بحيّ باب سعدون ملتقى عدد كثير من أتباع الحزب الحرّ الدستوري التّونسي ومناضليه الذين كانوا يطالعون فيه الصحف الوطنية ويعلّقون على الأحداث التي كانت بلادهم مسرحا لها في النصف الثاني من العشرينات. وقد تميّزت تلك الفترة الحاسمة بسياسة الدهاء التي كان ينتهجها المقيم العام لوسيان سان، وبركود الحزب إثر هجرة زعيمه الشيخ عبد العزيز الثعالبي إلى المشرق منذ شهر جويلية 1923 وإبعاد عدد من أنشط مناضليه إلى الخارج.

وأصبح الشابّ الباهي الأدغم ملمّا أكثر فأكثر بالوضع السياسي في البلاد بعد التحاقه بالمعهد الصادقي واتّصاله بزملائه الذين سبقوه في الدّراسة. والملاحظ أنّ كثيرا من قدماء الصادقيين انضمّوا إلى الحزب الدستوري منذ إنشائه في سنة 1920، أمثال الحبيب جاء وحده والحبيب بورقيبة والشاذلي الخلادي وسليمان بن سليمان. لكن سرعان ما خيّب قادة هذا الحزب آمالهم، إذ كبحوا من جماحهم ولم يفسحوا لهم المجال لأخذ نصيبهم من الكفاح الوطني، لأنّهم كانوا يرون أنّ من واجب تلامذة المدارس التفرّغ لدراستهم وعدم الاهتمام بالسّياسة.

على أنّ عودة الصحفي الدستوري الشاذلي خير اللّه من فرنسا في مطلع سنة 1928 أسهمت في تنشيط الحياة السّياسية في البلاد، لا سيما بعد إنهاء مهامّ المقيم العام لوسيان سان في سنة 1929. وبعد مدّة قصيرة أصدر خير اللّه في 26 مارس 1930 جريدة «صوت التونسي» "La voix du Tunisien" الناطقة بالفرنسية، والبلاد تتأهّب لاحتضان المؤتمر الافخارستي المسيحي المقرّر عقده في تونس خلال شهر ماي 1930.

2) بداية نشاط الباهي الأدغم (1930– 1932)

انعقد هذا المؤتمر من 7 إلى 11 ماي 1930 وشارك فيه عدد كثير من الأساقفة والرهبان الكاثوليكيّين القادمين من مختلف أنحاء العالم، واستغلّ عدد من الشبّان الفرنسيين والإيطاليين الفرصة للتّظاهر في شوارع مدينة تونس، مرتدين ملابس الصليبيّين ورافعين الصلبان متحدّين بذلك مشاعر الشّعب التّونسي المسلم.

فأقنع الباهي الأدغم رفقاءه في المعهد الصادقيّ بضرورة تنظيم مظاهرات مضادّة لمقاومة هذا الاعتداء الصارخ على التونسيين في وطنهم. واستجابة لهذه الدّعوة انتظمت مظاهرات احتجاجيّة في تونس، شارك فيها إلى جانب تلامذة الصادقية، طلبة جامع الزيتونة وتلامذة معهد كارنو والمعهد العلوي، وتضامن معهم عمّال الرصيف. فألقت الشرطة القبض على عدد كثير من هؤلاء التّلامذة واعتقلتهم بتهمة تنظيم مظاهرات والتّحريض على الإضراب والتعرّض لحريّة الشغل والاعتداء على أعوان الأمن.

ولاحظ الوطنيّون تقاعس الحزب الدستوري

الذي اكتفى قادته بتوجيه برقيّات احتجاج على انعقاد المؤتمر الإفخارستي وعدم القيام بأيّ عمل إيجابي. فقرّر الشاذلي خير اللّه الاستغناء عن اللجنة التنفيذية للحزب، والاستعانة ببعض الشبّان الوطنيّين للقيام بحملة صحفية ضدّ الاحتفالات التي تعتزم السلطة الاستعمارية تنظيمها بتونس في شهر ماي 1931 للاحتفال بخمسينيّة «الحماية». واستعدادا لهذا الحدث، حوّل خير اللّه «صوت التونسي» من جريدة أسبوعية إلى جريدة يوميّة، وعيّن للإشراف على تحريرها هيئة تضمّ نخبة من المثقّفين الوطنيين النشيطين أمثال محمود الماطري والحبيب بورقيبة والطّاهر صفر والبحري قيقة ومحمّد بورقيبة ومحمّد بدرة.

أمّا تلامذة الصادقية فقد اتّسع نطاق نشاطهم السياسي المناهض للاستعمار وأبدوا استعدادهم للنّضال في سبيل تحرير بلادهم من الهيمنة الأجنبيّة. وفي هذا الإطار جاء في تقرير رئيس مصلحة المخابرات الفرنسية بتاريخ 20 مارس 1931 حول التلميذ الباهي الأدغم ما يلي: «الشابّ الباهي الأدغم تلميذ ذكيّ ولكن تحدوه عواطف مناهضة تماما لفرنسا. وقد استرعى مرارا وتكرارا انتباه السيد مدير الصادقية».

3) تأسيس الشبيبة المدرسية (1932-1933)

رأى هذا الشابّ أنّ النّشاط السياسي الذي يقوم به التّلامذة داخل المدرسة الصادقية لا يمكن أن يكون إلاّ محدودا، فلا بدّ من التّفكير في إنشاء منظّمة تفسح المجال لشباب المعاهد المدرسية للقيام بنشاط ثقافي وسياسي خارج أوقات الدراسة. ولمّا السّلطة لم توافق على قيام مثل هذه المنظمة، فقد اتّفق الباهي الأدغم ورفقاؤه مع هيئة جمعيّة قدماء الصادقية على بعث فرع مدرسي تابع للجمعية يجمع شمل جميع تلامذة المعاهد الثانوية الموجودة بالعاصمة، بما في ذلك جامع الزيتونة. وفي شهر أفريل 1932 تأسّس هذا الفرع الذي احتضنته جمعية قدماء الصادقية وأطلق عليه اسم «الشبيبة المدرسيّة». وانتخبت على رأسه هيئة مديرة تضمّ بالخصوص الحبيب مبارك، رئيسا، والباهي الأدغم، كاتبا عاما، وعبد العزيز بلّلونة، أمين مال. واستمرّ احتضان جمعية القدماء للشبيبة المدرسية من ذلك التاريخ حتى الاستقلال.

4) نشاط الباهي الأدغم الإداري والسياسي (1934-1944)

اضطرّ الباهي الأدغم بعد حصوله على دبلوم الصّادقية سنة 1933، إلى الانقطاع عن الدّراسة لأنّه أصبح عائل أسرته الوحيد بعد مرض والده ثمّ وفاته. وقد انخرط سنة 1934 في سلك الوظيفة العمومية بصفة كاتب مؤقّت بإدارة الداخلية التي كان على رأسها عهدئذ المؤرخ الفرنسي شارل سوماني. واستمرّ في هذه الخطّة إلى أن نجح في آخر سنة 1939 في مناظرة المنشئين بإدارة المال. فكان من التونسيّين القلائل الذين نجحوا في هذه المناظرة، نظرا إلى ما اكتسبه من زاد معرفي في اللّغتين العربية والفرنسية، بفضل تكوينه بالصّادقية ومطالعاته الخاصّة.

على أنّ التحاقه بالوظيفة العموميّة لم يمنعه من مواصلة الاهتمام بالشؤون السّياسيّة والعناية بالقضية الوطنية. فقد استبشر بانعقاد مؤتمر قصر هلال وانبعاث الحزب الدستوري الجديد الذي أعاد الأمل إلى نفوس الوطنيّين بفضل برنامجه المرتكز على العمل المباشر والاتّصال بالجماهير الشعبية لإعدادها للكفاح من أجل تحرير الوطن.

لكن نضاله الفعليّ لم ينطلق إلا إ ثر الإفراج عن الزّعماء في مارس 1936 وعودة الحزب إلى سالف نشاطه. وانضمّ إلى الشبّان الذين رجعوا من فرنسا منذ عهد قريب بعد أن أتمّوا دراستهم العليا، أمثال سليمان بن سليمان والمنجي سليم وعلي البلهوان والهادي نويرة وصلاح الدين بوشوشة. وبرز بالخصوص في المؤتمر الثاني الذي عقده الحزب في مقرّه بنهج التريبونال في

آخر أكتوبر 1937. إذ ساند من أوّل وهلة النزعة الاستقلالية التي مثلها في المؤتمر عدد كثير من المناضلين، وأسهم في ترجيح كفّة الشقّ المتصلبّ في الديوان السياسي.

وإثر اندلاع حوادث 9 أفريل 1938 وإلقاء القبض على قادة الحزب وأبرز مناضليه، تزعّم الباهي الأدغم حركة المقاومة السريّة إلى أن ألقي عليه القبض في 11 ماي 1938. ولما أفرج عنه في شهر أوت 1938 استأنف نشاطه على رأس الديوان السياسي الخامس السرّي، بالتعاون مع الدكتور الحبيب ثامر والهادي السعيدي والهادي خفشّة وصلاح الدين بوشوشة. وتحولت المقاومة من تنظيم المظاهرات وتوزيع المناشير إلى عمليّات مسلّحة يقوم بها أعضاء لجنة المقاومة.

وفي نوفمبر 1939 ألقي القبض على أعضاء الديوان السياسي الخامس ولجنة المقاومة، وأحيلوا على المحكمة العسكرية التي أصدرت ضدّهم أحكاما قاسية. وكان نصيب الباهي الأدغم الأشغال الشاقة لمدّة 15 عاما.

ونقل المحكوم عليهم في 14 فيفري 1940 إلى الجزائر حيث زجّ بهم في سجن حراش حقبة من الزمن ثم حولوا إلى سجن لمباز السّيء الذكر وكان عددهم 43 سجينا، لم يرجع منهم إلى تونس في ماي 1944 سوى 23 مناضلا منهم الباهي الأدغم، وذلك بمقتضى قرار العفو الذي أصدره الجنرال ديغول. أماّ الآخرون فقد لقوا حتفهم في السجن.

5) نشاطه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (1945–1951)

لمّا عاد الباهي الأدغم إلى تونس في ماي 1944 ظلّ عاطلا عن العمل حقبة من الزمن ثم تولّى التدريس في المدرسة القرآنية الحرّة بنهج القنطرة في حيّ الحلفاوين. وفي شهر أكتوبر 1945 عيّن مديرا للحجرة التّجارية التّونسيّة، خلفا لصلاح الدين بوشوشة الذي توفّي على إثر حادث مرور. وفي أثناء قيامه بهذه المهمّة تمكّن من الاطّلاع عن كثب على دواليب الإدارة التونسيّة وتعميق معلوماته حول الحياة الاقتصادية والاجتماعية في تونس. وهو ما ساعده على تكوين ملفّات سيستعين بها عند الحاجة.

وإلى جانب نشاطه الإداري واصل نضاله بالتّعاون مع أعضاء الديوان السياسي الجديد، بعد هجرة الزّعيم الحبيب بورقيبة إلى المشرق في مارس 1945، وهم: صالح بن يوسف وسليمان بن سليمان والمنجي سليم وعلي البلهوان والهادي نويرة.

ورغم أنّه لم يكن عضوا رسميّا في الديوان السياسي، فقد كان يسهم في اجتماعاته الدوريّة ويحضر اجتماعات المجلس الملّي ويشارك في جميع الاجتماعات التي يعقدها الحزب. من ذلك أنّه أسهم في مؤتمر ليلة القدر المنعقد في 23 أوت 1946 واعتقل في السجن المدني بتونس صحبة المشاركين الستّة والأربعين الذين ألقي عليهم القبض. وإثر خروجه من السّجن واصل نشاطه السّياسي وهو إعداد ملفّات القضيّة التّونسية بالاشتراك مع الهادي نويرة، والتحرير في جريدة الحزب النّاطقة بالفرنسية "Mission" (الرّسالة)، وكان يمضي فصوله باسم مستعار (الخميري)، كما كلّفه الديوان السياسي بالقيام بمهمّة سياسيّة في الجزائر والمغرب سنة 1948، للاتصال بقادة الحركة الوطنية في البلدين الشقيقين، واجتمع خاصّة بملك المغرب محمد الخامس. ثم تحوّل في سنة 1950 إلى مصر، حيث اجتمع بمناضلي الحزب الدستوري الجديد المقيمين بالقاهرة وبأعضاء مكتب المغرب العربي وقادة جامعة الدّول العربية.

ولمّا تكوّنت وزارة محمد شنيق في 17 أوت 1950 للتفاوض مع الحكومة الفرنسية لمنح تونس الاستقلال الداخلي، عيّن الباهي الأدغم مستشارا لدى رئاسة الحكومة لإعداد ملفّ المفاوضات. وتحوّل إلى باريس في أكتوبر 1951 بصفة خبير لدى الوفد التفاوضي التونسي المتركّب من الوزير الأكبر محمد شنيق والوزراء صالح بن

يوسف ومحمد بدرة ومحمد سعد اللّه.

6) نشاطه في الخارج (1952–1954)

ولمّا فشلت المفاوضات التّونسيّة الفرنسيّة إثر صدور مذكّرة 15 ديسمبر 1951، كلّف الزّعيم الحبيب بورقيبة الباهي الأدغم بالتحوّل إلى نيويورك للدّفاع عن القضيّة التّونسيّة لدى المحافل الدوليّة ومواصلة الجهود الرّامية إلى إدراجها في جدول أعمال الجمعيّة العامّة لمنظّمة الأمم المتّحدة. فحلّ بنيويورك في أفريل 1952 أوّلا ممثلا لوزارة محمد شنيق التي أقالها المقيم العام دي هوتكلوك يوم 26 مارس 1952 وألْقِيَ القبض على أعضائها الموجودين يومئذ بتونس، ثم بصفة ممثّلٍ للحزب الدستوري الجديد. وأنشأ هناك «المكتب التونسي للتحرير الوطني» الذي أصدر عدّة نشريات للتعريف بالقضيّة التّونسيّة. وتواصل نشاطه في نيويورك على نحو حثيث من أفريل 1952 إلى ماي 1955. وتجلّى هذا النّشاط بكلّ وضوح في الكتاب الذي أصدره باللغة الفرنسية في تونس سنة 1990 بعنوان «مراسلات» وكذلك في المجموعة الضخمة من الوثائق والملفّات التي جمعها في نيويورك ثمّ أهداها بعد الاستقلال إلى الدولة التونسيّة لوضعها تحت تصرّف الباحثين والدارسين.

7) نشاطه بعد عودته إلى تونس (1955–1956)

إثر التّوقيع في 3 جوان 1955 على الاتّفاقيات التّونسيّة الفرنسيّة المتعلّقة بمنح البلاد التّونسيّة الاستقلال الدّاخلي، قرّر الباهي الأدغم العودة إلى أرض الوطن، وذلك بعد أن انتقد تلك الاتّفاقيات، لا باعتبارها «خطوة إلى الوراء»، كما أعلن ذلك صالح بن يوسف الأمين العام للحزب، بل لكونها في نظره «حلاّ منقوصا». ولكن ما إن عاد إلى تونس في أكتوبر 1955 واجتمع بالزعيم الحبيب بورقيبة على انفراد، حتى اقتنع بضرورة الاعتراف بالأمر الواقع، إذ لا يجوز في نظره أن يرفض الحزب مشروعا كان قد وافق عليه منذ عهد قريب. فينبغي حينئذ قبول الاتفاقيات، كما تمّت المصادقة عليها، والسعي إلى تجاوزها في أقرب وقت ممكن لتحويل الاستقلال الداخلي إلى استقلال تامّ عن طريق التّفاوض، لا عن طريق الكفاح المسلّح، لا سيما أن الحكومة الفرنسيّة وافقت، من حيث المبدأ، على منح المغرب الشقيق الاستقلال، بعد أن أرجعت الملك محمد الخامس إلى عرشه.

وشاطر الزعيم بورقيبة هذا الرأي الذي جنّب البلاد اندلاع حرب أهليّة لو انحاز الباهي الأدغم إلى الحلّ الذي اقترحه صالح بن يوسف المنادي بالجهاد إلى أن يتحرّر المغرب العربي كلّه بحدّ السلاح. ومنذ ذلك الحين فكّر بورقيبة في إعداد الباهي الأدغم ليكون الرجل الثاني في الحزب والدولة. وقد كان ذلك بالفعل بعد فترة قصيرة، إذ انتخب في مؤتمر صفاقس المنعقد في 15 نوفمبر 1955، كاتبا عامّا للحزب الدستوري الجديد، خلفا لصالح بن يوسف الذي رُفت من الديوان السياسي وفُصل عن الحزب.

8) إسهامه في تجسيم الاستقلال وبناء الدولة الحديثة (1955–1970)

إثر انتخاب الباهي الأدغم كاتبا عامّا للحزب الدستوري الجديد، عيّن في 14 جانفي 1956 نائبا للوزير الأكبر الطاهر بن عمار، مكلّفا بالتفاوض مع الحكومة الفرنسيّة لتحويل الاستقلال الداخلي إلى استقلال تامّ. وبالفعل شارك في المفاوضات التّونسيّة الفرنسيّة التي جرت لهذا الغرض في باريس وأسفرت عن إبرام بروتوكول الاستقلال التامّ في 20 مارس 1956. وهو ينصّ على اعتراف فرنسا باستقلال تونس، وينتج عن ذلك إلغاء معاهدة الحماية المبرمة في 12 ماي 1881، وتنقيح أو إلغاء أحكام اتفاقيات 3 جوان 1955 المتنافية مع نظام تونس الجديد « باعتبارها دولة مستقلّة ذات سيادة ». وينتج عن ذلك أيضا «أنّ تونس تمارس مسؤولياتها في ميدان الشؤون الخارجية والأمن والدّفاع، وأنّها تشكّل جيشا

وطنيا تونسيّا». وبإعلان استقلال تونس التامّ، فتحت صفحة جديدة في حياة الباهي الأدغم الذي سيصبح الرجل الثاني في الحزب الحاكم والدولة، وسيسخّر جهوده طوال خمس عشرة سنة (نوفمبر 1955– نوفمبر 1970) لتجسيم الاستقلال واسترجاع مقوّمات السّيادة كلّها وبناء الدّولة التّونسيّة الحديثة.

وقد تحمّل في هذه الفترة المسؤوليّات التالية:

– انتخابه عضوا في المجلس القومي التأسيسي (25 مارس 1956).

– تعيينه نائبا لرئيس مجلس الوزراء في حكومة الاستقلال الأولى (14 أفريل 1956).

– تكليفه بمهامّ كاتب دولة للرئاسة والدّفاع الوطني بعد إعلان الجمهورية (25 جويلية 1957).

– تجديد انتخابه كاتبًا عاما للحزب الدستوري الجديد في مؤتمر سوسة (1959).

– انتخابه كاتبًا عاما للحزب الاشتراكي الدّستوري في مؤتمر بنزرت (1964).

– تعيينه رئيسا للجنة العليا للحزب، إثر الإعلان عن فشل سياسة التعاضد (1970).

– تعيينه وزيرا أوّل في 7 نوفمبر 1969 وقيامه بمهامّ رئيس الدولة بالنيابة في غياب الرئيس الحبيب بورقيبة الموجود بالخارج للتداوي (1969–1970).

– تعيينه من جديد وزيرا أول في 12 جوان 1970.

–تخلّيه عن الوزارة الأولى وتعويضه بالسيد الهادي نويرة (2 نوفمبر 1970).

وفي أثناء قيامه بمختلف هذه المهامّ الحكومية والحزبية والنيابية أسهم الباهي الأدغم في إرساء أسس الدّولة التّونسية الحديثة، بتحقيق الإنجازات التالية:

– إنشاء الجيش الوطني وتونسة الأمن وتوحيد القضاء.

– إصلاح الإدارة وتونستها.

– تبادل السّفراء بين تونس والدّول الشّقيقة والصّديقة.

– انخراط تونس في منظّمة الأمم المتّحدة وجامعة الدّول العربيّة ومنظّمة الوحدة الإفريقيّة.

– إصدار مجلّة الأحوال الشخصية (13 أوت 1956) وتحرير المرأة.

– إصلاح التعليم وتوحيده وتعميمه (1958).

– إنشاء العملة التونسية وبعث البنك المركزي التونسي.

– جلاء الجيش الفرنسي عن قاعدة بنزرت (15 أكتوبر 1963).

– تأميم الأراضي الزّراعية التي كانت على ملك الأجانب (12 ماي 1964).

– إنجاز برامج النموّ الاقتصادي والرقي الاجتماعي، باعتبار الاستقلال وسيلة لتوفير أسباب النهضة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتحقيق التنمية الشاملة والعدالة الاجتماعية.

شواغل الباهي الأدغم الثقافيّة

عُرِفَ الباهي الأدغم، إلى جانب نشاطه السياسي، باهتمامه بالشؤون الثقافية واعتنائه بالخصوص بالمعالم الأثرية والفنون الإسلاميّة والموسيقى. وقد ألقى بعد حصوله على دبلوم الصّادقية محاضرة بنادي قدماء الصّادقية يوم 5 نوفمبر 1933، بعنوان «نشأة الفنون الإسلامية وتطوّرها»، كما انضمّ إلى اللّجنة التي كوّنتها جمعية قدماء الصّادقية في الثلاثينات لإحياء التراث التونسي. واهتمّ خاصّة بدراسة نقائش مقبرة القرجاني بتونس وقضّى عدّة سنوات في تدوين ملاحظاته وبحوثه حول هذا الموضوع.

وعمل أيضا على النّهوض بالموسيقى التّونسيّة الأصيلة، وتتلمذ في هذا الميدان لشيخين من شيوخ المالوف هما محمد غانم ورشيد بن جعفر. وكان من المسهمين في تأسيس الجمعيّة الرشيديّة في سنة 1934.

وأخيرا كان الباهي الأدغم مولعا بالتاريخ منذ

أن كان تلميذا بالمعهد الصّادقي. وقد تفرّغ، إثر تخلّيه عن المسؤوليات الحزبيّة والحكومية في نوفمبر 1970، للمطالعة والبحث والتّنقيب وتدوين مذكّراته. كما كان يحضر بانتظام في جميع النّدوات والمؤتمرات المحلية والدّولية حول التاريخ بوجه عام وتاريخ الحركة الوطنية بوجه خاصّ. وكان لا يتأخّر عن الإسهام بمداخلاته القيّمة في النّدوات التي عقدتها منذ سنة 1981 لجنة البحوث في تاريخ الحركة الوطنية، ثم بَدْءًا من سنة 1990 المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

وبوفاته في 13 أفريل 1998، فقدت تونس علما بارزا من أعلامها الأفذاذ، ومرجعا أساسيّا من مراجع تاريخها المعاصر، وشاهدا مرموقا من بين المناضلين الذين قادوا معركة التحرير الوطني منذ أكثر من نصف قرن وأسهموا في تشييد صرح الدّولة التّونسيّة الحديثة.

فرقة الإذاعة التّونسيّة

عوامل عدّة سياسية وثقافية واجتماعية وفنيّة دفعت نخبة من المثقّفين والموسيقيين والشعراء التّونسيّين إلى بعث فرقة الإذاعة للموسيقى والغناء غداة الاستقلال في فيفري 1957، وقد كان الرّهان على الأغنية والموسيقى مثل غيرهما من مجالات الثّقافة التّونسيّة في سبيل نحت المعالم المميّزة للشّخصيّة الحضاريّة الوطنيّة.

وقد ضمّت فرقة الإذاعة عند تأسيسها أبرز الموسيقيين والمغنّين الموجودين، وهم الذين سيكون لهم فيما بعد عميق الأثر في بلورة شخصيّة الأغنية التّونسيّة الحديثة (أغنية النصف الثاني من القرن 20 م.) ونذكر منهم علي السّريتي (ولد سنة 1918) وصالح المهدي (ولد سنة 1925) وقدّور الصّرارفي (1913 ـ 1990) وحسن الغربي (1925 ـ 1999) والهادي الجويني (1909 ـ 1991) وعبد الحميد السلايتي (1919) وعبد الحميد بلعلجية (وُلد سنة 1931) ومحمد سعادة (ولد سنة 1937) والطاهر بدرة، ورضا القلعي (1931 ـ 2004).

وتولّى الإشراف على تمارين هذه الفرقة كلّ من خميّس ترنان بالنّسبة إلى تعليم الغناء التّونسي التّقليدي (المالوف والفوندوات) وعطية شرارة (مصر) بالنسبة إلى تعليم الموشحات والموسيقى الشرقية. وتشكلت لجنة أدبية لتنظر في نصوص الأغاني، ضمّت نخبة من أبرز الشعراء والأدباء منهم الهادي العبيدي (1911ـ1985) وجلال الدين النقاش (1913 ـ 1989) ومحمّد المرزوقي (1916 ـ 1983) وأحمد خير الدين (1905 ـ 1967)، ومنوّر صمادح (1931 ـ 1997) ومصطفى خريّف (1909 ـ 1967)، ثم عبد المجيد بن جدّو (1918 ـ 1994) ونور الدين صمّود وجعفر ماجد. والتحق بهذه اللّجنة جمع من أبرز الموسيقيين المؤسّسين. وضمن المجموعة الصّوتية الأولى لفرقة الإذاعة برزت أصوات جيّدة آلت إليها فيما بعد الرّيادة في الغناء. من هذه الأصوات عُلَيَّة ونعمة وأحمد حمزة ومحمد أحمد ومحمد الفرشيشي والهادي القلال وزهيرة سالم وصفوة ومصطفى الشرفي ويوسف التميمي والهادي المقراني والشاذلي أنور وسلاف وتوفيق الناصر...

وبدأت حركة الإنتاج الغنائي لفرقة الإذاعة تتكثّف وتنوّع في أساليبها ومضامينها. وهو ما أدّى إلى ذيوعها وانتشار أدائها في المناسبات والأفراح، لخفّتها التي لم تكن متوفّرة دائما في الغناء الكلاسيكي المتقن، الموشّحات الأندلسية ونوبات المالوف، وبفضل إدماج الآلات الغربية كالأورغ والقيتار والبزق وإدخال تقنيات جديدة في التلحين والأداء. وقد مثّل هذا التيار الموسيقي الجديد رضا القلعي وعبد الحميد ساسي والشاذلي أنور ومحمد الجمّوسي والهادي الجويني والبشير جوهر وقدّور الصرارفي، فشاعت أغنيات مثل «يا دار الحبايب» و«يا فاطمة يا بنت العم» و«ملاك»

للهادي القلال و«التيلفون» و«الليل آه يا ليل» و«لوام الهوى» و«توسمت فيك الخير» لنعمة و«شهلولة» لأحمد حمزة و«آه من العينين» و«قدك يسحر» لمحمد أحمد و«ظلموني حبايبي» و«ماله لا» و«غالي» و«الساحرة» لعلية و«بين الخمايل» و«أنا جيت يا رمّال» و«داية من زين العلالي» ليوسف التميمي، و«لا نمثلك بالشمس ولا بالقمرة» لمصطفى الشرفي، وكذلك شاعت أغاني علي الرياحي (1912 ـ 1970) والهادي الجويني (1910 ـ 1982) ومحمد الجموسي (1910 ـ 1982)، والطاهر غرسة (1933 ـ 2003) الذي استنبط وصلات خاصة بالمناسبات. وأغلب هذه الأغاني استطاع أن ينتشر ويرسخ في الذاكرة خلافا لأغاني أواخر القرن العشرين.

ولئن دوّنت الرشيدية المالوف فإنّ فرقة الإذاعة سجّلت الكثير منه بإشراف وزارة الثقافة وبالتّعاون مع دار ثقافات العالم بباريس، وذلك منذ سنة 1959. فسجّلت نوبة الذيل بمشاركة خميّس ترنان وقدّور الصرارفي في العزف وإدارة عبد الحميد بلعلجية، ثمّ نوبة العراق ونوبة الرّمل سنة 1960، ونوبة الاصبهان سنة 1960، وقد طبعت هذه التّسجيلات على إسطوانات ليزر (C.D.).

الأربس

تقع الأربس في مفترق مهم لعدّة طرق تؤدّي إلى القيروان عبر أبّة جارتها وإلى الزّاب عبر ملاّق وفحص البلّ (بلاّريجيا) وإلى باجة وتونس. قال الحميري: «الأربس مدينة، بينها وبين قيروان إفريقية مسيرة ثلاثة أيام. وبينها وبين باجة مرحلتان، وهي في وطاء من الأرض، بوسطها عين جارية لا تجفّ، منها شرب أهلها، وماؤها صحيح، وبها معدن حديد، ولا شجر بها، إنّما هي مزارع الحنطة والشعير، ويدّخر منها الكثير. وهي مدينة مسوّرة، ولها ربض كبير، وبأرضها يكون أطيب الزعفران، وتعرف ببلد العنبر..». وقال آخر إنّها كانت تشتمل على مسجد جامع مبني بالحجارة وربض كبير يقال له بلد الأنبار (يقصد العنبر) «وفي وسطها أعين ماء جارية لا تجفّ، واسم عين منها رباح والأخرى زياد، وماء عين زياد أطيب من ماء عين رباح، ولها معدن حديد، وليس حولها من خارجها عود نابت البتّة». ولكنها كانت تنتج أحسن نوع من الزعفران، وتنتج أيضا القمح والشعير بكثرة، وكذلك الفواكه.

وإذا كانت نصوص الرحالة والجغرافيين العرب تؤكّد ازدهارها عندما كانت سيكا فنيريا (الكاف) جارتها مجرّد قرية تنتشر فيها الآثار الرومانية، فإنّها كانت ذات قيمة استراتيجية واقتصادية حتّى قبل الفتح العربي. فقد نقل ابن الشبّاط عن البكري أنّها «أوّلية، وبعض أساس سورها صخر محكم البناء من عمل الأول، وبها عمد عظيمة...».

فهذه الآثار دليل للمؤرخ على أنّ الأربس من تأسيس جوستنيان (Justinien) على الخط الثاني الحامي لسُهُول مجردة من غارات البدو، خاصة أنّها تشرَف من أعلى جبلها على السّهل الممتدّ والمروّي بنهرها إلى حدّ اتصال منطقتها بمنطقة أبّة تابعتها. وقد كانت تحميها في العهد القديم قلعة هنشير دقّة ضمن سلسلة من القلاع تتجه من حيدرة إليها. وكانت تساندها من الغرب سيكا فينيريا وتحكّم من ثمّة في الطريق الرابطة بين أبّة وقرطاج في العهدين الروماني والبيزنطي. فلا عجب في أن يواجه فيها الفاتحون حامية من الجند البيزنطي، وأن يركّزوا فيها حامية من الجند الأموي بقيادة عمر بن حفص سنة 154هـ/771م. على طرد الخوارج من القيروان، وأنه فيها تجمّع القادة العرب لتخليص القيروان مرتين على الأقلّ، سنة 178هـ/794م بقيادة ابن منذر والي ميلة، وفي السنة الموالية بقيادة العلاء بن سعيد بن مروان المهلّبي والي الزّاب. وكان

قائد حاميتها آنذاك شمدون. ويجمع واليها وقاضيها بينها وبين باجة. وقد سمّى عليها الإمام سحنون، سنة 235هـ/849م، سليمان بن عمران قاضيا لعدله رغم حنفيّته.

وقد أدرك الأغالبة منذ البداية قيمة الأربس وقلعتها لتوطيد نفوذهم فركّزوا بها أهمّ حامية، ولكنّ حكّام الأربس كانوا يبجّلون مصلحتهم على خدمة أولي أمرهم الأغالبة بدليل مساندة «أميرها» لثورة منصور الطنبذي، «أمير» طنبذة سنة 209هـ/824م. حتّى إنّه لم يتخلّ عن لاجئه إلاّ تحت ضغط عامر بن نافع الذي ثار معه على الأغالبة موالية لعامر حتّى مقتل منصور سنة 213هـ/828م لتصبح فيما تبقّي من حكم الأغالبة أقوى معقل يسقط من نفوذ زيادة الله الثالث في أيدي الكتاميين أنصار أبي عبد الله الشيعي سنة 297هـ/909م.

ومثل الأغالبة ركّز الفاطميون حامية بالأربس. ولهذا كان سقوط «باب إفريقيّة» هذا، حسب عبارة ابن الأثير، في أيدي الخوارج الثوار بقيادة ابن كيداد صاحب الحمار سنة 333هـ/944م إيذانا بنهاية الشيعة، وإن تمّت متأخرة.

وقد تضرّرت أسوار الأربس وقلعتها هدما وإحراقا ونهبا بأمر أبي يزيد مخلد بن كيداد (صاحب الحمار) بقدر ما تضرّر من أهلها من قبل بأمر الداعي الشيعي، ولكنها كانت إثر كلّ نكبة تجمع قواها وترمّم مبانيها. ففي عهد بني زيري كوّنت الأربس مع أبّة وحدة إدارية تحت إمرة وال. ففي سنة 382هـ/992م تولاّها قيصر أحد موالي الأمير منصور الصنهاجي فوجد في مخازن سلفه 60.000 قفيز قمح. وهو ما يدلّ على ثرائها ورخائها المتواصلين باستثناء فترات المحن. ومرّة أخرى اعتمدها الصنهاجيون قاعدة لمقاومة الحمّاديين في بداية ق 5هـ/11م، إلاّ أنّها سقطت سنة 445هـ/1053م في أيدي الهلاليين. وقد تمكّن الناصر من المسك بزمام أمورها مؤقّتا سنتي 458هـ/1065م و461هـ/1068م بالتناوب مع ابن مخراز الرياحي (460 ـ 461هـ/1067 ـ 1068م) وتلاه الشيخ ابن فتاتة الذي اضطرّ إلى أن يلتمس من عياد بن نصر الكلاعي حاكم الكاف تخليص مدينته من الأعراب مقابل جزية استخلصها حتى وفاته وطلبها ابنه خلفه إلى أن استسلم لعبد المؤمن بن علي في سنة الأخماس 555هـ/1160م. وفي منتصف ق 7هـ تولّى قضاء الأربس للمستنصر بالله الحفصي في أوّل عهده أبو المطوّف أحمد بن عميرة (ت658هـ/1260م).

وأدقّ وصف للأربس ما دوّنه الحسن الوزّان المعروف بليون الإفريقي سنة 933هـ/1526م بقوله: «أوربس مدينة عتيقة بناها الرومان، كما يدلّ اسمها على ذلك، وتقع في سهل جميل جدّا، هو زهرة أقاليم إفريقيا كلّها. أرضها خصبة جدّا، منبسطة تماما مع سهولة كبيرة في السّقي، وتزوّد هذه البادية بلاد تونس كلّها بالقمح والشّعير لأنها على بعد نحو مائة وتسعين ميلا من الجنوب التونسي. تكثر فيها الآثار الرّومانيّة، من تماثيل رخامية وقطع مرمرية موضوعة في أعلى الأبواب، عليها كتابات منقوشة بالحروف اللاتينيّة، مع كثير من الحجر المنحوت. وقد استولى القوط (الوندال) عليها لأنّ النّبلاء الرّومان الذين كانوا يستوطنون إفريقيا التجؤوا إليها وجمعوا فيها كنوزهم، فبقيت خالية مدّة من الزّمان، ثمّ سكنت من جديد، ولكنها ظلّت قرية. ويمرّ بين قلعة هناك ومدشرين جدول ماء صالح للشراب يسيل في قناة حجارتها ناصعة البياض كأنها من فضّة، ويحرّك طاحونات القمح، ينبع من ربوة بعيدة عن المدينة بنحو ميل ونصف ميل. ومدينة أوربس متحضّرة قليلا لأنّ سكّانها منقسمون إلى طبقتين: النسّاخون والفلاّحون. ويثقل ملوك تونس كواهلهم بالضّرائب. ولو عرف هؤلاء الملوك ما تشتمل عليه هذه المنطقة من خصب وإنتاج، سواء في الحبوب أو الماشية أو في غزارة المياه ونقاوة الهواء، لهجروا تونس بلا شكّ وسكنوها.

ويعرف الأعراب ذلك كلّه، فيأتون كلّ سنة إلى بادية أوربس ويملأون أكياسهم قمحا دون أن يؤدّوا أيّ ثمن، ثمّ يعودون إلى الصحراء».

بعد ذلك الوقت بدأت الأربس تفقد قيمتها ودورها بتحوّل الطّرقات عنها لصالح جارتها الكاف، حتّى اندثرت، وبقي اسمها فيمن انتسب إليها.

الأرشيف الوطني التونسي

مؤسّسة عموميّة تخضع لإشراف الوزارة الأولى (القانون عدد 95 لسنة 1988 الصادر بتاريخ 02 أوت 1988م والمتعلّق بالأرشيف). وتتمثل مهامّ الأرشيف الوطني في:

– صيانة تراث الأرشيف الوطني.

– جمع الأرشيف المتعلّق بتونس والموجود بالخارج وحفظه وتمكين الباحثين من الاطّلاع عليه.

يتعلّق رصيده بتاريخ البلاد التونسيّة من نهاية القرن السابع عشر إلى سنة 1956 وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

– السلسلة التاريخيّة: تحتوي على الوثائق المجمعة منذ سنة 1874 من عهد الوزير الأكبر خير الدّين التونسي وهي تتعلّق بالفترة الحسينية.

– أرشيف قسم الدّولة للوزارة الكبرى: الإدارات الجهويّة والمحليّة والعدالة والأحباس...

– الرّصيد الوثائقي ويتكوّن من:

مجموعة الرّائد الرّسمي التونسي منذ نشأته (1860) وأصول النّصوص القانونيّة والترتيبيّة.

ومجموعة من الدوريات صادرة بتونس منذ نهاية القرن التاسع عشر ومكتبة تاريخية.

ولقد حدّدت الفصول 15 و16 و17 من القانون عدد 95 لسنة 1988 المتعلّق بالأرشيف الآجال الّتي يمكن بعدها الاطلاع على الوثائق:

– 30 سنة للوثائق عموما.

– 60 سنة بالنّسبة إلى الوثائق الّتي تضمّ معلومات تتعلّق بالحياة الخاصّة للأفراد والعائلات والملفات المتعلّقة بالقضايا الّتي تمّ رفعها أمام المحاكم.

– 100 سنة بالنّسة إلى وثائق العدول المنفذين وسجلات الحالة المدنية والتسجيلات والوثائق الحاوية على معلومات شخصية ذات صبغة طبّية وملفات الموظفين (بداية من تاريخ ولادة المعني بالأمر).

ويسمح الاطلاع على الوثائق دون تمييز بين المستفيدين ويمنح الأرشيف الوطني بطاقة قارئ للمواظبين منهم ورخصا وقتية للمستفيدين الظرفيين.

أزروبعل

اسم متداول في العالم البوني،يعرف به ما لا يقل عن تسع شخصيات.أشهرها ذلك الذي لقب بالجميل ولقب أيضا بالقديم،هو ابن هنيبعل جيسكون وصهر هميلكار برقة (238 ق م). عاش بين 270–221 ق م. أشركه هميلكار في حكم إسبانيا. وعند موته سنة 229 ق م حلّ أزروبعل مكانه. فعمل على توطيد الهيمنة القرطاجية على إسبانيا بإقامة تحالفات مع الملوك المحليين. أسس في جنوب Alicante مدينة قرطاجية سماها قرطاجان أ وكرتاقو نوفا. وبنى فيها قصر حكمه. في سنة 226 ق م أمضى اتفاقا مع الرومان تعهد فيه بعدم اجتياز نهر الإيبر.

توفي سنة 221 ق م إثر طعنة بخنجر.

الاستشراق في فنّ الرّسم

خلافا لما كانت تحظى به مصر والجزائر والمغرب، طوال القرن التاسع عشر، من إقبال

وشهرة لدى أهل الأدب والفن من المستشرقين، لم تستقبل تونس إلا القليل ممن مرّوا بها في طريقهم ذهابا أو إيابا إلى بلاد المشرق. وإذ لم تكن في ذلك الحين علائق وطيدة من شأنها أن تربط بين بلدان أوروبا والقطر التونسي فتجعل منه مسلكا للغادين وموردا للوافدين، كان تمركز الحماية الفرنسية عام 1881 منطلقا للفْت الأنظار إلى هذه الرّبوع من شمال إفريقيا وانضمامها إلى الآفاق الشاسعة لعالم الشرق الذي كان يَستلْهِم منه الأدباء والفنانون الغربيون موضوعاتهم ويغذون به خيالهم. وقد تسببت حملة بونابرت على مصر، سنة 1798م، ثم احتلال الجزائر (1830) وزيارة الرسّام الفرنسي ديلاكروا Delacroix إلى المغرب الأقصى (1832) في انجذاب عدد مهم من الفنانين الذين قصدوا هذه الربوع لغرض الاطّلاع على معالمها وعادات أهلها واستكشاف مناظرها الطبيعية، فحركت عواطفهم وبعثت فيهم أحاسيس جديدة في وقت سئموا فيه الموضوعات المأخوذة من الميثولوجيا الإغريقية والوقائع التاريخية القديمة. فكانوا أول من حوّلوا أنظارهم نحو مصر التي أصبحت منهلا خصبا صقلوا به مواهبهم وأذكوا به حماسهم، فاستنبطوا ممّا لاحظوا فيها وجمعوه من معلومات عنها: مشاهد ملحمية لقائدهم بونابرت في معركته ضد جيش المماليك، وسط هذا المحيط غير المألوف لهم بمناخه وعمرانه وهيئة أهله، إذ تمتدّ رمال الصحراء بنخيلها وأهراماتها وتبدو الأسلحة المنمّقة والألبسة المزركشة والخيول المسرّجة والجمال بهوادجها وكل ما يدعو إلى الاستغراب. فنتجت عن ذلك رسوم تميزت بالفَخَامة والخطوط الملتوية والألوان البراقة، بَدَت مغايرة تماما لما كانت عليه أسلوبية «الكلاسيكية الحديثة» من أشكال صلبة وألوان باهتة، وقوالب شكلية جامدة منقولة عن مقاييس الجمالية اليونانية الرومانية التي مجّها الرسامون بعد طول ممارسة. فكانت هذه الرسوم الاستشراقية المبكّرة شاهدة على ظهور التيار الرومانسي ودافعا من دوافع تكوينه وسبيلا إلى تحريره من قواعد الرسم الاتباعي الأكاديمي.

على أن حملة مصر، التي سرعان ما انتهت بإخفاق بونابرت أمام أسوار عكّا، رغم أنّها كشفت عجائب الشرق للفنانين، فإنها على نحو حاسم لم تتوصل إلى عقد صلات وثيقة ودائمة بين «الشرق» وأوروبا مثلما تحقّق بعد التوسّع الاستعماري الذي تغلغل في أصقاعه النائية. فكان للاستيلاء على الجزائر وقع مهم أعطى لحركة الاستشراق نفسا جديدا وجعل منها مغامرة واسعة النطاق، إذ ما انفك الرسامون، في زمن أصبحت فيه النشاطات السياحيّة منظمة وميسورة ووسائل النقل موفورة، يترددون على هذه النواحي، يطوفون في كامل أرجائها، مدنها وصحاريها. لكن اصطدامهم بالواقع الشرقي لم يمنعهم من إطلاق العنان لمخيلاتهم، التي كانت تذكيها الطّرافة وتكشفها الموهبة الفنية، فلم تكن غاية زائر هذه الربوع التطرّق إلى الواقع ومحاولة إدراكه وفهمه بصدق، بل كانت للبحث في تلك الصورة المسبقة، وهي صورة انتقائية وناقصة، تختلف عن حقيقة الواقع المعيش.

وبلغ تيار الاستشراق ذروته مع احتلال الجزائر، لكنه لم يصل إلى تونس قبل تمركز الحماية، حتى إنّ حامل لواء الرومانسية ديلاكروا، عندما تجوّل في المغرب الأقصى طيلة ستّة أشهر، لم تطأ قدمه أرض تونس ولم يدفعه حب اطلاعه على مواصلة السير إلى هذه الجهة الشرقية من المغرب الكبير، في حين أنه مرّ، عند رجوعه، بالجزائر العاصمة حيث استطاع، بتوصية خاصة، دُخُولَ الجناح الخاص بالحريم، فكانت لوحته الرائعة «نساء من الجزائر» (صالون 1834) نتيجة تلك الزيارة، غير أن علاقته الوحيدة بتونس، إن اعْتَبرناها علاقة، تتحدّد في الرسم الذاتي الذي تركه لمحمود بن عياد وكيل الباي، حيث يظهر بلباسه التونسي الفاخر وقد اعتمّ ولفّ رأسه وكتفيه ببرنس أبيض، متقلدا سيفا وماسكا بيده مسبحة، وهو واقف على رصيف مرفإ مطل

على البحر تحدّه بعض الحصون، وهذه اللوحة البديعة مما عُرض بباريس في معرض مئوية احتلال الجزائر سنة 1930.

وإذا تصفحنا أدلّة صالون باريس التي تسجّل قائمة الأعمال المعروضة فيه كلّ سنة، فإننا قلّما نجد ما له صلة بتونس، رغم وفرة الأعمال المتعلّقة بأقطار المغرب، ناهيك أنه خلال فترة ما بين سنة 1830 وسنة 1880 لم نضبط إلاّ قرابة عشرين لوحة كان لها على نحو مباشر أو غير مباشر ارتباط بتونس، منها ما هو عائد إلى مدينة قرطاج البونية، ومنها ما يهمّ حياة بعض المسيحيّين الكَنسيّين ممّن قدموا إلى تونس، ومنها ما هو مجرّد رَسوم تخطيطية لمبان معمارية لها قيمة توثيقية ليس غير. فهي في معظمها أعمال تلحق بموضوعات ذات محتوى تاريخي، متداولة في الرسم الأكاديمي، غايتها التنويه بماضي فرنسا والتذكير بخصال بعض رجالاتها، ولم يرد ذكر لتونس فيها، إلاّ عرضا.

ونكتفي بالإشارة إلى أشهر هذه الأعمال. وأوّل ما نعثر عليه لوحة من ممتلكات متحف اللوفر، للبارون بول غيران (Baron Paul Guérin)، عنوانها «إينياس يحكي لديدون فجائع طروادة» (صالون سنة 1817)، نشاهد فيها ديدون، وهي عليسة (ابنة ملك مدينة صور الفينيقية) التي هاجرت إلى إفريقيا (Africa) وأسست بها قرطاج، وقد اتكأت على سرير وهي تُصغي إلى حديث الأمير إينياس أحد أبطال حرب طروادة. وقد تضمنت اللوحة بعضا من الأثاث والزخارف كأنها علامات توحي بمكان المشهد والزمان الذي يدور فيه، وهو قصر الملكة ديدون بقرطاج في نهاية القرن التاسع قبل الميلاد كما تخيلته ريشة الرسام.

وفي سنة 1833، قدّم فرنسوا غراني (Granet François) مجموعة من لوحات ذات موضوع ديني، منها «الآباء المُبَشِّرون يسترجعون أسرى من تونس». وتعكس هذه اللوحات ما كان يقوم به القساوسة من إطلاق سراح أسرى غزاة البحر (القراصنة) وردّهم إلى بلدانهم، وهو عمل لا يتعدّى الطريقة الأكاديمية المتبعة آنذاك في مدارس الفن الرسمية والورشات، أتي على نسق قواعد الكلاسيكية الحديثة التي تزعّمها لويس دافيد أستاذ غراني. وفي الإطار نفسه تندرج لوحة فرنسوا ليبول (François Lépaule) «سان فانسون دي بول أسير تونس» (صالون سنة 1834)، وقد قبض الغزاة على هذا القديس في بداية ق 17م إثر حصوله على لقب الكهنوت وساقوه إلى الحاضرة التونسية فنراه في السجن مكبّلا في القيود حيث قضى قرابة العام قبل إرْجَاعه إلى بلاده. وكذلك لوحة سان لويس «على أطلال قرطاج» (صالون سنة 1844) لتيودور غودان (Théodore Gudin)، التي تمثل ذكرى نزول لويس التاسع ملك فرنسا بأسطوله على شواطئ قرطاج، في الحملة الصليبية الثامنة التي شنّها على تونس وما جاورها.

وقد حصلت الحكومة الفرنسية في عهد الباي حسين الثاني على رخصة لتشييد كنيسة صغيرة في المكان الذي يرجّح أنه مات فيه هذا الملك، بنيت في عهد المشير أحمد باي (1837ـ1855)، وكانت متواضعة صغيرة الحجم، مثلما تبديه لنا لوحة غودان «منظر كنيسة سان لويس بقرطاج» (صالون 1844). وقد عرض شارل جوردان (Charles Jourdain)، المهندس الذي قام بتصميمها، مجموعة من الرسوم المبسطة لكل مقسماتها في صالون سنة 1850. وفي سنة 1890 هدّمت هذه الكنيسة وأقام الآباء البيض عوضا عنها الكاتدرائية الحالية، على أسلوب بيزنطي - مغربي وهي بجانب متحف الآثار الوطني بقرطاج.

وفي الصالون الباريسي عُرضَت بعض الرُّسوم المائية والتّخطيطيّة، منها لوحة «السوق» لفرانس فاشرو (France Vacherot) وأخرى «الطّراف» لفيلكس بَارْمَنْتيي (Félix Parmentier)...

وهكذا نلاحظ أن هذه الأعمال الخاصة بتونس

كانت نادرة جدًّا، حتى إنّ المعرض الاستعماري الذي أقيم سنة 1906 بمدرسة الفنون الجميلة بمرسيليا، لم يشتمل على أكثر من لوحة واحدة تتعلّق بتونس. وهي لوحة «سوق تونسية» للرسام المرسيلي فابيوس براست (Fabius Brest). وكان تعرّف بعض الرسامين على البلاد التونسية قبل «الحماية» يقتصر على ما ترويه بعض المصادر من كتب الرحلات أو المصادر الأدبية التي تتضمّن غالبا أخبارا يضطلع فيها الخيال بدور مهمّ. فمن ملحمة «الإنيادة» لورجليوس، أعظم شعراء روما، إلى قصة «صلامبو» لفلوبير التي أتمّ تأليفها بعد رجوعه من قرطاج وزيارة معالمها الأثرية (سنة 1858)، تتراءى لنا فيها هذه التخوم لجنوب البحر المتوسط، من وراء رؤية غربية خياليّة في إطار «برابري» (Barbaresque) «متوحش»، كأنها مسارح يرتع فيها أخلاط من المحاربين والفرسان والبدو والنساء القابعات في حريمهن. فكأنّ تونس بمَنْ وبما كان فيها ليست أكثر من «صندوق عجب» عند هؤلاء الرسّامين والكتّاب المفتونين بالعجائبيّة الاستشراقيّة!

استقلال تونس

1 ـ خصائص الحركة الوطنيّة :

الحركة الوطنيّة التونسية هي الحركة التي جعلت هدفها تحرير تونس من الاستعمار الفرنسي المباشر، ومن خصائص هذه الحركة أنها شملت كلّ المناطق والجهات، وناضل في صفوفها جميع الوطنيين الأحرار من رجال ونساء وشيوخ وكهول وشبّان، سواء منهم الذين كانوا منتمين إلى الأحزاب والمنظمات الوطنيّة، أو الذين كانوا منضوين تحت لواء الجمعيات المهنية والثقافية والرياضية أو المؤلفة قلوبهم.

ومما تمتاز به تونس، أن حركتها التحريرية كانت سلسلة متصلة الحلقات لا انفصام بينها، تتجدد برامجها وطرق عملها بحسب تطور الظروف الداخلية والخارجية، من جماعة جريدة «الحاضرة» بقيادة علي بوشوشة والبشير صفر، إلى حركة الشباب التونسي بزعامة علي باش حانبه، إلى الحزب الحر الدستوري التونسي، بشقّيه القديم والجديد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن جميع الحركات والأحزاب، وإن كانت تسعى إلى تحرير البلاد من الهيمنة الأجنبية، فإنّها لم تطالب بالاستقلال إلا غداة الحرب العالمية الثانية، ذلك أن المطالبة بالاستقلال قبل ذلك كانت تقع تحت طائلة القانون الاستعماري الفرنسي كما أن الشعب التونسي لم يكن قادرا نظرا إلى درجة وعيه السياسي على إنجاز شعار الاستقلال.

وهنا لا بد من تصحيح خطإ وقع فيه كثير من الدارسين والباحثين الذين أكدوا أن الفرق بين الحزب الدستوري القديم والحزب الدستوري الجديد هو كون الأول يطالب بالاستقلال التام دون قيد ولا شرط، في حين يكتفي الثاني بالمطالبة بالاستقلال الداخلي وينتهج في سبيل ذلك سياسة المراحل.

وهذا رأي يحتاج إلى مُراجعة ذلك أن الحزب الدستوري القديم، مثله مثل الحزب الدستوري الجديد، لم يثر في أي مؤتمر من مؤتمراته موضوع الاستقلال قبل الحرب العالمية الثانية. فالذي كان يفصل بين الحزبين إنما هو اختلافهما حول طرق العمل، وقد اعترف بذلك زعيم الحزب الدستوري القديم ذاته، الشيخ عبد العزيز الثعالبي، حين أجاب قاضي التحقيق الفرنسي دي كايلا إثر حوادث 9 أفريل 1938، قائلا:

«إننا نختلف مع الحزب الدستوري الجديد في طرق العمل. فنحن ندعو إلى الإقناع والتمسك بالصبر، في حين يدعو الحزب الدستوري الجديد إلى العنف، ذلك أن عملنا يرتكز على المساعي التي نقوم بها لدى السلط العموميّة الفرنسيّة، مع ترك الشعب جانبا، والإمساك عن تقديم وعود له».

على أن الاستقلال لم يكن غاية في حدّ ذاته، بل كان يهدف أولا وبالذات إلى النهوض بالشعب التونسي اجتماعيا واقتصاديّا وثقافيا، وإقامة نظام ديمقراطي يخضع لدستور، قوامه العدل والحرية والمساواة. ولذلك حرص الوطنيون على تسمية أول حزب تونسي منظم : الحزب الحر الدستوري التونسي، كما تمسك مؤسّسو الحزب الدستوري الجديد بهذا الاسم، ولم يعوضوه مثلا باسم « « حزب الاستقلال »، لما أصبح الاستقلال التام هدف الحركة الوطنية التونسية إثر الحرب العالمية الثانية.

فمتى وكيف ظهر مفهوم الاستقلال في تفكير الوطنيين التونسيين؟

2 ـ انبعاث الحركة الوطنيّة وتطورها

مما لاشك فيه أن فكرة الاستقلال لم تخامر أبدا أذهان رجال حركة الشباب التونسي الذين كانوا يطالبون منذ سنة 1907 على صفحات جريدتهم «التونسي»، بإشراك التونسيين المثقفين في تسيير شؤون بلادهم، على قدم المساواة مع الفرنسيين. ولكن رغم اعتدال هذه الحركة التي لم تنازع قط في مبدإ خضوع تونس للحماية الفرنسية، فإنها أثارت سخط السلطة الاستعمارية نظرا إلى دفاعها عن الذاتيّة التونسيّة ورفضها ذوبان تونس في صلب البوتقة الحضاريّة الفرنسيّة وقد استغلت فرنسا حوادث الجلاّز سنة 1911 ومقاطعة الترامواي بتونس سنة 1912 لإبعاد زعماء الحركة إلى الخارج، وفي مقدمتهم علي باش حانبة، واتخاذ الكثير من الإجراءات القمعية لوضع حد لأي نشاط وطني في البلاد طوال فترة الحرب العالمية الأولى (1914 ـ 1918).

ولمّا وضعت الحرب أوزارها أنشأ الوطنيون الحزب الحر الدستوريّ الذي أعلن عن تأسيسه يوم 15 جوان 1920، واقتصروا على المطالبة بإعلان دستور يضمن حقّ الشعب التونسي في تسيير شؤونه بنفسه، «على أن تكتفي فرنسا بالإشراف والحماية الخارجيّة، وفقا لأحكام معاهدة باردو»، كما تبنى الحزب المطالب التي أعلن عنها الشيخ الثعالبي في كتابه « تونس الشهيدة » وهي بالخصوص:

– انتخاب مجلس يتركب بالتساوي من أعضاء تونسيين وفرنسيين.

– تكوين حكومة يكون أعضاؤها مسؤولين لدى المجلس، ما عدا المقيم العام الفرنسي (بوصفه وزير الشؤون الخارجيّة)، وقائد القوات المسلحة الفرنسية المتمركزة في تونس (بوصفه وزير الحرب).

ولم يعارض هذا البرنامج سوى عدد قليل من الوطنيّين التونسيين المهاجرين في الخارج، وفي طليعتهم محمد باش حانبة (شقيق علي باش حانبة) الذي وجه إلى الثعالبي رسالة من جينيف مؤرخة في 30 جوان 1920، جاء فيها بالخصوص:

« لا أقبل أي تغيير في المبادئ التي رسمتها لنفسي، أعني الاستقلال التام وتغيير نظام الحكم وتكوين حكومة يعينها مجلس نيابي منتخب من قبل الشعب. وإني أرجوك إبلاغ هذه المبادئ إلى كافة الإخوان ».

ورغم ذلك لم يطرأ أي تغيير على برنامج الحزب، حتى بعد انعقاد مؤتمر نهج الجبل بالعاصمة يوم 12 ماي 1933 والتحاق جماعة « العمل التونسي » باللجنة التنفيذية. فقد اكتفى المؤتمر بالتذكير بأهداف الحزب الذي يرمي إلى « تحرير الشعب التونسي وتمتيع البلاد التونسية بنظام سياسي قارّ منيع، على أساس دستور يحافظ على الشخصية التونسية وتتحقق به سيادة الشعب ».

3 ـ إنشاء الحزب الدستوري الجديد

انبثق الحزب الدستوري الجديد عن المؤتمر المنعقد يوم 2 مارس 1934 بقصر هلال، وقد صادق على لائحة تقرّ البرنامج الذي وافق عليه مؤتمر « نهج الجبل » واقتصر على اتخاذ القرارات التالية:

– حل اللجنة التنفيذيّة للحزب الحر

الدستوري التونسي.
- انتخاب ديوان سياسي لتعويض اللجنة التنفيذيّة المنحلّة.
- المصادقة على القانون الداخلي للحزب.
وبعد أن انعقد مؤتمر قصر هلال بسنتين حرص رئيس الديوان السياسي الدكتور محمود الماطري على التذكير ببرنامج الحزب الدستوري الجديد قائلا:
«لا بأس من التذكير بأن ما نطالب به يتمثل في مجرد العودة إلى مبادئ الحماية التي حادت عنها السلطة أو غابت عن ذهنها منذ 50 سنة». فوجه الطالب الهادي نويرة باسم الشعبة الدستورية بباريس رسالة بتاريخ 25 نوفمبر 1936 إلى الكاتب العام للحزب الحبيب بورقيبة يستفسره حول هذا التصريح الغريب. فأجابه برسالة مؤرخة في 30 نوفمبر 1936، جاء فيها بالخصوص:
«لن أكرس نشاطي لفائدة حزب لا يكون مثله الأعلى تحرير وطننا من الهيمنة الأجنبية، أي استقلال تونس...».
ولما انعقد المؤتمر الثاني للحزب الدستوري الجديد من 30 أكتوبر إلى 2 نوفمبر 1936 بالعاصمة أثير موضوع الاستقلال للمرة الأولى من قبل ممثلي الشعبة الدستورية بباريس، الهادي نويرة والمنجي سليم وعلي البلهوان، الذين طالبوا بمواصلة الكفاح والتصريح علانية بأن هدف الحزب هو الاستقلال التام. وقد أيد هذا الاتجاه الاستقلالي عدد كبير من أعضاء المؤتمر نخص بالذكر منهم الباهي الأدغم والهادي السعيدي والهادي شاكر ويوسف الرويسي والحبيب بوقطفة، فهدد الدكتور الماطري بالاستقالة من رئاسة الحزب إذا صادق المؤتمر على هذا الاتجاه. وعندئذ تمكن الحبيب بورقيبة من إقناع النواب المطالبين بالاستقلال بتغيير موقفهم للحفاظ على وحدة الحزب. فصادقوا على لائحة تنص على سحب «توسم الخير» من حكومة الجبهة الشعبية بفرنسا، وتصرح بأن تحرير البلاد الذي لا مناص منه «يمكن أن يتحقق في كنف الهدوء والنظام والثقة المتبادلة، بالتفاهم بين الشعب التونسي وفرنسا الديمقراطيّة الحرة».
وإثر ذلك توترت العلاقات من جديد بين الحزب وحكومة «الحماية»، وأفضت إلى حوادث 9 أفريل 1938 الدّامية التي وضعت حدا للحوار بين الدستوريين والفرنسيين.

4 - تطور القضية التونسية إثر الحرب العالمية الثانية

لما انتهت الحرب تحوّل الزعيم الحبيب بورقيبة خلسة إلى القاهرة يوم 26 مارس 1945 لتعريف الرأي العام العربي والعالمي بالقضية التونسية والقيام بالدعاية لفائدة استقلال البلادالتونسية. أما في تونس فقد سخّر الديوان السياسي جهوده لإعادة تنظيم هياكل الحزب الدستوري الجديد، وتعبئة جميع الطاقات الوطنية في سبيل تحرير الشعب التونسي. وقد توجت هذه الجهود بانعقاد مؤتمر ليلة القدر (23 أوت 1946) برئاسة القاضي العروسي الحداد، وبمشاركة ممثلي الأحزاب التونسية والمنظمات القومية. ووافق المؤتمر بالإجماع على المطالبة بالاستقلال التام، قبل أن تقتحم الشرطة محل المؤتمر وتلقي القبض على 46 شخصا من الحاضرين، في مقدمتهم صالح فرحات وصالح ابن يوسف والمنجي سليم وعلي البلهوان والفاضل بن عاشور وسليمان بن سليمان.
وقد حظيت قرارات المؤتمر بتأييد الشعب التونسي الذي أعلن الإضراب احتجاجا على اعتقال رجال الحركة الوطنية. واضطر المقيم العام الجنرال ماست في آخر الأمر إلى الإفراج عن المعتقلين، بعد أن كان يعتزم إحالتهم على المحكمة العسكرية.
وفي 8 سبتمبر 1949 عاد الزعيم بورقيبة إلى أرض الوطن بعد أن يئس من إثارة اهتمام جامعة الدّول العربية لانشغالها وقتئذ بالمعضلة



الزعيم بورقيبة في اجتماع شعبي استعدادا للمعركة الحاسمة

الفلسطينيّة التي كانت تحظى لديها بالأولويّة.

وفي الحين استأنف بورقيبة اتصالاته بالحكومة الفرنسية التي قبلت في آخر الأمر مبدأ التفاوض مع ممثلي الشعب التونسي على أساس منح البلاد التونسية الاستقلال الداخلي. فتشكلت في 17 أوت 1950 حكومة تونسية جديدة برئاسة محمد شنيق وبمشاركة الأمين العام للحزب الدستوري الجديد، صالح بن يوسف، تحدّدت مهمتها في التفاوض باسم الباي حول التنقيحات الأساسية للوصول عبر مراحل متتالية بالبلاد التونسية إلى الاستقلال الداخلي.

وسرعان ما تعثرت المفاوضات التونسية الفرنسية، بسبب تردد الحكومة الفرنسية تحت ضغط غلاة الاستعمار المتمسكين بمبدإ السيادة المزدوجة. وانتهت تجربة الحوار بمذكرة 15 ديسمبر 1951 التي ألحت على وجوب تمثيل الجالية الفرنسية في جميع المؤسسات النيابية التونسية.

5 ـ المرحلة الحاسمة: 1952 ـ 1954

بدأت المرحلة الحاسمة يوم 18 جانفي 1952 إثر إلقاء القبض على الزعيم الحبيب بورقيبة وإبعاده إلى طبرقة، ومنع انعقاد مؤتمر الحزب الدستوري الجديد الذي كان من المقرر أن يلتئم في اليوم نفسه. ورغم ذلك فقد انعقد المؤتمر بالعاصمة في الوقت المحدد برئاسة الهادي شاكر، وصادق المؤتمرون على لائحة تطالب من جديد بالاستقلال التام وإلغاء الحماية، كما عرضت الحكومة التونسية على منظمة الأمم المتحدة القضية الوطنية التي حظيت بمساندة الكتلة الإفريقية والآسيوية وكثير من الدول الأخرى المناهضة للاستعمار.

وقد تعدّدت في جميع أنحاء البلاد التونسية مظاهر المقاومة وتصدّى الشّعب التونسي بشجاعة لأعمال القمع والبطش، وأصبح الشعب التونسي يُشَكّل بجميع فئاته وتنظيماته ومؤسّساته واجهة موحدة ضد قوات الاحتلال التي يشرف عليها المقيم العام دي هوتكلوك بمساعدة الجنرال «السفاح» غرباي. ورغم ذلك فقد استطاع الشعب التونسي إحباط جميع الإجراءات القمعية والتعسفيّة التي اتخذها دي هوتكلوك إلى أن اضطرت الحكومة الفرنسية إلى إعفائه من مهامه في 23 فيفري 1953. واعتمد خلفه فوازار سياسة المهادنة والمراوغة ومحاولة استمالة الباي وفصله عن الحركة الوطنية، ولكنه لم يتمكن من وضع حدّ للمقاومة المسلحة التي تحوّلت إلى حرب عصابات. فخشيت الحكومة الفرنسية امتداد الثورة إلى الجزائر، لا سيما بعد الهزيمة النكراء الذي مني بها الجيش الفرنسي في ديان بيان فو بالهند الصينية في ماي 1954. وفي هذا الظرف بالذات تسلم مقاليد الحكم في باريس الرئيس منداس فرانس الذي ما إن فضّ مشكلة الهند الصينية في ماي 1954، حتى تحوّل إلى تونس يوم 31 جويلية 1954 وألقى بين يدي الباي في قصر قرطاج خطابه الشهير الذي أعلن فيه اعتراف فرنسا «بالاستقلال الداخلي للدولة التونسية».

وإثر ذلك صرح الزعيم الحبيب بورقيبة من منفاه بفرنسا قبوله للاستقلال الداخلي، باعتباره مرحلة في الطريق المؤدية إلى بعث السيادة التونسية كاملة غير منقوصة وأضاف قائلا: «لكن الاستقلال التام لم يزل هو المثل الأعلى للشعب التونسي». وبالاتفاق بين الحكومة

الفرنسية من جهة، والحزب الدستوري الجديد من جهة أخرى، تشكلت وزارة تفاوضية تونسية برئاسة الطاهر بن عمار ومشاركة أربعة وزراء دستوريين. وبدأت المفاوضات التي تعثّرت وتعطلت عدة مرات لا سيما بعد اندلاع الثورة الجزائرية يوم أول نوفمبر 1954، ثم توقفت إثر سقوط وزارة منداس فرانس، ولكن بفضل تفهم الرئيس الجديد للوزراء إدغار فور، اتفق على حل وسط يسمح بمنح الاستقلال الداخلي للدولة التونسية وصيانة المصالح الفرنسية العليا. وإثر ذلك وافقت الحكومة الفرنسية على رجوع الزعيم بورقيبة إلى تونس يوم غرة جوان 1955، وُقّع على اتفاقيات الحكم الذاتي يوم 3 جوان 1955.

6 ـ من الاستقلال الداخلي إلى الاستقلال التام

بعد عودة الأمين العام للحزب الدستوري الجديد صالح بن يوسف، وإعلانه عن رفض الاتفاقيات التونسية الفرنسية باعتبارها «خطوة إلى الوراء» ودعوته إلى استئناف الكفاح المسلح، قرّر الديوان السياسي رفته من الحزب وانعقد مؤتمر وطني لحسم الخلاف، وبالفعل قد انعقد هذا المؤتمر بصفاقس من 15 إلى 18 نوفمبر 1955 وأيّد الدّيوان السياسي معلنا في الوقت نفسه أنّ «استقلالاً منقوصا خير من استعباد كامل» وأن الاستقلال الداخلي يعتبر خطوة إلى الأمام نحو هدف البلاد الأسمى ألا وهو الاستقلال التام، كما دعا إلى إعادة النظر في البنود التي لا تتماشى مع أماني الشعب واستغلال إمكانات التوسع في تطبيقها حتى بلوغ الاستقلال التام. وفي هذه الأثناء ما انفكت الأوضاع السياسية الدولية تتطور بسرعة. وقد نادى المؤتمر الإفريقي الآسيوي المنعقد في مدينة باندونغ بأندونيسيا في أفريل 1955 بتحرير البلدان المولى عليها، ومنها أقطار المغرب العربي الثلاثة: تونس والجزائر والمغرب. وفي هذا السياق وعدت الحكومة الفرنسية ملك المغرب محمد الخامس الذي قررت إرجاعه إلى عرشه «بتمكين المغرب من السير به نحو الاستقلال في كنف التكافل». وفي شهر جانفي 1956 عيّن زعيم الحزب الاشتراكي الفرنسي غي مولي رئيسا للحكومة، فصرّح في خطاب التزكية «أن اتفاقيات سنة 1955 لا تحول دون تمتع تونس بالاستقلال في نطاق التكافل المنظم على غرار المغرب».

وعلى هذا الأساس جرت مفاوضات بين الحكومتين التونسية والفرنسية أفضت إلى إمضاء بروتوكول الاعتراف باستقلال تونس في 20 مارس 1956. وبعد ذلك تطوّرت الحياة السياسية في تونس تطورا مهمّا تجسّد في انتخاب المجلس التأسيسي يوم 25 مارس 1956، وتكوين أول حكومة وطنية في عهد الاستقلال برئاسة الزعيم الحبيب بورقيبة. فكانت نقطة الانطلاق لبناء الدولة الحديثة، واستكمال السيادة الوطنية، وإنجاز برامج الازدهار الاقتصادي والرقيّ الاجتماعي، باعتبار الاستقلال السياسي مرحلة لبلوغ النهضة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وتحقيق التنمية الشاملة. وقد حققت حكومة الاستقلال عدة إنجازات رائدة منها إعلان الجمهورية وإلغاء النظام الملكي، وصدور الدستور، وتحقيق الجلاء العسكري ثم الجلاء الزراعي، وإصدار مجلة الأحوال الشخصية وإصلاح التعليم وتعميمه، والتحكم في النمو الديمغرافي عن طريق التنظيم العائلي، وانتهاج سياسة التخطيط الاقتصادي، وتخصيص اعتمادات مهمّة للرقيّ الاجتماعي والنهوض الثقافي.

الأسرة التونسيّة

1ـ واقع الأسرة التونسيّة

تطور عدد الأسر التونسيّة في ظرف ثلاثين سنة من 873.900 أسرة سنة 1966 إلى 2.474.600

أسرة حسب آخر النتائج الإحصائيّة، سنة 2009.
وانخفض حجم الأسرة التونسيّة إلى معدل 4,21 أفراد وتراجع مستوى الخصوبة من 7,5 أطفال للمرأة سنة 1956 إلى 3,2 أطفال سنة 2009. وسجل ارتفاع كبير لمُؤمل الحياة عند الولادة بلغ 74,5 سنة (سنة 2009) كما زادت نسبة المسنين لتصبح 9,8 ٪ تقريبا من مجموع السكان في السنة نفسها بعد أن كانت لا تتجاوز 5,5٪ سنة 1966، وهو ارتفاع ملحوظ ولّد حاجات جديدة كالتكوين في طب الشيخوخة وتطوير إمكانات صناديق التقاعد والحيطة الاجتماعيّة واعادة تنظيمها واستغلال موارد بشريّة ظلت معطلة بحكم التقاعد.

تعيش الأسرة التونسيّة حاليا تحوّلا كبيرا في تركيبتها الديمغرافية إذ أصبح النمط النووي أي التنظيم الأسري المتكون من زوجين وأبناء النمط المسيطر (70٪ من الأسر التونسيّة) وتقلصت الأسر الممتدة إلى أقل من الثلث. أما على المستوى الجغرافي فقد تجاوزت نسبة الأسر التي تعيش في المناطق البلدية نسبة الأسر التي تعيش في المناطق غير البلدية (70٪ مقابل 30٪).

وحسب الإحصائيات المتوفرة بدفاتر الحالة المدنية بقيت ظاهرة الطلاق مستقرة نسبيا في المجتمع التونسي في حدود 15,3 ٪ من عدد الزيجات المسجلة، بإستثناء الفترة المتراوحة بين 1988و 1990 إذ تجاوزت هذه النسبة معدل 20٪ لأسباب تتطلب مزيدا من الدراسة والتعمق وانخفضت بداية من سنة 1991 ثم عادت بعد ذلك إلى مستواها المعهود.

ونتيجة للاختلاط المدرسي والمهني ولحركة السكان، إضافة إلى التوعية الصحيّة تراجع الزواج بالأقارب الذي كان النمط المحبذ في المجتمع التونسي التقليدي إذ نجد صداه في الأغاني والحكايات الشعبية (التغني خاصة ببنت العم).
ويعتبر المسكن اللائق من مقومات الحياة الكريمة ومن أسس المواطنة ويحظى لدى الأسرة التونسيّة باهتمام بالغ إذ لا تتردد في الاقتراض وبيع بعض ممتلكاتها لبناء أو اقتناء مسكن مناسب يأويها ويستجيب لمتطلبات عصرها وينفق التونسي 22٪ من ميزانيته لتوفير السكن.
وتفيد إحصائيات سنة 2009 أن 78٪ من الأسر التونسيّة تملك مساكنها وأن نسبة المساكن البدائيّة تقلّصت من 44 ٪ سنة 1966 إلى 1,2٪ سنة 2009. وبينت إحصائيات سنة 2009 أن 86,5٪ من الأسر تتمتع بالماء الصالح للشراب وتستفيد 99,6٪ من الأسر بالنور الكهربائي وتمتلك 96,7٪ من الأسر جهاز تلفزة وتمتلك 93,0٪ من الأسر ثلاجة وتمتلك 68,8٪ من الأسر آلة طبخ بالفرن وتمتلك 26,1٪ من الأسر جهاز هاتف قار.
وتمتلك 89,2٪ من الأسر هاتفا جوالا واحدا على الأقل، كما تمتلك 14,4٪ من الأسر حاسوبا و 14,6٪ من الأسر يستعمل أحد أفرادها الأنترنات.

2 ـ تطور الأسرة التونسيّة

رغم أن الأسرة تعيش تحولات عدّة أهمها الانتقال من النمط الممتد إلى النمط النووي، فإنها مازالت تحافظ على بعض خصائصها التقليديّة وتشهد في آن واحد تطورا ملحوظا في مجالات أخرى لذلك يمكن الحديث عن ثوابت وتحولات في حياة الأسرة التونسية الحالية.

2/1: الثوابت

لقد سبق أن بيّن الأستاذ عبد الوهاب بوحديبة كيف أن الرجل التونسي في أثناء فترة الاستعمار وخاصة في المدينة تستهويه ملذات الحياة العصريّة التي جاء بها الأوروبيون إلى بلاده لما يكون خارج البيت، لكنّه لا يتردد في التقيّد بضوابط الأسرة لما يعود إليه، وبذلك تكون قد حافظت على هوية المجتمع التونسي وقاومت الانسلاخ والذوبان.
ونلاحظ اليوم وجود بعض المستقرات في

حياة الأسرة التونسيّة تسم شخصيّة التونسي وتسهم بعض خصائصها في التماسك الاجتماعي.

فمازال التونسيون بما في ذلك الشباب يولون أهمية كبيرة لحياة الأسرة وللقيم التي تقوم عليها مثل التضامن واحترام الوالدين، وإذا انتقدوا بعض مظاهر التشدد في العلاقات الأسريّة فإنهم لا يشككون أبدا في الأسس والمبادئ الجوهريّة التي تقوم عليها هذه الروابط.

وخلافا لما هو معروف في البلدان الأوروبيّة حيث تهجر نسبة مهمّة من الشباب الأسرة منذ فترة المراهقة لتنضمّ إلى مجموعات الأصدقاء فإنه من النادر جدا بل من الاستثنائي أن نرى شابا أعزب (ذكرا أو أنثى) يخرج عن الأسرة ليسكن بمفرده أو مع أصدقائه في المدينة نفسها أو القرية التي يعيش فيها والداه.

بل إن وضعا جديدا أصبح يميّز الأسرة التونسيّة وهو احتضانها لأبنائها الأعزاب لفترة أطول من ذي قبل لتأخّر سنّ الزواج، نتيجة ظروف الحياة العصريّة (التعليم، الشغل...). فقد بلغ متوسط العمر عند الزواج 34 سنة لدى الرجل و28 لدى المرأة سنة 2000 ونتيجة لذلك يعيش 50٪ من الرجال و28٪ من الفتيات تتراوح أعمارهم بين 30 سنة و34 سنة في تونس داخل أسرهم في هذه السن.

وعلى عكس الثورة الشبابيّة التي عرفتها أوروبا الغربيّة خاصة في الستينات من القرن العشرين إذ اتهمت الأسرة بالرجعية والتسلط فإن أحوال الأسرة تعدّ أولويّة في شواغل الشباب التونسي إذ تحتل المرتبة الثانية (44,4٪) بعد وضعيتهم المالية (50,5٪).

وإضافة إلى ما سبق، بقيت رعاية الوالدين عند الكبر من أوكد واجبات الأبناء وهو ما صرح به هؤلاء أنفسهم إذ يرى 98,7٪ من الشباب أن هذه العناية منوطة بعهدتهم، وهذه مواقف تتجاوز التصريحات المبدئيّة لتتجسم على أرض الواقع.

فقد وجدنا أن 83,4٪ من المقيمين بمراكز رعاية المسنين بتونس ليس لهم أبناء وأن 44٪ لم يتزوجوا قط. وهو ما يدل على أن أغلبية هؤلاء النزلاء تفتقر إلى السند العائلي.

ورغم أن الأسرة التونسيّة تطورت في اتجاه استقلال الأبناء بالسكن عند زواجهم فإن جل الدراسات بينت أن مساكن الأبناء لا تبعد كثيرا عن مساكن الوالدين وأحيانا لا يفصل بينها إلا بضع دقائق من الوقت وتتسم العلاقات بينهم بكثافة التواصل.

ونظرا إلى المشاكل المنجرة عن وجود أسرتين أو أكثر داخل مسكن واحد وهي التي تتفاقم مع تطور الحياة وظهور حاجات ورغبات جديدة، فقد نجحت جل الأسر التونسيّة في التوفيق بين أهمية استقلال الأبناء بالسكن وضرورة المحافظة على علاقات متينة معهم فساعدتهم على توفير الأراضي والعقارات بالهبات المالية والاقتراض ليستقروا بالقرب منها، وهي مساعدة حافظت في آن واحد على اللحمة العاطفية بين الفروع وجنبتهم مشكلات المساكنة.

وفضلا عن ذلك تبدو العلاقات بين الأسر المنتمية إلى العائلة الممتدة نفسها عادية وأحيانا فاترة بسبب بعض الخلافات الطارئة لكنها تتكثف أثناء المحن والأزمات وتتجاوز أسباب النزاع في شكل مد تضامني جماعي موجه إلى الأسرة المنكوبة.

وبجانب الثوابت الإيجابية التي بقيت تسم العلاقات داخل الأسرة التونسيّة وتمتّن لحمتها فإن بعض المظاهر السلبيّة لم تضمحل تماما مثل العلاقات المتوترة أو شبه المتوترة بين الكنة والحماة، فكثيرا ما تتهم زوجة ابنها بالإسراف والتبذير وسوء التصرف وإهمالها لزوجها لكن استقلال الأسر الجديدة بمساكنها قلل من الاحتكاك وخفف من أسباب التوتر بينها.

2/2 ـ التحولات

طرأت على العلاقات الأسريّة ببلادنا تحولات مهمّة من أبرز مظاهرها تقلّص التمييز الذي كان

يفصل الذكر عن الأنثى. وبعد أن كانت جلّ الأسر التونسيّة طوال قرون عدّة لا تهتمّ بالبنت إلاّ من زاوية إعدادها للزواج وإدارة شؤون المنزل في حين كانت تحرص في كثير من الأحيان على تعليم الولد وإعداده دائما للحياة المهنيّة، أصبح تعليم البنت لا يقل أهمية عن تعليم الولد، ويعدّ النهوض بالمرأة في مختلف المجالات أحد مقومات الإصلاح الذي نادى به رواد النهضة التونسيّة وتجسّم بعد الاستقلال أساسا في مجلّة الأحوال الشخصيّة التي ألغت في تنقيحاتها المختلفة والمتتالية الإجراءات التمييزيّة التي كانت تثبّت دونية المرأة وعلوية الرجل.

كما تقلّصت الفروق التقليديّة بين الرجل والمرأة بفضل الثورة التعليميّة في البلاد التونسيّة منذ الاستقلال وخاصة بعد سن تعليم أساسي إلزامي سنة 1990 يدوم تسع سنوات، مقصيا كل أشكال التمييز المبنية على اعتبارات جنسية أو صحيّة أو اجتماعيّة.

وبمرور الوقت زالت الفروق التي كانت تفصل تعليم الولد عن تعليم البنت فقد التحق 92,5٪ من الفتيات في بداية السنة الدراسيّة 1998 ـ 1999 بالمدارس.

وبعد أن كانت الطالبات لا يمثلن الا 36,6٪ من مجموع الطلبة خلال السنة الجامعيّة 1986ـ 1987 أصبحن يمثلن 59,7٪ من جملة المسجّلين في السنة الجامعيّة (2008 ـ 2009).

ورغم اهتمامها الشّديد بتعليم الفتاة فإنّ الأسر التونسيّة لا تزال تعتمد عليها أكثر من الولد في الأشغال المنزليّة (78٪ من الفتيات مقابل 7٪ من الفتيان). ولكن قد لا يعني هذا الفرق أن الأسرة تجبر دائما الفتاة على القيام بالأشغال المنزليّة وتتغاضى عن مساعدة الفتى بل يمكن للفتاة أن تتقمّص من تلقاء نفسها الدور التقليدي للمرأة التونسيّة المتجذر في اللاوعي الجماعي فترى نفسها مدعوة أكثر من الفتى للقيام به عند الحاجة، وهو أمر لا يبدو غريبا ونحن نشاهد اليوم إطارات نسائيّة عليا تعد المؤن التقليديّة بالطريقة نفسها المعتمدة من قبل أمهاتهن.

ومع أن المرأة تضطلع بدور شبه كلي في القيام بالأشغال المنزلية فإن بوادر التعاون بين الزوجين في كلّ المجالات التي تهمّ الأسرة بدأت تظهر. فقد بينت دراسة قامت بها وزارة شؤون المرأة والأسرة أنّ 36٪ من الأزواج يُشْرِكون زوجاتهم في أخذ القرار ويرى 88٪ من المستجوبين أنّه يجب على الزوج استشارة زوجته قبل اتخاذ أي قرار في حين يرى 56٪ من الأزواج أن أخذ القرارات تبقى في نهاية المطاف من مشمولات الرجال.

أما المظهر الثاني من التحولات التي تعيشها الأسرة التونسية فهو تقلص الثنائيّة التي كانت تفصل الأدوار الرجالية عن الأدوار النسائيّة (المرأة تهتمّ بالداخل والرجل يهتمّ بالخارج). لكن هذا التغيير كان في اتجاه اضطلاع المرأة بأدوار خارج البيت أكثر من اضطلاع الرجل بأدوار داخله، فقد أصبحت المرأة تخرج إلى الأسواق لشراء ما تحتاجه الأسرة وتصطحب أبناءها إلى المدارس وتتصل بالمدرسين وبأعوان الإدارات والمصالح العموميّة.

ولعل أبرز ظاهرة في هذا المجال هي اشتغال المرأة خارج البيت (81٪ من النساء في سن العمل يشتغلن خارج البيت) ويبدو حضور المرأة بارزا خاصة في قطاع الوظيفة العموميّة حيث تمثل النساء 43٪ من مجموع العاملين به. أما أكثر كثافة نسائيّة فنجدها في قطاع التعليم والصحة(47,9٪ في التعليم الأساسي 45٪ في التعليم الثانوي 28,4٪ في التعليم العالي 33٪ في الصحة العموميّة مقارنة بمجموع العاملين) ويشغل قطاع النسيج والفلاحة أكبر عدد من اليد العاملة النسائيّة في القطاع الخاص.

وإضافة إلى ما سبق، يمكن اعتبار الاستقلالية النسبية للأسرة النَّوَاة عن العائلة الممتدة من أهم

التحولات الاجتماعيّة في تونس. فخلافا للنمط التقليدي الذي كان يسيطر على الحياة الاجتماعيّة وهو خضوع الأسر الجديدة لتقاليد المجموعة (العائلة الممتدة في الوسط الحضري والقبيلة في الوسط الريفي) وأعرافها. وذلك بتدخل عدّة أقارب وخاصة كبار السن في حياة الأسرة الجديدة مثل كيفيّة التسيير لشؤون المنزل وتربية الأطفال والعلاقات الزوجية فإن الأسرة التونسيّة الحالية أصبحت في استقلالية نسبية عن العائلة الممتدة وتدير أكثر شؤونها بنفسها.

وقد ساعدت عوامل كثيرة على بروز هذه الاستقلالية لعل أهمها تلاشي النمط الاقتصادي العائلي التقليدي القائم على الاشتراك في وسائل الإنتاج والتلبية الجماعية للحاجات بعد أن تطوّر العمل المؤجر وبعث المشروعات الفردية على نحو لافت وتراجع ظاهرة الزواج بالأقارب التي كانت تحمل مضامين عشائريّة لا تترك إلا مجالا ضيّقا لتصرف الزوجين، وأخيرا انفراد الأسر التونسيّة بمساكن مستقلة، فالاستقلال الذاتي يبدأ قبل كل شيء بالاستقلال المكاني.

لكن لم تقطع هذه الاستقلالية النسبيّة للأسرة النواتية العلاقات مع مجموعة الأسر المنتمية إلى العائلة الممتدة بل تتكثف الاتصالات في أثناء المواسم والأعياد والأفراح ويتجلى التضامن في شتى مظاهره عند تعرض بعضها إلى أزمات أو مصائب.

ولعل استقلال الأسرة النواتية عن العائلة الممتدة أو العشيرة يسّر الحوار داخل الأسرة وهو المظهر الأخير للتحولات الأسريّة الذي نريد إبرازه. فقد تقلّصت السيطرة التقليديّة للوالدين على الأبناء في اتجاه علاقات أكثر ديمقراطيّة، فبدأت تظهر تقاليد حوار بين الأولياء والأبناء اذ تبين أن أكثر من نصف الأولياء في المناطق البلدية(58٪) ونصفهم تقريبا في المناطق غير البلديّة (49٪) يناقشون مع أبنائهم الموضوعات التي تهمّهم.

وتقلص عامل السن محددا سوسيولوجيا للعلاقات بين الأجيال بعد أن كانت القدرة والمهارة والقيادة تقاس بالسن وظهرت الكفاية المبنية على التعليم وولجت الأجيال الجديدة بقوة باب الحداثة مثل التمكن من الإعلامية ومن اللغات فضعفت السلطة التقليديّة المبنيّة على الأقدميّة، بل أصبح أولياء كثيرون يعتمدون على أبنائهم في التعامل مع مقتضيات الحداثة، ورغم هذا بقي احترام الوالدين قيمة تتجاوز الملابسات الظرفية.

3 ـ وظائف الأسرة التونسيّة

ظلت الأسرة التونسيّة لقرون عدّة الملجأ الوحيد الذي يقي الفرد غوائل الدهر كالفقر والمرض واليتم والترمل، إلا أن الوظيفة الحمائيّة للأسرة تقلصت منذ ظهور نظام الضمان الاجتماعي وخاصة بداية انتشاره في القطاع الخاص انطلاقا من سنة 1960.

وإضافة إلى ما سبق أصبحت المدرسة تتقاسم مع الأسرة وظيفة التنشئة الاجتماعيّة بعد أن كانت الأسرة تضطلع بها بمفردها، ولكن لم يخل الاشتراك في هذا الدور من تناقضات بين القيم الأسريّة المرتبطة بإرث اجتماعي موغل في القدم والقيم المدرسيّة المتأثرة بمضامين الحداثة.

وقد أدى خروج المرأة للعمل إلى تراجع دور الأسرة في التنشئة التربوية لصالح رياض الأطفال والمدرسة، باعتبار أنها أقدر على تربية الأبناء وفق متطلبات العصر فانجر عن هذا الاعتقاد تخلّ نسبي أو كليّ عن المسؤولية التربوية ارتبط في بعض الأحيان بصعوبات في التكيف الاجتماعي للأبناء.

لكن على رغم من تقلص بعض وظائف الأسرة التونسيّة لفائدة مؤسسات اجتماعيّة حديثة فإنها بقيت محافظة على وظيفتها العاطفية وهي خلق اللحمة بين أفرادها وتلبية حاجاتهم إلى القبول والانتماء والعطف ومازال الارتباط قويا بين التونسي وأسرته إذ نلاحظ أنها تجذب بقوة ولو بعد مدّة من الجفاء

أفرادها الذين ابتعدوا عنها لسبب أو لآخر.

ساسي الأسود
[1927 – 2002م]

ينحدر ساسي بن محمد الأسود من فريق الشيّاب من بني يزيد الذين تعدّ الحامة مركزهم الرئيس. وقد ولد بسهل السّقي غير بعيد عن هذه البلدة يوم 10 جانفي 1927 أي بعد ثلاث سنوات فقط من إعدام الثائر محمد الدغباجي سنة 1924 وقبل سنة واحدة من وفاة محمد علي وكلاهما أصيل هذه البلدة. عاش ساسي الأسود يتيما إذ فقد أباه ولمّا يتجاوز عمره ستة أشهر، فتولّت تربيته أمّه وأخواه، وانصرف منذ صغره إلى مساعدة عائلته بالعمل في الفلاحة ورعي الغنم. ولم يتسنّ له تلقّي أي قدر من التعليم. ألقي عليه القبض إثر مظاهرة جرت بالحامّة وعمره سبع عشرة سنة.

انخرط باكرا في المقاومة المسلحة التي انطلقت غداة إلقاء القبض على القادة الوطنيين في 18 جانفي 1952. ولم يكن خروجه حالة فريدة بين أبناء الحامة الذين برز منهم كذلك الطاهر الأسود وهو واحد من أهم قادة حركة المقاومة. سارع ساسي الأسود إلى تكوين مجموعة من خمسة عناصر من أبناء قبيلته وقيادتها. وقاموا معا بأوّل عملية لهم يوم 25 من الشهر نفسه فيما يعرف بمعركة بنصانوش بجبل عرباط حيث عطّلوا قطارا متّجها نحو مدينة قفصة وأمطروه بالرصاص. وقد كان لهذه العملية الوقع الشديد والصدى الواسع، ففي حين توجّهت سلطات الحماية إلى تنظيم نفسها لقمع حركة المقاومة التحق بمجموعة ساسي الأسود عدد من المتطوّعين الجدد، وبرزت مجموعات مقاومة أخرى في مختلف مناطق البلاد. والحقيقة أنّه يصعب تقصّي كلّ المعارك والعمليات التي قادها ساسي الأسود طيلة فترة المقاومة (1952–1954)، ذلك أنّ عددا منها قد وثّق عن طريق الرواية الشفوية التي أسبغت عليها بعض المبالغة، وذلك لا يعفينا من الإشارة إلى أنّ مجال نشاط ساسي الأسود ومجموعته قد انتقل من الجنوب باتّجاه الوسط ثمّ الشمال الغربي، إذ نشط على التّوالي بمنطقة الحامة ثمّ قفصة وسيدي بوزيد ثمّ القصرين وأخيرا الكاف. ولعلّ من أهمّ الأحداث التي يمكن تسجيلها في يوميات المقاومة المسلّحة هو الاجتماع الذي انعقد في ربيع 1954 وضمّ عشرة من قادة المقاومة ومنهم ساسي الأسود والطاهر الأسود والأزهر الشرايطي. .. في محاولة منهم للتنسيق بينهم وبعث تنظيم تحت تسمية جيش التحرير الوطني.

استهدفت العمليات التي قادها ساسي الأسود القوات الفرنسية والمتعاونين معها والمعمرين الفرنسيين. ومن تلك العمليات يمكن أن نذكر الهجوم على قوّات "القومية" (أعوان عسكريون تونسيون منتدبون من إدارة الحماية) المتمركزة ببرج سعيدان بين قبلي والحامة يوم 13 مارس 1952، وقد قتل فيه أحد عناصر "القومية" وجرح آخرون وفرّ الباقون. ولعلّ من أهمّ المعارك التي تنسب إليه تلك التي أسرّ خلالها 14 جنديا فرنسيا قام باستبدالهم ب32 سجينا سياسيا بجبل عرباط في سبتمبر 1952، كما كثّف نشاطه غداة اغتيال فرحات حشاد وهو ما أدّى إلى محاكمته وصدر عليه حكم بالإعدام غيابيا في جانفي 1953. فازداد إصرارا على مواصلة المقاومة من ذلك أنّه هاجم في 5 سبتمبر 1953 ثكنة للجيش الفرنسي بالقطار قرب قفصة. وهاجمت مجموعته يوم 24 سبتمبر 1954 منجم قرن الحلفاية بجهة الكاف وقد قتل فيه رئيس الحامية...

لم تبرز العلاقة المباشرة بينه وبين القادة الدستوريين الجدد إلا بعدما اغتالت عصابة اليد الحمراء الأخوين حفوز إذ جاءته الأوامر من جلّولي فارس ابن بلدته والطيب المهيري تدعوه إلى ردّ الفعل، فترأّس مجموعة من

خمسة أفراد هاجموا ضيعة أحد المعمّرين بأبة قصور يوم 26 ماي 1954 فذبح معمّر ورُمي آخر بالرصاص. توجّه إلى منديس فرانس برسالة في سبتمبر 1954، أعلن له فيها "أنّ مهمّتنا قد انتهت وأنّ رسول الإنقاذ والسّلام الذي يتمثل في شخصكم قد حلّ ببلادنا ونشر ألوية السّلام وإحقاق الحق بها فأعرضنا عن القتال وصرنا نتجنّب السّبل التي توصلنا للاشتباك مع جند الحكومة"، وبالفعل عندما دعا بورقيبة الثوار إلى تسليم السلاح في نوفمبر 1954، كان ساسي الأسود من أوّل من سلّم سلاحه إلى جانب عدد من قادة المقاومة الآخرين ومنهم محجوب بن علي ولزهر الشرايطي والشيخ حسن العيادي وحسن بن عبد العزيز، في حين رفض تلك الدعوة آخرون ومنهم الطاهر الأسود والطيب الزلاق والهادي قدورة. وقد نقل بعد ذلك إلى تونس العاصمة ولم يتمكّن من العودة إلى الحامة إلا بعد أن عاد بورقيبة في غرة جوان 1955.

وفي أثناء الصراع اليوسفي البورقيبي، وقف ساسي الأسود إلى جانب بورقيبة، وأسهم في مواجهة أنصار صالح بن يوسف بوجوده على رأس لجان الرعاية التي نشطت بالحامة وقابس. حصل سنة 1958 على الوسام العسكري، غير أنه ما فتئ أن تورط في المحاولة الانقلابية التي كشف عنها في ديسمبر 1962 مثله في ذلك مثل عدد آخر من قدامى المقاومين ومن أهمّهم الأزهر الشرايطي، وقد أحيل على المحاكمة في مارس 1963 وصدر عليه حكم بعشرين سنة أشغالا شاقة وخطيّة ب480 دينارا.

شمله بعد ذلك عفو رئاسي واستقطب من جديد للعمل في صفوف الحزب الحاكم، فعيّن عضوا في لجنة التنسيق الحزبي بقابس مكلفا بشؤون المقاومين كما عيّن عضوا بالمجلس الاستشاري للمقاومين.

توفّي بالحامة في 23 جانفي 2002.

من روّاد الحركة الاشتراكية في تونس

1/ألبار كتّان (Albert Cattan)، 2/جواشيم دورال (Joachim Durel)، 3/أندري دوران أنقليفيال (André Duran-Angliviel): 4/ألكسندر فيشي (Alexandre Fichet)، 5/سارج معطي (Serge Moati)، 6/الدكتور إيلي كوهين حضرية (Dr Elie Cohen Hadria)، 7/الحبيب بن سلامة.

1- ألبار كتّان Albert Cattan (1875-1932)

هو ألبار دنيال كتّان Albert Daniel Cattan من خرّيجي كليّة الطّب بليون من أصل يهودي تونسي. امتهن الطبّ وعيّن طبيبا بالمراقبة المدنيّة في مدينة تونس من سنة 1905 إلى سنة 1911. واشتهر خاصّة بآعتباره طبيب «العائلات». شارك في الحياة السّياسية وبرهن في مقالاته التي نشرها بجرائد اليسار الراديكالي الاشتراكي مثل «الجمهوري» و«بريد تونس» (Courrier de Tunisie) و«الاشتراكي (1910-1914). وكان بحكم مهنته متّصلا بكلّ الأوساط: (الفرنسيون، الأهالي سواء كانوا مسلمين أو يهود، الإيطاليون). وهو ما ساعده على الإلمام بشواغلهم. وأصبح بفضل التّجربة المكتسبة يلقّب بحكيم المجموعة.

وفي أثناء مزاولته دراسة الطبّ بليون أسّس صحبة الاشتراكي ماريوس موتي (Marius Moutet) والدكتور جورج ليفي (Georges Lévy) حركة الطّلبة الاشتراكيين. وعندما رجع إلى تونس، أسهم في تأسيس الفيدرالية الاشتراكية بتونس المنضوية تحت لواء الخليّة الفرنسية للمنظّمة الأممية العمّالية (S.F.I.O) وكان أوّل كاتب عامّ لها، انتخب نائبا اشتراكيّا في المجلس الشّوري بتونس سنة 1912. وأعيد انتخابه إثر الحرب العالمية الأولى بلا انقطاع عضوا في المؤسّسة

نفسها ثمّ في المجلس الكبير. واهتمّ الحكيم ألبار كتّان بمشكلات الحياة اليومية: تنظيم أسواق التفصيل، تهذيب الأحياء القديمة وتحديثها، تنمية المساكن الشّعبية، مساعدة التّعاونيات العمّالية. ومن أعماله المنشورة: «ملاحظات حول الاستعمار، الفرنسيون والأهالي» الذي صدر سنة 1908. وله عدة مقالات صحفية في لسان الفيدرالية "تونس الاشتراكية" (Tunis socialiste) وكان بالخصوص أحد المحرّرين الستّة للائحة الفيدرالية الصادرة سنة 1919. توفّي سنة 1932 قبل دخول الفيدرالية مرحلة المصاعب.

2- جواشيم دورال Joachim Durel (1878-1939)

حصل على الدّكتوراه في الآداب وباشر التّدريس في معهد كارنو بتونس وكان الدّكتور أحمد بن ميلاد، أحد أقطاب الحركة الوطنية والاجتماعية بتونس، من ضمن تلاميذه. كان فصيحا خطيبا مهيبا ولم يكن منظّرا. فقد كانت اشتراكيته بالخصوص أخلاقية. ومن أهمّ آرائه أنّ على الفرد أن يبادر بإنجاز ثورته الخاصّة وأنّ الله موجود في خلقه ومن ثمّ كان التعطّش والحيرة من أجل العدالة. كان من سنة 1919 إلى سنة 1926 المحرّر الأوّل للّوائح التي وجّهت نشاط الفيدرالية الاشتراكية في أثناء فترة ما بين الحربين. وبرز خاصّة بنضاله ومبادراته في الحقل النّقابي حيث كان محرّك الاتحاد المحلّي للكنفدرالية العامّة للعمل (C.G.T) إذ تولّى طيلة سنوات مهامّ الكتابة العامّة.

وكان من النّقابيين السّاعين إلى تأسيس حركة عمّالية موحّدة تكون فوق الخصوصيات القومية. لكنّ التّاريخ أو بالأحرى مجرى الأحداث بالبلاد التّونسية التي كانت ترزح تحت الاستعمار فنّد هذه الرّؤية. فكان التّصادم بين حركة محمّد على الحامي النّقابية الوطنيّة وحركة دورال النّقابية الفرنسية ذات التوجّه الأممي. وعلى أي حال، ترك النقابي جواشيم دورال بصمات العمل المنظّم. وكان المؤرّخ الفرنسي شارل أندري جوليان الذي زار تونس سنة 1920 قد حظي بمقابلة دورال ولقّبه برمز الاشتراكية ومشعلها في تونس. وفي جوان 1934، استعمل المقيم العام مارسال بيروطون ضدّه قرار النفي من الإيالة التونسية، إذ أبعد طيلة ثلاث سنوات إلى مدينة آجن (Agen) بفرنسا. ثمّ رجع سنة 1937 ولكن في حالة صحية غير مرضية وتوفّي في نوفمبر 1939. ومن أهمّ أعماله الإسهام في جريدة "تونس الاشتراكية" في الجدل مع الوطنيين التّونسيين لا سيما منهم الزّعيم الحبيب بورقيبة والمناضل الدّستوري الشاذلي الخلاّدي.

3- أندري دوران انڨليفيال André Duran-Angliviel (1877- 1964)

بقدر ما كان جواشيم دورال خطيبا بارعًا كان أندري دوران انقليفيال محرّرًا صُحفيا مقتدرا. وُلد سنة 1877 بمدينة فالنس الفرنسية وكان ينحدر من عائلة بروتستنتيّة كان اهتمامها مركّزا على مباشرة الطّقوس الكنسيّة والتّربية. فقد كان والده أسقفا ووالدته مديرة معهد ثانوي. تابع بعد حصوله على البكالوريا دراسته العالية بكلية علوم الدين البروتستنتيّة بمدينة antauban واضطلع بمهام دينيّة كنسيّة في منطقة Lot. ثمّ مرّ بأزمة نفسانية أفقدته العقيدة فجاء إلى تونس بإيعاز من زملائه الذين سبقوه.

وكان أوّل عمل باشره في المجال الصّحفي مشاركته في تحرير "بريد تونس" ثمّ "الدّيباش تونسيان" الجريدة شبه الرسميّة التي تولّى الإشراف على رئاسة تحريرها. وفي الوقت نفسه، تابع دروسا في الحقوق ونال الإجازة ثمّ شهادة المحاماة. وكانت ميوله الفكريّة قريبة من التوجّه الاشتراكي فربط علاقة صداقة بالدكتور ألبار كتّان والنّقابي جواشيم دورال وكذلك الرسّام ألكسندر فيشي الذي أصبح من بعد صهره. فقد تزوّج أندري دوران أنقليفيال أخت ألكسندر المسمّاة (Eva). لكنّ عمله في جريدة "الديباش" جعله بعيدا عن الحزب الاشتراكي.

وفي شهر أوت 1914، التحق بصفّ المجنّدين بصفة متطوّع. وهالهُ ما شاهده وعاينه من قسوة معارك الحرب العالمية الأولى وشدّتها. فرجع إلى تونس سنة 1918 داعيا إلى السلام ومعارضا للحلّ العسكري وأكثر اقتناعا بالتوجّه الاشتراكي. فبادر بالانخراط في الفيدرالية الاشتراكية ورفض الرّجوع إلى "الديباش" ذات التوجّه اليميني القريب من الإقامة العامّة، وفتح مكتب محاماة. وبإيعاز منه بعثت صحيفة "تونس الاشتراكية" حيث برهن على قدرات عالية في الجدل الصّحفي.

وفي ما يخصّ القضيّة التّونسية،كان من الاشتراكيين الذين أبدوا تفهّما ثمّ تعاطفًا فمساندة فعلية لاستقلال الشّعب التّونسي ومناصرة الحزب الدستوري الجديد. ففي بداية الثّلاثينات، عندما سلّط المقيم العام منصرون Manceron أوامره القمعيّة على الصّحافة الدّستورية، بادر أندري دوران انقليفيال بتخصيص ركن في صحيفة الفيدرالية "تونس الاشتراكية" بعنوان "حق اللّجوء". وهو ما أثار غضب المقيم العام واستند إليه في محاكمة "تونس الاشتراكية" (1934–1936). وفي سنة 1943، أثناء الاحتلال الألماني – الإيطالي للبلاد التّونسية، ألقي عليه القبض صحبة مجموعة من الشّخصيات اليساريّة ذات النّزعة الإنسيّة (الإنسانيّة) وسجن طيلة الحرب في باريس. وإثر رجوعه إلى تونس سنة 1945، صدرت من جديد "تونس الاشتراكية". لكن سرعان ما جدّ خلاف بينه وبين قادة الحزب الاشتراكي الفرنسي في شأن التّحالف مع الحزب الشيوعي أثناء الانتخابات المتصلة بسن الدستور الفرنسي الجديد (الجمهورية الرّابعة) وآل الأمر إلى القطيعة سنة 1947. فالتجأ إلى صحيفة «Le Petit Matin» لإبداء رأيه بكلّ صراحة حول المسألة التّونسية ومسائل أخرى بعنوان "رأي حرّ" ووقف مدافعا عن حقوق النّقابي الحبيب عاشور إثر أحداث 5 أوت 1947. وكانت له مواقف جريئة وثابتة في الدّفاع عن مطالب الحزب الحرّ الدستوري الجديد حتّى نالت البلاد استقلالها. وتقديرا لمواقف هذه الشّخصية الفذّة الفريدة من نوعها في تاريخ الاشتراكية في المستعمرات، أطلقت بلدية تونس اسمه على نهج من أنهج العاصمة تخليدا لذكراه (نهج اندري انقليفيال بميتوالفيل). لقد كان حقّا الضّمير الحيّ للاشتراكي الإنساني النّزيه.

4- ألكسندر فيشي Alexandre Fichet (1881–1967)

يمكن منحه لقب الأب المؤسّس للفيدرالية الاشتراكية بتونس سنة 1908، إذ كان المحرّر الصّحفي المتناول لكلّ الأحداث في جريدة "تونس الاشتراكية"، يجمع بين الجدّ والهزل والنّقد المسرحي والفنّي، وواظب على ذلك إلى تاريخ احتجاب الجريدة سنة 1956. لقد كان هذا الرسّام يدرّس الاختصاص نفسه في المعهد العلوي. وكان قد أسّس في أفريل سنة 1905 جمعية فنيّة وأدبية تحمل اسم "الازدهار" (L'Essor). كان هدفها ترويج الأدب الفرنسي بالبلاد التّونسية وتنظيم المحاضرات والحفلات والعروض المسرحية.

ولد ألكسندر فيشي بباريس في غرّة جوان 1881. وهو من خرّيجي مدرسة Bernard Palissy ومعهد الفنون الجميلة. دُعي سنة 1902 إلى المشاركة في تزويق المسرح البلدي. فمكث بتونس. وانخرط في سلك التّعليم فباشر مهامّه في المعهد المهني ثم المدرسة الصّادقية فالمدرسة العلويّة. وانتخب أوّل رئيس للخليّة الفنّية بمعهد قرطاج. ومن المحاضرات التي ظلّت عالقة في الأذهان لدى جيل من المثقّفين، المحاضرة التي أُلقيت حول مسألة الحجاب سنة 1929 وكانت موضوع جدل بين الوطنيين والاشتراكيين. وقد أكّد الحكيم الاشتراكي إيلي كوهين حضرية ما قامت به "إيفا فيشي" زوجة ألكسندر من دور للتّأثير في الشّاب الحبيب بورقيبة حول مسألة تحرير المرأة. ومن تلامذة

ألكسندر فيشي اللاّمعين الفنّان الرسّام علي بن سالم. فكان الرسّام الفنّان من جهته وزوجته الأستاذة في الآداب الإنقليزية من جهة أخرى أبرز المنشّطين للحركة الأدبية والفنيّة في تونس في أثناء فترة ما بين الحربين. وكان لهما اتّصال وثيق بالنّخبة الوطنيّة التّونسية حينذاك. وكانت زوجته إيفا تمضي مقالاتها في "تونس الاشتراكية" باسم: Eve Nohelle. وقد تواصل نشاط جمعية "الازدهار" بعد الاستقلال إلى تاريخ وفاة مؤسّسها في ماي 1967. وكانت تُصدر نشرية استمرّت طويلا إذ صدر أوّل عدد منها بتاريخ 16 نوفمبر 1936 والعدد الأخير يوم 17 ماي 1965. ووفاء وتقديرا لأعمال الرسّام ألكسندر فيشي وزوجته، أطلقت بلدية تونس اسم إيفا على النّهج المحاذي لمعهد بورقيبة اليوم (معهد كارنو سابقا) تخليداً لذكراهما (نهج Eve Nohelle) حيث كانا يسكنان.

5 - سارج معطي Serge Moati (1903-1957)

كانت أمنية سارج معطي منذ البداية أن يصبح يوما ما صحفيّا سياسيّا يدافع عن المبادئ الاشتراكية. وقد تحققت أمنيته فأصبح منذ الثّلاثينات محرّرا في جريدة "تونس الاشتراكية" وتحمّل العبء الأكبر في فترات محن الصّحيفة، ونعني بذلك فترات القمع. وقد تعرّض من أجل ذلك إلى النّفي من تونس سنة 1936، كما تعرّض إلى التّعسّف النازي في أثناء الاحتلال الألماني الإيطالي للإيالة (نوفمبر 1942-ماي 1943). رجع إلى تونس سنة 1945 وانتخب نائبا اشتراكيا في المجلس الكبير من 1945 إلى 1951. وقد كان من المدافعين عن قضايا التّحرّر ومن أنصار بلورة سياسة فرنسيّة تحرّرية إزاء العالم العربي. وفي أثناء الخلاف اليوسفي-البورقيبي في فترة 1955-1956، أظهر ميولا لا شبهة فيها لمساندة إستراتيجية صالح بن يوسف. وتواصلت مشاركات "سارج معطي" في جريدة "تونس الاشتراكية" إلى تاريخ احتجاب الجريدة (نوفمبر 1956). وتوفّي في أوت 1957.

6- الحبيب بن سلامة (1912-1968)

هو أصيل قصور السّاف بالسّاحل التّونسي، ولد يوم 5 أوت 1912 وزاول تعلّمه الابتدائي بمسقط رأسه ثم دراسته الثانوية بمعهد العلوية حيث تأثر بأستاذيه René Monaubin وألكسندر فيشي. وأصبح من روّاد محلّ سكنى الزّوجين فيشي أثناء الحرب العالمية الثّانية وخاصّة بداية من سنة 1943 بعد جلاء قوّات المحور من تونس. ناضل الحبيب بن سلامة في صلب الفيدرالية الاشتراكية وكان من أعضائها النّاشطين إذ كان بجانب مؤسّسي "العمل الاشتراكي" هذه الصّحيفة الأسبوعية التي ستصبح من بعد "الأخوة". وبَوَّأَتْهُ هذه التجربة الصّحفية المبكّرة لتحمّل مسؤوليات مهمّة في جريدة "تونس الاشتراكية" بعد رجوع أندري دوران انقليفيال من المنفى سنة 1945، فأصبح سكرتير تحرير بالجريدة نفسها ثم رئيس تحرير "الأخوّة" إلى جويلية 1945. ثم سافر إلى باريس وأصبح من مساعدي الكاتب العام الجديد للحزب الاشتراكي الفرنسي "دنيال ماير" Daniel Mayer. وفي الوقت نفسه كان يقوم بمهامّ مراسل لصحيفة "تونس الاشتراكية". وحرّر في الأثناء بيانًا باسم الفيدرالية الاشتراكية بتونس وجّهه إلى النّواب الاشتراكيين بالجمعيّة النّيابية (26 نوفمبر 1946) حاثًا إيّاهم على مساندة "أندري بيدي" André Bidet، الكاتب العام ومدير "تونس الاشتراكية" لانتخابه في المجلس الجمهوري. وفي أثناء تكوين الحكومة الاشتراكية برئاسة ليون بلوم (16 ديسمبر 1946-15 جانفي 1947)، سمّي الحبيب بن سلامة ملحقاً بديوان "جورج غورس" Georges Gorse، وكيل كاتب الدولة للشؤون الإسلامية.

وقبل أن يصدر قرار تعيين "جون مونص" خلفا للمقيم العام الجنرال ماست، رجع الحبيب بن سلامة إلى تونس واستأنف نشاطه في جريدة "تونس الاشتراكية". ومثّل الفيدرالية في موكب دفن الزّعيم الاشتراكي ليون بلوم (بداية من أفريل

1950). وإثر حصول تونس على الاستقلال، تقلّد الحبيب بن سلامة عدّة وظائف إدارية منها بالخصوص رئيس قسم الموظّفين بوزارة المالية (16 جوان 1956–31 جانفي 1958) ومدير مالي لشركة التّأمين وإعادة التأمين. وتوفّي الحبيب بن سلامة في غرّة جويلية 1969.

7- الدكتور إيلي كوهين حضريّة Dr. Elie Cohen-Hadria (1898–24 أوت 1987)

ينحدر من عائلة يهودية تونسيّة سرعان ما تجنّست بالجنسيّة الفرنسيّة. زاول دراسته الابتدائيّة والثانويّة بمعهد كارنو والجامعية بكلّية الطّب بليون. وعند رجوعه إلى تونس سنة 1923، بادر بالانخراط في الفيدرالية الاشتراكية وانتخب كاتبا عامّا لها من سنة 1927 إلى سنة 1938، ثم من جديد بعد فترة قصيرة إلى سنة 1948، ومن سنتي 1951 إلى 1956. يعتبر إيلي كوهين حضرية من تلك الفئة المستنيرة التي حاولت إلى حدّ بعيد تحقيق المصالحة بين العناصر البشرية المتباينة والشّعوب المختلفة.

وتشهد على ذلك نضالاته السّياسية ومقالاته الصّحفية، إذ ثابر على تحرير افتتاحيات الصحيفتين: "تونس الاشتراكية" و"الأخوّة" ثم أسهم بعدّة دراسات في "المجلّة الاشتراكية"، وصحيفة Le Populaire لسان الحزب الاشتراكي بفرنسا. وقد عالج بعمق ودراية المشكلة الاستعمارية بوجه عام والقضيّة التّونسية بوجه خاص، ولم يتخلّف في أيّ مناسبة – عند انعقاد النّدوات والمؤتمرات الوطنيّة الفرنسية للحزب الاشتراكي وبالخصوص في أثناء سنوات القمع والاضطهاد التي سلّطت على الحركة الوطنية التّونسية من سنة 1952 إلى سنة 1954 – عن التّذكير بالوضع السّائد عهدئذ في تونس والتعجيل بإيجاد حلّ سياسي للمشكلة المطروحة.

وتشهد مُساجلاته الكثيرة مع الوطنيين التّونسيين في الثّلاثينات والأربعينات والخمسينات من القرن العشرين على نقاط الالتقاء والاختلاف. فقد تعلّم الكثير من هذا الاحتكاك وأعطى أيضا الكثير. ويُعتبر كتابه: "ذكريات شاهد اشتراكي" من المصادر المهمّة لدراسة تاريخ الحركة الوطنيّة التونسيّة ودراسة تاريخ تونس المعاصر (قضيّة تصفية الاستعمار).

وقد مكّنته معرفته الجيّدة للواقع التّونسي من القيام بدور مفيد في ربط العلاقات وتوثيق الحوار بين الحزب الاشتراكي الفرنسي من جهة ("آلان سافري" Alain Savary، و"روبار فردي" (Robert Verdier) و"أورست روزنفلد" (Oreste Rosenfeld) و"كرستيان بينو" وبين الحزب الحرّ الدّستوري الجديد من جهة أخرى (الزّعيم الحبيب بورقيبة، الهادي نويرة، جلّولي فارس...). غادر البلاد التّونسية سنة 1975 واستقرّ بباريس حيث توفّي يوم 24 أوت 1987.

حديقة إشكل

• الموقع الجغرافي

توجد الحديقة بسهل ماطر على مسافة 75 كلم شمال العاصمة وعلى 25 كلم جنوب – غربي بنزرت وعلى 15 كلم من منزل بورقيبة وعلى المسافة نفسها من ماطر. وتتبع الحديقة من حيث التقسيم الإداري ولاية بنزرت.

• المساحة

تغطي الحديقة الوطنية بإشكل مساحة 12.600 هكتار موزعة على النحو التالي:

جبل إشكل 1.363 هكتارا
بحيرة اشكل 8.500 هكتارا
المستنقعات 2.737 هكتارا

يبلغ ارتفاع أعلى قمّة للجبل 511 مترا فوق سطح البحر في حين ينزل مستوى سطح البحيرة من متر إلى مترين تحت سطح البحر في الصيف.

* **تأطيرها القانوني**

الأمر الرئاسي عدد 1608 لسنة 1980 المؤرّخ في 18 ديسمبر 1980.

* **الحديقة**

بحكم منظرها الطبيعي وتركيبتها الجيولوجية المتميزة وثروتها الحيوانية والنباتية التي لم يلحق بنظامها الفطريّ خلل يذكر، تكوّن الحديقة الوطنية بإشكل وحدة فريدة من نوعها بتونس وحتى بالمغرب العربي.

تتكوّن الحديقة من جبل إشكل المنتصب في عزلة عمّا حوله وبحيرة إشكل والمستنقعات الجانبية المحيطة بها.

مناخ المنطقة متوسطي شبه رطب، ويبلغ معدل الأمطار به 625 مم سنويا، وخاصية سيلان المياه بجهة إشكل تجعل منها منطقة رطبة ذات أهمية مناخيّة عالية.

يربط وادي تينجة بحيرة إشكل بالبحر عَبْرَ بحيرة بنزرت، لذلك فهي لا تجفّ أبدا إذ تغذيها الأودية بمياه الأمطار شتاء وبحيرة بنزرت بمياه البحر صيفا.

تعتبر المنطقة الرطبة بإشكل من أهمّ المناطق التي تشتو بها الطيور المائية القادمة من شمال أوروبا إذ تأوي كل سنة من 200.000 إلى 400.000 طائر، والأصناف الموجودة فيها أكثر من غيرها هي البط الصفّار Anas penelope، والعفّاس الأحمر Aythya ferina، وأبو مغرفة Anas clypeata، والحذف الشتوي Anas crecca، والغرّ Fulica atra، أمّا الأوزّ الأرمد Anser anser فبحيرة إشكل هي أهمّ محطة تشتو بها بشمال إفريقيا.

تعتبر أيضا منطقة إشكل مرحلة مهمّة لعدّة أنواع تشتو جنوب الصحراء، ومنها: الحذف الصيفي Anas querquedula، والحجوالة Philomachus pugnax، والبقوية السلطانية Limosa limosa، كما تعبر منها الآلاف من طيور الزرزور Sturnus والخطاف Hirundo وغيرها من الجواثم. وتوجد بها من ناحية أخرى بعض الأنواع النادرة كبط شوّال Oxyura leucocephala، والحذف المعرّق Anas angustirostris، والغرّة الزرقاء Porphyrio porphyrio، وعدّة طيور معششة بالجبل أو بين قصب المستنقعات.

وتأوي المستنقعات جاموس إشكل Bubalus bubalis والكثير من الضفادع والحشرات.

أغلب ثدييات الحديقة من اللواحم باستثناء الخنزير البري Sus scrofa، والدلدل Histrix cristata.

وسلق الماء Potamogeton pectinatus يُعْتَبَرُ من أهمّ النباتات بالبحيرة، أما المستنقعات فنجد بها القصب Phragmites، والسمار Joncus، وحلاّل الشواطئ (المصّ) Scirpus، كما نجد السرمقيات Salicornias بالأماكن المالحة.

تكسو المنحدرات الحادة لجبل إشكل غابة من الزيتون Olea europea والخرّوب Ceratonia siliqua، البرّيين، أما الأحراش الكثيفة أحيانا فهي مكوّنة من الذرو Pistacia lentiscus والعرعر الفينيقي Juniperus phoenicea، والقتم Phillyrea angustifolia، والسكّوم Asparagus acutifolius، والديس Ampelodesma mauritanica، كما نجد بها أيضا الكثير من النباتات الشائعة بإشكل مثل الفربيون (اللبينة) Euphorbes والكبّار Capparis spinosa، والبوحدّاد Erica arborea.

وتظهر في الربيع بين هذه النباتات البرية المختلفة أنواع السحلبيات وبخور مريم والزنبقيات والسرخسيات.

وتتدفّق في سفح الجبل عيون مياهها كبريتية ساخنة يؤمّها المواطنون للاستشفاء.

* **الحيوانات البرية**

تشتو كلّ سنة بإشكل أكثر من 15.000 من طيور الأوز الأرمد التي تحطّ رحالها بالمنطقة في نوفمبر فتجد فيها الغذاء الكافي من براعم القصب والجذور الحلاّل وسلق الماء. وتغادر تلك الطيور المنطقة في كلّ آخر فيفري إلى بولونيا وتشيكيا وسلوفاكيا حيث تعشش بأعداد كثيرة.

– تتحصّل مئات الآلاف من البط المهاجر في الشتاء بإشكل على قوتها اليومي المتكون أساسا من حبوب سلق الماء، وينتشر الكثير من هذا البطّ في مختلف سباخ البلاد التونسية وبحيراتها

عند نزول أمطار في فصل الشتاء تكون كافية لتعبئة السّباخ والبحيرات.

– وتعيش الغرة الزرقاء على الدوام بإشكل بين قصب ضفاف البحيرة، وهي من الأنواع النادرة التي تنتمي إلى عائلة التفلقيات Rallidés، ذات لون جميل أزرق مخضرّ ومنقار أحمر. وتمكّنها أصابعها الطويلة من التنقل بسهولة داخل المناقع فوق أغصان القصب وغيره من النباتات المائية الأخرى، وغالبا ما نجدها "مصوّرة" على لوحات فسيفساء العصر الروماني ببلادنا.

– وتعشّش البلشونيات Ardéidés بإشكل كغيرها من الطيور الأخرى، ومنها ابن الماء الصغير Egretta garzetta، الذي يقيم عشه فوق كومة من القصب اليابس حيث تضع أنثاه من 3 إلى 5 بيضات. ويعيش هذا البلشون على أكل الحيتان الصغيرة الحجم والضفادع.

– يشتو طائر الرخم Neophron percnopterus الأبيض اللون جنوب الصحراء، لكنه يعشّش في فصل الصيف بالمنطقة الجبلية وينجب مرة في السنة فرخا بلون بني فاتح. ويسمى هذا الطائر أيضا بالأنوق.

وتغري وفرة الغذاء ـ وهو هذه الأعداد الهائلة من الطيور والضفادع والحشرات ـ الكثير من اللواحم مثل بنات آوى Canis aureus، والنموس Herpestes ichneumon، والزيردة Genetta genetta، والسنانير البرية Felis libyca، للإقبال على المنطقة.

يوجد حجر الدلدل Histrix histrix بالجبل وسط الآجام أو بين الصخور والدلدل من القوارض الكبيرة الحجم التي تعيش على الجذور والعساقل، وتكسو ظهره أشواك تبلغ من 30 إلى 40 صم طولا يستعملها كحراب للدفاع عن نفسه، أمّا ذيله فتكسوه أشواك لا يتعدّى طولها 5 صم تحدث عندما يؤخذ الحيوان على حين غرّة فرقعة حادة.

– ويعيش حاليا قطيع من جاموس الماء، سمّيناه جاموس إشكل، داخل المستنقعات. وكانت أنواعه سنة 1882 تعد بالمئات، غير أنّ مواصلة صيده بلا هوادة حتى سنة 1957 كادت أن تتسبّب في انقراضه فلم يبق منه سنة 1960 سوى ثلاثة رؤوس. وتمكنت الإدارة العامة للغابات من إعادة تكوين القطيع بفضل ما اتخذته من تدابير عاجلة للإبقاء على هذا الحيوان الذي ظل أصله مجهولا إلى حد الآن. وهناك احتمالان يفسّران وجود هذا الجاموس ببلادنا اذ يفترض الأول جلبها من الفينيقيين منذ أكثر من 2000 سنة خلت، في حين يفترض الثاني جلبها من الرومان بعد سيطرتهم على قرطاج.

أنشأ السلطان الحفصي أبو زكرياء يحيى الأول سنة 1240م محمية خاصة بالجاموس بإشكل. وتواصلت تلك الحماية في عهد البايات الحسينيين وأصبحت تسند مهمة رعاية الجاموس إلى شخص خاص برتبة قايد، ولذلك كانت تدعى الحيوانات آنذاك «بجاموس الباي». وعندما تلقى محمد الصادق باي قبل الحماية بعض رؤوس من الجاموس هديّة من إحدى أميرات صقلية أمر بإطلاقها بإشكل.

يزن ذكر الجاموس الأسود اللون طنّا، وعندما يشتدّ الحرّ يقضّي الجاموس يومه في الماء حيث يمكنه أن يغطس فيه بعد غلق خياشيمه.

– والقضاعة Lutra lutra، من اللواحم النادرة بشمال إفريقيا، تعيش بإشكل في منابت القصب أو بين صخور ضفاف البحيرة. وهي ليلية الطباع، وتكثر حركتها في الليالي المقمرة للبحث عن قوتها المتكون من السراطين والطيور والأسماك والفئران، كما أنّها ماهرة في السباحة والغطس وتساعدها في ذلك قوائمها القصيرة ذات الأقدام المكفّفة وذيلها الطويل الذي تستخدمه سكّانا وتضع الأنثى من 2 إلى 3 صغار بعد حمل يدوم شهرين.

* **النباتات البرية**

منذ حوالي 3000 سنة كانت أغلب سهول الشمال التونسي وتلاله مكسوة بغابات طبيعية من أشجار الزيتون والخروب. ولتوفير مساحات

جديدة للزراعة قُضي تدريجيا على تلك الغابات التي لم يزل جبل إشكل يحتفظ بعينة منها. وقد تأثر تكوين أشجار الزيتون البرّي بمفعول الرياح الشمالية - الغربية فأصبحت لها أشكال غريبة. أما ثمارها التي تنضج في الشتاء فتلتهمها الزرازير والعنادل وتلقي بنواها الذي يصبح قابلا للإنبات بعد نقعه بمختلف الحوامض المعدية للطيور،وهكذا تتجدّد الغابة.

- وتتكون الحراج السفلي الكثيفة لغابة الزيتون والخروب والذرو بإشكل من نباتات السكوم Asparagus acutifolius، والقندول Calycotome villosa، والعوسج، والخلنج Arbutus unedo، والكبّار. وقد أحصى أكثر من 500 نوع من النباتات بالحديقة.

- وتبرز في الربيع عدة زهور بين الصخور والأشجار أو بالمستنقعات كالزنبقيات Liliacées والربيعيات Crucifères والسوسنيات Liliacées، وما يزيد عن 13 من أنواع السحلبيات Orchidées، كما نجد بين الصخور بالأماكن الندية بعض أنواع السرخس Fougères النادرة.

- والأورفيس Orphys نبتة من السحلبيات توجد في المواقع الرطبة من المنحدر الشمالي للجبل وتزهر بداية من جانفي حتى مارس، ولمظهر زهورها الذي يحاكي شكل الحشرات جاذبية على البعض منها.

- وتوجد بالمستنقعات أو على ضفاف البحيرة منابت من القصب والحلال Scirpus والسمار Joncus كلها مخابئ للطيور.

- والفربيون الشجراني Euphorbia dendroides من النباتات المميزة لإشكل، وهي شجيرة صغيرة لون أوراقها أخضر فاتح وزهرها أصفر.

- وعلى طول الطريق المحاذية للجبل في اتجاه الشمال الشرقي مرورا بمأوى السيارات بحمام بالعباس حتى المتحف البيئي توجد الطرفاء الإفريقية Tamarix africana وهي شجيرة تنبت بالمستنقعات وعلى ضفاف البحيرات تتحمل الرطوبة الدائمة بالأرض ونسبة من الملوحة، ولها أزهار عنقودية وردية اللون.

- وسلق الماء من أهم النباتات المائية بإشكل يكوّن معاشب مهمّة ببعض جهات البحيرة. ويعود الفضل إلى هذه النبتة في توفير الغذاء للآلاف من طيور البط التي تعيش على حبوبها وأحيانا على أوراقها أيضا.

وبقاء هذه النبتة مرتهن بنوعية مياه البحيرة.

*** المعالم الأثرية**

يعود اهتمام الإنسان بمنطقة إشكل إلى ما قبل التاريخ نظرا إلى ما تشتمل عليه من كهوف ومغارات ومياه معدنية، ويؤكد ذلك ما عثر عليه بالقرب من عيون المياه الساخنة ومواقع الأضرحة القديمة من أدوات الصوان والسبج obsidienne، وهذه مادة بركانية جلبها القدامى إلى إشكل من جزيرة بنتلاريّا منذ حوالي 3000 سنة.

وقد استقر الفينيقيون أيضا بإشكل، كما تؤكّده القطع الفخارية التي عثر عليها هناك. وتدلّ الآثار الرومانية التي يمكن مشاهدتها قرب مأوى السيارات بحمام بالعباس أن عيون المياه الساخنة قد استخدمت للاستحمام في العصر الروماني.

*** المتحف البيئي**

يوجد المتحف البيئي في الطرف الشمالي الشرقي للجبل، وقد بني بحجارة الجبل نفسه. والمتحف هو في الوقت نفسه مركز للبحوث واستقبال الزوار وإرشادهم، وتوجد بقاعته الكبرى لوحات معروضة وبيانات وأشرطة مسجّلة تعرّف الجمهور بخاصيات إشكل.

يمكن من موقع المتحف البيئي الاستمتاع بمشهد عام لمختلف مظاهر ضفتي الحديقة المتمثلة في مستنقعات جومين من جهة وبحيرة إشكل من جهة أخرى، كما يمكن من هناك مشاهدة الإوز الأرمد والبط الذي يمرّ على ارتفاع منخفض فوق المتحف وخطاف الشواهق وحتى البرني والعقاب. ويكون الوصول إلى المتحف انطلاقا من حمام بالعباس سيرا على الأقدام وعند قطع المسافة الذي يستغرق بضع دقائق يمكن

الاستمتاع بمشاهد طبيعية رائعة. وقد هيّئت حول بناية المتحف أماكن للاستراحة، كما يمكن التجول بالحديقة عبر دروب ومسالك بها عدة نقاط لمعاينة النباتات والحيوانات البرية، ومنها المسلك الرئيس الذي ينطلق من المتحف حتى الطرف الشمالي الشرقي لجبل إشكل ومسلك آخر ينطلق من المكان نفسه حتى المغارة الموجودة بحوض عين العتروس في المنحدر الشمالي للجبل. وتحتوي هذه المغارة على رواسب كلسية هابطة وصاعدة وهي في الوقت نفسه تأوي عدّة حمائم وخفافيش.

كما يمكن انطلاقا من مركز المراقبة بعين العتروس مشاهدة الغرة الزرقاء وهي تجوس بين القصب وكذلك القضاعة أحيانا.

*** تاريخ الحديقة**

– 1240: بعث محمية للصيد بإشكل في عهد الحفصيين

– 1890 – 1897 – 1903– 1926: ترتيب منطقة اشكل تدريجيا ضمن ملك الدولة العام.

– 1979: ترسيم إشكل في قائمة التراث العالمي الطبيعي من قبل منظّمة الأمم المتّحدة للتربية والثقافة والعلوم.

– 1980: ترسيم إشكل بقائمة اتفاقية «رامسار» RAMSAR للمناطق الرطبة.

– 1988: توأمة الحديقة الوطنية بإشكل مع الحديقة الوطنية بالقالة (الجزائر).



محمد الأصرم

[1875 ـ 1960م]

من كبار الموسيقيين التّونسيّين الذين اضطلعوا بمهمّة تطوير الموسيقى التّونسية والدّخول بها إلى عالم التّجديد والحداثة دون أن تفقد خصوصياتها. فرغم تكوينه التقليدي، فقد حذق العزف على آلة البيانو، وطوّعها لتأدية الأنغام والطبوع الموسيقية التّونسيّة الأصيلة.

ولد سنة 1875 بتونس العاصمة في وسط عائليّ محافظ تقلّد أغلب أفراده مناصب مهمّة في عهد الحكم العثماني بتونس.

التحق بأحد كتاتيب العاصمة حيث حفظ جانبا مهمّا من القرآنَ الكريم، ثم انخرط بجامع الزّيتونة فحصل على شهادة التطويع التي خوّلت له مباشرة العمل في خطّة عدل إشهاد، ليباشر بعد ذلك التدريس بجامع الزّيتونة، ثم عيّن في ما بعد موظفا بإدارته.

عرف عنه ميله إلى المطالعة والبحث في فنون الموسيقى والموشّحات أدبا وألحانا، وقدّم مسامرات ومحاضرات كثيرة في ذلك، وأثر عنه ميله إلى حفظ المالوف الغنائي التّونسيّ وما اتّصل به من موشّحات وأزجال غنائية، وكان رائدا في العزف على آلة البيانو بالطّريقة التّقليديّة التّونسيّة.

وعندما تأسّست «الرّشيديّة» سنة 1934 وهي أوّل جمعيّة موسيقيّة تونسيّة عيّن محمد الأصرم مديرا فنيّا لها، بعد أن كان من أبرز المتحمّسين لانبعاثها فأشرف على إعداد الحفل الأوّل الذي قدّمته فرقة الرشيدية بالمسرح البلدي بالعاصمة. ثمّ أسّس فرقة أطلق عليها اسم «الأحمدية» نسبة إلى أحمد باي لم يكتب لها الدّوام، وكانت له بعد ذلك إسهامات رائدة في الإذاعة التونسية تجسّدت في البرامج التّثقيفية الموسيقيّة التي قدّمها في أربعينات القرن العشرين وخمسيناته. وعند وفاته ترك رصيدا كبيرا من المحاضرات المتعلّقة بتاريخ الموسيقى وآدابها وعلمائها، نُشر بعض منها بإشراف وزارة الثقافة ضمن كتاب بعنوان «شذرات متفرّقة في الموسيقى» بتقديم لفتحي زغندة وتعليقه (تونس 2001).

وكانت وفاة محمد الأصرم سنة 1960.

الأعياد الموسميّة

الأعياد الموسميّة التونسيّة هي التي ترجع دوريّا في موعد ما من السنة وتقتضي القيام بطقوس وشعائر ومهرجانات خاصّة بها، وتنقسم هذه الأعياد إلى دينية وموسميّة:

أوّلا: الأعياد الدينيّة

إنّ المواسم الإسلاميّة في الأصل لا تزيد عن العيدين: عيد الفطر وعيد الأضحى، ثمّ أضيف إليهما في بلادنا عيد عاشوراء خلال العهد الفاطمي ثم المولد النبويّ الشريف في العهد الحفصي، وأخيرا ما يسمّى «بالمواسم الفاضلة» في رجب وشعبان ورمضان.

1 ـ عيد الفطر (أو العيد الصغير)

من عادات أهل تونس في عيد الفطر صنع الحَلْوَيات والمرطّبات، وهي محلّية وشرقيّة وأندلسيّة. فالحلويّات المحلّية هي المقروض القيرواني المحشوّ بالتمر أو اللوز أو الفستق، وكعك السميد أو الحمص أو الذرة البيضاء، والحلويات الأندلسيّة هي كعك الورقة (أو كعك زغوان) وطاجين الفستق وطاجين اللوز. والحلويات الشرقية هي بالخصوص البقلاوة. أما القطائف فلا تصنع في العيد بل في سهرات رمضان.

ومن عادات التونسيّين في عيد الفطر لبس الجديد، وهذا فيه تنشيط للصناعات التقليديّة والمتاجر، بحيث إنّ أرباب الصناعات التقليديّة من برانسيّة وتارزيّة وفوطاجيّة وشوّاشيّة وبلغجيّة وحرائريّة، يقضون شهر رمضان وهم يشتغلون ليلا ونهارا ولا يوفون بالطلب. فعيد الفطر هو الموسم الاقتصادي الأكبر لأرباب الصناعات التقليديّة. ومن الملاحظ أن أهل تونس من أكثر الشعوب حبّا لأبنائهم وعناية بشؤون عائلاتهم. فيتحفون أطفالهم بالهبات النقديّة ويشترون لهم اللّعب. لذلك تفتح مغازات خاصّة ببيع اللعب بالقصبة حتى أصبحت لعب الأطفال تسمّى «دبش القصبة»، ثمّ تحوّلت تلك المغازات الخاصّة إلى حيّ الحلفاوين. أمّا بعد الاستقلال فقد أصبحت اللّعب تباع طوال السنة في سائر المغازات.

وصلاة العيد عند المالكيّة لا تنعقد إلاّ بمكان يقع في الهواء الطلق يسمّى «المصلّى» وكان إمام المصلّين في العهود الإسلاميّة الأولى هو الأمير ذاته، ولذلك يوجد في مدينة تونس بين قصر السلطان الحفصي بالقصبة والمصلّى الواقع في أعلى ربض باب الجزيرة، شارع كبير يسمّى «الممرّ» يمرّ به السلطان في موكب فخم وصفه لنا العمري في «مسالك الأبصار» والقلقشندي في الجزء الخامس من «صبح الأعشى». وأمّا في القيروان فيسمّى هذا الشارع بالسّماط الأعظم، ينطلق من دار الإمارة بباب نافع إلى الجامع الكبير ثم إلى باب تونس.

وحدّثنا ابن عذاري في كتابه «البيان المغرب» عن موكب الأمراء الأغالبة في القرن الثالث الهجري حين كانوا يخرجون من قصورهم برقّادة الواقعة على بعد 7 كم جنوب القيروان، فيزورون المدينة والعلماء والصلحاء والمرضى ويتصدّقون ويوسعون على الناس ويطلقون سراح المساجين ويمرّون بالسماط الأعظم، وقد فرش بالزرابي المبثوثة وعطّر بالعطور المرشوشة وبخّر ببخور العود والنّد، وزخرفت دكاكينه وجدرانه بالحريريّات والشموع والثريّات وأنواع التحف الفاخرة. ويتلى القرآن الكريم بالأصوات الرخيمة وتقام الحفلات الدينيّة وتنشد المدائح والأذكار.

2 ـ عيد الأضحى (أو العيد الكبير)

من عادات أهل تونس في عيد الأضحى «تحجيج» كبش الأضاحي بأن يذبح ويعلّق في سلخه كأنّه ذبح بمكّة إبّان الحجّ. ومن عاداتهم طبخ طعام يسمّى «الحلالم» وهو حساء يتّخذ من عجين مفتول ومقطّع كأنّه حبّات أرز يحسى حسوا. ومن عاداتهم تفويح الخبز بالأبزار مثل السمسم وغيره، وطليه بالدهن ومحّ البيض. والتونسيّون من ذوي الأصل الأندلسي يصنعون «البناناضج» وهو عجين يبسط ويحشى باللحم

المفروم ويطوى في شكل هلال ويرسل إلى الفرن. ويصنعون «المجامع» وهو عجين مبسوط يحشى بالتمر ويلفّ جانب منه على بيضة أو جوزة. ويقدّد لحم الأضاحي ويجفّف على الشرائط ويغلّى في الزيت ليبقى طوال السنة، كما يصنع «المرقاز» وهو النقانق عند المشارقة، أي أمعاء الضأن محشوة باللحم والكبد ويشوى هذا أو يقلى.

3 ـ المولد النبويّ

لقد صار المولد النبويّ مهرجانا عظيما لا سيما بالقيروان. فتسرد فيه قصّة ميلاد الرسول (ص)، وهي ملحمة غنائيّة رائعة قد تجمّعت فيها صنائع الفنّ الموسيقي. وتعدّ صبيحة يوم المولد العصائد على اختلاف أنواعها. وأكبر موكب مولدي ينظّم بالقيروان في مقام الصحابي أبي زمعة البلوي المتوفّى في غزوة الأنصار سنة 31هـ/651م الذي دفنت معه في قبره شعرات الرسول (ص).

4 ـ عاشوراء

أمّا عادات عاشوراء التي يرجع تاريخ ظهورها إلى العهد الفاطمي فقد جمعت بين آثار البربر والفاطميّين والمالكيّة. فمن آثار البربر إيقاد النار والقفز عليها. ومن آثار الفاطميّين صنع التماثيل من الحلوى وتمثيل روايات شعريّة. ومن آثارهم أيضا عدم تقليم الأظافر والامتناع عن الخياطة. ومن جهة أخرى يعمد النسوة إلى تكحيل العيون وتسويك الشفاه ثمّ زيارة المقابر وطبخ الدجاج وصنع الحلويات المختلفة، فيقول الناس: «الفطير وما يطير». كما تزيّن أركان البيوت بشرائط الثمار والأزهار، وتباع الطبول والمزامير للأطفال وتشترى الفاكهة الجافّة من جوز ولوز وبندق وفستق وشرائح تين مجفّف وزبيب. وكانت في القديم تصنع حلويات عاشوراء، وهي قمح يطبخ في الماء ويخلط بالفواكه الجافّة ويصبّ عليه الحليب.

5 ـ المواسم الفاضلة

وهي في الغالب اليوم الأوّل والنصف وليلة السابع والعشرين من رجب وشعبان ورمضان، وجمعة «الرغائب» وهي أول جمعة من شهر رجب. وفي هذه المواسم يوسّع ربّ البيت على العيال وتقام الحفلات الدينيّة الليليّة «المبايت» وتذكر الأوراد بعدد معيّن له خصائصه، كتلاوة اسم اللطيف في رجب، وقد وردت أحاديث في ذلك، وصنّفت مؤلّفات في فضائل رجب وشعبان ورمضان، من ذلك الكتاب الذي ألّفه علي النوري الصفاقسي.

ثانيا: الأعياد الموسميّة

1 ـ رأس العام الهجري

وفيه يؤكل الفول الذي هو مورد حياة ونشأة جديدة وفيه خضرة من علامات البركة. وليلة رأس العام يطبخ كسكسي دون فلفل ولا طماطم، ويزيّن بقديد عيد الأضحى. ومن الغد تطبخ الملوخيّة، تيمّنا بخضرتها. وصبيحة يوم رأس العام تصنع الحلويّات والمرطّبات لتكون السنة سعيدة، ويتجنب الناس البكاء والغضب والإغضاب حتى تكون السّنة مفعمة بالأفراح وخالية من الأتراح. ولا بدّ من لباس الجديد والتزّين ومباركة الناس بعضهم لبعض.

2 ـ رأس السّنة الميلاديّة

لمّا انتصبت الحماية الفرنسيّة سنة 1881م أدخلت في عادات النّاس الاحتفال برأس السنة الميلاديّة بشيء من التكتّم في الأوّل ثم باندفاع فيما بعد.

3 ـ رأس العام العجمي

أسّس يوليوس قيصر التقويم اليولياني في سنة 46 قبل المسيح وبقي الناس عليه. ولمّا فتح المسلمون إفريقية أقرّوا السنة الهجريّة لكنّها لا توافق الفلاحة لأنّها ترتكز على حساب الأشهر القمريّة، والحال أنّ إفريقية بلاد فلاحيّة أساسا. فأقرّ الوالي موسى بن نصير إلى جانب السنة الهجرية السنة اليوليانية أو العجميّة، واستمرّ الناس عليها في ترتيب فلاحتهم وسارت عليها أمثالهم الشعبيّة كقولهم: «مطرة مارس ذهب خالص» و«مارس البخيل» إذا كان قليل المطر،

و« مطرة أبريل تطلّع السبولة من قاع البير » و« في ميّو أحصد زرعك ولو كان فليّو ».

وتنقسم السنة العجميّة إلى مواسم توافق الفلاحة، منها الليالي في فصل الشتاء وهي أربعون ليلة، تنقسم إلى الليالي البيض (20 ليلة)، وقد جاء في الأمثال الشعبيّة « وفي الليالي البيض، الصحيح يولّي مريض »، وهي تبدأ ليلة 25 ديسمبر وتنتهي في 13 جانفي وتدخل « الفحول الأربعة » وهي : الليالي السود (20 ليلة) وليلة رأس العام العجمي، وأوّل يناير بالتقويم اليولياني وليلة النصف من الشتاء. واللّيالي السود ألطف بردا من البيض وقد جاء في الأمثال الشعبيّة « ففي اللّيالي السود يلقح كل عود ».

4 ـ رأس السّنة الفارسيّة

تبدأ السنة الفارسيّة يوم 14 ماي بالتقويم الغريغوري، وهو يوم النيروز، وقد تسرّب إلى تونس مع الجيش الخراساني ثم مع الأمراء المهالبة. وفي هذا اليوم يعلّق الناس تمائم خاصّة خلف أبواب البيوت لقمع ذوات السموم ولا سيما العقارب، وينضح الماء في البيوت وتبدلّ الثياب ويؤكل الخسّ.

5 ـ موسم أوسّو

موسم أوسّو أو السمائم يدوم أربعين يوما من 25 جويلية إلى 4 سبتمبر، نصفها صيف ونصفها خريف، ونصفها تين ونصفها طين. وليلة دخول أوسّو ينزل النّاس إلى البحر للسباحة، لأنّ « عومة أوسّو تبرّي الداء اللّي تحسّو ». وأغلب أهل تونس كانوا في القديم يستأجرون بيوتا مصنوعة من الخشب تقع في شاطئ البحر، ويصنعون الحلويات الفاخرة ويستدعون الأقارب والأصدقاء وينظّمون جوقات الطرب والألعاب. وأغلب الحفلات تنظّم في ضواحي العاصمة التونسية الشمالية والجنوبيّة وبالخصوص بسيدي بوسعيد والمرسى ورادس.

وينتهي موسم أوسّو بحلقة العنب، وهو مهرجان أصله أندلسي يسمّى العصير. ففي المرسى مغارس الكروم تباع بالمزاد في « حلقة ».

وفي هذه الضاحية يوجد مقهى قديم يرجع تاريخه إلى العهد الحفصي يسمّى « مقهى الصفصاف »، به بئر مشهورة بعذوبة مائها وعليها ناعورة يديرها جمل. وفي « حلقة العنب » تزيّن المرسى بيوتها وشوارعها بالرياش الفاخرة ويلبّس الجمل ثياب عروسة مطرّزة بالذهب ويطاف به في البلدة ووراءه جوقة بها العود والرباب والدفّ، وتنظّم في مقهى الصفصاف حفلة طرب أندلسيّة، وتطلق الشماريخ، إلى غير ذلك إعلانا عن انتهاء موسم السباحة في البحر.

الأغنية التّونسيّة

يمكن أن تكون الأغنية التّونسيّة موشّحا مثل: « كللي يا سحب » لابن سناء الملك الذي اشترك في تلحينه الشيخان رشيد بن جعفر وخميس الترنان في مقام « راست الذيل »، أو « قاضي العشق قد كواه الصدود »، مجهول المؤلف، ومن تلحين الشيخ أحمد الوافي في مقام الاصبعين المقابل للحجاز. ويمكن أن تكون زجلا مثل: « دير المدام في الكاس » في مقام رمل المايه لابن السراج » أو « آه على ما فات » الذي يقال إنه آخر ما تغنى به الأندلسيون عند نزوحهم من غرناطة وهو في مقام راست الذيل. ومن خصائص الموشّحات والأزجال في التراث التونسي أنها لحنت جميع مقاطعها في تنويع مقامي بديع مع الرّجوع إلى المقام الأصلي في الأقفال، على خلاف الموشّحات الأندلسيّة والشرقيّة التي لم يلحّن منها سوى مقطع واحد.

هذا فيما يخصّ الأغاني التقليديّة الكلاسيكيّة، أمّا الأغاني الشعبية فإنّها أنواع :

1) النّوع الأوّل هو ما كانت جميع مقاطعه أو أبياته على لحن موحّد مثل: « بالله وادعوني يا لبنات » في مقام المحير سيكاه الذي يقرب من العشاق المصري، و« نا وجمالي فريدة » في مقام العرضاوي (عقد خماسي من الراست)، « ويإما

اقواني» (بين النهاوند والنواثر). ونظرا إلى ما يحدثه عدم تنويع اللحن من رتابة فقد عمدت إلى إضافة جملة لحنية لكلّ منها في الأربعينات اندمجت فيها وأصبح الكثيرون يعتقدون أنها منها.

2) النوع الثاني بدأ فيه شيء من التطوّر وذلك بتغيير جزئي في بداية الأبيات عمّا هو عليه في المذهب، سواء في البداية مثلما هو الشأن في أغنيتي «بالله يا أحمد يا خويا» أو «ساق نجعلك ساق» في مقام المزموم، أو في آخر البيت في أغنية «في الغربة فنالي عمري راح» (في مقام المحيّر سيكاه).

3) النوع الثالث من أغانينا الشعبية هو الذي تتغيّر أبياته عن لحن المذهب مثل أغنية: «عرضوني زوز صبايا» (في مقام المزموم) وأغنية «شرق غدا بالزين»، في مقام راست الذيل، وقد لحنت أبياتها في عقد من مقام المحيّر عراق (أو راست) على النوى وهو من أجزاء سلّم مقام راست الذيل.

4) النّوع الرّابع هو الذي يقوم على التّنويع بالرّبط بين أغنيتين شعبيتين مثل قطعة: «بخنوق بنت المحاميد عيشة» في عقد العرضاوي التي أقحمت فيها أغنية أخرى عنوانها «يا مسلمين الله طيعوا الأسمر» والمقصود هو الولي الصالح سيدي عبد السلام بن سليم، وكأنها تتغنّى بقبيلة المحاميد الموزعة بين حدود تونس وليبيا.

5) النّوع الخامس أطلق عليه اسم الفوندو قياسيا على اسم أرفع أنواع «الألمظ» حيث ارتفع مستوى تلحينه عن جميع أصناف الأغاني الشعبية، مثل قطعة: «يا خيل سالم باش روحتولي» في مقام رمل الماية. وقد استعمل فيها ديوان ونصف من المقام وهي مطعمة بأغنية أخرى: «فاقت محاسن غزالي»، وقطعة «يا شوشانه آش خبرت للاك على ملقانا» التي شمل تلحينها مقامي الحسين والاصبعين. وهذا الخلط موجود في التراث الجزائري ويسمى «المجنبه». ومن أغاني الفوندو قطعة «العين تنحب من فراق غزالي» ينسب تأليفها للأديب «الباجي المسعودي» في القرن الماضي. وهي في الأصل لملحن مجهول ولها طابع خاص حيث تتركّب من أبيات ملحنة في مقام راست الذيل و«عروبيات» مرتجلة الغناء نسبيا على غرار «المُجانه» الشامية ولكنها تتميز بتنويع الارتجالات على عدّة مقامات هي: راست الذيل والمحير عراق والمحير سيكاه والعرضاوي والمزموم.

ومن أغاني الفوندو أيضا القطعة التي عنوانها «نميت نم المخاليل عديت الأيام طالو» في مقام راست الذيل وهي في مستوى تلحينها أرفع بكثير من عدّة موشحات ينطوي عليها التراث التونسي والأندلسي.

وإذا نظرنا إلى هذه الأغاني مجتمعة نستطيع القول إن الأغنية التونسية هي التي تكون لغتها العربيةَ الفصحى أو العامية التونسية (ريفية أو حضرية) مع ارتكاز تلحينها على مقامات وإيقاعات تونسية أصيلة.

وابتداء من عشرينات القرن الماضي دخلت البلادَ التونسية الأغاني الليبية مع الفنانين الليبيين اللاجئين من الاحتلال الإيطالي ودخلت إثرها إسطوانات الأغاني الشرقية والمصرية منها بالخصوص، وتأسّست فرق تغنّي أدوار محمّد عثمان وعبده الحمولي ومواويل عبد الحي حلمي وقصائد المنيلاوي وسلامه حجازي وأبي العلاء محمد وأدوار وطقاطيق السيد الدرويش.

ومع افتتاح سوق الإسطوانات في الثلاثينات برزت عدّة أغان شعبية بصوت «ايسيرن العفريت» الذي سماه الفنان المتعهد الجزائري محيي الدين باش تارزي، «الشيخ العفريت» لتسهيل بيع إسطواناته بالجزائر، كما أنتج بعض الفنانين اليهود التونسيين عددا من الأغاني كانت في مجملها ضعيفة التأليف والتلحين. وهذا ما دعا ثلة من المثقفين التونسيين يتقدمهم شيخ المدينة آنذاك مصطفى صفر إلى تأسيس جمعية

سنة 1934 للمحافظة على الفنّ التونسي أسموها «الرشيدية» نسبة إلى الملك محمد الرشيد باي الذي كان أديبا وفنّانا ويرجع إليه الفضل في جمع التراث التونسي والأندلسي وإغنائه بتأليف مجموعة من البشارف والسماعيات والموشحات التونسية في أواسط القرن الثامن عشر.

وقد كان من أوّل شواغل هذه الجمعيّة جمع الترّاث الغنائي التقليدي والشّعبي وتقديمه للجمهور ثم العناية بإنتاج مجموعة من الأغاني والقصائد في مستوى أدبي وفني راق. وبُعثت لذلك لجنة أدبيّة ضمّت خيرة أدباء تونس برئاسة شيخ الأدباء محمد العربي الكبادي ولجنة فنية برئاسة الشيخ محمد الأصرم الذي خلفه فيما بعد الشيخ خميس الترنان.

وراجعت هاتان اللّجنتان المالوف أي الغناء التّونسي الأندلسي ثم فَسَحَت المجال للإنتاج الجديد على المقامات والإيقَاعات التونسية. ونظّمت مباراة في تلحين أوّل أغنية ألفها علي الدوعاجي عنوانها «يالايمي يزيني... من صاب عينك عيني» لحنها الشيخ الترنان وقد تميزت في غنائها الفنّانة «شافية رشدي» التي كانت المطربة الوحيدة للجمعية الرشيدية. فكانت هذه الأغنية الملحّنة سنة 1934 في مقام السيكاه مع قفلة راست على نمط أغنية «غني لي شويه» التي لحنها فيما بعد الشيخ زكرياء أحمد لأم كلثوم. وبذلك فتح باب الإنتاج على مصراعيه وقد كان مرتكزا على الهواية إذ لم يكن المؤلف ولا الملحن يتقاضيان أي مقابل...


محمود بورقيبة

واشترك الملحنان خميّس الترنان ومحمد التريكي في إنتاج عدد مهمّ من القصائد وشاركهم الشاذلي مفتاح وقدور الصرارفي وصالح المهدي في إنتاج المعزوفات على الأنماط التقليدية كما شاركهم الملحنون الهادي الجويني والحبيب العامري ومحمد النابلي في تلحين الأغاني. وانفرد الترنان بتلحين نوبة الخضراء في مقام النهاوند، والمهدي بتلحين نوبات العجم عشيران والزنكولاه ومحير العراق ومحير السيكاه.

واجتهد محمد التريكي وخميس الترنان سنة 1935 في تطوير الأغنية فجعلا أبياتها تتنوّع في التلحين وفي المقامات. وقد برز ذلك في أغنية الترنان «اللي كواتو نار محبه» من تأليف بلحسن بن شعبان وهي على وزن البطايحي المستعمل في المالوف (الغناء التقليدي).

وقد تناول الملحّنون في أغانيهم بالرّشيديّة أغلب المقامات التّونسية والشّرقية بطرق جديرة بالاستحسان كانت أساسا لدراسة تلك المقامات باعتبارها من أبرز شواهدها.

وفي سنة 1938 بعثت الإذاعة التونسيّة رسميا وقد أرغم مدير قسمها العربي الأستاذ عثمان الكعاك ومديرها الفني الأستاذ مصطفى بوشوشة الفنّانين الرّاغبين في المشاركة في الإذاعة على الإنتاج الجديد أو تقديم الترّاث الشّعبي والتّقليدي. فكانت المطربة فضيلة خيتمي تلحّن لنفسها من تأليف الشاعر أحمد خير الدين. وبرز المطرب علي الرّياحي بإنتاجه بعد أن كان يقلّد المطربة المصرية منيرة المهدية. وظهر من الفنّانين الشّعبيين محمد النوري والمحجوب شقرون كما ظهر الصادق ثريا بأغانيه، ويوسف التميمي بأغاني إسماعيل الفرجاني، وبرزت فتحية خيري بإنتاج السّيد شطا، وحسيبة رشدي بإنتاج محمد التريكي، وتربعت شافية رشدي على عرش الرشيدية. وكان محمد الجموسي يأتي من حين إلى آخر من باريس حيث كان يقيم حفلات بأغان من تأليفه وتلحينه، كما برز الهادي الجويني بأغان على نمط الفلامنكو.

وفي سنة 1944 تولّى نور الدين بن محمود

إدارة القسم العربي للإذاعة فنظّم مباراة في إنتاج أغان تتناول النّهوض بالصّناعات التّقليديّة اشترك فيها أبرز المؤلفين والملحنين. وقد ألّف آنذاك (خارج المباراة) المناضل الشاعر العيد الجباري القطعة الموالية:

بالصنعة الأمة تتقدّم وتنال المقصود العالي
واللي ما يعرفش آش يخدم جيبه ديمه يبقى خالي

فكانت أول أغنية لُحِّنت في هذا الباب. واستمرّ الإنتاج في الإذاعة ليبثّ مباشرة أسبوعيا من مختلف الفرق، إضافة إلى الإنتاج السنوي الذي يقع التدرّب عليه أثناء شهري رجب وشعبان ليقدمه الفنانون في حفلات شهر رمضان المعظم. وفيه ينتظم أهمّ مهرجان موسيقي تقدّم فيه عروض يومية بأبرز القاعات تضمن التمكّن الفني الممتاز وتجاوب الجمهور مع الأغاني الجديدة التي تبثّ إذاعيا وتسجل على اسطوانات فيما بعد.

واستمرّ الحال إلى أن أسّست أوّل فرقة للإذاعة سنة 1946 فكان دورها بارزا في النّهوض بالأغنية. وبرزت في هذه الفترة حينئذ المطربة صفيّة التي أتت من الشام بأغان تشيد بالتّقارب الفنّي التونسي الشّامي مثل أغنية قدور الصّرارفي (يا سمره وحلوه... يا لون القهوة) وأغنيتنا (ياللي انت روح الروح) من تأليف محمود بورقيبة.

وفي بداية الخمسينات أسّست الفرقة الموسيقية لمدينة تونس وبرز فيها أشهر المطربين والمطربات بأغان جديدة في مقامات تونسية وشرقية وكان تركيز الاهتمام فيها بالخصوص على القصائد والأغاني التي تعتمد التنوّع المقامي، وآشتهرت المطربة علية التي سرعان ما احتلت مكانة مرموقة في الفنّ.

ومن الأحداث البارزة في الحقل الغنائي ما بادر به الأستاذ الشاذلي القليبي بوصفه مديرا للإذاعة بعد الاستقلال من إقامة مباراة لإنتاج أغان تكون كلماتها ومقاماتها وإيقاعاتها تونسية أصيلة، أعطيت اسم مهرجان صليحة التي اشتهرت بهذا النوع من الغناء. وفاز في المباراة الأولى الشيخ خميس الترنان بأغنية «ليعتني بشد الهوى يا دوجه» في مقام العراق التونسي المقابل للأصبهان المغربي الذي لم يتناوله غيره من الملحنين قبله. وفاز في المباراة الثانية الفنّان الشاذلي أنور ثم توقّف هذا المهرجان ليحلّ محلّه مهرجان الأغنية في الثّمانينات.

إفريقيّة

إفريقية هي الجزء الشرقي من المغرب العربي الإسلامي، لذلك أطلق عليها عدد من المؤرخين المعاصرين اسم بلاد البربر الشرقية.

ومما لا مجال للشك فيه، مهما يكن مذهب المؤلفين العرب في هذا الموضوع، أن لفظة إفريقية مقتبسة من الكلمة اللاتينية «أفريكا» (Africa). فالكشف عن أصل الكلمة العربية يرجع إذن في نهاية الأمر إلى أصل لاتيني لا يزال يتحدى فطنة الباحثين منذ أقدم العصور إلي يومنا الحاضر. وإنه من الثابت أن لفظة أفريكا وغيرها من الصيغ الأخرى المشتقة من الجذر اللغوي «آفر» (ج. أفري) (Afer,pl.Afri) قد وردت في المصادر اللاتينية القديمة قبل سقوط قرطاج بوقت طويل، ونعلم بالخصوص أن سقيبيون الأكبر (235–183 ق.م) قد مُنح بعد انتصاره على حنبعل في واقعة زاما (سنة 202) لقب الإفريقي (Africanus)، وقد ورد ذكر الصفة «إفريقي» (Africus) عدّة مرات في عهد سابق لسقوط قرطاج (سنة 146 ق.م)، وقد ألحقت روما بعد ذلك أراضي قرطاج وسمتها «المقاطعة الإفريقية» (Provincia Africa) أو «الإفريقية» (Africa) بإضمار الاسم الموصوف (انظر جزال (Gsell)، التاريخ القديم: ج7، ص2). وهذه المقاطعة الإفريقية (Provincia Africa) كانت موطن الأفارقة (Afri)، وهي التسمية التي كانت مقصورة في أول الأمر على السكان الأصليين

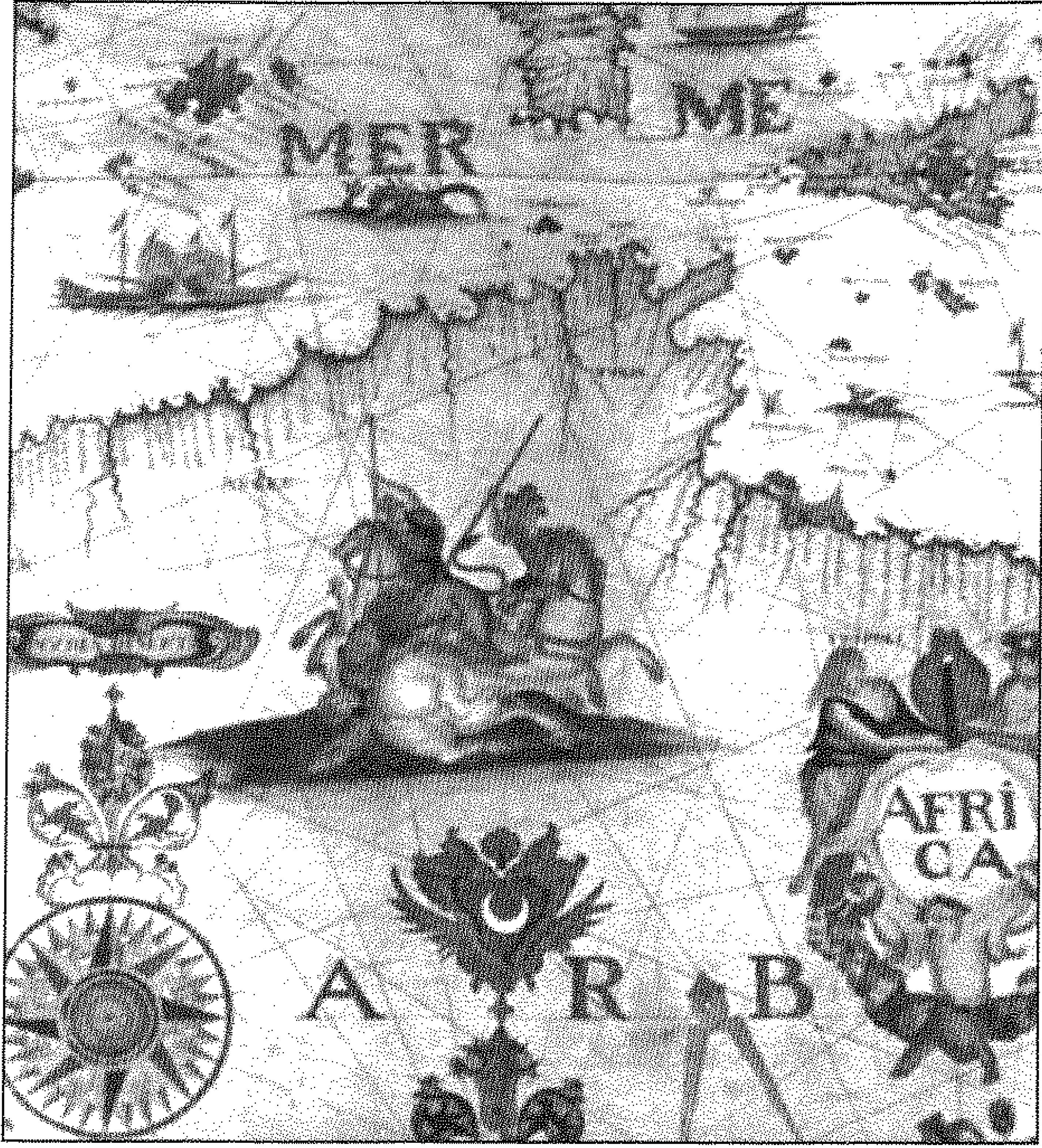
الموجودين على أراضي قرطاج - بل وقد حصل أحيانا الفصل والمقابلة بين هذه التسمية وتسمية البونيين (Poeni) أو القرطاجيين (Carthaginienses) - قبل أن تشمل أيضا في خاتمة الأمر هؤلاء القرطاجيين أنفسهم، كما نستنتج ذلك من اللقب الممنوح لقاهر حنبعل. فهذه هي المعطيات الثابتة التي نملكها بخصوص هذا الموضوع.

وابتداء من هذه النقطة تصبح خطواتنا أقل ثباتا وأرضيتنا أكثر اهتزازا. فما هو على وجه التدقيق أصل كلمة أفريكا (Africa)؟

إننا لا نملك بهذا الخصوص أيّ معلومات ثابتة على نحو يقيني ومسلّم به بإجماع الباحثين. وقد كان هنري فورنال (H. Fournel) سنة 1875 يعلن في غير مواربة: «لا أتردد في التأكيد أننا نجهل ذلك تماما» (البربر Berbers، ج1، ص23)، وبعد مرور بضعة عقود من السنين يأتي ستيفان قزال (S. Gsell) فيقول في صيغة الاعتراف «من الأفضل الإقرار بجهلنا بخصوص أصل هذه الكلمة» (التاريخ القديم، ج 2 ص 5). هذا وإنّنا لسنا اليوم بأوفر حظا أو أكثر تقدما في هذا المجال مما كنا عليه في الماضي. على أن الكثير من النظريات والتفسيرات المتفاوتة من حيث البراعة والقدرة على الإقناع قد جازف بعضهم بتقديمها طوال الفترة الممتدة من العصور القديمة إلى عصرنا الحاضر. ويمكن تصنيف هذه النظريات في قسمين كبيرين:

- **الاشتقاقات الأسطورية**

لقد اقترحت منذ أقدم العصور عدّة نظريات تقوم كلها على أساس أسطورة الانتساب إلى أصل جوهر إلهي أو بطولي خرافي من نوع ما كان سائدا لدى الأقدمين. وعلى هذا الأساس فإن أفريكا تكون موطن أولاد «آفر» (Afer)، وهو ابن «الأميرة ليبيا» (Libye) التي كانت أصيلة البلاد، أو إحدى بنات الإله «جوبيتار» أو الإله «نبتون» أو «إيبافوس» Epaphus (دافزاك d'Avesac، أفريقيا، ج 4) أو هو ابن هرقل ليبيا، أو ابن كرونوس



وفيليرا (Cronos et Philyra)، أو ابن إبراهيم وستورة، أو حفيد إبراهيم وقائد حملة حربية، بليبيا، الخ. (المراجع في كتاب جزال Gsell، التاريخ القديم: ج 2 ص4).

أما العرب الذين كانوا لا يجهلون تماما هذه الأساطير التي كانت شائعة فيما يبدو بالبلاد التي فتحوها، فإنّهم لم يكونوا أقل إغراقا في الخيال. لذلك نراهم يتبنون في الغالب نوعا من التفسير متأثرا من ناحية بالأساطير القديمة ومنقولا من ناحية أخرى عن الأنموذج الذي اعتمدوه في تفسير وجود الجنس العربي، أي بالرجوع إلى جدّ أول يطلق اسمه على بنيه، وهم يدعونه عادة افريقيس (Africus) أو افريقيش في بعض الأحيان، وقد يكون هو الذي تسمّى باسمه الافريقيون وبلادهم إفريقية. وهذا التفسير الذي تبناه فيما بعد، مع بعض الفروق في الرواية، غالب رواة الأخبار والجغرافيين العرب يمثل في الواقع رواية واحدة، وهي التي نقلها ونشرها هشام بن محمد الكلبي (المتوفى فيما بين سنتي 204 و206هـ/819 و821 م).

ولا بدّ مع ذلك من أن نسجّل أن ابن عبد

الحكم (187هـ-257هـ / 803 -871م) الذي ينتمي إلى أسرة من الفقهاء والمحدّثين الثقاة، والذي ندين له بأقدم مصدر مكتوب عن تاريخ فتح إفريقية قد تعمّد فيما يبدو إغفال ذكر هذا التفسير في كتابه، ذلك أن ابن الكلبي لا يعدّ من أهل الثقة عند كبار الرواة والمحدّثين. (ياقوت، معجم الأدباء، ج 19، ص 287-288). أما ابن خلدون المشهور بروحه النقدية فهو لا ينقل لنا هذا التفسير في مقدمته (ص16) إلاّ باعتباره مثالا «للأخبار الواهية» التي كانت كتب سابقيه محشوة بها. وعندما يعود ابن خلدون إلى ذكر هذه الرواية (كتاب العبر، ج2، ص95، 100، 170) فهو يكتفي بنقلها دون تحمل مسؤوليتها، أو يبدي بشأنها احترازا واضحا (كتاب العبر ج 2، ص 170).

ولا حاجة بنا إلى التأكيد أن أفريقيس أو أفريقيش هذا يقدم إلينا دوما من قبل الإخباريين العرب باعتباره بطلا عربيا محضا. وهم يربطون دائما من قريب أو بعيد تاريخ البطل بجذور البربر وما يحيط بأصلهم من غموض. والعرب في الغالب يعتبرون البربر مشارقة كنعانيين أو حميريّين في الأصل. وهم يذكرون لنا النسب الكامل لأفريقيس مع بعض الفروق في الروايات، ويؤكدون أنه كان من كبار ملوك اليمن في عهد سليمان الحكيم، وأنه فتح فيما يبدو بلاد المغرب وأطلق عليها اسمه وركز فيها بعض قبائل جنوب الجزيرة العربية فاستقرت بها. ويذكر البلاذري (المتوفى حوالي سنة 279هـ/892 م) نقلا عن هشام بن محمد الكلبي أنّ اسمه أفريقيس بن قيس بن صيفي الحميري، ونجد النسب نفسه عند ابن خلدون. لكننا نجد له أيضا عدة أنساب أخرى ونرى من بين ذلك من يسميه أحيانا أفريقيس بن أبرهة بن الرائش (المسعودي، مروج الذهب،الفهارس، البكري، المسالك، ص 21، ياقوت، ج 1، ص 228).

ويورد الإخباريون العرب رواية أخرى من النوع الأسطوري أيضا يصبح فيها البطل الذي أطلق اسمه على إفريقية ينحدر من سلالة الأنبياء المذكورين في أسفار التوراة. وتفيد هذه الرواية التي نجد فيها صدى للأسطورة اليونانية اليهودية التي ينقلها جوزاف (Josèphe) (تيسو Tissot، استكشاف علمي للبلاد التونسية، ج 1، ص 389، تعليق 5) أن هذا البطل هو فيما يبدو إفريق (Aphera) ابن إبراهيم الخليل من زوجه الثانية فاتوراء (Cethura) (البكري، المسالك ص 21) أو أنه فارق بن بيصر بن حام بن نوح (ياقوت، ج 1، ص 228) ويذكر ابن أبي دينار (المؤنس:ص 19) أنسابا أخرى لهذا البطل تعتمد أيضا على سلالات التوراة.

- الاشتقاقات اللغويّة

أورد كل من البيروني (المتوفّى سنة 442هـ/1050 م)، فيما نقل عنه ياقوت (ج1 ص 228)، والزبيدي (تاج العروس، ج 7 ص 46)، وابن أبي دينار (المؤنس، ص19) تفاسير أخرى بالرجوع إلى الجذر اللغوي العربي (ف ر ق بمعنى فصل) الموجود في لفظة إفريقية. وقد ذكروا لنا أنّ إفريقية سمّيت كذلك لأنها «فرقت بين مصر والمغرب». أما في نظر الحسن بن محمد الوزّان الفاسي المعروف بليون الافريقي (Léon L'Africain) فقد سُمّيت كذلك لأنها مفصولة عن أوروبا وجزء من آسيا بالبحر المتوسط.

وقد وضعت كثير من الاشتقاقات الأخرى بالرجوع دائما إلى الجذر اللغوي، أورد بعضها المؤلفون القدامى، واقترح بعضها الباحثون المعاصرون، وهي مستمدة من أصل لاتيني أو يوناني أو سامي، فقد رجعوا بأصل اسم افريكا (Africa) إلى اللفظ اللاّتيني (Aprica) (بمعنى الساخنة) وهو الاشتقاق الذي ذكره إيزيدور (Isidore). وسرفيوس (Servius)، (تيسو Tissot استكشاف علمي للبلاد التونسية ج1، ص 289، تعليق 2،وڤزال Gsell إفريقيا ج 7، ص3، تعليق 8)، كما أشار إلى ذلك الاشتقاق أيضا المؤرخ ابن أبي دينار الذي اعتبر اللفظ اللاّتيني بمثابة

جذر لغوي عربي فكتب يقول: «قال ابن الشباط ناقلا عن بعض المصادر أنّ إفريقية كانت تسمى أبريقة (Aprica)، وهي كلمة مشتقة من البريق، لصفاء سمائها من السحب». (المؤنس، ص19)، كما رجعوا بأصل الاسم إلى الكلمة اليونانية (a-phrike) أي دون برد (دافزاك d'Avezac، إفريقيا، ص 4)، أو بالخصوص إلى الجذر اللغوي السامي (ف ر ق)، فالباحث الأول وهو م. دافزاك (M.d'Avezac) بدأ بالإشارة إلى أن بعضهم قد سعى إلى أن يجد في كلمة إفريقية معنى «الأرض الخصبة بالسنابل، أو بلاد النخيل، أو المنطقة المغبرة، أو الإقليم المتفرق المشتت، أو أرض برقة». ثم أضاف يقول: «لكن كم تبدو هذه الافتراضات متكلفة متصنعة بالقياس إلى ما كان أكده سويداس (Suidas) بكل بساطة عندما أعلن أن إفريقيا هي الاسم القديم لقرطاج نفسها...». أما معنى الاشتقاق اللّغوي لهذه التسمية القديمة، فنجده في لغة قرطاج نفسها تمدنا به بكل بساطة وطبيعية إذ تشير في كلمة إفريقه (Afriqah) إلى مركز منفصل أو مستعمرة لقاعدة صور. وجاء العرب فاستعملوا اشتقاقا قياسيا وسموا الأرض التي تنتسب إلى إفريقه العتيقة «إفريقية».

وهذا التأويل الذي تبناه دي سلان (de Slane) ورفضه كل من فورنال (Fournel) وتيسو (Tissot) وقزال (Gsell)، يصطدم بعقبتين رئيسيتين:

أ– فإنه ليس من الثابت مطلقا أن قرطاج قد كانت تسّمت باسم «إفريقية» في العصور القديمة. فالشهادة المنفردة التي قدمها سويداس في هذا الباب إنما هي شهادة كاتب متأخر (من القرن التاسع والعاشر) لا يثق به الكثير من الباحثين. فكلامه إذن لا ينهض دليلا حاسما. (فورنال، البربر، ج 1، ص 24، تعليق 2 وجزال، إفريقيا، ج 7، ص 3، تعليق 2).

ب– ومن ناحية أخرى، وبالإضافة إلى عقبات الاشتقاق، فان كلمة آفر (Afer) ومشتقاتها – وهي ألفاظ غير لاتينية دون شك – لم يعثر عليها في أي نقش كتابي بوني، لا في عهد جزال (إفريقيا، ج7، ص4)، ولا حتى في أيامنا الحاضرة.

حينئذ لجيء بطبيعة الحال إلى التفكير في ألوان أخرى من الاشتقاق بالاعتماد على اللغة البربرية: انطلاقا من كلمة آفري (مغارة) أو من إفران أو بالخصوص من اسم قبيلة أوريغة. وقد تقدم بفكرة هذا الاشتقاق لأول مرة الباحث كارات (Carette) مستوحيا إياه من اشتقاق كلمة ليبيا المتداولة عند اليونان والتي أطلقت في بادئ الأمر على بلاد قبائل ليبو (Lebou) أو اللواتة. وقد كتب عن أصل كلمة أفريكا، ناسجا على منوال المثال السابق فقال: «كانت هذه الكلمة بالنسبة إلى المعمرين الفينيقيين بقرطاج مثلما كانت كلمة ليبيا عند المعمّرين اليونان بقريني (Cyrène) أي تسمية مقتبسة من الشعب الذي يحصل أول اتصال به وهي تسمية تكون قد وضعت بعد في نطاق تقاليد البلاد. بل إن تسمية أفريكا قد سبقت تسمية ليبيا مثلما كان انتصاب القرطاجيين سابقا لارتكاز القرينيين» (بحوث... ص309–310). وبعد أن أضاف كارات أن «هذا الاشتقاق في تسمية إفريقيا لا يقوم على أساس وثائق» وأنه يعتبره مع ذلك اشتقاقا «محتملا» حاول أن يثبت، لتحميل بعض الدلائل الضعيفة أكثر مما تحمل، أن قبائل أوريغة كانت تسكن، حسب المفروض وفي أقدم العصور، البلاد التي أصبحت تحتلها دولة قرطاج. وفي عهد حكم هذه الدولة قضي، فيما يبدو، على قبيلة أوريغة هذه وتشتّتت، باستثناء الهوارة، وهم بطن منها...» (بحوث... ص 311).

وقد رجع الى القول بهذا التفسير وإلى تبنّيه كل من فيفيان دي سان مارتان (Vivien de Saint Martin) وتيسو (Tissot) اللذين يريان أن الأوريغة هم الأفارقة أنفسهم الذين ذكرهم الجغرافيون العرب، ونفس «الايفوراكس» (Ifuraces) والذين يتحدث عنهم كوريبوس (Corippus). ونحن نعلم اليوم أن الجمع بين كل

هذه المسميات في هوية واحدة هو من قبيل المجازفة. هذا وإن تأويلات كارات (Carette) ليس لها من أساس سوى بعض الافتراضات الواهية. وإذ لم نظفر بأي تفسير ثابت يقيني في هذا الباب، وإذا ما أبينا النسج على منوال فورنال أو جزال في التزام جانب الحكمة والإقرار بجهلنا، فقد يكون الافتراض الأبعد عن المجازفة والخطإ هو القول بأن لفظ أفريكا (إفريقية) مشتق من الجذر اللغوي السامي (ف ر ق). وفعلا فإنه لا يمكن أن يكون الرومان قد وجدوا هذا اللفظ في لغتهم ذاتها ولا أن يكونوا اقتبسوه عن اليونان – الذين كانوا يطلقون على إفريقيا اسم ليبيا – فلا يبقى إذن من احتمال آخر سوى أنهم تلقوه من أسلافهم البونيّين الذين أورثوهم البلاد بعد أن دارت عليهم دائرة الحرب والسلاح. وفعلا فإن عبارة البلاد الإفريقية (Terra Africa) أو المقاطعة الإفريقية (Provincia Africa) – وهي ما عرف عند العرب بافريقية – أطلقت في أول الأمر على الأرض التي انتزعت من قرطاج وأدخلت في حكم روما.

هذه هي الحقيقة الوحيدة التي أثبتت على نحو لا يدع مجالا للشك أو النزاع. ويوجد بعض التردد في النطق بكلمة إفريقية. وهو ناشئ عن عدم ضبط الحركات في الكتابة العربية. فبعض أصحاب المعاجم يوردون اللفظة دون حركات ولا يضبطون طريقة نطقها للقارئ (القاموس، ج 3، ص 275 الصحاح، ج 4، ص 1543). أما عند ابن دريد (الجمهرة، ج1، ص 126) فإن الكلمة قد ضبطت بصيغة: «إفريقيّة» بتشديد الياء. ولا ندري هل القائم بضبط حركات هذه الصيغة هو مؤلف الكتاب أو ناشره؟ ويؤكد ابن منظور (لسان العرب، ج10، ص 307) أنه ينبغي أن ننطقها «مخففة الياء»، ويذهب الزبيدي (تاج العروس، ج 7، ص 46) المذهب نفسه فيذكر لنا أنه يجب قراءتها «بالكسر... وهي مخففة». ويضيف هذان المؤلفان أن جمع إفريقية هو أفاريق ويستشهدان ببيتين للشاعر الأحوص لا نرى فيهما دليلا قاطعا. أما ابن أبي دينار فهو يرسم الكلمة بصيغة إفريقيا تارة (كما ورد في العنوان مثلا) وبصيغة إفريقية طورا (المؤنس، ص 19).

أما اليوم فإن الاستعمال الغالب شيئا فشيئا هو أن يطلق اسم إفريقيا على القارة بأكملها، وتخصص صيغة إفريقية لتسمية المنطقة الترابية العربية الإسلاميّة التي كانت تحمل هذا الاسم في العصر الوسيط.

حدود إفريقية

يكتنف حدود هذه المنطقة الترابية غموض شديد. فالمعطيات التي يوردها مختلف الجغرافيين والمؤرخين العرب المسلمين ليست دائما متطابقة، ومن المؤكد أن الحدود الثابتة لإفريقية لم تكن في أذهانهم واضحة تمام الوضوح. وبوجه عام فإن إفريقية كانت بالنسبة إلى مؤرخي الفتح الأول تطابق المنطقة التي كان يحكمها البطريق غريغوريوس (أو جرجير) وكانت سلطته تمتدّ مبدئيا من طرابلس إلى طنجة (ابن عبد الحكم [المتوفى سنة 257هـ/871 م]، فتوح إفريقية... ص 42–3 والبلاذري [المتوفى سنة 279هـ/892 م]، فتوح البلدان، ج1، ص267). على أننا نرى البلاذري، قبل ذلك بصفحة، ينقل قول عمرو بن العاص من كتاب له موجّه إلى عمر بن الخطّاب: «بلغنا طرابلس وهي مدينة بينها وبين إفريقية مسيرة عشرة أيام». أما في رأي الورّاق (القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، وهو أحد مصادر البكري (المسالك، ص 21) فإن «حدود إفريقية تمتد طولا من برقة في الشرق إلى طنجة الخضراء المسماة أيضا موريتانيا في الغرب). أما عرضا فإن هذه الحدود تمتد من البحر إلى الرمال التي هي أول بلاد السودان». (ياقوت ج1، ص 228، الحميري، الروض، الورقة 75، ابن أبي دينار، المؤنس، ص20). وهكذا فإن إفريقية كانت في نظر كلّ هؤلاء المؤلفين تشمل كامل المغرب الإسلامي تقريبا. وقد طرأ على هذا المفهوم

تدريجيا شيء من التعديل والدقة عند بعض المؤرخين الآخرين على نحو يقابل التقلبات السياسية التي حدثت بالبلاد على وجه الخصوص.

فالجغرافي ابن خرداذبه (المتوفى سنة 272هـ.885م) الذي يقسم العالم المعمور إلى أربعة أقسام، يختار استعمال الاسم الذي اصطلح عليه اليونان في تسمية القارة الإفريقية فيسميها لوبية (ليبيا)، ويدخل في نطاقها مصر والحبشة وبلاد البربر وغيرها (المسالك، ص24–25). وهو يخصص لفظ إفريقية ليطلقها على إمارة الأغالبة ويذكر أهم المدن فيها (المسالك، ص6–7). وإنا لنشاهد هذه النزعة في حصر إفريقية ذاتها، على أقصى ما بلغته من اتساع، في حدود المملكة التي حكمها الأغالبة عند معظم الجغرافيين (ابن الفقيه [المتوفى حوالي سنة 290هـ/903م]، البلدان ص 30–31، الإصطخري [المتوفى حوالي سنة 350هـ/961م]، المسالك، ص 33 ياقوت [المتوفّى سنة 626هـ/1229م]، ج1، ص 228. المراكشي [المتوفّى حوالي سنة 647هـ/1249م] المعجب، ص 273، 433، 42). وقد كانت هذه المملكة تبدأ من شرق بجاية وتمتد حتى تقف على بعض فراسخ من برقة. (اليعقوبي، البلدان، ص 215).

هذا في حين يرى سحنون (المتوفى سنة 240هـ/ 855م) أن حدود إفريقية كانت تمتد من طرابلس إلى تبنة (حسب الداودي، الأموال، ضمن مزائج (Mélanges) ليفي بروفنصال، ج 2 ص 409). أما المقدسي (المتوفى سنة 375هـ/985 م) فإنّ «أوّل ما يعترضك عند خروجك من مصر كورة برقة، تليها إفريقية، ثم كور تاهرت وسجلماسة وفاس، ثم السوس الأقصى» (أحسن التقاسيم، ص 4–5، وهو يذكر من بين مدن افريقية جزيرة بني زغناية (أو بني مزغناي، أي الجزائر) وماتيجة (أي المتيجة) وآشير، وهذه مناطق لم تكن في أي يوم من الأيام خاضعة لسلطان الأغالبة. ولنذكر في آخر هذا العرض أن ياقوت يحدّها غربا – حسب ما يراه البعض – ببجاية أو بمليانة، في حين يذكر ابن أبي دينار أن كلمة إفريقية لم تعد تطلق في عصره (أي في أواخر القرن السابع عشر) إلاّ على سهل مجردة حتى مدينة باجة (المؤنس ص 20). ولا يزال هذا المعنى مستعملا إلى اليوم في لغة أهل البادية بالبلاد التونسية.

وجملة القول أنّه قد تُوسّع أحيانا في معنى إفريقية حتى شملت كامل بلاد المغرب كما جرى اعتبارها في بعض الأحيان الأخرى منطقة جغرافية قائمة بذاتها. ويمكن أن نقول إن الرقعة الجغرافية لإفريقية كانت تشمل أساسا رقعتي البروقنصلية والمزاق (Byzacène) اللتين تكونان النواة الأصلية فيها، وتضاف إليهما عرضا واستطرادا مقاطعات طرابلس، ونوميديا الأوراس، بل وجزء من نوميديا السطيفية أحيانا. وقد كان يركّب على هذا المفهوم الجغرافي مفهوم آخر إداري. وبهذا الوجه فإن الإخباريين كانوا يذهبون في كتاباتهم إلى إطلاق اسم إفريقية على الرقعة الترابية التي كان مرجع حكمها في العصر الوسيط مركزا بالتداول في قاعدة القيروان ثم المهدية ثم تونس، وقد كانت هذه الرقعة تتسع وتضيق بحسب ظروف التاريخ وتقلباته. لذلك كان استعمال لفظ إفريقية محاطا في غالب الأحيان بقدر كبير من الغموض، فلم يكن معناه يتضح ويستقيم إلاّ في ضوء السياق المقصود والفترة التاريخية المعيّنة.

إبراهيم الأكودي
[1890 - 1942م]

ولد إبراهيم بن عمر بن حميدة المكنّى بالأكودي نسبة إلى مسقط رأسه أكودة سنة 1890. حفظ القرآن وتعلّم القراءة والكتابة ببلدته ثمّ انتقل إلى العاصمة لمزاولة دراسته بجامع

الزيتونة. وتعرّف إلى أفراد جمعيّة «الشهامة» التي كانت وقتها بصدد التأسيس ولم تتحصّل بعد على الرخصة القانونيّة. ولما طال انتظار أعضاء الجمعيّة انفصل مع محمود بوليمان والحبيب المانع وأحمد بوليمان فكّونوا النواة الأولى لممثّلي جمعيّة «الآداب». وكلّف إبراهيم الأكودي بالإشراف على التمارين وضبط العربية مع علي الخازمي المدير الفنّي للجمعيّة، وأسند إليه سنة 1911 دور «صلاح الدين» في مسرحية «صلاح الدين الأيّوبي» لنجيب الحداد. وقد أدّى هذا الدور على أحسن ما يرام ونجح فيه نجاحا فائقا، لكن نظارة الجامع التي كان يرأسها في ذلك الوقت شيخ الإسلام محمود بن محمود قرّرت رفت الطالب إبراهيم الأكودي لأنّه تعاطى التمثيل الذي كان يعتبر عهدئذ «غير لائق». وكان في تلك السنة يستعدّ للمشاركة في امتحانات التطويع فاضطرّ إلى الانقطاع عن الدّراسة والتفرّغ للمسرح. وفي سنة 1913 أغرته جمعية «الشهامة» للعودة إليها بإدخاله في سلك معلّمي المدارس الابتدائيّة الحكومية.

فقبل الأكودي الانفصال عن «الآداب» تحت تأثير ذلك الإغراء وعاد إلى «الشهامة» لكنّه لم يمثّل فيها إلاّ دورا واحدا هو دور عبد الله بن مروان في مسرحية «مجنون ليلى» لخير اللّه خير اللّه. ولمّا اندلعت الحرب العالمية الأولى توقّف النشاط المسرحي في البلاد التونسية بصفة عامّة وفي العاصمة بالخصوص. فانتقل إبراهيم الأكودي إلى صفاقس معلّما بالمدارس الابتدائيّة ثمّ أستقال وكوّن فرقة تشتغل ببيوت القرى ومعاصرها فكان أوّل من عرّف الجمهور بالمسرح في مختلف جهات البلاد.

وبعد الحرب رجع إلى جمعيّة «الآداب» وقام بدور فرعون في أوبرا «عائدة» (تعريب سليم النقّاش) ثم بعدّة أدوار أخرى أشهرها عبد الرحمان في مسرحية «حمدان» (اقتباس نجيب الحداد) كما شارك في مسرحيّة «لصوص الغاب» (لشيلر) واشتغل مع رجل المسرح الكبير جورج أبيض مدّة إدارته لجمعيّة «التمثيل العربي». وفي سنة 1929 طالب إبراهيم الأكودي برفع مرتبات الممثلين إلى 500 فرنك في الشهر. فقرّر رئيس «جمعيّة التمثيل العربي» رفته صحبة مجموعة من الممثلين.

وعندئذ كوّن فرقة تحمل اسمه «فرقة إبراهيم الأكودي» وقدّمت هذه الفرقة باكورة أعمالها وهي مسرحية «صلاح الدين الأيّوبي» في 31 ماي 1930 وألقت الفنانة القديرة فضيلة خيتمي بعض مقاطع فنية بين الفصول.

ثمّ قدمت في الموسم 1930 ـ 1931 ثلاث مسرحيات هي «مجنون ليلي» و«القائد المغربي» (عطيل) و«شهداء الغرام» (روميو وجوليات).

وقدّمت في الموسم الموالي أربع مسرحيات هي: عنتر (تعريب إلياس أبي شبكة) تخللتها مقطوعات شعرية من نظم الأكودي «والملك المتلاهي» (لفيكتور هيجو) و«انتقام المهراجا» (تأليف يوسف وهبي).

وكان الطاهر بلحاج قد انْضَمَّ في الأثناء إلى الفرقة بصفة فني وكان محمود بن عاشور أبرز عنصر في الفرقة التي كانت تضمّ الفنانتين الشقيقتين وسيلة صبري وعزيزة نعيم.

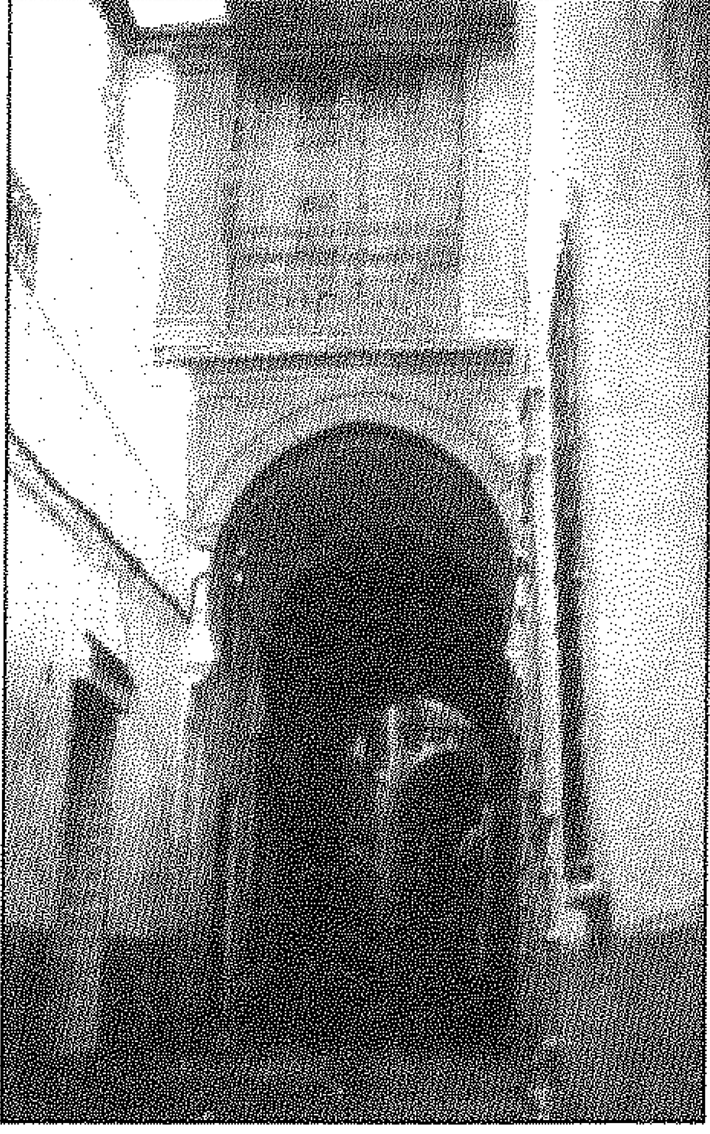
وانضم إبراهيم الأكودي بعد ذلك من جديد إلى جمعيّة التمثيل العربي فكلف بالإشراف على التمارين وتعليم الممثلات وضبط اللغة. ولما قرّر مصطفى صفر توحيد الجمعيات والفرق المسرحيّة بتونس في فرقة واحدة هي «الاتحاد المسرحي» اضطلع إبراهيم الأكّودي بمهمّة مساعد المدير العام الفنّي، واستمر في الاضطلاع بهذه المهامّ إلى أن توفي يوم دخول الألمان إلى تونس أثناء الحرب العالمية الثانية وعمره ستون عاما ودفن بالجلاّز في 8 نوفمبر 1942. وكان في تشييع جنازته قلّة من أقاربه وأصدقائه ومقدّري فضله على المسرح التونسي.

الأندلسيون في تونس

كانت تونس مقصد هجرات أندلسيّة مختلفة عددا وأثرا أولاها سنة 202هـ/818م عندما أجلى «الحكم الأوّل ثوّار ربض قرطبة القبلي بعد انتفاضتي الفقهاء سنتي 189هـ/805م و190هـ/806م. وكانت الثانية خلال ق 7هـ/13م إثر هزيمة الموحّدين والأندلسيين أمام النصارى في معركة العقاب، التي تساقطت نتيجتها أهم المدن، إذ بدأت هجرة شرق الأندلس بعد ضياع بلنسية سنة 636هـ/1238م، وتلتها هجرة غرب الأندلس بعد ضياع إشبيليّة، أي بعد عشر سنوات. ثمّ كانت هجرة أعيان العلم والأدب والصناعة والتجارة وسامي الموظفين الذين استفادت منهم تونس في شتى المجالات اعتبارا للعلاقة التاريخيّة التي ربطت الحفصيين بالأندلسيين. وكان فيها من الفقهاء ابن الأبّار (ت658هـ/1260م) وابن الغمّاز (ت 693هـ/1294م) وأبو المطّرف بن عميرة (ت 658هـ/1260م)، ومن اللغويين ابن عصفور (ت669هـ/1271م) وحازم القرطاجني (ت 684هـ/1286م)، ومن الأدباء والشعراء ابن القصير شاعر البلاط وابن همشك وابن سعيد (ت 685هـ/1287م) والطبيري والفرضي، ومن المؤرخين البياسي (ت653هـ/1255م) ومن الأطباء ابن أندراس (ت674هـ/1276م) وابن الرومية (ت 637هـ/1240م) الذي عاد إلى إشبيليّة وابن البيطار (ت 646هـ/1249م) والخزرجي (ت 699هـ/1300م) الذي كلّف بسفارة مصرية.

وكانت الهجرة الثالثة عند سقوط غرناطة سنة 897هـ/1492م بناء على فتوى الونشريسي. ولكنّ أغلب المهاجرين فضّلوا المغرب الأقصى على تونس المضطربة، وإن حلّ بعض الغرناطيين بسوسة وصفاقس وقابس.

أمّا الهجرة الأخيرة فهي أخطرها لأنّها كانت جماعية بقرار الطرد النهائي الذي أصدره الملك فيليب الثالث في 9/12/1609م بعد أكثر من قرن من الاضطهاد من محاكم دواوين التفتيش ورجال الكنيسة المتعصّبين بعد فشل محاولات تنصيرهم. ورغم تعدّد موانئ التهجير وتسخير الأسطول الملكي والسفن التجارية فإنّ هذه العمليّة استغرقت عدّة أشهر، وتسببت في انتشارهم في بلاد الإسلام مغربا ومشرقا وحتى في أوروبا.



نهج الأندلس في مدينة تونس

ولئن وصل إلى تونس قبيل الطرد عدد مهمّ من الأندلسيين برّا وبحرا وحتّى عن طريق فرنسا فإنّهم عند صدور القرار فضلوا تونس بنسبة عالية تقدّر بثمانين ألفا.

وبعد أن آواهم عثمان داي لدى الأعيان بتدخّل سيدي أبي الغيث القشاش وليّ نعمتهم بادر بتوزيعهم على ثلاث جهات حسب أصنافهم، في تونس وسهول مجردة وجهة بنزرت والوطن القبلي. قال ابن أبي دينار: "وفي هذه السنة [1016 ـ 1017هـ/1609م] جاءت [جماعة] الأندلس من بلاد النصارى، نفاهم صاحب إسبانيا، وكانوا خلقا كثيرا، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد، وفرّق ضعفاءهم على الناس، وأذن لهم أن يعمّروا حيث شاؤوا. فاشتروا الهناشر وبنوا فيها واتّسعوا في البلاد فعمرت بهم، واستوطنوا في عدة أماكن. ومن بلدانهم المشهورة سليمان وبلّي وقرنبالية وتركي والجديّدة وزغوان وطبربة وقريش الواد ومجاز الباب والسلوقية وتستور، وهي أعظم بلدانهم وأحضرها، والعالية والقلعة [قلعة الأندلس] وغير ذلك، بحيث يكون عدّتها أزيد من عشرين بلدا فصار لهم مدن عظيمة".

وتدلّ ألقاب العائلات الأندلسيّة على

مواطنهم الأصلية، وأغلبها بشرق الأندلس، وعلى المهن التي احترفوها، وعلى رغبتهم في الاندماج في المجتمع التونسي وحرصهم على إثبات إسلامهم بألقاب مستعربة بعد أن تعلّموا لغة أهل البلاد وتخلّوا عن لهجاتهم الإسبانيّة وألقابهم المسيحيّة المفروضة. وهكذا فبعد أن كانوا لا يعرفون إلاّ الإسلام البسيط المتصل بالعبادات أصبحوا دعاة متحمّسين للطرق الصوفيّة وبناة مدارس ومساجد وناسخي كتب.

لقد أشار عدّة رحالة بإعجاب إلى محافظتهم على شبه استقلال داخلي، إذ كان لهم القوبرنادور والقوازيل ثمّ شيخ الأندلسيين الذي هو غالبا شيخ البلد أو الخليفة أو القاضي. وقد أدّى أحدهم وهو مصطفى قرضناس دورا كبيرا لصالحهم لدى يوسف داي من 1622م إلى 1653م ولكن علاقتهم بالسلطة لم تحمهم من دفع الضرائب بعد الامتيازات التشجيعيّة في عهد عثمان داي. ومع ذلك ظلّوا محافظين على ثرواتهم ومكانتهم بنجاح استثماراتهم في صناعة الشاشيّة والفلاحة، متعالين على النازحين إلى قراهم بشرف الأصل وبتميّز المعمار واللباس والطعام وحتّى بلون البشرة.

فبذلك التميز طبعوا المجتمع المحلّي بالتمدّن، وبذلك النجاح نمّوا اقتصاد البلاد حتّى قال محمد ابن الخوجة: "وكان امتزاج الأندلسيين بأهل تونس كلقاح خصيب للأمّة التونسيّة، لأنّ أسلافنا أخذوا عنهم أحوالا كثيرة في باب الصنائع اليدويّة، ومنها تجليد الكتب وزخرفتها بأبدع أسلوب، وتعلموا عنهم أيضا كيفيّة عرض البضائع للبيع بالحوانيت من جمعها وضمّ المتشابه منها لبعضه، كما أخذوا عنهم أيضا أساليب الفلاحة ولا سيما آلاتها غير المعروفة يومئذ بتونس، ومنها عربات جرّ الأثقال بالكرّيطة، ولفظ كرّيطة إسباني، فهي من المبتكرات الأندلسيّة، وكذلك ترجع إليهم مزيّة تمهيد الطرقات وتعبيدها. وكان لنسوة الأندلس فضل على بنات تونس لأنهن علّمن ابنة البلاد تدبير المنزل من تأثيث وطبخ وحلويات..."

ظلّ الأندلسيّون طوال القرن الأوّل من حضورهم بتونس محافظين على الملابس الإسبانيّة ثمّ استبدلوها بلباس الأتراك والأعيان وأصبحوا فيما بعد يرتدون الملابس التقليديّة المعروفة. وكانوا يتباهون في أفراحهم بحلويات وأكلات تغلب عليها الفواكه والعطورات والجبن والزعفران كالبناضج والكيسالس والقيزاطا وكعك الورقة. ثمّ تعلّموا إعداد أطعمة حرّيفة ومأدومة.

ولا شكّ في أنّ أهمّ ما امتاز به الأندلسيون هو التغيير الكبير الذي أحدثوه في البيئة، في المناطق التي أحيوها بالزراعات السقويّة والأشجار المثمرة مستغلّين النواعير وطواحين الريح لضخّ مياه الآبار. ومن أهمّ مزروعاتهم الزعفران والتوت الأبيض الذي بواسطته ربّوا دود الحرير والمشمش والرّمان والزياتين والخشخاش والمصطكى والحنّاء والياسمين، كما ربّوا الدواجن والماشية.

وإليهم يعود الفضل في تعمير مواقع عتيقة مهجورة وإحياء أراضيها واستتباب الأمن فيها. ولكم أعجب الرحالة الأجانب بطابع قراهم الإسباني المتميّز بتقاطع الأنهج حسب زوايا مستقيمة، وتسقيف المنازل بالقرميد وزخرفة الزوايا والجوامع والصوامع حسب فنّ النهضة المدجّن بالآجر البارز والجبس المنقوش والجليز الملوّن. فتلك مواد محليّة متوفّرة بأقل التكاليف وضامنة مع تهوئة وإنارة مدروستين لتكييف صحي طبيعي.

ومن أشهر المعالم الأندلسيّة الرواق الشرقي بجامع الزيتونة وتربة يوسف داي والمدرسة الأندلسيّة ودار عثمان وسبيل يوسف داي ببنزرت والبرج الوسطاني بغار الملح وباطان طبربة وقنطرة مجاز الباب وجوامع تستور والسلوقية وسليمان وزوايا سيدي نصر القرواشي بتستور وسيدي علي عزوز بزغوان وأبي زمعة البلوي بالقيروان. ووراء تلك المعالم مهندسون

مهرة أشهرهم أبو البركات وسليمان النيفر ومحمد بن غالب وعلي بن دسيم وعمر البلانكو ومحمد غانم وأحمد مصطفى الأندلسي. واشتهرت في البناء عائلتا النيفر والبلانكو.

وفي الصناعة والتجارة ازدهرت على أيديهم الشاشيّة والحرير والعطورات والتسفير الفنّي وموادّ البناء والآلات الفلاحيّة. ونشط التصدير والتوريد بما حقّق لأكثرهم خبرة بالتجارة العالميّة أرباحا طائلة واقتصر نشاطهم في القرصنة على تبادل تحرير الأسرى بين مسلمين ومسيحيين. وقد ألف أحدهم بالإسبانيّة وهو ابن غانم الرباش كتاب "العزّ والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع" لتعليم إخوانه المدفعيّة وصناعة المراكب وركوب البحر انتقاما من أعدائهم النصارى. وفي ترجمة أحد مشائخهم - وهو مصطفى قرضناس - أنّه كان يتصرّف في قصره وضيعته بقرنبالية في أكثر من ثلاثمائة من المسيحيين والسودان، وكان يشغلهم في فلاحة ثلاثين ألف زيتونة تتخلّلها أشجار اللّوز للمتاجرة بزيوتها وفي تصنيع الحرير بثلاثين منسجا، وكانت مبادلاته مع الموانى المتوسّطيّة، وبأمواله حرّر بعض التجّار الأندلسيين الذين وقعوا بسفنهم في الأسر.

ومن أطرف معاملاتهم الخارجيّة شراكة محمد سيّار أو خيّار وخوان بيريت مع خبير ألماني وتاجرين من مرسيليا لإنشاء مصنع صابون هناك، عمل من سنة 1621م إلى سنة 1623. فلا نستغرب أن يسمّى بعضهم من ذوي الكفاية والتجربة على رأس الديوانة مثل القائد محمد مورو سنة 1621م، ومامي سبنيول سنة 1635م وسيدي رجب الأندلسي بعد سنة 1645م وسيدي علي الصوردو بعد سنة 1653م. ولأنه حرّر عدّة أسرى بصفته نائب حكّام جنوة بطبرقة بعد أن ذاق الأسر وصودرت سلَعُهُ بجنوب فرنسا عندما كان قاصدا البندقيّة في التاريخ المذكور، عدّ من أولياء تونس الصالحين.

ولئن لم تكن الهجرة الأخيرة هجرة علماء شأن هجرة العهد الحفصي فقد أمكن التعرف إلى بعض الكتّاب الذين اهتمّوا بالتثقيف الديني فيما ألّفوا أو اقتبسوا وقد كتبوا بالقشتاليّة وبالألخميدو تشبّثا بالحرف العربي حتّى تعلم أحفادهم لغة الإسلام والهويّة فكتبوا بها. فقد عرّفتنا المخطوطات بالكاتب والشاعر ابراهيم التيبلي المعروف بخوان بيريت الذي ولد بطليطلة وعاش بتستور في الثلث الأول من القرن السّابع عشر حيث نظم قصيدة ذات 4608 بيت بالإسبانيّة مع بعض التعاليق بالعربيّة في الدفاع عن الإسلام والردّ على النصارى، والكاتب الرحّالة أحمد بن قاسم الحجري الذي ألّف بتونس سنة 1635م أو سنة 1639 في معجزات النبي ومكارم الخلفاء والشرفاء وترجم كتاب الشفاء للقاضي عياض وألّف - ربّما بالمغرب حيث كان ترجمان مولاي زيدان - كتاب " ناصر الدين على القوم الكافرين"، والفقيه الإمام أحمد بن محمد بن عبد العزيز الشريف القرشي الذي درس الفقه الحنفي بسراييفو والبصرة وعاد إلى تونس سنة 1620م للتدريس بالمدرسة السليمانيّة والإفتاء والخطابة بجامع يوسف داي والتأليف بالإسبانيّة والعربيّة، والشاعر الحاج محمد الروبيو الأراقوني الذي أنفق من ثروته على ترجمة كتب إسلاميّة من العربيّة إلى الإسبانيّة له ولإخوته الذين لم يتعلموا العربيّة بعد، والفقيه اللغوي علي الكوندي التستوري (ت 1119هـ/1707م) مؤلف "الرحلة إلى الصين" والمؤرخ الوزير السراج (ت 1149هـ/1736م) الذي ترجم لبني ملّته في "الحلل"، وترجم لأحفادهم ابن أبي الضياف في "الإتحاف".

لقد مثّلت الهجرة الأخيرة أهمّ حدث شهده مطلع القرن السابع عشر في العالم المتوسطي بانعكاساته المختلفة على موازين القوى بين إسبانيا وتركيا وبين الإسلام والمسيحيّة وعلى البلدان المستقطبة للمهاجرين. وكانت الهجرة إلى تونس بحكم سياسة الاستقبال والتوطين رافدا حضاريا مهمّا ومتميّزا كمّا وكيفا مسهما

في تقدّم البلاد في شتّى المجالات بتأثيره العميق والمتواصل في الواقع وتفاعله مع روافد أخرى.

الإنشاد الطرقي (الصّوفي)

ظهرت أولى حلقات الشطح والسماع منذ أواخر القرن الثاني للهجرة ببغداد كما يذكر ذلك المستشرق الفرنسي لويس ماسينيون نقلا عن التنوخي أبي علي، في حين يرجع ماسينيون نفسه مجالس الذكر إلى سنة 120هـ/738م أي مع بدايات التصوف الإسلامي.

على أن الظهور الحقيقي لحلقات الذكر ومجالس الإنشاد الصوفي كان بعد عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي يعزى إليه بعث أول خانقاه (زاوية). وكانت تعرف بدويرة الصوفية بالقاهرة يقصدها الصوفية الوافدون إلى مصر وأجرى عليها أوقافا سنة 569هـ/1173م، وهي تعدّ أول خانقاه أسست بمصر ولُقّب شيخ هذه الزاوية بشيخ الشيوخ. وقد انتشر في الآن نفسه بمختلف أقطار العالم العربي الإسلامي، ولا سيما ببلاد الشام والعراق وشمال إفريقيا، أمر الزوايا والطرق الصوفية والرباطات التي تأوي الزهاد والعباد وكل من آثر حياة التروحن والتأمل.

وفي تونس، رغم أن الإرهاصات الأولى للحياة الصوفية وما يتصل بها من مجالس الذكر تعود إلى العهدين الأغلبي والصنهاجي، فإن مجالس الإنشاد وحلقاته في شكل جماعي لم تظهر إلا في العهد الحفصي على إثر مجيء أبي مدين شعيب الأنصاري (ت595هـ/1198م) هذا القطب الذي اجتمع فيه سرّ تصوف المغرب بحكمة تصوف المشرق عند لقائه بعبد القادر الجيلاني (ت564هـ/1168م). وقد كان لأبي مدين أثره في شخصيات أمثال عبد العزيز المهدوي (ت620هـ/1223م) والدهماني والنفطي (ت610هـ/1213م) وأبي سعيد الباجي (ت628هـ/1231م) الذي أثّر في أبي الحسن الشاذلي (ت658هـ/1258م) عند قدومه من المغرب.

وقد واصل الشاذلي نهجه في التربية الروحية للمريدين والاتباع عبر الذكر والالتزام بالأوراد وهي عدد معين من التسابيح وأذكار التوحيد والصلاة على النبي مع تلاوة الأحزاب (ومفردها حزب) ويعني الحزب في نظر الصوفية حسبما عرّفه «دوزي» Dozy مجموعة الأدعية التي يؤلفها أحد الشيوخ البارزين في الطريق الصوفي وأعطى مثالا على ذلك «حزب البحر» من تأليف الإمام أبي الحسن الشاذلي.

ولقد ظلّت زاوية أبي سعيد الباجي شيخ أبي الحسن الشاذلي الكائنة بجبل المنار (ضاحية سيدي بوسعيد حاليا) ظلت فضاء يجتمع فيه المريدون وعشاق الحياة الروحية لغاية الذكر والمدح. وقد نشأت بمرور الوقت في تلك الزاوية أنماط مختلفة من ألوان الذكر والسماع لعل أبرزها «المجرد» وهو لون من مالوف الجد يقوم على ضرب الأكف بإيقاع معين لضبط نسق الأداء دون مصاحبة أي صنف من الآلات الموسيقية. وقد ارتبطت هذه الأوراد والأحزاب بحياة المجتمع وأثرت في نشاطه اليومي وأصبحت ذات وظيفة رمزية لها أثرها في كل مجالات الحياة.

وقد وُجد الكثير من الحروز والأحزاب التي توارثها الناس فيما بينهم واعتقدوا في تلاوتها الصّلاح والبركة، فكل من أراد الرزق وتصريف الأمور قرأ، على سبيل المثال، حرز الأقسام المنسوب إلى الشيخ محرز بن خلف. وكل من ركب البحر في السفر وهالته الأمواج وهبوب العواصف تلا حزب البحر المنسوب إلى الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وغير ذلك كثير. ولا يمكن أن ينكر أحد ما كان لهؤلاء الأولياء من تأثير في وعي خاصة الناس ووجدان عامتهم وهم يلتمسون منهم الفرج عند الكربة، والشفاء عند المرض، والرزق والغنى عند الفقر، والزواج عند العُنس... لذلك نسبت إلى الأولياء كرامات

زادتها أحيانا الأسطورة الشعبية تنميقا وهالة من الإعجاز حتى باتت الكرامات معجزات وغذت الذهنية الشعبية مثل هذه التصورات.

وقد ازدهر لدى أهل الصوفية منذ القرن السابع للهجرة تأليف الأزجال والموشحات التي صُنعت ألحانها حسب التقاليد الأندلسية، كما جاء في الدراسة الوصفية المفصّلة التي قام بها كل من Dagmar وLaadeu الألمانيين حول الأناشيد والحضرات في تونس سنة 1960 بعد أن طافا بالبلاد وسجلا عدّة ألحان وقدما لنا الطرق الدينية الإسلامية ومصطلحاتها الفنية: تنظيماتها وأماكنها وطقوسها وأناشيدها وموسيقاها وآلاتها، وتحدثا كذلك عن طقوس السرد من أصل أفريقي وإيقاعاتها.

ازدهر فن الإنشاد الصوفي بتونس أساسا مع مطلع القرن الخامس عشر، قرن تعاظم انتشار الحركات الصوفية وتعميم مبدإ الطرقية، إذ ظهرت تلك القولة الشهيرة التي تردّدت على ألسنة العامة: من لا طريقة له فطريقته شيطانيّة أو «من لا ولي له فوليه الشيطان». وقد برزت إلي الوجود التآليف الكثيرة المتعلقة بأنواع الصلاة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم وطرائق ذكر المولى وحمده وتسبيحه والتهليل باسمه.

ومن أبرز أدبيات المديح الصوفي التي انتعشت في هذه الفترة نذكر كتاب محمد بن سليمان الحسني الجزولي «دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار». يقول عنه المؤرّخ لطفي عيسى: «هو تصنيف في الدعاء والتضرع عرف انتشارا واسعا داخل النطاق الإسلامي وخاصة بمركز الخلافة العثمانية (تركيا) وهو من الأوراد المنسوبة إلى نفس المصنّف المتوفى سنة 870هـ/1465م وكذلك ورد «سبحان الدائم لا يزول». وقد جعله مع ورد الفلاح الشيخ محمد بن عيسى الإدريسي وردا لجماعته».

ولهذه الأوراد جماعات خاصة بالحاضرة تتكفل بتلاوتها مضيفة إليها منظومات وأشعارا أخرى، مثل رائية أهل بدر. كما توجد جماعات خاصة بقصائد البوصيري وأخرى بالهمزية والبردة وتدعى بالبردجية (بجيم النسبة للصناعة عند الأتراك).

ويذكر أنه راجت في الفترة نفسها حلقات الإنشاد التي وجدت في أوراد أقطاب التصوف ووظائفهم وأشعارهم أكبر معين لها فأخذت تنشد بعض القصائد الصوفية لشعراء وصوفية كبار أمثال رابعة العدوية وعبد القادر الجيلاني وابن الفارض ومحيي الدين بن عربي وغيرهم على أنغام وإيقاعات تارة مألوفة وطورا مبتكرة، ضمن حلقات السماع وما تحتويه من إنشاد وذكر وتركيز على الاستماع إلى المديح النبوي والتسابيح.

ولئن كتب لطفي عيسى: «إن السماع في تلك الفترة كان يعتمد الإنشاد بالارتكاز على الطبوع التونسية المستوحاة من الموشحات الأندلسية» فإن عدّة شيوخ الصوفية وبعض مؤرّخي الحضارة يعتبرون أن الإيقاعات التي تقدم على أنغامها الأناشيد الصوفية هي من ابتكار أهل الطريقة وأن أصحاب فن التوشيح والطبوع هم الذين استندوا على النموذج الصوفي وحاكوا بنيته في سبيل بناء «النوبة» أو الموشح في صورتهما المعروفة.

وقد كان مقدّمو الزاوية (جمع مقدّم وهو القائم على شؤون الذكر في الزاوية) يجتمعون كل عشية وخاصة عشية الجمعة، قبل صلاة المغرب وقبل موعد الوظيفة أو بعده حسب الطرق، وذلك لقراءة كتب الرقائق وإنشاد الشعر الصوفي في الحضرة والختم بالصلاة العظوميّة.

ونجد في أوراد سفاين الإنشاد الصوفي تركيزا مستمرا على ربط الرموز الصوفية الكبرى بشخصيات الصحابة والنبي صلى اللّه عليه وسلّم، مثلما نستنتج من هذه القصيدة لمحمد المنذر القادري (أحد رموز الزاوية القادرية بمنزل بوزلفة):

بالمصطفى العدناني والآل والصحب
والصديق الرباني من حظي بالقرب
وعمر ذي الشأن من ذكره يسبي
والمرتضى عثمان من قد سبا لبي
وسيد الشجعان علينا القطب
كذلك الحسنان حبهما يسبي
والأولياء الأعيان في الشرق والغرب
وشيخنا الجيلاني المشرق الحرب
وشيخنا الدهماني فيه نما حسبي
وابن عيسى الرباعي الرائق الشرب
وابن عزوز الداني من حضرة الرب
بمحرز السلطاني أدعوك يا رب
وجد بنيل الشأن وتفرج الكرب
ودع لعبد فان بالفضل يا رب
والعفو والغفران والنور والقرب
وبن عروس الداني والسيد العربي

كما تقوم الطرق الصوفية بواسطة الإنشاد الجماعي والمستمر بالمساهمة في تشكيل وإعادة تشكيل الذاكرة السنية المشتركة والمخيال الإسلامي الجمعي. ويصح هذا بالخصوص على الطرق المتفتحة على جل الرموز الصوفية ويتجلى كذلك في راياتها (السناجق) التي كانت تحمل أحيانا عبارة «لا إله إلاّ اللّه محمد رسول اللّه» في الوسط وفي أركانها الأربعة أسماء الخلفاء الأربعة.

غير أن مثل هذا التشديد على متانة الصلة بين النبي وصحابته والأولياء عند الصوفية وربط بركة الأولياء وعرفانهم به باعتبارهما مصدرا للعلوم وواهبا للمعارف والمدد والإشراق النوراني على القطب، لا يمكن أن يتحوّل إلى دعوة هدفها إعادة بناء المجتمع الإسلامي وتصريف أموره الدنيوية وشؤونه اليومية والقضائية والسياسية على مقتضى مؤسسة دولة النبوة أو الخلفاء الراشدين، فذلك شأن آخر ولا حاجة إلى أقطاب الصوفية ورموزهم به. فالطريق الصوفي طريق محبة وعرفان، طريق وجد وجذب ومعراج روحاني وكشف رباني كما تؤكد ذلك كل أدبيّات أعلام الصوفية.

ويلحّ عبد القادر الجيلاني على ضرورة الصبر على أذى العامة وعدم التدخل في أمور الدنيا والاهتمام بالنفس أساسا وترويضها على محبة اللّه وطاعته والتحلّي بآداب الطريق. ويأتي قول ابن سينا في كتابه «الإشارات والتنبيهات» ليؤكد الغاية القصوى التي تتجه إليها إرادة الصوفي والتي هي معرفة الحق الأول، ولا شيء غيره، فلا يؤثر شيئا في عرفانه وتعبده له فقط، لأنه مستحق للعبادة، لا لرغبة أو رهبة.

وقد أدرك جاك بارك المستشرق وعالم الاجتماع الفرنسي في دراساته حول المغرب العربي هذا المنحى في حياة الطرق الصوفية ومدى ابتعادها عن السياسي إذ يقول إنه «في نظر مؤسسي الطرق، مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، مثل الطيب الوزاني والعربي الدرقاوي ومحمد بن عبد الرحمان وأحمد التيجاني، يجب أن يكون الإيمان داخليا وأن هؤلاء الشيوخ رغم انتمائهم ونزعتهم الاستقلاليّة وحملهم السلاح أحيانا، لم تخامرهم فكرة تكوين دولة بديلة عن الدولة القائمة إذ انتقل هاجسهم من الماكرو سوسيولوجيا إلى الميكرو سوسولوجيا أي من الدولة إلى المجتمع والإنسان، وقد دعا التيجاني أتباعه إلى خشية اللّه فقط والاعتراف بالضعف البشري».

حلقات الأذكار والمزارات

جاء في كتاب الصادق الرزقي «الأغاني التونسية» (1915) في ما يتعلق بالمزارات أنها ملحقة بأفعال التعبد عادة.

وذكر أنها «شهيرة عندنا بالحاضرة (و) هي ضريح الشيخ سيدي أحمد بن عروس وضريح الشيخ سيدي محرز بن خلف، وتوجد مزارات أخرى خارج الحاضرة مثل مقبرة الزلاج حيث مقام الإمام الشيخ سيدي أبي الحسن والمغارة الشاذلية، و(مثل) خلوة أو دار السيدة المنوبيّة بنت عمران، وخارج باب سيدي عبد اللّه مقام الشيخ سيدي عبد اللّه الشريف. وكان مقام

سيدي علي الحطاب وطريقه إلى بحيرة السيجومي... ودار السيدة المنوبيّة بقرية منوبة البعيدة عن الحاضرة بنحو سبعة أميال، ومقام فتح اللّه التركي الكائن بجبل الجلود...».

شيخ العمل والخرجة والآلات المستعملة في حلقات الذكر

يمكن أن نعرّف شيخ العمل بأنه من يتولى الإشراف على حلقة الذكر وتنشيط المريدين وضبط سير الأوراد في كل لقاء بالزاوية «الخانقاه» ويسميه بعضهم بشيخ الششتري نسبة إلى الشيخ أبي الحسن علي النميري الششتري.

وهذا الدور لشيخ العمل عرفت به أكثر الطريقة العيساوية. ويكون شيخ العمل عارفا بالطبوع والإيقاعات وأسمائها، ويكون تعيينه بإجازة من شيخ الزاوية أو شيخ الطريقة. وشيخ العمل هو الذي يختار من «الفقرا» من فيه أهلية للعمل فيضعه في مكان يختص به في الحلقة لا ينتقل عنها وهو الذي يباشر نقر الطار في بعض الطرق وضرب النغارات أو يكلف بذلك من شاء من تلاميذه. ويسمى الذي على يمينه كاهية الشيخ أو نائبه، والذي على يساره يكون هو المنشد، وهو الذي يترنم بالقصائد نشيدا في الراحات التي تتخلل النوبات.

وعند الجلوس يفتتح العمل بقراءة الفاتحة، ثم يشرع الحاضرون في المديح (دون آلات) والمراوحة بين تموجات الحدة والثقل والتّأنّي والسرعة، فيندفع الشيخ في المديح وقد يعاونه كاهيته أو بعض الأفراد أو يتلقفون منه بعض الأصوات فيعينونه على إتمام المدحة، ثم يرددون طالعها ويسمى ذلك «الرّدة» كأن يرددوا هذا القول مرتين:

يا شيخي أعطف علي
يا مولى الرتبة العلية

فيقول هو:

يا شيخي يا عبد القادر
أنت سلطان الأكابر
يا مولى البرهان الحاضر
أعطني عيشة هنية.

والخرجات عبارة عن خروج «فقرا» الزاوية بالذكر والمديح والأعلام والحراب والطاسات لإقامة العمل بضريح أحد الأولياء.

وبعد تعيين اليوم المعد للخرجة يصدر شيخ الزاوية الإذن للباش شاوش بالتهيؤ لذلك فيأمر الشواش بلبس ثياب الزينة وتعطيل الشغل في ذلك اليوم. أما الباش شاوش فإنه يجري التفقد على الماعون وهو النغارات والطّيران (جمع طار والمقصود به الرق) والدفوف ويتفقد «الحرر» أي الأعلام وغير ذلك من اللوازم فلا يأتي اليوم المعين حتى تكون جميع الاستعدادات حاضرة.

ويضع «الفقرا» المحامل على أكتافهم وهي عبارة عن عصي مخروطة، في نصفها حلقة من نحاس يوضع فيها مؤخر العلم مشدود الطرفين بسير من الجلد مطرز بالحرير يضعه العلاّم على كتفه، ويتقدمون بنظام حتى يقفوا أمام بعضهم ظهرا لوجه. ويحمل العلام شبه لواء صغير معلقة فيه مبخرة من نحاس كالطبق مشدودة إلى ذلك اللواء بسلاسل، ويدعو العشّاق (الذي يكثر من الصلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم) بصوت مرتفع وبيده مَبْخَرَة البخور، وخلف هؤلاء كلهم جماعة العمل ملتفين صفوفا حول شيوخهم وبأيديهم البنادر (الدفوف) والطِّيرَان والنغارات وخلفهم شيخ الطريقة، وخلفه علاّم يحمل على رأس الشيخ علما أخضر فيشرعون في المدح بصفة ترسل وهزيج قريب من الخفيف (في غناء المالوف) وفيه الخفيف أيضا ويسير الموكب إلى المحل المقصود.

في أصل الحضرة وحقيقتها: (العيساوية أنموذجا)

إنّ الحضرة من أبرز ما يميز جماعة الطريقة العيساوية نسبة إلى الولي الصالح الذائع الصيت الشيخ سيدي محمد بن عيسى المكناسي دفين مكناسة الزيتون (ت933هـ/1525م). والحضرة هي في الأصل عبارة عن وقوف صف من «الفقرا»

أمام حلقة العمل حفاة الأرجل مجردين من الجبايب والبرانس يذكرون اللّه بضمير الغائب «هو، هو» بغرغرة في الصوت وتجهّد وتراكع منتظم قد يكون واحدا بعد واحد وقد يتفقون فيه جميعا، وذلك حسبما تقتضيه الألحان التي يقوم بها جماعة العمل في المديح. فيتعمدون من حين إلى آخر على ساق واحدة في الوقوف مقدمين الساق الأولى ليركزوا بها على الأرض وفق النغم والخروجات ومعاني المنطوق به وما يوحي به، وذلك على أشكال متنوعة وحركات مخصوصة تحدث صدى ملازما للنقر الصادر من الدفوف والطّار والنغارات ويحدثون ذلك تبعا لشيخ الحضرة الذي يقف في منتصف الصف.

وهذا الشيخ تراه يخرج من وسط الصف من حين إلى آخر ويأتي بحركات من الرقص والركوع والتصفيق الحاد والإشارات بالتعظيم والغرغرة كلما سمع في المديح ذكر اسم النبي صلى اللّه عليه وسلم أو ذكر أحد الأولياء، بحيث يأتي بحركات لافتة للانظار، وكل ذلك يكون ارتجالا ودون نظام نغمي مسبق.

ويصف الصادق الرزقي الطور الموالي من عمل الحضرة فيقول:

«وتقف الحضرة أمام هذه الحلقة المستطيلة صوب وجوه أصحابها للصف الذي يكون فيه شيخ العمل. فيشرعون بعد قراءة الفاتحة في ««المجرد» وهو عبارة عن كلام في مدح الشيوخ والحضرة النبوية ويكون مقفى وتارة يكون خاليا من القافية، وفيه بعض الوزن، ومن المجرد ما لا يوجد فيه وزن ولا قافية. فيعمدون إلى إتمام لحنه على التأوهات أو كلام آخر كلفظ «يا بابا» أو «اللّه اللّه». وهذا المجرد لا يخدمونه إلا بضرب الكف على الصنائع (أي المقامات الموسيقية) المعروفة بأوزان أغلبها مقتبس من نوبات المالوف. وأحيانا يستخدم أفراد الطريقة العيساوية الدف وآلات الإيقاع ويقدمون في ذلك نوبات فيها من شعر ابن الفارض وغيره من أقطاب الصوفية.

وبعد المجرد يأتون بالمديح ويرتكبون فيه من الحركات والخفيف ما يأتي في المالوف ويخدمون نوبات المديح الأولى بالطّار والنغارات فقط. فإذا أرادوا الانتقال إلى الخمّاري فإنهم يزيدون في ضرب الدفوف التي تتراوح بين الأربعة والثمانية». وتجدر الإشارة إلى أن للطريقة العيساوية في تونس نوبات في مالوف الجد أيضا عددها يضاهي نوبات المالوف الأندلسي.

وفي هذه الحالة يكون المريدون متحلقين حول شيخهم (شيخ العمل) ضمن فضاء شبه معزول عن العالم، فضاء للحركة والسماع والمداومة على ممارسة الطقس. ونجد داخل هذا الفضاء حالات يتم فيها الانفصال عن العالم الخارجي والانتقال إلى الوجد والتواصل مع عالم الحضرة والشهود.

العناصر الموسيقية في أناشيد الطرق الصوفية

* الطريقة الشاذليّة

تعتبر الطريقة الشاذليّة من أشهر الطرق الصوفية بالشمال الإفريقي التي أثرت وانتشرت مشرقا ومغربا وتنسب أحزابها وأورادها إلى الإمام أبي الحسن الشاذلي. وقد ألف الشاذلي ما يزيد عن العشرين حزبا تؤدى في أنغام معينة وعلى درجات صوتية تتراوح بين الشدة واللين. وقد ألف تلميذه سيدي أبو العباس المرسي حزبا واحدا على نهج شيخه.

ومن أهم أحزاب الشاذلي «حزب البحر» و«حزب الشيخ» أو «الحزب الكبير» و«حزب الحمد» و«حزب الفتح». وتتضمن هذه الأحزاب بالدرجة الأولى معاني التوسل إلى اللّه تعالى وإيثاره على كل شيء مع التلطف بآي القرآن والدعوة إلى الصبر على مكاره الدنيا والاستغفار والحمد.

وتتضمن حصص الذكر في الطريقة الشاذلية تلاوة لما يتيسر من القرآن الكريم وقراءة للأحزاب والأدعية وترديد اسم الجلالة اللّه ثم

(هو) على درجتين يفصل بينها بعد رباعي أو خماسي. ويقوم الباش منشد وهو قائد المنشدين بارتجال قصائد ذات أغراض دينية ثم يشترك مع بقية المنشدين بعد الذكر في إنشاد ما يسمى بالمرزوقية وهي قصائد تؤدى في مقام راست الذيل يتناوب فيها المنشدون ويشتركون بعد ذلك في أداء بعض البشارف التونسية بالآهات.

* **الطريقة الرحمانية**

المؤسس الأول لهذه الطريقة هو عمر الخلوتي. وقد حملت في شمال إفريقيا اسم محمد عبد الرحمان القشتولي (ت1794م) الذي عمل على نشر الطريقة في شمال إفريقيا. وترتكز مبادئ هذه الطريقة على القيام بالفروض والانهماك في ذكر اللّه بصوت جهوري، وترديد أذكار يومية بجامع الزيتونة وذلك كل يوم بعد صلاة العصر وهم جالسون في شبه حلقة. ومن أشهر زوايا الطريقة: زاوية الشيخ علي بو حجر بالكاف. وقد أدخل المنتسبون إلى الطريقة آلات إيقاعية مثل الطّار والنغارات والدفوف وألفوا لها مدائح شبيهة بمدائح القادرية.

* **الطريقة العروسية**

وتنسب إلى الشيخ أحمد بن عروس (ت1463م). ولم تنل هذه الطريقة من الشهرة ما نالته الطرق الأخرى ولم تنتشر مثلها. والمرجح أن تكون قد أخذت بعض أوراد هذه الطريقة وأحزابها جماعة السلامية التي كانت في ابتداء أمرها تؤدّي أذكارها في الزاوية العروسية.

* **الطريقة السلامية**

يعود تأسيسها إلى الشيخ عبد السلام الأسمر (ت1573م) ولها شهرة كبيرة وأتباع كثيرون بين تونس وليبيا خاصة، ولها أذكار قليلة وأدعية مخصوصة تؤدى بأسلوب لطيف.

ومما يؤدى في هذه الحلقات:

إنشاد السلسلة الذهبية: وهي عبارة عن تسعة وسبعين بيتا أطلق عليها الشيخ عبد السلام اسم «السلسلة الذهبية» يفتتح بها قسم العمل الذي يؤدى إنشادا معتمدا على إيقاع ونغم.

وقد ذكر فتحي زغندة في دراسته: «الطريقة السلامية في تونس، أشعارها وألحانها» أن لحن السلسلة حسب ما تتوافر له من روايات، ينطلق في مقام الحسين أثناء البيت الأول ونصف البيت الثاني ثم يتخلص إلى مقام رمل الماية بإبراز عقد الجواب، ويجري اللحن من البيت الثالث إلى البيت الثامن في المقام نفسه ثم يتخلص إلى مقام الرمل في البيتين التاسع والعاشر ومنه إلى مقامي راست الذيل في البيت الحادي عشر والعراق في البيتين الثاني عشر والثالث عشر. وتنطوي هذه السلسلة على زخارف وتلوينات عدّة إلى درجة أن ترقيم ألحان السلسلة الذهبية موسيقيا لا يترجم كل الزخارف التي يمكن أن يضيفها المنشد.

سلسلة الفزوع: وهي تسمية تطلق على قصيدة باللهجة الدارجة تحتوي على ما يناهز الثمانمائة بيت. وكلمة فزوع تعني الاستعانة بالأولياء والصالحين للتغلب على النزاعات وقضاء الحاجات والتوسل إلى اللّه.

ينبني لحن سلسلة الفزوع حسبما هو شائع في القطر التونسي على الارتجال أي أن الجمل التي يتركب منها اللحن غير ثابتة (مع أنها خاضعة لإيقاع ذي ثلاثة أوقات) بل تتغير من شيخ إلى آخر بحسب ما لكل شيخ من معرفة موسيقية أساسها التمكن من الإيقاعات وحذق المقامات أو الطبوع وحسن التصرف فيها والتخلص من طبع إلى آخر حسب طرق أقرتها التقاليد.

وتعطي هذه المعرفة الموسيقية قدرة على ابتكار ألحان متناسقة تعكس سلامة ذوق المنشد وتمكنه من التأثير في السامعين وإطرابهم بأن يجعلهم يتجاوبون مع طريقة أدائه.

التصلية: يقوم المنشدون «بالتصلية» أي ترديد: اللهم صلّ على سيدنا محمد وسلم على

آله وصحبه، مع قصيد في مدح الرسول على لحن بسيطٍ وسريع يتركب من درجتين. ثم تتلى الفاتحة وبها يختم القسم الثاني الخالي من استعمال الآلات.

البحور: من العسير حصر عدد بحور السلامية، وقد لحن أغلبها في مقامات تونسية سواء منها المستعملة في التراث التقليدي (المالوف) أو الشعبي الحضري وكذلك شأن الإيقاعات الموسيقية التي لحنت عليها البحور. وأهم إيقاع تقليدي مستعمل في البحور هو دخول براول. أما الهيكل اللحني للبحور فيشتمل على جملة موسيقية أساسيّة ينشدها شيخ الفرقة فيعيدها المنشدون ثم يتناولها الشيخ ثانية على مختلف أبيات البحر مع تصرّف جزئي وخروج من مقام إلى آخر بحسب مقدرته على التصرّف والارتجال الموزون.

الشطحة: يكون إيقاعها أسرع بقليل من الإيقاع الذي لحن فيه البحر.

الختم: هو مقطوعة تلي الشطحة وتكون في إيقاع موسيقي أسرع من الإيقاع الذي بنيت عليه.

التهليلة: هي جملة موسيقية بسيطة في إيقاع سريع (براول سريعة) تنشد اسم الجلالة. وكلمة تهليلة (من تَهْلِيل) مشتقة من اسم اللّه.

وتختم الوصلة الغنائية للسلامية بالتهليلة وتسمّى أيضا «جذبة» وهي أسرع مقطوعة في الوصلة وبها يصل حفل السلامية إلى ذروته.

ويمكن أن يتضمن الحفل في الزوايا وصلتين تتضمن كل منهما بحورا وشطحات وأختاما وتهليلات متنوّعة.

*** الطريقة العامرية**

تنسب إلى الولي الصالح الشيخ سيدي عامر المزوغي، ولها انتشار في الجزائر أكثر من تونس. ويجتمع العامريون أو «العوامرية» ـ كما يسمون في الأوساط الاجتماعية العامة ـ كل يوم خميس إثر صلاة العصر يتجاذبون وشعورهم منشورة على أكتفاهم... فيصيحون «اللّه اللّه» إلى أن يخرج الواحد منهم عن طوره. ويَسْتَعْمِل العامريون آلات موسيقية مثل الزرنة والطبَلة (الدربوكة) علاوة على الطّار والنغارات والدفوف.

*** طريقة سيدي بو علي النفطي**

أسسها الشيخ أبو علي النفطي (ت615هـ/1213م)، وهذه الطريقة مبنية على الذكر والمديح. يرقص المنشدون مستعملين آلات كالبندير والقندي (طبل صغير من فخار هرمي الشكل). وانتشرت هذه الطريقة أساسا ببلاد الجريد.

*** الطريقة العزوزية**

تنسب إلى الولي الصالح سيدي علي عَزّوز المولود بفاس بالمغرب الأقصى والمتوفى بزغوان 1705م. ولهذه الطريقة زوايا، الأولى بنهج سيدي علي عزوز بالعاصمة، والثانية ببنزرت، والثالثة بزغوان حيث يوجد ضريح الشيخ. ولها فنون عجيبة أندلسية بالطار والنغارات.

*** الطريقة المدانية**

نسبة إلى الغوث أبي شعيب الأنصاري المداني (ت 594هـ/1197ـ1198م) الذي أدرك مقام الولاية بعد أن التقى بالشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني على إثر سفره إلى مكة المكرمة. وهذه الطريقة تختلف عن الطريقة العلاوية المنسوبة إلى سيدي أحمد العلاوي ذي الصلة بطريقة العائلة «الدرقاوية» التي كان شيخها العربي الدرقاوي.

وتختص الطريقة المدانية بالمبالغة في الزهد والتقشف وكبح الشهوات والتفكير في أحوال الآخرة. وأتباعها كثيرون، وكان من النادر عندهم إدخال المديح واستعمال الآلات. ومن طقوسهم الاجتماع في الزاوية وقراءة «الوظيفة» جالسين والتذاكر في المواعظ ثم الوقوف على شكل حلقة والشروع في ذكر اللّه بضمير الغائب «هو».

ويصل المريدون إلى حالة المشاهدة بواسطة

التكرار المواصل لاسم «اللّه» أو لاسم يحيل عليه وهم في حالة من الزفير والنفير والانحناء والوُقُوف. ويتسارع النسق دون أن يحيدوا عن أماكنهم.

وكان الشيخ محمد المداني مؤسّس هذه الطريقة بقصيبة المديوني قد نشرها بأمر من أستاذه أحمد العلاوي سنة 1910. وتم سنة 1918 تأسيس الزاوية الرئيسة للطريقة الموجودة الآن بقصيبة المديوني. وقد وجدت في قلوب الناس مطاوعة سهلت انتشار الطريقة في جهات عدّة من البلاد التونسية، بالعاصمة وأحوازها، وبزغوان ومنزل تميم والسواسي وصفاقس والمحرص وقابس والمرازيق ونفزاوة ومنطقة المهدية، إضافة إلى الفروع الأخرى بالمنستير وتوزر ونفطة والرديف. وتشترك هذه الطريقة مع غيرها من الطرق الصوفية في التعبير عن الحقيقة الإيمانية الصوفية وطلب معرفة اللّه ومرضاته بالشعر والموسيقى عبر أشكال عدّة. وتتميّز هذه الطريقة عن الطرق الأخرى بعدم استعمال الآلات الموسيقية بل تقتصر في الإنشاد على أصوات المغنين عوضا عن كل الآلات، فيردد المنشدون اسم الصدر (آه) في قالب إيقاعي موزون بمصاحبة بعض الأوراد والأبيات الشعرية في ذكر المولى جل جلاله أو مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك على ألحان وأنغام مخصوصة في درجات عالية تتخذ أحيانا ما يشبه الموّال ويسمى ذلك «الحضرة» وهي من نظم الشيخ محمد المداني.

وتعتمد هذه الطريقة على تقنيات حرفية جدّا مثل التوزيع الموسيقي بين الشيخ والمريدين، ويكون شكل الأداء أحيانا حرّا ومرتجلا لا يلتزم بإيقاع ما، أو مرتجلا وموقّعا، أو مقيدا فيكون موقّعا وغير مرتجل. وهنا تضاف أحيانا كلمة أو كلمات لا توجد أصلا في القصيدة وذلك ليكتمل مسار اللحن عند أداء الأغنية. ويكون التحول أحيانا من المقام الرئيس إلى بعض المقامات الأخرى. أما اللهجة المستعملة في الإنشاد فهي إما العامية أو العربية الفصحى أو البدوية ويكون موضوع النص المؤدى إما مديحا أو تعبّدا أو ابتهالا.

*** الطريقة التيجانية**

ظهرت هذه الطريقة بظهور الولي سيّدي أحمد التيجاني دفين فاس (تـ 1815م) وهي أكبر الطرق انتشارا وأكثرها عددا من حيث الأتباع الذين يسمونهم الأحباب أو أحباب الشيخ. يذكر الصادق الرزقي أنه «لا جذب فيها ولا رقص، ولا خوارق، ولها مؤلفات عديدة كالبغية والرماح وغيرها».

أما عمل الطريقة فهو عبارة عن استغفار وصلوات على النبي صلى اللّه عليه وسلم، وذكر لا إله إلا اللّه، وتسمى مجموعة تلك الأذكار والصلوات «الوظيفة» وهي واجبة القراءة على كل واحد من أحباب الشيخ في كل صباح ومساء بغاية السكينة والوقار والخشوع، مع تركيز الاهتمام على السير إلى المقصد الأسمى للمجاهدة الروحية.

*** طريقة سيدي سعد وظهور السطمبالي**

تسكت المصادر والمراجع عن هذه الطريقة ما عدا بعض الإشارات المتناثرة هنا وهناك أو بعض الشهادات الحية.

ويرتبط فن السطمبالي بالأحباش والسود القادمين من الجنوب الشرقي للقارة الإفريقية، عند ظهوره في القرن التاسع عشر. ولقد نسب خطأ إلى الباشا آغا السطمبولي الذي ينحدر من مدينة إستانبول التركية. وارتبط هذا الفن بفكرة العلاج بالموسيقى باعتماد التخمّر الصّوفي والتصعيد الروحي عبر تركيز الاهتمام على الآلات المعروفة في هذا النمط الموسيقي مثل القمبري وهي آلة وترية وإيقاعية معا والطبلة والشقاشق والقراقب وهي آلات إيقاعية ذات جرس موسيقي نحاسي.

وفي بعض الأحيان تقدم هذه الطريقة

أناشيدها وأذكارها بلهجة غير عربية وإن كانت قريبة منها. وتكون فيها ملفوظات لمخاطبة قوى روحية من غير جنس البشر مثل «قلاديمة» و«بابا جاط» و«أمي يانا» و«يامو»... يؤديها رواد هذه الطريقة الذين كانوا دوما زنوجا من أتباع الولي سيدي سعد الشوشان ومريديه، ولهم نوبة تسمى «نوبة بوسعدية». وتجدر الإشارة إلى استمرار هذه الطريقة إلى الآن وأهمية الدور الذي ماتزال تقوم به في الحياة الثقافية والاجتماعية في بعض الجهات من البلاد التونسيّة.

عرض الحضرة والتقاء أناشيد كل الطرق الصوفية

خلال موسم 1993ـ 1994 ظهر في تونس عرض موسيقي مسرحي كبير يحتوي على عناصر فرجوية وقيم جمالية متنوعة باسم «الحضرة». وقد أنجزه المؤلف والموزع الموسيقي سمير العقربي والمخرج المسرحي الفاضل الجزيري.

ويحتوي هذا العرض الذي ظل يحظى بإعجاب الناس داخل البلاد وخارجها على لوحات ومشاهد تجسد «خرجات» الطرق الصوفية بتونس واحتفالها بالمواسم والأعياد وفي ذكرى المولد النبوي الشريف وانتظام المريدين والزائرين (الذكّارة) في صفوف أو على شكل حلقات معينة.

ويضم العرض ألوانا من أناشيد وأذكار الطرق الصوفية، ولا سيما ما يقدمه المريدون والأحباب والمعتقدون في صلاح الأولياء وبركتهم من مدحات (مدح الصالحين وإبراز مآثرهم في قضاء حوائج الناس). ويعتمد في هذا العرض أساسيا على آلات الإيقاع التي يفوق عددها الستين وكلها من جنس الدفوف والطيران، مصحوبة بآلة «الكونترباص» أو «القيتارباص» وآلة الكمنجة لمساعدة المنشد على ضبط طبقة الأداء والتحكم في الدرجات الصوتية، ولكن دون تغيير في الأسس اللحنية وفاء لتقاليد الإنشاد الصوفي. وقد تكون مصحوبة بالأرغن لإيجاد نوع من الصدى والزخرفة ولكن باقتضاب شديد، وتظلّ الأولوية أساسا لآلات الإيقاع.

وقد عمل سمير العقربي على إبراز مواطن التعدد والتوافق الصوتي في أناشيد الحضرة وضبط نظامها النغمي وعلى خلق تجاوب بين الأصوات المؤدية. وهو ما زاد هذه الأناشيد جمالية وإن ابتعد بها بعض الشيء عن الأصل، وهو ما أكده بعض مشايخ الطرق ومقدميها.

وركز العقربي عنايته على عنصر الارتجال في الإنشاد الصوفي. وهو ما جعل هذه الأناشيد تبدو دائما كما لو كانت تُقدّم لأول مرة.

أما الجزيري فقد سعى إلى إعادة حياة الزاوية وسمات مجتمع الولاء الصالح الذي يقوم على الاعتقاد الراسخ في بركة الأولياء، وذلك من خلال الديكور والأضواء والإخراج المسرحي.

يمكن أن نستنتج ممّا سبق:

ـ أن فضاءات الذكر وحلقات الإنشاد كانت ولا تزال خير حافظ للذاكرة التونسيّة الثقافية الفنية، كما مثلت منبع إبداع واستلهام لا ينضب.

ـ أن الإنشاد الصوفي هو عين الغناء المتقن إذ أخذ مؤلفو المالوف والموشحات والأزجال الكثير من إيقاعات ومقامات وقوالب الموسيقى الصوفية وساروا على نهجها.

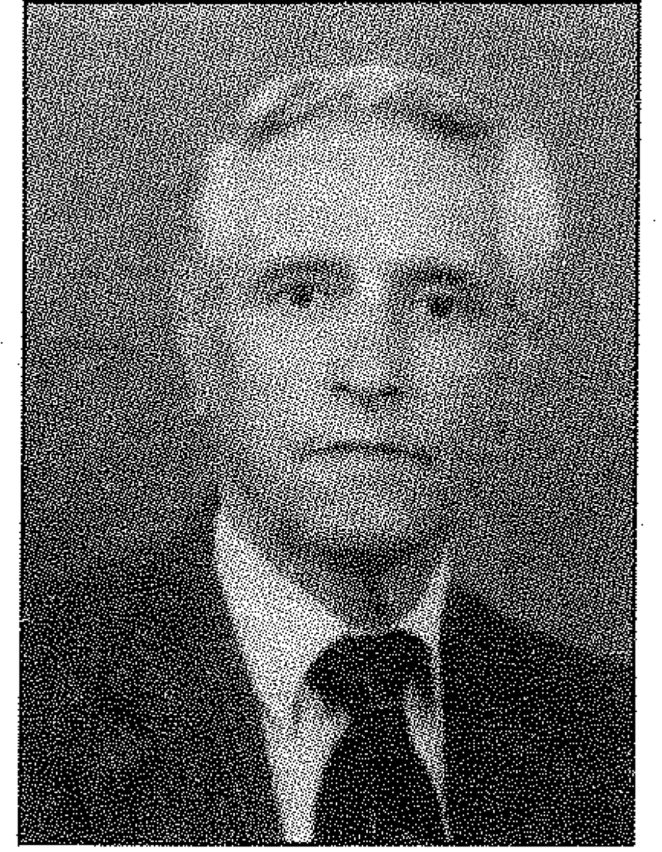
ـ أن كل الإيقاعات والمقامات المستعملة في الموسيقى الحضرية المتقنة نجدها مستعملة في الموسيقى الصوفية وحلقات الإنشاد.

ـ أنّه من الخطإ اعتبار الموسيقى الصوفية موسيقى شعبية، وهي مثال ونموذج يحتذى في كل أشكال التأليف الأخرى.

ولذا يبدو من الضروري العودة إلى قوالب الإنشاد الصوفي في العالم العربي وتوظيفها للارتقاء بالأغنية العربية.

وينبغي التفطن إلى ثراء المدونة الصوفية العربية الإسلامية وإعادة قراءتها واستنطاق نصوصها وأورادها لكشف ما تنطوي عليه من قيم ذات أبعاد إنسانية سامية، وهي أبعاد

ترتقي بالإنسان إلى الكمال مرورا بمعرفة الأصل واستكناه ماهية الوجود والحياة عبر التواصل الخلاق مع المطلق، وتشكيل صورة أكثر شفافية عن الأنا، وهذا لا ينفي جنوح الطرق الصوفية إلى الشعوذة والتهريج. ولعل هذا العامل هو الذي أسهم في ظهور مفهوم «الموسيقى الصوفية» من حيث هو مفهوم نخبوي ونمط فني ثقافي راق يرشحه بعضهم ليكون التعبير الفنيّ لمجتمعات الغد، وليكون النمط الأرقى في الاستجابة لتطلّعات المستقبل وإيجاد إجابات مهمة عن التساؤلات الإنسانية المتصلة بالأصل والمصير والخلاص والإيمان والمعرفة والاستقرار النفسي.



الشاذلي أنور
[1925–1995م]

عرف هذا الفنان باسم الشاذلي الساحلي نسبة إلى مدينة مساكن الساحلية حيث ولد يوم 5 أفريل 1925 بلقبه العائلي الأصلي خماجة.

لكنّه عندما تحول إلى العاصمة أطلق عليه مكتشفه باعث صناعة الإسطوانات البشير الرصايصي (1907–1977) اسمه الفني الشاذلي أنور باعتباره ينحدر من عائلة كان أفرادها يبيعون الأزهار و النّوار طوافا بدور الجاليات الفرنسية و الإيطالية والمالطية. وكان الطفل الشاذلي يتجول في الصباح الباكر في الرياض و البساتين بضواحي باردو ومنوبة لجمع ما فاح من أريج تلك الأزهار اليانعة، طائفا على متن دراجته بأفراد الجاليات الأجنبية المقيمة في تونس.

وكان الشاذلي أنور مولعا بالرياضة إلى جانب الموسيقى. فمارس رياضة الدراجات. وفاز بالبطولة عدّة مرّات في سباق الدراجات على المستوى الوطني.

كان الشاذلي أنور مولعا بأغاني الموسيقار محمد عبد الوهاب. فكان يُرددها في تقليد متقن.

ويعدّ البشير الرصايصي المكتشف الأول لمواهب الشاب الشاذلي أنور الصوتية الفطرية. ولمّا كان مقر الرشيدية في أول انبعاثها سنة 1934 بنهج الباشا فقد التقى الثنائي حليمة بنت العروسي بالشيخ أو السيدة نعمة والشاذلي خماجة شُهر الشاذلي أنور بمقرها حيث تتلمذا للشيخ خميس الترنان (1890–1964) في حفظ المألوف ومحمد التريكي (1899–1998) في المقامات والإيقاعات في حين أطلق الفنان صالح المهدي الملقب بزرياب لقب نعمة على تلك الموهبة الصاعدة التي أجادت أداء أغاني ليلى مراد الرائجة في مطلع الخمسينيات من القرن العشرين.

أما الشاذلي أنور الذي كان تغنى بالمعهد الرشيدي في أغنية نادرة وردت في شكل إعلان ينبه كل هاوٍ نغم إلى ضرورة الالتحاق بالمعهد الرشيدي لدراسة الموسيقى على أسس علمية متينة، فقد اصطحبه البشير الرصايصي إلى دكانه بنهج القصبة حيث سجل عدة أغان لموسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب منها «هليت يا ربيع» وأغنية المطرب محمد أمين «نور العيون ياشاغلني». ولما علم محمد عبد الوهاب بتراجع مبيعاته هدّد الرصايصي بمقاضاته. ولما كان صوت الشاذلي أنور يجمع بين الدقة في الأداء و الرقة في التعبير فقد انهالت على البشير الرصاصي الطلبات. فحزم حقائبه للسفر إلى المغرب والجزائر وليبيا حيث كان معتمدا من شركة بيضافون لبيع الإسطوانات. فازدهرت تجارته حتى حوّل مسكنه بدار الباشا إلى أستوديو لتسجيل الإسطوانات لحساب شركته

الخاصة التي كانت تحمل اسم «أم الحسن» وهو اسم طير غرّيد كانت صورته منقوشة على إسطواناته. وقد تغنّى بصوته محمد العربي الكبادي (1880–1961) في أغنية «أم الحسن» لحن خميس الترنان (1890–1964) وأداء صليحة (1914–1958) لكن الرصايصي لم يقتصر على استثمار صوت الشاذلي أنور في تقليد عبد الوهاب وإنما سجل بعض المآثر الدينية مثل مدْحَة المولد النبوي الشريف بصوت المطربة بَشيرةَ التونسية التي لا نسمع صوتها إلا مرة في السنة احتفالا بذكرى ميلاد الرسول الكريم إلى جانب الأغاني البدوية.

أما الشاذلي أنور فقد فضل الالتحاق بفرقة شافية رشدي التي شهرت «نانا» في رحلة فنية طاف في أثنائها معظم ولايات القطر الجزائري. تلك هي المحطة الأولى في مسيرته الفنية. في حين كانت المحطة الثانية الإذاعة الوطنية التي التحق بأفراد مجموعتها الصوتية سنة 1957 تاريخ تونسة الإذاعة وانتقال مقرها من «ساحة العملة» إلى «شارع الحرية» شارع باريس سابقا. أما المحطّة الثالثة فقد كانت بسوسة حيث دعي إلى الإشراف على تأسيس الفرقة القومية للموسيقى. لكنها كانت قصيرة جدًّا.

لذلك فلا غرو في أن يعود الشاذلي أنور – وهو من ألمع المنشدين – إلى صلب المجموعة الصوتية للإذاعة الوطنية التي تشكلت سنة 1957 في عهد مديرها البشير المهذبي. وكان قد أوفد الفنان علي السريتي إلى القاهرة لانتداب الفنان المصري فهمي عوض للإشرف على تلقين تلك المجموعة كنوز الموشحات الشرقية و القدود الحلبية و الأدوار المصرية، فيما كان الشيخ الفنان خميس الترنان يلقنها عيون المآثر العربية الأندلسية مثل نوبات المالوف والفوندوات التي كان دوّنها بالنوطة الموسيقية الموسيقار محمد التريكي (1899–1998) فحقق لتونس الرقم القياسي في المحافظة على التراث على الصعيد المغاربي بمعدل 13 نوبة مقابل 12 بالجزائر و 11 بالمغرب و10 في ليبيا. ومازال خطّه واضحا في الأسفار التي نشرتها في الستينات وزارة الثقافة.

لقد تمكن الشاذلي أنور من ملء الوطاب بما لذ وطاب من كنوز الموسيقى العربية برافديها المشرقي و المغاربي. لذلك لا عجب في أن يبرز صوته في صلب تلك المجموعة الصوتية التي كانت تضم أجمل الأصوات وأشدّها إطرابا مثل فتحية خيري وصفيّة ونعمة وعلية ومن الرجال أحمد حمزة ومحمد ساسي وعبد الحميد ساسي (1934–1984) ومحمد الأحمر ومحمد أحمد ومحمد الفرشيشي. ثم تخطى الشاذلي أنور مرحلة الغناء والتقليد ليلمع نجمه ملحنا مبدعا في المدرستين الشرقية و المغاربية. فكان جسر الوصل بين المدرستين خاصة أنّه قد كان يجيد العزف على العود باليسرى ويعتمد التسجيل و التلحين دون الترقيم بالنوطة ليستخرج الدرر اليتيمة الكامنة في المقامات الشرقية مثل النهاوند والكرد والسيكاه والجهاركاه والطبوع التونسية مثل المزموم والعرضاوي والأصبعين ورصد الذيل وقديما قيل: «إن أطال ليلك أرصد وإذا طوال عليك الليل عليك بنوبة الذيل». وقد تعامل الشاذلي أنور الملحن مع عدة شعراء لعل أبرزهم الزجال أحمد الزاوية ابن بلدته الذي فاز بنصيب الأسد فضلا عن كون الشاذلي أنور قد غنّى من ألحانه وكلماته أغنية وحيدة. وهي بعنوان «الساعة دقت وأنا قلبي دق معاها». ومهما يكن من أمر فكفاه فخرا أنه مبدع الأغنية الملحمية الشهيرة عن معركة الجلاء ببنزرت «بني وطني يا ليوث الصدام» التي أدّتها المطربة علية (1936–1990) وهي من تأليف الشاعر عبد المجيد بن جدو(1918–1994).

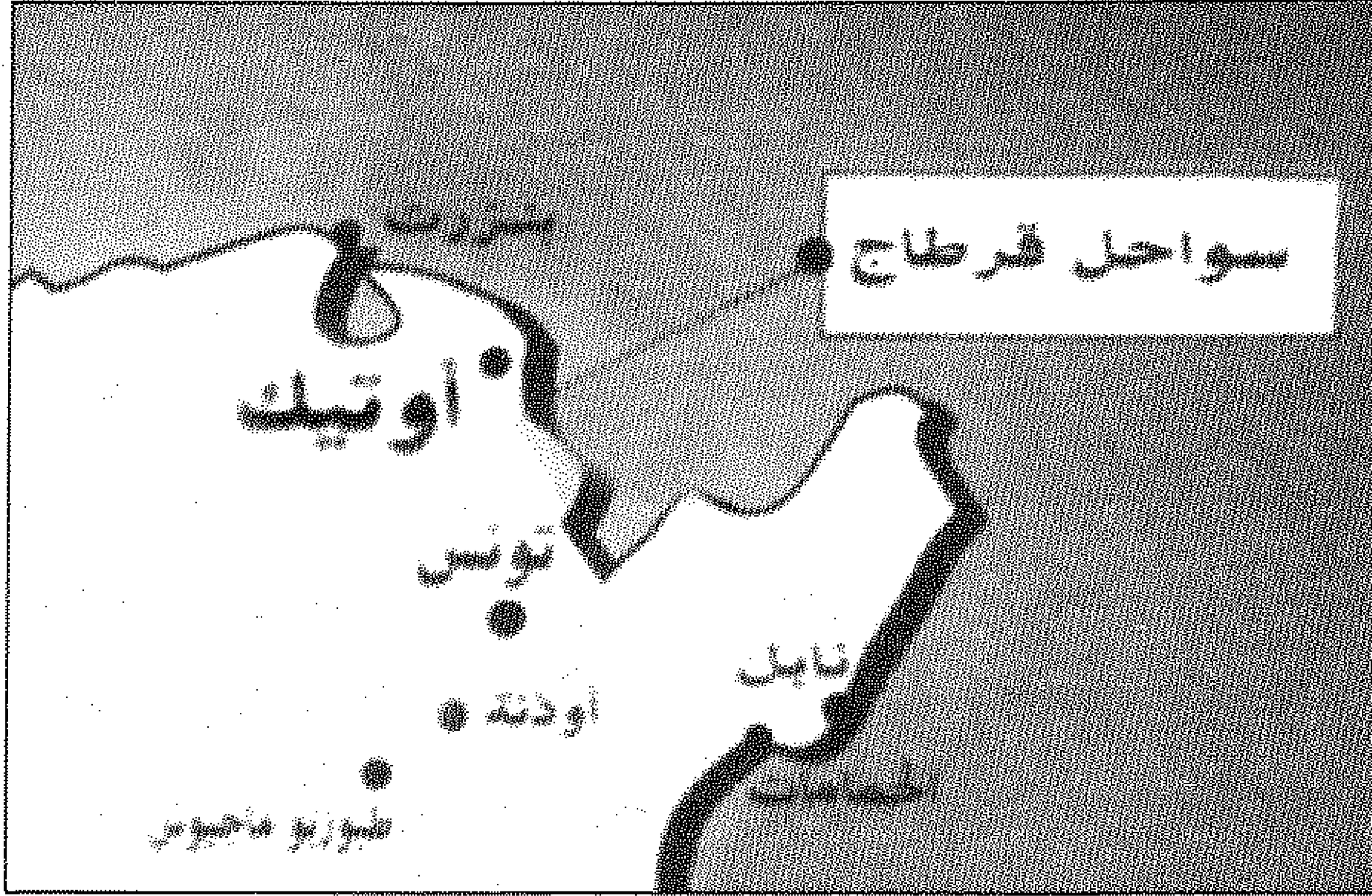
أما السيدة نعمة فقد فازت هي أيضا بنصيب الأسد من ألحان الشاذلي أنور فغنّت له رائعة «بين الوتر و الراح في عينيها» كما أعدّ كثيرا من الألحان أدتها سلاف وزهيرة سالم ومحمد أحمد ومحمد الفرشيشي.

لكن يوسف التميمي (1921–1982) هو

الذي ظفر بجل أغاني الشاذلي أنور لعل أبرزها «ليعتي ما أقواه» شعر عبد المجيد بن جدو(1918–1994) وأغنية «سافر ما جناش» شعر فاطمة الدريدي و«لون القرنفل» كلمات الزجال محمد المولدي شهر رضا الخويني وأغنيته الشهيرة التي تغنى فيها بمسقط رأسه منزل تميم «قالو لي على الشهلة تغني» شعر المختار الحشيشة (1920–1983) و«أم الشعر حرير على هويدة نغني» يتغني فيها بابنته بالتبني هويدة وأغنية «ياسمين وفل سالمة» و«خلخال ذهبي تحت الفارة» من كلمات أحمد الزاوية. وإذا جاءت تلك الأغاني سابحة في يمّ الطبوع التونسية فإن الشاذلي أنور قد برع أيضا في بحر المقامات الشرقية. فلحن تلك التحية الرائعة التي أهداها إلى الجمهور المصري سنة 1969 في احتفالات الذكرى الفنية لتأسيس القاهرة المعزّية. وهي من تأليف الشاعر جلال الدين النقاش(1910–1979) فضلا عن قصيدته الشهيرة لجامعة العرب عندما انتقل مقر الجامعة العربية إلى تونس في عهد أمينها العام السابق الشاذلي القليبي.

ومثلما بدأ الشاذلي أنور بالرشيدية في مطلع الخمسينات من القرن العشرين عاد في السبعينيات إلى رحاب الرشيدية بدعوة من رئيسها السابق الشاعر حمادي النيفر (1924–1984) الذي لحّن له عدة أغان وتولى تلقين المجموعة الصوتية للمعهد الرشيدي روائع الموشحات الشرقية لعبده الحامولي ومحمد عثمان وروائع عبد الوهاب الذي شغف بها في مطلع شبابه إلى أن أقعده المرض وخاصة داء السكري الذي كان ينهش جسده. فاعتكف ببيته متأملا الزهور اليانعة في حديقته الغناء – وقد التصق اسمها باسمه الفني الشاذلي أنور – سابحا في أحلامه. فَظَلَّ غارقا في تأملاته إلى أن وافاه الأجل يوم 27 مارس 1995.

أوتيكا
(Utica)



هي من مستوطنات العصر الحجري وأقدم مواني شمال البلاد وإن امتدّت أمامها رواسب مجردة ـ بعد تحوله عن مجراه القديم، فبدت بعيدة عن البحر بنحو 15 كلم. يعزى تأسيسها حسب رواية بلينوس (Pline l'Ancien) إلى الفينيقيين وذلك سنة 1101 ق.م، أي قبل تأسيس قرطاج بـ287 سنة. ويبدو أنّ ذلك التأسيس لم يكن أكثر من حضور محتشم لم يخلّف آثارا واضحة فلم تتمكن الحفريات من الكشف عن آثار أقدم من بداية ق 7 ق.م. وظلّت مستقلّة بعد تأسيس مدينة قرطاج حتى بداية ق 5 ق.م. ثمّ خضعت لها بعد هزيمة هيمار (Himère) سنة 408ق.م. وساندتها في حروبها ضدّ أثينا حتّى احتلها أغاثوكل (Agathocle) سنة 308ق.م. ثمّ ضدّ روما حتّى احتلّها أميلكار. ثمّ ساندت قرطاج من جديد في الحرب البونية الثانية (218–201ق.م.) متعرّضة لهجومات الرومان ثمّ مساندة لهم منذ اندلاع الحرب الثالثة (149–146ق.م.). ولاعتمادها قاعدة حربية ضدّ قرطاج كافأها الرومان بإعلانها مدينة حرّة وعاصمة للمقاطعة الإفريقية. وطيلة قرن من عهدهم كانت أوتيكا مسرحا لأهمّ الأحداث كحرب ماريوس ضدّ يوغرطة وحرب قيصر ضدّ بومبايوس. وفي عهد أغسطس

(Auguste) فقدت أوتيكا مكانتها من حيث هي عاصمة ولكنّها ظلّت قوّة اقتصادية بلغت أوجها في ق3م مدّة السيفيريين (Les Sévères) حتّى سقطت في أثناء الغزو الوندالي وإن ذكر بها بعد الفتح الإسلامي سنة 703م آخر الأساقفة.

من أهمّ ما كشفت عنه حفريات سنة 1905 وسنوات 1948-1958 بعناية (M.P.Cintas) وما بعدها المقبرة البونية والمنازل الرومانية خاصة منها منزل الشلاّل ومنزل الكنز ومنزل التيجان المشخّصة للآلهة ومنزل الصيد، وكذلك المعبد والحمّامات والساحة العامة والسرك وعدّة مسارح وأوان وتماثيل ولوحات فسيفسائية معروضة بمتحفها.

القدّيس أوغسطينوس
[354-430م]

إن مكانة القديس أوغسطينوس عند أهل المغرب، لمّا كانت المسيحية دينهم واللاتينية لغتهم، كمكانة ابن خلدون عندنا، بعد أن ساد الإسلام وانتشرت اللغة العربية. ففي موفى القرن الرابع عشر بعد الميلاد، حين بدأت حضارة العالم الإسلامي تتراجع، برزت عبقرية ابن خلدون، وكانت "مقدمته" خير دليل على ثراء الثقافة العربية، ولم تزل تأملاته في الأحداث وفي المغامرة البشريّة، جنوب الأبيض المتوسط، محل اهتمام المفكرين وبحوثهم بمختلف اللغات. وفي موفى القرن الرابع بعد الميلاد، حين أشرفت كذلك حضارة العالم الروماني على الزوال، سطع نورها مجددا في ولايات المغرب بفضل القديس أوغُسطينوس، وأشعت على أوروبا فأضاءت ظلمات القرون الوسطى، ووهبت الغرب المسيحي قاعدة نظرية متينة للعقائد المسيحية، وامتدادا للثقافة ولتراثها العظيم.

نشأ أورليوس أوغُسطينوس (Aurelius Augustinus) وقضى الجزء الأوفر من حياته وتوفي في غرب ولاية زوجيتانا (Zeugitana)، على مقربة من حدود ولاية نوميديا (Numidia)، حيث حافظ السكان طيلة العهد الروماني على اللغتين اللوبية والبونية. فلا غرابة أن تتجمع في شخصه العناصر الأساسية التي امتزجت وتآلفت في ثقافة سكان موطنه في القرن الرابع. فهو لوبي إفريقي، بمفهوم هذا اللفظ خلال العهد الروماني وبدليل اسم أمه مونيقا (Monica) ومصدره اللوبي مون (Monn). وهو قرطاجي بوني، كاسم ابنه أديوداتوس (Adeodatus) الذي أصبح متداولا في ولايات المغرب والذي كان، كسائر الأسماء اللاتينية المنقولة من اللغة البونية، مجرد نقل للاسم البوني يَتَنبَعْل أو مُتُنبعْل. وهو كذلك إفريقي روماني، بدليل اسمه ولقبه اللاتينيين أورليوس وأوغسطينُوس.

ولد بتَغاست (Thagaste)، وهي مدينة صغيرة في موقع مدينة سوق أهراس، يوم 13 نوفمبر سنة 354م. وفي 28 أوت سنة 430م، توفي بهبُونا (Hippona) وهي المدينة القديمة التي بنيت على أنقاضها مدينة عنابة. وتزامنت وفاته فيها، وهو على رأس كنيستها، مع محاصرة الوندال لها في زحفهم على بلاد المغرب، بعد انطلاقهم من بلاد وندلوسيا (الأندلس) التي استقروا بها زمنا قصيرا ووهبوها اسمهم على الدّوام. وبوصول الوندال إلى تخوم زوجيتانا وتأهبهم للانقضاض على قرطاج، تمكنت القبائل الجرمانية من الاستيلاء على كافة ولايات الغرب الروماني، وأتت على الولاية الأخيرة التي حافظت نسبيا، رغم توالي الأزمات منذ أواخر القرن الرابع، على أمنها وازدهارها.

لقد تواصل، في بداية القرن الخامس، النشاط الاقتصادي بالولايات الإفريقية الشرقية - زوجيتانا والمزاق (Byzacena) ونوميديا، رغم استيلاء قبائل الوزيقُوط بقيادة ملكهم ألاريق (Alaric) على روما سنة 410، وإقدامهم على نهبها. فلم ينقطع إنتاج الحبوب والزياتين، واشتغلت معاصر

الزيت، ولم تتوقف حركة البناء والترميم في المدن والقرى الكثيرة العدد. لكن الكنيسة مسكت في الدوائر البلدية بزمام النفوذ والمبادرة. فقام أسقف المدينة أو القرية مقام الحكام البلديين، وأضحت الكنيسة الكاتدرائية وفروعها الاجتماعية والخيرية لمجلس المدينة وللمصالح البلدية بديلا، وانتشرت المسيحية في جميع الأوساط، واستهوت أوساط الأدباء والمحامين والأساتذة الأفارقة، فاكتسب الأدب اللاتيني بابا أدبيا جديدا نشأ في قرطاج، ثم انتشر في سائر الأمصار الرومانية معوضا الأدب اليوناني الذي انفرد من قبل في الذود عن المسيحية، والنضال في سبيل معتقداتها. وذاع منذ نهاية القرن الثاني صيت ترتوليانوس (Tertullianus) ومينوقيوس فيليكس (Felix Minucius)، وتعززت بفضلهما حركة الدعوة إلى المسيحية والرد على الوثنيين، كما ذاع من بعدهما صيت القديس قيبريانُوس (Cyprianus) ولقطنسيوس (Lactantius) وأرنبيوس، (Arnobius) ونشرت كتبهم مبشرة بكتب أوغسطينوس وبإشعاعه على الفكر المسيحي إلى اليوم.

قضى أوغسطينوس طفولته بتغاست، وبها لقنه معلم البلدة ثم أستاذ اللغة والقواعد اللغوية القراءة والكتابة، وحفظ قصائد هومروس (Homeros) وورجليوس (Virgilius) وترنسيوس (Terentius)، وشرح نصوص شيشرون (Cicero) وسلوستيوس (Sallustius). فحذق «فن الكلام» واكتسب «الفصاحة الضرورية لمن أراد إقناع الناس وعرض أفكاره عليهم». وعند بلوغه الخامسة عشرة من عمره، اضطر إلى السفر إلى مدينة مادوروس (Madauros) المجاورة، لافتقار بلدته إلى أستاذ يلقن البلاغة في اللغتين اللاتينية واليونانية في المرحلة الثالثة من التعليم. لكن مستوى تعليم اللغة اليونانية، في تلك المدينة وفي القرن الرابع، لم يحافظ على المكانة التي كان عليها في القرن الثاني الذي أنجبت فيه مادوروس فيلسوفها وأديبها أبوليوس (Apuleius). فلم يكسب أوغسطينوس من اللغة اليونانية، التي لم تزل لغة كبار المثقفين والعلماء في الإمبراطورية الرومانية إلا القليل، وأضحى في حاجة ماسة طيلة حياته إلى الاجتهاد في كل مرة لترجمة أمهات النصوص اليونانية.

وبعد انتهاء الدراسة بمادوروس، رغب كما جرت العادة، في تتويج تكوينه بالالتحاق بقرطاج والتتلمذ إلى مشاهير الأساتذة. لكن أباه بطريقيوس (Patricius) لم يقدر على توفير المال اللازم، رغم انتمائه إلى الفئة الاجتماعية المتوسطة التي كانت تحتكر، في بلدتها الصغيرة، مناصب الحكم البلدي. لكنها كانت غير قادرة على مضاهاة مثيلاتها في المدن الكبيرة أو حتى المتوسطة كمدينة مادوروس، حيث سمح ثراء أولياء أبوليوس بتمكين ابنهم من شد الرحال إلى قرطاج عاصمة الولاية، ثم إلى بلاد اليونان لتتويج تكوينه والتتلمذ لمشاهير الفلاسفة والعلماء اليونان. فاضطر الشاب أوغسطينوس إلى قضاء سنة 369 ـ 370 في الفراغ واللهو. وقد خلفت تلك السنة في نفسه أسوأ الذكريات. ذلك أن تعلق أمه المسيحية المتزمتة به كان كبيرا، فكانت تكيل له الوعظ، وكان ضميره يكيل له التأنيب، كلما فشل في كبح نزوات البلوغ والجنس وهو في سن المراهقة، أو كلما عبث مع أترابه واقترف ما كان مناقضا لوعظ أمه، واستحق تأنيبها. وأمّا أبوه الذي لم يعتنق المسيحية وتشبث بوثنيته، فلم يكن له تأثير كبير فيه، ولم تكن علاقته به متينة، رغم تحمله الأتعاب والتضحيات لجمع المال الضروري لكي يسافر ابنه إلى قرطاج في السنة الموالية، ويواصل بها دراسته.

غادر أوغسطينوس بلدته الصغيرة الهادئة وحلّ بقرطاج، عاصمة العواصم الإفريقية، وقد استرجعت منذ أن استعادت عمرانها في نهاية القرن الأول قبل الميلاد مرتبتها بين الأمصار المتوسطية الكبرى، والشهرة التي كانت عليها

في عهد الدولة القرطاجية. فبهرته المباني الفخمة، وأدهشه نسق الحياة، وانجر إلى اكتشاف عروض المسرح وسباق الخيل، وشاهد من أعلى المدارج المحيطة بحلبة المبارزة والاقتتال صولات المتبارزين ومجابهتهم للوحوش الضارية، وأدهشته كذلك روعة المواكب الدينية عند الطواف بأصنام الآلهة، كما انجر أيضا إلى مشاركة زملائه في بعض التجاوزات، رغم استنكافه من أنماط السلوك العنيفة والتصرفات الشائنة. وقد خلفت ذكريات شبابه الطلابي فيما بعد عند الأسقف المسن والشيخ الوقور أسوأ الذكريات، وخاصة منها ذكريات استسلامه أحيانا إلى ضغوط الجنس والعواطف الجامحة في سن المراهقة المنحرفة والنزوات. فشبه في كتاب "الاعترافات" (Confessions) جموح العواطف عند غليان القدر الممتلئة فجورا وفسقا. لكنّه في الحقيقة لم ينهمك قط في اللهو والترف، بل اصطحب قرينة وفيّة وقضى بجانبها ما لا يقل عن 15 سنة، وهي التي أنجبت ابنه الوحيد أديوداتوس. وأما جل أوقاته فقد قضاها في الدراسة التي تواصلت ثلاثة أعوام، وفي مطالعة أمهات الكتب. وصادف أن قرأ كتابا لشيشرون بعنوان هرتنسيوس (Hortensius)، فاكتشف الفلسفة والنظريات الفكرية، واهتز إعجابا بها، واقترن إعجابه بميل شديد إلى البحث الفلسفي، وانشرحت نفسه كلما اكتشف منهجا عقلانيا جديدا أو طريفا، وكلما تقدم بحثه وازدادت معرفته بالتراث الفلسفي اليوناني.

وكان الاهتمام، في نهاية القرن الرابع، بالنظريات الفكريّة والمذاهب الفلسفيّة مقترنا بالاهتمام بدين المسيح الذي فرض نفسه على المفكرين. وقد نقلت كتبه المقدسة إلى اللغة اللاتينية وأصبحت متداولة بين الناس. وأثارت الكتب الأدبية في تبرير المسيحية والدفاع عنها والردّ على الوثنيّين جدالا كبيرا بين المثقفين، وتناول الكتاب المسيحيون، أمثال الإفريقيّين لقطنسيوس وأرنبيوس، موضوع المقارنة بين المذاهب الفلسفية وتعاليم الدين المسيحي. ومما يلاحظ أن المسيح المصلوب لم يكن، في ذلك العهد، شعارا متداولا بين المسحيين. بل كانوا يرون خاصة في المسيح رمزا لعظمة اللّه وللكلمة الإلاهيّة، وكانت اللوحات والنّصب المسيحية تصوره واعظا حوارييه، هاديا إلى سبيل الحكمة، كالفيلسوف المرشد بين جموع أتباعه وطلبته. ولذا فإنّ الطالب أوغسطينوس لم يقتصر على مطالعة كتب الفلسفة، بل تناول أيضا كتاب "العهد القديم". لكن قراءة هذا الكتاب المقدس أثارت في نفسه الاشمئزاز والنفور بدلا عن الاهتمام والمتعة وصدمته اللّغة الفضة المنقولة حرفيا من العبرية إلى اليونانية ثم إلى اللاتينية، واشمأزّ من قساوة الأوصاف حينا، ومن فحش الرواية حينا آخر. فانصرف عن المسيحية وعن كتبها المقدسة.

ثم صادف أنه اتصل إثر ذلك بدعاة المانوية، فلم يلبث أن توسم خيرا في دعوتهم، وبدا له دينهم شبيها بالمذاهب الفلسفية، لاعتماده قاعدة منطقية وعقلانية. فأصبح يتردد على الاجتماعات السرية التي كانت تلتئم بانتظام لقراءة تعاليم ماني الواردة في الرسالة التأسيسيّة، فينشرح صدره كلما أنصت إلى ترتيلها، ويغرق في التفكير في معانيها وفي أبعاد هذا الدّين الجديد الذي كان يطمح إلى إدراك الشمولية ويروم الإلمام بما جاءت به الأديان من قبل ليوفق بينها، ويتمّ ما لم يقدر على إتمامه دين بوذا، ويشرح ما قاله زرادشت، ويكيف رسالة الأناجيل التي رواها القديسون الأربعة.

وأما السبب الرئيس في إقباله على المانوية، رغم المعارضة التي كانت تؤججها في نفوس الوثنيين والمسيحيين على حدّ سواء، فهو في نظره جوابها المنطقي عن السؤال الذي ما فتئ يخامر باله منذ أن دبّ إليه الشعور بالإثم في فترة المراهقة وحمله على التساؤل، وهو في حيرة كبيرة: هل اقتراف الإثم جبلة في الإنسان؟ لقد

جاء في "الرسالة التأسيسية" أن صراعا أزليّا يدور في الكون بين الخير والشر، بين «ملكوت النّور» وهو الخير بذاته، و«ملكوت الظلّمات»، وهو الشرّ بذاته، وجاء أنّ هذا الصراع يدور في البيئة وفي الوسط الذي يعيش فيه الإنسان، في محيطه الطبيعي والاجتماعي. كما يدور كذلك في قلب الإنسان الذي تتلاعب به الأهواء والهواجس، والشهوات والعواطف. فالإنسان مخلوق شقيّ، وقد بلغ الأمر بالكاتب المسيحي أونبيوس، أصيل مدينة Sicca Veneria (الكاف)، عندما تبين له ذلك وأثار في نفسه الحيرة والذعر، أن ادّعى أنّ الله، وهو الخير بذاته، غنيّ عن أن يحمّل تبعة خلق هذا الكائن الشقيّ!

اقتنع أوغسطينوس بما جاء في الرسالة المانوية، وامتثل لأحكامها، والتزم بالعفة والتقشف... لكنه لم يلبث أن استسلم بعد مدة قصيرة إلى الشك من جديد. كان ذلك لما حل بقرطاج قادما من مدينة ميلاو (Milev) بالقرب من قسنطينة، الأسقف المانوي فاستوس (Faustus) الذي ذاع صيته وأصبح من أساطين المانوية. لكنه لم يجد في كلامه ما ينم عن سعة الثقافة وحصافة الرأي، بل رآه مقتصرا على الأمر بالإيمان والتشبث بالعقيدة، رافضا مقارعة الخصم بالحجة والمنطق، عاجزا عن استبدال صيغة الأمر بطريقة الحوار والإقناع وتقديم الدليل، مثله في ذلك مثل الدعاة إلى المسيحية من العوام، في قرية تغاست التي عاد إليها أوغسطينوس منذ أن أنهى دراسته في سنة 375م. لكنه لم يمكث بها إلا سنة واحدة، ثم قفل راجعا إلى قرطاج حيث شرع في تدريس اللّغة والأدب والبلاغة، والشك ما فتئ يخامره في صحة النظرية المانوية. ولم يقف على ضعف حجتها وقصور برهانها إلا بعد أن شاخ وأصبح أسقفا كاثوليكيّا مسموع الكلمة. فأدرك عند ذلك أنّ «ملكوت الظلّمات» يتمتّع وحده، في نظر المانويّين، بالقوة والقدرة على المبادرة. وهو المهاجم دائما لـ«ملكوت الخير» الذي يعجز عن الحد من اجتياح الشر وانتشاره، ولا قدرة له إلاّ على الدفاع السلبي. ذلك أنّه لا يستطيع أن يتنكر لطبيعته الطيبة الكريمة، ولكنها العاجزة أيضا عن الردّ الفاعل. فالمسيح المانوي ضعيف قاصر، لا قدرة له على صد الشر، ولا قدرة له إلاّ على الصبر وعلى تحمل الألم.

قضى أوغسطينوس عشر سنين بقرطاج ثم شد الرّحال، في سنة 382م إلى روما كعبة العالم الروماني، والأمل يحدوه في الظفر بوظيف مرموق أو حتّى الاكتفاء بتقاضي أجر يفوق ما اعتاد تقاضيه من طلبته في قرطاج. وكانت تُغذّي هذا الأمل الأخبار الواردة عليه ممن التحق بالعاصمة الرومانية من رفاقه في الدراسة، أمثال أليبيوس (Alypius)، صديقه الميسور وقرينه منذ الصغر بقرية تغاست. ولم يخب ظنه بعد سنة صعبة قضاها في التدريس بروما، إذ أتاه العون من أصدقائه المانويّين. لقد تدخل لفائدته بعض أتباعهم من حاشية سيماقوس (Symmacchus)، حاكم روما وممثل الإمبراطور على رأسها، وزعيم الأسر النبيلة التي تشبثت بوثنيتها في مجلس الشيوخ الروماني، وصمدت رغم اعتناق الإمبراطور وأغلبية سكان الإمبراطوريّة الدين المسيحي. فلبّى سيماقوس الطلب، وأشار على رئاسة كتبة الإمبراطور، الذي كان مستقرا بمدينة ميلانو، بانتداب أوغسطينوس ليشغل في البلاط خطة أستاذ في الأدب والبلاغة.

أصبح يعيش في ميلانو، منذ سنة 384م، منهمكا في مطالعة الكتب الأدبيّة والفلسفيّة ودراستها، بين الشعراء والفلاسفة والأدباء المتهافتين على البلاط الإمبراطوري. وعاودته الحيرة التي تناول فيها شيشرون نظريات المدرسة الشكية وآراء الفيلسوف اليوناني قرنياداس (Karneades)، عالم المنطق وباعث الأكاديمية الجديدة والنظريّة الاحتماليّة التي اشتهرت خلال القرن الثاني قبل الميلاد. ثمّ صادف ذات يوم أن استمع إلى أمبروزيوس (Ambrosius)، أسقف ميلانو وسند الكنيسة

الكاثوليكية في تلك الفترة، فأعجب بحذقه للّغة الإفريقية، وبسعة معارفه وحسن اطلاعه على النظريات الفلسفية وخاصة على كتب أفلاطون، كما أعجب بقوة شخصيته، وبتركه للمناصب الراقية التي تقلب فيها بحكم انتسابه إلى أسرة نبيلة وعريقة، قريبة من أسرة خصمه الوثني سيماقوس. ولاحظت مونيقا إعجاب ابنها بالأسقف، وقد ضاقت ذرعا بغياب ابنها، والتحقت به بميلانو وأصبحت تتردد على الكنيسة. فاستبشرت باهتمامه بالدين المسيحي، وطلبت منه بإلحاح أن يلتحق بزمرة المستمعين إلى الدروس التي كان أمبروزيوس يلقيها لتعريف المتنصرين بأركان الدين الذي ارتضوه. وقد لبّى طلبها لما لاحظه في كلام الأسقف من تصور طريف ونظرة إلى المسيحيّة لم يعهد أوغسطينوس ثراءها وعمقها من قبل. كما رأى في الاستماع إلى تلك الدروس فرصة للاقتراب من شخصية فذة جمعت بين شهرة النسب وعنفوان الكنيسة، ووقف للإمبراطور وقفة الند للند كلما أجحف في معاملة رجال الدين. ومما فتح له آفاقا جديدة واهتم به على وجه الخصوص ما جاء في دروس الأسقف من شرح وتأويل روحاني لنصوص كتاب العهد القديم التي كانت، من قبل، تُثير في نفسه النفور والاشمئزاز. فاتضحت له فيها أبعاد لم تخطر على باله، وابتهج بالصلة التي أحدثها الأسقف بين نص الكتاب المقدس ونظريات الفلسفة الروحانية، وخاصة منها نظرية الأفلاطونية المحدثة. وكان كلام الأسقف يثير كذلك في نفس مونيقا الابتهاج والغبطة. لكنها لاحظت مع ذلك أن رجال الكنيسة في ميلانو لا يعبؤون بما كانت تعتبره المجموعة المسيحية في تغاست فرضا واجبا، وهو الصوم في يوم السبت. فألحت على ابنها حتّى يسأل الأسقف عن سبب ذلك. فأجابها الأسقف: «عندما أذهب إلى روما، ألتزم بالصوم يوم السبت. أما إذا كنت بميلانو، فإنّي لا أصوم. فافعل ما أفعله، ومهما زرت كنيسة، ساير عرفها وعاداتها حتّى لا تغضب أنت ولا تُغضب الناس».

وبعد أن أقامت مونيقا مدة قصيرة بميلانو، طلبت من ابنها أن يفارق القرينة التي لازمته طيلة سنين عدّة، ريثما تختار له زوجة كاثوليكيّة من ميلانو ومن وسط غني يليق بمقامه. فامتثل وقفلت صاحبته الوفيّة المحتشمة راجعة إلى الولاية الإفريقية، وقد آلت على نفسها ألا تقترن بعد أوغسطينوس برجل آخر، تقيّدا بما كانت تلتزم به كل مسيحية عند زواجها. وصار يتردّد على الكنيسة، لكنه اغتنم كذلك فرصة إقامته بميلانو لجني ما أمكنه من الفوائد بمجاورة المثقّفين والفلاسفة. وكان منهمكا أيضا، مع عدد من الرفاق والزملاء الأفارقة، في دراسة كتب الفيلسوفين بلوتينوس (Plotinus – أفلوطين) وبرفريوس (Porphurios) في شرح نظريات أفلاطون وتأويلها. لكن قصوره عن مطالعة الكتب اليونانيّة بسهولة دفعه إلى الاستنجاد دوما بالكتب التي نقل فيها ماريوس وقتورنوس (Marius Victorinus) تآليف هذين الفيلسوفين إلى اللغة اللاتينية، وشرحها شرحا فلسفيّا محكما. واهتم خاصة بكتاب لبلوتينوس بعنوان أنياداس (Enneades، التّاسعات)، وذلك لما اكتشفه فيه من نقض وتفنيد للنظرية المادية التي اعتبرت الكون يتألّف من عناصر ماديّة، وأنّ العنصر الإلاهي أحد هذه العناصر الكثيرة المختلفة. لقد أكدت نظرية بلوتينوس عكس ذلك، إذ اعتبرت أن الإلاهيات قوة موحدة مستقلة عن الكون، في عالم روحي منفصل. فهي قوة الخير، وهي أساس الكون وأساس الفضاء وأساس الزمان. وهي الواحد الفعال القادر المبادر دوما، وليست كما ذهب إليه المانويون عنصرا سلبيا، عاجزا عن المبادرة، ولا قدرة له على دحر الشرّ. فالواحد الإلاهي هو الذي يكسب المادة معناها، وفي الابتعاد عنه يكمن الشرّ، لأن الابتعاد عنه يعني فقدان الحيوية والعظمة التي يبعثها في الكائنات. فالواحد هو إلاه مفارق،

يكيف كونا لا حدّ له، ويكيف تباينه وفوارقه. وما الإنسان إلا ظاهرة ضئيلة وحقيرة من ظواهر هذا الكون. وإنّ مشيئة هذا الإلاه غامضة خفية، لا قدرة لفكر الإنسان وفهمه على إدراكها.

ولم يقتصر أوغسطينوس على دراسة تلك الكتب الفلسفية وإمعان التفكير في مختلف النظريات، بل تأثر أيضا بكلام أمبروزيوس واهتم بالكتب المقدسة، وخاصة بالكتب التي وضعها الحواري باولوس (Paulus). لكنه حمّل نفسه ما لا قدرة لها عليه، وبلغ به الإرهاق أن امتلكت فكره بلبلة واضطراب شديدان إثر قدوم زائر إفريقي زاد في انشغال باله بحديث عن حياة الرّهبان وعن المثل العليا التي ينشدها أهل النّسك والزّهد. وعند ذلك حدثت حادثة روى تفاصيلها في كتاب "الاعترافات" : بينما كان في حديقة منزله بميلانو، صحبة صديقه أليبيوس، مضطرب الفكر متوتر الأعصاب، استمع إلى صوت طفل في بيت الجوار يقرأ كتاب الحواري باولوس ويردد مرتّلا :« خذْ واقرأ »، فأسرع إلى بيته وفتح كتاب الحواري معتبرا أنّ في ترنيمة الطفل هدى من الله، وقرأ أوّل سورة تحت أنظاره: «لتسلكنّ سلوكا واضحا كالنّهار، لا بالقصوف والسكر، لا بالمضاجع والعهر، ولا بالخصام والحسد. بل ألبسوا الربّ يسوع المسيح ولا تهتموا بأجسادكم لقضاء شهواتها ».

اطمأنّت نفسه قليلا، لكنّ الإرهاق الذي ناله قادَه بسرعة إلى انهيار عصبي وألم في صدره أوجبا الركون إلى الراحة. فاغتنم الفرصة التي أتاحتها عطلة الخريف للرّحيل عن ميلانو، واختيار محطة قسقياقم (Cassiciacum)، على مشارف جبال الآلب، لقضاء فترة النّقاهة والظّفر بالخلوة التي كان ينشدها دوما أهل الفكر ومعشر المثقفين من النبلاء، طيلة العهد الروماني. وربّما يكون قد نسج بذلك على منوال الفيلسوف برفريوس الذي اختلى بصقلية، عندما انتابه انهيار عصبيّ مماثل. ومكث بقسقياقم فترة طويلة، قضاها في مطالعة النصوص الأدبية، مهتما خاصة بشعر ورجليوس، وكذلك في قراءة النصوص الفلسفية وشرحها مع رفاقه، كما عكف على الذّكر والدعاء وترتيل قصائد "سفر المزامير" (Livre des Psaumes) مع رفاقه وأمّه التي استبشرت خيرا بقرب اعتناقه دين المسيح، منذ وقوع حادثة الحديقة التي رأت في سرها هداية من الله. وعكف كذلك على الكتابة وتحرير بحوث اختار لها الشكل الحواري المألوف في الدراسات الفلسفيّة. ولم ينس فضل رومنيانوس (Romanianus) عليه منذ زمن الدراسة ـ وهو أكبر رجالات تغاست جاها وثروة ـ فأهداه كتابه الأوّل. ومن بين ما ألّف في تلك الخلوة كتاب "المناجاة" (Soliloquia) الذي استهله بالدعاء، ودوّن فيه ثمرة تأملاته فيما يخالج صدره، متفحصا خبايا نفسه تفحّص المتشائم، مسلطا عقله على ضميره في حوار متواصل، لاستئصال ما انطوى عليه من ضعف ووهن. ثم عاد إلى ميلانو، والتحق بكنيسة أمبروزيوس حيث أشرف الأسقف بنفسه على تعميده وتعميد ابنه أديوداتوس وصديقه أليبيوس.

لم يفته، بعد اعتناقه دين المسيح، أنّ الأساقفة ورجال الدين وعموم المسيحيّين صنفان، صنف صادق العقيدة لكنه دغمائي، ساذج الإيمان، كثير التعلّق بعبادة بقايا رفات القدّيسين، شديد التقيد بالعادات والطقوس الدينية. وصنف مثقّف، جمع بين الإيمان وإعمال الفكر، وهو الصنف الذي استهواه وأقنعه بالالتحاق بالكنيسة. فجعل أوغسطينوس أسقف ميلانو أمبروزيوس أسوة له وعكف، منذ تعميده وبعد رجوعه إلى إفريقيا، على البحث والتفكير في التناقض بين العقل والدين، بين التفكير الديني والفلسفة العقلانية، بين الثقافة الإنسانية التي سادت طيلة العهد الروماني، والثقافة الإلاهية التي يطالب بها المسيحيون. واستطاع شيئا فشيئا تجاوز هذا التّناقض، وتوصل إلى تصور يؤلف بين الإلاهي والإنساني، بين الفكر المسيحي من ناحية، والثقافة القديمة من ناحية

أخرى. ولم يتسنّ له ذلك إلاّ بفضل عبقريته، وقدرته الفائقة على التفكير العقلاني والتّعامل مع النظريات الفلسفيّة، وقدرته كذلك على التفكير الديني والتعامل مع اللاعقلانيّ. وفي تلك العبقرية يكمن سر التأليف البديع الذي لم ينبن عليه انتماؤه إلى دين المسيح انتماء شخصيّا فحسب، بل انبنت عليه كذلك المسيحيّة قاطبة. فبفضل نظرة أوغسطينوس وقراءاته الطريفة للأفلاطونيّة المحدثة، أمكن له توظيف الفكر الأفلاطونيّ الحديث توظيفا مسيحيا، وبناء أساس الغرب المسيحي على الفكر اليوناني واللاتيني والإفريقي القديم. ويجب أن نؤكّد الجانب الإفريقي القديم، لأنه من الغريب أن يتناسى بعض العلماء وأغلبيّة المثقفين في الغرب المسيحي، وفي المغرب والمشرق الإسلامي كذلك، أنّ أوغسطينوس ولد وترعرع وتعلم وتثقف في إفريقيا، بين قرية تغاست ومدينة مادوروس وجامعة قرطاج، عاصمة الولايات الإفريقيّة، وفكّر وألّف في هيبونا، طيلة أربعين سنة، متوّجا سلسلة الأدباء الأفارقة المسيحيين.

وقد اقترن اعتناق أوغسطينوس ورفاقه المسيحية باهتمام شديد بما بلغهم من أخبار النسك، فأجمعوا على ممارسة حياة الرهبان في مسقط رأسهم بتغاست. لكن مكسيموس (Maximus)، الذي اغتصب آنذاك الحكم الإمبراطوري أمر بغلق ميناء أوستيا وبإيقاف الملاحة. فأقامت الجماعة بمنزل من منازل المدينة، وفيه حدثت الحادثة الشهّيرة التي رواها أوغسطينوس في كتاب "الاعترافات": بينما كان متّكئا بجانب أمّه على شرفة نافذة مطلّة على الجنان، امتلكتهما نشوة روحيّة ساحرة.

ولم تمض بعد ذلك إلاّ أيام قلائل حتّى توفّيت مونيقا، فلم تهدأ لفقدانها لوعته وكتب، وهو شيخ مسنّ: «عندما فقدت فيها مواساتي، أثخن الجرح روحي وتمزّقت حياتي، حياتي التي امتزجت بحياتها حتّى اختلطتا وأصبحتا حياة واحدة».

بعد العودة إلى إفريقيا، استقرت الجماعة بالبيت الذي ورثه أوغسطينوس عن والديه في تغاست، لممارسة النّسك و«خدمة اللّه». لكنّ الانصراف عن ضغوط الحياة الاجتماعية وعن قضايا المدينة كان عسيرا، بل مستحيلا. فكان لا بدّ لأليبيوس من أن يستجيب لطلب ملح دعاه إلى الاضطلاع بأسقفيّة تغاست، وهو قريب رومنيانوس وخلف أسرة وجيهة مبوأة للاضطلاع، جيلا بعد جيل، بالحكم البلدي وبالمهام المدنية التي كان يضطلع بها حكّام المدينة ومجلس وجهائها، قبل أن تهيمن عليها الكينسة المسيحية في نهاية القرن الرابع، ويحل الأسقف والحكم الديني محل الحكم المدنّي. كما كان لا بد لأوغسطينوس أن يستجيب لطلبات مختلفة، صادرة عن رجال الكنيسة وعن غيرهم، سواء من سكان مدينته أو من سكان المدن والقرى المجاورة. وكان عليه أن يتدخّل بنفسه لمجابهة المانويّين، وهو أدرى النّاس بدينهم.

وزاره ذات يوم أحد أصدقائه بهبونا، فالتفّ الناس من حوله وألحوا على أسقفهم حتّى يُلحقه بقساوسة مدينتهم العريقة التي كانت بمثابة العاصمة الثانية لولاية إفريقيا. فقبل أوغسطينوس مرغما، وجمع في تلك الفترة بين صفة الراهب وصفة القس، وبين حياة الفيلسوف المتصوّف المستغرق في عالم الروحانيات، وحياة المناضل في سبيل الكنيسة الكاثوليكيّة بالقلم وبالعمل الميداني. وتوالت، من سنة 392 إلى سنة 394، المقالات التهجميّة على المانويّة، وجلسات الجدال مع المانويّين للرد عليهم ومقارعة الحجّة بالحجّة، وعند وفاة أسقف هبونا، أجمع الناس على انتخابه خلفا له.

قضّى أيّامه، منذ أن تولى رئاسة الأسقفية، مباشرا لمهامه الدينيّة والاجتماعية، ومناضلا في سبيل الكاثولكيّة. لكنه لم ينقطع قط عن البحث والكتابة بل شرع، منذ سنة 400م، في إعداد كتاب "الاعترافات" الذي روى فيه أطوار حياته وتجاربه، واصفا العناء الذي كابدته نفسه

في بحثها الشاق الطويل عن الحقيقة حتّى ظفرت بالإيمان وهداها اللّه إلى المسيحيّة. ولا يختلف نصّ "الاعترافات" في ظاهره عن النصوص الأفلاطونيّة المحدثة: فهو دعاء وابتهال إلى اللّه كي ينير قلب الإنسان وييسر معراجه العسير من الظلمات إلى النور. لكنه سرعان ما يتحول إلى تأمل عميق وتفحص دقيق لأغوار الضمير ومنعرجاته، ويؤول إلى دعوة الإنسان دعوة ملحة كي يمعن النظر في أسرار حياته الباطنيّة. يقول أوغسطينوس: « يبتهج النّاس عند رؤية الجبال الشاهقة، والأمواج العملاقة والمساحات التي تنساب فيها مياه الأنهار، ويُذهلهم مدار الأجرام السماوية ومنعرجات المحيط، لكنهم يهملون النظر في باطنهم، ولا يعجبون بكنوزه ».

كانت فترات الحياة الباطنيّة رغما عنه قصيرة، لانشغاله بشؤون الأسقفية وبتلبية الطلبات الواردة عليه من سكان دائرته الترابية أو من سكان دوائر الأسقفيات الأخرى. فكان يقضي يومه في الجواب شفويا عن أسئلة مخاطبيه من أعلى المنبر، أو في جلسات النقاش ومجابهة خصوم الكاثوليكيّة، كما كان يجيب يوميا مراسليه وهم كثيرون، منهم البابا، والأسقف، والقسّ، والرّاهب، والمسيحي الكاثوليكي أو الدّوناتي (أتباع هرطقة ظهرت آنذاك في إفريقيا) والمانوي والوثنّي. وقد فاق عددهم المائة والخمسين، بقطع النظر عن رسائله المفقودة وعمّا اكتشف منها في السنين الأخيرة. وقد تقتصر الرسالة على كلمة قصيرة، أو تطول حتّى تبلغ حجم الكتاب! وكان مع ذلك يمارس القضاء، ملتزما بالقوانين قدر التزامها باحترام الإنسان واعتباره، مناصرا حقّ اللّجوء وحقوق المتهم الموقوف، مستنكرا ألوان التعذيب كافّة. ولم ينحصر عمله الميداني في مدينة هبونا، بل كان يجوب ولايات زوجيتانا وبيزقينا ونوميديا وجازف بالسفر إلى موريطانيا، رغم اختلال الأمن وتفاقم مخاطر الطريق. وقد نجا بأعجوبة ذات مرة من كمين نصب له زمن انتفاضة المزارعين بعد استفحال الدّوناتيّة في غرب الولاية.

والغريب في أمره أنّ هذا النّشاط المكثّف لم يمنعه من تأليف عدد مذهل من المجلّدات. وقد قدّرها، لما راجعها في كتاب "الاستدراكات" (Retractationes)، بـ 252 كتابا. وقد جمعها في 93 مجلدا، لكنه غفل عمّا يقارب 12 مجلدا لم يشملها إحصاؤه. وإذا ما استثنينا "الاعترافات" و"مدينة الله" (De Civitae Dei) والبحث الذي تناول فيه مسألة التثليث (De Trinitate) - وهي المجلدات التي شغلته سنوات طويلة - فإنّ إنتاجه كان رهن الظروف والأحداث. فالكتب التي أعدها في أثناء خلوته بقسقياقم أو في الفترة التي اعتنق فيها المسيحية كانت تتناول كلها الموضوعات الدينية، وقد طرقها خاصة في كتاب بيّن فيه فائدة الاعتقاد (De utilitate credendi)، وآخر نادى فيه بالدين الحقّ (De vera religione)، كما نستطيع تجميع الكتب العقائدية والأخلاقيّة، ومنها كتاب "في العقيدة المسيحية" (De doctrina christiana) وكتاب "المواعظ"، وكذلك تجميع الكتب التي خصصها لتأملاته في طبيعة الروح، ومصدرها ومصيرها، أو في خلق الكون (De Genesi ad litteram) وتأويله، باعتبار لفظ الكتب المقدسة أو باعتبار المعنى والقصد. ويمكن أيضا تجميع الكتب التي وضعها للدفاع عن الكنيسة الكاثوليكية ومجابهة أعدائها بالرد على المانويّين والوثنّيين ودحض البدع المسيحية، ومقاومة أتباعها، وخاصة منهم الدوناتيين. ولم ينقطع قط عن الكتابة والنضال، حتى في السنين الأخيرة من حياته.

انتشرت كتب أوغسطينوس واشتهر في ولايات العالم الروماني كافّة، وأصبحت المدن الإفريقية تتهافت على استدعائه، وفي طليعتها قرطاج، ليلقي الخطب ويرشد الناس، وليشارك في مجالس النقاش والجدال وفي مجامع أساقفة الولايات الإفريقية التي كانت تنتظم على نحو

دوريّ. لكن الأسقف المسن كان يخشى إغراء السلطة وإغواء المديح. وكان يقول: «لا يدري من لم يجرب مقاومة هذا العدوّ مدى سلطانه على النّفوس». ويقول كذلك إنّه لا مبرّر لتفضيل الأسقف على الناس أو لتعاليه عليهم اعتبارا لمكانته أو لنفوذه. فهو مكلّف بمباشرة مهمة، وعامل يضطلع بعمل مع غيره من الناس، ويعلّم، لكنه كان مع ذلك حازما، لا يتردد في اتخاذ القرار، كلما استوجب الموقف الحزم والحسم. من ذلك أنه أمر بمنع الأفراح الموسمية التي كانت تقام عند الاحتفال بذكرى الشهداء، فأغضب الناس، ولم يتحاش مظاهراتهم إلا بالحوار معهم، مازجا في كلامه بين الحزم والإقناع. وعندما عقد العزم على مجابهة الدّوناتيين، قاد بنفسه الصراع المرير الذي قسّم الكنيسة وشدّد العداوة والبغضاء بين الدّوناتيّين المنشقّين والكاثوليكيّين. فسخّر أوغسطينوس طاقاته طيلة سنين عدّة لهذا الصراع حتى أتى على مذهب دُوناتوس (Donatus)، وقطع دابره بعزيمة فولاذية وصرامة لا ترحم.

ولنتوقف قليلا عند هذا النزاع الذي زعزع أركان الكنيسة الإفريقيّة. ولننظر إليه من منظار المؤرخ، لا من منظار عالم الدين واللاهوت. نلاحظ أن الكاثوليكيّين والدوناتيين كانوا على حد سواء يجابهون مشكلة أساسيّة واحدة، هي مشكلة العلاقة بين الكنيسة والمجتمع. فقد اعتبر الدوناتيون، إذا ما بسطنا آراءهم واختصرناها، أنه على الكنيسة أن تسهر على طهارتها وتضع المحافظة عليها فوق كل اعتبار. فالمسيحيون في نظرهم قد تعرضوا إلى اضطهاد السلط الرومانية وإلى اضطهاد الوثنيين، ثم تعرضوا بعد ذلك إلى خطر أشد ضراوة، خطر «سلم الكنيسة» والعلاقة المشبوهة التي أصبحت قائمة بينها وبين المجتمع. فقد اعتبرلى الكنيسة ألا تكون عرضة للشبهات، وأن تخشى عاقبة التنازلات في تفتحها على المجتمع وفي تعاملها معه. وعليها أن تبقى دوما كنيسة المنصفين والقديّسين، وأن تضع المجتمع أمام اختيارين اثنين: فإمّا أن يبقى خارجيا لا مكان له داخل الكنيسة، وإمّا أن يتحلى وجوبا بالعفة والطهارة التي يحتّمها دين المسيح. وكان لمفهوم الطّهارة عند الدّوناتيّين شأن كبير. فالمؤمن مهدّد دوما بفقدان ملكته الروحانية كلّما لمس رجسا أو اتّصل بشخص مدنّس.

وكانت عقائد المذهب الدوناتي وآراؤه تثير في نفس أوغسطينوس الغضب والسّخط. فكان يدحضها ملاحظا أنها تخص الكنيسة الدوناتية وحدها بالطهارة والقدسية، فتمنحها فضلا وتكسبها رفعة لا مبرر لهما. وعندما تنعتها دون غيرها «بالكنيسة الحقيقيّة»، وبكنيسة العادلين المنصفين، فمفاد ذلك حصر مجال المسيحيّين «الحقيقيّين» في البلاد الإفريقيّة، بما أنّها قد انفردت بالبدعة الدوناتية. ومفاده أيضا أنّه على أتباع الكنيسة البقاء في عزلة أبديّة عن المجتمع، وتسخير طاقاتهم لبلوغ غرض واحد، غرض المحافظة على الهوية وعلى الطهارة.

وأمّا موقف أساقفة الكنيسة الكاثوليكية، وفي طليعتهم أوغسطينوس، من مسألة العلاقة بين الكنيسة والمجتمع فهو ينطلق من التأكيد بأنّ عهدا جديدا فتح في تاريخ المسيحية بعد فترة الاضطهاد. فانتصارها على الوثنية أكسبها قوة تسمح لها بفتح الكنيسة، لقبول كافة فئات المجتمع، بل لاحتضان البشرية قاطبة. وقد أصبحت رسالتها تدعوها إلى قيادة الإمبراطوريّة التي شملت في حدودها، في اعتقاد سكّان العالم الروماني، الشعوب المتحضرة كافّة، وتدعوها كذلك إلى التبشير بدين الله لهدي مختلف الشعوب والأجناس، في البلاد التي تشملها الحضارة. ولا حرج عليها في ذلك، ولا خطر على هويتها إذا ما أمّها هذا الخليط من الفئات الاجتماعية ومن الشعوب المختلفة، ومن واجبها أن تنبذ كل ما من شأنه أن يحدث بين الناس، عند دعوتهم إلى دين الله، فارقا أو تفضيلا.

ذلك ما دعا إليه أسقف ميلانو أمبروزيوس الذي كان يريد للكنيسة أن تؤطر شعوب الإمبراطوريّة في كافة الولايات وتقودها، وأن تسود الكون، وأن تطالب الإمبراطور الروماني بشدّ أزرها.

لكن توسع الكنيسة وتفتحها كانا مقترنين، في مفهوم أوغسطينوس، بنظرة جديدة. فهو يعتبرها في حقيقة الأمر كنيسة دنيوية، تشوبها النقائص كسائر الكائنات الدنيوية. وما هي إلا خيال شاحب وظل باهت للكنيسة المثالية، للكنيسة الحقيقية السرمدية التي ستسود بعد فناء الدنيا، وستبقى بقاء الآخرة، وما هي إلاّ «أورشليم الدنيويّة»، التي تُقابلها «أورشليم السّماويّة».

ولا بدّ من أن نلاحظ، في هذا الصّدد، تأثير النظرية الأفلاطورية المحدثة التي كانت تعتبر أن العالم المادي البارز للعيان أشكال لم تبلغ بعد ذروتها وكمالها، وأنّ «صيرورة» هذه الأشكال و«اكتمالها» رهن مشاركتها «للعالم العقلاني» الذي لا يدرك بالحواس، ورهن انتمائها إلى عالم الكائنات المثاليّة. وما مثل الكائنات الدنيوية إلا كمثل «الصورة التي تحاكي الواقع والحقيقة، وتتوق دوما إلى بلوغ كمال الحقيقة دون إدراكه».

فمعشر المنضوين في كنيسة دار الدنيا مذنبون رغم سعيهم، سعيا متفاوتا، إلى تحاشي الخطيئة والإثم للظفر بالطهارة والقدسيّة. لكنّ الطهارة والقدسية من المثل العليا، ولا فائدة إذن في شرط الدوناتيين على أسقف الكنيسة الدنيوية، «الطهارة» و«القدسيّة» الاضطلاع بتعميد المتنصّر أو برسامة الكاهن، بما أنّ التعميد والرسامة فضل من لدن المسيح، مهما كانت اليد التي تتولّى القيام بهما. وما على المسيحي الذي أقره التعميد، وما على الكاهن الذي حظي بالرسامة إلا التقيّد بالعقائد والطقوس، والسعي سعيا حثيثا إلى اجتناب الإثم والتغلّب على النفس. وعليهما بالتعايش، مع سائر المذنبين في المجموعة المسيحية، تعايشا متواضعا متسامحا نزيها، وعليهما بالاستعداد والتأهّل لنشر رسالة الهداية بين المذنبين.

كان أوغسطينوس واثقا من آرائه عندما قاوم الدوناتية بعزيمة وحزم. ولمّا استفحل العنف بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة المنشقة، اقترنت عزيمته بالتصلب واقترن حزمه بالشدة وقاد الصراع حتّى نهايته، ولم يتراجع ولم يتردّد مهما بلغت قساوة التجاوزات الأمنيّة وشراستها.

ولم ينته نضاله بالقضاء على الدوناتية، بل أنهك قواه في التصدي لكل خصوم الكنيسة الكاثوليكية، ولسائر البدع. ووقف وقفة أخيرة لمقاومة البيلاجيّين، أتباع الراهب بيلاجيوس (Pelagius)، الذي آمن بالقدرية وبحُرية الضمير، وكان ينادي بطيبة الخلق وبطيبة الإنسان، ويقلّل من وطأة الخطيئة الأصليّة ومن حتميّة الاصطفاء الإلهي للفوز بالخلاص. وكان تأثير الفلسفة الرواقية واضحا في مذهبه الذي يتلخص في مطالبة الإنسان ببلوغ الكمال، لأنّ الكمال رهن إرادته. ولا ينكر بيلاجيوس أن طيبة الإنسان عرضة لآفات الطبيعة وفساد المجتمع ورتابة الحياة الاجتماعية، وأنّها كذلك عرضة لجهل الإنسان وطفرات عاطفته، ولنزواته وعيوبه وعاهاته، الموروثة منها والمكتسبة. لكن التعميد مقترن في نظره بالغفران، فهو يمحو الخطيئة والإثم، ويعيد إلى المؤمن حرية الضمير والتصرف بعد حرمانه منها من قبل.

وكان أوغسطينوس لا يشاطر البيلاجيّين تفاؤلهم، بل كان يرفض رأيهم في اعتبار الإنسان قادرا على بلوغ الكمال، ويرفض قولهم بطيبة طبيعته، ويؤمن إيمانا راسخا بحتمية الاصطفاء الإلهي الذي لا يكون إلا بإذنه، كما كان يؤمن بالخطيئة الأصلية التي قضت على طبيعة الإنسان بالضعف، وأغرقت نفسه في بحر من الشك والحيرة. ولا خلاص للإنسان ولا نجاة إلا بالمنة الإلهية، ولا أمل له إلاّ في أن يتحول تحولا بطيئا، في مستقبل بعيد، تحولا مشهودا بعد الانهيار والسقوط. فحياة المسيحي، في نظر

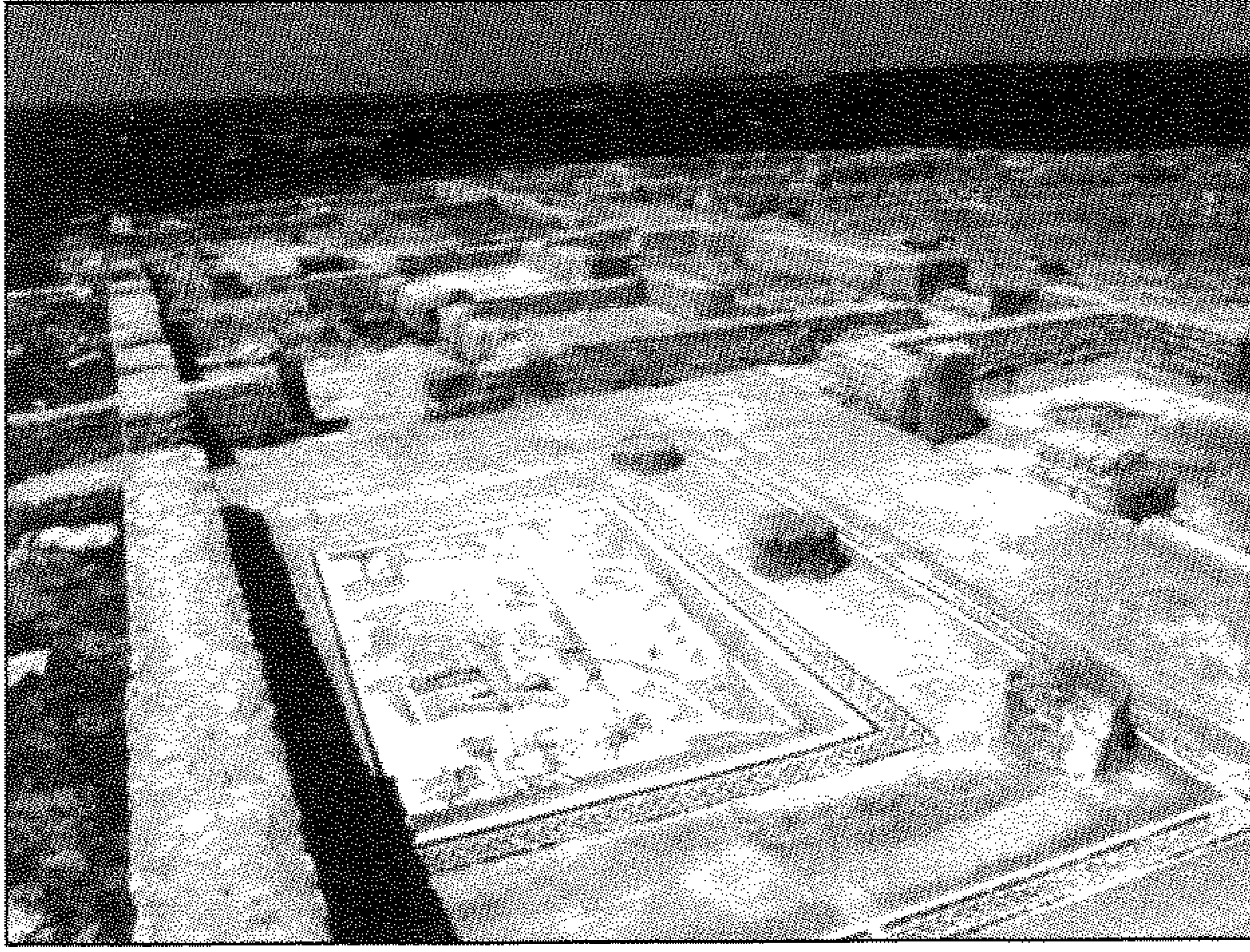
أوغسطينوس، حياة جهد وبذل وسعي دائم إلى الفوز بالشفاء والنجاة. وكان إيمانه بالمنة الإلهية مقترنا بنظرية القضاء والقدر التي رأى فيها تفسيرا للكون، معتبرا أنّ للأحداث معنى واضحا، سواء كان الحدث بحول الله وقوته، أو كان بفضل الله ونعماه على من اصطفاه، أو كان لإدانة المذنب الذي استحق لعنته.

وقبل أن يموت أوغسطينوس بقليل، أهدى في موفى سنة 429، كتابين أخيرين إلى مراسليه عبر البحر، أحدهما في "القضاء والقدر الذي اصطفى القدّيسين" (De praedestinatione sanctorum)، والآخر في "موهبة المثابرة" (De dono perseverantiae). فكانا بمثابة الرسالتين الأخيرتين لتحريض المسيحيين على التسلح بالصبر والإيمان، ولشرح مغزى المحن التي زعزعت أركان الإمبراطورية الرومانيّة، وقضت نهائيا على جزئها الغربي، في أوروبا وفي إفريقيا. وما كان ذلك إلا بإذن الله ومشيئته، والله وحده بغايتها عليم، وهو الذي يهب عباده البنية الباطنية التي لا يدب إليها شك، ولا تنتابها حيرة.

وبين صائفة سنة 429 وربيع سنة 430م غمرت موجة الزّحف الوندالي ولايتي موريطانيا ونوميديا، وضُرب الحصار على هبونا، لكن أوغسطينوس لم يشهد سقوطها، إذ أصيب بحمّى مفاجئة، وتوفي سنة 430م، ففقدت ولاية إفريقيا أحد أبرز رموزها الذي نشر ثقافتها ورفع شأنها إلى الأبد، وفقد العالم عبقريا أضاءت أنوار عبقريته حضارة الغرب المسيحي وأشعت على حضارة العالم بأسره.

المنتزه الأثري بأوذنة

أوذنة هو الاسم الحديث لمدينة أوتينا القديمة التي هي اليوم منطقة أثرية وفلاحية توجد على مسافة 30 كلم جنوب العاصمة. وقد اعتبرها المؤرّخ بلينوس Pline في القرن الأوّل



الميلادي من أهم المستوطنات القديمة بمقاطعة أفريكا. ولئن كان موقع أوتينا الأثري الذي يمتاز بمحيطه الطبيعي الجذاب معروفا من قبل الآثاريّين منذ منتصف القرن التاسع عشر ميلادي، فإنه لم يحظ إلى موفى الثمانينات من القرن العشرين بأيّ تدخل أثريّ.

وفي نهاية سنة 1992 تقرر إنشاء منتزه أثري بأوذنة ووضع برنامج إحياء لهذا المعلم ورصدت له اعتمادات مالية كبرى.

وتقرر تركيز الجهود على أربعة معالم رئيسة فمكنت الأشغال من إزالة الأتربة وترميم هذه المعالم ودعمها، وهي الكابيتول الذي يعدّ أكبر معبد روماني بإفريقيا، والمدرج الدائري والحمامات العموميّة الكبرى والمنازل ذات الأروقة، وخاصة المنزل المعروف بـ«منزل الأبيري». وبالإضافة إلى ذلك خضع الموقع والمناطق المحيطة به لأعمال الصيانة والتنظيف، لتسهيل الدخول إليه كما هيّئت ممرات تربط بين المعالم لترسيم مسالك الزيارة وبناء مكاتب إدارية ومقر إرشادات الحفريات.

الإيادي التونسي (علي بن محمّد)

[ت 365هـ/ 976م]

هو شاعر إفريقي مناصر للدّولة العبيديّة بالقيروان والمهديّة، خدم القائم بأمر الله

والمنصور ابنه وخاصّة المعز لدين الله والتحق به في عاصمته الجديدة القاهرة رغم علوّ سنّه ومخاطر البحر. وقد أسره قرصان النصارى (ابن رشيق: قراضة الذهب 103) ومات بها مثل المعزّ سنة 365/976 (الشاذلي بويحيى: الحياة الأدبيّة في عهد بني زيري). وكان قد نشأ بتونس كما تدلّ عليه نسبة التونسيّ (ح.ح. عبد الوهاب: مجمل تاريخ الأدب التونسي ص 96) التي عرف بها أيضا سميٌّ له من العصر الصنهاجي مدح منصورا هو الآخر ومعزّا يدعى علي بن يوسف التونسيّ. أمّا الإياديّ فنسبة إلى إياد وهي قبائل عربيّة متعدّدة الفروع والمواطن (انظر أنساب السمعاني ودائرة المعارف الإسلاميّة في فصل إياد).

يبدو أنّ شهرة الإيادي تجاوزت إفريقيّة إلى الأندلس والمشرق فقد روى ابن رشيق (العمدة231) أنّ الشاعر ابن هانئ هجاه شعراء القيروان عند مقدمه من الأندلس فأبى أن يردّ على أحد منهم إلاّ إذا كان علي الإيادي فشكر له هذا التّشريف وربحت تجارة ابن هانئ. وروى ابن رشيق أيضا (قراضة الذّهب 102) أنّ بعض شعره انتحله السّريّ الرفاء والوأواء الدّمشقيّ. وأشاد به ابن شرف (رسائل الانتقاد 9) فقال «هو بحتريّ الغرب» على عادة المغاربة في التشبّه بأهل المشرق أوّلا قبل التباهي بأمجادهم، غير أنّ ما وصل إلينا من شعره مقطوعات لا تصل إلى حجم القصيدة وأبيات منفردة لا تسمح بقبول هذه المقارنة أو رفضها. فقد جُمع له في كتاب«الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي»، (بيروت / لبنان، سنة 1986) نحو 134 بيتا نقلتها كتب الأدب وبعض كتب التّاريخ في أغراض محايدة غالبا، مثل وصف فرس في ركضه أو الأسطول الفاطميّ مجهّزا بالقذائف النّفطيّة التي عرفت باسم «النّار الإغريقيّة» أو قصر البحر بالمنصوريّة. والمديح الفاطميّ في ما وصل إلينا منها قليل، إمّا لأنّ الرّواة عزفوا عن شعره الشّيعيّ – ولكن ألم يحتفظوا بشعر ابن هانئ ؟ – أو لأنّهم فضّلوا شعره الوصفيّ. وفعلا نجد فيه صورا ثريّة، إذ يشبّه مثلا فرس أحد الأمراء بالقصر المنيف تارة وبالبازي المحلّق في الجوّ أو المركبة السابحة تارة أخرى (كامل):

وأقبّ من لُحُق الجياد كأنّه
قصر تباعد ركنه عن ركنه
... متقطّر بالراكبين كأنّه
باز تروح به الجنوب لوكنه
... وكأنّه فلك إذا حرّكته
جارٍ على سهل البلاد وحزنه

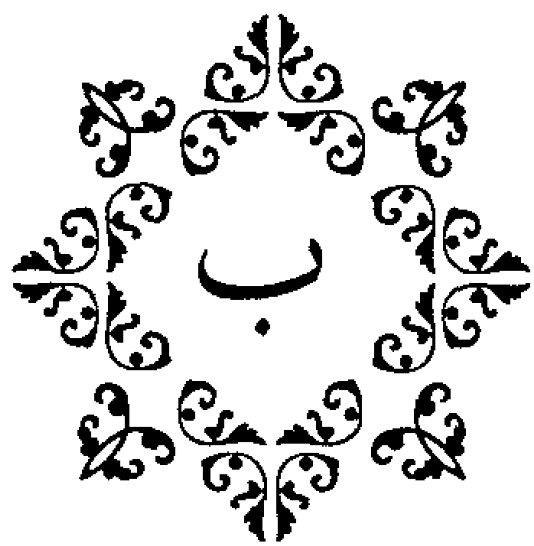
أمّا المعاني الشيعيّة والشعارات المذهبيّة فأظهر ما وجد له منها هذان البيتان في الإشادة بتعيين المنصور وليّا للعهد حيث يتصدّى لأبي يزيد صاحب الحمار (طويل):

فيا صفوة الله المقدّسة التي
تصبّح منّا بالصلاة وتُغْبق
إليك شكونا من أذى بربريّة
نكاد لها لولا ولاؤك نفرق

وقد تشفّى الشّاعر من الثائر المغلوب كما تشفّى العبيديّ منه إذ سلخه وحشا جلده تبنا وطاف به البلاد (رمل):

فنضا عنه أديما دنسا
كان قد أسَرَفَ فيه و مر د
وحشاه سالخوه سعفاً
مالئا ما بين كعب وكتد

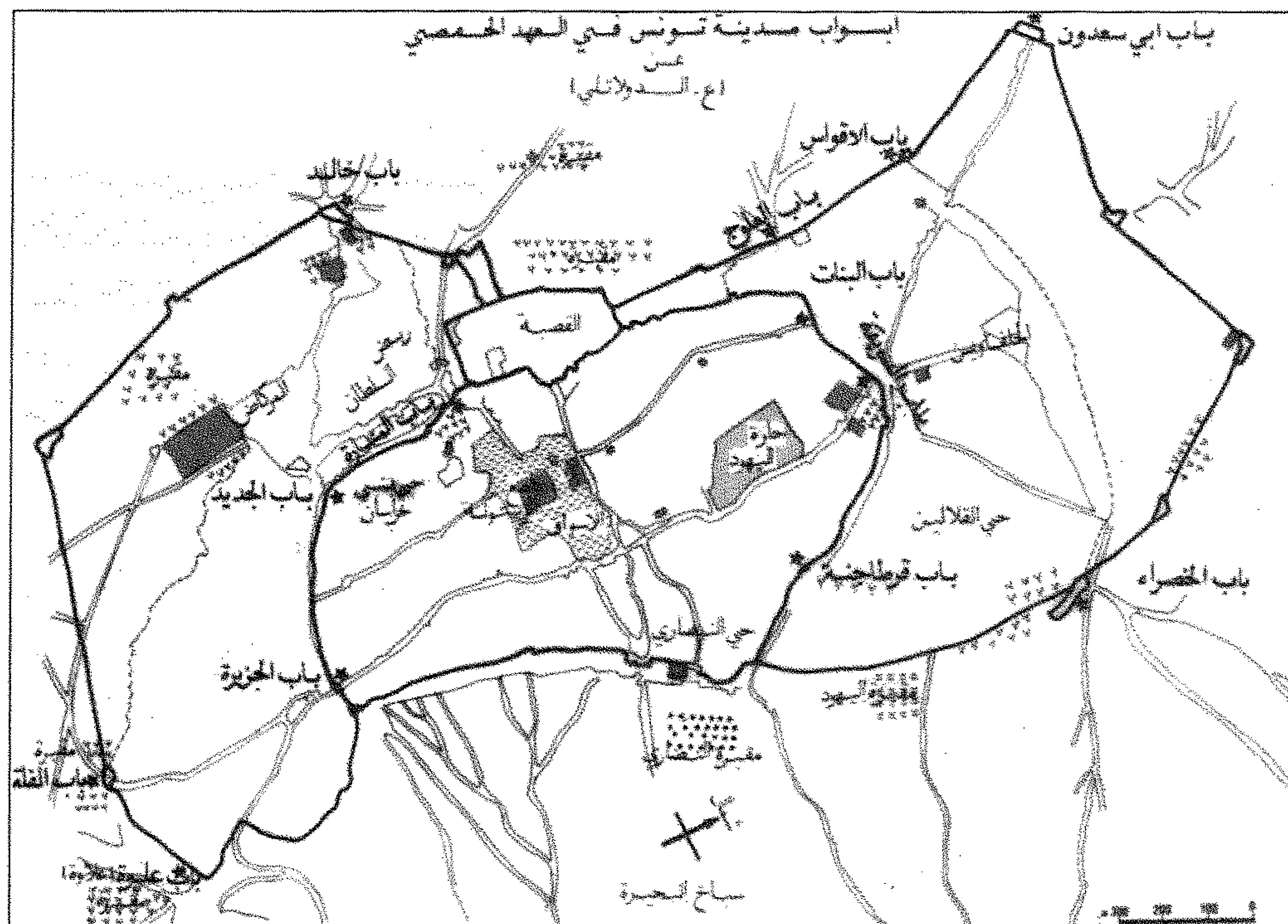
وباختصار لعلّ الإياديّ شاعر كبير بقطع النظر عن ولائه الفاطميّ خلافا لابن هانيء الذي غلب على شعره الانتماء المذهبيّ.



أبواب تونس

كانت مدينة تونس محاطة بأسوار، وفقا لنظم تحصين المدائن في العصور الغابرة بسائر جهات المعمورة، إنّما الشّيء الجدير بالذّكر هنا، هو أن حاضرة تونس كانت مسيّجة بسور من تراب أقامه حولها الأمراء الأغالبة في أوائل المائة الثالثة للهجرة، وهذا السّور تناوله التجديد مرارا في القرون التّالية. ولقد حفظ التّاريخ في هذا المقام منقبة جليلة لوليّ اللّه سيدي محرز بن خلف، عماد البلد وأهلها، يسمّونه «سلطان المدينة» إذ كان من العاملين على تشييد سور تونس في المائة الرّابعة، ويقول المؤرّخ ابن أبي دينار في المؤنس: إنّ هذا السّور المحرزي عفت رسومه عند ظهور الدّولة الحفصية، لأنّ السّلاطين الحفصيين جدّدوا أسوار تونس عاصمة ملكهم، وجعلوها بالحجارة والبناء المرصوص، وهكذا استرسل حال الأسوار التّونسيّة عبر العصور إلى عهد الدولة الحسينية. ففي مدّتهم كثرت تحابيس أهل الخير على أسوار تونس، قياسا على صنيع أهل العصر الحفصي، وكانت أغلب تلك التّحابيس الباقية آثارها لهذا الزّمان، هي معاصر الزّيوت التي كانت الحاضرة عامرة بها، وكان من أكثر الملوك الحسينيّين عناية بالأسوار والحصون الواقعة حول تونس، المولى حمودة باشا.

هذه الأسوار التي كانت في الزّمن القديم تضمّ داخلها مدينة تونس بأجمعها، أصبحت من ثمّة واقعة داخل البلد بسبب انتشار البناءات والمساكن خارجها، بحيث إنّها فات المقصود منها، وصار وجودها، فيما يقال، منافيا لقواعد الصّحّة بالمعنى العصري. لذلك هُدم بعضها لعهد قريب، لأنّ بعضهم يراها مانعا من انتشار



الضّوء والهواء حول الأبنية، والدّور، والقصور المجاورة لها. وليس هذا بالأمر الغريب، فإن بعض أسوار تونس كان قد هُدم لقرنين ماضيين فيما بين باب البنات وباب قرطاجنّة على عهد الباشا علي باي الأوّل، هكذا جاء في كتاب المشرع الملكي، والتّاريخ يعيد نفسه كما هو مقرر معلوم، على أنّ الأسوار التي هدمت في زماننا الحاضر، بقيت منها نماذج قائمة لإخبار الأجيال القابلة بأحوال القرون الماضية.

وكان لحاضرة تونس في الأوّل سور واحد محيط بالمدينة، وهذا السّور كان موقعه بالطّريق العام المارّ به خطّ سكّة الترامواي، أي السّكّة المارة بباب البحر فباب قرطاجنّة، فباب السويقة، فباب البنات، فالقصبة، فباب المنارة، فالباب الجديد، فباب الجزيرة، فباب البحر حيث البداية، وهذا هو السّور القديم الذي كان موجودا في المائة الرّابعة على عهد سيدي محرز بن خلف، وكانوا ينعتونه بالسّور الدّخلاني، والسّور الثاني هو الذي أحدثه سلاطين بني حفص، وهو المضاف إلى سور باب البحر، وباب الجزيرة، فباب علاوة، فباب الفلّة، فباب القرجاني، فباب سيدي قاسم، فباب سيدي عبد اللّه، فباب غدر، فباب العلوج، فباب سعدون، فباب سيدي عبد السلام، فباب العسل، فباب الخضراء، ومنه يلتحق بسور باب قرطاجنّة، وباب البحر حيث البداية، وهذا السّور كانوا ينعتونه بالسّور البرّاني. ولقد اعتمدنا في بحثنا مصادر كثيرة، أقدمها عهدا كتاب "المسالك والممالك" لأبي عبيد عبد اللهّ البكري (ولد سنة 432هـ/1040م وتوفي بقرطبة سنة 487هـ/1094 م) وكتاب "نزهة المشتاق" للشّريف الإدريسي (ألّفه سنة 548هـ/ 1153م) و"معجم البلدان" لياقوت الحموي (المتوفّى عام 626هـ/1228م) وأقربها عهدا كتاب "المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي تركي"، لمؤلّفه محمد الصغير بن يوسف الباجي (توفّي في حدود سنة 1184هـ/1770م) وتاريخ الحكيم فرانك الفلمنكي، طبيب المولى حمودة باشا الحسيني ألّفه في حدود سنة 1815 للميلاد وكتاب "نزهة الأنظار" للمؤرّخ محمود مقديش الصّفاقسي، أنهاه تأليفا بحوادث سنة 1233هـ/1817م، وبقية المصادر التي رجعنا إليها في هذا البحث، هي: ابن الشبّاط (المتوفى عام 681هـ/1282م) و"رحلة العبدري" التي ابتدأها صاحبها في سنة 688هـ/1289م و"رحلة التجاني" (عبد اللّه بن محمد بن إبراهيم التّجاني. توفي سنة 720هـ/1320م) و"تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" للرّحّالة ابن بطوطة ابتدأها في سنة 725هـ/1324م و"تقويم البلدان" لأبي الفداء إسماعيل (المتوفّى سنة 732هـ/1331م) وكتاب "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لابن فضل الله العُمَري الدمشقي (المتوفّى سنة 748هـ/1347م) وكتاب "العبر" لابن خلدون (المتوفى سنة 808هـ/1405م) وكتاب "صبح الأعشى" لأبي العباس أحمد القلقشندي ألّفه عام 814هـ/1411م و"تحفة الأريب" لعبد اللّه التّرجمان ألّفها سنة 823هـ/1420م وكتاب "الأدلة البيّنة النّورانية على مفاخر الدّولة الحفصية" لابن الشّمّاع أنهاه تأليفا بحوادث عام 833هـ/1429م و"تاريخ الدّولتين الموحديّة والحفصية" للفقيه الزّركشي، واسمه محمد بن إبراهيم اللؤلؤي المعروف بالزّركشي (المتوفّى سنة 932هـ/1525م) وكتاب "وصف إفريقية" للمؤرّخ ليون الإفريقي وهو كتاب جليل تضمّن ثلاثة مجلّدات، ظهر حوالي سنة 639 للهجرة (1530 للميلاد) و"المؤنس في أخبار إفريقية وتونس"، لأبي عبد اللّه محمد بن أبي القاسم الرّعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، ختمه بحوادث (سنة 1092هـ/1681م) وكتاب "الحلل السّندسيّة في الأخبار التونسية" للوزير السّرّاج، وغير ذلك من المعجمات والمؤلّفات التّاريخيّة الحديثة، عربية وفرنسية.

نبدأ بأبواب السّور الدّخلاني التي تقدّم ذكرها، ويلوح أنّ أقدم أبواب هذا السّور، هو

باب الجزيرة الذي يعبر منه للوطن القبلي، والوطن القبلي اسمه في كتب التّاريخ جزيرة شريك، نسبة لشريك العبسي عاملها، وهو من الفاتحين الأوّلين، يزاحمه في الأقدمية باب قرطاجنة الذي يعبر منه لجهة قرطاج، ومن أطلال هذه المدينة جيء بالحجارة اللازمة لعمارة مدينة تونس، وعلى هذا التّقدير يمكننا جعل ظهور هذين البابين في أواخر المائة الثانية أو في أوائل المائة الثالثة، أي في الزّمن الذي تمصّرت فيه مدينة تونس، وأخذت نصيبها من العمران والازدهار الفقهي حول مسجدها الأعظم جامع الزّيتونة الذي تم بناؤه باتّفاق المؤرخين في سنة 114هـ/732م على يد عبيد اللّه بن الحبحاب والي تونس للخليفة هشام بن عبد الملك. وهنا يجدر الإلمام بوصف تونس على ما حكاه البكري (المائة الخامسة) في كتاب المسالك والممالك، لأنّه أقدم المصادر التّاريخية المعتمدة كما أسلفنا، قال: ومدينة تونس في سفح جبل يعرف بجبل أم عمرو (الجبل الأحمر)، ويدور بمدينتها خندق حصين، ولها خمسة أبواب، باب الجزيرة قبلي، ينسب إلى جزيرة شريك، ثم قال: وبشرقيّها أيضا باب قرطاجنّة، دونه داخل الخندق بساتين كثيرة تعرف بسواني المرج (هذه البساتين كان موقعها فيما بين باب الخضراء وباب السويقة شاملة لجهة الحلفاوين، ومنه الرّياض الذي كان محلّ نزهة لأهل الدّولة) وباب السّقّايين جوفي، نسب إلى السّقّايين لأنّ بئرا تُعرف ببئر أبي الفقار تقابله، وهي بئر كبيرة عذبة الماء نميرة. وباب أرطة غربي، تجاوره مقبرة تعرف بمقبرة سوق الأحد، ودون الباب من داخل الخندق غدير كبير يعرف بغدير الفحّامين، وربض المرضى خارج عن المدينة، وبقبلي ربض المرضى ملاّحة كبيرة، منها ملحهم وملح من يجاورهم.

ومن تعريف البكري، يظهر أنّ مدينة تونس كانت لها خمسة أبواب في زمنه، وهي: باب الجزيرة (معروف، شمله الهدم مع سور تونس الدّاخلي)، وباب قرطاجنّة (معروف، شمله الهدم مع السّور الدّاخلي كالباب السّابق)، وباب السّقّايين، وكان يفتح بجهة الجوف قرب بير قميرة، يستقي منها أهل تونس، وهذا الباب غير معروف ولم يشر إليه المؤرّخون التونّسيون، ويلوح بمقتضى اتّجاه موقعه الجوفي، أنّه ربّما كان هو باب الأقواس، حيث كانت مخازن المشاكة وهم أصحاب الأمشاك الخاصّة بتعبئة ماء الشراب وحمله لتزويد أهل المدينة، وباب أرطة وهو غير معروف أيضا، ولعلّه نسبة إلى اسم بشر بن أرطة من أصحاب عقبة بن نافع، لأنّ التّاريخ أثبت قدوم بعض أصحاب عقبة إلى جهة تونس، أو هو بالأحرى اسم لبقعة مجاورة لسور تونس من ناحيته الغربية كما يستفاد ذلك من عبارة البكري في قوله: وسار حسّان بن النّعمان إلى أرطة، فقاتل الرّوم بفحص تونس. وهذا الباب كان غربيّ المفتح، وكان لقربه من الخارج جبّانة تعرف بمقبرة سوق الأحد، ودون الباب أي بداخل البلد، كان الخندق الجامع لنفايات المدينة، وسنعود للكلام عليه، وخارجه أي خارج البلد، كان ربض المرضى، يعني المرضى المبتلين بأمراض العدوى. ويقول بعض المؤرخين من الأروباويين، إنّ جعل هؤلاء المرضى خارج المدينة كان لسبب إصابتهم بالبرص. ومقتضى كلام البكري، كان قبلي هذا الرّبض ملاّحة كبيرة يتزوّد منها أهل المدينة، وهذه الملاّحة ليست هي إلاّ ملاّحة رادس المعروفة، إذ لا يوجد حول حاضرة تونس إلاّ هذه الملاّحة وملاّحة روّاد الواقعة لجهة الجوف بالنّسبة إلى مدينة تونس، وأمّا المقبرة المسمّاة بمقبرة سوق الأحد، فمحلّها بمقتضى اتّجاه موقعها نحو الغرب، يكون خارج السّور فيما بين باب العلوج وباب سيدي عبد اللّه اللذين سيأتي الكلام عليهما، وفعلا توجد هناك لهذا الزّمان المقبرة المنسوبة إلى سيدي أحمد السّقّا، وكون هذا الوليّ من رجال المائة الثامنة (توفي رضي اللّه عنه عام 743/1342م)، لا يقوم دليلا على

عدم وجود مقبرة هنالك قبله، بل الأمر بالعكس، إذ من المحتمل القريب أنّ تلك المقبرة أوّلية، وإنّما بدّل اسمها بتوالي القرون، بدليل أنّ مقبرة الزلاّج حبّسها صاحبها في المائة السّابعة، مع كون أرضها كانت بها جبّانة لدفن أموات المسلمين في المائة الخامسة أو قبلها، وهنا ينتهي بنا التعليق على كلام البكري، وبقي مدينا لنا ببيان الباب الخامس بتونس في زمنه.

وأمّا الشّريف الإدريسي صاحب كتاب «نزهة المشتاق» الذي هو من رجال المائة السّادسة، فقد قال: وهي (تونس) الآن في وقت تأليفنا لهذا الكتاب (سنة 548هـ/1153م) معمورة موفورة الخيرات، يلجأ إليها القريب والبعيد، وعليها سور تراب وثيق، ولها أبواب ثلاثة (لم يذكر أسماءها)، وجميع جناتها ومزارع بقولها في داخل سورها، قلت: اتّفق المؤرّخون الأوروباويون على أنّ كتاب الشّريف الإدريسي أحسن ما وضع في فنّ الجغرافيّة في زمنه، لأنّه كتبه عن عيان لا عن سماع.

وقال ابن الشّبّاط: ولها (تونس) في زماننا (المائة السّابعة) عشرة أبواب، بعضها في البلد، وبعضها في القصبة، ثم قال: وبها أسواق كثيرة، ومتاجر عجيبة، وفنادق كبيرة رفيعة، وبها خمسة عشر حمّاما، وعضادات أبواب... هذا كلام ابن الشبّاط بالنّقل عن ابن أبي دينار الذي استدرك عليه بأنّ أبواب تونس في زمنه (القرن الحادي عشر) سبعة أبواب، ولم يبق في القصبة إلاّ باب غدر وأنّ عدد الحمّامات أربعون.

وقال في رحلة العبدري: ومدينة تونس – كلأها اللّه – من المدن العجيبة الغريبة، وهي في غاية الاتّساع ونهاية الإتقان، والرّخام كثير بها، وأكثر أبواب ديارها معمول به عضائد وعتبا، وجلّ مبانيها من حجر منحوت محكم العمل، ولها أبواب عديدة (لم يذكر أسماءها)، وعند كل باب منها ربض متّسع على قدر البلد المستقلّ. قلت: هذه الأرباض هي: ربض باب السّويقة، وربض باب المنارة، وربض باب الجزيرة.

وأمّا رحلة التّجاني التي ابتدأها سنة 706هـ/1306م، فلم نجد فيها ما يفيد القارئ بخصوص أبواب مدينة تونس، ومثلها رحلة ابن بطوطة، سوى أنّ هذا الرّحّالة الشّهير وصف لنا موكب السّلطان الحفصي بما يشفي الغليل، وكان ابتداؤه لرحلته من طنجة في سنة 725هـ/1324 م.

وقال في تقويم البلدان لأبي الفدا إسماعيل، المتوفّى عام 732هـ/1331م: «تونس هي كرسيّ مملكة إفريقية»، ثمّ لاحظ على ضبط لفظها فقال: بضمّ المثنّاة من فوق، وسكون الواو، وضمّ النّون، وفي آخرها سين مهملة. وبهذا الضّبط يكون اسمها غير مشتقّ من الأنس الذي أشار إليه الشّاعر في قوله (متقارب):

وتونس تُؤْنس من جاءها
وتدركه حسرة حيث سار

ولكن ياقوت الحموي قال في «معجم البلدان»: إنّ النّون في لفظ تونس تضمّ وتفتح وتكسر. قلت: هذا أغرب من الغريب، لأنّ مثل هذا التّوسّع لا يصحّ استعماله في أسماء الأعلام، ولأنّ لفظ تونس معرّب من لفظ (Thunes) في اللسان اللاتيني وموجود في كتب الأقدمين قبل أن يفتحها المسلمون بأحقاب، ومن العبث الصّراح الجزم بغير الحقيقة التّاريخية التي جعلت اسم تونس لحسن حظّ أهلها موافقا بمجرّد الصّدفة والاتّفاق لمادة الأنس الذي في معناه الاستبشار وانشراح الصّدور.

وممّن وصف تونس وصفا مُسْتفيضًا ابن فضل اللّه الدّمشقي (توفّي عام 748هـ/1347م) في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار حيث قال: هي مدينة مسوّرة في وطئة من الأرض بسفح جبل يعرف بأمّ عمرو، ويستدير بها خندق حصين، وثلاثة أرباض كبيرة من جهاتها، وأرضها سباخ، وبها قصبة هي سكنى السّلطان، وجميع بناء تونس بالحجر والآجر مسقوفة

بالأخشاب، وتفرش ديار أكابرها بالرّخام ومنذ خلا الأندلس من أهله وآووا إلى جناح ملوكها، مصّروا إقليمها ونوّعوا بها الغراس، فكثرت منتزهاتها وامتدّ بسيط بساتينها على بحيرة من البحر الشّامي (البحر المتوسّط) خارجة إلى شرقيّها من فم ضيّق (حلق الوادي)، إلى أن قال: وليس لأهل تونس شرب إلاّ من الآبار، أحدها بير ضبيان، وبالبيوت صهاريج (مواجل) تجمّع فيها مياه الأمطار لغسل القماش وغير ذلك. فترى مع هذا الوصف الجميل عدم تعرّض ابن فضل لذكر أبواب تونس، ولكنّه أفادنا باسم بير ضبيان المقتبس منه بما لا شكّ فيه اسم خندق ضبيان الذي كان متسربلا خلال ربض باب السّويقة حتّى البحيرة.

هذا ولم نقف في كتاب العبر لابن خلدون على تعريف خاصّ بأبواب تونس، رغم إلمامه الجامع بتاريخ بلاد العرب والبربر بأجمعه، ومثله القلقشندي فإنّه وصف تونس في صبح الأعشى، ولكنّه لم يتعرّض لذكر أبوابها، ومثلهما المؤرخ ابن الشّمّاع، وهو من أبنائها. أمّا الفقيه الزّركشي فقد تعرّض لذكر جملة من أبواب تونس المعروفة وغير المعروفة، ومن هذه الأخيرة باب ينتجمي (لفظ بربري) أحد أبواب القصبة، ونصّ عبارته: وفي سنة 651هـ/1253م بنى المستنصر بن أبي زكرياء قبّة الجلوس بتونس التي باسراك (لفظ بربري معناه بطاح) المشرفة على باب ينتجمي، وبنى الممشى من القصبة إلى رأس الطّابية لكي تحتجب فيها حريمه، وأوصله إلى رياض أبي فهر. وقال في حوادث عام 857هـ/1453م: توفّي القائد نبيل بمحبسه ودفن ليلا بالقصبة، ثمّ أخرج ليلة الخميس رابع عشر الشّهر المذكور (جمادى الأولى عام 857هـ) وأنزل إلى المدرسة الكائنة شرقي باب ينتجمي أحد أبواب القصبة (ولسائل أن يسأل: أين موقع هذه المدرسة؟ والمظنون أنّها بجهة الحفصية أو بجهة حوانيت عاشور حَيث مدرسة الوزير البربري أحمد بن تفراجين الباقية آثارها إلى هذا الزّمان بنهج سيدي ابراهيم الرّياحي). وقال في حوادث عام 861هـ/1456ـ 1457م: أصاب النّاس بتونس غلاء في الطّعام، بلغ قفيز القمح أربعة دنانير ذهبا، والشّعير على الشّطر من ذلك، فشكا النّاس قلّة الطّعام وغلاءه للسلطان (أبي عمرو عثمان الحفصي) فأمر بأن يخرج من المخزن (الرّابطة) في كلّ يوم ما يصنع منه ألف خبزة وتفرّق على الفقراء بباب ينتجمي، فابتدئ بتفريقها في ثالث ربيع الثّاني، ودام إلى رجب، حتى كثر الطّعام الجديد ورخص ثمنه، (هذه الشهور الثلاثة يوافقها مارس وأفريل وماي سنة 1457 للميلاد).

وممّن كتب أيضا في وصف حاضرة تونس المؤرّخ ليون الإفريقي الذي وصف تونس وصفا جامعا عرض فيه لما تشتمل عليه من الأبنية والآبار والعوائد حتى المأكول، ومنه البسيس، وأثنى على أخلاق أهلها وإقبالهم على الصّنائع والشّغل ولا سيما النّسيج وقال: إنّ السّلطان المستنصر زاد في عمارتها بإحداث ربض خارج باب السّويقة به ثلاثمائة دار، ربض خارج باب المنارة به ألف دار، وربض خارج باب البحر به مساكن النّصارى ومتاجرهم، وأكثرهم من الجنويز، والبنادقة، والكاتلان، وقال: إنّ الدّور مبنية بالحجارة الصّلدة، وصحونها مفروشة بحجر الكذّال، وبلاط البيوت مموّه بالألوان: قلت: كان عدد ديار تونس في ذلك العصرمقدّرا بالعدّ الصّحيح لنحو سبعة آلاف دار. ومعلوم أنّ حاضرة تونس كانت مستكملة العمارة في أواخر العصر الحفصي من حيث اشتمالها بالوسط على أحياء المدينة الواقعة داخل سورها الأوّل كما تقدم ذكره، وعلى أحياء الأرباض المحدثة في العصر الحفصي التي يشملها السّور الخارجي (وما زالت منه بقية عظيمة موجودة لهذا اليوم)، وأبواب هذين السّورين المعروفة بين النّاس، ذكر أكثرها المؤرّخ ابن أبي دينار في المؤنس، بحيث لم تبق لنا فائدة بإضافة نُقُول أخرى لذلك من كتب المؤرخين المتأخّرين. لذا نحصر ما بقي لنا من

الحديث في التعّريف بتلك الأبواب، قديمة كانت أو حديثة، موجودة أو غير موجودة، ونتوخّى في ذلك تقديم القديم على الجديد. ولكن لا بدّ لنا قبل ذلك من الإشارة إلى كون جميع الأبواب كانت تغلق ليلا، كما كانت تغلق نهارا أيضا وقت صلاة الجمعة وفقا لعادة قديمة ظهرت في أواخر الدّولة الحفصية عند احتلال عساكر الأسبانيول لتونس، اتّقاء شرّ الفتنة ودفعا لهجمات البدو من الأعراب، فقد كان بعض سلاطين بني حفص في .دور هرم دولتهم يستنفرونهم للدفاع عنهم، فيعيثون في الأرض فسادا. واسترسل الأمر كذلك على عهد حكم الأتراك في كامل مدّة الدّولة المرادية، وبقي كذلك أيضا في العصر الحسيني إلى أوائل مدّة المشير أحمد باي. فلمّا رتّب الأجناد وتوفّرت لديه العدّة الكافية للاحتفاظ بالأمن العام، استغنى بذلك عن غلق أبواب الحاضرة وقت صلاة الجمعة، وبقي غلقها واقعا في الليل بانتظام من الغروب إلى قبيل طلوع الشمس، عدا باب الخضراء وباب علاوة، فإنّهما لا يغلقان إلا إثر صلاة العشاء. وقياسا على ذلك كانت أبواب الحارات والحومات بداخل المدينة تغلق أيضا في الليل، وهذه الأبواب الدّاخليّة كانت كثيرة بقسم المدينة، لكلّ حومة باب خاصّ بها يجعلها منفصلة عن بقية الحارات طيلة الليل كله صيفا وشتاء. وكانت مفاتيحها بيد المحرّكين، ولا يجوز فتحها ليلا بحال، اللهم إلاّ في حالة احتضار مريض لجلب طبيب أو قريب له أو في حالة امرأة أخذها المخاض ليؤتى لها بقابلة لمباشرتها، ودام غلق أبواب حومات المدينة إلى سنة 1276هـ/1859. فلمّا أعلن المشير محمد الصادق باي قانون عهد الأمان، ترك لأهل الحاضرة حرّيتهم بإبقاء حاراتهم مفتوحة في الليل كما في النهار، ولم يستثن من ذلك إلاّ أبواب أسواق التّجارة. أمّا غلق أبواب البلاد ليلا فقد كان القصد منه حفظ السّكّان من طوارق الحدثان، ومن ناحية أخرى كان وسيلة لضبط الأداء الموظّف على المحصولات التي تجلب لتونس من مختلف الجهات، حتّى لا يقع إدخال شيء من الطّعام أو غيره خفية في الليل، ويفوت بذلك دخل كبير على البايليك، بحيث إنّ أبواب البلاد كانت لا تفتح ليلاً إلاّ لحادث عظيم. فقد اتّفق لهم مرّة فتح باب أبي سعدون أثناء الليل عن إذن الداي ليخرج منه جماعة من القرّاء دُعُوا إلى الحضور بباردو بمناسبة مأتم في دار الإمارة، حدث فجأة. وهذا الباب نفسه صدر الإذن في أواخر عام 1298هـ/1881م، بإبقائه مفتوحا دواما واستمرارا لتسهيل أسباب المواصلة لعساكر جيش الاحتلال بين تونس والثّكنات العسكرية الواقعة خارجها، ثمّ بطريقة التّدريج وفُتح باب الخضراء، وباب علاوة، وباب القرجاني، وباب العلوج في الليل كما بالنّهار. وكان آخر الأبواب فتحا في الليل مع النهار، باب سيدي عبد السّلام، وباب سيدي عبد اللّه الشّريف، وألغيت مع ذلك خدمة استخلاص المعلوم على دخول المحصولات من أبواب الحاضرة لفوات المقصود منها، لأنّ أكلافها أصبحت بتكاثر متوظّفيها تناهز المدخول الحاصل منها لفائدة صندوق الدولة.

تاريخ نشأة الأبواب

1 - باب الجزيرة: هو من أقدم أبواب تونس إن لم يكن أقدمها، والجزيرة المنسوب إليها هذا الباب هي جزيرة شريك العبسي، وقد تقدّم التّعريف بذلك، ولإمام البلاغة الورغي أبياتٌ جاء فيها ذكر هذا الباب ونصّها (وافر):

سقاك الغيث يا باب الجزيرة
فكم جازتك من حورا عطيره
تميل إذا مشت كالسّرو هبّت
عليها الرّيح من أرض مطيره
ويرجع كلّ ذي عين رآها
بكفّ عن تناولها قصيره
إذا ما قال ذو طمع لمن ذا
تقول لمن دراهمه كثيره

2 – باب قرطاجنّة

معروف، وممّا لا شكّ فيه أنّه من أول أبواب تونس حدوثا، ويبدو أنّه أقيم في المائة الثّانية، لأنّهم كانوا يدخلون منه الحجارة المجلوبة من أطلال قرطاجنّة لعمارة تونس، وتونس كانت دار علم وفقه كما كانت متمصّرة في أواخر المائة الثّانية.

3 – باب أرطة: غير معروف، ويلوح أنّه من أقدم أبواب تونس على تقدير أنّ اسمه نسبة لاسم بشر بن أرطة من أصحاب عقبة بن نافع الذي تولّى حكم إفريقية مرتين في أواسط القرن الأوّل للهجرة، أو هو نسبة لبقعة من الأرض مجاورة لتونس كما تقدّم ذكره.

4 –باب السقّايين: غير معروف، وهو من أقدم أبواب تونس، لأنّه كان موجودا في المائة الخامسة، ولعلّ موقعه كان بجهة باب الأقواس كما تقدّم بيانه.

5 – باب البحر



معروف، وهو من أقدم أبواب تونس اتّفاقا، لأنّ سوره كان هو الحافظ للمدينة من جهة البحر كما يدلّ عليه اسمه، قالوا: إنّ الواقف بدرج جامع الزّيتونة في المائة العاشرة كان يرى مياه البحر من مكانه.

6 – باب السّويقة

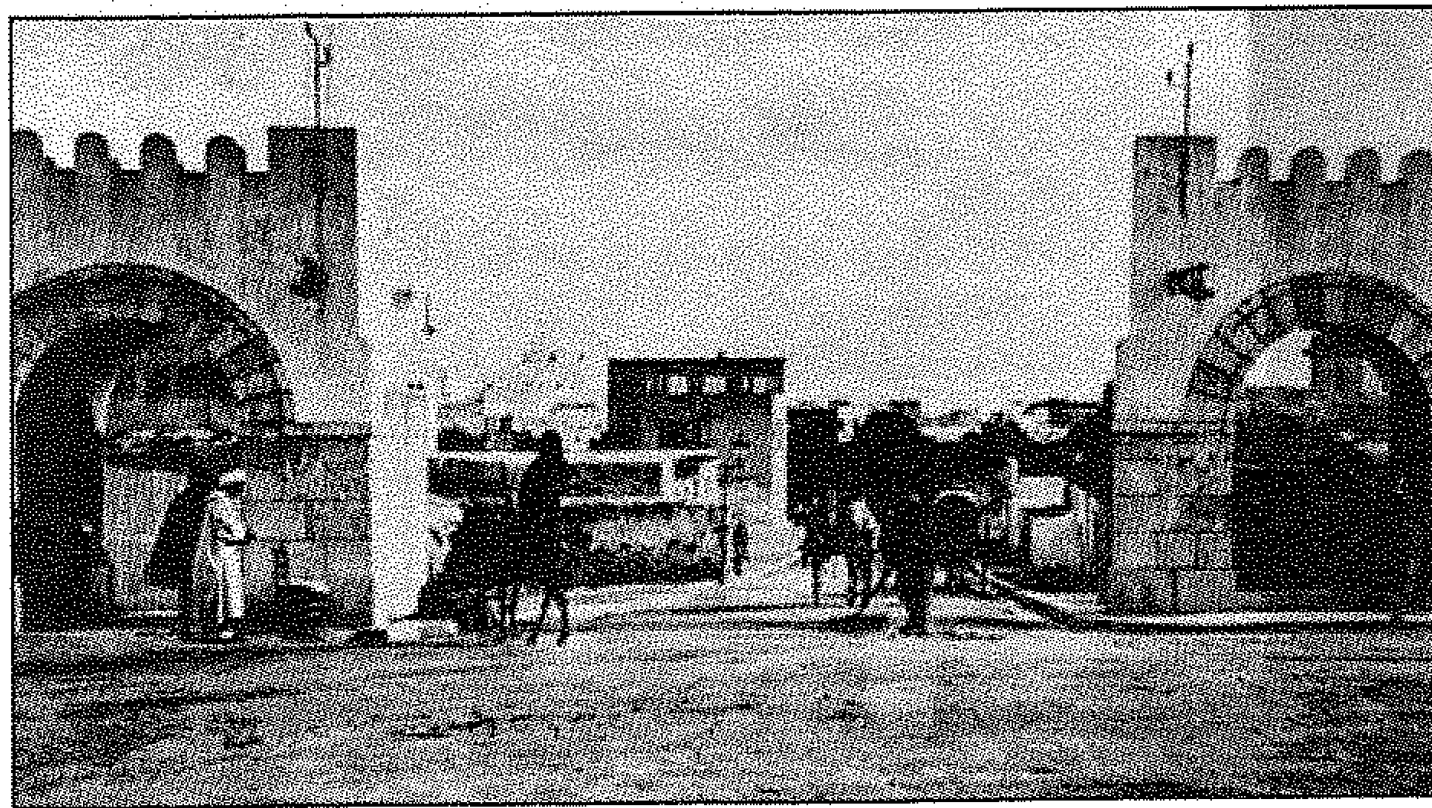


معروف، كان موجودا باسمه هذا في المائة الرّابعة، ومعنى السّويقة سوق صغيرة كان يملكها سيدي محرز بن خلف وكانت محرّرة من الأمكاس كبقية عقاراته ومتاجره وغروسه.

7 – باب الأقواس: موقعه معروف، ويلوح ممّا ورد في شأنه بالمؤنس، أنّه اندثر مع السّور القديم الذي بناه سيدي محرز بن خلف.

8 – باب الفلاق: غير معروف، ذكره ابن أبي دينار في جملة الأبواب المندثرة التي كان موقعها بالسّور المحرزي.

9 – باب البنات



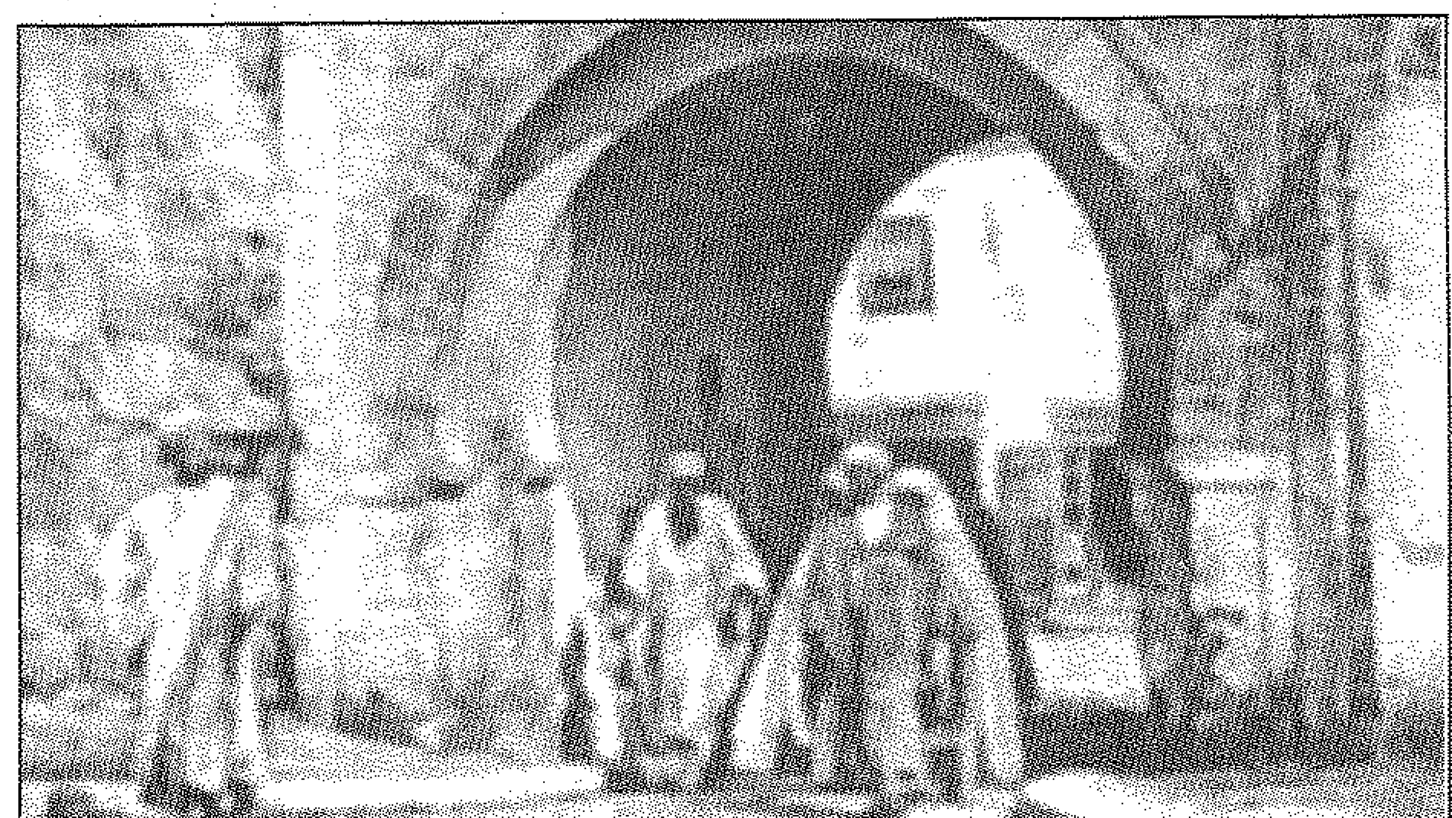
معروف، ويبدو أنّه منسوب إلى بنات أحد الثّوار، ولعلّه ابن غانية المعاصر للموحّدين، وهؤلاء البنات كنّ على جانب من الجسارة والشّمم وعزّة النّفس.

10 - باب ينتجمي: غير معروف، وكان موقعه بالقصبة على الأرجح، لأنّ الزّركشي قال إنّه أحد أبوابها كما تقدّم وصفه بمزيد بيان.

11- باب غدر: معروف. ذكره ابن أبي دينار وقبله الزّركشي، ومنه يستفاد أنّه كان موجودا في عام 708هـ/1308م وهذا الباب خاصّ بالعساكر الذين بثكنة القصبة في ذاك الزّمان.

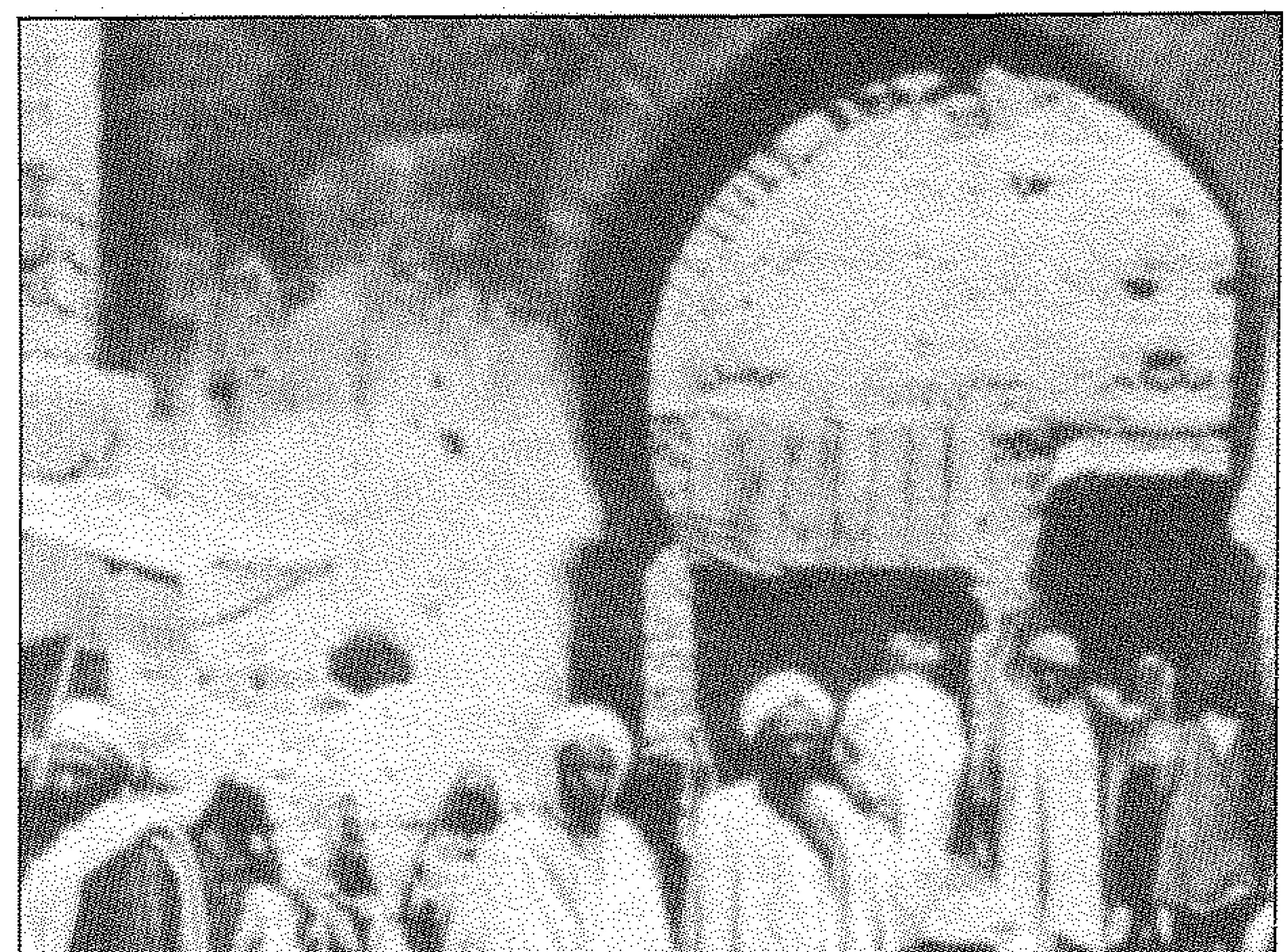
12 - باب القرجاني: معروف موقعه، وسمّي كذلك نسبة لوليّ اللّه سيدي علي الكبير القرجاني من رجالات المائة السّابعة.

13 - باب المنارة



معروف، سمي كذلك لأنّه كانت بجداره مشكاة لهداية أبناء السّبيل، وكان موجودا في عام 684هـ/1285 م.

14 - باب الجديد

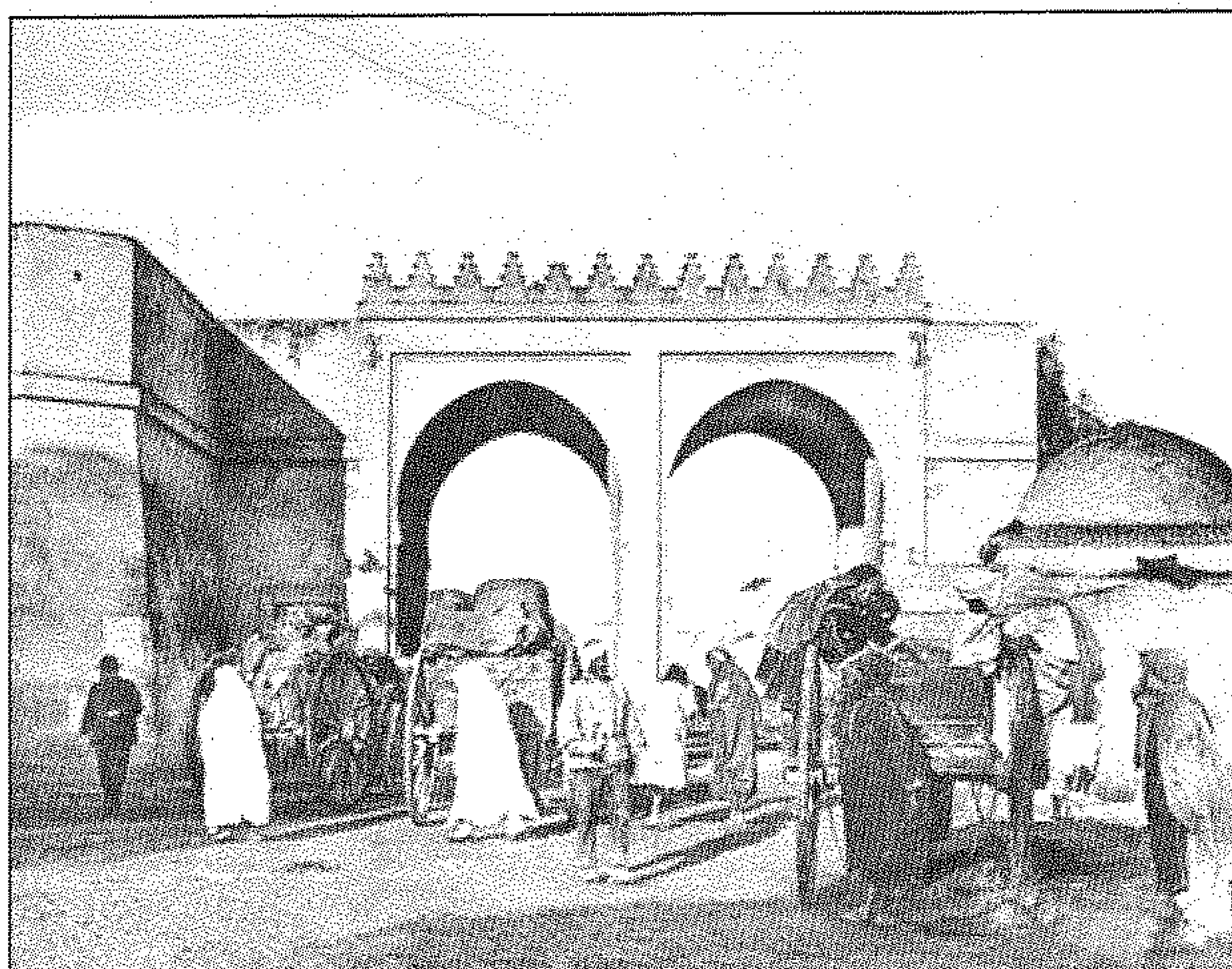


معروف، بني على عهد السّلطان يحيى الحفصي في حدود سنة 676هـ/1277م وفي مدّة الباشا علي باي الأوّل تناوله التّدمير والتّخريب برمي المدافع أثناء الفتنة التي أثارها الباشا المذكور لاغتصاب الحكم من يد عمّه المولى حسين بن علي. ولمّا رجع الدّرّ إلى معدنه أمر المولى علي باي الثّاني بتجديد هذا الباب في سنة 1183هـ/1769م، وقد أرّخ هذا التّجديد أبو عبد اللّه محمد الورغي بأبيات ننقلها من ديوانه ونصّها:

جدّد هذا الباب الجديد
علي باشا بن الحسين السّعيد
أقامه من بعد ما قد هوى
في فتنة يشيب منها الوليد
فاللّه يحميه وأنجاله
من مثلها في طيب دهر حميد
ويبني لهم مثل ما قد بنى
هذا هنا في الخلد قصرا مشيد
وعندما قدمت أرّخته
لمدخل ارفاق ونيل يزيد

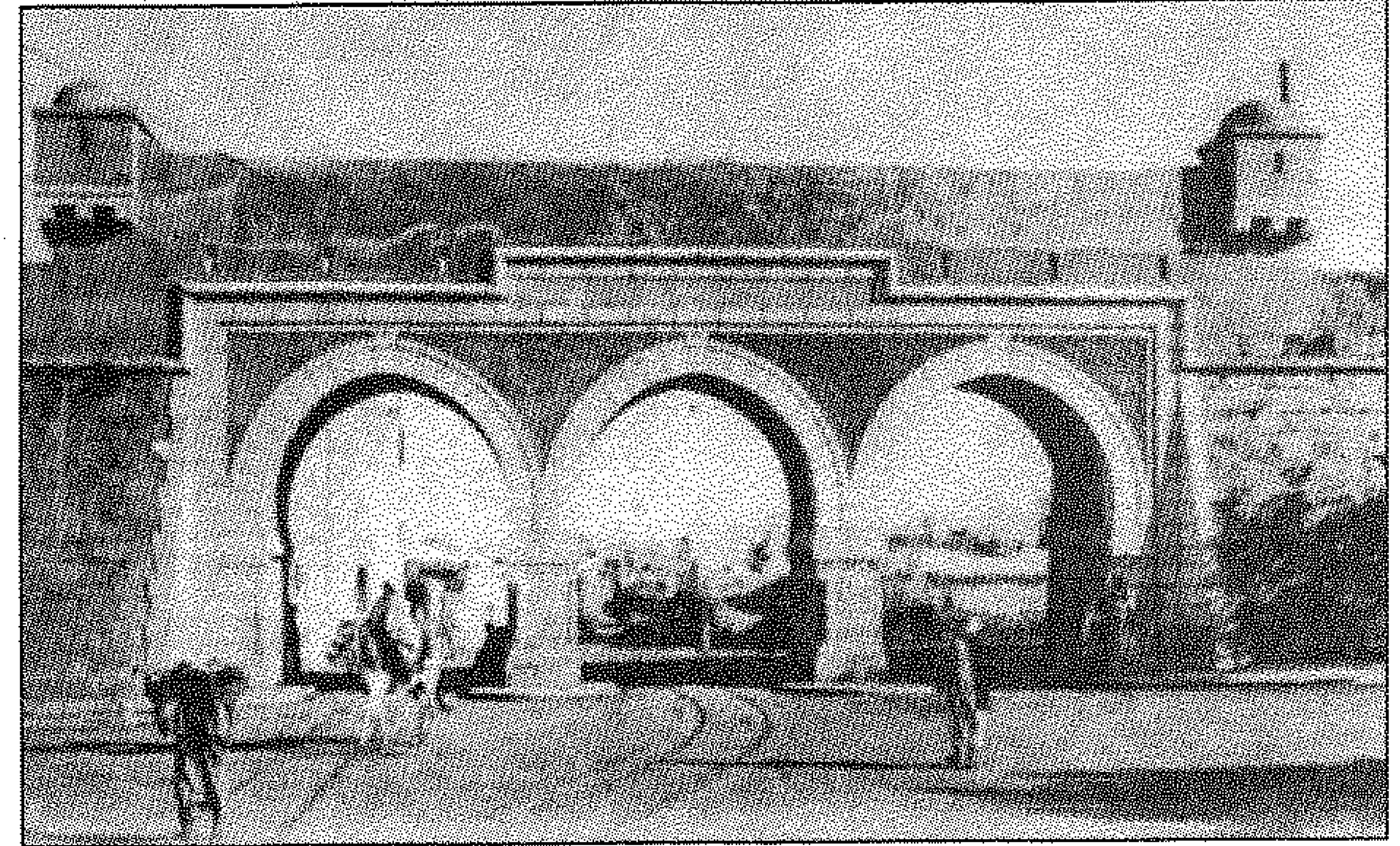
(1183هـ/1769م)

15 - باب علاوة (عليوة)



معروف، كان موجودا في عام 881هـ/1476م على ما أفاده الزّركشي.

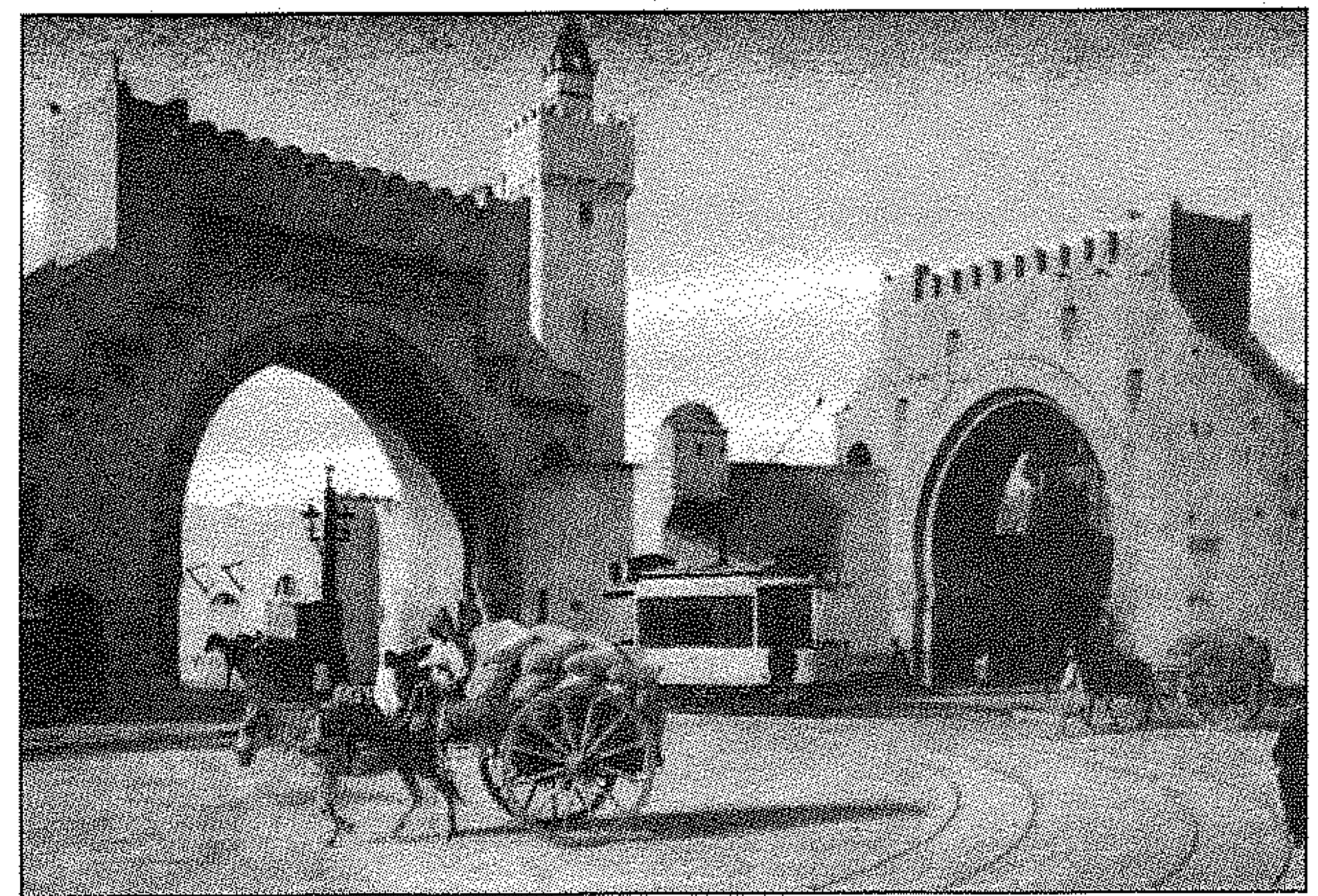
16 – باب أبي سعدون



معروف، ذكره غير واحد من المؤرخين، ويلوح أنّه بني في أواخر المائة الثّامنة أو في أوائل المائة التّاسعة، لأنّ السّلطان محمد المنتصر الحفصي بنى سقاية هذا الباب في حدود سنة 838هـ/1434م حسب ما جاء في "المؤنس"، وفيه يقول إمام البلاغة الورغي بطالعة نونيته المعروفة:

باكر سعدوك ليس الوقت بالدّون
واجعل صبوحك عند باب سعدون

17 – باب الخضراء



معروف، واسمه أزهى أسماء أبواب تونس، سمّي كذلك لأنّه يعبر منه لجهة الخضراء التي كانت معمورة بالزّياتين، ويلوح أن بناءه كان في أواخر المائة العاشرة، لأنّنا لم نعثر على ذكره في العصر الحفصي، ولأنّه كان موجودا في عهد الدّولة المرادية.

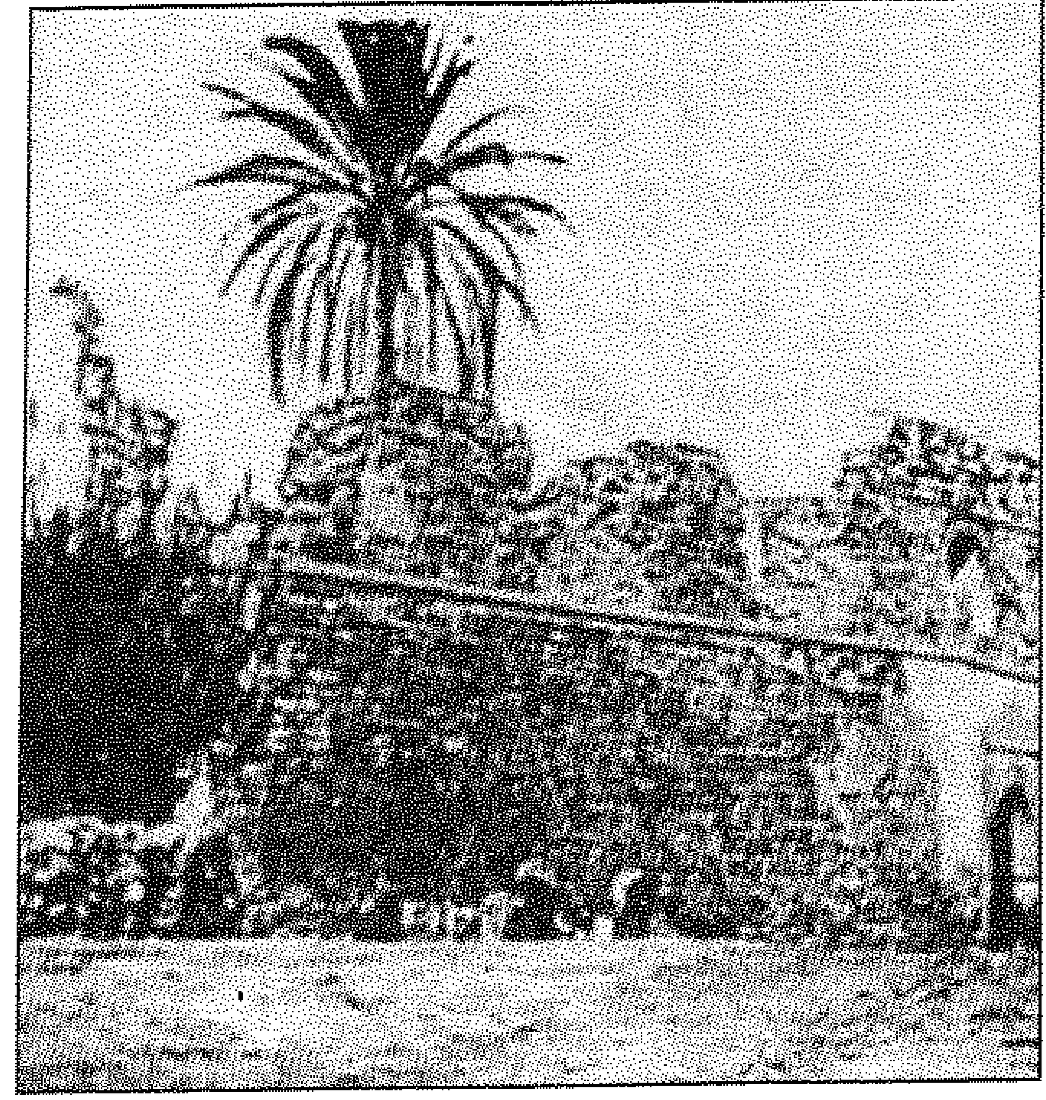


18 – باب العلوج: معروف، وكان اسمه باب الرّحيبة في المائة الثامنة وما قبلها وغلب عليه نسبته إلى علوج من أواسط المائة التّاسعة لأنّ السّلطان أبا عمرو عثمان لمّا تولّى الملك في سنة 839هـ/1435م وفد عليه أخواله من إيطاليا، فبرّهم وأسكنهم بالرّبض المجاور للقصبة. جاء في "الخلاصة النّقيّة": كانت أمّ هذا السّلطان من العلوج، اسمها مرين (مارية) فلمّا بويع ورد عليه أخواله فأسكنهم بالرّبض الملاصق للقصبة، وعرف بحومة العلوج من يومئذ.

19 – باب سيدي قاسم: معروف، وبالنّسبة إلى سيدي قاسم الجليزي (صوابه الزليجي) المتوفى سنة 902هـ/1496م. ورد في "المؤنس": إنّ اسمه كان باب خالد، قلت: لعلّ خالدا هذا هو السّلطان أبو البقاء خالد بن أبي زكرياء الذي تولّى الملك في سنة 709هـ/1309م. وهذا الظّنّ راجع إلى كون زاوية سيدي قاسم المجاورة لهذا الباب بها مقابر للحفصيين، وما هو إلاّ مجرّد احتمال لا نجزم بصحّته.

20 – باب الفلّة

معروف، وهو من بقايا العصر الحفصي في طور انحطاطه. جاء في "المؤنس": سمّي بذلك لأنّه كان ثلمة في السّور، ولما دهم أهل تونس العدوّ من النّصارى (الأسبانيول) وفرّوا بأنفسهم، خرجوا خيفة أن تؤخذ عنهم الأبواب فخرج



أكثرهم من هنالك، فكان يقول بعضهم لبعض اخرجوا من الفلّة، وهذا الاسم باق إلى اليوم.

21- باب سيدي عبد السلام: معروف، ولكن يعسر تحديد تاريخ إحداثه ولو على وجه التّقريب، اللّهمّ إلاّ بطريقة الحدس والتّخمين، وبهذا التّقدير يمكن الرّجوع به إلى العصر الحفصي من وجهين: أوّلا انتساب الفسقية التي بقربه إلى اسمه (فسقية باب سيدي عبد السلام) وهذه الفسقية في أصلها من بقايا العصر الحفصي، وثانيا لأنّ هذا الباب أحد الأبواب الثلاثة (والآخران هما باب سيدي قاسم المتقدّم ذكره وباب سيدي عبد الله الآتي ذكره) من مجموع أبواب تونس التي لم تمسّها يد التّغيير والتّرميم بحيث إنّ الأبواب الثّلاثة مازالت في حالة بنائها الأصْلي التي هي عليه منذ قرون، وهي متماثلة الوضع والشّكل والحجم.

22 - باب سيدي عبد الله: معروف، وكان اسمه في القديم باب سيدي علي الزّواوي على ما ورد في كتاب "المشرع الملكي"، وزاوية سيدي علي الزّواوي مازالت موجودة داخل السّور قرب هذا الباب الذي كان منسوبا إلى صاحبها. ورد في "المشرع الملكي" عند الكلام على جنازة المولى محمد الرشيد باي المتوفى عام 1172هـ/1759م: ودخلت جنازته من باب سيدي علي الزّواوي ودفنوه بتربة أبيه (زاوية سيدي قاسم السّبابطي). وأمّا سيدي عبد الله الملقّب بالشّريف فضريحه خارج هذا الباب المنسوب إليه، ويلوح أنّه من أهل الأجيال المتأخّرة، لأنّ الباب المتحدّث عنه كان منسوبا إلى اسم غيره في أواخر القرن الثاني عشر كما تقدّم ذكره.

23 - باب العسل: معروف، واسمه مقتبس من اسم درب ابن عسّال وهذا الدّرب كان موجودا في العصر الحفصي، لأنّهم كانوا يسمّون الأزقّة والشّوارع دروبا في زمنهم، وأمّا الباب المتحدّث عنه فهو من محدثات هذا العصر، وقع فتحه لنحو ثلاثين سنة خلت.

باجة

تقع مدينة باجة في الشمال الغربي للبلاد التونسيّة بعيدا عن العاصمة بنحو 98 كلم، في منطقة غنيّة بثرواتها الطبيعيّة وخاصّة بتربتها السوداء المدرّة للخيرات الوفيرة من الزراعات الكبرى، حتّى تسمّت في عهد الرومان بمطمور روما وفي العهد العربي بباجة القمح وبهري إفريقيّة.

وتعتبر اليوم، كما هو الشأن في ذلك العهد، عاصمة الشمال الغربي ومركز ولاية منفتحة على البحر المتوسّط شمالاً من جهة الزوارع، ويغلب عليها الطابع الريفي المناسب لطبيعتها الغابيّة والفلاحيّة والمتميّز بالسكن المتشتّت موازاة للملكيّة المتوارثة، وإن تضافرت الجهود للإصلاح الزراعي والتجهيز الأساس للحدّ من النزوح. وهذا لم يمنع من ارتفاع عدد السكّان بباجة المدينة وتوسّع العمران حول المدينة العتيقة على حساب الأراضي الزراعيّة ممّا غيّر ملامح البنية السكانيّة.

فمن آثار العهد البوني المقبرة ذات المائة والعشرين قبرا المحفورة في الصخر والمعروفة بالحوانت، وقد اكتشفها بجبل الفوّار أو بوحانبة شمال غربيّ المدينة الضابط فنسان (Vincent)

رئيس مكتب الاستعلامات الفرنسية سنة 1883.
وقد ركّز بها القرطاجيّون مجلسا بلديّا، وجَعَلُوها خاضعة لإدارة حاكمين منتخبين، وألحقوها بقرطاج وطبرقة عبر طريقين، وركّزوا بها حامية عسكريّة، ودعموا أسوارها، إلاّ أنّ الازدهار الذي حقّقته آنذاك قد قضت عليه الحروب البونيّة بسبب تصدّي باجة للقائد الروماني ريقولوس وللقائد البربري ماسنيسا المتحالف مع القائد الروماني سقيبيون، وكذلك بسبب دعمها العسكري لحنّبعل. وبعد ثلاثين سنة خضعت باجة لماسينيا بعد حصار طويل. وبعد وفاته سنة 118 ق. م. خلفه ابنه مسيبسا وكان لابنيه هيامبسال وأدربعل أن يتولّيا الحكم بمعيّة يوغرطة ابن عمّهما مستنبعل، ولكنّ طموح يوغرطة جعله ينفرد بحكم باجة ويتّخذها عاصمة لشرقيّ المملكة النوميديّة طوال ستّ سنوات، ويعمل على افتكاك نوميديا الغربيّة من أدربعل نفسه لمحاربة الرومان.
واختار يوغرطة أن يماطل الرومان لإعداد جيشه، وأن يجرّهم إلى أعماق الشمال الغربي ليبعدهم عن باجة ويرهقهم، ولكنّ القائد الروماني متّلوس بادر باحتلال باجة، ثمّ غاب عنها، فاستغلّ يوغرطة الفرصة لاسترجاعها بالحيلة، ثمّ جاء متّلوس ودخلها مستغلاّ هو أيضا فرصة غياب يوغرطة عنها.
وكان الرومان يدركون أهميّة باجة (Vaga) الإستراتيجيّة فرمّموا قلعتها وأسوارها. فقد بنى الإمبراطور تراجان أوّل جسر في البلاد على وادي باجة سنة 105م، وشيّد بها سبتيون سيفيروس الكنائس المسيحيّة في المواقع الوثنيّة، حيث كان يعبد إله الماء في منطقة الغيريّة، وكذلك فعل الإمبراطور فالونس، حيث بنى كنيسة سنة 375م، هدمها الوندال سنة 480م. وأعيد بناء كنيسة ثانية في العهد البيزنطي سنة 533م، بفضل القائد باولوس (Paulus). وفي ذلك العهد أصبحت تسمّى تيودرياس، وهو اسم زوجة الإمبراطور جوستينيان (Justinien) اعترافا له بعد أن تمكّن قائده بليسار (Bélisaire) من الإطاحة بآخر ملوك الوندال جلمار (Gilmar)، حسب رواية المؤرّخ بروكوب (Procope) (ت 562م).
وفي باجة وجد فريق من الحامية البيزنطيّة بقرطاجة مأواه، عندما حاصرها حسّان بن النعمان نحو سنة 76هـ/695م. فلم يلبث هذا الفريق فيها أكثر من ثلاث سنوات حتّى أدركها حسّان موطّدا بها الإسلام نهائيّا.
وحلت بباجة قبائل عربيّة من بني سعد وقريش وربيعة وقضاعة. وذلك مع الطائفة المسيحيّة التي ظلّت محتفظة بكنيستها حتّى توافد القبائل البدويّة الهلاليّة، قبل أن يحوّلها العرب فيما بعد إلى جامع، مثلما ظلّت محتفظة بكنيسة الغيريّة المجاورة إلى زمان البكري (ت487هـ/1094م).
وقد لخّص اليعقوبي (ت897م) العناصر الاجتماعيّة بباجة في عهدي الولاة والأغالبة بقوله: «... وبها قوم من جند بني هاشم القُدُم، وقوم من العجم. ويلي مدينة باجة قوم من البربر يقال لهم وزداجة، لا يؤدّون إلى ابن الأغلب طاعة».
وكان من الطبيعي أن تتسبّب السياسة الأمويّة في ظهور انتفاضات قام بها البربر بمساندتهم لحركة التمرّد بزعامة الخوارج خاصّة. فكان أن ساندوا في باجة الثائرين عكاشة الفزاري وعبد الواحد بن يزيد الهوّاري. وهو ما جعل الخليفة بدمشق هشام بن عبد الملك (105هـ/724م - 125هـ/743م) يضاعف إمداداته لواليه على إفريقيّة كلثوم ابن عياض القشيري وخلفه حنظلة بن صفوان الكلبي (124هـ/742م - 127هـ/745م). وقد روى الرقيق (417هـ/1026م) كيف زحف عبد الواحد المذكور على باجة معتصما بها أمام اللخمي قائد الجيش الأموي قبل أن تدور الدائرة عليه بناحية القيروان حيث كانت نهاية الثائرين سنة 124هـ/742م، كما ثار بباجة معتصما ثابت بن وريدون الصنهاجي سنة 171هـ/787م. ولمّا قام عبد الله بن عبد ربّه الجارود على عامل تونس المغيرة بن بشير بن روح سنة 178هـ/794م

وسانده جند باجة من أهل خراسان حتّى احتلّ القيروان.

ولقد أولى الأغالبة باجة عناية فائقة مكّنتها من استرجاع دورها الاقتصادي مع شيء من الاستقرار والازدهار خاصّة في عهد إبراهيم بن الأغلب (184هـ/800م - 196هـ/812م) وابنه عبد الله (196هـ/812م - 201هـ/817م) حتّى أصبحت عاصمة الجهة الممتدّة من طبرقة إلى حدود الأربس شرقيّ الكاف. وتنافس فيها العمّال من أسرة بني حميد أصهار الأغالبة مذ كان علي بن حميد وزير زيادة الله الأوّل (201هـ/817م - 223هـ/837م). وكانت رئاسة الجند تسند إلى أبرز القواد. وكان قاضي باجة يختار من أبرز قضاة القيروان جامعا بين باجة والأربس.

وفي عهدهم ازدهرت باجة فلاحيًا بحبوبها وثمارها وصيدها البحري، وعمرانيًا بترميم أسوارها وقصبتها وجامعها وأسواقها وحمّاماتها وفنادقها، وثقافيًا بعلمائها وقضاتها أمثال: سليمان بن عمران (ت270هـ/884م) وبعض تلاميذ الإمام سحنون.

لكنّ الاستقرار والازدهار لم يصمدا في أواخر عهد زيادة الله الأوّل أمام ثورة منصور الطنبذي ابتداء من سنة 209هـ/824م.

وتواصلت الأوضاع متردّية منذرة بأفول نجم الأغالبة حتّى إنّ اليعقوبي أشار إلى أنّه «يلي باجة قوم من البربر يقال لهم وزداجة، لا يؤدّون إلى ابن الأغلب طاعة» فيمتنعون عن الضرائب ويناوشون والي إبراهيم الثاني في باجة حتّى أجلاهم قائده محمد بن قرهب سنة 270هـ/883م وقضى ابنه على قادتهم.

وبعد استفحال فساد آخر الأمراء الأغالبة وجد العبيديون الشيعة في غضب العامّة مساعدا على انتشار دعوتهم حتّى لم يجد أبو عبد الله الداعي مقاومة من المدن أمام تراجع الجيش الأغلبي. هكذا دخل باجة صلحا سنة 296هـ/909م قبل أن يدخل القيروان. ولذلك استفادت باجة من عناية الفاطميين بها إعمارا وترميما مع المحافظة على طابعها الفلاحي حتّى نقل البكري أنّ «فيها حمّامات ماؤها من العيون، وفنادق كثيرة، وهي دائمة الدجن والغيم، كثيرة الأمطار والأنداء، وحولها بساتين عظيمة ترد فيها المياه، وأرضها سوداء مشقّقة توجد فيها جميع الزروع، وبها حمص وفول قلّما يوجد مثله... وبها حوت بوري ليس في الآفاق له نظير، يخرج من الحوت الواحد عشرة أرطال شحم. وكان يُحْمَلُ إلى عبيد الله حوتها في العسل فيحفظه حتّى يصل طريًا»، مشيرا إلى حوت درنه (سيدي مشرق). وفي نصّ لابن حوقل (ت977م) إشارة إلى خراج باجة من الحبوب خاصّة إذ قال إنّها «صحيحة الهواء، كثيرة الرخاء، واسعة الفضاء، غزيرة الدخل على السلطان، وافرة الأرباح على تجّارها والمزارعين بها»، إلاّ أنّ ذلك الرخاء زال بزوال الأمن مدّة ثورة أبي يزيد مخلّد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار ردًا من الخوارج على مغالاة الشيعة ومفاسد المتشرّقين، وذلك من سنة 333هـ/943م إلى سنة 336هـ/946م.

وهكذا تمكّن قائده أيّوب في هذه المرّة من الإطاحة بباجة وحاميتها وقائدها مولى الخليفة القائم بأمر الله منتقما هدما وإحراقا وفتكا. ولكنّ المنصور بعد قضائه على أبي يزيد أعطى باجة فرصة أخرى من الأمن والازدهار.

انتقل المعزّ لدين الله الفاطمي إلى القاهرة مستخلفا على إفريقيّة والمغرب أهل الثّقة والفضل والولاء بني زيري بن مناد الصنهاجيين برئاسة بلّكين بداية من سنة 362هـ/973م وفي كنف استقرار لم تشبه إلاّ بعض المناوشات التقليديّة التي نشبت فيما بعد بين ابنه حمّاد المستقلّ بقلعة بجاية سنة 398هـ/1007م وابن أخيه باديس ابن المنصور. فقد تضرّرت باجة بهجمة حمّاد عندما لجأ إليها هاشم بن جعفر سنة 405هـ/1014م وخضعت للحمّاديين منذ ولاية الناصر بن علّناس من سنة 454هـ/1062م إلى آخر أمرائهم يحيى بن عبد العزيز سنة 547هـ/1152م. ولأنّ المعزّ بن باديس لم يعد يرى

فائدة في ولاته للفاطميين الذين لم يعاضدوه في محاولة التصدّي لنزعة الحمّاديين الانفصاليّة - ولأسباب أخرى - أعلن سنة 440هـ/1048م استقلاله عنهم وقطع دابرهم. فكان انتقام المستنصر بتسريح بني هلال إلى إفريقية سنة 443هـ/1051م. وكان نصيب جهة باجة الخصبة لعشائر مرداس بن رياح بقيادة مؤنس بن يحيى الذي استخلص الضرائب واستبعد البربر. وكان من نتائج الانتشار الهلالي تعريب جهة باجة باستقرار عشائر رياح وزغبة وقد عاينت الحقبة الممتدة بين القرنين الخامس والعاشر هـ/11-16م توسع حياة البداوة والترحال.

وممّا زاد الحالة سوءاً وجود باجة على طريق الحملات العسكريّة القادمة من الغرب. وأخطرها حملة الأمير الموحّدي عبد المؤمن بن علي سنة 550هـ/1155م بعد فشل القبائل البربريّة بزعامة يحيى بن العزيز في التصدّي له في معركة سطيف متحالفين مع آخر الحمّاديين ببجاية الحارث بن المنصور (تـ551هـ/1156م). ومثلما اعتزم الموحّدون طرد الغزاة النرمان سعى علي بن غانية الميورقي ثمّ أخوه يحيى لإجلاء الموحّدين. فبعد تشتيت المنصور الموحّدي (580هـ/1184م - 595هـ/1199م) للرّياحيين وتعويضهم ببني سليم سنة 583هـ/1187م لمساندتهم علي بن غانية أجلى يحيى سكّانها إلى الأربس والكاف سنة 595هـ/1199م. وعندما حثّهم والي تونس الموحّدي أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن على العودة إلى مدينتهم عاد إليها يحيى منتقما منها وهازما جيش أبي زيد بقيادة أخيه والي بجاية أبي الحسن. ولم تطمئنّ قلوب أهل باجة إلاّ بعد تدخّل الخليفة الموحّدي محمد الناصر بن يعقوب المنصور سنة 603هـ/1206 - 1207م في إطار توحيد إفريقية والمغربين الأوسط والأقصى بمساعدة أبي محمد عبد الرحمان بن أبي حفص الهنتاتي الذي سيستخلفه على إفريقيّة دون توقّع لقيام الدولة الحفصيّة المستقلّة (626هـ/1230م - 981هـ/1574م).

وفي أوّل عهد الدولة الحفصية كانت باجة «موفورة الخيرات، عامرة بالحرفيين» بحيث تعتبر أهمّ مركز حضري واقتصادي وإستراتيجي على الطريق الرابطة بين تونس وقسنطينة، إلاّ أنّها بعد ذلك فقدت أمنها بسبب الصراع على السلطة بين عمر بن يحيى الحفصي وأخيه أحمد وانتفاضات القبائل، قبل أن يخمدها ابن تافراجين حاجب المستنصر. وعرفت مرّة أخرى الاضطرابات المؤذنة بنهاية الحفصيين عندما تحارب فيها علي باشا باي الجزائر بمساندة القبائل مع أحمد بن الحسين الحفصي المُنْهَزِم هناك سنة 977هـ/1569م، فلم يبق لملك تونس، حسب إشارة الحسن الوزّان الذي زار باجة سنة 933هـ/1526م، سوى أن «يثقل كواهل سكّان هذه المدينة بالضرائب».

وفي العهد العثماني (التركي والمرادي والحسيني) حافظت باجة، بحكم موقعها على الطريق من تونس إلى قسنطينة ومن طبرقة إلى الجنوب، على دورها العسكري والدفاعي بانتصاب حامية تعدّ حوالي مائة جندي ويرأسها عجم داي، بالإضافة إلى جالية تركيّة كبيرة متعدّدة الأعراق، ظلّت ألقابها دالّة على استمرار حضورها إلى اليوم بداية من مطلع القرن السابع عشر، ومنها عائلات ابن بليطة وابن يوسف وبرناز وبولكباشي وكاهية ومبزّعية. وقد أنجبت إحداها فلاّحا ومؤرّخا للأحداث التي شهدها، هو الكرغلي محمد الصغيّر بن يوسف (1693 - 1771م) مؤلّف «المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي التركي» الذي يعتبر شهادة مهمّة على أوضاع باجة وجهتها في النصف الأوّل من ق 18م. وقد تميّزت تلك الأوضاع بانعدام الأمن إلى درجة أغرت الجزائريين بغزو سهول مجردة. وهو ما اضطرّ السلطة المركزيّة إلى اتّخاذ إجراء عسير على أهل باجة، يقضي بإجلائهم وأرزاقهم من القمح إلى تونس، مرتين، الأولى سنة 1734م والثانية سنة 1746م. وقد تكرّر ذلك سنة 1756م بأمر علي باشا إبّان ثورة ابنه يونس عليه خشية

استغلال الجزائريين الفرصة للحرب، ومرّة أخرى سنة 1764م عندما رفض أهل باجة رسل يونس ووالوا ابني حسين بن علي المستنجدين بالجيش الجزائري والقادمين من جهة الكاف.

ويذكر بوننفان (Bonnenfant) سببا آخر لانعدام الأمن في جهة باجة متمثّلا في المواجهة بين سكّان السهول من الفلاّحين والحضر وبين الجباليّة المنتشرين في جبال خمير المستقلّين عادة عن سلطة الباي. ففي سنة 1769م أحبط كاهية باجة انتفاضة للجباليّة تزعّمها عثمان الحدّاد مدّعيا أنّه نجل يونس باي.

ويذكر الباحث نفسه سببا آخر لانعدام الأمن هو محلّة الصيف السنويّة التي يقودها باي الأمحال إلى باجة ليعسكر في قصر باردو ويجبر الفلاّحين بالعنف على دفع الضرائب والخطايا العينية والماليّة. وقد اضطرّهم مراد ابن علي باي بن حمّودة باشا، ذات صائفة، سنة 1699م، إلى الفرار تاركين كلّ شيء لجنده ينهبونه ليلا ونهارا. وقد دام العمل على ذلك النحو من الظلم والقهر طوال النصف الثاني من القرن الثامن عشر وكامل القرن التاسع عشر إلى تاريخ انتصاب الحماية الفرنسيّة سنة 1881م، رغم ثورة علي بن غذاهم سنة 1864م التي فشلت في تغيير سياسة الباي الجبائيّة الشاملة للفلاّحين والتجّار، خلافا للطريقة المرضيّة التي انتهجها حسين باي طيلة النصف الأوّل من ق 18م، وجعلت أهل باجة فيما بعد يناصرون أبناءه على ابن أخيه.

وكان من الطبيعي أن ينعكس الفارق بين سياسة حسين باي وسياسة خلفائه الجبائيّة على الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة في باجة، إلى جانب عوامل طبيعيّة. فقد قارن محمد الصغيّر بن يوسف بين فترتين من حياة مدينته، مشيرا إلى زهادة أسعارها ووفرة منتوجاتها سنة 1139هـ/1726م وإلى ارتفاعها وندرتها منذ سنة 1177هـ/1763م التي تأثّرت بالجفاف والجراد والبرد والحرائق. ومن جهة أخرى تضرّرت باجة قبل ذلك التاريخ، في صائفة 1741م بقضاء يونس باي على مصرفي طبرقة وراس سرّات اللّذين كانت تصدّر منهما باجة الحبوب والصوف والشمع والجلود إلى أوروبا، فضلا عن الجنوب وبقيّة أنحاء البلاد.

وقد استجلى الباحث نفسه ملامح مدينة باجة في القرن الثامن عشر استنادا إلى شهادات ابن يوسف وزاكّون (P.Zaccone) فأشار إلى عدم استتباب الأمن. وهو ما دعا علي باشا إلى العناية بقصبتها ترميما وتوسيعا، كما أشار إلى توسّع المدينة بربضين استوطنهما الطرابلسيون والوسلاتيون دون أن يتمّ علي باشا تسويرهما. وقد اقتضى حضور الأتراك إلى جانب أصيلي المدينة وبعض الأندلسيين إضافة جامع حنفي ومدرسة لتعليم الفقه الحنفي منذ نهاية ق 17م، بناهما الحاج بقطاش داي. وهو نفسه الذي مهّد طريق باجة تونس. وفي سنة 1734م كلّف علي باشا الأول المهندس الأندلسي عمر البلانكو ببناء قصر باردو ليسكنه سليمان باي، ويونس أحيانا، وخاصّة سنة 1737م، لغرض جمع المجبى. ورغم ما بذّر من أموال في بنائه فقد تهدّم قبل نهاية القرن الثامن عشر.

وقد استفحل الاضطراب في باجة طوال ق 19م فازدادت تقهقرا متأثّرة برداءة أحوال الإيالة السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وحتّى الصحيّة والطبيعيّة إذ شهدت في ذلك القرن انتفاضة علي بن مصطفى سنة 1240هـ/1824م ومناوشة المقراني سنة 1260هـ/1844م وانتفاضة علي بن غذاهم الكبرى سنة 1864م والجدب والكوليرا سنة 1867م وتمركز «الحماية الفرنسيّة» سنة 1881م بما تسبّب في دوام الصراع بين الأهالي والسلطة المركزيّة وممثّليها نتيجة مضاعفة المجبى ثمّ لضرورة مقاومة الاستعمار بقيادة علي بن عمّار وغيره من الثُوّار.

من معالم باجة

1 ـ الجامع الكبير: هو من أقدم معالم باجة، أسّسه الأمير الفاطمي إسماعيل المنصور في منتصف ق 4هـ/10م. أدخلت عليه عدّة

إصلاحات منها الترميم الذي أمر به محمد الناصر باي سنة 1922م، وأهمّها الترميم الذي شرع فيه المعهد الوطني للتّراث سنة 1999. وممّا يلْفتُ الانتباه الصومعة المتأثّرة بالفنّ الموحدّي والمزولة بصحنه والنقيشة اللاّتينيّة المُثبّتة في الجدار المحاذي لباب العين.

2 - الجامع الحنفي: بناه مراد باي (ت1086هـ/1675م) على يد الحاج بقطاش داي. فرمّم وأبرز طابع صومعته الأندلسي.

3 - الزاويّة الصمادحيّة: حسب نقيشتها أسّسها المرابط علي الصمادحي المصمودي المغربي سنة 1076هـ/1665 - 1666م.

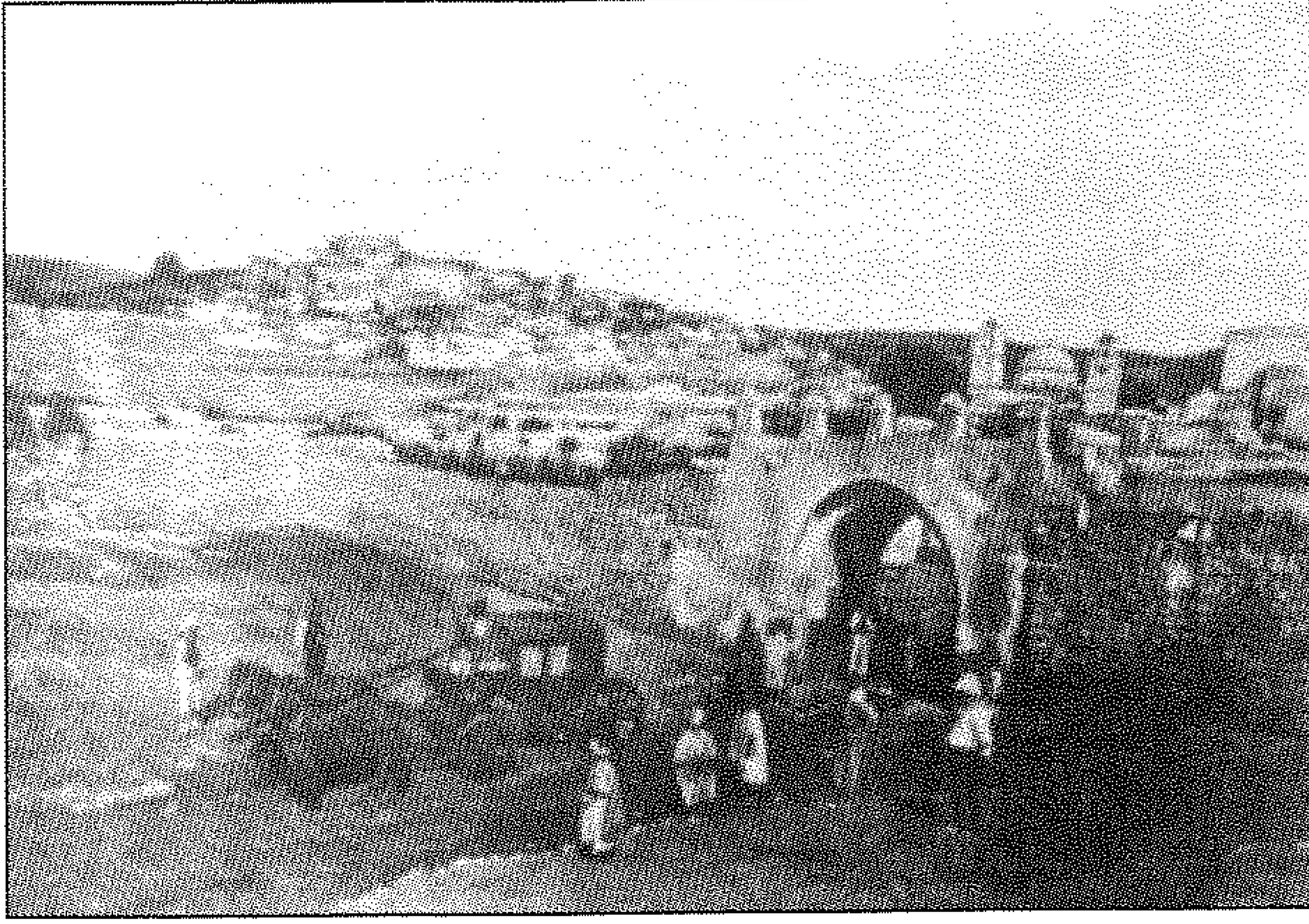
4 - الزاوية القادريّة الباجيّة: بها ضريح الحاج ميلاد الشريف (ت1259هـ/1843م).



5 - المدرسة الحنفيّة: أسّسها علي داي (1689 - 1694م). وتنسب أيضا إلى محمد باي (1675 - 1678م). وقد أشرف على بنائها بقطاش داي.

6 - القصبة: تشرف على المدينة من الجهة الغربيّة. وقد شيّدها الموحّدون في ق 6هـ/12م، ثمّ رمّمها ووسّعها يونس بن علي باشا سنة 1741م على يد المهندس الأندلسي عمر البلانكو. وتتّجه النيّة إلى ترميمها وتوظيفها ثقافيًا.

7 - قصر باردو: بناه علي باشا الأول سنة 1734م على يد المهندس عمر البلانكو لإقامة باي الأمحال في الصيف لجمع المجبى، ثمّ جدّده علي باشا الثاني (1759هـ/1782م). كان خارج



منظر من مدينة باجة وقصبتها التاريخية في أواخر القرن الماضي

المدينة ثمّ طوّقه التوسّع العمراني. تهدّم قبل نهاية ق 18م فلم يبق منه إلا الطابق السفلي الذي رُمّم.

8 - حمّام بوصندل: مازال موجودا ومستغلاّ عند باب العين، إذ ذكره البكري في ق 5هـ/11م.

9 - سبيل باب العين: بناها يوسف صاحب الطابع سنة 1800م.



محمود الباجي
[1906 – 1987م]

هو محمود بن محمّد بن قاسم الباجي. ولد بالقيروان في جمادى الأولى سنة 1324هـ/ جوان 1906م، وبها حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ القراءات على والده ثم دخل تونس، وانخرط في سلك طلبة التعليم بجامع الزيتونة حتى حصل على شهادة التطويع سنة 1345هـ/1927م، وكان عمره وقتها واحدا وعشرين عاما فالتحق بمدرسة الحقوق التونسيّة التي كانت بإدارة الأمور العدلية

وحصل على شهادة الحقوق سنة 1349هـ/1930م.

كان في أثناء دراسته للحقوق يشتغل كاتبا بإشراف شيخ المدينة إذّاك الشاذلي العقبي. وإثر حصوله على شهادة الحقوق التونسيّة، شارك في مناظرة القضاة سنة 1349هـ/1930م. وبقاعة المناظرة الكبرى من إدارة الأمور العدلية التي كانت تعطى بها الدروس وهي في الوقت نفسه خزانة الملفّات المحكوم فيها – وقبل الشروع في توزيع الموضوع الكتابي لليوم الأول في القانون المدني، أشعر بأنه ممنوع عليه إتمام المناظرة ولا تسوغ له المشاركة فيها، إذ اعتبر عدوّا لفرنسا بسبب نشاطه السياسي الذي رفعت فيه مذكرة من البوليس الاستعماري.

لكنّه أعاد الكرّة في المناظرة التي أجريت سنة 1351هـ/1932م فنجح وكان الفائز الأول، ولذا ألحق بمحكمة سوسة الابتدائية. ولم تدم إقامته بهذه المدينة مدة طويلة، فقد كان له نشاط وطني إذ شارك في المظاهرات التي حدثت احتجاجا على أوامر التجنيس والشائعة التي راجت وقتها كذبا بصدور فتوى من أهل الشرع تقضي بقبول توبة المتجنّس، وكان ذلك سنة 1352هـ/1933م. فحرّر المراقب المدني بسوسة ضدّه وشاية وطلب إبعاده عن سوسة.

فنقل محمود الباجي في رجب 1352هـ / أكتوبر 1933م نقلة عقاب إلى قفصة، ورغم أن حالة الغضب كانت تعصف به، ورغم أن مدير العدلية وعد بإرجاعه في أقرب وقت إلى تونس، فقد استقرّ بقفصة مدّة ثمانية أعوام، وطاب له المقام بها وأنشأ ناديا ثقافيا بها.

وهناك لقي الهادي المدني وأصبحت قفصة محطة تذاع منها الأشعار والمساجلات الأدبية وتشدّ إليها الرّحال، ويطيب بها المقام، وعرف القضاة أنّها محطة العلم والأدب والراحة والاستقرار، وأدركت الإدارة هذه الحقيقة فنقلت المدني إلى قابس، ونقلت الباجي إلى باجة.

وفي عام 1359هـ/1940م عيّن محمود الباجي حاكم تحقيق بالمحكمة الابتدائية بباجة فكان مثال الرّجل النّصوح والوطني المخلص والقاضي الواسع الاطّلاع.

وقد أقام بباجة حتى نقل إلى المحكمة الابتدائية بتونس العاصمة، فتدرّج في خطط القضاء فسمّي عضوا بمجلس الوزارة وباشر عضوية الدائرة الجنائية الثانية فأظهر براعة فائقة، وهو متخصّص في هذه المادّة ونال إعجاب القضاة كافّة.

وفي هذه الفترة أسهم في نشر صفحة قضائية بجريدة الصباح. وفي 19 صفر سنة 1380هـ/13 أوت 1960م ارتقى إلى خطة مستشار بمحكمة التعقيب إلى أن أحيل على المعاش في جمادى الثانية سنة 1391هـ / غرّة جويلية سنة 1971. فانقطع للعلم والأدب والخطابة والصحافة والتأليف حتى أدركته المنية صباح يوم الإثنين 15 ذي الحجّة الحرام سنة 1407هـ/10 أوت 1987م ودفن في اليوم نفسه بمقبرة الزلاّج.

باردو



مشهد من البهو الرئيسي لمتحف باردو الوطني

من ضواحي تونس العاصمة، يعدّ 500 74 ساكن حسب إحصاء تقديري بتاريخ غرّة جويلية 2002، ويقع على بعد 4 كلم من العاصمة نفسها. وبه ينتصب متحف يسمّى باسمه يأوي

روائع نفيسة من آثار الحضارات الكثيرة التي تعاقبت على البلاد التّونسيّة: فهذا المتحف مقام في قصر للباي يعود بناؤه إلى القرن التّاسع عشر، وهو يحوي أكبر مجموعة فسيفساء رومانيّة (بالخصوص) في العالم وأعرقها.

من المحتمل أن يكون اسم «باردو» قد ظهر، لأوّل مرّة في تاريخ تونس في مستهلّ القرن التاسع (ولربّما الثّامن) للهجرة، ذلك أنّ الأمير الحفصي أبا فارس عبد العزيز بن أحمد (توفّي سنة 837هـ/1433ـ1434م) أنشأ هناك قصرا يحيط به بستان رائق للرّاحة والاستجمام (ح. ح. عبد الوهاب: ورقات... ق 3، ص 420).

ولمّا ظهر الوباء الجارف في تونس، عام 873هـ/1468 ـ 1469م، قرّر الأمير الحفصي أبو عمرو عثمان (توفّي عام 893هـ/1487 ـ 1488م) ـ وهو حفيد المتقدّم ذكره ـ أن يعتزل سكنى القصبة ليحتجب ببسانية باردو مدّة عام وثلاثة أشهر حتّى يزول الوباء. ولعلّ من المفيد التذكير بأنّ الأمير المذكور، وفد عليه ـ (إثر تولّيه السلطة عام 839هـ/1435م) أخواله وأقاربه الإسبان لتهنئته بالولاية فأسكنهم بالرّبض الملاصق للقصبة، فعرف، من وقتئذ، بحومة العلوج، علما بأنّ أمّ أبي عمرو عثمان هي من علوج النّصارى، اسمها «مارية».

أمّا وجه تسمية البلدة بـ«باردو»، فمن المحتمل جدّا أنّ القصر الحفصي الذي أشرنا إليه قد باشر بناءه إمّا جماعة الإسبان الذين كانوا يكوّنون فرقة خاصة في الجيش الحفصي تعرف باسم «العلوج» (وإليهم ينسب أحد أبواب مدينة تونس) وإمّا جماعة من الأسرى الإسبان.

من العسير على الباحث أن يحدّد، بدقّة، تاريخ انطلاق تسمية تلك النّاحية أو معالم «باردو» التي هدّم منها ما هدّم في عهد الحماية الفرنسيّة: مثلا، لما ابتدئ في تهديم سور «باردو»، في بداية انتصاب الحماية، سنة 1881، كان عدد الأبراج المحيطة به ثمانية، ويوجد بها نحو المائة مدفع من النّحاس والحديد (ح. ح. عبد الوهاب: ورقات... ق 3، الصفحتان 422 ـ 423).

ويمكن القول، مع التحفّظ الشّديد، إنّ البنّائين الإسبان أطلقوا تلك التّسمية للتّشابه العجيب بين قصور وحدائق بلدة صغيرة قريبة من العاصمة الإسبانيّة «مدريد»: تسمّى «El Pardo».

واستمرّت قصور (أو قصر) باردو وبساتينه منتزها (مربعا) لأمراء بني حفص إلى آخر عهدهم.

وعندما فتح العثمانيّون تونس، استعمل القصر ولاة البلاد من باشوات ودايات وبايات للغرض نفسه الذي استعمله فيه الحفصيّون، وخاصة في فصل الرّبيع.

وقد اعتنى ثاني وُلاة المراديّين وهو حمّودة باشا ـ واسمه محمّد ـ بإقامة مبان في باردو وخاصة ذلك القصر الجديد الذي استقرّ به في أبّهة الملوك وعظمتهم. وكان يدعو إلى مجلسه في هذا القصر العلماء والشعراء والأدباء ووجهاء أهل البلاد ويهاديهم ويكرمهم. وطلب من الباب العالي منصب الباشا فأتاه الفرمان السلطاني العثماني في رجب عام 1068هـ/1658م، مخاطبا إيّاه بالباشا ابن الباشا. ولم يزل ولاة الأسرة المرادية يتعاقبون على الإقامة في باردو إلى آخر دولتهم.

ولما انتصب حُسين بن علي التّركي (رأس الأسرة الحسينيّة في الإيالة التّونسيّة)، وتمّت له البيعة أمام باب القصبة في 20 ربيع الأوّل سنة 1117هـ/13 جويلية 1705م وجّه عناية خاصّة، من



أوّل أمره، إلى البناء والتّشييد في باردو. ومنذ شهر جوان 1702 انتقل من القصبة إلى الإقامة القديمة للمراديّين: باردو. وهذا الاختيار ذكيّ لأنّ حسين ابن علي، لم يكن يخفي تخوّفه من الإنكشاريّة الأتراك وكراهيته لهم.

وهكذا، أخذت الحياة تعود إلى هذا المقرّ الأميري، بعد أن انتقل حسين بن علي مع أهل بيته وحشمه وحاشيته وخدمه إلى باردو، في قصر فخم أنشأه إنشاء، وهو يجمع بين البساطة والرّوعة في الوقت نفسه. وقد وصفه طبيب فرنسي (Peyssonnel) وصفا دقيقا. فكتب ما ملخّصه: على أراض شاسعة، ينتصب قصر محصّن بأسوار شاهقة، تحوّط القصر تحويطا، مجهزة بالمدافع لتصون الموقع من الأعداء سواء كانوا من داخل البلاد أو خارجها. وفي الساحة الأولى من القصر، داخل الأسوار، مركز حراسة وإسطبلات ومخازن ومستودعات مختلفة ووظيفيّة. أمّا الساحة الثانية من القصر، فتأوي، من جهة، جامع (خطبة: رتّب له إمام لتقام به صلاة الجمعة كما جعل به قاضيا على المذهب الحنفي التّركي)، ومن جهة أخرى، مدخل القصر نفسه المكوّن من عشر درج، يقود إلى ساحة كبيرة، بها أعمدة من رخام، وحول الساحات الدّاخليّة، تنتصب قاعة المحكمة أو العدل، وقاعات الدّيوان مبلّطة بالآجر اللّماع (نوع من الزّليج المزخرف، أندلسي الطابع) ومفروشات وزرابي جميلة. وهناك، بالطبع، غرف الضبّاط والخدم. أمّا الفناء الخلفي فيأوي سراي الأمير (الحريم)، وفي عمق العمق، هناك الجنائن الغنّاء وجناح أنيق جدّا مخصّص لاستراحة الأمير ولذّاته الخاصة.

وقد شهد في هذا القصر تجمّع ضخم حفلا أقيم بمناسبة فرمان سلطاني يعيّن حسين بن علي في منصب «باي - وال» على الإيالة التّونسيّة: كان ذلك في جويلية 1707. وقد حضر هذا الحفل كلّ من الباشا والدّاي والدّيوان، والسلط الدينيّة وأيضا ضبّاط البلاط. وكانت تلتئم، في عهد حسين بن علي، جلسات علميّة لقراءة الكتب الدينيّة بجامع باردو بالقصر الأميري. ومثل تلك الجلسات كانت تلتئم بجامع الزّيتونة: (محمّد الطاهر ابن عاشور: أليس الصّبح بقريب؟ ص 90 - 91)، كما أسّس هذا الأمير مكتبة خاصة بقصر باردو حيث صارت نواة للمكتبة التي اعتنى بها خلفه وابن أخيه علي باشا (ابن أبي الضيّاف: إتحاف... ج 2، ص 100 - 104 و 143).

ولمّا استبدّ بالأمر علي باشا، عام 1148هـ/1735م أدار سورا حصينا حول منشآت باردو كما بنى قاعات وردهات في قصر عمّه حسين بن علي، وخاصة برجا كبيرا والبيت المنسوب إليه(بيت الباشا)، وخندق على الجميع بخندق وبسور هدمه الفرنسيّون بعد انتصاب الحماية.

وقد حُدّد الكثير من معالم باردو، خصوصا في زخرفة جامعه والزّيادة فيه من قِبل حمّودة باشا الحسيني الذي بلغت الدّولة الحَسينيّة في عهده (1196- 1229هـ/1782 - 1814م) أوج ازدهارها، فكثر العمران، ونمت الأموال، وظهرت الثروة.

وفي الفناء الذي حول القصر، أنشأ محمود بن محمّد الرّشيد (1230 - 1240هـ/1814 - 1824م) حديقة غنّاء جعل في وسطها كشكا (kiosque) مزوّقا بأنواع مختلفة من المرمر، كما حفر قربه بئرا نصب عليها ناعورة لاستخراج الماء للسّقي.

أمّا حسين الثّاني بن محمود (1240 - 1251هـ/1824 - 1835م) فقد أنشأ «دار الحريم». وكان بناؤه لها في 1247هـ/1831م، ثمّ زاد عليها ابنه محمّد باي (1271 - 1276هـ/1855 - 1859م) زيادات لافتة، وهي الآن المحلّ المخصّص للآثار الإسلاميّة.

وبالقرب من حديقة القصر، أنشأ أحمد باي (1253 - 1271هـ/1837 - 1855م)، دارا لضرب المسكوكات كانت تسمّى «دار السكة» حلّت مكانها، بعد ذلك، الثكنة المعروفة بـ«قشلة الطبجيّة» - (المدفعيّون، وأصل الكلمة تركيّة،

من طوب أي مدفع) - وذلك في سنة 1263هـ/1847م. ودام ضرب النّقود بهذه الدّار إلى سنة 1891م حين أبطل العمل بها بتغيير السكة التّونسيّة، وأصبحت النّقود تسبك في معمل السكة الفرنسيّة بباريس.

ومعلوم أنّ أحمد باي بادر منذ ولايته إلى إنشاء مدرسة عسكريّة في باردو لتخريج الضبّاط والمهندسين والفنّيين. وبسبب هذه الأصناف من المتخرّجين وبحكم التطور أيضا، أخذت هذه المدرسة المحدثة أكثر من اسم: سمّيت «مكتب الحرب» و«مكتب العلوم الحربيّة» و«مدرسة المهندسين» («البوليتكنيك»). وقد تأسّست في سراي الباي بباردو في أوّل محرّم 1256/1840م.



علي باش حانبة

[1875 – 1918م]

ينحدر علي باش حانبة من أسرة تركيّة عريقة من سكّان الأناضول المسلمين الذين اشتهروا بالشّجاعة والإقدام وعرفوا بتفوّقهم في البحريّة التركيّة. انتمى والده للسّلك الإداري المخزني التونسي، وكان يقطن بنهج الباشا بالعاصمة وكان متزوّجا السيّدة حلّومة بوطغان من سكّان الحيّ نفسه. أنجبت له ابنيه عليًّا ومحمّداً وكلاهما من خرّيجي المعهد الصادقي ومن روّاد الحركة الوطنيّة التونسيّة.

تخرّج علي باش حانبة (المولود سنة 1875) في المعهد الصادقي حيث حصل على شهادة ختم الدراسة فانتدب للعدلية لكنه فضّل زيادة الدرس فالتحق بكلية الحقوق بباريس وواصل دراسته بها إلى أن أحرز الإجازة منها. ولمّا رجع إلى تونس رسّم نفسه بجدول المحامين وتزوّج بابنة الجنرال حسين الايطالية الأم. ابتدأ نشاطه الوطني السياسي بتأسيس جمعيّة قدماء الصادقيّة سنة 1905، وانخرط في حركة الشباب التونسي التي سرعان ما أصبح زعيمها بلا منازع وانضمّ إلى النادي التونسي حتى أصبح رئيسه ثمّ أصدر جريدة التّونسي سنة 1907 وكتب فيها فصولا قيّمة في الذّود عن الذاتية التونسيّة، وقد طالب بالتفريق بين السّلط الثلاث وأصدر مع الزعيم عبد العزيز الثعالبي نسخة بالعربية من جريدة التّونسي سنة 1909.

وفي سنة 1911 أسّس صحيفة «الاتّحاد الإسلامي» التي على اتصال بدعاة حركة الجامعة الإسلاميّة (Panislamisme) خاصة الشيخ صالح الشريف التّونسي المهاجر. ثم تزعّم في سنة 1912 حركة مقاطعة شركة الترمواي وكان هذا سببا في إصدار أمر بتاريخ 3 مارس سنة 1912 يقتضي نفيه من البلاد. فقصد إيطاليا وأقام بها مدة ورغم صدور أمر يفسخ الأمر الأول ويسمح له بالرّجوع إلى وطنه فقد صمّم على مواصلة الكفاح خارج تونس من الأستانة.

يقول الأستاذ محمد الهادي المدني إنّ المحامي حسن قلاتي أخبره بأنّه زار علي باش حانبة بمنفاه في روما حيث أكّد له عزمه على مواصلة الكفاح وقال له أوصيك وأوصي الإخوان في تونس بأن تعملوا اليد في اليد مع الإخوان الجزائريين والمغاربة والطرابلسيين لزحزحة الاستعمار فإنّه لا سبيل إلى خلاص الجميع إلاّ بتوحيد المغرب العربي.

وذهب بعد ذلك إلى تركيا وأتقن لغتها وعاش بها حتى وفاته في 3 أكتوبر سنة 1918.



محمد باش حانبة
[1881 – 1920م]

1) نشأته و نشاطه في تونس

محمد باش حانبة هو شقيق زعيم حركة الشباب التونسي علي باش حانبة (1875–1918)، ولد بمدينة تونس في شهر جوان 1881، و هو ينتمي إلى أسرة تركيّة أصلها من منطقة الأناضول. زاول دراسته بالصّادقية واشتهر بين أقرانه بالاجتهاد والإقبال على الدّراسة ودماثة الأخلاق وحسن السلوك. فقد جاء في شأنه في وثيقة بتاريخ 10 مارس 1903، حررها مدير المعهد الصّادقيّ دلماس، ما يلي:

«لقد واصل محمد باش حانبة دراسته بالمعهد الصادقي إلى أن أحرز الشهادة العليا لهذا المعهد. وكان طيلة مدّة الدراسة يمثل الخلق النقيّ و الدّراسة الجادّة».

وإثر تخرّجه بالصّادقية في آخر السنة الدراسيّة 1902–1903، شارك في مناظرة المترجمين التي نظّمتها إدارة المصالح العدلية. فنجح فيها بامتياز وعيّن مترجما لدى المحكمة الابتدائية بتونس المعروفة عهدئذ باسم «الدريبة». فاضطلع بهذه المهمّة على أحسن وجه وواصل في الوقت نفسه دراسة الحقوق بالمراسلة، إلى أن أحرز سنة 1906 شهادة الكفاية في الحقوق الفرنسيّة.

وفي 17 فيفري 1909 صدر قرار بتعيينه قاضيا متدرّبا بالمحكمة الابتدائية بتونس التي كان على رأسها وقتئذ القاضي الشيخ حمّودة تاج. وفي أثناء قيامه بهذه المهمّة العدليّة، عرف القاضي الشّاب محمد باش حانبة بالحزم والنّشاط والاستقامة والكفاءة، حتى نال إعجاب زملائه واستحسان رؤسائه. وارتقى إلى رتبة قاض مترسّم في أفريل 1912.

2) هجرته إلى الخارج و نضاله الوطني

وفي السّنة نفسها سافر محمّد باش حانبة إلى فرنسا لزيارة أخيه علي الذي كان أبعد من تونس في شهر مارس 1912، صحبة زعماء حركة الشباب ا لتونسي، إثر حوادث مقاطعة الترامواي بالعاصمة. ثم رجع إلى أرض الوطن لمحاولة إعادة تنظيم الحركة الوطنيّة. لكنّ السّلطة الاستعمارية ضيّقت عليه الخناق فاستقال من وظيفة القضاء في سنة 1913 وغادر البلاد ا لتونسيّة متّجها إلى إستانبول للالتحاق بأخيه علي باش حانبة. وفي سنة 1916 تحوّل إلى سويسرا للدّفاع عن القضيّة التّونسية والنّضال من أجل تحرير وطنه بوجه خاصّ والمغرب العربي بوجه عامّ. وطوال إقامته في جينيف اضطلع بمهمّة التنسيق بين الوطنيّين التونسيّين والجزائريّين المهاجرين في أوروبا. فأنشأ «الهيئة الجزائرية التونسيّة» التي كانت تضمّ ثلاثة تونسيّين: محمد باش حانبة والشيخ صالح الشريف والشيخ الخضر حسين، وثلاثة جزائريين هم : محمد الشيبي ومحمد بيراز ومحمد مزيان التلمساني. ذلك أنّ الوطنيّين التونسيّن لم يقوموا بنشاطهم في المهجر، طيلة الحرب العالمية الأولى، في النطاق التونسي الضيّق، بل آمنوا بوحدة المغرب العربي وبضرورة العمل المشترك بين كلّ الوطنيين التونسيّين والجزائريّين بوجه خاصّ. فإلى جانب الهيئة التونسية الجزائرية التي أنشأها محمد باش حانبة، أنشأ أخوه علي بالآستانة «لجنة تحرير المغرب العربي»، في حين كوّن صالح ا لشريف في سنة 1916 ببرلين «لجنة استقلال تونس والجزائر».

ومن ناحية أخرى كان محمد باش حانبة متّصلا اتّصالا وثيقا ببعض القادة العرب المقيمين في أوروبا، منهم الأمير شكيب أرسلان

والشيخ عبد العزيز جاويش، التونسي الأصل، وكان يراسل الشيخ عبد العزيز الثعالبي المقيم بتونس منذ سنة 1914 إثر عودته من المنفى.

3) نشاط محمد باش حانبة في ميدان التأليف والنشر

أصدر محمد باش حانبة في جينيف عدّة كتب ونشريّات للتعريف بالقضية ا لتونسية بوجه خاص، وقضايا المغرب العربي بوجه عام وفضح السّياسة الاستعمارية الفرنسية والمطالبة باستقلال أقطار المغرب العربي. ومن هذه النشريات نذكر، على سبيل المثال:

– الشعب الجزائري – التونسي و فرنسا (1917).

– الحماية الفرنسية المفروضة على تونس (1918).

– مناورة فرنسية: الإصلاحات الأخيرة بالجزائر (1918).

لكن أهمّ عمل قام به محمد باش حانبه في ميدان النشر هو إصدار «مجلة المغرب العربي» النّاطقة بالفرنسية، في مدينة جينيف لتحلّ محلّ جريدة «التّونسي» التي عطّلتها حكومة الحماية في سنة 1912. ومنذ العدد الأوّل الصادر في شهر ماي 1916، أعلنت المجلّة «إفلاس سياسة مشاركة التونسيّين للفرنسيّين في الحكم» التي كانت تنادي بها جريدة «التّونسي». ثم أخذت توضّح في الأعداد الموالية السياسة الجديدة الواجب انتهاجها لتمكين الشّعب التّونسي من تقرير مصيره بنفسه.

وما إن وضعت الحرب العالمية أوزارها في سنة 1918 حتى نادى محمّد باش حانبة بصريح العبارة بوجوب منح تونس والجزائر الاستقلال، قائلا:

«إن الشعب التونسي – الجزائري الذي أُخْضع بالقوّة، لم يتخلّ قطّ عن استقلاله. وهو يوجّه دعوة ملحّة إلى الضمير العالمي، ليعترف له بحقّه في العيش في كنف الحريّة والاستقلال».

ولمّا لاحظ موقف الحلفاء المتردّد من قضايا شعوب المغرب العربي، أطلق هذه الصيحة:

«إنّ حقوقنا وحرّياتنا لا رجعة فيها، وإنّنا لم نفقد الأمل في اكتسابها طال الزمان أو قصر».

وفي أواخر سنة 1918 اضطرّت «مجلّة المغرب العربي» إلى التوقّف عن الصدور، إذ ظهر عددها الأخير بتاريخ سبتمبر – ديسمبر 1918. أما محمّد باش حانبة فقد تحوّل إلى برلين في سنة 1919 وأقام بها واتصل هناك بمحمد علي الحامي زعيم الحركة النقابيّة الوطنيّة التونسيّة عام 1924، وظل في برلين إلى أن وافته المنيّة يوم 27 ديسمبر 1920. وكان آخر عمل قام به قبل وفاته المذكّرة التي وجّهها في شهر جانفي 1919 إلى مؤتمر السّلام بفرساي «للمطالبة باستقلال تونس والجزائر». وكذلك البرقيّة التي وجّهها في الشهر نفسه وباسم الهيئة نفسها إلى رئيس الولايات المتّحدة الأمريكية ويلسن الذي نادى بحقّ الشّعوب في تقرير مصيرها بنفسها، طالبا منه تمكين مندوبين شرعيّين من حضور مؤتمر فرساي «باسم الشعب التونسي – الجزائري الذي أراق دماءه في سبيل تحرير الشعوب».



علي بالآغا

[1924 - 2006م]

نشأ علي بالآغا (1924–2006) داخل رحم المدينة العتيقة بتونس العاصمة، في بيئة تعدّ الحرف اليدوية والصناعات التقليدية أساسها الاقتصادي.

ظلّ هاجس الصناعة والإنشاء الفنّي متغلغلا في نفس هذا الفنّان. سافر إلى فرنسا وانجذب

إلى مدرسة الفنون الجميلة بباريس التي أتمّ بها دراسته سنة 1955.

وتردّد على ورشة الأستاذ جودون Joudon لتعميق ثقافته التشكيليّة في تقنيات فنّ الحفر الحديث ومارس فنّ الخزف في ورشة المعلّم كانيفاي Canivet مثلما واكب دروسا في التزويق.

لم يقتصر علي بالآغا على زيارة العواصم الفنية بكلّ من أوروبا وأمريكا بل زار عدّة مدن شرقية ليطّلع على تراثها التشكيلي... فكانت زيارته إلى بعض مدن الصين والهند، ثمّ إلى فاس والجزائر والقاهرة وبغداد ودمشق وإسطنبول، عامل إغناء لثقافته الفنيّة.

بدأ علي بالآغا في عرض أعماله سنة 1950 بالصالون التونسي، وكان معرضه الفردي الأوّل سنة 1953 بمكتبة المعارف بالمدينة. ومنذ سنة 1960 بدأت معالم هذه التجربة تتّضح من مشاركاته بتونس وخارجها.

تولّى سنة 1966 خطّة رئيس للصالون التونسي، ثمّ ترأّس سنة 1975 اتّحاد الفنّانين التشكيليين التونسيين بعد أن أسهم في تأسيسه.

وكان عضوا نشيطا ضمن جماعة مدرسة تونس لفنّ الرسم. وكان يعرض باستمرار مع هذه الجماعة برواق القرجي بالعاصمة حتى أخريات حياته.

ويجدر التساؤل عن الخصائص الأسلوبية التي تحكم الرؤية الجمالية لدى هذا الفنان؟

استخدم بالآغا في أعماله عدّة تقنيات وخامات، من داخل مرجعيّات جماليّة متباينة يتداخل فيها التراث مع الفنّ المعاصر بحبكة بنائية محكمة. فلوحاته تنقسم إلى لوحات محفورة على الخشب وأخرى يعتمد فيها تقنية الإلصاق أو التغرية ومجسّمات فنّية يستعيد فيها الفنّ آلات حديدية قديمة وعناصر نحتية وتكوينات غرافيكية تقوم على الخط الكوفي القيرواني... تبدو في أعماله خبرة بالمواد والحوامل والتقنيات المختلفة، ساعدته على إغناء تجربته وفتح آفاق مخياله الإبداعي.

وتكاد العين أن تتيه في البحث عن خيط رابط بين مجمل هذه التقنيات والخامات... ويمكن أن تعدّ أعمال بالآغا صالونا في جماليّات شتّى بمشاركة عدّة فنّانين، كلّ فنان يمثّل لحظة فريدة من اللحظات المختلفة لتجربة علي بالآغا.

ولكن، أين هو علي بالآغا من كلّ هذه الشذرات الفنية وقد اختلفت فيها المناحي الجماليّة والمشارب الأسلوبية؟

إن الأمر يدفعنا إلى رصد الخطوط الكبرى التي ترسم خصوصية مغامرته التشكيلية.

إزاء هذه التجربة، يجد المتأمّل نفسه أمام شجرة متفرّعة الأغصان والجذع واحد، إذ ازدحمت التقنيات والخامات المستعملة (الفضّة، الزجاج، الخشب، الورق، النّحاس)... فيما يلاحظ من جانب آخر اعتمادا على فنّ الرسم الخطي بوجه خاصّ. ومثل تلك التأويلات التشكيلية التي أنجزها الفنان بوساطة الخطوط على الورق الخام تؤكد خيالا إنشائيّا وحسّا تأليفيّا ورغبة في إعمار كافة عناصر المساحة. أمّا الوحدات الأوليّة لمثل هذه الرسوم فهي مستمدّة من الطبيعة كالسمكة والطائر وبعض أنواع الزهور التي تتزين بها المرأة وهي كلّها ذات شحنة رمزية.

وقد وردت عدّة أعمال في مجال الرسم المحفور على الخشب، لم يكتف الفنّان فيها بالرسم القلمي بل عمل على حفر الخطوط التي تمثّل حدودا للشكل.

وتأتي الألوان لتعبئة المساحات وفصل الأشكال بعضها عن بعض... قبل أن يضيف الفنّان طبقة من الفرنيز البرّاق إلى سطح المساحة...

وهذا يذكّرنا بتقنية الرسم على البلّور في التراث الفنّي والحرفي على نحو ما يتجلّى في آثار الشيخ محمود الفرياني. وفي مثل هذه الصناعة يتأسّس الفعل التشكيلي على البنية الخطّية التي تؤكّد سيطرة الفنان على المساحة دونما حاجة

إلى البعد الثالث أو العمق.

إنّ لفن الرسم منزلة مهمّة في تجربة علي بالآغا، بل هو أساس ثقافة العين وطريق الفنّان إلى التعامل مع العالم البصري... وهو الخيط الرابط الذي يلملم شتات هذه التجربة الثريّة. ولحظة الرسم لديه هي لحظة القبض على الأشياء عندما تهيم داخل العالم المعيش أو تتيه داخل فضاء الذاكرة... أو عندما تعتمل وتتشكّل شيئا فشيئا داخل المخيال الإبداعي.

وبالإضافة إلى ذلك فإنّ لغة الرسم الخطّي هي اللغة التي يجسّد بالآغا بها حضوره في العالم المرئي سواء كان هذا العالم محسوسا أو رمزيا أو متخيّلا. وهو شأن مجموعة المعلّمين الذين يؤلّفون جماعة مدرسة تونس لفنّ الرسم، إذ أوْلوْا الرسم الخطّي مكانة مهمّة في تأسيس خطاباتهم التشكيلية.

ولفنّ الرسم الخطّي إحالات عدّة في هذه التجربة، هي بمنزلة استثمار للغة الخطوط في أشكال فنّية مختلفة. فقد يتماهى الرّسم تارة مع فنّ الخط العربي ليثير في اللوحة بعد الحركية والإيقاع ويؤلّف عناصر الفضاء داخل نسيج من الحروف والعلامات... وتارة أخرى يتماهى مع نوع من الصّياغة اللونية للصورة... ومن ثمّ يأتي اعتماد علي بالآغا على فنّ التلصيق (الكولاّج). وهي تجربة أسهمت إلى حدّ بعيد في تحديث طريقة الرسام في مقاربة العالم المرئي والرمزي. ويبدو ذلك على وجه الخصوص في الأعمال التي عرضت في شكل كتب مفتوحة. ولعلّه استمدّ هذا الشكل من تراث التصميم الفنّي للمخطوطات الشرقية القديمة على نحو التقليد الفنّي الذي أُرسي في تصميم «مقامات الحريري».

إنّ الصّور التي يقطعها الفنّان ثمّ يلصقها على «اللوحة -الكتاب» هي صور مجهّزة، ولكنّ طريقة وضعها هي مجال تدخّل الفنان. فبفضل فنّ التلصيق تستمدّ هذه الصور قيمتها الفنية داخل الهندسة التشكيلية للفضاء.

وهكذا، فمن الصور المطبوعة ما يلهم الرسّام ويحيله على أفكار تشكيلية خصبة، يعمل على تبنّيها واقتطاعها ثمّ إخضاعها إلى عمليّة تركيب جديدة.

واللاّفت للانتباه في هذه التجربة أن اللحظة الإلهامية كثيرا ما تدفع الرسام إلى تجاوز منطلقاته الغرافيكية في فنّ الرسم الخطّي... إذ كثيرا ما تصبح هذه الصور الملصقة مادّة أساسية للعمل الفني. أمّا الرسوم الخطّية واللمسات اللونية فلا تعدو هنا أن تكون سوى مؤثّرات ثانوية يضيفها الرّسام ليكتمل بها فضاء التكوين التشكيلي ويتحقّق توازنه الداخليّ. وهكذا تصبح هذه الأعمال مجموعة من التصاميم والتراكيب يفضي بعضها إلى بعض.

ومثل هذه الخبرة في التعامل الابتكاري مع الشكل مكّنت الفنّان من أن يصبح كائنا فاعلا في المادّة الاستعماليّة والمتحفيّة، يعيد إنتاجها إبداعيا.

بهذا الشكل، تتجاوز علاقة الفنّ بالتراث مستوى التبعيّة لتصبح علاقة تفعيل وتدبير ابتكاري. من ذلك أنّ تدخّلات علي بالآغا في جسد التراث، قامت في عدّة نماذج على تحويل الشيء من وظيفة إلى أخرى... وهو ما يتجلّى على سبيل المثال في تحويل «القبقاب» إلى «شمعدان» صغير أو مصباح، وتستتبع ذلك عمليّة تحويل أخرى على مستوى الرّمز الذي يضفي على الشكل نوعا من النبل.

وفي الوقت نفسه يسترجع الفنّان نبل الحروف العربية في الشكل والمضمون فيربط بين موضوع البسملة والألوان الذهبية والبرونزية والنحاسيّة التي طليت بها الأباريق والمرشّات.

فليس للشكل الجمالي وجود معزول عن وظائفه التزويقيّة والعمليّة داخل الحياة اليومية، وهو ما يبدو في شكل السمكة الحاملة المفاتيح. إذ بقدر ما يدعم «الشكل الجميل» صلته بالحياة اليومية، يغرق في استبطان الأفق الرمزي عندما تحيلنا الأشكال السّمكيّة المتواترة

على رمزية الخصوبة في الثقافات المتوسطية...
إنّ رحلة الخلق الفنّي لدى علي بالآغا قد انطلقت بتكريم الحرفيين وصنّاع المدوّنة التشكيلية الشعبية. فتجربة بالآغا بناء ثقافيّ لا يلغي القديم، ولا يتنكّر له، بل ينطلق منه ويواصل نسغ الحياة في شرايين المخيال الجماعي الموروث، إذ الفنّان يتمثّل التراث الرمزي ثمّ يدرجه داخل رؤيته الإبداعيّة...
وتبقى شجرة الفنّ لدى علي بالآغا مورقة، وارفة الظلال، أغصانها متفرّعة. تنساب إلى آفاق خياليّة مفتوحة على عالم اللغز والمجهول... حيث تذوب الحيرة في لذّة الاكتشاف.

نجيب بالخوجة
[1933–2007م]

وُلد نجيب بالخوجة بتونس العاصمة سنة 1933 من أب تونسي وأمّ هولندية. تلقّى تكوينا أكاديميا في قيادة الطائرات في الخمسينات، ولكنّ ميله إلى فنّ الرسم كان أقوى من انشغاله المهني في مجال الطيران، كما كان يمكن لبالخوجة الشاب أن يلتحق بوالدته ويحصل على إقامة هولندية. لكنّه فضّل أن يبقى بحيّ «باب الجديد» بالعاصمة، حيث نشأ. وكان في هذا الحي قد تعرّف إلى الرسّام الإيطالي المقيم بتونس فابيو روكشجياني الّذي وجد فيه صدى لأفكاره الفنية فتفاعلا.
وبعد أن أدركت تجربة هذا الشاب النضج في أواخر الخمسينات (وقد تجسدت في الأعمال التي عرضها ولقيت استحسان الفنانين والنقاد الطّلائعيّين ومنهم الرسّام التونسي حاتم المكّي) التحق بورشة روكشجياني. وأسّس معه سنة 1962 «مجموعة السّتة» التي كانت تدافع عن مواقف ثقافية طلائعية وتنبذ التقليد وتتصدّى بالنقد لما يأبّه بعض الرسّامين الفرنسيّين المقيمين بتونس وعدد من جماعة مدرسة تونس من توظيف للتراث والفولكلور المحلّيّين، بدا لها سطحيّا. ثمّ نشطت «مجموعة السّتة» بنهج القاهرة في قلب العاصمة وقدّمت عدة معارض جماعية. وقد كانت تضمّ فضلا عن بالخوجة وروكشجياني كلاّ من التونسيّين لطفي الأرناووط والصّادق قمش والفرنسيّين جوليات قرمادي وجون كلود ألان. وعندما لقيت أعمال بالخوجة صدى واسعا في بيانال باريس الدولي، كانت الفرصة سانحة للالتحاق بالحي الدولي للفنون بعاصمة الأنوار للحصول على إقامة به. وكان ذلك سببا رئيسا لتلاشي هذه المجموعة قبل عودتها سنة 1966 في صيغة أخرى. وهي «معرض الخمسة» الذي يُعدّ وريثا شرعيّا لها...
ويعتبر الرسّام التونسي نجيب بالخوجة من روّاد نزعة التحديث في ثقافة الفنون التشكيلية بتونس خاصّة وفي العالم العربي عامّة. وقد تجلّى ذلك في خصوصيّة أسلوبه الفنّي الذي بدأ إرهاصه في الخمسينات من القرن العشرين. وذلك من جهة تركيزه على استعمال الفعل الخطّي المتواصل، في لحظة الأداء، دون رفع القلم من الورقة. وقد أدّى هذا الخطّ المتواصل إلى تكوين فضاء متاهيّ يصهر الشكل التشخيصي الأوّلي داخل فضاء ممتدّ ذي عناصر شبه متجانسة. وبمثل هذه النتائج التي تمخّض عنها التشكيل المتاهي – وقد أضحى هندسيّا – يحيل الرسّام فيما بعد على صورة مّا لمعمار المدينة العربيّة أو إلى هيئة ما لكتابة تشكيليّة بالخط الكوفي الهندسي. وقد دفعت هذه الإحالات بالرسّام إلى تدارك هذه الصّور وهذه الهيئات المستفادة والاشتغال بها باعتبارها موضوعات مستقلّة بذاتها داخل لوحة حديثة، لا تتعاطى مع صورة المدينة على نحو ما كان يبدو في الفنّ الساذج والفنّ شبه الانطباعيّ والتشخيصيّ السائدين، أو على نحو ما كان يبد وفي التصاوير السياحيّة. بل كان موضوع المدينة اكتشافا داخل الفعل الفنّي وليس منطلقا جاهزا يحتّمه الحنين إلى الماضي.

ومن ثمّة، انبنت لوحة بالخوجة على رؤية فنيّة ذات مواقف ثقافيّة تتعارض مع المألوف في ممارسات الرسّامين الفرنسيين بتونس وتلامذتهم من التونسيين. وتنهل مبادئها من شروط التأصيل والتحديث على حدّ سواء. فأن نكون حداثيّين في نظر هذا الرسّام هو أن لا نتمسّك بتراثنا جثّة هامدة آتية من الزّمن التليد بل أن نؤكّد قدرة هذا التّراث على نقل فكرة الخلق والابتكار التي تسكنه إلى الزّمن الحاضر والأزمان اللاحقة. وهكذا ربط بالخوجة تصوّره للشّكل الفنّي بذاكرة الأنا وتراثها الجمعي من جهة وبجدليّة تاريخيّة ينفتح فيها هذا الشّكل على الزّمن المتوثّب والخلاّق من جهة أخرى. وهو الذي راهن على الإفادة من تراث الشكل الفنّي (المدينة – الخطّ العربي – الزربيّة) في الوقت نفسه الذي راهن فيه على الإفادة من تاريخ الفنّ الحديث وخاصّة منه ما يتعلّق بثورة الأساليب التجريديّة في مستهلّ القرن العشرين، من قبيل أعمال الهولندي بيات موندريون والسويسري بول كلي.

ومثل هذه المواقف أكّدت أنّ الفنّ التشكيلي الذي يدافع عنه بالخوجة ليس مهارة تقنيّة أو خبرة بتقنية اللون وسحر الخطوط، بل هو أيضا خطاب ثقافي وفكر جدليّ له مرجعيّاته ما بين تاريخ الفنّ العربي الإسلامي وتاريخ الفن الحديث وتاريخ الفكر النّقدي والجدلي. وذلك ما أدّى ببالخوجة إلى أن يكون أبا الفنّ الطّلائعي والتجريدي التونسي داخل مجموعة الستّة، تلك التي أغنت السّاحة الثقافيّة بتونس بأفكار إبداعيّة ومواقف ثقافيّة بارزة، في الستينات والسبعينات على الأقل. وقد رافقت نزعات الطليعة والتجديد في واقع الفنون والآداب والفكر وقتذاك.

مثلما حظيت أعمال بالخوجة التي كان يعمل على إنجازها حتّى في آخر حياته، بمكانة لدى المؤرّخين والنقّاد التونسيّين والعرب عامة، فقد لقيت كذلك صدى في عدّة ربوع متوسّطيّة وخاصّة بفرنسا، منذ المشاركات اللامعة التي سجّلها بالخوجة ببينانال باريس في الستينات ومعارضه ببعض الأروقة الفرنسيّة والمركز الثّقافي الإيطالي بتونس ومشاركاته بمعهد العالم العربي بباريس.

ليس فنّ بالخوجة فنّا مجرّدا خالصا. إنّه نتاج فعل في الأشياء وصناعة تشكيليّة لمنظر العالم – المدينة، حتى يتوصّل إلى أشكاله التجريديّة. إنّه عمليّة تنقية واختزال. وبفضل هذا المسار الذي يخوضه الشكل، تتخلّص اللّوحة من المحتوى المشهدي المباشر لتصير إلى نسيج تشكيلي ذي عناصر تتحرّك إيقاعيّا وتتجانس مع تركيبة الحروف في الخط الكوفي. إنّ التجريد هو بمنزلة استثمار للبنى التشكيليّة في منظر العالم والأشياء. وهو مسار يؤكّد وحدة الرؤية وعمارتها. يقول نجيب بالخوجة في شهادة له سنة 1970 «وبفعل هذه التّنقية أو هذه التّعرية التي تؤدّي بي إلى انتزاع كلّ الزوائد والحفاظ على الهيكل، تمكّنتُ من إيجاد مقاطع حروف، بل ومقاطع كلمات أيضا».

ومثل هذا المسار التجريدي الذي تتماهى فيه العناصر المعماريّة مع الحروف، هو وجه من الذّكاء التشكيلي الذي ينشط داخل ممارسة دؤوبة للأشياء، تولّد خداعا فنيّا ولذّة جماليّة. وهو ما يتأكّد عندما «يتردّد الشكل ما بين اندثاره من جهة وإعادة تشكيله من جهة أخرى» أو عندما «يراوح نسيج اللوحة ما بين خلاء وملاء، سالب وموجب، وتتشكّل عمارة الرؤية في نوع من المتاهة، حيث تفضي العناصر إلى بعضها وتتقاطع الاتجاهات ما بين عمودي وأفقي».

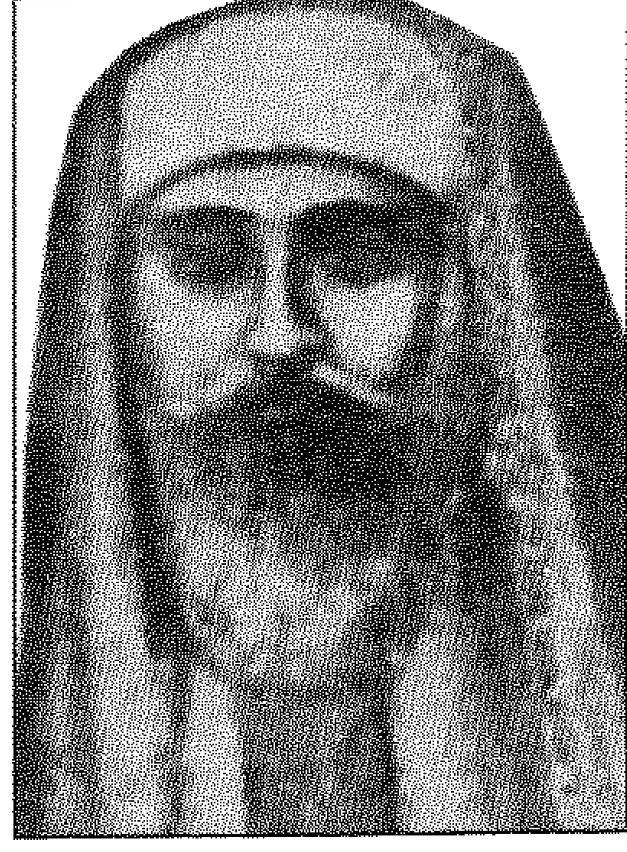
بمثل هذا التقاطع بين العمودي والأفقي تتوحّد خطوط المتاهة في شبكة اللوحة (وهو حلّ تشكيليّ قديم كما في الفنّ العربي الإسلامي) ويعيد إلى العناصر لحمتها وإلى

النسيج وحدته بعد أن يفتت منظر الأشكال وتحليله.

وهكذا، فبقدر تجذّر الشّكل الفنّي لدى بالخوجة في مرجعيّته التراثيّة والمحليّة (المعمار – الخط العربي – تشكيلات الزربيّة التونسية) يكون التقاؤه باللغة المعاصرة للفنّ التجريدي في نقائها الشكلي. إنّ مسار التنقية الشكليّة هو ولوج إلى كونية اللغة البصريّة وتواصل جمالي مع راهنيّة تاريخ الفنّ.

فقد قامت لوحة بالخوجة على تشذيب الشكل وتحليله إلى مربّعات ومستطيلات وأنصاف دوائر داخل نسيج من علاقات القوى الديناميكية – البنائيّة يبيح الانخراط في التجارب الكبرى للتجريد والتفاعل مع مكتسبات الفنّ الحديث.

لا ريب في أنّ مسار النقاء الشكلي وإن كان يحتكم إلى عين هندسيّة، فيرتدّ إلى النظر الذهني والحسابي في التعامل مع الامتداد المساحي فيصبح الشكل فكرة أو قوّة هندسيّة، فإنّه ينمّ عن عمليّة تجري أفعالها في الزمن الحي يتجاوز فيها الشكل حدود الثنائيّات (تشخيص – تجريد، موضوع – شكل)... ويؤكد نوعا من الصناعة المخبريّة للشكل، تلك التي تتحرّك داخل تجربة شعورية – حسيّة حيّة تربط بين الرؤية التشكيليّة والتدبير الحرفي أو الحذلقة التّصنيعيّة. وهو ما يفسّر نزوع الفنّان إلى مخالطة أجناس تشكيليّة أخرى غير الرسّم مثل النحت أو الحفر أو التلصيق، إذ كانت له تجربة حيّة مع خامات مختلفة مثل الورق المقوّى والخشب والأليمينيوم والبلور... قال بالخوجة في آخري حياته «لو كُتبت لي حياة فنيّة جديدة سأكون فيها نحّاتا بامتياز...»



محمد الرشيد باي

[1710 - 1759م]

وُلد محمد الرشيد بن حسين باي بقصر باردو في ذي الحجّة 1122هـ/1710م وهو أوّل من وُلد لحسين بن علي باي. حفظ القرآن ودرس على شيوخ ذلك العصر حتّى فهم علم النحو والبلاغة وعلى الخصوص الأدب. وأبدع رقيق الشعر باعتناء القاضي الشيخ محمد بن محمد الشافعي الشريف فأنشأ القصائد اللّطيفة منها قصيدته الميمية.

وله قصيدة شهيرة باسم القافية شرحها الشيخ صالح الكواش (وقيل ابنه محمد) وهي عبارة عن استغاثة ذكر فيها شوقه إلى تونس. ولـمّا انقضت دولة والده وتولّى على الحكم ابن عمّه خرج من القيروان بعد طول حصار هو وأخواه علي باي ومحمود وأتباعهم فقصدوا الجزائر مستغيثين بحاكمها فاستقبلهم وأعدّ لهم بستانا للإقامة فيه. في أثناء هذه الإقامة اشتغل محمد الرشيد باي بترتيب الفنّ الموسيقي التونسي مستعينا بكثير من الفنانين الذين وفدوا عليه من تونس ومن الجزائر فوضع ترتيب نوبات المالوف على الأسلوب المتداول عندنا إلى الآن.

ولـمّا أتيحت له فرصة الرجوع إلى تونس هرعت الخاصّة والعامة إلى تهنئته ودامت مدّة حكمه من سنة 1756 إلى 1759م ودفن في تربة والده.

ومن آثاره ديوان شعر جمعه محمد الناصر باي يعرف باسم «الدرّ النضيد بأشعار الباشا الرشيد».

وله عدّة تلاحين ضاع الكثير منها ما عدا

قطعة موسيقية صامتة تسمّى البشرف الكبير يستعملها الفنانون من جوقة الرشيدية التي تسمّت باسمه.



محمد المنصف باي
[1881 – 1948م]

1) مولده ونشأته

محمّد المنصف بن محمد النّاصر بن المشير الثاني محمد باي، ولد في 4 مارس 1881 وكان آخر أمير حسيني مولود قبل فرض «الحماية الفرنسية» على تونس في 12 ماي 1881. ولمّا بلغ سنّ الدّراسة ألحقه والده في سنة 1888 بالمعهد الصادقي بصفة مقيم بمبيت المدرسة، لتمكينه من الاختلاط بأبناء الشّعب منذ الصغر. وقد استرعى انتباه أساتذته وأقرانه حسنُ سلوكه وتواضعه وإقباله على طلب العلم. ثم غادر المعهد قبل إتمام دراسته الثانوية مثل الكثيرين من أبناء جيله، ولكنّه اكتسب زادا مفيداً من الثقافة الأساسية باللغتين العربية والفرنسيَة.

وإلى جانب الدروس النّظامية بالصّادقية كان الأمير يتلقّى بالقصر في أيام الراحة دروسا خاصة في اللغة الفرنسية على يدي الأستاذ خير الله بن مصطفى وفي اللغة العربية والعلوم الشرعية على أيدي الشيوخ محمود بيرم والطّاهر جعفر والصّادق الشاهد ومحمّد جعيّط.

ولمّا اعتلى الناصر باي العرش سنة 1906، جعل من الأمير محمد المنصف مستشاره الخاص وأمين سرّه بصفته أكبر أنجاله. وكان يمثّل والده في المواكب والحفلات الرسميّة، وقد رافقه في سفره إلى البلاد الفرنسية سنة 1912 عندما قام الناصر باي بردّ الزيارة لرئيس الجمهورية أرمان فاليار. وكان المنصف باي وإخوته (الهاشمي وحسين ومحمد) متّصلين بزعماء حركة الشّباب التونسي بوساطة بعض أفراد الحاشية، وهم:

– خير الله بن مصطفى الذي كان يحظى برعاية زوجة النّاصر باي الأميرة قمر، وقد عيّنه الباي سنة 1919 مديراً للتّشريفات خلفا للجنرال محمد ابن الخوجة المعروف بولائه لحكومة الحماية.

– والشاب الشاذلي حيدر، وهو من أبناء المماليك تبنّته الأميرة قمر واسترعت انتباه الإقامة العامة وقتئذ أفكاره المناهضة لنظام الحماية.

– وعمّه رشيد حيدر الضابط في الحرس الملكي وصديق حسن قلاّتي والصّادق الزّمرلي.

لكنّ الشّخص الذي كان له تأثير بالغ في الأمير المنصف باي وغرس فيه الروح الوطنية منذ عهد الشباب هو الشاعر محمّد الشاذلي خزنه دار الضابط في سلك الحرس الملكي. وقد اعترف هو نفسه بما قام به من دور لحمل المنصف باي على الانضمام إلى الحركة الوطنية، في الرّسالة التي وجّهها إليه في سنة 1947، لمّا كان مقيما في المنفى بمدينة بو الفرنسيّة لإعلامه باعتزامه نشر الدعوة الإسلامية، وقد جاء فيها بالخصوص ما يلي:

«هذه بشارة أزفّها إليك... وأنا الذي عرفت من ذي قبل مبلغ قوّة إيمانك، وأنا الذي دعوتك من قبل لخدمة وطنك بالسّياسة واستحلفتك على الكتاب المقدّس مرتين وقد بررت بيمينك، فها أنا اليوم أدعوك، ليس لخدمة وطنك فقط، بل لخدمة الأوطان كلّها باسم الدين المحمّدي».

2) انضمام المنصف باي إلى الحركة الوطنية

فلا غرابة حينئذ في أن يكون الأمير المنصف باي في طليعة المتعاطفين مع الحزب الحرّ

الدستوري التونسي منذ انبعاثه في سنة 1920. فهو الذي فتح باب القصر الملكي بالمرسى في وجه وفد الأربعين الذي زار الباي يوم 18 جوان 1920 برئاسة الشيخ الصادق النيفر وقدّم إليه العريضة الدستورية. ولم يكتف المنصف باي بهذا الموقف الذي أثار غضب السّلط الاستعمارية بل بادر إلى الانخراط في الحزب. وقد نشر السيد المنجي خزنه دار صورة من بطاقة انخراط الأمير في الجزء الثالث من ديوان والده، الذي نشره في جوان 1991 تحت عنوان «المنصفيّات».

وتجدر الإشارة إلي الدور البارز الذي قام به المنصف باي لما هدّد والده يوم 3 أفريل 1922 بالتنازل عن العرش، إذا لم تستجب الحكومة الفرنسية لمطالب الشعب التّونسي المشروعة.

وبعد وفاة الناصر باي في 10 جويلية 1922، اعتزل ابنه محمّد المنصف الحياة السياسية وفضّل أن يراقب من بعيد الأحداث التي جدّت بالبلاد التونسية طوال مدّة الأمير الحبيب باي (1922–1929) الذي كان أداة طيّعة بين يدي المقيم العام لوسيان سان، والأمير أحمد باي (1929–1942) الذي لم يسمح له تكوينه التعليمي المحدود بإدراك أبعاد تلك الأحداث. وكان المنصف باي يقضي أوقات فراغه في المطالعة والاتّصال ببعض رجال الحركة الوطنية الذين كانوا من روّاد مجلس أخيه الأمير حسين باي بقصره في سيدي بوسعيد، أمثال الشاذلي خزنه دار وصالح فرحات وعلي كاهية والصّادق الزّمرلي. وبفضل تلك الاتّصالات تمكّن من الاطّلاع على تطوّر الأوضاع السياسية بتونس منذ وفاة والده إلى تاريخ تعيينه وليّا للعهد، حسب نظام الوراثة على العرش الحسيني، وذلك يوم 26 أفريل 1942. وبعد أقلّ من شهرين توفّي أحمد باي يوم 19 جوان 1942، وخلفه ولي عهده الأمير محمد المنصف.

3) الفترة الأولى من ولايته (جوان – نوفمبر 1942)

حين اعتلي المنصف باي العرش كان الشّعب التّونسي يئنّ تحت وطأة الإجراءات القمعيّة المسلطة عليه منذ حوادث أفريل 1938. وسرعان ما رجع الأمل إلى النّفوس وارتفعت معنويّات الشّعب وتهافتت الوفود الشعبية القادمة من جميع أنحاء المملكة إلى قصر السّعادة بالمرسى لتهنئة العاهل الجديد الذي أظهر من أوّل وهلة من سلوكه المستقيم ومواقفه المشهودة، أنّه لم يخيّب الآمال المعلّقة عليه. من ذلك أنّه ألغى بعض العادات البالية مثل عادة تقبيل يد الباي التي عوّضها بالمصافحة. ولم يستنكف عن الاتّصال المباشر بالشّعب واستقبال ممثّليه والاستماع إلى مطالبهم، وقد كان يحثّهم على الكدّ والجدّ ونبذ الخلافات والتمسّك «بالوحدة القوميّة» الكفيلة وحدها بالنّهوض بالشّعب وتحقيق مطامحه.

وقد أشار الدكتور محمود الماطري أحد كبار رجالات الحزب الحر الدستوري الجديد في مذكّراته إلى الانطباع الذي تركه في نفسه استقباله من لدن المنصف باي إثر اعتلائه العرش، فقال: «في اليوم الموالي لتوليته استقبلني في بيته بالمرسى، وبعد أن عاتبني بلطف على عدم زيارته بالأمس مع بعض الشّخصيات التي أتت لتهنئته، خاطبني قائلا: «أتريد أن تقطع صلتك بي لأنّي اعتليت العرش؟ أبدا لن أتركك تبتعد عنّي، فقد قرّرت منذ الآن تعيينك كبير أطبائي، لكنّ مهمّتك لن تقتصر على ذلك، فأنت بالخصوص صديق أضع كامل ثقتي في شخصك، بل إنّك أكثر من صديق إنّك أخي في مقام سيدي الهاشمي وسيدي حسين وسيدي محمّد، وسوف ترى أنّي لست مثل سائر البايات. إنّي وطني غيور مثلك»».

قال ذلك ثم وضع قفا يده على رقبته وأضاف قائلا: «إني مستعدّ للتّضحية بهذه الأصابع الأربعة (أي بحياته) في سبيل سعادة شعبنا».

وقد بلغت نبراته من الصّدق ما أثّر في نفسي تأثيرا بالغا حتى إنّي أخذت يده لأقبّلها، فسحبها منّي بسرعة، قائلا بلهجة العتاب: «يا عزيزي سي

محمود لقد انتهت عادة تقبيل اليد التي ألغيتها، فأصبحنا كلّنا إخوانا».

ولئن اضطرّ المنصف باي، بإشارة من مستشاريه إلى إبقاء وزراء سلفه في مناصبهم حقبة من الزّمن، فإنّه أبعد من بلاطه بعض الأشخاص المعروفين بولائهم لنظام «الحماية»، وألّف مجلسا خاصّا بإشراف أخيه حسين باي لمساعدته على تدبير شؤون الدولة، يضمّ نخبة من الشّخصيات الوطنية أمثال محمد شنيق رئيس القسم التونسي بالمجلس الكبير، والدكتور الماطري رئيس الحزب الدستوري الجديد سابقا، ومحمد العزيز الجلولي الذي عيّنه شيخا لمدينة تونس خلفا للجنرال محمد سعد الله المعروف بعلاقته الوثيقة بالسلطة الاستعمارية، والجنرال الصادق الزمرلي الذي عيّنه مديرا للتشريفات عوضا عن المدير السابق محمد التركي، ومحمد علي العنابي رئيس جمعية قدماء الصادقية.

وخلافا للعادة المألوفة في العائلة الحسينيّة، قرّب إليه وليّ عهده الأمير محمد الأمين باي وأشركه في تسيير شؤون البلاد.

وبعد الاستماع إلى مطالب ممثلي الأمة وأخذ رأي مستشاريه، استقبل الأميرال إستيفا المقيم العام يوم 8 أوت 1942، وسلّم إليه رسالة لإبلاغها إلى رئيس الدولة الفرنسية المارشال بيتان، تتضمّن المطالب المستعجلة التي يرى العاهل التونسي من الضروري تحقيقها فورا في إطار المعاهدا ت المبرمة بين البلدين، من أهمّها تكوين مجلس تشريعي تونسي، وتمكين نوّاب الشعب التونسي من المشاركة في المجالس البلدية، وقبول التونسيين في كل الوظائف والمساواة في المرتبات بينهم وبين الموظفين الفرنسيين، وإقرار إجبارية التعليم ونشر اللغة العربية في جميع معاهد التعليم وإلغاء الأمر المؤرخ في 1898 والمتعلّق بالتفويت في أراضي الأوقاف لفائدة المعمّرين، وتأميم جميع المؤسسات ذات المصلحة العامة، كما طالب بإطلاق سراح كلّ المساجين السياسيين التونسيين، سواء منهم المعتقلين بتونس أو المعتقلين بفرنسا والجزائر.

وفي انتظار الإجابة عن هذه المطالب أدّى الأمير زيارات رسميّة إلى بعض ضواحي العاصمة، وكان في نيّته زيارة بعض المدن التونسية الأخرى وفي مقدّمتها القيروان، ولكن العمليات الحربية للحرب العالميّة الثانية التي امتدّت إلى البلاد التونسية حالت دون إنجاز هذا المشروع.

وهكذا قد زار على التوالي أريانة، يوم 22 أوت، ومنّوبة يوم 4 سبتمبر والكرم يوم 9 سبتمبر. وفي منّوبة أهدى إليه الشيخ مصطفى الباهي رئيس الشعبة الدستورية مصحفا، فأخذ المصحف وأقسم عليه بأعلى صوته وسط هتافات الجماهير قائلا:

«أقسم بالله العظيم وبالقرآن الكريم أني أخلص لكم وأحبّكم وأعطف عليكم كأبنائي، وأضحّي من أجلكم بكل شيء، حتى بنفسي».

ثم خصّص شهر رمضان المعظم (سبتمبر 1942) لزيارة بعض أحياء العاصمة بمناسبة إشرافه على مواكب ختم الحديث الشريف في أهمّ جوامع تونس إثر صلاة العصر. وكان يحظى في كل زيارة باستقبال وحفاوة بالغة من قبل الجماهير الشعبية.

وفي شهر أكتوبر تفقّد سير الدروس بجامع الزيتونة ودعا التلامذة إلى بذل مزيد الجهد في طلب العلم. وأشرف على حفل افتتاح السنة الدراسية بالمعهد الصادقي وأذن بالاستغناء عن المستشرقين الفرنسيين المكلّفين بتدريس اللغة العربية، وتعويضهم بمدرّسين تونسيين.

وزار المجلس الشرعي وأوصى رجال الشرع بالإسراع بفضّ القضايا المعروضة عليهم قائلا لهم:

«إن حقوق الناس بين أيديكم، فاتّقوا الله في الأيامى واليتامى والفقراء والمساكين الذين قد

يضيّع عليهم فقرهم حقوقهم بطول المدّة وكثرة التردّد ».

وبمناسبة عيد الفطر استقبل المنصف باي يوم 12 أكتوبر 1942 بقصر باردو المقيم العام الذي قدّم إليه وفود المهنّئين من كبار الموظفين، ولما استغرب غياب العنصر التونسي من بعض الوفود الإدارية، أجابه الأميرال إستيفا بلهجة حادّة فوجّه إثر إنتهاء الحفل برقية احتجاج إلى المارشال بيتان طالب فيها بإعفاء المقيم العام من مهامّه وتعويضه بموظف آخر. وهدّد بالتنازل عن العرش إذا لم تستجب الحكومة الفرنسية لطلبه. فأرسل إليه رئيس الدولة الفرنسية برقية عبّر له فيها عمّا يكنّه لشخصه ولبلده من مودّة وتقدير ورجاه أن يواصل سياسة التعاون مع فرنسا «في هذه الظروف التي تمرّ بها».

ونظرا إلى هذا الموقف المعتدل، قرّر المنصف باي عدم التنازل عن العرش، واستقبل يوم 26 أكتوبر 1942 المقيم العام الذي أعرب له عن مشاعر إخلاص كلّ الموظفين لشخصه، وتحادث معه حول الإصلاحات التي يمكن إدخالها على النظام السياسي القائم في البلاد. وبينما كان الطرفان يستعدّان للدخول في مفاوضات رسميّة حول هذه الإصلاحات، إذ جدّ الحادث الذي غيّر معطيات القضية التونسية رأسا على عقب، هو نزول قوّات المحور بتونس يوم 10 نوفمبر 1942.

4) الفترة الثانية من ولايته (نوفمبر – ديسمبر 1942)

وهكذا وجد المنصف باي نفسه مضطرّا إلى اتخاذ موقف رسمي من الدول المتحاربة، لا سيما بعد أن تلقّى رسالة موجّهة إليه من الرئيس الأمريكي روزفلت يلتمس فيها السماح للقوّات الأمريكية بعبور التراب التونسي بحرية للتصدّي لقوات المحور، وبعد درس الوضع مع مستشاريه ومجلسه الخاص استقرّ الرأي على اتخاذ موقف محايد، لم يحد عنه الأمير رغم جميع الضغوط التي سلّطت عليه لحمله على الانضمام إلى صفّ المحور. من ذلك أنه عارض مشروع تعبئة العمال التونسيّين لفائدة القوّات الألمانية والإيطالية المرابطة بتونس، ودافع دفاعا مستميتا عن رعاياه اليهود الذين تعرّضوا إلى ألوان شتّى من الاضطهاد والتعسّف، وامتناعه عن استنكار قصف العاصمة وبعض المدن التونسيّة الأخرى الذي أقدمت عليه طائرات الحلفاء.

وقد كان شغله الشاغل وقتئذ التخفيف من آثار الحرب التي أصابت جميع فئات الشعب التونسي. ذلك أنه بالإضافة إلى الغارات الجوية التي ذهب ضحيّتها عدد كثير من المدنيين التونسيين، كانت البلاد تشكو فقدان المواد الغذائية الأساسية وانتشار السوق السوداء ومضاربات المحتكرين. فأمر الباي بتأسيس لجان اقتصادية لتنظيم مسالك التوزيع وتشديد الرقابة على المحتكرين، كما شمل برعايته جمعية الهلال الأحمر التونسي التي بعثها جمع من الوطنيين لإسعاف ضحايا الغارات الجوية ومدّ يد المساعدة إلى المنكوبين.

ومن ناحية أخرى بذل المنصف باي قصارى جهده للإفراج عن المساجين السياسيين، وانتهز فرصة الحرب لمطالبة السلط الفرنسية بالإسراع باطلاق سراحهم. واضطر المقيم العام في آخر الأمر إلى الاستجابة لرغبة الباي، فأمر يوم أول ديسمبر 1942 بالإفراج عن جميع المساجين الدستوريين المعتقلين في السجن المدني بالعاصمة، إثر الانتفاضة التي قاموا بها وأسفرت عن مقتل أربعة منهم.

واستقبل المنصف باي في قصره بحمام الأنف وفدا من المناضلين يتركب من الدكتور الحبيب ثامر والطيب سليم والرشيد إدريس وحسين التركي، وأعرب لهم عن عزمه على «تسخير حياته لخدمة القضية الوطنية وقبول نتائج أعماله ولو أدى به ذلك إلى السجن أو الاستشهاد».

5) الفترة الثالثة من ولايته (جانفي – ماي 1943)

نظرا إلى الظروف الحرجة التي كانت تجتازها البلاد عهدئذ، قرّر المنصف باي أن يمسك بنفسه بزمام الأمور، فأمر الوزراء المباشرين لمهامهم منذ عهد سلفه (وهم الهادي الأخوة الوزير الأكبر والحبيب الجلولي وزير القلم وعبد الجليل الزاوش وزير العدلية) بالاستقالة من مناصبهم لفائدة المصلحة العامة. وعوّضهم يوم أول جانفي 1943 بوزراء جدد، دون الحصول على موافقة المقيم العام، وهم محمد شنيق، وزيرا أكبر ومحمود الماطري، وزير داخلية وصالح فرحات، وزير عدل. والتحق بالتشكيلة في شهر مارس الموالي محمد العزيز الجلولي بصفة وزير للأوقاف.

ورغم ظروف الحرب، فقد توفّقت الوزارة الجديدة، بهدي من المنصف باي إلى اتّخاذ عدّة تدابير مهمّة هي:

– تحقيق المساواة بين الموظّفين التّونسيين والفرنسيين في المرتّبات.

– إلغاء الأمر الصادر في سنة 1898 والقاضي بتمكين المعمّرين الفرنسيين من الاستحواذ على أراضي الأوقاف.

–إنشاء وزارة للسهر على شؤون الأوقاف.

ومن ناحية أخرى، شهدت الحياة السياسية بالبلاد في تلك الفترة انتعاشة ملحوظة. فاستعاد الحزب الدستوري الجديد نشاطه بقيادة الدكتور الحبيب ثامر، وأصدر جريدة يومية ناطقة باسمه، هي «إفريقيا الفتاة». وتعدّدت مناشط الجمعيّات الوطنيّة مثل الشبيبة الدستورية وجمعيّة الهلال الأحمر، والجمعية الخيريّة وجمعيّات الكشّافة والشّباب والرياضة.

وفي شهر أفريل 1943 تمكّن الزعيم الحبيب بورقيبة ورفقاؤه الذين كانوا مسجونين بفرنسا من العودة إلى أرض الوطن عبر إيطاليا. فأجريت اتّصالات بين الحزب الدستوري الجديد والقصر لتأليف حكومة وطنية جديدة يكون بين أعضائها الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف. إلاّ أن تلك المساعي لم تكلل بالنجاح، بسبب معارضة السلط الفرنسية والألمانية، وتوقّع الوصول الوشيك لقوّات الحلفاء إلى تونس من حين لآخر.

6) خلع المنصف باي وردود الفعل التونسية

وبالفعل فقد دخلت قوّات الحلفاء المنتصرة إلى العاصمة يوم 7 ماي 1943، وفي اليوم نفسه اقتحم الجنود البريطانيون قصر حمام الأنف وأجبروا المنصف باي على التحوّل إلى تونس، ولم يفلت من قبضتهم إلاّ بفضل تدخّل الكاتب العام للحكومة التونسية بينوش.

وفي يوم 13 ماي طلب الجنرال جوان الذي عيّن مقيما عاما بالنيابة من المنصف باي التنازل عن العرش بمحض إرادته، فرفض ذلك الطلب، بعد أخذ رأي وزرائه. ومن الغد خلع عنوة بمقتضى قرار صادر عن الجنرال جيرو القائد الأعلى للجيوش الفرنسية لشمال إفريقيا وعوّض بوليّ عهده محمد الأمين باي. وفي اليوم نفسه نقل على متن طائرة حربية إلى مدينة الأغواط بالجنوب الجزائري حيث فرضت عليه الإقامة الجبريّة. وفي 6 جويلية 1943 أجبر تحت الضغط على إمضاء وثيقة التنازل عن العرش ونقل إلى مدينة تنّس الواقعة على الساحل الجزائري. وإثر تحرير البلاد الفرنسية من القوّات الألمانية في سنة 1945، نقل إلى مدينة «بو» بالجنوب الفرنسي، فبقي هناك في الإقامة الجبرية إلى أن أدركته المنيّة.

وقد ظلّ طوال مدّة الإبعاد محافظا على العهد، مؤمنا بحق وطنه في الحريّة والاستقلال، مناضلا عنه بلسانه وقلمه إلى آخر رمق في حياته.

ففي رسالة موجّهة إلي الأمين العام للجامعة العربية عزّام باشا، قال بالخصوص ما يلي:

«نحن نعتقد أن البلاد التونسية المعتزّة بعروبتها سوف تتحرّر من قيود الاستعمار

الفرنسي، بفضل جهاد شعبها الكريم وزعمائها الأبرار، وستلتحق بجامعتكم لتساهم في العمل والسير بالأمة العربية نحو الصلاح والقوّة والمجد...».

وجاء في الرسالة التي وجّهها في أفريل 1947 إلى محمد الخامس ملك المغرب إثر خطابه الشهير بمدينة طنجة:

«لقد أهابت بي لحمة الجنس ووحدة الآلام والآمال، واتّفاق الأهداف والوسائل، إلى الإعراب عمّا تولاّني من مزيد الغبطة بقيادتكم لحركة شعبكم القومية، حتى يكون الدافع الاستقلالي الذي هان علينا الملك في سبيله، شاملا في المغرب العربي المستقل الموحّد...».

والجدير بالذكر أن السلط الفرنسية علّلت خلع المنصف باي بتهمة التعاون مع المحور، إلاّ أن الحجج الدامغة أثبتت على نحو لا يقبل الدحض بطلان هذه التّهمة. فقد اعترف الجنرال جوان ذاته فيما بعد «بأن حكومة الجزائر المزعومة هي التي تتحمل مسؤولية ذلك الإجراء الأخرق المتّخذ ضدّ ملك مستقيم السلوك دوما وأبدا، لا يمكن مؤاخذته بارتكاب أيّ عمل بالغ الخطورة»، وفي الواقع كان ذنبه الوحيد، في نظر الفرنسيين، هو جرأته على معارضة سلط الحماية والمطالبة بتحقيق رغبة الشعب التونسي المشروعة في الحريّة والاستقلال.

وقد تأثر جميع التونسيين بالغ التأثر بإقدام السلطة العسكرية الفرنسية على خلع الملك الشرعي رمز السيادة التونسية. وأجمعت على المطالبة بإرجاعه إلى عرشه كلّ التيارات السياسية التونسية باستثناء الشيوعيين. وتألفت هيئة وطنية تحمل اسم «لجنة الدفاع عن المنصف باي»، وتضمّ ممثلين عن الحزب الدستوري الجديد والحزب الدستوري القديم والحركة الزيتونية ووزراء المنصف باي وأعضاده، وعددا من أمراء العائلة الحسينية. وأصبح التعلّق بشخص المنصف باي نزعة تعرف باسم «الحركة المنصفية» وازدادت هذه الحركة إشعاعا بعد نقله إلى مدينة «بو» والسماح له باستقبال أفراد عائلته وأصدقائه ووزرائه السابقين وبعض المناضلين الدستوريين.

ولقد أصدر العابد بوحافة سنة 1946 بالاشتراك مع محمد بدرة نشريّة باللغة الفرنسية بعنوان «الكتاب الأبيض» لتسليط الأضواء على الأحداث التي سبقت خلع ملك البلاد الشرعي والمطالبة بإرجاعه إلى عرش آبائه وأجداده.

وأصدر محيي الدين القليبي بالقاهرة، قبيل وفاة المنصف باي كتابا باللغة العربية للغرض نفسه يحمل عنوان «مأساة عرش».

وقد تواصلت هذه الجهود والمساعي التي كادت أن تكلّل بالنجاح، إلى أن توفّي المنصف باي يوم أول سبتمبر 1948. فنقل جثمانه إلى تونس يوم 5 سبتمبر وأعلن الحداد في كامل البلاد، ونظّمت له جنازة وطنية عظيمة، شاركت فيها جموع غفيرة من التونسيين الذين أبوا إلاّ أن يشيّعوه إلى مثواه الأخير بمقبرة الجلاّز، اعترافا له بالجميل ووفاء لروحه الزكيّة.

البحريّة التونسيّة

تمتاز البلاد التونسية بموقع إستراتيجي مهمّ وتمتدّ مياهها الإقليمية على مساحة تقارب 000 120 كم مربع ويبلغ طول سواحلها 1300 كم تقريبا وهو ما يجعل منها حارسا طبيعيا لمراقبة المناشط والتحركات عبر قنال صقليّة الذي هو بمنزلة "مفترق طرق" للاتصالات بين حوضي البحر الأبيض المتوسط شرقيه وغربيه من جهة، ومضيق جبل طارق وقنال السويس من جهة أخرى. وتجدر الإشارة إلى أن تاريخ هذا البحر كان كله مدا وجزرا بين ضفّتيه الشمالية والجنوبيّة اللّتين كانتا تتنازعان السيطرة عليه.

هذه المعطيات جعلت من البلاد التونسية طوال القرون الماضية مسرحا للنزاعات

والحروب، ومطمعا للاغتصاب والاحتلال، فكانت دوما حريصة على اقتناء قوّة بحريّة وأسطول قادر على الدفاع عنها وعلى سلامة سواحلها والسهر على صيانة مصالحها الاقتصاديّة.

الأسطول الإفريقي قبل الفتح الإسلامي

طيلة ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، كانت تتقاسم السيطرة على حوض البحر الأبيض المتوسط ثلاث قوى بحرية، هي مصر الفرعونية وبابل واليونان.

وبداية من الألف سنة الأولى قبل الميلاد، أخذت هذه الإمبراطوريات المذكورة تندثر وتتلاشى تاركة مكانها لقوى فتية ناشئة ببلاد فارس وببعض جزر البحر الأبيض المتوسط.

وفي مطلع القرن التاسع ق.م ظهر البونيون في إفريقية ووطّدوا أقدامهم بتأسيس مصارف ووكالات تجارية على طول السواحل الممتدة من صبراطة بليبيا إلى طنجة قرب "أعمدة هرقل" (جبل طارق)، من أهمها "لبتيس الكبري" (لبدة) وطرابلس وصبراطة و"طاكبيس" و"ثائينة" و"طاماروس" و"لبتيس الصغرى" (لمطة) و"روسبينة" و"هدرومات" و"نيابوليس" و"أوتيكا" وغيرها.

ولدعم إدارة مصالحهم التجاريّة عبر البحر الأبيض المتوسط، بين عاصمتهم "تير" (صور) ومستعمراتهم الإفريقيّة، أسّس الفينيقيون سنة 814 ق.م مدينة " كارت "حدشت" المدينة الجديدة (قرطاج)، في وقت بلغت فيه الملاحة البحرية درجة عالية من الازدهار، وأصبح حوض البحر الأبيض المتوسط ميدانا تعج فيه قوافل السفن التجارية، وممرا بحريا للأساطيل الحربية. وبدأت قرطاج تبحث لنفسها عن مكان في هذا المحيط. ودعما لمناشطها البحرية، اعتنت بإنشاء الموانيء ودور الصناعة مثل أوتيكا وهدرومات وغيرهما.

وبعد سقوط مملكة صور، وضعت قرطاج يدها على كامل الممتلكات البونيّة بإفريقيّة ثم شرعت في التوسع على حساب البلاد المجاورة حتى صارت من أعظم القوى البحريّة والتجاريّة بالبحر الأبيض المتوسط.

لكنّ قرطاج لم تكن وحدها تهتم بالتجارة وتسعى إلى بسط نفوذها على ممرات هذا البحر بل هناك الإمبراطوريّة الإغريقيّة، والإمبراطوريّة الرومانيّة. وهو ما حمل قرطاج على التسلح للمحافظة على مصالحها.

الحروب اليونانية القرطاجية أو "حروب صقلية"

في سنة 604 ق.م احتلّت قرطاج الجزيرة اليابسة "إيبيصا" من جزر الباليار جاعلة منها خطا دفاعيا متقدّما. وفي العام الموالي، اشترك أسطولها في الدفاع عن هذا الخط ضد غارات القراصنة. وفي سنة 600 ق. م حاول الأسطول نفسه منع الإغريق من تأسيس مراكز تجاريّة في مرسيليا. وبدأ التهديد اليوناني القادم من جزيرتي سردينيا وصقلية يشتد ويتفاقم، واتسعت جبهة القتال فجعلت قرطاج من أهدافها الإستراتيجيّة طوال القرنين الخامس والرابع احتلال هاتين الجزيرتين.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع ق.م أسست قرطاج مصارف تجاريّة علي سواحل جزيرة مينوركا وعلى أماكن استراتيجيّة بصقلية منها بلّرمة ومعطية (Motye) وسالنطة (Sélinonte).

وفي سنة 535 ق.م طرد الأسطول القرطاجي بقيادة أمير البحر "ماغون" Magon اليونانيين من جزيرة كرسيكا وأقام فيها حلفاءه الأتروريين(Etrusques) ثم انتصب القرطاجيون بسردينيا وببعض المدن الساحلية الإسبانيّة.

ومن سنة 535ق.م إلى سنة 275ق.م، اندلعت معارك طاحنة دارت رحاها بين الأسطولين القرطاجي واليوناني، كانت الغلبة فيها سجالا بين القوتين وانتهت بمغادرة الملك "بيروس" لجزيرة صقلية وكان قدم إليها من إيطاليا لنجدة

اليونانيين. وبانسحابه انتهى دور اليونان على مسرح الصراع في البحر الأبيض المتوسط.

ويذكر أن "بيروس" (Pyrrhus) قال لقادته وهو يغادر صقلية مشيرا إلي البحر: "ما أروعها من حلبة للحرب نتركها الآن بين روما وقرطاج".

السيادة القرطاجيّة على البحر الأبيض المتوسط

في سنة 509 ق.م وقبل اندلاع الحروب البونية بمدة طويلة، عقدت قرطاج معاهدة مع روما، كان الهدف منها منع الرومان من تأسيس مراكز نفوذ وإقامة مصالح تجارية بإفريقية وسردينيا وبالمناطق القرطاجية في جزيرة صقلية، ومن فصولها:

"اتفق الرومانيون وحلفاؤهم من جهة، والقرطاجيون وحلفاؤهم من جهة أخرى على الشروط التالية: يحجر على السفن الرومانية وسفن حلفائهم اجتياز الرأس الجميل (سيدي علي المكي قرب مدينة غار الملح) إلا عند الضرورة ولأسباب قاهرة، كالوقاية من الزوابع والفرار من القراصنة، كما يمنع عليهم تعاطي البيع والشراء مع الأهالي باستثناء عمليات إصلاح السفن المعطبة وترميمها وجلفطتها، وإقامة الشعائر الدينيّة، وأن لا تتجاوز مدة إقامتهم بها أكثر من خمسة أيام، مهما كانت الظروف..."

وفي السنة نفسها عقدت بين البلدين معاهدة ثانية تحدد المياه الإقليمية القرطاجية.

وفي سنة 279ق.م، إثر هجوم الملك "بيروس" على إيطاليا، لجأت روما إلى قرطاج وأمضت معها معاهدة أخرى تعترف فيها ضمنيا بتفوق الأسطول القرطاجي جاء فيها "مهما كان الطرف المطالب بالنجدة، تلتزم السفن القرطاجية بنقل الجنود والمعدات الحربيّة".

لكنّ مرحلة التقارب هذه لم تعمر طويلا لأن الرومان ساءهم البقاء تحت الحماية القرطاجية. وهو ما أدى إلى اندلاع الحروب البونية بين القوتين.

الحرب البونية الأولى (من 264 إلى 241 ق.م)

في سنة 266ق.م بينما كانت الحماية القرطاجية تحرس قلاع مدينة مسّينا الإستراتيجيّة وتراقب مسالك الملاحة البحرية بين إيطاليا وبلدان البحر الأبيض المتوسط، أغارت عليها جماعة من المارتيين "أبناء مارس" بإيعاز من مجلس شيوخ روما قصد الاستيلاء على المدينة. وفي سنة 264 وفي غفلة من الأسطول القرطاجي الرابض عند المدخل الجنوبي للمضيق هاجمت جيوش رومانية مدينة مسينا واحتلتها، مقيمة بصقلية، حسب التعبير العسكري الحديث، "رأس جسر" ثم سيرت أسطولا لإغلاق الممر أمام الملاحة القرطاجية فكان هذا الحادث بمنزلة الفتيل الذي أضرم نار الحرب بين قرطاج وروما وتوالت الأحداث فكانت:

- معركة ملّيس البحرية (Myles) (260 ق.م)

وهي التي دارت رحاها عند خط الدفاع الثاني عن مضيق مسّينا، قرب مدينة "مليس" في اشتباك عنيف استعمل فيه قائد الأسطول الروماني القنصل ديليوس (Dilius) جسوره المتحركة (corbeaux) واجتاح السفن القرطاجية بموجات من قوات المشاة، تحولت فيه حروب الأسطول لأوّل مرّة في تاريخ القتال البحري إلى نوع من الصّدام البري، انتهى بانهزام أمير البحر حنبعل الذي لم يقدّر قوّة خصمه ودقّة إستراتيجيته التي استطاع بها إستدراجه إلى الحرب على جبهة لم يكن مستعدا لخوضها.

- واقعة أقنوما (Ecnome) البحرية (256 ق.م)

وفي صيف 256 ق.م وعلى بعد 60 كيلومترا، غرب مدينة أقنوما، فشل الأسطول القرطاجي بقيادة أمير البحر حنبعل في التصدي للأسطول الروماني بقيادة القنصل ماركوس أتيليوس رغولوس (Marcus Atilius Regulus) والقنصل لوقيوس مانتيوس فولفو (Lucius Mantius Vulvo) ومنعه من إنزال قواته على السواحل الإفريقية.

- واقعة ليلبي وطرابنيا (250 ق.م)

في سنة 250 ق.م أراد القنصل بوليوس كلوديوس بولشر مداهمة مدينة ليلبي القاعدة القرطاجية، فهيأ أسطولا عظيما لتدميرها، فتصدى له اللواء هيملكون قائد الحامية من الداخل.

أما بحرا فقد قسمت القيادة القرطاجية قواتها إلى مجموعتين، الأولى بقيادة حنبعل هاجم بها ميناء ليلبي، مخترقا صفوف وحدات الأسطول الروماني، وأنزل جنوده بالمدينة لنجدة الحامية المحاصرة بحرا. أما المجموعة الثانية التي كانت بقيادة أمير البحر ادربعل (Adherbal) فقد أرست أمام بناء طرابانيا لتعزيز الحامية القرطاجية المقيمة بها.

وفي صائفة سنة 249 ق.م أبحر الأسطول الروماني بقيادة القنصل بوليوس كلوديوس بولشر من ميناء ليلبي تحت جناح الليل متجها نحو طرابانيا حيث وجد الأميرال القرطاجي ادربعل في انتظاره. وفي معركة بحرية ضارية، استطاع أميرا البحر ادربعل وقرثلون (Carthalon) تدمير الأسطول الروماني بقيادة القنصل يونيوس بولوس (Junius Pollus) والقنصل بوليوس بولشر. واسترجعت قرطاج بعد هذه الواقعة سيطرتها على البحر الأبيض المتوسط، وهيبتها باعتبارها قوة بحرية.

- معركة جزر أغاثي (Iles Aegats) (242 ق.م)

في سنة 241 ق.م وبعد خمس سنوات من حرب الاستنزاف، اضطرّ عبد ملقرت بركا قائد الجيوش القرطاجية بصقلية إلى عقد الصلح مع روما لإنهاء حالة الحرب. وبموجب صلح آخر تخلت قرطاج عن جزيرتي سردينيا وكرسيكا وكانت بذلك نهاية الحرب البونية الأولى و"خروج قرطاج من ميدان الصراع بجزر البحر الأبيض المتوسط".

وبعد أن قضى على الثورة اللّوبيّة النوميديّة، قاد حملة بحرية استولى بها على جنوب البلاد الإسبانيّة حيث أقام سنة 237 ق.م قاعدته بمدينة قادس.

الحرب البونية الثانية (201 - 218)

كان من نتائج الحرب البونية الأولى وثورة اللوبيين اندلاع الحرب البونية الثانية التي دامت ثماني عشرة سنة (من 201 - 218 ق.م)

الأسطول البحري القرطاجي وهزيمة حنبعل بإيطاليا

قد نتساءل عن أسباب غياب الأسطول القرطاجي "صاحب السيادة بالبحر الأبيض المتوسط" عن ميدان المعركة في هذه الحرب. فمن المؤسف أن حنبعل لم يترك مذكرات كان بوسعها الإجابة عن هذا السؤال. ولم يتوقّف المؤرخون من ناحيتهم عند الأسباب الحقيقية والمنطقية التي حملت حنبعل على المجازفة بقواته عبر جبال الآلب للهجوم على إيطاليا، وترك الطريق البحرية وهي أقصر مسافة وأكثر أمنا. هل يكمن السبب في ضعف قواته البحرية الرّاسية في السواحل الإسبانيّة وقلة عددها وعدم كفايتها للتصدى لوحدات الأسطول الروماني؟

القوات الحربيّة المتقابلة قبل اندلاع الحرب

في بداية سنة 218 ق.م كانت القوات البحرية البونية المتمركزة في موانئ إسبانيّة تعد خمسين من نوع الخماسيات ورباعيتين وخمس ثلاثيات منها 32 خماسية و5 ثلاثيات صالحة للاستعمال والبقية معطبة. وفي المقابل كان باستطاعة القائد كرنليوس سقيبيون (Cornelius Scipion) الاعتماد على ستين سفينة من الخماسيات العاملة على السواحل الإسبانيّة وعلى مائة وعشرين من النوع نفسه كانت راسية في القواعد الصقلية بقيادة سنبرونيوس لنغوس. وقد يكون هذا الخلل في توازن القوى البحرية بين الطرفين المتقابلين من العوامل التي جعلت حنبعل يتخلى عن الطريق البحرية في هجومه على إيطاليا بجيوش محمولة.

كان لقرطاج في بداية الحرب ثلاث قواعد لمؤازرة جيوش حنبعل، وهي مدينة قرطاج وإمبراطوريّة مقدونيا حليفتها وإسبانيا، ولا يمكن أن يتحقّق الاتصال بين ميدان المعارك بإيطاليا والقاعدتين الأولى والثانية إلا عن طريق البحر. أما مع إسبانيا، فقد كانت لها طريقان، الأولى مباشرة عن طريق البحر، والأخرى عبر بلاد الغال وجبال الآلب، وكانت الطريق البحرية مراقبة من طرف الأسطول الروماني. ولما قضت روما على النفوذ القرطاجي بإسبانيا يئس حنبعل من وصول الإمدادات الضرورية لمواصلة الحرب بعيدا عن وطنه الذي يفصله عنه بحر تعج مياهه بسفن العدو وكانت الغلبة في آخر الأمر لمن حافظ على طرق مواصلاته وأمن سيادته على البحر.

نشاط الأسطول القرطاجي في أواخر الحرب البونيّة الثانية

ورغم سيطرة روما على المسالك البحرية، قام الأسطول القرطاجي ببعض العمليات كمجازفة الأميرال بوملقرت في السنة الرابعة من اندلاع هذه الحرب وبعد واقعة كانا، حين أنزل (4.000) مقاتل وعددا من الفيلة على الساحل الجنوبي بإيطاليا قرب (Bruttium). وفي السنة السابعة لتلك الحرب، تمكن هذا القائد من الإفلات من مراقبة الأسطول الرومانيّ الرابض أمام سيرقوسا والوصول إلى مدينة طارنتا عندما حل بها حنبعل قادما من كابو ونقل حنبعل سالما مع ما تبقى من رجاله، من إيطاليا إلى ميناء لمطة.

الحرب البونيّة الثالثة (149 ـ 146 ق.م)

بعد سنوات من التَّعْبئة حاولت قرطاج نفض غبار الهزيمة فعرضت علَى روما دفع الغرامة التي فرضتها عليها والمبرمج تسديدها على أربعين سنة دفعة واحدة والسماح لها بأن تهديها أسطولا بحريا من دار صناعتها. فقبضت روما الغرامة ورفضت الأسطول حتى لا تعود قرطاج إلى بناء السفن ويصعب عليها مراقبتها. وفي سنة 149 ق.م أجبر القنصل سقيبيون الأصغر قرطاج على إبرام معاهدة جردتها بمقتضاها من أسطولها البحري ومعداتها الحربيّة ومن رمز عزتها.

وفي سنة 146 انتهت هذه الحرب بحرق قرطاج وتدميرها وانقراض الأسطول الذي غاب عن الوجود إلى أمد بعيد.

الأسطول الافريقي في عهد الولاة العرب

في أوائل الفتح الإسلامي، كانت نظرة العرب إلى البحر حذرة، يخافون من أمواجه وعواصفه، ويهابون أساطيل الغزاة البيزنطيين، ويفضّلون الأماكن البعيدة عن الشواطئ لإقامة مدنهم في البلاد التي يفتحونها.

فهذه القيروان مثلا، يخطها عقبة بن نافع في وسط بلاد إفريقية، بعيدة عن سواحل البحر التي كانت تنبض بالحيوية والنشاط والازدهار الاقتصادي. فقد روى المالكي في كتابه "رياض النفوس" أن بعض أصحاب عقبة عرضوا عليه حينما اختار موقع مدينة القيروان، أن يقربها من البحر، حتى يكون أهلها مرابطين، فأجابهم "إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيمتلكها، ولكن بينها وبين البحر ما لا يدركه غزاة البحر".

وكذلك كانت مدينة الفسطاط التي شيدها عمرو بن العاص في قلب البلاد المصرية، بعيدة عن البحر، في حين ظل اليونان والرومان يحكمون مصر، نحو عشرة قرون، من الإسكندرية، ودمشق بسوريا التي كان يحكمها البيزنطيون من أنطاكية.

وسرعان ما أخذت هذه العقلية تتغيّر شيئا فشيئا، لما شعر العرب بالخطر يداهم سواحلهم بالغارات التي تشنها عليهم الأساطيل القادمة من الجزر المتاخمة. وهو ما اضطرّهم إلى التفكير في إنشاء قوة بحرية لمواجهة هذا العدو بسلاحه وفوق ميدانه.

فظهرت تحرّكات بحرية محتشمة، صادرة في أغلب الأحيان عن تصرّفات شخصيّة، يقوم بها

بعض الولاة من تلقاء أنفسهم، وذلك لأن السلطة المركزيّة ممثّلة في الخليفة عمر بن الخطاب، كانت لا تزال ترفضه إطلاقا.

من ذلك مثلا، ما قام به العلاء بن الحضرمي، والي عمر على البحرين، حين ركب البحر غازيا سنة 17هـ السواحل الإيرانيّة، وانتهت الغزوة بتحطيم سفنه فعاقبه عمر بنقله من البحرين.

لهذا مرت ولاية عقبة بن نافع في بلاد إفريقية دون أن تخامر صاحبها فكرة بناء أسطول بحري لرد غارات الروم، حتى تخلص الخليفة عبد الملك بن مروان من منافسه عبد الله بن الزبير سنة 73هـ/691م، فوجه تفكيره نحو بلاد المغرب، وجهز جيشا عهد بقيادته إلى أحد قادة الشام، حسان بن النعمان الغساني وولاه على إفريقية. وتجدر الإشارة إلى أن فتح بلاد إفريقيّة كان من أصعب الفتوحات الإسلاميّة وأطولها أمدا، امتد قرابة نصف قرن في حين لم يدم فتح مصر أكثر من سنتين وفتح الشام نحو سبع سنوات، ولا شك في أن قرب شواطئ هذه البلاد من السواحل البيزنطيّة كان من الأسباب في تأخير فتحها.

مدينة تونس ودار صناعتها

وما إن تخلص حسان من خطر الكاهنة، حتى بدأت تخامره فكرة بناء "مدينة تكون نافذة تطل منها إفريقيّة على العالم الخارجي وتحل محل مدينة قرطاج" التي كانت بحكم موقعها الجغرافي، وبعدها عن مركز الإمارة بالقيروان، وكرا من أوكار الأسطول البيزنطي على ضفتي البحر الأبيض المتوسط. فكاتب الخليفة عبد الملك بن مروان يستشيره في الأمر، فاستجاب لطلبه وأذن له بإقامة دار صناعة (قاعدة بحرية). فبدأ يبحث عن المكان المناسب لإيوائها، إذ كان يريد أن تكون له قاعدة بعيدة عن البحر، تخفيها مضايق محروسة شبيهة " بدار صناعة الجزيرة" بالفسطاط.

وقد تحدّث الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في كتابه "تاريخ المغرب العربي" عن مكان دار الصناعة الذي اختاره حسان قائلا : "خرج حسان من القيروان سنة 84هـ/703م لإيجاد موضع غير بعيد من ضرائب قرطاج... حتى وصل إلى المحمدية (طنبذة) ومنها تقدم إلى قرية عرفت باسم "ترشيش"، فأقام بها مدينته الجديدة "تونس" القريبة من المرسى الذي كان يسمى في ذلك الوقت رادس. ويروي البكري أن عبد الملك بن مروان كتب إلى حسان بن النّعمان يأمره ببناء دار صناعة تكون قوّة وعدّة للمسلمين إلى آخر الدّهر، وأن يجعل على البربر جرّ الخشب لإنشاء المراكب ومجاهدة الروم في البرّ والبحر. ويشير البكري إلى موقع دار الصناعة فيقول: "فصارت له دار صناعة بتونس متّصلة بالميناء، والميناء متّصل بالبحيرة، والبحيرة متّصلة بالبحر". ويضيف قائلا: "وبقبليّ الميناء قصر مبنيّ بالحجارة، متقن البناء، وفي الجوف منه حائط صخر كالسور، فصار المدخل للسفن في هذا الميناء بين حائط القصر وهذا السور، وتعرض بينهما سلسلة من حديد تمنع المراكب من الدخول والخروج مادامت متعرّضة، وهذا القصر يعرف بقصر السلسلة".

وهكذا يكون حسان بن النعمان قد أنشأ في مدينة تونس القاعدة البحرية الأولى في إفريقيّة وجعل منها عاملا رئيسا من عوامل السيادة، فهي بحكم موقعها البعيد عن البحر وعن الغارات البحرية، سرعان ما أعطت نتائجها المهمّة في الدفاع عن البلاد، وكذلك في الهجوم على جزر الروم وعلى سواحلهم، فقد كانت نقطة تحول بالنسبة إلى الإستراتيجيّة الحربية الإسلامية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط. وبعد أن كانت مبنية كليا على العمليات البرية، أصبحت تعتمد أيضا على البحر وعلى المعدات البحرية. وجعل من هذه القاعدة عاملا رئيسا من عوامل السيادة الإسلاميّة بإفريقية.

ولاية موسى بن نصير

في أوائل 86هـ/705م، عين عبد العزيز بن مروان، موسى بن نصير واليا على إفريقيّة،

فاستأنف النشاط العسكري، ووجه اهتمامه إلى الأسطول قصد السيطرة على جزر البحر الأبيض المتوسط ومن أهمها صقلية، لاتخاذها قواعد بحريّة أمامية تحمي سواحل إفريقيّة وتنطلق منها الغزوات على السواحل الأوروبية والأندلسية، ولبلوغ غايته وسّع دار الصناعة بتونس، وبادر بإنشاء مئات السفن الحربية وسيرها إلى تلك الجزر لفتحها مبتدئا "بغزوة الأشراف" بقيادة ابنه عبد الله لفتح صقلية، فأغار على سواحلها وعاد بالغنائم والسبايا.

فتح الأندلس

كثرت الروايات حول هذه الغزوة التي قادها طارق بن زياد وعن الوسائل البحريّة التي استعملها، فمن المؤرخين مثل المقري من يرشح استعمال طارق لأربع سفن استعارها من حليفه يليان حاكم مدينة سبتة. ومنهم من يرى أنها سفن تجارية تستعمل عادة لنقل المسافرين والبضائع بين ضفتي المضيق، حتى لا يتفطن الناس إلى عملية الإنزال، إلا أن جيوش طارق كانت تستوجب عدّة مراكب لنقلها حتى سواحل الأندلس، وقد كانت دار صناعة تونس تعدّ السفن التي تشارك في الكثير من الفتوحات والغزوات. فمن البديهي أن لا يغامر موسى بن نصير بجيوشه دون أن يهيّئ لها ما يلزمها من السفن والمعدات لنقلها إلى الأندلس.

ولاية عبيد اللّه بن الحبحاب

وفي ربيع الأول من سنة 116هـ/(أفريل 734م)، عهد الخليفة هشام بن عبد الملك بولاية إفريقيّة إلى عبيد الله ابن الحبحاب، فوجه عنايته إلى الأسطول الذي أصبح قوة هجومية، يمتد نشاطها إلى ما وراء البحار، وجدد دار الصناعة بتونس ووسعها وأضاف إليها أقساما. ويقول البكري في هذا الموضوع: "وقد تقدم أن عبيد الله بن الحبحاب، بنى دار الصناعة، فلعل من روى ذلك يريد أن عبيد الله جددها وزادها تحصينا".

نشاط الأسطول

في سنة 116هـ/734م سيّر عبيد الله بن الحبحاب أسطولا بقيادة حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع، غزا به جزيرة صقلية، واشتبكت سفنه مع سفن الروم في قتال عنيف انتهى بانتصار المسلمين ثم سير سنة 117هـ/735م القائد نفسه إلى جزيرة سردينيا، وفي سنة 118هـ/736م أغزاه جزيرة قوصرة كما أمره بالتوجه للمرة الثانية إلى صقلية سنة 122هـ/740م. وعن هذه الواقعة، يقول ابن الشباط "إن ابن الحبحاب، سيّر حبيب بن أبي عبيدة على رأس أسطول غزا به صقلية سنة 122هـ/740م، فظفر بالكثير، وحل أمام سيرقوسة، فقاتل أهلها، وقاتلوه حتى ضرب بابها فصالحوه على الجزية".

وفي سنة 130هـ/744م سيّر حملة بحرية بقيادة عبد الرحمان ابن حبيب الفهري أتمّت فتح جزيرة قوصرة. وفي سنة 135هـ غزا عبد الرّحمان صقلية وسردينيا وسبى منها وغنم وصالح أهلها على دفع الجزية.

وبذلك مهدت البحرية التونسيّة للفتوحات الإسلاميّة التي قام بها الأغالبة ثم الفاطميون من بعدهم حتى أصبح البحر الأبيض المتوسط كما وصفه المؤرخ ابن خلدون: "بحيرة إسلاميّة لا يمكن للنصارى إبحار خشبة عليه".



محمّد بدرة

[1900–1973م]

محمّد بن عبد اللّه بدرة سياسي ورجل أعمال ولد بتونس العاصمة في 26 أوت 1900، وهو

ينحدر من عائلة أصيلة جزيرة جربة، من قرية المحبوبين بمعتمديّة ميدون. زاول دراسته الابتدائيّة بمدرسة السّلام القرآنيّة التي تقع في دار بالزّيّ بنهج المستيري، ومؤسّسها ومديرها هو محمّد الشّاذلي المورالي. أمّا تعلّمه الثّانوي، فقد كان بالمدرسة الصّادقيّة، وذلك من أكتوبر 1919 إلى جوان 1919. وكان بين زملائه في الدّراسة: الحبيب بورقيبة، ومحمد عطيّة، وعبد العزيز العروي، والبشير المتهنّي.

والتحق في أكتوبر 1919 بمعهد كارنو لإتمام دراسته الثّانويّة، لأنّ المدرسة الصّادقيّة لم تكن تهيّئ تلامذتها آنذاك لشهادة الباكالوريا. وقد أحرز محمّد بدرة هذه الشّهادة في سنة 1921. ثم سافر إلى فرنسا في جولة خاصّة، تعرّف فيها إلى عدّة شخصيّات أدبيّة وفنّية، ثم رجع إلى تونس، وشغل وظيفة مترجم ومنشئ بالوزارة الكبرى، ثم انتقل إلى وزارة العدل، وذلك من سنة 1921 إلى سنة 1926

وفي سنة 1927 ترك الوظيفة، والتحق بحجرتي التّجارة والفلاحة اللتين كانتا في محلّ واحد، نظرا إلى ضعف ميزانيتيهما، وكانتا تخضعان لسلطة كاتب وأمين مال فرنسيّين، تعيّنهما إدارة الاستعمار والفلاحة. وبفضل المجهودات النّاجحة التي بذلها محمّد بدرة، حرّرت الحجرتان من هذا القيد، وذلك بانتخاب كاتب وأمين مال من التونسيّين، مع إسناد خطّة مدير مصالح في الحجرتين إلى تونسي.

وفي سنة 1932، سافر محمّد بدرة من جديد إلى فرنسا صحبة محمّد شنيق الذي كان رئيسا للحجرة التّجارية التّونسيّة آنذاك، للتّفاوض مع أرباب صناعة الحرير في عدم صنع المنسوجات الحريريّة التي تزاحم صناعة الحرير التّقليديّة التّونسيّة وتقضي عليها. والملاحظ أنّه كان وقتئذ من مؤسّسي معمل النّسيج الكبير المعروف باسم «الشركة التونسية للغزل والنسيج – ستوفيت »، بمشاركة محمّد شنيق، ومحمد العزيز الجلولي. كما أنّه من مؤسّسي معمل الحرير الذي كان يديره حمودة الإسكندراني.

وكان بالإضافة إلى هذا يحرّر المقالات الصّحفية في مختلف المجلاّت الأدبيّة والثّقافيّة والاجتماعيّة، بأسلوب بديع، ومقدرة فائقة على التبليغ، وخاصّة بجريدتي "الزّهرة" و"الزّمان". وفي السنة نفسها، كان من مؤسّسي جمعيّة المؤلفين التّونسيين، وتقلّد رئاستها. وفي هذه السّنة أيضا، قام محمّد بدرة بدور بارز في إقناع محمود بيرم التّونسي الذي نفي من مصر إلى فرنسا، بالسّفر إلى تونس، والاستقرار بها، بعد اتّصال جرى بينهما في باريس. وقد أسندت إلى محمود بيرم مهمّة رئاسة التحرير بجريدة "الزّمان" باقتراح من محمّد بدرة، وذلك لمناصرة جماعة محمد شنيق، ولمقاومة مناوئيهم الذين كانوا ينتقدونهم خاصّة على صفحات جريدة "النّديم" لصاحبها حسين الجزيري.

وفي شهر أوت 1930، أسهم محمّد بدرة مع عبد العزيز العروي في تأسيس جريدة باللغة الفرنسيّة بعنوان Le Croissant (الهلال)، وهي جريدة وطنيّة كانا يحرّرانها بمفردهما. وفي سنة 1935، شارك في المؤتمر الاقتصادي الذي التأم بباريس، وتولّى الدّفاع عن الاقتصاد التّونسي المهضوم الجانب آنذاك.

وفي السّنة نفسها، قام برحلة إلى الأقطار العربيّة صحبة محمّد شنيق، لتمتين العلاقات الاقتصاديّة بينها وبين تونس. وقد قاوم المنافسة غير الشريفة التي كانت تضايق الصّادرات التونسيّة إلى مصر، وخاصّة صناعة الشّاشيّة والمنتجات الصّوفيّة. وفعلا، صادق البرلمان المصري وقتئذ، على قانون صارم لقمع الغشّ والتّدليس في البلاد المصريّة. وهو ما مكّن بعض المصدّرين التّونسيّين من استئناف علاقاتهم التّجاريّة بمصر من جديد.

ولم يقتصر محمّد بدرة في نشاطه على

الشّؤون الاقتصاديّة والتّجاريّة والثّقافيّة فحسب، بل تجاوزها إلى مسائل حيويّة أخرى تهمّ الشّعب التونسي، منها قضيّة التّعليم الثّانوي والعالي التي اهتمّ بها اهتماما خاصّا، وقدّم في شأنها التّقارير الضّافية، حتّى حصل على منح وإعانات للطّلبة من الحجرة التّجاريّة التّونسيّة، مكّنت العديد من الشّبان التّونسيين من مواصلة دراستهم سواء بتونس أو بالخارج.

وما إن اعتلى محمّد المنصف باي العرش في 19 جوان 1942، حتّى كوّن مجلسا خاصّا برئاسة شقيقه حسين باي لمساعدته على تدبير شؤون البلاد، لعدم ثقته في الوزراء الذين تركهم سلفه أحمد باي. وقد عيّن محمّد المنصف باي محمّد بدرة عضوا في هذا المجلس الذي كان يضمّ نخبة من الوطنيين، أمثال: محمد شنيق، والدكتور محمود الماطري، ومحمد العزيز الجلولي، وصالح فرحات، والصّادق الزّمرلي، ومحمد علي العنابي.

وإثر احتلال تونس من قبل قوّات المحور في نوفمر 1942 قرّر محمد المنصف باي أن يمسك بنفسه بزمام الأمور، بالتّعاون مع مستشاريه، لمواجهة الظّروف الحرجة التي كانت تجتازها البلاد في تلك الفترة الحاسمة من تاريخها، فأمر الوزراء المباشرين لمهامّهم منذ عهد أحمد باي بالاستقالة من مناصبهم، من أجل المصلحة العامّة، وعوّضهم يوم 31 ديسمبر 1942 بوزارة جديدة دون الحصول على موافقة المقيم العام حسبما يقتضيه نظام الحماية، وكان الوزير الأكبر هو محمّد شنيق الذي عهد بإدارة ديوانه إلى محمّد بدرة، نظرا إ لى الرّوابط الوثيقة التي كانت بينهما، وقد قام بالمهمّة الملقاة على عاتقه على أحسن وجه.

وقد تأثّر محمد بدرة لإقدام السّلط العسكريّة الفرنسيّة في 14 ماي 1943 على خلع الملك الشّرعي ورمز السّيادة التّونسيّة، وكان من أبرز مؤسّسي الحركة المنصفيّة التي كانت تتألّف من أتباع جميع المنظّمات الوطنيّة، والأحزاب السّياسيّة التّونسيّة، ما عدا الحزب الشّيوعي.

وقد أمدّ محمّد بدرة الجنرال الصّادق الزّمرلي، مدير تشريفات المنصف باي الأسبق، بكثير من الوثائق والمعلومات لتمكينه من تحرير التّقرير الذي قدّمه إلى السّلط الفرنسيّة بالجزائر للدّفاع عن الملك المخلوع، وتوضيح مواقفه الحقيقيّة تجاه المحور.

ولمّا لاحظ إصرار الحكومة الفرنسيّة على عدم رفع هذه المظلمة الصّارخة، نظّم حملة شعبية واسعة النّطاق في جميع أنحاء البلاد، ولا سيّما في العاصمة، فأبعدته سلطة الحماية إلى توزر في 21 مارس 1944، وأفرجت عنه في 28 أفريل من تلك السّنة.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، ونقل المنصف باي من الجزائر إلى مدينة "بو" Pau في جنوب فرنسا سنة 1945، انضمّ محمد بدرة إلى الهيئة الوطنيّة التي تحمل اسم لجنة الدّفاع عن المنصف باي، وهي تضمّ بعض أفراد العائلة الحسينية، ووزراء المنصف باي، ورجال الحركة الوطنيّة، وفي مقدّمتهم: الحبيب بورقيبة، ومحمود الماطري، وصالح فرحات، ومحمد الفاضل ابن عاشور.

وقد أصدر محمّد بدرة باسم هذه اللجنة، وبالاشتراك مع العابد بوحافة نشرة باللغة الفرنسيّة بعنوان "الكتاب الأبيض"، لتسليط الأضواء على الأحداث التي سبقت خلع المنصف باي، وتوضيح مواقفه تجاه المحور، والمطالبة بإرجاعه إلى عرشه، وقد وزّع الكتاب الأبيض على المحافل الدّوليّة في أوروبا والولايات المتّحدة، وأحرز نجاحا باهرا...

وفي سنة 1948، انتخب محمّد بدرة رئيسا للحجرة التّجاريّة التونسيّة، وتجدّد انتخابه لثلاث دورات متتالية. وفي سنة 1950، عيّن وزيرا

للشّؤون الاجتماعيّة في حكومة التّفاوض الأولى برئاسة صديقه محمد شنيق، وفي 14 جانفي 1952، قدّم الوفد الوزاري التّونسي المؤلّف من صالح بن يوسف وزير العدل، ومحمّد بدرة وزير الشؤون الاجتماعيّة، الشّكوى التّونسيّة في شأن الخلاف الحاصل بين تونس وفرنسا إلى الأمانة العامّة للأمم المتّحدة، إثر فشل المفاوضات التونسيّة الفرنسيّة.

وفي يوم الاربعاء 26 مارس 1952، ألقي القبض على أعضاء الحكومة التّونسيّة وعلى رأسهم الوزير الأكبر محمد شنيق وأبعدوا إلى قبلّي بالجنوب التّونسي، كما نقل الزّعماء: الحبيب بورقيبة، والمنجي سليم، والهادي شاكر ومن معهم من معتقل طبرقة إلى رمادة في أقصى الجنوب التونسي. وما إن بلغ إلى علم الوفد التونسي بباريس خبر هذه التّدابير التي اتّخذت بالبلاد التّونسيّة ضدّ أعضاء الحكومة التّونسيّة حتّى اختفى صالح بن يوسف ومحمّد بدرة من باريس، والتحقا بالقاهرة.

وإثر دخول اتّفاقيات الحكم الذّاتي حيّز التّطبيق، عيّن محمّد بدرة في سبتمبر 1955 وزيرا للفلاحة في حكومة الطّاهر بن عمّار الثّانية. وفي 25 مارس 1956، انتخب عضوا في المجلس القومي التّأسيسي ضمن الجبهة الوطنيّة. وفي 3 فيفري 1959، التحق بالسّلك الدبلوماسي، وعيّن سفيرا في كلّ من ليبيا وسوريا والكويت ومصر وإيطاليا واليونان.

وبعد رجوعه إلى تونس، انتخب رئيسا للمجلس الاقتصادي والاجتماعي من سنة 1970 إلى سنة 1973، ثم عيّن رئيسا لمجلس إدارة الاتّحاد البنكي للتّجارة والصّناعة.

وفي يوم السّبت 11 أوت 1973، توفّي محمّد بدرة عن سنّ تناهز 73 عاما.



علي البرّاق
[1899 – 1981م]

من أكبر شيوخ الإنشاد الصوفيّ ومن أبرز المُقْرئين في تونس القرن العشرين. شهد له أهل الثّقافةَ والفنّ بعذوبة صوته وعمق قدرته على إتقان فنون الاداء والترتيل والتجويد، وهو الذي قال فيه عميد الأدب العربي طه حسين عندما سئل عمن يطيب له سماعه: «الشيخ علي البرّاق لأن ذلك هو الترتيل الأقرب إلى الأصول التي كان يرتل بها زمن الرسول».

ولد علي بن أحمد بن حسين البرّاق بالقيروان بحي الجامع الكبير في العاشر من ماي 1899، وفقد بصره وهو لم يتجاوز بعد الثانية عشرة، وأتم حفظ القرآن عندما بلغ من العمر 15 سنة.

استمع في حداثة سنه إلى شيوخ الإنشاد وقرّاء القرآن من أهل القيروان. وساعدته ملكته الفطرية على توسيع دائرة محفوظاته من القصائد والابتهالات والموشّحات الدينيّة والصوفيّة وقد تعلم القرآن من الشيخ محمد خليف بمسجد سيدي سهلول بالقيروان.

أدّى فريضة الحج سنة 1950 وفي طريق العودة كان يسرد على متن الباخرة السيرة المولدية.

صار من أئمة جامع صاحب الطابع بالحلفاوين وصلّى التراويح بأهله.

وكان الشيخ علي البرّاق من أبرز منشدي مؤسسة الإذاعة الوطنية ومقرئيها منذ إنشائها في 1938، وفي الستينات رتّل جميع سور القرآن بصوته وسجّلها للإذاعة.

وكوّن فرقة للمدائح والأذكار سميت فرقة المشايخ الثلاثة علي البرّاق ومحمد سريح

وحميدة عجاج وقد تركت رصيدا هائلا لفائدة خزينة الإذاعة الوطنية التونسية.

ومن أبرز تلامذته الشيخ عبد المجيد بن سعد الذي واصل طريقة أستاذه في الإنشاد وكذلك ابنه الشيخ محمد البرّاق.

وكانت وفاة الشيخ علي البرّاق في 4 ديسمبر 1981.

أبو القاسم البرزلي

[738 ـ 841هـ/1337 ـ 1438م]

الفقيه الموسوعي، تلميذ الإمام ابن عرفة (تـ 803هـ/1401م) صاحب المؤلفات الكثيرة وأشهرها كتابه المعروف بـ: "فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام" في سبعة أجزاء.

أثبتت المصادر أنّ الامام البرزلي قيروانيّ النشأة والأصل، إلاّ أنّ هذا اللّقب "البرزلي" نادر الورود في المصادر والوثائق التاريخية للقيروان، وقد سكتت المصادر عن توضيح نسبة البرزلي ولم نجد من ذكرها غير صاحب كتاب "الضوء اللاّمع" إذ يفيد بأنّها نسبة إلى "برزلة" دون أو يوضّح معناها.

ولئن ذكرت المصادر أنّ الإمام أبا القاسم البلوي البرزلي ولد بالقيروان فإنّها لم تحدد تاريخ تلك الولادة، لكنّ الرّاجح عند البحث والمقارنة أنّه ولد سنة 738هـ/1337م تقريبا. فقد ذكرت بعض المصادر أنه مات عن مائة وثلاث سنين، سنة 841هـ/1437 ـ 1438م وهو ما أثبته الزركشي في "تاريخ الدولتين" على عكس بقية المؤرّخين ومنهم السّخاوي الذي أرّخ وفاة البرزلي بسنة 844هـ/1440م.

ويرجّح تاريخ انتقاله إلى العاصمة في ما بين سنتي 770/776هـ/1369 ـ 1375م.

ويبدو أنّه في أول انتقاله إلى تونس تولّى خطبة جامع أريانة حسب ما ذكره ابن سلامة في تاريخه، وتولّى بعد ذلك مشيخة المدرسة الشّماعية واستمرّ فيها إلى وفاة الشّيخ الغبريني في 27 ربيع الأول سنة 813/جانفي 1411م فعيّن إماما وخطيبا.

ورحل البرزلي إلى المشرق للحجّ سنة 799هـ/1397م وامتدّت رحلته إلى سنة 800هـ/1398م، فزار الإسكندرية واتّصل بشيوخها، وعلى الأخصّ الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد الدّكالي، وبحث معه قضيّة خلافه مع ابن عرفة بتونس التي كانت سببا في خروجه منها وانتقاله إلى مصر، كما قصد فلسطين وزار القدس وتنقّل بين قرى الشام، ويبدو أنه حلّ بدمشق حيث أخذ عن أبي العبّاس بن الحاج الإشبيلي إمام محراب المالكية، كما لقي بمصر برهان الدين الشافعي وأخذ عنه وطلب منه الإجازة فأجازه، وهو الذي وصفه البرزلي في إجازته لابن مرزوق الحفيد براوية الدّيار المصريّة، غير أنّ الأثر الأكبر في شخصية البرزلي العلمية كان لأستاذه ابن عرفة إذ كان كثير الاعتماد على أقواله في فتاواه ودروسه يذكرها محتجا بها ومستدلاً، ولم يقف تأثر البرزلي بابن عرفة عند هذا الحد بل بلغ درجة الانتصار لمواقفه.

من مؤلّفاته

يعدّ كتاب "الفتاوى" أكبر تآليفه ويعرف بالنوازل أو "ديوان البرزلي" ويقول عنه: "هذا كتاب قصدت فيه إلى جمع أسئلة اختصرتها من نوازل ابن رشد وابن الحاج والحاوي لابن عبد النور، وأسئلة عز الدين وغيرهم من فتاوى المتأخرين من أيمة المالكيّين، من المغاربة والإفريقيين، ممن أدركناه وأخذنا عنه أو غيرهم ممن نقلوا عنهم، وغير ذلك مما اخترناه ووقعت به فتوانا أو اختاره بعض مشائخنا".

وأضاف محقق هذا الكتاب الأستاذ الحبيب الهيلة موضّحا: والمطالع للكتاب يلاحظ أن مصادر البرزلي في فتاويه كثيرة جدا لم يذكر منها إلاّ القليل مهملا ذكر عناوين كتب الفقه

المالكي من الأمهات: من المدوّنة والموازية ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وأبرز كتبه كالنوادر والزيادات، وتهذيب البراذعي، ومؤلفات ابن الحاجب وغير ذلك كثير.

أمّا منهج البرزلي في تناول الفتاوى فهو يقوم على عرض السؤال الذي وجّه إليه أو إلى أحد شيوخه أو إلى علم من أعلام المذهب المالكي، ثم يورد الجواب من عنده، ثم يعقب على ما ينقله تعقيبا يختلف باختلاف موقفه من القضيّة، فإذا وجد نقصا في جواب غيره أكمله سواء بدليل قياسي أو نقلي، وإذا خالف رأي المسؤول عقب عليه بالرّد والدحض المعتمد على الحجة أيضا، وإذا وجد في جواب غيره كفاية انتقل إلى مسألة أخرى، وكثيرا ما يستدّل على القضية بمواقف السلف الصالح، ومواقف شيخه ابن عرفة بالخصوص.

وقد سلك في ترتيب مسائل الكتاب وتبويبها مسلك أغلب جامعي الفتاوى إذ رتبّه على أبواب الفقه من الطّهارة والعبادات إلى الأنكحة والطلاق ثمّ المعاملات. مع أنّه أضاف في أوّل الكتاب بابا يتعلّق بمسائل أحكام الفتوى، وألحق بمسائل الكتاب قضايا تتعلق بالأدعية والوعظ والطّب وغير ذلك من المتفرّقات.

أحمد برناز

[1074 – 1138هـ/1664 – 1726م]

أحمد بن مصطفى بن محمد بن مصطفى قاره خوجة الملقّب ببرناز، ينتمي إلى أسرة من سلالة تركية كما يتضح من اسمه. كان جدّه الأول من أصحاب سنان باشا، واستقر بتونس على إثر ضمها إلى الدولة العثمانية، وتولى الإمامة بمقام سيدي علي بن زياد أقدم أولياء المدينة وصلحائها وهو الذي أدخل "موطأ" الإمام مالك إلى تونس.

ولد سنة 1074هـ/1664م بتونس وحفظ القرآن الكريم، وتتلمذ لأغلب شيوخ المذهبين الحنفي والمالكي، ثم حجّ وأخذ عن مشاهير المشايخ بمكّة، واستقرّ مدّة بها.

وأقام أيضا بعنابة وقسنطينة ومدينة الجزائر وبلاد القبائل. وعند عودته إلى تونس واصل الأخذ عن مشايخه واهتم بعلم القراءات إلى أن سمي مدّرسا بالمدرسة الشّمّاعية، ثم اتخذه شيخه محمد المحجوب نائبا له في دروسه بمدرسة يوسف داي، إلى أن صار إماما وخطيبا بهذا الجامع، ودرس علوم الحديث النبوي بمدرسة سوق البلاط، وكان يجيد، إضافة إلى العربية، التركية والفارسية. وحاول مراد الثالث في 1114هـ/1702م الإساءة إليه وإلى فقهاء الحنفية. يعدّ أحمد برناز من ضمن عدد قليل من العلماء شاهدا على تلك الفترة الصعبة من تاريخ البلاد التونسية التي انهار فيها حكم المراديين، وحلّ محلهم الحسينيون.

وتذكر لنا المصادر أن أحمد برناز ألف كتبا كثيرة في موضوعات علمية مختلفة: النحو والقراءات والحديث، وكانت له عناية بمقامات الحريري التي خصّها بملاحظاته وشروحه، كما استشهد بها في مواضع كثيرة من دروسه ومؤلفاته.

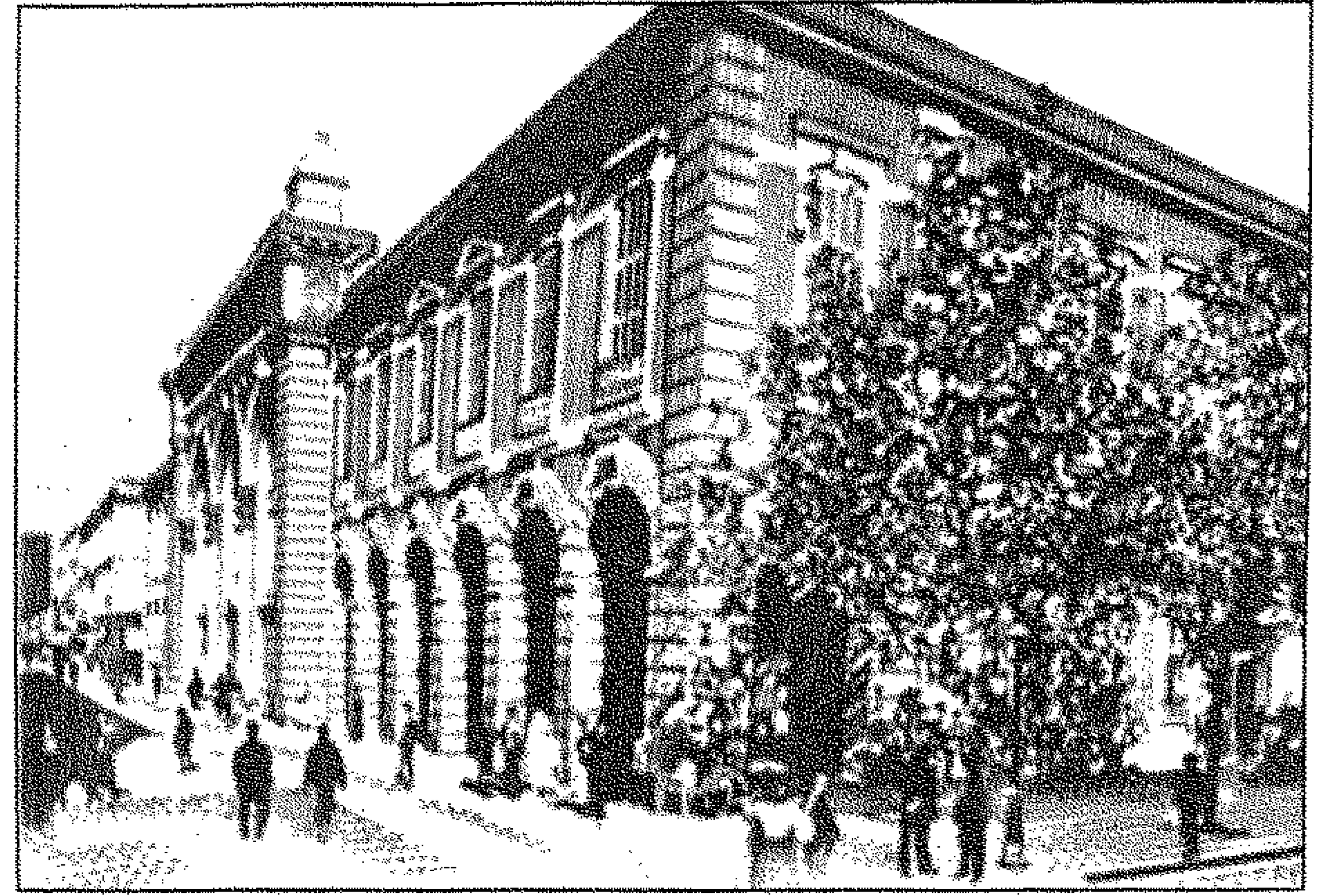
وكتابه "الشهب المحرقة" مصنّف جمع فيه كل ما أمكنه جمعه في فترة تكوينه أو في أثناء مطالعاته أو محادثاته مع العلماء. وقد خصص الجزء الأكبر من الكتاب للخوض في بعض المسائل الفقهية المتّصلة بمسائل منطقية وفقهية وصوفية، ويستشهد في سياق ذلك بالشعر وبشواهد من مقامات الحريري.

وتكمن أهمية هذا الكتاب في المعلومات التّاريخيّة عن الاحتلال التركي لتونس. وقد تضمّن أيضا تراجم مهمّة من علماء المالكية وشيوخ الزيتونة. وفيه نزوع غير مباشر إلى تصوير حياة المثقفين والعلماء في تلك الفترة وتسليط الضوء على شواغلهم العلمية والأدبيّة.

وقد حقّق هذا الكتاب الأستاذ الطاهر

المعموري وصدر عن دار الغرب الإسلامي سنة 1990 في طبعة أنيقة، كما خصّه الأستاذ أحمد عبد السلام بدراسة في كتابه "المؤرخون التونسيون في القرون 17، 18، 19"، (انظر الطبعة العربية الصادرة عن المجمع التونسي "بيت الحكمة" بقرطاج سنة 1993 ص. 191).

البريد التونسي



إدارة البريد يوم افتتاحها في بداية القرن العشرين،
(بشارع شارل ديغول)

كان نظام البريد في الدّولة الحفصية بوساطة خَدَمَة البلاط. وكان لقناصل الدّول الأجنبيّة بتونس سيارون خصوصيون لنقل رسائلهم إلى المناطق الساحليّة. وممّن اشتهر منهم بسرعة تبليغ الأمانة محمد الجمل الذي كان يقطع المسافة الفاصلة بين تونس وسوسة، البالغة 145 كيلومترا، في يوم وليلة مقابل ربع ريال.

أما تبليغ الرسائل عن طريق البحر فأوّله كان بين تونس ومرسيليا في 1847م على عهد أحمد باي الأوّل بواسطة سفينة تجارية تقدم من فرنسا إلى حلق الوادي مرّة في كلّ نصف شهر.

وفي سنة 1887م صدر أمر علي باي الثّالث بتأسيس إدارة تونسيّة للبريد والبرق، ثمّ للهاتف الذي عمّم بالتدرج فبلغ مدينة سوسة عام 1309هـ/1891م. وأعقبه بعد مدّة ظهور التلغراف اللاّسلكي.

وفي 11 جوان 1892 انتظم حفل لتدشين القباضة المركزية بحضور أعضاء الحكومة ورؤساء المصالح. ومن ذلك العهد عرفت القباضة الأصليّة تطورا متواصلاً.



محمد الصادق بسيّس

[1914 - 1978م]

وُلد محمّد الصّادق بن محمود بن محمّد بسيّس بتونس في 15 ذي الحجّة 1332هـ/02 نوفمبر 1914 ودرس بجامع الزيتونة والمدرسة الخلدونية. ولمّا أحرز شهادة العالمية تولّى التدريس بالفروع الزيتونية وبمعهد الدراسات الإسلامية التابع للخلدونية (1946) ثمّ بكليّة الشريعة وأصول الدّين سنة 1962 وانتسب إلى الحزب الدستوري الجديد وعرف بتحمّسه للقضية الفلسطينية وتجميعه للمساعدات للفلسطينيين.

توفي في 10 ذي القعدة 1398هـ/12 أكتوبر 1978م.

من كتاباته

- شكيب أرسلان وصلته بالمغرب العربي
- الشيخ عبد العزيز المهدوي الصوفي، دفين المرسى
- التصوّف في العصر الحفصي
- الشيخ محمد العربي الكبادي
- خطّة الحسبة في الإسلام
- الرعاية الصحية في الإسلام
- دفاعا عن السنّة النبويّة

- أبو عبد الله محمد المرجاني
- مكانة الاجتهاد في الإسلام
- نظرات في التصوّف الإسلامي
- في حياة الإمام الرّازي وآثاره
- تحقيق «النازلة التونسية» للشيخ محمد بن عثمان السنوسي، طبع سنة 1976 بتونس
- الشيخ محمد بن عثمان السنوسي حياته وآثاره، طبع بتونس سنة 1978.
- تفسير جزء عمّ، طبع بتونس.

وكتب عدّة مقالات اجتماعية وأدبية وتاريخية نشرها في الجرائد والمجلات أمثال «الزهرة» و«النهضة» و«النديم» و«لسان العرب» و«الفكر» و«جوهر الإسلام» و«الصباح» و«العمل» و«العمل الأدبي» و«البصائر» الجزائرية.



محمّد البشروش
[1911–1944م]

ولد محمّد بن محمّد بن حمدة بن محمّد البشروش يوم الجمعة 21 أفريل سنة 1911 ببلدة دار شعبان من الوطن القبلي بالإيالة التونسيّة آنذاك. زاول دراسته بالكتّاب ثمّ بالمدرسة الفرنكوعربيّة بمسقط رأسه، وحصل على الشّهادة الابتدائيّة سنة 1925 والتحق بجامع الزّيتونة بتونس. ولم يبق برحابه إلاّ سنتين ليدخل سنة 1927 مدرسة ترشيح المعلّمين. تخرّج فيها سنة 1930 وانضمّ إلى سلك التّعليم الابتدائي متنقّلا من بلدة إلى أخرى إلى أن بلغ به المطاف مدينة حمّام الأنف حيث تغلّب عليه المرض، فنقل إلى مسقط رأسه وتوفّي يوم الاثنين 20 نوفمبر 1944.

يظهر أنّ البشروش لم يكن تلميذا ممتازا أو متفوّقا في حياته المدرسيّة وكان ينعت تفكيره حسب ملاحظات المسؤولين عن مدرسة ترشيح المعلّمين بالتفكير الضّبابيّ والسّطحي. (عبد الحميد سلامة: «محمد البشروش ـ حياته وآثاره»، الدار التونسية للنشر، 1978). وفي هذه المدرسة «عرف عنه منذ هذا الطّور ميله للشّعر والأدب ولا سيّما أدب المهجر الأمريكي. ومن الطّبيعي أن لا يعطي محمّد البشروش كامل طاقاته في نظام تعليميّ لا يجد فيه صدى لميوله وحساسيّته المفرطة تجاه قضايا شعبه».

كان عفويّا «عصبيّ المزاج» قويّ الحدس، وكانت «حياته خصبة النّواحي، متعدّدة الجوانب، وكان صاحب حركة دائبة لا تهدأ ونشاط عارمٍ لا يستقرّ»، وعرضة للأخطاء والعطبٍ. وهي خصال كثيرا ما اتّصف بها الأفذاذ من الرّجال السّاعين إلى التّأثير في مجتمعهم. هو، كما قال، يؤمن «بأنّ للأديب وظيفته العلويّة في حياة الأمم والجماعات يؤكّد فيها الحياة التي تجري في عروقها وتسمو بها إلى دنيا أقلّ حيوانيّة وأطهر أفقا».

ولا يمكن فهم شخصيّة البشروش ونشاطه إلاّ إذا وضعا في سياق المضامين الوطنيّة المتعدّدة، المختلفة المشارب التي سيطرت في الثّلاثينات وما بعدها على جلّ طبقات الشّعب التّونسي وأغلبيّة المثقّفين بالذّات مهما كانت اتّجاهاتهم المتغايرة. فهذه المضامين الوطنيّة هي التي كانت تحرّك أقلام الأدباء والشّعراء والصّحفيّين المفتونين بالسّياسة أو المتباعدين عنها بالمواقف والآراء والمعارك القلميّة في مختلف القضايا السّياسيّة والأدبيّة والفكريّة والاجتماعيّة. «ومهما كانت الاتّجاهات المذهبيّة وصيغها فإنّ الذي يجمع بينها هو رصيد أيديولوجي مشترك يحوم حول مضامين أساسيّة أربعة هي: موضوع السّيادة وما يقتضي ذلك من تمسّك بالهويّة

ومقاومة الاستلاب، وتوحيد الصّفوف وحافزه الشّعور بالانتماء إلى أمّة، والإيمان بالماضي التّاريخي المشترك، والطّموح إلى الكونيّة».

ولئن لم يناضل محمّد البشروش في صفوف الحزب الدّستوري القديم والجديد، فإنّه مثل غيره من المثقّفين في تلك الفترة، كتب ونشط بمقتضى الوطنيّة. وكلّ من اطّلع على آثاره يجد أصداء هذه الرّوح الوطنيّة مبثوثة في كتاباته المتنوّعة في عدّة أجناس أدبيّة من قصّة وشعر ونقد وتأريخ للأدب التّونسي القديم والحديث وتراجم للأعلام التّونسيّين قبل الفتح الإسلامي وبعده، وتعريف بالكتّاب الأجانب من العالم، وترجمة من اللّغة الفرنسيّة إلى العربيّة. وكلّها لم تعرف النّشر إلاّ على صفحات الجرائد والمجلاّت، ما عدا الرّسائل التي نشرت بعد وفاته بزمن طويل.

إنّ المحاولات الإبداعيّة القليلة التي نشرت تارة باسم مستعار (هو محمّد عبد الخالق أو القرويّ) تدلّ على أنّ هذا المبدع هو «صاحب هواية لم تترك له ظروف عيشه ولا دواعي وظيفته التّعليميّة الوقت الكافي للتفرّغ لها ولاستكمال أداته البيانيّة فيها».

وعلى كلّ فهذه الإبداعات تدلّ على تمسّك بالنزعة الرّومانسيّة والثّورة العاطفيّة الجبرانيّة والتمرّد على أساليب الكتابة القديمة. وهي إلى ذلك تتموقع في إطار الوعي بالهويّة تجاه الاستعمار وتحاول مقاومة الاستلاب الذي لم تنجٍ منه. وعلى قلّة ما كتب البشروش قاصًّا أو دارسًا لهذا الفنّ، فقد «أسهم في تطويره» إذ نصحه صديقه محمّد الحليوي «بأن يتّخذ القصّة سبيلا له في حياته الأدبيّة لأنّه يجسّدها».

وتجلّت هذه النزعة الوطنيّة التّجديديّة أكثر فأكثر في كتابات البشروش المتعلّقة بالأدب التّونسي. فقد تحمّس للدّعوة التي توجّه بها كتّاب مصريّون في خصوص الأدب القومي ويقصدون به الأدب المحلّي المصري. فانبرى البشروش يدعو التونسيّين إلى الاقتداء بزملائهم المصريّين لإبراز أدبٍ تونسي له خصائصه ومميّزاته باعتباره رافدا من روافد نهر الأدب العربي الكبير. ودعا إلى تكوين أسلوب تونسي لأنّ الأسلوب في اعتقاده «خاصّة من خواصّ التّفكير. فكلّ أمّة لها أساليبها الخاصّة بها في الكتابة والنّظم لأنّ لها طرقا في تناولها للمسائل وعرضها على الفكر». وفي سياق اهتمامه بالأدب التّونسي اعتنى بالأدب العامّي معتبرا أنّ الفصحى والعاميّة «عنصران للأدب القومي [يعني التّونسي]، لكلّ منهما مداه ولكلّ منهما وظيفته المستقلّة استقلالا منشؤه الخصائص والحاجات، ولكنّهما ينسجمان في المصدر وفي قرارة أفقيهما». وكان يدعو إلى تقريب المسافة بين الأدب العامّيّ والأدب الفصيح.

كانت تتبع كلّ هذه الدّعوات مساجلات ومعارك أدبيّة عنيفة في كثير من الأحيان يتبارى فيها رموز الأدب في تلك الفترة من أمثال أبي القاسم الشّابّي ومحمّد الحليوي ومصطفى خريّف وغيرهم. وقس على ذلك المساجلات التي دارت بينه وبين الأدباء حول السّرقات الأدبيّة وحول الاستفتاء الذي نظّمته مجلّة "العالم الأدبي" لاختيار أحسن الشّعراء التونسيّين والدّعوة إلى العناية بالموسيقى التونسيّة. وتنضوي تحت هذه المضمونيّة الوطنيّة التجديديّة جهوده في خدمة الأدب التونسي ووجوب العناية به، إذ يرى «أنّه ليس أشقّ على الأديب التونسي من درس الأدب التونسي. إنّ أحدنا ليعلم عن الأدب الفرنسي والأدب الانجليزي والأندلسي" والمصري أضعاف ما يعرف عن أدب البلاد التي يدين لها بروحه ودمه. ولطالما لاحظنا ذلك بعين الكدر وشعرنا بهذا النقص شعورا يمازجه الألم وإحساسا يخالطه الاستياء، فلا نعلم نقصا ولا عارا بعد هذا النقص وهذا العار. وإن من مصائب هذه البلاد المذكورة ورزاياها أن يكون أدبها مجهولا وأن يكون أجهل الأشياء عند التونسيّين هو الأدب

التونسي». ويمضي، تبعا لهذه النزعة الوطنيّة، إلى اعتبار الأدب القرطاجي المكتوب باللاتينيّة الذي ظهر بهذه الربوع قبل الفتح الإسلامي أدبا تونسيا يجب العناية به وبتاريخه، مثلما تبنّى ذلك قبله جماعة الشباب التونسي على طريقتهم. ولم تقتصر دعوته إلى العناية بالأدب التونسي بوجه عام على الكتابة باللغة العربيّة بل كتب باللغة الفرنسيّة في مجلة «إفريقيا الأدبية» الصادرة بالفرنسيّة في فيفري 1944 مقالا عن الأدب التونسي الحديث.

وفي مقالاته المتعددة عالج محمّد البشروش أزمة الكتاب والصّحافة في تونس وحلّل أسبابها وهي انعدام الدّعم الحكومي، وضعف التعليم العربي، وقلّة القرّاء، وأزمة الطّبع والنّشر مؤكّدا أنّه من الواجب «أن تكون ثقافتنا عربيّة وأن يكون التعليم عندنا عربيا قبل كل شيء». وأسهم محمّد البشروش في النقد الأدبي بمقالاته الكثيرة التي عرّف فيها بأعلام الأدب والفكر التونسيّين منهم والأجانب. فكان حاضرا حضورا مميّزا إيمانا منه بوجوب العناية بالأدب في هذه الديار. دعما لهذا السعي انضمّ إلى الإذاعة التونسيّة يبث على أمواج الأثير أحاديث متنوّعة تناولت تاريخ الأدب التونسي قبل الفتح الإسلامي، كما شارك في برنامج «آخر ما كتبت».

ولا بدّ من الإشارة إلى لغة محمّد البشروش. «فأسلوبه يمتاز بسهولة العبارة والاقتباس من العاميّة مع جودة التعبير حينا وتعثّره حينا آخر». ويظهر أنّ الإيمان بالتجديد والثورة على القديم جعلا محمّد البشروش يتبنّى الكتابة باللّغة العربيّة الحديثة التي أثّرت فيها الصّحافة، فخرجت بها من لغة النّخبة إلى لغة الجمهور العريض ومن اللّغة القديمة المستعصية على الفهم، المشتملة على مضامين بعيدة عن شواغل النّاس وحياتهم اليوميّة إلى لغة الثّورة على القديم، أسوة بما قام به أساطين الحداثة في مصر من أمثال طه حسين وأدباء المهجر كجبران ونعيمة.

وأهمّ عمل تميّز به لتطبيق دعواته الثّقافيّة المتنوّعة التي يمكن أن تعدّ خطوطا عامّة لمشروع ثقافي يندرج في صلب النزعة الوطنيّة التّجديديّة هو بعث مجلّة «المباحث» إلى الوجود عندما عجز عن تأسيس دار للنّشر. فكانت محاولته الأولى في بعث مجلّة «المباحث» سنة 1938. وأصدر العدد الأوّل في جانفي 1938 والعدد الثّاني المخصّص لابن رشيق في مارس من السّنة نفسها معوّلا فيهما على نفسه. ولكنّ الضّائقة الماليّة ألزمته إيقاف التّجربة. وربّما الأجواء القمعيّة المنجرّة عن أحداث 9 أفريل 1938 والقوانين المجحفة ضدّ الصّحافة هي التي كانت مثبّطا من المثبّطات. وعندما تبدّلت الظّروف الخاصّة به وبالجوّ العام في البلاد عاود الكرّة وأصدر سلسلة جديدة ظهر عددها الأوّل في 10 أفريل 1944 في حجم الجرائد.

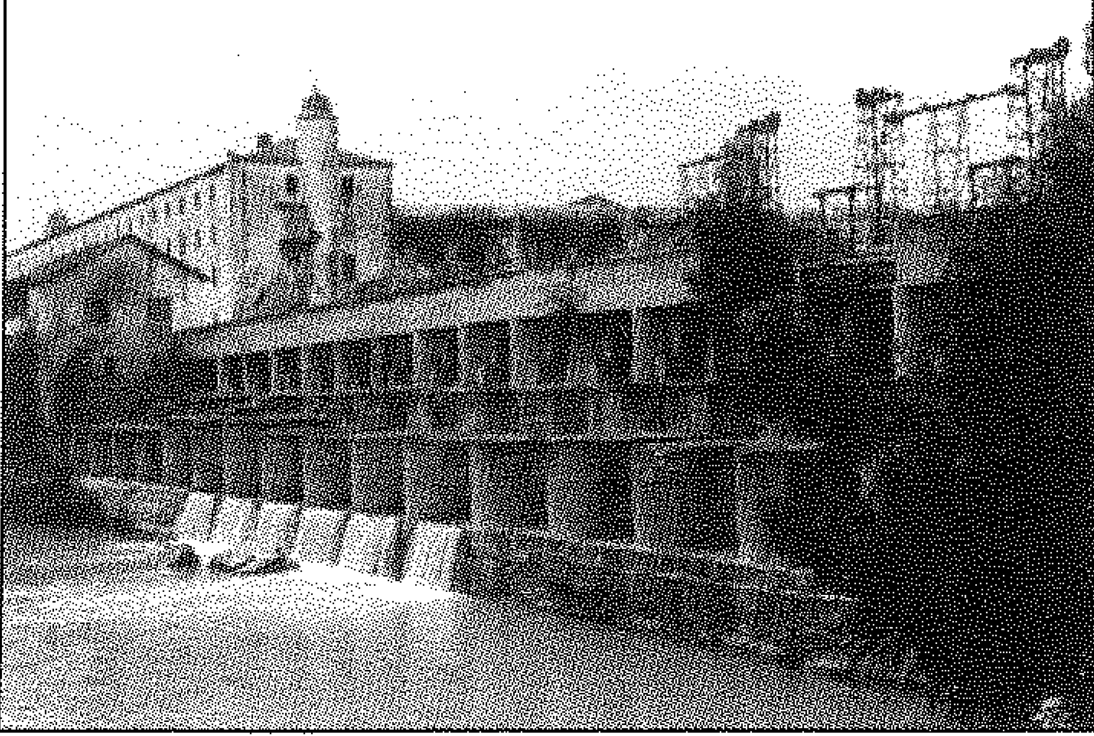
والملاحظ أنّ مجلّة «المباحث» التي دامت ما يقارب الثّلاث سنوات واجهت صعابا عدّة وملابسات حفّت بتجربتها كانت بعد ذلك بسنوات مثارا لجدل طويل حول تأسيسها وسيرورتها. «وفعلا فقد أصدرها [البشروش] من جديد في شكل الجرائد بعد أن كانت في حجم المجلاّت وخرج العدد الأوّل... في ظروف صعبة من جرّاء مخلّفات الحرب العالميّة وندرة الورق. ولكنّ هذه السلسلة الجديدة كانت انتصارا له وأيّ انتصار». وامتازت بظاهرة جديدة لم تعهد من قبل، وهي مشاركة كثير من الأساتذة المجازين أو المبرّزين في العربيّة من الجامعات الفرنسيّة لأوّل مرّة في الحياة الأدبيّة في حين كانت المجلاّت التي ظهرت من قبل تقوم على كاهل أهل الهوايات الأدبيّة وأصحاب الثّقافة العربيّة الصّرف. «وامتازت بإشراف نابغ من أساتذة اللّغة العربيّة المتخرّجين في الجامعة الفرنسيّة هو الأستاذ محمود المسعدي».

ويمكن القول إنّ هذه المجلة خضعت في أعدادها الثمانية الأولى لاتّجاهين : روح وطنيّة تجديديّة سبق بيان خطوطها العامّة ومضمونيّة وطنيّة كلاسيكية ذات اتجاه استشراقي. «فلا يمكن إلا أن نلاحظ الأسلوب الجديد الذي طبع المجلّة سواء في الافتتاحيات أو الاتجاه العام للمجلّة بعد وفاة البشروش»، إذ نلمس تغييرا في معالجة قضايا الأدب الكبرى، «ممّا يفسّر اللهجة الحازمة التي عولجت بها هذه المشكلات من جهة وهيمنة الكلاسيكي على الحديث». والملاحظ «أنّ إسهام المجلة في التاريخ الحديث قليل وخصوصا فيما يتعلّق بالأعلام التونسيين. فهل أكاديميّة المسؤولين عن المجلّة قد تغلّبت على اتّجاه التفتّح وخاصة في هذا الميدان؟». ورغم ميول مجلة «المباحث» الحداثية [بحكم الطابع الذي طبعها به مؤسسها محمّد البشروش] فهي لا تعطي الاعتبار إلاّ إلى جزء ضئيل من الأدب التونسي الحديث والمعاصر. فهل السبب في ذلك هو تلك القدرة المعروفة التي طالما قاومها القوم وهي المعاصرة، أم هل هو التكوين الجامعي المفرط في الكلاسيكيّة التي اتّصف بها المسهمون في المجلّة وأغلبهم مبرّزون؟

وهكذا وبعد وفاة البشروش «نجح محمود المسعدي بما له من ثقافة متينة وما يحرّكه من نضال متأجّج في أن يجمع حوله ثلّة من الأساتذة الشبّان ذوي الاختصاص المتنوّع وأن يجعل من المجلّة منبرا للمثقّف الملتزم». وامتازت هذه المجلة «بدراسات مهمّة في الأدب والتاريخ من أقلام بقيّة أسرة المجلة ومنها مقالات كثيرة تكتب بالفرنسيّة ثم تعرّب». وامتازت أيضا «بمنهج كتابة الأستاذ محمود المسعدي التي سارت على طريقة من النثر الفني هي طريقة القصّة الفلسفيّة».

ولئن كان محمّد البشروش بتأسيسه لمجلّة «المباحث» أراد أن يطبّق عمليًّا مشروعه الثّقافي المواصل لاتّجاه التّجديد الذي ساد الأدب التونسي في الثلاثينات وبداية الأربعينات حسب الأهداف الوطنيّة التجديديّة التي بيّنت، فإنّ هذه السّلسلة الجديدة من المجلّة، بتركيبتها المغايرة لما ساد في السّاحة الأدبيّة في ذلك الأوان، كانت في الواقع منعرجا أبرز اتّجاها ذا مضمونيّة وطنيّة، لا محالة، ولكنّها مختلفة اختلافا شديدا، لأنّ أسسها الكلاسيكيّة والأكاديميّة لم تعرفها تونس من قبل. وسيكون لهذا الاتّجاه تأثيره العميق في مستقبل التّعليم والثّقافة بتونس ما بعد الاستقلال.

البطّان



الجسر ـ السدّ بالبطّان

أقامه الأندلسيون في القرن 17م، قرب قرية اختصّت بالفلاحة والصناعة التقليديّة منذ نشأتها وسميت بـ"البطان"، وامتازت منذ ذلك الحين بخصوبة التربة ووفرة المياه وعذوبتها على غرار عدّة مدن وقرى مجاورة للعاصمة تونس مثل طبربة والجديدة والمرناقية.

واستطاعت هذه القرية – المدينة أن تحافظ على مقومات العمارة الأندلسيّة الموريسكيّة وخصوصياتها الفنية والجمالية. وكان السلطان المرادي يوسف داي (1610 ـ 1637) قد أنشأ قصرا بالبطان فيه من الفن وحسن الذوق الكثير.

واستخدم السدّ بالبطان في تشغيل معمل الحياكة الذي لا يبعد عنه كثيرا، كما وُظّف في ريّ حقول الزياتين والأشجار المثمرة التي تحيط به.

وعلى الرغم من عامل الزمن فلا يزال هذا المعلم شامخا يتحكم في توزيع مياه مجردة. وبالبطان يوجد مركز لتربية الخيول الأصيلة.

أبو القاسم البكري
[ق 4هـ/10م]

عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله البكري الصقلّي، أبو القاسم، لم تؤكد المصادر هل كان مكان ولادته بصقلّية أم بالقيروان، لكنّ الثابت أنّه نشأ بالقيروان وبها تلقى العلوم الشرعيّة على كبار فقهائها كأبي الحسن بن مسرور الدباغ وحبيب الجزري وأبي العرب التميمي مؤلّف «طبقات علماء إفريقية»، كما تلقّى علوم العربية وآدابها. ثم رحل إلى المشرق حوالي سنة 350هـ/961م فاجتمع بعلماء كثيرين بمصر والحجاز وهناك تمكن من الحديث وعلومه والفقه وأصوله، غير أنه فضّل الاشتغال بالتصوّف، وعاد بعد ذلك إلى القيروان وأذاع فيها مذاهب الصوفية وعلومهم. ولقد أثّر في عدد مهمّ من صوفية وأولياء القيروان وإفريقية فأخذوا بطريقته.

ورجح الدبّاغ تاريخ وفاته في ما بين سنة 375هـ و380هـ 985م ـ 990م.

من مؤلفاته

– جواهر الألفاظ وظهورالأنوار ويعرف بأنوار الصقلّي.

– صفة الأولياء ومراتب أحوال الأصفياء.

– كرامات الأولياء المطيعين، من الصّحابة والتّابعين.

العائلة البكريّة

تبدو محصّلة البحث في الجذور التاريخية لهذه العائلة محدودة وجد هزيلة، فقد تواضعت الروايات التي بحوزتنا حول أصول عائلة البُكري على نَسْب جدها المؤسس، أبي بكر الأكبر إلى أصول قرشَية أُمَوية تُلحقه بالخليفة الراشدي عثمان بن عفان دون أن تمدنا بمعلومات حول الجوانب المتصلة بسيرته فيما عدا تاريخ وفاته خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ودفنه بقرية المنيهلة في الظهير الشمالي الغربي لمدينة تونس.

تأكّد ارتقاء البُكريين في سلم الوجاهة الاجتماعية وفقا لشهادة حسين خوجة مع موفّى الربع الأول من القرن السابع عشر وذلك بالتزامن مع تعيين تاج العارفين البكري إماما خطيبا لجامع الزيتونة بإيعاز من أبي يحيى الرصاع في حدود سنة 1625م، لذلك نرجّح توصّل العديد من الشخصيات المنتسبة لعائلة البُكري من الحفاظ على موقعها الاجتماعي المتميّز عبر توارثها لخطابة جامع الزيتونة طيلة ما يقارب القرنين من الزمن.

ولئن تعددت التراجم المخصصة لسير الأئمة البُكريين ضمن مؤلفات أحمد برناز في الشُهب المخرقة، والوزير السراج في الحلل السندسية، وحسين خوجة في ذيل بشائر أهل الإيمان، وأحمد بن أبي الضياف في إتحاف أهل الزمان، ومحمد السنوسي في مسامرات الظريف، ومحمد مخلوف في شجرة النور الزكية، فإن النتف التي أمدّتنا بها لم تسعفنا في التعرّف بالقدر المأمول من الدقة إلى التقاطيع المميّزة لسيرها التي بقيت غائمة السمات غير واضحة المعالم.

تركّز الشذرات التي بحوزتنا بخصوص أفراد العائلة البُكرية على عراقة أصولهم العائلية، مشدّدة على مخورية الثروة التي عادت لهم بعد زواج الشيخ تاج العارفين بأمّ هاني ابنة الولي الصالح أبي الغيث القشاش (1551ـ 1623م) والوريثة الوحيدة للثروة الكبيرة التي كدّسها هذا الولي الفرد في ترسيخ صيتهم. وهو مؤشر بليغ يحيل على نوع من تبادل الشرعية بين الوجاهة

الناجمة عن النجاح في تجربة الصلاح وبلوغ مرتبة «المشيخة»، والوجاهة العلمية المترتّبة على النجاح في مسيرة التحصيل. كما تشير تلك النتف إلى أن أبا بكر بن تاج العارفين الذي تضلّع في تدريس الحديث بجامع الزيتونة منذ صباه لم يجد أي صعوبة في وراثة خطة خطابة نفس الجامع عن والده. وتفيد أيضا أنه لدى وفاة الشيخ أبي بكر في حدود سنة 1662م مرّت خطابة الجامع إلى ابنيه أبي الغيث البُكري المتوفى في حدود سنة 1698م وعلي البُكري المتوفى سنة 1712م.

ولئن لم يخرج توارث خطة إمامة جامع الزيتونة وخطابته عن هذه العائلة فإن عدم تحلّي من تقلدوا تلك الخطة بعد هذا التاريخ بالكفاءة قد عُرف بين الدّاني والقاصي بحيث تمّ اللجوء إلى تعويضهم نيابة ممن له أهلية القيام بذلك باسمهم، وهو حال ابني الشيخ علي البُكري عثمان المتوفى في حدود سنة 1762م وشقيقه حمودة الذي كان مؤلف الإتحاف شاهدا على «عدم قابليته» أو عدم نجابته في تولي تلك الخطة الشرعية السامية. فقد أورد في شأنه أنه «صعد المنبر فلم يقدر أن يفوه بكلمة، فبقي مدة، فاستنزله المزوال بهيئة ازدراء كما ينزل الصبيان». وهو موقع ابنه أبي الغيث أيضا هذا الذي دفعه قصوره إلى إنابة أحد أفراد عائلته، وشأن حفيده علي المتوفّى في حدود سنة 1812م وهو آخر البُكريين الذين نالوا شرف تولي تلك الخطة دون التصدّر فعليّا لممارسة ما يتصل بها من مهام.

قائمة الأئمة البكريّين الذين تداولوا على خطابة جامع الزيتونة :

اسم الإمام الخطيب	تاريخ الوفاة
تاج العارفين البُكري	–
ابنه أبوبكر البكري	1662م
حفيده أبو الغيث البكري	1698م
أخوه علي البكري	1712م
عثمان ابن علي البكري	1762م
أخوه حمودة البكري	–
ابنه أبو الغيث البكري	–
علي بن أبي الغيث البكري	1812م

وتبقى مسألة احتكار أفراد هذه العائلة لخطابة جامع الزيتونة مدة تقارب القرنين من الزمن موضوعا يشوبه التعتيم والكتمان المقصود. فليس من السهل على المؤرخ من موقع تعامله بمسافة نقدية مع المصادر عدم الطعن في الرواية التي تناقلتها كتب الحوليات والتراجم حول تخلي أبي يحيى الرصاع وهو على فراش موته على هذه الخطة طوعا لفائدة باني مجد بيت البكريين «تاج العارفين» كما أنّ كل محاولة للتفريق فيما كدّسوه من الثروة بين رصيدهم العائلي ومداخيل الأحباس الموقوفة على جامع الزيتونة والتي عاد لهم أمر تصريفها، مهمة صعبة الإنجاز عسيرة التحقيق، علما أن ما أوردته المصادر المتداولة لا ينفذُ إلى التفاصيل الدقيقة ولا يستجلي حقيقة الملابسات التي حفت بهذا الموضوع.

فقد أشار بُرناز لدى تعرّضه لبعض الجوانب من سيرة الشيخ علي البُكري حفيد تاج العارفين المتوفّى في حدود سنة 1712م أنه قد «رأى بيده دفترا مكتوبا بخطّه أن الشيخ علي البُكري... عنده مائة هنشير، أي مائة أرض تصلح للحراثة وأرض، ما عدا ما عندهم من الدور والحوانيت والعقارات والأحباس المختلفة عن أوائلهم، ما يجلّ عن العدد». وتدعّم هذه الشهادة التي نقلها محمد برناز في أوائل القرن الثامن عشر ما أورده المنتصر بن المرابط بن أبي لحيّة القفصي مؤلف مناقب القشاش حول «استحاطة» شيخه بـ«هناشير» عدة وملكيته لما لا يقل عن «مائة وثلاثين محراث [كذا]». وتضم قائمة الأملاك المحبّسة حسب ما جرده مؤلف موسوعة مدينة تونس بالاستناد إلى ما احتفظت به لنا وثائق الأرشيف، خمسة عشرة عقارا فلاحيا تعود ملكيتها للزاوية البُكرية موزّعة على كامل مجال

البلاد التونسية وهي: «هنشير المنزل، وهنشير مكنة، وهنشير القصبة، وهنشير بني داود، وهنشير السبع عوينات، وهنشيرعتيتل بن علي، وهنشير كدية الخماسة، وهنشير قصر منصور بافريقة، وهنشير عبيدة من أرض القيروان، وهنشير روّاد، وهنشير رحبة الفول، وهنشيرالشقافية بربع نفّات، وهنشير الروحيّة، وهنشيرجويبية المنية قبلي مدينة القيروان، وهنشير المنستيرى جوفي الجبل الأحمر». والبيّن أن عماد أرباب هذا البيت- وفقا لما اتفق عليه ناقلو أخبارهم-«البذل المادي». فقد أورد مؤلف الإتحاف أنه «كان لزاويتهم من الثروة ما أعانهم على المروءة ونعم العون على المروءة الجدّة...لهم صدقات جارية وكرم مبذول وأهل الحاضرة يعظّمونهم ويتغافلون عن مساوئهم».

ولعل أبلغ ما روي في هذا الصدد وأورده ابن أبي الضياف على لسان يونس بن علي باشا الأول ساعة مروره بدارهم الواقعة بالحلفاوين عند ربض باب سويقة في طريقه إلى القصبة لإعلان تمرّده على أبيه سنة 1752م، فقد ذكر أن يونس «لمّا رأى الخيل المسوّمة وآثار النعمة ونضارة العيش وجمال إقبال الدنيا، تمنى أنه من أبناء الزاوية البُكريّة. فقيل له في ذلك فقال: شاركونا في لذة العيش واستأثروا عنّا بلذة الأمن».

ومهما يكن من أمر هذه المَرْوِيَات فنحن متأكدون بالتعويل على المعطيات التي نقلتها لنا حوليات ابن أبي الضياف ووثائق جمعية الأوقاف المحفوظة بأرشيف أملاك الدولة، أن البُكريين قد حافظوا على الامتيازات الضريبية الممنوحة لهم باعتبار انتساب عائلتهم إلى كبريات بيوت الصلاح، كما أننا نرجح تواصل حصولهم على «فتوح» أو هبات العديد من الفرق القبليّة وجانب من مجابيها. فقد استقلت زاويتهم برئاسة «عروش المواطيس [بجهة ماطر] والحسنة وزياد وزكواتها» بصرف النظر عن استفادتهم من مداخيل العقارات والرباع الموقوفة على جامع الزيتونة وهي أوقاف بقيت تحت إدارتهم أو تصرّفهم المباشر طوال فترة تصدّرهم لخطابة هذه المؤسسة الدينية العريقة. غير أن كل محاولة للفصل بين ثروة البُكريين الخاصة والمداخيل التي وفرتها عملية تصريفهم لأوقاف جامع الزيتونة تشكل رِهانا يعسر بالنظر إلى ضحالة مصادرنا رفعه.

وبالعودة إلى سيرة باني مجد العائلة البُكريّة يتبين لنا أن وفاة صهره القشّاش قد عرّضته إلى العديد من الصعوبات أسهب مؤلف مناقبه،المنتصر بن أبي لُحَيّة القفصي، في الخوض في تفاصيلها.فقد ساءه أن تتعثّر مسيرة الزاوية بعد رحيل مؤسّسها وتتراجع هيبتها وتتدهور إمكانياتها المادية، خاصة أن من احتلّ مكان شيخه لم يتوفر على الكفاءة المطلوبة لتولي المسؤولية وقصر همّه على الاستفادة من أملاك الزاوية بغرض تدعيم موقعه على حساب مصالح بقية فقراء الطريقة. ولئن كان بوسعنا تفهّم أسباب تحامل المنتصر على من احتل موضع شيخه، فإن شهادته حول انقلاب أوضاع الزاوية بعد وفاة هذا الأخير تؤشّر على امتعاض المنتسبين إلى الطريقة القشاشية من تصدّر «تاج العارفين» لوراثة شيخهم.

وهكذا فإن الطابع الوعظي الذي يكتنف المروية المناقبية غالبا ما يُخفي صراعا مكتوما على الوراثة لم تصلنا حول تفاصيله غير مرويات لفّقها المستفيدون منه، في حين تمّ التكتم عمدا على وجهة نظر بقية الأطراف وألقيت وجهة نظرهم في مطاوي النسيان.

وتشكل الملابسات المتصلة بطريقة تخلي «تاج العارفين البُكري» عن «المشيخة» الصوفية بعد أن تصدّر لوراثة صهره في إدارة شؤون الزاوية وتفضيله تولي إمامة جامع الزيتونة، عينة عن طبيعة ذلك التلفيق. فقد تواضعت جميع الروايات التي نتوفر عليها على محورية حصوله على دعم سلفه أبي يحيى الرصاع المنحدّر من عائلة قريبة من المخزن الحفصي الآفل، هو من استُشير على فراش موته

فلم يجد أي غضاضة - بزعم من ركّبوا لنا تلك الرواية تركيبا - في إقصاء ابنه اعتبارا لعدم النجابة في تولي تلك الخطة، مفضّلا وضع مسؤولية إمامة الجامع المذكور بيد سليل البُكريين في شخص الشيخ «محمد تاج العارفين».

ولئن كنّا نجد صعوبة كبيرة في تبرير هذا المنعرج الذي عاينته سيرة باني مجد البيت البُكري والمتمثل في التخلي عن «المشيخة» الصوفية رغم تعدّد الإشارات المتصلة بقلة درايته بتصريف أوضاع الزاوية ضمن مناقب القشاش،فإنه ليس بعيدا أن يكون تراجع صيت تلك المؤسسة وانهيار مواردها بعد أن ضمن تاج العارفين وضع يده على ميراث زوجته هما ما شجعاه حقيقة على المسارعة بقبول «العرض» الذي قُدّم له والمتمثل في تولي إمامة أكبر مؤسسة دينية داخل الحاضرة، وهي خطة حافظ جميع من تولّوها على مكانة مرموقة ووضعية اجتماعية رفيعة طوال الفترتين الوسيطةوالحديثة. فقد أورد محمد بن سلامة ضمن «عقده المنضّد» شهادة مفادها أنه قد «رأى ظهيرا بيد أولاد الزاوية البُكرية...مذكورا فيه أن حاكم الوقت أحضر أعيان الناس وكبراء البلاد والخاصة والعامة [لشهود مراسم الاحتفال بتنصيب إمام جامع الزيتونة...] وكان يقع للمتولي موكب كبير، والحق هذا، لأنّه نيابة عن السلطان في أمر من خصائصه وهو الإمامة بالناس. وناهيك مرتبة تساءل الفقهاء [في شأنها] حول أولوية [تقديم] كبش الإمام يوم عيد الإضحى [على كبش السلطان...] وخرجوا من الخلاف بوضع كبش السلطان عند الخروج من الصلاة وكبش لإمام جامع الزيتونة بالمقصورة، إذا فرغ من الخطبة، والأمر بذلك إلى الآن». وتقيم هذه الشهادة، - رغم تأخرها الزمني على المرحلة التاريخية التي عاينت بروز باني مجد العائلة -الحجة على سخاء العرض الذي قُدم للبُكريين في شخص «تاج العارفين». كما تبيّن حسّه العملي، إذ بالرغم عن جميع التحفّظات التي أبداها مؤلف مناقب صهره،فإنه لا يمكن أن لا نعترف له بالنجاح - إذا ما تجاوزنا موضوع تأمين مرور ميراث زوجته إلى تصرّفه - في معالجة ملفات معقّدةكان على رأس قائمتها «تطبيع» علاقات إسلام الزوايا مع الحكّام الأتراك مقابل التزامهم بالتعامل الكيّس مع نخب العلم والصلاح داخل الحواضر.

الزاوية البكريّة

تقع الزاوية البكريّة بنهج ابن عثمان المتفرّع عن نهج الزاوية البكريّة بحي الحلفاوين من الربض الشمالي، وقد قام هذا المعلم بدور تاريخي مهمّ بوصفه زاوية ومدرسة للتعليم وسكنى للطلبة.

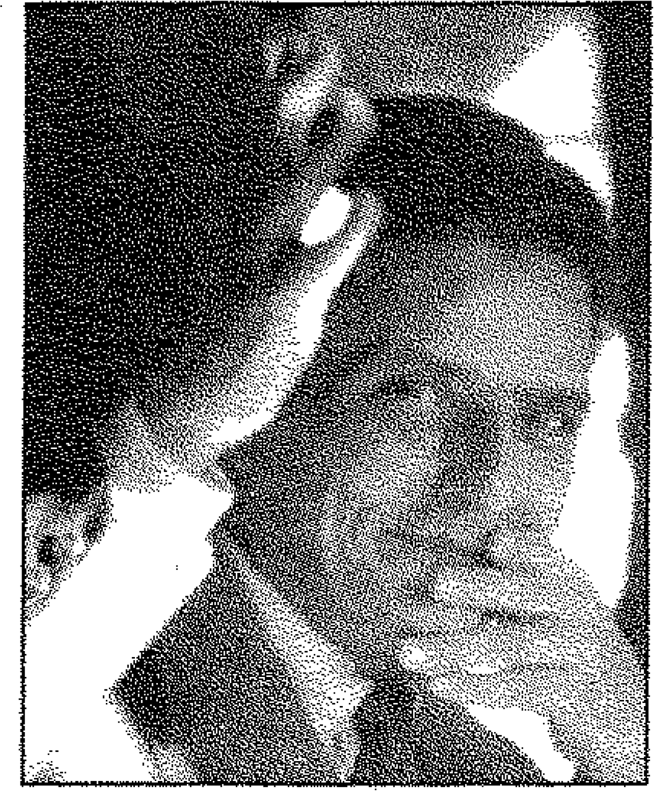
ويرجع تاريخ إنشاء الزاوية البكريّة إلى عهد الدولة الحفصيّة (آخر القرن السابع للهجرة 13-14م) وعلى الأرجح في فترة أبي فارس عبد العزيز، وقد عرف عنه ميله إلى بناء معالم الأولياء ومزارات العباد والصالحين وصيانتها. اشتق اسم الزاوية البكريّة من آل البكري الذين يرجع نسبهم على المشهور إلى الخليفة عثمان بن عفان. أمّا الجدّ الأعلى لآل البكري فهو العارف باللّه أبو بكر دفين المنيهلة في الضاحية الغربية لمدينة تونس، وإليه ينسب تأسيس الزاوية البكريّة. وعلى خلاف ما هو شائع فإن لفظ البكري ينطق على الأصح بالباء المفتوحة لاشتقاقه من بكر وأبي بكر.

وإلى عهد قريب كانت الزاوية البكريّة تقوم بوظيفتها في العلم والتكوين. وفي هذا يقول المؤرّخ محمد ابن الخوجة في كتابه «معالم التوحيد»: «المدرسة المتحدث عنها مازالت زاوية قائمة الذات متواصلة التنفيع لطلبة العلم تسكنهم وتطعمهم لوجه الله، وبها اليوم من

الطلبة أضعاف عدد الغرف المحتوية عليها المدرسة، فبعض الطلبة وظيفتهم قراءة القرآن دوما بالزاوية والآخرون يسكنونها بنيّة قراءة العلم».

وقال ابن أبي دينار في المؤنس «إنّها كانت في عهد الدولة المراديّة من الأماكن المعظمة التي يسعى الناس إلى الحضور بها لسماع قصة المولد النبوي الشريف وقصائد المديح ويبدو الاحتفال والزينة بها نحو الخمسة عشر يوما».

وبالزاوية البكرية دفن أغلب أئمّة هذه الشجرة وعلمائها الذين استأثروا لعهود بمشيخة جامع الزيتونة وإمامة الصلوات وخطب الجمعة وصلاة الأعياد به. وأوّل من تولى الإمامة بجامع الزيتونة من البكريّين، في حدود سنة 1624م، محمد تاج العارفين البكري وهو صهر الوليّ الصالح أبي الغيث القشاش وهو واحد من أبرز أولياء تونس، وخلفه ابنه أبو بكر البكري (تـ1661م). وفيما بعد انتقلت إمامة جامع الزيتونة من آل البكري إلى آل الشريف.



أحمد عبد الوهاب بكير
[1911 – 2005م]

أديب لغويّ واسع الإطلاع تخرّجت على يديه أجيال من الصّادقيين وطلبة دار المعلّمين العليا استقوا منه أصول اللّغة العربية وأساليب تذوّق الشعر قديمه وجديده ومبادئ النقد الأدبي. أسهم بقسط وافر في الحفاظ على اللّغة العربيّة لغة لها قواعدها وأسلوبها من جهة ومتطوّرة ومتفتّحة على الاغتناء بالجديد المتجدّد من جهة أخرى.

ولد أحمد عبد الوهاب بكير في 3 ديسمبر 1911 بسيدي بوسعيد في الضّاحية الشمالية لتونس العاصمة.

تلقّى دراسته الابتدائيّة في المدرسة الابتدائية بسيدي بوسعيد، والثّانويّة بالمدرسة الصّادقية، وفي سنة 1931 تحصّل على ديبلوم المعهد الصّادقي وفي سنة 1932 نال شهادة الباكالوريا من المعهد نفسه وفي السنة نفسها شارك في المؤتمر الثاني لجمعيّة طلبة شمال إفريقيا المسلمين المنعقد بالجزائر، وقدّم تقريرا متعلّقا بتدريس التاريخ العربي انتقد فيه برامج التاريخ والأساليب المتبعة في تدريسه في جامعة الزيتونة وفي المدرسة الصّادقية وهي التي كانت سببا في جعل التلميذ جاهلا لتاريخ أسلافه مستثنيا الخلدونية التي اعتبرها أحسن المدارس التونسية فيما يخص تدريس التاريخ. سافر إلى فرنسا حيث حصل على الإجازة في الآداب العربية سنة 1935 من جامعة السّربون.

عاد إلى تونس مدرّسا بالمعهد العلوي وتابع في الوقت نفسه دروس التّبريز في السّربون. وبعد حصوله على التبريز التحق بالمعهد الصّادقي مدرّسا للّغة والآداب العربية وكذا بدار المعلّمين العليا التي كلّف بإدارتها مدّة من الزّمن مع بقائه مدّرسا بالصّادقية التي تولّى إدارتها من 1955 إلى 1969، واتّجه في هذه المدّة إلى تدريس الفلسفة العربية لتلاميذ السّنة النهائيّة. انتدب للتدّريس بالمدرسة العليا للتجارة وسمّي في الفترة ذاتها مديرا عامّا للتعليم الثانوي بوزارة التربية.

غادر المعهد الصّادقي سنة 1969 بعد تسميته متفقّدا عامّا للتعليم الثانوي حتّى بلوغه سّن التقاعد.

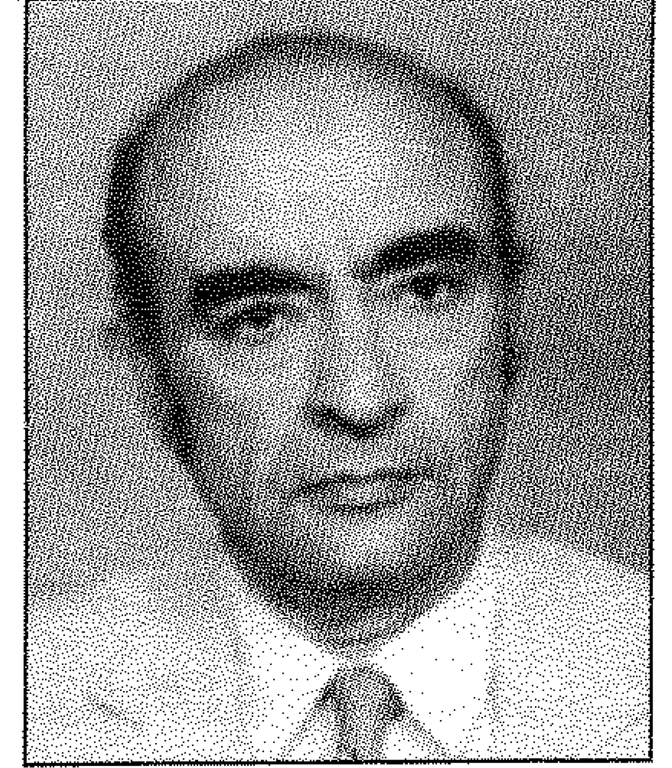
توفّي في 2005 بعد حياة زاخرة بالعطاء في المجال التّربوي والثقافي.

مؤلّفاته

– أسهم بمقالاته في الصّحف التّونسيّة وخاصّة مجلة "المباحث"

– ألّف عدة كتب مدرسية في اللّغة والآداب العربية اعتمدتها وزارة التربية في برامجها

الرّسميّة وتعلّمت منها أجيال من التلاميذ والطلبة.
- كتاب "منوّعات أدبية أو الأخذ من كلّ شيء بطرف"
- كتاب "معجم أمّهات الأفعال"



أحمد بكير «محمود»
[1928 - 1991م]

وُلد أحمد بكير «محمود» في أوّل جوان 1928 بمدينة سوسة، ونشأ في مدينة قصر هلال موطن أسرته حيث حفظ ما تيسّر من القرآن الكريم، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية. ومن أبرز الأحداث التي شهدتها نهاية دراسته الابتدائية القبض عليه وإيداعه السجن لمشاركته في أعمال شغب ضدّ المستعمر الفرنسي. وإثر خروجه من السجن التحق بالعاصمة حيث انتسب إلى جامع الزيتونة وبه أتمّ المرحلة الثانوية من دراسته، ثم قصد العراق لمواصلة التعلم العالي بدار المعلمين العالية ببغداد وفيها تخرّج سنة 1951 بشهادة الإجازة في الآداب العربية وفي التربية. ثم قصد جامعة السربون بباريس وبها أعدّ رسالة دكتوراه بعنوان: تاريخ المدرسة المالكية بالمشرق إلى نهاية القرون الوسطى بإشراف الأستاذ بلاشير، نوقشت في ماي 1962.

وفي سنة 1962 رجع إلى تونس للتدريس بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، وساند جهود عميدها آنذاك الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور في تطوير المناهج العلمية والتربوية للكلّية، كما درّس مادة التشريع الإسلامي بكلية الحقوق بتونس. ودرّس مادة اللغة العربية بالمدرسة العليا لضباط البحرية بمنزل بورقيبة.

وفي سنة 1976 تولّى عمادة الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين، كما باشر رئاسة قسم الأديان والمذاهب بالمعهد الأعلى لأصول الدين.

آثاره العلمية ونشاطه الثقافي

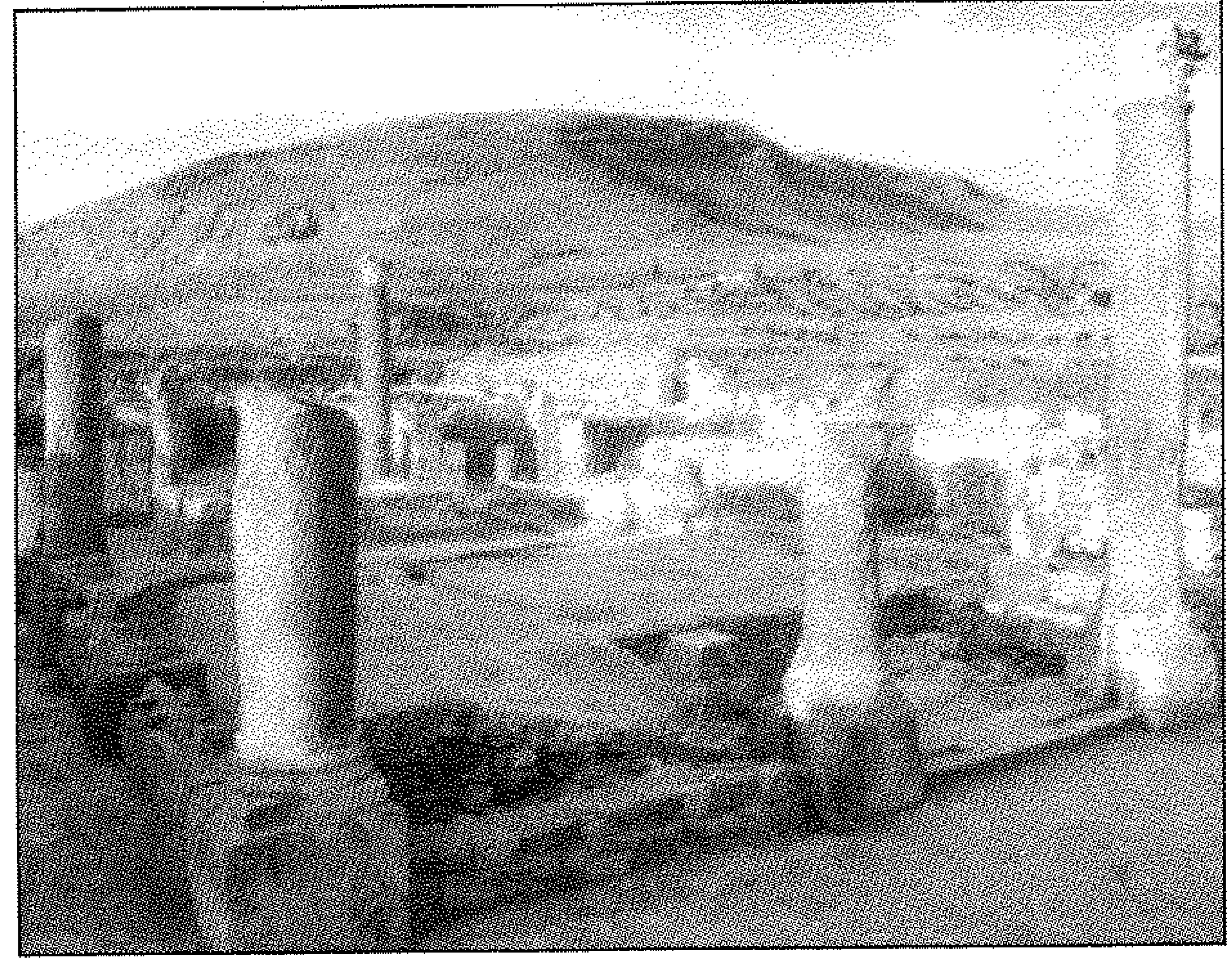
"تاريخ المدرسة المالكية في المشرق إلى أواخر العصر الوسيط" (بالفرنسية). (نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس 1962.
- من مذاهب التربية والتعليم، تونس 1963.
- تحقيق كتاب: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض. 5 أجزاء، بيروت 1966.
- كشف الغطاء عن حقائق التوحيد للحسين بن الأهدل اليمني، تونس 1963.
- قصر هلال ومعركة التحرير، الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس 1975.
- كتاب المعتمد من أصول الفقه لأبي الحسين البصري المعتزلي، جزءان، بيروت 1963.
- قيم الحركة السياسية. نشر مركز البحوث الاجتماعية والاقتصادية، الجامعة التونسية.
- الفقه المالكي وخصائصه : بحث نشر ضمن أعمال «ملتقى ابن عرفة»، منشورات الحياة الثقافية، وزارة الثقافة، تونس 1977.
- المدرسة الظاهرية بالمشرق والمغرب.
- إسهام في تاريخ المذهب الحنبلي.
- تحقيق الردّ على الجهمية للإمام أحمد بن حنبل.
- مدرسة القيروان الطبية، ابن الجزار.

وتجدر الإشارة إلى أنّه ترجم من الفرنسية إلى العربية كتاب: "دولة اسرائيل" لقدمي كوهين.

وكان عضوا قارّا بالمؤتمر الإسلامي المسيحي الذي ينتظم دوريا بإسبانيا، كما أسهم في الكثير من الندوات العلمية داخل تونس وخارجها.

وله عدّة بحوث علمية نشرها في مجلات داخلية وخارجية.
ولقد أسهم الدكتور أحمد بكير محمود في تأطير طلبة الدكتوراه.
توفّي في 25 جويلية سنة 1991 ودفن بمقبرة قصر هلال.

بلاّريجيا



تقع بلاّريجيا بسفح جبل ربيعة المرتفع بنحو 649م، على منحدر ضعيف مشرف على سهل مجردة، وهي على الطريق العتيقة الواصلة بين قرطاج وعنّابة (هيبون) والموافقة للطريق العصرية المخترقة للموقع الأثري. وهي أيضا قريبة جدّا من الفجّ المؤدّي إلى ميناء طبرقة عبر جبال خمير، ومن مصبّات عدّة أودية في مجردة. فلا غرابة أن تكون بلاّريجيا مستوطنة رومانية وقد حظيت بموقع مناسب ثري التربة غزير المياه رطب المناخ عرف عند الكتّاب القدامى بـ:(Campi Magni) وأعطى جزءا من اسمه لبلاّريجيّا إذ هو مذكور عند أوغسطين بصفة (Campus Bullensis)، وقد انتقل لفظ (Bullensis) إلى (Bulla) عند الرومان وإلى (Boll) عند الجغرافيين العرب، وعرّب لفظ (Campus) بفحص، فأصبحت التسمية العربية: فحص البلّ حسب البكري، كما تذكر لها تسمية ثانية بحمّام الدرّاجي.

كانت هذه المنطقة تابعة للقرطاجيين منذ القرن الثالث. كما شهدت المنطقة الحرب التي قادها ماسينيسا سنة 150 ق. م، لكنّها لم تقض على نشاط المنطقة الفلاحي. ومما يزيد في تأكيد أهميتها لجوء الملك هيارباس (Hiarbas) إليها سنة 81 ق. م. إثر انهزامه أمام خصمه بومبي (Pompée) وحليفة يمبسال، ولعلّها تسمّت بـ(Regia) نسبة إلى الملك المعتصم بها.
وقد عثر في بلاّريجيا على جملة من القبور الجلمودية والقبور البونية الحديثة أو المتأخرة. وهو ما يدلّ على تواصل الحضارة فيها. إلاّ أن الحضور الروماني بها أخذ يتأكّد ويتوسّع منذ إنشاء مقاطعة أفريكا سنة 146 ق. م، وخاصة انتصار قيصر في تبسّة سنة 46 ق. م. فمن ذلك التاريخ انتشرت في المنطقة عدّة مستعمرات رومانية. وحافظت بلاّريجيا، مع ذلك، على استقلالها الداخلي وعلى تقاليدها وتنظيمها السياسي بصفتها مدينة حرّة (Oppidum Liberum). لقد كان ضغط أعيان بلاّريجيا شديدا على كلّ الأهالي لفرض الطابع الروماني على المدينة المتطوّرة، فكان الترومن جليا في اللغتين الرّسمية واليومية اللتين أصبحتا لغة لاتينية وفي أسماء السكان التي أصبحت رومانية بديلة للأسماء الأصلية، ولنا عدّة أمثلة في النقائش المكتشفة. من ذلك شخص أصله (Barigbal) أو برق بعل، أضاف إلى اسمه البربري أو الفينيقي اسمين رومانيين فأصبح يسمّى (Helvius Barigbal Lucius) وكذلك شاهد من شواهد القبور جمع فيه بين اسمين قديم وجديد أو محلي وروماني، فالأوّل (Manilia Zaba) والآخر (Publius Ponttius Felico). حتّى الهياكل السياسية للمدينة تغيّرت وأصبحت مقلّدة لهياكل مدينة إيطالية. كانت بلاّريجيا أوّل الأمر بلدية منذ ق 1م، وتقريبا في عهد (Vespasien) الإمبراطور الذي حكم من سنة 69 إلى سنة 79م. ثم أصبحت مستعمرة بفضل (Hadrien) الإمبراطور الذي حكم من سنة 117 إلى سنة 138م. هكذا أصبح لبلاّريجيا تنظيم بلدي ومجلس منتخب

على منوال مدينة روما. وبهذا أصبحت مركزا عمرانيا كبيرا مستقطبا لعدّة سكان نازحين لما توفّر فيها من مؤسسات ومرافق. هذا ما تؤكّده الآثار التي يعود الظاهر منها اليوم إلى الفترة الممتدّة من ق 1 إلى ق 6م. في حين تعود آثار المنشآت العمومية الكبيرة إلى الفترة ما بين ق 2 وق 5م، أي إلى الفترة الرومانية المزدهرة. في تلك الفترة تمكّن بعض أفراد من العائلات الكبيرة من الإسهام في إدارة الإمبراطوريّة وفي الدخول إلى ما يشبه عندنا اليوم بمجلس النواب أو مجلس الشيوخ، بل إن بلاّريجيا هي المدينة الإفريقية التي قدّمت لروما أكبر عدد من الشيوخ والنواب. وهو ما يدلّ على ازدهارها وحيويتها رغم تواضع عدد سكانها. وهو عدد لا يتجاوز بعض الآلاف نسمة. ولكنها غنية باقتصادها وثرواتها الفلاحيّة. وقد شهد بذلك الأسقف أوغسطينوس عندما مرّ ببلاّريجيا سنة 399م، وفيها خطب منتقدا بعض عادات السكان، من ذلك التردّد على المسرح، هذا النوع من التسلية الذي حرّمته الكنيسة المسيحية، فقد قاطعه أهالي شمتو، المدينة المجاورة لبلاّريجيا، ومازالت هذه محافظة عليه. وبالفعل فقد انتشرت المسيحية في المدينة ولكن الخلافات لم تخمد حتى إنّه في سنة 411م كان لا بدّ من تمثيل المدينة في مؤتمر قرطاج باثنين من قساوستها، أحدهما كاثوليكي والآخر دوناتي، ولكنّ المهتمين بالموضوع لا يعرفون كيف قُضي على الدّوناتية بحيث لم تبق إلاّ الكاثوليكية ممثلة للديانة المسيحية. وكذلك المعلومات عن الفترة الوندالية والبيزنطية ما عدا حلقة من الاستيلاء البيزنطي رواها الكاتب المعاصر للأحداث آنذاك بروكوب (Procope) سنة 533م. فبعد أن افتكّت قرطاج من الوندال اعتصموا في بلاّريجيا ولكنهم لم يصمدوا أمام البيزنطيين الذين احتلّوا المدينة، ولم تستتبّ أوضاعهم بها نظرا إلى الانتفاضات التي قام بها الأهالي. ومن آثار تلك الفترة المضطربة حصن صغير وتحصينات المسرح. وإذا كانت فترة الانحطاط مجهولة، فإنّ وجود أسقف ببلاّريجيا في أواسط ق 7م يدلّ على استمرار العمران بها ولو بشكل متواضع، وقد عثر فيها على كنز ذي 260 قطعة نقدية فضيّة تعود إلى النصف الثاني من ق 6هـ/12م. ولكن في الفترة الإسلاميّة التي لم تخلّف في بلاّريجيا أيّ معلم مهمّ بدأت الحياة تنطفئ تدريجيا لفائدة مراكز عمرانيّة جديدة أهمّها جندوبة أو سوق الأربعاء سابقا حيث توفرت حظوظ التنمية بالطريق الرئيسة الجديدة وخطّ السكة الحديدية المنشأتين في عهد الحماية الفرنسيّة لأغراض استعماريّة.

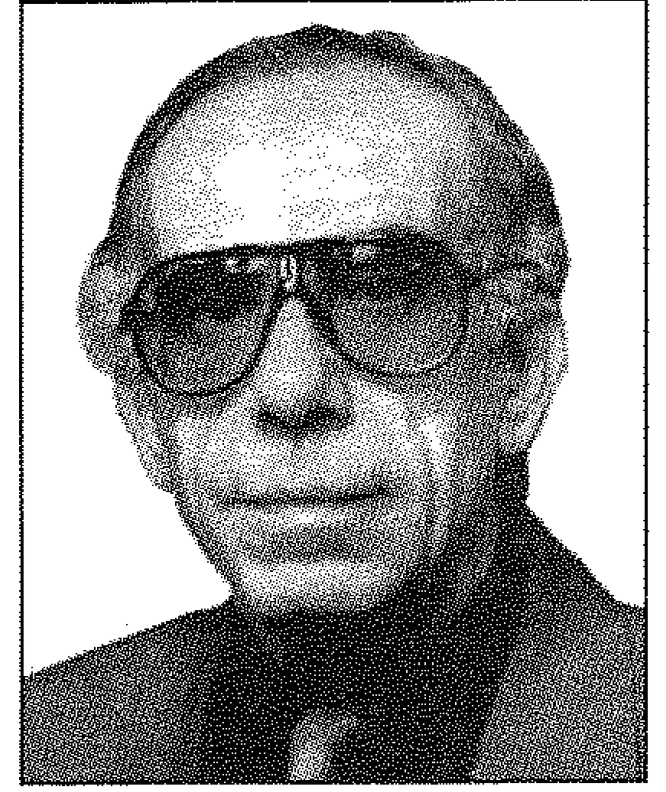
وبلاّريجيا اليوم موقع أثري وسياحي مهمّ، اهتمّ بوصف آثاره الرحالة والباحثون من مختلف الجنسيات، وأجريت فيه بعض الحفريات غير المنظمة، آخرها قام به فريق معهد الآثار بتونس بالتعاون مع المدرسة الفرنسية بروما، وكان من ثماره كتاب صدر سنة 1977 مع ملحق حول آثار بلاّريجيا في متحف باردو. والزائر اليوم لموقع بلاّريجيا يشاهد مواجل الماء في عدّة مواضع وقوس النصر والحصن البيزنطي وعدّة معابد وحمامات ومنازل وأنهج ومقابر بما فيها القبور الجلمودية جنوبا والمسرح والساحة العامة والكابيتول والسوق.

وإذا كانت جلّ تماثيل الآلهة أو أباطرة الرومان قد نُقلت مع أجمل اللوحات الفسيفسائية إلى متحف باردو، فإن الكشوف الجديدة أجلت لوحات أخرى تمثل الحياة اليومية والاقتصاديّة والدينية في المدينة قديما مع بعض التوابيت المزخرفة. ولا شكّ في أن أهم المعالم الدّالة على خصوصيّة المعمار في هذه الناحية هي تلك المنازل ذات الطابقين، أحدهما سفلي تحت الأرض يساعد على التأقلم مع الحرارة المتفاوتة صيفا وشتاء.

ومن أروع تلك المنازل ذات الطابق الأرضي منزل الصيد البرّي ومنزل الصيد البحري نسبة إلى مشاهد اللوحات الفسيفسائية المزيّنة للأوّل

والثاني، وتمتاز بتعدّد غرفها ومرافقها العجيبة: من ذلك احتواؤها على كنيسة خاصة يتعبّد فيها سكان المنزل الكثيرون، وعلى حمّامات خاصة بهم. فلعلّ هذه المنازل كانت خاصة بسكنى الصيادين الأثرياء أو المنخرطين في الجمعيات المنظمة لمهرجانات بلاّريجيا.

أمّا المجموعة المعروضة بمتحف باردو من آثار بلاّريجيا وهي التي تعود إلى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث، فهي تماثيل نحتت في بلاّريجيا وفي أماكن أخرى ثمّ جلبت إلى معابد المدينة، دلالة على انتشار الرّومنة، وعبادة أبولون بدرجة أولى وديميتير وأسكولاب وأتينا وساتورن بدرجة ثانية.



الحبيب بلال
[1937 – 2002م]

كانت ولادته بمدينة منزل بورقيبة بالشمال التونسي في جويلية 1937. حصل على ديبلوم الهندسة المدنية (اختصاص هندسة وتزويق) من فرنسا ثمّ أسس "رواق بلال" الذي هو جزء من مسكنه (بالمنزه الخامس بالعاصمة تونس)، وفتحه للمعارض الجماعية والشخصية، مارس الرسم على المعادن المطلية، وكانت جلّ أعماله تشخيصيّة تعبيريّة، استخدم فيها التقنيات المركبة. وهو يستمد خصائص فنه من الحرفيّات المعدنية بعد أن يطليها بمواد سائلة. أما مضامينه فدارت حول الإنسان وطموحه إلى تحقيق "سعادته الوجودية"، كما أنجز أعمالا ذات مضامين تراثية تستلهم تقاليدنا التونسية العربية. وكانت وفاته بتونس العاصمة في مارس 2002.

أقام الحبيب بلال في الفترة من سنة 1976 وحتى سنة وفاته، أكثر من أربعين معرضا بين فردي وجماعي، منها 33 في تونس و 8 في الخارج، بكل من سويسرا وفرنسا والمغرب ومصر ولبنان واليابان وألمانيا. ونال عددا من الجوائز في مسابقات نظّمت خارج تونس، مثل ألمانيا، وخاصة من بعض المنظمات الدولية مثل منظمة العفو الدولية، والمنظمة العالمية لقرى الأطفال؛ إلى جانب جوائز وشهادات تقدير من منظمات وطنية. وكان مع ذلك في سباق مع الزمن، ينجز المزيد، ويلتذ بمعاشرة الأطلية والمعادن والألوان، وخاصة صهد الفرن.

وبالتأمّل في الأعمال الفنيّة التي اشتمل عليها معرضه الاسترجاعي (موفى سنة 2001 ومستهل 2002) ونظّمه اتحاد الفنانين التشكيليين بتونس تكريما له، وهو على سرير المرض - أمكننا تسليط الضوء على بعض الخصائص لتجربة هذا المبدع. إنها عالم المهندس الفنّان الذي يزاوج بين البناء والتزويق، فقد فرّ من مهمّات تقنين الجامد لينخرط في تجلّيات الإبداع بترويض السوائل والمتحرّكات، كي يبدع أشكالا تعبيرية ضمن الحركة، في محاولات متكررة لجعلها أكثر إيجابية ووضوحا.

كانت للفنان الحبيب بلال أمنية، عبّر عنها سنة 1978 عند رجوعه نهائيا إلى أرض الوطن وهي تدريس تخصّصه، ليسهم في تكوين جيل من الفنانين يتداولون تقنياته، وتتناقلها الأجيال اللاّحقة وتطورها، لكنّها بقيت أمنية.

استخدم بلال بأسلوب فنّي بارع طرق الحرفيين في أوروبا، في صناعة الطلاء المعدني على النحاس، وبعض المجوهرات والأوسمة والنياشين والميداليات وغيرها، فَوَظَّفَ ذلك كله في إنجاز أعمال فنية تنطوي على رؤى، وتجسّد أفكارا، وتبني علاقات حميمة بين المُتَلَقّي والعمل الفني، أساسها تجسيد الهمّ الإنساني في ضوء العناصر

الحضارية للوطن، والسفر عميقا في مكونات هويته، ودعائمه الثقافية والاقتصادية والحضارية عموما.

الحبيب بلال فنّان عاشق لفنّه، عاش، في الوقت نفسه، الصراع الطويل مع العناصر المضطربة، المتحرّكة، ومعالجة حركاتها غير المتوقّعة على الحامل، من جهة، والفرح العارم عند رؤيتها خارجة من الفرن مثلما أراد لها، قطعا فنية في كمال تقنيّ نادر. ومن شدّة حبه لهذا الاختصاص وموادّه، وخبرته في توظيفها، احتفظ أحيانا بلون النّحاس، ليظهر لَمَعانه المعدني ولونه الحارّ. إنّه فنّان الطلاء المعدني بامتياز.

البشير سالم بلخيريّة
[1930–1985م]

ولد بجمّال منطقة الساحل التونسي في 4 مارس 1930. زاول دراسته الابتدائيّة بمسقط رأسه. ثم التحق بالمدرسة الصّادقية بالعاصمة تونس سنة 1951. وفيها أحرز شهادة الباكالوريا. تابع دراسته العالية بباريس ونيويورك. وتخصّص في الاقتصاد وإدارة الأعمال بمختلف مجالاتها الصناعية والتجارية والفلاحية. وأظهر في اختصاصه تفوّقا أقام به الدّليل على أنّ التونسي لا يقلّ كفاية واقتدارا عن غيره من أصحاب الكفاءات الأجنبيّة العالية، إذا ما أحيط بالرعاية اللازمة التي تزول معها عوامل الوهن وأسباب الشعور بالنقص.

يعتبر البشير سالم بلخيرية من بناة القطاع الاقتصادي والخدماتي ومن مؤسّسي الصناعة في تونس المستقلّة.

أرسى أوّل مركّب صناعي وتجاري بمنطقة رادس (تونس للمعارض). وعرف بكونه باعثا صناعيّا جعل الواجهة الاقتصادية مجالا من مجالات النضال من أجل دعم السيادة الوطنيّة والاستقلال. وفي هذا الإطار أسهم في إرساء الإجراءات الإدارية والقانونية والجبائية وتطويرها لمساعدة المستثمر التونسي على الوقوف ندّا لنظيره الأجنبي.

كان وراء تشجيع المبدعين في المجال الصناعي والخدماتي وعيا منه أنّ رعاية الطّاقات الصاعدة وتحفيز همم الشباب المبدع يندرجان ضمن إعداد رأس المال البشري الذي يعوّل عليه في بناء النهضة الاقتصادية وتعزيز المواطنة المسؤولة، باعتبارها الممرّ الإجباري لتحقيق هذه النهضة.

كان للنشاط الجمعياتي والمنظماتي الذي مارسه بلخيرية دور أساس في نحت شخصيته. فقد كان مؤسسا لفرع الشبيبة المدرسية بجمّال سنة 1947. وتولّى في باريس عضوية مكتب الاتحاد العام لطلبة تونس سنة 1957، كما كان مساعد رئيس الطلبة الأفارقة بنيويورك سنة 1959 وعضوا بالوفد الدولي للطلبة بأمريكا الجنوبية.

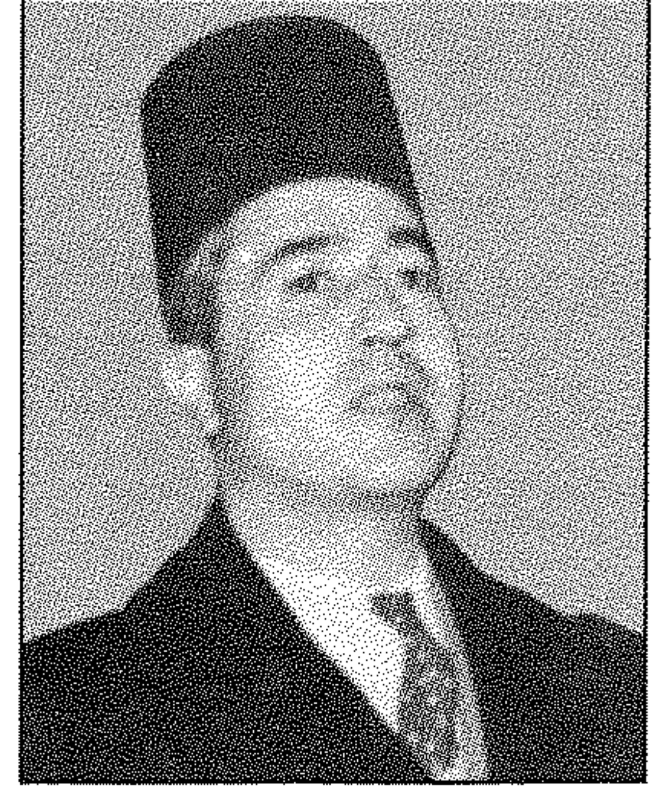
ترأس بلخيرية الجامعة التونسية لرياضة الرقبي. وكان مساعدا لرئيس جمعية قدماء تلاميذ المدارس العليا للتّجارة ومن مؤسّسيّ جمعية (تونس آسيا للتعاون الاقتصادي)، كما تولّى عضوية عدد كثير من الجمعيات والمنظمات الدولية في مجال الاقتصاد والخدمات. عرف بأنّه من الآباء المؤسسين لقطاع الأعمال في دولة الاستقلال، كما هيأ بأفكاره ومبادراته الأرضية لغيره وفتح لهم الباب لإنجاز صالونات ومعارض ومؤسسات في مجال الاقتصاد والخدمات.

ويمكن القول إن البشير سالم بلخيرية نذر حياته لخدمة السيادة الاقتصادية والتجارية الوطنية بإنشاء صناعة محلّية وتأسيس قطاع وطني للخدمات. وهو ما فسح المجال لاستيعاب أعداد كثيرة من العمال والمهندسين والمتخصّصين. وأرسى دعائم اقتصاد تونسي متوازن ومنفتح على التجارب الأوروبية والآسيوية.

ألّف بلخيرية الكثير من الكتب في مجال

الاقتصاد والخدمات. وحاضر في تخصّصه بالجامعة التونسيّة والجامعات الأجنبيّة.

توفيّ في 28 نوفمبر 1985 وهو بصدد إلقاء محاضرة على منبر كلية العلوم والتقنية بالمنستير.



علي البلهوان
[1909 – 1958م]

1) نشأته ودراسته بتونس (1909–1931)

ولد علي (شهر علاّلة) بن عبد العزيز البلهوان في 13 أفريل 1909 بمسكن عائلته الكائن بنهج سيدي ابن عروس عدد 64 بمدينة تونس، وهو ينحدر من أسرة تونسية من أصل تركي.

ولمّا بلغ سنّ الدراسة التحق بكتّاب بطحاء رمضان باي القريب من مقرّ سكناه، حيث حفظ نصيبا من القرآن الكريم وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة. ثم انتقل إلى مدرسة بطحاء خير الدين حيث زاول دراسته الابتدائية من أكتوبر 1917 إلى جوان 1924، تاريخ حصوله على الشّهادة الابتدائية ونجاحه في مناظرة دخول المعهد الصادقي الذي واصل به دراسته الثّانوية من مستهلّ السّنة الدّراسية 1924–1925 إلى أن أحرز شهادة ختم الدروس الثانوية في جوان 1930. ثم التحق بمعهد كارنو حيث حصل في جوان 1931 على الجزء الأول من شهادة الباكالوريا، واسترعى في أثناء فترة الدّراسة انتباه أساتذته وأقرانه بحسن سلوكه وذكائه الوقّاد وقدرته على الاستيعاب.

2) دراسته العليا بفرنسا ونشاطه الثقافي والسياسي (1932–1935)

وإثر ذلك تحوّل الشّاب علي البلهوان إلى باريس لإتمام دراسته الثّانوية ومواصلة دراسته العليا. وبعد حصوله على الجزء الثاني من الباكالوريا في جوان 1932، التحق في مستهلّ السنة الجامعية 1932–1933 بكلية الآداب التّابعة لجامعة الصّربون حيث زاول دراسته في قسم اللغة والآداب العربية وتتلمذ لنخبة من المستشرقين الفرنسيين أمثال ليفي بروفنسال وريجيس بلاشير وويليام مارسي.

وإلى جانب دروس اللّغة العربية تابع في الكلية نفسها دروس الفلسفة وانتسب إلى مدرسة اللّغات الشرقية بصفة مستمع حرّ. وبفضل اجتهاده وإقباله على طلب العلم تمكّن في ظرف ثلاث سنوات جامعية من إحراز الإجازة في اللّغة والآداب العربيّة في جوان 1935. وكان ينوي مواصلة إقامته بباريس للمشاركة في مناظرة التبريز في اللغة والآداب العربية، لا سيما بعد نجاح أوّل تونسي في هذه المناظرة، هو الأستاذ محمّد عطيّة. لكنّ الظروف الماديّة لم تسمح له بتحقيق رغبته.

ولم يمنعه انشغاله بطلب العلم من النّضال في سبيل تحرير وطنه الرازح عهدئذ تحت نير الاستعمار الفرنسي. فقد انخرط منذ قدومه إلى باريس في سلك جمعيّة طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا، تلك الجمعيّة التي انبعثت منذ عهد قريب بباريس لتوجيه طلبة المغرب العربي المقيمين بفرنسا توجيها وطنيّا. ونظرا إلى ما كان يمتاز به علي البلهوان من قدرة على العمل في سبيل المصلحة الوطنية، فقد انتخبه زملاؤه في السنة الجامعية 1931–1932 عضوا في الهيئة المديرة للجمعية المذكورة ثم انتخب في السّنة الجامعيّة 1934–1935 نائبا لرئيس جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا، وكان رئيسها آنذاك صديقه الحبيب ثامر.

ولقد أسهم علي البلهوان في جميع المؤتمرات السّنويّة التي كانت تعقدها هذه الجمعية سواء في إحدى مدن المغرب العربي أو في باريس، من ذلك أنّه شارك في المؤتمر الأول

المنعقد في قاعة الجمعية الخلدونية بتونس في شهر أوت 1931، وعيّن عضوا في لجنة التّعليم العالي ولجنة التعليم العربي مع صديقه المنجي سليم. ثم شارك في المؤتمر الثّاني المنعقد بمدينة الجزائر في شهر أوت 1932 وانتخب مقرّرا للجنة التعليم العربي، وشارك في المؤتمر الثّالث المنعقد بباريس في ديسمبر 1933. وأخيرا شارك في المؤتمر الرّابع المنعقد بتونس في أكتوبر 1934، والمؤتمر الخامس المنعقد بتلمسان في سبتمبر 1935. وتناول الكلمة في الجلسة الافتتاحية لهذا المؤتمر للردّ على رئيس بلدية تلمسان الفرنسي الذي انتقد رئيس المؤتمر الحبيب ثامر، متّهما إياه بالجحود وعدم الاعتراف بالجميل لفرنسا، كما شارك، نيابة عن الجمعيّة، في المؤتمر الدّولي المناهض للحرب والفاشية، المنعقد بمدينة بروكسال في ديسمبر 1934، وألقى خطابا باسم جميع طلبة المستعمرات الفرنسيّة.

وإلى جانب نشاطه في جمعيّة طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا، انضمّ إلى جمعيّة نجم الشمال الإفريقي التي كانت تجمع بين طلبة المغرب العربي وعمّاله المقيمين بفرنسا، كما انتخب عضوا في «لجنة الدفاع عن الحريات بتونس» التي أنشأها الحزب الدستوري الجديد بباريس إثر إبعاد زعمائه إلى الجنوب التونسي في 3 سبتمبر 1934، وذلك للتّشهير بالسّياسة القمعيّة التي كان ينتهجها المقيم العام الفرنسي بيروطون. وكان يترأس هذه اللّجنة سليمان بن سليمان، ويقوم بمهام الكاتب العام الهادي نويرة. ومن أعضائها الآخرين محمود المسعدي وعبد الوهاب بكير وصلاح الدين بوشوشة. أما الشّعبة الدّستورية التّابعة للحزب الدّستوري الجديد، فإنّها لم تبعث إلاّ في ديسمبر 1936، أي بعد عودة البلهوان إلى تونس.

3) نضاله السياسي بتونس (1935 – 1938)

بعد حصوله على الإجازة في اللّغة والآداب العربية عاد علي البلهوان إلى تونس في جويلية 1935، فعيّنته إدارة التّعليم العمومي في مستهلّ السنة الدراسية 1935–1936 أستاذا بالمعهد الصادقي، فعمل الأستاذ الشّاب من أوّل وهلة على بثّ روح جديدة في نفوس تلاميذه، قوامها الفكرة الوطنيّة الصّادقة ومقاومة الاستعمار والاعتزاز بالشّخصية العربية والإسلامية والتّضحية في سبيل الوطن. ولم يقتصر تأثيره الوطني على تلامذة الفصول التي يدرّس بها، بل امتدّ إلى بقية تلامذة الصّادقية، وطلبة الجامع الأعظم، وتلامذة سائر المعاهد الثانوية، حتى أصبح يعرف باسم «زعيم الشباب».

وإثر الافراج عن قادة الحزب الدّستوري الجديد في مارس 1936، انضمّ علي البلهوان إلى هذا الحزب الذي استعاد نشاطه السياسي، وذلك صحبة مجموعة من الدّستوريين الشّبان، أمثال المنجي سليم والباهي الأدغم وصلاح الدين بوشوشة والرّشيد إدريس، وشارك بالخصوص في المؤتمر الثّاني للحزب الدستوري الجديد المنعقد بنادي الحزب الكائن بنهج التريبونال بتونس من 30 أكتوبر إلى 2 نوفمبر، وأيّد علي البلهوان النّزعة المطالبة بالاستقلال، مع زملائه القادمين من باريس، المنجي سليم والهادي نويرة وسليمان بن سليمان وصلاح الدين بوشوشة، وممثلي الشّعب الدّستورية بالداخل، الهادي شاكر ويوسف الرّويسي والحبيب بوقطفة والباهي الأدغم والهادي السعيدي. وساندت هذه المجموعة موقف الشقّ الوطنيّ الرّاديكالي في الدّيوان السياسي الذي يمثّله الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف على حساب الشقّ الإصلاحي الرافض للصدام مع المستعمر الذي يمثله الدكتور الماطري والطاهر صفر والبحري قيقة. وفي آخر الأمر قرّر المؤتمر سحب الثقة من حكومة الجبهة الشّعبية، بعد أن رضخت لإرادة غلاة الاستعمار، ودعاة التفوّق الاستعماري (Les Prépondérants)، وانتخب علي البلهوان عضوا في المجلس الملّي.

وتسارعت الأحداث بعد ذلك، فاستقال الدكتور الماطري من رئاسة الحزب في جانفي

1938 بعد إضراب 30 نوفمبر 1937 الذي قرّره الديوان السياسي تضامنا مع الجزائر والمغرب. وإثر ذلك تفوّق الشقّ الوطني الرّاديكالي الذي سيطر على أعمال المجلس الملّي المنعقد يومي 13 و14 مارس 1938، وأنهى أعماله بتوجيه نداء إلى الشعب لمواصلة الكفاح. وفي الأثناء ألقى علي بلهوان في نادي الحزب محاضرة بعنوان «نصيب الشبيبة من الكفاح»، وألحّ على ضرورة نضال الشبّان التّونسيين مع الجماهير الشّعبية في صفوف الحزب الدّستوري الجديد الذي يعتمد على حيويّتهم ويعتبرهم طليعة الأمّة وقلبها النابض.

وإثر هذه المحاضرة انبعثت لجنة الاتّحاد الزّيتوني المدرسي للعمل على تنسيق نضال الطلبة والتلامذة إلى جانب الحزب. واهتزّت السّلطة الاستعمارية لهذا السلوك الجديد الذي لا عهد لها به من قبل الأساتذة التّونسيين، وهالها أن يخرق ذلك المدرّس المبتدئ التقاليد المتّبعة في سلك التّعليم، فيقوم بمثل هذا النشاط البالغ الخطورة. وعندئذ قرّر الكاتب العام للحكومة كارترون في 15 مارس 1938 إعفاء البلهوان من التّدريس. واحتجاجا على هذا الإجراء التعسّفي أضرب تلامذة المعهد الصادقي عن الدّروس، فعمدت إدارة التعليم العمومي إلى غلق المعهد، ولم يبق التّلامذة الصّادقيون مضربين بمفردهم، إذ سرعان ما انضمّ إليهم زملاؤهم الزّيتونيون الذين أضربوا أيضا عن الدّروس تضامنا مع إخوانهم الصّادقيين، ونظّم الاتّحاد الزيتوني المدرسي اجتماعا عامّا بنادي الحزب حضره أكثر من 3000 شابّ للمطالبة بإرجاع البلهوان إلى منصبه.

وإزاء تصلّب الحكومة وميلها إلى القمع، قرّر الديوان السّياسي تنظيم سلسلة من الاجتماعات العامّة داخل البلاد، وتعبئة الجماهير استعدادا للمعركة. فتحوّل مبعوثو الحزب إلى مختلف الجهات للاتّصال بالشعب. لكنّ السّلطة الاستعمارية أقرّت العزم على منعهم من ذلك مهما كانت التّكاليف. فألقت القبض يوم 4 أفريل 1938 على الدّكتور سليمان بن سليمان ويوسف الرويسي في وادي مليز حيث كان من المقرّر أن يشرفا على اجتماع عامّ.

ثم أوقفت يوم 6 أفريل صالح بن يوسف والهادي نويرة ومحمود بورقيبة بتهمة التّحريض على التّباغض بين الأجناس. فقرّر الدّيوان السياسي تنظيم مظاهرتين في سائر أنحاء البلاد، الأولى يوم الجمعة 8 أفريل والثانية يوم الأحد 10 أفريل 1938، للمطالبة ببرلمان تونسي وحكومة مسؤولة لديه وبإطلاق سراح المعتقلين.

وكان يوم 8 أفريل 1938 يوما مشهودا في العاصمة. فقد أغلقت الدّكاكين أبوابها وتجمهر المتظاهرون في الشّوارع، وانتظمت مظاهرتان في طرفي المدينة، انطلقت الأولى من رحبة الغنم (ساحة معقل الزعيم الآن) بقيادة المنجي سليم، وانطلقت الثانية من بطحاء الحلفاوين بقيادة علي البلهوان. وقبل انطلاق هذه المظاهرة خطب زعيم الشّباب في الجماهير الشعبية، فبيّن الأسباب التي دعت الديوان السياسي إلى اختيار المواجهة واستعرض المطالب الوطنية وفي مقدّمتها البرلمان التونسي والحكومة المسؤولة لديه.

والتقت المظاهرتان في باب البحر، وكان قد انضمّ إلى المظاهرة الأولى الدكتور الماطري، رغم استقالته من رئاسة الحزب، ومن هناك توجّهت المظاهرتان إلى ساحة الإقامة العامّة (ساحة الاستقلال الآن)، وقد كانت مطوّقة بالأسلاك الشائكة ومحاطة بالجنود المدجّجين بالسّلاح والدّبابات والسّيارات المصفّحة، وفي وسط الجماهير المنادية ببرلمان تونسي وبإطلاق سراح المعتقلين اعتلى علي البلهوان أكتاف الشّبان، والعلم التونسي يرفرف عليه، فدعا الشعب إلى الكفاح مردّدا عبارات أصبحت تاريخيّة: «يا أيها الذين آمنوا بالقضية التونسية، يا أيها الذين آمنوا بالبرلمان التونسي، إنّ البرلمان

لا يبنى إلاّ على جماجم العباد، ولا يقام إلاّ على سواعد الشباب، ثابروا، جاهدوا في الله حقّ جهاده... قولوا معي: حكومة خرقاء! سياستها خرقاء! قوانينها خرقاء! يجب أن تحطّم وأن تداس، وها نحن حطّمناها ومزّقناها...».

وإثر ذلك تناول الكلمة الدّكتور محمود الماطري لتهدئة الجوّ، فدعا المتظاهرين إلى ملازمة الهدوء وتجنّب الفوضى وأعمال العنف. واستجابة لهذا النّداء تفرّق المتظاهرون، مقرّين العزم على التظاهر من جديد يوم الأحد 10 أفريل إلى أن تلبّي الحكومة مطالبهم.

وإزاء خطورة الوضع استدعى المقيم العام محمود الماطري إلى مكتبه واقترح عليه التوسّط لدى الزعيم الحبيب بورقيبة الملازم للفراش لإلغاء مظاهرة يوم الأحد خشية أن تؤول إلى ما لا تحمد عقباه. فرفض بورقيبة هذا الطلب قائلا لمخاطبه: «يجب أن يسيل الدّم»!

وفي الأثناء انتشر صباح يوم السّبت 9 أفريل 1938 خبر استدعاء علي البلهوان إلى المحكمة الفرنسية لاستنطاقه. فهرع طلبة جامع الزيتونة إلى شارع باب بنات حيث يوجد مقرّ المحكمة للاستفسار حول مصير زعيم الشباب، والتحقت بهم الجماهير الشّعبية، فهجمت الشّرطة على المتظاهرين وأطلقت عليهم الرّصاص، وبعد قليل قدم الجيش لنجدة الشّرطة، واندفع صوب باب بنات وانهال الرصاص على من اعترض سبيله، فتكدّست جثث القتلى والجرحى في كلّ مكان. وما إن قُتل أحد أعوان الجندرمة قرب ساحة باب سويقة حتى ثارت ثائرة رجال الشّرطة والجيش، فعمدوا إلى توجيه نيران أسلحتهم على كلّ من هبّ ودبّ.

وفي فجر يوم 10 أفريل 1938 اعتقلت السّلطة العسكريّة الزّعيم الحبيب بورقيبة وأعضاء المجلس الملّي ورؤساء الشّعب وسائر المناضلين الدستوريين. وأودع المعتقلون – ومنهم علي البلهوان السّجن العسكري بالعاصمة ثمّ نقلوا إلى سجن تبرسق. ولمّا اندلعت الحرب العالمية الثانية نقل قادة الحزب الدّستوري الجديد إلى مرسيليا، فزجّ بسبعة منهم في برج سان نيكولا، وهم: الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف والدّكتور سليمان بن سليمان والمنجي سليم وعلي البلهوان والهادي نويرة ومحمود بورقيبة، ووضع المعتقلون الآخرون في الإقامة الجبريّة ببلدة تريتز. ولم يفرج عن جميع المعتقلين الدّستوريين بفرنسا إلاّ في أوائل سنة 1943، إثر تدخّل السّلطة الألمانية، ولم يسمح لهم بالعودة إلى وطنهم إلاّ في شهر أفريل 1943، أي قبيل دخول الحلفاء إلى تونس.

4) نشاط علي البلهوان إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية (1945-1951)

ولمّا وضعت الحرب العالميّة الثّانية أوزارها وتحوّل الزّعيم الحبيب بورقيبة إلى القاهرة في أفريل 1945 للتّعريف بالقضيّة التّونسيّة في الخارج، استأنف علي البلهوان نشاطه صحبة قادة الحزب الدّستوري الجديد الذين لم يغادروا البلاد التّونسية إثر انتهاء الحرب وهم: صالح بن يوسف والمنجي سليم والهادي نويرة والدكتور سليمان بن سليمان والهادي شاكر والباهي الأدغم، وأسهم معهم في إعادة التنظيم لهياكل الحزب والإشراف على تجديد إطاراته. وتميّز نشاطه بالخصوص في المحاضرات السّياسية والثّقافيّة التي كان يلقيها في الجمعيّات الثّقافية ومنظّمات الشّباب مثل جمعية قدماء الصّادقية والخلدونية وجمعية الشبان المسلمين، وبمقالاته وبحوثه المنشورة في الصّحف والمجلاّت التي استأنفت صدورها، لا سيما منها مجلّة «المباحث».

وفي أثناء المؤتمر الوطني الثّالث الذي عقده الحزب الدّستوري الجديد في أكتوبر 1948 بدار سليم بالعاصمة، انتخب علي البلهوان عضوا في الدّيوان السياسي وكاتبا عامّا مساعدا مكلّفا خاصة بالإشراف على جريدة الحزب «الحرية» الناطقة باللغة العربية، ثم «لواء الحرية» التي

عوّضت الجريدة الأولى بعد تعطيلها، في حين كان الهادي نويرة يشرف على جريدة الحزب النّاطقة باللّغة الفرنسيّة «الرّسالة».

واهتمّ علي البلهوان في نطاق مسؤولياته الحزبية بتكوين الشّباب وبربط الصّلة بين الدّيوان السّياسي ومنظّمات الشّباب.

5) دوره بالخارج إثر اندلاع المعركة الحاسمة (1951 – 1955)

وفي آخر سنة 1951 قرّر الديوان السياسي إيفاد الزّعيم علي البلهوان إلى المشرق للتّعريف بالقضيّة التّونسية والدّفاع عنها لدى الأوساط العربية والدّولية، توقّعا لفشل المفاوضات الجارية بين الحكومتين التونسية والفرنسيّة منذ سبتمبر 1950.

فتحوّل البلهوان إلى القاهرة التي وصلها يوم 13 سبتمبر 1951، وانضمّ إلى بقيّة المناضلين العاملين بمكتب الحزب الدستوري الجديد ولجنة تحرير المغرب العربي، وبالخصوص الطيب سليم والرشيد إدريس وحسين التريكي.

ولما اندلعت المعركة التحريريّة الحاسمة في 18 جانفي 1952 كثّف علي البلهوان اتّصالاته مع المسؤولين عن جامعة الدول العربية وعلى رأسهم الأمين العام للجامعة عبد الرحمان عزّام باشا، والأوساط الحكوميّة المصريّة وسفراء الدّول العربيّة والإسلاميّة بالقاهرة.

ثم تحوّل إلى دمشق وأجرى اتّصالات مع عدد من أعضاء الحكومة السّورية لتوضيح موقف تونس من الحكومة الفرنسيّة، وعاد إلى القاهرة. وإ ثر تحوّل صالح بن يوسف ومحمّد بدرة إلى مصر بعد إلقاء القبض على الوزراء التّونسيين الموجودين في تونس، وفي طليعتهم رئيس الوزراء محمد شنيق يوم 26 مارس 1952، انتقل البلهوان إلى بغداد حيث استقرّ بضعة أشهر وألقى سلسلة من المحاضرات بدار المعلمين العليا، إلى جانب دعوته إلى القضيّة التّونسية بالخطابة في الأندية والكتابة في الصّحف. ثم غادر بغداد في جوان 1953 عائدا إلى القاهرة.

ولما عيّن صديقه الدكتور فاضل الجمالي رئيسا للحكومة العراقية عاد علي البلهوان إلى بغداد في أكتوبر 1953، فاجتمع بأعضاء الحكومة الجديدة الذين كان يعرف جلّهم، «وحصل من الدكتور فاضل الجمالي على وعد بمقاطعة فرنسا اقتصاديا وبالسّعي إلى عقد مؤتمر إفريقي آسيوي لتأييد القضيّة التّونسيّة وقضايا المغرب العربي». ثم عاد إلى القاهرة حيث عكف على تأليف كتابه «تونس الثائرة». وبذل مجهودا كبيرا بالتّعاون مع المسؤولين عن الجامعة العربية وممثّلي الأحزاب الوطنيّة المغربية بالقاهرة، لإعادة الروح إلى لجنة تحرير المغرب العربي برئاسة عبد الكريم الخطابي على أساس التّضامن والاحترام المتبادل بين الحركات الوطنيّة بالمغرب العربي.

6) عودة علي البلهوان إلى تونس ونشاطه بعد الاستقلال (1955 – 1958)

وإثر الخطاب التّاريخي الذي ألقاه رئيس الحكومة الفرنسية منداس فرانس يوم 31 جويلية 1954 بقصر قرطاج بين يدي محمد الأمين باي، وأعلن فيه رسميّا عن اعتراف فرنسا باستقلال تونس الدّاخلي، فكّر علي البلهوان في العودة إلى أرض الوطن. فسافر في أكتوبر 1954 إلى جينيف حيث التقى بالمنجي سليم الذي عيّن في حكومة الطّاهر بن عمّار الأولى وزير دولة مكلّفا بالمفاوضات مع الحكومة الفرنسية، واتّفق معه على العودة إلى تونس. ثم قفل راجعا إلى القاهرة فمكث بها بضعة أسابيع وارتحل إثرها إلى تونس في أوائل فيفري 1955 واستأنف نشاطه مع رفاقه قادة الحزب الدّستوري الجديد. وأعيد انتخابه عضوا في الدّيوان السّياسي في أثناء مؤتمر الحزب المنعقد بصفاقس من 15 إلى 18 نوفمبر 1955، وعيّن رئيسا لمصلحة النّهوض الاجتماعي بإدارة الحزب. وانتخب في أفريل 1956 عضوا في المجلس القومي التّأسيسي، ثمّ اختير أمينا عامّا للمجلس ومقرّرا لمشروع الدستور. وإثر الإعلان

عن إلغاء النّظام الملكي وقيام الجمهورية في 25 جويلية 1957 عيّن المجلس التأسيسي علي البلهوان عضوا في الوفد المكلّف بالتّحوّل إلى قصر قرطاج لإبلاغ الأمين باي قرار المجلس، وهو الذي قرأ نصّ القرار على مسامع آخر الملوك الحسينيين. وكان قد قام منذ حصول بلاده على الاستقلال في 20 مارس 1956 بعدّة مهمّات رسمية بالخارج. فكان عضوا في الوفد الذي شارك في الجمعيّة العامّة لمنظّمة الأمم المتّحدة بنيويورك سنة 1956 برئاسة رئيس الحكومة التّونسية الحبيب بورقيبة، وترأس الوفد التّونسي في المؤتمر الإفريقي الآسيوي المنعقد في شهر ديسمبر 1957. وفي هذه السّنة نفسها عيّن رئيسا لمجلس بلدية مدينة تونس.

7) وفاته

عيّن الزعيم علي البلهوان عضوا في وفد الحزب الدستوري الجديد الذي شارك في أعمال مؤتمر أحزاب المغرب العربي المنعقد بمدينة طنجة من 27 إلى 30 أفريل 1958. واختاره المؤتمر ليكون عضوا في الوفد المكلّف بإبلاغ قرارات المؤتمر إلى رؤساء دول المغرب العربي. ولكنّ المنيّة عاجلته في تونس يوم 9 ماي 1958 وهو يتأهّب للتحوّل إلى طرابلس. ففقدت البلاد التّونسية بوفاته رجلا فذّا لم يفصل أبدا طيلة حياته بين الفكر والعمل وسخّر كلّ طاقاته للدّفاع عن الوطن والذّود عن المثل التي تشبّع بها منذ نعومة أظفاره.

8) آثاره

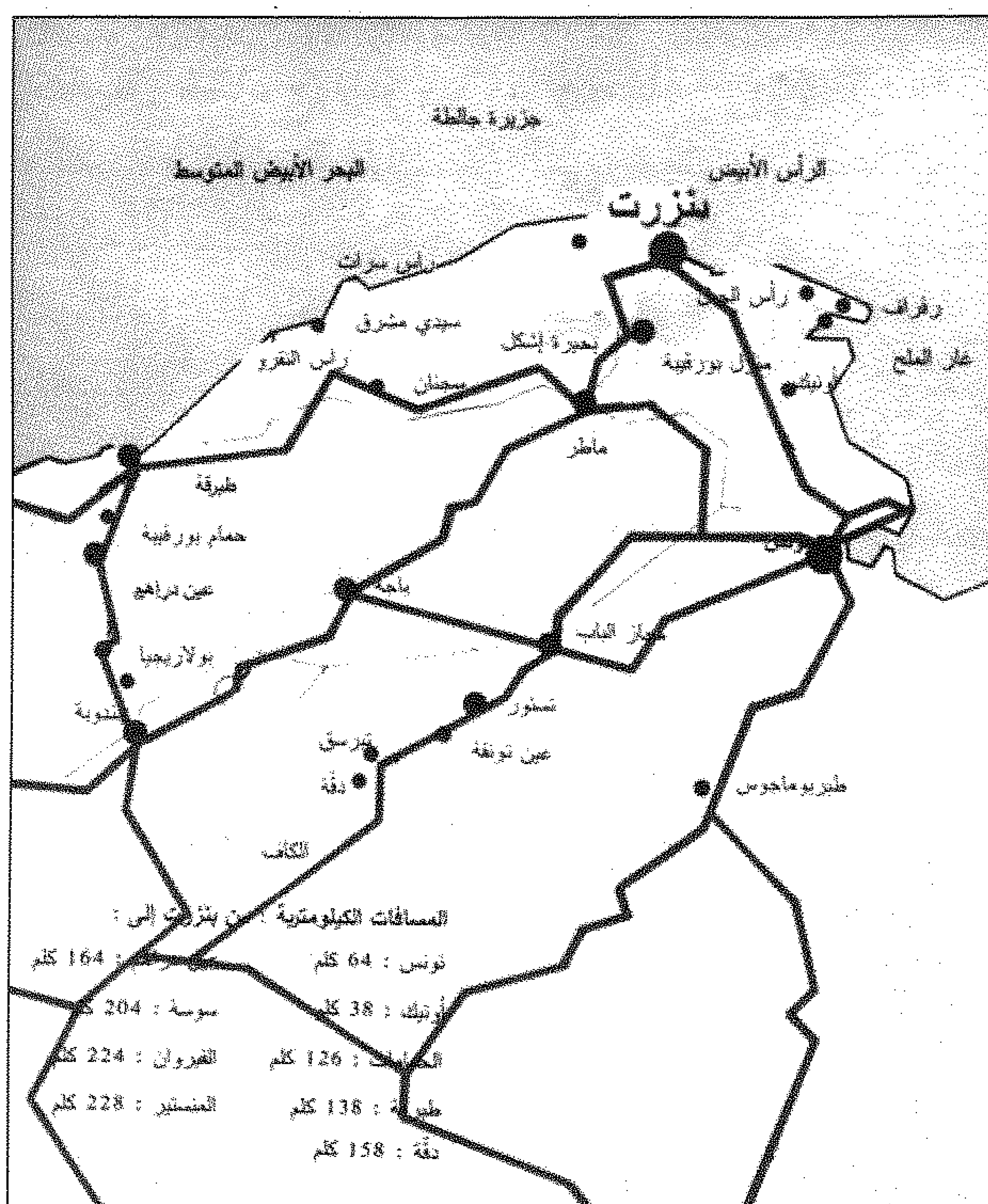
بالإضافة إلى الدّراسات والفصول الكثيرة المتناثرة في الجرائد والمجلاّت، ترك علي البلهوان الآثار المطبوعة التالية:

– «ثورة الفكر أو مشكلة المعرفة عند الغزالي»، منشورات مجلة المباحث، بلا تاريخ.

– «نحن أمّة»، منشورات جريدة الحرّية، تونس، بلا تاريخ.

– «تونس الثّائرة»، منشورات لجنة تحرير المغرب العربي، القاهرة، 1954.

بنزرت



بنزرت مدينة عريقة، ذكرت لأوّل مرّة في التاريخ منذ خمسة وعشرين قرنا، أنشأها الفينيقيون في موقع حصين عند مدخل مجرى مائي كان يربط البحيرة المحمية المعروفة اليوم ببحيرة بنزرت بالبحر الأبيض المتوسّط، واستقروا بها فتكوّنت شيئا فشيئا مدينة نشيطة تعاقبت عليها عدّة حضارات جعلتها من أهمّ المدن التّونسية من حيث العمران وفنّ العمارة. وهي تحتوي اليوم على الكثير من الشواهد على تلك الفترات.

عوامل نشأة بنزرت

إنّ المعروف في علم التاريخ أنّ الإنسان في سعيه إلى الاستقرار يبحث عن المواقع الدّفاعية لضمان أمنه كما يبحث عن السهول الخصبة ومجاري المياه لتعاطي نشاطه الفلاحي والتّجاري، وقد وفّر الموقع الطبيعي الحصين لبنزرت جميع هذه العوامل التي أسهمت في إنشاء المدينة وأمّنت تطوّرها.

تحوي بنزرت الكثير من المعالم التي ليست لها القيمة التّاريخية والمعمارية نفسها. لذا فإنّنا انتقينا نماذج لنوعيّات مختلفة من المباني والمواقع الأثريّة للعصور التي مرّت بها المدينة.

تشكّلت الملامح العمرانية العامّة لمدينة بنزرت، مثل جلّ المدن التّونسيّ، وتحدّدت في العصر الحفصي وهي الفترة التّاريخية التي تحقّق فيها بالبلاد الاستقرار السّياسي والاجتماعي والنموّ الاقتصادي والتّجاري ومن ثمّة التّوسّع العمراني.

أسوار المدينة

تذكر المصادر القديمة أنّ الفينيقيين قد حصّنوا مدينتهم الجديدة منذ تأسيسها وأنّ القائد الصقليّ أغاثوكل أتمّ إقامة تحصينات المدينة وتوسيع مينائها سنة 307 ق. م، إلاّ أنّ القائد الوندالي جنسريك أمر بهدم تلك الأسوار سنة 439. وفي سنة 534 على إثر طرد البيزنطيين الوندال من البلاد أمر قائدهم بليزار بإعادة بناء تلك الأسوار لتحصين المدينة.

وبعد الفتح الإسلامي اعتنى الأمراء العرب بتحصين المدن الساحلية وتعزيز مواقعها. ويذكر ابن خلدون أنّ الأمير أبا إبراهيم أحمد (حكم بين 863م و856م) وبعده الأمير أبا الغرانيق (حكم بين 875 و864م) أقاما القلاع والأبراج والرّباطات لتحصين المدن السّاحلية من هجمات العدو المتأتيّة من البحر. ويذكر البكري أنّ هذه المدينة محصّنة ومحاطة بسور.

وظلّت تحصينات بنزرت قائمة حتى مقدم الملك الإسباني شارل الخامس الذي استولى على المدينة سنة 1535م وكان همّه الأوّل تخريبها بهدم أسوارها. وبقيت المدينة «مفتوحة» إلى أن أمر علي باشا سنة 1740م بترميم ما هدّمه شارل الخامس كما قام بتحسين تحصينات المدينة التي بدأت تتصدّع من جرّاء القصف الذي تعرّضت له من قبل الأساطيل الأوروبية لحمايتها من تلك الهجمات. وتواصلت أشغال التّرميم ثلاث سنوات.

وعندما أحدثت سلط الحماية الفرنسيّة المدينة الجديدة ببنزرت في أواخر القرن التّاسع عشر عمدت إلى إزالة الأسوار المحيطة بالمدينة العتيقة وأحدثت مكانها شوارع واسعة ولم يبق لنا اليوم من تلك الشّواهد سوى الجزأين المتّصلين بالحصن الإسباني.

القناطر

قبل إنجاز الأشغال الكبرى التي انطلقت في أواخر القرن التاسع عشر لحفر القناة التي تربط اليوم بحيرة بنزرت بالبحر الابيض المتوسّط، كان يشقّ المدينة خليجان شيّدت قنطرة فوق كلّ واحدة منهما.

قنطرة باب تونس: تتكوّن القنطرة الكبيرة من سبعة عقود ويطلق عليها اسم قنطرة باب تونس وهي مرتبطة بالطّريق المؤدّية إلى تونس العاصمة، شيّدها عثمان داي (1593 – 1610) في فترة ازدهر فيها بالمدينة النّشاط التجاريّ والعمرانيّ بفضل توافد المهاجرين الأندلسيين عليها واستقرارهم بها.

ولعلّ تاريخ إنشاء هذا الجسر يرجع إلى العصور الرّومانية فقد ذكر محمّد الصغيّر بن يوسف في كتابه «المشرع الملكي في سلطنة أولاد علي التركي» ما يلي: «إنّ هذا الباي تولّى ترميم جسر عثمان داي بعد أن سقط منه عدّة عقود وإعادته إلى حالته الأصلية».

قنطرة الصّقالة: أمّا القنطرة الثانية المعروفة بالصقالة وتتكوّن من عقد واحد فهي تمكّن من عبور الخليج الصّغير. وكان طولها 800م وعرضها 400م، وقد شيّدها عثمان داي. وكانت توجد في امتداد نهج العطّارين ويفتح عليها سوق الخضر. وقد هدمت هاتان القنطرتان وأزيلتا في خضمّ إنشاء المدينة الجديدة ببنزرت في أواخر القرن التاسع عشر.

الأبواب

عدد أبواب المدينة أربعة، وهي:

1 – باب تونس المعروف أيضا بباب الرّمل وسمّي بباب تونس بسبب ارتباطه بالطّريق

المؤدّية إلى تونس.

2 – باب ماطر المعروف أيضا بباب حومة القائد.

3 – باب حومة الشّرفاء.

4 – باب حومة الأندلس.

لقد أدّت أشغال إنشاء المدينة الجديدة ببنزرت وتوسّعها العمراني في أواخر القرن 19 من قبل حكومة الحماية إلى هدم الأبواب الأربعة وإتلافها.

وللمدينة بابان آخران هما باب رأس السّاس المعروف أيضا بباب الشّرش وباب المدينة الذي يوجد داخل المدينة العتيقة. وأكبر هذه الأبواب وأهمّها من النّاحية العمرانيّة هو باب تونس الذي يحميه برج تابع للأسوار المحيطة بالمدينة. وتتميّز هذه الأبواب بأنّها تنتمي إلى صنف المداخل المستقيمة باستثناء باب المدينة وهو على شكل منعرج.

وأقدم هذه الأبواب باب تونس وباب ماطر وباب الشرفاء. أما باب حومة الأندلس فهو متأخّر البناء نسبيّا، وقد يكون أحدث عند إنشاء حيّ الأندلس إثر حلول المهاجرين الأندلسيّين في أوائل القرن 17م.

الحصن الإسباني

تولّى العلج علي باشا الجزائر بناء حصن ينتصب اليوم بأعلى ربوة الكدية فيما بين سنة 1570 وسنة 1573م بإشراف مهندس عسكري صقلّي، ويبدو أنّ هذا الحصن احتلّ مكانة مهمّة لفترة طويلة من الزّمن. ويظنّ بعضهم أنّ هذا الموقع الحصين كان الأغالبة وربما البيزنطيون أو حتى الرّومان قبلهم قد شيّدوا به قلعة لحماية المدينة وحراستها وأنّ الحصن الحالي أقيم على أنقاض هذه القلعة.

ومن المعلوم أنّ العلج علي قد احتلّ البلاد التونسية في أوائل سنة 1570 وطرد السّلطان مولاي حميده الحفصي الذي احتمى بقلعة حلق الوادي وكانت في إمارة الوالي الإسباني ألفنسو دي بيمنتال، وولّى عليها رمضان باشا. ولكن لم يدم حكمه طويلا إذ اضطرّ إلى الفرار سنة 1573م إلى القيروان هو ورفاقه تاركا المجال للجيوش الإسبانية التي احتلّت البلاد.

ولقد بُني الحصن الإسباني في السنوات الثلاث التي دام فيها الحكم التّركي وأتمّ الإسبان بعد ذلك بناء الحصن الذي يحمل إلى يومنا هذا اسمهم. والأصحّ هو تسميته بالحصن الأندلسي علما أنّ الأندلسيين قد أسهموا في إنجاز عدة منشآت مثل القناطر والمساجد والمدارس والتّحصينات والأسبلة الخ...

ويتّخذ الحصن شكل نجمة ذات خمسة أذرع كما أكّد ذلك الرّحالة الذين زاروا بنزرت على التوالي سنة 1587 ثمّ 1624 ثم 1724م. أمّا الزّيادات التي غيّرت الشّكل الأصلي للحصن فمن المرجّح أن تكون قد أضيفت في أوائل الحماية من الجيوش الفرنسيّة.

المساجد

تضمّ مدينة بنزرت عددا مرتفعا من المساجد أهمّها: الجامع الكبير الذي يتوسّط المدينة، وجامع القصبة بمدخل حيّ القصبة، وجامع القصيبة الموجود بحي القصيبة، وجامع الأندلس ويوجد بحومة الأندلس، وجامع الرّبع ويوجد بحومة الرّبع.

وتوجد عدّة جوامع ومساجد أيضا داخل المدينة لكنّها أقلّ أهميّة من المساجد الخمسة الأولى وهي: جامع سيدي بن عيسى وجامع سيدي عبد الرحمان وجامع المدّاح وجامع التيجانية وجامع سيدي عنان وجامع سيدي المسطاري وجامع سيدي الجودي.

وقد شيّد الجامع الكبير سنة 1652م، كما تثبت ذلك النقيشة الموجودة فوق المحراب، وسط أشدّ أحياء بنزرت نشاطا وعلى ضفاف المرسى القديم، وهو يفتح أيضا على نهج الزنايدية. ويتميّز بمئذنته المثمنة، وهي على شكل مئذنة جامع حمّودة باشا وجامع يوسف داي بتونس العاصمة. وهي من صنف المآذن التركية، يُصعد إليها بمدرج داخلي حلزوني

الشكل. أمّا بيت الصلاة فهو شبه مربّع وزخارف الجامع والمحراب وتيجان السّواري على النمط الحفصي. وبالتأمّل في الرّواق من الجهة الجنوبية الغربية للجامع يتبيّن أنّ مجموعة تيجان أعمدتها قد جلبت من المباني الرّومانية والبيزنطية القديمة. وهي مختلفة الأحجام والأشكال فمنها الكورنتي ومنها البيزنطي، وكذلك شأن الأعمدة نفسها فهي مختلفة الارتفاع والقطر ونوع الرّخام.

أمّا إذا نظرنا إلى أعمدة بيت الصلاة وتيجانها وتصميمها فنجدها من النمط نفسه وفي الارتفاع ذاته وبالمواد عينها. وهي تكوّن وحدة هندسية متناسقة. ويستنتج من النّصّ المنقوش فوق المحراب أنّ الجامع أعيد بناؤه سنة 1652 وقد يجسّد الجزء المجدد منه ما نعرفه اليوم بالجامع الكبير، أمّا الجزء الأصلي والقديم فهو الرّواق الجانبي، وقد يكون هذا الجامع أقدم جوامع بنزرت على الإطلاق.

إنّ النواة الأولى للمدينة هي الحيّ المعروف بحومة المدينة، وهو يضمّ حومة سانية الرمّان وحومة سيدي قعقع والمنزه والرّبع وباب الخوخة وجميعها أحياء ملتحمة.

وتوسّعت المدينة في العصور الإسلامية بأحياء جديدة، منها الربع الجديد وباب الجديد وحومة الشرفاء وحومة القائد والنجّارين، وأخيرا حيّ الأندلس في القرن السابع عشر ثم أحواش جرزونة.

أمّا جامع الأندلس الذي أنشئ خارج أسوار المدينة فهو وإن كان ذا مقاييس صغيرة فإنّه يحتلّ مكانة مهمّة في التّاريخ السّياسي والاجتماعي لبنزرت وتطوّرها المعماري والعمراني. فقد أنشيء هذا الجامع في أوائل القرن 17م، أنشأه المهاجرون الأندلسيون الذي استوطنوا بنزرت وغيرها، وهو يتميّز بطابعه الأندلسي.

الأحياء

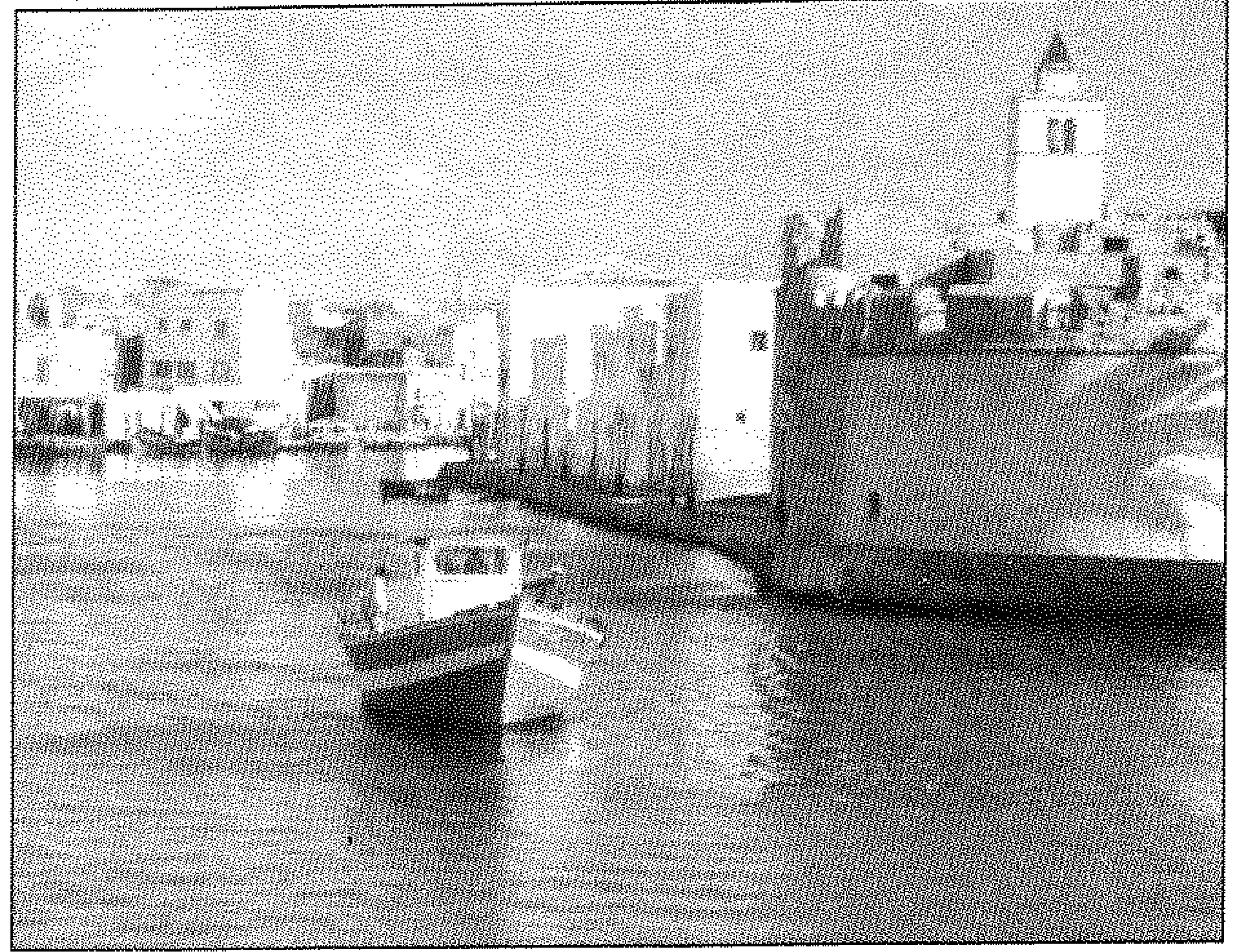
تتوزّع بنزرت على خمسة أحياء وهي:

– حيّ المدينة، وهو حيّ سكني، لعلّه أقدم جزء من بنزرت تأسّس على الضفّة الشّمالية للخليج الذي يخترق المدينة ويمتدّ تدريجيا من أعلى ربوة الكدية في اتّجاه الميناء، ويضمّ حومة سانية الرمّان وحومة سيدي قعقع وحومة المنزه، ويحتوي هذا الحيّ على أهمّ معالم بنزرت مثل الجامع الكبير والحمّام الكبير وزاوية سيدي المسطاري وزاوية سيدي بن عيسى والأسواق، وقد يكون هذا الجزء النّواة الأصلية للمدينة.

– حيّ القصبة، وهذا الجزء من المدينة هو القلعة التي أسّسها البيزنطيون وهي تطلّ على البحر، وتوجد على الضّفّة الشّمالية لمدخل الميناء القديم للمدينة. ويحوي هذا الحي جامع القصبة وحمّام بقطاش والسّجن القديم، وكان فيما مضى حيًّا يسكنه الأتراك. وهو محصّن بسور ضخم يحميه ومنفصل عن بقية المدينة ومتّصل بها يحميه ببوابّة لا تزال على شكلها الأصلي المنعرج الذي يحميها أوقات الأزمات والاضطرابات.

– حيّ القصيبة، وهو مستقلّ بذاته على شكل شبه جزيرة يطلّ على البحر ويوجد على الضّفّة الغربية لمدخل الميناء القديم للمدينة. ويحوي هذا الحيّ جامع القصيبة وبرج سيدي الحنّي الذي أسّسه البيزنطيون في أوائل القرن 7م، وهو يكوّن نظاما دفاعيا مع قلعة القصبة المواجهة له لحماية مدخل الميناء القديم ومراقبة حركة الملاحة به.

– حيّ الرّبع، وكان يتوسّط المدينة وهو عبارة عن جزيرة صغيرة توجد بالمكان الذي يتشعّب فيه مدخل الميناء إلى الخليجين اللّذين يفصلان هذا الحي عن اليابسة يحيط بها الماء من جميع الجهات وهي متّصلة ببقية المدينة بقنطرتين هما قنطرة باب تونس وقنطرة الصّقالة، وقد أنشأهما يوسف داي في أوائل القرن 17م. ويحوي هذا الحيّ جامع الربع وهو جامع قديم هدّم كليا أثناء القصف الجوي الذي تعرضت له بنزرت في الحرب العالمية الثانية، وقد جدّد.



مشهد للميناء القديم بمدينة بنزرت

وكان هذا الحي حيَّ قناصل الدّول الأجنبية وكان يحوي كنيسة للمسيحيين وبيعة لليهود. ويتّضح من دفاتر المجبى المحررة سنة 1854 أنّ هذا الحيّ كانت تسكنه فعلا عائلات مسلمة ويهودية إلى جانب قناصل الدول الأوروبية. وأمّا حيّ الرّبع الجديد وحيّ الباب الجديد فقد أحدثا وأضيفا إلى الجزء الأصلي والقديم من المدينة، وقد يكون ذلك ممّا حصل في العهد الحفصي الذي استتب فيه بالبلاد الاستقرار السّياسي والاجتماعي ونشطت فيه الحركة التّجارية.

– حيّ الأندلس، يقع خارج الأسوار قبالة البحر. وهو ربض أنشئ بأمر من يوسف داي لإيواء الوافدين الأندلسيين في أوائل القرن 17م وهو حي غير محصّن، يحوي جامع الأندلس. ولربطه بالمدينة ربّما يكون باب حومة الأندلس قد أنشئ عند إحداث هذا الحيّ. ومن المحتمل أن يكون هذا الحيّ قد أحدث خارج الأسوار لشدّة الكثافة العمرانية التي شملت معظم الفضاء الدّاخلي للمدينة.

قلعة القصيبة

لتحصين الواجهة البحرية للمدينة وحراسة مدخل مينائها أحدث نظام دفاعي يتألّف من تحصينين: يوجد الأوّل شمال مدخل الميناء ويتكوّن من قلعة مستطيلة الشّكل وهي القصبة، ويوجد الثّاني جنوب المدخل وهو عبارة عن قلعة أصغر معروفة اليوم بالقصيبة.

إنّ تحليل العناصر الإنشائية لهذين المعلمين ومقارنتهما بالمباني الدّفاعية البيزنطية يدفع إلى افتراض أنّ هاتين القلعتين أنشأهما البيزنطيون. وقد حافظت القصبة المبنية على أرض مستوية، منذ إنشائها، على شكلها الأصلي المستطيل. وهي محاطة بسور حصين مشيّد من حجارة كبيرة متداخلة تدعمها أبراج بزواياها الأربع وأبراج مستطيلة الشّكل على واجهتيها البحريتين. وللمزيد من حماية هذه القلعة أحدثت البوابة الوحيدة بها المعروفة اليوم بباب المدينة قبالة أقدم أحيائها وعزّزت هذه البوابة ببرج بارز مربّع الشّكل، ويكون الدّخول إلى القلعة من هذه البوّابة حسب خطّ منعرج.

توجد هذه القلعة الصّغيرة على الضّفّة الجنوبية لمدخل ميناء بنزرت القديم وتكوّن مع قلعة القصبة نظاما دفاعيا محكما لمدخل الميناء.

إنّ الدّراسة المفصّلة لهذا المعلم ومقارنة بنيته الأصلية بمعالم مشابهة له أسّسها البيزنطيون، تبرز أنّه من إنشائهم، إذ أنّ تصميمه العامّ وطريقة بنائه وعناصره المعمارية تشبه القلاع البيزنطية الموجودة ببلادنا أو بالجزائر.

ويتألّف هذا المعلم الآن من ثلاثة أقسام:

– **القسم الأوّل** والنواة الأصلية، يعود تاريخ إنشائها إلى العهد البيزنطي، وهي عبارة عن برج قويّ البناء مستطيل الشّكل تتكوّن جدرانه من حجارة كبيرة الحجم. وتنقسم إلى قسمين: القسم الأوّل هو قاعة كبيرة للحراسة يحمل سقفه المكوّن من أربع قباب على عمود ضخم من الحجارة، أمّا القسم الثاني فيحتوي على قاعتين صغيرتين للرّاحة تطلاّن على مدخل الميناء ويوجد تحتهما صهريج، كما تعلوهما غرفتان بالطّابق العلوي للرّاحة.

– **والقسم الثاني** برج مستدير الشّكل متين البناء متقدّم في الأرض نحو البحر كانت تعلوه

قبّة حسب ما يذكر الرّحالة البكري الذي زار المدينة في القرن 5هـ/11م.

– **أمّا القسم الثالث** فهو حديث العهد نسبيا، وقد يكون أحدث في أول الفتح الإسلامي على أيدي الجند حسب ما تدلّ عليه طريقة بنائه ونوع الحجارة المستخدمة فيه. ويتكوّن هذا القسم من ستّ غرف تفتح على فناء، بنيت على شكل هلال وهي متّصلة من جهة بسور المدينة ومن جهة أخرى بالبرج البيزنطي. ويتّصل هذا البرج المستدير بالبرج المستطيل بسور في طول 2600م مواز لمدخل الميناء. وقديما كانت تسمّى هذه القلعة برج السّلسلة إذ كان يغلق مدخل الممرّ المائي في العصور الوسطى بسلسلة حديدية تمتدّ بين قلعة القصبة والبرج المستدير بسيدي حنّي.

البنك المركزي التّونسي

ورثت الدولة التونسيّة المستقلّة قطاعا مصرفيّا مشتّتا يتكوّن من عدّة مصارف صغيرة الحجم، منفصلة تماما عن الواقع الاقتصادي والاجتماعي التونسي، تشتغل في إطار سياسة نقدية مفروضة من الخارج يقودها بنك أجنبي.

كان بنك الجزائر وتونس، المنتصب خارج البلاد يشرف على النشاط المصرفي، وهو يخضع لسلطة بنك فرنسا. فكان يركّز اهتمامه على مصالح المواطنين الأجانب وتطوير مكوّنات الاقتصاد المرتبطة بهم، دون أيّ اعتبار للمناشط التّقليدية التي كان يقوم بها التّونسيون.

وقد كان القطاع المصرفي من جهته يتكوّن في نهاية عهد الحماية من 7 صناديق تعاونيّة و7 بنوك تونسيّة و13 بنكا فرنسيّا تتعامل أساسا مع المعمّرين، إذ كان نشاطها موجّها في أغلبه إلى القطاعات العصرية (فلاحة وصناعة وتجارة) التي كان يديرها أجانب.

وحالما استرجعت تونس سيادتها الكاملة وانفصلت نهائيّا عن الهيمنة الفرنسية التي دامت خمسة وسبعين عاما، أخذت تسعى حثيثا إلى القضاء تدريجيّا على مخلّفات الاستعمار بجميع أنواعه. ولعلّ أوّل خطوة تحقّقت في هذا المجال تعلّقت بالاستقلال النّقدي الذي تجسّد أساسا في إنشاء البنك المركزي التونسي وإحداث الدّينار وتونسة الجهاز المصرفي وانضمام تونس إلى النّظام النقدي العالمي باعتبارها بلدا ذا سيادة مطلقة.

1) تأسيس البنك المركزي التّونسي:

تحقّقت المرحلة الأولى من استقلال تونس، في المجال النّقدي، بانسحابها تماما من بنك الجزائر وتونس الذي كان يقوم آنذاك بدور بنك مركزي للبلدين المتجاورين. وذلك بمقتضى اتّفاقية أبرمت لهذا الغرض مع فرنسا في جويلية 1958 تقرّر بمقتضاها تحويل كامل صلاحيات المؤسّسة المشتركة إلى معهد إصدار تونسي بحت.

وتأسّس بعد ذلك البنك المركزي التونسي طبقا للقانون عدد 90 لسنة 1958 المؤرّخ في 19 سبتمبر 1958. وقد أوكل إلى هذه المؤسسة الكثير من المهامّ منها تحقيق الاستقرار الدّاخلي والخارجي للعملة الوطنية ومراقبة القرض والسّهر على سير الجهاز المصرفيّ وحمايته من المخاطر والحفاظ على مصداقيّة السّاحة الماليّة المحليّة. كل ذلك في إطار سياسة نقديّة تتماشى وأهداف السّياسة الاقتصاديّة العامّة للبلاد.

وفي 3 نوفمبر 1958 شرع البنك المركزي في العمل، مع حرص شديد على تحقيق جميع الأهداف المرسومة في نظامه الأساس. ولهذا الغرض، حدّد هدفا نهائيّا لسياسته النّقدية هو تحقيق نموّ اقتصادي سليم مطّرد، مع الحفاظ الدّائم على التّوازن العامّ. وقد تحدّد الهدف الوسيط في إبقاء نسق الإحداث النّقدي في مستوى يناسب النّموّ الاقتصادي بالأسعار الجارية.

2) صكّ عملة وطنيّة منفصلة تماما عن السّلط النّقدية الأجنبيّة:

أصدر الدّينار التّونسي الذي أحدث بمقتضى القانون عدد 109 لسنة 1958 المؤرّخ في 18 أكتوبر 1958 باعتباره عملة ذات رواج قانوني في مستهلّ الشهر الموالي، في بداية نشاط البنك المركزي التّونسي.

وقد أصدرت في البداية أوراق نقديّة من فئة خمسة دنانير ودينار واحد ونصف دينار.

وإلى جانب ذلك، أحدثت سنة 1960 قطع نقديّة من فئة خمسة مليمات ومليمين ومليم واحد طرحت للتّداول في مستهلّ السنة الموالية. وفي شهر أكتوبر من السنة نفسها، طُرحت للتّداول قطع نقدية من فئة مائة مليم وخمسين مليما وعشرين مليما وعشرة مليمات.

وتواصل بعد ذلك إصدار فئات وأصناف أخرى من الأوراق والقطع النّقدية، وفق ما يتماشى وحاجات التطور الاقتصادي.

ففي سنة 1969 أحدثت لأوّل مرة ورقة نقديّة من فئة عشرة دنانير، طُرحت للتّداول في شهر جانفي 1970. وفي سنة 1980 أُحدثت ورقة نقديّة من فئة عشرين دينارا طرحت للتّداول في شهر ديسمبر 1984.

وفي سنة 1968 أصدرت قطعة نقديّة من فئة نصف دينار وفي سنة 1976 قطعتان من فئة دينار واحد ونصف دينار.

وأصدرت قطعة من الفضّة من فئة دينار واحد طرحت للتّداول سنة 1970 إحياء للذكرى الخامسة والعشرين لإنشاء المنظمة العالميّة للزّراعة. وفي سنة 1976 أضيفت قطعة أخرى من الفضّة من فئة 5 دنانير، إحياء للذّكرى العشرين للاستقلال.

وبذلك انفصل الدينار التّونسي عن الفرنك الفرنسي يوم 30 ديسمبر 1958. وخرجت تونس في الوقت نفسه من منطقة الفرنك. وحصلت على كامل حرّيتها في تقويم عملتها التي ارتبطت منذ ذلك الوقت بالذّهب. وقد كان هذا المعدن يعدّ مرجعا عالميّا في المجال النّقدي.

وبتطبيق سياسة نقديّة مستقلّة تراعي أوّلا وقبل كلّ شيء المصلحة العامة للبلاد، كان لابدّ من تعديل النشاط المصرفي وقيادته في الاتجاه نفسه، طبقا للتّراتيب التنظيمية المعدّة لهذا الغرض.

وبذلك انخرطت تونس على إثر تكوين سلطاتها النّقدية وإحاطتها بالوسائل الضّرورية للقيام بمهامها على أحسن وجه في مدار النّظام النّقدي العالمي. وقد تجسّد ذلك أساسا في التحاقها بأعضاء صندوق النّقد الدّولي في 14 أفريل 1958، طبقا للقانون عدد 78 لسنة 1957 المؤرّخ في 31 سبتمبر 1957 والتزامها بالواجبات المتعلّقة به. وفي هذا السّياق، دخلت تحت نظام الأحكام الانتقاليّة للمادّة 14 من القانون الأساس لهذه المؤسّسة التي تمكّن البلد العضو من الاحتفاظ بالقيود على المدفوعات الخارجيّة ذات الصّبغة الجارية.

3) القانون الأساسي للبنك المركزي:

أوضح القانون التأسيسي للبنك المركزي، علاوة على تنظيم هذه المؤسسة وتسيير دواليبها، المهامّ الأولى الموكولة إليها. ولها في هذا الإطار مهمّة عامّة تتحدّد في الحفاظ على قيمة الدّينار الدّاخليّة والخارجيّة وتحقيق استقراره على الدوام بمراقبة التّداول النّقدي وتوزيع القروض والإبقاء الدائم على تطوّر وسائل الدّفع في مستويات تتلاءم وتطوّر الإنتاج ومساندة العمل الإنمائي الذي تقوم به الدّولة في شتّى المجالات، إذ يوجّه البنك المركزي في هذا المجال سياسة الحكومة ويقترح عليها كلّ إجراء من شأنه أن يؤثّر إيجابيّا في ميزان المدفوعات وحركة الأسعار ووضعيّة الماليّة العموميّة بوجه عام، تنمية الاقتصاد الوطني. ومن جهة أخرى، يوظّف البنك المركزي جزءا مهمّا ممّا تملكه من موجودات البلاد من الذّهب والعملة ويسهر على تطبيق التّشريع والتّنظيمات المتعلّقة بالصرف.

القانون المصرفي

إذا كانت الساحة المصرفيّة الوطنيّة قد أصبحت تخضع لهيكل يؤطّر نشاطها وينظّمه وهو البنك المركزي التّونسي في سنة 1958، إذ اضطلع بمهامّه هذه على أحسن وجه، طبقا لما نصّ عليه قانونه الأساس، فإنّها ظلّت تفتقر إلى إطار قانوني تكميلي يضبط قواعد المهنة وأصولها. وذلك إلى حدود سنة 1967.

وبعد أن استكملت السّلط العمومية تشكيل النّواة الصلبة لقطاع مصرفيّ قادر على الاستجابة لمتطلّبات البرامج الاقتصاديّة والاجتماعيّة المتطوّرة، أحسّت بالحاجة إلى ضبط قواعد منظمة لنشاط هذا القطاع الذي اتسعت ميادينه وتشعّبت على نحو لم تعد فيه قادرة على تنظيمه.

لذلك صدر القانون عدد 51 لسنة 1967 باعتباره إطارا مرجعيّا يحدّد القواعد الأساسيّة التي تحكم النّشاط المصرفي، إذ تطرّق إلى شتى جوانب المهنة المصرفيّة ومنها خاصة:

– تعريف البنوك وتصنيفها بين بنوك إيداع وبنوك استثمار.

– شروط ممارسة المهنة (الشّكل القانوني، منح التّراخيص، رأس المال الأدنى، وغير ذلك).

– قواعد التصرّف (نسبة السيولة، نسبة تغطية الأصول الثابتة، وغيرهما).

– الإجراءات التأديبيّة اللاّزمة في حالة إخلال البنوك بالشروط الأساسية المنظمة للمهنة.

– القانون المتعلّق بالبنوك غير المقيمة.

تعدّدت الشركات الأجنبيّة المستثمرة في تونس، في حين بقي النشاط المصرفي يقتصر على المقيمين. فكان لابّد من السماح لبنوك أجنبية غير مقيمة بالانتصاب في تونس للتعامل مع حرفاء غير مقيمين. وذلك في إطار قانون خاص صدر سنة 1976 ونقّح سنة 1985 لتمكين هذه البنوك من توسيع نطاق معاملاتها ليشمل كذلك حرفاء مقيمين، في حدود معينة.

وتصدر أوامر البنك المركزي، وتوصياته، في مجالي النّقد والصّرف في إطار مناشير خاصّة توزّع على الوسطاء المقبولين من أجل تطبيقها المطلق حسب الشّروط المطلوبة. وتعتبر هذه المناشير مرجعا أساسا لقيادة النشاط المصرفي في ظل سياسة نقديّة مباشرة وسياسة صرف تقييديّة.

واستوجب تطوّر النشاط المصرّفي المطّرد إنشاء مؤسسات ذات صّبغة خصوصيّة تهتمّ بجوانبه الحيويّة وتعمل على ملاءمتها الدّائمة ومتطلّبات تقدّم البلاد المستمرّ على الصّعيدين الاقتصادي والاجتماعي ومن أهمّها:

– المجلس الوطنيّ للقرض الذي كان يشكّل الإطار الأعلى لإعداد سياسة القرض وتعديلاتها الجوهريّة.

– الجمعيّة المهنيّة للبنوك التي تضطلع لدور الوسيط الرسمي بين المهنة المصرفيّة من جهة والسلط العموميّة، ومن بينها البنك المركزي، من جهة أخرى.

4) تعزيز قدرات البنك المركزي:

واصل معهد الإصدار الراجع بالنّظر إلى البنك المركزي تطوير موارده البشريّة كمّا وكيفا لتحقيق العمليّات المتزايدة في إطار نشاطه العادي وتعصيرها مع استعمال إمكانات متقدّمة للتصرّف في النّقد اليدوي ومعالجة البيانات.

وفي هذا السّياق، تمّ اللجوء سنة 1984 إلى المعالجة الآليّة للأوراق النّقدية التّونسية عوضا عن المعالجة اليدويّة. وذلك باستعمال ستّ آلات ذات تقنية ومردوديّة عاليتين. وقد مكّن ذلك من مجابهة النموّ المطّرد لإيداعات البنوك والقباضات المالية بشبابيك مقرّ البنك المركزي.

وفي شهر ماي 1985، انتقل من المقاصّة اليدوية إلى المقاصّة الآلية. وهو ما زاد في سرعة معالجة هذه العمليات وإنجازها، مع الحدّ من الأخطاء.

وبادر البنك المركزي عدّة مرّات، على مرّ السنين، بتوسيع شبكة فروعه من أجل معاضدة التطوّر المتواصل لدائرة الإنتاج وامتدادها عبر

البلاد. فبالإضافة إلى فروع صفاقس وسوسة وبنزرت التي بدأت العمل مع المقر المركزي، أحدثت فروع نابل (1979) وقابس (1980) وقفصة (1985) والقصرين (1986).

5) تطوّر أساليب العمل بالبنك المركزي:

أنشأ البنك المركزي منذ إحداثه قاعدة إحصائية متعدّدة الأوجه وعمل دوما على إغنائها وتحيينها لفائدة مصالحه الداخليّة، وكذلك كل الأطراف المعنيّة.

وقد أحدث البنك المركزي، في إطار المهمّات الموكولة له مركزيّة للمخاطر تعنى بتجميع تعهّدات المؤسسات الاقتصاديّة لدى القطاع المالي. وذلك قصد مساعدة الجهاز المصرفي على تقدير المخاطر المتعلّقة بالقروض ومتابعة التطوّر لمستوى تداين الاقتصاد وتحديد سياسة القرض على نحو ملائم.

وقد أدخل على مركزيّة المخاطر تدريجيّا التحسين تلو التحسين لا سيّما استغلال المعلوماتيّة الذي تعدّى من استعمال البطاقات المثقوبة إلى اعتماد الأقراص الليّنة. ومن أهمّ الأحداث المسجلة في هذا المجال في الفترة المعنية:

1973: تركيز أوّل منظومة معلوماتيّة لمركزيّة المخاطر.

1976: تركيز أوّل منظومة معلوماتيّة لمركزيّة الصكوك دون رصيد. وأيضا تركيز أوّل منظومة معلوماتيّة لمركزيّة موازنات المؤسسات.

1983: تحويل مركزيّة المخاطر ومركزيّة الصكوك غير المسدّدة من نظام الجذاذات إلى قاعدة بيانات. إضافة إلى بداية التّبادل الآلي للبيانات على مستندات ممغنطة.

1985: تحويل مركزيّة الموازنات من نظام الجذاذات إلى قاعدة بيانات.

وفي سنة 1986 أحدثت مركزيّة الصّكوك غير المسدّدة التي كلفّ البنك المركزي بإدارتها طبقا لأحكام المجلّة التّجارية، قصد الوقاية من تفاقم ظاهرة الصّكوك دون رصيد. وتعنى هذه المركزيّة بتجميع الحالات الخاصّة لعدم الدفع وتحيين قائمة الأشخاص الممنوعين من استعمال الصّكوك، سواء كان هذا المنع قانونيّا أ وقضائيّا وإعلام البنوك بذلك.

استوجب تطوّرُ القطاع المصرفيّ المتواصل نشر بيانات مختلفة محيّنة، مدعومة في بعض الحالات بتحاليل وتعاليق متفاوتة الدقّة أضحت مع مرور الزّمن دوريّة ساعدت على القيام بالنشاط المصرفي وتقويم أدائه وتعديل وسائل السّياسة النّقدية لدعمه، مع توفير البيانات اللاّزمة للبحث والدّراسة.

ومن أهمّها:

- التّقارير السّنوية للبنوك.
- نشريّة الظّرف الاقتصادي الصّادرة عن البنك المركزي.
- نشرية الإحصائيات المالية الصادرة عن البنك المركزي.
- النّشرية القانونيّة الصّادرة عن البنك المركزي.
- تراتيب الصّرف الصّادرة عن البنك المركزي.

ويمكن الحصول على نشريات البنك المركزيّ لدى مصالحه المعنيّة أو الاطلاع عليها على عين المكان في مكتبته.

أولا – الإطار القانوني والمرجع المحاسبي

تعدّ القوائم الماليّة للبنك المركزي التّونسي وفقا لأحكام القانون عدد 90 لسنة 1958 المؤرخ في 19 سبتمبر 1958 المتعلّق بإنشاء البنك المركزي التّونسي وتنظيمه، من جهة، وللمعايير المحاسبيّة التّونسية، مع مراعاة ما لنشاط البنك المركزي من خصوصيّات، من جهة أخرى.

أمّا المجالات التي لم تعالجها معايير محاسبيّة تونسيّة خاصة بها، فتعتمد المعايير المحاسبيّة الدولية والمبادئ المحاسبيّة المتّفق عليها عموما.

وتتكوّن القوائم الماليّة للبنك المركزي التّونسي من:

– الموازنة.
– جدول التعهّدات خارج الموازنة.
– حساب النّتيجة.
الإيضاحات حول القوائم الماليّة.

ثانيا – المبادئ المحاسبيّة وقواعد القيس:

أ) رصيد الذّهب:

تسجّل الموجودات من الذّهب بالسّعر الرّسمي الذي حدّده المرسوم عدد 18 لسنة 1964 المؤرخ في 28 سبتمبر 1964 المتعلّق بتعريف الدّينار. فقد جاء في الفصل الثّاني منه أنّ السعر الرسمي للدّينار هو 1.69271 غرام من الذّهب الخالص للدّينار الواحد، ومن ثمّة فإن الغرام الواحد من الذّهب الخالص، يساوي 0.590768649 دينار.

وبعد قرار تخفيض الدّينار .في عام 1986 بمقتضى الأمر عدد 785 لسنة 1986 المؤرخ في 18 أوت 1986، أصبح السّعر الرّسمي للذّهب 0.6498475 دينار للغرام الواحد من الذّهب الخالص.

ب) الأصول والخصوم بالعملة الأجنبية

تحوّل إلى الدينار التّونسي الأصول والخصوم المحرّرة بالعملة الأجنبيّة، بتطبيق أسعار صرف مرجعيّة ثابتة لمدة شهر، تمثّل أسعار الصّرف الوسيط ة(سعر الشراء + سعر البيع / 2) المضبوطة من قبل البنك المركزي في آخر يوم عمل من كل شهر.

يعاد تقويم الأصول والخصوم المعنونة بالعملة الأجنبيّة في نهاية كل شهر وتسجّل الخسائر والأرباح الكامنة المتولّدة عن هذه العمليّة في حساب الموازنة (فوارق التحويل).

ج) احتساب الإيرادات والأعباء

د) الأصول الثّابتة

هـ) السّندات

و) الإسهامات

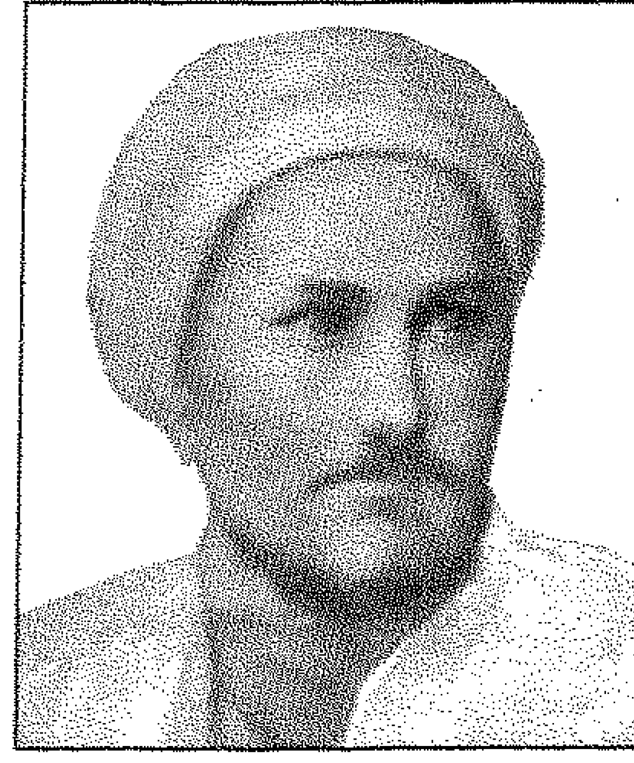
إنّ البنك المركزي التونسي لمقوّم من مقوّمات الاقتصاد التونسي، يحمل على عاتقه مهمّة الحفاظ على القطاع المصرفي وحمايته من المخاطر.



خليل بوحاجب

[1280 ـ 1358هـ/1863 ـ 1939م]

خليل ابن الشيخ سالم بن عمر بوحاجب، ولد سنة 1280هـ/1863م بسفح جبل المنار من ضواحي مدينة تونس الشماليّة. وعند إنشاء المدرسة الصّادقية سنة 1292هـ/1875م كان في طليعة من دخلها وتدرّج في الرّتب العلميّة إلى أن أنهى دراسته بها سنة 1297هـ/1879م فسافر إلى فرنسا لمواصلة دراسته العالية، ثمّ بعد عودته انخرط في سلك الهيئة التعليميّة عند تأسيس إدارة العلوم والمعارف سنة 1301هـ/1883م. ثمّ انخرط في السلك الإداري بقسم الترجمة وعيّن في مجلس الأحكام الجنائيّة بصفة مترجم خاص إلى سنة 1314هـ/1896م ثمّ رئيسا للمجلس الجنائيّ ولقسم البحث بالعدليّة التونسيّة. وأسندت إليه وكالة الحق العام بمحكمة تونس الابتدائيّة وتقلّد عدّة وظائف سامية كمشيخة المدينة في سنة 1341هـ/1922م ثمّ سمّي وزيرا للقلم. وفي سنة 1345هـ/1926م تقلّد منصب الوزارة الكبرى في عهد محمد الحبيب باي إلى آخر أيام ملكه، ثمّ في عهد أحمد باي الثاني إلى أن استقال منها في شوّال سنة 1350هـ/1931 بسبب مواقفه المضادّة لوزير العدلية طاهر باشا خير الدّين وبسبب مشكلات نشأت له عند رئاسته لجنة الإصلاح الزيتوني سنة 1349هـ/1930م فظلّ معتزلا الحياة العامّة إلى أن توفّي في شهر شوال سنة 1358هـ/1939م.



سالم بوحاجب

[1258 – 1342هـ1827 – 1924م]

ولد سالم بن عمر بن سالم بوحاجب ببنبلة، إحدى قرى الساحل التونسي في عائلة ينتمي مؤسسها إلى أبناء سيدي مهذب من عروش الخيام الضاربين جنوب صفاقس، ونشأ نشأة قروية فكان يدعى إلى القيام بأعمال فلاحية تناسب سنّه في ضيعة أبيه وإلى حفظ القرآن ومبادئ الكتابة. ثمّ رحل إلى العاصمة التونسية فسكن عند عمّه الذي كان معلّما خاصا لأبناء مصطفى آغة بقصره بباردو.

وفي أواخر سنة 1258هـ/1842 – 1843م - وهي السنة التي أحدث فيها المشير الأول أحمد باشا باي (1837 – 1855) تنظيما جعل به التعليم الزيتوني تعليما رسميا – دخل سالم بوحاجب جامع الزيتونة الأعظم وأخذ فيه العلوم الشرعية عن الشيوخ محمد الخضار المالكي، ومحمد ابن الخوجة الحنفي، ومحمد النيفر المالكي. أما العلوم العربية فأخذها عن الشيخين محمد حمدة ابن عاشور المالكي، كما أخذ عنه في زاوية جده المعروفة باسم سيدي علي الزواوي وكذلك عن محمد معاوية الحنفي وقرأ أيضا في جامع الزيتونة عن الشيوخ أحمد عاشور، وابن الطاهر، وابن سلامة، والشاذلي بن صالح، وعلي العفيف، وجميعهم من المالكية، وعن الشيخين محمد بيرم الرابع الحنفي ومصطفى بيرم.

ولم يقتصر سالم بوحاجب على الأخذ من مناهل الزيتونة في نظامها الجديد بل التحق بدرس الموطّإ الذي كان يلقيه الشيخ إبراهيم الرياحي (ت1850م) بداره. ولم ينتخب الشيخ إبراهيم للتدريس الرسمي نظرا إلى مقامه الشرعي إذ كان آنذاك كبير أهل الشورى المالكية وإماما أوّل بجامع الزيتونة ومسيّرا للتعليم الزيتوني بصفته عضوا من الأعضاء الأربعة الذين تتكون منهم النظارة العلمية المشرفة على التعليم، كما أخذ عن العالم الصوفي محمد ابن ملوكة بزاويته المعروفة خارج باب القرجاني، وكان هذا الشيخ مشهورا برسوخه في علم الفرائض والعلوم العقلية كالحساب والهندسة وكذلك بمعارف التصوّف.

وسرعان ما برز سالم بوحاجب بين أقرانه ونال إعجاب شيوخه. وبفضل مُثَابرته في البحث ارتقى إلى درجة رفيعة في التمكن من العلوم الشرعية وخاصة العلوم العربية اللغوية والحضارية، فسرعان ما اشتهر في الأوساط العلمية وقربت منزلته من أعيان الطبقة العليا من علماء عصره وخصوصا منهم الشيخ محمد بيرم الرابع (المدرس والمفتي ثم باش مفتي) حتى صار من المقربين لديه المنسوبين إليه المواظبين على جلسات ناديه العلمي والأدبي وفيه تعرف إلى العالم الشاعر محمود قابادو فاختصّ به وتأثر بآرائه الإصلاحية أيّما تأثّر، كما كانت صلته متينة بالشيخ القاضي ثم المفتي ونقيب الأشراف محمد الطاهر ابن عاشور الأول فكان من ملازميه وأهل وده وركنا من أركان مجلسه الأدبي والعلمي وفيه تعرف على أعيان من رجال الدولة أمثال محمد البكوش.

انتصب سالم بوحاجب للتدريس بجامع الزيتونة سنة 1265هـ/1848–1849م واستمر يبث العلم في تلامذته إلى سنة 1330هـ/1911–1912م باستثناء المدة التي قضاها بأوروبا وخاصة بايطاليا من سنة 1290هـ/1873–1874م إلى سنة 1296هـ/1878–1879م مصاحبا الجنرال حسين لمّا وجهته الدولة التونسية إلى إيطاليا لمعالجة قضية القائد نسيم شمامة القابض العام للدولة سابقا.

وارتقى سالم بوحاجب من طبقة المدرّسين المتطوعين إلى الطبقة الثانية سنة 1850 ثم ارتقى في شوال 1280هـ/1869م إلى الطبقة العليا. وتجدر الملاحظة هنا أنه عزم على نيل هذا

المنصب بالمناظرة حسب النظام الجاري به العمل وقتئذ إلاّ أن المرشّح الآخر للمناظرة وهو الشيخ عمر ابن الشيخ أعلم النظارة العلمية بتخلّيه عن المشاركة فانتخب حينئذ سالم بوحاجب مدرسا من الطبقة الأولى دون القيام بالمناظرة.

أمّا أسانيد الشيخ سالم في رواية الحديث فلم نقف إلاّ على ما أجاز له الشيخ عمر ابن الطالب المعروف بابن سودة المتوفى سنة 1285هـ/1868 – 1869م. واضطلع بوحاجب بإقراء كتب مهمة مثل الموطإ وصحيح البخاري في علم الحديث وشرح الاشموني على ألفية ابن مالك في علم النحو والمزهر للسيوطي في علم اللغة كما اعتنى باحياء تدريس علم الأصول بعد أن كاد ينقرض من جامع الزيتونة فأخذ يدرس شرح العضد على مختصر ابن الحاجب. وتخرجت عليه طبقات عدّة من العلماء والمفكرين والأدباء أمثال حميدة بيرم وإسماعيل الصفايحي ومحمد بن عثمان السّنوسي ومحمد النجار ومحمد بن يوسف والخضر حسين وعبد العزيز المسعودي ومحمد مخلوف وعبد العزيز الثعالبي ومحمد ابن الخوجة ومحمد المقداد الورتتاني ومحمد الطاهر ابن عاشور الثاني وغيرهم.

ولمّا تشكلت لجنة التفكير الأولى في إصلاح التعليم الزيتوني سنة 1898م انتخب سالم بوحاجب عضوا بها كمدرس. (أما تعيينه في لجنة الإصلاح الثالثة سنة 1924م فكان بصفة باش مفتي).

وإلى جانب قيامه بالتدريس بالجامع الأعظم كان يقوم بأعباء وظيفتين في ميدان التعليم والتوجيه الديني هما إدارة المدرسة المنتصرية التي سمّاه شيخا لها الوزير خير الدين سنة 1876م. واستمرّ يدير شؤونها ويتصرف في أوقافها ويدرس فيها الحديث إلى سنة 1892 ثم إمامة جامع سبحان الله التي أسندت إليه سنة 1306هـ/1888–1889م وكان يلقي فيه الخطب الجمعية وختما في صحيح البخاري في شهر رمضان من كل سنة في موكب يحضره حسب العادة الجارية وقتئذ الباي أثناء موكب الاختام في بعض جوامع العاصمة، وكانت أختام الشيخ سالم مناسبات علميّة ممتازة.

وإلى جانب نشاطه العلمي كان له نشاط إداري، بل وسياسي، إذ سمّي بإشارة من محمد بيرم الرابع كاتبا أوّل للمجلس البلدي عند تأسيسه سنة 1858م، وهناك تعرف إلى رئيس المجلس الأول الجنرال حسين وبفضله تعرف إلى خير الدين وسرعان ما قويت أواصر الصداقة بين هذين الرجلين السياسيين الساعيين إلى التجديد وهذا العالم الزيتوني المتفتح. وعيّن سالم بوحاجب عضوا بالمجلس الأكبر مع المدرسين محمد الطيب النيفر وعمر ابن الشيخ باقتراح من خير الدين رئيس المجلس عندما حصل شغور بتخلي بعض أعضائه بعيد تأسيسه سنة 1861م، كما سمّي رئيسا لأقلام التحرير في اللجنة الدولية التي عهد إليها الوصاية على المالية التونسية سنة 1868م.

وما من شك في أن أهمّ ناحية من حياته الإدارية والسياسية هي مشاركته في البعثات الرسمية. فقد سافر إلى الآستانة ضمن البعثة التي قادها خير الدين سنة 1864م قصد التفاوض مع الباب العالي في شأن العلاقات بين الإيالة التونسية والسلطنة العثمانية. ثم سافر إلى أوروبا مصاحبا لصديقه الجنرال حسين في قضيّة شمامة التي أشرنا إليها آنفا، وقد أقام بايطاليا ست سنين اغتنمها للاطّلاع على حضارتها المجيدة وتعلم لغتها. وفي أثناء إقامته بها ارتحل إلى فرنسا وزار معرض باريس سنة 1878م حيث اطلع على أحدث المخترعات «فكانت إقامته الطويلة بأوروبا فاتحة لنظره اليقظ إلى حقائق الأمور وباعثة له للعمل على إنهاض الفكر الإسلامي» (محمد الفاضل ابن عاشور).

أمّا الوظائف الشرعية فلم يرتق إليها إلا في آخر حياته. فقد سمّي مفتيا مالكيّا سنة 1905م ثم رئيس المفتين المالكيين (كبير أهل الشورى أو

باش مُفْتٍ) عند وفاة الشيخ أحمد الشريف سنة 1919م. ويرجع هذا التأخير إلى إقامته الطويلة في أوروبا ومواقفه غير المألوفة، لا لأنه أصيل أسرة من داخل الإيالة كما رجّح ذلك بعض المؤرخين المعاصرين.

توفّي الشيخ سالم بوحاجب ببستان ابنه خليل بالمرسى يوم 14 ذي الحجة 1342هـ (16 جويلية 1924م) ودفن بمقبرة الجلاّز بعد أن أقيمت عليه الصلاة في بطحاء القصبة بخضور الباي على عادة مراسم جنائز الشيوخ ورؤساء المجلس الشرعي. وخلّف أربعة أبناء، هم عمر والوزير خليل والدكتور الحكيم حسين والمحامي أحمد وبنتين السيدتين زليخة وزبيدة.

تآليفه

لم يترك الشيخ سالم بوحاجب من الآثار العلميّة إلا إنتاجا قليلا، وهي ظاهرة لم ينفرد بها بل كانت منتشرة في الأوساط العلميّة في ذلك العصر، إلاّ أن وجود هذه الظاهرة فيه تركت فينا حسرة شديدة نظرا إلى ما اشتهر به من ذكاء حاد ودقة في البحث وآراء إصلاحية. وهكذا اقتصرت تآليفه على أختام الحديث على الموطإ وصحيح البخاري التي ألقاها بالمدرسة المنتصرية وجامع سبحان الله. وهذه الأختام بخط يده يقارب عددها الستين لا نعرف منها سوى مجموعة محفوظة بالمكتبة العاشورية في كُرّاسَيْن: الأول تحت رقم 1328 يحتوي على أربعة أختام في الموطإ وواحد في البخاري، والآخر تحت رقم 1235 محتويا على ثلاثة أختام ألقيت بالمدرسة المنتصرية وجامع سبحان الله متضمنة مختارات من الموطإ ودرسا في باب الاستسقاء في خطبة الجمعة. هذا وقد نشر جانب من تلك الأختام: ختمان كان ألقاهما سنة 1320هـ/1902م ضمن مجموعة أختام رمضان 1320هـ (72ص 98) طُبع بالمطبعة الرسمية العربية بتونس بعناية محمد ابن الخوجة، وختم نشر بجريدة الزهرة، (عدد الاحد 22 رمضان 1328هـ/1910م).

ومن تآليفه المخطوطة أيضا شرحه على العاصميّة في علم الفقه ودرس اختتامي في شرح الاشموني على ألفية ابن مالك (دار الكتب الوطنية 1499). أما ديوان شعره - وهو في جزأين بخط يده قد أشار إليه المؤرخون - فلم نعرف عنه شيئا. هذا وإنّ جانبا من أبياته الشعرية يوجد في كتاب الرحلة الحجازية لمحمد بن عثمان السنوسي وفي الترجمة الذاتية المخطوطة للأديب عبد العزيز المسعودي المحفوظة بالمكتبة العاشورية وقصيدة يمدح فيها خير الدين توجد في كنش الطواحني (رصيد حسن حسني عبد الوهاب بدار الكتب الوطنية رقم 18763). ويقال إنّ له رحلة دوّن فيها مذكرات أسفاره وإقامته بإيطاليا.

أمّا خطبه المنبرية فقد اعتنى بعض تلاميذه بنشر تسع وخمسين منها سنة 1331هـ/1913م بالمطبعة التونسية، كما اعتنى تلميذه الشيخ محمد باش طبجي بنشر جانب غير قليل من مواقف سالم بوحاجب ومن تحقيقات وتدقيقات مهمة قام بها في مناسبات مختلفة وخاصة في المناقشات التي كانت تجري في أثناء أختامه للحديث وذلك في كتاب عنوانه «خاتمة روضة الانبساط في تحقيق المناط» (تونس 1347هـ/1928م).

أمّا الدرس المنهجي والإصلاحي الذي ألقاه بمناسبة الافتتاح لنشاط الجمعية الخلدونية سنة 1897 فيوجد نصّه في كتاب «أليس الصبح بقريب؟» للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور (تونس 1967 و1988 ص 103 – 112).

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى ما قدّمه سالم بوحاجب من إنتاج فكري وعلمي يسعى إلى بثّ النزعة الإصلاحية في الأوساط الإسلامية من ذلك إسهامه في كتاب «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك» لصديقه خير الدين وهو في الحقيقة من تحرير سالم بوحاجب.

واشتهر أيضا باجتهاده الإصلاحي وإقباله على التجديد فهو من أبرز الشخصيات الفكرية

والعلمية التونسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وهو كذلك من أهم روّاد النزعة الإصلاحية في زمن كان أقرانه وزملاؤه مصرّين على العزلة الفكرية منكمشين على الأساليب العلمية والتعليمية المألوفة رافضين كل محاولة في انفتاح على العلوم والحضارة الغربية يرون التفكير في النهوض بل مجرد التأمل في إصلاح أساليب التعليم بدعة وتجاسرا على الدين. فجاء الشيخ سالم بوحاجب مواصلا ومتمّما لما سعى إلى تحقيقه الشيخ محمود قابادو.

ورغم انتمائه إلى رموز الإصلاح السياسيين منهم أمثال خير الدين وحسين والزيتونيين أمثال محمد بن مصطفى بيرم ومحمد ابن عثمان السنوسي، فإنّ سالم بوحاجب لم يترك للناحية السياسية المجال للتغلّب على الناحية العلمية في شخصيته. فكان لا يضطرب بالدرجة التي يضطرب بها أصدقاؤه إزاء التقلّبات والنكبات السياسية معتمدا العمل الفكري واعيا بما يتطلّبه النهوض من نفس طويل ومن تطور علمي واجتماعي لا يتعلّق بمجرد العمل السياسي الظرفي. وهذا الاتجاه يتجلّى في علاقته بالحركة السّلفية. فعلى حين تجسم تحمّس محمد بيرم ومحمد السنوسي لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في انخراطهما في جمعية «العروة الوثقى» يبدو أن صلة الشيخ سالم بهذه الحركة لم تتجاوز الإعجاب بمواقف الشيخين رائدي الحركة وحرصهما على النهوض بالفكر الإسلامي، على أن نظرية الشيخ سالم تجعله أقرب إلى نزعة الشيخ عبده من نزعة جمال الدين المرتكزة على العمل السياسي العاجل. وهكذا أصبح كل من الشيخين المصري والتونسي يعجب بآراء الآخر ومواقفه.

ترتكز آراء الشيخ سالم بوحاجب الإصلاحية على ثلاثة أركان أساسية، الأول هو عزمه على مقاومة الجمود المسيطر يومئذ على التعليم الزيتوني والتخلّي عن الأسلوب السائد في التدريس المطبوع بالتقليد والتمسك بظواهر النصوص والإعراض عن تحقيق المناط. فسعى إلى تحقيق غايته الإصلاحية مدة تدريسه بجامع الزيتونة متوخيّا منهجا تعليميّا، أركانه الإلمام بالأصول ومراعاة مقاصد الشريعة والإعراض عن كثرة النقول وسالكا طريق النقد والبحث مع استقلال الفكرة وولوع بمناقشة الآراء واستنباط الأفكار فأدخل بمنهجه هذا إصلاحات كثيرة على أساليب التعليم الزيتوني مع رسوخ في العلم حتى قال فيه تلميذه محمد الخضر حسين (كامل):

«يترسمون به الخليل كأنّما
شهدته أعينهم وهم أيقاظ
وكأن درس الفقه مجلس مالك
وكأنما درس البيان عكاظ
ويغوص في درس الحديث على حلى
غفلت عن استنباطها الحفاظ».

وهذه الطريقة الجديدة، وإن نالت إعجاب طلبة الشيخ سالم وبعض زملائه، فإنها تسبّبت من ناحية أخرى في مناصبة عدّة شيوخ مدرسين له العداء بحكم نزعتهم المحافظة التي أخذت تناهض بشدة كل فكر إصلاحيّ داخل «الزيتونة».

ونظرا إلى ما اشتهر به من مواقف إصلاحية عيّن الشيخ سالم باتفاق جميع الأعضاء رئيسا للجنة النظر في العلوم الحديثة المتفرعة عن لجنة النظر في إصلاح التعليم الزيتوني الأولى سنة 1898.

ويبدو أنّ ما لاحظه من رسوخ النزعة التقليدية المحافظة في وسط مدرّسي الجامع شيوخا وشَبَابا وضعف تأثير النزعة الاصلاحية كان دافعا له على توجيه أبنائه عمر وخليل وحسين وأحمد إلى التعليم الصادقي في المدرسة التي أسسها صديقه خير الدين.

وأما الركن الثاني الذي ترتكز عليه آراء سالم بوحاجب الإصلاحية فهو التنويه بضرورة تعلّم العلوم الحديثة وممارستها. وأشهر ما صدع به

في هذا المجال هو درسه الافتتاحي للجمعية الخلدونية سنة 1897 إذ يقول فيه بعد تفسير الآيتين «وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة» (الآية 30، سورة البقرة) و«علّم آدم الأسماء كلّها» (الآية 31، سورة البقرة) وذكر ما كانت عليه الأمّة الإسلامية من إقبال على العلوم الكونية وتمدّن ثمّ ما اعتراها من تقهقر وتأخّر في العلوم «ولا نرى سببا لذلك [تأخر المسلمين في العلوم] إلا اعتقاد كثير منّا أنّ التقدّم في العلوم الدنياوية ينشأ عنه التأخر في العلوم الدينية، والواقع بالعكس، فإن الدّين إنّما تقهقر عند تأخر المسلمين في تلك العلوم (...) إنّ تعاطي العلوم الدنياوية المشار إليه [الطب، الحساب، علم الفلاحة، الهندسة...] (...) ممّا لا بأس به، بل تقدم في كلام الغزالي ما يفيد أن تعلم العلوم المحتاج إليها في إقامة الدنيا من فروض الكفاية...»

ومن شدة تحمس الشيخ سالم لموضوع انفتاح الفكر الإسلامي على العلوم الحديثة وعزمه الراسخ على إرجاع الجانب التوجيهي والفكري لجميع المحافل العلمية والدينية كان يتناول موضوع العلوم العصرية في أختام الحديث، حتى إنّه لم يتردد في تركيز ختم رمضان سنة 1328هـ/1910م على ذلك الموضوع وعلى عدم تناقض ممارستها مع الشريعة الإسلامية إذ يقول «... إقبالنا على العلوم الأخروية لا يمنعنا من أن نلتفت إلى إصلاح الدنيا باعتبار كونها للآخرة مطية بل هي بهذا الاعتبار تلتحق بالأخروية مع أن تلك العلوم الدنياوية إذا صلحت النيّة في تعاطيها نجدها لا تخرج عن حفظ الأمور التي اتفقت -الشرائع على وجوب حفظها أعني الدين والبدن والعرض والمال». وهو الكلام نفسه الذي قاله بمناسبة افتتاح الخلدونية.

وتناول الشيخ سالم بوحاجب أيضا موضوع الاختراعات العصرية في شعره فأنشد أبياتا أنيقة طريفة في مدح آلة تسجيل الصوت مثلا.

أما الركن الثالث فهو أدخله من تجديد نسبي في الخطابة الدينية إذ تضمنت خطبه الجمعية على منبر جامع سبحان الله موضوعات تهم الحياة العامة والأحوال الاجتماعية.

إن إعجاب الشيخ سالم بتقدم الحضارة الغربية واعتقاده ضرورة مواكبة التطور العلمي لم يحجب عن فكره ما تحتوي عليه بعض التراتيب المنبثقة عن تلك الحضارة من خطر يهدّد الكيان القومي عندما تطبق في نظام استعماري. فكان من المناهضين للاجراءات الصحية والإدارية التي اتخذها مجلس بلدية العاصمة وكان من الممضين في الرسالة الموجهة إلى الوزير الأكبر في هذا الشأن، وذلك أثناء احتجاج الأهالي المعروف بالنازلة التونسية سنة 1885.

أما فيما يتعلّق بالجانب الاجتماعي من حياته فكان هذا الشيخ الزيتوني المتفتح ينير بذكائه وكياسته وسعة معلوماته جلسات أشهر النوادي العلمية والأدبية آنذاك، مثل نادي الشيخ محمد بيرم الرابع ونادي الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الأول ونادي الوزير محمد البكوش كما نال إعجاب الأميرة المصرية نازلي ابنة الأمير مصطفى فاضل باشا ابن إبراهيم باشا لما اتّصلت به عند حلولها بتونس سنة 1314هـ/1896-1897م. وقد اشتهرت هذه الأميرة بالدور المهمّ الذي قامت به في النهضة المصرية وخاصة ناديها الأدبي والسياسي بالقاهرة. وعظم إعجابها بالشيخ سالم حتى إنّها لما عزمت على الاستقرار بتونس اتخذت أسرته أسرة ثانية لها فتزوجت بابنه خليل واختارت بستانا أنيقا لسكناها بضاحية المرسى (فيلا رمسيس) أحيت فيه ناديا أدبيا وفكريا كان من روّاده أبرز وجوه النخبة التونسية وكان سالم بوحاجب لا يتردد في الإتيان من بستانه بسيدي أبي سعيد للمشاركة في جلسات هذا المجلس.

واشتهر بتواضعه وابتعاده عن التكلّف والتصنّع محافظا على بساطة السلوك القروي في جلوسه وسيره ولباسه. وكان مقتديا بالسلف من لباس

القفطان وغيره مع تقشف ينبئ عن ازدرائه للدّنيا، كما كان محبّا للأرض والطبيعة والفلاحة الّتي طالما تغنّى بها في شعره.

واشتهر أيضا بتجاوزه للعادات المألوفة عند المدرسين الشيوخ فكان لا يتردد مثلا في استعمال ألفاظ إيطالية في دروسه. فهو بحقّ باعث النهضة الفكرية في الشباب الزيتوني ورائد الحركة الإصلاحية الزيتونية التي ما انفكّت تنمو طيلة القرن العشرين. كما عزّز بفضل نفوذه الأدبي المناشط الرامية إلى النهوض بالفكر التونسي مثل بعث جريدة «الحاضرة» سنة 1888 وتأسيس الجمعية الخلدونية فكان للشيخ سالم بوحاجب تأثير لا في الزيتونيين فحسب بل وفي نخبة المثقفين الإصلاحيين من خريجي المدرسة الصادقية أمثال البشير صفر وعلي بوشوشة وغيرهما.

علي بوحاجب
[1887–1964م]

هو صيدلي ومناضل ورجل سياسة، من أبرز أبناء تونس في الفترة الأولى للاستعمار الفرنسي.

فقد احتلّت الجيوش الفرنسيّة القادمة من الجزائر سنة 1881 المملكة التونسيّة، ولم يكن يُتعاطى بها مهنة الصيدلة «العصرية» آنذاك سوى بعض الأجانب من إيطاليين وفرنسيين وبعض اليهود .أمّا المواطنون المسلمون التّونسيون، فإنّهم كانوا يبيعون العقاقير التقليديّة. وذلك بمقتضى رخصة يسلّمها إيّاهم «أمين» السوق، المعيّن من قبل الباي، ملك البلاد.

وعند انتصاب الحماية الفرنسيّة، أصدر علي باشا باي، صاحب المملكة، أمرا بتاريخ 6 شوال 1305هـ، الموافق لـ 15 جوان 1888م، والمنشور بالرائد الرّسمي عدد 28 بتاريخ 12 جويلية 1888، ينظّم ممارسة الصيدلة وبيع الأدوية. وخصّ بذلك الصيادلة خرّيجي الجامعات والكلّيات من أوروبا.

وكان أوّل تونسي مسلم حصل على ديبلوم الصيدلة هو علي بوحاجب.

إنّه من أبناء تونس العاصمة. ولد حسب رواية عائلته، في شهر سبتمبر 1887. ولعلّه ولد سنة 1888 على الأرجح. وأصْل لقبه العائلي هو علي كشّوخ. وكشّوخ عائلة معروفة من بلدة بنبلة بجهة الساحل، حلّت بتونس العاصمة واستقرّت بها. وفضّل علي كشّوخ تغيير لقبه. فأصدر حكما في ذلك .فاختار لقب (بوحاجب) نسبة إلى والدته زهرة بوحاجب. وهي ابنة الشيخ سالم بن عمر بوحاجب المشهور، الذي كان من أبرز خرّيجي جامع الزيتونة المعمور والذي تولّى عدّة مناصب عليا، منها مساعدة الوزير الأوّل المصلح خير الدين باشا، كما تولّى سالم بوحاجب خطّة الإفتاء سنة 1323هـ/1905م، ثم سمّي باش مفتي المالكيّة سنة 1337هـ/1919م. وهذا التتويج جعل منه أبرز الوجوه الدينيّة في البلاد.

ولهذه الأسباب، فضّل علي كشّوخ الانتساب إلى عائلة والدته الشهيرة، فعوّض لقبه العائلي. وأصبح يعرف طيلة حياته باسم علي بوحاجب.

وتقتضي الموضوعية، أن نذكر أنّ والده، محمد كشّوخ، كان معروفا أيضا. فقد شغل منصب وكيل وزارة في عهد الملك محمد الصّادق باي. وكان يقطن بحي «سوق البلاط» حيث ولد ابنه علي. وهذه السّوق قائمة إلى اليوم ولم يتغيّر اسمها ولا تزال تباع فيها الحشائش والعقاقير المستعملة في الصيدلة التقليديّة، محافظة على هويّتها الأصليّة التاريخيّة.

درس علي بوحاجب أوّلا بالمدرسة الابتدائية بالمنطقة التي يسكنها. ثمّ دخل المعهد الثانوي الفرنسي المعروف «ليسي كارنو» بتونس الكائن بـ«الحي الأوروبي» لمدينة تونس. فكان من أنجب التلاميذ. وأتقن اللغة الفرنسيّة. فساعدته على كتابة مقالاته السياسيّة، فيما بعد، ضدّ الاستعمار الفرنسي.

نجح علي بوحاجب في امتحان الباكالوريا الفرنسيّة بامتياز، منذ الدورة الأولى لسنة 1908، فقرّر متابعة تعليمه العالي بفرنسا. وتوجّه إلى مدينة تولوز، حيث درس بكلّية الصيدلة وحصل بتفوّق على ديبلوم الصيدلة في سنة 1913.

عاد بوحاجب إلى العاصمة التونسية لمزاولة العمل الصيدلي. فحاول أوّلا الدّخول إلى معهد باستور .ولكن رفض مطلبه دون تعليل. والسّبب الحقيقي لهذا الرفض هو أنّ السّياسة الاستعماريّة تخصّص مثل هذه المناصب الطبيّة والصيدلية لأصحاب الجنسيّة الفرنسيّة دون سواهم.

وفي هذه الحالة، بادر علي بوحاجب بتأسيس صيدليّة جديدة خاصّة بنهج الجزيرة، قرب باب البحر، وسط حيّ جلّ متساكنيه من الأجانب غير التونسيين المسلمين. فوجد نفسه غريبا في هذه المنطقة. وأمام العدد القليل من الزّبائن، اضطرّ علي بوحاجب إلى نقل هذه الصيدلية إلى قلب المدينة بالعاصمة .فاختار حيّ الحلفاوين، قرب باب السويقة، وهو حيّ شعبي حافل، جميع سكّانه من التّونسيين المسلمين. فكانت أوّل صيدلية تفتح بالمكان. وسمّاها «الصيدلية الإسلاميّة الكبرى».

وهنا باشر علي بوحاجب مهنته طيلة حياته، بين مواطنيه، مقدّما لهم جليل الخدمات الصحيّة والإنسانية، محبوبا من النّاس، وجلّهم من أبناء الشعب. وهذه المنطقة من المدينة معروفة في التّاريخ الحديث والمعاصر بحماسها الوطني ومقاومتها للمستعمر الفرنسي. وممّا يدلّ على ذلك أنّ شرارة الحركة الوطنيّة قد اندلعت في جهة باب السويقة والحلفاوين. وقد سقط فيها عدد كثير من الضحايا يومي 8 و9 أفريل 1938.

وفي نفس الفترة، كان علي بوحاجب من المناضلين داخل الحزب الحرّ الدستوري التونسي الذي أسّسه عبد العزيز الثعالبي منذ سنة 1920. وأسهم في مقاومة الاستعمار الفرنسي. فكان يكتب المقالات في جريدة العمل التونسي لسان الحزب الدستوري، رفقة عدّة زعماء منهم الحبيب بورقيبة ومحمود الماطري.

وكان الزعيم الحبيب بورقيبة لا يكنّ حبّا وافرا لعلي بوحاجب لميله إلى جماعة الثعالبي. ولكنّه يعترف له بمهارته وإتقانه للغة الفرنسيّة وامتيازه في التحرير الصحفي.

في سنة 1947، جرت محاولات من قبل بعض التونسيين «المستقلّين عن الحزب الدستوري» للدّخول في التفاوض مع السّلط الفرنسيّة لإدخال بعض الإصلاحات السياسيّة .فكلّف الباي محمد الأمين باشا المحامي مصطفى الكعّاك بتشكيل حكومة جديدة .عيّن علي بوحاجب يوم 26 جويلية 1947 على رأس وزارة الصحة العمومية في هذه الحكومة .والجدير بالذكر أنّ الصحّة كانت تابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية .فأصبح علي بوحاجب أوّل وزير في الحكومة التونسية يشرف على الوزارة الجديدة القائمة بذاتها.

وقد اقترن ميلاد هذه الوزارة بتأسيس مجلس هيئة الصّيادلة .وذلك بمقتضى أمر عليّ بتاريخ 10 جويلية1947، صدر بالرّائد الرّسمي عدد 57 يوم 15 جويلية 1947. ونظّم هذا الأمر المهن الصيدليّة تنظيما عصريّا، وتمّ انتخاب المجلس من قبل الصّيادلة المزاولين بالمملكة التونسية، دون اعتبار جنسيّتهم.

وتولّى علي بوحاجب الوزارة مدّة ثلاث سنوات .وكانت من أبرز إنجازاته حملات التلقيح والوقاية ضدّ بعض الأمراض المنتشرة آنذاك، مثل مرض السلّ وأمراض معدية أخرى .ولكنّ صلاحياته في الميدان الصحّي كانت محدودة من السلطة الاستعمارية .وهو ما اضطرّه إلى مغادرة هذه الوزارة.

رجع علي بوحاجب إلى صيدليّته بحيّ الحلفاوين بتونس العاصمة، تاركا نهائيّا النشاط السياسي، بعد أن كان من أبرز وجوهه... إلى أن وافاه الأجل في شهر جوان 1965.

وسيحفظ التاريخ أنّ علي بوحاجب كان أوّل

تونسي حصل على ديبلوم صيدلة بجامعة فرنسيّة عصريّة وأنّه كان ناشطا في الحقل السياسي التحريري، كما أنّه أوّل تونسي شغل منصب وزير للصّحة.



محمد بوديّة

[1881 ـ 1974م]

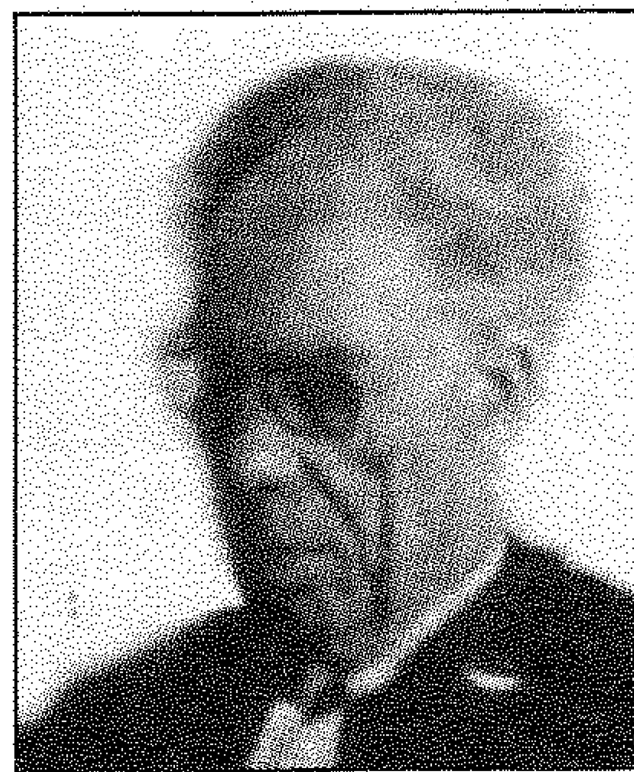
هو واحد من أبرز شيوخ الفن التونسي الأصيل، ومن أكثر الذين تميّزوا في حذق صناعة الموسيقى المسماة في عرف القدامى «مالوف الهزل»، والموسيقى الصّوفية المسمّاة في عرفهم أيضا بـ«مالوف الجدّ». واشتهر الشيخ بوديّة بحذقه لعزف كل الآلات النفخية أو الهوائية، وعلى الأخص منها الزرنة (الزكرة) والكلارينات (clarinette) وتُسمى في عرف محترفي الموسيقى التونسية القدامى منهم على الأخص بـ«الكرنيطة».

تلقّى الشيخ محمّد بودية دراسته الأولي بزاوية سيدي علي الكراي بصفاقس حيث حفظ القرآن الكريم، وأراد أن يواصلها في جامع الزيتونة بالعاصمة غير أنّ ظروفه الاجتماعية والمادية حالت دون ذلك، فامتهن صناعة الخشب، وبسرعة حذق أصول العزف وتعلّم أداء عدّة موشّحات وأزجال أندلسيّة وتونسية.

وذاع صيته في الأوساط الموسيقية بصفاقس على الأخص فانْضَمَّ إلى الفرق والمجموعات الموسيقية المنتشرة آنذاك، ثم اشتدّ ميله إلى إنشاد الطريقة العامرية نسبة إلى سيدي عامر المزوغي ـ وكان من أبرز أولياء الساحل في القرن السادس والسابع هجريًا. وصار الشيخ بودية من العناصر الأساسية في الفرق الموسيقية التي تؤدّي نوبات العوامرية والعيساوية ثمّ كَوَّن فرقة خاصّة به تسمّى فرقة بودية أصبحت «تحيي الحفلات بباب الديوان وسوق الترك والبلاغجية، ونهج برج النار ثم انتقل وعمل مع العوامرية والعيساوية. فقد كان يحفظ 13 نوبة لسيدي أبي الحسن الكراي مع مجموعة من الأشغال. وكان يحضر باستمرار المجالس الصوفية ويشارك في جميع الحفلات والمواسم الدينية التي كانت تقام بمقام سيدي الكرّاي، كما كان يشارك في جلّ زيارات العوامرية إلى سيدي عامر وفي خرجات العيساوية.

وقد عزف الشيخ محمّد بودية إلى جانب الفنان الكبير الشيخ خميس ترنان (1894 ـ 1964) والتقى بالشيخ أحمد الوافي (1850 ـ 1921).

لقد كان إسهام الشيخ بودية مكثّفا في إحياء تقاليد المالوف والموسيقى الأندلسية وتعليم أصولهما للناشئة، ودوره كبير في تَثْبيت انطلاقة إذاعة صفاقس 1961، فقد سجل لها أعمالا ونوبات صوفية كثيرة تعدّ بمنزلة الرصيد المرجعي في الموسيقى الطرقيّة.



إبراهيم بورقعة

[1904 – 1982م]

هو أديب وناقد وباحث متمكّن صاحب غربال يعسر أن تمرّ من ثقوبه الهفوات فضلا عن الأخطاء. وهو رجل القانون عميد المحامين

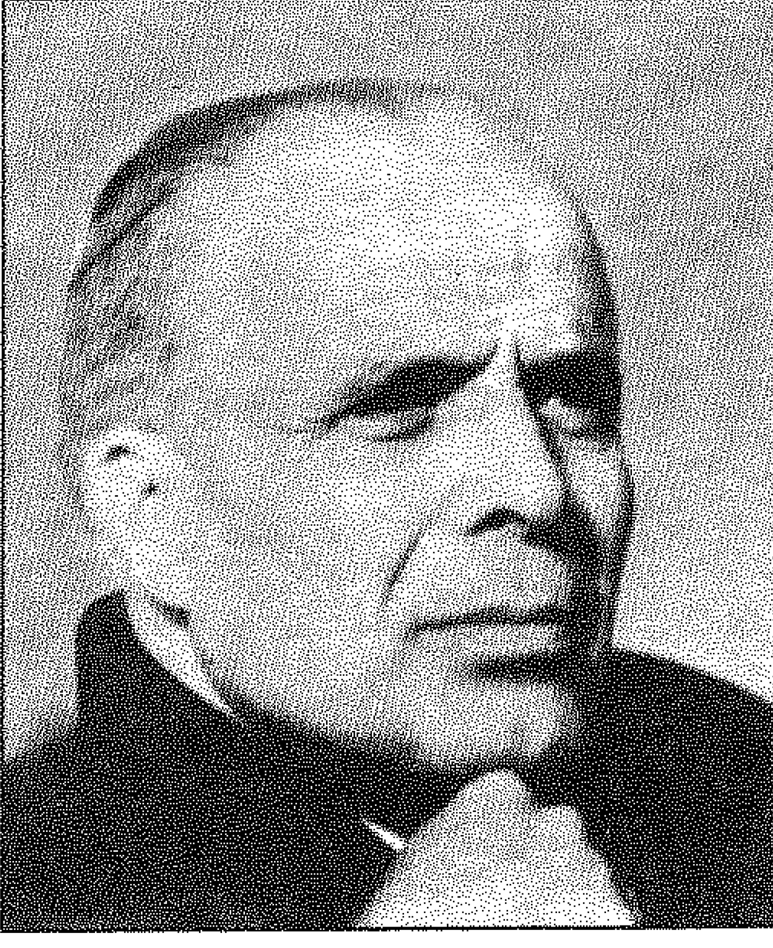
بصفاقس، التوزري مولدا والصفاقسي عملا وسكنا والرّادسي زواجا ومقرّا.

أصدر عددا يتيما من مجلّة «المحامي» وعزّ عليه أن يردفه بثان. أبحاثه الأدبيّة والنقديّة تدلّ على سعة اطّلاع وتعمّق في البحث وصبر على المراجعة والمطالعة.

ولد بتوزر سنة 1904 وانخرط في سلك طلبة الجامع الأعظم وفيه أحرز شهادة التطويع سنة 1925. ثم دخل مدرسة الحقوق التونسيّة وحصل على الإجازة منها. وفي أكتوبر سنة 1930 فاز في مناظرة المحاماة. ومنذ عام 1931 انتصب محاميا بصفاقس، وعرف في مهنته هذه بالصّدق والإخلاص والحرص على المراجعة والمطالعة والمرافعة في القضايا بلغة عربيّة سليمة. وكانت كل تقاريره موثّقة مسندة إلى المصادر القانونيّة والفهم الراجح للنّصوص من العمل القضائي. كان محبوبا من القضاة ومن زملائه المحامين لأنّه كان ليّن العريكة، لطيف المعشر، صادقا في مقولته وتقاريره. ودام عمله القضائي في ميدان المحاماة مدّة طويلة حتى أصبح عميد المحامين بصفاقس. ثمّ تخلّى عن هذه المهنة وفضّل الرّاحة والتقاعد سنة 1979.

وكان من جهة عرف أهلها بالفصاحة والأدب والشّعر ومن عائلة برز فيها أكثر من شاعر وأديب، فشقيقه محمّد كان كاتبا أديبا شاعرا أضاء الساحة الثقافيّة بوفرة إنتاجه مع رقّة في الطبع ولين في المعاملة وميل إلى التواضع وركون إلى الانزواء. وكان إلى جانب عمله يهتمّ بالأدب والبحث. كتب في مجلّة «مكارم الأخلاق» صحبة صديقه الحميم محمود خروف ونشر بالجرائد مقالات نقديّة رفيعة المستوى، بعنوان «في الغربال» كان يحلّق فيها في سماء الأدب وفنّ النقد. له ديوان شعر مطبوع مع كتاب ترجم فيه لبعض رجالات توزر.

توفّي في 8 نوفمبر سنة 1982.



الحبيب بورقيبة

[1901–2000م]

يختلف المؤرّخون في تحديد تاريخ الميلاد الصحيح للزعيم الحبيب بورقيبة. فمنهم من يؤيّد ما أوردته الترجمة الرسمية التي تؤكد أنه وُلد يوم 3 أوت 1903، ومنهم من يفترض أنه ولد سنة 1901. ومهما يكن من أمر فهو يعدّ من مواليد بداية القرن العشرين في مسقط رأسه المنستير بالساحل التونسي. كان ينحدر من عائلة متوسطة، وكان آخرَ من أنجب أبواه، علي بورقيبة وفطوّمة خفشة، وكان له 4 إخوة و3 أخوات. ويفسّر حال هذه العائلة المتوسطة بما لحقها من ضرر وتفقير إثر مصادرة أملاك الجدّ، الحاج محمد بورقيبة، أثناء الحملة القمعية التي قادها الجنرال أحمد زروق ضدّ مدن الساحل المتحالفة مع علي بن غذاهم زعيم انتفاضة سنة 1864.

وعندما بلغ الحبيب السادسة من عمره كان إخوته محمّد ومَحمّد ومحمود يقيمون بتونس العاصمة، فوجّهه والده إلى تونس سنة 1907 ليدرس بالفرع الابتدائي للمدرسة الصادقية. وكان شقيقه محمود تلميذا داخليا بالقسم الثانوي لهذه المدرسة. فأقام عند أخيه محمّد في مسكنه بتربة الباي ثم في نهج القرشاني. وبعد أن أحرز شهادة التعليم الابتدائي سنة 1913، واصل دراسته الثانوية بمعهد الصادقية حيث حصل على شهادة "البروفي العربي" (Brevet). ثم التحق بمعهد "كارنو" سنة 1921 حيث أحرز الجزء الأول من الباكالوريا سنة 1923 ثم الجزء الثاني سنة 1924 بملاحظة حسن وهو

دليل على نبوغه المبكّر، وإثر ذلك تحوّل إلى فرنسا لمواصلة دراسته العليا.

وفي بداية إقامته بباريس، التحق بكلية الحقوق ولم يقتصر اهتمامه العلمي على ذلك، بل أبدى شغفا بمحاضرات المستشرق الفرنسي الشهير وليام مرسي (William Marçais) حول الثقافة العربية التي كان يلقيها في جامعة السربون ومحاضرات الأستاذ جورج دوماس (Georges Dumas) حول علم النفس ودراسة الأعراض المرضية التي تعتري العقول، وكان يُلقيها صبيحة كلّ أحد بمستشفى سانت آن (Sainte Anne). وكانت فترة دراسته بباريس غنية بالأحداث والاكتشافات، فكان الطالب الحبيب بورقيبة من قرّاء الصحيفتين اليوميتين (L'œuvre) (الإنجاز) و(Le Populaire) (الشعبي) ومن المُعجبين بقُدرات الزعيم الراديكالي الفرنسي إدوار هريو (Edouard Herriot)، رئيس الحكومة الفرنسية – حكومة كتلة اليسار – التي تشكّلت حين فازت قائمات حزبيهما: الحزب الراديكالي والحزب الاشتراكي في الانتخابات التشريعية الفرنسية لسنة 1924. فقد كان هريو أستاذا مبرّزا في الآداب وخطيبا مهيبا يحذق فنيات المراوغة والارتجال. وكثيرا ما كان الشابّ الحبيب بورقيبة يتردّد على قاعة الجلسات بمجلس النواب للاستمتاع بمداخلاته. وفي الوقت نفسه كان لا يُهمل وسائل الترفيه الثقافية. فكان من روّاد المسرح لمشاهدة روائع الكوميديا الفرنسية: مسرحيات كرناي (Corneille) ومسرحية (Ruy Blas) لفكتور هوغو. وفي سنتي 1925–1926، تحسّنت وضعية الطالب بورقيبة الذي أصبح يسكن في غرفة بالحي الجامعي وتمكّن من التسجيل في المعهد الحرّ للعلوم السياسية.

وتعرّف وقتها إلى السيدة ماتيلد لوفراس (Mathilde Lefras) ـ وهي من أرامل الحرب العالمية الأولى ـ ووجد لديها الطمأنينة والاستقرار. وفي صائفة 1926، فقد والده وكان حاضرا مع كل إخوته عند وقوع هذا المصاب الذي أثّر فيه تأثيرا بالغا. ثم عاد إلى باريس ليستكمل دراسته ويستقبل وليده الحبيب الابن يوم 9 أفريل 1927، ويحرز في السنة نفسها الإجازة في الحقوق ثمّ ديبلوم العلوم السياسية، وعندئذ قرّر العودة إلى أرض الوطن في أوت 1927.

ولم يكن انخراطه في سلك المحامين بالعاصمة هيّنا في البداية. فقد اشتغل أوّلا في مكتب المحامي فابيان سيريي ثم بعد شهر ونصف استقبله المحامي فليكس شمّامة وشريكه بيتْرًا. وفي تلك الأثناء زاره وفد من جماعة المَوَاطيس (بمجاز الباب) وعرضوا عليه الدفاع عنهم في قضية رفعوها ضدّ شيخ الزاوية البكرية الذي أراد طردهم من الوقف (الحُبس). وكان هذا النوع من القضايا لا تنظر فيه المحاكم العادية. وطلب فليكس شمّامة منه التخلي عنها كما رفض الاستمرار معه في العمل. فمدّ له الأستاذ صالح فرحات الذي كان أيضا محاميا وكاتبا مساعدا للحزب الحرّ الدستوري يد المساعدة إذ فتح له باب مكتبه لاستقبال حرفائه. وبعد ثلاثة أشهر، انتقل المحامي الشاب للعمل مع مكتب المحامي برنار سيبو (Bernard Sebault) بمبلغ ستمائة فرنك شهريا. فأحسّ بشيء من السّكينة والاطمئنان جعلاه يمدّد في فترة التدرّب بسنة أخرى، فأصبحت أربعة أعوام في حين أنّها في الأصل ثلاثة أعوام. وفي جويلية 1931، انتقل إلى مكتب خاصّ به في نهج باب سويقة عدد 158.

ولعلّه من المفيد أن نتساءل كيف يكون أوّل عمل سياسي يقوم به هذا المحامي الشاب المتخرّج في الجامعة الفرنسية حديثا والمتزوّج بفرنسية هو الدفاع عن "الحجاب" الذي كانت ترتديه عامّة النساء التونسيات وقتئذ؟ وكان ذلك يوم الثلاثاء 8 جانفي 1929 يوم أن دعت جمعية أدبية فرنسية اسمها (L'essor) إلى محاضرة بعنوان "الحجاب" وكان أخوه محمد عضوا في هذه الجمعية ولم يتمكّن من الحضور، فحضر نيابة عنه وشارك في الحوار. وكانت من جملة



المتكلّمين السيدة المنشاري التي صبّت جام غضبها على الحجاب وأزاحته في حركة مشهودة أمام الحاضرين. ونوّه بعض الفرنسيين بذلك وكان جلّهم من أنصار الحزب الاشتراكي الفرنسي. فانبرى المحامي الحبيب بورقيبة يتصدّى للحملة على الحجاب مبيّنا: "إن الحديث عن الحجاب ليس في محلّه، وقد يخلو الحجاب من طابع اللّطافة لكنه يعدّ جزءا من الشخصية التونسية". وقال أيضا: "إن الدولة المسيطرة (يعني فرنسا) تسعى إلى محق الشخصية وتروم فرنستها. وليس أسباب القوّة اليوم بأيدينا، والسّلطة خارجة عنّا بل ضدّنا. ولذلك وجب أن نتمسّك بجميع مظاهر شخصيتنا وإن كانت غير قويمة قصد الحفاظ على كياننا وصون ذاتيتنا، فليس لنا أن نترك الحجاب لأنّه رمز شخصيتنا". وكشف كذلك عن حقيقة نوايا الحزب الاشتراكي الفرنسي الذي كان يدعو إلى محق الشخصية التونسية. فاحتدّ الجدال بين بورقيبة وزعماء الحزب الاشتراكي الفرنسي وانتقل إلى الصّحافة. وكتب بورقيبة بتاريخ 1 و23 فيفري 1929 مقالين بجريدة "اللواء التونسي" (L'Etendard tunisien) بعنوان "الاشتراكية العرجاء"، ناقش فيهما موقف الاشتراكيين في تونس من الشخصية التونسية ومقوّماتها.

وقد جرى هذا الجدل إثر إعلان موريس فيولات (Maurice Violette)، والي الجزائر العام، أنّ إفريقيا الشمالية جزء من فرنسا لا يمكن أن تنسحب منها أو تتنازل عن شبر واحد فيها.

ويمكن تلخيص موقف بورقيبة من مسألة تطوّر المجتمع التونسي حينذاك، بأنّها قضية موكلة إلى ردح من الزمن: "فلنكن ما نحن عليه لكي نصبح ما سنؤول إليه". لأنّ القضية المستعجلة، الراهنة، سياسية. وهكذا كانت الصّحافة المنبر الأوّل للنشاط السياسي الذي كان يقوم به المحامي الحبيب بورقيبة.

وبعد توقّف جريدة "اللواء التونسي"، اتفق مديرها الشاذلي خير الله مع أحد المتجنّسين بالجنسية الفرنسية (البشير ياسين) على إصدار جريدة باسم (La Voix du Tunisien) (صوت التونسي). وقد صدرت أسبوعية ابتداء من 26 مارس 1930 قبيل انعقاد المؤتمر الإفخارستي الذي التأم في شهر ماي واعتبره المسيحيّون والاستعماريّون حملة صليبية جديدة أخذت بثأر الملك الفرنسي لويس التاسع. ثمّ أصبحت يوميّة بعد أن أصدرت هيئة تحريرها المتركّبة من محمود الماطري والشاذلي الدامرجي والطاهر صفر ومحمّد بورقيبة والحبيب بورقيبة وبدر الدين والشاذلي خير الله، العدد الأوّل يوم 16 فيفري 1931. وكانت في طليعة المساهمات الجديدة مقالات الأستاذ الحبيب بورقيبة. وكان أوّل مقال كتبه بعنوان "تطوّر الحماية" بتاريخ 23 فيفري 1931 حلّل فيه نظام الحماية مبيّنا فيه بطلان نظرية "أبدية الحماية" التي يحرص المسؤولون الفرنسيون على ترديدها، محلّلا المراحل التي وصل إليها التسيير الاستعماري المباشر الذي يتناقض مع مدلول الحماية ومفهومها. وبيّن أنّ كلّ معاهدة تحمل في طيّاتها أسباب انقراضها من جرّاء موضوعها نفسه، ذلك أن أيّ دولة لا يمكن أن تكون في آن واحد تابعة لغيرها وصاحبة سيادة. ولا بدّ أن يطرأ تطوّر من شأنه أن يكتسي إحدى صبغتين متعارضتين ليضع حدّا لهذا التناقض وأن هذا التناقض هو حالة فقدان الشعب لحيويّته فيؤول به الأمر إلى الانهيار والذوبان أو في حالة تيقّظه

وصموده فيطوي المراحل في سبيل التطوّر إلى تحرّره النهائي". وينهي هذا المقال بهذا التساؤل: "وستكشف لنا الأيام إن كان الشعب التونسي من الصنف الأوّل أم من الصنف الثاني".

وبالإضافة إلى مقالاته الصحفية، كان ضمن الوفد الذي أرسلته جريدة "صوت التونسي" إلى فرنسا ليغطي أشغال مؤتمر "رابطة حقوق الإنسان والمواطن" المنعقد في مدينة فيشي بفرنسا أيّام 23–25 ماي 1931. وكان الوفد يضمّ صديقيه الطاهر صفر والبحري قيقة. لكن الجناح الوطني الراديكالي المتألّف من الحبيب بورقيبة والطاهر صفر والبحري قيقة لم يستطع التعاون طويلا مع الشاذلي خير الله وبقية العناصر الإصلاحيّة. فغادر الحبيب بورقيبة ورفاقه "صوت التونسي" ليؤسسوا في أول نوفمبر 1932 صحيفة جديدة بالفرنسية كذلك، وهي "العمل التونسي" (L'Action tunisienne) التي كان عنوانها يدلّ على عزم أقوى وتصميم أشدّ. وكانت قضية تجنيس الأهالي التونسيين الشغل الشاغل للسلط الاستعمارية في تونس. وقد ثبت الحزب الحرّ الدستوري التونسي أمام كل المغريات والتحديات منذ بداية العشرينات. وكان لتفجّر أحداث التجنيس من جديد سنتي 1932 و1933 تأثير بالغ في الحركة الوطنية التونسية. والواقع أن جريدة "العمل التونسي" تصدّت بقوّة لقضية التجنيس وكشفت للرأي العام أحابيلها وما تخفيه من أبعاد سياسية لاستئصال أصالة البلاد ومقوّماتها. وهو ما جعلها تتبوّأ صدارة الدفاع عن حقوق الشعب التونسي وأصالته.

وفي الأثناء انعقد مؤتمر الحزب الحرّ الدستوري التونسي يومي 12 و13 ماي 1933 في منزل كائن بنهج الجبل في تونس العاصمة. وطغى على أشغاله جوّ من الحماسة والدعوة إلى تغيير أساليب العمل وتطعيم قيادة الحزب بعناصر شابّة. وأسفر عن قرارين مهمّين: إدخال جماعة "العمل التونسي" إلى اللجنة التنفيذية والمطالبة ببعث برلمان تونسي منتخب بالاقتراع العام، وتشكيل حكومة مسؤولة أمامه. وأصدرت سلط الحماية الأمر العلي المؤرخ في 6 ماي 1933 الذي قنّن الرقابة الإدارية بالإيالة على غرار قانون النظام الأهلي بالجزائر. وكانت نتيجته قمع كلّ حركة مطلبيّة أو احتجاجية وتعطيل الصحافة الوطنية. وفي 9 سبتمبر 1933، استقال الحبيب بورقيبة من اللجنة التنفيذية بعد أن وجّهت إليه لوما شديدا لمشاركته في وفد من أعيان المنستير ذهب إلى قصر الباي للاحتجاج على موقف عامل المنستير الذي رخّص بدفن أبناء المتجنّسين في مقبرة المسلمين، وتبعه رفاقه تضامنا معه. وقد أصدروا إثر انفصالهم عن اللجنة التنفيذية بيانا مطوّلا إلى الشعب الدستورية بيّنوا فيه الأسباب التي أدّت إلى استقالة الحبيب بورقيبة ورفت البحري قيقة واستقالة كلّ من محمود الماطري والطاهر صفر ومحمّد بورقيبة، وأعلنوا فيه أن الكثير من الشعب الدستورية لم توافق اللجنة التنفيذية على تلك الأعمال. ولهذا أصبح المطلوب من الشعب الدستورية الدعوة إلى "عقد مؤتمر نظامي في أقرب مدّة لفصل هاته الخلافات الداخلية وتقرير ما يلزم تقريره، وجعل نظام داخلي يكفل حياته". واستجابت أغلب الشعب للنداء، وبعثت بالرسائل للمطالبة بعقد المؤتمر. وتشكّلت لجنة وقتية لتحضيره، وعينت الحبيب بورقيبة كاتبا لها. وبالرغم من الاستدعاءات الموجهة إليها لحضور المؤتمر الاستعجالي، أعلنت اللجنة التنفيذية رفضها. وبعثت إلى الشعب تحذيرها من أتباع "المنشقّين". وحضر المؤتمر أكثر من ستّين نائبا بنيابات قانونية من شعبهم ما عدا خمسة نوّاب قرّر المؤتمر قبولهم بمعارضة صوتين فقط. وخطب أوّلا الطاهر صفر مستعرضا نشأة الحزب وما اعتراه

من خمول بعد هجرة رئيسه الشيخ عبد العزيز الثعالبي. وكانت الكلمة الختامية بعد مداخلات عدد من النوّاب لرئيس الجلسة المسائية الأستاذ الحبيب بورقيبة. وأسفر المؤتمر عن القرارات التالية:

– (1) قرار بحلّ اللجنة التنفيذية تقدّم به الحبيب بوقطفة نائب شعبة بنزرت. –(2) قرار برفت أعضاء اللجنة التنفيذية من الحزب تقدّم به بلحسن بن الحاج محمد بن جراد نائب شعبة ترنجة – (3) انتخاب مجلس ملّي مكوّن من عشرين عضوا –(4) انتخاب ديوان سياسي (بدل لجنة تنفيذية) مكوّن من خمسة أعضاء ووزّعت مهامهم على النحو التالي: محمود الماطري (رئيس)، الحبيب بورقيبة (كاتب عام)، الطاهر صفر (كاتب عام مساعد)، محمد بورقيبة (أمين مال)، البحري قيقة (أمين مال مساعد). وتمّ ذلك بقصر هلال يوم 2 مارس 1934.

وفي يوم 3 سبتمبر 1934، سارع المقيم العام الفرنسي مارسال بيروطون الذي خلف كلود منصرون إلى قمع قادة حزب الدستور الجديد. فأبعد الزعيم الحبيب بورقيبة ورفاقه إلى برج البوف –برج بورقيبة حاليا– في أقصى الجنوب التونسي. ومن جهة أخرى منع بقرار مؤرّخ في غرة سبتمبر صدور جريدة الحزب "العمل" الناطقة باللغة العربية. وقد صمد الزعيم بورقيبة طيلة فترة إبعاده حتى انفجرت الأوضاع في مارس 1936 عندما أعلنت وزارة الخارجية الفرنسية نقلة المقيم العام بيروطون بمثل خطّته إلى المغرب الأقصى، وتعيين أرمان غيّون مقيما عاما جديدا بتونس. وتدعّم موقف هذا المقيم العام إثر فوز قائمات "الجبهة الشعبية" اليسارية في الانتخابات التشريعية الفرنسية وتكوين حكومة ليون بلوم (Léon Blum). وأدّى ذلك إلى إطلاق سراح المناضلين التونسيين المنفيين بالجنوب التونسي الذين واصلوا نضالهم ضدّ الاستعمار وخاصّة عملهم من أجل احترام تلك المعاهدات المبرمة بين البلدين التي أرست قواعد نظام الحماية الفرنسية بتونس. وأقبل الديوان السياسي من جديد على العمل والنضال من أجل تحقيق المطالب الوطنية، إلاّ أن تراجع الحكومة الفرنسية عن وعودها، بعد سقوط وزارة ليون بلوم، قد خيّبت آمال الدستوريين والشعب التونسي عامّة. فتوتّرت العلاقات بين الوطنيين وحكومة الحماية غداة المؤتمر الثاني للحزب الدستوري الجديد المنعقد في مدينة تونس بمقرّ الحزب الكائن في نهج التريبونال، وذلك من يوم 29 أكتوبر إلى يوم 2 نوفمبر 1937. وقد أعلن المؤتمر سحب ثقته من الحكومة الفرنسية بسبب نقضها لوعودها، ووافق على اللائحة العامة التي جاء فيها بالخصوص ما يلي:

"يصرّح الحزب بأن الغاية التي يعمل في سبيلها هي اليوم، كما كانت بالأمس، تحرير الشعب التونسي من الاستعباد السياسي والاستغلال الاقتصادي الذي ما انفكّ يكابد ويلاتهما. وهو يؤكد أن هذا التحرير الذي لا مناص منه يمكن أن يقع في كنف الهدوء والنظام والثقة المتبادلة بواسطة الشعب التونسي مع فرنسا الديمقراطية الحرّة...".

والجدير بالملاحظة أن المؤتمر قد أعاد انتخاب أعضاء الديوان السياسي الأول، ما عدا محمّد بورقيبة الذي كان قد انفصل عن الحزب بعد إطلاق سراحه من محتشد برج البوف. أما العضوان الجديدان فهما الدكتور سليمان بن سليمان والأستاذ صالح بن يوسف. وكان عدد المشاركين في المؤتمر حوالي 700 نائب. وأمّا أعضاء المجلس الملّي، فقد صار عددهم تسعة وعشرين بعد أن كانوا عشرين عضوا. وأصبحت تشكيلة الديوان السياسي تتركّب من: محمود الماطري (رئيسا)، الحبيب بورقيبة (كاتبا عاما)، الطاهر صفر (كاتبا عاما مساعدا)، صالح بن يوسف (أمين مال)، البحري قيقة (أمين مال مساعدا)، سليمان بن سليمان (ناظرا). وبعد مدّة أعرب الدكتور محمود الماطري عن رغبته

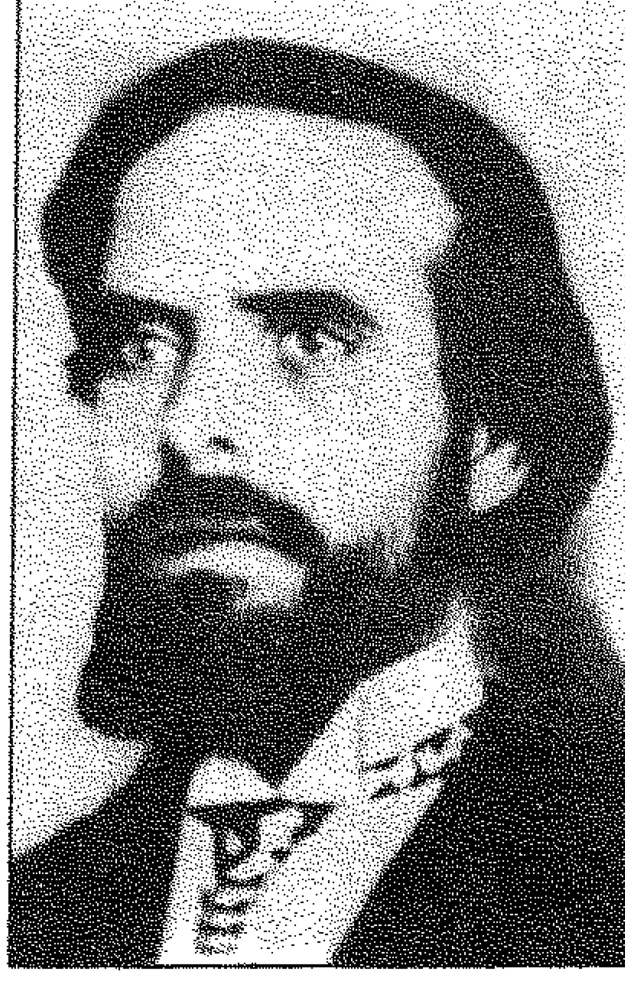
في الاستقالة من رئاسة الحزب، ذاكرا بالخصوص حسب ما ورد في شهادة سليمان بن سليمان "أن السياسة ليست من إلهامه وأنه مارسها بحكم الصداقة التي تربطه ببورقيبة وأنه أعطى ما يمكن القيام به وخرج دون أضرار كبيرة من محنة برج البوف. وهو يريد أن يتحاشى القمع". ووافق الديوان السياسي المتركّب من بورقيبة والطاهر صفر وصالح بن يوسف وسليمان بن سليمان على هذا الطلب. وصدر نصّ الاستقالة في جريدة "العمل التونسي" يوم 13 جانفي 1938. وتأزّمت الأوضاع الداخلية وبلغت ذروتها يوم 9 أفريل 1938. ومن الغد حُلّ حزب الدستور الجديد واعتقل الزعيم الحبيب بورقيبة الذي وجهت إليه تهمة التآمر على أمن الدولة الخارجي والداخلي وتحريض السكان على الحرب الأهلية. فزجّ به في السجن المدني ثم العسكري بباجة وتبرسق. وبعد ذلك نُقل إلى حصن سان نيكولا بفرنسا. وفي تلك الأثناء واصل رفاق الزعيم بورقيبة المقاومة بتونس في كنف السرية (الديوان السياسي الخامس ثمّ السادس...). وكان رفاق الزعيم بورقيبة المسجونون معه بحصن سان نيكولا هم: الهادي نويرة ومحمود بورقيبة وصالح بن يوسف والمنجي سليم وعلي البلهوان وسليمان بن سليمان.

وفي أواخر سبتمبر 1941، قرّرت الإدارة الفرنسية منحهم حقوق المساجين السياسيين. وإثر احتلال المنطقة الحرّة في فرنسا من قوّات المحور، نُقل المساجين إلى حصن (Montluc) في ليون ومن هناك نقلوا إلى قلعة فانسيا العسكرية. وكان الفرنسيون يخشون اكتشاف الألمان للزعماء التونسيين، لا سيما أنّ لجنة الهدنة الألمانية الإيطالية كانت تبحث عنهم. وكان من أهمّ ما يشغل بالهم أن تونس كانت محلّ تنافس، قبل أن تصبح تحت سيطرة المحور الفعلية ابتداء من نوفمبر 1942. فبادر الزعيم الحبيب بورقيبة إلى توجيه رسالة سريّة إلى الدكتور الحبيب ثامر الذي كان أيضا معتقلا بالسجن المدني في تونس إثر إلقاء القبض عليه من السلط الاستعمارية. وكانت هذه الرسالة المؤرّخة في 8 أوت 1942 تدعو إلى عدم اتباع المحور أو الانقياد إلى تيّاره، بل على الحزب أن يتّصل بأنصار الجنرال ديغول وممثلي الحلفاء الموجودين لا محالة بتونس.

واكتشفت السلط الألمانية المحتلة لجنوب فرنسا سجن الزعماء التونسيين وعجّلت بتخليصهم من قبضة الفرنسيين، فنقلوا إلى (Chalon-sur-Saone)، وفي جانفي 1943 إلى بلدة نيس ومن الغد إلى مدينة روما حيث بدأت الحكومة الإيطالية تجسّ النبض وتجري المباحثات في شأن العلاقات بين تونس وإيطاليا وتأكيد التعاون بين الطرفين. ولكن موقف الزعيم بورقيبة في نهاية الحرب لم يتزعزع قيد أنملة. وظلّت إيطاليا تراوغ وتماطل في موعد عودته إلى تونس بمختلف التعلاّت في حين كان الشعب التونسي وملكه الوطني محمد المنصف باي يلحّون في المطالبة بعودة المغتربين. وهو ما جعل الحكومة الإيطالية ترضخ في النهاية دون أن تنال من الزعيم بورقيبة مرغوبها. وكان ذلك بعد أن انكسرت واجهة المحور في خطّ مارث (1943) واتضح أنه لم يعد لقوات المحور طويل مقام بتونس. وتحدّد موعد العودة ليوم 7 أفريل 1943. وقبل ذلك بيوم، توجّه الزعيم بورقيبة بخطاب من إذاعة باري Bari بايطاليا إلى الشعب التونسي، ولم يشر فيه إلى دور المحور إلا بكلمة شكر ومجاملة على إطلاق سراح المعتقلين، وختم خطابه بإشارة واضحة إلى ما سيلاقيه الشعب من محن حتى يحقق عزّته وكرامته، قائلا: "كلمتي الأخيرة إلى الشعب أن لا يجرّه تيّار الفرح من أجل رفع كابوس الضغط ورجوع المجاهدين من أبنائه سالمين، إلى الظنّ بأن عهد الكفاح انتهى. بل الساعة تحتّم علينا شحذ العزائم والاستعداد لمجابهة عاصفة هوجاء يتضاءل أمامها كل ما مرّ بنا من خطوب ومحن. لكن النصر سيكون حليفنا في النهاية، ما دمنا

واثقين من أن الله معنا، إن الله مع الصابرين" .
وعاد المبعدون يوم 6 أفريل، في حين وصل الزعيم الحبيب بورقيبة يوم 8 أفريل 1943. وكانت واجهة المحور تتأزّم من يوم إلى آخر. وحاولت السلط الألمانية إقناع بورقيبة بضرورة التحوّل إلى روما أو برلين خشية انتقام الفرنسيين، ولكن دون جدوى. وقبل دخول الحلفاء مدينة تونس، اختفى الزعيم بورقيبة، ومن مخبئه في حيّ ترنجة بالعاصمة بادر بتوضيح موقفه وموقف الحزب من فرنسا والحلفاء. وفي 9 ماي 1943، أصدر بيانا أعرب فيه عن الابتهاج بانتصار الحلفاء وأكّد أن الحزب يدافع دوما عن الحرية والديمقراطية. ثم أصدر بيانا ثانيا بعنوان "في سبيل تكوين كتلة فرنسية تونسية" ، لكن الجنرال جوان (المقيم العام بالنيابة) حال دون نشر البيانين في جريدة (Le Petit Matin)، لأن الساسة الفرنسيّين كانوا يريدون الانتقام من الحزب والقضاء عليه نهائيا. لكن القنصل الأمريكي هوكر دوليتل كان على علم بموقف الحبيب بورقيبة من المحور ومن الحلفاء وتدخّل لدى الجنرال جوان لتصحيح الوضع. وأذن له بمقابلة عدد من المسؤولين السياسيين الفرنسيين في الإقامة العامة. وقد أفضت تلك الاتصالات إلى طرح قضية ملف بورقيبة والسماح له بالظهور وكان ذلك يوم 7 جوان 1943. وفي الشهر نفسه، عيّن مقيم عام جديد هو الجنرال ماست (Mast) الذي امتاز عهده بالنفوذ المطلق الذي أصبح عليه الكاتب العام للحكومة بمقتضى الأمرين المؤرّخين في 21 جوان 1943 و17 مارس 1944.

وفي 28 مارس 1944، قدّم الزعيم بورقيبة الإقامة العامة مقترحات أولية لتخليص السيادة التونسية من شوائب الازدواجية، وذلك في رسالة وجهها إلى رئيس ديوان المقيم العام الجنرال ماست ذكّر فيها بالاجتماعين اللذين التأما بمنزله يومي 4 و20 مارس 1944 وشرح فيها القضية الوطنية وتطوّرها، ومواقف الحزب مدّة الحرب



الزّعيم بورقيبة أيّام منفاه بمدينة قبلّي

العالمية الثانية. وتحرّكت القوى الوطنية مطالبة برجوع المنصف باي، وأقام الحزب تكتّلا وطنيا عُرف بلجنة الستين. وهو التكتّل الذي تولّدت عنه عدّة اجتماعات شارك فيها الحزبان الدستوريان الجديد والقديم والهيئات التونسية المنتخبة وهيئات التعليم والطلبة من زيتونيين ومدرسيّين. وانتهى الأمر بتصريح 30 أكتوبر 1944 الذي أعلن ضرورة الاعتراف بالاستقلال الداخلي للبلاد. ثمّ وقّعت عليه لجنة الستين في 22 فيفري 1945 وأصبح هذا التصريح يعتبر وثيقة أساسية لمطامح الشعب التونسي. وأسفر عن اتفاق جماعي يحدّد المطالب في الحكم الذاتي على أسس ديمقراطية على أن يضبط شكله مجلس تشريعي منبثق عن دستور تونسي.

وقرّر الديوان السياسي الموسّع للحزب الدستوري الجديد إيفاد الزعيم بورقيبة إلى المشرق العربي للتعريف بالقضية التونسية وكسب الأنصار لها، وخطط لتنفيذ العملية بكل سرية. وجازت الحيلة على الإقامة العامة التي شدّدت مراقبتها على تحرّكات الزعيم بورقيبة، لكنّه تمكّن رغم ذلك، صحبة المناضل خليفة حواص، من اجتياز كل العقبات والوصول إلى القاهرة بسلام عبر الحدود الليبية. ومن أهمّ المناشط التي قام بها بورقيبة إثر وصوله إلى القاهرة واستقراره بها، زيارته لأغلب أقطار المشرق العربي في فترات مختلفة مدّة إقامته هناك (1945–1949). فزار المملكة العربية السعودية والعراق والأردن وفلسطين وسوريا ولبنان، واتصل بقياداتها ورجالاتها معرّفا بالقضية التونسية. وبالإضافة إلى المكتب

الخاص بالحزب الحرّ الدستوري وبالتعاون مع الوطنيين المغاربة والجزائريين، أنْشئَ أيضا مكتب المغرب العربي المشترك (فيفريَ 1947)، كما تعاون الزعيم بورقيبة مع الزعيم علاّل الفاسي إلى أن أنزل الأمير عبد الكريم الخطّابي لاجئا سياسيا بمصر أثناء عبوره قناة السويس من منفاه إلى فرنسا (ماي 1947). وتدخّل كذلك لدى الجامعة العربية ولدى تحسين العسكري الوزير المفوّض العراقي بالقاهرة، لتسليم جوازات سفر عربية إلى المناضلين الدستوريين الذين غادروا تونس قبيل انهزام المحور وهم: الدكتور الحبيب ثامر والطيب سليم والرشيد إدريس والهادي السعيدي وحسين التريكي، وقد كانوا مستقرّين بإسبانيا، والتأم الشمل في القاهرة منذ سنة 1946.

وفي ديسمبر 1946 تحوّل الزعيم بورقيبة إلى نيويورك للتعريف بالقضية التونسية في منظمة الامم المتحدة. وبفضل مساعدة هوكر دوليتل الذي أصبح قنصلا للولايات المتحدة الأمريكية في الإسكندرية، أمكن للزعيم بورقيبة الحصول على تأشيرة دخول. وساعده في محادثاته عند إقامته بالولايات المتحدة صلاح الدين بن عثمان (وهو تونسي مهاجر مستقرّ بنيويورك) وسيسيل حوراني مدير الوكالة العربية في واشنطن. وتعرف بالخصوص إلى مساعد وزير الخارجية الأمريكية دين اتشسن ولويس هندرسن، رئيس قسم الشرق الأدنى والشمال الإفريقي. وفي 22 جانفي 1947 ألقى محاضرة عن شمال إفريقيا بنادي الشرق في مدينة واشنطن حضرتها عدّة شخصيات عربية وأمريكية وموفدين من الصحف العالميّة صحافيين عالميين.

وفي 8 سبتمبر 1949، رجع الزعيم بورقيبة إلى تونس. وبعد سلسلة من الاجتماعات الحزبية في مختلف الجهات بالبلاد (من النصف الثاني من سبتمبر 1949 إلى نهاية مارس 1950) تحوّل إلى فرنسا يوم 12 أفريل 1950 لكسب الأنصار داخل اليسار الفرنسي ولزيادة التعريف بالحركة الوطنية لدى الرأي العام الفرنسي. وعرض بالخصوص مشروع إصلاحات ذات سبع نقاط يرمي مجموعها إلى الحكم الذاتي. وهذه النقاط هي:

1 – بعث السلطة التنفيذية التونسية المؤتمنة على السيادة التونسية.

2 – تشكيل حكومة تونسية وطنية مسؤولة عن الأمن العام يرأسها وزير أكبر يعيّنه الباي ويتولى رئاسة مجلس الوزراء على نحو فعليّ.

3 – إلغاء خطة الكاتب العام للحكومة.

4 – إلغاء خطة المراقبين المدنيّين.

5 – إلغاء الجندرمة الفرنسية.

6 – إحداث بلديات منتخبة تمثل فيها المصالح الفرنسية حيث توجد أقليات من الفرنسيين.

7 – بعث مجلس وطني منتخب بالاقتراع العام تكون أولى مهامه إعداد دستور ديمقراطي يضبط العلاقات بين تونس وفرنسا على أساس احترام السيادة التونسية ومصالح فرنسا المشروعة.

وقد وجدت هذه المطالب صدى طيّبا في أوساط الحزب الاشتراكي الفرنسي والحركة الجمهورية الشعبية (M.R.P). وصرّح وزير الخارجية الفرنسي روبار شومان بمناسبة تعيين لويس بريبي (Louis Périllier) مقيما عاما بتونس خلفا لجون مونص (Jean Mons): "إن مهمة المقيم العام الجديد في تونس هي السير بالبلاد التونسية إلى الاستقلال". ولكن سرعان ما تراجع موضّحا أن المقصود بالاستقلال هو الحكم الذاتي. وفي 4 أوت 1950، صادق المجلس الملّي للحزب الدستوري الجديد على لائحة تخوّل للديوان السياسي "اختيار الحلول الواقعية التي تقتضيها الظروف، على أن تؤول في أمد معقول إلى إقرار الشكل الحكومي في البلاد على قاعدة سلطة تونسية قومية محرّرة من قيود كلّ تعقب أجنبي لأعمالها". وساند الزعيم بورقيبة مشاركة صالح بن يوسف في تكوين حكومة تفاوضية برئاسة محمد شنيق. وعُيّن الأمين العام للحزب وزيرا للعدل.

ولتعزيز هذه المفاوضات، قام الزعيم بورقيبة بجولة في عدد من البلدان الآسيوية مجدّدا الاتصالات السابقة لدعم القضية التونسية، ثم اتجه إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن استمرّت مماطلة الحكومة الفرنسية وتباعدها عن التفاوض بتزايد ضغط كتلة "التفوّق" والأحزاب اليمينية الاستعمارية بإشراف زعيمهم أنطوان كولونا (Antoine Colonna). وفي 15 ديسمبر 1951 أعلنت الحكومة الفرنسية في مذكّرة تراجعها عن جميع تعهّداتها وأكدت "الصبغة النهائية للعلاقة التي تربط فرنسا بتونس". فسحب الزعيم بورقيبة ثقته من فرنسا وأعدّ البلاد للكفاح المسلّح وسعى إلى تدويل القضية التونسية بعرضها على منظمة الأمم المتحدة. وبلغت الأزمة التونسية الفرنسية ذروتها لمّا دعا الشعب التونسي إلى الصمود والكفاح والاستشهاد لكسب معركة التحرير. وما إن رجع بورقيبة من الخارج حتى ألقي عليه القبض يوم 18 جانفي 1952 مع مجموعة من المناضلين. وقد أُبعد في أول الأمر إلى طبرقة ومنها إلى الجنوب ثم إلى جزيرة جالطة التي قضّى بها عامين في عزلة تامة، لكن دون أن تنقطع صلته بالمناضلين الوطنيين الذين كان يدعوهم دوما إلى مواصلة الكفاح والصمود أمام المستعمر. واعتمد المقيم العام دي هوتكلوك سياسة القبضة الحديدية ضدّ المناضلين الوطنيين التونسيين، فاستشهد يوم 5 ديسمبر 1952 الزعيم النقابي فرحات حشاد، وقد اغتالته عصابة اليد الحمراء الإرهابية التي اغتالت أيضا عدّة مناضلين دستوريين وفي مقدمتهم الزعيم الهادي شاكر الذي استشهد يوم 13 سبتمبر 1953. ونُقل الزعيم بورقيبة إلى جزيرة Groix الفرنسية بالمحيط الأطلسي (4 مارس 1954) وذلك إثر إصلاحات المقيم العام بيار فوزار (Pierre Voizard) وظلّ الزعيم بورقيبة يتابع تطوّر الحركة التحريرية من منفاه.

وعندما أصبح الراديكالي المتحرّر منداس فرانس رئيسا للحكومة الفرنسية في 18 جوان 1954، أخذ بآراء بورقيبة. وبعد أن سوّى قضية الفيتنام في مؤتمر جنيف، قدم إلى تونس وأعلن بقرطاج أمام الأمين الباي اعتراف حكومة باريس باستقلال تونس الداخلي (خطاب 31 جويلية 1954). وفي اليوم نفسه، صرّح الزعيم بورقيبة لوكالة الأنباء الفرنسية مبيّنا بالخصوص: "(...) إن هذه الاقتراحات تعتبر مهمّة وحاسمة في الطريق المؤدية إلى إرجاع السيادة التونسية كاملة غير منقوصة. ويبقى الاستقلال المثل الأعلى للشعب التونسي إلاّ أنّ السير نحو هذا الاستقلال لن يكتسي في المستقبل صبغة الكفاح بين الشعب التونسي وفرنسا، بل سيتمّ بواسطة اتفاقيات وتعديلات بين الحكومة التونسية والحكومة الفرنسية، تنجز في جوّ من الثقة المتبادلة والصداقة (...)". وفي 15 أوت 1954، أصدر المجلس الملّي المتسع لائحة جاء فيه ما يلي: "إن المجلس (...) يبعث بتحياته الخالصة إلى رئيسه الجليل الأستاذ الحبيب بورقيبة زارع الروح الوطنية في الشعب، ومُحيي فيه روح التضحية في سبيل عزّة الوطن وسعادة الشعب، ويعبّر له عن تعلّق الحزب بشخصه، وبالمبادئ السياسية التي غرسها في الأمة التونسية، ويؤكّد عزمه على مواصلة الكفاح قُدُما تحت قيادته في سبيل المرامي القومية للشعب التونسي". وكانت الحكومة التفاوضية قد تشكّلت يوم 8 أوت برئاسة الوزير الأكبر الطاهر بن عمّار وضمّت أربعة وزراء من الحزب الحرّ الدستوري الجديد: المنجي سليم ومحمد المصمودي والصادق المقدّم والهادي نويرة.

وكان دور الزعيم بورقيبة حاسما في إقناع المسلحين التونسيين للخروج من معاقلهم وتسليم سلاحهم (من 1 إلى 10 ديسمبر 1954) مقابل حصولهم على "وثيقة أمان" من المقيم العام Boyer de la Tour. وفي الأثناء، اندلعت الثورة المسلّحة التحريرية بالجزائر (أول نوفمبر 1954). وهو ما أسهم بقسط وافر في سقوط حكومة

منداس فرانس يوم 5 فيفري 1955. ولكن المفاوضات التونسية الفرنسية تواصلت بعد تكوين حكومة إدغار فور Edgar Faure. وكان رئيس الحكومة الفرنسية الجديد مطّلعا على خفايا القضية التونسية. فاستقبل الحبيب بورقيبة رسميّا في قصر ماتينيون يوم 21 أفريل 1955 ثم استقبله مرّة ثانية قبل عودته إلى أرض الوطن يوم غرّة جوان 1955. وكان الاتفاق على أن لا تتجاوز المفاوضات التونسية الفرنسية حول الاستقلال الداخلي يوم 30 ماي. وبالفعل وُقع على الاتفاقيات بالأحرف الأولى يوم 29 ماي ثم وُقِع عليها رسميا يوم 3 جوان 1955 في باريس. وصادق عليها الباي يوم 27 أوت 1955، ونُشرت في الرائد الرسمي التونسي. وفي غرّة جوان 1955 رجع الزعيم الحبيب بورقيبة إلى تونس، فاستقبلته الجماهير الشعبية الغفيرة استقبال الأبطال المظفرين. وفي 13 سبتمبر 1955، رجع الزعيم صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدستوري الجديد من القاهرة، وخُصّ هو أيضا باستقبال شعبي، إلاّ أن خلافا حادّا نشب بين الزعيمين. ففي نظر صالح بن يوسف يعتبر الاستقلال الداخلي خطوة إلى الوراء، في حين يرى بورقيبة أن استقلالا منقوصا خير من استعباد كامل وأن ذلك الاستقلال الدّاخلي سيؤدّي حتما إلى الاستقلال التّام. وقد حُسم الخلاف لفائدة بورقيبة في مؤتمر الحزب الدستوري الجديد المنعقد بصفاقس في 15 نوفمبر 1955.

وحصلت اصطدامات دموية بين أنصار الطرفين، استشهد فيها عدد من الوطنيين المخلصين. وبعد بضعة أشهر، ساعد مجرى التاريخ الحكومة التونسية (المعارضة اليوسفية وثورة الجزائر ومنح الاستقلال للمغرب الأقصى) على المطالبة بالاستقلال التام. فقد باشرت حكومة الطاهر بن عمّار الثانية (17 سبتمبر 1955) المفاوضات التي انتهت بإبرام بروتوكول 20 مارس 1956. وفي 25 مارس، انتخب التونسيون المجلس القومي التأسيسي برئاسة الزعيم الحبيب بورقيبة. وفي 14 أفريل كلّف الباي رئيس المجلس التأسيسي بتكوين أوّل حكومة في عهد تونس المستقلة. وفي 25 جويلية 1957، أعلن المجلس قيام الجمهورية وإلغاء الملكيّة وعيّن الزعيم الحبيب بورقيبة أول رئيس للجمهورية التونسية.

ومنذ ذلك التاريخ، أنجز الرئيس بورقيبة إصلاحات عدّة لإرساء دولة عصرية واستكمال السيادة الوطنية (تحقيق الجلاء العسكري 15 أكتوبر 1961، وتأميم الأراضي الزراعية في 12 ماي 1964) وتحديث المجتمع: إصلاح التعليم وإصدار مجلة الأحوال الشخصية التي منعت تعدّد الزوجات وأقرّت المساواة بين الرجل والمرأة والزواج المبني على موافقة الزوجين والطلاق عن طريق القضاء إلخ... وقد حاول



عودة الزعيم الحبيب بورقيبة غرة جوان 1955

بورقيبة تحديث المجتمع التونسي رغم ما أثاره ذلك من ردود فعل مختلفة، مستعينا في ذلك بنفوذه الأدبي المستمدّ من دوره التاريخي. ومن أهمّ الإصلاحات مضاعفة عدد التلامذة 10 مرّات في ظرف 10 سنوات بفضل سياسة تعميم التعليم الفريدة من نوعها في العالم الثالث، وكذلك التحكم في السياسة الإنجابيّة وإدماج المرأة في المجتمع وتمكينها من حقّ الانتخابات منذ سنة 1957.

وفي مؤتمر الحزب المنعقد في بنزرت سنة 1964، تقرّر اعتماد ثلاثة قطاعات في الميدان

الاقتصادي: القطاع العمومي والقطاع الخاص والقطاع التعاضدي. ولكن السياسة الاقتصادية الكليانية (التّعاضد الفلاحي والتجاري بالخصوص) التي شملت جميع القطاعات فشلت في آخر الأمر. وهو ما حدا بالرئيس بورقيبة إلى إقالة أحمد بن صالح، وزير التخطيط والمالية والاقتصاد، وإحالته على القضاء، باعتباره المسؤول الأوّل عن فشل تلك السياسة، حسب رأي الرئيس وأعضاده. وإثر وقفة التأمّل التي دامت من سنة 1969 إلى أواخر 1970، عيّن الهادي نويرة (محافظ البنك المركزي، عهدئذ، والعضو في الديوان السياسي للحزب) وزيرا أوّل خلفا للسيد الباهي الأدغم الذي اضطلع بمهام كاتب دولة للرئاسة منذ تكوين أول حكومة في عهد الاستقلال. وفي 11 أكتوبر 1971 تبنت أغلبية القواعد في مؤتمر الحزب الاشتراكي الدستوري المنعقد بالمنستير توجهات ليبرالية ديمقراطيّة لم يقبلها بورقيبة الذي قرّر عقد مؤتمر جديد للحزب في المنستير (مؤتمر الوضوح) يوم 15 سبتمبر 1974. واقترح المؤتمر تحوير الدستور لتمكين بورقيبة من رئاسة الجمهورية مدى الحياة، فوافق مجلس الأمة على هذا الاقتراح. ولئن مكنت السياسة الاقتصادية الليبرالية التي اعتمدتها حكومة السيد الهادي نويرة من تحقيق نهضة اقتصادية ملحوظة فإنّها لم تحم البلاد من بعض الهزّات السياسية والاجتماعية المحدودة الاتّساع.

وإثر تخلّي الهادي نويرة عن مهامه لأسباب صحية،عُوّض بمحمد مزالي. غير أن الوضع بدأ يتدهور في القصر الرئاسي: إذ انفصل الرئيس بورقيبة عن زوجته وسيلة ذات النفوذ الكبير وأبعد ابنه وكاتبه الخاص ثم أقال وزيره الأوّل وعوّضه بالسيّد رشيد صفر ابن المناضل الطاهر صفر، كما أدخل تحويرات متتابعة على الحكومة. وانتهى به الأمر إلى إعفاء الوزير الأول رشيد صفر من مهامه، وتعويضه بزين العابدين بن علي الذي كان آنذاك وزيرا للداخلية. وفي 7 نوفمبر 1987، قرّر الوزير الأول زين العابدين بن علي إقالة رئيس الجمهورية والحلول محلّه على رأس الدولة.

توفي الحبيب بورقيبة يوم 6 أفريل سنة 2000، وهبّت الجماهير بكل تلقائيّة لتشييع جنازة رجل تعتبره - رغم بعض أخطائه - علامة مضيئة في تاريخ تونس على مرّ العصور.



محمّد بورقيبة
[1881 - 1930م]

محمد بورقيبة (شقيق الحبيب بورقيبة أوّل رئيس للدولة التّونسيّة). مناضل من الرعيل الأوّل ومسرحي وأديب يجيد اللّغتين العربية والفرنسيّة. كان «من أوسع الناس رواية للأدب وأصفاهم ذوقا في النقد وأرسخهم ملكة في التلاعب بأوجه التعبير وتصاريف القول» (محمد الفاضل ابن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس 13هـ - 14هـ /19 - 20م، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس 2009، ص 180). ولئن كانت المعلومات عن صباه وتكوينه قليلة فيما لدينا من مراجع فإن جعفر ماجد يفيدنا بأنّ محمّد بورقيبة كان صادقيّ التكوين، فساعده ذلك على كتابة مقالات جيّدة باللّغتين يدافع فيها عن الأدب العربي عموما والمسرح بوجه خاصّ (جعفر ماجد، الصحافة الأدبية في تونس من 1904 إلى 1955 (بالفرنسية)، منشورات الجامعة التونسيّة، تونس 1979، ص 68).

بدايات النشاط المسرحي في تونس :

صعد الممثّلون التّونسيون في 2 جوان 1909 لأوّل مرّة على خشبة المسرح. وكان ذلك ضمن «الجوق التّونسي المصري» الذي كان يضمّ ثلّة من الشبان التونسيين وعناصر فرقة سليمان قرداحي (المصرية) الذين بقوا مدّة بتونس بعد موت مديرهم في 5 ماي 1909.

وبعد عودة الممثّلين المصريين إلى مصر اتّفق بعض التّونسيين، وهم: محمّد بورڤيبة والصّادق الرزڤي (مدير جريدة «إفريقيا» وصاحب كتاب «الأغاني التونسية») والمحامي محمّد العبدلي وعلي عبد الوهاب، على تأسيس جمعية تمثيلية أسموها «جمعيّة الشّهامة الأدبية» وباشروا التّمارين على مسرحية «صلاح الدين الأيوبي» وقد وزّعت الأدوار كما يلي: صلاح الدين: الشيخ إبراهيم الأكودي - ريقاردوس قلب الأسد: محمد بورڤيبة - وليام: أحمد بوليمان - مارتين: سليمان الصّحراوي، الخ...

ولكن لم يكن بالجمعيّة ممثلات في أول الأمر ثمّ انتدبت كلّ من عائشة الصغيرة وزبيدة الجزائريّة. وكانت رئاسة الجمعيّة قد أسندت إلى علي عبد الوهاب لكنّه لم يتمكّن من إعداد القانون الأساس للجمعيّة ولا من الحصول على التأشيرة ولا على قاعة عرض للمسرحيّة وجعل يسوّف أعضاء الجمعية حتى ضاقوا ذرعا بذلك التّسويف. فاتصّل أغلبهم بأعضاء النادي التونسي وكوّنوا جمعيّة أخرى أطلقوا عليها اسم «الآداب» وأعدّوا لها قانونا أساسيّا وتمّت المصادقة عليه في 15 أفريل 1911. ولم يبق بجمعيّة الشّهامة التي اضطرت إلى تغيير اسمها فأصبحت تسمّى «الشّهامة العربية» إلا محمد بورڤيبة وسالم بودربالة وأحمد الهيشري وظلّت تتمرّن على مسرحية «عطيل أو القائد المغربي».

وخطرت لبعضهم فكرة توحيد الجمعيتين فاستنكرها أفراد «الشّهامة» بشدّة، وكان محمد بورڤيبة في الأثناء قد أقنع بالانضمام إلى الجمعيّة كلاّ من حسونة وبكار بن عمّار وحسين الجزيري.

ومرّ عام وجمعيّة «الآداب» تنشط بمفردها ثمّ جمعت «الشّهامة» شتاتها فاجتمع مؤسسوها في الخامس من ماي 1912 لانتخاب رئيس وأعضاء لإدارة شؤونها وأسندت إدارتها الفنيّة إلى محمد بورڤيبة وقدمت في 19 أوت 1912 بكازينو البلفدير باكورة أعمالها مسرحيّة «السيّد» تأليف كورناي وتعريب نجيب الحداد.

وقد قام محمد بورقيبة بالأدوار الرئيسة في عدة مسرحيات تفوّق فيها مثل: «الملك أبو قابوس»، و«ثارات العرب» و«عطيل» و«صلاح الدين» و«هملت»...

يعتبر محمد بورڤيبة حينئذ أوّل ممثل تونسي خوّلته له مقدرته أن يصبح مديرا فنيّا متميّزا. ولولا إقصاؤه عن العاصمة إلى الكاف ثمّ إلى ماطر ثمّ إلى الكاف من جديد بموجب عمله بإدارة الصحّة (عونا طبّيا) ولأسباب سياسيّة لما اعتزل التمثيل.

وقد أسّس جمعيّة «الاتحاد الفنّي بالمنستير» وتولّى إدارتها وكانت معاصرة «للشهامة» و«الآداب» وممّا قدّمت من الأعمال المسرحية: شهداء الوطنيّة - لصوص الغاب - مجنون ليلى - صلاح الدين الأيوبي - روميو وجوليات - فتح بيت المقدس - السّموءل. (انظر في شأن أعماله، التحاليل الضافية التي قدّمها حمّادي بن حليمة : «نصف قرن من المسرح العربي في تونس» (بالفرنسيّة)، منشورات الجامعة التونسيّة، تونس 1974 الصفحات 61، 62، 63، 72، 73، 76، 152).

وكان محمد بورڤيبة صعب المراس ومتشدّدا مع الممثّلين الذين يلحنون في العربيّة ومع الّذين لا يتقنون الحركات.

أمّا الإخراج فكان من خصائصه وقد أظهر في جميع الأدوار التي قام بها نبوغا واقتدارا، وقد درّب عشرات الممثّلين على الإجادة والإتقان.

وتوفّي يوم 26 جويلية 1930.

محمود بورقيبة
[1909–1956م]

هو محمود بن محمد الصغير بن علي بورقيبة، لا علاقة له بالحبيب بورقيبة ولا بأخيه محمّد بورقيبة. هو من أسرة تونسية متواضعة «أصلها من بقايا الإنكشارية الأتراك» (حسن حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي، مكتبة المنار، تونس، 1968، ص 327) المشهورين بصناعة الشاشية. ولد محمود بورقيبة في تونس سنة 1909. وتوفي بها سنة 1956. لا نعلم شيئا كثيرا عن طفولته ولا عن مستواه التعليمي. تذكر المصادر أنه درس ببعض المدارس الابتدائية ثم التحق بجامع الزيتونة ولكنها، لا تفيد الدارس بمعلومات ضافية عن هذه الفترة من حياته. عرف بكونه شاعرا منشغلا بالقضايا الاجتماعية والأدبيّة وبأنه كان يجيد نظم القصائد الطّوال في شتّى الأغراض والمضامين. ولعلّه فاق معاصريه في إنشاء الأغاني ذات الطابع الشعبي التي كانت تجد صدى في صفوف الشباب حتّى لقّب بـ شاعر الشباب. وكان يشاركه في هذه التسمية معاصره وصديقه عبد الرزاق كرباكة(انظر، محمد الفاضل ابن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية، بيت الحكمة، تونس2009، ص 229).

انتدبته الإذاعة التونسية ليعمل فيها. فلم يغادرها إلا قبل موته. وكان للشاعر محمود بورقيبة نشاط في مجال المسرح. فكان يترجم مع صديقه البشير المتهنّي مسرحيّات من الفرنسية إلى العربية وينشر مقالات نقديّة في مجلّتي الوزير والزهرة، كما كان عضوا في هيئة الاتحاد المسرحي الذي تكوّن في جانفي 1936 وترأسه محمد الورتاني(انظر، حمادي بن حليمة، نصف قرن من المسرح العربي في تونس 1907–1957 (بالفرنسية)، منشورات الجامعة التونسية، تونس 1974، الصّفحات 94، 103، 110 وانظر، جعفر ماجد، الصحافة الأدبية في تونس من 1904 إلى 1955 (بالفرنسية)، منشورات الجامعة التونسية، تونس1979، ص ص. 152–197).

توفّي محمود بورقيبة سنة 1956 ولم يتجاوز الخمسين من العمر.

إيتيان بورني
[1873 – 1960م]

ولد الطبيب الفرنسي إيتيان بورني (Burnet Etienne) في مقاطعة المارن (Marne) الفرنسيّة سنة 1873، توجّه في أوّل أمره نحو الدّراسات الأدبية واجتازها بتفوّق إذ أحرز الجائزة الأولى في التاريخ وهو في سنّ السّابعة عشرة. حصل على التبريز في الفلسفة سنة 1897، لكنّه لم يكتف بذلك وإنّما التحق بكليّة الطّب وأحرز شهادة الدكتوراه سنة 1903.

قدم بعد ذلك إلى تونس لينخرط في مسار البحث العلمي التّجريبي بمعهد باستور الذي كان من أبرز نجاحات الاستعمار الفرنسي بتونس، فتابع في البداية الدّروس التي كان يُلقيها عدد من أبرز الأطبّاء الفرنسيين كفرناند فيدال (Widal) وإيميل رو (Roux) وإيلي متشنيكوف (Metchnikoff)، كما تتلمذ على شارل نيكول (الحائز على جائزة نوبل في الطب) (1866ـ1936) الذي كان يدير معهد باستور وقتئذ.

لقد بدا بورني منذ هذه الفترة وكأنّه ربط مصيره بتونس، ولم يقطع إقامته بها إلاّ عند اندلاع الحرب العالميّة الأولى ليلتحق بالجيش الفرنسي في اليونان (1914ـ1918) دون أن يشارك في العمليات الحربيّة، إذ اتّجه اهتمامه إلى مكافحة وباء الحمّى التيفيّه وحمّى المستنقعات.

عاد إلى تونس سنة 1919، فأسندت إليه إدارة

الوقاية العموميّة بالبلاد التونسيّة واستمرّ في هذه المهمّة إلى سنة 1928، وكان في هذه الفترة يجرى أبحاثه حول الأوبئة والأمراض مركّزا اهتمامه على وسائل اكتشاف الحمّي المالطيّة والحمّى البشريّة المتوسّطية وكيفيّة تطوّرها، والوقاية منها.

جلبت له هذه الأبحاث غير المسبوقة تقديرا كبيرا على المستوى الدولي، فَدُعيَ سنة 1928 إلى جنيف للعمل خبيرا بمنظمة الوقاية التّابعة لعصبة الأمم ثمّ عُيّن عضوا بلجنتها الفنّية وهو ما أتاح له الإلمام بالأوضاع الصّحية في مختلف بلدان العالم وخاصّة ما يتّصل منها بمرض الجذام باعتباره كان يتولّى سكرتاريّة اللّجنة الخاصّة بهذا المرض في المنظمة الأمميّة.

وعند وفاة شارل نيكول سنة 1936 دُعِيَ بورني إلى خلافته على رأس معهد باستور بتونس، واستمرّ في هذا المنصب إلى سنة 1943.

اشتغل إيتيان بورني خلال مسيرته العلميّة بمعهد باستور على الكثير من الأمراض كالجدري والجذام والرّمد والكلب والتيفويد والخناق والزّهري والحمّى المالطيّة...

لم يكن بورني مجرّد طبيب أو باحث مخبري بل كان لتكوينه الفلسفي تأثير واضح في حياته وأعماله وتصوّره للوجود، فقد كان متشبّعا بالإنسانويّة (Humanisme) بما تنطوي عليه من منزع عقلاني وإعلاء للقيم الإنسانية، وهذا ما جعله يعتبر العمل المخبري بعدا من أبعاد المرض المتعدّدة، إذ كان يأخذ في الاعتبار العوامل الأخرى المحيطة، وكانت له رؤية سوسيولوجيّة تجلّت من بعض كتاباته، ومن أبرزها البحث الذي نشره سنة 1939 حول الغذاء في تونس، وهو أوّل بحث ميدانيّ في الموضوع، أجراه بورني في الفترة بين 1937 و 1939 واعتمد فيه على عيّنة تتألّف من 110 عائلة من مختلف مناطق البلاد التونسية، وأورد فيه تفاصيل دقيقة عن معدّل ما يتناوله التونسيون آنذاك من حريرات، وانتهى إلى أنّ ما يفوق 56٪ من عيّنة البحث يعانون من سوء التغذية، وهو ما يعتبر إدانة لنظام «الحماية» الفرنسي على البلاد التونسيّة. كما خرج بورني بنتيجة مهمّة وهي أنّ ثالوث الحبوب والزّيت والخضر هي أساس الصّحة في تونس.

تميّزت كتابات بورني بتنوّعها إذ كتب في الطّب والأدب والفلسفة، ونشر أوّل كتاب له في ميدان تخصّصه سنة 1908 بعنوان "مكافحة الجراثيم" ثمّ أصدر سنة 1911 كتاب "الجراثيم والسمّين" (Microbes et Toxines) الذي قدّم له أستاذه وصديقه الطبيب متشنيكوف، والكتابان يتضمّنان ملاحظاته وتدقيقاته حول عدّة أمراض ميكروبية.

وفي سنة 1912 أصدر بورني كتابا أدبيّا عنوانه "جيش الشرق 1916-1917" ضمّنه شيئا من مذكّراته في أثناء إقامته باليونان زمن الحرب العالمية الأولى، فيما يعدّ كتابه " دون كيشوت وسرفنتس والقرن السادس عشر" المؤلّف الذي تضمّن آراءه الفلسفيّة.

ويعتبر كتابه "بعيدا عن الأيقونات" "Loin des Icones" الذي تدور أحداثه سنة 1923 بالبلاد التونسية من أشهر مؤلفاته التي تتضمن آراءه الاجتماعية ذات البعد الإنساني وهو شهادة على الوضع الاجتماعي بالبلاد التونسية في فترة ما بين الحربين.

وفي ضوء ما تقدّم، يمكن القول إنّ المشاعر الإنسانيّة والرومانسية هي التي كانت وراء قدوم بورني إلى البلاد التونسية وهو في الثلاثين من عمره، لكنّ اشتغاله وإقامته بها ما يزيد عن نصف قرن جعلتها محور حياته ومدار تجاربه وأبحاثه، كما كانت تونس لديه بمنزلة الوطن الذي تعلّق به إلى آخر حياته، ناهيك أنّه لم يعد إلى فرنسا بعد استقلال البلاد التونسية، بل بقي بها حتى توفيّ سنة 1960.



جمال الدين بوسنينة

[1899 ـ 1945م]

ولد جمال الدين بوسنينة حوالي سنة 1899. وبعد انتهاء دراسته الثانويّة من التعليم الزيتوني وحصوله على شهادة التخرّج، انخرط في سلك موظّفي جمعيّة الأوقاف بتونس، وأسهم خارج أوقات العمل الإداري في الكثير من المناشط الثقافيّة والاجتماعيّة، وهو الموهوب بالفطرة، سواء في الشعر أو الموسيقى أو التمثيل، كما اهتمّ بالرياضة إذ كان المؤسّس الأوّل لجمعية النادي الإفريقي سنة 1920.

وكان ضمن العاملين الفاعلين بالجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة ورافق أعضاءها طيلة عقود كي يتواصل نشاطها الاجتماعي على أحسن وجه. هذا بالإضافة إلى ما قدّمه من أعمال لمؤسّسة جمعيّة الأوقاف، وسعيه الدائب كي تبقى مؤطرة لأحسن الكفايات وأقدرها على التسيير والإشراف.

ونتيجة ولوعه بفنّ الموسيقى كان ضمن المؤسّسين لجمعيّة الرشيديّة ومن أبرز أعضائها. أمّا في المجال المسرحي فقد كان مدركا تمام الإدراك لما لهذا الفنّ من عميق الأثر في تغيير عقلية الشعب التونسي، ودفعه إلى الأمام، يحدوه شعور قومي وتبصر ووعي، ولم يعش واقع المسرح ممثّلا على الركح فقط، بل أسهم أيضا بمقالات كثيرة عنه. فنشرت له مجلّة «الثريّا» في عددها الحادي عشر (نوفمبر 1945) مقالا بعنوان: «أزمة المسرح التونسي» دعا فيه إلى مراعاة الجانب الإنساني ومدّ يد المساعدة إلى المعوزين واعتبر التبرّع بجزء في المائة للجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة من مدخول كلّ مسرحيّة أمرا أكيدا بل واجبا.

تعامل جمال الدّين بوسنينة مع الكثير من الأدباء المشارقة (وبالخصوص مع المصريّين)، وراسل رجال التمثيل والفنّانين وأحسن وفادتهم.

توفي يوم 7 ماي 1945 في السّادسة والأربعين من عمره.



محمد بوشربيّة

[1903 – 1952م]

يعد محمد بوشربية من أبرز شعراء القيروان وتونس عموما في النصف الأول من القرن العشرين نظرا إلى بروزه في الحقل الأدبي شاعرا مدافعا عن بلاده، ومربيا يبث في الناشئة بذور الوطنية ومبادئ الأخلاق الفاضلة.

فقد ولد بالقيروان سنة 1903 وبها زاول تعليمه الابتدائي باللغتين العربية والفرنسية، وانتقل بعد ذلك إلى العاصمة ليزاول الدراسة بجامع الزيتونة بداية من سنة 1922 ويحرز على شهادة التطويع سنة 1928.

وما أن تخرج في جامع الزيتونة حتى عمل محررا بجريدة القيروان ثم قيّما بالزيتونة باقتراح من المرحوم العلامة محمد الطاهر بن عاشور ونجح بعد ذلك في مناظرة التدريس سنة 1934 بعد أن اعترض سبيله مرات عديدة عملاء الاستعمار الذين رأوه خطرا عليهم في تلك المؤسسة، ولكن إصراره على مزاولة التدريس انتصر على أعدائه فاشتغل أستاذا وكان في مهمته ناجحا إلى أبعد الحدود خصوصا وقد كان يحرر مقالات في صحف ذلك الوقت كالنهضة

والزهرة والقيروان وغيرها وينظم القصائد البليغة.

وهكذا تواصل عطاء محمد بوشربية في التعليم والصحافة والأدب والخطابة ومناهضة الاستعمار، حتى زج به في السجون ورأى من تعذيب المستعمر ألوانا، لأنه كان يعبر عن مواقف الزعماء، فقد كانت بعض الصحف أحيانا تحذف بعض أبيات قصائده الحماسية فتكتفي بالإشارة إلى أن ذلك من عمل الرقابة.

ولقد توفي الشاعر يوم 19 جويلية 1952 في مستشفى جندوبة إثر تعرضه وبعض رفاقه لحادث سيارة أليم قرب مدينة عين دراهم أثناء نزهة صيفيّة، ونقل جثمانه إلى مدينة القيروان ودفن بمقبرتها يوم 20 جويلية.

ومما يحسب للفقيد حبه الشديد لمدينته عاصمة الأغالبة شأنه في ذلك شأن محمد الفائز وصالح السويسي ومحمد الحليوي والشاذلي عطاء الله وغيرهم من شعراء القيروان، بل لعلّ هيامه بها يفوق هيامهم، وفي ذلك يقول محمد الشاذلي عطاء الله، في مقال له بجريدة الفكر: «بوشربية لا ينسى مسقط رأسه ولا يستطيع أن يكتم حنينه إلى الربع العامر وعطفه على التربة الزكية والبلد الحبي». ومن سمات الشاعر محمد بوشربية نزعته الإصلاحية التقدميّة في عصر كان أغلب الناس فيه متزمتين، رافضين لكل تغيير أو إصلاح، بحيث كان أستاذا ناجحا مع تلاميذه بفضل روحه العصرية وشدّة إخلاصه لوطنه واتقاده حماسة، نازعته فيها قوى الاستعمار والرجعية، ولكنه كان في شعره صامدا مناضلا حتى وفاته.

وقد ترك أشعارا لم تجمع في ديوان إلى أن تولت مؤسسة بيت الحكمة في قرطاج إصداره بتكليف الأستاذ الحبيب بن فضيلة للقيام بالعمل، بمناسبة تظاهرات القيروان عاصمة الثقافة الإسلامية

فأشتمل الديوان على ترجمة لحياة الشاعر، وتبويب لشعره الوطني، والوجداني وللمراثي وشعر المناسبات إضافة إلى قسم الزفرات أو «الزهرات» وهي عبارة عن مقطوعات قصيرة تختزل كل مقطوعة منها موضوعا، قال عنها محمد بوشربية نفسه: «الزفرات هي مجموعة مقاطع نظمت في أوقات مختلفة حسب نزعات متعددة وخواتم متباينة».

الحبيب بوعبانة

[1942–2002م]

هو رسّام تونسيّ، ولد بحيّ الزّاوية البكريّة قرب الحلفاوين بالمدينة العتيقة بتونس سنة 1942 وتوفي بمدينة تونس سنة 2002. عاشر الحبيب بوعبانة فرشاة الرّسم منذ الصّغر، بممارسة الرّسم التزويقي الشعبي في ربوع مدينة تونس، قبل أن يتردّد على مدرسة الفنون الجميلة بتونس سنة 1954 ليدرس التقنيّات الأوّليّة لفنّ الرّسم في ورشة الأستاذ هونري سعادة والخزف الفنّي في ورشة الأستاذ عبد العزيز القرجي. ولم يتسنّ له مواصلة الدّراسة في هذه المدرسة، إذ دفعه ميله إلى العصاميّة والتعلّم الذاتي إلى البحث عن آفاق أخرى تساعده على إغناء تجربته وتحرير ذائقته الجماليّة.

بعد اشتغاله مدرّسا لمادّة الرّسم بالمعهد الثانوي بقفصة (1962–1994) ثمّ مصمّما غرافيكيّا لمنشورات الديوان الوطني لمحو الأميّة وتعليم الكبار سنة 1966 وبعد اهتمامه بالكتابة المسرحيّة إذ نشر بمجلة الفكر مسرحيّة عنوانها الدوّامة، تفرّغ منذ سنة 1968 لتجربته الفنيّة. فنظّم أوّل معرض فردي له سنة 1977، بصالون الفنون بتونس. ومنذ سنة 1982، مارس إلى جانب تجربته في فنّ الرّسم، الكتابة الصحفيّة في بعض الجرائد والمجلات التونسيّة. فنشر عدّة مقالات أفصح فيها عن مواقفه من القضايا الثقافيّة والاجتماعيّة وحرّر أركانا قارّة حتّى آخر حياته.

ومن أهمّ معارضه الفرديّة ما قدّمه بأروقة ارتسام بتونس سنة 1983 ورواق التصوير بتونس

سنة 1985 وشيم بالمنزه السادس سنة 1988 وعين بصالامبو، سنتي 1990 و1991، كما نظّمت له وزارة الثقافة سنة 1999 معرضا استعاديّا لمسيرته الفنيّة بدار الفنون بالبلفيدير. أمّا أهمّ مشاركاته في المعارض الجماعيّة والسنويّة فكانت بمعارض الفنانين التشكيليين التونسيين منذ سنوات الثمانينات والمعرض السنوي الأوّل للفنّ التونسي المعاصر بمركز الفنّ الحيّ بمدينة تونس، حيث حصل على الجائزة الثانية للمعرض، كما كانت له مشاركات بـ قاعة عمارة دبّش سنة 1986 وبالفضاء الحرّ التياتر وفي سنوات التسعينات، صحبة رفيقيه الأمين ساسي وفوزي الشتيوي، بالخصوص. وحصل الحبيب بوعبانة سنة 1988 على الجائزة الوطنيّة للفنون التشكيليّة وسنة 1994 على الجائزة الكبرى لمدينة تونس.

لئن أفاد بوعبانة في السبعينات من التيّارات التجريديّة السائدة، فكان تعاطيه مع العناصر اللمسيّة والخطيّة في شكل علامات وحروف باستخدام آليات التركيب والتحليل فإنّ اهتمامه بـ التشخيصيّة الحرّة منذ الثمانينات قد فتح له آفاقا إبداعيّة شاسعة مكّنته من تحرير تعامله مع فضاء اللوحة خارج المستلزمات الأكاديميّة، بأسلوب يستمدّ قوّته من عفويّته في إنشاء شخوصه المرسومة وسرعته في الأداء، بمادّة الأكريليك، السريعة الجفاف. ومثل هذه العفوية الجريئة مكّنت الفنّان من تصريف انفعاله الجماليّ بروح لَعبيّة (Ludique) دون حواجز أو مستلزمات. فقد أفاد بذكاء من درس الفنّ الحديث في مروره من المشهديّة إلى التداعي الحرّ في صلب نزعة تصويريّة مستقلّة تقوم على إعادة بناء الشخوص بمزاجيّة خشنة لا تبالي بمتمّمات الكيان التشخيصي للشّكل بقدر ما تهتمّ ببنيته في الفضاء، بوصفه طيفا أو ملمحا عامّا وما يفرزه من علاقات شكليّة وضوئيّة ولونيّة. وقد يروق للناظر أن يلمح في لوحة بوعبانة شيئا يسيرا من ماتيس وفلامنك وغيرهما من روّاد النّزعة التّوحّشيّة في الفنّ الحديث وما بعد الانطباعيّة. ولكن شخصيّته الأسلوبيّة واتّساقها مع مكوّناتها الرّؤيويّة المعيشة أقوى من أيّ إحالة مرجعيّة. فبمقتضى هذه الرّوح العفويّة، نحن بإزاء فنّ تمكّن من استثمار فكر تشكيلي طلائعيّ ومن الإسهام في مراكمته بالممارسة، فكرٌ يستمدّ قيمته من داخل المراس المتواصل في الورشة وله جذور في الحياة الشخصيّة للفنّان والمناطق غير الشاكلة في الذّات، بعيدا عن التّنظير المفاهيمي وقريبا من التّعامل الفطريّ في لحظته الخام، دون تكلّف أسلوبي.

على هذا النّحو تمكّن الفنّان من تحقيق التطابق بينه وبين فنّه. فلوحة الحبيب بوعبانة هي بطاقة وجوده وهويّته. وهي مرآته الشخصيّة التي تكشف له ما لا يمكن أن يراه في شخصيّته. فهو يرتسم، على نحو أو آخر، بين ما يرسم من شخوص أعياها قلق الحضارة وضجيج الشارع وأنهكتها نواميس الوعي الإنساني فلاذت إلى النية في عالمها الداخلي في حلاوة الغموض وضبابيّة الملمح.

وبتسريعه لفعل الأداء، تمكّن الفنّان من استرجاع اللحظة الطفوليّة الخام في إدراك الألوان إلى حدّ الارتجال المبدع، إذ لا يبالي الفنّان بتنافر الألوان المتجاورة على القماشة مثل الأخضر والأحمر. وهكذا فإنّ لوحة بوعبانة مشحونة بنزق الحياة وذاكرتها اليوميّة اللاّرسميّة وهواجسها الأكثر سريّة. فلحظة الرّسم جزء من الحياة اليوميّة للرسام. ومن ثمّة، يتصالح اليومي والمعيش والعابر مع لحظة الفنّ، كما يستفزّ الشكل الفنّي الإيقاع الداخلي لمجال «الأنا» الأكثر ذاتية وحميميّة لدى الفنّان. إنّ لحظة الرسم لدى بوعبانة هي لحظة ردّ الفعل تجاه ضغوط الحياة بكل ما تقوم عليه من منطق صارم أو كذب وتصنّع. وهكذا، تأتي لحظة الرّسم مغرقة في العبث الجمالي واللّعب الفنّي والسّخريّة أيضا. لقد انفتح الشكل الفني على ظواهر اللاّتنظّيم في إيقاع الإنسان المعاصر. وانفتحت اللوحة على أزمات الذات الداخليّة وما

تجرّ وراءها من تناقضات صارخة في بنيان الذات الاجتماعيّة للعالم.

وقد تجلّى الموقف السّاخر في فنّ بوعبانة من عدم الاكتراث بتوازن الذات والموضوع، إذ تبعث اللوحة شيئا من غسق الضوء وفتنة اللون في هشيم الذات الاجتماعيّة، تلك الذات الهائمة التي خارت قواها وأعيتها الصّراعات القيميّة والماديّة وانبعثت منها الحيرة وأربكها الاستفهام. كأنّنا بإزاء لوحة متمرّدة هي منزلة تصفية حسابات قديمة وجديدة مع التاريخ الشخصي للفنّان. لذلك كان لا بدّ أن تحتاج فرشاة بوعبانة إلى شيء يسير من المحرّضات والجرأة، حتّى ترسم هذه الأنا في عزّ انفعالها وتفصح عن مخزونها الدّفين وتقول اللاّمباح بنوع من الطّرافة وخفّة الرّوح.



محمّد العزيز بوعتّور
[1825–1907م]

أصل هذا الوزير العالم من بيت راسخ في العروبة والتربية الإسلامية الصحيحة هو بيت الشيخ عبد الكافي العثماني، من صلحاء القرن السابع، دفين الزاوية المشهورة باسمه في صفاقس. وكان جدّه الأعلى الشيخ محمد بوعتّور وزيرا لعلي بن حسين باي. أمّا والدته فهي ابنة واحد من أحفاد الوليّ الصالح محرز بن خلف.

درس محمد العزيز بجامع الزيتونة سنة 1839 وأخذ عن أعلام عصره أمثال المشايخ إبراهيم الرياحي ومحمد ابن الخوجة وحمدة ابن عاشور ومحمد النيفر. ولمّا ارتفعت درجته العلميّة أصبح من خواصّ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ومن روّاد ناديه وعظمت مكانته عنده.

وفي عهد المشير أحمد باي تولّى خطة الكتابة سنة 1847، لكنه لم ينقطع عن طلب العلم والإقبال على المطالعة إلى آخر حياته. ثمّ تقلّب في عدّة وظائف وهي على التوالي: عضو في المجلس الكبير ثمّ كاتب خاصّ لسرّ الملك وعضو مجلس الشورى الخاصّ سنة 1861، ثمّ باش كاتب ووزير القلم سنة 1865 ثمّ وزير المال سنة 1867 ثمّ وزير الاستشارة في وزارة خير الدين سنة 1873 فكان من أوّل أعضاده ومن العاملين على إصلاح التعليم بالجامع الأعظم وشاركه في تأسيس المدرسة الصادقية وجمعية الأوقاف وتنظيم المحاكم الشرعيّة وسنّ قانون العدل. وفي سنة 1883 تقلّد الوزارة الكبرى بعد انتصاب الحماية الفرنسية في عهد علي باي. وكان الملوك الحسينيّون مجمعين على تقدير قيمته والاعتراف بفضله على العرش والبلاد طيلة الفترة التي قضّاها في الوزارة الكبرى.

ولمّا توفّي سنة 1907، أمر محمد الناصر باي بدفنه في موكب ملكيّ عسكريّ بتربة البايات إظهارا لارتباطه بالبيت الحسيني.



محمد الحبيب بوقطفة
[1906–1943م]

ولد المناضل محمد الحبيب بوقطفة في أوائل جانفي 1906 ببنزرت. ينحدر من بيت اشتهر بالتقوى والصلاح. وكان والده الحاج محمد

بوقطفة من مؤسّسي الجمعية الخيرية الإسلامية (فرع بنزرت) التي هبّت إلى مساعدة الفقراء والعجّز. زاول دراسته الابتدائيّة بالمدرسة القرآنية ("الأهلية") التي تأسّست سنة 1912. ثم التحق بدروس جامع "الزيتونة" وانكبّ على الدراسة والمطالعة. وكان المناضل يوسف الرويسي من رفاقه المقرّبين فسرعان ما توطّدت العلاقة بينهما باعتناقهما المبادئ نفسها الإصلاحية التي نادى بها الشّيخ محمد عبده.

ولم يمكث الشّاب محمد الحبيب طويلا بجامع الزيتونة بسبب الإرهاق الذي اعترى جسمه إذ أشار عليه الأطبّاء بمقاطعة الدروس فرجع مؤقتا إلى مسقط رأسه. ولكن وفاة والده من جهة وكثرة الشواغل العائلية من جهة أخرى حالتا دون مواصلة دراسته.

ولم تلبث ميوله الإصلاحية أن وجدت غايتها. فبادر سنة 1931 بإدخال تحويرات مهمّة صائبة على نشاط فرع الجمعية الخيرية الإسلامية. وكانت مواقفه الإنسانية دالة على إحساسه المرهف وإلمامه بواقع الأرامل واليتامى والمساكين الأليم الذي سيزداد تردّيا مع بداية انعكاسات أزمة الثلاثينات. فتولّى الكتابة العامة لمجلس الجمعية وفي ظرف سنتين تمكّنت من تسليم الرعيل الأوّل من مكفوليها إلى المدرسة القرآنية ومكتب ستيفان بيشون Stephen Pichon بقسم الصناعات بعد أن مدّت يد الإسعاف إلى جميع المحتاجين.

وتجلّت شخصية الحبيب بوقطفة في حوادث التّجنيس سنة 1932 إثر وفاة المتجنّس المدعو شعبان فقد عارضت جموع الأهالي دفنه بمقبرة إسلامية. وتحسّبا لمكيدة استعمارية، طلب الحبيب بوقطفة من مفتي بنزرت الشيخ إدريس بن محفوظ الشّريف الإجابة عن السؤال التالي: هل يُغسل ويُصلّى على المتجنّس إذا مات وهل يُدفن في مقابر المسلمين؟ فكانت الإجابة: "إنّ المتجنّس لم يقصد خصوص التجنّس من أنّه عربي أو إفرنجي وإنّما مراده أنه تجرى عليه أحكام الجنس الذي دخل فيه ونبذه لجنسيته ودينه وعدم إجراء الأحكام الشرعية عليه التي كان متمسّكا بها وتجرّ عليه غيرها رضى منه فحينئذ لا دين له".

وكانت لحوادث التجنيس التي استفزّت الشعور الديني للتونسيين في الإيالة بأسرها الأثر في احتداد الشعور الوطني والنقمة على المستعمر. فقد كانت هذه الحوادث أشدّ وقعا من الحملة التي قادها الحزب الحرّ الدستوري التونسي (اللجنة التنفيذية) سنة 1923 إثر صدور قانون التجنيس (20 ديسمبر)، إذ كثر عدد الوفيات بين المتجنسين المسلمين في مطلع الثلاثينات، وهو ما أدّى إلى مصادمات بين الأهالي والقوات الاستعمارية واكبتها جلّ الصحف الوطنية وخاصّة "العمل التونسي" (L'Action tunisienne) و"صوت التونسي" (La Voix du Tunisien). ولم تُبح الفتوى التي أصدرها المجلس الشرعي – وبالأحرى الدائرة المالكية – دفن المتجنّس في مقابر المسلمين إلاّ إذا تاب وجدّد إسلامه أمام القاضي الشرعي. وأضافت الفتوى أن تلك التوبة لا تكون مقبولة إلاّ بشرط "الإقلاع" أي التخلّي عن جميع الامتيازات.

في تلك الظروف خطا المناضل الحبيب بوقطفة خطواته السياسية الأولى فقد انتخبته شعبة بنزرت الدستورية لتمثيلها في المؤتمر التحضيري لمؤتمر نهج الجبل الذي انعقد يومي 12 و13 ماي 1933 بمدينة تونس. ودارت المناقشات حسب شهادة المناضل يوسف الرويسي حول تغيير بنود الحزب التسعة. ومن جملة هذه البنود تكوين مجلس تشريعي بالاقتراع العام، ومع تساوي العدد. وكان بوقطفة من المتحمّسين لجماعة "العمل التونسي" والمدافعين عن أفكارها وتوجهاتها الشعبية. وتجلّى ذلك في أشغال مؤتمر قصر هلال المنعقد يوم 2 مارس 1934. فقد فضح بصفته نائب شعبة بنزرت تصرّفات اللجنة التنفيذية التي "سخرت من أعمال الشعبة" واقترح حلّها داعما ذلك بحجج مقنعة. فكانت الموافقة عليه

بالإجماع. وانتخب أعضاء الديوان السياسي وكان بوقطفة من الأعضاء الذين انتخبهم نوّاب المؤتمر لعضوية المجلس الملّي. وقد بذل جهودا مضنية في الدعوة إلى هيئة الديوان السياسي وأفكارها الجديدة. وقد رافق الزعيم الحبيب بورقيبة في تنقلاته داخل البلاد للتعريف ببرنامج الحزب الدستوري الجديد. وواصل هذا المجهود إثر اعتقال أعضاء الديوان السياسي في سبتمبر 1934 فقرّرت السلط الاستعمارية إبعاده إلى أقصى الجنوب التونسي (إلى بن قردان ثم إلى برج القصيرة) في 3 جانفي 1935، ولم يطلق سراحه إلاّ في أفريل 1936. وإثر رجوعه إلى بنزرت أعيد انتخابه رئيسا لشعبتها ورئيس جامعة الشمال الدستورية. وما انفكّ يعمل بحماس حتّى جعل من هذه المدينة معقلا من معاقل الحزب الدستوري الجديد.

وفي أثناء مؤتمر الحزب الثاني المنعقد بنهج التريبونال بتونس في نوفمبر 1937، انتخب كاتبا عاما مساعدا للمجلس الملّي ثم عيّن رئيس تحرير لجريدة "العمل" لسان حال الحزب الحرّ الدستوري الجديد خلفا لرفيقه المناضل يوسف الرويسي. وكانت مقالاته تشحذ العزائم وتوقظ الهمم، ملؤها الإيمان بالقضية الوطنية التي حظيت في صائفة 1937 حملات دعائية مكثفة إشعاراً بسحب الثقة من حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية. فإضافة إلى متابعته لأعمال الجمعية الخيرية الإسلامية ببنزرت وتولّيه رئاسة تحرير جريدة "العمل"، كان الحبيب بوقطفة أكبر داعية صحبة رفيقه المناضل حسن النوري في حثّ العمّال على الانضمام إلى جامعة عموم العملة التونسيين التي بعثها من جديد النقابي الوطني بلقاسم القناوي وذلك عند تأسيسها سنة 1937. وإثر الخلاف الذي حصل بينه والديوان السياسي وتعيين الهادي نويرة على رأس الجامعة النقابية، كان اتحاد النقابات بجهة بنزرت أكبر نصير للخط الذي رسمه الحزب.

عند ذلك شدّدت القوات الاستعمارية الخناق على الحركة النقابية الدستورية وقرّرت إبعاد محرّكها الأوّل المناضل حسن النوري إلى الجزائر. فنظمت الجامعة الدستورية ببنزرت مظاهرة احتجاجية قادها الحبيب بوقطفة يوم 8 جانفي 1938. وعند اقترابها من الميناء العسكري، أطلقت قوات الأمن الاستعمارية النار على المتظاهرين فاستشهد منهم ستّة وجُرح ثلاثون. وألقي القبض على الحبيب بوقطفة وزجّ به في السجن، وحُوكم في 3 ماي 1938 وأصدرت ضدّه المحكمة العسكرية حكما بـ8 أشهر سجنا و6 سنوات إبعاداً، كما حكمت بانتزاع كل ممتلكاته، كما اتّهم بالمشاركة في قضية التآمر على أمن الدولة (فرنسا) بوصفه عضوا بالمجلس الملّي للحزب أثناء أحداث 9 أفريل 1938 وهو في السجن. ونقل من السجن العسكري إلى سجن تبرسق (18 نوفمبر 1939) ثم إلى سجن فور سان نيكولا Fort Saint Nicolas (26 ماي 1940) ثم نفي بقرية Tretz (28 أكتوبر 1940). ولم يُفرج عنه إلاّ في أوائل 1943 فرجع إلى أرض الوطن.

وفي بداية ماي 1943 غداة "حملة تونس" (La campagne de Tunisie) وجلاء قوّات المحور، قرّر جماعة من المناضلين منهم الحبيب بوقطفة التوجّه إلى إيطاليا، لكن الباخرة التي أقلّتهم تعرّضت إلى غارة جويّة قامت بها طائرات الحلفاء وأودت بحياته في 5 ماي 1943 فدفن في مدينة "ترابانى" Trapani جنوب إيطاليا. وفي سنة 1962 جُلبت رفاته إلى أرض الوطن. وكما ورد في نصّ التأبين الذي ألقاه رفيقه في الدراسة والنضال يوسف الرويسي: "مات بوقطفة وهو يمخر عباب البحر وكذلك مات ثامر وهو يمخر عباب الجوّ فما أشبه مماتهما بحياتهما روعة وجلالا وعظمة في الحياة وفي الممات".



أحمد بوليمان

[1884 ـ 1976م]

قضّى الممثّل أحمد بوليمان أكثر من خمسين سنة في المسرح قام طيلتها بجميع الأعمال المسرحية من تمثيل وغناء وخياطة ملابس وماكياج وتصميم للمناظر وتأليف واقتباس...

ولد في 12 ديسمبر 1884 بتونس وزاول دراسته الابتدائيّة بالمنستير رفقة محمّد بورقيبة رائد المسرح التونسي.

وفي مطلع شبابه تعرّف إلى نخبة فنية وثقافيّة منها محمّد بن تركية والهادي الأرناؤوط ومحمد الحجام وساسي الحجام والبشير الخنقي وأسّسوا فرقة «النّجمة» المسرحية التي لم تبرز لسوء الحظ إلى الوجود.

وقد أسند إليه أحمد عفيفي المدير الفني «للجوق التّونسي المصري» في مسرحية «نديم» أو «صدق الإخاء» دور بهجت بك. فكان أوّل دور قام به على المسرح في 2 جوان 1909.

وعندما تأسّست جمعيّة الآداب العربية أسندت إليه فيها أهمّ أدوار الشّاب الأوّل.

انضمّ أحمد بوليمان إلى عدّة جمعيات مسرحية (التمثيل العربي والمسرح الكاملي والمستقبل التمثيلي والاتّحاد المسرحي وتونس المسرحية والكوكب التمثيلي واتّحاد كواكب التّمثيل، الخ...).

وكان آخر ما قام به دور عثمان في مسرحية «عمّ عثمان التياس» عام 1959. وقد صمم 150 منظرا لمسرح ابن كاملة واقتبس 60 مسرحية وألّف ثلاث مسرحيات هي «أعمل تلقى» و«عاش من عرف قدره» و«توبة وشعفة».

وبالإضافة إلى ذلك ألّف 40 مسرحية إذاعيّة. لكنّه تخصّص في إعداد الملابس وفي المكياج فكان طيلة أكثر من نصف قرن المزود الوحيد للفرق بالملابس. وقد اشترت منه كتابة الدولة للشؤون الثقافيّة هذه الملابس سنة 1963. وعمل أحمد بوليمان مع البشير الرصايصي نائب شركة «بيضافون للإسطوانات» وسافر معه سنة 1928 إلى برلين لتسجيل ما يقرب من 54 إسطوانة من السكاتشات الفكاهية النقدية، وقد لقيت هذه الإسطوانات رواجا كبيرا.

وشارك في عدّة رحلات فنية إلى بلدان عربية. من ذلك أنّه سافر مع جمعيّة «اتحاد كواكب التمثيل» إلى قسنطينة بالجزائر يوم 16 جانفي 1948 حيث أخرج أربع مسرحيات لبلديّتها.

وقد ظلّ أحمد بوليمان متعلقا بالمسرح إلى آخر لحظة في حياته وحتى عندما أقعده المرض والكبر ظلّ يتابع النشاط المسرحي مهتما بنهضته مؤمنا برسالته.

وتوفّى في 3 أفريل 1976 بمنزله برادس. وقد أقامت له وزارة الشؤون الثقافية أربعينية في 21 ماي 1976، تناول أثناءها الكلمة للتنويه بخصاله بعض من عرفوه منهم أصدقاؤه حسن الزمرلي ومحمد الحبيب والبشير الرحال والبشير الرصايصي.

العهد البوني

لفظة «بوني» هي في الأصل ذات جذور إغريقية أُطلقت على أهل قرطاجة ومنها تطورت لفظة بونيك في اللّهجات اللاتينية وأفضت عند العرب إلى كلمة بوني.

إلا أن الكتاب يستعملون مصطلحات متعددة، فيقولون الحرب الفونية أو الفونيقية أو البونيقية ومنها وصلنا إلى مصطلحين رئيسيين: بوني وفينيقي.

استعمل هومار لفظ Phoinikes لينعت الفينقيين، واستعمل Phoinike لينعت المدن الفينقية على الساحل السوري الفلسطيني.

إن هذين المصطلحين مشتقان من فونيكس و هي مادة الأرجوان الحمراء التي تُستخرج من ال murex والتي استعملها الفينيقيون لتلوين الاقمشة.

فالعهد الفينيقي هو الإطار الزمني الذي شهد ميلاد حضارة الفينيقيين على أرض فينقيا أو كنعان وهي السواحل السورية الفلسطينية الممتدة من جبل الكرمل إلى أوغاريت.

سكن الفنيقيون هذه الربوع منذ مطلع الألفية الثانية ق. م. وأنشؤوا فيها العديد من المرافئ: آرواد – طرابلس – جبيل – بيروت – صور.

و قد جاء التنصيص على هذه الأماكن في حوليات الآشوريين في القرن الحادي عشر ق. م. وأخذت اللغة الفينيقية مكانها إلى جانب اللغات السامية المجاورة و خاصة منها الآرامية و العبرية.

ما لبث أن أصبح واقع الفنيقيين واقعا شرقيا و غربيا على إثر توسع هؤلاء خارج موطنهم الأصلي في اتجاه الغرب وعكس ذلك. ومن ثمة، يعبر مصطلح «بوني» عن واقع مجتمع في إطاره الجغرافي الغربي والواقع البوني هو المدينة القرطاجنية.

هذا الواقع يجسد العهد البوني وهو في نفس الوقت امتداد للعهد الفنيقي

وحضارة البونيين هي امتداد لحضارة الفنيقيين في الشرق الادنى.

يتجزأ تاريخ قرطاج حسب (C. G. Picard) إلى فترتين:

– الأولى قبل 480 ق.م.

– الثانية بعد 480 ق.م.

– **الفترة القديمة**: من القرن السادس إلى 480 ق.م.

تعرف بفترة الماغونيد اتسمت بالصراعات بين القرطاجيين واليونانيين من جهة و بين القرطاجيين والأتروسك واليونانيين من جهة أخرى. وانتهت بالمعاهدة بين روما و قرطاج.

– **الفترة الكلاسيكية**: من 480 ق.م. إلى 323 ق.م.

اتسمت بالنزاعات بين قرطاج والمدن اليونانية و بهيمنة قرطاج على غرب صقلية.

– **الفترة الهلنستية**: من 323 ق م إلى 146 ق.م.

اتسمت بالتقارب بين قرطاج وPtolemées مصر ونشوب حرب Agathocle على شمال إفريقيا، كما شهدت اتفاقية Philinos بين روما وقرطاج. وشهدت أخيراً اندلاع الحرب البونية بين روما و قرطاج على ثلاث مراحل:

264–241 ق.م.

218–201 ق.م.

149–146 ق.م.

– **فترة العهد البوني الجديد**: النصف الثاني من القرن 2 ق.م. إلى القرن 1 ق.م.

لم يؤثر تدمير مقر السيادة القرطاجنية في 146 ق م من قبل الرومان على مواصلة اشعاع الحضارة البونية على بقية المناطق داخل البلاد التونسية.

بيت الحكمة الإفريقي بالقيروان

ظنّ بعض من وقف على ترجمة حياة أبي اليسر الشيباني أنّ «بيت الحكمة» إنّما كان يحلّ مكانا بين معاهد القيروان، إذ كان من منشآت الأمراء الأغالبة، ولم ينتبه إلى أن أفراد هذه الأسرة لم يكن مقامهم في عاصمة إفريقية الكبرى، وإنما كان في العبّاسية من أول ولاية إبراهيم الأوّل (سنة 184هـ/800 م) ثم سكنوا بعدها رقّادة منذ أن انتقل إليها إبراهيم الأصغر واتّخذها مقرّ الإمارة (سنة 264هـ/877 ـ 878 م) وذلك قبل سقوط الدولة باثنين وثلاثين عاما. وكان هذا الأمير هو الذي أسس «بيت الحكمة» ولم يكن موجودا قبل تسلّمه مقاليد الحكم،

كما كان مولعا أيّما ولع بالعلوم الرياضيّة والحكمة، ومهتما بالفلسفة وما يتبعها من الفنون. وهو ما حمله على إنشاء هذه الدار. وجلب العلماء المتخصّصين والكتّاب الماهرين والأطبّاء والمهندسين إليها من الممالك الشرقيّة أي من العراق والشام ومصر.

امتدّت أيّام إبراهيم الثاني في الحكم أكثر من ربع قرن، فكان هذا العصر – أواخر القرن الثالث – هو العصر الذي نضجت فيه العلوم واتخذت طابعا عربيّا خالصا وتلوّنت بصبغته في أرجاء العالم العربي المتمدّن، كما نهضت فيه العلوم بأنواعها إلى الأوج العالي الذي ميّزها به الطابع العربي عن غيرها من الحضارات. ومثل هذه المنشآت العلميّة لم تكن لتظهر وتزدهر إلاّ في حاشية الملوك والأمراء ذوي الشأن وتحت حمايتهم وبعنايتهم المباشرة، أو في قصور كبار رجال الدولة الأثرياء ليتسنّى لها أن تعيش وتدوم وتقوم بالرسالة التي انشئت من شأنها، وذلك في سائر الأصقاع الإسلاميّة.

لهذه الأسباب كلّها لم يكن إنشاء «بيت الحكمة» إلا في دائرة الملك وتحت رعايته وصيانته، أي في مدينة رقّادة، منزل الأمراء من بني الأغلب وبجوار منازلهم ودواوين دولتهم. ثم إنا لم نعثر على ذكر «بيت الحكمة» الإفريقي [التونسي] إلا في مدّة إبراهيم الأصغر ومن جاء بعده من الأمراء. أمّا قبل ذلك فلا خبر له على الإطلاق، وقاعدة الملك كانت وقتئذ في رقّادة إلى آخر أيّام الأغالبة ومستهلّ الدولة الفاطميّة.

وكان «بيت الحكمة» يحلّ مكانا بأحد القصرين: إما «الصّحن» أو «الفتح»، وهما من محدثات الأمير إبراهيم الثاني.

وقد يكون من الصّعب أيضا الجزم بما اشتملت عليه هذه الدّار من النظم وأقسام ومحتويات، والظنّ الغالب أنها كانت تشابه سميّتها العباسية التي كانت وقتئذ في بغداد مع احترام النسبة بين الخلافة والإمارة، وغير خفيّ أن المؤسّسة الإفريقية أقيمت على غرارها في وضعها وتقاليدها.

والمتوقّع أنّ مؤسّسة رقّادة كانت تتركّب من مجالس فسيحة، يقدر عددها بأربعة أو خمسة متصل بعضها ببعض، وفي أحدها مكتبة منضّدة في خزائن من خشب، كل خزانة منها تحتوي على عدد من الكتب المختارة المنسوخة على الرقّ أو الكاغذ، مع الإشارة هنا إلى قلّة استعمال ورق الكاغذ آنذاك لحداثة ظهوره بإفريقية في العصر الذي نتكلّم عليه من جهة، وإلى ارتفاع ثمنه من جهة أخرى.

أمّا موضوعات هذه المجلّدات وما تشمل من العلوم، فقد كانت تتعلّق بسائر العلوم الدينيّة الإسلاميّة وغير الدينيّة ككتب الجدل والخلاف، ممّا كان له رواج ملحوظ في ذلك الوقت شرقا وغربًا، كما تشتمل على المصنّفات المترجمة من اللّغات الأعجميّة كاليونانية والسريانية والفارسية والهندية (السنسكريتية) ممّا ترجم في الشام وفي العراق وفي الحيرة في آخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، لا سيما أيّام هارون الرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكّل، ممّا له مساس بالفلسفة والمنطق والجغرافية والفلك والتنجيم والطب والنبات والحساب والهندسة وما إلى ذلك.

وكانت هذه العلوم الوضعيّة الحديثة الظهور في العالم العربي لا ينظر إليها بعين الرضا من الفقهاء والمحدّثين، عدا ما له اتّصال مباشر بالموضوعات الشرعيّة كالحساب والهندسة. فكان علماء السّنة أصحاب المدرسة القيروانية ينظرون إليها بتأفّف، وشيء من الاشمئزاز، ولذا لم نرها تدرس في مساجد القيروان، وإنما استأثر «بيت الحكمة» في رقّادة بالعناية بها وبدراستها ونشرها بين الراغبين فيها وهم كثيرون، ومن هنا نشأ شيء من التنافر والتباعد بين مدينتي القيروان ورقّادة، وهو ما حمل الكثير من أصحاب الطبقات ومؤلفي التراجم من القيروانيين على إهمال أنباء «بيت الحكمة» والتعريف بمن كان

يجلس به ويتردّد عليه من نبغاء معاصريهم.

وكان بيت الأمير إبراهيم الثاني يرسل في كل عام وأحيانا مرّتين في السنة سفارة إلى بغداد لتجديد ولائه للخلافة العباسيّة، فكان يكلّف هذه البعثة بمهمّة أخرى وهي اقتناء نفائس ما يوجد في بغداد ممّا لا نظير له في أنحاء المغرب. ولهذا الغرض كان يزوّد رئيس سفارته بالمال الوافر لاستجلاب علماء متخصّصين في سائر العلوم من العراق ومن مصر، يتّفق معهم بما يرضيهم، وكذا لشراء نسخ الكتب العلميّة، لا سيما مؤلّفات الحكمة من فلك وتنجيم لولوع الأمير بها خاصّة. وليس من السهل أن نعرف الآن أسماء الكتب التي اشتمل عليها «بيت الحكمة» وعددها، ولا يتيسّر تقديرها ولو على سبيل التقريب، وغاية ما نعلمه أن هذه المكتبة كانت من الأهميّة بمكان، وهي التي ورثها الفاطميّون عند استيلائهم على إفريقية الأغلبية (سنة 296هـ/909 م).

وقد أضاف الفاطميّون إليها فيما بعد الشيء الكثير ممّا استنسخوه أو ممّا أُهْدي إليهم، وفي نهاية الأمر نقلوها جملة إلى القاهرَة المعزّية حين امتلكوا البلاد المصريّة (سنة 362هـ 973 م).

أمّا مقاعد «بيت الحكمة» فالظاهر أنّ قاعاته كانت مفروشة بأنواع من الحصر واللّبود الجميلة من الصنع المحلّي، تتخلّلها طنافس (زرابي) مخصّصة لجلوس وجوه المطالعين وكبار الباحثين كالمدرّسين ورجال الدولة. ولا يخفى أنّ إفريقيّة التونسيّة كانت آنذاك مشهورة بنسيج الزرابي الوفيرة حتى إنه كان يرفع منها جانب عظيم إلى الخلفاء العباسيّين من جملة الخراج السنوي، وإذا ما حضر الأمير مجلسا من مجالس الدروس والمناظرة نصب له سرير (كرسي) يتربّع عليه لينصت إلى المناقشات الدائرة، حسبما يأتي ذكره بعد.

وبجانب خزائن الكتب كان يوجد في أركان بعض القاعات دولاب أو دواليب تحفظ فيها الآلات الفلكيّة لحساب سير الكواكب ورصدها: كالأسطرلابات والمقنطرات والجيوب وما يشبهها من أدوات البحث وتحقيق الأوفاق، وضبط الأطوال والعروض، ممّا يستعمل في علمي الفلك والتنجيم. ولا خفاء أن التنجيم أي الرغبة في استكشاف المغيّبات كان مما استهوى قديما ميول الرؤساء والكبراء، واستحوذ على شهوة ملوك المسلمين وغير المسلمين بالسواء.

كان «بيت الحكمة» في آن واحد مجلسا للدراسة والمطالعة، ومحلاّ لنسخ الكتب ومقابلتها بالأصول المعتمدة، وكان مرخّصا للنّساخ أن يحلّوا في أماكن معدّة لهم سواء كانوا ينسخون لأنفسهم أو لغيرهم بالأجرة، كما سُمح للمطالعين بمراجعة المؤلّفات النادرة في أوقات معينة، وكذلك استعمال الآلات الفلكية التي لا توجد إلاّ هناك.

ولا شكّ في أنّ هواة المخطوطات كانوا يأتون من القيروان ومن غيرها لمطالعة الأصول الصحيحة المحفوظة في رقّادة ومراجعتها، ويقيمون الأيّام الطويلة في سبيل نسخها وتحقيقها. حكى ابن الوكيل المؤرّخ القيرواني، قال:

«أبطأ أبو القاسم الوزّان عن شيخه عبد اللّه المكفوف النحوي أيّاما كثيرة ثم أتاه، فلامه على تخلّفه عنه تلك المدّة، وقال له: يا أبا القاسم، نحن كنّا سبب ما أنت فيه من العلم، وقد علمت كيف كنت أخصّك وأوثرك على غيرك، فلما صرت إلى هذه الحال قطعتنا؟ فقال له: أصلحك اللّه! اعذر، فقد كنت في شغل. قال: وما هو؟ قال الوزّان: لي اليوم أكثر من شهر أختلف إلى رقّادة إلى قصر الأمير زيادة اللّه الأخير أشكل له كتبا وأصلحها. فقال المكفوف: سررتني واللّه. قال: بماذا سررتك؟ قال: بما يكون من برّه ومكافأته على اختلافك إليه وتصحيحك لكتبه».

وكان يشرف على نظام الدار قيّمون مرتّبون، مهمتهم السهر على حراسة ما فيها، ومناولة المطالعين ما يحتاجون إليه من الكتب المطلوبة،

ويرأس هؤلاء القيمين ناظر يطلق عليه اسم صاحب «بيت الحكمة». وأول من تولى هذه الخطة أيام إبراهيم الثاني أبو اليسر إبراهيم الشيباني المشهور بالرياضي.

وتتبادر إلى الذهن جملة من الأسئلة:

هل اعتنى آخر أمراء الأغالبة ومن كان يعيش في كنفهم من العلماء الرياضيين بترجمة بعض المؤلّفات الأجنبية إلى العربية، كما حصل في بغداد في عصر الرشيد وأبنائه من بعده حينما اهتمّوا بنقل مصنّفات الإغريق وغيرهم في مختلف العلوم؟ وإذا وقع ذلك بإفريقية في الزمان الذي نتكلّم عليه فعن أي لغة نقلوا؟ وما هي أنواع الفنون التي نقلوها إلى لغتهم؟ ومن هم المترجمون الذين باشروا هذه المهمّة، وما كان جنسهم؟

قد يكون من الصعب الجواب عن هذه الأسئلة، إذ أن المراجع التاريخية لم تزوّدنا بشيء من المعلومات عن هذه الناحية، أضف إلى ذلك ضياع جلّ المصادر المحلّية القديمة لأخبار إفريقية التي يتوقّع أن تكشف لنا الغطاء عن بعض المشكلات العارضة ومن جملتها معرفة مآثر المتقدّمين.

تثبت المصادر التّاريخية التي بين أيدينا أنّ الأمراء الثلاثة من بني الأغلب: (إبراهيم الأصغر، وابنه عبد اللّه الثاني، وزيادة اللّه الأخير) كانوا يحسنون اللسان اللاّتيني المؤخّر (La langue romane) الدّارج في ذلك العصر في الممالك الإفرنجيّة الغربيّة، والرائج استعماله أيضا بين جانب من سكّان إفريقية التونسيّة الذين تمسّكوا منذ الفتح العربي بمعتقدهم المسيحي. وقد حذق أولئك الأمراء الثلاثة هذا اللسان حينما كانوا مباشرين ولاية صقلّية، وما منهم إلاّ وقد أقام مدّة طويلة بتلك الجزيرة ومارس فيها لغة الشعب. فلا يستغرب – والحال تلك – من اهتمامهم بالمصنّفات المؤلفة باللّغة اللاتينيّة، ولا يستبع، بل المتوقّع، أن إبراهيم الأصغر - وهو من هو، علما وذكاء - قد تعلّقت همّته بترجمة بعض المؤلّفات اللاتينية المناسبة لذوقه وميوله، لا سيما أنه كان يوجد في حاشيته جماعة وافرة العدد من الموالي الصقلّيين المعروفين بالدراية والحنكة، مثل الفتى سوادة النصراني والفتى بلاّغ ناظر دار ضرب المسكوكات، وشكر وغيرهم، فإنّهم كانوا في صغرهم مسيحيّين، وجلبوا من جزيرة صقليّة، ثم أسلموا وكلّفوا ببعض شؤون الحكومة ما عدا الوظائف الحربيّة التي لا يتولاّها إلاّ من ينتسب إلى البيت الأغلبي، جريا على القاعدة التي سنّتها دولة بني أميّة العربيّة ودأبت على اتّباعها مدة خلافتها.

والظنّ الغالب أنّ الأمير إبراهيم الثاني تخيّر بعض المصنّفات اللاتينيّة في العلوم الرياضيّة التي اطّلع عليها، وكلّف بترجمتها بعض الرهبان الصقليين العارفين باللغة العربية، وألحق بهم بعض علماء اللغة من الإفريقيين، وعهد إليهم بمهمّة تنقيح عباراتهم وسبكها في قالب عربي صحيح، رغبة منه في تعميم فائدتها ونشرها بين الناس.

وممّا يؤيّد هذا الظنّ ما ذكره حسن الوزّان (Léon l'Africain) في رحلته المشهورة من أنه رأى في بلاد إفريقية (تونس) ترجمة كتاب بلينوس (Plinus) الروماني في علم النبات باللغة العربيّة، ونعلم يقينا أن هذا الكتاب المفيد جدّا قد نقل عنه العشّابون المغاربة كثيرا فيما بعد، لم يُترجم بالأندلس في مدّة عبد الرحمان الثالث ولا في أيام ابنه الحكم الثاني كما يتبادر إلى الذهن أوّل وهلة.

إنّ ما ترجم من أمّهات الكتب الأعجميّة في ممالك الشرق الإسلامي إنما نقل عن اللغات التي كان لها رواج بالمشرق في زمن الفتوح العربيّة: كاليوناني والسرياني والفارسي والهندي، ولم نقف البتة على اسم كتاب واحد ترجم من اللسان اللاتيني إذ لم يكن منتشرا وقتئذ هناك. أما بلاد المغرب، من الأندلس إلى آخر برقة، فإن اللّغة السائدة فيها سواء في الشؤون الرسميّة أو في رسوم الديانة هي اللاتينية خاصّة، ولذا اضطرّ

كثير من العرب الأفارقة إلى تعلّمها وإتقانها تكلّما وكتابة، لما يفرضه عليهم امتزاجهم بالعناصر المحليّة ومجاورتهم المستمرّة لبقايا الرومان والمسيحيّين المقيمين في بلادهم، سواء كانوا في الشمال الإفريقي أو في الأندلس أو في صقلّية.

ولهذا السبب نفسه نُقل كلّ ما ترجم من المؤلفات الأعجمية في الأصقاع المغربية عن اللاتيني لا غير، فلا غرابة -والحال تلك- أن يهتمّ مؤسّس «بيت الحكمة» الإفريقي وخلفاؤه بنقل ما كان سهل التناول لديهم مع الاستعانة في التحقيق ببعض القساوسة الصقلّيين الخاضعين لسلطانهم، ولا ننسى أنّ الثقافة عند الإفرنج في تلك العهود كانت مقصورة على الرهبان دون سواهم.

وفي المكتبة العتيقة المحفوظة في جامع عقبة بالقيروان توجد نسخة من ترجمة عربية لكتاب «تاريخ الأمم القديمة» نسب وضعه إلى القديس المسيحي يرونيم الروماني(Saint Gérome) المتوفّى سنة 420 م. ولا ثانية لهذه النسخة فيما علمنا، وقد رسم على هوامشها بعض كلمات بالحروف اللاتينية منها تسمية المؤلّف (أي يرونيم).

وجملة القول: أنّ مساعي أمراء الأغالبة في توثيق العلاقات بين الشرق والغرب، وفي ميدان الثقافة ونشر العرفان في ممتلكاتهم بالخصوص، كان مجهودا عظيم الشأن، قويّ الأساس والبنيان، قلّما تأتّى مثله لغيرهم من الأسر المغربيّة في عصرهم. ومن دواعي الأسف الشديد أن يجتهد الفاطميّون، خلفاؤهم في الملك، في طمس معالمهم، وإخفاء أخبارهم ومزاياهم، آملين من جرّاء ذلك ألاّ يبقى إلا صيت الفاطميين، وألاّ يكون الفضل إلا لهم. وقد بلغ بهم الإسراف أن أزالوا أسماء بني الأغلب المنقوشة على المعالم والرسوم وعوّضوها بألقابهم ونسبوها إلى أنفسهم.

ولولا الجهود الجبّارة والمساعي المتتابعة التي بذلتها الأسرة الأغلبية طوال مدّتها، بعزيمة صادقة وإخلاص نادر، لتكوّن دولة عربية شامخة ذات شوكة قويّة ونظم إداريّة متينة في أصولها وفروعها، ولا سيما تفرّدها بأسطول عتيد لم ير العالم الإسلامي مثيله في البحر المتوسط، لما تسنّى لعبيد اللّه المهدي وأبنائه الفاطميين من بعده إنشاء إمبراطوريّة ضخمة امتدّ سلطانها من الغرب إلى الشرق في مدّة وجيزة جدا، وما ظهر من السؤدد والهيمنة لتلك الإمبراطورية إنما كان نتيجة لما ورثته من مؤسسات سالفيها الأغالبة وفتوحاتهم.

انقرضت دولة بني الأغلب التميميّين وامتلك عبيد الله المهدي إفريقية، وحلّ هو ورجاله في قصور رقّادة ودورها، وقد اتّخذ داعيه الكبير أبو عبد اللّه الصنعاني «بيت الحكمة» محلاّ لمجالس الدعوة الإسماعليّة ومناظرة علماء السّنة القيروانيّين. ومن حسن الحظّ أن نقل إلينا الإخباريّون صورة واقعيّة لمجالس الجدل الدائرة بين الطرفين، وهي نحو الأربعين مجلسا تقع مرّة في كلّ أسبوع، يستدعى لها مشاهير المتكلّمين من أهل القيروان ويدور جدالها حول مفهوم بعض النصوص الدينية في العقائد، وخصوصا في مسألة الإمامة والتفضيل، يعارض كل فريق بما أوتي من بيان وحجة.

وكان لشيخ السنّة المتكلّم القيرواني المشهور أبي عثمان سعيد بن الحدّاد الظهور الكامل في الردّ على مفهوم الإسماعيليّة في تفسير آيات معيّنة من القرآن وبعض الأحاديث النبويّة وفي سيرة الرسول وعمل أصحابه.

ثمّ تعطّلت هذه المناقشات وتوقّفت المناظرات بعد قتل الداعي الصنعاني ولم تعد تجتمع إلى حين انتقل عبيد اللّه إلى سكنى مدينة المهدية التي أنشأها (سنة 308هـ/920م) وهو آخر عهد لازدهار رقّادة ومعالمها، ومنها «بيت الحكمة».

ولا شكّ في أنّ المناقشات التي كانت دائرة في «بيت الحكمة» التونسي بين دعاة

الإسماعيلية وعلماء السنّة تحوّلت بعد فتح مصر إلى القاهرة المعزيّة أيّام المعزّ لدين اللّه الفاطمي وخلفائه، ولا سيما في مدّة ابنه العزيز باللّه وحفيده الحاكم بأمر اللّه، حيث أنشؤوا «دار العلم» للغرض المتقدّم، أي لبثّ الدعوة ونشر أصولها في صفوف النخب بالمصرية بوساطة دعاتهم المدرّبين. ولم يكن تأسيس هذه الدار الجديدة إلا لهذا الغرض وليس لتنشيط العلوم ونشر الثقافة، كما هو المقصود الأول من «بيت الحكمة» البغدادي وسميّه التونسي. ويؤيّد ما ذهبنا إليه أن صلاح الدين الأيّوبي لمّا افتكّ ملك مصر من الفاطميّين وعزم على تعطيل المذهب الإسماعيلي أمر بهدم «دار العلوم» الفاطميّة وأنشأ مكانها مدرسة للشّافعية أي لعلوم السّنة خاصّة، وقد أطال المقريزي في بسط الكلام في ذلك في «خططه».

إنّ «دار العلم» المصرية غير خزانة العزيز باللّه للكتب، ولا هي خزانة المخطوطات التي كانت توجد داخل القصور كما توهّمه بعض المؤرّخين، بل إن «دار العلم» كانت تحلّ مكانا خاصّا يقع بجوار القصر الغربي من قصور الفاطميّين بالقاهرة المعزية، نبّهنا على ذلك لئلا يحصل التباس لمن يبحث عن هذه المؤسّسات.

صناعة الكاغذ

«الكاغذ» كلمة صينية تسرّبت إلى اللغة العربيّة حينما أخذ العرب صناعة الورق عن سكان الصين في أواسط القرن الثاني للهجرة وقلّدوا عمله عنهم في خبر طويل ليس هذا محلّه، وقد حافظ أهل المغرب عموما على التسمية الصينية، أما في الممالك الإسلامية الشرقية فصار ينعت باسم الورق.

ولا ريب في أنّ ورق الكاغذ كان يصنع في القيروان وفي رقّادة، نقلت إليهما طريقة عمله من بغداد ومن مدينة الفسطاط في القرن الثالث، ومن القيروان تحوّلت إلى بلرمة (Palermo) عاصمة صقلية الأغلبية، ثم تسرّبت صناعته إلى جنوبي بلاد إيطاليا مثل مدينة ساليرنو (Salerno) وخصوصا فابريانو (Fabriano) ومنها إلى إمارات جرمانيا في قلب أوروبا. وهو ما ساعد على اختراع فنّ الطباعة في ألمانيا بعد حين. ومن المسلّم به أنّه لولا وجود ورق الكاغذ لما تيسّر السبيل لهذا الاختراع الذي كان سببا أصليّا في نهضة الممالك الأوروبية.

لقد ظهر الكاغذ العربي في صقلية وفي جنوب إيطاليا قبل أن يجتاز جبال البرانس (البرينات) ويدخل فرنسا عن طريق المغرب الأقصى (مدينة سبته) ومن الأندلس (مدينة شاطبة Xativa) بمائة عام على أقلّ تقدير.

وفي المكتبة العتيقة بجامع القيروان نماذج قيّمة من هذا الكاغذ القديم. وهو ما يسمح بالجزم بأنّه صُنع في القرن الثالث للهجرة في القيروان أو في رقّادة أو في المهديّة، أشرنا إلى هذا من باب الاستطراد وإتماما للفائدة.

وقد اشتهر غير واحد من التونسيّين في صناعة ورق الكاغذ طيلة ثلاثة قرون – الثالث والرابع والخامس هـ – ونسب إليها جماعة كبيرة كانوا ينعتون بالورّاقين، منهم إبراهيم بن سالم ويعرف بالورّاق الإفريقي فإنه ولد بمدينة تونس ودرس في القيروان، وأتقن صناعة الوراقة حتى تلقّب بها، وباشر مهنته للأمراء الأغالبة في رقّادة، وبعد سقوط دولتهم تحوّل إلى الأندلس واستقرّ بقرطبة واتّصل بالخليفة الحكم الثاني المستنصر باللّه، فألحقه بحاشيته ورتّب له جراية مناسبة، وكان الورّاق شيخا صالحا ذا همّة عالية وفيه شمم معروف، قيل إنّ الأمير الحكم أراد امتحانه فهدّده بقطع جرايته، فكتب إليه إبراهيم برقعة تحمل بيتين (طويل):

تزيد على الإقلال نفسي نزاهة
وتأنس بالبلوى وتقوى مع الفقر
فمن كان يخشى صرف دهر فإنني
أمنت بفضل اللّه من نوب الدهر

فاسترضاه الحكم وزاد في جرايته. وتوفي الوراق عن سن عالية في القرن الرابع.

ومنهم محمد بن يوسف المشهور بالورّاق

الذي تحوّل بعد إتقانه للعلوم والفنون في إفريقية إلى بلاط الأندلس، وانخرط في سلك العلماء المؤلفين لحاشية الحكم الثاني بقرطبة، وإليه ألّف جملة كتب في جغرافية بلاد المغرب، مع اشتغاله بالوراقة الرفيعة.

وممّا تقدّم يتضح أن «بيت الحكمة» الإفريقي إنما أنشأه أمراء بني الأغلب بنية نشر الثقافة في غير المادة الدينية التي كانت دراستها موقوفة على جامع عقبة وعلى كثير من مساجد القيروان وغير القيروان وفي دور الفقهاء والمحدّثين.

نهاية «بيت الحكمة» الأغلبي

وبمجرّد سقوط دولة الأغالبة سكنت حركة «بيت الحكمة» في رقّادة، وخفي صوته وتعطّلت رسالته الثقافية وذلك بسبب محاولة بني عبيد الفاطميّين حمل السكّان على اتّباع نحلتهم الإسماعيليّة. فبعد أن عقدت المجالس الجدليّة التي دارت في أرجائه عقب حلول عبيد اللّه المهدي، كما أسلفنا، نفر سكّان القيروان المتمسّكون أشدّ التمسّك بمذاهب السنّة وخاصّة بآراء أهل المدينة أي مذهب مالك بن أنس وأصحابه، نفروا من الاختلاط برجال الدولة الجديدة، وهجروا رقّادة، وقاطعوا كلّ من يقصدها ويلجأ إليها إعلانا منهم على تعقّلهم بأذيال السّنة وتمسّكهم الشديد بها ورفض ما سواها من النحل والنزعات.

ومن ذلك الحين تعطّلت المهمّة التي أنشئ من أجلها «بيت الحكمة» أعني تثقيف نخبة صالحة من الباحثين في العلوم الفلسفيّة والرياضيّات، ومن المؤسف أن لم يعوّض فيما بعد بغيره. وقد عفى عبيد اللّه حينما حوّل مقرّ دولته إلى مدينة المهدية، التي بناها على ساحل البحر، عن معالم رقّادة ومعاهدها، ومن ضمنها «بيت الحكمة» فصار أثرا بعد عين، ولم يبق سوى رنين صداه.

وهكذا تنتهي رسالة «بيت الحكمة» التونسي بعد أربعين عاما من تأسيسه، غير أن مأثرته الثقافية لم تندثر بعد، بل إن الكثير من روّاده وخرّيجيه تفرّقوا في أطراف البلاد وحملوا شعلته إلى الآفاق المغربية البعيدة مثل مدينة فاس وخصوصا مدينة قرطبة بالأندلس حيث زها شعاعه في حاشية الأمويّين، فأشرق أيّما إشراق في دولة عبد الرحمان الناصر وابنه الحكم، مصداقا لقول اللّه تعالى:

«فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً، وَ أَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ» (الرعد: 17).

مزايا «بيت الحكمة»

من المزايا الكبرى لـ«بيت الحكمة» الأغلبي أنّه أوجد النواة الأساسيّة للمدرسة الطبّية التي عرفت في تاريخ العلوم «بالمدرسة القيروانيّة» التي انتشر تأثيرها مدّة ثلاثة قرون متوالية، ومنها انبثقت حركة التعليم والتأليف في المادّة الطبّية في عموم بلاد المغرب، ثم انتقلت كتبها ونتائج أبحاثها إلى جنوب إيطاليا حيث أنشأ الملوك النرمنديّون دير منتي كاسّينو: (Mont Cassino). وكان أوّل مشرف على إدارته وسيره قسّيس مسيحي يُسَمَّى قسطنطين الإفريقي: (Constantino Africano) وقد وُلد بقرطاجنّة تونس سنة 406هـ (1015م) وقرأ بالقيروان في زمن المعزّ بن باديس الصنهاجي. وأتقن اللغة العربية وتتلمذ لمشاهير الأطبّاء، واطّلع على جانب وافر من مؤلّفات الطّب، ثم سافر إلى مصر على عهد الفاطمّيين وأكمل معرفته في العلوم الرياضيّة، ثم تحوّل إلى صقلّية حيث احتضنه ملكها النرمندي وأوكل إليه رئاسة رهبان الدير المذكور، فتصدّى قسطنطين لدراسة كتب الطّب الإفريقية وترجمتها إلى اللسان اللاتيني واعتمد عليها هو ورفقاؤه لنشر علم الطّب ومناهجه في جامعة ساليرنو (Salerno) ومن هناك تسرّبت تلك التعاليم وترجمات كتب الإفريقيين وغيرهم إلى جامعات نابولي (Napoli) وبولونيا (Bologna) وبادوفا (Padova) ثم أخذت طريقها إلى غيرها من المعاهد العلميّة ومدارسها في شمال إيطاليا وإمارات جرمانيا. فكان ذلك من أقوى الأسباب

لانطلاق النهضة العلميّة في قلب ممالك أوروبا وظهور نشاطها في القرون الوسطى.

وقد ترجم القسيس قسطنطين الإفريقي المتوفّى سنة 480هـ (1087م) جملة من كتب الطب الإفريقية، نخصّ بالذكر منها:

كتاب المالنخوليا: (Melancolia) للطبيب إسحاق بن عمران في وصف أمراض الوسواس، ويعرف أيضا بالمرض السوداوي، وطريقة معالجته، نقله قسطنطين إلى اللاتينية في ترجمة ضعيفة جدّا.

وكتاب الحمّيات (Liber de febribus)، وكتاب البول (Liber de urinus) وكتاب العناصر (Liber de elementis) وكتاب الحدود والرسوم (Liber de definitionibus) ومعها سبع مقالات أخرى من وضع الطبيب إسحاق بن سليمان الإسرائيلي القيرواني، وطبعت الترجمة اللاتينية في مدينة ليون سنة 1515م بعنوان (Opera Isaci).

وكتاب «زاد المسافر وقوت الحاضر» للطبيب أحمد بن الجزار القيرواني، وهو من أشهر تآليفه الكثيرة، وأسمى قسطنطين ترجمته (Peregrinantis Viaticum).

كما ترجم أيضا مصنّفات إفريقية أخرى في غير الطّب، مثل كتاب «البارع» في الفلك والنجوم من وضع الكاتب علي ابن أبي الرجال الوزير الإفريقي، وغير ذلك مما يطول تعداده.

وهذا المقدار شاهد على ما كان من الأثر العميق للمدرسة الطبية القيروانية، وليدة «بيت الحكمة» الأغلبي، على البعث الظاهر في النهضة الثقافية في بلاد الإفرنج في القرون الوسطى وبعدها.

مجالس المناظرة

يذكر مؤلّفو التراجم من الإفريقيين أن الأغالبة كانوا يعقدون مجالس علمية للمناظرة بطريقة الجدل والكلام، يلتئم الاجتماع في قصور رقّادة وقد يستدعي الأمير إلى حضورها مشاهير العلماء من القيروان، من فقهاء السّنة المقلّدين لآراء أهل المدينة، مذهب مالك، ومن المتمسكين بآراء أهل العراق، مذهب أبي حنيفة، ومن المعتزلين المعدودين وغيرهم.

وقد نقل صاحب «رياض النفوس» صورة مجلس مناظرة عقده الأمير إبراهيم الثاني، للخوض في مسألة «خلق القرآن». ولا يخفى أن هذه المسألة - أو المحنة كما يسمّونها - كانت أثيرت بادئ بدء ببغداد في خلافة المأمون ابن الرشيد، وصارت الشغل الشاغل لدى علماء الإسلام مدّة غير قصيرة إذ امتدّت إلى أيّام المعتصم والواثق باللّه، كما هو مبسوط في التاريخ.

ومن بغداد انتقلت إلى الآفاق الإسلامية فمن الشام إلى مصر وأثارت من الخلاف والنزاع بين المتكلّمين ما هو معروف مدوّن، ثم ظهرت في المغرب وتلقّفها الفقهاء والمتكلّمون والمعتزلة كل حسب نزعته، وتدخّل في لجاجها الأمراء والكبراء، وتفشّى النقاش فيها إلى أن نزل إلى الأوساط الشّعبيّة وذهبت فيها أفكار «العامة» كل مذهب، ولم ينطفئ لهيبها إلا في خلافة المتوكل على اللّه العباسي.

ولعلّ أحسن أنموذج لتلك المناقشات ما رواه أبو بكر المالكي عند التعريف بأبي عثمان سعيد الحدّاد، كبير «المناضلين» عن السنّة، قال المالكي: «وكانت له مجالس كثيرة مع أهل العراق (يعني الأحناف) القائلين بخلق القرآن من أهل القيروان». وأنا أذكر منها مجلسا واحدا ليستبين الناظر في هذا الفصل موضع سعيد بن الحداد من العلم وقيامه بالحجّة لأهل الحق (يعني أهل السنة)، فمن ذلك مجلسه مع الأمير إبراهيم (الثاني).

قال سعيد - رحمه اللّه -: دخلت على إبراهيم وكان حاضرا للمجلس عبد اللّه بن هارون ابن الكوفي، وهو قاضيه يومئذ، وعبد اللّه ابن الأشج، وجماعة كبيرة، فلما دخلت إليه أومأ إليّ، ولم أقبّل له يدا ولا لغيره قط، وأدناني حتى لصقت إلى سريره، ثم دار الحديث عن «النافية»

وهم القائلون بخلق القرآن، فقال: أيها الأمير، كثر التشبيه وفشا بالقيروان، وقال قائلون كذا، وقال آخرون كذا. فقال أبو عثمان سعيد الحداد: صرّح باسم النافي، وكنّيت أنا – إجلالا للهّ عزّ وجل– عن تشنيع أهل التعطيل على أن أولي السنّة، وعلمت أنه إنما أراد أن يحرّك بذلك الأمير إلى أمر يتّصل به السبيل إلى كيد السنة وإماتتها، فقلت له: أيها الأمير! إن ما استفاض من الخبر وانتشر دخل على البكر في خدرها، والبدوي في بدوه، فكيف بمن حضر، فليشر – أيها الأمير – إلى رجل. فقال: ذلك من جميع البرايا، فإن لم يفعل فاعلم مقامه. فقال له الأمير: اذكر واحدا. قال ابن الأشج: سوف أطلب ذلك. قال أبو عثمان فقلت له:« طلبناك بذكر ما سلف إلى أن ضرب بطلبه في التوقيف. قال الأمير: مناديا ينادي أن لا يتكلم أحد في الكلام. قال سعيد: فقلت: «أيها الأمير: الناس هادون، ساكنون، فمتى ناديت حركت ساكنا»

قال: ثمّ جرى ذكر تكلّم اللّه تعالى لموسى عليه السلام، فقلت: ممّن سمع موسى الكلام؟ قال ابن الأشج: من الشجرة، قلت: من ورقها أو من لحائها؟ قال أبو عثمان: ووالله ما درى أحد من أهل المجلس مرادي فيما ظهر لي، إلاّ الأمير، فبدر فقال لابن الأشج: أُسكت ويلك! – خوفا أن يجيب فيجب عليه الكفر – قيل لأبي عثمان: وما أردت – أصلحك اللّه – بهذا الكلام؟ فقال: لأنه كل من صرح فقال بأنه من الشجرة على الحقيقة كفر، وزعم أن اللّه لم يكلم موسى وأنه لم يفضله بكلامه. قال أبو عثمان: ثم حوّل إليّ الأمير وجهه وقال لي: أقول لك كما قلت لابن طالب، لا أقول مخلوقا ولا غير مخلوق. قال أبو عثمان فقلت له: لم؟ قال: لأن اللّه تعالى قال كلامي، ولم يقل مخلوقا ولا غير مخلوق. فقلت له: فإن قال غيرك مثلما قلت في علم اللهّ؟ فقال: إن اللّه لم يقل مخلوقا ولا غير مخلوق، وسلك في العلم مسلكك في الكلام. قال أبو عثمان: ولم؟ قال الأمير: لأنه لو كان مخلوقا قبل أي يخلق العلم لكان جاهلا، لأن ضد العلم الجهل. فقلت له: فكذلك لا يقال في الكلام مخلوق لأنه لو كان مخلوقا لكان موصوفا قبل خلقه بضده وهو الخرس، وما لزم في العلم لزم مثله في الكلام. ودليل آخر: إن العلم لا يعدو إحدى منزلتين، إما أن يكون صفة فعل كان من اللّه عز وجلّ، فمن شك في خلق ذلك فهو كافر، ومن شك فلم يدر ذلك مخلوق أو غير مخلوق فهو كافر، والكلام لا يعدو هاتين المنزلتين، فالواقف شاهد على نفسه بأنه تارك للقول بالحق حتما. قال أبو عثمان: فتبسم الأمير وبين لي أنه فهم ما كلمته به، وابن الأشج يكرّر القول ويبديه، يريد القول بالوقوف. فأقبل علّي الأمير إبراهيم وقال لي: أقول لك ما كنت أقول لابن طالب: أنت لا تضطرني إلى مذهبك، وأنا أضطرك إلى مذهبي. قال أبو عثمان: ثم أخذ ابن الأشج في مدح أهل العراق (أي الأحناف) ويفضّلهم على أهل الحجاز (أي المالكية) فقال: لقد قال أسد بن الفرات: سألت مالكا فأجابني، وسألته عن أخرى فأجابني، ثم سألته عن مسألة أخرى فأجابني، فقال لي رجل كان واقفا على رأس مالك، رضي اللّه عنه: «إن أردت التشقيق فعليك بالعراق!» فقلت: أيها الأمير هذا (يعني ابن الأشج) وأصحابه يزعمون أن أبا بكر الصديق – رضوان اللّه عليه – إذا انفرد بخبر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لم تقم به حجة، وأن عمر إذا انفرد بخبر لم تقم به حجة، وأن عثمان وعليا كذلك إذا انفردا بخبر، وهاهو ذا يريد أن يقيم الحجة في تفضيل أهل العراق على أهل المدينة بخبر رجل لا يعرف من هو من جميع البرايا.

«قال أبو عثمان: فما نطق ابن الأشج ولا أصحابه بكلمة غير قوله: ويحك! كأنه يريد دون هذا، على تعظيم الأمير». أي لجلالة مقام الأمير.

وممّا تقدم يتبيّن ما كان يظهره الأمراء من بني

الأغلب من الحرّية الكاملة في المناظرات والمناقشات مثلما اتّصف به الخلفاء العباسيون في مجالسهم العلمية. هذا النصّ ينهض دليلا على سرعة انتقال المجادلات الكلامية والخلافات المذهبية من دار الخلافة ببغداد إلى النوادي التونسية على بعد ما بينهما من المسافة. ويؤيد ذلك حقّا ما أثبته الخشني في «طبقاته» عندما ترجم لأحد متكلمي القيروان المعاصرين له، وقد مرّ اسمه في الخبر السالف، قال الخشني: «وعبد الله بن الأشج كانت له رحلة ودخل العراق، وكان من أهل المناظرة والجدل، سمعت من يذكر عنه أنه لما قدم من بغداد دخل عليه أحداث القيروان للسلام فقال لهم: ما الذي يتكلّم فيه أهل القيروان اليوم؟ فقيل له: في الأسماء والصفات، فقال: إنما تركت الناس بالعراق يتواقفون في مسألتين: مسألة القدر، ومسألة الوعد والوعيد».

وفي ترجمة أبي إسحاق إبراهيم المعروف بالعمشاء وهو من المتكلمين المعدودين أيضا ممن قرأ في العراق كصاحبه المتقدم يقول الخشني: «ومن أعلام رجال الكلام في القيروان: أبو إسحاق ويعرف بالعمشاء، يذهب إلى خلق القرآن ويناظر فيه المناظرة الشديدة، وله في ذلك داعية، وله لمّة وأصحاب وأحزاب في ذلك، يجالسونه ويختلفون إليه، صحب ابن عبدون القاضي وغيره من الرجال العراقيين، وهو اليوم على هذه الحال» (سنة 310هـ 922م).

إنّ هذين الخبرين يدلاّن على انتشار طريقة المجادلات الكلامية في الوسط الإفريقي، في رقّادة والقيروان، مثلما كان جاريا وقتئذ في العراق وفي سواه من الأقطار العربيّة الشرقيّة، إذ أن الثقافة الشائعة فيها جميعا إنما كانت ثقافة واحدة، مستمدّة من أصل واحد في تعاليمها ومظاهرها وتقاليدها.

الأسرة البيرميّة

تعدّ الأسرة البيرميّة من الأسر الخمس أو الستّ ذات المكانة العلميّة المرموقة. وقد وردت ترجمة أسرة بيرم في ملحق الجزء الخامس من الطبعة الثانية لكتاب محمّد بيرم الخامس: "صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" (5 أجزاء، القاهرة، مطبعة المقتطف، 1911).

وفد مؤسّسها بيرم إلى تونس وهو ضابط في الجيش العثماني تحت قيادة سنان باشا الذي هزم الإسبان وطَرَدَهُمْ من البلاد عام 1574. وتزوّج بيرم هذا ابنة عالم تونسي وصارت الأسرة منذ ذلك التاريخ متضلّعة من الشؤون الدينيّة.

محمّد بيرم الأوّل (1718 ـ 1800) بن حسين بن أحمد ابن محمّد بن حسين بن بيرم. كان أوّل باش مفت حنفي في عام 1757 كما ترأس المجلس الشرعي الحنفي واستمرّ هذا المنصب حكرا على أبناء الأسرة إلى وفاة بيرم الرابع سنة 1861.

من مؤلفاته: اختصار "أنفع الوسائل في تحرير المسائل" في فقه الحنفية ورسالة في السياسة الشرعية تحت عنوان: "نبذة في بعض القواعد الشرعيّة لحفظ الإدارة الكلية" (طبعت بمصر سنة 1886). وله نظم.

محمد بيرم الثاني (1749 ـ 1831) بن محمد بيرم الأوّل ابن حسين بن أحمد بن أحمد بن محمد بن حسين ابن بيرم ـ كان شيخ الإسلام في عهد الباي سنة 1779 واستقال بعد عام وثلاثة أشهر، ووليه ثانية سنة 1781 واستقال. وفي سنة 1801 ولي الفتيا. وله تآليف ورسائل نذكر منها: "رسالة في الطلاق" و"رسالة في الخط" و"رسالة التعريف بنسب الأسرة البيرمية" وكتاب عنوانه: "حسن النّبا في جواز التحفظ من الوبا". وله نظم.

محمّد بيرم الثالث (1786 ـ 1843) بن محمد بيرم الثاني بن محمّد بيرم الأوّل بن حسين بن أحمد بن محمّد ابن حسين بن بيرم: كان شيخ الإسلام في عهد المشير أحمد باي الأوّل (1837 ـ1855)؛ تصدّر للتّدريس عن أبيه في المدرسة الباشيّة وفي جامع الزّيتونة وبالمدرسة العنقيّة وتقدّم للخطبة بجامع الوزير يوسف صاحب الطابع ثم تقدّم للفتيا وحاز المرتبة العليا، وقام مقام والده في رئاسة المجلس الشرعي بعد وفاة هذا الأخير. توفي بتونس في 27 أفريل 1843.

من مؤلفاته: "حاشية على المنار" وتحريرات فقهية "و"شرح على إيساغوجي في المنطق".

محمّد بيرم الرابع (1805 ـ 1861)

ابن محمد بيرم الثالث بن محمّد بيرم الثاني بن محمّد بيرم الأوّل بن حسين بن أحمد بن محمد بن حسين بن بيرم. ولد بتونس وهو أحد تلامذة الشيخ إبراهيم الرياحي. تصدر للتّدريس بجامع الزيتونة والمدرسة العنقية والباشيّة وتقدّم لخطة الفتوى عند وفاة جدّه وتقدّم للخطبة بجامع الوزير يوسف صاحب الطابع ثم انتقل للخطة بالجامع اليوسفي وكان المشير أحمد باي الأوّل يستشيره في أمور.

وكان من كبار العلماء الزيتونيين الذين رفضوا مساندة عهد الأمان ونصحوا الباي صراحة بتجنّب الاتّصال بأوروبا ما لم تكن هناك حاجة ماسة تدعو إلى ذلك. وأعرب جلّ هؤلاء العلماء ضمنيّا عن عدم موافقتهم للدّستور بأن رفضوا المشاركة في صياغته والعمل في المحاكم المنبثقة عن المجلس الأكبر بحجّة أن وظيفة القاضي الشرعي لا تخوّل له تعاطي المسائل السياسيّة (وهذه الحجّة اعتبرها ابن أبي الضياف ذريعة واهية).كما لقي اقتراح ابن أبي الضياف الرّامي إلى تمثيل الأقليّات غير المسلمة وخاصة تمثيل اليهود بالمجلس الأكبر، معارضة شيخ الإسلام محمّد بيرم الرابع الذي كان مستشارا مقربا من محمّد باي (1855 ـ 1859) والصادق باي (1859 ـ 1882).

وليس من النّادر أن يختار الحكّام أوثق مستشاريهم وأقربهم إليهم من العلماء كما دلّت على ذلك العلاقة الحميمة بين محمّد باي ومحمد بيرم الرابع وبين خير الدين ومحمد بيرم الخامس الذي سنفرده بفصل خاص. وهذه الشخصيات العلميّة كانت تتمتّع بنفوذ شخصي خاصّة أنّها تحتلّ مناصب قياديّة في مجال الدين أكثر مما تدلّ على نفوذ العلماء في المؤسسة السياسيّة. ومع ذلك فهي ترمز إلى تلك العلاقة القائمة على الدعم المتبادل بين أهل العلم وأهل السياسة.

ومن مؤلفات محمد بيرم الرابع:

- رسالة في الشفعة
- في تراجم خطباء الحنفية
- رسالة شرح بها قواعد عهد الأمان



أحمد بيرم

[1873 ـ 1935م]

أحمد بن مَحمّد بن مصطفى بن محمد ـ الأوّل ـ بيرم، أصله من الأتراك ويقال إنه من سلانيك. كان معدودا من الفقهاء وكان متضلّعا من علوم اللغة وخطيبا في الجامع اليوسفي بمدينة تونس.

وُلد سنة 1873م، وحفظ القرآن الكريم ودخل جامع الزيتونة وأخذ العلم عن الأعلام أمثال الشيخ محمود بيرم والشيخ سالم بوحاجب فأحرز على شهادة التطويع سنة 1310هـ/1892م وتدرّج في الرتب العلمية إلى أن سمّي مدرّسا من

الطبقة الأولى. ثمّ وُلّي مفتيا حنفيا ثمّ شيخا للإسلام من سنة 1329هـ 1911م إلى سنة 1351هـ/ 1932م. كانت له مواقف تجاه الوزير طاهر خير الدين وزير العدلية وسلطة الحماية لـمّا أصدرت الدولة الفرنسية الظهير المغربي الرّامي إلى التفرقة بين رعايا المغرب الأقصى وجعلهم شقّين: عربا يحكمهم الإسلام وبربرا تحكمهم العوائد والأعراف، كما كان له موقف ضد المؤتمر الإفخرستي بتونس في سنة 1348هـ/1930م، وموقف ضدّ المستشرق ويليام مارسي لـمّا ادّعى أنّ اللغة العربية الفصحى ناقصة، فردّ عليه بدراسة أدبية في مؤتمر اللغة والآداب والفنون العربية الذي انعقد بتونس في سنة 1931، وموقف حول إبقاء التعليم الزيتوني على صبغته الإسلامية وكذلك عدم خضوع المحكمة الشرعية لوزارة العدلية التي يُديرها المستعمر. وجميع هذه المواقف كانت من أسباب إعفائه من مهامّ شيخ الإسلام في سنة 1932م، فلازم محلّه وابتعد عن السّاحة تماما إلى أن أدركته المنيّة في ذي القعدة 1353هـ/24 فيفري 1935.

من مؤلفاته

حياة اللّغة العربية (طُبع)



محمد بيرم الخامس
[1840 ـ 1889م]

تستمدّ ترجمة محمد بيرم الخامس من مَعينَيْن على غاية من الأهميّة: ترجمة لنفسه في الجَزء الأوّل من صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، وترجمة الابن الأكبر لمحمد بيرم الخامس وهو محمد الهادي بيرم في ذيل الجزء الخامس من «الصفوة». وهي ترجمة ضافية، قال عنها الجامعي علي الشنوفي: «ترجمة مسهبة لمختلف أطوار حياة محمد بيرم الخامس استوعبت البسط لما حصل له في أسفاره وتنقلاته ومخاطبات الأمراء والوزراء والعلماء والشعراء له، إنّها إذن ترجمة أشمل من النبذة التي بها عرّف نفسه مؤلّف «الصفوة» (علي الشنوفي، ترجمة محمد بيرم الخامس في صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، تحقيق علي الشنوفي، بيت الحكمة، قرطاج 1989، ص 7).

محمد بن مصطفى بن محمّد الثالث بن محمّد الثاني بن محمّد الأوّل تركيّ الأصل جدّه الأعلى حسين بن أحمد بن محمّد بن حسين بن بيرم. وهو ضابط وفد إلى تونس تحت قيادة سنان باشا وأسهم في هزم الإسبان وطردهم من البلاد التونسية عام 1574. وعائلته عائلة علم، إذ أنجبت في ما بين 1873 و1915، سبعة علماء منهم شيخان للإسلام، كما احتكرت إمامة جامع سيدي يوسف. وكان منهم أئمّة لبعض الجوامع مثل جامع حمّودة باشا وجامع باردو.

[انظر ترجمة أسرة بيرم في كتاب محمد بيرم الخامس: صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، القاهرة،1911، ط 2 ملحق الجزء الخامس].

ولد محمّد بيرم الخامس سنة 1840 بتونس. وهو ابن مالك عقاري كبير وموظف حكومي. أمّه بنت الجنرال محمود خوجة (وزير الحربيّة). وزوجته بنت عمّه محمّد بيرم الرابع. أنجب ثلاثة أبناء هم: محمود [توفّي صغيرا] ومحمّد الأزهر [مات في مصر في نهاية ق 19م] ومصطفى الأزهر، قاض.

بعد أن أكمل دراسته في جامع الزيتونة تولى سنة 1857 خطة مدرّس حنفي من الطبقة الثانية. ثم تقدّم إلى خطّة مدرّس من الطبقة الأولى في عام 1868، كما تولّى مشيخة المدرسة العنقيّة

إلى غاية 1878. وكان يحصل على مكافآت مقابل خدماته الإداريّة والدّيبلوماسية.

ولمّا ولي خير الدين الوزارة الكبرى اختار محمد بيرم الخامس أوّل رئيس لإدارة الأوقاف (جمعيّة الأوقاف) حين بعثها سنة 1874. وذلك لتلافي الاختلاس والوضع الفوضوي غير المأمون في سير الأوقاف العمومية خاصّة. وكانت هذه الجمعيّة ترجع بالنظر مباشرة إلى الوزير الأكبر. ولأسباب تتّصل بالكفاية ولاعتبارات سياسية خصوصا اختار زميله في التفكير الإصلاحي والتحديثي، محمد بيرم الخامس أوّل رئيس لهذه الجمعية. (أمّا نائبه فكان الشيخ أحمد الورتتاني الذي خلفه في رئاسة الجمعيّة عام 1878) ثمّ عيّنه خير الدين مديرا للجريدة الرسميّة «الرائد التونسي». فجمع بينها وبين الإشراف على المطبعة الرسمية التي أنشئت في آخر عهد محمد الثاني (الباي). ويشير محمّد بيرم الخامس إلى هذا قائلا: «...ولي الوزارة الكبرى الناصح الأمين خير الدين باشا ونحا منحى الحكومة الشوريّة في إجراء العدل. فرأى اجتهادا منه في انتقاء المتأهّل للخطوط، أن يستعين بالعبد في بعض الخطط حسن ظنّ منه. فلم يسعني إلّا مساعفته لما كنت على علم من توغّله في حبّ العدل والميل إلى القوانين والشورى، حتى كان أوّل ناشر لمفاخرها في قطرنا (...) أجبت استدعاءه وقلّدت رئاسة جمعيّة الأوقاف التي هي من مبتكرات الوزير المذكور في تونس (...) فاستعنت الله وبذلت مقدوري للوفاء بما عهد إليّ، ثمّ ضمّ إلى ذلك نظارة المطبعة، وهكذا بذلت فيها مستطاعي غير أني في ذاتي تحمّلت من الأتعاب الفكريّة والبدنيّة ما لم تتحمّله نشأتي، بل وكذلك الخسائر الماليّة... ولا أعدّ ذلك شيئا في جنب القيام بحقّ الوطن...»

(صفوة الاعتبار... لمحمد بيرم الخامس، الجزء الأوّل، ص 95–96).

وشملت إصلاحات خير الدين مجالا آخر هو الصحافة المطبوعة. وقد سبق أن أشرنا إلى «الرائد التونسي». وهي الصحيفة الرسميّة التي كانت تصدر منذ 1277هـ/1860م على نحو غير منتظم إلى أن انتظم في عهده صدورها أسبوعيّا وأصلحت إدارتها إصلاحا جذريّا بعد أن صار يديرها محمّد بيرم الخامس. وكان الشيخان محمّد السنوسي وحسن لازغلي من محرّريها القارين. وأصبحت الصحيفة فضلا عن مهمّتها – وهي نشر الأخبار الرسميّة والبلاغات والقوانين الصادرة عن الحكومة التونسيّة – تنشر أفكار خير الدين وتدعو إليها. فقد أصدرت مقالا للمصلح المصري رفاعة رافع الطهطاوي ينبّه فيه العلماء على ضرورة تعلّم اللغات الأجنبيّة وتدريسها [زين العابدين السنوسي: محمّد بيرم الخامس (دراسات ونصوص) تونس مطبعة العرب، 1952، ص: 4]

وكانت هناك جرائد مثل «الإيطالي» تطلق بين الحين والآخر شائعات يبثها، على ما يبدو، أنصار الوزير الأكبر السابق مصطفى خزنه دار الذين فقدوا ما كانوا ينعمون به في ظلّ وزارة خير الدّين، لكن «الرائد» كانت بالمرصاد لهم. فحرصت كل الحرص على تفنيد الشائعات المروّجة حول إبعاد خير الدين عن الوزارة. ثم انتقلت من الدفاع إلى الهجوم على خزنه دار. وطالبت بمحاكمته. فكتب محمّد بيرم الخامس رسالة إلى «الرائد» يردّ فيها على مروّجي تلك الشائعات وعلى الصحف المأجورة التي تحاول مغالطة الرأي العام في الخارج حول طبيعة الوضع في البلاد، فكتب يقول: «قد عرض لي في هذه المدّة ما قضيت منه العجب، ولم أكن أحسبه يصدر عن ذي إنسانية ولبّ، فإنّي رأيت بعض النّاس يترجم في فصل منقول من إحدى الصحائف الأوروبية. ولعلّ ناشره كان مغرّرا به من أصحاب الأراضي والمنافع الخصوصيّة التي كانت تصل إليهم ويتمتّعون بها وإن أخربت بلادنا وأهلها»: («الرائد التونسي» XIV، العدد: 25 بتاريخ 7 شوال 1290/27 نوفمبر 1873)، مع

الملاحظ أن بيرم قد اعتذر عن مخاطبة صاحب المقال مباشرة لجهله باللغة الأجنبية التي كتب بها المقال المشار إليه.

ولم تقتصر الجهود المبذولة في مجال الطباعة على «الرائد التونسي». فقد كلّف محمد بيرم الخامس بإدارة المطبعة الرسمية بمساعدة الورتتاني. وكان في ذلك دفع جديد لطباعة الكتب، إذ صدر في عهد خير الدين (1873–1877) أربعة وعشرون كتابا من جملة تسعة وتسعين مؤلفا صدرت في ما بين 1860–1888. ونجد من المنشورات الصادرة في تلك الفترة مؤلفات مدرسيّة في مواد عصريّة معدّة لتلامذة المدرسة الصادقية إلى جانب جملة من البحوث الفقهية ومصنّفات أعلام ذلك العصر مثل إبراهيم الرياحي ومحمود قابادو ومحمد بلخوجة والبشير التواتي ومحمد البارودي. فقد شجع خير الدين على نشر العلوم الدينيّة إلى جانب الإصلاحات الجديدة لكسب ودّ العلماء.

وفي المقابل كتب محمد بيرم الخامس في لجنة متركبة من تسعة أعضاء ترأسها خير الدين شخصيّا مهمّتها تنظيم المدرسة الصادقية، وكانت تضم كلا من محمد العزيز بوعتّور (باش كاتب) والعربي زروق (رئيس بلديّة تونس) مع ستّة علماء من بينهم محمد بيرم المذكور. [محمد ابن الخوجة: «صفحات من تاريخ تونس: المدرسة الصادقية»، شمس الإسلام، تونس، العدد: 2، (صفر 1356 هـ) ص: 98–102].

أمّا فيما يخصّ إصلاح المناهج الزيتونيّة وموادّ التدريس بجامع الزيتونة، فقد أوكل خير الدين هذا الأمر إلى اللجنة نفسها التي سهرت على بعث الصادقيّة. فانتهت من أعمالها بإصدار قرار مؤرّخ في 28 ذي القعدة 1292/26 ديسمبر 1875 يقضي بوضع حدّ للتجاوزات مثل الغيابات المتكررة للمدرّسين وإصلاح البرامج وما إلى ذلك وعرف بقانون خير الدين.

أما فيما يخصّ تأليف كتاب: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك (ط1، تونس،1867، 467 صفحة)، فيبدو أنّ بعض العلماء الزيتونيين أسهموا فيه مثل سالم بوحاجب ومحمد بيرم الخامس. وذلك بإعداد بحوث للكتاب كما أسهموا في صياغته.

وكان لهم بذلك دور مزدوج:

أوّلا: أمدّوا خير الدين بفضل ثقافتهم الفقهيّة والدينيّة بالأمثلة والشواهد من مأثورات العلماء المسلمين لدعم حججه.

ثانيا: قدموا له مساعدة في التحرير بأن صوّبوا اللغة والصياغة. وقد اعترف خير الدين نفسه في خاتمة أقوم المسالك بأن مؤلفه «قد خضع لعمليّة صقل أنجزها مثقفو البلد» [أقوم المسالك...، ص: 462]

ولا شكّ في أنّ محمد بيرم الخامس وأحمد بلخوجة كانا سليلي أفضل الأسر العلميّة في تونس. ويمكن تفسير هذه الظاهرة بأنّ عائلتي بيرم وبلخوجة كانتا مدينتين في ثروتهما ومكانتهما المرموقة إلى نعم البايات. ولذا، فإن مصالح هاتين الأسرتين على غرار الأسر العلميّة في إستانبول كانت منسجمة على نحو متفاوت مع مصالح الإدارة أو المخزن. فكان من فائدتهما مساندة السياسات التي تنتهجها السلطة الحاكمة.

ومعلوم أنّ محمد بيرم الخامس أصبح أقرب مستشاري خير الدين، كما كان محمد بيرم الرابع سابقا مستشارا لمحمد باي والصادق باي. وهذا يعني أنّ مجرّد العلاقات الشخصيّة قد تكون لها أهميّة أكبر من المصلحة الذاتيّة أو مصلحة الأسرة (التي لم تكن الدافع الوحيد) ولربّما كان تعاطف بعض الشيوخ مثل محمد بيرم الخامس وأحمد بلخوجة مع التنظيمات يعزى أساسا إلى علاقتهما الحميمة بمصلحين أمثال الشيخ محمود قابادو وأحمد بن أبي الضياف وخير الدين ذاته. وفي مثل هذه الحالات تظهر لنا العلاقة بين سعة الخبرة والاطلاع على الحضارة العربيّة والفكر السياسي

محمد بيرم الخامس رئيس جمعية الأوقاف التونسية مع لجنة فرنسية في قضية هنشير سيدي ثابت، سنة 1878

الإصلاحي. ولقد أتيحت لمحمد بيرم الخامس فرص عدّة لمشاهدة المؤسسات القائمة في بلدان إسلاميّة أخرى وفي البلدان الغربيّة من الأسفار الشخصيّة لأغراض مختلفة كالتداوي مثلا والبعثات الدبلوماسيّة. وهذا واضح تماما في كتابه الضخم الموسوم بصفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار. ومن البديهي أن تؤثر نهضة أوروبا وتمدّنها وثقافتها في الشيخ بيرم الخامس إلى حدّ لا يقلّ عن تأثيرها في خير الدين.

انتهى عهد الإصلاح التحديثي تقريبا في ما بين سنتي 1877–1878 بسقوط حكومة خير الدين وهجرته إلى إستانبول حيث تولّى لفترة وجيزة الصدارة العظمى. ويبدو أنّ بعض أتباعه بتونس ومنهم الشيخان محمد بيرم ومصطفى رضوان قد حاولوا مواصلة حركته الإصلاحية.

وعندما قطعت العلاقات الديبلوماسية بين تونس وفرنسا سنة1878، إثر قضيّة هنشير سيدي ثابت، كان الشيخان بيرم ورضوان عضوين في اللجنة المختلطة الفرنسية التونسية التي توصّلت إلى صياغة تسوية وإلى إعادة العلاقات [ج. قانياج: أصول الحماية الفرنسية على تونس، باريس،PUF، 1959 ص: 422].

لمّا احتلّ الفرنسيون تونس سنة 1881 كان محمد بيرم الخامس وأغلب أتباع خير الدين قد غادروا البلاد. وبذلك وصلت الحركة الإصلاحية إلى نهايتها.

هاجر محمد بيرم الخامس سنة 1879 قاصدا البقاع المقدّسة للقيام بفريضة الحجّ. واستقرّ أوّلا بإستانبول ثمّ بمصر حيث سخّر حياته لخدمة القضاء والصحافة إلى أن توفّي بحلوان في 1889/12/18.

كان مؤلفا غزير الإنتاج. ومن أهمّ كتبه:

– صفوة الاعتبار، ويعدّ من أفضل الأعمال في ميدان الجغرافيا السياسية المحرّرة باللغة العربية.

– تجريد السنان للردّ على الخطيب رينان (مفقود) وهو ردّ على محاضرة رينان (Renan) في سنة 1883 حول وقوف الإسلام ضدّ التقدّم العلمي.

– تحفة الخواص في حلّ صيد بندق الرّصاص، القاهرة 1303 هـ/1886م.

– الرّوضة السنيّة في الفتاوى البيرميّة (مخطوط).

وعند وفاة محمد بيرم الخامس أبّنَهُ أصدقاؤه بجريدة الوقائع المصرية. وفيما يلي بعض ما ورد فيها بتاريخ 21 ديسمبر 1889.

«إنّا لله وإنّا إليه راجعون، في آخر ليلة الخميس الماضي انتقل من هذه الدار الفانية إلى الدار الآخرة الباقية المرحوم الشيخ محمد بيرم أحد قضاة المحكمة الابتدائية الأهلية بمصر وصاحب جريدة الإعلام العربية. وكانت وفاته رحمه الله بمدينة حلوان عقب اشتداد الدّاء العصبي الذي مني به عدّة سنين ولم ينجح فيه الأطبّاء». (علي الشنوفي، ترجمة بيرم الخامس، المرجع المذكور، ص 173).



محمود بيرم التونسي

[1893 ـ 1961م]

كتب الكثير عن شخصية الفنان محمود بيرم التونسي، باعتبار المكانة التي احتلها في الادب التونسي والعربي المعاصر عموما، ولتعدد مواهبه في مجالات كتابة الازجال والأغاني والمسرحيات والمقامات والسيناريوهات والمقالات الصحفية بمختلف أنماطها، غير أن ما كتب حوله وحول إنتاجه الأدبي اقتصر فيه على تغطية فترة إقامته بمصر التي تشتمل على مرحلتين من حياته، مرحلة الشباب المبكر، ومرحلة الشيخوخة المتقدمة.

أمّا مرحلة كهولته التي تمتد نحو عشرين سنة (1919–1938) فماتزال مجهولة في معظم جوانبها لأن بيرم قضاها خارج مصر بعد أن صدر قرار سياسي بإبعاده عنها.

وقد انقسمت هذه المرحلة المهمة إلى ثلاثة أقسام، منها ثلاث عشرة سنة قضّاها مطاردا بين مدن فرنسا المختلفة: مرسيليا وباريس وليون وغيرها، وخمس سنوات أقام في أثنائها بتونس، وسنتان قضاهما ببلاد الشام بين لبنان وسوريا.

ولمّا كان من المتعذر الإلمام بأطوار حياة بيرم التونسي الزاخرة بضروب المعاناة والإنتاج، لأننا لم نتمكن بعد من الاطلاع على ملفاته السياسية في خزائن الوثائق ببعض هذه الدول، فإننا نقتصر على تقديم خلاصة عامة لحياته، وعلى تناول جوانب من إقامته في تونس في السنوات الخمس التي قضاها بهذا البلد، وانعكاسات هذه الإقامة على الأدب التونسي وإسهامه في النضال الوطني التونسي وكتاباته الأدبية وجهاده الصحفي وتأثيره في الأوساط الاجتماعية والثقافية.

علاقة محمود بيرم بتونس

من المعلوم أن محمود بيرم ينتمي إلى عائلة تونسية من أعرق العائلات، كان لها نفوذ إداري وصيت علمي في فترة حكم البايات لتونس، وحسب الروايات المتواترة فإن جده مصطفى بيرم كان رحل إلى الحجاز في منتصف القرن التاسع عشر لأداء فريضة الحج، وفي أثناء عودته بالباخرة أغرته مدينة الإسكندرية بالإقامة فيها، فوضع رحاله هناك سنة 1833 وتزوج، وتعاطى مهنة التجارة والصناعة وأنجب أبناء توارثوا عنه صناعة النسيج، وواصلوا حياتهم بهذه المدينة، إلى أن ولد محمود بيرم في 23 مارس 1893 بحي الأنفوشي بالإسكندرية، ونشأ وترعرع وتردد على كتّاب الحي فحفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ دراسته الأولى، ثم اختلط بطلبة المعاهد، وحضر بعض الدروس الحرة، وانطلق بعدئذ يعلّم نفسه بنفسه، منصرفا إلى المطالعة بالمكتبات العمومية، مترددا على الأندية الأدبية، مكتشفا مواهبه بالفطرة والسليقة دون مرشد أو مساعدة.

وفي الحياة تخلّقت عبقريته وتفتّحت على النّكبات والمحن، إذ توفي والده وعمره 12 سنة، كما توفيت والدته وعمره 17 سنة فتركته غلاما يافعا وحيدا في الحياة. وحاول بعدهما تحسس طريقه في الحياة فامتهن شتى المهن، في محل للنجارة لدى زوج أمه «المعلم الشريدي»، وفي مصنع والده الذي فرط فيه بعدئذ لأبناء عمه، ثم صيادا فبقالا، غير أنه فشل في جميع تلك المهن، وخسر رأسماله وبدّد ما كان بين يديه من الثروة القليلة التي ورثها عن والده.

وقادته الصّدفة إلى الصحافة حين أخذ يكاتب بعض الصحف ويمدها بالقصائد والأزجال، فتبنّت محاولاته الأدبية الأولى في سنة 1917 جريدة "الأهالي" بالإسكندرية لصاحبها عبد القادر حمزة، وانطلقت شهرته عندما نشر قصيدته الشهيرة عن المجلس البلدي التي كانت

نقلة أدبية مهمة في حياته، ذلك أن أهالي الإسكندرية كانوا «بيرميّين» بمجلسهم البلدي المكوّن من الإنجليز، وممارساتهم العنصرية، فوجدوا متنفّسا في تلك القصيدة النقدية التي تلقفها الناس بشغف وتداولوها وترجموها حتى إلى أعضاء المجلس، فأصبح اسم الشاعر على كل لسان وذاع صيته، وسعت الصحف إلى نشر إنتاجه.

وشعر بيرم بعد هذا النجاح الأدبي أنّ إمكاناته أكبر من المدينة التي كان يعيش فيها، خصوصا أنّه قد أصبح موضع منافسة وحسد من بعض الصحفيين فيها، فشدّ الرحال إلى القاهرة، باحثا عن مجال أرحب لنشر أفكاره، وعن وسط ثقافي وسياسي أشمل يتبنى مواهبه، ويضمن له الانطلاقة التي يؤملها.

وما إن وصل القاهرة حتى تلقّفته نواديها وأوساطها، وسمحت له الظروف بإصدار جريدته الشهيرة "المسلة" في سنة 1919، التي كان أصدر بعض أعدادها بالإسكندرية وأخذ يُوَجِّهُ على صفحاتها سهام نقده إلى السلطة السياسية، ويطرح مطالب الشعب المصري وقواه الوطنية، معبرا عن رأي الأغلبية، منتهجا له خطّا سياسيّا نضاليّا، بأسلوب ولغة وخيال يتجاوب مع أفكار الناس وعقليتهم. وسرعان ما نجحت خطته تلك فنال شهرة واسعة في وقت وجيز، وتوطدت علاقاته بالأحزاب الوطنية وبزعماء مصر وكتابها الكبار، ووجد التشجيع المادي والمعنوي من القراء الذين كانوا يتهافتون على مطالعة هذا اللون من الأدب الشعبي الجديد، ويعجبون بأسلوب بيرم الساخر المتهكم والسهل الممتنع كما يقال.

لم يقف بيرم عند مناهضة الإنجليز والقوى الرجعية وأنصار السلطة، ولكن سهامه نالت الأسرة المالكة نفسها إذ كتب في مناسبتين أزجالا تعرض بشرف الملك فؤاد وأصهاره وبناته، وهو ما لم يغفره له الملك، فأصدر أمرا بإغلاق الجريدة وإبعاد هذا الصحفي عن أرض مصر، نظرا إلى أن السلطة المصرية لم يكن بإمكانها محاكمته باعتباره تونسيا، من رعايا السفارة الفرنسية بمصر.

وبالاتفاق بين قنصلية فرنسا بالقاهرة، والسلط المصرية تقرر ترحيل محمود بيرم في أول باخرة من الإسكندرية في اتجاه وطنه تونس وصدرت برقية بتاريخ 2 ديسمبر 1919 من قنصل فرنسا بالإسكندرية إلى الإقامة العامة بتونس تخبرها بسفر محمود بيرم يوم 21 أكتوبر 1919 مبعدا من مصر إلى تونس عبر مدينة مرسيليا، وتنبهها على ضرورة الاحتياط منه ومن تصرفاته، وتشديد الرقابة عليه لما يجسمه من خطر على الأمن العام.

ووصل محمود بيرم إلى تونس في أوائل شهر نوفمبر 1919 حيث أقام بضعة أسابيع بالنزل العصري وظلّ مراقبا من الشرطة الفرنسية. وحاول في أثناء هذه الإقامة البحث عن عمل فلم يتوفق إلى ذلك لما كانت تونس تعاني من بطالة وفاقة ومجاعة، كما حاول الاتصال بآل بيرم لكنّهم أنكروه إنكارا تاما، وتبرّؤوا منه، ولم يعترفوا بقرابتهم له.

عند ذاك ضاقت الدنيا في عينيه، وفقد الأمل في العودة إلى الوطن والأهل، فارتحل إلى مرسيليا وتواصلت إقامته بفرنسا ثلاث عشرة سنة قضاها متنقلا من مدينة إلى أخرى، ومن عمل إلى آخر، مجربا كل أنواع المهن الشاقة الوضيعة، متعرضا لكل الصعوبات وألوان المهانة والعنف، وهو ما أفاض في تصويره ضمن مؤلفه "مذكرات المنفى" التي نشرها بتونس في الثلاثينات.

لكنّ بيرم طيلة هذه الفترة، ورغم المحن التي كابدها لم يذعن للواقع المرير، فواصل الكتابة، ومراسلة الصحف والمجلات بمصر، وألّف الأزجال والقصائد والمسرحيات والمقامات، وواصل حملته على الاستعمار الإنجليزي وعلى العائلة المالكة، وحاول الاتصال من منفاه بكل الزعماء المصريين الذين كانوا يفدون على باريس ليتوسطوا له في العودة إلى بلاده، ولكنهم

تنكروا له، حسبما أشار إليه بنفسه، وخيبوا ظنه، بل إن معظم الصحف والمجلات التي كان يراسلها كانت تنشر إنتاجه مجانا وأخلت بوعودها في تحويل هذه المكافآت البسيطة إلى أبنائه في مصر، وهو ما اضطره في بعض الأحيان إلى أن يقاسمهم دخله الزهيد، وأجرته المتواضعة من أعماله اليدوية في حضائر البناء ومستنقعات الملح، وأفران صهر الحديد.

وبحكم هذه الإقامة الطويلة في فرنسا تعرّف محمود بيرم إلى عدّة طلبة من شمال إفريقيا هناك، وتوطدت علاقاته بهم، وخاصة منهم التونسيين الذين كان يشعر بالانتساب إليهم رغم تنكر عائلة بيرم له. ومن الذين تعرّف إليهم محمود بيرم آنذاك، محمد بدرة الذي كان ينتمي إلى عائلة بدرة المعروفة بنشاطها الاقتصادي، وصلتها الوثيقة برجال المال والسياسة، وبموالاتها لمحمد شنيق العضو بالمجلس الكبير، ورئيس الحجرة التجارية التونسية، ورئيس بنك التعاضد المالي.

ويبدو أن محمد بدرة الذي عرف بفطنته وذكائه ودهائه وحبه للفن وأهله فكر في استقدام محمود بيرم إلى تونس لاستغلال مواهبه في الأعمال الصحفية لهذه الجماعة التي اتخذت من جريدة "الزمان" لسان حال لها، لتجعل منها صوتا إعلاميا خاصا بها وبمشاريعها التجارية والإعلامية والسياسية، وتجعل منها منبرا لمقاومة صحف «الحزب الحر الدستوري التونسي»، الذي شق عصا الطاعة في وجه محمد شنيق وجماعته، وفك صلته بهم لاختلاف التوجهات الوطنية، وأساليب العمل.

ووجدت هذه الفكرة صدى طيّبا لدى جماعة شنيق فأوكلوا إلى محمد بدرة مهمة تنفيذها، فاتّصل بمحمود بيرم واستقدمه إلى تونس في أواخر سنة 1932 حيث أولوه رئاسة تحرير "الزمان" في جانفي 1933 واستمرّ في هذا العمل إلى سنة 1935.

وطيلة هذه الفترة تحوّلت الجريدة المذكورة من جريدة إعلامية إلى صحيفة مرموقة، تحقّق لها انتشارا واسعا بفضل ما أدخله بيرم على أبوابها وأركانها، وأسلوبها وخطابها الصحفي من تجديد وطرافة. ويمكن القول إن بيرم استولى على الجريدة كلها وأصبح يحرر جميع صفحاتها بما في ذلك الإعلانات التجارية التي اكتست طابعا جديدا مثيرا، وأضفى عليها صبغة أدبية واضحة، وشن على صفحاتها حملات صحفية لاذعة على جماعة الحزب الدستوري القديم، وخاصة على بعض أدباء هذا الحزب أمثال حسين الجزيري، ومصطفى بن شعبان، بسبب تعرضهما له، ومبادرتهما بالهجوم عليه، ووصفه بأبشع النعوت.

وقد امتدت تلك المعركة بضع سنوات، واشتدت ضراوة وعنفا بعد الانقسام الذي حدث داخل الحزب الدستوري وانشقاق جماعة الحزب الجديد عنه في سنة 1934 إذ كان بيرم ومن ورائه جماعة شنيق من مباركي هذا الانشقاق، وممن دعموا الحزب الجديد بشتى الوسائل للتخلص من خصومهم القدامى، فكتب المقالات والقصائد والأزجال وحتى المقامات والقصص للتنويه بالزعماء الجدد والتعريض بالقدامى.

ولئن بدا موقف بيرم منسجما في الظاهر مع موقف جماعة شنيق فإن أغراضهما ونواياهما كانت متباينة. ففي حين كانت الحساسيات السياسية والحسابات والمناورات وراء سعي جماعة شنيق إلى تفكيك الحزب، وزعزعته وإحداث الانقسامات داخله حتى يتسنّى لجماعة الكتلة الأهلية التي يرأسها بالمجلس الكبير تحقيق أهدافها، والظهور على الساحة السياسية باعتباره عنصر توزان بين الكتل الوطنية المتصارعة، فإن موقف محمود بيرم التونسي كان هدفه التحمس للشبيبة الوطنية وتجديد هياكل الحزب وحقنه بدم جديد وعناصر شابة تتيح له مواصلة نضاله ضد المستعمر.

وممّا يسجل لمحمود بيرم في عمله الصحفي بجريدة "الزمان" أنه لم ينفذ سياسة محمد

شنيق، بل نجده في أكثر الأحيان مناوئا للاستعمار، ومنددا ببعض ما كان يصدر عن المقيم العام آنذاك مارسال بيروتون المعروف بصلابته وغطرسته وسياسته القمعية وانتهاك لحقوق التونسي. ولئن بدا بيرم مقيدا بعض الشيء بتوجهات صحيفة "الزمان" وملتزما بالخط الحيادي الذي تنتهجه تجاه السلطة، فإن هذا الحياد لم يلبث أن أصبح انتماء ظاهرا وقويا إلى صفوف الوطنيين، وإلى المقاومة السياسية والنضال المباشر بمجرد أن استقال من هذه الجريدة، مفضلا الاستقالة عن مواصلة عمله الحيادي، وهو الذي لا يؤمن بالحياد، ولا يرغب فيه، ولم يؤهل له.

وعانى بيرم في فترة بطالته من أزمة مادية حادة اضطرته إلى أن يصنع الحلويات، ويطوف بها على الباعة ليكسب قوته اليومي كي لا يضطر إلى تأجير قلمه، وقول ما لا يرغب في قوله، غير أن هذه الفترة لم تدم طويلا، إذ حدثت تحولات سياسية مفاجئة في فرنسا بانتصار الجبهة الشعبية وصعود زعيمها ليون بلوم إلى الحكم، فانجرّ عن ذلك تغيير سياسة فرنسا في أقطار ما وراء البحار، وعُين على تونس مقيم عام أشدّ واقعية وتفهّما لتطور الأحداث، فرفع الحظر عن الصحف المعطلة، وأباح إصدار صحف جديدة بموجب قانون يسمح بحرية العمل الصحفي، كما أفرج عن المعتقلين، واتخذ تدابير سياسية في اتجاه الإصلاح استجابة لبعض المطالب الوطنية.

في هذا المناخ الجديد وجد بيرم متنفّسا للعودة إلى العمل الصحفي، فبدأ يشارك زملاءه من «جماعة تحت السور» تحرير الصحف التي أصدروها وخاصة جريدة "السرور" التي أصدرها القصاص التونسي علي الدوعاجي في سبتمبر 1936. ثم أصدر في شهر أكتوبر من السنة نفسها جريدة بعنوان "الشباب" استمر صدورها من أكتوبر 1936 إلى مارس 1937. ولانتهاج هذه الجريدة خطا وطنيا صلبا، وأسلوبا ساخرا عابثا بكل متواطئ مع الاستعمار وخائن لبلاده، ولما قامت به من حملات أدبية وفكرية وسياسية على جميع الانحرافات الفكرية والاخلاقية، فقد كان مصيرها التعطيل بعد أن تفاقمت الشكاوى بشأنها، وتألبت عليها جميع القوى المناوئة لصوت الحق.

والحقيقة أنّ بيرم وجد في هذه الجريدة فرصته الكبرى ليحملها أفكاره ويبثها كلّ ما في نفسه من آلام وأحزان، وثورة وعنف، ويكفر من ثمّة حتى عن مجرد الانتماء في يوم من الأيام إلى الحياد، وخدمة من لا يتوافق معه في الوطنية. ولم يفل تعطيل "الشباب" في عزيمة محمود بيرم الذي ما لبث أن أصدر مع أحد المتعاطفين معه جريدة باسم "السردوك".

وعوض أن تردع القرارات الزجرية الصاردة عن السلطة محمود بيرم وتثنيه عن مواصلة أسلوبه التهجمي التهكمي على السلطة الاستعمارية، وعلى بعض الذوات التونسية ممن كانوا على صلة بالسلطة، انبرى يرفع من درجات عنفه اللفظي في العددين اللذين حررهما في جريدة "السردوك" وكأنما كان الاضطهاد الذي عاناه تحريضا له على المزيد من المقاومة، وشحذا لعزائمه بتشديد القبضة على المستعمر.

ولمّا أعيت جميع الحلول خضد شوكته وإخماد ثورته وتدجينه مثلما يقتضي الحال في نظر المستعمر، صدر قرار إبعاده عن تونس في الأسبوع الأول من شهر أفريل 1937. وعبثا حاولت معظم الصحف لفت نظر المقيم العام والسلطة الاستعمارية إلى خطإ القرار وفداحته، وما يجسّده من اختراق للقوانين بإبعاد مواطن تونسي عن أرضه ووطنه. وبتلك المناسبة اجتمع الديوان السياسي للحزب الحر الدستوري التونسي بمكتب الحبيب بورقيبة بباب سويقة في جلسة رسمية يوم 17 أفريل 1937 حضرها من أعضاء الحزب الجديد صالح بن يوسف وسليمان بن سلميان ومحمود بورقيبة والبحري قيقة،

وقرّروا فيها القيام بعمل شعبي للحيلولة دون تنفيذ القرار. إلاّ أن بيرم الذي كان قد حضر هذا الاجتماع أبى أن يزج بالبلاد في معركة دموية وفي صراع مع المستعمر، وقد كانت الظروف الاجتماعية على أسوإ حال نظرا إلى المجاعة المتفشية، وفشل الإقامة العامة في مواجهة غلاة المستعمرين بتونس، وقد رفضوا الانصياع لقرارات حكومتهم.

وبارح بيرم تونس يوم 21 أفريل 1937 مودعا، كما ذكر قرار واحد من مخبري الشرطة، من قبل ثلة قليلة من أصدقائه الأدباء الذين حضروا معه إلى الميناء في الساعة الثانية ليلا، بعد أن اختار الإبعاد إلى الشام، التي كانت ترزح أيضا تحت الاستعمار الفرنسي.

وقد قضّى بيرم بضعة أسابيع تحت رقابة شرطة الميناء بمرسيليا بعد أن رفضت الباخرة التي كانت تستغل الخط البحري بين مرسيليا وبيروت حمله على متنها لعدم حصوله على تأشيرة عبور إلى بيروت، ثم ذللت الشرطة هذه الصعوبة حين قبلت إحدى بواخر الشحن نقله على متنها.

ووصل محمود بيرم إلى بيروت في بحر شهر ماي 1937 وأجبرته سلط الميناء على دفع غرامة مالية لضمان ترحيله عند الاقتضاء، فدفع ما كان عنده من مال، واجتاز بيروت للإقامة بسوريا حيث لا نعرف الكثير عما قام به هناك، عدا بعض الإشارات إلى اتصاله بأصدقائه المصريين بمصر، وبمراسلاته للفنانات والفنانين، ومدهم بالأغاني والمسرحيات التي كانت تمثل على مسارح مصر، كما كانت له اتصالات بأهل الفن ورجال السياسة والصحافة بسوريا.

ورغم أنّ بيرم اختار الانزواء في هذا القطر العربي، وفضل العمل الأدبي في انتظار أن تسنح الظروف باستئناف نشاطه النضالي، فإن السلط المصرية تضايقت من إقامته بسوريا، وأرسلت الجواسيس يتعقبونه، وكلفت دبلوماسييها بالتدخل لدى المندوب السامي الفرنسي لإبعاد بيرم مرة أخرى من سوريا.

ووجد الطلب المصري صداه لدى فرنسا فأذنت بترحيل بيرم مرة أخرى من هناك، واختارت هذه المرة بلدا إفريقيا يقع تحت انتدابها ولا يتكلم أهله العربية وليست لهم علاقة بالعرب وهو السينغال. ووجد نفسه على متن الباخرة التي ستقله إلى منفاه الجديد في شهر نوفمبر 1938. وما إن توقفت هذه الباخرة بميناء بورسعيد للتزود بالمؤن والوقود حتى كان قد أعد نفسه لمغامرة الهرب فرشا بعض النوتية بالميناء الذين سهلوا فراره واختفى ردحا من الزمن عند بعض أصدقائه وأقربائه، إلى أن توسط له أدباء وساسة مصريون لدى الملك فاروق الذي كان ورث عرش أبيه فعفا عنه، وقضى بقية حياته بمصر، ولكنه لم يحصل على الجنسية المصرية إلا سنة 1954 بتدخل مباشر من الرئيس جمال عبد الناصر الذي أكرم الشاعر وأنعم عليه بأرفع الأوسمة. فأكمل حياته هناك يعاني من الأمراض التي كان حصدها في أثناء منفاه الطويل إلى أن وافاه الأجل ودفن بالقاهرة في 1 جانفي 1961.

تلك صورة مقتضبة عن حياة الكاتب والشاعر الفنان محمود بيرم التونسي الذي شغل العالم العربي وملأ الأسماع، ولم يحظ بما حظي به غيره من الكتاب والأدباء من اهتمام وتقدير، عدا ما كتبه عنه بعض الأدباء المصريين الذين تناولوا بعض جوانب كفاحه وإنتاجه في غير تعمق ودون استيعاب وإلمام بالفترات التي قضاها خارج مصر.

ويهمّنا من كل ذلك أنّ بيرم قضى في تونس ردحا من الزمن، ترك خلاله إنتاجا وفيرا وتأثيرا محسوسا، وصفحة ناصعة من النضال الوطني ونكران الذات والمعاناة المرة. فمن جهة الإنتاج الأدبي كانت حصيلة هذه الإقامة عشرات القصائد الفصحى، وبضعة أزجال باللهجة التونسية الأصلية التي أتقنها بيرم إتقانا عجيبا يضاهي صفوة الشعراء الشعبيين والزجالين التونسيين، ومجموعة من القصص القصيرة، والمقامات، والمقالات الأدبية والصحفية التي

تناول فيها شتى الموضوعات الاجتماعية والقضايا السياسية، مما يؤلف حصيلة أدبية ثرية.

وقد تكون فضيلة بيرم في هذه المرحلة التونسية أنّه تخلّى عن الكتابة باللّهجة العاميّة باستثناء بعض الأزجال فكتب باللغة العربية الفصيحة القريبة من الأذهان، والميسورة الفهم، اعتبارا منه، كما كان يذكر ويردّد، إلى أن معركة التونسيين مع الاستعمار هي في الأساس معركة ثقافية ونضال ضدّ غزو لغوي استعماري، وتأكيدا منه قدرة هذه اللغة على الصمود، وإسهاما منه في صدّ الحملات التي كان يشنها الاستعمار وأذنابه على اللغة العربية ونعتها بالتخلف والتحجر والدعوة إلى الاستعاضة عنها باللهجة العامية.

وإلى جانب ذلك أحدث بيرم ثورة صحفية، عند إشرافه على رئاسة تحرير "الزمان"، أو عند إصداره جريدة "الشباب"، أو مشاركته في تحرير جريدتي "السرور"، و"السردوك". وتتجلى هذه الثورة فيما أحدثه من أبواب جديدة، وفي الارتقاء بلغة الصحافة، وفي أسلوب معالجته لمختلف القضايا المهمّة منها والبسيطة على حد سواء، إضافة إلى الشجاعة الأدبية التي كان يتميز بها، والقدرة على التحليل والنفاذ بعمق إلى أهم المشكلات واستشراف المستقبل، والحدس الصحفي المبهر، واقتراح الحلول، وتعبئة الجماهير.

وعلى عهده حققت الصحافة الهزلية خاصة نقلة نوعية، وأصبحت في طليعة الصحف المقروءة. وقد استطاع أن يفجر قرائح المصورين والرسامين ويشركهم في الحياة السياسية والاجتماعية، ويخلق لأول مرة فنّ الكاريكاتور السياسي الذي لم يكن معروفا في تونس قبل مجيء محمود بيرم، ويكتشف عدّة مواهب بفضل قدرته على الإدارة والتوجيه والإشراف.

ولعلّ أهمّ ما يسجله التونسيون لمحمود بيرم هو إسهامه الواضح في العمل الوطني ونضاله المشهود إذ وقف طيلة إقامته مع الشعب، وتبنى قضاياه، وساند القوى الوطنية وخاصة الحزب الدستوري التونسي الجديد، وجند قلمه لمحاربة الظلم والانتهازيين، وفضح كل من تواطأ مع الاستعمار حتى أولئك الذين كان لهم الفضل في استقدامه إلى تونس وفي طليعتهم محمد شنيق.

والخلاصة أنّ محمود بيرم التونسي يمكن اعتباره، أكبر أديب عربي عانى الاضطهاد والإبعاد والتشريد في العصر الحديث بسبب أفكاره الوطنية، مجسّما بذلك الأديب العربي الوطني في أسمى منزلته لدفاعه عن الشعب المصري والتونسي، والجزائري والليبي، والسوري، وتبنّي قضايا الأمة العربية في أوسع نطاق.

وقد نشأ في عائلة تونسية الأصل، ظلّت تحتفظ بجنسيتها التونسية طوال أكثر من قرن، وكانت إقامته بتونس ومجيئه إليها مرتين لاعتبارات وطنية. وهو إلى جانب ذلك يعدّ في مصاف العباقرة والموهوبين بما ترك من إنتاج في شتى الأنماط الأدبية، وما تميّز به من قدرة على الإبداع والتفوق، بشهادة كبار أدباء عصره، وبشهادة العصر ذاته الذي ما يزال مفعما بذكره، مردّدا بلسان الشعراء والفنانين مثل أم كلثوم والكتاب ألوانا من إنتاجه الخالد.

الطيب بيرم
[1881 - 1943م]

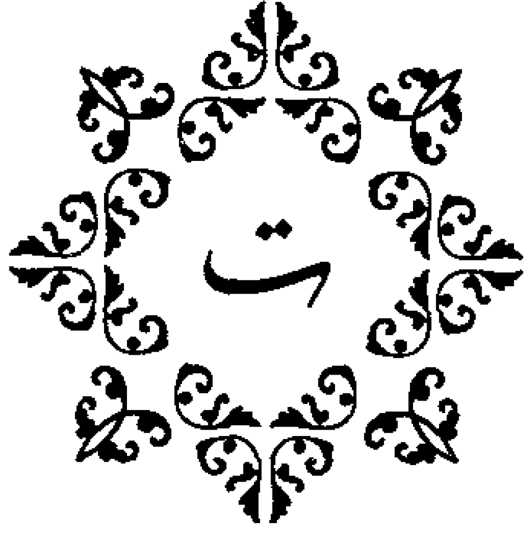
ولد الطّيب بن محمود بن مصطفى بيرم حوالي سنة 1881 بمدينة تونس. حفظ القرآن الكريم ثمّ انخرط في سلك طلبة الزيتونة وتدرّج في الرّتب العلمية إلى أن أصبح مدرّسا حنفيا من الطبقة الثانية سنة 1912،ثمّ ارتقى في العام الموالي إلى رتبة مدرّس من الطبقة الأولى، كما تولّى الإمامة والخطابة في جامع باردو وجامع

سيدي يوسف بمدينة تونس. وفي سنة 1923 سُمّي مفتيا حنفيا، ثم قاضيا سنة 1930،ثم أسندت إليه مشيخة الإسلام الحنفي من سنة 1939 إلى سنة 1942. وتوفّي سنة 1943.

مصطفى بيرم

مصطفى بن محمد بيرم الخامس كان حيّا سنة 1321هـ/1902م، وهو من مواليد مدينة تونس. درس بالمدرسة الصادقية بدءا من سنة 1880م ثمّ غادرها بعد قليل متوجّها إلى القاهرة للالتحاق بوالده الذي كان قد هاجر تونس سنة 1879م واستقرّ في آخر الأمر بمصر منذ سنة 1882م. فواصل دراسته بالقاهرة وأقام بها نهائيا بعد وفاة والده سنة 1889م. ثمّ انخرط في سلك القضاء وتدرّج فيه إلى أن ارتقى إلى خطة مدير للمحاكم الشرعية بالقاهرة، كما عيّنته الحكومة المصرية لتمثيلها في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في أوائل سبتمبر 1902م بمدينة همبورغ بألمانيا.

من آثاره العلمية: «تاريخ الأزهر» وهي دراسة قدّمها لمؤتمر المستشرقين وطُبعت بالقاهرة سنة 1321هـ/1903م.



حمّودة تاج
[1853 – 1919م]

ولد سنة 1270هـ/1853م وهو ينحدر من عائلة علميّة زيتونيّة. تخرّج في جامع الزّيتونة حاملا لشهادة التطويع. وكان من بين زملائه في الدراسة الشيخ محمّد بن يوسف، شيخ الإسلام الحنفي.

جاء في «عنوان الأريب»: «كان حمّودة تاج وشيخ الإسلام محمّد ابن يوسف زميلين في الدّراسة، وهما في شبيبتهما كفرسي رهان في العبقريّة وغزارة المعلومات وتوقّد الذّهن».

وبعد ذلك انخرط حمّودة تاج في سلك القضاء حتى ارتقى إلى رتبة رئيس سام، ينير بمعارفه ويقضي باستقامة ونزاهة. وقد اشتهر في عصره بالنّباهة، وهو شقيق القاضي عبد العزيز تاج أوّل رئيس لمحكمة التعقيب في صيغتها الأولى.

وكان هذا القاضي يحذق الشّعر ويقوله في المناسبات، أورد صاحب «عنوان الأريب» كثيرا من شعره في كتابه المعروف.

ولمّا تأسّست الخلدونيّة سنة 1896 كلّفه مؤسّسها البشير صفر بتدريس التاريخ والإنشاء، فاضطلع بهذه المهمّة على أحسن وجه، وتخرّجت على يديه طبقات متعدّدة من العلماء، منهم الشيخ محمّد البشير النّيفر مفتي تونس وقاضيها المتوفّى سنة 1394هـ/1974م.

وتوفّي القاضي حمّودة تاج في صفر سنة 1338هـ/ أكتوبر سنة 1919م.

تبرسق

تقع تبرسق على الطريق الرئيسة الرابطة منذ القديم بين تونس والكاف على بعد 100 كلم عن العاصمة، وعلى سفح جبل الرحمة نسبة إلى ولي صالح يعلوه. وتبرسق اليوم هي وريثة (Thubursicumbure) حسب ما تشهد به آثارها القديمة ونقائشها المتناثرة في المعالم القديمة والحديثة.

والملاحظ أنّ الرحالة الذين زاروا تبرسق لم يعثروا على ما يشفي الغليل من الآثار المساعدة على كتابة تاريخ المدينة منذ القديم، لأنه لم يعد يظهر منها غير بقايا جدران القلعة البيزنطية المخمّسة وأجزاء من أسوار المدينة العتيقة، وقد لاصقتها المنازل الجديدة من الداخل والخارج حتى إنّه لا يمكن تتبّع تلك الأسوار، فيما بقي منها، إلاّ بالمشي على السطوح المجاورة.

وقد وصف قوكلير (P.Gauckler) القلعة البيزنطية فقال إنّها تأسّست في نهاية ق 6 م. في عهد جوستين الثاني (Justin II) ويبلغ ارتفاع جدرانها 7 أمتار، وقد نقل النقيشة المؤرخة لها قيران (Guérin) و(Cagnat) و(Saladin) ثم (Ch.Tissot). ولم يعثر أيّ من هؤلاء الرحالة على معالم عتيقة أخرى سوى القلعة المذكورة التي احتضنت بابين عظيمين من أبواب تبرسق الرومانية أدْمجَا في أسوار القلعة مع بقايا أثرية رومانيّة وبعَض التيجان العتيقة الموظفة في مبنى الجامع الكبير ومساجد المدينة. وقد أشار إلى بعضها الدكتور كارتون (Dr.Carton) مثلما ذكر قيران من قبل المقطع الحجري في عدّة نقاط من جبل سيدي

رحمة حيث اقتلعت الأحجار لبناء تبرسق الرومانية.

وإذا كنّا لا نعرف كثيرا عن الحياة الاقصادية في تبرسق القديمة، فإنّ موقعها الطبيعي في أرض خصبة ذات عيون وأنهار جارية اعتمادها أساسا على الفلاحة وتربية الماشية، كما هو شأنها اليوم. وفي تبرسق عثر الملازم رافار (Ravard)، سنة 1896م، على قبر بوني به تحف جنائزية، منها أربع قطع نقدية؛ كما عثر في سنة 1904م على كنز، به حوالي ألف قطعة نقدية برنزية. وكشف فضلا عن ذلك في قبر محارب روماني على عدّة قطع جنائزيّة من فخار وبرنز يحمل بعضها صور الإله مركور (Mercure) وحصان بحري. وهناك مقبرة رومانية خلف معصرة كسّار (Cassar)، بالإضافة إلى التّابوتين المكتشفين قرب المدينة.

وتدلّ دراسة هذه الآثار المقبريّة على تداخل العناصر الحضارية الثلاثة المكوّنة لثقافة تبرسق، وهي العنصر اللوبي، والعنصر البوني، والعنصر الروماني، كما تدلّ على أنّ تبرسق القديمة لم تكن مجرّد قرية فلاحية بل كان لها نظام بلدي ومؤسسات دينية ومَدَنيّة من معابد وملعب وحمامات. وتدلّ النقائش على ارتفاعها إلى رتبة بلدية بين سنتي 209 و219م. ثمّ أصبحت مستعمرة رومانية سنة 261م، كما تدلّ المشاهد القبرية على وجود معبد للإله ساتورن (Saturne) وعلى عبادة قديمة للإلاهة تانيت (Tanit). ومعروف أنّ بعض نصب تبرسق نقلت إلى متحف باردو، وعرضت بعض القطع الأثرية اليوم في فضاء الجانب المرئي من أسوار المدينة وقلعتها البيزنطية.

وإضافة إلى هذا عثر في تبرسق على مجموعة مهمّة من شواهد القبور، عندما حفرت أُسس دار الشعب سنة 1965م، في الكنيسة المهجورة التي كان شيّدها الآباء البيض في عهد الاستعمار الفرنسي بأعلى ربوة طاحونة الريح. وقد اعتنى الباحث حسين فنطر بدراستها وتصنيفها ما بين مشاهد مكتوبة باللاتينيّة وأخرى مكتوبة بالبونية الجديدة. وقد نقلت إلى المعهد الوطني للتراث. ويبدو أن الموقع الذي وجدت فيه هذه الشّواهد إنما كان يستمدّ قداسته منذ العصور القديمة لاحتضانه معبدا للإله بعل، وكانت تقدّم إليه القرابين البشرية أو ما يعوّضها على سنّة إبراهيم. وقد ذكرت في بعض الشواهد عبارة من العهد القديم، كما تدلّ تلك المشاهد بكتابتها وصورها على بداية رومنة المدينة، تشهد بذلك الأسماء الرومانية التي عوّضت أسماء الأعلام البربرية أو الفينيقيّة.

لم تذكر تبرسق بهذا الاسم في الحقبة الأولى من عصر الإسلام الكلاسيكي، وذلك لابتعادها عن الطّرق الكبرى الموصلة إلى مدينة القيروان. ونظرا إلى وقوعها على طول المسلك الرّابط بين تونس والأربس، حظيت باهتمام متزايد. فذُكرت في أثناء أحداث سنة 795هـ/1392م الحاصلة بين تبرسق وبونة. واستقرّت بها جالية مغربية في العصر الموحّدي. وتعزّز حضورها في العهد الحفصي، بأن أضحت مركزا مهمّا، عيّن على رأسه عامل وقاض.

ولم يقتصر تعميرها على الحصن البيزنطي الذي يمسح 1.76 هكتاراً. إنّما امتدّت من جهة الشّمال، في العصر الموحّدي والحفصي، ونشأت قرية ملاصقة للحصن.

عبد الله التجاني

[ق 7 ـ 8هـ/13 ـ 14م]

عبد اللّه بن محمّد بن أحمد بن محمد ابن أبي القاسم، ولد بتونس بين 670هـ/675هـ 1272/1276م.

اشتهر برحلته في ربوع تونس وطرابلس، وهي تعدّ وثيقة جغرافية وتاريخية وأدبية مهمّة، وقد أتمّ تأليفها سنة 717هـ/1317م، واعتمدها فيما

بعد السرّاج في «الحلل» ومقديش في «النزهة». ولمّا حصل التجاني على مكانة علميّة مرموقة انخرط في سلك الكتّاب في ديوان الإنشاء ثمّ جعله شيخ الموحدين الأمير أبو يحيى زكرياء بن اللّحياني من خواص كتّابه. وكان محلّ ثقة من مخدومه وسمّاه رئيسا لديوان رسائله وهي خطّة العلامة الكبرى. ولمّا غادر مخدومه البلاد واضطرب الوضع السياسي غاب آل التّجاني عن السّاحة. ولا عبرة لمن ادّعى وفاته في سنة 721هـ/1321م.

من أشهر مؤلفاته

- رحلة التّجاني (طبعة تونس، 1958، بتقديم حسن حسني عبد الوهاب).

محمّد التجاني

[توفي حوالي 1407م]

والد عبد اللّه التجاني صاحب الرّحلة المشهورة. تعلّم بتونس وظهرت عليه البراعة في الترسل. تحوّل في سنة 684هـ/1285م إلى مدينة بجاية بطلب من أميرها ليتولى الكتابة السلطانية للواثق باللّه أبي زكريا يحيى بن أبي إسحاق صاحب المملكة الحفصيّة الغربيّة ثمّ عاد إلى مسقط رأسه وأسندت إليه خطة عالية في ديوان الرسائل.

توفّي في حدود سنة 810هـ/1407م وكان شيخا وقورا محبوبا عند الخاصّة والعامّة معدودا من الأدباء.

جماعة تحت السور

في خضمّ الأحداث التي شهدتها البلاد التونسية منذ أواخر العشرينات ومطلع الثلاثينات من القرن العشرين، برز جيل جديد من الأدباء والمفكّرين أثروا تأثيرا بالغا في الفكر والأدب.

ومن هؤلاء: أبو القاسم الشابي والطاهر صفر وزين العابدين السنوسي والهادي العبيدي والطاهر الحدّاد ومحمد الصالح المهيدي...

إنّ أحداث هذا العصر ماثلة في آثار هؤلاء الروّاد الذين نَجَحُوا في تصوير الواقع التونسي تصويرا صادقا، فكان بعضهم يدعو إلى تعليم المرأة ويلحّ على منحها حقوقها، وبعضهم الآخر يدافع عن الشخصية التونسية العربية الإسلامية المهدّدة بالذوبان، وهناك من آزر الزّعيم النقابي محمد علي الحامّي مؤسّس «جامعة عموم العملة التونسية» في محنته، ومنهم من شهّر بسياسة التجنيس، مثل الطاهر الحدّاد الذي خاطب الشعب قائلا (طويل):

أفق أيها الشعب المهان، فقد أتوا
إليك بتجنيس لعلّك تخدع
وأيّد لهم بالحسّ أنك ماجد
وإن كنت في بؤس فجنسك أرفع

إنّ مواكبة الأدباء لهذه الأحداث لفتت الأنظار ووحّدت مسؤولية النخبة ودورها في تصعيد المقاومة، كما عالجت مواضيع جديدة أملتها الظروف السياسية آنذاك، كالدفاع عن الهويّة العربية الإسلامية خاصّة.

المجالس الأدبية في المقاهي

شهدت مدينة تونس منذ الثلاثينات من القرن العشرين ظهور عدد من المجالس الأدبية في بعض المقاهي بالأحياء الشعبيّة، مثل مجلس الشيخ محمد العربي الكبادي، بمقهى البانكة العريانة بحيّ باب المنارة وكانت تحضرُه نخبة من الأدباء أمثال البشير الفورتي والهادي العبيدي ومحمّد المرزوقي، ومقهى تحت السور بباب سويقة الذي كان أشهر. المقاهي في هذا المجال، وقد عرف أيضا باسم «مقهى سيدانه» أو «مقهي خالي علي»، وهو يقع في الزاوية المحصورة بين بداية نهج حمام الرميمي وبداية نهج علي البلهوان الحالي. فقد اكتسب هذا المقهى شهرة واسعة فيما بين سنتي 1929 و1943، لأنّه كانت تؤمّه مجموعة

من الأدباء والصحفيين والرسّامين والفنّانين من أبرزهم: علي الدّوعاجي وعبد الرزّاق كرباكة والهادي العبيدي ومصطفى خريّف ومحمد العريبي ومحمود بيرم التونسي وعبد العزيز العروي وعلي الجندوبي ومحمد بن فضيلة. وكان بالنسبة إليهم بمنزلة النادي الأدبي، فيه تجري المطارحات والمناقشات والأسمار الأدبيّة.

وأشار عزّ الدين المدني في مقدّمة كتابه «تحت السور» إلى روّاد هذا المقهى بقوله:

«لم يكن في وسع هؤلاء الروّاد، أيّام شبابهم، أن يواصلوا تعلّمهم في المدرسة الصادقية لقلّة ذات اليد، فانكبّوا يثقّفون أنفسهم بصورة عصاميّة، بالمطالعة، بالتأمّل، بالاحتكاك الاجتماعي المستمرّ، بالتتلمذ لأدباء سبقوهم في الميدان، بالدخول في صلب الحركة الوطنيّة التحريريّة، والذود عنها على أعمدة الصحف أو على أركاح المسارح...

إلاّ أنّ آفاقهم كانت مسدودة أو يرونها مسدودة مغلقة، وكان وضعهم بائسا، خاسرا، منحدرا، ومطامحهم معطّلة، معرقلة، مشلولة. كانوا يتمعّشون ولا يعيشون، يتسكّعون ولا يصيرون، يحوّرون ولا يهدفون.

كانت السياسة الاستعماريّة تعمل عملها فيهم، بقطع آمالهم وتقويض رجائهم، بتفريقهم وعزلهم، وبثّ البوليس والخائن والمُخبِر في صفوفهم، واصطناع بعضهم وإرشاء بعضهم الآخر...».

ويصف علي الدوعاجي «تحت السور» في «الأسبوع» (الأعداد 25 و26 و28 جوان1946) فيقول:

«كان خادم المقهى يرشّ أرض الشارع بالماء وهو يغنّي أغنية «ياوابور رايح على فين»، على لحن «يا للّي لهبت نيراني»، ولا أدري كيف وفّقه الله لذلك.

وكان يرتدي بلوزة أطول ممّا يجب، وينتعل حذاء من جلد لامع ممّا يلبس في حفلات الأغنياء، وخلفه وأمام مشرب المقهى وقف وكيل المقهى يراقب عمل الخادم ويستمع إلى غنائه، ولا يمكن أن تفهم من تقلّص أعصاب فمه أن امتعاضه كان من نشاز أنغام الخادم أو من شيء آخر لا يعلمه إلاّ هو».

ذلك هو الواقع الذي عاش فيه أدباء «تحت السور» وهو واقع مليء بالمتناقضات، حتى إنهم نعتوا أنفسهم بالهامشيّين (البوهيميّين) وكان الكثير منهم يتعاطون المخدرات ويحبون جلسات اللّهو والخمر، ووصفهم مصطفى خريّف «بجماعة منسجمة تشابهت في الفلس وحبّ الفنّ والشيخات». ونعتهم آخرون «بجماعة البطالة والتسكّع»، وهم البوهيميّون الذين لا ترجى منهم فائدة. ولم يكتف علي الدوعاجي الذي يُعتبر من ألمع وجوه هذه المجموعة، بهذه الأوصاف، بل عرّفنا بفضل معايشته لهم بأمزجتهم، وكان يكنّيهم بـ«العيون»، إذ أغلبهم تبتدئ أسماؤهم أو ألقابهم بحرف العين.

فنّانو «تحت السور»

كانت مجموعة «تحت السور» على صلة بنخبة من الموسيقيين والمطربين والمطربات أمثال الهادي الجويني والصادق ثريّا وصالح الخميسي وحسيبة رشدي وفتحيّة خيري. وكانت لهم علاقات بعدد من رجال المسرح والتمثيل، منهم صالح الزواوي ومحمد عبد العزيز العقربي وأحمد بوليمان وشافية رشدي. وكان على صلة بهم أيضا من الرسّامين علي بن سالم وحاتم المكّي وعمر الغرايري الكاريكاتوري.

مثلت «جماعة تحت السور» من أدباء وصحفيين وفنّانين ورسّامين، أسرة أدبية تشابهت في المشاعر والأحاسيس، وكانت لأكثرهم ميول إلى الحياة الهامشية. وبالرغم من ذلك فقد كانت لجميعهم مواقف تقدّمية رائدة من القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية التي شغلت بال الرأي العام التونسي طيلة الثلاثينات والأربعينات.

المعهد الوطني للتراث

منذ انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، ومن وجهة نظر استعماريّة، تركّزت مصلحة لحماية التّراث مستندة إلى أوامر، أقدمها صدر في 7 مارس 1882وتضمّن تراتيب لحماية الوثائق التاريخية وبعث المتحف العلوي في جناح من قصر الباي بباردو وتراتيب أخرى تتعلّق بالحفريات. ومن تلك الأوامر المختصّة بصيانة التّراث أمر صادر في 17 سبتمبر 1953 يتعلق بحماية المواقع.

ومنذ الاستقلال صدر أمر رئاسي بتاريخ 30 مارس 1957 يقضي ببعث المعهد القومي للآثار والفنون في نطاق تونسة المصالح الاستعماريّة المعنيّة بهذا الأمر قبل ذلك التاريخ وتونسة أسلوب التّعامل مع التراث التونسي، وضمن مشروع سياسي ثقافي يستند إلى مبادئ وطنيّة ذات أبعاد عالميّة تؤمن بالإنسان التونسي وبحقه في صيانة تراثه والاعتزاز به والإسهام به في التنمية دون الاقتصار على الفترة الرومانية التي لم تهتم السلطة الفرنسية إلا بها، بل بالرجوع إلى أقدم الحقب التاريخية وما قبل التاريخية وكذلك إلى العهود الإسلامية فيما بعد، واعتمادا على منهجيّة علمية موضوعية.

تأسّس إذن المعهد القومي للأثار والفنون على هيئة مؤسّسة علمية تابعة لوزارة الثقافة عندما كانت كتابة دولة. ونُظّم بأمر عدد 140 بتاريخ 2 أفريل 1966.

ويشتمل المعهد على مصالح عدّة مختلفة تعنى بالحفريات والتنقيب وترميم المعالم والمدن التاريخية وحماية المواقع وتهيئة المتاحف الوطنيّة والجهوية والمحلية.

ومواكبة لإقبال التونسيين على التخصّص في التاريخ والآثار، ونظرا إلى تعدد متطلبات التراث الوطني التونسي، كان لا بدّ من أن يستقطب معهد الآثار باحثين شبانا متحمّسين بلغ عددهم أكثر من مائة يعملون في مختلف ميادين الآثار والتاريخ والفنون والتقاليد الشعبيّة. أما عدد الفنيين والعملة والموظفين فقد فاق الألف.

وبمقتضى الأمر عدد 1609 بتاريخ 26 جويلية 1993 رُوجعت هيكلة المعهد الوطني للتراث ليصبح متركبا من: مجلس المعهد، الإدارة العامة، الكتابة العامة، إدارة البرمجة والتعاون والنشر والتكوين، دائرة المسح العام والبحوث، دائرة صيانة المعالم والمواقع، دائرة التنمية المتحفية، مركز علوم وتقنيات التراث، المركز الوطني لصيانة وترميم المخطوطات، المركز الوطني لفنون الخط، التفقديات الجهوية للتراث.

لقد أنجز معهد الآثار الكثير من الأعمال المهمّة، آخرها بعث مجلّة التّراث بتاريخ 24 فيفري 1994. وشملت تدخّلاته جميع المواقع من حيث الحفريات وأشغال الترميم والصيانة. وسجّل عدّة معالم ومواقع أثريّة. وأسهمت معه في ذلك، وخاصة من ناحية التمويل، وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية منذ إحداثها سنة 1988. وتعاونا معا على إصدار عدّة نشريات ومؤلّفات وأدلّة تاريخيّة، إلى جانب الاحتفال بشهر التراث، من 18 أفريل إلى 18 ماي من كل سنة.

وتنزّلت بعض تدخلات المعهد في إطار التعاون الدّولي لصيانة مواقع ومعالم مسجلة في قائمة التراث الإنساني العالمي. ونكتفي بالاشارة إلى جامع عقبة بالقيروان وموقع قرطاج اللذين اعتنت بهما اعتناء خاصّا منظمتا اليونسكو والألكسو. فمنذ نداء قرطاج بتاريخ 19 مارس 1992 ما انفكت الأشغال تكشف عن أسرار مدينة ماغون Magon وحنبعل إلى أن امتلأ متحفها بأندر اللقّى وأروع التحف. ولم يمنع الاعتناء بهذين الموقعين الاهتمام بعدّة معالم ومواقع أخرى في مختلف أنحاء البلاد. فقد أحدثت متاحف متنوّعة شملت الفنون والتقاليد الشعبية وتاريخ الحركة الوطنية.

وحظي التراث الشفوي بعناية فائقة فخصص له المعهد مصلحة حدّدت مهمّتها في تدوين

الذاكرة الجماعيّة. وتتالت الجهود، في هذا الميدان فكان من ثمارها إحداث منتزهات قرطاج ودقة وسبيطلة وأوذنة ومتحف شمتو، فضلا عن تأسيس معهد الحضارة الإسلامية برقّادة.

وإلى جانب الأعمال الميدانية الماثلة في مختلف عمليات الرفع والتصوير والتحليل والترميم، يسهم المعهد الوطني للتراث في إغناء البحث العلمي بتونس في نطاق تخصصات باحثيه. ويواصل إصدار دورياته العلمية المتخصصة مثل مجلة أفريكا ومجلّة الفنون والتقاليد الشّعبية ومجلّة الدّراسات البونيّة والآثار اللّوبيّة وكذلك النشريات المقترنة بمناسبات تراثية كبرى.

التربات في تونس

من الجدير بالذكر أن التربات العائلية لم تظهر في تونس بالمفهوم المتداول اليوم إلا عند حلول الأتراك العثمانيين وانقراض الدولة الحفصية بخلع السلطان مولاي محمد الحفصي ونفيه إلى إيطاليا.

وقد جلب العثمانيون معهم جملة من التقاليد أهمها إدخال المذهب الحنفي في البلاد التونسيّة بعد أن كان المذهب السائد هو المذهب المالكي. ومن جملة ما جلبوه أيضا عادة إنشاء تربات عائلية تشيّد داخل الحاضرة حذو المساكن والمدارس والجوامع بعد أن كان أهل البلاد لا يعرفون للدفن مكانا غير المقابر العموميّة.

والغالب على الظن أن هؤلاء الأتراك قد شعروا بكونهم غرباء عن هذه المدينة فأرادوا تجذير بيوتاتهم بها فكانت التربة صيغة من صيغ هذا التجذير. ويعتبر يوسف داي (1610 ـ 1637م) أول من سنّ ذلك في تونس. فبمناسبة إحداثه لجامعه المعروف بسوق البشامقية والمنسوب إليه (جامع سيدي يوسف) أسس تربة خاصة به.

واقتفى أثر يوسف داي الكثيرون سواء منهم أبناء الجالية التركية كآل بالخوجة وآل لاز وآل الجزيري أو من أبناء البلاد الأصليين كآل محسن. ويعتبر حمودة باشا المرادي (1631ـ666م) من أشهر من اعتنى بالتربة العائلية اذ أردف جامعه الحافل الكائن حذو زاوية الولي أحمد بن عروس بتربة بديعة بها قبره إلى جانب قبور آل بيته باستثناء الأمير رمضان باي الذي لا قبر له. وعلى هذا المنوال في إنشاء التربات الخاصة سار الملوك الحسينيون. فكانت لهم عناية خاصّة بهذه الظاهرة الحضاريّة.

* تربة حسين باي بن علي

لقد اعتلى حسين باي عرش البلاد في جويلية سنة 1705 وهو يعتبر من أبناء البلاد اذ بها مسقط رأسه ومنها والدته. وبعد أن وطّد الأمن وأقرّ النظام التفت إلى البناء والتشييد فأنشأ بمدينة تونس تربته الأولى المعروفة بتربة سيدي الفلاري والكائنة بنهج تربة الباي وذلك سنة 1711. ولهذه التربة ثلاث واجهات مطلة على الشارع بكل منها رخامة نقشت عليها نصوص شعرية تؤرخ للمعلم.

وبعد ذلك بزمن طويل أنشأ حسين باي تربته الثانية بمناسبة بناء جامعه المعروف بالجامع الجديد الكائن بنهج الصباغين بالحاضرة سنة 1726. وهي تعرف بتربة سيدي قاسم السبابطي وهو ولي دفن بها إلى جانب ولي آخر يدعى سيدي قاسم الباجي.

على أن إرادة الله كانت غير إرادة حسين باي اذ أن نهايته الأليمة على يد حفيده للأخ يونس باي بن علي باشا في يوم 13 ماي 1740 وهي حز رأسه عن جسده قرب القيروان لم تسمح بأن يدفن كليا بإحدى هاتين التربتين. وهكذا بالرغم من إحداثه لتربتين فإن جثمان حسين باي بن علي قد دفن حيث قتل قرب مدينة رقادة وقبره هناك غير معروف ولم يستطع أحد أن يدلنا عليه، مع أن الشيخ محمد الصغير بن يوسف

الباجي صاحب كتاب "المشرع الملكي في سلطنة أولاد حسين بن علي تركي" يدّعي أن يونس باي أمر بنقل جثة عم أبيه على عربة وصلت إلى باردو فأذن علي باشا بغسله وتكفينه والجمع بينه وبين الرأس في القبر غير أن هذا الخبر لم يتحقق لدينا لأن صاحب "المشرع الملكي" هو الوحيد الذي ذكره.

أما تربة سيدي قاسم السبابطي التي دفن بها رأس هذا الباي فهي عبارة عن غرفة مربعة الشكل تعلوها قبة عالية ولها نافذة تفتح على الشارع ويوجد بها إلى جانب قبر الوليين سيدي قاسم السبابطي وسيدي قاسم الباجي قبر حسين باي وقبر ابنه الأكبر الأمير محمد الرشيد باي وقبر أخيه محمد بن علي ابن علي باشا.

*** تربة علي باشا**

لمّا استقرّ علي باشا في الإمارة سنة 1735 شرع في إنشاء عدّة مبان مهمّة منها على سبيل الذكر لا الحصر المدرسة الباشية ومدرسة بئر الحجار وبرج جبل الجلاّز وغيرها. وقد فكر هذا الأمير في آخرته كما فكر في دنياه فأنشأ تربته الملاصقة للمدرسة الباشيّة والكائنة اليوم بنهج الكتبية عدد 29. وهي تربة أنيقة جدا تشتمل على مدخل وفناء ذي أروقة دائريّة أعمدتها رخامية رقيقة على غاية من البهاء تذكرنا بجمال الأعمدة في قصور حمراء غرناطة. وقد كسيت الجدران بالخزف التونسي المتعددة ألوانه. أما الغرفة الجنائزيّة فهي عبارة عن قاعة مربعة الشكل كسيت جدرانها بالرخام المنزل على الطريقة الإيطالية تعلوها قبة بديعة تعد من أجمل قباب تونس وقد كسيت كليا ببديع النقائش ذات الأشكال الهندسية والنباتية من مزهريات تتفرّع عنها غصون وزهور إلى ما لا نهاية.

وقد دفن إلى جانب الباشا علي آل بيته، منهم أبناؤه سليمان ومحمد وأحفاده النعمان وإسماعيل ومصطفى وحسن. وللأسف الشديد تلاشت قبور جميع هؤلاء المذكورين عندما تحولت هذه التربة إلى مسكن خاص.

وفي الثمانينات تولتها أيدي العناية فأصلحت ورُمِّمَ ما درس منها وهي اليوم مقرّ لجمعيّة قدماء معهد نهج الباشا.

*** علي باي الثاني ينشئ تربة الباي**

بعد مقتل علي باشا الأول عاد العرش إلى أبناء حسين بن علي وأولهم الأمير محمد الرشيد، غير أن هذا الملك لم يعمر طويلا اذ توفي لثلاث سنوات فقط من ملكه أي سنة 1759 ودفن إلى جوار رأس أبيه بتربة سيدي قاسم السبابطي المذكورة أعلاه.

ولما آلت نوبة الملك إلى شقيقه علي باشا الثاني الذي امتدّت مدته من 1759 إلى 1782 أنشأ في جملة ما أنشأ تربة جديدة خاصة بآل بيته وهي التي تقع في نهج تربة الباي وهو من أهم الأنهج بمدينة تونس العتيقة بالقرب من تربة سيدي الفلاري التي أنشأها أبوه كما أسلفنا.

*** وصف تربة الباي**



تربة الباي بتونس العاصمة

إن شكل تربة الباي الخارجي يلفت النظر من حيث إنّ واجهتها كسيت بحجارة رملية صفراء، فاقعة اللون، محاطة بأطر من حجارة الكذال ذات نقوش هندسيّة ونباتيّة بارزة تعلوها قباب متعددة الأشكال والألوان. وهذا الشكل يميّز المعلم عن سائر المباني بمدينة تونس إذ العادة هي طلاء الجدران بطبقة كثيفة من الكلس (الجير) الناصع البياض. وقد زادت النوافذ الكبيرة المطلة على الشارع في غرابة

هذا المعلم إذ أن العادة كانت تقتضي أن لا تفتح مثل تلك النوافذ إلا في الطابق العلوي من البناء، كما يبرز تفرد هذه البناية باستقلاليتها التامة عن بقية المباني على غير العادة المألوفة في التصاق المباني بعضها ببعض وفي هذا دليل على الأهمية المعمارية التي يكتسيها هذا المعلم.

ـ المدخل: أما الباب الرئيس فذو مصراعين أحيط بإطار من الكذال ذي قوس متجاوز. وتوجد بالمصراع الأيمن منه خوخة تستعمل عادة في الدخول إلى المعلم وهي منخفضة إلى درجة تجعل كل داخل يضطر إلى الانحناء. فإذا ما ولجت تلك الغرفة وجدت نفسك في ردهة مظلمة أو تكاد إذ أن النور لا يتسرب إليها إلا من الباب الخارجي. ويوجد على يمين الداخل باب صغير ذو مصراعين وإطار من الكذال مستقيم يفضي إلى غرفة صغيرة كانت مجلسا للمقرئ المعين لتلاوة آيات الذكر الحكيم حسب ما ينص عليه الحبس.

أما بقية الدريبة فهي خالية من كل عناصر الزينة فيما عدا لوحتين من الخزف الإيطالي الصنع صورت به عصافير وسط أطر دائريّة على الشكل المدعو في عرف أهل التخصّص "الصحن" (Patio).

ويقوم قبالة الداخل باب كبير محلى بإطار من الرخام الأبيض والأسود مما يعرف بالخادم والعلجية وهو باب كبير ذو مصراعين كسي بطبقة سميكة من النحاس الأصفر. والملاحظ أن واجهة هذا المدخل الثاني يعدّ من الناحية المعماريّة أهمّ بكثير من واجهة المدخل الأوّل الخارجي. ويفترض محمد العزيز بن عاشور أن هذا الباب الداخلي كان في الأصل الباب الأول الرسمي للتربة ثم أضيف الباب الثاني ودريبته المظلمة في فترة لاحقة. ويمكن أن نمرّ عبر الباب النحاسي الموصوف إلى سقيفة أقلّ اتساعا من المذكورة أعلاه، حيث نلاحظ وجود ثلاثة أبواب اثنان على اليمين وواحد على الشمال، وهو باب مستطيل ذو مصراع واحد من النوع الذي يعرف "بباب بالقميجة" يفضي إلى فناء جميل مربع ذي أروقة دائريّة قد فرشت أرضيته بالرخام الأبيض تفتح به غرف من جوانبه الثلاثة في تناظر بديع. أما الجانب الرابع فقد حفرت به طاقة حائطيّة، ويعتبر هذا الجزء أقدم أجزاء تربة الباي.

ويلاحظ الداخل أيضا إلى هذا الفناء (وسط الدار) وجود عدة قبور رخاميّة نقرأ على مشاهدها ألقابا مثل "كاهية" و"بيرم" و"المملوك"...

ـ الغرف: تتميز غرف تربة الباي باختلاف أشكالها فمنها المربع ومنها المستطيل ومنها المبني على شكل منحن، كما تتعدّد أنواع القباب التي تعلوها من المقبب إلى البيضوي، وكذلك شأن أساليب الزينة فإنها تتغيّر من غرفة إلى أخرى وهذا ناتج عن تعاقب التيارات الحضارية على البلاد وتأثر أهل تونس بها.

ومن المعلوم أن الدفن بتربة الباي كان يخضع لتراتيب معينة اذ نجد غرفة خاصة بالملوك من هذه العائلة وغرفة خاصة بالأميرات وأخرى بالمرموقين من الأمراء وبعض أعيان الوزراء. أما مماليك العائلة ذوو الحظوة فعادة ما نجدهم مدفونين بأحد فنائي التربة.

ـ غرفة الباشاوات: تتميز هذه الغرفة بشكلها الخاص الذي يشبه بيت الصلاة بجامع محمد باي المرادي بالعاصمة أو بجامع السلطان أحمد (الجامع الأزرق) بإستانبول. وهي أشبه ما يكون بشكل الجامع العتيق بمدينة الكاف المدعو بالبازليك وهو اليوم مقرّ المتحف التاريخيّ.

في هذه الغرفة أربع دعائم كبيرة ترفع خمس قباب أوسطها أكبرها وقد كسيت جملتها بالجصّ المخرّم (النقش حديدة) البديع الصنع في أشكال مزهريات تتفرع منها أغصان وأزهار إلى ما لانهاية. أما الجدران والدعائم فقد كسيت بالرخام المنزل هو كذلك بأشكال المزهريات متعددة ألوانه على النمط الإيطالي.

واختصّت هذه الغرفة بدفن الأمراء الحسينيين الذين تربعوا على عرش البلاد التونسيّة لا يشاركهم في هذا الامتياز غير الشريف سيدي حسن المتوفى سنة 1777 معتقد آل البيت الحسيني وضريحه هو الواقع قبالة الداخل إلى الغرفة قرب النافذة المطلة على نهج سيدي الصوردو. ويختلف شكل قبر هذا الشريف عن القبور المحيطة به، اذ هو عبارة عن تابوت خشبي مرتفع كتب عليه:

"بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد. هذا قبر الولي لله السيد الشريف حسن توفي في شهر ذي الحجة سنة 1191هـ / 1777م" . وبهذه الغرفة أيضا قبور كل من الأمراء المأمون باي المتوفى سنة 1785 وإسماعيل باي المتوفى سنة 1815 والسعيد باي المتوفى سنة 1858. وقبور هؤلاء لا تختلف في شيء عن قبور الباشاوات التي هي عبارة على توابيت رخامية مختلفة أحجامها وطرق زخرفتها باختلاف الفترة التاريخيّة، إذ نجد على بعضها نقوشا هندسية وعلى الأخرى نقوشا نباتيّة. وقد لاحظنا على قبر المولى علي باشا باي الثالث نقشا مماثلا لنيشان الدم الحسيني في شكله، كما يمكن أن نلاحظ اختلافا في شواهد القبور اذ أن النصوص الجنائزيّة تختلف من شعرية كتلك الموجودة على قبر الأمير إسماعيل باي، أو نثريّة بسيطة كتلك المنقوشة على قبر الباشا محمد الحبيب باي وقد جاء فيها: "الحمد لله وحده. هذا ضريح المرحوم سيدي محمد الحبيب باشا باي، توفي يوم الاثنين من شهر رمضان المعظم سنة 1347هـ" (1929م)، مع العلم أن آخر نص شعري نقش على مشهد قبر ملكي هو الذي يعلو قبر الملك علي باشا باي الثالث المتوفى سنة 1902. والعادة الجاري بها العمل في كتابة هذه النصوص هي أن تحفر حروفها بخط جميل في الرخام ثم يسكب بتلك الفجوات الرصاص السائل فتصير الحروف بارزة للعيان سهلة القراءة. لكن يلاحظ أن الإهمال والرطوبة قد أتيا على الكثير من هذه النصوص فتآكلت.

وممّا يلاحظ أنّ شواهد القبور يختلف بعضها عن بعض اذ أن جزءا من القبور ترتفع فوقه صورة العمامة والجزء الآخر يحمل صورة الطربوش أو بالأحرى الشاشيّة التونسيّة المعروفة سابقا باسم الكاليوش، وسبب هذا الاختلاف هو تاريخ وفاة الراقد في ذلك الرمس. فمن المعلوم أنّ السلطان العثماني محمود خان الثاني قد ارتدى سنة 1830 الزيّ الأوروبي المدعو بالرودنقوت وأمر حكام الأقاليم المتميّزة والتابعة له بالولاء بتقليده. وكان الجالس على العرش الحسيني عهدئذ حسين باي الثاني فلبس الثوب الجديد عن مضض. وقد رأى السلطان محمود في جملة هذا التغير أن يتخلّى عن العمامة وأن يغطي رأسه بالشاشية التونسيّة الحمراء الجميلة.

وكان قبر حسين باي الثاني بن محمود باي، المتوفى سنة 1835، أول القبور التي حملت هذه العلامة.

وقد جرت العادة أن تغطى قبور الملوك بكساء من قماش المخمل المعروف عندنا بالموبر تطرز بأسلاك الفضة وقد أبلاها الدهر ولم يبق منها سوى واحد أو اثنين من باب الشاهد التاريخي، كما كان يوجد عند رأس كل قبر سنجق حريري مطرز بخيوط الفضّة شد إلى صار طويل وكتبت عليه بعض الأبيات من بردة الإمام البوصيري.

بقي أن نشير إلى وجود ثلاثة قبور صغيرة في غرفة الباشاوات لعل وجودها من باب التماس الرحمة من لدن الواحد القهار إذ أن الصغار "عصافير جنّة" . ولم أستطع معرفة نسبهم لعدم وجود كتابة على شواهد قبورهم، والأقرب إلى الظنّ أو واحدا منهم على الأقل حمودة باشا الحسيني المتوفى سنة 1800.

وأمّا أرضية الغرفة فقد فرشت بزليج ملوّن متعددة أنواعه في غير نظام. ولعل عدم تبليط الأرضية ناتج عن كونها تحفر عند الحاجة لإيجاد مكان قبر جديد فلم تلق عناية خاصة.

ـ الغرفة الثانية: تقع على يمين الداخل إلى الفناء وهي مربعة الشكل تعلوها قبة كبيرة حليت ببديع النقش حديدة على حين كسيت جدرانها بالخزف الملون الغالب عليه البياض المستوحى من النمط الإيطالي والاسباني. والقاعة مخصّصة لدفن النساء من أميرات البيت الحسيني اذ أن العادة اقتضت أن لكل واحد من الجنسين مكانا خاصا للدفن. والقبور المنتشرة في هذه الغرفة رخامية ترتفع عن الأرض بنحو سبعين سنتمترا على شكل توابيت زخرف بعضها بأشكال نباتية. ويبدو أن السبب في عدم وضع نص على بعض تلك القبور هو ما كانت تقتضيه التقاليد التونسيّة القديمة من حجب اسم المرأة لاعتباره عورة. والمشهور أن والدة المشير الأول أحمد باشا باي دفنت بهذه الغرفة.

ـ الغرفة الثالثة: تقع قبالة غرفة الباشاوات وهي خاصّة بالحريم الملكي. وهي غرفة متسعة بل هي في الحقيقة غرفتان تعلو كل واحدة منهما قبة خاصة منقوشة. أما الجدران فقد كسيت بالخزف الملون وتوجد بها عدّة قطع تعرف عندنا "بالمحراب" أما القبور فهي على شكل القبور الموجودة في الغرف السابقة.

ـ الجزء المضاف إلى تربة الباي: يعتبر كل ما ذكرناه إلى حد الآن الجزء الأول الأصلي من التربة أما الأجزاء المتبقية التي سيأتي وصفها فإنها ناتجة عن إضافات أدخلت على التربة على مدى السنين التي تلت بناء المعلم.

يمكن المرور إلى هذا القسم المضاف عبر باب صغير يفضي إلى غرفة على شكل حرف لام "ل" بها عدّة قبور نسائيّة. تعلوها قبة بسيطة طليت بالجير الأبيض نمر منها إلى قاعة أخرى أكثر اتّساعا ذات قبة بيضويّة الشكل كسيت جدرانها بالخزف الملون وبها عدّة قبور نسائيّة. ومما يلفت النظر في هذه الغرفة وجود حاجز خشبي مشبك (برمقلي) تعلوه صورة الخبشات الحسينية وهي الطغراء علامة الملك. وداخل هذا الحاجز يوجد عدد من القبور النسائيّة وقبر رجالي واحد يحمل مشهده صورة الشاشية نقشت عليها هي أيضا الطغراء. وهو ما يدل على أن صاحب ذلك القبر هو أحد الملوك.

فإذا ما خرجنا من الباب المقابل لذلك الذي دخلنا منه الغرفة وجدنا أنفسنا في الفناء الثاني.

ـ الفناء الثاني: فرشت أرضيته بالرخام الأبيض الناصع وكسيت جدرانه بالجليز وتتوسطه شجرة ليمون وفي أحد أركانه قبران رخاميان وتفتح به غرفتان عدا تلك التي خرجنا منها. فأما المقابلة منهما فمربعة الشكل تعلوها قبة كبيرة مكسوة الجدران بالجليز وهي خاصة بالنساء وتستعمل أيضا مستودعا للنعوش. وأما الغرفة الأخرى فهي مستطيلة غير متساوية الأضلاع بها قبور رجالية وهي خاصة بدفن المرموقين من أمراء البيت الحسيني والقبور بها لا تختلف عن تلك التي شاهدناها في غرفة الباشاوات.

*** أشهر الأعيان المدفونين بالتربة**

إلى جانب قبور الملوك الحسينيين والأمراء والأميرات المدفونين في تربة الباي توجد قبور جمع من الأعيان وخاصة منهم الوزراء الذين هم في الأصل مماليك مثل حسين كاهية المتوفى سنة 1277هـ/1860م والكائن قبره وسط الفناء الرئيس أو مصطفى خزنه دار المتوفى يوم 24 جويلية 1878 والمدفون حسب إرادته بالفناء الفرعي تحت شجرة الليمون ومصطفى صاحب الطابع أول رئيس للمجلس الكبير والمتوفى سنة 1861 وغيرهم.

والسبب في دفن هؤلاء الوزراء بتربة الباي هو كونهم غرباء عن البلاد ليست لهم عائلات بها، فدفنوا مع مخدوميهم خاصة أن أغلبهم متصاهرون مع العائلة المالكة. وفي حالات استثنائيّة قد يدفن الوزير في غير هذه التربة مثل ما حصل للوزير الأكبر محمد خزندار الذي دفن في تربة أصهاره السادة الأشراف بمقبرة الجلاّز، أو الوزير الأكبر خير الدين الذي دفن بتربة آل عثمان بحاضرة الخلافة إثر توليه الصدارة العظمى ونقل جثمانه إلى تونس إثر الاستقلال، أو الوزير

يوسف صاحب الطابع الذي دفن بتربته التي أنشأها بسقيفة جامعه بالحلفاوين.

والجدير بالذكر، أن أول تونسي مولدا ونشأة دفن بهذه التربة هو الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتور المتوفى يوم 14 فيفري 1907، وذلك بإرادة من محمد الناصر باشا باي.

ومنذ ذلك التاريخ جرت العادة أن يدفن الوزير الأكبر في تربة الباي جوار الأمراء الحسينيين. وقد تمّ دفن أربعة وزراء بها إلى حدود تاريخ إلغاء النظام الملكي (1957)، وهم على التوالي، محمد العزيز بوعتور السالف الذكر ومحمد الجلولي المتوفى يوم 1 جوان 1908 ويوسف جعيط المتوفى في أكتوبر 1915 ومصطفى دنقزلي المتوفى سنة 1926. وقد دفن جميع هؤلاء في غرفةٍ خاصة مع الأعيان البارزين من أمراء البيت المالك مثل محمود العادل باي وإسماعيل باي وعز الدين باي والطاهر باي والبشير باي أولياء عهد المملكة وغيرهم.

*** من شهيرات النساء المدفونات في تربة الباي**

دفنت بتربة الباي عدّة أميرات حليلات الأمراء ذوات الصيت من أشهرهن على سبيل الذكر لا الحصر:

- الأميرة آمنة: وتدعى منانة وهي الملقبة بأمّ الأمراء وهذه السيدة جليلة القدر حفلت الكتب بمناقبها فأبوها علي باشا باي الثاني وجدها حسين باي بن علي مؤسس البيت وحموها عمها محمد الرشيد باشا باي وزوجها ابن عمها محمود باشا باي وأخواها حمودة باشا وعثمان باشا وابناها حسين باشا الثاني ومصطفى باشا وكلهم ممن تولى العرش.

- الأميرة فاطمة عثمانة: هذه الأميرة من أحفاد عثمان داي أول من استقل بملك تونس والمحسنة الكبيرة الأميرة عزيزة عثمانة وقد تزوجها حسين باشا باي الثاني إثر وفاة زوجها الأول محمد القابجي لكمالها ورجاحة عقلها وقد كانت له نعم المعين أيام ملكه إلى أن توفيت يوم 23 مارس 1827.

- الأميرة كلثوم: هي كلثوم ابنة مصطفى باشا باي وشقيقة المشير الأول أحمد باشا باي الذي زوجها من رفيق صباه ووزيره مصطفى خزنه دار. وقد كان لها دور فعال في حياة زوجها السياسيّة وكانت الحامية الوحيدة له عند نكبته سنة 1873 فوقفت إلى جانبه متحدّية بذلك المشير الصادق باي ووزيره الأكبر صهرها السابق الجنرال خير الدين.

*** التقاليد الجنائزيّة في البيت الحسيني**

لقد استقرّ الأمر في البيت الحسيني منذ فترة طويلة من الزمن على أن تكون التقاليد الجنائزيّة على النحو التالي:

إذا ما توفي الملك فإنه لا يمكن صدور الاذن بدفنه الا إثر مبايعة ولي العهد بالملك. ذلك أن تقاليد العائلة الحسينيّة تقتضي أن لا يدفن الملك إلاّ ملك مثله. فإذا ما تمت البيعة يأذن الملك الجديد بنقل الجثمان إلى القصر السعيد بضاحية باردو حيث يتم تجهيزه ثم يلتحق به الملك والأمراء والأعيان بلباسهم الرسمي على أتم هيئة فيأذن الملك بسير الموكب الجنائزي ويوضع الجثمان على نعش مخصوص وتوضع عليه الكسبات والنياشين والشاشيّة المثبتة فيها الخبشات التي تعد شعار الملك. وقد كان المماليك في العهد القديم يسيرون أمام النعش رافعين صكوك عتقهم وذلك تقربا إلى الله زلفى. هذا بطبيعة الحال قبل إبطال الرق في تونس على يد المشير الأول أحمد باشا باي سنة 1846.

يمتطي الملك الجديد وحاشيته وآل بيته عرباتهم وينتقلون رأسا إلى القصبة ويكون وصولهم بطبيعة الحال قبل وصول الموكب الجنائزي. وقد جرت العادة أن يترجل الملك أمام زاوية سيدي عبد الله الشريف الكائنة خارج القصبة (قرب كلية العلوم الانسانيّة والاجتماعية اليوم) ثم ينتقل الموكب الملكي إلى بطحاء القصبة حيث يعد مجلس بتربة لاز ينال به الملك نصيبا من الراحة فإذا وصلت الجنازة يتقدم أعضاء المجلس الشرعي فيصلّون صلاة

الجنازة على الميت وسط بطحاء القصبة برئاسة شيخ الإسلام الحنفي، ثمّ يأمر الملك بسير الركب وعند مستوى دار الباي يقف الملك وآله لتقبل تعازي رجال المجلس الشرعي ووجوه الناس ويقفل راجعا من حيث أتى، على حين يرفع الجثمان إلى مثواه الأخير بتربة الباي حيث يُدفن بالمكان المخصص له بعد أن يكون لواء العسّة قد انتزع النياشين والأوسمة والمحزمة الذهبية والسيف والكسبات، فمنها ما يسلم إلى الملك الجديد ومنها ما يسلم إلى ورثة الهالك.

هذه هي القاعدة العامة، أما استثناؤها فقد جاء على يد الملك محمد الهادي باشا باي فإنه لما توفي والده علي باشا باي الثالث سنة 1902 وبويع بالملك استنكف من أن يمضي ويفارق أباه في بطحاء القصبة فواصل السير مع الموكب الجنائزي حتى تربة الباي وأشرف على مراسم الدفن بنفسه.

* **من العادات المتعلقة بتربة الباي**

لقد ارتبطت جملة من العادات بتربة الباي منها أن البايات أمراء البيت الحسيني كانوا يتشاءمون من فتح التربة الملكية إذ المعتقد أن هذه التربة إذا ما فتحت فإنما تفتح لثلاث مرات على التوالي وبسبب هذا التطير كانت رفات صغار الأمراء الحسينيين توارى بالمقابر العامة وخاصة منها مقبرة سيدي عبد العزيز بالمرسى.

وكانت العادة أيضا أن لا يزور الملوك الحسينيون ذويهم المدفونين بالتربة في غير يوم عاشوراء من كل سنة.

ومنها أيضا توظيف مقرئ يتلو القرآن الكريم طيلة أيام السنة دون انقطاع وانتداب نقيبة تسهر على إسراج التربة وتنظيفها. وقد حُبّست أوقاف كثيرة من الزياتين وغيرها لتلك الأغراض بلغت قيمة ريعها سنة 1938 نحو خمسين ألف فرنك، وقد كان نظر تلك الأحباس موكلا بجمعية الأوقاف.

وقد شمل الإهمال هذا المعلم المهمّ إلى أن تدهورت حالته وكاد يزول من الوجود إلى أن طالته العناية بالترميم والإصلاح وفتح في وجه الزائرين منذ سنة 1996 بوصفه معلما تاريخيّا.

بقي أن نشير إلى أن عدد القبور بالتربة هو مائة وسبعة وستّون بالعدّ الصحيح إلا أنه يصعب تحديد عدد الموتى المدفونين بها نظرا إلى احتواء بعض القبور على أكثر من رفات شخص واحد.

زبير التركي
[1924–2009م]

زبير التركي رسّام تونسي، ارتبط اسمه بمدرسة تونس لفنّ الرّسم. وُلد سنة 1924 بمدينة تونس. وتُوفّي بضاحية رادس سنة 2009. بعد دراسته بجامع الزيتونة وتردّده على مدرسة الفنون الجميلة حصل على المرتبة الأولى في مناظرة الدّخول إلى مدرسة ترشيح المعلّمين. درّس العربيّة في المدارس الفرنسيّة إلى حدّ سنة 1952. ثمّ توجّه إلى ستوكهولم ليَدْرُسَ بأكاديميّة الفنون الجميلة. شارك في عدّة معارض وقتذاك بستوكهولم وكولونيا وبراغ وميلان، حيث حصل على جائزة هذه المدينة لفنّ الرّسم. وعند عودته إلى تونس بُعيد الاستقلال، خرج بفنّ الرّسم إلى الفضاءات العامّة والمؤسّسات العموميّة في بعض الرّسوم الجداريّة التي أنجزها بوساطة خامات مختلفة مثل الدّهن والحديد المطرّق اعتمادا على تجربته في فنّ الرّسم الخطّي. صمّم عدّة ملصقات لأيّام قرطاج السينمائيّة، كما اشتغل بتصميم الديكور المسرحي وملابس الشخوص في مسرحيّة مراد الثالث للأستاذ الحبيب بولعراس والمخرج علي بن عياد وبعض المسرحيّات التي كتبها عزالدين المدني...كما مارس زبير التركي فنّ النّحت في بعض الأعمال القليلة لعلّ أبرزها تمثال ابن خلدون بتونس. وأسهم في تأسيس الاتحاد الوطني للفنون التشكيليّة سنة 1968. وكان أوّل رئيس له، كما يعود إليه الفضل في بعث مركز الفنون الحيّة

بالبلفيدير. وكان قد ترأس أيضا الاتحاد المغاربي للفنون التشكيليّة وشغل خطّة عضو بمجلس النوّاب ومستشار لعدّة وزراء الثقافة بتونس.

وكان الفنّان زبير التركي قد أسندت إليه الكثير من الجوائز والتقديرات.

وللرسّامَين عمّار فرحات والهادي التركي (شقيقه الأكبر) الفضل في توجيهه وتأطير تجربته في الرسم الخطّي في فترة شبابه. وكان ذلك ممهّدا لدخوله مدرسة تونس لفنّ الرّسم بعد تأسيسها بعدّة بسنوات. فقد تأسست جماعة مدرسة تونس سنة 1948 على يد الرسّام الفرنسي المولود بتونس بيار بوشارل. وقامت على مقولة أسبقيّة فنّ الرسم الخطي على التعبير اللوني. وهو منهج قديم في تاريخ الفنّ عُرف منذ الإغريق وتواصل حتى عصر النهضة وبعدها. ومن أعضاء هذه المدرسة من الفنّانين المُتوفين نذكر عبد العزيز القرجي وصفيّة فرحات وعلي بالآغة وإدغار نقاش وموزس ليفي وإبراهيم الضحاك ونالّو ليفي... فضلا عن كون الموضوعات التي تطرّقت إليها هذه الجماعة كانت تستمدّ أساسا من الذاكرة التراثيّة والاجتماعيّة والمعماريّة التونسيّة. فقد رسموا مشاهد من التقاليد الشعبيّة بالمدينة، معتمدين على ما اكتسبوه من تقنيات الرسم الحديث وأساليبه على أيدي الأساتذة الفرنسيّين والإيطاليين والرّوس. ولعلّ من أهمّ مزايا هذه الجماعة أنّها روّجت ثقافة اللوحة الفنيّة بتونس.

ولقد نهل زبير التركي من معين التراث الإسلامي بالقيروان وفاس وإصبهان. وكانت الألوان التي اعتمدها في لوحاته المائيّة صريحة وحادّة مثل الأصفر الأمغري والأحمر القرمزي والأخضر، المغرقة في الإضاءة. وهي مستمدّة من ألوان الحرير والمخمل والشاشية بالأسواق التونسية في عمق المدينة. ويؤكّد المناخ التعبيري الذي وسم أعمال زبير التركي – وهو المُغرق في الانفعاليّة والعمق الوجداني – قدرة الرسّام على استنطاق تعبيرية الضوء القادم من الذاكرة التونسيّة بروائح لونيّة مفعمة بالحنين. بل إن للأستاذ محمود المسعدي رأيا آخر عندما قال: إن لوحات زبير التركي بالرسم الخطي على الورق الأبيض من القوّة التعبيريّة بحيث تُغني عن اللجوء إلى الألوان، لما تُوفّره هذه الخطوط من صفاء وصدق وقوّة تعبيريّة.

ومن لوحات زبير التركي «صيف في المدينة»، «منظر من سيدي بوسعيد»، «امرأة البخور»، «صانع الشاشية»، «العرس»... وفي مثل هذه الأعمال نرى الرسّام وكأنّه يرسم نفسه ويرسم أهله وذويه وأفراد عشيرته، لتخليد نُبل الإنسان والمدينة وتاريخها الاجتماعي. وقد قال لنا زبير التّركي ذات مرّة عند زيارته بمشروع متحفه الخاص برادس «كلّ هؤلاء الشخوص المرسومة هم شخصيّات حقيقيّة إنّهم أقربائي وشيوخ الحومة..إنّني أرسم نفسي وإيّاهم».

إنّ من أبرز ما يثير الانتباه في لوحات زبير التركي بالألوان المائيّة(غواش على الورق)، على نحو ما بدا في معرضه الاستعادي سنة 2000 بقصر خير الدين ومتحف مدينة تونس، هو ما يحتمله أسلوب التلوين من ميل خفيّ إلى غنائيّة التعبير التشكيلي وتحرير الفعل الفنّي من عقلانيّة الخطوط (الجانب الغرافيكي في الرسم) نحو انفعاليّة اللمسات اللونيّة وشاعريّتها الحالمة. وتأتي هذه التعبيرة اللونيّة لتخليد عنصر الحياة في شخوص زبير التركي، إذا ما قاربنا المسألة وفق ما قاله أحد منظّري الحداثة التشكيليّة ونُقّادها (وهو دنيس ديدرو) من أن الرّسم هو ما يمنح الشّكل للكائنات، بينما يمنحها اللّون الحياة.

فالتّسريع في نسق الأداء الفنّي للألوان على اللوحة، بقدر ما يؤكّد جرأة الرسّام في صياغة زخرف الملابس، تشكيليّا، كما في لوحة «رجل بيده مروحة» بعيدا عن التّنميق والافتعال، فإنّه يؤكّد خبرة العين الفنيّة لدى الرسّام، إذ عند تحويل العناصر الخطيّة (الغرافيكيّة) إلى

لمسات مرتجلة بوساطة العجينة اللونيّة، يبدو الرسّام غير مبالٍ بالتفاصيل الدّقيقة للشخصيّة المرسومة، سواءً ما تعلّق منها بالبنية التشريحيّة للجسد أو بالملابس التقليديّة ومتمّماتها وزخرفها (البرنس والجبّة والفرملة والتطريزات والحواشي الجانبيّة)...المستمدّة من ثقافة اللباس التونسي. ولكنّه في الواقع يُقاوم في خامة العجينة اللونيّة (سريعة الجفاف) عنادَها ويطوّعها تشكيليّا حتّى تُفصحَ هذه اللمسات الخشنة عمّا سكتت عنه الخطوط الدّقيقة أو عمّا تخلّت عنه. والنتيجة هي أنّ الزخارف والغرافيزمات الملازمة للباس، تصبح مراكز مشعّة لتدخّلات الفرشاة وتنقذ الفضاء الفنّي من الرتابة البصريّة، كما تُزوّده بمؤثّرات حركيّة. ويبدو ذلك على سبيل المثال في لوحة «الباي يغادر قاعة الصّلاة» حيث تزدحم العلامات الملكيّة والأميريّة والأوسمة والشعارات والنّياشين التي تُزوّق الزيّ الأميري أو الباياتي. إنّ ضربات الفرشاة ههنا لا تعوّض بنية الرّسم ورشاقة الخطوط وهيبة الشخوص المدينيّة المرسومة، بل تتحرّك داخلها، بحريّة واثقة من سلوكها على اللوحة.

فنحن بإزاء تجربة تقوم على قوّة الرسم الخطّي من البداية إلى النهاية كما هو الشّأن لدى غالبيّة أفراد جماعة مدرسة تونس. أما تدخّلات الألوان بوساطة فرشاة جريئة كهاته، فهي دعمٌ لتعبيريّة الخطوط مهما تهيم بالفنّان نحو آفاق تشكيليّة رحبة تلامس التجريد. وفعلا يبد والمشهد في لوحة «العرس» تشخيصيّا (عروس تتجمّل بين مرافقتيها) ولكنّ الناظر إلى هذه اللّويحة، عندما يرصد سلوك الفرشاة (وهي تستعرض فتنتها التشكيليّة وغوايتها اللونيّة في ملابس النسوة) يلاحظ إلى أيّ مدى يؤكّد الرسّام نزوعه إلى التجريد. وهو الذي جعل من القفطان حجّة فنية لتكشف الفرشاة فنّياتها الخبيئة من خلال لعب حركيّ، تغازل من خلاله التفاصيل اللونيّة وطيّات القماش ومؤثّرات الإضاءة والظّلال... لعب شديد التوازن.

إن سياق اللمسة، قد يبد وثانويا وجانبيّا أمام البعد الحكائي للموضوع. ولكنّه، في حقيقة الأمر، يخفي مضمونا تشكيليّا حريّا بأن يكون في مركز اهتمام النظر، إذ اللمسات اللونيّة التي تصوّر أنسجة الملابس، كما في لوحة االعرس« ، ترتقي إلى أن تكون لوحة تجريديّة موازية ذات نسيج تشكيلي لونيّ وغرافيكي ثريّ بالحركة ويقوم على مراوحة ذكيّة ما بين الشّفيف والكَمد، الدّاكن والمضيء...

منَ ثمّة فكلّ أعمال زبير التركي بالألوان المائيّة تُفصح عن وجود لوحة تجريديّة موازية داخل اللوحة التشخيصيّة. إنّه ذلك السّياق التشكيلي الخفيّ الذي تحتمله اللوحة وكأنّه يلتمس شرعيّة حضوره الجمالي من سلطة الموضوع التمثيلي والمشهدي للوحة. وعلى هذا النّحو، يتدرّج الفنّان بالعلامة الفنيّة من السّياق المرجعي والتذكاري إلى السياق التشكيلي الخالص الذي ينزع نحو استقلاليّته. فقد تقدّم لنا اللوحة (قصّة عروس تتجمّل أو منظر شيخ يطالع جريدة أو امرأة بيدها مروحة)... وقد يبدو كلّ شيء في مثل هذه السينوغرافيا بديهيّا وعاديّا. ولكنّ اللوحة، في الجانب الآخر من النظر، تقصّ علينا مسار تكوّنها التشكيلي ما بين خطوط ولمسات !فبداهة الموضوع لا تحجب قوّة الإثارة التي تمارسها على النّاظر هذه الفرشاة الزّلوقة والذكيّة عندما تتّخذ من أبسط العناصر المكوّنة للمشهد (تفاصيل اللباس، الأرضيّة التصويريّة، الخلفيّة المشهديّة...) مراكز قوى بصريّة ينزع من خلالها الرسّام إلى لعبة تشكيليّة أخرى تقوم على دعم السياق التشكيلي في سلوك الفرشاة في أعمق تجلّياتها الغنائيّة.

ومن ثمّة يتمكّن الفنّان من خلق الفرصة لفتح آفاق للتجريد من داخل التجسيد. أمّا تراكب الطبقات اللونيّة، فهو تقنية الفنان لمقاومة

جفاف المادّة اللونيّة إذ تظهر لمسات فوق أخرى لتنشيط الملمح الغنائي التجريدي وتدارك سطحيّة الفضاء التصويري على الورق. وقد يعمل زبير التركي على تطعيم مائيّاته بخامة الدهن الزيتي لمضاعفة حركيّة اللمسات. فتبدو الأنسجة اللونيّة مُزيّنة بما يكفي لإنتاج مؤثّرات التّشافّ والإضاءة والتنويعات اللونيّة ما بين السّاخن والبارد، الدّاكن والمضيء، كما في لوحة العرس.

وهكذا فنحن نتعسّف على أثر زبير التركي ونتجنّى على حداثته الفنيّة عندما نكتفي بأن نصنّفه داخل المدوّنات الفنيّة التذكاريّة والسّرديّة والتّصاوير التراثيّة التي تستعرض نمط الحياة في المدينة. فلا نتحدّث عن فنّ الرّجل إلا اعتمادا على الموضوعات التشخيصيّة التي قدّمها، إذ تكمن وراء تشخيصيّة الموضوع طريقة الرؤية التشكيليّة لعناصره المكوّنة. وهي رؤية لا تخصّ سوى زبير التركي دون غيره من رفاقه الذين سبق أن تناولوا الموضوعات نفسها. وفي ضوء هذه الرؤية تتحدّد إحدى الخصوصيّات الأسلوبيّة الأكثر حداثيّة وإبداعيّة لدى هذا الفنّان. ذلك ما ظلّ يستوجب نظرا متقصّيا، رغم سعة ما كتبه المؤرّخون والدّارسون عن الرجل مقارنة بأبناء جيله من الفنّانين.

يحيى التركي
[1902–1969 م]

هو يحيى بن محمد بن الحاج رجب الحجّام، ولد بتركيا – أنقرة سنة 1902. لقّب بالتركيّ نسبة إلى أمّه التي كانت تحمل الجنسيّة التركية. والده أصيل مدينة جربة. عاش بمدينة تونس بعد أن قدم أبوه من تركيا وهو صبّي.

زاول دراسته الابتدائية بالمدرسة الصّادقية ثم بمعهد كارنو، كما كان يتلقّى دروسا في حفظ القرآن بأحد الكتاتيب بالمدينة العتيقة. ثمّ انتقل في المرحلة الثانويّة إلى المعهد العلوي وكان أستاذه في الرسم (Georges Le Mare).

رعاه هذا الأستاذ واكتشف لديه مواهب واعدة في ميدان الفنّ التشكيلي. وكان والده معتنيا بتربية ابنه الوحيد يحيى، فوفرّ له دروسا خاصّة لدى الرسّام (Perika) لصقل موهبته وتشجيعه على التألّق في هوايته.

وأصبح يحيى في السنوات الموالية تلميذا ل (Alexandre Fichet) الذي كان في الوقت نفسه مديرا للصّالون التونسي. فدعاه للعرض فيه سنة. 1923 ومن ثمّ التصق مصير يحيى بالفنون التشكيلية.

رأى Fichet في يحيى عنصرا واعدا. فتوسّط له في الحصول على منحة للإقامة بباريس لمدّة سنتين. فسافر إليها سنة 1926. وبعد انتهاء تلك الفترة ورجوعه إلى تونس أيقن الرسّام أنّ اكتشافه لمدينة النور كان بمنزلة ولادة جديدة. فبقي يعمل على الرجوع إليها إلى أن تحقّق ذلك سنة 1931.

رجع الرسّام إلى باريس. فكان يعرف أهمّ المراكز الفنيّة في ذلك الوقت ومن أهمّها حيّ (Montparnasse). وقد تعرّف إلى أكبر الفنّانين الانطباعيّين وكانت له صداقة خاصّة تربطه بـ(Marquet) أحد كبار الانطباعيين الذين زاروا تونس فيما بعد.

نهل يحيى التركي الكثير من معين المدرسة الانطباعية. وهي مدرسة غيّرت مسار النظرة الفنيّة التي طغت عليها ثقافة عصر النهضة الإيطالية إلى حدّ نهاية القرن التاسع عشر.

فالانطباعيّة ثورة فكريّة وفنيّة، تعتمد الاكتشافات العلمية منطلقا لها: فالاكتشافات الفيزيائية التي أثبتت أنّ الضوء الأبيض مكوّن من كلّ الألوان وأنّ الألوان تنقسم إلى بدائية وثانوية، أدخلت ثورة في استعمال الألوان، كما أنّ تقنيات التصوير الفوتوغرافي الحديثة كشفت عن التركيب الداخلي للصورة. وهو أنّها مكونّة من نقاط متراصّة أو متفرّقة حسب الحالة. أمّا

التوجّه الأهمّ لهذه الحركة الفنيّة فهو التخلّي عن الموضوع، باعتباره غاية في حدّ ذاته. فأصبح يتّخذ تعلّة يفسح بمقتضاها المجال لتعبير الألوان الذي أضحى الهمّ الأكبر لكونه ترجمان الجمال والإحساس.

هذه المدرسة أثّرت في يحيى التركي. فسعى إلى التحرّر من قيود الفنّ الاستشراقي الذي تلقّى تأثيره عبر الفنّ الاستعماري في تونس.

وقد تعرّف يحيى إلى فتاة فرنسيّة تدعى Berthe. فتزوّجها. وقضّى فترة من الاستقرار تمكّن فيها من عرض أعماله بصفة دائمة بالمبنى الذي أسهمت به تونس في المعرض العالمي بباريس.

وعند وفاة والد زوجته رجعت إلى مسقط رأسها للالتحاق بعائلتها. فافترقت الطرق والرؤى. وقرّر يحيى العودة إلى تونس سنة 1935.

وعند رجوعه إلى أرض الوطن التحق بالوسط الفنّي وكان مجلسه بمقهى باريس، تشدّ إليه الرّحال. وكلّ جلسائه يصغون بإعجاب إلى ما يرونه من أحداث مدينة النّور. وفي سنة 1936 أقام معرضا شخصيّا بفضاء جريدة (Le Petit Matin) وهو رواق كانت الجريدة تضعه على ذمة الفنانين، خدمة للفنّ. قدّم يحيى في هذه التظاهرة تجربة جديدة تدور حول اتجاهات المدرسة الانطاعية. فأعطى للضوء وللّون المرتبة الأولى، كما تصرّف في اللون الذاتي للأشياء المرئيّة. فأصبحت الجدران بنفسجية وورديّة اللّون، على حين ضاع الخطّ المحدّد للأشكال، تاركا للفرشاة حرّيّة التعبير العفوي.

وبفضل ذلك اقترب يحيى من معاصريه Moses Levy وJules Lellouche بعد هذا المعرض أعجبت الطبقة المثقّفة، من أطبّاء ومحامين، بعمل يحيى فاقتنوا الكثير من لوحاته.

حصل يحيى بعد أشهر من معرضه على الجائزة الأولى للمعلّقة الدعائيّة في تونس.وفي سنة 1961 فاز بالجائزة الأولى لمدينة تونس.

تزوّج يحيى وأنجب بنتا، كما باشر التدريس بمدرسة ترشيح المعلّمين بتونس. وهكذا عرف الاستقرار بعد أن قضّى حياة غلبت عليها المجازفة وحبّ الترحال.

وقد كان له سنة 1956 شرف رئاسة الجماعة التي عرفت بـ «مدرسة تونس» حين استقلّت البلاد، وذلك باقتراح من مؤسّسها Pierre Boucherle. لقد كان يحيى يحظى بتقدير كلّ معاصريه. وقد لقبّه حاتم المكيّ في إحدى مقالاته بـ «أب الرسّم التونسي».

توفيّ بتونس يوم 1 مارس سنة 1969.



خميّس الترنان
[1894–1964م]

ولد الفنّان خميس الترنان سنة 1894 بمدينة بنزرت بالشمال التونسي، وهو ينتمي إلى أسرة أندلسية الأصل استقرت أولا بالجزائر ثم انتقلت إلى تونس واستقرت ببنزرت حيث كانت تعرف بلقب «الغلاب» ثم «الزاوي» لتعرف فيما بعد بـ«الترنان» وذلك لما عرف به أفرادها من جمال الصوت.

دخل الطفل خميس مثل أبناء جيله الكتّاب لحفظ القرآن الكريم وقد كان المؤدب يختاره لإنشاد «الهمزية» أو «البردة» للشيخ البوصيري في أوائل شهر ربيع الأول بمناسبة المولد النبوي الشريف لما اشتهر به بين زملائه من حسن الصوت ورقة الأداء، وهي عادة جرى عليها أهل تونس منذ القديم ورصدت لها الأوقاف أموالا

توزع ليلة المولد النبوي الشريف على المؤدبين وتلاميذ الكتاتيب القرآنية مقابل قيامهم بترديد الأناشيد.

اعتنى به والده الشيخ علي الترنان وحرص على تلقينه القرآن الكريم وإعادة ذلك الحفظ ثلاث مرات وهي أيضا عادة تونسية قديمة، كما أدخله معه إلى دكان الحياكة حتى سنة 1908 التي وافقت تأسيس مدرسة ابتدائية ببنزرت، فحرص علي الترنان على إدخال ابنه هذه المدرسة وأغراه بأنه سوف يعفى من خدمة الجندية الفرنسية عند إحرازه الشهادة الابتدائية، كما حرص علي الترنان على مشاركة ابنه خميس الذي برز بجمال صوته في الحفلات الصوفيّة التي كانت تقام بضريح الولي الصالح «سيدي المسطاري» (نسبة إلى مسطار إحدى المدن الإسلامية بيوغسلافيا) مثل «المولدية» التي تعتمد إنشاد قصة مولد الرسول الأعظم (صلى اللّه عليه وسلم)، للبرزنجي و«السلامية» نسبة إلى الشيخ عبد السلام بن سليم الفيتوري دفين مدينة زليطن الليبية، المتوفى سنة 981هـ/1753م، كما شارك عمه محمد الترنان شيخ الطريقة «العيساوية» (نسبة إلى الشيخ محمد بن عيسى، دفين مكناس، بالمغرب، المتوفى سنة 933هـ/ 1527م) في غناء أناشيد هذه الطريقة من أنواع المجرد والبراول وحتى قطع المالوف، وبذلك تكونت لخميس الترنان ملكة غنائية ميزته عن شبان الحيّ وجلبت له إكبار أترابه وأسرته وحتى أصدقاء والده فأصبحوا يقترحون عليه جلبه معه عند قيامه «بالهدوة» وهي مصاحبة العريس من مقام سيدي المسطاري إلى بيته بالغناء الجماعي والفردي على أنغام الزرنة وآلات الإيقاع.

وقد تعرّف خميس الترنان إلى فرق الطرب التي كانت تأتي إلى بنزرت من تونس العاصمة وتقيم حفلات تونسية وشرقية، إلى أن تعلقت همته بتعلم آلة «المندلين» ثم آلة العود الشرقي التي برع فيها، ثم أخذ يقلد الموشحات والأدوار



الشرقية عن إسطوانات الشيخ سالم الكبير والشيخ يوسف المنيلاوي والقصائد والمواويل للشيخ سلامة حجازي وعبد الحي حلمي. وفيما بعد، تمكن من إقامة حفلات بأشهر مقاهي بنزرت (فريحة، الحشاني).

استمر الشاب خميس في الاستجابة لهوايته الفنية بإقامة الحفلات إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى فشدّ الرّحال إلى تونس العاصمة سنة 1917 لإجراء القرعة التي تجبره على السفر إلى مرسيليا لأداء الخدمة العسكريّة ضمن الجندية الفرنسية.

ولما تأخرت القرعة،وطال انتظاره بتونس واستنفد كلّ ما أتى به من مال اضطرّ إلى تقديم حفلة بمقهى «زماره» قرب نهج سيدي البشير بحي باب الجزيرة فكانت المفاجأة إذ نجح الحفل ووصلت شهرة الشاب خميس إلى القصر الملكي، فدعي لتقديم حفل ببيت الضابط محمد العيد صهر الملك محمد الناصر باي الذي تدخل لإعفاء الترنان من الخدمة العسكريّة. وفي ذلك التاريخ تعرف إلى الفتاة التي أصبحت فيما بعد شريكة حياته واستقرّ بالعاصمة.

وتأكد الفنان خميس الترنان من أنّ زاده من الفن الشرقي لا يكفي لدخول غمار الاحتراف فاتصل بنادي صديقه عبد الرحمان المهدي وفيه

تعرف إلى أبرز الفنانين بربض باب الجزيرة أمثال الهادي قمام ومحمد بن مصطفى وأحمد بلحسين وحفظ معهم جانبا من المألوف (وهو التراث التونسي الذي يرجع إلى أصل أندلسي) وتعلم العود التونسي ثم تعرف إلى الشيخ أحمد الطويلي القيرواني الذي حفظ عنه أوفر نصيب من التراث الموسيقي التونسي. وبذلك أصبح الفنان البارز في البلاد وأصبحت له فرقته الخاصة التي تتركب من أستاذه الشيخ الطويلي بآلة الطار (الدف) والشيخ أحمد بطيخ بآلة الرباب في أثناء النوبة ثمّ آلة الكمنجة بعد ذلك والشيخ محمد الزواوي بالنّقرات كما كان يسهم في أعمال الفرق الأخرى مطربا وعازفا وخاصة منها فرقة المطربة حبيبة مسيكة، التي كانت تتركب من فنانين ليبيين هاجروا إثر الاحتلال الإيطالي ومن المغربي حسن بنان المصري الذي استقرّ بتونس من سنة 1908 إلى أن توفي في الستين من عمره.

وازداد خميس الترنان شهرة وتمكنا من قلوب كلّ التونسيين بفضل الحفلات التي كان يقيمها صباح يومي الأحد والجمعة بمقهى المرابط بسوق الترك بالعاصمة مع فرقته وأصبح يؤمها الفنانون والأدباء من مدرسي الجامعة الزيتونية وأعيان التجار الذين وجدوا فيها المتعة، مع التعلق بالتراث الثقافي التونسي العربي الإسلامي الذي كان مهددا من الحكومة الاستعمارية والكنيسة اللّتين قرّرتا إقامة المؤتمر الإفخارستي والاحتفال بمرور خمسين عاما على قيام الحماية الفرنسية.

وفي تلك الفترة سافر الترنان مرتين إلى برلين حيث سجل عدّة إسطوانات مع شركة بيضافون، كما سافر إلى مدينة قسنطينة بالجزائر مع عازف الكمنجة الشهير خيلو الصغير وأقام عدة حفلات زادت في دعم العلاقات الفنية بين البلدين الشقيقين. وسافر أيضا إلى مدينة نيس بفرنسا وقدم حفلات بالمطعم الذي كان يديره السيد محمد جمال. وفي سنة 1932 سافر إلى القاهرة ضمن الوفد التونسي إلى المؤتمر الأول للموسيقى العربية بإشراف العلاّمة حسن حسني عبد الوهاب وقدم عدّة حفلات، كما أنجز مجموعة مهمّة من التسجيلات مع زملائه فيها نوبة المالوف والموشحات والأغاني الشعبية مع القصائد والاستخبارات المرتجلة.

وحضر خميس الترنان دروس الأستاذ علي الدرويش الموسيقية وتعلم الترقيم الموسيقي. وهذا ما سهل عليه عملية الإنتاج فيما بعد.

وكان في سنة 1934 من أبرز الشخصيات الفنية التي أسهمت في تنفيذ إحدى توصيات المؤتمر الموسيقي المذكور وذلك بتأسيس أوّل جمعية موسيقية تونسية تعنى بجمع التراث الموسيقي مع إحيائه وبثه لدى الأجيال الصاعدة. وقد انتخبت هيئة إدارية برئاسة شيخ المدينة مصطفى صفر وعين فيها خميس الترنان معلما للتراث إلى آخر حياته.

وبمناسبة مرور سنة على تأسيس هذه الجمعية التي سميت «الرشيدية» (نسبة إلى الملك محمد الرشيد باي (1122–1173هـ/1710–1759م) الذي اعتنى بالأدب والفن وجمع ما أتى به اللاجئون الأندلسيون منه ورتبه وأغناه بالإنتاج الجديد المتأثر بالموسيقى التركية) توجهت العناية إلى إنتاج الجديد، وأجريت مباراة في التلحين بين الفنانين المنتمين للجمعية فاز فيها خميس الترنان بالجائزة الأولى بتلحينه أغنية من نظم المرحوم علي الدوعاجي طالعها:

يا لايمي يزيني

من صاب عينك عيني

غنتها مطربة الرشيدية الوحيدة آنذاك شافية رشدي في حفل أقيم بالمسرح البلدي بالعاصمة.

وبفضل هذه البادرة فتح مجال الإنتاج أمام خميس الترنان فلحن أولى أغاني الشيخ أحمد خير الدين (في مقام الماية): "محال كلمة آه تبري العلة"، كما لحن للشيخ بلحسن بن شعبان

أغنية من نوع الفندو (في مقام محير العراق، أي الممتاز)

اللي كواتو نار المحبة وجفاه المحبوب
حالو ظاهر ما يتخبّى من عقلو مسلوب

وللشاعر محمود بورقيبة (في مقام راحة الأرواح):

لو كان تعرف بعدك اللي جرالي
لازم تحن وتسخف على حالي

وللشيخ محمد العربي الكبادي (في مقام الهزام):

أم الحسن غنات فوق الشجرة
سامع صداها من العلايل يبرى

وللشاعر الشعبي الحاج عثمان العربي صاحب جريدة «الزهو» (في مقام المحير سيكاه).

حزت البها والسرّ يا مسميّة
الخد وردي والهدب زنجية

وللأديب محمد المرزوقي (في مقام الصبا):

غزال أن نفر بعد الغضب ما ولى
قلبي عليه حزين ما يتسلى

وللشيخ جلال الدين النقاش (في مقام المزموم).

ياللي بعدك ضيّع فكري
ارجع لي للقلب نضمك

وللشاعر مصطفى خريف (في مقام البياتي شوري)

شرع الحب بيني وبينك
اللي يحكم نرضى بيه
اسمعني وافتح لي عينك
واعرف حقي وافطن ليه

ولحن للهادي العبيدي مجموعة أغان تناول فيها موضوعات غير غرامية مثل:

ما احلاها كلمة في فمي
كي ننادي ونقول يا أمي

(في مقام النهاوند)

شهر الصيام حل
بالبـر والعمـل

(في مقام العجم عشيران). وله عدة أغان أخرى تناول فيها أهم المقامات الموسيقية العربية بأسلوب أصيل جعل كلّ قطعة منها شاهدا من أروع شواهد الفن العربي تفتح لحفاظها مجال الارتجال والتلحين.

وتلحين الشيخ الترنان القصائد كان على نوعين: نوع يتماشى مع مدرسة أبي العلاء محمد الذي كان له الفضل في تكوين المطربة أم كلثوم ومنه قصيد شيخ الأدباء محمد العربي الكبادي (في مقام العجم عشيران)

قف بالمنازل وانشق طيب رياها
اشرح متون صبابتي لليلاها

وقصيد الشيخ جلال الدين النقاش (في مقام راحة الأرواح):

أنوح فتسخر من أدمعي
وتنصف في الحب إلا معي

أما قصيدة الشيخ الطاهر القصار:

عذل العواذل والهوى وفؤادي
قد ضاع صبري بينها ورشادي

فقد طوع فيه أسلوب أبي العلاء للّهجة التونسيّة (في مقام راست الذيل).

وطبق أيضا مقام الراست، طبقا للأسلوب العراقي، على القصيدة التي ألفها الأستاذ صالح فرحات بالفرنسية وعنوانها : زهرة النرجس وترجمها إلى العربية محمد السعيد الخلصي وطالعه:

يا زهرة غضّت وضاع أريجها
فقطفتها قرب المياه صباحا

وأما النوع الآخر من تلحين القصائد فقد توخى فيه أسلوبا عصريا تنوعت فيه الأنغام والإيقاعات وقد طبقه على قصيدة للشاعر مصطفى آغا (في مقام الماهور المقابل للماجور الغربي) مطلعها :

هجر الحبيب وما درى
من بعد هجره ما جرى

وتناول خميس الترنان تلحين الموشحات بأسلوب أضفى عليه الطابع التونسي من حيث المقامات والإيقاعات والتراكيب.

ويرجع الفضل إلى الشيخ الترنان في إصلاح أوزان موشحات كثيرة ضاعت إيقاعاتها فأضحت بفضله مستمرة التداول بالأداء والدراسات.

وتوج خميس الترنان مسيرته الإنتاجية بتلحين أول نوبة تونسية سنة 1957 ألفها الشيخ



خميس الترنان ـ صالح المهدي ـ العربي الكبادي

الطاهر القصار باقتراح من رئيس المعهد الرشيدي الأستاذ مصطفى الكعاك ووصف فيها تونس العاصمة وكان تلحينها في مقام النهاوند. وقد افتتحت بالبيتين الآتيين وسميت نوبة الخضراء :

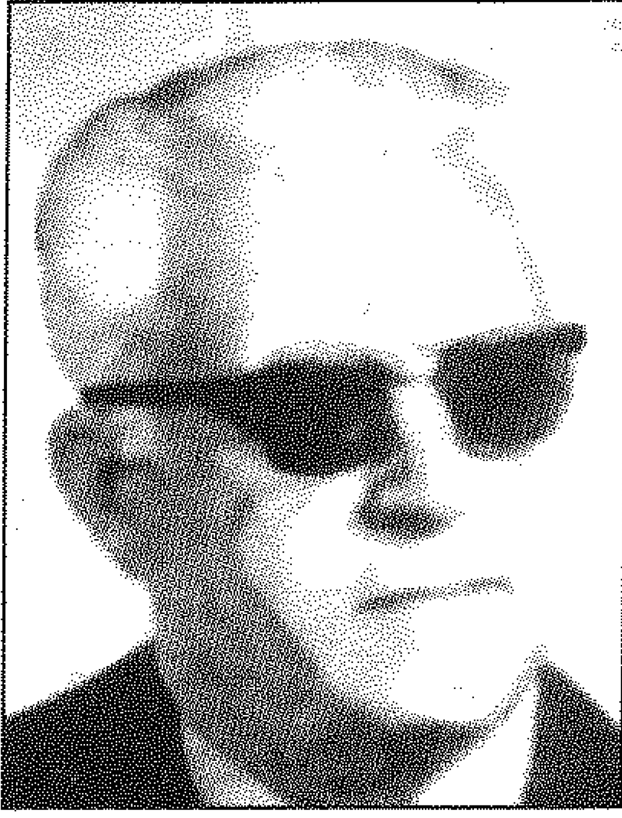
يا من بأندلس يتيه غراما
ويذوب في روض العريف هياما
دع عنك ذكراها فخضراء الربى
تهب الحياة سعادة وسلاما

وهكذا نرى أنّ حياة شيخ الفنانين خميس الترنان كانت زاخرة بالإنجازات: فقد كان له دور المغني الذي جمع في أدائه بين العزف على التُراثيين الشرقي والتونسي والعازف الممتاز الذي برع في استعمال آلات العود الشرقي والعود التونسي على حين أزال البيانو من الفرق التونسية وعوضه بالقانون، وقد أعطى المثل الحسن في فرقته، وكذلك في العزف على الناي وآلات الوزن، كما كان من أبرز الرواة الذين جمعت وزارة الشؤون الثقافية تراثهم. ويرجع إليه الفضل في مراجعة ذلك التراث وإصلاحه.

وله دور المعلم بالمعهد الرشيدي والأستاذ بالإذاعة الوطنية والمعهد الوطني للموسيقى، والملحن الأصيل البارع الذي أضيف إنتاجه إلى سجل التراث التونسي كما كان المثل الأعلى في الأخلاق الحميدة والقدوة للكثير من أفراد الأسرة الفنية.

وقد توفّي يوم السبت 26 جمادى الثانية 1384هـ/ 31 أكتوبر 1964م وأقيمت له جنازة وطنيّة أشرف عليها وزير الشؤون الثقافية. ورثاه الشيخ الطاهر القصار بقصيدة مطلعها :

لبى الدعاء خميس الترنان
ولسوف يكرم نزله الرحمان



محمّد التريكي

[1900–1998م]

يعدّ محمد التريكي إحدى دعائم الموسيقى والغناء في تونس، فهو أستاذ أجيال فنّيّة، وجّهها مؤصّلا وواكبها مطوّرا، لأنّه تمكّن من ثقافة موسيقيّة أهّلته للتّعليم والتلحين والتأطير.

ولد في 25 ديسمبر 1900 برادس، وزاول دراسته بتونس، ولكنّ انتماء أسرته إلى الطّريقة العيساويّة غلّب على مهجته الموسيقى فتعلّم الترقيم الموسيقي وأصول العزف على الكمنجة، وانطلق يغني ثقافته بالتعرّف إلى مشايخ الفنّ والمالوف. فتعرّف إلى أحمد فيروز المصري وتعلّم عليه أدوار السيّد درويش، وصاحب خميّس الترنان فتأثّر بأصالته في أثناء اكتشافه للتراث التونسي. ثمّ تفرّغ للاحتراف الموسيقي عازفا على الكمنجة منذ سنة 1919، فشارك في

عدّة فرق موسيقيّة، ثمّ كوّن مع خميّس الترنان فرقة انضمّت إليها جلّ مطربات العشرينات والثلاثينات من حبيبة مسيكة إلى حسيبة رشدي، وانتقل عدّة مرّات صحبة فرقته إلى ألمانيا لتسجيل إسطوانات في مؤسّسة «بيضافون»، واستقرّ معها فترة في باريس.

وفي سنة 1935 دعاه مصطفى صفر مؤسّس الرشيديّة إلى الانضمام إليها، واتّفق معه على تدوين التّراث الشفوي من المالوف والأغاني، فضبط جلّ النوبات من أفواه الرّواة حسب التّرقيم الموسيقي، منقذا بذلك الجهد ذاكرة تونس الفنّيّة من التّلف، كما قاد فرقة الرشيديّة ودرّس بها الموسيقى والعزف على الكمنجة، فتخرّج على يديه جيل من العازفين. وزوّد خزانة الأغاني التّونسيّة بعدّة ألحان قدّمها إلى مطربات الرشيديّة وغيرهنّ. ولقد لحّن الأغاني والقصائد في مختلف المقامات مع المحافظة على الروح التّونسيّة إلى أن توفّي في سنة 1998.

تستور

أسس اللوبيون قديما في موقع تستور، على وادي مجردة وعلى بعد 77 كلم عن تونس العاصمة، قرية فلاحية سموها تيكيلا (Tichilla) فازدهرت في العهد الفينيقي باعتبارها محطة على طريق قرطاج تبسة، وقد انضم أهلها إلى حنبعل في حروبه ضد الرومان. وبانهزام يوغرطة أصبحت تيكيلا مدينة رومانية فنمت فلاحتها واتسع عمرانها بانتشار القرى والقلاع والضياع والجسور حولها مثل كوريفا (Coreva) وعين طنقة (Tignica). وفي عهد الإمبراطور بروبوس (Probus) أول ق 2م ارتقت إلى مصافّ البلديات قبل أن يُخرّبها الوندال وتستمرّ الحروب بين البيزنطيين والبربر حتى الانتشار الإسلامي فلم تحظ إلاّ بانتعاش نسبي في العهود الأغلبي والفاطمي والصنهاجي. ولم تحيا حقا إلا بفضل الأندلسيين المهاجرين سنة 1609م إثر مغادرتهم لمستقرّهم الوقتي القريب: خروفة.

ولم يبق من الفترة القديمة غير ما ذكره قيران (Guérin) عند زيارته لها سنة 1860م إذ قال: « . . . أما السور الذي كان يحيط بها في زمن مضى فقد اندثر، ولكن من الممكن مع ذلك تتبع آثاره. ويخترق تستور شارع طويل ينتهي ببابين أحدهما بني من جديد واستعملت في بنائه بعض الأحجار الأثرية. وفي عهد الرومان كان هناك جسر يربط ضفّتي مجردة لا تزال آثاره باقية وخاصة قواعد أعمدته». وقد نقل بايسونال (J.A.Peyssonnel) وقيران ما وجدا من نقائش.

موطن أندلسي

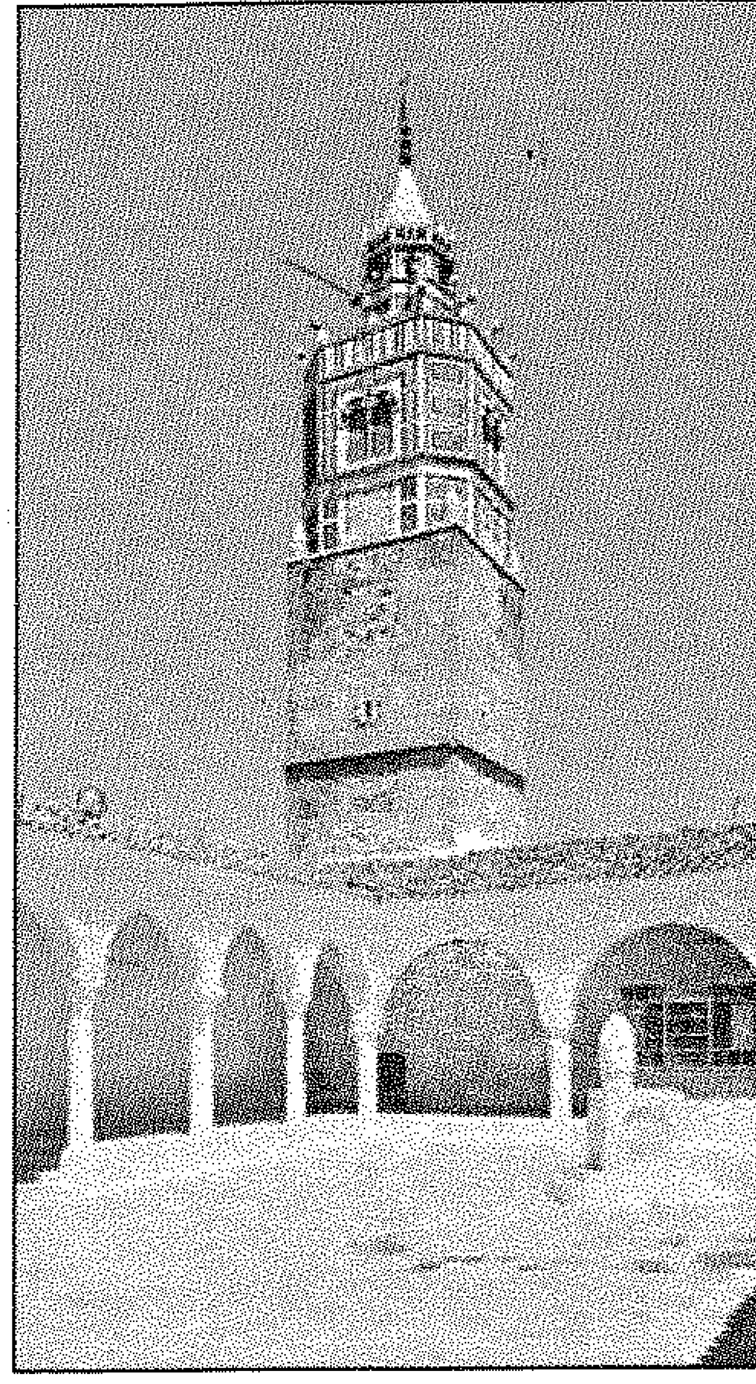
تشير أدلّة كثيرة إلى أن الموريسكيين الذين قدموا إلى تونس وتستور بالخصوص جاؤوا من الأندلس. وهو ما نستنتجه من أدب الرحلات كرحلة توماس داركوس (Thomas d'Arcos) الذي زار تستور عام 1631م وكذلك من الأشكال المعمارية في الجامع الكبير وجامع سيدي عبد اللطيف وتزويق المحراب بالآجر البارز، وكلّ هذه الأشكال تذكّر بطليطلة وسرقوسة وتدلّ على عمق تأثير الأراغونيين في الجامع الذي بني سنة 1630م ولا غرابة فبانيه ـ واسمه محمد تاغارينو ـ ينسب إلى حي التغرين بتستور أي الثغريين سكان الحدود بين الأندلس المسلمة وشمال إسبانيا المسيحي. ومن الثغرّيين من جلب معه قصيدة مخطوطة بالإسبانية نظمها في أراغون سنة 1603م محمد ربضان دي رويده، وضمن مخطوطات الجامع الكبير نسخة من صحيح البخاري كتبها أحد أحفاد الثغريين من بلنسية هو محمد بن محمد بلنسين (Valencia=Valence) الطّغري (Tagarino=Tagarin). ومن أقوى الأدلة الناثر والشاعر الإسباني خوان بيريث (Juan Perez) واسمه العربي إبراهيم التيبلي الذي ولد في طليطلة حوالي سنة 1580م وكان يعيش في تستور عام 1637م.

إنّ أسماء العائلات الأندلسية الموجودة

بتستور أو المندثرة تحيلنا على موطن الأندلسيين الأصلي وما تعرّضوا إليه فيه من محاولة التنصير رغم ثورة البشرات خلال 1569 – 1571م، من ذلك ألقاب أليكانتي (Alicante) وتاغارينو أو الطغري وبلنسين.

لغة المهاجرين

يشير جورج مارسي (Georges Marçais) إلى أن أولئك اللاجئين لم يكونوا يتكلمون غير اللهجات القشتالية والبلنسية والكتالونية، وخير دليل على ذلك قصيدة التيبلي التي تحتوي على 4608 أبيات بالإسبانية مع بعض التعاليق بالعربية في الدفاع عن الإسلام والرد على النصارى. وتواصل استعمال الإسبانية مدة لا تقل عن قرن، يؤكد ذلك قول القس الإسباني فرانسيسكو خيماناث (Francisco Ximenez) الذي أقام بتونس من سنة 1720م إلى سنة 1735م وزار تستور: «إنه قضى مع عدة أشخاص هناك سهرات يتسامرون فيها باللغة الإسبانية ويتجادلون في أشياء اعتاد الحديث عنها في بلاده حتى إنّه شعر وكأنه موجود في قريته باسبانيا...»، ويذكر الأب فيشرا (Vicherat) قصة شيخ يهودي قد كان يغني أغنيات شعبية إسبانية لإطراب الجنود الإسبان ضمن محلة باي تونس المعسكرة قرب تستور سنة 1746م ربما بدافع الحنين إلى أرض الأجداد، على أنه لم يبق من الإسبانية اليوم إلا بعض أسماء الأشياء والأمكنة وعبارة «يسبّ ويقشتل» المشيرة إلى القشتالية.



الجامع القديم بمدينة تستور

إنّ المهاجرين بحكم حملة التنصير (قشتالة سنة 1502م وأراغون سنة 1525م) وتتبّعات محاكم التفتيش فقدوا لغتهم العربية شيئا فشيئا. فقد ذكر المنتصر القفصي في كتابه «نور الأرماش في مناقب سيدي أبي الغيث القشاش» أن مشايخ الأندلسيين عرضوا عليه مكتوبا بالعربية من الشيخ حاميهم لقراءتها عليهم، لهذا أصبح استعمال لهجة الألخميادو متنفسا للثقافة العربية الإسلامية وأداة للدفاع عن العقيدة المحمدية في محيط أندلسي تلاشت فيه العربية وعمت فيه الإسبانية فضلا عن كون قداسة الحرف الحامل للغة القرآن لم يعد له مبرر في المنفى، ولذلك ترك الموريسكيون استعمال الحروف العربية في إنتاجهم الثقافي وكتبوا بالإسبانية صراحة إلى أن أقبلوا من جديد على تعلم العربية لغة ورسما.

تأسيس تستور

لئن ذكرت المراجع التاريخية أن المهاجرين قد أسسوا تستور إبان وصولهم إلى وطنهم الجديد حتى أصبحت من «أعظم بلدانهم وأحضرها» بشهادة المؤرخ ابن أبي دينار بعد أن كانت آثارا مهجورة فإن الرواية الشفوية المتداولة في تستور تشير إلى أن الأندلسيين الذين وفدوا ضمن الجالية الأولى قد استقروا أوّلا بخروفة، لكن وفرة إنتاجهم بحكم خصوبة الأرض وحسن استغلالها جعلت الباي يضاعف المجبى فاستمهلوا رسوله شهرا اقتلعوا فيه مغروساتهم وانتقلوا إلى مكان تستور تاركين تحت قصعة الجامع حمامتين إحداهما منتفة ومعهما ورقة كتب عليها:

«المتنقلة على شبوب أيامها
يلحقها المنى وتعيش
واللي قعدت على رسوم ديارها
لالها بالصحة ولالها بالريش

ولئن كنّا نستبعد أن تكون هذه الرواية قديمة لعلمنا بجهل الأندلسيين الأولين بالعربية فإن المصادر التاريخية تؤيد مضمون الرواية لا لغتها

أو تفاصيلها ولا تذكر خروفة وإنما تشير فقط إلى خلاف نشأ حوالي سنة 1613م بين أندلسيي تونس وشيخهم من جهة وبين الداي والباشا من جهة أخرى وذلك عندما تراجع يوسف داي في الامتيازات التي منحها عثمان داي للأندلسيين تشجيعا لهم على الاستقرار والإنتاج. وعلى كلّ فمغزى هذه الرواية أنّ الأندلسيين فقدوا الثقة في السلطة وفضلوا حريتهم على الثروة.

وإذا كنّا لا نعرف أصل تسمية المكان الجديد بتستور فإن بعض المخطوطات أثبتت الاسم على هذه الصّورة: تاستور، وذلك من منتصف ق 17 إلى أوائل ق 19م، ويرجح أنه تحريف لتسمية إسبانية: تاساتور (Taçator) حسب التيبلي سنة 1628م أو تاساتور (Tassator) حسب داركوس سنة 1631م، وهي أقرب صيغة من معنى: الشهود، في الإسبانية في تفسير س.م. زبيس، ولقد عثرنا على قرية محصنة في الأطلس الأعلى المغربي تسمى: تازنتور.

وفي تستور عمرت الجالية الأندلسية الأولى الحي المعروف اليوم بالرحيبة (تصغير رحبة بمعنى سوق) ثم التحقت بها الجالية الثانية بعد عشرين سنة قادمة من المغرب حيث لم تستطع الاستقرار فعمرت حي التغرين. وكان التطور العمراني حسب تخطيط مسبق إذ أسست الجالية الأولى الجامع الكبير في أعلى الربوة وحوله ديار صغيرة متشابهة منخفضة السطوح، في حين بنت الجالية الثانية وقد تأكدت نية الاستقرار بالجامع الأكبر المشهور ومساجد أخرى تتخلل النسيج العمراني بحي التغرين، فاتسعت المباني وارتفعت متلاصقة حسب أنهج خالية من الأزقة مستقيمة متقاطعة في شكل شطرنجي وفق طابع أندلسي مميز لفن العمارة المدجنة الذي ترفع بمقتضاه السقوف على أعواد السرداوي وتغطى السطوح بالقرميد الأحمر المصنوع في أفران الفخار على وادي مجردة، وتحتوي فضلا عن المرابض الخلفية للدواب المعروفة بالكرّان (تحريف corral) على مخازن علوية للمؤونة ومقاصير للماعون وساحات جوفية ينفذ إليها من سقيفة، وتتوسطها أشجار النارنج وتحيط بها البيوت العربية المبنية بالتربة والجبس والآجر فيما يعرف بالطابية، والمزينة شبابيكها بأفنان الياسمين والفل والعطرشاء التي اعتاد الأندلسيون تقطيرها، على حين تزيّن دور الأثرياء بالجص المنقوش وتكسى جدرانها بالجليز وتفرش بالرخام وقد تتوسط الفناء نافورة.

وبهذا المظهر الطريف ما فتئت تستور تحظى باهتمام الباحثين وتثير إعجاب زوارها، فهذا الرحّالة بايسونال يصور منظرها العام سنة 1724م بقوله: «تستور قرية يسكنها الموريسك الأندلسيون، وهي منفتحة ومشيدة على طراز القرى الأوروبية، لمنازلها شبابيك تطل على زقاقها، وسقوف بيوتها مغطاة بالقرميد كما في منطقة بروفنس»، وهذا شاو (Shaw) يقول سنة 1727م: «تستور مدينة جميلة مزدهرة بإحكام، يسكنها عرب الأندلس». وقد انتبه ح. ح. عبد الوهاب سنة 1917 إلى تزيين الأبواب بالصليب المسماري على عادة الإسبان في تمييز منازلهم عن المسلمين. ولقد أعجب محمد المقداد الورتتاني بالساعة المعكوسة فقال سنة 1932 (رمل):

«عج بتستور وذاك الجامع
رسمت ساعته أعلى المنار
أبدعت فيها يمين الصانع
سيرها يأتي يمينا لليسار»

مجتمع منغلق

حافظ الأندلسيون في تستور وفي مثيلاتها من القرى، باستثناء العاصمة، على نوع من الاستقلال الداخلي إزاء السلطة المركزية وعلى نوع من الاستعلاء تجاه السكان الآخرين، فلقد لاحظ خيمانات سنة 1724م الطابع الإسباني في تنظيم السلطة، فهناك القوبرنادور (Gobernador) أي الحاكم بالإسبانية والقوازيل (Alguazil) أي الوزير، كما لاحظ الورثيلاني وجود شيخ للبلد سنة 1768م.

وتصوّر زاوية سيدي علي العريان المعروفة في تستور والمسجلة في شعر ابنها إبراهيم الرياحي (ت 1850م) علاقة أخرى مع السلطة المركزية. واستطاعت تستور المحافظة على الأسوار التي تحميها من كل غزو خارجي بفضل أوليائها الصالحين الذين يحيطون بها في حزامين، ولا تخفى أهمية الاعتقاد الديني لدى من تركوا أملاكهم وفروا بدينهم.

ثقافة متميزة

وبحكم انطواء تستور على نفسها سياسيا واجتماعيا فقد استطاعت المحافظة على تراث متميز بالتأثير الأندلسي الإسباني، لا في هندستها المعمارية الموفقة بين الوظيفة والجمال فحسب، بل في مختلف مظاهر حياتها.

ومن أبرز ما يتباهى به أندلسيو تستور أنواع من الأطعمة والحلويات يتطلب إعدادها حذقا كبيرا وانفاقا كثيرا لا تقدر عليه إلاّ العائلات الميسورة، كالكيسالس (quisalech) والبناضج (empanadas) والمقرونة (macarona) والعجة (olla) وعين السنيورة (in assignora) (والتّسمية المتداولة في تونس هي عين السبنيورة) والإسفنج، إلى جانب أنواع أخرى مشتركة بين القرى الأندلسية كالطاجين والملبّس وكعك الورقة والمرقة الزعراء بالزعفران.

لقد كان أندلسيو تستور محافظين على تميزهم بارتدائهم الزي الإسباني الذي فرض عليهم في إسبانيا، وتوجد منه صور في مجموعة إيطالية، وكلما تدرجوا في الاندماج ارتدوا لباس أبناء البلاد. ولئن نهضت آثار المصنع على بقايا الجسر الروماني شاهدا على وجود صناعة الشاشية بتستور فإن تعدد صناع الجبة والقشابية والبرنس اليوم ينبئ بتواصل إنتاج هذه الملابس واستعمالها.

على أنّ براعة الأندلسيين تتجلى في المفروشات الثمينة التي تنسجها الفتيات ويطرزنها إعدادا لجهازهن وتعرف بالمرقوم، وكذلك في ألبسة الحرير للمرأة والعروس خاصة، حيث يتفاعل الذوق الأندلسي المغربي والذوق التركي الشرقي في الشكل والزينة. وقد صادف وجود البلاد تحت تأثير رافدين حضاريين في فترة واحدة إذ تزامن مجيء الأندلسيين الأخيرين مع حكم العثمانيّين.

ومن مظاهر هذا التثاقف دخول حرفة النسيج بشعر الماعز إلى تستور خدمة للفلاحة إلى هذا اليوم على الرغم من تراجعه الشديد وكذلك صناعة الفخار التي كاد يقضي عليها انتشار المواد المستوردة، ومثلهما صناعة النجارة وخاصة الناعورة التي عوّضتها المضخات.

على أنّ بعض الأندلسيين ممن فضلوا خدمة الثقافة الإسلامية ونشر المذهب المالكي بين أحفاد المهاجرين احترفوا نسخ المخطوطات العربية بمجرد أن حذقوا اللغة، فدلوا بذلك على وجود فئة من متوسطي الثّقافة في مجتمع تستور الفلاحي أساسا، تلك الفئة التي عاشت في ظروف نفسية وفكرية ساعدت على استرجاع هويتها الأصلية المغمورة. ذلك أن الأندلسيين المهاجرين كانوا لا يعرفون من اللغة العربية ولا من مبادئ الإسلام إلا ما تعلموه سرّا سواء بالعربية شأن محمد بن عبد الرفيع وأحمد بن قاسم الحجري، أو غالبا بلغة ألخميادو (aljamiado) ولكنّهم كانوا يشعرون شعورا مرهفا بانتسابهم إلى الإسلام واللّغة العربية فأقبلوا بلهفة وحماس على تعلمها. ولئن أسهم إخوانهم المقيمين بالمدن الساحلية في تأسيس القواعد الحربية وصناعة المراكب وتدريب الناس على المدفعية وركوب البحر للقرصنة انتقاما من أعدائهم النصارى فإن أندلسيي تستور قد وجهوا خبراتهم إلى بناء المساجد تعميقا للشعور الديني لدى أبنائهم وتحريرا لمشاعرهم المكبوتة، متنافسين في تخريجها من ديارهم، معتزّين بتخليدهم أسمائهم عليها حسب ما احتفظت لنا به رواية شفوية طريفة حول مسجدي متينش وبوتريكو،

حتى بلغت قبيل الحرب العالمية الثانية أربعة عشر مسجدا لم يبق منها الآن إلاّ خمسة.

وازدهر بتستور التصوف فانتشرت طرق العيساوية بدرجة أولى والرحمانية والقادرية والتيجانية في مقام ثان وتعددت الزوايا لتحفيظ القرآن وإنشاد الأوراد والمدائح حتى بلغت عشرين زاوية أروعها زاوية سيدي ناصر القرواشي المبنية سنة 1146هـ/1733م. وقد كان يؤمها طلبة منهم من يقيم بكفالة الأجوار والجمعية الخيرية، ويدرّس بها أو بديارهم بالتداول فقهاء أمثال علي الكوندي (ت 1119هـ/1708م) ومحمد البشير التواتي (ت 1311هـ/1894م) ويتخرج منها أعلام أمثال الشيخ محمد العنابي (و1095هـ/ 1684م) والشيخ إبراهيم الرياحي، ممن واصلوا الطلب في تونس وعادوا إلى التدريس بها وإمامة الجامع الكبير.

ولعلّ بعض العادات قد ابتدعها الأندلسيون لتذكير أبنائهم باعتداء النصارى عليهم أثناء قيامهم بعبادتهم. من ذلك هجوم الفتيان قبيل صلاة العشاء ليلة القدر على الجامع الكبير حين يطرقون الأبواب ويعبثون إلى أن يطردهم المؤذن. ولئن ذكّرت «ليلة الدردك» هذه بمهرجان فيلا خويوزا الإسبانية الممثل لانتصار الأهالي على الغزاة رمزا لحروب الاسترجاع، فإنّ تقمص الأدوار ليلا يذكّر ببعض العروض المسرحية التي كانت تقدم بالإسبانية في تستور في القرن 17م، فلعلها كانت تمثل ظروف الاضطهاد وتنتقم من النصارى فنيا، وتحسس الأندلسيين المولودين في الوطن الجديد، الذي لم يسلموا فيه من الأذى مرة أخرى، بانتسابهم إلى ثقافة متميّزة وهوية مغايرة لهويّة أبناء البلد، ولهذا يظهرون في بعض الاحتفالات أصلهم الإسباني، من ذلك ما أشار إليه خيماناث سنة 1724م من استمرار الاحتفال بمصارعة الثيران في البطحاء.

وقبيل ذلك بخمس سنوات سجل مورغن (Morgan) على المخطوط الذي اشتراه في تستور حفلات يغني فيها الرجال والنساء معا مصحوبين بالعزف على آلات العود والقيثارة كامل قصيدة محمد ربضان التي يحويها المخطوط بالإسبانية، وموضوعها تمجيد الإسلام، وهذا يذكّر بالشيخ الذي كان يغني للجنود الإسبان في منتصف القرن 18م.

على أنّه بقدر تقدم أجيال المهاجرين الأندلسيين في تعلّم العربية والتشبع بالإسلام واندماجهم التدريجي في المجتمع التونسي ويأسهم من العودة إلى الأندلس عزف أندلسيو تستور عن الكوريدا والقيثارة وكل ما يذكّرهم بالإسبان بما في ذلك اللغة، وأتلفوا مفاتيح ديار أجدادهم في الأندلس التي احتفظوا بها عدّة سنوات، وعوّضوا تلك الاحتفالات بخير بديل مميز لثقافتهم الأصلية ومعبّر عن همومهم، هو تلك الموسيقى الأندلسية المعروفة بالمالوف التي أقبلوا على حفظها وتناقلها ببعض الأخطاء الدالّة على ضعفهم في العربية. وقد نسجوا حولها الحكايات الغرامية لتشويق النّاشئة التي تتعلمها في الزوايا نفسها التي يتعلمون فيها المدائح الدينية وعلى أيدي شيوخ الطرق الصوفية والمالوف في الوقت نفسه، إذ يعتبرون أن الأوراد الصوفية ونوبات المالوف شيء واحد في لفظه وشكله، فظاهره لهو وباطنه ورع، ولا أدل على ذلك التداخل من المثل المعروف «المالوف الأندلسي في الجد والهلس» وإنّما يفرق المقام والمناسبة، ولا غرابة فزاوية أبي الغيث القشاش (ت1031هـ/1622م) مستقبل المهاجرين الأندلسيين أولى الزوايا التي كان ينشد فيها المالوف.

إنّ حرص أندلسيي تستور على تميّزهم تجاوز المعمار والتقاليد والفنون ليتشخص في عقلية الاعتزاز بشرف الأصل والحذر في التعامل معها خاصة في الفترة الأولى من حضورهم.

فلاحة متقدّمة

ولا شكّ في أنّ أهمّ خاصّية يمتاز بها الأندلسيون هي التّغيير الكبير الذي أحدثوه في

البيئة إذ أحاطوا قراهم بأحزمة خضراء بعد أن كانت مناطق مهملة بسبب الانحدار الديمغرافي وعدم الاستقرار اللذين تزامنا مع قدومهم نتيجة الأوبئة والحروب.

ولأنّ جلّ الوافدين على تستور من الصنف المتكوّن من سكان الأرياف الإسبانية فقد جلبوا معهم أيضا أساليب فلاحية متقدمة بالنسبة إلى زمانهم. من ذلك تمهيد الطرقات وحفر القنوات وإقامة الجسور واستعمال الكريطة للنقل والطاحونة لرحي الحبوب وعصر الزيتون والناعورة لاستخراج مياه الآبار وإقامة السدود على وادي مجردة لريّ الأجنّة في البرقين حيث غرسوا أنواعا جديدة من الأشجار والخضر والبقول للاستهلاك المحلي أساسا في نطاق انغلاقهم على أنفسهم وللاصطياف. ولم يفكروا في التصدير إلاّ في مرحلة ثانية.

وقد لاحظ الورثيلاني في سنة 1768م أنّ تستور «ذات بساتين ومزارع كثيرة، وفواكهها قليلة الوجود». وذكر ديفونتان (Desfontaines) بعض شواغل أندلسيي تستور الفلاحية سنة 1783م قائلا: «وهم يمارسون زراعة الزعفران والتوت الأبيض الذي بواسطته يربون دود الحرير» ومضيفا بشاعرية نادرة أنهم يزرعون الخشخاش والمصطكا والحنّاء والرند والياسمين والبرتقال والرمان... إلخ. ولا غرو أن يبوح قيران سنة 1860م بإعجابه بحذقهم للفلاحة السقوية وتصريف المياه عبر السواقي إذ قال: «زرت الأجنّة الرئيسة، ومستوى الزراعة لا بأس به» وهو ما عبّر عنه بليفير (Playfair) سنة 1876م... ولا شك في أنّ وراء هذه المهارة خبراء يرجع إليهم بالنظر أو تنسب إليهم بعض التجارب، كما أنّ وفرة المحاصيل مجلبة لمطامع الباي التي ستتسبّب في تقلّص الإنتاج.

تطوّر البنية الاجتماعية والاقتصادية

إنّ هذا الازدهار العمراني والاقتصادي لتستور يرجع إلى تضافر العناصر الاجتماعية المكوّنة لسكانها في نطاق انسجام تدريجي، وليس إلى الأندلسيين بمفردهم.

إنّ كشوف سجلاّت المجبى تعطينا أسماء الجماعات الرئيسة الموجودة بتستور في القرن 19م ابتداء بتفريق علي باشا للوسلاتيين ومجيء وفد منهم إلى تستور في نهاية القرن 18م حتى أصبحوا يمثلون مع المانسيين 55٪ من مجموع السكان، تليهم جماعة الأندلسيّين بنسبة 15٪، يليهم اليهود والحنفيون والزواويون. ويمثلون جميعا حوالي 2500 نسمة حسب تقدير بليسيي (E.Pélissier de Reynaud) سنة 1848م وقيران سنة 1860م وأرقام سجلات المجبى للسنة نفسها قبل أن ينقص العدد بسبب وباء سنة 1867م.

وكان من الطبيعي أن يحدث تنافس وخلافات بين هذه الطوائف حول المسؤوليات الحساسة والمؤثرة في المجتمع كالإمامة بالجامع الكبير والقضاء الشرعي والمشيخة والقيادة والخلافة. وطبيعي أيضا أن تحاول كل عائلة وكل جماعة تقوية نفوذها السياسي والديني ثم الاقتصادي سواء بالاستناد إلى طريقة صوفية أو بالتحالف مع سلطة البايات المركزية أو مع انتفاضة علي بن غذاهم وثورة علي بن عمار، أو حتى بالتحالف مع السلطة الاستعمارية، أو بالانخراط في الحزب الجديد.

وكان نتيجة لهذه الصراعات أن تبدّلت علاقة تستور بالخارج وتقلّصت عزلتها وتأثر نظامها الاقتصادي فتحوّل من اقتصاد عائلي يهتمّ فيه الرجل بالإنتاج والمرأة بتصنيع الإنتاج للاستهلاك إلى اقتصاد رأسمالي استعماري بعد الحرب العالمية الأولى أثّر في بناء تستور الاجتماعي الذي ظلّ ثابتا ما بين 1860م و1910م. ثم زال هذا الانقسام الداخلي وحلّ محلّه اتحاد لمواجهة الاحتلال في إطار الحركة الوطنية استفادت منه فئة من أصحاب السوق ومن البرجوازية الصغيرة حوّلت وزنها السياسي إلى قيمة اقتصادية عند توزيع أراضي المعمرين، ونسج أتباعها على منوالها.

التصوّف الإسلامي بإفريقية حتى نهاية الفترة الوسيطة

إنّ الدّارس لتاريخ التّصوّف في البلاد التونسية وجذوره وحركة سير أعلامه الأوائل وتنظيراتهم، في حاجة إلى الرجوع إلى مصادرنا الرئيسيّة واستقرائها وفقا لمنهجيّة موضوعية وواقعيّة تراعي التجربة الخاصّة بالإسلام عموما والتجربة الصوفيّة المغاربية وبالتّحديد في مركزها الأصلي والأوّل خصوصا وهو ما عُرف تاريخيّا بـ «إفريقية» التي شهدت ولادة المؤسّسين الرواد للتّصوف المغاربي.

فالخطأ المعرفي والمنهجي الذي يسقط فيه الكثير من الباحثين في دراسة ظاهرة التصوّف هو الخلط بين المصطلحات وعدم مراعاة سياقاتها التاريخية والثّقافية التي أفرزتها تلك التجربة المحلية ومن ثمّة تَبَنّي الإسقاط الاستشراقي في قراءة التّصوف الإسلامي (فقد ظهر مصطلح «التصوف» في الكتابات الصوفية المشرقية منذ أواخر القرن الأوّل الهجري. من ذلك ما روي عن معروف الكرخي الصوفي قوله: «من لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بالتّصوف...» انظر كتاب السهروردي: عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، بيروتر 1966، ط1، ص 53). فعلى سبيل المثال نشير إلى الخلط بين المصطلحات لدى المستشرق برانشفيك الذي يستعمل مصطلح: «الميستيسزم – Le mysticisme» وهو التيار الروحي الذي عَرِفهُ الغرب في القرن الثاني عشر الميلادي، بدلا من مصطلح (Soufisme) – التّصوف الذي يحيلنا على التجربة الخاصّة بالإسلام وهي التي ظهرت في العالم الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري /القرن الثامن الميلادي.

أمّا في الغرب الإسلامي وبالتّحديد في إفريقية، فإنّ الدّارس للمصادر الأولى من كتب المناقب التي ظهرت بين منتصف القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي ومنتصف القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي والتي وصلتنا منها بعض الشذرات (وذلك مثل: مناقب «ابن نصرون مروان العابد» (ت340هـ/951م)، ومناقب «السبائي» (ت356هـ/966م)، ومناقب «ربيع القطّان» (ت333هـ/944م)...)، يكتشف التمظهرات الصوفية الأولى بإفريقية عند «أبي حفص عبد الجبّار المسراتي» الذي توفي سنة281هـ/894م، والذي يمكن اعتبار تجربته من أقدم التجارب الصوفية بإفريقية (راجع ترجمته في «رياض النّفوس» للمالكي، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983، ج 1، ص463)، إذ تنسب إليه أقوال مشحونة بمفردات صوفية لم تكن معروفة قبل تلك الفترة وتحيل على تجربة الزهد. وذلك مثل قوله: «كنت أخلو لأسلم، ثم صرت أخلو لأنعم، ثم صرت أخلو لأعلم، ثم صرت أخلو لأفهم، ثم صرت أخلو لأنعم» (ابن ناجي، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، طبع المكتبة العتيقة تونس د.ت، ج2، تحقيق محمد الأحمدي ومحمد ماضور، ص127) ولعلّ تعليق التجيبي «الواعظ المؤرّخ» المتوفّى سنة422 هـ/1030م على ذلك بقوله: «كلاما حسنا في المعرفة والحقيقة» (المصدر السابق) يؤكد ريادة هؤلاء في التجربة الصوفية بإفريقية التي تبلورت ملامحها تدريجيا بتبنيها طريق التأمل والنّظر المعرفي باعتباره ركنا أساسا من أركان التصوّف إلى جانب المفردات الصوفية الكثيرة الأخرى مثل: المجاهدة والتّوكل والمحبّة والشّوق والإشارة. وغيرها من المصطلحات التي تحيلنا على المعجم الصوفي، هذا المعجم الذي أغنى وأصِل بفضل ثراء التجربة الصوفية المغاربية بدْءًا بـ: «مدرسة القيروان» التي تميّزت بخصوصياتها على الصعيد النظري وكذلك الممارسة العمليّة وقدرتها على التّجديد والإضافة إلى النموذج المشرقي رغم وحدة المرجعيّة.

فقد ذكر المالكي في كتابه رياض النّفوس (رياض النّفوس، ج2، ص 276). أنّ رَبيع القطّان

«جمع بين العلم والعمل والأنس والانبساط» وهي من الأحوال الموصوفة عن أهل التّصوف، وأنّ هذا الفقيه العابد «كان لسان إفريقيّة في وقته في الزّهد والرقائق» (معالمَ الإيمان، ج3، ص 30).

بل أكثر من ذلك: إنّ ابن ناجي صاحب معالم الإيمان ينسب إليه «أنّه يتكلّم في الأحوال»، مع الإشارة إلى أنّ ربيع القطّان كان قد رحل إلى مصر وتأثّر بأفكار المتصوّف الشهير «ذي النون المصري» (ت245 هـ/859م) الذي كان أوّل من تكلّم على «ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية». وتذكر بعض المصادر أنّ القطّان كان يرأس جماعة من الصوفية تلتفّ حوله في شكل حلقات تتلمذوا لفكره. ومن أشهر هؤلاء: أبو محمّد عبد الله اللّجام وأبو إسحاق إبراهيم بن محمّد القصري (ت334 هـ/945م) وإبراهيم السبائي (ت356 هـ/966م) ومروان بن نصر الأنصاري (ت340 هـ/951م) أو (ابن نصرون، كما يسميه المالكي في رياض النفوس) وأبو عبد الله محمّد ابن قطانية (ت311 هـ/923م). وهذه أولى المظاهر لهيكلة الحياة الصوفية بإفريقية وبالتحديد في القيروان. فقد بدأت مع ما كان يُعرف بـ «فقهاء العُبّاد» ثم سرعان ما توسّعت دائرتها عددا وتنظيما في إطار حلقات الذكر المنظّمة.

ونذكر أيضا بعض رواد التجربة الصوفية المبكّرة بإفريقية من أمثال: محمّد عبد الله التاهرتي (ت313 هـ/925م) الذي «كان يشير إلى المحبّة والشّوق». وكذلك «محمّد عبد الله الغيمي الفخار (ت316 هـ/928م) الذي يُعدُّ، حسب المصطلح الصوفي، من «الكدّادين» (أي كثرة الزهد) (رياض النفوس، ج2، ص191). كما لا ننسى أبا جعفر أحمد الدّباغ (ت330 هـ/941م) الذي يعتبر من روّاد المتصوّفة بإفريقية والذي قال عنه المالكي في رياض النّفوس إنّه «يميل إلى التّصوف» ولا الصوفي «أبا عبد الله محمّد بن سهل» (ت333 هـ/944م)...

هذه الأمثلة ترشدنا إلى أنّ النزعة الصوفيّة الحقيقيّة في الحياة الروحية بإفريقية قد ظهرت وهو ما يدعونا إلى تصحيح الآراء التي تبنّت القراءة الاستشراقية دون النظر في مصادرنا المغاربية عموما والإفريقية بالأخص. من ذلك التوقّف عند الاعتقاد السّائد بأنّ «التصوف الإسلامي قد كان له ممثّلوه من المشارقة في بلاد المغرب...» ونسي هؤلاء أن علاقة التصوّف في إفريقية بنظيره المشرقي لم تكن في اتّجاه واحد. من ذلك أنّ المصادر المغاربية عموما والإفريقية بالخصوص تذكر بصريح العبارة أنّ عددا من متصوّفة إفريقية كان لهم أيضا وزن معرفي بشهادة كبار المتصوّفة مثل أبي بكر عطيّة محمّد بن رهبون (ت351 هـ/962م) الذي قال فيه الدينوري بمصر: «ما قدم إلينا من إفريقية أكثر جدّا واجتهادا من عطيّة» (المصدر السابق، ص459) إضافة إلي ربيع القطّان والسّبائي وغيرهم كثير ممّن رحلوا إلى المشرق وتواصلوا فكريّا وروحيّا مع كبار أئمّة التّصوف. وقد كان هذا التّفاعل منذ القرنين الأوّل والثّاني الهجريّين شاهدا على عمق تلك الرّوابط سواء مع التّجربة الزهدية الأولى (نذكر على سبيل المثال المرجعية الزهدية في الصحابي عمران الخزاعي المتوفى سنة52 هـ/672م وكذلك التابعي المعروف حنش اليمني الذي شارك في أوّل غزوات شمال إفريقيا سنة 27 للهجرة ثم استقرّ بالأندلس وعاش حياة التعبّد والزّهد). أو في المرحلة الثانية من التجربة الصوفية المبكّرة بإفريقية و«مواكبة عبّاد إفريقية لكل جديد في فكر وممارسة أقرانهم في المشرق» (وهو ما أشار إليه صاحب «المعالم» حينما ذكر أنّ «أبا خلف مطروح بن قيس الخياط روى عن الفضيل بن عياض (ت187 هـ/802م) وأيضا البهلول بن راشد (ت183 هـ/799م) الذي روى عن سفيان الثوري ...(راجع في ذلك المعالم ج 1وج 2).

بل إنّ المصادر الإفريقية مثل «المعالم» للدّباغ تكمن فيها إشارة قويّة دالّة على ريادة بعض الأعلام من إفريقية وإشعاعهم في عالم الفكر والتّنظير الصوفي في المشرق وقد ذاع صيتهم في تلك الأوساط إلى درجة أنّ الدّباغ قال في المعالم: «وشهرة أبي عبد الله المغربي وأبي سليمان وأبي عقال بن غلبون وأبي الغضّ الخادم، بالمشرق أكثر من شهرتهم بالمغرب لموتهم هناك». هذا وينقل الدّباغ تراجم هؤلاء من كتاب طبقات الصوفية للسُّلمي (هو محمد بن الحسين، طبقات الصوفية، ويليه ذكر النّساء المتعبّدات الصّوفيات، تحقيق وتعليق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط2.، 1424 هـ/2003م، ص194)، كما ذكر القشيري في رسالته كلا من أبي عبد الله المغربي وأبي عثمان سعيد المغربي في الفصل الخاص بشرح المقامات أو مدارج أرباب السلوك (أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، شرح وتقديم نواف الجرّاح، دار صادر –بيروت، ص 94 وص254 (بالنسبة إلى أبي عبد الله المغربي المتوفى سنة299 هـ/911م)، وص15، 54، 58، 79، 85، 114، 121، 133، 159... بالنسبة إلى أبي عثمان سعيد بن سلام المغربي المتوفى سنة 373هـ/ 983م).، وهي أدلة قويّة على مكانة هؤلاء المتصوفة الرّوّاد من إفريقية منذ أواخر القرن الثالث وأواسط القرن الرابع الهجريّين أولئك الذين كان لهم باع في السلوك الصوفي حتى أضحوا من أربابه ومن المراجع الكبيرة في المقامات بالمشرق لدى كبار المتصوفة مثل القشيري الذي ترجم لهم وذكر بعض أقوالهم وآدابهم وأخلاقهم وعقائدهم وما أشاروا إليه من مواجد وكيفية توَقيهم من بداية تجربتهم الروحية إلى نهايتها، باعتبارهم نماذج للمريد لكي يقتدى بهم.

هذا التصوف الإفريقي الذي انطلقت بواكيره من القيروان عاصمة الغرب الإسلامي الأولى، نهل من الينبوع الروحي والقدوة من الصحابة والتابعين الأوائل الوافدين مع الانتشار الإسلامي قبل تأسيس القيروان أي منذ سنة 27 هـ/ 648م، سنة السيطرة على جزيرة جربة. ثمّ تحقّق التفاعل مع رموز الأعلام المؤسسين للتصوّف بمناسبة موسم الحج السنوي وبعد ذلك في أثناء رحلات الزّهاد إلى إفريقية التي كانت المنطلق ومحطّ رحال المغاربة الوافدين إليها من أقصى المغرب وأوسطه، لتنطلق الرحلة إلى المشرق وتتفاعل التجارب الصوفية بين المغاربة والمشارقة أخذا وعطاء لتنتج إضافة مميّزة وسمت فيما بعد التّصوف في الغرب الإسلامي عبر مسيرته الأولى على هيئة خصوصيات كانت وليدة ظروف وتفاعلات فكرية وثقافية ومذهبية وسياسة عرفتها إفريقيّة والغرب الإسلامي عموما، أسهمت في بلورة الحياة الروحية ومن ثمة البنية المذهبية، تلك التي انعكست آثارها في المجتمع الإفريقي ثم المغاربي في أكثر من مجال.

إنّ المتأمّل في حركة التطوّر العام للتّصوف بإفريقية بعد الفترة التأسيسية المبكرة، يلحظ أنّ التّيار الصّوفي قد حافظ على أهمّ سماته في الفترات التاريخية المتتالية. فقد احتضنت الكثير من المؤسسات التجربة الصوفية بدءاً بفعل المرابطة وهي ملازمة المتعبّد –الزاهد– أحد الحصون أو الرباطات لممارسة وظيفة الحراسة على الثغور والعبادة، «فعلاوة على اقتران (مؤسسة الرباط) منذ تأسيسها وحتى استئثار الفاطميين بالحكم على إفريقية بوظيفتي الحراسة والعبادة، لم تكن حكراً على طبقة الزّهاد والصوفية، بل كان يرتادها أيضا الفقهاء وأهل العلم...» (نللي سلامة العامري: التصوف بإفريقية في العصر الوسيط، دار كونتراست للنّشر، سوسة –تونس، أفريل2009، ص50) وهو ما أسهم في مدّ جسر بين المتصوفة والفقهاء أفرز فيما بعد ظاهرة «الوليّ المربّي» التي هيمنت على الحياة الروحية بإفريقية في الفترة الحفصية.

فكان التواصل والانسجام بين أهل الفقه وأهل التصوف.

أمّا المؤسسة الثانية التي أخذت المشعل عن الرباط فهي «المسجد»، المؤسسة المركزية في الإسلام وفي الحضارة الإسلامية عموما. فمنذ القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي، تحوّلت مساجد القيروان إلى مراكز علمية شرعت في تدريس التّصوف ضمن حلقات منتظمة أنضجت التجربة الصوفية وأفخمتها في مرحلة التّنظير حتى أصبح التصوف علما مستقلا بذاته يُلَقَّنُ ضمن حلقات التدريس لعلم التّصوف كحلقات ربيع القطّان الذي كان يفسّر فيها القرآن على طريقة أهل الإرادة أو ما يعرف بالتّفسير الإشاري للقرآن وحلقة إبراهيم السّبائي التي قال عنها المالكي صاحب رياض النفوس: «...تدور على سبعة عشر عمودا لعظمها وكبرها» (رياض النفوس، ج2، ص472)، وكذلك حلقة سعد بن مالك الدّباغ المتوفى سنة361هـ/971م) وحلقة أبي الحسن محمد بن الشيخ عبد الصمد المتوفى سنة441هـ/1049م التي اشتهرت في الآفاق لكثرة ما يتوافد على حضورها من جمهور غفير وقال عنها ابن ناجي في معالم الإيمان: «حتّى حذّره (أي صاحب الحلقة) السلطان وخاف على نفسه منه» (معالم الإيمان، ج3، ص119)

وطوال القرنين السّابع الهجري/13م والثامن الهجري/14م هيمن بإفريقية تياران صوفيّان كبيران هما:

-أوّلا: التيار المديني (نسبة إلى أبي مدين شعيب المتوفى سنة594هـ/1198م) وقد تفرّع أيضا إلى فروع عدّة من أشهرها فرع «المهدوي» (نسبة إلى عبد العزيز المهدوي المتوفى سنة621هـ/1224م) الذي كان من تلاميذه أعلام كبار مثل: محيي الدين بن عربي وأبي الحسين بن عربي وأبي عبد الله بن المرابط، كما نجد ضمن هذا التيار أيضا فرع «الكومي» (ومؤسسه أبو عبد الله الكومي ت600هـ/1203م) وفرع أبي سعيد الباجي (ت628هـ/1231م) وفرع أبي علي النفطي (ت610هـ/ 1213م) وهو من صوفية الجريد بالجنوب.

ولا شكّ في أنّ هؤلاء الرموز الصوفية قد خلّفوا شبكة متشعبة من المريدين.

-ثانيا: التيار الشاذلي (نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي: المتوفى سنة 656هـ/1258م) الذي تكاثر أتباعه ومريدوه عبر التاريخ في أماكن عدّة من العالم العربي والقارة الإفريقية.

ويمكن الإشارة هنا أيضا إلى تيارين آخرين أدّيا دوراً مهمًّا في بلورة الحياة الصوفية بإفريقية في العهد الحفصي هما:

-تيار يعرف «بجماعة الأندلس» التي جمعت بين المستوى العلمي الراقي في المنقول والمعقول وكذلك في الأدب والتّصوف. ومن أبرز أعلامه: أبو عبد الله الخلاصي المتوفى سنة684هـ/1285م، وعلي بن محمد التُّجيبي المرسي وأبو محمد الطببري وصالح بن شوشن، إضافة إلى المتصوفة الأندلسيين المتأثرين بابن سبعين المتوفى سنة 669هـ/1270م مثل أبي يعقوب بن عقاب (ولد سنة 613هـ/1216م) (أبو عبد الله بن عمر ابن رشيد)، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكّة وطيبة، ج2، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس1982، ص309–316)

-أمّا التيّار الرّابع فهو تيار غير منتظم في مدرسة أو طريقة رغم شهرة رموزه وكثرتهم في المائتين الثامنة هجريّا/14م والتاسعة هجريّا/15م، وقد أطلق عليه: تيار الصوفية المفتين أو «الفقهاء الصوفيّة» الذين جمعوا بين الفقه والتّصوف أي بين الشريعة والحقيقة، أمثال: أبي محمد عبد الله المرجاني (ت699هـ/1299م) الذي عرف بالشّيخ الفقيه الصوفي والمرجاني العرشي

(ت669هـ/1270م) وأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالهواري وأبي الحسن علي المنتصر (ت742هـ/1341م) الذي روى عنه ابن عرفة (ت803هـ/1401م) في مختصره وأبي الحسن الزبيدي المعاصر لابن عرفة وأبي الحسن العلوي (ت848هـ/ 1444م) «الذي كان يحضر مجلس أبي القاسم البرزلي».

من هذا العرض لأهمّ مراحل مسيرة التصوف الكبرى بإفريقية خلال الفترة الوسيطة ورصد الخارطة الصوفية –سواء في الحواضر كالقيروان وتونس أو في المناطق الداخليّة البعيدة عن العمران– يمكن القول إنّ هناك تأثيرا للكثير من التيارات الصوفية الوافدة من المشرق ثم من الأندلس ثم من المغرب الأقصى. وهو مؤشر على أنّ صوفية إفريقية قد واكبوا اتّجاهات التصوف الإسلامي وفق منهجيّة، أفرزت في نهاية المطاف ما عرف بالتصوف الإفريقي الذي تبلورت ملامحه النهائية في العهد الحفصي على هيئة بميزات وخصوصيات تجسّدت أساسا في الانفتاح على أكبر التيارات الصوفية في العالم الإسلامي ومحاولة التأليف بينها، إلاّ أنّ هذا الطابع لا يعني أنّ التصوف بإفريقية اكتفى بالتأثير والتوفيق بين تلك التيارات. بل لم يخل ذلك التفاعل من مظاهر الابتكار والتجديد المتمثلة خاصّة في إرساء تصوّف إسلامي أثر في الواقع الاجتماعي مفرزا في آخر المطاف فئة «الفقهاء–الصوفية» التي اضطلعت بدور بارز في تحقيق المصالحة بين المرجعيتين «الظاهر والباطن، الشريعة والحقيقة...» وهو ما أسهم في توضيح المسار الصوفي المغاربي وحمايته من الانحرافات العقدية عبر إدراجه داخل المنظومة السُّنية، المتسمة بالتجانس بين الروحي والشرعي ومنحه قبولاً بين الفئات الاجتماعية المتنوّعة.

تعدين الحديد في تونس

بفضل اكتشاف المعادن، ارتقى الإنسان إلى مرحلة تكنولوجيا المواد. وأصبح قادرا شيئا فشيئا على توظيف موارد المحيط الذي يعيش فيه بعدما اقتصر على خدمات الحجارة على امتداد آلاف السنين. ولم يكن بالإمكان استغلال هذه المعادن واستعمالها لولا الحرارة التي توصّل إليها تدريجيا داخل الأفران، وهي التي مكّنته في العصر الحجري الحديث من تحويل الطين إلى فخّار.

ولئن جاء استغلال الحديد متأخّرا بالنسبة إلى استخدام النّحاس والفضّة والذّهب فإنّ استعماله يكاد يكون اليوم في كلّ الميادين : من الأدوات اليومية إلى حاجات الطبّ مرورا بالبناء والاتصالات والنقل.

ولكي يثبت لدينا أن تعدينه في بلادنا كان حلقة مهمّة من تأريخ التعدين في إطار أوسع لاسيما على الصعيد المتوسطي، نسوقه فيما يلي ضمن محطّة من المحطات التي سبقت آخر تطوير لتقنيته بوسيلة محوّل Bessemer في منتصف القرن 19.

ومثلما شدّت مواد ظاهرة على سطح الأرض انتباه الإنسان على امتداد العصور الحجرية، اكتشف بالمثل في فترة لاحقة ومنذ 4000 سنة تقريبا أجساما تحتوي على الحديد أصلها من الجوّ وربّما من كواكب أخرى ولتوظيفها اقتصر الإنسان على عملية التطريق.

يبدو أن قبيلة Chalybes في القوقاز هي التي صهرت الحديد من خاماته لأوّل مرّة في القرن 15 ق.م وفي الفترة المتراوحة بين القرنين 19 و 8 ق.م أصبح الحديد متداولا في الشرق الأوسط، على أيدي اليونانيين والفنيقيين مرّ إلى إسبانيا والبلقان وجنوب إيطاليا.

وإلى حدود القرن 14، كان الحصول على الحديد الصناعي يتحقق بعملية واحدة وهي

اختزال المعدن اختزالا مباشرا بالفحم الخشبي. يكون ذلك في فرن من الطين صغير الحجم لا تفوق درجة الحرارة فيه 1300 درجة. في قاع هذا الفرن حفرة في الأرض تتلقّى الفلزّات، ونعتقد أنّ التهوئة كانت بوساطة منفاخ، يربط بينه وبين الفرن كُمَيْمٌ مصنوع من طين.

تنتج هذه العملية كتلة إسفنجية متزهّرة من الحديد النقيّ فتؤخذ لتطرق وتصنع منها قضبان من الحديد المطاوع الذي يمكن تصنيعه على هيئة أشكال أكثر تعقيدا.

ترجع أقدم المصنوعات المعدنية في تونس إلى عهد الفنيقيين وقد أثبتتها مواقع مدنهم الساحلية لاسيّما قرطاج واوتيك وكركوان وتحديدا في المدافن.

إنّنا نعلم أنّ الأثاث الجنائزي عند القدامى لاسيما عند الفنيقيين عادة ما يتركّب من فخّاريات، أما المصنوعات المعدنية فهي عنصر مُهمّ لمعرفة الأحياء : فمن الذهب والفضة صنع حلي النساء، ومن البرنز القديم صنعت أوان وأدوات، ومن الحديد صنعت سكاكين وسيوف وخناجر وأدوات قطع ونحت ورؤوس سهام ومقصّات. ولا تقلّ أهميّة حصيلة المدافن في إطارنا هذا ومنذ أواخر القرن 19 عن حصيلة الأوساط الأخرى.

أما مناجم الحديد فقد لوحظت فيها أثناء عمليّات الاستكشاف التي أجريت في أواخر القرن 19، آثار استغلال قديمة لا سيّما في منطقة نفزة بالشمال وجبال سلاطة والجريصة بالكاف.

كادت مسألة تصنيع المعادن والحديد خاصّة تبقى دون تأريخ يعتمد الحفرية والمخبر لولا اكتشاف آثار ورشات قرطاج الفنيقية بمناسبة أكبر حملة حفريات جرت فيها بإشراف اليونسكو، وعلاوة على إغنائها لقائمة التقنيات القديمة عزّزت مرحلة تاريخية كانت في السابق تفتقر إلى شواهد أثرية وهي حقبة القرن 8 ق.م، إذ من الورشات التي عثر على آثارها تلك التي أقيمت على مقربة من الشاطئ.

إنّ المرور من الفرن الأرضي الطيني إلى الفرن العالي حدّد زمنيا في القرن 14 ولم يُعمّم إلاّ في القرن 16. والمجتمعات التي انضوت داخل عصور المعادن لم تسهم كلها في تصنيعها، ولم يكن الاستغلال في متناول الجميع، بل هناك من ينتج وهناك من يصنّع. وتقنية المعادن لا تصدّر بسهولة نظرا إلى ما تنطوي عليه من أسرار وما يحكمها من قواعد كيميائية وقد أصبحت أوروبا مركز تطوير تصنيع الحديد بفضل الركائز الجديدة التي أقيم عليها الفرن العالي نذكر منها استعمال الوقود المعدني كالفحم الحجري خاصّة، وكذلك الطاقة المائية وينتهي المطاف بالحديد إلى محوّل Bessemer إذ ينتج أعلى نوع من الحديد وبأقلّ التكاليف.

اتجاهات التفكير الديني في إفريقية

لقد احتضنت بلاد إفريقية منذ فجر الإسلام الجدل نفسه والحركيّة الفكريّة ذاتها اللّذين ظهرا ببلاد المشرق العربي حول العقل والإيمان، وتصوّر حقيقة الوجود الإلهي، وصلته بالإنسان، بل إنه يمكن القول إن المذاهب الفكرية الدينية المصطلح عليها بـ «الفرق الكلامية» التي وجدت في المشرق العربي، كان لها صدى بإفريقية، وإنه كان لعلماء أصول الدين والعقيدة بإفريقية وبسائر بلاد المغرب العربي إسهام مكثّف في بلورة مذاهب الاعتقاد في الإسلام، ودور بارز في تنظير مسائل الفكر الديني، لاسيما في ما يتّصل بحقيقة «الذات الإلهية» و«الإيمان» و«النبوّة» و«البعث» و«المعاد» و«القضاء والقدر». وقد كان للخوض في مثل هذه المسائل الشأن الكبير في دفع حركة التفكير العقلي وفي ازدهار مباحث أدبية وفكرية مهمّة مثل مبحث اللغة والتفسير، واللغة والتأويل، كما كان للموازنات السياسية والتحوّلات الإيديولوجية في مرجعيات النخب الحاكمة بين المشرق

والمغرب أثره في تفوّق بعض المقالات الكلامية وانتشارها في مقابل خفوت نظيرتها وتقلّص عدد أتباعها.

ويمكن القول إن البواكير الأولى للجدل وللتفكير التقليدي في مسائل أصول الدين ظهر ضمن المدارس الفقهية التي احتضنتها إفريقية مثل مدرسة الإمام مالك (ت179هـ) ومدرسة الإمام أبي حنيفة (ت150هـ) على الأخصّ، وذلك قبل أن يكون لانتشار المذهب الشيعي الإسماعيلي دور بارز في إذكاء روح الجدل وتعميق النظر لاسيما لما عرف به هذا التيار من استناد إلى التأويل، واحتكام إلى علوم الباطن.

ويبدو أنّ التركيز الأوّلي على مذهب أهل السنّة اضطلعت به بعثة الفقهاء العشرة إذ أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز في حدود سنة 100هـ/718م إلى افريقية عشرة فقهاء من التابعين في مقدمتهم إسماعيل بن أبي المهاجر الذي ولي إفريقية سنة 100هـ/718م.

وقد كان لكلّ من علي بن زياد (ت182هـ/798م) والبهلول بن راشد (ت182هـ/798م) الدور الأكبر في نشر المذاهب السنية في الفقه والعقيدة، وخاصة بعد ارتحالهما إلى المشرق العربي وتلقيهما العلوم على أبرز الفقهاء والمفسرين. فالبهلول بن راشد أخذ عن مالك وسفيان الثوري والليث بن سعد، وكان من أبرز تلامذته الإمام سحنون صاحب «المدونة» وواحدا أهمّ أعلام المذهب السنّي بإفريقية، وعرفت مدرسته في الفقه والتشريع بميلها إلى إيثار حياة الزهد والتقشّف على البذخ والإسراف.

أمّا علي بن زياد فيعدّه الدّارسون المؤسّس الحقيقي للمدرسة المالكية في إفريقية والأندلس، وقد رحل ابن زياد إلى المشرق وتردّد على أرض مصر والحجاز والعراق طلبا للعلم فأخذ عن الليث بن سعد وسفيان الثوري، ولازم الإمام مالك وطالت إقامته بالمدينة فتلقى عنه «الموطأ» واشتهرت روايته بإفريقية حتى عُرف بـ«موطإ ابن زياد» وهو عبارة عن تدوين لفقه الإمام مالك ومروياته في الحديث. وذاع صيت ابن زياد فأخذ عنه كذلك الإمام سحنون، وكان يستفتيه البهلول بن راشد رغم أنه في طبقته (أي من نفس الجيل)، وأخذ عنه أسد بن الفرات الذي كان له الدّور البارز في دعم مذهب أبي حنيفة بإفريقيّة بعد أن أقدم ابن فرّوخ على ذلك، ويُعدّ أسد بن الفرات كذلك حجّة في المذهبين وكان يدرسهما معا، ولا يرى تعارضا بينهما إطلاقا.

وبدرجة أقلّ عرفت إفريقية مذاهب أخرى كمذهب الإمام الأوزاعي (تـ 157هـ/773ـ 774م) ومذهب الإمام الشافعي (تـ 245هـ/859م) الذي تزعّم نشره عبد الملك ابن محمد الضبي.

وقد كان للأغالبة دور كبير في مساعدة هذه المذاهب على الانتشار وفي تطوّر حركة الجدل المذهبي بما عرفت به إمارة بني الأغلب في بدء عهدها من ميل إلى الاستقلالية عن بغداد، وترك شؤون الدين إلى العلماء والفقهاء.

والحقيقة أن علماء السنّة وفقهاءها بإفريقية كانوا مثل نظرائهم بجزيرة العرب أميل إلى عدم الخوض في العقائد والجدل في مسائل الإيمان والألوهية، إذ يغلب عليهم التسليم والتصديق. ويكفي أن نورد في هذا قول الإمام مالك حينما اشتدّ الجدل في مسائل صلة الصفات بالذات الإلهية وما يتفرّع عنها من قضايا التشبيه والتنزيه فقال: «الاستواء معلوم ـ أي استواء الله على العرش ـ والكيف مجهول»، ولم يقبل الخوض في هذه المسألة على النحو الذي رسمه المتكلمون.

على أنّه أمام اشتداد حركة الجدل، وظهور المتكلمين في قضايا الإيمان الديني والغيب، وأمام الأثر الذي أفرزه دخول أهل الأمصار والأديان والمذاهب الأخرى (ومنها المعتقدات الفارسيّة والمسيحية واليهودية) إلى الإسلام برزت أهمية الجدل الديني في بيان أصول العقيدة وحقيقة الإيمان، وإبراز حقيقة المسائل المتعارضة

كقضية القضاء والقدر، إذ تفيد النظرة الأولية الظاهرية إلى آيات القرآن أن الخطاب الإلهي يعطي للعباد حرية الفعل والاقتدار عليه، لكنّه يفيد في مواضع أخرى أنّ الكلّ معلق بالمشيئة الإلهية. فكان أوّل من تصدّر للكلام والجدل من أهل السنّة بإفريقية أبو العبّاس عبد الله ابن طالب (ت276هـ/889) ومحمد بن محبوب (ت307/919م) وأبو بكر القمودي ومحمد بن فتح الرقادي وعلي بن منصور الصفار، وأبو بكر اللباد (ت333هـ/944م).

ويبدو أن ثلاثة من أهل السنّة طبعوا مسار الجدل العقدي بإفريقية، وهم: محمد بن سحنون (ت256هـ/869م) وسعيد بن الحداد (ت302هـ/915م) وابن أبي زيد القيرواني (ت386هـ/996م) صاحب «الرسالة».

فمحمد بن سحنون هو ابن الإمام سحنون، وقد أخذ عن والده وعن موسى بن معاوية الصمادحي، ثم ارتحل إلى المشرق حيث أخذ عن بعض العلماء هناك، ومن أبرزهم أبو مصعب الزهري (ت 242هـ/856م) من شيوخ المالكية، ثم عاد إلى القيروان حيث انتصب مدرّسا وقيل ألّف كتبا في الجدل والمناظرة. فقد ذكر له القاضي عياض في «ترتيب المدارك» أنه ألف عدّة كتب. وذكر في «تراجم أغلبية» أنّه ألف «كتاب الحجّة على القدرية» و«كتاب الحجّة على النصارى» و«كتاب الردّ على البكرية».

أمّا أبو عثمان سعيد بن الحداد فهو إخباري ولغوي ونحوي ومفسّر تصدّر للجدل والمناظرة بعدما أخذ عن علماء إفريقية، ولم تكن له رحلة إلى المشرق رغم سعة علمه. ومن مؤلفاته كتاب «معاني الاخبار» وكتاب «الردّ على الشافعي» و«كتاب الأمالي» (توجد منه نسخة خطيّة بدار الكتب الوطنية ضمن مجموعة المكتبة العتيقة بالقيروان) وله مؤلف آخر بعنوان «عصمة النبيين». وقد كانت له مواقف ومعارضات على المذهبين الاعتزالي والإسماعيلي.

وتصدر ابن الحداد للردّ على المعتزلة في كتابه «الاستواء» حيث بيّن غرض هذا الكتاب كالآتي: «وإن كان قصدنا في هذا الكتاب الردّ على النافية لله بنفيهم لصفاته».

أمّا أبو محمد عبد الله ابن أبي زيد القيرواني فهو وإن غلبت آراؤه واجتهاداته الفقهية على تفكيره العقدي، فقد كانت له إسهامات بارزة في الجدل والمناظرة، وتصدّر للخوض في مسائل عقدية كثيرة برزت آراؤه فيها. ويبدو أنّ تكوينه العلمي المتين كان وراء ذلك إذ أخذ في تونس عن أبي بكر بن اللبّاد وأخذ عن إبراهيم الأصيلي بالأندلس، ودارس ابن اسماعيل بفاس وابن شعبان بمصر. ويُذكر أن من الذين تلقّوا عنه أبا بكر الباقلاني، وكان على صلة بالولي والصوفي الكبير سيدي محرز بن خلف (ت413هـ/1022م) الذي أشار عليه بتأليف «الرسالة» ورسم له خطوطها الكبرى، وقد وضع كذلك مؤلفا بعنوان «رسالة في أصول التوحيد».

وقد اجتهد ابن أبي زيد كغيره من كبار المتكلمين في وضع تعريفات دقيقة، متفرّدة للذات الإلهية، تسند معنى أدقّ إلى مفهوم الألوهية. فهو يعرف الله في «الرسالة» على أنّه «الواحد الذي لا شبيه له ولا نظير، لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا شريك، ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، فالمتفكرون فيه عليهم أن يعتبروا بآياته، وألاّ يفكروا في ماهية ذاته، لأنهم لا يحيطون بشيء من علمه، إلاّ بما شاء، والله فوق عرشه المجيد بذاته، وهو في كل مكان بعلمه».

واهتمّ ابن أبي زيد القيرواني ببيان مذهب أهل السنّة في الأسماء والصفات فأبرز أنّ لله الأسماء الحسنى والصفات العليا، وهو لم يزل بجميع أسمائه وصفاته، وتعالى الله أن تكون أسماؤه وصفاته مخلوقة محدثة.

وفي خصوص القرآن الكريم أشار ابن أبي زيد القيرواني في مقدمة «الرسالة» إلى أنّ «القرآن

كلام الله، ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد».

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ أهل إفريقية عرفوا المذهب الإباضي وهو أحد فروع الخوارج منذ ظهوره بالمشرق أي أواخر القرن الأوّل للهجرة، ويقوم المذهب الإباضي أساسا على التمسّك بمبدإ الإمامة وعلى إنشاء دولة تكون بمثابة استمرار للعهد النبوي في مستوى العدل والرحمة ضدّ ظلم الملوك. وهم يرفضون المبدأ القائل بأنّ الخلافة لا بدّ أن تكون في أهل قريش، ويؤثّرون اعتماد العقل في تفسير الدين وبيان حقيقة العقيدة.

وفي زمن الاضطهاد الذي تعرّضوا له من قبل الخلفاء الأمويين، وخاصّة عاملهم الحجّاج بن يوسف الثّقفي (ت78هـ/697م) ظهر الخوارج بإفريقية واستوطنوا على الأخص جزيرة جربة، ونشط الداعية سلمة بن سعد في نشر هذا المذهب الذي دخل القيروان بعد أن قدم من الشرق ناشرا مبادئ المذهب مستندا في ذلك على نقد أعمال الولاة القائمة على الجور والانحراف. وقد اشتركت فرقة الإباضية مع المعتزلة في القول بمبدإ «التوحيد» و«الوعد والوعيد»، و«نفي الرؤية» (رؤية الله بالأبصار يوم القيامة) والقول بخلق القرآن، وانقسموا إلى فريقين في مسألة «الجبر والاختيار» فأغلبهم وافقوا الأشاعرة في القول بالكسب، وقلتهم وافقوا المعتزلة في القول بالاختيار.

لقد تركّز فهم العقيدة عند الإباضية على وجوب معرفة الله، واعتبار صفاته ذاته عينها وعلى أن الإيمان قول وفعل. ويرى أيمة الإباضية بوجوب المعرفة الإلهية عقلا موافقين في ذلك المعتزلة والماتريدية.

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب الورجلاني «الدليل لأهل العقول» إضافة إلى كتاب أبي خزر الوسياني «الرد على جميع المخالفين» يعدّان أبرز مؤلفين يجسدان إسهام إباضية إفريقية، في مسار الفكر الديني الأباضي بالعالم العربي الإسلامي.

محمّد التلاتلي

[1890–1943م]

ولد محمّد التلاتلي بنابل في 25 أفريل 1890. وهو من أسرة عريقة سُجّل سنة 1902 بالمعهد الصّادقي، حيث عرف بجديّته وحزمه وانضباطه. وفي سنة 1911 أحرز شهادة البكالوريا من معهد كارنو. ثمّ التحق بكليّة الطبّ بتولوز. وناقش أطروحته سنة 1920 حول موضوع كان مولعا به هو قيمة العلامات التشريحيّة للبكارة وأهميّتها ودورها في الزواج عند المسلمين. ونالت هذه الأطروحة عدّة جوائز تقديريّة، منها الميدالية الذهبيّة لكليّة الطبّ بتولوز.

عاد إلى تونس سنة 1921. فاشتغل في غار الدماء طبيبا. لكن وطنية الدكتور محمد التلاتلي ونضاله في صفوف الحزب الحرّ الدّستوري التونسي بقيادة الشيخ عبد العزيز الثعالبي جلبا له استياء السّلط الاستعمارية وهو ما حمله على مغادرة غار الدماء وفتح عيادة خاصّة في العاصمة بنهج باب الخضراء. وكان بالإضافة إلى ذلك طبيب الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة واشتهر بكفايته العالية وتفانيه في معالجة مرضاه.

انتخب المناضل محمّد التلاتلي عضوا في القسم التونسي من المجلس الكبير حيث تمكّن من التنديد بمظاهر الظلم المتفشّي في بلده والدفاع عن المصالح التونسيّة بكلّ ما أوتي من طاقات.

وإلى جانب نشاطه في المجلس الكبير، نشر في الصحف وخاصّة في اليوميّة الفرنسية تونس الاشتراكية عدّة مقالات ناصعة الأسلوب دامغة الحجّة تعرّض فيها إلى معاناة مواطنيه واهتمّ خاصّة بالمتابعة الطبيّة لوضع الحوامل وبضرورة تأسيس دار توليد للمسلمات في تونس. ولمّا رفضت السلط الاستعمارية هذا الطلب قدّم

الدكتور التلاتلي استقالته من المجلس الكبير وانزوى في مسقط رأسه. ولم تفتح دار توليد بمستشفى عزيزة عثمانة إلا بعد وفاته بخمس سنوات. فسميت تلك الدار باسمه، إلى اليوم.

وعرض أيضا في مقالاته إلى الوضع الصحّي المأسوي السائد في البلاد مطالبا بتحسين الهياكل الصحيّة. واهتمّ كذلك بوضع الطلبة التونسيّين في فرنسا. وأسّس سنة 1928 جمعية أصدقاء الطالب التي كانت تهدف إلى جمع الإعانات للطلبة. وكان في كلّ المناسبات يدافع عن كرامة المواطن التونسي وعن حقّه في المساواة ويندّد بما امتلأت به الصحف الاستعمارية من مواقف عنصريّة ومن سلب للتونسيين، كما كان يدافع عن الفلاّحين الصغار وعن حقّ الأطفال التونسيين في التعلّم.

وفي نابل، تولّى إدارة المستشفى الجهوي. وبذل أقصى جهده، أيّام الحرب العالمية الثانية، من أجل تعصير ذلك المستشفى وتنظيم هياكله، معتنيا بمرضاه، بمن فيهم اليهود الذين خلّصهم من قبضة النازيّين.

أصيب الطبيب التلاتلي في ماي 1943 بسكتة قلبية توفّي إثرها وهو في الثالثة والخمسين من عمره.



أحمد التليلي

[1916 – 1967م]

ولد المناضل النقابي أحمد التليلي بقصر قفصة في 10 أكتوبر 1916، وكان والده قد توفّي في سنّ مبكّرة، فكان أحمد أصغر أبنائه السبعة. وتولّت تربيته والدته وأخوه الأكبر علي التليلي. ولما بلغ سنّ الدراسة التحق بالمدرسة الابتدائية في مسقط رأسه، وواصل دراسته بها إلى أن أحرز الشهادة الابتدائية ونجح في مناظرة الدخول للمدرسة الصادقية في جوان 1930، فالتحق بهذه المدرسة العريقة في مستهلّ السنة الدراسية 1930–1931. ولمّا كان يتيم الأب فقد كفلته الجمعية الخيرية الإسلامية بتونس، فكان يزاول دراسته بالصادقية في النهار ويقيم في مأوى الخيرية خارج أوقات الدراسة. ومن التلامذة الذين التحقوا بالصادقية مع أحمد التليلي، نذكر بالخصوص عبد الملك بن عاشور والهادي خفشّة ومحجوب بن ميلاد ومحمد بلّلونة.

وزاول أحمد التليلي دراسته بالصادقية مدّة ستّ سنوات (1930–1936)، لكنّه رفت منها بسبب نشاطه الوطني قبل أن يتمّ دراسته الثانويّة. فتمكّن من الالتحاق بمعهد كارنو حيث زاول دراسته في فترة قصيرة. ثم تحوّل إلى الجزائر العاصمة لإعداد الباكالوريا، وسعى إلى الحصول على مورد رزق إلى جانب مواصلة دراسته الثانويّة. فعمل كاتبا لدى أحد التجّار الجزائريّين ثم فتح مكتبا خاصّا تعاطى فيه مهنة كاتب عمومي. وفي آخر سنة 1937 أصيب أحمد التليلي بمرض عضال أجبره على العودة إلى مسقط رأسه. ولمّا شفي التحق بسلك المعلّمين في قصر قفصة، وانخرط في شعبة الحزب الدستوري الجديد. وفي آخر سنة 1938 تخلّى عن التعليم والتحق بإدارة البريد والبرق والهاتف حيث سيقضي أطول فترة من حياته المهنيّة. ومنذ ذلك التاريخ بدأ نضاله السياسي والنقابي، وسرعان ما أصبح من أبرز قادة الحركة الوطنية في جهة قفصة.

وإثر اندلاع الحرب العالميّة الثانية ركدت الحركة الوطنية ولم تنتعش إلاّ إثر اعتلاء الملك

الوطني محمد المنصف باي العرش في 19 جوان 1942، ثم اكتساح قوّات المحور البلاد التونسية في 9 نوفمبر. فاستأنف الحزب الدستوري الجديد نشاطه بقيادة الدكتور الحبيب ثامر وأخذ في إعادة تنظيم هياكله. وفي ذلك الوقت بالذات وقع الاختيار على أحمد التليلي ليكون على رأس الشعبة الدستوريّة في قفصة، وبعد مدّة وجيزة انتخب كاتبا عامّا للجامعة الدستورية بالمدينة نفسها. وإلى جانب نضاله السياسي قام بنشاط نقابي مكثّف، فربط الصلة بالعمّال التونسيّين في مختلف القطاعات، ولا سيما منها قطاع المناجم، كما ساهم بالاشتراك مع فرحات حشّاد في إنشاء اتحاد النقابات المستقلة بالجنوب. وإثر تأسيس الاتحاد العام التونسي للشغل في 20 جانفي 1946 انتخب كاتبا عاما للاتحاد الجهوي بقفصة، ثم عضوا في الهيئة الادارية للاتحاد العام التونسي للشغل.

وفي سنة 1948 اندلعت الحرب العربية الإسرائيليّة الأولى. فغادر البلاد التونسية عدد كثير من الشبان للالتحاق بالجبهة والقتال في سبيل تحرير فلسطين. وتمكّن بعضهم من الوصول إلى الجبهة والمشاركة في المعارك، في حين اضطرّ آخرون إلى العودة إلى أرض الوطن بعدما منعوا من اجتياز الحدود الليبيّة المصريّة. فاتصل بهم أحمد التليلي قصد إعدادهم للمشاركة في الكفاح المسلّح من أجل تحرير وطنهم.

وفي تلك الفترة بالذات رجع الزعيم الحبيب بورقيبة من القاهرة في سبتمبر 1949، بعد أن يئس من إثارة اهتمام جامعة الدول العربية بالقضية التونسيّة، فرأى أنّه لم يبق أيّ داع إلى مواصلة إقامته في المشرق، وأنّ من واجبه العودة إلى تونس للنظر مع رفقائه في الداخل في السّبل الكفيلة بالإسراع في تحرير الوطن. فبادر أحمد التليلي إلى الاجتماع بالزعيم بورقيبة، وانبثقت عن هذه المقابلة بين الرجلين فكرة بعث «اللجنة القومية للمقاومة» التي ضمّت أحد عشر عضوا من المناضلين المستعدّين لخوض غمار الكفاح المسلّح في حال فشل المفاوضات المزمع إجراؤها مع الحكومة الفرنسية لمنح البلاد التونسية استقلالها الداخلي.

وكلّفت هذه اللجنة بإعداد المقاومين للكفاح المسلّح، في حين عهد إلى أحمد التليلي بمهمّة تنظيم المجموعات المسلّحة وتسليح المقاومين واختيار الأماكن المناسبة لتجميع الأسلحة. وفي هذا الإطار تحوّل سريّا إلى القاهرة في سنة 1951 للنظر في إمكان الحصول على بعض الموارد لشراء الأسلحة. ومن القاهرة سافر صحبة الزعيم الحبيب بورقيبة والمناضل الطيّب سليم إلى ميلانو حيث حضروا بعض الجلسات في مؤتمر الكنفدراليّة الدولية للنقابات الحرّة (سيزل) المنعقد من 4 إلى 12 جويلية 1951، بحضور وفد من الاتحاد العام التونسي للشغل برئاسة فرحات حشّاد.

وفي آخر سنة 1951 زار أحمد التليلي باريس حيث علم بفحوى مذكرة 15 ديسمبر 1951 الشهيرة التي وضعت حدّا للحوار بين تونس وفرنسا وأعطت إشارة الانطلاق للمعركة الحاسمة.

وما إن رجع إلى تونس حتى اندلعت المعركة الحاسمة في 18 جانفي 1952 إثر إلقاء القبض على الزعيم الحبيب بورقيبة ورفقائه. فأخذت المجموعات المسلّحة تتأهّب لخوض غمار الكفاح. وفي الأثناء ألقت السلطة الفرنسيّة القبض على أحمد التليلي يوم 13 فيفري 1952، إثر مقتل عونين من أعوان الجندرمة الفرنسية في منطقة قفصة، واغتيال خليفة بلدة القطار. وتواصل استنطاقه عشرة أيام، نقل على إثرها إلى أحد المحتشدات حيث مكث ثلاثة أشهر. وفي جوان 1952 وجّهت إليه تهمة التواطؤ في عمليات اغتيال، وأودع السجن المدني بتونس

حتى مطلع سنة 1954، في انتظار محاكمته. ثم وضع بعد ذلك تحت الإقامة الجبريّة مدّة ستّة أشهر.

وطوال مدّة اعتقال أحمد التليلي لم تتوقّف المجموعات المسلّحة التي كوّنها عن الكفاح، بل احتدّت المقاومة وتحوّلت إلى حرب عصابات في الجبال مكبّدة العدوّ خسائر هامّة. وتواصل الكفاح المسلّح إلى أن قدم رئيس الحكومة الفرنسية منداس فرانس إلى تونس في 31 جويلية 1954 وألقى خطابه الشهير الذي أعلن فيه اعتراف فرنسا بحقّ تونس في الاستقلال الداخلي. وقبل قدومه إلى تونس ببضعة أيام أطلقت السلطة يوم 12 جويلية سراح أحمد التليلي الذي أسرع إلى استئناف نشاطه السياسي والنقابي.

وعندما تكوّنت وزارة الطاهر بن عمار الأولى في أوت 1954، أسهم في إعادة التنظيم لهياكل الحزب الدستوري الجديد بالاشتراك مع صديقه الطيّب المهيري الذي عيّن مديرا للحزب خلفا للزعيم المنجي سليم. وفي السنة نفسها كلّف بمهام كاتب عام مساعد للاتحاد العام التونسي للشغل وعضوا في المكتب التنفيذي للكنفدرالية الدولية للنقابات الحرّة.

وفي هذا الإطار تحوّل إلى فرنسا لزيارة الزعيم الحبيب بورقيبة الذي كان تحت الإقامة الجبريّة، ثم سافر إلى جينيف حيث اجتمع بقادة الحزب المقيمين بالخارج منذ اندلاع المعركة الحاسمة.

وإثر عودة الزعيم بورقيبة إلى تونس يوم غرّة جوان 1955 والمصادقة على اتفاقيات الحكم الذاتي، عيّن أحمد التليلي أمين مال للحزب، فتحمّل تلك المسؤولية الجسيمة بكلّ كفاية وإخلاص، بالتعاون الوثيق مع مدير الحزب المناضل الطيّب المهيري.

وفي سبتمبر 1955 عاد الزعيم صالح بن يوسف إلى تونس وأعلن معارضته للاتفاقيات التونسية الفرنسيّة، فانقسم مناضلو الحزب الدستوري الجديد إلى أتباع الديوان السياسي وأنصار صالح بن يوسف، واحتدّ النزاع الذي أسفر عن عدد كثير من الضحايا من الجانبين وكاد يتحوّل إلى حرب أهلية. ولم يتردّد أحمد التليلي في تأييد شقّ بورقيبة، لكنّه بذل كلّ ما في وسعه لحقن دماء المناضلين من الجانبين.

وفي الأثناء تطوّر الوضع في الداخل والخارج، وقبلت الحكومة الفرنسيّة الجديدة برئاسة الزعيم الاشتراكي الفرنسي غي مولي إجراء مفاوضات مع حكومة الاستقلال الداخلي لمراجعة أحكام الاتفاقيات التي تعارض مبدأ الاستقلال ووحدة السيادة. وأفضت المفاوضات التونسية الفرنسية إلى إبرام بروتوكول الاستقلال التام في 20 مارس 1956.

وإثر ذلك اضطلع أحمد التليلي بمهام سياسية جديدة، إلى جانب مهامّه السابقة في الديوان السياسي والاتحاد العام التونسي للشغل، إذ انتخب في 8 أفريل 1956 نائب رئيس المجلس التأسيسي، وانتخب في تلك الفترة نفسها رئيسا لبلدية قفصة. وفي هذه السنة بالذات ظهر انشقاق في صفوف الاتحاد العام التونسي للشغل إثر الخلاف الذي جدّ بين أحمد بن صالح الكاتب العام للاتحاد والمناضل الحبيب عاشور الذي انفصل عن المنظمة النقابيّة الوطنية وأسّس منظمة جديدة هي «الاتحاد التونسي للشغل». ولم يدم هذا الانشقاق طويلا، فما لبث أن عاد الوفاق بين الشقّين المتنازعين في سنة 1957، إثر إقصاء أحمد بن صالح من الأمانة العامّة للاتحاد العام التونسي للشغل وعودة الحبيب عاشور ورفقائه إلى حضيرة الاتحاد. وكان الاتفاق بالإجماع على انتخاب أحمد التليلي كاتبا عاما للاتحاد العام التونسي للشغل. فواصل الاضطلاع بهذه المهمّة من سنة 1957 إلى سنة 1963، تاريخ تعيين الحبيب عاشور كاتبا عامّا للاتحاد.

ورغم المسؤوليّات الجسيمة التي كان يتحمّلها أحمد التليلي فقد كلّفه الرئيس الحبيب بورقيبة منذ سنة 1955 بالشؤون

الجزائرية، وبالعلاقة بين الدولة التونسية وجبهة التحرير الوطني الجزائرية وجيش التحرير الوطني. فكان المشرف على التنسيق بين الحكومة التونسيّة وجبهة التحرير بالنسبة إلى كلّ ما يتعلّق بتزويد جيش التحرير بالسلاح والعتاد وحفظ الأمن في مخيّمات اللاّجئين الجزائريّين في البلاد التونسية. فاضطلع بجميع هذه المهامّ على أحسن ما يرام طوال سبع سنوات (1955–1962)، وذلك بالتعاون الوثيق مع كلّ من الباهي الأدغم كاتب الدولة للرئاسة والدفاع الوطني، والطيّب المهيري وزير الداخلية، وعبد المجيد شاكر مدير الحزب.

وعلاوة على كلّ هذه المهامّ والمسؤوليات، عيّن أحمد التليلي في سنة 1961، في أثناء معركة الجلاء، مندوبا سياسيّا مكلّفا بالإشراف على العمليّات الحربية في الجنوب التونسي.

ولما غادر الكتابة العامّة للاتحاد العام التونسي للشغل، رحّب بانتخاب صديقه الحبيب عاشور للاضطلاع بهذه المهمّة الجسيمة، معربا عن أمله في أن يسير الاتحاد في المنهج الذي رسمه له فرحات حشّاد، إلاّ أن العلاقات بدأت تتوتّر بين الحزب والاتحاد منذ انعقاد مؤتمر بنزرت سنة 1964 الذي قرّر انتهاج سياسة التعاضد وتغيير اسم الحزب الدستوري الذي أصبح يسمّى «الحزب الاشتراكي الدستوري». وحاول الحزب فرض وصايته على المنظمات القومية. فعارض الحبيب عاشور هذا الاتجاه وسانده أحمد التليلي الذي بدأ يتضايق من تصرّفات بورقيبة وانفراده بالسلطة.

وفي الأثناء شبّ حريق يوم 7 جانفي 1965 في العبّارة الرابطة بين صفاقس وقرقنة، والتابعة لشركة يديرها الحبيب عاشور. وأسفر الحادث عن عدد من القتلى والجرحى بين السيّاح الأجانب. فاستغلّت الحكومة الفرصة لتتبّع الحبيب عاشور قضائيا، وإزاحته عن الأمانة العامة للاتحاد العام التونسي للشغل. وطلب وكيل الجمهورية رفع الحصانة عن الحبيب عاشور النائب في مجلس الأمّة. فوافق المجلس على هذا الطلب رغم معارضة أحمد التليلي الذي قرّر مغادرة البلاد نهائيا. وهو ما وقع بالفعل إثر موافقة مجلس الأمّة على قرار رفع الحصانة وإحالة المتّهم على المحكمة، فغادر أرض الوطن يوم 29 جوان 1965.

وفي جويلية 1965 أسهم أحمد التليلي في أشغال مؤتمر للكنفدرالية الدولية للنقابات الحرّة، واتّصل برفيقه النوري البودالي الذي كان قد عيّن في الشهر نفسه كاتبا عاما للاتحاد العام التونسي للشغل بالنيابة. وأخبره بأن الوضع في تونس قد ازداد خطرا، منذ إخضاع الاتحاد لهيمنة الحكومة والحزب. ورغم فصل أحمد التليلي عن الحزب إثر إصداعه بمعارضته لسياسة الحكومة، فإنه لم يتردّد في توجيه رسالة إلى الرئيس بورقيبة من نيويورك مؤرّخة في 20 ديسمبر 1965، هنّأه فيها بحلول رأس السنة الميلادية الجديدة، وتمنّى «أن يزول عن قريب الخلاف [القائم بينهما]، بتمكين شعبنا العزيز من تصريف شؤونه بنفسه عمليّا على النحو الديمقراطي الكفيل وحده بضمان مستقبل زاهر لتونس الخالدة».

ولما علم بأن الوضع لم يتغيّر في تونس، أردف تلك الرسالة برسالة ثانية مؤرّخة في 25 جانفي 1966، حلّل فيها بصراحته المعهودة الوضع الحقيقي السائد في البلاد، وما ينطوي عليه من مخاطر ذات عواقب وخيمة، والحلول التي يراها كفيلة بتصحيح الوضع، وفي مقدّمتها تمكين الشعب التونسي من تصريف شؤونه بنفسه، «في ظلّ نظام ديمقراطي يضمن للشعب الأمن والحرية والاطمئنان على مصيره».

وفي الأثناء أصيب أحمد التليلي بمرض عضال، وتدهورت حالته الصحيّة في مطلع سنة 1967. فقرّر العودة إلى أرض الوطن، وأدلى عند وصوله إلى تونس يوم 25 مارس 1967 بتصريح أشاد فيه بالرئيس الحبيب بورقيبة الذي كان هو أيضا مريضا. وخصّه المناضلون باستقبال حارّ،

متمنّين له الشفاء العاجل. وبمناسبة الاحتفال بعيد النصر أصدر الديوان السياسي في 30 ماي 1967 بلاغا بإمضاء رئيس الحزب أعلن فيه رفع قرار الرفت المتّخذ ضدّ أحمد التليلي ورجوعه إلى حضيرة الحزب.

وبعد بضعة أيام تدهورت حالته الصحيّة فنقل على جناح السرعة إلى باريس حيث أجريت عليه عمليّة جراحية دقيقة في مستشفى سان انطوان توفّي على إثرها في 25 جوان 1967 عن سنّ تناهز الإحدى والخمسين سنة. ونقل جثمانه إلى تونس حيث نظّمت له الحكومة والحزب جنازة وطنية.

سيدي أحمد التليلي

[1709– 1763م]

سيدي أحمد التليلي أو سيدي تليل كما تتداول اسمه عامة الناس هو واحد من أبرز أعلام التصوّف الذين ظهروا بالوسط الغربي للبلاد التونسية في القرن الثامن عشر. وهو سليل وسط عائلي عرف بالزهد والصلاح، وإيثار العلم والإصلاح الاجتماعي، فكانت زاويته التي لا تزال قائمة إلى اليوم مركز تعليم وتثقيف ومجاهدة روحية، وفضاء يقدم خدمات اجتماعية كإيواء الطلبة، وإغاثة المحتاجين، وتوفير القوت والمسكن لضعفاء الحال وذوي الحاجة، ومقرّ هذه الزاوية بمدينة فريانة.

وُلد سيدي أحمد التّليلي سنة 1709م بمدينة فريانة، وهو حفيد العالم والصالح سيدي عباس بن عبد اللطيف. نشأ في وسط عائلي يتجاذبه طرفا العلوم الشرعية الفقهية والعلوم الذوقية الصوفية التي كانت كل من الطريقة القادرية والطريقة الرحمانية أساس منبعهما واستمرارهما في تلك المنطقة من البلاد التونسية.

وقد حفظ سيدي أحمد التليلي القرآن الكريم منذ عهد مبكّر ثمّ حذق علوم العربية وآدابها وارتحل بعد ذلك إلى بلاد الجريد طلبا للتعمّق في العلوم والمعارف، فقصد زاوية سيدي عبد الحفيظ الواقعة قرب جبل الأوراس بالجزائر، واستمرّ به المقام هناك سبع سنوات قضاها في طلب العلوم الدينية الشرعية والعلوم الذوقية الصوفية وما يتصل بها من أسرار وعلوم روحية.

ولمّا عاد سيدي أحمد التليلي إلى فريانة قرر بناء مدرسة بها تكون بمثابة مركز للعلم والمعرفة، وقطب زهد وصلاح، وهي التي صارت في ما بعد زاويته.

وقد ذاع صيت الشيخ أحمد التليلي حتى إنّ ابن أبي الضياف في إتحافه يقول عنه «إنه من علماء الظاهر والباطن» ووصفه الشيخ الورثلاني الجزائري في رحلاته «بأن له يدا في علوم كثيرة».

وللشيخ أحمد التّليلي أعمال مخطوطة وتآليف مازالت لم تر النور، وأغلبها مودع بزاويته. ولعلّه كان أميلَ إلى التّدريس والنّسخ والتقييد منه إلى التّأليف.

وقد عرف الشيخ أحمد التليلي باعتداله وواقعيّته وانسجامه مع محيطه الرّيفي البدوي الذي كان بأمسّ الحاجة إلى التعلّم وكسر طوق الجهل والأميّة.

ولم يسع الشيخ إلى فرض نفوذه وجمع الأتباع بل فتح «زاوية» كانت بمثابة الفضاء الرّوحي المؤسّس على التقوى.

وتعتبر الزاوية التليلية من أعرق الزوايا القادرية في تونس فقد أقيمت في النّصف الأول للقرن الثامن عشر قبل زاوية الإمام المنزلي التي اعتبرها البهلي النيال والتليلي العجيلي من أقدم الزوايا القادرية في تونس.

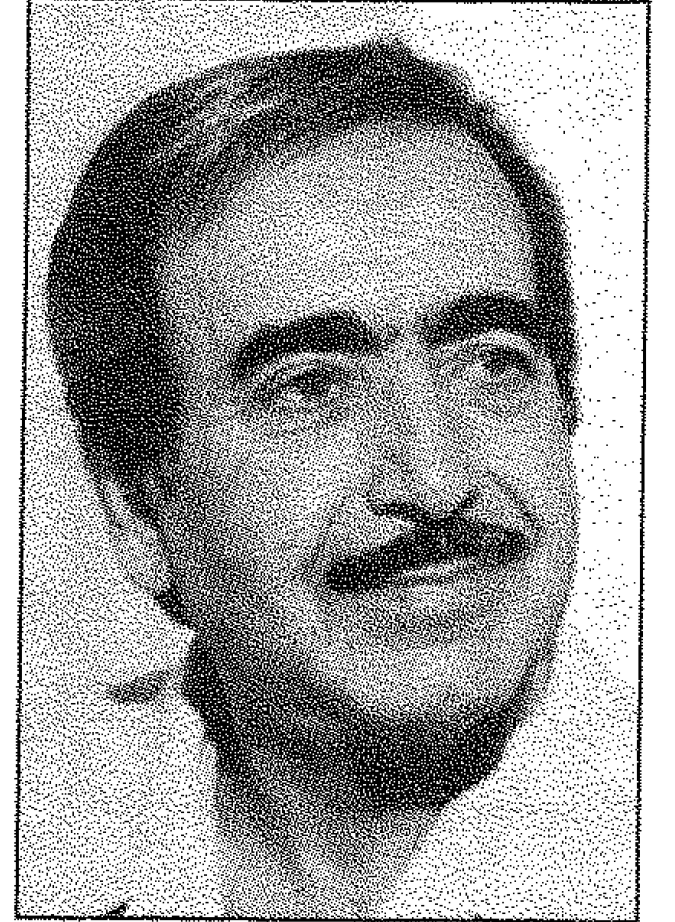
أبو العرب التّميمي
[توفّي سنة 333هـ/ 945م]

محمّد بن أحمد بن تمام التّميمي القيرواني أبو العرب معدود من المحدّثين والأدباء والمؤرّخين.

طلب العلم رغم معارضة والدته الّتي كانت ترغب أن يكون مثل آبائه وأعمامه من الأمراء. أخذ عن جماعة من أصحاب الإمام سحنون وأبي داود العصار وعيسى بن مسكين وابن طالب وعبد الجبار بن خالد. يقال إنّه، وفي آخر حياته، أذلّته الدّولة العبيديّة وتوفّي في السجن.

من مؤلفاته:

- كتاب التاريخ.
- كتاب طبقات علماء أهل البصرة.
- كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس (طبع).
- كتاب المحن (طبع).



يوسف التميمي
[1921–1983م]

يوسف التميمي من أبرز المطربين الذين جسّدوا خُصوصية الموسيقى والغناء في تونس، لا سيما أنّه ظلّ وفيّا للمقامات والطبوع التونسيّة ولا يغني غالبا إلاّ باللّهجة التونسية. وقد زاوج في تجربته ومسيرته الفنيّة بين مدرستين كبيرتين الأولى في الإنشاد الصوفي والأخرى في المالوف والموشحات.

وُلد بمنزل تميم في 20 سبتمبر 1920، وكان أوّل عهده بالغناء بالدكاكين والمقاهي الصغيرة التي تُقام فيها السهرات الفنيّة.

وانتقل بعد ذلك إلى العاصمة حيث استقرّ بجامع سيدي يوسف بالمدينة العتيقة للتعلّم والقراءة، وساعدت الظروف هذا الفنان على إبراز موهبته، فالتحق بسلامية ابن محمود (فرقة إنشاد صوفي) وانتمى إلى الرشيديّة، وخاض تجربة التمثيل في مسرحيات: «مجنون ليلى» و«صلاح الدين الأيوبي» و«ألف ليلة وليلة» و«اليتيمتين»، وعمل إلى جانب البشير المتهني، مدير فرقة تونس للمسرح، وأسس فرقة خاصّة به سمّاها «فرقة ليالي تونس».

ويعدّ يوسف التميمي من تلامذة خميس ترنان، إذ تلقى عنه مبادئ أداء المالوف والموشحات التونسية الأصيلة.

وفي سنة 1957 انضم إلى فرقة الإذاعة الوطنية فصار من أبرز عناصر مجموعتها الصوتية ومن أحسن مطربيها. وقد لحّن بعض أغانيه من أشهرها لحن أغنية «أنا جيتك يا رمّال».

عبد الرحمان التنوخي
[توفي سنة 731م]

كان أبو الجهم عبد الرحمان بن رافع التنوخي من فضلاء التابعين. وهو أحد العشرة التّابعين الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز ليفقّهوا أهل إفريقية. ولاّه موسى بن نصير قضاء إفريقية سنة 80هـ/699م وهو أوّل مَنْ تولّى قضاء القيروان بعد بنائها. وكان ثقة عدلا في أحكامه، روى عن عبد الله بن عمر وجمع من الصحابة وعنه يروي عبد الرحمان بن زياد وغيره.

توفي بالقيروان سنة 113هـ/ 731م.

مركز التوثيق الوطني

يعتبر مركز التوثيق الوطني أوّل وحدة توثيق أحدثت بتونس لتغطّي قطاع الإعلام انطلاقا من مصلحة التوثيق بكتابة الدولة للأخبار سنة 1957، ومرورا بالإدارة الفرعيّة للتوثيق سنة 1975، إلى أن حصل المركز على الذّاتية القانونية والاستقلال المالي بالأمر المؤرخ في 18 سبتمبر 1982 بإشراف كتابة الدّولة للإعلام لدى الوزير الأول. ومن مشمولاته أنه:

- يجمع جميع الوثائق المتعلّقة بمختلف مظاهر الحياة الوطنية والدّوليّة ويقتنيها ويعالجها، وخاصة منها المتعلّقة بالإعلام العام والسياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وبالمعلومات حول علوم الاتصال.
- ينفّذ السّياسة الوطنيّة للإعلام والتّوثيق بالتنسيق مع بقيّة المراكز القطاعية الوطنية.
- يسهم في تركيز الشبكة الوطنية للإعلام والتّوثيق وفي العمل على التنسيق بين أطرافها وربطها بالشبكات الوطنيّة الأخرى والأجنبية.
- ينظّم دورات تدريبيّة ويتعهّد بمهمة التّكوين المستمر لأعوانه ولأعوان ينتمون إلى وحدات توثيقيّة أخرى والطلبة في علوم الإعلام والاتّصال.
- ينظّم مؤتمرات وملتقيات ومعارض.
- يمثّل تونس في التظاهرات التّوثيقيّة المندرجة في حقل اختصاصه.
- يشتمل على مركز موزّع للبنك الدولي للإعلام حول الدّول المستعملة للّغة الفرنسيّة، ويمثّل هذا البنك بالنّسبة إلى الدّول المغاربية ولبنان ومصر وجيبوتي.
- يمثّل نقطة بؤريّة وطنيّة لنظام الأمم المتّحدة للإعلام العلمي والتّقني التابع لليونسكو منذ سنة 1992.
- وهو منخرط منذ سنة 1978 بعدّة منظّمات دوليّة غير حكوميّة كالجامعة الدّوليّة للتوثيق والمجلس الدّولي للأرشيف، والفرع الإقليمي العربي للمجلس الدولي للأرشيف، وغير ذلك.

ويقدّم مركز التّوثيق القومي خدمات متعددّة للباحثين والمستفيدين عموما. من ذلك أنه يؤدّي خدمات معلوماتيّة وثائقيّة، سواء على عين المكان أو عبر قنوات الاتّصال التّقليديّة. ويضع على ذمّة المستفيدين:

- مكتبة بها حوالي 14000 كتاب في ميادين التاريخ التونسي تتعلّق بعدّة بلدان وفي السياسة والثقافة وعلوم الاتصال.
- مصلحة للدّوريّات بها 2400 عنوان.
- سير ذاتيّة تأليفية ومحيّنة لشخصيّات تونسيّة.
- خزانة صور ذات 50.000 صورة فوتوغرافيّة لشخصيات ومعالم تونسيّة وأحداث وطنيّة ومناشط مختلفة.
- مصلحة للتّوثيق الإعلامي ذات 10.000 ملفّ موضوعي بها قصاصات صحفيّة تغطّي مظاهر الحياة الوطنيّة والعلاقات الدوليّة وتاريخ الحركة الوطنيّة ومناشط المنظّمات الوطنيّة والدّولية وعلوم الاتّصال.

ومن خدماته أيضا وضع قواعد المعلومات المختلفة على ذمّة المستفيدين، عن بعد وإحداث بوابته التوثيقية الإلكترونية التي وضعت على شبكة الأنترنات في ماي 2009. وتحتوي هذه البوابة لمركز التوثيق الوطني على ملفات توثيقية حول تونس بالإضافة إلى قاعدة للبيانات والقصاصات الصحفية تضم أكثر من 260 ألف مقال صحفي من مختلف الصحف الوطنية العمومية والخاصة والمستقلة.

وتضم أيضا فهرسًا بيبليوغرافيا يحتوي على 14 ألف كتاب ومرجع ومعجم موضوعة على ذمة العموم والإعلاميين والباحثين.

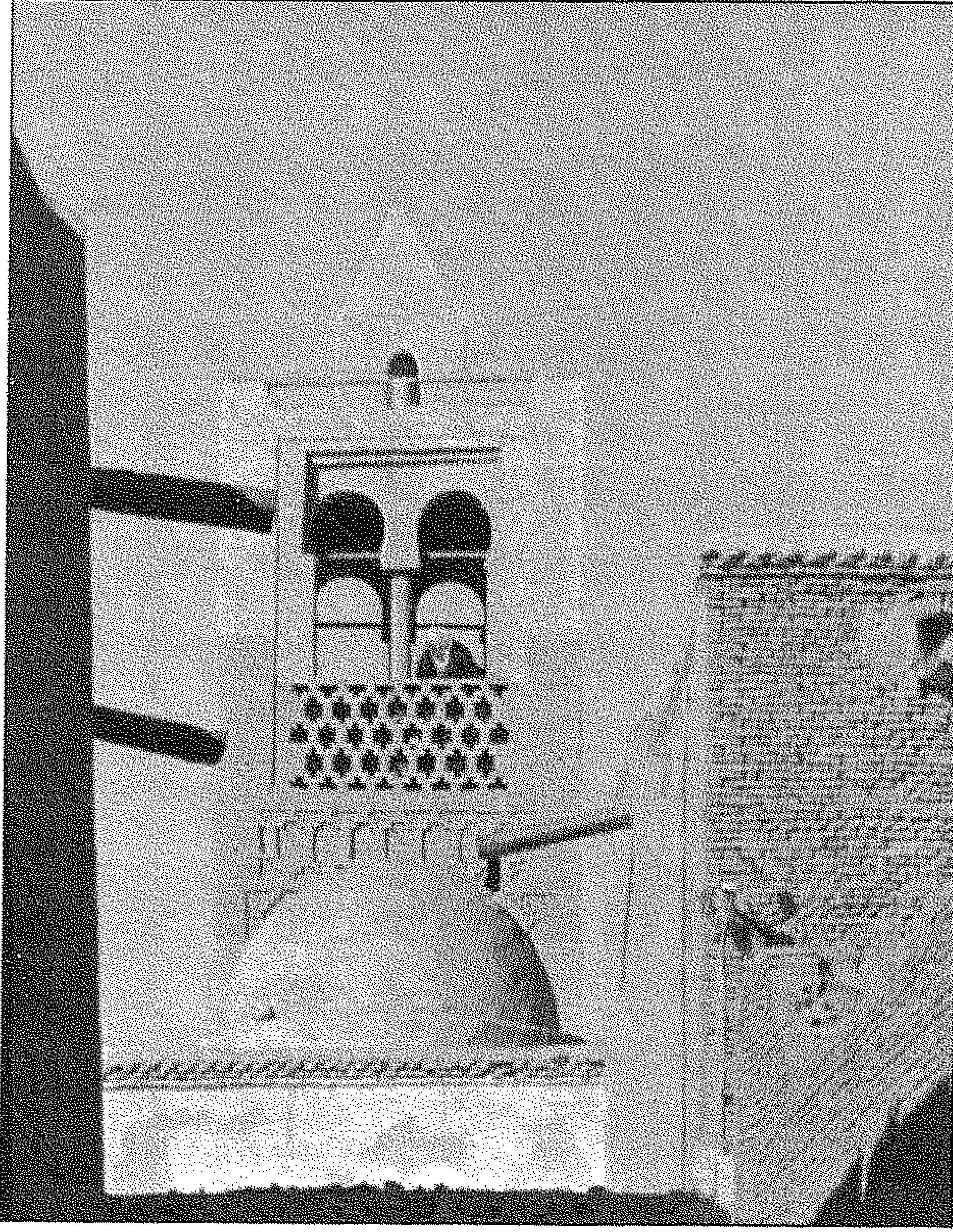
ويشتمل المركز على عدّة مصالح، وهي:

- مصلحة الاطّلاع على الوثائق المصغّرة واستنساخها.
- مصلحة استنساخ مصوّر للوثائق المنتقاة من قبل المستفيدين.

ـ مصلحة لبيع منشورات المركز.
ـ مصلحة لتوزيع منشوراته.
ـ مصلحة للتّكوين والتّأهيل والتّأطير في ميدان اختصاص المركز.
ـ مصلحة للتّوجيه الوثائقي.
ـ مصلحة لإعداد البحوث الوثائقيّة حسب طلب المؤسّسات والأفراد. وهكذا يوفّر مركز التّوثيق الوطني للباحثين ورجال الإعلام والمستفيدين، عن كثب أو عن بعد، المعلومات المطلوبة والوثائق والمراجع المفيدة مع ما يقتضيه استغلالها من تقنيات سمعيّة وبصريّة وإعلامية، إسهاما منه في التنمية في مجالات الإعلام والتّوثيق والثقافة الشّاملة.

تـوزر

تقع توزر (Thuzuros) كما كانت تسمّى في العهد الروماني بحسب تسمية الرّحالة العرب شمالي غرب شط الجريد أو سبخة تاكمرت في منطقة مشهورة بواحاتها وإنتاجها للتمور لا سيّما دقلة النور الرّفيعة، وهي عند الجغرافيين العرب قاعدة إقليم قسطيلية، وقد أطلق المقدسي الاسم على المدينة وناظرها بالبصرة وأشاد برخص أسعارها حتّى بلغ حمل جمل تمرا درهمين، وذكر لها نهرا يغيب في البساتين كثيرة النخيل، ولذلك كان خراجها مرتفعا حسب البكري الذي وصفها بأنّها "مدينة كبيرة عليها سور مبني بالحجر والطوب، ولها جامع محكم البناء وأسواق كثيرة، وحولها أرباض واسعة آهلة، وهي مدينة حصينة لها أربعة أبواب". ووجد التجاني كثيرا من أهلها، في بداية ق8هـ/14م، يسكنون البساتين في مبان أضخم من التي في المدينة، كما وجد بها جامعي خطبة وحمّاما، واستحسن باب المنشر حيث مجمع الماء واجتماع القصّارين لغسل الثياب والفرش الملوّنة ونشرها. ويعرف الموضع بوادي الجمال،



أحد جوامع مدينة توزر

ومنه تتوزع المياه بالعدل حسب عدد الأقداس على طريقة ابن الشبّاط.

تـونـس

(Tynes = Thunes = Oppidum Tunicenses)

كانت مدينة تونس تسمّى في القديم ترشيش، وكانت مركزا فينيقيا معاصرا للعاصمة القديمة أوتيك، فلمّا تأسّست العاصمة الجديدة قرطاج أصبحت ترشيش تابعة لها، واستمرّت كذلك في العهدين الروماني والبيزنطي حتّى مجيئ العرب عندما نقل حسان بن النعمان سكان قرطاج إلى تونس، فأصبحت المدينة الثانية بعد القيروان منذ سنة 78هـ/697م، وذلك بفضل موقعها الإستراتيجي الذي أوحى إلى القائد حَسّان أن يؤسس بها أول دار لصناعة السفن بالمغرب الإسلامي، وجلب لها ألف عائلة قبطية للقيام بهذه الدار للدّفاع عن الشواطئ

التونسية من هجومات الأسطول البيزنطي المتكررة في مرحلة أولى، ولفتح جزر البحر الأبيض المتوسط وبعض الشواطئ الأوروبية في مرحلة ثانية. ولم يمض العهد الأغلبي حتى أصبحت مدينة تونس مزدهرة العمران والاقتصاد. فقد أسس عبيد الله بن الحبحاب جامع الزيتونة الذي كان جامعة تخرّج فيها جلّة العلماء والأدباء. وراجت صناعة الحرير والخزف، وانتشرت حولها القرى الفلاحية، وأصبحت ذات حصن وأرباض وأبواب، نذكر منها القصبة وباب الجزيرة، نسبة إلى جزيرة شريك أي الوطن القبلي، وباب قرطاجنة لأنه يؤدي إليها شرقا، وباب السقّائين شمالا وباب أرطة غربا، وباب البحر، وكان يحيط بالسور خندق بقيت تسميته إلى اليوم بنهج الحفير. ومن أهم قصور تونس الأغلبية قصر السلسلة قبلة الميناء لحماية السفن، وقصر جبل التوبة حيث مغارة الولي أبي الحسن الشاذلي.

وقد أشاد الرحالة الذين زاروا تونس برخائها ونظافتها، فذكروا أسواقها ومتاجرها وحماماتها وفنادقها، ولاحظوا عضادات أبواب منازلها الرخامية. وقد اقتضى التمصير الإسلامي للمدينة العربية، كما تجسّم في مدينة تونس، أن ترتّب الأسواق في دوائر يحيط بعضها ببعض حول الجامع الكبير، فخصصت دكاكين الدائرة الأولى الموالية مباشرة لجامع الزيتونة للمتاجر النظيفة التي لا تسبب الضوضاء فلا تزعج المصلين مثل دكاكين العطارين والملابس والأقمشة والفواكه الجافة والذهب والفضة والأواني المستوردة والمواد الثمينة. وخصصت الدائرة الثانية لدكاكين الخياطين وصناع الأحذية والشاشية والقوافي والبرانسية، على حين خصصت الدائرة الثالثة لصناعة النحاس والسلاح والنجارة. أما الدائرة الرابعة فخصّصت لصناعات التّلوين كالدّباغة والصباغة. ولأسواق تونس أمناء ومحتسبون يحمون الصنعة والمستهلك من أنواع الغش، ولها حُرّاس وأبواب تغلق ليلا لحماية دكاكين المواد والبضائع الثمينة من السرقة. وتوجد داخل الأسواق وحول الجامع الكبير الفنادق والوكالات والحمامات والمدارس التي كان يقيم بها الطلبة. وبعد هذه المنطقة التجارية والصناعية وعلى امتداد الأنهج والطرقات تتلاصق الأحياء السكنية بمتطلباتها وخاصة المساجد والمخابز والزوايا والكتاتيب ومتاجر المواد الغذائية وغير ذلك. ومن مكان إلى آخر تلفت الأنظار دار متميّزة المعمار بادية الثراء يسكنها أحد كبار التجار أو أعيان السلطة. ومنذ القرن الخامس للهجرة 11م تأكدت الحاجة إلى توسيع مدينة تونس، فهدم السور في بعض نواحيه لزيادة أحياء جديدة، أولها ربض باب السويقة وربض باب الجزيرة، وتلاحمت المباني السكنية والتجارية والصناعية بهذه الأرباض حتى احتيج إلى ضمّها إلى المدينة الأصلية بأسوار جديدة منذ القرن السابع الهجري / 13م. وأسس السلطان الحفصي سورا على القصبة لدواوينه وجنده من العلوج النصارى. وشهدت المدينة تطورا كبيرا بعد خراب مدينة القيروان أواسط القرن الخامس هـ / 11م ونشأت بها إمارة بني خراسان، التي انتهت سنة الأخماس (555هـ/1160م) تاريخ سيطرة الموحدّين على كامل إفريقيّة. واستقل بتونس الأمير الموحّدي عبد الواحد بن أبي حفص سنة 603هـ/1206 ـ 1207م ليؤسس الدولة الحفصية ويجعل من تونس مدينة العلوم والفنون والصناعات بفضل إسهام الهجرة الأندلسية الأولى وعلاقات دولته التجارية مع إفريقيا وآسيا وأوروبا. فقد كانت العلاقات بين الدولة الحفصية والدول الأوروبية متينة جدّا، خاصة مع الجمهوريات الإيطالية: بيزا وجنوة والبندقية في مجال التبادل التجاري. وهو ما شجع على استقرار بعض التجار في تونس، وقد سمح لهم السلطان الحفصي ببناء الفنادق والكنائس وممارسة شعائرهم بكل حرية. واستخدم الحفصيون عدّة علوج مرتزقة في الجيش. ولم يمنع ذلك من قيام لويس التاسع

بحملته الصليبيّة الفاشلة على تونس سنة 668هـ/1270م، ومن محاصرة ملك فرنسا شارل السادس تونس بأسطوله سنة 730هـ/1330م، لكن دون جدوى. وإلى العهد الحفصي تعود إنجازات عمرانية مهمّة منها القصبة وجامعها، والأسواق المتبقيّة، والمارستان بين باب بنات ونهج دار الجلد، والأبواب مثل باب المنارة والباب الجديد، والمكتبات التي كانت تعدّ حَوَالَيْ 36.000 كتاب بالقصبة وبجامع الزيتونة. وهو ما يدل على ازدهار العلوم ونبوغ علماء أمثال العلامة ابن خلدون.

ومنذ القرن السابع هـ/13م ضمت تونس المدينة النواة من باب سويقة إلى الباب الجديد ومن باب البحر إلى القصبة، وكان يحيط بها سور تَضَرَّرَ إثر الحرب الصليبية الثامنة. وحول أسوار المدينة تكونت أرباض وهي أحياء سكنية للنازحين من الأرياف ومن داخل البلاد. وقد تحولت ساحاتها إلى أسواق تلبي حاجات الفلاحين مثل رحبة الغنم وسوق الخيل وسوق القمح وسوق الحلفاوين وسوق القلالين. ووضعت الصناعات المختلفة داخل المدينة قرب الأبواب لتلبية الطلبات، مثل الحدّادين قرب الباب الجديد والصباغين قرب باب الجزيرة والسراجين قرب باب المنارة وسوق سيدي عبد السلام المعروفة قرب باب سويقة.

ومنذ بداية القرن السادس عشر بدأ الصراع الإسباني العثماني على تونس، فقد طلب الأخوان برباروس، وهما من القراصنة الأتراك، من الحسن الحفصي أن يسلمهما جزيرة جربة ليتحصنا بها، فرفض واستنجد بالإسبان الذين ركزوا حامية في قلعة حلق الوادي إلى أن أطردهم سنان باشا سنة 1574م. وجعل من تونس إيالة عثمانية يحكمها باشا ثم داي وباي. وقد شهدت بداية العهد التركي ـ العثماني ازدهارا ثقافيا واقتصاديا بتكاثر المساجد والمدارس الحنفية وإمضاء اتفاقيات تجارية مع فرنسا وإنجلترا وهولاندا وغيرها. وقد استقبلت تونس في عهد عثمان داي الجالية الأندلسية الأخيرة فوظفت مهاراتها في شتى المجالات وخاصة في صناعة الشاشية والحرير والجليز والنقش على الرخام. وهو ما يشهد به جامع حمودة باشا وجامع يوسف داي ودار الباي وغيرها، وخاصة إنجازات حمودة باشا المرادي الكثيرة ومارستان أو مستشفى عزيزة عثمانة.

وبعد قيام الدولة الحسينية سنة 1705م دخلت البلاد في ما يعرف بالفتنة الحسينية الباشية طيلة نصف قرن آلت بعده الأمور سنة 1756م إلى أبناء حسين بن علي إلى يوم إعلان الجمهورية في 25 جويلية 1957م.

وقد نفّذت بتونس في عهد الوزير الأكبر خير الدين باشا التونسي إصلاحات ترمي إلى تقييد الحكم المطلق بالقانون ونشر مبادئ العدل والحرية وتعصير التعليم. ولكن تمركز «الحماية الفرنسية» في 12 ماي 1881م بأسبابه ونتائجه حال دون استثمار تلك الإصلاحات.

وتزخر مدينة تونس بالمعالم التاريخية التي عُني بدراستها وترميمها، وأهمها على الإطلاق جامع الزيتونة الذي أسسه الوالي عبيد الله بن الحبحاب سنة 116هـ/734م، ثمّ جدّده الأمير الأغلبي زيادة الله الثاني سنة 250هـ/864م، وقد أضاف إليه بنو زيري قبّة البهو والرواق القبلي وجهّز بنو خراسان أبوابه الخارجية وخاصة الباب الضخم المفتوح على سوق القماش، وأعاد الحفصيون جلّ أبوابه وأضافوا إليه مكتبة في الركن القبلي الشرقي تنسب إلى أبي عمرو عثمان 1435 ـ 1488م. وأسهم الأتراك العثمانيون في تحلية المحراب بالجص المنقوش، وفي سنة 1312هـ/1894م أبدلت الصومعة التركية بالصومعة الحالية ورُمّم بعد الاستقلال.

وفي حي باب منارة يوجد جامع القصر الذي بناه الأمير أحمد بن خراسان في العشرين سنة الأولى من القرن السادس الهجري / 12م.

وقرب جامع التوفيق أو جامع الهواء قبة سيدي قاسم الجليزي الذي نزح إلى تونس بعد

سقوط غرناطة، فلا غرابة في أن يبنيها بالأشكال والجليز الأندلسي. وبجواره دفن آخر ملوك الحفصيين واسمه أحمد (ت 973هـ/1569م).

ومن أبواب تونس باب المنارة قريبا من حي القصبة، بناه الأمير الحفصي أبو زكرياء الأكبر، ثم أصلحه الأمير أبو محمد أبو عصيدة سنة 719هـ/1320م حسب النقيشة المثبتة فوقه من داخل السور. وقد هدم هذا الباب في ستّينات القرن الماضي، وبقي اسمه دالا على مكانه، في حين تدل الصور على شكله الموحّدي المراكشي، وكذلك الباب الجديد الذي فتح في القرن الثامن، ومازال شاهدا على تأثير الموحدين في العمارة التونسية.

ومازالت بقايا الحنايا الحفصية، وهي جزء من الحنايا الرومانية التي كانت تجلب مياه زغوان إلى قرطاج ثم إلى باردو، حيث قصور الحفصيين في راس الطابية وبساتين أبي فهر بين أريانة وسكرة، حيث اكتشفت سنة 1994م فسقية عظيمة.

ومن أشهر الدُّور دار ابن عبد الله في تربة الباي، وهي قصر لأسرة كاهية بُنيت في القرن الثاني عشر الهجري / 18م. وكذلك دار حسين بباب المنارة التي كانت ملكا للأسرة نفسها، ثم صارت مقرا لبلدية تونس قبل الحماية، ثم مركزا لقيادة جيش الاحتلال، ثم مقرا للمعهد الوطني للتراث منذ الاستقلال.

وفي تونس عدّة تُربات رائعة الفن، أُولاها تربة يوسف داي (ت 1047هـ/1637م) داخل الجامع الذي يحمل اسمه، وتبدو في صورة قبة هرمية مغطاة بالقرميد الأخضر الأندلسي. وبالقرب منها وفي جامع حمودة باشا المرادي (ت 1076هـ/1666م) تُربة أخرى في شكل الأولى مع زيادة عناصر فنية إيطالية في مدخلها. أما تربة البايات فقد احتوت على قبور أمراء الدولة الحسينية، مَنْ حكم منهم ومن لم يحكم، وقد كانت أيام تأسيسها في القرن الثاني عشر/18م في صورة منزل تونسي الطراز.

وتنتشر في تونس عدّة مدارس، منها المدرسة السليمانية في سوق القشاشين، أسسها علي باشا الأول سنة 1168هـ/1754 ـ 1755م وأتمّها ابنه سليمان فعرفت باسمه، والمدرسة الباشية أو مدرسة بئر الأحجار في نهج الباشا نسبة إلى علي باشا الثاني الذي أنشأها سنة 1170هـ /1756 ـ 1757م وتنسب أيضا إلى الباشا علي الأول، ولعله شرع في بنائها فأتمّها علي الثاني، وهذا الأخير هو الذي أنشأ أيضا مدرسة حوانيت عاشور قرب نهج سيدي إبراهيم الرياحي.

وتعود أقدم الزوايا في تونس إلى الدولة الحفصية، وأشهرها زاوية سيدي محرز بن خلف "سلطان المدينة" (ت 413هـ/1022م) التي فقدت قيمتها الأثرية نظرا إلى التحويرات التي تعاقبت عليها، والبناء الحالي يرجع إلى مُدة حسين بن علي تركي مؤسس الدولة الحسينية، ثم جدّد محمد الصادق باي سنة 1279هـ/1862م قبابها وواجهاتها الخارجية. وهي تنقسم إلى قسمين: قسم خارجي متكوّن من الدريبة المستطيلة الشكل وغرف الزوار، ويتبعه صحن محاذ للمقبرة القديمة، وهو يتقدم القسم الثاني حيث تابوت الولي. وبنهج سيدي إبراهيم الرياحي زاويته التي بناها أحمد باي الأول سنة 1266هـ/1850م وجدّد قبتها الصادق باي سنة 1295هـ/1878م، وزاوية سيدي عبد القادر بنهج الديوان أنشأها الحاج محمد الميزوني سنة 1267هـ/1851م.

ومن أبراج تونس برج علي الرايس أو برج سيدي بلحسن، وهو من إنشاء أبي الحسن علي ثابت وزير يوسف داي في بداية القرن الحادي عشر الهجري / 17م، وقد جدّده علي باشا الأول في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، وبرج الأندلس أو برج طاحونة الريح أو برج زوارة وهو من إنشاء المراديين في القرن الحادي عشر / 17م، وقد جَدَّدَهُ علي باشا الأوّل.

ومن قشلات تونس قشلة العطارين، مقرّ المكتبة الوطنية سابقا، وهي من إنشاء حمودة باشا الحسيني في أوّل القرن التاسع عشر الميلادي، وهو الذي أنشأ سوق الباي. أما أسواق النحاس والعطارين والكتبيين فهي تعود إلى بداية العهد الحفصي.

تونس من انتشار الإسلام إلى انهيار الدولة الحفصية

1) من الفتح إلى عهد الولاة

بدأت غزوات المسلمين لإفريقيّة منذ سنة 27هـ/647م لكن أزمة الخلافة التي حصلت بعد نشوب الفتنة الكبرى أخّرت موعد التمركز النهائي الذي لم يحصل قبل سنة 50هـ/670م عندما أسس عقبة بن نافع القيروان لتصبح نقطة إشعاع للإسلام وقاعدة عسكريّة، وهو اختيار يعدّ من الناحية الإستراتيجيّة في غاية الحكمة. فالقيروان على بعد يوم من البحر مجال سيطرة الأسطول البيزنطي وعلى بُعد يوم أيضا من الجبال موطن تحصّن القبائل البربرية.

فمن الناحية العسكريّة تعدّ سهول القيروان خطّ الحدود بعد تراجع الجيش البيزنطي إثر هزيمة سبيطلة سنة 27هـ/ 647م التي سمحت للفرسان العرب بالانتشار دون صعوبة. ومع ذلك قاومت قبائل البربر بقيادة كسيلة 681م وتحت راية الكاهنة 695م المسلمين مدعومة بصعوبة التضاريس وتغلغل الدين المسيحي. على أن العرب قاموا بدور أساسي وغير مقدّر في الحروب التي خاضها المسلمون. وقد تمكن هؤلاء بعد حروب كثيرة ومقاومة طويلة، من الاستيلاء على قرطاج سنة695 م والهيمنة على إفريقية في بداية القرن الثامن. ويُعتبر حسّان بن النعمان المهندس الحقيقي لهذا الانتشار. ومع قدوم موسى بن نصير الوالي الأموي الجديد لإفريقية كانت هذه الأخيرة قد خرجت من مرحلة الفتح لتدخل طور التنظيم والتغيير تحت نظر الولاّة.

بعد انتهاء الانتشار الذي قاده موسى بن نصير جُهزت الولاية بجيش تركب في البداية من عساكر عربيّة قبل أن تسنده شيئا فشيئا العناصر البربريّة. فبالرغم من خروجها عن سلطة مصر بقيت إفريقيّة تدفع للسلطة المركزيّة إسهاما مهما زيادة عن تمويلها للشرق بالجيوش والرقيق. أما النظام الإداري فقد تطوّر بإنشاء الدواوين المختلفة، كديوان الجند والخراج والرسائل وتعيين العمّال لنيابة السلطة في الجهات. ففي هذا القرن يمكن الإشارة إلى فترتين، تميزت الأولى بالتنظيم الداخلي للبلاد ومواصلة التوسع بينما عاينت الثانية عودة التوتّر من جديد.

فقد اندلعت في الحقبة الممتدة بين سنتي 122 هـ/ 740م و155هـ/772م انتفاضات صفرية وإباضية متتالية، حاولت السيطرة على مدينة القيروان ولم يستقر الوضع إلا مع تولي يزيد بن حاتم المهلّبي ولاية إفريقية.

بعد نهاية الاضطرابات المتتالية تحسّن الاقتصاد الإفريقي تحسّنا نسبيا وشكّلت الأنشطة الزراعية عمودها الفقري رغم الخسارة التي لحقت زياتينها من جرّاء سياسة الأرض المحروقة التي تعمّدتها الكاهنة. أمّا إنشاء دار الصناعة برادس من قبل حسّان بن النعمان لغاية بناء أسس انتشار إفريقي عبر البحر، فقد أسهم في إنعاش التجارة التي أصبحت منذ ذلك الحين النشاط الأكثر ازدهارا في البلاد جاعلة من القيروان وتونس مركزين كبيرين للمبادلات التجارية.

في هذه الفترة ظهرت الأسواق وترتبت فتكثّفت تجارة القوافل مع المشرق وعاينت ازدهارا هائلا. فتمكنت إفريقية من أسباب النهضة لتؤدّي دورا مهما في تاريخ الغرب الإسلامي.

2) الإمارة الأغلبية

تفطن الخلفاء العباسيون إلى أن هذا البلد

النائي يحتاج إلى سلطة مركزيّة قويّة، فعيّن الخليفة هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب أميرا مقابل دفع إتاوة تقدّر بأربعين ألف دينار. وبعد فترة انتفاضات الجند الخاضعين للأرستقراطيّة العربيّة المتشبثة بامتيازاتها شرع الأغالبة في التوسع بصقلية سنة 212هـ/827م وواصلوا هجومهم على جنوب إيطاليا. وكان احتلال سرقسطة عاصمة صقلية سنة 878م أكبر دليل على هيمنة الأغالبة على المتوسط الغربي. ثم شرع الأغالبة في بناء خطّ تحصين مكوّن من رباطات متّجهة نحو البحر للتصدي لأي احتلال. كما وفّر الأغالبة مناخا اجتماعيا وسياسيا سليما وبنية تحتيّة متينة مهّدت لبروز حضارة القيروان. فعرفت إفريقيّة آنذاك ازدهارا اقتصاديّا حقيقيا دام طويلا خاصة في عهد أبي الغرانيق 864–875م.

وتكاثرت حول القيروان القرى الزراعية التي كانت توفّر للحاضرة مختلف حاجياتها. أما مناطق الوسط والجنوب التي أصبحت اليوم شبه صحراويّة، فقد كانت آنذاك مناطق خضراء خاصة قمودة والقصرين. أما منطقة الساحل فكانت تغطيها الزياتين وتحتوي على العديد من معاصر لزيت الزيتون الذي كان يصدّر إلى أسواقه التقليديّة في مصر والمدن الإيطالية.

بهذا أصبحت إفريقية مركز توزيع للتجارة الثلاثيّة التي تربط المتوسط بالمشرق وجنوب الصحراء. لم تؤثر الحروب في هذا النشاط بل أنعشته بتوفيرها للرقيق. ومن جهة أخرى احتلت صناعة النسيج المرتبة الأولى في إفريقيّة الأغلبيّة واعتبرت زربيّة القيروان منذ ذلك العهد من البضائع الثمينة والمشهورة، حتى إنها كانت تصاحب الإتاوة التي كانت ترسل إلى دار الخلافة.

أما الحياة الفكريّة فلم تكن أقلّ أهمية إذ أصبحت القيروان من ألمع مراكز الثقافة الإسلاميّة ومنها انتشر المذهب المالكي إلى كافة أنحاء الغرب الإسلامي بفضل واحد من كبار علماء الإسلام هو سحنون بن سعيد (160–240هـ/776–854م) الذي رسّخ المذهب المالكي. في هذا الإطار ارتفعت القيروان إلى مستوى عواصم الشرق الفكريّة الأخرى لتصبح بدورها مركزا فكريا لتعليم العلوم الدينيّة ونشرها ومحطة مهمّة في طريق الرحلة لطلب العلم، وهو ما جعلها محط وفود العلماء من المغربين الأوسط والأقصى والأندلس.

هذا النشاط الاقتصادي والفكري كان يشهد عليه تطوّر الحياة المدنيّة التي عرفتها إفريقيّة في ذلك العهد حتّى إن منطقة قفصة كانت تعدّ قرابة المائتي قصر، على حين كانت القرى في الساحل متّصلة فيما بينها. وعرف الأغالبة بالبناء كتشييدهم مدينتي العباسيّة 85هـ/801م ورقادة 263هـ/876م.

3) الفاطميون

تزامن أوج الخلافة الفاطمية وخلافة المعزّ لدين الله الفاطمي الذي قاد سياسة توسّعية جريئة. فقد عرقلت سيطرته على بلاد البربر امتداد الأمويين بالأندلس. وعرفت خلافته صيتا واسعا. كما تواصل النمو الاقتصادي الذي انطلق في عهد الأغالبة، فكانت خلافة المعز مُتميّزة وعهده عهد سلم وازدهار اقتصادي.

أصبحت المهدية إلى جانب المنصوريّة أكبر مركز حضري وتجاري. وتجلّى الفنّ الفاطميّ الذي ازدهر في مصر وقبل ذلك في إفريقيّة داخل قصور المنصورية في فخامة العمارة ونفاسة الآثار الفنيّة وبذخ الاحتفالات بالأعياد الدينيّة. غير أن رغبة الفاطميين في السيطرة على العالم الإسلامي بإسقاط العباسيّين أدّت بهم بعد غزو مصر إلى تغيير مركز الخلافة والانتقال من صبرة المنصورية إلى القاهرة لأسباب إستراتيجية، عاهدين بسلطانهم على بلاد المغرب إلى الأمير الزيري بولكين بن زيري سنة972 م.

4) الإمارة الزيريّة (الصنهاجيّة)

تعدّ الفترة الزيريّة قمّة حضارة إفريقيّة، فقد تطوّرت خلالها الأنشطة الصناعية وكانت قابس وسوسة وصفاقس والمهديّة والقيروان

تنسج الزرابي والأقمشة من القطن والحرير وتصدّر إلى مصر وبلاد المغرب. كما عرفت صناعة الخزف والفخار نموّا مهما لصادراتها نحو إيطاليا.

أما بالقيروان فقد راجت سوق الكتب التي نفقت باتجاه مصر والأندلس كما أن جامع القيروان كان يحوي عدة مخطوطات قديمة نادرة من بينها مصاحف زرقاء بديعة.

وعرفت آنذاك عدّة مدن ازدهارا فكريا وصارت إفريقيّة أكبر مركز للمالكية. وكانت القيروان تفتخر بوجود مدرسة للشعر والنقد الأدبي نشّطها أدباء وعلماء نابغون كابن شرف وابن رشيق والحصري. لكن الحروب أضعفت الدولة الزيريّة التي أعرضت عن التشيّع وفضّلت الالتحاق بالسنة لتوسيع قاعدتها الشعبية.

وعندما. أدرك الفاطميون أن المغرب على وشك الإفلات من حوزتهم أرسلوا قبائل بني هلال سنة1051م. وتظافر هذا الزحف الهلالي مع الغزو النورماني.

5) الدّولة الحفصيّة

في سنة 538هـ/1143م تمكّن النرمان من الاستيلاء على أهمّ موانئ إفريقيّة. لكن مدّة سيطرتهم كانت قصيرة ففي سنة 555هـ/1160م توصّل القائد الموحدي عبد المؤمن بن علي إلى ضمّ بلاد المغرب كلها. لكن سرعان ما تفكّكت وحدة الدولة ونجم عن ذلك استقلال والي الموحدين على إفريقية أبي زكرياء يحيى الحفصي 1228–1249م عن الخليفة الموحّدي، مؤسسا دولة الحفصيين التي امتد سلطانها بين 1230–1574م. فاختارت الدولة الجديدة نقل عاصمتها إلى تونس مما دفع بالبلاد نحو ازدهار نسبي. واعتبر الحفصيّون أنفسهم ورثاء الموحدين، فلقّب السلطان الحفصي المستنصر (1249–1277م) نفسه بأمير المؤمنين مُحرزا بذلك اعتراف شريف مكة. وفي عهده حاصر القدّيس لويس ملك فرنسا مدينة تونس سنة1270م وبعد وفاته بالوباء تحصّل شقيقه شارل دانجو من الحفصيين على إتاوة مهمة سرعان ما عوّضتها الأرباح المستخلصة من التجارة مع المسيحيّين.

امتازت الحياة الثقافية في القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي بازدهار واسع فظهرت مصنّفات ابن خلدون، كما انتشر المذهب المالكي بشكل غير مسبوق بفضل الدور الذي قام به الإمام ابن عرفة وبقية شيوخ جامع الزيتونة وأشعّ على كامل بلاد المغرب. ولا ينفصل تاريخ الدولة الحفصيّة عن تاريخ تطوّر ظاهرة الأولياء في إفريقيّة والتي أصبحت بفضل تحمّس العامة ظاهرة اجتماعيّة وفرت للمجتمع المغاربي زمن الانحطاط والتسرّب الأوروبي حلولا عمليّة استغلتها السلطة السياسية لتمرير توجهاتها السياسية واختياراتها الاجتماعية والاقتصادية.

بعد فترة من الاضطرابات استغرقت قرابة القرن نهضت الدولة الحفصية نسبيا في بداية القرن الخامس عشر وذلك في عهد أبي فارس 1394–1439م الذي استولى على تلمسان سنة1410م وأصبح واحدا من أقوى ملوك بلاد المغرب.



أنموذج من جمالية المعمار الإسلامي التونسي

(جامع صاحب الطابع)

ولكن في أواخر القرن الخامس عشر عاينت تلك الانتعاشة ضمورا ملحوظا أدى إلى تراجع الدولة الحفصية تراجعا خطيرا قبل أن تنهار بشكل كامل خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر.

مجد الدّين التونسي

[656هـ - 718هـ/1258 - 1318م]

هو أبوبكر بن محمد بن قاسم المرسي الأصل، وُلد بتونس حوالي سنة 656هـ/ 1258م واشتغل بتونس ثمّ رحل إلى القاهرة وأخذ القراءات من الشيخ حسن بن عبد الله الرّاشدي ثمّ انتقل منها إلى دمشق سنة 681هـ/ 1282م. تولّى إقراء القرآن في الجامع الأموي ودرّس النحو بالمدرسة الناصرية ثمّ تولّى مشيخة الإقراء في مدرسة أمّ الصالح وتربة الملك الأشرف الأيوبي. لم يخلّف تآليف على سعة علمه. وتوفّي سنة 718هـ/ 1318م.

إبراهيم التيبلي

[ق 16 - 17م]

اقترن اسم هذا الكاتب والشاعر الإسباني التونسي بقصة دون كيشوت (Don Quijote) للكاتب الإسباني الشهير ثيربانتس Cervantes (1547-1616م) بصفته مكتشف الطبعة الأولى منها سنة 1604م، وهي التي ترجمت إلى عدّة لغات باعتبارها إحدى روائع الأدب العالمي وأوّل أثر في الأدب الهزلي في العالم وأهم أثر في الأدب الإسباني. ذلك أنهما كانا متعاصرين إذ ولد إبراهيم التيبلي في الثلث الأخير من القرن السادس عشر. وكان اسمه الإسباني خوان بيريث (Juan Perez)، وبمجرّد أن استرجع إسلامه في وطنه الجديد مع جملة المهاجرين إلى تستور سنة 1609م تسمى بإبراهيم تأصيلا لدينه وهويته وتلقب بالتيبلي انتسابا إلى موطن أجداده تيبلة (Taibilla). وهي قرية اندثرت وخلفت اسمها في أحد روافد شقورة (Segura). وقد استقرت عائلته الموريسكيّة في مرسية (Murcia) ثم انتقلت إلى طليطلة مسقط رأسه. ومن هناك هاجر مع إخوانه إلى تونس واختار بلدة تستور الآمنة ليؤلف في العزلة والسكينة كتابه «الأنشودة» (El Cantico) سنة 1073هـ/1628م حسب ما جاء حرفيا في المقدمة.

وهذا الكتاب يجمع بين الشعر والنثر، إذ يحتوي على قصيدة طويلة ذات 4608 أبيات ومقدمة وخاتمة وفصلا مهمّا يشير إلى أوّل طبعة لدون كيخوت، وكل ذلك بالقشتاليّة، كما يحتوي على بعض الهوامش والتعاليق بالعربية إلى جانب آيات قرآنية وأحاديث نبويّة. ويهدف به مؤلفه إلى الدفاع عن الإسلام وتثبيت الموريسكيين في عقيدتهم تجاه حملات التشكيك الصادرة عن الإسبان المسيحيين. فبعد المقدمة الثرية الموجهة إلى حاكم تونس آنذاك يوسف داي (1610م - 1637 م) وأحد أعوانه علي السراج ينطلق بالشعر في مدحه وتمجيد الرسول (ص) وصحابته الخلفاء الأربعة (رض). ثم يتوسع في تسجيل محنة الهجرة الأندلسية من حيث أسبابها فظروفها، ثم يتعمق في مواطن الخلاف بين النصارى والمسلمين كالتثليث والصلب وتحريف التوراة والإنجيل. وهكذا يغني هذا الكتاب مدونة الجدل العقائدي في القضايا الكلاسيكية المعروفة في كتب الردود على النصارى واليهود. ويعكس الصراعات الحادة في مستوى الدين والهوية بين الموريسكيين والإسبان. وقد أسهمت لغته المبسطة في تداوله.

وقد كان التيبلي يحذق الإسبانية واللاتينية قبل أن يضيف إليهما العربية، كما كان مزدوج الثقافة الدينية. وهو ما مكنه من الدفاع عن الإسلام وإبراز تناقضات المسيحية. وقد وظف

فكره وجهده لتعليم مواطنيه الموريسكيين مبادئ دينهم باللغة الإسبانية بوساطة الكتب التي نسخها أو ترجمها لهم، إذ لم يتعلموا العربية إلا بعد أكثر من قرن من استيطانهم بتستور. وكان مطالعا نهما لا يفوّت فرصة لاشتراء الكتب، على حدّ قوله، كما كان مولعا بكتابات سقراط وزنون وهوارس ومعاصري كارلوس الخامس من الشعراء والرّوائيّين...

ويمكن أن يكون التيبلي صاحب كتاب «إنجيل برنفي» (El Evangilio de Bernabé) الذي يعدّ من أهم المصادر المسيحية، ونسخته في سيدناي (Sydney) الأسترالية. أمّا "الأنشودة" التي ظلت مخطوطة بمكتبة كازاناتنس (Casanatense) بروما فقد اكتشفها المستعرب خيم أوليفر آسين (Jaime Oliver Asin) سنة 1948 ونشرها لويس فرناندو برنابي بونص (Luis Fernando Bernabe Pons) بسرقوسة سنة 1988. وقد لفتت طرافتها أنظار الباحثين في العالم، في حين غفل الأدب التونسي عنها.

يعد التيبلي أحسن ممثل للكتاب الموريسكيين المزدوجي الثقافة الذين أغنوا الأدب الديني في المسيحية والإسلام وفي الإسبانية والعربية وفي إسبانيا وتونس، وأصدق شاهد على استشراء التعصّب الديني الذي لم يتورّط فيه وإنّما كان ضحيته.

التّيجانية (الطّريقة)

تعتبر الطريقة التيجانية من الطّرق الصّوفية التي ظهرت حديثا إذ توفّي مؤسّسها الشّيخ أحمد التّيجاني سنة 1230هـ/1814م ودخلت البلاد التونسية على يد الشيخ إبراهيم الرّياحي (ت1830م) لتسمّى الزّاوية الأمّ الخاصّة بهذه الطريقة باسمه ونعني زاوية سيدي إبراهيم الرياحي الكائنة بالنهج المسمّى باسمه بالحاضرة، وهو متفرّع عن نهج الباشا بالمدينة العتيقة (تونس).

وينسب أصل مؤسس الطريقة الشيخ أحمد التيجاني إلى آل البيت، وكان مولده سنة 1150هـ/1737م. خرج إلى الحجّ سنة 1186هـ/1773م، وقصد مصر عند عودته حيث اجتمع بالشّيخ محمود الكردي الذي قال مكاشفة إنّه ممّن أحبّهم اللّه سائلا إيّاه مطلبه فأجابه أحمد التّيجاني القطبانيّة العظمى (وهي أعلى درجة في سلّم الرّتب الصّوفية).

وتذكر التّراجم التي حرّرها مريدوه أنّ الفتح بالعلوم العرفانية والأسرار الإلهية تحقّق له على إثر لقائه بالنبي محمد يقظة، وهو الذي أملى عليه أوراد الطّريقة كاستغفار اللّه والصّلاة على نبيّه، وأملى عليه نص صلاة على النبي فيه معان فلسفية وحقائق معرفية تتّصل بنشأة الكون، وسبل معرفته ومعرفة حقيقته، تسمّى بصلاة «جوهرة الكمال». وللطّريقة التيجانية أوارد أخرى في التّوحيد، وأحزاب في الاستغفار والحمد، شبيهة بما نجده لدى الطّريقة القادرية نسبة إلى عبد القادر الجيلاني، أو الطريقة الشاذلية نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي.

وعند وفاة أحمد التيجاني آلت الزعامة الروحية إلى الشيخ علي التماسيني (في تماسين بالجزائر) بوصيّة منه وقد دوّنت الآراء والأفكار الصّوفية للشّيخ أحمد التّيجاني في كتاب «جواهر المعاني» بإملاء منه على الشيخ علي حرازم بن العربي بداره. والقارئ لهذا المؤلّف يلمس عمقا فكريا وفلسفيّا شبيها بما تضمّنته نظريّات ابن عربي في الوجود، والحقيقة المتعالية، والإنسان والخلاص، ويعود السّبب المباشر في انتهاج الشيخ إبراهيم الرياحي هذه الطّريقة إلى أنّه التقى بعلي حرازم مدوّن كتاب «جواهر المعاني». ورغم أنّ الشيخ إبراهيم الرّياحي كان من مريدي الطّريقة الرّحمانية فإنّه ارتأى أن يسلك طريق التصوّف على نهج الشيخ أحمد التيجاني. فلمّا أرسل الشّيخ إبراهيم

الرّياحي سفيرا إلى المغرب بتكليف من حمودة باشا أدّى زيارة إلى الشّيخ أحمد التيجاني. وفي سنة 1238هـ/1822م زار الشيخ علي التماسيني ليأخذ عنه أكثر مبادئ هذه الطّريقة.

وقد وضع الشيخ إبراهيم الرّياحي مؤلفا يبرز أصالة الطّريقة التّيجانية بعنوان «مبرد الصوارم والأسنّة في الردّ على من أخرج سيدي أحمد التيجاني من دائرة أهل السنّة».

وينطوي الكتاب الّذي وضعه حفيد إبراهيم الرياحي بعنوان: «تعطير النّواحي بترجمة العلاّمة إبراهيم الرياحي» على فصول كثيرة تتناول تعلّق الشيخ إبراهيم الرّياحي بالطّريقة التّيجانية وشيخها المؤسّس حتى إنّه لم يدخلها إلاّ بعد أن اشترط أن تتحقّق له جملة من الأمنيات يوردها مؤلّف «تعطير النّواحي».

أحمد التّيفاشي القفصي

[580–651هـ/ 1184–1253م]

أبو العبّاس أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر... القيسي، الإمام العلاّمة شرف الدّين القفصي التّيفاشي. ولد بتيفاش، قرية من قرى قفصة، سنة 580هـ/1184م وبها نشأ وسمع من أبي العباس أحمد بن أبي بكر بن جعفر المقدسي. واشتغل بالأدب وعلوم الأوائل وبرع في ذلك كلّه. ورحل إلى الدّيار المصرية وأخذ فيها وتفنّن على موّفق الدّين عبد اللّطيف أبي يوسف البغدادي (555–629هـ/1160–1231م) النّحوي اللّغوي والطّبيب المعروف بابن اللّبّاد، ثم انتقل التّيفاشي إلى دمشق واشتغل بها على العلاّمة تاج الدين أبي اليمن زيد بن الحسن الكندي. ثمّ رجع إلى بلده وولّي قضاءها، لكنّه عاد بعد ذلك إلى مصر والشّام.

وتوفّي بالقاهرة سنة 651هـ/ 1253م. وكتب عن التّيفاشي الحافظ ابن حديد وابن الصّابوني وغيرهما.

كان فاضلا بارعا، له شعر حسن ونثر جيد ومصنّفات عدّة في فنون مختلفة.

وأبقى لنا التّيفاشي مُصنّفا تذكر نشرة الأكفاني البيروتيّة (ص 107) أنّ الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف يمتلك نسخة خطّية منه مؤرّخة برمضان 697هـ/1297م، رقمها في خزانته 1494. وعنوان هذا الكتاب "أزهار الأفكار في جواهر الأحجار" وصف فيه 25 حجرا. وطبع الكتاب سنة 1818م الكونت Antonio Raineri Biscia بترجمة إيطالية عنوانها

Fior di pensieri sulle pietre preziose, (di Ahmed Teifascite)

وأعيدت الطبعة الإيطاليّة مع النّص العربي سنة 1906. وفي موضوع هذا العلم عني الدكتوركارنكو F.Karenko بتحقيق كتاب "الجماهر في معرفة الجواهر" لأبي الريحان البيروني ونشره في حيدر آباد بالهند، سنة 1938 مع ترجمة أنجليزية.

ويقدّم حاجي خليفة، صاحب كشف الظّنون، هذا العلم بقوله هو البحث «عن كيفية الجواهر المعدنية البرّيّة: كالماس واللّعل والياقوت والفيروزج، والبحريّة: كالدّرّ والمرجان، وغير ذلك، ومعرفة جيّدها من رديئها بعلامات تختصّ بكلّ نوع منها، ومعرفة كلّ منها وغايته وغرضه ظاهر».

وعني Clément Mullet بكتاب "أزهار الأفكار" ونقله إلى الفرنسيّة وعلّق عليه بشروح وإضافات من كتب عربية أخرى ونشر بحثه في المجلّة الآسيويّة سنة 1868

Journal Asiatique, série 6, Tome XI, pp. 1–81.

ومن كتب التيفاشي "فصل الخطاب في مدارك الحواسّ الخمس لأولي الألباب" وقد انتقى منه ابن منظور الإفريقي في كتاب سمّاه "نثار الأزهار، في اللّيل والنّهار وأطايب أوقات الأصايل والأسحار وسائر ما يشتمل عليه من كواكبه الفلك الدوّار".

طبع الانتقاء سنة 1298هـ/1880م.

انظر أيضا: ملتقى ابن منظور الإفريقي، تاريخ

قفصة وعلمائها، بحث الشيخ محمد الشّاذلي النيفر: علماء قفصة بين مدرستين ؛ تونس 10/12/1972 ص. 97ـ132.

وفي الطّبعة البيروتية لكتاب الأكفاني "نخب الذّخائر في أحوال الجواهر" ما لا يقلّ عن ثلاثين فقرة يستشهد فيها صاحب الكتاب وناشره بمقالات التيفاشي ؛ فمن ذلك في ص 2 الهامش (1): «وقال التّيفاشي: الياقوت أربعة أنواع: أحمر وأصفر واسمانجوني (أو أزرق أو بنفسجي) وأبيض».

فالأحمر (rubis) منه ينقسم إلى أربعة أقسام: الورديّ، وهو أحمر على لون الورد، يتفاضل في شدّة الصبغ إلى حدّ الورديّة ولا يجود ذلك، ويقلّ صبغه إلى أن يضرب إلى البياض، ثمّ البهرماني، وهو أحمر حتى ينتهي إلى لون البهرمان أو العصفر (rubicelle ou escarboucle).

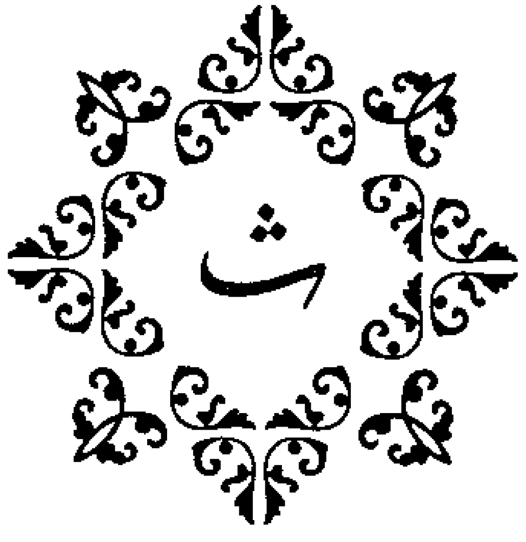
والأصفر (topaze) وهو ثلاثة أنواع: الرّقيق وهو قليل الصّفرة، كثير الماء، ساطع الشّعاع، والخلوقي وهو أشبع صفرة من الرّقيق، والجلّناري، وهو أشدّ صفرة من الخلوقي وأشدّ شعاعا وأكثر ماء، وهو أجوده.

والأبيض (saphir blanc) نوعان: المهوي نسبة إلى المها أي البلّور، والذّكر، وهو أثقل من المهوي وأقلّ شعاعا وأصلب حجرا، وثمنه أرخص أثمان جميع أصناف (اليواقيت). وص 755 الهامش (1): قال التّيفاشي: إنّ الفيروز أو الفيروزج حجر نحاسي يتكوّن من أبخرة النّحاس المتصاعدة من معدنه، ويجلب من معدن له بنيسابور. وقال في خواصّه: «العرق يفسده، ويطفئ لونه بالكليّة. وقد وقفت على ذلك منه بالتجربة. وكذلك المسك إذا باشره أفسده وأبطل لونه وأذهب حسنه. وفصوصه تختلف في الجودة والرّداءة اختلافا كثيرا، فربّما كان ثمن الفصّ دينارا وربّما كان درهما وزنتهما واحدة أو متقاربة».

قال التّيفاشي: «إنّ المرجان يوجد في موضع يسمّى مرسى الخزر، في بحر إفريقية، ويوجد أيضا في بحر الإفرنجة، إلاّ أنّ الأكثر ببحر الخزر، ومنه يجلب إلى الشّرق، واليمن، والهند والصّين وسائر البلاد. ولا يوجد بغير هذه المواضع، كما يوجد منه في الكثرة والكبر والجودة».

و قال التّيفاشي عن الجزْع (onyx): أجوده ما اشتدّت صقالته واستوت عروقه. وقال في "كنز التّجار": إنّ الجزْع حجر ليس في «الأحجار أصلب منه جسمًا، لا يكاد يجيب لمن يعالجه سريعا. ولأجل ذلك اتخذت منه مجار للبناكيم (sablier ou clepsydre) الرّمليّة والمائيّة، لكي لا تتّسع سريعا».

وجاء في ملحق (نخب الذّخائر) ص 85: «كلّ من يهمّه الوقوف على الحجارة الكريمة، يودّ أن يعرف سائر أسماء الجواهر التي أهمل ذكرها المؤلّف عمدا، طلبا للاختصار وشرحها التّيفاشي وغيره إحاطة بالموضوع؛ فننقل هنا ما لم يأت على ذكره ابن الأكفاني، ليتمّ البحث من جميع أطرافه ومناحيه ويلمّ بها من يريد الإشراف عليها».





الحبيب ثامر

[1909–1949م]

محمد الحبيب بن بلحسن بن علاّلة ثامر. ولد في تونس يوم 4 أفريل 1909. زاول دراسته الابتدائيّة والثانويّة بالمدرسة الصادقية ثمّ بمعهد كارنو حيث حصل على شهادة الباكالوريا وتحوّل سنة 1929 إلى تولوز ثمّ باريس لمواصلة دراسته العليا بكليّة الطبّ وتخصّص في فنّ الطبّ الاجتماعي. يعدّ مهندس المقاومة المسلّحة ضدّ الاستعمار الفرنسي ومن دعاة بناء صرح المغرب العربي.

ولعلّ نشاطه الحثيث المتواصل ضمن "جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا" في الثّلاثينات يفسّر الكثير من ملامح مسيرته. فقد كان له حضور مكثّف في أشغال مؤتمرات هذه الجمعية وكان من عناصرها المسيّرة والمشعّة. فقد انتخب على التوالي:

– كاتبا عاما: السنة الجامعية: 1931–1932.

– رئيسا مساعدا: السّنة الجامعية: 1933 – 1934.

– رئيسا: السّنة الجامعية: 1934 – 1935.

– رئيسا مساعدا: السّنة الجامعية: 1935 – 1936.

– رئيسا: السّنة الجامعية: 1936– 1937.

وقد كانت هذه الجمعية التي تأسّست سنة 1927 تهدف إلى توثيق علاقات الأخوّة والتّضامن بين طلبة المغرب العربي المزاولين دراستهم في الجامعات الفرنسية الذين سيصبحون في كلّ من المغرب الأقصى والجزائر وتونس، العمود الفقري للنّخبة الوطنية قبل الاستقلال وبعده. فقد كان لتحوّلات بلدان المغرب العربي الاجتماعية والاقتصادية والثّقافية والسّياسية (أزمة الثلاثينات) وقْعٌ عميق لدى هذه النخبة، ولم يكن عفويا انشغال الطالب الحبيب ثامر بخطر الوضع العام في تونس زمن المقيمَيْن العامّين: كلود منصرون Claude Manceron (1929 – 1933) ومارسال بيروطون Marcel Peyrouton (1933–1936). فقد كانت البلاد مهدّدة في كيانها ومستهدفة في هويتها العربية الإسلامية (تنظيم المؤتمر الإفخارستي بقرطاج سنة 1930، الاحتفال بخمسينية الحماية سنة 1931، حوادث التجنيس سنة 1933...).

وكان موقف الطالب الحبيب ثامر جليّا في مداخلته حول "حالة التعليم والتربية بالمدارس الابتدائية بتونس" أثناء أشغال مؤتمر "جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين" الثاني المنعقد بالجزائر سنة 1932. فقد وصف حالة التردّي التي كان عليها تدريس اللّغة العربية

والتاريخ الوطني مبيّنا إهمال السّلطة الاستعمارية شؤون الأهالي، كما أصدر ثامر مقالا مطوّلا بعنوان: زوبعة في تونس (Tempête sur la Tunisie) في مجلّة "المغرب" Maghreb الفرنسية ذات التوجّه الاشتراكي المتعاطف مع حركات التحرّر في بلدان المغرب التي كان يديرها المحامي جان روبار لونقي Jean Robert Longuet انتقد فيه بشدّة تجاوزات السّلطة الاستعمارية وانعكاساتها السلبيّة على الشّعب التّونسي. وكان ذلك إثر الحملة القمعية التي شنّها المقيم العام ضدّ الوطنيين في سبتمبر 1934 ("المغرب"، عدد 25–26/ سبتمبر أكتوبر 1934). وأثار خطابه في افتتاح أشغال المؤتمر الخامس لجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين المنعقد بتلمسان (سبتمبر 1935) احتجاج السّلطة الفرنسية. وفي الوقت نفسه، كان الطّالب ثامر من المؤيّدين الأول لبعث شعبة طالبية دستورية بباريس سرعان ما أصبح "رئيسها وقلبها النابض وباني هيكلها" سنة 1938، إثر رجوع رفيقه الهادي نويرة إلى تونس. فقد عمل على توطيد الصّلة بالطلبة العرب المشارقة من جهة وبالحركة الوطنية السّورية من جهة أخرى.

وفي 22 نوفمبر 1938، رجع الحبيب ثامر إلى أرض الوطن بعد أن أحرز شهادة الدكتوراه في الطب وفتح عيادته في حيّ باب سويقة الشّعبي. ووجد البلاد مازالت تضمّد جراحها إثر الأحداث الدّامية التي جرت في شهر أفريل من السنة المذكورة وما تبعها من قمع رهيب. فانضمّ في الحين إلى لجنة المقاومة الوطنية الدستورية السرّية التي كانت تتولّى تسييرها مجموعة الديوان السّياسي الخامس. وكان الحزب قد كوّن لجنة المقاومة هذه للقيام بعمليات تخريب ابتداء من أواسط سنة 1939. ومن أشهر أعمال هذه اللجنة السرية إحراق إدارة البريد المركزية بقلب العاصمة، وعملية التفجير بثكنة القصبة العسكرية وقطع خطوط الهاتف في كثير من الأماكن الاستراتيجية.

وكانت المقاومة تستهدف في الأساس خطوط المواصلات والمنشآت الاقتصادية وتجهيزات الموانئ. كما كانت توزّع المناشير وتحرّض المجنّدين على العصيان، من ذلك حصول تمرّد في ثكنة القيروان خلال سبتمبر 1939. ونشطت الجندرمة الاستعمارية في تطويق الحركة السريّة ومطاردة أفرادها وتمكّنت من القبض على مجموعة الديوان السّياسي الخامس (نوفمبر 1939 – جانفي 1940). فأصدرت السلطة الاستعمارية ضدّها أحكاما قاسية تتراوح بين الأشغال الشاقة والسجن مع خطايا مالية مختلفة (14 فيفري– جويلية 1940).

وكان نصيب قادة لجنة المقاومة ـ وعددهم أحد عشر شخصا ـ الحكم بالإعدام الذي أبدل بالأشغال الشاقة المؤبّدة بمقتضى أمر صادر عن رئيس الدّولة الفرنسية آنذاك المارشال بيتان (Pétain) بتاريخ 9 جانفي 1941. ولم تتمكّن الحملة القمعية الشّديدة من القضاء على روح المقاومة فانتقلت إلى الديوان السياسي السادس بقيادة الدكتور الحبيب ثامر. فكان هذا المناضل الكبير مع نحافة جسمه ولطف محيّاه ودماثة أخلاقه ركنا لا تزلزله تهديدات الجنرال بلان (Blanc) قائد جيوش الاحتلال. فقد حمّله تبعة كل حادث يقع مدّة الحرب من الوطنيين مهدّدا إيّاه بالإعدام إن لم يستكن هو ورفاقه.

واشتدّت حرب المناشير في النّصف الثاني من سنة 1938 وتعدّدت المظاهرات في جهات مختلفة من البلاد. وفي يوم 12 جويلية 1940، قاد الدكتور الحبيب ثامر وفدا أمام قصر الباي للمطالبة بإطلاق سراح المساجين وتلبية المطالب الوطنية. فألقي عليه القبض مع عدد من المتظاهرين ولم يُفرج عنهم إلاّ بعد أن قضّوا 22 يوما في السّجن. وانكشف أمر الديوان السياسي السادس، فحاول الدكتور ثامر صحبة رفيقه وقريبه الطيب سليم اجتياز الحدود اللّيبية إلاّ أنهما وقعا في الأسر يوم 21 جانفي 1941، وأحيلا

على المحكمة العسكرية الفرنسية التي أصدرت في شأنهما يوم 27 فيفري 1942 حكما بالسجن لمدّة عشرين سنة.

وبعد ارتقاء المنصف باي العرش الحسيني يوم 19 جوان 1942، طالب الحكومة الفرنسية بإطلاق سراح المساجين السياسيين كافّة وحيثما كانوا، ولكنّ السّلطة الاستعمارية لم تستجب لرغبته. فاغتنم المعتقلون الوطنيون القابعون بالسجن المدني بتونس فرصة نزول القوّات الألمانية بالبلاد التونسية لتنظيم مظاهرة يوم 14 نوفمبر 1942 بقيادة الدكتور ثامر وحاولوا اقتحام أبواب السّجن عنوة، فاستشهد أربعة منهم. وكان الدكتور ثامر على اتصال سرّي بما يحدث خارج السجن عن طريق المناضل جلّولي فارس. فوصلته في نطاق السّرية التامّة رسالة الزعيم بورقيبة المؤرخة في 8 أوت 1942 التي دعا فيها إلى عدم اتباع المحور أو الانقياد إلى تيّاره بل على الحزب أن يتّصل بأنصار الجنرال ديغول والحلفاء.

وفي يوم 1 ديسمبر 1942، بادر المقيم العام الأميرال بيار استفا (Pierre Esteva) بإطلاق سراح جميع المساجين السّياسيين بتونس في محاولة لسحب البساط من تحت السّلط الألمانية والمنصف باي. وكان لاحتلال قوّات المحور الشّطر الشّرقي من البلاد التونسية الأثر المباشر في إضعاف السلطة الاستعمارية. وهو ما مكّن الدكتور ثامر ورفاقه من إعادة النشاط إلى التشكيلات الحزبية. فجدّدت الشّعب وغذّيت الرّوح الوطنية. ولم يكن الدكتور ثامر بمعزل عن الضغوط التي سلّطتها القوات الألمانية لإقحام الحزب في صفّ المحور لكنه "ثبت واستمرّ طوال مدّة الاحتلال في جهاد مستميت وسهر على مصلحة الأمّة بتجرّد وإخلاص ونزاهة".

وأصدر ثامر ورفاقه "إفريقيا الفتاة" الجريدة اليومية الوحيدة المرخّص لها بالصدور باللغة العربية في تلك الفترة بداية من 2 جانفي 1943. وأوضح الدكتور ثامر سياسة الحزب في بيان أصدره يوم 11 جانفي 1943 تحت الضّغط الفرنسي الألماني المزدوج:

"لقد صارت "إفريقيا الفتاة" ابتداء من اليوم لسان الحزب الحرّ الدّستوري وهي إنّما تعبّر عن رغائب الشّعب التّونسي كافّة، تلك الرغائب الشرعية التي طالما أزر من أجلها زعماءه في كلّ المناسبات.

ولا غرو أن كانت غايتنا الأولى لمّ شتات الأمّة وتنسيق الجهود لإنقاذها من التقهقر والانحطاط حتى تأخذ بالحظّ الأوفر في الحياة. إنّ وحدة المغرب العربي واستقلاله لهما الهدف الذي ترمي إليه.

غير أنّ الظروف الحالية وما أدخلته من الخلل على الحياة العامّة من النّواحي الإدارية والاقتصادية والاجتماعية تملي علينا بصفة أكيدة أن نسهر بأنفسنا على مصلحة البلاد وأن نعمل بأيدينا على القيام بالإدارة وتنظيم الأمور الاقتصادية وتلافي كل حدث اجتماعي ناشئ عن الأحوال العصيبة الراهنة. لكن لا غايتنا البعيدة تلك ولا غايتنا الأكيدة هذه تُحقّق إذا نحن تغافلنا عن مقاومة الأمراض الاجتماعية التي كادت أن تؤدّي بأمّتنا إلى الاضمحلال فلا بدّ لنا أن نقضي على العقلية القديمة بما فيها من خمول وجبن والابتعاد على كلّ أمر وراءه مسؤولية.

وإلى ذلك كلّه فستقوم جريدتنا ببثّ فكرة التّضامن الاجتماعي وتشجيع المؤسسات التعاونية كالهلال الأحمر والجمعيات الخيرية. وللقيام بهذه المهمات، فإننا نحتاج إلى كامل جهود العناصر الحيّة في البلاد. ولن ندع جانبا شبيبة البلاد حتى تأخذ بقسطها من العمل وتشعر بواجب الوقوف في صفوف الكفاح. وهذا الشباب الذي يرتكز عليه بناء هيكل المستقبل يجب أن يكون متّحدا منظمّا مطيعا لأوامر الحزب.

فهلمّوا إلى الالتفاف حول جريدتكم ورجال حزبكم التفافا يتطلّبه منكم الواجب وتحتّمه

عليكم الظروف". الحبيب ثامر، رئيس الحزب الحرّ الدستوري التونسي.

وتواصلت مبادرات الدكتور ثامر عبر افتتاحيات الجريدة ناشدة حفز الهمم وساعية إلى ترسيخ فكرة حقّ الشعوب في تقرير مصيرها: "أنرضى أن يكون مستقبلنا تلعب به أيدي الصّدف من غير أن نسعى في توجيهه نحو السبيل التي نبتغي؟ أنستكين ونرضى بالقيود والناس تشتري الحياة بأرواحهم؟".

وبذل الدكتور ثامر قصارى جهده حتى لا يزيغ الحزب عن تعليمات الزعيم بورقيبة الواردة في الرسالة المؤرّخة "بسان نيكولا" في 8 أوت 1942. ولم تكن المهمّة هيّنة فقد تمكّن الدكتور ثامر من الحفاظ على خطّ الحياد الذي رسمه للجريدة مع الأطراف المتصارعة (المحور/ الحلفاء). وتعتبر افتتاحيته المحرّرة بمناسبة ذكرى أحداث 9 أفريل 1938 من أروع ما كتب عن هذا الحدث التاريخي. وما فتئت جهوده متواصلة بدعم من المنصف باي للمطالبة بإطلاق سراح الزعماء الوطنيين وعودتهم حتّى ظفر بذلك. وعاد المبعدون إلى أرض الوطن على دفعتين يومي: 26 فيفري و7 أفريل 1943. واستغلّ الدكتور ثامر ظرف "حملة تونس" لإقامة معسكرات لتدريب الشباب التونسي على استعمال السلاح وحرب العصابات. فقد أكّد رفيقه يوسف الرويسي أنّ بعضا من الضبّاط السّوريين الذين أوفدهم الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين إلى رجال الحركة الوطنية في تونس (فيفري – مارس 1943) كانوا من ضمن المدرّبين، كما مكّن بعض التونسيين من الحصول على كميات من الأسلحة والذخيرة عند انسحاب جيوش المحور من الجنوب التونسي. فجُمعت وأُخفيت تحت الأرض بعد أخذ الاحتياطات واستعمال الوسائل اللازمة لصيانتها. وكان الحبيب ثامر قلقا على مصير المكلّفين بشؤون الأسلحة متخوّفا من افتضاح أمرهم.

ومع اقتراب جيوش الحلفاء من مدينة تونس، أصبح النّشاط الحثيث الذي جعل الحزب يسترجع قوّته وإشعاعه في أثناء فترة الاحتلال الألماني- الإيطالي خطرا على المناضل ثامر ورفاقه. فقرّر الديوان السياسي باتّفاق مع هؤلاء (الدكتور ثامر، الطيب سليم، الرشيد إدريس، يوسف الرويسي، الحبيب بوقطفة، حسين التريكي والهادي السعيدي) السّماح لهم بمغادرة البلاد مع جلاء قوات المحور (6 ماي 1943).

فتوجّه الدكتور الحبيب ثامر ويوسف الرويسي، إلى إيطاليا واستشهد الحبيب بوقطفة في أثناء قصف الباخرة التي كانت تقلّه من تونس إلى صقلية، وتحوّل الآخرون إلى برلين حيث أنشؤوا في أوائل جويلية 1943 مكتب المغرب العربي الذي أصدر عددين من جريدة "المغرب العربي": 26 فيفري و14 مارس 1945. وفي شهر نوفمبر 1943، التحق الدكتور ثامر ورفاقه جميعا بباريس حيث قاموا بنشاط حثيث للإحاطة بمواطنيهم الموجودين آنذاك في فرنسا والمفصولين عن وطنهم بسبب ظروف الحرب، ثمّ للدّفاع عن قضية بلادهم التي سقطت من جديد في قبضة القوات الفرنسية الاستعمارية. وعقدوا عدّة اجتماعات عامّة بباريس ضمّت عددا كثيرا من العملة وأفراد الجالية المغاربية المهاجرة.

و إثر نزول الحلفاء في نورمانديا (6 جوان 1944)، فكّر الحبيب ثامر ورفاقه – باستثناء يوسف الرويسي الذي بقي في برلين – في الالتجاء إلى إسبانيا. فسمحت لهم السلط الألمانية بذلك، بما عدا الدكتور ثامر الذي فرضت عليه الإقامة بباريس، في انتظار عودته إلى برلين. لكنّه استطاع في نهاية جويلية 1944 اجتياز الحدود الفرنسية الإسبانية على نحو غير قانونيّ.

ومكثت الجماعة في إسبانيا إلى أن سمحت لهم الحكومة المصرية في شهر جوان 1946 بالالتحاق ببورقيبة في القاهرة، وذلك بفضل

مساعي تحسين العسكري الوزير المفوّض للحكومة العراقية بالقاهرة الذي مكّنهم من الحصول على جوازات سفر. والتأم شمل الوطنيين التونسيين في القاهرة يوم 9 جوان 1946 فبادروا بتأسيس مكتب الحزب الدستوري التونسي الكائن بشارع ضريح سعد عدد 10. وكان الاتّصال مكثّفا مع الحركات الوطنية المغربية والجزائرية لتوحيد جهودها ضمن مكتب منسّق. فتأسس مكتب المغرب العربي في 22 فيفري 1947 ما إن انتهت أشغال مؤتمر المغرب العربي المنعقد بالقاهرة (من 15 إلى 22 فيفري 1947). وعمل المكتب الجديد على توسيع نطاق الدّعاية لقضية المغرب العربي بكلّ الوسائل الممكنة، وفي مقدّمتها إصدار نشريّة إخبارية دورية موحّدة لتزويد الصحافة وشركات الأنباء والأخبار بالمعلومات الصحيحة عن حقيقة الوضع في بلاد المغرب. وأصدر مكتب المغرب العربي كتابا عنوانه «هذه تونس» للدكتور الحبيب ثامر وكتابا آخر بعنوان «هذه مراكش» للأستاذ عبد المجيد بن جلّون وكتابا ثالثا عنوانه «مركز الأجانب في مرّاكش» للمناضل محمد بن عبّود.

ونظّم المكتب فضلا عن ذلك ندوات صحفية ومحاضرات واجتماعات في مناسبات عدّة واعتنى بشؤون الطلبة المغاربة في أثناء حرب فلسطين (1948). وكان المكتب عبارة عن لجنة سياسية تضمّ أعضاء من المغرب وتونس والجزائر، منهم الأعضاء الدائمون ومنهم الزائرون. وقد شغل الدكتور ثامر منصب مدير المكتب في سنة 1947. ومن أهمّ مبادرات المكتب المشاركة في العملية التي أدّت إلى لجوء المجاهد عبد الكريم الخطابي إلى مصر. وتؤكّد شهادات ثلّة من المناضلين الذين زاروا القاهرة سنتي 1947 و1948 أو راسلوا الدكتور ثامر في مسائل وطنية (نذكر بالخصوص الدكتور سليمان بن سليمان وعز الدين عزّوز وأبا القاسم محمد كرّو) أنّ مُراسلهم كان منشغلا بمسألة التحاق الطلبة المغاربة بالمعاهد العربية العليا وخاصة منها العسكرية. فقد كان الدكتور الحبيب ثامر أقرب في خطته التحريرية للأمير عبد الكريم الخطّابي منه إلى الزعيم الحبيب بورقيبة.

وفي المؤتمر الثالث الذي عقده الديوان السياسي للحزب الدستوري الجديد في العاصمة التونسية بدار سليم يوم 17 أكتوبر 1948 انتخب الدكتور الحبيب ثامر رئيسا مساعدا للحزب. وفي شهر أكتوبر 1948، أسهم في مؤتمر اليونسكو المنعقد في بيروت كلّ من الحبيب ثامر ويوسف الرويسي اللذين قدّما لأعضاء المؤتمر مذكّرة عن حالة التعليم والثقافة بتونس والجزائر ومرّاكش في ظلّ الحكم الفرنسي. ومن بيروت قصد ثامر دمشق حيث كان يقيم الرويسي ويدير مكتب المغرب العربي بها. وفي أوائل شهر جانفي 1949، تحوّلا إلى بغداد حيث اطّلعا على أحوال الطلاّب المغاربة الموزّعين بين الكلّية العسكرية ودار المعلّمين العليا.

وفي 22 نوفمبر من السنة نفسها عيّن الديوان السياسي الدكتور الحبيب ثامر لتمثيل تونس في المؤتمر الاقتصادي الإسلامي المنعقد بكراتشي عاصمة الباكستان آنذاك. وإثر انتهاء أشغال المؤتمر، عقد الدكتور ثامر ندوة صحفية يوم 29 نوفمبر 1949 حضرها مندوبو وكالات الأنباء وبعض صحف الهند ولاهور ووزّع تصريحات مطبوعة باللّغة الإنقليزية حول القضية التونسية. وأهدى الدكتور ثامر لوزير المعارف الباكستاني نسخة من كتاب هذه تونس.

وقد حدّد الدكتور ثامر موقفه من مسألة الاستعمار الفرنسي والحلف الأطلسي واصفا الاستعمار الفرنسي بكونه الاستعمار الأكثر "وحشيّة" ومؤكّدا أنّ فرنسا تستغلّ الشعب التونسي وتضطهده دون رحمة، كما أشار في تلك الندوة إلى أنّ مصالح الولايات المتحدة الأمريكية تلتقي مع مصالح فرنسا التي تتلقّى

منها الدعم الكامل. وفي طريق عودته من لاهور إلى كراتشي ليلة الثلاثاء 13 ديسمبر 1949، اصطدمت الطائرة التي كانت تقلّه مع رفاقه بقمّة جبل، فلقي جميع ركّاب الطائرة حتفهم، ومنهم الدكتور الحبيب ثامر ممثل تونس، والمناضل علي الحمّامي ممثل الجزائر، والمناضل محمد بن عبّود ممثل المغرب الأقصى.

يتألف كتاب «هذه تونس» من ثلاثة أقسام رئيسة :

– يستعرض القسم الأول أهم مراحل تاريخ البلاد التونسية من أقدم العصور إلى انتصاب الحماية الفرنسية في سنة 1881.

– يتناول القسم الثاني مختلف الأوضاع السائدة بالبلاد التونسية منذ فرض الحماية الفرنسية عليها، معتمدا على الأرقام الواردة في الإحصائيات الرسمية ومستشهدا بالقوانين والتراتيب الصادرة عن السلط الفرنسية بتونس طوال عهد الحماية.

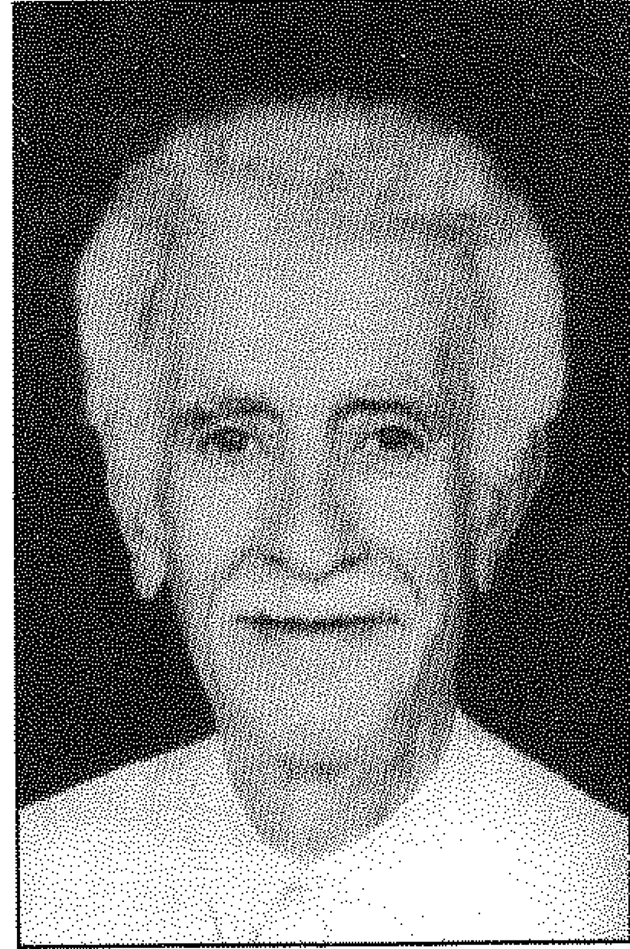
–أما القسم الثالث فهو يحتوي على نبذة عن تاريخ الحركة الوطنية التونسية منذ فرض معاهدة الحماية يوم 12 ماي 1881 إلى تاريخ صدور الكتاب في سنة 1948.

ويعد كتاب هذه تونس الذي صدر عن مكتب المغرب العربي بالقاهرة في شهر أفريل 1948، المرجع الثاني في تاريخ تطور الحركة الوطنية التونسية بعد كتاب تونس الشهيدة الذي صدر بباريس في جانفي 1920 وقبل كتاب تونس الثائرة الذي ألّفته لجنة تحرير المغرب العربي وصدر بالقاهرة في ربيع 1954. والقاسم المشترك الذي يجمع بينها أنها ألفت بطلب من عناصر النخبة المؤسسة للحزب الحر الدستوري التونسي سنة 1920 وأعضاء الديوان السياسي المسير للحزب الحر الدستوري الجديد إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية. ولئن صدر كتاب تونس الشهيدة مطالبها باللغة الفرنسية ودون إمضاء ثم عُرّب سنة 1984 وأقرّ حمادي الساحلي بعد التحقيق نسبته إلى الشيخ عبد العزيز الثعالبي (بيروت، دار الغرب الإسلامي)، فإن المرجعين التاليين حملا تباعا إمضاء المؤلفين، الدكتور الحبيب ثامر والأستاذ علي البلهوان. ومهما يكن من أمر فإن طبيعة هذه المؤلفات الثلاثة وكيفية إنجازها يفرضان عملا جماعيا من حيث التشاور والتوثيق. وهو ما أكّده المناضل الرشيد إدريس، رفيق الدكتور الحبيب ثامر «بمكتب المغرب العربي» بالقاهرة ذاكرا بالخصوص: «أن «هذه تونس» هو نتيجة عمل جماعي من حيث جمع المعلومات» ومضيفا «أن الكتاب جاء يعكس عقلية مؤلفه الدكتور الحبيب ثامر المتثبت الرصين الواضح التفكير ...فكان كتابه عملا علميا دقيقا في وصف جغرافية البلاد وتاريخها والحماية الفرنسية (1881) وظروفها وأثرها في السياسة الاقتصادية والمالية التونسية وكذلك في سياسة التعليم والنظام الإداري الذي أصبح في عهد الحماية أداة لحكم مباشر فرنسي، كما تناول وضع القضاء وسياسة التجنيس والفرنسة وأفرد للحركة الوطنية فصلا ثريا أثبت فيه أصول الحركة وتطورها، معترفا لكل من أسهم في الحركة بنصيبه، مترّفعا عن الحزبية الضيقة، معترفا لكل ذي حق بحقه، مستبشرا بالوفاق الوطني الذي تحقق في مؤتمر ليلة القدر (23 أوت 1946) الذي ضمّ النخبة التونسية من ممثلي الحركة الوطنية سياسية كانت أو نقابية وأعلن بوضوح أن نظام الحماية الفرنسية نظام سياسي واقتصادي لا يتفق مطلقا مع سيادة الشعب التونسي وأنه نظام استعماري قضى على نفسه أمام العالم بالإخفاق، بعد تجربة خمس وستين سنة، وأعلن عزم الشعب التونسي الثابت على استرجاع استقلاله التام والانضمام إلى جامعة الدول العربية و هيئة الأمم المتحدة...»

وتشير الرسائل المتبادلة بين الدكتور الحبيب ثامر مدير «مكتب المغرب العربي» بالقاهرة (1947) والمنجي سليم مدير الحزب الحر الدستوري التونسي الجديد بتونس عن طريق

الأستاذ جلولي فارس، ممثل الحزب في باريس (1946-1949) (حرص الدكتور الحبيب ثامر على تزويد مكتبة «مكتب المغرب العربي» بكلّ المراجع المتعلقة بتاريخ تونس والجزائر ومراكش) أي المغرب الأقصى وجغرافيتها): رسالة من الدكتور الحبيب ثامر (القاهرة) إلى المناضل الأستاذ جلولي فارس(باريس) مؤرخة في 10 مارس 1947 «... وصل الإرسال الثاني من الكتب، وكلها قيمة جازاك الله خيرا، إلا القليل النادر منها، وإذا طلبت منك في الرسالة السابقة إيقاف الإرسال فذلك لسبب واحد وهو أن الجامعة العربية أصبحت ترفض بعضها و تقبل البعض الآخر فنرا (هكذا) أن نأخذها كلها إلى المكتب المغربي الجديد. إنما يجب أن أتفاهم مع الإخوان الجزائريين والمراكشيين حتى يرفعوا قسطهم من نفقات تأسيس المكتبة، ولهذا أشرت عليك مؤقتا بتوقيف إرسال الكتب حتى لا تكلفكم المسألة نفقات كبيرة. والمطلوب أن ترسل إلي قائمات الشراء و نفقات البريد... أعود إلى مسألة «الكتب» فأقول لك إنّها صالحة ماعدا القليل منها. وقد كنا في حاجة كبيرة إليها. فلتكن مطمئن البال. وإني قبل الأيام الأخيرة لم أجد وقتا لمراجعتها والاطلاع عليها وهناك كتب توفيق المدني كلها. وسأكاتبه على طريقكم لأطلبها منه ويكون في هذا ربط الصلة به...».

وتفيد الرسالة الموجهة من الأمين العام للحزب الحر الدستوري الجديد الأستاذ صالح بن يوسف (تونس) أيضا إلى المناضل الأستاذ جلولي فارس (باريس) والمؤرخة في 16 نوفمبر 1948 أنّ نسخة من «التقريرين المتعلقين بالشغل والتعليم» وُجّهت إلى الدكتور الحبيب ثامر الذي وظفهما لإعداد مذكرة عن حالة التعليم و الثقافة بتونس والجزائر ومراكش قدّمها صحبة رفيقه يوسف الرويسي في أشغال مؤتمر اليونسكو الذي انعقد ببيروت في شهر أكتوبر 1948: «... أذكرك توجيه نسخة من التقرير الواصل لك صحبة هذا وهو تقرير جمعية الأمم المتحدة لنشره بعد أن يقع تقديمه لأننا لم نأخذ منه نسخة هنا، كما توجه منه نسخة إلى مصر مع نسختين من التقريرين اللذين يتعلقان بالشغل والتعليم كي يتمكن الدكتور ثامر من تأليف الجزء الأول..»



الصادق ثريّا

[1920-2003م]

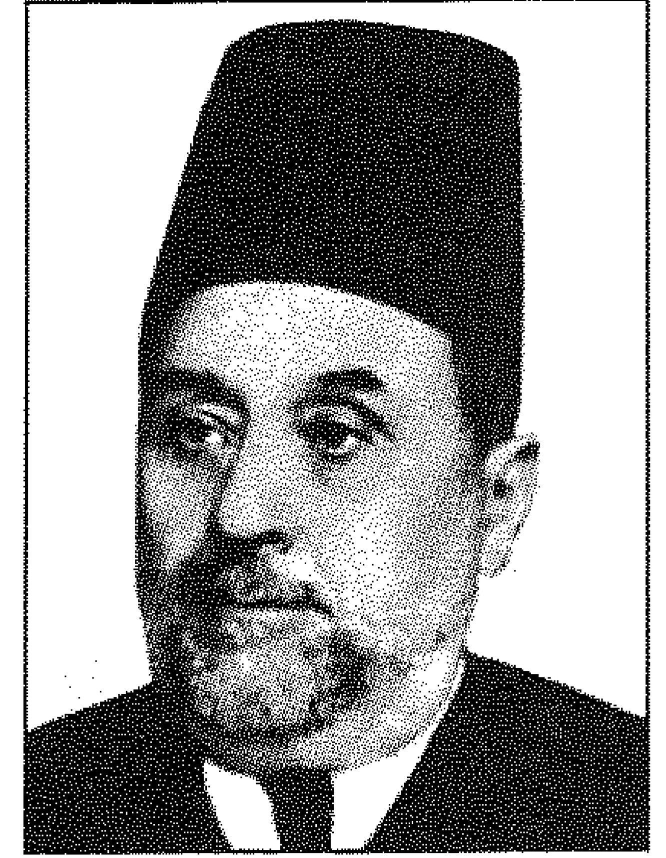
ولد الصادق ثريّا بالقيروان في أسرة شغوفة بالفنّ فكان مولعا بالغناء منذ الصغر. كتب له أولى أغنياته علي الدوعاجي وعبد الرزاق كرباكة والهادي العبيدي ومحمود بورقيبة. وفي بداية الأربعينات من القرن العشرين اشتغل مع مجموعة من نجوم الغناء أمثال محمد التريكي وحسيبة رشدي وشافية رشدي وفتحية خيري وعمل بالإذاعة التونسية منذ تأسيسها.

وفي سنة 1952، سافر إلى فرنسا واشتغل في بعض الملاهي وتعرّف إلى مجموعة من الفنّانين الجزائريّين والمغاربة، وكلّفه صاحب الملهى بتعليم ابنته أداء بعض أغاني أمّ كلثوم فجدّ في تدريبها حتى رسخت قدمها في الفنّ واشتهرت باسم وردة الجزائرية.

وفي سنة 1958، تحوّل إلى المغرب وتولّى تدريب الفرقة المغربيّة على الكثير من الموشحات. ومن أبرز أفراد الفرقة آنذاك عبد الوهاب الدوكالي وعبد الهادي بلخياط.

وانتقل بعد ذلك إلى الجزائر سنة 1962 وكلّف

بتعليم الموسيقى لأطفال الشهداء في عنّابة وسيدي بلعباس كما شارك في الإذاعة الوطنيّة الجزائريّة بتقديم إنتاجه الغنائي.
اتّخذت حياة الصادق ثريّا الفنيّة أبعادا مغاربيّة وكان موسيقارا جامعا بين الغناء والتلحين والتدريس.



عبد العزيز الثعالبي
[1876–1944م]

1- نسبه ونشأته

ولد المناضل السياسي الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمان الثعالبي بمدينة تونس في 15 شعبان 1293هـ الموافق للخامس من سبتمبر 1876. ونشأ تحت رعاية والده الذي كان يشغل خطة عدل اشهاد، وجدّه المنحدر من أسرة جزائرية معروفة بالعلم والصلاح. وعندما بلغ من العمر اثني عشر عاما التحق بجامع الزيتونة، بعدما حفظ القرآن الكريم وتعلّم مبادئ اللغة العربية بالمدرسة الابتدائية. فتلقى بالجامع الأعظم علوم اللغة العربية والشريعة عن كبار أساتذة العصر، نخصّ بالذكر منهم المشايخ مصطفى بن خليل وحسين بن حسين وإسماعيل الصّفايحي ومحمد النّجار وسالم بوحاجب.
ولمّا امتلأ وطابه علما واشتدّ نظره فهما، انقطع عن الدّراسة قبل الحصول على شهادة «التطويع» لأنّه لم يكن يرى نفسه في حاجة إليها، بل كان كل ما يطمح إليه، بعدما اكتسب زادا ثقافيا لا بأس به، إنّما هو دخول معترك الحياة والاتصال بأعلام النّهضة الفكريّة بتونس، وفي طليعتهم البشير صفر. فما إن غادر جامع الزيتونة حتّى انضمّ إلى أركان الحركة الإصلاحية وانطلق يعمل لخدمتها وإعلاء كلمتها. وسرعان ما أخذ يحرّر المقالات والفصول وينشرها في الصّحف الصادرة آنذاك، وانتهى به الأمر إلى تأسيس جريدة عربية أطلق عليها اسم «سبيل الرشاد» وخصّصها للوعظ والإرشاد والدعوة إلى الإصلاح.
ولكن السّلط الفرنسية لم ترض عن اتّجاه تلك الجريدة، فقرّرت تعطيلها بعد سنة من صدورها. وعندما وجد الثعالبي نفسه عاطلا عن العمل دون أيّ مورد رزق، فكر في الهجرة. فتحوّل أوّلا إلى الجزائر مسقط رأس أجداده، وزار أهمّ مدنها. ثم رجع إلى تونس وطلب من السّلطة السّماح له بالسّفر إلى مصر، فلم تستجب لطلبه، وعند ذلك اضطرّ إلى مغادرة البلاد خلسة، والالتحاق بطرابلس عن طريق البحر. ولقد لفتت فصوله المنشورة في الصّحافة الطرابلسية نظر الوالي التّركي الذي أمره بمغادرة طرابلس في الحين، وذلك نزولا عند رغبة القنصلية الفرنسية هناك.
فتحول إلى بنغازي حيث تولّى إلقاء بعض الدروس الخاصّة التي درّت عليه من المال ما مكّنه من السّفر إلى إستانبول والاتّصال بثلّة من علمائها ومفكّريها. ومن هناك انتقل إلى القاهرة وأقام بها فترة طويلة من الزّمن قضّاها بين متابعة بعض الدروس بالجامع الأزهر والاختلاط بالعلماء ورجال الفكر المصريّين وفي طليعتهم الشيخ محمد عبده رائد الحركة الإصلاحية الإسلامية في المشرق. ثم زار بعض البلدان العربية والأوروبية مثل سوريا والعراق وبلاد اليونان وإيطاليا والنمسا.
وفي سنة 1902 رجع إلى تونس بعد غيبة دامت حوالي سبع سنوات. ولكن ما إن استقرّ به المقام بضعة أشهر، حتى عاوده الحنين إلى

التجوال، فزار على التوالي الجزائر والمغرب وإسبانيا، ثم عاد إلى الجزائر، فاتصل بالوالي العام الفرنسي جونار الذي كان من دعاة التقارب بين المسلمين والفرنسيين واقترح عليه مساعدته على إصدار جريدة عربية لبثّ الأفكار الإصلاحية في المغرب الذي لم تكن توجد فيه آنذاك مطبعة عصرية. ورغم تشجيع جونار لهذه الفكرة فإنّها لم تدخل حيّز التطبيق.

2- دعوته الإصلاحية

رجع الثعالبي من جديد إلى تونس في سنة 1904 وأخذ في نشر أفكار زعماء الإصلاح المشارقة، أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمّد عبده ورشيد رضا، صاحب مجلّة «المنار» والسّعي إلى التعريف بآرائهم الدّاعية إلى النّهوض بالأمّة الإسلامية وبناء الحياة الاجتماعية على أسس أصول الإسلام الأولى وتخليص العقيدة ممّا علق بها من خرافات وأوهام.

«وبدأ الناس يلتقطون من كلامه سقطات في مسائل الخلاف بين الصّحابة والأولياء والكرامات ويشيعونها على وجهها أو على غير وجهها، حتى بلغت أسماع كبار الشّيوخ الناقمين على التّطور فأثارتهم ثورة أدمجت الخلدونيّة والمنار والثّعالبي. وتقدّمت بدعوى إلى النّيابة العمومية وجرت المرافعات والرّعاع يترصّدون الثعالبي في ذهابه إلى المحكمة ورجوعه، يهاجمونه بالسبّ والأذى، ثمّ حُكم عليه بالسّجن» وقد أصدرت عليه المحكمة في 23 جويلية 1904 حكما بالسجن لمدّة شهرين، من أجل تلفّظه بعبارات اعتبرتها منافية للدّين الإسلامي.

وما إن غادر السّجن حتى فكّر في تأليف كتاب للردّ على خصومه وإظهار الدّين الإسلامي الحنيف في مظهر الدّين الذي يقوم على أسس الحرّية والعدالة والتسامح، وإقامة الدّليل على أنّ الإسلام في شكله الصّحيح لا يتنافى مع المدنيّة الحديثة ولا يرفض التقدم.

ولم يكن من الممكن نشر ذلك الكتاب في تونس، لأنّ خصومه مازالوا يتربّصون به الدّوائر، فقرّر إصداره في باريس باللّغة الفرنسية. ولمّا كان يجهل تلك اللّغة، فقد كلّف بنقل تأليفه إلى اللغة الفرنسية، صديقيْه الهادي السبعي المترجم بالمحكمة الابتدائية بتونس والمعروف بأفكاره التحرّرية، والمحامي سيزار بن عطار الذي دافع عنه في أثناء محاكمته وقد صدر الكتاب بباريس سنة 1905 بعنوان: روح التحرّر في القرآن.

وقد تضمّن ذلك الكتاب كثيرا من الأفكار الإصلاحية التي كانت رائجة عهدئذ، لا سيما منها المتعلّقة بتحرير المرأة المسلمة ومقاومة البدع والتمسّك بالكتاب والسّنة والدّعوة إلى تخليص العقيدة الإسلامية مما اختلط بها من باطل مناف لروح التوحيد الخالص، مثل التقرب للمنتسبين إلى الصلاح وعبادة الأضرحة والخضوع لأصحاب الكرامات.

3- انضمامه إلى حركة الشباب التونسي

في ذلك التاريخ بالذات التحق المترجم له بـ«النادي التونسي» الذي كان يضمّ نخبة من رجال الفكر والأدب والسياسة أمثال علي باش حانبة وحسن قلاتي وخير الله بن مصطفى وعبد الجليل الزاوش والصّادق الزمرلي. وأسهم إسهاما بعيد المدى في تأسيس كثير من المشروعات المنبثقة عن «النادي التونسي» مثل «جمعية الآداب» التمثيلية التي قدمت مسرحيتها الأولى «صلاح الدين الأيوبي» في سنة 1911 بالمسرح البلدي بالعاصمة.

وفي سنة 1907 انضمّ الثعالبي إلى «حركة الشباب التونسي» المتأثّرة في بعض نواحيها بحركة الشباب العثماني والمناصرة لفكرة الجامعة الإسلاميّة.

وبعد ذلك بسنتين، كلّف الشيخ عبد العزيز الثعالبي برئاسة تحرير النّشرة العربية من جريدة «التونسي» الناطقة بلسان حركة الشباب التونسي.

وبمناسبة الإضراب الذي شنّه طلبة جامع الزيتونة بداية من 16 أفريل 1910 للمطالبة

بإصلاح التعليم في مؤسستهم، لم يتأخر الثعالبي عن مساندة الطلبة والدّفاع عن مطالبهم المشروعة. وقد تحقّق في تلك المناسبة التلاحم والتآزر بين الشبيبة الزيتونية والشبيبة المدرسية، تحت لواء حركة الشباب التونسي.

وفي سنة 1911 بلغت تلك الحركة أوجها على إثر غزو إيطاليا للبلاد الطرابلسية. فأصدر علي باش حانبة يوم 19 أكتوبر من تلك السّنة جريدة عربية جديدة أسماها «الاتّحاد الإسلامي» لمهاجمة الإيطاليين والدفاع عن المجاهدين اللّيبيين وجمع التبرّعات لفائدتهم. وقد كلّف بإدارتها الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي اضطلع بالمهمّة الملقاة على عاتقه على أحسن الوجوه.

واستغلّت السّلط الفرنسيّة حوادث الزلاّج الدامية التي اندلعت بتونس في 7 نوفمبر 1911، لتعطيل جميع الصّحف العربية، بما في ذلك النشرة العربية من «التونسي» و«الاتحاد الإسلامي»، ولم تسمح بالصدور إلاّ لجريدة عربية واحدة هي جريدة «الزّهرة» شبه الرسمية.

ورغم ذلك استمرت الحركة الوطنية في نشاطها إلى أن جدّت حوادث مقاطعة «الترامواي» في شهر فيفري 1912. فاتّهمت حكومة الحماية علي باش حانبة وجماعته بإثارة الشّغب، وانتهزت تلك الفرصة للقضاء على حركة الشباب التونسي القضاء المبرم.

وفي فجر يوم 13 مارس 1912 ألقت السّلط الفرنسية القبض على سبعة من قيادة الحركة وأبعدت أربعة منهم خارج تراب المملكة دون محاكمة وهم: علي باش حانبة وعبد العزيز الثعالبي ومحمد نعمان وحسن قلاتي.

فتحوّل الثعالبي صحبة علي باش حانبة إلى فرنسا، حيث حاولا الاتّصال بكبار المسؤولين الفرنسيين لتعريفهم بالقضيّة التونسية على وجهها الحقيقي. ولكنهما لم يجدا آذانا صاغية، فقرّرا السفر إلى تركيا لمواصلة نضالهما من أجل تحرير وطنهما.

وبعد أشهر قليلة رفعت السّلط الفرنسية قرار الإبعاد المتّخذ ضدّ قادة حركة الشباب التونسي، فرجع المبعدون إلى ديارهم، ماعدا علي باش حانبة الذي قرّر الاستقرار نهائيا بتركيا. أمّا الثعالبي، فإنّه لم يرجع إلى تونس إلا إثر اندلاع الحرب العالمية. وقد استغلّ فرصة وجوده بالخارج للقيام برحلة طويلة عبر العالم، فزار على التوالي تركيا ومصر واليمن وسيلان والهند وسنغفورة وأندونيسيا والصين وبرمانيا، ثم قفل راجعا إلى تونس في غضون سنة 1914.

4) تأسيس الحزب الحر الدستوري التونسي (1919–1922)

ركدت الحركة الوطنية التونسية في الدّاخل بسبب ظروف الحرب، وذلك طوال الفترة الممتدّة من 1914 إلى 1918. وما إن وضعت الحرب أوزارها حتى أقدم الوطنيون على إعادة تنظيم صفوفهم وجمع شملهم وضبط مطالبهم محاولين الاستفادة قدر الإمكان من المبادئ الأربعة عشر التي أعلن عنها الرئيس الأمريكي ويلسن إثر انتهاء الحرب، لا سيما من المبدإ المعترف بحقّ الشّعوب في تقرير مصيرها. ثم قرروا في آخر الأمر أن يعهدوا بمهمّة عرض القضية التونسية على حكومة باريس، إلى عناية الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي أصبح، بعد وفاة علي باش حانبة في تركيا سنة 1918، زعيم الحركة الوطنية بلا منازع.

فتحوّل الثعالبي إلى باريس في شهر جويلية 1919 للاضطلاع بتلك المهمّة التي أوضحها في إحدى رسائله المؤثّرة، الموجّهة إلى رفقائه في تونس، وقد جاء فيها بالخصوص ما يلي:

«لم أتحوّل إلى باريس للتنزّه وطلب الرّاحة، بل إنّي مبعوث للقيام بمهمّة كلّفني بها شعبنا المضطهد، وهي لعمري مهمة شاقّة وثقيلة على كاهلي. وهي تتمثّل في طرح القضية التونسية على بساط البحث، والشروع في التحدّث في شأنها. وإني أجهل مدى نجاحي في الاضطلاع بها، فإذا فشلت فإني سأهيم على وجهي في

العالم وسأغادر البلاد التي لم أتمكّن من خدمتها كما كنت أودّ، وسأقتصر على العمل لفائدة أسرتي التي ضحيت بها في سبيل وطني العزيز، وأكون قد كرّست لذلك الوطن ربع قرن من حياتي».

ولقد تجسّد نشاط الثعالبي منذ وصوله إلى باريس في إلقاء المحاضرات والخطب ونشر المقالات في الصحف الفرنسية المناصرة لقضايا الشعوب المولى عليها والاتصال بقادة الأحزاب السياسية وبالخصوص الحزب الاشتراكي، ورؤساء الجمعيات الثّقافية والمنظمات الإنسانية، مثل رابطة الدفاع عن حقوق الإنسان.

وبالإضافة إلى ذلك، سخّر كل طاقته لتأليف كتاب تونس الشهيدة بالتعاون مع المحامي التونسي المقيم بباريس الأستاذ أحمد السقا الذي تولّى نقله إلى اللّغة الفرنسية. وقد أحرز الكتاب منذ صدوره في شهر جانفي 1920 نجاحا باهرا. ورغم مصادرته من قبل السّلط الفرنسية، فقد انتشر بتونس في كنف السرّية وزاد في حماس الوطنيين الذين تبنّوا المطالب الواردة فيه وأجمعوا على بعث أوّل حزب منظّم في تونس، برئاسة الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وهو «الحزب الحرّ الدستوري التونسي» الذي أعلن عن تأسيسه يوم 15 جوان 1920.

وقد كان رد فعل الحكومة الفرنسية إلقاء القبض على مؤلف تونس الشهيدة ونقله يوم 28 جويلية 1920 إلى تونس حيث اعتقل في السجن العسكري بتهمة «التآمر على أمن الدولة».

واعتبارا لما أثاره ذلك الإجراء التعسّفي من ردود فعل في الرأي العام، سواء في تونس أو في فرنسا، فقد اضطرّت السّلط الفرنسية إلى الإذن بإطلاق سراح المتّهم يوم أوّلَ ماي 1921، بعدما ختم قاضي التحقيق البحث بالتّصريح بعدم سماع الدعوى.

وما إن غادر الثعالبي السّجن حتى أقبل بكلّ حماسة على تركيز هياكل الحزب الناشئ والتعريف بمطالبه ونشر الدعوة لفائدته، سواء عن طريق الخطب والمحاضرات أو بالفصول المنشورة على صفحات الجرائد الوطنية التي ظهرت للوجود من جديد منذ سنة 1920، لاسيما مجلة «الفجر» الناطقة بلسان الحزب.

وقد حَظيت الحركة الدستورية من أوّل وهلة بتأييد القوى الحيّة في البلاد كافّة ومساندة الباي محمّد النّاصر باي، فانتشرت انتشارا سريعا وأصبحت قوّة تهدّد النّفوذ الفرنسي بالخطر.

لم تمض مدّة طويلة على ميلاد الحزب الدستوري، حتى بدأت منذ أواخر 1921 تظهر الخلافات بين بعض قادته حول طرق العمل الواجب اتباعها في سبيل تحقيق المطالب الوطنية. فعلى حين كانت الأغلبية الملتفة حول الشيخ عبد العزيز الثعالبي، ترى ضرورة المطالبة بالدستور والتمسك بالمطالب الواردة في كتاب تونس الشهيدة، كان الشقّ الذي يتزعّمه حسن قلاتي، يدعو إلى قبول الإصلاحات التي أعلن عنها المقيم العام لوسيان سان باسم الحكومة الفرنسية والمنحصرة في رفع الرّقابة على الصحافة وتأسيس وزارة العدل وتعويض المجلس الشوري بالمجلس الكبير، وانتهى الأمر بهذا الشقّ الأخير إلى الانفصال عن الحزب الدستوري وتأسيس حزب جديد، أطلق عليه اسم «الحزب الاصلاحي».

ولكنّ ذلك الحزب لم يستطع استقطاب الجماهير الشّعبية التي ظلّت وفيّة للثعالبي وحزبه. وسرعان ما تحوّل الحزب الإصلاحي إلى مجرّد مجمع يضمّ عددا من القادة البورجوازيين دون أنصار.

وعلاوة على هذا الانشقاق الذي أضرّ بالقضيّة الوطنية، أصيب الحزب الدستوري في صائفة سنة 1922 بوفاة محمّد النّاصر باي الذي كان يحيط الحركة الوطنية بعطفه ورعايته. فاغتنم المقيم العام هذه الفرصة لشلّ الحركة والقضاء على رجالها، وذلك بإصدار مجموعة من الأوامر الاستثنائية التي عطّلت الصّحف الوطنية ومنعت الاجتماعات العامّة وسلّطت أقسى العقوبات على

المناضلين الدستوريين، فاضطرّ رئيس الحزب إلى الهجرة من جديد إلى المشرق.

5) نشاط الثعالبي في المشرق (1923–1937)

غادر الثعالبي تونس يوم 26 جويلية 1923 متوجّها إلى إيطاليا ومنها إلى بلاد اليونان وتركيا، ثم زار مصر والحجاز والهند ومسقط والبحرين والكويت، وانتهى به المطاف إلى بغداد التي وصلها يوم 14 جويلية 1925، فاستقبلته جميع الأوساط العلمية والثقافية والسياسة بالتبجيل والاحترام وأمر الملك فيصل الذي كان قد تعرّف إليه عند إقامته في باريس وإسطمبول، بتعيينه مدرّسا للفلسفة الإسلامية بجامعة آل البيت. وقد باشر مهمة التدر يس من مطلع سنة 1926 إلى أن ألغيت تلك الجامعة في سنة 1930. فعيّن بإذن من الملك مراقبا لبعثة الطلبة العراقيين بمصر. وغادر بغداد في آخر شهر سبتمبر 1930 ملتحقا بمنصبه الجديد بالقاهرة.

وقد تمكّن في أثناء إقامته الأخيرة بمصر من الاتّصال برجال الفكر والثقافة والأدب أمثال علي عبد الرّازق ورشيد رضا ومحمد علي طاهر وغيرهم. وبمناسبة الزيارة التي أدّاها إلى فلسطين في تلك الفترة، استحكمت صلات المودة بينه وبين مفتي فلسطين الأكبر السيد أمين الحسيني، واتّفقا على القيام بدعوة واسعة النطاق إلى عقد مؤتمر إسلامي بالقدس «من أجل إثارة اهتمام الرأي العام الإسلامي وكسب عطفه وتأليف جبهة قوية تستطيع الوقوف في وجه الصهيونية».

وبفضل الجهود التي بذلها الثعالبي في مصر، وأمين الحسيني في فلسطين لإحباط مؤامرات المعارضين في الدّاخل والخارج، انعقد المؤتمر الإسلامي العام بالقدس من 7 إلى 17 ديسمبر 1931 وتمخّض عن قرارات على غاية من الأهمّية. وإثر انتهاء المؤتمر انتخب الشيخ عبد العزيز الثعالبي عضوا في المكتب الدّائم للمؤتمر ثم عيّن بعد ذلك مسؤولا عن لجنة الدعاية والنّشر. وقد سخّر كلّ جهوده اعتبارا من ذلك التاريخ للدفاع عن القضايا الإسلامية، والكفاح من أجل تحرير الشعوب العربية والإسلامية من الإستعمار الأوربي، حتى أصبح من أبرز قادة النّهضة الإسلامية الحديثة.

6) رجوعه إلى تونس ووفاته (1937–1944)

وبعد هجرة دامت أربع عشرة سنة، عاد الثعالبي إلى تونس يوم 19 جويلية 1937، فخصّه الشّعب التّونسي باستقبال رائع، واستبشر شقّ من الوطنيّين بمقدمه وظنّوا أنّه سيعمل لا محالة على وضع حدّ للانشقاق الجديد الذي ظهر في صفوف الحزب الحر الدستوري التونسي في سنة 1934. وبالفعل فما إن رجع مؤسّس الحزب إلى أرض الوطن حتى أخذ يسعى إلى التوفيق بين رجال اللّجنة التنفيذية (الحزب الدستوري القديم) ورجال الديوان السياسي (الحزب الدستوري الجديد). ولكن سرعان ما ذهبت مساعيه أدراج الرّياح، نظرا إلى تباين وجهات النظر بين الفريقين وتشبّث كلّ فريق بموقفه. ورأى نفسه مضطرّا في آخر الأمر إلى تأييد موقف اللّجنة التنفيذية. وحاول القيام بجولة داخل البلاد للتّعرف إلى آراء المناضلين حول هذا الخلاف المضرّ بالقضية التونسية. ولكن رجال الديوان السياسي حالوا بينه وبين ذلك بكلّ الوسائل. فتهجّم عليهم في مقاله الشهير بجريدة «الإرادة» لسان حال الحزب الدستوري القديم، بعنوان «الكلمة الحاسمة» ووصفهم «بالمارقين والمعاقين». وكان ردّ فعل خصومه عنيفا، إذ لم يتأخّروا عن نعته بالجمود والتحجّر، بل حتّى اتهامه بالتواطؤ مع العدوّ. وتفاقم الوضع إلى أن أفضى إلى مصادمات بين أنصار الشقّين.

«وتأثّر الثعالبي بكلّ ذلك تأثرا عظيما، إذ كان يؤمن برسالته الرّامية إلى توحيد كلمة الوطنيين التّونسيين، فلم ينجح» وابتعد شيئا فشيئا عن حلبة السياسة، لاسيما بعد أن أوقف الحزب الدستوري القديم نشاطه من تلقاء نفسه إثر

حوادث 9 أفريل 1938، ولكنّه لم يتخلّ قطّ عن نشاطه الفكري والثّقافي، لأنّه كان داعيا دينيّا ومصلحا اجتماعيّا قبل أن يكون زعيما سياسيا. فكان ينشر من حين إلى آخر بعض الفصول والدّراسات التّاريخية في جريدة «الإرادة»، كما أصدر في سنة 1938 الجزء الثاني من كتابه المتعلق بالسيرة النّبوية، بعنوان معجز محمّد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلّم.

وعندما اضطره المرض العضال الذي ألمّ به إلى ملازمة بيته إثر اندلاع الحرب العالمية الثانية، استمرّ في الاتّصال بالمثقّفين ولا سيما الشبّان منهم، «فكان يجلس في بيته كل يوم جمعة بعد العصر لإلقاء دروس على طلبة جامع الزّيتونة المعمور، حول مقاصد الشريعة أو التاريخ أو مشاهداته في البلدان الإسلامية الشرقية».

ولقد لبّى الشيخ عبد العزيز الثعالبي داعي ربه يوم أوّل أكتوبر 1944، فكان وقع وفاته شديدا على الوطنيين الذين لم يغب عن أذهانهم ما قدّمه ذلك المصلح الكبير من جليل الخدمات إلى بلاده خاصة، وما بذله طول حياته من جهود للنّهوض بالأمة الإسلامية قاطبة.

7) آثاره المطبوعة والمخطوطة

أ- الآثار المطبوعة في حياته:

- معجز محمّد رسول الله، تونس، 1938

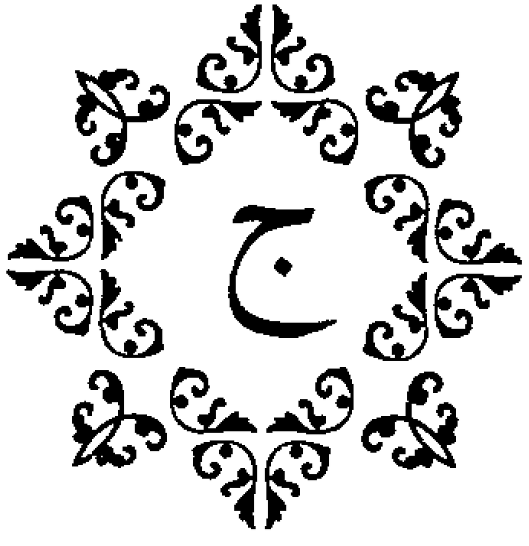
ب- الآثار المنشورة بعد وفاته (بعناية دار الغرب الإسلامي بيروت).

- مسألة المنبوذين في الهند، 1984.
- روح التحرر في القرآن (باللّغة الفرنسية)، باريس 1905.
- تونس الشهيدة (باللّغة الفرنسية)، باريس 1920.
- معجز محمد رسول الله (الطبعة الثانية)، 1984.
- تونس الشهيدة (الترجمة العربية)، 1984.
- تونس الشهيدة (باللّغة الفرنسية) (الطبعة الثانية)، 1984.
- روح التحرر في القرآن (الترجمة العربية)، 1985.
- محاضرات في تاريخ المذاهب والأديان، 1985.
- مقالات في التاريخ القديم، 1986.
- تاريخ شمال إفريقيا (الطبعة الأولى)، 1984.
- خلفيات المؤتمر الإسلامي بالقدس، 1988.

ج- الآثار المخطوطة

لقد ترك الشيخ عبد العزيز الثعالبي بعض مؤلّفات مخطوطة، احتفظ الدكتور أحمد بن ميلاد بقسم كبير منها. وهي تتمثّل، حسب علمنا، فيما يلي:

- بقية اجزاء كتاب «معجز محمد رسول اللّه».
- تاريخ الهند.
- الرحلة اليمنية.
- تاريخ الدولة الأموية (وقد نشر المؤلّف عدّة فصول منه في مجلة الفجر).
- مذكّرات الثعالبي (مخطوط مفقود).



محمد صالح الجابري

[1940–2009م]

ولد بتوزر في 8 فيفري 1940. درس المرحلة الابتدائية بالرديف وتوزر والثانوية بجامع الزيتونة بتونس العاصمة، حيث نال شهادة التحصيل سنة 1961. اشتغل على إثرها معلّما لمدة خمس سنوات. كان يتردّد في أثنائها على مجالس الثقافة ومقاهيها المشهورة في تونس العاصمة. ثم التحق بجامعة بغداد سنة 1967. ومنها حصل على الإجازة في اللغة والآداب العربية سنة 1971. عين إثرها أستاذا بالتعليم الثانوي لسنوات وملحقا بوزارة الثقافة منذ سنة 1973 ثم مديرا للمركز الثقافي التونسي في ليبيا. ومنذ سنة 1979 التحق بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. فكان له الدور الكبير في التعريف بالثقافة العربية وآدابها وحضارتها وفي الإشراف على الموسوعات الأدبية والعلمية التي أنجزتها المنظمة ومنها موسوعة العلماء والأدباء العرب والمسلمين (وقد صدر منها 19 مجلّدا) ولم ينقطع عن تحصيل العلم الذي واصله بعد الالتحاق بوزارة الثقافة سنة 1973. فأحرز على شهادة الدراسات المعمّقة سنة 1980 من الجامعة الجزائرية ثم الدكتوراه في الآداب من الجامعة نفسها سنة 1987 بأطروحة تناولت موضوع النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين في تونس.

نشاطه التأليفي: لم يتخصّص محمد صالح الجابري في لون واحد من الكتابة. وإنّما ألف في مختلف الأجناس من شعر وقصّة قصيرة ومسرح ومقال صحفي. وأنتج للإذاعة والتلفزة بعض المسلسلات. وأخرج للناس بحوثا ودراسات أدبية وفكرية. واهتمّ بالتحقيق والتراث. فهو من هذه الجهة كاتب موسوعي جمع بين الإبداع والنقد وبين إنتاج الأدب والتأريخ له.

لمحمد صالح الجابري مؤلفات في الإبداع بصنوفه وفي النقد والدراسة والتوثيق. ويمكن تصنيف كتاباته إلى أبواب:

– **الرواية والقصة القصيرة**: يوم من أيام زمرا، (رواية، 1968). إنه الخريف يا حبيبتي، (مجموعة قصصية 1971)،

البحر ينشر ألواحه (رواية 1975) الرخ يجول في الرقعة (مجموعة قصصية 1977)، ليلة السنوات العشر (رواية، 1982).

– المسرح: كيف لا أحبّ النهار؟، (مسرحية 1979)

– **البحوث والدراسات**:

الشعر التونسي المعاصر، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1974.

– القصة التونسية نشأتها وروادها، مؤسّسات بن عبد الله، تونس 1975.

– ديوان الشعر التونسي الحديث، الدار العربية للكتاب، تونس 1976.

– دراسات في الأدب التونسي،، الدار العربية للكتاب، تونس 1976.

– أبعد المسافات، مؤسّسة بن عبد الله، تونس 1977.

– يوميات الجهاد الليبي، الدار العربية للكتاب، تونس 1980.

– النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس، الدار العربية للكتاب 1982.

- الأدب الجزائري في تونس، بيت الحكمة، تونس 1991.
- محمود بيرم التونسي في تونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1987.
- رحلات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2008.

وأشرف على موسوعة العلماء والأدباء العرب والمسلمين التي أصدرتها الألكسو، كما سبق أن ذكرنا.

محمد صالح الجابري ناقدا: من شواغل محمد صالح الجابري نقد الأدب التونسي والتأريخ لأهمّ أعلامه واتجاهاته على مدار قرن، امتدّ من أواخر القرن التاسع عشر إلى العقود الأخيرة من القرن العشرين. ولم تقتصر دراساته على المدار الجغرافي التونسي. وإنّما شمل القطرين الجزائري والليبي وعليه يمكن النظر في مدوّنته النقدية في محورين اثنين:

أ - دراسة الأدب التونسي شعره وسرده:

تؤلّف مؤلفاته النقدية رافدا من الروافد الأساسية في دراسة الأدب التونسي شعره وسرده ونقده. ففي كتابه الشعر التونسي المعاصر يقف على معالم هذا الشعر طيلة قرن كامل امتدّ من سنة 1870 إلى سنة 1970 أي منذ تباشير النهضة الفكرية والأدبية في تونس. وفي فصول هذا الكتاب الخمسة يدرك القارئ المراحل الكبرى لمسار هذا الشعر وعوامل نشأته وخصائصه المضمونية والفنية. فقد خصّص الكاتب الفصل الأول لرصد ملامح الأدب التونسي في الفترة المتراوحة بين 1869 و1881، مبرزا خصائص مرحلة النشأة للشعر الحديث وما يربط بين شعرائه من وشائج الرؤية التي عمادها التتلمذ. أمّا الفصل الثاني فخصّصه لدراسة الشعر التونسي من عام 1811 إلى عام 1914. ويحلّل في هذا السياق الدور الثقافي الذي كان للصحف التي صدرت في تونس في تلك السنوات، في سياق ما عكسته حركة الانبعاث الأدبية من تأثير، مبرزا دور الأدباء في إنعاش الحركة الأدبية بكتاباتهم في الصحف. ولعلّ هذا ما جعل من الشعر العصري مدارا عليه تتنافس الصحف في نشر أجوده وأمتعه. ولمتابعة هذا المسار يخصّص الفصل الثالث للحديث عن هوية الشعر التونسي في الفترة المتراوحة من سنة 1914 إلى سنة1934، مبرزا العوامل السياسية والاجتماعية والفكرية الحافة بهذه المرحلة، محلّلا الدور النضالي الذي اضطلعت به ثلة من الأدباء، معتبرا أنّ الشاعر محمد الشاذلي خزندار هو أوّل مؤسس للشعر السياسي التونسي. وبمقتضى ذلك خصّص له ولمصطفى آغا حيّزا درّس فيه حياتهما وشعرهما ومواقفهما الوطنية. وعلى هذا المنوال من الرصد والتحليل يخصّص الفصل الرابع لرصد واقع الشعر التونسي من سنة 1934 إلى سنة 1940 ويبين أثر بعض المجلاّت في الحياة الثقافية والأدبية للبلاد وقتئذ من قبيل مجلة العالم الأدبي لصاحبها زين العابدين السنوسي ومجلّة الزمان التي أشرف عليها محمود بيرم التونسي. وفي هذا السياق أيضا يبرز دور المجالس والمقاهي والنوادي الأدبية في تشكيل المشهد الأدبي. ويخصّص المؤلف خاتمة هذا الفصل للإطلال على شعر محمد العريبي «ابن تومرت» وللحديث عن جوانب من شخصيته الناشطة والمناضلة وليدرس أيضا شعر محمود بيرم التونسي، كاشفا مواقف هذا الشاعر النضالية وإيمانه العميق بشرف الكلمة ونبلها. وفي الفصل الخامس من هذا الكتاب يبرز المؤلف دور الشاعر والباحث محمد البشروش الذي أصدر عام 1938 مجلّة المباحث. وقد التفّ حولها نخبة من الباحثين والكتّاب التونسيين ويشير إلى الدور التجديدي الذي وسم النتاج الشعري لموجات جديدة متلاحقة. ولم يكتف الدارس برصد تيّارات الشعر عامّة وذكر أعلامها في كل طور من أطوار تجدّده. وإنّما وقف على نماذج منها، دارسا حياة كل أديب ومحلّلا لجوانب من شعره مؤكّدا ما به تختصّ هذه

الموجة الشعرية من نزعة إلى تجديد الأدب شكلا ومضمونا.

ولعلّ أهم ما يحدّد منهج الجابري وأسلوبه في التأريخ للأدب التونسي كونه منهجا يجمع بين التأريخ وتحليل الظواهر الأدبية تحليلا نسقيا يربط بين الأديب وسياقه الثقافي العام وبين الأديب وسائر الأدباء الذين يشتركون معه في بعض الخصائص بغية رصد المختلف والمؤتلف بين أجيال الكتاب، وصولا إلى صيغة تصنيفية تشترك فيها زمرة من الأدباء. وعلى هذا النهج من الشمولية والإفادة ستكون سائر مؤلفاته الأخرى.

ويعدّ كتابه ديوان الشعر التونسي المعاصر الصادر سنة 1976 عن الدار العربية للكتاب امتدادا لكتابه الأول الذي جمع فيه مختارات من قصائد الشعراء الذين عرّف بهم في الكتاب السابق. وفيه يسعى إلى التعريف بالنصّ الشعري التونسي، باختلاف اتجاهاته وأزمنة تأليفه.

ويجئ كتابه القصة التونسية نشأتها وروّادها لينقّب فيه عن النصوص القصصية المنشورة في الصحائف القديمة وينفض عنها الغبار، مسلّطا الضوء على الروّاد الأوائل من كتّاب القصّة في تونس. وما كتابه دراسات في الأدب التونسي الصادر سنة 1976 إلاّ جمع لمقالات أسماها الكاتب في مقدمته (محاولات أدبية)، ساعيا في إطار مشروعه الكبير إلى مزيد التعريف بتجارب الكتّاب المنتمين إلى بلد «يعيش تحوّلات فكرية متفاعلة مع أهمّ أحداث العصر، ومستجيبة لكلّ الطموح الإنساني».

ففي هذا الكتاب نجد بحوثا تتعلّق بالرواية من قبيل «المضمون السياسي في الرواية التونسية» وتتّصل بالقصّة تصنيفا وتنظيرا من قبيل «اتجاهات القصّة التونسية في الثلاثينات» و«نظرية القصّة التونسية في الثلاثينات». وقد أثار الباحث بعض المسائل التي تتّصل بتجربة مصطفى خريف ومدى اعتباره قصّاصا. وأعاد قراءة سيرة علي الدوعاجي الإنسان والزجّال، معتبرا أنّه استبدل كلّ الكنوز بلقب «فنان الغلبة». وفي إطار التنويع بين أجناس الكتابة، اهتمّ محمد صالح الجابري في هذا الكتاب بشواغل الشعر التونسي والشعر الحرّ وبأهمّ كتّابه وبحضور النضال الجزائري في هذا الشعر. وانفتحت بعض مقالات هذا الكتاب على التواصل الأدبي بين المشرق والمغرب وعلى إثارة ما يتعلق بأدب المرأة في تونس.

ب -دراسة الأدب المغاربي الجزائري والليبي على وجه الخصوص:

اهتمّ محمد صالح الجابري بالتأريخ للحركة الثقافية والأدبية للبلاد المغاربية، مركّزا اهتمامه على الجزائر وليبيا وتونس، كما يتجلّى ذلك في دراساته وبحوثه التي تتناول الثقافة والأدب التونسيين كما أسلفنا القول. ففي خصوص الأدب والثقافة الجزائريين وتحديدا في كتابه الموسم بالنشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1900–1962) يسلّط الضوء على النشاط العلمي ودور ابن باديس فيه. ونظرا إلى الحضور اللافت للجزائريين بتونس في النصف الأوّل من القرن العشرين يرصد الباحث مختلف المناشط الطلابية والصحفية والوطنية للمثقّفين والمصلحين الجزائريين وطلاب العلم، معتمدا على أعداد هائلة من الصحائف والمجلات التونسية الصادرة في الفترة المدروسة.

أمّا في كتابه الأدب الجزائري في تونس فقد درس موضوع الشعر والمقاومة مركّزا اهتمامه على عناصر الهويّة والعروبة والنهضة وصلة الوفاء بتونس. وبحث، أيضا، في السياق نفسه وفي مجال الأدب القصصي والروائي، طلائع القصة والرواية. وأبان عن الموضوعات التي اهتمّ بها هذا الأدب من قبيل نضال المرأة والضمير الوطني وقضايا تونسية في القصّة الجزائرية. وذيّل كتابه هذا بملاحق تعدّ مرجعا مهمّا من مراجع الأدب الجزائري في هذه الحقبة.

وعلى هذا المنوال من التحقيق العميق والبحث الرصين كان درسه لتاريخ الجهاد الليبي

الحديث في الصحافة التونسية. لذلك يعدّ كتابه يوميات الجهاد الليبي، الصادر عن الدار العربية للكتاب سنة 1980 وثيقة تاريخية عن النشاط النضالي الليبي وعن الصلات الحميمة التي تجمع الشعبين التونسي والليبي.

وبالروح نفسها، روح المحقق المحلّل، المنتمي إلى القيم الجمالية والإنسانية الرفيعة والمؤيد لأنفاس التجديد والتطوّر والتنوير عرّف بالأديب محمود بيرم التونسي وخصّه بكتاب في جزأين عنوانه محمود بيرم التونسيتفي تونس، دار الغرب الإسلامي بيروت1987، بعد أن كان تحدّث عنه وعن نضاله في تونس ونشاطه الأدبي والصحفي وعلاقاته بجماعة تحت السور وبرجال السياسة في الفصل الرابع من كتاب الشعر التونسي المعاصر بعنوان «محمود بيرم التونسي، نصوص الزمرّد»

محمد صالح الجابري مبدعا:

تميّز محمد صالح الجابري، فضلا عن كونه شاعرا، بكتاباته السردية القصصية والروائية. والمطّلع على مجمل هذه الأعمال يلاحظ ميله إلى الأدب السردي الواقعي الذي يجمع بين التسجيلي والتاريخي في أسلوب واضح مباشر، عليه مسحة جمال مصدرها التوهّج بالواقع الحيّ والكشف عن تفاصيله دون إسقاط. فقد اهتمّ في روايته «يوم من أيام زمرا» بأوضاع عمال المناجم في عهد الاستعمار وكشف عن معاناتهم وعن وجه من وجوه الكفاح النقابي الوطني في مناجم الجنوب، مركّزا اهتمامه على شخصية إبراهيم وترحّله بين الأزمات ورغبته في الخلاص الفردي والجماعي، ناسجا من قصته قصصا أخرى. ولعلّ هذا ما عناه محمود طرشونة بقوله «فهذا المسلك الواقعي الذي سلكه محمد صالح الجابري في مختلف رواياته وبالخصوص في «يوم من أيام زمرا» جعله يركّز على شخصية رئيسية يتتبع تطوّرها في ضوء الأحداث التي تعيشها أو تساهم في إنشائها كما يركّز على الشخصيات الأخرى التي لا يصحّ أن نعتبرها ثانويّة بما أنّ كلاًّ منها تحمل وزر قصّتها، فيتكوّن نسيج الرواية من مجموعة قصص تتشابك وتتقاطع وتتعدّد بتعدّد الشخصيات».

وعلى هذا النهج يطرح علينا الجابري قضية الانبتات عن الأصل والنزوح من القرية إلى المدينة وما يصاحب ذلك من أزمات نفسية واجتماعية وفكرية يعيشها النازح من جرّاء شبكة من العلاقات والحادثات، منها وبها تتناسل الحكايات: حكاية دربال وحبيبة. وهي الأصل الذي يستقطب أغلب فصول الرواية وحكاية رفيق ولمياء وحبيبة وحكاية حي برج علي الرايس الذي سكنه دربال، قبل أن ينتقل إلى حي ابن خلدون. ومن هذه الحكايات – وقد ركّبها الراوي تركيبا وجعل لها بناء زمنيا معلوما – تبدو لنا الشخصيات في ضوء عالمها الخاص والعام «لا يسعدها الوصل ولا الهجر، بل تبقى متذبذبة، حائرة تبحث عن طريق الخلاص في حلول الانهيار واليأس الكبير».

أمّا روايته ليلة السنوات العشر فهي وإن نحت منحى الرواية الأولى وأبانت عن تفاصيل أحداث 26 جانفي1978، متّخذة من الحدث مرجعا تاريخيا، كاشفة عن أحوال العمّال ومعاناتهم، فقد شاء لها كاتبها أن تكون رواية أحداث تجمع بين الذاتي والموضوعي، عن طريق حكاية البطل النازح من الجنوب، هذا الذي ظلّ رغم المصاعب والإغراءات حمّال قيم ومبادئ، بصرف النظر عن عواقبها وهذا الذي عاش قصة «حب مستحيلة». وعموما تظلّ هذه الرواية مثل أخواتها، منغرسة في الواقع الموصوف وصفا أمينا. وقد أسبغ عليها مؤلفها محمّد صالح الجابري من ألوان الفنّ والتخييل ما جعل الرواية وثيقة أدبية أغرت بعض السينمائيين. فأخرجت للناس شريطا مصوّرا يحكي وقائع زمن الجمر، ما دامت لعبة الزمن ببعديه الحدثي والنفسي مفتاحا من مفاتيح قراءة الرواية وتأويل أحداثها وتجسّد علاقة مروان بلمياء، مروان بوصفه صاحب المبادئ والأفكار الاشتراكية ولمياء

باعتبارها الشخصية المتقلّبة بين الرجال، أساس الحكاية ومحورا من المحاور الرئيسة التي تتكشّف فيها أوضاع البلاد والعباد وتتداعى فيها القصص والمواقف القديمة والجديدة لتنشئ عالما روائيا يمزج بين سرد الواقع ونسج وقائعه نسجا قصصيا فنيا لا يخلو من صنعة ومهارة.

لا شك في أنّ الراصد لمسيرة محمد صالح الجابري، يعسر عليه في هذا السياق أن يحلّل تحليلا تفصيليا جوانب معلنة وخفيّة من حياته وأدبه ومسيرته الثقافية العامة. فذلك موكول إلى الدراسات التحليلية المفصّلة من لدن الذين عاشروه وألفوا صداقته ونبل قيمه وظرف مجلسه.

كان الجابري أديبا متكاملا مثله كمثل بعض أقرانه من أدباء جيله. وقد أشار محمود طرشونة إلى هذه الخصيصة بقوله «وبذلك وفّق محمد صالح الجابري بين النقد والبحث والإبداع وظهر على الناس في صورة الأديب المتكامل الذي ينطلق من ملكة أدبيّة تخوّل له التعبير عمّا يغمر مخيّلته من صور ويجيش به وجدانه من مواجد ثم يصقلها باكتساب المعرفة وامتلاك أدوات الصناعة. فيراوح بين المجالين اللذين يتعايشان في ذاكرته وذائقته فيشقّ لنفسه مسلكا مخصوصا لا ينقطع مع السابقين ولا يذوب في الغير».

الجوائز والأوسمة: حصد محمد صالح الجابري بعد مسيرة من البذل والإنتاج والعطاء الكثير من الجوائز منها: جائزة بلدية تونس عن روايته يوم من أيام زمرا وجائزة الدولة التشجيعية عن قصّته إنّه الخريف يا حبيبتي (1973) وجائزة الدراسات الأدبية عن كتابه الشعر التونسي المعاصر (1975) والجائزة المغاربية عن كتابه النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين في تونس (1982).

وفاته: توفّي الجابري في 19 جوان 2009 بعد مرض ألمّ به وبعد عملية دقيقة أجريت له توقّف في أثنائها قلبه النابض بالحياة والعطاء. دفن بمقبرة «سيدي الجبالي» بأريانة. ففقدت الثقافة في تونس والوطن العربي بوفاته علما من أعلامها المرموقين وعالما من علمائها الموسوعيين وأديبا من أدبائها الأفذاذ الذين سخّروا حياتهم للإبداع والتأليف والتعريف بثقافة أوطانهم وأمتهم.

وقد تحمّل الجابري عدّة مسؤوليات منها مسؤولية كاتب عام رابطة القلم الجديد وعضوية الهيئة الاستشارية لمعجم البابطين لشعراء العربية في القرنين 19 و20. وهو عضو بنادي القصّة ونادي اتحّاد الكتاب التونسيين.



سليمان الجادوي

[1871–1951م]

ينحدر سليمان بن قاسم الجادوي من أسرة بربريّة الأصل، تنسب إلى بلدة جادو التي تقع وسط جبل نفّوسة بالقطر الليبي. ولقد عظم شأن هذه البلدة في بدء الفتح الإسلامي، خاصّة في عهد دولة بني رستم بتاهرت، حتّى قيل إنّه اجتمع بها نحو أربعمائة عالم في عصر واحد.

ومن العلماء البارزين الذين اشتهروا بالعلم وسعة الاطّلاع، والحزم والصّلاح في تلك البلدة، أحد أجداد سليمان الجادوي، وهو الشيخ سعيد بن عبد اللّه الجادوي الذي رحل إلى مصر، وقضّى بها نحو ثلاثين سنة في طلب العلم، وتلقّى الدّروس على كبار علمائها وفقهائها.

ولمّا رجع إلى تونس بعد ذلك، اختار الإقامة والاستقرار بجزيرة جربة، وانتصب للتّدريس بها،

فالتفّ حوله عدد كثير من طلاّب العلم، منهم أبناؤه الذين واصلوا هم وأحفادهم بثّ العلم في صدور الرّجال.

في هذا الوسط العلمي والثّقافي، ولد سليمان الجادوي بأجيم بجزيرة جربة في عام 1871م. وبعد إتقانه لمبادئ العلوم، قدم إلى العاصمة (تونس)، والتحق بجامع الزّيتونة، وتتلمذ لشيوخ أعلام، منهم: عثمان بن المكّي، وإسماعيل الصّفايحي، ومحمّد بن يوسف، وأحمد بيرم، ومصطفى رضوان، وغيرهم...

ولكن لم تدم المدّة التي قضاها سليمان الجادوي في الدراسة بالجامع الأعظم أكثر من ثلاث سنوات، إذ ارتحل بعدها إلى مدينة يفرن بجبل نفّوسة بليبيا لمتابعة الدروس هناك، وخاصّة للتفقّه في المذهب الإباضي، وقد لازم بالخصوص دروس الشيخ عبد الله الباروني الذي كان من ألمع مدرّسي هذا المذهب في المدرسة البارونيّة.

وظهرت على الجادوي في تلك المدّة علامات التّفوّق والنّبوغ، وهو ما جعله محلّ تشجيع وتقدير. ولمّا رجع إلى تونس، بعد أن ملأ وطابه بثقافة عربيّة إسلاميّة واسعة، احترف التّجارة، وفتح له دكّانا بالعاصمة.

وإثر هذه المرحلة من حياة سليمان الجادوي، تحرّكت في نفسه نوازع الوطنيّة الصّادقة، ففكّر في القيام بما يمليه عليه الواجب من تخليص الوطن ممّا يرزح فيه من المصائب والويلات، وتوعية الشّعب ليستفيق من سباته العميق، ودفعه إلى العمل الإيجابي، وإظهار استنكاره لما يسلّط عليه من ظلم وقهر. فأنشأ جريدة "المرشد" لإرشاد المواطنين التّونسيّين إلى ما ينبغي القيام به من التصدّي للمستعمرين الذين يدوسون كرامتهم، ويعتدون على حقوقهم، ممّا لا يتحمّله من كان له ضمير حيّ، وإيمان صادق. وإضافة إلى ذلك اهتمّ الجادوي في هذه الجريدة بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر في أسلوب صحفي مبسّط، لا لبس فيه ولا تعقيد، وهو فيّ متناول فهم الخاصّة والعامّة.

وفي جريدة "المرشد" كتب سليمان الجادوي مقالات وطنيّة ملتهبة، سبّبت له كثيرا من الأتعاب والمعاناة، من غرامات وخطايا وسجن، علاوة على أنّ الإدارة الفرنسيّة كانت تدعوه إلى مراكز الشّرطة في كلّ أسبوع تقريبا، لإنذاره وتتوعّدُهُ بالويل والثّبور إن هو تمادى في مهاجمتها وفضح سلوكها، وكان في كلّ مرة يسخر من هذا التّهديد، ولا يقيم وزنا لا للوعد ولا للوعيد.

وقد صدر أوّل عدد من جريدة "المرشد" في 23 نوفمبر 1906، وحوكم صاحبها في شهر مارس 1907 بتهمة الثّلب، وعادت للصّدور في شهر جويلية 1907، ثم تمّ إيقافها من جديد بقرار إداري مؤرّخ في 13 ديسمبر 1908.

ثم أصدر الجادوي جريدة ثانية هي "أبو نواس" وهي جريدة أسبوعيّة فكاهية سياسيّة واجتماعيّة، تصدر كلّ يوم جمعة باللّغة العربية والدّارجة، صدر العدد الأوّل منها يوم الثلاثاء 17 أوت 1909، وتوقّفت عن الصدور في 22 أفريل 1910.

ثم أصدر جريدة ثالثة هي "مرشد الأمّة"، وهي جريدة علميّة سياسيّة تخدم الملّة والوطن، وقد صدر العدد الأوّل منها في سنة 1909، وآخر عدد في 10 ديسمبر 1950.

ومجموع الأعداد التي صدرت من هذه الجريدة 243 عددا، وكانت في بداية صدورها أسبوعيّة، ثم أصبحت نصف شهريّة، ومنذ سنة 1920 أصبحت من جديد أسبوعيّة.

وتعطّلت بقرار مؤرّخ في 8 نوفمبر 1911 إثر حوادث الزّلاّج، ثم عادت للظّهور في سنة 1920، وتعطّلت مرّة أخرى إثر صدور العدد 121 بتاريخ 29 نوفمبر 1925 بقرار صادر في 5 ديسمبر 1925، ولم يُرفع قرار التّعطيل إلاّ في 3 جويلية 1936، فصدرت من العدد 122 إلى العدد 232، وتعطّلت مرّة أخرى، ثم عادت للصّدور في شهر سبتمبر

1948، وهو العدد 233، وتوقّفت بعد صدور العدد 243 في 10 ديسمبر 1950.

والمتتبّع لمسيرة الشيخ سليمان الجادوي الإصلاحيّة والصّحفيّة والوطنية يستنتج منها ما كان لهذه الشخصية المتميّزة من مقدرة فائقة، وشجاعة نادرة، وذكاء وقّاد. وقد استطاع بفضل ذلك أن يساهم في خدمة القضيّة الوطنيّة بفكره وقلمه وماله، معتمدا على إمكاناته الخاصّة، دون أن يتلقّى إعانة من أيّ كان.

أمّا روحه الوطنيّة الصّادقة، فقد أهّلته لأن ينتخب عضوا في اللّجنة التّنفيذية عند تأسيس الحزب الحرّ الدّستوري التونسي سنة 1920، وكان في مقدّمة وفد الأربعين إلى الملك محمّد النّاصر باي لطلب إعلان الدّستور.

وقد بذل إلى جانب ذلك في سبيل القضايا الوطنيّة والإسلاميّة جهودا سيسجّلها له التّاريخ.

انتخب مجموعة كبيرة من المقالات المهمّة التي نشرت في جريدة "مرشد الأمّة" وأصدرها في كتاب ضخم يشتمل على 784 صفحة بعنوان: "الفوائد الجمّة في منتخبات مرشد الأمّة" نشره على نفقته الخاصّة.

وتوفّي في ليلة الإثنين 19 نوفمبر 1951، في بيته بحمّام الأنف.

محمّد الدّالي الجازي

[1942–2007 م]

هو محمّد الدّالي بن عبد المجيد بن الشيخ العدل محمد الدالي الجازي.

ولد بمدينة نابل، في حيّ الأحواش، يوم 7 ديسمبر 1942، في عائلة عريقة جدّها الأعلى الفقيه المؤدّب الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي العبّاس سيدي أحمد الجازي النابلي. وتدلّ على ذلك وثيقة ثابتة موجودة عند العائلة، هي عقد زواج جدّ من أجداد عائلة الجازي.

وفي سنّ الخامسة دخل الدّالي الجازي المدرسة الابتدائية بنابل. وبعد نجاحه في امتحان الدخول إلى المعاهد الثّانوية، انتقل إلى تونس. وسجّله أبوه بالمعهد الثّانوي الفرنسي (ليسي قرطاج). وختم دراسته الثانويّة بمعهد كارنو بالعاصمة. وفيه حصل على الباكالوريا الفرنسيّة في جوان 1962.

واصل دراسته العالية بكلّيّة الحقوق بباريس. وبعد سنة واحدة رجع إلى تونس. ودخل كلّيّة الحقوق بالعاصمة. وفي هذه الفترة انخرط الدّالي الجازي في الحزب الحرّ الدستوري التّونسي وكذلك في الاتّحاد العام لطلبة تونس سنة 1963. وهكذا تحمّس للعمل السّياسيّ والنقابيّ. وأصبح من المناضلين الشبّان. وسرعان ما انتخب رئيسا للشّعبة الدستورية بكلّيّة الحقوق. وصار في مقدّمة الطلبة العاملين في الحركتين السياسيّة والنّقابية.

وبعد حصوله على الإجازة في الحقوق باشر مهنة المحاماة لدى المحاكم التّونسية. وفتح مكتبه بنهج الجزيرة بتونس العاصمة.

ولكنّ نشاطه في الميدان السياسيّ أخذ الأولويّة ضمن شواغله، إذ انضمّ إلى ثلّة من السّياسيين البارزين الذين يطالبون بتطوير الحزب الاشتراكي الدّستوري آنذاك وبضرورة انفتاحه على الديموقراطيّة الحقيقيّة.

وفشلت هذه المجموعة التّقدميّة في سعيها إلى تحويل الحزب وتغيير سياسته. فغادر الدّالي الجازي الحزب الاشتراكي الدستوري سنة 1971.

وفي سنة 1974 انتخب نائبا لرئيس جمعيّة المحامين الشبّان.

اهتم الدّالي الجازي بموضوع الحرّيات العامّة وحقوق الإنسان. وفي سنة 1976 كان أحد أعضاء الهيئة المديرة المؤسّسة للرّابطة التونسيّة للدفاع عن حقوق الإنسان. وهي أوّل منظمة تأسّست للغرض بالعالم العربي وإفريقيا. وانتخب الدالي الجازي في سنة 1982 في المؤتمر الوطني للرّابطة، أمينا عاما. ثم أعيد انتخابه سنة 1985 بصفة كاتب عام للرّابطة. وناضل من أجل

الحريّات والحقوق. وبقي يشغل هذا المنصب إلى غاية نوفمبر 1988.

وفي هذه الفترة كان للدّالي الجازي نشاط كثيف في الميدان السياسي، مع مجموعة من المناضلين لأجل التغيير السياسي. فشارك في تأسيس حزب جديد سمّي «حركة الديمقراطيين الاشتراكيّين». وانتخب بمكتبه السّياسي بصفة أمين عام مساعد مكلّف بالعلاقات الخارجيّة. وناضل داخل هذا الحزب. ومثّله في تونس وخارجها، في مؤتمرات دوليّة.

شارك الدالي في نشر مجلّة اسمها (كونتاكت) أي (الاتصال) وجريدة المستقبل، لسان حال حركة الديمقراطيين الاشتراكيّين. وفي هذه الفترة كان يضطلع بالتّدريس في كلية الحقوق بتونس، مواصلا بحوثه القانونيّة وعلى اتصال بكلية الحقوق «البانطيون» بباريس. فحصل هناك على ديبلوم الدّراسات العليا في العلوم السياسيّة ثم على دكتوراه الدّولة في القانون العام سنة 1982 بأطروحة حول العلاقات بين الدولة والمواطن في تونس المستقلّة: مشكلة الحرّيات العامّة. وقد استعرض في الأطروحة الإيجابيّات والسلبيّات لنظام الدولة التونسيّة في عهد الاستقلال. وشكر الأساتذة الفرنسيون أعضاءُ لجنة التحكيم، الدالي الجازي، على شجاعته في تقديم هذه الدراسة الموضوعيّة للوضع في تونس المستقلّة. ومنحوه ملاحظة «مشرّف جدّا».

وبعد رجوعه إلى تونس، انتدب أستاذا مساعدا بكلية الحقوق بتونس. وكلّف بتدريس القانون العام والعلوم السياسيّة. وكان متخصّصا في القانون الدستوري.

ولم ينقطع الدالي عن السّياسة فواصل نشاطه داخل حركة الديموقراطيّين الاشتراكيّين وكذلك في الرّابطة التونسيّة للدفاع عن حقوق الإنسان. وقد كان بارزا في الميدانين. وشغل بعد سنة 1987 عدة مناصب منها:

– عيّن سفيرا لتونس بالنمسا والمجر، في الفترة الفاصلة بين نوفمبر 1988 وأفريل 1989. وفي المدّة نفسها، كان الدالي الجازي ممثّلا لتونس لدى هيئات الأمم المتحدة بفيانّا، عاصمة النمسا، وممثّلا أيضا لدى الوكالة الدّولية للطاقة الذريّة ومنظّمة الأمم المتحدة للتّنمية الصّناعية.

– وفي شهر أفريل1989، عيّن الدالي الجازي وزيرا للصحة العمومية. واضطلع بهذه المهمّة حتى جويلية 1992.

– عُيّن الدالي الجازي رئيسا أوّل لدائرة المحاسبات، برتبة وزير، ورئيسا لدائرة الزجر المالي. وذلك من نوفمبر 1992 إلى نوفمبر 1994.

وفي المدّة نفسها، انتخب الدالي الجازي أمينا عامّا للمنظمة العربيّة للمؤسسات العليا للمراقبة المالية.

– عُيّن وزيرا للتعليم العالي في الفترة الفاصلة بين نوفمبر 1994 ونوفمبر 1999.

وفيما بعد، شغل الدّالي الجازي منصب وزير معتمد لدى الوزير الأوّل، مكلّف بحقوق الإنسان والاتّصال والعلاقات مع مجلس النواب. وهي وزارة جديدة، شغلها الدالي لفترة قصيرة. ثم عيّن وزيرا للدّفاع الوطني. ومكث على رأس هذه الوزارة من سنة 2000 إلى سنة 2004.

عيّن رئيسا للمجلس الاقتصادي والاجتماعي. وعمل هناك حتى وفاته يوم 9 مارس 2007.

الجازية الهلالية

الجازية هي الشّخصية الأسطورية الأساسيّة التي تسيطر على «السيرة الهلالية»، تلك الملحمة الشعبية العربية التي مازالت متداولة إلي اليوم في كامل أرجاء الوطن العربي والتي تقصّ بأسلوب شعري «تغريبة» أعراب بني هلال بعد سبع سنوات من الجدب من هضاب نجد إلى مشارف إفريقية وزحفهم عليها واستيطانهم بها. وذلك



الجازية في المخيال الشعبي

في القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي.

سنعتمد. في تقديمنا لشخصية الجازية على الرّوايات الشفوية للسيرة الهلالية التي نُشرت أو شرع في نشرها، المغربية منها والمصرية، تاركين جانبا الطبعات الشعبية الكثيرة للسّيرة التي ما فتئت تصدر في القاهرة ودمشق وبيروت منذ قرن تقريبا وقد كتبها أناسٌ ابتعدوا عن المعين الشعبي وتعمّدوا فيها التهويل مستخدمين سوقّي الألفاظ ومتكلّف العبارة.

السّيرة الهلالية صورة لما احتفظت به ذاكرة الشّعب من أصداء حدث اجتماعي وتاريخي جلل وهو قطع أقوام جائعة بعيالها ومواشيها لمسافات شاسعة قصد الوصول إلى البلد الخصب حيث العيش الرخيّ والمراعي المريّة، مضيفا إلى ذلك الحدث الذي زلزل مجتمعا كاملا وجدّد تركيبه وغير عقليته وطوّر قيمه ومعاناته طوال قرون وهو لا يزال يصارع قوة الطبيعة ويعاني شظف العيش وظلم البشر.

الجازية تحتل مكانها في أعلى درجة السلم الاجتماعي القبلي فهي أخت رئيس الحلف الهلالي «الحسن بن سرحان»، أوكما تسمّيه رواية مغربية «السلطان حسن الهلالي بو علي» مؤكّدة فيه صفة الرئاسة على الأقوام. فهي بحكم منزلتها سيّدة القبائل التي قوّت ظروف القحط تضامنها. وهبها اللّه جمالا رائعا مع ذكاء وقّاد وقدرة على تدبير الأمور، فكانت حسناء فاتنة و«دبّيرة».

أهم ما تتميّز به الجازية عن سواها وفاؤها لقومها. فقد رضيت بالزواج من الشريف ابن هاشم والإقامة في مكّة في وسط حضري، خدمة لذويها الذين بدأت سنون القحط تنهكهم فطمعوا في تزويجهم الجازية.

ولمّا تفاقم الوضع وقرّرت قبائل بني هلال الرحلة إلى إفريقية طلبوا منها أن تترك حياة البذخ والرخاء التي كانت تنعم بها وأن تعود إلى مضارب أهلها لتشاركهم المحنة فلم تتردّد وتركت زوجها وابنها والتحقت بأهلها ورحلت معهم لمواجهة مصير مجهول.

إحدى وظائف الجازية المعترف بها من الجميع هي تقويمها الرجال في حياتهم اليومية وسيرتهم ومدى نفعهم لمجتمعهم. فهي المنارة التي يهتدي بها من له تعلّق بقيم الرّجولة.

تقول الجازية مخاطبة أخاها السّلطان حسن الهلالي بوعلي في نادي القبيلة:

ثلاثة من الرجال يا هلال يستاهلوا البكا
وعليهم تنقّ العين يغرد نحيبها
الأول من يعرّض راسه للبلا ويطفي نار سامر لهيبها
والثاني منهم إليّ يفرح للخاطر إليا لفي في سنين الشدة والشحايح
منين الرجال شربه من القربة يكيدها
والثالث منهم خفيف النّفس فصيح اللّسان
اللّي ياخذ حقّه وحقّ من يريدها
وباقيهم يا هلال غير بصّ على العمى جيّابات ذراري
حرازّات نسا كثّارات
رموز وكّلات مثاريد عصيدها
لا يستاهلوا لا حزن ولا بكا.

كان جميعهم يعترفون لها بحقّ التقويم وهم مبهورون بجمالها ومعجبون بحكمتها وحصافة رأيها ومتأثّرون بإخلاصها للقبائل الهلالية.

وكانت تترك لأخيها السّلطان حسن الهلالي بوعلي حرّية المبادرة ولو كانت لها المشورة، وكان لها الثّلث في الحكم تتقاسمه مع أخيها الحسن وزوجة أخيها شيحه أمّ البنين الثلاثة مرعي ويحيى ويونس الذين لم يعد منهم أحد من رحلة الريادة إلى تونس حيث أقاموا مع خالهم بوزيد.

كان حسن الهلالي بوعلي يقاوم صراعات داخلية بين قبائل انضم بعضها إلى بعض بوازع مواجهة القحط والبحث عن طريق الخلاص وهي معتادة على حرّية التّصرف والاستقلالية.

يقول حسن الهلالي بوعلي مخاطبا ابنته زرارة:

نا قلب الرحى يا زرارة
ونا بيدي فراقها وبيدي لمومها
ونا العاصي عليّ نلويه ليّة العصا في قشورها.

ولكن الجازية تبرز وتسيطر على الموقف عندما تدلهمّ الأجواء فيحتار جميعهم في اختيار السبيل المؤدية أو عندما تحل بالقوم الملمات الجسيمة. فعندئذ نراها تصبح هي قطب الرّحى والمملية للموقف الجماعي الحازم الذي يفكّ العقدة ويفتح الطريق.

عندما وصلت جموع بني هلال إلى الضفّة اليمنى لنهر النيل تعرّض لها ابن الخواجة عامر أمير مصر يريد منعها من عبور النّهر. وعرض الأمير على أبطال بني هلال المبارزة، فتقدم بدر في اليوم الأول وبارز البطل المصري طول النهار دون أن يغلب أحدهما الآخر، وفي الأيّام الثلاثة الموالية لم يقدر زيدان ولا ذياب على التغلّب على ابن الخواجة عامر. وأظلمت الدنيا في أعينهم، ولم يعثروا على الحلّ ويئسوا فقالت لهم الجازية:

«آمروا بالرحيل من توه، وركبوني في قبّ
على شالخ الناب وحلّوا بي المسير»

نقّت الطبول. وقام الرحيل من وقتها ومع وجوه الصباح تعرّض ولد الخواجة عامر مثل عادته، وحينما طلّ زحزحت الزازية خمارها وقالت له:

«رفعنا يا ولد الخواجة عامر.
ولمّا سمع صوتها وتمكّن من رؤيتها
عقله من الرأس تسلب وذهبت عنه الصميلة
وما فاد كان دوّر جملة النجع وضيفه ثلاثة أيام.

رفع خمار عن وجه صبيح وعزم مكين تعبّر عنه صاحبته بكلمات معدودات: رفعنا أثقالنا ولن نتقهقر مهما كان الثمن. تلك هي صورة الجازية في الملمات.

وهي التي تدعو عند الوصول إلى إفريقية إلى المهادنة والتّفاهم لأنّ في ذلك مصلحة لقومها. وقد وازنت بين موقف بوزيد الذي كان يرى أنّه من الأصلح سلوك سياسة التفاوض والمسالمة لكسب التعايش مع السكان الأصليين، وموقف ذياب الذي كان يدعو إلى احتلال إفريقية عنوة. وقد رجّحت الكفّة إلى جانب بوزيد نظرا إلى التعب الذي لحق الأقوام بعد شقّ الصحاري وأملا في أنّ الصداقات التي كسبها بوزيد في أثناء رحلة الرّيادة ستساعد على استيطان الهلاليين بإفريقية دون كبير عناء. ساندت الجازية بوزيد أوّل الأمر وأشارت عليه بأن يذهب ذياب مع جانب من المواشي إلى غدامس حتّى يخلو الجوّ لبوزيد فيطبق سياسته دون التعرّض إلى المشاغبة.

ويمارس بوزيد سياسة المسالمة مع العلاّم والي مدينة تونس والعضد الأيمن لخليفة الزناتي حامي الحمى. ويتوغّل في الممارسة إيمانا منه بأنّ المعيشة ممكنة بين أهل الوبر وأهل المدر. ويسمح لأعراب بني هلال أن يدخلوا مدينة تونس ليتسوّقوا فيها. وكانت فترة سلم. وكانت الجازية من وراء كلّ ذلك حاثّة في صمت واستحياء.

ونلاحظ أنّ الروايات المصرية للسّيرة الهلالية

على خلاف الروايات المغربية التي هي أكثر إمساكا وحياء، تقدم لنا الجازية في هذه الظروف بالذات في صورة سيدة تأخذ على نفسها مباشرة العلاّم والتفاوض معه بذكاء وجرأة ملتمسة هدنة تدوم ثلاثة شهور «لتسمن الأغنام الهزيلة» وترتاح العباد بعد عناء الرّحلة الطويلة.

ويبقى بوزيد في ظلّها. ولا تتردّد الجازية فتبدي مفاتن جسدها لتغري العلاّم. يقول الشاعر المصري واصفا الجازية وهي مبدية محاسنها عازمة على الظّفر:

لابسه توب أخضر برسيمي
وراسمه عليه غلايين النار
لابسه توب شمّني وارخيني
وحلّق واضبط من قدّام
جارّه المرود في العين
خلت الصايم فطر رمضان
لابسه جزمه بمزّيكه
عم تصرخ شكل القرقار
تمشي طيّه ورا طيّه
شبه مركب حالّ قلوعه
بتعوم على شبر أمّيّه

وعندما يغدر العلاّم ببني هلال ويقتل أبناء الأبطال في محارسهم ناقضا للهدنة، وعندما ينقضّ عليهم بعد ذلك خليفة الزناتي مكبدا إياهم الهزيمة تلو الهزيمة، فارضا على قبائلهم العيش في ظل قبائل زناتة البربرية عيشا يشبه العبودية، تقول الجازية:

«بوزيد خاين وذياب معزّب. ابعثوا لذياب يجي»

عرفت الجازية كيف تلخّص الوضع بقوّة ووضوح وإيجاز وتستنتج الحلّ المناسب. لقد فشلت سياسة البحث عن الحلّ السلمي لأنّها انتهت إلى التواطؤ مع العدوّ والهزيمة. فالأنسب أن يُدْعى ذياب البطل المبعد الذي لا يؤمن إلا بالعنف.

وتستقبل الجازية ذياب وتدعوه إلى مبارزة خليفة الزّناتي لغسل العار الذي لحق الهلاليين. وترعاه في اللّيلة السابقة لليوم المشهود الذي سينتصر فيه ذياب على الزناتي. وتمتحن البطل فتأمر بأن تفرش له شبكة ملأى بالشّوك لينام عليه ليلته. وعندما نهض في الصباح الباكر ليتهيأ للمبارزة وجدوا أنّ شوك السدر تحوّل إلى غبار ناعم كالحنّاء. فعرفت الجازية أن تقلّب ذياب على الفراش طوال الليل دليل على أنّ ما لحق قومه من الأذى قد أثّر فيه أيّما تأثير.

ولعلّ أروع ما احتفظ به الوجدان الشعبي إلى يومنا عن الجازية، هو تلك المقولة السائرة التي تعبّر عن توق الجازية الصارخ إلى الحرّيّة وتفضيلها كسب الإبل لأنّها هي الوحيدة التي تستطيع في زمانها ترحيل المرء من مكان هيمن فيه القهر والظلم إلى فضاءات واسعة ولو كانت خالية لا يشعر فيها بالذّلّ والهوان:

الزازية شهّاوها قالوا لها:
خوذي مياة حوليه في الأرض الخليّه
قاتّلهم: البل خير
قالوا لها: خوذي مياة زيتونة في أرض ميصونة
قاتّلهم: البلّ خير
قالوا لها: خوذي مياة جبّارة على عين هرهاره
قاتّلهم: البلّ خير
وقاتّلهم: البلّ ومن قنى البل عاشت ضغاره
ترحّلك من منازل الذل وترميك في بر خالي قفاره

جامع باب الجزيرة البرّاني

يعرفُ أيضا بجامع الجنائز وكذلك جامع سيدي البشير وهو من أعرق جوامع الربض الجنوبي من مدينة تونس.

ونشير إلى أنّ هذا الجامع لم يصبح جامع خطبة إلاّ في أعقاب القرن السابع الهجري (13 الميلادي). وهو معلم مستطيل الشكل يطغى عليه الطابع الحفصي الأصيل حيث حافظ على المميزات الزّخرفية والهندسية الحفصية، من

ذلك أنّ المحراب المجوّف والصومعة المربعة «هما من بقايا البناء الأصلي، يحملان ألمع مظاهر الفن الحفصي». (سليمان مصطفى زبيس، تونس العتيقة، ص. 23). أمّا أعمدة المحراب فهي على النمط المغربي الأندلسي الذي استعمل بكثرة في أواخر العهد الحفصي. هذا إلى جانب الألواح المرمرية والزخارف الجصية البديعة بأشكالها البارزة والمحفورة الحاوية على شريط جصّي بالتّناوب لشكلين هما النّجمة الخماسية والمُثمّنة، حيث تتقاطع كلّ منهما ليتولّد منهما شكل هندسي آخر جمع بين تعدّد النّجمات والدوائر حتى يصل إلى أعلى المحراب على شكل نجمة كبيرة نسبيا وخالية من الزخرفة. هذا إلى جانب قبّة المحراب التي تميّزت بالدّقة والإتقان حيث احتوت على الخط والصدفة والزخارف النباتية..كما يلفت الانتباه أيضا: المنبر الخشبي ذو الأشكال الهندسية المتنوّعة وهي متماسكة متداخلة بصورة متناسقة ومتقايسة الأبعاد. أمّا الصّومعة المربعة فقد تمّ تجديدها في عهد «علي باشا باي» على النّمط الأندلسي الذي أدخله الموحّدون في بداية القرن السابع الهجري (13 الميلادي) على غرار صومعة جامع القصبة وجامع الزيتونة وقبلهما جامع الكُتُبيّة بمراكش وصومعة حسّان برباط الفتح وصومعة جامع إشبيلية الكبير المعروف لدى الإسبان بـ: (الجيرالدا) وهو صنف من الصوامع المتميّزة بالشرفات المُسنّنة والنوافذ المتوأمة والسقف الهرمي المكسو بالقرميد الأخضر، إضافة إلى الأقواس الحدوية المتناوبة وهي من التقاليد الهندسية والزخرفية الإفريقية.

الجامع الجديد بالصّباغين

يعتبر الجامع الجديد بالصباغين من أهم المعالم الدينية التي تأسست في الفترة العثمانية المتأخرة نسبيا وذلك خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي، ويقع هذا الجامع في أحد أقدم الأحياء الموجودة داخل مدينة تونس العتيقة وبالتحديد بالقرب من باب الجزيرة بسوق الصباغين (27 نهج الصباغين).

تاريخ التأسيس والمؤسس :

أسّسه الباي حسين بن علي التركي مؤسس البيت الحسيني (1705–1740م) وكان ذلك فيما بين 1724 و1727م، ويذكر صاحب الإتحاف "أن أول صلاة أقيمت به ظهر الأحد الرابع عشر من شعبان سنة تسع وثلاثين ومائة وألف 1139 هـ/1724م"، وقد بناه بالقرب من مسكن عثمان داي داخل باب الجزيرة، وقد جاء في شكل مجمع معماري على النمط التركي به عدّة وحدات : جامع ومدرسة وتربة وكتاب وسقاية.

وتُفيدنا المصادر أن الباي قد بنى مركب الجامع الجديد مكان ثلاث خمارات تدعى الثوالث وزندالة وحمام وخصه بأوقاف واسعة مؤرخة في سنة 1142هـ/1730م منها المطاحن والأفران والفنادق والدكاكين والمتاجر والمنازل المتفرقة ولخلاص أجور الموظفين القائمين على صيانة الجامع بكل عناصره بالإضافة إلى دفع أجور المدرّسين والأئمة والوكلاء وغيرهم من العاملين بالجامع.

وقد تولّى مشيخته أبرز العلماء منهم أبو عبد الله محمد الشهير بزيتونة كما عيّن حسين بن علي في هذا الجامع دروسا يقوم بها أفضل الأساتذة من المذهب الحنفي يسهرون على نشر العلوم وتفسير القرآن والحديث وتدريس العلوم الفقهية والعقلية بمرتبات حسب كفايتهم وكان أشهرهم أبا العباس أحمد المعروف ببرناز.

الجامع :

يأخذ التخطيط العام للمجمع شكل شبه المنحرف ويتركب من عدة وحدات وهي الجامع والمدرسة والسقاية وأخيرا الكتّاب. تفتح واجهته الخارجية على الشارع الرئيس لسوق الصباغين وهي مبنية بالحجارة الرملية المهندمة

وتزينها عقود حدوية صماء موضوعة على أعمدة أسطوانية من الكذال وينتهي جدارها الذي يتخلله مدخلان رئيسيّان بإفريز من القرميد الأخضر في الأعلى. أحيطت هذه المداخل الرئيسة بإطارين الأول من الكذال المزخرف بأسلوب الحفر البارز والآخر من الحجر الرملي المهندم (الحرش) برز على هيئة قوس خفيف الانحدار.

ويقع الصحن في الجهة الشرقية من المعلم وتحيط به ثلاثة أروقة تحملها سوار رخامية شبيهة بأعمدة بيت الصلاة تيجانها ذات زخارف حلزونية من النوع الأيوني الجديد جُلبت من مقاطع كرارة الإيطالية.

وتحتلّ المئذنة المثمنة الأضلع، الزاوية الشرقية من الواجهة بلغ ارتفاعها 16.70م مقامة على قاعدة مربعة أما الجزء العلوي فقد جاءتْ شُرَفُهُ لتحلّي المئذنة بزخارفها الهندسية ولونها اللازوردي وقد أحيطت بخشب مزخرف وغطيت بسقف هرمي الشكل يخرج من قمته قضيب حديدي يحمل ثلاث كريات من الرصاص يتضاءل حجمها في الارتفاع.

واحتلّت بيت الصلاة مكانا مركزيا في المعلم وهي قاعة مستطيلة الشكل تخترقها ستة أبواب خشبية، ثلاثة منها تربط بيت الصلاة بالمدرسة ومدخلان يفضيان إلى الصحن والأخير يؤدي إلى التربة، أحيطت هذه المداخل بكسوة من الألواح الرخامية الملساء المحيطة بحزام من المرمر الأسود.

تكونت هذه القاعة من ثلاثة بلاطات طولية وأربعة عرضية موازية لجدار القبلة يرتكز سقفها على أعمدة رخامية وسقفت بأقبية طولية على مستوى الجانبين وأقبية متقاطعة عند مستوى البلاطة الوسطى.

ويحمل المجاز الأوسط قبة المحراب الوحيدة في هذا المعلم وهي محمولة على حنايا ركنية في شكل الصدفة ومدعومة بأربعة أعمدة، وقد زين باطنها بشتى أنواع الزخارف الهندسيّة الجصيّة مثل الأشكال المثمنّة والمسدّسة والأطباق النجميّة.

أما الجدران فقد كسيت ببلاطات خزفية من النوع القاشاني إلى ارتفاع قدره ثلاثة أمتار، تحلت بعّدة ألوان زاهية ورسوم زخرفية ولوحات شرائطية وعناصر نباتيّة وزهريّة كأغصان الأشجار المتفرعة والأوراق وزهر القرنفل والياسمين والرمان الزاس والأكانتس... في حين خصّ الجزء العلوي من الحائط بلوحات من الجصّ المنقوش تتخللها عدة نوافذ زجاجية معشقة في الجصّ.

وجاء المحراب في شكل حنية نصف دائرية متجاوزة تتوّجها نصف قبة ويرتكز مسقط العقد على ساريتين قصيرتين من المرمر الأسود ذي تيجان كأسية ذهبية اللون، وحظي تجويف المحراب بكسوة من الجصّ المزخرف بأشكال هندسية متشابكة، أمّا المستوى السفلي فاحتوى طاقات من المرمر المتناوب الألوان بين الرمادي والأحمر القاني والأسود المجزع.

ومن خاصيات هذه الجوامع العثمانية المستحدثة احتواؤها على بعض العناصر الجديدة الدخيلة منها المنبر الرخامي الذي كان في العهود السالفة مصنوعا من الخشب وغير ثابت وقد انتصب في الجهة الغربية من المحراب وكسي بلوحات رخامية ملونة مأخوذة عن الفن الباروكي.

ومن التقاليد المشرقية التي جلبها الأتراك، تجهيز بيت الصلاة بمحفل يوضع قبالة المنبر حيث يجلس الخوجات للذكر والترتيل، وبختمة مصنوعة من الخشب مخصصة لوضع كتب القرآن.

المدرسة : نلج إلى المدرسة عبر دريبة أو من خلال ثلاثة مداخل تربطها مباشرة ببيت الصلاة، وقد تركبت من أربعين غرفة موزعة على طابقين، طابق أرضيّ والآخر علوي كان قد أضيف في فترات لاحقة، كما جهزت بميضأة ومراحيض.

رسمت المدرسة حسب المخطّط التقليدي حيث انتظمت الغرف المسقّفة بأقبية طويلة ذات

مدخل وحيد حول صحن مكشوف مبلط يتوسطه ماجل وتتقدمه أروقة ذات عقود نصف دائرية متجاوزة مسنودة إلى أعمدة رخامية تعلوها تيجان حفصية وأخرى ذات زخارف حلزونية.

التربة :

تحتل الجانب الغربي من الجامع ويسبق هذه القاعة الجنائزية المربعة صحن مكشوف أضيفت إليه قبة في فترات لاحقة وتحيط به أروقة ذات عقود حدوية متجاوزة مسنودة إلى أعمدة رخامية.

ونلج إلى الداخل عبر مدخل في شكل محراب أطّر بلوحات من المرمر الأبيض والاسود، فنجد الجدران خالية من كل زخرف عند المستويات السفلى على نقيض الأجزاء العليا المتكونة من القبة المرتكزة على حنايا ركنية والعقود الصماء التي كسيت كلها بلوحات جصية منقوشة ذات أنماط زخرفية متنوعة من فصوص ومقرنصات إلى جانت الشرائط المكتوبة بالخط الكوفي، وتتخللها أطر بلورية ذات ألوان زاهية، كما وضعت في أركان التربة أربعة أعمدة رخامية ذات تيجان مماثلة لتيجان بيت الصلاة.

ومن الخارج كسيتْ القبة البصلية بالقرميد الأخضر تعلوها كريات نحاسية.

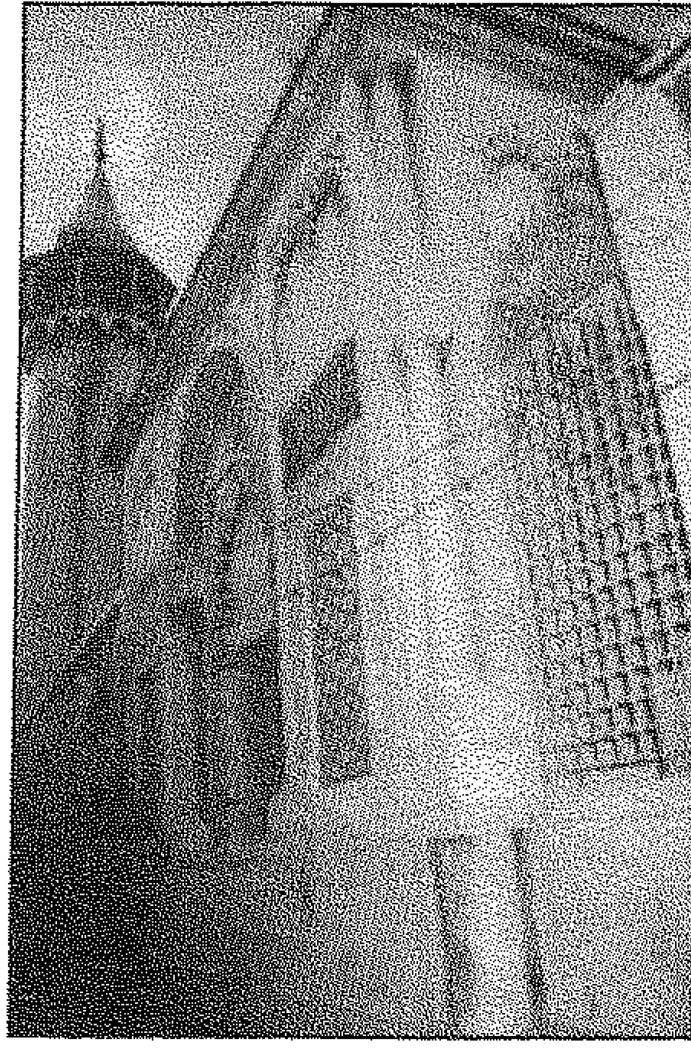
تحتوى هذه المقبرة على أضرحة لعدد من البايات الحسيّنيين منها ضريح حسين بن علي وأخيه محمد بن علي وابن أخيه محمد باي إلى جانب تابوتين للوليين الصالحين سيدي قاسم السبابطي وسيدي قاسم الزواوي.

السقاية :

ألحقت بالجامع سنة 1181هـ/1767م في عهد علي باي (1759–1782م) وتقع في الواجهة الشرقية على يسار المدخل وهي عبارة عن غرفة صغيرة بها نافذة ذات مشبك حديدي تركت فيها فتحتان للتزوّد بماء الشرب وقد أحيطت بإطار من الرخام في شكل محراب يحمل زخارف متنوعة.

يعتبر الجامع الجديد من أبرز الآثار التي مثلت تمازج الكثير من الحضارات. فقد تأثرت العمارة المحلّية الأندلسية المغربية بعدة تيارات ثقافية وفنية أجنبية عن البلاد وتجسد ذلك على مستوى زخرفة المعلم وهيكلته إذ أدخلت على التقاليد المحلية عناصر مستحدثة وتقنيات ومواد بناء جديدة تركية وأوروبية أسهمت كلها في تطور العمارة المحلية.

جامع حمودة باشا المرادي



يعتبر جامع حمودة باشا من أهم جوامع مدينة تونس لما تميز به من متانة البناء وثراء الزّخرفة وتناسق عناصره المعمارية، واندماجه من حيث البناء والوظيفة الدينية والعلمية في محيطه الخارجي المكوّن من طرق رئيسة وأسواق ومؤسسات حكومية وأخرى دينية وعلمية.

أسس هذا الجامع في منتصف القرن السابع عشر على يد حمودة باشا بن مراد باي الأول الذي تولّى الحكم بين سنوات 1631–1666م. وقد عرف هذا الباي بمآثره المعمارية التي بقيت شواهدها قائمة في أماكن متفرقة من مدينة تونس وغيرها من المدن الكبرى للبلاد.

يقع جامع حمودة باشا المرادي عند ملتقى نهج الباشا المؤدي إلى بطحاء رمضان باي والمتصل أيضا بباب بنات وكامل ربض باب سويقة. ونهج سيدي بن عروس حيث توجد زاويته المشهورة، والمؤدي إلى سوق الترك والقشاشيّن مرورا بجامع الزيتونة الكبير. يشرف الجامع على أهمّ الأنهج المؤدية إلى ربض باب

الجزيرة/ ويقع بموازاة نهج القصبة من الجهة الشمالية المؤدي صعودا إلى القصبة مقر دايات العصر وجيوشهم، مرورا بدار الباي ومسكنه، والمفضي نزولا إلى باب بحر وكامل الحي الإفرنجي.. وبذلك يكون موقع جامع حمودة باشا من أهمّ مواقع جوامع الخطبة الحنفية للمدينة على الإطلاق حيث يتوسط المدينة بأكملها، وهو ما يجعله مركز التقاء وتفرّع عدة أنهج وطرق موصلة إلى أهم مؤسسات وأسواق البلاد في تلك الفترة.

تمت أشغال البناء في هذا الجامع سنة 1066 هـ/1655م وأقيمت فيه أول جمعة في رمضان من السنة نفسها. وقد أوقف عليه الباي أحباسا مهمّة تعود لسنة 1664م، وذلك لصرف رواتب القائمين عليه وتعهد أبنيته بالعناية والصيانة اللاّزمتين، كما أضيفت أوقاف أخرى في تواريخ لاحقة أهمها التي أضيفت سنة 1667م.

وقد نصتْ رسوم أوقاف حمودة باشا الخاصة بهذا الجامع على ضرورة وجود إمامين وهو ما يميز هذا الجامع عن بقية الجوامع الحنفية الأخرى التي لم يكن لها سوى إمام واحد. وأول من تولّى الخطابة به المفتي محمد الأزهري. وتوالى بعد ذلك على إمامته عدد من العلماء والفقهاء مثل الشيخ محمد بن يوسف شيخ الإسلام الحنفي، كما بقيت إمامة هذا الجامع مدة طويلة في عائلة ابن القاضي، وكان آخرهم الشيخ إبراهيم بن القاضي.

مكونات الجامع :

شيّد الباي هذا الجامع في إطار التهيئة لأهم حيّ وسط المدينة، على أنقاض مجموعة من المنازل اشتراها الباي بأثمان باهظة للغرض. يمتدّ الجامع وجميع ملاحقه بما في ذلك تربة العائلة المرادية على رقعة أرض مستطيلة الشكل بطول ثلاثة وخمسين مترا وعرض واحد وثلاثين مترا، وتنحدر انحدارا خفيفا في اتجاه الشمال الشرقي.

تتكوّن مداخل الجامع الأربعة من واجهات بسيطة الزخرفة ولكنها منضّدة تنضيدا جيّدا على مستوى الأقواس التي تعلو الأسكفة المستقيمة، وهي أقواس متجاوزة على مستوى المدخل الرئيس الذي يوجد في الجهة الشمالية المشرفة على نهج القصبة. وأقواس دائرية على مستوى المداخل الثانوية، لا تختلف كثيرا عن المدخل الأول، يوجد اثنان منها في الجهة الغربية أي في الجهة الملاصقة لزاوية سيدي ابن عروس والمواجهة لسوقي الشاشية الصغير والكبير. وتوجد في هذه الجهة أيضا الصومعة والتربة، في حين يوجد المدخل الرابع في الجهة الشرقية حيث صحن الجنائز، ويؤدي هذا المدخل إلى سوق الجلد. وتعلو هذه الأقواس المرتكزة على سوار صغيرة من الكدّال، إطارات مستطيلة من المادة نفسها تزيّنها نتوءات وتجاويف زخرفية نباتية.

تفضي جميع هذه المداخل إلى صحن الجامع الداخلي المبلط بالحجارة ويتجاوز عرضه ستة أمتار. وهو ما يسمح بإضاءة بيت الصلاة وتهوئتها. تحتل الصومعة الجزء الغربي، وهي مثمّنة الشكل ترتكز على قاعدة مربعة، ويقارب طولها عشرين مترا. وتنتهي بجامور مشيّد من الحجارة الصغيرة المهندمة بإحكام، تتخلله شرفة مثمنة الشكل على غرار كامل البدن ذات سقف هرمي مغطى بالقرميد الأخضر المسطح ويعلوها عمود من النحاس موشّى بهلال وثلاث كرات متدرجة الأحجام من المادة نفسها.

توجد التربة المرادية ذات الشكل المكعب في الركن الجنوبي الغربي المواجه مباشرة للصومعة. بناها محمد باي المرادي حفيد حمودة باشا سنة 1685م. وتنتمي هذه التربة من حيث العمارة إلى النمط المغربي الأندلسي، على أنها لا تخلو من التأثير العثماني وكذلك الأوروبي خاصة في نوعية الرخام الملون والمنحوت المستعمل في عمارتها، كما تتميز هذه التربة بفخامة مواد بنائها وتنوعها، وقبتها الهرمية المغطاة بالقرميد الأخضر المسطح وسقفها الخشبي المنقوش. وهي تضمّ قبور

البايات المراديين وأبنائهم.

يوجد في أقصى الجهة الجنوبية للصحن المحراب الخارجي الخالي من الزينة والزخارف. ويحاذيه من الجهة الغربية باب صغير يؤدّي إلى تربة الحريم المكشوفة التي تقع في الساحة الخلفية للجامع.

يتوسط هذا الصحن بيت الصلاة الذي يحتل ثلثي مساحة الجامع. تحيط به الأروقة من ثلاث جهات، أعمدتها من المرمر الأبيض ذات تيجان متنوعة مثل الدوري الحديث والكورنثي. ويعلو هذه الأروقة إفريز من القرميد المجوف المطلي.

اتخذ بيت الصلاة شكلا مستطيلا بطول ثلاثة وعشرين مترا وعرض ستة عشر مترا. ويشتمل على سبعة أبواب مؤطرة بالرخام المزخرف. ونجد أعلى هذه الأبواب روزنة للإضاءة والتهوئة.

يتكوّن بيت الصلاة من سبعة بلاطات متعامدة مع جدار القبلة ينقسم كل منها إلى أربعة أساكيب. وما عدا القبة الدائرية التي تعلو المحراب يتكون كامل سقف بيت الصلاة من أقبية طويلة محمولة على اعمدة مرمرية وأقواس مندمجة. وقد جلبت هذه السواري المتماثلة المقاييس والوسائد خصيصا من مقاطع كرارة لبناء الجامع، وهي محلاة جميعها بتيجان من نوع الباروك. وقد كسيت جدرانها السميكة ببلاطات الرخام حتى ارتفاع أربعة أمتار، في حين كسيت الأجزاء العليا من الجدران بطبقات من الجص المنقوش. أما جدار القبلة حيث يوجد المحراب فكسي بالخزف الملوّن. وكسي باطن المحراب المجوّف بالرخام الملوّن. كذلك شأن المنبر الموجود إلى يمين المحراب. ونجد في مواجهة المنبر وعلى ارتفاع مترين ونصف محفلا من الخشب الملوّن. ويحتلّ وسط بيت الصلاة كرسي الختمة المصنوع من الخشب وهو مخصّص لقراءة القرآن.

يتميّز هذا الجامع عن سابقيه بنوع جديد من الأقبية الطويلة لا نجده في ما سبقه من جوامع ومساجد، كما يتميّز باستخدام كميات كبيرة من الرخام الإيطالي المجلوب خصيصا لعمارته. ومن ميزاته المهمّة أيضا تجلي إسهامات الفنانين الإيطاليين في بناء البناء وزخرفته التي تظهر خاصة في نحت السواري والتيجان ونقشها في حفر اللوحات الرخامية وتنزيلها بالأحجار الملوّنة.

الجامع الحنفي بباجة

يعدّ من أعرق الجوامع الحنفية بالشمال الغربي للبلاد التونسية، أمر بإنشائه مراد باي الثاني قبل سنة من وفاته أي سنة 1085هـ/1674م، وذلك على يد الحاج بقطاش داي وهو لا يبعد سوى مائة متر تقريبا عن الجامع الكبير المالكي، كما يحتل موقعا استراتيجيا بالنسبة إلى المحاور العمرانية لمدينة باجة.

يتمّ الدخول إلى هذا الجامع عبر أربعة أبواب، ثلاثة منها شرقية تفضي إلى الصحن، وواحد غربي ينفتح مباشرة على الصحن.

ورغم أنّ الجوامع الحنفية تعرف بصومعتها المثمّنة الشكل مقارنة بصومعة الجامع المالكي ذات الشكل المربع، فإنّ صومعة هذا الجامع المنسوب إلى المذهب الحنفي، مربعة الشكل بخلاف السائد، حيث لم تحضر فيها بصمات الفن المعماري التركي على غرار الجوامع الحنفية بمدينة تونس أو مدينة بنزرت. .إلاّ في حلية قبة الخزفية وما علاها من تفافيح وراية وهلال. فطرازها الموحّدي يجعلها ضمن المرجعية المعمارية الإفريقية الأصلية.

أمّا المنبر فاتّبع الطراز العثماني المتمثل في المنبر المبني على غرار منابر الجوامع الحنفية بالبلاد التونسية، وهو مكسو من جميع جوانبه بألواح رخامية ملوّنة. يصل ارتفاعه إلى 2.80 مترا وينتهي بقوس حدوي نصف دائري متناوب الفقرات. أمّا مصعده فيتألف من سبع درجات، وعلى جانبي المنبر يوجد شريط زَخرفي يتكوّن

من وشاحين أسودين متحابكين. أمّا في أعلى هذا المنبر فنجد مجلسا تنفتح عليه من جهة القبلة شمسيّة وينتصب عليه جامور صغير هرمي الشكل يحوي بدوره أربعة أعمدة صغيرة تحمل عقدا منفرجا كقاعدة القوس الحاملة للجامور.

كما نلاحظ وجود سدّة تعرف بـ سدّة الخوجات على غرار الجوامع الحنفية وهي من العناصر الجديدة التي أدخلها الأتراك على عمارة المساجد بالبلاد التونسية، هذا إضافة إلى وجود سدّتين أخريين: الأولى في الجهة الجنوبية الشرقية من بيت الصلاة، والثانية في الجهة الشمالية.

وإضافة إلى العناصر الأخرى والتحويرات التي حدثت فيه فإنّ اللاّفت للانتباه هو أنّ هذا الجامع الحنفي لم يتأثّر كثيرا بالطابع المعماري والزخرفي الذي عرفته الجوامع الحنفية الأولى التي تأسّست في عهود الحكام المراديين مثل يوسف داي وحمودة باشا المرادي، إذْ تمّ الاستغناء عن الصومعة المثمنة رمز الجوامع الحنفية والصحن الذي يحيط ببيت الصلاة من الجهات الشرقية والشمالية والغربية، كما تخلّى عن الواجهة المزخرفة، بل تأثّر في جزء كبير من ملامحه العمرانية والزخرفية بالمساجد المالكية التي كانت بجواره مثل جامع أحمد الجزّار بطرازه الأغلبي والجامع العتيق بطرازه الفاطمي اللذين يمتازان بالصّلابة مثل سائر الجوامع الإفريقية.

جامع الزيتونة

يرتبط تأسيس جامع الزيتونة وأطوار تشييده وإصلاحه بتاريخ تونس مجتمعا وثقافة وفكرا ومعتقدا، ذلك أنّه كلما تطوّرت في أنماط الحياة وأنظمة الاجتماع والعمران كان لتطوّرها صدى في هذا الجامع سواء في هيئته وكيانه المعماري، أو في نظام تعليمه ومناهج التدريس فيه، كما أنّه



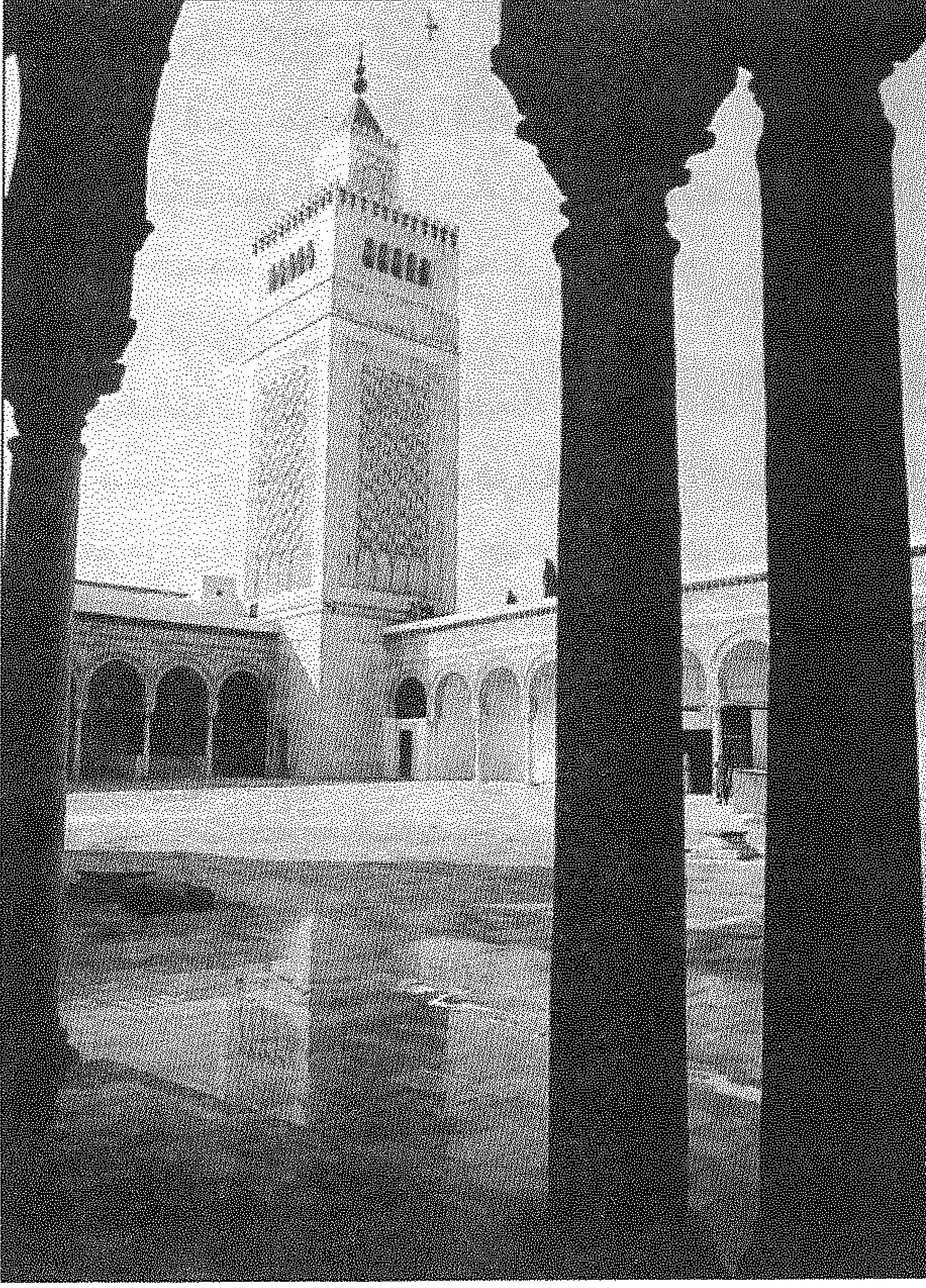
كلّما ازدهرت حياة الفكر والعلم بهذا الجامع، وتعمّقت دوائر الدرس والبحث فيه انعكس ذلك على المناخ الاجتماعي والثقافي والسياسي في تونس وسائر النطاق الإسلامي المجاور لها.

اشتهر في كتب التاريخ وفي الدراسات الحديثة أنّ ابتداء تأسيس هذا الجامع كان على يد عبد الله بن الحبحاب، وذهب آخرون إلى أنّ إنشاء هذا الجامع يعود إلى حسان بن النعمان الغساني فاتح تونس وقرطاج في حدود سنة (79هـ/699م). ويرى كلّ من ابن أبي دينار ومحمد ابن الخوجة أنّ جماعة المسلمين الأوّل بإفريقية لم يكن لديهم مسجد جامع للصلوات في ما بين قدوم حسان وولاية عبيد الله بن الحبحاب. ويقول محمد العزيز بن عاشور إنّ" دور ابن الحبحاب تحدّد في إتمام عمارة الجامع والزيادة في ضخامته، وربّما في طاقته الدفاعية إذ كان جامع الزيتونة مشرفا على البحر المسيطر عليه وقتئذ أسطول الروم"، ويرجح أنّ يكون ابن الحبحاب استعان في هذا العمل بخبرة الفنّيين الأقباط الذين أرسلهم إليه والي مصر بإذن من عبد الملك بن مروان قصد بناء "دار الصناعة" وهو رأي ابن عذاري في كتاب المغرب في ذكر إفريقيّة والمغرب والبكري في المسالك والممالك.

وفي خصوص تسمية هذا الجامع بجامع الزيتونة، فالروايات قد اختلفت، فمنها ما ذهب إلى أنّ الجامع بني في موضع كان مشجرا بالزياتين، قطعت كلّها ولم تبق إلاّ زيتونة واحدة في وسط ساحة الجامع فسمي بها. ومنها أنّ المسلمين عند فتحهم قرطاج وجدوا زيتونة منفردة في موضع المسجد فقالوا هذه تونس، وسمّي المسجد بجامع الزيتونة. وتزعم رواية مسيحيّة أنّ الجامع شيّد بالقرب من كنيسة قديمة كانت تضمّ رفاة القديسة أوليف أي زيتونة. وأوّل محاولة في تطوير هذا الجامع من الناحية المعماريّة والهندسيّة كانت لأمراء الدولة الأغلبيّة في القرن الثالث للهجرة (9م) فقد ضخّموا بناية الجامع ووسعوا مساحته مع تحسين هندسته وإدخال بعض الزخارف عليه إلى درجة بدا على هيئة جديدة كأنّها إعادة بناء. وقد قال العلامة حسن حسني عبد الوهاب في «ورقاته»: "...والواقع أنّ هذا التجديد الكليّ هو من عمل الأمير الأغلبي أبي إبراهيم أحمد (242هـ - 249هـ/856م - 864م)وهو ذلك البنّاء الكبير الذي اشتهر باجتهاده في عمارة البلاد وبولوعه لإنشاء المعالم العمرانيّة الجليلة منها جوامع سوسة وصفاقس وزيادته المعتبرة في مسجد عقبة بالقيروان... وكان قبل وفاته بقليل أقبل على جامع الزيتونة ووجّه إليه عناية خاصة".

وتعدّدت عمليات إصلاح جامع الزيتونة في العهد الفاطمي (296هـ 362هـ/909م ـ973م)على أيدي أمراء الدولة الصنهاجية. وهو ما تجسّد في إنشاء القبّة البديعة فوق البهو والرواق الموجود أمام واجهة الصلاة.

أمّا أكبر الإصلاحات والتحسينات العمرانيّة فقد أدخلت على هذا الجامع في أثناء العهد الحفصي إذ يذكر محمد ابن الخوجة في كتابه معالم التوحيد "أنّ سلاطين بني حفص شملوا في مدتهم جامع الزيتونة بعنايتهم، فالسلطان المستنصر بالله جلب إلى قصره بأريانة حيث بستانه المعروف برياض أبي فهر ماء زغوان في



سنة 648هـ/1250 وأجرى منه قناة لساقية جامع الزيتونة".

وقال صاحب كتاب "مسامرات الظريف": إنّ السلطان يحيى بن المستنصر المذكور كسا الجامع وحسنه في سنة 676هـ/1277م. ثمّ في عام 716هـ/1316م أمر السلطان زكرياء بعمل عوارض وأبواب من خشب لبيت الصلاة. أمّا السلطان أبو عبد الله محمد الحفصي فقد أنشأ فيه المقصورة التي بصحن الجنائز وبنى السبيل التي تحتها على رأس المائة العاشرة.

وفي العهد الحفصي أنشئت بجامع الزيتونة ثلاث قاعات للمحافظة على الكتب، الأولى هي مكتبة أبي فارس عبد العزيز التي بنيت بمجنبة الهلال جوفيّ جامع الزيتونة تحت الصومعة حسب ما ذكره الزركشي في تاريخ الدولتين وكان ذلك سنة 822هـ/1419م. والثانية هي مكتبة أبي عمرو عثمان في مكان المقصورة الجنوبيّة الشرقيّة المعروفة باسم سيدي محرز، وقد هيّئت

سنة 854هـ/1450م كما يدلّ على ذلك ما ورد في النقيشة الموجودة فوق الباب: "أمر به الخليفة الإمام أبو عمرو عثمان أيّده الله ونصره في عام أربع وخمسين وثمانمائة في رجب". ويقدم لنا محمد العزيز بن عاشور في هذا الشأن بعض التدقيقات: "يحتوي هذا الباب على عناصر هندسيّة وزخرفيّة ازدهرت في ذلك العهد كالقوس المبنية بالرخام الأبيض والأسود المرصف بالتناوب على غرار ما يوجد بجامع القصبة وغيره من المعالم الحفصيّة وكذلك الخشب المنقوش". وتحتوي هذه المكتبة على واجهة جميلة تشرف على سوق الفكّة. أمّا المكتبة الثالثة فهي المكتبة العبدلية، وهي من إنجاز أبي عبد الله محمد (899 ـ 932هـ/1493 ـ 1525م)، وقد أوقف الحفصيون على هذه المكتبات أوقافا قامت بضروراتها.

ورغم أنّ الفتح العثماني اتّجه إلى إدخال المذهب الحنفي إلى البلاد التونسيّة فإن العناية بالجوامع المالكية وفي طليعتها جامع الزيتونة ما انفكت تتواصل،لا سيما بعد الانتهاكات التي ألحقتها به جيوش الإسبان والتي نالت من حرمته وهيبته.

وفي العهد المرادي (1041 ـ 1114هـ/1630 ـ 1702م) يذكر محمد ابن الخوجة أنّ الأمير محمد باي المرادي زاد في ارتفاع صومعته ووضع بصحنه الرخامة (مزولة) لتحرير دخول وقت الصلاة وكتب عليها اسمه. وفي سنة (1037 هـ/1627م) بنى إمّام الجامع الشيخ محمد تاج العارفين البكري المجنبة الشرقية وكتب اسمه في سقفها. وذكر محمد العزيز بن عاشور أنّ من أهمّ الإنجازات البكرية تجديد الرواق الشرقي وتحسينه وتسقيفه وهو المعروف بصحن الجنائز بأمر من الإمام تاج العارفين البكري في أواخر دولة يوسف داي. وتمّت الأشغال سنة 1047هـ/1637م، كما ورد في النقيشة الرخامية التي وضعت داخل الصحن.

وكانت عناية الإمام تاج العارفين البكري كبيرة بجامع الزيتونة فأمر بتزويق بيت الصلاة وكساء حائط المحراب بالجبس المنقوش بأشكال بديعة. وفي عهد آل البكري جُدّدت بعض سقوف الجامع. ويروى أنّ القطب الصوفي الولي الصالح سيدي أبا الغيث القشاش جدّد سقف بيت الصلاة. وقد تواصلت عادة إسهام الأيمة وغيرهم من أعيان سدنة الجامع في عمرانه زمن العهد الحسيني سواء من ريع الأحباس المخصصة لذلك أو من مالهم الخاص.

وضمن الاهتمام الكبير الذي أولاه البايات والأمراء الحسينيون بشؤون الدين ومعالمه الكبرى حظي جامع الزيتونة باهتمام بالغ ظلت مآثره قائمة إلى الآن. وأبرز ما أدخل على هذا الجامع من إصلاحات وتحسينات في العهد الحسيني استبدال الصومعة القديمة الحفصية ثم المرادية بصومعة مزخرفة وبديعة تمّ بناؤها باشراف جمعيّة الأوقاف في أواخر القرن التاسع عشر (1312هـ/1894م)، وقد اقتبس شكل هذه الصومعة الجديدة من النمط المغربي الأندلسي.

وشهد جامع الزيتونة عناية فائقة في ظلّ حكومة الاستقلال فقد أنيطت بالمعهد الوطني للتراث مهمة الإشراف العلمي على عمليات التّرميم والتحسين. ومن الترميمات التي أنجزت في هذه الفترة تعويض أعمدة تيجان متداعية وتجديد بعض السقوف وإبراز الزخرفة الأصلية داخل القبتين وإبراز الرواق الشرقي ومقصورة أبي عمرو عثمان وتهديم قاعدة المكتبة العبدلية التي جددت في عهد الصادق باي، وذلك قصد إرجاع الجناح الأيمن من الرواق على وضعه الأصلي.

أمّا في خصوص نشاط جامع الزيتونة، ومهامه العلمية والدينيّة والثقافيّة فقد تحدّدت في بعدين أساسين إضافة إلى العبادة:

ـ التعليم والتثقيف الديني

ـ إقامة الشعائر والمواسم الدينيّة.

ولا توجد وثائق مدقّقة عن وضع التعليم في جامع الزيتونة في ما قبل العهد الحفصي، وكلّ

ما نعرفه أنّ كبار أئمته أسهموا في بث المذهب المالكي بإفريقيّة وصيّروه المذهب الرسمي للبلاد التونسيّة، وبدأت تتضح معالم حركة التعليم بجامع الزيتونة زمن الحفصيين، إذ كان بعض الشيوخ يجلسون للتدريس بمقصورة الإمام.

وعرف جامع الزيتونة زمن العهد الحسيني تحوّلات كبرى انعكست في التعليم الذي ما كان ليعرف الاستقرار نظرا إلى التمايزات بين العلماء، بحسب مذاهبهم الفقهية. وقد استصدر المشير أحمد باشا الأوّل أمرا سنة 1842م بشأن ترتيب التعليم بجامع الزيتونة. ثم لمّا تقلّد خير الدين الوزارة الكبرى عرض على الباي إصدار أمر بتنظيم التعليم بالجامع الأعظم. وكان هذا الوزير قد انتخب لجنة من علماء الزيتونة ورجال الدولة لتقرير هذا النظام وتحرير فصوله. وأصدر الباي في عام 1292هـ/1876م أمرا في ترتيب التعليم وقد كان هذا الأمر مشتملا على 67 فصلا مبوبة كالآتي:

1ـ العلوم التي تدرس بالجامع الأعظم. قال محمد بن عثمان الحشايشي في كتابه تاريخ جامع الزيتونة : ومازال الوزير خير الدين مهتمّا بأمر جامع الزيتونة إلى أنّ رتّب قانونه الجديد... وفوّض أمر إجرائه إلى المشايخ النظّار وأعانهم بنائبين انتخبهما من بين ظهرانيهم وهما من أعيان المدرسين وأحدهما الآن شيخ الإسلام" .

أمّا العلوم فهي: التفسير والحديث والكلام والقرآن والمصطلح والفقه الحنفي والمالكي والفرائض والتصوف والميقات والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع واللغة والآداب والسير والتاريخ والرسم والخط والعروض والقوافي والمنطق وآداب البحث والحساب والهندسة والمساحة والهيئة.

وأمّا الكتب، فكتب الرتبة العليا هي: تفسير القاضي البيضاوي وتفسير الجلالين والموطأ وصحيحا البخاري ومسلم والشفاء للقاضي عياض والمواهب اللدنية والمواقف للإيجي والعقيدة الكبرى للسنوسي ومقدمة القسطلاني والتوضيح ومختصر ابن الحاجب وجمع الجوامع والكنز ومختصر خليل ابن اسحاق وإحياء الغزالي والمفتاح للسكاكي والمطول لسعد الدين والمزهر للسيوطي وفقه اللغة للثعالبي والسيرة الكلاميّة وكتاب العبر لابن هشام والمنية والتذكرة ومقالات إقليدس.

وأمّا الكتب التي في المرتبة الوسطى فهي: الأربعون النووية، والشمائل للترمذي والعقيدة الوسطى للسنوسي، والشاطبية وألفية العراقي والمنار والتنقيح للقرافي والورقات لإمام الحرمين والدر المختار وتحفة بن عاصم ولامية الزقاق والسراجية والرحبية والدرة البيضاء والحكم لابن عطاء الله السكندري والطريقة المحمدية ومنظومة ابن غانم ورسالة سبط المارديني وألفية ابن مالك ولامية الأفعال والشامية والزنجاني والتلخيص ورسالة السمرقندي ورسالة الوضع ومقامات الحريري والعمدة لابن رشيق وقصيدة كعب بن زهير والهمزية والبردة والقرماني والمطالع النصرية، ونظم الخرّاز والخزرجيّة، والتهذيب لسعد الدين التفتازاني، ومختصر السوسي والقوانين والمرشد لابن الهايم والقلصادي وأشكال التأسيس والجغميني.

وأمّا كتب الرتبة الثالثة فهي: الجزريّة، والصغرى، والقدوري، والشيخ حسن، ورسالة ابن أبي زيد، والمرشد المعين، والعشماوية، والسوسي، والأجرومية، وقطر الندى، وايساغوجي، والنخبة الحسابيّة.

ويتعلق الفصل الثاني من الأمر الذي أصدره الوزير خير الدين بشؤون المدرسين والطلبة والثالث بأعمال المشايخ والنظّار والرابع بطريقة تنظيم الامتحانات في آخر السنة.

يعدّ جامع الزيتونة على مرّ تاريخه من أكثر المعالم الدينيّة التي انفردت بإقامة الشعائر وإحياء المواكب الدينيّة، وتستمرّ به تلاوة القرآن ورواية الحديث النبوي على امتداد اليوم.

أشهر من تولّى الخطابة في جامع الزيتونة :

الشيخ إبراهيم عبد الرفيع
الشيخ إبراهيم البسيلي
الشيخ عمر عبد الرفيع
الشيخ محمد بن عرفة الورغمي
الشيخ عيسى الغبريني
الشيخ أبو القاسم البرزلي
الشيخ أبو القاسم القسنطيني
الشيخ عمر القلشاني
الشيخ محمد بن عمر المسراتي القروي
الشيخ محمد المسراتي
الشيخ محمد بن عقاب
الشيخ محمد الونشريسي
الشيخ محمد البحيري
الشيخ أحمد القلشاني
الشيخ أحمد المسراتي
الشيخ محمد القلشاني
الشيخ محمد الرصاع
الشيخ محمد بن عصفور
الشيخ أبو الفضل بن أبي القاسم البرشكي
الشيخ محمد بن سلامة
الشيخ محمد الأندلسي
الشيخ أبو يحيى الرصّاع
الشيخ محمد تاج العارفين البكري
الشيخ علي البكري
الشيخ أبو بكر البكري
الشيخ أبو الغيث البكري
الشيخ علي الرصّاع
الشيخ أبو الحسن البكري
الشيخ حمودة البكري
الشيخ حمودة الريكلي الأندلسي
الشيخ عثمان البكري
الشيخ حسن الشريف
الشيخ محمد الشريف
الشيخ إبراهيم الرياحي
الشيخ صالح الكواش
الشيخ محمد الفاسي
الشيخ محمد الطيّب الرياحي
الشيخ علي الرياحي
الشيخ حمودة محسن
الشيخ علي محسن
الشيخ محمد محسن
الشيخ علي محسن الثاني
الشيخ صالح النيفر
الشيخ محمد الشريف

جامع سبحان اللّه

يقع بربض باب السويقة في نهج علي البلهوان (نهج الحلفاء سابقا) بمدينة تونس. أسّسه أهل الجالية الأندلسيّة الأخيرة إثر استقرارهم بتونس بين عام 1018هـ/1609م و1034هـ/1624م. ويذكر أنّ مؤسس الجامع عدل عن أيّ إضافة واستنبط تسميته من آية (فسبحان اللّه حين تمسون وحين تصبحون) الآية 17 من سورة الروم وهي شاملة لصلوات اللّيل والنهار.

جامع السبخة

كان في الماضي مسجدا تقام فيه الصلوات الخمس والمرجّح أنّه من آثار العصر الحفصي، خرب وتعطلت إقامة الشعائر به فتولّى إحياءه وتجديده الوزير يوسف صاحب الطابع في حدود سنة 1229هـ/1813م.

جامع صاحب الطّابع

يعرف جامع صاحب الطابع أيضا بجامع الحلفاوين لوقوعه بساحة الحلفاوين بمدينة تونس. أسّسه الوزير يوسف صاحب الطّابع في سنة

1229هـ /1814م، وأوّل صلاة أقيمت به فريضة الجمعة الموافقة ليوم المولد من ذلك العام. وكان المباشر لهندسة بنائه الحاج ساسي بن فريجة وشارك في بنائه جملة من العملة الأوروبيّين، ماعدا الزخرفة والتنميق والترصيع والنقش في حديده الذي وشّيت به أقواس الجامع وسقوفه فإنّها من صنع المسلمين وجلب له الرّخام من إيطاليا.



وتوفّي مؤسّسه ولم يتمّ صومعة الجامع.

جامع عقبة بن نافع

(انظر مقال القيروان، ج 2، ص. 496)

جامع قرطاج

افتتح في 16 رمضان المعظّم 1424هـ/11 نوفمبر 2003م.

ورغم ضخامة هذا الجامع وفخامته إذ بني على مساحة 3 هكتارات فإن الفترة التي استغرقها إنجازه لا تتجاوز ثلاث سنوات (2000 ـ 2003).

القبلة

وجّه المهندسون قبّة المحراب وقبّة البهو والمئذنة إلى القبلة مكوّنين بذلك خطًّا بدايته المحراب ونهايته المئذنة يقسم الجامع إلى قسمين متناظرين.

المحراب

أجاد المهندسون والفنيّون في بناء المحراب وزخرفته. فقد بني من الرّخام المزركش ونقش حديده كما كُتبَت فيه الشّهادتان، فضلا عن تزويقه بأشكال هَندسيّة بهيّة التّناسق.

رفعت قبّة المحراب على أعمدة من الرّخام وقطرها يساوي عشرة أمتار كُسيتْ بالجبس الذي نُقش في موقعه كما حلّيتَ بفتحات بها بلّور مطلي يمكّن من دخول ضوء الشمس، أما منطقة الانتقال من المربع إلى المستدير في القبّة فقد صُنعت بالمحارات الركنية.

بيت الصّلاة

يتّسع لحوالي 1500 مصلّ ومصلّية ويمسح قرابة 1300 متر مربّع وبه 68 عمودا. وكانت الأعمدة التي تستعمل في بناء الجوامع تؤخذ من البناءات الأثرية القديمة أو تشترى مجهّزة، فأعمدة جامع القيروان جيء بها في أغلبها من صقلية وجنوب إيطاليا، وأعمدة جامع الزيتونة بعضها روماني وبعضها بيزنطي، أما جامع "قرطاج" فكلّ الأعمدة فيه حديثة من مقاطع تونسية نحتها وأشرف على وضعها تونسيون، وفي أعلاها تيجان رخامية زخرفت بشكل موحّد لا يوجد إلاّ في بيت الصلاة، وفي كلّ جهة من التيجان سبع زهرات يعلوها هلال.

الرّواق الأوسط المؤدي إلى المحراب هو أوسع الأروقة وأعلاها، ومن كلّ جانب منه تتفرّع ثلاثة أروقة يعلوها سقف خشبي قسم منه نحتت به أشكال هندسية وقسم آخر طلي بالألوان.

فرش بيت الصلاة بنوع موحّد من الزرابي، والملاحظ أنّ الجدارين المتوازيين الحاملين لجدار القبلة حلّيا بنوافذ مستطيلة غاية في البهاء تمكّن من دخول الشمس إلاّ أنّها تحجب رؤية من في الداخل.

وقد كتبت آية الكرسي في الحزام الذي يعلو التيجان. ولبيت الصلاة عشرة أبواب يصل ارتفاع بعضها إلى سبعة أمتار ونصف متر ويبلغ وزنه 2800 كلغ حلّيت من الخارج بأشكال هندسية

بديعة رسمت ونقشت على النّحاس والخشب.

المقصورة وبيت الضيوف والمكتبة

المقصورة عبارة عن بيت ملحق بالجامع يفتح بابه على بيت الصلاة كان يستعمل سابقا مصلّى للعبّاد والزهّاد وأصبح فيما بعد مختصّا بالإمام حيث ينتظر إلى أن يحين وقت الصّلاة فيخرج لإمامة النّاس.

بيت الضّيوف بيت مواز لمقصورة الإمام مخصّص لاستقبال كبار الضيوف. وأمّا المكتبة فقد وجد لها المهندسون مكانا متميّزا يربط بين مقصورة الإمام وبيت الضيوف خارج بيت الصلاة وبموازاة جدار القبلة، وهو فضاء كان من الممكن أن يبقى خاليا، لكن استغلّ على نحو مبتكر فوضعت به المكتبة المحتوية على أمّهات المصادر والمراجع.

أثاث الجامع

أهمّ قطعه المنبر وهو كما يقول ابن منظور: "مرقاة الخاطب وسمّي منبرا لارتفاعه وعلّوه وانتبر الأمير أي ارتفع فوق المنبر". وقد عرفت المنابر في شكلها الحالي في عصور سابقة، ومنها نوعان: منابر ثابتة تؤلّف جزءا من عمارة المسجد بحيث تحتلّ مساحات كبيرة. ومنابر متحرّكة تحفظ في بيوت أو ممرّات خاصّة، تُخرج عند الحاجة وتُعاد إلى مكانها بعد استعمالها. والملاحظ أنّ منبر جامع "قرطاج" يسهل تحريكه وجوانبه منحوتة بأشكال بديعة تشير إلى مدى تطوّر النحت التونسي على الخشب والحفر فيه.

أما كرسيّ المقرئ فهو عبارة عن قطعة خشبية مربّعة مزوّقة معدّة لجلوس المقرئ ولحفظ المصاحف التي تستعمل عند ترتيل القرآن الكريم. وتوجد بجانبه مجموعة من الصّناديق الخشبيّة صفّت بها نسخ من المصحف.

المئذنة

هي منارة عالية تستغلّ لرفع الأذان وتقع في مؤخّرة المسجد عند الجدار المقابل لجدار القبلة في موازاة المحراب، ويبلغ ارتفاعها 58



مترا وتُرَى على بعد عشرة كيلومترات، وتتكوّن المئذنة من بدنين: الأول يحمل السلّم وداخله بدن ثان به مصعد كهربائي. ويمكن دخول المئذنة من بابها الواقع بالبهو المسقف الأول، وهو بهو مخصّص للمناسبات الاجتماعية، وعلى الجدار الخارجي للمئذنة وضعت اللّوحة التذكارية التي تؤرخ للجامع.

وقد زيّنت الجدران الخارجية للمئذنة بتقاطع زهرتي لوتس ونوافذ صغيرة للتهوئة والإنارة. وفي الأعلى أقواس تليها شرفة فامتداد للبدن الأوسط الذي يصل إلى منتهى علوّ المئذنة.

الصّحن

وهو عبارة عن فناء يقع في مؤخّرة المسجد. ولمسجد "قرطاج" صحنان، الأول داخلي يقع مباشرة خلف بيت الصّلاة تحيط به أعمدة وأقواس سبعة من كلّ جانب تعلوها لوحات منقوش عليها أسماء الله الحسنى.

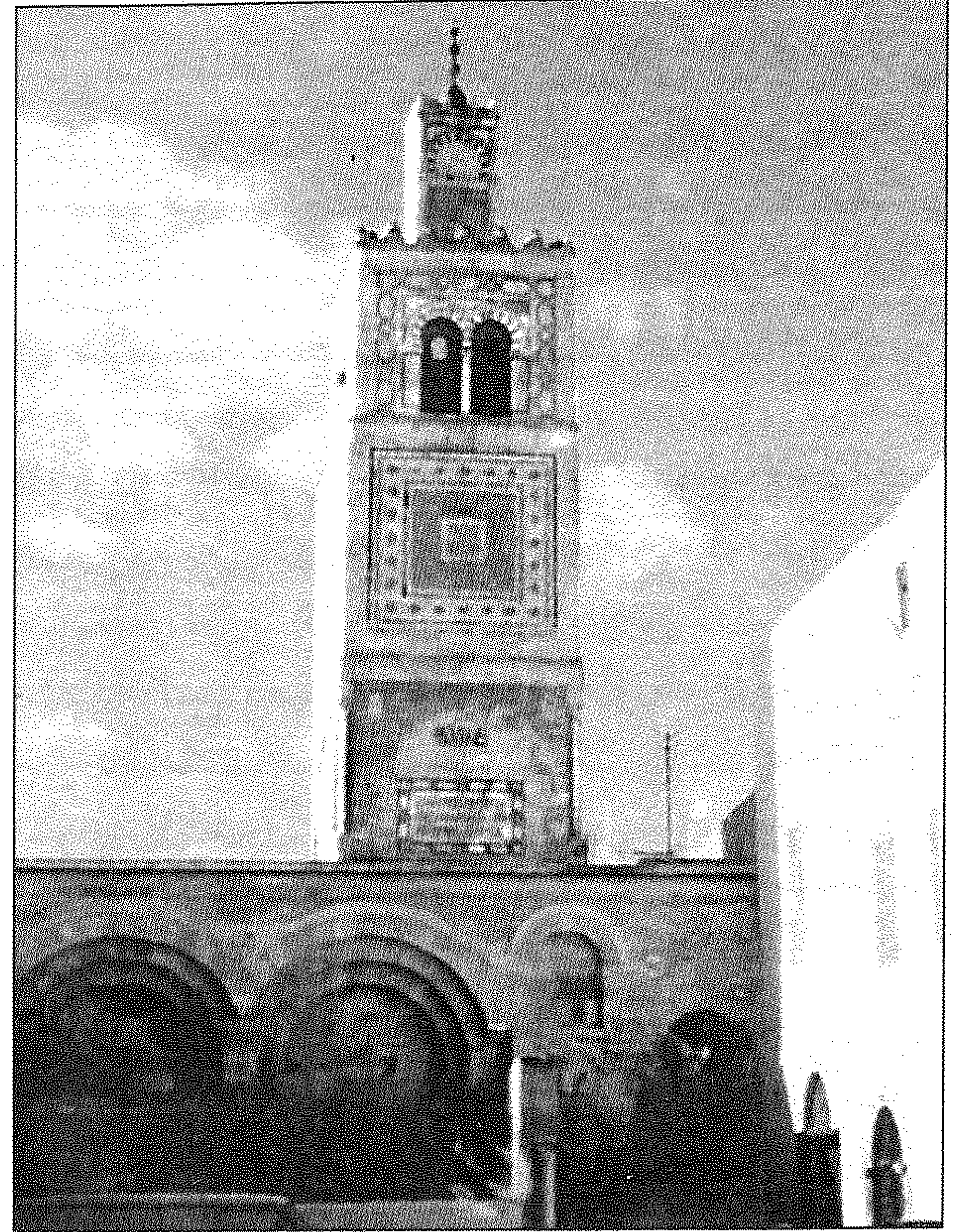
أمّا الصّحن الخارجي الواقع خلف المئذنة فقد سقف منه جزءان: من اليمين ومن اليسار حتى يُستغلا في المناسبات الاجتماعية للاتّقاء من حرارة الشمس.

الميضأة

جهّزت بأحدث المبتكرات. فالماء ينزل بعد لمس أسفل الحنفيّة ويتوقّف ذاتيا بعد هنيهة، أما حرارته فيتحكّم فيها بحسب حالة الطقس.

وقد أعدّت الميضأة على نحو يساعد على الوضوء بيسر، وقد بنيت المقاعد وما يقابلها بالرّخام الخالص.

جامع القصر



يقع جامع القصر في باب المنارة بمدينة تونس العتيقة، سمّي بذلك الاسم لوقوعه على مقربة من القصر الأعلى الّذي هو قصر الولاية لبني خراسان.

بناه الأمير أحمد بن خراسان في ما بين سنة 500 و520هـ/1106 ـ 1126م على أنقاض كنيسة كانت موجودة عند الفتح الإسلامي ومن أهمّ ما فيه:

– المحراب المنحوت من عرض الحائط على نمط المحراب الأوّل العبيدي في جامع المهدية. أمّا الواجهة الشرقيّة على الشارع فهي متألّفة من مجموعة عقود ضخمة قد نسج على منوالها عند بناء أقواس الأروقة في رباط القديس يوحنا في بلّرمة «San Giovanni» في القرن 6هـ/12م.

– تعود الصومعة إلى العصر التركي (القرن 11هـ/17م) أنشأها الدّاي محمد لاز، بنيت فوق سطح بيت الصلاة لا أساس لها وإنّما قامت على جدار البيت الذي يبلغ سمكه نحو خمسة أذرع وعبارة التاريخ المنقوشة على وجهها هي:

«بسم الله الرحمان الرّحيم إنّما يُعمِّر مَسَاجدَ اللّه منْ آمَنَ باللّه وَاليَوْمِ الآخر وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلاَّ اللّهَ فعسَى أولَئكَ أنْ يَكُونُوا منَ المُهْتَدينَ». وبعد، فقد جرَى بناء هذه الصومعة علَى يد الحاج الناسك المقدس محمّد داي حفظه اللّه تعالى سنة سبع وخمسين بعد الألف» انتهى.

وشكل هذه الصومعة أندلسي على الصيغة التونسيّة.

وكانت في هذا الجامع مقابر قديمة أزيلت بعد الترميمات الأخيرة، منها قبر يعقوب بن يوسف بن سعيد بن الحسين بن يوسف المتوفّى عام 627هـ/1229م.

جامع القصبة

(انظر مقال قصبة تونس، ج 2، ص. 455.)

الجامع الكبير بسوسة

تشير المصادر التاريخية إلى أنّه عندما ازداد عدد سكان مدينة سوسة واتّسعت رقعتها، أمر الأمير الأغلبي أبو العبّاس محمد بن الأغلب بتأسيس مسجد جامع قرب الرباط وذلك سنة 237 للهجرة الموافق لسنة 851 للميلاد. وهو تاريخ يشير إلى أنّ مدينة سوسة لم يكن لها جامع إلاّ في فترة متأخّرة مقارنة ببقية مدن إفريقية، حيث كان للمدينة العديد من المساجد الصغيرة مثل

المسجد الذي يحتلّ الطابق العلوي للرّباط، وهو ما دلّت عليه نقيشة حدّدت تاريخه في سنة 206هـ/821م، طوله 36 مترا وعرضه 7 أمتار. أمّا المسجد الثاني القديم فقد عرف بـ (مسجد بوفتاتة) الذي تمّ بناؤه بين سنتي 223 و226هـ الموافق ل 838 و841م وهو مسجد صغير مربع الشكل (10 أمتار لكل ضلع)، أمّا المسجد الثالث قبل الجامع فهو أصغرها حيث يحتلّ قاعة مربعة بستة عشر مترا مربعا (4 أمتار على 4) في الطابق الأوّل من (برج خلف) وهو مخصّص لجنود الكتيبة المكلّفة بحراسة البرج.

ولاشك في أنّ هناك مساجد أخرى اندثرت آثارها وكانت موجودة بأماكن مختلفة من مدينة سوسة.

أمّا الجامع الكبير فهو مستطيل الشكل، يتألّف من بيت للصّلاة وصحن محاط بأروقة من الجهات الغربية والشمالية والشرقية. وقد شهد هذا المعلم الديني عدّة تحويرات وإضافات في فترات مختلفة خصوصا في الفترة الصنهاجية. وأوّل ما نلاحظ تركيبته الهندسية التي طغت عليها الصبغة العسكرية بوجود أبراج دائرية ركنية وكذلك السقوف البرميلية الطولية. ولا غرابة في ذلك خصوصا إذا علمنا أنّ مدينة سوسة كانت نقطة أساسية في الإستراتيجية العسكرية الأغلبية، من ذلك أنّها كانت منطلقا للحملات الأغلبية العسكرية التي يشنّها الجيش الأغلبي لاحتلال جزر صقلية وسردينا ومالطا.

وبعد التوسعة التي شهدها بيت الصلاة في اتّجاه الجنوب تمّ تسقيف المساحة المضافة بأقبية متقاطعة بعدما كانت مساحتها محدودة اقتصرت على ثلاثة بلاطات عريضة مسقّفة بأقبية برميلية مقامة على ركائز مبنية قصيرة. ففي القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي، أضيفت مسكبات قبلية وأزيل المحراب وكذلك جدران القبة وبني محراب جديد تتقدّمه قبة محدثة معه، وقد شملت هذه العناصر المعمارية على خطوط كوفية وزخارف بطابع مخصوص تشير إلى فترة المعزّ بن باديس. وأمّا المحراب فقد صُمّم على مثال محراب مسجد السيدة بالمنستير وهو كذلك من إنشاء تلك الفترة.

وعموما فإنّ المسجد الجامع بسوسة يبدو في شكل قلعة سميكة الجدران قوية البنيان، ترتكز سقوفه وأروقته على العضادات المبنية بالحجارة المرصوصة رصًّا محكما، بخلاف جلّ الجوامع التي ترتكز عناصرها المعماريّة على الأعمدة مثل جامع القيروان والزيتونة ونابل وغيرها من المعالم الدينية الكبيرة. كما نلاحظ أنّ هذا الجامع لم تبن له صومعة بل إنّ إقامة الصلاة تنطلق من منارة قصر الرباط المجاور له على بعد بضعة أمتار. وبالركنين الشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي للصحن ينتصب برجان: يعلو البرج الأوّل بناء صغير مغطّى بقبّة حيث يمكن الوصول إليه بواسطة درج انطلاقا من الصّحن. أمّا الأروقة الثلاثة التّي تعلوها أقواس متجاوزة، فهي تستند إلى دعامات قصيرة وهي تعود إلى مرحلة البناء الأولى في حين يرجع الرواق الرابع المحاذي لبيت الصلاة والمرتكز على أعمدة إلى الفترة الزيرية.

وكغيره من المعالم العريقة فقد شهد الجامع عدّة إصلاحات خلال العهد العثماني وبالتّحديد خلال الفترة المرادية (1086هـ/1675م) كما تدلّ على ذلك النقيشة المكتوبة بالخط النّسخي.

الجامع الكبير بصفاقس

يحتل الجامع الكبير بصفاقس قلب المدينة حيث تحاط به العديد من الأنهج في كل الاتّجاهات. يقع في منخفض من الأرض حتّى اشتهر لدى القدامى من سكان مدينة صفاقس بـ جامع الحُفرة. بل الطريف هو أنّ المعلم الديني العريق بصفاقس عُرف أيضا بتسميات أخرى تُؤرّخ لأحداث أ ومحطات من تاريخه ومنها: (جامع القُلّة) نسبة إلى رواية تذكر أنّ قلّة توضع

فيها التبرعات لإصلاحه وترميمه، حيث كانت هذه الجرّة قد شُدّت على أحد الأعمدة ليرمي فيها المصلون الأموال عند خروجهم من الصلاة وفي المساء يجمع وكيل حبس الجامع ما بـ(القلّة) من أموال، حتّى إذا تجمّع نصيب منها بذل في إصلاحه. كما عُرف أيضا بـ جامع الصَبَايا حيث يقال إنّ سبع فتيات أبكار أبين الزّواج واتّبعنا حياة الزهد حتّى كبُرن فتصدّقن بأموالهن لإصلاح وترميم الجامع؛ ويقال إنّ بعد وفاتهن دُفِنَّ تحت ركن من أركانه..

وحسب أقدم نقيشة في الركن الجنوبي من الجامع كتبت بالخط الكوفي في ستة أسطر أفقية وسطرين عموديين – ورغم زوال العديد من أجزائها المكتوبة –نقرأ ما يفيد بأن أقدم تاريخ لبناء هذا الجامع المركزي بصفاقس هو سنة 370هـ الموافق لسنة 980م أي أواخر القرن الرابع الهجري /أواخر العاشر الميلادي.

أمّا التأسيس الأصلي القديم فقد أشار إليه الشيخ الفقيه أبو القاسم عبد الرحمان اللّبيدي، الذي توفي في بداية القرن الخامس الهجري، في ذكر مناقب شيخه أبي إسحاق الجبنياني (ت235هـ/849م) أنّ جدّه علي بن سالم البكري قاضي صفاقس وسائر قرى السّاحل هو الذي بنى سور المدينة وجامعها باللّبن (طوب مخلوط بالقش) وذلك بين سنة 234هـ/848م وسنة 240هـ/854م، وقد أجمع جلّ المؤرّخين على أنّ التأسيس كان بالتحديد سنة 235هـ/849م.

أمّا الطور الثاني لبناء هذا المسجد الجامع هو ما أشارت إليه نقيشة من المرمر فوق العتبة العليا بالواجهة الشرقية من أنّ هذا المعلم تمَّ تجديد بنائه بمواد حجرية وأكثر صلابة في عهد الأمير الصنهاجي أبي الفتح المنصور الذي تولّى حكم إفريقية من سنة 374 هـ إلى سنة 386هـ (984–996م) والتي كانت تابعة للخلافة الفاطمية المستقرّة بمصر. ويبدو أنّ البناء في هذه الفترة شمل تقريبا أكثر أجزاء الجامع ويتبيّن ذلك من خلال المظاهر العمرانية والزّخرفية خاصّة في الركن الجنوبي الشرقي من المعلم وقد شمل المصلّى إلى المكان الذي ارتفع في جدار الواجهة الشرقية عن بقيته شمالا.

أمّا الطّور الثالث فقد شهد خراب الجامع وتقلّص مساحته في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري بعدما أصابت المدينة الفتن والحروب. والطور الرابع والأخير هو الذي طبع الخصوصية المعمارية والزّخرفية للجامع الحالي وذلك في العهد العثماني فترة تولية الشيخ عبد العزيز الفراتي الأكبر إمامة الجامع سنة 1114هـ الموافق لسنة 1702م أي أوّل القرن الثامن عشر الميلادي، بأمر من الأمير التركي إبراهيم الشريف، فأمر بإصلاحه وتجديده وزخرفته، وهو ما أعطاه شخصيته العمرانية والزخرفية الحالية.

فهذا المعلم مستطيل الشكل، يمتد من الشمال إلى الجنوب، وهو فسيح الأرجاء عالي البنيان، له ثمانية أبواب تنتهي إلى بيت الصّلاة والصّحن، وبابان يؤدّيان إلى الطاق الخشبي ثم بابان يؤديان إلى مقصورة الإمام.

ولاشكّ في أنّ العناصر المعماريّة في هذا الجامع العريق مزجت بين الطابع الإفريقي المحلي والطابع التركي الشرقي، ويتّضح ذلك في رونق وجمال هذه العناصر في المصلّى والأروقة والنوافذ والأبواب والصومعة وغيرها من عناصر هذا المعلم الديني الذي تصدّر فيه مشايخ العلم على مرّ القرون واجتمع فيه طلاب المعرفة من داخل البلاد التونسية وخارجها، حيث كان التعليم به تطوّعا، وقد بلغ عدد طلبته نحو ستمائة تلميذ وتلميذة، وكانت تعقد برحابه الجلسات القضائية والمجالس العلمية، كما ساهم هذا المعلم العريق في مقاومة المستعمر الفرنسي بشتّى الوسائل المتاحة.

الجامع الكبير (الفاطمي) بالمهدية

إنّ أوّل ما يجلب نظر الزائر لهذا الجامع الفاطمي المعروف بالجامع الكبير هو مدخله الرّئيسي الضخم ارتفاعا وعرضا على غرار أقواس النصر الرومانية وكأنّه باب من أبواب مدينة أ وقلعة، فهو مستطيل الشكل، وصل ارتفاعه إلى 8.70 مترا، أمّا مقاساته فهي: 8.55م على 98.2م.

ويجمع المؤرّخون تقريبا على أنّ هذا المعلم الديني لم يبرز للوجود إلاّ في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). وقد أشار إليه البكري باقتضاب شديد في كتاب المسالك والممالك (أبو عبيد البكري، كتاب المسالك والممالك، بيت الحكمة، تونس، ج2، 1992). وقد اندثرت جلّ آثاره وأصبح خرابا، ولم ير النّور من جديد إلاّ في ستّينات القرن العشرين إثر مجهودات جبّارة قام الأثريون والمهندسون وعلى رأسهم الأثري الفرنسي الشهير ألكسندر ليزين، الذي نشر نتائج تلك الأبحاث الميدانية التي كشفت عن أسسه وأزالت الغموض عن خصائصه المعمارية مع مقارنتها خاصة بنصّ البكري؛ وقد ضبط تخطيطه الأصلي الذي ساعد المختصين على إعادة تشكيله كما نراه اليوم شامخا قبالة البحر حيث أعيد بناؤه سنة 1964 م على أكمل صورة.

ومن أبرز عناصره المعمارية:

– المحراب: حيث تمّ اكتشاف ملامح أو بقايا المحراب الفاطمي القديم الذي يتألّف من حنية نصف دائرية باتّساع مترين وبعمق 1،10 متر، وقد زخرفت بتسع حنايا صغيرة تميّزت بالاستطالة. وهذا المحراب المنقوش على الحجر بلغ قطر قبّته 5،45 مترا.

– المنبر: فهو يعتبر من روائع الفن الإسلامي البديع، فاستعملت فيه النقوش والزخارف الهندسيّة والنباتية، يحتوي على أحد عشر درجا، ارتفاع الواحد اثنان وعشرون صنتيمترا، وكذلك على أربعة أعمدة خشبيّة مخروطة وأسفله إضافة إلى عشرات القطع المنقوشة بأشكال هندسية دقيقة الصنع.

– أمّا القبّة الوحيدة هي قبّة المحراب النصف دائرية التي تكاد تكون خالية من الزخارف إلاّ كتابة أرّخت لبناء الجامع وتجديده وفتحه للمصلّين في الثاني عشر من ربيع الأنوار عام 1384هـ/21 جويلية 1964م.

لا يحتوي هذا الجامع على صومعة بل على أربعة صهاريج ماء ضخمة مختلفة الأحجام بلغ ارتفاعها 10،60 من الأمتار، وهو ما يفسّر افتقار مدينة المهديّة القديمة إلى الماء وحاجتها الأكيدة إليه نظرا لامتلاكها منفذا أرضيا وحيدا يسمح لها بالتّزود بالماء والحاجات الأساسية، وهي مدينة عانت من الحصار والهجومات البحرية والبرية الداخلية والخارجية أكثر من ستين عاما وهو ما يُقارب عمر الدولة الفاطمية بالبلاد التونسية قبل انتقالها واستقرارها النهائي بمصر.

الجامع الكبير بنابل

يقع هذا المعلم الديني في وسط المدينة القديمة بنابل وبالتحديد وسط الأسواق مثل: (سوق البلغة) و(سوق الغزل) و(سوق الحدّادين) و(سوق الزيت).

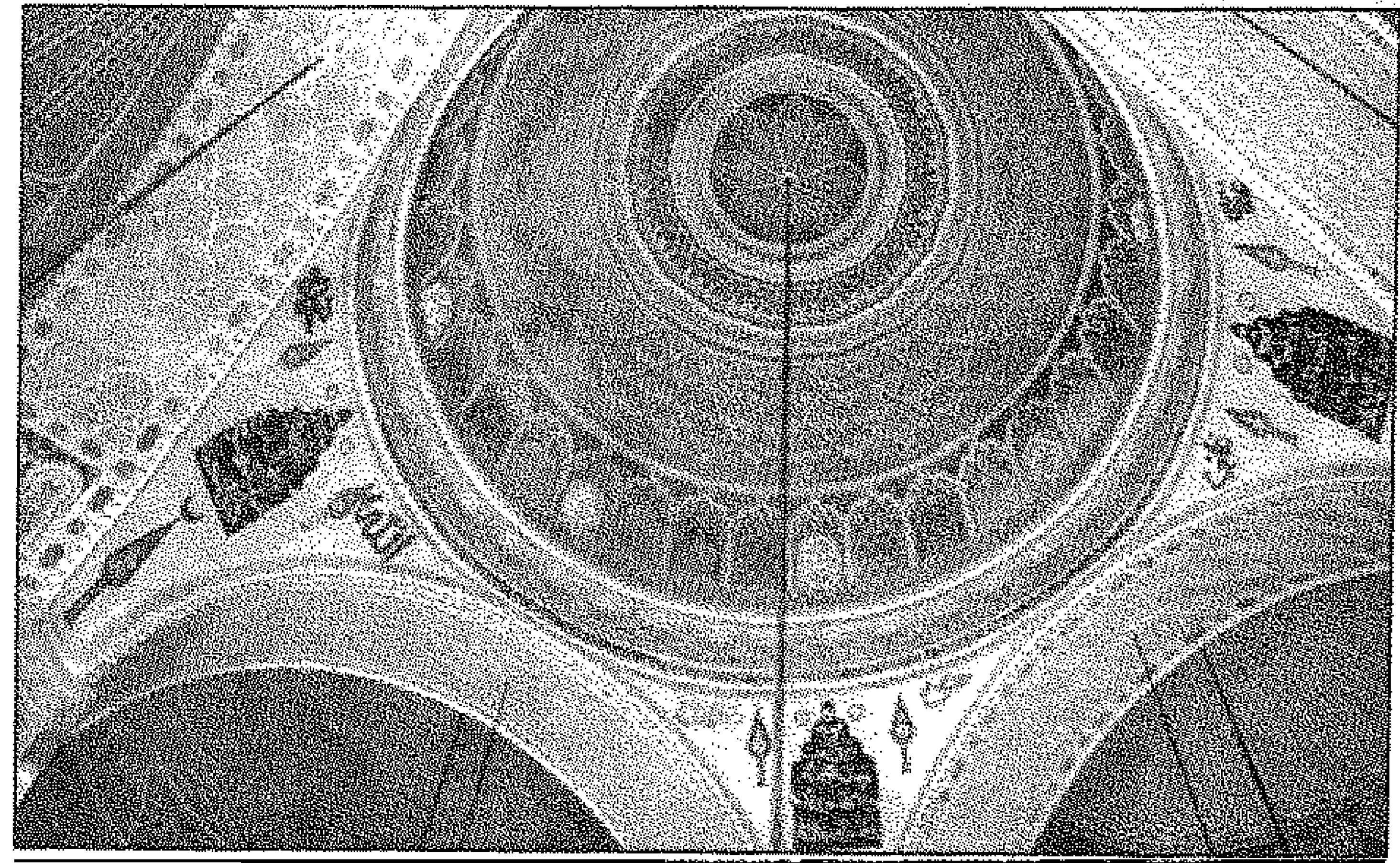
يعود تاريخه إلى أواخر العهد الحفصي في القرن التاسع الهجري. وقد احتوى على كثير من العناصر المعمارية الرومانية التي جلبت من الموقع الأثري نيابوليس والمتمثّلة أساسا في الأعمدة والتيجان وكتل من الحجارة الضخمة عليها كتابات لاتينية.

ويتميّز الجامع الكبير بنابل بواجهة أمامية ضخمة مزدانة بالزّخارف الإسلامية التي تحيط بالباب الخشبي، وهي نقائش هندسية ونباتية،

مع إطارين على جانبي الباب نقشت عليهما آيات قرآنية بالخط الكوفي ومحاطة بالزّليج الملوّن المُخَرّم. أمّا صحن الجامع فهو محاط بأربعة أروقة ذات عقود تستند إلى أعمدة من الكذّال. كما توجد ثلاث قباب إضافة إلى قبّة المحراب المزخرفة من الداخل (طاسة القبة)، وتتكون هذه القباب من ثلاث كتل معمارية تتدرج من الأسفل إلى الأعلى على النحو التالي: قاعدة مربعة، رقبة اسطوانية، وطاقية نصف كروية مضلّعة تعلوها على السطح كرة نحاسية وفوقها هلال في اتّجاه القبلة.

إضافة إلى منبره الخشبي المتحرّك ذي الزّخارف الهندسية والخطيّة.

جامع محمد باي المرادي



يقع جامع محمّد باي المرادي أمام زاوية الشيخ محرز بن خلف بمدينة تونس. اشتهر عند العامّة بجامع سيّدي محرز لوقوعه أمام الزاوية المحرزيّة كما كان يسمّى أيضا بالجامع الجديد. أسّسه محمد باي بن مراد باي الثاني على قواعد شبيهة بتلك التي اعتمدت في بناء جامع السلطان أحمد الثالث بإستانبول ورسم خطّة قبابه المهندس الفرنسي دقيليه، وشرع في بنائه سنة 1104هـ/1692. مات محمد باي قبيل إتمامه في سنة 1108هـ/1696م فأتمّ بقيّته أخوه رمضان باي عدا صومعته الّتي كانت بزاوية الصحن الكبير بين الجوف والغرب بسبب التشاؤم حتّى إنّ الوكيل استشار أحمد باي الأوّل لإتمام الصومعة فأجابه: لو فعلت ذلك لأمرت بقطع رأسك فإيّاك أنّ تعيد عليّ هذا الطلب. فبقيت أسس الصومعة على حالها أكثر من قرنين إلى أنّ قامت جمعيّة الأوقاف في سنة 1307هـ/1889م بهدمها وجعلت مكان قاعدتها حوانيت للتجارة بنيّة الانتفاع بريعها.

أمّا الصومعة المربعة الموجودة لهذا الزّمان بالجامع فهي تابعة للمسجد السفلي الّذي يعرف بمسجد الفلاري نسبة إلى مؤسسه الفقيه الشيخ إبراهيم الفلاري صاحب الضريح الواقع تحت صحن الجامع ثمّ ألحقت هذه الصومعة بالجامع في عهد الباي إبراهيم الشريف.

ويعتبر هذا الجامع فريدا من نوعه لبنائه على الطراز التركي الصميم ويستقيم البناء على أربع عضادات ضخمة ترتكز عليها قبة وسطى تكتنفها أربعة أنصاف قبّة مع أربع قبيبات، واحدة في كلّ ركن. وبه مجموعة من الجليز التركي البورسي.

جامع الهواء

يسمّى أيضا جامع التوفيق. وهو من مآثر الأميرة الحفصية «عطف» زوجة أبي زكرياء وأمّ الخليفة المستنصر، سنة 650هـ الموافق لسنة 1252م. وقد أقيم هذا الجامع الحفصي في الحي السلطاني الذي كان يقطنه عدد من الأعيان وشيوخ الموحّدين وخدمة البلاط الحفصي. ويعرف هذا المكان أيضا فيما بعد بـ «رحبة الغنم» وقد أنشئ على ربوة جنوب القصبة،واشتهر هذا المعلم الديني بروّاده من المتصوّفة والمرابطين والمتعبّدين الباحثين عن الخلوة والدّرس. وكان سبب تسميته بـ جامع الهواء أيضا لحسن مناخه وارتفاع موقعه.

وقد رتّب فيه المستنصر دروسا في العلوم الشرعية ومختلف الفنون خصّ بها عددًا من

العلماء الوافدين من بلاد الأندلس، كما درّس به (بعد المستنصر) علماء من إفريقيّة مثل العالم الفقيه ابن عرفة وكذلك بعض تلاميذه.

وأنشأت الأميرة «عطف» بجوار هذا الجامع مدرسة اشتهرت بنفس تسمية الجامع الأولى وهي المدرسة التّوفيقية التي كانت دارجة في العهد الحفصي.

وكانت لهذا الجامع ومدرسته أوقاف كثيرة لتمويل النشاط الروحي والعلمي لهذا المُركّب الروحي والعلمي.

أمّا الجانب المعماري فيتمثّل أساسا في الصحن وهو مساحة مكشوفة مُسوّرة ودون أروقة على ثلاث جهات(الشمالية والغربية ثم الشرقية) عدا جدار القبلة. وقد اشتملت الزاوية الشمالية – الغربية للمعين المنحرف على صومعة مربعة ذات طابق وحيد يعلوه الجامور.

مع الملاحظ أنّ هذا الجامع هو من صنف الجوامع التي اضطلعت بوظيفة عسكرية نظرا لموقعه الاستراتيجي الهام والمطلّ خاصة على الجهتين الغربية نحو الأراضي الغربية المنخفضة في اتّجاه الشمال الغربي والجزائر، والشمالية باتّجاه القصبة وما يليها من الأراضي المنخفضة في الهضاب الشمالية المؤدّية إلى بنزرت. فالمنارة قامت بدور برج المراقبة ولايزال هذا الجامع يحتفظ بآثار برجيْن اسطوانيين في الزوايا.

أمّا بيت الصلاة فهو مستطيل الشكل إلاّ أنّه يتميّز بجدرانه الخارجية الصلبة. وينقسم إلى سبعة بلاطات وستة أروقة، وجميعها مسقوفة بأقبية مُتصالبة مدعّمة بعقود رافدة.

أمّا الأعمدة فتختلف جذوعها من حيث الطول والقطر وطبيعة الحجارة المستعملة إذْ نجد المرمر والقرانيت والحجر..وهي أعمدة جُلب أكثرها من المواقع الأثرية الرومانية، إضافة إلى بعض التيجان التركية وهي شاهدة على التجديدات في العهد العثماني.

أمّا القبّة التي تعلو المحراب فهي مُبرّجة على شكل شبه بيضوي ميّزها عن النوع المتداول في قباب القرنين الرابع والخامس الهجريّين (العاشر والحادي عشر م).

جامع يوسف داي



يقع بنهج سيّدي علي بن زياد بمدينة تونس العتيقة بين سوق البركة والوزارة الأولى - دار الباي سابقا - ويعرف أيضا بجامع سيّدي يوسف وبجامع البشامقية نسبة إلى سوق الباشمقية الذي كان يحاذيه والذي أصبح حاليّا مؤسّسة بنكيّة.

أسّسه الأمير يوسف داي سنة 1021هـ/1612م وهو أوّل جامع حنفي بُنيَ بتونس بعد الفتح العثماني على يد المهندس الأندلسي ابن غالب وبه قبر مؤسسه. وفي أوائل القرن العشرين أصاب صومعته الخراب فأمر علي باي الثالث (1888-1902) بتجديد عمارتها كما كانت عليه ثمّ أعيد تجديد جامورها مرّة أخرى في سنة 1345هـ/1926م.

وتعتبر عمارة هذا الجامع مزيجا من الفنّ التونسي والفنّ الأندلسي والفنّ التركي والفنّ الإيطالي.

أبو إسحاق الجبنياني

[279 - 369هـ/892 - 979م]

أبو إسحاق الجبنياني، واسمه إبراهيم بن أحمد بن علي بن سالم البكري، أصله من عرب بكر بن وائل من ربيعة، ولد سنة 279هـ/892م في وسط عائلي راق بمدينة جبنيانة الكائنة بساحل ولاية صفاقس إذ «كان أبوه وجدّه من أهل الخطط» في ظلّ الحكم الأغلبي.

جمع في تكوينه العلمي والديني بين العلوم التّقليدية كالفقه والحديث والتفسير وعلوم اللّغة والبيان، من ناحية، وعلوم الذّوق وآداب الزّهد من ناحية أخرى. ومن أشهر من تتلمذ لهم أبو يوسف بن مسلم بن يزيد بن ربيعة ومحمد بن سهلون وابن اللبّاد والقاضي بن عيسى و«كان مجدّا في طلب العلم والعبادة والزهد».

وفي سنة 314هـ/926م ارتحل إلى المشرق العربي لأداء فريضة الحج، ولتوسيع دائرة علومه ومعارفه الصّوفية منها على الأخصّ.

وعند استقراره على إثر هذه الرحلة بجبنيانة آثر حياة الزّهد والتقشّف، فقد ذكر المؤرّخ مقديش أنّ مبدأه في زهده «التقلّل في الأكل واللّباس». ويرسم اللبيدي (ت440هـ/1049م) مؤلّف مناقبه سيرته الرّوحية في هذه الكلمات المختزلة «... انخلع من الدّنيا ولبس عباءة وهرب فطلب فلم يوجد».

وقد تحلّق حوله جمع من المريدين والزهّاد بلغ عددهم الأربعين، وكان على سعة علمه وواسع معرفته شديد التّواضع يبدي رغبة في التعلّم باستمرار.

كان أبو الحسن القابسي يكثر من زيارته كما أنّ ابن أبي زيد القيرواني مؤلّف «الرسالة» اعتبره من أبرز علماء الأمّة أنموذجا في الصّلاح والتّقوى. وعرف عن أبي إسحاق الجبنياني محاربته للبدع والخرافات.

وعرف أبو إسحاق الجبنياني أيضا بخلافه الشّديد مع الشيعة الإسماعيلية.

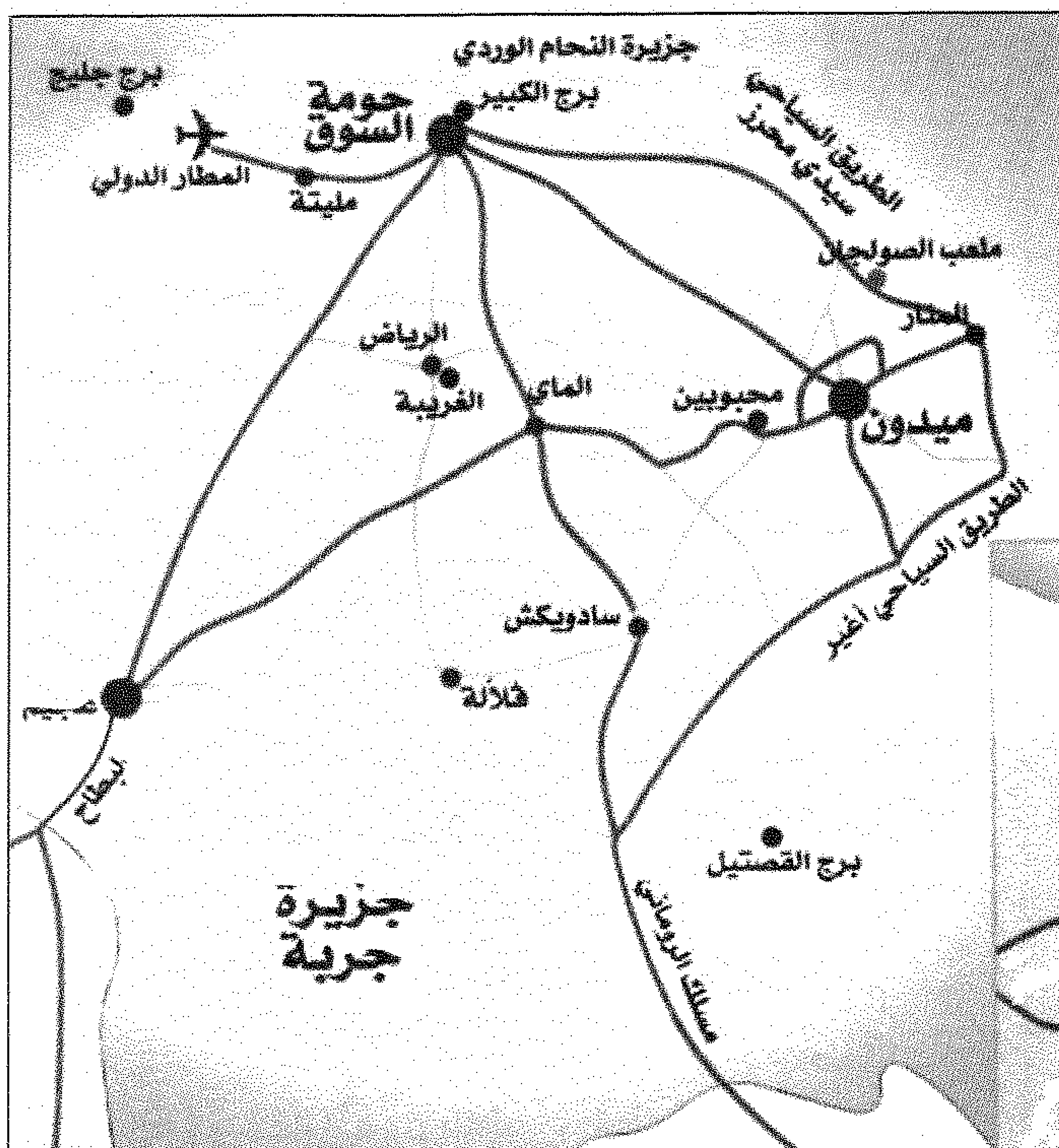
جربة

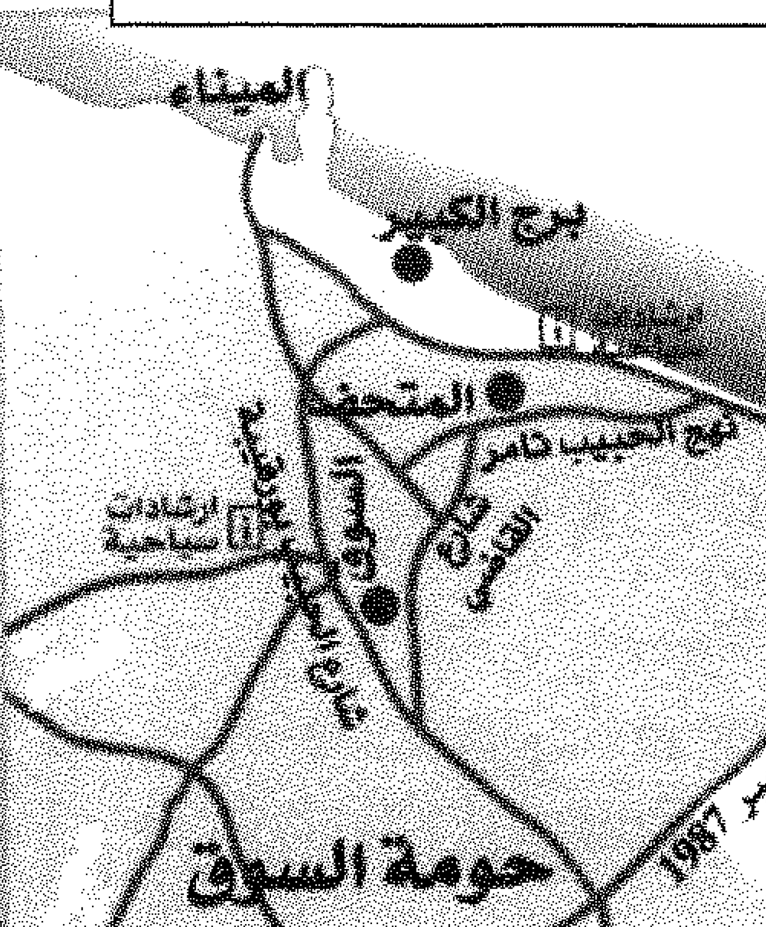
[Girba]

تعدّ جزيرة جربة المعروفة في جنوب خليج قابس أكبر جزر السواحل التونسية إذ تمسح 514 كلم2 ولا يفصلها عن البرّ إلاّ مسافة قصيرة بقنال أجيم ومضيق القنطرة الرومانية المرمّمة، حتّى إنّه في بعض الأوقات يمكن للقوافل العبور إليها من طريق الجمال. ولقد حافظت الجزيرة على مناعتها بفعل المدّ والجزر. ففي أثناء الحرب البونية الأولى سنة 253م اضطرت سفن رومانية إلى التخلّص من ذخيرتها، ومثل ذلك حدث للغزاة الإسبان بقيادة بيدرو نافارو سنة 1511م. عرفت جربة باسم جزيرة الليتوس (lotophages) في النّصوص الإغريقية، وقد أمكن تحديد موقع قريتها مينانكس (Meninx) ببرج القنطرة، وكان اسم جربة يطلق على ما يقارب حومة السوق، وكانت تيبازا (Tipaza)، غير سميّتها الجزائرية - قريبة من أجيم وهاريبوس (Haribus) مجاورة لقلاّلة. استقرت بجربة جالية يهودية مهمّة.



لباس المرأة التقليدي في جزيرة جربة





ومازال أحفادها يعيشون في حومة السوق وخاصّة في الحارة الكبيرة والحارة الصغيرة ويمارسون بحريّة طقوسهم في بيعة الغريبة، المزارة المشهورة. ومنذ ق 4 ق.م. كانت جربة تابعة للبلاد التونسية، وفي بعض الفترات لمقاطعة طرابلس. وقد فتحها القائد رويفع بن ثابت سنة 45هـ/665م في غزوة معاوية بن حديج. ومنذ ذلك التاريخ لا نعرف عن جربة شيئا كثيرا لانطوائها على نفسها وخروجها عن مذاهب السنّة. ففيها عرف المذهب الإباضي نجاحه واستقراره في نطاق التّنافس بين الوهبية في الشمال الغربي والنكارة في الجنوب الشرقي. وهذا ما تسبب في تحامل بعض الرّحالين والجغرافيين عليها. فقد كتب البكري في ق 5هـ/11م أنّ "أهلها مفسدون في البرّ والبحر، وهم خوارج" مضيفا أنّه "يسكنها قوم من البربر" وأنّ "أهلها غدّارون لا تؤمن ناحيتهم". وكذلك كتب الإدريسي في القرن الموالي مشيرا إلى غزوة روجار ملك صقلية لها. ولكنّه نوّه بنظافة سكّانها وعبادتهم وكرمهم وعدلهم. وقد وصف الرحّالون بساتينها التي أتت عليها غزوات النرمان عندما احتلّوا الجزيرة من سنة 1135م إلى سنة 1160م تاريخ طردهم من قبل الخليفة الموحّدي عبد المؤمن بن علي. ثمّ استعادها المسيحيون سنة 1284م في عهد الأمير أبي حفص عمر. وفي الحملة الثانية على الجزيرة سنة 1289م شيّد الغازي (Roger de Lauria) الحصن المعروف بالقستيل للتحكّم في مضيق القنطرة. وعلى إثر انتفاضات الأهالي سنة 1306م احتلّها ملك صقلية فريديريك مستعينا بالمغامر (Ramon Muntaner) الذي استأثر بها لمدّة ثلاث سنوات من 1311م إلى 1314م ثمّ تركها لملوك صقلية حتّى خلّصها منهم الأمير الحفصي أبو بكر بمساعدة الأهالي سنة 1334م. ثمّ استرجعوها لمدة تفوق عشر سنوات من 1383م إلى 1392م إثر حملة الأسطول الصقلّي المدعوم بالأسطول الجنوي. وفي القرن الموالي حاول ألفنصو الخامس ملك أراغون احتلال الجزيرة في محاولتي سنتي 1424م و1432م فهبّ في الثانية السلطان أبو فارس لنجدتها وشيّد بها حصنا في النّاحية الشمالية يعرف بالبرج الكبير. وهو الذي كان نواة لحومة السوق حيث استقرّ جمع من التجّار، إلاّ أنّ أهل جربة الطامحين إلى استقلالهم بجزيرتهم عن أيّ سلطة خارجية، سواء أكانت للمحتلّين المسيحيين أم لبني حفص، سرعان ما خرجوا عن طاعة هؤلاء في عهد أبي عمرو عثمان سنة 1480م وقطعوا القنطرة الرومانية المرمّمة. وطيلة القرن 16م كانت جربة ميدانا للصّراع على البحر بين الأتراك بقيادة درغوث وعلي باشا والإسبان بقيادة بادرو نافارو الذي انهزم جيشه فيها سنة 1550م لتبقى تابعة سواء لتونس أو للجزائر أو لطرابلس حتّى ألحقها

نهائيا بتونس حمّودة باشا منذ بداية حكمه سنة 1631م، واضعا بذلك حدّا لاستغلال باشا طرابلس للجزيرة خاصّة سنتي 1568م و1598م في عهد إبراهيم باشا. وقد ذكر الحسن الوزّان الأحداث التي عاشتها جربة في القرنين 15 و16م ملاحظا أنّها: "تعطي عشرين ألف (دوبل) من مداخيل الإتاوات والمكس نظرا إلى التجارة المزدهرة بها، إذ يختلف إليها كثيرا التجّار الإسكندريّون والأتراك والتونسيون..." وأنّ أهلها يعيشون "من تجارة قماش الصّوف الذي يصنع فيها، ويحملونه إلي تونس والإسكندرية، ويصدّرون كذلك الزّبيب".

ورغم تمثيل الدّايات والبايات الأتراك والحسينيين بمشائخ وقيّاد في الجزيرة من عائلات السمومني وابن جلّود وابن عيّاد فإنّها لم ترضخ لسلطتهم بل ثارت عليهم في ما بين سنتي 1599 و1601م. وتضرّرت من غزوة يونس باي سنة 1738م وعلي برغل صاحب طرابلس سنة 1794م وزحف بدو عكّارة وورغمّة وجرجيس سنة 1864م، وأصيبت بأوبئة في سنوات 1705م و1706م، و1809م و1864م، كما تضرّر اقتصادها القائم على التجارة والفلاحة بقرار أحمد باي تحرير العبيد. وربّما تسبّب ضعف الجزيرة في عدم الاستقرار الذي لاحظه عدد من الرحالة قبل تاريخ تمركز «الحماية الفرنسية» وخاصّة بعده. وهو ما تبعته كثافة سكّانية نشيطة في مختلف القطاعات حتّى اشتهرت جربة بالصيد البحري وخاصّة الإسفنج والزّيت والتفّاح والزّبيب والنّسيج والفخّار. وبعد الفلاحة التقليدية والقرصنة في بعض الفترات أصبحت التجارة الصّفة الغالبة على نشاط الجربيين أو الجرابة حيثما كان أغلبهم يمارسها خارج الجزيرة إلى أن فتحت السياحة بعد الاستقلال آفاقا واسعة في التشغيل والاستثمار مشجّعة على الاستقرار في جزيرة الأحلام وأصبحت تحظى بشهرة عالميّة.

جرجيس

بفتح الجيم وسكون الرّاء مدينة ساحلية بالجنوب الشّرقي تبعد عن تونس نَحْوَ 540 كلم. تعد بلديّتها أقدم بلدية في منطقة الجنوب الشرقي إذ تأسّست سنة 1889.

تقع المدينة في الرّكن الشّمالي الشّرقي لشبه جزيرة يحيط بها البحر الأبيض المتوسط شرقا وشمالا وخليج بوغرارة غربا. وتتألّف تضاريسها من عنصرين اثنين: هضبة متواضعة مجلّلة بالزّياتين في الشمال الغربي وأراض منخفضة مخصّصة للمراعي والحبوب والباكورات تتخلّلها سباخ أهمّها سبخة الملح، في الجنوب الشرقي. ترتفع الهضبة (دخلة عكّارة) تدريجيا من سباخ خليج بوغرارة حتى تصل إلى 79 مترا (رأس الظهرة) ثم تنكسر على بعد كيلمتر واحد من البحر فتؤلّف جرفا يمتدّ تحته شريط واحات السويحل وصنغو–حسي الجربي. ويفصل بين البحر ومنطقة الأراضي المنخفضة تلّ مستطيل يسمى صلبا يبدأ من رأس جدير على الحدود التونسية اللّيبية فينكسر أمام بحيرة البيبان ثم يتواصل في امتداده وارتفاعه المتواضع إلى موضع جرجيس المركز حيث يحجز وراءه سهل القرعاء. فوق ذلك التلّ نشأت جرجيس ثم توسّعت فاستوعبت سهل القرعاء إلى أن أحدثت السّيول النازلة من رأس الظهرة كارثة في سنة 1969 عجل على إثرها بنسف جزء من التلّ الصخري لإيجاد متنفس لمياه الفيضانات نحو البحر.

في جرجيس تلتقي طرقات بن قردان (وليبيا) ومدنين (وتونس) وجزيرة جربة التي لم يعد يفصل بينها وبين القارة مضيق منذ أن رمّمت قنطرته الأثرية. وللمدينة وظائف متعددة.: زراعيّة (زيتون – فواكه – أسماك – إسفنج) وصناعيّة (زيت – صابون – معامل تصبير ومواد بناء) وتجارية وسياحية (4000 سرير) وإدارية (مركز معتمدية). ولئن تضاعف عدد سكان

بلديتها منذ سنة 1946 فإنّه لم يبلغ نسق التزايد الوطني بسبب الهجرة إلى تونس وليبيا وفرنسا.

وجرجيس محطّة ساحلية قديمة أسّسها الفينيقيون لأهمّية موقعها. أمّا مركز الحياة السياسية والاقتصادية فقد كان يوجد في مدينة زيتا (أو زيزا) على مرتفعات هنشير زيان التي تبعد عن جرجيس بنحو 8 كلم غربا. يوجد في زيتا ميناء على ساحل خليج بوغرارة الهادي الأمين (في موضع الرّصيف حاليا) يحمل اسمها (بونس زيتا) أي مرسى زيتا مع أنه يبعد عنها مسافة اثني عشر كلم. كان ذلك الميناء يربطها عبر بحر بوغرارة بمدينة جيغتي، بيد أنّ طريقها نحو صبراطة والشرق إنما كان يمرّ غالبا جنوب بحيرة البيبان تاركا جرجيس في الشّمال وراءه. أمّا مسلكها نحو مدينة مينانكس في جنوب جزيرة جربة فقد كان بوساطة قنطرة مدّت في مضيق على طول سبعة كلم وهي في القنطرة نفسها (التي كانت مغمورة) والتي رُمّمت وأعليت في الخمسينات فأسهمت في انتعاش الجزيرة وازدهار سياحتها منذ أن وازاها أنبوبان للماء الصالح للشراب وخط كهربائي.

وزيتا مدينة ذات قلعة وساحة كبرى (فوروم) ومعبد وقد «ترومنت» (ثقافة رومانيّة) دون أن تفرط في تقاليدها الشرقية. ازدهرت في القرن الأوّل والثّاني خاصّة واشتهرت بزيوتها وخمورها وسياسة أمورها من لدن فئة أرستقراطية ثرية كانت مولعة بالتّرف ومظاهر العظمة وتقديس الأباطرة المجسّمة فيما بقي من حطام المرمر المنحوت كالرأس العظيم للأمبراطور كلوديونس واليد العملاقة الممسكة بكرة.

بدأ التّنقيب عن آثار زيتا ولكن على نحو غير منتظم منذ سنة 1846. وقد زارها علماء منهم باخت الألماني وريناك الفرنسي فاكتشفوا أعمدة وتماثيل مرمرية كثيرة ونقائش توجد الآن موزعة على متاحف اللّوفر وسوسة وباردو، كما نبشت سكّك الحراثة المعمّقة على نحو عفوي منذ عهد قريب جدا عدة شواهد وأوان وآثار فينيقية جُمعت في متحف أحدث بمدينة جرجيس لهذا الغرض.

وفي الحقبة الأولى من العصر الوسيط اقتصرت المصادر على ذكر قبيلة عكّارة.

وفي القرن الثاني عشر فقط يبيّن الإدريسي في «نزهته» أنّ المنطقة الساحلية كانت عامرة، يسكنها قوم من الوهبية «ضيافون يطعمون الطعام ويندبون إلى طعامهم ويسالمون النّاس في أموالهم وفيهم عدالة بيّنة لمن نزل بهم، غرسوا النّخيل والكروم وتحصنوا في «قصور» جرجيس وشماخ... وجزيرة زيزوا (المغمورة حاليا)، كما تبيّن وثائق القرن الثالث عشر الإسبانية التي درسها دي فورك في أطروحته أنّ جرجيس كانت ميناء لتصدير الملح إلى أوروبا. ويقول التجاني في «رحلته» إثر حملته الجبائية (1306–1308م): «وهنالك السّبخة المفضّل ملحها على جميع السّباخ ومنها يمتار أكثر بلاد النّصرانية». ويؤكّد ذلك كل من العياشي في القرن السابع عشر: «وفي المحلّ مرسى جيّدة ينزل بها النّصارى بإذن أمير البلد يأخذون الملح من سبخة كبيرة هناك وفيها ملح عجيب»، والورثيلاني (القرن الثامن عشر) في رحلتيهما.

ويسمّى سكان جرجيس وشبه جزيرتها «عكارة» وقد أصبحوا مشهورين وانتشر هذا الاسم على نحو واسع إثر فاجعة 5 جوان 1907 عام القارب في الذاكرة الجماعية. وهو الذي مات في أثنائه ثلاثة وسبعون فلاحا جاؤوا من جرجيس في زوارقهم إلى موضع «الكتف» (على مقربة من الحدود مع ليبيا) لحصاد زروعهم. وكان الحاكم العسكري بجرجيس قد سخرهم مكرهين ليحجزوا سفينة تهريب أجنبية شحنتها بارود وأسلحة تفجرت كالبركان عند وصول زوارق الحصار إليها.

وعكّارة ينتسب إليها الشيخ الصيّاح العكّاري الذي رابط أثناء النزاع العثماني الإسباني في موقع مرحلة من مراحل قافلة الحج على مقربة من بن قردان حيث يوجد ضريحه وكان معلما بارزا ومزارا منتظما مشهودا تؤمه جموع عكارة في

موسم الربيع من كل سنة حتى بداية الاستقلال.

كان عكّارة من صفّ الحسينية فآزروا أولاد حسين بن علي برّا وبحرا لكنهم انهزموا هزيمة نكراء في جزيرة جربة أمام الباشية (1735) ثم أدركهم النوائل (المقيمون حاليا بزلطن في ليبيا) فقتّلوهم تقتيلا ذريعا وأجلوهم من شبه الجزيرة فتفرّقوا قاصدين نواحي متعددة (الغار وضواحي طرابلس وبني معقل في جربة والساحل التونسي والوطن القبلي وأرياف بنزرت...) ولم يعودوا إلى أوطانهم إلا بعد انتصار الدولة الحسينية النهائي في عهد علي باي (1759–1782) الذي بنى لهم برجا محاطا بخندق (معززا بخمسة عشر مدفعا) تعلوه قنطرة معلقة. وأقطع علي باي عكّارة المنطقة الساحلية. وبدأت فترة استقرار نسبي تتخلّلها من حين إلى آخر غارات النوائل. في تلك الفترة بنت فروع عكّارة الستة (أولاد بوعلي، أولاد سعيد أولاد محمد، الزاوية، الموانسة، الخلائفة) منازلهم و«قصورهم» حول جرجيس وانتحلوا الزّراعة والرّعي وصيد الأسماك مقسمين رزنامتهم الفلاحية على النحو التالي:

1– الحرث في الخريف ثمّ الرّجوع إلى جرجيس – 2 انتجاع المراعي والحصاد في الربيع وبداية الصيف – 3 وأخيرا الرجوع إلى جرجيس لري البساتين وصيد الأسماك والإسفنج وجني التمر في الصّيف والخريف.

واستمرّ ذلك النّسق الموسمي في مجال زراعي مساحته 60.000 هكتار إلى أن طرق البلاد طارق الاحتلال الفرنسي (1881) فأصبحت جرجيس بحكم قربها من الحدود مع ليبيا مركزا من أهمّ المراكز الحربية يسوس شؤونها المدنيّة ضبّاط عجّلوا ببناء مدينة عسكريّة مسيجة كبتت تنفس المدينة القديمة ومنعتها من التوسّع نحو الشاطئ فنزلت بناءاتها إلى سهل القرعاء وعلى طول طريقي جربة ومدنين. وسكن المدينة بعض الأوروبيين وجمع من يهود جربة بيد أنّ عكّارة آثروا بناء منازلهم في البساتين المحيطة بجرجيس والأخرى الممتدة على طول الساحل الشمالي. وفي سنة 1897، كان الاستعمار يبتزّ من الأراضي الصّالحة للزراعة ثلثها (20.000 هكتار) ويوزّعها على 13 معمّرا ثم يحبس بعد الحرب العالمية الأولى ثلثا آخر في صيغة ملكية على الشياع (أراض اشتراكية) ويستأثر بصيد الأسماك في بحيرة البيبان. فلم يبق لعكّارة وقد تقلّص مجالهم إلا الهجرة. ولئن هاجر بعضهم إلى مدينة تونس وتخصّص آخرون في صيد الإسفنج فإن أغلبهم آثر البقاء في ما بقي من الأراضي، فغرسوا في ظرف قصير من الزّمن مليون زيتونة ثمّ تجاوزوا حدودهم الإدارية فأحيوا بالمغارسة أراضي دخلة ورغمة (الجرف وبوغرارة).

ولئن تجسّمت غريزة عكّارة الدفاعية ضدّ الاستعمار الزّراعي في غراسة الزياتين فإنّ تلك الغراسة السّريعة والمكثّفة أحيانا قد أدت إلى تقلّص مساحة المزارع والمراعي واختلال التوازن الاقتصادي التقليدي وتفتّت الملكية عند الأغلبية وتجمّعها عند بعضهم من غير عكّارة في الغالب.

وبتضاعف عدد السكّان (14.000 في سنة 1907–30.000 في سنة 1946) وتقهقر مستوى المعيشة – إذ لم يحدث الاستعمار مشروعا اقتصاديا يذكر عدا مصنع للغازات السّامّة في سبخة الملح أثناء الحرب العالمية الأولى – لم تنتعش المدينة ولم تنشط وتتوسّع إلا بعد الاستقلال عندما افتتح مجال للسّياحة وعبدت الطرقات الرئيسة وامتدت شبكات التّنوير والماء الصّالح للشّراب وحفر ميناء للصّيد البحري وآخر تجاري، وإن استؤصلت هذه الحقبة بعض المعالم التاريخية (برج علي باي، زاوية سيدي مصدق، «قصور» الموانسة وأولاد سعيد...) ورسوخا في المحافظة على نمطين قديمين للملكية: الملكية الكبرى (زياتين الدولة بضيعة شماخ التي تمسح 6.000 هكتار ونيف) والملكية العروشية.

حسين الجزيري
[1888 – 1974م]

اختلف الدّارسون في تاريخ ولادة هذا الأديب والرّاجح أنه ولد سنة 1888.

ينحدر من عائلة تركية استقرّت مدّة طويلة بالجزائر ومن ذلك جاء لقب "الجزيري"، هاجرت عائلته إلى تونس عقب الاستعمار الفرنسي للجزائر (1830) واتخذت حيّ الحلفاوين الشعبي الواقع في قلب العاصمة التونسية مستقرّا لها.

تعلّم الجزيري بأحد كتاتيب الزّاوية البكرية ثمّ التحق بجامع الزّيتونة واختصّ بملازمة الشيخ عثمان المكّي التوزري صاحب كتاب المرآة لإظهار الضلالات الذي حارب فيه بدع الطرق الصوفيّة وشعوذاتها، وصاحب جريدة "بوقشّة" الفكاهيّة النقديّة.

انقطع الجزيري عن متابعة التحصيل العلمي بجامع الزيتونة بعد أن رُفت بسبب انضمامه إلى صفوف الداعين إلى إصلاح التعليم بالجامع سنة 1910.

عرف حياة اللّهو لمدّة قصيرة بعد مغادرته لجامع الزيتونة، ولكنّ ذلك لم يصرفه عن توسيع ثقافته ومداركه بالانكباب على المطالعة وحضور النوادي الأدبية بالجمعية الخلدونية أو بالنوادي الخاصّة.

احترف العمل الصحافي قبل الحرب العالمية الأولى، فكان محرّرا بجريدة "اللّواء" التونسية (1910) و"المنار" و"المضحك" و"جحا" كما عمل مراسلا لجريدة "الفاروق" الجزائرية ذات النزعة المعادية للاستعمار الفرنسي.

أصدر في 12 فيفري 1921 جريدة "النديم" ذات الاتجاه الأدبي الهزلي الهادف إلى الإصلاح الاجتماعي وتحمّل أعباء إدارتها وتحريرها بمفرده مدّة 22 عاما. «ووجّهها لخدمة المبدإ الوطني الدستوري وفكرة الإصلاح الديني والاجتماعي فأسّس روح الأدب العربي لتناول صور الحياة الماثلة بالتهكم والنقد، وأبدع في التلاعب بالألفاظ والتراكيب والأبيات والأمثال ومزج روح النقد الجدي بالدّعابة والتنكيت فجدّد للنثر العربي روحه ومرونته» (ابن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، بيت الحكمة، 2009، ص 184).

خصّص الجزيري جريدته لمناصرة الاتجاه الإصلاحي وللدفاع عن الحزب الدّستوري القديم الذي كان نصيرا له ومدافعا عنه طيلة حياته.

كتب الجزيري المقالة الصحفية والمقامة ونظم الشعر واشتغل مؤلّفا وملقّنا مسرحيا، وأسهم في إنتاج عدّة برامج إذاعية، وكان أسلوبه في كلّ ذلك ساخرا متهكّما "يستخرج الضحك من روح الألم ويتخيّر الألفاظ ذات الوقع المطلوب من العربية الفصحى أو العاميّة، ومدار شعره ونثره على روح الكفاح السياسي والإصلاح الاجتماعي" (محمد الفاضل ابن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، بيت الحكمة، ص ص 190 - 191).

ساعد الكثيرين على دخول معترك الحياة الصّحفية، إذ يذكر أحمد توفيق المدني (حياة كفاح ج1) أن الجزيري كان صاحب الفضل في دخوله مجال الكتابة الصحافيّة.

عرف السّجن والمراقبة الأمنية بسبب مواقفه المناوئة للاستعمار الفرنسي وانتمائه إلى الحزب الدستوري القديم.

دارت بينه وبين مخالفيه سجالات حادّة، أشهرها ما حصل بينه وبين محمود بيرم التونسي صاحب "الزمان" وسعيد أبي بكر المحرّر بجريدة "النهضة"، كشفت هذه السّجالات عن سخريته اللاّذعة وعن حدّة طبعه التي خرجت أحيانا عن دائرة الموضوعية والاتّزان، لتصل إلى أسلوب التكفير والتبديع المعبّريْن عن تعصّبه لآرائه وأفكاره، وعدم قبوله للرأي المخالف، وتجاوزت هذه السجالات البلاد التونسية لتصل إلى الجزائر مع محمد سعيد الزّاهري صاحب جريدة "البرق" الصادرة بالجزائر سنة 1927. ويتأكّد - ممّا تقدّم -

ما ذكره عمر بن قفصية في كتابه أضواء على الصحافة التونسية وزين العابدين السّنوسي في كتابه الأدب التونسي في القرن 14 هـ. من أنّ حسين الجزيري جمع في شخصيته بين خصائص متعدّدة ومختلفة تصل إلى تخوم التناقض. فهو إلى جانب ما عُرف عنه من روح المرح والدّعابة والفكاهة، رجلَ حادّ الطبع صارم المواقف ذو "إرادة حديديّة لا تهرمها الأيام وتكهمها (تضعفها) اللّيالي، وذلك سرّ دوامها وانتظامها" (السنوسي).

التحق بعد الاستقلال بالإذاعة الوطنية وألقى بها عدّة مسامرات ومحاضرات إلى جانب عمله مراقبا أدبيّا للروايات والبرامج الأدبية.

توفّي الجزيري سنة 1974 بعد حياة زاخرة بالكفاح السياسي والعطاء الأدبي.

من آثاره :

- ديوان شعر (جمعه وقدّم له الحبيب شيبوب) وتناوله بالدّراسة الأزهر الزنّاد في رسالة جامعية بعنوان "فنيات الهزل في ديوان حسين الجزيري" (كلية الآداب منوبة 1982).
- رسالة "تنبيه الغلام إلى شيم الكرام" (في الإصلاح الإجتماعي، مطبوعة).
- مجموعة من المقامات والمقالات الصّحفية والمسامرات الإذاعية والمسرحيات التي مازالت تمثّل مجالا خصبا للبحث.

حمّادي الجزيري

[1926–1987م]

ولد بتونس العاصمة. درس بالصادقية ومنها حصل على شهادة البروفي العربي ثم بمدرسة كارنو حيث أحرز على الباكلوريا بجزأيها سنة 1945. وفي سنة 1947 شارك في امتحان لاختيار ممثلي جمعية l'Essor التي كان يديرها الرسام (A. Fichet) وكان من أعضاء لجنة الامتحان أندري جيد (André Gide) وبعد اجتيازه الاختبار بنجاح شارك مع الفرقة في عدة أعمال باللغة الفرنسية، كما انتمى إلى الفرع المدرسي للاتحاد المسرحي وكذلك الفرع التمثيلي لمدرسة قدماء الصادقية.

انتقل حمادي الجزيري من الهواية إلى الاحتراف في صلب الاتحاد المسرحي منذ سنة 1945 وأسندت إليه عدة أدوار كان أولها دور (عثمان) في مسرحية (الذبائح). وكان من أهم أعضاء فرقة الاتحاد المسرحي وقتها الشاذلي بن فريجة والبشير الرحال والطاهر بلحاج وحمودة معالي وأحمد بوليمان.

حصل حمادي الجزيري على منحة من بلدية تونس لدراسة المسرح بفرنسا سنة 1948. وبعد نجاحه في امتحان القبول بالمعهد الوطني للتمثيل بباريس بعد دراسة استغرقت أربع سنوات، عمل بفرقة الكوميدي فرانسيز متربصا وشارك في عدة أعمال مسرحية. وفي بحر سنة 1952 شارك حمادي الجزيري في دورة تدريبية بإدارة المسارح مع فرقة مسرحية، جابت بعض البلدان الأوروبية منها ألمانيا وسويسرا وإيطاليا. وإلى جانب دراسة المسرح، حصل الجزيري على الشهادة العليا في الآداب الفرنسية من جامعة السوربون.

رجع حمادي الجزيري إلى تونس سنة 1953. في السّنة نفسها دعته إدارة البلدية إلى تكوين الفرقة البلدية. فبادر بجمع الممثلين والشروع في التمارين على مسرحية (بيّاعة الخبز). لكن تدخلات بعض المستشارين البلديين، حالت دون إتمام المشروع فتخلى عن الإدارة.

وكلّف حمادي الجزيري بعد ذلك بتقديم دروس في الإلقاء والتمثيل بمدرسة التمثيل العربي الناشئة. وحين فتح المعهد القومي للمسرح في أكتوبر 1954 ومقره ببطحاء سيدي

علي عزوز قدّم دروسا للتمثيل ضمن جمعية قدماء الصادقية.

وفي سنة 1955 أسّس فرقة مسرحية قدمت عدة مسرحيّات منها (شدّ مشومك) و(أنا أنت وأنت أنا) و(آه من بابا وحماتي).. وغيرها. وفكّر الجزيري في توسيع نشاط الفرقة. فأحدث قسما موسيقيا. وأصبحت الفرقة تحمل اسم (الفرقة القومية الشعبية للتمثيل والموسيقى). وقد قامت بعدة جولات داخل البلاد، كما قامت الفرقة بمناشط ثقافية أخرى منها خاصّة تنظيم الندوات وإلقاء المحاضرات. وقد شارك فيها عدّة مهتمين بشؤون المسرح منهم محمد الحبيب ومرشد بن علي وتوفيق بوغدير.

بدأ حمادي الجزيري العمل بالإذاعة الوطنية سنة 1957. واشتهر بحصته (مع الهواة) وشارك في عدّة مسرحيات إذاعية، كما أعدّ (كوكب الغد) في الإذاعة التونسية الناطقة بالفرنسية.

انضمّ مرّة أخرى إلى الفرقة البلدية للتمثيل سنة 1962. وشارك معها في مسرحيات (أهل الكهف) و(ردتلو عقلو) و(حادث المقهى)، و(بينيلوبي).

أسهم في تحرير (النّسر) و(الستار) و(هنا إفريقيا) وفي بعض الجرائد والمجلات لأخرى.

اشتهر حمادي الجزيري بتنشيط الحفلات وتقديم السكيتشات المضحكة وكذلك بفن الدمى المتحركة وخاصة فن النطق البطيء.

تقمّص حمادي الجزيري عدّة أدوار في أفلام ومسلسلات تلفزية في الفترة الأخيرة من حياته.

يعتبر حمادي الجزيري أول خرّيجي المدارس المسرحية وأول من تلقى تكوينا أكاديميا. وهو أول مدير للفرقة البلدية وأفضل منشط حديث اشتهر بأداء الأدوار الكوميدية.



محمد الجعايبي
[1880–1938م]

ينحدر السياسي محمّد بن فرحات الجعايبي من عائلة "بلدية" متوسّطة احترف أفرادها صناعة الحرير. نشأ في إطار سياسي استعماري، وُلد بتونس قبل فترة قصيرة من انتصاب الحماية (حوالي سنة 1880 حسب بعضهم وحوالي 1876 حسب أرشيف الحكومة التونسية). زاول دراسته بالكتّاب القرآني ثمّ بجامع الزيتونة. كان يخدم النّول ويتابع الدروس فأخذ النحو والصرف والبلاغة والفقه والأصول على الشيخيْن الصّادق صفر (1854–1931) والشاذلي بن القاضي (تـ. 1917). يعتبر من أكبر الصّحفيين الذين عرفتهم تونس في بداية القرن العشرين. واكب الفترات المؤسّسة للحركة الوطنية ولمع قلمه طيلة حياته الصّحفية مدافعا عن السّلطنة العثمانية ثم مناصرا للحزب الحرّ الدستوري التونسي في العشرينات فمساند لجيل الشباب المثقف الذي أسّس الحزب الدستوري الجديد.

وكانت بدايته الصحفية سنة 1904 عندما ألغت السّلطة الاستعمارية الضّمان المالي الخاصّ بإصدار الصّحف. فأصدر جريدة "الصّواب"، وهي جريدة علميّة سياسيّة أدبيّة أسبوعية ثمّ أصبحت نصف شهرية واستمرّت من أوّل أفريل 1904 إلى 1938 ولحقها تعسّف السّلطة الاستعمارية التي عطّلتها عدّة مرّات. يُصنّفها الأستاذ علي العريبي ضمن الجرائد ذات النزعة الإسلامية الإصلاحية.

كان محمّد الجعايبي المحرّر الرئيس لجريدة "الصّواب" وصاحب امتيازها والمشرف على

إدارتها. وقد تميّز في تحريره بأسلوب جديد يقوم على الدقّة في التعبير والوضوح في التّفكير. وهو الذي تتلمذ لـ"أبي النّهضة التونسية" الثاني البشير صفر الذي ساعده في التحرير. وهو ما أضفى إشعاعا خاصّا على الجريدة، كما أسهم في تحرير "الصّواب" أحد كتبة الوزارة الكبرى ويدعى محمد بوشارب، وكذلك أحد موظفي الإدارة العامة ويدعى محمد زروق.

وتتلمذ عليه في أسرة تحرير "الصواب" الصحفي القدير الهادي العبيدي (1911–1985). وبالإضافة إلى جريدة "الصّواب"، أصدر محمد الجعايبي سنة 1906 "مجلّة إسلامية مصوّرة تصدر في غرّة كل شهر عربي" عنوانها "خير الدين" تقديرا للدّور الإصلاحي الرّائد للوزير الأكبر السّابق خير الدين. واستقطبت هذه المجلة مقالات الأستاذ الشيخ المصلح محمّد النّخلي (1869–1924) منها دراسة حول الوليد بن عبد الملك وأبي جعفر المنصور والمأمون وتفسير آيات من الذكر الحكيم. وتميّزت هذه المجلّة باستعمالها للصّور. وهو ما جعلها سائغة للعموم، كما نشرت المجلة أول رواية تونسية بعنوان الهيفاء وسراج الدين لصالح السويسي القيرواني (1871–1941). وكانت من أوّل الدّوريات التّونسية التي تطرح قضيّة تعليم المرأة المسلمة في تونس رغم ما أبداه الجعايبي من تحفّظ حول اعتبار المرأة مساوية للرّجل من حيث القدرات. وفي هذا المقام اعتبر قاسم أمين مخطئا. لكن أفكار الجعايبي في قضيّة تعليم المرأة ستتطوّر تطوّرا ملحوظا في العشرينات.

على أنّ هذه المجلّة لم تعمّر طويلا إذ احتجبت بعد صدور سبعة أعداد ظهرت على التّوالي من 27 مارس إلى 13 سبتمبر 1906. وإلى جانب إصدار "الصّواب" ومجلة "خير الدين"، أسهم الجعايبي في تحرير جريدة "التقدّم" الأسبوعية ثم اليومية لصاحبها البشير الفورتي واستمرّت من 30 جويلية 1907 إلى 1911. إذ كان يحرّر سوانحها بالتّناوب مع الشّاذلي المورالي (1897–1934).

وشارك أيضا في تكوين الجمعية "الوردية" وهي أوّل جمعية أدبية بتونس، مع المؤسّسين لها الشّاذلي المورالي وحسن حسني عبد الوهّاب والجيلاني بوحافة وغيرهم. "وكان أحرص الكتّاب وأحوط الصحافيين في انتقاد أعمال الحكومة، وعدم إحراج مركزها، يصوغ مقاله بلباقة ومنطق صحيح وتنظير بالحوادث".

وفي سنة 1911 إبّان النهضة الصّحفيّة الأولى، كانت جريدة "الصّواب" في طليعة الصّحف المناصرة للجرائد الوطنية "مرشد الأمة" (1909–1950) و"التّونسي" باللغتين (1909–1912) و"المشير" (1911–1920) و"الاتحاد الإسلامي" (19 أكتوبر– 6 نوفمبر 1911) لمؤسّسها علي باش حانبه ورئيس تحريرها الشيخ عبد العزيز الثعالبي مع نخبة من مشاهير الكتّاب لغرض الدّفاع عن القطر الليبي تجاه القوّة الإيطالية الغازية التي شرعت في احتلاله، كما اغتنم فرصة تعطيل "الصّواب" للإسهام في تحرير جريدة "المضحك" (1920–1923) و"التّونسي" (باللغة العربية).

وإثر اندلاع حوادث الزلاّج (7 نوفمبر 1911) وتعطيل جميع الصّحف الناطقة بالعربية (باستثناء "الزهرة" شبه الرسمية) تحوّل الجعايبي إلى باريس ثمّ إلى إستانبول، وعاد إلى تونس في أوت 1912. فكانت جميع حركاته وسكناته محلّ تتبّع باعتباره شخصا مشبوها فيه. وقد كان ملفه الإداري مليئا بتقارير الشّرطة حول نشاطه الوطني. وما إن وضعت الحرب العالمية أوزارها (1914–1918) حتى كان الجعايبي من أوّل المنادين بحرّية الصحافة.

وقد كانت جريدة "الصواب" من الصّحف الوطنية الأولى التي رخّصت لها السّلطة العسكرية الفرنسية بالصدور من جديد منذ 4 فيفري 1920، فكانت منبرا للحزب الحرّ الدستوري التونسي الناشئ. ولم يتوقّف نشاط

الجعايبي إذ نجده عضواً بارزاً في الهيئة القيادية لذلك الحزب. ونراه يسعى إلى إنشاء نقابة للصّحفيين التونسيين تكون منفصلة عن النّقابة الفرنسية، كما نجده ضمن الهيئة الوطنية المؤلّفة من المسلمين واليهود التونسيين التي أصدرت جريدة (La Tunisie nouvelle) "تونس الجديدة" بالفرنسية (1927–1934). وكانت بداية العشرينات في تونس من أنشط فترات حياة الجعايبي الصّحفية والسياسية وأشدّها خصوبة. وبقدر ما كان اندفاع محمّد الجعايبي شديدا لصالح القضيّة الوطنيّة وفي سبيل الدّعاية الدّستورية، كانت صلاته وعلاقاته وثيقة بقادة الفيدرالية الاشتراكية بتونس، الذين احتضنوا مطالب الوطنيين خاصّة: رفع حالة الحصار وإزالة العقبات القانونية أمام حرّية الصحافة التونسية. وقد أصدرت جرائد "المشير" و"الصواب" و"مرشد الأمة" توضيحا في هذا الشأن جاء فيه ما يلي "(...) هذا التحقيق يفرض علينا أن نكون متحدين قلبا واحدا مع أحبابنا الاشتراكيين الفرنساويين والأجانب وإعانة هؤلاء إعانة صادقة ومعاضدتهم بنشرياتنا لدى الحزب التونسي المستنير الذي نحن منه والذي يشرّفنا بثقته لدى عامة الشعب المدفوع بفطرته للاشتراكية غير أنه يجهل لحدّ الآن أصولها ومراميها...".

ويُعدّ محمد الجعايبي من الوطنيين الأوائل الذين بحثوا في علاقة النزعة الوطنية والإسلامية بالاشتراكية وبيان نقاط التّلاقي الايديولوجي بين الاتّجاهين. فقد كتب في هذا الباب قائلا: "كثيرا ما كان ببالنا أن نكتب في موضوع الاشتراكية ومشابهتها في كثير من الوجوه إلى التّعاليم الإسلامية وموافقتها للفطرة الإنسانية الذي يلهينا عن طرق هذا الباب هو اشتغالنا بتأثير مباديها تطبيقيا لا نظريا. فنحن إذا طلبنا رفع أجور المتوظّفين والعملة وتوحيد الأجور إذا اتّحدت الأعمال وإناطة المنافع بقدر ما يظهره الإنسان من الشوط في درجات الكمال بقطع النظر عن جنسه وعنصره، فإنّما نخدم مبدأ الاشتراكية ونطبق قواعدها...".

وتميّزت مقالات الجعايبي أيضا بالدفاع عن الهوية الوطنيّة التونسيّة وتفنيذ ادعاءات دعاة الانصهار في البوتقة الحضاريّة الفرنسية وهو الذي كتب يقول: "من المعلوم أنّ البلاد التّونسية قد تعاقبت عليها أمم كثيرة وأداروا شؤونها غصباً وقسرا، بحيث أنّها عاشت في أكثر أدوار حياتها مغلوبة على أمرها. لكنّها في كلّ فترة وهنت فيها قوّة المتغلّب وتلاشت وحدته، حكمت نفسها بنفسها وجمعت قواها لتأييد قوميتها وحفظ كيانها من عبث العابثين...". بهذا الالتزام الوطني، جعل الجعايبي من جريدة "الصّواب" أحد منابر الحزب الحرّ الدستوري التّونسي وسخّرها لخدمة القضيّة التّونسية. فقد بادرت "الصّواب" في أفريل 1922 بنشر تهديد محمّد الناصر باي (1906–1922) بالتّنازل عن العرش إن لم تستجب الحكومة الفرنسيّة للمطالب الوطنية. وهذا ما دعا السلطة الاستعمارية إلى تعطيل الجريدة في 5 أفريل 1922.

وفي جوان 1923 عادت "الصّواب" إلى الصدور واستمرّ صاحبها في الدّفاع عن القضيّة الوطنية. فشنّ حملة صحفية على قانون التجنيس الصادر في 20 ديسمبر 1923، وعارض إقامة تمثال الكردينال لافيجري في مدخل مدينة تونس العربية (نوفمبر 1925) واحتجّ على أوامر جانفي 1926 لتقييد الحريّات السياسية، كما عارض انعقاد المؤتمر الإفخارستي في تونس (ماي 1931). وقد حضر أشغال مؤتمر قصر هلال الذي انبثق عنه الحزب الدستوري الجديد (2 مارس 1934) وانتخب عضوا في المجلس الملّي وجدّد انتخابه في المؤتمر الثاني المنعقد بتونس (29 أكتوبر 1937). وانتقل المناضل محمّد الجعايبي إلى جوار ربّه في شهر ماي 1938.

محمد جعيّط

[1268 ـ 1337هـ/ 1851 ـ 1918م]

محمّد بن محمّد حمودة بن أحمد بن عثمان بن قاسم ابن محمّد بن المبروك بن محمد جعيّط، أصل سلفه من القيروان. وُلد في 8 ربيع الأول 1268هـ/ 25 ديسمبر 1851م. حفظ القرآن الكريم ثمّ أدخله جدّه جامع الزيتونة فأخذ العلم عن كبار الشّيوخ أمثال أحمد ابن الخوجة وأحمد كريّم والشاذلي بن صالح وحمدة الشاهد وسالم بوحاجب وغيرهم، وتدرّج في الرّتب العلمية فسمّي مدرّسا وكلّف بالنظّارة العلمية بجامع الزيتونة ثمّ مفتيا مالكيا في 26 رمضان 1331هـ/ 28 أوت 1913م. توفّي في 15 ربيع الأنور 1337هـ/ 29 ديسمبر 1918م.

من مؤلّفاته:

- اختصار فتاوى عَظّوم
- كشف اللّثام عمّا ورد في احترام الطّعام
- بيان التوصّل إلى صناعة الإنشاء والترسّل
- تراجم العلماء التونسيين
- حاشية على مقدّمة الإعراب لابن هشام
- ديوان شعر



محمد العزيز جعيّط

[1303ـ 1389هـ/ 1886 ـ 1970م]

ولد محمد العزيز ابن الوزير الشّيخ يوسف جعيّط، بمدينة تونس في أواخر رجب 1303 هـ/أوائل ماي 1886م. وتلقّى مبادئ العلوم الشّرعيّة والأدبيّة بمنزله الكائن بسوق البلاغجيّة. ثمّ التحق بالجامع الأعظم في سنة 1318هـ/ 1901م. واتّجه إلى طلب العلم برغبة صادقة وهمّة عالية، وأخذ من شيوخ ذلك العصر المرموقين. وتدرّج في الرّتب العلميّة. فأحرز على شهادة التّطويع في سنة 1325هـ/ 1905م. ثمّ شارك في مناظرة التّدريس من الطّبقة الأولى في ربيع الأنور1329هـ/مارس1911. عيّن بعدها مدرّسا من الطّبقة الأولى. وفي سنة 1331هـ/1913م انتخب لعضويّة اللجنة المكلّفة بتنظيم كتب جامع الزّيتونة. وسمّي مدرّسا بالمدرسة الصّادقيّة سنة 1332هـ/1914م، حيث اضطلع بتدريس فلسفة التّشريع الإسلامي.

وفي السّنة نفسها انتخب عضوا نائبا بالمجلس المختلط العقّاري. ثمّ أسندت إليه خطّة الفتوى على مقتضى المذهب المالكي سنة 1337هـ/1919م. فاستقال من عضويّة المجلس. وسمّي إماما خطيبا بجامع الحلق بمدينة تونس سنة 1341هـ/1923م، وعضوا بلجنة تنظيم مهنة العدول الموثّقين سنة 1348هـ/1930م. وبصفته مفتيا مالكيّا، عيّن في لجان إصلاح التّعليم الزّيتوني: اللّجنة الرّابعة في سنة 1348هـ/1930م، واللّجنة الخامسة في سنة 1357هـ/1938م. وعيّن قبل ذلك بلجنة التّعقيب المكلّفة بالنّظر في حقوق الاستيطان بأراضي الأوقاف في سنة 1351هـ/ 1932م.

وكلّف بإدارة مشيخة الجامع الأعظم وفروعه من ديسمبر 1358هـ/1939م إلى سنة 1362هـ/1942م. وقام بإصلاحات عدّة منها: تفقّد سير الدّروس وتحسين مستوى الطّلبة العلمي والزّيادة في أجور المدرّسين وإدراج بعض الكتب الفقهيّة والقانونيّة المهمة ضمن مقرّرات الطّبقة العليا بالجامع الأعظم. ثمّ عاد الشّيخ جعيّط إلى المحكمة الشّرعيّة العليا بصفته مفتيا مالكيّا في سنة 1363هـ/1943م. وكلّف بعد سنة بنيابة الشّيخ محمد الطّاهر ابن عاشور في مشيخة الإسلام على مقتضى

المذهب المالكي. ثمّ استقلّ بهذه الخطّة في سنة 1364هـ/1945م، كما ترأّس في السّنة نفسها جمعيّة الحيّ الزّيتوني من أجل تأسيس مسكن متّسع يأوي التّلامذة الزّيتونيّين المتغرّبين على بلدانهم. ولقد اكتمل في سنة 1371هـ/1952م، بناء هذا الحيّ الذي أصبح منذ سنة 1376هـ/1957م المعهد الثّانوي ابن شرف. وهو حاليّا مؤسّسة تابعة لوزارة التّعليم العالي.

ومنذ أن تولّى هذا المنصب بدأ في إصلاح الدّيوان المعمور إلى أن تولّى خطّة وزير العدليّة التّونسيّة في رمضان 366هـ/جويلية 1947م مع احتفاظه بمشيخة الإسلام في وزارة الكعّاك. ولقد قام إثر ذلك بحركة واسعة النّطاق في سلك المحاكم الشّرعيّة والعدليّة بمختلف جهات المملكة التّونسيّة، منها إزالة المعارك التّي دامت سنين بين الأحناف والمالكيّة وإيقاف موجة الانتقاد التّي كانت توجّه إلى المحاكم الشّرعيّة، لأنّ القضايا كانت متراكمة على القاضي فلا يفصلها بسرعة لأنّه يكون مجبرا على مراجعة الكتب الفقهيّة وكتب الفتاوى والنّوازل، إلى أن يكبر حجم القضيّة وتكثر الملفّات وتضيع حقوق المتداعين. ولقد واصل إصلاحاته بوزارة العدل إلى أن حلّت وزارة الكعّاك سنة 1369هـ/1950م.

ولمّا خلفه صالح بن يوسف في صلب العدليّة التّونسيّة أيّام وزارة محمد شنيق للمرّة الثّانية، أعجب بالإصلاحات التي نفذت في وزارة العدل. وبعد أن استقال الشّيخ جعيّط من وزارة العدل واصل نشاطه في مشيخة الإسلام. فسعى إلى نقلة المحكمة الشّرعيّة من الدّيوان إلى مكان لائق بالقصبة في سنة 1372هـ/1952م (وهو مقرّ لجنة التّنسيق حاليّا.)

وشارك في لجنة إصلاح التّعليم الزّيتوني السّادسة في سنة 1375هـ/1955م،كما كان له موقف رافض لفكرة اللاّئكيّة التّي ظهرت عند إعلان الاستقلال الدّاخلي.

وبعد الاستقلال التّام وتوحيد القضاء و إلغاء المحاكم الشّرعيّة، سمّي في سنة 1376هـ/1956م مفتيا للدّيار التّونسيّة، إلى سنة 1379هـ/1960م. سنة إحالته على عدم المباشرة. فلازم بيته للتّأليف إلى أن توفيّ في 27 شوّال 1389هـ/ 5جانفي 1970م.

مؤلّفاته:

ترك الشّيخ جعيّط تآليف كثيرة منها:

– مجالس العرفان ومواهب الرّحمان: وهو كتاب يتكوّن من جزأين من الحجم الكبير، يحتوي على عشرين ختما للحديث النّبوي الشّريف (طبع بتونس وبالجزائر.)

– إرشاد الأمّة ومنهاج الأئمّة، كتاب مطبوع بتونس، ويضمّ 106 خطبة منبريّة كان قد ألقاها الشّيخ جعيّط عندما كان إماما خطيبا.

– «الطّريقة المرضيّة في الإجراءات الشّرعيّة على مذاهب المالكيّة»: كتاب طبع في تونس ويهتمّ بعلم القضاء والتّوثيق والمرافعات الشّرعيّة.

فتاوى شيخ الإسلام محمد العزيز جعيّط: دراسة وتحقيق محمد بوزغيبة (ط. مركز الدراسات الإسلاميّة بالقيروان سنة 1994) ثمّ طبع ببيروت في سنة 2005.

X مجموع أبحاث ودراسات نشرتها المجلّة الزّيتونيّة التّونسيّة ومجلّة الهداية الإسلاميّة المصريّة منها:

– التّشريع الإسلامي والمرأة.
– الإسلام دين ودولة وقوميّة.
– الشّورى والإسلام.
– مكان حمل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.
– الحريّة وأثرها في التّشريع.
– الهجرة: حقيقتها – أسبابها – أحكامها.
– المقاصد الشّرعيّة وأسرار التّشريع.
– نقد دراسة لفواتح السّور.
– بيع الأعيان الغائبة.

لائحة مجلّة الأحكام الشّرعيّة: كتاب يضمّ فقه الحنفيّة والمالكيّة في الأحوال الشّخصيّة

والاستحقاق العقاري (طبع بتونس في الأربعينات.)

-مجلّة الأحكام الشّرعيّة: التّي انبثقت عن اللاّئحة الشّرعيّة وهي المصدر الرّئيسي لمجلّة الأحوال الشّخصيّة ومجلّة الحقوق العينيّة (مخطوطة).

يوسف جعيّط

[1246 - 1333هـ/1830 - 1915م]

وُلد يوسف بن أحمد بن عثمان جعيّط الوزير الأكبر، سنة 1246هـ/1830م بمدينة تونس من عائلة استقرّت من أوائل الدولة الحسينية، تنتمي إلى وسط ديني محافظ. حفظ القرآن الكريم ثمّ دخل جامع الزيتونة حوالي سنة 1260هـ/1844م وأخذ العلم عن الأعلام أمثال محمد ابن الخوجة ومحمد معاوية ومحمد النّيفر ومحمد بن حمزة الشاهد ومحمد الطاهر ابن عاشور - الجدّ - فتدرّج في مراتب العلم حتّى اكتملت ملكته العلمية فعدّ من الأدباء ولا سيما بعد مخالطة الشيخ سالم بوحاجب والشّاعر محمّد الباجي المسعودي. فعمل كاتبا بديوان الإنشاء للدّولة التّونسية سنة 1272هـ/1855م في عهد المشير الثاني محمد باشا باي 1855/1859م وكان ضمن الذين حضروا القوانين الرّاجعة إلى أصول عهد الأمان. وفي عهد محمد الصّادق باي سُمّي رئيسا للقسم الرابع بالوزارة الكبرى وهو قسم وزارة الخارجية وتمّ تعيينه سفيرا لدى السلطنة العثمانية سنة 1281هـ/1864م فاتّصل بالسلطان عبد العزيز والصّدر الأعظم فؤاد باشا وكان ذلك بإشارة من الوزير خير الدين وتقلّد بتلك المناسبة النيشان المجيدي.

وفي عهد الوزير مصطفى بن إسماعيل نقل إلى رئاسة القسم الثاني وهو قسم الأحكام المدنية فسمّي رئيسا ثانيا مع الشّاعر والمؤرّخ محمد الباجي المسعودي. وكان ضمن الذين حضروا مجلس إمضاء معاهدة الحماية بالقصر السّعيد كما عمل في هيكل العدلية التونسية فكان رئيس الدّائرة المدنيّة ثم رئيسا على دوائر الجنايات عند تشكيل أقسام الوزارة في شكل محكمة. وفي سنة 1325هـ/1907م سمّي وزيرا للقلم والاستشارة ثمّ ارتقى إلى خطّة وزير أكبر. وفي سنة 1330هـ سافر مع الباي إلى باريس. وتوفّي في ذي القعدة سنة 1333/1915م ودفن بالتربة الحسينية بمدينة تونس.

من مؤلّفاته:

- رسالة في حكم القاضي المالكي بتأييد حرمة المتزوّجة في عدّتها بأنّه يجري مجرى الفتوى وللحاكم الحنفي خلاف ذلك.

جغرافية البلاد التونسيّة

1- الجغرافية الطبيعيّة

تمتدّ البلاد التونسيّة على الجزء الشرقي من المغرب العربي وهو الطّرف الشمالي للقارّة الإفريقيّة. وتفصلها عن إفريقيا السّوداء الصحراء الكبرى التي تؤثّر بدرجة عالية في خصائصها المناخيّة والجغرافيّة الحيويّة والمائية، لا سيّما في الجهات الجنوبيّة والوسطى من البلاد.

ويحيط البحر الأبيض المتوسّط بتونس شمالاً وشرقا، مُخفّفا من حدّة التأثير المناخيّ الصحراويّ، وذلك بالزيادة في كمّيات الأمطار السّنويّة ورطوبة الهواء وبالتّنقيص من التّفاوت الحراريّ.

على أنّ الحواشي المتوسّطية تختلف هيئتها اختلافا شديدا من شمال البلاد إلى شرقها. أمّا في الشمال، فهي مكفّفة بسهول ساحليّة صغيرة (سهول نفزة وبنزرت وتونس وقرمبالية) تعلوها تلال وجبال قليلة الارتفاع (من 200 إلى 300 متر). ويعضّ البحر على هذه السهول مُخلّفا بحيرات (بنزرت) وبحيرات شاطئيّة (تونس، إشكل) وسباخا (السيجومي)، ومحتلاً أحيانا

قعر المنخفضات. أمّا في الشرق، فتجسّد الحواشي السّاحليّة امتدادا للسّهول الشاسعة في السّباسب السفلى بالوسط وفي الجفّارة بالجنوب. وتنبسط السواحل سويّا، تعلوها في الشّمال تلال قليلة الارتفاع (تلال ساحل سوسة) وتنتشر بها سباخ عدّة.

ويختلف مناخ الحواشي الساحليّة اختلافا شديدا أيضا من الشمال إلى الشرق. ففي الشمال تتعرّض هذه الحواشي لرياح الشمال الغربي المُمطرة، فهي رطبة ومخضرّة (يبلغ المعدّل السنوي لتساقط الأمطار 949,2 مم بطبرقة و626 مم ببنزرت و461 مم بتونس).

أمّا الجبال المتاخمة والمستصلحة بكثرة فإنّها مكسوّة بالأشجار أحيانا، وفي القليل النادر بغابات أعيد تشجيرها في الغالب.

وفي الشّرق، تُسجّل بالعكس تساقطات سنويّة ضعيفة، تنخفض كمّياتها انخفاضا ملحوظا من الشّمال إلى الجنوب. ولمّا كانت السهول الساحليّة بمعزل عن رياح الشمال الغربّي الرطبة، فإنّ مناخها سباسبيّ في الوسط (يبلغ معدّل الأمطار السنوّي 333,2 مم بسوسة و234,1 بصفاقس) وصحراويّ في الجنوب (211,9 مم بقابس و238,9 بجرجيس) حيث تمتدّ في كلّ مكان سباسب الشّيح الأبيض والشيح الحقليّ والحلفاء.

2- المناطق الجغرافيّة

يمكن تبيّن ثلاث مناطق جغرافية كبرى خلف الحواشي السّاحلية.

في الشمال منطقة التلّ التي تحدّها من جهتها الجنوبيّة الظهريّة التونسيّة. إنّها جهة جبليّة أساسا، وهي الطرف الشرقيّ للأطلس الصحراوي الجزائري. وتتّجه الجبال فيها عموما من الجنوب الغربيّ إلى الشمال الشرقيّ ولا ترتفع كثيرا، إذ لا تتجاوز إلاّ نادرا 1000 متر. وغالبا ما تتجلّى وُعورة التضاريس بجروف صخريّة كلسيّة أو حثيّة الأصل، مقدودة في طبقات الجوارسيّ (جبل زغوان 1298م) أو الطباشيريّ (جبل صمامة 1314م) أو الأيوسيني (جبل كسرى 1174م). وتُشرف هذه السفوح المتحدّرة في أغلب الأحيان على سهول محفورة في الصخور الليّنة للمحدّبات المنحوتة أو في طمْي الحياض الانهيارية (سهول مجردة العليا أو الوسطى، سهل سليانة، قعفور، الخ...). ولئن كانت التضاريس التلّية في جملتها جبليّة، فإنها تتخلّلها سهول تكوّن مناطق فلاحيّة رائقة مثل سهول جندوبة وغار الدماء وبوسالم وباجة، الخ... لكنّها خاضعة لتعرية شديدة يساعد عليها انتشار الصخور الليّنة بكثرة واقتلاع الغابات واستثمار فلاحيّ غير منطقيّ.

إنّ منطقة التلّ هي أكثر جهات البلاد رطوبة. وتُسجّل أكثر كمّيات الأمطار في جهة خمير الجبليّة (يبلغ المعدّل السنوي بعين دراهم 1482,9مم) وينخفض معدّل هذه الكمّيات علي نحو ملحوظ من الشمال الغربيّ إلى الجنوب الشّرقيّ، فلا تتلقّى نابل إلاّ معدّل 369 مم سنويًّا.

وتوجد في جبال الشمال الغربي الرطبة (وخاصّة جبال خمير) أجمل غابات البلاد، وهي غابات البلّوط والفلّين (مع تَفرات غزيرة) والكشريد والعرعر، الخ... وتخترقها روافد الضفّة اليسرى لنهر مجردة بمياهها القليلة الملوحة (أقلّ من 1غ في اللّتر): واد الليل، واد الكسّاب، واد بوهرثمة، وقد أقيمت السدود عليها جميعا.

وتمتدّ جنوبيّ سهول مجردة العليا والوسطى مجموعة ثانية من الجبال أقلّ رطوبة من سابقاتها وأكثر استصلاحا ونحتا وهي جهة التّل الأعلى. وتنخفض كمّية المطار السّنويّة من الشمال الغربي (معدّل الكاف 533مم سنويًّا) إلى الجنوب الشرقي (451,7 مم بسليانة). أمّا الغابة التي تبقّت فيها مناطق معزولة من البلّوط وصنوبر حلب والعفصيّة - وهي هضبة كسرى قرب مكثر - فقد عوّضها في كلّ مكان تقريبا أشب متدهور جدّا من جرّاء الرّعي المفرط واقتلاع الأشجار. وتتخلّل الجبالَ سهول عدّة هي سهول سليانة وقعفور

والسرس. وتخترقها وديان كثيرة. ومن التلّ الأعلى تنبثق أهمّ روافد الضفّة اليمنى لنهر مجردة وهي واد ملاّق، واد تاسة المحمّلة بأملاح أكثر ممّا في روافد الضفّة اليسرى إذ تتجاوز 2غ في اللتر بسبب وجود الجبس الترياسي بكثرة. ومن شأن هذه الأملاح المذابة أن تزيد في نسبة الملوحة لنهر مجردة ذاته، الذي ينبع من الجزائر ويخترق سهول غار الدماء وجندوبة وبوسالم وباجة وتونس. ويبلغ متوسّط منسوبه في مجاز الباب 29 م3/ث، وهو منسوب لا يتوقّف إلاّ على تغييرات كمّية الأمطار السنويّة والموسميّة، فيرتفع في الشتاء (91,7م 3/ث في فيفري) وبالأخصّ من جراء فيضانات عارمة عنيفة أحيانا وينخفض انخفاضا ملحوظا في الصّيف (3,2 م3/ث).

أمّا الظهريّة فهي الحدّ الجنوبي للتلّ وبها جبل الشعانبي، أعلى قمّة في تونس (1544م) شماليّ القصرين. وتتكوّن من سلسلة من الكتل الجبليّة (جبل طيواشة، جبل بربرو، جبل السرج (1357م)، الخ... مُتجهة من الجنوب الغربيّ إلى الشمال الشرقيّ ومُشرفة بسفوحها الوعرة غالبا على السباسب العليا والسفلى بالوسط التونسي. وتتكوّن السباسب العليا من سهول وهضاب تتخلّلها أودية عدّة وسلاسل جبليّة صغيرة مقطّعة (جبل مغيلة). المناخ هنا قاس، حيث سُجّل أعلى مدى حراريّ في تالة (الفوارق المطلقة تبلغ 30 درجة) وفي كامل هذه المنطقة تقريبا يقلّ معدّل الأمطار عن 300 مم (سيدي بوزيد 273,4مم). وتسود في هذه السهول والهضاب الحلفاء والشيح والسدر، وغيرها... وتتعلّق بالسفح الشماليّ للظهريّة بعض غابات البلّوط وصنوبر حلب. أمّا مجاري الأودية (واد تكّة) فهي في أغلب الأحيان بلا ماء، ولا تُخفض إلاّ عند الفيضانات التي تضيع مياهها في عدة سباخ من السباسب السفلى.

وتُعدّ السباسب السّفلى امتدادا نحو الشرق للسباسب العليا. أمّا السهول والتلال مثل ساحل سوسة فيحدّها شاطئ البحر شرقا. وتحتلّ السباخ كبحيرة الكلبيّة، سبخة سيدي الهاني، وغيرهما... مساحات شاسعة وتتلقّى مياه فيضانات واد زرود ومرق الليل... التي تخترق مجاريها جهة القيروان. والمناخ هنا أقلّ قساوة منه في الغرب، لكنّ الأمطار ليست أغزر بكثير ففي القيروان يبلغ معدّل الأمطار سنويًّا 302,6مم.

وفي السباسب العليا والسفلى يُعوّض نقص الأمطار بوفرة المياه الجوفيّة التي تمكّن من ريّ مساحات شاسعة من الأراضي منها خاصّة سهول القصرين والقيروان وسبيبة وحاجب العيون، وغيرهما...

وفي المنطقة شبه الصحراوية من البلاد التونسية، تتجلّى جنوبيّ السباسب السفلى مشاهد طبيعيّة كثيرة التنوّع: ففي الغرب تمتدّ جهة الشطوط خاصّة شطّ الجريد، وشطّ الفجاج نحو الجنوب بمجموعة كبرى من الكثبان تُسمّى العرق الشرقيّ الكبير. وفي الجنوب تمتدّ هضبة الظاهر التي تشرف بجرف وعر هو جبل مطماطة على سهل الجفّارة الشاسع الذي يحدّه شرقًا خليج قابس حيث تبرز جزيرة جربة. ومن جرّاء الممطاريّة السنويّة الضعيفة جدّا - ففي توزر مثلا يبلغ المعدّل السنويّ 100,4مم وفي قفصة 173,7مم وفي قابس 211,9مم - تنعدم النباتات الغابيّة والفلاحيّة المطريّة. إنّه عالم الواحات بتوزر ونفطة وقفصة وقابس وغيرها تلك التي يتوقّف وجودها على المياه الجوفيّة الغزيرة.

وتتقوّر المنطقة الجنوبية الشرقية من البلاد التونسية في خليج قابس فتستفيد من وجود البحر الأبيض المتوسّط الذي يعدّل قيظ الصيف فترتفع درجة بخار الماء في الهواء وتغدو زراعة الأشجار دون ريّ ممكنة مثل زياتين جهة جرجيس. ولكن في الغرب يقسو المناخ بجهة الشطوط ويرتفع المدى الحراريّ ارتفاعا كبيرا ويصبح الهواء شديد الجفاف، فتُسقى جميع الزراعات وتسود النّخليّات وخاصّة النخيل الذي لا يسقى إلاّ بالمياه الجوفية العميقة.

3 – التعمير

إنّ تعمير تونس ناتج عن واردات عرقيّة مختلفة جدًا، متوسّطيّة المصدر خاصّة. أمّا الأصل العرقيّ، فهو بربريّ أساسا ثمّ أضيفت إليه في العصور القديمة عناصر أتت تارة من البحر الأبيض المتوسط الشرقيّ كالفينيقيّين وطورا من البحر الأبيض المتوسط الغربي: كالرومان من شبه الجزيرة الإيطاليّة ومن الجزر ومن الجزائر وهم الوندال الذين لم يخلّفوا إلاّ آثارا قليلة.

وفي الواقع، كان عدد هذه العناصر الدخيلة ضئيلاً بالقياس إلى العناصر ذات الأصل العربيّ. ولقد كان الفاتحون الأوائل الوافدون على تونس (647 – 700) قليلين نسبيًا، وكانوا جنودا وصنّاعا وتجّارا استقرّوا أساسا بمدينة القيروان التي أسّسها عقبة بن نافع. لكنّ الزحف الهلالي في القرن الحادي عشر هو الذي غيّر واقع تونس العرقيّ، إذ انتشرت في كامل البلاد قبائل برمّتها من البدو القادمين من المشرق ومن الجزيرة العربيّة، فأسهموا في تعريبها تعريبا شبه كامل.

وفيما بعد، اقتضت بعض التقلّبات التاريخيّة قدوم مجموعات متفاوتة الأهميّة من المهاجرين الوافدين من البلدان المجاورة : من الجزائر خاصّة بعد احتلالها من قبل الفرنسيّين سنة 1830 ومن ليبيا والمغرب وكذلك من بلدان أبعد، منذ انتصاب الأتراك ـ العثمانيين في القرن السادس عشر والسابع عشر ومنذ مغادرة المسلمين للأندلس في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وقد زاد استقرارهم بالبلاد في ترسيخ الطابع العربيّ الإسلامي بها. ولم تبق اللغة البربرية إلاّ في بعض المناطق المعزولة مثل جبل مطماطة وجنوبيّ جربة. لكنّ مجموع السكّان في هذه المناطق يتكلّمون العربية والبربريّة.

أ – التّعمير الرّيفي

كانت الأغلبيّة الساحقة من السكّان التونسيّين الذين تفوق نسبتهم 80٪ تعيش في الأرياف. وكانت تعيش أساسا بفضل الفلاحة وتربية الماشية. وكانت هذه التربية تؤدّي دورا رئيسا في اقتصاد الأرياف، خاصّة في جهات الوسط والجنوب، ومن جرّاء الجفاف كان دورها أهمّ بكثير من دور الفلاحة. وكان السكّان في هذه الجهات يعيشون على مقتضى النظام القبليّ القائم على العروش وكانوا شبه رُحّل، يسكنون الخيام في الغالب.

أمّا في جهات التلّ الأكثر رطوبة، فقد كانت تربية الماشية تستمدّ أهمّيتها من انتشار البور. ولئن كانت للسكّان مساكن ثابتة فإنّ القطعان كانت تتنقّل بحراسة الرّعاة عبر مراعٍ كانت تحتلّ المجال الأوفر من الفضاء.

فقد أدّى تطوّر وسائل استثمار الأرض، نتيجة للاستعمار الفرنسي وانتشار الآليّة الفلاحيّة والازدهار الديمغرافي وسياسة التثبيت في الأرض التي سنّتها السلط الاستعمارية ثمّ واصلتها السلط العموميّة في تونس المستقلّة، إلى استقرار المربّين داخل الفضاء التونسيّ بأكمله تقريبا. وتجلّى هذا الاستقرار في التخلّي عن الخيام في كلّ الجهات واتّخاذ أكواخ من طوب، ثمّ في الفترة الحديثة في بناء منازل بموادّ صلبة.

لكنّ أبرز مظهر من مظاهر تعمير الأرياف الذي تلا هذا الاستقرار ـ وقد اقترن بعمليّة خوصصة الأراضي الزراعية ـ هو تشتّت السكن الريفيّ. فلقد تجلّى التثبيت في الأرض بجميع الجهات وخاصّة في وسط البلاد بتناثر عشرات الآلاف من المجموعات السكّانيّة في الفضاء الريفيّ، حيث تتألّف كلّ مجموعة من « دوّار » به مساكن من طوب لاسيّما في مجردة العليا والوسطى وسهول التّل الأعلى أو من موادّ صلبة، على غير نظام واضح ودون وجود بنايات ذات صبغة جماعيّة، إلاّ فيما قلّ وندر.

ويُعدّ التقليد القرويّ من خصائص الجهات الساحلية أو وادي مجردة الأسفل أو بعض المناطق الجبلية ذات التعمير البربريّ العربيّ كما في كسرى بالتلّ الأعلى وتوكابر والشوّاش في جهة مجاز الباب.

ففي الجهات الساحلية الشماليّة ووادي مجردة الأسفل، لا شكّ في أن الهجرة الأندلسيّة كانت الدافع الأصلي على إحداث عدد من القرى أصبحت اليوم مُدناً حقيقيّة، في ساحل بنزرت مثل ماتلين ورفراف ورأس الجبل وعوسجة. وفي الوطن القبليّ مثل سليمان وفي وادي مجردة الأسفل مثل تستور والسلوقيّة وقلعة الأندلس.

وفي ما يخصّ تعمير ساحل سوسة فإنّ بنيته القرويّة هي إحدى الخصائص الجغرافيّة الأساسيّة في هذه الجهة. ويبدو أنّها ارتبطت بتأثيرات قديمة، بونيّة الأصل فرومانيّة فبيزنطيّة ثمّ عربيّة، كما ارتبطت باقتصادات تأسّست منذ البداية على زراعة الزيتون والصناعة التقليديّة والتجارة. ومنذ الاستقلال، أدّى تنويع المناشط في الأرياف وتطوير المبادلات بين الجهات على أوسع نطاق كما أدّى الازدهار الديمغرافي إلى تجمّع أشدّ فأشدّ للسّكن الريفي في جميع الجهات، فأصبحت بعض الدساكر (الدشر) قرى كبرى عبر كامل البلاد، في حين أصبحت بعض القرى المتفاوتة القدَم مُدناً حقيقيّة.

ب - التعمير الحضريّ

كانت تونس دوماً بلاداً تعجّ بالمدن، وذلك منذ العهدين البونيّ والرومانيّ. ففي أغلب الفضاءات، سواء في السباسب العليا أو السفلى، تنتشر آثار المدن القديمة: قرطاج، Hadrumete (سوسة)، Thysdrus (الجم)، Ammedarae (حيدرة)، Suffetulae (سبيطلة)، الخ...

وفيما بعد أسّس العرب على أنقاض ما وجدوه مدناً جديدة في السباسب السفلى مثل القيروان والمهدية ومثل تونس في التلّ. وهو ما ساعد على الزيادة في تعمير المدن الموجودة من قبل وخاصّة منها المدن الساحليّة. أمّا مدن الساحل الشمالي مثل بنزرت وتونس... فقد تزايد تعميرها ونشاطها بتوافد المهاجرين الأندلسيّين عليها، وهو ما ساعد على ازدهارها وتنمية فضاءاتها المبنيّة. ولقد اضطلعت المدن التونسية مثل القيروان وتونس والمهديّة بدور مهمّ في انطلاق الحضارة الإسلاميّة وتطوّرها.

وتسارع نسق التحضّر منذ قيام الحماية الفرنسيّة بتونس سنة 1881. وكان يوجد في تونس سنة 1954 حوالي 250 ألف أوروبّي من الفرنسيّين والإيطاليّين أساساً منهم 146 ألفا في العاصمة وحدها، وكان 86٪ من هؤلاء الأوروبّيين يعيشون في المدن. ولم تلبث المدن العربية المنشإ أن أصبحت مزدوجة بتجاور أحياء جديدة تختلف هيكلتها وهندستها المعماريّة تماماً عن المدن العتيقة. وهو ما يتجسّد في أنهج متقاطعة وعمارات عدّة الطوابق مُقسّمة إلى شقق ومعالم عموميّة ضخمة ومنتزهات وحدائق صغرى داخل المدينة. وكان لا يسكن هذه الأحياء إلاّ الأوروبيّون تقريباً، وكذلك اليهود الذين غادروا بأعداد وفيرة أحياءهم الخاصّة بهم وهي الحارات وأقاموا بالأحياء الجديدة التي كانوا يملكون أغلب أصولها التجاريّة. وبعد الاستقلال غادر البلاد التونسية الأوروبيّون ثمّ اليهود واحتلّت الأحياء الأوروبيّة شيئا فشيئا أغلبية من السكّان التونسيّين.

وغداة الاستقلال تسارع التحضّر بنسق مرتفع وحدث انفجار حضريّ حقيقيّ بدافع النموّ الديمغرافيّ وتزايد عدد النازحين من الأرياف وإحداث بلديات جديدة واتساع رقعة المساحات البلديّة. ويعيش اليوم في المدن أكثر من 61٪ من السكّان التونسيّين وقد كانت نسبهم 24,7٪ سنة 1936. وفي سنة 1980، بلغ معدّل النموّ السنوي للسكّان الحضريّين نسبة 5٪ وانخفض منذ ذلك التاريخ ليصل إلى حوالي 3٪. وانتقل عدد التجمعات السكنيّة من 55 سنة 1931 إلى 193 سنة 1980. وتجلّى هذا الانفجار الحضريّ أيضاً في تكاثر المدن المتوسّطة والتزايد المطّرد لسكّان تونس العاصمة التي تضمّ حوالي 33٪ من مجموع السكّان الحضريّين، كما حصل تزايد كبير في عدد سكّان المدن الساحليّة مثل بنزرت ونابل وسوسة وصفاقس وقابس.

أضحى الانفجار الحضريّ يتناقض مع البطء النسبيّ للنموّ الديمغرافيّ، إذ لم يبق تزايد السكّان التونسيّين على وتيرة الفترات التي سبقت الاستقلال. فالنموّ الطبيعي - الذي بلغ سنة 1966 نسبة 2.6٪ - لم يعد يبلغ إلاّ نسبة 1.19٪ سنة 2008، ومردّ ذلك إلى تراجع مشهود في نسبة الولادات التي كانت تتجاوز 40٪ غداة الاستقلال والتي لا تكاد تبلغ اليوم نسبة 18٪ (17.7٪ سنة 2008).

إنّ هذا التراجع في نسبة الولادات ناتج عن سياسة التخطيط العائليّ (الذي اتّسعت رقعته منذ السبعينات) وعن التحضّر وانتشار التعليم وتأثير الوسائط السمعيّة والبصريّة وناتج أيضا عن مشاركة المرأة مشاركة فعّالة في النشاط الاقتصادي الوطنيّ بجميع قطاعاته.

وبسبب التراجع الملحوظ في نسبة الوفيات وكذلك تراجع نسبة وفيات الأطفال وذلك بفضل النموّ المشهود للبنى التحتيّة الاستشفائيّة والصحيّة في المدن والأرياف، حافظت تونس في الأثناء على حركيّة ديمغرافيّة مرموقة، إذ ارتفع عدد سكّانها الجمليّ من 4.524.000 نسمة في سنة 1966 إلى 10.323.000 نسمة في سنة 2008.

لقد سمح تحسّن مختلف الثوابت الصحيّة والوقائيّة والغذائيّة والسكنيّة وغيرها بارتفاع في معدّل الأمل في الحياة سنة 2005 إلى 71 سنة بالنسبة إلى الرجال و 75 سنة بالنسبة إلى النساء (مقابل 60 سنة في 1960). وهكذا قاربت مختلف المؤشّرات الديمغرافيّة في تونس - وبصفة ملحوظة - مؤشّرات البلدان المتقدّمة، وذلك بفضل نموّ البلاد الاقتصاديّ والاجتماعيّ والثقافيّ عند الاستقلال.

لكنّ التوزيع الجغرافيّ للسكّان مازال متفاوتا جدّا، كما كان في الماضي، بل ازداد التباين منذ الاستقلال، إذ يبلغ معدّل الكثافة بالنسبة إلى كامل البلاد 45 ساكنا في الكيلومتر المربّع (مقابل 28 ساكنا / كلم^2 سنة 1966). غير أنّ تكاثف الفضاء التونسيّ لا يتعلق بكامل هذا الفضاء.

في خريطة التوزيع الجغرافيّ للسكّان التونسيّين يتّضح التباين بين الأقاليم الساحليّة ذات الكثافة السكّانيّة المرتفعة (يتجاوز معدّلها 90 ساكنا / كلم2، بل يبلغ 220 ساكن / كلم 2في ولاية المنستير و 400 ساكن / كلم 2 في ولاية تونس الشمالية و 120ساكن / كلم2 في ولاية سوسة) وبين الأقاليم الداخليّة الأقلّ كثافة سكّانيّة بكثير (من 30 إلى 60 ساكنا / كلم2). وأمّا الأقاليم الصحراويّة الواقعة جنوبيّ خطّ تعادل الأمطار (100 ملّيمتر سنويا) فإنّ كثافتها السكّانيّة ضعيفة جدّا لا تكاد تبلغ 10 سكّان / كلم2، باستثناء التجمّعات السّكنيّة في الواحات.

لقد كان النموّ الاقتصاديّ المشهود منذ الاستقلال في الأقاليم الساحليّة الشرقيّة (أقاليم تونس والوطن القبليّ والساحل وصفاقس) ومستوى أقلّ في الأقاليم الشماليّة (التلّ الشماليّ)، كان هذا النموّ دافعا لحركة هجرة قويّة انطلقت من الأقاليم الغربيّة الجنوبيّة غير المحظوظة على المستوى المناخيّ والاقتصاديّ في اتّجاه الأقاليم الساحليّة الأكثر تحضّرا شرقيّ البلاد، وفي اتّجاه شمالها الشرقيّ بالخصوص. إنّ التخفيف بشكل ملموس من حدّة الاختلال والتفاوت الاقتصاديّ والديمغرافيّ بين الأقاليم الداخليّة والأقاليم الساحليّة يمثّل أحد أهمّ التحدّيات التي يتعيّن على جميع القوى الحيّة في البلاد، الاقتصاديّة منها والسياسيّة، أن تتصدّى لها خلال العقود المقبلة.

توزيع السكّان الجغرافي

يكون التوزيع الجغرافي للسكّان غالبا وفق التقسيمات أو الوحدات الإدارية، غير أنه يمكن أيضا اعتماد توزيع السكّان حسب المناطق أو

حسب المناطق الفرعيّة التي تُحدّد استنادا إلى مؤشّرات جغرافية أو اقتصادية أو اجتماعيّة. ويتأثّر توزيع السكّان بعدّة عوامل طبيعية كالتضاريس والمناخ وطبيعة التربية، كما يعبّر عن مخلّفات التاريخ في كل بلد. وتعدّ المناطق التي تتحقق فيها تنمية اقتصاديّة متطوّرة مركزا لاستقطاب السكّان.

ويعتمد قياس درجة الازدحام السكاني في بلد ما على معرفة الكثافة السكانية. وهي حاصل قسمة عدد السكّان على مساحة البلاد ويعبّر عادة عن هذا المؤشّر بعدد السكّان في الكم2. يمتاز توزيع السكّان في البلاد التونسيّة بتفاوت شديد بين المناطق التي يمكن تصنيفها إلى نوعين: مناطق كثيفة السكّان وأخرى ضعيفة الكثافة.

أ ـ المناطق الكثيفة السكّان:

تمتدّ المناطق الساحليّة على طول الشريط الرابط بين بنزرت شمالا وصفاقس في اتّجاه الجنوب الشرقي. وهو يغطي أكثر من نصف سكّان البلاد على مساحة لا تفوت 15٪ من المساحة الجملية:

ويحتضن إقليم تونس (تونس، منوبة، أريانة، بن عروس23،1٪) من مجموع السكان حسب ما بينه المسح الوطني للسكّان والسكنى لسنة 2009. وتبلغ أرفع كثافة سكانيّة في إقليم تونس العاصمة حيث تتجاوز 700 نسمة في الكم2. وقد بلغت نسبة التزايد في هذه المنطقة 1،2٪ في سنة 2009.

وتمتدّ مناطق الشمال الغربي على ولايات سليانة والكاف وباجة وجندوبة التي تحوي11،7٪ من مجموع السكان على11٪ من المساحة الجملية. وتفوق الكثافة السكانية فيها المعدّل العام 67،0 نسمة في الكم2. لكنها دون كثافة المناطق الساحلية. وهي تتراوح بين 50 و140نسمة في الكم2. وتسجل أدنى نسبة التزايد (0،22٪) حسب مسح 2009.

ب ـ المناطق ضعيفة الكثافة

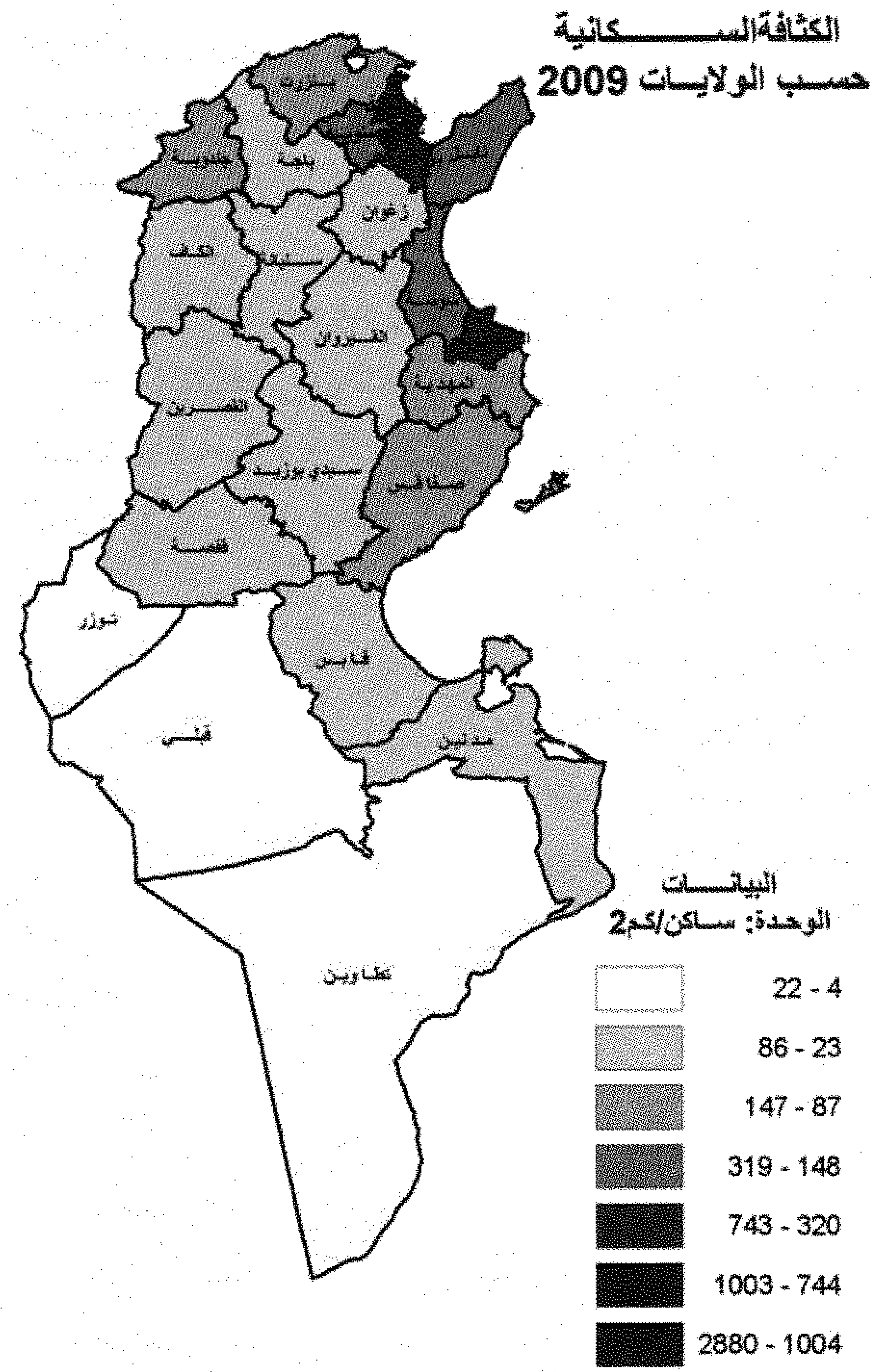
تعتبر منطقة الوسط الغربي ومنطقة الجنوب من المناطق الضعيفة الكثافة السكانية. ويمتدّ الوسط الغربي على ولايات القيروان والقصرين وسيدي بوزيد أي 18٪ من المساحة في حين لا تضمّ سوى 13،4٪ من السكان. وتتراوح الكثافة بين 53 و83 نسمة في الكم2. وبلغت نسبة النمو الديمغرافي في هذه المنطقة (0،79 ٪).

أما منطقة الجنوب وهي منطقة صحراويّة شديدة الحرارة، فتحوي أكثر من نصف مساحة البلاد (55٪) ولكن لا يعيش فيها إلا14،7٪ من إجمالي السكّان يتوزّعون على ولايات قفصة وتوزر وقبلي وقابس ومدنين وتطاوين. وتتراوح الكثافة السكانية في هذه المناطق بين 4 و50 نسمة الكم2 حسب الجهات. لكنها تسجل ارتفاعا في نواتين صغيرتين هما منطقة الواحات ومنطقة الجبل حيث ترتفع فيها الكثافة إلى أكثر من 50 نسمة في الكم2.

ويفيد المسح الوطني حول السكّان والسكني (2009) أن إقليم تونس والوسط الشرقي هما أكبر الجهات حجما إذ أن كلاّ منهما يعد أكثر من خمس سكان البلاد وتتميّزان بمعدل نمو ديمغرافي مرتفع مقارنة مع الجهات الأخرى وباستقطاب المهاجرين الوافدين من المناطق الأخرى إذ بلغ صافي الهجرة الداخلية بإقليم تونس 32.100 نسمة وبالوسط الشرقي 35.200 نسمة في ما بين سنتي (2004–2009).

وتشير المعطيات الإحصائية إلى أن الشمال الغربي يسجّل على نحو مستمر تقلّصا في نسبة عدد السكّان من المجموع (13،4٪ سنة 1989 مقابل 14،0٪ سنة 1994 و15،9٪ سنة 1999 و12،2٪ سنة 2004 و11،7٪ سنة 2009) وقد سجّل في هذه الجهة أدنى معدل للتزايد السكاني (0،22٪). ويفسّر ذلك بانخفاض في معدّل النموّ الطبيعي (في حدود 1٪) وكذلك بعامل الهجرة الداخلية إذ فقدت هذه الجهة 20.100 نسمة خلال الفترة (2004–2009). أما بقية المناطق فقد سُجّل فيها شبه استقرار في نسبة

حجم سكانها من مجموع سكان البلاد.



ج ـ توزيع السكّان بين الريف والمدنية

تتحدد المدينة بخلاف القرية، باعتبارها تجمّعا لا تقوم فيه المناشط الفلاحية بدور أساس في الحياة الاقتصاديّة. ويسمّى سكّانها الحضر. ويطلق على سكّان القرية اسم الريفيين، إذ يختلف نمط حياتهم عن الحضر تبعا لاختلاف المناشط التي يتعاطونها.

ففي تونس يعتبر سكّانا حضريّين مجموع سكّان المناطق البلدية. أما الذين يقطنون خارج الفضاء البلدي فهم «ريفيّين». وهناك فئة ثالثة هي البدو الرحّل الذين يعيشون منتقلين بحيواناتهم، إلا أن هذه الفئة تسير نحو الانقراض بحكم السياسة الرّامية إلى تثبيت السكان بربطهم بالأرض من ناحية وتمدينهم من ناحية أخرى.

والملاحظ أنه من العسير تحديد عدد هؤلاء البدو الرحّل الذين غالبا ما يصنّفون ضمن سكان الريف.

لم تنفك الحركة العمرانية منذ الاستقلال (1956) بالبلاد التونسيّة عن الاتساع فقد ارتفعت نسبة الحضريين على نحو ملحوظ إذ تحولت من 40٪ سنة 1966 إلى 65،9٪ سنة 2009، أي بزيادة سنوية 3،1٪ خلال هذه الفترة.ويرجع هذا النموّ الحضري السريع إلى التزايد الطبيعي للسكّان واتّساع حدود عدد من البلديات وإحداث بلديات جديدة وكذلك إلى تأثير النزوح.

ويمتاز توزيع السكّان الحضر بالتفاوت الشديد بين المدن، إذ يعيش قرابة53،1٪ في المدن السبع المطلة على البحر:تونس (14،5٪)، صفاقس (8،6٪)، بنزرت (4،9٪) نابل (7،2٪) سوسة (7،0٪)، المنستير (7،3٪) وقابس (3،6٪).

وتسجلّ نسبة التحضّر تفاوتا حسب الجهات، فتوجد أرفع مستوياتها حسب مسح 2009 في المناطق ذات الكثافة السكانيّة المرتفعة وذات النسب الحضريّة العالية وهي تشمل المناطق الساحلية: ولاية تونس وولاية المنستير بنسبة تحضّر تبلغ (100٪) وولاية بن عروس (90،5٪) وولاية أريانة (90،7٪) وولاية سوسة (80،9٪) وولاية منوبة (74،3٪) وولاية نابل (66،3٪) وولاية صفاقس (64،4٪) وولاية بنزرت (61،6٪). وتفيد إحصائيات مسح 2009 أن كلاًّ من ولايات قفصة (73،7٪) وتوزر (70،3٪) ومدنين (77،9٪) وقابس (68،5 ٪) سجّلت نسب تحضّر تفوق المعدّل الوطني (65،9٪) وتنخفض نسبة التحضر إلى مستويات ضعيفة جدا دون المعدل الوطني في سيدي بوزيد (25،4٪) وجندوبة (27،9٪) والقيروان (32،9٪).

وبوجه عام يمتاز النظام الحضري التونسي عامّة بثلاث خاصيات:

1 - فمن ضمن تسع وعشرين بلديّة يفوق عدد سكّانها 50 ألف نسمة، نلاحظ خمس عشرة منها في السواحل.

2 - ضخامة العاصمة بالنسبة إلى المدن الأخرى فإقليم تونس (تونس، منوبة، أريانة، بن عروس) 23،1٪ من مجموع السكّان وحوالي 32،3٪ من السكّان الحضر.

3 - تكاثر السكّان العفوي حول أهم المدن التونسية خاصة العاصمة في مناطق تقلّ فيها بل تنعدم أحيانا مرافق الحياة الضرورية.

وقد استمرّ انخفاض نسبة السكّان في الريف لتصل إلى34،1٪ سنة 2009. أما معدل تزايد سكّان الريف السنوي فقد بلغ 0،72 ٪ سنة 2009 فهو دون المعدّل الوطني (1،03٪) في حين بلغ معدل تزايد الحضريين (1،19٪).

ويعود هذا الوضع أساسا إلى النّزوح نحو المدن وخاصة العاصمة، إذ أصبحت بعض المناطق الريفية كالشمال الغربي والجنوب تسجل انخفاضا مطلقا في حجم سكانها في حين أخذت المناطق الريفية الأخرى في الجهات الشرقية تنمو بنسق بطيء وبنسبة دون معدل النموّ الطبيعي العامّ.

هجرة العمالة التونسية إلى الخارج

رغم المجهودات المبذولة في قطاعي الصناعة والصناعات التقليدية وقطاع الخدمات، فإن مشكل التشغيل لم تحلّ مقابل تزايد متفاقم لقوّة العمل القادرة على الإنتاج. أضف إلى ذلك نقص الموارد الطبيعيّة الذي يعدّ عاملا لانعدام التوافق بين العرض والطلب في ميدان التشغيل، باعتبار أن تصنيع البلاد يواجه صعوبات تعوقه عن التطوّر السريع. ويبقى جزء مهمّ من الاستثمارات متّجها إلى القطاعات غير المنتجة مثل بناء المساكن الاجتماعية والمدارس، عوض استغلالها في الفلاحة والصناعة. وتنتج عن هذا الوضع نسبة تطوّر اقتصادي بطيئة نسبيًا. وهو ما يزيد في حدّة البطالة وتقلص مواطن الشغل.

وأمام كل هذه العوامل وللتخفيف من حدّة البطالة، اختارت تونس أن تعرض فائض اليد العاملة لديها على أسواق الشغل الأجنبية. أما البلدان المهاجر إليها، فإنّها من جهتها تشكو نقصا في اليد العاملة الضروريّة لبناء اقتصادها من جديد خاصة إثر الحرب العالمية الثانية، إلا أن الأزمة الاقتصادية التي تهزّ أوروبا منذ سنة 1973 جعلت هجرة اليد العاملة التونسيّة نحو هذه البلدان غير ممكنة، إذ اتّخذت هذه البلدان إجراءات حمائيّة على الصّعيدين الاقتصادي والاجتماعي.

ويصعب الآن التكهّن بحدّة هذه الظاهرة في المستقبل، خاصة أنها تابعة للعلاقات الاجتماعية والسياسية التي تربط البلدان المهاجر منها بالبلدان المهاجر إليها. على أنّ دخول إسبانيا والبرتغال واليونان وبلدان أوروبا الشرقية إلى المجموعة الاقتصادية الأوروبية سيجعل تونس تواجه مشكلات اجتماعية واقتصادية، سواء على مستوى المبادلات التجارية أو هجرة اليد العاملة. فما هي انعكاسات انضمام هذه البلدان إلى الاتّحاد الأوروبي على اليد العاملة التونسيّة ؟

1 - الوضع الحالي لهجرة اليد العاملة

نلاحظ وجود فترتين رئيستين في هجرة اليد العاملة التونسيّة: الأولى تزامنت مع استقلال تونس سنة 1956. وقد بدأت حركة الهجرة تصبح ذات شأن في الستينات حتى وإن غلب عليها الطابع الفوضوي. والأخرى بدأت بتوقيع اتّفاقيات لفائدة اليد العاملة مع بعض البلدان المهاجر إليها وتطبيقها. وتميّزت هذه الفترة بتركيز بعثات مكلّفة بانتداب اليد العاملة. أمّا اتّفاق التعاون المبرم في إطار المجموعة الاقتصادية الأوروبية، فقد اقتصر على المساواة في المعاملة بين العمّال التونسيين وعمال البلد الأوروبي حيث أطرت الاتفاقية المبرمة شروط العمل والتعيين والضمان الاجتماعي، مع رفض

الفصول المتعلّقة بالانتداب وضمان الشغل وحريّة التنقّل داخل بلدان المجموعة. وتعتبر هجرة اليد العاملة التونسيّة غير القانونية وإدماجها في أسواق العمل الأجنبية، حلاّ وقتيا لمشكلات البطالة والنقص في مواطن الشغل.

2ـ تقديرات اليد العاملة التونسية بالخارج:

-الجالية التونسية بالخارج:

لا تهم المعطيات الرّسمية لديوان التونسيين بالخارج، إلا العمّال المهاجرين بطرقة قانونية. ولا تنسحب هذه المعطيات تقريبا إلا على نصف المهاجرين الفعليين. إنّ الإحصائيات التي قامت بها وزارة الشؤون الخارجية لليد العاملة التونسية بالخارج تعطينا فكرة عن أهميّة الهجرة في كل بلد من بلدان الاستقبال. وتقدّر الجالية التونسية بالخارج إلى غاية ديسمبر 2007 بحوالي 1.018،173 نسمة. وتستأثر البلدان الأوروبية بقرابة 83،2٪ من مجموع التونسيّين المقيمين بالخارج يعيش أغلبهم بفرنسا التي تستقطب بمفردها (54،5٪) من مجموع الجالية في العالم. أما البلدان العربية فهي تحتضن 142.655 من بينهم 68،8٪ يعيشون في بلدان المغرب العربي، كما ارتفع حجم الجالية بأمريكا إلى ما يقارب 26.180 فردا أي بنسبة 2.6٪ من مجموع الجالية التونسية. وتفيد إحصاءات ديوان التونسيين بالخارج أن الجالية النشيطة في فرنسا تعدّ 249.650 شخصا، أي نسبة 59،5٪ من مجموع الجالية النشيطة في الخارج وتعدّ في المغرب العربي 47.800 أي11،4٪. وتأتي ألمانيا في المرتبة الثالثة ب 32.740 نشيطا أيّ 7،8٪ تليها إيطاليا بـ 32.130 نشيطا أي بنسبة 7،7٪ من المجموع. وقد أعلنت وزارة الشؤون الاجتماعية والتضامن التونسية، أن عدد العاطلين في الجالية التونسية بأوروبا يبلغ حوالي 123 ألف فرد، بنسبة 28٪ في فرنسا، 45٪ في بلجيكا في سنة 2004.

-الهجرة التونسية نحو بلدان المجموعة الاقتصادية الأوروبيّة:

إن الانكماش الاقتصادي والمشكلات التي ظهرت منذ سنة (1973 انخفاض قيمة الدولار، أزمة النفط، التضخم المالي، البطالة في أوروبا)، أجبرت أهمّ البلدان المستقبلة للمهاجرين على وضع سياسة موحّدة تجاه الشغل واليد العاملة الأجنبية. وقد تركّزت خطوطها الكبرى على:

– مراقبة دقيقة لحركة الهجرة.

– تشديد الخناق على الهجرة المفرطة والخفية.

– توقيف تشغيل اليد العاملة التي لا تنتمي إلى بلدان المجموعة وفي مختلف أسواق الشغل.

– وضع إجراءات لتسهيل عودة العمّال إلى بلدانهم الأصلية.

وقد اتّخذت هذه القرارات دون استشارة البلدان العمل الأصلية. ومنذ شهر نوفمبر 1973 أغلقت ألمانيا باب الهجرة أمام اليد العاملة التونسيّة واتخذت فرنسا الإجراء نفسه في جويلية 1974 وأصبحت تستقبل أقلّ من 1000 عامل موسمي كل سنة. وهؤلاء العمّال يجبرون على إمضاء التزام بالعودة بعد انقضاء الفترة المنصوص عليها في العقد.

3ـ مداخيل الشغل

الواقع أن8،9٪ تقريبا من المداخيل الخارجية تأتي من الأرصدة التي يحوّلها عمالنا في الخارج إلى تونس. وأكثر من88.8٪ من هذه الأرصدة تأتي من عمالنا المهاجرين إلى أوروبا و57٪ في الجالية المقيمة في فرنسا. وقد بلغت المدّخرات من الأموال التي حوّلها التونسيّون المقيمون بالخارج 2009.9 مليون دينار سنة 2006 مقابل 1806.9**مليون دينار** في سنة 2005 و 711.8 سنة 1995 حسب إحصائيات البنك المركزي التونسي.

4 – دور هجرة اليد العاملة التونسيّة في التنمية:

يفضّل عدد لا يستهان به من العمال العائدين من الخارج الانتصاب لحسابهم الخاصّ، ببعث مشروع أو بالعمل في القطاع الفلاحي. وفي هذا

الإطار وافقت وكالة النهوض بالصناعة ووكالة النهوض بالاستثمارات الفلاحية في الفترة 1988–2007 على بعث 10303 مشروعات اقتصادية لفائدة العمالة العائدة نهائيا إلى أرض الوطن. وذلك في نطاق الاجراءات القانونية المعتمدة منذ سنة1972 والقاضية بإعفاء المعدّات المستوردة التي يجلبها العمال العائدون من الخارج من الأداءات الجمركيّة. وقد بلغت جملة التمويلات المرصودة لهذه المشروعات 385.142 مليون دينار مكّنت من إحداث 43.912 موطن شغل موزّعة على ثلاثة قطاعات: الفلاحة (9،6٪) والصناعة (26.2٪) والخدمات (64،2٪).

وتجدر الإشارة إلى أن الهيكلة الديمغرافية والاجتماعية المهنية للجالية التونسية في المهجر قد طرأ عليها تغيير مهمّ خاصة منذ مطلع الثمانينات من القرن العشرين نتيجة عدّة عوامل منها التجمّع العائلي وتطوّر الولادات والزيجات بالخارج التي أسهمت في الترفيع من نسبة النساء و الشبان في تركيبة الجالية – وهو ما يقارب46 ٪ من مجموع الجالية التونسية سنة 2005 – ومن ثمّة تنامي الأجيال الجديدة للهجرة الذين ارتفع عددهم من 104.834 سنة 1987 إلى 165.360 سنة 2005. وتقدر نسبة النمو السنوي بـ2.6٪، كما أن الوضع الاجتماعي والاقتصادي الحالي قد أدخل تغييرا على تصوّر المهاجرين لمسارهم وأهدافهم إذ أصبح معظمهم يفكّرون في الاستقرار ببلدان الإقامة الأوروبية بحكم مقتضيات شغلهم وتعليم أبنائهم وتعلّق هؤلاء بأنماط العيش وظروف الإقامة بالفضاءات السكنية والثقافية التي نشؤوا وترعرعوا فيها.

وقد ظهرت فئات جديدة من الموظّفين والتجّار ورجال الأعمال ومن النخب العلمية المختلفة التي جاءت لتدعم ما حققته هجرة الجيل الأول من نتائج مهمّة في عدة مجالات كالاقتصاد والعلوم والتكنولوجيا والثقافة. وقد كشف المسح الذي قام به ديوان التونسيين بالخارج عن وجود ما يقارب 7700 تونسي من ذوي الكفايات العالية يقيمون في مختلف أرجاء العالم، يسهمون في المسيرة التنمويّة للبلاد، كما تشير الإحصائيات المتوفرة الصادرة عن مصالح وزارة الشؤون الخارجية إلى أن عدد الإطارات و رجال الأعمال و التجار بلغ 108.026 سنة 2007 أي بنسبة 10.6٪ من مجموع الجالية التونسية المقيمة بالخارج.

5ـ آفاق هجرة اليد العاملة التونسيّة

كان الهدف من هجرة اليد العاملة التونسية إيجاد حلّ مؤقّت، يمكّن من استيعاب جزء من العجز في ميدان التشغيل، إلاّ أن الأوضاع السيئة السائدة بأوروبا يجعلنا نستنتج بقاء حركة الهجرة إلى الخارج محدودة جدا طيلة المخطط الحادي عشر (2007–2011) ومن المحتمل أن يتواصل الوضع على ما هو عليه في المخطط الثاني عشر. (2010–2014) ومن هنا نتبيّن أن آفاق الهجرة إلى أوروبا ليست مناسبة خاصة بعد انضمام إسبانيا واليونان والبرتغال وبلدان شرق أوروبا إلى المجموعة الاقتصادية الأوروبية. وهذا الوضع ستكون له انعكاسات سيئة على اليد العاملة التونسية في أوروبا رغم أنها لا تمثّل سوى 2٪ من مجموع الأجانب داخل المجموعة، كما أن هذا الوضع يهدّد بتخفيض جانب من المداخيل الخارجيّة التي تمثّل 83٪ من مجموع المداخيل من العملة الصعبة.

ومن جهة أخرى فإن ظروف العيش والعمل للعمّال التونسيين هي أيضا أضحت مهدّدة، باعتبار أن الأولوية تمنح إلى العمال المواطنين والمنتمين إلى بلدان المجموعة الاقتصادية الأوروبية، فيما يخص الحصول على شغل وضمان الشغل وحريّة التنقل داخل المجموعة والمساواة بينهم وبين المواطنين في ميدان التكوين المهني والضمان الاجتماعي وحقّ المرأة والأبناء في الشغل وإمكان التجمّع العائلي. وفعلا، لا تدلّ الأزمة الاجتماعية المستشرية بأروبا منذ سنة 1973 على أنها

ظرفية. وإنما هي أزمة هيكلية بعيدة المدى، ستزيد بالضرورة في تضخيم عدد العمّال التونسيين العاطلين عن العمل بأوروبا ودفعهم إلى العودة إلى تونس مقابل مساعدة مالية أو دونها. ومن هنا يتجلّى خطر مشكلة التشغيل.

هذا وإن مشكلات التشغيل في تونس بدأت تبرز منذ سنة 1966. واعتبارا من ذلك التاريخ لم تحلّ. ذلك أن عدد العاطلين الذي كان في ذلك التاريخ 166.500 قد ارتفع إلى 490.300 سنة 2009. وهذا العدد من العاطلين يشمل نسبة كبيرة من الشبان بعضهم غادروا الأرض وبعضهم الآخر نزحوا إلى المدن وزادوا في تضخّم عدد العاطلين. هذا التنقل من الوسط الريفي إلى الوسط الحضري انجرّت عنه طبعا مشكلات أخرى. ولكن فيما يتعلّق بالتشغيل، تعتبر مخططات التنمية الاقتصادية والاجتماعية أنه لا يمكن الاستجابة إلا لقرابة ثلثي الطلبات الإضافيّة للتشغيل. وهذا التفاوت بين العرض والطلب هو سبب الهجرة إلى الخارج.

الهجرة الدّاخلية:

ظهرت في البلاد التونسية حركات هجرة داخلية وخارجية مكثّفة أثّرت في توزيع السكّان الجغرافي وبنيتهم الديمغرافية والاجتماعية والاقتصادية ونموّهم. وتعود هذه الحركات أساسا إلى أسباب اقتصاديّة واجتماعيّة إذ أن إمكانات التشغيل لا تضمن بما فيه الكفاية مواطن الشغل لكل الفئات التي تتقدّم إلى سوق الشغل سنويا والتي يقدّر عددها بـ 41900 ألف نسمة، إضافة إلى عدد العاطلين الذين وصل عددهم سنة 2009 إلى 490300 عاطل عن العمل وتؤدّي هذه الوضعية إلى ارتفاع سنوي في عدد العاطلين وهو ما يدفعهم في الغالب إلى الهجرة والنزوح.

أ -الهجرة الداخلية للسكّان:

لهذه الظاهرة وجهان: الأول النزوح الريفي والآخر الهجرة بين المدن إذ ينطلق النازحون من المناطق الداخلية الريفيّة نحو المناطق الساحليّة ولا سيما إقليم تونس. ذلك أن هذه المدن حظيت ومازالت بنسبة مهمة من التمويلات الاقتصادية والخدمات الاجتماعية. وتعدّ العاصمة في هذا المجال قطبا جاذبا لا مثيل له. فهي تستقطب السكّان من أغلب جهات البلاد بنسب متفاوتة. أما أهم مراكز النزوح فهي ولايات الشمال الغربي والوسط الغربي.

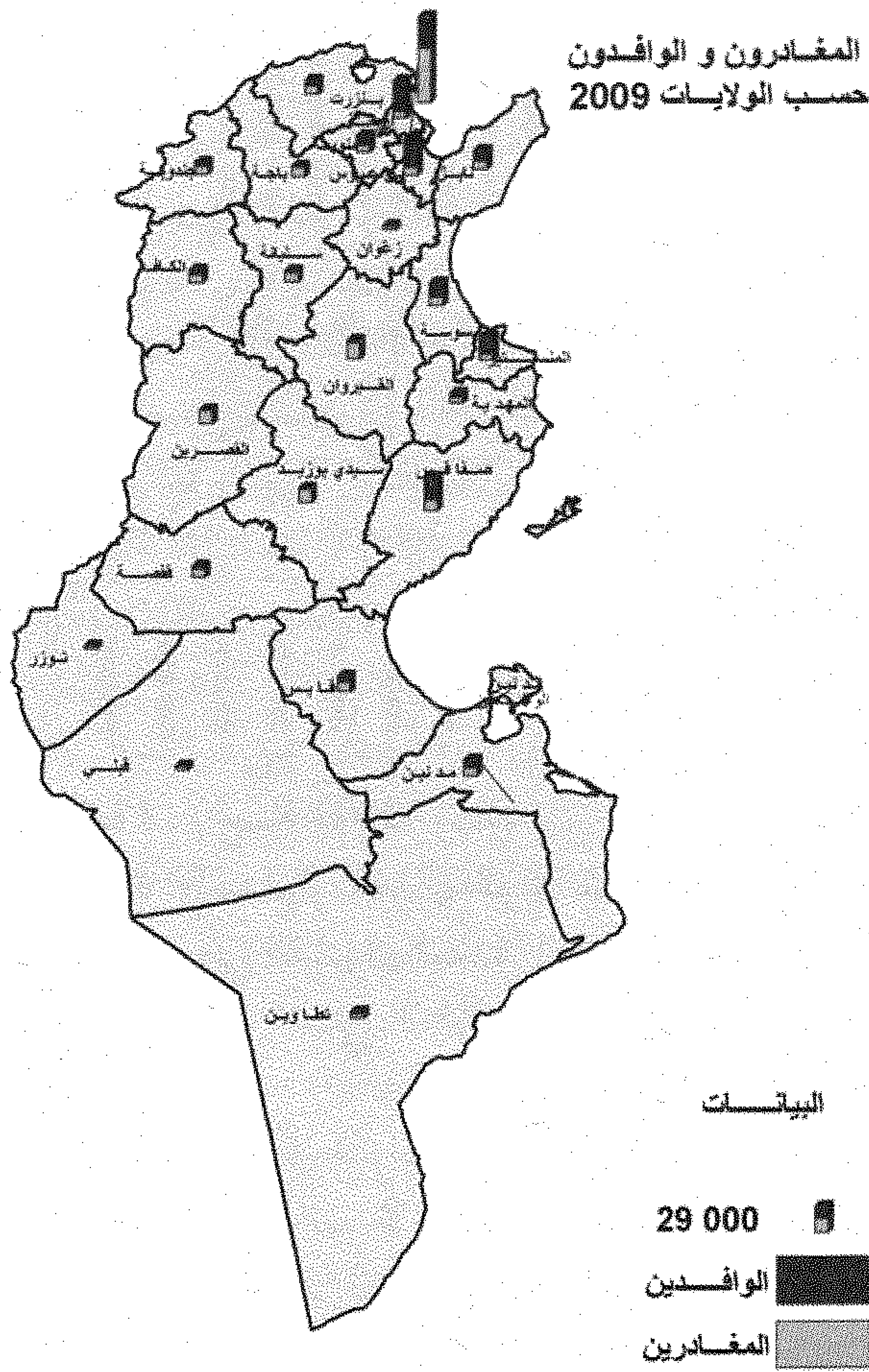
ولقد بيّنت نتائج المسح سنة 2009 أن 1075،7 ألف نسمة غيّروا مقرّ إقامتهم بين سنتي 1999-2004 بنسبة تحرّك تقدّر بـ10،3٪ من مجموع السكّان. وتجدر الإشارة إلى أن 17،1 ألف نسمة من هؤلاء قد أتوا من الخارج و 254،5 ألف نسمة قد هاجروا بين الولايات. وذلك بتغيير ولاية الإقامة في حين أن الأغلبية أي 762،9 ألف مواطن قد غيّروا مقرّ الإقامة داخل حدود الولاية الواحدة باعتبار التحركات في المنطقة أو المعتمدية نفسها. وتمثّل نسبة الهجرة بين الولايات 23،7٪ من جملة التحرّكات السكانية. وتبرز المقارنة بنتائج التعدادات السابقة أن التقلّص الملاحظ في معدّل الهجرة بين الولايات في الفترة 1975 و2009 سجّل تراجعا إذ بلغت نسبة الهجرة من جملة السكّان 0،49٪ سنة 2009. وتفيد المعطيات أن تزايد حجم المهاجرين بين الولايات أثّر في تطوّر الهجرة الداخلية حسب الجهات ولم يزل إقليم تونس يستقطب النصيب الأوفر من المهاجرين في حدود 58،5 ألف خلال الفترة(2004-2009) مقابل 45،9 ألف خلال الفترة 1994-1999 و47،8٪ ألف بين سنتي 1989-1994 في حين ارتفع استقطاب الوسط الشرقي من 18،6 ألف مهاجر في الفترة 1989-1994 إلى 32،5 ألف نسمة بين سنتي (1994-1999) و49،69 ألف مهاجر في الفترة (2004-2009) ويأتي معظمهم من أغلب الجهات الغربية للبلاد.

وتبرهن الحصيلة الهجرية الصافية على أنه إلى جانب القطب الجاذب المهيمن الذي يؤلفه إقليم تونس (تونس العاصمة وأريانة وبن عروس ومنوبة)، تدعمّت جاذبية الولايات الساحلية

الشرقية خصوصا (صفاقس وسوسة والمهدية والمنستير). ولقد بلغت الهجرة الصافية نحو هذه الولايات بين سنتي 2004–2009 حوالي 49،6 ألف مهاجر أي 85٪ من جاذبية إقليم تونس. وكل هذه النتائج تدل على أنّ الولايات الساحلية الشرقية في نمو مطرد وأن الاستثمارات التنموية في اتّجاه الصناعة والسياحة والخدمات والزراعة التي بذلت فيها منذ الاستقلال هي التي كانت وراء تحول هذه المناطق إلى أقطاب جاذبة للقوى العاملة.

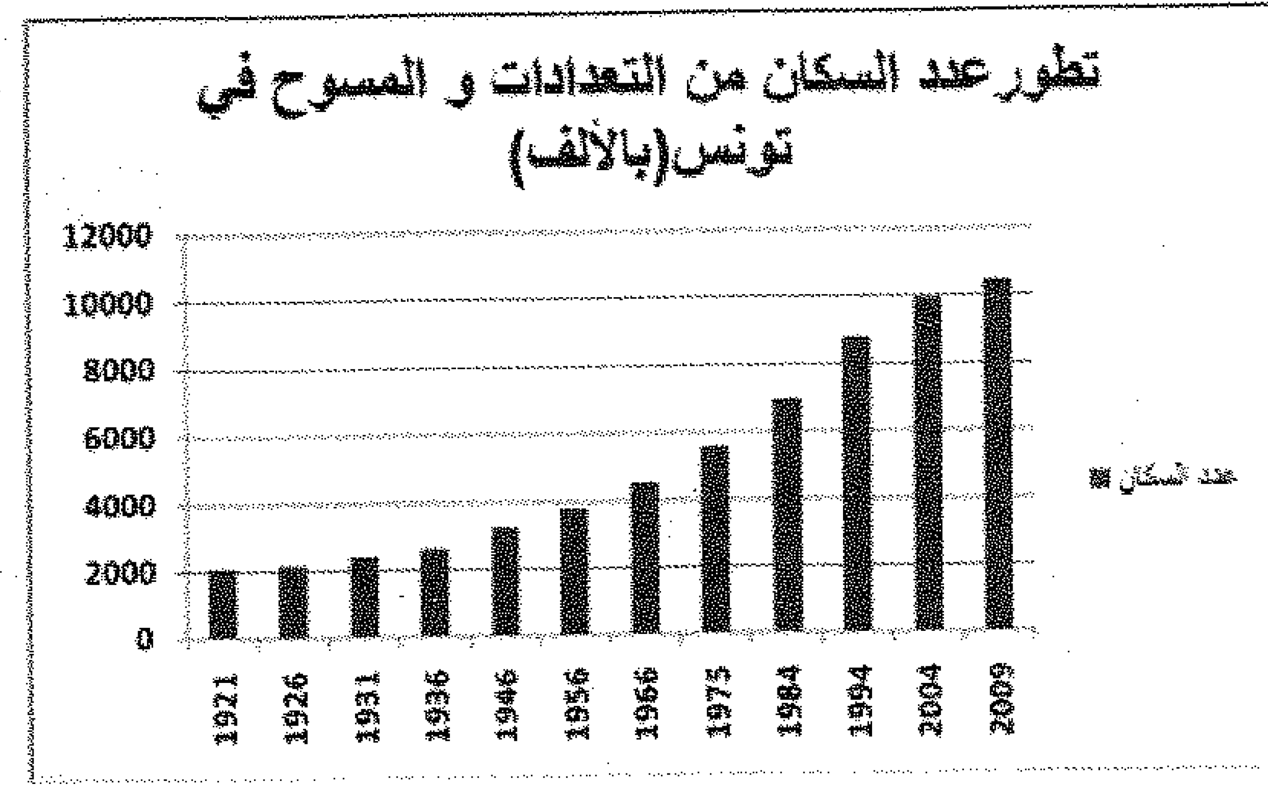
ولقد بيّنت الدراسات أنّ جلّ التحركات السكّانية تنطلق من المناطق الداخلية وخاصة من الوسط الغربي والشمال الغربي ذات نمط العيش الريفي الغالب نحو المناطق الساحلية الشرقية التي ترتفع فيها نسبة التحضر على نحو ملحوظ. وممّا لا ريب فيه أن النمو الاقتصادي المطرد لإقليم تونس والوسط الشرقي والركود الاقتصادي والمشكلات الاجتماعية التي تشكو منها المناطق الداخلية أسهمت في نمو حركة الهجرة من المناطق الداخلية نحو المناطق الساحلية وفي التحضر السريع للواجهات الساحلية ثم الهجرة الخارجية.

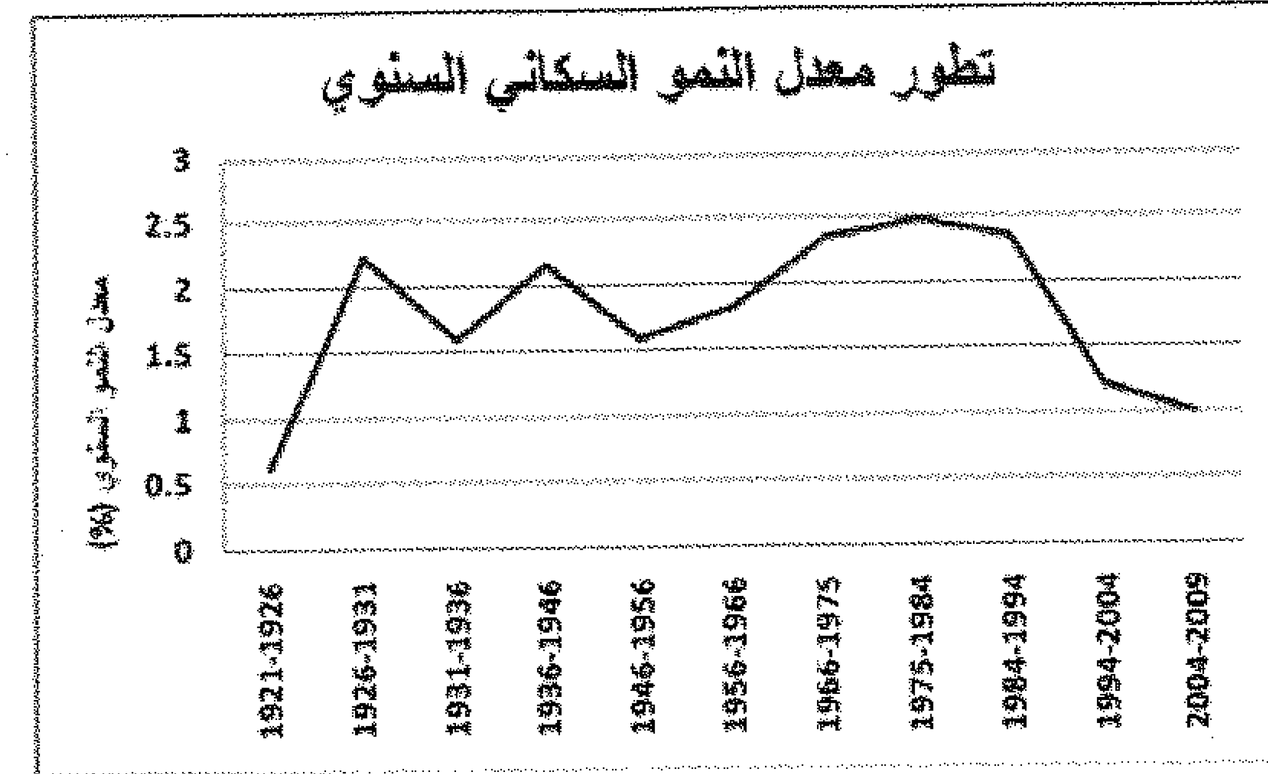
أما فيما يتعلّق بأسباب الهجرة الداخلية بين الولايات فإن مرافقة العائلة أو أحد أفرادها (33،6٪) هي السبب الأوّل. ويأتي العمل والبحث عن الشغل في المرتبة الثانية (25،9٪) وتتعلّق الأسباب الأخرى للهجرة خاصة بالدّراسة (13،6٪) والزواج (13،3٪). وقد أنشأت هذه الحركة السكانية حزاما من الأحياء الفوضويّة يقطنها عدد ضخم من السكّان يتزايد بالنزوح المستمرّ. وتصنّف تونس ضمن الأقطار الشديدة التمركز بحكم كون العاصمة تعاني من مشكلة التضخّم الحضري. وتنجرّ عن الهجرة الداخلية بنوعيها الريفيّة والحضريّة انعكاسات سلبيّة منها اختلال توازن النموّ السكّاني نتيجة تهرّم سكّان الريف وافتقاره إلى القوى العاملة في حين تتفاهم مشكلات السّكن وترتفع نسبة البطالة في المدن الكبرى كتونس وصفاقس وسوسة التي تستقطب أعدادا كثيرة من المهاجرين.



ب –تطوّر السكّان

بلغ عدد سكّان البلاد التونسية 10.420،400 نسمة سنة 2009. وقد كان حسب تعداد 28 أفريل 2004، 9.910،872 نسمة وبذلك تكون الزّيادة الحاصلة في العدد الجملي في الفترة الفاصلة بين التّعداد والمسح 509.528 أي بمعدّل نموّ سنوي يساوي1،01٪. ومقارنة بنسبة النموّ في الفترة السابقة 1984–2004 يتبيّن أنها سجّلت انخفاضا من 1،7٪ إلى 1،01٪ يعود خاصة إلى انخفاض معدّل الولادات من 32.٪ سنة 1984





إلى 17،7 ٪ سنة 2009. ويتواصل انخفاض معدّل الولادات واستقرار معدل الوفيات العامة، تراجع النموّ الطبيعي السنوي ليصل إلى 1،2٪ سنة 2009 مقابل استقرار نسبي 1،7٪ سنة1994، و3٪ سنة 1966.

ويسجّل معدّل التّزايد السكاني استقرارا نسبيا في الخمس سنوات الأخيرة. وتجدر الإشارة إلى أن نسبة الذكور ما فتئت تتقلّص من 51،1٪ لسنة 1966 لتبلغ 50،5٪ سنة 1994 و50،1٪ سنة 2004 ثم 50،0٪ سنة 2006 والسنوات التي تليها. ويعزى هذا التوجه المتواصل إلى تأثير تيارات الهجرة الخارجية التي تشمل بدرجة أولى الرجال وإلى التراجع المهمّ في نسبة وفيات الأطفال من البنات وإلى المستوى المرتفع لمؤمّل الحياة عند الإناث 76،5 سنة مقابل 72،5٪ بالنسبة إلى الذكور.

وتجدر الإشارة أيضا إلى أن نسبة الذكور عند الولادة في تونس تتراوح بين 106 و 108 مواليد ذكور لكل 100 أنثى.

انخفاض ملحوظ في عدد الولادات ووفيات الأطفال:

لقد سجّل العدد السنوي للولادات انخفاضا منذ أواخر الثمانينات ليصل سنة 2009 إلى 185 ألف ولادة بعد أن كان في حدود 200 ألف ولادة سنة 1994. فقد استقرّ عدد الولادات نسبيّا في السنوات 2000 و 2001 و 2002 ليعود إلى الارتفاع تدريجيا ويصل إلى 185،000 سنة 2009. والجدير بالملاحظة أن المعدّل الخام للمواليد اتّسم بالاستقرار النسبي في الخمس سنوات الأخيرة على الرغم من الارتفاع المتواصل لحجم النساء المتزوجات وهن اللاّتي في سن الإنجاب (15 إلى 49 سنة) وقد بلغ سنة2009، 1.472،000 امرأة مقابل حوالي 1.372،000 امرأة سنة 2004.

وعلى المستوى الجغرافي سجّل في كل ولايات البلاد دون استثناء انخفاض ملحوظ في العدد السنوي للولادات وإن كان هذا الانخفاض أوضح في جهات الوسط الغربي والجنوب التي حظيت بجهد إضافي وبرنامج خصوصي يتعلّق بخدمات تنظيم الأسرة في السنوات الأخيرة.

وتفيد الإحصائيات أن معدّلات الوفيات سجّلت تقلّصا مهمّا وخاصة لدى الرّضع إذ انخفضت من 138،6 ٪ سنة 1966 إلى 17،8 ٪ سنة 2009، في حين سجّلت وفيات الأمهات تقلصا مهمّا وبلغت 35،5 حالة لكل 100 ألف مولود حي سنة 2009 عوضا عن 69 حالة لكل 100 ألف مولود حي سنة 1994. وقد انعكس هذا الانخفاض لمعدّل الولادات على المؤشر التأليفي للخصوبة.

انخفاض مهمّ في المؤشر التأليفي للخصوبة:

يعتبر المؤشّر الكلّي للخصوبة أو معدل الأطفال للمرأة الواحدة من أهم المقاييس الدالة على مدى نجاح السياسة السكانية وبرنامج الصحّة الإنجابية في المجتمع التونسي. ولقد سجلّ هذا المؤشر انخفاضا كبيرا بعد أن كان يبلغ 7،2 طفلا سنة 1966، إذ انخفض إلى 2،9 طفلا سنة 1994 ثم إلى 2،05 سنة 2009 متجاوزا بذلك التقديرات المرسومة لسنة 2001 وهي بلوغ المؤشر الكلي للخصوبة بـ 241طفلا لكل امرأة.

ومثلما هو شأن الولادات فإن مؤشّر الخصوبة انخفض في كل الولايات دون استثناء مع نسق أسرع في ولايات الوسط الغربي والجنوب نتيجة لبرامج الخصوصيّة التي شملت هذه الجهات. وتعتبر تونس من البلدان القليلة التي بادرت باتّخاذ إجراءات ذات تأثير مباشر في السّلوك الإنجابي وقد أدّى البرنامج الوطني لتنظيم الأسرة إلى تطوّر نسبة التغطية باستعمال الوسائل المانعة للحمل على نحو واضح. وتجدر الإشارة إلى أن المعدّل الذي بلغته تونس حاليا في تقلص مؤشر الخصوبة يعدّ من أضعف المعدّلات في الوطن العربي والقارّة الإفريقية بأكملها. وهو ما يجعل تونس في مرتبة متوسّطة مقارنة بالوضع السكاني السائد في أوروبا ذلك الذي يتميز بعدم تعويض الأجيال وأيضا مقارنة بمناطق أخرى مازالت في طور التجدد السريع للأجيال إذ أن معدّل تونس الإجمالي في حدود طفلين لكل امرأة. وإزاء هذا الوضع الديمغرافي طرأ تحوّل على السياسة السكّانية للبلاد التي تحافظ على المعدّل الإجمالي الحالي لتأمين تجدد الأجيال.

وقد سجّل مؤشّر التنمية البشرية الذي يعتمد ثلاثة مكونات أساسية هي العيش أطول فترة ممكنة وصحّة جيّدة واكتساب العلوم والمعرفة والحصول على الموارد الضروريّة للعيش في أحسن الظروف، ارتفاعا مهمّا بالتوازي مع تقلّص مستوى الخصوبة. وتبرز المقارنة بين نسبة التطوّر لمؤشّر التنمية البشرية ونسب الانخفاض في مؤشّر الخصوبة الكلّي (عدد الأطفال لكل امرأة) على المستوى الوطني، أن نسق الانخفاض لمؤشّر الخصوبة الكلّي كان أسرع من نسق التطوّر لمؤشّر التنمية البشرية. وهو ما يؤكّد أن برنامج تنظيم الأسرة مع توفير الخدمات التثقيفية والطبيّة وتقريبها من الأسرة هو أحد العوامل المهمّة التي أدّت إلى تقلّص مستويات الخصوبة. وإنّ توفير كلّ مقوّمات التنمية الاجتماعية والاقتصادية وخاصة منها تعميم التعليم وتحسين التغطية الصحيّة وتحقيق النماء والرّفاه الاجتماعي للفرد تفرض عليه تعميق الوعي إزاء الإنجاب وانعكاساته على مستوى عيش المواطن.

وللدّلالة على النقلة النوعيّة في وضع المرأة بالبلاد التونسيّة يكفي أن نشير إلى أن عدد النساء صاحبات الأعمال تجاوز الثمانية عشر ألف امرأة، أغلبهنّ في القطاع الصناعي، كما أن نسبة النساء في مجلس النواب تطوّر من 4،2٪ سنة 1989 إلى 22،7٪ سنة 2009، وفي المجالس البلدية من 13،6٪ سنة 1990 إلى 22،6٪ سنة 2009 وفي سلك القضاء بلغت نسبة النساء 28٪ سنة 2009 مقابل 10،5٪ سنة 1984، كما أن حضور المرأة بمجلس المستشارين يقدّر بـ 19٪ سنة 2009 وقد مثل الحضور النسائي 20 ٪ في أعضاء المجلس الاقتصادي والاجتماعي، كما أن حضور المرأة في السلك الدبلوماسي قد تدعّم ليبلغ 20٪ سنة 2009 مقابل 9٪ سنة 1993. هذا إلى جانب وجود المرأة الدائم في الحكومة حيث تمثل 15٪ من أعضاء الحكومة. ونتيجة لتطوّر أوضاع المرأة برز واقع جديد داخل الأسرة والمجتمع له الأثر الكبير في تحديد مستويات الخصوبة.

وقد انطلقت في قطاع الصحّة منذ بضع سنوات إصلاحات مهمّة تتعلّق خاصّة بطرق تسيير القطاع وتنظيمه وتمويله وإنجاز جملة من البرامج والمشروعات تهدف إلى تحسين التغطية الصحيّة وتقريب الخدمات من المواطن بتعزيز البنية الصحيّة والاستشفائيّة وتنمية الموارد البشريّة. فقد ارتفع عدد مراكز الصحّة الأساسيّة من 1516 سنة 1992 إلى 2085 مركزا سنة 2008 أي ما يعادل مركزا صحيّا لكل 5448 مواطنا سنة 1992 مقابل مركز لكل 5000 مواطن سنة 2009. إنّ تطوّر المناشط الخاصة بصحّة الأم والطفل ودعم العيادات المختصّة وإدماج خدمات التنظيم العائلي ضمن المناشط أسهم في التخفيض من معدّل وفيات الأطفال إلى 17،8 .٪ سنة 2009 مقابل 37،3 .٪ سنة 1990. ولاتزال التوجهّات

تعمل على مواصلة تعزيز التغطية الصحيّة الضروريّة خاصة على مستوى المناطق الداخليّة والجهات ذات الطابع الريفي. وذلك لتعزيز القدرات الوقائيّة الحالية وتحسينها ومقاومة الأسباب الكامنة وراء وفيات النساء والأطفال.

تطوّر حجم السكّان في الفترة (2009–2039):

بناء على ما أفرزته المرحلة الانتقالية التي تمرّ بها البلاد التونسيّة على الصّعيد الديمغرافي من استنتاجات، اعتمدت تقديرات النموّ الديمغرافي على المدى المتوسّط والبعيد أربع فرضيات رئيسة لتطوّر الخصوبة إلى أفق سنة 2039. وذلك انطلاقا من نتائج المسح الوطني حول السكان والتشغيل سنة 2009. وتقتضي الفرضية الأولى – وهي فرضية استقرار الخصوبة – أن تبقى الخصوبة طيلة فترة الإسقاطات في مستواها الحالي الذي سجّل سنة 2009 أي 2.05 والفرضية الثانية وهي الفرضية القصوى حيث يفترض أنّ يتطوّر المؤشّر التأليفي للخصوبة بنسق بطيء جدّا ليصل إلى مستوى 2.1 سنة 2029 ويستقرّ في هذا المستوى حتّى سنة 2039.

أما الفرضية الوسطى فهي أن ينخفض مستوى الخصوبة إلى 2.01 في سنة 2029 ثمّ يبقى مستقرّا في هذا المستوى إلى أفق 2039. وأخيرا الفرضية الدنيا التي يفترض حسبها أن ينخفض مستوى الخصوبة ليصل إلى 1.90 في سنة 2029 ويستقرّ في هذا المستوى إلى سنة 2039.

ونظرا إلى أنّ تونس قد بلغت منذ سنة 1999 مستوى الخصوبة الذي يمكّن من تجدّد الأجيال(2.1) وإلى أن مؤشّر الخصوبة كما يستقرّ في السنوات الأخيرة (2.05 سنة 2009)، فإنّه يتبيّن أنّ جلّ المؤشّرات الاجتماعية والاقتصادية (التحضّر،التعليم، متوسّط عمر الزواج عند الفتاة، تشغيل المرأة، تكلفة تربية الطفل، الفوارق في مستوى الخصوبة بين الجهات،)...التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بتطوّر مستوى الخصوبة، توحي بأنّ مستوى الخصوبة في تونس قد يواصل انخفاضه و لكن بنسق بطيء جدّا، مقارنة بسنوات التسعينات وقد يواصل شبه استقراره في مستواه الحالي.

فيما يخصّ الوفيات قد استندت التقديرات إلى فرضيّة واحدة تخصّ وفيات الرضع وأمل الحياة عند الولادة وباعتبار التطوّر الاجتماعي والاقتصادي المرتقب للسكّان وتحسين ظروف عيشهم يفترض أن تنخفض نسبة وفيات الرضع إلي مستوى 16.0 وفاة لكلّ ألف ولادة سنة 2014 ثمّ يتواصل انخفاضها بنسق بطيء لتبلغ مستوى 10 وفيات لكلّ ألف ولادة في أفق سنة 2039 وباعتبار فرضيّة الانخفاض في نسبة وفيات الرضع ينتظر أن يتطوّر أمل الحياة عند الولادة من 74.4 عاما سنة 2009 ليبلغ 75.2 عاما سنة 2014 ثمّ 77.6 عاما سنة 2039.

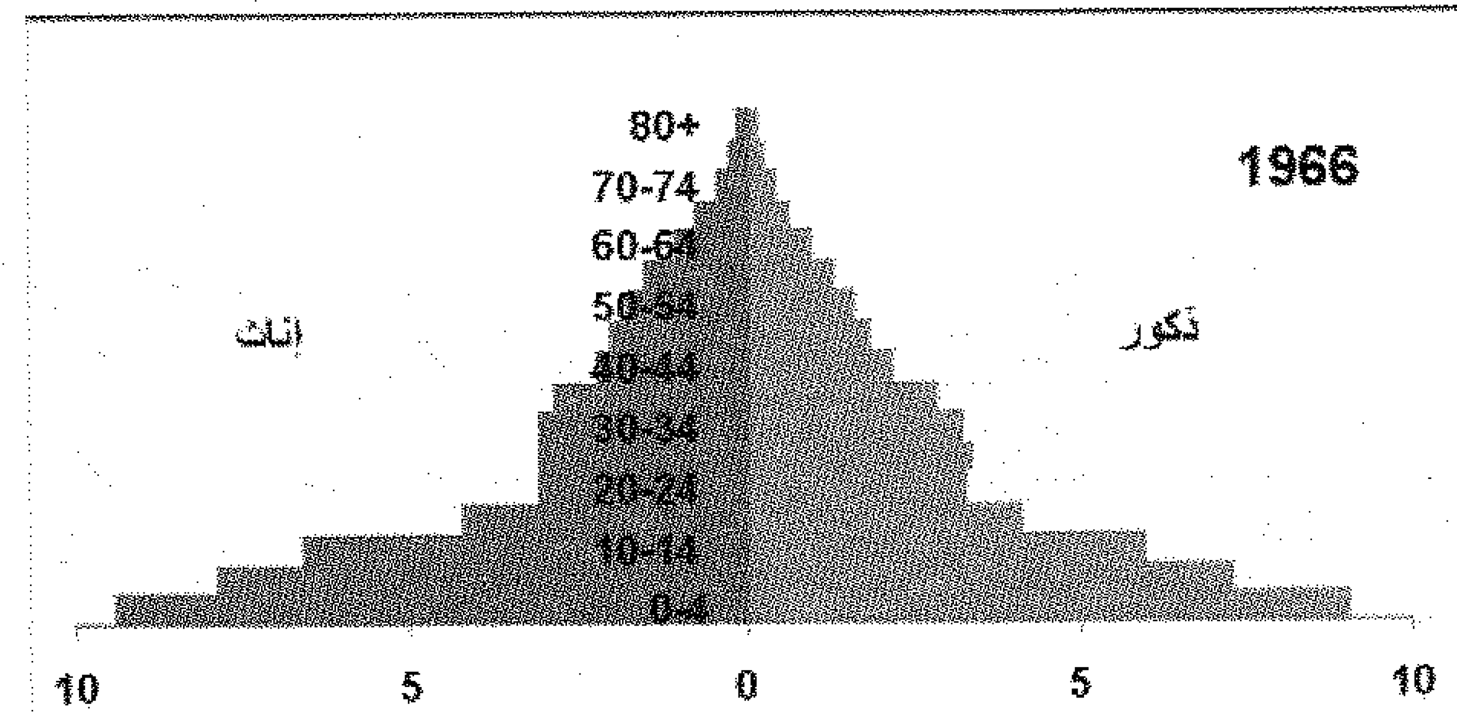
أمّا فيما يتعلق بالهجرة الخارجيّة فكانت الفرضية أن مستوى صافي الهجرة السلبي سيستقرّ في حدود 10.000 شخص طوال فترة الإسقاطات أي إلى أفق سنة 2039. ذلك استنادا إلى نتائج التعداد العام للسكّان والسكنى لسنة 2004 والمسوح الوطنية حول السكان والتشغيل التي تُظهر أنّ تيّارات الهجرة الخارجيّة التي سجّلت في العشرية الماضية أرقاما مهمّة نسبيّا من ناحية العدد وأنّ صافي الهجرة كان دائما سلبا ومن ثمّة ليس هناك ما يدلّ على أن حجم الهجرة الخارجية سينخفض في السنوات القادمة لاسيّما في الخماسية الأولى 2009–2014.

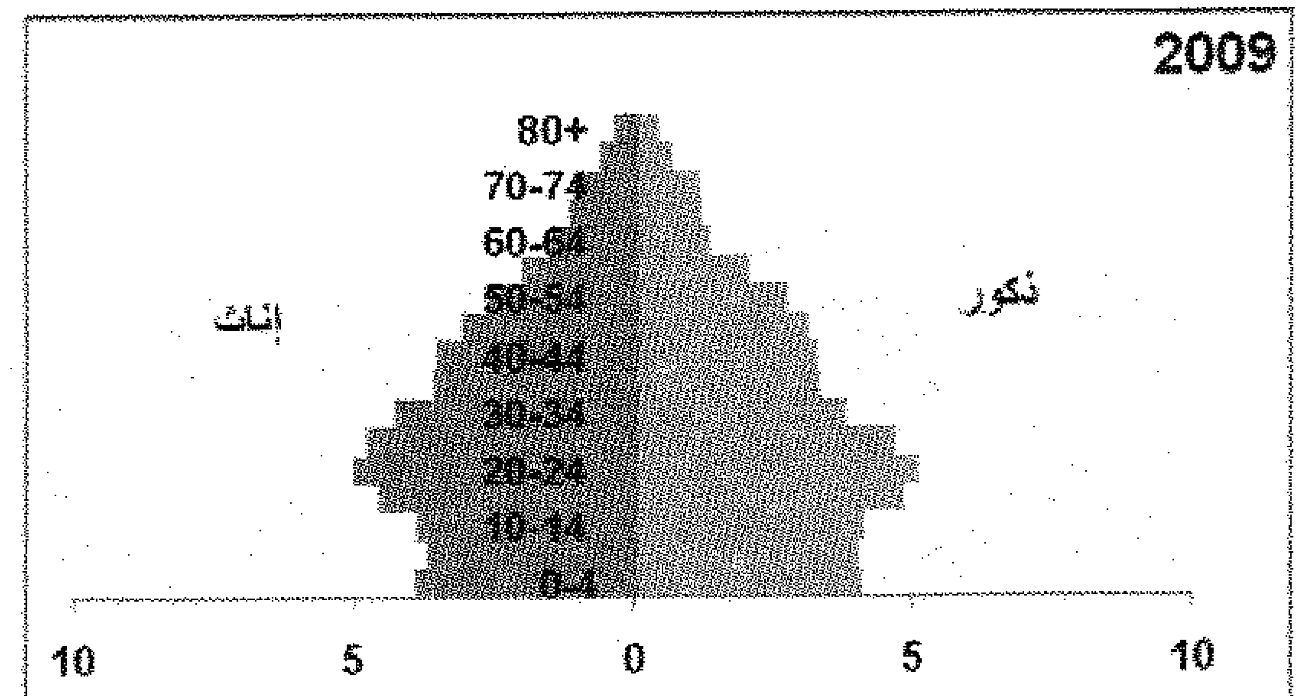
ويقدر عدد السكان قي تونس في منتصف سنة 2009 حوالي 10434 ألف ساكن. ومن المنتظر أن يتجاوز عتبة 11 مليون ساكن حسب جميع الفرضيات مع نهاية الخماسية القادمة أي في سنة 2014. وانطلاقا من هذه السنة المشار إليها يبرز التفاوت في نتائج الإسقاطات حسب الفرضيات. فسيتجاوز عدد السكان حسب الفرضية الوسطى بالنظر إلى المعطيات السنوية للإسقاطات عتبة 12 مليون ساكن في سنة 2023

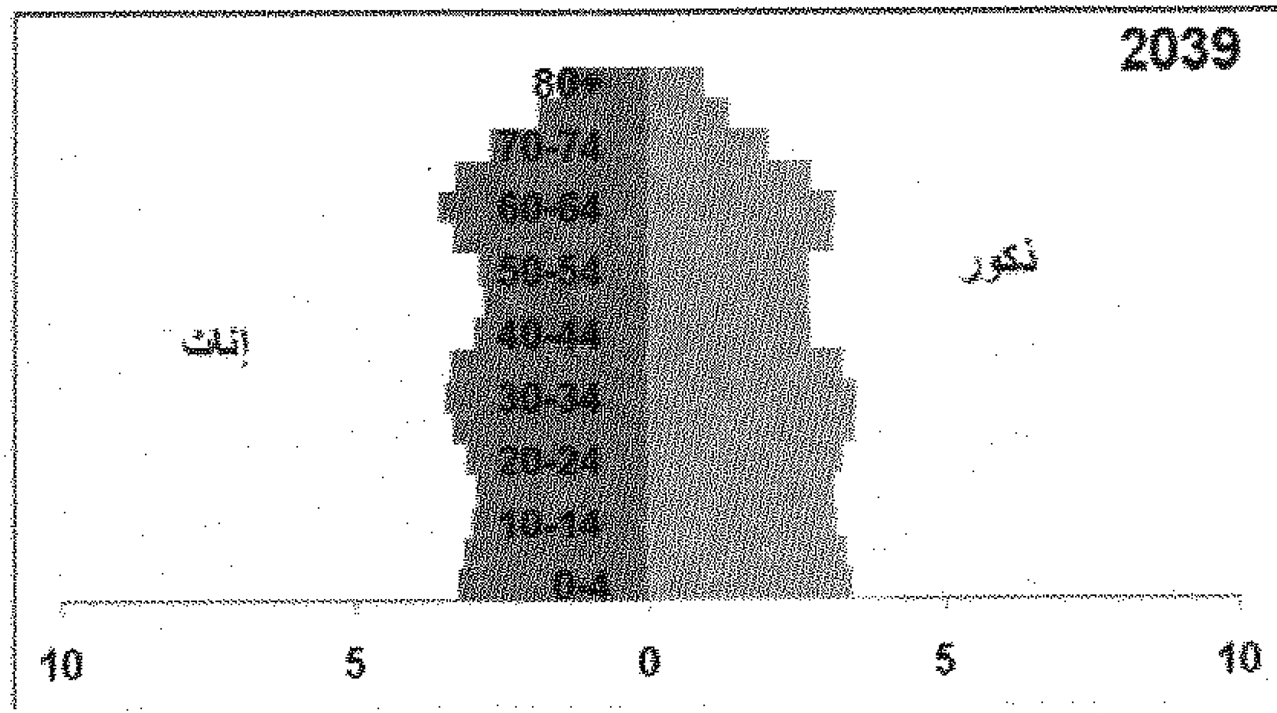
على أن يصل إلى 13 مليون ساكن في سنة 2039 شأنه شأن بقية الفرضيات ما عدا الفرضية الدنيا.

أما الوفيات، فتبيّن التوقعات أن حجمها سيسجّل ارتفاعا طيلة فترة الإسقاطات ويكون نسق الارتفاع تصاعديا إلى أن يبلغ 118 ألف وفاة في سنة 2039. وسيكون لهذه التغيّرات بالغ الأثر في التوزيع السكاني حسب فئات السنّ.

إن التغير الأهم الذي سيطرأ على الهيكلة العمرية للسكّان يخص في مرحلة أولى الفئة العمرية «60 سنة فما فوق» التي سيتضاعف عددها مرّتين ونصفا في العقود الثلاثة القادمة ليصل إلى أكثر من 2.6 مليون نسمة وبنسبة تقارب خمس سكان البلاد في أفق فترة 2039 حسب الفرضية الوسطى، في حين يتعلّق هذا التغير في مرحلة ثانية بالفئة العمرية «أقل من 5 سنوات» التي ستتقلّص ابتداء من سنة 2019 لتبلغ 6.4٪ سنة 2034. وأخيرا ستتقلّص نسبة الأطفال من الفئة العمرية «5–19 سنة» بداية من سنة 2029 لتبلغ 12.9٪ سنة 2039. لذا يقتضي الأمر أكثر من أي وقت مضى تطوير السياسة الديموغرافية وإدراجها ضمن الإستراتيجية التنموية مع ضمان ترابطها بالبرامج المحلية والجهوية والقطاعية.







التشغيل والخصائص الاقتصادية للسكّان

أ – السكّان الناشطون

حسب مفاهيم المكتب الدولي للعمل التي يعتمدها المعهد الوطني للإحصاء بداية من سنة 2005، يعتبر ناشطا كل من اشتغل خلال الأسبوع السابق ليوم الاستجواب أو من كان عاطلا عن العمل. إنّ لهذه الفئة من السكّان دورا حاسما في تطوير اقتصاد البلاد لإسهامها في تطوير الإنتاج في القطاعات الثلاثة وخاصة قطاع الفلاحة والصيد البحري الذي يستأثر بنصيب وافر من القوى العاملة. ويتعيّن على هذه الفئة من السكّان إعالة بقيّة الفئات من غير العاملين وهي تتكوّن من الأحداث دون 15 سنة. وإن نسبة السكّان غير العاملين إلى القوى العاملة تُؤلف معدّل الإعالة الاقتصادية. وقد تطوّر هذا المؤشر منذ الاستقلال ليصل إلى40٪ سنة 1999 ثم 44٪ سنة 2009 مقابل نصف السكّان سنة 1966.

وقد أفرز المسح الوطني حول السكّان والتشغيل لسنة 2009 أن عدد السكّان الناشطين بلغ 3.689،200 نسمة مقابل 3.328،600 نسمة سنة 2004 أي بزيادة سنوية قدرها 2،07٪ في هذه الفترة (2004–2009) في حين تقدّر نسبة النمو الديمغرافي بـ1،45٪ في الفترة نفسها. ويتوزّع السكان الناشطون حسب الجنس إلى 2.659،200 ألف رجل و994،1 ألف امرأة. ومقارنة بنتائج تعداد 2004 فإن معدل الزيادة السنويّة في حجم الناشطين بلغ 1،7٪ للذكور و2،4٪ للإناث. وتعود هذه الزيادة المهمّة في عدد الناشطات إلى أنه منذ تعداد 1975 أمكن تحديد الشغل النسائي وإحصاؤه على نحو أدق، خاصة في

القطاع الفلاحي حيث إنّ المرأة التي تهتم بضيعتها تعتبر مشتغلة. ففي عام 2004 كشف الإحصاء عن 113.765 امرأة مشتغلة في الفلاحة في حين لم يتجاوز عددهن 18.000 مشتغلة سنة 1966 و70.000 مشتغلة سنة 1975 و 95.800 مشتغلة في تعداد 1986. ويمكن تفسير ذلك بأن عددا مهمّا من النساء الريفيات لا يصرّحن بالشغل. وهناك ما يقارب امرأة على أربع نساء تشتغل فعلا.

وتشير النتائج إلى أن92٪ من الناشطين ينتمون إلى الفئة العمريّة (20–59 سنة) و4،5٪ بين 15–19 سنة و3،5٪ يساوي أو يفوق عمرهم 60 سنة. ومقارنة بإحصائيات مسح 2005، فإن عدد الناشطين ازداد بنسبة سنويّة تقدر بـ3،04٪ للفئة العمرية (20–59 سنة) ونقص بنسبة 2،2٪ للفئة 60 سنة فما فوق في حين تقلّص عدد الناشطين البالغين من العمر بين 15 و17سنة بنسبة سنويّة 5،4٪. وتفيد الأرقام أن نسبة النشاط لدى الذكور في تقلص مستمرّ في حين يسجّل ارتفاعا في نسبة النشاط عند الإناث. ويمكن تفسير هذا النموّ لدى المرأة أن وضعها قد تطوّر من الناحية الاجتماعيّة والتشريعيّة. وهو ما ساعدها على دخول سوق الشغل والإسهام في البناء الاقتصادي. فقد أصبحت النساء تؤلّفن نسبة مهمّة جدّا من المشتغلين في ميداني التعليم والصحة (تقريبا ثلث السكان الناشطين). وفي قطاع الصناعات التحويلية خاصة النسيج حيث يفوق عددهن عدد الرجال (130.000 امرأة مقابل 42.100 رجل في تعداد 1994).

ب – السكان المشتغلون:

في الفترة (2004–2009) ازداد عدد المشتغلين بما قدره 344.200 مشتغل أي إن الإحداثات السنوية للشغل كانت في حدود 68.800 موطن شغل مقابل 53.400 موطن شغل في الفترة الفاصلة بين تعدادي سنتي 1984 و1994 و52.200 موطن شغل في الفترة 1994–2004.

وأفرزت النتائج الخاصة بتوزيع المشتغلين حسب قطاع النشاط الاقتصادي زيادة مهمّة في عدد المشتغلين في قطاعات الفلاحة والبناء والأشغال العامة والخدمات مقارنة بإحصائيات تعداد سنة 2004. ويتّضح من ذلك أن القطاع الفلاحي والصيد البحري لا يحتضن النشاط الأساس إذ يشغّل 18.2٪ من اليد العاملة ويأتي في الدرجة الثانية بعد قطاع الخدمات(31،3 ٪) الذي يشمل التجارة والنقل والمواصلات ومختلف الخدمات التي تقدم إلى الأفراد والمؤسسات، كما بلغت نسبة المشتغلين في الصناعات المعملية 17.8٪. ويشكّل قطاعات التربية والصحة والخدمات الإدارية 18،4٪ في حين يستقطب قطاع البناء والأشغال العامة 13،0٪ من مجموع المشتغلين. وتكون بذلك هذه النسب في شبه استقرار مقارنة بنتائج التعداد 2004 مع تراجع قطاع الفلاحة لصالح قطاع الصناعة. ومهما كان التصنيف فإن النموّ الاقتصادي مكّن القطاعين الثاني والثالث أي الصناعة والخدمات من تسجيل تقدّم سريع من حيث ارتفاع نسبتهما من جملة الناشطين. وهو ما يعكس التطوّر الذي تحقّق في البلاد على صعيد البنى الاقتصادية والاجتماعية والمهنية في العقود الثلاثة الأخيرة.

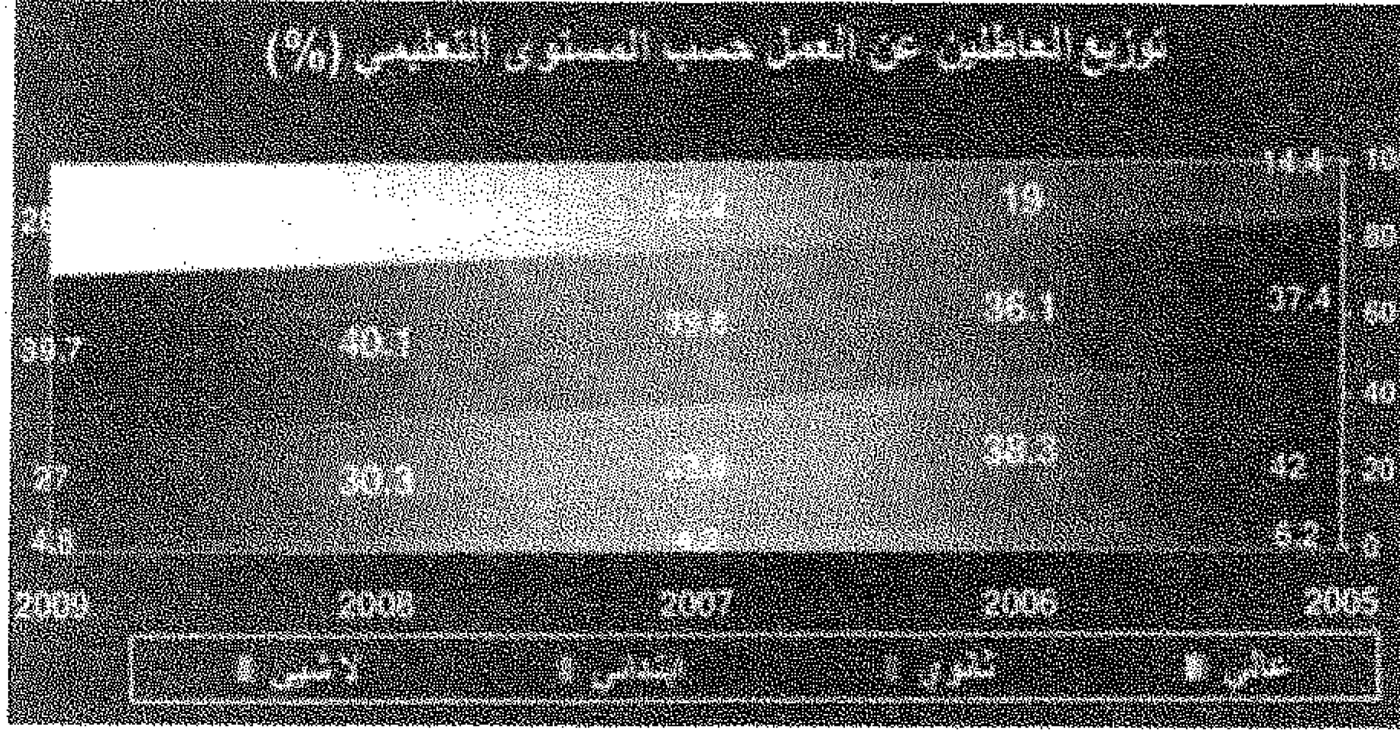
إن التغيرات التي تحدث ضمن الهياكل الاجتماعية المهنية تثبت التطور الاقتصادي والاجتماعي الطارئ كازدهار القطاع الصناعي والخدمات السياحية والحركات السكانية الداخلية والتحضر. وتؤكد معطيات المسح الوطني للسكّان والتشغيل لسنة 2009 أن المستوى التعليمي للقوى العاملة قد تحسّن تحسنا ملحوظا منذ 1994 إذ أن نسبة المشتغلين من مستوى التعليم الثانوي والعالي من المجموع قد ارتفع في الفترة نفسها من 36٪ إلى 52،9٪ في حين تقلّصت نسبة القوى العاملة من الأميين وخرّيجي الابتدائي من 64،0٪ إلى 47،1٪ بين سنتي 1994 و2009.

ج – البطالة:

اعتمدت إحصائيات 2009 تعريف المفاهيم التي حدّدها مكتب العمل الدولي منها أنه يُعتبر عاطلا عن العمل كل من لم يشتغل في الأسبوع السابق ليوم الاستجواب أو من كان يبحث عن شغل في الأسبوعين المواليين ليوم الاستجواب، كما يقتضي أن يكون البحث عن شغل فعليا. وهذا المفهوم أدرج بداية من سنة 2009 في حين كان يختصّ التعريف التونسي بالاقتصار على الناشطين من الفئة العمريّة (18–59 سنة). وقد كان التطوّر الحاصل في بعث مواطن الشغل أن استقرّت نسبة البطالة فيما بين 1989 و1999 في حدود 15 و16٪ علما بأن هذا التحكّم حصل في فترة دخل فيها الاقتصاد الوطني مرحلة إعادة هيكلة واسعة النطاق وأن سنة 1994 تميّزت بانعكاسات حالة الجفاف على القطاع الفلاحي وعلى الاقتصاد الوطني بأكمله، في حين ازداد حجم البطالة بـ 69 ألف عاطل عن الشغل وخلال الفترة (1994–1999) أي ما يناهز 13،7 ألف سنويا.

ويقدّر عدد العاطلين عن العمل من الفئة العمرية 15 سنة فما فوق في منتصف ماي 2009 بـ 490،3 ألف حسب هذه المنهجية الجديدة. وتكون بذلك نسبة البطالة 13،3٪ قد سجلت ارتفاعا مهمّا مقارنة بالسنوات الأربع الأخيرة. وقد كانت نسب البطالة مرتفعة في صفوف الشبّان دون 30 سنة. فقد تراوحت هذه النسب من 11،5٪ لدى الفئة العمريّة (15–19) و26،5٪ بالنسبة إلى الشريحة العمرية (20–24 سنة) و33،4٪ للفئة العمرية (25–29 سنة)، كما أبرز المسح حول السكّان السكني لسنة 2009 أن طالبي الشغل لأول مرة بلغ44،7٪ من مجموع العاطلين عن العمل ويوزع طالبو الشغل لأول مرة إلى 107،8 ألف رجل و112،0 وامرأة مع الإشارة إلى أن نسبة طالبي الشغل لأول مرة من الرجال العاطلين عن العمل في حدود 35،5٪ في حين تناهز هذه النسبة 60٪ لدى النساء. وذلك لارتفاع نسبة الفتيات في مختلف مستويات التعليم وخرّيجيه.

وعلاوة على ذلك تفيد النتائج أن 4،8٪ من مجموع العاطلين هم أميّون 27٪ لهم مستوى ابتدائي و39،7٪ حصلوا على تكوين في المعاهد الثانوية، في حين تقدر نسبة العاطلين من مستوى التعليم العالي 28،5٪ ومقارنة بنتائج تعداد 2004 سجّلت هيكلة البطالة تحسنا ملحوظا. فارتفعت نسب البطالة من مستوى التعليم الثانوي أو العالي في حين انخفضت معدّلات البطالة في صفوف الأميين والذين لهم مستوى ابتدائي.

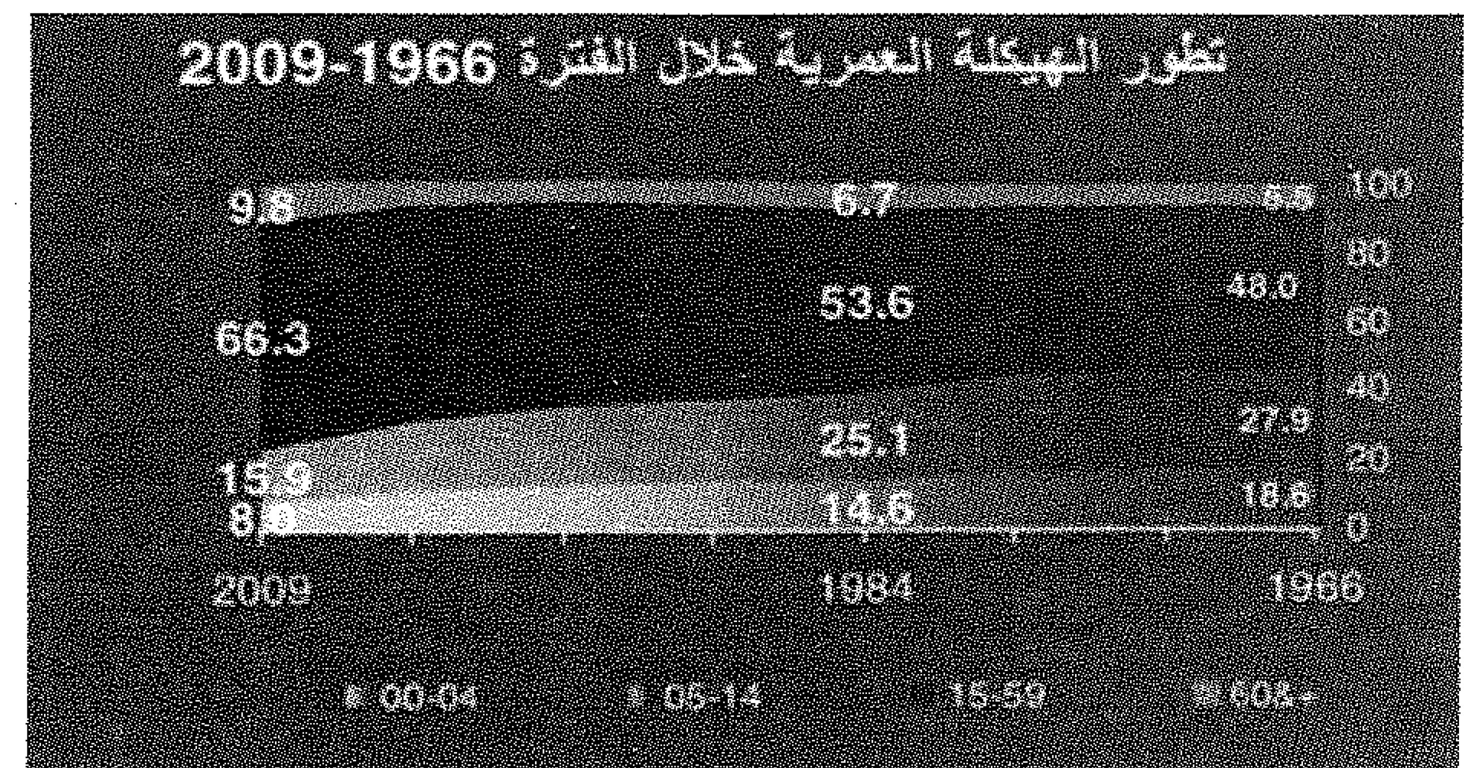


تطوّر التركيبة العمريّة للسكان:

لقد حدثت بالبلاد التونسية تحولات ديمغرافية مهمّة في العقود الأخيرة أدّت إلى انخفاض مهمّ في معدل النموّ السكاني وإلى تغيير شديد في الهيكل العمري للسكان حدّد أساسا في انخفاض مطرد في نسبة الأطفال دون تحسن سنوات دون 15 سنة مقابل تزايد ملموس في نسبة السكّان في سنّ الشغل (15–59 سنة) ونسبة المسنين (60 سنة فما فوق). وذلك بسبب تأثير انخفاض شديد في معدل الخصوبة إلى جانب التقلّص المستمرّ في معدّل الوفيات. ويعزى الانخفاض الشديد لمعدّلات الإنجاب والخصوبة في السنوات الماضية إلى تحسن مستوى التعليم وتأخير سن الزواج وإلى برنامج التنظيم العائلي والجدير بالملاحظة أنه لوحظ في الخماسية الأخيرة أن نسبة الأطفال دون الخامسة في استقرار وفي حدود 8،0٪ من مجموع

السكان. ويعزى هذا الاستقرار إلى الزيادة المهمة في عدد النساء اللاتي في سن الإنجاب ومن ثمّة في عدد الولادات من سنة إلى أخرى بقرابة 3000 ولادة بالرغم من نسبة استقرار المؤشر التأليفي للخصوبة بين 2،02٪ و2،04٪ طفل لكل امرأة في سنّ الإنجاب، كما يُعزى هذا إلى الزيادة في عدد الزيجات من سنة إلى أخرى ليبلغ 78748 سنة 2008 مقابل 63676 سنة 2003، ويتواصل من ناحية أخرى انخفاض نسبة الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين 5 و14 سنة.

وتفيد نتائج المسح الأخير لسنة 2009 أن نسبة الأطفال دون الخامسة من العمر (0–4 سنوات) في تقلص ملحوظ متواصل مع استقرار في السنوات الأخيرة التى انخفضت فيها من 18،6٪ سنة 1966 إلى 14،6٪ سنة 1984 و9٪ سنة 1999 لتصل إلى 8٪ سنة 2009، كما تراجعت بأقل قوة نسبة الفئة العمرية (5–14 سنة) إذ انتقلت نسبتها من مجموع السكان من 27،9٪ سنة 1966 إلى25،1٪ سنة 1984 إلى 21،9٪ سنة 1999 لتصل إلى 15،9٪ سنة 2009 وفي المقابل تزايدت على نحو مستمرّ نسبة السكّان الذين عمرهم 60 سنة فما فوق إذ بلغت 9،8٪ سنة 2009 عوضا عن 6،7٪ سنة 1984 5،5٪ سنة 1966. أما الفئة العمرية 15–59 سنة – وهي التي تؤلّف فئة السكان النشيطين – فإنها ما فتئت تتطور لتبلغ 66،3 ٪ سنة 2009 عوضا عن 60،1 ٪ سنة 1999 و56،9٪ سنة 1984 و48٪ سنة 1966.



ويبرز هذا التغيير في التركيبة العمريّة في التهرّم الطفيف الملاحظ عبر تحوّل العمر الوسيط للسكّان من 17،3 سنة عام 1966 إلى 25،4 سنة 2004. ويجد التغيّر الحاصل في التركيبة العمرية تفسيره في الانخفاض النسبيّ للولادات وخاصة في ارتفاع أمل الحياة بتراجع الوفيات، إلا أنه بالرغم من هذه التحوّلات المسجّلة في التركيبة العمريّة للسكّان على مرّ السنين سواء على مستوى أعلى الهرم السكاني أو على مستوى قاعدته ووسطه، فإن المجتمع التونسي مازال يتّسم بخاصية الفتوّة التي يتميّز بها سكّان البلاد حتى الآن. وذلك بالنسبة إلى الرجال والنساء على حدّ السواء، إذ لا تتعدّى أعمار حوالي 24٪ من السكان خمسة عشر عاما سنة 2009 بعد أن كانت 44 ٪ سنة 1975 أي بانخفاض بلغ 20 نقطة بالنسبة إلى الفتيات والفتيان. ويتجلى ذلك أيضا في تطوّر متوسّط العمر والعمر الوسيط أي العمر الذي يكون 50٪ من السكان دونه طيلة ثلاثين سنة.

وتفيد نتائج المسح لسنة 2009 أن نسبة العزّاب بلغت 41،8٪ من السكان الذين يساوي أو يفوق عمرهم خمس عشرة سنة في حين بلغت نسبة المتزوجين 52،6٪ من الفئة العمريّة نفسها على حين تقدّر نسبة الأرامل بـ 4،5٪ إلا أن هذه النسبة تصل إلى 7،6٪ من النساء في حين تبقى في حدود 1،4٪ فقط من الرجال. وبلغت نسبة العزوبة 46،5٪ من الذكور و37،3٪ من البنات مسجّلة بذلك خلال الفترة 2004–2009 شبه استقرار بالنسبة إلى الذكور وتراجعا بنسق ضعيف بالنسبة إلى الإناث.

ظاهرة جديدة تترسّخ بين النساء والرجال : تأخّر سنّ الزواج:

يبقى تأخّر سنّ الزواج من أهمّ محدّدات انخفاض الخصوبة. وقد بلغ متوسّط عمر الرجل عند الزواج حوالي 32 سنة ولدى المرأة 26 سنة في عام 2009 على حين كان لا يتجاوز 19 سنة عند الاستقلال (1956).

تطوّر معدّل العمر عند الزواج (1966–2009)

أما نسبة العزوبة فقد تطوّرت لدى الجنسين، إذ بلغت لدى الرجال من الفئة العمرية 30–34

سنة أكثر من 50٪ مقابل 16،2٪ فقط سنة 1966، كما تفيد المعطيات الإحصائية أن جميع النساء اللاتي ينتمين إلى هذه الفئة العمرية سنة 1966 متزوجات في حين أن 28٪ لايزلن عازبات 2009. والجدير بالملاحظة أنه في العشرية الأخيرة ظهرت فئة عمرية جديدة (35–39 سنة) ما انفكت نسبة عزوبتها ترتفع من سنة إلى أخرى خاصة في صفوف الرجال حيث بلغت 24،6٪ بالنسبة إلى الرجال وحوالي 18٪ في صفوف النساء في حين كانت لا تمثل سوى 14،2٪ للرجال و13٪ للنساء في سنة 1999، كما كان لسياسة النهوض بوضعيّة المرأة التونسية تأثير مباشر في تطوّر عمر الفتيات عند الزواج الأول إذ أصبحت الفتاة تحبّذ مواصلة دراستها وتؤجّل موعد زواجها. ويترجم تأخّر سنّ الزواج عن تحوّلات عميقة في البنية التقليدية للأسرة التونسية بفعل المتغيّرات الثقافية وتحرّر المرأة وارتفاع مستويات التعليم لديها ودخولها سوق الشغل (حوالي 73،3٪ من النساء متعلّمات سنة 2009 مقابل18٪ فقط سنة 1966).

إنّ تطوّر نسب الفئات العمريّة يبرز اتّجاه المجتمع التونسي نحو التهرّم الديمغرافي، كما يتّضح ذلك في ارتفاع نسبة السكان الذين يتجاوز عمرهم 60 سنة فما فوق إلى 16٪ سنة 2030 عوضا عن 9،8٪ حاليا. وهكذا سيسجّل المجتمع التونسي نسبة مرتفعة من الشيوخ كما هو الحال في الدول المتقدّمة. ففي هذه البلدان، فرنسا أنموذجا، يبدو شكل الهرم تحدبيا إذ يتميّز بضيق في القاعدة ناتج عن انخفاض معدل الخصوبة وقمّة عريضة تدل على إطالة العمر المتوقع عند الولادة(أمل الحياة عند الولادة).

إنّ هرم السكان يعكس الوضع الديمغرافي في زمن معين، كما أنه يمكننا أيضا من الاطلاع على تاريخ السكان خلال الخمسين سنة التي سبقت تعدادهم. وذلك بتقلّص الأعداد الكلية لمختلف الأجيال التي تشكل هذا الهرم. ومازال ينتمي هرم سكّان المجتمع التونسي إلى نمط الأقطار الفتيّة. وهو ما يثبت الطابع الشاب للبلاد.

من الناحية الاقتصادية تشبه الفئة المسنة (60 سنة فما فوق) فئة الشباب (دون 15 سنة). فهاتان الفئتان تقعان خارج حدود سوق الشغل. ويعدّ ذلك عبئا أسريّا ثقيلا. إن الهوة البارزة في مستوى السكان الذين تتراوح أعمارهم بين 60 و 70سنة حسب المسح الأخير لسنة 2009 تعود إلى الظروف الصعبة التي مرّت بها البلاد في أثناء الحرب العالمية الثانية (قلّة المواد الغذائية، الأوبئة، المشاركة في الحرب)... من ناحية وإلى النزوح والهجرة الخارجية نحو أوروبا الغربية وخاصة فرنسا المتعلقة بالذكور أساسا من ناحية ثانية. ونتيجة لهذا التطوّر الديمغرافي تضخّمت على نحو جليّ الفئات النشيطة (15–59 سنة) خلال الفترة (1966–2009) مسجلة بذلك انخفاضا مهمّا في ثقل «العبء الديمغرافي» وهو تكفل الفئة النشيطة بالفئات العمرية الأخرى، الأصغر (0–14 سنة) والأكبر (أكثر من 60 سنة). فقد كان هذا العبء يشمل نصف السكان سنة 1966. فأصبح في حدود 35٪ سنة 2009. ومما تجدر الإشارة إليه هو أن معدّل الإعالة في تحسن مستمر.

إن معدّل الإعالة يساوي حجم السكان غير الناشطين اقتصاديا على حجم القوى العاملة ويمثل العبء الملقى على عاتق كل عامل. ولقد تطوّر بين تعدادات 1975 و1984 و1994 و2004 والمسح حول السكان السكني سنة 2009.

ففي سنة 1975، كان كل عامل تونسي يعول في المتوسط حوالي 3 أشخاص غير ناشطين اقتصاديا. فانخفض هذا المعدل إلى حوالي شخصين سنة 2009. أما على الصعيد العالم بأسره فإن كل عامل يعول 1،4 شخصا وفي البلدان المصنّعة شخصا واحدا والبلدان النامية شخصا ونصفا وإفريقيا 17 شخصا في حين يعول في أمريكا الجنوبية كل عامل شخصين غير ناشطين اقتصاديا. وفي الوطن العربي 2،6 شخصا.

هذه النتائج تبيّن أن العبء الملقى على عاتق العامل التونسي هو العبء الملقى على عاتق

العامل في العالم بأسره وأنّه يساوي حوالي مرتين ونصف العبء الملقى على عاتق العامل في البلدان المصنّعة. وحتى يخفّ هذا العبء على العامل التونسي يجب أن يتطوّر حجم العاملين لاسيما في القطاعين الفلاحي والصناعي، كما يجب أن ترتفع مشاركة المرأة في العملية الإنتاجية.

أحمد الجلّولي

[1930–2011م]

هو أحمد بن الحبيب بن علي بن فرحات بن محمود بن بكار الجلّولي ولد بمدينة نابل في 31 أوت سنة 1930 وتوفي بتونس في 26 مارس سنة 2011 ودفن في تربة آل الجلّولي بمقبرة الزلاج.

ينتمي إلى أسرة تونسية عريقة أصلها من مدينة صفاقس اشتهرت بتولي أفرادها المهام السياسية في عهد الدّولة الحسينية (1705–1957م) كقيادة الجهات والمناصب الوزارية وقد استقر القائد محمود، جدّ أحمد الجلولي، بمدينة تونس بحكم علاقاته المتينة بالباي حمودة باشا (1782–1814م) الذي اعتمد عليه في تسيير شؤون البلاد.

تلقّى أحمد الجلّولي تعليما عصريا في مدرسة قرطاج الابتدائية ثم في معهد كارنو الشهير الصيت وبالإضافة إلى تكوينه المدرسي حظي أحمد الجلولي، منذ نشأته، برعاية فائقة من لدن الوزير الحبيب الجلّولي ومن لدن خاله شيخ الإسلام العلاّمة محمد الطاهر ابن عاشور. وقد كان أحمد منذ صغره حريصًا على حضور الجلسات التي تجمع والده بخاله ومصاحبتهما في جولاتهما والاغتراف من علمهما الغزير والاقتداء بهما، فكان فخوراً بعرض مواهبه في الأدب والعلوم الشرعية أمام خاله شيخ الإسلام وكان يلاقي استحسانه وتشجيعه على مواصلة النهل من أمّهات الكتب وحفظ نفائس القصائد علاوة على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وقد أجازه الشيخ الإمام لرواية الحديث بسنده. فسرعان ما تحصل أحمد الجلّولي على ثقافة عربية وإسلامية واسعة واستطاع بذكائه وعلوّ همته أن يجمع بين التكوين العصري المعتمد وقتئذ على الثقافة الفرنسية والرسوخ في الثقافة العربية الإسلامية وآدابها، كما شملت رعاية والده مجال الفروسية فدرّب ابنه أحمد على هذا الفن تراثا ورياضة واعتنى بتعليمه خصوصيات الثقافة التونسية.

وقد كان أحمد الجلّولي يحرص على النسج على منوال والده وأجداده فاتجه بعد تخرجه في معهد كارنو نحو خدمة الدولة والتقلب في خطط الإدارة الجهوية: فعيّن سنة 1954 خليفة (أي نائب العامل) بمركز عمل ولاية باجة ثم بمدينة مجاز الباب، وفي سنة 1956 تم إقصاؤه من الوظيفة العمومية لأسباب متصلة بالوضع السياسي السائد وقتئذ وعلى وجه الخصوص على مستوى ديوان وزير الداخلية، فاضطر إلى الانخراط في مهن القطاع الاقتصادي الخاص وهو مجال غريب عنه وعن تربيته وجذوره فلم يهتم به إلا بما هو ضروري لتوفير مورد العيش.

واتجهت همته نحو التاريخ فامتاز وتفوق بتفرد في هذا الميدان وكان له قصب السبق في تاريخ الدولة الحسينية حتى إنّك لا تكاد تجد تأليفا واحداً أو مقالا أو بحثا حول هذه الحقبة من التاريخ إلا واستشهد المؤلّف بالوثائق والصور وغيرها التي اكتشفها عنده واعتمد على الأحاديث التي أُجريت معه. وقد نوّه الكثير من المؤلفين في كتبهم وبحوثهم بما وجدوا لديه من إعانة ومعلومات ومراجع ومن حسن قبول.

كما اعتنى أحمد الجلّولي بمكتبته اعتناء شديداً فتجمعت لديه كتب في شتى الفنون والعلوم من ذلك كتب علوم القرآن والحديث والفقه والآداب والشعر والفروسية، مخطوطة ومطبوعة ومنها طبعات نادرة بالعربية والفرنسية وغير ذلك. وهو الذي أبرز الوثائق المهمة التي كانت محفوظة في بيت آل الجلّولي منذ عهد جده محمود فأفاد بما في محتواها من إرشادات

ثمينة حول تاريخ الأسرة وتراثها وتاريخ البلاد التونسية وغيرها من دول البحر الأبيض سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا، وسرعان ما صارت داره مقصداً لكلّ من يهتمّ بتونس وبتراثها وقبلة الباحثين والجامعيين من تونس مثل الأساتذة محمد الهادي الشريف ومحمد العزيز ابن عاشور والمختار باي وحمادي الساحلي، ومن الخارج أمثال جاك ريفو ولوسات فالنزي وجان قنياج واندري ديمرسمان وارنلد قرين وليون كارل بروان وغيرهم.

لقد كان أحمد الجلّولي مرجعًا تاريخيا قلّ نظيره يعتمد على موهبة فطرية حباه الله بها منذ صباه وعلى ذاكرة خارقة للعادة لاستحضار الوقائع التاريخية باليوم والساعة والمكان وفي أدنى جزئياتها والمراجع المختلفة بدقة مذهلة.

وقد استفادت المؤسسات الحكومية التونسية المهتمة بالتاريخ والتراث والتقاليد استفادة كبيرة من معارف أحمد الجلّولي فكان مستشارا لدى وزارة الثقافة ومؤسساتها كالمكتبة الوطنية والمعهد الوطني للتراث والمتاحف وكذلك لدى ديوان الصناعة التقليدية وبصفة عامة لم يتردّد في إفادة مختلف المشاريع ذات البعد التاريخي والمتحفي برحابة صدره وبشاشة محياه ودقة معارفه ومراجعه.

كما استفاد من معارف أحمد الجلّولي عدد كبير من الشخصيات التونسية والعربية والإسلامية والأجنبية السياسية والثقافية. فكان كل زائر بيته من ضيوف تونس يدرك العمق الحضاري للبلاد من خلال مجالسته والاستماع إلى إرشاداته وحديثه المفيد ويطلع في الوقت نفسه على النفاس والعيّنات النادرة ونفائس المخطوطات والوثائق المكتوبة والمصورة والتحف وخاصّة منها السروج العربية ويكتشف بيتا تونسيا عتيقا بطابعه التقليدي الحيّ.

الجـــمّ



القصر الأثري بالجم

(Thysdrus) أو توزدرن اللّوبية أو توزدرة المعرّبة. هي عاصمة المزاق (Byzacène) الشهيرة في العهد الروماني. كانت قرية متواضعة في عهد يوليوس قيصر، ثمّ ازدهرت على نحو ملحوظ في عهد الأنطونيين والسيفيريين بفضل نشاطها التجاري الذي مكّن برجوازيّتها الثريّة من الانفتاح على التيارات الفنية الشرقية والغربية حتى نافست في البذخ والرفاه أجمل مدن الإمبراطورية الرومانية متباهية بملعب لا يقل أهمّية عن كوليزي روما ومركض في حجم مركض ماكسنس (Maxence) بروما وبمعالم أخرى عمومية وخاصة رائعة الفخامة. ويذكر أنّ غوردينوس الأوّل (Gordien 1er) تمكّن في هذه المدينة المحظوظة بالثراء من اعتلاء عرش الإمبراطورية. وقد أصبحت المدينة مستقطبة للفنانين والحرفيين بدليل مكتشفاتها الأثرية المعروضة في متحفها وخاصة منها لوحاتها الفسيفسائية التي ما انفكّت تثير إعجاب الزوار والباحثين بكثافة عددها ورونق هندستها وتنوّع موضوعاتها. وقد ذكر أبو عبيد البكري أسطورة السرداب الذي يصل قصر الجم ببحر سلّقطة ومنه كانت تتسرّب مؤونة الكاهنة المحاصرة. وحسب التجاني، كانت في العهد الحفصي قرية يقطن بها بعض البربر الطرابلسيين الذين أجلتهم غزوة الأعراب الهلاليّين.

الجمعيّات الخيرية



هيئة الجمعية الإسلامية عام 1911

- الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة ببنزرت تأسست سنة 1901 غايتها إسعاف الفقراء وكسو الأطفال.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بسوسة تأسست سنة 1908 غايتها إسعاف الفقراء وتعليم أولادهم.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بالقيروان تأسست سنة 1911 غايتها إعانة الفقراء وتوزيع الأدوية والإسعاف.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بالمنستير تأسّست سنة 1912 غايتها إعانة الفقراء وتوزيع الأدوية والإسعاف.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بصفاقس

تأسّست سنة 1913 غايتها إيواء العجز والأيتام.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بماطر تأسّست سنة 1921 غايتها إسعاف الفقراء.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بفريفيل (منزل بورقيبة حاليا) تأسست سنة 1922م غايتها إسعاف الفقراء وتعليم أولادهم.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بسوق الاربعاء (جندوبة حاليا) تأسست سنة 1922 غايتها إعانة الفقراء.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بالكاف تأسست سنة 1923م غايتها إسعاف الفقراء وإعانة التلاميذ.
- الجمعية الشريفية بحلق الوادي تأسست سنة 1924 غايتها إسعاف الفقراء بالمال والمواد والأدوية وإعانة التلاميذ.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بتونس تأسست سنة 1927 غايتها إيواء الأيتام وتعليمهم في الدرجات الابتدائية والثانوية والعليا.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بجمّال تأسست سنة 1933 غايتها إعانة الفقراء المقيمين بالبلدة أو عابري السبيل.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بزغوان تأسّست سنة 1934 غايتها كسْوُ الفقراء وختن أولادهم.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بالمهدية تأسست سنة 1937 غايتها إيواء العجز وإعانة الفقراء والإسعاف الطبّي وإطعام الطلبة.
- جمعية المكارم بالمهدية تأسّست سنة 1937 غايتها إعانة الفقراء وإطعامهم وتوزيع المواد اللازمة على التلاميذ.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بجربة تأسست سنة 1937 غايتها إعانة فقراء الجزيرة.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بمساكن تأسست سنة 1937 غايتها إعانة الفقراء بالمال والمواد.
- الجمعية الخيرية بتالة تأسست سنة 1944 غايتها إعانة الفقراء وختن أطفال الفقراء.
- الجمعية الخيرية الإسلامية بقصور الساف تأسّست سنة 1946 غايتها تقديم إعانة ثقافية واجتماعية.
- الجمعية الرياضية الناصرية مقرّها الحفصية بمدينة تونس. كانت معملا للمدافع ثمّ اتخذ بعضها محلاّ للجمعيّة الرياضية الناصرية.
- الجمعية الخيرية الإسرائيلية تأسّست بأمر عليّ في 11 يونية سنة 1899م تتكوّن من رئيس وتسعة من أعيان اليهود ونائب من الدولة التونسية ولها عدّة فروع.

الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة التونسيّة [1905-1960]

تأسّست هذه الجمعيّة في نوفمبر 1905 بتونس، وأسندت رئاستها إلى السيد محمّد بن يخلف الذي ظلّ على رأسها مدّة عام واحد. ثمّ خلفه السيد عمر بوحاجب إلى جانفي 1922. وفي هذا التاريخ انتخب على رأس الجمعيّة القاضي محمّد بوسنّ الذي استمرّ في رئاستها إلى أن أدركته المنيّة سنة 1926، فعوّضه القاضي محمد البشير معاوية حتى سنة 1940.

وقد كان مقرّ الجمعيّة الخيريّة عند تأسيسها محلا صغيرا بنهج مارس المفضي إلى نهج حمّام الرميمي. ثمّ استقرّت الجمعيّة في نوفمبر 1917 بمحلّ آخر يقع في نهج الورغي المتفرّع عن نهج القعادين الكائن في حيّ باب سويقة بمدينة تونس. وقد حبّس هذا المحلّ على الجمعيّة رجل البرّ والإحسان الحاج محمد بن خليفة. وقد بقيت الجمعيّة والمدرسة العرْفانيّة التابعة لها إلى مطلع الستينات من القرن العَشرين إثر حلّ الجمعيّة الخيريّة، وتأميم المدرسة العرفانيّة.

وقد كان الغرض الأساس من تأسيس هذه الجمعيّة إعانة المحتاجين والمعوزين وتعليم الأطفال اليتامى وأبناء الفقراء والمساكين.

الجمعيات الموسيقية التّونسيّة

اقترن إحداث أهمّ الجمعيّات الموسيقيّة في الجزائر بانتهاء الحرب العالميّة الأولى، فكانت جمعيّات ذات صبغة اجتماعيّة ـ ثقافيّة، استغلّت الإمكانات المتاحة في النّصوص التّشريعيّة الخاصة بقانون جويلية 1901 لتعمل جاهدة على تثبيت الشّخصية الثقافيّة والرّوحية للجزائر متحدية بذلك ضراوة المستعمر وبطشه، ومتصدية لمحاولات الطمس والتشويه و مستعملة في ذلك مختلف السبل المتاحة: تعليم اللغة العربية، التعاليم الدينيّة، الموسيقى، المسرح، الرياضة... كل ذلك في إطار تربية سياسية ضمنية، تهدف أساسا إلى إثبات الخصوصية الجزائرية وتميزها وسط نظام استعماري تعسفي بغيض.

أمّا في تونس فلا شك في أن هذا الصنف المنظم من الجمعيات لم يعرف ـ بالنسبة إلى الموسيقى الوترية ـ إلاّ في نطاق الجمعية الرشيدية كما سنبيّنه... وفي ما عدا ذلك، وجدت مناشط مماثلة في نطاق الزوايا الصوفية، كما فتحت نواد خاصة بالموسيقى الشرقية ـ المصرية من أبرزها: نادي "الخلوية" الذي كان مقره مقصورة دكان عبد العزيز جميل صانع الأعواد وعازف الكمنجة بنهج سيدي مفرج قرب بطحاء رمضان باي وكان دكانه مقصدا لأبرز الموسيقيين، نذكر من أعضائه: مصطفى بوشوشة (عود) ومريدخ سلامة (أول عازف قانون بتونس) و تبعه ابنه يوسف سلامة، ومصطفى كاهية (عود) ومحمد عبد العزيز العقربي (رق) اشتهر بحفظ أغلب ما جلب إلى تونس من إسطوانات مع حذقه للموشحات والأدوار الشرقية وهو من خيرة من تتلمذوا للشيخ سلامة حجازي رائد المسرح الغنائي العربي الذي زار تونس مع فرقته سنة 1914. ولقد تعزز هذا النادي بقدوم عدد من الفنانين المصريين أمثال: أحمد فاروز الذي علم الموشحات وتخرج على يديه كل من ضابط الإيقاع الطاهر بدرة ومحمد التريكي وكذلك زكي مراد المطرب الشهير في العشرينات وقد رافقه عبده صالح عازف القانون الذي كان آنذاك في عنفوان شبابه. فكان من نتائج ظهور هذا النوع من النوادي انتشار الموسيقى الشرقية ـ المصرية على حساب الموسيقى التونسيّة. وقد عوضت حفلات المالوف بحفلات الموشحات والأدوار الشرقيّة والمصريّة على وجه الخصوص وأصبح الفنانون التونسيون يلبسون البدلة الإفرنجية والطرابيش أسوة بالفرق المصرية، بل منهم من صار يتكلم باللهجة المصرية خاصة عند حضوره على الركح.

هذا إلى جانب الموسيقيين الزائرين أمثال طائرة وفرقتها (1908) وعبد القادر المغربي (1911) وكامل الخلعي (1914) وسامي شوا (1920) وكذلك سليمان القرداحي مؤسس المسرح الغنائي، هذا في الوقت الذي كانت أسماء تونسيّة تسافر في اتجاه المشرق العربي من ذلك زيارة خيلو الصغير وصيون بيسانه الإسكندرية سنة 1902.

وقد تعزّز هذا الاتجاه باستقرار بعض المطربين المصريين بتونس، من أمثال سيد شطا الذي أشرف على تخريج فتحية خيري للوسط الفني والشيخ أمين حسنين وأخيه ياسين وحسن بنان وزوجته علياء وهو الذي أصبح معروفا لدى سكان ضاحية أريانة، وقد تضاعف عدد الإسطوانات الشرقية التي دخلت البيوت التونسيّة وخاصة المقاهي التي كان يؤمها الشباب والشيوخ لتناول "التكروري" على أنغام الشيخ المنيلاوي والشيخ الصفتي وصالح عبد الحي وعبد الحي حلمي وغيرهم. ومن هذه المقاهي نذكر مقهى شمنطو بباب الجديد، البرقي بالمركاض، السوق الجديد بالحلفاوين، مقهى بلم، مقهى الغرابة، مقهى الندى بالحلفاوين/ باب سويقة، مقهى الجليز لحسان بوجدرة والد

الأديب رشيد بوجدرة، كما نشير هنا إلى المقاهي التالية:
ـ مقهى تحت السور الكائن بباب سويقة وكان يعرف بمقهى الآفاقيّين ويتردّد عليه علي الدوعاجي ومصطفى خريف والهادي العبيدي وغيرهم...
ـ مقهى باب منارة أو البانكه العريانة وكان يعرف بمقهى البلديّة، وهو ناد أدبي فني ترأسه العربي الكبادي (1881 ـ 1962)
مقهى أحمد الغربي، مؤسس صالة الفتح وبجانبه مقهى الأنس وفرقة الأنس الموسيقيّة بنهج حمام الرميمي.
مقهى الهناء بباب المنارة للهادي الجويني وزوجته وداد، وكانت والدتها اليهودية تشارك بالرقص باسم July la Marseillaise.
ـ مقهى العباسية، في قلب باب سويقة ومؤسسه طاهر بوعبسة وهو قبالة مقهى تحت السور وكان ملتقى للفنانين على غرار لافيات اليوم.
ونُذكّر هنا بأهمية انبعاث الفضاءات الخاصة: المسرح البلدي (20 نوفمبر 1902)، مسرح روسيني بالاص (1913)، تياترو علي بن كاملة بالبسّاج... وخاصة الإذاعة التونسيّة (سنة 1938) وقد أسندت إدارة القسم العربي فيها إلى الأستاذ عثمان الكعاك الذي فرض على المغنين والمغنيات إيجاد برامج تونسية نظما وتلحينا. وإلى جانب ذلك وجدت فرق وترية كثيرة كانت تعرف "بالعوادة" ويسمّى أفرادها بأسماء الآلات: "عواد، طرار، جرايني، درابكي، كرنيطي، بيانوجي، طبال وزكار"... وتعززت هذه الظاهرة بقدوم ثلة من الفنانين الطرابلسيين وإقامتهم بتونس بعد احتلال القطر الليبي سنة 1911 وأغلبهم من اليهود منهم: براميلو بردعة عازف العود والقانون وأخوه رحمين بردعة عازف الكمنجة بالطريقة الشرقية، موني/ميمون الجبالي عازف عود وقد تدرّبت على يده عدة مطربات مثل حبيبة مسيكة وفضيلة ختمي وأخوه ديدو الجبالي عازف قانون، وهو والد موريس ميمون.

فإذا ما استثنينا الموسيقى في الصالونات والقصور حيث كانت تقام الحفلات الأسبوعيّة ويشارك فيها الموسيقيون من عازفين ومغنين، لدى بعض الأسر المترفة، وكذلك في الحفلات الخاصة وفي مناسبات الزواج والختان وما إلى ذلك، فإن أماكن وجود الموسيقى تتراوح بين محلات غناء ورقص وهي عبارة عن حانات، كما يشير الصادق الرزقي في كتابه "الأغاني التونيسّة"، خالية من الأنس واللطف لا يطرقها إلّا المنهمكون في الفساد من العامة، وبين مقاه راقية تستخدم جوقات طرب خالية من النسوة وأفرادها منتخبون من ذوي الشهرة في هذا الفن يباشرون ذلك في الصيف أو في بعض المواسم وفي رمضان، فتنصب الأخبية على الساحات المجاورة لبعض هذه المقاهي لإقامة الحفلات الموسيقيّة، كانت تعرف "بالفصل" جمع "فصلات". ومن آخر هذه العروض ما كان يقوم به الشيخ خميس ترنان بمقهى المرابط بسوق الترك صباح كل يوم جمعة واستمرّ ذلك إلى حوالي سنة 1935.

يضاف إلى ذلك دخول صناعة الإسطوانات تونس، خاصة مع شركة بيضفون الألمانيّة للاخوة اللبنانيين بطرس اميل، وانتون بيضا التي كان ينوبها البشير الرصايصي بتونس. وكذلك جرامفون.

وفي هذا السياق لا بدّ من الإشارة إلى وجود أماكن اختصت بتكوين الموسيقيين منها: العمومية ومن أبرزها زاوية سيدي علي عزوز وبعض زوايا العيساوية مثل سيدي الحاري، وسيدي الشالي، وسيدي بوقميزة. ومن أبرز الشيوخ الذين برزوا في هذا المضمار الصادق الفرجاني، وحسونة بن عمار و علالة الباجي ومحمد بن الشاذلي... ووجدت أيضا مدارس خاصة اشتهر منها الكثير، فعلاوة على شيخ الموسيقيين، أحمد الوافي (ت. 1921) الذي

أخذ عنه عدّة موسيقيين، برع منهم محمد الأصرم والطاهر المهيري ومحمد بن مصطفى ورشيد بن جعفر ومحمد غانم وعلي بانواس ومحمد الدرويش ومحمد بن سليمان وخميس ترنان والهادي القمام وغيرهم...

وتجدر الإشارة إلى أن أولى الجمعيات النظامية في هذا المجال كانت في الموسيقى النحاسية وهي: الجمعية الهلالية التي أسسها سنة 1904 الهادي بن حميدة ضابط الطاقم الموسيقى للباي وقد أشرف على تدريبها محمد الحداد وأحمد البجاوي ثم تلتها جمعية الحسينيّة سنة 1905 وقد أشرف على تدريبها محمد الشعبوني. ثم ظهرت الناصريّة نسبة إلى الناصر باي نتيجة اندغام الجمعيتين السابقتين على يد البشير صفر. وكان من مهامها تعليم الترقيم الموسيقي والعزف على الآلات النحاسيّة. وقد أدخلت ضمن برامجها المقطوعات والسلامات التركية وكذلك البشارف وموسيقى الموشحات وصارت تعمل في المناسبات والأفراح ودعي كل من أحمد البجاوي ومحمد الحداد والحبيب التميمي للتدريس فيها وأغلبهم من ضباط الطاقم الموسيقى للباي. كما أسس حسين بو حاجب الجمعية الإسلامية سنة 1914 وقد تولى الشاذلي مفتاح (1906 ـ 1974) إدارتها الفنية. أمّا الجمعية العصرية التي تأسّست سنة 1920 فقد أشرف عليها الهادي الشنوفي (1893 ـ 1968)، ولا ننسى الساحلية بسوسة التي ترأسها الهادي بن حميدة، ثم الجمعية النحاسية بنابل التي أشرف عليها الطاهر بن غزالة. وهكذا توسع وجود مثل هذه الجمعيات وانتشر في أغلب المدن التونسية وكان من أبرز مؤسسيها: أحمد دوكاز وحسونة الشافعي والشاذلي مفتاح، وهذه الظاهرة تعود في الأصل إلى أيام العائلة الحسينية عندما أسس المشير أحمد باي المتوفى سنة 1855م المدرسة العسكريّة بباردو. وقد كان من مهامها تدوين جانب كبير من التراث الآلي والغنائي بالترقيم الموسيقى الغربي. وقد حفظ ذلك ضمن مخطوط يوجد بالمعهد الرشيدي بعنوان: "غاية اليسر والمنى الجامع لدقائق رقائق الموسيقى والغناء" وقد وضعها ضباط الموسيقى العسكرية الحاج أحمد القريتلي خليل وعمار بن أحمد الغربي وعلي بن عبد الله شلبي والطاهر بن الطيب غيلب...

ولقد تأسست في إطار هذه المدرسة أول فرقة عسكريّة بعد أن جلب لها مختصون من أوروبا أمثال: ليناربيقال والفرزيدي يوزبي. وقد كان لمصاهرة البايات لبعض الأسر الإيطاليّة والعلجيات اللاتي كنّ يجلبن من عاصمة الخلافة العثمانية ومقاطعاتها أكبر الأثر في اختيار مثل هذا الاتجاه. ويقال إن أحمد باي تأثر في إنجازه هذا بهيئة الطاقم العسكري في الإمبراطورية النمساوية نذكر هنا أنّ دخول أصل البيانو ـ الأرغن ـ إلى تونس كان سنة 1696 وقد أتى به من مدينة فيرانزا الإيطالية مسقط رأس أم رمضان باي المرادي.

لقد تمّ تأسيس هذه الفرق النحاسية على نطاق واسع وتعزّزت بعد استقلال البلاد (1956) فشجعت الهيئات الحكومية من بلديات ولجان ثقافية، على تكوين مثلها فتجاوز عددها اليوم سبعين فرقة موزعة على كامل تراب الجمهورية، أغلبها يوجد بولايات الساحل والوطن القبلي والعاصمة. ومن هذه الجمعيات بالجنوب التونسي:

الجمعية العصريّة للموسيقى النحاسية بصفاقس 1920؛ جمعية حشاد للموسيقى النحاسيّة بصفاقس 1949؛ النجم الرياضي القابسي للموسيقى النحاسية 1933؛ الكوكب الموسيقي للموسيقى النحاسية 1936؛ النجم الموسيقي القفصي للموسيقى النحاسية 1954؛ جمعية الواحة بتوزر للموسيقى النحاسية 1962؛ الموسيقى النحاسية بقبلي 1960؛ الفرقة

النحاسيّة بحومة السوق بجربة 1987.
وعموما كانت للحياة الثقافية والفكرية انطلاقة مثمرة فقد تعامل التونسيون مع عدة ألوان جديدة كالرسم والتمثيل والتأليف المسرحي بالإضافة إلى الاقتباس والترجمة وظهور الصحف والمجلات ذات الطابع الأدبي والنقدي الفكاهي، كما كان للمجالس الأدبية، التي كانت تعقد في باب منارة وباب سويقة والحلفاوين، الأثر الطيب في الحياة الفكرية والأدبية والفنية فتطورت تطورا محسوسا.
وتحوّلت الجمعيّة الرشيديّة إلى مركز إشعاع للعمل الموسيقي، رغم ظهور عدة مؤسسات ثقافيّة تقاسمت، بما لها من طابع موسيقي، مع الرشيدية أهدافها وغاياتها.
فالرشيدية التي أسّست سنة 1934 وحصلت على تأشيرتها في 20 فيفري 1935 جمعية أدبية موسيقية عملت على خلق تقاليد جديدة وإحداث أنماط فنية صارت عماد العمل الموسيقي التقليدي والمتجدد في إطاره البارز الأصيل من حيث اللحن والكلمة والأداء الآلي والصوتي. وقد ظهرت على غرار مثيلاتها بالجزائر والمغرب الأقصى في ظروف سياسيّة صعبة إذ اقترن تاريخ إحداثها بتاريخ تأسيس الحزب الحر الدستوري الجديد وهي كذلك الفترة التي تصاعد فيها العمل النضالي على مختلف الجبهات. لذلك، لم يكن انبعاث الرشيديّة مصادفة، بل هو حدث سياسي في إطار ثقافي - فني غايته المحافظة على الشخصيّة التونسيّة من المسخ والذوبان، والتصدي لمؤامرات الاستعمار وأغراضه الرامية إلى اجتثاث تونس من أرومتها العربيّة - الإسلامية بطمس تراثها الموسيقي وهو الجزء الذي لا يتجزأ من شخصيتها وثقافتها.
ولقد حفّت بتأسيس جمعيّة الرشيديّة عوامل سياسيّة عدة ووضعيات اجتماعيّة خاصة، نذكر منها:
انعقاد المؤتمر الأفخارستي بتونس في ماي 1930 الذي كان من توصياته استئصال شخصية الشعب التونسي وذلك بحرمانه من اللغة العربيّة الضامنة لعروبته ودينه وحضارته. إن مثل هذا المخطط الصليبي جعل التونسي يقظا لكل المؤامرات الرامية إلى إبعاده عن ينابيع أصالته ومحو مقوّماته الثقافيّة، ومن ذلك التراث الموسيقي أحد أهم العناصر المميزة للشخصيّة الوطنيّة. فهذا التهميش الذي سلط على الموسيقى التونسيّة دفع أحد النواب المسلمين في المجلس الكبير، هو السيد عمر البكوش، إلى انتقاد إدارة المعارف والفنون المستظرفة عند مناقشة ميزانيتها سنة 1929 لإنشائها مدرسة الموسيقى الغربية وتخصيص ميزانيّة لشراء إسطوانات للموسيقى الكلاسيكيّة الغربيّة تسمع في المعاهد الثّانويّة في حين لم تخصص شيئا للموسيقى العربية. وقد كان من ردود الفعل على ذلك تنظيم دروس للشيخ علي الدرويش الحلبي في الموسيقى العربيّة بمكتبة العطارين على حساب الإدارة المذكورة. وفي سنة 1933 استعمل مدير المعارف السيد قو هذا الاعتماد وقدره 000 25 فرنك في إنجاز إسطوانات للموسيقى التونسيّة وكانت تجربة سلبية بالرغم من المستوى الجيد للفرقة بسبب فساد صوت المغنية زمردة العلجية وهو الاسم المستعار لزوجة الدكتور خياط وصديقة مدير المعارف المذكور.
في مثل هذه الأوضاع الخطرة بدأ التفكير في إحداث جمعية تهتم بإحياء التراث الموسيقي التونسي وحفظه من الاندثار والاضمحلال مع تطعيمه بالجديد المرتكز على دعائم الموسيقى التونسية العربيّة الأصيلة.
أما العوامل التي أسهمت في إحداث هذه الجمعية، فهي كثيرة، منها ما أشرنا إليه، مثل انتشار الأغاني السخيفة والسطحية وطغيان الإنتاج المشرقي - المصري بتوافد المطربين

وانتشار الإسطوانات التي اكتسحت البيوت والمقاهي بالإضافة إلى عودة الوفد التونسي بعد مشاركته في المؤتمر الأول للموسيقى العربية المنعقد بالقاهرة من 14 مارس إلى 30 أفريل 1932 وهي مشاركة مشرفة للغاية استرعت اهتمام النقاد والباحثين في المجال الموسيقي وأسهمت بقدر كبير في إعادة الثقة إلى الفن والفنانين التونسيين. كذلك التجربة التي عاشها مصطفى صفر رئيس القسم الأول للوزارة الكبرى عند مشاركته في مؤتمر الحرمين الشريفين بمدينة قسنطينة سنة 1931 وقد أعجب بما لمسه هناك من نهضة فنية. وعند عودته صادف الحديث في النوادي الثقافية عن إحداث جمعية تعنى بالموسيقى الوترية فانضم إلى هذه النخبة التي كان من أفرادها جمال الدين بوسنينة وأحمد الضحاك، وبعد عدة اجتماعات تمهيديّة وضعت في أثنائها الخطوط الرئيسة لهذه الجمعية، تمّ الإعلان في شهر نوفمبر 1934 إثر الاجتماع التأسيسي بالخلدونيّة عن بعث جمعية "تعنى بالمحافظة على الموسيقى التونسيّة الأصيلة وترويجها بين الأجيال الصاعدة" . وقد حضر هذا الاجتماع التّأسيسي جمع غفير من المهتمين بالموسيقى بلغ عددهم نيفا وسبعين عضوا ينتمون إلى مختلف المشارب السياسية والدينيّة والمراتب الاجتماعية والمهنية، من فنانين وأدباء وإداريين ومحامين وأطباء ورجال أعمال وتجار، وهو ما يدل على مدى اهتمام التونسيين بالتراث الموسيقي.

لقد اقترحت عدة تسميات لهذه الجمعية منها: الفارابية والزريابية والأحمدية قبل أن يستقر الرأي على الرشيدية نسبة إلى محمد الرشيد باي ثالث ملوك العائلة الحسينيّة (1122ـ1173هـ/ 1710 ـ1759م) الذي اعتنى بالموسيقى والغناء وإليه يعود بالتعاون مع وزيره الأصرم الفضل في ترتيب النوبة التونسيّة وتأليف مجموعة من القطع كالبشارف والفواصل وهو الذي بعث مدرسة للموسيقى بالقصر استمر الملوك على رعايتها من بعده وكانوا يتتبعون نشاطها في حفلة تقدم مساء كل يوم ثلاثاء تواصلت حتى عهد أحمد باي الثاني الذي توفي سنة 1942.

نظرت الجلسة التأسيسيّة للرشيديّة في وضعية الأغنية وما سقط فيه الفن الموسيقي من إسفاف مخجل. وأبدى جميع الحاضرين تخوفهم على التراث الموسيقي من التلاشي والاندثار. وعقدوا العزم على أن تهتم هذه الجمعية اهتماما خاصا بحفظ الأغاني التونسية، والحرص على الرفع من مستواها بتنقيتها مما علق بها من شوائب.

وبعد الخوض في كل ما يتعلق بالحالة التي عليها الوسط الموسيقي، قرروا تأسيس هذه الجمعية على دعائم ثابتة وأن تسهر على تسيير عملها ثلاث لجان:

1. **اللجنة الأدبية**: ترأسها العربي الكبادي، تعنى بالنظر في التراث الموسيقي من الناحية الأدبية وانتقاء الأغاني الراقية.

2. **اللجنة الموسيقيّة**: برئاسة محمد الأصرم، تعنى بجمع التراث الموسيقي ووضع الألحان الحديثة ويتفرع عن هذه اللجنة التخت الموسيقي للجمعية بقيادة محمد التريكي.

3. **لجنة الدعاية**: ترأسها محمد الضحاك، تعنى بالتعريف بهذه المؤسسة وأعمالها ونشر إنجازاتها على الصحف.

ونظروا أيضا في إمكان تدريس الموسيقى وتعليم النوطة الموسيقية. ثم حصل الاتفاق على تسمية هذه الجمعية باسم "جمعية الرشيدية للموسيقى التونسية " وقد تبرع السيد بلحسن الأصرم بتخصيص جزء من منزله الكائن بنهج الباشا عدد 36 مكرر قرب بطحاء رمضان باي ليكون المقر الرسمي للرشيديّة.

وتكوّن المجلس الإداري للرشيديّة من اثني عشر عضوا حدّدت مهامّهم على النحو التالي :

الرئيس (مصطفى صفر) وأربعة مساعدين له (مصطفى الكعاك، الحاج الطاهر المهيري، بلحسن الأصرم، الدكتور خياط) والكاتب العام

(منصف العقبي) وأمين الصندوق (أحمد بن عمار) وثلاثة مساعدين للكاتب العام (عبد العزيز بن عثمان، جمال الدين بوسنينة، عبد القادر بلخوجة) ومستشاران (الطاهر الزاوش وحمده عبد الله).

ومنذ ذلك الحين، ظلّت الرشيديّة تعمل بحزم وثبات واندفاع وإيمان في المنهاج المذكور وحقّقت الكثير من الإنجازات في مجالات التكوين وجمع التراث وتدوينه مع إغنائه بالإبداعات الجديدة وإظهار ذلك للجمهور بتنظيم حفلات تقدم في المسرح البلدي والإذاعة. وقد كانت أول نوبة من المالوف ظهرت بها هي نوبة الأصفهان وأول مطربة لها هي السيدة شافية رشدي. وواصلت الرشيدية عملها إلى سنة 1938 حين تحوّلت إلى معهد فني يعنى بالتكوين.

ولقد تغيرت تسمية الرشيديّة مرتين:

الأولى: بعد الحرب العالمية الثانية حين أصبحت تعرف "بالمعهد الرشيدي للموسيقى التونسيّة" والثانية ابتداء من 1965 حين أطلق عليها اسم "المعهد الرشيدي للموسيقى العربية". ثم عادت إلى تسميتها الأصلية "الموسيقى التونسيّة"، كما تجدر الإشارة إلى حدوث انشقاقين طَبَعَا الرشيدية طوال مسيرتها الفنية منذ انبعاثها:

- الأول، ظهر مع الشيخ محمد الأصرم (1882 - 1960) عازف البيانو الشهير الذي ترأس أول لجنة موسيقية بالرشيدية.

- أمّا الانشقاق الثاني فقد تزعمه الأستاذ حمادي النيفر في الستينات بتأسيسه فرقة موسيقية تتألف من صلاح الدين الجعايبي ومحمد التريكي وعبد الحميد عطية بالرق والمنجي بالعربي بالناي وخالد الطبربي (ناقد). كان من بين المجموعة الصوتيّة محمد المقراني ومطرب الفرقة الطاهر غرسة... وقد اشتهرت باسم "فرقة قرطاج للموسيقى التونسيّة الأصيلة". وتميزت بما اصطلح على تسميته "العاطش" أي النادر من الفونداوات والنفيس من الموشحات المطرزة. وقد تعاقبت ثماني هيئات إدارية على تسيير الرشيديّة منذ انبعاثها إلى اليوم، وتعددت الإنجازات والأعمال نذكر منها:

- تنظيم دروس في الأصول الموسيقيّة وتعليم الناي عهدت بها إلى الموسيقار الحلبي الشيخ علي الدرويش.

- تأسيس قسم لتعليم السيدات والأوانس عهدت به إلى الفنان محمد غانم.

- المشاركة في مهرجان أبي سعيد الذي انتظم في سبتمبر 1963.

- تنظيم حفلات داخل البلاد وخارجها من ذلك حفلة شاي على شرف "فرقة ببا المصرية" لتعريفها بالفن التونسي الأصيل وتقديم حفلات في الإذاعة.

- إلقاء مسامرات منها: حياة مولانا محمد الرشيد باي وأطوار الموسيقى العربية والأغاني الحديثة والموسيقى التونسية للهادي العبيدي وتاريخ الموسيقى العربية لعلي الدرويش.

- تأليف الأغاني التونسيّة وإحياءِ ما تقادم منها بعد تهذيبه وتنقيحه.

- تدوين النوبات التونسية الأصيلة بعناية الأستاذ محمد التريكي.

- الإسهام في تنشيط النقد الفني في الصحافة التونسيّة.

- جمع التراث.

- القيام بحفلات لفائدة المشروعات الخيرية والاجتماعيّة.

- تكريم صاحب "الجزيرة" الصحفي الأستاذ محمد تيسير ظبيان (ماي 1937) وفرانسوا أنطونيني الكاتب العام لمحطة تونس القوميّة.

- استقبال الضيوف من ذلك زيارة المستشرق م. مونتاي مدير المتوظفين بباريس والأستاذ عبد العالي الأخضري من الجزائر (نوفمير 1941).

- تأبين فقيد الأدب مصطفى صفر مؤسس الجمعية (1941/4/13) ومحمد الشاذلي

خزندار (فيفري 1954) والمغنّية صليحة (جانفي 1959) .
ـ تكوين مكتبة ومتحف فني.
ـ الاحتفال بألفية ابن هانئ.
إلى غير ذلك من المشاركات والأعمال الفنية والعلمية.
ويلاحظ أن نشاط هذه الجمعية تقلّص على نحو ملحوظ خاصة بعد أن توقفت الدروس بها منذ سنة 1972، فأهملت الدور الموكول إليها أساسا وصار عملها يقتصر على نشاط فرقتها الموسيقية. ولا يزال الأمل معقودا على أن تستعيد الرشيدية سالف مجدها ونشاطها بضبط مخطط يمكن من إرجاع الدروس وفتح حلقات للبحث والتدريس يستفيد منها الهواة والمحترفون.
وقد انبعثت إلى جانب الرشيديّة عدة جمعيات أخرى وهي على التوالي:
ـ جمعية نادي الأصيل بصفاقس ـ جمغية خميس ترنان ببنزرت ـ الجامعة التونسيّة للشبيبة الموسيقية ـ جمعية مهرجان تستور للمالوف ـ اتحاد الموسيقيين التونسيين ـ جمعية التخت العربي للموسيقى بتونس ـ جمعية حشاد للموسيقى بصفاقس ـ الجمعية التونسيّة للتربية الموسيقية ـ جمعية المؤلفين والملحنين التونسيين ـ جمعية النادي العصري للموسيقى والتمثيل بصفاقس... هذا علاوة على عدد من الفرق والنوادي.
وجدير بالملاحظة أنّه دخلت على أهداف العمل الجمعياتي تغييرات عدّة تمشيا مع التطور الاجتماعي والسياسيّ. فقد كان العمل الثقافي للجمعية إبّان الاستعمار مجرد واجهة يختفي وراءها نضال متعدد الأشكال لاسيّما ترسيخ الهوية والقيم الحضاريّة للشعب. وقد اضطلعت فيه أهداف التوعية الدور الأساس حتى عند ممارسة الهدف الظاهر. فكان عمل الجمعيّة متعدد الأهداف وكانت تضم عناصر وطنيّة تتقد حماسا وغيرة وثورة على البائد والمتخلف والانحراف وغيرها من قيم التهميش والموت.
أمّا بعد الاستقلال فقد توضحت الأهداف وقنّنت وأصبحت تعمل وفق تخصصات تسهم كلها في البناء ودعم مسار التقدم والرقي للوطن. لكن اللافت في كل ذلك أن العمل الجمعياتي في المجال الموسيقي لم يهتم كثيرا بحماية التراث. فكانت هذه المهمة موكولة كل متطوع. وهو ما جعله مسرحا لعدّة إنتهاكات وتأويلات خاطئة.

جمعيّة الأوقاف

أحدثت بمقتضى أمر صادر سنة 1291هـ/1875م بإشارة من الوزير الأكبر خير الدّين. كان أوّل رئيس لها الشّيخ محمد بن مصطفى بيرم المعروف ببيرم الخامس المتوفّى بمصر سنة 1307هـ/1889م، وقد أشرك معه في إدارتها مجلسا مؤلّفا من ثلاثة أعضاء أحدهم من رجال الإدارة والآخران من أعيان الأهالي والتّجّار. وقد جعل نظرهم في الأوقاف على قسمين:
الأوّل: الأوقاف الأهليّة، وهي الّتي حبّست على ذريّة الواقف. والآخر: الأوقاف الّتي حبّست على أعمال البرّ والإحسان مثل الجوامع وقراءة القرآن...
وكان الناظر العام على الأوقاف هو متولي خطّة الحسبة.
وهذه الإدارة رجعت بالنظر إلى الكتابة العامة للحكومة التونسية. وكان يتولّى النّظر في شؤونها الخاصّة مجلس يتركّب من رئيس وأربعة أعضاء ومدير منفذ لقرارات الحكومة وهو الممثل لها والنائب عن الكاتب العام والمسيّر للإدارة والمسؤول عن موظّفي الأوقاف سواء بالإدارة المركزيّة أو بنياباتها في جهات المملكة التونسية.
وكانت الهيئة الإدارية لجمعيّة الأوقاف

تتركّب من رئيس ومدير، أما الإدارة المركزيّة فتتكوّن من مكتب مدير وقسم الكتبة وقسم الخزينة وقسم القباضة وقسم الترجمة والقسم العقاري وقسم الشراءات وقسم الهندسة وقسم الإصلاح وقسم التصرّف وقسم وكالة الزياتين وقسم الحساب وقسم التفقد وقسم الجبر وقسم العشائر وقسم التكية ومصلحة بيت المال.

وكانت لهذه الجمعيّة نيابات داخل البلاد في كلّ من سوسة والقيروان وصفاقس والمنستير والمهدية وبنزرت والكاف وباجة ونابل وزغوان ومجاز الباب.

ومن مهامّ جمعيّة الأوقاف تمويل جهات عدّة والاضطلاع بوظائف متنوّعة منها:

– دفع مرتّبات أئمّة الجوامع والسدنة وما يتبع ذلك من مفروشات وغير ذلك.
– تمويل مدارس السكنى للطلبة الزيتونيين.
– دفع المرتّبات لأهل المجلس الشرعي.
– دفع مرتّبات المدرسين.
– دفع جراية القضاة الشرعيين في سائر مدن القطر التونسي.
– بناء الأسوار والأبراج وترميمها.

على أنّ جمعيّة الأوقاف قد أدركها الوهن لسببين:

الأوّل: إنزال الأوقاف، إذ ظهر الجشع أكثر فأكثر من المعمّرين الّذين استحوذوا على أراضي الأوقاف العامّة الخصبة بأثمان بخسة، كما ظهر هذا الغبن الفاحش بعد الحرب العالميّة الأولى حين استحوذ المعمّرون على كلّ أراضي الأوقاف مقابل معلوم كراء ثابت وقد ارتفعت الأسعار وانحطّت قيمة العمولة. فكان المعمّر يدفع للأوقاف في مقابل مئات الهكتارات مالا يساوي قيمة هكتار واحد. ولئن استفاد بعض التّونسيين من الإنزال فإنّ ذلك يعتبر شيئا زهيدا أمام ما استفاد منه المعمّرون.

والسبب الآخر هو أنّ جمعيّة الأوقاف أضحت تعجّ بالموظّفين فوق حاجتها إذ أنّ أبواب الوظائف قد سدّت في وُجُوه التّونسيين وفتحت للفرنسيّين. وبقيت جمعيّة الأوقاف قائمة الذّات إلى أن ألغيت الأوقاف العامّة بالقانون عدد 83 لسنة 1957 القاضي بحلّ الأحباس الخاصّة والعامّة.

الجمعية الخلدونية
[1896 – 1958م]

1) مشروع تأسيس الجمعيّة الخلدونية

اقتنع رجال الإصلاح التّونسيون منذ أن بسطت فرنسا حمايتها على بلادهم في سنة 1881 بضرورة تركيز عملهم على نشر التعليم والأخذ بأسباب الثقافة والابتعاد عن النشاط السياسي المكشوف الذي من شأنه أن يعرّض حركتهم الناشئة إلى الإجهاض.

وممّا شجّعهم على تصوّر عملهم الإصلاحي على هذا المنهج الذي يتماشى تماما مع تعاليم الشيخ محمود قابادو وسياسة الوزير خير الدين، ما منيت به الحركة الاحتجاجيّة التي تزعّمها الشيخ محمد السنوسي وشارك فيها أعيان العاصمة، من فشل ذريع سنة 1885.

وتبعا لذلك استقرّ رأي خرّيجي المدرسة الصادقيّة، وعلى رأسهم أبو النهضة التونسية الثاني البشير صفر، على إصدار جريدة وطنيّة مستقلّة ناطقة باللغة العربية لنشر أفكارهم واستئناف العمل الإصلاحي الذي كانت تقوم به جريدة «الرائد التونسي» ثم توقّف إثر الاحتلال، فأصدروا جريدة «الحاضرة» التي ظهر عددها الأول في 2 أوت 1888 وعهدوا بإدارتها إلى واحد من نبغاء تلامذة المعهد الصادقيّ القدامى، وهو الأستاذ علي بوشوشة. وقد انضمّت إلى أسرة تحريرها نخبة من رجال الإصلاح الزيتونيين والصادقيّين، نخصّ بالذكر منهم شيخ الجماعة الأستاذ سالم بوحاجب، الشيخ محمد السّنوسي والأساتذة البشير صفر ومحمد ابن الخوجة ومحمد الأصرم وعلي

الورداني.

ولم تمض على ظهور هذه الجريدة سوى بضع سنوات، حتى فكّر أعضاء أسرتها في تطبيق برنامجهم الرّامي إلى نشر التعليم على أساس المبادئ التي شرع في تنفيذها خير الدين لمّا تقلّد الوزارة الكبرى (1873–1877) وهي تطعيم برامج التّعليم التّونسي بالعلوم التّطبيقية، باعتبار أنّ تلك العلوم التي تبنّتها الحضارة الغربيّة قد كانت في السّابق دعامة من دعائم الحضارة العربية–الإسلامية.

وبعد التّشاور وتبادل الرأي، قرر جماعة «الحاضرة» إنشاء جمعيّة ثقافيّة تونسية صميمة للمرّة الأولى في تاريخ البلاد، يتحدّد هدفها الأساس من جهة في التّعريف بالحضارة العربية الإسلامية، ومن جهة أخرى في بثّ العلوم الدّقيقة باللّغة العربيّة. واتّفقوا على أن يطلقوا عليها اسم «الجمعيّة الخلدونيّة» نسبة إلى المؤرخ التّونسي الشهير العلاّمة عبد الرّحمان بن خلدون.

2) ردود الفعل على المشروع

أ – ردود الفعل الفرنسية

اتّصلت الهيئة التأسيسيّة للجمعية الخلدونية بالمقيم العام الفرنسي روني مييى (René Millet) (1894 إلى 1900)، لإعلامه بعزمها على إنشاء جامعة تونسيّة عصريّة حرّة، والتمست منه النظر في إمكان رصد اعتماد قدره 5 ملايين فرنك في ميزانية الدّولة لمساعدة أصحاب المشروع على إنجازه في أقرب وقت ممكن.

فرحّب المقيم العام بالفكرة ووعد ببذل كلّ ما في وسعه من جهود لإدخالها حيّز التّطبيق واقترح على أصحاب المشروع أن تكون الجامعة التي يرغبون في بعثها مماثلة لجامعة عليكرة التي أنشأتها بريطانيا في الهند، إلاّ أنّه حذّرهم من ردود فعل علماء الدين الزّيتونيين المحافظين الذين يستطيعون القضاء على المشروع في المهد.

وكان روني مييى من المتعاطفين مع العربية الإسلامية، ومقتنعا بأن الدّين الإسلامي لا يتعارض مع الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة. وقد عبّر عن هذه الآراء في المحاضرة التي ألقاها في مؤتمر شمال إفريقيا المنعقد بباريس من 6 إلى 8 أكتوبر 1908، ونشر نصّها الشاذلي خير الله في كتابه حركة الشباب التونسي. وقد تحدّث فيها عن ظروف تأسيس الخلدونية، قائلا بالخصوص:

«شاهدت بنفسي أهل تونس يقبلون على العلوم الحديثة، وآنست فيهم خصالا ومواهب ساعدتهم على الارتقاء في هذا الميدان.... ولم يمض وقت طويل حتّى أسفرت هذه الجهود عن النّتائج المنشودة حيث انبعثت في تونس حركة إصلاحية سيكون لها مستقبل زاهر. إذ تأسّست بمساعي عدد من الشبّان التونسيين جمعية أطلقوا عليها اسم المؤرخ العربي الكبير ابن خلدون وسمّوها «الخلدونيّة». وقد وجّهت اهتمامي إلى انطلاق نشاطها وحرصت بالاتّفاق مع مؤسّسيها على أن تكون مقصورة على المسلمين دون سواهم حتى أثبت استعدادهم لتلقّي العلوم الحديثة وقدرتهم على تلقين مواطنيهم ثمار هذه العلوم».

ب – ردود الفعل التونسية

التفّ حول هذا المشروع عدد كبير من رجال الإصلاح المدرسيين والزّيتونيين أمثال محمّد القروي وعلي بوشوشة ومحمّد ابن الخوجة ومحمّد الأصرم، بالإضافة إلى بعض سامي



لجنة الخلدونية سنة 1905

الموظّفين من خرّيجي المدرسة الصّادقية أمثال الطيّب الجلولي ومصطفى دنقزلي وخليل بوحاجب ويونس حجّوج.

وحظي المشروع برعاية عاهل البلاد علي باي (1882–1902) ونجله محمد الهادي باي (1902–1906) وكبار رجال الدّولة وفي طليعتهم الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتّور ووزير القلم والاستشارة محمد الجلّولي، كما أيّد المشروع رجال الشّرع أمثال شيخ الإسلام أحمد كريّم وكبير أهل الشورى ونقيب الأشراف الشّيخ أحمد الشّريف والعلاّمة الشيخ سالم بوحاجب والمفتي المالكي الشيخ عمر بن الشيخ. واقتدى بهؤلاء الأعلام عدد كبير من مدرّسي الجامع الأعظم نخصّ بالذكر منهم المشايخ علي الشنّوفي وحسين ابن الخوجة ومحمّد النّخلي.

ج ـ حركة المعارضة

على أنّ المشروع أثار معارضة المعمّرين الفرنسيين وغلاة الاستعمار الذين توقّعوا أن تتحوّل هذه المؤسّسة إلى مركز من مراكز الدّعاية الإسلامية ومناهضة النفوذ الفرنسي. وقد كتب زعيمهم فيكتور دي كرنيار ما يلي:

«إذا قدّر أن تندلع ثورة في البلاد التونسية يوما ما فإنّ أعضاء هيئة أركانها يكونون قد تخرّجوا في الخلدونية».

ومن ناحية أخرى أزعج مشروع الخلدونية شقّ العلماء المحافظين والسلفيّين الملتفّين حول المفتي المالكي الشّيخ محمّد النجّار، وقد كانوا يرون أن التعليم التّونسي القومي ينبغي أن يحافظ على صبغته الدينية الخالصة. وبناء على ذلك اعتبروا تأسيس الخلدونية عملا مضرّا بالدّين الإسلامي الحنيف، ومنافسة خطرة تهدّد الجامع الأعظم بالانقراض.

فنشأت حركة إصلاحية سلفيّة معارضة للحركة الإصلاحيّة التّجديديّة، تدعو إلى التمسّك بالكتاب والسّنّة والرّجوع إلى أصول الإسلام الأولى والاقتداء بالسلف الصّالح ومقاومة الغزو الثقافي الغربي. وقد أصبحت جريدة «الزّهرة» التي أصدرها منذ سنة 1890 عبد الرّحمان الصنادلي، أحد خرّيجي الجامع الأزهر، الناطقة بلسان هذه الحركة المناهضة لجماعة «الحاضرة» و«الخلدونية» الذين يدعون اقتداء بالشيخ محمّد عبده إلى الإصلاح الثّقافي والاجتماعي والديني، ولو بالتعاون مع السلطة الاستعمارية.

3) انبعاث الجمعية الخلدونية سنة 1896

أ ـ مقاصد الجمعيــة

رغم ما لقيته الجمعيّة الخلدونيّة من مقاومة ومعارضة، فقد صادقت الحكومة على تأسيسها بمقتضى قرار صادر عن الوزير الأكبر بتاريخ 18 رجب 1344/22 ديسمبر 1896.

وتضمّن الفصل الثاني من قانونها الأساس مقاصد الجمعيّة المتمثّلة في «البحث عن الوسائل المفضية إلى توسيع نطاق المعارف لدى المسلمين»، ولذلك كان من عزم الجمعيّة:

1ـ أن ترتّب دروسا وخطبا أو محادثات في علم التاريخ والجغرافيا واللّسان الفرنساوي والاقتصاد السياسي وعلم حفظ الصحّة والطبيعة والكيمياء وغير ذلك.

2ـ أن تسهّل وسائل الاستكمال في المعارف على من هو أهل لذلك.

3ـ أن تعين على إنشاء مكتبات.

4ـ أن تحدث جريدة تنشر بالعربية والفرنسية، لتعين على تعريف التمدّن العربي للفرنسيين والتمدّن الفرنسي للعرب...».

وقد ذكّرت «الحاضرة» في عددها المؤرخ في 13 شوال 1314 / مارس 1897 بهذه المقاصد، وأضافت قائلة:

«وممّا تقدّم يتّضح أنّ مقصد هذه الجمعية جليل، وأنّه لا ينفق في سوقها إلاّ الإبريز الخالص واللّجيْن المصفّى، فلا يلتفت لما يشيعه سماسرة البغي والفساد من الأخبار البعيدة عن الصّحّة، العريقة في الوهم والغلط، لإحداث العقبات في سبيل هذا المشروع الإسلامي الذي

هو بكلّ خير كفيل، والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل».

ب ـ حفل الافتتاح

انتظم حفل الافتتاح صباح يوم السبت 15 ماي 1897 بمحضر المقيم العام الفرنسي والوزير الأكبر ووزير القلم والكاتب العام للحكومة وغيرهم من كبار رجال الدولة وأعيان البلاد، كما حضر الحفل شيخ الإسلام وكبير أهل الشورى ونقيب الأشراف وجمّ غفير من العلماء والمدرّسين.

وافتتح الاجتماع رئيس الخلدونيّة الأمير آلآي محمّد القروي، فألقى خطابا ذكّر فيه بمقاصد الجمعية وقدّم لمحة عن البرنامج الذي تعتزم الهيئة تطبيقه، ثم أحال الكلمة إلى المقيم العام روني مييى الذي ألقى خطابا نوّه فيه بالثّقافة الإسلامية وإسهام تونس في نشرها وفضل العرب على أوروبا في نهضتها. وعبّر عن رجائه في أن تشعّ أنوار الثقافة الحديثة من معهد الخلدونيّة حتى تعمّ بلاد المغرب قاطبة.

ج ـ محاضرة الشيخ سالم بوحاجب

وبهذه المناسبة ألقى العلاّمة الشيخ الإمام سالم بوحاجب درسا حول تفسير قوله تعالى «و علّم آدم الأسماء كلّها» (سورة البقرة الآية 31). وقد أطنب الأستاذ في الحديث عن مختلف العلوم النقليّة والعقليّة، وأكّد بالخصوص أنّ الدّين الإسلامي لا يتنافى أبدا مع العلوم التّطبيقيّة، داعيا التّونسيين إلى الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة، ومبرزا ما أحرزه المسلمون من تقدّم في العلوم الكونيّة في العهود الإسلامية الأولى. وحرص تلميذ الشيخ سالم بوحاجب، الأستاذ الإمام محمد الطاهر ابن عاشور على نشر هذا الخطاب بحذافيره في كتابه الشهير أليس الصّبح بقريب.

4 ـ إدارة الجمعيّة الخلدونيّة

أ – مجلس الإدارة

يتركّب مجلس إدارة الجمعيّة الخلدونية من رئيس وأحد عشر عضوا ينتخبون في جلسة عامّة بين عموم المشتركين بالاقتراع السرّي والأغلبيّة المطلقة في الدّورة الأولى والأغلبية النّسبية في الدّورة الثّانية لمدّة سنة واحدة ويمكن تجديد انتخابهم.

ويتمثّل دور مجلس الإدارة في الإشراف على سير الدّروس وضبط برامج الدّراسة واختيار المدرّسين والمصادقة على ميزانية الجمعيّة المموّلة بالاشتراكات والمساعدات المالية الخاصة والمنحة الدوليّة المخصّصة لها في كل عام.

وقد انتخبت الجلسة العامّة التأسيسيّة محمد القروي أول رئيس للخلدونية وحوله مجلس إدارة يتركّب من البشير صفر ومحمد الأصرم وخير الله بن مصطفى وخليل بوحاجب ومحمد رضوان وعلي بن أحمد قلاتي ومحمّد الصّالح السلاّمي والعربي بن عمر.

واستمرّ القروي على رأس الجمعية سنة واحدة (1897) وخلفه البشير صفر مدّة سنة واحدة أيضا (1898)، ثم تداول على الرئاسة: علي بن أحمد قلاتي (1899) ومحمد الأصرم (1900–1909) وعبد الجليل الزاوش (1910 – 1919) وحسن قلاتي (1920) ومحمد الأصرم من جديد (1924 – 1925) وعمر البكّوش (1926 – 1929) وعبد الرّحمان الكعّاك (1930 – 1945) ومحمد الفاضل ابن عاشور (1945 – 1958).

ب – مقرّ الجمعيّة

لم تتمكّن الخلدونيّة في السّنوات الأولى من نشاطها من الحصول على مقرّ خاص بها، فكانت تنظّم دروسها في المساء بالمدارس العموميّة. وفي سنة 1900 وضعت إدارة التّعليم العمومي على ذمّتها المدرسة العصفورية الكائنة بسوق العطارين قرب جامع الزيتونة وهي التي يرجع تاريخ تأسيسها إلى القرن الثّالث عشر للميلاد، وذلك إثر تحويل المدرسة التّأديبيّة أو مدرسة ترشيح المعلّمين إلى مقرّها الجديد بالمركاض. وهيأت الجمعيّة في تلك المدرسة بعد ترميمها قاعات للدّروس وقاعة للمطالعة وأخرى للإدارة.

5 – نظام التعليم بالخلدونيّة

أ – درجات التعليم

أحرزت الخلدونية منذ إنشائها نجاحا باهرا، فانخرط في سلك مشتركيها عدد كثير من رجال التعليم والموظّفين والتجّار والأعيان، وأقبل الشبّان على دروسها أيما إقبال، لا سيما منهم طلبة الجامع الأعظم الذين كانوا محرومين من العلوم العقلية كالفلسفة والتاريخ والجغرافيا، ومن العلوم الصحيحة والتجزيبيّة كالرّياضيات والفيزياء والكيمياء، وكان من ولع بعضهم بهذه الدّروس أنهم لا يتركون أيّ درس يفوتهم ولا يقتصرون على بعضها دون الآخر.

وينقسم التّعليم إلى ثلاث درجات: الابتدائي والثانوي والعالي.

– فالتّعليم الابتدائي يرمي إلى تلقين التلامذة مبادئ اللغتين العربيّة والفرنسيّة، وبه فرع لتعليم الكهول القراءة والكتابة.

– والتعليم الثانوي مخصّص للتلامذة المتوسطين، وتتضمّن مناهجه اللغة العربيّة وآدابها واللغة الفرنسيّة والتاريخ والجغرافيا والحساب والهندسة والعلوم الطبيعيّة ومبادئ حفظ الصحّة.

– والتّعليم العالي، وهو يهيّئ الطلبة لاجتياز امتحان «شهادة المعارف العمليّة» التي أنشئت بمقتضى الأمر المؤرّخ في 12 نوفمبر 1898، وتتضمّن برامجه الأدب العربي والإنشاء وفلسفة التّاريخ والرّياضيات والهندسة والاقتصاد السياسي.

ونظّمت الخلدونية أيضا دروسا تطبيقيّة في قيس الأراضي والمحاسبة ومسك الدفاتر.

ب – المدرّسون

اعتمدت الجمعية الخلدونية على نخبة من الأساتذة والمحامين والأطباء وكبار الموظفين للتدريس بمعهدها إما تطوّعا أو بمقابل رمزي. ومن أشهر المدرّسين بالخلدونية الزعيم الوطني البشير صفر الذي تولى تدريس التاريخ والجغرافيا من سنة 1897 إلى سنة 1908، تاريخ تعيينه عاملا بسوسة. وقد كان له بالغ الأثر وبعيد الصدى داخل المعهد وخارجه حتى لقّب بأبي النهضة التونسية الثاني (بعد خير الدين). وقد عوّضه محمد ابن الخوجة مدّة سنة واحدة، ثم حسن حسني عبد الوهاب، ثم الصادق الزمرلي.

ومن المدرّسين بالخلدونية في السنوات الأولى من حياتها، نذكر على سبيل المثال الأساتذة المكلّفين بتدريس المواد التالية:

– الإنشاء: المشايخ حمّودة تاج وعلي الشنوفي ومحمد النخلي.

– الطبّ وحفظ الصحة: الطبيبان البشير دنقزلي وأحمد الشريف.

– الكيمياء والعلوم الطبيعية: عبد الرزاق الغطاس.

– الهيئة والميقات والمساحة: علي رضا.

أما في الثلاثينات، فكانت الدروس موزّعة على النحو التالي:

– اللغة والآداب العربيّة: العربي الكبادي وبلحسن بن شعبان.

– الترجمة: صالح بن محمود.

– التاريخ والجغرافيا: الصادق الزمرلي وعثمان الكعاك.

– النقد التاريخي: محمد عطيّة.

– الاقتصاد السياسي: الطاهر صفر.

– الرياضيات: الصادق التلاتلي ومحمد عبيد.

– الهندسة: عبد العزيز بن الأمين.

– علم الفلك: الهادي الكسوري.

– الطبّ وحفظ الصحّة: الدكتور محمود الماطري والدكتور رشيد المنشاري.

ج – مكتبة الخلدونيّة

استقرّت مكتبة الخلدونية في أوّل عهدها في قاعة من قاعات المدرسة العصفورية منذ سنة 1900، ثم تحوّلت في أفريل 1927 إلى قاعة المحاضرات الكبرى المجاورة للمدرسة. وقد خصّص قسم منها للكتب التّونسية وقسم آخر

للدّوريات. وبلغ معدّل عدد المطالعين أكثر من 1000 مطالع كل شهر، وعدد المجلّدات أكثر من 5000 مجلّد.

وبعد حلّ الجمعيّة الخلدونية في سنة 1958 ألحقت مكتبتها بمصلحة المكتبات العمومية التابعة لوزارة الثقافة ونقلت مخطوطاتها النفيسة إلى دار الكتب الوطنية. وظلّت قاعة المكتبة الخلدونية مغلقة مدّة طويلة إلى أن تمّ ترميمها في السنوات الأخيرة وفتحت من جديد في وجه القرّاء في غضون سنة 1992 باعتبارها فرعا تابعا لدار الكتب الوطنية.

د - خرّيجو معهد الخلدونية

لقد تخرّج في معهد الجمعية الخلدونية في عهودها الأولى عدد كثير من العلماء ورجال الفكر والتّعليم منهم الأستاذ الهادي الكسوري الذي تولّى فيما بعد تدريس علم الفلك في المعهد نفسه، والشّيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء الجزائريين، والشّيخ محمد مناشو المدرس بالجامع الأعظم ومدير المدرسة القرآنية العصريّة بنهج سيدي بن عروس بتونس والأستاذ عبد الرّحمان الكعّاك الذي تولّى رئاسة الجمعية الخلدونية بكفاية فائقة من 1930 إلى 1945، والأستاذ حسن المملوك الذى أشرف على إدارة المدرسة العرفانية التّابعة للجمعية الخيريّة الإسلامية بتونس نحو الأربعة عشر عاما، هذا بالإضافة إلى عدد كثير ممّن تقلّدوا سامي الوظائف الإداريّة والقضائية والتعليميّة.

6 - نشاط الخلدونية في الميدان الثقافي

أ - المحاضرات

لقد سهرت الجمعيّة الخلدونيّة منذ إنشائها على تنظيم محاضرات ومسامرات من حين إلى آخر يلقيها عدد من العلماء والمدرّسين والأطباء أمثال الأستاذ البشير صفر والعلاّمة الشّيخ محمد الطاهر بن عاشور وابنه الشيخ محمد الفاضل والأستاذ الطاهر صفر والشّيخ محمد الصّالح بن مراد والأستاذ عثمان الكعاك والشّيخ المختار بن محمود والشّيخ أحمد المهدي النّيفر وأمير الشعراء محمد الشّاذلي خزنه دار وشيخ الأدباء محمد العربي الكبادي والأطباء البشير دنقزلي وأحمد الشريف ورشيد المنشاري ومحمود الماطري وأحمد بن ميلاد.

ومنذ أن أنشأت الخلدونيّة في أكتوبر 1934 النّادي الأدبي أصبحت المحاضرات أسبوعيّة. وقد كان الإقبال عليها كبيرا حتى اضطرّت الهيئة إلى تحديد عدد الحاضرين بتوزيع بطاقات حضور على رجال الفكر والأدب وطلبة التّعليم العالي.

ومن الضيوف العرب الذين ألقوا محاضرات على منبر الخلدونية نذكر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصريّة الذي ألقى محاضرة حول العلم يوم 20 سبتمبر 1903، والشّيخ محمد الحجوي مندوب المعارف الإسلاميّة في المغرب الذي ألقى محاضرة يوم 23 ديسمبر 1934 بعنوان «الفتح العربي لإفريقيا الشّمالية ودفع المثالب عنه». وقد صدر نصّها في نشرة الجمعية الخلدونية لسنة 1934.

ب - التّظاهرات الثّقافية

إلى جانب الدّروس النّظامية والمحاضرات العمومية اتّجهت الخلدونية منذ مطلع الثّلاثينات إلى اغتنام الفرص والمناسبات لإقامة تظاهرات ثقافية للتّعريف بالحضارة العربيّة الإسلاميّة وأبرز أعلامها قديما وحديثا.

من ذلك أنّها أقامت يوم 2 أفريل 1930 موكب تأبين الأديب المصري محمّد المويلحي صاحب «حديث عيسى ابن هشام»، ألقيت فيه بحوث ودراسات تحليلية لحياته وآثاره. ونظّمت يوم 23 مارس 1932 بالقيروان مهرجانا ثقافيا كبيرا شارك فيه عدد من فحول الشعراء وكبار الأدباء بمناسبة مرور 13 قرنا على تأسيس مدينة عقبة بن نافع.

وأحيت الخلدونيّة يوم 4 مارس 1932 ذكرى المؤرخ القيرواني أبي العرب التميمي، ونظّمت يوم 29 أفريل 1932 لقاء أدبيّا بمناسبة مرور ستة قرون على ولادة العلاّمة ابن خلدون، وفي شهر أكتوبر 1932 أقامت حفلا تذكاريا لتأبين شاعر النيل

حافظ إبراهيم. ونظّمت في 24 نوفمبر من السنة نفسها حفلا أضخم بمناسبة وفاة أمير شعراء مصر أحمد شوقي.

وأسهمت أيضا مع شقيقتها جمعية قدماء الصادقية يوم 22 نوفمبر 1934 في إحياء ذكرى شاعر تونس الكبير أبي القاسم الشابي، بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاته، كما أحيت يوم 28 أوت 1937 ذكرى انقضاء 20 عاما على وفاة أبرز مؤسسيها البشير صفر بمحضر واحد من قدماء تلامذته الشيخ عبد الحميد بن باديس.

واحتضنت قاعة الخلدونية المؤتمر الأول لجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا من20 إلى 22 أوت 1931 ثم المؤتمر الرابع من 3 إلى 5 أكتوبر 1934.

7 – نشاط الخلدونية بعد الحرب العالمية الثانية

أ – انتخاب الشيخ الفاضل بن عاشور على رأس الجمعية

لقد تزامنت نهاية الحرب العالمية الثانية مع وفاة رئيس الخلدونية الأستاذ عبد الرحمان الكعاك وانتخاب هيئة جديدة في شهر جوان 1945 متركبة على النحو التالي:

رئيس: محمد الفاضل بن عاشور.

نائبا الرئيس: عثمان الكعاك ومحمد الشاذلي النيفر.

كاتبان: الطيّب العنابي والتهامي الزهّار.

أمين المكتبة: محمد المختار بن محمود.

أمين المال: الهادي بن الطاهر.

الأعضاء: مصطفى الزمرلي ونور الدين بن محمود وعبد الرحمان الصنادلي ومحمد القسطلّي والدكتور الصادق المقدّم.

وتميّز نشاط الجمعية الخلدونية بداية من ذلك التاريخ بالكثافة والتنوّع، وتجسّد في تحقيق عدّة إنجازات في ميادين التربية والتعليم والثقافة.

ب – معهد الدراسات الإسلامية

تأسّس هذا المعهد في شهر جانفي 1946، وهو يرمي أولا وبالذات حسب أحكام نظامه الأساسي إلى «بعث روح الثقافة الإسلامية وقيادة ذوي الثقافة إلى الشعور بوحدة العالم الإسلامي وعظمته والوقوف على حقائقه الوجودية وتكوين الاستعداد لدراسة حرّة لا تتأثر بالظروف العارضة ولا بالتيارات الخارجيّة....».

وقد ضبطت مناهج هذا المعهد على اعتبار العالم الإسلامي مؤلّفا من أربع وحدات: الوحدة العربية والوحدة الهندية والوحدة الطورانية والوحدة الإيرانية. فكانت المحاضرات تتناول بالدرس المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية بالأقطار التابعة لكل وحدة من الوحدات الأربع.

وقد كلّف بإلقاء هذه المحاضرات أساتذة متخصّصون في بحث هذه المسائل أمثال: الفاضل بن عاشور وعلي البلهوان وعثمان الكعّاك والطيّب العنابي والصادق بسيس ومحيي الدين القليبي والصحبي فرحات. ثم انضمّ اليهم أستاذان من الشبان المتخرجين في المعهد ذاته وهما الحبيب ابن الخوجة والعروسي المطوي.

ج – معهد الحقوق العربي

نشأت الخلدونية هذا المعهد في آخر سنة 1946 وعهدت بإدارته إلى الأستاذ الطيب العنابي المحامي، وتولّى التدريس فيه من كبار القضاة ورجال القانون أمثال الهادي ابن القاضي والصادق الجزيري وصالح بن يوسف والهادي نويرة والطاهر الأخضر وفتحي زهير.

وتعطّلت دروس هذا المعهد في سنة 1948: وسبب ذلك، حسب الشيخ الفاضل بن عاشور ذاته، «تزاحم برامجه مع برامج المعهد الرسمي الذي يتخرّج فيه حكّام العدليّة التونسية ومحاموها، وهي مدرسة الحقوق التونسية».

د – الباكالوريا العربية

كان التعليم الثانوي الذي نظمته الخلدونية منذ تأسيسها يقتصر على المرحلة الأولى، فقرّرت هيئة الجمعية في سنة 1947 إحداث شهادة لختم الدروس الثانوية تسمّى «الباكالوريا

العربية» ويتحدّد غرضها في تهيئة التلامذة المترشحين لهذه الشهادة للالتحاق بمعاهد التعليم العالي بالمشرق لمواصلة تعليمهم الجامعي في مختلف العلوم والفنون، وبالفعل قد تمكّنت الخلدونية من توجيه عدد من التلامذة المتفوّقين من حملة الباكالوريا العربية إلى الجامعات العربية في كل من مصر وسوريا ولبنان والعراق لمزاولة دراستهم العليا وإمداد جامع الزيتونة بأساتذة متخصّصين في تدريس العلوم العقليّة والتطبيقية باللغة العربيّة، كالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية.

ه - مؤتمر الثقافة الإسلامية

وتتويجا لنشاطها العلمي والثقافي قرّرت الجمعية الخلدونية عقد مؤتمر ثقافي عام بتونس أطلقت عليه اسم «مؤتمر الثقافة الإسلامية»، يتناول نواحي الثقافة العربية الإسلامية ويشارك فيه ممثلون عن البلدان الإسلاميّة شرقا وغربا من العلماء والمفكّرين والكتّاب. وبالفعل قد انعقد هذا المؤتمر بتونس في شهر سبتمبر 1949 «ونال حظّا عظيما من النجاح»، على حدّ تعبير الشيخ الفاضل بن عاشور، الذي أضاف قائلا: «إلاّ أن شيئا عظيما جدّا من البلبلة والفشل قد أحاط به وبنتائجه حتى كأن مواكبه الباهرة كانت توديعا لذلك العهد السعيد من التفاف الأمّة حول نهضة الثقافة الإسلامية».

و - انحلال الجمعية الخلدونية

وقد حصل فعلا ما توقّعه الشيخ ابن عاشور. فمنذ مطلع الخمسينات أخذت الأحداث السياسية وملابساتها تطغى على الحياة العامّة وعلى نشاط الجمعيات العلمية والثقافية بوجه خاص، بما في ذلك الجمعية الخلدونية التي تقلّص نشاطها الثقافي حتى أصبحت مجرّد مدرسة حرّة.

فما إن استرجعت الدولة التونسية سيادتها في سنة 1956 وشرعت حكومة الاستقلال برئاسة الزعيم الحبيب بورقيبة في معالجة قضيّة التعليم التونسي وإصلاحه على أساس توحيد برامجه ومؤسساته تحت سلطة وزارة التربية القومية، ومن ثمّة إدماج التعليم الزيتوني الثانوي في صلب معاهد التعليم العمومي، حتى أدرك المشرفون على حظوظ الخلدونية أن المهمّة التي اضطلعت بها أكثر من نصف قرن قد أوشكت على النهاية بدخول برنامج إصلاح التعليم حيّز التطبيق في مستهلّ السنة الدراسيّة 1958-1959. فقرّروا من تلقاء أنفسهم وضع حدّ لنشاط هذه المؤسسة العريقة التي أسهمت إسهاما بعيد المدى في نشر الفكر الإصلاحي بالبلاد وإرساء أسس النهضة الفكرية التونسيّة الحديثة المرتكزة على صيانة الثقافة العربية الإسلاميّة الأصيلة وإحيائها، مع مواكبة معارف العصر، والأخذ بأسباب الحضارة الحديثة سواء في الميدان الاقتصادي والاجتماعي أو في الميدان الفكري والعلمي.

جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصادقية

1) تأسيس الجمعيّة (ديسمبر 1905)

نشرت جريدة «الصواب» لصاحبها محمد الجعايبي في عددها الصادر في 22 ديسمبر 1905 وصفا للاجتماع العام الذي أسفر عن تأسيس جمعيّة قدماء الصادقية، جاء فيه بالخصوص ما يلي:

«اجتمع لتأسيس جمعيّة قدماء الصادقية جمع من المثقّفين يوم الأحد 3 ديسمبر 1905 وألقى علي باش حانبة خطابا باللسان الفرنساوي وكان عدد الحاضرين يناهز السبعين. ثم وقع انتخاب خير الله بن مصطفى رئيسا للجمعيّة، وانتخبت معه هيئة تتركّب من 11 عضوا أكثرهم من المشتغلين بالمهن الحرّة....».

وقد كان تركيب الهيئة التأسيسية على النحو التالي:

الرئيس: خير الله بن مصطفى
نائب الرئيس: أحمد الغطاس
الكاتب الأول: الهادي الأخوة
الكاتب الثاني: حسين بوحاجب
أمين المال: محمد الشعبيني
الأعضاء: محمد الأصرم ومحمد ابن الخوجة وعمر بوحاجب ومحمد الجنّادي ورشيد بن مصطفى والطيب رضوان محمد بن عود ة.

وانضمّ إلى الهيئة المديرة إثر الجلسة العامة المنعقدة في 28 أكتوبر 1906 بصفة أعضاء، كل من الزعيمين الوطنيّين علي باش حانبة والبشير صفر وكذلك عبد العزيز الحيّوني والهادي بن الطاهر.

واقترح علي باش حانبة في خطاب الافتتاح أن يكون نشاط الجمعية مستمدّا من الأهداف التي رسمها الوزير الأكبر خير الدين للمدرسة الصادقية عند تأسيسها في سنة 1875، مشيرا إلى الثورة التي أحدثها ذلك الوزير المصلح حين أدخل في برامج التعليم بالمدرسة الصادقية، تعليم اللغات الأجنبية والعلوم الحديثة، كما ألحّ على ضرورة «تغيير عقليّة التونسيين لتمكينهم من العيش مع مختلف الأجناس التي وفدت على بلاد نا».

2) انطلاق نشاط الجمعية (1906 - 1911)

نالت الهيئة التأسيسية في 24 ديسمبر 1905 موافقة الحكومة على تأسيس جمعية قدماء الصادقية. وانطلق نشاط الجمعية من المقرّ الذي وضعته إدارة المدرسة الصادقية على ذمّتها الكائن بشارع باب بنات عدد 39، وقد كان لهذا النشاط في أول الأمر صبغة ثقافية فرنسيّة خالصة. ذلك أن المشرفين على حظوظ الجمعية كانوا عهدئذ لا يرون الإصلاح إلاّ بالاقتداء بالأنموذج الفرنسي دون سواه.

لكن بتأثير من رئيس الجمعيّة خير الله بن مصطفى الذي كان ميّالا إلى الاعتدال قرّرت الهيئة تنظيم «مسامرات» باللغة العربية ودعت إلى إلقائها نخبة من مدرّسي جامع الزيتونة المعروفين بأفكارهم الإصلاحيّة، فألقى العالم المصلح الشيخ محمد النخلي محاضرة بعنوان «نضارة التمدّن الإسلامي» يوم 31 مارس 1906.

وأشادت جريدة «الصواب» في عددها المؤرخ في 6 أفريل 1906 بتلك المحاضرة التي جاءت على حدّ قولها: «في أسلوب رائع بديع أكسب فخرا ومجدا لكل من ينتسب إلى الجامع الأعظم، وأرغم أنوف المكابرين الذين يحسبون أنفسهم على شيء وهم خلو من كل شيء».

ثم ألقى الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في شهر ماي 1906 محاضرة ثانية حول: «أصول التمدّن الإسلامي» وتلاه الشيخ أحمد النيفر الذي ألقى محاضرة أخرى في تفسير قوله تعالى: (إن اللّه يأمر بالعدل والإحسان....). وأخيرا ألقى الشيخ محمد الخضر بن الحسين محاضرة بعنوان «الحريّة في الإسلام» وقد طبعت في تونس سنة 1909.

3) قضيّة المدرسة القرآنية العصرية

لقد كانت هذه المحاضرات بمثابة السعي إلى توثيق العلاقات الوديّة بين العنصرين المدرسي والزيتوني. ولكن سرعان ما شبّ خلاف حادّ بينهما، لما تغلّب الشقّ المتمسّك بالثقافة الفرنسيّة على رئيس الجمعيّة خير الله بن مصطفى الذي أنشأ في غرّة ديسمبر 1906 أول مدرسة قرآنية عصريّة تونسيّة بنهج سيدي بن عروس بتونس. وقد شنّت عليه حملة شعواء جريدة «التونسي» الناطقة بالفرنسية التي أصدرها علي باش حانبة بداية من 7 فيفري 1907. وقد شارك في هذه الحملة ضدّ خير الله، بالخصوص علي باش حانبة وحسن قلاّتي ومحمد نعمان وعبد الجليل الزاوش، في حين رحّبت بالمشروع الصحف العربيّة «الصواب» و«الزهرة» و«المرشد».

ونفى علي باش حانبة عن صاحب المشروع الصفة الإصلاحيّة ونعته بالجبن والرجعيّة والتشبّث بالماضي، وتنبأ بفشل هذه التجربة قائلا: «لا يوجد أحد على حدّ علمنا يراوده

الأمل الخيالي في أن يكون في تونس يوما ما معهد يتلقّى فيه أبناؤنا تعليمهم باللغة العربيّة».

فردّ عليه خير الله قائلا:

«إن التعليم في مدارسنا ينبغي أن يلقّن باللغة العربية، لأن التونسي يعتبر هذه اللغة عنصرا مكمّلا لشخصيّته التي يصرّ على عدم التفريط فيها، ووسيلة لممارسة دينه الذي يريد أن يبقى متعلّقا به، كالرباط الذي يصله سواء بماضيه الذي له من الأسباب ما يكفيه لأن يكون فخورا به، أو بالعالم الإسلامي الذي لا ينوي البتّة أن يقطع صلته به، ويعتبرها أخيرا أداة للاستمرار داخل الوسط الذي ينتمي اليه منذ ثلاثة عشر قرنا ولا يمكنه أن يفترق عنه دون المجازفة بأن يبقى منفصما وموزّعا بين المجتمعين الفرنسي والعربي: هذا يحذره وذاك يحتقره».

وقد انعكست هذه المجادلات على نشاط جمعيّة قدماء الصادقية التي لم تلبث أن غيّرت اتّجاهها بتأثير علي باش حانبة وجماعته. «فضربت صفحا عن المسامرات باللغة العربيّة واستعاضت عنها بمسامرات باللغة الفرنسية، منها النافع، ومنها عديم الفائدة فتضاربت فيها الظنون وأحجم الناس عن مساعدتها» («الصواب» 31/1/1908).

4) اتّحاد الشبيبة الزيتونية والمدرسيّة

وخلافا لتوقعات علي باش حانبة، نجحت تجربة المدرسة القرآنية نجاحا باهرا، وتخرّجت فيها أفواج من الأدباء والشعراء ورجال الفكر أمثال محمد الحبيب وعبد الرزاق كرباكة وأحمد المختار الوزير وأحمد توفيق المدني. وتبعا لذلك انتشرت المدارس القرآنية في جميع أنحاء البلاد ولم تعد مقصورة على العاصمة.

ولمّا شاهد علي باش حانبة وجماعته إقبال الشعب التونسي على هذه المدارس، ولاحظوا من ناحية أخرى فشل سياسة المشاركة، راجعوا مواقفهم محاولين الاقتراب من العنصر الزيتوني بوساطة واحد من خريجي جامع الزيتونة معروف بأفكاره الإصلاحية، وهو الشيخ عبد العزيز الثعالبي. وحاولت جريدة «التونسي» منذ سنة 1909 أن تنفي عن نفسها تهمة مقاومة اللغة العربيّة، مؤكدة أنها لم تطالب أبدا بالتخلّي عن هذه اللغة، إنّما اقترحت برنامجا عاما لإصلاح التعليم التونسي «تحتلّ فيه اللغة العربيّة مكانة مرموقة، لأن المحافظة على لغتنا هي الشرط اللاّزم لوجودنا المعنوي كشعب متعلّق بماضيه وبعاداته وتقاليده».

وتطبيقا لهذه السياسة الجديدة، أصدر علي با ش حانبة في نوفمبر 1909 نشرة عربيّة من جريدته وعهد بتحريرها إلى الشيخ عبد العزيز الثعالبي والأستاذ الصادق الزمرلي «فكان الأول ينشئ المقالات بالعربيّة رأسا، وكان الثاني يعرّب المقالات الصادرة في النشرة الفرنسية».

وساندت الجريدة أول إضراب عن الدروس قام به طلبة جامع الزيتونة في 16 أفريل 1910 للمطالبة بإصلاح التعليم في معهدهم. ولما انتهى الإضراب يوم 28 أفريل نظم الطلبة اجتماعا عاما خطب فيه الصادق الزمرلي وعبد الجليل الزاوش وعبد العزيز الثعالبي، لتهنئة الطلبة بنجاح إضرابهم. وكان هذا الاجتماع حسب رأي الشيخ الفاضل بن عاشور، «إعلانا عن اتّحاد الشبيبة الزيتونية والمدرسيّة، واتّجاه الحركة الوطنيّة وجهة قوميّة إسلامية».

وقد أثّر هذا الاتّجاه الجديد في نشاط جمعيّة قدماء الصادقية التي فتحت أبواب ناديها من جديد في وجه الزيتونيين، وأغنت مكتبتها بأمهات الكتب العربيّة، ونظمت دروسا عموميّة في حي باب سويقة وحي باب الجزيرة للاتّصال أكثر فأكثر بالجماهير الشعبيّة.

لكن هذا النشاط بدأ يتقلّص منذ أواخر سنة 1911 إثر حوادث الزلاّج وبعد حركة مقاطعة الترامواي في مارس 1912 وإبعاد الزعماء وعلى رأسهم علي باش حانبة، ثم تعطّل نشاط الجمعية تماما إثر اندلاع الحرب العالميّة الأولى (1914–1918).

5) استئناف جمعية قدماء الصادقية نشاطها إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى

بعد انتهاء الحرب نهضت جمعية القدماء من سبا تها، وانتخبت الجلسة العامة المنعقدة في 13 جوان 1919 هيئة جديدة برئاسة المؤرّخ حسن حسني عبد الوهاب، كما أصدرت الجمعية في أفريل 1920 مجلة ثقافية «المجلّة الصادقيّة» وأسندت إدارتها ورئاسة تحريرها إلى الشاعر محمد سعيد الخلصي، فلم يصدر منها سوى 3 أعداد، أحدها مزدوج، ثم توقّفت عن الصدور.

ونظمت الجمعية عدة محاضرات، منها المحاضرة التي ألقاها أمير الشعراء محمد الشاذلي خزنه دار، بعنوان: «حياة الشعر وأطواره»، ومحاضرة شيخ الأدباء محمد العربي الكبادي حول المعتمد بن عبّاد.

وفي جانفي 1924 انتخبت هيئة جديد ة برئاسة الأستاذ مصطفى الكعّاك الذي ظلّ على رأس الجمعية حتى سنة 1931. وتميّز نشاط الجمعية في تلك الفترة بالكثافة والتنوّع وإقبال المثقفين على النادي الجديد الكائن بنهج السيدة عجولة عدد 37، ثم انتقلت الجمعية في سنة 1926 إلى المقرّ الذي وضعته إدارة التعليم العمومي على ذمّتها الكائن بنهج دار الجلد عدد 13. ولعلّ أهمّ نشاط قامت به الهيئة هو إنشاء النادي الأدبي الذي أصبح يتردّد عليه الأدباء والشعراء ورجال الفكر لتبادل وجهات النظر حول أهمّ القضايا الأدبية والفكرية والفلسفيّة. ومن أشهر أعضاء النادي الأدبي عثمان الكعاك وأحمد العتكي وزين العابدين السنوسي ومحمد بن حسين ومصطفى آغة وأبو القاسم الشابي ومحمد الصالح المهيدي وبلحسن بن شعبان.

ومن أبرز المحاضرات التي ألقيت في تلك الفترة على منبر النادي الأدبي:

– محاضرة الشاذلي خير الله حول الحجاب وتحرير المرأة المسلمة.

– محاضرة الأب يوسف سلاّم حول فلسفة ديكارت.

– محاضرة محمد الصالح المهيدي حول امرئ القيس.

– المحاضرة الشهيرة التي ألقاها أبو القاسم الشابي في نوفمبر 1929 حول الخيال الشعري عند العرب.

وكثيرا ما كانت تثير هذه المحاضرات جدلا بين المثقّفين والأدباء المحافظين والمجدّدين داخل النادي الأدبي وخارجه.

6) نشاط الجمعية من 1931 إ لى 1934

لقد تداول على رئاسة جمعية قدماء المدرسة الصادقية من سنة 1931 إلى سنة 1934، ثلاثة رؤساء وهم:

– الأستاذ الطاهر صفر (1931–1932)

– الأستاذ محمد بورقيبة (1932–1933)

– الأستاذ محمد المالقي (1933–1934)

واتّسم نشاط الجمعيّة في هذه الفترة بطابع سياسي وطني واضح، رغم أن القانون الأساسي للجمعية يمنع تعاطي النشاط السياسي، كما احتضنت جمعية القدماء منذ سنة 1932 جمعية الشبيبة المدرسية التي لم تسمح السلطة الاستعمارية بإنشائها فأصبحت فرعا تابعا لها، وتمكّنت من القيام بنشاط ثقافي مكثّف تجسّد في إلقاء محاضرات وتنظيم دروس تكميلية لفائدة تلامذة المعاهد الثانوية وإقامة معارض فنية وتكوين مكتبة عمومية وتنظيم رحلات داخل البلاد. وقد تداول على إدارة الشبيبة المدرسيّة الحبيب مبارك والباهي الأدغم وعمّار الدخلاوي والصادق المقدّم. ومن أعضائها البارزين الطيّب سليم ومحمود المسعدي وعبد الوهاب بكير والطيب العنابي ومحمد بكير.

7) نشاط الجمعية من 1934 إلى 1954

ولمّا انتخب المهند س الأستاذ محمد علي العنابي على رأس جمعية قدماء الصادقية في سنة 1934، أضاف إلى نشاطها العادي ـ وهو في إلقاء المحاضرات وتنظيم دروس التدارك لفائدة تلامذة المدرسة الصادقية ـ النشاط الذي تقوم به

نوادي الاختصاص، وقد ارتفع عد دها من واحد إلى أربعة وهي:

1 – النادي الأدبي الذي واصل نشاطه السابق برئاسة عثمان الكعّاك.

2– نادي البحوث الفلسفية برئاسة محمد علي العنابي

3 – نادي البحوث الاقتصادية برئاسة الطاهر صفر

4 – نادي البحوث التشريعية والقانونية برئاسة الهاشمي السبعي.

وبذلت هيئة الجمعية قصارى جهدها لإعانة الطلبة التونسيين بالخارج، إذ نظمت نصف شهر الطالب في سنة 1946 ويوم العلم سنة 1947، لجمع التبرّعات لفائدة الشبان التونسيين المغتربين خارج أرض الوطن لطلب العلم.

ولما انتهت مهمّة الرئيس محمد علي العنابي سنة 1954، عوّضه الأستاذ الطيب السحباني الذي بقي على رأس الجمعية حتى سنة 1956 تاريخ استقلال البلاد. واعتبارا من ذلك التاريخ بدأ نشاط الجمعية يتقلّص ولم يبرز للعيان إلاّ في مناسبتين اثنتين: الاحتفال بمرور 50 سنة على تأسيس الجمعية، وذلك يوم 26 جانفي 1957 بإشراف الرئيس الحبيب بورقيبة، والمحاضرة التي ألقاها على منبر الجمعية عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين في شهر جوان 1957 بعنوان «رحلة فنيّة». وإثر ذلك تعطّل نشاط الجمعية منذ مطلع الستّينات.

ولم تستأنف الجمعية نشاطها إلاّ في غضون شهر أفريل 1987، بفضل جهود نخبة من قدماء أبناء المدرسة الصادقية الذين عقدوا العزم على بعث جمعيّتهم العريقة من مرقدها وتمكينها من مواصلة رسالتها السامية وتحقيق ما رسمه لها مؤسسوها من أهداف نبيلة.

استئناس الجمل وحيد السنام في البلاد التونسية

Camelus Dromedarius

تنتمي الإبل بكلّ أنواعها وأينما تعيش اليوم إلى الثدييات المجترّة، لكنّ شكلها يختلف من منطقة إلى أخرى والسبب هو أنّها لا تملك كلّها سناما. ففي حين تفتقر له الفصائل التي تنمو اليوم في القارة الأمريكيّة، يتميّز جنس "الكاميليس" Camelus هو الآخر بسنام أو اثنين قبل أن تستقرّ هذه وتلك في الأماكن التي تعيش فيها اليوم، كانت كلّها قد انطلقت من منطقتي UTAH وWYOMING بشمال أمريكا، يرجّح أنّها مركز ظهور الجمل الأول PROTYLEPUS في العصر الحجري القديم، ومن ثمّة لا يستبعد أن يكون هذا الجمل دون سنام وانحدرت منه الأصناف الأربعة التي تعيش اليوم في جبال Andes ومناطق أخرى من جنوب أمريكا، وهي أصناف دون سنام ورغم أنّ بعضهم يدرجها في جنس واحد هو اللاّما Lama باختلافه على جنس Camelus، فإنّه لابدّ من اعتبارها أربعة فصائل وهي: الغونق ـ الفيكونة ـ البكّة ـ اللاّما والسنام الذي يميّز جنس الكاميليس عن الجمل الأمريكي هو عبارة عن كتلة من الأنسجة الدهنيّة الخالية من العظام. تستخدمها الابل في فترات الجفاف لتخزين الماء والطاقة، وهذا ينطبق على الكاميلس العربي الإفريقي الذي ينمو في المناطق الصحراوية، ولابدّ أن تكون هناك خاصيات أخرى لجمل آسيا ذي السنامين خاصّة أنّه يعيش في وسط طبيعي مغاير لوسط الجمل العربي.

وقد يكون جمل آسيا الملقّب بـCamelus Bactrianus نسبة إلى Bactriane الاسم القديم لشمال أفغانستان، قد يكون انحدر من PROTYLEPUS مثل الأصناف الأربعة الأخرى ومرّ إلى آسيا عبر مضيق Behring وهناك تغيّر شكله.

وربّما تكون آسيا مركزه الأصلي، استقرّت بعض فصائله في عدّة مناطق منها وخاصة آسيا

الوسطى، هاجرت مجموعات إلى شبه الجزيرة العربية وهناك انحدر منها ذو السنام الواحد جملنا العربي الإفريقي المعروف بـDromedarius Camelus الذي اخترناه محور هذا البحث بتركيز الاهتمام على أصل وجوده في البلاد التونسية.

إن شبه الجزيرة العربية هي محطته الأولى وتعتبر اليوم أقدم منطقة أدمجته وذلك حوالي 3000 سنة ق.م. وفي الألفية الأولى ق.م. سجّلت له مصر مشاركة في حملات الملك الآشوري "أسرحدون" على أراضيها.

إنّ وصول ذي السنام الواحد إلى البلاد التونسية في العهد الروماني مثلما اعتاد المؤرخون الإشارة إليه، ما هو إلاّ نتيجة منطقية للمسلك الذي استعرضت مراحله، ومع هذا فإنّ فرضيّة ظهوره في فترة أقدم من ذلك بكثير غير مستبعدة خاصّة إذا اعتمدنا على بعض الاكتشافات الأثرية. وهي بقايا عظام إبل تعود إلى العصر الحجري القديم، أثبتتها مواقع أثرية موزّعة هنا وهناك في شمال إفريقيا نذكر منها الغُمَاري - علي باشا - عين الطايع - القطار - ترنفين. وإذا ما استثنينا جمل ترنفين الذي اكتشفه POMEL ولقّبه بـ TOMASII نظرا إلى قامته الطويلة ولهذا السبب بقي محلّ شك، فإنّ البقية تشي بوجود مركز مغاربي لجملنا الأول مستقلّ عن مراكز أمريكا وآسيا. وفي هذا السياق نذكّر باكتشافات موقع القطار في الجنوب الشرقي لمدينة قفصة التونسية، عظام الإبل، ولبقايا وحيد القرن، وهذا الحيوان أثبتته حفريات واد العكاريت بشمال مدينة قابس.

كلّ هذه الحيوانات التي تؤرّخ للعصر الحجري، هاجرت ربوعنا في إحدى حقبات هذا العصر وربّما فيما بعد، هاجرت نحو المناطق الاستوائية والمدارية مرورا بالصحراء، ولا يستبعد أنّه في خضمّ ذلك هاجر معها جمل القطار وتوقّف بالصحراء وجعل منها وسطه المفضّل.

إنّ المجموعات البشرية التي عاصرته آنذاك، رسمته على صخور موزعة في عدة نقاط، ورسمت معه أبقارا وخيولا. وهذه الحيوانات لا تنمو إلاّ في الأوساط المعشّبة. وهو ما يجعلنا نتصور آنذاك صحراء أكثر انتعاشا بالماء من اليوم. وتجمّعات هذه الصخور هي اليوم مواقع أثريّة تنتمي إلى مناطق قاحلة لا تنفي وجود الجمل، وهي مندرجة ضمن التراث العالمي نذكر منها فزّان - ايير - إدْرار والخلاصة أنّه بعد هذه الهجرة المحتملة نحو الصحراء الإفريقية أو الانقراض، لم يعد هناك أثر للجمل لا في الحضارة الجلمودية ولا عند الفنيقيين. بل حتى في بداية الحضور الروماني لسنا واثقين من وجوده إذ جرت العادة أن نحترز على أي حدث لا يسجّله المؤرخون اللاتينيون وذلك في ما يخصّ الفترات التي عاصروها، شأن المؤرخ بلين صاحب التاريخ الطبيعي الذي غضّ الطّرف عن جملنا، مع العلم أنّه لم يذكر الحمار أيضا.

وإلى أن نتأكّد من إدماجه في البلاد التونسية من قبل الجيوش الرومانية انطلاقا من مصر عبر فزّان، وذلك بالبحث عن مزيد من الشواهد في الجنوب التونسي سواء شواهد منقوشة، مرسومة أم مدفونة. تقتصر على حدث مهمّ في النصف الثاني من القرن الأول ق.م. هو استيلاء قيصر في أثناء حملته على منطقة الساحل التونسية على 22 جمل على ملك القائد يُوبا الأول 1er Juba.

ومنذ تلك الفترة فصاعدا أصبح عنصرا من عناصر المشهد الروماني وآثار الفسيفساء والخزف وغيرها والمدونة في متاحفنا ومواقعنا تترجم عن ذلك.

إنّ تحدّي ذي السنام لكلّ الفضاءات وكلّ الأزمنة يتجسم في أنّه نما ضمن كلّ أنواع المجتمعات سواء أكانت حضرية أم قروية، بدائية أم متطورة. وعدد أفراده كان في تطوّر مستمرّ خلال القرون الوسطى كما أشار إلى ذلك ابن حوقل وحتى بعد زحف بني هلال.

واستعرض ليون الإفريقي في القرن السادس عشر المناطق التي يكثر فيها هذا الصّنف من الجمال وهي صحراء نوميديا وليبيا وبلاد البربر.

وفي القرن التاسع عشر اكتسح التل الأعلى سهول وادي مجردة، وتقدّم نحو بقية المناطق تدريجيّا ولربّما هاجر بعضها في فترة ما بعد أن كان سيّدا عليها وأخصّ بالذكر المناطق الساحلية الشرقية التي غزاها في الفترة الرومانية ولعلّ الشواهد من الطين والفسيفساء التي كشفت عنها مواقع تعود إلى تلك الفترة وتنتهي اليوم إلى مدن سوسة والجم وقابس تنهض أدلّة على ذلك.

واليوم يسترجع هذه المكانة بفضل حليفه الجديد منذ بداية القرن 20 وهو الذي يخوّل له مشاركة فعّالة في الدورة الاقتصادية، هذا الحليف هو السياحة. ومع هذا التفتّح على المناطق المعتدلة تبقى الصحراء الموطن الأصلي الوحيد لضمان الاستمرار إذ لا يمكن لأيّ كائن داخلها باستثناء الإبل أن يتحمّل التجفّف بنسبة 40٪ مع العلم أنّ الإنسان لا تتعدّى قدرته على التحمّل 20٪.

الشيخ إبراهيم الجمني

[1037هـ – 1134هـ / 1628م – 1721م]

هو الشيخ إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن أبي بكر، والجمني نسبة إلى جمنة وهي قرية من قرى نفزاوة (ولاية قبلي).

ولد سنة 1037هـ الموافق لـ 1628م في عائلة علمية إذ كان والده فقيها وكذلك جدّه للأب إبراهيم.

اتّجه إلى حفظ القرآن في زاوية جدّه عبد الله المعروف بالحاج في قرية جمنة كما حفظ المبادئ الأولى لعلوم اللغة والفقه.

وانتقل بعد ذلك إلى القيروان فقرأ على مشائخها كالشيخ علي الوحيشي ثمّ رحل إلى مصر سنة 1066هـ/1656م بإشارة من شيخه علي الوحيشي الذي لاحظ عليه علامات النبوغ والتفوّق.

أقام بمصر حوالي تسع سنين تتلمذ خلالها لـ:

الفقيه المالكي عبد الباقي الزرقاني والشيخ محمد الخرشي وغيرهما من علماء الجامع الأزهر كما أخذ التصوّف عن أبي عبد الله أبي القاسم الجلالي والشيخ محمد الغربي وأبي القاسم القاضي.

عاد إلى بلدته جمنة بالبلاد التونسية سنة 1075هـ/1665م، وانتصب للتدريس والتفّ حوله تلاميذ كثيرون.

تشير بعض الروايات إلى أنّ السفينة التي عاد فيها إلى تونس غرقت قريبا من خليج مدينة قابس، ولكنّه أنقذ، وسأل بعد أن أفاق، عن كتبه. عاد إلى مصر مرّة أخرى ولم يطل بها مقامه ورجع من جديد إلى جمنة.

أسّس بجمنة المدرسة المرادية أو الجمنية، والمرادية نسبة إلى مراد باي، والجمنية نسبة إلى إبراهيم الجمّني. وكان لهذه المدرسة تأثير بعيد المدى في إقبال الناشئة على طلب العلم بجهة جمنة خاصّة ونفزاوة عامّة.

انتقل إلى جزيرة جربة، واختار جامع الغرباء يعلّم فيه الناس فوجد من إمام الجامع صدّا، فأقام أخواصا من جريد يسكنها هو ومن يقرأ عليه.

ولمّا بلغ خبره مراد باي أمر له ببناء مدرسة وبنى لها دورا وبيت صلاة، كمل بناؤها سنة 1085هـ/1675م.

يعود الفضل للشيخ إبراهيم الجمني في نشر المذهب المالكي في جزيرة جربة التي كان المذهب الإباضي منتشرا بها، وأصبحت المدرسة الجمنيّة بجربة مركزا للإشعاع الفكري وترشيد الفكر الديني. تخرّج على الشيخ إبراهيم الجمني تلاميذ كثيرون منهم : الشيخ علي الفرجاني والشيخ محمد الغرياني والشيخ أحمد الباهي صاحب الزاوية الشهيرة والشيخ قاسم الأنصاري وغيرهم.

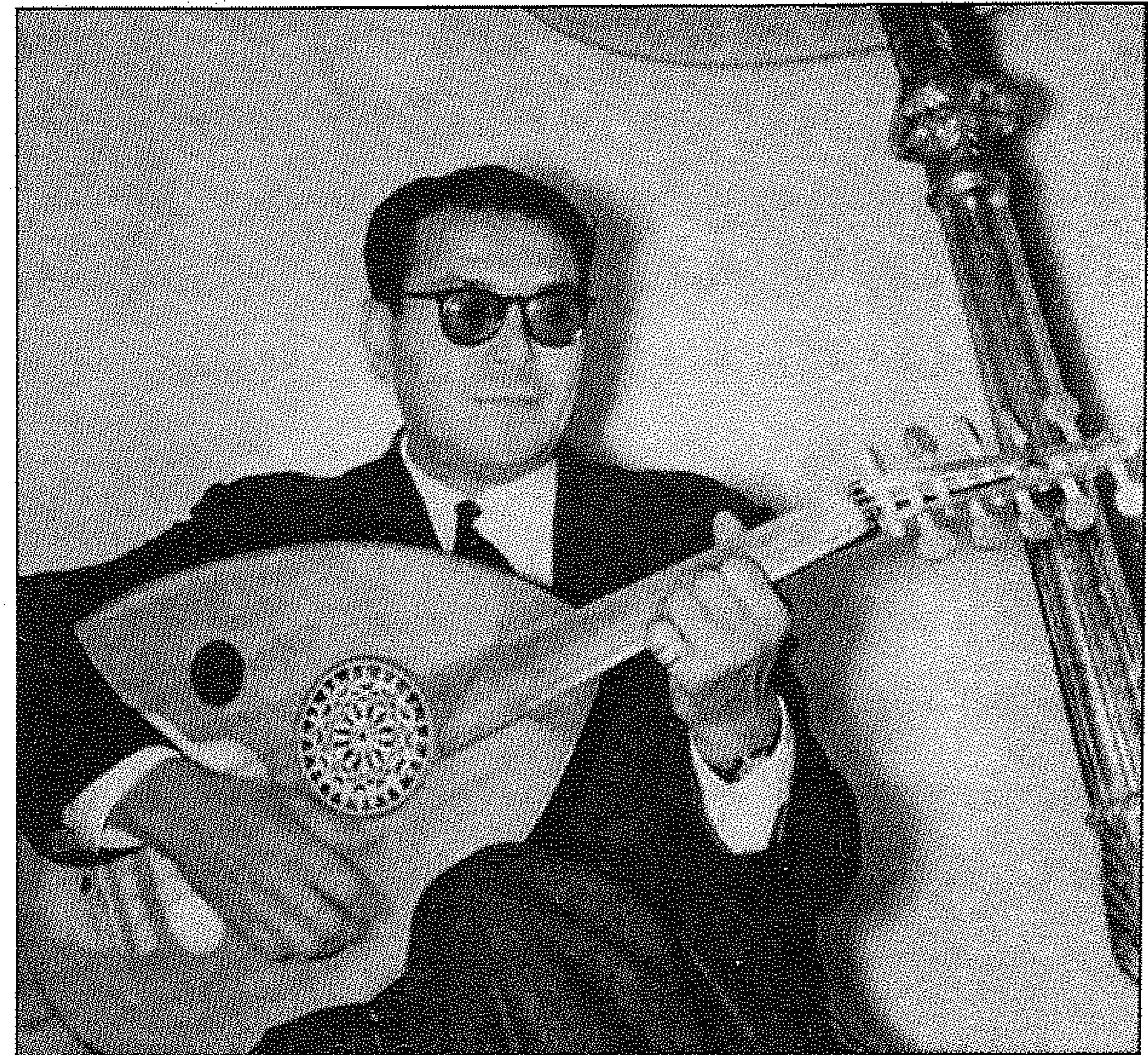
توفّي الشيخ إبراهيم الجمني سنة

1134هـ/1721م. ودفن بمدرسته المرادية وله من العمر ست وتسعون عاما. اعتبره محمود مقديش صاحب نزهة الأنصار من أجلّ أعيان المتأخرين من أهل العلم.

تذكر بعض المصادر أنّه ألّف :

- شرحا على مختصر خليل (لم يكمله)
- كتبا يحتمل أنّها ضاعت عند غرقه أثناء عودته من مصر.

محمد الجموسي
[1910 - 1982م]



يصعب على النقاد والمؤرخين تصنيف الفنان محمد الجموسي في خانة إبداعية واحدة، باعتباره كان فردا في صيغة الجمع. فقد تعددت مواهبه الفطرية منذ نعومة أظفاره إذ بدأ مؤذنا بجامع صفاقس مسقط رأسه حيث ولد يوم 12 جويلية سنة 1910. واتّجه في شبابه إلى الاحتراف الفني. فصنع بنفسه عوده الذي ظل يرافقه في حلّه وترحاله منذ أن كان تلميذا في المعهد الفني أميل لوبي. ثم أخذ يكرع في عصامية نادرة من حياض الأدب و الطرب، فكان ذلك الشاعر الملهم الذي أصدر ديوان شعر بعنوان «الليل والنهار» ثم أردفه بديوان ثان بعنوان «الفجر»، كما أنه كتب باللغة الفرنسية متأثرا بشاعره المفضل الفرنسي الفراد دي فيني، أحد أقطاب المدرسة الرومنسية بفرنسا في القرن التاسع عشر فأخرج ديوانه الثالث «الشّاعر والوردة» بالفرنسية.

وإلى جانب مواهبه باعتباره عازفا بارعا وشاعرا لمع نجمه مطربا فقد كان في بداية مشواره يقلّد موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب في روائعه الخالدة مثل الكرنك والجندول وكيلوباترا.

ثم ولج باب التلحين فأبدع عدة ألحان متميزة، كما برز نجما في رحاب المسرح و السينما فضلا عن إبداعه في مجال التنشيط الإذاعي ثم التلفزي.

وكان محمد الجموسي يتقن عدة لغات مثل العربية والفرنسية والإيطالية والإنقليزية. وقد تجلى ذلك بوضوح في دبلجة بعض الأفلام الأجنبية مثل «طبيب بالعافية» المأخوذ عن رواية موليار والفيلم الهندي المنجز في إيطاليا بعنوان «كنز البغال» و الإنقليزي «دار الراعي» وقد أدّى فيه أغنية «ساري على الفجر» وفيلم «فارس البيت الأحمر» فضلا عن فيلم «جحا» الذي مثل فيه دور البطولة الممثّل المصري العالمي عمر الشّريف والرّاقصة زينة بوزيّان.

وللجموسي مشاركة مهمّة في السينما المصرية. فقد لمع نجمه ممثلا مطربا باسم محمد التونسي في عدة أفلام لعل أبرزها شريط «ناهد» سنة 1959 مع يوسف وهبي إخراج محمد كريم الذي أخرج أفلام عبد الوهاب وأولها «الوردة البيضاء» في سنة 1933.

ثم مثّل الجموسي في شريط «ظلمت روحي» سنة 1952 مع شادية وفريد شوقي ووداد حمدي بإخراج إبراهيم عمارة. و في السنة الموالية 1953 مثّل الجموسي في شريط «بنت المولد» مع فاتن حمامة و الراقصة تحية كاريوكا.

وممّا تجدر الإشارة إليه أن الجموسي ما كان ليلمع في مجال التمثيل السينمائي لولا رصيده

في المسرح الغنائي مع فرقة النجم التمثيلية. وهي أعرق الفرق المسرحية في صفاقس حيث كان الجموسي يغني في المسرحيات التي تقدمها على غرار الشيخ سلامة حجازي الذي زار تونس سنة 1914 وتأثر به عميد المسرح الغنائي محمد عبد العزيز العقربي (1902–1968) وجريا على تلك التقاليد المسرحية مثل في عدّة مسرحيّات لعلّ أبرزها «عبد الرحمان الناصر» كما مثل سنة 1947 في مسرحية «القبلة القاتلة» مع شافية رشدي.

و كانت للجموسي تجربة ثرية مع دار الأوبرا الجزائرية حيث التقى بعميد المسرح العربي يوسف وهبي الذي دعاه للإقامة بالقاهرة وأشركه في أفلام أسهمت في إشعاعه وسطوع نجمه ممثلا سينمائيّا وملحّنا ومطربا.

ولقد غنى الجموسي في أول فيلم غنائي تونسي وهوبمجنون القيروانب المأخوذ عن مجنون ليلى لأحمد شوقي. وهو من ألحان الموسيقار محمد التريكي الذي كان أول فنان تونسي يلحن أول موسيقى تصويرية لأول فيلم غنائي دون مقابل مالي سنة 1937 وقد أخرجه الأوروبي جون كروزي.

أمّا رصيده الغنائي فإنّه ثريّ بروائع الأغاني التي دأب على تأليفها شعرا و صياغتها لحنا. و لم يكن ضنينا بذلك الزاد الثريّ بل إنّه أهدى جلّ أغانيه إلى معظم الأصوات التونسية مثل نعمة وعليّة. وللجموسي أيضا حواريات غنائية منها «وينك يا غالي» مع المطربة المصرية شافية أحمد و«محلى قدّك» مع صفية الشامية. كما تغنّى بالحنين إلى الأوطان في «ريحة البلاد» و«تمشي بالسّلامة» وأهدى الطفولة أغنية «يطول عمرك يا أميمة الحنينة» وكرّم المرأة في أغنية «النساء» وأغنى الأغنية الفكاهية مع محمّد الجرّاري في «قهواجي» و«مريقة صفاقسية».

جندوبة

تقع مدينة جندوبة قرب مصبّ وادي ملاّق في وادي مجردة الذي يروي سهلها. وتتميّز المنطقة بخصوبة الأرض ووفرة المراعي وخاصة بالغابات ومنتوجاتها. والغالب عليها الحبوب والمساحات السّقوية، ولذلك كان الحضور البشري فيها قديما. تشهد بذلك آثار المستعمرات الرّومانيّة والضّيعات الفلاحيّة المتناثرة.

لقد سميت إحدى قرى جبل نفوسة في العصر الوسيط بجندوبة، ولا ندري إن كانت تسمية جندوبة التونسيّة ناجمة عن هجرة من هذه القرية أم عن اتفاق بين اسمي الموضعين باللّغة البربريّة. ولم تكن توجد في العصور القديمة طريق تمرّ بجندوبة أو بموقعها أو قريبة منه إذ كانت طريق قرطاج عنّابة تمرّ ببلاّريجيا. ويعود الفضل في إعادة الاعتبار لجندوبة إلى محطة السّكة الحديدية الرّابطة بين تونس والجزائر عبر غار الدّماء. وقد أنشئت في عهد «الحماية الفرنسيّة» لاستغلال ثروات الجهة المنجميّة والفلاحيّة حيث تكثّف الحضور الاستعماري لسهولها المنتجة، وهو ما شكّل فيما بعد سببا من أسباب قوّة المقاومة التحريريّة. تشهد بذلك واقعة سوق الأربعاء حين عمد أحد المعمّرين الفرنسيين إلى التنكيل بعاملين له على إثر سرقة بسيطة جدّا (عنقود عنب). وقد فضح الشعر التونسي والصحافة الوطنية هذه الحادثة. فاسم جندوبة حديث الاستعمال مذ قرّرت بلدية الاستقلال سنة 1966 أن تعوّض به الاسم القديم: سوق الأربعاء، وكأنّ المدينة تعرف بسوقها الأسبوعيّة إذ تتحوّل إلى تجمّع بشريّ واقتصاديّ كبير، ثمّ تعود إلى مجرّد قرية ريفية في بقيّة الأيّام. وحتى مباني جندوبة اليوم، التي تعتبر قديمة فهي لا تتجاوز الفترة

الاستعمارية بشهادة طابعها الأوروبي. وينتمي إلى جندوبة حسب الروايات المتداولة أولاد سيدي عبيد الحجّاج وأولاد سيدي عبيد العمارة وأولاد سيدي عبيد العيايدة ومنهم العلماء والأغنياء.

ويجمع بين أولاد بوسليمي اختلاف الأصل، ففيهم الحواليّة من ماجر وأولاد سعيد أو السعايدية والوسلاتيين من جبل وسلات، وجميعهم قدم إلى جندوبة بسبب مطاردة البايات. وإلى هذه القبائل انضمّت قبائل نازحة إلى جندوبة حديثا منذ انتفاضة علي ابن غذاهم، وأشهر هؤلاء الغرابة الوافدون من الجزائر بما فيهم زواوة من منطقة القبائل، والتّراخنة والوافدون من السّباسب وبالذّات من السّواسي من جهة الجمّ بما فيهم بنو بشر، والمعارف من أولاد سعيد والهمامة ووليّهم سيدي عامر، والحوامد الوافدون من الجريد والجزائر، والأعشاش بما فيهم الماغرني وأولاد إبراهيم من الجزائر والجواودة من قلعة سنان.

وإلى هذا المزيج من القبائل والأعراش انضمّت جماعات مختلفة الأصول منذ تمركز «الحماية الفرنسيّة» سنة 1881م، منهم الدريديّة الذين هجروا إلى قسنطينة في بداية ق17م، ثمّ استرجعهم حمّودة باي في أواسط القرن واستعملهم هو وغيره عساكر في المحلّة لجمع المجبى. وتفرّع عن الدريديّة بنو رزق وأولاد جوين وأولاد عرفة وأولاد منّاع. ومن الجماعات المنضمّة إلى عروش جندوبة بعد الدريدية أولاد سيدي عبيد الصّوابة. وكان هؤلاء من جهة قسنطينة.

ومن تلك الجماعات أيضا أولاد مرزوق من ماجر، وشارن من تاجروين.

وواضح أنّ هذه الجماعات المتوافدة على جندوبة في أحقاب مختلفة تؤكّد نشاط السّكان الزّراعي والرّعوي قبل الفترة الأخيرة من الاستقرار طوال القرن التاسع عشر. وهو استقرار لا يخفي في أثناء الفترات الحرجة بعض المناوشات التي تكدّر صفو الانسجام والتّعامل الحيوي بينهم بسبب الولاء للسّلطة المركزية ودعمها بالرجال أو التنكّر لها بسبب الجباية وتعيين القايد من هؤلاء أو من منافسيهم. ولكن قسوة الاستعمار إلى جانب المصاهرات والقرابة ـ أسهمت في توحيد الصفوف في نطاق الكفاح التحريري لأجل الاستقلال. ثم تضافرت الجهود التّنمويّة بعد ذلك للحدّ من الفقر والنّزوح والهجرة بفضل توسيع المناطق السقوية وزراعة اللفت السكّري وإنتاج الباكورات وتنويع الصّناعات الغذائيّة.



الهادي الجويني

[1909–1990م]

يعتبر الفنان الهادي الجويني، المبدع التونسي الوحيد دون منازع الذي طوّر نمطيّة الفلامنكو، ذلك الإرث الحضاري العربي الإسباني، فصاغه في مقامي النهاوند والكرد مع الحفاظ على إيقاعاته الموزونة على رنين الصنوج الإسبانية.

وقد توفرت للهادي الجويني تلك الملكة الإبداعية بفضل البيئة التي ترعرع في ظلها منذ ميلاده يوم غرة نوفمبر 1909، بحي بطحاء سيدي المشرف حيث حفظ بالروضة القرآنية ما تيسر من آيات الذكر الحكيم. وقد كانت تلك الساحة تقع على مرمى حجر من حي المركاض الذي كانت تقطنه الجالية الإسبانية باعتبار أن المركاض هو مصطلح إسباني تحرّف في التداول

اليومي فتحوّل من مكاردس إلى مركاض، أي السوق.
ولمّا أخفق الهادي الجويني في نيل الشهادة الابتدائية بالفرع الصادقي أدخله والده عبد السلام بن حسين دكّان صديقه حيث أتقن صناعة الفضة التي كان يصنع من مادتها أدوات الزينة والقيافة، مثل المشط الفضي وعلب التجميل للغبراء البيضاء والحمراء التي كانت عنصرا أساسيّا من معدّات جهاز العروس.
وكان الشاب الجويني يتابع إثر عمله صناعيّا في الصاغة والمجوهرات، السهرات الليلية التي كانت تحييها الجالية الإسبانية والتي تعرف بالسيرينادا في حي المركاض الذي يصل حي باب الجديد بحي رأس الدرب.
فلا عجب في أن يفتتن بجمال الغانيات من الغجريات الفاتنات في رقصهن الموّقع طرقا بالأقدام على الأرض ورنين الصنوج الموصولة بأصابعهن (كاستنيات).
وهكذا كان الجويني، يتردّد على تلك السهرات حتّى تأثر بالفلامنكو الذي تنحدر جذوره من الحضارة العربية الإسلامية لكون زرياب هو الذي أدخله إلى الأندلس.
فمصطلح فلامنكو هو اختصار للمصطلح العربي فلا منكم، أي (فلا حرمنا منكم).
أمّا سمّار تلكم الليالي فلا يتردّدون في إطلاق صيحة العجب العجاب (أولي) أي (اللّه اللّه) بالعربية التي يطلقها المستمعون العرب طربا وإعجابا.
تلقّى الجويني تكوينا عصاميّا، إذ أخذ يكرع من رياض الفن ومناهل العرفان، حتّى حذق أسرار العزف على العود من صديقه زين العابدين السبعي، بعد أن كان يعزف الماندلين، التي أخذ طريقة عزفها على العود من اليهودي موني الجبالي، والد الفنان الراحل موريس ميمون، المشهور باسم ميمون التونسي.
وأخذ الجويني أيضا عزف الآلات النحاسيّة عن الهادي الشنوفي (1893–1967) مثل آلة البسطون، وبعض الآلات الهوائيّة بجمعية الناصريّة نسبة إلى محمّد الناصر باي.
ومعلوم أن تلك الفرق النحاسيّة كانت تعرف بالحسينيّة نسبة إلى الدولة الحسينيّة.
وقد انضم الجويني إلى تلك الفرق المعروفة باسم فنفار المحرّف عن العربية أنفار التي كانت تحيي حفلات الختان (الطهور) مع فرق الهلالو من تلاميذ الكتاتيب (الرياض القرآنية).
تمكن الهادي الجويني من العزف المتقن على العود المشرقي لينخرط في فرقة الرّقي الوتريّة ثمّ في فرقة الموسيقار العميد محمّد التريكي، (1899–1998) عازفا على العود ومرافقا وقد رافق الفنّان علي الرّياحي، (1912–1970) في أول حفل يحييه سنة 1936، بقصر الجمعيات الثقافية دار الثقافة ابن رشيق حاليّا. وقد كتب عنه الشاعر المصري بيرم التونسي.
وانخرط الهادي الجويني، فضلا عن ذلك، في الجمعية الرشيديّة غداة انبعاثها سنة 1934، على أيدي الفرسان الثلاثة المرحوم مصطفى صفر، شيخ المدينة (1892–1941) والشيخ خميس الترنان (1890–1964) والعميد محمّد التريكي فتعلّم في رحابها مبادئ الترقيم الموسيقي على الأستاذ الإيطالي بو نورة، ثمّ في المعهد الفرنسي التونسي الذي اشترط عليه مديره أن يدرّس تلاميذ السنوات الأولى العزف على العود ومبادئ الطبوع التونسية وأصول المقامات الشرقية.
فكانت بداية الجويني بتلحين حواريّة «شري حبيتك» مع المطربة شافية رشدي (1910–1989)، كما أدّاها مع زوجته اليهودية نينات، شهرت وداد. وهي ابنة الراقصة الشهيرة جولي لا مارسياز.
فلا غرو في أن يلمع نجم الهادي الجويني في الحفلات التي كان يحييها في الكافيشانتا أي قاعات الغناء مثل مقهى شمنطّو، ومقهى الهناء بباب منارة ومقهى المرابط في سوق التُرْكْ.
ولمّا انتقل بالسكنى إلى حي باب سويقة حيث سكن بساحة البيقة – واسمها محرّف عن

الإسبانية لاس فيغاس - اختلط بجماعة تحت السور، فتعرّف إلى الأدباء عبد الرزاق كرباكة والهادي العبيدي ومصطفى خريف ومحمود بورقيبة وعلي الدوعاجي ومحمّد العريبي ولحّن لجميعهم ما جادت به قرائحهم، مثل دور العتاب لعلي الدوعاجي (1909-1949) وأغنية «ألّي تعدي وفات زعمة يرجع» للهادي العبيدي وأغنية «لَمُني اللي غاروا منّي» للشاعر الليبي البشير فحيمة، شهر فهمي وأغنية «سمراء يا سمراء» لجلال الدين النقاش و«يا محسونة قلي علاش» لمحي الدين مراد بطل أول فيلم غنائي تونسي مجنون القيروان وأغنية ليبية لحنها في اللون الطرابلسي لمحمّد العريبي بعنوان «هاذي غناي جديدة» (1911-1946) ولحن لعبد الرزاق كرباكة، (1901-1945) أغنية «مكتوب يا مكتوب» ومن شعر جلال الدين النقاش (1910- 1979) أغنية «تبعني نبنيو دنيا جديدة» ومن شعر محمود بورقيبة (1909-1956) أغنية «لو كان موش الصبر يطفي ناري»، كما غنّت من ألحانه عدّة أصوات منها حسيبة رشدي التي غنّت له رائعة «تحت الياسمينة في الليل» شعر السيّدة عزة وزهيرة سالم أغنية «كسرّت القلّة»، شعر المرحوم فاضل حرحيرة وفتحية خيري في أغنية «يا مغير حالي» كلمات المذيع محمّد الزليطني شهر محمّد حفظي والسيّدة نعمة في أغنية «يا شاغلني وشاغل بالي» وعليّة في موشح أعطفي عدل قوامك شعر محمود بيرم التونسي (1893-1961) وكان من المنتظر أن تغنيها أم كلثوم.

وسجل الهادي الجويني عدّة أغان على إسطوانات شركة أم الحسن للبشير الرصايصي، منذ 1935. لكنها اندثرت مثل أغنية المطربة فاطمة الهمامي شهرت نورهان «آهدتلي وردة».

وأمّا في مجال المسرح، فقد انخرط الهادي الجويني في عدّة جمعيات مسرحية مثل المستقبل التمثيلي للمرحوم البشير متهني والكوكب التمثيلي للمرحوم محمّد الحبيب والفرقة البلدية غداة انبعاثها على يدي المسرحي المصري زكي طليمات.

لحنّ الجويني عدّة مسرحيات غنائيّة مثل مجنون ليلى لإبراهيم القباني وكان قد لحّنها الشيخ سلامة حجازي الذي كان زار تونس في مارس 1914 فطلب المتهني من الجويني تونستها. وقد تقاسم بطولتها شحرور الخضراء يوسف التميمي وفتحية خيري، كما لحّن الجويني مسرحية «بين نومين» تأليف علي الدوعاجي (1909-1949) وإخراج عبد المجيد الأكحل، تقديم الفرقة البلدية بكامل عناصرها منهم الهادي السملالي ونرجس عطيّة وصالح الرحموني ومحمّد بن سليمان ومسرحية «عايشة القادرة» تأليف عبد الرزاق كرباكة وبطولة شافية رشدي (1910-1989).

أمّا في مجال السينما فقد مثل الجويني عدّة أفلام لعلّ أبرزها شريط «الباب السابع» الذي كتب حواره نورالدين بن محمود، ثاني مدير للإذاعة التونسية وفيلم «المجنون» (1948) وفيلم «كتاب القدر» (1952).

أمّا رحلاته الفنية فكانت كثيرة. فقد زار عدّة بلدان منها خاصة فرنسا والجزائر حيث عمل في دار الأوبرا بوهران والعاصمة الجزائرية ومثّل بعض الأفلام في القطر المغربي الشقيق (1947).

لقد ضرب الهادي الجويني بسهم صائب في عدّة مجالات فنيةّ. فأبدع في الغناء والتلحين. وبرع في العزف. ولمع نجمه ممثلا وعازفا ومطربا في عدّة أفلام سينمائية فضلا عن إسهامه في تطوير المسرح الغنائي والسينما إبداعا وإمتاعا وإشعاعا.

فلا غرو في أن يحظى بتكريم جدير بمقامه في مهرجان قرطاج الدولي سنة 1987. لكنّه توفي دون أن يحقق أمنيته. وهي أن تتكرّم سيّدة الغناء العربي أم كلثوم بأن تؤدي له موشح أعطفي عدل قوامك رغم تدخل الموسيقار زكريا أحمد ورفيق دربه بيرم التونسي.

وظائف الجيش الروماني في ولاية إفريقيا البروقنصلية

[27ق.م - 235م]

أنشأ الرومان عدّة مستوطنات في بلاد المغرب بعد ضمّهم لأراضي قرطاج البونيّة سنة 146ق.م (ولاية إفريقيا) ولأراضي المملكة النوميديّة سنة 46 ق.م (ولاية إفريقيا الجديدة) وحرص مؤسس الإمبراطوريّة الرومانيّة أوغوسطوس Augustus (27 ق.م. - 14م) على إحداث منعرج حاسم في التوسع العسكري داخل البلاد وذلك بشق الطرقات الإستراتيجيّة وإخضاع القبائل ومصادرة أراضيها وإنجاز عمليات المسح العقاري وإرساء الجباية وتعزيز الاستيطان.

واعتمد الاحتلال الروماني في كل ذلك على القوّة العسكريّة، كما أمر أوغسطوس بتجديد الهيكلة الإدارية والعسكريّة فوحّد الولايتين الإفريقيتين سنة 27 ق.م. ضمن ولاية شاسعة تمتدّ على كامل البلاد التونسيّة حاليّا وعلى منطقتين مجاورتين هما طرابلس (في البلاد الليبيّة حاليا) وشرق الجزائر (جهة عنّابة وقسنطينة وجهة تبسّة ولمباز).

يحكم الولاية الموحّدة وال رفيع المستوى يحمل لقب بروقنصل يعيّنه مجلس الشيوخ الروماني. ويقيم البروقنصل بقرطاج التي أعيد تشييدها في ثوب مستوطنة رومانيّة منذ 40 ق.م.، ويجمع الوالي في البداية بين السلطتين المدنية والعسكريّة باعتباره حاكما لإفريقيا البروقنصلية وقائدا أعلى لحمايتها المتكونة أساسا من الفيلق الثالث الأوغوسطسي.

تواصل التوسّع الروماني فيما بعد داخل بلاد المغرب ولكن بصعوبة فائقة نظرا إلى شدّة المقاومة الإفريقيّة. وشمل هذا التوسع المناطق الغربية حيث أحدثت على أنقاض المملكة الموريطانية سنة 44م ولايتان رومانيتان جديدتان: موريطانيا القيصرية (عاصمتها (Caesarea) شرشال حاليا) في الشمال الغربي للجزائر وموريطانيا الطنجية (عاصمتها (Tingi) طنجة حاليا) في شمال المغرب الأقصى. وتوجد داخل كل من الولايتين الجديدتين حامية رومانية متكونة من وحدات للجنود المساعدين تعدّ ستّة آلاف مقاتل تقريبا. وهنا يجمع الوالي بين السلطتين العسكرية والمدنية.

بلغ الاحتلال الروماني أوجه بعد قرنين من التوسع وتمكن الجيش من بسط نفوذه على ما يناهز نصف الأراضي المكونة لبلاد المغرب شمال الصحراء، واكتملت في بداية القرن الثالث عملية تشييد المنشآت العسكرية وتنظيم منطقة اللّيماس الحدودية (limes)حيث يرابط باستمرار معظم الجيش الروماني المكلف بحماية الولايات من ضغط القبائل الإفريقيّة المعتصمة بالأصقاع النائية في الجبال والصحراء.

1ـ تركيبة الجيش الروماني في ولاية إفريقيا البروقنصلية

يعتبر المؤرخون أن العصر الذهبي للإمبراطوريّة الرومانيّة وللولايات الإفريقيّة بالذات يوافق القرن الثاني م. الذي شهد السلم والاستقرار النسبي (Pax romana). من ذلك أن الحضور العسكري في إفريقيا البروقنصلية كان محدودا من ناحية العدد إذ تألّفت الحامية الرومانية من فيلق وحيد هو الفيلق الثالث الأوغسطسي ومن بعض الوحدات المساعدة بحيث لا يتجاوز العدد الجملي للجنود اثني عشر ألفا في الحالات العادية.

ـالفيلق الثالث الأوغوسطسي (Legio Tertia Augusta)

يعدّ الفيلق حوالي خمسة آلاف مقاتل كلهم من المواطنين الرومان يتوزعون على عشر كتائب من المشاة أساسا (لا يتجاوز عدد الخيالة مائة وعشرين مقاتلا). أما القيادة العليا للفيلق فكانت في بداية الأمر من مهام البروقنصل حتى بعد انتقال الجيش من قرطاج إلى حيدرة في آخر عهد أوغسطوس. وفي سنة 39م تحولت قيادة الجيش إلى سلطة مستقلة يمارسها ضابط من أعلى رتبة يحمل لقب ليغاتوس (Legatus) يعيّنه

الامبراطور مباشرة، ويساعد الليغاتوس ضابط برتبة تريبونوس (Tribunus) أو بريفكتوس (Praefectus) (وضباط صف برتبة سنتوريو (Centurio) .

ـ الوحدات المساعدة (Unités auxiliaires)

تتكون القوة المساعدة غالبا من مقاتلين لم يحصلوا بعد على حق المواطنة الرومانية، وهم جنود محترفون من الأهالي الأفارقة أو من أصيلي الولايات الرومانية الأخرى. أما الضباط الذين يضطلعون بالقيادة والتأطير فهم طبعا من المواطنين الرومان.

تتألّف الوحدات المساعدة في ولاية إفريقيا البروقنصلية من كتائب للمشاة ومن أجنحة للخيالة وتعدّ الكتيبة مثل الجناح حوالي خمسمائة مقاتل ما عدا الكتيبة الأولى والجناح الأول اللذين يعدّان ضعف ذلك. ويبلغ العدد الجملي للجنود المساعدين بالولاية ما بين 5000 و7000 مقاتل.

ـ القواعد العسكريّة والمناطق الحدوديّة في البروقنصلية

استقر الفيلق الثالث الأوغوسطسي في البداية بالعاصمة قرطاج ولكنه انتقل لاحقا إلى قواعد عسكريّة داخل الولاية مواكبة لمراحل التوسع التدريجي نحو أهم منطقة إستراتيجية وهي المنطقة الواقعة بين جبال أوراس وشط الحضفة. فكانت حيدرة (Ammaedara) أولى القواعد العسكرية التي انتقل إليها الفيلق وكان ذلك في أوائل عهد أوغسطوس (6ـ 14م.)، ثمّ في سنة 75م انتقل إلى تبسة وأصبحت حيدرة مستوطنة للجنود المتقاعدين، وأخيرا استقر الفيلق الثالث نهائيا في لمباز (Lambaesis) حيث شيّد أهم القواعد العسكريّة الرومانية بالولايات الإفريقية كما أنشأ الجيش الروماني على طول الجبهة الداخلية ضدّ القبائل منطقة حدودية ذات صبغة عسكرية تسمى ليماس (limes).

تمتد هذه المنطقة التي تحتوي على الخطوط الأمامية المحصّنة على طول 600 كيلومتر من بونجم (Gholea) في صحراء طرابلس إلى لمباز غربا ويبلغ معدل عمقها خمسين كيلومترا تقريبا.

شيّد الجيش داخل منطقة الليماس عدّة حصون وأبراج وخنادق وغيرها من المنشآت العسكرية في عدد كثير من النقاط الإستراتيجيّة التي تحرس الممرات ونقاط الماء. وأنشأ الفيلق الثالث الأوغوسطسي شبكة مهمّة من الطرق الإستراتيجيّة منذ بداية القرن الأول ميلادي كما تدلّ على ذلك عدّة علامات ميلية تحمل نقائش لاتينيّة.

ومن أهّم هذه الطرق التي شيّدها الجيش الروماني نذكر تلك التي كانت تربط بين قرطاج وحيدرة التي انتقل إليها الفيلق. كما مُدّت لاحقا هذه الطريق الإستراتيجيّة إلى قفصة وقابس. وعند انتقال الجيش إلى تبسة ومنها إلى لمباز شرع الفيلق الثالث في تشييد طريق إمبراطورية تربط بين قرطاج وتبسة ثم لمباز مرورا بدقة وحيدرة، ومن قفصة وقابس تمتدّ شبكة ليماس طرابلس التي تتّجه جنوبا نحو بونجم عبر جبال مطماطة.

2ـ أهمّ وظائف الجيش الروماني في الولاية البروقنصلية:

علاوة على مهمته الحربيّة وهي حماية الولاية من غزوات القبائل المرابطة خارج الليماس كانت للجيش الروماني وظائف أخرى لا تقل أهمية وتشمل ميادين مختلفة:

1ـ الوظيفة الأمنية

ينبغي التذكير أوّلا بأنه لا وجود في الولايات الافريقيّة لقوّة متخصّصة في حفظ الأمن لا من نوع الشرطة ولا من نوع الحرس الترابي، لذلك نرى الجيش يجمع بين الوظيفة الدفاعية والوظيفة الأمنية.

ففي العاصمة قرطاج توجد باستمرار الكتيبة الحضريّة الأولى (Première cohorte urbaine) إلى جانب كتيبة أخرى تابعة للفيلق الثالث الأوغوسطسي، وتضطلع هاتان الكتيبتان (1000

جندي) بحراسة البروقنصل وتسهر على تنفيذ أوامره في سائر أرجاء الولاية.

أما في المستوى المحلي للمدن فإن الزعماء المنتخبين هم الذين يضطلعون بالمهمة الأمنية مستعينين في ذلك بميليشيا من المتطوعين الشبان تسمى جوفنتس (Juventus). مع العلم أن الولاية البروقنصلية كانت تعدّ ما لا يقل عن 200 مدينة.

2 ـ الوظيفة الاقتصاديّة والتنموية

تؤدّي المصالح الفنية المتخصصة التابعة للجيش الروماني خدمات متنوّعة تسهم في الاستغلال المحكم لموارد الولاية وفي تنمية نشاطها الاقتصادي. نذكر من تلك الخدمات:

ـ عمليات الإحصاء العقاري الشامل (Centuriations).

ـ الإسهام في تخطيط المستوطنات وتشييدها خاصّة منها مستوطنات الجنود المتقاعدين (مثل حيدرة وتيمڤاد بالجزائر).

ـ المشاركة الفنية والتقنية في برامج المدن الرامية إلى التزوّد بمياه العيون. والمعروف أن أغلب المدن الإفريقية بما فيها الصغيرة الحجم كانت تنفق من أجل جلب المياه ولا تتردد في تشييد القنوات والحنايا على مسافات طويلة (130 كيلومتر بالنسبة إلى قناة قرطاج التي كانت تجلب مياه زيكوا (Ziqua) زغوان.

ـ فتح الطرق الإستراتيجيّة وتهيئتها حتى تصبح صالحة لسير العربات المجرورة، فقد بلّطت طريق قرطاج ـ تبسة التي دُشّنت سنة 123م. وشيّدت عدّة قناطر فوق الأودية مثل تلك التي أقامها الفيلق سنة 112م. فوق وادي بقردة (مجردة Bagrada) بالقرب من مدينة شمتو (Simitthus) كما أنجزت الطريق الرابطة عبر البحر بين مينانكس (Meninx) في جربة وزيتا (Zitha) في جرجيس.

وتعدّ شبكة الطرقات بلا شك أهم البصمات التي تركها العهد الروماني في الأرض الإفريقيّة إلى جانب شبكة المسح العقاري وآثار المدن التي درست.

3ـ دور الجيش في الرومنة الثقافية والقانونية

منذ عهد أوغسطوس أصبح الجيش الروماني جيشا محترفا وقارا، وفي العصر الذهبي للامبراطورية أصبح هذا الجيش يتألف من حوالي ثلاثين فيلقا بالإضافة إلى عدّة وحدات مساعدة.

أما الخدمة العسكريّة فتدوم 20 سنة بالنسبة إلى المواطنين الرومان (جنود الفيلق) و25 سنة للجنود المساعدين وهم مقاتلون محترفون من الأهالي أصيلي الولايات.

كان للجيش الروماني دور أساس في الرومنة الثقافية والقانونية خاصّة بالنسبة إلى الفئات الفقيرة من أهالي إفريقيا البروقنصلية، ذلك أن الخدمة العسكرية ضمن القوّة المساعدة تمنح الارتقاء القانوني للجندي الذي يبلغ سن التقاعد أي أنّه يحصل بعد 25 سنة من الجندية على حق المواطنة الرومانية. والمعروف أن أغلب الجنود المتقاعدين يتحولون إلى مستوطنين تمنحهم السلطة فرصة الاستقرار والزواج الشرعي على أرض فلاحية في المناطق القريبة من الليماس.

فالخدمة العسكريّة تجعل من الجيش مدرسة لتأهيل الجندي الإفريقي ودفعه إلى الانخراط في الرومنة الثقافية والإيديولوجيّة والمقصود بها أسلوب العيش وإتقان اللغة اللاتينية واعتناق الديانات الرسمية مثل عبادة الأباطرة الصالحين.

4 ـ الجيش الروماني في الولايات الإفريقيّة يتحول إلى "جيش إفريقي"

أنجز المؤرخ الإيطالي جيوفاني فورني (Giovanni Forni) إحصائيات تعتمد قوائم اسمية للجنود وردت في النّقائش التي عثر عليها في لمباز. وتبرز هذه الإحصائيات التطور الملحوظ في التركيبة العرقية لجيش الولايات الإفريقية وحدث هذا التطور في القرن الثاني.

لاحظ المؤرخ الإيطالي أن العدد الأوفر من الجنود جلبوا في البداية من إيطاليا أو من

الولايات الأوروبية ثم في مرحلة ثانية من الولايات الشرقية. ويمكن أن نذكر على سبيل المثال كتائب السوريين (حمص وحماة) من أصحاب الخبرة في حرب الصحراء (رماة الأنبال المحمولين على الإبل). أما في القرن الثاني م فالوضع يختلف تماما بالنسبة إلى تركيبة جيش إفريقيا، ذلك أن نسبة الجنود الأفارقة تبلغ 93٪ من مجموع الحامية الرومانية المستقرّة.

ويبدو أن هؤلاء الجنود قدموا في معظمهم من المدن الإفريقية القريبة من المنطقة الحدوديّة، خاصّة من تلك المدن التي كانت في الأصل مستوطنات للجنود المتقاعدين (Colonies de vétérans).

أما في آخر القرن الثاني م فيمكن القول إنّ الجيش الروماني في الولايات الإفريقية أصبح "جيشا إفريقيا" أي أن أغلبية الجنود والضباط كانوا من أصل إفريقي (أهالي مرومنون أو رومان مستقرون في الولايات الإفريقيّة منذ عدّة أجيال).

5 - صعود الضباط الأفارقة إلى السلطة في روما عاصمة الامبراطوريّة.

لقد تحقّق في القرن الثاني م انخراط ملحوظ لأعيان المدن الإفريقيّة في الرومنة الثقافية والقانونية إذ فتحت أمام الأهالي الأفارقة بما فيهم الفقراء أبواب الارتقاء إلى حق المواطنة الرومانية. ثم فتحت أمام أبناء الأغنياء منهم أبواب الارتقاء الاجتماعي وألحق الكثير منهم بأصناف النبلاء (فرسان ثم شيوخ). ونتج عن هذا الارتقاء الاجتماعي قدرٌ أوفر من المشاركة في تأطير الجيش الروماني فكثر عدد الضباط الأفارقة لا في جيش الولايات الإفريقية فحسب بل على مستوى الإمبراطوريّة وفي حامية روما بالذات بما فيها الحرس الإمبراطوري.

ونورد على سبيل الذكر أسماء ثلاثة من أبرز الضباط الأفارقة الذين أدّوا دورا مصيريا في حياة الإمبراطوريّة الرومانية:

- أنيقيوس فوستوس (Anicius Faustus) الذي كان قائدا أعلى (Legatus) للفيلق الثالث الأوغوسطسي ثمّ عينه صديقه الإمبراطور سبتيميوس سيويروس على رأس ولاية جديدة اقتطعت من البروقنصلية تسمّى نوميديا العسكريّة وعاصمتها لمباز. حافظ هذا الضابط الوالي على مركزه مدّة أربع سنوات وذكرت عدّة نقائش الإنجازات التي أشرف عليها في كامل أجزاء الليماس بالولايات الإفريقيّة.

ويبدو أن أنيقيوس فوستوس كان من أصيلي منطقة مكثر (Mactaris).

- كلودِيوس ألبينوس (Clodius Albinus) الذي عُيِّنَ قائداً أعلى لحامية الولاية البريطانيّة في بريطانيا العظمى اضطلع بدور حاسم في بلوغ الأفارقة دفّة الحكم في روما بتحالفه مع مؤسّس السلالة الحاكمة الإفريقيّة سبتيميوس سيويروس الذي منحه لقب "قيصر" سنة 193م. قبل أن يتخلص منه على نحو عنيف، وكان كلوديوس ألبينوس من أصيلي مدينة هدروميتوم (Hadrumetum) سوسة.

- سبتيميوس سيويروس (Septimius Severus) وهو أصيل مدينة لبده (Leptis Magna) في طرابلس، ينحدر هذا الضابط من أسرة فينيقية الأصل من ناحية الأب (Septimii) وإيطالية الأصل من جانب الأم (Fulvii).

عُيّن قائدا أعلى للفيلق الروماني المرابط بقاعدة كرنونتوم (Carnuntum) في البلاد المجرية حاليا، أي في ذلك التّاريخ على الجبهة الرئيسة المكلفة بحراسة الدانوب (Danube).

وفي سنة 193م انتصر سبتيميوس سيويروس على منافسيه من أجل خلافة آخر (Antoninii) ودخل روما منتصرا فنصّبه مجلس الشيوخ الروماني امبراطورا جديدا. فحكم سبتيميوس سيويروس مدّة طويلة (193 ـ211م) وأسّس سلالة إمبراطورية من أصل إفريقي احتفظت بعرش روما إلى سنة 235م.

خاتمة:

ثلاث نتائج يمكن الاحتفاظ بها في خلاصة هذا العرض:

1ـ كان الجيش الروماني أداة حاسمة في سياسة الاحتلال فأسهم بقوة في إخضاع المدن والقبائل وفي إرساء الجباية وجمع التموين الغذائي لروما وفي مصادرة الأراضي وإنشاء المستوطنات الرومانية ذات الصبغة العسكريّة.

2ـ تحول الجيش الروماني في القرن الثاني إلى أداة لتنمية الموارد الاقتصاديّة واستغلالها على نحو محكم (فتح الطرق، تعمير مناطق السهوب والمناطق القاحلة، استغلال الموارد المائية وغيرها...).

ولا يفوتنا هنا أن نذكّر بأنّ الازدهار الاقتصادي في الولايات الإفريقيّة كان قبل كل شيء لصالح روما ولصالح أعيان المدن الإفريقية التي قدّمت خير سند لسياسة الرومنة.

3ـ اغتصب الجيش الروماني الأرض الإفريقيّة التي قدم إليها غازيا محتلا لكنه تحول مع مرّ القرون إلى مدرسة للرومنة الثقافية والقانونية. ولا شكّ في أن هذا الجيش وفّر للضباط الأفارقة فرص الارتقاء في سلم المسؤوليات العسكرية والإدارية على مستوى الإمبراطوريّة إلى أن صعدوا في آخر القرن الثاني ـ وهو قرن الرومنة ـ إلى أعلى هرم السلطة في روما بالذات.

تحديث الجيش النظامي التونسي

تميّزت العقود الأولى من القرن التاسع عشر في تونس بمحاولة البايات الحسينيين الاستغناء عن الهياكل العسكريّة القديمة من جنود الإنكشاريّة، وذلك بإيجاد بديل لها من فرق أخرى غير نظامية ذات طابع محلي.

وتلمّس بعضهم الطريق لإحلال التونسيين محلّ تلك الفرق المشاغبة وغير الناجعة. وتطوّر الأمر في عهد حسين باي (1824 ـ 1835) إلى حلّ فرقة الإنكشاريّة دفعة واحدة سنة 1829 والشروع في تركيز جيش نظامي من أبناء البلاد حتى أن تسمية الجند النظامي في تونس تعود إليه أساسا، ولكن دون حسم ووضوح.

واستمرّ الحال كذلك إلى عهد خلفه مصطفى باي (1835 ـ 1837) غير أن هذا الباي اصطدم بمعارضة سكّان العاصمة عندما حاول تجنيد أبنائهم، فعدل عن الفكرة وأوقف المحاولة نهائيا. لكن عهده لم يطل، وسرعان ما أعاد الكرّة ابنه وخليفته في الحكم المشير أحمد باي الذي بدأ معه التغيير الحقيقي بشكله النظامي التونسي لحما ودما وانتماء. وقد ترتّبت على هذا المولود الجديد نتائج ذات بال سلبية وإيجابيّة في المجالات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، جعلت لعهده أهميّة خاصة في تاريخ تونس الحديث.

1ـ ظروف إحداث الجيش النظامي

كانت الحامية العسكريّة العثمانية، منذ انضمام تونس إلى الحكم العثماني، القوة العسكريّة المكلّفة بحماية الولاية. وهي في الوقت نفسه الحلقة الرابطة بين الحكم في تونس والسلطان العثماني. يتوافد أفراد هذه الحامية على تونس باستمرار كلما دعت الضرورة لحفظ أمن الولاية العثمانيّة. وقد شعر عدد من بايات الأسرة الحسينيّة الحاكمة في تونس منذ أواخر القرن الثامن عشر بضرورة التقليل من الحامية وإدخال بعض التغيير على أفرادها بالاعتماد على عناصر محلية بفرق غير نظامية. لكن تلك المحاولات اتّسمت بالارتجال وباءت بالفشل ولم يبدأ التغيير الجذري الا في عهد أحمد باي في العقد الخامس من القرن التاسع عشر حين أخذ شكله الواضح الجاد. فما هي دوافع التغيير وظروفه؟ وما مراحله وإشكالياته؟

وصل أحمد باي إلى الحكم في فترة طرأت فيها على الأمبراطوريّة العثمانيّة تغييرات مهمّة في الميدان العسكري على يد السلطان محمود الثاني وكان لهذا صداه الواسع في تونس. وكان أحمد باي قد عاش تجربة عمه ثم والده المتعثّرة في انتداب الجنود التونسيين، وأحس مثلهما بالقلق من أفراد الحامية العاجزة عن القيام

بواجبها، مستفيدا من التجربة السابقة في عمله.

لكن أهمّ ما ميّز عمل أحمد باي هو قيامه بحركة إصلاحية عامّة، ووضوح توجّهاته في بناء دولة لها مؤسساتها المستقلّة عن التبعيّة التقليديّة للسلطان العثماني مبتدئا بتكوين قوة عسكريّة محلية يطمئن إليها تكون أساسا للدولة التي يودّ إبرازها على المستوى الدولي.

وبالرغمّ من أن أحمد باي لم يكن من أفراد الجند، فإنّ توليته لقيادة الجيش في أواخر عهد أبيه جعلته يعيش ظروف الجنود عن قرب ويتعرف إلى مشكلاتهم ومطالبهم الملحّة. وهو أوحى إليه مبكّرا بالإصلاح وعزّز لديه فكرة التغيير، كما أن احتلال فرنسا للجزائر عام 1830 وإعادة احتلال العثمانيين لأيالة طرابلس سنة 1835، دفعاه إلى بعث جيش قوي. وفوق هذا لم يعوزه الطموح الشخصي في بناء قوّة عسكريّة متأثرا بالخصوص بتجربة محمد علي المهمّة بمصر في الميدان العسكري في تلك الفترة. وشجعت هذه الظروف أحمد باي للخروج من التردّد الذي وقع فيه والده بالخصوص، ونفّذ ما عجز عنه أسلافه، متصوّرا البديل عن الهياكل العسكريّة القديمة في إنشاء جيش نظامي، وبرز عمله في العناصر التالية:

- انتداب الجنود من التونسيين
- فصل الفرق العسكريّة بعضها عن بعض وتطوير التجهيزات
- بعث التعليم العسكري

2 - المرحلة الأولى من تكوين الجيش النظامي

أ - انتداب الجنود من التونسيين

بدأ أحمد باي في إثبات أفراد الجند النظامي ابتداء من سنة 1838. وعرف الجيش الجديد بالنظامي ويقصد به ذلك الجيش المحترف الذي يعمل أفراده تحت السلاح ويقيمون بالثكنات ويتقاضون رواتب قارة، ويقومون بحراسة الأبراج والقشل، وتحت قيادة ضباط مباشرين وذلك خلافا للفرق غير النظامية التي لا تستدعى إلا عند الحاجة.

وكان أحمد باي يرسل لانتداب الجنود النظاميين الضباط إلى المناطق الحضريّة خاصّة إلى مدن الساحل وقراه، فيثبتون من يرونه صالحا للجنديّة حتى الاكتفاء. وهذا الاكتفاء لم يكن ثابتا ولا معروفا من قبل باعتبار أن الجندية فرض كفاية. والجديد في الموضوع أن الجنود الجدد تونسيون من قرى ومدن تونسيّة لم يعرفوا هذا العمل من قبل وهو ما سيترتّب عليه ظهور مفهوم جديد للجنديّة، إلا أن ما يؤاخذ عليه أحمد باي أنه لم يتّخذ قاعدة ثابتة لانتداب الشباب ولم يحدّد مدّة العمل العسكري، فكانت العمليّة تتحقّق على نحو اعتباطي تبعا لمزاج الباي والضباط. فكانت هذه الطريقة إحدى العلل في فشل الإصلاح العسكري باعتبارها غير مستندة إلى قانون ولم تعدل بين المناطق السكانية لأنّها تتّجه إلى منطقة دون أخرى من البلاد. ومهما روعيت فيها العوامل الإنسانيّة للأيتام والأرامل والشيوخ، كما كان متبعا في هذه الطريقة، فإنها ظلّت مصدر قلق وخوف وهو ما أدّى في النهاية إلى تراجع الباي نفسه عنها والتخفيف بعض الشيء في عمل الجنود الذين طالت مدة عملهم، واستبدّ بهم القلق حتّى ملّوا الجندية ولجؤوا إلى الهروب. وذلك باعتماد التعويض، وهو تعويض شخص بآخر مكانه ولكن الطريقة



الجيش التونسي في عهد أحمد باي الأول

السابقة نفسها وهي تجنيد المعوّض من جهته. وقد ترتّب على عمل الباي هذا فقدان بعض المناطق لليد العاملة الفلاحية النشيطة خاصة وعدد سكان الإيالة كان محدودا (أكثر بقليل من المليون ساكن) كما أن المناطق المختارة للتجنيد مناطق حضرية مستقرّة تعتمد على سواعد أبنائها في العمل الفلاحي بالدرجة الأولى.

ب ـ فصل فرق الجيش الجديد عن بعضها وتطوير التجهيزات

يتكوّن كل جيش عادة من عدد من الفرق وكل فرقة تختصّ بسلاح معيّن، غير أنه في تونس حتّى ولاية أحمد باي كانت فرق الجيش التقليدي غير منفصلة بعضها عن بعض، ولم يوجد بها سلاح خاص بالخيالة. لذلك حرص أحمد باي في نطاق التنظيم العسكري لتسهيل الإعداد والتدريب وتوازن الفرق على تلافي هذا النقص بين الفرق الجديدة في إصلاحاته طبقا لنوع السلاح المعروف.

ـ كوّن فرقة الخيالة من ألف فارس سنة 1839 ولم يكن هذا النوع موجودا قبل تولّيه الحكم وجعل إقامتهم في منوبة تحت إمرة ضابط برتبة أمير آلاي.

ـ اهتمّ بسلاح المدفعية، وكان هذا النوع قبل ذلك مختلطا بالمشاة ليس له تمييز عن غيره ولا ضابط ولا قشلة. فكوّن منها فرقتين تقيمان بالعاصمة بعدد أربعة آلاف جندي ومنح الباي هذا السلاح عناية خاصة بحكم التطوّر الحاصل في سلاح المدفعية وازدياد أهميته في تلك الفترة.

ـ قسم سلاح المشاة إلى 5 آليات موزّعة على الأماكن المهمّة في البلد وهي: تونس، سوسة، المنستير، القيروان، غار الملح. وكان يتولّى أمر آليات المشاة ضابط برتبة فريق. ثم تطوّرت إلى 7 فرق.

وفي نطاق التجهيزات بنى أحمد باي عدّة قشل للجيش الجديد مثل قشلة باردو وقشلة غار الملح وقشلة الطبجية.

ـ أقام مصنعا للباس العسكري بطبربة بحكم تغييره للباس الجند على الشكل الفرنسي.

ـ أقام مصنعا للجلد بقصر المحمدية لاستعمال الجيش.

ـ أقام مصنعا للبارود بالقصبة وكذلك مصنعا لصب المدافع بالحفصية.

ـ وفّر المخابز والمطاحن والمعاصر لتمويل الجند.

أمّا جنود البحرية وهم جزء من الجند النظامي فكانوا يقومون بحراسة السواحل التونسيّة في مراكب بحرية لم يستطع الباي أن يحدث فيه شيئا ذا بال نظرا إلى تكاليفه الباهظة ورغم اهتمامه بالمراكب والموانئ، ولم يتجاوز عدد المراكب 20 وعدد جنودها 600 أو 800 يقيمون بقشلة حلق الوادي.

ج ـ بعث التعليم العسكري

إن أهمّ عمل قام به أحمد باي في مجال بناء الجيش النظامي التونسي، بعث نواة للتعليم العسكري، سمي مكتب الحرب، بهدف تخريج الضباط المتعلمين للجيش الجديد وذلك في مارس سنة 1840 وهذا المكتب تطوير لمدرسة عسكريّة أسّسها حسين باي عام 1831 ويعتبر هذا العمل أهم إنجازات أحمد باي في هذا الميدان، وتعود أهميته إلى كونه الجانب العلمي الذي لا بدّ منه لتعليم الجيش وتدريبه، وهو جديد على نمط الحياة العسكريّة في البلاد. وقد كتب لهذا الإنجاز التأثير والدوام أكثر من غيره لفترة أطول نسبيا. وكانت هذه المدرسة أول نافذة للاتصال العلمي الحقيقي بين تونس وأوروبا.

وقد مرّت المدرسة بمرحلتين مختلفتين ومنفصلتين:

ـ المرحلة الأولى: من سنة 1840 إلى 1854، وكانت تحت الإدارة الإيطالية ممثلة في شخص المستعرب الإيطالي "كاليقاريس" (Calligaris).

- المرحلة الثانية: من سنة 1855 إلى 1869، وكانت تحت الإدارة الفرنسيّة وتولاها على التوالي ضابطان فرنسيان هما: الرائد كمبنون والعقيد دي تافارن.

على أن المرحلة الأولى هي الأهم نظرا إلى اهتمام أحمد باي بها شخصيا لأنه كان حريصا على الهدف الذي أسست من أجله. ثمّ هي مرحلة الحماس والاندفاع في تكوين الجيش وإطاراته. وأكد أحمد باي حرصه على التعليم العسكري بإصداره منشورا للضباط والجنود على مختلف رتبهم يحثهم فيه على التعلم وأهميته. وأبرز في المنشور المكانة الممتازة التي يحتلّها الجنود في الدولة دينيا وعسكريا باعتبارهم حماة الدين والملك. وكان يزور التلاميذ ويشجّعهم مؤكدا أن لا جيش دون تعلم. ولذلك حدّد للمدرسة الأهداف التالية:

- تنمية الشعور بالواجب العسكري
- الحرص على اللياقة البدنية
- تزويد التلاميذ بالثقافة العامة
- تزويد التلاميذ بالمعلومات والفنون العسكرية الضرورية؛
- تنمية الكفاية القيادية وإعدادهم لتحمل المسؤوليات

إلا أن المدرسة أغلقت أبوابها لسوء الظروف المادية للدولة بعد 14 عاما من العمل المتواصل.

3 - المرحلة الثانية من تكوين الجيش النظامي

أ- إيجاد الأطر القانونية

دبّ الإهمال في عملية تكوين الجيش النظامي منذ أواخر عهد أحمد باي لعوامل متعددة لعلّ أهمها الوضع المالي للدولة وعدم اتّباع القوانين العسكرية. وازداد الإهمال بعد وفاته بسبب اختلاف موقف خلفه محمد باي من كثرة الجند. لذلك سرّح معظم الجنود، وكفّ يده عن السّخاء السابق في الإنفاق والتجهيز كما كان يفعل سلفه. وقد تراجع الاهتمام حتى في مسألة التدريب والتعليم بعد إغلاق المدرسة لفترة قصيرة.

لكن في المرحلة الثانية حدث تطوّر مهمّ تجسّد في إحداث الأطر القانونية التي جاء بها عهد الأمان سنة 1857، ودستور 1861 والقوانين الأخرى المختلفة. وقد أسهمت هذه القوانين في تنظيم الحياة العسكريّة وعملية انتداب الجنود وضبط التدريب والتجهيز. وهذا عمل له أهميته لأنه يدعم عمليّة بناء الجيش على أسس قانونية لو كتب لها الاستمرار والتطبيق الجيّد، ومن شأنه أيضا أن يحسّن ظروف العمل بالجندية باعتباره يضمن المساواة لكل السكان في الانتداب ويوضّح الحقوق والواجبات لكل ذي رتبة. وقد أتاح الفرصة لمشاركة مختلف الفئات السكانية التونسيّة وهو ما افتقر إليه العمل في عهد أحمد باي الذي تغافل عن اتباع القوانين العسكرية رغم وجودها في أوروبا والعمل بها في عاصمة الدولة العثمانية. وقد اشتملت القوانين الجديدة المنبثقة في عهد الأمان على كل ما يهم الجيش نذكر منها:

- قانون وزارة الحرب.
- قانون وزارة الطبجية
- قانون خدمة العسكر في السفر
- قانون القضاء العسكري
- قانون المسرحين من الخدمة العسكرية
- قانون الجرائم والعقوبات العسكريّة

وتشير هذه القوانين إلى تحوّل مهمّ في الحياة العسكرية التي كانت تفتقر إلى أبسط قواعد التنظيم القانوني وتبرز التطوّر الحاصل في هذا المجال. وسنكتفي هنا بإلقاء نظرة على التجنيد لأهميته في تعزيز بناء الجيش النظامي باعتباره القاعدة التي ينطلق منها البناء العسكري.

ب - قانون التجنيد أو القرعة

يعتبر هذا القانون أهمّ عمل جاء به عهد الأمان في موضوع انتداب الجنود الجدد. وقد صدر في ستّة أبواب وخاتمة سمي: "المصباح المفسّر في إثبات دخول العسكر"، ويقصد بالتجنيد كما تفسّره الموسوعة العسكريّة إلزام

المواطن بالخدمة العسكريّة، غير أن الدولة بقيت حتى عند تطبيقه تعتبره فرض كفاية بالرغم من أن القانون يسمّيه واجبا وطنيا. وذلك لأنها لا تأخذ للجندية إلا من وقعت عليه القرعة من الشبان البالغين سنّ الثامنة عشرة حتّى الثلاثين سنة. وهذه الطريقة تتبع عادة عندما يكون عدد المطلوبين للجندية أكبر من العدد اللازم فعلا أو عندما لا يسمح الوضع الاقتصادي للبلاد باستيعاب كل من بلغ سن الجندية وهو ما كان ينطبق على تونس في تلك الفترة. والقرعة هنا تصيب فئة معيّنة من المواطنين القادرين. وقد اشتمل القانون على إعفاءات كثيرة لعدد من الشباب كطلبة جامع الزيتونة وأصحاب الخطط الشرعية والسياسية والعلمية والدينيّة وأبناء العلماء إلا من حاد عن طريق سلفه، وكذلك الذي لم يحفظ القرآن حتى سن الثامنة عشرة.

وإضافة إلى هذا أوجد القانون فكرة العوض لمن وقعت عليه القرعة وهذا التعويض على نوعين:

تعويض شخص بآخر، والعوض بالمال. وهو ما سماه القانون "خدمة الوطن بالبدن أو بالمال". وفي فترة لاحقة عدّل القانون ووحّد العوض المالي طبقا لأداء المواطن الجباية. وعيّنت في الوقت نفسه وجوه في صرف أموال التعويض، وأهمها صرفها على حاجات العسكر الذي تحت السلاح. لكن هذا العوض كانت له عيوب أهمها أنه أضرّ بالجنود الذين كانوا ينتظرون التسريح لأنه لا يوجد من يحلّ محلّهم ومن ثمّة عدم تجديد عناصر الجيش.

وبهذا يمكن أن نقول إن القوانين الخاصة بالحياة العسكرية لم يتيسّر لها التطبيق إلا على نحو مقتضب ولمدة قصيرة، وتعرضت للإهمال ثم دخلت طيّ النسيان، وتبخّر الأمل الذي كان للمجنّدين زمنا. ولكن لا يمكن أن نقلّل من أهميّة التجربة في تطبيق القوانين العسكريّة وخاصة قانون القرعة الذي سوّى بين أغلب الفئات الاجتماعيّة وأوجد الشعور بالواجب الوطني على المدى البعيد.

4 ـ نتائج إحداث الجيش النظامي

ترتّبت على تكوين الجيش النظامي عدّة نتائج على أصعدة كثيرة، غير أن ما يهمّنا هنا ما كان له تأثير مباشر في الحياة العسكريّة وما ارتبط بها. فبالرغم من توقّف الإصلاحات العسكريّة أو فشلها بعد فترة طويلة وما احتوت عليه من سلبيّات كثيرة عند التنفيذ لأسباب داخليّة وخارجية كالتكاليف المرهقة للميزانيّة أكثر من اللازم واهتمامها بالكم أكثر من الكيف وسوء التطبيق لقوانين التجنيد والعوض وعدم شمولها لكل السكان، بالرغم من هذا كلّه فإن ميلاد الجيش النظامي في تونس كان حدثا مهمّا في حد ذاته.

أـ تكوين نواة جيش وطني وإبراز الدولة

لأول مرّة في تاريخ تونس الحديث يتكوّن جيش نظامي من الشباب التونسي لحما ودما. وهو ما عزّز الشعور بالارتباط والانتماء لدى سكان الوطن الواحد. وأصبح الجنود والضباط أوثق صلة بأفراد المجتمع بالنسبة إلى ما كان عليه الأمر أيام الحامية العثمانيّة. وبرز للعيان جيش وطني أسهم في تثبيت اسم الدولة وبلورة هياكلها السياسية والعسكريّة، وذلك بفضل تركّز المؤسسة العسكريّة على نحو واضح بأسمائها الحديثة باسم وزارة الحرب لها علمها وقوانينها وإدارتها ويتولى أمرها وزير الحرب برتبة عسكريّة تمنح من باي البلاد وليس من السلطان، هي رتبة فريق، وأصبح بالإمكان الحديث عن دولة بعد أن تأسّس جيش نظامي ينحدر أفراده من فئات المجتمع التونسي المختلفة.

ومن نتائج تكوين الجيش أيضا أن حلّت في مرحلة أولى اللغة العربيّة محلّ التركية وأصبحت لغة الجنود في التدريس والتدريب والمراسلات. وهو ما أعطى للجيش هويته العربيّة التونسيّة. ومن ثمّ أدرجت المصطلحات العربيّة في صلب الجيش إلى جانب استمرار بعض المصطلحات

التركية الموروثة، والفرنسية الدخيلة مع المدرسين الفرنسيين. ولقد كان لحركة التعريب عن التركية والفرنسيّة في مجال الكتب القانونية والتعليميّة بالمدرسة والجيش نشاط ملحوظ على يد ضباط الجيش وإطارات مكتب الحرب وقام بهذا العمل ضباط تونسيون تخرجوا في المدرسة أشهرهم الجنرال حسين والرائد محمد بن الحاج عمر الذي كان له النصيب الأكبر في تعريب الكتب العسكريّة والقوانين عن اللغة الفرنسيّة وكذلك المقدم أحمد المورالي الذي ألف عددا من الكتب التعليميّة العسكريّة للتلاميذ الضباط. وفي مرحلة ثانية وقع التخلي عن التدريس باللّغة العربيّة في المكتب الحربي لصالح اللّغة الفرنسيّة

ب ـ ترسيخ فكرة الجندية وتكريس العمل بقانون القرعة

من نتائج إحداث الجيش النظامي ووضع القوانين العسكريّة موضع التنفيذ أن تغيّر المفهوم القديم للجنديّة عند التونسيين ذلك الذي كان يعتبر الجندية حرفة للأتراك فحسب دون غيرهم. وتغيّرت فكرة أن الذاهب إلى الجندية كالذاهب إلى السجن أو القبر وذلك بفعل امتداد الجندية إلى فصائل المجتمع المختلفة في المدن والقرى. لذلك فإنه بالرغم من صعوبة الحياة العسكرية بسبب تدهور الأوضاع المالية للدولة وتراجع الحماس في الاهتمام بالجيش وتجهيزه، ورغم زهد الجنود في تلك الحياة بوجه عام فإن الكثيرين من الجنود والضباط استفادوا من الانضباط والتربية العسكريّة في حياتهم وتعلموا منها الكثير، وفتحت أمامهم آفاقا من المعرفة وفهم الحياة كخبرة السلاح وخشونة العيش والتعود على القوانين العسكريّة والاختلاط بالغير مما لا يجدونه في محيطهم الاجتماعي الضيق.

وأهم من ذلك أن الجنديّة أصبحت وسيلة للارتقاء الاجتماعي لعدد من الجنود والضباط. وربما بدت وظيفة الجنديّة بالرغم من تأخر الرواتب أو انقطاعها أحيانا عند بعضهم هدفا يصبو إليه. وقد حدث فعلا أن أقبل بعض المواطنين طواعية على الجندية وطلبوا الانضمام إليها خاصة عندما كان عملهم قريبا من مناطق سكناهم.

أما قانون القرعة الذي استمرّ العمل به لفترة أطول وهو القاضي بدعوة الشباب إلى خدمة الوطن باعتبارها واجبا، بالبدن أو بالمال، بحيث أصبح من التقاليد العسكريّة التي استمرت منذ ذلك الوقت في المجتمع التونسي إلى اليوم مع اختلاف الطريقة والظروف.

مشاركات الجيش التونسي في حفظ السلام

أسهم الجيش التونسي منذ انبعاثه إثر الاستقلال عدّة مرات في مهام حفظ السلام في الكثير من الأماكن من العالم وذلك سواء في إطار منظمة الأمم المتحدة أو منظمة الوحدة الإفريقيّة أو جامعة الدّول العربية.

لقد كانت أول مشاركة للجيش التونسي خارج أرض الوطن منذ حرب القرم بالكونغو ضمن القوات الأممية وذلك ببعثتين عسكريتين : الأولى غادرت تونس يوم 15 جويلية 1960 وكانت أول قوة أمميّة تحل بالتراب الكونغولي وقد تألّفت من 2261 عسكريا، تشكّل لواء يتكوّن من فيلقين. وقد عهد إلى هذه الوحدة التونسيّة بحفظ الأمن في إقليم «كاساي» (Kassay) بالعاصمة «ليوبودفيل» (*Léopoldville*). لكن نداء الواجب الوطني للذود عن حرمته في أثناء معارك الجلاء في بنزرت والجنوب التونسي في جويلية 1961 عجل بعودة البعثة العسكريّة الأولى إلى أرض الوطن.

أمّا البعثة الثانية فقد غادرت تونس في جانفي 1962 وكانت فيلقا يتركب من 1100 عسكري تمركز منذ حلوله بالكونغو بإقليم كاطنغا "Katanga" وأوكلت إليه:

"مهام حفظ الأمن بمخيمات اللاجئين في «اليزابيتفيل» (Elisabethville) وحمايتهم من الهجومات الكاطنقية وتأمين عودة اللاجئين إلى قراهم والإسهام في عودة إقليم كاطنغا إلى السلط المركزية".

وإثر هذه العملية الناجحة انتهت مهمة البعثة التونسيّة وعادت إلى أرض الوطن في مارس 1963 وقد نالت المشاركة التونسية استحسان الشعب الكونغولي وقيادته الشرعية وتقديرهما كما باركتها القيادة الأممية.

ب ـ هذا وشارك الجيش التونسي خارج أرض الوطن بتوجيه فيلق عسكري إلى الأراضي المصرية في مهمة قتالية إلى جانب القوات المصرية على إثر اندلاع.حرب جوان 1967.

كما أسهم في وقف إطلاق النار بين القوات الأردنية والفلسطينيّة في سبتمبر 1970 على إثر تأزم الوضع بين المملكة الأردنية الهاشمية والفلسطينيّين نتيجة خلافات داخلية.

وفي 22 سبتمبر 1970 تكوّنت لجنة عربية ترأستها تونس في شخص وزيرها الأول آنذاك السيد الباهي الأدغم وضمت مراقبين عسكريين من عدّة بلدان عربية منهم مجموعة من الضباط السامين من القوات المسلحة التونسيّة واتصلت هذه اللجنة مباشرة بالطرفين الأردني والفلسطيني وتوصّلت إلى إقرار وقف إطلاق النار وتوقيع اتفاق سلام.

ج ـ وفي 1973، مباشرة إثر اندلاع الحرب في 6 أكتوبر بين قوات المواجهة العربيّة (مصر وسوريا) من ناحية والقوات الإسرائيليّة من ناحية أخرى تحركت القيادة السياسيّة في تونس وقرّرت إرسال قوات من الجيش إلى جبهة القتال للمشاركة إلى جانب القوات العربية.

وللغرض شكّل فيلق مشاة محمولة يعد 1000 عسكري وُجّه إلى مصر في مهمة قتالية بسيناء بداية من 10 أكتوبر 1973 لمؤازرة القوات المصريّة من أجل استرجاع الأراضي العربيّة المحتلّة منذ جوان 1967. وفي شهر جانفي 1974 أرسل فيلق الطلائع لتعويض فيلق المشاة المحمولة وكانت عودة فيلق الطلائع إلى أرض الوطن يوم 19 ماي 1974.

هذه مشاركات الجيش التونسي في عمليات عسكريّة خارج أرض الوطن منذ انبعاثه إلى سنة 1973.

وكلّف الجيش الوطني سنة 1987 بالمشاركة في عمليات حفظ السلام في أماكن شتى من العالم وهي: كمبوديا والصومال ورواندا وبورندي وجنوب إفريقيا وهايتي.

لم تقتصر مشاركات الجيش التونسي في عمليات حفظ السلام في أرجاء العالم على العمل العسكري الميداني وحفظ الأمن بل تعدت تلك المهمة الرئيسة إلى مهام أخرى مثل الإسهام في إعادة الحياة بالبلدان المبعوثة إليها بإعادة الإعمار ومد الطرقات والسكك الحديديّة وشبكات الكهرباء إلى جانب البعد الإنساني المتمثل في العناية بالمرضى والجرحى وحماية اللاجئين ومساعدتهم ونقل الأدوية والمؤن إليهم.

جيولوجيا البلاد التونسية

تتميّز البلاد التونسية بتاريخ طبيعي يقوم بالأساس على الترسب والتكوّن ثم التطوّر بحسب ظروف التكشّف أو الخضوع للتحرّكات التكتونية. ويتضح أن كلّ الصخور المكوّنة للتكشفات وتحت الأديم ذات أصل ترسّبي وتنتمي إلى طبقات الغشاء. فالصخور الاندفاعية ذات الأصل العميق أو الصخور المتحوّلة أو تلك المتأتية من ثوران البراكين محدودة الأهمية لا تسهم إلاّ موضعيا في فهم التركيبة الصخرية وظروف نشأتها وتحوّلها.

وتعدّ البلاد التونسيّة الامتداد الشرقي للوحدات الجيولوجية المغاربية. ففي الجنوب يمتدّ المجال الصحراوي من منخفضات

الشطوط إلى أقصى الجنوب التونسي حيث المسطبة الصحراوية. وهي منطقة تتصف بالامتداد والانبساط وتحدّها مشارف سهبية كالظاهر على السهل الساحلي للجفارة. أمّا شمالي منطقة الشطوط، فإنّ سلسلة التل الجزائرية تقترب أكثر من الشمال لتكوّن «التلّ الشمالي» الواقع شمال حوض مجردة في حين تتفرّع سلسلة الأطلس إلى الظهرية التونسية والأطلس الصحراوي.

1- المراحل الجيولوجية وسحناتها الليثولوجيّة

تنحصر الطبقات الصخريّة الراجعة إلى ما قبل الحقب الجيولوجي الثاني في منطقة وحيدة بالبلاد التونسية وهي منطقة الطبقات البارمية الواقعة شمالي مدنين بين الظاهر وتاجرة. أمّا بقيّة الصخور الراجعة إلى ما قبل البارميان فهي غير معروفة على السطح وقد أمكن التعرف إلى خصائصها من تركيبة ليثولوجية وعمق وسمك، عن طريق التنقيبات البترولية والمائية، كما تيسّر تحديد الطبقات الراجعة إلى القاعدة الصخرية لما قبل الكمبري تحت طبقات الحقب الباليوزويكي على أعماق تتراوح بين 1200 و4000 متر وهي صخور الغرانيت مع الديوريت وصخور أخرى شبه متحوّلة متكوّنة من الشيست والكوارتزي والكوارتزيت. وقد حدّد عمر هذه الصخور لما قبل الكمبري بفترة «الفاروزي» وهو ما يماثل الصخور نفسها التي بالهقار.

وقد مكّنت التنقيبات العميقة بالجنوب التونسي من تحديد خصائص الطبقات الراجعة إلى مرحلة البليوزويك التي تنقسم إلى فترات: الكمبري والأوردوفيسي والسيلوري والديفوني والكربوني والبارمي.

أ-العصر الترياسي (triasique)

طبقات هذا العصر ذات تنضّد طبيعي في السياق الجيولوجي العام، وقد مكّنت مراجعة الدّراسات الأولية من تبيّن مجالين للبيئة القديمة لترسبات الترياس بالجنوب التونسي، هما:

– المقاطعة الشمالية، وهي المنطقة الواقعة حوالي مدنين حيث تتكشف طبقات الترياس والجوراسي في شكل تكوينات محدودة السمك وغير متصلة بعضها ببعض. وهذه المنطقة كانت في تلك الفترة بيئة ترسيبية رضيفية الخصائص وتعرف باسم «مرتفع طباقة».

– المقاطعة الجنوبية، وهي امتداد للسابقة في اتجاه الجنوب الشرقي تصل حتى الجفارة الليبية، وفيها تأخذ تكشّفات الترياس امتدادا واسعا والطبقات الجيولوجية بها متواصلة التركيبة.

في ما عدا الجنوب التونسي، تلوح تكشّفات الطبقات الترياسية غير متنضدة في السياق الجيولوجي العام وتأخذ شكل انبثاقات تخترق مختلف الطبقات الراجعة إلى مراحل جيولوجية أحدث من الترياس. والطبقات الراجعة إلى هذه السحنة التكتونية متكوّنة من خليط من البخريات والطفليات المجعّدة والسجيل والدلومايت إضافة إلى بعض الكلسيات المتبلورة، وقد خضعت كلها للتهشيم والتفتيت وإعادة الترسيب. وتتميّز هذه الطبقات الترياسية بافتقارها إلى الحثّيات الأحفورية وهو ما يجعل ربطها بمرحلة زمنية من التاريخ الطبيعي صعبا، ولم يتسنّ تدقيق عمر هذه الطبقات إلّا ببعض الانبثاقات الترياسية. وأفضل موقع لتكشفات الترياس الانبثاقي هو «جبل رويس» الواقع شرقي سيدي بوزيد على امتداد المحور شمال – جنوب (جبال سيدي خليف وبودينار) حيث تأخذ طبقات الترياسي شكل مركّب ليثولوجي يخترق غشاء الجوراسي الأعلى.

ب-العصر الجوراسي (Jurassique)

تتميز الطبقات الجوراسية في البلاد التونسية بترسّبها وتكوّنها في بيئة هادئة قليلة التحرّكات التكتونية إضافة إلى ثراء البقايا الأحفورية وتواصلها مع وضوح المرور من فترة إلى أخرى، كما أن هذه الطبقات متعددة التكشفات بشمال البلاد ووسطها وجنوبها. لذلك يمكن تبيّن

خصائصها بدراسة تكشفاتها في المواقع الثلاثة التالية: سلسلة الظهريّة والمحور شمال – جنوب والجنوب التونسي.

إنّ المرتفعات الممتدة جنوب تونس بين جبلي بوقرنين والجرس ومرورا بالرصاص وزغوان تشكّل نهاية الظهرية التونسية حيث تبرز تكشفات الجوراسي. وهذه المرتفعات يحدّها فالق زغوان الذي يضع طبقات الجوراسي في مواجهة عدّة تركيبات جيولوجية مغايرة ولأحدث منها. ويعدّ جبل زغوان أهمّ هذه التكشفات، حيث يمكن تبيّن خصائصها الليثولوجية والتصدعات التكتونية التي خضعت لها وهي تتوافق وبيئات ترسبيّة مختلفة تتراوح بين البيئة البحرية ذات المياه العميقة والبيئة البحرية ذات الرصيف المرجاني مع ما بينهما من وضعيات تداخل.

أمّا محور الشمال – جنوب فهو سلسلة جبلية تمتد من جبل زغوان شمالاً إلى مرتفعات الظاهر جنوبا وتفصل هذه السلسلة بين مسطبة الساحل الشرقية ومنطقة السهول الداخلية للقيروان وسيدي بوزيد. هذه السلسلة الجبلية هي وحدة أساسية في البنية الجيولوجية للبلاد التونسية تشتمل على الكثير من تكشفات الجوراسي. ونتبيّن في هذه التكشفات وحدتين متميزتين هما:

– الوحدة الدلومايتيّة القاعدية

– الوحدة المارلية والطفلية.

وتتميّز فترة الجوراسي بالجنوب التونسي كما هو الشأن في العصر الترياسي بوجود مقاطعتين بحريتين، إحداهما جنوبية كان الترسب بها متواصلا طيلة كامل الفترة الجوراسية والأخرى شمالية ذات تكشفات محدودة وطبقات غير متصلة.

وباستثناء الطبقات الجوراسية للجنوب التونسي، فإن الترسبات الراجعة إلى هذا العصر ببقية البلاد تغلب عليها السحنة الكربوناتية مع تموضعها في بيئة بحرية واضحة. أمّا بالجنوب التونسي فإن البيئة الترسيبية المميزة للمستنقعات والبحيرات القريبة من البحر خلال الترياسي الأعلى تتواصل حتى نهاية الجوراسي الأوسط لكي يصبح الوسط الترسيبي بحريا صرفا ولكن البحر سرعان ما ينحسر مع الجوراسي الأعلى لكي يصبح الوسط الترسبي قاريّا نهريّا.

ج–العصر الكريطاسي (Crétacé)

تختلف سحنات الطبقات الجيولوجية الراجعة إلى الكريطاسي الأسفل بالبلاد التونسية بحسب المناطق الثلاث للشمال والوسط والجنوب. ففي الشمال التونسي سيطرت ظروف ترسبية مميزة لبيئة بحيرة ذات مياه عميقة وهو ما أعطى «ركاميات الجرف التونسي» التي يبلغ سمكها عدّة آلاف من الأمتار. وهي ذات تركيبة حتاتية وطينية شملت المنطقة الممتدة شمال سلسلة الظهرية.

أمّا بتونس الوسطى الممتدة بين الجرف التونسي ومنطقة الشطوط فإن الطبقات الراجعة إلى الكريطاسي الأسفل تغلب عليها خصائص الرسوبيات القارية أو المتجمعة في مياه بحرية قليلة العمق. وقد أمكن تبيّن التكوينات الليثولوجية التالية:

– تكوين سيدي خليف: وهي طبقات طينية وسجيلية مع بعض الاندساسات الكلسية أو الحتية. وهذه الطبقات قد ترسبت في بيئة بحرية ذات مياه عميقة.

– تكوين المالوسي: وهي طبقات رملية قليلة التماسك مع اشتمالها على الكلس والجبس وتدل على ترسبها في بيئة بحرية ذات مياه قليلة العمق.

– تكون بودينار: وهي طبقات رملية ترسّبت في بيئة قارية نتيجة تيّارات مائية نهرية.

– تكوين ڤفصة: وهي طبقات تغلب عليها السحنة الكلسية وقد ترسبت في بيئة بحرية ممّا يدل على اجتياح بحري لكامل منطقة تونس الوسطى مع نهاية الكريطاسي الأسفل.

أمّا بالجنوب التونسي، فإن طبقات

الكريطاسي الأسفل تغلب عليها خصائص الترسبات الواقعة في بيئة قارية وهي في مجملها تراكمات نهرية في شكل رمال قليلة التماسك مع اندساسات كربوناتية عند قاعدتها. أمّا بالقرب من مرتفعات الظاهر فإن الصفة القارية لهذه الترسبات غالبة منذ نهاية الطبقات الجوراسية. وتصبح طبقات الكريطاسي الأدنى أكبر سمكا في منطقة الشطوط (حوضي الجريد والفجاج) حيث يصل هذا السمك إلى حوالي 2500 متر.

وتتميّز طبقات الكريطاسي الأعلى بتنوع سحناتها الليثولوجية وتعدد التضاريس الناتجة عنها. وكانت هذه الفترة شاهدة على مراحل انحسار البحر نهائيا من الجنوب التونسي. ويمكن أن نتبيّن خلالها المجالات الترسيبية التالية:

– الجرف التونسي الواقع شمال سلسلة الظهرية بترسبات بحريّة في مياه عميقة تغلب عليها الحتاتيات والطين.

– جزيرة القصرين، وهي منطقة قارية عرفت تذبذب البحر وترسّبت بها طبقات كربوناتية (كلس أو دلومايت) ذات سمك مختزل وأحيانا تكون الترسّبات غائبة تماما. وتتميّز هذه المنطقة بتداخل الترسبات البحرية والرسوبيات البحرية قليلة العمق.

– مسطبة تونس الشرقية، وهي منطقة هادئة ذات ترسبات بحرية قليلة العمق.

– الأرصفة المرجانية على المحور شمال – جنوب وهي منطقة عبور بين المجال القاري لتونس الوسطى والمسطبة البحرية لتونس الشرقية، وتتميّز بتداخل الترسبات البحرية والرسوبيات البحرية القليلة العمق.

– جرف قفصة وهي منطقة ذات مياه بحرية عميقة متصلة بالجرف التونسي عن طريق الغرب.

– المسطبة الصحراوية وهي بيئة بحرية بمياه قليلة العمق تركت ترسبات كربوناتية متذبذبة بين الكلسيات والبحريات المندسة في بعض مراحلها.

د-الحقب الجيولوجي الثالث

تتميّز البلاد التونسية عند مستهل الحقب الجيولوجي الثالث ببيئتين مختلفتين، إحداهما قارية وتشمل المسطبة الصحراوية في الجنوب وجزيرة القصرين في الوسط وأقصى الشمال الغربي. أمّا الأخرى فهي بيئة بحرية يختلف فيها عمق المياه باختلاف الترسبات الناتجة عنها، وهي مجال ترسب الفسفاط والكلسيات على مشارف جزيرة القصرين في بيئة رصيف بحري ذي مياه قليلة العمق، وكذلك مجال ترسب الكلس النوملیتي والكلس القلوبجيري في بيئة بحريّة ذات مياه بأعماق كبيرة.

مع الحقب الجيولوجي الثالث يأخذ التاريخ الجيولوجي للبلاد التونسية منحى جديدا، إذ بعد أن سيطرت عليه ظروف الترسب بين طغيان البحر وانحساره في مناطق على درجة ما من الهدوء التكتوني، تصبح الحركية التكتونية من أهمّ سمات التكون الجيولوجي للأحواض الترسيبية ولتشكل البنية التحتية والبارزة للمناطق مع تميّز مناطق انحسر عنها البحر وأصبحت خاضعة لعوامل التكوّن (الالتواء والانكسار والحتّ) ومناطق أخرى خاضعة لاجتياح البحر نتيجة الحركية التكتونية (أحواض انهدامية وترسبات ارتصاصية).

ويمكن في الحقب الجيولوجي الثالث تبيّن مرحلة ترسيبية في البيئة البحرية ذات المياه العميقة (الجرف التونسي وجرف قفصة ومسطبة تونس الشرقية والساحل وأطراف جزيرة القصرين) مع هدوء تكتوني. وقد امتدت هذه المرحلة حتى نهاية الأيوسين، ثمّ مرحلة التحركات التكتونية ذات الملامح الألبية التي بدأت مع الأوليقوسين والتي نتج عنها ركاميات سميكة من المواد الحتاتية، وقد تواصلت هذه الحركية التكتونية حتى الميوسين. أمّا البلويوسين فقد كان مرحلة التفاعلات الأخيرة

التي شذبت التضاريس وأعطت التحركات الأخيرة.

وتتميّز الطبقات الجيولوجية التي تمثّل فترة المرور من الحقب الجيولوجي الثاني إلى الثالث بأهمية خاصة نظرا إلى أنها تجسّد مرحلة التحول في المناخ والبيئة الترسبية والحركية التكتونيّة للبنية الجيولوجية. وهي طبقات طينية مارنية ذات لون داكن يبلغ سمكها حوالي 700 متر، وهي طبقات قليلة الصلابة تعطي تضاريس غير حادة قابلة للانجراف. وتمّ ترسّب هذه الطبقات في الشمال في بيئة بحرية ذات مياه عميقة (الجرف التونسي وجرف قفصة الداخلي) وذات طبيعة طينية وأصبحت جبسية في الجنوب مع اشتمالها على الفسفاط.

وليست هذه الترسّبات متواصلة دون انقطاع إلاّ في منطقة الجرف التونسي، أمّا في بقية المناطق فكثيرا ما تبدو مختزلة التركيب. وهو ما يثبت وجود حركية تكتونية كما هو الحال في وسط البلاد وشرقيها.

أمّا الطبقات الفوسفاتيّة فهي طبقات متكونة من صخور فوسفاتية بنسبة اقتصادية مرضية (60 إلى 70٪ من ثلاثي الفوسفاط) والفوسفاط التونسي حبيبي متماسك عن طريق طين وحبيبات رملية. ويفترض أن تكوّن هذه الطبقات الفوسفاتية قد تكوّنت في بيئة بحرية في أعماق لا تتجاوز 200 متر مع وجود بقايا لحيوانات بحرية تظهر بوضوح في مختلف الطبقات الفوسفاتية. وتنتمي هذه الطبقات إلى نفس البيئة التي ترسبت فيها الطبقات الفوسفاتية ببقية القارة الإفريقية (تونس، المغرب، السنيغال، الطوغو، ومملكة الداهومي القديمة أو البينين حاليا) في فترة الكريطاسي-الإيوسين. وهي تعكس مواصفات بيئية ومناخية قديمة متشابهة، ذلك أنها ترسّبت على أطراف القارة عند الرصيف القاري تحت أعماق من المياه البحرية الضعيفة نسبيا وفي ظروف مناخ حار.

2-الملامح الأساسيّة لجيولوجيا البلاد التونسيّة

من أهمّ خصائص جيولوجيا البلاد التونسية استمرارية الوحدات الجيولوجية الكبرى نفسها في فترات طويلة كما هو شأن ثلاث مناطق على الأقلّ وهي: الجرف التونسي بالشمال والمنطقة القارية بتونس الوسطى والمسطبة الصحراوية بالجنوب التونسي. ومثل هذه الوحدات الجيولوجية ذات امتداد شرق-غرب على المستوى المغاربي، وهو ما يجعل الالتواءات التي تحدّها ذات امتداد وتواصل زمني كبيرين. ويعتقد أن هذه الوحدات البنيوية ذات صلة بتركيبة القاعدة الصلبة لما تحت القشرة الرسوبية المكونة لمختلف هذه الوحدات. ولقد كان للتحركات التكتونية الأطلسية (الحقب الجيولوجي الثالث) دور مهمّ في توضيح ملامح المرحلة الحديثة التي تواصلت أصداؤها إلى مطلع الحقب الجيولوجي الرابع.

ساعد وجود العتبات الجيولوجية القديمة في شكل تحدبات أقلّ عمقا في بيئة بحرية ذات مياه عميقة (الأرصفة المرجانية البارمية بطباقة مدنين أو الجوراسية بالمحور شمال - جنوب) على تموضع بيئات ترسيبية تدرجية بين البيئة البحرية العميقة والمجال الترسبي القاري، وهو ما جعل الوحدات الترسيبية المميزة للبيئة البحرية العميقة (الجرف القاري) على مسافة ما من هذه المناطق القليلة العمق وساعد على خلق فروق واضحة في المجال الترسبي بين جانب وآخر من هذه العتبات البحرية.

المعروف أن الوحدات الترسيبية الجيولوجية تؤثر إلى حدّ ما في التحركات التكتونية التي تتسبب في رسم الخطوط الأساسية للبنية التكتونية. وفي هذا السياق تلوح الالتواءات الأطلسية ذات امتداد مغاير بالنسبة إلى الوحدات الترسيبية القديمة خاصة في الحقبتين الجيولوجيّتين الثانية والثالثة. فالالتواءات ذات

الامتداد شرق – غرب التي سيطرت طيلة الكريطاسي قد توقفت عند الكريطاسي الأعلى (الكمبانيان) لكي تشتغل من جديد في الحقبة الجيولوجية الثالثة العليا (الأوليقوسين (digocène))، ثم أخذت مع التحركات الأطلسية لمطلع الميوسين (miocène)، امتدادا مغايرا «ش غ–ش ش». وبذلك كانت البنية التكتونية النهائية للبلاد حصيلة هذين الصنفين الأساسين من الالتواءات التكتونية. وما التحركات والالتواءات الموضعية الخاصة ببعض المناطق إلاّ صدى لهذه التركيبة التكتونيّة.

يتضح من الالتواءات والفوالق الأساسية التي تميّز التركيبة الجيولوجية بالبلاد التونسية أن مجمل الحركات التكتونية التي شكلت البنية الحالية للتضاريس بالبلاد هي تصدّعات في مستوى الغشاء وليست نابعة من القاعدة. ذلك أن المرتفعات الأطلسية تؤكّد وجود تحرّكات انفصالية تؤدّي فيها الطبقات الترياسية دورا أساسيا نظرا إلى طبيعتها اللينة، كما أن هذه الطبقات الترياسية قد ساعدت كثيرا على حدوث الحركات الانزلاقية للكتل الصلبة (الطبقات الكلسية التي يأتي في مقدمتها الكلس اللّياسي). وهذه الحركات الانفصالية قد حدثت في الطبقات القاعدية وكذلك في الطبقات النهائية كما يتضح ذلك من تركيبة جبل نارة التي تنقصها الطبقات اللياسية المنزلقة فوق الترياسي العلوي الجبسي.

الحفريات المائية

خصائصها

الحفريات المائية هي ثقوب يحدثها الإنسان في الطبقات الأرضية لبلوغ مستوى المياه الجوفية والتوغل فيها قصد التمكّن من استخراج هذه المياه واستعمالها في مختلف الأغراض. وتختلف الحفريات المائية عن الأصناف الأخرى من الحفريات الخاصة بالنفط أو التعدين أو الجيوتقنية بأنها تهدف إلى التعرف على خصائص المياه الجوفية أو التمكن من استخراجها، لذلك يكون الحرص شديدا على حماية تلك المياه من التلوث وتهيئة البئر على النحو الملائم لذلك الاستغلال.

ومنذ مطلع الثمانينات توسع مجال الحفر المائي لكي يشمل أعماقا أكبر ومناطق استغلال غير تلك المتعاهدة في نطاق الطبقات المعروفة جيدا. وقد تزامن ذلك وتزايد التشجيعات على استغلال المياه الجوفية في مجال الإحياء الفلاحي وكذلك نتيجة السعي إلى توفير مياه الشرب للمناطق الريفية المعطشة. ولقد أبرز هذا الوضع الحاجة إلى تجاوز إمكانات وكالة التنقيب عن المياه باعتبارها الجهاز الإداري الذي كان يغطي الطلب، فكان التشجيع على بعث الشركات الخاصة نتيجة الطلب المتزايد على إحداث الحفريات المائية. ولقد أصبح قطاع التنقيب عن المياه على درجة جيدة من التنظيم المؤسساتي وتنوع التقنيات، تعمل فيه المؤسسة الحكومية (وكالة التنقيب عن المياه) على الاستجابة لحاجات الإدارة في مجال الاستكشاف وآبار المراقبة، وهو ما يساعد على التحكم في استقرار الأسعار ودعم التوجهات التقنية الجديدة، وتقوم فيه الشركات الخاصة بتغطية الطلب.

تطور تقنيات التنقيبات المائية

توازيا وتزايد عدد التنقيب المائي حدث تطور في تقنيات الحفر المستعملة وذلك بالمرور من «الحفر بالدق» إلى «الحفر الرحوي» ثم الحفر باستعمال «الرأس الدوّار».

– الحفر بالدق: استعمل للقيام بالحفريات المائية الأولى بالبلاد التونسية. إنّها طريقة تعمل على تفتيت الصخور بالدق وتستخرج فتات الحفر باستعمال مجارف شافطة، وهذه الطريقة اقتصادية فضلا عن كونها تمكن من الحفر بقطر يصل إلى المتر. وهي لا تتطلب الكثير من الماء للحفر ولكنها بطيئة ولا تمكن من التعمق أكثر من 200 متر. وتستعمل الحفارات التي تشتغل بالدق الكثير من الكوابل لتعليق الفأس وكذلك

المواسير الحديدية في الحفر. وهذه الطريقة هي التي كانت مستعملة في البلاد التونسية منذ نهاية القرن التاسع عشر واستمرّ العمل بها حتى أواسط الستينات من القرن 20. وكان من جملة الإشكالات الفنية المطروحة في مجال الحفر المائي كيفية تجاوز التباين بين الطبقات المخترقة ووضعيات التكهف والتحكم في الدفق النّابع بتوفير التغليف الداخلي المناسب للبئر. وكان قياس الدفق النابع والضغط الارتوازي من الجوانب الفنية التي أسهمت الخبرة التونسية في صياغتها صياغة عمليّة.

– الحفر الرحوي أو بالتدوير: وهو يحتاج إلى استعمال سائل للحفر يتركب في الغالب من الطين المخلوط بالماء، وذلك لإخراج فتات الحفر من قاع البئر إلى سطح الأرض. يجري العمل بتثبيت فأس الحفر إلى مجموعة من المواسير الجوفاء التي تضخ فيها سائل الحفر إلى قاع البئر ليسهم في تبريد الفأس وتفتيت الصخور، ويسند كذلك جدران البئر كي لا تنهار. ولقد أدخلت الكثير من التنويعات على هذه الطريقة خاصة باستعمال «الرأس الدوّار» للتمكن من التغلب على مشكلات الحفر في الطبقات المتماسكة ذات التكهفات مثل الطبقات الكلسية. وهي طريقة تمكن من الحفر إلى أعماق عدة آلاف من الأمتار بحسب طاقة الحفارة وتجهيزاتها التكميلية.

وساعد التطور الحاصل في مجال تقنيات الحفر على توسيع مجال الحفريات المائية إلى مختلف التركيبات الجيولوجية بالبلاد وبلوغ أعماق تقارب ثلاثة آلاف متر والتحكم في الطبقات النابعة ذات الضغط الارتوازي المرتفع.

ولقد تطوّرت أيضا عمليات إكساء البئر داخليا بالأنابيب الصفيحية والمصافي تطورا جذريّا إذ أنّ أغلب الحفريات التي لا يتجاوز عمقها المائيّ مترا كانت تحدث بقطر موحد إلى القاع وتغلف داخليا بمصفاة وأنابيب عازلة ذات قطر موحد من السطح إلى القاع. ومع تزايد عمق الآبار وتغير خصائص الطبقات المحفورة، اقتضت ملابسات الحفر تغليف البئر مرحليا لضمان تواصل الأشغال دون أن تنهار جدران البئر، وهو ما استوجب تغليف البئر بأنابيب ذات أقطار متغايرة تضيق مع مراحل الحفر. وكذلك شأن الطبقات النابعة التي تتطلب عزل الطبقات غير الحاملة للمياه بأنابيب عازلة وتثبيت المصفاة في مواجهة الطبقة المائية ولكن باستعمال قطر مختلف للأنابيب والمصفاة.

وفي حالة الآبار التي يتجاوز عمقها بضع مئات من الأمتار تبين ضرورة تثبيت المصفاة في مستوى العمق المطلوب وذلك باستعمال تقنية خاصة أسهم التطور التكنولوجي في مجال النفط في توفيرها، كما أن عمليات الكشف الكهربائي التي تجرى في البئر قبل تغليفها قد سمحت بالتعرف على نحو أفضل إلى خصائص الطبقات المحفورة وتبين الطبقات الأفضل للإنتاج. وهكذا أصبحت عمليات تهيئة البئر بوضع مستويات مختلفة من المصافي قبالة تلك الطبقات، تمكّن من التحكم في إنتاجية البئر على نحو أفضل.

تطوّر نسق الحفر المائي

مع تطور الحاجة إلى استغلال مياه الطبقات الجوفية اتضحت بالبلاد التونسية ثلاثة أصناف من الحفريات المائية هي:

– الحفريات الاستكشافية التي تمكّن من التعرف على الخصائص الهيدروجيولوجية للطبقات الجوفية،

– حفريات الاستغلال وهي التي تمكّن من تهيئة الآبار المحفورة لاستخراج المياه الجوفية سواء كانت نابعة أو مشتغلة بالضخ.

– حفريات المراقبة وهي ذات مواصفات خاصة تمكن من التعرف دوريا إلى خصائص الطبقات الجوفية: ولقد قطع الحفر المائي بالبلاد التونسية مراحل متعددة مرتبطة بتطور عدد الحفريات أو نوعيتها والنتائج التي توصلت إليها. ومن أهم هذه المراحل مرحلة

الاستكشاف الأولي في مطلع القرن 20 ثم مرحلة توسع مجالي الاستكشاف وتطور الاستغلال منذ منتصف السبعينات من القرن 20.

– مرحلة الاستكشاف الأولي (1885–1930) وهي المرحلة التي سعت إلى التعرف إلى خصائص أهم الطبقات الجوفية ووضعها في خدمة الاقتصاد لتوفير مياه الشرب أو مياه الري على حدّ السّواء. وقد وضع في مقدمة الأهداف الإستراتيجية لهذه المرحلة الاستكشافية توفير نقاط المياه بالمناطق التي تتمركز بها حاميات عسكرية، وخاصة بوسط البلاد وجنوبها، لدعم الري في المجال الفلاحي ولتمكين المعمرين من استغلال أفضل الأراضي الزراعية كما هو الشأن بمناطق الواحات بالجنوب التونسي (قبلي، توزر، قابس، مدنين) والوسط (صفاقس، القيروان، سبيطلة، القصرين) والشمال (الوطن القبلي، مرناق، بنزرت). ونظرا إلى أنّ تقنيات الحفر لم تكن متطورة بما فيه الكفاية فإن إحداث الحفريات المائية بقي في حدود الأعماق التي يمكن بلوغها بالحفارات المتوفرة، كما أن الطبقات المائية النابعة كانت تضع عدة إشكالات أثناء الحفر أو التغليف. وهو ما تطلب خبرة في التحكم فيها لتهيئة الآبار التي تبلغها للاستغلال.

وقد كان الانتقال في هذه المرحلة تدريجيّا من الحفر بالدقّ إلى الحفر بالتدوير، وهو ما مكن من تضييق قطر الآبار وبلوغ أعماق أكبر. ذلك أن الحفر بالدق لم يكن يمكّن من تجاوز 100 إلى 150م نظرا إلى أنّ استخراج فتات الحفر كان يمثل إشكالا تقنيا، كما أنّ التحكّم في الطبقات النابعة لم يكن ممكنا إلا عند المرور إلى الحفر الرحوي الذي يستعمل سائل الحفر لملء البئر أثناء الأشغال وقبل تغليفها. وهو ما يجعل ثقل السائل الطيني المستعمل يقاوم الطبقة المائية النابعة.

وفي أثناء هذه المرحلة أمكن التعرف على أهم الخصائص المائية للطبقات الجوفية الأساسية بالبلاد التونسية في المناطق التي لا يتطلب فيها الحفر أعماقا تتجاوز 500م واستُغلّت مياه أغلب هذه الطبقات. وفي هذه المرحلة حُسّنت طريقة تغليف الآبار المحدثة لغرض الاستغلال باختيار أفضل لأنابيب التغليف الداخلي. وهو ما مكّن من تحسين انتاجية هذه الآبار والتمديد في مدّة نشاطها.

وفي هذه الفترة التي تزيد على نصف قرن كان عدد الحفريات المنجزة لا يتجاوز 12٪ من جملة الحفريات المائية المحدثة إلى اليوم، كما أن الأمتار المحفورة لا تزيد على نسبة 9٪ مما أمكن حفره. وهذه النسبة المتواضعة راجعة إلى أنّ التقنيات المستعملة في الحفر والتغليف لم تكن متطورة بحيث تسمح بالتقدم السريع في الأشغال وفي بلوغ أعماق تتجاوز بضع مئات من الأمتار، بحيث اقتصر الحفر في الواقع على الطبقات متوسطة العمق التي لم تكن تشكّل كثيرا من الصعوبات التقنية عند الشروع في التغليف الداخلي للآبار. ولقد كان لهذه الفترة دورها الواضح في توفير مياه الشرب عن طريق الحفريات المائية لبعض المناطق العمرانية الكبرى التي لا يتوفر لها إمكان إحداث السدود التخزينية كما هو الشأن في تونس وصفاقس.

– مرحلة توسيع الاستكشاف وتطوير استغلال الطبقات الجوفية (منذ منتصف السبعينات): تعتبر هذه المرحلة غنية بالحفريات الاستكشافية إذ كانت من أهم مقومات الدراسات الهيدروجيولوجية التي مكنت من التعرف على نحو أفضل إلى خصائص الطبقات الجوفية بالبلاد التونسية وسهلت توسع مجال استغلال المياه الجوفية. ونظرا إلى ما حدث بالبلاد من تحولات اجتماعية واقتصادية وخاصة منذ الاستقلال تزايد الإقبال على إحداث الحفريات المائية. ولقد كان لاعتماد تقنية الحفر الرحوي بالبلاد التونسية بعد الحرب العالمية الثانية دور كبير في توسيع مجال الحفريات المائية لكي يبلغ العمق مئات الأمتار

وكذلك للتحكم في الطبقات التي تظهر الكثير من الصعوبات التقنية في حفرها (التكهف، ضياع سائل الحفر) أو في أثناء التغليف الداخلي للبئر (الآبار النابعة والمياه ذات الحرارة المرتفعة)، كما أن اعتماد منهجية التخطيط المرحلي لتنمية البلاد انعكس أيضا على قطاع إحداث الحفريات المائية بتزايد الحاجة إلى المياه الجوفية. ويظهر ذلك على وجه الخصوص في وسط البلاد وجنوبها حيث تركزت المخططات المديرية للتنمية الاقتصادية على تكثيف استغلال المياه الجوفية بما يفسر إلى حدّ ما تكثف الحفريات المائية منذ منتصف السبعينات وتزايد الأمتار المحفورة سنويا.

وفي هذه المرحلة كان لتعزيز الجانب المؤسساتي ببعث «وكالة التنقيب عن المياه» (1969) ثم التشجيع على بعث شركات الحفر الخاصة بداية من منتصف السبعينات، أثر بالغ في تطوير عدد الحفريات المنجزة وكذلك الزيادة في الكميات المائية المتوفرة. فعدد الحفريات ما انفكّ في تصاعد منذ السبعينات وكذلك الأمتار المحفورة. وتعتبر عشرية التسعينات متميزة في هذا النطاق إذ تزامنت هذه الفترة وإنجاز الخطة العشرية لتعبئة الموارد المائية (1991–2000) والتي قامت في مجال المياه الجوفية على المقومات التالية:

– إعطاء أهمية خاصة لحفريات الاستكشاف والمراقبة وكذلك ببرمجة إحداث 1150 حفرية استكشافية وحفرية مراقبة.

– تكثيف استغلال الطبقات الجوفية بإحداث 1100 حفرية استغلال وتعويض 500 حفرية استغلال متقادمة.

وقد أمكن تحقيق هذه البرمجة بنسبة متقدمة. وصاحب تكثيف إنجاز الحفريات المائية واستغلال الطبقات الجوفية العميقة الترفيع في عدد الشركات الخاصة العاملة في مجال الحفر وتجديد أسطول الحفارات للمصالح الحكومية وإكساب هذا القطاع الجانب التشريعي الذي يحفظ حقوق المتعاملين فيه.

وقد شهد قطاع الحفر المائي منذ مطلع الثمانينات توجّهين مهمّين على مستوى الحفريات المنجزة وهما:

– الحفر إلى أعماق تتجاوز 1000 متر لاستكشاف واستغلال طبقة «القاري الوسطي بجنوب البلاد» وهو ما مكن المناطق الواحية ومناطق أقصى الجنوب من موارد مائية إضافية أسهمت في توفير حاجات الريّ وتوسيع مجال الإمداد بمياه الشرب.

– الحفر في المناطق الريفية المحتاجة إلى توفير مياه الشرب للتجمعات السكنية الريفية بمناطق لا تتوفر فيها إلا خزانات مائية جوفية ثانوية الأهمية، ولذلك أمكن تغطية نسبة عالية من حاجات الريف من مياه الشرب.

أما على مستوى تقنيات الحفر فقد تطوّرت في الفترة الأخيرة تقنية الحفر في الطبقات الكلسية المتكهفة وذلك باستعمال طريقة «الرأس الدقاق» والاستغناء عن سائل الحفر أو تعويضه بالرغوة وهو ما مكّن من تجاوز الصعوبات التقنية لا سيّما ضياع سائل الحفر أو تكسر الأنابيب الحاملة للفأس.

الدور الاقتصادي للحفريات المائية

تعتبر الحفريات المائية أفضل طريقة للتعرف على الطبقات الجوفية وتعبئة مواردها المائية للاستغلال. ونظرا إلى وقوع البلاد التونسية في نطاق المنطقة الجافة وشبه الجافة وإلى أنّ الموارد المائية السطحية محدودة الأهمية أو غير مضمونة بالتواتر نفسه في مختلف الفصول والسنوات، فإن الالتجاء إلى المياه الجوفية من أهم مقومات الاستغلال وذلك ما يكيف إلى حد بعيد كلّ خطط التنمية. ونظرا إلى الطبيعة الجيولوجية للبلاد التونسية التي وفرت مخزونا جوفيا من المياه على أعماق مختلفة، فإن استغلال مياه الطبقات العميقة لا يمكن أن يتحقّق في أغلب الحالات إلا بالحفريات التي يمكنها أن تبلغ بضع مئات من الأمتار. وقد ساعد

تطور تقنيات على ضخ المياه الجوفية من أعماق بضع عشرات من الأمتار على تكثيف البنية الأساسية من الحفريات المائية وجعلها في الكثير من المناطق تسهم إلى حدّ بعيد في تكثيف استغلال الطبقات الجوفية.

فقبل بداية القرن العشرين كان استغلال الطبقات المائية العميقة يعتمد أساسا على الينابيع التي توفر كميات محدودة من تلك المياه. وقد ساعدت الحفريات المائية في مرحلة أولى على الزيادة في الكميات المستخرجة من هذه الطبقات بالطرق الارتوازية وبذلك أمكن توسيع مجال المناطق المروية والزيادة فيها بتوفير مناطق جديدة بعيدا عن مواقع الينابيع الطبيعية. وفي مرحلة تابعة لتناقص الدفق النابع أمكن الزيادة في الكميات المستخرجة بالضخّ وهو ما مكن أيضا من إحداث مناطق سقوية جديدة في مواقع لم تكن مهيأة لذلك من قبل.

ففي مجال توفير مياه الشرب تحسّن في العشريات الثلاث على نحو ملحوظ توفير المياه بالمناطق الحضرية والريفية، إذ تبلغ نسبة المياه المتأتية من الطبقات الجوفية بالحفريات حوالي 46٪، أما في مجال الري فإن هذه النسبة تبلغ حوالي 20٪.

لقد كانت الحفريات المائية من مقوّمات البنية الأساسية التي مكّنت البلاد من التطور الاقتصادي والعمراني نتيجة ما وفّرته من موارد مائية للشرب والصناعة والري الفلاحي. ونظرا إلى ما تتطلبه الاستكشافات المائية وبرامج الإحياء الفلاحي وشبكات المراقبة من إحداث لنقاط المياه أو تجديدها فإن آفاق هذا القطاع تتطلب تطوير التقنيات المستعملة وتكثيف عدد الحفريات. وإن ما عرفه هذا القطاع من تنظيم هيكلي (وضع كراس الشروط وتصنيف مؤسسات الحفر وضبط مواصفات ممارسة المهنة) يساعد على إكسابه مزيد النجاعة والفاعلية. كما أن تعايش المؤسسة الحكومية مع شركات الحفر الخاصة، يساعد على التحكم في استقرار الأسعار الجاري بها العمل والاستجابة للطلب في مختلف القطاعات.

الموارد المائيّة

تقع البلاد التونسيّة في بيئة مناخية شبه جافّة إذ يتدرّج مناخها من المتوسّطي الرطب إلى الصحراوي الجاف، مع تأثير واضح للبحر وللتضاريس في توزّع التساقطات. وتتميّز شبكة الأودية بكثافتها النسبيّة بالشمال والوسط وخاصّة في نطاق سلسلتي الأطلس ومناطق السباسب العليا، في حين تصبح أقلّ كثافة بالسّهول الساحلية وجنوبيّ الأطلس الصحراوي، كما تتّصف الأحواض التجميعية للمياه السطحيّة بالاتّساع على جانبي سلسلة الظهرية (أحواض مجردة وزرود ومرق الليل) وتصبح أصغر حجما بأقصى الشّمال رغم أن طاقتها التجميعية أكبر بهذه المنطقة نتيجة مواجهة الأمطار الأطلسية وضعف نفاذية التكشّفات الجيولوجية.

الموارد المائية السطحيّة

تتحدّد الموارد المائية السطحية في ما يسيل من مياه الأمطار في شبكة الأودية. وتنقسم إلى مياه الضحل (étiage) ومياه الفيضانات. وتتصف مياه الضحل عادة بنوعيتها المائية المتدنية نتيجة تجمعها من مياه الينابيع التي تصب في مجاري الأودية. أمّا مياه الفيضانات فهي متأتية من الأمطار وأحيانا من الثّلوج، لذلك فهي تتصف بنوعية مائية جيّدة. وتقوّم الموارد المائية السطحية على أساس معطيات محطات القيس والمراقبة التي تمكّن من حساب الوارد السنوي، كما أن خزّانات السّدود الكبرى والسّدود التّلية والبحيرات الجبلية تسمح بتقدير كميّات المياه المعبّأة بها والموارد القابلة للاستغلال. وتقدّر هذه الموارد بما قيمته 2700 مليون م3/سنة، تتوزّع بين مختلف الجهات الطبيعية للبلاد وخاصّةً بالشمال منها.

ونظراً إلى تذبذب الوارد السنوي من المياه

السطحية بين قيمة دنيا قدرها 780 مليون م3/سنتي (1993–1994) وقيمة قصوى قد تصل إلى 000 11 مليون م3/سنة (أمطار 1969)، فإن مجال التذبذب بين هاتين القيمتين قد يصل إلى 9 في الشمال في حين يبلغ 180 مرة في الجنوب. واعتبارا لهذه الوضعية فإن وارد أودية الشمال يمثل 81٪ من المجموع في حين أن وارد أودية الوسط يكون في حدود 11٪ ووارد أودية الجنوب 8٪.

أمّا على مستوى نوعية المياه فإنّ 72٪ من الموارد المائية السطحية لها ملوحة تقلّ عن 1،5 غ/ل منها 82٪ من مياه الشمال و48٪ من مياه الوسط و8٪ من مياه الجنوب.

الموارد المائية الجوفية

تتوزع الموارد المائية الجوفية بحسب البنية الجيولوجية على الطبقات الحاملة للمياه التي تنقسم، تبعا لتركيبتها الليثولوجية، إلى طبقات ذات نفاذية أولية من قبيل الرمل والحصى والحثّ وطبقات نضدية متماسكة ذات نفاذية ثانوية من قبيل الكلس والدلومايت. وهي طبقات قليلة العمق أو «عميقة».

– موارد الطبقات المائية القليلة العمق: قُوّمت موارد هذه الطبقات للمرّة الأولى سنة 1967 بما قدره 120 مليون م3/س. ثمّ لما روجع هذا التقييم سنة 1980، أصبحت هذه الموارد نتيجة تكثف الدراسات في حدود 489 مليون م3/س، وآخر التقويمات (1995) تغطي 720 مليون م3/س.

– موارد الطبقات المائية العميقة: تتميّز الموارد المائية العميقة بوجودها في الطبقات الكلسية بالشمال التونسي والحثّ الرّملي في أحواض الوسط والساحل. وهي تنقسم إلى موارد متجددة وأخرى غير متجددة. أمّا في جنوب البلاد فهذه الموارد توجد في أحواض رسوبية متعددة الطباق، وتتراوح أعماق خزاناتها بين 100 و600 متر. وبعضها وخاصة في الجنوب الغربي للبلاد يوجد في أعماق قد تفوق أحيانا الألف متر (طبقتي القاري الوسطى والمركب النهائي).

وقد قدرت الموارد المائية القابلة للاستغلال من الطبقات العميقة بالبلاد التونسية في آخر تقويم لها سنة 1995، بحوالي 1240 مليون م3/سنة.

إنّ تلك الموارد الكائنة في الطبقات الجوفية القليلة العمق تعتبر متجدّدة، وتجددها إمّا سنوي أو يمتدّ علي عدّة سنوات بحسب المخزون الجيولوجي الّذي وراءها، وهي تتأثر بالتغذية المتأتية من مياه الأمطار. أمّا الموارد الجوفية غير المتجدّدة فهي توجد في الطبقات العميقة وترتبط نسبة تجدد هذه الموارد بمدى تكشّف خزّاناتها وقابليتها للتغذية. وتقدّر نسبة الموارد غير المتجددة في حدود 25٪ من مجمل المياه الجوفية وبحوالي 40٪ من موارد الطبقات العميقة. وتوجد هذه الموارد غير المتجددة في الطّباق العميقة للخزّانات الرسوبية المتعدّدة الطباق والكائنة بأغلب سهول الجنوب (الطبقات المائية الصحراوية) والوسط التونسي (صفاقس والقيروان وسيدي بوزيد).

أمّا فيما يخصّ نوعية المياه الجوفية فإنّ 16٪ منها ذات ملوحة تقلّ عن 1،5 غ/ل في حين تتراوح ملوحة 75٪ منها بين 1،5 و3،0 غ/ل. وترتفع نسبة المياه المالحة وشبه المالحة في الطبقات القليلة العمق أكثر منها في الطبقات العميقة وذلك نتيجة تكثّف الاستغلال وتسرّب المياه المالحة إليها من السباخ والبحر.

تعبئة الموارد المائية

– المياه السّطحيّة

تعبّأ المياه السّطحية عن طريق منشآت التخزين السّطحي. وترتبط كفاية التعبئة بقدرة هذه المنشآت على التحكّم في مياه السيول. فالسدود التخزينية، إضافة إلى دورها في تخزين المياه السّطحية، تتحكّم في سرعة مياه الفيضانات للحدّ من تأثيرها التدميري، محولة جزءا من المياه الزائدة عن طاقتها التخزينية القصوى إلى المناطق السفلى عن طريق المصرف. ومن ناحية أخرى فإنّ الكميّات

المجمعة وراء السّدود التخزينية غير قابلة بتمامها للاستغلال نظرا إلى عدّة اعتبارات، من بينها «فاقد البخر» و«السمك الميت» و«فواقد الطمي» و«الاحتياطي الأدنى». وتمكّن البنية المائية الماثلة في السدود الكبرى والسدود التّلية والبحيرات الجبلية من تعبئة 1825 مليون م3/سنة من جملة موارد قابلة للتعبئة مقدّرة في حدود 2100 مليون م3/سنة.

فالسدود الكبرى بلغ عددها، في سنة 2001، 22 سدّا تخزينيّا، وتبلغ طاقة تعبئتها 1715 مليون م3/سنة وهو ما يقدّر بـ80٪ من جملة الموارد القابلة للتعبئة.

ويبلغ عدد السّدود التلّية المنجزة حاليا 70 سدّا بطاقة تعبئة قدرها 85 مليون م3/سنة. ومن المؤمّل الانتهاء من أشغال 203 سدّا حبليا آخر خلال العشرية 1991–2000 وذلك بطاقة تعبئة قدرها 110 مليون م3/س.

وتبلغ طاقة تعبئة البحيرات الجبلية ما قدره 50 مليون م3/سنة. ومن المزمع في نطاق خطّة تنمية الموارد المائية إنجاز 1000 بحيرة جبلية. وقد أنجزت إلى موفّى 1997، 543 بحيرة جبلية بطاقة تعبئة قدرها 37 مليون م3/س.

المياه الجوفيّة

ترتبط تعبئة المياه الجوفية بقدرة التجهيزات المتوفرة من آبار وتنقيبات وعيون وينابيع على إعطاء كميّات معيّنة من المياه وفق دفق نوعي خاص بكلّ صنف منها وكذلك بقدرة تجهيزات الضخ أو التصريف (مصاف، أنابيب، عتبات مائية على توفير كميّات مائيّة معيّنة مهيّأة للاستغلال). ويبلغ الاستغلال الحالي للمياه الجوفية بالبلاد التونسية ما قدره 1920 مليون م3/سنة، وهو يتوزع على الطبقات القليلة العمق بما قدره 750 مليون م3/سنة والطبقات العميقة 1005 مليون م3/سنة وهو ما يقابل 79٪ من الموارد المتوفرة.

ولقد تطوّر استغلال هذه الطبقات تطورا مشهودا خلال العشرية الأخيرة بحيث تضاعف بين 1985 و1995. ويتحقّق هذا الاستغلال عن طريق 000 150 بئر سطحية منها ما يقارب 000 70 بئر مجهزة بمحرك كهربائي أو حراري. وقد نتج عن تكثف استغلال هذه الطبقات ظهور استغلال جائر بالكثير من هذه الطبقات المائية كما هو الشأن في ولايات سيدي بوزيد وبنزرت والكاف وصفاقس ومدنين. وللموارد المائية القليلة العمق أهمية خاصة في الشّمال التّونسي حيث تبلغ نسبة هذه الموارد بهذه المنطقة 55٪ من جملة موارد هذه الطبقات المائية في حين أن عدد الآبار بها لا يتعدّى نسبة 46٪ وتبلغ نسبة الآبار المجهزة بمحركات 61٪. أما في الوسط التونسي فإن موارد الطبقات القليلة العمق هي في حدود 30٪ من جملة موارد هذه الطبقات وتبلغ نسبة الاستغلال 32٪ من جملة الاستغلال العام لهذه الطبقات وتكون نسبة الآبار السطحية بالوسط التونسي في حدود 40٪ من العدد الجملي للآبار في حين أن نسبة الآبار المجهزة هي 56٪.

أمّا الجنوب التّونسي فلا يشتمل إلاّ على 15٪ من جملة الموارد المائية للطبقات القليلة العمق و12٪ من جملة الآبار المجهزة في حين أنّ استغلالها في حدود 13٪ من جملة استغلال هذه الطبقات. ونظرا إلى تكثف استغلال بعض هذه الطبقات إلى حد الاستنزاف فإن ظهور مشكلات مرتبطة بتدني النّوعية المائية بها قد استوجب وضع تشريعات لحماية هذه المناطق، وكذلك تعويض الكثير من هذه الآبار وإحداث أخرى في مناطق لا تشكو تكثف الاستغلال وتزايد الملوحة. ويبلغ معدّل الآبار المنجزة سنويا لمجموع ولايات الجمهورية ما قدره 2000 بئر في حين أنّ معدّل الآبار الإضافية المجهزة يصل إلى حدود 3000 بئر أخرى.

ويقدّر تطوّر استغلال الطبقات العميقة سنويا بـ5٪ بحيث بلغ هذا الاستغلال سنة 2000 الموارد القابلة للاستغلال. ويبلغ عدد الآبار العميقة التي تستغلّ الطبقات المائية الجوفية 2750 تنقيبا

يستخرج بواسطتها 1005 مليون م3/سنة، منها حوالي 562 مليون م3/سنة بالضخ، والبقية عن طريق الارتوازية. ولتعبئة بقية موارد الطبقات الجوفية التي لم تستغلّ بعد (235 مليون م3/سنة)، أنجزت في نطاق خطّة تنمية الموارد المائية (1991–2000)، 500 حفرية تعويضية بعمق جملي قدره 48174 متر و610 حفرية استغلال بعمق جملي قدره 59194 متر.

الطّبقات المائية

تتميّز البلاد التونسية بتقلّبات مناخية متواصلة نتج عنها عدم الانتظام في توزّع الأمطار. ونظرا إلى وجودها في المنطقة الجافة وشبه الجافة فإن الكميّات المسجلّة سنويّا تنقص من الشمال إلى الجنوب ومن الساحل إلى داخل البلاد. ويبلغ المعدّل السنوي الأقصى للأمطار أكثر من 1500 مم بأقصى الشمال الغربي للبلاد في حين أن المعدّل الأدنى لا يتعدى 50 مم بأقصى المناطق الجنوبية الصحراوية.

يقدّر المعدّل السنوي من الهاطل المطري على البلاد التونسية بـ 34 مليار م3/س وتمكّن هذه الكميّات في نصيب كبير منها من الاستجابة لحاجات الفلاحة البعلية إضافة إلى ما يسيل في شكل جريان دائم في شبكة الأودية وما يتسرّب إلى باطن الأرض لتغذية الطبقات الجوفية. ويؤلّف مخزون الطبقات الجوفية من المياه جزءا مهمّا من الموارد المائية التي تستجيب لحاجات مختلف القطاعات، لذلك فهي موضوع دراسات ومتابعة للتعرف إلى خصائصها وضبط ملابسات استغلالها.

1– الخصائص الأساسيّة للطبقات المائيّة التونسيّة

تخضع الطبقات المائية الجوفية بالبلاد التونسية للبنية الجيولوجية للمناطق التي توجد بها، إذ أن المياه الجوفية كائنة في الطبقات الجيولوجيّة القريبة من سطح الأرض وهي في أغلبها رسوبيّة التّكوين. وهو ما يجعلها ملائمة جدا لاحتواء هذه المياه. وتنقسم هذه الطبقات بحسب تركيبتها الليثولوجية إلى طبقات حبيبية ذات نفاذية أولية من قبيل الرمل والحصى والحث، وطبقات نضدية متماسكة ذات نفاذية ثانوية من قبيل الكلس والدلومايت.

وتنقسم الطبقات المائية بالبلاد التونسية إلى «طبقات ضحلة» وأخرى «عميقة» منها ما هو سائب سريع يجدد الموارد ومنها ما هو حبيس ذو طاقة ارتوازية عالية أحيانا وذو موارد غير متجددة يغلب عليها المخزون الجيولوجي.

2– تقويم الموارد المائيّة الجوفيّة

تقوم الموارد المائيّة الجوفيّة على أساس ما يتجمّع من معطيات خاصة بالتركيبة الجيولوجية للطبقات الكائنة تحت سطح الأرض وخصائصها من حيث ناقليتها للمياه وتفاعلاتها معها. وتتأتى هذه المعطيات أساسا من الدراسات الاستكشافية (المسوح الجيوفيزيائية والحفريات المائية) ومتابعة خصائص نقاط المياه المستغلة للمياه الجوفية (ينابيع، آبار، تنقيبات). ويخضع تقويم الموارد المائية الجوفية إلى مراجعة دورية كلّ خمس سنوات. وقد أنجز التقويم الأوّل للمواد الجوفية بالبلاد التونسية سنة 1967 ثم أصبحت مراجعته دورية منذ سنة 1980.

*** الطبقات المائيّة الضحلة أو قليلة العمق**

لقد قوّمت الموارد المائية للطبقات الجوفية القليلة العمق للمرّة الأولى سنة 1967 بما قدره 120 مليون م3/س. ثمّ لمّا روجع هذا التقويم سنة 1980، أصبحت هذه الموارد نتيجة تكثّف الدراسات في حدود 489 مليون م3/س، وآخر التقييمات (1995) تعطي 719 مليون م3/س.

ومن ناحية أخرى قد تطوّر استغلال هذه الطبقات منذ مطلع الثمانينات بحيث تضاعف بين 1980 و1990. ويجري هذا الاستغلال عن طريق 000 110 بئر سطحية منها ما يقارب 000 70 بئرمجهزة بمحرك كهربائي أو حراري. وقد نتج عن تكثّف استغلال هذه الطبقات استغلال

جائر بالكثير من هذه الطبقات المائية كما هو الشأن في ولايات سيدي بوزيد وبنزرت والكاف وصفاقس ومدنين. وللموارد المائية القليلة العمق أهمية خاصة في الشمال التونسي حيث تبلغ نسبة هذه الموارد بهذه المنطقة 55٪ من جملة موارد هذه الطبقات المائية في حين أنّ عدد الآبار بها يمثل نسبة 46٪. وتبلغ نسبة الآبار المجهزة بمحركات 61٪ أمّا بالوسط التونسي فإنّ موارد الطبقات قليلة العمق في حدود 30٪ من جملة موارد هذه الطبقات. وتبلغ نسبة الاستغلال 32٪ من جملة الاستغلال العام لهذه الطبقات وتكون نسبة الآبار السطحية بالوسط التونسي في حدود 40٪ من العدد الجملي للآبار في حين أنّ نسبة الآبار المجهزة هي 56٪. أمّا الجنوب التونسي فلا يشتمل إلا على 15٪ من جملة الموارد المائية للطبقات القليلة العمق و12٪ من جملة الآبار المجهزة في حين أن استغلالها يبقى في حدود 13٪ من جملة استغلال هذه الطبقات.

*** الطبقات المائيّة العميقة**

تتوزع موارد الطبقات المائية العميقة إلى موارد متجددة وأخرى غير متجددة، وتقع هذه الموارد في أعماق تتراوح في معظمها بين 100 و600 متر. ويوجد بعضها، وخاصة في الجنوب الغربي للبلاد، في أعماق قد تفوق أحيانا الألف متر. (طبقة القاري الوسط والمركب النهائي).

وتقدّر الموارد المائية القابلة للاستغلال من الطبقات العميقة بالبلاد التونسية بحوالي 1240 مليون م3/س.

أما الاستغلال الحالي للطبقات المائية العميقة فهو 1115 مليون م3/س وهو ما يقابل 90٪ من الموارد المتوفرة وتنقسم موارد الطبقات المائية العميقة واستغلالها على مختلف مناطق البلاد على النحو التالي:

يتطوّر استغلال الطبقات العميقة سنويا ب5٪ بحيث بلغ هذا الاستغلال في سنة 2010 الحد الأقصى للموارد القابلة للاستغلال. واعتباراً لنوعية الموارد المتوفرة في الطبقات الجوفية العميقة فإنّ حوالي 600 مليون م3/س من هذه الموارد غير متجددة و571 مليون م3/س منها يتم تجدد مخزونها عن طريق مياه الأمطار.

ويبلغ عدد الآبار العميقة التي تستغل الطبقات المائية الجوفية حوالي 2600 بئر يستخرج بواسطتها 1115 مليون م3/س. ولقد تضاعف عدد التنقيبات المحدثة خلال العشرية الأخيرة إذ تم إنجاز 820 بئر استكشافية حوّل منها إلى مجال الاستغلال 537 بئر. كما أحدثت 580 بئر استغلال لتعويض الآبار المتقادمة وإيجاد مناطق استغلال جديدة. ويبلغ العمق الجملي للتنقيبات المحدثة 574367 مترا. وقد مكنت هذه الآبار من تعبئة ما يقارب 800 مليون م3/س قابلة للاستغلال.

3- انعكاسات تعبئة الموارد المائية

أمّا تعبئة الموارد المائية فهي عملية تحويل المياه من الوسط الطبيعي إلى وسط مغاير قد تستعمل فيه هذه الموارد مباشرة أو بعد تخزينها. وعملية التعبئة هذه قد تتسبب في تغيير النوعية الطبيعية لهذه المياه كما أنه في أثناء عمليتي التحويل والتخزين يمكن أن تتغير النوعية الطبيعية للموارد المائية. ويكون هذا التغيير في تبدل المواصفات التالية:

- حرارة المياه: يتضح ذلك بوجه خاص في تعبئة مياه الطبقات الجوفية العميقة عندما تستخرج بالتنقيبات فإنّ حرارتها تنقص عمّا كانت عليه داخل الطبقة المائية.

- حموضة المياه والغازات الذائبة فيها: يتضح ذلك خصوصا في حالة المياه السطحية المخزنة في البحيرات الطبيعية أو الاصطناعية (السدود والبحيرات الجبلية) وذلك من تعرضها إلى التبخر والتكاثر البيولوجي للكائنات المجهرية (eutrophisation) وتزايد أو تناقص كمية الغاز الكربوني والأوكسجين بها.

- الأملاح الذائبة: تزايد الأملاح الذائبة في المياه المعبأة يخضع لطول فترة التخزين

وللعوامل الخارجية المناخية كالتبخر أو التحلية ولحركة هذه المياه داخل الخزان المؤقت الذي تجمع فيه قبل الاستعمال كما يخضع للتفاعل مع وسط التعبئة وظروف الاستعمال.

وفي جميع الحالات يجب أن يُقرأ لعملية التعبئة حسابها من جهة التأثير في نوعية المياه وهي في مصدرها الطبيعي بعد استخراج أو تحويل كمية منها وكذلك في المياه المعبأة في أثناء التخزين الوقتي في انتظار استعمالها أو عند تحويلها إلى مجال الاستعمال. ولهذا التأثير أهمية خاصة حين تكون المياه صالحة للشرب وكذلك المياه المستعملة في الصناعات الغذائية أو الصناعات الكيميائية التي تتطلب شروطا خاصة لحموضة المياه ودرجة حرارتها وكمية الأملاح الذائبة بها.

أ) تدهور نوعيّة المياه الجوفية

ينعكس تدهور نوعية المياه على مياه الشرب والري والاستعمالات الصناعية. وأمّا انعكاس تدهور المصدر المائي فيظهر في شكل تزايد الملوحة بمختلف مناطق الطبقة المائية نتيجة الإفراط في الاستغلال.

مياه الشرب

يؤثر تدهور نوعية مياه الشرب المتأتية من الطبقات الجوفية في كمية المياه المستعملة لتزويد التجمعات السكنية أو لشرب قطعان الماشية وكذلك في المنشآت التي تستعمل في تعبئتها ونقلها واستغلالها.

مياه الريّ

يؤدّي تدهور نوعية مياه الري الجوفي إلى تسبيخ التربة والحد من إنتاجية الأرض كما يظهر أيضا في مستوى الطبقة المائية في شكل تزايد للملوحة وكذلك في مستوى تجهيزات التعبئة والاستعمال من مواسير ومضخات وقنوات.

مياه الصناعة

يظهر تدهور نوعية المياه الجوفيّة على وجه الخصوص في المجالات الصّناعية التي تتطلب نوعية جيدة من المياه الخالية من الأملاح وذات الخصائص الفيزيائية والكيميائية المتوازنة، كما هو شأن الصّناعات الكيميائية والغذائية وصناعة الأدوية وبعض المعادن والخزف...

الانعكاسات على المصدر المائي:

يتضح انعكاس التدهور لنوعية المياه الجوفية على المصدر المائي الذي هو الطبقة المائية في شكل تغيير خصائص مياهها وعلى وجه الخصوص تركيبتها الكيميائية. ويبقى مظهر التسرب الملحي من البحر أو من المنخفضات المغلقة مثل السباخ والشطوط المالحة من أهم مظاهر هذا التدهور.

فتدهور نوعية المياه الجوفية ظاهرة تزداد استفحالا نتيجة تكثيف تعبئة الموارد المائية واستغلالها ولذلك فإن البلدان الواقعة في المناطق الجافة وشبه الجافة التي تعاني من محدودية الموارد وتدني نوعيتها الطبيعية بسبب التأثير المناخيّ كما هو شأن البلاد التونسية – مضطرة إلى مواجهة مشكلات تدهور نوعية مياهها كلما كانت تعبئة هذه الموارد أشمل والاستعمال مكثفا ومجحفا في حق الخزانات الجوفية.

ب) إجراءات حماية المياه الجوفيّة

للحد من تدهور نوعية المياه ومجابهة الانعكاسات التي تنجر عنه، يلتجأ إلى بعض الإجراءات الوقائية خاصة مراقبة إلقاء الفواضل والمياه المستعملة في مجاري الأودية وكذلك مراقبة تكثيف إحداث الآبار كي لا ينجر عنها استنزاف الموارد الجوفية، كما يلتجأ إلى الإجراءات العلاجية المتمثلة في قرارات تشريعية غايتها تنظيم ظروف الاستغلال للمصادر المائية والقيام بأشغال تقنية تهدف إلى تكثيف تغذية الطبقات الجوفية بالمياه السطحية والاستفادة منها في تحسين مخزون هذه الطبقات ونوعية مياهها.

ج) القرارات التشريعيّة

إنّ القرارات التشريعية الخاصّة بحماية الموارد المائية هي الأوامر القانونية التي تضبط حدود

الملك العمومي المائي من مسطحات مائية ومجاري أودية وطبقات مائية جوفية ونقاط مياه عمومية وكذلك حدود «مناطق الحماية» التي تصنّف بمقتضاها بعض الطبقات المائية «مناطق صيانة» أو «مناطق تحجير».

د) الإجراءات العلاجية

إنّ الإجراءات العلاجية لحماية نوعية المياه الجوفية هي صنفان من العمليات تهدف إمّا إلى الاقتصار على الحدّ من تدهور هذه النوعية أو إلى العمل على تحسينها.

4- آفاق تطوّر موارد الطبقات المائية

تؤلّف المياه الجوفية الرصيد الإستراتيجي من الموارد المائية نظرا إلى صمودها أمام توالي السنوات الجفاف وصعوبة التسبب في تلويثها في آجال قصيرة على نطاق واسع. وتبقى عملية تعبئتها وتكثيف استغلالها المؤشر الرئيس لما يمكن أن ينالها من تدهور نوعي أو تراجع للكميات القابلة للاستغلال. واعتبارا لصنفي الطبقات المائية الجوفية بالبلاد التونسية (الطبقات القليلة العمق والطبقات العميقة) فإنّ نسبة 37٪ من هذه الموارد المائية غير متجددة والنسبة نفسها تقريبا من الموارد المتجددة الكائنة في الطبقات القليلة العمق القابلة جدا للتلوث نتيجة تكثيف الاستغلال واجتياح المياه المالحة، كما أنّ درجة التعبئة المتقدمة لموارد الطبقات المائية القليلة العمق تجعلها في حاجة متزايدة لعمليات إحكام الإدارة والصيانة من التلوث، في حين أن مياه الطبقات الجوفية العميقة التي تسهم بقرابة النصف من حاجات مياه الشرب، هي حاليا بصدد تزايد التعبئة وهو ما يجعلها في القريب العاجل في وضع استغلال أقصى.

واعتمادا على ما بلغته معرفة التركيبة الجيولوجية للبلاد التونسية من دقة بفضل التنقيبات والمسوح الجيوفيزيائية والجيولوجية لا ينتظر أن تكتشف موارد مائية جوفية جديدة بنسبة تغير التقويمات الحالية لمخزون هذه الطبقات، لذلك لا ينتظر أن تتطور هذه التقويمات بأكثر من 10٪ في السنوات القادمة، وسيكون هذا التغيير بالأساس في مستوى الطبقات العميقة.

يتطور الطلب على المياه الجوفية سنويا بنسبة 5٪ من الموارد المعروفة في مستوى الطبقات العميقة، في حين يقارب هذا الطلب الاستقرار بالنسبة إلى الطبقات القليلة العمق وذلك نتيجة تزايد الملوحة بالكثير من المواقع.

وتعدّ الإجراءات المتخذة حاليا لإحكام إدارة موارد الطبقات الجوفية ومتابعة تطورها خير ضمان لحماية هذا المورد الإستراتيجي من التدهور، ولكنّ ذلك لا يمكّن من الاستجابة لحاجات الطلب المتزايد في مختلف قطاعات مياه الشرب والصناعة والري. وفي هذا الصدد فإن تكثيف عمليات التغذية الصناعية للطبقات الجوفية هو الحل الأمثل لتنمية الموارد والمحافظة عليها من التدهور.

الأودية

1- الخصائص الطبيعية لشبكة الأودية

تتّصف شبكة الأودية في البلاد التونسية بالتنوع والتكامل، وهي غالبا ما تعكس الكثير من مراحل التطور بين المجرى المائي المستحدث والوادي الذي قد بدأ يحفر من جديد مجراه وسط ترسبات مدارج (terrasses) سابقة، كما أن الطبقات الجيولوجية للحقب الماضية تعكس بالبلاد التونسية وجود الكثير من الفترات التي كان فيها للترسبات النهرية دور مهمّ في تموضع عدّة طبقات قد تعكس أحيانا، من جهتي سمكها ومجال امتدادها، أهمية الجريان السطحي وغلبة المناخ الرطب على هذه المناطق.

وتتوزع شبكة المجاري المائية بالبلاد التونسية على المناطق الطبيعية التالية:

* **أودية الشمال التونسي**: تتركز شبكة

الأودية بالشمال التونسي حول مجرى وادي مجردة وروافده ضمن حوض يمتدّ على مساحة 23700 كلم2 منها 16100 كم2 بالبلاد التونسية وكذلك حوض إشكل وأودية أقصى الشمال (1950كم2) بمناطق نفزة وطبرقة إضافة إلى أودية الشمال الشرقي والوطن القبلي (7400 كم2).

– **حوض وادي مجردة**: يمتاز حوض وادي مجردة بطول المجرى الرئيس (484 كم) وكذلك باتساع الحوض (23700 كم2 منها 16100 كم2 بالبلاد التونسية والبقية بالجزائر). وشبكة الأودية بهذا الحوض تستقطب أهم السدود المحدثة بالبلاد (سيدي سالم، بوهرثمة، كساب، بني مطير، ملاق...). ويقدر معدل كمية المياه التي تجمعها شبكة أودية هذا الحوض سنويا بما يقارب 1 مليار م3. وتمكن التهيئة المائية المتوفرة حاليا في أودية هذا الحوض من التحكم في حوالي 80٪ من وارده السنوي.

– **حوض إشكل**: تعدّ بحيرة إشكل المتصلة ببحيرة بنزرت المنفس الطبيعي لشبكة الأودية الواقعة في أقصى الشمال التونسي (جومين، الطين، غزالة، سجنان، دويميس، مرازيق...). وذات الاتجاه الشرقي. وتبلغ مساحة هذا الحوض حوالي 2200 كم2 ويبلغ واردها السنوي حوالي 300 مليون م3. وعلى هذا الحوض تتركز مجموعة من أهم السدود التونسية (جومين، سجنان، الطين...).

– **حوض نفزة وطبرقة**: تبلغ مساحة هذا الحوض حوالي 1950 كم2. ومن أهم الأودية التي تشقه وادي الكبير (260 كم2) وواد زوارع (900 كم2) الذي يتفرع إلى أودية المالح ومعدن وبليف. ويقدر الوارد السنوي لهذا الحوض بحوالي 260 مليون م3.

– **حوض الشمال الشرقي**: ويغطي هذا الحوض مساحة 7400 كم2. ومن أهم أجزائه حوض وادي مليان وأودية الوطن القبلي (العبيد، شيبة، مصري، بزيرغ، الرمل، الخيرات). وقد أقيمت سدود على الكثير من هذه الأودية (سدّي الكبير ومشارقة على مليان وسدود شيبة وبزيرغ والرمل ومصري والعبيد)، ولكنها في أغلبها ذات سعة متوسطة في حدود بضع ملايين من الأمتار المكعبة.

* **أودية الوسط التونسي**: تتأثر أودية الوسط التونسي في تضاريسها ونظام جريانها بوجود سلسلة الظهرية وكذلك بالتدرج من منطقة السباسب العليا إلى السهل الساحلي. وهي تشتمل على عدد مهمّ من السباخ التي تنتهي إليها (الكلبية، سيدي الهاني، الشريطة، بوجمل...). ونتيجة للتدرج الطبوغرافي فإن أغلب هذه الأودية لا تكون لها أهمية تذكر إلا في المناطق الداخلية حيث لانحدار المجرى أهمية بالغة في تحديد ملامح المجرى وتعميقه. أما على امتداد السهل الساحلي فإنّ أغلب الأودية ذات أهمية ثانوية في الجريان الطبيعي. وهنا تزداد أهمية السباخ باعتبارها المنافس الطبيعية للأودية وللمياه الجوفية. ويمكن أن نتبين في الوسط التونسي الأحواض المائية السطحية التالية:

– **حوض سبخة الكلبية**: وهو أهم الأحواض المائية السطحية بهذه المنطقة (14400 كم2) وتتخلله أودية زرود (9100 كم2) ومرق الليل (1620 كم2) ونبهانة (3230 كم2). ويقدر الوارد السنوي لحوض سبخة الكلبية من مياه الأمطار بما يعادل 150 مليون م3.

– **ساحل سوسة وصفاقس**: تمتد هذه المنطقة على حوالي 14000 كم2 وهي في شكل سهول قليلة التضاريس وشبكة الأودية بها ضعيفة لا يتجاوز واردها السنوي 70 مليون م3. وغالبا ما يكون المجرى المائي غير عميق أو غير واضح الملامح. وتتركز أهم الأودية بهذه المنطقة شمالي سوسة (لاية، حمدون، الشريطة) وقرب صفاقس (سيدي صالح، الشفّار، ودران).

* **أودية الجنوب التونسي**: يتأثّر توزع أودية الجنوب التونسي بوجود سلسلة جبال قفصة ومرتفعات الظاهر ووجود الشريط الساحلي والمنخفضات الطبيعية المغلقة التي تتجسّد في الشطوط (الفجيج والجريد والغرسة) كما أن لوجود كثبان الرمال الصحراوية بالعرق الشرقي دورا في الحد من الامتداد لمجاري أودية السفح الغربي لجبال الظاهر وأقصى الجنوب التونسي. وتتوزع هذه الأودية على أحواض المناطق الطبيعية التالية:

– **حوض منطقة الشطوط**: يمتدّ على مساحة 20.000 كم2. ومن أهم الأودية بيّاش الذي ينتهي إلى شط الغرسة ويمتد حوضه إلى الشمال من قفصة (وادي سيدي يعيش والكبير) وبقية أودية هذه المنطقة متأثرة بوجود مرتفعات سلسلة جبال قفصة–المتلوي (الخنقة، الثالجة) وجبال الشارب والسقي وطباقة، ومن أبرزها أودية السقي والنخلة والأصنام وهي أودية ذات مجرى طولي محدود الامتداد لكن بانحدار شديد قبل الانفتاح في سهول السقي والشارب والبحاير.

– **حوض سهل الجفارة** (6700 كم2) يجمع كل الأودية المنتهية إلى البحر في خليج قابس والمنحدرة في أغلبها من هضاب مطماطة (جير، بني زلطن، زقزاو، الزاس، أم التمر) والظاهر وكذلك الأودية الداخلية المنحدرة من الظاهر التي تنتهي في السهول الداخلية للواعرة والحمادة (دكوك، فسي). وتمتاز هذه الأودية بشدة الانحدار وسرعة الجريان عقب سقوط الأمطار وانفتاحها على السهل الساحلي.

– **حوض السفح الغربي للظاهر** (15000 كم2) ويمتدّ على أقصى الجنوب التونسي وكل أوديته تنتهي إلى شط الجريد (الحلوف، زمرتن) أو إلى حدود كثبان رمال العرق الشرقي (الطويلة، القصيرة، النخلة، تيارت). وهي في أغلبها أودية كانت ذات نظام جريان أكثف في الفترات المطيرة السابقة قبل بضع آلاف من السنين. واليوم ونظرا إلى جفاف المناخ فإنّ جريانها الحالي لا يحدث على نطاق واسع إلا في مناسبات معدودة كلّ عشر سنوات أو أكثر.

وقد ورثت شبكة الأودية بالبلاد التونسية نتائج تغيرات المناخ في مراحل الحقبة الجيولوجية الرباعية. وفيما عدا أودية أقصى الجنوب التونسي التي تعتبر شبه ثابتة في تضاريسها وامتدادها فإنّ بقية الشبكة في مراحل تطور متوالية، ويظهر ذلك على وجه الخصوص في أثناء الأمطار الفيضانية التي تحدث بتواتر يفوق في الغالب عشرين سنة.

2– نظام جريان الأودية

يرتبط نظام جريان الأودية بنظام الأمطار والطبيعة الليثولوجية للطبقات السطحية حيث مجاري الأودية والتضاريس المكونة لها، كما يرتبط بتعقد هذه الشبكة وتفرعاتها في نطاق الحوض المائي الواحد. ويتعرّف إلى خصائص الجريان السطحي لأودية البلاد التونسية عن طريق شبكة لقياس الأمطار وأخرى لقياس الجريان تختلف كثافتها من منطقة إلى أخرى بحسب أهمية المنطقة والحاجة إلى المعطيات المتعلقة بعوامل الجريان السطحي. ونظرا إلى تباين توزع تساقط الأمطار بين مختلف مناطق البلاد فإن الجريان السطحي بها يتغير من منطقة إلى أخرى، وهو ما يفسّر إلى حد ما تغير كثافة السدود وشبكة القيس.

– نظام الأمطار

يتأثر جريان الأودية بنظام الأمطار من حيث الموقع والشدة والتوزع على مختلف مناطق الحوض المائي. فالأمطار المسجلة عند عالية الحوض يمكن أن تتسبب بحسب كمياتها وامتداد فترات تساقطها وشدتها في جريان سطحي يمتد إلى مناطق أخرى واقعة أسفلها وقد تحدث فيضانات بتلك المناطق التي لا تنزل فيها الكمية نفسها من الأمطار. وكلما كانت العاصفة المطرية أفضل توزيعا وتجانسا على الحوض المائي، كان إمكان حدوث فيضانات عليه أكبر.

ولقد أثارت دراسة الأمطار بالبلاد التونسية اهتماما متزايدا مع تكاثر المعلومات المجمعة على شبكة القيس المتابعة نظرا إلى ما في تغيراتها من تأثير في البنية الأساسية، والاقتصاد. وقد اتضح أن أهم ظاهرتين مناخيتين بالبلاد التونسية هما الجفاف الذي قد يتواصل سنتين أو أكثر والأمطار الفيضانية التي تتصف بتواتر محدود مرة كلّ عشرين سنة أو أكثر. وغالبا ما يكون للأمطار ذات الصبغة الفيضانية تأثير بالغ في جريان الأودية وتضاريسها. وتعتبر الفيضانات التي حدثت في سنوات 1969 و1979 و1990 من أهم الظواهر المطرية التي أثرت في تضاريس شبكة الأودية التونسية وغيرت ملامحها.

ولقد عرفت شبكة القياس لكميات الأمطار بالبلاد التونسية تطورا مطردا منذ تركيز محطاتها الأولى سنة 1873 بحيث بلغ عدد محطات قيس الأمطار 1157 محطة وهو ما يعدّ كثافة في حدود محطة لكلّ 130 كم2. وعن طريق هذه الشبكة أمكن تقسيم البلاد إلى سبع مناطق طبيعية أساسية ممثلة في أهم الأحواض المائية. وهذه الأحواض تنقسم إلى 43 حوضا مائيا فرعيا تقوم بها التجهيزات الضرورية لقياس كمية الأمطار وشدتها. وقد أمكن بفضل المعلومات المجمعة من محطات هذه الشبكة، وضع خرائط لتساوي التساقط المطري على كامل البلاد أو في نطاق حوض مائي بعينه. كما استعملت هذه القياسات في ضبط مواصفات التجهيزات المائية من سدود وسدود تلّية وبحيرات جبلية.

ونظرا إلى أن الجريان السطحي في شبكة الأودية ينتج أساسا عن حسن توزع الأمطار بالحوض وشدتها النوعية، فغالبا ما يعتبر «معامل التوزيع» وكذلك اتجاه العاصفة المطرية في حدوث الجريان بالشبكة الهيدروغرافية. فالأمطار التي تبدأ بسافلة الحوض في اتجاه أعلاه تكون أقلّ تأثيرا في الكمية المنسكبة من الحوض. أما الأمطار التي تمتد من الأعلى إلى سافلة الحوض وتتراكم عند السيلان، فإنّه ينتج عنها انسكاب مهمّ، خاصة إذا كانت تكشفات الصخور طينية وانحدار التضاريس كبيرا. وهذه العوامل المساعدة على الترفيع من كفاية الانسكاب أكثر توفرا في أودية الشمال التونسي منه بالمناطق الطبيعية الأخرى، وذلك لارتفاع نسبة الكميات المتساقطة وغلبة التكشفات الطينية أو الكلسية ذات النفاذية المحدودة وتوفر التضاريس التي تساعد على سرعة الانحدار.

– طبيعة الصخور وانحدار الحوض المائي

تزداد قيمة الجريان السطحي وكميته عند توفر صخور طفلية أو كتيمة على السطح وكلما كان انحدار التضاريس أكبر، إذ أنّ مثل هذا الوضع يوفّر مجالا أفضل للجريان السطحي ولتجميع النصيب الأكبر من الأمطار في شبكة مجاري الأودية، كما أن كمية الجريان السطحي تقل كلما تكثف الغشاء النباتي وكثر الاستخدام الفلاحيّ للتربة إذ أن ما يحدث بها من أشغال سطحية من شأنه أن يساعد على تقوية التسرب الباطني أو الحدّ من الجريان السطحي بالتنقيص من سرعة الجريان. وفي هذا النطاق يكون لشكل الحوض المائي أهمية خاصة إذ أنّ الأحواض الممتدّة في اتجاه تضاريس المجرى المائي تكون ذات كفاية تجميعية أعلى وسرعة استجابة للجريان أكبر من الأحواض ذات الامتداد العرضي.

أما التباين في الارتفاع بين مختلف أجزاء الحوض المائي وغلبة الانحدار في المجرى المائي فمن شأنهما أن يزيدا في كفايته التجميعية وسرعة استجابة الشبكة المائية به لتأثير الأمطار بالجريان السريع وتجميع أكبر قدر من الأمطار المتساقطة.

– خصائص الجريان بالأودية التونسية

يتأثر جريان الأودية بالبلاد التونسية بعدة عوامل موضعية، ولكن ذلك لا ينفي وجود مواصفات خاصة بكل منطقة طبيعية. وفي جميع هذه المناطق تظلّ الصفة الغالبة هي

التذبذب من فصل إلى آخر ومن سنة إلى أخرى. ويبلغ هذا التفاوت في الكميات الواردة عند توالي سنة جفاف مع أخرى مطيرة وعند الاقتراب من وسط البلاد أو جنوبها.

وتمتاز أودية أقصى الشمال التونسي بوقوعها في مناطق تغلب عليها الطبيعة الكتيمة للتكشفات السطحية وتباين التضاريس بحيث يتوفر بها في أغلب فصول السنة جريان وقتي يعقب فترات نزول الأمطار وتتواصل بها وضعية ترشيح المجرى عقب الأمطار عدة أيام وأحيانا فترات أطول. لذلك فهي من أفضل مناطق البلاد لتوفير كميات أكبر من الجريان السطحي في شبكة الأودية. وتبدو أودية الشمال التونسي عادة أكثر تأثرا بتوالي سنوات الجفاف سواء بالنسبة إلى واردها السنوي أو الفصلي أو للدفق الأدنى في فترات جريانه الضحل.

أمّا أودية وسط البلاد فإن تناقص كميات التساقط وغلبة طبيعة الصخور الكلسية والرملية عليها يجعلان الجريان السطحي بها مرتبطا بفترات حدوث العواصف والزخات المطرية، ولا تتواصل عملية ترشيح المجرى إلا في فترات محدودة بعد حدوث الأمطار. ونظرا إلى اتساع الأحواض المائية بهذه المنطقة فإن الجريان السطحي بها لا يتأثر فقط بالأمطار المتساقطة على المنطقة بل قد يحدث نتيجة وقوع الأمطار بعالية الحوض.

أما أودية الجنوب فهي قليلة الجريان ولا يتواصل ذلك بها إلاّ فترات قصيرة عقب نزول الأمطار ويكون الترشيح بها عادة ضعيفا ومقتصرا على الجزء القريب من المجرى الأدنى للوادي. وتكون الحملات فجئية في الغالب وأحيانا على درجة كبيرة من العنف، ويبلغ الوارد عدة أضعاف جريان الضحل، أما فترة الترشيح فلا تتجاوز بضع ساعات عقب الفيضان.

ويعتمد في قياس كميات الجريان السطحي بالبلاد التونسية على شبكة متكونة من 52 محطة أساسية للقيس قائمة على مجاري أهمّ الأودية، وهو ما يعطي كثافة وسطية في حدود محطة لكل 3000 كم2 تتراوح فترات تشغيلها بين 15 و80 سنة. وتتركز كثافة هذه الشبكة أساسا في مناطق أقصى الشمال وأحواض مجردة والشمال الشرقي والوسط حيث توجد أهم المنشآت المائية للتحكم في المياه السطحية. وبفضل القياسات الميدانية التي تعدّ بهذه المحطات أمكن ضبط خصائص الجريان السطحي بالأودية التونسية من فترات تجميع الجريان وترشيح وكفاية تجميع وكميات واردة ودفق أقصى. واعتمادا على هذه المعطيات أمكن التوصل إلى وضع معادلات رياضية خاصّة بمختلف أحواض البلاد لتقدير الجريان السطحي والدفق الأقصى الناتج عنه بحسب كمية الأمطار المتساقطة وشدتها وفترات تواصل سقوطها. وتعطي هذه المعادلات الميدانية مؤشرات إقليمية (paramètres régionaux) لتقدير الجريان السطحي السنوي وهو ما ساعد إلى حدّ بعيد على ضبط مقومات التهيئة المائية السطحية لمختلف الأودية بمناطق البلاد، وتدقيق تقويم الوارد السنوي من المياه بها وكذلك تواتر تغيرات الوارد السنوي بحسب ما يعرفه تغير التساقط المطري بمختلف المناطق الطبيعية.

3- تقويم الموارد المائية السطحية

تتحدّد الموارد المائية السطحية في ما يسيل من مياه الأمطار في شبكة الأودية وهي تنقسم إلى مياه الضحل ومياه الفيضانات. وتتصف مياه الضحل عادة بنوعيتها المائية المتدنية نتيجة تجمعها من مياه الينابيع التي تصب في مجاري الأودية. أما مياه الفيضانات فهي متأتية من الأمطار وأحيانا من الثلوج، لذلك فهي تتصف بنوعية مائية جيدة. وتقوّم الموارد المائية السطحية على أساس معطيات محطات القيس والمراقبة التي تسجّل على مجاري الأودية في أثناء فترات الضحل أو الحملات، وكذلك تقوّم الكميات المائية الواردة إلى خزانات السدود الكبرى والسدود التلية والبحيرات الجبلية.

ويعتمد تقويم الموارد المائية السطحية المتاحة على معرفة تصاريف الأودية والأنهار وضبط موازناتها العامة في الدورة الطبيعية، وهو ما يتطلب ضبط علاقات التغيرات الموسمية والسنوية وعلى المدى الأبعد لكميات الجريان ونوعيته ودرجة ارتباطه بأشغال التهيئة. وعلى هذا الأساس فإنّ عمليات قيس المتغيرات للوحدات الهيدرولوجية تمكن من وضع معادلات التغير بحسب الخصائص الطبيعية لكل حوض مائي وكثافة شبكة المجاري الطبيعية به ونظام الأمطار المتساقطة عليه.

ويميّز بين وارد الضحل ووارد فترة حملات الأودية لما يصاحب كلّ صنف منها من خصائص في الجريان السطحي وكذلك في نوعية المياه وما يصحبه من حمولة صلبة تتسبب في ترسبات في الخزانات السطحية. وتتأتى أغلب الموارد المائية السطحية من وارد فترات حملات الأودية.

وتعتبر مياه الضحل رغم كميتها المحدودة نسبيا (415 مليون م3/سنة) ذات تأثير واضح في نوعية المياه السطحية، وهي متوفرة خاصة في أودية الشمال والوسط، وتتركز أساسا في أودية حوض مجردة وتتأثر كثيرا بتذبذب الأمطار سواء في كمياتها أو نوعيتها. أما مياه الفيضانات، فتتركز بنسبة 80٪ بأودية الشمال وهي ذات نوعية شبه ثابتة.

السدود

1- مفاهيم عامّة

السدود منشآت يقيمها الإنسان على المجاري المائية للتحكم في جريان المياه إما بالتخزين أو بترفيع المنسوب أو بالحد من سرعة التدفق. والسدود بوجه عام تمكن من التحكم في الدفق خاصة في فترات الجفاف أو عند حدوث الفيضانات، وبذلك يمكن حماية المنشآت الاقتصادية والتجمعات السكنية الواقعة سافلة السد من خطر الفيضانات، وكذلك تأمين تزويد تلك المناطق بالمياه. وعن طريق البحيرات المائية المتجمعة وراء السدود، يمكن إقامة الكثير من مناشط صيد الأسماك والتسلية. وغالبا ما يستجيب السد الواحد للكثير من هذه الوظائف.

2- تطوّر تقنيات السدود بالبلاد التونسية وإنجازها

تراعى عند إقامة السدود المعطيات الهيدرولوجية والطبغرافية والجيولوجية للموضع. وحديثا أصبح يقرأ حساب للزلازل في التقنيات المعتمدة نظرا إلى الكميات المائية الكبيرة التي أصبحت تخزن وراء السدود. فأي خلل ينتج عنه تسرب للمياه من جسم السدّ من شأنه أن يهدد المناطق الواقعة أسفل هذا الموقع بخطر الفيضانات. ويؤخذ في اعتبار تقنيات إقامة السدود أن تكون قادرة على مقاومة كلّ الضغط المسلط عليها بما في ذلك ثقل جسم السد نفسه وثقل المياه وراءه وكذلك القوى الداخلية. ولقد أصبح ارتفاع السد من العوامل التي يتحكم فيها بحسب مقتضيات الموقع الطبيعي والمواد الطبيعية المستعملة في إقامة جسم السدّ، وهو ما يمكن إلى حدّ ما من تنويع استعمالات السد بما في ذلك إنتاج الطاقة الكهربائية باستحداث مساقط ملائمة.

وقد أصبحت السدود مجهّزة بمنشآت تكميلية داخل جسم السد بما في ذلك مصرف الفيضانات والدهاليز الداخلية التي تنطلق منها قنوات تؤمن الإمداد بالمياه وكذلك منافذ تصريف الطمي. ونظرا إلى طبيعة المناخ بالبلاد التونسية وغلبة الجفاف على أغلب المناطق الواقعة جنوب سلسلة الظهرية التونسية فإن السدود الممكن إحداثها بمختلف المناطق هي التالية:

– السدود التخزينيّة: وهي السدود التي تكون وراءها مسطحات مائية يمكن التصرف فيها سواء بفتح المغالق أو بالضخ. وفي هذا الصنف تندرج السدود الكبرى والسدود التلية والبحيرات الجبلية. وهي وإن كانت تجمع مياه

السيلان فإنّها ذات طاقة تخزينية محدودة لا تمكن من التحكم في كميات مياه السيول كلها التي تنتهي إليها وخاصة في السنوات المطيرة. لذلك كانت هذه المنشآت مجهزة بمصارف لتصريف الكمية الزائدة عن الطاقة التخزينية للسد إلى المناطق الواقعة سافلته. وهذا الصنف من السدود هو المعهود أكثر من غيره نظرا إلى ما يوفره من تحكم في المياه السطحية سواء بالتخزين أو بالتحويل عن طريق القنوات أو المجاري المكشوفة إلى مناطق أخرى، ونظرا إلى ما يوفره من طاقة كهربائية مائية.

– السدود التحويلية: هي السدود التي تقام على المجاري الطبيعية والقنوات المائية المفتوحة لتحويل جريان المياه السطحية إلى مناطق جانبية ذات منسوب قد يكون أعلى من المنسوب الطبيعي الذي تنتهي إليه.

– السدود التعويقيّة: هي حواجز ترابية أو صخرية أو إسمنتية تقام على المجاري الطبيعية للأودية للحد من سرعة جريان المياه بها وتمكين نصيب منها من التسرب إلى باطن الأرض سواء للزيادة في رطوبة المنطقة غير المشبعة أو لتغذية الطبقة الجوفية.

ويقتصر في تعريف السدود عادة على الصنف التخزيني منها وتصنف في نطاقه السدود التالية:

– السدود الخرسانيّة: وتعرف في نطاق هذا الصنف أنواع ثلاثة هي:

– سدود الثقل: وهي منشآت خرسانية عريضة القاعدة وحادة القمة مستقيمة الامتداد أو ذات تجويف خفيف. ويكون الوجه العلوي منها قائما في استواء. ويعتمد في جعل هذا الصنف من السدود مقاوما للضغط على الثقل الذي يتصف به جسم السد وهو ما يمنعه من الانزلاق إلى السافلة أو الانهيار. ويمتاز هذا النوع من السدود بالتركيز الجيد وكذلك بمحدودية عمليات الصيانة. واعتبارا للثقل الذي يكون لهذا الصنف من السدود فإن ارتفاعه يتناسب ونوعية الأساس الذي يركز عليه. فسدود الثقل التي يتجاوز ارتفاعها 20 مترا تركز على أساس صخري ثابت، ولا يكفي في هذه الحالة توفر طبقة من الركاميات تحت الأساس.

– سدود التقويس: يُقوّس جسم السد في اتجاه مجرى التيار. وهو ما يسمح بتوزيع ثقل الماء على كامل امتداد السد وخاصة على الجانبين عندما يكون المجرى ضيقا وعميقا. وزيادة على التقويس العرضي غالبا ما يكون هناك تقويس مع ارتفاع جسم السد.

– السدود ذات الدعائم: يتكون هذا الصنف من السدود من طبقة عازلة مركزة على دعائم متناسقة الاتساع. ويكون الوجه العلوي للسد جدارا أو مسطبة يطلق عليها اسم «القناع العلوي». وهو مستوى يعمل على تحمل ثقل الماء ويدعم الجدار بمجموعة من الركائز الخلفية أعرض قاعدة تسند الوجه العلوي. وغالبا ما تكون الطبقة العازلة ذات ميل واضح نحو السافلة لزيادة تركيز قاعدة السد بالأساس الذي ترتكز عليه، وبذلك يعمل ثقل الماء على الزيادة في ثقل جسم السد.

– السدود الركامية: تنتمي إلى صنف سدود الثقل التي لا تدخل الخرسانة في تركيبتها لتأمين الالتحام الجانبي وتوفير الطلبية العازلة. وهي أفضل السدود لامتصاص الارتجاجات الزلزالية، وكثيرا ما تدخل في تركيبتها عدّة موادّ ترابية. ومنها:

– السدود الترابيّة: يتكون جسم السد عادة من جسم ترابي مرصوص، وتدخل في تركيبتها المواد الركامية المتوفّرة من تراب وحجارة وصخور. وبحسب تنوع هذه المواد وتجانسها يختلف شكل جسم السد، ويعتمد أساسا في رص هذه المواد لضمان توفير الطبقة العازلة، وذلك ما لم يكن متوفرا قبل تصنيع الجرارات الثقيلة. وبذلك أمكن التخفيض من تكلفة هذه السدود مقارنة بسدود الثقل.

– السدود الصخرّية: تتكون هذه السدود من صخور ويمكن أن تشتمل على نواة كتيمة من

الطفل كائنة بين طبقتين للتدعيم، إحداهما من الوجه الأمامي والأخرى من الوجه الخلفي متكونان من مواد أكثر نفاذية كالرمل أو الحصى. وقد يغطى الوجه الأمامي بطبقة كتيمة مكونة من مواد عازلة كالزفت متلائمة مع حركة ارتصاص السد، كما يمكن أن تعمق النواة الكتيمة تحت مستوى أساس السد وذلك للتقليل من التسربات الجوفية.

3- الوضع الراهن للسدود بالبلاد التونسية

ترجع إقامة أول سد حديث بالبلاد التونسية إلى الفترة 1922-25 وهو سد وادي الكبير على واد مليان عند سفوح جبل برقو من ولاية سليانة. وفيما بعد أقيمت السدود التخزينية الكبرى وأهمّها في الشمال: سدّ سيدي سالم (762م3) وسدّ بوهرثمة (109م3) وسدّ جومين (124م3) وسدّ سجنان (113م3)، وفي الوسط: سدّ سيدي سعد (131م3) وسدّ نبهانة (66م3) وسدّ سيدي عيش (88م3)، وفي الوطن القبلي : سدّ لبنى (25م3).

4- دور السدود في تنمية الموارد المائية

تعرف الموارد المائية بكونها الكميات المائية القابلة للتعبئة والاستعمال في ظروف معينة بحسب النوعية المرغوب فيها. والموارد من المياه السطحية هي جملة المياه العذبة التي تسيل على سطح الأرض في الشبكة الهيدروغرافية والمسطحات المائية المتصلة بها من سدود وبحيرات طبيعية أو اصطناعية. أمّا الموارد المتاحة ضمن هذا الصنف من المياه فهي جملة المياه المتوفرة طبيعيا. وفي نطاق المناطق الجافة وشبه الجافة يصعب تعبئة كلّ المتاح من المياه السطحية نظرا إلى اختلاف نظام الجريان الطبيعي بين فترات الضحل وفترات الفيضان. وبذلك يكون نصيب من الموارد المتاحة السطحية غير قابل للتعبئة إذ يصعب التحكم في كامل مياه الجريان السطحي بالتهيئة المائية الملائمة (التخزين أو التحويل أو إعاقة الجريان). ومن ثمّة فإن ذلك الجزء من المياه السطحية ينتهي دائما إلى المنافس الطبيعية مثل البحر والسباخ.

وهكذا فإن الموارد المائية السطحية القابلة للتعبئة ستظلّ محدّدة بطاقة استيعاب المنشآت المخصّصة لها.

ويرتبط مفهوم الموارد المائية السطحية القابلة للاستغلال بكفاية تجهيزات الاستغلال وتكاليف تشغيلها وصيانتها. ففي مجال السدود التخزينية مثلا تكون لهذه التجهيزات زيادة على وظيفتها التخزينية وظيفة أخرى هي التحكم في الفيضاناتٍ للحد من تأثيرها التدميري. لذلك تُحول جزءاً من المياه الزائدة عن طاقتها التخزينية القصوى إلى المناطق السفلى عن طريق المصرف. ثم إنّ الكميات المجمعة وراء السدود التخزينية غير قابلة للاستغلال بتمامها نظرا إلى عدة اعتبارات، منها «فاقد البخر» و«السمك الميت» و«فواقد الطمي» و«الاحتياطي الأدنى».

ونظرا إلى مختلف هذه الاعتبارات المتعلقة بالتعبئة والاستغلال فإن تقييمات الموارد تقدر عادة كميات الموارد المتاحة النظرية، وهو ما يتوفر من كميات مائية عند المصدر المائي. أما الموارد المتاحة الحقيقية فهي الموارد المتاحة النظرية بعد خصم الفواقد منها، مثل التبخر والنضح والصرف السطحي، بحيث لا يبقى في نطاق الموارد القابلة للاستغلال إلاّ المتجدد أو المخزون من الموارد المعبأة والقابلة للاستغلال. وفي مجال المياه السطحية يكون الاحتياطي المتجدد مقابلا لجملة الوارد السنوي الذي قد يتغير في نطاق المناطق الجافة وشبه الجافة من الواحد إلى عدة أضعاف. وأما الاحتياطي غير المتجدد فلا يكون عادة إلا في حالة السدود التخزينية (أو البحيرات ذات المياه العذبة) ذات الطاقة التخزينية الكبيرة. وتقل هذه الطاقة كلما زادت كميات الطمي أو تباعدت الفترات المطيرة.

تتحدّد الموارد المائية السطحية في ما

يسيل من مياه الأمطار في شبكة الأودية. وهي تنقسم إلى مياه الضحل ومياه الفيضانات. وتتصف مياه الضحل عادة بنوعيتها المائية المتدنية نتيجة تجمعها من مياه الينابيع التي تصب في مجاري الأودية. أما مياه الفيضانات فهي متأتية من الأمطار ومختلف أصناف التساقطات (الثلوج والبرد وغيرهما) لذلك تتصف بنوعية مائية جيدة. وتقسّم الموارد المائية السطحية على أساس معطيات محطات القيس والمراقبة التي تشمل مختلف أودية البلاد بحيث يراقب الوارد السنوي بها. ثمّ إن خزانات السدود الكبرى والسدود التلية والبحيرات الجبلية تسمح بتقويم الموارد المعبأة بها وكذلك الموارد القابلة للاستغلال.

وتقدر الكميات المائية الواردة على شبكة الأودية التونسية من الأمطار بحوالي 2120 مليون م3/سنة تنقسم على الأحواض التالية:

– حوض مجردة: 1000 مليون م3/سنة.

– أحواض الشمال الغربي (جندوبة وباجة): 550 مليون م3/سنة.

– أحواض إشكل وبنزرت: 360 مليون م3/سنة

– أحواض الوطن القبلي: 210 مليون م3/سنة.

ويخضع هذا الوارد السنوي لتذبذب كبير نتيجة عدم انتظام الأمطار في كمياتها ومواعيد تساقطها. فقد بلغ النقص في الموارد في فترة الجفاف 1987–90 ما قدره 55٪ بحوض مجردة. ولتفادي وضعيات النقص في عرض الموارد المائية السطحية، يستوجب الأمر تكثيف البنية الأساسية للسدود التخزينية وخاصة بمنطقة الشمال التي تستقطب 80٪ من الكميات القابلة للاستغلال.

وتعتبر الكميات المائية المتوفرة بشبكة الأودية التونسية في فترات الضحل محدودة إذ لا تتجاوز 405 مليون م3/سنة (أي 15٪) وهي أساسا متوفرة بأودية الشمال التونسي (350 مليون م3/سنة أي 88٪).

وتعتبر السدود من مقوّمات التهيئة المائية بالبلاد. وعلى أساسها تقوم الخطة الوطنية لتعبئة الموارد المائية، وذلك لدورها في تعديل تأثير الجفاف الذي قد يجتاح البلاد أو بعض المناطق لسنوات متتالية، وفي حماية البنية الأساسية والمناطق العمرانية من خطر الفيضانات ومن انجراف التربة الفلاحية إضافة إلى ما توفره من إمكانية التخزين الظرفي ونقل المياه من منطقة إلى أخرى (قناة مياه الشمال إلى الوطن القبلي أو قناة مياه الوسط من نبهانة إلى ساحل سوسة).

وبربط السدود الكبرى فيما بينها بقنوات تحويل أصبح من الممكن التحكم في التخزين وتعديل نوعية المياه عن طريق المزج. وأصبحت إدارة الموارد المائية لمختلف الاستعمالات أكثر طواعية، كما أن النسيج المتوفر من شبكة السدود التلية والبحيرات الجبلية قد سمح بالحد من تأثير الأمطار على انجراف التربة وتوفير موارد محلية يمكن استعمالها في تغذية الطبقات المائية والتخزين الجوفي.

نظرا إلى ما يتصف به مناخ البلاد التونسية من تغيّرات موسمية وتذبذب في كميات الأمطار المتساقطة من فصل إلى آخر ومن سنة إلى أخرى فإن إقامة السدود لتخزين المياه وتعويق جريانها في أثناء الحملات وفرشها على الأراضي الزراعية في السهول يعتبر من مقومات التهيئة المائية المتكاملة التي تمكّن من الاستفادة من كلّ الموارد المائية المتوفرة. ولقد كان للسدود المائية في مختلف مراحل تاريخ البلاد دور في توفير حاجات التجمعات السكنية الكبرى من المياه ومستلزمات الري. واليوم تبدو البلاد أحوج ما يكون إلى مثل هذه التهيئة المائية في فترة تتسم بضرورة تلبية حاجات الطلب المتصاعدة نظرا إلى مقتضيات التنمية المتكاملة. ومع بداية القرن الحادي والعشرين

أستوفت البلاد إقامة أهمّ مشروعات السدود الكبرى التي تمكّن من التخزين السطحي بعد أن دخلت في مرحلة إقامة السدود المتوسطة والصغيرة ذات السعة التخزينية المحدودة. لذلك فإن نسق الدراسات الخاصة بهذا الصنف من التهيئة المائية يتطلب معلومات أدق حول خصائص الجريان للأحواض المائية الصغرى وتدقيق المواقع التي تقام فيها هذه السدود. وهو ما سيزيد في تكلفة هذه المنشآت مقارنة بما توفره من موارد، كما أن التذبذب الموسمي للأمطار وإمكاني إصابة الجفاف المتواصل بعض مناطق البلاد أكثر من موسم من شأنهما أن يجعلا تغيرات ملوحة المياه المخزونة وراء السدود أكثر تأثيرا في نوعية الموارد المتوفرة. لذا يتعيّن الربط بين شبكة السدود المقامة لتعديل الملوحة خاصة بالنسبة إلى الموارد المعدة لتوفير مياه الشرب.

ونظراً إلى ما تشكوه البلاد من محدودية الغطاء النباتي، فإن انجراف التربة يبقى من أهم المشكلات التي تتسبّب في تقليص فترة نشاط السدود وتتطلب المعالجة في شكل تهيئة تحمي جوانب الأودية ومنحدراتها من الانجراف. ولقد عملت البرامج الوطنية الخاصة بحماية المياه وأديم الأرض على الاستفادة بمزيد من الفاعلية من مياه الأمطار وتنويع منشآت التحكم في المياه السطحية، ولكن تكلفة الموارد المائية المجمعة بهذه الأشغال تبقى مرتفعة، كما أن الصيانة المتواصلة لمثل هذه المنشآت تجعل منها عبءا اقتصاديا ملازما لطبيعة التهيئة المعتمدة.

حقول النّفط

1- الخصائص

تمتاز البلاد التونسية من جهة تاريخها الجيولوجي بوجودها على حافة القارة الإفريقية وهو ما ساعد كثيرا على توفّر الطبقات الرسوبيّة بها بسمك يبلغ في بعض المواقع (الشمال والجرف القاري) بضع الآلاف من الأمتار. وقد أسهمت التغيرات المناخية القديمة في تنويع هذه الطبقات بين ترسبات بحرية المنشإ وطبقات قارية ترسبت على اليابسة كما أسهمت الفترات التي تميز مناخها بارتفاع الحرارة وكثرة الأمطار في توفير غشاء نباتي غابي كثيف تحوّلت بقاياه إلى ترسبات غنية بالمواد العضوية، ساعدت وضعيات الترسيب على تحويلها إلى مواد أولية للمشتقّات النفطيّة. وقد عملت الحركات التكتونية بعد ذلك على تطوير التركيبة الجيولوجية لهذه الطبقات بالالتواءات والتصدعات لكي تصبح مكامن نفطية سواء الواقع منها على اليابسة أو تلك الكائنة على امتداد الجرف القاري.

ولقد كان لفهم التطور الجيولوجي بالبلاد التونسية دور كبير في توجيه سياسة الاستكشاف النفطي وتعديل المناهج المعتمدة، إذ على أساس تحليل التركيبة الجيولوجية والعوامل الأساسية العاملة فيها يمكن فهم التطور الحاصل والتركيبة الناتجة ومن ثمّة مدى تلاؤمها مع إمكان توفر المكامن النفطية. فالاستكشاف النفطي بالبلاد التونسية قد مرّ بمراحل تكيّف تقنيات هذا الاستكشاف وتطوّرها وتوسع مجالاته، واتّضاح الفرضيّات المعتمدة لتفسير التطوّر الجيولوجي للمناطق القاريّة والبحريّة المتّصلة بالحوض الغربي للبحر المتوسّط.

2- الاستكشاف النفطي في البلاد التونسيّة

يرجع الاهتمام بالحقول النفطية بالبلاد التونسية إلى مطلع الثلاثينات من القرن العشرين فقد شرع في الاستكشاف النفطي بالبلاد التونسية منذ سنة 1932 وذلك بحفر البئر النفطيّة الأولى بالسلوقية وقد كانت نتائجها دون المؤمّل. ولكن العثور على المؤشّرات الأولية لوجود الغاز الطبيعي بالبلاد التونسية لم يتحقّق إلاّ سنة 1949 وذلك بعد حفر بئر جبل سيدي عبد الرحمان بالوطن القبلي. ولم يستغلّ هذا الغاز في حينه لعدم توفّر الجدوى الاقتصادية. وفي كلّ الفترة الممتدّة بين 1932

و1951، قامت شركة التنقيب واستغلال النفط التونسية بوضع سياسة للاستكشاف البترولي ترتكز على المسح الجيولوجي للتكشفات السطحية، كما قامت بالكثير من المسوح الجيوفيزيائية للطّبقات الجوفية وتوفير بنك معلومات يعتمد على نتائج المسوح الجيولوجية والتنقيبات النفطية في أهم المناطق التي تستجيب تركيبتها الجيولوجية لوجود مكامن نفطية. ولقد كانت هذه المؤسّسة من أهمّ الشركات العاملة في مجال التنقيب النفطي وأصبح موضوع الاستكشاف النفطي محور اهتمام متزايد نظرا إلى موقع تونس الجغرافي المتميّز وإمكان ربطها بحريّا بأوروبا.

ورغم العثور على بعض المؤشّرات الأوّلية لوجود النفط بالكثير من المواقع، فإنّ الشروع في استغلالها على نحو تجريبي لم يتحقّق إلاّ سنة 1964 عندما اكتشف حقل البرمة بأقصى الجنوب التونسي. وذلك ما جعل موضوع النفط يأخذ أبعادا مغايرة في النظرة إلى الاقتصاد التونسي. وتزامن ذلك والشروع في تصدير النفط الجزائري عن طريق الأنبوب الذي يشقّ الصحراء الجزائريّة إلى ميناء الصخيرة حيث يُشحن بحريا، وساعد هذا الوضع على ربط حقل البرمة بالأنبوب الصحراوي.

تواصلت الاستكشافات النفطية بالبلاد التونسية على اليابسة بالكثير من المواقع بالوسط وأقصى الجنوب، وكان لتطور تقنيات الحفر في البحر دوره في توسيع مجال الاستكشاف النفطي إلى الرصيف القاري بخليج قابس وأُحدث أوّل بئر (قابس1) بهذه المنطقة سنة 1967.

وعرف الاستكشاف النفطي في تونس تصاعدا مطّردا في عدد آبار الاستكشاف المحفورة سنويا بحيث بلغ أقصاه في سنة 1981 بحفر 25 بئر استكشاف. وبعد فترة استقرار أخذ عدد الآبار في التراجع إلى حدود 15–17 بئرا سنويا. وهذا الجهد المبذول على مستوى الاستكشاف لم يصاحبه التوصل إلى نتائج إيجابية مشجعة على الإنتاج كما كان مؤملا إذ أن الحقول المكتشفة كانت دائما من الحجم الصغير وضعيفة المدخرات.

3– خصائص المكامن النفطية

تستجيب جيولوجيا البلاد التونسية إلى حدّ بعيد لتوفير تركيبة مناسبة للمكامن النفطية إذ أن أغلب الطبقات المعروفة على السطح رسوبية بالأساس وغالبا ما تكون ذات امتداد أفقي وسمك مناسبين لتكوين مثل هذه المصائد. ولقد امتازت البيئات القديمة بهذه المنطقة بتوفير ظروف ترسيب مميزة للمناطق القريبة من الساحل مع امتداد الرصيف القارّي بأعماق بحرية محدودة على مساحات شاسعة، وهو ما يوفر كثرة الأحياء العضوية وتجمع رسوبيات المراوح النهرية التي تجلب معها من اليابسة الكثير من البقايا العضوية النباتية القابلة للتحول إلى طبقات نفطية.

ولقد ساعدت الظروف المناخية للبلاد التونسية المتصفة، في الفترات المتلاحقة من تاريخها الجيولوجي، بكثرة الأمطار وارتفاع الحرارة، كثيرا على تراكم عدّة طبقات عضوية في الرسوبيات التي كانت قابلة للتحول إلى طبقات نفطية. وكان لوجود البلاد التونسية على حافة القارة الإفريقية دور كبير في توفير مثل هذه الوضعية المناسبة التي أفادت أيضا من امتداد الرصيف القارّي في فترات طويلة من التاريخ الجيولوجي على مساحات كبيرة مكنت من تنامي الشعاب المرجانية على سمك كبير تحول البعض منها، في مراحل موالية، إلى مكامن نفطية ممتازة، كما أن التطوّر التكتوني الذي يميّز وسط وجنوب البلاد بقلة الالتواءات العنيفة وعدم حدوث الانزلاقات والتصدعات الكبيرة أو ظهور الانبثاقات الملحية، قد ساعد على توفير بيئة ملائمة لوجود المكامن النفطية. والمناطق التي تبدو ذات حظوظ أكبر لتوفر المكامن النفطية بها هي الرصيف القاري والشريط الساحلي وكذلك المسطبة الصحراوية وبعض

التقببات بالوسط التونسي التي تكثر بها الترسبات المرجانية.

فالبلاد التونسية بتنوع تركيبتها الجيولوجية وامتداد رصيفها القاري تبدو ذات حظوظ كبيرة للاشتمال على الكثير من المكامن النفطية، كما أن إنتاجية بعض الحقول النفطية المعروفة بها تؤكد حسن نوعية هذا النفط وإمكان وجود مكامن للغاز الطبيعي أكثر امتدادا على كامل الجرف القاري.

4- تصنيف المكامن النفطية

تشتمل التركيبة الجيولوجية للبلاد التونسية على أربعة أصناف من المكامن النفطية هي:

– المكامن التركيبيّة: هي التي أعطت أهم الكشوفات النفطية بالبلاد وهي تركيبات ناتجة عن الالتواءات الجيولوجية والتصدعات المصاحبة لها كالتقببات والأحواض المقعرة التي تحدها تصدعات جانبية، مثل تقبّب حقل البرمة (الحتّ الترياسي) وتركيبة حقل عشترت (الكلس الإيوسيني). وقد ساعد على توفر هذه المكامن تواصل الترسبات خلال أحقاب جيولوجية متوالية وتطور بنيتها التركيبية وفق نظام الأحواض الكائنة قرب المسطبة القارية. وتعتبر الأحداث المصاحبة للالتواءات الهرسينية ثمّ الأطلسية أهم المراحل التي أعطت البنية الجيولوجية الحالية.

– المكامن الرسوبيّة: وهي طبقات جيولوجية تقع ضمن طبقات أخرى ذات امتداد جانبي أكبر تتّخذ شكل عدسات، كما هو شأن الاندساسات الرملية وسط الطين أو الأرصفة المرجانية القديمة الكائنة ضمن الترسبات الطينية. ويتسرب إلى هذه الطبقات، التي تمتاز بنفاذيتها الجيدة، ما ينتقل إليها من الطبقات الأخرى من زيوت نفطية أو غاز طبيعي بحيث تصبح هي الخزان الأفضل لذلك.

– المكامن المختلطة: هي مشتركة الخصائص بين المكامن التركيبيّة والمكامن الرسوبية. وغالبا ما تكون متركبة من أرصفة مرجانية ذات امتداد رأسي يتواصل في عدة طبقات وذلك نتيجة توفر قاعدة ارتصاصية ناشئة عن التحوّلات التكتونيّة. ويتجسّد هذا الصنف من الأرصفة المرجانية لحقل إيزيس (Isis) في طبقات السينومانيان وكذلك طبقات الكريتاسي العلوي لحقل أكودة الشرقي.

– المكامن التكتونيّة: هي أكثر أصناف المكامن النفطية تعقيدا، ذلك أن تكوّنها يخضع لمراحل جيولوجية منتظمة. وتتحدّد هذه المراحل في تسرب النفط من الصخور الأم إلى الصخور الحاملة بعد تكوّن المكمن عن طريق التصدّع التكتوني. ومن هذا الصنف مكامن قرمدة (على اليابسة) وتازركة وبيرصة (في البحر).

وتقسم البلاد التونسية اعتبارا لطبيعة المكامن النفطية بها إلى المناطق الطبيعية التالية:

– الرصيف القارّي: يمتدّ على الواجهة الشرقية للشواطئ التونسية بين الهوّاريّة شمالا وبن قردان جنوبا. وقد عرفت هذه المناطق حفر الكثير من الآبار الاستكشافية النفطية نظرا إلى امتيازها بوجود مكامن في الصخور الكلسية المرجانية. وتمتاز هذه الشعب المرجانية بوضعية تؤهلها لكي تصبح مكامن ممتازة نظرا إلى وجودها ضمن مسطبة كلسية، وهي ذات مسامية عالية إذا ما توفرت بقربها الصخور الأم القابلة للتحول إلى نفط. ولقد تبين أن أغلب الشعب المرجانية الكائنة بالرصيف القاري الشرقي للبلاد التونسية خاوية لا تشتمل على النفط. وفُسّر ذلك بعدم توفر الصخور الأصلية القابلة للتحول إلى نفط، على مسافة قريبة منها، إذ أن أقرب هذه الصخور الأم المعروفة كائنة على حوالي 200 كم إلى الشمال الشرقي منها، كما فسر خلوّ هذه المكامن من النفط أيضا بأنه ناجم عن تفاوت بين مرحلة تكون النفط التي جاءت سابقة لمرحلة تشكل تركيبة المكمن، وهو

جعل النفط المتكون لا يجد المكمن المناسب فينتقل إلى مسافات أبعد.

ويلاحظ في هذا الشأن أن أغلب هذه التشكيلات المرجانية (قصر هناء، وزير...) حديث نسبيا ومتأخر عن مرحلة تحول النفط من الصخور الأم كما تؤكد ذلك البقايا الأسفلتية والزيت المتحجر داخل الطبقات الكلسية التي اخترقت بالحفريات.

– الشمال التونسي: تعتبر منطقة الفليش النوميدي الممتدّة من طبرقة إلى بجاوة أفضل تركيبة جيولوجية بالشمال التونسي يمكن أن تشتمل على مكامن نفطية. ونظرا إلى تعقّد التركيبة الجيولوجية للشمال التونسي نتيجة ما عرفه من التواءات أطلسية وانزلاقات مصاحبة وكذلك كثرة الانبثاقات الملحية به، فإن الاستكشاف النفطي لهذه المنطقة لم يجر وفق منهجية تعتمد المسح الجيوفيزيائي والتنقيب على مستوى الوحدات الجيولوجية، بل في شكل آبار اعتمدت دراسات أولية سطحية. ولم تتوصل الآبار المحفورة إلى توفير نظرة تحليلية إلى التركيبة الجيولوجية للمنطقة. ولقد بات معروفا أن المناطق الكائنة على واجهة جبهات الانزلاقات الجيولوجية، كما هو شأن الفليش النوميدي، ذات أهمية ثابتة في مجال الاستكشاف النفطي (حقل نيدل بصقلية) نظرا إلى توفّرها على تركيبة عدسيّة تساعد على وجود مكامن رسوبية.

– تونس الوسطى: اقتصر في استكشاف المكامن النفطية بتونس الوسطى على التركيبات المقببة المتكشفة على السطح دون التوسع في القيام بالكشوف الجيوفيزيائية. وهذه المقاربة الاستكشافية لا تمكن من القيام بمسوح دقيقة لمجمل المكامن غير المتكشفة. ولقد تراجع الاستكشاف النفطي الدقيق بمنطقة تونس الوسطى بعد أن اتّضح أن الآبار المحدثة لم تعط في أغلبها نتائج مشجّعة، كما أن بعضها الآخر (آبار ماسرنة، واد بهلول، سليانة) لم تعط إلا مؤشرات أولية لوجود الغاز الطبيعي نظرا إلى العمق الكبير الذي توجد به بحيث تقع خارج «النافذة البترولية».

مع مطلع الثمانينات، روجعت المقاربة التفسيرية لجيولوجيا البلاد التونسية المتعلقة بمجال توفر المكامن النفطية بتونس الوسطى على إثر ظهور دراسة اهتمّت خاصة بالفوالق الإقليمية ذات الامتداد شرق–غرب. وترى هذه الدراسة أن الفوالق الإقليمية توفر قاعدة تكتونيّة متحركة نشيطة في مراحل عدّة من التاريخ الجيولوجي في مجال نمت فيه الشعاب المرجانية التي تبين أنها أفضل المكامن النفطية المحتملة بهذه المنطقة. وتتطلب هذه المقاربة الجديدة مراجعة الخرائط الخاصة بالبيئات القديمة مع اعتبار تأثير التحرّكات التكتونيّة القديمة في ظروف الترسب وتشكل البنية الجيولوجية بالمناطق القريبة من الرصيف القاري لتلك الفترات. ولقد اتضحت جدوى اعتماد هذه المقاربة في متابعة مجال المكامن التكتونيّة في الاستكشافات التي جرت بمنطقتي الروحية وفوسانة إلى الجنوب من جبل السراقية، كما أن مراجعة اختبارات الإنتاجيّة التي أعدّت على الكثير من الآبار الاستكشافية المنجزة في العقود الثلاثة الماضية، بينت ضرورة إعادة التحليل لنتائج التسجيلات الجيوفيزيائية في ضوء المعطيات التكتونيّة. وقد ثبتت جدوى ذلك بالمناطق المشابهة من الشرق الجزائري حيث أمكن بإجراء الكثير من عمليات استرجاع الآبار القديمة (التي تُخلّي عنها لضعف إنتاجيتها الأولية) التوصل إلى تطوير انتاجية تلك الآبار والحصول على انتاجية ذات جدوى اقتصادية مضمونة.

– الجنوب التونسي: رُكّز الاهتمام عند الاستكشاف النفطي للجنوب التونسي على طبقتين مستهدفتين أساسيّتين هما «الترياسي» و«الاردوفسي»، وذلك اعتمادا على تركيبتهما التقببية ذات السطح الضعيف الميل. واتضح أن

هذه المقاربة الاستكشافية غير كافية وغير دقيقة بما فيه الكفاية وتتطلب التعرف على نحو أفضل إلى التطور التكتوني للمنطقة في الفترات المتتالية مع اعتبار التوزع الجغرافي لأصناف التركيبات الجيولوجية من فوالق وتقببات وأحواض مقعرة، أحد المؤشرات الأساسية في تطور البنية التركيبية للحقل. وعلى هذا الأساس انتقل إلى أهداف استكشافية أخرى يتطلب تدقيق المعرفة بها فهما أفضل للظروف البيئية القديمة وخاصة دور الحركات التكتونيّة في تشكيل مكامن ذات تركيبة معقدة (تركيبية وتكتونيّة) غير التقليدية. ويتضح ذلك خاصة في تركيبة «للفرضات الرسوبية» للطبقات الترياسية بمنطقة الشطوط التونسية. والفرضات الرسوبية هي المناطق التي تعرف بها بعض الطبقات الجيولوجية تراجع السمك إلى حد الاختفاء نهائيا. ففي هذه المناطق يصبح المرور من الطبقة الأم إلى الطبقة المكمن ممتدا على مساحة أفضل وغالبا حسب ميل مناسب للطبقات الجيولوجية.

5- الإنتاج النفطي

يُجرى إنتاج النفط بالبلاد التونسيّة بجملة من الحقول أهمها: البرمة وعشترت وتازركة وسيدي اليتيّم والمخروقة والعريش والدبش والدولاب وسمامة وتامصميدا والشوش والصيادة والحاجب. وقد انطلق هذا الإنتاج النفطي عمليّا، سنة 1966 باكتشاف مدخرات حقل البرمة ثم تلاه سنة 1968 حقل الدولاب وسمامة. ولقد مرّ الإنتاج النفطي من 3،19 مليون طن سنة 1968 إلى 5،48 مليون طن سنة 1984 بعد أن بلغ حدا أقصى قدره 5،57 مليون طن سنة 1983. وبذلك تكون الكمية المنتجة إلى حدّ نهاية 1984 في حدود 80,26 مليون طن. وهذه الوضعية لا تبرز بوضوح التذبذب السنوي للإنتاج وتناقص الكميات المنتجة من حقل إلى آخر. وهي وضعية ما انفكّت تتأكّد في الحقول المكتشفة أخيرا وخاصة بأقصى الجنوب التونسي والمنطقة الساحلية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الإنتاج النفطي بالبلاد التونسية يعتمد اليوم على الزيت الطبيعي من ناحية والغاز الطبيعي من ناحية أخرى. ولقد اتضح بعد عدّة عمليات تقويم للمدخرات النفطية على أساس تجارب الاستغلال ومتابعة الآبار طيلة سنوات الاستثمار، أن حقول انتاج الزيت النفطي ذات مدخرات محدودة نسبيا ومدة تشغيلها لا تتجاوز في الغالب خمسين سنة. أما المدخرات الغازية فهي ذات حجم أكبر ومازال الكثير منها في حاجة إلى التقويم على نحو أدقّ.

5-1: أهمّ حقول إنتاج النفط

- حقل البرمة: اكتشف سنة 1964 بأقصى الجنوب التونسي، ورخّص في إنتاجه بداية من سنة 1968. وتوجد الطبقات المنتجة الست (A. B. C. D. E. F) على عمق يقارب 2400 متر (الحث الترياسي أو تكوين كرشاو). تبلغ مسامية الطبقة حوالي 25٪ أما النفاذية فتتراوح بين 500 و2000 ملليدارصي وتبلغ نسبة المياه 20٪. وينتج هذا الحقل 12000 م3/اليوم من الزيت الخفيف قياس 42ب. ويتراوح السمك الفعال المسهم في إنتاج الحقل من المستوى الأول (A) بين 15 و100 متر. أما درجة حرارة هذا المستوى فهي في حدود 75ب مائوية.

ويقع المستوى الأعلى من الخزان في طبقات من الحث الترياسي (A) وهو يشتمل على أكثر من نصف المخزون الكلي من الزيت الذي بلغ 208 مليون م3. أما الخزانات الثلاثة (B. C. D) فيشتمل كلّ منها على حوالي خمس المخزون. وشغّل حقل البرمة في مرحلة أولى امتدت عشر سنوات دون أي مشكلات في الإنتاجية، ثمّ لوحظ تناقص الضغط وأقرّ مبدإ الترفيع في ضغط الخزان عن طريق ضخ المياه إليه من السطح. ولقد خضع الخزان الأول منذ بداية سنة 1975 إلى عملية الغسل بالمياه وهو ما سمح بالترفيع في

إنتاجيته من 30 إلى 50٪. وقد بلغ أدنى إنتاج لهذا الحقل 1،87 مليون م3 من الزيت سنة 1976 ثم تصاعدت إنتاجيّته إلى أن بلغت في مطلع سنة 1981 حوالي 4 مليون م3 من الزيت وتواصلت هذه الإنتاجية إلى نهاية الثمانينات.

– حقل عشترت : اكتشفت سنة 1971 بخليج قابس مع عمق لمياه البحر في حدود 70 مترا. ويبلغ سمك الخزان حوالي 75 مترا، وهو يمتد على مساحة 380 كم2. ورخصّ في استغلاله سنة 1973 وشرع في استغلاله سنة 1974. وينتج هذا الحقل حوالي 4000 م3/اليوم من الزيت الخفيف بقياس 30ب. ويبلغ عمق الخزان (الطبقات الكلسية للإيوسين، تركيبة المتلوي) 2720 متر. أما نسبة المياه الأولية فقد كانت 25٪. وقد لوحظ تناقص الضغط بالخزان بعد سنة من بداية الاستغلال والتجئ إلى ترفيع الضغط للزيادة في إنتاجية الخزان بشحن المياه وأمكن بذلك الترفيع في نسبة إنتاج النفط السائل من 15 إلى 35٪.

– حقل سيدي اليتّم : اكتشف سنة 1971 بمنطقة صفاقس وشرع في استغلاله سنة 1972 على مساحة 180 كم2. ويتكون الخزان النفطي من الطبقات الكلسية للإيوسين الكائنة على عمق 2500 متر. وتبلغ مسامية هذه الطبقة 13٪ أما نفاذيتها فهي تتراوح بين 3 و230 ملليدارصي. يتراوح سمك الخزان الفعال بهذا الحقل بين 15 و85 مترا، وتبلغ نسبة التشبع الأولية بالمياه 25٪ ودرجة حرارة الخزان في حدود 120ب مائوية. وقد شرع في استغلال هذا الحقل سنة 1972 وسرعان ما ظهر به تغلب المياه المالحة على الزيت وهو ما قلص من إنتاجيته التي لم يمكن الترفيع فيها من جديد إلى أكثر من 12٪.

– حقل تازركة : اكتشف هذا الحقل الكائن بالبحر قبالة الوطن القبلي سنة 1979 بموقع به 140 متر من مياه البحر. وشرع في استغلاله سنة 1981 على مساحة 208 كم2. ويوجد الخزان في الحث الميوسيني على عمق 1256 متر. وهو ينتج 1200م3/اليوم من الزيت بقياس 30ب. وتبلغ مسامية الطبقة 27٪ في حين تتراوح نفاذيتها بين 100 و1700 ملليدارصي، أما نسبة المياه الأولية فهي في حدود 37٪.

– حقول المخروقة والعريش والدبش : وهي ثلاثة حقول كائنة بأقصى الجنوب التونسي واكتشفت بين 1979 و1981 ورُخّص في استغلالها سنة 1981 على مساحة 576 كم2 بالنسبة إلى المخروقة و388 كم2 للعريش و316 كم2 للدبش. ويوجد الخزان النفطي في مستوى الحث الترياسي على عمق يقارب 2400 متر، وهو في شكل عدسات ضعيفة السمك في حقلي الدبش والعريش، في حين يأخذ شكل مقبب في حقل المخروقة. ويتركز الإنتاج في حقل المخروقة بالأساس. وتبلغ مسامية الطبقات النفطية 20٪ وتستقرّ نفاذيتها في حدود 700 ملليدارصي ونسبة المياه الأولية في حدود 27٪. وتنتج هذه الحقول الزيت الخفيف بقياس 42ب. وإنتاجية هذه الحقول ضعيفة لا تتجاوز 5٪ من مجموع الإنتاج الوطني.

– حقول الدولاب وسمامة وتامصميدا : هذه الحقول النفطية تقع بمنطقة القصرين وقد اكتشف حقل الدولاب سنة 1966 أما سمامة وتامصميدا فسنة 1967. ورُخّص في استغلال حقلي الدولاب وسمامة سنة 1968 على مساحة 112 كم2 أما تامصميدا فسنة 1969 وبمساحة 76 كم2. ويقع خزان حقلي الدولاب وسمامة في مستويين كلسيين (عصر الأبسيان) على عمق وسطي في حدود 100 متر. أما حقل تامصميدا فيستغل طبقة كلسية من السينومانيان (تركيبة السرج) على عمق 800 متر. ويبلغ الإنتاج 165 م3 اليوم من الزيت الخفيف بقياس 40ب. وتبلغ مسامية الطبقة 5٪ أما نفاذيتها فهي في حدود 2 ملليدارصي، ونسبة المياه الأولية 30٪.

– حقل الشوش والصيادة (أقصى الجنوب التونسي): هذا الحقل واقع داخل كثبان العرق

الشرقي بمنطقة صعبة المسالك منقطعة عن بقية الحقول الأخرى. وقد جرى استكشاف هذا الحقل عن طريق بئر واحدة تمّ إحداثها سنة 1971 وهو ما يجعل المعطيات المتعلقة بامتداد الحقل وخصائصه الطبيعية غير مدروسة بما فيه الكفاية. ورُخّص في استغلاله سنة 1977 على مساحة 212 كم2. ويوجد الخزان النفطي في الحث الترياسي الكائن على عمق 2410 متر وينتج منه 50 م3/اليوم من الزيت الخفيف قياس 42ب. وتبلغ مسامية الطبقة 17٪ في حين أن نفاذيتها في حدود 170 ملليدارصي.

– حقل الحاجب والقبيبة: يقعان في ساحل صفاقس. وقد اكتشف الأوّل سنة 1981 أما الثاني فسنة 1982. ورُخّص في استغلاله سنة 1982 على مساحة جملية تبلغ 52 كم2. ويوجد الخزان النفطي بالنسبة إلى القبيبة (التيرونيان) على عمق 2890 متر وهو بمسامية 13٪ وتبلغ نسبة المياه الأولية 35٪. أما خزان موقع الحاجب فهو في طبقة الكلس الإيوسيني (تركيبة المتلوي) على عمق 2140 متر وتبلغ مسامية الخزان 18٪ ونسبة المياه الأولية 35٪. وقد أبرزت التجارب التي أجريت على هذا الحقل أن المخزون الزيتي على قدر عالٍ من الأهمية ولكن إمكان الاختلاط بين الزيت والماء كبيرة. ولقد شرع في استغلال هذا الحقل بداية من سنة 1985 في حدود 230 م3/اليوم من الزيت الخفيف قياس 31ب.

5–2: أهمّ حقول إنتاج الغاز

ترجع الاكتشافات الأولى للغاز الطبيعي بالبلاد التونسية إلى سنة 1948 بجبل سيدي عبد الرحمان من الوطن القبلي وقد قدرت الكميات القابلة للاستغلال في هذا الحقل بـ150 مليون م3. ونظرا إلى عدّة اعتبارات فنية واقتصادية، اقتصر الاهتمام على إنتاج الزيت السائل واعتبر الغاز الطبيعي بهذا الموقع غير ذي جدوى اقتصادية، إلى أن حدثت أزمة الطاقة في السبعينات وأصبحت تقنيات الاستخراج والطلب على الغاز الطبيعي أكثر ملاءمة لاستغلال ما يتوفر منه، وعندها كان الرجوع إلى منطقة الوطن القبلي لتوسيع مجال الاستكشاف النفطي إلى سهل قرمبالية (منطقة بلي) والمناطق البحرية التابعة للجرف القاري (تازركة).

تتوزّع حقول الغاز الطبيعي بالبلاد التونسية على اليابسة والرصيف القاري وهي تنقسم إلى حقول منها ما قدّرت مدخراتها وضبطت مؤشرات على وجود كميات قابلة للاستغلال بها وأخرى لم تقدر مدخراتها بعد بالدقة الكافية لحساب جدواها الاقتصادية.

أمّا حقول الغاز الطبيعي التي أكّدت التحرّيات وجود مؤشّرات على مدّخرات قابلة للاستغلال بها وتقدير كمياتها الإنتاجية فتتوزع على وجه الخصوص على مواقع متعددة كائنة ضمن الجرف القاري بخليج قابس، ويعتبر حقل مسقرط من أهم هذه الحقول. وعلى ضوء المعلومات المتحصل عليها من الآبار الخمس المحفورة بهذا الحقل، تبين أن خزان الغاز الطبيعي متكون من طبقات كلسية راجعة إلى الكريطاسي الأعلى (تيرونيان–كونياسيان). ويتراوح سمك هذا الخزان بين 23 و88 مترا وهو بمسامية في حدود 8 إلى 16٪ ونفاذية بين 22 و865 ملليدارصي. والغاز المتوفّر بهذا الخزان جاف مع نسبة 33٪ من الغاز الراكد.

ويقدر مجمل المخزون القابل للاستغلال من الغاز الطبيعي بهذه الحقول بـ35 مليار م3 و4 مليون م3 من التكثفات. أما التقديرات الأولية لمخزون الحقول التي لم تدقق دراستها بما فيه الكفاية، فتعطي كمية إضافية تتراوح بين 58 و69 مليار م3 من الغاز الطبيعي. والحقول التي تبين بها وجود مؤشرات للغاز الطبيعي هي:

أ – حقول الجرف القارّي لخليج قابس

– حقل الأبيض بمسقرط وهو كائن في طبقة طباشيرية قليلة النفاذية وتبلغ كمية الغاز به 28٪ من الغاز الراكد. وتقدر الكميات القابلة للاستغلال بحوالي 22 مليار م3.

– حقل عليسة وخزان الغاز الطبيعي به طبقة

الكلس الكريطاسي الأعلى (كونياسيان) بسمك 76 مترا والمسامية بهذا الحقل في حدود 20٪ أما المخزون من الغاز فيقدّر بين 3،5 و20 مليار م3 إضافة إلى 3 مليون م3 من التكثفات.

– حقل صدربعل والطبقة الحاملة للغاز الطبيعي وهي كلس الإيوسين بسمك 65 مترا وعلى مساحة 17 كم2. وتقدر مسامية هذا الكلس في حدود 11٪ أما الكميّات المخزّنة فهي في حدود 6،56 مليار م3 إضافة إلى 1،74 مليون م3 من التكثفات.

– حقل يوغرطة وهو على غرار حقل مسقرط يشتمل على عدّة خزانات غازية أهمها: خزان تركيبة الأبيض (سينونيان أعلى) بسمك 101 متر من الكلس الطباشيري الذي تبلغ مساميته 10 إلى 12٪ ونفاذيته 0,1 مللي‌دارصي. وخزان التيرونيان بسمك 71م من الكلس الذي تتراوح مساميته بين 7 و13٪ ونفاذيته بين 2 و30 مللي‌دارصي. وهذا الحقل بمساحة تتراوح بين 21 و74 كم2. وهو ما يوفر مخزونا يقدر بحوالي 2،2 إلى 12 مليار م3. أما المواقع التي بها مؤشرات على وجود الغاز الطبيعي بخليج قابس والتي لم تدرس تركيبتها نهائيّا، فهي على وجه الخصوص:

– حقل صلامبو وبه خزانان في طبقات كلسية أحدهما في تركيبة شراحيل (اللوتيسيان) والآخر في تركيبة المتلوي (إيبريزيان). وقد أعطى هذان الخزانان نسبة 9،4٪ من الغاز الراكد. ونظرا إلى أنّ مساحة هذا الحقل تقدّر بحوالي 7،5 كم2، فإن المخزون من الغاز الطبيعي به في حدود 9 مليار م3 إضافة إلى 2,7 مليون م3 من التكثفات.

– حقل المعمورة وهو في شكل تركيبة ذات مساحة قدرها 8 كم2. والخزان الغازي متكون من رمل الميوسين الأوسط الذي تبلغ مساميته 31٪.

ب – حقول الغاز على اليابسة

هي حقول لم يقدّر بعد مخزونها على نحو دقيق رغم وجود المؤشّرات الدالّة على توفّر الغاز الطبيعي بها، وهي بحسب أهمّيتها:

– حقل بئر زار (أقصى الجنوب) وقد اكتشف سنة 1980 في طبقة الحث الوردوفيسي. وتبلغ مسامية الخزان 6٪ ونفاذيته 0,15 مللي‌دارصي. أما المخزون فيقدر بحوالي 0،6 مليار م3 من الغاز و1،04 مليون م3 من التكثفات.

– حقل العريش (أقصى الجنوب التونسي) وهو أيضا بخزان كائن في الحث الاردوفيسي الذي يقدر مخزونه بحوالي 4،5 مليار م3 من الغاز و5,9 مليون م3 من التكثفات.

– حقل جبل القروز (أقصى الجنوب التونسي) ويتحدّد خزان الغاز في الطبقات الحثية للترياسي. وتتراوح مساحة هذا الحقل بين 6 و11كم2. ويقدر المخزون بخوالي 3،3 مليار م3.

– حقل الباقل (أقصى الجنوب التونسي) وتمتد مساحة هذا الحقل على مساحة 11،5 كم2. والخزان كائن بالطبقات الحثية الترياسية التي تبلغ مساميتها 16،5٪ أما نفاذيتها فهي في حدود 30 مللي‌دارصي. ويقدر المخزون بحوالي مليار م3 من الغاز.

– حقل الفرانيق (ولاية قبلي) ويقع الخزان في الطبقات الحثية للأردوفيسي على مساحة 2,9كم2. وتبلغ مسامية الطبقات الحاملة للغاز 7٪ أما نفاذيتها فهي في حدود 15 مللي‌دارصي. ويقدر المخزون بحوالي 4 مليار م3 من الغاز الطبيعي و6 مليون م3 من التكثفات.

وهكذا تبلغ المدخرات من الغاز الطبيعي حوالي 35 مليار م3 ويمكن أن تصل حسب المؤشرات الأولية إلى 58–69 مليار م3، وهي تعدّ نسبة مهمّة في مخزون المحروقات. وتوضع حاليا خطة لاستغلالها على نحو متكامل وذلك بالربط بين الحقول القريبة من بعضها.

6– آفاق استغلال الحقول النفطيّة

تُقدّر المدّخرات النفطيّة للبلاد التونسيّة بحوالي 64 مليون طن ويبلغ إنتاجها السنوي

حوالي 5 مليون طن. ونظرا إلى الحاجات المتزايدة لقطاعات التنمية فإن البلاد التونسية في حاجة إلى توفير المزيد من إمكانات الإنتاج النفطي. فبعد ذروة للإنتاج بلغت 5،5 مليون طن خلال سنة 1983، بدأ الإنتاج النفطي في التراجع لكي يبلغ 4,7 مليون طن سنة 1989، وما انفكّ في التناقص منذ ذلك الحين. ويجري هذا الإنتاج أساسا بحقلي البرمة وعشترت حيث ينتج 87٪ من الإنتاج الوطني للنفط. ولقد قُلّص الإنتاج بهذين الحقلين بداية من سنة 1991، إلى حدود 3,6 مليون طن. وفي الأثناء اكتشفت حقول أخرى بكلّ من قرمدة والزاوية والمحرس ولكن إسهامها في الإنتاج الوطني بقي ضعيفا نظرا إلى محدودية إنتاجها، كما أن مدّخرات حقل البوري (المشترك مع ليبيا) دخلت طور الإنتاج، لكنّها لم تؤثر إلى الحدّ الكافي في زيادة الإنتاج الوطني.

أما المدّخرات من الغاز الطبيعي فتُقدّر بحوالي 93 مليار م3، ويعدّ حقل مسقرط بخليج قابس أهم مواقع استغلالها. ولقد مرّ الاستهلاك من المحروقات النفطية (زيت وغاز) من 3،4 مليون طن سنة 1986 إلى 4،6 مليون طن سنة 1991 و6 مليون طن سنة 1997. وقد ساعدت الاكتشافات الأخيرة بالجرف القاري والشريط الساحلي على مجابهة الطلب المتزايد، كما أن منح الكثير من رخص الاستكشاف والتشجيع على بعث شركات وطنية للتنقيب قد ساعد على تلبية حاجات مختلف القطاعات المستهلكة للطاقة. ولقد أسهمت المعاليم الموظفة على أنابيب النفط العابرة للتراب التونسي وخاصة الأنبوب الجزائري الإيطالي في الحصول على كميات إضافية من النفط أو الغاز الطبيعي وفي مجابهة الطلب في هذا المجال.

ولئن كانت البلاد التونسيّة قد توصّلت عن طريق الحقول المنتجة ومعاليم العبور إلى مجابهة الطلب على المحروقات على نحو شبه كلي، إذ لا تلتجئ إلى شراء المحروقات إلاّ لبعض القطاعات الخاصة، فإن ذلك يبرز حاجة متزايدة لتكثيف الاستكشاف النفطي بالكثير من المناطق الطبيعية الأخرى سواء كان ذلك في منطقة الجرف القاري أو على اليابسة. إنّ الاكتفاء الذاتي في هذا المجال غير ممكن في السنوات القادمة نظرا إلى تزايد الحاجيات وخاصة في مجال استهلاك الطاقة. واعتمادا على ما غطته الدراسات الاستكشافية النفطية الدقيقة من مناطق وما أمكن التوصل إليه من تقويم أولي للمدخرات النفطية فإن التقويم النهائي للموارد النفطية مازال يتطلّب المزيد من المسوح والآبار الاستكشافية.

ولقد التجأت البلاد التونسية إلى توسيع مجال البحث العلمي في مجال الطاقات المتجدّدة للتمكّن من تخفيف فاتورة المحروقات، وفي هذا الصدد تسهم الطاقة الكهربائية المنتجة من السدود في تغطية الحاجات بنسبة تتراوح بين 3 و5٪.

لقد كان لقطاع المحروقات منذ مطلع الستينات أهمية متزايدة في الاقتصاد الوطني من جهة إسهامه في الناتج الداخلي الخام وفي المبادلات التجارية وتمويل ميزانية المصاريف العمومية. وفي السبعينات، بلغ إسهامه حوالي 50٪ من جملة الصادرات. وانطلاقا من الثمانينات، توقف نمو هذا القطاع بسبب ركود الإنتاج في حدود 5 مليون طن وتزايد الطلب وهو ما أوجد وضعية عجز في القطاع مع بداية التسعينات.

ولمزيد دفع القطاع، أُصْدِرَتْ مجلّة جديدة للمحروقات (قانون 93 لسنة 1999) تهدف إلى توفير تشجيعات إضافية للتنقيب والاستكشاف. وفي الفترة 1987–1998 ارتفعت الاستثمارات في مجال التنقيب عن النفط وهو ما مكن من منح الكثير من الامتيازات (من 23 امتيازا لفائدة 14 باعثا سنة 1987 إلى 42 امتيازا لفائدة 30 باعثا سنة 1998). وتحقّق في هذه الفترة حفر 165 بئرا (من جملة 465 بئرا منذ الحرب العالمية الثانية)

يتراوح متوسط عمقها بين 2000 و4000 متر.

ولقد كان الإنتاج السنوي للمحروقات يتراوح بين 5،5 و5،6 مليون طن معادل نفط في الفترة 1980–1999 ومرّ هذا الإنتاج من 5 إلى 5,5 مليون طنّ في العقد الأول ومن 5،4 إلى 8,3 مليون طن في العقد الأخير، وبعد عدّة سنوات من تراجع الإنتاج النفطي الذي يؤمنه حوالي 20 حقلا بصدد الاستغلال، شهد القطاع في سنة 1998 انتعاشة ضعيفة نتيجة دخول الحقول الصغيرة (ديدون، الفرانيق، الباقل، الصابرية، البيبان) مجال الإنتاج. وخلال العقد 1990–1999 اتسم الإنتاج النفطي بالتراجع بين 5،4 و5،3 مليون طنّ في حين كان الإنتاج من الغاز الطبيعي في تزايد، ولكن ذلك لم يمكّن من تغطية العجز المتزايد في مجال الطاقة.

وبفضل احتياطيّها الحالي من المحروقات الذي يناهز 8،1 مليار برميل زيت (286 مليون م3) و127 مليار متر مكعب من الغاز الطبيعي، تحتلّ تونس المرتبة العاشرة في إفريقيا. وتوجد الاحتياطات النفطية في ثلاثة مواقع أساسيّة هي:

– المسطبة الصحراوية الواقعة على حافة القارة الإفريقية.

– المجال الأطلسي المشتمل على ترسبات الحقب الجيولوجي الثاني.

– عرض السواحل المتوسطية في الرصيف القاري ذات التركيبة الراجعة إلى الحقبين الثاني والثالث.

ويتوفّر نصف إنتاج الغاز حاليا بالمسطبة الصحراوية والنصف الثاني بالرصيف القارّي.

واعتبارا لنسبة نمو سنوي في حدود 5٪، من المتوقع أن يبلغ الطلب على الطاقة 11 مليون طنّ معادل نفط سنة 2010 و22 مليون طن سنة 2025 في حين أن الانتاج لن يتجاوز 3 مليون طن سنة 2010 و2 مليون طن سنة 2025. وهذا الوضع يتطلب وضع سياسة متكاملة للمحروقات تقوم على توسيع مجال التنقيب والاستكشاف وترشيد الاستهلاك وتوسيع مجال الإنتاج إلى القطاعات المكمّلة للطاقات المتجدّدة.



«الحاضرة» :
أول جريدة وطنية تونسيّة
[1888–1911م]


الحاضرة
(EL-HADIRA)

صدرت جريدة «الحاضرة» بعد سبع سنوات من تمركز «الحماية الفرنسيّة» من قبل جماعة من الوطنيين المتخرّجين في المدرسة الصادقية بمباركة شيوخ الزيتونة المتنورّين من أمثال سالم بوحاجب (تـ1924) وبتشجيع من محمّد السنوسي (تـ 1900) الذي كانت له خبرة في مجال الصحافة من أيّام إدارته للرائد التونسي قبل تمركز «الحماية».

اجتمع هؤلاء الوطنيون للنظر فيما يفيد البلاد في عهدها الجديد، ففكّروا في بعث صحيفة وطنيّة على أن يشارك كل فرد بمبلغ من المال، وتوزع الأرباح فيما بعد على المسهمين، وهم قرابة العشرين شخصا منهم علي بوشوشة والبشير صفر ومحمّد ابن الخوجة وسالم بوحاجب ورشيد بو عمّود وحسن بلوحِشيّة وغيرهم. وعيّنوا علي بوشوشة مديرًا لجريدتهم بعد أن استقال من وظيفته، إذ لا يسمح قانون الصّحافة للمتوظّفين بإصدار الجرائد. ثم وضع الجماعة القانون الأساسي الذي تكوّن من اثني عشر فصلا «تتعلّق ببيان دور المؤسّسين وتمويلهم للصحيفة ومراقبة حساباتها المالية وتوزيع الأرباح».

وبعد ثلاثة أشهر من تقديم الملفّ إلى الكاتب العام للحكومة ظهرت جريدة «الحاضرة» يوم الخميس 24 ذي القعدة 1305/2 أوت 1888، وتواصل صدورها كلّ يوم خميس لمدة شهرين، ثم اتّخذت يوم الثلاثاء موعدا للصّدور إلى أن اختفت، وظلّت تبرز في غير هذا اليوم لأسباب طارئة.

وكانت «الحاضرة» تحتوي على أربع صفحات كبيرة الحجم (قياس 39,5 x 55صم) وذات أبواب واضحة. فالصّفحة الأولى للافتتاحية، كان يحرّرها عادة علي بوشوشة، ويساعده من حين إلى آخر البشير صفر ومحمد ابن الخوجة. وفي بداية انطلاقة «الحاضرة» تكفّل محمّد السّنوسي بالتحرير في الجريدة فكتب مجموعة من الافتتاحيات، نشرها


علي بوشوشة

فيما بعد في كتاب سمّاه «الرياض النّاضرة بمقالات الحاضرة».

وكانت الجريدة تنشر في ركن الحوادث الخارجية أخبار الدولة العثمانيّة، وقد بقي هذا الركن الذي هو من تحرير علي بوشوشة، منذ صدور الجريدة حتى اختفائها، نافذة يطلّ منها القارئ على أخبار الدولة العثمانية كلّ أسبوع. وخصّصت الرّكن الثالث للأخبار المحلّية، وهو ركن يهتمّ بأحداث الأسبوع بالمملكة التّونسية في المجال السّياسي والاجتماعي والثقافي، ويتعلّق عامّة بنشاط المقيم العام والباي والوزراء والعمّال، ويحرّره عادة محمد ابن الخوجة، وأخيرا الإعلانات أو كما يسّميها علي بوشوشة الإشهار، وهي تهمّ مصنوعات تتعلّق بالفلاحة والصحّة والفنون والثّقافة كالآلات الفلاحيّة والأدوية والإسطوانات والكتب والصحف الشرقيّة خاصّة. وكانت للإعلانات عائدات مالية تساعد الجريدة على توفير نفقات الطبع.

ومعلوم أنّ الجرائد التونسية كانت تعتمد عندئذ في ترويجها على الاشتراكات. ولا تباع منها مباشرة إلاّ أعداد قليلة. وكان المشتركون يتلدّدون في دفع ما بذمّتهم فتلجأ الجريدة إلى إسقاط أسمائهم، فإذا انقطع عنهم الاشتراك ربّما اضطرّوا إلى اشتراء الجريدة أسبوعيّا. وقد ذكر في التقرير الخاصّ بتجديد الحاضرة (سنة 1900) «أنّ غالب المشتركين لا يوازي إقبالهم على مطالعة الجريدة إلاّ تقاعسهم عن دفع قيمتها الزّهيدة». وقد تذمّر بوشوشة من هؤلاء النّاس الذين يريدون أن تصل إليهم الجريدة لقراءتها مجّانا.

وُطبعت «الحاضرة» في أربع مطابع، وهي: المطبعة العالميّة (الأعداد الثّمانية الأولى) والمطبعة الرّسميّة (913 عددا) ومطبعة بيكار (10 أعداد) والمطبعة العربيّة التونسيّة (180 عددا). فيكون مجموع ما صدر منها من أعداد (1111). وكان آخر عدد لها صدر يوم الثلاثاء 7 نوفمبر 1911.

لقد كان في الحسبان أن توفّر الشّركة التي تصدر «الحاضرة» أرباحا للمسهمين فيها إلا أنه تبيّن بعد مرور أكثر من عشر سنوات على ظهورها (1900) أن النفقات تجاوزت المداخيل فحزمت أسرة الحاضرة أمرها وشرعت في تجديد الجريدة وإدخال إصلاحات ضرورية عليها حتّى يستقيم أمرها ماديّا. ولكنّ البشير صفر رأى أنّ مداخيل الصّحيفة لا تكفي لدفع جراية المدير ومحتسب الحاضرة، وإزاء ذلك اقترح على الحكومة أن تأذن لإدارة الأوقاف بتسديد نصف المبلغ الذي تدفعه هذه الإدارة للرائد التونسي شهريّا.

واتفق الجماعة على إسناد مرتّب إلى علي بوشوشة (مائة فرنك في الشهر) «إذ لا يمكنه ترك أشغاله المعاشيّة الفلاحيّة، والانقطاع إلى خدمة الجريدة الا بمرتب مناسب». كما رأوا «ضرورة تعيين مستخدم خصوصي يقوم بمسك دفاتر الجريدة وضبط حساباتها يوما فيوما».

ويبدو أنّ الجريدة قد استقام أمرها بعض الشيء، لكن لم يدم ذلك طويلا، إذ أخذت في التعثّر، وعدم انتظام الصدور، فأصبحت في سنواتها الأخيرة تختفي في الصّيف لاشتغال علي بوشوشة بفلاحته في جهة الفحص وهو ما يدلّ على أنّه أصبح يحرّرها بمفرده.

أما علاقتها بإدارة الحماية فقد مرّت بمرحلتين: تمتدّ الأولى من أواخر سبتمبر 1888 حتى أواخر ديسمير 1906، وفي هذه المرحلة كانت «الحاضرة» تطبع بالمطبعة الرّسميّة، وتتلقّى إعانة من الدّولة بالإضافة إلى مائة اشتراك في الجريدة، وهذه الإعانة من حكومة الحماية أوقعت الجماعة في حرج وضيق شديدين. فقد كان الناس ينظرون إليها عهدئذ على أنّها جريدة تخدم مصالح الحماية. من ذلك أنّ محمّد فريد زعيم الحزب الوطني في مصر لمّا زار تونس سنة 1902 ذكر في رحلته «أن لا جرائد لأهل البلاد يمكنهم الدّفاع عن أنفسهم إذ "الحاضرة"

لاتنشر إلاّ ما يرضي الفرنسيّين ويسمح قلم المراقب بنشره».

وهذا الأمر يصحّ على الفترة الأولى المذكورة وهي مرحلة شقّت فيها «الحاضرة» طريقها بصعوبة، فكانت تنعت بأنّها جريدة شبه رسميّة تروّج لسياسة الحماية في تونس ولا يدري القارئ المتعجّل أنّها تخضع لرقابة صارمة من قبل برنار روا الكاتب العامّ للحكومة. وقد اهتدى محرّروها، وعلى رأسهم البشير صفر وعلي بوشوشة، إلى حلّ وسط إزاء هذه التبعيّة، فكانوا من جهة ينتقدون بشدّة سلوك المعمّرين خاصّة معاملتهم السيّئة للأهالي ونهبهم للأراضي التّونسيّة ومن جهة أخرى يثنون على سياسة الإقامة العامّة بوصفها تمثّل دولة الحرّية والعدالة والمساواة، كما امتلأت الحاضرة في هذه الفترة بالرّدود على الصّحف الفرنسيّة والإيطاليّة والمالطيّة واليهوديّة التي تنتقص من شأن الأهالي، وتنعتهم بأنهم شراذم لا حضارة لهم ولا ثقافة ولا تاريخ، وهذا ما توحي به لفظة الأهالي بالفرنسيّة (indigènes).

كان هذا دأب «الحاضرة» طيلة العهد الأول الذي عرفت فيه تضييق الخناق على قلم محرّريها. ومّما زاد في موالاتها لحكومة الحماية عجزها عن دفع الضّمان المالي على الصّحف وهو ما دفع بالمؤسّسين إلى اقتراض المبلغ من المطبعة الرّسميّة. وقد دفعه مديرها الحاج حسن لازغلي إلى قابض الماليّة على أن يسدّد المؤسّسون هذا المبلغ أقساطا طيلة ستّ سنوات حتى يكتمل المبلغ المطلوب دفعه، وهو ستّة آلاف فرنك. وكان في نيّة أسرة «الحاضرة» أنْ يسدّد هذا الدّيْن من اشتركات الدولة بحيث يكون الخلاص بعد ستّة أعوام، ويصير المبلغ المذكور مالا احتياطيّا. وقد شرع في ذلك فعلا سنة 1897 حين دفعت الإدارة ألف فرنك من السّتة آلاف المشار إليها، لكن بقي منها خمسة آلاف بذمّة الجريدة لتعطيل تسديد الاشتراكات المذكورة.

والحقّ أنّ ذلك المبلغ كان ضخما إذا قورن بعُملة العصر، فقد عجزت الصّحف الوطنيّة عن دفعه فتوقّفت عن الصّدور. ولما رفع الضّمان المالي سنة 1904 أخذ علي بوشوشة وصحبه يخطّطون لخروج الحاضرة من المطبعة الرّسميّة، حتي تتحرّر جريدته من المراقبة الشّديدة التي يسلّطها عليهم الكاتب العام للحكومة بنفسه. وكان بوشوشة يتذمّر من هذه المراقبة التي تلقاها جريدته دون سائر الجرائد الوطنيّة. وأدّى به الحال في آخر الأمر إلى توجيه رسالة إلى الكاتب العام للحكومة ينبّهه فيها إلى ما تتعرّض له جريدته من تضييق ومحاصرةٍ، ويعلمه بأنّ الجريدة ستغيّر المطبعة ابتداء من أوّل جانفي 1907.

وقد عبّر بوشوشة عن هذا الضيق والتضييق على جريدته عند بلوغ «الحاضرة» سنتها العشرين، فقال:« جعلت تحت المراقبة حيث كانت تطبع بالمطبعة الرّسميّة تربطها بالدّوائر الإداريّة هذه الرّابطة الخصوصيّة». وصرّح «بأنّ هذه العلاقة الإداريّة لا تسمح لها بإطلاق عنان البحث في سائر المواضيع السّياسيّة والمسائل العامّة بما ترتضيه لنفسها أو يتمنّاه الجمهور لها من التوسّع والتّصرّف في الحرّية، فرضخت لحكم القدر عالمة مقدار ما في هذا التقييد من التحرّز والضّرر. ولقد هانت وطأة هذه الحالة على النفس وإن عزّت عليها إذ كانت الجريدة بحاضرة تونس بل والمغرب الأقصى وطرابلس الغرب فريدة في بابها، رائجة عند طلاّبها، مقيّدة بسلاسل الضمان، وقد اقتحمت مشقته عدّة أعوام».

وتسنّى لها ابتداءً من سنة 1907 أن تتحرّر من كابوس المطبعة الرسميّة ومن المراقبة التي كانت تخنق أنفاسها. وكان علي بوشوشة يتعذّب ويتحرّق شوقا إلى يوم الخلاص من التبعيّة الإداريّة إذ لم يكن راضيا على وضع «الحاضرة» التي تبدو كأنها موالية لإدارة الحماية، كما كان يتذمّر من الحال التي وصلت إليها بلاده، فكانت

«الحاضرة» لديه منبرا يفرّج من خلاله عن كربته ومايعتلج في صدره من آلام وآمال. وتحوّل التذمّر إلى سخط وتنديد بالحماية التي كان يظنّ أنّها ظرفيّة، وإذا بها تتحوّل إلى احتلال عسكري واستعمار فلاحي دائمين وتتحوّل افتتاحيّات «الحاضرة» كذلك إلى سياط تهوي بها على ظهور المستوطين الأجانب، ومن ورائهم الإقامة العامّة والإداريّين الذين كانوا يغضّون الطرف عن صنيع المعمّرين، ويصرّحون في الظاهر بأنّهم غير راضين على ممارسات المعمّرين تجاه الأهالي.

تفطّنت «الحاضرة» إلى أنّ الإقامة العامة تترفّق بالأهالي في الظّاهر ولكنّها في الواقع تساند المستوطين بسنّ القوانين المجحفة والجيش المدجّج بالسّلاح، فشرعت تنتقد سلوك الحماية إقامة عامة ومستوطنين وإداريّين، يظهر ذلك من استخدام عناوين افتتاحياتها بعد أن غادرت المطبعة الرّسميّة.

وذهب الأمر «بالحاضرة» إلى دعوة التّونسيّين إلى النضال ورفض سياسة الحماية مادامت لم تُصغ إلى شكاويهم وعرائضهم، ونبّهت إلى أنّ الأهالي «كلّما تكبّدوا غبنا وإجحافا بتلك الحقوق، اقتصروا في رفع الظلامة على التأسّي والتأفّف أو رفعوا عرائض كثيرا ما تُودع في محافظ الأوراق دون أثر يظهر للعيان، ولذلك تجرأ بقية العناصر على الاسترسال في طريق الاستئثار بمنافع البلاد وابتزاز خيراتها، واستخراج كنوزها بقوة الجاه ومعول الجدّ، وما العيب إلاّ على الأمّة التي تستيئس وتسامح ولا تعارض أو تناطح، ولا تتحرّك لتوغل يد الاعتداء في أحشائها، ولا تطالب بحقوقها المشروعة»

وكان مدير «الحاضرة» يلجأ عادة إلى صبّ جام غضبه على المأمورين أي الإداريّين الكبار من أمثال دلماس(Delmas) مدير المدرسة الصادقية الذي أطرد التّلامذة التونسيّين من دروس التّرجمة، فخرجوا من قاعة الدّرس وهم يبكون. والواقف، كما تقول «الحاضرة»، «على تصرّفات أولئك المأمورين يخيّل له أنّ كلّ مأمور أصبح سلطانا مهيمنا بل جبّارا متسيطرا في دائرته الإداريّة الفرعيّة لا تصدّه عن استبداده سلطة رئيس أو سطوة مدير، وقد يحمل المأمور المستبدّ خيلاؤه وغروره بسطوة المأموريّة واستوائه على عرشها وتربّعه في دستها، أنّه لا قوام لتلك المصلحة إلا بوجوده رئيسا أو مهيمنا عليها بما له من المعلومات المحدودة والمعارف المعدودة». ووجد جماعة الحاضرة في دعاة التحرّر والإنصاف من الكُتّاب والسّاسة الفرنسيّين سنداً للمسألة التونسيّة.

أما مدير «الحاضرة» فقد كان على يقين من أنّ الجور والاعتساف مآلهما الزّوال. وتاريخ الأمم التي حلّت بهذا القطر غازية وفاتحة دليل على ذلك، يقول بوشوشة: «إنّ الأقدار أحقّ بالانتصار، وسلطان الجور مخذول زائل، بل إلى التقهقر والاندثار آيل، يدلّ على ذلك تاريخ الأمم التي تتالت على هذه الديار وخلّفت فيها ما يقضي بالتبصّر والاعتبار».

وهكذا مرّت «الحاضرة» في علاقتها بنظام الحماية بمرحلتين واضحتين: مرحلة القبول بهذا النظام مسايرة وعوده في تمدين الأهالي ببناء المدارس ونشر التعليم. ولمّا تبيّن لها أنّ الإدارة الاستعماريّة لم تف بوعودها، وأنّها انتصبت بتونس للاستئثار «بمنافع البلاد وخيراتها واسترقاق التّونسي وحرمانه من نعمة العلم والمعرفة حتى ينقاد مذعوراً لمسترقّه لا يصاوله أو يطاوله ويزاحمه»، تحوّلت «الحاضرة» إلى التشهير والتّنديد بهذا «الضّيف الثّقيل» داعية إلى النّضال للفوز بمطالب الأهالي وهي التمتّع بخيرات بلادهم وإشراكهم في إدارة مصالحها. وهي الخطوة الأولى نحو استقلال البلاد واسترجاع سيادتها المفقودة.



محمد علي الحامّي

[1890–1928م]

هو محمد بن علي بن المختار الغفّاري شهر الحامّي. ولد بالقصر من حامة قابس، مسقط رأس الطاهر الحدّاد رفيقه في النضال النقابي، في أواخر الثمانينات من القرن التاسع عشر وعلى أكثر تقدير سنة 1890. ونستشفّ من مجموع وثائق الأرشيف الفرنسي والشهادات التي خصّت بالذكر جوانب من حياة هذا الزّعيم النّقابي ونضاله، أنّه رائد الكفاح الاجتماعي الوطني وباعث أوّل منظّمة نقابية تونسية مستقلّة عرفت باسم جامعة عموم العملة التونسية (C.G.T.T).

لم يذُق طوال حياته القصيرة، المليئة بالمخاطر والمحن، طعم الرّاحة. لكنّ حوادث الأيّام أكسبته عصاميّة نادرة: فهو، كما ذكر رفيقه الطاهر الحدّاد، "ابن سعيه في تخريج نفسه من كلّ الجهات". شظف العيش بجهة الأعراض أجبره على النّزوح في سنّ مبكّرة صُحبة والده إلى تونس العاصمة. ولقد اشتغل آنذاك في السّوق المركزية (فندق الغلّة) حمّالا ينقل البضائع المشتراة من هناك إلى المنازل ثمّ التحق بخدمة القنصل النّمساوي بصفة عون لقضاء شؤون عامة. وتحصّل على شهادة سياقة السيّارات في 26 فيفري 1908 حسب ما جاء في الدفتر عدد 1 للإدارة الجهوية بتونس، التابعة لوزارة النقل والمواصلات. وتعاطى، كما ذكر الحدّاد، سياقة "الأتومبيلات" (السيّارات).

وتفاعلت الحياة المهنية والاجتماعية للشّاب محمد علي مع حدثين هامّين كان لهما تأثير عميق في سيرته الشخصية:

1) اكتمال المشروع الاستعماري الرّامي إلى استغلال خيرات البلاد الفلاحية (الاستحواذ على أخصب الأراضي وتمكين المعمّرين منها بتسهيلات مهمّة) والمنجميّة (الفسفاط والحديد في الجهة الغربية من البلاد) في عهدي المقيمين العامين: ستيفن بشون (ديسمبر 1900 – جانفي 1907) وغابريال ألابُوتيت (جانفي1907 – نوفمبر 1918) وهو ما زاد في احتداد التناقضات بين الجالية المستعمرة والأهالي وترتّب عليه تفقير هؤلاء فنزحُوا أفواجا إلى العاصمة وعمّت ظاهرة التشرّد وتعددت "التكايا" (جمع "تكية" أي مأوى العجز).

2) أما الحدث الثاني فهو الحرب الطرابلسية سنة 1911 إثر الغزو الإيطالي وما أثار من رُدود فعل لدى السلطة العثمانية من جهة وصُمُود المجاهدين الليبيين وتضامُن التونسيين معهم من جهة أخرى.

ويبدو أنّ محمّد علي سافر إلى إستانبول بحرا سنة 1911. وكان مُشاركا في الجهاد المفروض على المسلمين ضدّ الاستعمار الإيطالي، إذ يذكر المحامي محمد نعمان أحد أعضاء حركة الشّباب التونسي أنّه التقى بمحمد علي في تركيا سنة 1912. وكان خروج محمد علي من البلاد اندفاعا لإحساسه الإسلاميّ. وسافر إلى بلاد الشرق من تركيا إلى مصر ثمّ طرابلس الغرب.

وأورد محمد علي بعض التفاصيل عن الفترة التي قضّاها ببلاد الشرق في أثناء الحرب العالمية الأولى - وذلك في الرسالة التي وجّهها من برلين يوم 20 نوفمبر 1922 إلى ابن عمّه بلقاسم الشافعي (1891–1969) المستقرّ بباريس منذ 1913 – أنّه تعرّف إلى القائد التركي أنور باشا (1882–1922) أحد زعماء جمعية الاتحاد والترقّي التي وصلت إلى الحكم في الأستانة عام 1908، وقاد الجيش العثماني في حربي طرابلس والبلقان كما أقرّ بمشاركته بجانب هذا القائد في غمار الحرب العالمية الأولى بالمشرق العربي وحصوله على رُتبة ضابط.

وتحدّد هذه الرسالة على نحو إجماليّ تاريخ

انتقال محمد علي صحبة أنور باشا من إستانبول بتركيا إلى برلين بألمانيا إثر هدنة مُودروس (30 أكتوبر 1918) المبرمة بين الإمبراطورية العثمانية والحلفاء. ويفضّل محمد علي البقاء ببرلين على مصاحبة أنور باشا إلى تركستان بالاتحاد السوفياتي وينكبّ على الدرس والمطالعة، وهو ما مكّنه من الالتحاق بإحدى الجامعات الشعبية الحرّة: جامعة Humboldt ببرلين، حيث تابع دروسا في الاقتصاد السياسي. وكان الوضع السياسي والاجتماعي في ألمانيا إثر الحرب مشحونا بالاضطرابات والأزمات التي عصفت بالحزب الاشتراكي ومهّدت الطريق للمدّ الشيوعي (الحركة السبارتكية) ولتصدّع الحركة النقابية. هذا الوضع تابعه محمد علي عن كثب بحكم إتقانه اللغة الألمانية واطّلاعه على نشاط "النادي الشرقي" ببرلين الذي ترأّسه الأمير شكيب أرسلان صديق أنور باشا بداية من شهر فيفري 1921.

فلا غرابة إذن في أن ينتاب الشاب محمد علي الذي "كوّن نفسه بنفسه" وشاهد تحوّلات الامبراطورية العثمانية وألمانيا إثر الحرب شُعُورٌ صادق عميق بالحيرة إزاء مصير بلاده وأهلها التي هاجرها سنة 1911. ولقد اطّلع عن كثب في أثناء زيارته إلى تونس في العطلة الجامعية لسنة 1923 على حالة السكّان ببعض الجهات وخاصّة بحامّة قابس والمدن التي كانت في طريقه إليها وعلى الحالة السياسية للبلاد. فقد كانت الحركة الدستورية تمُرّ بشبه انتكاسة داخلية إثر تأسيس الحزب الإصلاحي وهجرة الشيخ عبد العزيز الثعالبي إلى الشرق (جويلية 1923). ولم تكُن الحركة اليسارية أحسن حالا إذ كان الصراع على أشدّه بين "الشقيقين العدوّين": الفيدرالية الاشتراكية بتونس التابعة للحزب الاشتراكي الفرنسي (S.F.I.O) وجامعة الحزب الشيوعي بتونس (S.F.I.C) التابعة للأممية الثالثة.

وعندما رجع محمد علي نهائيّا من برلين في أوائل مارس 1924، كانت البلاد تعيش غليانا اجتماعيا أجّجته الأزمة الاقتصادية لسنة 1923 وأطّرته الثقافة الشعبية السياسيّة (الصحافة، المسرح، الجمعيات الثقافية والرياضية، المقاهي...). وهي الثقافة التي أفرزتها تحوّلات ما بعد الحرب. وليس من باب الصدفة أن يكون مقرّ "الجمعية الخلدونية" المكان الملائم الذي بيّن فيه محمد علي الخطوط الكبرى لبرنامجه الاقتصادي الاشتراكي الرامي إلى تأسيس شركات تعاونية زراعية وصناعية وتجارية ومالية في أهمّ مراكز البلاد، بيد أنّ الظروف السياسية (هيمنة رأس المال الأجنبي وسيطرته على الدواليب الاقتصادية) وحالة التخلّف التي كانت تكبّل المجتمع التونسي جعلت محمد علي يُدرك واقع البلاد فيوجّه عنايته إلى بعث جمعية التعاون الاقتصادي في القطاع التجاري فحسب. وكان منشغلا بضعف الطاقة الشرائية للعمّال مقارنة بزملائهم الأوروبيين وبارتفاع أسعار المواد الأولية سنة 1924.

وتأسّست هذه الجمعيّة يوم 29 جوان 1924 بفضل المساندة التي لقيتها لدى الأعضاء: الحبيب جاء وحده والعربي مامي والطاهر بوترعة والطاهر صفر والطاهر الحدّاد. وخطا المشروع في الدعاية له خطوة كبيرة غير أنّ حدوث اعتصاب عملة الرصيف بالعاصمة يوم 13 أوت 1924 –وجلّهم ينحدر من الجنوب التونسي وبالأخصّ من جهة الأعراض – غيّر مجرى الأحداث، إذ طلب العملة المعتصبون من محمد علي الذي ذاع صيته في الأوساط الشعبية النازحة بالعاصمة أن يتولّى أمرهم. فتكوّنت لجنة عمل متركّبة من محمد علي وأحمد توفيق المدني وأحمد بن ميلاد والمختار العيّاري وانتخب العمّال لجنة إضراب تتكوّن بالخصوص من البشير بودمغة والبشير الفالح. وكان هذا الاعتصاب بمثابة شرارة انطلاق حركة واسعة من الاعتصابات (ميناء بنزرت، معمل الآجر بمنزل جميل، عملة جبل الخرّوبة، عملة عربات النقل بسيدي أحمد).

وكان الدافع الأساسي لهذه الحركة

الاجتماعية الميز العنصري الذي كان مسلّطا على العملة من الأهالي (الفارق في الأجور وظروف العمل) وغطرسة رأس المال الأجنبي الذي استغلّ اليد العاملة التونسية بلا حدّ وغلاء المعيشة الذي عصف بضعاف الحال في صائفة 1924. ويشهد أحمد توفيق المدني، عضو اللجنة التنفيذيّة للحزب الحرّ الدستوري التونسي، المسؤول عن القلم العربي ومُمثّل الحزب في لجنة الاعتصاب أن محمد علي كان يُحدّثه "في الاقتصاد والعمّال، والحركات الاجتماعيّة، ووجوب تحرير الفرد من ربقة المؤسسات. وتلك موضوعات لم تكن-والحقّ يقال- ضمن دائرة أعمال (الحزب) وما اشتغل (...) قبل ذلك بقضيّة العمّال باعتبارها قضيّة خاصّة".

وبدأت فكرة بعث منظمة عمّالية مستقلّة عن اتحاد النقابات الفرنسي تشقّ طريقها في أوساط العمّال التونسيّين. وشرع محمد علي في تشكيل هيئات نقابية تونسية منتخبة. وحصل على مساندة بعض الدستوريّين وبالأخصّ أحمد توفيق المدني الذي نصحه بأن تكون هذه المنظّمة مستقلّة عن الأحزاب السياسية. وشكّلت علاقة محمد علي الحامي بالأحزاب السياسية إثر تأسيسه لجامعة عموم العملة التونسيّة محور بحث وجدل في أوساط المؤرّخين والسياسيّين. وأوّل من أبدى تحفّظه من الحركة العمّالية المستقلّة ثم معارضته لها وهي في طريق التكوين اتحاد النقابات الفرنسي بتونس وبالأخصّ كاتبه العام: الاشتراكي "جواشيم دُورال" Joachim Durel. وقد حظيت هذه المعارضة بظروف ملائمة تمثّلت في الدعم الذي وفّره لها انتصار كُتلة اليسار Cartel des Gauches المكوّنة من الحزب الاشتراكي والحزب الرّاديكالي في الانتخابات التشريعية الفرنسية يوم 11 ماي 1924، فقد أوفد رئيس الحكومة الائتلافية الراديكالي إدوار هريُو Edouard Herriot (1924-1925) ليون جُوهُو Léon Jouhaux الكاتب العام للكنفدرالية العامة للشغل (C.G.T) إلى تونس لدراسة المسألة العمّالية.

ولم يوفّق جُوهُو في محاولته إقناع القادة النقابيين التونسيين بالعدول عن تأسيس حركة عمّالية مستقلّة. انتخبت اللجنة التنفيذيّة الوقتية لـ "جامعة عموم العملة التونسية" يوم الاربعاء 3 ديسمبر 1924 في قاعة الشغل بنهج الجزيرة. وانتخب محمّد علي كاتبها العام وإبراهيم بن عمر كاتبا مُعاونا ومحمّد قدّور أمين مال والبشير الجودي مساعدا لأمين المال. أمّا في لجنة الدعاية، فقد انتخب الطاهر الحدّاد والمختار العيّاري ومحمود الكبادي ومحمّد الغنّوشي والبشير الفالح. وفي لجنة المراقبة انتخب أحمد الدرعي ومحمّد الخياري والطاهر عجم ومحمد الدخلاوي.

وأظهر الحزب الشيوعي بتونس مساندة فعلية للجامعة اقتضتها رؤيته الإستراتيجية المنادية بدعم حركة التحرّر الأهلية في المستعمرات واعتبار ذلك إسهاما مهمّا في إضعاف الإمبريالية العالمية. وتبعا لذلك جنّد الشيوعيّون كلّ إمكاناتهم لدعم حركة محمّد علي خصوصا أنّ منظّمتهم النقابيّة الكنفدرالية العامّة للشغل الموحّد (C.G.T.U) لم تفلح في إزاحة اتحاد النقابات سنة 1922. فأحاط الشيوعيّون بجامعة عموم العملة التونسية "إحاطة السّوار بالمعصم" وبرز منهم بالخصوص جان بُول فيندُوري Jean Paul Finidori والمختار العيّاري. ويشهد الزعيم الشيوعي جُون بُول فيندُوري أنّ محمد علي ظلّ طوال نضاله النقابي (1924-1925) "الخادم الوفيّ والنزيه للطبقة الشغيلة التونسيّة".

وبقدر ما كان الشيوعيون مؤازرين موضوعيا لجامعة عموم العملة التونسية، كان موقف الحزب الحرّ الدستوري التونسي حذرا. ويفسّر هذا الحذر بالرؤية التكتيكيّة التي كانت سائدة لدى الأغلبيّة من أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب وهي أولويّة الظفر بمساندة الحزب الاشتراكي

الفرنسي ورفض التحالف مع الشيوعيّين. ويكمُن هذا الرفض في تباين طبيعة الحزبين: حزب وطني إصلاحي (الحزب الدستوري) يقابله حزب ثوري أممي (الحزب الشيوعي). ومن ثمّ يتجلّى تراجع موقف الحزب الحرّ الدستوري الذي أسهم في البداية إلى حدّ ما في بعث جامعة عموم العملة التونسيّة ثم أبدى تحفّظه منها أمام الضغوط التي سلّطها الاشتراكي دورال.

وفي تلك الظروف كان من اليسير على المقيم العام الداهية لوسيان سان Lucien Saint (1920–1929) أنّ يستغلّ هذه المعطيات ليقدّم محمد علي الحامّي في صورة "العدو اللّدود" لفرنسا الذي صنعته "تركيا وألمانيا البغيضتين" جاعلا من جامعة عموم العملة التونسية منظّمة ملّية متعصّبة متواطئة مع الشيوعيّة العالمية تعمل على ضرب المصالح الفرنسية وداعية إلى إسالة الدماء وطرد كلّ الأجانب. وترصّد المقيم العام فرصة الدعم الذي قدّمته جامعة عموم العملة التونسية لحركة اعتصاب عمّال شركة الجير والإسمنت بحمّام الأنف يوم 19 جانفي 1925 ثمّ حركة الاعتصاب لعمّال برج السدريّة لشنّ حملته القمعيّة بعد أن حصّل على موافقة رئيس الحكومة إدوار هريو.

ففي يوم 5 فيفري 1925 تمّ إيقاف محمّد علي والمختار العيّاري وأودعا السّجن المدني مع فيندوري ممثل الحزب الشيوعي في تونس بتهمة التآمر على أمن الدولة. فتظاهر حشد من العمّال بشوارع العاصمة وألقى البوليس القبض على محمود الكبادي ومحمّد الغنّوشي وعلي القروي. وبعد أيّام قليلة تدارس الاشتراكيّون بتونس يوم 21 فيفري 1925 مع ممثّلين عن الحزب الحرّ الدستوري التونسي والحزب الإصلاحي والمجلس الكبير واتحاد النقابات بتونس خطر الوضع الداخلي. وباقتراح من دورال وقع على نصّ بلاغ صدر بجريدة "النهضة" يوم 22 فيفري 1925 تضمّن دعوة إلى العملة التونسيين كي ينضّموا إلى الكنفدرالية العامة للعمل الفرنسية.

وبدأت محاكمة المسجونين النقابيّين يوم الخميس 12 نوفمبر 1925. ودامت خمسة أيّام فحُكم على محمد علي والمختار العيّاري و"فيندوري" بالإبعاد خارج تونس والتراب الفرنسي لمدّة عشر سنوات، وعلى محمد الغنّوشي ومحمود الكبادي وعلي القروي بخمس سنوات نفيا. ونُفّذ الحكم عشيّة يوم 28 نوفمبر 1925 فأركبوا البحر إلى إيطاليا إلاّ محمود الكبادي الذي بقي ينتظر التعقيب فأيّد الحكم الأوّل، وأركب بعد شهر إلى منفاه. وألقى البوليس الإيطالي بنابولي القبض على المجموعة المنفيّة (محمد علي ومحمد الغنوشي وعلي القروي والمختار العيّاري) وأبقاها في الإيقاف التحفّظي من 6 إلى 12 ديسمبر 1925. ثمّ اتّجهت المجموعة نحو الحدود الإيطالية اليوغسلافية. ومنها وصل محمد علي إلى تركيا، إلاّ أنّ سلط هذه البلاد منعته من الإقامة بها فاتّجه إلى طنجة في محاولة للالتحاق بثورة عبد الكريم الخطّابي بالرّيف المغربي. لكنّ السلطة المحلية قبضت عليه وأصدرت في شأنه قرار رفت بتاريخ 2 مارس 1926، واقتيد إلى مرسيليا. ولا نعلم على نحو يقيني كيف تحوّل إلى مصر حيث استقرّ بعض الوقت ثم انتقل إلى الحجاز. ويذكر "صديق له" أنّ الأمير ابن السعود عرض على محمد علي إحدى الوظائف السامية في مصلحة البريد. لكنه أبى واختار أن يبقى حرّا يلقي دروسا في الاقتصاد بمدرسة "الفلاح" ثم تعاطى مهنة سياقة سيارات الأجرة بين جدّة ومكّة إلى أن وافاه الأجل في حادث اصطدام بوادي المصيلة يوم الخميس 20 ذي القعدة 1346 الموافق ليوم 10 ماي 1928. وتناقلت الصحف التونسية الناطقة باللغة العربية نبأ الفاجعة: "الوزير" (7 جوان 1928) و"الصّواب" (أعداد يوم 8 و15 و22 جوان 1928).



محمّد الحبيب

[1903 ـ 1986م]

ولد محمّد بن أحمد الحبيب بتونس في 20 أوت 1903 وهو ينحدر من أصل تركي. زاول دراسته بجامع الزيتونة وانقطع عنها قبل التطويع لينخرط في سلك التعليم بالمدرسة القرآنية الأهلية، بإدارة الشيخ محمد مناشو.

اشتغل محرّرا في الصحافة سنة 1920 وأصدر مجلة «البدر» سنة 1922 ثمّ تولى رئاسة تحرير «لسان الشعب». ألّف الكثير من الكتب المدرسية منها «لبّ التاريخ» و«درس النحو» و«دروس الفقه والتوحيد» و«قطع مختارة من الأدب العربي» كما نشرت له بعض القصص: «بسالة تركية» و«وطنية الأتراك».

وفي أوّل جانفي 1930 انخرط في سلك الوظيفة بوزارة العدل حتى سنة 1947 وباشر في أثناء ذلك رئاسة ديوان مشيخة الإسلام وقلم الإرشاد في القضايا الجارية بالمحاكم الشّرعية على مقتضى المذهب الحنفي. وفي سنة 1950 انخرط في سلك المحاماة لدى المحاكم التّونسية ودائرة النّقض والإبرام.

دخل مجال التّمثيل سنة 1921 مصحّحا للإنتاج باللغة العربيّة ونصيرا لجمعية «الآداب». وفي موسم 1923 أصبح مساعد مخرج في «التمثيل العربي» وفي أكتوبر 1925 تولّي رئاسة «هواة الفنّ» ثمّ عيّن كاتبا عاما «للمستقبل التمثيلي» سنة 1927 فمديرا فنيا لجمعية «السعادة» سنة 1930 ثمّ تولّى الخطّة نفسها في «التمثيل العربي» سنة 1935 ثمّ عيّن مراقبا عامّا للاتحاد المسرحي عند تأسيسه سنة 1936.

وفي غضون سنة 1938 أي بعد إنشاء الاتحاد المسرحي بسنتين أسّس جمعية «الكوكب التمثيلي» التي كان شعارها الفنّ فوق كلّ اعتبار. وظهرت جمعيّة الكوكب في الفترة التي خسر المسرح التونسي فيها من رواده كل مثقّف ومضت سنوات لم ينجب ممثلا جديدا أو ممثلة، كما خمدت حركة التأليف والترجمة وانحطّ الذوق إلى حدّ التهريج فكابدت تلك الجمعية وتكبدت تضحيات جساما واعترف لها الجميع بالجهود الجبارة التي بذلتها. وتعاطى محمد الحبيب النقد المسرحي وله سوانح عن التمثيل في تونس نشرت «بالنهضة» من 19 ماي إلى 29 جويلية 1932 وهي تعدّ من أهمّ المراجع التي يمكن للباحث في تاريخ المسرح التونسي أن يعود إليها.

ويعدّ محمّد الحبيب من كبار المؤلّفين المسرحيّين التّونسيين وأغزرهم إنتاجا.

ومن مسرحياته نذكر «روي بلاس» (ترجمة صالح رضا الأحمر ومحمد الحبيب) و«الأحدب» (ترجمة البشير المتهنّي ومحمّد الحبيب) و«السفاح» (ترجمة المذكورين) و«الواثق بالله الحفصي» و«فتح فارس» و«الرشيد والبرامكة» و«أمير سجلماسة» و«طارق بن زياد» وغيرها... وقد قدمت له فرقة مدينة تونس منذ بضع سنوات مسرحية «أخلاق العصر» أو «جيل اليوم» التي كان قد اقتبسها سنة 1929 عن «العصفور في القفص» لمحمد تيمور.

وقام محمّد الحبيب بدور كبير في الرّفع من مستوى الأغنية التّونسية وحمايتها من المسخ والتّشويه وذلك بانضمامه إلى المعهد الرشيدي منذ تأسيسه في أواخر 1934.

وتولّى أيضا تدريس تاريخ المسرح والموسيقى بالمعهد القومي للموسيقى والتّمثيل والرّقص.

الحدائق الوطنية والمحميّات والمواقع الطبيعية

لقد انتهجت تونس حفاظا على التراث البيئي سياسة لحماية فضاءاتها الطبيعية واعتبرتها مناطق ذات أولوية وصنّفتها ضمن الحدائق الوطنية.

– بحيرة إشكل (12،600 هكتار): تحوي هذه الحديقة 600 جنس من النباتات و200 ألف إلى 300 ألف طير من الطيور المائية المشتّية، وهي تنتمي إلى 180 جنسا. وتقع في سهل ماطر، وهي الموقع الطبيعي الوحيد في العالم المرسّم بالاتفاقيات الدولية الثلاث لحماية الطبيعة: اتفاقية «رمسار» حول المناطق الرطبة واتفاقية «التراث العالمي لليونسكو» واتفاقية «الإنسان والمحيط الحيوي» (اليونسكو).

– جبل الشعانبي (6723 هكتار): يحتوي جبل الشعانبي وهو أعلى مرتفع في تونس (1544م) على غابة من الصنوبر الحلبي. ويوجد بهذه الحديقة الوطنية 100 جنس نباتي و24 فصيلة من الثدييات و16 جنسا من الزواحف والضفدعيات، وهي بالخصوص محميّة للغزلان والضباع.

– جبل بوقرنين: يحوي نباتات غابية وثروة حيوانية متنوّعة. ويختص هذا الجبل بنباتات بخور مريم من النوع الفارسي.

– الفايجة: غابة من أشجار الفلّين والزّان وثروة نباتية متنوّعة تشتمل على 500 نوع من السحلبيات والسرخس بالإضافة إلى 25 جنسا من الثدييات والزواحف والبرمائيات.

– جبل بوهدمة: فيه 300 جنس نباتي منها بقايا سبسب «أقاقيا راديّا» (وهو شجر الصمغ أو السنط)، كما يحتوي على ثروة حيوانية متعدّدة الأجناس (الأروية والنعام والضباء والغزلان...)

– سيدي الطوي: تقع هذه الحديقة على مشارف الصحراء، جنوبيّ بن قردان وتحتوي على أجناس حيوانية ونباتية تختصّ بها المناطق القاحلة.

– جزيرة زمبرة: (389 هكتار) تقع في عرض خليج الحمامات وتشكّل وسطا طبيعيّا جزيريّا فريدا في البحر الأبيض المتوسط.

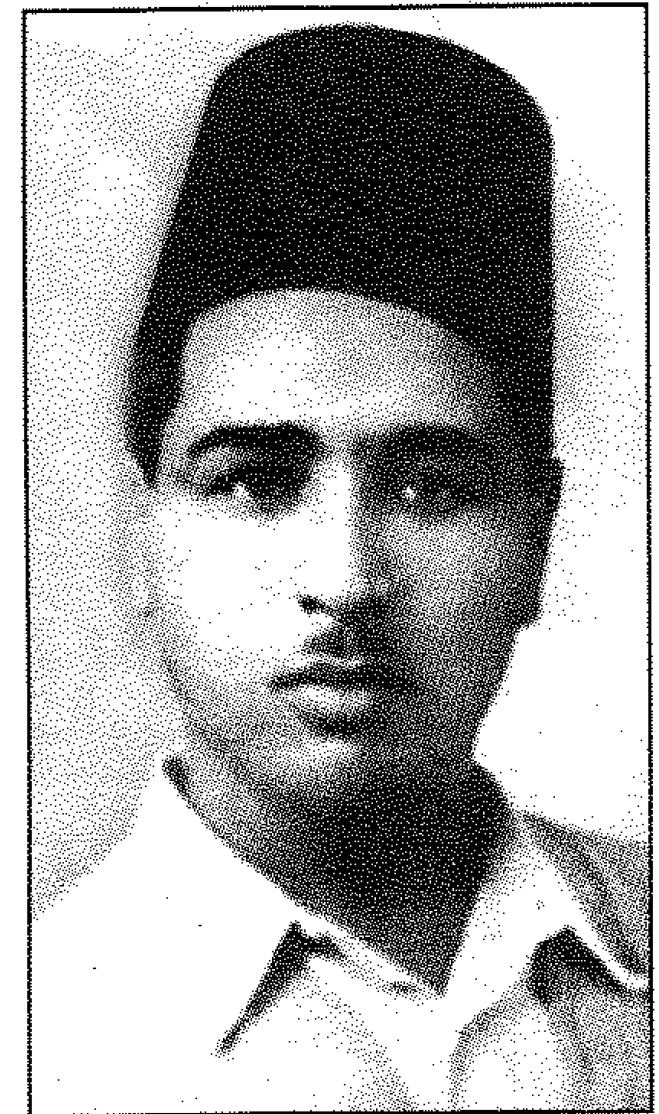
أمّا المحميات الطبيعية في تونس فيبلغ عددها 16، من بينها محميّة محيبس لحماية الأيّل البربريّ، ومحميّة خشم الكلب التي تمسح 200 هكتار، وهي مخصّصة لغزلان الجبال، ومحميّة جالطة الصغرى لحماية الفقمة، ومحميّة شكلي لحماية مواقع تعشيش البلشون الأبيض ومحميّة ماجن الشيطان ومحميّة كهف الخفافيش بالهوّاريّة.

إنّ الأجناس الحيوانية المحمية هي التي يُمنع صيدها وإبادتها واقتناصها وبيعها وشراؤها، وهي بالخصوص الفقمة والأيّل البربري والباز والغزال والورل والفنك والسلحفاة البحرية والبريّة والنّهرية وعقاب بونلّي وجاموس بحيرة إشكل والأروية والوشق والشيهم والخفّاش والقنفد الأبيض والقطّ الوحشي والقندس والخنزيرة البريّة ذات الجراء والخنّوص الوحشي وجميع الكواسر الليلية والنهارية. ويمنع القانون التونسي شراء كلّ الطيور الصغيرة المغرّدة وبيعها ونقلها.

وقد حُدّد 14 موقعا طبيعيّا حسّاسا للحفاظ عليها ولإيواء أجناس حيوانية خاصّة ذات قيمة بيئية واقتصادية، باعتبارها منظومات إيكولوجية هشّة، وهي:

– وادي العطاطفة (غابة فلّين).
– محدّب جبل عبد الرحمان (غابة بلّوط القرمز).
– غابة كسرى (صنوبر حلبي).
– موقع بوعبد اللّه (سرو مكثّر).
– موقع جبل السرج (قوقب مونبوليي).
– منطقة بوزيان، القلال، مكناسي (فستق الأطلس).
– منطقة جبل سيدي عيش (حلفاء السباسب العليا).

– منطقة جبل الطلح، القطار (شجر الصمغ: أقاقيا رادينا)
– منطقة رجيم معتوق وموقع الغويبة السوداء.
– موقع توجان (العرعر الأحمر بجبال مطماطة)
– منطقة العرق الشرقي الصحراوية بجبيل.
– سبخة سيدي علي المكّي والوافي، سبخة الشمال.
– بحيرة غار الملح.
– الزيرات والعيون والواحات الطبيعية الصغرى بنفزاوة.



الطّاهر الحدّاد
[1899 - 1935م]

كاتب سياسيّ واجتماعيّ من كبار بناة الفكر التّنويري التونسي والعربي المهتمّين بقضايا النّهضة والحضارة والحداثة والتحرّر.

ولد الطّاهر الحدّاد بالعاصمة سنة 1899، ونشأ في وسط عائلي شعبي فقد انتصب والده علي بن بلقاسم الفطناسي الحدّاد بائع دواجن بدكّان في السّوق المركزي بالعاصمة، بعد نزوحه من حامّة قابس. تلقّى الصّبي تعليما دينيا بالكتّاب ثم التحق بجامع الزّيتونة. وقد ازدادت ثقافته العامّة سعة بتفتّحه على الثّقافات الأجنبية عن طريق التّرجمات إلى العربية حينما كان يتردّد على «الجمعية الخلدونيّة» و«النادي الأدبي لقدماء الصادقية» ومكتبتيهما، على غرار صديقه أبي القاسم الشابي (1909–1934).

وصادف التحاقه بالزّيتونة انتفاضة شعبية على الاستعمار بالعاصمة في 7 نوفمبر 1911 وهي واقعة الزلاّج التي سال فيها الدّم وآلت إلى نصب المقاصل في ساحة باب سعدون لإرهاب الجماهير الشعبيّة بمشاهدة إعدام بعض الثّائرين، كما أفضت إلى فرض الأحكام العرفيّة، وضرب الحصار على مدينة تونس وضواحيها، وإلقاء القبض على القادة السّياسيّين لمجموعة «الشّباب التونسي» وفي مقدّمتهم علي باش حانبه (1876–1918) وعبد العزيز الثّعالبي (1874–1944).

ولا شكّ في أن هذه الواقعة ومخلّفاتها (حوادث الترامواي، فيفري–مارس 1912)، وأحداثا أخرى ضد الاحتلال الفرنسي كانتفاضة فلاّحي الفراشيش بجهة القصرين (1906)، والانتفاضة المسلّحة بالجنوب التّونسي (1915–1916) قد تركت عميق الأثر في نفس الفتى الطّاهر الحدّاد وأرهفت حسّه الوطني، فشب على حبّ الوطن من ربيع حياته. وتجلّى ذلك الحبّ في كتاباته النّثريّة والشّعريّة كما في قوله من قصيد «الوطن» (بسيط):

شربت حبّ دياري مذ نشأت بها
طفلا وقد عمّ أحشائي وأوصالي
عرفت منّتها الكبرى عليّ ولم
أنس الفروض التي تقضى بأمثالي
من كلّ حرّ أصاب الكرب موطنه
فقام يسعى بأفكار وأعمال

تخرّج الطاهر الحدّاد في جامع الزيتونة محرزا شهادة التطويع في سنة 1920. وأفاد معلومات قضائية عصرية من دراسة القانون بمدرسة الحقوق التّونسية التي لم يلازم دروسها بانتظام لانهماكه شبه الكلّي في العمل السّياسي

والاجتماعي وانشغاله بالكتابة المواكبة لمراحل كفاحه طوال العشرية (1920–1930)، فانقطع عن دارسة القانون، ثمّ عاد إليها ليجتاز امتحان شهادة الحقوق التونسيّة وينجح في جزئها الأول (دورة جوان 1930).

ويظهر أنّه لم يكن راضيا عن النّظام التّعليمي التّقليديّ بالزّيتونة كما شهد بذلك صديقه ولزيمه في الكفاح أحمد الدّرعي (1902–1965) وكما تؤكده وثيقة نقديّة يظهر أن الحدّاد كتبها حينما كان طالبا بالزيتونة بعنوان: «التعليم الإسلامي وحركة الإصلاح في جامع الزيتونة». وفيها يبرز بوضوح فكره التّنويري في مرحلة شبابه الأوّل ويتأكّد منحاه العقلاني التّحديثي المبكر في مناداته «ببث الرّوح العلميّة واحترام حرية الفكر»، لا حشو الأدمغة «بالحفظ والنّقْل» في تعليم الناشئة، متجاوبا بذلك مع شيخه محمّد النّخلي (1867–1924) الذي سلك في دروسه مسلكا اجتهاديا.

وفور انبعاث الحزب الحرّ الدستوري التونسيّ (جوان 1920) انضمّ إليه الحدّاد وتآلف مع مؤسّسه الشّيخ عبد العزيز الثّعالبي الذي كلفه بنشر الدعاية لحركته بالمقالة والقصيدة والعمل الميداني. ثمّ فترت علاقته بالقيادة الرّاكدة الباقية في البلاد بعد خروج مؤسّس الحزب إلى المشرق في جويلية 1923، وبعد أن اتّسعت هوّة الخلاف بين الحدّاد ومحيي الدّين القليبي لمّا انزلقت القيادة الدّستورية في شرك مكيدة السّلط الاستعمارية للقضاء على أولى حركة نقابيّة وطنيّة ريادية في العالم العربي، فألقي القبض على زعيمها محمّد علي الحامّي (1890–1928) وثلّة من رفاقه، وهجروا إلى المنافي. وفي كتابه العمّال التونسيّون وظهور الحركة النقابيّة، تعرّض الحدّاد لظروف نشأة «جامعة عموم العملة التّونسيّة». ولمّا صدر هذا الكتاب سنة 1927 حجزته إدارة «الحماية الفرنسيّة» تحسّبا من عودة الرّوح النّقابيّة الوطنيّة.

وفي سنة 1928 نشر الحدّاد مقالات بجريدة «الصّواب» التي كان يديرها محمد الجعايبي (1880–1938) ودافع في تلك المقالات بجرأة وذكاء عن المرأة التّونسيّة وحثّ مواطنيه على تعليمها وترقيتها وإنصافها في حقوقها، فاتحا بذلك آفاقا جديدة للإصلاح الاجتماعي والتّربوي. ورأى بعد سنتين أن يجمع تلك المقالات ويدخل عليها بعض الإضافات والتعديلات ويضمّها إلى كتابه امرأتنا في الشّريعة والمجتمع الذي أصدره في أكتوبر 1930، فأثار به الضجّة الكبرى.

وكان الحدّاد هدفا في تلك الخصومة الطويلة الشّرسة لضربات القوى الأهلية المناهضة لأفكاره التحرريّة التي حرّكت الصّحافة والقصر الملكيّ وإدارة «الحماية» والفئة التقليديّة المتشدّدة من مشايخ الزّيتونة. وشارك فيها أيضا العامّة والمهمشين، فوجدوا التّشجيع من اللّجنة التّنفيذية للحزب الحرّ الدّستوريّ. وقد اتّهم الحدّاد في دينه، فرمي بالكفر، واستغنت الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة عن خدماته، قاطعة عنه مورد رزقه وهو خطّة مستكتب بإدارتها، وسحبت منه الوزارة الكبرى خطة الإشهاد بطلب من نظارة جامع الزّيتونة (وإن لم يباشر تلك الخطّة)، وضرب عليه الحصار، فعاش السّنوات الخمس الأخيرة من حياته في شبه عزلة خانقة، وانهالت عليه الكتابات التهجّمية المناهضة لمشروعه الإصلاحي، مثل كتاب: سيف الحق على من لا يرى الحق لعمر البرّي المدني وكتاب: الحداد على امرأة الحدّاد للشّيخ محمّد الصّالح بن مراد.

ولا شكّ في أنّ إقدام الحدّاد على تفجير المنظومة السّلفيّة التّقليديّة للأحوال الشّخصيّة من داخلها كان من أسباب الضجّة الكبرى عليه. ولكنْ مهما تظاهر خصومه بالغيرة على الإسلام في حملتهم العنيفة عليه فإنّ سببها الحقيقيّ العميق لم يكن دينيا بقدر ما كان سياسيا، إذ أن

مردّ الخلاف قديم بينه وبين القيادة الدّستورية التي انتقدها الحدّاد علنا في رسالته الموجهة في أوت 1932 إلى الشّيخ الثّعالبي. ولم يتردد الحدّاد أيضا في انتقاد أفراد تلك القيادة بلسان صديقه وابن قَرْيته : الحامّة محمّد علي الحامّي لمّا عرّف به في كَتَاب العمّال التونسيّون وظهور الحركة النقابيّة. وكذلك انتقدهم مباشرة في قريضه، فاتّهمهم بكسر وحدة الشّعب وراء عمّاله، إذ انضموا إلى ائتلاف أحزاب اليسار الفرنسيّة الذي يسمّيه الحدّاد «اتحاد طوائف»، فسهّلوا بذلك ضرب الحركة العمّالية الوطنية الأولى. يقول في قصيده «الخيبة» (أوت 1928) (طويل):

وللسّعي طرق في البلاد عديدة
لو أنّهم اختاروا العلا والمفاخرا
ولكنّهم خافوا وأجنوا ظهورهم
وهالهم أن يصبح الأمر ظاهرا
وكانوا مع الأعداء في كسر وحدة
بها هدّد العمال ما كان جائرا
فلم نجن من ذا غير خزي أذلّنا
جميعا ورأس القوم ظلّ مكابرا

وفي الضجّة الكبرى حول كتاب امرأتنا في الشّريعة والمجتمع استعمل الحدّاد من خصومه كبش فداء ليغطّوا به ورطتهم في تزكية انعقاد المؤتمر الإفخارستي بقرطاج (أفريل-ماي 1930). وقد جرت فعالياته قبيل صدور كتابه ذاك ببضعة أشهر. لكنّ الأعيان التّونسيّين في القيادة السّياسية والدّينيّة لم يقدروا خطر المؤتمر الصّليبيّ وخلفياته عندما قبلوا أن تدرج أسماؤهم بقائمة لجنته الشّرفيّة ولاذوا بالصّمت عند صدورها، وفي مقدمتهم ملك البلاد أحمد باي (الثّاني) ووزيره الأكبر خليل بوحاجب وثلّة من علماء الدّين الممثّلين للمالكية والحنفية، إلا أنّهم اغتنموا فرصة صدور كتاب امرأتنا في الشّريعة والمجتمع لينقضّوا على مؤلفه فأثاروا عليه الضجّة الكبرى وكفّروه واضطهدوه ليشغلوا الصّحف والرأي العامّ عن ورطتهم، ويسترجعوا مقامهم المهزوز عند جمهور المسلمين ويتظاهروا بأنهم حماة البيت وسدنة الإسلام، بعد أن بان للعيان، بالاستعراض الصليبي الضّخم ونصب أقواس النّصر، الوجه الحقيقي للمؤتمر الإفخارستي، في ظروف النّسف الاستعماري لمقوّمات الشخصيّة التونسيّة.

ونجد في شعر الحدّاد صدى لتلك المحنة والمحاصرة الشرسة التي عانى من أذاها كثيرا، كما في قوله من قصيد «إلى أيْن؟» (جويلية 1934) (متقارب):

أغني لنفسي غناء حزينا
وهل بسوى الحزن غنَّى حزين؟
شباب ولكنّه ضائع
وروح ولكن مضحّ سجين
أقام عليه ذوو المكر حصنا
على ركنه باسْم تقوى ودين

إنّ الفكر المستنير هو الّذي قاد الحدّاد إلى فتح باب الاجتهاد فيما يتّصل بالأحوال الشّخصيّة وما ارتآه من تدرّج أحكام الشريعة بخصوص تلك الأحكام. والفكر التّنويري هو الذي جعله يعمّق فهم الإسلام ويميّز بين ما هو خالد بخلوده لا يتغيّر كأركان العقيدة ومكارم الأخلاق، وما هو قابل للتّغيير والتّطوير مراعاة لمقتضيات العصر كالأحكام الشّخصيّة.

والنّهضة التي يرومها الحدّاد حداثية لا سلفية، تقوم أساسا على حركة لا تقطع مع التراث وإنما تعيد قراءته، ويدعمها عمل إبداعي متجدّد متواصل بسند صحيح في كل ميدان، ومنه «التّعمير بمعناه الحقيقي» و«الإنتاج» لا «الاستهلاك» أو «التّقليد» والإبداع الفكري والفني والسّياسي والاقتصادي والاجتماعي، واستمداد القوّة والمناعة والحرّية من «أعماق النّفس الشاعرة والفكر الذي يشعّ بالنّور. فإذا

كانت النّفس والعقل ساكنين مظلمين، فإن مجرد الآلام وضيق النفس منها لا يؤهل لشيء إلا أن تكون آلة صمّاء عمياء بيد أُخرى حسب أغراضها وبرامجها».

ويشتمل كتاب امرأتنا في الشريعة والمجتمع على قسمين رئيسين، أوّلهما تشريعي والآخر اجتماعي سوسيولوجي. أمّا الاجتماعي فتظهر طرافته في اللّوحات التّصويرية بلغتها الطلية وأسلوبها الوصفي لمشاهد اندثرت الآن في حياة الأسر التّونسية داخل البيوت ولممارسات وأقوال كانت تسيء إلى سعادة الأسر واستقرارها. أمّا القسم التّشريعي فيتضمن دعوة إلى تمكين المرأة من حقوقها المدنيّة كالمساواة في حقّ الشّهادة، والانتصاب للقضاء، وحرّية التصرّف في مالها، واعتبار مسألة الميراث قابلة للتّغيير في اتجاه المساواة.

وقيّد الحدّاد الزّواج بالفحص الطّبي قبل كتابة العقد تفاديا للأمراض التّناسلية وشدّد على منع التزويج دون سن الرشد. وأفتى بإباحة موانع الحمل بل إباحة الإجهاض إذا خيف على حياة الأُم. وهكذا فسح المجال بعده للمجتهدين في التّنظيم العائلي، وجهر بمنع تعدّد الزّوجات حفاظا على وحدة الأسرة واستقرارها، كما نادى بتحكيم القضاء في كل ما يحدث من حوادث الطلاق، وانتقد مؤسسة «دار جواد» التي حادت عن مهمّتها الأصلية وهي احتضان النّساء المضطهدات من قبل أزواجهنّ واستنكر اللجوء إلى «التياس» أي المحلل الصوري للمطلقة بالثلاث، فكان طلائعيا في مواقفه، مستشرفا مستقبل الأحوال الشخصيّة بتونس الحديثة.

ولئن أضحت «مجلّة الأحوال الشّخصيّة» الصّادرة في فجر الاستقلال (13 أوت 1956) مألوفة لدى التونسيّين فقد كانت مضامينها مرفوضة في زمان التّقليد وغلبة العادة من أولئك الذين وصفهم الحدّاد في قصيدة: «ظلّ الموت» بقوله (متقارب):

أثاروا على الفكر حربا ضروسا
وسادوا بتقليدهم للإمام
يقولون إن التطور كفر
يهد كيانا لنا بانهدام

وفي المرحلة الأخيرة العصيبة من حياته القصيرة (إذ توفّي يوم 7 ديسمبر 1935 في السادسة والثلاثين من عمره) شرع الحدّاد في تسجيل «خواطر» (ماي – جويلية 1933) فجاءت إضافات ثريّة، واحتوت بإيجاز بليغ دعوات صريحة إلى الإصلاح والتّجديد والتّنوير والتّحرير وتأسيس الحضارة والحداثة. لقد استخدم الحدّاد قلمه لمعالجة موضوعات مصيرية لشعبه مثل تحصين الذّات المحاصرة في وطنها حتّى تسلم من الذّوبان، والدّفاع عن حقّ الاختلاف، والإشادة بالعلم، ورفض التّطرف، والتّوق إلى الرقي، فجعل بذلك الأدب مبلّغا «لرسالة الدّنيا»، كما سمّاها أبو القاسم الشّابي، ومحرّرا للإنسان وفاتحا أمامه طريق الإبداع الذي تقتضيه روح العصر. يقول الحدّاد من قصيد رائع بعنوان «ضحايا الماضي» (خفيف):

هكذا حطمت شعوب الترقي
ما دهاها من سالف الأزمان
كل يوم تفتنّ فنا جديدا
فهي ترقى في جدّة الألوان
نحو مستقبل عظيم المزايا
فيه ترتاح من قيود الهوان

وبعقله التّنويري الاستشرافي، غالب الطّاهر الحدّاد الواقع المتردّي في بيئته، فكانت له الغلبة بمرور الزّمن إذ صدقت رؤاه، وخابت أنظار المعطّلين لحركة التّجديد والتّطوير والتقدّم، وتحقّق الكثير من أحلامه في تونس الحديثة، وكتب له الخلود.



راضية الحداد
[1922 – 2002م]

ـ ولدت راضية الحداد بتونس العاصمة سنة 1922 وتوفّيت سنة 2002. وهي حفيدة العربي زروق الذي يُعَدُّ من القلائل الذين عارضوا إمضاء محمد الصادق باي على معاهدة الحماية في 1881. حصلت على شهادة ختم التعليم الابتدائي ولم تستطع إكمال تعليمها بسبب التقاليد التي تعتبر آنذاك تعلّم المرأة مسألة ثانوية جدا وأحيانا غير مرغوب فيها. وتذكر راضية الحداد في مذكّراتها أنّها سعت إلى إكمال تعليمها بنفسها وذلك بالإقبال على قراءة الكتب والمجلات. تسلمت راضية الحداد رئاسة "الاتحاد القومي النسائي التونسي" من 1957 إلى 1972.

صدرت مذكّراتها بعنوان "حديث امرأة" Paroles de femme عن دار "إليسا" للنشر بتونس سنة 1995 أي قبل وفاتها بسبع سنوات. وتذكر المؤلّفة في هذا الصدد أنّها وفّرت كلّ الوثائق لصهرها الهاشمي الشاهد الذي تولّى كتابة هذه المذكّرات وكان على حدّ قولها أمينا في نقل كلّ الأفكار الواردة به. ويقع الكتاب في 253 صفحة من الحجم المتوسط، وقد قدمه أحمد المستيري.

تحدّثت راضية الحدّاد في كتابها عن تجربتها السياسية وعن مختلف الأحداث التي جرت بالبلاد في أثناء الفترة البورقيبية، وعن التجاذبات السياسية التي كانت تعبّر بإيجابياتها وسلبياتها عن رؤى متعددة.

وقد عُرفت راضية الحداد بمناهضتها لتجربة التعاضد أو رأسماليّة الدولة التي كان يقودها الوزير أحمد بن صالح وهي، بِقدْر تشبّثها بالقيم الانسانية للاشتراكية، تنتقد تعميم تجربة التعاضد التي طبقت في الستينات من القرن الماضي وأدّت، حسب رأيها، إلى نتائج اقتصادية سلبية للغاية.

وأيضا عُرفت راضية الحداد بتعاطفها مع التيار الليبرالي داخل الحزب الدستوري الذي ظهر منذ 1971 وكان من أبرز رموزه أحمد المستيري والباجي قايد السبسي وحسيب بن عمار.

تؤكّد راضية الحدّاد في مذكراتها أنّ إقرار مجلّة الأحوال الشخصية في أوت 1956 لم يكن لينجح لولا التدخل الشخصي والمباشر لبورقيبة وتذكر أنّه دون إرادة بورقيبة لم يكن لأي إصلاح راديكالي أن ينجح ذلك أنّ كل البلدان العربية التي تخلّصت من الاستعمار لم تتمكّن من القيام بثورة اجتماعية بهذا الحجم (حديث امرأة ص 12) مضيفة أنّ جلّ المسؤولين السياسيين بتونس في بداية الاستقلال كانوا متخوّفين من إمكان ردّ فعل سلبي من الرأي العام ضدّ هذه المجلة التي تُعَدُّ في نظر المحافظين آنذاك خروجا عن التقاليد السائدة.

سليمان الحرايري
[1824 ـ 1877م]

هو سليمان بن علي الحرايري الحسني التونسي، رجل فكر وقلم، لم تفسح له الحياة من العمر إلّا مدى قصيرا لا يتجاوز 53 سنة، قضّى أوّلها في تونس الحاضرة وآخرها في باريس. وقد دفن بالجناح الإسلامي من مقبرة الأب لاشاز، يوم الأحد 22 رمضان 1294هـ/30 سبتمبر 1877م.

ينحدر سليمان الحرايري من عائلة فارسيّة الأصل، كان جدّه للأب مملوكا أتى به إلى تونس من بلاد فارس أو ربّما من القوقاز، وكان أبوه علي الحرايري يبيع فطير الإسفنج والتمر، لكنه كان توّاقا إلى العلم فأدخل ابنه سليمان

إلى جامع الزيتونة في سنّ مبكّرة لطلب العلم. وكان الفتى ذكيّا، نابها، طلعة، فلم يلبث أن تولّى تدريس الحسابيات في رحاب الجامع الأعظم وليس له من العمر سوى خمسة عشر عاما، كما امتاز سليمان الحرايري عن بقيّة أقرانه الشبّان بميله إلى التحرير والتحبير. ولذلك أولاه المشير الأول أحمد باي (1837 - 1855) رئاسة الكتابة بديوانه سنة 1840، وعمره لا يتجاوز عهدئذ ستة عشر عاما.

أما دراسته فإنّنا لا نعرف بالضبط كم سنة قضّاها في الدراسة بجامع الزيتونة، غير أنّ تحاريره وكتاباته وتحاليله وما ألّفه من فصول ومؤلّفات قيّمة تدلّ على ثقافة زيتونيّة متأصّلة واطّلاع واسع على أمّهات الكتب في شتّى المواد والفنون، إذ نجده يستشهد في كتاباته بالآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة، وينقل عن مالك وأبي حنيفة والشافعي وغيرهم ويقتبس فقرات من عدّة مؤلّفات مثل: كتاب الشمائل النبويّة للترمذي (ت 279هـ/892م) وكتاب الشفا للقاضي عياض (ت544هـ/1149م) ومنهاج الطالبين للنووي (ت676هـ/1277م)، وكتاب أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (ت685هـ/1286م)، وكتاب الأشباه والنظائر لابن نجيم (ت 970هـ/1562م) وفتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (ت852هـ/1449م) وكتب شرح العقائد النسفية والمطوّل والحاوي لسعد الدين التفتازاني (ت758هـ/1390م)، وغيرها من المصنّفات والمصادر التي كان سليمان الحرايري يعتمدها في تحاريره وكتاباته.

وفي بعض مصنّفاته عرّفنا بأحد شيوخه بجامع الزيتونة، كان من أعلام الحنفية في تونس وأشهرهم صيتا عصرئذ وهو شيخ الإسلام محمد معاوية الذي كان، على حدّ تعبير الحرايري، «آية في الدراية والرواية، لا يشقّ له فيها غبار، ولا يجاريه أحد في مضمار». وقد قرأ عليه بالخصوص، «قراءة تحقيق وتدقيق»، التلويح لسعد الدين التفتازاني في أصول الفقه.

وإلى جانب ذلك تأثّر سليمان الحرايري بشخصيّة أخرى فرنسيّة مسيحيّة هي شخصيّة القسّ فرانسوا بورغاد (François Bourgade) (1806 - 1866)، الذي قدم إلى تونس في سنة 1841 وعيّن في السنة الموالية واعظا بكنيسة سان لويس بقرطاج. وما لبث أن بادر إلى تأسيس مدرسة خاصة بنهج سيدي المرجاني بتونس لتعليم أطفال التونسيين من يهود ومسلمين ثمّ حوّلها في سنة 1845 إلى معهد ثانوي أطلق عليه اسم «معهد سان لويس».

أما الحرايري فقد كلّفته القنصليّة الفرنسيّة بتونس سنة 1844 بتقديم بعض الدروس في اللّغة العربية لبعض الموظّفين الفرنسيين، وتخرّج على يديه عدد من المترجمين الفرنسيين منهم المترجم الأوّل بالقنصليّة الفرنسية ألفونس روسو (Alphonse Rousseau) الذي ترك عدّة كتب تاريخيّة من أهمّها كتاب الحوليّات التونسيّة (Annales tunisiennes).

وفي سنة 1849 شرع سليمان الحرايري في تدريس اللّغة العربية بمعهد القسّ بورغاد. وقد بدأ اسمه يبرز بالخارج بوساطة تلامذته الفرنسيين. من ذلك أنّ المترجم الثاني بالقنصليّة الفرنسيّة بتونس هانري كوتال نشر في المجلة الآسيويّة (سنة 1847) جدولا لمقابلة التاريخ الهجري بالتاريخ المسيحي، منبّها إلى أنّ الطريقة التي توخّاها هي طريقة سليمان الحرايري. وقد أدت هذه الصلة التي ربطت الحرايري بالمسيحيين المبشرين في تونس إلى القدح في إيمانه من قبل بعض رجال الدين المسلمين التونسيّين.

وبحكم الصلات التي كانت تربط بين القنصلية الفرنسيّة بتونس والحرايري الذي كان يباشر خطّة الإشهاد بالحاضرة، منذ سنة 1847، عيّنته القنصليّة المذكورة في سنة 1854 كاتبا بها، واستمرّ في القيام بهذه المهمّة إلى سنة 1856 وهي السّنة التي هاجر فيها إلى باريس حيث

كلّف بتدريس اللّغة العربيّة في المدرسة القوميّة للّغات الشرقيّة.

نشاط سليمان الحرايري في باريس

في سنة 1858 تحوّل القسّ فرانسوا بورغاد نهائيا إلى فرنسا بعد أن عهد إلى أحد الأساتذة الإيطاليين بالإشراف على معهد نهج سيدي المرجاني.

وفي باريس أصدر بورغاد جريدة تحمل اسم «برجيس باريس أنيس الجليس»، وهي جريدة سياسيّة نصف شهريّة ظهرت في شهر ماي 1859 وتولّى رئاسة تحريرها رشيد الدحداح (1814 - 1889). ثم عُهد إلى سليمان الحرايري بمهمّة التحرير اعتبارا من شهر جوان 1859، وفي سنة 1861 عرضت للدحداح أشغال مهمّة في تونس في عهد الصادق باي، فسلّم رئاسة تحرير الجريدة إلى سليمان الحرايري الذي استمرّ في الاضطلاع بهذه المهمّة إلى أن احتجبت «برجيس باريس أنيس الجليس» في سنة 1866 إثر وفاة مؤسّسها ومديرها القسّ فرانسوا بورغاد.

وتعدّ هذه الجريدة باكورة الصحف العربية بكبر حجمها وجودة حروفها وإتقان طبعها واتّساع موضوعاتها. وقد ذاعت شهرتها في الخافقين وأقبل الأدباء على الاشتراك فيها من كلّ الأقطار العربية، كما يتّضح ذلك من أسماء وكلائها وأماكن بيعها المنشورة في صدرها إلى جانبي العنوان. وكانت عبارتها فصيحة ومباحثها مفيدة تتناول كلّ فنّ ومطلب.

وقد سطّرت جريدة «برجيس باريس أنيس الجليس» لنفسها منذ العدد الأوّل برنامجا طبّقته فيما بعد بحذافيره. وكانت قد تأسّست لغرضين اثنين: أوّلهما إبلاغ الأخبار المفيدة للقاصي والداني. والآخر ذكر ترقّي العلوم ومخترعات أربابها وتسهيل مناهجها لطلاّبها، وذلك بالنّقل عن الصحف اليوميّة الفرنسيّة والإنجليزيّة من غير تعرّض ولا اعتراض، على ما يذكر من الأمور السياسية والأغراض.

وعندما جَابَهَ بعض المسلمين ببلاد الشّام، وكانت مقاطعة عثمانيّة في صائفة 1860 مشكلات بين المسلمين ونصارى جبل لبنان، نشرت جريدة «برجيس باريس أنيس الجليس»، دون عصبيّة، أخبار هذه المأساة، على حين كانت جريدة «الجوائب» التي أصدرها بالآستانة أحمد فارس الشدياق سنة 1860 تخفي تلك الأخبار، وربّما تنسب إلى جريدة «البرجيس» نشر الأكاذيب والمغالطة بشأنها. وقد اغتنم سليمان الحرايري هذه الفرصة - وهو الرجل الذي انعتق من قيود العصبيّة والغلوّ، على حدّ تعبيره، وارتفع إلى المستوى السامي لدين الإسلام الصحيح - فنشر بالبرجيس رسالة ألّفها بعنوان: «رسالة في ذمّ ما ارتكبه بعض مسلمي المشرق من البغي على النصارى».

لقد كان الشيخ سليمان الحرايري أوّل صحفي تونسي جمع الأخبار وبوّبها وعلّق عليها، وهو يعدّ من الروّاد الأوائل للصحفيّين العرب بوجه أعمّ. والدليل على ذلك أنّ جريدة «البرجيس» كانت أوّل صحيفة ظهرت بانتظام في القرن 19، إذ لم تصدر قبلها سوى جريدة «الوقائع» المصريّة التي ظهرت على نحو غير منتظم في سنة 1828، أو جريدة «المبشّر» التي صدرت بالجزائر سنة 1847، أو جريدة «مرآة الأحوال» التي أصدرها رزق الله حسّون سنة 1855 بالآستانة ثم انتقل إلى إنجلترا. أما صحيفتا «عطارد» للمستشرق كرلتي بمرسيليا و«حديقة الأخبار» لخليل الخوري ببيروت، فقد ظهرتا في السنة نفسها ولم يكن لهما ما كان لجريدة «برجيس باريس أنيس الجليس» من شأن.

والواقع أنّ «البرجيس» وجد قلبا خاليا فتمكّن، إذ لم تكن ترد على البلاد العربيّة قبل ذلك صحيفة إخباريّة جامعة منتظمة تعلّق تعاليق حرّة على الحوادث العالميّة وتوجّه القارئ بعقليّة ميّالة إلى الحرية والعدالة والشورى بين الناس.

ولم تكن هذه الجريدة تقتصر على أخبار حوادث العصر، بل كان لا يخلو عدد منها من

حكايات ونوادر تنقل عن ماضي الإسلام والمسلمين، وعن ماضي الإفرنج وحاضرهم أيضا، وتقدّم للقرّاء صورا عليا من الهمّة والشهامة عند بعضهم، والتعلّق بالحريّة عند الآخرين.

على أنّه لم تمض سوى سنتين على صدور جريدة «البرجيس» حتى ظهرت في تونس جريدة «الرائد التونسي»، وفي الأستانة جريدة «الجوائب» التي أصدرها أحمد فارس الشدياق (1804 ـ 1888). وكان من الطبيعي أن تتنازع «البرجيس» و«الجوائب» القرّاء في العالم العربي والإسلامي، وكانت حظوظ نجاح «الجوائب» في هذا الميدان أوفر، فهي صحيفة الإسلام والخلافة، على حين أنّ «البرجيس» صحيفة القس الفرنسي بورغاد. ولم ينفع جريدة «البرجيس» في هذه المنافسة تجرّدها ولا سموّ لغتها ولا ارتفاعها عن الإسفاف والمهاترة. فاحتدمت المعركة بين الجريدتين، وكانت ردود سليمان الحرايري مركّزة منطقيّة وبياناته اللّغوية مؤيّدة بالمراجع ومستندة إلى الشواهد من أقوال الأيّمة والفقهاء والشعراء. وكان كلّ ذلك يقلق راحة «الجوائب» ويزيد في غيظها، فحملت على الحرايري حملة شعواء، مشهّرة به رامية له بالتنكّر للخلافة والإسلام والمسلمين وخدمة ركاب النصارى.

وبعد احتجاب «البرجيس» إثر وفاة الأب بورغاد، حاول سليمان الحرايري دون جدوى الحصول على منحة ماليّة من إمبراطور فرنسا نابليون الثالث لإصدار جريدة جديدة تحمل اسم «النسر الممدّن». ولما خابت مساعيه اكتفى بتدريس اللّغة العربيّة بالمدرسة القوميّة للّغات الشرقية وتقديم دروس خاصّة لابنَيْ أخي الوزير الأكبر التونسي مصطفى خزنه دار المقيمَيْن بباريس.

آثار سليمان الحرايري

لقد اهتمّ سليمان الحرايري منذ تخرّجه في جامع الزيتونة بالترجمة فشرع منذ سنة 1848 في نقل بعض الكتب من اللّغة الفرنسيّة إلى اللّغة العربيّة، وكان أوّل كتاب عرّبه هو كتاب نويل وشابسال ثم كتاب مسامرة قرطاجنّة للأب بورغاد الذي طبع باللّغة العربيّة في تونس سنة 1850 بالمطبعة الحجريّة التي أسّسها بورغاد. ونشرت طبعة ثانية من هذا الكتاب في باريس سنة 1859 بعنوان مسامرة قرطاجنّة، وهي مناظرة في القرآن والإنجيل بين قاض ومفت وراهب.

وإلى جانب ذلك، ألّف سليمان الحرايري رسالة بعنوان المعالجة بمناسبة انتشار داء الوباء بتونس سنة 1850 وطبعها في السنة نفسها، إلاّ أنّ أوّل كتاب نشره بفرنسا هو كتاب نحو لومون الفرنسي الذي صدر بباريس سنة 1857 (Grammaire française de Lhomond). ثم نشر سنة 1860 رسالة في القهوة بعنوان القول المحقّق في تحريم البنّ المحرق.

ونشر في جريدة «برجيس باريس أنيس الجليس» قسما من سيرة عنترة وكتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان، ثم نشرهما على حدة سنة 1860. ونشر أيضا «مقامات الشيخ أحمد بن محمد الشهير بابن المعظم» وهو أحد أدباء القرن الثالث عشر الميلادي. ونشر كذلك مختارات أدبية من أشعار العرب وقصصهم بعنوان طرب المسامع في الكلام الجامع.

وأصدر سنة 1862 كتابا جديدا بعنوان: رسالة في حوادث الجوّ، أي أسباب الرياح والحرّ والبرد والضباب والرعد والبرق وقوس قزح ونحو ذلك. وقد بذل المؤلّف في هذا الكتاب مجهودا كبيرا لتعريب أسماء الاختراعات الجديدة في ذلك العصر. وفي السنة نفسها ألّف رسالة حول لبس القبّعة (البرنيطة) بعنوان أجوبة الحيارى في لبس قلنسوة النصارى.

وفي سنة 1867 نشر سليمان الحرايري كتابا جديدا بعنوان عرض البضائع العام وصف فيه معرض

باريس الدولي المنتظم في تلك السنة، وهكذا كان الحرائري مثقفا مسلما حداثيا تنويريّا.

سالم حرز اللّه
[1897 – 1946م]

هو سالم بن خليفة حرز اللّه ولد بمدينة المنستير سنة 1315هـ/1897م وتخرّج في جامع الزّيتونة محرزا شهادة التطويع سنة 1919. انخرط في سلك القضاء العدلي سنة 1920 حيث سمّي حاكما بالمحكمة الابتدائيّة بقابس. وانتقل إلى المحكمة الابتدائية بسوسة حيث باشر عمله القضائي بها حتّى ارتقى إلى خطّة مستشار بمحكمة الاستئناف بتونس سنة 1925. وعمل بدائرة يرأسها أستاذ الأجيال العميد الرئيس محمّد المالقي الذي كان يقرّبه ويختاره للهامّ من القضايا. وفي عام 1929 اختير لرئاسة المحكمة الابتدائيّة بقابس، وهناك استقرّ به المقام مدّة طويلة جدّا وتخرّجت عليه طبقات من القضاة تتلمذوا له ونهلوا من ينابيعه، ومن هؤلاء القضاة رضوان الشّريف والهادي قصيعة وعلي بن حميدة والهادي المدني وعلي الشّريف ومحمود شمّام.

وفي سنة 1941 اختير لرئاسة محكمة صفاقس فأحبّ أهلها وأحبّوه.

وظلّ يباشر عمله على رأس هذه المحكمة الكبرى حتى توفّي في 22 جوان سنة 1946 ودفن بمقبرة أسلافه في مدينة المنستير.

كان من القضاة الأفذاذ، إذ استطاع بذكائه الحادّ وثقافته الواسعة وسعة اطلاعه وصبره وتجلّده أن يخلّد اسمه بين القضاة العدليّين الذين أسّسوا فقها قضائيا تونسيّا ممتازا وسموا بالأحكام وأسلوب تحريرها وإنشائها إلى درجة مشرّفة جدّا.

الحركة التشكيلية الحديثة بتونس
[1894–1984م]

ا) مدخل عام

لئن نشأت الحركة الفنية الحديثة في تونس على هامش الثقافة التقليدية بتأثير التيارات الغربية، فقد كان التراث الجمالي العربي الإسلامي دائما قيمة مرجعية لإبداع الفنانين التونسيين، يستقي الكثيرون منه بعض عناصر أعمالهم، منذ بدايات التجربة التشكيلية بمفهومها الحديث، حتى وإن استندوا في الأساس إلى رؤية جمالية غربية. وبتطور الحركة الفنية التونسية برزت اتجاهات أخرى حاولت الارتباط على نحو أكثر عمقا بالموروث الجماعي، وبناء تجربتها على مجموع التعبيرات الفنية الإسلامية.

وبالإضافة إلى فنون العمارة والرقش العربي والخزف التقليدي والصناعات الحرفية والتجليد وغيرها، ظهر في القرن التاسع عشر فن جديد بتونس، هو الرسم على الزجاج. وقد كان شائعا في بلاد كثيرة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، ويعدّ هذا الفن أولى محاولات الانفتاح على البيئات الثقافية المجاورة، كما يشتمل في أسسه الجمالية على تأليف بين الفن الغربي عن عصر النهضة الأوربي، وعناصر مستقاة من التقاليد العربية الإسلامية في الخط والرقش.

بدايات الفن الحديث

خلافا للرسم على الزجاج، وتقاليد الرقش العربي المستندة إلى قيم جمالية وروحية جماعية، يبرز التعبير الفني الحديث بالمعنى الغربي مترجما عن رؤية ذاتية فردية تضع الفنان في مواجهة اللوحة باعتبارها نافذة خاصة على العالم. وقد بدأت بواكير الرؤية الجديدة في قصور الأمراء والأعيان والبايات (مثل حسين باي في العقد الثالث من القرن 19) الذين اعتادوا تكليف فنانين أوروبيين بإنجاز صور شخصية لهم منذ بداية القرن التاسع عشر، وتزامن ذلك الولع بالصور وتحوّل تدريجي في نمط

الحياة الاجتماعية حسب النموذج الغربي كما نراه في العمارة واللّباس والتأثيث. وكان أحمد بن عصمان (النصف الثاني من القرن التاسع عشر) أوّل رسام تونسي يمارس فنّه طبقا للتقاليد الغربية في مجال الصور الشخصية على الأخص.

ولكنّ الرسم المسندي وغيره من التقنيات التشكيلية الحديثة ما كانت لتتطور في تونس لو أنّها بقيت مقتصرة على القصور، وكان لا بد من إيجاد علاقة جديدة بين الفنان والجمهور لتنشأ حركة فنية حديثة حقّا. وقد تحققت تلك العلاقة بظهور مؤسّسة «الصالون التونسي» سنة 1894، وهو معرض فني سنوي أسّس لسدّ حاجة ثقافية شعر بها المستوطنون الأجانب، وصار له أثر بعيد المدى في نشر الممارسة التشكيلية والتذوق الفني، وكان الإطار الأول الذي ظهرت فيه التجربة الفنية التونسية.

افتتح المعرض الأوّل للصّالون التونسي يوم 12 ماي 1894، أي بعد ثلاثة عشر عاما من تمركز «الحماية الفرنسية» على تونس. وكان التنظيم بإشراف «معهد قرطاج»، أهمّ مؤسسة ثقافية وعلمية تعمل آنذاك على إعطاء بعد ثقافي فنّي للحضور الفرنسي يكمل المناشط الاقتصادية للمؤسسة الاستعمارية. وشجّع نجاح ذلك المعرض الأول على تنظيم معارض أخرى، فأصبح الصالون التونسي تظاهرة دورية سنوية، وامتد نشاطه إلى ما بعد استقلال البلاد حين استمرّ تنظيمه حتى سنة 1984، تاريخ انقطاعه نهائيا عن النشاط.

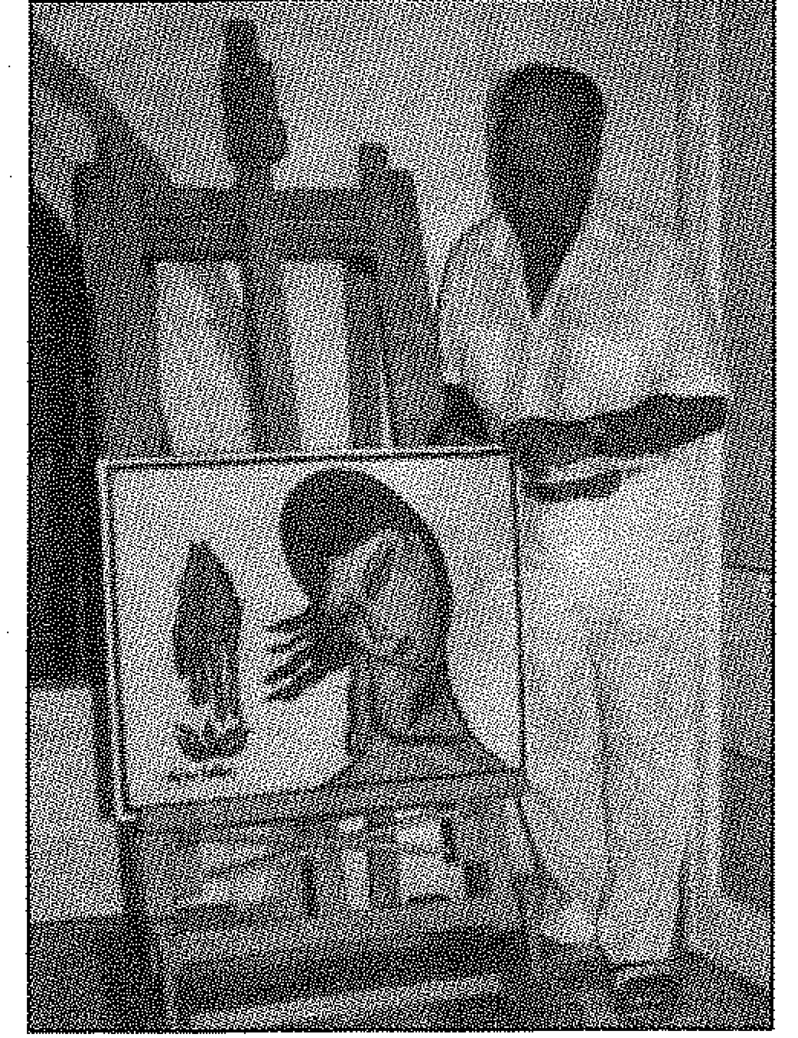
احتضن الصالون التونسي في السنوات العشرين الأولى من وجوده تيار الاستشراق الفني الذي اكتسب حيوية جديدة في إفريقيا الشمالية (الجزائر وتونس) بعد تراجعه في أوروبا بتأثير من النزعات المحدثة كالواقعية ثمّ الانطباعية. وكانت الرؤى والأساليب التي تحكم فنّ الصالون تتسم بالروح الإقليمية الضيقة المنغلقة، المميزة للفكر الاستعماري. ولم تبدأ التجارب المحدثة الأولى في الصالون إلاّ قبيل الحرب العالمية الأولى عندما عرض سنة 1913 عدد من أعمال فنّاني الطليعة الفرنسيين أمثال: ألبرت غلايز، وماري لورنسان، وأسماء أخرى من أعضاء «صالون الفنانين الفرنسيّين». وقد نشط ضمن الصالون التونسي، وطوال الفترة الممتدة حتى الحرب العالمية الثانية، عدة فنانين من الأجانب، منهم ألكسندر فيشي (A. Fichet) الذي ترأس الصالون منذ 1913 حتى وفاته سنة 1966، وأرمان فرجو (A. Vergeaud) الذي شغل طويلا منصب مدير مدرسة الفنون الجميلة، وعبد الكريم جوسوا، والكسندر روبتزوف، وبيير بوشارل (P. Boucherle)، وهنري دابادي، وموزس ليفي، (M. Lévy) وأنطونيو كوربورا (A. Corpora) وغيرهم.

الروّاد

وعلى هامش المعارض السنوية الفرنسية، أو في إطارها بدأ الفنانون التونسيون الأوائل خطواتهم مثل الهادي الخياشي وهو التونسي الثاني بعد أحمد بن عصمان الذي مارس التجربة التشكيلية. على أنّه من الإنصاف اعتباره فعلا أول رسام محترف بالمعنى الحديث للعبارة، إذ كان يتكسَّبُ بعمله، وإن كان يعوزه التفاعل المباشر مع الجمهور العريض لامتناعه عن تنظيم معارض فردية. وبعد الهادي الخياشي برز عبد الوهاب الجيلاني الذي أخذ يعرض في الصالون بداية من سنة 1912، وحتى قبيل الحرب العالمية الأولى، وهي الفترة التي غادر فيها تونس إلى فرنسا، حيث أقام طوال حياته، وأسهم طويلا في مناشط مدرسة باريس مع أسماء لامعة في سماء الفن العالمي مثل: موديلياني وبيكاسو وسوتين



يحيى التركي، من رواد الفنّ التشكيلي التّونسي



علي بن سالم

وشاغال وزادكين وغيرهم. وكان عبد الوهاب الجيلاني قد بدأ دراسته الفنية في أوائل القرن العشرين في مرسم فنان فرنسي يدعى بنشار وذلك قبل إنشاء مدرسة للفنون الجميلة سنة 1922. وإذا كان عبد الوهاب الجيلاني هو أوّل تونسي مسلم يشارك في معارض الصالون، فإنّ فنّه بقي حاملا لسمات «مدرسية» اتباعية، ولا نلمس في أعماله القليلة الباقية أي مؤشر على الانتماء إلى البيئة الثقافية التونسية.

وإلى جانب الهادي الخياشي المرتبط بأوساط اجتماعية خاصّة، باعتباره رسّام صور شخصية، وعبد الوهّاب الجيلاني الذي تطوّرت رؤيته خارج البيئة التونسية، برز يحيى التركي أهمّ شخصية بين الرواد، إذ كان لتجربته أبعد الأثر في تشكّل الملامح المميزة للحركة الفنية التونسية ونموّها لاحقا. ويعود ذلك أولا إلى اقتحامه ميدان الإبداع متكّسبا بفنّه، وتأسيسه رؤية فنية تستند إلى تعامل تلقائي مع الواقع الخاص للبيئة التونسية، في صيغ تعبيرية بسيطة، ولكنها على صلة وثيقة بالحداثة، بعيدا عن الوسائل الأكاديمية الاتباعية الشائعة في أوساط المستوطنين الأجانب.



عمّار فرحات

كان لكل فنان من هؤلاء الرواد شخصية خاصّة تميّزه وترسم خطوطا عريضة لتطوّرات لاحقة في صلب الحركة التشكيلية بتونس. فقد حاول عبد العزيز بن رايس المتوفّى سنة 1962 التعبير عن عالم هادئ من المناظر الطبيعية، والمشاهد يلفّه الصمت، وتبرز فيه المادة الدسمة للألوان المحدودة عنصرا أساسيا في بناء اللوحة على حين جهد علي بن سالم في البحث عن عناصر من الثقافة التقليدية الشعبية لتوظيفها في تكوينات قريبة الصّلة أحيانا بالمنمنمات العربيّة الاسلاميّة القديمة، وأحيانا أخرى بتقاليد الرسوم الشعبية على الزجاج. أما حاتم المكّي فكان شخصية قوية متحوّلة لا تستقرّ على اختيار فني، وقد مارس على امتداد حياته الفنية أساليب مختلفة وتقنيات متنوعة، متنقّلا من المائيات الخفيفة إلى الأداء الخطي العنيف، ومن الأجواء الواقعية إلى التعبيرية إلى ما فوق الواقعية، مرورا بمحاولات في الفن البدائي، كما مارس الفن الإشهاري كالملصق وطابع البريد، وصمّم أوراق العملة والنقود.

ويعدّ عمار فرحات المولود سنة 1911 بحقّ من أكبر الشخصيات في تاريخ الحركة الفنية التونسية، إن لم يكن أكبرها عند بعضهم، وهو فنان عصامي مارس في أوّل حياته مهنا صغرى، وعرف الحرمان والبطالة، ولكنه ظل طوال حياته مخلصا لمثل جمالية سعى بكل جهده إلى تحقيقها في نقله للواقع الاجتماعي. وقد نمت تجربة عمار فرحات على إثر حياة حافلة بالكفاح والعطاء الإنساني جعلته يتدرج من وضعه باعتباره واحدا من أبناء الطبقة



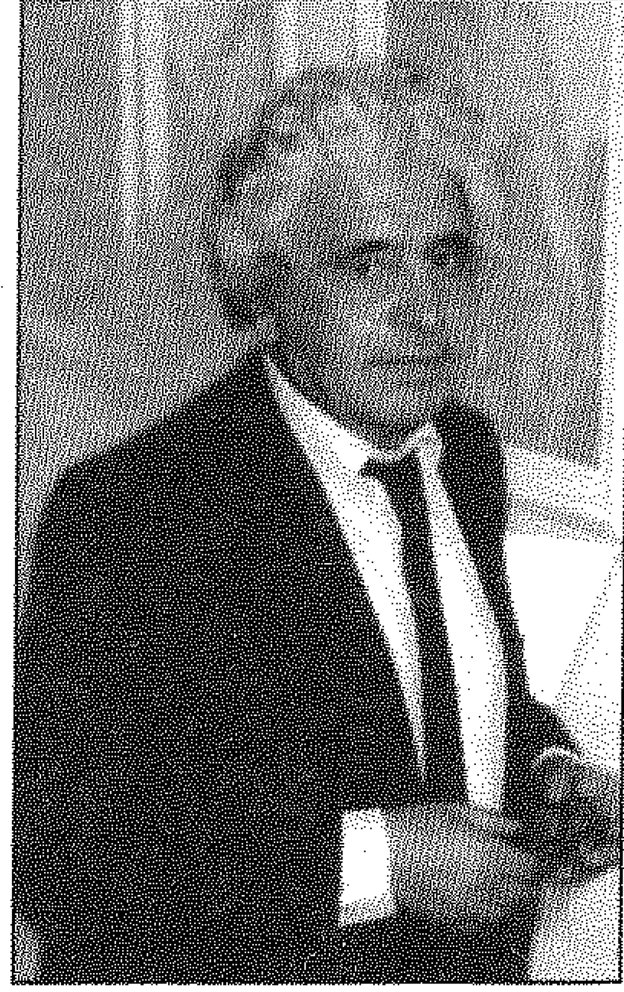
حاتم المكّي

الفقيرة إلى مرتبة كبار الفنانين. ويراوح عالم عمار فرحات بين رؤية واقعية للأشياء، وصور عفوية يسيطر فيها المجاز والرمز. وتتّصل الواقعية عنده بتجربته المباشرة في بيئة المدينة العتيقة، وبعلاقاته بالناس من أوساط اجتماعية مختلفة، وخاصة طبقة العمال والتجار الصغار والموسيقيين الزنوج. وفي مقابل ذلك يعبر عمار فرحات أحيانا عن أفكار عامة ورؤى رمزية مثل معاني العائلة والشباب وجمال الحياة في الريف.

ولعمارة دبش، المولود سنة 1918، مكانة مهمّة في تاريخ الحركة الفنية التونسية بفضل مخطّطاته الفنيّة المتميّزة بالنضج والحرية. وقد بدأ يعرض أعماله في الصالون التونسي سنة 1937، حتى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية، ثمّ هاجر إلى فرنسا، وامتدت إقامته بها حتى بداية الستينات. وفي سنة 1967 أقام معرضا ضخما لأعماله في القاعة البلدية للفنون جمع فيه أكثر من مائتي عمل بين رسوم ومخطّطات فنّية كانت بمثابة التلخيص لمساره الفني طيلة أكثر من ربع قرن. وفي نهاية الستينات عاد عمارة دبش، وقد أصبح فريسة اليأس والقلق إلى فرنسا حيث وضع حداً لحياته.

الجيل الثاني

ينتمي أغلب الفنانين التونسيين من الجيل الثاني إلى ما يسمّى مدرسة تونس. و «مدرسة تونس» هي أول جماعة فنية تضم فنانين تونسيين في تاريخ الحركة الفنية، وإن كان مؤسسها في أعقاب الحرب العالمية الثانية، فنّانا فرنسيا يدعى بيار بوشارل. وقد انتسب إليها من الرواد يحيى التركي وعمار فرحات، ومن الجيل الثاني جلال بن عبد الله، وعبد العزيز القرجي، وعلي بن الآغا، وصفية فرحات، والزبير التركي، والهادي التركي، وإبراهيم الضحاك، ومن الجيل الثالث (الذي برز إلى الوجود بعد استقلال البلاد (1956)) حسن السوفي، وعبد القادر القرجي والتحق بها أخيرا فتحي بن زاكور. ويتميز كل فنان من الجماعة بمسار خاص، ولكن الأغلبية على اتفاق حول جملة من الرؤى الجمالية، وهم يتحلّون بقدر كبير من الانضباط والتضامن وهو ما جعل «مدرسة تونس» أكثر الجماعات تماسكا، بحيث لا تزال تنشط على الساحة الفنية، بخلاف جماعات كثيرة أخرى، ظهرت بعدها ثم اختفت لافتقارها إلى التنظيم.



الهادي التركي

ورغم انعدام أهداف جمالية وصيغ تشكيلية محددة ومشتركة بين أعضاء الجماعة، فإنهم توصلوا بالممارسة إلى تقديم صورة عامة مشتركة عن الواقع تستند إلى حس خاص يترجم عن تعلّق بالقيم الجمالية والعاطفية للحياة التقليدية والثقافية الشعبية، وعن تثمين للتراث الفني. ويمثل هذا التوجه يحيى التركي، وعمار فرحات، والزبير التركي، وعبد العزيز القرجي، وعلي بن الآغا، وصفية فرحات وغيرهم.

إنّ لتأثير القيم الفنية التقليدية بعدا شكليا في أعمال القرجي وابن الآغا. فالأوّل يحاول إعادة اكتشاف جماليات المنمنمة الإسلامية ثم النفاذ، في فترة متأخرة، إلى استيهامات الحياة الباطنية الشعبية، أمّا الآخر فيحاول الإفادة من الرسم على الزجاج، والخط العربي، ومختلف تقنيات الحرف الشعبية وأشكالها، على حين يبني زبير التركي شعبيته الواسعة على رواية عالم حقيقي، إنساني، متنوع، مستعينا في أغلب الأحيان بالخط المجرد من أي مادة لونية. ويتناول الزبير التركي عالمه بنظرة الفيلسوف الشعبي المطبوعة ببعض السخرية التي لا تصل، مع ذلك، إلى حد التهكم أو التشهير.

ويستعير جلال بن عبد الله من البيئة والتقاليد أشياء متفرقة: أشكالا فنية وعناصر معمارية، قطع أثاث ومنسوجات، أدوات وأواني، ملابس

وحليًا يزين بها عالما خياليا تسكنه نساء جميلات يجمعن بين مقاييس الحسن اليونانية والعربية، ويفتح جلال بن عبد الله عالمه الحميم هذا على لا نهائية البحر وزرقة السماء، بعيدا إلى ما وراء جبل «بوقرنين» في عرض خليج تونس.

لقد كان لمدرسة تونس دور مهمّ في تطوير الفنّ والتعريف به، وأصبحت تقاليدها غداة الاستقلال في أواسط الخمسينات، وحتى بداية الستينات، متماثلة في الأذهان مع ما ينبغي أن ينهض به الفن من التعبير عن القيم الروحية والمادية للمجموعة الوطنية.

جيل التغيير الجمالي

لقد فضّل بعض الفنانين مثل حاتم المكي والهادي التركي، رغم انتماء هذا الأخير إلى «جماعة مدرسة تونس»، الخروج عن التصور السائد والقائل باعتبار الانتماء الثقافي في الفن مشروطا بتحويل قيم البيئة إلى اللوحة في إطار حكائي سردي أو رمزي. وكان هذا الموقف مؤشّرا لظهور آراء جديدة بين الفنانين الشبان في بداية الستينات، وتناقض الأسس الجمالية والتقنية لجماعة «مدرسة تونس». ويرى فنانو الستينات أنّ التعبير عن الهوية الثقافية الوطنية ينبغي أن يكون بعيداً عن حالات التناغم مع البيئة، وأن يحقق وجوبا تجاوزا للمضمون الحكائي لمظاهر الحياة اليومية، بتمكين الفنّان من التعبير الحر خارج القيود، والإفادة من التجارب التشكيلية العالمية. فنرى الكثيرين من أولئك الفنانين يتجهون إلى التجريد والتعبيرية والسريالية وغيرها، على حين يركز بعضهم الاهتمام على البحث عن رموز الموروث الفني ودلالاته، وتسيطر على الاتجاهات الجديدة الرغبة في التنويع والتجريب، وتبرز معاني التحول والتغيير من حيث هي قيم أساسية في العمل الفني.

التجريد

قام التجريديون التونسيون بمهمة أساسية في تاريخ الحركة الفنية، وهي مصادمة التصورات القديمة، والحث على إثارة أسئلة جديدة حول أهداف الفن التشكيلي ووسائله، وأسهموا في توجيه حسّ الجمهور المثقف إلى التيارات الجمالية المحدثة. ومن الملاحظ أنّ التجريد بإثارته للتساؤلات أدخل حركية على الوسط الفني في مجموعه، إذ أنّه أثر مباشرة في الفنانين التشخيصيين الذين أصبحوا يولون أهمية متزايدة للشواغل التشكيلية الصرفة، ويعتنون أكثر بوسائل الإنجاز وتقنيات التكوين، وإن لم يتخلّوا عن موضوعاتهم التقليدية.

ورغم بقاء الاتجاهات التجريدية اتباعية خاضعة للتجارب السائدة في الغرب، فإنّها أبرزت عدة شخصيات مهمّة في تونس منها الفنان الهادي التركي الذي بدأ حياته الفنية متأثرا بتوجهات جاكبسون بولوك (التعبيرية التجريدية) ثمّ بمارك روذكو في أجوائه التأملية، وأسلوبه الشفّاف النابض، ولكنه اكتسب مع الزمن شخصية متميزة تستقي أصالتها من محاولة التعبير عن علاقة غامضة بين عامل الواقع والتجريد باستعمال دلالات رمزية للألوان تقترب أحيانا من الحس الصوفي.

ومن التجريديين التونسيين نذكر الحبيب شبيل، وهو ممن تناولوا التجريد في صيغه الأكثر نقاء دون أيّ إشارة، بعيدة أو قريبة، إلى الواقع. وينتمي رضا بن الطيب كذلك إلى الجيل نفسه، وتظهر في تكويناته عناصر بنائية تضفي عليها مظهرا عتيدا محكما مع حسّ متميز بدرجات اللون الأزرق. ومن التجريديين أيضا عمر بن محمود في بداياته، وإسماعيل بن فرج، ومحمود التونسي، وحبيب بوعبانة، ورفيق الكامل ولأعمال هذا الأخير أهمّية خاصة في الاتجاه التجريدي لقيمتها المتميزة أولا ثم لتأثيرها في بعض الفنانين الشبان ممّن



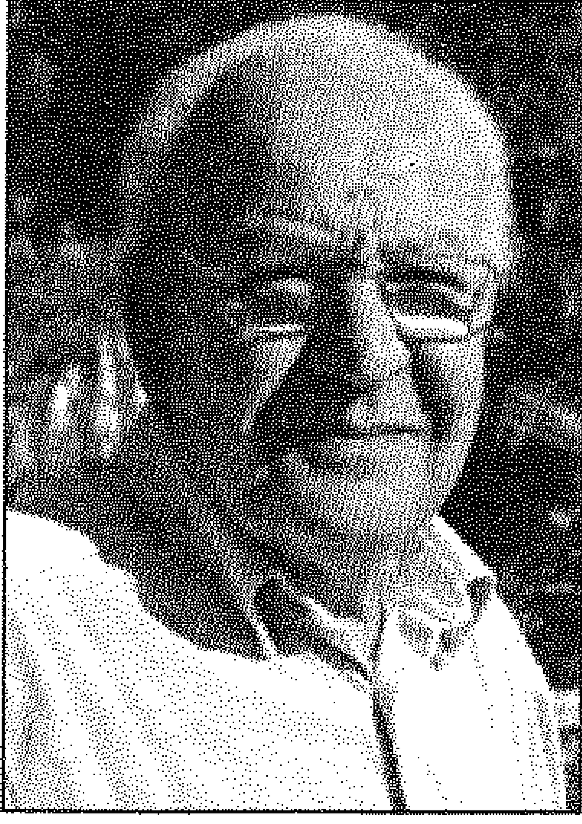
الصادق قمش

تتلمذوا له في مدرسة الفنون الجميلة. وتتميز أعماله في فترة ما بأحادية اللون وتبدو أشكالها كالعائمة في فضاء يذكّر بعامل الخلية الحية. وانتقل الفنان في نهاية السبعينات إلى صيغة تجريدية جديدة تقوم على تكوينات أكثر إحكاما وصرامة في الخطوط والألوان، وتحاول الإفادة من تقنيات التلصيق.

وإلى جانب الفنانين المنقطعين تماما إلى التجارب التجريدية مثل الهادي التركي والحبيب شبيل وغيرهما، نجد فنانين آخرين مارسوا التجريد في فترة أو أخرى من حياتهم الفنية مثل خليفة شلتوت وعمر بن محمود وعادل مقديش. وبدأت ظاهرة التجريد في الانحسار بحلول نهاية السبعينات بتأثير عودة التشخيصية بقوة في أساليبها المختلفة كالتعبيرية والتشخيصية المحدثة والفن الفطري، وتخلّى عدد من الفنانين في بداية الثمانينات عن التجريد، منهم حسن السوفي الذي جرّب الأسلوب «العلاماتي»، ثم انتهى إلى تشخيص تلميحي يختزل الأشكال الواقعية في صخب مادة لونية ثرية. وانتقل رفيق الكامل إلى أسلوب على صلة بتجارب التشخيصية المحدثة و «البوب أرت» راسما الحياة اليومية بضرب من الرصد يفيد من تقنيات التصوير الفوتوغرافي. وفي نهاية الثمانينات عادت الحيوية إلى التجريد بتطور تجربة بعض الرسّامين مثل نور الدين الهاني ورشيد الفخفاخ والحبيب بيدة وسامي بن عامر في إطار رواق «شيم» الذي كان له دور نشيط، على امتداد عشر سنوات، في تجديد الممارسة التشكيلية، كما ظهرت في التسعينات بعض التجارب التجريدية ذات اتجاه انفعالي (أسماء منوّر) أو ذات بنائية هادئة (آمال بنّيس).

الاتجاهات التّأصيليّة

في بداية الستينات، وبموازاة التيار التجريدي برزت محاولة من الفنان نجيب بن الخوجة لإعطاء التجريد صبغة محلية بإضافة عناصر من التراث التقليدي، وانطلقت على إثر تلك التجربة تجارب أخرى لفنانين يستلهمون الخطوط أو الكتابة العربية وعناصر الزخرفة والرقش العربي في بناء اللوحة. وتعيد الأساليب التأصيلية الجديدة إلى الأذهان الشبه بين الحيز الجمالي الحديث ذي البعدين والحيز العربي الإسلامي.



نجا المهداوي

وتنقسم في جملتها إلى اتّجاه بنائي يمثّله خاصة نجيب بن الخوجة، واتجاه حروفي من أبرز دعاته نجا مهداوي.

ترتكز تجربة نجيب بن الخوجة أساسا على ضرورة الارتباط بالتجارب التشكيلية العالمية استنادا إلى موقف نقدي من التجريد «الاتباعي» مثلما كان يمارس في تونس، ومحاولة الاستفادة من العناصر التراثية في الخط والعمارة لإدماجها في حيز جمالي ذي بعدين. ويقوم أسلوب الفنان على موضع البنية المعمارية للمدينة باعتبارها نسقا وإيقاعا، وتتكون الصيغة الأكثر شيوعا لهذا الأسلوب من هيكل يعتمد على علاقة ثابتة ومتكررة بين الخط المنحني والخط المستقيم في تكوينات توحي بنسق الخط الكوفي الهندسي والعمارة الإسلامية.

أمّا نجا مهداوي فقد بدأ تجربته مع التجريد واللوحات المجسمة، ثم انتقل في بداية السبعينات إلى الحروفية في أعماله الفنيّة. ورغم أنّ نجا مهداوي حريص على عدم الاهتمام بمضمون الحرف العربي مركزا اهتمامه على التأثير البصري للتكوينات، ورغم أنّ هذه الشكلانية تصل إلى حد استنباط حروف وعلامات لا وجود لها في الكتابة المعروفة، فقد بقي مع ذلك ملتصقا بتقاليد الخط والزخرفة الإسلامية.فهو يحافظ، عموما، على أسس الحيّز الجمالي التقليدية، ويحرص على المظهر التنميقي، وملء الفراغات على نطاق واسع.

وانتسب إلى التيار الحروفي فنانون آخرون مثل محمد صمّود ومحمد الزواري، مع العلم أنّ فنانين كثيرين جربوا الحروفية على نحو متقطع، وفي مرحلة أو أخرى من مسارهم الفني مثل علي بلاّغة وخليفة شلتوت والهادي اللبان وغيرهم. وينتمي إلى الاتجاهات التأصيلية فنانون انطلقوا من التجريد، وانتهوا إلى أساليب تجمع بين حرية البناء التجريدي واستلهام الأشكال والرموز المأخوذة من التراث الزخرفي الإسلامي، أو من الصناعات الحرفية الشعبية. وقد انتمى إلى هذا الاتجاه، في مرحلة ما، عدد من الفنانين من الشباب مثل علي الزنايدي ونور الدين الهاني والحبيب بيدة...

التجارب التشخيصيّة المحدثة

رغم أنّ التجريد كان أهمّ تجارب جيل الستينات في مواجهة جيل «مدرسة تونس» السابق، فقد ظهرت اتجاهات تشخيصية محدثة تطرح علاقات متجددة بالواقع. واقتنع فنانون مثل محمود السهيلي والحبيب السعيدي والبشير الأخضر بضرورة اعتبار المعالجة التشكيليّة الحرة في مقدمة شواغل الفنان كما اقتنع بذلك التّجْريديُّون، ولكنّهم، مع ذلك، رفضوا تحلل عناصر الواقع وغيابه التام في مادة اللون، وألقوا بذلك نظرة جديدة على عالم الأشياء يغلب عليها الاختزال والذاتية، وتصل أحيانا إلى تخوم التجريد. والواضح أنّ التشخيصيين الجدد يرفضون مبالغة التجريديين في تجاهل الواقع، كما يرفضون المفهوم الاحتفالي والسكوني للتشخيصية المحافظة والعاكسة، في نظرهم، لرؤية سطحية للعالم. إنهم، من خلال التعبيرية والسريالية والتشخيصية المحدثة والفن الفطري، يعرضون صورة تحليلية أو تأليفيّة للواقع حسب ميول الفنان الذاتية بحيث تتداخل حقيقة الوجود الخارجي للأشياء بواقع الإدراك الباطني.

وتأخذ التشخيصية أحيانا منحى الالتزام الاجتماعي كما نراه عند الصادق قمش في إحدى مراحل عمله، وقد أسهم في الاتّجاهات التشخيصية الجديدة فنانون من أجيال سابقة عرفوا بأسلوب أكثر محافظة. ومن هؤلاء حاتم المكي عندما جرب في مرحلته الأخيرة تشخيصية محدثة قريبة الصلة بما فوق الواقعية، وكذلك عبد العزيز القرجي الذي تخلى عن أسلوبه الدقيق المتأثر بالمنمنمات الإسلامية للانخراط في تجربة حرة خارجة عن الوقار والاتزان السائدين عند أبناء جيله، ومعبرة عن الطبيعة الساخرة والمنفعلة للروح الشعبية، ومذكرة بالفنون البدائية وتعبيرات الأطفال. ومن التشخيصيين الجدد عادل مقديش بعالم مكعباته السابحة في فضاء شفاف، واستحضاره لأجواء حكائية شرقية، وعبد الرحمان المتجاولي والطاهر المقدميني المتأثران في مرحلة ما بالإنجليزي فرنسيس بيكون، والمنصف المانسي في أجواء أجساده السقيمة المكفنة باللفافات، والمنصف بن عمر الذي يصل عالم الحلم والخيال بالنقد الاجتماعي اللاذع.

وهناك مجموعة أخرى من التشخيصيين يتابعون حلما ذاتيا منقطعا عن التفاعل المباشر بالبيئة، كأنما ينمو ويتطور خارج الزمن، مثل عالم البشير الأخضر المفتوح على الفراغات الشاسعة، ومناخات فتحي بن زاكور المذكرة بقصائد الشاعر الألماني ماريا راينر ريلكه، ورسوم فؤاد الزاوش المنتقلة بين رؤية عجائبية ورصد فوتوغرافي للمشاهد الواقعية، وفويدر التريكي الحفار المعروف، وقد انتقل إلى الرسم ليروي عالما غريبا تتمازج فيه ممالك الحيوان والنبات والجماد في رؤى شعرية تجمع بين البدائية والترميز، وتدين في معالجتها الشكلية للتصوير الشعبي وإلى باول كلي P.Klee. كما نذكر شخوص حمادي بن سعد العملاقة ذات التخطيطات القوية، وأجواء الانتظار والأسى المسيطرة على عالم محمد الأمين ساسي، واستيهامات أحمد الحجري الجامعة بين التخيل الأكثر إبداعا وعناصر مبعثرة من واقعه اليومي ونتف من

أحداث طفولته الماضية، وتأتي أهمية أحمد الحجري في تاريخ الحركة الفنية التونسية من كونه يجمع بين تلقائية التعبير عن عالمه الزّاخر بالأخيلة ومعالجة تشكيلية هي من النضج والاكتمال بحيث تجعله في مصافّ كبار المبدعين في تونس وخارجها.

الرسم الفطري

يمثّل الرسامون الفطريون اتجاها على هامش الأساليب الفنية السائدة، وتعكس أعمالهم شواغل متنوعة: أحلاما ذاتية، وصوراً للواقع الاجتماعي، وحنيناً إلى المدينة العتيقة، واحتفالاً بالحياة العائلية. وأهمّ ممثلي هذا الاتجاه في تونس البغدادي شنيتر وعلي القرماسي ومحرزية غضاب وعز الدين البراري. ويشكل الرسم الفطري إضافة مهمّة إلى الرؤى والممارسات التشكيلية من حيث إنّه ينبئ عن رؤية متحررة من الأسلوبية المدرسية ومن الالتزام بأي خطاب نظري. إنّ عصامية الفطريين وتطوّر تجربتهم خارج المؤسسات الأكاديمية تمنح رؤية المتميزين منهم اتساعا ونفاذا لاستيعاب مظاهر طريفة من الحياة، واستنباط حلول تشكيلية تبدو أحيانا باهرة. وهو ما يسميه كاندنسكي «الواقعية الكبرى التي تخضع الأشياء إلى معالجة لا توجد في الطبيعة». ويبدو عالم بغدادي شنيتر الأكثر استجابة لشروط «الجمالية الفطرية»، إذْ إنّها تترجم بتقصّيها شتات أوهامه واستيهاماته عن تعبير مغرق في الذاتية.

ملامح المعاصرة في الفن

بقيت الفنون التشكيلية باختلاف اتجاهاتها وأساليبها وفية لجمالية تقليدية تعتمد المساحة المخططة الملونة واقعا أوحد للتعبير، غير أنّ تحولات عميقة قد طرأت منذ عقود على معنى الفن وأهدافه فانتقل من «نتاج مادي» يُقدّمه الفنان إلى واقع أكْثر تعقيدا يمتزج فيه الوجود المحسوس للشيء المنجز بالحركة المبدعة من حيث هي سلوك، ويندرج ضمن علاقة بالبيئة يكون للفكرة فيه دور رئيس. وهكذا يترك الفن الإخبار عن الواقع البصري إلى طرح مفهومي للعالم، متحولاً من «تمثيل» الأشياء إلى «تقديمها» من خلال «أحداث تنشيطية» و«تنصيبات» وغيرها. وقد اشتهر عبد الرزاق الساحلي بممارسة ذات أبعاد مفهومية تنشيطية بالإضافة إلى رسومه، حيث اعتاد تقديم عروض لما يُسمّى بالشّعر الصَوْتي وهو عبارة عن أصوات حُرّة لا معنى لها، وإنجاز «تَنْصيبات» تشغل حَيّز العَرْض على نحو غير مألوف. وقد تبعه في ذلك فنانون آخرون مثل خالد بن سليمان ونادية الجلاصي وفاطمة الشرفي المسدي، كما حاول نور الدين الهاني ورشيد الفخفاخ في إطار رواقهم «شيم»، تجربة يتيمة (الأربعون طاطا) أنجزوا فيها «تنصيبا» شاملا شغل كامل حيز الرواق، واعتمد مرجعية متشعبة امْتَزَجَت فيها رموز التاريخ القرطاجي القديم بأجواء القرابين وبالشعرية الصوفية.

تقنيات أخرى

تركّز الحديث حتى الآن على تقنيات الرسم نظرا إلى استئثارها بأوفر نصيب من جهد العاملين ضمن الحركة الفنية التونسية. فالتقنيات الأخرى كالنحت والخزف والفنون التخطيطية والسجاد ليست لها سوى مرتبة ثانويّة في مسار الحركة في مجموعها. ويعود ذلك إلى أسباب تاريخية واجتماعية وثقافية. فمنذ الفترة السابقة للاستقلال كان النّحت هامشيا في تظاهرات الصالون التونسي، ثم إنّ تكاليف إنجاز الأعمال النحتية المرتفعة نسبيا تعوق انتشاره بين الفنانين فضلا عن افتقاد النحت التشخيصي لتقاليد تاريخية في مجتمع مسلم. وإذا استثنينا نحّاتين اثنين أو ثلاثة، يعرضون أعمالهم في فترات متباعدة، فإنّ النحت يتّجه غالبا إلى إنجاز بعض النصب والتماثيل العمومية ممّا تأمر بإقامته الدولة. ومن النحاتين التونسيّين نذكر خاصة الهادي السلمي والهاشمي مرزوق، وبعض الرسامين الذين مارسوا

النحت أيضًا مثل عمر بن محمود والزبير التركي. وتبدو تجربة الهادي السلمي المتوفّى سنة 1995، الأهمّ في هذا المجال، فقد كان رائد النحت في تونس والأغنى تجربة من النحّاتين، وحاول طوال حياته إيجاد تقاليد لهذا الفن، ودمجه في العمارة والحيز التعميري للمدن، وكان عمله ذا منحى تعليمي إذ أخذ على عاتقه التّعبير عن اتّجاهات عدّة للنحت بحيث بدت مجمل أعماله اختصارا لمدارس كثيرة منذ رودان إلى اليوم.

ولا يكاد الأمر يختلف فيما يتعلّق بالخزف. فعلى الرغم من عراقة البلاد التونسية في صناعة الفخار والخزف، لم يطرأ على تلك الفنون، من وجهة نظر إبداعية حديثة، تطور ونمو بحجم أهميتها في التراث الفني. ومثل ذلك يقال عن فنون السجّاد والنسيج، وقد يكون العدد المحدود من الخزافين والنسّاجين في الحركة الفنية الحديثة راجعا بالذات إلى عدم القدرة على تجاوز التراث الهائل الذي لا يزال يحافظ على تقاليد حية إلى اليوم في الصناعات الحرفية الشعبية. ومن أهمّ ممثلي الخزف الفني في تونس خالد بن سليمان، والهاشمي الجمل، ومحمد اليانقي، وعائشة الفيلالي. أمّا السجاد فتمثّله صفية فرحات ومحمد نجاح.

بدأ الاهتمام بالحفر الفني بتونس منذ سنة 1966 في معرض محفورات إبراهيم الضحَّاك الخشبية، وقد مارس عدد محدود من الفنانين التونسيين أساليب الطبع الفني، منهم خليفة شلتوت، ومحمد بن مفتاح، وڤويدر التريكي، والهادي اللبان، وقد درسوا الحفر في باريس باعتباره تخصّصا أو تابعوا فيه دورات تأهيلية قصيرة، مثل فوزية الهيشري في فترة ما بين سنتي 1962 و1976. ورغم أهمّية الحفّارين التونسيين في مسار الحركة الفنية، ورغم جهودهم المتواصلة للتعريف بأساليب الحفر الفني، فإن الجمهور لا يقبل بسهولة على ما يعتبره فنا «تَعَدُّدِيًّا» لا يضاهي قيمة العمل الفني الأوحد، كما أنّ وسائل توزيع المحفورات بقيت بسيطة ومحدودة. فباستثناء إبراهيم الضحّاك الذي أمكنه نشر ثلاث مجموعات حفرية هي «الجازية الهلالية»، و«طيور»، و«أسماك»، فإنّ بقية الفنانين اكتفوا بطبع نسخ محدودة من كلّ محفورة ينجزونها.

ويهتمّ إبراهيم الضحاك في محفوراته باستلهام الروح الشعبية في تلقائيتها، معبّرا عنها بأسلوب يستمدّ قوته وأصالته من تخطيطاته الخشنة والبدائية. أما محمد بن مفتاح فإنّ عالمه يتردد بين مفهوم «مادي» يترك كلّ الحرية لتعبير الخامة في تفاعلها مع الأحماض، وحيز أكثر إحكاما واتزانا، وإن كان لا يخلو من بعض الانفعالات. ويبدو ڤويدر التريكي أكثر جموحا وانفعالا في عالمه المُتَّسم بالتلقائية والقريب من أحلام الطفولة، في حين تتحرك شخصيات المَأساة الإنسانية عند الهادي اللبان في أجواء معتمة صامتة.

بعد مرور زهاء القرن على بداية حركة الفن الحديث في تونس، يبدو الإبداع التشكيلي عنصرا أساسيًا في الواقع الثقافي التونسي، ويبرز ذلك من النمو المطرد لعدد الفنانين التونسيين، وتعدد المعارض الفردية والجماعية. ولعل ثراء الساحة الفنية راجع إلى تضافر عوامل عدّة منها: عراقة تقاليد الفن الحديث، ومجهود الدولة في مساعدة الفنانين، وتوفّر مؤسسات أكاديمية جادة مثل المعهد الأعلى للفنون الجميلة بتونس والمعهد الأعلى للفنون الجميلة بصفاقس، بالإضافة إلى عدد من المعاهد الفنية الخاصة.

لقد اكتسب الفنانون التونسيون تجربة طويلة في ممارسة الفن الحديث، وتؤلّف أعمالهم تراثا أسهم إلى حد بعيد في إغناء الحياة الثقافية بتونس. ولا يمكن المحافظة على تلك المكاسب إلا بمواصلة الحوار لإيجاد صيغة اندماج بالواقع الراهن للفن العالمي المعاصر مع المحافظة على ملامح ذاتية، وتوفر رؤية نقدية لمجموع التجارب الحالية للخروج بها من الطرق

المعتادة إلى تصور جديد لمهمّة الفن في المجتمع، ولدور الفنان باعتباره عنصرا فاعلا في بناء مدينة المستقبل.

2) حداثة الرّسم التونسي

تعدّ سنة 1925 نقطة البداية لظاهرة الرّسم في تونس وهي ظاهرة نتجت في أواخر القرن التاسع عشر عن إقامة عدد من الرسّامين المستشرقين ببلادنا أمثال هنري لورنس (Henri Laurens) ألبيرماركي (Albert Marquet) بول كلي (Paul Klee). ولم يجد هذا الشكل الفنّي الجديد تفاعلا في أوّل عهده إلاّ عند الجالية الأوروبيّة.

فكيف كان الشرق في عيون المستشرقين؟

«إنّ الشرق الذي يحلم به القرن 19 هو قروسطي وإقطاعي تمجّد فيه قيم السلام والحرب والصيد والخيل والفروسية والشجاعة والبطولة».

وأمثلة هذه الصورة للشرق كثيرة، نذكر منها رسوم أوجان دولاكروا (Eugène Delacroix) وباري (Barry) وأوجان فرومنتان (Eugène Fromentin) وإدوار ريو (Edouard Riou).

الصّورة الثانية هي الكشف عن الثروات الطبيعيّة دون الاكتراث بحياة المغاربة وبتاريخهم. وكلود موني (Claude Monet) الذي أقام بالجزائر لأداء الخدمة العسكرية من سنة 1860 إلى سنة 1862 يعترف بأنّه بقي غير مكترث بجمال الطابع المحلّي لكنّه انبهر بالضوء.

فالصور التي يعبّر عنها الرسم الاستشراقي تنحصر في التعبير الشكلي. فهي رموز لأشياء شوهدت ولم تفهم. وعرضه ما هو إلاّ تسجيل لمرحلة اكتشاف لقيم الفنّ للفنّ. وهذه الرؤية لعلاقة الشرق بالغرب اتضحت اليوم من زاوية التبادل الثنائي. وتنوّع العروض التي تستحسن الفنّ الشرقي دليل على ذلك ومنها عرض غرب ـ شرق (Orient - Occident) لمدينة ستراسبورغ (Strasbourg).

وما التّعريف بجمال المواقع عند المستعمر إلاّ وسيلة لتبرير حركة الاستيطان للذين يرغبون في الإقامة. فالرسم أداة دعاية للمستعمر، وهو ما أدّى إلى رفض كلّ خطاب للفنّ التشكيلي.

ويمكن استخراج خاصيتين للرسم الاستعماري:

فمن حيث الشكل: يتناول الرسم مناظر ومشاهد نسخت عناصرها بوضوح في إطار محلّي وهو ما نتج عنه تشابه من حيث الوظيفة والصورة مع بطاقات البريد.

ومن حيث المحتوى: إنّ السطحيّة واللاّمبالاة تخصّان هذه المقاربة حيث إنّ الشيء الممثّل

دليل الصالون التونسي لسنة 1912





ألكسندر فيشي

ينظر إليه بصيغة وثائقيّة. لذلك لم يكن هذا الرسم يعبّر عن المجتمع التونسي. وهذا يؤكّد طابعه الهامشي.

وعند الحديث عن الجيل الأوّل من الرسّامين، من الحتمي أن نذكر المدارس التي جمعتهم ونعني: قاعات العرض من جهة ومدرسة الفنون الجميلة من جهة أخرى.

وتميّزت فترة ما بين الحربين بتنظيم ثلاثة معارض:

– معرض «تونس البيضاء في الصحراء» Tunis la blanche au désert الذي أقيم بباريس سنة 1924 وغايته تقديم مظاهر تونس في العصور القديمة. وبلغ عدد المشاركين فيه 69 رساما منهم 16 ينتمون إلى الجالية الفرنسية بتونس، وأرسلت بلدية الحاضرة 14 لوحة.

– « المعرض الاستعماري » (L'exposition coloniale) المنتظم بمناسبة مئوية احتلال الجزائر سنة 1931 الذي أبرز صورة المستعمر « المنتصر ».

– « معرض 1937 » الذي زوّق فيه لأوّل مرّة « الجناح التونسي » رسّام شاب تونسي، وهو علي بن سالم.

وتواترت عروض أخرى أقلّ أهميّة بمختلف القاعات وبالأخصّ « صالون المدرسة الفرنسيّة » (Salon de l'école française)، كما كانت أخبار الفنّ محلّ تعليق الصحفيين المتخصّصين مثل شارلي (Charley) بصحيفة La Dépêche Tunisienne وMarchand بصحيفة (Le Petit Matin) أو الرسامين مثل ألكسندر فيشي ونقّاش E.Naccache.

أمّا مدرسة الفنون الجميلة فتعود جذورها إلى سنة 1922 عندما فتحت ورشة رسم حرّة بالمدينة العتيقة بـ« دار بن عيّاد » كان ينشّطها أرمان فرجو (Armand Vergeaud) وأ. فيشي.

أمّا اللوحات المعروضة فكانت تعكس الطابع الأكاديمي للصورة الكلاسكيّة.

وتطوّرت بعد ذلك هذه الورشة إلى « مدرسة الفنون الجميلة » (Ecole des Beaux Arts) التي أحدثت بأمر مؤرّخ في غرّة أكتوبر 1930 وموقّع من مدير المعارف، لوسيان باي (Lucien Paye). وكانت هذه المدرسة التي يديرها أرمان فرجو تُلَقِّنُ بالاضافة إلى الرسم، النقش والنحت والتزويق (والخزف مادة اختياريّة).

وفي سنة 1948، انتقل مقرّ المدرسة إلى نهج سيدي عبد السلام حيث واصل بيار برجول (Pierre Berjole) مباشرة الإدارة إلى حدود سنة 1966، أي عشر سنوات بعد الاستقلال. ومكث تأثير المدرسة في الإنتاج الفنّي محسوسا لسببين اثنين أوّلهما أنّ جلّ المدرّسين كانوا رسّامين وبهذه الصفة كانت دروسهم لاتخلو من نزعات ذاتية تعمل على تواصل أنماط التصوير الفنّي.

والآخر أنّ جلّ الرسّامين كانوا من روّاد ورشات المدرسة، نظرا إلى ندرة العنصر العصامي، نذكر منهم (Corpora) ويحيى التركي وعمّار فرحات وعلي بن سالم.

ويعود الفضل إلى هؤلاء الرسّامين المؤسّسين في غرس هذا الفنّ في المجتمع التونسي. وليس بغريب أن يسجّل نشاطهم بداية مغامرة طويلة أثبت وجودها بكثير من التّضحيات وعلى حساب تمزّق وضعهم أحيانا تجاه مجتمعهم. ونلمح هذه الشواغل في مختلف الأعمال مثل لوحة أ. فيشي (1925) « السيّدة ذات المعطف الأسود » (La dame au manteau noir). ونرصد اهتماما بوجه الشبه، ويظهر ذلك دون شكّ في الجزئيات والملامح مثل الوجه الذي طرق باللون الواضح المظلم سعيا إلى الوفاء للواقع.

تبلور الرسم التونسي في أعمال الرسّامين الذين عاينوا واقع البلاد، هذه الأعمال التي عبّرت عن تفاعل عميق مع الوسط التونسي.

ذلك أن فكرة الرسم التونسي تنمّ عن تفاعل حقيقي لمجموعة أوفر مع رابطتها الاجتماعيّة. فالرسم على البلور مثلا الذي تُمارسُهُ أقلّية كان يمثل الفنّ التونسي الأصيل. ونعتقدَ أنّ مجموعة الأربعة سنة 1931 هي التي جعلت التعبير التشكيلي يجمع بين الظاهرة الفنّية والواقع الاجتماعي.

وأوّل عرض لهذه المجموعة انتظم بقاعة تقع بنهج سان شارل St Charles هي الآن مقرّ صحيفة La Presse. وكانت هذه المجموعة تتركّب من أربعة رسّامين يهود مثّلوا لأوّل مرّة العنصر التونسي وخاصة ليفي الذي كانت أعماله ذات تعبير بليغ.

- موزس ليفي Moses Lévy (1885 ـ 1968) :

ولد بتونس سنة 1885 من أب بريطاني وأمّ إيطالية كان يتردّد طيلة الفترة المتراوحة بين 1900 إلى 1906 على المدارس الفنّية بإيطاليا. ثم عاد إلى تونس لاكتشافها من جديد حيث اكتمل تكوينه. ويظهر ذلك في أعماله التي تبرز فيها لوحة « نهج بالمدينة » Rue de la Médina المنظر النموذجي المتكوّن من عنصرين: المئذنة والقبّة

وهي عناصر التعبير المعهودة في الرسم الاستعماري دون السعي إلى الهدف نفسه. وتفرز هذه اللوحة محيط حركة ساخنة، ويظهر ذلك من تعابير اللون والضوء.

ومن أعماله أيضا «بَدوِيَة» (Bédouine) (1925)، «نهج المرسى» Rue de la Marssa (1929)، «نساء عربيات خلف النافذة» Femmes arabes à la fenêtre «اليهودية الجميلة» La belle juive. كما شارك موزس ليفي على نحو منتظم في الكثير من المعارض الفنّية ومنها عرضه خمس لوحات بصالون تونس (1931) الذي احتوى على 80 لوحة و12 رسما من ضمنها رسم «المرأة العجوز الحاملة للبخور» La vieille dame porteuse d'encens ورسم «بدوية» Bédouine.

لقد لامس موزس ليفي الواقع بشيء من المبالاة وبثّ فيه شحنة عاطفيّة مكّنته من الاقتراب أكثر من فنّه: ««إنّ توالي الواقعية البصريّة مع الكتابة التشكيليّة تؤلّف خاصية الرسم عند ليفي»».

- بيار بوشارل (Pierre Boucherle):

ولد بتونس سنة 1894، وهو يعدّ الأب المؤسّس لمجموعة الأربعة ومدرسة تونس. بدأ حياته الفنيّة بنشر رسومه في الصحف وذلك في الفترة المتراوحة بين سنة 1916 وسنة 1928. حصل على منحة من الحكومة سنة 1923 لمواصلة دراسته بباريس وتبنّى أسلوبا حافظ عليه دون إعلان الرغبة في التغيير. وهو الذي صرّح: «ليس هناك أنواع في الرسم، بل هناك النوع الجيد النوع والرديء».

يطغى على تقنيّته الطابع الأكاديمي. فهو يستعمل المكوّنات المحكمة مثل لوحته «الطبيعة الميّتة» Nature morte التي تقدّم أشكالا في غاية البساطة خالية من أيّ جزئيّة. فالفضاء قُسم إلى مخططات تؤكّد التكوين المحوري للوحة. ويتميّز أسلوبه باستعمال الألوان الصافية النقيّة وثنائي النور والظلام.

- انطونيو كُربورا (Antonio Corpora):

ولد بتونس سنة 1909 من والدين إيطاليين. تردّد سنة 1928 على ورشة فَرْجو Vergeaud بمدرسة الفنون الجميلة. وتأثر منذ صغره بالرسامين الكبار بيكاسو Picasso ماتيس Matisse شاغال Chagall براك Braque. وفي سنة 1929، شارك لأوّل مرّة في الصالون التونسي ونالت لوحاته نجاحا كبيرا، وهو ما شجّعه على زيارة تونس سنة 1930. وكان من رفاق Pozzi Carena ثم ارتحل إلى باريس سنة 1931. واستقرّ بها إلى سنة 1937 ولكنّه ظلّ يزور تونس وإيطاليا. وهو يعدّ أوّل رسّام تجريدي عرفته تونس.

- لويس للُوش (Louis Lellouche):

تلقّى دراسة أكاديميّة مكّنته من نسخ روائع متحف اللوفر Louvre. لوحته «الحارة» La Hara (1930) تمثل حيّ اليهود بالعاصمة الذي يتّقد حيوية بحركة المارين ومناشط التجّار، حيث يقوم كل فرد بحركة عفويّة تتناغم وسائر الحركات.

وقد جذبت مجموعة الأربعة الكثير من العناصر الجديدة وارتفع عددها سنة 1944 إلى عشرة نذكر منهم يحيي، عمّار فرحات، ابن عبد اللّه، أرنولد Arnauld، نقّاش Naccache، Nello Lévy.

ساعد الاستقلال على الفصل بين أفراد المجموعة. وهو يعدّ اللّحظة الحاسمة لأنّ «تاريخ الوطن انفصل عن تاريخ فرنسا». هذه اللّحظة أثارت جملة من التأويلات فالاستقلال سمح للمجموعة بأن تؤكّد وجودها إيجابيّا، إذ حرّرها من كبت السّلب أو الاستلاب: «إذ لا يوجد أيّ مستعمر لا يحلم ولو مرّة واحدة بأن يكون مكان المستعمر». ولكن هل يمكن أن تكون أيّ علاقة بين الثقافة والنضال من أجل الحريّة؟ هل كان الاستقلال محرّكا للثقافة أم هل كان مجرّد ظاهرة ثقافيّة؟

فالرّسم على البلّور ومختلف المنتجات الأدبيّة وخاصّة شعر الشّابي أسهمت في إبراز الرغبة الجماعيّة للظهور على نحو مغاير للذي كان يفرضه المستعمر. هكذا أعاد الرسم الاعتبار لصورة التونسي الفلكلورية بإدماجه في إطار

جديد. فقد شارك الفنّ على نحو إيجابيّ شامل في تشكيل نظرة جديدة للذات والعالم. ثمّ أصبحت سيرورة التغيير الاجتماعي حقيقة سياسية واجتماعيّة بإحداث مجلّة الأحوال الشخصيّة.

على أنّ هذا التغيير الذي يبدو ثوريا حافظ على أرضية القيم التقليديّة وخاصة منها الإسلاميّة.

فقد اتّخذ المجتمع التونسي في سنوات 1960 ـ 1965 مظهرا جديدا يحمل سمات حضور الدولة الوطنيّة. واهتمّ الرسم في تلك الفترة بالعنصر الاجتماعي الذي لا يزال مشدودا إلى الحياة التقليديّة (زبير التركي، الفرجي، عمّار فرحات) أو رصد ظاهرة التغيير الجديدة (السهيلي، ابن محمود، صرفاتي Sarfati). والغريب في هذه الأعمال توجّهها المشترك من حيث موضوع البحث الذي سيزداد ثراء لدى الجيل القادم.

فهذه الوضعيّة جعلت الفرد يسهم باحتشام في التذكير بالفارق الجمالي بين المدينة والريف.

وبحلول سنة 1961، سنة إحداث كتابة الدولة للشؤون الثقافيّة والأخبار، بدأت عملية توظيف الفنّ ـ وكانت إحدى مهام هذه المؤسّسة ـ ردّ الاعتبار للتراث الثقافي والعلاقات ذات الطابع الثقافي مع الخارج خاصة مع المنظّمات الدولية. هذان التوجّهان سيكون لهما انعكاس على الرسم الذي انخرط في سياق السياسة الثقافيّة خاصة في الفترة الأولى.

فقد دعت الدّولة الفنّانين إلى المشاركة في «الإنجاز الوطني» الذي يعمل على إرساء «قوميّة جديدة وأصيلة». وأوّل عمل بادرت به الدولة كان تكريم الفنانين وتحميلهم مسؤولية السياسة الخاصة بالفنّ. ومن ثمّ أصبح الفنّان شخصيّة رسميّة بعد أن كان مهمّشا في الفترة السابقة للاستقلال.

ولقد أنتجت أفلام وثائقية تعرّف بالفنّانين لدى الجمهور وتؤكّد أهميّة الدور المناط بعهدتهم في المجتمع. ونهجت الإذاعة ثمّ التلفزة المنهج نفسه وأعدّت برامج للهدف ذاته. ومن جهة أخرى نشرت كتابة الدولة للثقافة أوّل كتاب خاصّ بالرسام القدير زبير التركي وأسّس الاتحاد الوطني للفنون التشكيلية سنة 1969.

وأرست هذه الفترة أسس اتجاه جديد لتنظيم المؤسّسة الفنّية من الدولة وذلك على مختلف المستويات: النظام الأساسي للفنّانين والعروض الفنيّة وخاصة اقتناء الأعمال. وهذا التطوّر الطبيعي لظاهرة توظيف الفنّ أدّى إلى «التشخيص».

وفي أعمال يحيى التركي (1901 ـ 1960) الملقّب بالأب المؤسّس للرسم التونسي، ظهرت تلك الخصوصيات التي تعود إلى فترة مجموعة الأربعة (1934) ومجموعة العشرة (1944). فيحيى التركي، الفنان العصامي، كان باتّصال مع الأوساط الغربية (المجلاّت الفنيّة) وهو ما مكّنه من التعرّف إلى الكثير من الرسّامين. كما أنّ زياراته المتكرّرة إلى باريس وإيطاليا أسهمت بقدر وافر في التمكّن من الفنّ الغربي.

وإن كان يحيى بعيدا عن ميدان البحوث الذي اختاره معاصروه فذلك يعزى إلى اختيار شخصي، ألا وهو الاتصال بوسط اجتماعي آخر. وهذا ما جعله يَبْتكر لغة تستمدّ عناصرها من نظام آخر للقيم. فبفضل يحيى بدأت عملية إرساء ترقيم جديد لعلامة اللوحة في مجال هادف ينطلق من وجهة نظر جديدة.

هذا الاسترجاع للعلامة المحليّة في فنّ الرسم وردّ الاعتبار لها أداة اتّصال في وسط المجموعة يعدّان ما يسمى تحوّل العلامة أو مجازية التعبير، وكان يحيى أوّل من مهّد لها.

في أعمال عمّار فرحات، تبدأ عملية استعمال التخطيطات المتعاقبة وهو ما يوحي على نحو محتشم بتبنّي الطريقة الأفقيّة. ويحافظ من جهة أخرى على شبكة الصور نفسها والطريقة ذاتها في إحاطة الأشياء بخطّ مكثّف ولكنّه بسيط كما يظهر ذلك في أعماله: جلسة موسيقيّة والدّكانة. كذلك نكتشف مع هذا الرسام العصامي بعدا

آخر للتعبير الحدسي المرتكز على ما يجود به المنطق السليم.

ففي لوحته «الأجيال الثلاثة» (1953)، نلمح موضوع «ليلة الزفاف» وهو تعبير يخصّ بوجه عام الرسم في تلك الحقبة. يعرض عمّار فرحات ثلاث شخصيات: الأمّ والبنت وأختها الصغرى. ويبادر الرسّام بتصغير عناصر اللوحة إلى مستوى تخطيطات بسيطة. فالنظرة والحركة هما اللّتان تمهّدان لتلامس الأيدي وهو ما يعبّر عن حالة اهتزازية يتكوّن منها موضوع اللوحة.

ولئن بدت لغة عمّار فرحات تستقي من تقاليد يحيى في فنّ الرسم، فقد أضافت بعدا تعبيريا جديدا بتصوير المشاعر النابعة من الواقع الاجتماعي الشعبي.

فانضمام عمّار فرحات إلى التوجّه التقليدي في فنّ الرسم طيلة فترة البدايات كان من أجل بلورة لغة تشكيلية أصيلة.

أمّا علي بن سالم فهو يقدّم رسمًا يشمله الطابع المنمنم تطرق فيه العناصر المكوّنة للمشهد بكلّ دقّة. فلوحة «الحنّاء» تركّز الاهتمام على أحد المشاهد من الحياة العائلية المتعلّقة بالعرس. ويحدّد ترتيب الأشياء وتنظيمها الإطار الاجتماعي للحفل وأمّا أرضية الصحن المزدانة بالخزف ووضوح الأدوات واللّباس فهما يدلاّن على الوسط البرجوازي المرصود في اللوحة، وكذلك عملية إبراز الزربية في الوسط والقطّ والزهريّة في أوّل التخطيط وتصفيف الأصداف على حافة الزربيّة، كلّ ذلك يشهد على سيرة حضريّة. هذا الحضور شبه المكثّف للأدوات بشّر بنظام جديد للفضاء حسب وظيفته في الواقع.

وشارك حاتم المكّي على نحو ملحوظ في هذا الفنّ وكان من المدافعين المُتحمّسين الذين أنجزوا أعمالاً متميّزة. ولد حاتم المكّي سنة 1918 بجاكرتا من أب تونسي وأم أندونسيّة. اقتحم ميدان الرسم منذ بدء شبابه. وحصل على الجائزة الكبرى للرسم للحكومة التونسية سنة 1938. وتميّزت حياته المهنيّة بإقامة طويلة بباريس حيث شارك في الكثير من المعارض، وخاصة معرض La Biennale de Menton الذي انتظم سنة 1954 حيث نال جائزة في الرّسم. هذه الأحداث جعلت الرسام حاتم المكّي فنّانا متفتّحا على التوجّهات الفنيّة العالميّة، متشبعا بالمعارف ومحتضنا الفنّ من وجهة نظر عالمية أكثر منها حسّية.

كان إنتاجه غزيرا وجلّ أعماله انحصرت في الخمسينات من القرن 20م. لوحاته «الجوع» و«الأمومة» و«امرأة» و«الصراع» تؤكّد الالتزام الذي يجب، حسب رأيه، أن يجسّد منطلق العمل الفنّي ونهايته.

فلوحة «الجوع» تقدّم عبر تقنيّة «الكَشْط» (grattage) شخصا متفاوت الأبعاد (حركات مبتورة وأعضاء متجاوزة الحدود). هذا الشخص هو بصدد جذب حبل مربوط بعنقه، وهذه الحركة توحي باقتراب نهايته. فهو يمثّل بهذا الشّكل المعذّب بؤس العالم الثالث. أمّا العملية الانتحارية، فهي تكشف عن تقويم الرسّام للوضع. هذه اللوحة تعدّ بمثابة موقف حول وضع اجتماعي - سياسي خاص بمجموعة بشرية مضطهدة. وهذا يدلّ مرّة أخرى على التزام المكّي في الرسوم المصاحبة لأشعار الشابي، رمز الوطنية. وهو يعتبر لدى كلّ التونسيين مثالا للمُثقّف الرافض للخضوع والاستسلام.

نلاحظ كذلك من الرسم المصاحب لقصيدة «الفنان الضرير» Pour un musicien aveugle اقتصادا في الخطوط يعبّر عن مأسوية القصيدة (والصلابة والأظفار المكسّرة). وفي سنة 1965، قرّر المكّي الانسحاب من مدرسة تونس ومن ثمّة الابتعاد عن الفنّ الجامع لعدد كثير من الرسامين. ومنذ ذلك التاريخ، انقطع المكّي عن العرض وانكبّ على إنجاز رسوم لجلّ الطوابع البريديّة. هذه الرسوم التي كثيرا ما تأخذ طابعا تمجيديا. لذلك لا يمكن حسب نظرنا أن تكون موضوع دراسة من القبيل نفسه الذي تتطلبه الأعمال المندرجة في بحث شخصي.

أمّا الزبير التركي فهو يحتلّ مكانه من حيث

هو رسّام متفرّد بين التعبير الشكلي القديم وفضاء العلامة التقليديّة. ولد سنة 1924 بتونس وتلقّى تكوينا فنّيا بمدرسة الفنون الجميلة بستكهولم عندما أقام بهذه المدينة من 1952 إلى 1954. وإثر عودته إلى تونس، انضمّ إلى الحركة التشكيلية وتبنى مبدأ الالتزام الاجتماعي. وشمل إنتاجه الذي ظلّ غزيرا إلى مَا بَعْدَ سنة 1965 عددا من الرسوم واللوحات والمشاهد الحائطيّة. وهو إنتاج موحّد من حيث مبدأ رصد حياة التونسيين عبر لغة أكثر دقّة وأكثر إحكاما من الذين سبقوه، إذ يعطي للعمل الفنّي مدلولا تراثيّا في الدرجة الأولى. فالمشاهد تتجاوز مدلولها الذاتي لتنتصب علامة ثقافيّة مميّزة للوسط الاجتماعي. ومن ثمّ نستشفّ تحليلا عميقا لعناصر الانتماء الثقافي. وتعدّ مجموع الرسوم التي يحويها كتاب «تونس الأمس واليوم» عنصرا مهمّا في الإنجاز الجملي، إذ لأوّل مرّة يبادر فنان بتقديم مجموعة متكاملة من الرسوم.

إنّ لوحة «صورة عائلة» تطرق موضوعا متداولا ولكن تقدّمه في صيغة جديدة. خاصيتان تبرزان من أوّل وهلة: الخطّ الذي يرسم حدود الأشكال واللون الممتدّ (اللون الطيني الأحمر للتعبير عن وجه الشخص الأبعد أو الأحمر القاني على شعر العروس الممتدّ في الوسط).

بقي التعبير بالشكلية التقليديّة وقراءتها تستوجب دائما استجلاء اللاوعي الجماعي. والتطوّر يكمن في إقحام قيم فنيّة جديدة ستجلب شواغل أخرى.

إنّ قراءة التعبير الجديد للعلامة/الرمز تتطلّب موقفا فكريّا أيضا ولكن دونما معارضة نظام القيم الذي قاد الرسم في الحقبة السابقة. وانطلاقا من ذلك فهو يمثل نمطا جديدا للتماثل وليس أسلوبا جديدا. وهذه الظاهرة تتجلّي في تطوّر الإدراك وليس في أزمة قيم لم تكن مقبولة لدى مجتمع تلك الحقبة.

إنّ العمل الفنّي يندرج في تواصل الرسم الواقعي للفكرة السابقة ويتجدّد بتقديمه الرمزيّة محوراً للتعبير. لقد أصبح هناك تباعد للتعبير الواقعي لصالح أسلوبية ترتيبية للأشكال وإدخال قواعد جديدة في العلاقة بين الشكل والأداة. والمقارنة بين أعمال القرجي: «العائلة» وبلاّغة «الغسّالات» وابن عبد اللّه «العروسة» وصفية فرحات «حفل خطوبة بالوردانين» تبيّن حضور الخاصيات الشكلية على جميع الأوجه، مجال مسطّح مبسوط يتخلّله ترتيب تصفيف خطي للعناصر وإبراز للدليل الثقافي.

هذه المقاربة تعتمد على فكرتين أساسيتين:

الأولى: إنّ الصّور البشرية والأصوات المادية كانت معاملتها على قدم المساواة بقدر مكونها في العمل المنجز.

الثانية: إنّ العلاقة بين العناصر المرسومة تخضع للضوابط الفنيّة والشكليّة، لا للمنطق الروائيّ أو الواقعي.

ولوحة بلاّغة «بائع العطور» تعرض شخصيات موجودة فقط من خلال علاماتها الهنداميّة. فهي من الإيحاء الأسلوبي نفسه للأدوات المحيطة بها، كما نلمس خاصية شكلية أخرى، وهي المتعلقة بالأرضية المرسومة وقد أعدّت بمادة موحّدة. هذه التقنيّة تسمح بتباعد الأداة المُشَخّصة وتمتين وظيفتها من حيث هي علامة. وتعدّ لوحة ابن عبد اللّه «صاحب القطّ» أحسن مثال لهذا الأسلوب.

أمّا الرسم الزيتي لابن عبد اللّه فهو عبارة عن مجال تهيمن عليه تعبيرية الأداة باعتبارها مرجعيّة اجتماعيّة. فالأشكال البشرية تكاد تكون مفقودة في لوحاته وهي تعمل حسب خاصياتها الثقافية دون الإخلال بنظام العرف الثقافي. فالأشكال النسائيّة في عمومها تتميّز بخصوصيتها الهنداميّة، وكثيرا ما تكون مرسومة من وجهة جانبيّة فتحمل الملامح الخلقيّة نفسها مع شيء من الاختلاف في تسريحة الشعر ولون العيون كما تدلّ عليه أعمال: «الفتيات والحمام»، و«نساء أمام المرآة» أو «الخياطة».

وتزامن ظهور هذا الرسم الزيتي مع فترة بلغت فيه طبقة من المجتمع مستوى اقتصاديا فرض عليها المطالبة بانتماء ثقافي معيّن. هذه الطبقة

ستعمل على إثبات رقيها الاجتماعي باقتناء أدوات ثقافيّة مميّزة، منها الأعمال الفنّية.

ونلاحظ، إذا استثنينا اللوحات التي اقتنتها الدولة، أنّ المشترين جلّهم من الموظفين السامين والعناصر الاجتماعيّة المترفة التي برزت بعد فترة الاستقلال. وعلى مستوى العمل المنجز، ندرك تنظيميّة الأسلوب وهي خاصية تؤكّد أنّ هذا الرسم الزّيتي ينتعش في نطاق دائرة اجتماعيّة ثقافية.

وفي بداية الستينات ظهر الجيل الثالث من الرسّامين. وتميّز رسمهم خاصّة بتنوّع الأساليب المقتبسة لعرض شواغل ناجمة من توجّهات إيديولوجيّة ومطامح جديدة. وصار السؤال المطروح هو: كيف نطوّع العالم ولأيّ غرض؟ وتولّدت عن هذا الموقف المطالبة بأصالة «مُفْرطة». على الصعيد السياسي، يبدو أنّ الاختيار الاشتراكي قد أجاب عن مجمل الطلبات.

ونتج عن ذلك أنّ تجربة رسّامي الجيل الثالث قد تميّزت بخاصيتين أساسيتين:

أ ـ البحث عن تعبير جديد للتصوير الفنّي يحدث قطيعة مع الأساليب التقليديّة.

ب ـ الانفتاح على الثقافة العالمية الذي يظهر في تعديل التعبير التشكيلي مع التيارات العالمية.

هاتان الخاصيتان تستجيبان لمتطلّبات جديدة فرضتها تحوّلات المجتمع وتعبّران عن رغبة في تبنّي توجّهات عصرية. ولكن ظهرت من خلال هذا التمشي، المنتفع من الانفتاح، صعوبات جمّة واجهها الرسّامون، هي تحقيق ذاتهم عبر لغة تعبّر عن أدوات ثقافيّة للمجتمع الغربي.

وبدراستنا لهذا الرسم، نستشف على صعيد علامة التصوير، اتجاهين:

– الأوّل يستعمل عنصر الشكلية أو التجريديّة.

– الثاني يتبنّى العلامات الشكليّة والواقعيّة.

ويعتبر الهادي التركي أحد الرسامين التجريديّين الأوائل بعد أ. نقاش. ولد بتونس سنة 1922 وانضمّ بأعماله إلى تيّار الجيل الثالث، بخلاف معاصريه في سنة 1958.

هذا الرسام الذي تعاطى في بداية حياته الفنيّة الرسم الواقعي التعبيري، تبنّى منذ رجوعه من الخارج التعبير التجريدي. ورسمه ينطلق من تقارب المساحات الملوّنة التي تنتظم دون قواعد ثابتة، عن طريق علاقات يفرضها الموضوع أو اللحظة أو الحالة النفسانيّة للفنان. وتنوّع أعماله تشهد على ذلك. فلوحة «الجنوب التونسي» تظهر تخطيطين ينفصلان أو يتباعدان على صعيدي اللّون والرسم على حدّ السواء. أمّا لوحة «آثار قرطاج» فهي تتكوّن من برقش ألوان خفيفة متداخلة متشابكة تبدو في شكل فضاء غير خاضع لضوابط. هذا البرقش المتلبّد سحبا من الألوان توحي برؤية خيالية تبوح بعواطف شخصيّة.

وتؤلّف أعماله الأخرى مثل «الملعب» أو «بياض الصبح» أو «انطباع الغرب» وحدة في طرق مجال مختلف، إذ نتبيّن فصلا واضحا بين الأشكال وتعارضا للألوان من جهة تقارب المتكاملات (وبالأخصّ في لوحة «شعور المغرب») وكذلك تعاقب تخطيطات في العمق موحية عبر مختلف الاحتدادات للوّن.

هذه التغييرات في التعبير تنمّ عن طابع غير متشدّد في تمشّي الفنّان إذ تسهم في تحديد البعد العاطفي الشخصي لهذا الرسم. وفي حين كان الرسم الزيتي للجيل الثاني مجسّما للمدلول بخلق الأدوات الرمزيّة يبادر الهادي التركي بفَتْح مجال يتراءى في التأمّل الباطني.

ولدى السهيلي والسعيدي، تتجدّد معالم أسلوبيّة سيكون لها شأن كبير لدى عدد كثير من الرسامين، وقد شارك السهيلي بانتظام في معارض مدرسة تونس بداية من سنة 1961. وفي سنة 1975، أنشأ صحبة مجموعة من الرسّامين (نذكر منهم على وجه الخصوص بلخوجة وبودن وابن عبد اللّه ورفيق الكامل) «رواق ارتسام».

3) مدرسة تونس وخصائصها

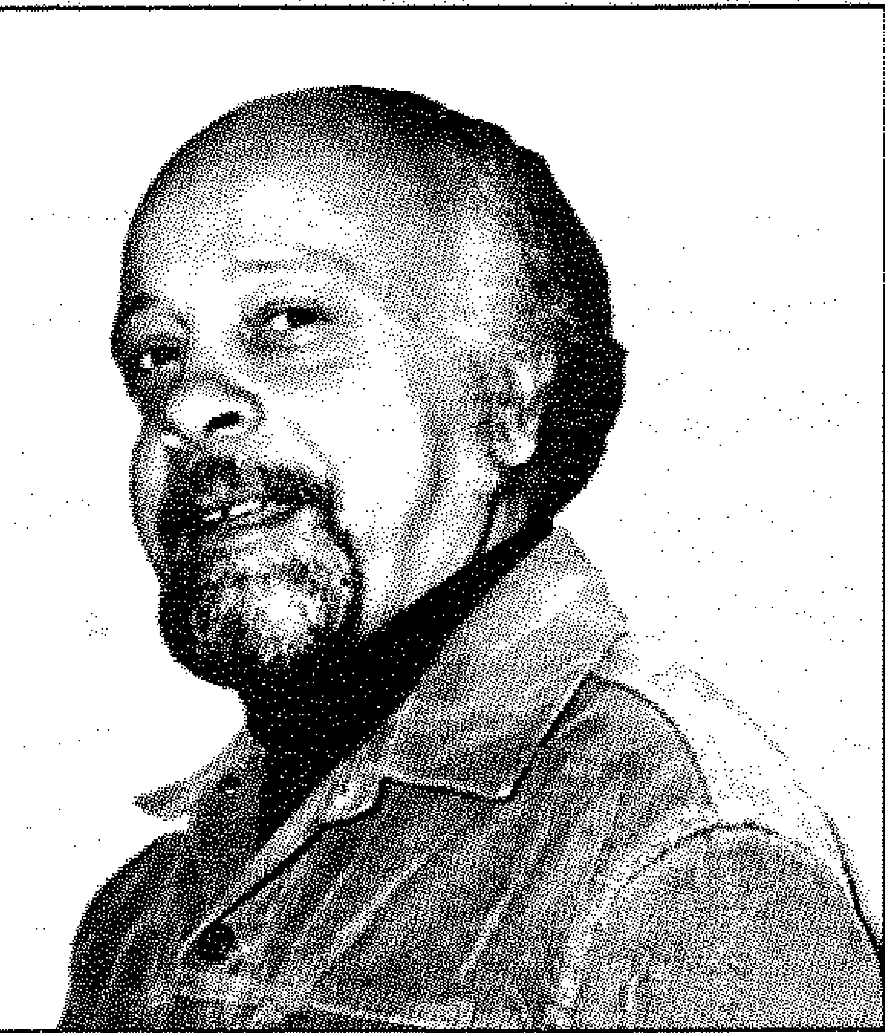
لا يحيلنا الاسم الذي اتّخذته مجموعة على مفهوم مدرسة بالمعنى المتعارف ولا إلى اتّجاه خصوصي ولا على نظرة جمالية مخصوصة، بل هو مجموعة من الرسّامين كان هدفهم الأساس الدّفاع عن مصالح الرسّامين المحترفين ضدّ جحافل الهواة التي زحفت على الصالون التونسي. وفي سنة 1956 خلف يحيى التركي بيار بوشارل في رئاسة هذه المدرسة التي ضمت : صفية فرحات وعلي بلاّغة والزبير التركي وإبراهيم الضحّاك وحسن السّوفي. وبقيت - وعلى رأسها الرسّام عبد العزيز القرجي - تشارك إلى اليوم في تحريك الساحة التشكيلية وإبراز رؤى فنّية مختلفة ذات مراجع مكانية/محلّية على مستوى المضمون، معالجة بوسائل تشكيلية مستلهمة من التراث : من فنّ المنمنمات وبعض الأساليب الفنية التي تطوّرت منذ بداية القرن العشرين في أوروبا كالوحوشية والتكعيبية والسريالية وغيرها.

والظاهر من خلال البنية العامّة لأعمال مدرسة تونس أنّ أغلب فنانيها، وإن اختلفوا أسلوبا ومعالجة، فإنّهم تعمقوا في طرق الموضوعات المرتبطة بالواقع المحلّي، بل بجزء من واقع مدينة تونس تحديدا. فكانت أعمال جلال بن عبد الله معبّرة عن الحلم بالماضي الرومنسي للمرأة البَلْدية الحضرية الجميلة "القابعة" في قلعتها، وهيَ محاطة بوصيفاتها، في أسلوب كلاسيكي المعالجة مثالي الرؤية.

وكان الزبير التركي مولعا بتصوير المظاهر التقليدية من عادات وصنائع وشخصيات حميمة مبالغا في تركيز الاهتمام عليها عَبْرَ رسم أصيل محكم التقنية ساخر الأسلوب. أما عبد العزيز القرجي – وإن كانت رسومه الزيتية والخطية تعبّر عن قدرة على التّجاوز في تناول هذه الموضوعات بطفولية وعفوية حسب حسّ يعانق التكعيبية – فالبنية الأساسية في "لاَوَعْيه" لم تتحرّر من هذه المضامين. وكذلك شأن علي بلاّغة الذي


جول للوّش


بوشارل


عبد العزيز القرجي

أولى أهميّة بالغة لرسم الرموز والعلامات والأشكال الهندسية الموجودة في الحوامل المعمارية والأدوات التقليدية، وقد تجسّد إبداعه في اختيار هذه العناصر والتأليف بينها وتحويرها على الحامل الذي كثيرا ما نجده لوحا منقوشا وملوّنا في آن واحد.

ولم يشذّ عن القاعدة في مدرسة تونس إلاّ الهادي التركي وصفية فرحات وحسن السّوفي في اتخاذهم منحى التجريد والتوزيع الجريء للعناصر التشكيلية في إطار البحث عن الخصوصية الذاتية، وإن بدا تأثّرهم واضحا بما حدث في الغرب الأوروبي والأمريكي من تحوّلات تشكيلية ومعرفية على المستويين الشكلي والمضموني، وهو ما يؤدّي إلى القول إنّ "مدرسة تونس" لم تتّجه إلى رسم الواقع التونسي من منظور تقليدي فقط، بل سعت إلى الاندماج في إطار "الرسم المعاصر" الذي آمن مؤسّسوه بضرورة استقلال اللّوحة والبحث في داخلها عن عالم يوافق، أو لا يوافق، وظيفتها باعتبارها عملا فنيا مبدعا ومتفرّدا.

ويبدو أنّ التحوّل الذي وقع في اختيارات بعض المنتمين إلى جماعة "مدرسة تونس" كان ناتجا عن انفتاح الساحة الثقافية التونسية وإفرازها لفنانين شبّان برزوا في ستينات القرن الماضي وعاملوا الرسم معاملة "جديدة" وحاولوا منح نَفَس "ذاتي" لهذا الرسم الذي بقي محافظا على اختياراته المضمونية منذ ظهوره ولم يقطع مع هذه الاختيارات إلاّ في مستوى معالجاتهم الفنيّة وأساليبهم المتنوّعة.

التجريد

تعكس بعض أعمال الرسّامين الذين ظهروا وعملوا في ستّينات القرن الماضي (منها الأعمال التجريدية الرّائدة للهادي التركي) مخيال جيل أراد تأسيس علاقة جديدة بالواقع الاجتماعي في تونس وذلك في إطار توق أفراده ومؤسّساته الثقافية والسياسية إلى نحت مشروع مستقبلي. ورغم محدودية تأثير الفنّ التشكيلي فقد تجلّت في "المعارك الفنية" طوال تلك الفترة قناعات يمكن وصفها بالطوباوية سعت إلى تأكيد قدرة هذا الفنّ على المشاركة في ذلك المشروع بنحت الذكاء الذّوقي العام وتوجيهه. وقد شكّلت هذه القناعات "ثورة فنية" بالنّظر إلى الظروف التي ظهرت فيها.

ويبدو أنّ إرادة البحث عن "تفنّن" جديد لم تقتصر على محاولات إنتاج هذا الفنّ بل الدّفاع عنه ضمن مجموعات فنّية يحمل أفرادها الهموم والمطامح نفسها، فكانت "مجموعة الستة" سنة 1964، ومجموعة "اتجاهات جديدة" سنة 1965 و"مجموعة الخمسة" سنة 1967. واللاّفت للانتباه أنّ نجيب بلخوجة كان حاضرا في جميعها. وبتأمّل بعض اللّوحات التي أنجزت في تلك الفترة نجد سيطرة شبه مطلقة للتجريد الذي ينتمي مرجعيّا إلى الحركات التجريدية الغربية، وخاصّة منها التجريدية الغنائية والهندسية والتعبيرية التجريدية واللاّتشخيصيّة وكأنّ هؤلاء القادمين الجدد قد اتّخذوا موقفا جماعيا موحّدا ضدّ التشخيص "الفلكلوري" الذي يتعلّق شكليا بكل ما هو تقليدي.

كانت أعمال نجيب بلخوجة في بداية الستّينات منعرجا تشكيليا نظرا إلى توصّل هذا الرسّام إلى إيجاد معادلة بين نزعة تؤكّد هوية تراثية متجذّرة وأخرى تُبشّرُ بهويّة حداثية مستقبلية، فكانت بنيات رسومه كما عهدناها – ولا تزال - إضافة إلى تناولها للتجريد الهندسي الذي بدا متجاوزا للرسّم الحكائي ومتعاملا مع الخواطر الجمالية الحميمة.

ونستطيع القول إنّ أعمال نجيب بلخوجة تمثّل قطيعة معرفية مع أسلوب الماضي في اعتباره الواقع العينيّ مصدر إلهام واستلهام، إذ ندخل معه عالم الدّلالة التشكيلية المنصهرة في الأسس البصرية المندمجة في واقع المعمار العربي الإسلامي بأشكاله التوبولوجية المتناغمة في علاقتها بحركة الخطّ الكوفي الهندسي. ولعلّ في اختيار بلخوجة هذا المنحى ردّ فعل

يجيب هذا الفنّان به عن مسألة الانفتاح على الآخر عبر حداثة محافظة على الهوية.

وبرز في الاتجاه التجريدي أيضا الحبيب شبيل الذي كانت أعماله تعتمد منهج البحث عن التوازن عبر الأشكال المستطيلة والمربعة والخطوط المنقوشة في إيقاعية لونية متنوّعة، فكانت مربعاته ومثلّثاته ومستطيلاته تتحاور وتتراكب محدثة شفافية متميّزة بانبجاسها من جهتي التجاور والتّراكب، موهمة بالبعد المتقارب / المتباعد في آن واحد، متأثّرا في ذلك بالفنّان اللاّتشخيصي نيكولا دستال.

وتطوّرت تجربة رفيق الكامل التجريدية تطورا عموديا وأفقيا إذ اختار مسار التجريد عبر إحكام تقني واقتراح لوني طريف، واستفادة ذكية من اللّون الواحد المائل إلى الرّمادي الموزّع في أشكال خلوية موحية بأبعاد ثقافية عميقة.

وقد ظهر بتونس في الستينات أيضا رسّامون مارسوا التجريد أمثال : محمود السهيلي ولطفي الأرناووط والناصر بن الشيخ وعبد الحميد بودن وعمر بن محمود وإسماعيل بن فرج وخليل علولو والحبيب بن مسعود ورضا بالطيب ونجا المهداوي. وواصل مسيرة هؤلاء في السبعينات إبراهيم العزابي وعلي الفندري والحبيب بوعبانة والمسطاري شقرون ومحمد الأمين ساسي. أما الثّمانينات فقد ظهر فيها نور الدين الهاني ورشيد الفخفاخ وسمير التريكي والحبيب بيدة، محاولين الإضافة في هذا المسار الذي لم يثبت في اختياره الاّ القليل منهم.

العلامة التراثية

كان الرسم العربي الحديث، وفي إطاره الرسم التونسي، مسبوقا بـ"حضارة العلامة" التي أكّدت حضورها في الفنّ قديما وحديثا. ومنذ القرن الأول للهجرة كانت العلامة حاضرة حضورا قويا في فنون المخطوط (خطا وزخرفة) وفي الفنون المعمارية والأدوات والآلات ذات الاستعمال الوظيفي. وكانت حاضرة أيضا في الفنون الجماعية الشعبية، ولا تزال هذه العلامة حيّة ومتوهّجة في الحوامل التراثية المختلفة.

في أواخر سبعينات القرن العشرين نشأ جيل جديد من الرسّامين يحمل هموما فكرية ونظرية جعلته يعيد النظر في الممارسة التشكيلية، ووجد هذا الجيل نفسه في أجواء متأزّمة اختلطت فيها السّبل واشتدّت فيها الصراعات بين القديم والحديث، بين جيل الروّاد والجيل الثاني، بين أصالة شكلانية فلكلورية وحداثة غير واعية، كما احتدّ النقاش الإيديولوجي حول مسألة الأصالة والحداثة (المعاصرة) ومدى تفاعلهما مع تحقيق العالمية. وقد أدّى هذا النقاش إلى محاولة تأكيد الانتماء الثقافي بوسيلة استغلال الموروث الثقافي واستلهامه ومعانقة العلامات في حوامل فنوننا الشعبية وموروثاتنا المعمارية والتعامل الفنّي التشكيلي مع العلامة الخطية العربية بعد تجريدها من المعنى بحثا عن "بعدها الواحد" على طريقة الفنانين العراقيين: شاكر حسن آل سعيد ورافع الناصري وضياء العزاوي. وفي هذا الإطار برز الرسّام نجا المهداوي بأسلوبه المميّز متعاملا مع العلامة الخطية بحثا عن جمالية جديدة لها. ويظهر في تعامله هذا تكرار في التنوع وتنوع في التكرار. ويبدو أن خطاب المهداوي يتجاوز الممارسة التشكيلية في حدّ ذاتها ليؤكّد انتماءه إلى الحضارة العربية الإسلامية.

ومن التّجارب المهمّة التي حقّقت ذاتها حسب هموم تلك الفترة، تجربة نور الدين الهاني الذي تعامل مع الموروث من داخل حركة "الحرفية الريفية" في تفاعلها مع حامل صناعتها. فلقد غيّر وضع حامله عند الممارسة وعوّض الفعل عليه فوضعه على الأرض بطريقة أفقية وانهمك يتحاور مع علاماته البسيطة المستلهمة من الوشم ويوزّعها توزيعا ينبع من خواصّها البنيوية فجاءت متعانقة متشابكة تسبح في نهر الألوان الشفّافة. ولا يزال الهاني يبحث الطريقة نفسها وإن "هاجر" من العلامات التراثية نحو

عالم أرحب، عالم الذات في معاناتها الفردية.

وقد اتّخذ خالد بن سليمان المنحى نفسه وبدأ تجربته بـ"إمضاء العدول" في كتاباتهم الغامضة وأنتج أعمالا تميّزت بالحركة الخطية عبر الجرأة المندفعة في طرح إشكالية اللوحة التي يتعامل معها بقوّة اللّون وسرعة الحركة.

الذاتية

تمتاز تجارب الحاضر بإبداعات تتّسم بالحرية والعمق في التعامل مع اللّوحة وباستقلالية تامّة عن الهواجس الخارجة عن عالمها والبحث في الأشكال انطلاقا من نزوات كل فرد لتحقيق ذاته.

وفي هذا المجال يتفرّد عبد الرزاق الساحلي بتجاربه البصرية التي يعبّر بها عن الصدمة اللونية والجرأة التشكيلية، عبر مسارات مختلفة وحوامل متنوّعة يمرّ فيها من الصورة الفوتوغرافية إلى الورق الرهيف، ومن ثمّة تأخذ منتجاته شكل التجارب التي يتحاور بمقتضاها مع الموادّ في علاقتها بهذه الحوامل وما تفرزه من مدركات بصرية وإيقاعات لونية منسابة عبر اللّمسات واللّطخات المتراكبة والمتجاورة، مستخلصا رؤى ممتزجة بهموم حضارية تفرض الشعور بالانتماء (دون العودة إلى مرجع مرئي مباشر) إلى حلم إفريقي الجذور، باستلهام شخوص غريبة وحيوانات أشدّ غرابة، معبّرا في الوقت نفسه عن المأساة والملهاة في كرنفال الفضاء التشكيلي.

وأما رشيد الفخفاخ الذي اتّخذ في بدايته "المربع السحري" في مختلف توافقاته النظمية واللونية حسب نسقه الرياضي الهندسي والصوفي فيبدو للناظر إلى أعماله أنّه تحرّر من ذلك، وليس هذا التحرّر جوهريّا، لأنّه بقي وأصرّ على البقاء ضمن عالم الحلم السحري، وظلّ آفاقيا في تعامله مع المطلق. وما يبدعه هو تجريد مطلق تؤدّي فيه الأشكال والألوان دورها الأبدي في إنتاج النور. وهنا تبدو منهجية الانتقال من المربع السحري إلى سحر المربّع المتحرّر من هندسته والملائمة مادّته والمتلاعبة ألوانه في تسيّب طليق، ويَعْبُرُ معه الناظر إلى إمكاناته التوليدية وإلى آفاق تتّسع لِلاّنهاية اللّون الضوئي ولامحدودية الضوء اللّوني.

وفي حقل التعبير عن الذاتية والنزوع العديد إلى إبرازها كانت بعض الهواجس والرؤى تهفو إلى الخروج إلى عالم الحسّ المادي، وقد وجدت هذه الرؤى الفردية حيّزات مادية استجابت لندائها. ويبدو أنّ هذا التعبير وجد مجاله في أعمال الفنانين الذين اعتمدوا التخيّل والتخييل كالشاذلي بن خامسة والهادي اللبّان وعادل مقديش ومحمد بن مفتاح وأحمد الحجري وفوزي الشتيوي. ولكلّ فنان من هؤلاء أسلوبه المتميّز في التعبير عن التّخيل والحلم. وتستوقف الناظر أعمال قويدر التريكي لما تمتاز به من رؤى طفولية ممتزجة بحسّ ريفي يمتدّ في رحاب غابة سرمدية تتحاور فيها حيوانات إنسية في جوّ من التعاطف حينا والتنافر حينا آخر؛ تسير سيرها التشكيلي المفردي في تتابع عناصر قافلة مترامية الأطراف لا تنتظم وفق خطّ ثابت بل تحتلّ عناصرها حيّز اللوحة موزّعة كتوزيع الأطفال لألعابهم في إيقاعية عفوية.

وأمّا محمد الأمين ساسي فإنّ انتقاله من تجريداته في بداية الثمانينات إلى رؤاه التشخيصية في أواخرها كان انتقالا توليديّا إذ تشكلت هذه التجريدات الرّمادية لتكوّن شخوصا شفافة تتحاور في عالم خيالي احتفالي.

وهكذا احتفل الرسم التونسي طوال الثمانينات في وحدته وتنوّعه بطاقات ما إن وجدت الفرصة لتحقيق ذاتيّتها حتى برزت إلى الوجود مؤكّدة تجاوز المعيش وتأسيس عوالم وجودية جديدة متفرّدة ومفعمة بالتساؤلات ومتدفقة رؤى وتخيّلات.

واليوم تتواصل بحوثهم حول إمكانات المخيال، مع انضمام عناصر جديدة تتلمذت في المعهد العالي للفنون بتونس، إضافة إلى استمرارية نشاط "مدرسة تونس" محافظة على الروح والمنحى أنفسهما المتميّزين بالتنوّع. فبين تجريدية الهادي التركي و"تراثيّة" جلال بن عبد

الله نجد تواصلا أسلوبيا لدى كل من علي بلاّغة والزبير التركي وعبد العزيز القرجي، كما نجد بحوثا جديدة لدى كل من الزبير الأصرم وفتحي بن زاكور وإبراهيم الضحّاك.

وأمّا بقية الفنانين فيمارسون العمل الفردي إنتاجا وعرضا إلاّ في بعض المناسبات التي تتيحها لهم معارض اتحاد الفنانين التشكيليين أو بعض المبادرات الأخرى. ويمكن القول إنّه أضيفت إلى قائمة النشيطين في الساحة التشكيلية التونسية أسماء مثل سمير التريكي الباحث في ما يختزنه التجريد الهندسي من اختراقات جديدة للحيز الفضائي، والمنجي معتوق الباحث في ما يختزنه الجسد من إمكانات تخييلية، وعلي الطرابلسي في تعامله مع النسيج في إخراج جديد ومعاصر، وعائشة الفيلالي بإبداعاتها المتنوّعة المتميزة في مجالي النسيج والخزف، وبوجمعة بلعيفة في النحت، وعبد الملك العلاني الذي يواصل تجارب بدأها في الثمانينات، وفوزية الهيشري التي تنتقل بين الحفر والرسم، وسامي بن عامر الباحث في إفرازات المادة اللونية عبْرَ تجريدية تعبيرية مبتكرة، وباكر بن فرج الذي يواصل تجربته الحفرية بثبات باحثا عن عوالم جديدة لأبحاثه.

ولكن من الصّعب رصد جميع الاتجاهات الجديدة وتوضيح مختلف منطلقاتها وأهدافها الجمالية. وما يمكن قوله راهنا إنّها تخفي نوعا من المواجهة للمنحى التقليدي الفلكلوري "المتعايش" معها.

حركة الشباب التّونسي
[1906 – 1912م]

حركة الشّباب التّونسي تسمية لاحقة لطور من أطوار تاريخ الكفاح التّحريري التّونسي ضدّ الاستعمار الفرنسي الذي بدأ إثر إمضاء الصّادق باي معاهدة باردو في 12 ماي 1881 المقرّة تمركز « الحماية الفرنسية ». والتّسمية ارتبطت بالنّشاط الذي كانت تقوم به نخبة من الشّبيبة التّونسية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إلى انفراط عقدها بعد أحداث التّراموواي سنة 1912. ولم تكن هذه الحركة حزبا سياسيّا في الأوّل ولا مؤسّسة ثقافيّة تدعى بهذا الاسم بل إنّ ظروفا معينة دفعت مجموعة من المثقّفين الوطنيين إلى توحيد صفوفهم للدّفاع عن مصالح التّونسيين تجاه عسف سلط الحماية التي بدأت تضرب بشتّى الوسائل كلّ الكيان التونسي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا. وكما قالت جريدة الصّواب بتاريخ 6 سبتمبر 1907: « الأمّة إذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل ».

لقد وجد نظام الحماية منذ تمركزه نخبة من خرّيجي المدرسة الصّادقية وجامع الزيتونة واعية بدورها، مرتبطة بالحركة الإصلاحيّة التي بدأها خير الدين التّونسي، مواصلا بذلك ما أسّسه بناة النّهضة الأوّل من أمثال محمود قبادو. وكانت هذه النّخبة تضمّ بالخصوص محمد بيرم الخامس ومحمّد السنوسي وأحمد بن أبي الضّيّاف وسالم بوحاجب وعلي بوشوشة ومحمد بلخوجة ومحمّد الطاهر بن عاشور ومحمّد النّخلي ومحمّد شاكر وغيرهم وعددا من المتكوّنين تكوينا فرنسيّا مثل عبد الجليل الزّاوش والبشير صفر.

وكان هذا التيار الإصلاحي مرتبطا بالإصلاحيين في المشرق العربي و« يمكن القول... بوجود تطابق بين التيارين الإصلاحيّين التونسي والمصري لا بوجود علاقة تبعية » (علي المحجوبي: جذور الحركة الوطنية ص 121) وهو ما أشار إليه أيضا شارل أندري جوليان في كتابه « المعمّرون الفرنسيّون وحركة الشباب التونسي » قائلا: « ولعلّ الشيخ محمد عبده استنبط مذهبه في تونس العاصمة أثناء إقامته الأولى بها (6 ديسمبر 1884 – 4 جانفي 1885) بعد المحادثات التي أجراها مع

الزيتونيين المتفتّحين» وفي إقامته الثانية من 9 إلى 24 سبتمبر 1903.

تحقّق التجاوب بين الزّيتونيين الإصلاحيين والصّادقيين ذوي التكوين العلميّ حسب عبارة محمّد الفاضل ابن عاشور، أملته ظروف معيّنة نابعة من عنصرية نظام الحماية الذي هيمن عليه المستوطنون الفرنسيون، ومرتبطة بأهداف هذه الحركة. «وبهذا التّجاوب المتلاقي الطرفين التحم الشّقّان بلحمة التعصّب للوزير خير الدين ومناهجه، وتقاسما العمل للنهضة بالبلاد من كبوتها، وأصبح الشقّ الصّادقيّ أبرز الشّقّين في هذه الكتلة بما يمتاز به من نشاط الشّباب ومتانة الارتباط بين أفراده وانسجام مبادئهم الإصلاحية مع أصول تكوينهم العلمي».

وعند النظر إلى سيرورة هذه الحركة يمكن التّمييز بين طورين أوّلهما مرحلة النّضج والتّكوين وتوافق الإصلاح الثّقافي والاجتماعي الذي ميّز نهاية القرن 19 والآخر مرحلة الإعلان عن المبادئ والكفاح من أجل تحقيقها، وهي فترة تمتد من بين سنتي 1906 إلى 1912.

نجح الفرنسيون أوّل الأمر في تصوير الوضع في صورة قدماء ومحدثين متشبّثين بالماضي أو داعين إلى المعاصرة. واختلفت المواقف حتى قيل إنّ مناوأة صريحة وجدت بين الخلدونيّة وقدماء تلامذة الصّادقية. ولكنّ البشير صفر الزّعيم الواعي والمستنير أفهم علي باش حانبه وغيره أنّ المعركة في الواقع ليست في هذا الانقسام بين الذين يعتقدون أنّ المعاصرة والثّقافة العصرية والإقبال على العلوم كفيل وحده بالخروج من الوضع الشائن الذي تتخبّط فيه البلاد وبين الذين يرون أنّ مجرّد التّشبّث بالماضي هو المنقذ ممّا أصاب الجميع وإنّما الرّهان الحقيقي هو في معركة الحفاظ على الذات والذّود عن الكيان.

ولقد تبيّن ذلك بممارسة الشّباب الصّادقي «للإدارة وأهلها فانكشف لهم من نوايا الاستعمار ما كان خفيّا عن أهل الإدراك فضلا عن عامّة البسطاء». وكانت سلط الحماية خدعت النّاس فأوهمتهم بأنّ المحافظة على التّقاليد وعدم المساس بالمؤسّسات الدّينية هو من باب احترام مشاعر أهل البلاد. ولكن «تلويح الفرنسيين بأنّهم [أي الشّباب الصّادقي] إلى الفرنسيّين أقرب منهم إلى العرب المتأخّرين بدا في مزالق حديثهم وفلتات لسانهم بأنّ المستقبل للغرب وثقافته وأنّ القوميّة العربية التّونسية إلى زوال».

ولم يكن مجال للمقاومة السّافرة في هذا الطّور لأنّ في ذلك الخسران وتشتّت الصّفوف والقضاء على كلّ الجهود أمام مستعمر مازال في نشوة انتصاره، وإنّما كان الرّكون إلى نوع من التقيّة وضرب من الولاء لسلط الحماية متفاوت الدّرجات ونحو الخلافة العثمانية والرّهان على ورقة الفرنسيين الأحرار في نطاق الحماية. لأنّ الحركة من هذه الوجهة الإصلاحية هي في نفسها «حداثيّة أساسا». ولكنّها تتمحور في الجملة حول عناصر بيّنة واضحة هي «الاتحاد الإسلامي، انتماء غير مشروط إلى مركز الخلافة، أخوّة دينيّة وسياسيّة عثمانيّة، التّحرر السّياسي. هذه إذن عناصر التّشابه في الحركة الفكريّة الاجتماعيّة والسّياسية بين الشّباب التّونسي والمنظّمات العثمانية الأخرى الموجودة في تلك الفترة» ومن هنا جاءت التسمية فيما بعد على غرار الشّباب التّركي.

ومن تتبع أهداف هذه الحركة وجدها ترتكز أساسا على الشأن الوطني بمعانيه المتداخلة. ذلك أنّ النّاظر في بناء الوطنية التّونسية «يمكن له إبراز الآليات التي بها تكوّن وانتظم وانتشر الشأن الوطني، ويتسنّى له تدقيق ملامح الذّاتية التّونسية والقيام بعمل طويل النّفس لاستجلاء الضمير الوطني وذاكرته ورمزيته. ومن هنا نجد هذا التّراكب بين الوطن الأوّل الذي هو تونس والوطن الكبير، الأمّة العربية والوطن الأكبر الأمّة الإسلامية».

لذا تركّزت مجابهة هذه الحركة للنّظام الاستعماري على تأجيج الضّمير الوطنيّ، وإن

«كان ظهوره بين السّكّان التّونسيين سَبَق الحماية. ويتعلّق الأمر بالاشتراك في الأرض واللّغة والثقافة والدّين الذي ميز البلاد التّونسية قبل سنة 1881». لكنّ هذا الضّمير الوطني تكيّف خاصّة أمام ما لمسته هذه النّخبة المثقّفة من أصناف المهانة التي كان يلحقها بهم المعمّرون والتجّار والإداريون الفرنسيون.

وخدمة لهذه الأغراض، أصدروا جريدة عربية اللّسان أسبوعية غير رسمية تحمل اسم «الحاضرة» «حظيت بتنظيم قانوني محكم وبدعم حكومي» وتمتّعت بشيء من الحرّية لأنّ سلط الحماية غضّت الطّرف في أوّل الأمر واعتبرت أنّ هؤلاء يروّجون في الواقع للثقافة الغربية فهم ينتقدون مجتمعهم الذي أخلد إلى الماضي وازورّ عن العلم ومآتي العصر. وصدر العدد الأوّل من هذه الجريدة في 24 ذي القعدة 1305هـ/2 أوت 1888م وصدر آخر عدد منها يوم 7 نوفمبر 1911 يوم أحداث الزلاّج. كان مدير الجريدة علي بوشوشة و«ساعده في توجيهها وتحريرها طائفة من رجال النهضة أشدّهم اتّصالا بالعمل صديقه البشير صفر» الذي يعدّ الأب الثّاني للنّهضة. ووجد المساندة من الشّيخ سالم بوحاجب والشّيخ محمّد السّنوني ومحمد القروي وعلي الورداني وغيرهم.

وفي المقابل كان التّفوّق الأوروبي بل التبجّح به ضمن كل الاتّجاهات الإيديولوجية التي كانت تسيطر على الجالية الأوروبية والفرنسية بالخصوص. وهذا «اليقين كان يسيطر فعلا على موقف الاشتراكيين ووجد أيضا في الكتابات الماركسية. فهو ينسب إلى المآتي الحضارية والثّقافية الغربية تفوّقا لا مطعن فيه على كلّ الحضارات الأخرى. فلا بدّ للمثل الأعلى اللاّتيني من أن ينتصر في كلّ مكان في العالم».

لم يشذّ اللّيبيراليون عن القاعدة، فما بالك بالمستوطنين الغلاة. فقد جاء في جريدة "تونس الاشتراكية": «إننا غربيون ومن الواجب انتصار المثل الأعلى اللاّتيني في أرض إفريقيا ضدّ الحماقة المتزمّتة». كلّهم متّفقون على سياسة بموجبها يدمج الأهالي ويلحقون بفرنسا ضاربين صفحا عن كلّ سياسة أساسها التّعاون والتّحرر في نطاق الحماية. وليس غريبا أن نقرأ في جريدة "تونس الفرنسية" ما يلي: «إنّ ما يحتاج إليه العربيّ في الرّيف هو وجود المعمّرين، فكلّما ازداد عدد الضّيعات حول دوّاره تزايد عدد الصّناعيين بالقرى وتكثف استغلال الأرض من قبل الأوروبي وازداد العربيّ تمدّنا، وحسّن في ذات الوقت من وضعه». وتردف قائلة: «كلاّ إنّ العربيّ ليس في حاجة إلى تعلّم لغتنا في المدرسة. وهو لا يرى في التّعليم الدّواء الشّافي... ولا يرى في ذلك الوسيلة التي تمكّنه من الأكل حتى الشبع عندما يصبح بطنه خاويا. ونقول أكثر من ذلك إنّ التعليم الذي يريدون تلقينه سيزيد وضعه الماديّ سوءا» وهو أمر يكذّبه الواقع إذ أنّ التونسي معروف حتى في ذلك الوقت بشغفه بالتعلّم بشهادة كثير من الفرنسيين.

ولقائل أن يقول إنّ انسداد الأبواب في وجه هذه الجماعة أمام تألّب كلّ الجهات الفرنسيّة على تعدّد اتّجاهاتها ضدّهم ربما يجدون في ممثّل السّيادة التّونسية موئلا. ولكنّ الباي وإن احتفظ في الظّاهر بسلطاته لأنّ السّلطتين التّشريعية والتّنفيذية كانتا ممثلتين في شخصه فإنّه لم يبق له في الواقع إلاّ ختم الأوامر العلية من دون أن يستشار أو يؤخذ رأيه. وأكثر من ذلك فإنّ سلط الحماية قد أحكمت قبضتها على كلّ دواليب الحكم، «من أعلى مستوى إلى أدناه». فعلاوة على جهاز الدّولة التّونسية المتجسّد في الوزير الأكبر وبعض الوزراء والقياد والكواهي والخلفوات ومشايخ التّراب والصبايحيّة كان هناك جهاز آخر مواز وهو المقيم العام المنتصب في أعلى مستوى وكاتب عامّ للحكومة وهو في الواقع بمثابة الوزير الأكبر الفعلي ومراقبين مدنيين في الجهات وجندرمة منبثّة في كامل الإيالة يؤازرها الجيش الفرنسي. وعلى هذا النحو

خرج الحكم الفعلي من أيدي الباي وبقايا المماليك والموالين له وأصبح حكمهم صوريا. وبهذا «انتقلت السّلطة إلى ممثّلي نظام الحماية من الفرنسيين الخاضعين لمشيئة الجالية الفرنسيّة وغيرهم». فسنّت الحماية نظام مراقبة لا يخضع لأيّ مراقبة. وهو مبنيّ على النّفاق في إيهامه الجميع بأنّه حريص على المحافظة على تقاليد البلاد وإبقاء ما كان على ما كان. ونتج عن هذا الوضع بعد عقدين تدهور ملحوظ في حياة التّونسيين اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا. ولم تجد هذه الحركة أمامها هذه القوى العاتية في صلب نظام الحماية بل كان المحافظون التّونسيون حجر عثرة في سبيل تطوّر هذه الحركة «فهم بالإضافة إلى عدائهم للأفكار الإصلاحية وروّادها وولائهم لسلط الاحتلال والضّلوع معها كانوا يقابلون تحرّكات الوطنيين بالمناهضة والاستنكار». وأكثر من هذا كان بعض العلماء من المحافظين لا يألون جهدا في إضفاء الشّرعية الدّينية على السّياسة الاستعمارية في المجال الزّراعي وهو ما مكّن المعمّرين من استغلال مساحات شاسعة من أخصب الأراضي في البلاد التّونسية ولم يبخل بعض هؤلاء العلماء على نظام الحماية بمساعدته بشتّى الطرق للوصول إلى غايته.

ولمّا تبيّن لجماعة الشّباب التّونسي أنّ نظام الحماية بدأ ينفّذ مخطّطاته لاغتصاب ثروات البلاد ولإبقاء الشّعب التّونسي في حال من الفقر والجهل والانهيار وإدماجه في البوتقة الفرنسيّة دون مراعاة لحضارته ولا لثقافته كان ردّ الفعل متناسبا مع الأحداث متطوّرا من العمل الثّقافي إلى الاحتجاج إلى المعارضة السّافرة والالتحام بالشّعب. وانطلاقا من شعور الجماعة العميق بضمير وطنيّ أخذ يتبلور بمرور السّنين شرعوا في كفاحهم ضدّ ممارسات سلط الحماية بوسائل عدّة. بدأت بالكتابة في الجرائد والمجلاّت ثمّ بالعمل ضمن الجمعيات التي أسّسوها وبالاشتراك في المؤتمرات المنعقدة بفرنسا جلبا للرّأي العام فيها وخاصّة الأوساط اللّيبرالية. وأخيرا رأوا أنفسهم مضطرّين إلى الاندماج في الشّعب والانصهار في النّضال السّياسي بتعديد شبكات الاتصال في الدّاخل والخارج. وعبّرت هذه النّخبة بوضوح عن مطالب التّونسيين فكتب مثلا عبد الجليل الزاوش في جريدة "التونسي" ما يلي: «يتمنّى التّونسيون أن تضع الحماية حدّا لهذا الوضع وأن يمنحوا دستورا يضمن لهم الحرّية الفردية وحرمة المسكن ويوطّد حرّية الصّحافة في إطار القانون ويعلن أنّ جميع المواطنين سواسية أمام العدالة». ولم يفت هؤلاء ما كانت تقوم به فئات من الشّعب التّونسي من معارضة لقرارات سلط الحماية تصل في بعض الأحيان إلى التمرّد مثل احتجاج عدد من أعيان العاصمة على إسناد لزمة تزويدها بالمياه لشركة فرنسية سنة 1885 وتظاهر مئات من التّونسيين أمام قصر الباي بقيادة هؤلاء الأعيان. وكان ردّ فعل المقيم العامّ عنيفا «فنَفيَ مدير الغابة إلى الكاف وشيخين من مشايخ الزّيتونة بقابس وعزل شيخ المدينة وعددا من سامي الموظّفين بوصفهم متعصّبين ومناهضين للحماية» كما تمرّدت بالقصرين وتالة سنة 1906 جموع من الأهالي نتيجة للخصاصة والاستبداد وقتلوا معمّرا وزوجته وأحد العملة، وعقبت ذلك محاكمات واضطهادات كبيرة.

ولمّا رأى جماعة "الحاضرة" أنّ النّشاط الصّحافي غير كاف للتّعريف ببرنامجهم الطّموح قرّروا سنة 1896 تأسيس جمعية سمّوها الخلدونيّة. ولم يكن للتّونسيين عهد بالجمعيات. وهي «مؤلّفة من مسلمين... قد مكنّتهم معرفة اللّغتين وكيفيّة تربيتهم من المشاركة في التمدّن وكان الغرض الأصلي من هذه الجمعية بثّ أفكار تقرّب من أفكار الوزير خير الدين رحمه اللّه، وذلك بأن تتعاطى الجمعية المذكورة محادثات علميّة وترجمة كتب وتحرير رسائل وتخريج معلمين قادرين على نشر أصول

المعارف الأوروباوية باللّغة العربية كتابة ومشافهة عند اجتماع أعضائها بغيرهم».

وكان لهذه الجمعيّة تأثير بالغ خصوصا في خرّيجي جامع الزيتونة. فلقد تخرّج فيها جيل له ثقافة تعتمد معرفة التاريخ والجغرافيا واللّغة الفرنسية والاقتصاد السّياسي والعناية بالصّحة والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعيّة. وعلاوة على التعليم فقد نظّمت هذه الجمعيّة محاضرات في جميع الفنون. وكتب أحد غلاة الاستعمار: «إذا قدّر أن تندلع ثورة في البلاد التّونسية فإن هيئة أركان ثوّارها ستكون قد تخرجت في الخلدونيّة».

ولم تقتصر جماعة الشّباب التّونسي على هذا النّشاط بل تجاوز صيتهم البلاد التونسية وأصبحوا يتمتّعون بصيت عالٍ في الأوساط السّياسية بفرنسا. فكانت لهم صداقات مهمّة وكانوا محلّ تقدير وعناية من بعض الأحزاب. ودعما لهذا العمل واستكمالا لما تقوم به جمعية الخلدونيّة بين طلبة جامع الزّيتونة من نشر للثّقافة العصرية أسّس ثلّة من هذه الحركة جمعيّة قدماء تلامذة المدرسة الصادقية. وليس بخاف أنّ شقّا من أقطاب هذه الحركة أحسّوا بضرورة العناية بالعدد الكبير نسبيا من خرّيجي المدرسة الصّادقية الذين كانوا في حاجة ماسّة إلى نشاط الخلدونية وإن أسهموا فيها بالتأطير والتدريس، زيادة على عدم رضا الأوساط الاستعمارية وتخوّفها من خرّيجي الخلدونية. فلم تر إدارة الحماية مانعا من التّشجيع على تأسيس جمعيّة أخرى ظنّت أنّها ستكون أقرب إليها من الجمعيّة الأولى.

وكان الرّاعي الأوّل لجمعية قدماء تلامذة الصّادقية علي باش حانبه المحامي الشّاب الذي ألقى في الجلسة العامّة الأولى خطابا باللّغة الفرنسية «وكان بارعا في الجدل، مقتدرا على التّفكير النّظري المنهجي ومناضلا جمع بين الشّجاعة والثّبات على المبدإ». وقد اقترح علي باش حانبه في خطاب الافتتاح أن يكون نشاط الجمعية مستمدّا من الأهداف التي رسمها الجنرال خير الدين للمدرسة الصّادقية عند تأسيسها سنة 1875 مشيرا إلى الثّورة التي أحدثها ذلك الوزير المصلح. «ولم يقصد علي باش حانبه وأصدقاؤه معارضة نظام الحماية بل كانت غايتهم، من جهة، تغيير عقليّة التّونسيين لتمكينهم من العيش مع مختلف الأجناس التي وفدت على بلادنا، ومن جهة أخرى، إزالة الاحترازات المسبقة التي تفرّق بين التّونسيين والفرنسيين وإحلال التّقدير المتبادل مكانها».

وانتخب على رأس الجمعية خير اللّه بن مصطفى، وهو رجل علم وذو نفوذ أدبي كبير، وتكوّنت من أحد عشر عضوا، وانضمّ إلى الهيئة المديرة إثر الجلسة المنعقدة في 28 أكتوبر 1906 بصفة أعضاء علي باش حانبه والبشير صفر وعبد العزيز الحيوني والهادي بن طاهر. وغلبت على نشاط الجمعيّة في أوّل الأمر الصبغة الفرنسيّة إلاّ أنّه سرعان ما انضمّ إلى النّشاط العنصر الزّيتوني فألقيت محاضرات باللّغة العربيّة.

إنّ كلّ هذا العمل الثّقافي والاجتماعي شحذ الضّمير الوطني في الرّأي العام التونسي الذي أصبح يتطلّع إلى هؤلاء الذين أبدوا حماسا في الذّود عن الذّاتية التّونسيّة والدّفاع عن مصالح التّونسيّين. وبمرور الزّمن وانكشاف نوايا الاستعمار تحوّل عمل هذه الجماعة الثقافيّ إلى عمل سياسيّ مقنّع يتجسّم في مطالب اجتماعيّة. فكان خطاب البشير صفر رئيس جمعيّة الأوقاف في 20 مارس 1906 بمناسبة تدشين «التكيّة» وهي مأوى العجز، كان ذلك الخطاب تحوّلا كبيرا في مسار هذه الحركة إذ وصف وضع التّونسيّين البائس وحلّل تدهور أحوالهم المادّيّة وعرض مطالبهم بكلّ دقة وجرأة. وكان حضور المقيم العام «ستيفان بيشون» (S. Pichon) المعتدل والمتفهّم لحال التّونسيّين فرصة للمعمّرين وغلاة الاستعمار لشنّ حملة لا هوادة فيها على المقيم العام الذي

سرعان ما أطاحت به، وعلى هذه النّخبة وكلّ التونسيّين.

ولكنّ هذه الحملة لم تفتّ في همّة الشبّان التّونسيين بل وجدوا في الأوساط الفرنسية آذانا صاغية. وحضر محمّد الأصرم نيابة عن الجماعة المؤتمر الاستعماري المنعقد بمرسيليا من 5 إلى 9 سبتمبر 1906 وحلّل الوضع في تونس في ميادين التعليم والاقتصاد والاجتماع. وكان لذلك وقع شديد في الأوساط السّياسية الفرنسيّة. وأدّى كلّ هذا إلى إكساب الجماعة شيئا من الوثوق بالنّفس وهو ما جرّهم إلى دخول الميدان السّياسي من بابه العريض. فكونوا سنة 1907 جريدة تدعى «التّونسي» وهكذا تطوّرت نظرة الجماعة من الاقتصار على الحاضرة إلى التّفكير على صعيد الوطن بأكمله.

كانت الجريدة أسبوعية يديرها علي باش حانبه وكان أبرز محرّريها عبد الجليل الزاوش والصّادق الزمرلي ومحمد نعمان وحسن قلاتي وأحمد الصّافي. ولم يكن مشروعهم ليرقى إلى المطالبة بالاستقلال لأن الوعي الوطني للتونسيّين لا يزال محدودا ولأنّ أغلب عناصر النخبة مقتنع بسياسة التّعاون مع فرنسا للخروج من مجتمع تقليدي تخيّم عليه رواسب العهود القديمة من فقر وجهل ومحافظة متحجّرة إلى مجتمع تسوده الحداثة والتفتّح على العصر. ولكنّهم رغم هذا متمسّكون بالشّخصية التّونسيّة والحضارة الإسلاميّة وإن كانت مواقفهم متفاوتة في هذا الباب. وكان لقرار إصدار نسخة عربية للجريدة سنة 1909 أثره في الرأي العام التونسي. واضطلع بهذه المسؤولية عبد العزيز الثعالبي المعروف بمقاومته للمحافظين من مشايخ الزّيتونة وبآرائه الإصلاحية فيما يتعلّق بالدين الإسلامي، وهو ما كان سببا في دخوله السّجن في أولى خطواته النّضالية. وكان الصّادق الزّمرلي أبرز من تولّى ترجمة المقالات المنشورة في النّسخة الفرنسية بصياغة أخيرة لعبد العزيز الثعالبي الذي كان لا يحسن الفرنسية.

ورغم اعتدال جماعة الشّباب التّونسي في مواقفهم وكتاباتهم فانّ سلط الحماية لم تر فائدة في تعيين عدد منهم في الجمعية الشّورية (La conférence consultative) التي كانت تتضمّن 39 فرنسيا بإضافة ستّة عشر تونسيا أغلبهم أميّون لا ثقافة لهم إلاّ المحامي اليهودي فيتوسى وعبد الجليل الزّاوش الذي انتقد لقبوله التّعيين وأغضب لذلك علي باش حانبه. وشنّت الصّحافة الاستعمارية حملة شعواء على الحركة بأجمعها. ولم تدم تجربة الجمعيّة الشّورية سوى عامين نظرا إلى تصلّب الجانب الفرنسي. لكنّ الجماعة وجدت في المؤتمر المنعقد في باريس بالمدرسة الحرّة للعلوم السياسية من 6 إلى 8 أكتوبر 1908 مجالا لعرض مطالبها. وتمكن محمد بالخوجة وخير اللّه بن مصطفى ومحمد الأصرم والبشير صفر وعبد الجليل الزّاوش والصّادق الزّمرلي من إبداء آرائهم في عدّة ميادين تتعلّق بوضع التّونسيين في ظلّ نظام الحماية.

كان تألّق جماعة الشّباب التّونسي في هذا المؤتمر شديدا إذ مكنهم من تقديم اقتراحاتهم في موضوعات عدّة. وظهروا بمظهر الممثّلين الأكفّاء لكلّ التّونسيين مع تمسّكهم بحضارتهم وهويتهم. وأثار كلّ هذا حفيظة المعمّرين الذين تصدّوا في المؤتمر لمقترحات هذه الجماعة سواء فيما يتعلّق بالتّعليم أو الجباية أو العدالة أو غيرها من المسائل الشّائكة. وكان الصراع كبيرا بعد هذا المؤتمر في الجمعيّة الشّورية رغم وجود عناصر موالية لسلطة الحماية غير منتمين إلى الحركة.

واغتنم علي باش حانبه إضراب طلبة جامع الزيتونة سنة 1910 ليقرر تضامن الحركة معهم، وذلك في اجتماع شعبي انتظم ببطحاء الصّادقية يوم 13 ماي 1910 تناول فيه الكلمة عدد من زعماء الحركة الإصلاحيّة التّونسية ومنهم عبد الجليل الزّاوش والصّادق الزمرلي وعبد العزيز الثعالبي الذي تكلّم باسم باش حانبه. وبهذا دخلت الحركة مرحلة جديدة من النّضال

الشّعبي. ولئن لم تكن ضالعة في أحداث الزّلاج يوم 7 نوفمبر 1911 التي أبانت لنظام الحماية أنّ شعلة المقاومة لم تنطفئ فإنّ المعمّرين حمّلوا زعماء الحركة هذا الغضب الشّعبي. فرفع دي كرنيار أشدّ المعمّرين كرها للجنس العربي قضيّة في الثّلب ضدّ عبد الجليل الزّاوش. ورغم حكم المحكمة بعدم سماع الدعوى فقد حكم على الزّاوش بدفع المصاريف القضائيّة وكأنّه في الواقع مدان. وتبيّن عند ذلك لزعماء الإصلاح أنّ طبيعة النظام الاستعماري لا يمكن لها أن تنصفهم.

وفي 9 فيفري 1912 ساندت الحركة إضراب التونسيين عن ركوب الترمواي وكانت شركة إيطالية أخذت اللّزمة ولم توف العملة التونسيين حقوقهم في مطالبتهم بالزيادة في الأجور علاوة على العداء الذي كان يشعر به التونسيون ضد الإيطاليّين نظرا إلى احتلال ليبيا. ورأت سلط الحماية في ذلك تحديا لها، رغم أنّ الأمر لا يعني الفرنسيّين، فقضت في 13 مارس 1912 بمقتضى أمر عليّ بنفي علي باش حانبه وقلاتي ونعمان والثعالبي خارج الإيالة. وتمكّنوا من الرجوع إلى تونس بعد بضعة أشهر إلاّ باش حانبه الذي قرر مقاومة الاستعمار من الخارج. وهكذا أسدل الستار على هذه الحركة وخيّم على البلاد جو من الاضطهاد والقمع.

وخلاصة القول إنّ هذه النخبة «عرفت كيف توظّف مشاعر الضيم والرّفض الناشئة عن التناقضات التي ولّدها الاستعمار، وعن المظالم والعنصرية السافرة المتجسدة في كلّ مظاهر الحياة اليومية، وعن وجود أجانب متفوقين وهيمنة ثقافية غريبة عن معظم فئات المجتمع». ولم يذهب عمل هذه النخبة جزافا فما إن وضعت الحرب العالمية أوزارها حتى ألقى الرئيس الأمريكي ولسن خطابه الذي بعث الأمل في الشعوب المستعمرة إذ أعلن عن حقّها في تقرير مصيرها فأعادت النخبة التونسية القديمة والجديدة الكرّة لتدخل، ملتحمة بالشعب، في نضال لا هوادة فيه إلى حين القضاء على الاستعمار.

الحركة الكشفيّة التونسيّة

ظهرت الحركة الكشفية لأول مرّة قبل الحرب العالمية الأولى في مجتمع صناعي (بريطانيا) ثم تطورت بسرعة في البلدان الغربية الأخرى. وقد كانت عبارة عن ردّ فعل إزاء التطوّر الحضري السريع ودعوة إلى العودة إلى حياة الطبيعة والهواء الطلق. غير أن ظروف ظهورها وتطوّرها في تونس كانت مختلفة إلى حدّ ما، إذ انبعثت في فترة ما بين الحربين، في مجتمع نخرت الأزمة هياكله القديمة وتزامن ذلك مع دعوات التجديد الاجتماعي والسياسي وحتى الأدبي. وفي هذا الإطار ظهرت عدّة حركات شبابية ومنها الحركة الكشفية التي لم تتجذّر بالفعل في المجتمع التونسي إلا بعد الحرب العالمية الثانية.

نشط الكشافون الأوائل من التونسيين ضمن الجمعيات الكشفية الفرنسية. ويبدو أن أوّل محاولة لتأسيس جمعية كشفية تونسية تعود إلى سنة 1916، وتكررت هذه المحاولة بعد الحرب العالمية الأولى إلى أن ظهرت سنة 1933 جمعية الكشّاف المسلم التونسي متزامنة مع جمعيات شبابية أخرى كالشبيبة المدرسية والشبان المسلمين والمصائف الإسلاميّة. غير أن الحركة الكشفية اعترضتها آنذاك عدة صعوبات شتّى أهمّها معارضة الأهالي لها لجذورها المسيحية وارتياب السلط من أن تتحوّل إلى إحدى القواعد الخلفية للحركة الوطنية. وبالإضافة إلى ذلك كانت جهود الكشافين التونسيين عهدئذ مشتّتة.

ولقد ظهرت فيما بين سنتي 1936 و1938 عدة جمعيات كشفية تونسية منها النجم الكشفي والهلال الكشفي وكشاف تونس وكشافة الخضراء... ولم تقتصر الحركة الكشفية على

مدينة تونس بل انتشرت داخل البلاد وخاصة منها المدن الساحلية الكبرى، وهو ما يؤكد أنها ظاهرة حضرية أساسا. ولم تكن تضم آنذاك غير بضع مئات من الشبّان، وقد استمرّ نشاط هذه الجمعيات إلى أن حلّت إثر حوادث أفريل 1938 وأجبر الكشافون التونسيون على الانضمام إلى الجمعيات الفرنسية وأساسا الكشافة اللائكية الفرنسية.

استأنفت الحركة الكشفية التونسية نشاطها المستقلّ قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية، فظهرت جمعية الكشاف المسلم التونسي سنة 1943، ثم ظهرت في السنوات الموالية جمعيات أخرى أهمها كشاف تونس سنة 1944، ثم الاتحاد الكشافي الإسلامي فكشاف الرجاء والفرع الكشفي للشبّان المسلمين سنة 1947، إلا أن جمعية الكشاف المسلم التونسي بقيت أهمّها من حيث الانتشار، إذ بلغ عدد منخرطيها سنة 1947 أكثر من ألفي كشاف. وكان المشرفون على جمعية كشاف تونس ينتمون خاصّة إلى سلك رجال التعليم ومن صلبها انبعثت منظمة المصائف الإسلامية التونسية.

لقد سعت المنظمات الكشفية التونسية إلى الحصول على اعتراف المكتب الدولي للكشافة بها، غير أن تعدد جمعياتها ومعارضة السلط الاستعمارية حالا دون ذلك الاعتراف. وفي المقابل سعى المنجي بالي القائد العامّ لجمعية الكشاف المسلم التونسي إلى توحيد تلك الجمعيات، غير أن أقصى ما تحقّق في هذا الإطار هو اتّحاد جمعية الكشاف المسلم التونسي مع كشّاف تونس سنة 1947 فظهرت بهما معا الكشافة الإسلامية التونسية، وقد شاركت تلك الصائفة في (المخيم الكشفي العالمي) الرابع.

تركّزت التربية الكشفية على النشاط في الهواء الطلق حيث ينظّم الكشافون مخيّمات شبيهة بالمخيمات العسكرية يتدرّبون فيها على حياة الخشونة ويكتسبون في أثنائها صفات الانضباط والطاعة والنظام. ولا شك في أن ذلك كان مثار قلق السلط الاستعمارية خاصة أن الكشافين التونسيين كانوا يشاركون في حفظ النظام عند انتظام المظاهرات والاجتماعات الوطنية، كما كانت العناصر الكشفية تسهم في تغذية المشاعر الوطنية بالأناشيد الحماسية والتمثيليات. وكانت تحافظ على رموز الوطن وخاصة منها العلم التونسي الذي كان يحلي الزي الكشفي. وفي صلب الحركة الكشفية نما الشعور الوطني لعدد مهمّ من الشبان التونسيين حتى إنّ بعضهم لجأ إلى تبني النّضال لمقاومة نظام الحماية. كل ذلك جعل السلطات الاستعمارية تلجأ إلى عرقلة الحركة الكشفية التونسية بل حلّت جمعياتها مرة أولى قبيل الحرب العالمية الثانية ثم في سنة 1952.

استمرت التعددية الكشفية إلى أن حصلت البلاد على استقلالها. وفي صائفة 1956 انعقد مؤتمر ضمّ ممثلي أربع جمعيات هي الكشافة الإسلامية التونسية وكشاف تونس والاتحاد الكشافي الإسلامي وكشاف الرجاء، وقرّر المؤتمرون توحيد جهودهم في صلب جمعية واحدة سمّيت الكشافة التونسية.

تشرف على هذه الجمعية هيئة تسمى القيادة العامة ومجلس وطني ينتخبه المؤتمر الوطني الذي ينعقد دوريا كل أربع سنوات، كما أن لها هياكل جهوية ومحلية شبيهة بالتقسيم الإداري للبلاد، وتعتبر الوحدة النواة الأساسية التي ينشط ضمنها الكشّافون.

أسهمت هذه الهيكلة في انتشار الحركة الكشفية بعد الاستقلال في جميع مناطق البلاد. وبعد أن كادت في الستينات تفقد طابعها المميز أصبحت منذ بداية السبعينات تحقّق انتشارا واسعا حتى تجاوز عدد منخرطيها في منتصف الثمانينات العشرين ألفا. وقد أدى نمو الظاهرة الحضرية في البلاد وما يرتبط بها من تصنيع وتلوّث إلى تزايد الحاجة إلى العودة إلى الطبيعة. وفي هذا الإطار بدت الحركة الكشفية

أول من رمى بذرة الوعي البيئي الذي تنامى فيما بعد. والملاحظ أن هذه الحركة التي جاءت لتربّي أفرادها على الخشونة ضمّت إلى صفوفها في العشريّة الأخيرة من القرن العشرين أعدادا متزايدة من الفتيات.

الحركة النسائيّة بتونس
[1936–1956م]

لم تظهر الحركة النسائية فعلا على أيدي النّساء التونسيات إلا في سنة 1936. وهذا لا يعني أنّ مسألة المرأة ودورها في المجتمع لم يحظيا بالاهتمام باعتبارها عنصرا فعالا في تربية أجيال متمسكة بهويتها مادامت هي ربة البيت المباشرة لتربية الأطفال والسهر على تكوينهم النفسي والأخلاقي.

فقد احتلت مسألة المرأة قبل ذلك بكثير حيزا كبيرا من اهتمام المثقفين وروّاد الإصلاح في البلاد التونسية، قبل أن يثيرها في المشرق العربي قاسم أمين (1863–1908) وملك حنفي ناصف (1886–1918). فمنذ العقد السادس من القرن التاسع عشر أشار أحمد ابن أبي الضياف إلى ضرورة تعليم المرأة تعليما دينيا صحيحا في المراسلة التي تقدّم بها إجابة عن بعض الأستفسارات (حوليات الجامعة التونسية، 1968) وأفرد محمّد بن عثمان السنوسي للمسألة في سنة 1897 كتابا، لم توجد منه إلا نسخته الفرنسية التي ترجمها ابنه محيي الدين السنوسي وعبد القادر القبايلي،كما طالبت جريدة الحاضرة (1888م) بتحرير المرأة. وأيضا تناول الشيخ عبد العزيز الثعالبي هذه القضية في كتابه الفكر التحرري في الإسلام الصادر سنة 1906. وشغلت كذلك قضية تمكين المرأة من حقوقها في التعليم فيما بعد عدّة مثقفين، أمثال محمد بن الخوجة والصادق الزمرلي وحسن حسني عبد الوهاب الذي أصدر في سنة 1917 كتابه المرجع شهيرات تونسيات وسيزار بن عطار اليهودي سنة 1920 وعثمان الكعاك سنة 1924.

ولئن لم ينحز معظم المثقفين إلى هذه الفكرة، فقد تمسكوا كلّهم بضرورة تعليم المرأة حتى تكون سندا لزوجها ولعائلتها في تربية الأولاد تربية متزنة. وتطوّرت هذه المواقف فيما بعد خاصة في سنة 1928 حين طالبت البعض من النسوة، وبالأخص حبيبة منشاري، بخروج المرأة سافرة. ولئن وجدن مساندة من الاشتراكيين الفرنسيين المقيمين آنذاك بتونس ومن أعضاء بعض الحزب الإصلاحي، فإنهنّ لم يجدن معاضدة من بعض الوطنيين، مثل الحبيب بورقيبة رغم أنّه كان متزوّجا بفرنسية وكذلك الشاذلي خير الله، إذ اعتبرا أنّ السفور في تلك المرحلة بالذات لا يسهم في تحرير المرأة ولا يتماشى وعملية المحافظة على الذاتية التونسية والهويّة الوطنية التي تحاول فرنسا الاستعمارية طمسها. وهذا ما جعل كتاب الطاهر الحدّاد امرأتنا في الشريعة والمجتمع الصادر في أكتوبر 1930 يجد معارضة عنيفة، لا من قبل شيوخ جامع الزيتونة فحسب بل وكذلك من معظم مكوّنات المجتمع المدني الإسلامي، رغم أنّ أفكاره كان قد تداولها عدّة مفكرين من قبله، كما نشر الجزء الكبير من كتابه منذ 1928 في جريدة «الصواب» ولم يجد آنذاك معارضة. ولكن يظهر أنّ السبب الرئيس في تلك الهجمة على الطاهر الحداد في أواخر سنة 1930، هو أنّه أصدر كتابه في ظروف كانت فيها السلط الاستعمارية تشن حملة واسعة النطاق للمسّ من خصوصيات الهوية العربية الإسلامية للبلاد التونسية بتنظيمها المؤتمر الأفخارستي الكاثوليكي والاستعداد للاحتفال بخمسينية الحماية الفرنسية بالبلاد، بعد أن احتفلت بمئوية احتلال الجزائر في جويلية من السنة نفسها. فاعتبر التونسيون أنّ كتاب الطاهر الحداد يندرج في هذا الإطار وأنّ صاحبه بيدقٌ بين أيدي المبشرين والاستعماريين.



مساهمة المرأة في الحركة الكشفية

كلّ هذا لم يمنع المثقفين مثل الهادي العبيدي سنة 1928، من الدعوة إلى تولي النسوة ذاتهنّ تأسيس جمعيات ونواد خاصة بهنّ. فظهرت في سنتي 1931–1932 جمعية خيرية اسمها «جمعية النساء المسلمات» أقامت في نهاية فيفري 1932 حفلة لجمع التبرعات في دار الخلصي وقد حضرتها بعض الأميرات وحرم المقيم العام آنذاك وفاطمة القلاتي عقيلة المحامي الإصلاحي حسن القلاتي وحرم علي بوحاجب، المناضل الاشتراكي ونجيبة بن مراد ووسيلة بن عمار، كما نظمت بعض النسوة من الطبقة الراقية حفلا آخر في جويلية 1933 بسيدي بوسعيد بضاحية العاصمة بمناسبة المولد النبوي الشريف، ألقت فيه حرم عثمان الكعاك محاضرة عن السيرة النبوية، مبينة فيها مكانة المرأة في الإسلام. وتدخلت في أثناء الحفل بشيرة بن مراد، ابنة الشيخ محمّد الصالح بن مراد، صاحب كتاب الحداد على امرأة الحدّاد.

وإن ظلَت الحركة النسائية في تونس طيلة هذه الفترة في مستوى النقاش والجدل الفكري بين مختلف المثقفين ولم تسهم المرأة في النشاط الاجتماعي الحقيقي إلا بالنزر القليل، فقد بادرت بعضهنّ سنة 1936، مثل السيدة الساحلي وتوحيدة بالشيخ بالإسهام في مجلة ليلي، لصاحبها محمود زروق، وقد كانت في البداية شهرية ثم أصبحت فيما بين ديسمبر 1940 وجويلية 1941 أسبوعية. ولكن أهمّ من ذلك هو تأسيس الاتحاد النسائي الإسلامي التونسي في ماي 1936. ورغم تقدّم هذا الاتحاد الفريد من نوعه آنذاك بطلب للحصول على التأشيرة في سنة 1938، باسم كلّ من بشيرة بن مراد والسيدة القروي ونبيهة بن ميلاد، زوجة الدكتور أحمد بن ميلاد، فإنّه لم يمكن منها إلا في سنة 1951. ورغم ذلك، فقد عمل على تحقيق الأهداف التي تأسس من أجلها. وهي أساسا توجيه البنت نحو التعليم، على أن يكون ذلك في دائرة الأخلاق الإسلامية وبث الثقافة الإسلامية في الوسط النسائي.

انبعث هذا الاتحاد من وسط زيتوني، على عكس ما كان يُتصوّر من أنّ هذا الوسط رجعي ومناهض لحرية المرأة. ذلك لأنّ الاتحاد النسائي الإسلامي التونسي وجد تشجيعا من الشيخ ابن مراد. فمكنهنّ من ركن مستديم في مجلته شمس الإسلام لتمكينهنّ من نشر أفكارهنّ، خاصة أنّ من أعضاء هذا الاتحاد بناته الثلاث بشيرة وحميدة ونجيبة، إضافة إلى سارة بن الخوجة، كريمة الحاج علي بن الخوجة، المدرس بالجامع الأعظم وتوحيدة بالشيخ، أول طبيبة تونسية وبدْرة بن مصطفى القروي ونعيمة بن صالح وجليلة بن حميدة مزالي ومنجية بن عز الدين. ثمّ التحقت بهنّ فيما بعد كلّ من وسيلة بن عمّار وراضية الحدّاد وبختة الصدّام وسعاد



مساهمة المرأة في مقاومة الاستعمار: مسيرة نسائية

بورقيبة. والملاحظ أنّه أسندت الرئاسة الشرفية للأميرة عائشة. وهو ما جعل الأمين باي يوسّم في جوان 1950 رئيسة الاتحاد بشيرة بن مراد.

إن أهمّ ما قام به هذا الإتحاد، رغم عدم حصوله على التأشيرة القانونية إلا في سنة1951، هو تنظيم الحفلات الخيرية لفائدة المعوزين ولفائدة عدّة مشروعات مثل جمعية طلبة شمال إفريقيا والحركة الكشفية ولمساندة القضية الفلسطينية. وفتح الاتحاد الكثير من الفروع بالمدن الداخلية، خاصة بالكاف وسوسة والقيروان وتطاوين ونابل، إضافة إلى فروع ضواحي العاصمة. واهتمّ أيضا بالحركة الكشفية والعروض المسرحية والحفلات الموسيقية، مؤكدا ضرورة تعليم المرأة حتى تكون زوجة وأمّا صالحة. ورغم ذلك، فإنّ هذا لم يمنع المرأة التونسية من المشاركة مع الرجل في المظاهرات التي نظمت قبل أحداث 9 أفريل 1938 حاملات اللافتات المطالبة بدستور تونسي وبرلمان تونسي. وما تجدر الإشارة إليه هو أنّ تأسيس هذا الاتحاد الإسلامي التونسي رغم طابعه الزيتوني، كان بالتنسيق مع شباب الحزب الدستوري الجديد، إذ حرّر قانونه الأساس الرشيد إدريس. وقد أكدت بشيرة بن مراد أنها كانت في ذلك الوقت على اتصال دائم مع عدّة دستوريين من الحزب الدستوري الجديد منهم جلولي فارس والمنجي سليم والباهي الأدغم وأحمد بن ميلاد وصلاح الدين بوشوشة والمنجي بالي ومحمد بالحسين والصادق المقدم والشاذلي القليبي والهادي نويرة، موضّحة أنّ الحبيب بورقيبة كان دوما يزور فرع الإتحاد بحمام الأنف.

ولم يبق هذا الاتحاد بعد ذلك بمفرده على الساحة الاجتماعية. بل ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية تشكيلتان أخريان هما الفرع النسائي لجمعية الشبان المسلمين ونادي الفتاة الإسلامية. لقد كانت الغاية من إنشاء الأولى مقاومة انتشار الفساد الأخلاقي الناتج عن الحرب، في أواخر 1944. وفي مستهل سنة 1945، انعقد اجتماع تأسيسي في ضاحية أريانة انبثقت عنه هيئة للفرع النسائي لجمعية الشبان المسلمين برئاسة سعاد ختاش، عقيلة الشيخ محمد الصالح النيفر وعضوية كلّ من الحاجة درّة بن الخوجة، حرم محمّد بن عبد القادر وشريفة البناني وزهرة بوحاجب وزينب ميلادي وليلى حجوج وشريفة بن عثمان وزينب الجزيري المملوك وسارة بالقاضي. ولم يختلف برنامج هذا الفرع عن برنامج الاتحاد سوى إلحاحه على الجانب الأخلاقي، مركزا نشاطه على تعليم البنت، فقدم دروسا للأميات وبنى مدرسة للبنت المسلمة سنة 1947 بنهج السراجين وأنشأ روضة للبنت المسلمة في المرسى وأخرى بحمام الأنف ودارا للرضّع وفرعا للمحافظة على القرآن الكريم وهو ما جعله يجد مساندة من الوسط الزيتوني بالأخص. أمّا نادي الفتاة التونسية، فهو أيضا فرع للعمل الزيتوني. وإن تأسس هذا النادي في أكتوبر سنة 1954، فقد نشرت بعض أعضائه مقالات حول قضية المرأة في جريدة «صوت الطالب الزيتوني» منذ سنة 1950. وتألفت هيئة هذا النادي، المنادي بضرورة «تكوين فتيات قادرات على العمل لصالح الدين والوطن» من توحيدة فرحات وصفية علي وزينب الورتاني وفاطمة بن علي وحسناء التارزي ووديعة الأسود وحياة الخميري. وبعث نادي الفتاة التونسية مجلة عنوانها الإلهام في مارس 1955 أدارتها وترأست تحريرها الآنسة فاطمة بن علي، اتسمت بتوجهها الزيتوني لكنها أشادت بروّاد تحرير المرأة، مثل قاسم أمين والطاهر الحداد. وإن تغافلت هذه المجلة في الأول عن دور الحركة النسائية في الثلاثينات، إلا أنها في جانفي 1956 عادت للثناء على بشيرة بن مراد التي اعتبرتها زعيمة الحركة النسائية في تونس.

ولئن ظلّ الدستوريون الجدد في موقف

المساند المتفرج لهذه الحركة، فقد حاول الحزب الشيوعي التونسي من جهته، على غرار ما قام به في الوسط العمالي، بعث اتحاد نساء القطر التونسي إبان الحرب العالمية الثانية أسهمت فيه ثماني عشرة تونسية منهنّ نبيهة بن ميلاد، رغم أنها كانت في سنة 1936 من مؤسسات الاتحاد النسائي الإسلامي التونسي وحفيظة دراج وشريفة سعداوي وزهرة بن سليمان وصوفية زويتن ونائلة جراد وفاطمة بن إبراهيم وفاطمة بن رمضان والسيدة جراد. كانت معظم المنخرطات من النساء الفرنسيات، ومنهن شارلوت جولان واليهوديات، مثل قلاديس عدّة ومارسال عتال. وأصدر هذا الاتحاد بين مارس 1945 وجوان 1946 مجلة شهرية عنوانها نساء تونسيات باللغة الفرنسية، عبرت فيها أكثر فأكثر عن مطالب الحزب الشيوعي.

لقد حاولت المرأة التونسية منذ الثلاثينات الإسهام في العمل السياسي. فقد شاركت في المظاهرات التي سبقت أحداث 9 أفريل 1938 بحمل اللافتات المطالبة ببرلمان تونسي وبحكومة مستقلة. وشاركت أيضا أربع فتيات هنّ زكية وجميلة الفوراتي وسعيدة وشاذلية بوزقرّو في مظاهرة عند استقبال المقيم العام الجديد إيرك لابون يوم 22 نوفمبر 1938 مطالبات بإطلاق سراح المعتقلين، هاتفات باسم الباي والدستور وبورقيبة. فحوكمن في 28 ديسمبر 1938. لكن المحكمة برأت ساحتهن. قبض في أثناء زيارة رئيس الوزراء الفرنسي إدوارد دلاديي في جانفي 1939 على اثنتي عشرة امرأة بباب سعدون بتهمة التشويش في الطريق العام. وصدرت ضدهن أحكام تتراوح بين الشهر ونصف الشهر. وشاركت النساء أيضا في أحداث 1952 في لجان تقصي الحقائق إثر مجزرة تازركة على حين قامت النساء الريفيات بمعاضدة المقاومين المسلحين زالفلاقةس في الجبال بتوفير المؤن لهم في أثناء الكفاح المسلح فيما بين سنتي 1952 و1954.

لم تكن المرأة التونسية بمعزل عن العمل السياسي. وهذا ما جعلها إثر حصول البلاد على الحكم الذاتي في جوان 1955 تبادر بالمطالبة بحقها السياسي. فالتأم في ديسمبر 1955 اجتماع نسائي ضمّ حوالي 300 امرأة، شكلن وفدا لتسليم عريضة يوم 16 ديسمبر 1956 للوزير الأكبر الطاهر بن عمّار ونائب وزير الداخلية أحمد المستيري مطالبات بحقوقهنّ المدنية والسياسية بالتساوي مع حقوق الرجل وبتمكينهنّ من الحقوق الكاملة في الانتخابات بكلّ أصنافها من تصويت وترشح وبإسناد وزارة إلى امرأة وإحداث مجلس قومي أعلى للمرأة، متجاوزات بذلك المرجعية الإسلامية. مركزات الاهتمام على الحقوق السياسية، بحكم أنّ البلاد استرجعت سيادتها. وهذا ما ساعد السياسيين على إصدار مجلة الأحوال الشخصية في 13 أوت1956، وفي جمع كلّ الحركات النسائية في صلب الاتحاد القومي النسائي التونسي.

الحركة الوطنيّة التونسيّة
[1881–1956م]

كان تمركز «الحماية الفرنسية» بتونس سنة 1881 تجسيدا للتحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي هزّت القارة الأوروبيّة إثر انتهاء الحروب النابليونية في مطلع القرن التاسع عشر وقد أفرزت هذه التّحولات مجموعة من التناقضات من أهمّها اشتداد المزاحمة بين القوى الرأسمالية الناشئة للسيطرة على الأسواق الخارجية وامتلاك المستعمرات. وفي هذا السياق تأكّدت النوايا الفرنسية التوسّعية إثر انعقاد مؤتمر برلين سنة 1878 وآل التنافس الايطالي – الفرنسي من أجل السيطرة

على الإيالة التونسية بين 1879 – 1881 إلى صالح الدولة الفرنسية. وترتب علي احتلال تونس بروز مقاومة متفاوتة النجاعة إلاّ أن هذه المقاومة أصابها الوهن بعد مدّة قصيرة ويعود ذلك إلى عدّة أسباب أهمّها عدم تكافؤ موازين القوى العسكرية وعدم انسجام المجتمع التونسي الذي كانت تشقّه الصراعات القبلية والتقاليد العدائية بين المدينة والريف والقطيعة بين السلطة والرعية.

وقد أدّى فشل الخيار العسكري إلى فتح الأبواب أمام النخب المثقفة بالمدن لمحاولة ردّ الفعل بطرق سلميّة في إطار الحماية. وكان تأسيس جريدة «الحاضرة» سنة 1888 حجر الأساس لبداية تكوين رأي عام بالبلاد التونسية صحبه بعد مدّة تأسيس جمعية «الخلدونية» (1896) ثم جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصادقية (1905)» و«النادي التونسي» في السنة نفسها ثمّ «حركة الشباب التونسي» سنة 1907. وفي نهاية الحرب العالمية الأولى، وعلى إثر تغيّر الظرفية العالمية والداخلية، تأسّس الحزب الدستوري التونسي (1919 - 1920) الذي عمل على نشر الوعي الوطني خارج العاصمة. وتجذّرت الحركة الوطنية شعبيا في الثلاثينات التي اقترنت باندلاع سلسلة من التّحوّلات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية مهّدت لانبعاث الحزب الدستوري الجديد سنة 1934. ولئن وجدت الحركة الوطنية حصارا وقمعا شديدين إثر أحداث أفريل 1938 زَالاَ لحين، مدّة الاحتلال الألماني الإيطالي للإيالة من 9 نوفمبر 1942 إلى 13 ماي 1943، فإنّها عادت إلى حيويتها إثر انتهاء الحرب العالمية الثانية: فقد أفضى ميثاق الأطلنطي إلى ميلاد جمعية الأمم المتحدة وتراجع الاستعمار التقليدي. وتأسّست في تلك الفترة جامعة الدول العربية. وخيّم على العالم شبح الحرب الباردة بين القوتين العظميين الجديدتين: الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية. كلّ هذه الأحداث كانت لصالح الحركات الوطنية في المستعمرات. فتنوعّت أشكال النضال: من عمل سياسي في الداخل والخارج ونضال نقابي وتوطيد للمنظمات الوطنية.

وقد تفاعلت السلط الاستعمارية مع هذه الأحداث باقتراح بعض الإصلاحات المحدودة إن لم نقل المحتشمة التي كانت تجد معارضة من قبل الجالية الفرنسية بتونس وأحيانا أخرى باعتماد سياسة التجاهل والقمع لكنّها قبلت في نهاية المطاف التفاوض وذلك على إثر نجاح الراديكالي منداس فرانس في تكوين حكومة سعت إلى إيجاد حلّ سلمي لحرب الفياتنام اعترفت باستقلال تونس الداخلي (1954) وهو ما أفضى بعد إجراء مفاوضات عسيرة بين الطرفين إلى حصول البلاد على الاستقلال (1956).

فما هي أهمّ المحطّات في تاريخ الحركة الوطنية؟ وكيف كان تفاعلها مع التّغيرات السياسية في فرنسا وفي العالم؟ وما هي أهمّ الأشكال النضالية التي اعتمدتها الحركة؟

أوّلا: حركة الشباب التونسي: من النشاط الثقافي إلى النضال السياسي

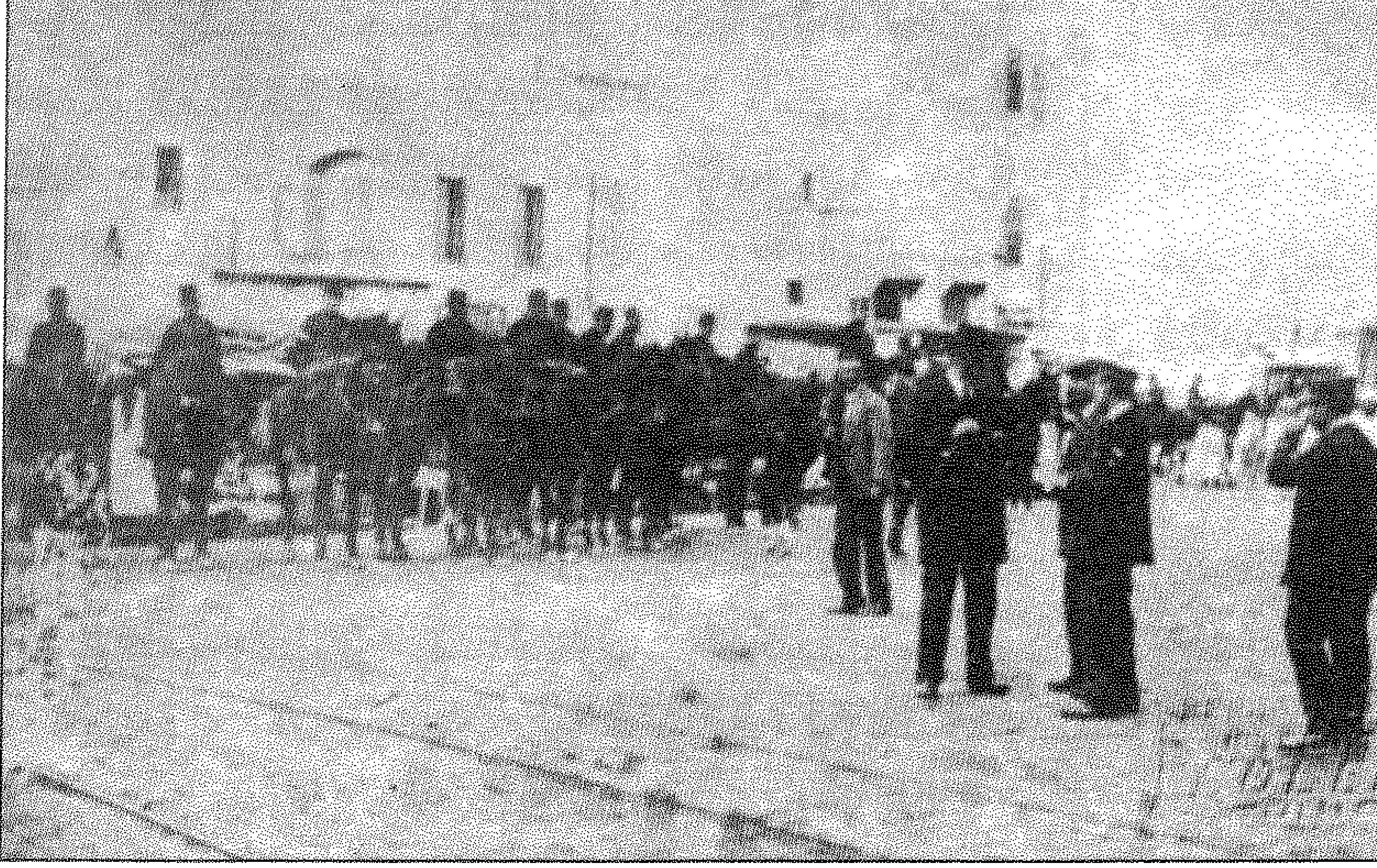
1 – عوامل بروز النخبة

فرضت الدولة الفرنسية على محمد الصادق باي معاهدة باردو (12 ماي 1881) التي أبقت على سلطة صورية له وجرّدته من نفوذه في مجال السياسة الخارجية ثمّ فرضت على خلفه علي باي اتفاقية المرسى (3 جوان 1883) التي مكّنتها من التدخّل في الشؤون الداخلية وأصبح المقيم الفرنسي الحاكم الفعلي كما أصبحت مختلف الإدارات مسّيرة من موظفين سامين فرنسيين وسيطرت الجالية الفرنسية على المجالس البلدية.

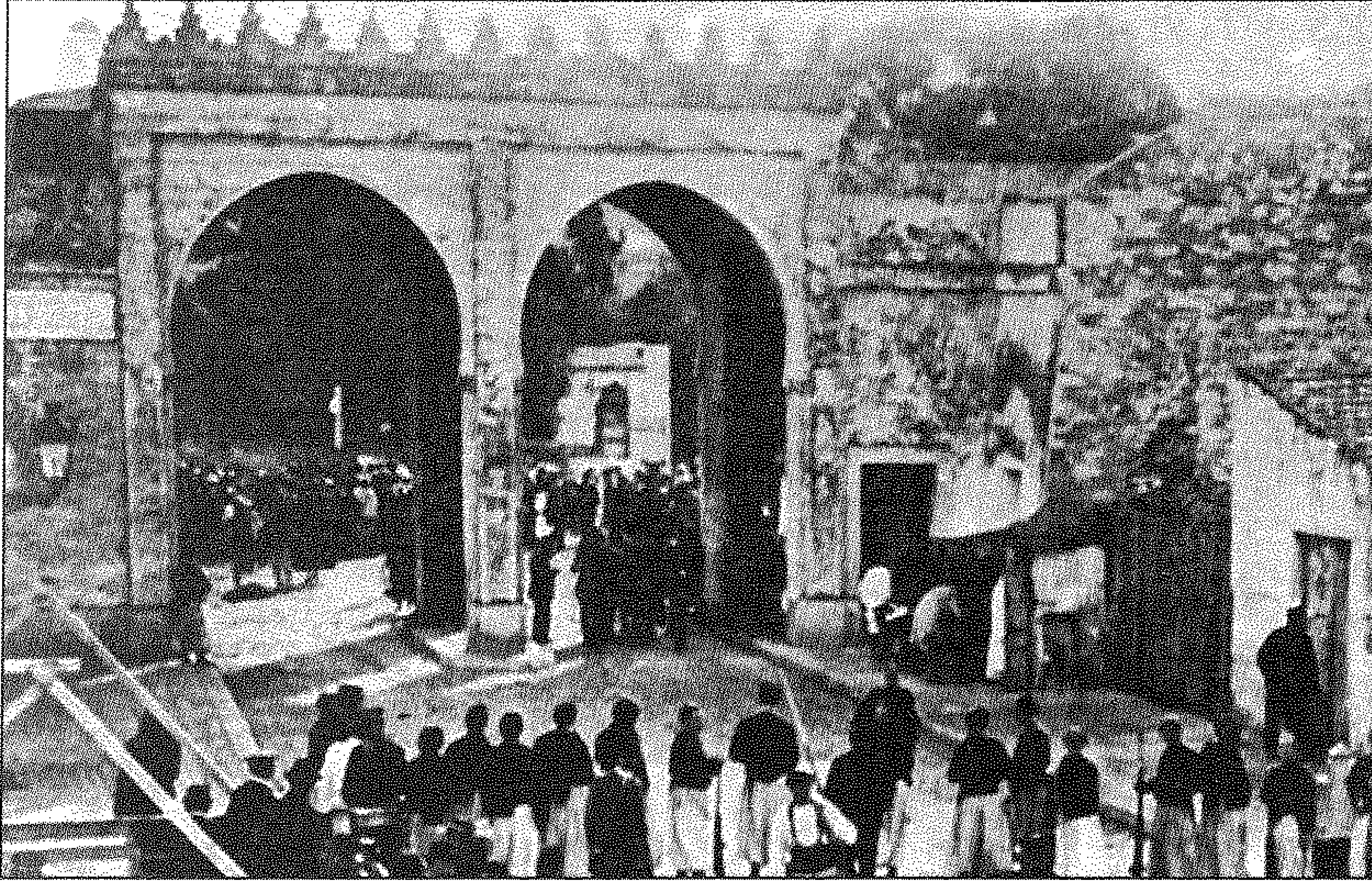
وشجّعت الدولة الفرنسية وسلط الحماية هجرة المستوطنين الفرنسيين إلى الإيالة التونسية ومكنتهم من الحصول على أخصب الأراضي التي انتزعت من أصحابها بطرق مختلفة: مثل قانون 1 جويلية 1885 المتعلّق بتسجيل الأراضي

وقانون سنة 1890 القاضي بإلحاق الأراضي الغابية بأملاك الدولة وقانون سنة 1903 القاضي بوضع حدود الغابات تمهيدا لاغتصاب الأراضي المجاورة لها. وكذلك عن طريق «الإنزال» وهو تمكين المستوطن الأجنبي من التملك بعقار من أراضي الأحباس في مقابل دفع مبلغ زهيد كما تضرّرت الصناعات التقليدية بسبب مزاحمة البضائع الصناعية الأجنبية وسيطرت الشركات الاستعمارية على ثروات البلاد.

وقامت السياسة التعليمية على نشر اللّغة الفرنسية وتوخّت طريقة التمييز والانتقاء، إذ لم يشمل التعليم سوى عدد محدود جدّا من التونسيين. وقد أدّى الواقع الجديد لسياسة الحماية إلى بروز نخبة مثقفة تبنّت المطالب الوطنية.



يوم واقعة الزلاّج: القوات الفرنسية تحاصر باب عليوة



ساعة تنفيذ الإعدام في باب سعدون

2 - تطوّر نشاط النخبة وتأثيرها

بادرت النخبة وعلى رأسها علي بوشوشة (1859 - 1917) سنة 1888 بإصدار جريدة «الحاضرة» وهي جريدة اسبوعية ناطقة بالعربية كانت تنادي خاصّة بتعميم التعليم وتحديثه وبحماية البضائع التونسية من المنافسة الأجنبية. وقد أسهمت في تكوين «رأي عام» بالعاصمة إلاّ أنّها وجدت معارضة من قبل الأوساط المحافظة بجامع الزيتونة. وهو ما دفع بالنخبة إلى تكوين جمعية الخلدونيّة سنة 1896 كانت تهدف إلى تنظيم دروس ومحاضرات في تخصّصات عدّة وإلى التشجيع على إنشاء المكتبات وإلى إصدار نشرية بالعربية وبالفرنسية. وقد كان نشاطها موجّها إلى طلبة



الشهيد الشاذلي القطاري



الشهيد المنّوبي الجرجار

جامع الزيتونة. ثمّ تكوّنت في سنة 1905 جمعية قدماء الصادقية التي كان من أبرز مسيّريها خير اللّه بن مصطفى (1867 – 1956) وعلي باش حانبه (1876 – 1918).

ولوعي الحركة بحدود العمل الثقافي الضيّقة توخّت توجّها جديدا بعد خطاب البشير صفر (1856 – 1917) في مارس 1906، وهو تبنّي خطاب سياسي يقترح المحافظة على أملاك التونسيين وتطوير الصناعة ونشر التعليم المهني والفلاحي، وقد أكّد ممثلو الحركة هذا الاتجاه في المؤتمر الاستعماري بمرسيليا (1906) ومؤتمر شمال إفريقيا المنعقد بباريس سنة 1908. وأسّست الحركة سنة 1907 جريدة «التونسي» الناطقة بالفرنسية التي طالبت بتحديث الفلاحة والصناعة واحترام الأوقاف (أو الأحباس) وإلغاء المجبى وإقرار مجانية التعليم والاعتراف بحق التونسيين في الحصول على الوظائف الإدارية وبحقهم في تسيير شؤون البلاد، وأطلق على هذا التوجّه الجديد اسم «سياسة المشاركة».

وبالرغم من طابعها النخبوي فقد أسهمت الحركة في ربط الصلة بالجماهير التونسية في ثلاث مناسبات:

– إضراب طلبة جامع الزيتونة (أفريل 1910) من أجل إصلاح التعليم في معهدهم وقد حظي الطلبة بمساندة زعماء الحركة.

– أحداث الزلاّج (نوفمبر 1911): حاولت بلدية تونس تسجيل أرض المقبرة فاعتبر التونسيون ذلك تحدّيا لشعورهم الديني وخرجوا في مظاهرة تصدّت لها قوات الأمن. وكان الوضع حينذاك متوتّرا بين التونسيين وعناصر الجالية الإيطالية بتونس من جراء بداية الغزو الإيطالي لطرابلس. وتلت المصادمات الدموية محاكمات صدرت في شأن المتهمين (7 أحكام بالإعدام) نفّذ الحكم في اثنين منهم وإعلان حالة الحصار وتعطيل الصحف الناطقة بالعربية. ولئن كان التحرّك تلقائيا فإن حركة الشباب التونسي لم تمانع من مساندته.

– مقاطعة الترامواي (فيفري 1912): قرّر أهل مدينة تونس مقاطعة الترامواي بعد أن تعمّد سائق إيطالي دوس طفل تونسي. وتكوّنت لجنة برئاسة علي باش حانبه لمساندة حركة المقاطعة إلى أن تستجيب السلطة للمطالب التونسية وخاصة المساواة في الأجور بين العمّال الأوربيين والعمّال التونسيين. فكان ردّ فعل السلطة نفي قادة حركة الشباب التونسي وتعطيل جريدتهم.

ثانيا: نشأة الحزب الحرّ الدّستوري وتكوين جامعة عموم العملة التونسية

بقدر ما ركدت الحركة الوطنية في الداخل إثر إعلان حالة الحصار واندلاع الحرب العالمية الأولى كان لها نشاط متنوّع وكثيف في المهجر وخاصة في إستانبول حيث برز علي باش حامبه وإسماعيل الصفايحي وصالح الشريف، وفي لوزان بسويسرا حيث أسّس محمد باش حانبه «مجلة المغرب» سنة 1916. ومع ذلك اندلعت ستة 1915 انتفاضة الودارنة بالجنوب التونسي حيث سجّلت معارك واشتباكات بين قبائل الجنوب والجيش الفرنسي وبرز بالخصوص المجاهد محمد الدغباجي، واقترنت هذه الأحداث بتوتّر الوضع في البلاد الطرابلسية حيث تزعّم خليفة بن عسكر النالوتي المقاومة ضدّ الغزو الإيطالي. وإثر نهاية الحرب العالمية الأولى، مهّدت الظرفية الجديدة العالمية لعودة الحياة السياسية واستئناف نشاط النخبة المثقفة.

على المستوى الداخلي عملت سلط الحماية على دعم نفوذها في تونس في إطار إعادة البناء لاقتصاد فرنسا الذي تضرّر طيلة الحرب ودعمت الاستعمار الزراعي. وواجه الإنتاج الصناعي المحلي صعوبات بسبب رجوع المنافسة الأجنبية وارتفعت أسعار المواد الأساسية وهو ما أدّى إلى حدوث بعض المظاهرات (مظاهرة 5 أوت 1920 بتونس العاصمة) كما أقرّت سلط الحماية منذ سنة 1919 منحة الثلث الاستعماري لفائدة الموظفين الفرنسيين.

أمّا على الصعيد العالمي فقد أصبح الظرف ملائما لنشاط الحركات الوطنية بالمستعمرات بعد الإعلان عن مبادئ ولسن الأربعة عشر وتكوين الاتحاد السوفياتي والأممية الثالثة، وهو ما أعطى دفعا للحركات المناهضة للاستعمار، كما كان لدعم نشاط الحركات الوطنية بتركيا ومصر الأثر الإيجابي في تونس التي شارك الكثير من سكانها في الحرب إلى جانب فرنسا وهو ما جعل بعض المثقفين يطالبون بـ«ضريبة الدّم».

1 – تكوين الحزب الدستوري التونسي

كثّفت الحركة الوطنية من الاجتماعات بالعاصمة واتّفق بين أفرادها على ضبط برنامج عمل الحركة فبادرت بإرسال مذكرة إلى الرئيس ولسن عند مروره بروما (جانفي 1919) تقترح فيها إمكان تطبيق مبادئه على التونسيين.

وسافر أحمد السقّا وعبد العزيز الثعالبي إلى باريس سنة 1919 قصد الاتصال بالأوساط التحرّرية بفرنسا سعيا إلى كسب تأييدها للقضية التونسية، وصدر في آخر سنة 1919 كتاب «تونس الشهيدة» باللغة الفرنسية ودون توقيع. وهو يحتوي على جزءين:

المؤتمر العام

للحزب الحر الدستوري التونسي

المنعقد بمدينة قصر هلال

يوم الجمعة ١٧ ذي القعدة

عام ١٣٥٢

مطبعة «الاتحاد» نهج الباشا رقم – ١١٦

– الجزء الأول: فيه عرض للوضع في جميع الميادين منذ انتصاب الحماية.

– الجزء الثاني: فيه ذكر المطالب التي سيتبنّاها الحزب الحر الدستوري إثر تكوينه (1919 ـ 1920) وكان من أبرز مؤسسيه: عبد العزيز الثعالبي (1874 – 1944). وتتركّز أهم المطالب على ما يلي:

– إعلان دستور للبلاد – تكوين مجلس نيابي يراقب الحكومة – المساواة في الأجور – إقرار الحريات العامة – إجبارية التعليم.

2) نشاط الحزب الحر الدستوري

– اتجه نشاط الحزب نحو أهل البلاد ونحو الباي والسلط الاستعمارية وتحدّدت أهمّ طرق عمله في كتابة المقالات الصحفية وتوجيه العرائض والوفود إلى الباي وإلى فرنسا.

– وجّه الحزب ثلاثة وفود إلى فرنسا بين سنتي 1920 و1924 وذلك قصد التفاوض مع السلط حول المطالب التونسية.

– في اتجاه الباي سعى الحزب إلى كسب تأييده: فقد تحوّل وفد (وفد الأربعين) إلى محمد الناصر باي في جوان 1920 وسلّم إليه عريضة تطالب بضرورة إقرار دستور للبلاد.

– ركّز الحزب شُعَبا بمناطق عدّة من البلاد، ودعا التونسيين إلى المشاركة في المظاهرات التي ينظمها مثل مظاهرة 5 أفريل 1922 لمساندة محمد الناصر باي عندما هدّد بالتنازل عن العرش.

ونشر زعماء الحزب المقالات بالكثير من الصحف (الامة – مرشد الأمة – الصواب – العصر الجديد..) للتعريف بمواقفه ولتوعية الرأي العام.

وندد الحزب الدستوري بإصلاحات جويلية 1922 الّتي أحدث بمقتضاها المجلس الكبير ومجالس الجهات والقيادات واعتبرها محدودة وإلى جانب العمل السياسي ظهرت تجربة نقابية رائدة تجسّدت في إنشاء جامعة نقابية مستقلة.

3) نشأة جامعة عموم العملة التونسية

ارتفع عدد العمّال التونسيين في بعض القطاعات كالمناجم والسكك الحديدية والرصيف إلاّ أنهم لم يحصلوا على الامتيازات نفسها التي يتمتع بها العمال الفرنسيون، وهو ما جعل بعض النقابيين التونسيين وعلى رأسهم محمد علي الحامي يبادرون في ديسمبر 1924 بتكوين جامعة عموم العملة التونسية (شعارها: «الحرية بالاتحاد»)

وقد بعثت اللجنة التنفيذية الّتي كانت على رأس الجامعة نقابات في بعض المدن (تونس – بنزرت – مناجم قفصة...) وعقدت اجتماعات عامة للنظر في مشكلات العمّال التونسيين، كما ساندت إضراباتهم. وقد حظيت التجربة بدعم الحزب الشيوعي بتونس في إطار مساندته لحركات التّحرر بالمستعمرات، واعتبرها الاشتراكيون الفرنسيون «مشروعا ملّيا» (أهْليّا) سَيَقْضي على وحدة العمال. أمّا الحزب الحر الدستوري فبعد أن ساند الجامعة تخلّى عنها ليتحالف مع الحزب الإصلاحي والجامعة الاشتراكية والأعضاء التونسيين في المجلس الكبير ووافق في 21 فيفري 1925 على بيان مشترك يدعو العمال إلى الانسلاخ عن الجامعة. وقد أفضى هذا التحالف إلى عزلة الجامعة واتهامها من السلط الاستعمارية بكونها أداة بين أيدي الألمان والشيوعيين وبكونها تتآمر على أمن الدولة فأوقفت قادتها (فيفري 1925) وحاكمتهم (نوفمبر 1925).

إن الصعوبات التي واجهها الحزب الحر الدستوري (الانشقاق والمصاعب المالية «وهجرة» الثعالبي إلى المشرق...) ومحاكمة القيادة النقابية وإصدار «القوانين الجائرة» (1926) قد أسهمت في تراجع نشاط الحركة الوطنية لكنها لم تلبث أن استفاقت حين اندلعت أزمة الثلاثينات الاقتصادية.

ثالثا: تجذّر الحركة الوطنية في الثلاثينات

استأنفت الحركة الوطنية نشاطها في مطلع الثلاثينات وقد صاحب دعم نشاطها بروز اختلافات داخل قيادتها حول سبل معاملة القوى الشعبية وحول كيفية التصدي للاستعمار انتهت بحدوث انشقاق داخلها.

فقد حدثت بالبلاد في تلك الفترة «أزمة تقليدية» تجسّدت في تراجع الإنتاج الفلاحي بسبب تعرض الكثير من جهات البلاد إلى الكوارث الطبيعية.

وزامنتها أزمة «عصرية» وهي تراكم الإنتاج وانخفاض أسعار المواد الفلاحية والمنجمية المعدّة للتصدير، وهذه الأزمة العصرية امتداد للأزمة الاقتصادية العالميّة لعام 1929.

ترتب على هذه الأزمة المضاعفة تضرّر أصحاب الحرف وإفلاس الكثير من صغار التجار وانتشار البطالة في صفوف الشغالين، كما ظهرت المجاعة والأوبئة في بعض المناطق.

فوقعت إثر ذلك اضطرابات شعبية في ثلاث مناسبات:

– المؤتمر الإفخارستي (ماي 1930): اعتبره السكان تحدّيا لمشاعرهم الدينية ورأوا فيه تعبيرا عن عزم فرنسا على دعم هيمنتها. وقد زاد في استياء التونسيين الاستعراض الذي شارك فيه شبان مسيحيون بلباس الصليبيين. ولردّ الفعل على هذه التظاهرة أضرب عملة الرصيف ببنزرت وتونس كما أضرب تلامذة الصادقية وجامع الزيتونة.

– الاحتفال بخمسينية انتصاب الحماية (1881 ـ 1931): رأى الحزب الدستوري في هذه التظاهرة الّتي كلّفت الميزانية 330 مليون فرنك تعبيرا عن رغبة فرنسا في دعم نفوذها السياسي بتونس فدعا إلى مقاطعة هذا الاحتفال.

– دفن المُتَجنّسين بالمقابر الاسلامية: عارض الاهالي دفن المتجنسين بالمقابر الإسلامية وقد تسبّب ذلك في حدوث مصادمات بالعاصمة وبنزرت والمنستير.

واستغلّ هذه الأحداث بعض المثقفين الشبان أمثال الحبيب بورقيبة ومحمود الماطري والطاهر صفر والبحري قيقة... فنظّموا حملة صحفية

ضد قانون التجنيس (الصادر سنة 1923) وساندوا تحركات السّكان وندّدوا بالسياسة الاستعمارية في بعض الصحف الوطنية مثل «اللواء التونسي» و«صوت التونسي» و«العمل التونسي» التي بعثوها للوجود.

ولكن بعد نجاح مؤتمر الحزب الحر الدستوري المنعقد بالعاصمة سنة 1933 الذي صادق على ميثاق يقرّ مبدأ السيادة للشعب التونسي قررت السلط الاستعمارية حلّ الحزب وتعطيل صحفه وهو ما أدى إلى ظهور خلافات داخل قيادته حول طريقة المواجهة: فعلى حين دعا أعضاء اللجنة التنفيذية (محيى الدين القليبي وصالح فرحات وأحمد الصافي...) إلى التريّث دعت مجموعة «العمل التونسي» التي دخل الكثير من أفرادها اللجنة التنفيذية للحزب إلى تصعيد المواجهة بالاعتماد على المساندة الشعبية، وإلى عقد مؤتمر لحسم الخلافات فانعقد في يوم 2 مارس 1934 بقصر هلال وقرر حل اللجنة التنفيذية وتعويضها بقيادة جديدة «الديوان السياسي» وقد رفض أعضاء اللجنة التنفيذية حضور المؤتمر وكذلك كلّ قراراته، وبذلك أصبح هناك حزبان:

– الحزب الدستوري – اللجنة التنفيذية (الحزب القديم)

– الحزب الدستوري – الديوان السياسي (الحزب الدستوري الجديد)

وقد واصل الحزب الدستوري الجديد استغلال غضب الشعب وكثّف من دعايته وهو ما جعل السلط الاستعمارية تتّبع سياسة قمعية تجسّدت في إبعاد أعضاء الديوان السياسي وعدد كثير من المناضلين إلى الجنوب.

ولكن إثر وصول «الجبهة الشعبية» إلى السلطة بفرنسا (ماي 1936) أُفرج عن المبعدين وأقرّت حرّية الصحافة والاجتماع. وقد علّقت قيادة الحزب الدستوري الجديد آمالا على الجبهة الشعبية فحدّدت المطالب التي يمكن عرضها وحصلت على وعود بإجراء بعض الإصلاحات، لكنّها وجدت معارضة من قبل الجالية الفرنسية بتونس، كما أن فرنسا تراجعت عن الإصلاحات بعد سقوط حكومة الجبهة الشعبية فاجتمع المجلس الملّي للحزب الدستوري الجديد (مارس 1937) وقرّر التكثيف من التحركات التي برز فيها خاصة المناضلون الشبان: علي البلهوان والمنجي سليم والهادي نويرة، كما كثف الحزب الدستوري الجديد من دعايته داخل البلاد فأوقفت السلط الاستعمارية الكثير من قادته وهو ما دفعه إلى إعلان الإضراب العام يوم 8 أفريل 1938 وإلى تنظيم مظاهرة بالعاصمة قادها المنجي سليم وعلي البلهوان كان من أهم شعاراتها «برلمان تونسي» دعي على اثرها البلهوان للمثول أمام حاكم التحقيق يوم 9 أفريل 1938 فأدى ذلك إلى تجمّع التلاميذ وسكّان الأحياء القريبة من المحكمة في مظاهرة احتجاجية فأطلق الجيش النار على المتظاهرين، وسقط الكثير من القتلى والجرحى فأعلنت الحكومة حالة الحصار وحلّ الحزب الدستوري الجديد.

وفي مسعى موازٍ للنضال السياسي حاول النقابيون التونسيون احياء التجربة النقابية الأولى التي بعثها محمد عليّ الحامّي، وقد تحقّق لهم ذلك بعد سنة 1936 بتكوين جامعة عموم العملة التونسية الثانية بزعامة بلقاسم القناوي. وقد أيّد الكثير من قادة الحزب الدستوري الجديد فكرة تكوين الجامعة وعملوا على الاستفادة من إخضاعها لنفوذ الحزب إذ كانوا يرون أنه لا يمكن الفصل بين العملين النقابي والسياسي في مرحلة التحرر الوطني. ولهذا دخلوا في صراع مع القناوي الذي كان يريد فرض استقلالية المنظمة النقابية عن الحزب الدستوري الجديد. فرفض مثلا مشاركتها في الإضراب السياسي الذي دعا إليه الحزب يوم 20 نوفمبر 1937 احتجاجا على القمع الاستعماري في الجزائر وفي المغرب الأقصى فأبعد القناوي عن الجامعة وتكوّن مكتب جديد برئاسة الهادي نويرة.

ولئن تراجع نشاط الحركة الوطنية بسبب سياسة القمع الّتى مارستها السلط الاستعمارية قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، فإنّ هذا النشاط سيتواصل إثر الحرب وسيتّخذ أشكالا مختلفة.

– رابعا: الحركة الوطنية أثناء الحرب العالمية الثانية والمصالحة مع العرش

لقد احتلت قوات المحور البلاد التونسية من نوفمبر 1942 إلى ماي 1943. وألحقت المعارك الحربية بين قوات المحور والحلفاء الذين شرعوا في مطاردة الألمان تمهيدا لتحرير أوروبا انطلاقا من شمال إفريقيا أضرارا وخلّفت الكثير من الضحايا المدنيين، كما تقلّصت المساحات المزروعة وتراجعت المبادلات التجارية مع الخارج فتعذّر استيراد الكثير من المنتوجات الأساسية. فاضطرت السلط إلى اعتماد التقسيط في ترويج بعض المواد كالسكر والصابون والقماش وانجرّ عن ذلك ارتفاع في الأسعار وانتشار ظاهرة السوق السوداء.

ومن جهة أخرى أسهمت الحرب العالمية الثانية في إضعاف النظام الاستعماري إذ اندلعت بفرنسا إثر هزيمة جيوشها سنة 1940 أزمة سياسية حادّة وفقدت جانبا من نفوذها السياسي والمعنوي.

وفي هذه الظروف اعتلى المنصف باي العرش (19جوان 1942 – ماي 1943) وكان يتمتّع بشعبية واسعة وأنجز الكثير من الإصلاحات محاولا إبراز نفوذه أمام المقيم العام ومطالبا بالرجوع إلى روح معاهدة الحماية التي تقتضي مباشرة الحكم من السلط التونسية، كما عمّم منحة الثلث الاستعماري على الموظفين التونسيين وأسهم في إطلاق سراح المعتقلين السياسيين.

وقد ساعدت النّزعة التحررية للمنصف باي على دعم النشاط السياسي إلا أن الحركة الوطنية واجهت مشكلة الاختيار بين الجانبين المتحاربين: ففي حين ساندت الجماهير الشعبية الألمان الذين حاولوا استغلال الشعور الوطني ضد الحلفاء اتّخذت القيادات السياسية موقفا حذرا بالرغم من أن الالمان هم الذين أطلقوا سراحهم وتهرّبوا من إعلان المساندة للمحور.

وبانتصار الحلفاء بتونس خلعت السلطة الاستعمارية الباي وشنّت حملة على المتعاونين مع المحور، فكانت فرصة لمحاولة التخلص من القيادة الدستورية. وقد أثارت هذه السياسة الانتقامية احتجاجات وردود فعل عنيفة (ثورة المرازيق بدوز مثلا).

وتمحورت مطالب الحركة الوطنية بعد سنة 1943 حول المطالبة بعودة المنصف باي ثمّ صادقت مختلف القوى الوطنية في اكتوبر 1944 على لائحة تطالب بالاستقلال الداخلي. وعند نهاية الحرب شرعت قيادة الحزب الدستوري الجديد في البحث عن التأييد الخارجي للقضية الوطنية وفي استغلال الظروف العالمية الجديدة.

خامسا: أثر الحرب وتنوّع أشكال النضال الوطني:

1) استفحال الأزمة الاستعمارية وتحولات المجتمع التونسي

أسهمت الحرب في إضعاف الاستعمار الفرنسي وثبّتت جملة من المبادئ التحريرية (ميثاق الأطلنطي، ميثاق الأمم المتحدة) كان من الصعب على فرنسا تجاهلها وفي المقابل سعت كل حكومات فرنسا إلى تقييد مستقبل شعوب المستعمرات داخل إطار «الاتحاد الفرنسي».

وقد حاول الاستعمار في تونس إنجاز بعض الإصلاحات في المجالات الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، ولكن رغم ذلك بقي الفرنسيون مسيطرين على جل دواليب الإدارة التونسية، كما بقي الإنتاج الفلاحي متواضعا وتراجع النشاط الحرفي نتيجة منافسة البضائع الصناعية له، كما أنّ السلطة الاستعمارية لم تنجح في

الحدّ من الفوارق بين الأهالي وأفراد الجالية الفرنسية.

ولقد زامنت أزمة النظام الاستعماري بتونس تحولات اجتماعيّة عميقة تجسّدت في الارتفاع النسبي لعدد المقبلين على التعليم وبروز نخب تولت عملية تأطير المجتمع وأصبح العنصر الشبابي هو القوّة الضاربة للحركة الوطنية وبدأت المرأة تقتحم ميدان التعليم والشغل ونجحت في بعث منظمات نسائيّة وبرزت في الصحافة التونسية حركية لافتة. إذ قامت بعمل توعوي وساهمت في إذكاء الروح الوطنية، كما شملت النهضة الحياة الجمعياتية فأنشئ الكثير من النوادي الرياضية والجمعيات الثقافية والكشفية والطلابيّة وكذلك النقابات المهنية فتأسس الاتحاد العامّ التونسي للشغل يوم 20 جانفي 1946 بقيادة فرحات حشّاد، وتمكن من فرض وجوده على الساحة النقابية والمحلية وتهميش النقابات الفرنسية كما بُعث الاتحاد العام للفلاحة التونسية والاتحاد التونسي للصناعة والتجارة.

2) الحركة الوطنية غداة الحرب العالمية الثانية

امتاز العمل النقابي بتعدّد التشكيلات السياسية والمنظمات الوطنية: فقد سعى الحزب الدستوري الجديد إلى إعادة تنظيم صفوفه وربط الصلة من جديد بالقواعد واعتنى عناية بالغة بالدعاية عن طريق جريدتي «الحرية» و(Mission) (الرسالة) كما عمل على توحيد كلمة الوطنيين في مؤتمر ليلة القدر (23 أوت 1946) الذي جمع كل فصائل الحركة الوطنية، ورفع بحَزْم شعار الاستقلال. أمّا الحزب الدستوري القَديم فقد اضطلع بدور مهمّ في تنظيم الحركة المنصفية ودعم نضال طلبة جامع الزيتونة وأسهم في تأسيس «الجبهة الوطنية» في فيفري 1945، وعمل الحزب الشيوعي على تونسة إطاراته وتبنّى منذ سنة 1950 شعار المطالبة باستقلال البلاد.

وقد اتّسم العمل الوطني بالبرغماتية والمرحلية وكان الحزب الدستوري الجديد هو مؤطّر هذا العمل.

وقد حاول الوطنيون الحصول على المساندة الخارجية: فقد توجّه الزعيم الحبيب بورقيبة منذ سنة 1945 إلى مصر حيث قام الوطنيون التونسيون بنشاط حثيث للتشهير بالسياسة الاستعمارية. كما كثفوا من الاتصالات برجال السياسة الأمريكية ودفع الاتحاد العام التونسي للشغل الجامعة العالمية للنقابات الحرّة إلى مؤازرة حركات التحرر في العالم.

وحرصت القيادات الوطنية في كتاباتها (مثل نحن أمة (تونس 1948) وتونس الثائرة (القاهرة 1954) لعلي البلهوان) على بلورة المرتكزات الفكرية والحضارية للمشروع الوطني وعملت على إبراز الذاتية التونسية وتبنّى الوطنيون الكثير من التّوجّهات ذات البعد الاجتماعي الهادفة إلى تحرير التونسيين من قيود الفقر وتوفّقوا إلى إقناع طائفة وافرة العدد من التونسيين بوجوب تحرير المرأة وتحديث التعليم.

وقد اتّخذت الوحدة الوطنية أحد المبادئ التي انبنت عليها الحركة الوطنية المناهضة للنظريات الشيوعية القائمة على مبدإ الصراع الطبقي وعملت على توثيق الروابط بين المنظمات الوطنية.

تمكنت الحركة الوطنية من كسب تأييد الكثير من القوى الفاعلة: فقد حضر مؤتمر ليلة القدر (1946)، بالإضافة إلى ممثلي مختلف الفصائل الوطنية، وزراء المنصف باي السابقون وبعض أعضاء المجلس الكبير وعلماء جامع الزيتونة.

وحرص الوطنيون على توثيق الصلة بالأمين باي وكان قد طالب بالإفراج عن الوطنيين الذين اعتقلوا إثر مؤتمر ليلة القدر ورفض الموافقة على مشروع القرار القاضي بحل الاتحاد العام التونسي للشغل إثر أحداث 5 أوت 1947.

وقد ساعد تكوين جامعة الدّول العربية (1945) على تنمية مشاعر الانتماء العربي فتابع

الوطنيون أعمالها وقد أسهمت الجامعة في توثيق العلاقات بين حركات التحرّر المغاربية. وقد واكبت هذه المواقف تحركات قام بها التونسيون تضامنا مع نضال شعوب المغرب والمشرق (مثل الحملة التي نظّمت بتونس للتنديد بقرار تقسيم فلسطين)

3) اندلاع المعركة التحريرية والحصول على الاستقلال

وجدت حكومة شنيق التفاوضية التي شارك فيها صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدستوري الجديد معارضة من قبل الجالية الفرنسية بتونس، وهو ما جعل فرنسا تتخلّى عن المسار الإصلاحي، وقد قدّمت وزارة شنيق مذكرة إلى فرنسا في أكتوبر 1951 تدعوها فيها إلى تحديد موقفها من الحكم الذاتي. فكان رد فعلها أن وجهت مذكرة في ديسمبر 1951 تعلن فيها عن تمسكها بمبدإ السيادة المزدوجة وهو ما أثار استنكار الرأي العام التونسي وتنظيم إضراب عام دعت اليه المنظمات الوطنية (21 – 22 – 23 ديسمبر 1951) وتقديم شكوى للأمم المتحدة في جانفي 1952.

وقد دخلت البلاد مرحلة جديدة احتدت في أثنائها المواجهة، واعتقل عدد كثير من القادة الوطنيين في طليعتهم الزعيم الحبيب بورقيبة، وحوصرت بعض المدن والقرى ونشطت المجموعات الإرهابية الفرنسية خاصّة اليد الحمراء التي تمكّنت من اغتيال فرحات حشاد والهادي شاكر. ولردّ الفعل على هذه السياسة تكثّفت الإضرابات والمظاهرات وبرزت المقاومة المسلحة على هيئة مجموعات صغيرة. وقد استهدفت المنشآت الفرنسية وقوات الاحتلال وبعض المعمّرين والتونسيين المتعاونين مع الاستعمار.

وقد لاقت المطالب التونسية صدى متزايدا لدى الأحزاب السياسية والليبيرالية الفرنسية خاصة بعد هزيمة فرنسا بالهند الصينية. وإثر تكوين حكومة منداس فرانس الذي أعلن في 31 جويلية 1954 عن استعداد فرنسا لمنح البلاد استقلالها الداخلي، تكوّنت حكومة تفاوضية برئاسة الطاهر بن عمار، وبمشاركة الحزب الدستوري الجديد، توصّلت إلى إبرام اتفاقيّات الحكم الذاتي في 3 جوان 1955، إلاّ ان هذه الاتفاقيّات أثارت ردود فعل متباينة: فعلى حين أيّد شق أوّل كان على رأسه الحبيب بورقيبة الاتفاقيات ورأى فيها خطوة إلى الأمام عارض شقّ يتزعّمه صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدستوري الجديد هذه الاتفاقيات واعتبرها مناورة ستسمح لفرنسا بتسخير كل جهودها لقمع كفاح الشعب الجزائري ودعا إلى مواصلة الكفاح المسلح. فعقد الحزب الدستوري الجديد مؤتمرا لحسم الخلاف انقعد في صفاقس (15 نوفمبر 1955) وأيّد الاتفاقيات وأكّد التزامه بمبدإ الاستقلال التام والعمل على تحقيقه تدريجيّا. وقد شرع في التفاوض الذي انتهى بإبرام اتفاقية 20 مارس 1956 التي تعترف باستقلال تونس وتلغي معاهدة الحماية، واضعة حدّا لنظام الحماية الذي تواصل 75 سنة، قدّم طيلة انتصابه الشعب التونسي الكثير من التضحيات. ولم يكن الاستقلال هدفا في حدّ ذاته بل مرحلة لمواصلة اكتمال السيادة وبناء الدولة الحديثة: فقد أعلن النظام الجمهوري (25 جويلية 1957) وسنّ دستور للبلاد (غرّة جوان 1959) وتتونس الأمن والإذاعة وبعث نواة لجيش وطني وتوصلت الدولة إلى وضع حدّ للوجود العسكري الفرنسي في بعض مناطق البلاد كان آخرها قاعدة بنزرت (15 أكتوبر 1963)، وأصدر قانون يقضي بتأميم أراضي المعمّرين (15 أكتوبر 1964) وبادرت السلطة بتوحيد القضاء وتحديثه فأصدرت «مجلة الأحوال الشخصية» (13 أوت 1956) كما بادرت الدولة بإصلاح التعليم ونشره. وبذلك تمكنت البلاد من استكمال مقومات السيادة في الداخل والخارج بين سنتي 1956 و1964 من تحديث المجتمع وذلك بالتوفيق بين مبادئ الإسلام ومقتضيات العصر.



الجنرال حسين
[1828–1887م]

لا يُعرف له نسب إلاّ اسمه. كلّ ما نعلم أنّه مملوك شركسي بيع صغيرا في أسواق الرّقيق بإستانبول لمبعوث حسين باي تونس (1824–1835) الذي جلبه إلى البلاط الحُسيني وسنّه دون العشر سنين. اصطفاه حسين باي وأدخله الكتّاب الخاص لمزاَولة القراءة والكتابة ومبادئ علوم الدين ثم التحق بمدرسة باردو التي أسّسها المشير أحمد باي (1837–1855) سنة 1840 حيث تعرّف إلى الشيخ سالم بوحاجب وتتلمذ له. فدرس خفايا اللّغة العربية "حتّى أصبح «يخطب بها ويكتب ويفهم النّصوص الصّعبة في اللّغة والفقه والحديث ويستشهد في أماكن الاستشهاد بما يناسب المقام".

وتعلّم أيضا اللّغة الفرنسية لغة التّدريس والمعارف العسكريّة، ودرس مبادئ الحساب والجغرافيا وسائر الفنون المطلوبة للتّكوين العسكري. وظهرت مبكّرا نجابته وبرز على أصحابه وخاصّة في تحصيل اللّغات والاغتراف من مناهل الأدب. وكان لقاؤه بالشيخ قابادو في تلك المدرسة قد دفعه إلى تعريب الكتب التي كانت تدرس بالفرنسية وساعده على ذلك القائم مقام لويجي كاليڤاريس (Luigi Calligaris) الإيطالي ومدير مدرسة باردو العسكرية فتكفّل الملازم حسين بتعريب كتاب في أصول الحرب، بمساعدة زميلين من زملائه، قدّم له قابادو وصحّح تراكيبه وانتقى عباراته.

والتحق بعد ذلك بالجيش وعلا كعبه في الرّتب العسكرية فصار أميرآلاي في عهد أحمد باي (1837–1855) ثمّ تدرّج إلى رتبة أمير لواء في عهد محمد باي (1855–1859) وتوطّدت صلته بصنوه المملوك الشركسي خير الدّين الذي رُقّي أمير لواء الخيّالة (جنرال) سنة 1852. وصحبه في مهمّة المتابعة لقضيّة ابن عيّاد في فرنسا ومكث بالخارج زهاء خمس سنوات. فخبر الحياة الأوروبية وتعمّقت معرفته المباشرة بالمَدَنيّة الغربيّة وتفتّقت مواهبه الإصلاحيّة.

يُعدّ الجنرال حسين رجل الإصلاح التحديثي الثّاني بعد خير الدّين إذ تولّى مناصب حكوميّة مهمّة. تميّز بثقافته الواسعة حيث كان القناصل الأجانب يسمونه «الفيلسوف»، كما تميز بذكائه ودبلوماسيته واتّساع معارفه في المهامّ التي أوكلت إليه. عُيّن أول رئيس مجلس بلدي في تونس سنة 1858. وعندما منح الصّادق باي (1859–1882) امتيازا للإنجليزي "ريشارد هولت" في إنشاء المطبعة الرسمية وجريدة "الرائد التونسي"، نصّ الاتفاق المؤرّخ في 6 جانفي 1860 على أن يشرف رئيس المجلس البلدي على تأسيس المطبعة الرسمية وإصدار أوّل جريدة عربية في تونس. ولم تكن هذه المهمّة سهلة إذ كان على الجنرال أن يراعي في إصدار هذه الجريدة الحساسيات السّياسية الدّاخلية والخارجيّة وألاّ يدخل تونس بهذه الجريدة في متاهات المطامع الأجنبية وألاّ يجعل منها مرآة للصّراعات السّياسيّة. وكان ريشارد هولت قد بدأ بالفعل في إصدار جريدة بالإيطالية أثارت بعض الحساسيات فعمل الجنرال حسين على انتزاع الامتياز منه حتى تصبح الجريدة تونسيّة تخضع للإشراف الكلّي للدّولة التّونسية. وبعد أن أصدر ريشارد هولت الأعداد الثّلاثة الأولى للرّائد اختفى اسمه نهائيا من صفحات الجريدة.

وانتدب الجنرال حسين مستشرقا لتحرير الرائد اسمه منصور كرلتي (Pascal Vincent Mansour Carletti) (1822–1892) كان قد أصدر في فرنسا جريدة باللغة العربية عنوانها

"عطارد". وكان عقد انتداب كرلتي ينصّ صراحة على رجوعه إلي رئيس المجلس البلدي في كلّ ما يتعلّق بالطبع وتسيير العمّال. ولم يكن إشراف الجنرال حسين على شؤون المطبعة والجريدة صوريا رغم كثرة شواغله فكان يراقب عن كثب أعمال كرلتي. وقد حدثت بينهما مشادّة صحفيّة نشرتها جريدة "الرائد" في نوفمبر 1863 واتّهم فيها الجنرال حسين كرلتي بالتّقصير في عمله.

وواجه الجنرال حسين بالخصوص المشكلات المالية في تسيير المطبعة والجريدة وضحّى بأمواله الخاصّة في سبيل تسديد الدّيون المتخلّدة والمتعلّقة بجلب حروف الطّباعة العربية ولإنشاء محلّ خاصّ بهذه المطبعة، كما بذل جهدا كبيرا لتوفير وسائل التّمويل اللاّزمة للجريدة ففرض على أعوان الدّولة الاشتراك في "الرائد" إلاّ أنّ أغلب المشتركين لم يكونوا دائما أوفياء لتعهّداتهم.

واهتمّ أيضا بمحتوى الجريدة فسعى إلى تجنيد نخبة من المثقّفين التّونسيين للإسهام إلى جانب كرلتي في إنجاز الجريدة. وكان أستاذه في المدرسة الحربية بباردو الشيخ محمود قابادو كاتب أوّل افتتاحية بـ "الرّائد" في العدد الأوّل الصّادر يوم 22 جويلية 1860 خصّصها لإبراز أهمّية الطّباعة والصّحف في رقيّ الأمم. وأسهم الجنرال حسين أيضا في التّحرير. فكتب أوّل تحقيق (reportage) في الصّحافة التّونسية، تعلّق بمرافقته سنة 1860 محمّد الصادق باي إلى الجزائر لملاقاة نابليون الثّالث. وأعدّ وصفا دقيقا لمختلف أطوار تلك الرّحلة أرسله إلى صديقه خير الدّين ونشرته جريدة "الرائد" في صفحتين ونصف بتاريخ 4 أكتوبر 1860 (العدد الثامن – السنة الأولى).

واعترضت الجنرال حسين مشكلة دقيقة تتعلّق بموقف الجريدة من انتفاضة علي بن غذاهم سنة 1864. فكان نشر أخبار تلك الانتفاضة دليلا على موضوعيته في تحرير الرّائد ولكنّه أثار حساسيات سياسيّة داخلية وخارجية كبيرة. وإثر فشل انتفاضة 1864، أُبعد الجنرال حسين. فاغتنم الفرصة لزيارة عدّة أقطار أجنبيّة وإسلاميّة : ألمانيا والسويد والدانمارك وبلجيكا وهولاندا وفرنسا وإيطاليا وانقلترا والآستانة والجزائر والمغرب الأقصى وممالك إسبانيا وروسيا والنّمسا وأمريكا ومصر والحجاز.

ولم يتولّ حسين منصبا حكوميا إلاّ بعد سقوط خزنه دار وتولّي خير الدين الوزارة الكبرى سنة 1873، فأوكلت إليه مهمّات التّعليم والأشغال العامّة وصار يلقّب بوزير "المعارف". وبمقتضى خطّته الجديدة أشرف سياسيا على الإصلاحات التعليمية مثل إصلاح التعليم الزّيتوني وتأسيس المدرسة الصّادقية.

وبعد سقوط وزارة خير الدين (1878)، اضطرّ الجنرال حسين إلى الاغتراب والاستقرار في إيطاليا. ورافقه في هجرته شيخه وصديقه سالم بوحاجب فاتّخذه كاتبا ورفيقا كما ارتبط بأبناء الشّيخ، لا سيما منهم عمر بوحاجب، بعلاقات صداقة متينة فأوصاه برعاية ابنته عندما داهمه المرض في جويلية 1887 بمدينة فلورانس حيث توفّي. وقد قضّى حسين سنواته الأخيرة في ضيق مادي. فقد غدر به وكيل أملاكه في تونس بتأثير من الوزير الأكبر مصطفى بن إسماعيل ثم حكومة الحماية. فاضطرّ إلى التّداين من أحد المرابين الإيطاليين معترفا له بدين قيمته خمسة وأربعون ألف فرنك اقتطعت من تركته بعد وفاته في سنة 1887، حسب الوثائق التّونسية. وقد تدخّل صديقه خير الدّين لدى السّلط العثمانية لنقل جثمانه إلى إستانبول حيث دفن.

آثاره

– تحقيق صحفي عن زيارة الصّادق باي للجزائر لملاقاة الإمبراطور نابليون الثالث، صدر بـ"الرائد"، العدد الثّامن، السّنة الأولى.

– ردّ على سؤال وجّهه ابن أبي الضياف حول تمثيل اليهود بالمجلس الأكبر. نشر النّص العربي للسؤال والجواب في "المجلة التونسية" (Revue tunisienne) 1940، ص .59–69.

– رسالة في عتق العبيد حرّرها سنة 1862 جوابا علي سؤال وجّهه القنصل الأمريكي بتونس ونشرته "الجوائب" سنة 1877 وأعيد نشره في "كنز الرغائب" الجزء السادس.

– تعليق سياسي على الأوضاع العامّة بتونس وهو تفسير رسمي لانتفاضة 1864، صدر بالرائد التونسي عدد24/5 بتاريخ 24 رجب 1280/24 ديسمبر 1864 ونقلته عنها "الجوائب".

– تقرير عن التّعليم بجامع الزّيتونة سنة 1871 نشر في جريدة "الرائد".

– حسم الإلداد في نازلة بن عياد، وهو تعريب للكتاب الفرنسي بتصرّف. طبع في الإسكندرية، 1875، كما حقّقه فتحي القاسمي والشيباني بنبلغيث وصدر بتونس سنة 2002.

– القسطاس المستقيم في اختلال الحكم بنفي جنسية القائد نسيم. طبع في المطبعة الرسمية، تونس، 1878.

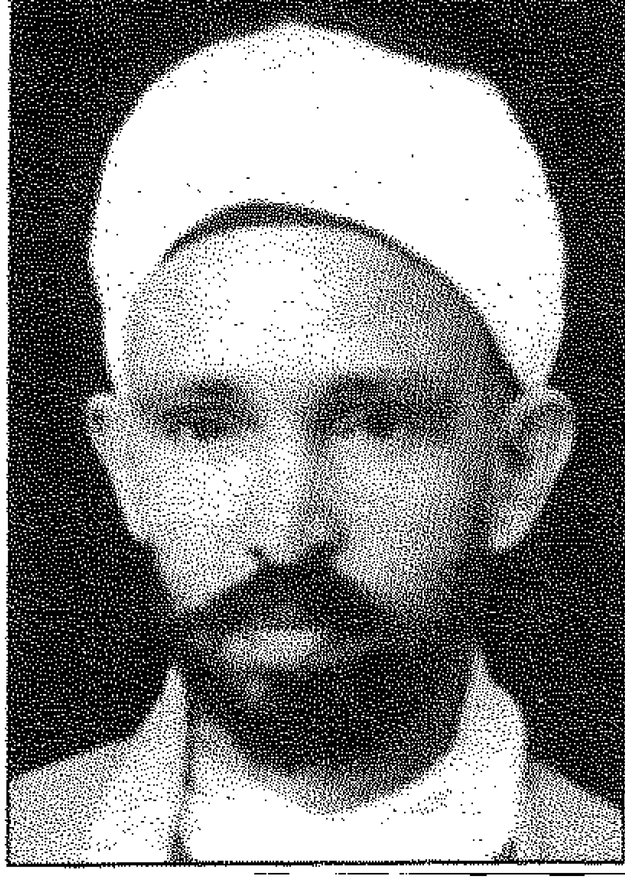
وقد نسب إليه المؤرّخ الفرنسي جان غانياج في كتابه: أصول الحماية الفرنسية بتونس ص 183 رسالة أخرى في نازلة نسيم شمامة لم نعثر عليها.

رسالتان في الدين:

الأولى بالفرنسية حرّرها مستعينا في ترجمتها إلى الفرنسية بكرلتي في سبتمبر 1859 موجّهة إلى قسّ ملحق بجنود البحرية.

الثانية حرّرها في لندن سنة 1865 في مناقشة رجل دين ينوي السّفر إلى البلاد الإسلامية للتبشير بالدين المسيحي.

– رسائل الجنرال حسين بوصفه رئيس المجلس البلدي بتونس، خزينة الدولة التونسية صندوق 55.



محمد الخضر حسين

[1293 ـ 1377هـ/1876 ـ 1958م]

ينحدر الشّيخ محمد الخضر حسين شقيق محمد المكي بن حسين من أسرة عريقة في العلم والدين والشّرف، إذ ينتمي إلى التّصوف والدين والعلم، ومن أجل هذا كان لشيوخها، في عصرهم، مكانة مرموقة بين معاصريهم.

ويعود أصل أسرته إلى جنوب الجزائر، وإلى بلدة «طولقة» بالذّات. وهي تبعد زهاء الأربعين كلم عن مدينة بسكرة الواقعة في جنوب القطر الجزائري. وهي تابعة اليوم لولاية قسنطينة.

ويبدو أنّ أسرته هاجرت من جنوب الجزائر إلى بلاد الجريد في منتصف القرن التاسع عشر واستقرّت ببلدة نفطة، إثر الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، وكان بين أفرادها الشيخ الحسين والده.

ولد محمد الأخضر بن الحسين في بلدة نفطة بمنطقة الواحات في الجنوب الغربي التّونسي، يوم 26 رجب 1293هـ/26 جويلية 1876م.

وفي عام 1306هـ/1888م انتقل محمّد الأخضر الذي نعت فيما بعد بالخضر، وهو في الثّالثة عشرة من عمره، مع والده وأسرته إلى العاصمة حيث أتمّ دراسته الابتدائيّة وحفظ القرآن الكريم، ثم التحق بجامع الزّيتونة في العام الموالي 1307هـ/1889م فواصل دراسته إلى شهادة التطويع. وكانت معظم العلوم المقرّرة يومئذ علوما دينية ولغوية. تتلمذ على عدد من الشّيوخ البارزين الذين كان لهم في نفسه أثر محمود ظلّ يذكرهم بالثّناء والتّقدير إلى آخر حياته. ولعلّ أهمّ هؤلاء الشيوخ سالم بوحاجب وعمر بن

الشيخ ومحمد النّجار وقد درس التفسير على الأخيرين، ودرس صحيح البخاري على الشيخ سالم بوحاجب.

ويظهر أنّ الشّابّ محمّد الخضر كان محبّا للأسفار. فقد حاول السفر إلى الشرق عن طريق ليبيا، ولكنّه لم يتجاوز مدينة طرابلس ثمّ عاد ليتطوّع في العام الموالي لتخرّجه، للتّدريس في الجامع الأعظم. ولكن لم يكن يتسنّى لأيّ متخرج زيتوني من أبناء (الآفاق) أن يشقّ طريقه بسهولة ولا أن يفوز بأيّ منصب يتقدّم إليه أبناء الأسر «التقليدية».

غير أن الشيخ الذي لم ينل لدى هؤلاء من الاعتبار والمكانة ما هو جدير بهما، نال شهرة واسعة وتقديرا عاليا لدى طلاّب الزّيتونة، وفي الأوساط العلميّة والأدبيّة خارج الجامع، وهو حَمَلَهُ على الدّخول في الحياة العامّة على نحو بارز وبأسلوب جديد.

فقد أسّس أوّل مجلّة صدرت بتونس عام 1904 هي مجلة «السّعادة العظمى» التي أصدرها نصف شهرية، وتتابعت أعدادها إلى رقم 21 أي قرابة العام.

ويبدو أنّه تخلّى عنها ليتولّى منصب قاض شرعي ببنزرت عام 1905م كما تولّى الخطابة والتّدريس بجامعها الكبير.

«على أنّ هذه الوظائف لم تكن لتقيّده عن القيام بواجباته الاجتماعيّة والإصلاحية والمجاهرة بالدّعوة إلى الإصلاح الدّيني والوطني. لذا نراه يلقي أوّل محاضرة علنيّة بتونس عن الحرية، وهي المحاضرة التي ألقاها في نادي قدماء الصادقية عام 1906 بعنوان «الحرّية في الإسلام» والتي طبعت في كتاب مستقلّ. وهي من الأعمال الأولى الدّالة على شجاعته ووطنيته وحبّه لبلاده.

وعاد بعد ذلك للعاصمة ليلقي دروسه العلمية تطوّعا في جامع الزّيتونة. وهنا بدأت إدارة الجامع تهتمّ به فكلّفته - ضمن لجنة - بوضع فهارس لمكتبات جامع الزيتونة. ثم شارك في مناظرة للتدريس من الطبقة الثانية ففاز بها في عام 1325هـ/1907م ثم عين أستاذا في العام الموالي بالمدرسة الصّادقية. وبين تولّيه لهذين المنصبين عرضت عليه سلطات القضاء الاستعماري أن يكون عضوا في المحكمة المختلطة التي يكون فيها أحد الطرفين المتقاضيين أجنبيا، فرفض الشّيخ أن يكون قاضيا أو مستشارا في محاكم يهيمن عليها المستعمر.

وفي سنة 1907 انتدبته الجمعية الخلدونيّة ليلقي دروسا في الآداب والإنشاء على طلاّبها. وكان إلى جانب هذه المهام التدريسية الثّلاث في الزّيتونة والصّادقية والخلدونية يواصل إلقاء المحاضرات ونظم القصائد، وكتابة المقالات في مختلف شؤون الحياة التّونسية. فمن محاضراته على منبر الخلدونية وقدماء الصّادقية محاضرة عنوانها «حياة اللغة العربية» وأخرى بعنوان «حياة ابن خلدون» وثالثة عن «الدعوة إلى الإصلاح»...

وطيلة هذه الفترة كان يحثّ الطّلاب على المطالبة بإصلاح التعليم الزيتوني وعلى تنظيم صفوفهم في جمعية طالبية. وبالفعل حاول الطلبة الزّيتونيّون تأسيس أوّل منظمة لهم في تونس عام 1907، وشرعوا يطالبون بالإصلاح بإيعاز منه وتوجيهه الخفيّ لهم، حتى تطوّر الأمر إلى إعلان أوّل إضراب عن التّعليم قام به طلاب الزّيتونة يوم 16 أفريل 1910 وكان عددهم يومئذ زهاء السّبعمائة طالب.

وقد فطن الاستعمار إلى أنّ المحرّك الحقيقي للطّلاب إنّما هو داعية الإصلاح الشيخ محمد الخضر حسين، فأصبحت سلطة الاحتلال تنظر إليه بريبة وترى فيه، رغم ما يظهر عليه من هدوء واعتدال، خطرا جسيما يهيّء للاستعمار أجيالا من الثّائرين والمشاغبين.

ورغم أنّ الشّيخ الخضر لم يكن منخرطا في أيّ تشكيل حزبي، فإنّه بنزعته الإسلامية وما يجيش في نفسه من حبّ للحرّية وتعلّق بها حثّ

مواطنيه في قصيدة مطوّلة على مساندة الجهاد الليبي بل دعاهم إلى القيام بعمل مُمَاثل في بلادهم، غير أنّ الشّيخ الخضر لم يعد يطيق الحياة في تونس، بعد أن أعلنت الأحكام العرفية فيها، وعطّلت الصّحافة الوطنية دفعة واحدة، وبعد أن نفي أو سجن معظم القادة والمفكرين الوطنيين. بعد كلّ هذا وجد الشّيخ الخضر نفسه يعيش في جوّ مكبوت ومكفهر ومشحون بالمؤامرات الاستعمارية فحاول التنفّس خارج حدود الوطن، وقام بعدة سفرات متوالية إلى الخارج، كانت أولاها إلى الجزائر عام 1327هـ/1909م حيث لقي من أهلها وعلمائها ترحيبا. فطاف في عدد من المدن الجزائرية وألقى فيها الكثير من المحاضرات والدّروس الدينيّة. ثمّ عاد إلى تونس، فكانت هذه الرّحلة بداية جديدة لحياة جديدة شرع الشّيخ الخضر في بنائها لنفسه ولأفكاره وميوله الإصلاحيّة.

ولم يلبث، إلا قليلا بعد عودته حتى شرع يعدّ نفسه للقيام برحلة طويلة، عبر البلاد العربيّة والإسلاميّة التي تعيش تحت ظلّ الخلافة العثمانيّة.

وحدث الحادث الحاسم في عام 1330هـ/1912م حين شارك الشّيخ الخضر في مناظرة للتّدريس من الطبقة الأولى بجامع الزيتونة، وكان هو في الطبقة الثّانية، فحرم من نجاح كان يَسْتَحقّه «بما أبدى من الكفاءة والتفوّق». لكنّ لجَنة المناظرة، وهي مكوّنة من شيوخ تقليديين قدّمت عليه أحد أبنائها رغم تفوق الشيخ الخضر عليه علما وأدبا ومقدرة في إلقاء درس المناظرة بالذّات، فحزّ في نفسه أن تكون سياسة الظلم والمحاباة مسيطرة على الحياة العلمية بتونس، وعلى علماء الزّيتونة الكبار بالذّات.

ويظهر أنّ الشيخ الخضر بدأ منذ هذه الحادثة يفكّر جديّا في الهجرة نهائيا إلى الشّرق، ولكنّه فضّل القيام برحلة استطلاعيّة لمعرفة الأحوال هناك، فسافر في العام نفسه إلى الآستانة مارًا بمصر والشام، وقد دوّن لنا الشيخ الخضر وصفا أدبيا واجتماعيا لهذه الرحلة نشره تباعا في جريدة «الزهرة». وعقب عودته في 2 أكتوبر 1912 منع من التّدريس بالمدرسة الصادقية لأسباب واهية للغاية، فأدرك الشّيخ أنّ الاستعمار والرجعية قد تحالفا ضدّه وأنّ الأمور قد تَطَوَّرت إلى ما هو أسوأ، فقرّر الهجرة نهائيا إلى الشّرق. وارتحل في السّنة نفسها، وكان معه إخوته الأربعة، ومنهم أخواه العالمان الشّيخ المكي بن الحسين، وأخوه زين العابدين الذي توفّي في دمشق سنة 1957.

وبسفره إلى الشّرق بدأت المرحلة الثانية، من حياته، مرحلة التنقّل والاكتشاف. وزار الشّيخ الخضر الجزائر ومصر والشام والحجاز والآستانة وألبانيا ومعظم بلاد البلقان التي كانت خاضعة للحكم العثماني، ثم استقرّ بدمشق مع عائلته. وكانت سوريا يومئذ تحت الحكم العثماني. وقد عيّن الشّيخ الخضر، عقب استقراره بدمشق، أستاذا في المدرسة السلطانية وبها مكث إلى عام 1336هـ/1917م. وكان في أثناء إقامته بدمشق مثابرا على النّشاط العلمي والإصلاحي نفسه الذي كان يقوم به في تونس، فكان يكتب المقالات ويلقي المحاضرات والدّروس الدّينية والأدبيّة واللّغوية، ويدعو إلى التّضامن العربي التّركي في ظلّ الخلافة الإسلاميّة.

ورغم ما كان عليه الشّيخ الخضر من اعتدال في كلّ شيء فإن جمال باشا الحاكم التّركي لبلاد الشام الذي كان يحمل أفكارا عنصرية معادية لكل جنس غير الجنس الطوراني، قد زجّ به في السّجن، إثر حركة القمع الواسعة التي قام بها في سوريا ولبنان، والتي أعدم فيها عدّة وطنيّين ومفكّرين في كلا البلدين، وكانت التهمة الموجّهة إلى الشّيخ الخضر هي أنّه كان على علم بالحركة السّرية المعادية للأتراك والتي كان الأحرار من زعماء سوريا ينظّمونها ضدّ الاحتلال والحكم التّركي لبلادهم. ومكث الشّيخ الخضر في السّجن مدة ستة أشهر وأربعة عشر يوما

«وكان في زنزانة واحدة هو والأستاذ سعدي بك الملاّ، الذي تولّى رئاسة الحكومة اللّبنانية بين الحربين العالميتين»، ثمّ قدم للمحاكمة فثبتت براءته وأطلق سراحه.

وخرج الشّيخ الخضر من السّجن (1917) فعاد إلى عمله السّابق، ويظهر أنّ الآستانة قد علمت بحادثته هذه، فعطفت عليه واستدعته إليها، وألحقته منشئا عربيّا بوزارة الحربيّة. وقد يكون هذا التّعيين جرى نتيجة سعي منه للخروج من جحيم دمشق وحكم جمال باشا المكنّى بالسّفاح، كما يحتمل جدّا، أن يكون الزعيم علي باش حانبه ورفاقه بالآستانة هم الذين سعوا في هذا التّعيين ليكون الشّيخ الخضر قوّة تعاضدهم في العمل من أجل تحرير المغرب العربي. وكان علي باش حانبه وأخوه محمد، والشّيخان صالح الشريف وإسماعيل الصّفائحي وغيرهم يعملون بالآستانة وفي أوروبا على إعداد حملات تحريرية مسلّحة ضدّ الاحتلال الإيطالي والفرنسي في المغرب العربي. وكانوا يتحرّكون على نحو مكثّف بين العواصم، ولهم اتّصالاتهم السرّية المنظّمة وأنصارهم في تونس وليبيا والجزائر. وقد نجحوا فعلا في تنظيم حركات ثورية مسلّحة بالجزائر وتونس وليبيا.

وما كاد الشّيخ الخضر بن الحسين يستقرّ بالآستانة في منصبه الجديد بوزارة الحربيّة، حتى كلّف بمهمّة في ألمانيا التي كانت في حالة حرب مع فرنسا، وكان أبناء الشّمال الإفريقي، خاصّة الجزائر وتونس، المجنّدون في الجيش الفرنسي وفي واجهات القتال بالخصوص يزيدون على المائتي ألف.

وكان هدفه بثّ الدّعاية في صفوف المغاربة داخل الجيش الفرنسي، وبين أسراهم في ألمانيا، لحملهم على القتال ضدّ فرنسا وليس معها، لأنّ مصلحة بلادهم في هذا الموقف، كما كانت هذه الحملة ترمي إلى إقناع الجنود المغاربة والأسرى منهم خاصّة بالتطوّع في الحركات الجهادية التي كان يقودها علي باش حانبه ورفاقه، والتي كانت الدّولة العثمانية تساندها معنويّا وماديّا. وقد حلّ الشيخ الخضر بألمانيا في بعثة من العلماء المسلمين منهم الشيخ صالح الشريف التونسي، ومكث في ألمانيا زهاء تسعة أشهر تعلّم في أثنائها اللّغة الألمانية، وقام بمهمّته أحسن قيام، ثم تردّد بين الآستانة وبرلين إلى أواخر الحرب العالمية الأولى حيث أقام مرّة أخرى زهاء السّبعة أشهر.

وما إن عَادَ إلى الآستانة حتّى استسلمت الحكومة العثمانية إلى الغزاة المحتلّين الذين اقتسموا عاصمتها كما اقتسموا أمبراطوريتها فلم يجد بدّا من النّزوح عنها والعودة إلى دمشق بعد أن تحرّرت سوريا من الحكم العثماني وأصبحت فيها حكومة عربية بقيادة الأمير فيصل بن الحسين.

وقد أحسَّ الشيخ الخضر وهو في طريقه إلى دمشق بمرارة الفراق للوطن، وبمحن الاغتراب عنه وكثرة تنقّلاته وقلّة استقراره.

لكنّه ما كاد يستقرّ في دمشق عقب الحرب العالمية الأولى، حتى عيّن مدرّسا بثلاثة معاهد دفعة واحدة، وهي المدرسة العثمانية، والمدرسة العسكريّة، والمدرسة السلطانيّة التي كان بها قبيل سفره الأخير إلى الآستانة.

وفي منتصف 1919 تأسّس بدمشق المجمع العلمي العربي، وانعقدت جلسته الأولى يوم 30 جويلية من العام نفسه، وفي هذه الجلسة عُيّن محمّد الخضر عضوا عاملا في إحدى لجان المجمع، وقد مارس هذه العضوية طيلة إقامته بدمشق، ثم أصبح عضوا مراسلا للمجمع، بعد اضطراره إلى النّزوح عن دمشق، وقد احتفظ بعضويته هذه إلى آخر أيام حياته.

ورغم حبّه الخاصّ لدمشق، وتعلّقه الشّديد بها، وحنينه الدّائم إليها، فإنّ الاستعمار الفرنسي الذي كان قد حارب آماله الوطنية والإصلاحية بتونس، والذي أصدر على محمّد الخضر حسين حكم الإعدام غيابيا في أثناء قيامه في ألمانيا بتحريض المغاربة والتّونسيين منهم خاصة على

الثّورة ضدّ المستعمر الذي أصبح حاكما لسوريا كلّها عقب انتصاره على الجيش العربي في موقعة ميسلون قرب دمشق يوم 24 جويلية 1920.

وهكذا لم يكن أمام الشيخ الخضر إلاّ أن يترك دمشق، وأن يفرّ من الطّغاة المستعمرين حتّى لا ينفذوا فيه حكم الإعدام ويشفوا غليلهم منه.

فارق دمشق وفارق أهله فيها وانطلق إلى مصر، أمله الأخير وهدفه القديم. وبذلك بدأت المرحلة الثّالثة والأخيرة من حياته.

وفي مصر بدأ حياته من جديد معتمدا على أصدقائه من الوطنيين المصريين الذين تعرّف إليهم في دمشق والآستانة وفي أوروبا، وعلى مواهبه وكفاياته الأدبية والعلمية والدينية العالية.

وليس غريبا أن يظلّ في مصر مغمورا بعض الوقت، ريثما يتعرّف إلى أحوالها ورجالاتها، ويدرك أهلُ الشّأن فيها مكانته وقيمته.

وكان العلاّمة البحاثة أحمد تيمور، أوّل من قدّر في شيخنا علمه وأدبه، فأمدّه بكلّ رعاية ومساعدة. وقد ظلت العلاقة وثيقة بينهما إلى آخر أيام تيمور الكبير عام 1930، وبقيت بعد ذلك بين شيخنا وبين عائلة تيمور، ويكفي دليلا على ذلك أنّ محمّد الخضر لمّا توفّي في القاهرة مطلع عام 1958 دُفن في تربة آل تيمور بوصيّة منه وباتفاق سابق مع أسرة تيمور.

في القاهرة بدأ حياته معتمدا على نفسه فاشتغل مصحّحا بدار الكتب المصرية، وهي وظيفة ذات دلالة خاصّة، إذ لا يكلّف بها إلاّ من تثبت مقدرته العلمية وكفاءته الأدبيّة واللّغوية.

وقد توجّه اهتمامه منذ البداية إلى تنظيم شؤون الجالية المغربية في مصر فأسّس عام 1923 «جمعية تعاون جاليات شمال إفريقيا»، وكان يرأس هذه الجمعية بنفسه، وهدفها رفع مستوى تلك الجاليات من النّاحيتين الثقافيّة والاجتماعيّة.

وفي عام 1925 صدر في مصر كتاب أثار فيها وفي العالم العربي ضجّة كبرى هو كتاب الإسلام وأصول الحكم للشّيخ علي عبد الرازق. وكان هدف هذا الكتاب إبعاد منصب الخلافة عن الملك فؤاد ملك مصر يومئذ، فوجد محمّد الخضر حسين فرصته المنتظرة، وتصدّى للردّ عليه بكتاب سماه نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم.

وقد بادرت هيئة كبار العلماء الأزهريين إلى طرد الشيخ علي عبد الرازق من صفوفها، كما حوكم الكتاب وصودر من الأسواق.

وفي عام 1928 تولّى مشيخة الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي فسعى إلى قبول الشّيخ الخضر أستاذا في كلّيات الأزهر، وكان الشّيخ الخضر قد اجتاز امتحان شهادة العالمية بتفوق ومنح الجنسيّة المصريّة، وأصبح بذلك أحد شيوخ الأزهر وعلمائه البارزين. وكان قبل هذا التعيين مدرّسا في معاهد الأزهر الثانوية. وقد تقدّم الشّيخ محمّد الخضر حسين - فيما بعد، وعلى التّحديد عام 1950 - إلى هيئة كبار العلماء طالبا قبوله عضوا بينهم، وكانت العضوية لا تكون إلا بشروط منها شهادة العالمية، وتقديم بحث علمي ممتاز، فقدّم الشيخ الخضر بحثا مطوّلا عن القياس في اللّغة، فقبل بالإجماع. وأصبح من كبار علماء الأزهر، ابتداء من عام 1370 / 1950.

في عام 1928 أسّس جمعية "الهداية الإسلاميّة"، وتولّى رئاستها وإدارة مجلّتها والتحرير فيها، كما تولّى رئاسة تحرير كثير من المجلاّت الدينية التي أصدرها الأزهر، مثل مجلّة «نور الإسلام» ومجلّة «لواء الإسلام».

وكان أيضا من مؤسّسي جمعية "الشّبّان المسلمين"، وهي جمعية تهتمّ بإصلاح أخلاق الشّبّان وتهذيبهم وتكوينهم دينيا وبدنيا وثقافيا.

وفي ديسمبر عام 1932 تأسّس في القاهرة مجمع اللّغة العربيّة بمرسوم من الملك فؤاد. ثم صدر مرسوم ثان في أكتوبر من العام الموالي يقضي بتعيين أعضاء المجمع المصريين وغير المصريّين، فكان الشّيخ محمد الخضر حسين

أحد هؤلاء الأعضاء.

وقد كان يوم صدور هذا المرسوم أستاذا في قسم التخصّص بكلية أصول الدين في الجامعة الأزهرية.

وظلّ دائما يدافع عن المغرب العربي، ويشيد برجال العلم والكفاح من أبنائه، بل ويفاخر الشّرق بهم أحيانا، كما كان يحمّل الشّرق مسؤولية عدم مناصرته العلمية للحركات التحريرية في أقطار المغرب العربي وهو ما أدّى ببعضها إلى الفشل.

وقد بلغ في سبتمبر عام 1952 قمّة مجده الديني والعلمي حين أصبح شيخا للأزهر، فكان أوّل عالم غير مصري يتولّى هذا المنصب منذ قرون عدّة. وكان اختياره لهذا المنصب من قبل اللّواء محمد نجيب ومجلس وزرائه، وقد زاره في بيته ثلاثة وزراء وأعلموه بهذا القرار.

وكان الشّيخ الخضر حسين حين تولّى هذا المنصب قد شارف الثمانين من عمره، ورغم تقدّمه في السّن فقد تحمّل أعباء هذه المسؤولية.

ولكن، لما أبعد اللّواء محمّد نجيب عن الحكم، ونفي إلى مكان مجهول يوم 20 أوت 1953، شعر الشيخ الخضر بأن عليه أن يتنحّى باختياره قبل أن يحدث شيء آخر. فاستقال من منصبه في جانفي 1954 بحجة مرضه وحاجته إلى العلاج والاستجمام. وزار فعلا شقيقه الشيخ زين العابدين المقيم في دمشق ثم عاد إلى مصر حيث أقام إلى أن توفّي في رجب / فيفري 1377 / 1958، ودفن في تربة آل تيمور.

من مؤلفاته المطبوعة

- أسرار التنزيل.
- بلاغة القرآن.
- محمد رسول اللّه وخاتم النبيين.
- رسائل الإصلاح.
- محاضرات إسلامية.
- القاديانية والبهائية.
- دراسات في الشريعة الاسلامية.
- مجلة السعادة العظمى.
- الرحلات.
- تراجم الرجال.
- تونس وجامع الزيتونة.
- دراسات في العربية وتاريخها.
- دراسات في اللغة.
- نقض كتاب "في الشعر الجاهلي".
- نظرات في "الإسلام وأصول الحكم".
- الخيال في الشعر العربي.
- نقض كتاب "الإسلام وأصول الحكم".
- أحاديث في رحاب الأزهر.
- خواطر الحياة، ديوان شعر.
- تعليقات لغوية على كتاب "شرح القصائد العشر" للخطيب التبريزي.
- تعليقات على كتاب "الموافقات" لأبي اسحاق الشاطبي.
- ردّ على «مستقبل الثقافة في مصر» لطه حسين.



فرحات حشاد

[1914 - 1952م]

ولد النقابي فرحات بن محمّد حشاد يوم 2 فيفري سنة 1914 بقرية العبّاسيّة بجزيرة قرقنة. ينحدر من أسرة متواضعة الحال امتهنت الصّيد البحري إذ كان والده يكدح ليوفّر القوت لعائلة كثيرة العدد. فنشأ على الكفاف والصّبر والجلد. ولمّا بلغ سنّ التّعليم التحق بالمدرسة العربيّة الفرنسيّة الابتدائيّة بقرية "الكلاّبين" الواقعة على

مسافة كيلومترين من مسقط رأسه "العبّاسيّة". وكان طيلة فترة دراسته محلّ إعجاب معلّميه لما أظهر من فطنة وجدّية في دراسته. وتعرّض إلى مرض تمكّن بفضل رعاية عائلته ومربّيه من الشفاء منه والترشّح إلى اجتياز امتحان الشهادة الابتدائية التي نالها بتفوّق سنة 1928.

وبالرغم من شدّة رغبته في مواصلة الدراسة بإحدى المدارس الثانويّة فإنّه لم يجد بدًّا من الوقوف عند رغبة والديْه الملحّة في أن يطلبا له عملا ما يرتزق منه. فعمل في بعض دور التّجارة بمدينة صفاقس. ثمّ اتّجه إلى مدينة سوسة حيث استقرّ أخواله منذ العشرينات في حيّ جمع أصيلي قرقنة يعرف بحيّ "وادي الخرّوب" ولم يبلغ بعد السّنة السّادسة عشرة من عمره فاستقرّ بمنزل خاله حسن بن رمضان وطفق يبحث عن العمل حتّى تمّ له ذلك في الشّركة التّونسيّة للنّقل بالسيّارات في السّاحل (S.T.T.A.S) التي استأجرته قابضا على سيّارات في جهة صفاقس ثمّ عيّنته كاتبا محاسبا في قسم حساباتها. وقد كسب فرحات حشاد ثقة إدارته لما أظهره من تفان ورغبة في تحسين مردوده المهني إذ تعلّم الرقن على الآلة الكاتبة وارتقى إلى رتبة كاتب إداري وهي الوظيفة التي فتحت له باب الاطّلاع على دواليب الشّركة من جهة ومكّنته من الظّفر بصداقة زملائه سواء من الإداريين أو السوّاق أو من العملة على وجه الخصوص.

فهذه الصّداقة أهّلت فرحات حشاد إلى أن ينغمس كليًّا في الحياة النّقابيّة حين انخرط في النّقابة الأساسيّة للشّركة التّابعة للكنفدراليّة العامّة للشّغل بداية من جويلية 1936. ويمكن تحقيب مسيرة حشّاد النّقابيّة في ثلاثة أطوار كبرى:

- الفترة الأولى: 1936 ـ 1944: الكنفدراليّة العامّة للشّغل ذات التوجّه الاشتراكي الديمقراطي ترعى تكوين حشّاد النقابي.

- الفترة الثّانية: 1944 ـ 1948: استقلالية العمل النّقابي التّونسي بين اتّهامات اليسار (تقسيم الطبقة الشغيلة وتوخّي التعصّب الديني والقومي) ومتطلّبات الحرب الباردة.

- الفترة الثالثة: 1948 ـ 1952: التّوافق الإستراتيجي بين الاتّحاد العام التّونسي للشّغل والحركة الوطنيّة يثير ارتباك والسّلطة الاستعمارية وهلعها.

I ـ الكنفدرالية العامة للشغل ذات التوجّه الاشتراكي الديمقراطي ترعى تكوين حشّاد النّقابي (1936 ـ 1944)

لا يمكن رصد خصوصيّة هذه الفترة وتلمّس حيثياتها وفهم خلفياتها وما ترتب عليها من مواقف دون الرّجوع إلى مجموعة من الأحداث المهمّة التي كان لها أثر بالغ في بدايات نضال حشاد النّقابي منها : لقاؤه مع ألبار بوزنكي A.Bouzanquet (1897 ـ 1971) الكاتب العام لاتّحاد النقابات الإقليمي التابع للكنفدرالية العامّة للشغل (1936 ـ 1944) وانعكاسات الصراع الدّاخلي في صلب قيادة اتّحاد النّقابات بين الشّيوعيين والاشتراكيين الذي طفا مرّة أخرى على السّطح إثر إمضاء معاهدة عدم الاعتداء الألمانيّة الرّوسيّة (أوت 1939) من جهة، ومواكبة حشّاد للتّحولات الاجتماعيّة والسّياسيّة والعسكريّة التي هزّت الإيالة التّونسيّة منذ انتصار الجبهة الشّعبيّة بفرنسا في ماي 1936 إلى جلاء قوات المحور في ماي 1943، مرورا بأحداث 9 أفريل 1938 وانهزام فرنسا في جوان 1940 وارتقاء المنصف باي العرش الحسيني في 19 جوان 1942، من جهة أخرى.

تؤكّد مجمل المصادر حقيقة العلاقة الوطيدة التي كانت تربط فرحات حشّاد بألبار بوزنكي دون تبيان تفاصيلها. فلقاء فرحات حشّاد الذي انتدب بالشّركة التّونسيّة للنقل بالسيّارات في السّاحل S.T.T.A.S. وهو لم يتجاوز الثّانية والعشرين من العمر سنة 1936 ببوزنكي الذي شارك في الحرب العالميّة الأولى ثمّ عمل بالإدارة العسكريّة الفرنسيّة سنة 1921 وهو الاشتراكي النّزعة منذ 1926 والنّقابي المعروف بالإيالة

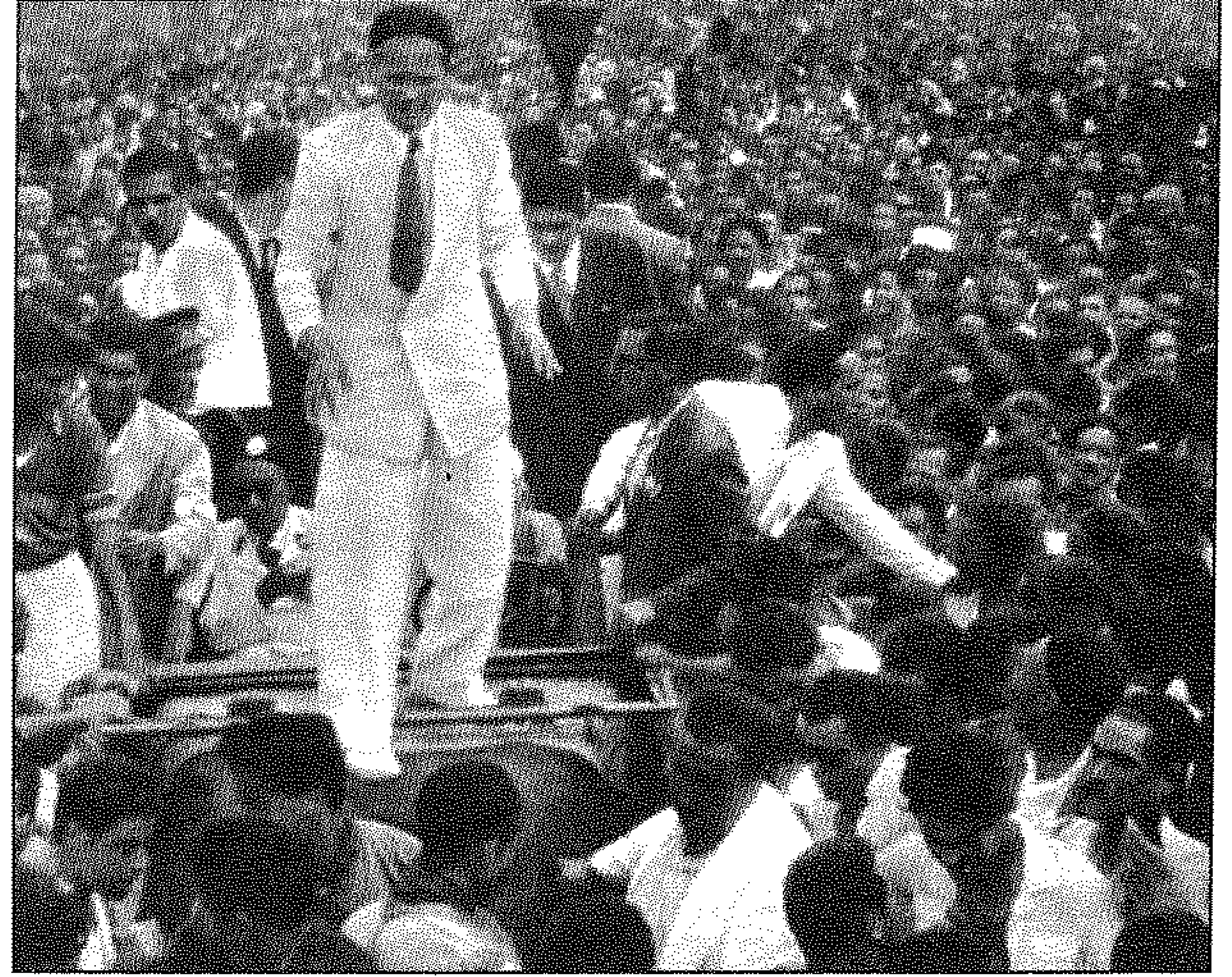
التّونسيّة منذ 1930 اقترن بظرف تاريخي مميّز في العمل النقابي على المستويين الفرنسي وعلى المستوى التّونسي. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ فرحات حشّاد تمكّن في وقت قصير من الاضطلاع بمهامّ كاتب ثمّ كاتب عام لنقابة موظفي الشّركة التّونسيّة للنّقل بالسيّارات بالسّاحل ثمّ كاتب مساعد للاتحاد المحلّي بسوسة التّابع للكنفدرالية العامّة للشّغل (C.G.T.). وتتجلّى بما لا يدعو إلى الشكّ قدرات الشّاب حشاد على الإقناع والتأطير والإشعاع بين عمّال وموظّفي الشّركة المذكورة، وهو ما لاحظه الكاتب العامّ ذو النّزعة الاشتراكيّة ألبار بوزنكي، فقد كان حشاد محلّ ثقة القاعدة النّقابيّة التي انتخبته وتكفّل بالدّفاع عن حقوقها.

وتبيّن المقالات التي أصدرها فرحات حشاد بجريدة Tunis socialiste (النّاطقة باسم الفيدرالية الاشتراكيّة SFIO بتونس) في سنتي 1938 و1939 مدى إخلاصه وتفانيه في الدّفاع عن حقوق الشغّالين وثباته على تثبيت مبدإ الحقّ النّقابي وفضح تجاوزات الأعراف الفرنسيين. ومن المعلوم أنه في الثلاثة أشهر الأولى من سنة 1938 صعّد المستعمر قمعه إذ حلّ الحزب الدّستوري الجديد إثر أحداث 9 أفريل 1938 وأعلن حالة الحصار، وهو ما ساعد العناصر الرّجعية والأشدّ عنصرية في الإدارة الفرنسيّة على استرجاع قوّة نفوذها وشنّ حملة اعتقالات ومحاكمات واسعة ضدّ الوطنيّين التّونسيّين.

على أنّ هذا المناخ السياسي والاجتماعي المتوتر طيلة سنة 1938 قد سبقته أحداث ومؤشرات في سنتيْ 1936 و1937 جعلت مسألة الاستقلاليّة النقابيّة إزاء الأحزاب السياسيّة من جهة (الطرح الاشتراكي الديمقراطي، ميثاق آميان Amiens 1906) وضرورة ارتباط العمل النقابي بالقضيّة الوطنيّة في البلدان المُستعمَرة من جهة أخرى (الطرح الوطني: الحزب الحرّ الدستوري الجديد) محلّ جدل بين الزعيم الحبيب بورقيبة والنقابي ألبار بوزنكي. فقد أبدى بوزنكي بعد أن ناهض حركة محمد علي الحامي النقابيّة سنة 1924، معارضته المتجدّدة لتأسيس جامعة عموم العملة التّونسية سنة 1937متذرّعا بالحفاظ على وحدة صفّ الطبقة الشغيلة ومقتديا بميثاق "أميان" Amiens الدّاعي إلى استقلاليّة العمل النقابي عن الأحزاب السياسيّة. في حين ركّز الزعيم الحبيب بورقيبة كلامه على شرعية تأسيس نقابة تونسيّة مستقلّة باعتبار "أنّ القوميّة التّونسيّة هي في الواقع وحسب القانون تختلف عن القومية الفرنسيّة". وإذا أمعنّا النظر في جَوْهَر ميثاق "أميان" نلاحظ أنّه لم يدع قط إلى استقلاليّة العمل النقابي إزاء القضايا السياسيّة. فالنقابي حرّ في أفكاره السياسيّة بشرط أن لايوظّفها داخل النقابة. وقد لمس فرحات حشاد ذلك في تصرّف صديقه ألبار بوزنكي الذي انخرط في صف مقاومة الاحتلال النازي بفرنسا إثر انهزامها في جوان 1940 وفي الإيالة التّونسيّة عند الاحتلال الألماني ـ الإيطالي (نوفمبر 1942 ـ ماي 1943). ففي الفترة من جويلية 1940 إلى نوفمبر 1944، أقدم ألبار بوزنكي بصفته الكاتب العام لاتحاد النقابات بتونس على إنجاز عدّة مبادرات وأعمال سرّية (تكوين خليّة للتجسّس لفائدة الحلفاء، تحرير تقارير حول الحالة العامة للسكّان الأهالي والأوروبيين بتونس وإرسالها إلى الجنرال دي غول المستقرّ بلندن، القيام بعمليات تخريب وراء الخطوط الأماميّة للجيش الألماني والإيطالي على طول الظهر التّونسي...).

وعلى أيّ حال فإنّ انخراط فرحات حشاد في العمل النقابي سابق لجامعة عموم العملة التّونسيّة (C.G.T.T.) التي لم تعمّر طويلا إذ اعترضتها صعوبات داخليّة (النزاع بين بلقاسم القناوي وأنصاره والديوان السياسي للحزب الحرّ الدستوري التونسيّ) وخارجيّة (معارضة الكنفدرالية العامّة للشّغل إثر مؤتمر إعادة التوحيد: تولوز 1936).

أثّرت كلّ هذه العوامل في اتساع رقعة العمل النقابي إثر تكوين حكومة الجبهة الشعبيّة. فقد أقبل التّونسيّون سواء كانوا عملة أو موظفين على



الانخراط في مختلف النقابات: الكنفدريالية العامة للشغل، الجامعة العامة للموظفين التّونسيين، جامعة عموم العملة التّونسية. وارتفع عدد العملة التونسيين في تركيبة إدارة الاتحادات المحليّة للكنفدرالية العامة للشغل حيث بلغ سنة 1938 37.3٪. ولعلّ المزاحمة التي احتدّت بين الكنفدرالية العامة للشغل وجامعة عموم العملة التونسيّة من جهة والشيوعيّين من جهة أخرى تفسّر انفتاح الكنفدرالية العامة للشغل واعتمادها على المناضلين التّونسيين. فقد انتخب فرحات حشاد في الهيئة الإدارية لاتحاد النقابات سنة 1939 في إطار التصدّي للزحف الشيوعي وأصبح سنة 1940 عضوا باللجنة التنفيذيّة.

واعتبارا لما سبقت إليه الإشارة حول مقاصد ميثاق "أميان" فإن بقاء فرحات حشّاد في الكنفدرالية العامة للشغل ورفض الانسلاخ عنها سنة 1937 والانخراط في جامعة عموم العملة التّونسيّة لا يعنيان البتّة إهماله للقضيّة الوطنيّة وعدم اكتراثه بالمسائل السياسيّة. ولكنّه ارتأى أنّ الوقت لم يحن بعد لتأطير العملة التونسيّين في كنف نقابة مستقلة انطلاقا من معاينة للواقع السياسي والاجتماعي للإيالة التونسيّة سنة 1938.

وبالإضافة إلى نشاطه النقابي، برز حشاد في هيئة الهلال الأحمر التّونسيّ بصفاقس في أثناء الحرب العالميّة الثّانية.

يمكن القول في خاتمة هذا الطور الأوّل من مسيرة حشاد النقابيّة إنّ الظرف السياسيّ والاجتماعيّ الذي كان سائدا في الإيالة طوال هذه الفترة مكّن حشاد من التعرف جيّدا إلى الواقع اليومي للطبقة الشغيلة بانخراطه في اتحاد النقابات الإقليمي التابع للكنفدرالية العامة للشغل واضطلاعه تدريجيا بمسؤوليات تسييرية على المستوى المحلي ثم الجهوي ثم الوطني. ومكّنته صداقته مع ألبار بوزنكي من عدم الفصل بين العمل النقابي والمسائل السياسية ومعارضته للتمشي الشيوعي في استقطاب الحركة النقابيّة، كما مكّنته فترة الاحتلال الألماني - الإيطالي للإيالة التّونسيّة من متابعة انتعاشة الحركة الوطنيّة بجميع مكوّناتها (الحزب الدستوري الجديد والحركة الزيتونيّة واللجنة التنفيذيّة) في فترة حكم المنصف باي (19 جوان 1942 - 13 ماي 1943) علما بأنّ المقيم العام الأميرال (Esteva) بادر منذ نوفمبر 1940 بحلّ كلّ النقابات بالإيالة التّونسيّة تطبيقا لسياسة حكومة "فيشي" Vichy.

فكيف سيؤول الأمر بعد جلاء قوّات المحور في ماي 1943 وحلول الحلفاء وسيطرة الإدارة الاستعماريّة من جديد على دواليب الحكم بالإيالة التّونسيّة؟

II - استقلالية العمل النقابي التّونسي بين اتهامات اليسار ومتطلبات الحرب الباردة (1944 - 1948)

إثر قرار المقيم العام القاضي بحلّ النقابات (نوفمبر 1940)، عاد فرحات حشّاد إلى مسقط رأسه قرقنة حيث اجتاز بنجاح مناظرة الدخول إلى إدارة الأشغال العموميّة وانتدب عون مكتب بفرعها بصفاقس. ورُسّم في خطته في جانفي 1943. وتعدّ هذه الفترة التي قضاها حشاد بين قرقنة وصفاقس طوال الحرب العالميّة الثانية من

1940 إلى 1945 حاسمة في تطوّر مسيرته النقابيّة إذ تعرف إلى رفاق الدرب الذين سيكون لهم دور رئيس في عمليّة تأسيس اتحاد النقابات المستقلّة بالجنوب (نوفمبر 1944). فحالما غادرت قوات المحور الإيالة التّونسيّة (ماي 1943)، رجع حشّاد إلى نشاطه النقابي وشارك في إعادة تركيز النقابات الأساسيّة للاتحاد المحلي بصفاقس التابع للكنفدرالية العامة للشغل صحبة رفيقيْه الحبيب عاشور وعبد العزيز بوراوي.

وأجمع الاتحاد المحلي بصفاقس على ترشيح فرحات حشاد لعضوية الهيئة الإداريّة لاتحاد النقابات بمناسبة انعقاد مؤتمره الثامن عشر بتونس يومي 18 و19 مارس 1944. وبلغ عدد نوّابه للمؤتمر 18، ونسّق حشاد جهوده مع صديقه ألبار بوزنكي، لكنّها باءت بالفشل أمام الأغلبيّة الشيوعيّة التي أحرزت على 17 عضوا بالهيئة الإداريّة من مجموع 21. ويفسّر عدم انتخاب فرحات حشاد بالهيئة الإداريّة بما صدر عنه في أثناء أشغال المؤتمر من نقد للسّلوك غير الديمقراطي الذي أبداه الشيوعيون إزاء الاشتراكي بوزنكي.

وقرّر فرحات حشّاد صحبة الحبيب عاشور وعبد العزيز بوراوي الاستقالة من اتحاد النقابات، وشرع في تنظيم حملة دعائية ضدّ الهيمنة الشيوعيّة أدّت إلى عدّة استقالات في صفوف مناضلي الاتحاد المحلي.

على أنّ ما يجب تأكيده في هذه المسألة هو اقتناع حشاد ورفاقه بعدم الجدوى لمواصلة النضال في اتحاد النقابات الذي أولى كلّ اهتمامه لدعم مجهود الحرب إلى جانب الحلفاء وأهمل المطالب الملحّة للشغّالين التّونسيّين مثل المساواة في الأجور وتحسين ظروف عملهم وعيشهم. ويذكر النقابي محمّد بن رمضان الذي استضاف حشاد وعاشور في غرفته بالمدرسة المراديّة يومي انعقاد المؤتمر حالة الغضب التي بدت على محياهما إثر فوز الشيوعيين: "كان الخيار بالنسبة إلينا بين الوطنيّة الفرنسيّة والوطنيّة الروسيّة، فآثرنا الانسحاب، وبقدر ما كان عاشور متحمّسا للاستقالة كان حشاد متريّثا يحبّذ مقاومة الاكتساح الشيوعي من الداخل".

في تلك الظروف، لم تبد الفيدرالية الاشتراكيّة (SFIO) بتونس معارضة لقرار استقالة حشاد ورفاقه من اتحاد النقابات بل ساندته. وتطوّرت الأوضاع النقابيّة بسرعة سنة 1944 إذ تمكّن فرحات ورفاقه بعد جهود مضنية من خلق أرضيّة ملائمة لتأسيس اتحاد النقابات المستقلّة بالجنوب (19 نوفمبر 1944) الذي جمعت تشكيلته الإداريّة عناصر دستوريّة مثل الحبيب عاشور ورشيد القلال وعبد العزيز بوراوي ومحمد الحلواني. وارتفع عدد المنخرطين في هذه النقابة الفتية على نحو ملحوظ حتّى ناهز 8000 في بداية سنة 1945 واتّسعت دائرة تأثيرها حتّى شملت 22 نقابة أساسيّة. وبقدر ما تريّثت الفيدرالية الاشتراكيّة في تحديد موقفها من هذه التحوّلات التي حدثت في الساحة النقابيّة بالجنوب (صفاقس، قفصة، قابس)، سارعت الهيئة المديرة الجديدة لاتحاد النقابات التابعة للكنفدرالية العامّة للشّغل بتوجيه اللّوم إلى فرحات حشاد ورفاقه واصفة مبادرتهم بالمرتجلة وداعية إيّاهم إلى التفاوض. وقد بالغ حسن السعداوي الكاتب العام المساعد لاتحاد النقابات في تهجّمه على حشاد ورفاقه متهما "اتحاد النقابات المستقلّة بالتواطؤ مع شركة صفاقس ـ قفصة".

واختارت الفيدرالية الاشتراكيّة منهج المساعي الحميدة لإقناع حشاد ورفاقه لوضع حدّ لتجربة اتحاد النقابات المستقلة والانخراط من جديد في اتحاد النقابات. وتكفّل بهذه المهمّة كاتبها العام أندري بيدي A.Bidet لكن مساعيه فشلت. وتجلّت تدريجيّا إستراتيجيّة حشاد الذي كشف من اتصالاته بالأوساط النقابيّة الوطنيّة بالعاصمة حيث عقدت الجامعة العامة للموظّفين التّونسيّين مؤتمرها الأوّل بعد الحرب في غرّة أفريل 1945 بالخلدونيّة وانتخبت هيئة



حشّاد وبورقيبة: التحام الحركة النقابية بالحركة الوطنية

مديرة جديدة عبّرت عن استعدادها للإسهام في بعث نقابة وطنيّة تجمع اتحاد النقابات المستقلّة بالجنوب والجامعة العامة للموظفين التّونسيّين واتحاد النقابات المستقلّة بالشمال الذي تأسّس يوم 6 ماي 1945 والذي جمعت هيئته الإدارية المؤقتة عناصر دستورية مثل الهاشمي بلقاضي وكيلاني الشريف وبشير بلاغة. واتضح للعيان أن مبادرة حشاد في الاستقالة من الكنفدرالية العامة للشغل وتأسيسه اتحاد النقابات المستقلّة بالجنوب حظيت بمساندة فعلية من كلّ القوى الوطنيّة (الحزب الحرّ الدستوري الجديد، اللجنة التنفيذيّة، الحركة الزيتونيّة).

وتأكّد التوافق بين إستراتيجيّة حشاد التوحيدية وتوجّهات القوى الوطنيّة لبعث نقابة مستقلّة. وكانت التظاهرة الاستعراضيّة لانتصار الحلفاء بصفاقس يوم 9 ماي 1945 المناسبة الأولى الدالة على حقيقة التنسيق بين الحزب الحرّ الدستوري الجديد واتحاد النقابات المستقلّة بالجنوب.

وبدأت السلطة الاستعماريّة تسلك منهج الاحتياط من النجاح الذي حققه اتحاد النقابات المستقلة ودعم القوى الوطنيّة لمسيرته، وعبّر حشاد بمرارة عن موقف الإدارة الاستعمارية السلبي من طلبات الاتحاد الشرعيّة في خصوص رفض تمثيله باللجنة الجهوية المكلفة بمراجعة الأجور ومسائل أخرى لها علاقة بالطبقة الشغيلة. وآلت جهود حشاد ورفاقه إلى تحقيق الرغبة التي عبّر عنها الشغالون وكلّ القوى الوطنيّة ألا وهي تأسيس نقابة وطنية مستقلة يوم 20 جانفي 1946 حملت اسم الاتحاد العام التونسي للشغل انتخب حشاد كاتبا عاما لها وقبل الفاضل ابن عاشور عرض المؤتمرين اختياره رئيسا شرفيا للاتحاد. وأمام هذه الأحداث، سارعت الفيدراليّة الاشتراكيّة بالتذكير بموقفها من مسألة الوحدة النقابيّة متهمة "الأحزاب السياسيّة بالتدخل في الشؤون النّقابيّة". ففي البداية، ركّزت نقدها على التوجّه الشيوعي الذي طغى على اتحاد النقابات، ثمّ أبدت عداءها لمشروع حشاد الرامي إلى بعث نقابة وطنيّة مستقلة، في حين ساندت دون تحفظ تيّار الأقليّة غير الشيوعيّة بالهيئة الإداريّة لاتحاد النقابات. هذا التيّار عارض قرار تونْسة اتحاد النقابات الذي صادقت عليه الأغلبيّة الشيوعيّة بهدف تسهيل مفاوضات التوحيد مع الاتحاد العام التونسي للشغل. وأفضت هذه المفاوضات التي انعقدت جلساتها طوال صائفة 1946 واختتمت يوم 16 أوت بإمضاء اتفاقيّة "تنصّ على مبدإ قبول الوفدين تقديم اقتراح يوم 14 سبتمبر 1946 لهيآتهم الإداريّة موعدا لانعقاد مؤتمر التوحيد بين النقابتين واختيار اسم الاتحاد الوطني للشغل للنقابة الموحّدة التي ستقدّم طلبا في الانخراط بالجامعة النقابيّة العالميّة (F.S.M).

ولئن لم يُكتب النجاح لهذا الاتفاق المبدئي نظرا إلى الشروط الثلاثة التي قدّمها الاتحاد العام التّونسيّ للشغل: الجنسيّة التّونسيّة لكافة أعضاء المكتب المدير للنقابة الجديدة واختيار اللغة العربية لغة رسميّة لها والمصادقة على إطلاق اسم الاتحاد العام التونسيّ للشغل على النقابة الجديدة، فإنّه أحدث رجّة في أوساط الأقليّة النقابيّة غير الشيوعيّة التي كانت تحظى

بمساندة الاشتراكيين في صلب اتحاد النقابات. وعبّرت عن قلقها بنشر مجموعة مهمّة من المقالات بجريدة "تونس الاشتراكية". فقد نادت بتحقيق مبدإ التوحيد النقابي في صلب اتحاد النقابات، لا كما نصّ عليه الاتفاق المؤرّخ في 16 أوت 1946 مذكرة بالإنجازات التّاريخيّة التي حققتها الكنفدرالية العامة للشغل بتونس.

والحقيقة أنّ حشاد لم يترقّب موعد بدء المفاوضات المتفق عليها مع اتحاد النقابات لتبيين موقفه من مسألة تحرير البلاد من ربقة الاستعمار بل جهر بها في اجتماع نقابي انعقد يوم 8 أفريل 1946: "لا يمكن أن نبقى بصفة أزليّة في جرّة الأجانب. إنّ الوقت قد حان كي نستعدّ ليوم المعركة الكبير إذ لدينا واجب مؤكّد لتحقيق رقي بلدنا واستقلاله". واتضح للسلطة الاستعماريّة موقف فرحات حشاد الثابت لنصرة القضيّة الوطنيّة في التصريحات التي أدلى بها إثر انعقاد مؤتمر ليلة القدر (23 أوت 1946)، هذا المؤتمر الذي جمع كلّ ممثلي الأحزاب الوطنيّة والمنظمات القومية وبعض الشخصيات المستقلة، فقد بادر حشاد ـ وكان قد أفلت من قبضة البوليس الذي داهم مقرّ اجتماع المؤتمرين ـ بالمشاركة في الاجتماع السرّي الذي عقدته جمعيّة حقوق الإنسان يوم 29 رمضان 1365 (30 أوت 1946) إذ أكد أنّ "مؤتمر ليلة القدر" عمل مشروع، لم يتجاوز فيه التّونسيّون حدود ما كان ينبغي لهم أن يقفوا عنده، فمن حقّهم كبشر أن يطالبوا بالحريّة، ويهتفوا بالاستقلال، لأنّ هذا أوّل ما يجب أن يعترف به من "حقوق الإنسان" للتّونسيّين ولغير التّونسيّين، فكيف يصبح جناية تستحق المقاومة؟...".

وفي سياق المفاوضات التي جرَت في صائفة 1946 لتوحيد الصف النقابي، لم يتردّد اتحاد النقابات في شن إضراب عام تضامني مع الاتحاد العام التّونسي للشغل يوم 30 أوت 1946 دفاعا عن الحريّات العامة إثر الحملة القمعيّة التي سلّطها المقيم العام الجنرال ماست ضدّ الوطنيّين يوم 24 أوت وهو ما أثار تحفظ الفيدرالية الاشتراكيّة التي حمّلت الهيئة الإداريّة لاتحاد النقابات "مسؤوليّة ارتباك الطبقة العمّاليّة وإضعافها أمام السلطة العموميّة، أمام الرأسماليّين الفرنسيّين، وأمام الرّأسماليين التّونسيّين". لكن تعثر المفاوضات بين الاتحاد العام التّونسي للشغل واتحاد النقابات استوجب تدخل الجامعة النقابيّة العالميّة (FSM) التي أوفدت لجنة تحقيق برئاسة ماك وينّي Mac Whinnie والتي فشلت هي أيضا في تقريب وجهات النظر بين الطرفين، إذ أكّد الاتحاد العام التونسيّ للشغل من جديد شروطه المذكورة سابقا للانصهار في نقابة موحّدة. وقبيل انعقاد مؤتمر اتحاد النقابات يوميْ 26 و27 أكتوبر 1946، جدّد تيّار الأقليّة المناهضة لاتفاق 16 سبتمبر 1946 نداءه من أجل الاتحاد في صلب الكنفدرالية العامة للشغل. لكن المؤتمر أقرّ بـ338 صوتا ضدّ 80 صوتا مع إمساك 9 أصوات تحوّل اتحاد النقابات إلى الاتحاد النقابي لعملة القطر التّونسيّ (U.S.T.T.) الذي انضوى يوم 13ديسمبر 1946 تحت راية الجامعة النقابيّة العالميّة (FSM)، في حين لم يحظ ترشح الاتحاد العام التونسي للشغل بالقبول.

وتوتر الوضع في صلب الاتحاد النقابي لعملة القطر التّونسي بين الأغلبيّة التي صادقت على قرار المؤتمر والأقليّة الرافضة التي تزعمها بوزنكي وساندها ليون جوهو (Léon Jouhaux). وآل الأمر إثر فوز لائحة "تولي" Tollet الممثلة لرأي تيّار الأغلبيّة إلى انسحاب شق الأقليّة الذي أسّس يوم 23 فيفري 1947 كتلة النقابات المتحدة بتونس (Cartel des syndicats de Tunisie). وهكذا اقترن حلول سنة 1947 باتساع الشرخ النقابي الذي كان محلّ جدل في الأوساط الشيوعيّة والاشتراكيّة والنقابيّة. وفي هذا الإطار، توالت مقالات الاشتراكيين اندري دران إنقليفيال وإيلي كوهن حضرية محمّلة الأحزاب الوطنيّة والحزب الشيوعي مسؤوليّة تفرقة الصفّ النقابي و«تَعَاطُف» الاتحاد العام التّونسيّ للشغل مع

هذه الأحزاب. وأمام خطر هذه الاتهامات، بادر فرحات حشاد بالردّ على هذه المزاعم مبيّنا بالخصوص "أنّ الطبقة الشغيلة في كلّ بلدان العالم منظمة في إطار حركات نقابيّة قوميّة. وأنّ الحركة النقابيّة بتونس لم تأخذ هذه الخاصيّة القوميّة إلا مع جامعة عموم العملة التّونسيّة في 1924 ـ 1926 وفي 1936 ـ 1938 ومنذ سنة 1944 مع النقابات المستقلّة والاتحاد العام التّونسيّ للشغل (...). وإذا كنّا نمتنع من الدخول في الحسابات والألاعيب السياسيّة فإنّنا كمواطنين أو منظمة لايمكن أن لا نكترث بمصير بلدنا وهو ما يحصل في سائر بلدان العالم، فالوطني ليس بشرطه رجل سياسة (...)".

ونتبيّن من مسيرة حشاد النّقابيّة طوال سنتيْ 1946 و1947 وعيه بخصوصيّة الكفاح الاجتماعي في المستعمرات حيث يؤدّي الميز العنصري بين السكّان الأصليين ومختلف الجاليات الأوروبيّة إلى تناقضات في مستوى الأجور وظروف العمل. أمّا معارضة الفيدرالية الاشتراكيّة لمشروع حشاد الرّامي إلى تركيز نقابة مستقلة بمساندة القوى الوطنيّة فإنّها تفسّر بعوامل سياسية مرتبطة بتركيبة المنخرطين والناخبين، إذ بيّنت التحوّلات السياسيّة والاجتماعيّة التي حدثت في الإيالة إثر الحرب العالميّة الثّانية تراجعا واضحا للفيدرالية التي فقدت الجانب الأوفر من منخرطيها وخاصّة الموظفين منهم نتيجة تعاطفهم مع الحزب الاستعماري. وليس من باب الصّدفة أن يختار حشاد ذكرى إمضاء معاهدة باردو (12 ماي 1881) التي أقرّت انتصاب الحماية بتونس ليذكّر مرّة أخرى بجدليّة الكفاح الاجتماعي والقضيّة الوطنيّة وارتباطهما الوثيق: "(...) فكفاح الشغالين لتحسين حالتهم الأدبيّة والماديّة مرتبط أمتن ارتباط بمصالح البلاد العليا لأنّ ذلك التحسين يستوجب انقلابا اجتماعيّا لا يمكن التحصيل عليه مادامت البلاد ترزح تحت النظام الاستعماري". ثمّ يدحض حشاد مقولة عدم الفصل بين العمل النقابي والشواغل السياسيّة مستشهدا بما قامت به الكنفدراليّة العامة للشغل من مقاومة وطنيّة أثناء فترة الاحتلال الألماني: "ولنا أدلّة كثيرة من التاريخ النقابي تؤيّد ذلك وليكفينا موقف الكنفدرالية العامّة للشغل بفرنسا من مقاومة الألمان زمن احتلالهم لفرنسا ثم معارضتها للجنرال دي غول حينما أراد أن يحجّر عليها إعطاء رأيها في النظام الدستوري الجديد وفي أسلوب الانتخابات (...)".

ويمكن القول إن سنة 1947 كانت بمثابة سنة النضال من أجل الإثبات الشرعي والأممي لحقيقة تمثيليّة الاتحاد العام التّونسيّ للشغل على المستوى النقابي إذ كان عرضة لكلّ العراقيل، ومن أبرزها مماطلة الجامعة النقابيّة العالميّة ذات التوجّه الشيوعي لقبول مطلب انخراطه والقمع الذي تعرّض له إثر الإضراب العام يوم 5 أوت 1947 بصفاقس، وكذلك اتساع القطيعة بين الاتحاد العام التّونسيّ للشغل وكتلة النقابات المتحدة التابع للكنفدرالية العامة للشغل ذات التوجّه الاشتراكي. ولعلّ هذه الجبهة المناهضة لنشاط الاتحاد والمتألّفة من أطراف مختلفة وفي بعض الأحيان من أضداد تشمل الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة والاتحاد النقابي لعملة القطر التّونسي ذا التوجّه الشيوعي وكتلة النقابات المتحدة التابعة للكنفدرالية العامة للشغل ذات التوجّه الاشتراكي هي التي ستقوّي اللحمة بين الاتحاد العام التونسي للشغل والحركة الوطنيّة لمقاومة الاستعمار.

III ـ التوافق الإستراتيجي بين الاتحاد العام التّونسي للشغل والحركة الوطنيّة لمقاومة الاستعمار يثير ارتباك الاشتراكيّة الديمقراطية الفرنسيّة (1948 ـ 1952)

لم يلبث تطوّر الوضع العالميّ سنة 1948 (تصعيد التوتر بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي في إطار الحرب الباردة وانقسام الحركة النقابيّة العالميّة) أن انعكس

على توجّهات العمل النقابي إذ أجبر الاشتراكيون الفرنسيّون على الخروج عن حيادهم الشكلي في شأن الفصل بين العمل السياسي والنشاط النقابي وذلك بإعلان مساندتهم لنقابة "القوّة العمّاليّة" Force ouvrière. ففي 29 ديسمبر 1947، قدّم ليون جوهو ورفاقه باسم تيّار الأقليّة المنشط لحركة "القوّة العمّاليّة" استقالتهم من المكتب الفيدرالي الموحّد للكنفدرالية العامة للشغل، ثمّ بادرت هذه المجموعة بتأسيس الكنفدرالية العامة للشغل - القوّة العمّاليّة (G.G.T./F.O.) يوم 13 أفريل 1948. وأصبحت كتلة النقابات الموحّدة بتونس فرعا لها.

وتوطّدت الصّلة بين الفيدرالية الاشتراكيّة (SFIO) بتونس وحركة (G.G.T./F.O.) حيث نشط عدد كثير من قياديي الفيدرالية ومناضليها، أبرزهم Appaix عضو المكتب الفيدرالي الذي أصبح عضوا بالهيئة المديرة لنقابة "القوّة العمّاليّة" .F.O. ويفسّر هذا التقارب بما أحدثته الحرب الباردة من تفاعلات في الوضع النقابي العالمي في سنتي 1949 - 1950 (تصدّع الحركة النقابيّة العالميّة). فبعد ترقّب استمرّ ثلاث سنوات، قُبل مطلب الاتحاد العام التّونسيّ للشغل للانخراط في الجامعة النقابيّة العالميّة .F.S.M (28 جانفي 1949). وتزامن هذا الحدث مع تأسيس الكنفدرالية العالمية للنقابات الحرّة (C.I.S.L.). ثمّ انسلخ الاتحاد العام التونسي للشغل من الجامعة النقابيّة العالميّة (FSM) في جويلية 1950 وانخرط في الكنفدرالية العالمية للنقابات الحرّة (مارس 1951). ونتيجة لذلك، تعزّز التوافق الإستراتيجي بين الاتحاد العام التونسي للشغل والحزب الحرّ الدستوري الجديد الذي تركّزت أسسه القاعديّة طوال سنة 1948.

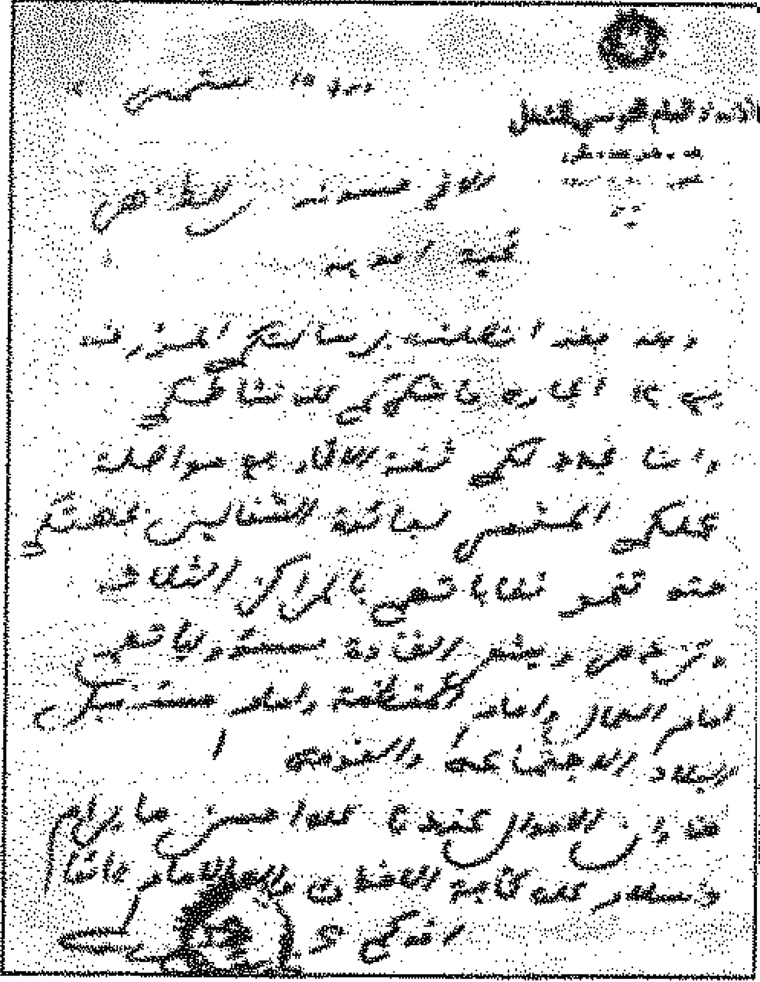
لمسنا ممّا سبق في شأن الظرف الذي تأسس فيه الاتحاد العام التّونسيّ للشغل تضافر الجهود بين قرار فرحات حشاد صحبة رفاقه تأسيس اتحاد النقابات المستقلّة والدعم الذي وجده لدى القوى الوطنيّة، إذ تبيّن لحشاد إثر تأسيسه الاتحاد العام التّونسيّ للشغل الموقف الاستعماري المناهض لمنظمته وما سعى إليه الاشتراكيون والشيوعيون من محاولات لإضعاف نشاطها وعرقلتها. هذه الجبهة المناهضة لنشاط الاتحاد العام التّونسيّ للشغل جعلت حشاد يصدع برأيه ويحدّد موقفه في الصحف الوطنيّة وأبرزها صحيفتا (Mission) و"الحريّة". فقد نشر حشاد بجريدة الحزب الحرّ الدستوري الجديد الأسبوعيّة الناطقة بالفرنسيّة (Mission) (1948 - 1952) عدّة مقالات خصّص الجانب الأوفر منها للدّفاع عن مصالح الطبقة الشغيلة التونسيّة وما كانت تقاسيه من استغلال رأسمالي استعماري، مندّدا بالميز العنصري المهيمن على عقليّة العامل الأوروبي وموقفه وخاصّة الفرنسي ومركّزا اهتمامه على جدليّة الارتباط بين الكفاح النقابي ونصرة القضية الوطنيّة.

وتوالت مبادرات حشاد لنصرة القضيّة الوطنيّة لا على المستوى المحلي فحسب بل على المستوى العالمي، وذلك بإثارته مسألة حق الشعوب في تقرير مصيرها والقضاء على الاستعمار. فالكفاح النقابي عند فرحات حشاد أداة لتحرير الشعب وتخليصه من الاستعمار والاستثمار في تونس وبقيّة أنحاء العالم محذرا العامل الأوروبي من مغبّة الانسياق وراء دعاية الحزب الاستعماري: "هؤلاء السّادة غالطوك عندما أوهموك بأن تونس ليست ملكا للتونسيين بل للغزاة الفرنسيّين وللتفوق الفرنسي (...) وإذا أردت أن تُصغي إليهم وتختار طريق الحقد فاعلم أيّها الرفيق أنّه ليس في أي نقطة من العالم قانون يُلزم بالضيافة الإجباريّة وأنّك ستتخلّى تحت الضغط على اعتبار تونس وطنا ثانيا لك لأنّ ليس في الإمكان أن يحتضنك وطن وفي نفس الوقت تعلن الحرب ضدّ شعبه".

هذا النداء جعل الفيدرالية الاشتراكيّة تردّ عليه بصرامة متهمة حشاد بأنّه تجاوز حدود

العمل النقابي وأصبح من دعاة التعصّب القومي: "إنّي لم أيأس بعد، فإذا أردت أن تلقن درسا لمستشار الجمهوريّة (الموظّف أنطوان كولونا، رئيس الحزب الاستعماري) وأن تبيّن أن لمواجهة قوميّة الأعراف المتطرّفة، يمكن توظيف قومية التونسي، فإذا أردت ذلك فأنت على صواب، لكن الآن وقد تحصّلت على مبتغاك يجب التصرّف دون أنْ تُخجل النقابيين، بلباقة تتماشى مع عبقريّتك، تتماشى مع الزمن الذي لم يعد زمن العربة ولكن المحرّك النفاث. لا يمكن لك أن تطالب بغلق أبواب الإدارة للأجراء الفرنسيين خصوصا إذا كانوا من مواليد الأرض التّونسيّة، يجب عليك قبولهم بصفتهم أعضاء من نفس العائلة (...)".

والحقيقة أنّ الإضراب الذي شنّه الموظفون الفرنسيون في بداية أفريل 1948 والذي حظي بمساندة الفيدرالية الاشتراكية وساندته جميع النقابات (الاتحاد النقابي لعملة القطر التونسي، الكنفدرالية العامة للشغل، القوة العماليّة، والنقابات المسيحيّة) إلاّ الاتحاد العام التونسي للشغل بيّن بجلاء تباين المصالح والمواقف بين الوطنيين من جهة ودعاة الاستعمار من جهة أخرى. وممّا زاد في حنق الاشتراكيين نجاح سعي الاتحاد العام التونسي للشغل إلى الحصول على مساندة الكنفدرالية العالمية للنقابات الحرّة (CISL) التي أبدت اهتماما متزايدا بالحركات النقابيّة في البلدان المستعمرة. وأصبح فرحات حشاد مصدر قلق للسّلطة الاستعماريّة بشمال إفريقيا عندما شرع في إنجاز مشروعه الرّامي إلى توحيد الحركات النقابيّة التّونسيّة والجزائريّة والمغربيّة في إطار فيدرالية نقابيّة مغاربيّة. ولا تخفي هذه المبادرة ما سينجرّ عنها من تعديل لموازين القوى بين المعسكر الشرقي (الاتحاد السوفياتي) والمعسكر الغربي (الولايات المتحدة الأمريكية) من جهة، ومن احتداد للتناقضات بين الدولة الاستعماريّة الفرنسيّة وسياسة الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد



رسالة بخط فرحات حشاد

النقابات الأمريكيّة، من جهة أخرى.

وكانت لمشاركات حشاد سواء في أشغال المؤتمر الثاني للجامعة النقابية العالمية (29 جوان - 12 جويلية 1949 بميلانو) أو اجتماعات المكتب التنفيذي للكنفدرالية العالمية للنقابات الحرّة ببروكسال (ديسمبر 1951) وأشغال مؤتمر اتحاد النقابات الأمريكيّة AFL (سبتمبر 1951) الدوي الهائل في جهاز الدولة الاستعمارية. وفي هذا الإطار، عرّج حشاد في مقال صدر بجريدة (Mission) على طبيعة العمل النقابي الذي تنتهجه "القوّة العمّاليّة" ذات التوجّه الاشتراكي ذاكرا بالخصوص ما يلي: "إنّ نقابة "القوّة العمّاليّة" لا زالت ماضية عبر تهجّماتها الإذاعيّة الأسبوعيّة وبلاغاتها النادرة في التنديد بالعمل النقابي المسيّس وفي المطالبة بإبعاد الحركة النقابيّة عن كلّ عمل سياسي. إنّ مجلسها الفيدرالي القومي سقط كجثة هامدة في براثن السّياسة... الاستعماريّة! إن نقابة F.O. لم تفعل إلا نقل صيغ الاستعمار البالية في خصوص دعايته المنافقة وأدبياته المغشوشة إلى الحقل النقابي. فهي تطرح نفس موضوع الانفصال، وتحبّر نفس التعليمات ضدّ "الإقطاعيّة القروسطية" وتؤكّد أنّه لا يمكن القيام بأيّ مبادرة في الحقل الاجتماعي دون الدولة الحامية... وتختم بالصيغة المعتادة، تلك التي تحتم العيش معا مع

تعويض "اتحاد لا تنفصم عراه" بـ"اتحاد وثيق العرى".

"إنّ جوهو قد ناهض سابقا جامعة عموم العملة التّونسية وتحمّل جانبًا من المسؤوليّة في عمليّة قمع حركة محمّد علي ورفاقه. (...) إنّ منظمته اليوم أي (F.O.) باقية على نفس شعور التفوق الذي كان يلازمها منذ 22 سنة. نحن لا نريد أن نخوض جدالا مع نقابة F.O. التي لا تمثل في تونس سوى صفر صغير. وبالرغم من الجهود الرّسميّة وشبه الرسميّة المبذولة لتنميتها، يبقى نشاطها غير ملموس (...).

"إنّ الحماية التي تريدها (للعمّال في المستعمرات) تتمثّل في الاستحواذ على حركتهم على نفس المنوال الذي انتهجته فرنسا لإدارة هذه البلدان وحكمها هي تناهض الإصلاحات التي تضمن استقلالية أكثر للشعوب المستعمرة على نفس المنوال الذي يرتضيه التجمّع الفرنسي. هي لا تريد أن تقدّم أي تنازل في مسألة الانتداب في الوظيفة العموميّة حتّى لا تنقص من صلاحيات الحضور الفرنسي وسرمديّة حقوق الفرنسيين في أيّ ميدان من الحياة العموميّة والأنشطة الخاصّة، هي تتحدّث عن "الهيبة الفرنسيّة" حتّى تكوّن قاعدة صلبة لانتداب العناصر الأكثر رجعيّة. وهي تناهض قيمة أي منظمة نقابيّة أخرى وصلوحيّتها إذا لم تشاطرها الرّأي في هذه النقطة الأساسيّة (...).

"(...) إنّ الحركة النقابيّة هي حركة تحرير لايمكن لها أن تقبل مثل هذه العقليّة، عقليّة التفوّق، التي تسيّر شركات الهيمنة الإمبرياليّة، ومن واجب كلّ حركة نقابيّة حرّة أن تقاومها. إنّ السّبب الذي جعل الاتحاد العام التّونسيّ للشغل يسحب انخراطه من الجامعة النقابية العالمية راجع إلى كون هذه المنظمة أصبحت أداة دعاية فاعلة لا تولي أي عناية بالمصلحة العليا لعالم العمل. وبما أنّها ابتعدت عن هدفها الحقيقي، أصبح من الحتمي أن تندثر.

"والاتحاد العام التّونسي للشغل لا يرضى أن يحاول هؤلاء، "متخلّفو التفوّق النقابي"، أن يضعوا تحت هيمنتهم الشعوب التي كان من المفروض مساعدتها على التحرّر. إنّ الاتحاد العام التّونسي للشغل واثق من الاتجاه الثّوري الذي يحرّك نقابيي العالم الحرّ، والذين يدركون واجباتهم ومسؤوليتهم إزاء الحركات النقابيّة القوميّة في البلدان المستعمرة (...)".

أصبحت القطيعة كليّة بين الزعيم النقابي الوطني فرحات حشاد ودعاة العمل النقابي "على النمط الاستعماري" ومن ضمنهم صديقه القديم ألبار بوزنكي الذي تولى إدارة صحيفة "القوّة العمّاليّة" (Force ouvrière) إلى حدود سنة 1950. فقد بادر الاتحاد العام التّونسي للشغل بالتشاور مع الحزب الحرّ الدستوري الجديد بتأسيس "لجنة العمل من أجل الضمانات الدستوريّة والتمثيل الشعبي" يوم 13 ماي 1951 وقد ضمّت بالإضافة إلى الاتحاد العام التّونسيّ للشغل (فرحات حشاد والنوري البودالي ومحمود المسعدي وعبد اللّه فرحات والطّاهر بن عبد اللّه) والحزب الحرّ الدستوري الجديد (المنجي سليم والهادي نويرة وعلي البلهوان) ممثلي الاتحاد التونسي للفلاحة (إبراهيم عبد اللّه ومحمود بن الحاج) والاتحاد التّونسيّ للصناعة والتجارة (فرجاني بلحاج عمّار وعبد السّلام عاشور) وشخصيّات ممثّلة لكلّ تيارات الرّأي العام التّونسيّ (جمعيّة الشبّان المسلمين، الصحافة التونسيّة، الصيادلة التّونسيّون قدماء المحاربين التّونسيّين). وتكوّن مكتب تنفيذي لهذه اللجنة يتألّف من الهادي نويرة، فرحات حشاد، فرجاني بلحاج عمّار، إبراهيم عبد اللّه، الشيخ محمّد صالح النيفر، وطالب بتأسيس مجلس تشريعي منتخب وإقرار نظام بلدي تمثيلي تونسي في القرى والمدن.

وكانت سنة 1952 نهاية المطاف لتجربة حشاد النقابيّة بعد أن تحمّل مسؤوليّة الدفاع لا عن حقوق الشغالين فحسب بل كلّ التّونسيّين جاعلا قضيّة تحريرهم من ربقة الاستعمار في

المقام الأوّل من أولويّاته. فبقدر ما كانت الكنفدرالية العامة للشغل تنادي بحصر النضال في تحسين ظروف العمل للعامل الأوروبي والحفاظ على امتيازاته في إطار الحماية (أي قبول النظام الاستعماري)، كان حشاد يناضل من أجل الإطاحة بنظام الحماية، وهو عنده الشرط الأساس لتحسين ظروف العامل التّونسيّ. ولقد وطّد التوافق الإستراتيجي بين الاتحاد العام التّونسيّ للشغل والحزب الحرّ الدستوري التّونسي فيما يخصّ معارضة الشيوعية والسّعي للحصول على مساندة الولايات المتحدة الأمريكيّة، والتحالف بين الرّأي العام الفرنسي بالإيالة والإدارة الاستعماريّة فأخذ منحى عدائيا ضدّ حشاد. ولقد تمكّن بفضل العمل الدعائي الذي حققه طوال زيارته للولايات المتحدة الأمريكية (4 ـ 30 أفريل 1952) من كسب نصرة العالم الحرّ للقضيّة الوطنيّة.

وإثر اعتقال الزعماء الوطنيّين في 18 جانفي 1952، تحمّل فرحات حشّاد بشجاعة وإخلاص مسؤولية تنسيق المقاومة الوطنيّة مع رفاقه في الديوان السياسي السرّي للحزب الحرّ الدستوري الجديد. وأصبح رمز الصمود الوطني ضدّ سياسة القمع والإرهاب التي شنّها المقيم العام جان دي هوتكلوك حال وصوله إلى الإيالة التّونسيّة يوم 13 جانفي 1952. واشتدّ حقد غلاة الاستعمار على فرحات حشاد وبعثوا بالتعاون مع الإدارة الاستعماريّة منظّمة إرهابيّة لتصفية الوطنيّين تدعى "اليد الحمراء" (La Main rouge) فأقدمت على اغتيال الزعيم فرحات حشّاد يوم 5 ديسمبر 1952 وهو في طريقه إلى نادي الاتحاد العام التّونسي للشغل. وقد أثار اغتياله موجة استياء عارمة في العالم كله وخاصة في المغرب الأقصى (مظاهرات داميّة) ويمكن الجزم بأنّ ملابسات اقتراف هذه الجريمة تتحمّلها كلّيا الإدارة الاستعماريّة وبصفة أدق حكومة الجمهوريّة الرّابعة. فقد تواترت الشهادات لتأكيد ذلك من ضمنها على وجه الخصوص: مذكّرات المقيم العام جان دي هوتكلوك وشهادة الوزير الفرنسيّ الاشتراكي آلان سافاري.



محمّد الحشايشي

[1269–1330هـ/1853–1912م]

ولد محمّد بن عثمان بن محمّد بن قاسم الحشايشي، بتونس العاصمة في 26 رمضان 1269/12 جوان 1853. تعلّم أوّلا في الكتّاب حيث حفظ القرآن الكريم على يد المؤدّب حسين المعاوي، ثم تعلّم فنّ القراءات على يد الشّيخ محمّد جراد، وروى عنه الأمثال والحكم، وأصول الحكم، وأصول التّربية، كما حفظ على يديه متن الأجروميّة في النّحو ومثلّثات قطرب في اللّغة.

وفي سنة 1868، انخرط في سلك تلامذة الجامع الأعظم، حيث درس الفقه وأصول الشّريعة، وتتلمذ للمشائخ: محمود ابن الخوجة، ومحمود بيرم، ومحمد البارودي، وسالم بوحاجب، وغيرهم... وأحرز شهادة التّطويع (وهي عهدئذ شهادة ختم الدّروس بجامع الزّيتونة).

وشغف الحشايشي بالأدب، فطالع أشعار العرب، والمقامات، وكتب التّصوّف، والفلسفة الإسلاميّة. ولمّا أنهى دراسته بجامع الزّيتونة، تقلّد خطّة حافظ المكتبة الأحمديّة، حيث أشبع نهمه في مطالعة ما تزخر به تلك المكتبة من تآليف ومخطوطات وذخائر الأدب والمعرفة.

وبعد تخرّجه في جامع الزّيتونة أصبح شاهدا على عصره، يهتمّ بقضاياه ويراقب عن كثب شواغل الصّحافة التي كانت تخطو خطواتها

الأولى في فجر الطّباعة بالبلاد التّونسيّة، يطالع ما ينشر في الجرائد والمجلاّت من أخبار ومقالات أدبيّة واجتماعيّة في حدود ما تسمح بنشره سلط الحماية الفرنسيّة آنذاك.

وقد حفزته تلك المواكبة إلى الإسهام في تغذية الجرائد والمجلاّت بتحاريره، فنشر في جرائد: "الحقيقة" و"الرّائد التونسي" و"الحاضرة" و"الزّهرة" و"مجلّة السّعادة العظمى" وغيرها، كما نشر بعض القصائد التي نظمها في مناسبات مختلفة، وشذرات من الطّرائف الأدبيّة والألغاز.

وعكف الحشايشي على التّأليف، فكتب في التّاريخ، والاجتماع، والأدب، عدّة كتب منها:

1- جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، أو النّفحات المسكيّة في أخبار المملكة الطرابلسيّة، وقد تولّى تحقيقه علي مصطفى المصراتي، نشر دار لبنان، 1965.

2- الدّرّة النّقيّة في النّوايا الصّادقة للحكومة الفرنسيّة، مطبعة كوني، باريس 1883.

3- رحلة الشّتاء أو العهد الوثيق في هناء الصّديق، وهي رسالة من صنف المقامة بعث بها إلى أحد أصدقائه بمدينة سوسة بمناسبة زفاف ابنه، طبعت بتونس، 1895.

4- كتاب معرض باريس 1900.

5- تاريخ جامع الزّيتونة، حقّقه الجيلاني ابن الحاج يحيى، نشر المعهد القومي للآثار والفنون، تونس 1974، وأعيد طبعه بمؤسّسات بن عبد الله، 1985.

6- الرّحلة الصّحراويّة عبر أراضي طرابلس وبلاد التّوارق، حقّقها محمّد المرزوقي، الدار التونسيّة للنّشر، 1988.

7- العادات والتّقاليد التونسيّة، (الهديّة أو الفوائد العلميّة في العادات التونسيّة) تحقيق الجيلاني ابن الحاج يحيى، دار سراس للنشر، ط 1، 1994 وط 2، 1996.

ومازالت توجد مؤلّفات أخرى مخطوطة للمؤلف لم تنشر، نذكر منها:

1- تاريخ الحكومة التّونسيّة قبل الاحتلال الفرنسي وأحكامها وإدارتها.

2- الدّرّة النّقيّة في تهاني الحضرة العليّة (علي باشا باي تونس)، مخطوط عدد 18652 بدار الكتب الوطنيّة التونسيّة، فهرس مكتبة ح.ح. عبد الوهاب، ص 173.

3- الإعلام بعلوم العرب وصنائع الإسلام.

4- التّعريف بما في مدينة تونس وأحوازها من الصّلحاء.

5- ديوان شعر.

إضافة إلى بعض الرّسائل التي أشار إليها المؤلّف في بعض كتبه.

وتؤكّد هذه القائمة الأوّليّة أنّ الحشايشي كان غزير الإنتاج، يدأب على الكتابة في الصّحف والمجلاّت، وينكبّ على تأليف المؤلّفات في مختلف الموضوعات والأغراض.

وبغضّ النّظر عن الحوافز التي كانت تدفعه إلى وضع تآليف بطلب من كبار مسؤولي الحماية الفرنسيّة مثل الكاتب العام للحكومة برنار روا (Bernard Roy)، لم يحاول الارتزاق من مؤلّفاته، رغم أنّه كان محظوظا بالنّسبة إلى عصره في مجال الطبع والنّشر. فقد بدأ الكتابة على حداثة سنّه، وشاهد إنتاجه مطبوعا ومترجما إلى اللّغة الفرنسيّة، وهو في شرخ الشّباب. وهو ما لم يتيسّر لغيره من الكتّاب التّونسيّين في ذلك العهد، نظرا إلى محدوديّة الإمكانات الفنّية للطّباعة في أولى سنوات الحماية، وقلّة من أوتوا القدرة على المطالعة في ذلك الوقت الذي لم ينتشر فيه التّعليم، وظلّ مقصورا على الطّبقات المترفة من السكّان لقلّة المدارس.

ورغم الحظوة التي كان يتمتّع بها الحشايشي في الأوساط الاستعماريّة التي كانت تهيمن على البلاد، وهي حظوة استحقّها بثقافته الواسعة، وحذقه للّغة الفرنسيّة، فقد عاش في ضائقة ماليّة، يعاني من متطلّبات الحياة الضّروريّة، ويواجه متاعب أسرة وافرة العدد، كان مطالبا بإعالتها، وتوفير لقمة العيش لها...

والمتأمّل في ظروف الحشايشي العائليّة والمهنيّة، يستطيع تصوّر الحياة التي كان يعيشها وقتئذ بدخل ضئيل تأتّى له ممّا كان يتقاضاه من مختلف الوظائف الصّغيرة التي تولاّها.

فأوّل خطّة شغلها الحشايشي هي الإشهاد (العدالة)، ولم يصل إليها كما ذكر إلاّ عند انتصاب جمعيّة الأوقاف سنة 1291هـ/1874 م. قال: «وقد اصطفاني رئيسها العلاّمة الشيخ سيّدي محمّد بيرم الخامس كاتبا محرّرا لمقالاته السّياسيّة والعلميّة، ولمّا رأى منّي الحزم والنّصيحة واللّياقة، سعى لصدور أمر عليّ بصفة كوني شاهد عدل أوقاف الأبراج والقشل (الثكنات) بالحاضرة، مع ما لي إذ ذاك من أمر الشّهادة العامّة، وأمر بشهادة المدارس الباشيّة....».

ولم يكن دخل هذه الوظيفة ليمكّن الحشايشي من مجابهة الإنفاق على عائلته، فعمل كاتب سرّ للوزير مصطفى بن إسماعيل، فكافأه بإصدار أمر بشهادة القيس. وتاق إلى الاشتغال بما هو أهمّ، فقدّم طلبا للتّدريس بالمدرسة العلويّة فور تأسيسها، (مدرسة ترشيح المعلّمين) إلاّ أنّ مطلبه رفض، فآلمته الخيبة، ومحاباة من هو دونه مكانة بالمنصب، فنزع إلى الانكباب على التّأليف والكتابة، وتسلّى عن فشله بالرّحلة إلى فرنسا، ثم إلى طرابلس الغرب.

قضى الشّيخ محمّد الحشايشي، الأديب، والرّحّالة، والعالم الاجتماعي حياته بين الكتابة والتّأليف والمطالعة، إلى أن توفيّ في 3 ذي الحجّة 12/1330 نوفمبر 1912 عن عمر يقارب ستّين سنة.

تاريخ الحصان في تونس وخصائصه

يحتلّ الحصان، وخصوصا الفرس البربريّ، مكانة مهمّة في تاريخ إفريقيا الشمالية لأنّه أصيل هذه الجهة. وتبيّن أحدث الدراسات في هذا الصدد أنّه سليل الحصان المغولي. ولا شكّ في أنّه يشبهه في بعض سماته. والأرجح أنّه أتى إلى إفريقيا عن طريق البرّ، عبر مصر، حيث عاش منذ أقدم العصور متوحّشا. ولم يستخدم للجرّ (وربّما للركوب) إلاّ بعد مجيء الهيكسوس – وهم شعب ساميّ آسيويّ من الرعاة استولوا على مصر في القرن الثاني قبل الميلاد، أو بفضل شعوب البحر التي كانت تقيم علاقات تجاريّة مع اللوبيّين.

الحصان عند نشأة قرطاج:

يبدو أنّ الحصان كان عند تأسيس قرطاج طالع خير، يبشّر بعظمتها ومجدها الحربيّ. وتحمل أغلب النقود القرطاجيّة صورة حصان في ظهرها، لأنّه كان رمزا دينيّا للشرق الفينيقي الذي قدم منه مؤسّسو المدينة الجديدة، كما كان حيوانا مقدّسا في ديانة جيرانهم اللوبيّين. وكان ذلك ضمانا للتوافق وحسن الجوار.وفي فترة لاحقة، اضطرّ القرطاجيّون (وهم في الأصل بحّارة وتجّار لا يميلون إلى حمل السلاح) اضطرّوا إلى تكوين جيش من المرتزقة قوامه الفرسان اللوبيّون الأشاوس.

الحصان الإفريقي والسلطة الرومانية:

كان البد والرحّل وسكّان الجبال في عهد أفريكا الرومانية مناهضين للسلطة الإمبراطورية التي كانت واعية بصعوبة إخضاعهم في معاقلهم. ففضّلت إقامة حدود فاصلة بينها وبينهم، وأحاطتها بمراكز عسكرية. وفي الواقع، لم تحتلّ روما إلاّ حوالي النصف من أراضي شمال إفريقيا، ورغم ذلك لم تنج من هجوم البد والرّحل الذين دخلوا معها أحيانا في مواجهة مباشرة. ودامت المعارك سجالا بين الجيش الروماني والفرسان البدو الأشاوس. ولم تكن السلم الرومانية إلاّ نسبيّة في التخوم الجنوبيّة ومنطقة السباسب لأن الجيتول كانوا يغيرون بسرعة البرق على ظهر خيولهم وسرعان ما يختفون ليعيدوا الكرّة. وهكذا كان الحصان

الإفريقيّ خير وسيلة لمقاومة السلطة الإمبراطورية.

الحصان الإفريقي في العهد البيزنطي:

استخدم البيزنطيون الحصان الإفريقي مثلما استخدمه الرومان. ومنذ بداية احتلالهم لشمال إفريقيا حاولوا تعزيز قواتهم بتجنيد فرسان القبائل المحلّية. فكوّنوا منهم وحدات مساعدة استعملوها فيما بعد لغزواتهم خارج إفريقيا.

والغالب على الظنّ أنّ البيزنطيّين جلبوا إلى إفريقيا عددا من الخيول الأجنبيّة. لكنّ المؤكّد أنّهم احتاجوا أكثر فأكثر إلى خدمات الحصان الإفريقي ابتداء من أواخر القرن السادس للميلاد، خصوصا لمجابهة المحتلّين الفرس في الشرق المتوسطي.

الفتح الإسلامي والحصان الإفريقي:

لا شكّ في أنّ الخيول كانت منتشرة انتشارا واسعا في الجزيرة العربيّة، خلافا لما اعتقده بعض الدارسين، وأنّ تربية الجياد الأصيلة كانت رائجة في الجاهلية ثم تطوّرت بعد مجيء الإسلام. فتسنّى للمسلمين أن يفتحوا سوريا بفضل عشرة آلاف فارس وأن يهزموا البيزنطيين في الإسكندرية سنة 641 للميلاد. ولا شكّ في أنّهم أخذوا خيولهم إلى مصر، عندما توجّهوا إلى فتح بلدان المغرب، لكنّهم وجدوا في طرابلس وتونس الحاليّتين عددا كثيرا من الجياد الإفريقية التي أعجبوا بها وقدّروها حقّ قدرها.

الفرس البربري في فتح الأندلس:

من المعلوم أن طارق بن زياد اجتاز سنة 711م المضيق الذي سمّي فيها بعد جبل طارق. وفتح الأندلس في جيش من العرب والبربر أمكن له هزم الجيش الغوطي علي مقربة من (ريّو برباط). وذكر ابن خلكان أنّ أغلب الفاتحين (وعددهم اثنا عشر ألفا) كانوا من الفرسان ولم تكن لديهم إلاّ 12 من الخيول العربيّة. أمّا البقية فهي خيول بربريّة.

الخيول البربرية في الفترة المعاصرة:

لمّا غزت الجيوش الاستعمارية الفرنسيّة شمال إفريقيا، وعلى وجه التدقيق منذ سنة 1830 في حملتها على الجزائر، تمّ إدراك أهمّية الفرس البربري في المجال الحربيّ.

وتأسّس أوّل كتاب لأنساب الخيل في الجزائر سنة 1886 وفي تونس سنة 1896 وفي المغرب الأقصى سنة 1914. ولقد أتيحت حاليّا في بلدان شمال إفريقيا، موطن هذه الخيول الأصلي، وسائل وطرائق لتربية عصريّة تخضع للمراقبة وتحظى بالتشجيع: فقد اتخذت للخيول البربريّة مرابط وحرائس. وانتخبت منها فحول للأنسال. وأجريت رقابة على النزاء والنتاج. وخصّصت إعانات وجوائز. ونظّمت مسابقات وغيرها. وبفضل هذه الإجراءات ثبتت سلالة الفرس البربري أكثر فأكثر. وتحسّن نموذجها تحسّنا ملحوظا.

بعض خصائص الفرس البربري:

تعدّ نسب الفرس البربرية متوسّطة وسماتها الجانبيّة محدّبة، قليلة التقويس، ويكون لون ثوبها في الغالب أشهب أ وكميتا أ وأشقر. أمّا شعر أعناقها وأذنابها فهو غزير كثّ. ويبلغ قدّها معدّل 1.55 مترا ما بين العنق والصهوة. ويكون طولها مساويا تقريبا لقاماتها. فهي إذن خيول مربّعة، كما تبلغ الأذرع والسيقان 18 صم على أقلّ تقدير.

وتمتاز هذه الخيل عموما بعظم هاماتها وقصر آذانها وارتفاع صدورها وقوّة عضلات أعجازها وانخفاض عراقيبها ودقّة قوائمها وصغرها.

ولقد اشتهر الحصان البربريّ بخفّة حركته ورشاقته الفطرية وسهولة انقياده وقوّته ومقاومته. وهو قنوع في أكله وشربه، يحتمل شدّة الحرّ والقرّ ولا يتطلّب عناية مفرطة. وهو إلى ذلك قادر على التكيّف مع الأراضي الوعرة والصخريّة، ويتميّز بهدوئه وثبات قوائمه. ولئن كان قليل التفوّق في حلبات السباق لأنّ السرعة من خصائص الحصان الإنقليزي الأصيل فهو صبور، يستطيع منافسة الجواد العربي في هذا المجال. ولقد ورث عن أسلافه المغوليّين الأوائل تنوّعا

فريدا في ألوان ثوبه. أمّا سيره فهو متعجّل. ولذلك تراه يرفع معا قائمتيه اللتين من جهة واحدة. ويمتاز الحصان البربري على سائر السلالات الأخرى بذكائه الوقّاد، إذ يفهم بسرعة فائقة ما يراد منه أن يتعلّم، كما يمتاز بتعلّقه الشديد بفارسه إذا كان يرعاه ويلاطفه ولا يعنّفه. لذا يبدو طيّبا بل طيّبا للغاية.

وسعيا إلى تحسين خصائص الفرس البربري وتوسيع مجالات استخدامه، يلجأ إلى التزاوج بين الفرسين العربي والبربري. فيكون النتاج حصانا قويّا، قنوعا في أكله وشربه، جيّد التكيّف مع تقلّبات الظروف المناخية. فيستجيب بذلك لحاجات الريفيّين ومتطلّبات الفروسيّة (الحواجز، الترويض، التجلّد، السباق). وفي الواقع، يمكن استخدام هذا الحصان العربي البربري المهجّن في جميع المجالات، بحكم كونه يبلغ مستوى عاليا من الجودة تبعا لارتفاع النسبة المئوية من الدم العربيّ في أصوله.

وتمتاز هذه الخيول المهجّنة بسماتها الجانبيّة المستقيمة وبحدّة بصرها وقصر ظهرها وتراوح وتيرة سيرها بين خطو الحصان البربري والحصان العربي.

وفي أقصى الشمال التونسي، يوجد نوع من الخيول الصغيرة القدّ (poney) ينسب إلى جهة المقعد موطنها الأصلي. وتنتشر أيضا في جهتي عمدون ونفزة. ولقد انخفض عددها منذ الحرب العالمية الثانية بعد تكاثر الحرث الآليّ في الجهات الغابيّة بالشمال الغربي التونسي. وتمتاز خيول المقعد بخفّتها ورشاقتها، خاصّة في الجبال والغابات حيث تقيم عادة، ويمكنها العيش متوحّشة دون تدخّل الإنسان. وكانت غالبا ما تستخدم في نقل الفلّين والدباغ.

ويقدّر عدد الخيول في تونس بحوالي 225.000 رأس، منها 31.500 بربريّة ومهجّنة عربيّة وبربريّة، و3000 عربيّة أصيلة و1500 إنقليزيّة أصيلة وحوالي 1000 من خيل المقعد. ويشتغل في قطاع الخيول مائة ألف شخص تقريبا، على نحو مباشرة أو غير مباشر.

وما زالت الخيول تستخدم للجرّ وفي الأشغال الفلاحيّة، رغم انتشار الآلات بأنواعها، كما تستخدم في الحفلات والتظاهرات الفلكلوريّة ومهرجانات الفروسيّة وعند البدو بمناسبة حفلاتهم وأعراسهم.

وتوجد في قصر السعيد والمنستير حلبتان تنظّم فيهما مباريات سباق الخيول العربيّة والإنقليزية الأصيلة، كما تنظّم مباريات جهويّة تتسابق فيها الخيول البربرية والعربيّة البربريّة المهجّنة.

إبراهيم الحصري

[ت413هـ/1023م]

هو إبراهيم بن علي بن تميم الحصري الأنصاري القيرواني. كنيته أبو إسحاق. كان شاعرا فحلا وأديبا رقيقا ذا تآليف كثيرة. عاش بين القيروان حيث كان يعلّم الأدب وصبرة المنصورية التي كانت قاعدة إدارية لدولة بني زيري. لا نعلم شيئا كثيرا عن حياته وتنقلاته. ولعله قضى وقتا طويلا من حياته في تأليف الكتب وتعليمها لطلاب العلم. أكثر شعره في الوصف والإخوانيات. أمّا مؤلفاته فأهمها:

– زهر الآداب وثمر الألباب: وهو مختارات متنوعة من الأدب مزج فيها الجدّ بالهزل على طريقة الجاحظ في تآليفه، كما مزج النثر بالشعر استجابة لذوق الجمهور وتسهيلا على القارئ المتعلم. ويرجح الشاذلي بو يحيى أن يكون قد ألفّ هذا الكتاب بطلب من أحد الأعيان الصنهاجيين. وهو أبو الفضل العباس بن سليمان. (الحياة الأدبية، ج 1 ص110).

– جمع الجواهر في الملح والنوادر: هذا الكتاب يدلّ على فحواه عنوانه. فقد جمع فيه الحصري نوادر الشعراء والكتاب والمجّان في لغة

مبسّطة دون تشدّق ولا تقعّر. وقد طبع أكثر من مرة.

– المصون في سر الهوى المكنون: لهذا الكتاب صبغة موسوعية يتناول فيه الحصري عاطفة الحب بوجه عام ويستند فيه إلى أقوال العلماء والفلاسفة اليونانيين ولا غرابة في أن يكون كتاب المصون قد أثر أيما تأثير في ابن حزم القرطبي عند تأليفه لكتابه طوق الحمامة (انظر الشاذلي بويحيى، الحياة الأدبية، ج 1ص 115).

توفي إبراهيم الحصري بالمنصورية قريبا من القيروان سنة 413هـ/1023م.

علي الحصري القيرواني

[420–488هـ/1029– 1095م]

هو أبو الحسن علي بن عبد الغنيّ الحُصري أحد أدباء القيروان في القرن الخامس الهجري. وهو المشهور بقصيدته التي يقول في مطلعها:

يا ليل الصبّ متى غده   أقيام الساعة موعده

ولد في القيروان سنة 420هـ/1029م. وهو ينسب إلى الحُصْر بتسْكين الصّاد لا فتحها وهي على ما يبدُو قرية صغيرة من قرى القيروان التي اندثرت مع مرور السّنين (ح.ح. عبد الوهاب، المنتخب، ص60) وإلى القرية نفسها يُنْسبُ خاله الأديب إبراهيم الحصري (ت 413هـ/1022م) صاحب الآثار الأدبيّة الغزيرة التي منها زهر الآداب وثمر الألباب والمصون في سرّ الهوى المكنون. فلا غرابة في أن ذُكر الحصريّان معا في أعلام إفريقيّة الذين تكوّنت منهم المدرسة الأدبيّة في العصر الصنهاجي. وقد عرّفه الأستاذ الشاذلي بويحيى في كتابه الحياة الأدبية (ج1ص391) فقال: «كان علي الحصري متضلّعا من علوم القرآن وقد درسها وأحرز فيها مرتبة الأستاذ الأعلى حسب عبارة ابن دحية في كتابه المطرب من أشعار أهل المغرب، كما كان مترسلا وشاعرا ماهرا صاحب براعة مذهلة في التصرّف في هذا الفن، تساعده في ذلك سعة معرفته بالعربية وتحكمه في صناعة الشعر إلى درجة الكمال». وهو من أبرز وجوه النهضة الأدبيّة في عهد بني زيري. أسهم الحصري إلى جانب غيره من المغتربين الأفارقة في نشر أنوارها الباهرة بالأندلس حيث كان يعدّ زعيم جماعة على حدّ قول ابنِ بسام في الذخيرة (ص191ج1). وقد عُرِفَ الحصري بالضرير لفقده البصر وهو طفل صَغير. وكانت هذه العاهة سببا في تبرّمه وتشاؤمه حتى إن بعض النقاد شبهوه بأبي العلاء المعري لا في هذه العاهة فقط وإنّما من جهة اشتراكهما في بعض أغراض الشعر والتزام ما لا يلزم. يقول الحصري عن عماه جاعلا منه سببا من أسباب نبوغه وتميّزه:

وقالوا قد عميتُ فقلت كلاّ
فإنّي اليوم أبصرُ من بصير
سواد العين زاد سواد قلبي
ليجتمعا على فهم الأمـور

حلّ الحصري بالأندلس. ولقي نجاحا وصيتا عند الأمراء. فقد قال ابن بسّام عن حياة الحصري في الأندلس اطرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه القيروان والأدب يومئذ بأفقنا نافق السوق معمور الطريق فتهادته ملوك طوائفها تهادي الرياض بالنسيم وتنافسوا فيه تنافس الديار بالأنس المقيم (الذخيرة، مجلد 1من القسم الرابع ص196). وقد اتصل بالمعتمد بن عباد ملك اشبيلية سنة 462 هـ وأصبح ضمن شعراء بلاطه ثم «تسابق إلى دعوته ملوك الطوائف الذين تنافسوا في إكرامه ورفده. وكان يتفادى العدد الوافر من الحساد والأعداء الذين دعاهم إلى الوقوف ضده غبْطُهُمْ إياه على حظوته لدى الأمراء، بقدر ما ألّبهم عليه ما عُرف به من المهارة الشعرية وسعة العلم مع صلفه وتعاليه وأهاجيه الشديدة اللاذعة وازدرائه الأندلس وملوكها وأهلها وعلمائها بشكل يكاد سكون

سافرا» (بويحيى، الحياة الأدبيّة، ج 1. ص391). ولم يشتهر الحصري في كتابة النثر شهرته في قول الشعر. ولنا في المعشّرات واقتراح القريح خير دليل على ذلك.

المعشّرات: هي قصائد التزم فيها صحابها بالعدد عشرة في كل قصيدة من قصائده. ومن ثمّ جاءت تسميتها بالمعشّرات. وزاد إلى ذلك التزامه جميع حروف الهجاء رويّا لقوافيه وحرفا أول لكل بيت من الأبيات العشرة. فكان عدد أبياتها 290 بيتا بإدخال لام الألف في العدد. أما موضوعها فواحد هو الغزل باعتباره غرضا مستقلا بذاته وليس نسيبا يتصدّر مطالع القصائد المدحيّة. وقد أعلن الحصري عن موضوعه في أوّل معشر. فقال:

أمَا لَكَ يا داءَ المحبّ دواء
بلى عند بعض الناس منك شفاء
أسيرا العدا بالمال يفديه أهله
وما لأسير الغانيات فداء

وسمة هذا الغزل على العموم أن يكثر فيه البكاء على الحبيب المفارق والعتاب على من تسبّب في الهجر والشكوى من العاذل والرقيب والكاشح والاستمتاع بالحديث عن الذكريات السعيدة انطلاقا من حاضر الشاعر المتأزّم. وقد استساغت الذائقة العربية منذ الجاهلية هذا النوع من الشعر الذي تكون فيه المرأة مطلوبة والشاعر طالبا وهي الصادّة المتمنّعة وهو المتيّم بالحبّ الهائم على وجهه إلى درجة أن كان للعرب شرقا ومغربا من سمّوا بالشعراء العشّاق فضلا عن الشعراء المجانين. وقلّ عدد الشعراء الذين لم يقولوا في الغزل أو النسيب. وقد وجد الحصري في ظروف حياته القاسية ما شجّعه على الكلام على مفاتن المرأة وصدّها ودلالها وربّما عن غدرها وخيانتها للرجل. وهو إذ يمزج بين الصفات الحسنة وضدّها يشير بذلك إلى صنيع زوجته التي هجرته وهو في أمسّ الحاجة إليها لقلة الأصدقاء وكثرة الأعداء زيادة على فقده لابنه عبد الغني وما خلّفه ذلك في نفسه من حسرة ولوعة على المفقود وتبرّم بالحياة وتشاؤم منها. وفي هذا يقول:

أتأمرني بالصبّر عمّن أحبهِ
وهيهات مالي في هواه عزاء
أموت اشتياقا ثم أحيا لشقوتي
كذاك حياةُ العاشقين شقـاء

وإن قارئ المعشّرات يجد فيها صدى لشعر شعراء بادية الحجاز في القرن الأول الهجري أمثال جميل وكثيرة عزّة ومجنون بني عامر.

اقتراح القريح واجتراح الجريح:

ديوان شعر ضخم يتقدّمه قسم نثري في الزّهد والمواعظ. ويشتمل هذا الديوان على 2600 بيت. (بويحيى، الحياة الأدبية ج1، ص394) أغلبها في رثاء ابنه عبد الغني (475 هـ/1082م) وتصوير لوعة الشاعر وأساه على فقده ابنه الذي اختطفه المنون على صغر سنّه.

علي الحطاب

[تـ 671 هـ/ 1271م]

هو أحد أبرز أقطاب التصوّف بإفريقية من أولئك الذين ظهروا في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وأول أصحاب أبي الحسن الشاذلي الأربعين. كان أبو الحسن علي الأبرقي الملقّب بالحطاب يقطن في مبتدإ حياته منطقة شاذلة بقرب المرناقية (مقامه حاليا) ويكثر من الزهد والتعبّد، ويجدّ في طلب المعارف الدينية والأسرار في العلوم الصوفية وكان له ميل شديد إلى السياحات الروحية وزيارة مقامات الأولياء، مكتفيا ببيع الحطب لتأمين حاجته وحاجة عائلته من الغذاء. وقد تعرّف إلى أبي الحسن الشاذلي عند قدومه إلى تونس سنة 621هـ/1223م، بعد أن أشار عليه شيخه عبد السلام ابن مشيش بأن ينزل منطقة شاذلة

بإفريقية. وكان لقاؤهما في مصلّي العيدين بباب منارة فاصطحبه وتتلمذ له في الآن نفسه وأكرم وفادته فكان بذلك الإمام الشاذلي وعلي الحطاب وأبو حفص عمر الجاسوسي (ت636 هـ/1238م) أبرز ثلاثة قامت عليهم أسس الطريقة الشاذلية في تونس التي اندمجت فيها كذلك حلقة أبي سعيد الباجي (628هـ/1231م) وهو من أساتذة الشاذلي كذلك. وكان ميعاد الباجي ومجلسه ينعقد بربوة المنار (سيدي أبي سعيد حاليا) وجبل التوبة (جبل الزلاج والمغارة الشاذلية حاليا). وقد صار الإمام الشاذلي شيخا لهؤلاء بعد وفاة أبي سعيد الباجي الذي خصّه منذ قدومه من بلاد المغرب بإحاطة علمية وروحية متفردة.

وعلى الرغم من تواتر ذكر سيدي علي الحطّاب ووصف جوانب من حياته في سائر كتب التصوّف والتاريخ ومناقب الأولياء فإننا لا نعثر على تاريخ محدد لولادته لكنّنا نعرف أنه كان يشتغل بالتدريس، إذ انتصب مدرّسا بمسجد الصفصافة الكائن بالحاضرة عندما استقرّ بباب الأسواق، ثم استقرّ بـ«البحيرة» بضاحية المرناقية لمواصلة إلقاء دروسه بها.

أمّا على الصعيد الاجتماعي فقد كان إلى جانب الأهالي وعامة الناس في وجه مظالم السلطة الحفصية وتجاوزاتها آنذاك وهو ما انتهى إلى توتر بينه وبين السلطان الحفصي.

وقد كان للحطاب دور بارز في التصدي للخطر المسيحي الذي هدّد تونس عندما شنت عليها حملة صليبيّة قادها القدّيس لويس سنة 1270م.

ويظهر أن علي الحطاب كان في مقدمة شيوخ التصوّف ومريدي الطريقة الشاذلية بعد عودة أبي الحسن الشاذلي الثانية إلى مصر، وهو ما ظلّ يتأكد على مرّ الزمن بتنظيم خرجة سيدي علي الحطاب التي كانت تقام بمقامه كل سنة من آخر فصل الربيع، ويسهر على إقامة هذه الخرجة مريدو الطريقة الشاذلية. وبعدها تبدأ أسابيع الذكر والإنشاد والتلاوة بأعلى مقام الشاذلي بجبل الزلاج بتونس كل يوم خميس ليلا، وعلى امتداد 14 أسبوعا.

زاوية سيدي علي الحطاب



بُنيت النواة الأولى من هذا المعلم في القرن 7هـ/13م، وقد عرف عدّة إصلاحات عبر التاريخ، من أهمّها توسعته وإعادة تهيئته في أواخر ق. 19 وبداية ق. 20. وكانت الحالة العامة لهذا المعلم متردية (تداعي الأسقف والجدران، وتآكل عناصر الزخرفة ومعاناة الأرضية والحيطان من الرطوبة وتردي حالة القباب وشبكات الكهرباء وتصريف المياه). وقد انطلقت اشغال الترميم سنة 1995 بإشراف «الوكالة الوطنية لاحياء التراث» بعد أن أجريت الدراسات الضروريّة بالتعاون مع المعهد الوطني للتراث، وشملت الأشغال ترميم الفضاءات، ذات الأولوية ثم تلتها بقيّة الاجزاء. وبفضل هذه الترميمات التي بلغت كلفتها 100 ألف دينار تمّ تدعيم قبّة الضريح وتجديد الجليز والنقش على الجص والأرضيات والسطوح والملاطات والوحدات الصحيّة.

وتوجد زاوية سيدي علي الحطاب بالمرناقية من أحواز تونس الغربية.

المؤسسة التونسية لحماية حقوق المؤلّفين

أحدثت هذه المؤسسة التابعة لوزارة الثقافة بموجب القانون عدد 36 المؤرّخ في 24 فيفري 1994 . وهي مؤسّسة عموميّة ذات صبغة صناعيّة وتجاريّة لها شخصيّة مدنيّة واستقلال مالي. وضبط تنظيمها بالأمر عدد 2230 المؤرّخ في 11 نوفمبر 1996. وقد حلّت محلّ الجمعيّة التونسيّة للمؤلّفين والملحّنين لتضطلع بالمهامّ التالية:

أ) رعاية حقوق المؤلّفين والدفاع عن مصالحهم الماديّة والمعنويّة.

ب) تمثيل أعضائها وجمعيّات المؤلّفين الأجنبيّة أو أعضاء هذه الأخيرة لدى مستغلّي المصنّفات،سواء كان هذا التمثيل بموجب تفويض أو نتيجة اتّفاق متبادل.

ج) تحديد المعاليم الراجعة إلى كلّ صنف من أصناف التأليف. وقد وضّح الفصلان 25 و26 من أمر تنظيم المؤسّسة طريق عملها إذ تتولّى:

1- تلقّي جميع التصريحات التي تسمح بتعريف الأعمال وتسجيلها والتعرّف إلى أصحابها ومستحقّيها.

2- تسليمهم الرخص المتعلّقة بنقل المصنّف في صيغة ماديّة مهما كان نوعها، بما في ذلك المسجّلات الصوتيّة والسمعيّة البصرية أو غيرها.

3 - ضبط الشروط الماليّة والماديّة لاستغلال هذه الأعمال حسب المواصفات الجاري بها العمل في المؤسّسات الأخرى الشبيهة بها.

4 - استخلاص العائدات المتأتّية من ممارسة حقوق المؤلّفين وتوزيعها، وذلك لصالحهم أو لصاح مستحقّيهم.

5- تمثيل أعضائها أو جمعيّات حقوق التأليف الأجنبيّة أو أعضائها إزاء مستغلّي المصنّفات، سواء بفضل وكالة أو بفضل اتّفاقيّة تبادل.

6 - ممارسة حقّ التتبع باسم مؤلّفي المخطوطات وأصحاب المصنّفات التخطيطيّة أو التشكيليّة عملا بأحكام الفصل 25 من القانون المشار إليه اعلاه عدد 36 لسنة 1994 وكذلك باستخلاص العائدات المتأتّية منها لصالحهم وتوزيعها.

7- إدارة جميع الحقوق التي يحوّل محصولها إلى الصندوق الاجتماعي والثقافي المشار اليه في الفصلين 23 و24 من هذا الأمر.

8 - التصرّف في مصالح مؤسّسات حقوق التأليف الأجنبيّة بأنواعها في إطار المعاهدات أو الاتفاقيّات المبرمة معها، وذلك في كامل التراب التونسي.

9 - سنّ سياسة خاصّة بالنشاط الثقافي والاجتماعي لصالح المبدعين التونسيين وتحديد قواعد خاصّة بأخلاقيّات المهنة.

10 - التقاضي لدى المحاكم واتّخاذ جميع الإجراءات والقيام بجميع الاعمال الهادفة إلى تحقيق أغراضها على أحسن وجه.

وقد أحدثت ثلاث لجان نظاميّة وهي:

– «لجنة الحسابات» وهي مكلّفة بالتحقّق من المداخيل والمصاريف وبمراقبة الحسابات.

– «لجنة مطابقة المصنّفات في مختلف مجالات الفنون» وهي تنظر في المصنّفات المودعة وتحدّد صحّة انتمائها إلى القائم بالتصريح.

– «لجنة مراقبة المصنّفات العلميّة والأدبية والمسرحيّة» وهي مكلّفة بتصنيف المصنّفات المصرّح بها للمؤسّسة.

الحلفاء: الواقع والآفاق

تنتمي الحلفاء إلى الفصيلة النّجيلية، وهي نبات معمّر يوجد بشمال إفريقيا فحسب ويغطّي مساحات شاسعة خاصّة بالمناطق القاحلة للبلاد التّونسية في شكل خصلات وموائد. لهذه النّبتة أهميّة اقتصاديّة واجتماعيّة ولها استعمالات

متعدّدة، كما أنّها تقوم بدور فعّال في حماية أديم الأرض من الانجراف والانجراد.

وقد بيّن الكثير من الباحثين أنّ الكساء النّباتي الحالي لموائد الحلفاء لا يعتبر ذروة نموّ النّبات لكنه يعدّ مرحلة تطوّر ارتدادي. ويعتبر لونف ولوهورو (Long et Le Hourou 1954) أنّ موائد الحلفاء ليست النّبات الطّبيعي والأصلي لكنّها حلّت محلّ الأشجار اللّيفية التي انقرضت عندما استقرّت السّهوب النّحيليّة. ويتّفق المتخصّصون في علم المناخ أنّه منذ ما يربو على ألف سنة تميّز المناخ في تونس باستقرار بارز (1969 ولوهورو Le Hourou) ونحن نورد هذا المعطى في هذا المجال بالذّات لنؤكد أنّه لا يمكن اعتبار المناخ عاملا مسؤولا عن تدهور الكساء النباتي وإتلاف الغابات والتصحّر المتواصل بحيث تعزى هذه المظاهر أساسا إلي عمل الإنسان.

تقدّر بعض الدّراسات التّراجع السّنوي لمساحات الحلفاء بـ 1500 هكتار سنويا وفي ظرف 79 سنة تمّ إتلاف ما يقارب 59٪ من المائدة التّونسيّة. لكنّ هذه النّسبة مهما كانت مقلقة فهي لا تعكس إلا جزءا من الواقع لأنّها لا تمثّل سوى المعدّل الذّي يخفي التقدّم الحاصل في وتيرة تبدّد المائدة.

وإذا تواصلت نسبة التّراجع بهذا النّسق فلن تتعدّى المساحات المتبقّية ربع ما كانت عليه منذ 100 سنة خلت. ومثل هذه الأرقام تدعو إلى بعث مشروعات مختصّة في آجال قريبة تتطلّب تدخّلا ناجعا لاجتناب إتلاف هذه الموائد وإعادة إعمارها.

أسباب تدهور موائد الحلفاء:

1- استصلاح الأراضي:

منذ القديم عرفت موائد الحلفاء تعاقب أجيال إنسانيّة مهمّة. وإذا اعتبرنا منطقة القصرين، الإطار الجغرافي لهذه الموائد، فإنّ نسبة 77٪ من سكّانها كانوا من البدو ينتشرون في مجموعات صغيرة مكوّنين بذلك ما يسمّى الدوّار وسط موائد الحلفاء ويعيشون أساسا من قطاف الحلفاء وتربية الماشية وبدرجة ثانية من الفلاحة. وهو ما يدفع بهم إلى استصلاح الأراضي واستغلالها في الزّراعة على حساب مساحات الحلفاء.

وتتعرّض موائد الحلفاء إلى الإتلاف خاصّة في السّهول (المنخفضات والوديان) حيث كانت دائما مستهدفة من الاستصلاح المفرد باستعمال الحرق والمحراث وكلّ أنواع الآلات الفلاحيّة. وقد انتشرت حدائق المرتفعات المحيطة بسبيطلة والقصرين وحاجب العيون وجلمة وبن عون والحفي وحقولها على حساب موائد الحلفاء التي استصلحت وغرست لوزا وزيتونا

وبناء على ما تقدّم تنحصر موائد الحلفاء حاليّا في جبال يكون الوصول إليها صعبا. أمّا على مستوى السّهول فهي متلفة تماما مع تزايد الضّغط البشري عليها. ولم يبق من موائد السّهول إلا ما وجد على القشرة الكلسية غير الصالحة لزراعة الأشجار والحبوب.

2- الرّعي المفرط:

كانت منطقة الوسط للبلاد التونسية ومازالت منطقة لتربية الماشية (ماعز، غنم، بقر، خيل...) وهي تربية توسيعيّة تقام على أراض واسعة مع بذل جهد قليل للعناية بها. ويتجاوز عدد رؤوس الماشية بكثير قدرة المائدة على توفير المرعى. أضف إلى ذلك النقص الشديد للعلف. وهو ما يؤدّي إلى نتيجة واضحة ثابتة. وهي تدهور المائدة واندثار آلاف هكتارات الحلفاء.

وفي هذا المجال صدرت دراسة بمجلّة

(Sécheresse) تحمل عنوان: «تراجع الحلفاء مؤشّر انجراد السهول الجزائيّة» (Aidoud et Touffet 1996) تؤكّد أنّ الرّعي المفرط هو السبب الأساس لتراجع موائد الحلفاء هنالك، كما أنّ استئصال نوع مثل الحلفاء له نتائج وخيمة على توازن مجمل النظام البيئي إذ يؤدّي خاصّة إلى إفقار التنوّع النّوعي وإتلاف خصائص التّربة.

3- الاستغلال الصناعي:

كان استغلال الحلفاء اعتباطيا لا يخضع إلا لقاعدة الطلب، إذ كان يستمر على امتداد السنة ثمّ حدّد بـ 9 أشهر فـ 6 أشهر، كما أنّ توزيع نقاط الاستغلال على مستوى المائدة غير محكم. فهو استغلال مبالغ فيه بالنّسبة إلى الموائد القريبة من مركز الجمع، في حين يبقى هذا الاستغلال ضعيفا بالمناطق البعيدة وصعب المنال. وفترة الجمع لا تحدّد حسب بيولوجيا النّبتة. فالاستغلال في أثناء الفترة الخضريّة يعرقل نموّها، كما أنّ لجني المحصول في الفترات التي تكون التربة مغمورة بالمياه أ وجافّة نتائج سلبيّة لأنّه يؤدّي إلى اقتلاع جزء من النّباتات بجذورها.

4- مفعول الطفيليّات:

تتعدّد الطفيليّات التي تصيب نباتات الحلفاء. فهي إمّا من فصيل الحشرات أو الفطريّات. وتكون نباتات المناطق المستغلّة منهكة ومن ثمّة أكثر عرضة لهذه الطّفيليّات، إذ تجد صعوبة كبيرة في التجدّد خاصّة أنّ بقايا أوراق الفروع المتآكلة بالفطريّات تتراكم وسط الخصلة وتكوّن تلبّدا يسمّى ركاما يخنق براعم المركز وهو ما يمنع الخصلة من التّجدّد.

بعد أن ذكرنا جلّ أسباب التدهور من المهم التعرف إلى بعض خصائص هذه النّبتة.

خصائص نبتة الحلفاء:

مثلما كانت الحلفاء نباتا معمّرا فإنّها تظهر تفاعلات بيولوجيّة مرتبطة وثيق الارتباط بالظّروف المناخيّة ونوعية التّربة والوسط البيئي. ويتميّز هذا النّبات ببعض الخاصّيات البيولوجيّة نذكر بعضها: (التّكاثر الخضري والتّكاثر الجنسيّ) وأيضا تتميز الحلفاء بخصائص تّشكيليّة وتّشريحيّة: (الخصلة بجزئيها الهوائي والتّحأرضي) إضافة إلى الخصائص البيئيّة المتمثلة أساسا في المناخ والتّربة ومقاومة الجفاف.

كيف يقاوم تدهور موائد الحلفاء؟

بعد التعرّض إلى أسباب التّدهور، يحسن تقديم بعض الحلول الملائمة، كما ارتأتها بعض الدراسات:

- تنظيم استغلال المراعي
- تنظيم الاستغلال الصّناعي للحلفاء
- تمديد موائد الحلفاء: (التجديد عن طريق التكاثر الجنسي / التّجديد بالحروق /الحشّ/ التنظيف والتّخفيف / تقشيش الموائد/ التفريج / المكننة).

إنّ الأهمّية الاقتصادية للحلفاء معروفة منذ زمن بعيد. والمكانة التي تحتلّها في صناعة الورق تبرّر أهمّية هذا النوع النّباتي في برامج البحث التي تتناول بالدّرس الأنواع الغابية.

وفي الميدان الفلاحي لا يزال للحلفاء دور مهمّ في الموارد العلفيّة، في الماضي بالنّسبة إلى الإبل وفي وقتنا الحاضر بالنسبة إلى قطعان الماعز والغنم خاصّة في سنوات الجدب. وعلى المستوى الاجتماعي تقوم الحلفاء بدور مهم في استيعاب اليد العاملة. فإلى جانب القطاف لتمويل المصنع، تمكّن صناعة المنتجات الحرفيّة من تشغيل يد عاملة طيلة مدّة طويلة من السّنة (ما يعادل ثلثي الوقت). وعلى مستوى البيئة تسهم الحلفاء في تثبيت التّربة ومقاومة

الانجراف. وعلى سبيل المقارنة قد تدهورت المناطق التي استصلحت. وتعرّت بسرعة. فالحلفاء بفعل تركيبة خصلتها تكوّن وسيلة ناجعة وملائمة للمنطقة لحماية أديم الأرض إذ تكوّن حاجزا بيولوجيًا لزحف الرمال.

واعتباراً لأهمّيتها في ميداني الفلاحة والاقتصاد ونظراً إلى أثرها الحاسم في المحيط يصبح من الضّروري تطوير برنامج بحث يكون هدفه تجديد موائد الحلفاء. وفي هذا الاتجاه اعتنى المعهد الوطني للهندسة الرّيفية والمياه والغابات بهذه النّبتة اعتناء خاصًا. وكانت محلّ اهتمام الباحثين في عدّة دراسات تناولت عدّة جوانب لها صلة بها. فمنذ 1963 وضع برنامج بحث مواز لبرامج دراسة موائد الحلفاء وتهيئتها.

وفي سنة 1978 صيغ برنامج متعدّد التخصّصات، ورسم له هدف يرتكز على معالجة النّقاط التّالية:

- بيئة الحلفاء (المناخ - التّربة - الانجراف....).
- فينولوجيا الحلفاء
- الأصول الوراثيّة للحلفاء
- تهيئة موائد الحلفاء
- مكننة موائد الحلفاء
- تحسين الإنتاجيّة لموائد الحلفاء بتجربة الطّريق الزّراعيّة.

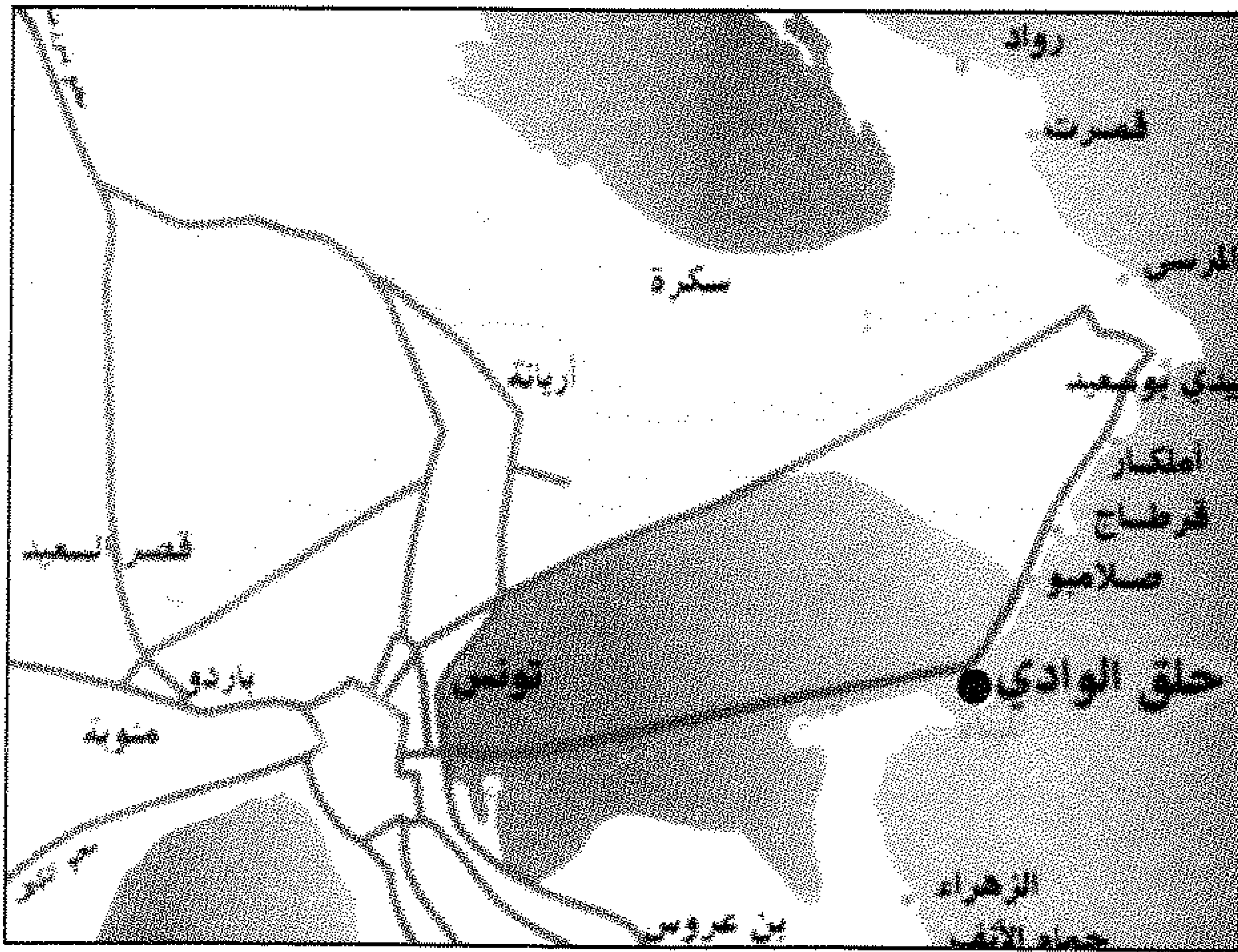
حلق الوادي

في القرن 3هـ أسس الأمراء الأغالبة رباطا في موضع حلق الوادي قُبالة الرباط الذي كان موجودا منذ ق1هـ على الضفة المقابلة للقنال ويعرف برباط رادس، وكان ضمن سلسلة من الرباطات على كامل سواحل إفريقية. وكان رباط حلق الوادي، المعروف بقصر الأمير في العهد الصنهاجي، يضمن، مع ما جاوره من رباطات، حماية خليج تونس والمدينة التي ستصبح عاصمة للبلاد إلى حلول ق10هـ تاريخ وصول جيوش شارل الخامس الإسبانية إلى حلق الوادي. والمعروف أن الصراع الإسباني التركي على البحر وعلى الولايات العثمانية قد أدّى إلى هزيمة الأتراك في تونس سنة 1571م ثم انتصارهم على الإسبان سنة 1574م بقيادة سنان باشا.

ولقد أسّس الإسبان بحلق الوادي، طيلة مكوثهم حوالي أربعين سنة، مدة حكم شارل الخامس وابنه فيليب الثاني، حول الرباط الإسلامي الأغلبي المربع الشكل قلعة كبيرة وسّعوها في وقت لاحق حتى كانت فيما يبدو تقرب من مكان السكة الحديديّة، ووظّفوا في بنايتهم تلك الحجارة المجلوبة من أنقاض الحنايا الرابطة قديما بين زغوان وقرطاج. ولكن الأتراك تمكنوا فيما بعد من تقليص حجم القلعة لتحافظ على حصنين فقط مما بناه شارل الخامس.

وفي ق17م أصبح ميناء حلق الوادي الحربي ذا أهمية بالغة بفضل دعم الأندلسيين المهاجرين للأسطول التونسي انتقاما من أعدائهم النصارى وخاصة الإسبان الذين طردوهم من أوطانهم، وكان منهم من برع في الصناعة الحربية وصنع المدفعية والتحكم في السفن.

وفي بداية ق18م وسّع حمودة باشا الميناء العربي، لكن الدول الأوروبية حالت دون اكتمال



المشروع. ثم جاء أحمد باي لينفق الكثير من أموال الخزينة على أشغال الميناء والقصر الذي ابتناه بجواره. ويبدو أن حلق الوادي بدأت من ذلك التاريخ تصبح تجمّعا عمرانيا بملامحه المعروفة اليوم. فبفضل الميناء اشتغل السكان بالصيد البحري والتجارة، وانضم إليهم عدد من الأوروبيين وخاصة من جاؤوا من إيطاليا ومالطة، ومنهم القناصل والتجار من أصل أجنبي، فاستقرّوا هناك ليؤلّفوا مزيجا من السكان المسلمين والمسيحيين واليهود. وتشهد مبانيهم الدينية والمدنية على دورهم في تمدين حلق الوادي، ونخص بالذكر الكازينو المشهور، وما حوله من بنايات إيطالية الطراز، مثل "كنيسة السيدة فطيمة" (Notre Dame de Fatima).

تُعتبر حلق الوادي رمز التعايش بين التونسيين والأجانب بمختلف الأديان والخصائص المعمارية مما لا مثيل له في مدينة تونسية أخرى إذا استثنينا بعض العمارات الإيطالية الطابع في تونس العاصمة وبعض المباني الأوروبية المتناثرة بقلة في المدن الأخرى.

وهي اليوم منطقة سياحية آهلة بالسياح والمصطافين على شواطئ الضاحية الشمالية للعاصمة، وهو ما ضاعف عدد السكان بها، خاصة في الصيف، وأكسبها حيوية اقتصادية متميزة في مجال النزل والمطاعم على أرصفة الشوارع الرئيسة وعلى طول الشاطئ. ومن بعيد يبدو البرج المعروف بكراكة حلق الوادي الذي كان سجنا في عهد البايات الحسينيين والذي أصبح يحتضن مهرجانها رمزا لأصالة المدينة وخاصية مميزة لطبيعتها العسكرية القديمة.



محمّد الحليوي

[1907– 1978م]

هو الأديب محمّد بن عبد السّلام بن أحمد بن الشّيخ علي بن الحاج قاسم الحليوي. ولد بالقيروان في 3 أوت سنة 1907 وتوفّي بها في غرّة سبتمبر 1978. تردّد في طفولته على الكتّاب بمسقط رأسه وحفظ القرآن الكريم. ثمّ انتقل إلى المدرسة القرآنيّة، وأتمّ دراسته الابتدائيّة بالمكتب العربي الفرنسي وحصل منه، سنة 1924، على الشّهادة الابتدائيّة التي كانت تعفي من الخدمة العسكريّة. واجتاز في السنّة نفسها بنجاح مناظرة مدرسة ترشيح المعلّمين بتونس العاصمة حيث أمضى بالقسم الإسلاميّ منها ثلاث سنوات. وتخرّج معلّما لتدريس اللّغة العربيّة بالمدارس الابتدائيّة.

ولئن كان يعسر الكشف عن سرّ الموهبة التي تجعل من الإنسان كاتبا مبدعا وأديبا مجلّيا فإنّ عوامل التّكوين وأسباب تنمية تلك الموهبة قد تبسّط الحليوي في تحليلها في أكثر من مناسبة في الرّسائل والمجلاّت وتناولها بالذّكر أو بالدّرس بالخصوص أصدقاؤه والباحثون بوجه عام.

فقد عرف عن الحليوي أنّه كان ميّالا إلى العزلة. فهو قليل المغادرة لمنزله بعد عناء العمل وفي أوقات فراغه. بل إنّه كان، كما يذكر ابنه الأستاذ عبد الرّزّاق الحليوي، «يتراجع بعد أن يعزم على الخروج... وكان يجد في الكتب أنسا وسلوى فيحشر نفسه وفكره بين أوراقها ؛ ويحكم إغلاق مكتبته ليحاور في صمت القانتين نبغاء الفكر وعظماء الشعر». ولم يكن راضيا عن هذه النّزعة فيقول: «نعم لقد أغلقت باب مكتبتي

حتّى لا تدخل إليّ ضجّة العالم، ولكنّني بإغلاقه انعزلت عن العالم، وأصبحت لا أعرف من الحياة إلاّ ما عرّفتنيه الكتب. والكتب تفسّر الحياة ألف تفسير، وتذهب فيه ألف مذهب، ولا تفيد إلاّ الحيرة واضطراب الفكرة». ولكنّه في الواقع، وإن تأثّر بالكتب في اتّجاهه الرّومنسي، فقد كان إفرازا موضوعيّا لتكوينه في أثناء الدّراسة ولتأثّره ببيئته التّونسيّة عامّة والقيروانيّة خاصّة.

كانت الدّراسة في جيله غير موحّدة المشارب ولا المناهج والأهداف. فإلى جانب التّعليم الزّيتونيّ التّقليديّ المرتكز على تعليم اللّغة العربيّة وآدابها والتّبحّر في الإسلام دينا وحضارة، نجد المدرسة الصّادقيّة بتعليمها العصريّ وتأثّرها بالمنهج الفرنسي ومحافظتها قدر الإمكان على تلقين اللّغة وأدبها، فهي «لم تسلم كل السلامة ولا أصيبت كل الإصابة» على حدّ قول محمود المسعدي. وكذلك معهد كارنو وما شابهه بتكوينه الفرنسي البحت واقتصاره فيما يخصّ التونسيين على تلقين اللغة العربية لغة ثانية. ولكن قل أن أشيد بالقسم الإسلامي من مدرسة ترشيح المعلمين بتونس الذي خرّج، بفضل دروس مشايخ من جامع الزيتونة مثل أبي الحسن النجار وأبي الحسن بن شعبان ومحمد البشير النيفر، نخبة كان لها تأثير في الحياة العامة إسهام مهمّ في الساحة الأدبية في أثناء الثلاثينات والأربعينات وما بعدها من أمثال محمد البشروش ومحمد زيد وأحمد اللغماني وعلي بن هادية وفرج الشاذلي، وكان أبرزهم محمّد الحليوي الذي تجاوزت سمعته تونس إلى المشرق العربي بمقالاته في مجلة «أبولو» وبعض الجرائد المصرية وانتصاره لعباس محمود العقاد في معركته ضد مصطفى صادق الرافعي.

ولم يقتصر محمّد الحليوي على هذا التكوين بل انضمّ بعد تخرّجه في مدرسة ترشيح المعلمين إلى المدرسة العليا للّغة والآداب العربية في عهد إدارة المستشرق الشهير وليام مرسي. ولكنه كان متبرّما من الترجمة فقد شكا إلى صديقه أبي القاسم الشابي «الانكباب على كتب الترجمة والاندماج في حماقاتها المضنية». وهو وإن تبرّم من ذلك فقد تمكّن من النفاذ إلى أسرار اللغتين، بعد أن تجذّر في لغته الأم. والترجمة كما يقال هي أن تتعلّم لغتك ثانية. ولكنه غنم في هذه المدرسة دروس الشّاعر والرّاوية محمّد العربي الكبادي الذي أقرأ مريديه أمّهات الأدب العربي مثل الكامل للمبرّد، والمثل السائر لابن الأثير، والعمدة لابن رشيق، والبيان والتبيين للجاحظ، والصناعتين وديوان المعاني للعسكري، وغيرها من الكتب العالية. وكان يعقب تلك الساعة بساعة أخرى في فقه المعاملات.

كان إذن تكوين محمّد الحليوي متينا في اللّغة العربيّة وآدابها يعضده في ذلك حذقه للّغة الفرنسيّة. فأكسبه هذا بعدا تميّز به، في هذا الباب، عن أصدقائه من أمثال أبي القاسم الشابي فأفادهم وأفاد السّاحة الأدبيّة بالتّعريف بكبار الكتّاب الأوروبيّين وخصوصا الرّومنسيّين منهم. كما كسب كثيرا من نشأته بالقيروان واحتكاكه بشعراء أفذاذ أمثال صالح سويسي والشّاذلي عطاء اللّه ومحمّد الفائز، المعروفين بحماستهم في الذّود عن مقوّمات الهويّة الوطنيّة.

إنّ هذه العوامل كلّها جعلت محمّد الحليوي يخضع للمضمونيّة الوطنيّة التّجديديّة مثل البشروش والشّابّي وغيرهما. وهي المحدّدة أساسا للأغراض الأدبيّة الّتي سيخصّص الحليوي حياته كلّها لطرقها بمختلف الأساليب والتّفريعات شعرا ونثرا.

لكنّ شيوع الرّومنسيّة في تلك الفترة على أيدي كتّاب المهجر من أمثال جبران خليل جبران، وولع الحليوي بهم – وهو الذي قاده إلى الاطّلاع على الرّومنسيّين الأجانب في اللّغة الفرنسيّة – كان عاملا آخر من العوامل التي كيّفت إنتاج الحليوي.

والرّومنسيّة تلتقي مع الأهداف الوطنيّة في عدّة أغراض وأهداف. وبالطّبع فإنّ مهد

الرّومنسيّة كان في أوروبّا. وكانت أغلب أقطارها، عند شيوع هذا الاتّجاه، تناضل من أجل قوميّاتها. فكانت «بلدانها المستعبدة ليس لها من صوت إلاّ أدبها الذي يوحي لها بكيانها ذاته، ويؤجّج الحماس في ضميرها ويسمح لها بالتّعبير عن طموحاتها في فترة معيّنة من تاريخها». وهو وضع شبيه بالوضع السّائد في البلدان الرّازحة تحت نير الاستعمار ومنها تونس. «وإذا حاول الرّومنسيّ التّحرّر والوقوف على أرض صلبة فإنّه يرفض بقوّة تقليد القدامى الذين كان، قبل ذلك العهد، يأخذهم مثالا يحتذى، هذا يصحّ على الأقلّ في البلدان الّتي عرفت الكلاسيكيّة. وبما أنّه يصبح عدوّا للتّقاليد فهو يريد أيضا أن يكون كما هو، متفرّدا، صادقا قلبا وقالبا؛ ويبدأ ترحاله بحثا عن ذاته، منطويا على نفسه وعلى عالمه الخاصّ، ليتسنّى له النّظر إلى نفسه وإلى الطبيعة الإنسانيّة في كل مظاهرها. وهكذا يقدّم إلينا الرّومنسي طريقة جديدة في الإحساس والتّفكير والتّعبير وفي تصوّر الواقع تصوّرا جديدا وفي الوقوف تجاه الحياة موقفا جديدا».

وانطلاقا من الموهبة الّتي هي أساس كلّ نبوغ يمكن الجزم بأنّ تضافر هذه العناصر كلّها، في سياق الأهداف الوطنيّة، وانسياقا إلى موجة الرّومنسيّة الغالبة في ذلك العصر، وتأثّرا بأدباء المهجر وقادة التّجديد في مصر من أمثال محمود عبّاس العقّاد وكبار الأدباء من جامع الزّيتونة في تونس العاصمة، وأساطين الأدب في العالم، وتفاعلا مع البيئة الأدبيّة القيروانيّة، كان إنتاج محمّد الحليوي الأدبيّ زاخرا بقضايا عدّة، معبّرا عن خصوصيّته المتفرّدة، الضّاربة في عمق الأنا، فردية وعاطفة جيّاشة، وشعورا بالألم والحزن والكآبة، وميلا إلى الانزواء والخفي من المشاعر المبهمة ونزوعا إلى التمرّد على القديم، ونشدانا للتقدّم والتّجديد والرّفعة. ولكنّ هذه الخصوصيّة لم تقعده عن الالتحام بشعبه، والرّجوع إلى المنابع القوميّة، والإيمان برسالة الشاعر والفنّان إلى حد النّبوّة.

ويجدر التنبيه إلى أنّ محمّد الحليوي واكب فترات عدّة من حياة الشّعب التونسي سياسيّا وفكريّا وأدبيّا. وكان دائما حسّاسا لما يحدث من مستجدّات في جميع الميادين. لذا كان يراجع نفسه في عدّة قضايا منها قضيّة الالتزام وخصوصا بعد استقلال البلاد. فكانت مشاركاته تدلّ على وعي عميق بدور الأديب والنّاقد والشّاعر.

فهو يعتقد أن «ثقافة المستقبل بالنسبة إلى تونس يجب أن تكون... قوميّة أي تونسيّة عربيّة اللّغة، إسلاميّة الرّوح، لكنّها متّسعة الأفق، شامخة، تمقت الانزواء والانطواء، وتتطّلع إلى ما عند الأمم من ثروات روحيّة وفكريّة... ونحن ننعت الثقافة بالقوميّة وإن كان من طبعها الاتّساع والشمول والإطلاق، كي نحمي المثقّف التونسي... من أن تكون ثقافته ضربا من التلفيق والترف العقلي الذي لا يصلح نفسا، ولا يكيّف فكرا، ولا يهذّب سلوكا...».

وهو وإن كان مجدّدا، مؤمنا بالتقدّم فهو لا ينفكّ يوصي بالحذر حتّى لا يختلط الحابل بالنّابل. فهو عندما يعلن عن ضرورة تطوّر اللّغة العربيّة ويرى وجوب تحديثها يغار عليها ويخاف «أن يفهم من تعطيهم الحريّة لكي يعقلوا اللّغة ويعوها الوعي الكامل أن يسيئوا الفهم والوعي وتمتلئ علينا الدّنيا بالأدعياء».

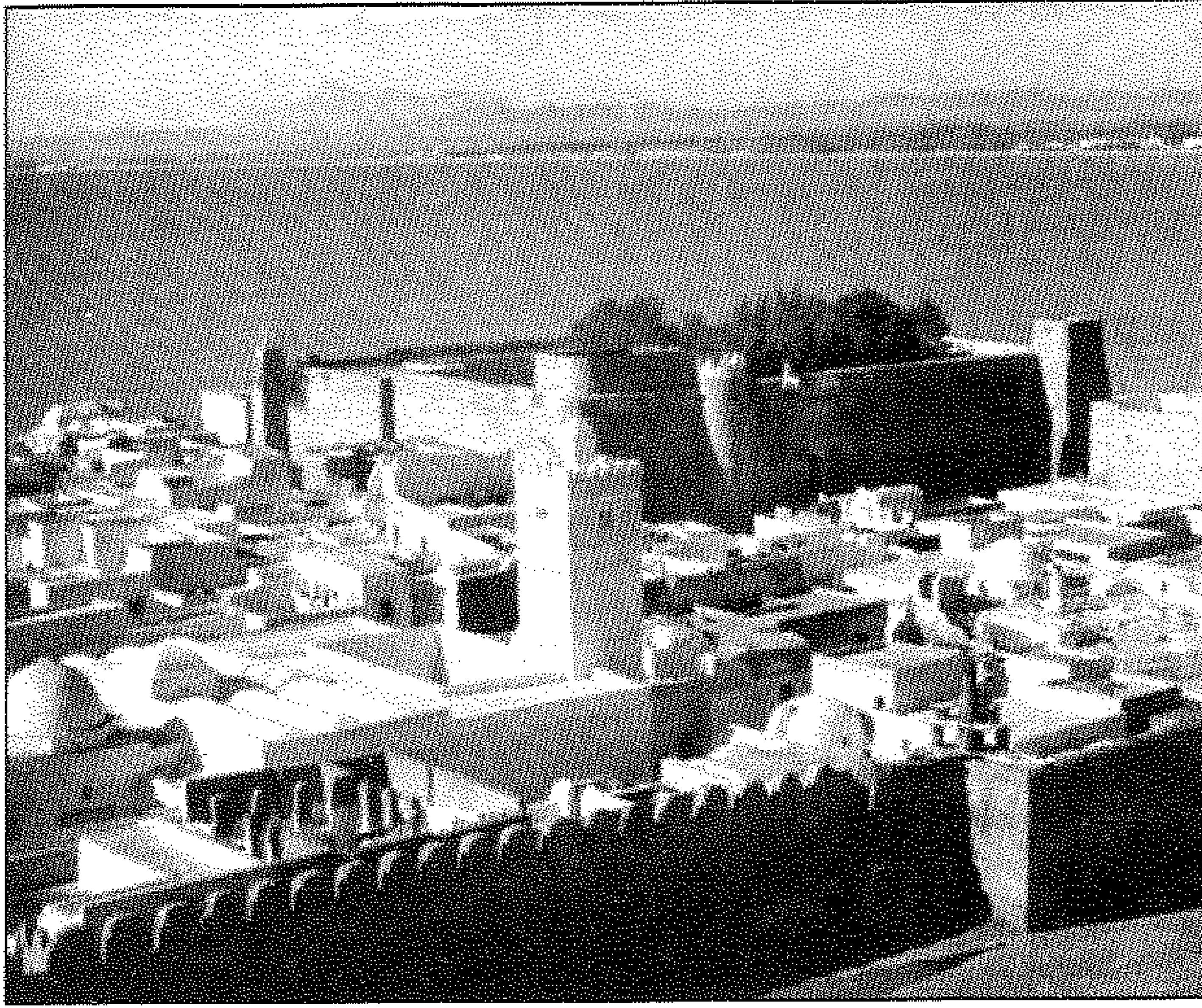
وكان الحليوي مثل البشروش والشّابي يدافع دفاعا مستميتا عن الأدب التونسي سواء في الثلاثينات أو بعد الاستقلال، عندما عاد ليتحدّث عن اتّجاهات الشعر التونسي. يقول: «إنّ واجب الوفاء لأدبنا التّونسي يحتّم علينا أن نجنّد أقلامنا كلّ في ناحية اختصاصه لخدمة هذا الأدب وإبراز شخصيّته وخصائصه، والبحث عن اتجاهاته... ثم التفكير الجدّي في مسألة تيسير النشر. فنبدأ بنشر ما هو مطوي في بطون الصحف والمجلاّت من شعر ونثر... ولعلّه إذا

أصبحت لنا مجموعة من الكتب والدواوين المنشورة أمكن لمن ينكر وجود الأدب التونسي والقرائح المنتجة أن يعدل عن رأيه...».

وإذا لم تبرز البحوث القليلة الخاصّة بالحليوي مكانته في النّقد الأدبيّ حتّى يعدّ مدرسة للنّقد قائمة الذّات، فإنّ له منهجه الخاصّ به ومقاييسه التّطبيقيّة ومعاركه ضدّ القدامى منتصرا للتّجديد والمجدّدين، خائضا لقضايا النّقد الّتي شغلت معاصريه على مدى ما يناهز الخمسين سنة مثل «الأدب القوميّ»، ولصوصيّة الشّعر، والالتزام وغيرها. وممّا يضفي على كتابات الحليوي النّقديّة أهمّيّة كبرى تجعله أحد أساطين النثر في الأدب التّونسيّ الحديث «انفراده بأسلوب يذكّر بأسلوب الأدباء الّذين كانوا يملؤون الدّنيا في الثلاثينات وبالأخص في مصر. فأسلوبه جزل لا ركاكة فيه ولا سقامة بل ينمّ على تمرّس وجهد تقف خلفهما خلفيّة لغويّة ثريّة، مستقاة من الطواف الكبير بين الشعراء والكتّاب العرب إبّان العصور الزّاهية».

وإذا كان محمّد الحليوي معروفا في الساحة الأدبيّة ناقدا أبدع في نثره وتميّز عن غيره فإنّه كان شاعرا أيضا. ولكنّه لم يكن «يعدّ نفسه من الشعراء. ويشبه شعره بشعر العقّاد في كثير من التواضع، إلاّ أنّ قرض الشّعر ساعده على إتقان صناعة النّقد، إذ أنّ الناقد الذي لم يجرّب القريض ولم يعرف معنى المعاناة يبقى فهمه للشّعر قاصرا وتذوّقه له محدودا». ذلك أنّ تصوّر الحليوي للشّاعر الحقّ ولما سمّاه فيما بعد بالشّعر الفنّي صعب المنال. «فالشّاعر الحقّ هو الذي يكون في الطّليعة يدلّ الأمّة على طريق الحريّة ويهبّ إلى مقاومة الظّلم والظّالمين». والشعر الفنّي عنده هو «الذي تكون فيه كلّ كلمة قد وضعت لغرض إيحائي أو تكون محمّلة بشحنة شعوريّة صادقة تترجم عن حالة نفسيّة أو صورة شعريّة بارعة تدلّ على عمق النّظرة وسعة الخيال، أو تعبير جديد مبتكر يبرز شخصيّة الشّاعر».

الحمّامات



تقع مدينة الحمّامات على الخليج المعروف باسمها على الساحل الشرقي للبلاد، بين نابل وسوسة. وقد كانت تسمى قديما بوبوت (Pupput)، وقد كانت مدينة مزدهرة في العهد الروماني بفضل فلاحتها ونشاطها التجاري البحري حتى ارتقت إلى مصافّ البلديّات حوالي سنة 176 للميلاد.

وتشهد على انتشار عمرانها في عهدها القديم الآثار والنقائش المكتشفة في المنطقة السياحية وفي قصر الزيت والسوق الأبيض قرب المدينة الحاليّة، وقد أشار إلى بعضها الرحّالون الغربيون. أمّا المؤرّخون التونسيون، فقد ذكرها منهم الباجي المسعودي في الخلاصة النقية مشيرا إلى بناء رباط أغلبي على ساحلها ضمن سلسلة من الرباطات الدفاعيّة. وذكرت في العهد الصنهاجي باسم قصر الحمّامات. وقد عرفت في العهد الحفصي لدى الرّحالة بلونها الأبيض. فقد لاحظ الحسن الوزّان المعروف باسم ليون الإفريقي في بداية القرن 16 تقهقر الحمامات وفقر أهلها، وهكذا يبدو انبعاثها لم يتحقّق إلا في نهاية ق17م على حدّ ما أورده الحكيم لويس فرانك الذي كتب عن تاريخ تونس وذكر الحمّامات في كتابه المطبوع بباريس سنة 1806م معبّرا عن إعجابه بموقعها على الخليج. وفيه يقول إنّه ينبغي تصديق الأهالي في تفسيرهم

لأصل تسميتها بكثرة طيور الحمام التي اتخذت أوكارها في الكهوف المجاورة، وتُلاحظ أسرابُها على المآذن والمباني المرتفعة. وقد أكّد لويس بوانصو أنّ جزءا من جامع الحمّامات يعود إلى ق 12م. وفي ذلك التاريخ وبالتحديد سنة 1148م دخل روجار الثاني ملك صقلية مدينة الحمّامات واحتل البرج لأغراض عسكرية، وفي السنة نفسها حلّت بالبلاد مجاعة كبيرة أثّرت بلا شكّ في الأهالي وحالت دون مقاومتهم للغزاة.

لهذا كان لا بدّ من انتظار ظروف جديدة في العهد الحفصي عندما أمر السلطان أبو زكرياء سنة 1236م بإتمام بناء الجامع الكبير والأسوار. ومع ذلك فلم يكن البرج ذا شأن كبير باستثناء بعض الحالات المؤقّتة التي تستدعي إحلال بعض الجُند به مثلما فعل ابن اللحياني سنة 1217م تحسُّبا لمناوشة أجنبيّة. وكانت الحمّامات مركزا لقاضي جهة الوطن القبلي. وبأمر السلطان أبي عمرو عثمان جُدّدت قصبة الحمامات وأسوارها من سنة 868هـ/1463 ـ 1464م إلى سنة 880هـ/1475م وأُضيفت الصومعة إلى جامعها.

وفي سنة 1560م حلّ الأتراك بالحمامات بقيادة درغوث باشا، ومنذ ذلك التاريخ دخلت البلاد في الصراع بين الأتراك والإسبان حتى أُرسل فيليب الثاني ملكُ إسبانيا لاحتلالها سنة 1571م، ولكن الأتراك تمكّنوا من استرجاع الحمامات وتنصيب قايد عليها. وفي سنة 1602م تمكّن فرسان مالطة من احتلالها وأسر عدد (396) من أهلها. وتكررت العملية سنة 1606م وهو ما فرض تركيز حامية من الجند الأتراك والمدفعية بقلعة الحمامات.

والملاحظ أنه من ق 16م / إلى ق 19م، حافظت الحمّامات على مظهرها كما وصفه زوّارها مركّزين اهتمامهم على القلعة والأسوار ومعجبين ببحرها ونظافة أزقّتها ووفرة مغروساتها ومنتوجاتها الفلاحية في البساتين المروية بالنّواعير. ولا شكّ في أنّها أفادت من التأثير الحضاري الأندلسي منذ بداية ق 17م. وفي رواية "أدريان" لبول دوما (Paul Dumas) صورة معبّرة عن ذلك. وكانت آنذاك تعدّ 2500 نسمة. وتقابل هذه الصورة الظروف التي كان يفرضها عليها موقعها الساحلي. فمثلما عانت الاحتلال الإسباني سقطت مرة أخرى في أيدي القراصنة لمدّة قصيرة. وفي سنة 1673م ثار بالحمّامات الداي الحاج علي اللاّز على مراد باي الأوّل، ولكنّه فشل وقتل أمام الناس في الحمامات، ودُفن بقصبتها.

ومثل ذلك وقع سنة 1703م عندما ثار أحمد بن رجب ابن سليمان باي على إبراهيم الشريف وطلب الضريبة باسم الزكاة من أهالي الحمامات ولكنهم رفضوا. ولهذا السبب أمر إبراهيم الشريف بترميم الحصن ووضع المدافع على مشارفه. وفي سنة 1727م زار الحمامات حسين بن علي باي فشملت عنايته المدينة بترميم القلعة والأسوار والجامع الكبير وبناء جامع جديد وزوايا لأوليائها الصالحين وجهر بئر بويتة المزوّدة للسكان بماء الشراب. وفي سنة 1796م بنى الأهالي زاوية سيدي عبد القادر الجيلاني لاحتضان الطريقة القادرية التي أصبح يتبعها أغلبهم، وهذا ما جعل حسين بن علي وأمثاله من البايات يعتنون بأضرحة الأولياء استجلابا لقلوب الرعايا.

ومن الأحداث التي سجّلتها الصحافة التونسية حادثة الاعتداء المسلح على باخرة مالطية راسية بميناء الحمامات ليلة 28 أفريل 1861م حسب "الرائد التونسي"، وكأنّ الأهالي كانوا مُعادين لكل أجنبي. وقد سبق لهم من قبل أن وقعوا ضحية اعتداء مفاجئ من قبل فرسان مالطا، كما أشرنا آنفا.

ولهذا لم تتمكّن الجيوش الفرنسية من احتلال الحمامات إلاّ بعد معارك ضارية أبلى فيها مناضلو المدينة البلاء الحسن، ناهيك أنّهم أجْلوا عنها طلائع المستعمر في معركة دامت أربعة أيام، من 26 إلى 29 أوت 1881م، وهذا ما نوّه به محمد المرزوقي في كتابه صراع مع الحماية. وفي عدد غرّة مارس 1922م من جريدة "تونس المصوّرة" استرجع مارسال قندولف

أحداث المعركة بمناسبة وفاة واحد من قادة الفصيلة العسكرية الفرنسية الموجهة إلى الحمامات وهو الطاغية بوردي (Bordier) بإشراف العقيد كوريار (Coréard) الذي اضطرّ إلى التراجع عن الحمامات والعودة إلى بئر الباي من ضواحي حمام الأنف بعد الخسائر التي مُنيت بها صفوفُه.

وابتداء من يوم 25 نوفمبر 1881م أصبحت الحمامات تحت إمرة النقيب بوردي، الذي ذكرناه، وهو الذي فرض على خليفة الحمامات وأهاليها بناء النصب التذكاري وترميم أضرحة القادة والجنود الفرنسيين الذين سقطوا في أول صدام بين الجيوش الفرنسية والسكان في المقبرة الخاصة بهم بعد أن أفسدها الأهالي انتقاما من المحتلين. وفي الحمامات بقي بوردي آمرا عسكريا ومراقبا مدنيا حتى سن تقاعده سنة 1897م. ومما علق به من مظالم الاستعمار ما يعرف بقضية ولد حيزيّة أو ابن حيزية وهو شخص أعدمته السلطة الاستعمارية ظلما عندما لم تعثر على المسؤول الحقيقي الذي أطلق عيارا ناريا من بندقية صيد في ضواحي المدينة. كان ذلك يوم 17 ديسمبر 1881م. وقد أنكر الأهالي هذه المظلمة وحاولوا التظاهر، لكن يد القهر تصدّت لهم.

واليوم أصبحت مدينة الحمامات قطبا سياحيا عالميّا للسياح الأجانب والتونسيين تجلبهم شواطئها الجميلة بزرقتها اللامعة وأمواجها الهادئة. وللزّائر أن يتجول عبر أنهج المدينة العتيقة المحاطة بالأسوار ويقتني ما شاء من معروضات الصناعات التقليدية من أسواقها. ومن أعلى القلعة يلوح له الخليج اللازوردي وقد تتابعت على شطآنه النزل الفخمة، وتبدو له مدينة الحمامات جوهرة بيضاء وسط الأجنة الخضراء، تحيط بها الرّوابي وقد فاحت منها روائح أزهار القوارص وخاصة منها البرتقال، وتغطّت تربتها بالكروم والأزهار.

الحمّامات التّاريخية والأثريّة

الحمّام مؤسّسة عريقة بالبلاد التونسية منذ العهد الروماني وقد انتقل إلى الحضارة الرومانية من الحضارة اليونانيّة التي انتهت إليها من الحضارة الإيجية. فقد كشفت الحفريات الأثريّة عن أقدم الحمّامات الخاصّة فيما تبقى من آثار القصور الإيجيّة التي يرجع تاريخها إلى ما بين 1700 و1400 سنة قبل الميلاد.

وقد أدّت الحمّامات الخاصّة منها والعامّة دوراً ذا أهميّة على أكثر من صعيد: اجتماعي وصحي وثقافي وترفيهي، حتى أضحت من أهم مكوّنات المدينة الرومانية وأصبح الحمّام الروماني وكذلك البيزنطي المرجع للحمّامات التي شيّدت في الحضارة العربية الإسلامية التي أنقذتها من الاندثار باستيعابها ضمن نشاطها الديني والاجتماعي والاقتصادي حتى أصبحت مؤسسة الحمّام في أهمّيتها المؤسّسة الثانية من حيث أهميّة التراتبية للمؤسسات الإسلامية في المدينة الإسلامية بعد المسجد – الجامع نظرا إلى العلاقة الوثيقة بينهما.

ولقد أضفى الطّابع الإسلامي على الحمام روحا جديدة تطوّرت بتطور الحضارة الإسلامية. ولعلّ حمّامات بلاد الشام وإسطنبول ومنطقة الأناضول عموما خير شاهد على روعة هذه المباني وأهميتها في الحياة الدينية والاجتماعية والصحيّة.

ولا شكّ في أنّ الحضارات التي تعاقبت على القطر التونسي وتفاعلت على أرضه، تركت بصماتها على هذه المؤسسة العريقة التي لاتزال آثارها الرومانية حاضرة بكثافة شاهدة على عظمتها وما قامت به من أدوار في المجتمع عبر تاريخه الطويل. فقد شيّد الكثير من الحمّامات العامة التي اشتهرت بمياهها المعدنية وهندستها الرّائعة. ولعلّ أبرز مثال لهذه الحمّامات الرومانية بالبلاد التونسية حمّامات طبربو ماجوس التي تعرف بهنشير القصبة. وذلك في القرن الثالث الميلادي وكذلك حمّامات بلاريجيا وحمّامات أنتونين في سفح ربوة بيرسا بقرطاج إذ لاتزال

تحتفظ بتفاصيلها المعمارية الضخمة بما احتوته من قاعات الاستحمام الباردة والمعتدلة والحارة. إلى جانب وجود مسبح بالقاعة الباردة وقاعة أخرى للدّلك والتّمسيد بالزيوت النباتية.

وكانت تلك الحمّامات تخضع لنموذج مشترك في التخطيط نواته وحدات رئيسة ثلاث إلى جانب وحدات أخرى تُوَزَّع في سائر أنحاء المبنى الباقية وهي مخصّصة لخلع الملابس والرياضة والندوات. ونظرا إلى قيمتها والنشاط الذي تقوم به في أكثر من مجال، احتلّت هذه الأبنية مساحات كبيرة تراوحت بين ألفين وأربعة آلاف متر مربّع.

–وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية وبقايا الإمبراطورية البيزنطية، اندثرت جلّ تلك الحمّامات. ولم تر النّور والإحياء إلاّ في ظل الحضارة الإسلامية التي أخضعتها لتعاليمها الدينية وفق الأحكام الشرعية، ثمّ أُغنيت بالعادات والتقاليد التي أقرّتها الشعوب الإسلامية عبر تاريخها الطويل وتراثها الثقافي الثري الذي أضفى على مؤسسة الحمّام حركية اجتماعية حتى أصبحت هذه المؤسسة من أهمّ المؤسسات التي عرفها التَمَدّن الإسلامي وأعرقها إلى جانب مؤسسات أخرى مثل الجامع والمدرسة وغيرها من المعالم الإسلامية التي تزخر بها البلاد العربية والإسلامية عموما.

فالبلاد التونسية لاتزال تحتفظ بعشرات الحمّامات الإسلاميّة الأثرية والتّاريخية التي اندثرت في الكثير من البلدان العربية والمتوسطيّة. فإلى جانب مدن وأرياف تونسية مثل القيروان وتستور وباجة ومجاز الباب وسوسة والمهدية وقابس ونابل وغيرها كثير ممّن احتفظ بعشرات الحمّامات العريقة، لاتزال مدينة تونس العتيقة تحتفظ وحدها بعشرات الحمّامات التاريخية التي لم تتوقّف عن الاشتغال واستيعاب جمهور من الرّوّاد رغم تراجع عددها في السنوات الأخيرة.

ولعلّ أشهر تلك الحمّامات وأقدمها حمّام القرانة بالسوق المسقّف (القرانة) بالحفصية والذي يرجع بناؤه إلى سنة ثمان وسبعين وثلاث مائة هجرياً (378هـ/989م) أي منذ أواخر القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي.

أمّا آخر الحمّامات التاريخية وأضخمها فهو حمام يوسف صاحب الطابع بربض باب سويقة من مدينة تونس العتيقة. وقد أمر ببنائه في بداية القرن التاسع عشر وبالتحديد سنة 1810م ليكون وقفا من أوقاف جامع صاحب الطابع الفخم. فقد احتلّ مساحة كبيرة لكنّها غير منتظمة. ويتميّز هذا الحمّام بعدد وافر من الحجرات والقاعات التي قلّما نجدها في الحمّامات الأخرى. لكنّها حافظت على التعاقب التقليدي لهذه الغرف. وهي: السقيفة وقاعة المحرس والقاعة الباردة والقاعة الدافئة والقاعة الدافئة الثانية الخاصّة بالدّلك، وأخيراً القاعة الحارة الضيقة المسماة: (العَرَّاقَة) وهي ملاصقة للنّحاسة إذ تحتوي على حوضين للماء الحار.

وكما هو في الحمّامات التقليدية فإنّ قاعات الحمّام الدافئة مطمورة جزئيا تحت الأرض للاحتفاظ بحرارتها.

ومن أعرق الحمّامات بمدينة تونس العتيقة نذكر على سبيل المثال:

– حمّام المطيهرة الذي يقع قرب سوق البلاط (لبيع الأعشاب الطبية) ونهج تربة الباي. واللاّفت للانتباه أنّ هذا الحمّام لايزال محتفظا بجلّ خصائصه المعمارية القديمة بما في ذلك دكّانته وبلاطته التي كُسيت كلّها بالرّخام الرّمادي، إلى جانب بساطة تزويقه وليقة حيطانه الغليظة المطليّة بالجير الطبيعي.

– وحمّام العريان، نسبة إلى زاوية سيدي العريان، كما يعرف أيضا بحمّام صبّاط الزيت لكون البناية ارتكزت على عدة أعمدة ضخمة ذات تيجان تركية إلى جانب التيجان الحفصية الموجودة في الفرناق.

حسب إحصاء مخطوط بعنوان بيان الحمّامات بمدينة تونس المحروسة يعود تاريخه إلى سنة 1840 أي أواخر النصف الأوّل من القرن التّاسع عشر، وصل عدد حمّامات مدينة تونس العتيقة حتّى تلك الفترة إلى ثلاثين حمّاما. وهي على التوالي حمّامات: الدولاتلي ونهج الحُكّام

والعريان والمطيهرة، والصبّاغين والقشاشين (قرب جامع الزيتونة نهج الكتبية) والديوانة القديمة (بين نهج القصبة ونهج زرقون)، والدِّيوان (قرب حي الحفصية)، والناعورة، والذّهب وحمّام اليهود بالحفصيّة وحمّام سيدي محرز (والمعروف تاريخيا بحمّام سيدي خلف والد سيدي محرز، وقد دُفن بجانب هذا الحمّام)، ويوسف صاحب الطابع والرّميمي والشابو وعين الدوّارة وسيدي بوسعيد ودور الحارّة وسيدي بلغيث(بالحجّامين) وقرّيس(بباب الفلّة) والمرّ (بباب منارة) وحمّام النّساء (باب منارة) والتمّارين (باب منارة) والقرجاني والسيّدة لندرية والزيتوني وحمّام بالرّمضان.

– ولمؤسسة الحمّام مصطلحات معمارية مثل: باب الحمّام المعروف بشكله وألوانه وزخارفه وقاعاته الخاصّة. وهي المحرس والمقصورتان وبيت البارد وبيت البدل وبيت السّخون وبيت النار الحاوية على الموقد المُسمّى (الفرناق)،كما نجد بعض العناصر المعمارية مثل (التنفيسة) وهي ثقوب في سقوف قاعات الحمّام تفتح من السّطح للتّخفيف من الحرارة أو لإزالة الرطوبة وكذلك الدّكانة في قاعة التّدليك، و(الزّقاق) وهو حلقوم أو سرداب برميلي ينطلق من تحت الموقد ليتفرّع عبر جهينيمات لحمل البخار السّاخن تحت أرضية الحمّام ثمّ ينفد إلى المدخنة.

– كما يلفت الانتباه أيضا الكثير من المصطلحات الخاصّة بوظائف الحمّام مثل: الحمامجي وهو صاحب الحمّام ووكيل الحمّام وهو المشرف على إدارة الحمّام وصاحب الصندوق أي صندوق الأمانات حيث تحفظ به الأشياء الثمينة للزبائن و(حارزة) وهي في الأصل حارسة تقوم بدلك النّساء وإزالة الأوساخ من أجسامهنّ. وفي المقابل تجد مصطلح (الطّياب) بالنسبة إلى الرّجال، إضافة إلى وظائف أخرى مثل حارس المحرس وحارس للبدل وحارس المقصورة وحارس المطهرة والزبّال وهو من معاوني الفرانقي المكلّف بإشعال الموقد والاعتناء بالنّحاسة وغاسل الفوطات.

– كما اختصّ الحمّام بألفاظ أخرى مرتبطة بأنواع الاستحمام مثل: (حمّام الوسخ)وهو استحمام العروسة قبل حفل الزّفاف بسبعة أيام، و(حمّام الصبغة) الذي يأتي بعد حمّام الوسخ بثلاثة أيام لغسل شعر العروس المُخَضّب بالحناء أو المردومة و(حمّام التشليلة) وهو حمّام قبل حفل الزفاف. أمّا العريس فيذهب إلى الحمّام صبيحة يوم الزّفاف...

– هذا وللحمّام وظائف أخرى غير وظيفته الأساسيّة أي الغسل، لعلّ أبرزها الوظيفة الصحيّة العلاجية التي تتجسد في فن الغسل وذلك بأن يمرّ المستحمّ بمراحل عدة تترجم عن سلوك خصوصي مُقسّم بحسب طقوس صحيّة وعلاجية تخضع هي نفسها للبناء الهندسي للحمّام الذي اعتمد على تعاقب القاعات الباردة فالدافئة ثمّ الحارة. وكلّ هذه العمليات المتسلسلة تترجم عن ثقافة صحيّة شاملة تراعي صحّة الجسد والنّفس معا في علاقة جدلية تفاعلية بين المادي والروحي.

هذا إلى جانب الوظيفة الدينية الاجتماعية، إذْ يعتبر الحمّام مكان الغسل أو الطّهارة الكبرى للمسلم بعد الجنابة. ويكون ذلك واجبا على المسلم والمسلمة في حالات منها: خروج المني أو الحيض أو بعد الولادة. كما يعتبر الحمّام أيضا فضاء لقاء وحياة اجتماعية. وهو ما يُفسِّر وجود مؤسسة الحمّام بالقرب من الجامع أو وسط السوق. وقد زادت العادات والتقاليد والمعتقدات الشعبية رسوخا وتنوّعا وثراء في نشاطه ووظائفه، يمارسها المجتمع في مناسبات اجتماعية ومواسم دينية باعتبارها طقوسا مُكَمِّلة للشريعة وأحكامها أضفت عليها طابعا احتفاليا يمتزج فيه الدّين بالعادات والتقاليد، ويتفاعل فيه النفسي مع الاجتماعي والعاطفي مع الروحي. فللمسلم علاقة حميمة ومتواصلة مع مؤسسة الحمّام طوال مراحل حياته منذ ولادته إلى وفاته، حتى غدا الحمّام من أهم المؤسّسات التي تحوم حولها حياة الفرد والجماعة في المجتمع الإسلامي.

معاهدة الحماية الفرنسيّة

يمثّل استيلاء الفرنسيّين على الجزائر عام 1830، حدثا جعل مصير تونس أمرا محتوما. وكان ما كان من السباق إلى احتلال البلاد التونسية بين بعض الممالك الإيطالية وبريطانيا وفرنسا، غير أنّ هذه كانت الفائزة في ذلك السباق: ففي أواخر أفريل وأوائل ماي 1881، اخترق جنودها الحدود وفرضوا على الباي في 12 ماي معاهدة باردو التي قضت على سيادة الدّولة التّونسيّة رسميّا.

حيّزنا هنا لا يتّسع لتحليل مختلف المراحل الدّبلوماسيّة التي اجتازتها القضيّة التّونسيّة وإنّما يكفي أن نشير إلى أنّ تونس استمرّت تدافع عن نفسها قبل تمركز «الحماية»، ضدّ محاولات فرنسا والدول الأخرى مدّة خمسين عاما كاملة. وهذا يعني أن تونس لم تقبل الحماية قط، وأنّها حاولت بكلّ ما تملكه من جهد أن تحتفظ باستقلالها وأن تعمل على توطيد أواصر الصداقة مع جيرانها.

أصبحت هناك «قضية تونسيّة» يوم احتلّت فرنسا الجزائر في عام 1830، فأخذت تتدخّل في شؤون تونس شيئا فشيئا تمهيدا للاستيلاء عليها. ولم يتيسّر لها احتلالها، عام 1881، إلاّ بعد مناورات دوليّة دامت أكثر من عشرين عاما: كانت فرنسا تخشى مزاحمة بريطانيا العظمى لها ومطامع إيطاليا المكشوفة، وتأكّدت هذه المنافسة بين هذه الدّول الأوروبيّة في «الكومسيون المالي» الذي تأسّس عام 1869 لتسوية ديون تونس الخارجيّة. وكانت ذكرى الهزيمة المهينة في «سيدان» (Sedan) أمام البروسيّين تضرم نار الثأر في نفوس الفرنسيّين. فكان مؤتمر الصلح في صائفة عام 1878 مناسبة أنذر فيها «بسمارك» زعماء الجمهوريّة الثالثة بالكفّ عن المطالبة بالألزاس واللورين. حرّضهم مقابل ذلك على احتلال تونس تعويضا لهم عن خسارة المقاطعتين المذكوتين، على أن تكون

Traité conclu entre le Gouvernement de la République et le Gouvernement de S.A. le Bey



Le Gouvernement de la République Française et celui de Son Altesse le Bey de Tunis, voulant empêcher à jamais le renouvellement des désordres qui se sont produits récemment sur les frontières des deux Etats et sur le littoral de la Tunisie et désireux de resserrer leurs anciennes relations d'amitié et de bon voisinage ont résolu de conclure une convention à cette fin dans l'intérêt des deux Hautes Parties Contractantes

الصفحة الأولى...

من معاهدة قصر السّعيد بباردو

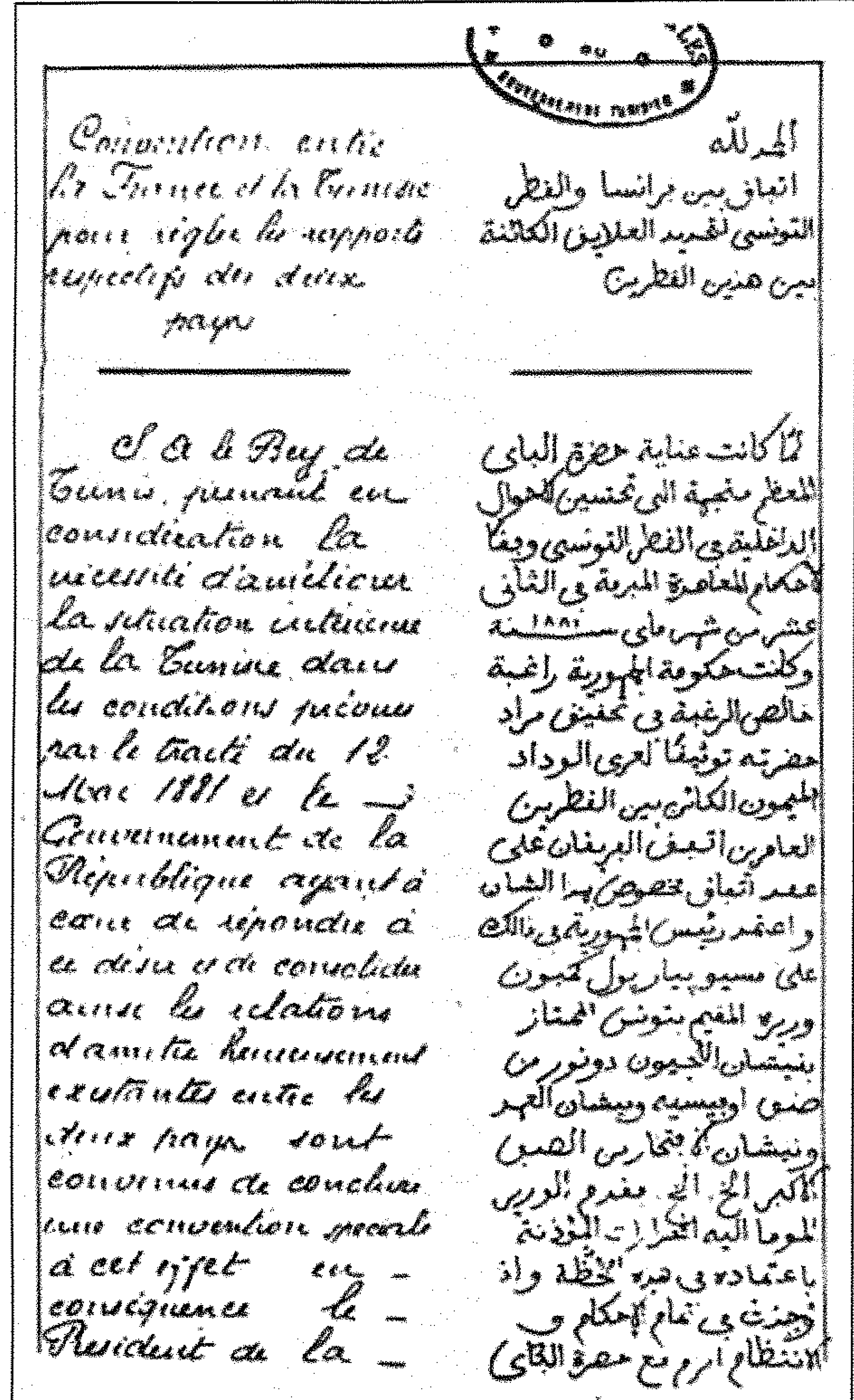
والصفحة الأخيرة

De la République Française et l'instrument de ratification sera remis à Son Altesse le Bey de Tunis dans le plus bref délai possible /

Casr Saïd, 12 Mai 1881

محمد الصادق باي

Gal Bréart



Convention entre la France et la Tunisie pour régler les rapports respectifs des deux pays

الحمد لله
اتفاق بين فرانسا والقطر التونسي لتمهيد العلايق الكائنة بين هذين القطرين

S. A. le Bey de Tunis, prenant en considération la nécessité d'améliorer la situation intérieure de la Tunisie dans les conditions prévues par le traité du 12 Mai 1881 et le Gouvernement de la République ayant à cœur de répondre à ce désir et de consolider ainsi les relations d'amitié heureusement existantes entre les deux pays sont convenus de conclure une convention spéciale à cet effet en conséquence le Président de la –

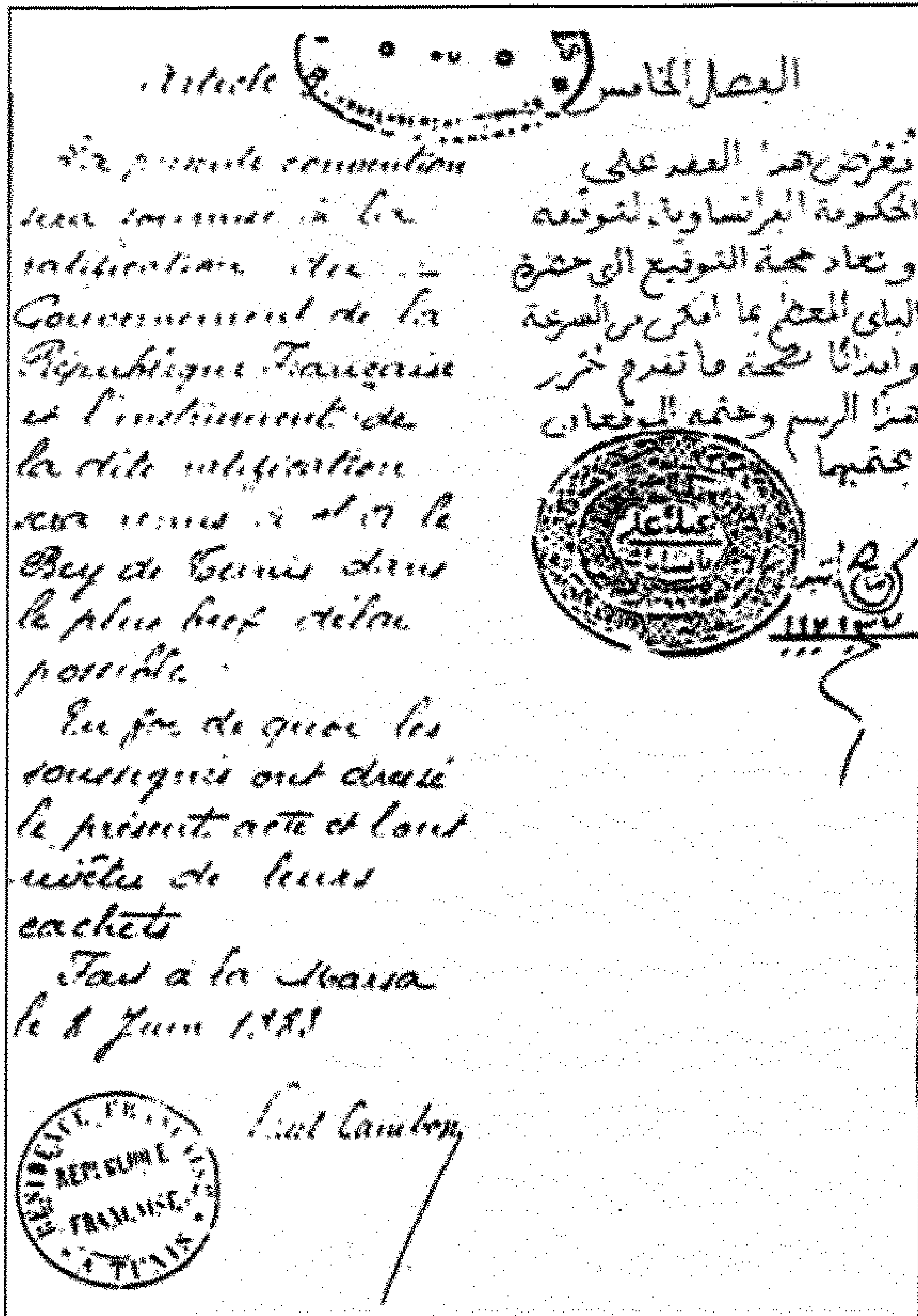
لما كانت عناية حضرة الباي المعظم متجهة الى تحسين الاحوال الداخلية في القطر التونسي وفقا لاحكام المعاهدة المبرمة في الثاني عشر من شهر ماي سنة ١٨٨١ وكانت حكومة الجمهورية راغبة خالص الرغبة في تحقيق مراد حضرته توثيقا لعرى الوداد الميمون الكائن بين القطرين العامرين اتفق الفريقان على عقد اتفاق مخصوص بهذا الشان واعتمد رئيس الجمهورية في ذلك على مسيو بيار بول كمبون وزيره المقيم بتونس الممتاز بنيشان الليجيون دونور من صنف اوفيسيه ونيشان العهد ونيشان [illegible] الخ الخ [illegible]

الصفحة الأولى والصفحة الأخيرة

من معاهدة المرسى

بريطانيا مطلقة اليد في مصر. أمّا إيطاليا فأُبعدت بمنح بعض التّرضيات لجاليتها بتونس.

ولقد احتلّ استعمال القوّة أو التّهديد بالقوّة مكانا لافتا في السياسة الفرنسيّة البحتة التي لم تكن واضحة تماما: لنقرأ مثلا ما يلي: «... رضي [باي تونس] بأن تحتلّ القوّات الفرنسيّة العسكريّة المراكز التي تراها صالحة لاستتباب النّظام والأمن بالبلاد وعلى الحدود. ويزول هذا الاحتلال عندما تتّفق السلطات الفرنسيّة والتونسيّة، وتعترفان معا بأنّ الإدارة المحليّة قد أصبحت قادرة على المحافظة على استتباب



Article 5

La présente convention sera soumise à la ratification du Gouvernement de la République Française et l'instrument de la dite ratification sera remis à S. A. le Bey de Tunis dans le plus bref délai possible.

En foi de quoi les soussignés ont dressé le présent acte et l'ont revêtu de leurs cachets.

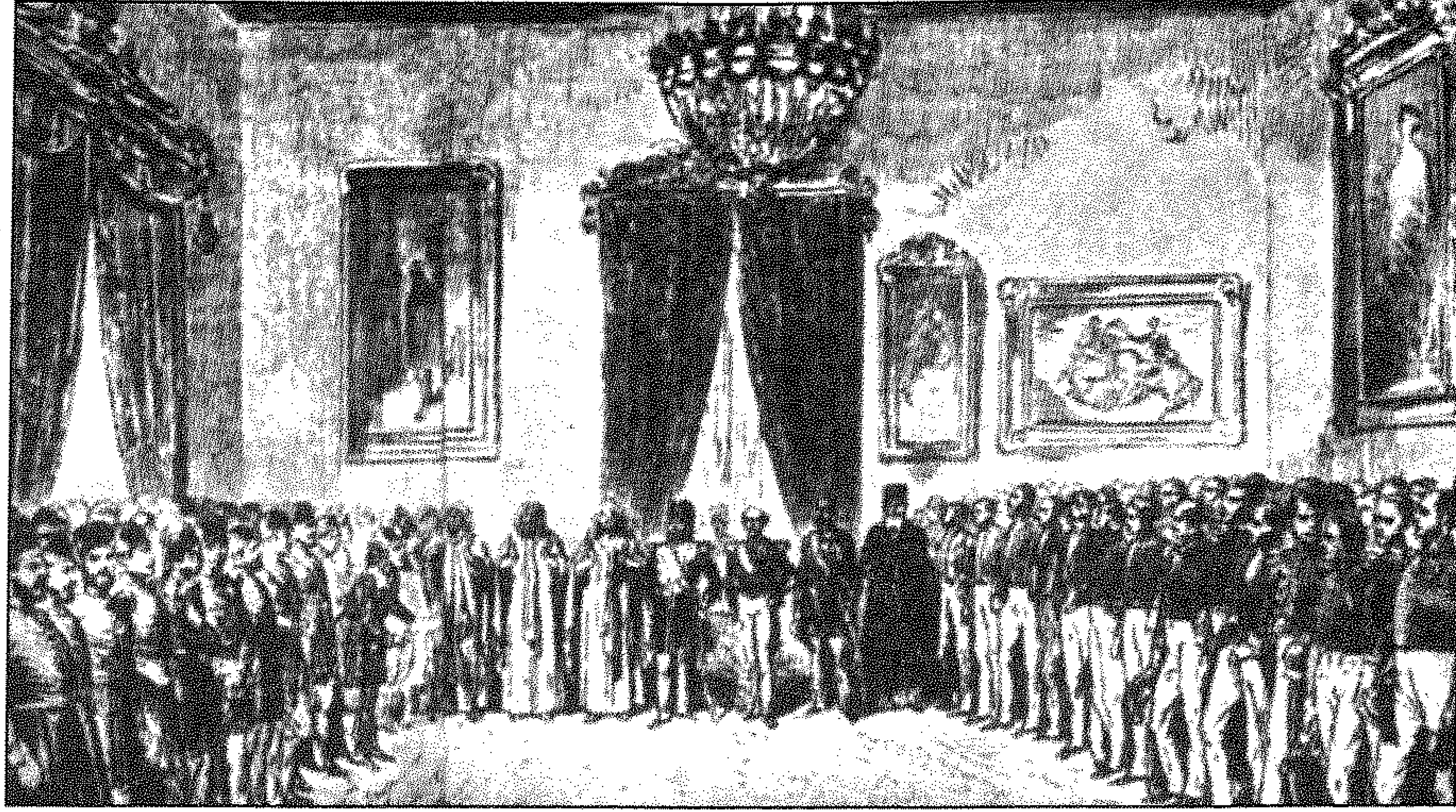
Fait à la Marsa le 8 Juin 1883

Paul Cambon

الفصل الخامس

يعرض هذا العقد على الحكومة الفرانساوية لتوقيعه وتعاد حجة التوقيع الى حضرة الباي المعظم بما امكن من السرعة وابداءً لصحة ما تقدم حرر هذا الرسم وختم الموقعان عقبيها

الأمن العام»: (البند الثّاني من معاهدة باردو)، وقد أخذت فرنسا على عاتقها مهمّة «تنفيذ جميع المعاهدات المعقودة الآن، بين الحكومة التّونسية ومختلف الدول الأوروبيّة الكبرى»: (البند الرابع)، ومهمّة ممارسة العلاقات الخارجيّة بواسطة دبلوماسييها وقناصلها ومقابل ذلك يلتزم سموّ الباي بعدم عقد أيّ معاهدة ذات صبغة دولية، دون إعلام الحكومة الفرنسيّة بذلك والحصول على موافقتها مسبقا»: (البند السّادس)، و«تحتفظ حكومة الجمهوريّة الفرنسيّة وحكومة سمّو الباي لنفسهما، بحق الاتّفاق علي وضع نظام للمملكة من شأنه ضمان تسديد الدّين العام، وكذلك ضمان حقوق دائني الولاية»: (البند السابع)، و«تتعهّد الجمهوريّة الفرنسيّة ببذل مساعدتها المستمرّة لسموّ الباي، وحمايته من كلّ خطر يمكن أن يهدّد شخصه أو عائلته أو يخلّ بأمن مملكته»: (البند الثالث). «يمثّل الحكومة الفرنسيّة لدى سموّ الباي وزير



التوقيع على «معاهدة الحماية» في قصر باردو

مقيم تكون وظيفته السّهر على تنفيذ أحكام هذه المعاهدة، ويكون الواسطة بين الدّولة الفرنسيّة وبين السلطات التّونسيّة في جميع القضايا الّتي تهمّ الجانبين» : (البند الخامس).

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ جناحا من المستعمرين كانوا ينادون بوجوب القضاء على الدّولة التّونسيّة وإلحاق البلاد التّونسيّة بفرنسا مثل ما تمّ فيما يتعلّق بالجزائر. وكان الأحرار الفرنسيّون يندّدون بالعدوان على شعب صديق ويطالبون بإجلاء الجيوش الفرنسيّة عن تونس. عندئذ اتّخذ رئيس الحكومة الفرنسيّة جول فيري (Jules Ferry) موقفا وسطا وقال: إنّ فرنسا لا تريد استعمار تونس، ولا ترمي إلى إدماج ترابها في التّراب الفرنسي، وإنّ احتلالها لها لا يعدو أن يكون ضمانا لبقائها بالجزائر. فسياسة فرنسا نحو تونس تتلخّص حسب عباراته في كلمتين «لا إلحاق ولا انسحاب».

وكانت فرنسا تبحث عن شكل آخر مغاير لتجربة ضمّ الجزائر إليها وكانت تلك التّجربة قد كبّدتها خسائر فادحة في المال والرجال، فكانت «الحماية» ـ وهي صيغة جديدة مستوحاة من سابقة أحدثتها النّمسا في البوسنا والهرسك (Bosnie Herzégovine) تتجسّد في حكم البلاد حكما غير مباشر بوساطة السلط الأهلية وذلك بإبقائها في وظائفها ولكن بمراقبتها عن كثب. وهكذا تظلّ دولة البايات وإدارتها كما هما ولكن يقوم إلى جانبهما مراقبون فرنسيّون من مقيم عام إلى جانب الباي وكاتب عام لدى الإدارة المركزيّة والوزراء التّونسيّين، ومن مراقبين مدنيّين في الولايات يشرفون على القياد وممثّلي السلط بها.

لكنّ الواقع كان مغايرا لذلك تماما فسرعان ما حاد المراقبون الفرنسيّون عمّا انتدبوا إليه فعمدوا إلى الإدارة المباشرة ولم يتركوا لممثّلي السلطة المحليّة إلاّ نفوذا صوريّا. ثمّ قرّر الفرنسيّون اتّخاذ شكل من «الحماية» على تونس أقوى وأرسخ فوافق علي باي (1882 ـ 1902) على اتّفاقيّة المرسى جوان 1883 التي عبّرت صراحة عن الحماية الفرنسيّة على تونس. ولأوّل مرّة سجّلت كلمة «محميّة» بالمداد في هذه الاتّفاقيّة. وبمقتضاها يحافظ الباي على سلطة اسميّة تخصّ الشؤون الدّاخليّة. أمّا شؤون الدّفاع والعلاقات الخارجيّة، فقد انتقلت بتمامها وكمالها إلى سلطات الحماية بمقتضى ما أبرم من المعاهدات. وكما سبق أن أشرنا فإنّ بعث مصالح «فنيّة» فرنسيّة تماما قد أنقص من

سلطات الوزير الأكبر: فهذه المصالح الفنيّة التي انتصبت في القطاعات الأساسيّة هي على التّوالي: قطاع المالية (1882)، والأشغال العامة (1882)، والتّعليم (1883)، والفلاحة، والتّجارة، والاستعمار (1890)، والبريد (1890).

باختصار، يمكن القول إنّ توطيد الحماية الفرنسيّة قد مهّد السبل لاستغلال الشّعب التّونسي استغلالا تامّا، وسلب ثروات البلاد من قبل المحتكرين والمستوطنين الفرنسيّين، إذ هرع إلى الإيالة التونسيّة مختلف الأصناف من الهواة المولعين بالكسب دون عناء فاستولوا على الأراضي والامتيازات والمقاولات والوظائف الإداريّة وغير الإداريّة. وعلى غرار ما حصل في الجزائر، نُهبت الأراضي التّونسيّة على نطاق واسع، وبوتيرة أسرع.

وقد لخّص صالح الشّريف ماهيّة معاهدة الحماية فيما يلي: «من نظر إلى هاته المعاهدة نظرا سطحيّا يفهم أنّها كلّها خديعة ومكر. فقد خوّلت فرنسا لنفسها أن تقبض على القوّة المسلّحة ومنع الأمّة من حمل الأسلحة، والقبض على الخارجيّة، والمالية، وحماية الباي على فرض أنّ دولة الخلافة صاحبة الحق قامت تطلب حقّها، وأعجب ما فيها وضع غرامة حربيّة على الأمّة التي قامت تدافع عن وطنها، وغولبت على أمرها بخديعة بايها، وهجوم فرنسا عليها بغتة، وتأجيل انجلاء الاحتلال [...]، والحال أنّ الإدارة المحليّة مقتدرة على تقرير الرّاحة العموميّة ومقرّرة لها بالفعل منذ ألف وثلاثمائة سنة [كولاية عثمانيّة ابتداء من 1574] ولم يعتر نظامها شيء من الخلل إلاّ ما أحدثته فرنسا بهجومها على القطر ولكنّ القوّة المجرّدة من فضيلة الإنصاف، العارية من جلباب الحياء تفعل فوق هذا»، وأضاف في معرض كلامه عن موقف الدّولة العثمانيّة «عندما بلغها نبأ الاحتلال الفرنسي لتونس» سلّمت «لائحة إلى الدّول أثبتت فيها إلى ذلك القطر حقّ من حقوقها،



الجنرال الفرنسي بريار وباي تونس محمد الصّادق وبعض الحاضرين من الجانبين ساعة التوقيع على «معاهدة الحماية» يوم 12 ماي 1881

وجزء متمّم لسلطتها، وسردت الأدلّة الصّحيحة على ذلك مثل تسميتها لأمرائه، وللمخاطبات الرسميّة التي كانت مداولة بينهم وبينها، وذكر اسم مولانا السلطان في الخطب ووضعه على سكك المعاملات، واعترف وزير خارجيّة نابيلون الثّالث نفسه حيث قال في قضيّة القرض التّونسي الذي وقّع في باريز: «يلزم لصحّة هذا القرض، أن يطلب رضاء الباب العالي».

وقد اقتضى فرض الحماية الفرنسيّة في عهد المقيم العام بول كامبون (Paul Cambon) - المقيم العام الفرنسي بتونس ابتداء من مارس 1882 - إقحام نخبة أجنبيّة جديدة حاكمة، ولكن ذلك لم يؤد إلى إزالة النخبة التّونسيّة القديمة ولا حتّى إلى إزاحتها عن مواقعها نظريّا على الأقل. فالحماية كأنّها إضافة ألصقت بالنّظام الحسيني الذي يفترض فيه، من حيث المبدأ، أنّه مستمرّ في ممارسة «السياسة الدّاخلية»، لكنّ الباي لم يكن إلاّ دمية تحرّكها فرنسا. وقد كان كامبون يعارض صراحة الحكم المباشر أو سياسة الإلحاق التي طبّقتها فرنسا على الجزائر. ففي 1884، كتب إلى وزير الخارجيّة ما يلي: «... من الضروري الكفّ عن الأساليب التّقليديّة التي

كلّفت فرنسا ثمنا باهظا بالجزائر... الرّأي العام يدين حكومة تعتمد ضمّ تونس، وطالب بإرساء نظام حماية وبالإبقاء على المؤسّسات الأهليّة». وجاء في رسالة كتبها بول كامبون، في سنة 1885، إلى وزير الخارجيّة: «إن الحكومة التّونسيّة تمثّل بالنّسبة إلى فرنسا أداة قويّة ومرنة في الآن نفسه لتسيير الأهالي. ويمكننا، إذا لَزِمَ الأمر، أن نوجّه بواسطتها الضّربة دون أن نثير تعصّب المسلمين».

هذا هو بول كامبون، المقيم العام الفرنسي بتونس من مارس 1882 إلى نوفمبر 1886، الذي كان قبل ذلك، مدير ديوان جول فيري رئيس الحكومة الفرنسيّة (1870). لقد حكم تونس حقّا وفعلا: كان المنظّم الأوّل لنظام الحماية وكان «يغطي ويعرّى رأس الإدارة المحليّة». كان يحكم تونس، باسم ذريعة الرّقابة، وأيضا باسم الباي «من أعلى إلى أسفل». وما من شك في أنّ تونس «المحميّة» كانت تابعة، مهما كانت المظاهر، لـ«صاحبة الحول والطول» الإدارة الفرنسيّة التّابعة لوزارة الخارجيّة الفرنسيّة. فهل يمكن، والحالة تلك، الحديث عن اختلاف حقيقي ومحسوس بين نظام تونس المحميّة، ونظام الجزائر الملحقة؟ صحيح أنّ عددا من المؤرّخين قد تعبوا دون طائل في البحث عن وجود فعليّ للسيادة المزدوجة في هذه البلاد المحميّة أو تلك. ولذا يمكن القول إنّه لا يمكن الاعتراف، في واقع الأمر، بوجود سيادتين اثنتين في وقت واحد، عندما تكون إحداهما خاضعة خضوعا تامّا للأخرى.

أحمد حمزة

[1930–2011م]

يُعدّ الفنان أحمد حمزة (1930–2011م) مُجدّدا للأغنية الشعبيّة التونسيّة. فسعى إلى صقل مقوّماتها من حيث متنها الزجلي وصياغة قالبها النغمي والإيقاعي حتى يُبحر بها في يمّ الأصالة الحضاريّة التونسيّة.

وقد بقي أحمد حمزة وفيّا لمنهجيّته الإبداعيّة ملحّنا تونسيّا يعتمد على الطبوع التونسيّة ومطربا حريصا على أداء الحلية التونسيّة دون تقليد للمغاني المصريّة.

فلا غرو أن يكون أحمد حمزة صاحب مدرسة فنيّة امتازت بالأصالة التونسيّة من حيث صياغة الأغنية الشعبيّة نظما ولحنا وأداء فضلا عن تهذيب المآثر التراثيّة مثل أغنية (جاري يا حمّودة) التي ذاع صيتها بكامل الأقطار العربيّة.

لذلك، حقّ فيه لقب سفير الأغنية التونسيّة الأصيلة، على أنه كان أمينا مع نفسه وصادقا أمام التاريخ عندما أكّد أنه لم يلحّن تلك الأغنية الشهيرة وإنما سمعها من علي وردة (زكّار طبّالة قرقنة). ولئن اشتهر أحمد حمزة بتلك الأغنية، فإنه كان مدينا بالفضل للفنان محمّد النوري (1904–1976م) الذي كان أهداه أغنية الحظ (ارجع يا عمّي يهديك حكمه على العبد محتم) ذلك أنّ أحمد حمزة قد بدأ مشواره الفني بالأغنية الرّومنسيّة مثل (يا نعيم الدنيا قلي إنت فين) وقصيد الشاعر منوّر صمادح (كنت بالأمس جنينا بك أحلم) وقصيد ثان أهداه للسّيدة نعمة (أين مني ذكرياتي).

كما غنّى أيضا قصيد (كم سما الفنّ) من ألحان علي شلغم وقد أعادت تسجيله المطربة عليّة.

ولئن ولد أحمد حمزة يوم 24 ديسمبر 1930 بمدينة صفاقس حيث ملأ الوطاب من الغناء والعزف على آلة عود أبيه، فإنه شدّ الرّحال نحو العاصمة في الخمسينات.

وكان أحمد حمزة قد تتلمذ لكل من الهادي الشنوفي ووناس كريّم ومحمّد النابلي ومحمّد علولو ومحمّد بودية وعمل عازفا في الفرق الوتريّة الصّفاقسيّة، الأمر الّذي يسّر نجاحه في الاختبار الصّوتي الذي مكّنه من الانضمام إلى المجموعة الصّوتيّة لفرقة المحطّة الإذاعيّة التي

انبعثت سنة1957 في عهد البشير المهذبي مديرها عهدئذ.

وفي رحاب الإذاعة حفظ أحمد حمزة 13 نوبة مالوف عن الشيخ خميّس الترنان حتى يتمّ تسجيلها إذاعيّا إلى جانب وصلات الموشحات الشرقيّة التي أخذها عن الفنان المصري عازف القانون فهمي عوض، ومازالت الإذاعة تحتفظ بتلكم التسجيلات التي تعدّ كنزا ثمينا في رصيد خزينة صوتيّاتها ومسمعيّاتها.

وخلال استقراره بتونس عمل أيضا عازفا في عدّة فرق موسيقيّة بالعاصمة مثل فرقة المطرب محمّد أحمد وعلي الرياحي وبوبكر المولدي حيث أسهم في إحياء السّهرات الرّمضانيّة في «كافيشانطة باب سويقة».

وفي سنة1958 فاز أحمد حمزة بجائزة مهرجان المرجان بمدينة طبرقة بأغنيته (يا طبرقة يا أهل الخير يا درّة في تاج بلادي) كلمات الإذاعي عبد العزيز الرّياحي.

وفي السّنة نفسها التقى أحمد حمزة الموسيقار محمّد عبد الوهاب في رحلته الأولى إلى القاهرة. وعاد في سنة1961 إلى مسقط رأسه ليرأس أوّل مصلحة للموسيقى بأوّل محطّة إذاعيّة جهويّة تبعث بصفاقس في عهد أوّل مدير لها عبد العزيز عشيش. فتولى أحمد حمزة تسجيل البحور الطرقيّة مثل العامريّة والسّلاميّة التي كان يحفظها محمّد بوديّة أداء وعزفا على الكرنيطة، كما ألف فرقة موسيقيّة بالإذاعة بقيادة محمّد علولو إلى جانب ألحانه التي أهداها إلى عناصر المجموعة الصّوتيّة.

وفي سنة1963 نزل أحمد حمزة ضيفا على التلفزة المصريّة التي كانت في بداية إرسالها التجريبي وسجّل عدّة أغان تونسيّة مثل (شهلولة وخنّابة وهي هي مولاة الخلة الخمريّة...) وقد حرص أحمد حمزة على استقدام فرقة موسيقيّة من عازفين تونسيّين بقيادة عبد الحميد بن علجيّة وكان الجميع قد ارتدوا اللباس التقليدي التونسي أي الجبّة والشاشيّة التونسيّة.

كما زار مصر ثانية في سنة1969 بمناسبة احتفالات القاهرة بذكرى ألفية انبعاثها على يدي الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي وكان قد ساهم قبل ذلك في بعث فرقة الأندلس مع رفيق دربه عبد الحميد بن علجيّة سنة1967 لإحياء الحفلات العامّة والخاصّة.

زار أحمد حمزة كذلك عدّة بلدان عربيّة مثل المغرب والجزائر التي كان زارها مع شافية رشدي في أوّل رحلته الفنيّة ثم إلى ليبيا والسّودان وسوريا حيث تزوّج ثانية وسجّل أغنيتين من ألحان سهيل عرفة.

غنّى أحمد حمزة مع المطرب عبد الحليم حافظ في قصر المؤتمرات بباريس سنة1974. وقد حافظ على أصالته الحضاريّة في أداء أغانيه الشعبيّة الرّاقية.

وقد تُوفّي أحمد حمزة يوم 14 مارس سنة 2001 بتونس.



البشير حمزة
[1920–2006م]

ولد بمدينة المهدية في 26 أكتوبر 1920. وتلقّى تعليمه الابتدائي في المهدية والثانوي بمعهد «كارنو». وتخرّج طبيبا للأطفال في كلية الطب باريس. وهو من الروّاد الذين أسّسوا طبّ الأطفال في تونس منذ سنة 1951. وعمل مع ثلّة قليلة من رفاقه على مكافحة الأمراض التي كانت

تفتك آنذاك بالأطفال التونسيين بتوخي العمل المخبري والميداني.
أسس الجمعيّة التونسيّة لطبّ الأطفال سنة 1961. وترأسها في السنوات الأولى لتأسيسها، كما تولى تأسيس المعهد الوطني لصحة الطفولة. وأداره مدّة عشرين سنة (1964–1985)، ثم لاحقا من سنة 1985 إلى سنة 1992. أشرف على قسم أمراض الأطفال بمستشفى شارل نيكول، كما تولى تأسيس إدارة مستشفى الأطفال بالعاصمة سنة 1964.
ترأس اللجنة الوطنية للأخلاقيات الطبية من سنة 1995 حتى وفاته.
جال البلاد التونسية مؤمنا بأن العمل الميداني هو أجدى السبل وأفضلها لمعرفة مكمن الدّاء وتحقيق صحّة متوازنة للطفل التونسي. وكان عميق الإيمان بأهميّة الوقاية، وقطع أسباب الأمراض. فحرص على إدخال الكثير من التلاقيح وتعميمها. وكافح سوء التغذية في كافة أنحاء البلاد التونسية.
وعلى نحو مواز لأعماله الميدانية،عمل في أثناء اضطلاعه بالتدريس بكلية الطبّ بتونس على تكوين كفاءات في طبّ الأطفال وطبّ الأطفال الوقائي والاجتماعي. فتخرّج على يديه جيل من الأطباء والطّبيبات في هذه التخصّصات مازالوا يلهجون بذكره ويعترفون بأستاذيته وريادته.
تجاوز إشعاع بشير حمزة حدود البلاد التونسية، إذ حاز بفضل أبحاثه العلميّة ونشرياته تقدير الأوساط العلميّة والطبيّة الدوليّة المعنية بصحّة الطفل كافّة. ودُعيَ مرارا إلى إلقاء محاضرات في طب الأطفال الوقائي والاجتماعي في عدة البلدان.وانتخب عضوا في الأكاديمية الطبية الوطنية بفرنسا.
حصل على عدة جوائز وميداليات منها:
- الميدالية العالمية لصحة الطفل (من المنظمة العالمية لصحة الطفل سنة.)1983
- ميدالية مجلس وزراء الصحة العرب (1990).
إلى جانب جوائز وأوسمة وطنية.
عرف بين زملائه وتلاميذه بإيمانه العميق بأن الطبّ رسالة قبل أن يكون مهنة وأنّ هذه الرسالة ينبغي أن تكون في خدمة الإنسان عامّة والطفل على وجه الخصوص.
كما اشتهر بنشاطه الحثيث وجهده الدائب إلى آخر حياته، حتى إنّه كان يعدّ قبل وفاته بأيّام ندوة علميّة.
توفّي في 6 فيفري 2006 بعد أن بنى وأسس صرحا طبيّا متينا في مجال طبّ الطفل، من جهة المؤسسات، ومن جهة الكفايات الطبية العالية التي تخرّجت على يديه.

حنّبعل

[264–183 قم]

ما انفكت شخصيّة حنبعل البرقيّ تثير الدهشة والإعجاب في كلّ أصقاع المعمورة وقد كتب عنه الكثير في مختلف اللغات حتى إنّك تجد من يحدّثك عنه وعن مآثره من مؤرخين وأدباء وسياسيين وعسكريين ينتمون إلى ثقافات شتّى وإلى مدارس عدّة مختلفة. فهذا يقدّمه لك باللّغة الفرنسيّة وهذا باللّغة الإيطالية أو الإسبانية أو الإنقليزيّة وآخر يحاول التعريف به بالروسية أو اليابانية. إنّ الكتب والدراسات التي صنّفت حول شخصيّة حنّبعل البرقيّ لا تحصى عددا.
وإن سئل المؤرخ عن مصادره رأيته يشير إلى المؤرخين القدامى من يونان ورومان، نذكر منهم بولوبيوس (Polybe) وهو من الذين كانت لهم دراية بقرطاج وعظمائها، وقد عاش في القرن الثاني قبل ميلاد عيسى عليه السلام ولعلّه أدرك حنّبعل وتعرف إليه من قريب. هذا وقد وردت أخبار عدّة متنوعة في كتب المؤرخ اللاتيني تيتوس

ليوس (Titus Livius) الذي وصف الحرب الرومانية القرطاجية الثانية، تلك التي أبرزت عبقرية حنبعل البرقي. ومن المصادر التي لابدّ من الرجوع إليها في شأن حنّبعل تجدر الإشارة إلى ترجمة وضعها مؤرخ لاتيني عاش في القرن الأول قبل الميلاد يدعى قرنليوس نيبوس (Cornelius Nepos). وإلى جانب هؤلاء المؤرخين يمكن التقاط معلومات جيّدة مبثوثة في الكتب القديمة، منها ما يخصّ طفولته أو تربيته أو ثقافته وميوله الفنية، ومنها ما يخصّ حياته العائلية وحياته الروحية. وتضاف إلى هذه المصادر الأدبية شهادات أثرية من تماثيل ونقوش ونقود قد يفيد منها المؤرخ للتعرف إلى ملامح الرجل أو على صورته.

ومن هذه الوثائق نشير إلى تمثال نصفي برنزي عُثر عليه في مدينة وليلَى بالمغرب الأقصى في أثناء حفريات أشرف عليها عالم الآثار الفرنسي روبار توفينو (Robert Thouvenot) سنة 1944، مع العلم أنّ المؤرخ الفرنسي جيلبار بيكار (Gilbert Picard) استشف فيه صورة حنّبعل البرقيّ. ومن التماثيل التي نسبت إلى القائد القرطاجي رأسان من رخام أحدهما في متحف كوبنهاق والآخر بمتحف البرادو بمدريد، ويبدو أن صورة حنّبعل توجد في نقود ضربت بأمر منه في إسبانيا زمن سلطانه ابتداء من سنة 221 ق. م لمّا بايعه الجيش قائدا أعلى خلفا لعزربعل الذي سقط بطعنة خنجر سدّدها له قلتيّ الذي كان يريد الانتقام لأبيه. فلقد تعرّف بعض المختصّين في علم النميات إلى صورة حنّبعل في نقود فضية عثر عليها بإسبانيا. ومن الذين أثبتوا ذلك نكتفي بذكر متخصّصين هما الإسباني أ. بلتران A.Beltran. والبريطاني روبنسون، ولكن لم تحظ هذه القراءة بمساندة الجميع بل عارضها بعضهم قائلا إنّ الصورة التي تحملها تلك النقود الإسبانية لا علاقة لها بحنبعل بل هي تجسيد لملقَرْت إله فنيقي قرطاجي كان الأبارقة يتقربون إليه ويعبدونه. وما دمنا نقدم الوثائق التي قد تساعدنا على التعرّف إلى صورة حنّبعل، لعلّه من المفيد الإشارة إلى نصب من حجر الكلس حفرت عليه صورة شاب نسبها جيلبار بيكار إلى قائد قرطاجيّ علّه من أبناء عبد ملقرت. لقد عُثر على هذا النصب في قدس بعل حمّون وهو المعبد الذي عرف باسم توفات صلامبو. ومهما يكن من صحة هذا التشخيص فثابت أنّ لحنّبعل صورا وتماثيل كالتي كانت في مدينة روما في القرن الأول بعد الميلاد وقد أشارت إليها بعض النصوص القديمة.

تلك مصادر أدبية ووثائق أثرية يمكن للمؤرخ الرجوع إليها واستلهامها إذا أراد التعرف إلى سيرة حنّبعل.

نشأته وحياته العائلية

ينتسب حنّبعل إلى الأبارقة وهي أسرة عريقة في المجد ومن المرجّح أنه ولد في قرطاج سنة 246 ق. م، وكان أبوه عبد ملقرت إذّاك على رأس جيش قرطاجيّ بجزيرة صقلية مازال يتصدّى للجيوش الرومانية وأبى النزول من جبله ما لم يتمكّن وجنوده من العودة إلى قرطاج محترما مصون الكرامة فكان له ما أراد وعاد إلى أسرته وسعد بابنه الصغير ذاك الذي سمّاه حنّبعل. لم يترك لنا التاريخ شيئا عن الطفل حتى إنّنا نجهل كلّ شيء عن حياته بقرطاج في السنوات التسع الأولى من عمره فلا شكّ في أنّه فتح عينيه في مدينة جليلة تزخر بالعمران تتردّد عليها السفن مثقلة بعجائب الدنيا وملذّاتها وفي شوارعها وأسواقها جلبة: هذان يتخاطبان بلغة اليونان وهذا مصريّ: يتجاذب أطراف الحديث مع نوميديّ ولكليهما نبرته ورطانته فضلا عن خصوصيته في الزيّ وأشكاله وألوانه، وكأنّ المدينة في ثراء ورخاء ولا شيء فيها ينبئ باندلاع الحرب ولا بتقلّص الإمبراطورية القرطاجية بسقوط جزيرتي صقلية وسردانيا في قبضة الرومان. ولا شيء ينمّ عن عجز الخزينة القرطاجية. فلم يشعر الطفل بشيء من ذلك بل علّه كان فخورا بأبيه وهو يلاحق المتمردين

الذين كانوا يتربّصون شرا بالمدينة مترصدين إيّاها للانقضاض عليها واستباحة ثرواتها. وانتصر عبد ملقرت البرقيّ على المتمردين وسقاهم كأس الهزيمة وعاد الأمن إلى قرطاج واطمأنت النفوس وامتلأت الرحاب والشوارع وفتحت المتاجر والمصانع وبانت أشرعة السفن شامخة لتغادر الميناء أو لتلقي مراسيها حذو الرصيف. هكذا كانت تبدو قرطاج غداة انتصار عبد ملقرت البرقيّ على المرتزقة وعلى زعيم المتمردين ماطُو سنة 237 قبل الميلاد، وقد بلغ حنّبعل إذّاك السنة التاسعة من عمره. فلئن كانت هدية الطفل لأبيه ابتسامة بريئة عند عودته من صقلية سنة 241 فقد كانت هديته سنة 237 ابتسامة أخرى ملؤها الفخر والاعتزاز بأب عاد مظفرا تحيّيه جماهير قرطاج وتخلع عليه أجمل الألقاب فهو لابنه الصغير إسوة ومثل أعلى.

ولمّا تحوّل عبد ملْقرْتَ إلى إسبانيا رافقه ابنه حنّبعل وقد اهتمّ القدماء والمعاصرون بهذا الحدث الخطير: ومن خطورته أنّه في رأي بعضهم حدّد مصير الطفل وخطّ منهجه وألقى في طينته الخصبة بذور المستقبل، ذلك أنّ المصادر القديمة تشير إلى حفلٍ دينيّ أقامه عبد ملقرت قبيل الرحيل في قدْس بَعْل حمّون وكان الطفل من الحاضرين، ولمّا سأله أبوه رأيه في شأن التحول إلى إسبانيا أبدى رغبة ملحّة واستعدادا كبيرا فتقدّم به أبوه إلى المذبح وطلب منه أن يضع يده على المائدة المقدّسة ويقسم ألا يتحالف أبدا مع الرومان وفعل الطفل وأضاف المؤرخ اللاتيني قرنليوس نيبوس أنّه بقي على العهد وفيّا لروح أبيه إلى آخر رمق من حياته.

وتمرّ السّنون وهو في إسبانيا صحبة أبيه ينتقل من معسكر إلى آخر. على أنّ أباه لم يزهد في تربيته: فإلى جانب ما قد يجده في الميدان ويستفيده من حياة الخيمة صحبة الجنود والضباط وإلى جانب ركوب الخيل والرماية ومصارعة الحيوانات الضارية كان ينهل من ينابيع العلم والمعرفة والفنّ مستفيدا من دروس معلّميه. وقد عيّن له أبوه مدرّسين اعتنوا بتربيته وتلقينه أجود الكتب اليونانية والبونية وغيرها. فممّنْ قدّموا له رحيق الحضارة اليونانية تجدر الإشارة إلى سوسولوس الإسبرطي فهو الذي عرّفه بإسكندر المقدوني وشرح له مآثره الحربية وأطلعه على غزواته وعلى مسيرته الكبرى من بلاد اليونان حتى ربوع الهند والسند مرورا بمصر والسواحل السورية الفلسطينية والمدن الفينيقية. هكذا تغذّى حنّبعل منذ نعومة أظفاره بما يزيد التربة خصبا والأفق عمقا واتساعا. فلقد صاحب الإسكندر المقدوني وهو على جواده والسيف مسلول فتسْجُد أمامه الجبال وتفتح له الحصون أبوابها فيدخلها فاتحا ينشر الحضارة اليونانية لغة وعمارة وفنا. فلا شكّ في أنّها ملحمة مثيرة مغرية شدّت حنّبعل إليها. فكم كان يطرب للخيل وهي تصهل وتقرع الأرض بحوافرها كرًّا متواصلا لا يعرف الفرّ. ولمّا تعلّم اللغة اليونانية توفّرت له مفاتيح دنيا اليونان بما كانت تزخر به من نفائس الأدب والفنون التشكيلية، فقيل إنه كان يجمع التحف من تماثيل وغيرها وكان يأخذها معه في حلّه وترحاله. ولقد أشار الشاعر اللاتيني سطاتيوس (Statius) إلى أنّ القائد القرطاجيّ كان يملك تمثالا صغيرا يصوّر هيرقلاس وهو من إنجاز النحات اليوناني الشهير لوزفّوس (Lysippos). لقد شاع هذا الخبر في عهد الامبراطور دومتيانوس الذي تولّى الحكم من سنة 81 إلى سنة 96 بعد الميلاد وأورده شاعر لاتينيّ آخر يدعى مرتياليس (Martialis). ومن ممتلكات حنبعل الفنية تماثيل كانت معه أيام إقامته في المهجر لكن لم يضبط قرنليوس نيبوس هويّتها. فهل كانت من إنجاز مبدعين يونانيين أم هل كانت تنتمي إلى الفن اليوناني أو إلى إحدى المدارس الفنية الأخرى؟ وهل كانت تماثيل إلهية أو آدمية؟ الثابت أنّها كانت ضمن أمتعة القائد القرطاجي المطارد من السلطات الرومانية. فثقافة الرجل كانت فسيحة الأرجاء عميقة الأفق. فهل كان يحسن لغة

الرومان؟ لا نستبعد ذلك وهو الذي كان يتطلّع إلى معرفة ما في عقولهم وصدورهم ليستفيد وينتصر. أمّا حياته العائلية فلم يحتفظ التاريخ منها بذكريات تخصّ أمه ولا ندري شيئا عن مدى تمتّعه بحنان الأمومة فلا جدوى من افتراضات خاوية بل يكتفي المؤرخ بتسجيل صمت المصادر في هذا الشأن ويمرّ إلى جانب آخر من حياة الرجل. لقد ورد في كتب القدماء أنّه تزوّج بفتاة تنتسب إلى عائلة إسبانية عريقة من مدينة قستولو Castulo التي تقع في صعيد الوادي الكبير وكانت النصوص القديمة تسميه بايتيس. أمّا مدينة قستولو فقيل إنّها ذات حضارة وقد تسرّبت إليها ألوان شتى من تأثير منها ما هو يوناني ومنها ما هو بوني أو إفريقي.

تزوّج حنّبعل غداة تسلّمه القيادة على رأس الجيش القرطاجي بإسبانيا، فقد يكون زواجه إذن فيما بين سنتي 221–220 قبل الميلاد، ذلك أنّه كان يحاصر مدينة سَاغُنْتا سنة 219 وقد ولد له ابن ولعلّه تيمّن بالحدث. ويدّعي الشاعر اللاتيني سيليوس إطاليقوس - وهو من أدباء القرن الأول بعد الميلاد - أنّ زوجة حنبعل القستولية كانت تسمى «إيملكا» ولعلّه تحريف لخيملكا وهو اسم متداول عند القرطاجيين، فهل كان للفتاة اسم إسباني قستوليّ قبل زواجها أم هل كانت تحمل الاسم نفسه الذي احتفظ به الشاعر اللاتيني؟

تعسر الإجابة القطعيّة عن هذا السؤال، على أنّه ليس من الغريب أن تتسرّب الأسماء الفينيقية القرطاجية إلى المجتمعات الإيبيرية لا سيما في مدينة قستولو.

كيف كانت الحياة الزوجية في بيت حنّبعل؟ إنّ الباحث في هذه النقطة تعترضه طبقات سميكة من الصمت. فلا شكّ في أنّ الزوج كان منهمكا في شؤون سياسية وأخرى عسكرية الهدف منها دعم الحضور القرطاجي في شبه الجزيرة الإيبيرية بالسيف والدبلوماسية حتى كأنّ زواجه بأبعاده السياسية والعسكرية جاء لتقوية الحلف القرطاجي الإيبيري. الثابت أنّه كان يقضي غالب أيّامه بعيدا عن البيت والزوجة ومعلوم أنّ ابنه ولد وهو يحاصر مدينة ساغُنتَا. وبعد سقوط المدينة عاد القائد إلى بيته في قرطاجنة. ولما كان يتهيأ لمغادرة العائلة مرة أخرى ولزمن قد يكون طويلا تحوّل صحبة زوجته وابنه إلى مدينة جديرا وهي التي تسمى اليوم قادس لتوديعهما وزيارة معبد ملقرْت نشدانا للبركة والتوفيق وهو مقدم على مشروع خطير فكانت القرابين والنذور والصلوات أملا في استدرار العناية الإلهية. وفي ميناء جديرا ودّع حنّبعل خيملكا وابنها وقد ركبا سفينة حملتهما إلى قرطاج. إنّها لوحة رائعة مثيرة قد تكون ثمرة منّ بها الخيال الشعري عن طريق سيليوس إطاليقوس مرورا بورجليوس وهوميروس، على أنّه ليس من حقّ المؤرخ تركها جانبا ولا نرى في اعتمادها مجازفة ما لم نجد في المصادر عنصرا ولو ضئيلا يدحضها. ويعود الشاعر اللاّتيني إلى ابن حنّبعل ثانية زمن معركة ترازمانا سنة 217 قبل الميلاد مدّعيا أن شيوخ قرطاج أمروا بتقديمه قربانا لبعل حمون وهو ما رفضت خيملكا وتحوّل وفد إلى معسكر حنّبعل يشاوره في الأمر فامتنع وقد تغلّب العطف الأبوي على واجب ديني تمليه تقاليد وطقوس يتعلّق بها المجتمع القرطاجي إذّاك. وفي الرواية عوّض حنبعل ابنه بضحايا كثيرين من الأسرى على أنّ غالب المؤرخين المعاصرين يعتبرون هذا الحدث أسطورة من وضع الشاعر اللاتيني دون أدنى مرجع تاريخي ثابت.

حياة حنّبعل العسكرية

بايع الجيش القرطاجيّ حنّبعل قائدا أعلى تنويها بخصاله وتصفيقا ولم يبق لسلطات قرطاج إلاّ التزكية ففعلت رغم مناهضة أقلّية كانت لا ترتاح لسياسة الأبارقة الذين ما انفكّوا يتمتّعون بعطف الجماهير ولا ينسجمون مع مطامح الأثرياء، وقد تجلّى ذلك غداة الحرب القرطاجية الرومانية الأولى (264–241) وفي أثناء

تمرد المرتزقة (240–237). تسلّم حنّبعل إذن عصا القيادة خلفا لصهره عزربعل الذي لقي حتفه إثر طعنة خنجر سددها له قلتيّ ثأرا لأبيه وذويه، كان ذلك سنة 221 قبل الميلاد. وتابع الخلف سياسة السلف فبادر بمواصلة توسيع رقعة النفوذ القرطاجي في إسبانيا مستخدما السيف تارة والحوار تارة أخرى لإخماد ثورة من لا يعترف بقرطاج أو يرفض حضورها، على أنّ السلط الرومانية غدت توجس خيفة من تلك السياسة التوسعية ومما أصبح لقرطاج من قوة في تلك الربوع، وبها قد يشتد عودها من جديد فلا بدّ من التصدي لها وتحديد مناطق نفوذها استنادا إلى معاهدة تجعل من نهر الإيبر حدًّا لتوسُّع القرطاجيين في إسبانيا. كان مجلس الشيوخ في روما يبحث عن ذريعة للتدخّل في الشؤون البونية الإيبيرية فتوفّرت لمّا حاصر حنّبعل مدينة ساغنتا وحطّم جدرانها انتقاما لأتباعه الذين قُضي عليهم بمساعدة الرومان فاعتبر ذلك عدوانا وتجاوزا للمعاهدة التي تحدّد مناطق توسّع القرطاجيين في إسبانيا. هذا ولم تجد السلط الرومانية أذنا صاغية في قرطاج. تلك هي الظروف التي حفت باندلاع الحرب ثانية بين الدولتين. وكانت كلتاهما تحمّل نظيرتها مسؤولية الحرب. وتناول المؤرخون المعاصرون القضية ولم يخل النقاش من حرارة العاطفة وخطر الانتساب والالتزام. وترى غالبهم يقف مساندا لروما لا لشيء سوى أنّهم يعتبرونها أمًّا لهم منها ينحدرون وإلى حضارتها ينتسبون بل منهم من يرى أنّ للحرب البونية الثانية بذورا زرعها عبد ملقرت البرقيّ في طينة حنّبعل منذ التاسعة من عمره لما اختلى به قرب مذبح بعل حمّون وطلب منه أن يتعهّد بمعاداة روما طيلة حياته. لقد أشار المؤرخون القدامى إلى هذا القسم الخطير معتقدين أنّ له أثرا عميقا في نفس الطفل ما انفك يلاحقه وينحت شخصيته. فثابت أنّه فطر على حبّ الوطن وعلى حبّ التضحية في سبيله ولهما من المشاعر والمواقف

المتوارثة في أسرة الأبارقة وفي أسر أخرى قرطاجية عدة، ولكن ذلك لا يكفي لاندلاع حرب كالتي أقبل عليها حنّبعل وأقبلت عليها قرطاج. الواقع أنّ روما كانت تريد الوقوف في وجه عدوّتها وكسر شوكتها وفرض هيمنتها عليها ولا تتردّد في إهانتها فرفض حنّبعل الإهانة وتحدّى خصومه. فلمّا كانت السلط الرومانية مقبلة على الحرب بنية القضاء على الجيش القرطاجيّ افتكّ القائد البوني المبادرة وكانت مسيرة عبر جبال البيريني وجبال الألب بهرت الجميع، دولا وأقواما وقتئذ، ومازالت تثير دهشة المعاصرين وإعجابهم. فقد تحدث عنها القدماء بإطناب واحتفظت بمكانتها ضمن شواغل المؤرخين والأدباء. فقد انطلق حنّبعل من قرطاجنة سنة 218 ق م. على رأس جيش رهيب يعدّ تسعين ألف راجل واثني عشر ألف فارس وهي أرقام أوردها بولوبيوس استنادا إلى نقيشة سطّرت بأمر من حنّبعل على مذبح الإلهة اليونانية هيرا عند زيارته لمعبدها الكائن على مقربة من المدينة الإيطالية قروطونا (Crotona) سنة 205 قبل الميلاد. وإلى جانب المشاة والفرسان كان الجيش البونيّ معزّزا بقطيع من الفيلة عددها سبعة وثلاثون فيلا عند عبور نهر الرون ويبدو أنّها شاركت في المعارك الأولى بإيطاليا لكنّها لم تتحمّل البرد القارس والثلوج ولم يصمد منها إلا واحد كان يمتطيه القائد لعبور المستنقعات. وعلى اختلاف عناصره من حيث الأصل واللّغة والتقاليد كان الجيش أداة طيّعة في يد حنّبعل يتعلّق به ويرتاح لأوامره فلم يعرف له التاريخ تمردا ولم تجد القيادة صعوبة في تنفيذ خططها، ذلك أنّ الرجل كان يحسن مخاطبة الجندي مهما كانت درجته وكلّ فرد كان يشعر أنّه حلقة من سلسلة متكاملة لا يفوته أحد في وظيفته ولا يعوّضه أحد في القيام بها. فتراه منضبطا متحمّسا فخورا بانتمائه إلى جيش يقوده حنّبعل من نصر إلى نصر ومن غنيمة إلى غنيمة. ومن عبقرية القائد وتواضعه وحسن مواقفه أن أصبح

الجندي عاشقا له سعيدا بتنفيذ أوامره وتذليل الصعوبات وتقديم التضحيات، ومن عبقرية القائد أيضا أنّه كان يفتح البلدان وترفع أعلامه في المدن والقلاع وفيها يجد المدد لتعويض الخسائر من رجال وعتاد مستندا في ذلك إلى الكلمة الطيّبة والموقف المشرّف مع قوة إغراء وإقناع أخّاذة. لقد وجد في إيطاليا في أثناء المسيرة الكبرى من بادر بالانضمام إلى وحداته وشارك في المعارك التي خاضها الجيش القرطاجي حتّى النّصر ومنها معركة تيشينو ومعركة تريبيا وكانت كلتاهما في سنة 218 قبل الميلاد. ومن المعارك الشهيرة التي برزت فيها عبقرية حنّبعل تلك التي ألقت بالجيش الروماني في مياه بحيرة ترأزمانا سنة 217 وأخرى كتبت الخلود لمدينة قانا وقد تجلّت قدرات حنّبعل وأدركت مستوى لم يدركه أحد ولن يدركه أحد فكان يكيّف حركات جيشه كالمبدع الذي يطوّع المادة فتتولد الأشكال والأحجام حتى كأنّه ذلك الذي يرتجل الإبداع مستندا في الواقع إلى عبقرية ذات أبعاد وخصوبة لا نهاية لها. ففي قانا سنة 216 قبل الميلاد كانت صفوف الجيش الحنّبعلي تتقوّر وتتجوّف لتبتلع العدو. لقد كتب الكثيرون حول معركة قانا ومازالت المدارس الحربية تشير إليها معتبرة إياها درسا نموذجيا في الجمالية الحربية وفي الانسجام والتراشح بين قائد عبقري وجيش طيّع منضبط. لحنّبعل مواهب شتى بعضها موروث وبعضها مكتسب



حنّبعل كما نحته البشير الزريبي

فثابت أنّه كان يمتاز بثقافة واسعة معمّقة ما انفكّ يستند إليها ويكرع من معينها. فكان يهيئ لكل معركة يقبل عليها بجمع المعلومات الطبيعية والبشرية وله من المخبرين عدد كثير يمدّونه بالتقارير حول المحيط الجغرافي التوبغرافي والظروف المناخية. وكان يسعى إلى الحصول على أخبار تخصّ الشعوب وعاداتها وتقاليدها ومختلف حساسياتها ويجمع بين تلك التقارير، وعلى ضوئها يضع المشروعات الخطط الحربية التي قد يطوّرها عند الاقتضاء ويدخل عليها ما تستوجبه من تحويرات عند التنفيذ، وهو ما كان يحيّر قادة الجيوش الرومانية أمثال سقيبيون وفلامينيوس وغيرهما. وكم من ضابط روماني وقع في فخّ نصبه حنّبعل بكلّ حنكة وإتقان، فكثيرا ما كان يعتمد الحيل الحربية وكانت حيله تمتاز بالبساطة والنّجاعة. ولقد استرعت اهتمام القدماء فجمعوها وعرّفوا بها ومازالت تحظى بإعجاب مؤرّخين معاصرين تراهم لا يتردّدون في توشيح كتبهم ودراساتهم بها، منها حيلة «الثيران الملتهبة الشاردة»: كان الجيش الروماني يراقب ممرّا جبليّا ضيقا من أعلى قمم تمكّن من السيطرة عليه، وكان حنّبعل يريد عبور ذلك الممرّ. كيف العمل؟ جمع القائد القرطاجيّ قطيعا من الثيران يعدّ ألفي رأس وأمر أن يشدّ على قرونها تبن وأغْصَانَ أشجار يابسة تضرم فيها النار ثم تدفع الثيران الملتهبة نحو المعسكر الروماني ليلا. ولمّا كان ذلك ظنّ الرومان أنّ

العدوّ يهاجمهم فتركوا مواقعهم وقد تفشّى فيهم الخوف والهلع. وبينما هم كذلك إذ تمكّن الجيش البوني من عبور الممرّ بسلام وفكّ الحصار المضروب عليه وقتئذ. ولحنبعل حيل حربية أخرى عدّة متنوّعة تثبت أنّ الرجل كان طيلة حياته يجمع بين سلطان العقل وخصوبة الخيال، ويبدو أنّه في سبكها كان يجد متعة الطفولة العابثة. على أنّ الخطط الحربية وتصاميم المعارك كان يضعها بالتّعاون مع الضبّاط والمساعدين مهما كانت درجتهم. فمن مميزات عبقريّته أنّه كان يحسن طرح السؤال والاستماع والاستفادة من آراء غيره. وكان يقبل على التعاون والتحالف، من ذلك إنجازه لحلف مع فيليبّوس الخامس ملك مقدونيا سنة 215 قبل الميلاد. ولئن لم يدخل حيّز التنفيذ فقد احتفظ المؤرخ اليوناني بولوبيوس بترجمة يونانية لنصّ المعاهدة وهي التي تعرف باسم «قسم حنّبعل».

هكذا كان سلوك القائد القرطاجيّ وتلك مواقفه وفيها يكمن سرّ الانتصارات التي سجّلها في أثناء إقامته بإيطاليا من سنة 218 إلى سنة 203 قبل الميلاد.

عودة حنّبعل إلى إفريقيا

غادر حنّبعل أرض الوطن طفلا في التاسعة من عمره وعاد إليها كهلا حنّكته التجارب وهو في الثالثة والأربعين وشاء القدر أن يكون في إفريقيا وقتئذ جيش روماني بقيادة سقيبيون ابن سقيبيون الذي انتصر عليه حنّبعل لمّا كان نجمه ساطعا في سماء إيطاليا غداة عبوره جبال الألب سنة 218 قبل الميلاد. عاد القائد القرطاجيّ إلى إفريقيا ليحرّرها وألقت سفينته مراسيها في ميناء لبدا الصغرى وهي التي نعرفها اليوم باسم لمطة جنوب المنستير، ومنها تحوّل إلى مدينة سوسة التي كانت إذاك تحمل اسم هدريم ثمّ سمّاها الرومان هدريميتوم. ولئن فضّل حنّبعل النزول في ربوع المزاق وهو الاسم العتيق لربوع الساحل التونسي فمردّ ذلك إلى أسباب شخصية وأخرى إستراتيجية: الأولى تتمحور حول حضور الأبارقة في تلك الربوع وفي النصوص القديمة إشارات إلى ممتلكاتهم العقارية في ما بين مدينتي تفاشا وأخولا أي فيما بين بقالطة وهنشير بُطرية. وممّا قد يشير إلى ممتلكات حنّبعل فيها برج مراقبة يحمل اسمه. فهل كان للقائد القرطاجي أنصار في المزاق؟ ذاك ما ذهب إليه بعض المؤرخين المعاصرين. ويرجّح أنّه كان لا يرتاح لقرطاج ولا يطمئن إلى شيوخها ولا إلى أسباطها ثم لا ننسى أنّ سقيبيون كان يعسكر بالقرب من العاصمة وكأنّه يحاصرها من مدينة توناس ومن هضاب أوتيكا. فمن مصلحة القيادة البونية أن تتوارى عن العيون الرومانية وتتمركز في مواقع أمينة مخلصة تتوفّر فيها المؤونة فضلا عن الرجال والعتاد. فلا شكّ في أن هذه العوامل كانت ضمن الخيار الذي اعتمده حنّبعل لتتوجه سفينته نحو سواحل المزاق وتلقي مراسيها في ميناء لبدا الصغرى ليتحول بعد ذلك إلى سوسة حيث كان يشرف على تهيئة الجيش ماديّا ومعنويا. ومن الأخبار الطريفة ما ورد عن اهتمام حنّبعل بغراسة الزياتين في الريف المزاقيّ وهو مشروع خطير مكّن القائد من توظيف طاقات الجيش واتّقاء شرّ البطالة وأسهم في ازدهار الفلاحة بربوع المزاق وهو ما جعل السكان لا ينفرون من وجود المعسكر في ديارهم بل يرتاحون له ويتعاونون معه. ويبدو أنّ القائد القرطاجيّ كان حريصا على ربط وجود الجيش بمنافع محسوسة تستفيد منها المنطقة التي يعسكر فيها. ولا شكّ في أنّ ذلك كان يدخل ضمن سياسة الترغيب والإغراء التي كان يعتمدها طيلة حياته العسكرية. ولقد أحسن ممارستها وثبتت جدواها. وفي سنة 201 قبل الميلاد كانت معركة جاما Zama فانهزم حنّبعل. ولمّا كانت الغلبة لجيوش القائد سقيبيون والأمير النوميدي مسّنيسا، نادى حنّبعل بعقد صلح مع السلط الرومانية رغم قساوة الشروط وثقل جزية قدّرت بعشرة آلاف طالنْت أوبيّ من فضّة تسدّد في ظرف خمسين سنة مقسّمة أقساطا سنوية

يساوي القسط الواحد منها مائتي طالنت. وإن صحّ أنّ الطالنت الأوبّي يساوي ما يقارب الخمس والعشرين كلغ، أمكن تقدير الضريبة المفروضة على قرطاج إثر هزيمتها في جاما بما يفوق مائتين وخمسين طنّا من الفضة إلى جانب تعهّدات أخرى كان الهدف منها كسر شوكة القرطاجيين. ومن حكمة حنّبعل أن أبرم الاتفاق بين الخصمين وتفرّغت قرطاج لاسترجاع قواها. وانتخب حنّبعل سبطا سنة 196 قبل الميلاد فتعرّف إلى حقائق مرّة كانت تدفع البلاد إلى الهاوية. ولما أراد إصلاح الدستور من ذلك المنطلق والضرب على أيدي العابثين تصدت له قوى لا رادع لها تواطأت مع العدوّ وكانت مستعدّة للقضاء عليه بتسليمه إلى من كانوا يريدون به شرّا. لكنّه تفطّن للمكيدة وغادر العاصمة البونية ليلا ومنها إلى مدينة تفاشا وهي التي كانت تشرف على البحر في منطقة رأس الديماس بالقرب من بقالطة بالساحل التونسي بين المنستير والمهدية. وكانت في عهد الرومان تحمل اسم تفسوس وفي مينائها امتطى القائد القرطاجيّ سفينة حملته إلى جزيرة قرقنة ومنها تحول إلى المشرق.

حنّبعل في المهجر

لمّا وصل إلى مدينة صور قوبل بالتّرحاب والحفاوة وقد حلّ سهلا ووجد أهلا وفيها من تقدّم لمساعدته متطوّعا وفيها من أقبل على القيام بدور الوسيط السرّي يربط الصّلة بين القائد وأتباعه في قرطاج. ومن صور تحول حنّبعل إلى مدينة إيفيسوسا على ساحل آسيا الصغرى وكانت إذاك عاصمة لأنطيوخوس الثالث وهو ملك من الأسرة السلوقية طموح كان يريد التوسّع على حساب مصر البطلميّة وعلى حساب دويلتي برجاما ورودس. ولمّا كانت روما تعارض تلك السياسة التوسّعية تطوّع حنّبعل لخدمته بتسخير ما لديه من طاقة وتجربة عسكرية لكنّها لم تقدّر حقّ قدرها. ويرى بعض المؤرخين أنّ الملك لم يهتد إلى سبل الإفادة من رجل عبقري لا طموح له سوى مساعدة كلّ من قد يقف في وجه الإمبريالية الرومانية التي ما انفكت تلاحق قرطاج للقضاء عليها وكأنه يبحث عمّن يمكّنه من ثأر للوطن. وقد تساءل بعضهم عن مدى فشل حنّبعل في إقناع الملك أنطيوخوس الثالث بجدوى نصائحه وتصاميمه. ولمّا أصبح التأثير الروماني في العواصم السلوقية خطرا عليه غداة صلح أفاميا سنة 188 قبل الميلاد توجّه إلى أرمينيا وقد كان أميرها أرطشياس في حاجة إلى من يساعده على تحديث إمارته وتحضيرها. ومن خدمات حنّبعل وقتئذ اختيار موقع مناسب لعاصمة الإمارة ووضع مخطّطها. ولكنّ حرصه على التعاون مع كل من يتصدّى لروما ولجبروتها دفعه نحو ملك بيثينيا، وقد عرفه التاريخ جبانا لئيما حتى إنّه لم يتردّد في غدر ضيفه حنّبعل الذي لولا يقظته وحنكته ومعرفته لما في البشر من شرّ لوقع في قبضة أعدائه صبيحة يوم حاصروا مسكنه. فلمّا علم بذلك شرب سمّا كان مخزونا في فصّ خاتمه. هكذا كانت نهاية عبقرية قرطاجيّة أدهشت معاصريها ومازالت تثير إعجاب النّاس جميعهم وتحظى باهتمام المؤرخين. انطفأت تلك الشعلة القرطاجية سنة 183 قبل الميلاد ودفن حنّبعل على ضفاف بحر مرمر. ولقد أشار القدماء إلى ضريح متواضع له يرى اليوم على هيئة نصب أقيم في ذلك المكان إجلالا لقائد شبّ على حبّ الوطن ومات وهو على العهد لا مطمح له سوى السموّ به نحو العُلوّ.

أخلاق حنبعل وورعه

فضلا عن تفاني حنّبعل في سبيل قرطاج وإشعاعها فقد كان على خلق كريم يتحلّى بالنبل والطهر. ولقد أبدى المؤرخون القدامى إعجابهم بعفّته وإخلاصه لزوجته إخلاصا لم ينل منه جمال النساء الأسيرات. ويقال إنه لم يقترب من امرأة طيلة ستّ عشرة سنة قضّاها على أرض العدوّ باستثناء مجازفة طفيفة لا وزن لها في حياته أوردها المؤرخ اللاّتيني تيتوس ليوس في السفر

الرابع والعشرين من تاريخه ومفادها أن القائد تعرّف إلى إحدى فتيات الهوى في مدينة سلابيا سنة 214 قبل الميلاد. ولمّح بلينوس الأكبر إلى ذلك الحدث منوّها باعتزاز مواطني تلك المدينة بحبّ عاشه حنبعل البرقيّ في ديارهم. والأرجح أنّ ذلك حدث بعد وفاة زوجته خيملكا بقرطاج. ومن الأكاذيب التي وضعها مغرضون تعريضا بالقائد رواية أوردها أفيانوس تركّز الاهتمام على حياة الترف والخلاعة التي غرق فيها حنبعل مدة إقامته بمدينة قبّوا حتّى قيل إنّه أنجب طفلا. تلك شائعة لا نصيب لها من الصحّة بل ترى مؤرخين معاصرين لا يتوقفون عندها البتّة وإن أشاروا إليها أحيانا فغالبا للتحذير والتنديد بالذين يُشوهون الحقائق التاريخية. لقد كتب الكثير عن مدينة قبوا وعلاقتها بحنبعل وجيشه الذي انغمس في الملذّات حتّى أدرك التهلكة، لكنّها روايات من نسج الخيال موجهة إلى القارئ المولع بالحكايات المثيرة ولعلها كانت تنال إعجاب المتمسكين بالأخلاق الفاضلة. ومن شيم حنبعل أنّه كان يحترم الآخر ويوصي خيرا بالأسرى وبسكّان المدن التي قد يغزوها جيشه وكان يحجّر أعمال النهب والتخريب. ولا شكّ في أنّ لسلوكه ومواقفه هذه أبعادا أخلاقية وأخرى سياسية عسكرية وهو يريد بالنبل والتسامح وحسن المعاملة كسب الذين قد يمرّ بأوطانهم أو يدخل مدنهم. وإلى جانب أخلاقه الحميدة كان القائد القرطاجيّ ورعا يعترف بقوّة الآلهة ولا يتعدّى حدودها بل يرفع ذكرها في خطبه ويتوجّه إلى المعابد للصلاة والدعاء وتقديم القرابين. فقبيل الشروع في المسيرة الكبرى أدّى زيارة لمعبد ملقرت بجديرا صحبة زوجته وابنه الصغير ولا شكّ في أنّه صلّى ونحر وسأل الإله النّصر والتّوفيق. وكان يوصي بالمعابد والفضاءات المقدّسة حتى لا تدنّس ولا تنهب كنوزها. وفي وقت كان في حاجة ملحّة إلى الذهب لضرب عملة أبى الأستيلاء على عمود من ذهب خالص كان يوجد في معبد الإلهة ميرا قرب مدينة قروطونا احتراما منه للآلهة ومكاسب معابدها.

كان حنّبعل يجمع بين العبقرية والبطولة والخلق الكريم وهو ما جعل منه شخصيّة ساطعة مضيئة على مرّ العصور وتعاقب الأجيال واختلاف ثقافاتها. فلقد نال إعجاب الأعداء والأصدقاء، ومن المعجبين به الإمبراطور الفرنسي نابليون، فمن الكتب المحبوبة لديه تلك التي كانت تروي له ملحمة القائد القرطاجي حنّبعل ذلك الذي تجاوز التاريخ ليستوي على عرش في عالم الأدب والفن.

المذهب الحنفي بالبلاد التونسيّة

في أوائل القرن الثّاني للهجرة ظهرت بالمشرق العربي مدرستان للفقه و التّشريع هما مدرسة الإمام مالك بالحجاز (مدرسة أهل الحديث) ومدرسة أبي حنيفة بالعراق (مدرسة أهل الرّأي.)

وقد تميّزت كلّ مدرسة منهما بطرق مخصوصة في استنباط الأحكام من أدلّتها الشّرعيّة. فقد تميّزت المدرسة الحنفيّة بالتّوسع في استعمال الرّأي والقياس والاستحسان. وتميّزت المدرسة المالكيّة بوفرة الأحاديث النّبويّة واعتماد قاعدة المصالح المرسلة وعمل أهل المدينة. وقد جذبت المدرستان نخبة من الشّباب التّونسي. فارتحلوا إلى الشّرق ليتلقّوا الدّروس عن مالك وأصحابه بالمدينة، وعن أبي حنيفة وأصحابه بالعراق، وأخذوا عنهم أصول الدّين والفقه وأساليب القياس واستنباط الأحكام فيما يعرض من المشكلات.

ويعتبر عبد الله بن فرّوخ (176هـ/792م) حامل المذهب الحنفي إلى إفريقيّة. فهو الذّي عاصر علي بن زياد حامل لواء المذهب المالكي.

لقد اجتمع ابن فروّخ بأبي حنيفة وصحبه مدّة طويلة. وكتب عنه مسائل كثيرة. كان يميل إلى

النّظر والاستدلال. ويُروى أنّه ناظر يوما زفر بن هذيل (158هـ/ 775م) أحد أصحاب أبي حنيفة فازدراه زفر لهيئته المغربيّة. فلم يزل يُناظره حتّى علا ابن فرّوخ عليه وأفحمه بالحجّة والدّليل. فأنكر أبو حنيفة على زفر وعاتبه.

أما الفقيه الحنفي التّونسي فهو أسد بن الفرات (213هـ/828م) الذّي ارتحل بعد أن سمع مالكا بالمدينة، إلى العراق ولقي جماعة من أتباع أبي حنيفة وأخذ عنهم، ثمّ رجع أسد بعد وفاة مالك إلى مصر فأخذ عن أصحاب مالك كابن القاسم (191هـ/806م) وعبد الله بن وهب (183هـ/799م). وأشهب بن عبد العزيز (204هـ/819م). وجمع المسائل التّي تلقّاها في كتابه الأسديّة. ثمّ رجع إلى القيروان. وكان قد اجتمع لديه كتب مختلفة من المدرستين المالكيّة والحنفيّة. فتولّى تدريسها وقد كان كثيرا ما يثار الجدل والنّقاش حول الآراء الموجودة بها. ثمّ جاء سحنون. فهذّبها. وحذف منها المسائل الحنفيّة في مدوّنته [القاضي عياض: ترتيب المدارك: 3/298].

ومن تلامذة أسد بن الفرات سليمان بن عمران (270هـ/786م) الذّي صحب شيخه إلى أن استشهد بصقليّة. لقد اختّص سليمان بدراسة الفقه الحنفي وتولّى القضاء زمن سحنون وحكم بمذهبه.

ومن أصحاب أسد الحنفيّين أبو سليمان معمر بن منصور. كان فقيها قيروانيّا على عهد العراقيّين وهيثم بن سليمان بن حمدون (275هـ/888م) الذي كان فقيها على مذهب أبي حنيفة ومحمد بن عبد الله بن عبدوس (260هـ/874م) الذي قال فيه محمد بن حارث الخشني: «كان حافظا لمذهب أبي حنيفة موثّقا، كاتبا للّشروط والوثائق، وكان ذا هيبة جميلة عالية، ترك كتابا أثنى عليه ابن حزم وقد اعترض فيه على بعض آراء الشّافعي» (طبقات علماء إفريقيّة، ص.193).

وبعد هذه الطّبقة توارى الأحناف أيّام الحكم الشّيعي الإسماعيلي. وذبّ علماء تونس عن مذهب الجمهور وهو المذهب المالكي. وقلّ أتباع الحنفيّة. عندما جاء الأتراك الأحناف سنة 981هـ/1574م بقيادة سنان باشا الذّي دخل تونس لتخليصها من الإسبان بقي عدد من الجيش التّركي بتونس لحفظ الأمن وحراسة البلاد. وبذلك تكوّنت جماعة حنفيّة تحتاج إلى من يقوم بأمورها الشّرعيّة وفقا لمذهب أبي حنيفة. وبالفعل كانت السّلطة المركزيّة بإستانبول ترسل فقهاء أحنافا للقيام بتلك المهمّة. ومنذ ذلك العصر صار القضاء الرّسمي حنفيّا. وأصبح منذ العهد المرادي القاضي المالكي نائبا لزميله الحنفي. وتتوقّف أحكامه على مصادقة القاضي الحنفي، كما أدخل تحوير على نظام الإفتاء، وأصبح له صبغة رسميّة، وصار المفتون يحضرون بمجلس الحكم وينتصبون للإفتاء بالمحكمة. وكانوا إلى ذلك التّاريخ لا يباشرون مهامّهم بالمحكمة، وإنّما ينتصبون بالمساجد لإفتاء المسترشدين.

وأوّل قاضٍ حنفيّ أرسل إلى تونس هو أحمد أفندي. وذلكَ في أوّل المائة الحادية عشرة زمن عثمان داي. وعنه أخذ جماعة من أهل تونس منهم محمد الغمّاد (1704م) وأبو يحيى الرصّاع (1624م) والشّيخ محمد براو الذّي عاصر يوسف داي. وهذه الطّبقة هي التّي ركّزت المذهب الحنفي ثانية بالبلاد التّونسيّة، بعد أن كان ركّزه أسد بن الفرات زمن ظهور المدرسة الحنفيّة بالعراق.

أما أوّل قاضٍ حنفيّ انتصب بتونس بعد الحضور العثمانيّ فهو حسين أفندي. وكان القاضي يباشر مهمّته لمدّة ثلاث سنوات، ثمّ يعوّض بقاضٍ آخر جديد من الأتراك، إلى أن تولّى هذا المنصب محمد قارة خوجة المشهور ببرناز. وهو من أبناء تونس، وأبوه من رجال الفتح العثمانيّ. فكان أوّل قاضٍ حنفيّ تونسيّ استُغني به عن تعيين قاضٍ من التّرك.

ونظرا إلى معضلة اللّغة اضطرّ الأتراك إلى إجراء

تحوير بخطّة الإفتاء، فكان إذا أشكل الأمر على القاضي التّركي التجأ إلى المفتي لإرشاده فيما أشكل عليه. هذا في الميدان القضائي. أما في الميدان العلمي فقد أسّس بايات تونس مراكز تدريس المذهب الحنفي. ومن أحناف تونس: يوسف برتقيز الذّي شرح مختصر القدوري الحنفي، قال حسين خوجة: «هذا الشّرح هو أوّل ثمار المجهودات التّي بذلها الأتراك لنشر المذهب الحنفي...وكأنّ برتقيز شعر أنّ الكتب المرجّحة للأقوال في المذهب المالكي قد تكاثرت بتونس، فآثر أن يسدّ النّقص الذّي يشكوه المذهب الحنفي في هذا المجال» (ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان ص55).

ونظرا إلى كون القضاة الأتراك يجهلون اللّغة العربيّة وعادات أهلها، طلب علي باشا الأوّل سنة (1157هـ/ 1744م) تسمية القضاة من البلاد التّونسيّة. ففوّض له الباب العالي أمر اختيار القاضي من علماء الحنفيّة بتونس. فكان أوّل قاض حنفيّ تونسيّ اختاره علي باي، الشّيخ أحمد الطّرودي. وبتخلّص القضاء التّونسي من الهيمنة العثمانيّة، استرجع القضاء المالكي مكانته قياسا بالقضاء الحنفي بإحداث مجلسين شرعيّين. ورغم ذلك بقي القضاة الحنفيّة يتمتّعون بعدّة امتيازات ماديّة وأدبيّة دون القضاة المالكيّة، منها حقّ الأولويّة في الاستقبالات الرّسميّة. ولم تخف وطأة هذه الامتيازات منذ عهد أحمد باي الأوّل.

وكانت خطّة شيخ الإسلام خاصّة بعلماء الحنفيّة. أمّا المجلس الشّرعي المالكي، فإنّ رئيس أهل الشّورى هو الذّي يمثّله ولم يلقّب رئيس الفتوى المالكي بلقب شيخ الإسلام إلاّ سنة 1351هـ/1932م. وأوّل من أسند إليه هذا اللّقب هو الشّيخ محمد الطّاهر ابن عاشور.

ومن العائلات العلميّة الحنفيّة بتونس عائلات خوجة وابن خوجة وبلقاضي وبوشناق وبيرم وبرناز ولصرم والبارودي والتّرجمان وابن مراد وكريّم وابن محمود. وكان أوّل مفت على المذهب الحنفيّ بعد الظّهور العثمانيّ الشّيخ رمضان أفندي وأوّل من لقّب بشيخ الإسلام الحنفيّ هو علي الصّوفي بعد عودته من مهمّة رسميّة بالأستانة.

ومن أبرز العائلات الحنفيّة التّي هيمنت على المناصب الشّرعيّة مدّة طويلة عائلة بيرم بداية من محمد بيرم الأوّل (1219هـ/1800م) إلى شيخ الإسلام أحمد بيرم ثمّ خلفتهم عائلة ابن خوجة. وآخر من تولّى خطّة شيخ الإسلام الحنفي هو محمد عبّاس. وذلك إلى أن استقلت البلاد وألغيت المحاكم الشّرعيّة سنة 1375هـ/1956م.

وبقي المذهب الحنفيّ موجودا بالبلاد التّونسيّة حتّى بعد استقلال البلاد. ولقد تقلّد الشّيخ محمد الهادي بن القاضي الحنفّي (ت1979م) خطّة مفتي الجمهوريّة التّونسيّة. ورغم قلّة أتباعه بتونس فإنّ هذا المذهب يعدّ من أوسع المذاهب الفقهيّة انتشارا في العالم الإسلامي وخصوصا في الشّرقين الأوسط والأقصى.

الطاهر الحوات
[1922–1979م]

ولد الطاهر الحوات بنابل في 22 جانفي 1922 وفي مسقط رأسه تلقى تعليمه الابتدائي الأوّل. ولمّا بلغ من العمر 14 سنة تلقى تعليما مختصّا في المعهد الفلاحي بمقرن حيث حصل بامتياز على شهادة انتهاء الدروس سنة 1939. التحق سنة 1940 بالمعهد القومي للفلاحة بتونس المعروف سابقا باسم المدرسة الفرنسية للفلاحة وحصل سنة 1942 على دبلوم مهندس فلاحي وعمره لم يتجاوز عشرين سنة.

سُمّي في تلك السنة باحثا في قسم النباتات والفلاحة التونسي (INRAT) إلى موفّى سنة 1947 حيث شارك بنجاح في مناظرة المهندسين

الفلاحيين. فباشر عمله بكل من ولاية سوسة وولاية القيروان إلى نهاية سنة 1956 وسمّي على إثر ذلك مديرا بوزارة الفلاحة مكلّفا بديوان النفيضة الذي أعطاه دفعا مكنه من تجاوز جميع المشاكل التي تعترض المجال الفلاحي في وسط البلاد وحتى في شمالها إلى حدّ أنّ مشاريعه العلمية قد تبنتها بعض المنظمات العالمية مثل «برنامج الأمم المتحدة للتنمية» (PNUD) ومنظمة الأمم المتحدة للتغذية (FAO). وقد جلب له هذا النجاح الباهر تقدير معاصريه وتقدير المختصين فكُتبت في شأنه وفي التنويه بخصاله العلمية مقالاتٌ عديدةٌ في الصحف التونسية من أهمّها ما كتب في جريدة الصحافة (la Presse) بتاريخ 10 أكتوبر 1957 وقد وُصف الطاهر الحوات في العنوان بكونه «يُسابق المستقبل».

تولّى بعد ذلك مهام كثيرة من أهمّها تسميته رئيسا لقسم التنظيم الفلاحي صُلب كتابة الدولة للتخطيط والمالية وذلك من سنة 1962 إلى سنة 1964 وهي الفترة التي أنجز فيها المخطط الثلاثي للتنمية الفلاحية. وقد استلزم تطبيق هذا المخطط تسمية الطاهر الحوات رئيسا لإقليم الفلاحة والصيد البحري.

تولّى سنة 1967 إدارة التخطيط والتنمية الفلاحية وقدّم في مدّة أربع سنوات تصوّرا واضحا وعمليّا للسياسة التنموية في مجالي الفلاحة والتغذية، وأشرف على إنجاز جميع المخططات على الصعيدين العمومي والخاص.

سُمّي سنة 1971 خبيرا لدى المنظمة العالمية للتغذية والفلاحة بروما وارتقى إلى رتبة موظف سام (Senio Officer) فعُهد إليه بتقديم مداخلات وتنشيط ندوات داخل تونس وخارجها بكل من إيطاليا وبرلين وقرونوبل وغيرها. وبقي في هذه الرتبة إلى سنة وفاته في 1979.

حيدرة

(Al Medara = Ammaedara)

تقع مدينة حيدرة على الطريق الرابطة بين القلعة الخصبة المعروفة قديما بقلعة الديك وتبسّة في الجزائر. أقام بها البيزنطيون قلعة دفاعية تعرف باسم المدينة العتيقة (Ammaedera) المحرّف أو المعرّب بحيدرة. وهذه القلعة من إنشاء الإمبراطور جوستينيان (Justinien)، وكانت ترابط بها حامية معتبرة اضطرت إلى التخلي عنها في أواخر ق1هـ/7م.

ويرجّح إقامة حامية من الجند العربي الإسلامي في قلعة حيدرة، وإن لم تكن على الطريق الرئيسة الرابطة بين القيروان والزّاب. ولم تسترجع دورها الإستراتيجي إلاّ في ق4هـ/10م. ففي سنة 908م وأثناء محاولة الداعي الشيعي أبي عبد الله اختراق الجبهة في الدفاعية الأغلبية في اتجاه القيروان توجه بجيشه من باغاية إلى تبسّة، ومنها عسكر في حيدرة قبل أن يواصل مسيره إلى القصرين. وكانت آنذاك قد تطوّر اسمها من (Ammaedera) إلى ميدرة. وفي قلعتها أقام اللاّجؤون إليها من قصر الإفريقي ومجّانة وبرماجنة وغيرهم. وقد ذكر القاضي النعمان في كتابه افتتاح الدعوة أنّهم طلبوا الأمان من الدّاعي فأجابهم إليه. وتذكر المصادر الأخرى أنّ الداعي أمر بالتنكيل بهم ونهب مدينتهم. وفي زمن لاحق أصبحت ميدرة تسمّى حيدرة، بتحريف بسيط، وبدأت القلعة تفقد دورها وتهجر لعدم وجود أراض فلاحية خصبة ظهرانيها تساعد على الاستقرار بها وتعميرها.

ولنا وصف لآثار حيدرة كما شاهدها الرحالة الألماني بوكلير موسكاو، في رحلته سنة 1835م، فقد وصف قوس النصر وعدّة أضرحة أحدها ذو دهليز، والقلعة ببابها على الوادي، والجسر الذي كان عليه، والأسوار، والأنهج المبلطة، وقطعا متراكمة من الرخام والأحجار الصقيلة، ومباني

فخمة منهارة. ولم تنبعث حيدرة من جديد إلاّ في العهد العثماني بدءا بترميم قلعتها. ومازالت إلى اليوم جدران هذه القلعة قائمة، بجوار وادي حيدرة، بآثار أبراجها العشرة المربعة، باستثناء واحد فقط مستدير، إلى جانب آثار أخرى، منها ما هو بارز منذ القديم ومنها المقبرة العتيقة التي اكتشفت عند الشروع في بناء مركز البريد في أواخر السبعينات من القرن العشرين، وقد أصبحت آهلة بسكان الجهة.

سليمان الحيلاتي
[ق 11هـ – 17م]

الشيخ سليمان بن أحمد الحيلاتي من علماء جربة في القرن الحادي عشر هجريًّا/السابع عشر ميلاديًّا، الذين تُعدّ مؤلّفاتهم وثائق مرجعيّة لدراسة التاريخ الثقافي والسياسي والاجتماعي والديني لهذه الجزيرة.

ينتسب الشيخ أبو الربيع سليمان بن أحمد الحيلاتي إلى أسرة الحيلاتيين التي تقيم بحومة جعبيرة بجربة. وقد اشتهرت هذه العائلة بحرصها الشديد على طلب العلم والتضلّع منه ونشره.

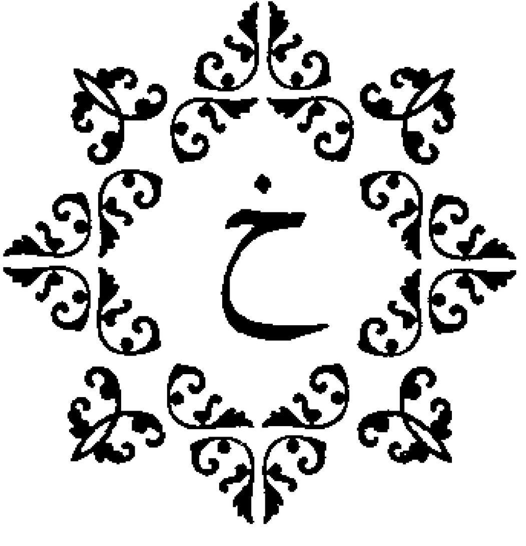
ولم يكن هذا الاهتمام مقتصرا على العلوم الدينيّة بل كان يتعدّاه إلى كل فنون العصر من علم كلام ومنطق وفلسفة. ويذكر ابن تعاريت في رسائله نقلا عن المقدمة التي وضعها محمد قوجة في مقدمة تحقيقه لرسائل الحيلاتي أنّه ذاع صيت هذه العائلة خاصة في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين 16 ـ 17م، مقترنا بإشعاع الشيخ عبد الرحمان بن أحمد الحيلاتي الذي ترأس حلقة العزّابة في القرن العاشر للهجرة السادس عشر ميلادي.

كان أبوه أحمد بن محمد الحيلاتي المتوفّى سنة 1058هـ/1649م رجلا تقيّا ومحافظا وكان دأبه العبادة وزيارة المساجد.

أمّا مؤلّفاته فمن أهمّها الرسائل وهي في أغلبها رسائل علمية وتراجم مختصرة سجّلها من مشاهداته ومن وثائق قديمة وممّا سمع من ثقات أهل زمانه. وقد ذكر كثيرا عن الوقائع والحروب الصليبيّة بجربة وعمّن قاد جنودها لمواجهة المغيرين. وأورد ابن تعاريت أنّ الشيخ سليمان الحيلاتي جمع «نسبة الدين» ورتّبه من زمنه إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم.

وفي تلك «الرسائل» ذكر الحيلاتي علماء جربة وأماكن أضرحتهم والحوادث التي وقعت في أيامهم ومجالسهم العلميّة. ومن أبرز الشيوخ المذكورين الذين يعدّون أساتذة لسليمان الحيلاتي أبو زيد عبد الرحمان بن أحمد الحيلاتي الذي درس بجامع الازهر وعند عودته إلى جربة ترأس نظام العزّابة فيها (وهو مجلس علماء العقيدة والشريعة من الإباضية)، كما تتلمذ الحيلاتي لأبي الفضل قاسم بن سعيد الصدغياني وليوسف بن صالح بن قاسم البلاّز اليسوتني.

وذكر الحيلاتي أنّه أخذ معلومات أيضا من وثائق وجدها بخط الفقيه إبراهيم بن ثابت، وفي مناسبة أخرى أنّه كان يستقي معلومات من كبار السن المعاصرين له، هذا زيادة على مشاهداته الشخصية التي أكّدها في مواضع متفرّقة من رسائله.



الخرائط عبر التّاريخ بالبلاد التّونسيّة

تعود أوّل المحاولات في رسم الخرائط إلى حضارة بابل (العراق). وذلك نظرا إلى اعتناء البابليين بعلوم الرّياضيات والفلك. فتمثّلوا العالم منذ سنة 2500 ق م، في شكل قرص، حوله سبع جزر منتشرة، والبحر يحيط به من جميع الجهات. أما الخرائط المصريّة، فإنّ أقدمها يعود إلى القرن الثالث عشر ق م، مقترنة أساسا بعمليّة تقدير الجباية وما تتطلّبه من مسح للأراضي.

ويعدّ قياس المسافات ومعرفة الاتّجاهات والرّموز الخاصّة بالعناصر الممثّلة من المكوّنات الأساسيّة للخريطة التي تعتمد مقياسا دقيقا للأبعاد الأصليّة المقابلة لها في الطّبيعة.

أوّلا- الخرائط في العصور القديمة:

مواصلة للجهود البابليّة والمصريّة السّابقة، تمكّن الإغريق من تطوير علم الخرائط. وذلك بدءا بهيرودوت ووصولا إلى بطليموس. فقد بدأت وقتذاك تتبلور فكرة شكل الأرض الكروي.

ففي خريطة العالم زمن هوميروس، حوالي 900 سنة ق. م، وردت تسمية لوبية أطلقت على القسم السّاحلي من البلاد التونسيّة وهي نبات الليتوفاج.

وفي العهد الرّوماني أضحت خريطة العالم دائرة تتوسّطها مدينة روما.

ولم تتبلور المعطيات الخاصّة بالبلاد التونسيّة إلاّ في الخريطة التي أنجزت انطلاقا من معطيات قدّمها سترابون (المتوفّى بين سنتي 19 و24 ق. م) تضمّنت ذكر لوبية وقرطاج، الواقعة بين مغاور هرقل من جهة و الإسكندريّة من جهة ثانية.

وقد أنجز الجغرافي بطليموس (المتوفى سنة 168م) خرائط وفق إحداثيات دقيقة. ولئن لم تكن نسبة الخرائط إلى بطليموس – وقد رسمت في العصور اللاحقة – ثابتة فقد حظيت مدن أفريقيا باهتمامه في إحدى خرائطه.

وقد رسمت خرائط للطّرقات والمسالك، في علاقة وثيقة بأغراض الدّولة الإداريّة والسّياسيّة منذ عهد أغسطس. وأثبتت مختلف المحطات بالبلاد التّونسيّة على نحو دقيق، في مسلك أنطونيوس (القرن الرّابع م وربّما الخامس والسادس م بالنّسبة إلى بعض الأجزاء) ولوحة بيتنجر في (القرنين الثّالث والرّابع م). وقد تشابهت المعطيات حول المواقع الوارد ذكرها في المصدرين، في علاقة بالأغراض الإداريّة والتجاريّة والعسكريّة للدّولة.

ولئن نسبت اللوحة إلى بوتنغر الألماني (المتوفّى سنة 1547م)، فإنّ المعطيات الواردة فيها من مسالك ومحطّات ومسافات، تعود إلى القرنين الثّالث والرّابع م. وقد تعدّدت الطرقات والمواقع الأثريّة الخاصّة بالبلاد التّونسيّة الوارد ذكرها في الخريطة.

ثانياً - الخرائط العربيّة في عصر الإسلام الكلاسيكي:

لقد تطور علم الخرائط تطوّرا نوعيّا في الحقبة العربيّة، على نحو مواز لتطوّر مختلف العلوم السّاندة له، مثل علم الفلك والرّياضيات والهندسة، وما اقترن بذلك من استعمال البوصلة والأسطرلاب. ولم يقتصر الجغرافيون العرب على ترجمة كتب بطليموس وغيره إلى العربيّة، يل طوّروا هذا الإرث في عمل الخرائط، معتمدين في ذلك على الرّحلة والمشاهدة العيانيّة. وقد استعمل الجغرافيون العرب مصطلحات الصّورة

والرّسم ولوح التّرسيم والجغرافية للدّلالة على الخريطة. ولم يقتصر رسم الخرائط لديهم على الخرائط العامة القائمة على الحسابات الفلكيّة والمتأثّرة بالفكر الإغريقي واللاتيني وإنّما انصرفوا إلى رسم خرائط إقليميّة، فيها تمثيل للحقائق الجغرافيّة بالمصوّرات القريبة من الرّسوم.

ولئن لم تصلنا خرائط من القرن الثّالث هـ/التّاسع م، واقتصرت مصنّفات اليعقوبي وابن رسته على نصّ وصفيّ، فإنّ علم الخرائط قد ازدهر في القرن الرّابع هـ / العاشر م عند الإصطخري وتلميذه ابن حوقل الذي رسم 22 خريطة، أفرد منها خريطتين لبلاد المغرب والأندلس، فرسم فيها أهمّ الأنهار والبلدان والمدن بالبلاد التّونسيّة، علما بأنّه اتّبع طريق طرابلس ـ قابس، قادما إلى إفريقيّة من الشّرق.

وواصل بعد ذلك الشّريف الإدريسي تأكيده فكرة استدارة الأرض، مجسّدا إيّاها في خريطة كرويّة للعالم، ذات ألوان متعدّدة، وقد تضمّنت صور الأقاليم ببلادها وأقطارها ومواقع أنهارها وعامرها وغامرها والطّرقات والأميال والمسافات والمشاهد. وقسّم خريطة العالم إلى سبعة أقاليم وكلّ إقليم إلى عشرة أجزاء متساوية، الجملة: سبعون قسما. وكان لإفريقيّة والمغرب مكانة في خريطة هذا المغربي النّشأة الذي زار البلاد التّونسيّة وعرفها بدقّة.

وبصرف النّظر عن الكثير من الخرائط الضّائعة، فإنّ خريطة العالم التي رسمها عبد الرّحمان بن خلدون قد عثر عليها بإستانبول. وهي أقلّ دقّة من خريطة الإدريسي إذ اقتصر صاحبها في خصوص بلاد المغرب على ذكر إفريقيّة والجريد والمغرب الأقصى وطنجة.

ثالثا ـ الخرائط الأوروبيّة والعربيّة بين القرنين الرّابع عشر والسّادس عشر:

لقد تعدّدت الخرائط التي رسمها الملاّحون الغربيون، تيسيرا لحركة الملاحة في المتوسّط بوجه خاصّ. وقد أطلق على خرائط المواني تسمية: les portulans.

وبديهي القول إنّ هذه الخرائط برزت في المواني المتوسّطية النّشيطة تجاريّا مثل بيشا وجنوة والبندقيّة وبرجلونة، متضمّنة عدّة معطيات حول المواني والمدن التي بلغ عددها نحو 240 بالنّسبة إلى كامل بلاد المغرب، وأحيانا صور الملوك ورايات البلاد الإسلاميّة والمسيحيّة والحيوانات المشهورة بهذه البلاد. ولئن كان عدد المدن محدودا في خريطة الإدريسي، لا يتجاوز العشرة، وفي خرائط القرن الرّابع عشر ثمانية، فإنّه قد بلغ 32 في القرن الخامس عشر ونحو المائة في القرن السّادس عشر.

وحظيت سواحل البلاد التّونسيّة بالنّصيب الأوفر في هذه الخرائط، وخصوصا تونس والمهديّة وجربة وجالطة وطبرقة.

وثمّة رسوم أخرى أدقّ للبلدان والمدن السّاحليّة التي تعرّضت للغزو: وخصوصا لحملة شارلكان سنة 1550. ولذا فإنّ خرائط عدّة لتونس والمهديّة وجربة تعود إلى تلك الحقبة الحرجة. وفي نهاية القرن السادس عشر، اشتهرت خريطة أبراهم أرطوليوس (المتوفّى سنة 1598) لبلاد البربر والجريد وخريطته لسواحل البلاد التونسيّة.

أمّا الخرائط العربيّة الإسلاميّة التي رسمت وقتذاك، فإنّ أهمّها خريطة بحريّة مغربيّة لمؤلّف مجهول، تعود إلى بداية القرن الرّابع عشر توجد بمكتبة ميلانو وأخرى أنجزها أحمد الكاتبي؟ [و] سليمان [الكندي؟] سنة 816هـ، وقد تضمّنت عدّة أسماء.

وتكتسي خرائط بييري محيي الدّين رايس المتوفّى سنة 1552م الموجودة بإستانبول مكانة مهمّة. وقد تضمّن كتاب البحريّة معلومات دقيقة عن السّواحل التّونسيّة في ذلك العصر. وتعود إحداها إلى سنة 919هـ/1513م والأخرى إلى سنة 1528 ولم يبق منهما إلاّ بعض الأقسام، على أنّ كتاب البحريّة تضمّن 210 فصلا و250 خريطة مرسومة باليد. وقد خصّصت خمسة

فصول لسواحل البلاد التونسيّة: بنزرت وتونس والوطن القبلي والسّاحل وجربة.

وتعدّ خريطة علي بن أحمد بن محمّد الشّرفي السّفاقسي التي تعود إلى سنة 1009هـ/1601م (وهي مودعة حاليّا بروما) أهمّ خريطة للعالم أنجزها تونسي.

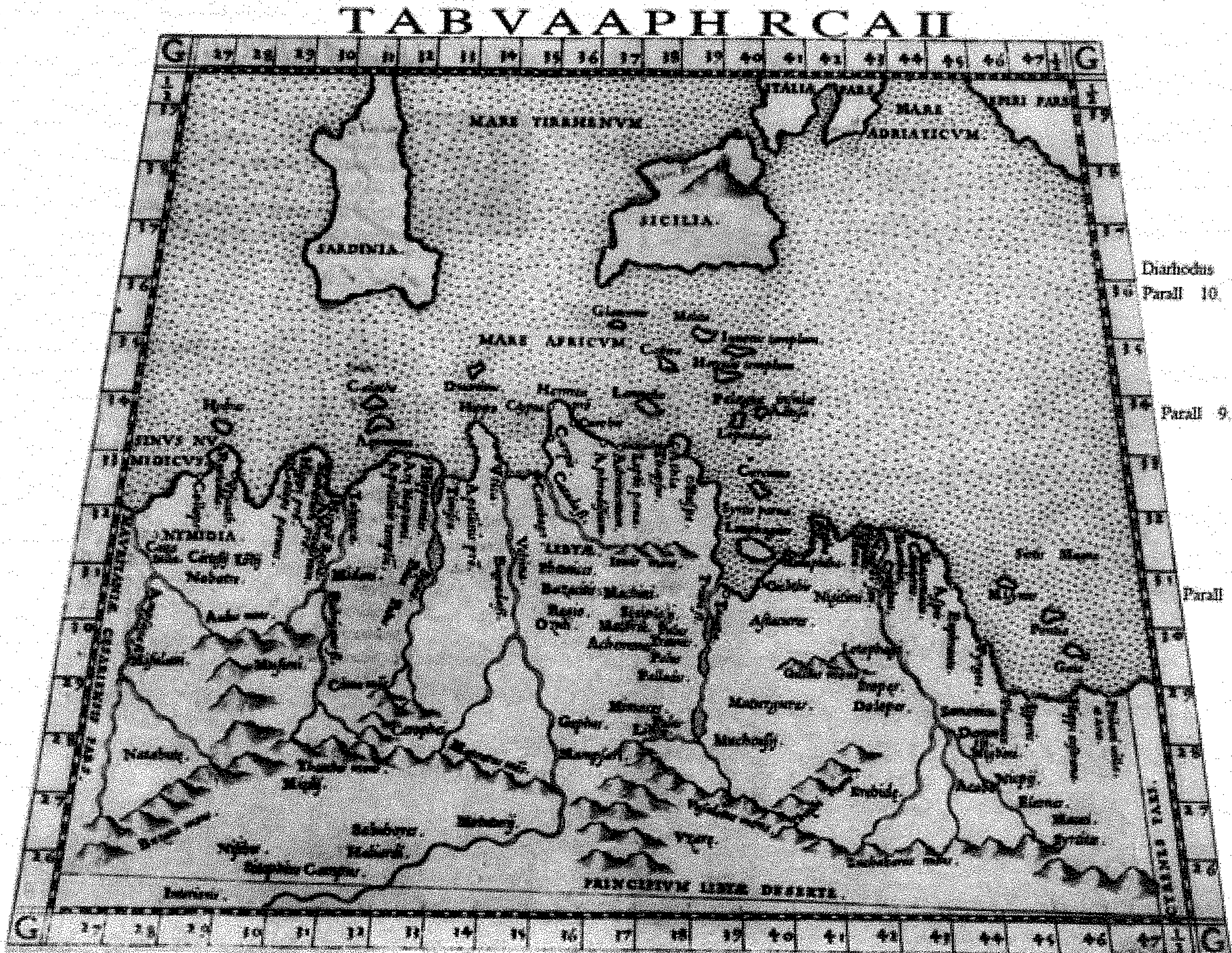
رابعا ـ الخرائط الأوروبيّة والعربيّة من بداية القرن السّابع عشر إلى سنة 1956:

ازداد عدد الخرائط ابتداء من القرن السابع عشر الميلادي. وذلك نظرا إلى تطوّر مختلف العلوم وإلى ازدياد المطامع الأجنبيّة في الإيالة التّونسيّة.

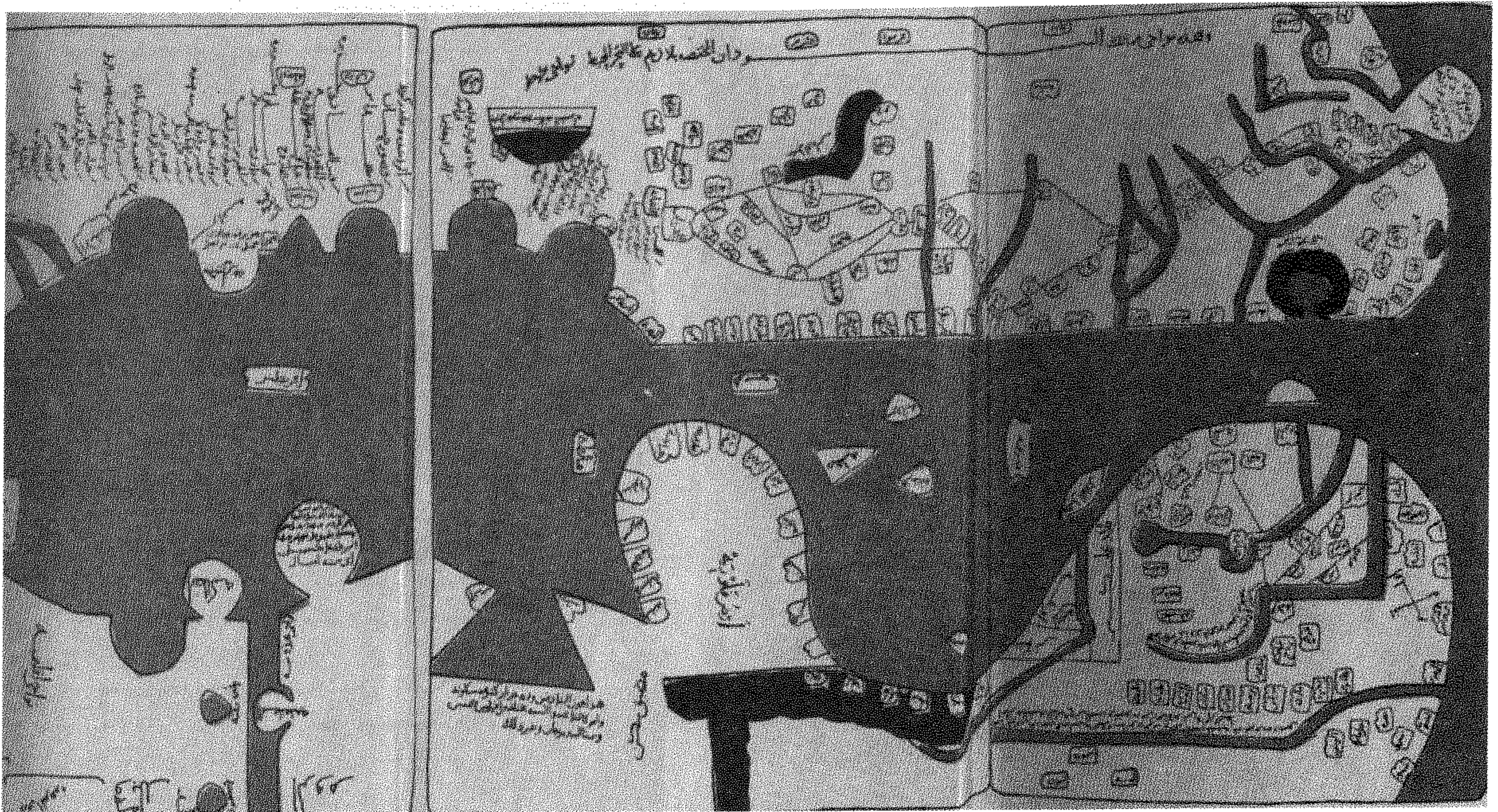
وعرف هذا القرن بعصر إنجاز الأطالس بهولاندا خصوصا. وتضمنت كلّها معلومات ضافية عن البلاد التّونسيّة.

وازدادت الرّحلات الأوروبيّة إلى تونس في القرن الثّامن عشر. وقد كانت أغراضها مختلفة، فيما اقترن عصر الأنوار بحذق أكبر لتقنيات الخريطة. ونخصّ بالذكر من هؤلاء الرّسامين لخرائط للبلاد التّونسيّة الإنقليزي طوماس شو (T. Shaw)

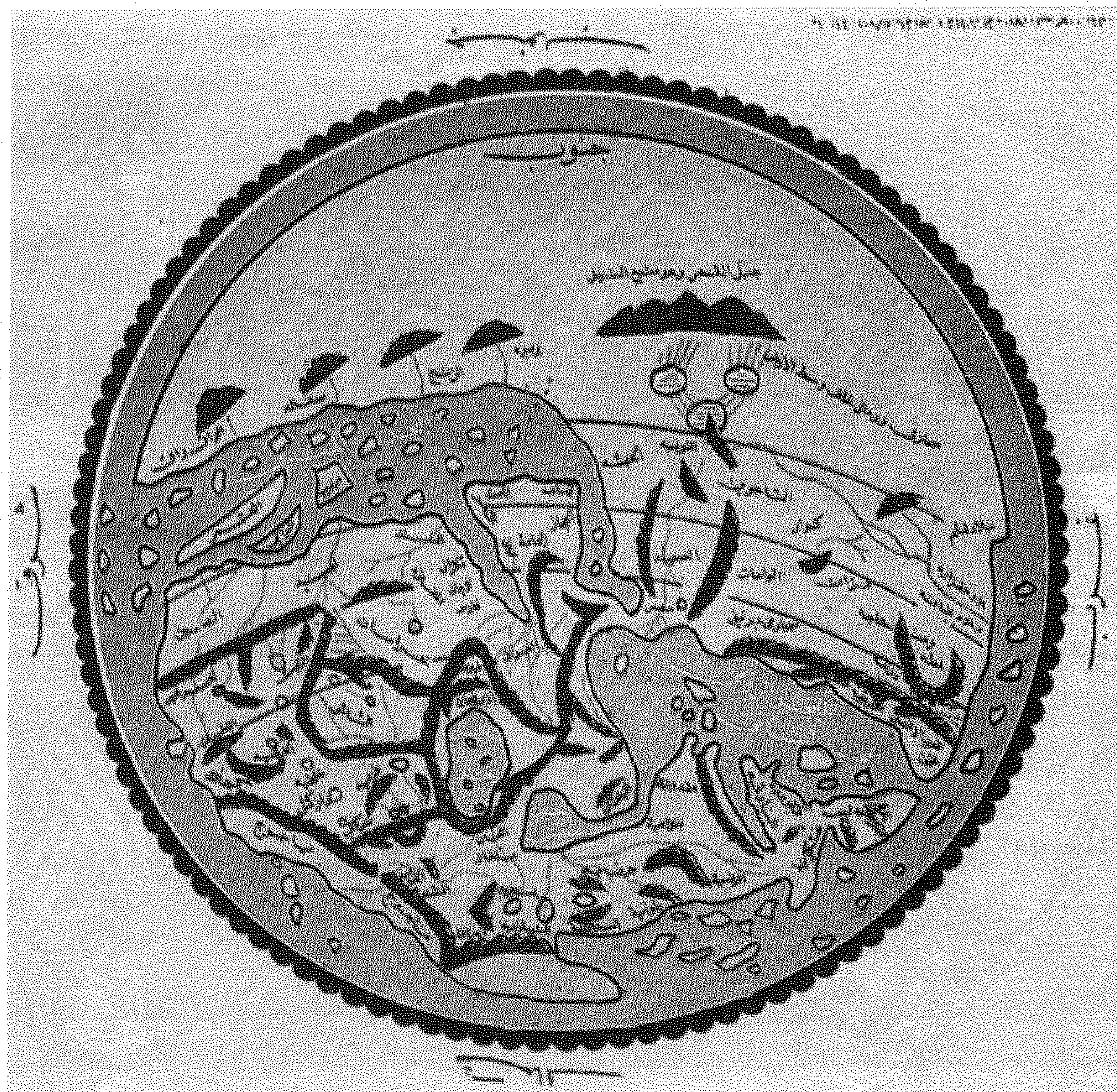
وقد زار تونس سنة 1727 وألّف كتابا في وصف بلاد البربر. ومن الملاحظ أنّ المواضع المذكورة في هذه الخريطة وفي كثير من الخرائط الأوروبيّة هي مواضع رومانيّة، متأثّرة بالخرائط القديمة.



خريطة بطليموس



خريطة ابن حوقل



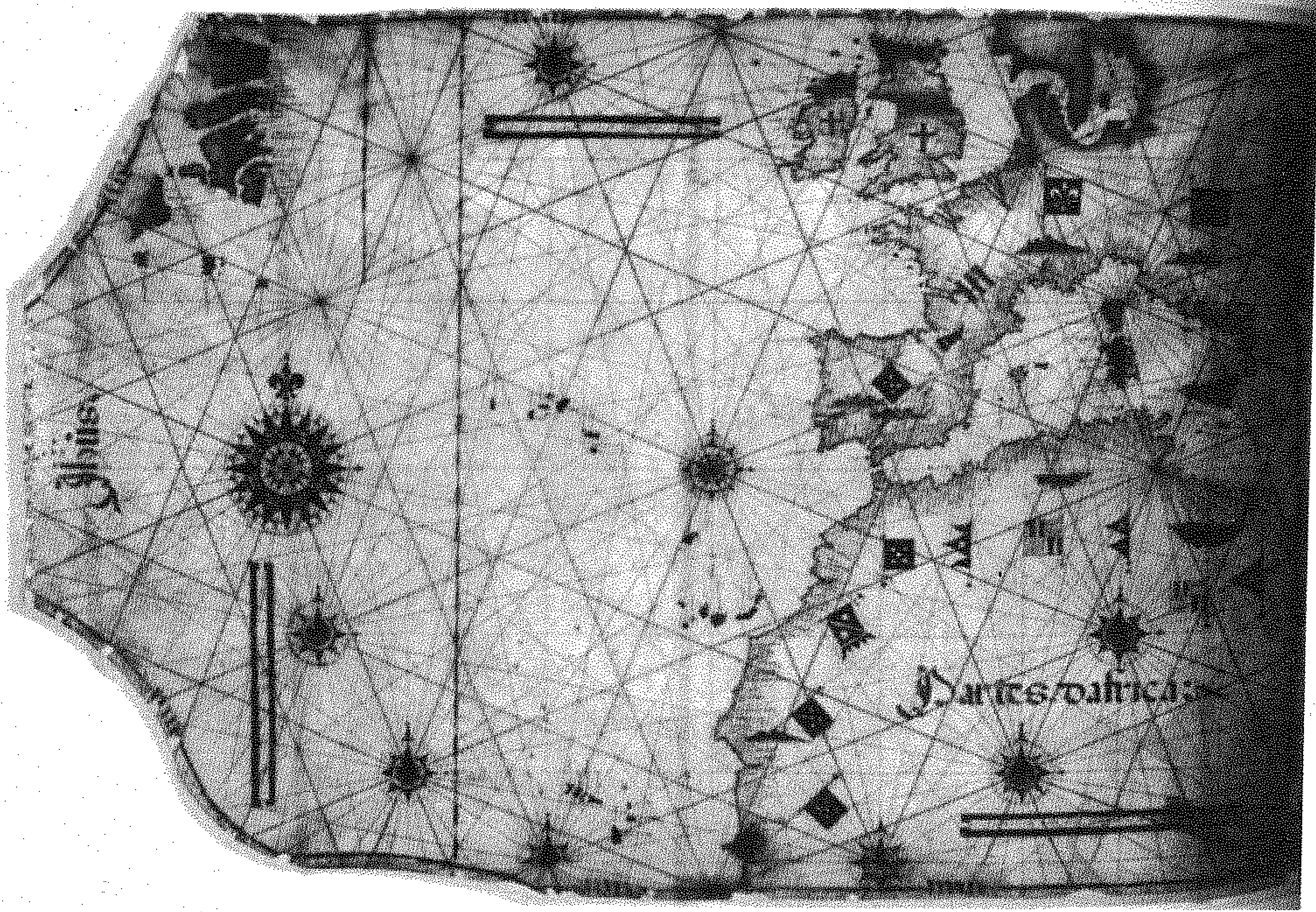
خريطة الإدريسي للعالم (القرن 12)



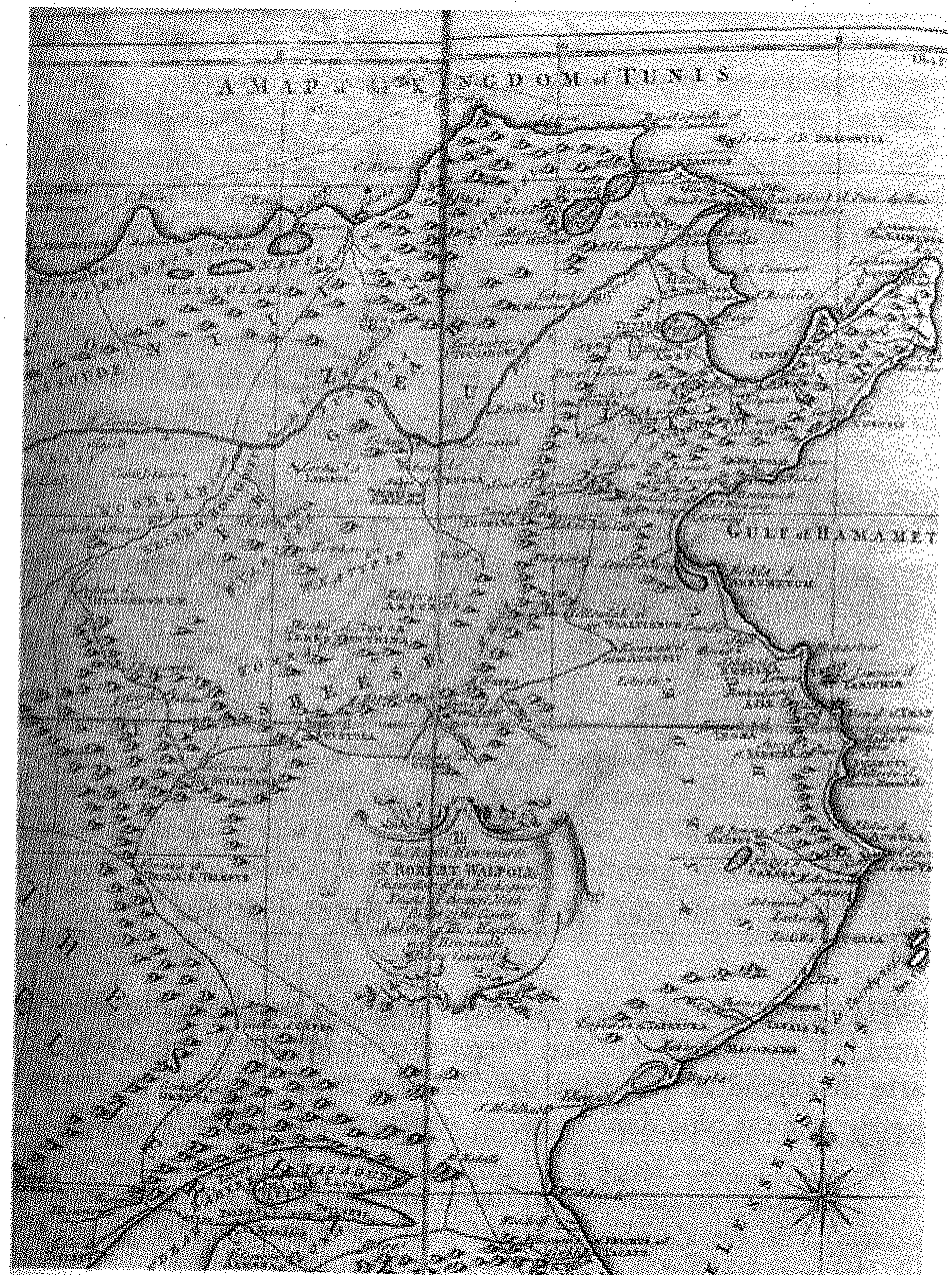
خريطة بلاد البربر (1653)



خريطة بلاد البربر لمول (القرن 17)

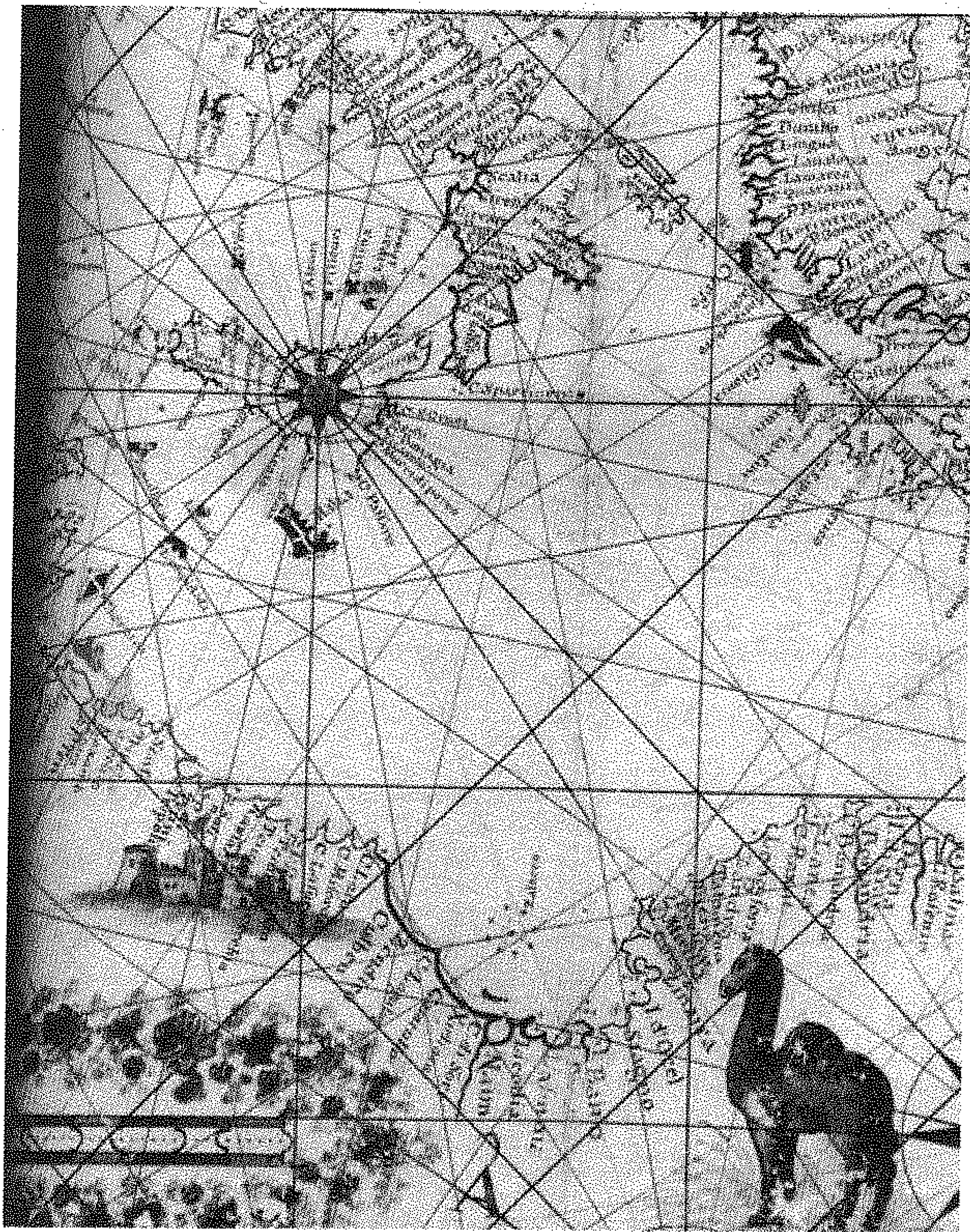


خريطة بحرية برتغالية (1550)



Carte de la Régence de Tunis.

خريطة البلاد التونسية لشو (1727)



خريطة بحرية (1707)

ولم يصبح إنجاز الخرائط علما له قواعده الدّقيقة إلاّ في القرن التّاسع عشر.

وقد رسمت الحصون والمناطق السّاحليّة بعناية تحضيرا لغزوها. وتواصل رسمها بعد انتصاب الحماية الفرنسيّة بالإيالة التونسيّة سنة 1881. وتميّزت أساسا برسم جنرالات الاحتلال الخرائط الطوبوغرافيّة لسلّم 50000/1 لكامل البلاد وبرسم تصاميم المدن وخرائط الجهات.

ولمّا كان القرن التّاسع عشر عصر الإصلاح في العالم العربي والإسلامي، فقد شمل ذلك علم الخرائط، إذ اهتمّت المدرسة الحربيّة بباردو بعلم الخرائط ورسمت أوّل الخرائط بالبلاد باعتماد الطرائق الحديثة المتبعة في البلاد الأوروبيّة والقائمة على اعتماد العلوم المعاصرة من جغرافيا ورياضيات وهندسة. وقد ظهرت نتيجة لهذا المجهود أوّل مجموعات من الخرائط المنجزة في أواسط القرن التّاسع عشر م لمدن السّاحل وقراها وصفاقس وقرقنة وجربة.

الخرّوب

تتميّز البلاد التونسية بوفرة الأنواع النباتيّة وتعدّدها سواء منها العشبيّة أو الخشبيّة التي تسهم في المحافظة على البيئة وضمان التنوّع البيولوجي وصيانة التّربة ومقاومة الانجراف والحدّ من التصحّر. هذا إلى جانب قيمتها الغذائيّة والاقتصاديّة واستغلال بعضها في المجالين الطبّي والعطري. وتعدّ شجرة الخرّوب من أهمّ الأنواع الموجودة بالبلاد التونسيّة لأصالتها وتعدّد فوائدها.

ينتشر نوع الخرّوب بالكثير من جهات البلاد التونسيّة وخاصّة منها الشّمال الغربي والوسط والوطن القبلي. وهو طبيعي أو مغروس وينبت على أرض كلسيّة إلى جانب الزّيتون.

يعدّ الخرّوب من الأنواع النباتيّة الوحيدة الجنس، الثنائيّة المسكن، كما يعتبر من الأشجار الحراجيّة والطيّبة والقرنيّة المهمّة، كما تتميّز هذه الشجرة بمزايا عدّة، إذ إلى جانب استعمالها منذ القدم غذاء لدى الإنسان والحيوان قد ثبتت فوائدها العلاجيّة. لذلك أضحت ثمارها وبذورها تستثمر على نحو واسع في الصناعات الغذائية والصيّدلية والوصفات الحموية.

لكن الخرّوب يواجه مشكلات عدّة في تونس من أهمّها التدهور والاندثار في مناطق انتشاره الطّبيعي. ويعود ذلك إلى عوامل عدّة أوّلها العامل البشريّ نتيجة عدم وعيه بقيمته البيئية والاقتصاديّة زيادة على العوائق التّي تتعلق الطريقة المعتمدة في إنتاج شتلات الخرّوب ومراحل نموّ النبات وتأقلمها مع الظّروف البيئية.

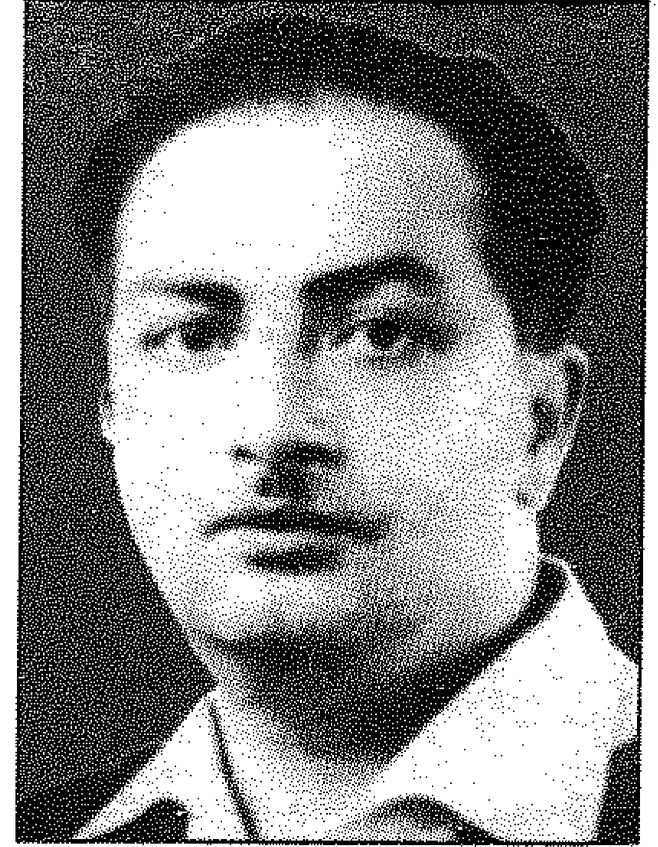
تغطي هذه الشجرة 200000 هكتار، 74٪ منها توجد في بلدان جنوب أوروبّا مثل أسبانيا وايطاليا والبرتغال واليونان. وتتميّز قرون الخرّوب بدرجة عالية من التنوع، إذ تختلف فيما بينها باللون والشّكل والوزن والحجم وعدد البذرات بالقرن الواحد، كما أنّ الثمرة غنيّة بالسّكريات والصّبغيات والألياف وبعض المكوّنات الأخرى (كالبروتينات والمواد الدّهنية...) وتتغيّر تركيبة هذه المكوّنات من نوعيّة إلى أخرى. وتحتوي البذرة على صمغ لزج ذي كثافة شديدة من (القلكتومانان). وهذا المكوّن يمنحه قيمة غذائيّة وصيدليّة بالغة الأهميّة، إذ يمكن استعماله مادّة مضافة ومخثّرة لبعض المواد الغذائيّة.

يتكاثر الخرّوب عادة بالبذور التي تعطي شتلات من الجنسين تتأخر معرفتها حتى تدخل في طور الإثمار. وقد تتّسم هذه الثّمار بصغر حجمها وضعف سمكها. لذلك كانت البحوث الجارية تهتم باستخدام عدّة أساليب لإنتاج أنواع ذات صفات جيّدة وعالية الإنتاج وتستجيب للمواصفات الاقتصاديّة المطلوبة، كما أنّ من إيجابيات الإكثار الخضري الحصول على غراسات ذات إثمار مبكّر مقارنة بالغراسات

البذريّة.

قدّر إنتاج الخرّوب بتونس سنة 1959 ب 28 ألف قنطار صدّر ما يقدر ب 42 ألف دينار منها إلى فرنسا.

تعتبر إسبانيا أكبر منتج للخرّوب إذ تخصّص أكثر من 150 ألف هكتار لهذه الزّراعات. وأغلبها تستغل محليا (الغذاء الحيواني والصّناعات الغذائيّة) ثم إيطاليا التي تبلغ المساحة المخصصة له فيها 40 ألف هكتار تنتج 400 ألف قنطار سنويا تصدر منها كمّيات كبيرة إلى إنقلترا وألمانيا. أما بعض البلدان الأوربية الأخرى مثل تركيا والبرتغال فإنّ إنتاجها للخروب أقل في حين أنّ إنتاج بلدان شمال إفريقيا (تونس والمغرب والجزائر وليبيا) يعتبر ضعيفا نسبيّا.



البشير خريّف
[1917 – 1983م]

تدرّب البشير خريّف في مدرسة الأقصوصة التونسيّة الفتيّة في الثلاثينات وتغذّى بثمار حركة أدبيّة وفنّية تجديديّة أينعت في تونس في تلك المرحلة التاريخيّة الحاسمة التي اضطربت فيها أركان المجتمع واحتدّ الصراع بين المقلّدين والمجدّدين. ولذلك مال البشير خريّف إلى التيّار التجديديّ وواجه مناهضيه بشجاعة أدبيّة فتحت له مسلكا بكرا ورشّحته ليفرض اسمه في دنيا الإبداع الروائي منذ فجر الاستقلال.

والحقّ أنّ البشير خريّف قد توصّل إلى كتم أصوات خصومه وترصيع تاج الفنّ القصصيّ في تونس بدرر نفيسة بفضل تميّزه بموهبة أدبيّة أصيلة ومهارة فنّية رائقة ورؤية فكريّة عميقة وروح نقديّة مرحة. فمن ذلك الرحم الخصب تولّد عالم البشير خريّف القصصيّ طافحا بشذى التراث، متلوّنا بلون الواقع التونسيّ، مردّدا أصداء أفراح التونسيّين وأتراحهم، كاشفا عن تاريخهم القديم وواقعهم الرّاهن، سابرا نفسيّاتهم وطبائعهم. ولا نظنّ أنّ أديبا تونسيّا احتفل بالتونسيّين في أريافهم وقراهم ومدنهم وتعمّق في تحليل واقعهم مثلما فعل البشير خريّف. ولعلّه أبرز من أنصف المرأة التونسيّة المغبونة قبل الاستقلال، تلك المرأة التي تفتّقت حيلها في آثاره وتمرّدت على العادات المكبّلة وبدّلت نظرة بعض الرجال إلى الحياة وساندت حركات التحرير ووقفت مواقف إنسانيّة رائعة.

بتلك السمات التحم أدب البشير خريّف بأعماق المجتمع التونسيّ وخلب القرّاء بنكهة عربيّة تليدة وعمق إنسانيّ زاخر وتناغم مع روائع كوكبة الأدباء والفنّانين التونسيّين اللاّمعين. وهكذا أمسى البشير خريّف علما من أعلام الأدب التونسي الحديث فأدرجت آثاره في برامج التعليم بالمعاهد الثانويّة وشغلت الجامعيّين تدريسا وبحثا وتُرجمت إلى عدّة لغات أجنبيّة وعُرض بعضها في شكل تمثيليّات إذاعيّة وأشرطة سينمائيّة وتعلّقت بها عدّة دراسات نقديّة داخل تونس وخارجها تعلّقا ساق إلى صاحبها أهمّ الجوائز التقديريّة التونسيّة. فقد أُسندت إلى البشير خريّف جائزة علي البلهوان البلديّة سنة 1960 والجائزة التقديريّة الكبرى للأدب والفكر سنة 1981 والوشاح الأكبر للثقافة سنة 1990.

مسيرته

1- الدربة

ولد البشير خريّف بنفطة سنة 1917 ثمّ انتقل سنة 1920 إلى حيّ رحبة الغنم بالعاصمة صحبة والديه وإخوته. وبعد أن اختلف إلى كتّاب «سيدي البغدادي» وإلى «مدرسة السّلام»

القرآنية التحق سنة 1925 بالمدرسة العربيّة الفرنسيّة الكائنة بنهج دار الجلد فأحرز الشهادة الابتدائيّة سنة 1932. وفي فضاء العائلة جنى البشير خريّف منذ فجر شبابه ثمار الأدب العربي القديم والحديث وحفظ بعض عيون الشعر العربيّ. وكانت المدرسة الابتدائية نافذة تسلّلت منها أشعّة الأدب الفرنسيّ إلى حياة صاحبنا تسلّلا خلبه بروائع كوكبة من الشعراء والقصّاصين الفرنسيّين. لقد تضافرت هذه العوامل على دفع البشير خريّف إلى حقول الأدب وأغرته بتدوين يوميّاته وتأليف بعض القصص والأشعار والانصراف عن مادّتي العلوم والرياضيّات بمعهد العلويّة الثانويّ. وقد أدّى ذلك إلى فصله عن الدراسة في نهاية السنة الثانية فركن إلى عزلة مملّة لم يتخلّص منها إلاّ عندما لازم أخاه الشاعر مصطفى. وفي هذا الطور اتّصل البشير خريّف بأبي القاسم الشّابي ومحمد البشروش وعلي الدوعاجي ومحمد صالح المهيدي وانضمّ إلى نوادي رجال الصحافة والمسرح انضماما أثار فيه الحنين إلى دروب الأدب فراوح بين ممارسة ألوان من المناشط الصناعيّة والتجاريّة وقراءة روائع الأدب العربيّ والأدب الفرنسّي. وعندما أصدر مصطفى خريّف جريدة «الدستور» سنة 1937 عاضده أخوه البشير بالإشراف على توزيعها ثمّ نشر بها مقالات في النقد المسرحيّ وأقصوصته الشهيرة الموسومة بـ «ليلة الوطيّة». وبتلك الأقصوصة تجلّى ميله إلى المنزع الواقعيّ الاجتماعي وتعلّقه باستعمال الدّارجة في الحوار وكلفه بسبر أغوار الحياة العاطفيّة، غير أنّ النقاد الصحافيّين انتقدوا أقصوصة «ليلة الوطيّة» وتهجّموا على البشير خريّف تهجّما كدّر حياته وحمله على الصمت. وسرعان ما احتجبت جريدة «الدستور» فالتحق صاحبنا بمدرسة سمنجة الفلاحيّة ثمّ غادرها في السنة نفسها نظرا إلى اعتلال صحّته وعمل كاتبا لدى أحد المحامين بالعاصمة. وقد حرص خريّف – إثر زواجه – على التوفيق بين الدراسة والكسب ففتح متجرا لبيع الأقمشة وتابع دروس «الخلدونية» مساء متابعة يسّرت له الإحراز على شهادة «البروفي» (Brevet élémentaire d'arabe) سنة 1940.

وقد تلوّنت حياة البشير خريّف في هذا الطور بظروف الحرب العالميّة، إذ ازدهرت تجارته في ظلّ السوق السوداء ثمّ كسدت بكسادها فانصرف عن التجارة ورجع إلى مجالس أهل الفكر والأدب واختلف إلى مدرسة «العطّارين». ومن تلك المدرسة حصل سنة 1947 على «شهادة الدراسات العليا» (Diplôme supérieur d'arabe) التي فتحت له مجال التدريس بالمدارس الابتدائيّة. إنّ التحاق البشير خريّف بسلك المعلّمين كان منعرجا حاسما في حياته، إذ وفّر له الوظيف الحكوميّ دخلا قارّا ويسّر له الإقبال على المطالعة والتأليف. فمنذ فجر الثلاثينات أمسى مولعا بقراءة القصص والروايات، متلذّذا بتصفّح كتب الأخبار والتاريخ والمناقب تلذّذا غذّى شغفه بتاريخ تونس ودعم اعتزازه ببطولات الأسلاف. وقد كان العهد الحفصيّ من أهمّ العهود التي شغلت البشير خريّف نظرا إلى خطر الصراع الذي دار آنذاك بين المسلمين والنصارى وصعود نجم الأتراك وبسالتهم في مواجهة النصارى. ولا شكّ في أنّ ظروف استقلال تونس قد غذّت نخوته بتحقيق النّصر وأحيت أمله في تقارب المسلمين وأذكت جذوة اعتزازه بتعاضد الأتراك والتّونسيّين على تخليص البلاد من قبضة النصارى في العهد الحفصي فعزم على تأليف رواية تخلّد أحداث ذلك العهد.

لقد درس البشير خريّف أهمّ المراجع المتعلّقة بالعهد الحفصي وجمّع عدّة وثائق وزار مواطن الأحداث الخطيرة التي وقعت بالبلاد في عهد إحْمِيْدَة الحفصي ووضع تخطيطا دقيقا لرواية وَسمها بـ«بلاّرة» ثمّ حرّر جميع فصولها. وإثر ذلك أعاد النظر في المخطوط ونقّح بعض فصوله وغيّر بنيتها وفق تخطيط جديد. ورغم ذلك فإنّ صاحبنا أعرض عن نشر روايته هذه لأنّه كان

يفكّر – حسب ما دلّت عليه هوامش المخطوط – في فتح عالمها على فضاء أرحب.

ولا شكّ عندنا في أنّ ظروف النشر آنذاك وغياب الفنّ الروائيّ عن الحركة القصصيّة في تونس والخوف من ألسنة النقّاد قد كبّلت البشير خريّف تكبيلا جعله لا يجازف بنشر روايته في تلك الفترة.

2 – التحدّي

لقد اختلط البشير خريّف بجميع فئات المجتمع التونسيّ فألمّ بأهواء التونسيّين وسبر نفسيّاتهم ووقف على ثراء عالمهم وطرافة لهجاتهم وقوفا هداه إلى معدن ثريّ للأدب وغذّى ميله إلى الاتّجاه الواقعيّ الاجتماعيّ ونمّى إعجابه بروّاده التونسيّين الذين لمعوا في الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن. وعندما تبلورت رؤيته الفنيّة عزم على تحدّي أنصار التقليد الذين تحاملوا على أقصوصة «ليلة الوطيّة» وألجموا صوته طوال عشرين سنة وصرفوا علي الدوعاجي عن استعمال الدّارجة في قصصه رغم تميّز أزجاله ومسرحيّاته المكتوبة بالدّارجة. فقد حرص البشير خريّف على تحقيق «ما تاق إليه علي الدّوعاجي» وجاهر بتمرّده على النقّاد وتمسّكه باستعمال الدّارجة في آثاره القصصيّة إيمانا منه بأنّ «اللّغة عند القاص غيرها عند غيره من الكتّاب: فالقاص شاهد عصره واللّغة مرآة النفس وصورة العقليّة».

وبينما كان البشير خريّف منكبّا على تحرير رواية «بلاّرة» تفتّحت حياته على حادثة وجدانيّة أحيت فيه أحلام الشباب وذكّرته بعالم رجال المسرح في الثلاثينات فأعرض عن رواية «بلاّرة» واستغلّ تلك المؤثّرات لتأليف رواية «حبّك درباني». وفي هذه الرواية عمّق البشير خريّف منزعه الواقعيّ الاجتماعيّ الذي دشّنه بأقصوصة «ليلة الوطيّة» فحلّل العلاقات الاجتماعيّة ووقف على مؤثّراتها وسبر أعماق الحياة العاطفيّة وتفنّن في استعمال الدارجة في الحوار. وقد ظنّ صاحبنا أنّ انتشار موجات التجديد وتبدّل أذواق القرّاء وتنوّع الفنون الأدبيّة في تونس ستصرف الدّارسين عن التهجّم عليه، وإذا بالأقلام تشنّ عليه حملة انتقاديّة وتتّهمه بالتطفّل على الأدب.

إنّ هذه الموجة الثانية من الانتقادات قد كدّرت حياة البشير خريّف تكديرا حمله على مكاتبة الناقد التونسي فريد غازي المقيم آنذاك بفرنسا ليستنير برأيه في رواية «حبّك درباني» فأجابه فريد غازي بدراسة حلّل فيها الرواية وأبرز أنّ اللّهجة الدّارجة لا تُعدّ نقيصة فيها. ومنذ ذلك الحين ثبت للبشير خريّف زيف تلك الأقلام المتحاملة عليه وقرّ عزمه على تحدّي خصومه ومواجهتهم بالإصرار على اتّباع منهجه الخاصّ في القصّ والتعبير عن مكامن رؤيته. ولذلك رجع إلى مخطوط رواية بلاّرة فنقّح فصوله وغيّر ترتيبها وفكّر في توسيع أركان عالمها. وعندما استعصى عليه إغناء أحداث رواية بلاّرة اختار عددا من الشخصيّات التي شهدت في شبابها حكم الحسن الحفصي وألّف رواية برق اللّيل التي تُعتبر أوّل رواية تاريخيّة في الأدب التونسيّ وثمرة من ثمار وفاء البشير خريّف لذاته وإخلاصه لطبعه ورصده لتاريخ بلاده. وكان حصول برق اللّيل على جائزة علي البلهوان عربون اعتراف بقيمة قلم البشير خريّف وإيذانا بتحليقه في فضاء رحب.

3 – التألّق

انتبه رجال الأدب والصحافة في فجر الاستقلال إلى قيمة أدب البشير خريّف السرديّ فنقدوا آثاره وتهافتوا على مجالسه بمقاهي العاصمة تهافتا كشف لهم عن عمق ثقافته وطرافة فكره وكلفه بالفنّ القصصيّ. والحقّ أنّ حياة البشير خريّف قد سارت على إيقاع إنصاته لواقع مجتمعه وشغفه بالأدب ونزوعه إلى التأمّل منذ أن خفّف عنه بعض أبنائه أعباء العائلة وأغروه بجعل منزل والده بتونس العتيقة ركنا هادئا للمطالعة والتأمّل والتأليف ومنتدى يختلي فيه بأصفيائه. ففي ذلك المحراب العابق بعطر السنين الخوالي والمرصّع بتراث العائلة تبحّر

صاحبنا في مطالعة روائع الأدب العربي والأدب الغربي قديمها وحديثها ورصد حياة سكّان الحيّ وأتمّ نسج خيوط عالمه القصصيّ.

وقد كان البشير خريّف في هذا الطور من حياته يجتمع بأهل الجريد المقيمين بالعاصمة ويختلف إلى مجالس أهل الفنّ والأدب ويتابع جلسات روّاد نادي القصّة ويخصّص أوقاتا للإقامة بنفطة. وبفضل تلك العوامل التحمت حياته بحياة التّونسيّين في العاصمة وتغذّى بثمار الأدب السرديّ وشحذ أدواته القصصيّة وعمّق رؤاه للحياة والفنّ تعميقا تجلّت سماته في روايته الدقلة في عراجينها وفي مجموعته القصصيّة مشموم الفلّ.

وهكذا أمسى البشير خريّف الأب الحقيقي للرواية التونسيّة وعلما من أعلام الأقصوصة والقصّة القصيرة وأشهدنا على أصالة منزعه القصصيّ وحرصه على تجذير أدبه في التربة التونسيّة وبراعته في تطويع الفنّ القصصيّ للتعبير عن مكامن رؤاه.

4 - الصمت

إنّ تنوّع الفنّ القصصيّ في تونس لغة وأشكالا واتجاهات قد كتم أصوات أولئك الذين آخذوا البشير خريّف على استعمال الدّارجة أو على طرق «نواحي نفسانيّة لا ينبغي تشريحها»، بل إنّ تلك الجوانب نفسها أمست موضوعات لأبحاث جامعيّة. ورغم أنّ أدبه أصبح ركنا قارّا في الدراسات التي اهتمّت بأدبنا القصصيّ وفي المنتخبات الأدبيّة التي تُرجمت إلى لغات أجنبيّة فإنّ البشير خريّف لم ينشر رواية بلاّرة وانقطع عن التأليف منذ مطلع السبعينات، مفضّلا الركون إلى صمت طويل مردّه إلى أنّ بعض الناشرين والسينمائيّين والصحفيّين والمترجمين قد سطوا على آثاره سطوا كبّل قلمه وأقحمه في مسالك القضاء المتشعّبة.

وعندما أقدم البشير خريّف بنفسه على طبع رواية حبّك درباني تجنّبا لعالم النّاشرين واجهته شروط الموزّعين فوأد آلاف النسخ في مخزن وبقي يجترّ طعم المرارة سنوات. وقد رأى في الكتابة المسرحيّة منفذا للخلاص من الناشرين والموزّعين ومجالا لإيصال صوته إلى الجمهور الأمّي الذي اعتنى بقضاياه وتفنّن في استعمال لغته فألّف عددا من المسرحيّات. وعندما قدّم مسرحيّة «سوق البلاط» إلى لجنة المسرح وطلبت منه أن يحوّر بعض فقراتها سخر من تلك الشروط وانصرف عن التأليف إلى أن فارق الحياة سنة 1983.

آثاره القصصيّة

لقد أعجب البشير خريّف منذ فجر شبابه بالأدب السرديّ العربيّ ورصد أصداءه في الأدب الغربيّ رصدا نمّى تعلّقه بالتراث العربي وخلّصه من ضروب التبعيّة والمحاكاة، كما أنّه نهل من روائع الفنّ القصصيّ الغربي نهلا غذّى مواهبه القصصيّة وبلور رؤيته للفنّ والحياة. وبفضل تلك العوامل تعزّز توق البشير خريّف إلى نحت عالم قصصيّ من معدن المجتمع التونسيّ وبانت أوجه التناسق بين أركان رؤيته الفكريّة ونصوصه الإبداعية. فقد تعلّق بالاتجاه الواقعي الاجتماعي في القصة وشُغف بالقصص التاريخي إيمانا منه بأنّ «الكاتب فرد من المجتمع أوتي محنة التعبير كتابة عن خوالجه وأفكاره فيما يعيشه من مشاكل مجتمعه ذاك وعلله، والقصّة عرض لتلك المشاكل والعلل وتحليل لها ومفرّج منها بها».

إنّ هذه الرؤية الحاضنة لعالم البشير خريّف القصصيّ قد أضفت على كتابته مسحة من «الصدق الفنّي» على تعدّد أشكال آثاره واتّجاهاتها. وكانت ضروب الوصف ولغة الحديث الباطنّي والحوار من أهمّ الوسائل المحقّقة لذلك «الصدق الفنّي». فقد وصف الشخصيّات وصفا رشّحها لتمثيل فئات مهمّة من المجتمع التونسيّ ووظّفه لتصوير البيئة التي تجري فيها الأحداث والتمهيد لبروز المواقف الحاسمة، كما طوّع الوصف للإيحاء بنظرته إلى واقع المجتمع وطبائع أفراده. وقد نَمت طرق

الوصف تلك عن ميل خريّف إلى منزع القصّاصين الواقعيّين وأشارت إلى صلات عالمه القصصي بواقع المجتمع التونسّي. أمّا لغة الحديث الباطني والحوار فكانت، في جلّ الحالات، كاشفة عن أحاسيس الشخصيّات وعقليّاتها وشواغلها بعبارات مناسبة لدرجة وعيها ودالّة على أنّها تمثّل نماذج بارزة في المجتمع التونسيّ.

والحقّ أنّ البشير خريّف لم يقتصر على استعمال العاميّة في الحوار، ذلك أنّه فتح اللّغة الفصحى في السّرد والوصف على العبارات العاميّة كلّما وجد فيها إيقاعا متميّزا أو شحنة دلاليّة مفقودة في الفصحى. فقد اكتشف صاحبنا غزارة الطاقات الكامنة في العاميّة فتفنّن في استعمالها وتعلّق بها تعلّقا شجّعه على التهكّم من النقّاد في هوامش قصّته القصيرة الموسومة بـ « محفظة السمار». وكثيرا ما نقد القصّاصين العرب العازفين عن العاميّة مبيّنا لهم أنّ الإعراض عنها «هروب من واقعنا ومن زماننا ومكاننا».

إنّ نهل البشير خريّف من تراثه واطّلاعه العميق على روائع القصّاصين الغربيّين وحرصه الدّائم على الإخلاص لطبعه والاهتمام بواقع بلاده قد مكّنته من شحذ مواهبه القصصيّة وبلورة رؤيته بلورة وسمت آثاره بطابع أصيل. فقد انطوت على خصائص الفنّ القصصي العربي والغربي وكشفت في الآن نفسه عن أسلوبه الخاصّ وطبعه المرح ونظرته إلى الفنّ والحياة وصوّرت التحام قضايا الشخصيّات بقضايا المجتمع التونسيّ في ماضيه وحاضره. ولئن تراءت لنا سمات أعلام القصص التاريخيّة والقصص الواقعيّة ظاهرة في آثاره ظهورا ينمّ عن عزوفه عن موجة الرواية الجديدة الغربيّة التي تسرّبت إلى حقول الرواية العربيّة فلأنّه ألمّ بمرجعيّات القارئ العربيّ في عصره إلماما يسّر له التناغم مع ذوقه الأدبيّ.

1 – النزعة التاريخيّة

ألّف البشير خريّف آثاره القصصيّة التاريخيّة فجر الاستقلال تأثّرا بموجة الاعتزاز بالذّات والانتشاء بالحرّية والكلف بإرساء أسس الدولة الحديثة. وقد اهتمّت تلك الآثار بالمنعرجات الخطيرة التي هزّت أركان البلاد وكشفت عن وجوه ثلّة من الأعلام اضطلعوا بأدوار بطوليّة في الأحداث التاريخيّة الحاسمة. وقد تفنّن البشير خريّف في المزاوجة بين الأحداث التاريخيّة والأحداث القصصيّة مزاوجة حافظت على الجوانب التاريخيّة الثابتة وأغنتها بأحداث خياليّة وفّرت لها أركان «القصص الفنّي». فآثار البشير خريّف التاريخيّة جمعت بين الشخصيّات التاريخيّة والخياليّة وتفتّحت على قصص عاطفيّة بطابع إنسانيّ مشرق وأطلّت من زواياها وجوه أبطال خياليّين مثّلوا نماذج لفئات باسلة تجاهلها التاريخ.

لقد نوّه البشير خريّف في «محفظة السمار» بأدوار الزعماء التونسيّين في الحركة الوطنيّة ووصف مواقفهم ومواقف الأبطال المغمورين، إنصافا منه لجميع من قاموا بأدوار حاسمة في أحداث أفريل 1938. فقد أسند إلى طالب زيتونيّ دورا بطوليّا ونسج خيوط قصّة ربطته بالفتاة «نفيسة» نسجا كشف عن إسهام المرأة التونسيّة في تحرير بلادها. وقد وسم صاحبنا قصّته القصيرة هذه بـ «محفظة السمار» وجعل نفيسة تفضّل حرق المحفظة في فجر الاستقلال على تركها بين «أيد غبيّة»، تلك المحفظة الملطّخة بدم «الصّادق» والشاهدة على دور طلبة الزيتونة في الحركة الوطنيّة.

إنّ اعتناء البشير خريّف بالشخصيّات القصصيّة وتفنّنه في جعل القصّة الإطار محتضنة لقصّة مضمّنة وحرصه على تشويق القارئ في المقدّمة قد وسمت «محفظة السمار» بسمات قصصيّة فنّية خاصّة وخوّلت له رصد مظاهر النموّ للشّخصيّات وانفعالها بالأحداث. فبطل هذه القصّة القصيرة نشأ مكبوت العواطف في وسط

يفصل المرأة عن الرجل، وعندما انتقل إلى العاصمة تبلور وعيه السياسيّ وتفتّحت حياته على عالم عاطفيّ زاخر ملأ كيانه وأنار أركان وجوده، ذلك أنّ الحبّ ربط بينه وبين فتاة محجّبة ربطا بثّ فيهما روحا وطنيّة دافقة وغيّر مجرى حياتهما. فقد أمست نفيسة مهتمّة بالنضال السياسي، مساندة للمقاومين مساندة بدّلت نظرتها إلى الوجود بعد أن كانت تقيم في بيت عائلتها معزولة عن العالم الخارجيّ وأضحى الصّادق مدفوعا بعاطفة جيّاشة. وهكذا كانت «محفظة السمار» شهادة إنصاف للأبطال المغمورين وعامل إذكاء للنزعة الوطنيّة وإسهاما من الكاتب في وضع أسس مجتمع جديد يعتزّ بجميع أفراده ويعترف بمنزلة المرأة ويسمو بعاطفة الحبّ سموّا مطهّرا من الشوائب.

وفي رواية «برق الليل» حافظ البشير خريّف على أهمّ الأحداث التاريخيّة التي وقعت بتونس أيّام الحسن الحفصي واستشهد بكتب التاريخ والأخبار وقرن الأحداث التاريخيّة بأحداث خياليّة قرنا ولّد قصّة عاطفيّة كان لبرق اللّيل دور البطولة فيها.

لقد صوّرت رواية برق اللّيل مظاهر العبوديّة المكبّلة للمجتمع التونسيّ أيّام الحسن الحفصيّ ووقفت على اهتزاز أركان البلاد بقدوم خير الدّين بربروس واستنجاد السلطان بالنّصارى. وقد أفاض الكاتب في التنويه بحرص خير الدين على نشر الأمن بتونس وضمّها إلى الخلافة العثمانيّة وحلّل عوامل الاحتلال الإسباني وصوّر فظاعة تنكيل جنود شارل الخامس بالأهالي. وبذلك ألمّت الرواية بالأحداث السياسيّة التي عصفت بالبلاد ورصدت عوامل انبثاق الوعي في حياة الأفراد وتوقهم إلى الحرية رصدا فتح عالمها على فضاء رحب. فقد انفتح عالم الرواية على قصّة حبّ بين العبد برق الليل والمرأة الشّابة ريم تأثّرت أطوارها بالأحداث التي وقعت بتونس في عهد الحسن الحفصي وبثّت في العبد طاقات عجيبة سخّرها للظفر بحرّيته والإسهام في تخليص البلاد من الإسبانيّين.

إنّ تأليف الكاتب بين الأحداث التاريخيّة والأحداث القصصيّة وإسناد دور بطوليّ عجيب إلى العبد برق اللّيل قد ربطا الرواية بالواقع التاريخيّ ووسماها في الآن نفسه بطابع خرافيّ موصول بالعقليّة الخرافيّة التي شاعت زمن الأحداث وتجلّى صداها في كتب المناقب والأخبار وفي حكايات القصّاصين الشعبيّين. وقد حافظ الكاتب على الأحداث لإيهامنا بحقيقة عالمه الروائيّ، ذلك أنّه لم يطلق عنان خياله إلاّ في الفجوات التي تركها المؤرّخون أو في الوقائع التي اختلفت فيها كتب الأخبار فكان أصدق منها لهجة وأعمق منها رؤية.

أسفر تأثّر البشير خريّف بظروف تونس زمن الاستقلال عن توظيف التاريخ في الرواية توظيفا أبرز للتونسيّين أنّهم من سلالة شعب توّاق إلى الحريّة بمختلف وجوهها وذكّرهم بأنّ تعاضد أجدادهم مع الأتراك كفّ عن بلادهم ضروب الأذى وبيّن لهم أنّ التخاذل عن نصرة خير الدّين أوقعهم بين مخالب النصارى والحفصيّين الذين أوقدوا نيران «خطرة الأربعاء» الشنيعة. وكان لرؤية الكاتب دخل في إبراز نقمة التونسيّين على الحسن الحفصي وتكفيره عندما استنجد بالإسبان والسخرية من ارتباك بعض الأجداد في خضمّ الأحداث التاريخيّة الجسيمة.

وتحمل رواية برق اللّيل رسالة حضاريّة جليلة بإبراز روح تسامح المسلمين مع متّبعي الديانات السماوية جمعاء وتصويرها حسن معاملة الأتراك للأسرى المسيحيّين وإشارتها إلى المراتب السّامية التي احتلّها المسيحيّون المعتنقون للإسلام. وما تصويرها لبطولات العبد برق اللّيل واحتفالها برقّة مشاعره وسموّ أخلاقه وذكرها لتحرّره من العبوديّة إلاّ شاهد على نبذ الكاتب لمظاهر التعصّب وألوان الاستعباد.

أمّا في رواية بلاّرة فقد حدّد البشير خريّف

خطوط الأحداث التاريخيّة الكبرى التي عاشتها تونس في عهد السلطان «إحْمَيْدَة الحفصي» ثمّ فرّعها تفريعا رمّم به الفجوات التي اخترقت التاريخ وتوصّل إلى احتضان حياة النّاس الخاصّة والعامّة بتنويع المشاهد القصصيّة. وبذلك ألمّت الرواية بمظاهر الفزع التي شتّتت شمل التونسيّين زمن الحرب وصوّرت حياة الأنس والدّعة التي تنعّموا بها في أوقات السلم، شاهدة على قدرة العواطف الإنسانيّة على تحطيم حواجز التعصّب والعنصريّة والاستعباد.

وقد نفخ البشير خريّف في التاريخ روحا بعثته بعثا أنار تجاويفه ودلّ على عوامل انتشار الوعي في الأجداد وتبدّل مواقفهم وانبثاق توقهم الطبيعي إلى الحرّية ورغد العيش. وبذلك المسعى أوقفتنا رواية بلاّرة على حياة المجتمع التونسيّ عندما كوته نيران الصراع بين الحفصيّين والأتراك والإسبان وبرّرت خروج التونسيّين من طور الخوف من الأتراك ومحاربتهم إلى طور الاستنجاد بهم والاحتماء بسيوفهم.

والحقّ أنّ الكاتب قد بيّن لنا أنّ الشخصيّات التاريخيّة الشهيرة هي التي قادت الجيوش وخطّطت للمعارك وظفرت بالنّصر فكان بذلك، وفيّا للحقائق التاريخيّة. ولكنّه اعتنى، علاوة على هذا، بشخصيّات تاريخيّة أهملها التاريخ وجمع بينها وبين الشّخصيات القصصيّة ليقرن الجانب التاريخي بالجانب القصصيّ قرنا طريفا. فقد صوّرت لنا الرواية ثلاث أميرات نسجن خيوطا خفيّة واضطلعن بأدوار حاسمة في السّر والعلن هيّأت لتحقيق النصر. وكانت الأميرة الحفصيّة بلاّرة بطلة الرواية نظرا إلى صلة والدها بالأحداث التاريخيّة ومتانة علاقتها بأهمّ الشخصيّات وقيمة أدوارها في جلّ الفصول.

وهكذا تعاضدت رواية بلاّرة مع رواية برق اللّيل لحمل رسالة حضاريّة ذات عبر، إذ أذكت نزعة الافتخار بعزّة الأجداد وقدرتهم على مواجهة جيوش الأعداء مواجهة الأنداد وتوصّلهم إلى التغلب على النصارى بفضل اتحادهم في ظلّ الوحدة الإسلاميّة، كما ذكّرتهم الروايتان بمواقف الخزي ونتائجها الوخيمة الباقية على صفحات التاريخ. وبذلك أبرز البشير خريّف للتونسيّين وقت خلاصهم من الاستعمار الفرنسي أنّهم من سلالة شعب توّاق إلى الحرّية، متفان في التضحية في سبيل عزّته، ومجّد مسيرة التونسيّين الطويلة على ذلك الدرب وقدرتهم على الخلاص من أسباب الوهن.

2 – النزعة الواقعيّة الاجتماعيّة

أنشأ البشير خريّف بآثاره ذات النزعة الواقعيّة الاجتماعيّة عالما قصصيّا احتلّت فيه نفطة وتونس العاصمة رقعة شاسعة. وقد حلّل في تلك الآثار طبائع التونسيّين ورصد واقعهم الاجتماعيّ والسياسيّ والفكريّ وسبر أغوار حياتهم العاطفيّة ووقف على ألوان الصراع بين القديم والجديد في مجتمعهم، مقتفيا آثارها في حياة الأفراد ومصير البلاد من فترة الثلاثينات إلى فجر الاستقلال.

ورغم أنّ صورة المجتمع التونسي في بعض آثار خريّف، تبدو بعيدة عن الواقع الرّاهن، منصرفة عن القضايا التي تشغل التونسيّين في فجر الاستقلال فإنّها تبقى متينة الصّلة بحياة كاتبها، مشدودة إلى ظروف تأليفها شدّا. فاستعمال الفنّ القصصيّ لاستعادة الذكريات غاية لا تقلّ شأنا في نظر صاحبنا عن غيرها من غايات التأليف القصصيّ، ذلك أنّه يعتبر «الذكر أثمن ما يتميّز به الإنسان» ويرى أنّه لو لم يكن للقصص «إلاّ الاحتفاظ لصاحبها بصفحات من ماضيه يستعيدها عند غروب الحياة لكفاها فضلا». ولذلك احتضن الحنين عالم البشير خريّف القصصيّ ولوّن صوت الرّاوي بألوان من الدعابة والتهكّم والسخرية وسمت بعض القصص القصيرة وقسما من المواقف الروائيّة بسمة النوادر. وقد كانت آثار خريّف ذات النزعة الواقعيّة الاجتماعيّة متأثّرة بحركة بناء مجتمع جديد، إذ أحالت على العوامل التي دفعت التونسيّين إلى التبرّم بأوضاعهم زمن الاستعمار

والثورة لإصلاح المجتمع والظّفر بالنصر ونوّهت بحركات زعماء الإصلاح التي هدت مسيرة البلاد منذ فجر الاستقلال.

لقد كتب البشير خريّف روايته حبّك درباني والدقلة في عراجينها عندما أثمرت بذور الوعي وتخلّصت البلاد من الاستعمار وظفرت المرأة بحقوقها وألغيت هياكل الأنظمة القديمة. وكانت ظروف النخوة بتحقيق تلك الإنجازات حافزة للبشير خريّف على البحث عن زمنه الضائع واستعادة ماضي جيله الذي استبدّت به العواطف المكتومة وخنقته الهياكل الهرمة وكتمت أنفاسه قبضة المستعمر. ولذلك مجّد الكاتب أعمال الأبطال المجهولين وأثبت مظاهر روعتها ونوّه بفضل من تسبّب في تغيير وجه البلاد وإزالة عوائق النهضة. وقد وظّف البشير خريّف التقنيات القصصيّة لتحقيق «الصدق الفنّي» في آثاره تحقيقا وصلها بالمنزع الواقعيّ، فاستغلّ الوصف لتصوير البيئة التي تجري فيها الأحداث تصويرا كشف عن واقع المجتمع وأبار أخلاق أفراده ونفسيّاتهم، كما تمكّن من جعل لغة الحوار ومضامينه مناسبة لوعي الشخصيّات، دالّة على عقليّاتها وطبائعها.

والحقّ أنّ تلك الآثار القصصيّة قد انطوت على سمات مذاهب أخرى ساعدت الكاتب على تجسيم رؤيته وإغناء عالمه القصصيّ. فبعض تصريحاته هدت إلى صلة «ليلة الوطيّة» وحبّك درباني بحياته الخاصّة ودلّت على أنّها من قصص الترجمة الذاتيّة. وفي رواية الدقلة في عراجينها ملامح الاتّجاه الطبيعي وخروج في الآن نفسه عن حدود الواقعيّة والطبيعيّة. وبذلك أشهدنا البشير خريّف على أنّه يستند إلى رؤية غزيرة الروافد ويخضع أدواته الفنّية للتعبير عن تلك الرؤية دون اكتراث بما سنّه المنظّرون.

وقد دلّت بنية آثار البشير خريّف وسمات شخصيّاتها وفنّيّاتها القصصيّة على خضوعها لمقوّمات أهمّ الأشكال القصصيّة الغربيّة وتجذّرها في التراث السرديّ العربيّ في الآن نفسه. فقد طبع صاحبنا حبّك درباني والدقلة في عراجينها بطابع الرواية ووسم «ليلة الوطيّة» بسمات الأقصوصة ووظّف تقنيّات القصّة القصيرة في «النقرة مسدودة» و«خليفة الأقرع» و«رحلة الصيف». ولكنّه لم يتقيّد في جميع تلك الآثار بالقوالب المجهّزة التي وضعها المنظّرون بل لوّنها بألوان التراث السرديّ العربّي بالمزج بين الجدّ والهزل واحتضان الشعر والاستفادة من التضمين القصصيّ وتمزيق قناع الرّاوي.

والحقّ أنّ التكالب على المادّة وتحجّر العقليّات وكبت العواطف وإقصاء النساء عن عالم الرجال قد طبعت آثار البشير خريّف ذات النزعة الواقعيّة الاجتماعيّة بسمة قاتمة وكدّرت حياة عدّة شخصيّات، غير أنّ تنوّع مظاهر الفكاهة في تلك الآثار وميل الكاتب إلى النقد الهادئ السّاخر قد وصلاها بإحدى السمات المميّزة للتراث السرديّ ونمّا عن أصالة البشير خريّف في نحت أسلوبه الخاصّ في القصّ. وقد حقّق ذلك بفضل تدخّلات الرّاوي للتعليق على المواقف ومداعبة الشخصيّات والتهكّم عليها، إضافة إلى تفنّنه في توظيف الوصف والحوار لتوليد المواقف الهزليّة وبراعته في مفاجأة القارئ بإقحام بعض العبارات الدّارجة في سياق السرد الفصيح.

وهكذا اتّصلت آثار البشير خريّف بروائع الفنّ القصصيّ الغربي وبالتراث السرديّ العربيّ دون محاكاة وكشفت عن أركان عالم قصصيّ متناسق الرؤى والأدوات ودلّت على مهارة صاحبنا في إنشاء لون قصصيّ أصيل.

3 - النزعة الرمزيّة

ألّف البشير خريّف أقصوصته الرمزيّة الموسومة بـ«المروّض والثور» للتلميح إلى موقفه من الصراع العربيّ الإسرائيليّ بعد أن رفضت الصحف التونسيّة نشر مقالة له عبّر فيها عن ذلك الموقف في نهاية الستّينات. والحقّ أنّنا لا نعثر

على قرائن دالّة على العرب والاسرائيليّين في هذه الأقصوصة التي صوّرت صراعا بين ثور ومروّض في إحدى مدن الأندلس، رغم تصريح الرّاوي بأنّ الثور إنسان «ممسوخ لبعض ما اقترفه في حياته الإنسانيّة» وإشارته إلى أنّه ثاب إلى رشده في نهاية المطاف وغيّر سلوكه مع المروّض. وعندما هدانا البشير خريّف إلى أنّه استغلّ سمات المروّض لنحت ملامح الإسرائيليّين واعتمد صفات الثور للدلالة على العرب بانت لنا خيوط الرمز واتّضحت مظاهر تأثير رؤية الكاتب في صياغة هذه الأقصوصة.

إنّ المروّض شخص ذكيّ أدرك مظاهر قوّة الثيران وعوامل ضعفها واستعان بمجموعة من الأتباع لإنهاكها والقضاء عليها. ولذلك نجده يختار ثورا من الثيران في كلّ واقعة ويدفع به إلى الحلبة ليتولّى غيره إضعافه. وإثر ذلك يواجه المروّض الثور ولكنّه لا يشرع في مصارعته إلاّ بإذن الملكة ولا يجهز عليه إلاّ بإشارة منها. بهذه الملامح تنكشف إحدى وجوه الرمز ويصبح التشابه بين تصرّف المروّض مع الثور وتصرّف الإسرائيليّين مع العرب واضحا. فالمروّض يحيل على الإسرائيليّين الذين توصّلوا، رغم قلّة عددهم، إلى تبديد قوّة العرب بفضل استعانتهم بأدوات الإضعاف التي يمتلكها أعوانهم. ثم إنّهم لا يجهزون على العرب بعد إصابتهم بالوهن إلاّ بإذن أولئك الذين يهيّؤون للمصارعة ويخطّطون لها. ويمسي تصرّف الثيران مماثلا لتصرّف العرب لأنّ غياب فكرها، حسب رأي الرّاوي، حجب عنها عوامل قوّة المروّض وتسبّب في صرعها.

لقد هجم الفرسان على الثور فـ «جندل من جيادهم ثمانية كرّتها البغال خارج الملعب» ولكنّه لم يصب الفرسان الذي سدّدوا إليه الطعنات الأولى. وعندما جاء دور الرّاجلين هجم الثور على راياتهم الحمراء «لا يرى إلاّ إياها مسهوبا بلونها الأحمر غير مبال بالشخص الذي يغرز فيه الحديد». وتنتهي المصارعة بالمواجهة بين ثور منهك القوى، مطعون بسهام شتّى ومروّض «ثابت الجنان محكم الحركات في يمناه سيف قصير وفي يسراه الحريرة».

وكانت المواجهات تنتهي بمصرع الثيران لأنّها لا تهتمّ إلاّ بالحريرة على حين أنّ المروّض «ساكن، ما عدا العقل منه فهو يقظ متحفّز» وعندما يحين وقت الضربة القاضية يستأذن الملكة ويجهز على خصمه. وبذلك برّر البشير خريّف أسباب انتصار إسرائيل على العرب في جميع الحروب ومهّد للكشف عن عوامل تبدّل تلك العلاقة.

لقد آمن بشير خريّف بأنّ العقل هو الكفيل بتقوية ضربات العرب ضد عدوّهم وإجباره على تجنّب مواجهتهم، وبنى حادثة الأقصوصة بناء مجسّما لرؤيته تلك. ففي خاتمة «المروّض والثور» كادت المواجهة أن تسفر عن انتصار المروّض مرّة أخرى، غير أنّ الثور انتبه فجأة و«ثاب إلى رشده ولم يعد يهتمّ بالحريرة الحمراء بل بصاحبها وقلّ نفخه وهدأت أعصابه» فارتاع المروّض وانسحب من الحلبة.

وقد بثّت خاتمة الأقصوصة رسالة حضاريّة سامية نمّت عن رؤية الكاتب بإبراز أنّ استناد العرب والإسرائيليّين إلى العقل يسفر عن إيقاف سلسلة الحروب الدامية التي عصفت بكيانهم ويحملهم على التآلف والتصافي. وآية ذلك أنّ الثور «الراشد» تلطّف مع المروّض وبدّد فزعه تبديداً جعله يُعرض عن لجنة الاحتفال ويغادر الحلبة برفقته.

آثار البشير خريّف

«ليلة الوطيّة» (أقصوصة بقلم صمصام)

الدستور (جريدة) – العدد 3 السنة الأولى، 10 سبتمبر 1937.

– إفلاس أو حبّك درباني (رواية).

الفكر، ديسمبر 1958 وجانفي 1959 ومارس 1959.

ط 1: الشركة التونسية لفنون الرسم (بعنوان: حبّك درباني). تونس 1980.
– برق الليل (رواية). الفكر، ديسمبر 1960 وجانفي 1961 وفيفري 1961 ط 1: الشركة التونسيّة للنشر والتوزيع 1961.
– من رزقه (أقصوصة). الفكر، جوان 1962.
– الدقلة في عراجينها (رواية). ط 1: الدار التونسيّة للنشر، 1969.
– مشموم الفل (مجموعة قصصية). ط1: الدار التونسية للنشر، 1971.
– بلاّرة (رواية)
تقديم وتحقيق: فوزي الزمرلي.
ط1: المؤسّسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات «بيت الحكمة»، تونس، 1992.

محيي الدين خريف
[1932–2011 م]

في واحة نفطه بالجنوب الغربي من البلاد التونسية، ولد محيي الدين خريف في ربيع عام 1350 هجريّا الموافق لـ 14 جوان سنة 1932 ميلاديا. ولمّا كان والداه من أبناء الزوايا فقد شب الطفل في جو دينيّ صوفيّ.

أُدخل محيي الدين خريف إلى المدارس الحديثة فأخذ يتخطى مرحلة بعد أخرى، بجانب حفظه للقرآن الكريم بكتاب القرية. ثم انتقل إلى الفرع الزيتوني بمدينة قفصة ثم إلى جامع الزيتونة حيث نال شهادة التحصيل. وبعدها التحق بسلك التعليم وفي الأثناء حصل على شهادة الكفاءة في التعلم. وانخرط في التعليم والتربية بمدارس تونس منتقلا من الجنوب إلى الشمال مدرسا ومرشدا بيداغوجيا ثم التحق بوزارة الثقافة منتجا بقسم الأدب الشعبي.

الشعر هو همّه الأول متأثرا بالبيئة التي نشأ فيها حيث كان جدّه الشيخ إبراهيم خريف شاعرا ومؤرخا. له كتاب «المنهج السديد في تاريخ الجريد» وكان أبوه الناصر خريف شاعرا ومتصوفا. وكان عمّه مصطفى خريف شاعرا بسط ظله على الساحة الأدبية إبان الثلاثينات والأربعينات ومن ثمة فإن علاقة محيطه العائلي بالأدب شكلت عاملا مهما في تكوين ميولاته الشعرية وهو ما جعله ينظم الشعر وهو في سن الثالثة عشرة.

نشر قصائده في بواكير حياته في «الأسبوع» و«جريدة النهضة» و«الجهاد» و«الثريا». وفي أوائل الخمسينات عندما وصلت إلى تونس طلائع الشعر الحر عن طريق مجلتي «الآداب» و«الأديب» ودواوين السياب والبياتي ونزار قباني ونازك الملائكة. ترك نهج عمه مصطفى خريف في كيفية كتابة الشعر لينخرط في خيار جمالي مغاير يمثله تيار الشعر الحر فنشر أول قصيدة في الشعر الحر بعنوان «قيود» بمجلة الندوة لصاحبها حمادي النيفر 1953.

وكانت المطالعة همّه الذي لا يحيد عنه. فتجوّل في كل مدارس الشعر من الجاهلي إلى الأموي إلى العباسي إلى الأندلسي إلى الشعر الحديث والمدرسة الكلاسيكية الحديثة والرومانسية العربية كما كان له ميل خاص إلى الآداب الأجنبية والمترجمة.

يعدّ محيي الدين خريف من أكثر الشعراء التونسيين غزارة في الإنتاج. كما كانت تحولاته في المنهج والأسلوب محيّرة لكل من يقرأ شعره. يقول عنه الدكتور حمادي صمود في مقدمة معجم البابطين: «محيي الدين خريف غزير الإنتاج متواصله يتمثل قول الشعر عنده «محنة» لا فكاك منها. متعدد التجارب ويطوف ممالك الشعر مسائلا أسرارا. يقد صوره من معدن الكآبة. ويلقيها بالحزن الفاجع، شأنه شأن أصحاب المقامات والطرق، يستهويه التصوف فينزع عن الغربة ويحتمي بالحضرة في شعر يقطر وجدا ويشف عن نفس أضناها التجوال والبحث، فحطت الرحال عساها تسترد نفسها، وتهرب من سجنها بالفناء في المطلق النوراني» (معجم

البابطين، المجلس السادس – ص132).

وإن شكل الشعر مدار الاهتمام الأوّل والرئيس في شواغل محيي الدين خريف الأدبيّة والثقافيّة، فإنه لم يتوان عن الكتابة والبحث في مجالات الدراسات الأدبية (اهتم في دراساته بعدة علامات شعرية نذكر منها الشاعرين أبي تمام وابن حمديس الصقلي...) فضلا عن التحقيق والكتابة المسرحية والكتابة للأطفال والإسهام بمقالات معمقة في دوريات تونسية وعربية.

والدارس لتجربة محيي الدين خريف لا يستطيع أن يغفل عن العناية المخصوصة التي أولاها للثقافة الشعبية حيث تناول بعض مكوناتها مثل: الأمثال الشعبية والحكايات الشعبية (نشير إلى كتابه الذي يحمل عنوان: الأمثال الشعبية التونسية، دار المعارف للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، سوسة، 2003).

من إنتاجه الشعري:

– كلمات للغرباء من إنتاج الدار التونسية للنشر، 1969.

– حامل المصابيح من إنتاج مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، 1973.

– السجن داخل الكلمات، بغداد، وزارة الإعلام العراقية، 1976.

– مدن معبد من إنتاج مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، 1980.

– الفصول، بغداد، وزارة الإعلام العراقية، 1981.

– الرباعيات من إنتاج الدار التونسية للنشر، 1984.

– البدايات والنهايات من إنتاج دار بو سلامة، 1987.

– طلع النخيل، تونس، المؤلف، 1987.

– السباعيات، تونس، دار سحر للنشر، 1996.

– الرباعيات الثانية، رباعيات، دار سحر للنشر، 1997.

– نبيذ الكرخ، أطلسية للنشر، 2000.

– ورقات بحرية ضمن المجموعة الكاملة، دار المعارف للنشر سوسة، 2003.

– عبق الشعر الحسيني، دار العلم للنابهين، بيروت، 2003.

– الأعمال الكاملة، ديوان محيي الدين خريف، 2003.

– صلاة الروح، مخطوط.

– كما له أيضا في مجال الشعر الديني الذي خصّه الشاعر باهتمام مخصوص الأعمال التاليّة:

– أسماء الله الحسنى، الشركة الجديدة للنشر والتوزيع، 2007.

– ديوان مناسك الحج، الشركة الجديدة للنشر والتوزيع، 2007.

– الديوان النبوي (مخطوط)

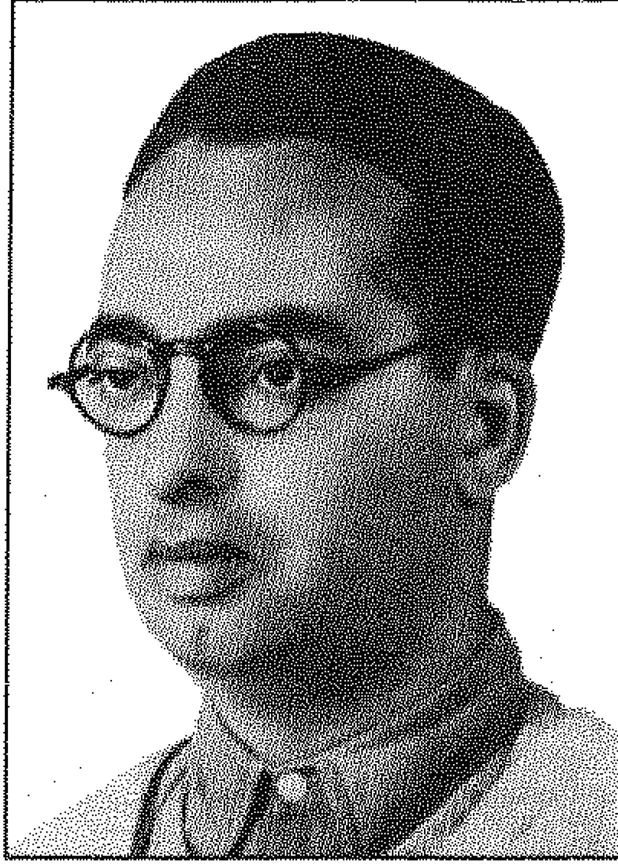
– درويش في رحاب الله (مخطوط)

– ناي الحياري (مخطوط)

– رابعة العدوية (مخطوط)

– ابتهالات (مخطوط)

وقد توفي الشاعر محيي الدين خريف يوم الجمعة 18 نوفمبر 2011.



مصطفى خريّف

[1910 ـ 1967م]

وُلد مصطفى بن ابراهيم خريّف بنفطة سنة 1910 وتوفّي بتونس سنة 1967. نشأ وترعرع في رعاية والده الذي كان يقدّمه على بقية أولاده نظرا إلى حالته الصحية المتردّية.

وفي الكتّاب الملاصق لمنزل الأسرة حفظ جزءا من القرآن الكريم وتلقّى مبادئ العربية على

قصيدة بخطه

يد والده الذي لقّنه أيضا قصائد الفحول من الشعراء العرب. أمّا والدته فكانت تنتمي إلى عائلة بن ميلاد وكانت تحرّض زوجها وأبناءها على التحوّل إلى تونس حيث يقيم أهلها وذووها. ولهذا السبب هاجر بعض أفراد من الأسرة من نفطة سنة 1920، إلى جانب أسباب أخرى.

ولئن أقام مصطفى خريّف بعد ذلك إقامة دائمة بالعاصمة فإنّه لم يفتأ يحنّ إلى نفطة ويزورها كلّما سنحت له الفرصة. وفي تونس أدخله والده مدرسة «السلام» القرآنية التي كان يديرها الشيخ الشاذلي المورالي. ثمّ التحق بجامع الزيتونة فتتلمذ للمشائخ البشير النيفر وصالح بن مراد ومحمّد مناشو ومحمد العنّابي وغيرهم. ولم يمكث بالزيتونة سوى سنة أو سنتين، لكنّه تعرّف في تلك الفترة إلى مجموعة من الشعراء الشبّان أمثال أبي القاسم الشابي والطاهر الحدّاد وجلال الدين النقاش ومحمود بورقيبة، كما تعرّف بالخصوص إلى الشيخ العربي الكبادي وإلى الأديب علي الدوعاجي اللذين كان لهما أثر في توجيهه.

كانت علاقته بالشابّي علاقة «الروح بالروح» وكانت صداقة أدبية تمتّنت بحكم انتمائهما إلى جهة واحدة، جهة الجريد، وصداقة والديهما الشيخ إبراهيم خريّف والشيخ محمّد الشابي وبحكم إعجاب كلّ واحد منهما بشاعرية الآخر وبأفكاره وأحاديث روحه. وكان لوفاة أبي القاسم المبكرة وقع كبير في نفس صديقه فقال في ذكرى وفاته:

مهما توارت بعهدك المُدد
فأنت فذّ الطراز منفرد
وأنت كالنبع في تدفّقه
لحن رخيم الغناء مطّرد
فتحت للشعر عالما عجبا
ما ارتاده قبل فتحه أحد

أمّا علاقته بالكبادي فقد تواصلت حتى وفاة شيخ الأدباء سنة 1961 وكان مصطفى خريّف لا يكاد يغيب عن مجالسه يستمتع بما يسمع منه من شعر التراث الأندلسي بالخصوص. وكان يطالع بنهم المجلاّت والجرائد اليومية والأسبوعية وكتب الأدب الحديث ومذكّرات الفنّانين وأخبارهم ويستوعب كلّ ما يقرأه الشيخ الكبادي ويتمثّله وينشره ويتحدّث به ويكتب عنه.

وتعرّف مصطفى خريّف أيضا إلى جماعة تحت السور وعلى الدوعاجي «زميمهم» فوجد فيه الشخص المكمّل لجانب من جوانبه الخفيّة وانجذب إليه ورافقه في رحلته إلى الجريد في خريف 1937. وقبل ذلك أصدر علي الدوعاجي جريدته «السرور» سنة 1936 التي لم تظهر منها إلاّ سبعة أعداد فكان صديقه من جملة المسهمين في التحرير فيها.

ولم يجعل مصطفى خريّف الشعر همّا في حياته بل هو كما يقول: «تـجـارب ورياضات وملء للفراغ أو هو لعب ولهو». ولقد أصدر مجموعة شعرية أولى بعنوان «الشعاع» سنة 1949 ومجموعة ثانية بعنوان «شوق وذوق» سنة 1965، كما أصدر قصصا نذكر منها «عمّ خضير

البوّاب» وخاصّة «دموع القمر» التي وصف فيها شيئا من طفولته وشبابه، هذا زيادة على مقالاته في مجلة «العالم الأدبي» و«المباحث» و«الندوة» وخصوصا «الثريّا» حيث تولّى على نحو منتظم الإشراف على ركن سمّاه «صفحة من أوراقي» ضمّنه ما استحسن من أشعار القرّاء ونوادرهم وأمثالهم.

ولقد جرّب مصطفى خريّف قلمه في ألوان شتّى من الشعر: الكلاسيكي والكلاسيكي الجديد والرومنسي والشعر المنثور وتناول أغراضا عدّة منها الوطن والثورة والحقّ والمجد والمغرب العربي والعروبة وعظماء الرجال والطبيعة والحبّ والحكمة... إلاّ أن أحسن قصائده في اللون الوجداني كالتي وردت في صفحات «ديوان الصبابة» كما يقول، تلك التي تمتاز بصدق العاطفة ورشاقة العبارة (رمل):

كم تساقينا الأماني وسهرنـــا
وشربنا وحدنا حتى سكرنـــا
وشكا العذّال منّا فسخرنـــا
أفهل تهتمّ من قيل وقـــال؟
أنا في الحبّ جسور لا أبالـي...

ومن ميزاته أيضا ولعُه بالألوان وتفنّنه في تنضيدها، كقوله في وصف راقصة (رمل):

وتراءت بنت حوّاء على الملعب تخطـر
في غلالات رقيقات من الوشي المحبّر
رصّعتها يدُ فنّان بياقوت وجوهـــر
نسجت فيها أعاجيب من الألوان تبهـر
أبيضا في أحمر في أزرق من بعد أخضر
قزح تحكيه في يوم رقيق الغيم ممطـر

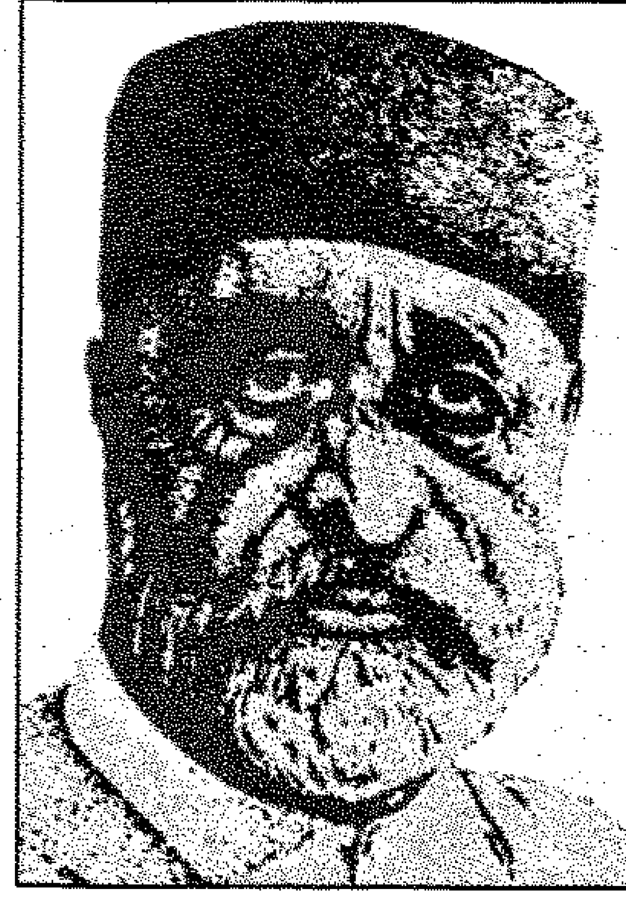
وكان مع ذلك مولعا بالغريب من الألفاظ وخاصة بالتضمين، وهو هوايته المفضّلة التي لا تكاد قصيدة من قصائده تخلو منها والتي تذكّرنا بكلف القدامى بالمحسّنات البديعية.

محمد خزنه دار
[توفّي سنة 1888م]

أصله مملوك جلب من بلاد اليونان ـ وهو في حوالي العشرين من عمره ـ سنة 1238هـ/1822م وليست له قرابة بمصطفى خزنه دار. دخل في أتباع الباي على عهد محمود باشا فتعلّم العربية وظهرت استقامته وأمانته. وتقدّم في عهد حسين بن محمود باي واختصّ بوزيره وصهره شاكير واتخذ أمينا على خزنة ماله ولذلك اشتهر باسم خزنه دار، ثمّ قدّمه المشير أحمد باي الأوّل عاملا على الأعراض (هي المنطقة الواقعة بين قابس والحدود الطرابلسية) وقائدا عاما للعساكر المرابطة بتلك المنطقة فسمّي أمير آلاي ثمّ ترقى إلى رُتبة أمير لواء.

وفي شوّال 1271هـ/1854م سافر إلى السلطنة العثمانية مدّة المشير الثاني مَحمد باشا باي وكان رجوعه منها في محرّم 1272هـ/1855م حاملا معه الفرمان. وعلى إثر هذه السفارة جوزي بترفيع رتبته من أمير لواء إلى أمير أمراء. وفي سنة 1273هـ/1856م، قاوم ثورة غُومة المحمودي في الجنوب التونسي، وسُمّي عضوا في المجلس المؤلف لوضع قانون الدولة سنة 1274هـ/ 1857م، وعضوا في المجلس الأكبر فكان النائب الأوّل عن الوزير خير الدّين. وفي سنة 1278هـ/1861م سُمّي وزيرا للعمالة في جمادى الثانية من سنة 1278هـ/ 1861م. وفي سنة 1279هـ/1862م سُمّي وزيرا للحرب، وفي سنة 1280هـ/1863م سافر إلى إسبانيا في سفارة وديّة ثمّ سُمّي وزير الشورى.

وكانت وفاته بقصره بالمرسى في 22 شوّال سنة 1306هـ/1888م. ودفن بمقبرة الزلاّج.



محمد الشاذلي خزنه دار
[1881 ـ 1954م]

هو الشاعر الوطني الشاذلي بن محمد المنجي بن الوزير مصطفى خزندار. ولد بضواحي تونس (باردو) سنة 1299هـ /1881م. «واعتنى والده بتعليمه العربية، فدرس في بيته على شيوخ بارعين» (حسن حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي، مكتبة المنار، تونس، 1968، ص.322) وكانت له منذ صغره ميول أدبيّة رسّخها بقراءة الشعر وحفظه إلى أن تفتّقت قريحته. فقال شعرا في جميع أغراض الشعر التقليدية. ونبغ بوجه خاصّ في الشعر السياسي الذي ينافح فيه عن الوطن ويذبّ فيه عن التعاليم والمبادئ العربيّة الإسلامية.

التحق الشاذلي خزندار بسلك ضبّاط القصر الملكي في عهد محمد الناصر باي (1906–1922) «ولم يباشر هذا الوظيف إلاّ زمنا قليلا وتأخّر عنه في ظروف سياسيّة حرجة» (حسن حسني عبد الوهاب، المرجع المذكور أعلاه، ص.322) وفي رمضان من سنة 1920م انتخب عضوا في اللجنة التنفيذية للحزب الحرّ الدستوري التونسي. وإثر ذلك سجن بباردو من أجل نشاطه السياسي. وقد أعفي من وظيفته إثر وفاة محمد الناصر باي (في 10 جويلية 1922) لاعتقاد حكومة الحماية أنّه المتسبّب في حوادث البلاط التي أسفرت عنها واقعة 5 أفريل 1922. وقف إلى جانب الباي محمد المنصف. ودافع عن القضية التونسية بجدّ وإخلاص.

خلّف الشاذلي خزندار جملة من الآثار الأدبيّة منها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط، من أهمّها مسامرة بعنوان «حياة الشعر وأطواره» تونس 1920، وديوان شعر (طبع جزء منه سنة 1924 وطبع الجزء الثاني سنة 1926) وعن شعره يقول محمد الفاضل ابن عاشور «تفيض قصائده كلّها حماسا ووثوقا بانتصار الحق وحسن عاقبة الصدق ويقوم فنّها الشعريّ على وحدة الغرض وتسلسل عناصره وطول النّفس وتلاقي الفقر على طريقة الإطناب، فكانت قصائده كالخطب لها من الأثر في السامعين وقت إنشائها ما لا يستطيع الناقد أن يكشف عنه ما لم تجدّد لها الظروف التي مكّنت لها حسن القبول» (محمد الفاضل ابن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية في تونس في القرنين (14–13هـ/ 20–19م)، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون، بيت الحكمة، تونس2009، ص.192). وكان لذيوع صيت خزندار في المحافل الأدبية ولانتشار أشعاره وتداولها على الألسن لقّبته الصحف بـ «أمير الشعراء» وهو لقب أحمد شوقي في مصر. ولم يجرؤ على نقد شعره وبيان سقطاته سوى القليل من الكتّاب والنقّاد مثل محمد الفاضل ابن عاشور الذي خصّ شعر الشّاعر بفقرات تحليليّة كثيرة منها قوله: «على أنّ النقد المنصرف للفنّ الصّرف لا يستطيع أن يغطّي على أسقام في التراكيب وزحافات في الأوزان وابتذال في المعاني وحشو في الألفاظ كانت الحرارة الفائضة من تلك القصائد تذيبها فلا يحسّ بها السامعون» (المرجع المذكور، ص. 192–193)

ولمحمد الشاذلي خزندار آثار أخرى ذكرها زين العابدين السنوسي في كتابه «الأدب التونسي في القرن الرابع عشر»، منها رواية مكتملة صاغها شعرا في 700 بيت، كما ألّف – وهو في السجن العسكري – كتابا قيّما يتضمّن خواطر ومواقف من السياسة والمجتمع والأدب (وهو مخطوط). ونظم خزندار عدّة قصائد نشرتها له الصّحف والمجلاّت والدوريات لم تضمّ إلى الديوان.

توفّي الشاذلي خزندار يوم 12 جانفي1954م.

وقد أقامت له الجمعية الرشيدية ذكرى الأربعين برئاسة الأديب محمد العربي الكبادي.

أصدر ابنه بعد وفاته أعمال والده التالية:

- نفحة الورد على تشطير البردة، 1987.
- الجزء الثالث من الديوان، المنصفيات، 1991.
- حياة الشعر وأطواره، 1993.
- الجزء الرابع من الديوان، المغاربيّات، 1994.
- الجزء الخامس من الديوان، الخزندريات، 1996.

وأعادت الدار التونسية للنشر طبع الجزأين الأوّل والثاني من الديوان سنة 1972.



مصطفى خزنه دار

[1817 ـ 1878م]

مملوك يوناني تولى الوزارة الكبرى بالبلاد التونسية مدّة 35 سنة متواصلة، وُلد حَوَالي سنة 1233هـ / 1817م في بلدة كردميلة بجزيرة كيو (Chio) حيث هلك أبوه إستفان في مذابح فتنة العصيان سنة 1821 لـمّا ثار الوطنيون اليونانيون على حكم الأتراك العثمانيّين في سبيل استقلال بلادهم، واسمه الأصلي جورج كالكياس سترافيلاكيس، فظلّ يتيما إلى أن وقع في الرّق ثمّ حمل عبدا إلى إزمير فبيع بسوق الرّقيق في الآستانة ثمّ بيع من جديد في سوق العبيد بتونس، فوضع في البلاط الحسيني بباردو في عهد الأمير حسين باي الثاني (1824 ـ 1835) وصار يدعى مصطفى بعد أن اعتنق الدّين الإسلامي. واعتنى به الشاب أحمد باي وضمّه إلى حاشيته فتفقه عن عبد الرحمان الكامل المالكي والشيخ مصطفى بوغازلي حتّى أصبح يجيد القرآن ويحسن الكتابة. وكان غيورا على من يتقرّب من الباي كثير الاعتقاد بالصالحين معروفا بقضاء الحوائج ثم أصبح شحيح النفس حريصا على التقتير. صاهر أحمد باي الأوّل على أصغر أخواته ثـمّ ولاّه خزنه دار. وقد جمع هذا الوزير أربع وزارات: الوزارة الكبرى من سنة 1837 إلى 1873 ووزارة العمالة ووزارة الخارجية ووزارة المال. ومدّة توليه الوزارة الكبرى طوال خمس وثلاثين سنة عمل مصطفى خزنه دار على جمع الأموال بمختلف الطرق المشروعة وغير المشروعة وكان داهية محجاجا حاضر البديهة بارعا في التزلف للبايات. وفي أيّامه جدّد عدّة زوايا منها المقام الشاذلي في تونس بجبل الزلاج، شيّدها من قروض الدولة تكفيرا عن سيّئاته المالية وترضية منه للرأي العام الذي كان قويّ الاعتقاد في الطريقة الشاذلية. واستمرّت وزارة مصطفى خزنه دار مدّة ثلاثة أمراء حسينيين وهم أحمد ومحمد ومحمد الصادق باي فضاعف أداء الجباية غير مبال بإرهاق الأهالي فكان ذلك سببا من أسباب انتفاضة علي بن غذاهم الكبرى، سنة 1864.

وفي أثناء هذه الأحداث المتشعّبة انتصب الكومسيون المالي فقصرت يد الوزير خزنه دار عن التصرّف ولم يوافقه الباي لاطلاعه على حقائق الأمور. وقضى الكومسيون بايعاز من الوزير الأكبر خير الدين التونسي بإجباره على تعويض الخسائر التي تسبّب فيها. ولـمّا سمع الباي بذلك عزله في أوّل رمضان سنة 1290/1873م وفرحت العامّة والخاصّة لعزله.

وطلب الباي محاسبته مع ابنه وعقد لذلك مجلسا ترأسه ولي عهد الأمير علي باي وأعضاؤه من كبار شيوخ ذلك العهد. وكان من جملة ما صالح عليه من المال خزنة كتبه النفيسة المشتملة على الكتب الغريبة والنادرة

ذات الإبداع في النسخ والتزويق والتهذيب في جملتها كتب الشيخ أحمد بن أبي الضيّاف وأملاك من ريع وعقارات. ثمّ لما صدر له صلح أذن له الباي في أن يخالط من شاء ويذهب حيث شاء داخل القطر وخارجه والعودة إليه متى شاء هو وأبناؤه الاّ زوجه وزوج ابنه الأكبر لكونهما من عائلة الباي. فبقي يعيش منفردا في قصره بالحلفاوين بالحاضرة يتردّد عليه قلّة من أتباعه والأجانب إلى أن توفي سَنة 1295هـ/1878م.

الخطّ العربيّ في تونس

حين انتشر الإسلام بدأ المسلمون يهتمّون بالكتابة لحفظ القرآن الكريم، ثمّ اتّجه بعض المسلمين إلى تهذيب رسم الحروف وتحسينها واستوحى الخطاطون من الكتابة فنّا أسموه "خطا". والفرق بين الكتابة والخط واضح، إذ لا تُراعى في الكتابة قواعد فنية معيّنة وإنّما يهتمّ فيها بتمييز الحروف بعضها عن بعض، على حين أنّ الخط هو الذي يجري به القلم وفق قواعد معينة ونسب مدقّقة وأصول ثابتة محددة لا يجوز تجاوزها أو إهمالها. ومن هنا يقرر الباحثون وعلماء الآثار والحضارة أن الخط العربي هو أصدق دليل لمزاجنا وذوقنا وأبعاد حضارتنا العربية، وكان نشر اللغة العربية هدفا من أهداف الانتشار الإسلامي لمكانة القرآن وارتباط الإسلام باللّغة العربيّة لذلك، حمل الدين الإسلامي هذه اللغة ونشرها في كل مكان دخله، وأصبح فيه عقيدة الأغلبية. يقول عالم الفنون الإسلامية أرنست كونيل في مقدمة كتاب فن الخط العربي: «لقد منح الدين الإسلامي مكانة للغة العربية والخط العربي، وانتشرت الأبجدية العربية في العالم الإسلامي، فأصبح رابطة لجميع شعوب المنطقة رغم الحدود الحاضرة».

أقسم القرآن بالقلم وما سطره القلم تنويها بشأنه وتعظيما لما يسطره للناس من هداية وحق وإيمان، وبهذا القسم وحده تسابق المسلمون لإمساك القلم وتعلموا الخط وكتبوا المصحف الجامع حتى لا يختلف الناس فيه من بعد. ويمكن اعتبار المصحف بمنزلة الانطلاقة الأولى للرفع من شأن القلم وبالأحرى من شأن الكتاب.

1) خطوط المصحف بالقيروان وإفريقية

كان المصحف يكتب في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة بالقلم الكوفي، ومحفوظات المكتبة العتيقة بالقيروان (مصاحف وكتب تفسير وفقه وأسفار العلوم الدينية) كلها مكتوبة بالخط الكوفي على الرق ومنها ما كتب بالذهب على الرقّ الملوّن، وهي بقية باقية بعد الدمار الذي تعرضت له القيروان أيام هجوم الخوارج عليها. ويمكن اعتبار الرق الأزرق، وما كتب عليه بماء الذهب الخالص كتابة كوفية، أما الرق الأبيض فقد كتب عليه مصحف فضل بالخط الكوفي أيضا وكذا مصحف المعز بن باديس خطه كوفي قيرواني 410هـ/1019م.

وفي أواخر المائة الثانية ثمّ المائة الخامسة للهجرة وجدت مصاحف مكتوبة بالقلم الكوفي على الرق، لها أوضاع مختلفة في التخطيط والزخرف. أمّا الخط النسخي فقد ظهر في أول المائة السابعة للهجرة ومعظم الخطوط على الرق بالخط النسخي المشرقي قبل أن يتحوّل الخط في إفريقيا إلى الخط الأندلسي. تجدر الإشارة إلى أنّ مصاحف جامع الزيتونة مكتوبة على الرق بخطوط منفرجة لا تستغرق الصفحة منها أكثر من آيتين أو ثلاث فتتكوّن منها أجزاء كثيرة يتناولها القرّاء من المصلّين في أيام الجمعة. وعند استفحال أمر الشيعة بتونس مدّوا يد الفساد إلى بعض النقوش المكتوبة في سقوف صحن باب البهو بجامع الزيتونة لمحو آثار السنة.

2) تطور الخط العربي في العهد الصنهاجي

ازدهرت في عهد المعز بن باديس العلوم وبلغت الحركة الأدبية من الأوج ما لم تبلغه في

أي عهد من عصور التمدن العربي الإفريقي. وكان بلاط المعز من أزهى قصور ملوك الإسلام، فبلغت إذاك العناية بالكتب ونسخها وتنسيقها وزخرفتها أوجا لم تدركه من قبل، كما تشهد بذلك المصاحف المحبسة من لدن عمته أم ملال وحاضنة أبيه فاطمة وأخته أم العلا وزوجته زليخة. إنّ هذه المصاحف تعدّ بحق آية في جمال الخط ورونق التذهيب والزركشة والتزويق مع كبر الحجم ومتانة الرقوق، بما لا يتسنى صنعه وتدبيجه إلا في بلاط بلغ الذروة في الذوق والتفنن.

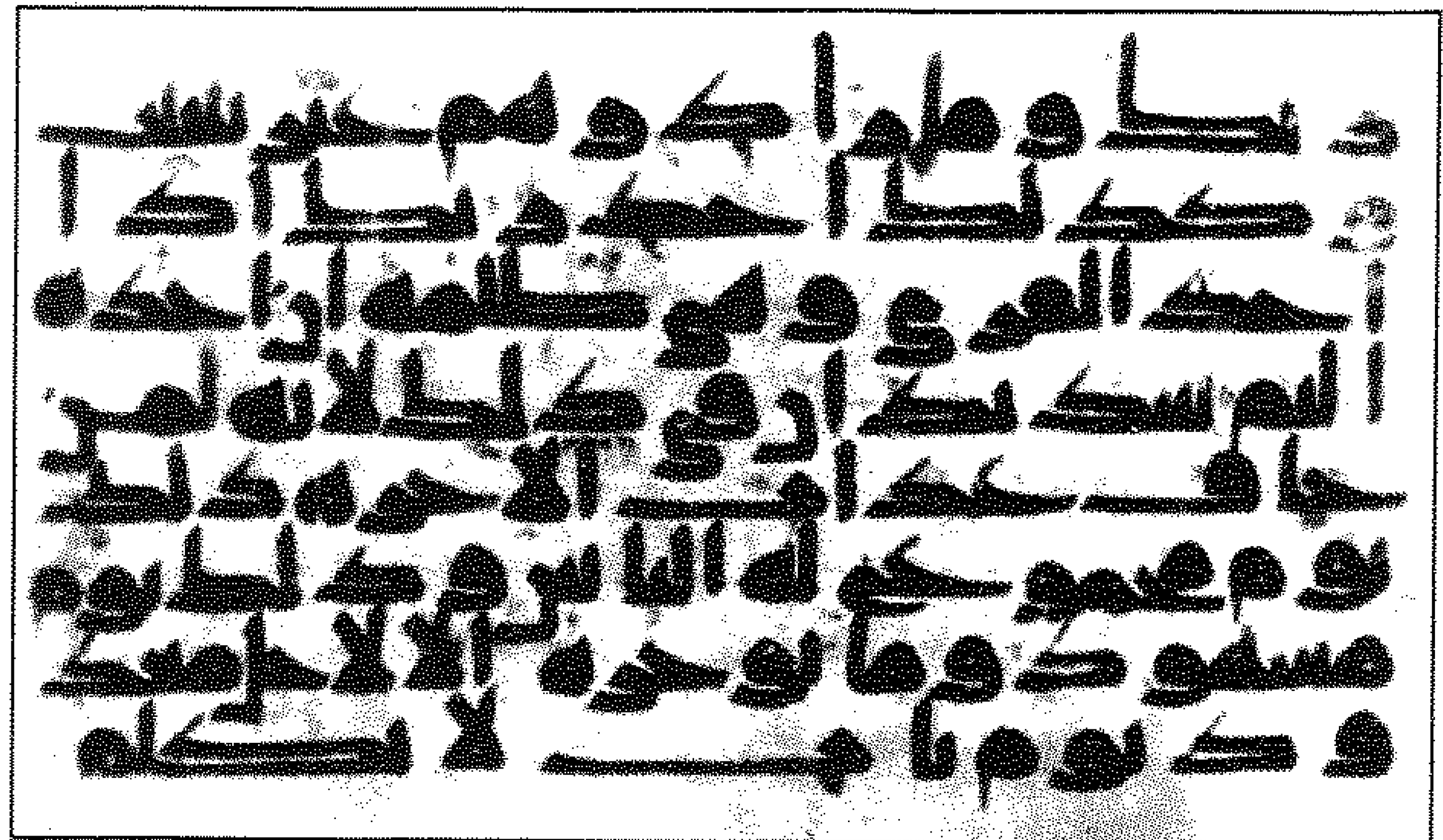
3) شجرة الخطاطين

حفظت الآثار أسماء الخطاطين الذين كانوا يتداولون النسخ في عهد المعز بن باديس أيام الدولة الصنهاجية، ومنهم:

1- الحارث بن مروان وابنه يحيى من أبناء القيروان. كان خطهما بقلم النسخ وكذا بالقلم الكوفي في طوالع الكتب من أمتع الخطوط وأوضحها وأمتنها قاعدة، وكانا ينسخان الكتب دوما للخزانة الأميرية، وآثار قلمهما موجودة فيما بقي من الرقوق المحفوظة بمكتبة القيروان.

2- علي بن أحمد الوراق من نساخ القصر الصنهاجي، كان يميل بخطه إلى أوضاع الكتابة البغدادية الراقية في عصره مع اتقانه البديع للرسم والتذهيب والتجليد

3- درة الكاتبة كانت تعاصره وتلازمه في الكتابة، وقد وصل من آثارها مصحف الحاضنة وهو لا نظير له.



أنموذج للوحة قديمة مكتوبة بالخط الكوفي

4- إبراهيم بن سوس المارديني من كتاب ديوان الرسائل في دولة المعز، عرّف به معاصره ابن رشيق في كتابه الأنموذج بقوله: «أخذ بأطراف العلوم» غير أن الغالب عليه الخط وتزويقه، كان عنده من ذلك أمر عجيب، وقد انفرد في مغربنا بالقلم الرياسي الخافي انفرادا كليا لا يداني فيه ولا ينازع.

5- عبد العزيز بن محمد القرشي الطارقي الذي كان من كتاب الرسائل، قال فيه ابن رشيق: «أكثر اشتهاره بالنثر دون النظم، إذ كان فيه فارس الفرسان وواحد الزمان، ما بين تزويق مقامة مبتدعة، أو خطبة غير مفترعة، إلى الرسائل السلطانية والكتابات الإخوانية، وله من الخط البارع خط المحلى من قداح الميسر».

6- أحمد بن محمد القصري المتوفّى سنة 322هـ/934م. كان فقيرا جمّاعا للكتب حافظا لها. كتب بيده ما لم يكتبه أحد من أهل عصره، حتى إنّه كان يقول: «منذ أربعين عاما ما جفّ لي قلم». وقال المالكي: «وصل مرة إلى سوسة ليزور شيخه يحيى بن عمر فوجده ألّف كتابا، فلم يجد القصري ما يشتري به رقوقا ينسخ عليها، فمضى إلى السوق وباع قميصه واشترى بثمنه رقا ونسخ الكتاب وقابله وأتى به للقيروان».

7- أبو العرب محمد بن أحمد التميمي حامل لواء تاريخ القيروان، مات سنة 333هـ/944م. وكان كثير الكتب، حسن الخط والتقييد.

4) تجويد الخط العربي بتونس في العهد العثماني

لقد تنافس الخطّاطون والورّاقون والنّساخ التونسيون في تجويد الخط العربي انطلاقا من أصوله الأولى باعتماد هندسة ابن مقلة في الحفاظ على انسجام الحروف واتّباع قواعد الكتابة الفنية التي قننها ابن البواب واقتداء بالمدارس المشرقية: المصرية والفارسية والشامية، والمغربية والأندلسية، والتركية، وهذه الأخيرة هي التي حملت لواء هذا الفن وإليه ترجع

جذور المدرسة التونسية القديمة والمعاصرة.

ارتبطت تونس بهذه الجمالية عندما أحسّت بالحاجة إلى تزويق المساجد والقصور عملا بما حمله العثمانيون معهم في أثناء حركتهم التوسّعية، وأصبحت الكتابة وسيلة للتزيين، كما هي وسيلة للمعرفة، ووسم الدين الإسلامي الأمم التي دخلت في سلطانه بسماته وسمتي اللغة العربيّة وخطّها. فبعضهم وسم بالسمات الثلاث كمسلمي مصر والشام والعراق وبلاد المغرب، فضلا عن جزيرة العرب وبعضهم وسم بالدين والخط فقط كالأتراك والفرس ومسلمي الهند وجبال الهملايا، وبعضهم الآخر بسمتي اللغة والخط دون الدين، وهم المسيحيون في العالم العربي، والبعض وسم بسمة الدين فقط كمسلمي الصين.

لقد عظمت منزلة الخط العربي في تونس في عهد العثمانيين، ذلك أنهم كتبوا المصاحف الشرقية بأجمل الخطوط ونبغوا في الخط العربي حتى لم يزاحمهم فيه مزاحم كالخطاط عثمان. وقد ظهر التأثّر البالغ بالنّسق التركي في مختلف الكتابات التي ظهرت في المساجد والجوامع خاصة الحنفية بالعاصمة تونس، وبالمنابر والقباب. هذا التأثّر أفرز ظهور بعض الخطاطين التونسيين تميّزوا بتقليد الخط المشرقي (التركي والمصري)، منهم المطيبع والتواتي



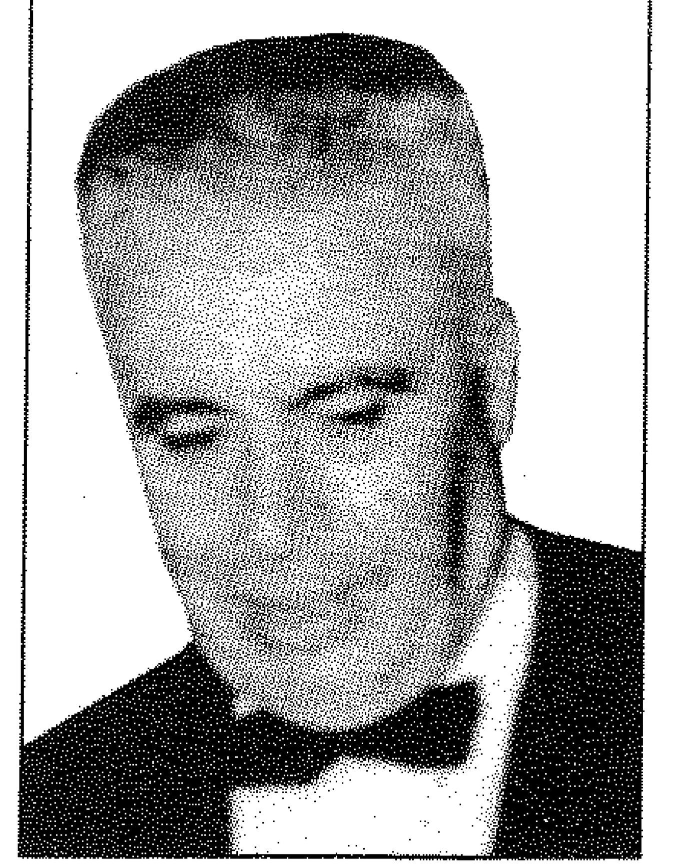
آية من القرآن الكريم كتبت على الرق بالخط الكوفي في القرن الرابع الهجري بالقيروان (الآيتان 50 و51 من سورة الأنبياء)

والفخري ثم الحاج زهير (1305هـ/ 1904م) أحد مماليك الحسينيين الذي برع خاصة في كتابة المصحف بخط تونسي أصيل.

فالخط التونسي القديم يتّخذ ملامح النّسخي القائم على تكون الحروف من أسطر غليظة ملتبسة مكتنزة تتتابع بانتظام دون أن تتجاوز الحد إلى فراغ ما بين السطرين. ويبدو أنّ ثقل التأثير التركي في المدى الطويل قد أكسب الخط التونسي دورا مميزا إذ حلت الكتابة النسخية محلّ الخط القيرواني في قسم كبير من أشكاله رغم محافظتها على عدة حروف كما هي في الكوفي. ويبرز ذلك جيدا في الاهتمام بخطوط المصحف الشريف على الأخص وبعض البراعات والأختام ومصحف المملوك زهير المخطوط والمحفوظ في أصله بالمكتبة الوطنية بتونس، تفصح عن الأصالة والالتزام وتشيع الجمال والبهجة في نفوس الناظرين.

استمرّ هذا اللون طوال القرنين 18 و19 وعلى النسق التركي نفسه. ولم يبلغ الخط العربي في تونس منزلة الفن الرفيع كشأنه عند الأتراك، إلاّ عندما انتهت رئاسة الخط العربي في العصر الحاضر بتونس إلى أستاذ الجيل الفنان والخطاط البارع محمد الصالح الخماسي، مدرس الخط العربي سابقا بالجامعة الزيتونية وبالمدرسة الصادقية ومعهدي ترشيح المعلمين والمعلمات وبمدرسة الفنون الجميلة وصاحب كراريس "المنهج الحديث لتعليم الخط العربي". فهو المجدد والرائد الوحيد في تونس اليوم، بهر الناس بما أبدعه من أعمال راقية في هذا الفن وجلّ الخطاطين المعاصرين في تونس من تلاميذه منهم توفيق بوغدير وعصمان المصور وأحمد المختار الوزير وفتحي الزليطني ومحمد الصادق الصدقاوي وعياش معرف وعبد العزيز الخماسي. ثم جاء جيل متأثر بالخماسي وبالخط الشرقي أمثال الحبيب بن عياد وأحمد عرفة وجميل بن رجب ومحمود العبيدي والميزوني المسلمي والمنجي عمار ونجا المهداوي (الذي

طور الخط وأدخل عليه جمالية الرسم) والبشير العريبي ورجب تمر وإبراهيم ميلاد وغيرهم. والأمل معقود على بعث شعبة قارة تهتم بتلقين أصول الخط العربي للناشئة، تخليداً لهذا الفن الإسلامي الرفيع.



الشاذلي الخلاّدي
[1901 ـ 1990م]

يعدّ الشاذلي الخلاّدي من خريّجي الصادقية القلائل الذين لم ينفصلوا عن الحزب الدستوري القديم بعد انبعاث الحزب الدّستوري الجديد في 2 مارس 1934، ذلك أنّ عددهم كان لا يتجاوز الخمسة أعضاء، وهم: أحمد الصافي والطيّب الجميّل والشاذلي الخلاّدي وعزالدين الشريف والحبيب جاوحده، في حين كان معظم خريجي المدرسة الصّادقية من أعضاء الحزب الدستوري الجديد وأنصاره.

ولد الشاذلي الخلاّدي بتونس في 10 ماي 1901، وكان والده مصطفى الخلاّدي يشغل خطّة أمين بناء. وبعد أن أنهى دراسته الابتدائيّة، التحق بالمدرسة الصّادقية حيث زاول دراسته الثانوية من أكتوبر 1914 إلى جوان 1920، وكان من زملائه في الدّراسة الحبيب بورقيبة والطاهر صفر ومصطفى الزّمرلي والبشير المتهنّي. وإثر وفاة والده اضطرّ إلى الانقطاع عن الدّراسة للبحث عن مورد رزق، فتمّ له ذلك لما انتدب في آخر سنة 1920 مترجما بالمصالح العدلية، وكان عمره لا يتجاوز عهدئذ العشرين سنة، مع السّماح له بمتابعة دروس الحقوق التونسيّة ليتمكّن في حال نجاحه من الالتحاق بسلك القضاء، كما كان يرغب في ذلك. لكن هذه الرّغبة لم تتحقّق لأنّ مدير العدلية الفرنسي المتحكّم الحقيقي في وزارة العدلية التونسيّة، التي تأسّست في سنة 1921، قرّر في سنة 1926 إعفاء الشاذلي الخلاّدي من مهامّه بسبب نشاطه السياسي. ولاحظ مدير العدليّة في تقريره بصريح العبارة أنّ المعني بالأمر موظّف من ذوي الكفاءة المهنية والسّلوك الأخلاقي الذي لا مأخذ عليه، لكنّه معروف لدى الخاصّ والعامّ بمناهضته لنظام «الحماية». ذلك أنّ الشّاب الخلاّدي قد انضمّ إلى الحزب الدستوري التّونسي منذ تأسيسه سنة 1920، واقتحم ميدان الصّحافة الوطنية سنة 1924، بالإسهام في تحرير صحف الحزب الناطقة باللّغة الفرنسية. وقد كان يمضي فصوله بالاسم المستعار الذي اشتهر به منذ ذلك التاريخ وهو «عبد الحقّ». وإلى جانب نشاطه السّياسي كان الشّاذلي الخلاّدي يقوم بنشاط ثقافي ملحوظ في جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصّادقية. وقد انتخب عضوا في هيئتها المديرة التي كان على رأسها الأستاذ مصطفى الكعاك في الموسم الثقافي 1924 ـ 1925، نظرا إلى «ما أبداه من إخلاص للجمعيّة وتفان في خدمتها».

وبعد فصله عن وظيفته في وزارة العدليّة، وجد نفسه عاطلا عن العمل، فانتدبه المحامي أحمد الصافي، الكاتب العامّ للحزب الدّستوري، للعمل في مكتبه بصفة كاتب. وسرعان ما تعلّقت همّته بالتحوّل إلى باريس لمزاولة دراسته العليا في الحقوق، إلا أنّ عدم حصوله على الباكالوريا لم يكن يسمح له بتحقيق رغبته. ففكّر مثل صديقه عثمان الكعّاك في الالتحاق بالمدرسة الوطنية للغات الشرقيّة بباريس التي كانت شهادتها معادلة لشهادة الباكالوريا.

وقبل ذلك أخذ في البحث عن موطن شغل

في باريس يسمح له بالحصول على مورد رزق ومواصلة دراسته العليا. فانتدب قيّما في مبيت تابع لمعهد ثانوي في باريس. وفي الأثناء تمكّن من الحصول على منحة دراسيّة من جمعيّة أحبّاء الطلبة بتونس، بفضل عناية أمين مالها الشيخ الطيّب رضوان، وهو ملاك عقاري تونسي ثريّ مشهور بأعمال البرّ والإحسان وكان في الوقت نفسه عضوا في اللجنة التنفيذيّة للحزب الدستوري، وفي هيئة جمعيّة قدماء الصادقية، وفي هيئة الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة.

وبفضل هذه المساعدات التحق الشّاذلي الخلاّدي بمدرسة اللّغات الشرقية التي تستغرق الدراسة بها ثلاث سنوات، لكن يسمح لمن نجح في امتحان اختباري بالانخراط مباشرة في سلك تلامذة السّنة الثالثة. فاجتاز الخلادي هذا الامتحان، وتمكّن من الالتحاق بكلية الحقوق بباريس والحصول على الإجازة في هذه المادة، بعد قضاء ثلاث سنوات في الدّراسة، وإثر ذلك عاد إلى تونس في آخر سنة 1935 وانخرط في سلك المحاماة.

وإلى جانب دراسته قام الشّاذلي الخلاّدي بنشاط سياسي مكثّف في باريس. فشارك في أعمال جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا، ومثّل الحزب الحرّ الدستوري التونسي في باريس خلفا للمناضل الشاذلي خير اللّه الذي أبعدته الحكومة الفرنسيّة في ديسمبر 1927 وعاد إلى تونس في سنة 1928. كما أصدر الشاذلي الخلاّدي في سنة 1932 كتابا باللغة الفرنسيّة في باريس، عنوانه: تونس للموظّفين. وقد كان لهذا الكتاب صدى واسع لدى الأوساط السياسية المهتمّة بالقضيّة التونسيّة سواء في تونس أو في باريس، إذ شهّر فيه المؤلف بسياسة حكومة الحماية في تونس في مجال الوظيفة العموميّة، القائمة على الإكثار من عدد الموظفين الفرنسيين، على حساب أبناء البلاد، وتمتيعهم، بالإضافة إلى الثّلث الاستعماري، بعدد لا يحصى من الامتيازات والمنح منها «منحة القمل».

ولما عاد الخلاّدي إلى أرض الوطن، وجد تونس ترزح تحت استبداد المقيم العام بيروطون، ولم يستأنف نشاطه في الحزب الدّستوري القديم إلاّ سنة 1936، بعد إنهاء مهامّ ذلك المقيم، وتعويضه بالاشتراكي أرمان غيّون، والإفراج عن قادة الحركة الوطنيّة الذين كانوا معتقلين في محتشد برج البوف (برج بورقيبة حاليا).

وقد عيّن الخلاّدي عضوا في اللّجنة التنفيذية واشتهر بالحملة الصّحفية التي شنّها عهدئذ على قادة الحزب الدّستوري الجديد وفي مقدمتهم الكاتب العام الحبيب بورقيبة، وهو ما زاد في حدّة الخلاف بين الرّجلين منذ أن كانا تلميذين بالمدرسة الصّادقيّة.

ولمّا عاد الشيخ عبد العزيز الثعالبي من المهجر في شهر جويلية 1937 سعى إلى وضع حدّ للخلاف بين الوطنيّين والعمل على إعادة وحدة الحزب الحرّ الدستوري التّونسي. وبعد الاتّصال بقادة اللّجنة التنفيذيّة والدّيوان السّياسي، اتفق على تأليف لجنة سياسيّة عليا برئاسة الثّعالبي تضمّ 4 أعضاء من الحزب الدّستوري القديم و4 أعضاء من الحزب الدستوري الجديد، إلاّ أنّ الدّيوان السّياسي اشترط إقصاء عدد من قادة الحزب الدّستوري القديم من هذه اللّجنة وفي مقدّمتهم محيى الدين القليبي والشاذلي الخلاّدي اللّذان يعتبران من ألدّ خصوم الحبيب بورقيبة. وبطبيعة الحال رفض الشّيخ الثّعالبي هذا الشرط، وتبعا لذلك باءت مساعي توحيد الحركة الوطنيّة بالفشل.

فاستأنف الشّاذلي الخلاّدي حملته على زعماء الحزب الدّستوري الجديد في المقالات التي كان ينشرها على صفحات جرائد الحزب الدّستوري القديم النّاطقة بالفرنسيّة بإمضاء «عبد الحقّ». ومن هذه المقالات المقال الذي نشره في جريدة (الميثاق) بتاريخ 12 فيفري 1938 بعنوان «Le bateau ivre» (المركب التائه). وقد شهّر فيه بلهجة حادّة بأتباع الحزب

الدستوري الجديد لأنّهم عمدوا إلى اقتحام القاعة التي كان من المقرّر أن تعقد فيها «جامعة عموم العملة التّونسية» الثّانية مؤتمرها الوطني وأزاحوا عنوة كاتبها العامّ بلقاسم القناوي وعوّضوه بأحد قادة الحزب الدّستوري الجديد المحامي الهادي نويرة.

وختم الشاذلي الخلاّدي مقاله الشّهير، مندّدا بسياسة الحزب الدستوري الجديد «العدوانية» ضدّ «جامعة عموم العملة» قائلا: «لا سبيل إلى إقامة الدّليل بأكثر من هذه الحدّة على طموح الحزب الدستوري الجديد إلى الاستحواذ على منظمة تأبى العيش تحت سلطة حزب سياسي.

إنّ حياة المنظّمات ومصالحها ومستقبلها ليس لها شأن كبير تجاه مطامح قادة الحزب الدستوري الجديد ومطالباته الماديّة.

فإلى أين يسير مركب الحزب الدّستوري الجديد التائه؟ لقد تجاوز الأمر حدود الطّموح وأصبح من قبيل الجنون».

نشاطه الصحفي

ارتكز نشاط الشّاذلي الخلاّدي في الميدان السّياسي منذ شبابه الباكر على المشاركة في تحرير الصّحف الوطنيّة النّاطقة بالفرنسيّة على اختلاف نزعاتها. وقد كان في عصره من أبرع الكتّاب التّونسيّين باللّغة الفرنسيّة وقليلا ما كان يحرّر في الصّحف النّاطقة باللّغة العربيّة.

وقد بدأ بالتحرير في جريدة الحزب الدستوري القديم «اللّيبرالي» التي صدرت من 29 نوفمبر 1924 إلى 16 جانفي 1926 بإدارة المناضل الدستوري الشّاذلي خير اللّه. وتوقّفت الجريدة إثر صدور فصل بقلم مديرها، بعنوان «دمشق المدينة الشهيدة»، في العدد المؤرّخ في 25 نوفمبر 1925.

ومنذ ذلك التاريخ استمرّ الشاذلي الخلاّدي في التّحرير بالصّحف النّاطقة باسم الحزب الدستوري القديم أو المتعاطفة معه، وكان يمضي فصوله دائما باسم «عبد الحقّ». وهكذا فقد أسهم في تحرير جريدة «اللّواء التّونسي» النّاطقة بالفرنسيّة والصادرة من 4 جانفي 1929 إلى 10 فيفري 1930 بإدارة الشاذلي خير اللّه. ثمّ حرّر بعض المقالات في جريدة «صوت التونسي» النّاطقة بالفرنسيّة والتي أصدرها الصّحافي نفسه في 26 مارس 1930، وتحوّلت في السّنة الموالية من جريدة أسبوعيّة إلى جريدة يوميّة، كما أسهم في جريدة «صوت الشعب» التي صدرت من 11 مارس إلى 27 ماي 1933.

وفي أثناء إقامته بباريس نشر أيضا بعض الفصول والمقالات في عدد من الصّحف الفرنسيّة ذات النّزعة اليساريّة.

ولما عاد الخلاّدي إلى تونس انضمّ إلى أسرة تحرير جريدة «الميثاق التّونسي» التي صدرت في 25 جويلية 1936 بإدارة الصيدلي الدّستوري علي بوحاجب ثمّ أصبحت الناطقة باسم الحزب الدستوري القديم في 8 جانفي 1937 وعطّلت في 4 أفريل 1938.

ولم يتردّد في الكتابة ببعض الصّحف المستقلّة الناطقة بالفرنسيّة مثل «تونس الجديدة» التي أصدرها بصفاقس في 25 أوت 1927 كل من أحمد حسين المهيري صاحب جريدة «العصر الجديد» وزهير العيّادي، ومثل جريدة «تونس الفتاة» التي أصدرها محمّد بن عبا من 15 جوان 1947 إلى 15 مارس 1949. وأخيرا انضمّ الشاذلي الخلاّدي إلى هيئة تحرير جريدة «الأمّة التونسيّة» التي ظهرت في 23 جانفي 1949 بإدارة صلاح الدين التلاتلي عضو اللجنة التنفيذيّة، ولم يصدر منها سوى 12 عددا وتوقّفت في 19 جوان 1949.

نشاطه السّياسي في عهد الحماية

ألقي القبض على الشّاذلي الخلاّدي للمرّة الأولى والأخيرة في عهد الحماية، إثر دخول الحلفاء إلى تونس في 7 ماي 1943 بتهمة التّعاون مع قوّات المحور. وسرعان ما أفرجت عنه السّلطة العسكريّة الفرنسيّة، إثر تدخّل الإقامة العامّة، حسبما أشار إلى ذلك رئيس مصلحة المخابرات الفرنسيّة بتونس روجي كازماجور في

تقريره الشهير : «العمل الوطني في البلاد التّونسية». كما أسهم في مؤتمر ليلة القدر المنعقد بتونس في 23 أوت 1946، وحرّر باللّغة الفرنسيّة نصّ اللائحة التي صادق عليها المؤتمر، بالاشتراك مع ممثل الحزب الدستوري الجديد الهادي نويرة، ولم يلق عليه القبض مع المسهمين السّتة والأربعين الذين أودعوا السّجن.

ويستفاد من بعض المصادر أنّ الشّاذلي الخلاّدي قد استقال من اللّجنة التنفيذيّة سنة 1949 بسبب الخلاف الذي نشب بينه وبين بعض قادة الحزب الدستوري القديم ولا سيما مدير الحزب محيي الدين القليبي، ولكنّه لم يعلن عن تلك الاستقالة للعموم، لذلك لم يسهم لأوّل مرة في الجريدة الناطقة باللّغة الفرنسيّة «الاستقلال» التي أصدرها الحزب الدستوري القديم من أوّل فيفري إلى 12 جويلية 1951 بإدارة عضو اللجنة التنفيذيّة الدكتور أحمد بن ميلاد. وكان آخر نشاط سياسي قام به الأستاذ الخلاّدي قبل الاستقلال، تعيينه عضوا في لجنة الأربعين التي عيّنها محمد الأمين باي في آخر سنة 1952 لإبداء الرأي حول إصلاحات المقيم العام دي هوتكلوك، المزعومة التي رفضتها اللّجنة بالإجماع جملة وتفصيلا.

نشاطه السّياسي بعد الاستقلال

لم يقم الشاذلي الخلاّدي بأيّ نشاط سياسي يستحقّ الذكر بعد الاستقلال، إذ اختار التفرّغ لنشاطه المهني، لا سيما بعد أن انتخبه زملاؤه عميدا لهيئة المحامين، بمقتضى القانون المؤرخ في 15 مارس 1958، والمتعلّق بتنظيم مهنة المحاماة في تونس. وقد اضطلع بمهامّه على أحسن وجه ممكن وحقّق كثيرا من الإنجازات لفائدة زملائه، لا سيما منها القانون الأساسي للمحامين. واستمرّ على رأس الهيئة إلى حدود سنة 1961. ففي هذه السّنة بالذّات، اتهّمته السّلطة بثلب القضاء ضمن مرافعته في قضية ضدّ أحد الفرنسيّين المقيمين بتونس إثر حوادث بنزرت، والواقع أنّه طلب من المحكمة في أثناء دفاعه عن حريفه الفرنسي عدم الخلط بين السياسة والأمور الشّخصيّة. فألقي عليه القبض وأحيل على المحكمة التي أصدرت ضدّه حكما بالسجن لمدّة ستّة أشهر. كما حلّت هيئة المحامين المنتخبة وعوّضت بلجنة معيّنة لإدارة مصالح المحامين برئاسة المحامي عبد الرحمان عبد النبي من 1961 إلى 1965.

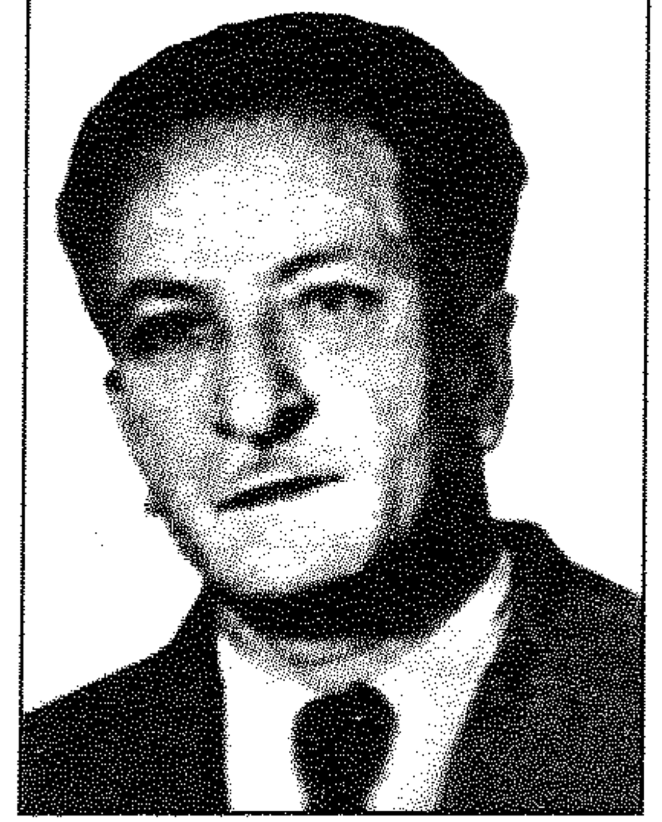
ولكن حتّى بعد إطلاق سراح الشاذلي الخلاّدي واستئناف نشاطه المهني، استمرّ الرئيس بورقيبة في انتقاده في مناسبات مختلفة. من ذلك أنّه لم يتردّد في المحاضرة التي ألقاها يوم 19 أكتوبر 1973، على منبر معهد الصّحافة، في اتّهامه بكونه لم يتمكن من الانخراط في سلك المحامين إلاّ بفضل قرار أصدره المقيم العام بيروطون لفائدته.

لقد صدر قرار بتمكين المحامي الشاذلي الخلاّدي المتخرّج في كلية الحقوق بباريس من المرافعة لدى المحاكم التّونسيّة، كما هو الشأن بالنسبة إلى سائر المحامين التّونسيين المتخرّجين من الجامعات الفرنسيّة، بمن في ذلك المحامي الحبيب بورقيبة ذاته.

ويبدو أن الخلاّدي قد تصالح قبيل وفاته مع الرئيس بورقيبة الذي زاره في بيته واقترح عليه أن يسلّمه نسخة من كتاب تونس للموظّفين ليأمر بإعادة طبعه «حتى يطّلع الشبّان التونسيّون على ما قام به أسلافهم من عمل في عهد الاستعمار»، على حدّ قوله. فأجاب الخلاّدي مخاطبه قائلا: «إن ذلك الكتاب المنشور منذ 1932 كان مفيدا في وقته، أمّا الآن فمن المتوقّع أن لا يثير اهتمام الأجيال الصّاعدة».

ومن هنا جاءته فكرة جمع ما كتبه في حياته من مقالات وفصول وإعادة نشرها في كتاب مستقلّ بذاته. وفي الحين شرع في تطبيق هذه الفكرة، وجمع فصوله في كتاب عامّ بعنوان: في زمان الاستعمار، وقسّمه إلى ثلاثة أجزاء: الرجال والأفكار والوقائع.

وقد صدر الجزء الأوّل في آخر سنة 1989 مصدّرا بتوطئة بقلم كمال العريف، وتوفّي صاحب الكتاب في 9 فيفري 1990 قبل ظهور الجزأين الثاني والثالث.



محمّد السعيد الخلصي
[1898 - 1962م]

ولد محمّد السّعيد بن حميدة الخلصي بحيّ دار الباشا سنة 1898 وهو ينتمي إلى أسرة عريقة تتعاطى التجارة وصناعة الشاشيّة.

زاول دراسته بالكتّاب حيث حفظ نصيبا من القرآن الكريم وتلقّى مبادئ العربية في إحدى المدارس القرآنيّة. ثم التحق بمعهد كارنو حيث حذق اللّغتين الفرنسية والإيطاليّة.

وفي الوقت نفسه الذي كان يتابع فيه دراسته الثّانوية واصل خارج المعهد وفي أوقات فراغه دراسة اللّغة العربيّة فكان يكثر من مطالعة الكتب المختارة. ومنذ ذلك الوقت شرع في كتابة المقالات ونظم الشعر وقد رحبت الصّحف والمجلات التي كانت تصدر آنذاك بتونس بكتاباته. وكان يرسل إنتاجه إلى الصّحف دون ذكر اسمه لكنّ شخصيّة هذا الكاتب الشّابّ سرعان ما انكشفت.

وقبل بوصفه مترجما بارعا العمل مع البارون ديرلانجي الذي كان في ذلك العهد بصدد جمع الوثائق اللاّزمة لتأليف كتابه تاريخ الموسيقى العربية فكان أحد مساعديه على إنجاز ذلك العمل الدّقيق.

وانضمّ سنة 1917 إلى النّادي التونسي، وقد كان يتردّد على نادي الشاعر مصطفى آغة وغيره من النّوادي الأدبية بتونس ومنها نادي جمعيّة قدماء الصّادقيّة.

وكان الضّيف المبجّل في كلّ النوادي لما عرف به من طرافة في الحديث وبراعة في إلقاء القصائد سواء أكانت قصائده أم قصائد غيره من الشعراء. ونظم الخلصي كثيرا من القصائد، كما نقل إلى اللّغة العربية نظما عدّة قصائد لشعراء فرنسيين منها قصيدة لامرتين «البحيرة».

وأقدم على تعريب رواية أليكسندر دوماس الابن غادة الكاميليا لكنّه لم يتمّ هذا العمل.

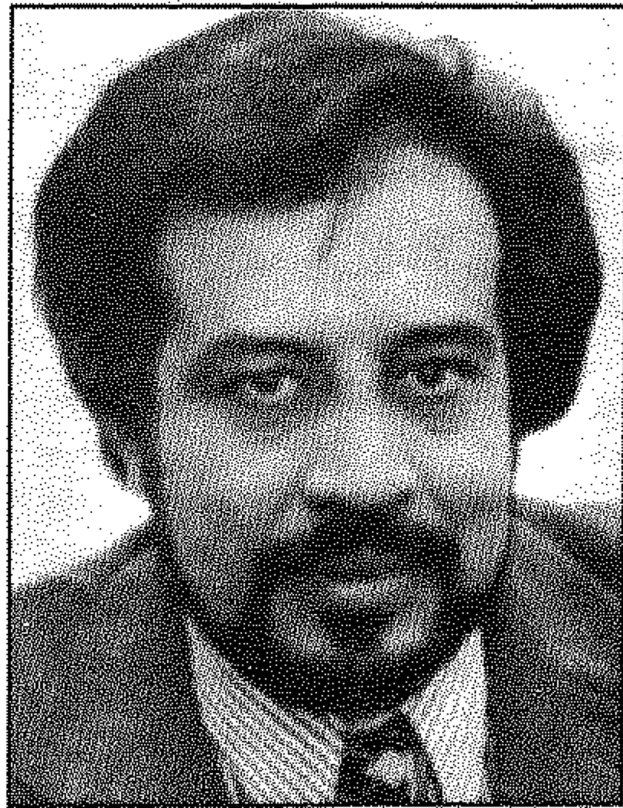
وكان يراجع المسرحيّات التي تقرّر الفرق المسرحيّة التّونسيّة تقديمها ويدخل عليها بعض التّغييرات.

وفي تلك الفترة بالذات تعلّق الخلصي بالمطربة حبيبة مسيكة التي تألّقت في سماء الفنّ التّونسي فأصبح من أوّل المدعوين إلى حفلاتها العموميّة أو الخاصّة.

وفي آخر العشرينات تحوّل السعيد الخلصي إلى المغرب الأقصى مدّة من الزّمن واستقرّ بالدّار البيضاء حيث باشر مهامّ مترجم عدلي.

وفي سنة 1947 عرض عليه مصطفى الكعّاك رئيس الحكومة التّونسية في ذلك العهد منصبا هامّا في ديوانه فقبل العرض وعاد إلى تونس حيث شغل هذا المنصب إلى سنة 1950.

وتوفّي محمّد السّعيد الخلصي في ديسمبر 1962.



عمر خلفه
[1938 – 1986م]

ولد عمر خلفه في 20 جانفي 1938 بالعاصمة ودرس بالمعهد العالي للتّمثيل. كانت بداية

مسيرته الفنيّة مع فرقة بلدية تونس للتّمثيل إذ قام ببعض الأدوار في المسرحيات التي أنتجتها هذه الفرقة في أواخر الخمسينات، واشتغل بعد ذلك بوزارة الثّقافة مكلّفا بقطاع المسرح، ثم عهد له بمهمّة إدارة الفرقة الجهوية بالقيروان.

وفي سنة 1961 كان انضمامه إلى الفرقة التمثيليّة بالإذاعة الوطنيّة ممثّلا ومنتجا ومخرجا.

ارتبطت حياة الفنّان المسرحي والممثّل البارع عمر خلفه بحقبة مهمّة من تاريخ المسرح والدراما التّلفزيّة في تونس. أسهم في إشعاع الطّاقات الفنيّة التونسيّة خارج حدود الوطن بمشاركته المتميّزة في الشّريط السّينمائي التاريخي «القادسيّة» الذي أخرجه صلاح أبو سيف بتقمّصه دور «القعقاع»، إضافة إلى الدّور الرّائد الذي جسّد فيه للتلفزة التونسيّة شخصية «الواثق بالله الحفصي» وذلك في إطار مسلسل أخرجه حمّادي عرافة.

ومن أبرز مشاركاته تمثيله أدوار لسان الدفاع في سلسلة الأشرطة التّلفزية المتميّزة «القضيّة رقم...» التي أخرجها للتلفزة الهادي بسباس، وكذلك في أشرطة «محكمة وبعد» التي أخرجها عبد الرّزاق الحمامي.

وفي مجال الإنتاج السّينمائي كانت له مشاركة في شريط «حكاية في منتهى البساطة» لعبد اللطيف بن عمّار و«غدا» لابراهيم باباي.

وعُرِفَ الفنان عمر خلفه بحبّه للعربيّة الفصحى وميله إلى اعتمادها لغة أساسيّة في المسرح والدّراما التلفزية على الأخصّ، كما عُرِفَ بحذقه لأداء أدوار تجسد حياة عظماء الحضارة العربية الإسلاميّة.

توفي عمر خلفه عام 1986.

عبد الرحمان خليف
[1917–2006 م]

هو الشيخ الفقيه عبد الرحمان بن علي خليف ولد بالقيروان في 5 شعبان 1335 هـ الموافق لـ 27 ماي 1917، في بيت متواضع قريب من جامع عقبة بن نافع ومن أسرة لم يكن لها شأن علمي يذكر، إذ كان أبوه نجارا في سوق السكاجين قرب مسجد الفال بالمدينة العتيقة، لكنّه كان حريصا على تعليمه القرآن الكريم، فحفظه كاملا سنة 1931 ولم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره وذلك عن مؤدبه المرحوم عليّة بن غانم، وكانت تلك عادة أهل القيروان في إيفاد أبنائهم إلى الكتاتيب منذ حداثة سنّهم.

التحق بجامع عقبة إذ أخذ مبادئ العلوم الشرعية واللغة عن المشايخ محمود صدّام وهو وقتئذ الإمام الخطيب الأوّل بالجامع وكان يدرس الفقه، وعن الشيخ الهادي بن محمود مادّة النحو وعن الشيخ محمّد ابن الحاج عمر العلاني مادّة الفقه، واللغة عن الشيخ المفتي صالح الجودي وعن الشيخ محمد الباجي مادة التجويد وكذلك عن الشيخ عبد الملك ولد فرحات.

ولم تكن الدراسة نظامية بالجامع فقد كان هؤلاء المشايخ يتولّون التدريس بطريقة شبه تطوعيّة تصرف لهم مقابلها منحة من ريع الأحباس المخصّصة لمدرسي الجامع التي ترعى شؤونها جمعيّة الأوقاف بالقيروان برئاسة أمينها العدل الشيخ محمد طراد الذي كان يتولى بدوره سير هذه الدروس، وصادف أن توفّي الشيخ عبد الملك ولد فرحات فاقترح الشيخ محمد طراد تعويضه بتلميذه الشيخ عبد الرحمان خليف بعد أن أنهى السنتين الأولى والثانية ليتولّى تدريس مبادئ علم التجويد بالجامع، ولم يكن هذا التعويض مجاملة للشيخ خليف وقتئذ ولكن لما لمسه الشيخ محمد طراد من نجابة في هذا الشاب كما لم يمنعه ذلك من إجراء مناظرة داخليّة في الغرض فاجتازها بنجاح.

في سنة 1932 التحق بجامع الزيتونة بالعاصمة حيث أحرز شهادة الأهليّة سنة 1936 والتحصيل في القراءات سنة 1938 والتحصيل في العلوم سنة 1940 ثمّ العالميّة في القراءات سنة 1942 فالعالميّة في الآداب العربيّة سنة 1944 التي اجتاز بموجبها مناظرة الإجازة في التدريس بالزيتونة فنجح مدرّسا بالجامع الأعظم سنة 1944.

منذ سنة 1944 شرع في تدريس القراءات واللغة العربيّة بجامع الزيتونة وكان في البداية متهيّبا من هذه الخطة لأنه كلما التفت يمنة ويسرة رأى أعلاما كانوا مشايخه بالأمس وأضحوا زملاءه اليوم ضمن هذه الحلقات المتناثرة بفضاء الزيتونة، ولكن ثقته بنفسه واعتداده بما اكتسبه من زاد معرفي هوّنا عليه الموقف.

ظلّ يدرّس بجامع الزيتونة ويقطن بحمام الأنف، وشاءت الأقدار أن يتعرّض في جويلية سنة 1952 إلى حادث مرور في منطقة عين دراهم في أثناء رحلة ترفيهيّة، ألزمه الفراش بضعة أشهر، وكان قد توفي في تلك الحادثة زميله المرحوم الشيخ الأمجد قدية أحد أعلام القيروان، وبعد أن تعافى من مرضه تقدم إلى العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور شيخ الجامع الأعظم بطلب نقلته للتدريس بالفرع الزيتوني بالقيروان وذلك سنة 1952.

استجاب الشيخ ابن عاشور لطلبه وتحوّل إلى القيروان ليبدأ مرحلة جديدة من حياته كانت مليئة بالأحداث، فباشر التدريس بالفرع الزيتوني الذي كان يديره المرحوم الشيخ يوسف بن عبد العفوّ واستمرّ في التدريس إلى أن انتقلت إليه إدارة الفرع سنة 1956، وتزامن ذلك مع استقلال البلاد وما طرأ على أنساق الحياة من تحوّلات سياسيّة واجتماعيّة وفكريّة تسارع بعضها ليمسّ إحدى قلاع العلم التي ساهمت في تأصيل الكيان التونسي وهي جامع الزيتونة، إذ رأى فيه بعض رموز الحداثة آنذاك أداة شدّ إلى الماضي فكان قرار غلقه وغلق جميع فروعه. وتهيّأت البلاد لمرحلة تعليميّة عصريّة الأداة والمنهج حداثيّة الجوهر والمحتوى، وما كان ذلك ليرضيَ شيوخ الزيتونة الذين رأوا في غلقه بداية النهاية لمجد وعراقة وريادة سينفضّ بزوالها من حولهم مريدوهم وتتهاوى مكانتهم في المجتمع...

أنكرت طائفة من الشيوخ قرار إغلاق جامع الزيتونة وفروعه واستبدال برامج التدريس ومناهجها المألوفة ببرامج ومناهج جديدة ورأت فيها تجفيفا لمنابع طالما كرعت الأجيال المتلاحقة من مناهلها.

وكان الشيخ خليف من أولئك الرافضين الذين تنامى سخطهم على ما حدث خاصّة بعد أن أُنتزعت منه إدارة الفرع الزيتوني بالقيروان ليجد نفسه في سنة 1960 مدرّسا في فضاء عصري جديد يسمّى الحيّ الزيتوني يديره أحد خريجي السربون ببدلته الإفرنجيّة.

هذا داخل الفضاء التعليمي. أمّا خارجه فبعد أن عاد للتدريس بالقيروان حصل على أمر عليّ سمّي بمقتضاه إماما خطيبا ثانيا بجامع عقبة سنة 1955 إلى جانب الإمام الخطيب الأوّل الشيخ الطاهر صدام، وقام الشيخ خليف بمعيّة زميليه الشيخ صالح البحري والشيخ الطيب الورتاني بتنشيط الجامع بإملاءات قرآنيّة ودروس في العقيدة والفقه، أقبل عليها الكثير من أهالي القيروان، واستمرّت هذه الأنشطة في جوّ لا يخلو من التوتّر مع السلطة الجهويّة آنذاك. وكان يمكن للتوتر أن يظلّ كامنا في نفس الشيخ خليف وبعض مريديه لولا وصول الأمر إلى ما تمّ اعتباره انتهاكا لحرمة جامع عقبة !حدث ذلك عندما حصلت إحدى الشركات السينمائية الإيطالية على ترخيص لتصوير لقطات من الجامع استوجب تعطيل بعض أوقات الصلاة وما ترتب عن هذه اللقطات من انتهاك لحرمة المسجد بدخول بعض الدواب وما إلى ذلك من تصرّفات رأى فيها المصلّون اعتداء صارخا على المقدسات والمشاعر الدينيّة.

وفي صبيحة يوم الأحد 15 جانفي 1961 اتّصل الشيخ ببرقية من وزارة التربية تعلمه بقرار نقلته

للتدريس بالحامة في ولاية قابس. كما انتدب بعد ذلك لخطّة متفقد للتربية الإسلامية سنة 1968 في بعض معاهد ولايات الوسط والجنوب الغربي.

عاد الشيخ إلى القيروان ليستأنف الخطابة في جامع عقبة وليستأنف كذلك الإملاءات القرآنيّة والدروس. وبدأ الجامع يسترجع أنفاسه وتلتفّ حول الشيخ عناصر جديدة من الشباب والمثقفين ليستفيدوا من دروسه وخطبه. وكان قد توفّي الإمام الأوّل الطاهر صدام فانتقلت إليه الخطّة عن جدارة واستمرّ خطيبا من على منبر سحنون بن سعيد إلى 28 أكتوبر 2005 تاريخ آخر خطبة جمعيّة في حياته.

كانت هذه المرحلة من حياته مرحلة الانفراج وتجاوز الشدائد وقد عيّن عضوا بالمجلس الإسلامي الأعلى بتونس سنة 1988 ثمّ تم اختياره فيما بعد ليكون من ممثلي القيروان في مجلس النواب سنة 1989.

توفّي في عصر يوم الأحد 17 فيفري 2006 ليدفن في مقبرة قريش صبيحة يوم الاثنين 18 فيفري في جنازة مهيبة شيعه فيها جمهور غفير من القيروان وخارجها.

مؤلفاته:

صدر للشيخ عبد الرحمان خليف مجموعة من الكتب وهي:

1ـ كتاب كيف تكون خطيبا؟، طبع مرّتين الأولى بالسعودية والثانية بلبنان.

2ـ كتاب أين حظّ الإسلام من لغة القرآن؟، طبع بالكويت.

3ـ كتاب ترتيب مناسك الحج، طبع بتونس.

4ـ كتاب التربية من الكتاب والسنّة، بمشاركة أستاذين، طبع بالعراق وقرّر للتدريس بتونس.

5ـ كتاب العقيدة والسلوك، بمشاركة أستاذين، طبع بتونس وقرّر للتدريس.

6ـ كتاب مشاهد الناس عند الموت، طبع بمصر مرتين.

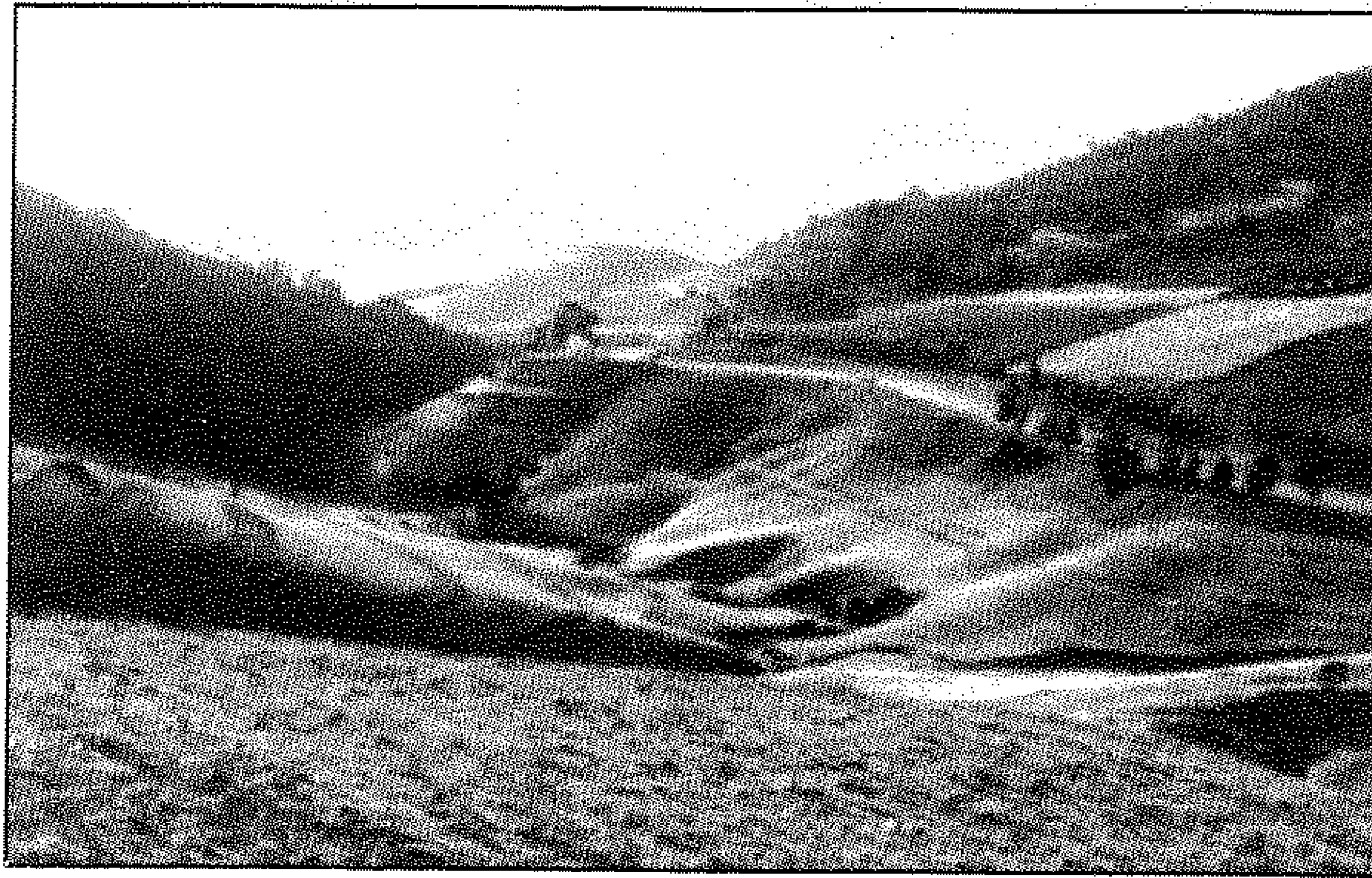
7ـ كتاب مشاهد الناس بعد الموت، طبع بتونس.

8ـ كتاب آفاق الصيام في الإسلام، طبع بتونس.

9ـ كتاب من مشاهد الصحابة رضي الله عنهم، مهيّأ للطبع.

كما نظّم عبد الرحمان خليف مجموعة من القصائد الشعرية ذات مسحة دينية يعالج بعضها قضايا اجتماعية محليّة وإسلاميّة وقصائد رثائيّة ومدحيّة، فضلا عن نظّم بعض القطع في شكل ابتهالات وهي كلّها كانت مهيّأة للنشر في ديوان شعري.

خمير



خُمَير (أو خميْر، كما ينطقها الأهالي باللّهجة المحلية) هو اسم قبيلة تونسيّة سمّيت باسمها السّلسلة الجبلية الممتدّة على ساحل البحر بالشمال الغربي من البلاد. وجبل خمير ومنطقته هما جزء من ولاية جندوبة التي تمسح 3000 كلم مربع. وكتلة جبال خمير، التي هي امتداد بالبلاد التّونسيّة لسلسلة الأطلس التلّي مكوّنة من تجاعيد من الحثّ كبيرة التفاوت والفروق بين جبال وأهواد، ومتجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وتوجد بين طرفي هذه الكتلة الجبليّة، اللّذين يفصل بينهما منخفض غزوان الكلسي والمفتوح للزّراعات، فروق محسوسة رغم وحدة هذه المجموعة. فمنطقة خمير

الغربية يبلغ أقصى ارتفاعها بجبل الغرة علو 1202من الأمتار. أمّا المنطقة الشرقية وهي عسيرة المدخل وعرة المسلك رغم تواضع ارتفاعها فإنّها تبلغ 1014 مترا في أعلى جبالها، جبل البير، الذي يشرف على مدينة عين دراهم. وإنّك لترى حيثما توجّهت جبالا عميقة الأخاديد ووهادا وعرة المنحدرات تضفي مظهرا بريّا على كامل هذه الجهة المكسوّة بغابة تمسح 47000 هكتار، سبعة أعشارها من شجر بلّوط الفلين، وعُشُران منها من شجر الزّان، والعُشُر الأخير أشجار متنوعة منها الزيتون البرّي. وأمّا نبت الحراج تحت الأشجار فيتكون غالبا من السّرخس. وقد أدخلت منذ عهد قريب أنواع أخرى من الأشجار إلى المنطقة مثل شجر صنوبر البندق. ومعدّل نزول الأمطار بمنطقة جبل خمير هو أعلى معدّل بالبلاد التّونسيّة إذ يبلغ مترا كاملا في السنة، مع حد أقصى بعين دراهم في مستوى 1575 مم.

ورغم وفرة الأمطار وأهمية نزول الثلوج نسبيا فإنّ هذه المنطقة الجبلية تشكو نقصا في المياه. فالعيون كثيرة لكنّها شديدة التشتّت وقليلة الغزارة في الغالب، بل إنّ بعض العيون يغور ماؤها تماما في فصل الصيف.

وفي العهود القديمة لم تبق منطقة جبل خمير بمعزل عن توغّل الرومان ونفوذهم. وكانت تشقّها ثلاث طرق. ففي اتجاه الطول الطريق الرابطة بين قرطاج وهيبورجيوس (Hippo Regius) التي أصبحت تسمّى بونة ثمّ عنابة حاليا، مرورا بهيبو دياريتوس (Hippo Diarhytus) وهي بنزرت حاليا. وفي اتجاه العرض الطريق التي تصل بين سيميتو (Simitu)، وهي شمتو الحالية وطبراقا (Thabraca) أو طبرقة وقد اكتشفت عدّة بقايا من هذه الطريق. ثمّ الطريق التي تخرج من (Vaga) وهي باجة الحالية لتوافي مدينة طبرقة نفسها عبر تريسيبا. وقد كانت طبرقة في أول عهدها مصرفا تجاريا ساحليا للقرطاجيّين ثمّ أصبحت ابتداء من القرن الرابع واحدة من أغنى أسقفيات إفريقيا وكانت تزوّد روما بمنتجات المنطقة مثل خشب البناء والوحوش وكذلك الزيت والقمح والمواد المنجمية. وكانت "مدينة ترف، للفن فيها منزلته إلى جانب الأعمال التجارية" (كما يقول عنها ب. غوكلار في كتابه فسيفساء، ص 155) وقد قدّمت إلينا لوحات فسيفساء زاخرة بالفنّ والجمال.

ومن الغريب أنّ منطقة جبال خمير لم يكن لها ذكر في أحداث التاريخ ولم تلفت الانتباه طوال العصر الوسيط كلّه، وعلينا أن ننتظر العصور المتأخّرة وخاصة منها الحقبة المعاصرة لنرى هذه المنطقة تدخل في التاريخ، فتبرز لنا موطن هروب واختباء ومركز مقاومة في الوقت نفسه، خارج تماما أو يكاد عن سلطة حكّام تونس.

وكان لأهالي خمير علاقات وديّة مثمرة بالصيّادين الجنويّين المستقرّين، منذ سنة 947هـ/1540م، بجزيرة صغيرة مساحتها 40 هكتارا يفصلها عن طبرقة مضيق بحري عرضه 500 متر. لذلك تأثّروا بشدّة عندما قام علي باشا سنة 1153هـ/1740م باسترجاع هذه الجزيرة عنوة (ابن أبي الضّياف، الإتحاف، ج2، ص 124). وفي سنة 1183هـ/1769 ـ 1770م التفّ أهالي خمير حول الدعي عثمان الحدّاد، الذي بُوغت وأُسّر بعد ذلك ثمّ قُتل (المصدر نفسه، ج 2، ص 165). وفي سنة 1260هـ/1844م، ساندوا دعيا آخر كان يزعم أنّه من ذريّة عثمان باي. وقد وقع هو الآخر في الأسر بالحيلة وضرب عنقه، (نفس المصدر، ج 4، ص 78 ـ 79 نشر أحمد عبد السلام، ص 116 ـ 117). وفي سنة 1282 هـ/1865م، قام علي باي، على رأس "المحلّة" المكلّفة بجمع الجبايات، باستنزاف كلّ ما يملكه أهالي منطقة باجة، لكنّه لم يجرؤ على الإقدام على دخول منطقة جبل خمير التي لم يدفع أهاليها المجبى إلاّ في حدود ما ارتضوه ووافقوا عليه (ابن أبي الضيّاف، المصدر المذكور، ج4، ص 55، 65) لكنّ جبل خمير لم يشارك في انتفاضة سنة 1864، إذ لم تشعر

المنطقة أنّها معنيّة بهذا الأمر، ولا في اضطرابات سنة 1867 ـ 1868.

ولم تحتلّ المنطقة فجأة مقدّمة الأحداث إلاّ سنة 1881. ونظرا إلى أنّ عامل طبرقة الراجع إليه أمرهم مبدئيا لم يكن له عليهم أي نفوذ حقيقي، فقد قررت السلط الفرنسيّة، في نطاق سياسة تنافس الكثير من الدول الكبرى، أن تقوم برد الفعل. وشرع الفرنسيّون في شنّ العملية التي آلت إلى انتصاب حمايتهم على البلاد التّونسيّة. ففي 24 أفريل 1881 اقتحمت الجيوش الفرنسيّة التراب التّونسي، وبعد يومين احتلّت هذه الجيوش مدينة الكاف دون قتال، وفي 13 ماي جاء دور عين دراهم، ثمّ شتّت الجيش الفرنسي في اليوم الموالي جموع بني خمير بموقع ابن مطير إثر معارك شديدة.

أمّا عن أصل سكّان جبل خمير فإنّا لا نملك أيّ معلومات دقيقة أو ثابتة. ولا نعثر على لفظة خمير في أيّ نصّ من كتابات العصر الوسيط. وفي العهد الذي ألّف فيه ابن خلدون، تاريخه أي القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م، كانت المنطقة الممتدة بين باجة والبحر آهلة بالبربر من قبيلة هوارة، وقد تعرّبوا تماما بمن اختلط بهم من العناصر العربيّة الأصلية، ولا سيما بعض بني هذيل (كتاب العبر ج 6 ص ـ 288 ـ 289، ترجمة دي سلان، البربر، ج 1 ص 279).

وبنو خمير يشكّلون عند المؤرّخ لغزا مبهما يتعذّر حلّه، فهم لا يظهرون إلاّ في القرن التّاسع عشر، ولا نكاد نجد عنهم مع ذلك في الوثائق الرّسميّة سوى بعض الإشارات العابرة بمناسبة نهبهم أجوارهم في السهول أو عند محاولة "محال" الجيش إرغامهم على دفع الجبايات، لكن دون جدوى. فمن هم هؤلاء الناس؟ أما هم أنفسهم فينتسبون إلى العرب. وإنّه يوجد فعلا باليمن منبع ماء يسمّى خميرا (ياقوت، البلدان، ج2، ص 390، ج3، ص 406) كما توجد قبيلة قحطانية تدعى بني خمر (القلقشندي، النهاية ص 247) وقد يكون خمير تصغيرا لها. وتقول الأسطورة أيضا إنّهم ينحدرون من رجل يدعى خميرا بن عمر، وهو أحد مشاهير أصحاب عقبة بن نافع فاتح المغرب، ويقال إنّ أحد أولاد خمير هذا، وهو سيدي عبد اللّه أبو الجمال، قد أنهكه الجهاد في سبيل اللّه فاعتزل بقلب منطقة الجبال فوق نجد عال يبعد حوالي 5 كيلومترات في اتّجاه الجنوب الغربي من عين دراهم، وانتظر حتّى أدركه الموت هناك. وقد أقيمت "زاوية" بذلك المكان مازالت تخلّد تلك الأسطورة وتقوّي اللّحمة بين بني خمير في إكبارهم وإجلالهم شبه الكامل لوليّهم الصالح وجدّهم المفترض. وفي رواية أخرى يكون بنو خمير قد أقاموا أول الأمر بجنوب البلاد التّونسيّة حيث كانوا أتباعا لشابيّة القيروان، وفي أثناء القرن الثامن عشر اضطروا إلى الهجرة نحو الشمال والنزول بالمنطقة الجبلية التي أصبحت تسمى باسمهم. وينقسم بنو خمير إلى عدة عروش وبطون أهمّها بالجهة الشرقيّة من منطقة جبل خمير: أولاد عمر والحوامديّة وأولاد بن سعيد والسعاديّة والوراهنيّة والطواجنيّة بجهة طبرقة. وسلول وهذيل وأولاد مسلم والخرايصيّة والجدايديّة والجوابليّة والملايكيّة وأولاد موسى وأولاد هلال والحمران والدبابسة وخصوصا العطاطفة بجهة عين دراهم. والقواديّة والتباينيّة والشيحيّة بجهة فرنانة. أمّا بالجهة الغربية من المنطقة فيوجد من البطون بنو مازن وأولاد علي والخزارة والمراسن ووشتاتة. ومن العبث أن نحاول التمييز بين العرب والبربر في هذه القبائل. وفعلا فإنّ سكّان هذه المنطقة الجبليّة هم خلاصة تمازج طويل وعميق بين أجناس وعناصر مختلفة، يرجع إلى أوّل العهد الوسيط أو إلى ما قبل ذلك. وقد عجل في حصول هذا التمازج دون شكّ زحف بني هلال في أواسط القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م، ثمّ بني سليم في أوائل القرن السابع هـ/ الثالث عشرم. وتجدر الإشارة إلى أنّ لهجة التخاطب العربيّة الحاليّة لا تشتمل على أي أثر من اللّغة البربريّة وإنّنا نعثر

أحيانا على خيمة من خيام الرّحل منصوبة في قلب الجبال، وفي ذلك ما فيه من الغرابة.

أمّا الرحّالة والمهتمّون بوصف البلدان والأقاليم من كتّاب العصور الوسطى فلم يخط جبل خمير في حدّ ذاته لديهم باهتمام خاص، وإنّما تحدّثوا خصوصا عن الطرقات والمسالك. أمّا ابن حوقل، وقد زار المغرب في آخر النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فهو يذكر أنّ "الجادّة" بين تونس وطبرقة تمرّ بباجة (صورة الأرض، ص 76) ويذكر البكري، الذي كان يكتب في أواسط القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م، أن الطريق بين باجة وطبرقة مقسّمة على ثلاث مراحل مرورا بباسلي ودرنة (المسالك 86 ـ 87/ 120 ـ 121)، ويشير الإدريسي (أواسط القرن السادس هـ/الثاني عشر م) إلى وجود طريقتين بين تونس وطبرقة، الأولى تمر ببنزرت والأخرى تتفرع عند باجة (النزهة 84 ـ 85). ومن البديهي أن هذه الشبكة تتبع من قريب الطرقات والمسالك الموروثة عن العصور القديمة.

ونحن لا نملك أيّ معلومات مدقّقة عن المدن أو القرى بجبل خمير طوال العصر الوسيط بأكمله. وأقصى ما يمكن أن نقوم به هو متابعة التطور الذي حصل في مدينة طبرقة. وقد سبق أن رأينا أنّها ازدهرت على نحو لافت في العصور القديمة. وفي القرن الرابع هـ/ العاشر م، أضحت طبرقة بشهادة ابن حوقل إحدى المحطات الأساسيّة في الطريق البحري الرابط بين الأندلس والمشرق (المصدر المذكور، ص 76). وفي القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م، يشير البكري إلى وجود آثار ضخمة من معالم تعود إلى العصور القديمة مازالت ماثلة بالمدينة التي احتفظت ببعض الازدهار الناتج عن نشاط مينائها. أمّا في القرن السادس هـ/ الثاني عشر م، فإنّ الإدريسي يؤكّد لنا أنّها لم تعدّ سوى حصنٍ قليل الساكن يحيط بها البدو. وفي خاتمة المطاف أصبحت المدينة في أوائل القرن السادس عشر مجرّد "ميناء مقفر" (حسبما يذكره الحسن بن محمد الوزّان الفاسي المعروف بليون الإفريقي في كتاب وصف إفريقيا ص549). أمّا اليوم فإنّ طبرقة ميناء يصدّر بالخصوص إنتاج منطقة جبل خمير من الفلّين (من 3 إلى 4000 طن سنويا). وتعيش المدينة كذلك من الصيد البحري ومن استغلال المرجان ـ ولو بقدر محدود ـ كما أنّها استفادت من النهضة السياحية للبلاد التّونسيّة.

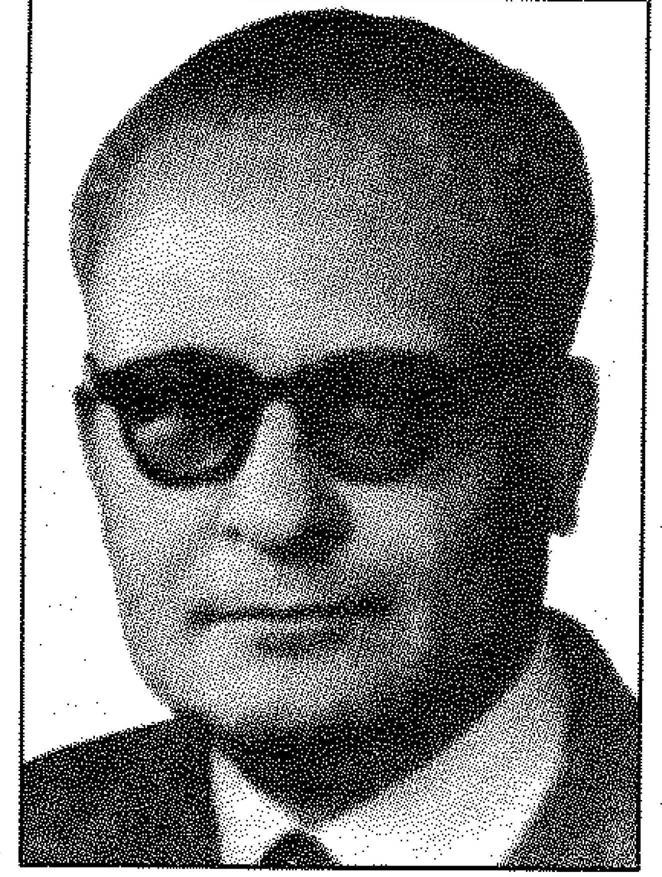
وأهمّ التجمّعات السكنيّة بمنطقة جبال خمير هي مدينة عين دراهم على ارتفاع 800 متر، وهي محطّة اصطياف. أمّا فرنانة وارتفاعها 275 مترا فهي بالخصوص مركز لسوق أسبوعيّة. وببّوش ليست سوى قرية حدوديّة على طريق المرور إلى البلاد الجزائريّة.

أمّا ابن مطير فإنّها قرية صغيرة متواضعة بُني بالقرب منها سدّ على وادي اللّيل سنة 1955 لتوليد الطاقة الكهربائية وتزويد مدينة تونس بالماء. وأقيم سدّ آخر على مجرى الوادي الكبير.

وبالرّغم من الجهود المبذولة في سبيل تجميع السكّان فإنّ السّكن بقي في الغالب متّسما بالتّشتّت بحسب عيون المياه ومواقع الضيعات الزراعية الصغيرة.

وفي الحقيقة فإنّ منطقة جبال خمير منطقة فقيرة تقتصر على تعاطي اقتصاد أساسه الغابات والمراعي. ومستوى العيش بهذه المنطقة هو من أشدّ المستويات انخفاضا بالبلاد التّونسيّة. وأهمّ مورد لهذه الجهة ناتج عن تسويق الفلين، كما توفّر زراعة التبغ أيضا موارد لا بأس بها. أمّا تربية الماشية من بقر وغنم وماعز فإنّها لم تتطوّر، ولا توفّر سوى دخل ضعيف. هذا وإنّ الجهود المبذولة لتحسين غراسة الأشجار المثمرة بجعل أشجار التفّاح والإجّاص والكرز تتأقلم مع مناخ المنطقة لم تؤدّ إلاّ إلى نتائج محدودة جدّا. أمّا إنتاج الصناعات التّقليديّة المحليّة مثل زربية خمير ذات اللّون الأبيض والأسود والرملي،

وبعض الأدوات من الخشب لوضع الأطعمة وتناولها، والتطريز الخاص بالمنطقة فإنّه غير مرغوب فيه خارج الجهة ولا يشغّل إلا يدا عاملة قليلة. ولا بدّ من الإشارة أخيرا إلى أنّ المياه المعدنيّة الساخنة الكبريتيّة النابعة ببرج الحمّام والمشهورة منذ العصور القديمة بخصائصها العلاجية الطبيّة، قد كانت منطلقا لإقامة محطة معدنيّة عصريّة بجانب آثار عتيقة، أطلق عليها اسم حمّام بورقيبة. وهذه المحطّة التي وسّع فيها سنة 1973 أصبحت تجلب عددا متزايدا من الزوّار والروّاد التونسيّين.



الطاهر الخميري
[1899–1973م]

ولد الطّاهر الخميري سنة 1899 بالعاصمة التّونسية حيث تلقّى دراسته الابتدائيّة بكتّاب سيدي البنّاني في حيّ باب سويقة ثم التحق بالجامع الأعظم، وكان من ضمن تلاميذ المدرسة الخلدونيّة عندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها. وأهمّ ذكرى ردّدها عن هذه الحقبة في حياته إعجابه ببعض معلّميه لا سيما منهم محمد الأصرم (1858–1925) الذي قدّم بحوثا تتعلّق بالتّربية والتّعليم في "مؤتمر المستعمَرات" المنعقد بمرسيليا من 5 إلى 9 سبتمبر 1906 و"مؤتمر شمال إفريقيا" المنعقد بباريس من 6 إلى 8 أكتوبر 1908.

وإثر الحرب سافر الطّاهر الخميري إلى المغرب الأقصى حيث استقرّ بمدينة طنجة، تلك المدينة التي تركت في نفسه أكبر الأثر لأنّها لقّنته أوّل درس في الحياة العملية ألا وهو الاعتماد على النّفس. فبدأ كفاحه العلميّ بتعلّم اللغة الإنقليزية حتى حصّل منها على ما يؤهّله للالتحاق بإحدى الكلّيات. وعندئذ ارتحل إلى إنقلترا وتابع دراسته بها. وفي مطلع الثّلاثينات، قدم مصر حيث شغل خطّة مدرّس بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. وهناك تعرّف إلى ثلّة من الأدباء والشّعراء كزميله بالجامعة عندئذ الأستاذ حسن الزيّات والدكتور حسين هيكل والكاتب النّاقد إبراهيم عبد القادر المازني والشّاعر حافظ إبراهيم والكاتب المصلح أحمد أمين الذي ظلّ على صلة به حتى بعد مغادرته مصر.

وكانت مدّة إقامته بمصر فرصة مكّنته من إعداد كتاب عنوانه: زعماء الأدب العربي المعاصرون، نشر الجزء الأول منه بالإنقليزية إثر عودته إلى بريطانيا في أواخر عام 1930. وقرّضته كثير من الصّحف الإنقليزية والعربية وألقى الصّحفي الهادي العبيدي محاضرة عنه في "جمعية الكتّاب والمؤلّفين التونسيّين". ومن بريطانيا انتقل إلى ألمانيا حيث قضّى الجزء الأكبر من حياته في الغربة وانكبّ على دراسة علم النفس التّطبيقي وعلم الاجتماع.

وفي سنة 1936 أحرز شهادة الدّكتوراه من جامعة هامبورغ. وكان موضوع الأطروحة "مفهوم العصبية عند ابن خلدون". وفي الأثناء استكمل عُدّته المعرفية، وتعلم خاصة الكثير من اللّغات القديمة والحديثة مثل اليونانية واللاّتينية والعبرية والفارسية بالإضافة إلى العربية والإنقليزية والألمانية والفرنسية. ومن تآليفه في الألمانية، مشاركته في وضع قاموس عربي – ألماني، مطوّل في النحو العربي.

واستمرّ يدرّس بجامعة هامبورغ مدّة 17 سنة. وفي خضمّ التحوّلات التي تلت الحرب العالمية الثّانية، التحق بالمكتب العربي بلندن سنة 1946، ونشط في فرعه الخاصّ بالمغرب العربي. وكان

المصلح العربي الزعيم موسى بك العلمي قد أسّس هذا المكتب سنة 1945 وتفانى الدكتور الطّاهر الخميري في الدّعاية للقضيّة التّونسية والتّعريف بها لدى الرأي العام الأنقلوسكسوني، وكان من دُعاتها المتحمّسين. فقد كثّف اتّصالاته بمكتب الإعلام التونسي بباريس الذي أسّسه المناضل جلّولي فارس سنة 1947، وبمكتب الحزب الحرّ الدستوري التّونسي بالقاهرة، وخاصّة بالزّعيم الحبيب بورقيبة. ومن أهمّ الأعمال التي أنجزها مكتب المغرب العربي بلندن: -إصدار دورية نصف شهرية باللّغة الإنقليزية تبحث في شؤون العالم العربي والمغرب العربي - إصدار كُتيّبين: الأوّل يتعلّق بالقضية التونسية والثاني بالقضية اللّيبية سنة 1946 - الاتّصال بالصّحفيين ومدّهم بالإرشادات الكافية مباشرة عمّا يحدث بالمغرب العربي أو الاتّصال إذا أمكن بوكالات الأنباء وخاصة بمحطّة الإذاعة البريطانية- مدّ الباحثين والمؤلّفين سواء كانوا شرقيين أو غربيين الرّاغبين في دراسة المغرب العربي بما يحتاجونه من إرشادات ومعلومات - إقامة المؤتمرات الصّحفية والحفلات التّكريمية للشّخصيات أو الزعماء العرب الزّائرين لندن - الردّ على ما ينشر بالصّحافة الإنقليزية والأمريكية من الأنباء والأخبار المخالفة للواقع. وفي سنة 1948، أنشأ المكتب قسما اقتصاديا خاصّا بالمغرب العربي تضاهي أعماله ما يجري في المفوضيات العربية وغيرها من السّفارات الدّولية.

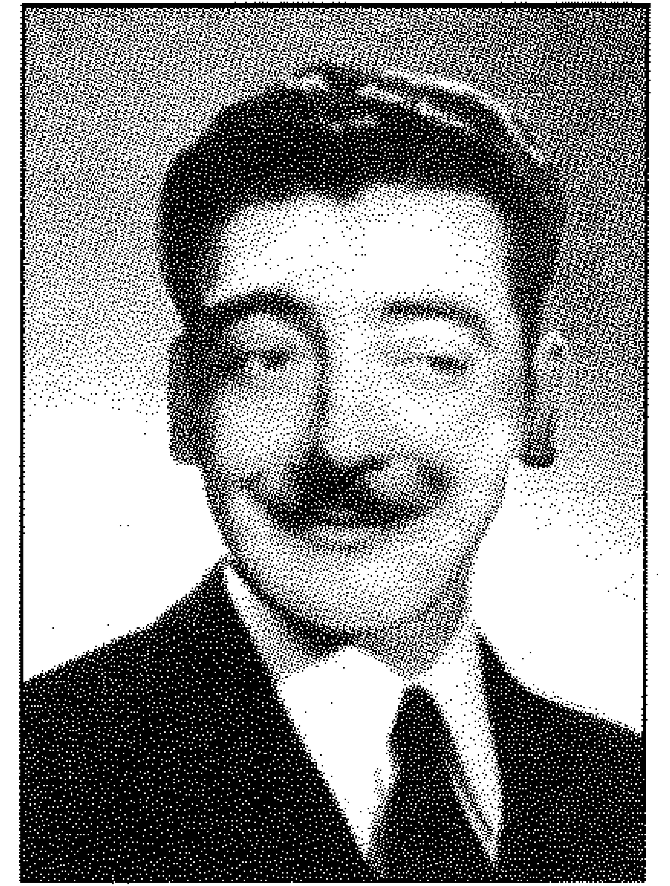
وإثر حصول تونس على استقلالها، رجع الطاهر الخميري إلى وطنه. واستقرّ فيه نهائيا حتى وافاه الأجل سنة 1973. وكانت هذه الحقبة الأخيرة من حياته ثريّة بالإنتاج في الميدان الثقافي والأدبي. فقد غطّت كتاباته مجالات متعدّدة: كتب في الثّقافة وفي المجتمع وفي اللّغة وفي النّقد الأدبي وفي الفلكلور وكتب للإذاعة، وأخرج برامج إذاعية ثمّ تلفزية. وترجم للمسرح، فكان أول تونسيّ بل مغربي يترجم من الإنقليزية إلى العربية مباشرة: من ذلك مسرحيتان من تأليف شكسبير: مسرحية "هملت" التي ترجمها للفرقة البلدية للمسرح وصدرت عن الدّار التّونسية للنّشر سنة 1968 ومسرحية "عُطيل" التي صدرت في السّنة نفسها.

وبالإضافة إلى الكتب التي نشرها بالإنقليزية أو الألمانية أو العربية، خلّف الطاهر الخميري مقالات ودراسات عدّة لا تزال متناثرة في الدوريات التونسية والأجنبية نخصّ بالذكر منها مجلة "النّدوة" الشهرية وجريدة "الشّعب". وقد حصر الباحث حفناوي عمايرية مؤلّفاته باللّغة العربية في تسعة عناوين:

- مرآة المجتمع الذي صدر بتونس ضمن سلسلة "كتاب البعث" في سنة 1956.
- مكافحة الثقافة الذي صدر بتونس ضمن السلسلة نفسها في سنة 1957، وهو كُتيّب جمع فيه مقالات تدور حول مفهوم الثّقافة عامة والثّقافة التّونسيّة خاصّة.
- الإسهام في تحقيق كتاب ابن أبي الضياف إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان.فقد كان الطاهر الخميري أوّل من اهتمّ بهذا العمل وباشره ثم التحق به آخرون حتى صدر الكتاب في 8 أجزاء، تونس، (1963-1966).
- منتخبات من الأمثال العاميّة التّونسية صدر عن الدّار التّونسية للنشر سنة 1967 جمع فيه 2470 مثلا.
- قاموس العادات والتّقاليد التّونسية نشر قسما منه من حرف الهمزة إلى حرف الزّاي. وهو بصدد التّحقيق وقيد النّشر بمجلة الفنون والتقاليد الشعبية التي تصدر عن المعهد الوطني للتراث.
- مسرحيتا "هملت" و"عطيل" التي أشرنا إليهما آنفا.
- مسرحية "أقفاص وسجون" لهارولد بنتر (H.Pinter) عرّبها وأخرجها الفنان علي بن عياد في مسرح المغرب العربي عام 1971. وكانت من

آخر أعمال الأديب الطّاهر الخميري والفنّان علي بن عياد.

– التّربية الإسلامية للسنة السّادسة من التعليم الثانوي بالاشتراك مع محمّد توفيق السلاّمي ومحمّد الحبيب السلامي، نشر المركز القومي البيداغوجي، تونس.



صالح الخميسي

[1912–1958م]

ولد الفنّان صالح بن علي بن عبد الله الخميسي بتستور في 13 ديسمبر 1912 في عائلة أندلسية انتقلت إلى تونس. اشتغل في النّجارة مختصّا في النّقش على الخشب وصناعة آلتي العود والنّاي. وانضمّ إلى جمعية الرّشيدية للموسيقى العربية سنة 1938 ليتعلم العزف على النّاي على يدي علي الدّرويش الحلبي القادم من سوريا وخلفه محمد التّريكي الذي سرعان ما ضمّه إلى الفرقة عازفا وفكاهيا بارعا في المعارضات الغنائية وتقليد الفنّانين والمذيعين. وفي السّنة نفسها التحق بالإذاعة حيث توطّدت صلته بأشهر الأدباء والشّعراء من جماعة «تحت السور». وكان لعلي الدّوعاجي وحسين الجزيري أثر عميق في تطوير فنّه بما نظما له من أغان وأزجال ليلحّنها ويغنّيها ثمّ أصبح يؤلّف لنفسه أغاني اشتهرت لموافقتها أذواق مختلف الفئات وتعبيرها عن أزمة جيل همّشته شواغل الحياة ومظالم الاستعمار ومآسي الحرب العالمية الثانية، بأسلوب مضحك مبك، ساخر ناقد، خاصّة إذا كان الموضوع مستمدّا من حياته الشّخصية القلقة في البيت والحانة والسّجن.

وإلى جانب الفنّ كان مولعا بالرّياضة والكشّافة، لذلك انخرط سنة 1928 في جمعية «الزيتونة الرياضية» في فرع العدو الرّيفي. وانضمّ إلى جمعية «الكشّاف المسلم التونسي» إبّان تكوّنها سنة 1933. ثم أسّس سنة 1938 جمعية «الهلال الكشفي» وتولّى قيادة فريق العدو الرّيفي بها. وكان هنا وهناك شخصية محورية، تحظى بالإعجاب والتّشجيع، لما تميّز به من روح مرحة وملكة بارعة في الفكاهة والتّقليد غناء وتمثيلا، حتّى أحرز ثلاثة عشر وساما، أهمّها وسام الفكاهة الموسمي.

وبسبب نقده السّياسي سنة 1955 سجن فاعتلّت صحته وألّف أغنيته الشهيرة «في بودفّة»، كما حرمت الإذاعة عليه وعلى أغانيه إثر تهكّمه بسكاتش «الراديو»، فالتجأ إلى بيع الفحم وغنّى:

«تدوير الدّم ولا الهمّ
مِ الفنّ لخدمة الفحم»

ولئن توفي إثر مرض عضال يوم 10 جويلية 1958 عن سنّ دون السادسة والأربعين، وهو في أوج العطاء، فإنّ ما تركه، وخاصة أغانيه المسجّلة القليلة من جملة ثلاثمائة أغنية تقريبا يؤكّد أنّه رائد الأغنية الفكهة في تونس، وعامل من عوامل ازدهارها من الثّلاثينات إلى ما بعد الاستقلال. لم يكن مجرّد مغنّ، بل كان فنّانا كاملا متعدّد المواهب، يؤلّف ويلحّن ويغنّي ويعزف. ولأنّه كان لسان الشّعب والوطن وناقد



الأحوال سيظلّ إبداعه الأصيل خالدا بين الأجيال، صالحا للغد مثلما كان هادفا بالأمس.

علي خوجة
[1947–1991م]

هو رسّام تونسي ولد بالمهدية سنة 1947 وتوفّي بها سنة 1991. وبعد دراسته الثانويّة بالمعهد الصّادقي بتونس، اتّجه سنة 1965 إلى مدرسة الفنون الجميلة بتونس ثمّ سنة 1968 إلى الأكاديميّة الملكيّة للفنون الجميلة والمعهد العالي للهندسة المعماريّة بلياج، بلجيكا، ليتمّ دراسته الفنيّة هناك. وهكذا، كان لعلي خوجة تكوين مزدوج. فهو متخصص في الفنّ الحديث بالأكاديميّة الملكيّة وقد حصل على المرتبة الأولى بين خريجي جيله. وهو حاصل على ديبلوم في هندسة الدّيكور الدّاخلي من المعهد العالي للهندسة المعماريّة بلياج. وقد ساعده هذا التكوين على تنمية أسلوبه الفنّي، خصوصا على مستوى التعامل مع الفضاء البصري المعيش وهندسة علاقات الشخوص بالبيئة المعماريّة التي تتحرّك فيها.

ولقد اتخذ علي خوجة من معاشرته للحياة اليوميّة بالمهدية وذاكرتها أسلوبا خاصّا وسم موضوعاته بنوع من الضبابيّة الجماليّة. وقد شرع في عرض أعماله منذ سنة 1969 ببلجيكا، حيث قدّم معارض فرديّة آخرها بقصر المؤتمرات بلياج سنة 1971. أمّا بتونس فقد قدّم منذ سنة 1973 عدّة معارض فرديّة بدور الثقافة ابن رشيق وابن خلدون والمهدية والحمامات وحمام الأنف وآخرها برواق «عين» بصلامبو سنة 1991، بعنوان «بحّار والمهدية»، كما كانت له في الثمانينات مشاركات في المعارض السنويّة لاتحاد الفنّانين التشكيليين التونسيين والمعرض السنوي للفنّ التشكيلي بصفاقس، حيث نال الجائزة الأولى سنة 1990 والمعرض السنوي للفنون بنابل، حيث نال الجائزة الثانية.

أمّا مشاركاته الخارجيّة، وفضلا عن بلجيكا، فقد عرض ببعض العواصم العربيّة منها طرابلس، كما عرض بفرنسا حيث قدّم معرضين بكلّ من الحيّ الدّولي للفنون وقاعة الأوبرا بباريس. وزيادة على ذلك أنجز مشروعات لجداريّات فنيّة في مجال الدّيكور والهندسة الدّاخليّة بتونس والنّيجر.

إنّ فنّ علي خوجة لون إبداعيّ تونسيّ بارز يجسّد علاقة الفنّان بالبيئة التي أنجبته والطّبيعة التي عاش بين أحضانها منذ الطّفولة. فجولاته التي قام بها في أوروبا وإفريقيا لم تطمس فيه عشقَه للمهدية وبيئتها الطّبيعيّة والسّوسيو–ثقافيّة، تلك التي بقيت تتسلّل أسلوبيّا بين خطوطه وألوانه، بمراوحة ذكيّة بين أكاديميّة اللغة التشكيليّة ومناخات الذاكرة اليوميّة المعيشة المفعمة بالحركيّة. وعلى هذا النحو تتأكّد لنا قيمة الحياة ويتجلّى معنى الأصالة في لوحات علي خوجة الذي رسم أبواب المدينة وأنهجها، فكان ينبعث بين لمساته ضجيج الحياة وهمس الأمواج. ورسم ليالي المهديّة وأعراسها وأفراحها، كما رسم الرّبيع بكلّ الألوان والبحرَ بالأزرق الفيروزي ومراكبَ الصّيّادين العائدين محمّلين بالبهجة وألوان الفرح.

إنّ لوحة علي خوجة المنجزة بتقنيات الرسم الزيتي وإن كانت لا تقدّم سينوغرافية الشخوص وما يحيطها على نحوٍ جليّ، تضفي عليها نوعا من الضبابيّة وخاصيّاتٍ التّشافّ الضّوئي ومراكمة الطبقات اللونيّة على القماشة. فإنها تكشف عن خبرة أكاديميّة واسعة مركّزة بفنّ الرّسم الخطّي. إنّها نتاج تصريف ذكيّ بين المُدرك الواقعي والطّبَيعي الدّقيق والمخيال التشكيلي المراوغ. وهي على نحو متعادل، مصالحة طبيعيّة وثقافيّة بين الفنّ والبيئة.

لقد كُرّم علي خوجة وأحييت ذكراه ضمن تظاهرة صيف المهدية للفنون في سنة 2007،

حيث قُدّمت بعض أعماله والتأمت ندوة حول مسيرته الفنيّة.



نور الدين الخيّاشي
[1918–1987م]

ولد بتونس العاصمة وبها نشأ في رعاية أبيه الرسّام الهادي الخيّاشي الذي تلقّى على يديه تكوينا أوّليا متينا ودرّبه على رسم عدّة لوحات.

في سنة 1937، تحوّل إلى روما وتعمّق في دراسة آثار «تيتيان» Titien، متبنّيا الطريقة الأكاديميّة ومتخصّصا في ترميم اللوحات الكلاسيكيّة القديمة، وفقا للمعطيات التاريخيّة.

ولمّا عاد إلى وطنه في بداية الأربعينات، انتهج أسلوبا شخصيّا فريدا، بعيدا عن تأثيرات «مدرسة تونس»، فأنجز مجموعة من اللوحات المتميّزة مثل: «الحمّام»، «الحنّاء»، «الصبغة»، «العروسة»... وكلّها مستوحاة من العادات والتقاليد التونسيّة الأصيلة، فكانت شهادة كالتي يقدّمها المؤرّخ أو عالم الاجتماع على ماضي تونس، مثلها في ذلك كمثل لوحاته «الدقّاز» و«الدرويش» و«مقياس الذهب» و«خزّاف قلاّلة» و«الصرّاف» و«حلاّق المدينة» و«طبّال الباشا» وغيرها.

ولنور الدين الخيّاشي ولع خاصّ بجدليّة النور والظلمة، وهي عنده ليست مجرّد ألاعيب شكليّة بل كان يسعى جاهدا إلى مصالحتها والارتقاء بها إلى درجة من الكمال الروحانيّ.

في سنة 1961، أنجز مجموعة من الرسوم الشخصيّة لبايات تونس، وقد عرضت في القصر الرئاسي بقرطاج بعد أن ظلّت معروضة في قصر باردو مدّة طويلة.

وفي السنوات الأخيرة من حياته، شارك في عدّة معارض بتونس وإيطاليا والمغرب وألمانيا وأقام في سنة 1982 معرضا شخصيّا بقاعة يحيى بالعاصمة. وفي السنة الموالية، قصد المملكة العربية السعوديّة بدعوة من حكومتها، حيث أنجز رسوما شخصيّة لملوكها وأمرائها، فكان بفنّه المتميّز بمنزلة سفير لتونس بهذا البلد الشقيق.

ويرى الناقد مصطفى شلبي أنّ نور الدين الخيّاشي «قد فتح الرسم لتونس كما فتح تونس للرسم، وتحمّس لتوثيق صلة تونس بهذا الفنّ مثلما تحمّس للمصالحة والتوفيق بين النور والظلمة».



الهادي الخيّاشي
[1882–1948م]

هو أحد روّاد فنّ الرّسم المسندي بتونس. وُلد سنة 1882 بمدينة تونس. تُوفّي بها سنة 1948. إنّ ثراء الثقافة الحرفيّة في البيئة التونسيّة التي نشأ فيها وقضّى -فترة شبابه – وخاصّة ما يتعلّق بازدهار فنّ الرّسم على الزّجاج وغير ذلك من الفنون التي ارتبطت بالتّراث الحرفي...لم تطمس في الخيّاشي ميله إلى فنّ الرّسم الغربي الكلاسيكي الذي افتتن ببعض تجلّياته في إنتاج الرسّامين الأجانب المستوطنين بتونس من فرنسيين وإيطاليّين على وجه الخصوص.

وعندما فتح الرسّام إميل بنشارت مرسَمه بتونس -وهو من أوّل الرسّامين الفرنسيّين الذين وفدوا على البلاد في بداية القرن العشرين -كان الخيّاشي أوّل تلاميذه. فكان كثير التردّد على هذا المرسم صحبة زميله موريس بزموث المولود بتونس (1891-1965). وكان بنشارت من الوافدين الذين حملوا معهم ولَعهم بـ الواقعيّة الطبيعيّة، هذا التيّار الذي فسح المجال أمام انتشار الانطباعيّة بباريس في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وهكذا، مكّن مجيء بنشارت الخيّاشي من الظفر بأهمّ ما ينبغي تحصيله من الأساليب الأكاديميّة في الرّسم الواقعي. وفتح له آفاقا خصبة في فنّ اللوحة الزيتيّة خاصّة ما يتعلّق برسم الوجوه (البورتريه) وهو تخصّص أستاذه بنشارت، بامتياز، ذلك الذي قدّر ما للخياشي من مثابرة في نشاطه فشجّعه على قضاء بضعة أشهر بباريس لمزيد الاستئناس بالأكاديميات الحرّة بمونبارناس. ومن ثمّة، كانت الفرصة مواتية للخيّاشي ليعّمق ثقافته الفنيّة ما بين هذه الأكاديميّات ومتاحف باريس وخاصّة منها متحف اللوفر، فيما كانت له، بعد ذلك، زيارات لبعض الأكاديميّات الحرّة بإيطاليا حيث تخصّص في فنّ البورتريه واستفاد من التّقليد الفنّي الإيطالي في هذا المجال الذي يعود إلى عصر النّهضة وتاريخ الفنّ الكلاسيكي.

وبعد عودته إلى تونس، أصبح من رسّامي القصر الباياتي، حيث رسم صورا شخصيّة للكثير من البايات وأفراد حاشياتهم والشخصيّات الرسميّة، كما عُرف بلوحاته التي تصوّر مشاهد من الحياة التقليديّة داخل المدينة التونسيّة مثل لوحة «سيدي بوسعيد» أو مشاهد من الصناعات الحرفيّة التقليديّة، مثل لوحة «النسّاجة»، بالدّهنَ الزيتي. وقد كشفت هذه الأعمال عن خبرة واسعة أكاديميّة بالرّسم المنظوري والاقتصاد الشديد ومنتهى الحذر في توزيع الإضاءة على عناصر المشهد. فقد عمل على ترويض حدّة الألوان وتضاربها للتوصّل إلى حساسيّة ضوئيّة هادئة، مشبعة بالألوان الترابيّة والبنيّة فلا هي بساخنة ولا هي بباردة.

ومثل هذا الملمح الباهت والكامد إلى حدّ الإيماء بنوع من الضّبابيّة، وخاصّة عند مجانسة التفاصيل اللونيّة، ليس نتاج أثر يصوّر مرور الزّمن، بقدر ما هو نتاج اخَتيار أسلوبي وطّن من خلاله الخيّاشي تجربته داخل التقليد الكلاسيكي. وهو الذي كان شديد الإعجاب بفنّ ليوناردو دافانشي.

ولكن وجه الأصالة في فنّ الخياشي لا يتحدّد في كونه قد حوّل الإرث الأكاديمي من عصر إلى عصر أو من مجالاته الفرنسيّة والإيطاليّة إلى موضوعات تونسيّة حميمة مثل الشخوص ومشاهد المدينة العتيقة، فحسب. وإنما هو يعود إلى طريقة الخياشي الخاصّة في التعبير عن أدقّ التفاصيل المشهديّة بحساسيّة مرهفة ودقّة فائقة في الرّسم الخطّي. وهو ما جعله يضفي قيَما مضاعفة إلى ما يرسمه من مشاهد الحياة اليوميّة. فهي وإن كانت مشاهد «عادية» في الأصل، فإنها داخل لوحة الخيّاشي، تصبح مثيرة للاهتمام ومفعمة بحساسيّة التعبير والحنين إلى فتنة الموضوع عندما يرتجّ بين الواقع الحاضر والواقع التّذكاري. إذ أنّ الأصول الغربيّة لتقنيات التعبير الأكاديمي، وإنْ طبعت طريقة الخياشي في فنّ الرسم وهندسة المشهد وإضفاء اللون... فإنها لم تُغيّر شيئا من طريقة الرؤية إلى موضوعاته التونسيّة ومدى انخراطه فيها وتشرّبه بأبعادها ومراميها. فلوحات الخيّاشي تُومئ بوجود رؤية ذاتيّة إلى الموضوع، على نحو ما يتجلّى من خلال هذا الفيض الحميم بينه وبين ما يرسم، على القماشة.

فضيلة خيتمي
[1900–1992م]

نشأت المطربة فضيلة خيتمي في وسط عائلي شغوف بالفنّ إذ شجّعتها والدتها الفنّانة نسرية فراولو على شقّ طريقها في الساحة الفنيّة التي كادت، في مطلع القرن الماضي، تكون حكرا على الجالية اليهودية.

وسرعان ما أصبحت فضيلة خيتمي من نجوم الطرب فغنّت وأمتعت، كما أصبحت ممثّلة قديرة تقمّصت أدوار البطولة في عدّة مسرحيات مثل «كليوبترا» و«البرج الهائل» مع «جمعيّة العربي» التي شرعت في تقديم أعمالها في فيفري 1922 بمسرح «روسيني»، فلقيت نجاحا جماهيريّا كبيرا.

وكان لفضيلة خيتمي زاد ثقافي وولع بالأدباء، وهو ما دفعها إلى تأسيس صالون أدبي سميّ «مجلس الأربعاء»، كان من أشهر روّاده عبد الرزّاق كرباكة وجلال الدين النقّاش وعثمان الكعّاك وغيرهم.

وفي السنوات الأخيرة اعتزلت فضيلة خيتمي الوسط الفنّي وانصبّ اهتمامها على القضايا النسائيّة فدافعت عن تعليم البنات وشاركت في إنتاج «حصّة المرأة» في الإذاعة التونسية، وهو برنامج يوميّ دام ثلاثين سنة بلا انقطاع.



أحمد خير الدين
[1905 ـ 1967م]

تحدّث أحمد خير الدّين مرّة عن نفسه فقال إنّه «مغرم بفنّ التّمثيل المسرحي، هَامَ به ثلث قرن وعمل في حقله كلّ ما يمكن أن يعمله من كان مثله، من كتابة محاضر الجلسات وتحرير الإعلانات والسّهر على تصحيحها وطبعها ومراقبة توزيعها والإشراف على سير التّمارين وضبط أدوار الرّوايات العربية بالشّكل وأخيرا بل وأولا التأليف الروائي».

وقد ألّف أحمد خير الدين الكثير من المسرحيات بعضها باللّغة العربية الفصحى وجلّها باللّسان الدّارج.

ويبدو أنّه كان يتردّد بين الفصحى والعامّية إذ نجده كتب مقالا عن «المسرح التّونسي بين اللّغة العربية الفصحى والدّارجة» نشره في العدد الثالث (السنة الأولى) من مجلة «المسرح» الصّادرة في جويلية ـ أوت ـ سبتمبر 1959.

أمّا مسرحياته التي كتبت بالعربية الفصحى فنخصّ بالذّكر منها مسرحية «خالد بن يزيد القيسي أو الكاهنة» التي ألّفها في سبتمبر 1937 وقدّمتها جمعية النادي الإفريقي بالمسرح البلدي بتونس في 13 ماي 1950 ثمّ فرقة بلديّة تونس في نوفمبر 1961. وقد أحرزت هذه المسرحية جائزة القسم التّاريخي في المباراة المسرحية التي فتحتها جمعيّة الاتّحاد المسرحي في موفّي سبتمبر 1937 فمنحت الجائزة الأولى.

ولأحمد خير الدين أيضا مسرحية «أبو جعفر المنصور» التي ألّفها سنة 1939.

ومن أحسن مسرحياته العربيّة مسرحية «إلى مصر أو بدر الدّجى» التي أحرزت الجائزة «الصّغرى في المباراة البلديّة للتأليف المسرحي لعام 1949ـ1950.

وقدّمت جمعيّة الاتّحاد المسرحي مسرحية «بدر الدّجى» لأوّل مرّة في حفلتين متتابعتين، الأولى مساء الخميس 24 مارس 1949 والثّانية عشيّة الجمعة الموالي بالمسرح البلدي بتونس.

وقد مثّلها بالجزائر قسم التمثيل للبعثة الجزائرية العلميّة في السّنة نفسها.

وعرّب أحمد خير الدين مسرحية «كازيمودو» أو «أحدب الكنيسة» بالاشتراك مع نور الدين بن عمر.

أمّا المسرحيات التي كتبها أحمد خير الدّين باللّسان الدّارج فهي كثيرة نذكر منها «عفيفة» أو «عفتها سبب سعادتها» و«رجعتلوا عقلو» و«طاح في البير وطلّعوه» و«الحاج كلوف» و«الحاج كلوف في الخلاعة».

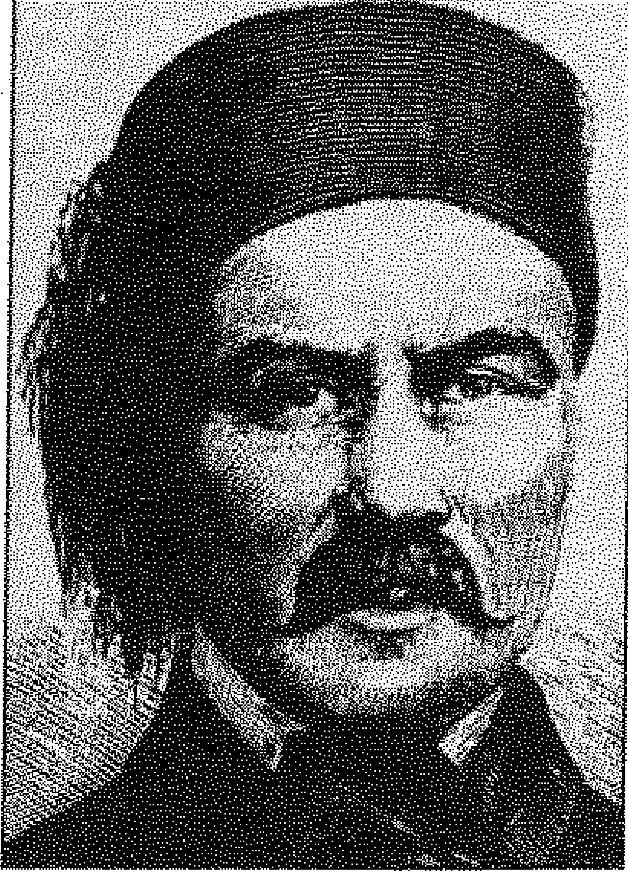
وألّف عددا كثيرا من المسرحيات الإذاعية بالفصحى والدّارجة نكتفي بذكر بعضها: «جابر العثرات» و«عدالة القدر» و«بطل لا يموت» و«فلسطين» و«تايب للّه» و«شدّ مشومك» و«حمل الجماعة ريش» و«شدّ دارك واخطا جارك» و«عزوزة السّتوت».

والجدير بالذّكر أنّ سلسلة الحاج كلوف كتبها أحمد خير الدّين للإذاعة وقد ناهز عدد حلقاتها 140 حلقة.

ونظرا إلى ما لاقته هذه الحلقات من نجاح، قدّمت فرقة المسرح الشّعبي «الحاج كلوف في الحمّام» في كامل أنحاء الجمهوريّة. وقدّم أنصار المسرح «الحاج كلوف في الخلاعة». ثمّ قدّم الحاج كلوف على الشّاشة الصغيرة.

وكان أحمد بن سليمان خير الدين التّركي الأصل من مواليد سنة 1905 بتونس العاصمة وكان قد أحرز شهادة التّطويع من جامع الزيتونة سنة 1925 وباشر التعليم بالمدرسة العرفانية من سنة 1927 إلى سنة 1941.

وعمل بعد ذلك قيّما عامّا بالجامعة الزّيتونية من سنة 1941 إلى سنة 1960 وانتقل إلى العمل بالإذاعة الوطنية إلى أن أدركته المنيّة في 25 جويلية 1967.



خير الدين التونسي

[1238–1306هـ/1822–1890م]

حين نتحدّث عن الحركة التحديثية في البلاد التونسية في القرن التاسع عشر، لا يمكننا أن نغفل عن الدور الفعال الذي اضطلع به خير الدين باشا في هذه الحركة، نظريا وفعليا، إلى درجة أنّه استحقّ عن جدارة لقب «أبي النهضة التونسية».

لم يكن خير الدين أصيل البلاد التونسية. بل اعتبر نفسه، مثلما يقول في مذكراته، تونسيا لحما ودما بالتبني. فقد وُلد فعلا في سنة 1822 في بلاد الشركس، جنوب شرقي جبال القوقاز. وبسبب الكثير من الاضطرابات والحروب التي وقعت بالمنطقة، اختطف من أهله وهو صغير السنّ. واقتيد إلى استانبول حيث اشتراه تحسين بك في سوق الرقيق. وعند بلوغه السابعة عشرة من العمر، سنة1839، اشتراه مبعوث المشير أحمد باي (1837–1855) وجلبه معه إلى تونس ليعزّز به صفوف المماليك الموجودين في سرايا المشير.

لم يزاول خير الدين دراسته، على غرار غيره من المماليك، أمثال حسين ورستم، في المدرسة الحربية التي أنشأها الباي المذكور لإصلاح الجيش والإدارة وتمكين البلاد من أسس التحديث. غير أنّ هذا لم يمنع خير الدين من الانكباب بمفرده على الدراسة، فأصبح يتقن التركية، فضلا عن كلاًّ من اللغة العربية واللغة الفرنسية. وارتقى بسرعة، بحكم ثقة الباي فيه وفراسته، في سلم الرتب العسكرية، من رتبة بمباشي أي قائد الخيالة سنة 1840 إلى رتبة أمير الأمراء أي جنرال سنة 1852.

وبحكم علاقاته الوطيدة بالمشير أحمد باي اصطحبه في رحلته إلى باريس سنة 1846. وهو ممّا جعله يكتشف عن كثب العالم الغربي ومؤسساته. وتيسّر له فيما بعد العودة إلى العاصمة الفرنسية للمكوث بها مدّة أطول فيما بين 1853 و1856لمتابعة القضية المرفوعة لدى المحاكم الفرنسية ضدّ ابن عياد وفي الوقت نفسه يبيع بعض مجوهرات الباي قصد توفير الأموال الكافية لتجهيز العسكر الموجه إلى تركيا لمساندة الإمبراطورية العثمانية في صراعها مع روسيا في حرب القرم.

لقد استفاد خير الدين من هذه الإقامة الباريسية. وذلك بأن تعرّف إلى أسس الحضارة الغربية الحديثة وخاصة قيام النظام السياسي على المؤسسات الدستورية والتنظيم الإداري المحكم. ولم تنقطع صلته بهذه الشواغل الفكرية، رغم تعيينه سنة 1857 وزيرا للحربية، كما شارك في أعمال لجنة شرح قانون عهد الأمان، الذي أصدره إمْحمد باي في سبتمبر من السنة نفسها. ثم تولى خير الدين رئاسة المجلس الكبير. وهو بمنزلة البرلمان الذي أقرّه محمّد الصادق باي في أوّل دستور صدر بتونس والعالم العربي-الإسلامي سنة 1861. ولكن رفضه لسياسة التداين والاقتراض التي سلكها الوزير الأكبر مصطفى خزنه دار، جعله يستقيل من مناصبه، مفضلا العناية بشؤونه الخاصة فيما بين 1862 و1869، بعد مصاهرته له بزواجه من ابنته جنيْنة. وانكب في هذه الفترة على مطالعة الكتب والجرائد التي كان يوصي بها وبمناقشة عدّة مسائل في منتدى فكري مع ثلة من رواد الإصلاح، مثل الجنرال حسين والجنرال رستم، والزيتونيين المستنيرين أحمد ابن أبي الضياف وبيرم الخامس وسالم بوحاجب. ولقد أفرزت تلك المناقشات الكثيرة كتابه الشهير، المؤلف بأسلوب صحفي أكثر منه الموسوم بأقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك الذي صدر سنة 1867 وقد ضمّنه الكثير من أفكاره الإصلاحية، إلى درجة أنّه اعتُبر بمثابة منزلة برنامج إصلاحي للنهوض بالعالم العربي الإسلامي كلّه وتهدئته لدخول الحداثة دون التخلي عن مقوّماته الذاتية وهويته وعقيدته. ففي هذا الكتاب ذهب خير الدين إلى أنّه لا ضير على البلدان العربية الإسلامية من الاقتباس عن الغرب ودخول عالم الحداثة مع التمسك بمقوّمات الدين الإسلامي الحنيف. وذلك لأنّ التقدّم وحبّ الخير للمجموعة والاحتكام إلى العقل هي من المبادئ الأولية للإسلام فلا تتناقض معه ولأنّ الإسلام في نظره، يتأسّس على العقيدة والعقل معا.



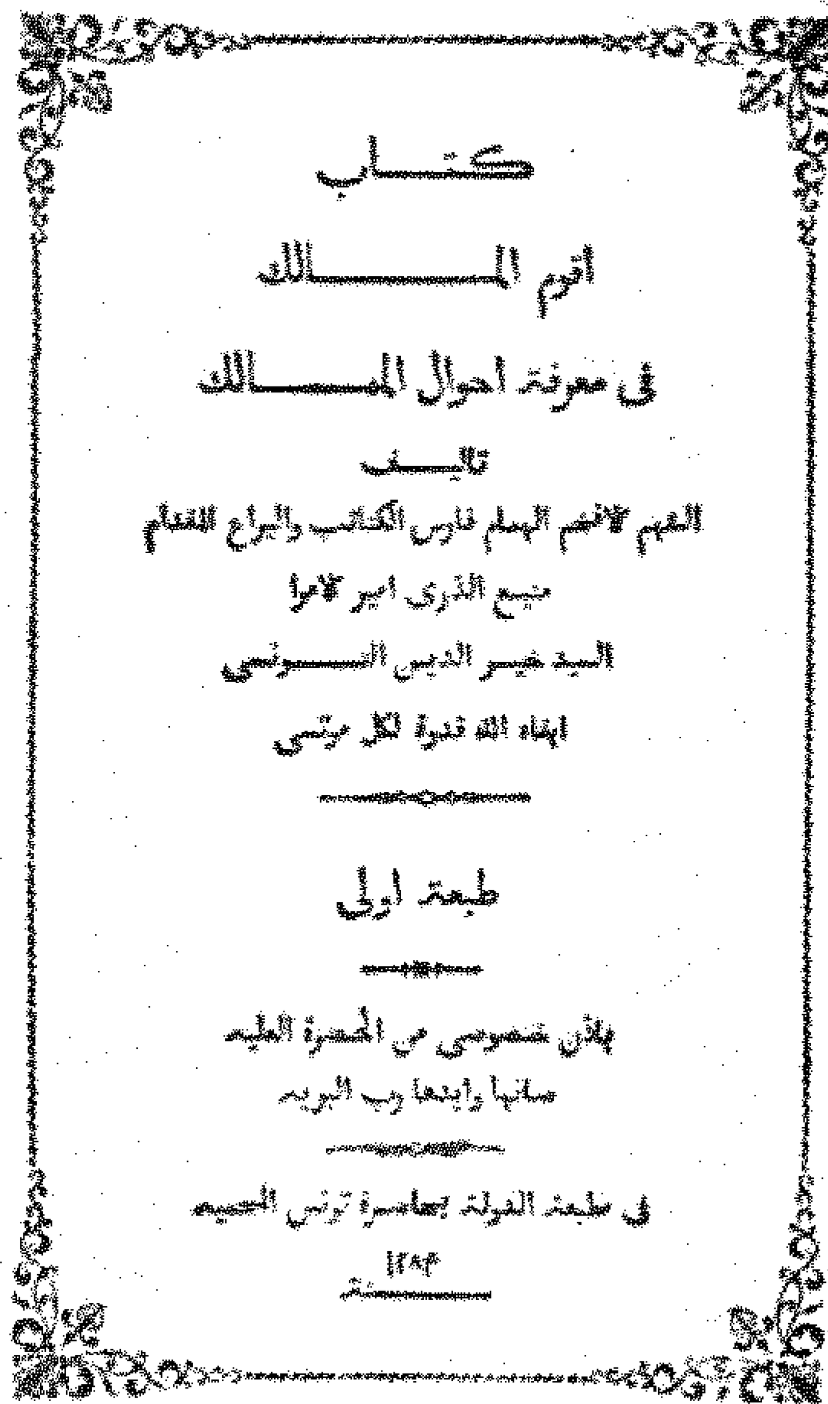
الجنرال خير الدين في أوج تألقه

وفي سنة 1869 عاد خير الدين إلى النشاط السياسي بإلحاح من الصادق باي، الذي كلفه برئاسة اللجنة المالية الدولية المفروضة من القوى الأوروبية، وخاصة من فرنسا وأنقلترا وإيطاليا بعد عجز البلاد عن إرجاع ديونها للخارج. وبوفاة

زوجته سنة 1870 وانفصام الروابط العائلية مع مصطفى خزنه دار، دخل في صراع معه بسبب محاسبته على الأموال التي اختلسها من الدولة. وانتهى هذا الصراع بتعينه وزيرا أكبر سنة 1873 خلفا لمصطفى خزنه دار، خاصة أنّه نجح في تمكين الباي سنة 1871 من فرمان تعترف بمقتضاه الإمبراطورية العثمانية بالحكم الوراثي للعائلة الحسينية على إيالة تونس.

عندما تولى خير الدين مهام الوزير الأكبر وجد البلاد على قاب قوسين أو أدنى من الانهيار التام، نتيجة لمخلفات الانتفاضة الشعبية بقيادة علي بن غذاهم سنة 1864. وقد تجسّدت في كثرة الديون المخلدة بذمّتها وللنقص الفادح في الموارد البشرية لتسيير شؤونها. فبادر بإعادة تنظيم الإدارة وإصدار عدّة قوانين كفيلة بوضع لبنة متينة لمشروع إصلاحي. ومن هذه القوانين، قانون تنظيم إدارة الأوقاف وإصلاح التعليم الزيتوني وبعث مدرسة عصرية هي المدرسة الصادقية وقانون الفلاحة لتنظيم الفلاحة وبعث مؤسسة الأرشيف لحفظ وثائق الدولة وقانون عدول الإشهاد لضمان الملكيات. كلّ هذه القوانين التنظيمية صدرت في سنة 1875. وعمل أيضا على نشر الأمن والاستقرار داخل البلاد، إلى درجة أنّ المرأة، حسب ما أورده في مذكراته، أصبحت تتجوّل في الأرياف بكامل الحرية والأمان. واهتمّ أيضا بالتهيئة العمرانية للعاصمة. فبلّط بعض الأنهج. وأنار بعض الشوارع. ووضع مخّططا لمدينة حديثة ستعمل فرنسا فيما بعد على إنجازها في فترة الحماية.

ولكن الدسائس المتواصلة، التي كان مصطفى خزنه دار ومصطفى بن إسماعيل، الذي سيخلفه، يحيكانها ضدّه بإعانة قناصل الدول الأوروبية، جعلت محمّد الصادق باي يُقدم سنة 1877 على عزل خير الدين، حارما بذلك البلاد من إصلاح حقيقي، خاصة أنّ خير الدين استطاع في فترة وجيزة من مباشرته الوزارة الكبرى احترام تعهدات تونس المالية إزاء الخارج ووضع ميزانية للتصرف متوازنة ودفع عجلة النمو الاقتصادي.


كتاب
اقوم المسالك
في معرفة احوال الممالك
تاليف
الفهم الافخم الهمام فارس الكتائب واليراع القمقام
منبع الذرى امير الامرا
السيد خير الدين التونسي
ابقاه الله قدوة لكل مرتضى
طبعة اولى
باذن خصوصي من الحضرة العليه
صانها وايدها رب البريه
في مطبعة الدولة بحاضرة تونس المحميه
١٢٨٤

كانت أفكار خير الدين في أقوم المسالك معروفة شرقا وغربا. فقد كلّف، قبل توليه الوزارة الكبرى، صديقه أمير الأمراء حسين بترجمة كتابه إلى الفرنسية والإنقليزية. وسعى إلى توزيعه أحسن توزيع. فوجد رواجا منقطع النظير، إلى درجة أنّ مكتبة الإسكندرية اقتنت منه خمسين نسخة. ونشر مسلسلا في جريدة «الجوائب» لصاحبها أحمد فارس الشدياق. وقد ترجمه سعادي أفندي إلى الفارسية. وشرع في نشر أجزاء منه في جريدته الصادرة بلندن باللغات العربية والتركية والفارسية، كما كان محلّ اهتمام من رفاعة الطهطاوي والمصلح العثماني مدحت باشا. وحاز هذا الكتاب أيضا اهتمام السلطان عبد الحميد الثاني. وهو ما جعله يأمر باي تونس بتركه يغادر البلاد للالتحاق على الفور بإستانبول، عندما علم بعزله، مقتنعا بأنّ الرجل يستحق الإسهام في الحياة السياسية للإمبراطورية، وبأنّه قادر على إنجاز بعض الإصلاحات وحلّ بعض المشكلات التي كانت تتخبط فيها الإمبراطورية نتيجة الحرب العثمانية الروسية ومخلفاتها التي تمخضت عنها سنة 1878 في مؤتمر برلين. فدعا عبد الحميد الثاني خير الدين إلى تولّي الصدارة العظمى من أواخر السنة نفسها إلى منتصف السنة الموالية. ورغم قصر هذه الفترة، فقد تمكّن من حلّ الكثير من النزاعات الحدودية مع روسيا واليونان وغيرها من الملفات وأسهم بعد استقالته من الصدارة

العظمى في إبداء الرأي في عدّة قضايا، تخص مصر والبلقان، عندما دُعي إلى ذلك. وإذا لم يعمّر طويلا في الصدارة العظمى، فذلك يعود أساسا إلى اختلافه مع السلطان حول بعض التنظيمات الإدارية الداخلية، التي ربما رأى فيها عبد الحميد مؤشرا مستترا لإعادة العمل بمشروطية 1876 المجمّدة آنذاك.

لقد ظلت هذه الجوانب مجهولة لدى عامة المهتمين بحياة خير الدين، ربما لأنهم ركزوا اهتمامهم على كتابه أقوم المسالك وبرنامجه الإصلاحي في تونس، مؤاخذين إيّاه على بيعه هنشير النفيضة الذي كان حصل عليه من باي تونس سنة1871، إلى شركة إيطالية، متّهمينه بأنّه سهّل بذلك عملية احتلال تونس سنة 1881 من قبل فرنسا. ولكن خير الدين برّأ نفسه في مذكراته من هذه التهمة، معتبرا أنّ عجلة الاستعمار آنذاك كانت متقدّمة في دورانها ولا يمكن لأحد إيقافها، وأنّه عرض على التونسيين شراء الهنشير المذكور بتخفيض لكن لم يتقدم أحد منهم لاقتنائه. ونستشف من مذكراته أيضا أنّه في سنة 1881 حاول لدى السلطان عبد الحميد الثاني درء الأخطار المحدقة بالبلاد التونسية لكن دون جدوى.

ولئن توفي خير الدين بإستانبول سنة1890، عن عمر يناهز السبع والسبعين سنة، فإنّ ذكراه في تونس بقيت راسخة إلى يومنا هذا. بل ظلّ لدى كلّ المصلحين والمناضلين ضدّ الاستعمار الفرنسي وضدّ التخلف رمزا للإصلاح والتطوّر السليم القائم على الجمع بين الاقتباس من الغرب والحفاظ على الهويّة الإسلامية. وهذا ما جعل كلّ من أتى من بعده ينهل من أفكاره وتجربته في إدارة شؤون البلاد. وتكريما له جلبت في نهاية الستينات من القرن العشرين رفاته من تركيا ودفن بتونس. كما طُبعت صورته على ورقة نقدية من فئة العشرين دينارا، وأيضا أصدر البريد عدّة طوابع موشحة بصورته.

طاهر خير الدين

[1875 – 1937م]

1) نشأته وتربيته وتدرّجه في المراتب العسكرية

ولد الوزير طاهر باشا ابن الوزير الأكبر والصدر الأعظم الجنرال خير الدين باشا في 5 فيفري سنة 1875 بتونس. وفي 6 ديسمبر 1878 تحوّل إلى الآستانه حيث التحق مع إخوته وسائر أفراد عائلته بوالده الذي عهد إليه السلطان عبد الحميد الثاني في 7 ديسمبر 1878 بخطة الصدر الأعظم للدولة العثمانية، ثم ما لبث أن استقال منها في جويلية 1879.

والتحق طاهر خير الدين سنة 1880 بالمكتب السلطاني حيث تدرب على اللغتين التركية والعربية بإشراف ثلّة من المدرّسين الممتازين، كما تدرّب على اللغة الفرنسية بالمكتب الخاص بأمراء البيت العثماني في «قصر يلدز» وارتقى من رتبة رقيب إلى رتبة ملازم في سنة 1884.

وبعد إتمام تلك الدراسة التمهيديّة التحق في سنة 1886 بالمدرسة الحربية الرسمية التي أنشأها السلطان لتدريب أبناء الأمراء والوزراء على الفنون الحربية، وحصل فيها على رتبة نقيب في سنة 1891 ثم ارتقى إلى رتبة قول أغاسي وتخرّج في تلك المدرسة سنة 1893 بعد أن نجح في شهادة ختم الدراسات العسكرية. فألحق في الحين بقصر يلدز للاضطلاع بمهامّ معين الحضرة السلطانية. «وقد أراد السلطان عبد الحميد باعتباره الوصيّ على أبناء الصدر الأعظم السابق ورئيس مجلس العرش، الجنرال خير الدين باشا إظهار ما يوليه من عناية بالغة إلى أبناء ذلك الخادم الشهير والأمين لمصالح الدولة العثمانية».

وفي سنة 1894 عيّن طاهر خير الدين في رتبة مقدّم وسافر في فيفري 1895 إلى فيانا للتداوي ثم رجع منها بعد أن زار باريس للمرّة الأولى.

وفي شهر أفريل 1897 سافر إلى بلاد اليونان إثر

إعلان الحرب التركية اليونانية للقيام بمأموريّة عسكرية بإذن من السلطان. وقد تمكّن الضابط الشاب من القيام بتلك المهمّة على أحسن وجه ممكن، واستحق بما أظهره من كفاية وحسن تدبير أن ينال ثناء مشيرين من قوّاد الجيش التركي وأن يحصل على رتبة قائمقام، بإشارة من القائدين المذكورين، جزاء ما قدّمه من خدمات.

وفي ديسمبر 1898 رجع من بلاد اليونان إلى إستانبول ثم غادرها بعد قليل متوجّها مع أخيه محمد الهادي إلى مرسيليا ومنها إلى الجزائر فبسكرة فتونس. وقد أتاحت زيارة تونس للمرة الأولى الفرصة للأخوين لإعادة توثيق عرى المودّة مع جميع أنصار والدهما والمعترفين بفضله على بلادهم أولئك الذين شملوا أبناءه بما كانوا يكنّون له من خالص الودّ والتقدير.

وتجلّى ذلك في الاحتفالات والاستقبالات التي نظمها أعيان الحاضرة آنذاك على شرف ضيفيهما، للتعبير لهما عن وفائهم لروح رجل الدولة الذي خدم وطنه بإخلاص وترك من خلال تقلّده للحكم أثرا لا يمحى من شخصيّته الفذّة.

وفي جويلية 1899 غادر طاهر خير الدين تونس عائدا إلى الآستانة ولم يلبث أن التحق من جديد بالبلاط السلطاني واستأنف دراساته التي تخلّى عنها مدة من الزمن.

وفي أفريل 1901 ارتقى إلى رتبة أمير ألاي (عقيد) ثم سافر إلى تونس للمرّة الثانية في ديسمبر من السنة نفسها وزار بعد ذلك إيطاليا ثم باريس للمرّة الثانية ورجع إلى الآستانة في مارس 1902، ثم سافر مرّة ثانية إلى فيانا للتداوي في جانفي 1904 وإثر رجوعه إلى الآستانة في ماي 1904 ارتقى إلى رتبة أمير لواء، وهي الرتبة التي خوّلته حمل لقب باشا.

وإثر الثورة التي اندلعت في صائفة سنة 1908 وإعادة العمل بدستور مدحت باشا الذي ظلّ معطلا مدّة ثلاثين سنة خرج طاهر باشا خير الدين من خدمة السلطان وعيّن ضابطا في الحامية العسكرية بالآستانة في ديسمبر 1908.

وتسارعت بعد ذلك الأحداث السياسية، فاندلعت الثورة العسكرية بالعاصمة التركية في أفريل 1909، وخُلع السلطان عبد الحميد وأُبعد إلى سالونيك، وخلفه السلطان محمد رشاد (1909 – 1918). وعندئذ قدّم طاهر خير الدين استقالته من الجيش في أوت 1909 واقتحم الحياة السياسية والصحفية.

2) نشاطه السياسي في تركيا

«لقد كان عند دخوله إلى حياته الجديدة مزوّدا بثقافة سياسية وأدبية واسعة، إذ كان ضليعا في آداب اللغة التركية ومن كبار كتّابها، وأديبا في العربيّة والفارسية، مكينا في اللغة الفرنسية وآدابها، مشاركا في اللغتين الإنقليزية والألمانية، علاوة على ما أكسبته تجربته الطويلة من الخبرة السياسية، وما أكسبته مطالعاته التي لا تنقطع من الإحاطة بأحوال الأمم في الحاضر والغابر».

والتحق في نوفمبر 1910 بالمكتب السلطاني لتدريس مادّة التاريخ، وانخرط قبل ذلك بشهر في سلك الصحافيين أولا في خطّة محرّر بجريدة «الإقدام» ثم في مهمّة مشرف على جريدة «شهراه» التي أسسها مع أخويه (محمد وصالح) «لمعارضة جمعية» الاتحاد والترقّي« المؤمنة بالمركزيّة وبضرورة تتريك رعايا السلطنة العثمانية عموما، أي جعلهم أتراكا في اللغة والثقافة والعادات».

وبعد ذلك ببضعة أشهر، وعلى وجه التحديد في نوفمبر *1911* انتخب نائبا عن أكبر دائرة من دوائر العاصمة التركية وأصبح من أبرز زعماء حزب «الحرية والائتلاف» الذي كان يؤمن باللاّمركزيّة يسعى إلى تأليف الأمم المنضوية تحت السلطنة العثمانية، بمنحهم ما يقتضي تأمينهم على أن الدولة لا تطلب منهم إلاّ أن يكونوا عثمانيين لا غير، مع بقاء لغتهم وعاداتهم وثقافتهم.

وفي أوائل سنة 1912 غادر طاهر خير الدين تركيا، «بسبب اشتداد سياسة الضغط على الأفكار وخصوصا على الصحافة»، وزار على

التوالي اليونان ومصر وتونس وفرنسا وبلغاريا. وما إن رجع إلى الآستانة في أوت 1912 حتى اندلعت الحرب التركية البلقانية في 8 أكتوبر وأفضت إلى انهزام الجيوش العثمانية في ديسمبر 1912.

وفي تلك الفترة بالذات عيّن طاهر خير الدين واليا على القدس الشريف في عهد وزارة كامل باشا. «ولئن لم تكن مدّة ولايته طويلة، فقد استطاع في أثنائها تسوية الخلافات الكثيرة التي تكوّنت بين الحكومة وعرب فلسطين من جهة، وبينها وإنقلترا وفرنسا من جهة أخرى». واستقال من هذا المنصب في 29 جانفي 1913 إثر اقتحام الاتحاديين للباب العالي بقيادة أنور باشا وقتل وزير الحربية ناظم باشا وسقوط وزارة كامل باشا وتولي الاتحاديين الحكم برئاسة محمود شوكت باشا.

ولقد عرضت الحكومة الجديدة على طاهر خير الدين الاستمرار في الاضطلاع بمهامّه في فلسطين. لكنه رفض هذا العرض رفضا باتا، تضامنا مع الحكومة المتخلّية، فأكد قرار الاستقالة وغادر القدس الشريف في 10 فيفري 1913 ملتحقا بالآستانة «للعمل في الدوائر الحزبيّة المعارضة للحكومة والقيام بأعماله الصحفية».

وفي 11 جوان 1913 وقعت حادثة اغتيال الصدر الأعظم محمود شوكت باشا عند خروجه من السراية، فحمّلت الحكومة مسؤولية الحادث حزب «الحرية والائتلاف» الذي كان طاهر خير الدين من أبرز قادته. واعتقلت عدّة أشخاص، كان منهم الداماد صالح باشا أخو طاهر خير الدين بتهمة المشاركة في المؤامرة وأحيلوا على المحاكم العسكرية، كما ألقي القبض على الأخوين طاهر ومحمد خير الدين وعلى عدد كثير من قادة حزب «الحرية والائتلاف»، واستنطقوا على الفور وأُبعدوا إلى بلدة سينوب على ساحل البحر الأسود.

أما الداماد صالح باشا، صهر السلطان، وبعض المتّهمين الآخرين الذين اعتبروا من المدبّرين الرئيسين للمؤامرة، فقد أحيلوا على المحكمة الحربية التي حكمت عليهم بالإعدام، ونفّذ فيهم الحكم في 24 جوان 1913.

وأطلق سراح طاهر خير الدين وأخيه محمد إثر تدخّل السفارة الفرنسية بالآستانة لدى الحكومة العثمانية التي اشترطت أن يغادرا حالاً البلاد التركية، فتمّ ذلك فعلا في 9 أوت 1913، وتوجّه الأخوان رأسا إلى باريس حيث استقبلهما وزير الشؤون الخارجية الفرنسية ستيفان بيشون الذي كان قد تولى مهام مقيم عام للجمهورية الفرنسية بتونس من سنة 1901 إلى سنة 1907. ومن باريس تحوّل محمد وطاهر خير الدين إلى تونس، وكان وصولهما إليها في 2 سبتمبر 1913.

«وأقام طاهر خير الدين كامل مدّة الحرب العظمى (1914 – 1918) في ضواحي تونس بين منّوبة وجبل المنار في ضيافة أقاربه وأصهاره من آ ل زرّوق».

ولما وضعت الحرب أوزارها وأبرمت الهدنة بين تركيا والحلفاء، سافر طاهر خير الدين إلى إستانبول وحظي بمقابلة السلطان محمد وحيد الدين (1918 – 1922) الذي عيّنه وزيرا للزراعة والتجارة في حكومة الداماد فريد باشا. «وسرعان ما لاحظ الوزير الجديد ما كان ينقص التشكيلة الوزارية من انسجام يعتبر ضروريا في كل آن وحين، لا سيما في أوقات الشدّة، ومن حرص على العمل الجماعي، وأحسّ من أول وهلة بالعوائق المعطلة لنشاطه، بسبب سوء التفاهم، بل قل الارتياب، الموجود بين الصدر الأعظم ووزرائه». فاضطرّ طاهر خير الدين إلى الاستقالة من منصبه في 11 سبتمبر 1919 وقفل راجعا إلى تونس، وقد كان وصوله إليها في 11 أكتوبر 1919، فاستقرّ بها نهائيا إلى أن أدركته المنيّة في سنة 1937.

3) تعيين طاهر خير الدين وزيرا للعدلية التونسيّة

لقد اقتضت السياسة الجديدة التي انتهجتها

الحكومة الفرنسيّة بالبلاد التونسية، إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى، الاستجابة لبعض المطالب الوطنية التي عبّر عنها الحزب الحرّ الدستوري التونسي منذ تأسيسه في شهر جوان 1920، ومن تلك المطالب المستعجلة الفصل بين السلط الثلاث: التنفيذية والتشريعيّة والقضائية. وانطلاقا من هذه القاعدة الأساسية قررت حكومة الحماية إنشاء وزارة جديدة للعدلية التونسية في 26 أفريل 1921، وعيّنت على رأسها طاهر خير الدين الذي كان يتمتع بثقة الحكومة الفرنسيّة، بعد أن قدّم لها عدّة خدمات، ويحظى من ناحية أخرى بتقدير الأمّة التونسية باعتباره نجل أبي النهضة التونسية الأولى، الجنرال خير الدين.

«وقد أقام في وزارة العدلية أربعة عشر عاما، خلع فيها على تلك الوزارة الناشئة من قيمته الذاتية ما أرسخ مقامها في الاعتبار إلى جانب المناصب التي توالت عليها الأجيال. وقام بتنظيمات مهمّة في المحاكم الشرعيّة على أساس الهيكل الذي شيّده والده. وقد كانت آثاره في إصلاح المحاكم الشرعيّة تكون أوفى وأكمل لو كانت الظروف مواتية لإنجاز برامجه».

ولقد اكتشفت وثيقة على غاية من الأهمية في آخر سنة 1997 في مخلّفات الصادق الزمرلي أمين سرّ وزير العدلية التونسية الأول. وقد تضمّنت الملاحظات والآراء والخواطر التي دوّنها طاهر خير الدين في سنة 1935، أي بعد سنة من استقالته من الوزارة وقبل سنتين من وفاته في سنة 1937، حول ظروف انبعاث وزارة العدلية التونسية والصعوبات والعراقيل التي حالت دون إنجاز الإصلاحات التي كان يرغب فيها الوزير، «لأن السلطة الفرنسية، لما رأت التأثير السيء الذي حصل في الجالية الفرنسية، ندمت على ما أسسته، وحاولت قلب العدلية التونسية إلى شكل يرضي الجالية الفرنسية».

وقد ندّد طاهر خير الدين بمواقف الأمراء والوزراء وكبار الموظفين وشيوخ الشرع الذين كانوا يقفون حجر عثرة في طريق إصلاح العدلية التونسية. وكان قد باشر مهام وزير العدلية في مدّة ثلاثة ملوك حسينيين هم على التوالي: محمد الناصر باي (1906 – 1922) ومحمد الحبيب باي (1922 – 1929) وأحمد باي الثاني (1929 – 1942).

يقول في شأن الملك الأول:

«... كان خفيف الإرادة والعزيمة، شديد التأثّر، منقادا إلى إرادة زوجته الأميرة قمر الشركسية الأصل».

ويصف الملك الثاني بقوله:

«كان ذكيّا فطنا له نوع من الذوق في الفنون الجميلة يستر به جانبا من جهله العميق بالعلوم والفنون الأخرى. نشأ في كفالة عمّه محمد الصادق باي (1859 – 1882) فكان يقلّده في الكبرياء والجبروت...».

أما الملك الثالث فقد نعته بوصفين معبّرين فقال:

«إنه أمير بسيط العقل، قليل الإدراك...».

وانتقد انتقادا لاذعا الوزراء الكبار الذين زادوا الطين بلّة بقصورهم وسوء تصرّفهم. فكان الطيب الجلولي (1915 – 1922) «يرمى بالغلوّ في تسهيل مقاصد الحماية الفرنسية، وبالكبرياء والجبروت على كافة الناس».

أما الوزير خليل بوحاجب (1926 – 1932)، «فكان آية في الجهل والكذب والأغراض والدسائس... وقد تفطنت الحماية إلى أن الرجل أفرغ من فؤاد أم موسى، لا تهمّه المصالح العامة لا طردا ولا عكسا، وأن دأبه الأغراض السافلة الشخصية».

ولم يتردّد طاهر خير الدين في التنديد والتّشهير بشيوخ المحكمة الشرعية العليا بتونس الذين عارضوا إصلاحاته، ورفضوا إلحاق المحاكم الشرعية بوزارة العدلية، وفي مقدمتهم رئيسهم شيخ الإسلام أحمد بيرم الذي قال عنه:

«إن لهذا الرجل خصالا، ولكن يغلب المذموم منها على الممدوح، إذ كان يستعمل ما

يزينه فيما يشينه، كاستعمال الثبات والتجلّد في سفاسف الأمور، وحسن العهد والوفاء مع سقط المتاع، والشجاعة المدنية في غير محلّها».

لكن هذا الرجل لم يكن فريدا من نوعه في عصره، فهو كسائر أعضاء المجلس الشرعي: «حالتهم الفكرية والأدبية مثل قيافتهم الرسمية (لباسهم)، أقرب إلى القرون الوسطى منها إلى قرننا هذا... وأغلبهم كان إما في درجة علمية بسيطة، أو مفتخرا بجهله لمقتضيات العصر».

على أنّ طاهر خير الدين قد استثنى بعض الشيوخ الذين كانوا «حقيقة من أجلّة العلماء، ذوي فكر وقّاد وعفّة وديانة»، مثل شيخ الإسلام محمد الطاهر بن عاشور الذي كان «من أفذاذ الأمة، لعلمه المحيط وذكائه الوقاد وبعد نظره ومشاركته في العلوم العصريّة» والشيخ محمد العزيز جعيّط «لعلمه وعفّته وديانته وشجاعته الأدبية».

ونظرا إلى كل هذه الصعوبات اقتصر الوزير طاهر باشا خير الدين على بعض الإصلاحات المحدودة لتحسين وضعيّة العدلية التونسية وبالخصوص المحاكم الشرعية «إلى أن يقدّر الله بالإصلاح المنشود، إن لم يقدّر بانهدام صرح المحكمة الشرعية العليا (الديوان) تماما، نظرا إلى جهل الأمراء، وتحاسد الوزراء، وتباغض العلماء، وانشقاق الخاصة، وجمود العوام، وصعوبة الأيام».

وبناء على «اشتداد الصعوبة في الاستمرار على الخدمة»، قرّر طاهر باشا خير الدين الاستقالة من وزارة العدلية يوم 7 ماي 1934، فقبلت الحكومة استقالته في 16 ماي وعوّضته بعلي السقّاط، وتحوّل إلى باريس في 8 جويلية 1934، والتحقت به عائلته في سبتمبر من السّنة نفسها.

«وبعد غياب دام سنتين رجع إلى تونس، فأقام بضعة أسابيع بالمدينة العتيقة ثم فرّ من ضجيجها واستقرّ بأعلى هضبة البلفيدير، مستغلاّ هدوءها للاستغراق على هواه في دراسة التاريخ المقارن والفلسفة الإسلامية التي كانت دوما وأبدا تستهويه. وهناك وافاه الأجل المحتوم في نوفمبر 1937، بعد تعرّضه لنوبتين قلبيّتين صغيرتين».



فتحية خيري
[1918-1986م]

وُلدت المطربة فتحية خيري سنة 1918 بمنطقة الدهماني (جهة الكاف) والتحقت بالعاصمة ودخلت عالم الغناء والتمثيل وهي صغيرة السن، إذ شاركت في السهرات الفنية المتنوّعة التي كان يحتضنها ربض باب سويقة في ليالي رمضان على الأخصّ وهي لم تتجاوز بعد الرابعة عشرة من عمرها، وأطلق عليها الشاعر والكاتب المسرحي عبد الرزاق كرباكة اسم «فتحية خيري» بعد أن كان اسمها «خيرة».

وأوّل ظهور فنّي شبه رسمي لها كان سنة 1932 حينما شاركت في الاحتفال بعودة الوفد التونسي المشارك في مؤتمر الموسيقى العربية الأوّل المنعقد بالقاهرة.

وفي سنة 1941 انضمت إلى فرقة "شباب الفن" التي كان من أبرز عناصرها قدّور الصرارفي وعلي السريتي وإبراهيم صالح، واشتهرت بأداء أغنيات أم كلثوم وإسمهان ومنيرة المهدية، وحذقت أداء فنّ الأدوار فصارت رمزا للغناء الشّرقي.

وفي سنة 1942 التحقت بفرقة الجمعية الرشيدية للموسيقى التونسية ليذيع صيتها بأدائها المتقن لأغنية «زعمة يصافي الدهر». في سنة 1955 سافرت فتحية خيري إلى المغرب كما

سافرت إلى البلاد الأوروبية حيث غنت على مسارحها ثم إلى ليبيا والجزائر.
وكانت سنة 1958 من ضمن المطربين الذين غنّوا صحبة فرقة الإذاعة التونسية فور انبعاثها غداة الاستقلال.
توفّيت في 6 جويلية 1986.

الفهرس

ألفبائيّة الجزء الأول (*)

ا

(*) كلّ علَم يتضمّن لقبه «ابن» أو «بن» ينظر في حرف الألف



الثمن بتونس: 145,000 د.ت (الجزءان)

الثمن بالخارج: € 150 (الجزءان)